

كتاب التفسير

تَفْسِيرُ الْبَيْضَوَيْ

المسمى

أَنْوَالُ التَّرَاوُفِ أَسْرَارُ النَّبَاوِيلِ

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

مُحَمَّدُ صُبْحِيُّ بْنُ حَسَنٍ حَلَّاقٌ فِي الدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ الْأَطْرَشِ

المجلد الأول

جميع الحقوق محفوظة

لدار الرشيد

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م



مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّل، فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فإن أجل العلوم وأشرفها هو ما كان لخدمة كتاب الله تبارك وتعالى، وقد بذل العلماء كثيراً من الجهود لخدمة كتاب الله تعالى وبيان مراميهِ وتوضيح معانيهِ، وكان من أجل هذه الكتب تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وقد عكف عليه العلماء وطلاب العلم بالدرس والشرح.

لذلك كانت خدمة هذا الكتاب من أجل الأعمال التي نسأل الله تعالى أن يجعله في صحائف أعمالنا، وخاصة أن عبارة البيضاوي تدق أحياناً وتخفى إلا على ذي بصيرة ثاقبة، وضبط عبارته قد يزيل كثيراً من الإشكال والغموض.

أولاً - التعريف بمؤلف هذا التفسير:

١ - اسمه ونسبه:

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو سعيد، البيضاوي، الشيرازي، الفارسي الشافعي القاضي، المفتي، العالم بالفقه، وأصول الفقه، والتفسير، وأصول الدين والمنطق، والعربية، والنحو، والتاريخ والهيئة.

والبيضاوي: نسبة إلى البيضاء من بلاد فارس، وهي مدينة كبيرة من أعمال شيراز، وأكبر مدينة بإصطخر، وينسب إليها جماعة من العلماء، وهذه النسبة للبيضاء أشهر النسب، وبها

يعرف^(١).

والشيرازي: نسبة إلى شیراز، وهي بلدة عظيمة مشهورة في وسط بلاد فارس ونسب البيضاوي إليها لأن البيضاء تابعة لها، ولأنه تولى قضاء شیراز مدة.

والفارسي: نسبة إلى بلاد فارس التي ولد فيها، ونشأ في ربوعها، وتربى في أحضانها، وتعلم لغتها، كتب فيها، وألف بعض كتبه باللغة الفارسية، ويعتبر البيضاوي من أعلام الأدب الفارسي.

والشافعي: نسبة إلى مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه الإسلامي، وينسب البيضاوي إليه لأنه تفقه على هذا المذهب، وتولى القضاء للحكم بأحكامه، وصنف بعض الكتب الفقهية في المذهب الشافعي، وقدم فيه خدمات جُلِي.

ويعرف البيضاوي بالقاضي، وقاضي القضاة، لأنه تولى هذين المنصبين فترة من الزمن.

٢ - ولادته ونشأته:

ولد البيضاوي في مدينة «البيضاء» باتفاق، ولم يذكر مرجع واحد تاريخ ولادته، كما أغفلت جميع المصادر التي اطلعت عليها سنُّه عند الوفاة، مما يستحيل علينا تقدير ولادته، لكن يفهم من كتب التراجم أن البيضاوي رحمه الله كان من المعمرين، وعاش طويلاً.

وأما نشأة البيضاوي، فيظهر أنه نشأ في البيضاء، وتربى فيها على يد والده، وبدأ التعلم وتحصيل الفقه وغيره في البيضاء، وقد اقتصر كتب التراجم على أنه تفقه بوالده، وهو ما صرح به القاضي البيضاوي نفسه.

قال اليافعي في «مرآة الجنان»^(٢): «تفقه بأبيه، وتفقه والده بالعلامة مجير الدين محمود بن المبارك البغدادي، الشافعي، وتفقه مجير الدين بالإمام زين الدين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمهم الله تعالى» هـ.

ويحتمل أن البيضاوي رحل إلى شیراز وتبريز وسائر بلاد فارس يطلب العلم، ويكتسب المعارف، ودلينا على ذلك نتاج البيضاوي ومعارفه وثقافته واختلاف العلوم التي صنف فيها... وكذلك انتقال والده إلى شیراز وكان مقرباً للأتابك أبي بكر بن سعد بن زنكي الذي حكم فارس سنة (٦٢٣ - ٦٥٨ هـ) وولاه قاضي القضاة^(٣) فاستقر في شیراز والغالب أن يكون الوالد قد صحب ابنه معه إلى شیراز.

كما ثبت في ترجمة البيضاوي أنه رحل إلى تبريز والتقى بالشيخ (محمد الکتحتائي) ويظهر أن هذه الرحلة كانت بعد أن تولى القضاء بشيراز، كما ثبت أن البيضاوي استقر بعد ذلك في تبريز ومات فيها.

(١) انظر «الأنساب» للسمعاني (٤٣١/١ - ٤٣٢) ومراسد الاطلاع (٢٤٢/١ - ٢٤٣).

(٢) (٢٢٠/٤) الطبعة الأولى - حيدر آباد الدكن - سنة (١٣٣٩ هـ).

(٣) «دائرة المعارف الإسلامية» (٣٢/٩) ط: الشعب.

٣ - شيوخه وتلامذته :

(أ) شيوخه :

قضى البيضاوي معظم حياته في شيراز المشهورة بالعلم، وأخذ العلوم المختلفة عن كبار العلماء فيها. لكن كتب التراجم والتاريخ لم تحفظ لنا أسماء العلماء والشيوخ الذين أخذ عنهم، وسكتت عن رخلاته في طلب العلم. ولم يصل إلينا إلا ما صرح به البيضاوي نفسه من تفقهه على والده عمر بن محمد بن علي البيضاوي الذي كان قاضي الممالك عند الدولة السلفية في بلاد فارس^(١). وأشارت بعض المراجع إلى أن القاضي البيضاوي كان متأثراً بالشيخ (محمد بن محمد الكتحتائي) الذي ساعده في تولي القضاء.

(ب) تلامذته :

لم يكن حظ البيضاوي في معرفة تلامذته أحسن حالاً من معرفة شيوخه، فلم يذكر المؤرخون أحداً من تلامذة البيضاوي إلا ما جاء في ثنایا الكتب وأسماء المؤلفين. وهم :

١ - أحمد بن الحسن، الشيخ فخر الدين، الإمام الجارّ بَرْدِيّ، العالم الفاضل، الدّين الوقور الذي كان مواظباً على العلم وإفادة الطلبة^(٢).

٢ - الشيخ زين الدين الهنكي، تلميذ البيضاوي، الذي صار شيخاً لعضد الدين الإيجي، صاحب التصانيف المشهورة، وقال طاش كبرى زاده: «الهنكي»^(٣).

٣ - الشيخ كمال الدين المراغي، وهو عمر بن إلياس بن يونس، أبو القاسم، الصوفي الذي ولد بأذربيجان سنة (٦٤٣ هـ)^(٤).

٤ - الشيخ عبد الرحمن الأصبهاني^(٥).

٤ - أقوال العلماء فيه :

قال ابن كثير في «البدایة والنهاية»^(٦) : «هو القاضي الإمام العلامة، ناصر الدين، عبد الله بن عمر الشيرازي، قاضيهما وعالمها وأذربيجان وتلك النواحي» هـ.

وقال ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»^(٧) : «كان إماماً مبوّزاً، نظّاراً، صالحاً متعبداً، زاهداً» هـ.

-
- (١) انظر «مرآة الجنان» (٢٢٠/٤) والتعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان» (ص ١١٦) ط : شركة التجارة - بغداد سنة ١٣٧٦ هـ.
- (٢) انظر ترجمته في «البدر الطالع» (٤٧/١) و«الدرر الكامنة» (١٣٢/١).
- (٣) انظر ترجمته في «البدر الطالع» (٣٢٦/١) و«الدرر الكامنة» (٤٢٩/٢).
- (٤) انظر «الدرر الكامنة» (٢٣٢/٣).
- (٥) انظر «الغاية القصوى» - المقدمة (٦٧/١) - والمراجع المشار إليها في الهامش - ط : دار النصر بمصر سنة ١٩٨٢ م.
- (٦) (٣٠٩/١٣) تصوير عن الطبعة الأولى عام ١٩٦٦ م.
- (٧) (١٥٧/٨).

وقال الإسنوي في «طبقات الشافعية»^(١): «كان المذكور عالماً بعلوم كثيرة، صالحاً خيراً» هـ.
وقال الياضي في «مرآة الجنان»^(٢): «الإمام، أعلم العلماء الأعلام، ذو التصانيف المفيدة المحققة والمباحث الحميدة المدققة» هـ.

٥ - مؤلفاته^(٣).

- ١ - «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ويسمى «تفسير البيضاوي» وهو كتابنا هذا.
- ٢ - «تحفة الأبرار» في شرح مصابيح السنة للبغوي في الحديث الشريف.
- ٣ - «الغاية القصوى في دراية الفتوى» في فروع الفقه الشافعي.
- ٤ - «شرح التنبيه للشيرازي» في الفقه الشافعي. ذكره ابن كثير.
- ٥ - «منهاج الوصول إلى علم الأصول».
- ٦ - «شرح منهاج الوصول».
- ٧ - «شرح المنتخب» في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي.
- ٨ - «شرح المحصول» في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي. أيضاً ذكره ابن كثير.
- ٩ - «مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام» وهو شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه.
- ١٠ - «طوالع الأنوار في أصول الدين».
- ١١ - «مصباح الأرواح» اختصر فيه طوالع الأنوار في أصول الدين.
- ١٢ - «الإيضاح في أصول الدين» وهو شرح على كتاب المصباح.
- ١٣ - «شرح الكافية» في النحو لابن الحاجب.
- ١٤ - «لب الألباب في علم الإعراب» اختصر فيه الكافية لابن الحاجب.
- ١٥ - «شرح المطالع» وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي.
- ١٦ - «متن في علم الهيئة» وهو مختصر ذكره الخفاجي.
- ١٧ - «نظام التواريخ» باللغة الفارسية، من ابتداء الخلق حتى سنة (٦٧٤ هـ).
- ١٨ - «التهذيب والأخلاق» في التصوف، ذكره محب الدين الخطيب في مقدمة نهاية السؤل.
- ١٩ - «رسالة في موضوعات العلم وتعارفها» ذكرها البغدادي والزركلي.
- ٢٠ - «شرح الفصول» لنصير الدين الطوسي، ذكره البغدادي والخوانساري.
- ٢١ - «منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى» ذكره البغدادي.

(١) (٢٨٣/١) مطبعة الإرشاد - بغداد سنة ١٣٩٠ هـ. تحقيق الجبوري.

(٢) (٢٢٠/٤).

(٣) انظر «بغية الوعاة» (٢/٥٠ - ٥١). ومعجم المؤلفين (٢/٢٦٦ - ٢٦٧ رقم ٨١٣٩) وطبقات المفسرين للداودي (١/٢٤٨ رقم ٢٣٠). والوافي بالوفيات للصفدي (١٧/٣٧٩). وكتاب «القاضي البيضاوي» للدكتور محمد الزحيلي. وكتاب «القاضي ناصر الدين البيضاوي وأثره في أصول الفقه» للدكتور: جلال الدين عبد الرحمن. وشذرات الذهب (٥/٣٩٢) ومعجم المفسرين لنويهض (١/٣١٨) وطبقات المفسرين للسبكي (٨/١٥٧) وطبقات الشافعية للقاضي ابن شهبة (٢/١٧٢) والأعلام للزركلي (٤/١١٠) والتفسير والمفسرون (١/٢٨٢).

٦ - وفاته:

مات البيضاوي رحمه الله سنة خمس وثمانين وستمائة بتبريز، كذا ذكره الصفدي وقال السبكي: سنة إحدى وتسعين. والله أعلم.

ثانياً - التعريف بتفسير العلامة البيضاوي وطريقته في تأليفه:

تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشف للزمخشري، ولكنه ترك ما فيه من اعتراضات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشف، ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ وجدناه يقول: «إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخطب الإنسان فيصرع».. ثم يفسر المس بالجنون ويقول: «وهذا أيضاً من زعماتهم. أن الجني يمس الرجل فيخلط عقله»^(١).

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث فقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، وليست أعرف كيف اغتر بها البيضاوي فرواها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ماله من مكانة علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكفي لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته.

وكذلك استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمى بـ «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع هوجز؛ وعبرة تدق أحياناً وتخفى إلا على ذي بصيرة ثاقبة، وفطنة نيرة. وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك، وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. يقول ما نصه: «وقرء جمع قرء، وهو يطلق للحيض كقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك»^(٢). والظهر الفاصل بين الحيضتين، كقول الأعشى:

(١) (٢٦٧/١) دار الكتب العربية ١٣٣٠هـ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٨/١ رقم ٢٩٧) والترمذي (٢٢٠/١ رقم ١٢٦) وابن ماجه (٢٠٤/١ رقم ٦٢٥) إسناده ضعيف من حديث عدي بن ثابت عن أبيه عن جده وله شواهد من حديث عائشة وأم سلمة وسودة بنت زمعة فهو

مورثة مالا وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قروء نسائك

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية؛ لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ [الطلاق: ١] أي وقت عدتهن، والطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وأما قوله: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان»^(١) فلا يقاوم ما رواه الشيخان^(٢) في قصة ابن عمر: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء»^(٣).

كذلك نجد البيضاوي كثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة، ومذهب المعتزلة عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٣ و ٢) من سورة البقرة: ﴿هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج، بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة^(٤).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة البقرة أيضاً: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ نراه يتعرض للخلاف الذي بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق، مع ترجيحه لمذهب أهل السنة^(٥).

والبيضاوي رحمه الله مقل جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يصدر الرواية بقوله: روى أو قيل، إشعاراً منه بضعفها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢) من سورة النمل: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يُبَيِّنُ﴾ يقول بعد فراغه من تفسيرها: روى أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز، للحج... إلى آخر القصة التي يقف البيضاوي بعد روايتها موقف المجوز لها، غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: «ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها من يعرفها، ويستنكرها من ينكرها»^(٦).

= بها صحيح انظر نصب الراية للزيلعي (٢٠٢/١).

(١) أخرجه الترمذي (٤٨٨/٣ رقم ١١٨٢) وأبو داود (٦٣٩/٢ رقم ٢١٨٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٦٩/٧ - ٣٧٠، ٤٢٦) وابن ماجه (٦٧٢/١ رقم ٢٠٨٠) والحاكم (٢٠٥/٢) من حديث عائشة قال الترمذي: «حديث عائشة غريب، لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر لا نعرف له في العلم غير هذا الحديث» هـ، وقال أبو داود: وهو حديث مجهول، وقال الألباني: في الإرواء (١٤٨/٧ رقم ٢٠٦٦): ضعيف.

(٢) البخاري (٦٥٣/٩ رقم ٤٩٠٨) ومسلم (١٠٩٣/٢ رقم ١٤٧١).

(٣) (٢٤٠/١).

(٤) (٥٦ - ٥٣/١).

(٥) (٥٩ - ٥٨/١).

(٦) (١١٥/٤).

ثم إن البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازي، الذي استمد منه كما قلنا، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠) من سورة الصافات: ﴿فَأَتْبَعُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ نراه يعرض لحقيقة الشهاب ذلك فيقول: «وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين، إن صح لم يناف ذلك» إلى آخر كلامه في هذا الموضع^(١).

هذا وأرى أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لنهج البيضاوي في تفسيره، والمبينة لمصادره التي رجع إليها واختصره منها، كشاهد على بعض ما ذكرناه من ناحية، وتتميماً للفائدة من ناحية أخرى.

قال البيضاوي نفسه في مقدمة تفسيره هذا - بعد الديباجة - ما نصه:

«ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن - يعني التفسير - كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعبرين، إلا أن قصور بضاعتي يشبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»^(٢).

ويقول في آخر الكتاب ما نصه: «وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنظوي على فرائد ذوي الألباب، المشتغل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز، الخالي عن الإخلال والتلخيص العاري عن الإضلال، الموسوم بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»^(٣).

وكأنني به في هذه الجملة الأخيرة، يشير إلى أنه اختصره من تفسير الكشاف ولخص منه، ضمن ما اختصره ولخصه من كتب التفسير الأخرى، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال وشطحات الاعتزال.

ويقول الجلال السيوطي رحمه الله في حاشيته على هذا التفسير المسمى بـ «نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار» ما نصه: «وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخص هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مستجد، وميز ما فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرر مهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نضار واشتهر اشتهاار الشمس في رابعة النهار، عكف عليه العاكفون، ونهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكب عليه العلماء تدريساً ومطالعةً، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة»^(٤).

(١) (٣/٥).

(٢) (٦/١).

(٣) (٢٠٤/٥).

(٤) المدخل المنير لشيخ مخلوف ص ٤١، مطبعة المعاهد سنة ١٣٥١ هـ.

ويقول صاحب «كشف الظنون» (١٢٧/١ - ١٢٨) ما نصه: «وتفسيره هذا - يريد تفسير البيضاوي - كتاب عظيم الشأن، غني عن البيان، لخص فيه من الكشف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات وضم إليه ما روى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال المنشي:

أولو الأبواب لم يأتوا بكشف قنّاع ما يتلى
ولكن كان للقاضي يد بيضاء لا تبلى

ولكونه متبحراً جال في ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار الأخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها، وترجمان المناطق وميزانها، فحل ما أشكل على الأنام، وذلّل لهم صعاب المرام، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة، وأوضح لهم مناهج الأدلة، والذي ذكره من وجوه التفسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ قيل، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

وأما الوجه الذي تفرد فيه، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية، كقوله: وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز، عن حفظهم وتديبرهم له^(١) ونحوه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه، ولا يبلغ علمه إلى الإحاطة بما فيه فمن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الحبال للعنقاء، ويروم أن يقبض نسر السماء؛ لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية، على مذهب أهل السنة والجماعة. وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، وسلموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوي فناً من العلم وعرة المسالك، وأنواعاً من القواعد المختلفة الطرائق، وقل من برز، في فن إلا وصده عن سواه وشغله، والمرء عدو لما جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمى عين هواه، واستبعد نفسه في طاعة مولاه، حتى يسلم من الغلط والزلل، ويقتدر على رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلى بغرور.

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقة على سورة منه، ومنهم من حشى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه هـ.

ثم عد من هذه الحواشي ما يزيد عدده على الأربعين، ولا أطيل بذكرها، ومن شاء الاطلاع على

(١) انظر تفسير البيضاوي لقوله تعالى في الآية (٧) من سورة غافر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الآية (٣٤/٥).

ذلك فليرجع إليه في موضعه الذي أشرت إليه، وحسبي أن أقول: - والقاتل الذهبي - إن أشهر هذه الحواشي وأكثرها تداولاً ونفعاً: حاشية قاضي زاده، وحاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية القونوي.

وجملة القول، فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التي لا يستغني عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى، ويقف على أسرارهِ ومعانيهِ، وهو مطبوع عدة طبعات ومتوسط في حجمه^(١).

ولما كان لهذا الكتاب تلك المكانة الرفيعة بين كتب التفسير، كان ينبغي أن يتوفر الكتاب في المكتبات بشكل أنيق، وأن يكون محققاً فهو من أجدر الكتب التي ينبغي تحقيقها، ولكن للأسف لا توجد في المكتبات سوى نسخ قديمة، منها نسخة قديمة مكتوبة بخط اليد، وقد قامت دار الفكر بتصويرها، ومنها نسخ مطبوعة قديمة وبهامشها حاشية الكازورني، ثم قامت دار الكتب العلمية في بيروت بطباعة هذا الكتاب طباعة حديثة وهو - مع الأسف - مليء بالأخطاء، ولا تكاد صفحة تخلو من خطأ، فأحياناً تترك كلمات وأحياناً تترك أسطر، وكثيراً ما غير شكل الكلمة الإملائية.

لذلك وقع في قلبنا خدمة هذا الكتاب الجليل، بشكل يتفق مع مكانته وشهرته العلمية، وكذلك طمعاً في ثواب الله، وخدمة للإسلام، والمسلمين فالله نسأل أن يجعل ما قدمناه في ميزان حسناتنا يوم العرض عليه.

ثالثاً - مقارنة مختصرة بين تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود:

نظراً لاشتهار تفسير البيضاوي في أرجاء العالم الإسلامي وقد عكف عليه طلاب العلم والعلماء بالدرس والشرح، فقد عكف العلامة أبو السعود ومنذ مطلع حياته على تفسيري: الكشف، والبيضاوي، وكان يدور في خلدّه أثناء عكوفه على المدارس فيهما أن ينظم درر فوائدهما في سمط دقيق، ويرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق، ويضيف إليهما ما ألفاه في تضاعيف الكتب من جواهر الحقائق على نسق أنيق وأسلوب بديع، وتحقيقات رصينة وتدقيقات متينة، ويبرز، من دقائق سر الكتاب ما تطمئن إليه النفوس وتقر به العيون، ورغم كثرة مشاغله وضيق وقته انتهز، بعض الفرص ما دوّن به تفسيره الذي سماه «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم».

وقد كان تفسير أبي السعود بحق من أجود التفاسير وأجلها حيث كشف فيه عن أسرار البلاغة القرآنية ولطائف العبارات والإشارات بما لم يسبقه إليه أحد في بابهِ، ولذلك ذاعت شهرته في الأقطار والأمصار وعكف عليه العلماء بالدرس.

ومن خلال المتابعة بين تفسيري البيضاوي وأبي السعود نجد أن أبا السعود اعتمد اعتماداً أساسياً على تفسير البيضاوي فكان في الغالب ينقل عبارة البيضاوي نفسها أو يكتبها بأسلوبه البليغ الرصين بعبارة قد تكون أوضح أو أكثر غموضاً من عبارة البيضاوي، وبإمكاننا إثبات هذه المقارنة بين التفسيرين:

(١) التفسير والمفسرون، تأليف: د. محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى (١/٢٨٢ - ٢٨٨).

- ١ - قد يختصر أبو السعود ما ورد في البيضاوي، فقد يترك بعض الروايات أو الأقوال التي ذكرها البيضاوي فيذكر قولاً واحداً، بينما يكون البيضاوي قد ذكر أكثر من قول.
- ٢ - كثيراً ما يردّ أبو السعود على البيضاوي من خلال شرحه على البيضاوي إن اختار رأياً مخالفاً، فيقول: وأما ما قيل كذا وكذا، فيرده.
- ٣ - قد تجد تفصيلاً عند أبي السعود دون البيضاوي وقد تجد تفصيلاً عند البيضاوي أعرض عنه أبو السعود.
- ٤ - قد تجد البيضاوي أكثر غوصاً وتعرضاً للصرف وبيان أصول الكلمات واشتقاقها.
- ٥ - البيضاوي يشير للنكات البلاغية ولطائف الإشارات ولا يكررها في بقية الآيات وقد يذكر أنه وردت الإشارة إليها عند آية كذا وكذا، بينما أبو السعود يشير لكل نكتة بلاغية كلما وردت.
- ٦ - أبو السعود اعتمد على القراءة المشتهرة قراءة حفص عن عاصم، بينما اعتمد البيضاوي على غير قراءة حفص ولعلها قراءة نافع أو ابن كثير.
- ٧ - أبو السعود يذكر القراءات المتواترة وغير المتواترة، وقد يذكر قراءات لم يذكرها البيضاوي إلا أن أبا السعود يذكر المتواتر وغيره وبلفظ قرىء كذا وقرىء كذا فهو لا يفرّق بين القراءة المتواترة وغيرها.
- أما البيضاوي فيذكر القراءات المتواترة ويشير لأصحابها أما القراءات غير المتواترة فيذكرها بلفظ قرىء.
- ٨ - البيضاوي يضغّف بعض القراءات المتواترة من جهة اللغة اعتماداً على مذهب نحوي كما ضعف قراءة حمزة في أول النساء «والأرحام».
- ٩ - أبو السعود والبيضاوي قد يذكران حديثاً صحيحاً بلفظ روي النبيء بضعفه عند المحدثين وقد يكون في الصحيحين.
- ١٠ - أبو السعود والبيضاوي يذكران أحاديث في فضائل كل سورة في نهايتها، وهي أحاديث موضوعة في غالبها باتفاق المحدثين.
- ١١ - أبو السعود يتبع البيضاوي في ما وقع فيه من هفوات اعتزالية تسربت إليه من الكشاف. وعليه فلكل تفسير من التفسيرين ميزة خاصة

رابعاً - وصف المخطوط الذي اعتمدنا عليه :

المخطوطة «أ» : أول المخطوط : الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً... .

آخر المخطوط : من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى .

الخط : نسخي معتاد .

خ : ٥ ذو الحجة / ١٠٥٦ هـ .

ق : ٣٨٧ م : ٣٣ س : ٢١×٣٠

ملاحظات : نص القرآن بالمداد الأحمر ، يبدأ من الفاتحة إلى الناس من وقف الإمام يحيى .

خامساً - منهجنا في تحقيق الكتاب وتخريجه :

١ - نسخ المخطوط .

٢ - مقدمة وتحتوي على :

١ - التعريف بمؤلف هذا التفسير .

٢ - التعريف بتفسير البيضاوي وطريقته في تأليفه .

٣ - مقارنة مختصرة بين تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود .

٤ - وصف المخطوط .

٣ - منهجنا في تحقيق الكتاب وتخريجه .

٤ - تحقيق نص التفسير وضبطه بالشكل ، ليزيل كثيراً من غموض العبارة .

٥ - تخريج الآيات الواردة في التفسير بذكر رقبها وسورها .

٦ - ضبط القراءات - المتواترة وغيرها - بالرجوع إلى كتب القراءات .

٧ - تخريج الأحاديث من مصادرها .

٨ - بيان مرتبة كل حديث من الصحة أو الضعف .

٩ - ترجمة الأعلام المذكورة في التفسير غالباً .

١٠ - تعريف بالفروق الواردة في التفسير .

١١ - ووضع اسم السورة ورقم الآيات المفسرة في أعلى الصفحة .

١٢ - شرح الكلمات الغريبة ، والتعليق على بعض المسائل التي تدعو الحاجة إليها .

١٣ - إضافة النكات البلاغية التي أضافها أبو السعود على البيضاوي لتزاد فائدة الكتاب العلمية .

١٤ - التعليق على ما وقع فيه البيضاوي :

أ - تضعيف بعض القراءات المتواترة استناداً لمذهب نحوي ، كما ضعف قراءة حمزة في أول النساء

«والأرحام» بالكسر ، رغم أنها صحيحة من حيث ثبوت القراءة بها ومن حيث اللغة كما ذكر أبو

حيان ، وقد تسرب إليه هذا التضعيف من الكشاف دون الانتباه إليه ، وقد ورد ذلك في أكثر من

موطن .

ب - تسربت إليه بعض الاعتزاليات من الكشاف ، وقد ورد ذلك في أكثر من موطن فنبهت عليها مبيناً

أقوال أهل السنة في ذلك .

ج - أورد في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وهي في جملتها موضوعه باتفاق أهل الحديث .

د - أورد أحاديث في البخاري ومسلم أو في أحدهما، ويصدرها بكلمة «روي» وهذه الصيغة من صيغ التمريض التي يُصدر بها الحديث الضعيف دون الحسن والصحيح فتنبه .

هـ - البيضاوي شافعي المذهب، وقد ينسب للحنفية أقوالاً غير محررة، كما في مسألة بيع دور مكة وأجارتها حيث نقل عنهم عدم جواز بيع دور مكة وأجارتها والفتوى عندهم بخلافه .

١٥ - كثيراً ما يحيل البيضاوي على مواطن سابقة، فيذكر أنه قد مرّ تحقيقه في سورة كذا ولم يذكر الآية التي بحث فيها ذلك المبحث، فنعود للموطن الذي حقق عنده البحث ونشير إليه .

١٦ - التعليق على تأويلات البيضاوي وإثبات قول السلف رضي الله عنهم .

اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة . . .

واجعلها لوجهك خالصة . . .

ولا تجعل لأحد فيها شيئاً .

تَفْسِيرُ الْبَيْضَاوِيِّ

المسمى

أَنْوَالُ النَّبَايَا أَسْرَارُ النَّبَاوِي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حَقَّقَهُ وَوَعَلَ عَلَيْهِ وَخَرَجَ أَحَادِيثُهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

مُحَمَّدُ صَبِيحِيُّ بْنُ حَسَنٍ حَلَّاقٌ فِي الدُّكْتُورِ مُحَمَّدُ أَحْمَدُ الْأَطْرَشِ

تنبيه

- تم ضبط الآيات القرآنية في صلب التفسير بما يتفق مع التفسير، وقد اعتمد البيضاوي على غير قراءة حفص عن عاصم.
- إتماماً لفائدة الكتاب العلمية تمت إضافة النكات البلاغية التي أضافها أبو السعود على البيضاوي، وقد تم ذكرها في الهامش، وقد ذكرناها في الغالب بعبارة تكون أوضح من عبارة أبي السعود وقد تمت الإشارة في الهامش إلى تفسير أبي السعود بالحرف «س» أي أن ما ذكره في الهامش «س» يعني أنه مأخوذ من أبي السعود.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

«قرآن كريم»^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فتحدى بأقصر سورة من سوره مصاقع الخطباء من العرب العزباء فلم يجد به قديراً، وأفحم من تصدى لمعارضته من فصحاء عدنان وبلغاء قحطان حتى حَسِبُوا أنهم سُحُّرُوا تسحيراً، ثم بين للناس ما نزل إليهم حسبما عنَّ لهم من مصالحهم ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب تذكيراً، فكشف لهم قناع الانغلاق عن آيات محكمات هُئِ أم الكتاب وأخر متشابهات هن رموز الخطاب تأويلاً وتفسيراً، وأبرز غوامض الحقائق ولطائف الدقائق ليتجلى لهم خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت ليتفكروا فيها تفكيراً، ومهد لهم قواعد الأحكام وأوضاعها من نصوص الآيات وألَمَّاعها ليذهب عنهم الرجس ويبطهرهم تطهيراً، فمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فهو في الدارين حميد وسعيد، ومن لم يرفع إليه رأسه وأطفأ نبراسه يعيش ذميماً ويهمل سعيماً. فيا واجب الوجود ويا فائض الجود ويا غاية كل مقصود صل عليه صلاة توازي غناؤه وتجازي عناءه وعلى من أعانه وقرر تبيانه تقريراً، وأَفِضْ علينا من بركاتهم واسلك بنا مسالك كراماتهم، وسلم عليهم وعلينا تسليماً كثيراً.

(وبعدُ) فإن أعظم العلوم مقداراً وأرفعها شرفاً ومناراً علمُ التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها^(٢). ولطالما أحدث

(١) النحل: ٤٤.

(٢) بين العلماء أنواع العلوم التي يجب توفرها في المفسر وهي: علم اللغة والنحو والصرف، وعلم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وعلم التوحيد، ومعرفة أسباب النزول، والقصص، والناسخ والمنسوخ، والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم، وعلم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ولا يناله من في قلبه بدعة أو كبر أو حب دنيا أو ميل إلى المعاصي، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. وقال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعماسي
وهذه العلوم إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير ومعرفة دقائق أسرارها وتأويل المتشابهات بالمحكمات ونحوها، أما تدبر آياته بحيث يستشعر المرء عظمة ربه سبحانه وتعالى والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ

نفسى بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نُكْتٍ بارعة ولطائف رائعة استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية^(١) إلى الأئمة الثمانية المشهورين والشواذ المروية عن القراء المعتبرين، إلا أن قصور بضاعتي يشبطني عن الإقدام ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سَنَحَ لي بعد الاستخارة ما صَمَّمَ به عزمي على الشروع فيما أردته والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بعد أن أتممه «بأنوار التنزيل وأسرار التأويل». فها أنا الآن أشرع ويحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير ومعطي كل مسؤل.

* * *

= فهذا قدر مشترك بين عامة الناس وهو المأمور به للتدبر والتذكر لأنه سبحانه سهله ويسره، وذلك أدنى مراتب التفسير. انظر مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني (٥١٩/١) الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١) المشهور «المعزوة» بالواو، ويجوز أن تكون بالياء وهي لغة (المصباح المنير مادة «عزو») ويريد بقوله: القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، وهم السبع المشهورون إضافة إلى يعقوب البصري.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ ١ وَابْتِهَاثُ سَبْعِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

وتسمى أم القرآن، لأنها مُفْتَتَحُهُ ومبدؤه فكانها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تسمى أساساً، أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده، أو على جملة معانيه، من الحِكم النظرية والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء. وسورة الكثر والوافية والكافية لذلك. وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة، لاشتمالها عليها. والصلاة، لوجوب قراءتها أو استحبابها فيها. والشافية والشفاء، لقوله عليه الصلاة والسلام: «هي شفاء من كل داء»^(١). والسبع المثاني، لأنها سبع آيات بالاتفاق، إلا أن منهم من عد التسمية دون «أنعمت عليهم»، ومنهم من عكس، وتثنى في الصلاة. أو الإنزال، إن صح أنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة وبالمدينة حين حولت القبلة^(٢)، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾^(٣)، وهو مكي بالنص^(٤).

(١) وهو حديث ضعيف: أخرجه الدارمي (٤٤٥/٢) والبيهقي في الشعب (٤٥٠/٢) رقم ٢٣٧٠ وقال هذا منقطع وأورده التبريزي في «مشكاة المصابيح» (٦٦٧/١) رقم ٢١٧٠ وعزاه إلى الدارمي والبيهقي في شعب الإيمان. وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» رقم: ٥٨٢٧ وعزاه للبيهقي أيضاً من حديث عبد الملك بن عمير مرسلاً ورمز السيوطي لضعفه وضعفه الألباني أيضاً في «ضعيف الجامع» (٨٨/٤) رقم ٣٩٥٥.

(٢) اختار النسفي القول بأن الفاتحة مكية ومدينة، فقال: (والأصح أنها مكية ومدينة، نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة إلى الكعبة) تفسير النسفي (٣/١).

(٣) الحجر «٨٧».

(٤) استدل البيضاوي على مكية سورة الفاتحة بآية سورة الحجر، لأنه عبر بالماضي «آتيناك» وسورة الحجر مكية. لكنه لا يلزم من ذلك كون الفاتحة مكية، لأنه كثيراً ما يرد الماضي بمعنى المستقبل كما في قوله تعالى: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» - الفتح «١» - وقوله: «إنا أعطيناك الكوثر» - الكوثر «١» - والأقوى من ذلك هو الاستدلال =

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من الفاتحة ومن كل سورة^(١)، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك^(٢) رحمه الله تعالى والشافعي^(٣). وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ومالك^(٤) والأوزاعي^(٥)، ولم ينص أبو حنيفة^(٦) رحمه الله تعالى فيه بشيء فظن أنها ليست من السورة عنده، وسئل محمد بن الحسن^(٧) عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله تعالى. ولنا أحاديث كثيرة: منها ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات، أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم»^(٨). وقول أم سلمة رضي الله عنها: قرأ رسول الله ﷺ الفاتحة وعدّ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية^(٩). ومن أجلهما اختلف

= بالنقل عن الصحابة الذي شاهدوا الوحي والتزيل. (روح المعاني ١/٣٣).

- (١) ذهب البيضاوي إلى أن البسمة آية من الفاتحة ومن كل سورة، وهذا مذهبه - مذهب الشافعية - وهي مسألة ذات خلاف شديد بين العلماء، ولكل فريق أدلته، وقد اتفقوا على أنها بعض آية من سورة النمل. ولعل أوفق الآراء في ذلك أنها آية مستقلة في بداية كل سورة ذكرت فيها، وإنما كتبت للفصل والتبرك، ويدل عليه ما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم. رواه أبو داود بإسناد صحيح، كما ذكر الشوكاني في فتح القدير (١٧/١). وانظر أهم أدلة كل فريق في تفسير آيات الأحكام للصابوني (٤٧/١).
- (٢) عبدالله بن المبارك، ولد (١١٨) هـ وتوفي (١٨١) هـ، الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد، التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً، كان من سكان خراسان، ومات بهيت على الفرات (الأعلام ٤/١١٥).
- (٣) الشافعي هو محمد بن إدريس.. أحد أئمة المذاهب الأربعة، ولد بغزة في فلسطين (١٥٠) هـ وتوفي بمصر عام (٢٠٤) هـ، كان أشعر الناس وأعرفهم بالفقه (الأعلام ٦/٢٦).
- (٤) مالك بن أنس، أبو عبدالله، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة ولد عام (٩٣) هـ بالمدينة وتوفي فيها عام (١٧٩) هـ من أشهر كتبه «الموطأ» (الأعلام ٥/٢٥٧).
- (٥) هو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ولد في بعلبك في لبنان عام (٨٨) هـ. وتوفي في بيروت عام (١٥٧) هـ (الأعلام ٣/٣٢٠).
- (٦) هو النعمان بن ثابت الكوفي، أحد أئمة المذاهب الأربعة، ولد بالكوفة عام (٨٠) هـ ونشأ بها امتنع عن القضاء ورعاً، وكان قوي الحجة، كريماً في أخلاقه، جواداً، حسن المنطق والصورة قال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة (الأعلام ٨/٣٦).
- (٧) محمد بن الحسن الشيباني، إمام بالفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة، ولد بواسط عام (١٣١) هـ ونشأ بالكوفة وتوفي بالري عام (١٨٩) هـ، وكان قوي البيان فصيحاً (الأعلام ٦/٨٠).
- (٨) حديث أبي هريرة ضعيف.
- أخرجه الدارقطني (٣١٢/١) رقم (٣٦) عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قرأتم الحمد لله فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحداها». قال أبو بكر الحنفي: ثم لقيت نوحاً فحدثني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة بمثله، ولم يرفعه. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٧٦/٢) وفي الشعب (٤٣٠/٢) رقم (٢٣٢٤).
- (٩) حديث أم سلمة ضعيف روى الشافعي عن مسلم عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أنها قالت «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب فعَدَّ بسم الله الرحمن الرحيم آية...» الحديث كما في «التفسير الكبير» (١٩٦/١) للفخر الرازي وتعقبه الألوسي بقوله (٤٢/١): «أما ما ذكره - الفخر الرازي - في الحجة الأولى

في أنها آية برأسها أم بما بعدها، والإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله سبحانه وتعالى، والوافق على إثباتها في المصاحف مع المبالغة في تجريد القرآن حتى لم تكتب آمين. والباء متعلقة بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ، لأن الذي يتلوه مقروء، وكذلك يضم كل فاعل ما يجعل التسمية مبدأ له، وذلك أولى من أن يضم أبداً لعدم ما يطابقه ويدل عليه؛ أو ابتدائي لزيادة إضمار فيه، وتقديم المعمول ههنا أوقع كما في قوله: ﴿يَسِّرَ اللَّهُ تَجَرِبَهَا﴾^(١) وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾^(٢) لأنه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالى مُقَدَّم على القراءة، كيف لا وقد جعل آله لها من حيث إن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعاً ما لم يصدر باسمه تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبت»^(٣). وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله تعالى أقرأ، وهذا وما بعده إلى آخر السورة مقولٌ على السنة العباد ليعلموا كيف يُتَبَرَكُ باسمه ويُخَمَدُ على نعمه ويُسأل من فضله. وإنما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر^(٤)، كما كسرت لام الأمر ولألم الإضافة داخلية على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء. والاسم عند أصحابنا البصريين من الأسماء التي حذفت أعجازها لكثرة الاستعمال وبنيت أوائلها على السكون وأدخل عليها - مُبتدأ بها - همزة الوصل، لأن من دأبهم أن يتدنوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن، ويشهد له تصريفه على أسماء وأسامي وسُمي وسُميت ومجيء سَمَى كهذَى لغة فيه قال:

والله أَسْمَاكَ سَمَى مُبَارَكاً أَثَرَكَ اللهُ بِهِ إِثَارَكَا

والقلب بعيد غير مطرد. واشتقاقه من السمو لأنه رفعة للمسمى وشعار له، ومن السمة عند

= من حديث أم سلمة بالوجه الذي رواه مخالفاً لما في البيضاوي - ص ٢ - المخالف - اعتراض على البيضاوي - لما في الكتب الحديثية. فيجاب عنه بأن أبا مليكة لم يثبت سماعه عن أم سلمة. وبتقديره للمعاصرة يقال إن هذا اللفظ لم يوجد في المشهور ولعله نقل بالمعنى لبعض الروايات على حسب ما يلوح له - هـ. قلت من هذه الروايات ما أخرجه الدارقطني في سننه (٣١٢/١ - ٣١٣ رقم ٣٧): من طريق ابن جريج عن عبدالله بن أبي مليكة، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ يقطع قراءته آية آية: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، واللفظ لعبدالله بن محمد، إسناده صحيح وكلهم ثقات، قال لنا عبدالله بن محمد: ورواه عمر بن هارون عن ابن جريج، فزاد فيه كلاماً.

(١) هود: (٤١).

(٢) الفاتحة: (٥).

(٣) يشير المؤلف رحمه الله تعالى إلى الحديث الذي أخرجه السبكي في طبقاته (١٢/١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبَدَأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» وهو حديث ضعيف جداً قلت في سنده «ابن عمران» ويُعرف بابن الجندي، ترجمه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧٧/٥) وقال: كان يضعف في روايته، ويطعن عليه في مذهبه - «يعني التشيع» - وقال ابن حجر في «اللسان» (٢٨٨/١ رقم ٨٥٢): «روى عنه خلق يروى عن البغوي. وقال العتيقي: كان يرمى بالتشيع. وأورد ابن الجوزي في الموضوعات في فضل عليّ حديثاً بسند رجاله ثقات إلا الجندي فقال: هذا موضوع ولا يتعدي الجندي» هـ.

(٤) أي بنيت الباء على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجر، فكسرت لتشابه حركتها عَمَلَهَا.

الكوفيين، وأصله وَسَمٌ حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل لِيَقِلَّ إِعْلَالُهُ. وَرُدَّ بِأَنَّ الهمزة لم تُعْهَدَ دَاخِلَةً عَلَى مَا حَذَفَ صَدْرُهُ فِي كَلَامِهِمْ^(١)، وَمِنْ لُغَاتِهِ سِمٌ وَسَمٌ قَالَ:

بِسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سِمَةٌ

وَالاسْمُ إِنْ أُرِيدَ بِهِ اللَّفْظُ فَغَيْرُ الْمُسَمَّى، لِأَنَّهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ أَصْوَاتٍ مُتَقَطِعَةٍ غَيْرِ قَارَّةٍ، وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأُمِّ وَالْأَعْصَارِ، وَيَتَعَدَّدُ تَارَةً وَيَتَّحِدُ أُخْرَى، وَالْمُسَمَّى لَا يَكُونُ كَذَلِكَ. وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ ذَاتُ الشَّيْءِ فَهُوَ الْمُسَمَّى لَكِنَّهُ لَمْ يَشْتَهَرْ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِزَكَّ اسْمِكَ﴾^(٢) وَ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ﴾^(٣) الْمُرَادُ بِهِ اللَّفْظُ لِأَنَّهُ كَمَا يَجِبُ تَنْزِيهِ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصِفَاتِهِ عَنِ النِّقَاصِ يَجِبُ تَنْزِيهِ الْأَلْفَافِ الْمَوْضُوعَةِ لَهَا عَنِ الرَّفْتِ وَسُوءِ الْأَدَبِ. أَوِ الْاسْمُ فِيهِ مُقْتَحَمٌ كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا

وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الصِّفَةُ - كَمَا هُوَ رَأْيُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ^(٤) - انْقَسَمَ انْقِسَامَ الصِّفَةِ عِنْدَهُ: إِلَى مَا هُوَ نَفْسُ الْمُسَمَّى وَإِلَى مَا هُوَ غَيْرُهُ وَإِلَى مَا لَيْسَ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ. وَإِنَّمَا قَالَ بِسْمِ اللَّهِ وَلَمْ يَقُلْ بِاللَّهِ، لِأَنَّ التَّبَرُّكَ وَالِاسْتِعَانَةَ بِذِكْرِ اسْمِهِ^(٥)، أَوْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْيَمِينِ وَالتَّيَمَّنِ. وَلَمْ تَكْتُبِ الْأَلْفَ عَلَى مَا هُوَ وَضَعَ الْخَطَّ لِكثَرَةِ الْإِسْتِعْمَالِ، وَطَوَّلَتِ الْبَاءُ عَوْضًا عَنْهَا. (وَاللَّهُ) أَصْلُهُ إِلَهُ، فَحَذَفَتِ الْهَمْزَةُ وَعَوَّضَ عَنْهَا الْأَلْفُ وَاللَّامُ وَلِذَلِكَ قِيلَ: يَا اللَّهَ - بِالْقَطْعِ - إِلَّا أَنَّهُ مُخْتَصٌّ بِالْمَعْبُودِ بِالْحَقِّ. وَالْإِلَهُ فِي الْأَصْلِ لِكُلِّ مَعْبُودٍ، ثُمَّ غَلَبَ عَلَى الْمَعْبُودِ بِالْحَقِّ. وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ إِلَهٍ وَالْوَهْ وَالْوَهْيَةُ بِمَعْنَى عَبْدٌ وَمِنْ تَأَلَّهَ وَاسْتَأَلَهُ، وَقِيلَ مِنْ إِلَهٍ إِذَا تَحِيرَ لِأَنَّ الْعُقُولَ تَتَحِيرُ فِي مَعْرِفَتِهِ، أَوْ مِنْ أَلْهَتْ إِلَى فَلَانٍ أَيَّ سَكَنْتَ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَطْمَئِنُّ بِذِكْرِهِ وَالْأَرْوَاحُ تَسْكُنُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، أَوْ مِنْ إِلَهٍ إِذَا فَزَعَ مِنْ أَمْرٍ نَزَلَ عَلَيْهِ. وَأَلْهَتْهُ غَيْرُهُ أَجَارَهُ إِذَ الْعَائِدُ يُفَزَعُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَجِيرُهُ حَقِيقَةً أَوْ بَزْعَمَهُ، أَوْ مِنْ إِلَهٍ الْفَصِيلُ إِذَا وَلَعَ بِأَمْرٍ إِذَ الْعِبَادُ يُولَعُونَ بِالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ فِي الشَّدَائِدِ، أَوْ مِنْ وَلَّهَ إِذَا تَحِيرَ وَتَخَبَّطَ عَقْلُهُ وَكَانَ أَصْلُهُ وَلَاهَ فَقَلْبَتِ الْوَاوُ هَمْزَةً لِاسْتِثْقَالِ الْكُسْرَةِ عَلَيْهَا اسْتِثْقَالُ الضَّمَّةِ فِي وَجْهِهِ فَقِيلَ إِلَهُ كِبَاءً وَإِشَاحٍ، وَيُرْغَدُ الْجَمْعُ عَلَى آلِهَةٍ دُونَ أَوَّلِيهِ، وَقِيلَ أَصْلُهُ لَاهٍ مُصَدَّرٌ لَاهَ يَلِيهِ لِيَهَاءُ وَلَاهَاءُ إِذَا احْتَجَبَ وَارْتَفَعَ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحَجَّبٌ عَنِ إِدْرَاكِ الْأَبْصَارِ وَمُرْتَفَعٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَعَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

كَحَلْفَةٍ مِنْ أَبِي رِيَّاحٍ يُشْهِدُهَا لَاهَهُ الْكِبَرَاءُ

(١) رَجَعَ أَبُو حَيَّانٍ أَنَّ أَصْلَهُ (سَمَو). الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ (١/١٤).

(٢) الرَّحْمَنُ: (٧٨).

(٣) الْأَعْلَى: (١١).

(٤) أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ: هُوَ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِسْحَاقَ... مِنْ نَسْلِ الصَّحَابِيِّ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. وَلَدَ بِالْبَصْرَةِ عَامَ (٢٦٠) هـ وَتَوَفَّى بِبَغْدَادَ عَامَ (٣٢٤) هـ. وَتَلَقَّى مَذْهَبَ الْمُعْتَزَلَةِ وَتَقَدَّمَ فِيهِمْ ثُمَّ رَجَعَ وَجَاهَرَ بِخِلَافِهِمْ، وَمُصَنَّفَاتُهُ كَثِيرَةٌ (الْأَعْلَامُ ٤/٢٦٣).

(٥) الْإِسْتِعَانَةُ تَارَةً تَكُونُ بِذَاتِهِ تَعَالَى، وَحَقِيقَتُهَا طَلْبُ الْمَعُونَةِ عَلَى إِيقَاعِ الْفَعْلِ، أَيِ إِفَاضَةِ الْقُدْرَةِ بِمَا يَتِمَكَّنُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ أَدَاءِ مَا يُلْزِمُهُ. وَتَارَةً أُخْرَى بِاسْمِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَحَقِيقَتُهَا طَلْبُ الْمَعُونَةِ فِي كَوْنِ الْفَعْلِ مُعْتَدًّا بِهِ شَرْعًا، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يَصْدَرْ بِاسْمِهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْمَعْدُومِ (أَبُو السَّعْدِ ١/١٠).

وقيل علمٌ لذاته المخصوصة لأنه يوصف ولا يوصف به^(١)، ولأنه لا بد له من اسم تجرى عليه صفاته ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه، ولأنه لو كان وصفاً لم يكن قول: لا إله إلا الله توحيداً مثل: لا إله إلا الرحمن فإنه لا يمنع الشركة. والأظهر أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعَلَم مثل: الثريا والصعق أُجري مجراه في إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به وعدم تطرق احتمال الشركة إليه، لأن ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمر آخر حقيقي أو غيره غير معقول للبشر فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ، ولأنه لو دل على مجرد ذاته المخصوصة لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾^(٢) معنى صحيحاً، ولأن معنى الاشتقاق هو كون أحد اللفظين مشاركاً للآخر في المعنى والتركيب وهو حاصل بينه وبين الأصول المذكورة، وقيل أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الأخيرة وإدخال اللام عليه. وتفخيمٌ لأمه إذا انفتح ما قبله أو انضم سُنَّة، وقيل مطلقاً. وحذفُ أَلِفِهِ لِحُنْ تفسُدُ به الصلاة ولا ينعقد به صريح اليمين، وقد جاء لضرورة الشعر:

أَلَا لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي سُهَيْلٍ إِذَا مَا اللَّهُ بَارَكَ فِي الرُّجَالِ

والرحمن الرحيم: اسمان بنيا للمبالغة من رَحِم، كالغضبان من غضب والعليم من علم. والرحمة في اللغة: رقة القلب وانعطافٌ يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرَّحِم لانعطافها على ما فيها. وأسماءُ الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعالٌ دون المبادي التي تكون انفعالات. والرحمنُ أبلغ من الرحيم، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قَطَعَ وَقَطَعَ وَكَبَّرَ وَكَبَّرَ، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمن الدنيا - لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة - لأنه يخص المؤمن، وعلى الثاني قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا لأن النعم الأخروية كلها جسام وأما النعم الدنيوية فجليلة^(٣) وحقيرة. وإنما قُدِّم^(٤) والقياسُ يقتضي الترقى من الأدنى إلى الأعلى لتقدم رحمة الدنيا ولأنه صار كالعَلَم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها، وذلك لا يَصْدُق على غيره لأن من عداه فهو مستعيض يلفظه وإنعامه يريد به جزيل ثوابٍ أو جميل ثناء أو مزيج رقة الجنسية أو حب المال عن القلب، ثم إنه كالواسطة في ذلك لأن ذات النعم ووجودها والقدرة على إيصالها والداعية الباعثة عليه والتمكن من الانتفاع بها والقوى التي بها يحصل الانتفاع إلى غير ذلك مِنْ خَلْقِهِ لا يقدر عليها أحد غيره، أو لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم وأَوْصَلِهَا ذَكَرَ الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كالتممة والرديف له، أو للمحافظة على رؤوس الآي.

والأظهر أنه غير مصروف وإن حُظِر اختصاصه بالله تعالى أن يكون له مؤنث على فَعْلَى أو فعلانة

(١) أي يقال: إله واحد حكيم عليم ولا يقال شيء إله، كما يقال كتاب مرقوم ولا يقال شيء كتاب.

(٢) الأنعام: ٤٣.

(٣) جليلة أي حقيرة لا قيمة لها، وهو من أسماء الأضداد.

(٤) أي قُدِّم لفظ الرحمن على الرحيم، والقياس يقتضي تقديم الرحيم على الرحمن..

إلحاقاً له بما هو الغالب في بابهِ . وإنما خص التسمية بهذه الأسماء ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان به في مجامع الأمور هو المعبود الحقيقي الذي هو مولي النعم كلها عاجلها وآجلها جليلها وحقيرها، فيتوجه بشرُّ أشْرِهِ إلى جناب القدُّس ويتمسك بحبل التوفيق ويشغل سره بذكره والاستعداد به عن غيره^(١).

(٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: هو الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها، والمدح: هو الثناء على الجميل مطلقاً. تقول حمدت زيداً على علمه وكرمه، ولا تقول حمدته على حسنه، بل مدحته. وقيل هما أخوان^(٢) والشكر: مقابلة النعمة قرلاً وعملاً واعتقاداً قال:

أَفَادَتْكُمْ التُّغْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحْجَبَا

فهو أعم منهما من وجه وأخص من آخر^(٣). ولما كان الحمد من شعبِ الشكر أشيع للنعمة وأدل على مكانها لخشفاء الاعتقاد وما في آداب الجوارح من الاحتمال جعل رأسَ الشكر والعمدة، فيه فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد رأسُ الشكر، ما شكر الله من لم يحمده»^(٤).

والذمُّ نقيض الحمد والكفران نقيضُ الشكر. ورفعهُ بالابتداء وخبرهُ الله. وأصله النصب وقد قرئ به^(٥). وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته له دون تجددده وحدوثه^(٦) وهو من

(١) ولتحريك صفة الرحمة بالعباد فيتراحمون فيما بينهم، ويلتمسون رحمته جل شأنه.

(٢) المدح أعم من الحمد، وهو بمعنى وَسَّغْتُ شكره (المصباح المنير للفيومي مادة مدح) وقد أنكر الألويسي على الزمخشري قوله بترادف المدح والحمد (روح المعاني ٧٠/١).

(٣) الحمد أعم من الشكر لأنه يفيد الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها، أما الشكر فهو ثناء على النعمة فقط، فلا يقال شكرته على قوته، ولكن يقال شكرته على إحسانه وكرمه. والحمد أخص من الشكر لأنه يكون باللسان فقط، أما الشكر فباللسان والقلب والجوارح.

(٤) وهو حديث ضعيف أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٢٤/١٠) رقم ١٩٥٧٤ والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٩٦ رقم ٤٣٩٥) من حديث عبدالله بن عمرو وفيه انقطاع، وأورده السيوطي في (الجامع الصغير) (٣/٤١٨) رقم ٣٨٣٥ مع (الفيض) وعزاه إلى عبد الرزاق في الجامع، وإلى البيهقي في شعب الإيمان. ورمز السيوطي لحسنه، وقال المناوي «قال المصنف في شرح التقريب: رواه الخطابي في غريبه - (١/٣٤٥ - ٣٤٦) - والديلمى في الفردوس - (٢/١٥٥) رقم ٢٧٨٤ - بسند رجاله ثقات، لكنه منقطع، وفي حاشية القاضي: منقطع بين قتادة وابن عمرو» هـ.

ورواه البغوي في تفسير (سبحان) من حديث ابن عباس، وفيه: نصر بن حماد - وهو ضعيف - كما في «الكافي الشاف» لابن حجر - (٤/٢) رقم ٤ - وضعف الألباني حديث ابن عمرو في ضعيف الجامع (٣/١١٣) رقم ٢٧٨٩.

(٥) قال أبو السعود: (وأصله النصب، كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرّة التي لا تكاد تستعمل معها، نحو: شكرأً وعجباً، كأنه قيل: نحمد الله حمداً - بنون الحكاية - ليوافق ما في قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» لاتحاد الفاعل في الكل) تفسير أبو السعود ١٢/١.

(٦) الجملة الاسمية والجملة الفعلية

الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات والاستقرار، وذلك أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً فشيئاً، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا

المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها.. والتعريف فيه للجنس ومعناه: الإشارة إلى ما يعرف كل أحد أن الحمد ما هو، أو للاستغراق إذ الحمد في الحقيقة كله له، إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَقَمَّرٍ مِّنَ اللَّهِ﴾^(١) وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم، إذ الحمد لا يستحقه إلا مَنْ كان هذا شأنه. وقرئ الحمد لله بإتباع الدال اللام وبالعكس تنزيلاً لهما من حيث إنهما يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة^(٢).

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وُصف به للمبالغة كالصوم والعدل. وقيل: هو نعت من رَبُّهُ يُرَبُّهُ فهو رب، كقولك تَمَّ يَنْتَمُ فهو تَمٌّ، ثم سُمِّيَ به المالكُ لأنه يحفظ ما يملكه ويُرَبِّيه. ولا يُطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كقوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾^(٣). والعالم اسم لما يُعَلَّم به، كالأثام والقالب، غلب فيما يُعَلَّم به الصانع تعالى، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثِّر واجب لذاته تدل على وجوده. وإنما جَمَعَهُ ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغَلَبَ العقلاء منهم فَجَمَعَهُ بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل: اسم وُضِعَ لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وتناوَلَهُ لغيرهم على سبيل الاستبصار. وقيل: عني به الناس ههنا فإن كل واحد منهم عالم من حيث إنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض يُعَلَّم بها الصانع كما يُعَلَّم بما أبدعه في العالم الكبير، ولذلك سوى بين النظر فيهما، وقال تعالى: ﴿وَقَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٤). وقرئ رب العالمين بالنصب على المدح، أو النداء، أو بالفعل الذي دل عليه الحمد، وفيه دليل على أن الممكنات كما هي مفتقرة إلى المحدث حال حدوثها فهي مفتقرة إلى المبقي حال بقائها.

(٣) ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ كَرَّره للتعليل على ما سنذكره.

قلت: زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيد طويل وعمرو قصير، فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول والقصر يتجدد ويحدث بل توجههما وتثبتهما فقط وتقضي بوجودهما على الإطلاق كذلك لا يتعرض في قولك زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل فإنك تقصد فيه إلى ذلك، فإن قلت: زيد ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً وجعلته يزاوله ويوجبه (انظر روح المعاني ٧٥/١ «الهامش»).

ثم إن الفعل يدل على زمن محدد، ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، فتكون الجملة الفعلية محصورة زمنياً بزمن الفعل، أما الاسم فلا يفيد ذلك.

ولذلك كانت الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات والاستقرار. ولذلك كان الحمد - بالرفع - أبلغ لأن التقدير الحمد ثابت لله أو مستقر، أما التقدير في حال النصب: نحمد الله الحمد أو حمداً ولذلك لما دخلت الملائكة على إبراهيم عليه السلام وحيوه رد عليهم بأبلغ من سلامهم «.. فقالوا سلاماً قال سلاماً..» - الذاريات ٢٥ - والتقدير: نسلم عليك سلاماً، فقال: سلاماً عليكم أي سلام ثابت مستقر عليكم...

(١) النحل: ٥٣.

(٢) أي قرئ بكسر الدال في الحمد لإتباعها اللام.

(٣) يوسف: ٥٠.

(٤) الذاريات: ٢١.

(٤) ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ قراءة عاصم^(١) والكسائي^(٢) ويعقوب^(٣) ويعضده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^(٤)، وقرأ الباقر: مَلِكٌ. وهو المختار لأنه قراءة أهل الحرمين^(٥) ولقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾^(٦)، ولما فيه من التعظيم. والمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء من المَلِكِ. والمَلِكُ هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين مِنَ الْمُلْكِ. وقرئ مَلِكٌ بالتخفيف، ومَلَكٌ بلفظ العمل، ومالكاً بالنصب على المدح أو الحال، ومالكٌ بالرفع منوناً، ومضافاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، ومَلِكٌ مضافاً بالرفع والنصب. ويومُ الدين يوم الجزاء، ومنه «كما تدين تدان» وبيت الحماسة:

وَلَمْ يَتَّقْ سِوَى الْعَدَا نِ دِيَّاهُمْ كَمَا دَانُوا

أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراء له مجرى المفعول به على الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، ومعناه: مَلَكُ الأمور يوم الدين على طريقة: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾^(٧)، أَوْلَهُ الملك في هذا اليوم، على وجه الاستمرار لتكون الإضافة حقيقية معدة لوقوعه صفة للمعرفة. وقيل الدين: الشريعة،

(١) هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، كان قارئاً متقناً، آية في التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن، توفي بالكوفة أو بالسماوة سنة (١٢٧) هـ، روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة، وهو أحد القراء السبعة.

(٢) الكسائي: هو علي بن حمزة الكسائي النحوي، كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب وأوحد الناس بالقرآن، وهو أحد القراء السبعة، روى عنه الدوري وأبو الحارث، توفي سنة (١٨٩) هـ.

(٣) يعقوب بن إسحاق الحضرمي أبو محمد، قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو، اشتهر بالرواية عنه رُوِيَ عَنْ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَرُوِيَ، وهو من القراء العشرة، توفي عام (٢٠٥) هـ.

(٤) الانقطار: «١٩».

(٥) القراءات في «مالك يوم الدين» وما أثبتته البيضاوي من أن الكسائي قرأ «مالك» - بإثبات الألف - ليس بإطلاقة، فقد قرأ أيضاً «مَلِكٌ» بحذف الألف (المبسوط لابن مهران ص ٨٣)

ثم إن البيضاوي اختار قراءة «مَلِكٌ» على «مالك» والاختيار غير مسلم به، لأن القراءتين صحيحتان سنداً، وقد قرأ بالقراءتين جمع كبير من القراء. ولا يصح اختيار قراءة متواترة على أخرى، ولكن يمكن القول بأن قراءة أكثر شمولاً من قراءة أخرى.. ولعل ما يمكن قوله: إن القراءتين صحيحتان حستان، غير أن القراءة بدون ألف «ملك» أشمل وأقوى في المعنى، ولكن جمعاً بين القراءتين نقول: تعددت القراءات لتفيد تعدد الوصف فالله تعالى مَلِكٌ ومالك، وقد ورد في القرآن وصفه بهما كقوله تعالى «الملك القدوس» - الحشر «٢٣» - وقوله «ملك الناس» - الناس «٢» - وقوله تعالى: «قل اللهم مالك الملك» - آل عمران «٢٦» -.

(انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ٢٩/١، تحقيق محي الدين رمضان)
قال الشوكاني: (والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعق ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من الملك في بعض الأمور. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله) فتح القدير للشوكاني ٢٢/١.

(٦) غافر: «١٦».

(٧) الأعراف: «٤٤» أي نادوا أصحاب النار تبجحاً وتبكيئاً عليهم.

وقيل: الطاعة، والمعنى يوم جزاء الدين، وتخصيص اليوم بالإضافة: إما لتعظيمه، أو لتفردته تعالى بنفوذ الأمر فيه^(١). وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجداً للعالمين رباً لهم منعماً عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها مالكاً لأموالهم يوم الثواب والعقاب للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواء؛ فإنَّ تَرْتَّبَ الحكم على الوصف يُشعر بعلِّيَّته له^(٢)، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يُحمد فضلاً عن أن يُعبد، فيكون دليلاً على ما بعده، فالوصف الأول لبيان ما هو الموجب للحمد - وهو الإيجاد والتربية - والثاني والثالث للدلالة على أنه متفضل بذلك مختار فيه ليس يصدر منه لإيجاب بالذات أو وجوب عليه قضية لسوابق الأعمال حتى يستحق به الحمد، والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجه ما، وتضمين الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم إنه لما ذُكر الحقيق بالحمد، ووُصِفَ بصفات عظام تميَّز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا مَنْ هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدلَّ على الاختصاص، وللترفي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكان المعلوم صار عِيَاناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً، بَنَى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفَى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عِيَاناً ويناجيه شفهاً^(٣).

اللهم اجعلنا من الواصلين للعَيْنِ دون السامعين للأثر. ومن عادة العربِ التفتُّنُ في الكلام والعدولُ من أسلوب إلى آخر تطريةً له وتنشيطاً للسامع، فيُعَدَّلُ من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾^(٤) وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسَقْنَهُ﴾^(٥) وقول امرئ.....

(١) وتخصيص يوم الدين من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والحشر والحساب، لكونه أدخل في الترغيب والترهيب.
(٢) أي أن ما وُصف به تعالى نفسه من صفات الربوبية والرحمة ومثل ذلك اليوم الرهيب هو العلة الباعثة على الحمد.

(٣) قال أبو السعود: (لما أجري عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكمل تميز وأتم ظهور، بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور، فاستدعى استعمال صيغة الخطاب والإيذان بأن حق التالي - بعدما تأمل فيما سلف، من تفردته تعالى بذاته الأقدس المستوجب للمعبودية وامتيازته بذاته عما سواه بالكلية واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية... وافترار الكل إليه... - أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان وينتقل من عالم الغيبة إلى عالم الشهود... كأنه واقف لدى مولاة مائل بين يديه وهو يدعو بالخضوع والإخبات ويقرع بالضراعة باب المناجاة، قائلاً: يا من هذه شئون ذاته وصفاته نخصك بالعبادة والاستعانة... ولعل هذا هو السر في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعة من الصلاة التي هي مناجاة العبد لمولاه...) تفسير أبو السعود ١٦/١.

(٤) يونس: «٢٢».

(٥) فاطر: «٩».

القيس^(١).

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْإِثْمِ دِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَزُقْ دِ
وَبَاتَ وَيَأْتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَثِيلَةٌ ذِي الْعَائِرِ الْأَزْمِ دِ
وَذَلِكَ مَنْ تَبَا جَاءَنِي وَخَبَرْتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ

وإيا ضمير منصوب منفصل، وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الإعراب، كالتاء في أنت والكاف في أرايتك. وقال الخليل^(٢): إيا مضاف إليها، واحتج بما حكاه عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب، وهو شاذ لا يعتمد عليه. وقيل: هي الضمائر، وإيا عمدة فإنها لما فصلت عن العوامل تعذر النطق بها مفردة فُضِمَ إليها إيا لتستقل به، وقيل: الضمير هو المجموع. وقرئ أياك بفتح الهمزة، وهياك بقلبها هاء. والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق معبد أي مذل وثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى.

والاستعانة: طلب المعونة، وهي إما ضرورية أو غير ضرورية، والضرورية ما لا يتأتى الفعل دونها كإقتدار الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يُفعل بها فيها وعند اجتماعها يوصف الرجل بالاستطاعة ويصح أن يُكَلَّفَ بالفعل. وغير الضرورية تحصيل ما ييسر به الفعل ويسهل كالراحلة في السفر للقادر على المشي، أو يُقَرَّبَ الفاعل إلى الفعل ويحُثُّ عليه، وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف. والمراد طلب المعونة في المهمات كلها أو في أداء العبادات، والضمير المستكن في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة. أوله ولسائر الموحدين، أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقَبَّلَ ببركتها ويجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة. وقدم المفعول للتعظيم، والاهتمام به، والدلالة على الحصر ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك، وتقديم ما هو مقدّم في الوجود، والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات؛ ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووصلة سنيّة بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يحقّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها ملاحظة له ومنتسبة إليه، ولذلك فضل ما حكى الله عن حبيبه حين قال: ﴿لَا تَخْزَنَ لَكَ اللَّهُ مَعَنًا﴾^(٣). على ما حكاه عن كليمة حين قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِي﴾^(٤). وكرّر الضمير للتنصيص على أنه المستعان به

(١) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمر بن حجر وقال بعض الرواة: هو امرؤ القيس بن الصمت توفي سنة ٨٠ قبل الهجرة المعلقة الأولى من المعلقات العشر ص ٥ - ١٨.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي، من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيويه النحوي ولد عام (١٠٠) هـ بالبصرة وتوفي بها عام (١٧٠) هـ.

(٣) التوبة «٤٠».

(٤) الشعراء: «٦٢».

لا غير^(١). وقُدِّمَتِ العبادةُ على الاستعانةِ ليتوافق رؤوس الآي، ويُعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أَدْعَى إلى الإجابة.

وأقول: لما نَسَبَ المتكلمُ العبادةَ إلى نفسه أَوْهَمَ ذلك تبجُّحاً واعتداداً منه بما يَصْدُر عنه، فعقَّبَه بقوله: «وإياك نستعين» ليدل على أن العبادة أيضاً مما لا يَتِمُّ ولا يَسْتَتِبُّ له إلا بمَعُونَةٍ منه وتوفيق^(٢)، وقيل: الواو للحال والمعنى نعبدك مستعينين بك. وقُرِئَ بكسر النون فيهما وهي لغة بني تميم فإنهم يَكْسِرُونَ حروف المضارعة سوى الياء إذا لم ينضم ما بعدها.

(٦) ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بيانٌ للمعونة المطلوبة فكأنه قال: كيف أعينكم؟ فقالوا اهدنا، أو إفرادٌ لما هو المقصود الأعظم. والهدايةُ دلالةٌ بلطفٍ ولذلك تستعمل في الخير، وقوله تعالى: ﴿فَأَقْذِرْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ﴾^(٣) وارِدٌ على التهكم، ومنه الهداية وهوادي الوحش لمقدماتها، والفعل منه هدى، وأصله أن يُعْدَى باللام أو إلى، فعومل معاملة اختار في قوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾^(٤). وهدايةُ الله تعالى تتنوع أنواعاً لا يُحصيها عدٌّ كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٥) ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصلحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

والثاني: نصبُ الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصالح والفساد وإليه أشار حيث قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٦) وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾^(٧).

والثالث: الهدايةُ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عنى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(٨) وقوله: ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٩).

والرابع: أن يكشف على قلوبهم السرائر ويريهـم الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام والمنامات الصادقة، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء وإياه عنى بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ

(١) قال أبو السعود: (وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، وإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب) تفسير أبو السعود ١٧/١.

(٢) تقديم العبادة على الاستعانة، لأن العبادة من مقتضيات مدلول الاسم الجليل، أما الاستعانة فمن الأحكام المبنية على الصفات المذكورة، ولأن العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المستعين، ولأن العبادة واجبة حتماً والاستعانة تابعة للمستعان فيه في الوجوب وعدمه (انظر: أبو السعود ١٧/١).

(٣) الصافات: «٢٣».

(٤) الأعراف: «١٥٥».

(٥) إبراهيم: «٣٤».

(٦) البلد: «١٠».

(٧) فصلت: «١٧».

(٨) الأنبياء: «٧٣».

(٩) الإسراء: «٩».

أَقْتَدِهٖ ۝ . وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١). فالمطلوب: إما زيادة ما مُنَحُوهُ من الهدى أو الثبات عليه أو حصول المراتب المرتبة عليه، فإذا قاله العارف بالله الواصل عنى: أَرَشِدُنَا طريق السير فيك لتمحو عنا ظلمات أحوالنا وتُطِيط غواشي أبداننا لنستضيء بنور قُدُسك فنراك بنورك. والأمر والدعاء يتشاركان لفظاً ومعنى ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفل^(٢)، وقيل: بالرتبة.

والسراط: من سَرَطَ الطعام إذا ابتلعه فكانه يَسْرُطُ السابلة، ولذلك سُمِّيَ لَقَمًا لأنه يَلْتَقِمُهُم. والصراط من قَلَبِ السين صَادًا ليطابق الطاء في الإطباق، وقد يُشَمُّ الصَّادُ صوت الزاي ليكون أقرب إلى المبدل منه. وقرأ ابن كثير^(٤) برواية قبل^(٥) عنه ورويس^(٦) عن يعقوب^(٧) بالأصل، وحمزة^(٨) بالإشمام، والباقون بالصاد وهو لغة قريش. والثابت في الإمام^(٩)، وجمعه سُرُطٌ ككُتِبَ وهو كالطريق في التذكير والتأنيث.

والمستقيم: المستوي. والمراد به طريق الحق، وقيل: هو ملة الإسلام.

(٧) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الأول بدل الكل، وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدته التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على أَكْدٍ وَجْهِ وَأَبْلَغِهِ، لأنه جُعِلَ كالتفسير والبيان له فكانه من البَيِّن الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين. وقيل الذين أنعمت عليهم: الأنبياء، وقيل: النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقيل: أصحاب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام قبل التحريف والنسخ^(١٠). وقرئ صراط مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. والإنعام: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي

(١) الأنعام «٩٠».

(٢) العنكبوت: «٦٩».

(٣) أي الأمر والدعاء يتشاركان لفظاً، فكلاهما يفيد الطلب، ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفل، فهو من الأعلى إلى الأدنى أمر ومن الأدنى إلى الأعلى دعاء.

(٤) ابن كثير: هو عبدالله بن كثير الداري، أحد القراء السبعة، وكان إمام الناس في القراءة بمكة، لقي من الصحابة عبدالله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك، واشتهر بالرواية عنه - بواسطة أصحابه - البزي وقنبل، توفي عام (١٢٠) هـ بمكة.

(٥) قبل هو محمد بن عبدالرحمن بن خالد بن محمد المخزومي المكي، يكنى أبا عمر ويلقب بقنبل لشدة كان إماماً في القراءة ضابطاً ثقة يؤمه الناس من أقطار الأرض، أخذ القراءة عن أبي الحسن أحمد القواس عن وهب عن القسط عن شبل ومعروف، وكلاهما قرأ على ابن كثير، توفي (٢٩١) هـ.

(٦) رويس هو أبو عبدالله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري، ويعرف برويس اشتهر بالرواية عن يعقوب ويعقوب من القراء العشرة، وكان رويس من أحذق أصحاب يعقوب، توفي بالبصرة سنة (٢٣٨) هـ.

(٧) يعقوب سبقت ترجمته عند الآية «٤» من الفاتحة.

(٨) حمزة هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، مولى عكرمة بن ربيع التيمي وكان حمزة ورعاً عالماً بكتاب الله مجوداً له، عارفاً بالفرائض والعربية، حافظاً للحديث، وهو أحد القراء السبعة، توفي بحلول مصر عام (١٥٦) هـ.

(٩) الثابت في الإمام، أي المصحف الإمام وهو مصحف عثمان - رضي الله عنه -.

(١٠) ولعل الأظهر أنهم المذكورون في قوله تعالى «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء»

يستلذها الإنسان فأطلقت لما يستلذه من النعمة وهي اللين، ونعم الله وإن كانت لا تحصى كما قال: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(١) تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.

والأول قسمان: وَهَبِيَّ وَكَسْبِي، والوهبي قسمان: رُوحاني كنفع الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى كالفهم والفكر والنظر، وجسماني كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء، والكسبي: تزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والمَلَكَاتِ الفاضلة. وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والمال.

والثاني: أن يغفر له ما قَرَّطَ منه ويرضى عنه ويؤثقه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أبداً الأبدية. والمراد هو القسم الأخير وما يكون وُضلةً إلى ثبته من الآخرة فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بدل من الذين، على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال، أو صفة له مبيّنة أو مُقَيِّدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة - وهي نعمة الإيمان - وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنما يصح بأحد تأويلين^(٢): إجراء الموصول مجرى النكرة إذا لم يُقَصَّد به معهود كالمُحَلَّى في قوله:

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّيْمِ يَسْتُبْنِي

وقولهم: إني لأمرُّ على الرجل مثلك فيكرمني. أو جَعَلْ (غير) معرفةً بالإضافة، لأنه أُضِيفَ إلى ماله ضدَّ واحدٍ وهو المنعم عليهم، فيتعين تعيين الحركة من غير السكون.

وعن ابن كثير نَصُّهُ على الحال من الضمير المجرور، والعاملُ أُنعمت أو بإضمار أعني أو بالاستثناء إن فسر النعم بما يعم القبيلين. والغضب: ثَوْرَانُ النفس إرادة الانتقام، فإذا أُسْنِدَ إلى الله تعالى أُريد به المنتهى والغاية على ما مر^(٣). وعليهم في محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل بخلاف الأول. ولا مزيدة لتأكيد ما في (غير) مِنْ معنى النفي^(٤)، فكأنه قال: لا المغضوب عليهم ولا الضالين،

والصالحين» النساء ٦٩ فالقرآن يفسر بعضه بعضاً.

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) أي يصح اعتبار (غير) صفة للذين، والاسم الموصول معرفة، و(غير) لا يتعرف بالإضافة بأحد اعتبارين: الأول: إجراء الاسم الموصول مجرى النكرة لأنه لم يُقَصَّد به معهود أو أن (غير) جاز اعتباره معرفة لوقوعه بين متضادين وهما معرفتان فجاز تعريفه بالإضافة (انظر توضيح ذلك في تفسير النسفي ٨/١).

(٣) أي يراد به الانتقام دون غيره من ثوران النفس لأنه لا يجوز على الله تعالى.

(٤) يذهب البياضوي إلى القول بأن «لا» في قوله: «ولا الضالين» مزيدة، وقد جيء بها لتأكيد معنى النفي في (غير) عند قوله «غير المغضوب عليهم» - الفاتحة -.

و(لا) عند البصريين زائدة تفيد التوكيد، وعند الكوفيين بمعنى غير (النسفي ٨/١) وهذا يتطلب منا وقفة عند هذه القضية، وهي

قضية الزوائد في كتاب الله تعالى^(١)

ظهرت قضية الزوائد بعد وجود المذاهب النحوية وبعد أن كثر التراشق والنشاد المذهبي بين الكوفيين =

ولذلك جاز أنا زيدا غير ضارب، كما جاز أنا زيدا لا ضارب، وإن امتنع أنا زيدا مثل ضارب. وقرىء وغير الضالين. والضلال: العدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأ، وله عرض عريض والتفاوت ما بين أدناه وأقصاه كثير.

قيل: الم غضوب عليهم اليهود لقوله تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾^(١)، والضالين: النصارى لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾^(٢)، وقد روي مرفوعاً. ويتجه أن يُقال:

الم غضوب عليهم العصاة والضالين الجاهلون بالله^(٣)، لأن المنعم عليه من وُفق للجمع بين معرفة

والبصريين... إلا أن علماء التفسير الذين لم تهيمن عليهم المذاهب النحوية وقفوا من قضية الزيادة موقفاً صريحاً وشددوا النكير على القائلين بالزيادة.

فابن جرير الطبري لا يترك فرصة تسمح له إلا وبينه على خطر هذا القول وبطلانه فعند قوله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة - البقرة (٣٠) - يرد على من قال بزيادة «إذ» وعند قوله تعالى: «فقليلاً ما يؤمنون» - البقرة (٨٨) - يرد على من قال بزيادة «ما».

وكذلك فعل الزمخشري حينما رد القول بزيادة «لا» عند قوله تعالى: «لا أقسم بيوم القيامة» - القيامة (١) - وإن كان يقول بالزيادة في بعض الأحيان.

وفي العصر الحديث وجد من حمل لواء الرد على القائلين بالزيادة في كتاب الله تعالى، فهذا محمد عبده يرد القول بالزيادة عند قوله تعالى: «فقليلاً ما يؤمنون» - البقرة (٨٨) - يرد على من قال بزيادة «ما»... وهذا مصطفى صادق الرافعي يعرض لقضية الزوائد في كتابه «إعجاز القرآن» ويخلص إلى القول بأن ما يسمى زائداً من حيث الإعراب له من جمال الإيقاع. وروعة النظم والزيادة في المعنى ما لا يتم حسن الكلام ورواق اللفظ إلا به^(٤). وهذا الشيخ محمد عبدالله دراز ينافح بكل حجة وبرهان مثبتاً أن كل حرف في كتاب الله إنما جاء لهدف راداً القول بالزيادة^(٥).

وهكذا وقف كثير من العلماء من قضية الزوائد موقف المعارض، مبينين أن كل حرف أو كلمة أو نحو ذلك إنما جاء لمعنى ولا تتم حقيقة المعنى إلا به.

لكنّ البيضاوي رغم قوله بالزيادة وتكراره لها في كثير من المواطن لا يقصد منها أنها لا قيمة لها بل جيء بها لتفيد التوكيد فقال: (ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدىً وبيان، بل ما لم يوضع لمعنى يراد منه، وإنما وضعت لأن تذكر مع غيرها فتفيد له وثاقة وقوة، وهو زيادة مع الهدى غير قاذح فيه)^(٦).

(١) المائدة: (٦٠).

(٢) المائدة: (٧٧).

(٣) لم يلتزم البيضاوي بما ورد من أحاديث في تعيين الم غضوب عليهم والضالين، وأورد تعيين الم غضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى بلفظ قيل المنبئ بضعفه، لكنه ورد ذلك مرفوعاً ويحدث حسن أو صحيح عند أحمد (٣٧٨/٤) والترمذي وحسنه (٢٩٥٤) وابن حبان في صحيحه (١٧١٥) ص ٤٢٤ من موارد الظمان. وقد أورد ابن كثير روايات كثيرة في ذلك (تفسير ابن كثير ٢٨/١) حتى ورد عن ابن أبي حاتم قوله: (لا أعلم فيه خلافاً بين المفسرين) روح المعاني (٩٦/١).

(١) هذا بحث مختصر من بحث مخطوط بعنوان «قضية الزوائد في كتاب الله» لفضل حسن عباس.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي ص ٢٣١، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص ١٣٣، الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، دار القلم، الكويت.

(٤) تفسير البيضاوي (٧٤/١).

الحق لذاته والخير للعمل به، وكان المقابل له من اختل إحدى قوتيهِ العاقلة والعاملة، والمخلُّ بالعمل فاسقٌ مغضوب عليه لقوله تعالى في القاتل عمداً: ﴿وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾^(١)، والمخلُّ بالعقل جاهل ضالُّ لقوله: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾^(٢). وقرئ ولا الضالين بالهمزة على لغة من جدَّ في الهرب من التقاء الساكنين.

﴿آمين﴾ اسمُ الفعل الذي هو استَجِبَ. وعن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ عن معناه فقال: افعل^(٣)، بني على الفتح كآين لالتقاء الساكنين، وجاء مدُّ ألفِهِ وقصرُها قال:

ویرحَمُ الله عبداً قال آمینا

وقال:

آمینَ فزادَ الله ما بیننا بُعدا

وليس من القرآن وفاقاً، لكن يُسنَّ ختمُ السورة به لقوله عليه الصلاة والسلام «علمني جبريل آمين عند فراغي من قراءة الفاتحة» وقال: «إنه كالختم على الكتاب»^(٤). وفي معناه قول علي رضي الله

عنه البيضاوي لم يرَ ما ورد من أحاديث مرفوعة، إلا أنه عمم لفظ المغضوب عليهم مستنداً إلى نصوص القرآن الكريم فكان المراد به العصاة، وعمم لفظ الضالين مستنداً لنصوص القرآن الكريم فكان المراد به الجاهلون بالله، ويدخل فيهم دخولاً أولاً اليهود والنصارى فإن أحصى أوصاف اليهود أنهم فقدوا العمل مع علمهم بالحقيقة فاستوجب ذلك غضب الله عليهم، وأحصى أوصاف النصارى أنهم فقدوا العلم فاستوجب ذلك وصفهم بالضلال، وإلا فكل من عدل عن الحق يوصف بالغضب عليه وبالضلال.

(١) النساء: (٩٣).

(٢) يونس: (٣٢).

(٣) وهو حديث ضعيف جداً.

أورده ابن حجر في «الكافي الشاف» (٣/٤ رقم ٧) وقال: «أخرجه الثعلبي من رواية أبي صالح عنه بإسناد واه». قلت: علته «الكلبي» و«أبو صالح».

أما الكلبي: فهو محمد بن السائب بن بشير أبو الكضر الكوفي، نسبة هالكة بالتفسير والأخبار والأيام، مذكور، قال الحافظ: متهم بالكذب، رمي بالرفض.

وقد كفره بعض العلماء لأنه كان يؤمن بالرجعة - رجعة علي رضي الله عنه - وكان يقول: كان جبريل يوحى إلى النبي ﷺ فقام النبي ﷺ لحاجته وجلس علي، فأوحى إلى علي، وكان يقول: أنا سبَّي. مات سنة (١٤٦هـ).

[المجروحين (٢٥٣/٢) وتهذيب التهذيب (١٥٧/٩)]

وأما أبو صالح: فهو باذام - ويقال: باذان - مولى أم هانئ، ضعيف مدلس وقال ابن حبان: كان يحدث عن ابن عباس ولم يسمع منه.

[المجروحين (١٨٥/١) والتقريب (٩٣/١)].

قلت: وساق ابن كثير الحديث في تفسيره (٣٣/١) من رواية جوير، عن الضحاك عنه بلفظ: ما معنى «آمين»؟ قال: رب افعَل. وجوير بن سعيد الأزدي البلخي، نزيل الكوفة راوي التفسير ضعيف جداً. مات بعد (١٤٠هـ) [التقريب (١٣٦/١)].

(٤) وهو حديث ضعيف قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (٣/٤ رقم ٨): لم أجده هكذا. وفي «الدعاء» =

عنه: آمين خاتم رب العالمين، ختم به دعاء عبده. يقوله الإمام ويجهر به في الجهرية لما روي عن وائل بن حجر^(١) «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته»^(٢).

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لا يقوله، والمشهور عنه أنه يُخْفِيهِ كما رواه عبدالله بن مغفل^(٣) وأنس. والمأموم يُؤْمِنُ معه لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»^(٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي «ألا أخبرك بسورة لم يُنَزَّلَ في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها. قال: قلت بلى يا رسول الله. قال: فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ أتاه مَلَكٌ فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أُعْطِيْتَهُ»^(٦).

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن القوم ليعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ فيسمعه الله تعالى

لابن أبي شيبة من رواية أبي مسرة أحد كبار التابعين قال: «قرأ جبريل عليه السلام النبي ﷺ فاتحة الكتاب، فلما قال ولا الضالين قال له قل: آمين فقال: آمين» - قلت: وهو مرسل ضعيف - . وأخرج أبو داود (٥٧٧/١) رقم (٩٣٨) عن أبي زهير النميري، وكان من الصحابة، فيحدث أحسن الحديث فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة» . .

وأخرجه الطبراني في كتاب الدعاء (٨٨٨/٢) رقم (٢١٨) وفي إسناده «صُبِيحُ بْنُ مُخَرَّزٍ الْحَمَصِيُّ» مقبول [التقريب ٣٦٤/١ رقم ٦٨] ولم أقف على متابع له. وقال ابن عبد البر: إسناده ليس بالقائم [عون المعبود: (٢١٥/٣)] وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: «آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين». وأخرجه الطبراني في الدعاء (٨٨٩/٢) رقم (٢١٩) وفي إسناده: المؤمل بن عبد الرحمن، وهو ضعيف [التقريب (٢٩٠/٢)]. وإسماعيل بن يعلى الثقفي، ضعيف جداً [الكامل: (٣٠٩/١ - ٣١١)]. وخلاصة القول إن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) وائل بن حُجْر الحضرمي القحطاني، وفد على النبي عليه السلام فرحب به وبسط له رداءه وأجلسه عليه، وشارك في الفتوح واستقر في الكوفة، وله أحاديث عن النبي ﷺ توفي (٥٠) هـ (الأعلام ١٠٦/٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٧٤/١) رقم ٩٣٣ عنه: أنه صلى خلف رسول الله ﷺ فجهر بآمين... وسنده حسن. وأخرجه الترمذي (٢٧/٢) رقم (٢٤٨) عنه: قال: سمعت النبي ﷺ قرأ: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» فقال: آمين، ومدَّ بها صَوْتُهُ وقال الترمذي: حديث حسن...

وأخرجه ابن ماجه (٢٧٨/١) رقم (٨٥٥) عنه: قال: «صليتُ مع النبي ﷺ فلما قال «ولا الضالين» قال: آمين. فسمعناها» وخلاصة القول إن الحديث حسن والله أعلم.

(٣) عبدالله بن مغفل المزني، صحابي، سكن المدينة، وكان أحد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا الناس بالبصرة، وتوفي فيها عام (٥٧) هـ وقيل غيره، وله (٤٣) ثلاثة وأربعون حديثاً (الأعلام ١٤٠/٤).

(٤) رواه البخاري (٧٨٢، ٤٤٧٥).

(٥) أخرجه الترمذي (١٥٥/٥) رقم (٢٨٧٥) وقال حديث حسن صحيح، وهو كما قال وقد تقدم.

(٦) رواه مسلم (٢٥٤).

فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة^(١).

* * *

(١) وهو حديث موضوع:

أورده ابن حجر في «الكافي الشاف» (٣/٤ رقم ١٢) وقال: أخرجه الثعلبي من رواية أبي معاوية عن أبي مالك الأشجعي عن ربي عنه. قلت: إلا أن دون أبي معاوية من لا يحتج به وله شاهد في «مسند الدارمي» - (٤٣٨/٢) - عن ثابت بن عجلان قال: «كان يقال إنَّ الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم الصبيان بالحكمة صرف ذلك عنهم» يعني بالحكمة: القرآن هـ.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ ٢

وَأَنبَأْنَاهُنَّ ثَمَانِينَ وَفِي مَلِكِنَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

(١) ﴿الْم﴾ وسائر الألفاظ التي يُتهجى بها أسماء، مسمياتها الحروف التي رُكبت منها الكلمة، لدخولها في حدّ الاسم واعتوار ما يُخصّص به من التعريف والتنكير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرح الخليل وأبو علي^(١). وما روى ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف»^(٢).

(١) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو علي الفارسي النحوي، واحد زمانه في علم العربية، أخذ عن الزجاج وابن السراج ومبرمان وطوق بلاد الشام وقال كثير من تلامذته إنه أعلم من المبرد. وبرع من طلبته جماعة كابن جني، وعلي بن عيسى الرّبعي، وكان متهماً بالاعتزال. وسكن طرابلس مدة ثم حلب، واتصل بسيف الدولة. ومصنفاته كثيرة نافعة، عاش تسعاً وثمانين سنة، مات ببغداد وفي ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلاثمئة. [بغية الوعاة - (٤٩٦/١ - ٤٩٨ - رقم ١٠٣٠) - وتاريخ بغداد (٢٧٥/٧ - ٢٧٦)].

(٢) وهو حديث صحيح. أخرجه الترمذي (١٧٥/٥ رقم ٢٩١٠) وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال: يروى هذا الحديث من غير وجه عن ابن مسعود ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود، رفعه بعضهم، ووقفه بعضهم عن ابن مسعود.

وأخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢١٦/١ رقم ٦٧٩) من طريقه عنه ثم قال: لا أدري حفظه أم لا؟. وأخرجه الحاكم في المستدرک (٥٥٥/١، ٥٦٦) من طريقين عن أبي الأحوص عنه مرفوعاً كما أخرجه موقوفاً (٥٦٦/١).

قال في طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص: صحيح الإسناد ولم يخرجاه لصالح بن عمر. وقال الذهبي: صالح ثقة خرج له مسلم. لكن إبراهيم بن مسلم - الهجري - ضعيف.

فالمراد به غيرُ المعنى الذي اصطلح عليه، فإن تخصيصه به عُرِفَ مجدّد بل المعنى اللغوي، ولعله سماه باسم مدلوله.

ولما كانت مسمياتها حروفاً وُحداناً وهي مركبة، صُدّرت بها لتكون تأديتها بالمسمى أول ما يقرع السمع، واستعيرت الهمزة مكان الألف لتعذر الابتداء بها وهي مالم تلها العوامل موقوفة خالية عن الإعراب لفقد موجهه ومقتضيه، لكنها قابلة إياه ومعرضة له إذ لم تناسب مبنى الأصل ولذلك قيل: ﴿صَءٌ﴾ و﴿قَءٌ﴾ مجموعاً فيهما بين الساكنين، ولم تعامل معاملة أئِنَ وهؤلاء. ثم إن مسمياتها لما كانت عنصرَ الكلام وبسائطه التي يتركب منها افتتحت السورة بطائفة منها إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن وتنبهها على أن أصل المتلو عليهم كلامٌ منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم مع تظاهرهم وقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يُدانيه، وليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوع من الإعجاز، فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خطّ ودرس، فأما من الأمي الذي لم يخالط الكتاب فمستبعد مستغرب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة، سيما وقد راعى في ذلك ما يعجز عنه الأديب الأريب الفائق في فنه، وهو أنه أورد في هذا الفواتح أربعة عشر اسماً هي نصفُ أسامي حروف المعجم - إن لم يُعدّ فيها الألف حرفاً برأسها - في تسع وعشرين سورة بعددها إذا عُدّ فيها الألف الأصلية مشتملة على أنصاف أنواعها، فذكر من المهموسة - وهي ما يضعف الاعتماد على مخرجه ويجمعها «ستشحك خصفه» - نصفها: الحاء والهاء والصاد والسين والكاف، ومن البواقي المجهورة نصفها يجمعها «لن يقطع أمر»، ومن الشديدة الثمانية المجموعة في (أجدت طبقك) أربعة يجمعها (أقطك)، ومن البواقي الرخوة عشرة يجمعها «حَمَسَ على نصره» ومن المطبقة التي هي الصاد والضاد والطاء والظاء نصفها، ومن البواقي المفتحة نصفها، ومن القلقة - وهي: حروف تضطرب عند خروجها، ويجمعها (قد طبع) - نصفها الأقل لقلتها، ومن اللبّتين الياء لأنها أقل ثقلًا، ومن المستغلية - وهي: التي يتصعد الصوت بها في الحنك الأعلى، وهي سبعة القاف والصاد والطاء والحاء والغين والضاد والطاء - نصفها الأقل، ومن البواقي المنخفضة نصفها، ومن حروف البدل - وهي أحد عشر على ما ذكره سيويوه^(١)، واختاره ابن جني^(٢) ويجمعها «أحد طويت» - منها الستة

= وقال في طريق عاصم بن أبي النّجود عنه: صحيح الإسناد، وسكت الذهبي عنه.

وأخرجه الدارمي (٤٢٩/٢) من طريق أبي الأحوص عنه موقوفاً عليه. ووصله الخطيب في تاريخ بغداد (٢٨٥/١) بهذا الطريق وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٧٩ رقم ٨٠٨) من طريق شريك عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه موقوفاً عليه.

وشريك سيء الحفظ، وأورد الألباني الحديث في «الصحيحة» رقم (٦٦٠) وصححه في تخريج «المشكاة» (٢١٣٧/١).

(١) سيويوه هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز عام (١٤٨هـ) وقدم البصرة ولزم الخليل بن أحمد ففاقه، ورحل إلى بغداد وناظر الكسائي، وتوفي بالأهواز عام (١٨٠هـ) (الأعلام ٨١/٥).

(٢) هو عثمان بن جني أبو الفتح النحوي.

من أحق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف. قال في دمية القصر: وليس لأحد من أئمة الأدب في فتح =

الشائعة المشهورة التي يجمعها «أهطمين» وقد زاد بعضهم سبعة أخرى وهي اللام في (أصيلال) والصاد والزاي في (صراط وزراط) والفاء في (أجداف) والعين في (أعن) والثاء في (ثروغ الدلو) والباء في «باسمك» حتى صارت ثمانية عشر، وقد ذَكَرَ منها تسعة: الستة المذكورة واللام والصاد والعين. ومما يُدْغَم في مثله ولا يدغم في المقارب - وهي خمسة عشر: الهمزة والهاء والعين والصاد والطاء والميم والياء والخاء والغين والضاد والفاء والظاء والشين والزاي والواو - نصفها الأقل. ومما يدغم فيهما - وهي الثلاثة عشر الباقية - نصفها الأكثر: الحاء والقاف والكاف والراء والسين واللام والنون، لِمَا في الإدغام من الخِفَّةِ والفصاحة، ومن الأربعة التي لا تُدْغَمُ فيما يقاربها ويُدْغَمُ فيها مُقَارِبُهَا - وهي: الميم والزاي والسين والفاء - نصفها.

ولما كانت الحروفُ الدَّلَقِيَّةُ التي يُعْتَمَدُ عليها. بِذَلْقِ اللسان - وهي ستة يجمعها (رب مُنْفَل) - وَالْحَلْفِيَّةُ التي هي الحاء والخاء والعين والغين والهاء والهمزة كثيرة الوقوع في الكلام ذكر ثلثيهما. ولما كانت أبنية المزيد لا تتجاوز عن السباعية ذكر من الزوائد العشرة التي يجمعها (اليوم تنساه) سبعة أحرف منها تنبيهاً على ذلك، ولو استقرتِ الكَلِمَ وتراكيبها وجدت الحروف المتروكة من كل جنس مَكْثُورَةً بالمذكورة، ثم إنه ذكرها مفردةً وثنائيةً وثلاثيةً ورباعيةً وخماسيةً إيداناً بأن المتحدى به مُرْكَبٌ من كلماتهم التي أصولها كلمات مفردة، ومركبة من حرفين فصاعداً إلى الخمسة، وذَكَرَ ثلاث مفردات في ثلاث سور لأنها توجد في الأقسام الثلاثة: الاسم والفعل والحرف، وأربع ثنائيات لأنها تكون في الحرف بلا حذف كـ «بل»، وفي الفعل بحذف ثقل كـ «قل» وفي الاسم بغير حذف كـ «من»، وبه كـ «دم» في تسع سرر لوقوعها في كل واحد من الأقسام الثلاثة على ثلاثة أوجه: ففي الأسماء من وإذا وذو، وفي الأفعال قل وبع وخف، وفي الحروف من وإن ومُدْ - على لغة من جَرَّبَهَا - وثلاث ثنائيات لمجيئها في الأقسام الثلاثة في ثلاث عشرة سورة تنبيهاً على أن أصول الأبنية المستعملة ثلاثة عشر عَشْرَةً منها للأسماء وثلاثة للأفعال ورباعيتين وخماسيتين تنبيهاً على أن لكل منهما أصلاً، كجعفر وسفرجل، ومُلْحَقاً: كقِرْدَدٍ وَجَحْنَقَلٍ، ولعلها فُرِّقَت على السور ولم تعد بأجمعها في أول القرآن لهذه الفائدة مع ما فيه من إعادة التحدي وتكرير التنبيه والمبالغة فيه.

والمعنى: أن هذا المتحدى به مؤلف من جنس هذه الحروف، أو المؤلف منها، كذا وقيل: هي أسماء للسور، وعليه إطباق الأكثر، سُمِّيَتْ بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب، فلو لم تكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضتها. واستدِلَّ عليه بأنها لو لم تكن مُفْهِمَةً كان الخطابُ بها كالخطاب بالمهمل والتكلم بالزنجي مع العربي، ولم يكن القرآن بأسره بياناً وهدى، ولما أمكن التحدي به. وإن كانت مُفْهِمَةً، فإما أن يُرَادَ بها السور التي هي مستهلها على أنها ألقابها أو

= المقفلات، وشرح المشكلات ماله، سيما في علم الإعراب.

صنف: الخصائص في النحو، سر الصناعة، شرح تعريف المازني، شرح مستغلق الحماسة، شرح المقصور والممدود، شرحان على ديوان المتنبي، اللع في النحو، وغير ذلك.

مولده قبل الثلاثين وثلاثمائة، ومات لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. [بغية الوعاة (٢/١٣٢) رقم (١٦٢٥)].

غير ذلك، والثاني باطل، لأنه إما أن يكون المراد ما وضعت له في آية العرب فظاهراً أنه ليس كذلك، أو غيره، وهو باطل، لأن القرآن نزل على لغتهم لقوله تعالى: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(١) فلا يُحْمَلُ على ما ليس في لغتهم.

لا يقال: لم لا يجوز أن تكون مزيدة للتنبيه والدلالة على انقطاع كلام واستئناف آخر - كما قاله قطرب؟ - أو إشارة إلى كلمات هي منها اقتضرت عليها اقتصار الشاعر في قوله:

قَلْتُ لَهَا قَفِي فَقَالَتْ قَافٌ

كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: الألف آلاء الله واللام لفظه والميم مُلْكُهُ، وعنه أن الراء وحَمَّ وَنَّ مجموعها الرحمن، وعنه أن ألم معناه: أنا الله أعلم، ونحو ذلك في سائر الفواتح، وعنه أن الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد، أي: القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام. أو^(٢) إلى مُدَدِ أقوام وآجالٍ بحساب الجُمَّل، كما قال أبو العالية^(٣) متمسكاً بما روى: «أنه عليه الصلاة والسلام لَمَّا أَنَاهُ الْيَهُودُ ثَلَا عَلَيْهِمُ أَلَمُ الْبَقْرَةِ. فَحَسَبُوهُ وَقَالُوا: كَيْفَ نَدْخُلُ فِي دِينٍ مُدَّتَهُ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالُوا: فَهَلْ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: الْمَصَّ وَالزَّرَّ وَالْمَرَّ. فَقَالُوا: خَلَطْتَ عَلَيْنَا فَلَا نَدْرِي بِأَيِّهَا نَأْخُذُ»^(٤). فَإِنَّ تِلَاوَتَهُ إِيَّاهَا بِهَذَا التَّرْتِيبِ عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيرُهُمْ عَلَى اسْتِنْبَاطِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ. وهذه الدلالة وإن لم تكن عربية لكنها لاشتهارها فيما بين الناس حتى العرب تُلْحِقُهَا بِالْمُعْرَبَاتِ كَالْمَشْكَاةِ وَالسَّجِيلِ وَالْقَسْطَاسِ، أو دلالة على الحروف المبسوطة مُقَسِّمًا بِهَا لِشَرْفِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا بَسَائِطُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَادَّةُ خُطَابِهِ.

هذا وإن القول بأنها أسماء السور يخرجها إلى ما ليس في لغة العرب، لأن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستكره عندهم ويؤدي إلى اتحاد الاسم والمسمى، ويستدعي تأخر الجزء عن الكل من حيث إن الاسم متأخر عن المسمى بالرتبة، لأننا نقول: إن هذه الألفاظ لم تُعْهَدْ مَزِيدَةً لِلتَّنْبِيهِ وَالذَّلَالَةِ عَلَى الانْقِطَاعِ، والاستئناف يلزمها وغيرها من حيث إنها فواتح السور، ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لها معنى في حيزها ولم تستعمل للاختصار من كلمات معينة في لغتهم، أما الشعرُ فشاذ، وأما قول ابن عباس فتنبية على أن هذه الحروف منبع الأسماء ومبادئ الخطاب وتمثيل بأمثلة حسنة، ألا ترى أنه عدَّ كل حرف من كلمات متباينة لا تفسير، وتخصيص بهذه المعاني دون غيرها إذ لا مخصص لفظاً ومعنى ولا بحساب الجُمَّل فتلحق بالمُعْرَبَاتِ، والحديث لا دليل فيه، لجواز أنه عليه الصلاة والسلام تبسم تعجباً من جهلهم، وجعلها مُقَسِّمًا بِهَا وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَمْتَنِعٍ لَكِنَّهُ يُخَوِّجُ إِلَى إِضْمَارِ أَشْيَاءَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا، والتسمية بثلاثة أسماء إنما تمتنع إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً على طريقة بَغْلَبَكْ فأمَّا إذا

(١) الشعراء: (١٩٥).

(٢) عطف على قوله (إشارة إلى كلمات...).

(٣) أبو العالية هو: رفيع بن مهران الرياحي البصري، من كبار التابعين، ثقة، كثير الإرسال في رواية الأحاديث، توفي (١٠٦) هـ. انظر تقريب التهذيب (١/٢٥٢).

(٤) رواه البخاري في تاريخه (٢/٢٠٨) في ترجمة جابر بن عبد الله بن رثاب، ورواه ابن جرير (١/٩٢ - ٩٣) من طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وإسناده ضعيف لضعف الكلبي.

نُثِرَتْ نثرُ أسماء العدد فلا، وناهيك بتسوية سبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وطائفة من أسماء حروف المعجم، والمسمى هو مجموع السورة والاسمُ جزؤها فلا اتحاد، وهو مقدّم من حيث ذاته مؤخر باعتبار كونه اسماً، فلا دور لاختلاف الجهتين. والوجه الأول^(١) أقرب إلى التحقيق وأوفق للطائفة التنزيل وأسلم من لزوم النقل ووقوع الاشتراك في الأغلام من واضح واحد فإنه يعود بالنقض على ما هو مقصود بالعلمية. وقيل: إنها أسماء القرآن ولذلك أُخبر عنها بالكتاب والقرآن.

وقيل: إنها أسماء الله تعالى، ويدل عليه أن علياً كرم الله وجهه كان يقول: يا كهيعص، ويا حمعسق، ولعله أراد يا منزلهما.

وقيل الألف: من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام: من طرف اللسان وهو أوسطها، والميم: من الشفة وهو آخرها جمع بينها إيماء إلى أن العبد ينبغي أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى.

وقيل: إنه سرٌّ استأثره الله بعلمه وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلمهم أرادوا أنها أسرارٌ بينَ الله تعالى ورسوله ورموزٌ لم يُقصد بها إفهام غيره إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد. فإن جعلتها أسماء الله تعالى أو القرآن أو السور كان لها حظٌّ من الإعراب إما الرفع على الابتداء، أو الخبر، أو النصب بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن بالنصب أو غيره كما دُكر، أو الجزئ على إضمار حرف القسم، ويتأتى الإعراب لفظاً والحكاية فيما كانت مفردة أو موازنة لمفرد كحم فإنها كهليل، والحكاية ليست إلا فيما عدا ذلك، وسيعود إليك ذكره مفصلاً إن شاء الله تعالى، وإن أبقيتها على معانيها فإن قُدِّرَتْ بالمؤلف من هذه الحروف كان في حيز الرفع بالابتداء أو الخبر على ما مر، وإن جعلتها مُقسماً بها يكون كل كلمة منها منصوباً أو مجروراً على اللغتين في الله لأفعلن، وتكون جملة قسمة بالفعل المقدّر له، وإن جعلتها أبعاض كلمات أو أصواتاً مُترلة مُترلة حروف التنبيه لم يكن لها محلٌّ من الإعراب كالجمل المبتدأة والمفردات المعدودة ويوقف عليها وَفَقَ التمام إذا قُدِّرَتْ بحيث لا تحتاج إلى ما بعدها، وليس شيء منها آية عند غير الكوفيين. وأما عندهم فالهم في مواضعها، والمصّ وكهيعص وطه وطسم وطسّ ويسّ وحمّ آية، وحمعسق آيتان، والبواقي ليست

(١) وهو أن هذه الحروف افتتحت بها السورة إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن، وتنبيهاً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن الإتيان بما يدانيه.

ولعل هذا القول هو أكثر الآراء شيوعاً بين المفسرين. ولا شك أن في ذلك سرّاً من أسرار علم الكتاب، ولم يرد في تفسير ذلك شيء عن رسول الله ﷺ يمكن الاعتماد عليه. وقد ناقش الشوكاني الآراء المذكورة في ذلك وخلص إلى القول بأن الأسلم أن لا يتكلم فيه المرء بشيء، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا. (فتح القدير ٣٢/١).

ويذهب الألوسي - بعد استعراض الأقوال في ذلك - إلى أن ذلك علم مستور وسر محجوب عجزت العلماء عن إدراكه... ثم يبين الفائدة في ذلك فيقول: (إن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقفه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود منه - مع القطع بأن المتكلم به حكيم - فإنه يبقى قلبه منقلباً إليه أبداً ومتلفتاً نحوه سرمداً...) (روح المعاني ١٠١/١).

بآيات، وهذا توقيفٌ لا مجال للقياس فيه.

(٢) ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ذلك إشارة إلى آلم إن أوّل بالمؤلف من هذه الحروف أو فُسر بالسورة أو القرآن، فإنه لما تُكلّم به وتَقَضَى أو وصل من المرسل إلى المرسل إليه صار متباعداً أشير إليه بما يُشار به إلى البعيد^(١)، وتذكيره - متى أريد بآلم السورة - لتذكير الكتاب فإنه خبره أو صفته الذي هو هو، أو إلى الكتاب فيكون صفته، والمرادُ به الكتابُ الموعود إنزاله بنحو قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَلَاثًا﴾^(٢)، أو في الكتب المتقدمة. وهو مصدر سمي به المفعول للمبالغة.

وقيل فعال بمعنى المفعول كاللباس، ثم أطلق على المنظوم عبارة قبل أن يُكتب لأنه مما يكتب. وأصل الكتُب الجمعُ ومنه الكتيبة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معناه: أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتابُ العاقلُ بعد النظر الصحيح في كونه وحياً بالغاً حد الإعجاز لا أن أحداً لا يرتاب فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾^(٣) الآية. فإنه ما أبعد عنهم الرَيْبَ بل عَرَفَهُم الطريق المُرِيحَ له، وهو أن يجتهدوا في معارضة نجم من نُجومه^(٤) ويبدّلوا فيها غاية جَهدهم حتى إذا عجزوا عنها تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

وقيل: معناه لا ريب فيه للمتقين. وهديّ حال من الضمير المجرور، والعاملُ فيه الظرفُ الواقع صفةً للمنفق. والرَيْبُ في الأصل مصدر رَابَى الشيء إذا حصل فيك الريبة، وهي قلقُ النفس واضطرابها، سُمّي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة. وفي الحديث «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة^(٥) ومنه رَيْبُ الزمان لنوائبه.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يهديهم إلى الحق. والهدى في الأصل كالشّرى والتقى ومعناه الدلالة.

وقيل: الدلالة الموصلة إلى البُغية لأنه جُعل مقابل الضلالة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ

(١) أشير إلى الكتاب باسم الإشارة البعيد «ذلك» بسبب علوّ شأنه وكونه في الغاية القصوى من الفضل والشرف، فالبعد فيه بُغْدٌ معنوي وليس مكانياً. وسماه كتاباً لأن مآله الكتابة. ويراد به جميع القرآن وإن لم يتم نزوله، إما باعتبار تحققه في علم الله عز وجل، أو باعتبار ثبوته في اللوح المحفوظ أو باعتبار نزوله جملةً للسماء الدنيا. (أبو السعود ٢٣/١).

(٢) المزمّل: ٥٥.

(٣) البقرة: ٢٣١.

(٤) أي جزء من أجزائه.

(٥) وهو حديث صحيح:

أخرجه الحاكم (١٣/٢) والطبراني في الكبير (٧٥/٣)، ٧٦ رقم ٢٧٠٨، ٢٧١١) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٢/٥) رقم ٥٧٤٧ وأبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٨) والترمذي (٦٦٨/٤) رقم ٢٥١٨ والنسائي (٣٢٧/٨) - ٣٢٨ رقم ٥٧١١ والطيالسي (ص ١٦٣ رقم ١١٧٨) وأحمد (٢٠٠/١). قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وهو كما قال، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٥٥/٧) - ١٥٦ رقم ٢٠٧٤.

مُتَّبِعٌ^(١) ولأنه لا يقال مَهْدِيٌّ إلا لمن اهتدى إلى المطلوب. واختصاصه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمتفعون بنصه وإن كانت دلالته عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّكَاسِ﴾^(٢)، أو لأنه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صَقَلَ العقل واستعمله في تدبر الآيات والنظر في المعجزات وتَعَرَّفَ النبوات، لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعاً ما لم تكن الصحة حاصلة، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٣). ولا يقدر ما فيه من المجمل والمتشابه في كونه هدى لما لم ينفك عن بيانٍ يعيِّنُ المراد منه.

والمتقي: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية: فُزْط الصيانة. وهو في عرف الشرع اسم لمن بقي نفسه مما يضره في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةً﴾^(٤) التَّقْوَى.

والثانية: التجنب عن كل ما يؤثم، من فعل أو ترك، حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع، وهو المعنى بقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا﴾^(٥).

والثالثة: أن يتزهد عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشرٍّ أشْرَه، وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(٦) وقد فُسِّرَ قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ههنا على الأوجه الثلاثة^(٧).

واعلم أن الآية تحتمل أوجهاً من الإعراب: أن يكون ألم مبتدأ على أنه اسم للقرآن أو السورة أو مُقَدَّرٌ بالمؤلف منها، وذلك خيره - وإن كان أخص من المؤلف مطلقاً -، والأصل أن الأخص لا يُحْمَلُ على الأعم لأن المراد به المؤلف الكامل في تأليفه البالغ أقصى درجات الفصاحة ومراتب البلاغة، والكتاب صفة ذلك.

وأن يكون ألم خبرٌ مبتدأ محذوف وذلك خبراً ثانياً، أو بدلاً والكتاب صفتُه. ولا ريب في المشهورة مبنية، لتضمنه معنى مِنْ، منصوب المحل على أنه اسم لا النافية للجنس العاملة عمل إن،

(١) سبأ: (٢٤).

(٢) البقرة: (١٨٥).

(٣) الإسراء: (٨٢).

(٤) الفتح: (٢٦).

(٥) الأعراف: (٩٦).

(٦) آل عمران: (١٠٢).

(٧) وحقيقة التقوى هي تجنب الشبهات، وهو الوزع، فيبتعد عن كثير من الحلال خشية الوقوع في الحرام، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس». رواه الترمذي (٢٤٥١) وقال: حديث غريب. وله شواهد.

لأنها تقتضيها لازمة للأسماء لزومها. وفي قراءة أبي الشعثاء^(١) مرفوعٌ بلا التي بمعنى ليس، وفيه خبره، ولم يُقدِّم كما قُدِّم في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾^(٢) لأنه لم يقصد تخصيص نفي الريب به من بين سائر الكتب كما قصد ثمة^(٣)، أو صفته وللمتقين خبره. وهدى نُصِبَ على الحال، أو الخبر محذوفٌ كما في لا ضير. فلذلك وقف على لا ريب، على أن فيه خبر هدى قُدِّم عليه لتكثيره، والتقدير: لا ريب فيه، فيه هدى، وأن يكون ذلك مبتدأ والكتاب خبره على معنى: أنه الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يُسمى كتاباً، أو صفته وما بعده خبره والجملة خبرُ ألم.

والأولى أن يُقال: إنها جُمِلَ متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم يُدْخِلَ العاطفَ بينهما، فالجملة دلت على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يُرْكَبُونَ منه كلامهم، وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدي، ولا ريب فيه جملة ثالثة تُشْهَد على كماله بأن الكتاب المنعوت بغاية الكمال، إذ لا كمال أعلى مما للحق واليقين، وهدى للمتقين بما يُقدَّر له مبتدأ جملة رابعة تؤكد كونه حقاً لا يحوم الشك حوله بأنه هدى للمتقين؛ أو تُسْتَتِيع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول، وبيانه أنه لما نَبَّه أولاً على إعجاز المتحدى به من حيث إنه من جنس كلامهم وقد عَجَزُوا عن معارضته استنتج منه أنه الكتاب البالغ حدَّ الكمال واستلزم ذلك أن لا يتشبث الريب بأطرافه إذ لا أنقص مما يعتريه الشك والشبهة، وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين. وفي كل واحدة منها نكتة ذات جزالة، ففي الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل، وفي الثانية فخامة التعريف، وفي الثالثة تأخير الظرف حذراً عن إيهام الباطل، وفي الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر للمبالغة. وإيراده منكراً للتعظيم. وتخصيص الهدى بالمتقين باعتبار الغاية وتسمية المشارف للتقوى متقياً إيجازاً وتفخيماً لشأنه.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة مقيدة له - إن فسر التقوى بترك ما لا ينبغي - مترتبة عليه ترتب التخليّة على التخليّة والتصوير على التصقيل، أو موضحة - إن فُسِّر بما يعم فعل الحسنات وترك السيئات - لاشتماله على ما هو أصل الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتعبة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالباً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٤). وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين» و«الزكاة قطرة الإسلام»^(٥). أو

(١) أبو الشعثاء لم أجده.

(٢) الصافات: «٤٧».

(٣) بمعنى أنه لم يقصد نفي الريب عن الكتاب وإثباته لبقية الكتب، أي أنه اختص من بين الكتب ومنها السماوية بأنه لا ريب فيه، وقد ارتاب فيه منافقون ونحوهم، ولهذا قدم الريب وآخر الظرف لأنه لم يقصد التخصيص. ويريد القول: بأنه لا يحق لأحد أن يرتاب فيه.

أما في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ - الصافات «٤٧» - فقد قصد التخصيص أي أن خمر الآخرة يخالف خمر الدنيا، بحيث أن خمر الدنيا يُذهب العقل أما خمر الآخرة فخصه بأنه لا يذهب العقل، ولذلك قدم الظرف (فيها) في هذا الموطن.

(٤) العنكبوت: «٤٥».

(٥) قوله عليه السلام «الصلاة عماد الدين. والزكاة قطرة الإسلام» يوهم أن ذلك حديث واحد، وليس كذلك، بل =

مسوقةٌ للمدح بما تضمنه المتقين. وتخصيصُ الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر إظهاراً لفضلها على سائر ما يدخل تحت اسم التقوى. أو على أنه مدح منصوب، أو مرفوع بتقدير أعني أو هم الذين. وإما مفصولٌ عنه مرفوع بالابتداء وخبره أولئك على هدى، فيكون الوقفُ على المتقين تاماً.

هما حديثان:

الأول: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩/٣ رقم ٢٨٠٧) عن عمر قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله أي شيء أحبُّ عند الله في الإسلام. قال: «الصلاة لوقتها ومن ترك الصلاة فلا دين له، والصلاة عماد الدين». قال أبو عبد الله - أي الحاكم - عكرمة لم يسمع من عمر، وأظنه أراد عن ابن عمر - يعني رواه عن ابن عمر فإنه لقيه وسمع منه -.

انظر «المراسيل» لابن أبي حاتم: ص ١٥٨ رقم ٥٨٦.

فالحديث ضعيف. وقد رمز لضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» ص ٣١٩ رقم ١٥٨٥ وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣/٢٨٦ رقم ٣٥٦٨).

● وله شاهد من حديث علي بن أبي طالب بلفظ «الصلاة عماد الدين والجهاد سنامُ العمل، والزكاة بين ذلك» أخرجه الديلمي في مسند الفردوس والأصبهاني في الترغيب - كما في فيض القدير (٤/٢٤٨) -.

وقال المناوي: فيه الحارث ضعيف جداً، وذَهْلُ ابنُ الصلاح في مشكل الوسيط قال هذا غير صحيح ولا معروف فكأنه لم يظفر به. وهو حديث ضعيف. رمز السيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٥١٨٧) لضعفه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣/٢٨٦ رقم ٣٥٦٧) وانظر «تلخيص الحبير» (١/١٧٣).

● وله شاهد آخر من حديث معاذ بلفظ «رأس هذا الأمر الإسلام، ومن أسلم سَلِمَ، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، لا يناله إلا أفضَلُهُم» أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/٥٥ رقم ٩٦) وفيه «علي بن يزيد الألهاني» متروك الحديث قال النسائي في الضعفاء والمتروكين رقم (٤٥٥).

● وحديث معاذ هذا روي من طرق أخرى بسياق طويل ورد فيه «عمود الصلاة».

أخرجه الترمذي (٥/١١ رقم ٢٦١٦) وابن ماجه (٢/١٣١٤ رقم ٣٩٧٣) وأحمد في المسند (٥/٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٧) وعبد بن حميد، رقم (١١٢) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ١٩٦ و ١٩٧) وهناد في الزهد (رقم: ١٠٩٠، ١٠٩١) والحاكم (٢/٧٦) و(٢/٤١٢ - ٤١٣).

والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٠) والطبراني في الكبير (٢٠/١٤٣، ١٤٤ رقم ٢٩٢ و ٢٩٣ و ٢٩٤) و(٢٠/١٤٧، ١٤٨ رقم ٣٠٤ و ٣٠٥) كلهم من طرق عن معاذ بن جبل، وبعضهم مطولاً، وبعضهم مُقتصرٌ على قوله «رأس هذا الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي والبيهقي.

وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٤٠٣ - ٤٠٤) رقم (٢٩) بضعف الحديث ومال الألباني في الإرواء (رقم: ٤١٣) إلى ضعف الحديث.

(وأما الحديث الثاني): فقد أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي الدرداء. كما في مجمع الزوائد (٦٢/٣) وقال الهيثمي: «رجاله موثقون إلا أن (بقية) مدلس وهو ثقة» وكذلك أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/١٩٥ رقم ٣٣١٠) والقضاعي في مسند الشهاب (١/١٨٣ رقم ٢٧٠) وابن عدي في الكامل (٤/١٤١٧) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٤٩٣ رقم ٨١٤) وقال: لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (٤/٤ رقم ٢١) رواه إسحاق في مسنده من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه به سواء وفيه الضحاك بن حُمره. وهو ضعيف.

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣/٢٠١ رقم ٣١٩١).

والإيمان في اللغة عبارة عن التصديق مأخوذاً من الأمن، كأن المصدق آمن المصدق من التكذيب والمخالفة. وتعديته بالباء لتضمنه معنى الاعتراف. وقد يُطلق بمعنى الوثوق من حيث إن الواثق بالشيء صار ذا أمنٍ منه، ومنه ما أمنتُ أن أجد صحابةً، وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب.

وأما في الشرع: فالتصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء، ومجموع ثلاثة أمور: اعتقاد الحق والإقرار به والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة^(١) والخوارج^(٢) فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق^(٣)، ومن أخل بالإقرار فكافر^(٤)، ومن أخل بالعمل ففاسق وفاقاً، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة. والذي يدل على أنه التصديق وحده: أنه سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾^(٥)، ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٦)، ﴿وَلَمْ تَزِرْ قُلُوبُهُمْ﴾^(٧)، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٨)، وعطف عليه العمل الصالح في مواضع لا تحصى، وقرنه بالمعاصي

(١) المعتزلة: تنفي الصفات عن الله تعالى خوفاً من التشبيه كما يزعمون، ولذا تأولوا جميع الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وأثبتها رسول الله ﷺ ومن ذلك صفة الكلام لله تعالى فجعلوا القرآن الذي هو كلام الله متصلاً بباب العدل الذي هو أحد أصول التوحيد الخمسة عندهم ووجه اتصاله أن القرآن فعل من أفعال الله وباب العدل كلام في أفعاله وعلى هذا فهم يقولون: القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث، ونعرف هذا بأحد طريقتين: (أ) أن يكون واقعاً على وجه لا يصح وقوعه على ذلك الوجه من القادرين بالقدرة كأنه يوجد في حصة أو شجرة أو حجر أو غير ذلك. (ب) أن يخبرنا نبي صادق.

انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٥٢٧ - ٥٣٩) وقد فصل الأشعري كلام المعتزلة في كتابه المقالات (٢٦٧/١) «ولا شك أن هذا مخالف لما عليه سلف الأمة الذين أثبتوا صفات الكمال لله سبحانه وتعالى حسب ما جاء في القرآن والسنة ومن ذلك صفة الكلام فالله يتكلم متى شاء وإذا شاء، وهي من صفات الأفعال، وقد كثر السلف من تأول تلك الصفة على نحو تأويل المعتزلة وغيرهم، وقد حكى بعض تلك الأقوال البخاري في كتابه «خلق أفعال العباد» (ص ٢٩ - ٤٦) تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة والإمام أحمد في كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة» (ص ١٣٠ - ١٣٤) تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة.

(٢) الخوارج: سمو بهذا الاسم، لخروجهم على الإمام علي رضي الله عنه ونزلوا بأرض يقال لها حروراء فسموا بالحرورية وهم الذين يكفرون أصحاب الكباثر ويقولون بأنهم مخلصون في النار. كما يقولون بالخروج على أئمة الجور وأن الإمامة جائزة في غير قريش وهم يكفرون عثمان وعلياً وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، ويعظمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما [الملل والنحل للشهرستاني (١/١١٤ - ١١٥) ومقالات الإسلاميين ص ٨٦].

(٣) يريد بالنفاق نفاق الاعتقاد وهو إبطان الكفر وإظهار الإسلام.

(٤) الإخلال بالإقرار هو: أن ينطق بما يخالف الإيمان، كأن يتلفظ بالكفر ونحوه مع عدم ما يبرره من خوف حقيقي ونحوه «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان».

(٥) المجادلة: «٢٢».

(٦) النحل: «١٠٦».

(٧) المائدة: «٤١».

(٨) الحجرات: «١٤».

فقال تعالى: ﴿وَلَنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا﴾^(١)، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾^(٢)، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾^(٣) مع ما فيه من قلة التغير فإنه أقرب إلى الأصل وهو مُتَعَيِّنُ الإرادة في الآية، إذ المعدى بالباء هو التصديق وفاقاً. ثم اختلف في أن مجرد التصديق بالقلب هل هو كاف - لأنه المقصود - أم لا بد من انضمام الإقرار به للمتمكن منه؟ ولعل الحق هو الثاني، لأنه تعالى ذم المعاند أكثر من ذم الجاهل المقصر، وللمانع أن يجعل الذم للإنكار لا لعدم الإقرار للمتمكن منه^(٤).

والغيب مصدرٌ وُصف به للمبالغة، كالشهادة في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٥) والعرب تسمي المطمئن من الأرض والخمصة التي تلي الكلية غيباً، أو فَعَلَ خَفَفَ كَقِيلَ، والمراد به الخفي الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهية العقل. وهو قسمان: قسم لا دليل عليه وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٦) وقسم نُصِبَ عليه دليل كالصانع وصفاته واليوم الآخر وأحواله وهو المراد به في هذه الآية، هذا إذا جعلته صلة للإيمان وأوقعته موقع المفعول به، وإن جعلته حالاً على تقدير ملتبس بالغيب كان بمعنى الغيبة والخفاء. والمعنى أنهم يؤمنون غائبين عنكم لا كالمناققين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. أو عن المؤمن به لما روي أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية^(٧). وقيل المراد بالغيب: القلب لأنه

(١) الحجرات: «٩».

(٢) البقرة: «١٧٨».

(٣) الأنعام: «٨٢».

(٤) قضية تعريف الإيمان وهل يدخل فيه العمل؟ وهل يكفي مجرد التصديق؟... الأولى أن يكون فيه أن الإيمان في أصله يفيد التصديق، والتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، والقلب هو مقر التصديق وأساس الإيمان، واللسان يصدق ما قر في القلب أو يكذبه فإن ظهر لنا تصديق اللسان أقرنا بذلك، وما كان في القلب فأمره إلى الله لأنه وجده هو الذي يطلع على السرائر، فإن خالف اللسان فتحكم بالظاهر. وكذا تصديق الجوارح فإن صدقت الجوارح الإيمان حكمنا به، وإن وقع من الجوارح ما يناقض الإيمان فتحكم بالظاهر، فمن أهان القرآن حكمنا بكفره.

وهكذا فإن التصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، وعليه فالعمل ليس داخلاً في أصل الإيمان بل دليل عليه ومصدق له، فإن ظهر من العمل ما يناقض الإيمان حكمنا به.

أما هل يكفي مجرد التصديق؟ أقول: مجرد التصديق القلبي كاف عند الله تعالى للنجاة من الخلود في النار وإن لم يعمل بأي عمل صالح بشرط أن لا يظهر منه ما يناقض الإيمان، وغير كاف عند العبد لأن العبد لا يطلع على القلوب إنما يحكم بالظاهر فيحكم على القول والعمل.

(٥) التوبة: «٩٤».

(٦) الأنعام: «٥٩».

(٧) وهو حديث صحيح.

أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٦٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وهو كما قالوا.

مستور، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. فالباء على الأول للتعدي. وعلى الثاني للمصاحبة. وعلى الثالث للآلة.

﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يُعَدِّلُونَ أركانها ويحفظونها من أن يقع زَنِيعٌ في أفعالها من أقام العود إذا قَوَّمَهُ، أو يواظبون عليها من قامت السوق إذا نفقت وأقمَّتها إذا جعلتها نافقة قال:

أقامت غزالةً سوقَ الضَّرَبِ لأهلِ العِراقِ حَولاً قَمِيطاً

فإنه إذا حوِّظ عليها كانت كالنافق الذي يُرَغَّبُ فيه وإذا ضُيِّعت كانت كالكاسد المرغوب عنه، أو يتشمرون لأدائها من غير فتور ولا توانٍ من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جدَّ فيه وتجلَّد، وضدَّه قعد عن الأمر وتقاعد، أو يؤدونها، عبَّرَ عن الأداء بالإقامة لاشتغالها على القيام كما عبَّرَ عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح. والأول أظهر، لأنه أشهرُ وإلى الحقيقة أقربُ وأفيدُ، لتضمُّنه التنبيه على أن الحقيقَ بالمدح مَنْ راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسُّنن وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى، لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولذلك ذَكَرَ في سياق المدح والمقيمين الصلاة وفي معرض الذم فويل للمصلين. والصلاةُ فعلة من صَلَّى إذا دَعَا كالزكاة من زكى، كُتِبَتْ بالواو على لفظ المَفْعَم، وإنما سُمي الفعل المخصوصُ بها لاشتغاله على الدعاء.

وقيل: أصل صَلَّى حَرَكُ الصَّلَوَيْنِ، لأن المصلي يفعله في ركوعه وسجوده، واشتهرُ هذا اللفظ في المعنى الثاني مع عدم اشتغاره في الأول لا يقدح في نقله عنه، وإنما سمي الداعي مُصَلِّياً تشبيهاً له في تخشعه بالراكم الساجد.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرزق في اللغة: الحظ قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(١). والعرف خصصه بتخصيص الشيء بالحيوان للانتفاع به وتمكينه منه.

وأما المعتزلة لما استحالوا على الله تعالى أن يُمَكِّنَ من الحرام لأنه مَنَعَ من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا: الحرامُ ليس برزق، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق ههنا إلى نفسه إيداناً بأنهم ينفقون الحلال المطلق فإن إنفاق الحرام لا يوجب المدح، وذمَّ المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا﴾^(٢). وأصحابنا جعلوا الإسناد للتعظيم والتحريض على الإنفاق، والذمَّ لتحريم ما لم يَحْرَم. واختصاصُ ما رزقناهم بالحلال للقرينة. وتمسَّكوا لشمول الرزقِ له بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث عمرو بن قرة^(٣). «لقد رزقك الله طيباً، فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله»^(٤). وبأنه لو لم يكن رزقاً

(١) الواقعة: «٨٢».

(٢) يونس: «٥٩».

(٣) عمرو بن قرة: لقي النبي ﷺ كما في أسد الغابة (٤/٢٦٢ رقم ٤٠٠٢).

(٤) وهو حديث موضوع.

أخرجه ابن ماجه (٢/٨٧١ رقم ٢٦١٣).

قال البوصيري في «مصابح الزجاجة» (٢/٨٠ رقم ٩٢٧): «هذا إسناد ضعيف بشرين نعيم البصري قال فيه =

لم يكن المتغذي به طولَ عمره مرزوقاً، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(١).

وأنفق الشيء وأنفذه أخوان، ولو استقرت الألفاظ وجدت كل ما فاؤهُ نوؤً وعينه فاءٌ دالاً على معنى الذهاب والخروج^(٢)، والظاهر من هذا الإنفاق صرفُ المال في سبيل الخير من الفرض والنفل. ومن قسره بالزكاة ذَكَرَ أفضل أنواعه والأصل فيه، أو خصصه بها لاقتترانه بما هو شقيقها. وتقديم المفعول للاهتمام به وللمحافظة على رؤوس الآي. وإدخال من التبعية عليه لمنع المكلف عن الإسراف المنهي عنه. ويُحتمل أن يُراد به الإنفاق من جميع المعاون التي آتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنْ عَلِمَ لَا يُقَالُ بِهِ كُتِبَ لَا يُنْفَقُ مِنْهُ»^(٣) وإليه ذهب من قال: ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة يُفيضون.

(٤) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبدالله بن سلام^(٤)

= يحيى بن سعيد القطان كان ركناً من أركان الكذب، وقال أحمد: ترك الناس حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: متروك، وقال النسائي غير ثقة، ويحيى بن العلاء قال فيه أحمد كان يضع الحديث، وقال ابن عدي أحاديثه لا يتابع عليها وكلها غير محفوظة والضعيف على رواياته وحديثه يبين أحاديثه موضوعات.

(١) هود: ٦٦.

(٢) مثل نفذ ونفذ ونفس ونحوه... ولعل هذا في جميع الكلام، فكل كلمة اتفقت في الحرفين الأولين مع غيرها واختلفت في الأخير كانت بمعنى متقارب مثل: اللام والزاي في لزب ولزج ولز و لزيق ولزيم.. فهذه الكلمات تفيد الملازمة واللتصوق.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/١٦٤) - كما في مجمع الزوائد - عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكثر فلا يُنفق) قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وهو ضعيف. وأخرجه أبو خيثمة في «العلم» (رقم: ١٦٢) وابن عبد البر في «الجامع» (١/١٢٢).

● وله شاهد من حديث ابن عمر: وابن عبد البر في «الجامع» (١/١٢٢) وابن عساكر في تاريخه (٦/٢٠٧) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٠٢٣).

● وله شاهد آخر من حديث ابن عباس: أخرجه البيهقي في «المدخل» رقم: (٥٧٨) وابن عبد البر في «الجامع» (١/١٢٢) وفيه موسى بن عبيدة الرّبدي وهو ضعيف.

● وله شاهد ثالث من قول أبي هريرة: أخرجه الخطيب في «إقتضاء العلم العمل» رقم (١٢) وفيه: إبراهيم الهجري ضعيف. ولعله هو الذي رفعه فقد أخرج أحمد (٢/٤٩٩) والبخاري (١/١٠٠) رقم ١٧٦ - كشف الأستار مرفوعاً وقال الهيثمي في المجمع (١/١٨٤): «رجاله مؤثّقون».

● وله شاهد رابع من حديث عبدالله بن مسعود: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/١٨٠) رقم ٢٦٣ وفيه أيضاً إبراهيم الهجري ضعيف.

● وله شاهد خامس من قول سلمان الفارسي: أخرجه أبو خيثمة في العلم رقم (١٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/٣٣٤) والدارمي (١/١٣٨) والبيهقي في «المدخل» رقم (٥٧٦) ورجاله ثقات إلا حصين بن عقبة فهو صدوق والخلاصة أن حديث أبي هريرة المرفوع صحيح. وحديث ابن عمر صحيح وحديث عبدالله بن مسعود حسن والله أعلم.

(٤) عبدالله بن سلام بن الحارث، صحابي، أسلم عند قدوم النبي عليه السلام المدينة، شهد مع عمر فتح بيت =

رضي الله تعالى عنه وأضرابه، معطوفون على الذين يؤمنون بالغيب، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أخصّين تحت أعمّ، إذ المراد بأولئك الذين آمنوا عن شرك وإنكار وبهؤلاء مقابلوهم، فكانت الآيتان تفصيلاً للمتقين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. أو على المتقين وكأنه قال هدى للمتقين عن الشرك والذين آمنوا من أهل الملل. ويحتمل أن يراد بهم الأولون بأعيانهم^(١)، ووسط العاطف كما وسط في قوله:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَأَبْنِ الْهَمَامِ وَلَيْثِ الْكُتَيْبَةِ فِي الْمَزْدَحَمِ

وقوله:

يَا لَهْفَ ذُؤَابَةِ الْحَارِثِ الصَّائِحِ فَالْفَنَامِ فَالْأَيْبِ

على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملةً والآيتين بما يصدق من العبادات البدنية والمالية، وبين الإيمان بما لا طريق إليه عبر السمع. وكرر الموصول تنبيهاً على تغاير القبيلين وتباين السبيلين. أو طائفة منهم وهم مؤمنو أهل الكتاب، ذكرهم مخصصين عن الجملة كذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تعظيماً لشأنهم وترغيباً لأمثالهم.

والإنزال: نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهو إنما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملة لها، ولعل نزول الكتب الإلهية على الرسل بأن يلتفقه الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً، أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به فيبلغه إلى الرسول. والمراد ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن بأسره والشرعة عن آخرها. وإنما عبّر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقياً تغليبا للموجود على مالم يوجد، أو تنزيلاً للمتظر منزلة الواقع، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾^(٢)، فإن الجن لم يسمعوا جميعه ولم يكن الكتاب كله مُنْزَلاً حينئذ. وبما ﴿أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ التوراة والإنجيل وسائر الكتب السابقة، والإيمان بها جملة فرض عَيْن، وبالأول دون الثاني تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض، ولكن على الكفاية. لأن وجوبه على كل أحد يوجب الحرج وفساد المعاش^(٣).

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يوقنون إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى وأن النار لم تمسهم إلا أياماً معدودة، واختلافهم في نعيم الجنة: أهو من جنس نعيم

= المقدس والجابية، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها وأقام بالمدينة إلى أن مات فيها عام (٤٣) هـ (الأعلام ٩٠/٤).

(١) وقد رجح الشوكاني أن هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها. وتوسط العاطف هنا ليس لأجل المغايرة بين الذوات إنما لأجل اختلاف الصفات. (انظر فتح القدير ٣٧/١ وأبو السعود ٣٢/١).

(٢) الأحقاف: ٣٠.

(٣) ورد بناء الفعلين «أنزل» على المفعول أي مبني للمجهول للجري على سنن الكبرياء (أبو السعود ٣٣/١).

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْيَوْمَ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَئِذِ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

الدنيا أو غيره؟ وفي دوامه وانقطاعه، وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على هُم تعريض لمن عداهم من أهل الكتاب، وبأن اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق ولا صادر عن إيقان. واليقين: إتيان العلم بنفي الشك والشبهة عنه نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصف به علم الباري ولا العلوم الضرورية. والآخرة تأنيث الآخر، صفة الدار بدليل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾^(١) فغلبت كالدنيا. وعن نافع^(٢) أنه خففها بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. وقرئ يوقنون بقلب الواو همزة لضم ما قبلها إجراء لها مجرى المضمومة في وُجُوهٍ وَوُقُوتٍ، ونظيره:

لحَبِّ الْمَوْقِدِ إِنِ إِلَىٰ مَوْسَىٰ وَجَعَدَ إِذِ أَضَاءَ هُمَا الْقَوْوَدُ

(٥) ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الجملة في محل الرفع إن جعل أحد الموصولين مفصلاً عن المتقين خبراً له، فكانه لما قيل هدى للمتقين قيل ما بالهم خُصُّوا بذلك؟. فأجيب بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى آخر الآيات. وإلا فاستئناف لا محل لها، فكانه نتيجة الأحكام والصفات المتقدمة، أو جواب سائل قال: ما للموصوفين بهذه الصفات اختصوا بالهدى؟ ونظيره أحسنت إلى زيد صديقك القديم حقيق بالإحسان، فإن اسم الإشارة هنا كإعادة الموصوف بصفاته المذكورة، وهو أبلغ من أن يستأنف بإعادة الاسم وحده لما فيه من بيان المقضي وتلخيصه، فإن ترُبَّ الحكم على الوصف إيذاناً بأنه الموجب له. ومعنى الاستعلاء في ﴿عَلَى هُدًى﴾ تمثيل تمكُّنهم من الهدى واستقرارهم عليه بحالٍ من اعتلى الشيء وركبه، وقد صرحوا به في قولهم: امتطى الجبل وغوى واقتعد غارب الهوى، وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر وإدامة النظر فيما نُصِبَ من الحجج والمواظبة على محاسبة النفس في العمل. وَتُكْرَ هُدًى للتعظيم. فكانه أريد به ضرب لا يبالغ كنهه ولا يقادر قدره، ونظيره قول الهذلي^(٣):

فلا وأبى الطيرُ المربَّةَ بالضَّحَىٰ على خالدٍ لقد وقَّعت على لحم

وأكد تعظيمه بأن الله تعالى مَانِحُهُ والموفق له، وقد أدغمت النون في الراء بغنة وبغير غنة.

(١) القصص: ٨٣.

(٢) نافع هو: أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، أخذ القراءة عن أبي جعفر القاري وعن سبعين من التابعين، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة، وهو أحد القراء السبعة، اشتهر بالرواية عنه ورش وقالون، توفي (١٦٩هـ).

(٣) الهذلي هو سعيد بن مسعود الهذلي، من كبار المغنين من أهل مكة، وكان يُقَرَّح عليه الغناء بالآبيات من الشعر فيضع لها اللحن ارتجالاً ويغنيها توفي (١١٠هـ) (الأعلام ١٠٢/٣).

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ كرر فيه اسم الإشارة تنبيهاً على أنَّ اتصافهم بتلك الصفات يقتضي كلَّ واحدة من الأثرتين وأن كلاً منهما كاف في تمييزهم بها عن غيرهم^(١)، ووُسْطُ العاطفُ لاختلاف مفهوم الجملتين ههنا بخلاف قوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾^(٢)، فإن التسجيل بالغفلة والتشبيه بالبهاائم شيء واحد فكانت الجملة الثانية مقررةً للأولى فلا تناسب العطف. وهم: فضلٌ يَفْصِلُ الخبرَ عن الصفة ويؤكدُ النَّسَبَ ويُفيد اختصاص المسند بالمسند إليه، أو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك. والمفلح بالحاء والجيم: الفائز بالمطلوب، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظُّفر، وهذا التركيب وما يشاركه في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلي يدل على الشَّقِّ والفتح. وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة، أو الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصوصياتهم.

تنبيه: تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله كلُّ أحد من وجوه شتى، وبناء الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز، وتكريره وتعريف الخبر وتوسيط الفضل لإظهار قَدْرهم والترغيب في اقتفاء أثرهم. وقد تشبَّه به الوَعِيدَةُ في خلود الفُسَّاق من أهل القبلة في العذاب^(٣)، ورُدَّ بأن المراد بالمفلحين: الكاملون في الفلاح، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم لا عدم الفلاح له رأساً.

(٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما ذكر خاصَّةَ عباده وخلاصةً أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح عقَّبهم بأضدادهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآيات والنذر. ولم يعطف قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ^(٤) لتباينهما في الغرض، فإن الأولى سقت لذكر الكتاب وبيان شأنه والأخرى مسوقة لشرح تمردهم وانهماكهم في الضلال. و«إِنَّ» من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الأسماء وإعطاء معانيه^(٥)، والمتعدي خاصةً في دخولها على اسمين، ولذلك أعملت عمله الفرعي، وهو نصبُ الجزء الأول ورفع الثاني إيذاناً بأنه فرع في العمل دخيل فيه، وقال الكوفيون: الخبر قبل دخولها كان مرفوعاً بالخبرية، وهي بعدُ باقيةً مقتضية للرفع قضيةً للاستصحاب فلا يرفعه الحرف. وأجيب بأن اقتضاء الخبرية الرفع مشروطٌ بالتجرد لتخلفه عنها في خبر كان، وقد زال بدخولها فتعين إعمالُ الحرف. وفائدتها تأكيدُ النسبة وتحقيقُها، ولذلك يُتَلَقَّى

(١) ويفيد تكرير اسم الإشارة إظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم (أبو السعود ١/٣٤).

(٢) الأعراف: «١٧٩».

(٣) يريد بالوعيدية المعتزلة والخوارج، حيث قالوا بأن تارك الواجب مخلص في العذاب، لأنَّ قَصْرَ جنس الفلاح على الموصوفين يقتضي انتفاء الفلاح عن تارك الواجبات... وقد رُدَّ عليهم بأن المراد بالمفلحين: الكاملون في الفلاح... (انظر روح المعاني ١/١٢٥).

(٤) الانفطار: «١٣».

(٥) الضمير في «معانيه» يعود على الفعل، أي أن «إِنَّ» تعطي معاني الفعل. وكذلك تشبه «إِنَّ» الفعل في دخول نون الوقاية عليها، مثل: إني ولعلني..

بها الْقَسَمُ وَيُصَدَّرُ بها الأجوبة وتُذَكَّرُ في معرض الشك، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (١) ﴿إِنَّمَا كُنَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٢)، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ لِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) قال المبرد (٣): قولك عبدالله قائم إخبار عن قيامه، وإنَّ عبدالله قائم جواب سائل عن قيامه، وإنَّ عبدالله لقائم جواب مُنْكَر لقيامه. وتعريفُ الموصول: إما مُعْهَد والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأخبار اليهود، أو للجنس متناً أولاً من صَمَم على الكفر وغيرهم، فخصَّصَ منهم غيرَ المصريين بما أسند إليه. والكفر لغة: سَتَر النعمة، وأصله الكُفْر - بالفتح - وهو الستر، ومنه قيل للزراع ولليل كافر ولكمَّام الثمرة كافور. وفي الشرع: إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول ﷺ به، وإنما عُدَّ لُبْسُ الغيار وشُدُّ الزنار ونحوهما كفراً لأنها تدلُّ على التكذيب، فإن من صدق الرسول ﷺ لا يجترئ عليها ظاهراً لا أنها كفر في أنفسها.

واحتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي على حدوثه لاستدعائه سابقة المُخْبِر عنه، وأجيب بأنه: مقتضى التعلق وحدثه لا يستلزم حدوث الكلام كما في العلم (٤).

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ خبر إن، وسواء اسم بمعنى الاستواء نُعِتَ به كما نُعِتَ بالمصادر قال الله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ (٥) رُفِعَ بأنه خبر إن وما بعده مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، أو بأنه خبر لما بعده بمعنى: إنذارك وعدمه سيان عليهم، والفعل إنما يُمْتَنَعُ الإخبار عنه إذا أريد به تمام ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمناً على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة، والإسناد إليه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا﴾ (٦) وقوله: ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (٧) وقولهم: تَسْمَعُ بِالْمَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ.

وإنما عُدِلَ ههنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد، وحسُنَ دخول الهمزة وأم عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيده، فإنهما جُرِّدتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء كما جُرِّدت حروف

(١) الكهف: «٨٤».

(٢) الأعراف: «١٠٤».

(٣) المبرد هو محمد بن يزيد الأزدي، إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار، ولد بالبصرة (٢١٠هـ) وتوفي ببغداد (٢٨٦هـ)، واسمه بفتح الراء المشددة عند الأكثر، وبعضهم يكسرها. (الأعلام ٧/ ١٤٤).

(٤) التعبير بلفظ الماضي لا يستدعي حدوثه، وذلك أن الفعل الماضي يدل على زمن ماضٍ وحدث متحقق، والقرآن الكريم قد يستخدم الفعل الماضي ليدل على مجرد تحقق وقوع الحدث دون زمنه، كما في قوله تعالى: «وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا» - سبأ «٣٢» - فغير بالفعل «قال» وهو فعل ماضٍ من حيث إعرابه، ولكن القول المذكور يكون يوم القيامة ولم يحدث بعد.. لذلك قيل فيه بأنه عبر بالفعل الماضي ليدل على تحقق وقوعه. وهو كالعلم من حيث إن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوث العلم وفي قوله تعالى: «إن الذين كفروا» عبر بالماضي ليدل على تحقق الكفر منهم وتمكنه في نفوسهم.

(٥) آل عمران: «٦٤».

(٦) البقرة: «١٣».

(٧) المائدة: «١١٩».

النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة.

والإنذار: التخويف^(١) أريد به التخويف من عذاب الله، وإنما اقتصر عليه دون البشارة لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيراً في النفس من حيث إن دفع الضرر أهم من جلب النفع، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى. وقرئ أنذرتهم بتحقيق الهمزتين وتخفيف الثانية بين بين، وقلبها ملفاً وهو لحن لأن المتحركة لا تُقلب ولأنه يؤدي إلى جمع الساكنين على غير حده، ويتوسط ألف بينهما محققين، ويتوسطها والثانية بين بين، ويحذف الاستفهامية، ويحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها، أو حال مؤكدة، أو بدل عنه، أو خبر إن، والجملة قبلها اعتراض بما هو علّة الحكم.

والآية مما احتج به من جَوَز تكليف ما لا يُطاق، فإنه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالإيمان، فلو آمنوا انقلب خبره كذباً وشمل إيمانهم الإيمان بأنهم لا يؤمنون فيجتمع الضدان. والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيث إن الأحكام لا تستدعي غرضاً سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء، والإخبارُ بوقوع الشيء أو عدمه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره. وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا ينجع إلزام الحجة، وحيازة الرسول فضل الإبلاغ، ولذلك قال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل سواء عليك، كما قال لعبدة الأصنام: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ﴾^(٢). وفي الآية إخبار بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهي من المعجزات.

(٧) ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ تعليل للحكم السابق وبيان لما يقتضيه. والختم الكتم، سمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه لأنه كتم له، والبلوغ آخره نظراً إلى أنه آخر فعل يفعل في إحرازه. والغشاوة: فعالة من غشاه إذا غطاه، بُنيت لما يشتمل على الشيء، كالعصابة والعمامة. ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم، وانهمائهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق، وأسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنها مستوتقة منها بالختم، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنها غطي عليها وحيل بينها وبين الإبصار. وسماء على الاستعارة ختماً وتغشية، أو مثل قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستفناع بها ختماً وتغشية، وقد عبّر عن إحداث هذه الهيئة بالطبع في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾^(٣)، وبالإغفال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ

(١) قال الراغب: الإنذار: إخبار فيه تخويف (المفردات مادة «نذر»).

(٢) الأعراف: «١٩٣».

(٣) النحل: ١٠٨.

ذِكْرَنَا^(١)، وبالإقضاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾^(٢) وهي من حيث إن الممكنات بأسرها مستندة إلى الله تعالى واقعة بقدرته أسندت إليه، ومن حيث إنها مسببة مما اقترفوه بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ كُفْرَهُمْ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾^(٤) وَرَدَّتْ الآية ناعية عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم. واضطربت المعتزلة فيه فذكروا وجوهاً من التأويل:

الأول: أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكّن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم، شبه بالوضف الخلقي المجبول عليه.

الثاني: أن المراد به تمثيل حال قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن. أو قلوب مقدّر ختم الله عليها، ونظيره سال به الوادي إذا هلك وطارت به العنقاء إذا طالت غيبته.

الثالث: أن ذلك في الحقيقة فعل الشيطان أو الكافر، لكن لما كان صدوره عنه بإقداره تعالى إياه أسند إليه إسناد الفعل إلى المسبب.

الرابع: أن أعرافهم لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق طريق إلى تحصيل إيمانهم سوى الإلجاء والقسر، ثم لم يقسّهم إبقاء على غرض التكليف، عبّر عن تركه بالختم فإنه سدّ لإيمانهم. وفيه إشعار على تمادي أمرهم في الغي وتناهي انهماكهم في الضلال والبغي.

الخامس: أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولون مثل: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءَاذِنَا وَقَدْ وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾^(٥) تهكماً واستهزاء بهم كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾^(٦) الآية.

السادس: أن ذلك في الآخرة، وإنما أخبر عنه بالماضي لتحقيقه وتيقن وقوعه ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكَآ وَصُمًا﴾^(٧).

السابع: أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمّة تعرفها الملائكة، فيغضونهم وينفرون عنهم، وعلى هذا المنهاج كلامنا وكلامهم فيما يضاف إلى الله تعالى من طبع وإضلال ونحوهما.

و﴿وَعَلَىٰ سَبْعِهِمْ﴾ معطوف على قلوبهم لقوله تعالى: ﴿وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾^(٨) وللوفاق على الوقف عليه، ولأنهما لما اشتركا في الإدراك من جميع الجوانب جعل ما يمنعهما من خاص فغلبهما الختم الذي يمنعه من جميع الجهات، وإدراك الأبصار لما اختصّ بجهة المقابلة جعل المانع لها عن فعلها

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) المائدة: ١٣.

(٣) النساء: ١٥٥.

(٤) المنافقون: ٣.

(٥) فصلت: ٥.

(٦) البينة: ١.

(٧) الإسراء: ٩٧.

(٨) الجاثية: ٢٣.

الغشاوة المختصة بتلك الجهة. وكرر الجاز ليكون أدل على شدة الختم في الموضعين، واستقلال كل منهما بالحكم. ووَحَّدَ السمع للأمن من اللبس واعتبار الأصل، فإنه مصدر في أصله والمصادر لا تُجمع. أو على تقدير مضافٍ مثل: وعلى حواسٍ سمعهم^(١)

والأبصارُ جمعُ بصر وهو: إدراكُ العين، وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة وعلى العضو، وكذا السمعُ، ولعل المراد بهما في الآية العضو لأنه أشد مناسبة للختم والتغطية، وبالقلب ما هو محلُّ العلم، وقد يطلق ويراد به العقل والمعرفة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(٢). وإنما جاز إِمَالَتُهَا مع الصاد لأن الرأء المكسورة تَغْلِبُ المستعلية لما فيها من التكرير. وغشاوة رُفِعَ بالابتداء عند سيبويه، وبالجاز والمجرور عند الأخفش^(٣)، ويؤيده العطف على الجملة الفعلية. وقرئ بالنصب على تقديرٍ وجَعَلَ على أبصارهم غشاوةً، أو على حذف الجار وإيصال الختم بنفسه إليه والمعنى: وختم على أبصارهم بغشاوة، وقرئ بالضم والرفع، وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها. وغشوة بالكسر مرفوعة، وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين الغير المعجمة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيدٌ وبيان لما يستحقونه. والعذابُ كالنكال بناءً ومعنى، تقول: عَذَبَ عن الشيء ونكل عنه إذا أَمْسَكَ، ومنه الماء العذب لأنه يجمع العطش ويردعه ولذلك سمي نُقَاحاً وفُرَاتاً، ثم اتسع فأُطْلِقَ على كل ألم قادح وإن لم يكن نكالاً، أي: عقاباً يردعُ الجاني عن المعاودة فهو أعمُ منهما. وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذب كالتقذية والتمريض. والعظيمُ نقيضُ الحقيق،

(١) وقدم ختم القلوب على ختم السمع والأبصار للإيذان بأنها الأصل في عدم إيمانهم، وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية لختم السمع والأبصار باعتبار أنهما الطريق إليها، بل هي مختومة على حدة. وقدم السمع على البصر للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال، أو لأن جنائتهم من حيث السمع - الذي به يتلقى الأحكام الشرعية وبه يتحقق الإنذار - أعظم منها من حيث البصر الذي به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد (أبو السعود ٣٨/١).

وأكثر ما يرد السمع في القرآن الكريم مقدماً على البصر، لما للسمع من أهمية عظمى - في تلقي العلوم إذ يمتد عمله ليصل إلى ما وراء المحسوس فيتناول ما شاهده المرسلون وما أطلعهم الله عليه من غيب... وفي سورة الكهف قدم البصر على السمع فقال: «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ...» - الكهف ٢٦ - وذلك لأن المتحدث عنه من قبيل المبصرات، كما أفاده أبو السعود (٢١٨/٥).

(٢) ق: «٣٧».

(٣) الأخفش: هو سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط، أحد الأخافش الثلاثة المشهورين، ورابع الأخافش المذكورين في هذا الكتاب - بغية الوعاة - كان مولى بني مُجَاشِع بن دارم من أهل بَلَخ. سكن البصرة، وكان أجلع لا تنطبق شفتاه على لسانه. قرأ النحو على سيبويه، وكان أسن منه، ولم يأخذ عن الخليل، وكان معتزلياً، حدث عن الكلبي، والتَّحَمِي وهشام بن عروة، وروى عنه أبو حاتم السَّجِسْتَانِي، ودخل بغداد وأقام بها مدة، وروى وصنف بها.

ومن مصنفاته: الأوساط في النحو، ومعاني القرآن، والمقاييس في النحو، والاشتقاق، والمسائل، والعروض، والقوافي وغير ذلك..

ومات سنة عشر - وقيل سنة خمس عشرة، وقيل إحدى وعشرين - ومائتين: [بغية الوعاة للسيوطي (١/٥٩٠) - ٥٩١ رقم (١٢٤٤)].

والكبير نقيض الصغير، فكما أَنَّ الحَقِيرَ دون الصغير، فالعظيمُ فوق الكبير، ومعنى التوصيف به أنه إذا قيس بسائر ما يجانبه قَصُرَ عنه جميعه وحَقُرَ بالإضافة إليه. ومعنى التنكير في الآية أن على أبصارهم نوع غشاوة ليس مما يتعارفه الناس، وهو التعامي عن الآيات، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

(٨) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمَ الْآخِرِ﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى بشرح حال الكتاب وساق لبيانه ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبهم السنتهم، وثنى بأضدادهم الذين مَحَضُوا الكفر ظاهراً وباطناً ولم يلتفتوا لفته رأساً، ثلث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للقسم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنهم مؤهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك طَوَّلَ في بيان خبثهم وجهلهم واستهزاء بهم وتهكم بأفعالهم وسجل على عَمَهُمْ وطغيانهم وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١) وقصتهم عن آخرها معطوفة على قصة المصيرين.

والناس أصله أناس لقولهم: إنساناً وأنساً وأناسي، فحذفت الهمزة حَذَفَهَا في لوقه وعَوَّضَ عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يُجْمَعُ بينهما. وقوله:

إِنَّ الْمَنَافِيَاطِ يَطْلُغْنَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْآمِنِينَ

شاذ. وهو اسم جمع كرجال، إذ لم يثبت فعال في أبنية الجمع، مأخوذ من أَنَسَ لأنهم يَسْتَأْنِسُونَ بأمثالهم، أو أَنَسَ لأنهم ظاهرون مُبْصَرُونَ، ولذلك سُمُوا بشراً كما سمي الجن جنّاً لاجتماعهم. واللام فيه للجنس، وَمِنْ موصوفة إذ لا عهد فكانه قال: ومن الناسِ ناسٌ يقولون، أو للعهد والمعهود: هم الذين كفروا، وَمِنْ موصولة مراد بها ابن أبي وأصحابه ونظراؤه، فإنهم من حيث إنهم صَمَمُوا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختوم على قلوبهم، واختصاصهم بزيادات زادوها على الكفر لا يأبى دخولهم تحت هذا الجنس، فإن الأجناس إنما تتنوع بزيادات يختلف فيها أعضاؤها فعلى هذا تكون الآية تَقْسِماً للقسم الثاني.

واختصاص الإيمان بالله وباليوم الآخر بالذكر تخصيص لما هو المقصود الأعظم من الإيمان وادعاء بأنهم احتازوا الإيمان من جانبيه وأحاطوا بقطريه، وإيذاناً بأنهم منافقون فيما يظنون أنهم مخلصون فيه، فكيف بما يَقْصِدُونَ به النفاق؟ لأن القوم كانوا يهوداً وكانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر إيماناً كلاً إيمان، لاعتقادهم التشبية واتخاذ الولد وأن الجنة لا يدخلها غيرهم وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة وغيرها، ويرون المؤمنين أنهم آمنوا مثل إيمانهم، وبياناً لتضاعف خبثهم وإفراطهم في كفرهم؛ لأن ما قالوه لو صَدَرَ عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن إيماناً، فكيف وقد قالوه تمويهاً على المسلمين وتهكماً بهم؟ وفي تَكَرُّر الباء ادعاء الإيمان بكل واحد على الأصالة والاستحكام.

والقول: هو التلُّظ بما يفيد، ويُقال بمعنى المقول، وللمعنى المتصوّر في النفس المعبر عنه باللفظ، وللرأي والمذهب مجازاً.

والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى ما لا ينتهي، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة. وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة^(١).

﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إنكار ما ادعوه ونفي ما انتحلوا إثباته، وكان أصله وما آمنوا ليطابق قولهم في التصريح بشأن الفعل دون الفاعل لكنه عكس تأكيداً أو مبالغة في التكذيب، لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان^(٢)، ولذلك أكد النفي بالباء. وأطلق الإيمان على معنى أنهم ليسوا من الإيمان في شيء، ويُحتمل أن يُقيد بما قيّدوا به لأنه جوابه.

والآية تدل على أن من ادعى الإيمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمناً، لأن من تفوه بالشهادتين فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه لم يكن مؤمناً. والخلاف مع الكرامة^(٣) في الثاني فلا ينهض حجة عليهم^(٤).

(٩) ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَٰذِينَ آمَنُوا﴾ الخَذُّع: أن تُوهِم غيرك خلاف ما تُخفيه من المكروه لتُتزلّه عما هو

(١) وفي الآية ورد لفظ يقول بالافراد وذلك باعتبار لفظه «مِنْ».. أما جَمْعُهُ في قوله «آمَنَّا بِاللَّهِ» وما بعده فباعتبار معناها (أبو السعود ٤٠/١).

(٢) أي أنه أثر الجملة الاسمية في إنكار دعواهم، فقال: «وما هم بمؤمنين» ولم يقل: وما آمنوا، وذلك للمبالغة في الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة لا في الماضي فقط كما تفيد الجملة الفعلية (أبو السعود ٤٠/١).

(٣) الكرامة: وهم أتباع أبي عبدالله محمد بن كرام السجستاني طرد من سجستان بسبب بدعته، ومن بدعهم أنهم يغالون في إثبات الصفات لله إلى حد التشبيه، وقولهم إن الإيمان هو قول باللسان فقط دون المعرفة والعمل، وموافقتهم المعتزلة في الحسن والقبح، توفي ابن كرام سنة (٢٥٥هـ). انظر «الفرق بين الفرق ٢١٥ وما بعدها. ولسان الميزان (٣٥٣/٥) وما بعدها.

(٤) لعل اللبس في قضية الإيمان ومخالفة اللسان لما وقر في القلب هو عدم التفريق بين الإيمان المقبول عند الله تعالى والإيمان المقبول عند الناس.

فالإيمانُ المقبول عند الله تعالى مرجعه إلى القلب، والله وحده يعلم ما في القلوب ويحاسب عليها، ولا عبرة لمن نطق بالكفر مُكراً، كما دل عليه قوله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان..» - النحل ١٠٦ - أما من شُرِح صدره بالكفر فهو الكافر.

أما المقبول عند الناس فمرجعه إلى الظاهر: اللسان والجوارح، والله تعالى يتولى السرائر. فمن نطق بالشهادة ولا يوجد من فعله ما يناقضها فإيمانه مقبول عند العباد ولا دخل لهم في ما وقر في قلبه، فلذلك عامل النبي ﷺ المنافقين على أنهم مسلمين رغم علمه عليه السلام بنفاقهم ورغم إقرار القرآن بعدم إيمانهم وشهادة الله عليهم بأنهم كاذبون حينما قالوا: «نشهد أنك لرسول الله».

وعليه فمن أظهر الإيمان واعتقاده مخالف لذلك فليس بمؤمن عند الله تعالى، وهو منافق، إلا أنه مقبول بظاهره للعباد.

أما من نطق بلسانه بالشهادتين ولم يكن في قلبه ما يوافقه أو ينافيه، لعل الأصل فيه هو الإيمان لأن كل مولود يولد على الفطرة، ولعله غير موجود في الواقع.

فيه وعما هو بصده، من قولهم خَدَعَ الضَبُّ إذا توارى في جحره، وضَبُّ خَادِعٌ وخَدِيعٌ إذا أوهم الحارس إقباله عليه ثم خرج من باب آخر، وأصله الإخفاء ومنه المَخْدَعُ للخزانة، والأَخْدَعَانِ لعزقين خفيين في العُنُقِ، والمخادعة تكون بين اثنين. وخداعهم مع الله ليس على ظاهره، لأنه لا تَخْفَى عليه خافيةٌ ولأنهم لم يقصدوا خديعته، بل المراد إما مخادعةً رسولِ الله صلى الله عليه وسلم على حذف المضاف، أو على أن معاملة الرسول معاملة الله من حيث إنه خليفته كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(٢)، وإما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصُنِعَ الله معهم بإجواء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده أخبث الكفار وأهل الذِّك الأسفل من النار، استدراجاً لهم وامثال الرسول ﷺ والمؤمنين أمر الله في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم مجازاةً لهم بمثل صنيعهم، صورة صنيع المتخادعين. ويحتمل أن يُراد بيخدعون يخدعون لأنه بيان ليقول، أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه، إلا أنه أخرج في زنة فاعل للمبالغة، فإن الزنة لما كانت للمبالغة والفعل متى غولب فيه، كان أبلغ منه إذا جاء بلا مقابلة معارضي ومُبارٍ استضحبت ذلك، ويعضده قراءة من قرأ يَخْدَعُونَ. وكان غرضهم في ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم ما يَظَرُّق به مَنْ سواهم من الكفرة، وأن يفعلَ بهم ما يفعلُ بالمؤمنين من الإكرام والإعطاء، وأن يختلطوا بالمسلمين فيطلعوا على أسرارهم ويذيعوها إلى منابذهم إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٣) قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو^(٤) والمعنى: أن دائرة الخداع راجعة إليهم وضررها يَحِيق بهم، أو أنهم في ذلك خدعوا أنفسهم كَمَا غَرُّوا بذلك وخدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأمانِي الفارغة وحملتهم على مخادعة من لا تَخْفَى عليه خافية. وقرأ الباقر وما يَخْدَعُونَ، لأن المخادعة لا تُتَصَوَّر إلا بين اثنين، وقرئ ويَخْدَعُونَ من خَدَعَ ويَخْدَعُونَ بمعنى يَخْدَعُونَ ويَخْدَعُونَ ويُخَادَعُونَ على البناء للمفعول، ونصب أنفسهم بنزع الخافض. والنفس ذات الشيء وحقيقته، ثم قيل للروح لأن نفسَ الحي به، وللقلب لأنه محل الروح أو متعلقه، وللدِّم لأن قوامها به، وللماء لقرط حاجتها إليه، وللرأي في قولهم فلان يؤامر نفسه لأنه ينبعث عنها أو يشبه ذاتاً تأمره وتشير عليه. والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم ويحتمل حملها على أرواحهم وآرائهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يحسون لذلك لتمام غفلتهم. جَعَلَ لُحُوقَ وَبَالِ الخِدَاعِ ورجوع ضرره إليهم في الظهور كالمحسوس الذي لا يخفى إلا على مؤوف الحواس. والشعور: الإحساس، ومشاعر الإنسان

(١) النساء: «٨٠».

(٢) الفتح: «١٠».

(٣) أثبتت القراءة هنا بخلاف قراءة حفص عن عاصم لتوافق كلام المفسر، إذ قراءة حفص «وما يخدعون».

(٤) أبو عمرو هو: زبان بن العلا بن عمار البصري، كان أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة في الدين، روى عن مجاهد بن جبر وسعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ وهو أحد القراء السبعة، اشتهر بالرواية عنه الدوري والسوسي ولكن بواسطة اليزيدي وتوفي أبو عمرو (١٥٤) هـ.

أَلَيْسَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

حواشيه، وأصله الشُّغْر ومنه الشُّعار.

(١٠) ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ المرضُ حقيقةً فيما يَغْرِضُ للبدن فيُخْرِجُهُ عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل في أفعاله، ومجازاً في الأغراض النفسانية التي تُخَلُّ بِكمالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحب المعاصي، لأنها مانعةٌ من نيل الفضائل أو مؤديةٌ إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية. والآية الكريمة تحتملُهُما فإن قلوبهم كانت متألّمة تحرقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، وزاد الله غمهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره، ونفوسُهُم كانت موصوفةً بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله سبحانه وتعالى ذلك بالطَّبع أو بازدياد التكليف وتكرير الوحي وتضاعف النصر، وكان إسنادُ الزيادة إلى الله تعالى من حيث إنه مُسَبِّبٌ من فعله، وإسنادُها إلى السورة في قوله تعالى: ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ﴾ ^(١) لكونها سبباً.

ويحتمل أن يراد بالمرض ما تداخلَ قلوبُهُم من الجُبْنِ والخَوَرِ حين شاهدوا شوكة المسلمين وإمدادَ الله تعالى لهم بالملائكة وقذفِ الرعب في قلوبهم، وبزيادته تَضْعِيفَهُ بما زاد لرسول الله ﷺ نصرةً على الأعداء وتَبَسُّطاً في البلاد.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: مؤلم يقال: أَلِيمٌ فهو أَلِيمٌ كَوَجَعٌ فهو وجيع، وُصف به العذاب للمبالغة كقوله:

تَحِيَّةُ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

على طريقة قولهم: جدّ جدّه.

﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ قرأها عاصمٌ وحمزة والكسائي، والمعنى بسبب كذبهم، أو ببَدَلِهِ جزاءٌ لَهُم وهو قولهم آمناً. وقرأ الباقون يُكْذِبُونَ، من كَذَبَهُ لأنهم كانوا يُكْذِبُونَ الرسول عليه الصلاة والسلام بقلوبهم وإذا خلّوا إلى شياطينهم، أو مِنْ كَذَبَ الذي هو للمبالغة أو للتكثير مثل بين الشيء ومُوتت البهائم، أو من كَذَبَ الوحشي إذا جرى شوطاً وقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متحيّر متردد. والكذب: هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به، وهو حرام كلّهُ لأنه عُلِّلَ به استحقاقُ العذاب حيث رُتِّبَ عليه ^(٢). وما روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كَذَبَ ثلاث كَذِبَات، فالمراد التعريض،

(١) التوبة: «١٢٥».

(٢) قوله عن الكذب: وهو حرام كله غير مسلم به لما ذكره العلماء ودلت عليه النصوص من جواز الكذب في بعض =

ولكن لما شابه الكَذِبَ في صورته سُمِّيَ به^(١).

(١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عطفٌ على يُكْذِبُونَ أو يقول. وما روي عن سلمان رضي الله عنه أن أهل هذه الآية لم يأتوا بعد، فلعله أراد به أن أهلها ليس الذين كانوا فقط بل وسيكون من بعد مَنْ حاله حالهم لأن الآية متصلة بما قبلها بالضمير الذي فيها. والفسادُ: خروج الشيء عن الاعتدال. والصالحُ ضده، وكلاهما يَعْمَانُ كل ضارٍّ ونافع.

وكان من فسادهم في الأرض هَبِجُ الحُروبِ والفِتَنِ بمخادعة المسلمين وممالأة الكفار عليهم بإفشاء الأسرار إليهم، فإن ذلك يؤدي إلى فساد ما في الأرض من الناس والدواب والحَرث.

ومنه إظهارُ المعاصي والإهانة بالذِّينِ فإن الإخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الهَرَجَ والمَرَجَ ويُخِلُّ بنظام العالم. والقائلُ هو الله تعالى، أو الرسول ﷺ، أو بعضُ المؤمنين. وقرأ الكسائي وهشام^(٢) «قيل» بإشمام الضمِّ الأوَّل.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جوابٌ لإذا ردُّ للناصح على سبيل المبالغة، والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك فإن شأننا ليس إلا الإصلاح وإنَّ حَالَنَا متمحضة عن شوائب الفساد، لأن «إنما» تفيد قصر ما دخلت عليه على ما بعده، مثل إنما زيد منطلق وإنما ينطلق زيد، وإنما قالوا ذلك: لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا﴾^(٣).

(١٢) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ردُّ لما ادَّعَوْهُ أبلغ ردٍّ للاستئناف به وتصديره بحرفي التأكيد: ألا المنبهة على تحقيق ما بعدها، فإنَّ همزة الاستفهام التي للإنكار إذا دخلت على النفي أفادت تحقيقاً، ونظيره أليس ذلك بقادر، ولذلك لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بما يلتقي به

المواطن. قال النووي: (إن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يكن تحصيله إلا بالكذب، جاز الكذب.

ثم إن كان ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً، وإن كان واجباً، كان الكذب واجباً، فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، أو أخذ ماله، وأخفى ماله، وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه... واستدل العلماء لجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً أو يقول خيراً». قالت أم كلثوم: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث. تعني: الحزب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. رواه مسلم (٢٦٠٥) رياض الصالحين للنووي ص ٥٨٦.

ولعل المراد من حديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها بما فيه صلاح حياتهما كأن يقول لها بأنه يحبها وتقول له ذلك وإن كانا غير صادقين.

(١) ما أورده البيضاوي حديث أن إبراهيم كذب... بلفظ روي المفيد للتمريض عند المحدثين هو خلاف اصطلاح أهل الحديث، فالحديث وارد في الصحيحين عند البخاري (٣٣٥٨، ٥٠٨٤) وعند مسلم (١٨٤٠/٤).

(٢) هشام: وقد أخذ القراءة عن عراك بن خالد المزني عن يحيى بن الحارث الذمادي عن ابن عامر واشتهر بالرواية عن ابن عامر أحد القراء السبعة، وكان هشام قاضياً فقيهاً محدثاً ثقة ضابطاً وتوفي بدمشق عام (٢٤٥) هـ.

(٣) فاطر: «٨».

الْقَسَمُ، وَأَخْتُهَا أَمَّا الَّتِي هِيَ مِنْ طَلَائِعِ الْقَسَمِ وَإِنْ الْمَقْرَرَةُ لِلنَّسَبَةِ. وَتَعْرِيفُ الْخَبَرِ وَتَوْسِيطُ الْفَصْلِ لَرَدِّ مَا فِي قَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ مِنَ التَّعْرِيزِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالِاسْتِدْرَاكِ بَلَا يَشْعُرُونَ.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا﴾ مِنْ تَمَامِ النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ فَإِنَّ كَمَالَ الْإِيمَانِ بِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ: الْإِعْرَاضُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَفْسِدُوا﴾، وَالْإِتْيَانُ بِمَا يَنْبَغِي وَهُوَ الْمَطْلُوبُ بِقَوْلِهِ: ﴿ءَامِنُوا﴾.

﴿كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ فِي حِيزِ النَّصَبِ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَمَا مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ كَأَنَّهُ مِثْلُهَا فِي رُبَّمَا. وَاللَّامُ فِي النَّاسِ لِلْجِنْسِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْكَامِلُونَ فِي الْإِنْسَانِيَةِ الْعَامِلُونَ بِقَضِيَةِ الْعَقْلِ، فَإِنْ اسْمُ الْجِنْسِ كَمَا يُسْتَعْمَلُ لِمَسْمَاهِ مَطْلَقاً يَسْتَعْمَلُ لِمَا يَسْتَجْمَعُ الْمَعَانِي الْمَخْصُوصَةَ بِهِ وَالْمَقْصُودَةَ مِنْهُ، وَلِذَلِكَ يُسَلَّبُ عَنْ غَيْرِهِ يُقَالُ: زَيْدٌ لَيْسَ بِإِنْسَانٍ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صُمُّكُمْ عُنَى﴾^(١) وَنَحْوَهُ وَقَدْ جَمَعَهُمَا الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ:

إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ

أَوْ لِلْعَهْدِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ. أَوْ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَابْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ، وَالْمَعْنَى آمَنُوا إِيْمَاناً مَقْرُوناً بِالْإِخْلَاصِ مَتَمَحْضاً عَنْ شَوَائِبِ النِّفَاقِ مِمَّا نَلَّأَ لِإِيْمَانِهِمْ. وَاسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى قَبُولِ تَوْبَةِ الزَّنْدِيقِ وَأَنَّ الْإِقْرَارَ بِاللِّسَانِ إِيْمَانٌ وَإِنْ لَمْ يُقَدِّ التَّقِيدُ.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الْهَمْزَةُ فِيهِ لِلْإِنْكَارِ، وَاللَّامُ مُشَارٌ بِهَا إِلَى النَّاسِ، أَوْ الْجِنْسِ بِأَسْرِهِ وَهُمْ مَنْدَرَجُونَ فِيهِ عَلَى زَعْمِهِمْ، وَإِنَّمَا سَفَهُوهُمْ لِاعْتِقَادِهِمْ فَسَادَ رَأْيِهِمْ أَوْ لِتَحْقِيرِ شَأْنِهِمْ، فَإِنْ أَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا فَقَرَاءَ وَمِنْهُمْ مَوَالِي: كَصَهْبِ وَبِلَالٍ، أَوْ لِلتَّجَلُّدِ وَعَدَمِ الْمِبَالَاةِ بِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ إِنْ فُسِّرَ النَّاسُ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَشْيَاعِهِ. وَالسَّفَهُ: خِفَّةٌ وَسَخَافَةٌ رَأْيٍ يَقْتَضِيهِمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَالْحُلْمُ يُقَابِلُهُ.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ رَدٌ وَمِبَالِغَةٌ فِي تَجْهِيلِهِمْ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِجَهْلِهِ الْجَازِمِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ الْوَاقِعُ أَعْظَمُ ضَلَالَةً وَأَتَمُّ جِهَالَةً مِنَ الْمُتَوَقِّفِ الْمُعْتَرِفِ بِجَهْلِهِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يُغْذَرُ وَتَنْفَعُهُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ. وَإِنَّمَا فُصِّلَتِ الْآيَةُ بِمَا يَعْلَمُونَ وَالتِّي قَبْلَهَا بَلَا يَشْعُرُونَ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ طَبَاقاً لِذِكْرِ السَّفَهُ، وَلِأَنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَمْرِ الدِّينِ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مِمَّا يَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَفِكْرٍ، وَأَمَّا النِّفَاقُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْفُسَادِ فَإِنَّمَا يُذَكَّرُ بِأَدْنَى تَفْطُنٍ وَتَأَمُّلٍ فِيمَا يُشَاهَدُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

(١٤) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بَيَانٌ لِمُعَامَلَتِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارَ، وَمَا صُدِّرَتْ بِهِ الْقِصَّةُ فَمَسَاقُهُ لِبَيَانِ مَذْهَبِهِمْ وَتَمْهِيدِ نِفَاقِهِمْ فَلَيْسَ بِتَكَرِيرٍ. رَوَى أَنَّ ابْنَ أَبِي وَأَصْحَابَهُ اسْتَقْبَلَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: انْظُرُوا كَيْفَ أَرَدَ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءُ عَنْكُمْ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: مَرْحَباً بِالصِّدِّيقِ سَيِّدِ بَنِي تَيْمٍ وَشَيْخِ الْإِسْلَامِ وَثَانِي رَسُولِ اللَّهِ فِي الْغَارِ الْبَاذِلِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: مَرْحَباً بِسَيِّدِ بَنِي عَدِيٍّ الْفَارُوقِ الْقَوِي فِي دِينِهِ الْبَاذِلِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: مَرْحَباً بِابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَحَتَّه سِيدُ بَنِي هَاشِمٍ، مَا خَلَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فنزلت^(١). واللقاء المصادفة يقال: لَقِيْتَهُ وَلَاقِيْتَهُ إِذَا صَادَفْتَهُ وَاسْتَقْبَلْتَهُ، وَمِنْه أَلْقِيْتُهُ إِذَا طَرَحْتُهُ فَإِنَّكَ بِطَرَحِهِ جَعَلْتَهُ بِحِثِّ يَلْقَى.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، أو من خلاك ذمَّ أي عدَّاك ومضى عنك، ومنه القرون الخالية، أو من خلوت به إذا سخرت منه. وعدِّي بآلى لتضنَّ معنى الإنهاء. والمرادُ بشياطينهم: الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم، وهم المظهرون كفرهم، وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر، أو كبارُ المنافقين والقائلون صغارهم. وجعل سيبويه نونه تارة أصلية على أنه من شَطَنَ إذا بعدُ فإنه بعيد عن الصلاح، ويشهد له قولهم: تشيطن، وأخرى زائدة على أنه من شاط إذا بَطَلَ، ومن أسمائه الباطل.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي في الدين والاعتقاد، خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية والشياطين بالجملة الاسمية المؤكدة بأن، لأنهم قصدوا بالأولى دعوى إحداث الإيمان وبالتالي تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه، ولأنه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين، ولا تَوْقُع رواج ادعاء الكمال في الإيمان على المؤمنين من المهاجرين والأنصار بخلاف ما قالوه مع الكفار^(٢).

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ تأكيد لما قبله لأن المستهزىء بالشيء المستخف به مُصِرٌّ على خلافه، أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، أو استئناف فكان الشياطين قالوا لهم لما قالوا إنا معكم: إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بذلك. والاستهزاء السخرية والاستخفاف يقال: هَزَأَ فلان إذا مات على مكانه، وناقته تَهْزَأُ به أي تسرع وتخف.

(١٥) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على استهزائهم، سُمِّيَ جزاء الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر، أو يَزْجُ وَيَال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزىء بهم، أو يُنْزَلُ بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء أو الغرض منه، أو يعاملهم معاملة المستهزىء: أما في الدنيا فيأجروا أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة: فبأن يَفْتَحَ لهم - وهم في النار - باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سَدَّ عليهم الباب، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالِیَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾^(٣). وإنما استؤنف به ولم يَغْطِفْ ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم، ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم، وأنَّ استهزاءهم لا يؤبه به في مقابلة ما يفعل الله تعالى بهم. ولعله لم

(١) أورده الواحدي في «أسباب النزول» ص ١٩ تحت الآية (وإذا لقوا الذين آمنوا) [البقرة: ١٤]، قال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي وأصحابه... الحديث وذكره ابن حجر في «الكافي الشافى» (٤/٥ رقم ٣٠) وقال «محمد بن مروان متروك متهم بوضع الحديث، وسياقه في غاية النكارة» ١هـ، قلت: وأبو صالح ضعيف مدلس. والحديث موضوع والله أعلم.

(٢) قيل خاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية لدفع ما توهم أن شياطينهم شكوا في إيمانهم لقولهم مع المؤمنين: آمنا (حاشية الكازروني على البيضاوي (١/٨٧)).

(٣) المطففين: «٣٤».

يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
 مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا
 يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرِجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
 أَصْبَعَهُمْ فِيْٓءَاذَانِهِمْ مِنَ الصُّوَغِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ

يقول: الله مستهزئ بهم ليطابق قولهم، إيماء بأن الاستهزاء يَخْدُثُ حالاً فحالاً ويتجدد حيناً بعد حين،
 وهكذا كانت نكايات الله فيهم كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ
 مَرَّتَيْنِ﴾^(١).

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ من مدَّ الجيشَ وأمدَّه إذا زاده وقواه، ومنه مددتُ السراجَ والأرضَ إذا
 استصلحتهما بالزيت والسماد، لا من المد في العمر فإنه يُعَدَّى باللام كاملي له. ويدل عليه قراءة
 ابن كثير ويُمِدُّهم. والمعتزلة لما تعذر عليهم إجراء الكلام على ظاهره قالوا: لما منعهم الله تعالى
 الطغاة التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم وسدَّهم طرقَ التوفيق على أنفسهم
 فتزايدت بسببه قلوبهم رَيْنًا وظُلْمَةً تزايدت قلوب المؤمنين انشراحاً ونوراً، وأمكن الشيطان من إغوائهم
 فزادهم طغياناً. أُسِنِدَ ذلك إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى المسبب مجازاً، وأضاف الطغيان إليهم لثلاث
 يُؤهم أن إسناد الفعل إليه على الحقيقة، ومصدق ذلك: أنه لما أُسِنِدَ المدُّ إلى الشياطين أطلق الغي
 وقال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾^(٢)، أو أصله يمدُّ لهم بمعنى يملي لهم ويمدُّ في أعمارهم كي
 يتنبهوا ويطيعوا فما زادوا إلا طغياناً وعمها، فحذفت اللام وعُدِّي الفعل بنفسه كما في قوله تعالى:
 ﴿وَأَخَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾^(٣). أو التقدير يمدُّهم استصلاحاً، وهم مع ذلك يعمهُون في طغيانهم. والطغيانُ
 - بالضم والكسر - كُفْيَان، والطغيانُ: تجاوزُ الحد في العتو والغلو في الكفر، وأصله تجاوز الشيء
 عن مكانه قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَاطِقَاتُ الْمَاءِ حَمَلَتُكُمُ﴾^(٤). والعمه في البصيرة كالعمى في البصر، وهو: التحير
 في الأمر يقال رجل عامٍ وعمٍ وأرض عمها لا منار بها، قال:

أغمى الهدى بالجاهلين العمه

(١٦) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ اختاروها عليه واستبدلوها به، وأصله بذل الثمن
 لتحصيل ما يُطلَب من الأعيان، فإن كان أحد العوضين ناضاً^(٥) تعين من حيث إنه لا يُطلب لغيره أن
 يكون ثمناً وبذلك اشتراء، وإلا فأَي العوضين تصورته بصورة الثمن فبذلك مشتري وأخذه بائع، ولذلك
 عُدَّت الكلمتان من الأضداد، ثم استعير للإعراض عما في يده محصلاً به غيره، سواء كان من المعاني

(١) التوبة: (١٢٦).

(٢) الأعراف: (٢٠٢).

(٣) الأعراف: (١٥٥).

(٤) الحاقة: (١١).

(٥) النضُّ والناضُّ هي الدراهم والدنانير كما يسميها الحجازيون (المصباح المنير، مادة نض).

أو الأعيان، ومنه قول الشاعر:

أَخَذْتُ بِالْجُمْلَةِ رَأْساً أَزْعَرَا وَبِالشَّيَا رِوَاضِحَاتِ الدُّزْرَا
وَبِالطَّوِيلِ الْعُمَرِ عَمراً جِيدراً كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنْصَرَا

ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، والمعنى: أنهم أخلّوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فطرَ الناسُ عليها محضّلين الضلالة التي ذهبوا إليها؛ أو اختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى.

﴿فَمَا رِيحَتْ بِحَنَرِئِهِمْ﴾.

ترشيحٌ للمجاز^(١)، لَمَّا استعملَ الاشتراء في معاملتهم أتبعه ما يشاكله تمثيلاً لخسارتهم، ونحوه:

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَبَ بَنَ دَايَةً وَعَشَشَ فِي وَكْرِيهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي

والتجارة: طلب الربح بالبيع والشراء. والريح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي شفاً، وإسنادهُ إلى التجارة وهو لأربابها على الاتساع لتلبسها بالفاعل، أو لمشابتها إياه من حيث إنها سببُ الربح والخسران.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. لطرق التجارة، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلّبتين لأن رأس مَالِهِمْ كان الفطرة السليمة والعقلَ الصرف، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطلَ استعدادهم واختل عقلهم ولم يبقَ لهم رأسُ مالٍ يتوسلون به إلى ذلك الحق ونيل الكمال، فبقوا خاسرين آيسين من الربح فاقدين للأصل.

(١٧) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لما جاء بحقيقة حالهم عقَّبها بضرب المثل زيادةً في التوضيح والتقرير، فإنه أوقع في القلب وأقمع للخصم الألد، لأنه يريك المتخيلَ محققاً والمعقولَ محسوساً، ولأمر ما أكثرَ الله في كتبه الأمثال، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء. والمَثَلُ في الأصل بمعنى النظير يقال: مَثَلٌ وَمِثْلٌ وَمِثْلٌ كَشَبَةٌ وَشِبَّةٌ وَشَبِيهٌ، ثم قيل للقول السائر الممثلُ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ، ولا يُضْرَبُ إلا ما فيه غرابة، ولذلك حوِّظَ عليه من التغيير، ثم استُعير لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن وفيها غرابة مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٣).

والمعنى: حالهم العجيبة الشأن كحال من استوقد ناراً. والذي: بمعنى الذين كما في قوله تعالى: ﴿وَحُصِّنَتْ لَهُمْ فِيهَا خَاصُّوا﴾^(٤) إن جعل مرجع الضمير في «بنورهم»، وإنما جاز ذلك ولم يَجْزُ وضع القائم موضعَ القائمين لأنه غير مقصود بالوصف، بل الجملة التي هي صلته وهو وُضِلَ إلى وصف

(١) الترشيح هو: ذكر شيء يلائم المستعار منه، فإن الربح - وكذا التجارة - يلائم المستعار منه الذي هو معنى الشراء الحقيقي. وأصل معنى الترشيح: تربية الأم ولدها بجعل اللبن في فيه شيئاً بعد شيء إلى أن يقوى على المص، ولما كان في ذكر ما يلائم المستعار منه تقوية للاستعارة وتربية لها سمي ترشيحاً. (حاشية الكازروني ٨٩/١).

(٢) الرعد: «٣٥».

(٣) النحل: «٦٠».

(٤) التوبة: «٦٩».

المعرفة بها لأنه ليس باسم تام بل هو كالجاء منه، فحقه أنه لا يُجَمَّع كما لا تَجْمَع أخواتها، ويستوي فيه الواحد والجمع، وليس الذين جَمَعَهُ المصحح، بل ذو زيادة زيدت لزيادة المعنى ولذلك جاء بالياء أبداً على اللغة الفصيحة التي عليها التنزيل، ولكونه مستطالاً بصلته استحقَّ التخفيف، ولذلك بولغ فيه فحُذِفَ ياءه ثم كُسِرَتْه ثم اقْتَصِرَ على اللام في أسماء الفاعلين والمفعولين، أو قُصِدَ به جنسُ المستوقدين، أو الفوج الذي استوقِدَ. والاستيقاد: طلب الوقود والسعي في تحصيله، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها. واشتقاق النار من: نار يُنور نَوْرًا إذا نفر لأن فيها حركة واضطراباً.

﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ أي: النار ما حول المُسْتَوْقِدِ إن جعلتها متعدية، وإلا أمكن أن تكون مُسْتَدَّة إلى ما، والتانيث لأن ما حوله أشياء وأماكن أو إلى ضمير النار، وما: موصولة في معنى الأمكنة نُصِبَ على الظرف، أو مزيدة وحوله ظرف، وتأليف الحَوْل للدوران، وقيل للعام حَوْلٌ لأنه يدور.

﴿ ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ ﴾ جوابُ لَمَّا، والضمير للذي، وجمعه للحمل على المعنى، وعلى هذا إنما قال: ﴿ يَبُورِهِمْ ﴾ ولم يقل: بنارهم لأنه المراد من إيقادها. أو استئنافٌ أجيب به اعتراض سائلٍ يقول: ما بالهم شُبِّهَتْ حالهم بحال مستوقد انطفأت ناره؟ أو بدلٌ من جملة التمثيل على سبيل البيان. والضميرُ على الوجهين للمنافقين، والجوابُ محذوف كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِرُءُوسِهِمْ ﴾^(١) للإيجاز وأمن الالتباس. وإسنادُ الذهاب إلى الله تعالى: إما لأن الكل بفعله، أو لأن الإطفاء حصل بسبب خفيٍّ أو أمر سماوي كريح أو مطر، أو للمبالغة ولذلك عُدِّي الفعلُ بالباء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمسك، يقال: ذهب السلطان بماله إذا أخذه، وما أخذه الله وأمسكه فلا مرسلَ له، ولذلك عُدِّلَ عن الضوء الذي هو مقتضى اللفظ إلى الثور، فإنه لو قيل: ذهب الله بضوئهم احتَمَلَ ذهابه بما في الضوء من الزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، والغرضُ إزالة النور عنهم رأساً، ألا ترى كيف قرر ذلك وأكدته بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فذكر الظلمة التي هي عدم النور وانطماؤه بالكلية، وجمعها ونكرها ووصفها بأنها ظلمة خالصة لا يترأى فيها شبحان. وَتَرَكَ في الأصل بمعنى طرح وخلَّى، وله مفعول واحد فَضُضْنَ معنى صير، فجرى مجرى أفعال القلوب كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾^(٢).

وقول الشاعر:

فَرَكْنَهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَشُنُّهُ يَقْضُنْنَ حُسْنَ بِنَانِهِ وَالْمِغْصَمِ

والظلمة مأخوذة من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا؟ أي ما منعك، لأنها تُسَدُّ البصر وتمنع الرؤية. وظلماتهم: ظلمة الكفر وظلمة النفاق وظلمة يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾^(٣)، أو ظلمة الضلال وظلمة سَخَطِ الله. وظلمة العقاب السرمدي، أو ظلمة شديدة كأنها ظلمة متراكمة، ومفعول ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ من قبيل المطروح المتروك فكان الفعل غير متعدٍ.

(١) يوسف: (١٥).

(٢) البقرة: (١٧).

(٣) الحديد: (١٢).

والآية مَثَلٌ ضربه الله لمن آتاه ضَرْباً من الهدى فأضاعه ولم يتوصل به إلى نعيم الأبد فبقي متحيراً متحسراً، تقريراً وتوضيحاً لما تضمنته الآية الأولى. ويدخل تحت عمومها هؤلاء المنافقون، فإنهم أضاعوا ما نطق به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر وإظهاره حين خلوا إلى شياطينهم، ومن أثر الضلالة على الهدى المجعول له بالفطرة أو ارتد عن دينه بعدما آمن، ومن صَحَّ له أحوال الإرادة فادعى أحوال المحبة فأذهب الله عنه ما أشرق عليه من أنوار الإرادة. أو مَثَلٌ لإيمانهم من حيث إنه يعود عليهم بحقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد ومشاركة المسلمين في المغنم والأحكام بالنار الموقدة للاستضاءة، ولذهاب أثره وانطماس نوره، بإهلاكهم وإفشاء حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وإذهاب نورها.

(١٨) ﴿صُمُّ بِكُمْ غَمٌّ﴾ لما سَدُّوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوا أن يُنْطِقُوا به ألسنتهم وَيَنْبَصُّرُوا الآياتِ بأبصارهم، جَعَلُوا كأنما أَيْفَتْ مشاعرهم وانتفت قواهم كقوله:

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَّرْتُ بِهِ وَإِنْ ذَكَّرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا
وكقوله:

أَصَمُّ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ وَأَسْمَعُ خَلَقَ اللَّهُ حِينَ أُرِيدُ
وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يُطَوَّى ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينة كقول زهير^(١):

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُقَدِّفٍ لَهُ لَيْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقْلَمِ
وَمَنْ تَمَّ تَرَى الْمُفْلَقِينَ السَّحَرَةَ يُضْرِبُونَ عَنْ تَوْهَمِ التَّشْبِيهِ صَفْحًا كَمَا قَالَ أَبُو تَمَامٍ الطَّائِي^(٢):
وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ الْجَهْلُولُ بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي السَّمَاءِ
وهنا وإن طَوَّى ذِكْرَهُ بحذف المبتدأ لكنّه في حكم المنطوق به، ونظيره:
أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

(١) زهير بن أبي سلمى: ربيعة بن رباح المزني من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضلّه على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان زهير في الشعر مالم يكن لغيره كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين وأخته الخنساء شاعرة ولد في بلاد «مُرَيْنَةَ» بنوحي المدينة وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد) واستمر بنوه فيه بعد الإسلام، وكانت قصائده تسمى «الحواليات» أشهر شعره معلقته التي مطلعها «أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دَمْنَةً لَمْ تَكَلَمْ» وهي من الطويل، مات سنة (١٣ ق.هـ) [الأعلام للزركلي (٥٢/٣)].

(٢) أبو تمام الطائي: هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام، الشاعر، الأديب، أحد أمراء البيان، ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته في العراق، ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها سنة (٢٣١هـ) في شعره قوة وجزالة، وله تصانيف منها: (فحول الشعراء - خ) و«ديوان الحماسة - ط» وغيرها. [الأعلام للزركلي (١٦٥/٢)].

هذا إذا جعلت الضمير للمنافقين على أن الآية فذلكت التمثيل ونتيجته، وإن جعلته للمستوقدين، فهي على حقيقتها. والمعنى: أنهم لما أوقدوا ناراً فذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات هائلة أدهشتهم بحيث اختلت حواسهم وانتقصت قواهم. وثلاثتها قرئت بالنصب على الحال من مفعول تركهم. والصَّمَم: أصله صلابة من اكتناز الأجزاء، ومنه قيل حجر أصم وقناة صماء وصمام القارورة، سُمي به فُقدان حاسة السمع لأن سببه أن يكون باطن الصَّمَاخ مُكْتَنَزاً لا تجويف فيه فيشتمل على هواء يسمع الصوت بتموجه. والبَكْمُ الخَرَس. والعمى: عدم البصر عما من شأنه أن يُبَصَّر وقد يقال لعدم البصيرة.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، أو عن الضلالة التي اشتروها، أو فهم متحIRON لا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وإلى حيث ابتدؤوا منه كيف يرجعون. والفاء للدلالة على أن اتصافهم بالأحكام السابقة سبب لتحيرهم واحتباسهم.

(١٩) ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ عطف على الذي استوقد أي كمثل ذوي صَيِّب لقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءًا ذَانِهِمْ﴾ و«أو» في الأصل للتساوي في الشك، ثم اتسع فيها فأطلقت للتساوي من غير شك مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِغْ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كُفُورًا﴾^(١) فإنها تفيد التساوي في حسن المجالسة ووجوب العُضَيَان ومن ذلك قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾. ومعناه أن قصة المنافقين مُشَبَّهَةٌ بهاتين القصتين، وأنهما سواء في صحة التشبيه بهما، وأنت مخير في التمثيل بهما أو بأيهما شئت. والصَيِّب: فَيَعْل من الصَّوْب وهو النزول، يقال للمطر وللشحاب. قال الشماخ^(٢):

وَأَسْحَمَ دَانٍ صَادِقِ الرِّغْدِ صَيِّبٍ

وفي الآية يحتملها، وتنكيره: لأنه أريد به نوع من المطر شديد. وتعريفُ السماء للدلالة على أن الغمام مُطْبِقٌ أَخَذَ بِأَفَاقِ السَّمَاءِ كُلِّهَا فَإِنْ كُلُّ أَفْقٍ مِنْهَا يَسْمَى سَمَاءً كَمَا أَنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْهَا سَمَاءٌ، وقال:

وَمِنْ بَعْدِ أَرْضٍ بَيْنَنَا وَسَمَاءٍ

أمدَّ به ما في الصيب من المبالغة من جهة الأصل والبناء والتنكير، وقيل المراد بالسماء السحاب فاللام لتعريف الماهية.

﴿فِيءَ ظُلُمَتٍ وَرَعْدٍ وَرَقٍّ﴾ إن أريد بالصَيِّب المطر فظُلُمَاتُهُ ظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة غَمَامِهِ مع ظلمة الليل، وجعله مكاناً للرد والبرق لأنهما في أعلاه ومنحدره ملتبسين به. وإن أريد به السحاب،

(١) الإنسان: «٢٤».

(٢) الشماخ: هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الديباني الغطفاني: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام وهو من طبقة لبيد والنابعة. كان شديد متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقاً، وكان أرجز الناس على البديهة. جمع بعض شعره في «ديوان - ط» شهد القادسية، وتوفي في غزوة موكان. وأخباره كثيرة، قال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار. والشماخ لقبه ومات سنة (٢٢هـ) [الأعلام للزركلي (٣/١٧٥)].

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأُو فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا

فظلّماته سُخْمته وتطيقه مع ظلمة الليل . وارتفاعها بالظرف وفاقاً لأنه معتمد على موصوف . والرعد: صوت يسمع من السحاب، والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا حذتها الريح من الارتعاد. والبرق ما يلعب من السحاب، من برق الشيء بريقاً، وكلاهما مصدر في الأصل ولذلك لم يُجمعاً.

﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ﴾ الضمير لأصحاب الصيْب، وهو وإن حُذِفَ لفظه وأقيم الصيْب مقامه لكنَّ معناه باق، فيجوز أن يُعَوَّل عليه كما عَوِّلَ حسانٌ في قوله:

يَنْقُوتُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرَدَى يَصْفُقُ بِالرَّجِيحِ السَّلْسَلِ

حيث ذكر الضمير لأن المعنى ماء بَرَدَى، والجملة استئناف فكأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهول قيل: فكيف حالهم مع مثل ذلك؟ فأجيب بها، وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة.

﴿مِنْ الصَّوَاعِقِ﴾ متعلق بيجعلون أي من أجلها يجعلون، كقولهم سقاء من الغيمة. والصاعقة قصفة رعد هائل معها ناز لا تمر بشيء إلا أتت عليه، من الصعق وهو شدة الصوت، وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت. وقرئ من الصواعق وهو ليس بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين في التصرف يقال: صعق الديك وخطيب مصقع وصعقته الصاعقة، وهي في الأصل إما صفة لقصفة الرعد أو للرعد. والتاء للمبالغة كما في الراوية أو مصدر كالعافية والكاذبة.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ نُصِبَ عَلَى الْعَلَّةِ كَقَوْلِهِ:

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادْخَارُهُ وَأَصْفَحُ عَنْ شَمِ الثَّيْمِ تَكْرُمًا

والموت: زوال الحياة، وقيل عَرَضٌ يَصَادُّهَا لِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾^(١)، وَرَدَّ بَأَنَ الْخَلْقِ بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ، وَالْأَعْدَامِ مُقَدَّرَةٌ.

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط، لا يخلصهم الخداع والحيل، والجملة اعتراضية لا محل لها.

(٢٠) ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ استئناف ثان كأنه جواب لمن يقول: ما حالهم مع تلك

الصواعق؟. وكادَ من أفعال المقاربة، وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لَعُرُوض سببه لكنه لم يوجد، إما لَفَقْد شرط أو لوجود مانع، وعسى موضوعة لرجائه، فهي خبر محض ولذلك جاءت متصرفة بخلاف عسى، وخبرها مشروط فيه أن يكون فعلاً مضارعاً تنبيهاً على أنه المقصودُ بالقرب من غير أن، لتوكيدِ القرب بالدلالة على الحال، وقد تدخل عليه حملاً لها على عسى، كما تُحمَلُ عليها بالحذف من خبرها لمشاركتها في أصل معنى المقاربة. والخَطَفُ الأخذ بسرعة وقرىءَ يَخْطِفُ - بكسر الطاء - وَيَخْطَفُ على أنه يختطفُ فنقلت فتحة التاء إلى الخاء ثم أدغمت في الطاء، وَيَخْطِفُ بكسر الخاء لالتقاء الساكنين وإتباع الياء لها، وَيُخْطِفُ ويتخطف.

﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ استئناف ثالث كأنه قيل: ما يفعلون في تارتي خفوق البرق وخُفْيَتِهِ؟ فأجيب بذلك. وأضاء إما متعدُّ والمفعول محذوف بمعنى كلما نور لهم ممشى أخذوه، أو لازم بمعنى كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره، وكذلك أظلم فإنه جاء متعدياً منقولاً من ظلم الليل، ويشهد له قراءة أَظْلِمَ على البناء للمفعول، وقول أبي تمام:

هَمَّا أَظْلَمَا حَالِي ثَمَّةَ أَجْلِيَا ظَلَامَتِيهِمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشِيْبِ

فإنه وإن كان من المحدثين لكنه من علماء العربية، فلا يبعدُ أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. وإنما قال مع الإضاءة ﴿كَلَّمَآ﴾ ومع الإظلام ﴿إِذَا﴾ لأنهم حُرَّاص على المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف. ومعنى قاموا وقفوا، ومنه قامت السوق إذا ركدت، وقام الماء إذا جَمَدَ. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ أي ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد وأبصارهم بوميض البرق لذهب بهما. فحذف المفعول لدلالة الجواب عليه، ولقد تكاثر حذفه في شاء وأراد حتى لا يكاد يُذكر إلا في الشيء المستغرب كقوله:

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ

ولو: من حروف الشرط، وظاهرها الدلالة على انتفاء الأول لانتفاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه. وقرىء: لَذَهَبَ بِأَسْمَاعِهِمْ، بزيادة الباء كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١).

وفائدة هذه الشرطية إبداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير الأسباب في مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته، وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتصريح به والتقرير له. والشيء يختص بالموجود، لأنه في الأصل مصدرٌ شاء أَطْلِقَ بمعنى شاء تارة، وحينئذ يتناول الباري تعالى كما قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شِدَّةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾^(٢) وبمعنى مَشِيءٍ أخرى، أي مشيء وجوده وما شاء الله وجوده فهو موجود في الجملة وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣). ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤) فهما على عمومهما بلا مشنوية.

(١) البقرة: (١٩٥).

(٢) الأنعام: (١٩).

(٣) البقرة: (٢٠٠).

(٤) الزمر: (٦٢).

والمعتزلة لما قالوا الشيء ما يصح أن يوجد وهو يعم الواجب والممكن، أو ما يصح أن يُعلم ويُخبر عنه فيعم الممتنع أيضاً، لزمهم التخصيص بالممكن في الموضوعين بدليل العقل.

والقدرة: هو التمكن من إيجاد الشيء. وقيل صفة تقتضي التمكن، وقيل قدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالى عبارة عن نفي العجز عنه، والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، والقدير الفعال لما يشاء على ما يشاء ولذلك قلما يوصف به غير الباري تعالى، واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يوقع الفعل على مقدار قوته أو على مقدار ما تقتضيه مشيئته. وفيه دليل على أن الحادث حال حدوثه والممكن حال بقاءه مقدوران وأن مقدور العبد مقدور لله تعالى، لأنه شيء وكل شيء مقدور لله تعالى. والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يُشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامّت أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾^(١) الآية، فإنه تشبيه حال اليهود في جهلهم بما معهم من التوراة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة. والغرض منهما تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة بما يكابد من انطفأت ناره بعد إيقادها في ظلمة، أو بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصف وبرق خاطف وخوف من الصواعق. ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾^(٢) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ^(٣) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ^(٤) وقول امرئ القيس^(٥):

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَأْسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعَنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

بأن يشبه في الأول: ذوات المنافقين بالمستوقدين، وإظهارهم الإيمان باستيقاد النار، وما انتفعوا به من حقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقدين، وزوال ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإبقائهم في الخسار الدائم والعذاب السرمد بإطفاء نارهم والذهاب بنورها. وفي الثاني: أنفسهم بأصحاب الصيب وإيمانهم المخالط بالكفر والخداع بصيب فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إنه وإن كان نافعا في نفسه لكنه لما وُجد في هذه الصورة عاد نفعه ضراً ونفاقهم حذراً عن نكايات المؤمنين، وما يطرقون به من سواهم من الكفرة بجعل الأصابع في الآذان من الصواعق حذر الموت، من حيث إنه لا يزد من قدر الله تعالى شيئاً، ولا يخلص مما يريد بهم من المضار وتحيرهم لشدة الأمر وجهلهم بما يأتون ويدرون، بأنهم كلما صادفوا من البرق خفقة انتهزوها فرصة مع خوف أن تُخطف أبصارهم فخطوا خطأ يسيرة، ثم إذا خفي وفتر لمعانه بقوا متقيدين لا حراك بهم. وقيل: شبه الإيمان والقرآن وسائر ما أوتي الإنسان من المعارف التي هي سبب الحياة الأبدية بالصيب الذي به حياة الأرض، وما ارتكبت بها من الشبه المبطله واعترضت دونها من الاعتراضات المشككة بالظلمات، وشبه ما فيها من الوعد والوعيد بالرعد، وما فيها من الآيات الباهرة

(١) الجمعة: ٥٥.

(٢) فاطر: ٢١.

(٣) سبقت ترجمته في سورة الفاتحة آية (٥).

بالبرق، وتصائمهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيفسد أذنيه عنها مع أنه لا خلاص لهم منها وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١)، واهتزازهم لما يلعب لهم من رشيد يدركونه أو رقد تطمح إليه أبصارهم بمشيهم في مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم، وتحيرهم وتوقفهم في الأمر حين تغرض لهم شبهة أو تمن لهم مصيبة بتوقفهم إذا أظلم عليهم.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾^(٢) على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح، ثم إنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة وسدوها عن الفوائد الآجلة، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم، فإنه على ما يشاء قدير.

(٢١) ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدُ الرَّبِّكُمْ﴾ لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هزاً للسامع وتنشيطاً له واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة. ويا: حرف وضع لنداء البعيد وقد يُنادى به القريب تنزيلاً له منزلة البعيد، إما لعظمته كقول الداعي: يا رب ويا الله هو أقرب إليه من حبل الوريد، أو لغفلته وسوء فهمه، أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه. وهو مع المنادى جملة مفيدة، لأنه نائب مناب فعل. وأي: جُعل وُضلة إلى نداء المعرف باللام، فإن إدخال «يا» عليه متعذر لتعذر الجمع بين حرفي التعريف فإنهما كمثلين وأُعطي حكم المنادى وأجري عليه المقصود بالنداء وصفاً موضحاً له، والتزام رفعه إشعاراً بأنه المقصود، وأقحمت بينهما هاء التنبيه تأكيداً وتعويضاً عما يستحقه - أي من المضاف إليه -. وإنما كثر النداء على هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده - من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا إليها ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون - حقيق^(٣) بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ. والجُموعُ وأسمائها المحلاة باللام للعموم حيث لا عهد، ويدل عليه صحة الاستثناء منها، أو التأكيد بما يفيد العموم كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾^(٤) واستدلال الصحابة بعمومها شائعاً وذائعاً، فالناسُ يعمُّ الموجودين وقت النزول لفظاً ومنً سبوح، لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شاملٌ للقبليين ثابت إلى قيام الساعة إلا ما خصه الدليل. وما روي عن علقمة^(٥) والحسن^(٦) أن كل شيء نزل فيه.

(١) البقرة: «١٩».

(٢) البقرة: «٢٠».

(٣) حقيق: خير كل ما نادى.

(٤) الحجر: «٣٠».

(٥) علقمة هو: علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك التَّخَمي الكوفي، ولد في حياة رسول الله ﷺ وهو من أشهر رواة عبدالله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. قال أبو المثنى: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبدالله، أشبه الناس به سمياً وهدياً. وقال داود بن أبي هند: قلت: لشعبة: أخبرني عن أصحاب عبدالله، قال: كان علقمة أنظر القوم به، وكان رحمه الله ثقة مأموناً. على جانب عظيم من الورع والصلاح، قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير، وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال مرة الهمداني: كان علقمة من الربانيين، قال أبو نعيم: مات سنة (٦١هـ) وعمره تسعون سنة [تهذيب التهذيب (٧/٢٤٤ رقم ٤٨٥)].

(٦) الحسن البصري: هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، ويقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فمكي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فمدني^(١)، إن صح رفعه فلا يوجب تخصيصه بالكفر ولا أمرهم بالعبادة، فإن المأمور به هو القدر المشترك بين بدء العبادة والزيادة فيها والمواظبة عليها، فالمطلوب من الكفر هو الشروع فيها بعد الإتيان بما يجب تقديمه من المعرفة والإقرار بالصانع، فإن من لوازم وجوب الشيء وجوب ما لا يتم إلا به، وكما أن الحدث لا يمنع وجوب الصلاة فالكفر لا يمنع وجوب العبادة، بل يجب رفعه والاشتغال بها عقيه. ومن المؤمنين^(٢) ازديادهم وثباتهم عليها، وإنما قال ﴿رَبُّكُمْ﴾ تنبيهاً على أن الموجب للعبادة هي الربوبية.

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة جرت عليه تعالى للتعظيم والتعليل، ويحتمل التقييد والتوضيح إن خص الخطاب بالمشركون، وأريد بالرب أعم من الرب الحقيقي والآلهة التي يسمونها أرباباً. والخلق إيجاد الشيء على تقدير واستواء، وأصله التقدير يقال: خلق الثعل إذا قدرها وسواها بالمقياس.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تناول كل ما يتقدم الإنسان بالذات أو بالزمان. منصوب معطوف على الضمير المنصوب في ﴿خَلَقَكُمْ﴾. والجملة أخرجت مخرج المقرّر عندهم، إما لاعترافهم به كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾^(٣) أو لتمكّنهم من العلم به بأدنى نظر. وقرىء «مَنْ قَبْلَكُمْ» على إقحام الموصول الثاني بين الأول وصليته تأكيداً، كما أفحم جرير في قوله:

يا تيم تيم عدي لا أبا لكمو

تيماً الثاني بين الأول وما أضيف إليه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿اعْبُدُوا﴾ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين جوار الله تعالى. نبه به على أن التقوى تنتهي درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى إلى الله، وأن العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته، ويكون ذا خوف ورجاء قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾^(٤) ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ

= مولى جميل بن قُطَبة، وأمه خيرة مولاة أم سلمة، نشأ بالمدينة وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان وسمعه يخطب مرات، وكان يوم الدار ابن أربع عشرة سنة ثم كبر ولازم الجهاد ولازم العلم والعمل، وقال عنه ابن سعد «كان جامعاً عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً... وما أرسله فليس هو بحجة» وقال الذهبي «هو مدلس فلا يحتج بقوله عمن لم يدركه، وقد يدلس عمن لقيه ويسقط من بينه وبينه، ولكنه حافظ علامة من بحور العلم فقيه النفس، كبير الشأن عديم النظير، مليح التذكير، بليغ الموعظة، رأس في أنواع الخير» مات سنة عشرة ومئة وله ثمان وثمانون سنة [تذكرة الحفاظ (١/٧١ - ٧٢ رقم ٦٦) وأخبار القضاة (٢/٣ - ١٥)].

(١) صحح ابن حجر هذه الرواية عن علقمة، لكنه قال بأن هذا محمول على أن المراد بالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، لأن الغالب على أهل مكة كان الكفر فخطبوا «يا أيها الناس» والغالب على أهل المدينة الإيمان فخطبوا «يا أيها الذين آمنوا» (انظر الكافي الشاف ص ٥ وهذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٥٢٢) في فضائل القرآن.

(٢) أي والمطلوب من المؤمنين، فهي عطف على قوله: فالمطلوب من الكفار.

(٣) الزخرف: «٨٧».

(٤) السجدة: «١٦».

عَذَابُهُ^(١). أو من مفعول^(٢) ﴿خَلَقَكُمْ﴾ والمعطوف عليه على معنى أنه خلقكم ومن قبلكم في صورة من يرجي منه التقوى لترجح أمره باجتماع أسبابه وكثرة الدواعي إليه. وغلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمعني على إرادتهم جميعاً. وقيل تعليل للخلق، أي خلقكم لكي تتقوا كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣). وهو ضعيف إذ لم يثبت في اللغة مثله^(٤).

والآية تدل على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى والعلم بوحانيته واستحقاقه للعبادة النظر في صنعه والاستدلال بأفعاله، وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثواباً، فإنها لما وجبت عليه شُكراً لما عده عليه من النعم السابقة فهو كأجير أخذ الأجر قبل العمل.

(٢٢) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا﴾ صفة ثانية، أو مدح منصوب، أو مرفوع، أو مبتدأ خبره فلا تجعلوا. وجعل من الأفعال العامة يجيء على ثلاثة أوجه: بمعنى صار، وطفق فلا يتعدى كقوله:

فَقَدْ جَعَلْتُ قُلُوصَ بَنِي سُهَيْلٍ مِنْ الْأَكْشَوَارِ مَرْتَعًا قَرِيبًا
وبمعنى أوجد فيتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٥) وبمعنى صير، ويتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا﴾^(٦) والتصيير يكون بالفعل تارة، وبالقول أو العقد أخرى. ومعنى جعلها فراشاً أن جعل بعض جوانبها بارزاً ظاهراً عن الماء - مع ما في طبعه من الإحاطة بها - وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيئة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفرش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة، لأن كُرِّيَّة شكلها مع عظم حجمها واتساع جرمها لا تأبى الافتراش عليها.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ قُبَّة مضروبة عليكم. والسماء اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد كالدينار

(١) الإسراء: «٥٧».

(٢) عطف على قوله: حال من الضمير، بمعنى: حال من الضمير أو من مفعول خلقكم والمعطوف عليه.

(٣) الذاريات: «٥٦».

(٤) يدل المعنى الوضعي لكلمة «لعل» على إنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول. وهو إما محبوب فيسمى ترجيحاً أو مكروه فيسمى إشفاقاً. وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل، وهو إما من جهة المتكلم كقولك: لعل الله يرحمني، أو من جهة المخاطب كقوله تعالى: «فقلوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى» - طه: ٤٤ - تنزيلاً له منزلة المتكلم. وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز إيداناً بأن هذا الأمر حقيق بالوقوع من غير أن يعتبر أن هناك توقع الفعل من متوقع أصلاً.

وهذا المعنى إن روعي في الآية في قوله «لعلكم تتقون» فيستحيل إرادته لامتناع التوقع من علام الغيوب فيصار للاستعارة بتشبيه طلبه تعالى من عباده التقوى برجاء الراجي من المرجو منه أمراً هيئ الحصول في كون متعلق كل منهما متردداً بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة في الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع، أو يصار إلى التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى إياهم مستعدين للتقوى وطلبه إياها منهم وهم متمكنون منها، ويتنزع من ذلك هيئة متشبهه بهيئة منتزعة من الراجي ورجائه منه شيئاً سهل المنال. (أبو السعود ٥٩/١).

(٥) الأنعام: «١».

(٦) البقرة: «٢٢».

والدرهم، وقيل: جمع سماء. والبناء مصدر، سُمِّيَ به المبنى بيتاً كان أو قبة أو خِباء، ومنه بنى على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خِباءً جديداً.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ عطفٌ على جَعَلَ، وخروج الثمار بقدرة الله تعالى ومشيته، ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان، بأن أجرى عادته بإفاضة صورها وكيفياتها على المادة الممتزجة منهما، أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار، وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشائها مدرجاً من حال إلى حال صنائع وحكم يجدد فيها لأولي الأبصار عبراً، وسكوناً إلى عظيم قدرته ليس في إيجادها دفعة، و﴿مِنْ﴾ الأولى للابتداء سواء أريد بالسماء السحاب فإن ما علاك سماء، أو الفلك فإن المطر يتدلى من السماء إلى السحاب ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه الظواهر، أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض إلى جو الهواء فتتعد سحاباً مائطراً. و﴿مِنْ﴾ الثانية للتبويض بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾^(١) واكتناف المنكرين له، أعني ماء ورزقاً، كأنه قال: وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء الماء كله، ولا أخرج بالمطر كل الثمرات، ولا جعل كل المرزوق ثماراً. أو للتبيين. ورزقاً مفعول بمعنى المرزوق كقولك أنفقت من الدراهم ألفاً. وإنما ساغ الثمرات والموضع موضع الكثرة، لأنه أراد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك أدركت ثمرة بستانه ويؤيده قراءة من قرأ: «من الثمرة» على التوحيد، أو لأن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(٢) وقوله: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٣)، أو لأنها لما كانت محلاة باللام خرجت عن حد القلة. و﴿لَكُمْ﴾ صفة رزقاً إن أريد به المرزوق ومفعوله إن أريد به المصدر كأنه قال: رزقاً إياكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ متعلق باعبدوا على أنه نهى معطوف عليه، أو نفى منصوب بإضمار أن جواب له أو بلعل على أن نَصَبَ تَجْعَلُوا نَصَبَ فَاطَّلِعَ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّيْ أَتْلُغَ الْأَسْبَابَ﴾^(٤) أَسْمَرَاتٍ فَاطَّلِعَ^(٥) إلحاقاً لها بالأشياء الستة لاشتراكها في أنها غير موجبة^(٥)، والمعنى: إن تتقوا لا تجعلوا لله أنداداً، أو بالذي جعل إن استأنفت به على أنه نهى وقَعَ خبراً على تأويل مقول فيه: لا تجعلوا، والفاء للسببية أدخلت عليه لتَضْمَنُ المبتدأ معنى الشرط، والمعنى: أن من خصكم بهذه النعم الجسام والآيات العظام ينبغي أن لا يُشْرَكَ به. والنذ: المثل المناوئ، قال جرير:

(١) فاطر: «٢٧».

(٢) الدخان: «٢٥».

(٣) البقرة: «٢٢٨».

(٤) غافر: «٣٧».

(٥) الأشياء الستة هي: الأمر والنهي والاستفهام والعرض والتمني والنفي، والمراد بكونها غير موجبة: عدم استفادة شيء لشيء من تلك الأمور. وفي العبارة تسامح والأولى أن يقال: لاشتراكها في عدم الإيجاب (حاشية الكازروني ١/١١٠).

أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نَدًّا وَمَاتِيمٌ لِّذِي حَسَبٍ نَّذِيرٌ

مِنْ نَّذٍ يَنْذُ نَدُودًا: إذا نفر، ونادذتُ الرَّجُلَ خالفته، خُصَّ بالمخالف المماثل في الذات كما خُصَّ المساوي بالمماثل في القدر. وتسمية ما يعبد المشركون من دون الله أنداداً وما زعموا أنها تُساويه في ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه في أفعاله، لأنهم لما تركوا عبادته إلى عبادتها وسئوها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله وتمنحهم ما لم يُريد الله بهم من خير، فتهكّم بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أنداداً لمن يُمتنع أن يكون له نذ^(١). ولهذا قال موحّد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل^(٢):

أَرَبًا وَاحِدًا أَمْ أَلْفُ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمتِ الْأُمُورُ
تَرَكْتَ اللَّاتَ وَالْعَزَى جَمِيعاً كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الْبَصِيرُ

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حال من ضمير فلا تجعلوا، ومفعول تعلمون مطروح، أي: وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأي، فلو تأملتم أدنى تأمل اضطر عقلكم إلى إثبات موجدٍ للممكنات منفردٍ بوجود الذات متعالٍ عن مشابهة المخلوقات أو منويٍّ وهو أنها لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله كقوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ﴾^(٣) وعلى هذا فالمقصود منه التوبيخ والشرِب، لا تقييد الحكم وقصره عليه، فإن العالمَ والجاهل المتمكّن من العلم سواء في التكليف.

واعلم أن مضمون الآيتين هو الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، والنهي عن الإشراك به تعالى، والإشارة إلى ما هو العلة والمقتضى. وبيانه أنه رغب الأمر بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلة لوجوبها، ثم بيّن ربوبيته بأنه تعالى خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المَقَلَّة والمَظَلَّة والمطاعم والملابس، فإن الثمرة أعم من الطعام، والرزق أعم من المأكول والمشروب. ثم لما كانت هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته تعالى رتب تعالى عليها النهي عن

(١) في الآية لفات بيانية أوردها أبو السعود حيث جاء في تفسيره: أنه قيل: أنداداً - بلفظ الجمع - وذلك باعتبار الواقع فكانوا يعبدون أنداداً لا باعتبار أن النهي عن الجمع دون الأفراد وأوقع الاسم الجليل موقع الضمير فقال «الله» ولم يقل: فلا تجعلوا له وذلك لتعيين المعبود بالذات إثر تعيينه بالصفات وتعليل الحكم بوصف الألوهية التي عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة والإيدان باستتباعها لسائر الصفات. والفاء للإشعار بعلة ما قبلها من الصفات المجرة عليه تعالى للنهي أو الانتهاء أو لأن مآل النهي هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها.. (أبو السعود ٦٢/١).

(٢) زيد بن عمرو بن نفيل: هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، أحد الحكماء، لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها، ورحل إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها، فلم تستلمه اليهودية ولا النصرانية، فعاد إلى مكة يعبد الله على دين إبراهيم وجاهر بعداء الأوثان، فتألب عليه جمع من قريش، فأخرجوه من مكة، فانصرف إلى حراء، وكان لا يدخل مكة إلا سراً. رآه النبي ﷺ قبل النبوة وتوفي قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين. وله شعر قليل. [الأعلام للزركلي (٦٠/٣)].

(٣) الروم: «٤٠».

الإشراك به، ولعله سبحانه أراد من الآية الأخيرة - مع ما دل عليه الظاهرُ وسبق فيه الكلام - الإشارة إلى تفصيل خلق الإنسان وما أفاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل، فَمَثَلَ البدن بالأرض، والنفسَ بالسما، والعقلَ بالماء، وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصلة بواسطة استعمال العقل للحواس وازدواج القوى النفسانية والبدنية بالثمرات المتولدة من ازدواج القوى السماوية الفاعلة والأرضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار، فإن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حد مطلعاً.

(٢٣) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ لما قرّر وحدانيته تعالى وبين الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عقيبه ما هو الحجة على نبوة محمد ﷺ، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذت فصاحة كل منطوق، وإفحامه من طولب بمعارضته من مصاقع الخطباء من العرب العزباء مع كثرتهم وإفراطهم في المضادة والمضارة، وتهالكهم على المعازة والمعازة، وعُرف ما يتعرف به إعجازه ويَتَيَقَّن أنه من عند الله كما يدعيه. وإنما قال ﴿وَمَا نَزَّلْنَا﴾ لأن نزوله نجماً منجماً بحسب الوقائع على ما ترى عليه أهل الشعر والخطابة مما يُريبهم، كما حكى الله عنهم فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾^(١). فكان الواجب تحديدهم على هذا الوجه إزاحةً للشبهة وإلزاماً للحجة. وأضاف العبد إلى نفسه تعالى تنويهاً بذكره وتنبيهاً على أنه مختص به مُنفَادٌ لِحُكْمِهِ تعالى. وقرئ عبادنا: يريد محمداً ﷺ وأُمَّته. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أفلها ثلاث آيات، وهي إن جُعِلَتْ واوها أصلية منقولة من سور المدينة لأنها محيطة بطائفة من القرآن مُفَرَّزةً محوَّزةً على حيالها أو محتوية على أنواع من العلم احتواءً سور المدينة على ما فيها، أو من السورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

ولرَهْطٍ حَرَابٍ وَقَدْ سُورَةٌ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غَرَابُهَا بِمَطَارٍ

لأن السورَ كالمنازل والمراتب يترقى فيها القارئ، أولها مراتب في الطول والقصر والفضل والشرف وثواب القراءة. وإن جعلت مُبدلةً من الهمزة فمن السورة التي هي البقية والقطعة من الشيء. والحكمة في تقطيع القرآن سوراً: إفراؤ الأنواع، وتلاحق الأشكال، وتجابوب النظم، وتشطيط القارئ، وتسهيل الحفظ، والترغيب فيه، فإنه إذا ختم سورةً نَفَسَ ذلك عنه، كالمسافر إذا عَلِم أنه قطع ميلاً أو طوى بريداً، والحافظ متى حَدِّقَهَا اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها، فَعَظُمَ ذلك عنده وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد^(٢).

﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ صفة سورة أي: بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا، ومن للتبعيض أو للتبيين. وزائدة عند الأخفش أي بسورة مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحُسن النظم. أو لعبدنا، ومن

(١) الفرقان: «٣٢».

(٢) صدر الآية بقوله: «وإن كنتم» ولم يقل: وإن ارتبتم... للمبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه، حسبما نطق به في قوله تعالى: «لا ريب فيه» - البقرة «٢» - وللإشعار بأن ذلك الريب إن وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية (أبو السعود ٦٣/١). وفي ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لأوامره تعالى مالا يخفى. (أبو السعود ٦٤/١).

للابتداء أي: بسورة كائنة ممن هو على حاله عليه الصلاة والسلام من كونه بشراً أمياً لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم. أو صلة فأتوا، والضمير للعبد صلى الله عليه وسلم، والردُّ إلى الْمُتَزَّلِ أَوْجَهُ لَأَنَّهُ الْمَطَابِقُ لقوله تعالى: ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِّن مِّثْلِهِ﴾^(١) ولسائر آيات التحدي، ولأن الكلام فيه لا في المنزَّل عليه فَحَقُّهُ أَنْ لَا يَنْفَكَ عَنْهُ لِيَتَسَّقِ التَّرْتِيبُ وَالنَّظْمُ، ولأن مخاطبة الجَمِّ الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحدٌ من أبناء جلدتهم أبلغ في التجدي من أن يقال لهم: ليأت بنحو ما أوتي به هذا آخَرُ مِثْلُهُ، ولأنه معجز في نفسه لا بالنسبة إليه لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾^(٢)، ولأن رده إلى عبدنا يومهم إمكان صدوره ممن لم يكن على صفته، ولا يلائمه قوله تعالى.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فإنه أمر بأن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم. والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أو الإمام. وكأنه سمي به لأنه يَخْضُرُ النوادي وَثَبْرُمُ بِمَخْضَرِهِ الأمور، إذ التركيب للحضور، إما بالذات أو بالتصور، ومنه قيل: للمقتول في سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه، أو الملائكة حضروه. ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب، لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أي: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للرتب فقليل: زيد دون عمرو أي: في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي أمر إلى آخر، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. قال أمية^(٤):

يا نفسُ مَالِكِ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ

أي إذا تجاوزت وقاية الله فلا يقيق غيره، و﴿مِنْ﴾ متعلقة بادعوا. والمعنى وادعوا للمعارضة من حضرهم، أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله. أو: وادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله فإنه من دَيَّنَ المبهوت العاجز عن إقامة الحجة. أو بشهادتكم أي الذين اتخذتموهم من دون الله أولياء وآلهة، وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة. أو الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى على زعمكم من قول الأعشى^(٥):

(١) البقرة: (٢٣).

(٢) الإسراء: (٨٨).

(٣) آل عمران: (٢٨).

(٤) أمية: واسمه: عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، وقد صدقه النبي ﷺ في بعض شعره.

وقال ابن قتيبة في طبقات الشعراء - ٣٢٩ - وكان أمية يُخبر أن نبياً يخرج قد أظَلَّ زمانه، وكان يؤمل أن يكون ذلك النبي فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً.

ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً في التاسعة وقيل: إنه مات سنة تسع من الهجرة في الطائف كافراً قبل أن يسلم الثقفيون. [خزانة الأدب] للبغدادي (١/٢٤٧ - ٢٥٣).

(٥) الأعشى هو: ميمون بن قيس بن جندل. من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، كان =

النَّاسِ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا

ترك القذى من دونها وهي دونه

ليعينوكم وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد في معارضة القرآن العزيز غاية التبكيت والتهكم بهم. وقيل: من دون الله أي من دون أوليائه، يعني فصحاء العرب ووجوه المشاهد ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله، فإن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشهد بصحة ما اتضح فسادُه وبأن اختلأله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه من كلام البشر، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله. والصدق: الإخبار المطابق، وقيل: مع اعتقاد المخبر أنه كذلك عن دلالة أو أمانة، لأنه تعالى كذب المنافقين في قولهم: إنك لرسول الله، لما لم يعتقدوا مطابقتها، وردَّ بصرف التكذيب إلى قولهم نشهد، لأن الشهادة إخبار عما علمه وهم ما كانوا عالمين به.

(٢٤) ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ لما بين لهم ما يتعرفون به أمر الرسول ﷺ وما جاء به وميز لهم الحق عن الباطل، رتب عليه ما هو كالفضل لك له^(١)، وهو أنكم إذا اجتهدتم في معارضته وعجزتم جميعاً عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، ظهر أنه معجز والتصديق به واجب، فآمنوا به واتقوا العذاب المعد لمن كذب، فعبر عن الإتيان المكثف بالفعل الذي يعم الإتيان وغيره إيجازاً، ونزل لازماً الجزاء منزلة على سبيل الكناية تقريراً للمكنى عنه وتهويلاً لشأن العناد وتصريحاً بالوعيد مع الإيجاز، وصدر الشرطية بأن التي للشك والحال يقتضي إذا الذي للوجوب، فإن القائل سبحانه وتعالى لم يكن شاكاً في عجزهم، ولذلك نفى إتيانهم مُعْتَرِضاً بين الشرط والجزاء تهكماً بهم وخطاباً معهم على حسب ظنهم، فإن العجز قبل التأمل لم يكن مُحَقَّقاً عندهم. وتفعلوا: جزم يلزم لأنها واجبة الأعمال المختصة بالمضارع متصلة بالمعمول، ولأنها لما صيرته ماضياً صارت

= كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعراً منه وكان يغني شعره فسمي «صنّاجة العرب»، قال البغدادى كان يفد على الملوك ولا سيما الملوك الفرس ولذلك كثرت الألفاظ الفارسية في شعره، عاش عمراً طويلاً وأدرك الإسلام ولم يسلم ولقب بالأعشى لضعف بصره وعي في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية «منفوحة» باليمامة قرب مدينة «الرياض» وفيها داره وبها قبره، أخباره كثيرة توفي عام سبعة هجرية.
[الأعلام للزركلي (٣٤١/٧)].

(١) الفذلّة تعني التعليل والاستنتاج، بمعنى أنه إذا ثبت عجزكم فذلك لأنه معجز فآمنوا به.

كالجزء منه، وحرفُ الشرط كالداخل على المجموع فكأنه قال: فإن تَرَكْتُمُ الفعل، ولذلك ساءَ اجتماعُهُما. وَلَئِنْ كَلَّا في نفي المستقبل غيرَ أنه أبلغُ وهو حرف مقتَضِبٌ عند سيبويه والخليل في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الأخرى أصلُه لا أَنْ، وعند الفراء^(١) لا فأبدلت أَلْفُها نوناً. والوقود - بالفتح - ما توقّد به النار، وبالضمُّ المضدّر وقد جاء المصدر بالفتح قال سيبويه: وسمعنا من يقول وَقَدَّتْ النار وقوداً عالياً، واسمٌ بالضمُّ ولعله مصدر سُئِيَ به كما قيل: فلان فَخَرَّ قومه وزَيْن بلده، وقد قرئ به والظاهر أن المراد به الاسم، وإن أريد به المصدر فعلى حذف مضاف أي: وقودها احتراق الناس. والحجارة: وهي جمع حجر، كَجِمَالَةٍ جمع جمل وهو قليل غير منقاس، والمراد بها الأصنام التي نَحَتُّوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعاً في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المَصْأَرِ لمكانتهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^(٢). عَذَّبُوا بما هو منشأ جُزْمِهِمْ كما عذب الكافرون بما كنزوه، أو بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادةً في تحسرهم. وقيل: الذهب والفضة التي كانوا يكتزونها ويغترون بها، وعلى هذا لم يكن لتخصيص إعداد هذا النوع من العذاب بالكفار وجه، وقيل: حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وإبطالٌ للمقصود، إذ الغرض تهويل شأنها وتفاقمُ لَهَبِها بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها، والكبريت تتقد به كل نار وإن ضَعُفَتْ، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلعله عني به أن الأحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران. ولما كانت الآية مدنيةً نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالى في سورة التحريم ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٣) وسمعوه، صح تعريفُ النار ووقوعُ الجملة صلةً بإزائها، فإنها يجب أن تكون قصة معلومة.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ حيث لهم وجعلت عِدَّةٌ لعذابهم. وقرئ: أعتدت من العتاد بمعنى العدة، والجملة استئناف، أو حال بإضمار قد من النار لا الضمير الذي في وقودها، وإن جعلته مصدراً للفصل بينهما بالخبر. وفي الآيتين ما يدل على النبوة من وجوه:

الأول: ما فيهما من التحدي والتحريض على الجِدِّ وبذل الوُسْع في المعارضة بالتقريع والتهديد وتعليق الوعيد على عدم الإتيان بما يعارضُ أقصرَ سورة من سور القرآن، ثم إنهم مع كثرتهم واشتغالهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا لمعارضته، التجؤوا إلى جلاء الوطن وبذل المُهَج.

والثاني: أنهما يتضمنان الإخبار عن الغيب على ما هو به، فإنهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الذائبن عنه في كل عصر.

(١) الفراء هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة (١٤٤هـ) وتوفي في طريق مكة عام (٢٠٧هـ)، وكان مع تقدمه في اللغة فقيهاً متكلماً. . ويميل للاعتزال وله تفسير «معاني القرآن» (الأعلام ١٤٦/٨).

(٢) الأنبياء: (٩٨).

(٣) التحريم: (٦).

والثالث: أنه صلى الله عليه وسلم لو شك في أمره لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة، مخافة أن يُعَارَضَ فتُدْحَضَ حجته. وقوله تعالى ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ دل على أن النار مخلوقة مُعَدَّةٌ الآن لهم^(١).

(٢٥) ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾^(٢) عطف على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه، على حال من كفر به وكيفية عقابه، على ما جرت به العادة الإلهية من أن يُشَفَّعَ الترغيب بالترهيب، تنشيطاً لاكتساب ما ينجي وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي، لا عطف الفعل نفسه حتى يجب أن يطلب له ما يشاكلة من أمر أو نهى فيعطف عليه أو على فاتقوا، لأنهم إذا لم يأتوا بما يعارضه بعد التحدي ظهر إعجازه، وإذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقاب، ومن آمن به استحق الثواب، وذلك يستدعي أن يخوف هؤلاء ويبشر هؤلاء، وإنما أمر الرسول ﷺ، أو عالم كل عصر، أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم. ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة، تفخيماً لشأنهم وإيداناً بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهناؤا بما أعد لهم.

وقرىء وبُشِّرَ - على البناء للمفعول - عطفاً على أَعَدَّتْ فيكون استئنافاً. والبشارة: الخبر السار فإنه يُظهِر أثر السرور في البشارة، ولذلك قال الفقهاء البشارة: هي الخبر الأول، حتى لو قال الرجل لعبيده: من بشرنى بقدوم ولدي فهو حر، فأخبروه فرأى عتق أولهم، ولو قال: من أخبرني، عتقوا جميعاً، وأما قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣) فعلى التهكم أو على طريقة قوله: تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِنْعٌ.

والصالحات جمع صالحة وهي من الصفات الغالبة التي تجري مجرى الأسماء كالحسنة، قال الحطيطي^(٤):

كَيْفَ الْهَجَاءُ وَمَا تَنَفَّكَ صَالِحَةٌ مِنْ آلٍ لَمْ يَظْهَرْ الْغَيْبُ تَأْيِينِي

وهي من الأعمال ما سوَّغه الشرع وحسنه، وتأنيتها على تأويل الخصلة أو الخلَّة، واللام فيها للجنس، وعطف العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليهما إشعاراً بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين والجمع بين الوصفين، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أسبق، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء بأس لا بناء عليه، ولذلك قلما دُكِّرا منفردين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان، إذ الأصل أن الشيء لا يُعْطَفُ على نفسه ولا على ما هو داخل فيه.

(١) أظهر اسم الكافرين ولم يقل: أعدت لمن لم يؤمن ولم يتق النار أو أعدت لهم لأجل أن يذمهم ويعلل الحكم بكفرهم (أبو السعود ٦٨/١).

(٢) لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين للجمع بين الترغيب والترهيب وتنشيط المؤمنين للطاعة (فتح القدير ٥٤/١).

(٣) آل عمران: ٢١٨.

(٤) الحطيطي: هو جَزُول بن أوس وكنيته أبو مليكة واختلف في تلقيه بالحطيطي فقليل لقب بذلك لقصره، وهو أحد فحول الشعراء، مُتَصَرِّف في فنون الشعر: من المديح، والهجاء، والفخر، وكان سفيهاً شريفاً، ينتسب إلى القبائل وكان إذا غضب على قبيلة انتمى إلى أخرى.

[خزانة الأدب للبغدادي (٢/٤٠٦ - ٤٠٧)].

﴿أَنْ لَّهُمْ﴾ منصوبٌ بنزع الخافض وإفضاء الفعل إليه، أو مجرور بإضماره مثل: الله لأفعلن. والجَنَّةُ: المَرَّةُ من الجَنِّ وهو مصدر جَنَّهُ إذا ستره، ومدار التركيب على الستر، سمي بها الشجرُ المظللُ لالتفافِ أغصانه للمبالغة كأنه يَسْتُرُ ما تحته سِتْرَةٌ واحدة قال زهير^(١):

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرَبِي مَقْتَلَةٌ مِنْ النَوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُفَا

أي نخلًا طويلاً، ثم البستانُ لما فيه من الأشجار المتكاثفة المظللة، ثم دارُ الثواب لما فيها من الجنان، وقيل: سميت بذلك لأنه ستر في الدنيا ما أُعِدَّ فيها للبشر من أفنان النعم كما قال سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٢) وجمعُها وتنكيرُها لأنَّ الجنان على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما سبع: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودارُ الخلد، وجنة المأوى، ودارُ السلام، وَعِلْيُون، وفي كل واحدة منها مراتبٌ ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمَّال. واللامُ في ﴿لَهُمْ﴾ تدل على استحقاقهم إياها، لأجل ما ترتب عليه من الإيمان والعمل الصالح، لا لذاته فإنه لا يكافئُ النعم السابقة فضلاً عن أن يقتضي ثواباً وجزاء فيما يُسْتَقْبَل، بل يجعل الشارع ومقتضى وعده تعالى، لا على الإطلاق، بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمنٌ لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾^(٣) وقوله تعالى لنبية ﷺ ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(٤) وأشباه ذلك. ولعله سبحانه وتعالى لم يقيّد ههنا استغناء بها^(٥).

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت أشجارها، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها، وعن مسروق^(٦) أنهار الجنة تجري في غير أخدود. واللامُ في الأنهار للجنس كما في قولك لفلان: بستانٌ في الماء الجاري، أو للعهد، والمعهود: هي الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾^(٧) الآية. والنَّهْرُ - بالفتح والسكون - المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات، والتركيبُ للسعة، والمرادُ بها ماؤها على الإضمار أو المجاز أو المجاري أنفسها.

(١) زهير بن أبي سلمى: تقدم ترجمته في سورة البقرة الآية (١٨).

(٢) السجدة: (١٧).

(٣) البقرة: (٢١٧).

(٤) الزمر: (٦٥).

(٥) أي لم يقيّد البشارة بالجنة لمن آمن واستمر إيمانه حتى وفاته للاستغناء عنها.

(٦) مسروق: هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي العابد، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم. وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وكان شريح القاضي يستشيرُهُ في معضلات المسائل. وقال علي بن المديني ما أقدم على مسروق من أصحاب عبدالله أحداً.

وقال ابن معين: ثقة، لا يسأل عن مثله. وله أحاديث صائحة وقد أخرج له الستة. هذا وقد روى عن شعبة عن أبي إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجداً. وكانت وفاته سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر.

[تهذيب التهذيب (١٠/١٠٠ رقم ٢٠٦)].

(٧) محمد: (١٥).

وإسنادُ الجري إليها مجازٌ كما في قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَاقَهَا﴾^(١) الآية.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا﴾ صفة ثانية لجنت، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة. كأنه لما قيل: إن لهم جنات. وقع في خلد السامع أثمارها مثل ثمار الدنيا، أو أجناسٍ آخرَ فازيح بذلك. ﴿كُلَّمَا﴾ نصب على الظرف، و﴿رِزْقًا﴾ مفعول به، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال، وأصل الكلام ومعناه: كلَّ حين رزقوا مرزوقاً مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة، قيَّد الرزق بكونه مبتدأ من الجنات، وابتدأه منها بابتدائه من ثمرة، فصاحبُ الحال الأولى رزقاً وصاحب الحال الثانية ضميره المستكن في الحال، ويحتمل أن يكون من ثمرة بياناً تقدم كما في قولك: رأيت منك أسداً، وهذا إشارة إلى نوع ما رزقوا كقولك مشيراً إلى نهر جار: هذا الماء لا ينقطع، فإنك لا تعني به العينَ المشاهدة منه بل النوع المعلوم المستمر بتعاقب جريانه وإن كانت الإشارة إلى عينه، فالمعنى هذا مثلُ الذي رزقنا، ولكن لما استحكَم الشبهُ بينهما جعل ذاته ذاتَه كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا في الدنيا، جعلَ ثمرَ الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يُرى، فإن الطبايع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غيره، ويتبين لها مزيتها وكُنَّة النعمة فيه، إذ لو كان جنساً لم يُعْهَد ظنُّ أنه لا يكون إلا كذلك، أو في الجنة لأن طعامها متشابهة في الصورة، كما حكى ابن كثير^(٢) عن الحسن رضي الله عنهما: أن أحدهم يؤتى بالصَّخْفَةِ فيأكل منها، ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول ذلك، فيقول المَلَكُ: كُلْ فاللون واحد والطعم مختلف^(٣). أو كما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليتناولُ الثمرة ليأكلها فما هي بواصلة إلى فيه، حتى يُبَدِّل الله مكانها مثلها»^(٤). فلعلهم إذ رأوها على الهيئة الأولى قالوا

(١) الزلزلة: (٢).

(٢) ابن كثير: هو يحيى بن أبي كثير الطائي، ثقة ثبت، من الطبقة الخامسة، توفي (١٣٢هـ) (انظر التقريب ٣٥٦/٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٧١/١) عن يحيى بن أبي كثير. وفيه شيخ من المصيبة لم يسم وأورده السيوطي في «الدر المثور» (٩٦/١).

● ويحيى بن أبي كثير الطائي، أو نصر اليمامي، ثقة ثبت، من الطبقة الخامسة توفي سنة (١٣٢هـ) [التقريب ٣٥٦/٢].

(٤) أخرج الطبراني في الكبير (١٠٢/٢ رقم ١٤٤٩) والبخاري (٢٠٠/٤) رقم (٣٥٣٠) كلاهما من طريق ربحان بن سعد، عن عباد بن منصور، عن أيوب عن أبي قلابة، عن أبي أسماء عن شوبان قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ الرجل إذا نزع من الجنة عادت مكانها أخرى» وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤١٤/١٠) وقال: رجال الطبراني وأحد إسنادي البخاري ثقات قلت: وفيه عباد بن منصور: صدوق يدلّس وتغير بآخره [التقريب ٣٩٣/١]، وأخرجه البخاري (٢٠٠/٤) رقم (٣٥٣٠) من طريق إسحاق بن إدريس، ثنا أبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي أسماء عن شوبان عن النبي ﷺ قال بنحوه وفيه إسحاق بن إدريس: ضعيف [انظر المجروحين (١٣٥/١)] والجرح والتعديل (٢١٣/٢).

والخلاصة أن الأثر يرتقي إلى درجة الحسن لغيره بمتابعة أحد الوجهين للآخر.

ذلك، والأول أظهر لمحافظة على عموم ﴿كَلَّمَ﴾ فإنه يدل على ترديدهم هذا القول كل مرة رزقوا، والداعي لهم إلى ذلك قَرُطُ استغرابهم وتبجحهم بما وَجَدُوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة.

﴿وَأَتَوَاهُ مُمْتَسِكِينَ﴾ اعتراض يقرر ذلك، والضمير على الأول راجع إلى ما رزقوا في الدارين فإنه مدلول عليه بقوله عز من قائل ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ونظيره قوله عز وجل ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾^(١) أي بجنسي الغني والفقير، وعلى الثاني إلى الرزق. فإن قيل: التشابه هو التماثل في الصفة، وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس في الجنة من أطعمة إلا الأسماء^(٢). قلت: التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم دون المقدار والطعم، وهو كاف في إطلاق التشابه. هذا: وإن للآية الكريمة مَحْمَلًا آخر، وهو أن مستلذات أهل الجنة في مقابلة ما رُزِقُوا في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها، فيُحتمل أن يكون المراد من ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا﴾ أنه ثوابه، ومن تشابههما تماثلهما في الشرف والمزية وعلو الطبقة، فيكون هذا في الوعد نظير قوله ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣) في الوعيد.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ مما يُسْتَفْذَر من النساء ويُذَمُّ من أحوالهن كالحيض والذَّرن ودَسَّ الطَّبَعِ وسوء الخلق، فإن التطهير يُستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال. وقرئ: مُطَهَّرَاتٌ وهما لغتان فصيحتان يقال: النساء فعلت وفعلن، وهُنَّ فاعلة وفواعل، قال:

وَإِذَا الْعَذَارَى بِالذُّخَانِ تَقَنَّعَتْ وَاسْتَعْجَلَتْ نَضَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ

فالجمع على اللفظ، والإفراد على تأويل الجماعة، ومُطَهَّرَةٌ - بتشديد الطاء وكسر الهاء - بمعنى مُطَهَّرَةٌ، ومُطَهَّرَةٌ أبلغ من طاهرة ومُطَهَّرَةٌ للإشعار بأن مطهراً طهرهن وليس هو إلا الله عز وجل. والزوج يقال للذكر والأنثى، وهو في الأصل لِمَا له قرين من جنسه كزوج الخُفِّ، فإن قيل: فائدة المطعوم هو التغذي ودفع ضرر الجوع، وفائدة المنكوح التوالد وحفظ النوع، وهي مستغنى عنها في الجنة. قلت: مطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها إنما تشارك نظائرها الدنيوية في بعض الصفات والاعتبارات، وتسمى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتمثيل، ولا تشاركها في تمام حقيقتها حتى تستلزم جميع ما يلزمها وتفيد عينَ فائدها.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون. والخُلْد والخلود في الأصل الثبات المديد دام أم لم يَدَمْ، ولذلك قيل للأثافي والأحجار خوالد، وللجزء الذي يبقى من الإنسان على حاله ما دام حياً خُلْدٌ، ولو كان

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» رقم (٣) و(٨) وابن جرير في التفسير (١٧٤/١) ووکیع في «الزهد» رقم (١) ومسدد في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم - كما في الدر المنثور للسيوطي (٩٦/١) - وأورد الأثر الألباني في صحيح الجامع (٩٥٣/٢) رقم (٥٤١٠) وعزاه للضياء في المختارة، وأبي نعيم وصححه.

(٣) المنكوبت: ٥٥.

وَضَعُهُ لِلدَّوَامِ كَانَ التَّقْيِيدُ بِالتَّأْيِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿خَلْقَيْنَ فِيهَا آدَمَ﴾^(١) لِفَوَا، وَاسْتَعْمَالُهُ حَيْثُ لَا دَوَامَ كَقَوْلِهِمْ وَقَفْتُ مُخَلَّدٌ يَوْجِبُ اشْتِرَاكَ أَوْ مَجَازًا. وَالْأَصْلُ يَنْفِيهِمَا بِخِلَافِ مَا لَوْ وُضِعَ لِلْأَعْمِ مِنْهُ فَاسْتَعْمَلَ فِيهِ بِذَلِكَ الْإِعْتِبَارَ، كِإِطْلَاقِ الْجِسْمِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ خُلْدًا﴾^(٢) لَكِنَّ الْمَرَادَ بِهِ هَهُنَا الدَّوَامُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ لَمَّا يَشْهَدُ لَهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالشُّنَنِ.

فَإِنْ قِيلَ: الْأَبْدَانُ مَرْكَبَةٌ مِنْ أَجْزَاءٍ مُتَضَادَّةٍ الْكَيْفِيَّةِ، مَعْرُوضَةٌ لِلِاسْتِحْلَالَاتِ الْمُؤَدِيَةِ إِلَى الْإِنْفِكَاحِ وَالْإِنْحِلَالِ فَكَيْفَ يُغْفَلُ خُلُودُهَا فِي الْجَنَانِ؟ قُلْتُ: إِنَّهُ تَعَالَى يُعِيدُهَا بِحَيْثُ لَا يَغْتَوِرُهَا الْإِسْتِحَالَةُ بِأَنْ يَجْعَلَ أَجْزَاءَهَا مِثْلًا مُتَقَاوِمَةً فِي الْكَيْفِيَّةِ، مُتَسَاوِيَةً فِي الْقُوَّةِ لَا يَقْوَى شَيْءٌ مِنْهَا عَلَى إِحَالَةِ الْآخَرِ، مُتَعَانِقَةً مُتَلَازِمَةً لَا يَنْفَكُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ كَمَا يُشَاهَدُ فِي بَعْضِ الْمَعَادِنِ.

هَذَا وَإِنْ قِيَاسَ ذَلِكَ الْعَالَمِ وَأَحْوَالِهِ عَلَى مَا نَجِدُهُ وَنُشَاهِدُهُ مِنْ نَقْصِ الْعَقْلِ وَضَعْفِ الْبَصِيرَةِ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ مَعْظَمُ اللَّذَاتِ الْحَسِيَّةِ مَقْصُورًا عَلَى الْمَسَاكِنِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْمَنَاجِحِ - عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْإِسْتِقْرَاءُ - كَانَ مَلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ الدَّوَامَ وَالثَّبَاتَ، فَإِنْ كُلُّ نِعْمَةٍ جَلِيلَةٍ إِذَا قَارَنَهَا خَوْفُ الزَّوَالِ كَانَتْ مُنْغَصَّةً غَيْرَ صَافِيَةٍ مِنْ شَوَائِبِ الْأَلَمِ، بَشَرُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا وَمِثْلَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِأَبْهَى مَا يُسْتَلَذُّ بِهِ مِنْهَا، وَأَزَالَ عَنْهُمْ خَوْفَ الْفَوَاتِ بِوَعْدِ الْخُلُودِ لِيَدُلَّ عَلَى كَمَالِهِمْ فِي التَّنْعَمِ وَالسَّرُورِ.

(٢٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ لَمَّا كَانَتِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ مُتَضَمِّنَةً لِأَنْوَاعٍ مِنَ التَّمَثِيلِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بَيَانِ حُسْنِهِ وَمَا هُوَ الْحَقُّ لَهُ وَالشَّرْطُ فِيهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَفْقِ الْمَثَلِ لَهُ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا التَّمَثِيلُ فِي الْعِظَمِ وَالصَّغَرِ وَالْخُسَّةِ وَالشَّرَفِ دُونَ الْمَثَلِ، فَإِنَّ التَّمَثِيلَ إِنَّمَا يُصَارُ إِلَيْهِ لِكَشْفِ الْمَعْنَى الْمَثَلِ لَهُ وَرَفْعِ الْحِجَابِ عَنْهُ وَإِبْرَازِهِ فِي صُورَةِ الْمَشَاهِدِ الْمَحْسُوسِ، لِيَسَاعِدَ فِيهِ الْوَهْمُ الْعَقْلَ وَيُصَالِحَهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَعْنَى الصَّرْفَ إِنَّمَا يَدْرِكُهُ الْعَقْلُ مَعَ مَنَازَعَةٍ مِنَ الْوَهْمِ، لِأَنَّ مِنْ طَبِيعِهِ الْمِيلَ إِلَى الْحَسِّ وَحُبِّ الْمَحَاكَاةِ، وَلِذَلِكَ شَاعَتِ الْأَمْثَالُ فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ وَفُشَّتْ فِي عِبَارَاتِ الْبُلْغَاءِ وَإِشَارَاتِ الْحِكَمَاءِ، فَيُمَثَّلُ الْحَقِيرُ بِالْحَقِيرِ كَمَا يُمَثَّلُ الْعَظِيمُ بِالْعَظِيمِ، وَإِنْ كَانَ الْمَثَلُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ، كَمَا مَثَّلَ فِي الْإِنْجِيلِ غُلَّ الصَّدُورِ بِالنَّخَالَةِ، وَالْقُلُوبُ الْقَاسِيَةِ بِالْحِصَاةِ، وَمَخَاطَبَةُ السَّفَهَاءِ بِإِثَارَةِ الزَّنَابِيرِ. وَجَاءَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: أَسْمَعَ مِنْ قِرَادٍ وَأَطِيشَ مِنْ فَرَّاشَةٍ وَأَعَزَّ مِنْ مُخِّ الْبَعُوضِ. لَا مَا قَالَتْ الْجَهْلَةُ مِنَ الْكُفَّارِ: لِمَا مِثْلُ اللَّهِ حَالُ الْمَنَافِقِينَ بِحَالِ الْمُسْتَوْقِدِينَ؟ وَأَصْحَابِ الصَّيْبِ وَعِبَادَةُ الْأَصْنَامِ فِي الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ؟ وَجَعَلَهَا أَقْلًا مِنَ الذَّبَابِ وَأَخْسَرَ قَدْرًا مِنْهُ؟ [ف] اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَى وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَضْرِبَ الْأَمْثَالَ وَيَذْكَرَ الذَّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ. وَأَيْضًا: لَمَّا أُرْشِدُهُمْ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَحَدِّثَ بِهِ وَحْيٌ مُنَزَّلٌ وَرَتَّبَ عَلَيْهِ وَعِيدَ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَوَعَدَ مَنْ آمَنَ بِهِ - بَعْدَ ظُهُورِ أَمْرِهِ - شَرَعَ فِي جَوَابِ مَا طَعَنُوا بِهِ فِيهِ فَقَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أَيُّ لَا يَتْرُكُ ضَرْبَ الْمَثَلِ بِالْبَعُوضَةِ تَرْكَ مَنْ يَسْتَحْيِي أَنْ يُمَثَّلَ بِهَا لِحَقَارَتِهَا. وَالْحَيَاءُ: انْقِبَاضُ النَّفْسِ عَنِ الْقَبِيحِ مَخَافَةَ الدَّمِ، وَهُوَ الْوَسْطُ بَيْنَ الْوَقَاحَةِ الَّتِي هِيَ الْجَرَاءُ عَلَى الْقَبَائِحِ وَعَدَمُ الْمِبَالَاةِ بِهَا، وَالْخَجَلُ: الَّذِي هُوَ انْحِصَارُ النَّفْسِ عَنْ

(١) النساء: (١٦٩).

(٢) الأنبياء: (٣٤).

الفعل مطلقاً. واشتقاقه من الحياة، فإنه انكسارٌ يعترى القوة الحيوانية فيردّها عن أفعالها، فقيل: حَيَّ الرجلُ، كما يقال نَسَى وحَشَى إذا اغْتَلَّت نَسَاهُ وحَشَاهُ. وإذا وصف به البارئ تعالى كما جاء في الحديث «إن الله يستحي من ذي الشئبة المسلم أن يعذبه»^(١) «إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع العبدُ يديه أن يردّهما صفراً حتى يضعَ فيهما خيراً»^(٢) فالمرادُ به التركُّ اللازمُ

(١) وهو حديث ضعيف جداً:

أخرج ابن حبان في «المجروحين» (١٦٨/١) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ، يعني: عن الله عز وجل: «إني لأستحي من عبدي وأمتي تشبَّ رأسَ أمتي وعبدي في الإسلام، ثم أعذبهما في النار بعد ذلك، ولأننا أعظم عفواً من أن أستر على عبدي، ثم أفضحه، ولا أزال أغفر لعبدي ما استغفروني».

وأخرج ابن حبان في «المجروحين» (٢٦٧/٢) عن أنس بن مالك، قال قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عن الله تبارك وتعالى أنه قال جل وعلا: وعزتي وجلالي، ووحدايتي وارتفاع مكاني وفاقه خلقي إليّ واستواني على عرشي إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيان في الإسلام ثم أعذبهما... فرأيتُ رسول الله ﷺ يبكي عند ذلك فقلت: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: بكيت على من يستحي الله منه ولا يستحي من الله».

قال ابن حبان: باطل لا أصل له، وسويد بن عبد العزيز ضعفه ابن معين، ونوح بن ذكوان منكر الحديث، وأيوب بن ذكوان لا يتابع على حديثه. ومحمد بن عبدالله الأنصاري، يقال له ابن زياد يروي عن الثقات مالم يس من حديثهم.

وتعقبه السيوطي في «اللائلء المصنوعة» (١٣٣/١ - ١٣٤): بقوله: الحديث الأول: أخرجه العقيلي، والحديث الثاني أخرجه البيهقي في الزهد ثم قال: وقد روى من غير هذا الوجه بغير هذا اللفظ، بسند أصح من هذا، وللحديث طرق أخرى عند ابن النجار في تاريخه، وأبي الشيخ وابن أبي الفرات في جزئه، والشيرازي في الألقاب وكلها ضعيفة وفي بعضها من أنهم بالوضع.

وجاء من حديث جرير أخرجه الخطيب بسند ضعيف.

ومن حديث أبي هريرة بمعناه أخرجه الديلمي.

ومن حديث حديفة بن اليمان، وعبدالله بن عمر، أخرجهما زاهر بن طاهر الشحامي في الإلهيات.

ومن حديث سلمان أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العمر.

والخلاصة: أن الحديث ضعيف جداً.

[أنظر «تنزيه الشريعة» (٢٠٤/١ - ٢٠٥)].

(٢) وهو حديث صحيح.

أخرجه أبو داود (١٦٥/٢ رقم ١٤٨٨) والترمذي (٥٥٦/٥ - ٥٥٧ رقم ٣٥٥٦) والحاكم في المستدرک (٤٩٦/١) وابن ماجه (١٢٧١/٢ رقم ٣٨٦٥) وأحمد في المسند (٤٣٨/٥) وابن حبان في الإحسان (١٧٩/٢) رقم ٨٧٣. كلهم من طريق جعفر بن ميمون صاحب الأنماط عن أبي عثمان النهدي عن سلمان مرفوعاً.

وجعفر بن ميمون صدوق يخطئ - التقريب - (١٣٣/١).

لكن تابعه سليمان التيمي بهذا الإسناد عند الحاكم (٥٣٥/١) وابن حبان في الإحسان (١٢٠/٢ رقم ٨٧٧).

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وكذا صححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٨/٢) وقد روى الحديث موقوفاً: أخرجه أحمد (٤٣٨/٥) والحاكم (٤٩٧/١) من طريق سليمان التيمي، ووكيع في زهده (رقم ٥٠٤) وعنه هناد في زهده رقم (١٣٦١) من طريق يزيد بن أبي صالح. كلهم عن سلمان موقوفاً عليه. وله شواهد:

١ - من حديث أنس أخرجه الحاكم (٤٩٧/١ - ٤٩٨) وصححه، وتعقبه الذهبي، فقال: عامر بن يساف ذو =

للاتقباض^(١)، كما أن المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما، ونظيره قول من يَصِفُ إبلاً:

إِذَا مَا اسْتَحْيَيْنَ الْمَاءَ يَغْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنَ سَبْتٍ فِي إِنْاءٍ مِنَ الْوَرْدِ

وإنما عُدِلَ به عن الترك لما فيه من التمثيل والمبالغة، وتحتلُّ الآيةُ خاصةً أن يكون مجيئه على المقابلة لِمَا وَقَعَ في كلام الكفرة. وضربُ المَثَلِ اعتماؤه، من ضربِ الخاتم، وأصله وَقَعَ شيءٌ على آخر. وَأَنْ يَصِلَتْهَا مخفوضُ المحلِّ عند الخليل بإضمار مِنْ، منصوبٌ بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها عند سيبويه. وما إيهامية تزيْدُ النكرة إيهاماً وشياعاً وتسُدُّ عنها طرق التقييد، كقولك أعطني كتاباً ما، أي: أيُّ كتاب كان. أو مزيدة للتأكيد كالتي في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ﴾^(٢) ولا نغني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدى وبيان، بل ما لم يوضع لمعنى يُراد منه، وإنما وضعت لأن تُذَكَّرَ مع غيرها فتفيد له وثاقة وقوة، وهو زيادة في الهدى غير قادح فيه. وبعبارة عطف بيانٍ لمَثَلٍ أو مفعول ليضرب، ومثلاً حالاً تقدمت عليه لأنه نكرة، أو هما مفعولاه لتضمُّنه معنى الجعل. وقرئت بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وعلى هذا يَحْتَمِلُ ﴿مَا﴾ وجوهاً أخرى: أن تكون موصولةٌ حُذِفَ صدرُ صِلَتِها كما حذف في قوله ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾^(٣) وموصوفةٌ بصفة كذلك ومحلُّها نصب بالبدلية على الوجهين، واستفهامية هي المبتدأ، كأنه لما رد استبعادهم ضرب الله الأمثال، قال بعده:

= مناكير. [انظر الكامل لابن عدي (١٧٣٩/٥)] والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١١٢/٢).

وحديث أنس أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٣١/٨) من طريق أبان عنه، وأبان كذاب.

٢ - من حديث جابر: أخرجه أبو يعلى في المسند (٣٩١/٣) رقم ١٨٦٧/١٠٠ وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وهو ضعيف. وذكر الهيثمي الحديث في «المجمع» (١٤٩/١٠) وقال «رواه أبو يعلى، والطبراني في الأوسط وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وقد وثق على ضعفه، وبقي رجالهما رجال الصحيح».

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) بمعنى أن انقباض النفس من أمر ما يستدعي تركه، وكما في الحديث المذكور «إن الله يستحي من ذي الشبهة المسلم أن يعذبه» بمعنى أن ذلك يستدعي ترك تعذيبه.

والمراد به في الآية «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما...» سَلَبُ ذلك الترك، ونفي النفي إثبات، بمعنى: أن الله يضرب بذلك مثلاً... وقد ورد التعبير بهذا الأسلوب للمبالغة.

قال أبو السعود: (فالمراد هنا: عدم ترك ضرب المَثَلِ الْمُثَالِ لترك من يستحي من ضربه، وفيه رمزٌ إلى تعاضد الدواعي إلى ضربه...) أبو السعود ٧٢/١.

أما وصف الله تعالى بالحياء أو في أي وصف يفيد المشابهة بالمخلوقات فلا يكون على حقيقته الكائنة في العباد، فاللغة وضعت لتدل في المخلوق على هيئة معينة، ولا يعني وصف الخالق بتلك الهيئة على حقيقتها، إنما تدل في الخالق على هيئة يعلمها الله وحده. والله تعالى خاطبهم بهذه العبارات لأنهم يفهمونها، إذ لا يمكن للغة أيّاً كانت أن تحيط بوصف الله على حقيقته. فأصل الدلالة اللغوية مفهومة للعباد أما كيفية قيامها بذات الله فهي غير معقولة والله أعلم بحقيقتها. ولذلك ورد عن الإمام مالك قوله عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب...

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الأنعام: ١٥٤.

ما البعوضة فما فوقها حتى لا يضرب به المثل؟! بل له أن يُمَثَّلَ بما هو أحقر من ذلك، ونظيره فلان لا يبالي مما يَهَبُ ما دينارٌ وديناران. والبعوضُ: فعولٌ من البُعْض، وهو القَطْعُ كالْبَضْعِ العَصْب، غلب على هذا النوع كالْحُمُوش.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ عطفٌ على بعوضة، أو «ما» إن جُعِلَ اسماً، ومعناه ما زاد عليها في الجثة كالذباب والعنكبوت، كأنه قَصَدَ به ردُّ ما استنكره. والمعنى: أنه لا يستحيي ضربَ المثل بالبعوض فضلاً عما هو أكبر منه، أو في المعنى الذي جُعِلَ فيه مثلاً، وهو الصُّغَرُ والحقارة كجَنَاحِهَا فإنه عليه الصلاة والسلام ضَرَبَه مثلاً للدنيا، ونظيره في الاحتمالين ما روي أن رجلاً بمنى خَرَّ على طُنْبِ فُسْطَاط^(١) فقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ قال «ما من مسلم يشاك شوكه فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة»^(٢). فإنه يُخْتَمَلُ ما تجاوزَ الشوكَةَ في الألم كالخُرُور وما زاد عليها في القِلَّةِ كَنَخْبَةِ النملة^(٣)، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياها حتى نخبة النملة»^(٤).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أما حرف تفصيل يُفَصِّلُ ما أُجْمِلَ ويؤكد ما به صُدِّرَ ويتضمن معنى الشرط، ولذلك يجابُ بالفاء. قال سيبويه: أما زيد فذاهب، معناه: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، أي هو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة، وكان الأصلُ دخولُ الفاء على الجملة لأنها الجزاء، لكن كرهوا إيلاءَها حرف الشرط فأدخلوها على الخبر وعوضوا المبتدأ عن الشرط لفظاً، وفي تصديره الجملتين به إخمادٌ لأمر المؤمنين واعتدادٌ بعلمهم وذمٌ بليغٍ للكافرين على قولهم، والضميرُ في ﴿أَنَّهُ﴾ للمثل، أو لأن يضرب. و﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يَسُوعُ إنكاره، يعمُ الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة، من قولهم حق الأمر إذا ثبت، ومنه: ثوب محقق أي محكم النسيج.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ﴾ كان من حقِّه: وأما الذين كفروا فلا يعلمون، ليطابق قرينه ويقابل قسيمه، لكن لما كان قولهم هذا دليلاً واضحاً على كمال جهلهم عدَلَ إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه.

(١) طنْبُ الفسْطَاط: الحبل الذي يُشَدُّ به بيت الشعر.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣/١٠ رقم ٥٦٤٠) من حديث عائشة بلفظ «ما من مصيبة تُصيب المسلم إلا كُفِّرَ الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها» وأخرجه مسلم (١٩٩١/٤ رقم ٢٥٧٢/٤٦) عنها بلفظ الكتاب.

(٣) نَخْبَةُ النملة: أي لدغتها.

(٤) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (ص ١١٧): لم أجده.

قلت: انظر الحديث السابق. وأخرج مسلم في صحيحه (١٩٩٢/٤ - ١٩٩٣ رقم ٢٥٧٣/٥٢) عن أبي سعيد وأبي هريرة، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يُصيب المؤمن من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ، حتى الهمُّ يُهَمُّه إلا كُفِّرَ به من سيئاته» وأخرج مسلم (١٩٩٣/٤ رقم ٢٥٧٤) عن أبي هريرة قال: لما نزلت «من يعمل سوءاً يُجْزَ بِه [النساء: ١٢٣] بَلَّغَتْ من المسلمين مَبْلَغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدّدوا ففني كل ما يصاب به المسلم كفارة. حتى النخبة يُنكَبها، أو الشوكة يُشاكها».

وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين: أن تكون ﴿ مَا ﴾ استفهامية و﴿ ذَا ﴾ بمعنى الذي وما بعده صلاته، والمجموع خبر ما. وأن تكون ﴿ ما ﴾ مع ﴿ ذَا ﴾ اسماً واحداً بمعنى: أي شيء، منصوب المحل على المفعولية مثل ما أراد الله، والأحسن في جوابه الرفع على الأول، والنصب على الثاني، ليطابق الجواب السؤال. والإرادة: نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يميلها عليه، وتقال للقوة التي هي مبدأ النزوع، والأول مع الفعل والثاني قبله، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف البارئ تعالى به، ولذلك اختلف في معنى إرادته فقل: إرادته لأفعاله أنه غير ساه ولا مكره، ولأفعال غيره أمره بها. فعلى هذا لم تكن المعاصي بإرادته، وقيل: علمه باشتغال الأمر على النظام الأكمل، والوجه الأصح، فإنه يدعو القادر إلى تحصيله، والحق: أنه ترجيح أحد مقدورتيه على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه، أو معنى يوجب هذا الترجيح، وهي أعم من الاختيار فإنه ميل مع تفضيل وفي هذا استحقاق واستبدال. و﴿ مَثَلًا ﴾ نصب على التمييز، أو الحال كقوله تعالى ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾^(١).

﴿ مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾^(٢) جواب ماذا، أي: إضلال كثير وإهداء كثير، وضع الفعل موضع المصدر للإشعار بالحدوث والتجدد، أو بياناً للجمليتين المصدرتين بإتاء، وتسجيل بأن العلم بكونه حقاً هدى وبيان، وأن الجهل - بوجه إيراده والإنكار لحسن مورده - ضلال وفسوق، وكثرة كل واحد من القبيلتين بالنظر إلى أنفسهم لا بالقياس إلى مقابلتهم، فإن المهتدين قليلون بالإضافة إلى أهل الضلال كما قال تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾^(٣)، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾^(٤) ويحتمل أن يكون كثرة الضالين من حيث العدد، وكثرة المهتدين باعتبار الفضل والشرف كما قال:

قليل إذا عدوا كثير إذا شدوا

وقال:

(١) الأعراف: (٧٣).

(٢) قدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيماً يسوؤهم ويفت في أعضادهم، وهو السز في تخصيص هذه الفائدة بالذكر (أبو السعود ٧٤/١).

(٣) ص: (٢٤).

(٤) سبأ: (١٣).

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قُلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن حد الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١) من قولهم: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ عن قشرها إذا خرجت. وأصلُ الفسق: الخروج عن القصد قال رؤية^(٢):

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا

والفاسق في الشرع: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبها أحياناً مستقبلاً إياها.

والثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبالٍ بها.

والثالثة: الجُحود وهو أن يرتكبها مُستصِيباً إياها، فإذا شارب هذا المقام وتخطى خططه خلع رِبْقَةَ الإيمان من عنقه ولابس الكفر. وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يُسلبُ عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمى الإيمان، ولقوله تعالى ﴿وَلَنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا﴾^(٣) والمعتزلة لما قالوا: الإيمانُ عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل والكفرُ تكذيبُ الحق وجحوده جَعَلُوهُ قِسْماً ثالثاً نازلاً بين منزلتي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض الأحكام. وتخصيصُ الإضلال بهم مُرتباً على صفة الفسق يدل على أنه الذي أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال، وذلك لأن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم بالباطل صرفت وجوه أفكارهم عن حِكْمَةِ المَثَلِ إلى حقارة المَثَلِ به، حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه واستهزؤوا به. وقرئ يُضِلُّ بالبناء للمفعول والفاسقون بالرفع.

(٢٧) ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ صفة للفاستين للذم وتقرير الفسق. والنقض: فسخ التركيب، وأصله في طاقات الجبل، واستعماله في إبطال العهد من حيث إن العهد يُستعار له الجبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر، فإن أُطلق مع لفظ الجبل كان ترشيحاً للمجاز، وإن ذُكر مع العهد كان رمزاً إلى ما هو من رواده وهو أن العهد جبلٌ في ثبات الوصلة بين المتعاهدين، كقولك شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس، فإن فيه تنبيهاً على أنه أسد في شجاعته بخراً بالنظر إلى إفادته. والعهد: المؤثق ووضعه لما من شأنه أن يراعى وَيَتَعَهَّدَ كالوصية واليمين، ويقال للدار من حيث إنها تراعى بالرجوع إليها. والتاريخ لأنه يُحْفَظُ، وهذا العهد: إما العهد المأخوذ بالعقل، وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسوله، وعليه أوَّلُ قوله تعالى ﴿وَأَشْهَدُهُمْ

(١) التوبة: ٦٧.

(٢) رؤية: هو رؤية بن عبدالله العجاج بن رؤية التميمي السعدي، أبو الحجاف، أو أبو محمد، راجزة من العظماء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كان أكثر مقامه في البصرة فأخذ عنه أعيان أهل اللغة وكان يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة، مات في البادية، وقد أسن وله «ديوان رجز - ط» وفي الوفيات: لما مات رؤية قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة، توفي سنة ١٤٥ هـ [الأعلام للزركلي (٣/٣٤)].

(٣) الحجرات: ٩١.

عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ^(١). أو المأخوذ بالرسول على الأمم، بأنهم إذا بُعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ^(٢) ونظائره. وقيل: عهود الله تعالى ثلاثة: عهد أخذه على جميع ذرية آدم بأن يُقرّوا بربوبيته، وعهد أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وعهد أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموا.

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الضمير للعهد، والميثاق: اسم لما يقع به الوثاقة وهي الاستحكام، والمراد به ما وثّق الله به عهده من الآيات والكتب، أو ما وثّقوه به من الالتزام والقبول، ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر. و﴿مِنْ﴾ للابتداء فإن ابتداء النقص بعد الميثاق.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يَحْتَمِلُ كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم والإعراض عن موالاة المؤمنين والفرقة بين الأنبياء - عليهم السلام - والكتب في التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل. والأمر هو للقول الطالب للفعل، وقيل: مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء، وبه سمي الأمر - الذي هو واحد الأمور - تسمية للمفعول به بالمصدر، فإنه مما يؤمر به، كما قيل له: شأن وهو الطلب والقصد، يقال: شأنت شأنه، إذا قصدت قصده. و﴿أَنْ يُوصَلَ﴾ يَحْتَمِلُ النَّصَبَ والخفض، على أنه بدل من ما، أو ضميره. والثاني أحسن لفظاً ومعنى.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خَسِرُوا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها، والنظر في حقائقها والاقتباس من أنوارها، واشتراء النقص بالوفاء، والفساد بالصالح، والعقاب بالثواب.

(٢٨) ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استخبار فيه إنكار وتعجيب لكفرهم بإنكار الحال التي يقع عليها على الطريق البرهاني، فإن صدوره لا ينفك عن حال وصفة، فإذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها استلزم ذلك إنكار وجوده، فهو أبلغ وأقوى في إنكار الكفر من أتكفرون وأوفق لما بعده من الحال. والخطاب مع الذين كفروا، كما وصفهم بالكفر وسوء المقال وخبث الفعل خاطبهم على طريقة الالتفات ووبّخهم على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك، والمعنى أخبروني على أي حال تكفرون.

﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا﴾ أي أجساماً لا حياة لها، عناصر وأغذية وأخلاطاً ونطقاً ومضغاً مخلقة وغير مخلقة.

(١) الأعراف: (١٧٢).

(٢) آل عمران: (١٨٧).

﴿ فَأَخْيَرَكُمُ ﴾ بخلق الأرواح ونفخها فيكم، وإنما عطفه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه غير مترسخ عنه بخلاف البواقي.

﴿ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ﴾ عندما تُقضى آجالكم. ﴿ ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ ﴾ بالنشور يوم ينفخ في الصور أو للسؤال في القبور ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الحشر فيجازيكم بأعمالكم، أو تُنْشَرُونَ إليه من قبوركم للحساب، فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه! فإن قيل: إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يمتهم لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون، قلت: تمكّنهم من العلم بهما، لما نصّب لهم من الدلائل مُنزَلاً منزلة علمهم في إزاحة العذر، سيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما، وهو أنه تعالى لما قدّر على إحيائهم أولاً قدّر على أن يحييهم ثانياً، فإن بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته. أو الخطاب مع القبيلين، فإنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة ووعدهم على الإيمان وأوعدهم على الكفر، أكّد ذلك بأن عدّد عليهم النعم العامة والخاصة واستفّح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة، فإن عظم النعم يوجب عظم معصية النعم، فإن قيل: كيف تعدّ الإماتة من النعم المقتضية للشكر؟ قلت: لما كانت وُصلةً إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية كما قال الله تعالى ﴿ وَرَبُّكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنَ الْأَرْحَامِ لِيَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾^(١) كانت من النعم العظيمة مع أن المعداد عليهم نعمة هو المعنى المترسّخ من القصة بأسرها، كما أن الواقع حالاً هو العلم بها لا كل واحد من الجمل، فإن بعضها ماضٍ وبعضها مستقبل وكلاهما لا يصح أن يقع حالا. أو مع المؤمنين خاصة، لتقرير المنة عليهم وتبديد الكفر عنهم، على معنى كيف يُتصوّر منكم الكفر وكنتم أمواتاً جهالاً فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان ثم يمتكم الموت المعروف ثم يحييكم الحياة الحقيقية ثم إليه ترجعون، فيثيبكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والحياة حقيقية في القوة الحساسة أو ما يقتضيها، وبها سمي الحيوان حيواناً مجازاً في القوة النامية، لأنها من طلائعها ومقدماتها، وفيما يخصّ الإنسان من الفضائل كالعقل والعلم والإيمان، من حيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة قال تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُبْسِتُكُمْ ﴾^(٢) وقال ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾^(٣) وقال: ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾^(٤). وإذا وُصف به الباري تعالى أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا، أو معنى قائم بذاته يقتضي ذلك على الاستعارة. وقرأ يعقوبُ تُرْجَعُونَ - بفتح التاء - في جميع القرآن.

(٢٩) ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى، فإنها خلقتهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلق ما يتوقّف عليه بقاؤهم وتمّ به معاشهم. ومعنى ﴿ لَكُمْ ﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستنفاعكم بها في مصالح أبدانكم - بوسط أو بغير وسط - ودينكم بالاستدلال والاعتبار والتعرّف لما يلائمها من لذات الآخرة وآلامها لا على وجه الغرض، فإن الفاعل

(١) العنكبوت: (٦٤).

(٢) الجاثية: (٢٦).

(٣) الحديد: (١٧).

(٤) الأنعام: (١٢٢).

لغرض مستكمل به، بل على أنه كالغرض من حيث إنه عاقبة الفعل ومؤداه وهو يقتضي إباحة الأشياء النافعة، ولا يمنع اختصاص بعض لأسباب عارضة، فإنه يدل على أن الكل للكل لا أن كل واحد لكل واحد، وما يعلم كل ما في الأرض، إلا إذا أريد بها جهة السفلى كما يراد بالسماء جهة العلو. وجميعاً: حال من الموصول الثاني^(١).

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد إليها بإرادته، من قولهم استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء. وأصل الاستواء طلب السواء، وإطلاقه على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الأجزاء، ولا يمكن حمله عليه لأنه من خواص الأجسام وقيل استوى أي: استولى وملك، قال:

قَدْ اسْتَوَىٰ بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ مَنْ غَيْرَ سَيْفٍ وَدَمٍ مُّهْرَاقِ

والأول أوفق للأصل والصلة المعدى بها والتسوية المترتبة عليه بالفاء. والمراد بالسماء هذه الأجرام العلوية أو جهات العلو، و﴿ثُمَّ﴾ لعله لتفاوت ما بين الخلقين، وفضل خلق السماء على خلق الأرض كقوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢) لا للتراخي في الوقت، فإنه يخالف ظاهر قوله تعالى ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٣) فإنه يدل على تأخر دخو الأرض المتقدم على خلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها، إلا أن تستأنف بدحائها مقدراً لنصب الأرض فعلاً آخر دل عليه ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾^(٤) مثل تعرف الأرض وتدبر أمرها بعد ذلك، لكنه خلاف الظاهر.

﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾ عدلهن وخلقهن مصونة من العوج والفطور. و﴿هن﴾ ضمير السماء إن فُشرت بالأجرام لأنه جمع، أو هو في معنى الجمع، وإلا فمبهم يفسره ما بعده كقولهم: ربه رجلاً.

﴿سَبَّحَ سَمَوَاتٍ﴾ بدل أو تفسير. فإن قيل: أليس إن أصحاب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك؟ قلت: فيما ذكره شكوك، وإن صح فليس في الآية نفى الزائد مع أنه إن ضم إليها العرش والكرسي لم يبق خلاف.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تعليل، كأنه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، واستدلالاً بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليمًا، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع لا يتصور إلا من عالم حكيم رحيم، وإزاحة لما يختلج في صدورهم من أن الأبدان بعدما تبددت وتفتتت أجزاؤها واتصلت

(١) غير سبكه عن سبك ما قبله - مع اتحادهما في المقصود - إبانة لما بينهما من التفاوت، فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإماتة والحشر أدخل في الحث على الإيمان والكفر عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم وما يجري مجراها. وقدم الظرف «لكم» على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعاً للمخاطبين وللتشويق إليه. (أبو السعود ٧٨/١).

(٢) البلد: «١٧».

(٣) النازعات: «٣٠».

(٤) النازعات: «٢٧».

بما يشاكلها كيف تُجمَع أجزاء كل بدن مرة ثانية بحيث لا يَشُدُّ شيء منها ولا ينضم إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان، ونظيره قوله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أن صحة الحشر مبنية على ثلاث مقدمات، وقد برهن عليها في هاتين الآيتين: أما الأولى فهي: أن مواد الأبدان قابلة للجمع والحياء وأشار إلى البرهان عليها بقوله ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فإنَّ تعاقب الافتراق والاجتماع والموت والحياء عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها، وما بالذات يأبى أن يزول ويتغير. وأما الثانية والثالثة: فإنه عز وجل عالم بها وبمواقعها، قادر على جمعها وإحيائها، وأشار إلى وجه إثباتهما بأنه تعالى قادر على إيدائها وإبداء ما هو أعظم خَلْقاً وأعجب صنْعاً فكان أقدر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خلق ما خلق خَلْقاً مستوياً مُحْكَمًا من غير تفاوت واختلال مراعى فيه مصالحهم وسدُّ حاجاتهم. وذلك دليل على تناهي علمه وكمال حكمته جلت قدرته ودقت حكمته. وقد سَكَّنَ نافع وأبو عمرو والكسائي: الهاء من نحو فهو وهو تشبيهاً له بعضه.

(٣٠) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له إنعام يعم ذريته. وإذ: ظرف وُضِعَ لزمان نسبة ماضية وَقَعَ فيه أخرى، كما وُضِعَ إذا لزمان نسبة مستقبلية يقع فيه أخرى^(٢)، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجُمْل كحيث في المكان، وتبيننا تشبيهاً لهما بالموصولات، واستعملنا للتعليل والمجازاة، ومحلُّهما النصب أبدأ بالظرفية فإنهما من الظروف الغير المتصرفة لما ذكرناه، وأما قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرُ الْأَعَادِ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾^(٣) ونحوه، فعلى تأويل: اذكر الحادث إذا كان كذا، فحذف الحادث وأقيم الظرف مقامه، وعامله في الآية: قالوا أو اذكر على التأويل المذكور، لأنه جاء معمولاً له صريحاً في القرآن كثيراً، أو مُضْمَرٌ دل عليه مضمون الآية المتقدمة، مثلُ وبدأ خلقكم إذ قال، وعلى هذا فالجملة معطوفة على خَلَقَ لكم داخله في حكم الصلة. وعن معمر^(٤) أنه مزيد. والملائكة جمع ملاك على الأصل كالشمائل جمع شَمَال، والتاء لتأنيث الجمع، وهو مقلوبُ مالك من الألوكَة وهي: الرسالة، لأنهم وسائطُ بين الله تعالى وبين الناس، فهم رسل الله أو كالرسل إليهم. واختلَفَ

(١) تلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبي ﷺ خاصة للإيدان بأن فحوى الكلام ليس مما يُهتدى إليه بأدلة العقل، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنما طريقه الوحي الخاص به عليه السلام.

وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من الإنباء عن تشريفه عليه السلام مالا يخفى. (أبو السعود ١/ ٧٩).

(٢) وقد توضع إحداهما موضع الأخرى (فتح القدير ١/ ٦٢).

(٣) الأحقاف: ٢١١.

(٤) مَعْمَرٌ: هو مَعْمَرُ بنِ المثنى اللغوي البصري أبو عبيدة مولى بنى تيم، تيم قريش، رُحط أبي بكر الصديق، أخذ عن يونس وأبي عمرو وهو أول من صنف في غريب الحديث وكان أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيام، وكان شعوبياً وقيل كان يرى رأي الخوارج الإباضية. صنف المجاز في غريب القرآن، الأمثال في غريب الحديث، أيام العرب، معاني القرآن، وغيرها... ولد سنة اثنتي عشرة ومائة، ومات سنة تسع، وقيل ثمان، وقيل عشر، وقيل إحدى عشرة - ومائتين. [بغية الوعاة (٢/ ٢٩٤ - ٢٩٦ رقم ٢٠١٠)].

العقلاء في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها، فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك. وقالت طائفة من النصارى: هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان. وزعم الحكماء أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة، منقسمة إلى قسمين: قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق جل جلاله والتنزه عن الاشتغال بغيره، كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(١) وهم العليُّون والملائكة المقربون. وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم الإلهي ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢) وهم المدبرات أمراً، فمنهم سماوية، ومنهم أرضية، على تفصيل أثبتته في كتاب الطوالع.

والمقول لهم: الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص، وقيل ملائكة الأرض، وقيل إبليس ومن كان معه في محاربة الجن، فإنه تعالى أسكنهم في الأرض أولاً فأفسدوا فيها، فبعث إليهم إبليس في جُند من الملائكة فدمرهم وفرقهم في الجزائر والجبال. وجاعلٌ: من جعل الذي له مفعولان وهما ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أعمل فيهما، لأنه بمعنى المستقبل ومعتمد على مسند إليه، ويجوز أن يكون بمعنى خالق. والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه. بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه وتلقي أمره بغير وسط، ولذلك لم يستنبئ ملكاً كما قال الله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾^(٣) ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمه بلا واسطة كما كلم موسى عليه السلام في الميقات ومحمداً ﷺ ليلة المعراج، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك. أو خليفة من سكن الأرض قبله، أو هو وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم، أو يخلف بعضهم بعضاً. وإفراد اللفظ: إما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه كما استغني بذكر أبي القبيلة في قولهم: مُضَرُّ وَهَاشِمٌ، أو على تأويل من يخلفكم أو خلفاً يخلفكم. وفائدة قوله تعالى هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم شأن المجمعول، بأن بشر عز وجل بوجود سكان ملكوته ولقبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفايد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.

(١) الأنبياء: (٢١).

(٢) التحريم: (٦٦).

(٣) الأنعام: (٩٠).

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاصد وألغتها، واستخبار عما يرشدكم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلت قدرته ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يُظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْخَرُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يَعْمَلُونَ﴾ ^(١) وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى أو تلقى من اللوح أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم أو قياس لأحد الثقلين على الآخر. والسفك والسبك والسفح والشن أنواع من الصب، فالسفك يقال في الدم والدمع، والسبك في الجواهر المذابة، والسفح في الصب من أعلى، والشن في الصب من فم القربة ونحوها، وكذلك الشن. وقرئ يسفك - على البناء للمفعول - فيكون الراجع إلى مَنْ، سواء جعل موصولاً أو موصوفاً محذوفاً، أي: يسفك الدماء فيهم.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ حال مقررة لجهة الإشكال كقولك: أتحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم؟! والمعنى: أtestخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك؟ والمقصود منه الاستفسار عما رجحهم - مع ما هو متوقع منهم - على الملائكة المعصومين في الاستخلاف، لا العجب والتفاخر. وكأنهم علموا أن المجمعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: شهوية وغضبية تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه؟ وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلاً عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاصد. وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطوعة للعقل متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف، ولم يعلموا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الأحاد كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والتسبيح تبعيد الله تعالى عن السوء وكذلك التقديس، من سبّح في الأرض والماء، وقُدّس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد، ويقال قُدّس إذا طُهر لأن مطهر الشيء مبعّد له عن الأذى. و﴿بِحَمْدِكَ﴾ في موضع الحال، أي: متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفقتنا

لتسبيحك، تداركوا به ما أوهم إسناد التسبيح إلى أنفسهم، ونقدس لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابلوا الفساد - المفسر بالشرك عند قوم - بالتسبيح، وسفك الدماء - الذي هو أعظم الأفعال الذميمة - بتطهير النفوس عن الآثام، وقيل: نقدسك واللام مزيدة.

(٣١) ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إما بخلق علم ضروري بها فيه أو إلقاء في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح ليتسلسل. والتعليم فعلٌ يترتب عليه العلم غالباً، ولذلك يقال علمته فلم يتعلم. وآدم اسم أعجمي كآزر وشالغ؛ واشتقاقه من الأذمة أو الأذمة - بالفتح - بمعنى الأسوة، أو من أديم الأرض، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام «أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم»^(١) فلذلك يأتي بنوه أخياًفاً^(٢)، أو من الأدم أو الأذمة بمعنى الألفة، تعسف^(٣) كاشتقاق إدريس من الدّرس، ويعقوب من العقب، وإبليس من الإبلas. والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامةً للشيء ودليلاً يرفعه إلى الذهن مع الألفاظ والصفات والأفعال، واستعماله عرفاً في اللفظ الموضوع لمعنى سواء كان مركباً أو مفرداً مخبراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما. واصطلاحاً: في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة. والمراد في الآية إما الأول أو الثاني وهو يستلزم الأول، لأن العلم بالفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعاني، والمعنى: أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة، مستعداً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها^(٤).

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمناً، إذ التقدير أسماء المسميات فحذف المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام كقوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾^(٥)

(١) وهو حديث صحيح. أخرجه أبو داود (٦٧/٥ رقم ٤٦٩٣) والترمذي (٢٠٤/٥ رقم ٢٩٥٥) وأحمد في المسند (٤٠٠/٤ - ٤٠٦) وابن جرير. في التفسير (٢١٤/١) وابن سعد في الطبقات (٢٦/١) وابن خزيمة في التوحيد (ص ٦٤) وأبو نعيم في الحلية (١٠٤/٣) و(١٣٥/٨) كلهم من حديث أبي موسى الأشعري. قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٩/٢) و«الصحيح» (رقم: ١٦٣٠).

(٢) أخياًفاً: أي متفرقون. قوله تعسف خبر للمبتدأ (واشتقاقه...).

(٤) أورد لفظ آدم - عليه السلام - باسمه العلمى لزيادة تعيين المراد بالخليفة، ولأن ذكره بعنوان الخلافة لا يلائم مقام تمهيد مبادئها...

والتعليم عبارة عن فعل يترتب عليه العلم... ويتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته... وهو السر في إشارته على الإعلام والإنباء (أبو السعود ٨٤/١).

(٥) مريم: (٤).

وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ
وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٥﴾ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ

لأن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الأشياء سيما إن أريد به
الألفاظ، والمراد به ذوات الأشياء أو مدلولات الألفاظ. وتذكيره لِيُغَلِّبَ ما اشتمل عليه من العقلاء.
وقرى عرضهن وعرضها، على معنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها.

﴿فَقَالَ أَنِّي يُؤْتِي بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ﴾ تبيكيت لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة، فإن التصرف والتدبير
إقامة المعدلة قبل تحقق المعرفة، والوقوف على مراتب الاستعدادات وقدر الحقوق محال، وليس
بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال. والإنباء: إخبار فيه إعلام، ولذلك يجري مجرى كل واحد
منهما.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم، أو أن خلقهم واستخلافهم وهذه
صفتهم لا يليق بالحكيم، وهو وإن لم يصرحوا به لكنه لازم مقالهم. والتصديق كما يتطرق إلى الكلام
باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه بفرض ما يلزم مدلوله من الأخبار، وبهذا الاعتبار يعتري الإنشاءات.

(٣٢) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ اعتراف بالعجز والقصور، وإشعار بأن سؤالهم كان
استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه،
وإظهاراً لشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما اعتقل عليهم، ومراعاةً للأدب بتفويض العلم كله إليه.
وسبحان: مصدر كغفران، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله كـ «معاذ الله». وقد أُجْزِيَ
عَلَمًا للتسبيح بمعنى التنزيه على الشذوذ في قوله: سبحان من علقة الفاجر. وتصدير الكلام به اعتذار
عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحال، ولذلك جُعِلَ مفتاح التوبة فقال موسى عليه السلام:
﴿سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ﴾^(١) وقال يونس: ﴿سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية. ﴿الْمُحْكِمُ﴾ المحكم لمبدهاته الذي لا يفعل إلا ما فيه
حكمة بالغة. وأنت فصل، وقيل: تأكيد للكاف كما في قولك: مررت بك أنت، وإن لم يجز: مررت
بأنت، إذ التابع يسوغ فيه ما لا يسوغ في المتبوع، ولذلك جاز: يا هذا الرجل، ولم يجز: يا الرجل،
وقيل: مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر إن.

(٣٣) ﴿قَالَ يَتَّخِذُ أَتَيْنَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ أي: أعلمهم، وقرىء بقلب الهمزة ياء، وحذفها بكسر الهاء
فيهما.

﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ استحضر

(١) الأعراف: (١٤٣).

(٢) الأنبياء: (٨٧).

لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) لكنه جاء به على وجه أبسط ليكون كالحجة عليه، فإنه تعالى لما علم ما خفي عليهم من أمور السماوات والأرض وما ظهر لهم من أحوالهم الظاهرة والباطنة علم ما لا يعلمون، وفيه تعريضٌ بمعابنتهم على ترك الأولى، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يبين لهم. وقيل ﴿مَا يُبْذُونَ﴾ قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها. وما ﴿تَكْتُمُونَ﴾ استبطائهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم. وقيل: ما أظهروا من الطاعة، وأسرَّ إبليسُ منهم من المعصية^(٢). والهمزة للإنكار دخلت حرف الجحد فأفادت الإثبات والتقرير^(٣).

واعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان ومزية العلم وفضله على العبادة وأنه شرط في الخلافة بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يختص به، وأن اللغات توقيفية، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم، وتعليمها ظاهر في إلقيها على المتعلم مبيئاً له معانيها، وذلك يستدعي سابقة وضع، والأصل ينفي أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم فيكون من الله سبحانه وتعالى، وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لتكرر قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، والحكماء متعوا ذلك في الطبقة العليا منهم وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(٤) وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥) وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها^(٦).

(٣٤) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ لما أنبأهم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له اعترافاً بفضله وأداء لحقه واعتذاراً عما قالوا فيه، وقيل: أمرهم به قبل أن يسوي خلقه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾^(٧) امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله. والعاطف عطف الظرف على الظرف السابق إن نصبته بمضمر، وإلا عطفه بما يقدر عاملاً فيه على الجملة المتقدمة، بل القصة بأسرها على القصة الأخرى، وهي نعمة رابعة عدها عليهم. والسجود في الأصل تذلل مع تطامن قال

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) الأولى عدم تخصيص (تبدون وتكتمون) فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٣) أي أن همزة الإنكار في قوله (ألم) دخلت على لم وهي تفيد النفي فأفادت الإثبات والتقرير، وذلك أن نفي النفي إثبات.

(٤) الصافات: ١٦٤.

(٥) الزمر: ٩.

(٦) وفي الآية لفتات بيانية أشار إليها أبو السعود وهي:

الفاء في قوله «فلما أنبأهم..» فصيحة دلت على محذوف يقتضيه المقام وذلك للإيذان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحقيقه في أسرع ما يكون.

وأظهر الأسماء في موقع الإضممار فقال «أنبأهم بأسمائهم» ولم يقل أنبأهم بهم، وذلك لإظهار كمال العناية بشأنها والإيذان بأنه - عليه السلام - أنبأهم بها على وجه التفصيل لا الإجمال وغير الأسلوب في قوله: «وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» عن سابقه للإيذان باستمرار كتمهم... (أبو السعود ٨٦/١).

(٧) ص: ٧٢.

الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ

وقال آخر:

وَقُلْنَ لَهُ اسْجُدْ لِلَّيْلِ فَاسْجُدَا

يعني: البعيرُ إذا طأطأ رأسه. وفي الشرع: وَضَعُ الجبهة على قصد العبادة. والمأمور به إما المعنى الشرعي، فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى وَجَعَلَ آدَمَ قِبْلَةً لِسُجُودِهِمْ تَفْخِيماً لِّشَأْنِهِ، أو سبباً لوجوبه، فكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون نموذجاً للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها ونسخة لما في العالم الروحاني والجسماني وذريعةً للملائكة إلى استيفاء ما قُدِّرَ لهم من الكمالات ووُصلة إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات، أَمَرَهُمْ^(١) بالسجود تذلاً لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته، فاللام فيه كاللام في قول حسان رضي الله تعالى عنه:

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لِقِبْلَتِكُمْ^(٢) وَأَعْرَفَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالشُّنَنِ
أو في قوله تعالى ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ^(٢) أَلَشَّمْسِ^(٣)﴾.

وأما المعنى اللغوي وهو التواضع لآدم تحية وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له، أو التذلل والانقياد بالسعي في تحصيل ما ينوط به معاشهم ويتم به كمالهم. والكلام في أن المأمورين بالسجود الملائكة كلهم أو طائفة منهم ما سبق^(٤).

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ امتنع عما أمر به، استكباراً من أن يتخذة وصلة في عبادة ربه، أو

(١) قوله أَمَرَهُمْ هي جواب لما خلقه بحيث...

(٢) اللام في قول حسان «لقبلكم» بمعنى إلى، وفي قوله تعالى «لذُلُوكِ» للسببية.

(٣) الإسراء: ٧٨.

(٤) قضية سجود الملائكة لآدم عليه السلام واختلافهم في معناها، هل هي على حقيقتها الشرعية كالسجود في الصلاة أم على تأويل آخر؟

لعل الأظهر في ذلك أن المراد به هو المعنى الشرعي وهو وضع الجبهة على الأرض، إكراماً وإعظاماً واحتراماً لآدم، وهو طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره. وقد اختار هذا القول ابن كثير ٧٥/١ والشوكاني في فتح القدير ٦٦/١. وقواه الرازي وضعف ما عدها من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبله، إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر وهو أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال. وقوله تعالى في إخوة يوسف «وخرّوا له سجداً» - يوسف ١٠٠ - يؤيد ذلك فكانت تحية الناس يومئذ السجود (التفسير الكبير ٢١٣/٢) وقال الألوسي: (ألا ترى أن الكعبة ليست بأشرف ممن سجد إليها) روح المعاني ٢٢٨/١.

فسجود الملائكة لآدم يحمل على معناه الشرعي. إذ لا يعني تعظيم الكعبة والسجود إليها عبادتها... وفي قوله تعالى «وإذ قلنا...» تغيير للأسلوب عن سابقه، ففي الأول كان الحديث عن خلق آدم واستخلافه فناسب ذكر الربوبية مضافاً إلى أحب خلفائه إليه، فقال: «وإذ قال ربك». أما هنا فالمقام مقام إيراد أمر يناسب العظمة، ففي السجود تعظيم ولما أمر بفعله لغيره أشار إلى كبريائه الغنية عن التعظيم، فقال: «وإذ قلنا» بضمير العظمة. (روح المعاني ٢٢٩/١).

يعظمه ويتلقاه بالتحية، أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه. والإباء: امتناع باختيار. والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره. والاستكبار طلب ذلك بالتشبع.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي في علم الله تعالى، أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم اعتقاداً بأنه أفضل منه، والأفضل لا يَحْسُنُ أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله: ﴿أَنْعِمْتَهُ﴾^(١) جواباً لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِدَيِّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(٢). لا بترك الواجب وحده. والآية تدل على أن آدم عليه السلام أفضل من الملائكة المأمورين بالسجود له، ولو من وجه، وأن إبليس كان من الملائكة وإلا لم يتناول أمرهم ولا يصح استثناءه منهم، ولا يُرَكِّدُ على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٣) لجواز أن يقال إنه كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً، ولأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما روى: أن من الملائكة ضرباً يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم إبليس^(٤). ولمن زعم أنه لم يكن من الملائكة أن يقول: إنه كان جنياً نشأ بين أظهر الملائكة وكان مغموراً بالألوف منهم فغلبوا عليه، أو الجن أيضاً كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم، فإنه إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد والتوسل به علم أن الأصاغر أيضاً مأمورون به. والضمير في فسجدوا راجع إلى القبيلين، كأنه قال فسجد المأمورون بالسجود إلا إبليس، وأن من الملائكة من ليس بمعصوم وإن كان الغالب فيهم العصمة^(٥)، كما أن من الإنس معصومين والغالب فيهم عدم العصمة، ولعل ضرباً من الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات كالبررة والفسقة من الإنس والجن يشملهما، وكان إبليس من هذا الصنف كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلذلك صح عليه التغير عن حاله والهبوط من محله، كما أشار إليه بقوله عز وعلا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٦) لا يقال: كيف يصح ذلك والملائكة خلقت من نور والجن من نار؟ لِمَارُوتِ عَائِشَةُ رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلقت الملائكة من النور، وخلق الجن من نار»^(٧) لأنه كالتمثيل لما ذكرنا فإن المراد بالنور الجوهر المضيء والنار كذلك غير أن ضوءها مكدر مغمور بالدخان محذور عنه بسبب ما يصحبه من فزط الحرارة والإحراق فإذا صارت مهذبة مصفاة كانت محض نور ومتى نكصت عادت الحالة الأولى جذعة ولا تزال تتزايد حتى ينطفئ نورها ويبقى الدخان الصرف، وهذا أشبه بالصواب وأوفق للجمع بين النصوص، والعلم عند الله سبحانه وتعالى^(٨).

(١) الأعراف: ١٢٥.

(٢) ص: ٧٥.

(٣) الكهف: ٥٠.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لعل هذا القول يخالف عموم الآية «لا يعصون الله ما أمرهم...» - التحريم ٦٦ -.

(٦) الكهف: ٥٠.

(٧) مسلم (٢٩٩٦) وأحمد (١٥٣/٦، ١٦٨).

(٨) لا تنافي بين أن يكون إبليس كان من الجن وأنه من الملائكة، فلعل الله أن يكون سلبه الصفات الملكية والبسه الصفات الشيطانية فعصى عند ذلك، والمَلَكُ ما دام ملكاً لا يعصي (روح المعاني ١/٢٣٠).

ومن فوائد الآية استقبح الاستكبار وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، والحث على الائتمار لأمره وترك الخوض في سره، وأن الأمر للوجوب، وأن الذي علم الله تعالى من حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة، إذ العبرة بالخواتم وإن كان بحكم الحال مؤمناً وهو الموافاة المنسوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

(٣٥) ﴿وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ السكنى من السكون لأنها استقرار ولَبَثَ، و﴿أَنْتَ﴾ تأكيد أكد به المستكن ليصح العطف عليه، وإنما لم يخاطبهما أولاً تنبيهاً على أنه المقصود بالحكم والمعطوف عليه تبع له. والجنة دار الثواب، لأن اللام للعهد ولا معهود غيرها. ومن زعم أنها لم تُخلَقْ بعدُ قال: إنه بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خَلَقَهُ الله تعالى امتحاناً لآدم، وَحَمَلَ الإِهْبَاطَ على الانتقال منه إلى أرض الهند^(١) كما في قوله تعالى: ﴿أَفِطُوا مِصْرًا﴾^(٢) وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا واسعاً رافهاً، صفة مصدر محذوف.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي مكان من الجنة شئتما، وسع الأمر عليهما إزاحة للعملة، والعذر في التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها الفاتية للحصر.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه مبالغات، تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغة في تحريمه، ووجوب الاجتناب عنه، وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يورث داعية، وميلاً يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع، كما روي «حبك الشيء يعمي ويصم»^(٣) فينبغي أن لا يحوما حول ما حرم الله عليهما مخافة أن يقعا فيه، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، أو بنقص حظهما بالإتيان بما يُخل بالكرامة والنعم، فإن الفاء تفيد السببية سواء جُعِلَتِ للعطف على النهي أو الجواب له. والشجرة هي الحنطة أو الكزمة أو التينة أو شجرة من أكل منها أحدث، والأولى أن لا تُعَيَّن من غير قاطع كما لم تعين في الآية، لعدم توقف ما هو المقصود عليه. وقرىء بكسر الشين، وتقرباً بكسر التاء، وهذي بالياء.

(٣٦) ﴿فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ جيز أصدر زلتهما عن الشجرة وحملهما على الزلة بسببها، ونظير «عن» هذه في قوله تعالى ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾^(٤). أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما، ويعضده قراءة حمزة فَأَزَالَهُمَا وهما متقاربان في المعنى، غير أن أزال يقتضي عثرة مع الزوال، وإزاله قوله: ﴿هَلْ

(١) هذا القول للمعتزلة، وقد قال عنه الألوسي: (وكون حملها على ما ذكر يجري مجرى الملاعبة بالدين والمراغة لإجماع المسلمين غير مسلم) روح المعاني ١/٢٣٣.

(٢) البقرة: ٦١.

(٣) أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء مرفوعاً (٥١٣٠) وأخرجه أحمد (١٩٤/٥، ٤٥٠/٦) وابن عدي (٤٧٢/٢) في ترجمة أبي بكر بن أبي مريم. والبخاري في التاريخ الكبير (١٧٢/٣) ترجمة خالد بن محمد الثقفي.

والحديث ضعيف لأن فيه أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف جداً كما في التقريب (٣٩٨/٢).

(٤) الكهف: ٨٢.

أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى^(١) وقوله: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْفَالِغِينَ^(٢) ومقاسمته إياها بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَيْنٌ النَّاصِحِينَ^(٣) . واختلف في أنه تمثّل لهما فقاوّلهما بذلك^(٤)، أو ألقاه إليهما على طريق الوسوسة، وأنه كيف توصل إلى إزلالهما بعدما قيل له: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَچِيمٌ^(٥) فقيل: إنه منع من الدخول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة، ولم يمنع أن يدخل للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وقيل: قام عند الباب فنادهما. وقيل: تمثل بصورة دابة فدخل ولم تعرفه الخزنة. وقيل: دخل في فم الحية حتى دخلت به. وقيل: أرسل بعض أتباعه فأزلهما، والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من الكرامة والنعيم.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ خطاب لآدم عليه الصلاة والسلام وحواء لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قال اهبطا منها جميعاً^(٦) . وجمع الضمير لأنهما أصلا الجنس فكانهما الإنس كلهم. أو هما وإبليس أخرج منها ثانياً بعدما كان يدخلها للوسوسة، أو دخلها مسارقة أو من السماء.

﴿بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال استغني فيها عن الواو بالضمير، والمعنى متعادين ينبغي بعضكم على بعض بتضليله.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار، أو استقرار.

﴿وَمَتَّعٌ﴾ تمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد به وقت الموت أو القيامة.

(٣٧) ﴿فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾ استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع الكلمات على أنها استقبلته وبلغته وهي قوله تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا^(٧) الآية، وقيل: سبحانه اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكنني جنتك؟ قال: بلى، قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم^(٨). وأصل الكلمة: الكَلَم، وهو التأثير المذكور بإحدى الحاستين السمع والبصر

(١) طه: (١٢٠).

(٢) الأعراف: (٢٠).

(٣) الأعراف: (٢١).

(٤) وهذا ما ذهب إليه الجمهور كما ذكر الشوكاني في فتح القدير ٦٨/١.

(٥) ص: (٧٧).

(٦) طه: (١٢٣).

(٧) الأعراف: (٢٣).

(٨) هو أثر موقوف على ابن عباس، بسند حسن.

أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٤٥/٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٤٢/١) إلى الغريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التوبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، =

كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا

كالكلام والجراحة والحركة^(١).

﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة، وإنما رتبته بالفاء على تلقّي الكلمات لتضمّنه معنى التوبة: وهو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه. واكتفي بذكر آدم لأن حواء كانت تبعاً له في الحكم ولذلك طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ﴾ الرجاء على عباده بالمغفرة، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة، وأصل التوبة: الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف بها الباري تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة.

﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، وفي الجمع بين الوصفين، وغدّ للتائب بالإحسان مع العفو.

(٣٨) ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرّر للتأكيد، أو لاختلاف المقصود فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بليّة يتعادلون فيها ولا يخلدون، والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضلّه هلك، والتنبيه على أن مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين وحدها كافية للحازم أن تعرفه عن مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى، فكيف بالمقترن بهما؟ ولكنه نسي ولم نجد له عزماً، وأن كل واحد منهما كفى به نكالاً لمن أراد أن يذكر. وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض وهو كما ترى. وجميعاً حال في اللفظ تأكيد في المعنى كأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم على الهبوط في زمان واحد كقولك: جاؤا جميعاً ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، وما مزيدة أكدت به إن ولذلك حسن تأكيد الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب، والمعنى: إن يأتينكم مني هدىً يأنزال أو إرسال فمن تبعه منكم نجا وفاز. وإنما جيء بحرف الشك، وإتيان الهدى كائن لا محالة لأنه محتمل في نفسه غير واجب عقلاً. وكرر لفظ الهدى ولم يضمّر لأنه أراد بالثاني أعم من الأول، وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل، أي: فمن تبع ما أتاه مراعيّاً فيه ما يشهد به العقل فلا خوف عليهم فضلاً عن أن يحلّ بهم مكروهه، ولا هُمْ يفوت عنهم محبوب فيحزنوا عليه، فالخوف

= وابن مردويه.

(١) قوله تعالى: «فتلقى آدم من ربه..» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليه - عليه السلام - للتشريف والإيذان بعليّته لإلقاء الكلمات المدلول عليه بتلقيها. (أبو السعود ٩٢/١).

وإظهار الهدى مضافاً إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيده وجوب اتباعه (أبو السعود ٩٣/١).

على المتوَعِّع والحزنُ على الواقع، نفَى عنهم العقاب وأثبت لهم الثواب على آكِدِ وجهِ وأبلغه. وقرىء هُدًى على لغة هديل ولا خوفَ بالفتح.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ عطفٌ على فمن تبع إلى آخره قسيم له كأنه قال: ومن لم يتبع بل كفروا بالله وكذبوا بآياته، أو كفروا بالآيات جَنَانًا وكذبوا بها لسانًا، فيكون الفعلان متوجهين إلى الجاز والمجرور. والآية في الأصل العلامة الظاهرة، ويقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل، واشتقاقها من أي لأنها تبين أيًا من أي أو من أوى إليه، وأصلها آية أو أوية كتمرة فأبدلت عينها ألفاً على غير قياس أو آيئة أو أوية كرمكة^(١) فأعلت أو آيئة كقائلة فحذفت الهمزة تخفيفاً. والمراد بآياتنا الآيات المنزلة أو ما يعمها والمعقولة. وقد تمسكت الحشوية^(٢) بهذه القصة على عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وجوه:

الأول: أن آدم صلوات الله عليه كان نبياً، وارتكب المنهي عنه والمرتكب له عاص.

والثاني: أنه جعل بارتكابه من الظالمين والظالم ملعون لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

والثالث: أنه تعالى أسند إليه العصيان والغى فقال ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٤).

والرابع: أنه تعالى لقنهُ التوبة، وهي الرجوع عن الذنب والندم عليه.

والخامس: اعترافه بأنه خاسر لولا مغفرة الله تعالى إياه بقوله: ﴿وَإِنْ لَرَّ تَقَفِرْنَا وَتَرَحَّمْنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والخاسر من يكون ذا كبيرة.

والسادس: أنه لو لم يذنب لم يجر عليه ما جرى. والجواب من وجوه:

الأول: أنه لم يكن نبياً حينئذ، والمدعي مطالب بالبيان.

والثاني: أن النهي للتنزيه، وإنما سُمي ظالماً وخاسراً لأنه ظلم نفسه وخسر حظّه بترك الأولى له. وأما إسناد الغي والعصيان إليه فسيأتي الجواب عنه في موضعه إن شاء الله تعالى^(٥). وإنما أمر بالتوبة تلافياً لما فات عنه، وجرى عليه ما جرى معاتبته له على ترك الأولى ووفاء بما قاله للملائكة قبل خلقه.

(١) الرمكة هي: الأنثى من البراذين (المصباح المنير مادة رمك).

(٢) الحشوية: هم قوم تمسكوا بالظواهر فذهبوا إلى التجسيم وغيره وهي من الفرق الضالة. قال السبكي في «شرح أصول ابن الحاجب» الحشوية طائفة ضلُّوا عن سواء السبيل، يجرّون آيات الله على ظاهرها ويعتقدون أنه المراد، سموا بذلك لأنهم كانوا في حلقة الحسن البصري، فوجدتهم يتكلمون كلاماً. فقال: ردُّوا هؤلاء إلى حشاء القلعة فنسبوا إلى حشاء فهم حشوية وقيل غير ذلك. انظر «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٢/٥٢٠).

(٣) هود: ١٨.

(٤) طه: ١٢١.

(٥) قوله: «وعصى آدم ربه فغوى» - طه: ١٢١ - غوى: أي ضلّ عن المطلوب وخاب حيث طلب المخلد بأكل الشجرة، أو ضلّ عن الرشd حيث اغتر بقول العدو - (تفسير البيضاوي ٢/٦٠) -.

والثالث: أنه فعَّله ناسياً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(١) ولكنه عوتب بترك التحفُّظ عن أسباب النسيان، ولعله وإن حُطَّ عن الأمة لم يُحَظَّ عن الأنبياء لِعَظَم قدرهم كما قال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل»^(٢). أو أدى فعله إلى ما جرى عليه على طريق السببية المقدَّرة دون المؤاخَذة على تناوله، كتناول السم على الجاهل بشأنه. لا يقال إنه باطل لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَكَنَّا﴾^(٣)، و﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾^(٤) الآيتين، لأنه ليس فيهما ما يدل على أن تناوله حين ما قال له إبليس، فلعل مقاله أوزَّرت فيه ميلاً طبيعياً، ثم إنه كف نفسه عنه مراعاة لحكم الله تعالى إلى أن نسي ذلك، وزال المانع فحمَّله الطنوع عليه.

والرابع: أنه عليه السلام أقدم عليه بسبب اجتهادٍ أخطأ فيه، فإنه ظن أن النهي للتنزيه، أو الإشارة إلى عين تلك الشجرة فتتناول من غيرها من نوعها وكان المرادُ بها الإشارة إلى النوع، كما روي أنه عليه الصلاة والسلام «أخذ حريراً وذهباً بيده وقال: «هذان حرام على ذكور أمتي حل لإناثها»^(٥). وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولادُه. وفيها دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها في جهة عالية، وأن التوبة مقبولة، وأن متبَع الهدى مأمونُ العاقبة، وأن عذاب النار دائم، وأن الكافر فيه مخلد، وأن غيره لا يخلدُ فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وعقَّبها بتعداد النعم العامة تقريراً لها وتأكيذاً، فإنها من حيث إنها حوادثٌ محكمةٌ تدُل على مُخْدِثٍ حكيمٍ له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ومن حيث إن الإخبار بها على ما هو مثبت في الكتب السابقة ممن لم يتعلمها ولم يمارس شيئاً منها إخبارٌ بالغيب معجز يدل على نبوة المُخْبِر عنها، ومن حيث اشتغالها على خلق الإنسان وأصوله وما هو أعظم من ذلك تدلُّ على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهل العلم والكتاب منهم وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم ويؤفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج ليكونوا أول من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه فقال:

(٤٠) ﴿يَبْقَى إِسْرَءِيلُ﴾ أي أولادُ يعقوب، والابن من البناء لأنه مَبْنَى أبيه، ولذلك يُنسب المصنوع

(١) طه: ١١٥.

(٢) أخرجه بدون قوله «ثم الأولياء» الترمذي (٢٣٩٨) وقال حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه (٤٠٢٣) وأحمد (١٧٢/١) والحاكم (٤١/١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) الأعراف: ٢٠٠.

(٤) الأعراف: ٢١١.

(٥) أخرجه أحمد (١١٥/١) وأبو داود (٣٣٠/٢) رقم (٤٠٥٧) والنسائي (١٦٠/٨) رقم (٥١٤٥) وابن ماجه (١١٨٩/٢) رقم (٣٥٩٥) وابن حبان في الموارد رقم (١٤٦٥) من حديث علي.

ورجال إسناده ثقات غير أبي أفلح الهمداني، وثقه ابن حبان وقال ابن القطان مجهول. لكن للحديث شاهد من حديث أبي موسى، وشاهد آخر من حديث ابن عباس، وشاهد ثالث من حديث ابن عمر انظر تخريجها غاية المرام للألباني (رقم ٧٧).

وخلاصة القول أن الحديث صحيح بشواهد والله أعلم.

إلى صانعه فيقال: أبو الحرب وبنت الفكر. وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية: صفوة الله، وقيل: عبد الله، وقرئ إسرائيل بحذف الياء وإسرائيل بحذفهما وإسرائيل بقلب الهمزة ياء.

﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بالتفكر فيها والقيام بشكرها، وتقييد النعمة بهم لأن الإنسان غيورٌ حسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حَمَلَهُ الْغَيْرَةُ والحسد على الكُفْران والسَّخَط، وإن نظر إلى ما أنعم الله به عليه حَمَلَهُ حب النعمة على الرضى والشكر. وقيل أراد بها ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون والغرق ومن العفو عن اتخاذ العجل وعليهم من إدراك زمن محمد صلى الله عليه وسلم. وقرئ أذكُرُوا^(١) والأصل إذ تَكُرُوا. ونعمتي بإسكان الياء وَفَقاً وإسقاطها دَرْجاً هو مذهب من لا يحرك الياء المكسورة ما قبلها.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ بالإيمان والطاعة.

﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بحسن الإثابة والعهد يضاف إلى الْمُعَاهِدِ والمُعَاهِدِ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول، فإنه تعالى عَهِدَ إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب، وَعَدَ لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتب الوفاء منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن^(٢) الله تعالى حَقُّنُ الدَّمِ والمال، وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن غيره، ومن الله تعالى: الفوز باللقاء الدائم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوفوا بعهدي في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، أوف بعهدكم في رفع الأصار والأغلال^(٣). وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب. أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم، فبالنظر إلى الوسائط. وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة. وتفصيل العهدين في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٤) إلى قوله: ﴿وَلَاَدْخُلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٥). وقرئ أَوْفٌ بالتشديد للمبالغة.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فيما تأتون وتذرون وخصوصاً في نقض العهد، وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط، كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهبون. والرهبة: خوف مع تحرز. والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى^(٦).

(٤١) ﴿وَمَا أَمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ إفراد للإيمان بالأمر به والحث عليه لأنه المقصود

(١) قرئ بالبدال المهملة المشددة على وزن افعلوا (روح المعاني ٢٤٢/١).

(٢) قوله ومن الله تعالى، أي والعهد من الله تعالى...

(٣) أخرج ابن جرير في التفسير (٢٥٠/١) نحوه بسند ضعيف، لضعف محمد بن حميد الرازي. [انظر الجرح والتعديل (٢٣٢/٧) والمجروحين (٣٠٣/٢) والتقريب (١٥٦/٢)].

(٤) المائدة: ١٢٥.

(٥) المائدة: ١٢٥.

(٦) خصص بني إسرائيل بالذكر والتذكير لأنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفرأ بها (أبو السعود ٩٤/١).

يَا بَنِي إِدْرِيسَ قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوَ الْحَقُّ وَانْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنَئِ إِنْ شَاءَ رَبُّكَ لِزُلْزَلَةٍ تَمُوتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ

والعمدة للوفاء بالعهود، وتقيد المُنَزَّل بأنه مصدق لما معهم من الكتب الإلهية من حيث إنه نازل حسبما نعت فيها، أو مطابق لها في القصص والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحدة منها حق بالإضافة إلى زمانها، مُرَاعَى فيها صلاح من خوطب بها، حتى لو نزل المتقدم في أيام المتأخر لتزل على وفقه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام "لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي"^(١) تنبيه على أن اتباعها لا ينافي الإيمان به، بل يوجبه ولذلك عرض بقوله:

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به، ولأنهم كانوا أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشرين بزمانه. و﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وقع خبراً عن ضمير الجمع بتقدير: أول فريق أو فوج، أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به، كقولك كسانا حلة. فإن قيل: كيف نُهَو عن التقدم في الكفر وقد سبقهم مشركو العرب؟ قلت: المراد به التعريض لا الدلالة على ما نطّق به الظاهر، كقولك: أما أنا فلست بجاهل، أو ولا تكونوا أول كافر به من أهل الكتاب، أو ممن كفر بما معه فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه، أو مثل من كفر من مشركي مكة. وأوّل: أفعل لا فِعل له، وقيل: أصله أزال من وآل، فأبدلت همزته واواً تخفيفاً غير قياسي أو أوّل من آل فقُلِّبت همزته واواً وأدغمت.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَبَاتٍ قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإن جَلَّت قليلة مستزلة بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كان لهم رياسة في قومهم ورسوم وهدايا منهم فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخثاروها عليه. وقيل:

(١) وهو حديث حسن.

أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٨٧) من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأ النبي ﷺ، فغضب، فقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني «ومتهوكون: متحيرون. وكذا أخرجه الدارمي (١/١١٥) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/٤٢) وفيه مجالد بن سعيد الهمداني: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره. ولكن للحديث شواهد. انظرها في إرواء الغليل للآلباني (٦/٣٤ - ٣٨) فهو بها حسن.

كانوا يأخذون الرشي فيحرفون الحق ويكتمونه^(١).

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاقِقِينَ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا. ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادي لما في الآية الثانية فُضِّلَت بالرهبة التي هي مقدمة التقوى، ولأن الخطاب بها عمّ العالم والمقلد أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السلوك، والخطاب بالثانية لما خصّ أهل العلم أمرهم بالتقوى التي هي متنها.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ عطف على ما قبله. واللّبس الخلط وقد يلزمه جعل الشيء مشتبهاً بغيره، والمعنى لا تخلطوا الحق المتزل عليكم بالباطل الذي تخرعون وتكتمونه حتى لا يميز بينهما، أو لا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله أو تذكرونه في تأويله.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ جزم داخل تحت حكم النهي، كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال ونهوا عن الإضلال بالتليس على من سمع الحق والإخفاء على من لم يسمعه. أو نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع بمعنى مع، أي لا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمانهم، ويعضده أنه في مصحف ابن مسعود وتكتمون أي وأنتم تكتمون بمعنى كاتمين، وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عالمين بأنكم لا يسون كاتمون، فإنه أفيح، إذ الجاهل قد يُعذر.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة. أمرهم بفروع الإسلام يعد ما أمرهم بأصوله، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بها. والزكاة: من زكا الزرع، إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم. أو من الزكاء بمعنى: الطهارة، فإنها تطهر المال من الخبث والنفس من البخل.

﴿وَأَرْكَمُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ أي في جماعتهم، فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس. وعبر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود. وقيل الركوع: الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع، قال الأضبط السعدي^(٢):

لَا تَذَلُّ الضَّعِيفَ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى كَعَّ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

(٤٤) ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب. والبر: التوسع في الخير، من البر وهو

(١) عبّر عن المشتري - الذي هو العمدة في عقود المعاوضة - بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة فيها، وقرنت الآيات - التي حقها أن يتنافس فيها المتنافسون - بالباء التي تصحب الوسائل إيداناً بتعكيسهم، حيث جعلوا ما هو المقصد الأصلي وسيلة والوسيلة مقصداً (أبو السعود ٩٦/١).

(٢) هو الأضبط بن مريع بن عوف بن كعب السعدي التيمي، شاعر جاهلي قديم أساء إليه قومه، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين، فقال: بكل وإد بنو سعدا يعني قوم وهو صاحب الأبيات التي منها:

واقنغ من الدهر ما أتاك به من قراً عيناً بعيثه نفعة
وصل حبال البعيد إن وصل الـ حبل واقصي القريب إن قطع

[الأعلام للزركلي (١/٣٣٤)]. والأبيات من المنسرح.

الفضاء الواسع يتناول كل خير، ولذلك قيل البر ثلاثة: بر في عبادة الله تعالى، وبر في مراعاة الأقارب. وبر في معاملة الأجانب.

﴿وَتَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرسون سرّاً من نصحوه باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه^(١). وقيل: كانوا يأمرسون بالصدقة ولا يتصدقون ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تبيكت كقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾^(٢) أي تتلون التوراة، وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول بالعمل.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح صنيعكم فيصدكم عنه، أو أفلا عقل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته. والعقل في الأصل الحبس، سمي به الإدراك الإنساني لأنه يحبسه عما يُقبح ويفعله على ما يحسن، ثم القوة التي بها النفس تدرك هذا الإدراك. والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه سوء صنيعه وخبت نفسه، وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحق الخالي عن العقل، فإن الجامع بينهما تأبى عنه شكيمة، والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم فيقيم غيره، لا منع الفاسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر.

(٤٥) ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ متصل بما قبله، كأنهم لما أمرُوا بما يشق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك، والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النّجح والفرج توكلوا على الله، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس. والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية، من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين حتى تُجأبوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(٣). ويجوز أن يراد بها الدعاء:

﴿وَلِئَلَّهَا﴾: أي وإن الاستعانة بهما أو الصلاة. وتخصيصها برّد الضمير إليها لعظم شأنها واستجماعها ضرباً من الصبر. أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها.

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٢١ وفيه قال: ابن عباس في رواية الكلبي، عن أبي حاتم، بالإسناد الذي ذكر: نزلت في يهود المدينة كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولعن بينهم وبينه رضاءً من المسلمين: اثبت على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل - يعنون محمداً ﷺ - فإن أمره حق، فكانوا يأمرسون الناس بذلك ولا يفعلونه. والكلبي متروك كما تقدم في غير مرة.

(٢) البقرة: ٢٢٥.

(٣) وهو حديث ضعيف:

أخرجه أحمد في المسند (٣٨٨/٥) وأبو داود في السنن (٧٨/٢) رقم (١٣١٩) والمروزي في تعظيم الصلاة (رقم: ٢١٢) والخطيب في تاريخ بغداد (٢٧٤/٦) من حديث حذيفة.

وقال الألباني في تخريج المشكاة رقم (١٣٢٥): «إسناده ضعيف فيه محمد بن عبدالله الدؤلي، عن عبدالعزيز أخي حذيفة، وهما مجهولان، والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ

﴿لَكِبَرٌ﴾ لثقله شاقة كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْنَا﴾^(١).

﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي المخبتين، والخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة. والخضوع اللين والانقياد، ولذلك يقال الخضوع بالجوارح والخضوع بالقلب.

(٤٦) ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي يتوقعون لقاء الله تعالى ونيل ما عنده، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله فيجازيهم^(٢)، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود ﴿يعلمون﴾ وكان الظن لما شبّه العلم في الرُّجْحَانِ أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَتَضُمَّنْ معنى التوقع^(٣)، قال أوس بن حجر^(٤):

فَأَرْسَلْتُهُ مُسْتَيَقِّنَ الظِّلِّ أَكْثُهُ مَخَالِطُ مَا بَيْنَ الشَّرَاسِيفِ جَائِفُ

ولما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم فإن نفوسهم مرتاضة بأمثالها متوقّعة في مقابلتها ما يستحققر لأجله مشاقها ويستلذ بسببه متاعها، ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام «وجعلت قرة عيني في الصلاة»^(٥).

(٤٧) ﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كرهه للتأكيد وتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم خصوصاً، وربطه بالوعيد الشديد تخويفاً لمن غفل عنها وأخل بحقوقها.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطف على نعمتي.

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم، يريد به تفضيل آبائهم الذين كانوا في عصر موسى عليه الصلاة

(١) الشورى: ١٣.

(٢) قال الراغب الأصفهاني في بيان معنى الظن: (الظن اسم لما يحصل عن أمانة ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضمّفت جداً لم يتجاوز حدّ التوهم) المفردات مادة ظن.

(٣) قوله: «ملاقوا ربهم» فيه تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم، للإيذان بفيضان إحسانه إليهم (أبو السعود ٩٨/١).

(٤) أوس بن حجر بن مالك التميمي أبو شريح. شاعر تميم في الجاهلية أو من كبار شعرائها. في نسبه اختلاف بعد أبيه حجر وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى، كان كثير الأسفار... ولم يدرك الإسلام، في شعره حكمة ورقة، وله ديوان شعر. [الأعلام للزركلي (٣١/٢)].

(٥) وهو حديث صحيح. أخرجه أبو يعلى في المسند (١٩٩/٦) رقم (٣٤٨٢/٧٢٧) من حديث أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ، والطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

وأخرجه أحمد في المسند (١٢٨/٣)، ١٩٩، (٢٨٥) والنسائي (٦١/٧ - ٦٢ رقم ٣٩٣٩ و٣٩٤٠) والحاكم في المستدرک (١٦٠/٢) وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٣١٢٤).

والسلام وبعده، قبل إن يَضُرُّوا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح، وجعلهم أنبياء وملوكاً مقسطين. واستدل به على تفضيل البشر على المَلَك وهو ضعيف.

(٤٨) ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ أي ما فيه من الحساب والعذاب.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق، أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدر، وقرئ لا تُجْزَى من أجزاء عنه إذا أغنى وعلى هذا تعين أن يكون مصدراً، وإيراده مُنْكَرًا مع تنكير النفسين للتعميم والإقناط الكلّي، والجملة صفة ليوماً، والعائد فيها محذوف تقديره لا تُجْزَى فيه، ومن لم يجوز حذف العائد المجرور قال: اتَّسع فيه فحُذِفَ عنه الجارُّ وأجرى مجرى المفعول به ثم حُذِفَ كما حذف من قوله: أم مال أصابوا.

﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي من النفس الثانية العاصية، أو من الأولى، وكأنه أريد بالآية نفي أن يَدْفَعَ العذاب أحدٌ عن أحد من كل وجه مُحْتَمَل، فإنه إما أن يكون قهراً أو غيره، والأول النصر، والثاني إما أن يكون مجاناً أو غيره. والأول أن يشفع له والثاني إما بأداء ما كان عليه وهو أن يجزي عنه، أو بغيره وهو أن يعطى عنه عدلاً. والشفاعة من الشَّفْع كأن المشفوع له كان فرداً فجعَلَه الشفيع شفعاً بضم نفسه إليه، والعدل الفدية. وقيل: البَدَل وأصله التسوية سَمِيَ به الفدية لأنها سميت بالمفدى، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا تُقْبَلُ بالتاء.

﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ يُمنعون من عذاب الله، والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة في سياق النفس من النفوس الكثيرة، وتذكيره بمعنى العباد أو الأناسي. والنصر أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضر. وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها خصوصية بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة، ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت رداً لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم.

(٤٩) ﴿وَلَا جُنَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تفصيل لما أجملَه في قوله ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾^(١) وعطف على نعمتي عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وقرئ أنجيتكم. وأصل آل أهل لأن تصغيره أهيل، وخَصَّ بالإضافة إلى أولي الخطر كالأنبياء والملوك. وفرعون لقب لمن مَلَكَ العمالقة ككسرى وقصر لملكي الفرس والروم. ولَعَنُوهم اشتق منه تَفَرَّعن الرجل إذا عتا وتجبر، وكان فرعون موسى مصعب بن ريان، وقيل ابنه وليد من بقايا عاد. وفرعون يوسف عليه السلام ريان وكان بينهما أكثر من أربعمئة سنة..

﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾ ييغونكم، من سَامَهُ خَسفاً إذا أولاه ظلماً، وأصل السؤم الذهاب في طلب الشيء.

﴿سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ أفضَّعَه فإنه قبيح بالإضافة إلى سائرته، والشؤم مصدر ساء يسوء ونصبه على المفعول ليسؤمونكم، والجملة حال من الضمير في نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما جميعاً لأن فيها ضمير كل واحد منهما.

﴿يَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَرِسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ﴾ بيان ليسومونكم ولذلك لم يُعْطَف، وقرء يَذَّبَحُونَ بالتخفيف. وإنما فعلوا بهم ذلك لأن فرعون رأى في المنام، أو قال له الكهنة: سيولد منهم من يذهب بملكه، فلم يرُدَّ اجتهداهم من قَدَّرَ الله شيئاً.

﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ﴾ محنة، إن أشير بذلكم إلى صنيعهم، ونعمة إن أشير به إلى الإنجاء، وأصله الاختبار لكن لما كان اختبارُ الله تعالى عباده تارة بالمحنة وتارة بالمنحة أُطْلِقَ عليهما، ويجوز أن يُشارَ بذلكم إلى الجملة ويراد به الامتحان الشائع بينهما.

﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم، أو بيعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم، أو بهما. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة بلاء. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبارٌ من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مسأره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين.

(٥٠) ﴿وَلَا فَرْقًا بَيْنَ الْبَحْرِ﴾ فَلَقْنَاهُ وَفَصَلْنَا بَيْنَ بَعْضِهِ وَبَعْضٍ حَتَّى حَصَلَتْ فِيهِ مَسَالِكُ بَسْلُوكِكُمْ فِيهِ. أو بسبب إنجائكم، أو ملتبساً بكم كقوله:

تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمِ وَالتَّرِيَا

وقرء فَرَقْنَا على بناء التكرير لأن المسالك كانت اثني عشر بعدد الأسباط.

﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أراد به فرعون وقومه، واقتصر على ذكرهم للعلم بأنه كان أولى به، وقيل شخصه كما روي أن الحسن رضي الله تعالى عنه كان يقول: اللهم صل على آل محمد، أي شخصه واستغني بذكره عن ذكر أتباعه.

﴿وَأَنتُمْ نَظَرُونَ﴾ ذلك، أي غَرَقَهُمْ وإطباق البحر عليهم، أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذكلة، أو جُشَّتْهُم التي قذفها البحر إلى الساحل، أو ينظر بعضكم بعضاً. روي أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل، فخرج بهم فصَبَّحَهُم فرعون وجنوده، وصادفوه على شاطئ البحر، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فظهر فيه اثنا عشر طريقاً يابساً فسلكوها فقالوا: يا موسى نخاف أن يَغْرَقَ بعضنا ولا نعلم، ففتح الله فيها كُورَ فِثْرَاءِ وتسامعوا حتى عَبَرُوا البحر، ثم لما وصل إليه فرعون ورآه منفليلاً اقتحم فيه هو وجنوده فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين.

واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بني إسرائيل، ومن الآيات المَلْجئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى عليه الصلاة والسلام، ثم إنهم بعد ذلك اتخذوا العجل وقالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(١) ونحو ذلك، فهم بمعزل في الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، مع أن ما تواتر من معجزاته أمورٌ نظرية مثل: القرآن والتحدي به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم دقيقة تدركها الأذكياء، وإخباره عليه الصلاة والسلام عنها من جملة معجزاته على ما مر تقريره.

نُظِرُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ

(٥١) ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى أن يعطيه التوراة، وضرب له ميقاناً ذا القعدة وعشر ذي الحجة^(١) وعبر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر^(٢) وحمزة والكسائي واعداً لأنه تعالى وعده الوحي. ووعدته موسى عليه السلام المجيء للميقات إلى الطور.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً أو معبوداً.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد موسى عليه السلام، أو مضيه.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ بإسراكم.

(٥٢) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ حين تبتم، والعفو محو الجريمة، من عفا إذا دَرَسَ. ﴿وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي الانخاذ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا عفوه.

(٥٣) ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ يعني التوراة الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وحجة تُفَرِّق بين الحق والباطل. وقيل أراد بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى أو بين الكفر والإيمان. وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام، أو النصر الذي فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾^(٣) يريد به يوم بدر.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر في الآيات.

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ فاعزموا على التوبة والرجوع إلى مَنْ خلقكم برآء من التفاوت ومميزاً بعضكم عن بعض بَصُور وهيئات مختلفة، وأصل التركيب لخلوص الشيء عن غيره، إما على سبيل التقصي كقولهم برىء المريض من مرضه والمديون من دينه أو الإنشاء كقولهم برأ الله آدم من الطين أو فتوبوا.

﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبغع أو قَطْع الشهوات، كما قيل من لم يعذب نفسه لم يُنْعَمْهَا

(١) تعيين الأربعين بأنها ذو القعدة وعشر من ذي الحجة رواه ابن جرير عن أبي العالية وذكره ابن كثير بلفظ. قيل (٨٨/١) وقيل في تعيينها غير ذلك. انظر روح المعاني (٢٥٧/١).

(٢) ابن عامر هو: عبدالله البحصي، وهو تابعي جليل لقي واثلة بن الأسقع والنعمان بن بشير، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ، وقيل إنه قرأ على عثمان نفسه، وهو أحد القراء السبعة، واشتهر بالرواية عنه هشام وابن ذكوان، وتوفي بدمشق (١١٨) هـ.

(٣) الأنفال: «٤١».

اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَدَنِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ

ومن لم يقتلها لم يُخَيِّها. وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً. وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتل العبد. روي أن الرجل كان يرى بعضه وقريبه فلم يقدر على المضي لأمر الله، فأرسل الله ضباباً وسحابة سوداء لا يتباصرون، فأخذوا يقتلون من الغداة إلى العشي حتى دعا موسى وهارون فكشفت السحابة ونزلت التوبة، وكانت القتلى سبعين ألفاً^(١). والفاء الأولى للتسبب، والثانية للتعقيب.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ من حيث إنه طهرة من الشرك ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بمحذوف إن جعلته من كلام موسى عليه السلام لهم تقديره: إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم، أو عطف على محذوف إن جعلته خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات، كأنه قال: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارتككم. وذكر الباري وترتيب الأمر عليه إشعاراً بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباء، حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغبوة، وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بأن لا يسترد منه، ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب.

﴿إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ للذي يُكثر توفيق التوبة، أو قبولها من المذنبين، ويبالغ في الإنعام عليهم.

(٥٥) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لأجل قولك، أو لن نفر لك.

﴿حَتَّى رَأَى اللَّهُ جَهْرَةً﴾ عياناً وهي في الأصل مصدر قولك: جهرت بالقراءة، استعيرت للمعاينة، ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية، أو الحال من الفاعل أو المفعول. وقرئ جَهْرَةً بالفتح على أنها مصدر كالغلبة، أو جمع جاهر كالكتابة فيكون حالاً من الفاعل قطعاً، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام للميقات. وقيل عشرة آلاف من قومه. والمؤمن به: إن الله الذي أعطاك التوراة وكلمك، أو إنك نبي.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ لفراط العناد والتعنت وطلب المستحيل، فإنهم ظنوا أنه تعالى يُشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا. قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم. وقيل صيحة. وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخرخوا صعقين ميتين يوماً وليلة.

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس بسند صحيح (٢٨٦/١) في التفسير.

﴿وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ ما أصابكم بنفسه أو أثره.

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ بسبب الصاعقة، وقيد للبعث لأنه قد يكون عن إغماء أو نوم كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾^(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث، أو ما كفرتموه لما رأيتم بأس الله بالصاعقة.

(٥٧) ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْغَمَامَ﴾ سخر الله لهم السحاب يظللهم من الشمس حين كانوا في التيه.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىَ﴾ الترنجيبين والسَّمَانِي. قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع، وتبعث الجنوب عليهم السمانِي، وينزل بالليل عمود نار يسرون في ضوئه، وكانت ثيابهم لا تسخ ولا تبلى.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ على إرادة القول.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه اختصار، وأصله فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره.

(٥٨) ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ يعني بيت المقدس، وقيل أريحا أمروا به بعد التيه.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْداً﴾ واسعاً، ونصبه على المصدر، أو الحال من الواو.

﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ﴾ أي باب القرية، أو القبة التي كانوا يصلون إليها، فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿سُجَّدًا﴾ متطامنين مخبتين، أو ساجدين لله شكراً على إخراجهم من التيه.

﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾ أي مسألتنا، أو أمرك حطة وهي فعلة من الحَطَّ كالجلسة، وقرئ بالنصب على الأصل بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة، أو على أنه مفعول قولوا أي قولوا هذه الكلمة. وقيل معناه أمرنا حطة أي: أن نحط في هذه القرية ونقيم بها.

﴿تَنْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بسجودكم ودعائكم. وقرأ نافع بالياء وابن عامر بالتاء على البناء للمفعول. وخطايا أصله خطايء كخطايح، فعند سيبويه أنه أبدلت الياء الزائدة همزةً لوقوعها بعد الألف، واجتمعت همزتان فأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفاً، وكانت الهمزة بين الألفين فأبدلت ياء. وعند الخليل قُدِّمَت الهمزة على الياء ثم فعل بهما ما ذكر.

﴿وَسَرَّيْذُ الْمَحْسِنِينَ﴾ ثواباً، جعل الامتثال توبةً للمُسيء وسبب زيادة الثواب للمحسن، وأخرجه عن صورة الجواب إلى الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله، فكيف إذا فعله؟! وأنه تعالى يفعل لا محالة.

(٥٩) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ بدلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب

الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُلُوا وَأَشْرَبُوا مِّن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَلْمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَاطِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ

ما يشتهون من أعراض الدنيا^(١).

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كرهه مبالغة في تقبيح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم بوضع غير الأمور به موضعه، أو على أنفسهم بأن تركوا ما يوجب نجاتها إلى ما يوجب هلاكها.

﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والرجز في الأصل: ما يُعَاف عنه، وكذلك الرجس. وقرئ بالضم وهو لغة فيه. والمراد به الطاعون. روي أنه مات في ساعة أربعة وعشرون ألفاً.

(٦٠) ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ لما عطشوا في التيه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ اللام فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طورياً حَمَلَهُ معه، وكانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، أو حجراً أهبطه آدم من الجنة، ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه لموسى مع العصا، أو الحجر الذي فرّ بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله به عما رموه به من الأذرة^(٢)، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله، أو للجنس وهذا أظهر في الحجة. قيل لم يأمره بأن يضرب حجراً بعينه، ولكن لما قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها؟ حَمَلَ حجراً في مخلاته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر ويضربه بها إذا ارتحل فيبیس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه مِنْنَا عطشاً، فأوحى الله إليه لا تفرح الحجر وكلمه يطعك لعلمهم يعتبرون. وقيل كان الحجر من رخام وكان ذراعاً في ذراع، والعصا عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان في الظلمة^(٣).

﴿فَإِنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: فَإِنْ ضُرِبَتْ فقد انفجرت، أو فَضْرِبَ فانفجرت^(٤)، كما مر في قوله تعالى ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمُ﴾^(٥). وقرئ عَشْرَةٌ بكسر الشين وفتحها وهما لغتان فيه.

(١) ورد في تبديلهم أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة (ابن كثير ٩٥/١).

(٢) الأذرة هي انتفاخ الخصية (المصباح المنير مادة أذر).

(٣) تعيين كيفية الحجر وشكله وكيفية ضربه من الإسرائيليات التي لم نؤمر بتصديقها ولا تكذيبها.

(٤) قال أبو السعود: «فانفجرت» عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام، قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار، كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب (١٠٦/١).

(٥) البقرة: «٥٤».

أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط.

﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ عينهم التي يشربون منها.

﴿كُلُّوا وَاشْرَبُوا﴾ على تقدير القول:

﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ يريد به ما رزقهم الله من المن والسلوى وماء العيون. وقيل الماء وحده لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت به^(١). ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تعتدوا حال إفسادكم^(٢)، وإنما قيده لأنه وإن غلب في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقتل الخضر عليه السلام الغلام وخرقه السفينة، ويقرب منه العيث غير أنه يغلب فيما يذرك حساً. ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله وقلة تدبره في عجائب صنعه، فإنه لما أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر وينفّر عن الخل ويجذب الحديد، لم يمتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ يريدون به ما رزقوا في التيه من المن والسلوى، ويوحده^(٣) أنه لا يختلف ولا يتبدل، كقولهم طعام مائدة الأمير واحد يريدون أنه لا تتغير ألوانه وبذلك أجمعوا، أو ضرب واحد، لأنهما طعام أهل التلذذ وهم كانوا فلاحاً فتزعموا إلى عكرهم^(٤) واشتهوا ما ألفوه. ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾^(٥) سله لنا بدعائك إياه ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يظهر ويوجد، وجزمه بأنه جواب فادع فإن دعوته سبب الإجابة. ﴿مِمَّا تُثِيتُ الْأَرْضُ﴾ من الإسناد المجازي، وإقامة القابل مقام الفاعل، ومن للتبعض. ﴿مِنْ بَقْلِهِمْ وَشَأِينَهُمْ وَأَعْدِيهِمْ وَبَصِلِهِمْ﴾ تفسير وبيان وقع موقع الحال، وقيل بدل بإعادة

(١) قولهم أن المراد بالرزق هو الماء وحده ياباه أن المأمور به أكل النعمة لا ما سيطلبونه وإضافة الرزق إليه تعالى مع أن الكل إليه خلقاً وملكاً: إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عادي.

ولم يقل: من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى «فقلنا» للإيدان بأن الأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام (أبو السعود ١٠٦/١).

(٢) العثي أشد أنواع الفساد (أبو السعود ١٠٦/١).

(٣) أي ويريدون بوحده.

(٤) العكر هو ما رسب من الزيت ونحوه.

(٥) التعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادئ الإجابة (أبو السعود ١٠٦/١).

الجاز. والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل، والفوم الحنطة ويقال للخبز ومنه قَوْمُوا لَنَا، وقيل الثوم وقرىء قَتَائِهَا بالضم، وهو لغة فيه. ﴿قَالَ﴾ أي الله، أو موسى عليه السلام. ﴿أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ﴾ أقرب منزلة وأذون قدراً. وأصلُ الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرَّفعة، فقيل بعيد المحل بعيد الهمة، وقرىء أدناً من الدناءة. ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ يريد به المن والسلوى فإنه خيرٌ في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي. ﴿أَفَقِطُوا مِصْرًا﴾ انحذروا إليه من التيه، يقال هَبَطَ الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج منه، وقرىء بالضم. والمصرُ البلدُ العظيم وأصله الحد بين الشيتين، وقيل أراد به العلم، وإنما صرَّفه لسكون وسطه أو على تأويل البلد، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود. وقيل أصله مصرائيم فعُزِّب. ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضُربت عليه، أو ألصقت بهم، من ضَرَبَ الطين على الحائط مجازاةً لهم على كفران النعمة. واليهودُ في غالب الأمر أذلاءً مساكين، إما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به، أو صاروا أحقاء بغضبه، مِنْ بَاءِ فلان بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، وأصل البؤء المساواة. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبؤء بالغضب. ﴿يَا كُفْرُوكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَيَقْتُلُوكَ الْتَّيِّنَ يَغْيِرَ الْحَقُّ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات، التي من جملتها ما عُدَّ عليهم من قُلُقِ البحر، وإظلال الغمام، وإنزال المن والسلوى، وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل، والفرقان، وآية الرجم والتي فيها نَعَتْ محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة، وقتلهم الأنبياء فإنهم قتلوا شعياً وذكرياً ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حَمَلَهُمْ على ذلك اتباعُ الهوى وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: جرَّهم العصيانُ والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين. فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها. وقيل كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى. وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل، والباءُ بمعنى مع وإنما جُوِّزَت الإشارة بالمفرد إلى شيئين فصاعداً على تأويل ما ذُكر، أو تقدم للاختصار، ونظيره في الضمير قول رؤبة يصف بقرة:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقٌ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْعُ الْبَهَقِ

والذي حَسَّنَ ذلك أن تشية المضمَرات والمبهمات وجمعها وتأنيتها ليست على الحقيقة، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع.

(٦٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالسنتهم، يريد به المتدينين بدين محمد صلى الله عليه وسلم المخلصين منهم والمنافقين، وقيل المنافقين لانخراطهم في سلك الكفرة^(١) ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ تهودوا، يقال هَادَ

(١) تأتي هذه الآية في هذا السياق - سياق الحديث عن بني إسرائيل - لتدل على أن العبرة بحقيقة القصيدة، لا بعصية جنس أو قوم..

مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَنَاهَا نَكْلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَلْخُذْنَا هَٰذَا وَقَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا أَذْغَ لَنَا رَبُّكَ

وتهود إذا دخل في اليهودية، ويهود: إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهوذا وكانهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع نصران كندامى وندمان، والياء في نصراني للمبالغة كما في أحمرى، سموا بذلك لأنهم نصرروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نضران أو ناصرة فسموا باسمها، أو من اسمها. ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ قوم بين النصارى والمجوس. وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام. وقيل هم عبدة الملائكة. وقيل عبدة الكواكب^(١)، وهو إن كان عربياً فمن صبا إذا خرج. وقرأ نافع وحده بالياء إما لأنه خفف الهمزة وأبدلها ياء، أو لأنه من صبا إذا مال لأنهم مالوا عن سائر الأديان إلى دينهم أو من الحق إلى الباطل.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من كان منهم في دينه قبل أن يُنسخ - مصداقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه.. وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الذي وَعَدَ لَهُمْ على إيمانهم وعملهم. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب. و﴿مَنْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والجملة خبر إن، أو بدل من اسم إن وخبرها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والفاء لتضمن المسند إليه معنى الشرط، وقد منع سيبويه دخولها في خبر إن من حيث إنها لا تندخل الشرطية، ورُدَّ بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبْتُؤُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾^(٢).

(٦٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ باتباع موسى والعمل بالتوراة. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ حتى أعطيت الميثاق، روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كثرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله فوقهم حتى قبلوا. ﴿خُذُوا﴾ على إرادة القول: ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ ادرسوه ولا تنسوه، أو تفكروا فيه فإنه ذكّر بالقلب، أو اعملوا به. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا المعاصي، أو

= وعليه فالمراد بالذين آمنوا هم المؤمنون بالإسلام، لا المنافقون، وذلك لأنه رتب على ذلك عدم الخوف والحزن وهو لا يكون للمنافقين.

وإدراجهم في سلك الكافرين لما سبقت الإشارة إليه من أن العبرة بالعقيدة لا بالجنسية.

(١) رجح ابن كثير أن المراد بالصابئين قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، إنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه (ابن كثير ١/١٠٠).

(٢) البروج: ١٠٠.

رجاء منكم أن تكونوا متقين. ويجوز عند المعتزلة أن يتعلق بالقول المحذوف، أي: قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا.

(٦٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أغرضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتوفيقكم للتوبة، أو بمحمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه. ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين بالأنهماك في المعاصي، أو بالخطب والضلال في فترة من الرسل. ولو في الأصل لامتناع الشيء لامتناع غيره، فإذا دخل على لا أفاد إثباتاً وهو امتناع الشيء لثبوت غيره، والاسم الواقع بعده عند سيبويه مبتدأ خبره واجب الحذف لدلالة الكلام عليه وسدّ الجواب مسدّه، وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ اللام موطنه للقسم. والسبت مصدر قولك سببت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وأصله القطع أمروا بأن يجردوه للعبادة فاعتدى فيه ناس منهم في زمن داود عليه السلام. واشتغلوا بالصيد، وذلك أنهم كانوا يسكنون قرية على ساحل يقال لها أيلة، وإذا كان يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا حضر هناك وأخرج خُزطومه، فإذا مضى تفرقت فحفروا جِيَاضاً وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ جامعين بين صورة القردة والخُسوء: وهو الصغار والطرء، وقال مجاهد ما مُسِخت صورهم ولكن قلوبهم^(١)، فمُثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَاراً﴾^(٢) وقوله ﴿كُونُوا﴾ ليس بأمر إذ لا قدرة لهم عليه، وإنما المراد به سرعة التكوين، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم، وقرئ قردة بفتح القاف وكسر الراء، وخاسين بغير همزة.

(٦٦) ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة، أو العقوبة. ﴿نَكَالاً﴾ عبرة تنكل المعتر بها، أي تمنعه. ومنه النكل للقيء. ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذُكرت حالهم في زبر الأولين واشتهرت قصتهم في الآخرين، أو لمعاصريهم ومن بعدهم، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها، أو لأهل تلك القرية وما حوالها، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من قومهم، أو لكل متق سمعها.

(٦٧) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أول هذه القصة قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَادَّرَأْتُمْ فِيهَا﴾^(٣) وإنما فُكَّت عنه وقُدِّمت عليه لاستقلالها بنوع آخر من مساوئهم، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال. وقصته: أنه كان فيهم شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه طمعاً في ميراثه، وطرحوه على باب المدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيُخبر بقاتله. ﴿قَالُوا أَنَا نَذْبَحُهَا هَزْؤً﴾ أي مكان هزؤ، أو أهله ومهزوءاً بنا، أو الهزؤ نفسه لقرط الاستهزاء استبعاداً لما قاله واستخفافاً به، وقرأ حمزة

(١) رجح ابن كثير أن المسخ كان سورياً ومضوياً، ورد قول مجاهد (ابن كثير ١٠٢/١).

(٢) الجمعة: «٥».

(٣) المرسلات: «٣٣».

يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾
 قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ
 النُّظُرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ

وإسماعيل^(١) عن نافع بالسكون، وحفص^(٢) عن عاصم بالضم وقلب الهمزة واوا. ﴿قَالَ آعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الهزؤ في مثل ذلك جهل وسفه، نفى عن نفسه ما رمي به على طريقة البرهان، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعاً له.

(٦٨) ﴿قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما حالها وصفتها، وكان حَقُّهم أن يقولوا: أي بقرة هي؟ أو كيف هي؟ لأن ﴿مَا﴾ يُسألُ به عن الجنس غالباً، لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حالٍ لم يوجد بها شيء من جنسه أجزؤه مجرى ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا مسنة ولا فتية، يقال فَرَضَتِ الْبَقَرَةُ فَرَوْضاً من الفَرَض وهو القطع، كأنها فَرَضَتْ سَنَهَا، وتركيب الْبَكْرِ لِلأُولَى ومن الْبُكْرَةِ وَالْبَاكُورَةِ.

﴿عَوَانٌ﴾ نَصَفٌ. قال: نَوَاعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعَوُنٌ.

﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي بين ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بين، فإنه لا يضاف إلا إلى متعدد، وَعَوُنٌ هذه الكنايات وإجراء تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينة، ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب، وَمَنْ أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة مِنْ شِقِّ الْبَقَرِ غَيْرَ مَخْصُوصَةٍ ثم انقلبت مَخْصُوصَةً بِسؤالهم، ويلزمه النسخ قبل الفعل، فإن التخصيص إبطال للتخيير الثابت بالنص، والحق جوازهما، ويؤيد الرأي الثاني ظاهر اللفظ والمروي عنه عليه الصلاة والسلام «لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»^(٣). وتقرئهم بالتمادي

(١) هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان، مولى الخليفة عبد الملك بن مروان، أبو علي البغدادي، المعروف: بالقالبي نسبة إلى قالى قلى، بلد من أعمال أرمينية.

قال الزبيدي: كان أعلم الناس بنحو البصريين، وأحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر الجاهلي، وأحفظهم له. ولد سنة (٢٨٨هـ) بديار بكر، وقدم بغداد سنة (٣٠٣هـ) فقرأ النحو والعربية والأدب، وسمع الحديث. وخرج من بغداد سنة (٣٢٨هـ) فدخل قرطبة سنة (٣٣٠هـ) وقرأ عليه الناس كتب اللغة والأخبار. وصنف بها الأمالي، النوادر، المقصور، الممدود، شرح المعلقة... وغير ذلك.

مات بقرطبة ليلة السبت لسبع خلون من جمادي الأولى - وقيل الآخرة - سنة (٣٥٦هـ) [بغية الوعاة] للسيوطي (٤٥٣/١ رقم ٩٢٥).

(٢) هو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز، اشتهر بالرواية عن عاصم الذي هو أحد القراء السبعة، وكان ربيب عاصم تربى في حجره وقرأ عليه وتعلم منه كما يتعلم الصبي من معلمه، فلذلك كان أدق من شعبة الذي اشتهر بالرواية أيضاً عن عاصم، توفي حفص (١٨٠هـ).

(٣) أخرجه ابن مردويه وابن أبي حاتم والبزار، كلهم من طريق الحسن عن أبي هريرة. وفي سننه عباد بن منصور وفيه ضعف (الكافي الشاف ص ٨ رقم ٥٣).

إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لِمَا يُنْفَجِرُ مِنْهُ أَلا تَنْهَرُونَ وَإِنْ مِنْهَا لِمَا

وزجرهم على المراجعة بقوله ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي ما تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به من قولهم: أمرتك الخير فافعل ما أمرت به، أو أمركم بمعنى مأموركم.

(٦٩) ﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ الفُقُوعُ نُصُوعُ الصفرة ولذلك تؤكَّد به، فيقال: أصفرُّ فاقعٌ كما يقال أسودُّ حالِكٌ، وفي إسناده إلى اللون وهو صفة صفراء لملاسته بها فضل تأكيد كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتها، وعن الحسن سوداء شديدة السواد، وبه فسر قوله تعالى: ﴿جَمَلَتْ صُفْرًا﴾^(١). قال الأعشى:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَاهَا كَالزَّيْبِ

ولعله عبّر بالصفرة عن السواد لأنها من مقدماته، أو لأن سواد الإبل تعلوه صفرة وفيه نظر، لأن الصفرة بهذا المعنى لا تؤكَّد بالفقوع ﴿سُئِرُ النَّظِيرِ﴾ أي تعجبهم، والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع، أو توقُّعه من السر.

(٧٠) ﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال الأول واستكشاف زائد. وقوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذار عنه، أي إن البقر الموصوف بالتغوين والصفرة كثير فاشتبه علينا، وقرئ: إن البقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر، ويشابه وتشابه بالياء والتاء، وتُشابه وتُشابه ويُشابه ويُشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين على التذكير والتأنيث، وتشابهت وتشابهت مخففاً ومشدداً، وتُشَبُّهُ بمعنى تشبه وتُشَبِّهِ بالتذكير ومتشابهة ومتشبهة. ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى المراد ذبحها، أو إلى القاتل، وفي الحديث «لو لم يستثنوا لما بَيَّنَّتْ لهم آخر الأبد»^(٢). واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بإرادة الله سبحانه وتعالى، وأن الأمر قد ينفك عن الإرادة وإلا لم يكن للشرط بعد الأمر معنى. والمعتزلة والكرامية على حدوث الإرادة، وأجيب بأن التعليق باعتبار التعلُّق.

(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي لم تذلل لكراب الأرض وسقي الحرث، و﴿لَا ذَلُولَ﴾ صفة لبقرة بمعنى غير ذلول، ولا الثانية مزيدة لتأكيد الأولى والفعالان صفتا ذلول كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية، وقرئ: لا ذلول بالفتح أي حيث هي، كقولك مررت برجل لا بخيل

(١) المرسلات: (٣٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٤٧/١ - ٣٤٨) مرفوعاً مفصلاً، وأخرجه بنحوه سعيد بن منصور عن عكرمة مرفوعاً مرسلًا، وأخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موصولاً، وفي إسناده «سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور» وكلاهما ضعيف.

ولا جبان، أي حيث هو، وتسقي من أسقى. ﴿مُسَلَّمَةً﴾ سلمها الله تعالى من العيوب، أو أهلها من العمل، أو أخلصَ لونها من سلم له كذا إذا خلص له ﴿لَا شَيْءَ﴾ لا لَوْنٌ فيها يخالف لون جلدها، وهي في الأصل مصدر، وشَاءَ وَشَيْئاً وَشَيْئَةً إذا خلط بلونه لوناً آخر. ﴿قَالُوا أَتِنَّ جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾ أي بحقيقة وصف البقرة وحققتها لنا، وقرىء آلاَن بالمد على الاستفهام، ولأن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿فَذَبْحُوهَا﴾ فيه اختصار، والتقدير: فحَصَلُوا البقرة المنعوتة فذبحوها. ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لتطويلهم وكثرة مراجعاتهم، أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل، أو لغلاء ثمنها. إذ روي (أن شيئاً صالحاً منهم كان له عجلة، فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إني استودعتُكها لابني حتى يكبر، فثبتت وكانت وحيدة بتلك الصفات، فساوموها من اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مَسْكِيهَا ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير). وكاد من أفعال المقاربة وُضِعَ لَدُنْوَ الخبر حصولاً، فإذا دخل عليه النفي قيل معناه الإثبات مطلقاً وقيل ماضياً، والصحيح أنه كسائر الأفعال ولا ينافي قوله ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قوله فذبحوها لاختلاف وقتيهما، إذ المعنى أنهم ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم وانقطعت تعللاتهم، ففعلوا كالمضطر الملجأ إلى الفعل.

(٧٢) ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ خطاباً للجمع لوجود القتل فيهم ﴿فَأَذَرْتُمْ فِيهَا﴾ اختصمتم في شأنها، إذ المتخاصمان يدفع بعضهما بعضاً، أو تدافعتم بأن طرح كلُّ قَتْلَهَا عن نفسه إلى صاحبه، وأصله تدارأتم فأدغمت التاء في الدال واجتلبت لها همزة الوصل ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مظهره لا محالة، وأُغْمِلَ مخرجٌ لأنه حكاية مستقبل كما أُغْمِلَ ﴿بَسِطْ ذِرَاعَيْهِ﴾^(١) لأنه حكاية حالٍ ماضية.

(٧٣) ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ﴾ عطفٌ على ادارأتم وما بينها اعتراضٌ، والضمير للنفس، والتذكير على تأويل الشخص أو القتل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي بعض كان وقيل: بأصغريها. وقيل بلسانها. وقيل بفخذها اليمنى وقيل بالأذن. وقيل بالعجب ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يدل على ما حذف وهو فضربه فحَيَّ، والخطابُ مع مَنْ حَضَرَ حياة القتل، أو نزول الآية ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلالة على كمال قدرته. ﴿أَلَمَلَكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي يَكْمُلَ عقلُكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها، أو تعملوا على فضيته. ولعله تعالى إنما لم يحيه ابتداءً وشرطَ فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ونفع اليتم والتنبيه على بركة التوكل والشفقة على الأولاد، وأن من حق الطالب أن يقدم قربة، والمُتَقَرَّبُ أن يتحرى الأحسن ويغالي بثمره، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضحى بنجبية اشتراها بثلاثمائة دينار^(٢). وأن المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى، والأسباب أمارات لا أثر لها، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا، ولم يلحقها ضعف الكبر، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذلة

(١) الكهف: (١٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٥٦) من رواية الجهم بن الجارود عن سالم... وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٣١/٣) وقال: لا نعرف لجهم سماعاً من سالم، وقال الذهبي في الميزان (٤٢٦/١) فيه جهالة، وقال ابن حجر: مقبول (التقريب ١/١٢٥).

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد وضعه الألباني في ضعيف أبي داود.

يَشْقُو فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَيطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَنَظْمَعُونَ
 أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ
 اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها لا سِمة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه فتحيا حياة طيباً
 وتعرّب عما به ينكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والتزاع.

(٧٤) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة، كما في الحجر. وقساوة القلب مثل
 في تنبؤه عن الاعتبار، وثم لاستبعاد القسوة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني إحياء القليل، أو جميع ما عُدّ من
 الآيات فإنها مما توجب لِين القلب. ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في قسوتها ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ منها، والمعنى أنها
 في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلها أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد، فحذف
 المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويعضده قراءة الحسن بالجر عطفاً على الحجارة، وإنما لم يقل
 أقسى لما في أشد من المبالغة والدلالة على اشتداد القسوتين واشتمال المفضل على زيادة ﴿أَوْ﴾
 للتخيير، أو للترديد بمعنى: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى منها^(١).

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَّا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشْقُو فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَيطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾
 تعليل للتفضيل، والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفعل، فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء وتنفجر منه
 الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به. وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل
 عن أمره تعالى. والنفجر التفتح بسعة وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد. وقرئ إن، على أنها
 المخففة من الثقيلة وتلزمها اللام الفارقة بينها وبين إن النافية، ويهبط بالضم.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد على ذلك، وقرأ ابن كثير ونافع ويعقوب وخلف^(٢) وأبو بكر^(٣)
 بالياء ضمّاً إلى ما بعده، والباقون بالتاء.

(٧٥) ﴿أَفَنَظْمَعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن
 يصدّقوكم، أو يؤمنوا لأجل دعوتكم، يعني اليهود. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ طائفة من أسلافهم
 ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ يعني التوراة. ﴿ثُمَّ يَلْحَقُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ كنعن محمد صلى الله عليه وسلم، وآية الرجم.

(١) قوله: «فهي كالْحِجَارَةِ أو أشد قسوة» أوردها بالجملة الاسمية مع كون ما سبق جملة فعلية للدلالة على استمرار
 قساوة قلوبهم. (أبو السعود ١/ ١١٥).

(٢) خلف: هو أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار، وكان زاهداً عابداً اشتهر بالرواية عن حمزة أحد القراء
 السبعة وتوفي عام (٢٢٩) هـ.

(٣) أبو بكر: هو شعبة بن عياش بن سالم الأسدي، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينه وبين شعبة بن الحجاج
 البصري، وكان شعبة إماماً عالماً كبيراً، اشتهر بالرواية عن عاصم الذي هو أحد القراء السبعة، وقد توفي بالكوفة
 عام (١٩٣) هـ.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُوبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَسَيَا مَا عَدُوْدَةٌ قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ

أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون. وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور، ثم قالوا سمعنا الله تعالى يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريب. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون مبطلون، ومعنى الآية: أن أحبار هؤلاء ومقدميهم كانوا على هذه الحالة، فما ظنك بسفلتهم وجهالهم، وأنهم إن كفروا وحرفوا فلهم سابقة في ذلك.

(٧٦) ﴿وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني منافقيهم. ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ أي الذين لم ينافقوا منهم عاتيين على من نافق. ﴿أَتَخَذْتُمُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(١) بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهاراً للتصلب في اليهودية، ومنعاً لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين. فالاستفهام على الأول تقرير وعلى الثاني إنكار ونهي ﴿لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ليجتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجتهم بكتاب الله وحكمه محاجة عنده كما يقال عند الله كذا، ويراد به أنه جاء في كتابه وحكمه. وقيل عند ذكر ربكم، أو بين يدي رسول ربكم.

وقيل عند ربكم في القيامة وفيه نظر إذ الإخفاء لا يدفعه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إما من تمام كلام اللاتمين وتقديره: أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم به فيحجونكم، أو خطاب من الله تعالى للمؤمنين متصل بقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، والمعنى: أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم.

(٧٧) ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني هؤلاء المنافقين، أو اللاتمين، أو كليهما، أو إياهم والمحرفين. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ومن جملة ما أسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان، وإخفاء ما فتح الله عليهم، وإظهار غيره، وتحريف الكلم عن مواضعه ومعانيه^(٢).

(٧٨) ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ جهالة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة، ويتحققوا ما فيها. أو التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ استثناء منقطع. والأمانى: جمع أمنية، وهي في الأصل ما يُقَدَّرُ الإنسان في نفسه من متى إذا قَدَّر، ولذلك تطلق على الكذب وعلى ما يتمنى وما يقرأ، والمعنى:

(١) عبر عنه بالفتح للإيدان بأنه سر مكنون وياب مغلق لا يقف عليه أحد (أبو السعود ١١٧/١).

(٢) قدم الإسرار على الإعلان للإيدان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات، كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية (أبو السعود ١١٨/١).

ولكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المُحَرِّفِينَ، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة. وقيل إلا ما يقرؤون قراءة عارية عن معرفة المعنى وتدبره من قوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلٍ ۖ تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِشْلِ ۖ
وهو لا يناسب وصفهم بأنهم أميون. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا علم لهم، وقد يُطلق الظن بإزاء العلم على كل رأي واعتقاد من غير قاطع، وإن جَزَمَ به صاحبه: كاعتقاد المقلد والزائف عن الحق لشبهة.

(٧٩) ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي تحسر وهلك. ومن قال إنه وادٍ أو جبلٌ في جهنم فمعناه: أن فيها موضعاً يتبوأ فيه من جعل له الويل، ولعله سماه بذلك مجازاً. وهو في الأصل مصدر لا فعل له وإنما ساغ الابتداء به نكرة لأنه دعاء. ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ﴾ يعني المحرِّفين، ولعله أراد به ما كتبه من التأويلات الزائفة. ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ كقولك: كتبه بيمينى ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كي يُحْصَلُوا به عرضاً من أعراض الدنيا، فإنه وإن جُعِلَ قليل بالنسبة إلى ما استوجبه من العقاب الدائم. ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني المحرِّف. ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يريد به الرُّشَى.

(٨٠) ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ﴾ المس اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة به، واللمس كالطلب له ولذلك يقال ألمسه فلا أجده. ﴿إِلَّا أَنْبَاءًا مَعْدُودَةً﴾ محصورة قليلة، روي أن بعضهم قالوا نعذب بعدد أيام عبادة العجل أربعين يوماً، وبعضهم قالوا مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ خبراً أو وعد بما تزعمون. وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال. والباقون بإدغامه ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخُلف في خبره محال.

﴿أَمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم معادلةٌ لهمزة الاستفهام بمعنى أيُّ الأمرين كائن، على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما، أو منقطعةٌ بمعنى: بل أنقولون، على التقرير والتفريع.

(٨١) ﴿بَلَى﴾ إثباتٌ لما نفوه من مَسَاسِ النار لهم زماناً مديداً ودهراً طويلاً على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، وتختص بجواب النفي ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ قبيحة، والفرق بينها وبين الخطيئة أنها قد تقال فيما يُقصد بالذات، والخطيئة تغلب فيما يُقصد بالعَرَضِ لأنه من الخطأ، والكسب: استجلاب النفع. وتعليقه بالسيئة على طريق قوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُمْ﴾ أي استولت عليه، وشملت جملة أحواله حتى صار كالمُحَاطِ بِهَا لا يخلو عنها شيء من جوانبه، وهذا إنما يصح في شأن الكافر لأن غيره وإن لم يكن له سوى تصديق قلبه وإقرار لسانه فلم تُحَاطَ الخطيئة به، ولذلك فسرهما السلف بالكفر. وتحقيق ذلك: أن من أذنب ذنباً ولم يقلع عنه استجره إلى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستولي عليه الذنوبُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

وتأخذ بمجامع قلبه فيصير بطبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها معتقداً أن لا لذة سواها، مبيغضاً لمن يمنعه عنها مكدباً لمن ينصحه فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَرُوا الشَّوْءَ أَنْ كَذَبُوا بِبَايَةِ اللَّهِ﴾^(١). وقرأ نافع خطيباته. وقرىء خطيبته وخطيباته على القلب والإدغام فيهما. ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾^(٢) ملازموها في الآخرة كما أنهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون، أو لا يشون لبثاً طويلاً. والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة وكذا التي قبلها.

(٨٢) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يُشْفِعَ وعده بوعيده، لثرجى رحمته ويخشى عذابه، وعطفُ العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مُسمّاه.

(٨٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إخبارٌ في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه، ويعضده قراءة: لا تعبدوا وعطفُ قولوا عليه، فيكون على إرادة القول. وقيل: تقديره أن لا يعبدوا فلما حذَفَ أَنْ رُفِعَ كقوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي

ويدل عليه قراءة: ألا تعبدوا، فيكون بدلاً عن الميثاق، أو معمولاً له بحذف الجار. وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قال: وحلفناهم لا يعبدون. وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتاء حكاية لما خوطبوا به، والباقون بالياء لأنهم غيبٌ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ تعلق بمضمر تقديره: وتحسنون أو أحسنوا ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ عطف على الوالدين. واليتامى جمع يتيم كنديم وندامى وهو قليل. ومسكين مفعيل من السكون، كأن الفقر أسكنه ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً حسناً، وسماه حسناً للمبالغة. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب حسناً بفتحتين. وقرىء حسناً بضميتين وهو لغة أهل الحجاز، وحُسنى على المصدر كبُشرى، والمرادُ به ما فيه تخلُّق وإرشاد

(١) الروم: «١٠».

(٢) إيراد اسم الإشارة المنبئ عن استحضار المشار إليه بما له من الأوصاف للإشعار بعليتها لصاحبية النار. وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بُعد منزلتهم في الكفر والخطايا (أبو السعود ١/ ١٢٢).

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْنَا أَسَدًّا أَلْعَذَابُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْقُقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يريد بهما ما فرض عليهم في ملتهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ على طريقة الالتفات، ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله ﷺ ومن قبلهم على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ يريد به من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ، ومن أسلم منهم ﴿وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ قوم عاداتهم الإعراض عن الوفاء والطاعة. وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة إلى جهة العُرض.

(٨٤) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ على نحو ما سبق، والمراد به أن لا يتعرض بعضهم بعضاً بالقتل والإجلاء عن الوطن. وإنما لجعل قتل الرجل غيره قتل نفسه لاتصاله به نسباً أو ديناً، أو لأنه يوجهه قصاصاً. وقيل معناه لا ترتكبوا ما يبيع سفك دماءكم وإخراجكم من دياركم، أو لا تفعلوا ما يؤذيكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة، ولا تقتربوا ما تمنعون به عن الجنة التي هي داركم، فإنه الجلاء الحقيقي ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتم بلزومه ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ توكيدٌ لقولك: أقر فلان شاهداً على نفسه. وقيل وأنتم أيها الموجودون تشهدون على إقرار أسلافكم، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازاً.

(٨٥) ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما ارتكبهوه بعد الميثاق والإقرار به والشهادة عليه. وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره على معنى أنتم بعد ذلك هؤلاء الناقضون، كقولك أنت ذلك الرجل الذي فعل كذا، نزل تغير الصفة منزلة تغير الذات، وعدَّهم باعتبار ما أسند إليهم حضوراً وباعتبار ما سيحكي عنهم غيباً. وقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ إما حال والعامل فيها معنى الإشارة، أو بيان لهذه الجملة. وقيل: هؤلاء تأكيد، والخبر هو الجملة. وقيل بمعنى الذين والجملة صلته والمجموع هو الخبر، وقرئ تَقْتُلُونَ على التثنية. ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ حال من فاعل تُخْرِجُونَ، أو من مفعوله، أو كليهما. والتظاهر التعاون من الظَّهر. وقرأ عاصم وحزمة والكسائي بحذف إحدى التاءين. وقرئ بإظهارها، وتَظَاهَرُونَ بمعنى تظهرون ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ﴾ روي أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فإذا اقتتلا عاون كل فريق حلفاءه في القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها، وإذا أسير أحد من الفريقين جمَّعوا له حتى يُقْدَوْه. وقيل معناه إن يأتوكم أسارى في أيدي الشياطين تتصدوا لإنقاذهم بالإرشاد والوعظ مع تضييعكم أنفسكم كقوله

يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا

تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾^(١). وقرأ حمزة أسرى وهو جمع أسير كجريح وجرحى، وأسارى جمعه كسكرى وسكاري. وقيل هو أيضاً جمع أسير، وكأنه شبه بالكسلان وجمع جمعه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وابن عامر تفدوهم ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ متعلق بقوله وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، وما بينهما اعتراض، والضمير للشان، أو مئهم ويفسره إخراجهم، أو راجع إلى ما دل عليه تخرجون من المصدر. وإخراجهم بدل أو بيان ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴾ يعني الفداء.

﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ يعني حرمة المقاتلة والإجلاء. ﴿ فَمَا جَاءَ مِنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قتل قريظة وسبيهم. وإجلاء بني النضير، وضرب الجزية على غيرهم. وأصل الخزي دُلُّ يُسْتَحْيَا منه، ولذلك يُسْتَعْمَلُ في كل منهما. ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرُدُّونَ إِلَيْكَ أَلْعَذَابِ ﴾ لأن عصيانهم أشد. ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تأكيد للوعيد، أي الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لا يغفل عن أفعالهم. وقرأ عاصم في رواية المفضل، تردون على الخطاب لقوله ﴿ مِنْكُمْ ﴾. وابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر، وخلف ويعقوب يعملون على أن الضمير لمن.

(٨٦) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابِ ﴾ بنقص الجزية في الدنيا، والتعذيب في الآخرة. ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ بدفعهما عنهم.

(٨٧) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أي التوراة ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ﴾^(٢). يقال قفاه إذا تبعه، وقفاه به إذا أتبعه إياه من القفا، نحو ذنبه من الذنب ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات، أو الإنجيل. وعيسى بالعبرية أشوع. ومريم بمعنى الخادم، وهو بالعربية من النساء كالزير من الرجال، قال رؤية: قُلْتُ لِزَيْرٍ كَمْ تَصُلُّهُ مَرْيَمُ. ووزنه مفعَل إذ لم يثبت فاعل ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ وقويناه، وقرىء آيدناه بالمد ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ بالروح المقدسة كقولك: حاتم الجود ورجلٌ صدق، وأراد به جبريل، وقيل: روح عيسى عليه الصلاة والسلام، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان، أو لكرامته على الله سبحانه وتعالى ولذلك أضافه إلى نفسه تعالى، أو لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث. أو

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) المؤمنون: ٤٤.

كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَسْرَوْا بِهِۦ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَاءَ وَ يَغْضِبُ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِيتٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزْمِنُ بِنَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءُ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن

الإنجيل^(١)، أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى. وقرأ ابن كثير القُدس بالإسكان في جميع القرآن ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ﴾ بما لا تحبه. يقال

هَوِيَ بالكسر هَوَىٰ إذا أحب، وهَوَىٰ بالفتح هُوِيَاً بالضم إذا سقط. ووسّطت الهمزة بين الفاء وما تعلقت به توبيخاً لهم على تعقيهم ذاك بهذا وتعجبياً من شأنهم، ويختل أن يكون استثناءً والفاء للعطف على مقدّر، ﴿أَسْتَكَبرْتُمْ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل. ﴿فَقَرِيحًا كَذَبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل ﴿وَقَرِيحًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فطيع. أو مراعاة للفواصل، أو للدلالة على أنكم بعد فيه، فإنكم تتحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسمتم له الشاة^(٢).

(٨٨) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(٣) مغشاة بأغطية خَلْقِيَّة لا يصل إليها ما جئت به ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يُخْتَن وقيل أصله غُلْف جمع غلاف فَخُفَّف، والمعنى أنها أوعية للعلم لا تَسْمَعُ علماً إلا وَعَتَه، ولا تعي ما تقول. أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره. ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ رد لما قالوه، والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم، أو أنها لم تأب قبول ما تقوله لخلل فيه، بل لأن الله تعالى خذلهم بكفرهم كما قال تعالى ﴿فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾^(٤)، أو هم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك؟

(١) قوله أو الإنجيل عطف على قوله: وأراد به جبريل.

(٢) خصّ عيسى عليه السلام بالذكر من بين الرسل الذين بعثوا بعد موسى ووصف بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها، أما عيسى عليه السلام فقد نُسخ بشرعه كثير من أحكامها، ولحسم مادة اعتقادهم الباطل في حقه عليه السلام ببيان حقيقته وإظهاره كما قبح ما فعلوا به عليه السلام.

وعبر بقوله «بما لا تهوى أنفسكم» للإيدان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة، لأهواء أنفسهم والموافقة لها لا لشيء آخر. (أبو السعود ١٢٧/١).

(٣) قوله: «وقالوا قلوبنا غُلْفٌ» بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب، لما فُضِّل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم (أبو السعود ١٢٧/١).

(٤) محمد: ٢٣.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون، وما مزيدة للمبالغة في التقليل، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. وقيل: أراد بالقلّة العدم.

(٨٩) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم، وقرئ بالنصب على الحال من كتاب لتخصّصه بالوصف، وجواب لما محذوف دل عليه جواب لما الثانية. ﴿وَكَاذِبًا مِّنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يستنصرون على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت في التوراة. أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم وقد قرب زمانه، والسين للمبالغة والإشعار أن الفاعل يسأل ذلك عن نفسه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾^(١) من الحق. ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة. ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي عليهم، وأتى بالمُظْهَر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فتكون اللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس ويدخلون فيه دخولاً أولياً لأن الكلام فيهم.

(٩٠) ﴿بِسْمَا أَشْتَرَا بِوَيْهٍ أَنفُسَهُمْ﴾ ما نكرة بمعنى شيء مميّزة لفاعل بش المستكن، واشتروا صفته ومعناه باعوا، أو اشتروا بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلّصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا. ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هو المخصوص بالذم ﴿بَقِيًّا﴾ طلباً لما ليس لهم وحسداً، وهو علّة ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾ دون ﴿أَشْتَرُوا﴾ للفصل. ﴿أَن يُزِيلَ اللَّهُ﴾ لأن يزيل، أي حسدوه على أن ينزل الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسهل^(٢) ويعقوب بالتخفيف. ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني الوحي. ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على من اختاره للرسالة ﴿فَبَاءَ وَيَعْصِبُ عَلَىٰ عَصَبٍ﴾ للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق. وقيل: لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد عيسى عليه السلام، أو بعد قولهم عزيز ابن الله ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العاصي فإنه طهره لذنوبه.

(٩١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ امْكُثُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعم الكتب المنزلة بأسرها. ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي بالتوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءُهَا﴾ حال من الضمير في قالوا، ووراء في الأصل مصدرٌ جعل ظرفاً، ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عُدَّ من الأضداد. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الضمير لما وراءه، والمراد به القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حال مؤكدة تتضمن رد مقالهم، فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَلْيَسَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوّغه، وإنما أسنّده إليهم لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه. وقرأ نافع وحده أنبياء الله مهموزاً في جميع القرآن.

(١) أورد الاسم الموصول «ما» لبيان كمال مكابرتهم، فإن معرفة ما جاءهم من مبادئ الإيمان به ودواعيه لا محالة. والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له (أبو السعود ١٢٨/١).

(٢) سهل: هو سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسى بن عبدالله بن رفيع التستري وكنيته أبو محمد، وكان من الزهاد وله كلام حسن، صاحب خاله محمد بن سوار، وشاهد ذا الثون المصري سنة خروجه للحج بمكة توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين [المنتظم (١٦٣/٥) وطبقات الصوفية (ص ٣٠٦ رقم ١٠)].

بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَمَا يَا مُرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِتِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(١) ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد مجيء موسى، أو ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ حال، بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته، أو بالإخلال بآيات الله تعالى، أو اعتراض بمعنى وأنتم قوم عادتكم الظلم.

ومساق الآية أيضاً لإبطال قولهم ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾^(٢) والتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول طريقة أسلافهم مع موسى عليهما الصلاة والسلام، لا لتكرير القصة وكذا ما بعده.

(٩٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ أي قلنا لهم: خذوا ما أمرتم به في التوراة بجدّ واسمعوا سماع طاعة. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن. وفي قلوبهم: بيان لمكان الإشراب كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾^(٣) ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم وذلك لأنهم كانوا مُجَسِّمَةً أو حلولية ولم يروا جسماً أعجب منه، فتمكن في قلوبهم ما سؤل لهم السامري ﴿قُلْ يَسْكَمَا يَا مُرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾ أي بالتوراة، والمخصوص بالذم محذوف، نحو هذا الأمر أو ما يعمه وغيره من قبائحهم المعدودة في الآيات الثلاث إلزاماً عليهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تقرير للقدح في دعواهم الإيمان بالتوراة، وتقديره: إن كنتم مؤمنين بها لم يأمركم بهذه القبائح ولا يرخص لكم فيها إيمانكم بها، أو إن كنتم مؤمنين بها فبشما يأمركم به إيمانكم بها، لأن المؤمن ينبغي أن لا يتعاطى إلا ما يقتضيه إيمانه، لكن الإيمان بها لا يأمر به، فإذا لستم بمؤمنين.

(٩٤) ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصة بكم كما قلتم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، ونصبها على الحال من الدار. ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ سائرهم، واللام للجنس، أو المسلمين واللام للمهد ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحب التخلص إليها من الدار ذات الشوائب، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: لا أبالي سقطت على الموت، أو سقط الموت علي. وقال عمار رضي الله تعالى عنه بصفيين: الآن ألاقى الأحبة محمداً

(١) الإسراء: ١٠١.

(٢) البقرة: ٩١.

(٣) النساء: ١٠.

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ

وحزبه. وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتُضِر: جاء حبيب على فاقة لا أفلح من ندم أي: على التمني، سيما إذا علم أنها سالمة له لا يشاركه فيها غيره.

(٩٥) ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من موجبات النار، كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن، وتحريف التوراة. ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه عتبر بها عن النفس تارة والقدرة أخرى، وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا لثقل واشتبه، فإن التمني ليس من عمل القلب ليخفى، بل هو أن يقول: ليت لي كذا، ولو كان بالقلب لقالوا: تمنينا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي»^(١) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، ونفيه عنهم هو لهم.

(٩٦) ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ﴾ مِنْ وَجَدَ بعقله الجاري مجرى عليم، ومفعولاه هم وأحرص الناس، وتكثير حياة لأنه أريد بها فرد من أفرادها وهي: الحياة المتطاولة، وقرء باللام. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ محمول على المعنى وكأنه قال: أحرص من الناس على الحياة ومن الذين أشركوا. وإفراذه بالذكر للمبالغة، فإن حرصهم شديد إذ لم يعرفوا إلا الحياة العاجلة، والزيادة في التوبيخ والتفريع، فإنهم لما زاد حرصهم - وهم مقرون بالجزاء على حرص المنكرين - دل ذلك على علمهم بأنهم صاثرون إلى النار، ويجوز أن يُراد وأحرص من الذين أشركوا، فحذف أحرص لدلالة الأول عليه، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف صفته ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ على أنه أريد بالذين أشركوا اليهود لأنهم قالوا: عزيز ابن الله، أي: ومنهم ناس يود أحدهم، وهو على الأولين بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف.

(١) أخرج البيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧٤/٦) من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كنتم في مقاتلكنم صادقين فقولوا: اللهم أمتنا. فو الذي نفسي في يده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه...».

والكلبي متروك، وأبو صالح ضعيف مدلس.

● وأخرج أحمد في المسند (٢٤٨/١) عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ عنقه، قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً. ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار...».

قلت: أخرج البخاري (٧٢٤/٨) رقم (٤٩٥٨) والترمذي (٤٤٣/٥) رقم (٣٣٤٨) الشطر الأول فقط.

وقال الحافظ في «الفتح» (٧٢٤/٨): «وأما بهذه الزيادة «ولو أن اليهود تمنوا لماتوا» فهي عند الإسماعيلي.

كما أخرجه ابن جرير في التفسير (٤٢٤/١) مرفوعاً وموقوفاً بدون الشطر الأول.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفٌ سَنَةً﴾ حكاية لودادتهم، ولو بمعنى لئت وكان أصله: لو أعمر، فأجرى على الغيبة لقوله: يود، كقولك حلف بالله ليفعلن ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ الضمير لأحدهم، وأن يعمر فاعل مزحزحه، أي وما أحدهم بمن يزحزحه من العذاب تعميره، أو لما دل عليه يعمر. وأن يعمر بدل منه. أو منهم، وأن يعمر موضحه. وأصل سنة سنة لقولهم سنوات. وقيل سَنَهة كجبهة لقولهم سانهته وتسَنَّهت النخلة إذا أتت عليها السنون، والزحزحة التباعد ﴿وَاللَّهُ بِصِغِيرَاتٍ بِمَا يَمْعَلُونَ﴾ فيجازيهم.

(٩٧) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ نزل في عبد الله بن سوريا^(١)، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمَّن ينزل عليه بالوحي؟ فقال: جبريل، فقال: ذاك عدونا عادانا مراراً، وأشدُّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر، فبعثنا من يقتله فرآه ببابل فدفع عنه جبريل. وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه وإلا فَيَمِّمَ تقتلونه؟^(٢). وقيل: دخل عمر رضي الله تعالى عنه مِدراس اليهود يوماً، فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يُطلع محمداً على أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلام، فقال: وما مَثَرَتُهُما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة، فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام «لقد وافقك ربك يا عمر»^(٣). وفي جبريل ثمان لغات قرىء بهن أربع في: المشهور جَبْرِئِيل كسلسيل قراءة حمزة والكسائي، وجَبْرِيل بكسر الراء وحذف الهمزة قراءة ابن كثير، وجَبْرِئِل كجحمرش قراءة عاصم برواية أبي بكر، وجَبْرِيل كقنديل قراءة الباقرين. وأربع في الشواذ: جَبْرَائِل وجَبْرَائِيل كجبراعيل، وجَبْرِئَل وجَبْرِين^(٤) ومنع صرفه للعجمة والتعريف، ومعناه عبدالله. ﴿فَإِنَّهُمْ نَزَّلَهُ﴾ البارز الأول لجبريل والثاني للقرآن، وإضمامه غير مذكور يدل على فخامة شأنه كأنه لتعيينه وفزط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره. ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ فإنه القابل الأول للوحي، ومحل الفهم والحفظ، وكان حَقُّه على قلبي لكنه جاء على حكاية كلام الله تعالى كأنه قال: قل ما تكلمت به. ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ بأمره، أو تيسيره حال من فاعل نَزَّلَه. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أحوال من مفعوله، والظاهر أن جواب الشرط ﴿فَإِنَّهُمْ نَزَّلَهُ﴾، والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع رِبْقَةَ الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي، لأنه نزل كتاباً مصدقاً للكتب المتقدمة، فحذف الجواب وأقيم علته مقامه، أو مَنْ عاداه فالسبب في عداوته أنه نزله عليك. وقيل محذوف مثل: فليمت غيظاً، أو فهو عدو لي وأنا عدو له.

(١) عبدالله بن سوريا: يهودي من أحبار «فَذَكَ».

(٢) أورده البغوي في تفسيره (٩٦/١) بلا سند. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٤ - ٢٥ من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٥ - ٢٦) من طريق علي بن مسهر، عن داود، عن الشعبي، عنه. وأخرجه ابن جرير في التفسير (٤٣٣/١) من طريق داود عن الشعبي، كما رواه من طريق مجاهد عن الشعبي نحوه. (٤٣٥/١) وعن قتادة قوله.

(٤) قال الألوسي: (أفصحها وأشهرها جَبْرِئِل كَقَنَدِيل وهي قراءة أبي عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم) (روح المعاني ٣٣٢/١).

لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

كما قال:

(٩٨) ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أراد بعداوة الله مخالفتَه عِناداً، أو معاداةَ المقربين من عباده، وصَدَّرَ الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ ^(١). وأفرد المَلَكَيْنِ بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع، إذ الموجبُ لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن الحاجة كانت فيهما. ووضع الظاهر ^(٢) موضع المضمَر للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسَل كُفِر. وقرأ نافع ميكايل كميكايل، وأبو عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص ميكايل كميكايل، والباقون ميكايل بالهمزة والياء بعدها. وقرأ ميكايل كميكايل، وميكايل كميكايل، وميكايل.

(٩٩) ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ أي المتمردون من الكفرة. والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دل على عظمه كأنه متجاوز عن حده. نزل في ابن سوريا حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فتنبك.

(١٠٠) ﴿ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره أَكْفَرُوا بِالآيَاتِ وكلما عاهدوا، وقرأ بسكون الواو على أن التقدير إلا الذين فسقوا، أو كلما عاهدوا، وقرأ عاهدوا وعهدوا. ﴿ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ نقضه، وأصل النبد الطرح، لكنه يغلب فيما يُنسى، وإنما قال فريق لأن بعضهم لم ينقض ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ رد لما يُتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم يبنذ جهاراً فهم مؤمنون به خفاءً.

(١٠١) ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ يعني التوراة ^(٤)، لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدقها ونبذ لما فيها من وجوب الإيمان بالرسَل المؤيدين بالآيات. وقيل ما مع الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن.

(١) التوبة: «٦٢».

(٢) أي قال: «عدو للكافرين» ولم يقل عدو لهم، فأظهر لفظ الكافرين ولم يُشر إليهم بالإضمار رغم العلم بهم ودلالة السياق عليهم.

(٣) التنكير في رسول للتفخيم، ووصف الرسول بأنه من عند الله لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية الإضافية (أبو السعود ١/١٣٦).

(٤) وصف التوراة على هذا المعنى بأنه كتاب الله تشريف لها وتعظيم لحقها عليهم وتهويل لما اجتروا عليه من الكفر بها (أبو السعود ١/١٣٦).

وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مِثْلِكِ سُلَيْمَنُ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّكَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَرَأَى ظُهُورَهُمْ﴾ مثل لإعراضهم عنه رأساً، بالإعراض عما يُرمى به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه. ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله، يعني أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عناداً. واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جيل اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١). وفرقة جاهرُوا بنبذ عهودها وتخطي حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله ﴿بَنَدَهُ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ﴾^(٢). وفرقة لم يجاهرُوا بنبذها ولكن تَبَذُّوا لجهلهم بها وهم الأكثرون. وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال، بغياً وعناداً وهم المتجاهلون.

(١٠٢) ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا الشَّيَاطِينُ﴾ عطف على تَبَذُّوا، أي نَبَذُوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرأها أو تتبعها الشياطين من الجن أو الإنس أو منهما. ﴿عَلَىٰ مِثْلِكِ سُلَيْمَنُ﴾ أي عهده، وتتلو حكاية حالٍ ماضية. قيل: كانوا يسترقون السمع ويضئُون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدُونونها ويعلمون الناس، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل: إن الجن يَعْلَمُونَ الغيب، وأن مِثْلَكَ سليمان تَمَّ بهذا العلم، وأنه تُسَحَّرُ به الجن والإنس والريح له. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ تكذيب لمن زعم ذلك، وعبر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبياً كان معصوماً منه. ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ باستعماله، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي ولكن بالتخفيف ورفع الشياطين. ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إغواء وإضلالاً، والجملة حال من الضمير. والمراد بالسحر ما يُستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشَّرة وخُبث النفس، فإن التناسب شرط في التضام والتعاون، وبهذا تَمَيَّز الساحر عن النبي والولي، وأما ما يُتَعَجَّبُ منه كما يفعله أصحاب الحِيل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحبُ خفة اليد فغير مذموم، وتسميته سحراً عمل التجوُّز، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفي سببه. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ عطف على السحر والمراد بهما واحد، والعطف لتغاير الاعتبار، أو المراد به نوع أقوى منه، أو على ما تتلو. وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاءً من الله للناس وتمييزاً بينه وبين المعجزة. وما روي أنهما مثلاً بشرَّين ورُكِّبَ فيهما الشهوة فتعرَّضا لامرأة يقال

(١) البقرة: (١٠٠).

(٢) البقرة: (١٠٠).

لها زفرة فحملتهما على المعاصي والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكي عن اليهود، ولعله من رموز الأوائل، وحله لا يخفى على ذوي البصائر. وقيل: رجلا سُميا ملكين باعتبار صلاحهما، ويؤيده قراءة الملكين بالكسر. وقيل: ما أنزل نفي معطوف على ما كفر سليمان تكذيباً لليهود في هذه القصة. ﴿يَبَايِلْ﴾ ظرف أو حال من الملكين أو الضمير في أنزل، والمشهور أنه بلد من سواد الكوفة. ﴿هَزُوتَ وَمَزُوتَ﴾ عطف بيان للملكين، ومنع صرفهما للعلمية والعجمة، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفاً. ومن جعل مانافية أبدلها من الشياطين بدل البعض، وما بينهما اعتراض. وقرئ بالرفع على هما هاروت وماروت. ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقَّ يَقُولَا﴾ إنما نحن فتنَةٌ فلا تكفُرْ ﴿فمعناه على الأول ما يعلمان أحداً حتى ينصحا ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمن تعلم ميثاً وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفُرْ باعتقاد جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به. وعلى الثاني ما يعلمانه حتى يقولا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا. ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الضمير لما دل عليه من أحد. ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَلْمَرِّ وَرَوْحِهِ﴾ أي من السحر ما يكون سبب تفريقهما. ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأنه وغيره من الأسباب غير مؤثرة بالذات، بل بأمره تعالى وجعله. وقرئ بضاري على الإضافة إلى أحد، وجعل الجار جزء منه والفصل بالظرف.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ لأنهم يقصدون به العمل، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين. وفيه أن التحرز عنه أولى ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي اليهود. ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى، والأظهر أن اللام لام الابتداء علقت عن العمل ﴿مَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَلَقٍ﴾ نصيب ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ يحتمل المعنيين على ما مر. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يتفكرون فيه، أو يعلمون قبحه على التعيين، أو حقية ما يتبعه من العذاب، والمثبت لهم أولاً على التوكيد القسمي العقل الغريزي أو العلم الإجمالي بقبح الفعل، أو ترتب العقاب من غير تحقيق وقيل: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ

(١٠٣) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بالرسول والكتاب. ﴿وَاتَّقَوْا﴾ بترك المعاصي، كنبد كتاب الله واتباع السحر ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ جواب لو، وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شرّوا به أنفسهم، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية لتدل على ثبات المثوبة والجزم بخيريتها، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن يُنسب إليه، وتكثير المثوبة لأن المعنى لشيء من الثواب خير، وقيل: لو للتمني، ولمثوبة كلام مبتدأ. وقرئ لَمَثُوبَةٌ كمشورة، وأما سمي الجزاء ثواباً ومثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا، لكنه جهلهم لترك التدبر، أو العمل بالعلم.

(١٠٤) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ الرغي حفظ الغير لمصلحته، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام راعينا أي راقبنا وتأناً بنا فيما تلقننا حتى نفهمه، وسمع اليهود فافترصوه وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرغن، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فنهى المؤمنين عنها وأمرها بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبس، وهو انظرنا بمعنى انظر إلينا، أو انتظرنا من نظره إذا انتظره. وقرئ أنظرنا من الإنظار أي أ مهلنا لنحفظ. وقرئ راعونا على لفظ الجمع للتوقير، وراعناً بالتنوين أي قولاً ذا رعن نسبة إلى الرعن وهو الهوج، لما شابه قولهم راعينا وتُسبب للسب. ﴿وَاسْمَعُوا﴾ وأحسنوا الاستماع حتى لا تفتقروا إلى طلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود، أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا تعودوا إلى ما نهيتهم عنه. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وسبوه.

(١٠٥) ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾^(١) نزلت تكديماً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير. والود: محبة الشيء مع تمنيه، ولذلك يستعمل في كل منهما، ومن للتبيين كما في قوله تعالى ﴿لَتَرِيكَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ مفعول يود، ومن الأولى مزيدة للاستغراق، والثانية للابتداء، وفُسّر الخير بالوحي. والمعنى أنهم يحسدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم شيء منه وبالعلم

(١) وضع الموصول موضع الضمير للإشعار بعلة ما في حيز الصلة لعدم وُدِّهم. (أبو السعود ١/١٤١). أي قال: «ما يود الذين كفروا» ولم يقل: ما يودون...

(٢) البينة: (١).

وبالنصرة، ولعل المراد به ما يعم ذلك ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يستنبه ويعلمه الحكمة وينصره لا يجب عليه شيء، وليس لأحد عليه حق ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ إشعار بأن النبوة من الفضل، وأن حِزْمان بعض عباده ليس لضيق فضله، بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته.

(١٠٦) ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره كنسخ الظل للشمس والنقل ومنه التناسخ، ثم استعمل لكل واحد منهما كقولك: نسخت الريح الأثر ونسخت الكتاب، ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو الحكم المستفاد منها أو بهما جميعاً. وإنساؤها إذهابها عن القلوب. وما بشرطية جازمة للنسخ منتصبة به على المفعولية. وقرأ ابن عامر ما ننسخ من أنسخ أي نأمرك أو جبريل بنسخها أو نجدها منسوخة. وابن كثير وأبو عمرو نسأها أي نؤخرها من التسنء، وقرئ نُسِّها أي نُسَّ أحداً إياها ونسها أي أنت، ونُسِّها على البناء للمفعول، ونُسِّكها بإضمار المفعولين ﴿ثَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب، أو مثلها في الثواب. وقرأ أبو عمرو بقلب الهمزة ألفاً. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ، أو بما هو خير منه. والآية دلت على جواز النسخ وتأخير الإنزال، إذ الأصل اختصاص أن وما يتضمنها بالأمور المحتملة، وذلك لأن الأحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يضر في عصر غيره. واحتج بها من منع النسخ بلا بدل أو ببذل أثقل ونسخ الكتاب بالسنة، فإن النسخ هو المأتي به بدلاً والسنة ليست كذلك. والكل ضعيف، إذ قد يكون عدم الحكم أو الأثقل أصلح، والنسخ قد يُعرف بغيره، والسنة مما أتى به الله تعالى، وليس المراد بالخير والمثل ما يكون كذلك في اللفظ. والمعتزلة على حدوث القرآن، فإن التغير والتفاوت من لوازمه. وأجيب: بأنهما من عوارض الأمور المتعلقة بالمعنى القائم بالذات القديم^(١).

(١٠٧) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد هو وأمه لقوله ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وإنما أفرده لأنه أعلمهم ومبدأ علمهم. ﴿أَنْتَ اللَّهُ لَمُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو بالدليل على قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أو على جواز النسخ ولذلك ترك العاطف. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم. والفرق بين الولي والنصير: أن الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، فيكون بينهما عموم من وجه.

(١) لا ضير في القول بالنسخ، رغم وجود الخلاف بين العلماء في وجود النسخ وعدمه. لكن الأولى عدم التوسع في استخدامه صيانة لكتاب الله تعالى. والأولى أن يتم استعمال التدرج في التشريع ونحوه، فإنه أظهر للحكمة. والخلاف في وجود النسخ وعدمه لعله لفظي أكثر مما هو حقيقي.

وَلَا نَصِيرَ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِمَّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ۚ حَقٌّ يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ

(١٠٨) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أم معادلة للهمزة في ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: ألم تعلموا أنه مالك الأمور قادرٌ على الأشياء كلها يأمر وينهى كما أراد، أم تعلمون وتقرحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام. أو منقطعة والمراد أن يوصيهم بالثقة به وترك الاقتراح عليه. قيل: نزلت في أهل الكتاب حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء. وقيل: في المشركين لما قالوا ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُ﴾^(١) ﴿وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقترح غيرها، فقد ضل الطريق المستقيم حتى وقع في الكفر بعد الإيمان. ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلُّوا وسط السبيل، ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان. وقرئ: يُبْدِل من أبدل.

(١٠٩) ﴿وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني أحبارهم. ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾^(٢) أن يُردوكم، فإن لو تنوب عن أن في المعنى دون اللفظ: ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ مرتدين، وهو حال من ضمير المخاطبين^(٣) ﴿حَسَدًا﴾ عِلَّةٌ وَذَّ. ﴿مِمَّنْ بَعْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ يجوز أن يتعلق بؤد، أي تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشبههم، لا من قيل التدئين والميل مع الحق. أو بحسداً أي حسداً بالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿مِمَّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك تشريه. ﴿حَقٌّ يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم، أو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف، وفيه نظر إذ الأمر غير مطلق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الانتقام منهم.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عَطَفٌ عَلَى فاعفوا، كأنه أمرهم بالصبر والمخالفة والملجأ إلى الله تعالى بالعبادة والبر ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة وصدقة. وقرئ: تُقَدِّمُوا من أقدم

(١) الإسراء: «٩٣».

(٢) (لو) بمعنى التمني.. وقيل هي هنا بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولاً لَوَدَّوا، والتقدير: ودوا ردكم. وقيل هي على حقيقتها، وجوابها محذوف، تقديره: لو يردونكم كفاراً لسؤوا بذلك (أبو السعود ١/١٤٥).

(٣) والأولى أن يكون (كفاراً) مفعولاً ثانياً على تضمين الرد معنى التعبير، أي يعيرونكم وهذا لما فيه من صريح الدلالة على كون الكفر المفروض بطريق القسر.

وإيراد الظرف (من بعد إيمانكم) مع عدم الحاجة إليه - بسبب كون المخاطبين مؤمنين - مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ما أرادوه وغاية بعده من الوقوع (أبو السعود ١/١٤٦).

إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

﴿يَعْتَدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ثوابه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع عنده عمل. وقرىء بالياء فيكون وعيداً.

(١١١) ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على وَدَّ، والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ لفٌّ بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾^(١) ثقة بفهم السامع، وهود جمع هائد كعوز وعائد، وتوحيد الاسم المضمّر في كان وجمع الخبر لاعتبار اللفظ والمعنى. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ إشارة إلى الأمانى المذكورة، وهي أن لا يُنزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يزدوهم كفاراً وأن لا يدخل الجنة غيرهم، أو إلى ما في الآية علي حذف المضاف أي أمثال تلك الأمانى أمانيتهم، والجملة اعتراض، والأمنية أفعولة من التمني كالأضحوة والأعجوبة. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم فإن كل قول لا دليل عليه غير ثابت.

(١١٢) ﴿بَلَى﴾^(٢) إثبات لما نفّوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص له نفسه^(٣) أو قُضدّه، وأصله العضو ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله^(٤) ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ الذي وُعد له على عمله ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ثابتاً عن ربه لا يضيع ولا ينقص، والجملة جواب مَنْ إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة. والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله: بلى وخدّه، ويحسن الوقف عليه. ويجوز أن يكون مَنْ أسلم فاعلُ فعلٍ مقدرٍ مثل بلى يدخلها من أسلم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة.

(١١٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي على أمر يصح ويُعتد به. نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاهم أحوار اليهود فتناظروا وتقاولوا بذلك. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الواو للحال، والكتاب للجنس أي: قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كعبدة الأصنام

(١) البقرة: (١٣٥).

(٢) عدل عن إبطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك إبانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطماعهم وإظهاراً لكمال عجزهم عن إثبات مدّعاهم (أبو السعود ١/١٤٧).

(٣) عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر ومظهر آثار الخضوع الذي هو من أخص خصائص الإخلاص (أبو السعود ١/١١٤٧).

(٤) الإحسان هو أن تأتي بالعمل على أحسن وجه سواء كان في العبادة أو المعاملة...

فَاللَّهُ يَخْتَكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينٌ ﴿١١٦﴾

وَالْمُعْطَلَةُ^(١). وَيَخْتَكُمُ عَلَى الْمَكَابِرَةِ وَالتَّشْبِهَ بِالْجَهَالِ. فَإِنْ قِيلَ: لِمَ وَبِخُفْيَةٍ وَقَدْ صَدَقُوا، فَإِنْ كِلَا الدَّيْنَيْنِ بَعْدَ النِّسْخِ لَيْسَ بِشَيْءٍ؟. قُلْتُ: لَمْ يَقْصِدُوا ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَصَدَ بِهِ كُلُّ فَرَقَةٍ يُبْطَلُ دِينُ الْآخَرِ مِنْ أَصْلِهِ وَالْكَفَرِ بِنَبِيِّهِ وَكُتَابِهِ، مَعَ أَنَّ مَا لَمْ يَنْسَخْ مِنْهُمَا حَقٌّ وَاجِبُ الْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِهِ ﴿فَاللَّهُ يَخْتَكُمُ﴾. يَفْصِلُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بِمَا يَقْسِمُ لِكُلِّ فَرِيقٍ مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْعِقَابِ. وَقِيلَ حُكْمُهُ بَيْنَهُمْ أَنْ يَكْذِبَهُمْ وَيَدْخُلَهُمُ النَّارَ.

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ عام لكل من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة، وإن نزل في الروم لما غزوا بيت المقدس وخرّبوه وقتلوا أهله^(٢). أو في المشركين لما منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية^(٣) ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾. ثانياً مفعولي منع ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بالهدم، أو التعطيل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يَبْطِشُوا بِهِمْ فضلاً عن أن يمنعهم منها، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد منهم وقد نَجَزَ وَعْدَهُ. وَقِيلَ: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد، واختلف الأئمة فيه فجوز أبو حنيفة ومنع مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وسبي، أو ذلة بضرب الجزية ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بكفرهم وظلمهم.

(١١٥) ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له الأرض كلها لا يختص به مكان دون مكان، فإن مُنِعْتُمْ أَنْ تَصَلُّوا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَوْ الْأَقْصَى فَقَدْ جَعَلْتُ لَكُمْ الْأَرْضَ مَسْجِداً. ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿ثُمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي جهته التي أمر بها، فإن إمكان التولية لا يختص بمسجد أو مكان. أو ثم ذاته: أي هو عالم مطلع بما يفعل فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بإحاطته بالأشياء، أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت في صلاة المسافرين على الراحلة^(٤).

(١) المعطلة هم الذين عطّلوا صفات الله تعالى ولم يصفوه بشيء مما وصف به نفسه وهو مذهب الجهم بن صفوان
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣١. وقال: هذا قول ابن عباس في رواية الكلبي. قلت: والكلبي متروك.
(٣) أخرجه الواحدي عن ابن عباس (أسباب النزول ص ٣٩) وإسناده حسن كما في تخريج أسباب النزول تحقيق عصام الحميدان ص ٣٦.

(٤) أخرجه مسلم (١/٤٨٦ - ٤٨٧ رقم ٣٣، ٣٤/٧٠٠)، والترمذي (٥/٢٠٥ رقم ٢٩٥٨) كلاهما من طريق =

وقيل: في قوم عَمِيت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم^(١)، وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك. وقيل: هي توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود أن يكون في حيز وجهة.

(١١٦) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لما قال اليهود: عزيز ابنُ الله والنصارى: المسيح ابن الله ومشركو العرب: الملائكة بناتُ الله، وعطفه على قالت اليهود أو منع أو مفهوم قوله تعالى وَمَنْ أَظْلَمُ. وقرأ ابن عامر بغير واو ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه والحاجة وسرعة الفناء، ألا ترى أن الأجرام الفلكية - مع إمكانها وفنائها - لما كانت باقية مادام العالم لم تتخذ ما يكون لها كالولد اتخاذه الحيوان والنبات اختياراً أو طبعاً. ﴿بَلْ لَّمْ يَلِدْ وَلَدًا﴾ رد لما قالوه واستدلال على فساده، والمعنى أنه تعالى خالق ما في السموات والأرض الذي من جملة الملائكة وعزيز والمسيح ﴿كُلُّ لُؤْلُؤٍ مَقْنُونٌ﴾ منقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه، وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانس مكوّنه الواجب لذاته فلا يكون له ولد، لأن من حق الولد أن يجانس والده. وإنما جاء بما الذي لغير أولي العلم وقال قانتون على تغليب أولي العلم تحقيراً لشأنهم، وتنوين كل عوض عن المضاف إليه، أي كل ما فيهما. ويجوز أن يراد كل من جعلوه ولداً له مطيعاً مقروناً بالعبودية، فيكون

= سعيد بن جبير عنه. ولفظه «كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت (فأينما تولوا) وفي رواية عنده: «ثم تلا ابن عمر: فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ» وقال: في هذا نزلت.

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٠٥/٥ رقم ٢٩٥٧) عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع النبي ﷺ في سفره في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل رجل منا على حباله. فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فنزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله).

وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان عن أبي الربيع عن عاصم بن عبيد الله، وأشعث قال عنه الحافظ في التقریب متروك. وقال ابن كثير وشيخه عاصم أيضاً ضعيف.

ولكن للحديث شاهد من حديث جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير أو سرية فأصابنا غيم فتنحرنا، واختلفنا في القبلة، فصلى كل رجل منا على حدة، فجعل أحداً يخطر بين يديه لنعلم أمكتنا، فلما أصبحنا نظرنا فإذا نحن قد صلينا على غير القبلة، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: قد أجزأت صلاتكم.

أخرجه الدارقطني (٢٧١/١ رقم ٤) والحاكم (٢٠٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢) من طريق محمد بن سالم عن عطاء عنه قال الحاكم هذا حديث محتج برواته كلهم غير محمد بن سالم فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح. وتعقبه الذهبي بقوله هو أبو سهل واه.

وقال الألباني في الإرواء (٣٢٤/١): وضعفه الدارقطني كما يأتي وقد توبع. فرواه الدارقطني (٢٧١/١ رقم ٢) والبيهقي (١٠/٢) من طريق أحمد بن عبيد الله بن الحسن العنبري قال: وجدت في كتاب أبي: ثنا عبد الملك بن أبي سليمان العزمي عن عطاء به نحوه.

ولكن فيه أحمد بن عبيد الله العنبري ليس بالمشهور.... وعلة البيهقي بما فيه من الوجادة وليس بشيء. وللحديث متابعة أخرى فرواه البيهقي عن محمد بن عبيد الله العزمي عن عطاء به نحوه وقال: تفرد به محمد بن سالم ومحمد بن عبيد الله العزمي عن عطاء وهما ضعيفان وكذا قال الدارقطني.

وبالجملة فالحديث بهذا الشاهد مع طرقه الثلاث عن عطاء يرقى إلى درجة الحسن إن شاء الله.

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَعْلَىٰ عَنْ أَحْصَابِ الْغَحِيمِ ﴿١١٩﴾

إلزاماً بعد إقامة الحجة، والآية مشيرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه، واحتج بها الفقهاء على أن من مَلَكَ وَلَدَهُ عُتِقَ عليه، لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك، وذلك يقتضي تنافيهما.

(١١٧) ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعُهما، ونظيره السميع في قوله:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يَسُورُ قُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ

أو بديعُ سمواته وأرضه، من بَدِعَ فهو بديع. وهو حجة رابعة، وتقريرها أن الوالد عُنْصُرُ الولد المنفعل بانفصال مادته عنه، والله سبحانه وتعالى مبدع الأشياء كلها فاعلٌ على الإطلاق منزّه عن الانفعال فلا يكون والدًا. والإبداع: اختراع الشيء لا عن الشيء دفعة، وهو أَلْقَى بهذا الموضوع من الصنع الذي هو: تركيب الصور لا بالعنصر، والتكوين الذي يكون بتغيير وفي زمان غالباً^(١). وقرىء بديع مجروراً على البدل من الضمير في له. وبديع منصوباً على المدح.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي أراد شيئاً، وأصل القضاء إتمام الشيء قوة كقوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾^(٢)، أو فعلاً كقوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٣). وأُطْلِقَ على تعلق الإرادة الإلهية بوجود الشيء من حيث إنه يُوجِبُهُ. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ مِنْ كَانَ التامة بمعنى أحدث فيحدث، وليس المراد به حقيقة أمرٍ وامثال بل تمثيلُ حصول ما تعلقت به إرادته بلا مُهْلَةٍ بطاعة المأمور المسمى بلا توقف. وفيه تقرير لمعنى الإبداع، وإيماء إلى حجة خامسة وهي: أن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومُهْلَةٍ، وفعله تعالى مستغنى عن ذلك. وقرأ ابن عامر فيكون بفتح النون. واعلم أن السمع في هذه الضلالة: أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يُطلقون الأب على الله تعالى اعتباراً أنه اسمٌ له، ول، حتى قالوا إن الأب هو الرب الأصغر والله سبحانه وتعالى هو الرب الأكبر، ثم ظنت النصارى أنهم أن المراد به معنى الولادة فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كُفِّرَ قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لماده الفساد.

(١١٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جهلة المشركين، أو المتجاهلون من أهل الكتاب^(٤). ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا بأنك رسوله. ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ حجة

(١) معنى البديع إذا استعمل في الله تعالى فإنه يفيد إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله تعالى (المفردات للراغب مادة بدع).

(٢) الإسراء: «٢٣».

(٣) فصلت: «١٢».

(٤) وصف أهل الكتاب بأنهم لا يعلمون لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغي، أو لعدم علمهم بموجب عملهم، أو لأن ما يحكى عنهم لا يصدر عن له شائبة علم أصلاً (أبو السعود ١/١٥١).

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيتَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٠﴾

على صدقك، والأول استكبار والثاني جحود، لأن ما أتاهم آيات الله استهانة به وعناداً، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾﴾ فقالوا: ﴿أَرَأَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً﴾^(١). ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٢) ﴿نَشْبِهَتْ قُلُوبَهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد. وقرىء بتشديد الشين. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يطلبون اليقين، أو يوقنون الحقائق لا يعترهم شبهة ولا عناد. وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك لخباء في الآيات أو لطلب مزيد اليقين، وإنما قالوه عتواً وعناداً.

(١١٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ متلبساً مؤيداً به. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلا عليك إن أصروا وكابروا. ﴿وَلَا تَسْتَلْ عَن أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت. وقرأ نافع ويعقوب: لا تسأل، على أنه نهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبيه. أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها، أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال. والجحيم: المتأجج من النار^(٣).

(١٢٠) ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مبالغة في إقناط الرسول ﷺ من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فكيف يتبعون ملته؟! ولعلمهم قالوا مثل ذلك فحكى الله عنهم ولذلك قال ﴿قُلْ﴾ تعليمًا للجواب. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى إلى الحق، لا ما تدعون إليه. ﴿وَلَئِنَّ آتِيتَهُمُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ آراءهم الزائفة. والملة ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه، من أملت الكتاب إذا أملت، والهوى: رأي يتبع الشهوة ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحته. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عقابه وهو جواب لثين^(٤).

(١٢١) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به مؤمني أهل الكتاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ بمراعاة اللفظ عن التحريف والتدبر في معناه والعمل بمقتضاه، وهو حال مقدرة والخبر ما بعده، أو خبر على أن المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بكتابهم دون المُحرِّفين. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالتحريف

(١) النساء: ١٥٣.

(٢) المائدة: ١١٢.

(٣) وفي التعبير عنهم بأنهم أصحاب الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وإيدان بأنهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الإيمان.. (أبو السعود ١/١٥٢).

(٤) (وحيث لم يستلزم نفى الولي نفى النصير وسط «لا» بين المعطوفين لتأكيد النفي، وهذا من باب التهيج والإلهاب) أبو السعود ١/١٥٣.

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ أَتَيْنَا إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾

والكفر بما يصدقه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

(١٢٢، ١٢٣) ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٣) ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لما صدر قصتهم بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها والخوف من الساعة وأموالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة في النصح وإيداناً بأنه فذلكمة القضية والمقصود من القصة.

(١٢٤) ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ^(١) كلفه بأوامر ونواه، والابتلاء في الأصل التكليف بالأمر الشاق من البلاء، لكنه لما استلزم الاختبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب ظنَّ ترادفهما، والضمير لإبراهيم، وحسن لتقدمه لفظاً وإن تأخر رتبة، لأن الشرط أحد التقديمين. والكلمات قد تطلق على المعاني فلذلك فسرت بالخصال الثلاثين المحمودة المذكورة في قوله تعالى ﴿التَّائِبِينَ الْعَمِيدُونَ﴾ ^(٢) الآية وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ ^(٣) إلى آخر الآية، وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(٤) إلى قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ^(٥) كما فسرت بها في قوله ﴿فَلَقَّيْنَاهُ إِدْمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ ^(٦) وبالعشر التي هي من سنته، ويمناسك الحج؛ وبالكواكب، والقمرين، والختان، وذبح الولد، والنار، والهجرة. على أنه تعالى عامله بها معاملة المختبر بهن وبما تضمنته الآيات التي بعدها. وقرئ إبراهيم ربّه على أنه دعا ربه بكلمات مثل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ^(٧). ﴿أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ^(٨) ليرى هل يجيبه. وقرأ ابن عامر إبراهيم بالالف جميع ما في هذه السورة.

(١) كان الحديث فيما مضى عن بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ومن موافقهم وعهودهم منذ عهد موسى حتى عهد محمد عليهما السلام وموقفهم من الدعوة الجديدة ومحاولاتهم في تهويد المسلمين وغيرهم. ومن ثم يرجع السياق إلى عهد إبراهيم عليه السلام حيث يعتزون بنسبتهم إليه، كما تعتز قريش بنسبتها إلى إسماعيل عليه السلام. فبين القرآن الكريم قصتهما ويتحدث عن البيت الحرام وبنائه وذلك لتقرير الحقائق في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين وليبين أن قبلتهم كانت الكعبة ليمهد للحديث عن تغيير القبلة، وأن دينهم التوحيد الخالص وأن محمداً عليه السلام على نهج إبراهيم وإسماعيل، فمن كان من ملتهم فليتبع محمداً ﷺ (انظر: في ظلال القرآن ١/١١١).

(٢) التوبة: ١١٢.

(٣) الأحزاب: ٥٥.

(٤) المؤمنون: ١٩.

(٥) المؤمنون: ١٠٠.

(٦) البقرة: ٣٧.

(٧) البقرة: ٢٦٠.

(٨) إبراهيم: ٣٥.

وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ

﴿فَاتَّخَذُوا﴾ فأداهن كُفلاً وقام بهن حق القيام، لقوله تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ^(١) وفي القراءة الأخيرة الضميرُ لربه، أي أعطاه جميع ما دُعا. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ استثنافٌ إن أضمرت ناصبٌ إذ، كأنه قيل: فماذا قال ربه حين أتمهن، فأجيب بذلك. أو بيانٌ لقوله ابتلى فتكونُ الكلمات ما ذكره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده والإسلام. وإن نصبتَه يقال فالمجموع جملةٌ معطوفة على ما قبلها، أو جاعل من جعل الذي له مفعولان. والإمام اسمٌ لمن يُؤتمُّ به وإمامته عامةٌ مؤبدة، إذ لم يُبحث بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه. ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على الكاف أي وبعض ذريتي، كما تقول: وزيداً، في جواب: سأكرمك. والذرية نسل الرجل، فُعلية أو فُعولة قلبت راؤها الثانية ياءٌ كما في تقضيت، من الذرِّ بمعنى التفريق، أو فعولة أو فعيلة قلبت همزتها من الذرء بمعنى الخلق. وقرئ ذُرِّيَّتِي بالكسر وهي لغة. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة إلى مُلْتَمَسِهِ، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. وقرئ الظالمون والمعنى واحد إذ كل ما نالك فقد نلته.

(١٢٥) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ﴾ أي الكعبة، غَلَبَ عليها كالنجم على الشريا. ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم، أو موضعٌ ثواب يثابون بحجه واعتماره. وقرئ: مثابات أي لأنه مثابة كل أحد. ﴿وَأَمَّا﴾ وموضعٌ آمن لا يُتعرض لأهله كقوله تعالى ﴿حَرَّمَ أَمَّا وَيُحْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ^(٢) أو يأمن حاجته من عذاب الآخرة من حيث إن الحج يَجُبُّ ما قبله، أو لا يؤاخذ الجاني الملتجئ إليه حتى يَخْرُجَ، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه. ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ على إرادة القول، أو عطف على المقدَّر عاملاً لإذ، أو اعتراض معطوف على مضمَر تقديره توبوا إليه واتخذوا، على أن الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهو أمر استحباب، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدِّمِه، أو الموضع الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج، أو رَفَعُ بناء البيت وهو موضعه اليوم. روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه وقال: «هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى، فقال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت» ^(٣) وقيل المراد به الأمر

(١) النجم: «٣٧».

(٢) العنكبوت: «٦٧».

(٣) أخرجه ابن مردويه من طريق عمر بن ميمون عن عمر - كما في الدر المنثور (١/ ٢٩٠ - ٢٩١) -. وأخرج الحديث بدون هذه القصة البخاري (١/ ٥٠٤ رقم ٤٠٢) و(٨/ ١٦٨ رقم ٤٤٨٣). وأحمد في مسنده (١/ ٢٤، ٣٦) من طريق حميد عن أنس عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله! لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فنزلت «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»...). =

بركعتي الطواف، لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى^(١) وللشافعي رحمه الله تعالى في وجوبهما قولان. وقيل: مقام إبراهيم الحرم كله. وقيل مواقف الحج واتخاذها مصلى أن يُدعى فيها ويتقرب إلى الله تعالى^(٢) وقرأ نافع وابن عامر وَاَتَّخِذُوا بَلْفَظَ الْمَاضِي عَطْفًا على جعلنا، أي: واتخذ الناس مقامه الموسوم به، يعني الكعبة قبله يصلون إليها. ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أمرناهما. ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي﴾^(٣) ويجوز أن تكون أن مفسرة لتضمن العهد معنى القول، يريد طهراه من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به، أو أخْلَصَاهُ. ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ حوله. ﴿وَالْمَكِينِينَ﴾ المقيمين عنده، أو المعتكفين فيه ﴿وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ﴾. أي المصلين، جمع راع وساجد.

(١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا^(٤)﴾ يريد به البلد، أو المكان. ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾^(٥) ذا أمن كقوله تعالى ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾^(٥). أو آمناً أهله كقولك: ليل نائم ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آمَنٍ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَبَدَلْ مِنْ ﴿مِنْ آمَنٍ﴾ أهله بَدَلُ البعض للتخصيص ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ عطف على من آمن والمعنى وازرق من كفر، قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، فنبه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين. أو مبتدأ متضمن معنى الشرط ﴿فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا﴾ خبره، والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتع لكنه سبب لتقليله، بأن يجعله مقصوراً بحفظ الدنيا غير متوسل به إلى نيل الثواب، ولذلك عطف عليه ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ أي ألززه إليه لزم المضطر لكفره وتضييعه ما مُتَعَهُ به من النعم^(٦)، وقليلاً نصب على المصدر، أو الظرف. وقرئ بلفظ الأمر فيهما على أنه من دعاء إبراهيم وفي قال ضميره. وقرأ ابن عامر فَأَمْتَعُهُ مِنْ أَمْتَعَ. وقرئ فَمْتَعَهُ ثم نضطره، وإضطره بكسر الهمزة على لغة من يكسر حروف المضارعة، وأضطره بإدغام الضاد وهو ضعيف لأن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها دون العكس.

= وأخرجه مسلم (٤/ ١٨٦٥ رقم ٢٣٩٩/٢٤) عن طريق نافع عن ابن عمر عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث في مقام إبراهيم...).

- (١) أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل (٢/ ٨٨٧ رقم ١٢١٨/١٤٧).
- (٢) وأولى الأقوال هو الأول، وهو أن المراد بمقام إبراهيم الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار. وقد دلت الأحاديث الصحيحة على ذلك كما ذكر الشوكاني (فتح القدير ١/ ١٤٠).
- (٣) إضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف (أبو السعود ١/ ١٥٧).
- (٤) أورد لفظ البلد هنا منكرأ غير معرّف، بينما ورد في سورة إبراهيم معرّفأ «رب اجعل هذا البلد» إبراهيم «٣٥»، فإن حُمل على تكرر السؤال فأجيب له بأحدهما وتأخر الآخر لحكمة.. أو كرره لأن المعتاد في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن. وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية، فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين (البلدية والأمن) وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على سؤال الأمن اكتفاء بحكاية جعل أفئدة الناس تهوي إليهم (أبو السعود ١/ ١٥٨) بمعنى: اجعل هذا بلداً آمناً، أي اجعله بلداً واجعله آمناً. أما اجعل هذا البلد آمناً. أي ارزقه الأمن.
- (٥) الحاققة: «٢١».
- (٦) تغيير سبكه للإيذان بأن الكفر سبب لاضطراهم إلى عذاب النار (أبو السعود ١/ ١٥٩).

الْمَصِيرُ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ المخصوص بالذم محذوف، وهو العذاب.

(١٢٧) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ حكاية حال ماضية^(١). والقواعد جمع قاعدة وهي الأساس صفة غالبية من القعود بمعنى الثبات، ولعله مجاز من المقابل للقيام، ومنه قعدك الله، ورفعها: البناء عليها، فإنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، ويُحْتَمَلُ أن يراد بها سافات البناء فإن كل سافٍ قاعدة ما يوضع فوقه ويرفعها بناؤها. وقيل المراد رفع مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه ودعاء الناس إلى حجه. وفي إبهام القواعد وتبيينها تفخيم لشأنها. ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ كان يناوله الحجارة، ولكنه لما كان له مدخل في البناء عُطِفَ عليه^(٢). وقيل: كانا بينان في طرفين، أو على التناوب. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ أي يقولان ربنا تقبل منا، وقد قرئ به والجملة حال منهما. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لدعائنا بنياتنا^(٣).

(١٢٨) ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصين لك من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان أو الثبات عليه. وقرئ مُسْلِمَيْنِ على أن المراد أنفسهما وهاجر. أو أن التثنية من مراتب الجمع. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصنا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصا بعضهم لَمَّا أُعْلِمَا أن في ذريتهما ظلمة، وعُلِمَا أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا، وقيل: أراد بالأمّة أمة محمد ﷺ، ويجوز أن تكون من للتبيين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾^(٤) قُدِّمَ على المبيّن وفُصِّلَ به بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^(٥). ﴿وَأَرِنَا﴾ من رأى بمعنى أبصر أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ متعبداتنا في الحج، أو مذابحنا. والتُّسْكُ في الأصل غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة. وقرأ ابن كثير

(١) صيغة الاستقبال «يرفع» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة (أبو السعود ١/١٥٩).

(٢) ولعل تأخيره عن المفعول للإيذان بأن الأصل في الرفع هو إبراهيم وإسماعيل تبع له (أبو السعود ١/١٦٠).

(٣) وقصر نعتي السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية (أبو السعود ١/١٦١).

(٤) النور: ٥٥.

(٥) الطلاق: ١٢.

والسوسي^(١) عن أبي عمرو ويعقوب أژنا، قياساً على فَخَذَ في فَخَذَ، وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها^(٢). وقرأ الدوري^(٣) عن أبي عمرو بالاختلاس^(٤) ﴿وَبَيَّنَّا﴾ استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً. ولعلهما قالوا هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

(١٢٩) ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي»^(٥). ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة. ﴿وَيَعْلَمُهَا﴾

(١) السوسي هو أبو شعيب صالح بن زياد، مقرأ ضابط محرر ثقة، أخذ القراءة عن اليزيدي عن أبي عمرو، واشتهر بالرواية عن أبي عمرو أحد القراء السبعة، وتوفي عام (٢٦١) هـ.

(٢) قوله: فيه إجحاف. قال عنه الألوسي بأنه (مما لا ينبغي لأن القراءة من المتواترات، ومثلها أيضاً موجود في كلام العرب العبراء) روح المعاني ٣٨٦/١.

(٣) الدوري هو أبو عمر حفص بن عمر المقرئ الضري، ولقب بالدوري نسبة إلى الدور وهو موضع بالجانب الشرقي من بغداد، وكان الدوري ثقة ضابطاً وهو أول من جمع القراءات، اشتهر بالرواية عن أبي عمرو أحد القراء السبعة وأخذها عنه بواسطة اليزيدي، وتوفي (٢٤٦) هـ.

(٤) أي باختلاس كسرة الراء وعدم إشباعها (انظر: المبسوط في القراءات العشر لابن مهران ص ١٢٣).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٢٧/٤) وابن حبان (ص ٥١٢ رقم ٢٠٩٣ - الموارد) والحاكم في المستدرک (٤١٨/٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» وأقره الذهبي وابن سعد في الطبقات (١٤٨/١)، وابن جرير في تفسيره (٥٥٦/١) والطبراني في الكبير (٢٥٢/١٨)، ٢٥٣ رقم ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١) والبيهقي في الدلائل (٨٠/١)، (٨٣)، و(١٣٠/٢) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٣/٨). عن عرابض بن سارية. وقال: وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح. غير سعيد بن سويد. وقد وثقه ابن حبان وللحديث شواهد منها:

(منها): حديث أبي أمامة: قال: قلت: يا رسول الله! ما كان أول بدء أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام.

أخرجه أحمد (٢٦٢/٥) وابن سعد (١٤٩/١) وابن عدي في الكامل (٢٠٥٥/٦). وفيه «الفرج بن فضالة» وهو ضعيف (التقريب ١٠٨/٢) وأورده الهيثمي في المجمع (٢٢٢/٨) وقال رواه أحمد وإسناده حسن وله شواهد تقويه، ورواه الطبراني.

(ومنها): حديث ابن معدان عن أصحاب النبي ﷺ، قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ فقال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى، وبصرى من الشام.

أخرجه الحاكم في المستدرک (٦٠٠/٢) وقال: خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قلت: وأخرج الدارمي (٨/١) قصة شق صدر النبي ﷺ في آخرها: حدثت أمي بالذي لقيت فلم يَزُغْها، وقالت: إني رأيت حين حملتُ خرج مني، يعني نوراً، أضاءت منه قصور الشام. وأخرج الدارمي أيضاً هذه القصة، من طريق خالد بن معدان، عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد السلمي عن النبي ﷺ.

وأخرجه الحاكم (٦١٦/٢) لكنه سقط عنه «عبد الرحمن بن عمرو» من السند، فالسند عنده «خالد» عن عتبة، عن النبي ﷺ.

إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾

الْكِتَابِ ﴿الْقُرْآنِ﴾. ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ المحكم له.

(١٣٠) ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يَرْغَبُ عن ملته الواضحة الغراء، أي لا يرغب أحد عن ملته. ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها. قال المبرد^(١) وتعلب^(٢) سَفِهَ - بالكسر - متعدّ وبالضم لازم، ويشهد له ما جاء في الحديث «الكبر أن تسفه الحق، وتغمص الناس»^(٣). وقيل: أصله سَفِهَ نفسه على الرفع، فنصب على التمييز نحو غَبَنَ رأيَه وآلَمَ رأسه، وقول النابغة الذبياني^(٤):

وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذَنَابِ عَيْشٍ أَجَبَ الظُّهْرِ لَيْسَ لَهُ سِنَامٌ

أو سَفِهَ في نفسه، فنُصب بنزع الخافض. والمستثنى في محل الرفع على المختار بدلاً من الضمير في يرغب لأنه في معنى النفي. ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حجة وبيان لذلك، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة كان حقيقاً بالاتباع له

= وخالد بن معدان سمع عن عتبة بن عبد، فعلمه روى الحديث المذكور عن عتبة عن النبي ﷺ. والخلاصة أن الحديث حسن بشواهد. وانظر «الصحيحة» للمحدث الألباني (رقم ١٥٤٦).

(١) المبرد: سبقت ترجمته ص ٢١.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني مولاهم الإمام البغدادي، أبو العباس ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، ولد سنة (٢٠٠هـ). وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة سنة ست عشرة، وحفظ كتب الفراء فلم يشذ منها حرف، وعني بالنحو أكثر من غيره، فلما أتقنه أكب على الشعر والمعاني والغريب.

صنف: المصون في النحو، اختلاف النحويين، معاني القرآن، معاني الشعر، القراءات، التفسير، الوقف والإبتداء، الهجاء، الأمالي، غريب القرآن وغيرها.

ونقل سمعه بأخرة، ثم صُم. وتوفي يوم السبت لعشر خلون من جمادي الأولى سنة إحدى وتسعين ومائتين.

[بغية الوعاة للسيوطي (١/٣٩٦ رقم ٧٨٧)].

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/٦٩ رقم ١٣١٧) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/١٣٤). وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري بنحوه وفيه: محمد بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ وحديثه حسن بالشواهد التي تقدمت في هذا الباب. ولكن عبدالرحمن لم يسمع ثابت.

(٤) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المُصَرِّي، أبو أمانة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ، فتقصد الشعراء فتعرض عليه أشعارها. شعره كثير، جمع بعضه في «ديوان - ط» صغير وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولا حشو وعاش عمراً طويلاً. مات سنة (١٨ق.هـ).

[الأعلام للزركلي (٣/٥٤ - ٥٥)].

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾
 أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ
 إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

لا يَزُغِبُ عَنْهُ إِلَّا سَفِيهِ أَوْ مُتَسَفِهٍ أَذَلْ نَفْسَهُ بِالْجَهْلِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ النَّظَرِ.

(١٣١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ظرف لاصطفيناه، أو تعليل له، أو منصوب بإضمار اذكر. كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلى الإذعان وإخلاص السر حين دعاه ربه وأخطر ببإله دلائله المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام. روي أنها نزلت لما دعا عبدالله بن سلام ابني أخيه: سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فأسلم سلمة وأبى مهاجراً.

(١٣٢) ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ التوصية هي التقدم إلى الغير بفعلٍ فيه صلاح وقربة، وأصلها الوصل يقال: وصاه إذا وصله، وفصاه: إذا فصله، كأن الموصي يصل فعله بفعل الموصى. والضمير في «بها» للملّة، أو لقوله أسلمت على تأويل الكلمة أو الجملة. وقرأ نافع وابن عامر وأوصى والأول أبلغ ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطف على إبراهيم، أي ووصى هو أيضاً بها بنيه. وقرئ بالنصب على أنه ممن وصاه إبراهيم ﴿يَبْنِي﴾. على إضمار القول عند البصريين، متعلق بوصى عند الكوفيين لأنه نوع منه. ونظيره:

رَجُلَانِ مِنْ ضَبَّةٍ أَخْبَرَانَا أَنَّا رَأَيْنَا رَجُلًا غُرِيَانَا

بالكسر، وبنو إبراهيم كانوا أربعة: إسماعيل وإسحاق ومذنب ومدان. وقيل: ثمانية. وقيل: أربعة عشر: وبنو يعقوب اثنا عشر: روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وبولون وتفتوني ودون وكودا وأوشير وبنيامين ويوسف ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان لقوله تعالى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ظاهره النهي عن الموت على خلاف حال الإسلام، والمقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع. وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه وأن من حقه أن لا يحلّ بهم، ونظيره في الأمر مَثُ وأنت شهيد. وروي أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات فنزلت:

(١٣٣) ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال فلم تدعوا اليهودية عليه، أو متصلة بمحذوف

(١) الالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه عليه السلام لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته.

وإضافة الرب في جوابه عليه السلام إلى العالمين للإيدان بكمال قوة إسلامه، حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لانفسه وحده كما هو المأمور به. (أبو السعود ١/١٦٣).

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ

تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شاهدين. وقيل: الخطاب للمؤمنين والمعنى ما شاهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي وقرىء حَضَرَ بالكسر.

﴿إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ﴾ بدل من إذ حضر. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِي﴾ أي: أي شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما، و«ما» يُسأل به عن كل شيء مالم يُعرف، فإذا عُرف خُصَّ العقلاء بمن إذا سُئل عن تعيينه، وإن سُئل عن وصفه قيل: ما زيد أفضيه أم طيب؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ المتفق على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته، وعُدَّ إسماعيل من آبائه تغليلاً للأب والجد، أو لأنه كالأب لقوله عليه الصلاة والسلام: «عم الرجل صنو أبيه»^(١). كما قال عليه الصلاة والسلام في العباس رضي الله عنه: «هذا بقية آبائي»^(٢). وقرىء إله أبك، على أنه جمع بالواو والنون كما قال:

وَلَمَّا تَبَيَّنَ أَصْوَاتُنَا بَكَيْنَ وَقَدِيتُنَا بِالْأَيْنَا

أو مفرد وإبراهيم وحده عطف بيان.

﴿إِلَهًا وَجِدًا﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى ﴿إِلَٰهًا صَمِيًّا﴾ نَاصِيَةً كَذِبًا^(٣). وفائدته التصريح بالتوحيد، ونفي التوهم الناشئ من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور والتأكيد، أو نصب على الاختصاص ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد، أو مفعوله، أو منهما. ويحتمل أن يكون اعتراضاً.

(١) أخرجه مسلم (٦٧٦/٢) رقم (٩٨٣/١١) وأحمد في المسند (٣٢٢/٢) وأبو داود (٢٧٣/٢ - ٢٧٥) رقم (١٦٢٣) كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة كما أخرجه أحمد في المسند (٩٤/١) من حديث علي. وأخرجه الطبراني في الكبير (٨٧/١٠) رقم (٩٩٨٥) وابن عدي في الكامل (٢٢٠٦/٦) كلهم من حديث ابن مسعود.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٥٣/١٠) رقم (١٠٦٩٨) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٩/١٢) رقم (١٢٢٦٠) من حديث مجاهد مرسلًا وإسناده صحيح.

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٠/١١) رقم (١١١٠٧) من حديث ابن عباس وأورده الهيثمي في المجمع (٢٦٩/٩) وفيه عبدالله بن خراش وهو ضعيف وثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ ببقية رجاله وثقوا.

وأخرجه الطبراني أيضاً في المعجم الصغير (٣٤٤/١) رقم (٥٧٢ - الروض الداني) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٦٩/٩) وقال فيه جماعة لم أعرفهم.

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٧/١) رقم (٢١٥).

(٣) المعلق: (١٦٦).

(١٣٤) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم ويعقوب وبنيهما، والأمة في الأصل المقصود، وسُمِّي بها الجماعة، لأن الفرق تؤمها. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ لكل أجر عمله، والمعنى أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»^(١). ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَنَاسِكُهُمْ﴾ أي لا تأخذون بسيئاتهم كما لا تأبون بحسناتهم.

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ الضمير الغائب لأهل الكتاب، وأو للتنويع، والمعنى مقاتلتهم أحد هذين القولين. قالت اليهود كونوا هودا. وقال النصارى كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جواب الأمر. ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي بل نكون ملة إبراهيم، أي أهل ملته، أو بل نتبع ملة إبراهيم. وقرئ بالرفع أي ملته ملتنا، أو عكسه، أو نحن ملته بمعنى نحن أهل ملته. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل إلى الحق. حال من المضاف، أو المضاف إليه كقوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غَلٍ﴾^(٢). ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون.

(١٣٦) ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الخطاب للمؤمنين لقوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾^(٣). ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ القرآن، قُدِّم ذكره لأنه أوَّل بالإضافة إلينا، أو سبب للإيمان بغيره ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ولا تميل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴿الصحف﴾ وهي وإن نزلت إلى إبراهيم لكنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها فهي أيضاً مُنزلة إليهم، كما أن القرآن منزل إلينا. والأسباط جمع سبط وهو الحافذ، يريد به حفدة يعقوب، أو أبناء وذرايعهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحاق ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ التوراة والإنجيل، أفردهما بالذكر بحكم أبلغ لأن أمرهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبق، والنزاع وقع فيهما ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ منزلاً عليهم من ربهم. ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ كاليهود، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأحد لوقوعه في سياق النفي عام فساغ أن يضاف إليه يئ. ﴿وَنَحْنُ لَهُمُ﴾ أي لله. ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مذعنون مخلصون.

(١٣٧) ﴿فَإِنَّمَا آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ من باب التعجيز والتبكي، كقوله تعالى ﴿فَأَتُوا بِحُجُوبٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾^(٤) إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام. وقيل: الباء للآلة دون التعدية، والمعنى إن تحروا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثل طريقكم، فإن وحدة المقصد لا تأبي

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف (١٢/٤ رقم ٧٩) لم أجده وقد أخرج البخاري (٣٨٢/٥ رقم ٢٧٥٣) و(٥٥١/٦) رقم ٣٥٢٧ و(٥٠١/٨ رقم ٤٧٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتكم الأقربين) قال: يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد سلمي ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً».

(٢) الأعراف: «٤٣».

(٣) البقرة: «١٣٧».

(٤) البقرة: «٢٣».

زَبِيهِمْ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ لَوَّلُوا فَلَا تَأْمَنُ لَهُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾

تعدد الطرق، أو مزيدة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿جَزَاءً سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾^(١). والمعنى فإن آمنوا بالله إيماناً مثل إيمانكم به، أو المثل مقحم^(٢) كما في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾^(٣) أي عليه، ويشهد له قراءة من قرأ بما آمنتم به، أو بالذي آمنتم به ﴿وَلَا تَفَرِّقُ بَيْنَهُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي إن أعرضوا عن الإيمان، أو عما تقولون لهم فما هم إلا في شقاق الحق، وهو المناوأة والمخالفة، فإن كل واحد من المتخالفين في شقٍّ غير شق الآخر^(٤) ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ تسلية وتسكين للمؤمنين، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوَاهُمْ^(٥) ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مُجَازِيكُمْ لا محالة، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، فإنها حلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ، أو هدايا الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماء صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب، أو للمشاكلة. فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المغمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم. ونصبها على أنه مصدر مؤكد لقوله آمنا، وقيل على الإغراء، وقيل على البذل من ملة إبراهيم عليه السلام^(٦).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا صبغة أحسن من صبغته ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ تعريض بهم، أي لا نشرك به كشرركم. وهو عطف على آمنا، وذلك يقتضي دخول قوله صبغة الله في مفعول قولوا، ولمن ينصبها على الإغراء أو البذل أن يُضْمِر قولوا معطوفاً على الزموا أو اتبعوا ملة إبراهيم وقولوا آمنا

(١) يونس: «٢٧».

(٢) قوله: مزيدة للتأكيد وقوله: أو المثل مقحم.. هذا يقتضي الزيادة ويخالف فصاحة القرآن كما ذهب إليه البعض،

وقد سبق الحديث عنه عند قوله «ولا الضالين» في الفاتحة «٧» فارجع إليه.

(٣) الأحقاف: «١٠».

(٤) والتنوين في قوله «شقاق» للتفخيم.

وأوثر الجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم في ذلك.

(٥) وفي قوله «فسيكفيكم الله» تلوين للخطاب بتجريده للنبي عليه السلام لأنه الأصل والعمدة في ذلك وللإيدان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن والمشاق... من وظائف الرؤساء، فتعنته تعالى في حقه عليه السلام أتم وأكمل (أبو السعود ١/١٦٨).

(٦) إضافة الصبغة إلى الله عز وجل للتشريف والإيدان بأنها عطية منه تعالى لا يستقل العبد بتحصيلها (أبو السعود ١/١٦٨).

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلُصُونَ ﴿١٣٩﴾
 أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ
 أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾
 تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

بدل اتبعوا، حتى لا يلزم فك النظم وسوء الترتيب.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا. ﴿فِي اللَّهِ﴾ في شأنه واصطفائه نبياً من العرب دونكم، روي أن أهل الكتاب قالوا: الأنبياء كلهم منا، لو كنت نبياً لكنت منا. فترلت: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاص له بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ فلا يبعد أن يُكْرَمْنَا بأعمالنا، كأنه ألزمهم على كل مذهب يتحلونه إفحاماً وتبكيماً، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله على من يشاء والكل فيه سواء وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص، وكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعطائها، فلنا أيضاً أعمال. ﴿وَنَحْنُ لَمْ نُخْلُصُونَ﴾ موحدون نخصه بالإيمان والطاعة دونكم.

(١٤٠) ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أم منقطعة والهمزة للإنكار. وعلى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء يحتمل أن تكون معادلة للهمزة في أتُحَاجُّونَنَا، بمعنى أي الأمرين تأتون المحاجة أو ادعاء اليهودية أو النصرانية على الأنبياء؟! ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ وقد نفى الأمرين عن إبراهيم بقوله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾^(١) واحتج عليه بقوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَاكَ إِلَّا رَجُلًا فَدُودًا﴾^(٢). وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقاً. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة. أو منا لو كتمنا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالنبوة في كتبهم وغيرها، ومن للابتداء كما في قوله تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٣). ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم، وقرىء بالياء.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تكرير للمبالغة

في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم. وقيل: الخطاب فيما سبق لهم وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بالأمّة في الأول الأنبياء وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى.

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) آل عمران: ٦٥.

(٣) التوبة: ١١.

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ آلَتِي كَانُوا عَلَيْنَهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ

(١٤٢) ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ الذين خُفَّتْ أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر، يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين. وفائدة تقديم الإخبار به توطيئ النفس وإعداد الجواب وإظهار المعجزة. ﴿ مَا وَلَهُمْ ﴾ ما صرفهم. ﴿ عَن قِبَلِهِمُ آلَتِي كَانُوا عَلَيْنَهَا ﴾ يعني بيت المقدس. والقبلة في الأصل الحالة التي عليها الإنسان من الاستقبال فصارت عُزْفاً للمكان المتوجّه نحوه للصلاة ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام أمره لا بخصوص المكان ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهو ما ترتضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة والكعبة أخرى^(١).

(١٤٣) ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة^(٢)، أي كما جعلناكم مهتدين إلى الصراط المستقيم، أو جعلنا قبلتكم أفضل القبَل. ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي خياراً، أو عدولاً مزينين بالعلم والعمل. وهو في الأصل اسمٌ للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استُعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفریط كالجود بين الإسراف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها، واستدل به على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانتقلت به عدالتهم ﴿ لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ علة للجعل، أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما يبخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل، فبلغوا ونصحوا. ولكن الذين كفروا حَمَلَهُمُ الشَّقَاءُ على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم، أو بعدكم. روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة التبليغ^(٣) - وهو أعلم بهم - إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمة، فيشهد بعدالتهم^(٣) وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول عليه السلام كالرقيب المهيمن على أمة

(١) تخصيص السفهاء بالذكر لا يقتضي تسليم الباقي لتحويل القبلة وارتضاءهم إياه (أبو السعود ١/ ١٧١).

(٢) أشار باسم الإشارة البعيد للإيدان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل (أبو السعود ١/ ١٧٢).

(٣) تصديره للحديث الصحيح بصيغة التمرّض غير سائغة عند أهل الحديث فقد أخرج البخاري (١٨/ ١٧١)

رقم (٤٤٨٧) و(٣١٦/١٣) رقم (٣٧٤٩) والترمذي (٢٠٧/٥) رقم (٢٩٦١) وقال حديث حسن صحيح.

والنسائي في السنن الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٣/ ٣٤٦) - وغيره عن أبي سعيد الخدري قال: «قال

رسول الله ﷺ: يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول نعم. فيقال =

مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زُرِيَ تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ

عدى بعلى، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي الجهة التي كنت عليها، وهي الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها بمكة، ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود. أو الصخرة لقول ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها^(١) فالمخبر به على الأول الجعل الناسخ، وعلى الثاني المنسوخ. والمعنى أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة، وما جعلنا قبلتك بيت المقدس.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ إلا لنتمحن به الناس ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها، ممن يرتد عن دينك إلفاً لقبلة آباءه. أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله. وعلى الأول معناه: ما رددناك إلى التي كنت عليها إلا لنعلم الثابت على الإسلام ممن ينكص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه. فإن قيل: كيف يكون علمه تعالى غاية الجعل وهو لم يزل عالماً؟ قلت: هذا وأشباهه باعتبار التعلق الحالي الذي هو مناط الجزاء، والمعنى ليتعلق علمنا به موجوداً. وقيل: ليعلم رسوله والمؤمنون، لكنه أسنده إلى نفسه لأنهم خواصه، أو لتمييز الثابت من المتزلزل كقوله تعالى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٢) فوضع العلم موضع التمييز المسبب عنه، ويشهد له قراءة ليعلم على البناء للمفعول، والعلم إما بمعنى المعرفة، أو معلق لما في من معنى الاستفهام، أو مفعوله الثاني ممن ينقلب، أي لنعلم من يتبع الرسول متميزاً ممن ينقلب. ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة. وقال الكوفيون هي النافية واللام بمعنى إلا. والضمير لما دل عليه قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾^(٣) من الجعلة، أو الردة، أو التولية، أو التحويلة، أو القبلة. وقرئ لكبيرة بالرفع فتكون كان زائدة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى حكمة الأحكام الثابتين على الإيمان والاتباع ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ أي ثباتكم على الإيمان. وقيل:

لأتمته: هل بلفظكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأتمته. فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً فذلك قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً). والوسط: العدل.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/٢) وأحمد في المسند (٣٢٥/١) وابن سعد في الطبقات (٢٤٣/١) والبخاري في كشف الأستار (٢١٠/١ - ٢١١ رقم ٤١٨) والطبراني في الكبير (٦٧/١١ رقم ١١٠٦٦) عنه وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٢/٢) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) الأنفال: «٣٧».

(٣) البقرة: «١٤٣».

إيمانكم بالقبلة المنسوخة، أو صلاتكم إليها لما روى «أنه عليه السلام لما وجه إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا» فنزلت^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاحهم، ولعله قدم الرؤوف وهو أبلغ محافظة على الفواصل. وقرأ الحرميان^(٢) وابن عامر وحفص لرؤوف بالمد، والباقون بالقصر.

(١٤٤) ﴿قَدْ زَرَى﴾ ربما نرى ﴿تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ تردّد وجهك في جهة السماء تطلعاً للوحي، وكان رسول الله ﷺ يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قبله أبيه إبراهيم وأقدم القبليتين وأدعى للعرب إلى الإيمان ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ فممكنتك من استقبالها من قولك: وليته كذا إذا صيرته والياً له، أو فلنجعلنك نلي جهتها ﴿تَرْضَاهَا﴾ تحبها وتشوق إليها، لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته. ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ﴾ اصرف وجهك^(٣). ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نحوه. وقيل: الشطر في الأصل لما انفصل عن الشيء من شطر إذا انفصل، ودار شطّور: أي منفصلة عن الدور، ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل كالقطر. والحرام المحرم أي محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوه، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة لأنه عليه الصلاة والسلام كان في المدينة والبعد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب. روي أنه عليه الصلاة والسلام قدم المدينة، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً^(٤)، ثم وجّه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين، وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم، فسمي المسجد مسجد القبليتين. ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ خصّ الرسول بالخطاب تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عمّم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيذاً لأمر القبلة وتحضيضاً للأمة على المتابعة. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْثَرُوا إِلِكْتَبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة لعلمهم بأنّ عادته تعالى تخصيص كل شريعة بقبلة، وتفصيلاً لتضمن كتبهم أنه ﷺ يصلي إلى القبليتين، والضمير للتحويل أو التوجه ﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعد للفريقين. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالياء.

(١) أخرجه البخاري (٩٥/١ رقم ٤٠) و(١٧١/٨ رقم ٤٤٨٦) من حديث البراء بن عازب.

● وأخرجه أحمد في المسند (٣٤٧/١) والترمذي (٢٠٨/٥ رقم ٢٩٦٤) والحاكم في المستدرک (٢٦٩/٢) وأبو داود (٦٠/٥ رقم ٤٦٨٠) والطبراني في جامع البيان (١٧/٢) كلهم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة لكن الحديث مخرج في البخاري كما تقدم آنفاً.

(٢) الحرميان: نافع وابن كثير.

(٣) الغاء في قول وجهك لتفريع الأمر بالتولية على الأمر الكريم.

وتخصيص التولية بالوجه لأنه مدار التوجه ومعياره، وقيل المراد به كل البدن (أبو السعود ١٧٤/١).

(٤) أخرجه البخاري (٩٥/١ رقم ٤٠) و(٥٠٢/١ رقم ٣٩٩) و(١٧١/٨ رقم ٤٤٨٦) و(٢٣٢/١٣ رقم ٧٢٥٢) ومسلم (٣٧٤/١ رقم ٥٢٥) وفي جميع المواضع وقع بالشك (سنة عشر أو سبعة عشر شهراً) عنه وأما بدون شك فقد أخرجه مسلم (٣٧٤/١ رقم ٥٢٥) عنه أيضاً.

مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبَلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٧﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

(١٤٥) ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ برهان وحجة على أن الكعبة قبله، واللام موطنه للقسم ﴿ مَا تَتَّبِعُوا قِبَلَتَكَ ﴾ جواب للقسم المضمر، والقسم وجوابه ساكناً مسدداً جواب الشرط، والمعنى ما تركوا قبلتك لشبهة تزليها بالحجة وإنما خالفوك مكابرة وعناداً. ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ ﴾ قطع لأطماعهم، فإنهم قالوا: لو ثبت على قبلتنا لكانا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغييراً له وطمعاً في رجوعه، وقبلتهم وإن تعددت لكنها متحدة بالبطلان ومخالفة الحق^(١). ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع الشمس. لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك، لتصلب كل حزب فيما هو فيه ﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، أي: ولئن اتبعتهم مثلاً بعدما بان لك الحق وجاءك فيه الوحي ﴿ إِنَّكَ إِذَا لَنْ الظَّالِمِينَ ﴾ وأكد تهديده وبالحق فيه من سبعة أوجه: أحدها: الإتيان باللام الموطنه للقسم: ثانيها: القسم المضمر. ثالثها: حرف التحقيق وهو إن. رابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية. وخامسها: الإتيان باللام في الخبر. وسادسها: جعله من الظالمين، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم. وسابعها: التقييد بمجيء العلم تعظيماً للحق المعلوم، وتحريضاً على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء^(٢).

(١٤٦) ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يعني علماءهم ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ الضمير لرسول الله ﷺ، وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه. وقيل للعلم، أو القرآن، أو التحويل ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ ﴾ يشهد للأول: أي يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم آبائهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم. عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سأل عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني بابني قال: ولم، قال: لأنني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت^(٣). ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن.

(١٤٧) ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ كلام مستأنف، والحق إما مبتدأ خبره من ربك واللام للعهد، والإشارة إلى ما عليه الرسول ﷺ، أو الحق الذي يكتُمونه، أو للجنس. والمعنى: أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا مالم يثبت كالذي عليه أهل الكتاب، وإما خبرٌ مبتدأٌ محذوف أي هو الحق

(١) وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره (أبو السعود ١/ ١٧٥).

(٢) وسط «إذا» بين اسم إن وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة (أبو السعود ١/ ١٧٥).

(٣) ذكره الألوسي في تفسيره (١٣/ ٢) بصيغة التعمير.

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّهَاً فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ

ومن ربك حال، أو خبرٌ بعد خبر. وقرئ بالنصب على أنه بدل من الأول، أو مفعول يعلمون^(١) ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ الشاكين في أنه من ربك، أو في كتمانهم الحقَّ عالمين به، وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشك فيه لأنه غير متوقع منه وليس بقصد واختيار بل إما تحقيق الأمر وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ﴾ ولكل أمة قبله، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة، والتونين بدل الإضافة ﴿هُوَ مُوَلِّهَاً﴾ أحد المفعولين محذوف، أي هو موليا وجهه، أو الله تعالى موليا إياه. وقرئ ولكل وُجْهَةٍ بالإضافة، والمعنى وكل جهة الله موليا أهلها، واللام مزيدة للتأكيد جبراً لضعف العامل. وقرأ ابن عامر: مَوْلَاهَا أي هو مولى تلك الجهة أي قد وليها ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ من أمر القبلة وغيره مما يُنال به سعادة الدارين، أو الفاضلات من الجهات وهي المسامِنة للكعبة ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ أي: في أي موضع تكونوا من موافق ومخالف مجتمع الأجزاء ومفترقها يحشركم الله إلى المحشر للجزاء، أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقُلل الجبال يقبض أرواحكم، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة يأت بكم الله جميعاً ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإمامة والإحياء والجمع.

(١٤٩) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أي مكان خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن هذا الأمر ﴿لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو بالياء والباقون بالياء.

(١٥٠) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢) وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ كرر هذا الحُكْم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجزي العادة الإلهية على أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين على ما نبينه. وقرن بكل علة معلولها كما يُقرن المدلول بكل واحد من دلائله تقريباً وتقريراً، مع أن القبلة لها شأن. والنسخ من مظان الفتنة والشبهة فبالحرى أن يُؤكَّد أمرها ويُعاد ذكرها مرة بعد أخرى. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ علة لقوله فولُّوا، والمعنى أن التولية عن الصخرة إلى

(١) وقوله «من ربك» فيه تعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لإظهار اللطف به عليه السلام (أبو السعود ١/١٧٦).

(٢) كرر قوله «ومن حيث خرجت..» لما أن للقبلة شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فأكد أمرها مرة بعد أخرى مع أنه قد ذكر في كل مرة حكمة مستقلة (أبو السعود ١/١٧٨).

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَىٰ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥١﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٢﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قيلت للكعبة، وأن محمداً يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا. والمشركون بأنه يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي لثلاث يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم بأنهم يقولون: ما تحوّل إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحياً لبلده، أو بدّاً له فرجع إلى قبله آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وسئى هذه حجة كقوله تعالى ﴿مُجْتَنِّهِمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(١) لأنهم يسوقونها مساقها. وقيل الحجة بمعنى الاحتجاج. وقيل الاستثناء للمبالغة في نفي الحجة رأساً كقوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

للعلم بأن الظالم لا حجة له، وقرئ: أَلَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ. على أنه استئناف بحرف التنبيه. ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، فإن مطاعينهم لا تضركم. ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا ما أمرتكم به. ﴿وَلَا تَمْنَىٰ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ علة محذوف أي وأمرتكم لإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم^(٢)، أو عطف على علة مقدّرة مثل: واخشوني لأحفظكم منهم ولأنتم نعمتي عليكم، أو لثلاث يكون وفي الحديث «تمام النعمة دخول الجنة»^(٣). وعن علي رضي الله تعالى عنه «تمام النعمة الموت على الإسلام».

(١٥١) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ متصل بما قبله، أي ولأنتم نعمتي عليكم في أمر القبله، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم، أو بما بعده أي كما ذكّرتكم بالإرسال فاذكروني. ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يحملكم على ما تصيرون به أزكيا، قدّمه باعتبار القصد وأخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ بالفكر والنظر، إذ لا طريق إلى معرفته سوى الوحي، وكثر الفعل ليدل على أنه جنس آخر.

(١٥٢) ﴿فَادْكُرُونِي﴾ بالطاعة. ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالشواب. ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليكم. ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر.

(١٥٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وحظوظ النفس، ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ التي هي أم

(١) الشورى: ١٦٦.

(٢) وعبر عن الإرادة بكلمة لعل الموضوعية للترجي على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٥٣ رقم ٧٢٥) والترمذي (٥٤١/٥ رقم ٣٥٢٧) وقال: حسن، وأخرجه

أحمد (٢٣١/٥) وعبد بن حميد (ص ٦٦ رقم ١٠٧) والطبراني في الكبير (٥٥/٢٠ - ٥٦ رقم ٩٧) وأبو نعيم في

الحلية (٢٠٤/٦) والخطيب في تاريخه (١٢٦/٣ - ١٢٧) كلهم من حديث معاذ وهو حديث ضعيف.

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ

العبادات، ومعراج المؤمنين، ومناجاة رب العالمين. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر وإجابة الدعوة.

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ أي هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أي بل هم أحياء. ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ما حالهم، وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يُحسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن إن الشهداء أحياء عند ربهم تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً فيصل إليهم الألم والوجع. والآية نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت داركة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة.

(١٥٥) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنصيبكم إصابةً من يَخْتَبِرُ لأحوالكم، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقساوة؟ ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلله بالإضافة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم. ويريهم أن رحمته لا تفارقهم، أو بالنسبة إلى ما يُصيب به معانديهم في الآخرة، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ عطف على شيء، أو الخوف، وعن الشافعي رضي الله عنه الخوف: خوف الله، والجوع: صوم رمضان، والنقص: من الأموال الصدقات والزكوات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن: الثمرات موت الأولاد^(١). وعن النبي ﷺ «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم روح ولد عبدي؟ فيقولون نعم، فيقول الله: أقبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنو لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»^(٢) ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

(١٥٦) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لمن تتأتى منه البشارة. والمصيبة تعم ما يصيب الإنسان من مكروه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»^(٣). وليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خُلِقَ لأجله

(١) قال ابن كثير: وفي هذا نظر والله أعلم (ابن كثير ١/١٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣/٣٤١ رقم ١٠٢١) والطحاوي في مسنده (ص ٦٩ رقم ٥٠٨) وأحمد (٤/٤١٥) وعبد بن حميد (ص ١٩٤ - ١٩٥ رقم ٥٥١) وابن حبان (ص ١٨٥ رقم ٧٢٦ - الموارد) من حديث أبي موسى. وقال الترمذي: حسن. وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (١٤٠٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الفراء - كما في الدر المنثور (١/٣٨٠) - من حديث عكرمة مرسلًا بهذا اللفظ. =

وَرَحْمَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾

وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما بقي عليه أضعاف ما استرده منه فيهوّن على نفسه، ويستسلم له. والمبشر به محذوف دل عليه.

(١٥٧) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ^(١) الصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة. وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها. والمراد بالرحمة اللطف والإحسان. وعن النبي ﷺ «من استرجع عند المصيبة، جبر الله مصيبته، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه» ^(٢) ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ﴾ للحق والصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى.

(١٥٨) ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما علماً جبلين بمكة. ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه، جمع شعيرة وهي العلامة. ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾ الحج لغة القصد، والاعتمار الزيارة. فقلباً شرعاً على قصد البيت وزيارته على الوجهين المخصوصين. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ كان إساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية إذا سعوها مسحوها. فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تحرّج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فزلت. والإجماع على أنه مشروع في الحج والعمرة، وإنما الخلاف في وجوبه: فعن أحمد ^(٣) أنه سنة، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهم لقوله ﴿فَلَا جُنَاحَ

● وأخرج الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٠ رقم ٧٨٢٤) عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: انقطع قبال رسول الله ﷺ فاسترجع، فقالوا أمصية يا رسول الله؟ قال: «ما أصاب المؤمن مما يكره فهو مصيبة».

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) بإسناد ضعيف. وذلك بسبب عبيد الله بن زحر، وعلي بن يزيد.

● وأخرج الطبراني في الكبير أيضاً (٨/ ١٥٥ - ١٥٦ رقم ٧٦٠٠) عن مكحول عن أبي أمامة قال خرجنا مع رسول الله ﷺ فانقطع شمع النبي ﷺ فقال «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقال له رجل هذا الشمع؟ فقال رسول الله ﷺ «إنها مصيبة».

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) وفيه «العلاء بن كثير» وهو متروك.

(١) معنى البعد فيه للإيذان بعلو رتبته (أبو السعود ١/ ١٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٥٥ رقم ١٣٠٢٧) والطبري في جامع البيان (٢/ ٤٢ - ٣٢) من حديث ابن عباس.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) وقال فيه: علي بن أبي طلحة وهو ضعيف.

(٣) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، ولد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وطلب العلم صغيراً، ورحل لطلبه إلى الشام والحجاز واليمن وغيرها حتى أجمع على إمامته وتقواه وورعه وزهده.

قال أبو زرعة: كانت كتبه اثني عشر حملاً، وكان يحفظها عن ظهر قلب، وكان يحفظ ألف ألف حديث. وألف المسند الكبير أعظم المسانيد وأحسنها وضعاً وانتقاداً، فإنه لم يدخل فيه إلا ما يحتج به مع كونه انتقاه من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث. وكانت وفاته سنة إحدى وأربعين ومائتين على الصحيح ببغداد =

عَلَيْهِ ﴿ فَإِنَّهُمْ مِنْهُ التَّخِيرُ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، لَأَنَّ نَفْيَ الْجُنَاحِ يَدُلُّ عَلَى الْجَوَازِ الدَّخْلِ فِي مَعْنَى الْوَجُوبِ ، فَلَا يَدْفَعُهُ . وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ وَاجِبٌ ، يُجْبَرُ بِالدَّمِ . وَعَنْ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ أَنَّهُ رُكْنٌ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «اسْعَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»^(٢) . ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ أَيِ فِعْلٍ طَاعَةٍ فَرَضًا كَانَ أَوْ نَفْلًا ، أَوْ زَادَ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ حَجٍّ أَوْ عَمْرَةٍ ، أَوْ طَوَافٍ أَوْ تَطَوُّعٍ بِالسَّعْيِ إِنْ قَلْنَا إِنَّهُ سَنَةٌ . وَخَيْرًا نُصِبَ عَلَى أَنَّهُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ ، أَوْ بِحَذْفِ الْجَارِ وَإِصْالِ الْفِعْلِ إِلَيْهِ ، أَوْ بِتَعْدِيَةِ الْفِعْلِ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى أَتَى أَوْ فَعَلَ . وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ يَطَّوْعُ وَأَصْلُهُ يَتَطَوَّعُ فَادْغَمَ مِثْلَ يَطَّوْفُ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ مَثِيبٌ عَلَى الطَّاعَةِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ .

(١٥٩) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ ﴾ كَأَحْبَارِ الْيَهُودِ . ﴿ مَا أَرْزَلْنَا مِنْ أَلْبَيْنَةٍ ﴾ كَالْآيَاتِ الشَّاهِدَةِ عَلَى أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ . ﴿ وَأَهْدَى ﴾ وَمَا يَهْدِي إِلَى وَجُوبِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ ﴾ لَخَصْنَاهُ . ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ فِي التَّوْرَةِ . ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أَيِ الَّذِينَ يَتَأْتَى مِنْهُمْ اللَّعْنُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ .

= مدينة السلام .

[تاريخ بغداد (٢/٤١٢ - ٤٢٣ رقم ٢٣١٧) وتهذيب الأسماء واللغات (١/١١٠ رقم ٤٥)].

(١) لَأَنَّ مَفْهُومَ الْآيَةِ رَفْعُ الْجُنَاحِ عَمَّنْ تَطَوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرَّةِ لَأَنَّهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُهْلُونَ لِمَنَاةِ الطَّاعَةِ وَيَعْبُدُونَهَا فَكَانَ الْبَعْضُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَحَرَّجُ مِنْ ذَلِكَ ، فَتَزَلَّتْ لِرَفْعِ الْحَرَجِ . وَظَاهِرُهُ عَدَمُ الْوَجُوبِ لِلْسَّعْيِ إِلَّا أَنْ الْوَجُوبَ مَفْهُومٌ مِنْ أُدْلَةٍ أُخْرَى .

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٦/٤٢١) وَالشَّافِعِيُّ فِي تَرْتِيبِ الْمُسْنَدِ (١/٣٥١ رقم ٣٠٧) مِنْ حَدِيثِ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي ثُجْرَةَ الْعَبْدَرِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «اسْعَوْا ، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ» وَفِي إِسْنَادِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْمُؤْمَلِ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَلَهُ طَرِيقٌ أُخْرَى فِي صَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ (٤/٢٣٧ رقم ٢٧٧٣) وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٦/٤٢١ - ٤٢٢) نَحْوَهُ مِنْ حَدِيثِ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ .

وَأَخْرَجَ الدَّارِقُطْنِيُّ (٢/٢٥٥ رقم ٨٤) وَابِيهَقِي فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى (٥/٩٧) مِنْ حَدِيثِ صَفِيَّةٍ ، قَالَتْ : أَخْبَرْتَنِي نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ اللَّاتِي أَدْرَكَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قُلْنَ : دَخَلْنَا دَارَ ابْنِ أَبِي حَسِينٍ فَاطْلَعْنَا مِنْ بَابٍ مَقْطَعٍ فَرَأَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَشْتَدُّ فِي الْمَسْعَى ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ زَقَاقُ بَنِي فُلَانٍ مَوْضِعًا قَدْ سَمَاهُ مِنَ الْمَسْعَى ، اسْتَقْبَلَ النَّاسَ وَقَالَ : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْعَوْا فَإِنَّ الْمَسْعَى قَدْ كَتَبَ عَلَيْكُمْ» وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

وَالْخُلَاصَةُ : أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ .

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَتِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

(١٦٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا بالتدارك. ﴿وَبَيَّنَّا﴾ ما بينه الله في كتابهم لتتم توبتهم. وقيل ما أحدثوه من التوبة ليمحو به سمة الكفر عن أنفسهم ويقتدي بهم أضراؤهم ﴿فَاوْلَتِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾^(١) بالقبول والمغفرة. ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة.

(١٦١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ومن لم يتب من الكافرين حتى مات ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ استقر عليهم اللعن من الله، ومن يعتد بلعنه من خلقه. وقيل: الأول لغتهم أحياء وهذا لعنهم أمواتاً. وقرئ والملائكة والناس أجمعون عطفاً على محل اسم الله لأنه فاعل في المعنى، كقولك أعجبنى ضرب زيد وعمرو، أو فاعلاً لفعل مقدر نحو وتلعنهم الملائكة.

(١٦٢) ﴿خَلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة، أو النار. وإضمارها قبل الذكر تفخيماً لشأنها وتهويلاً، أو اكتفاء بدلالة اللعن عليها. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة^(٢).

(١٦٣) ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ خطاب عام، أي المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يُعبد أو يسمى إلهاً. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة. ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ كالحجة عليها، فإنه لما كان مولي النعم كلها أصولها وفروعها وما سواه إما نعمة أو منعم عليه لم يستحق العبادة أحد غيره، وهما خبران آخران لقوله إلهكم، أو لمبتدأ محذوف. قيل لما سمعه المشركون تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت.

(١٦٤) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنما جَمَعَ السموات وأفرد الأرض، لأنها طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾^(٣). ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي ينفعهم، أو بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على

(١) فأولئك، إشارة إلى الموصول «الذين» باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وهو قوله «تابوا» للإشعار بعليته للحكم (أبو السعود ١/١٨٣).

(٢) قوله: «ولا هم ينظرون» أثر الجملة الاسمية لإفادة النفي واستمراره (أبو السعود ١/١٨٣).

(٣) الفرقان: «٦٢».

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

عجائبه، ولذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأنيث الفلك لأنه بمعنى السفينة. وقرئ بضميتين على الأصل، أو الجمع وضمّة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين. ﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾ من الأولى للإبتداء، والثانية للبيان. والسماء يحتمل الفلك، والسحاب، وجهة العلو. ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالنبات ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ عطف على أنزل، كأنه استدل بنزول المطر وتكوين النبات به وبث الحيوانات في الأرض، أو على أحياء فإن الدواب ينمّون بالخصب ويعيشون بالحياة. والبث النثر والتفريق. ﴿وَنَصْرَفِ الْهَيْجَ﴾ في مهاها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائي على الإفراد. ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لا ينزل ولا ينقشع، مع أن الطبع يقتضي أحدهما حتى يأتي أمر الله تعالى. وقيل: مسخر الرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله تعالى، واشتقاقه من السحب لأن بعضه يجر بعضاً. ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَوْمُ يَعْقِلُونَ﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم، وعنه ﴿وَيَلْ لَمَن قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ فَمَجَّ بِهَا﴾^(١) أي لم يتفكر فيها.

واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلام المجلل أنها: أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة وأنحاء مختلفة، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السموات أو بعضها كالأرض، وأن تتحرك بعكس حركاتها وبحيث نصير المنطقة دائرة مازة بالقطين وأن لا يكون لها أوج وحضيض أصلاً، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها فلا بد لها من موجد قادر حكيم يوجد لها على ما تستدعيه حكمته وتقتضيه مشيئته متعالياً عن معارضة غيره. إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر، فإن توافقت إرادتهما: فالفاعل إن كان لهما لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح وعجز الآخر المنافي لآلهيته. وإن اختلفت: لزم التماثل والتطارد، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢). وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله وحث على البحث والنظر فيه.

(١٦٥) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ من الأصنام. وقيل من الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾^(٣) ولعل المراد أعم منهما وهو ما يشغله

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه وابن المنذر في تفاسيرهم وابن أبي الدنيا في كتاب التفكير (الفتح السماوي ص ٢٠٤) وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ١٠/٢ - ١١).

ورجاله رجال الحسن (تخريج الفتح السماوي ص ٢٠٤).

(٢) الأنبياء: ٢٢٢.

(٣) البقرة: ١٦٦.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَيْنَا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

عن الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظمونهم ويطيعونهم ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ كتعظيمه والميل إلى طاعته، أي يسوون بينه وبينهم في المحبة والطاعة، والمحبة: ميل القلب من الحُبِّ، استعير لِحَبَّةِ القلب، ثم اشتق منه الحُبُّ لأنه أصابها ورسخ فيها، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل مرضاه، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعاصي. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراضٍ فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يَغْدُلُونَ عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ إذ عاينوه يوم القيامة. وأجرى المستقبل مجرى الماضي لتحققه كقوله تعالى ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾^(١).

﴿أَنْ أَلْقَوْهُ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ساء مسد مفعولي يرى، وجوابٌ لو محذوفٌ. أي لو يعلمون أن القوة لله جميعاً إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندم. وقيل هو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان، والتقدير: ولو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع لعلموا أن القوة لله كلها لا ينفع ولا يضر غيره. وقرأ ابن عامر ونافع ويعقوب: ولو ترى على أنه خطاب للنبي ﷺ، أي ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً، وابن عامر: إذ يُرَوْنَ على البناء للمفعول، ويعقوب إن بالكسر وكذا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ على الاستئناف، أو إضمار القول.

(١٦٦) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ بدل من إذ يرون، أي إذ تبرأ المتبوعون من الأتباع. وقرئ بالعكس، أي تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي رآين له، والواو للحال، وقد مضى. وقيل: عطفٌ على تبرأ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ يحتمل العطف على تبرأ أو رأوا، والواو للحال، والأول أظهر. والأسباب: الوصل التي كانت بينهم من الأتباع والاتفاق على الدين والأغراض الداعية إلى ذلك. وأصل السبب: الحبل الذي يُرْتَقَى به الشجر. وقرئ وتقطعت على البناء للمفعول.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَيْنَا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ لو للتمني ولذلك أجيب بالفاء، أي ليت لنا كَرَّةٌ إلى الدنيا فنتبرأ منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإراء الفطيع. ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات، وهي ثالثٌ مفاعيل يرى إن كان من رؤية القلب وإلا فَحَالٌ ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أصله وما يخرجون فَعَدَلَ به إلى هذه العبارة للمبالغة في الخلود والإقناط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا.

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾
 إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

(١٦٨) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس، وحلالاً مفعولُ كلوا أو صفة مصدر محذوف أو حال مما في الأرض، ومن للتبعض إذ لا يؤكل كل ما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ يستطيه الشرع أو الشهوة المستقيمة، إذ الحلال دل على الأول. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والبيزي^(١) وأبو بكر حيث وَقَعَ بتسكين الطاء وهما لغتان في جمع خطوة، وهي ما بين قدمي الخاطي. وقرئ بضمتين وهمزة جُعِلَتْ ضمة الطاء كأنها عليها، وبفتحتين على أنه جمع خطوة وهي المرّة من الخطو ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يظهر الموالة لمن يغويه، ولذلك سماه ولياً في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ أَطَاعُوا﴾^(٢).

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ بيان لعداوته ووجوب التحرز عن متابعتها. واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفياً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم، والسوء والفحشاء: ما أنكره العقل واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به وفحشاء باستقباحه إياه. وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في الفجح من الكباثر. وقيل: الأول ما لا حد فيه، والثاني ما شرع فيه الحد ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كاتخاذ الأنداد وتحليل المحرمات وتحريم الطيبات، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأساً. وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظنٌ مُسْتَنَدٌ إلى مدرك شرعي فوجوبه قطعي، والظن في طريقه كما بيناه في الكتب الأصولية.

(١٧٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الضمير للناس، وَعَدَلَ بالخطاب عنهم للنداء على ضلالهم، كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون. ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ما وجدناهم عليه. نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج والآيات، فجنحوا إلى التقليد. وقيل في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا لأنهم كانوا خيراً منا وأعلم. وعلى هذا فيعم ما أنزل الله التوراة لأنها أيضاً تدعو إلى الإسلام. ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال أو العطف، والهمزة للرد والتعجيب. وجواب لو محذوف أي لو كان آبائهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدين ولا يهتدون إلى الحق لاتبعوهم. وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدير على النظر والاجتهاد. وأما

(١) البيزي هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة، إمام ضابط ثقة، وكان إمام المسجد الحرام ومقرنه ومؤذنه، وإليه انتهت مشيخة الأمراء بمكة، وقد اشتهر بالرواية عن ابن كثير الذي هو من القراء السبعة، توفي عام (٢٥٠) هـ.

(٢) البقرة: (٢٥٧).

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِتْيَاءَ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا
حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنَ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا
إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

اتباع الغير في الدين إذا عليم بدليل ما أنه محق كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام فهو في الحقيقة ليس بتقليد بل اتباع لما أنزل الله .

(١٧١) ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ على حذف مضاف تقديره: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينقع، أو مثل الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينقع. والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينقع عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه وتحس بالتداء ولا تفهم معناه. وقيل هو تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته. أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قوله إلا دعاء ونداء، لأن الأصنام لا تسمع إلا أن يجعل ذلك من باب التمثيل المركب^(١).

﴿صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ﴾ رفع على الذم. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي بالفعل للإخلال بالنظر.

(١٧٢) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لما وسع الأمر على الناس كافة وأباح لهم ما في الأرض سوى ما حرم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم. ﴿إِن كُنتُمْ إِتْيَاءَ تَعْبُدُونَ﴾ إن صح أنكم تخلصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر. فالمعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لإتمامه، وهو عدم عند عدمه. وعن النبي ﷺ «يقول الله تعالى إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري»^(٢).

(١) وضع الموصول موضع الضمير... لزمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلما ما أثبت لهم من الحكم والتقدير (أبو السعود ١٩٠/١).

(٢) وهو حديث ضعيف.

أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/١٣٤ رقم ٤٥٦٣) من حديث أبي الدرداء.

وأورده الحكيم الترمذي في «نواذر الأصول» (ص ٢٢٥)، والدليمي في «الفردوس» (٣/١٦٦ رقم ٤٤٣٩).

والسيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٦٠٠٨) ورمز لضعفه.

وقال المناوي: فيه: مهنى بن يحيى: مجهول، وبقية بن الوليد أورده الذهبي في الضعفاء، وقال: يروي عن الكذابين ويدلسهم؛ وشريح بن عبيد ثقة لكنه مؤسّل وأورده الألباني في «ضعيف الجامع» (٤/١١٠ رقم ٤٠٥٢) وضعفه.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

(١٧٣) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أكلها أو الانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة، والحديث ألحق بها ما أُيِّنَ من حي، والسّمك والجراد أخرجهما العرف عنها أو استثناه الشرع، والحرمة المضافة إلى العين تفيد عرفاً حرمة التصرف فيها مطلقاً إلا ما خصه الدليل كالتصرف في المدبوغ ﴿وَالْدَّمَ وَلَحِمَ الْخِزْيَرِ﴾ إنما خصّ اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتابع له. ﴿وَمَا أَهْلُ بِهِ لِيَقْبَرِ اللَّهُ﴾ أي رُفِعَ به الصوت عند ذبحه للصنم. والإهلال أصله رؤية الهلال، يقال: أهل الهلال وأهّلته، لكن لما جرت العادة أن يُرفع الصوت بالتكبير إذا رُئي سمي ذلك إهلالاً، ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره. ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالاستيثار على مضطر آخر. وقرأ عاصم وأبو عمرو وحزمة بكسر النون^(١). ﴿وَلَا عَادٍ﴾ سدّ الرمق أو الجوعة. وقيل: غير باغ على الوالي ولا عاد بقطع الطريق. فعلى هذا لا يُباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعي وقول أحمد رحمهما الله تعالى. ﴿فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ﴾ في تناوله. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعل ﴿رَجِيئٌ﴾ بالرخصة فيه. فإن قيل: «إنما» تفيد قصر الحكم على ما ذكر وكمن من حرام لم يذكر، قلت: المراد قُصِرَ الحرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقاً، أو قصر حرمة على حال الاختيار كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا إليها.

(١٧٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عَوْضاً حقيراً. ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ إما في الحال، لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكانه أكل النار كقوله:

أَكَلْتُ دَمًا إِنْ لَمْ أَرْغِكْ بِضِرَّةٍ بَعِيدَةٍ مَهْوَى الْقِرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

يعني الدية. أو في المآل أي لا يأكلون يوم القيامة إلا النار. ومعنى في بطونهم: ملء بطونهم. يقال أكل في بطنه وأكل في بعض بطنه كقوله:

كلوا في بعض بطنكمو تُعَفُّوا

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ عبارة عن غضبه عليهم، وتعريض بحرمانهم حال مقابلتهم في الكرامة والزلفى من الله. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يشي عليهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

(١٧٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ في الدنيا. ﴿وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ في الآخرة، بكتمان الحق للمطامع والأغراض الدنيوية. ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ تعجب من حالهم في الالتباس

(١) وقرأ بضم النون «فمن اضطر».

(٢) ما فيه من معنى البعد لبيان بُعْد منزلتهم في الشر والفساد (أبو السعود ١/١٩١).

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

بموجبات النار من غير مبالاة. وما تامة مرفوعة بالابتداء، وتخصيصها كتخصيص قولهم:

شَرُّ أَهَرَّ ذَا نَابٍ

أو استفهامية وما بعدها الخبر، أو موصولة وما بعدها صلة والخبر محذوف.

(١٧٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ اللام فيه إما للجنس، واختلافهم إيمانهم ببعض كتب الله تعالى وكفرهم ببعض، أو للعهد. والإشارة إما إلى التوراة، واختلفوا بمعنى تخلّفوا عن المنهج المستقيم في تأويلها، أو خلفوا خلال ما أنزل الله تعالى مكانه، أي حرفوا ما فيها. وإما إلى القرآن واختلافهم فيه قولهم سحرٌ وتَقَوُّلٌ وكلام علّمه بَشَرٌ وأساطير الأولين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ لفي خلاف بعيد عن الحق.

(١٧٧) ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ البرُّ: كل فعل مرضي، والخطابُ لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حُوِّلَتْ وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فردَّ الله تعالى عليهم وقال: ليس البرُّ ما أنتم عليه فإنه منسوخ ولكن البرُّ ما بينه الله واتبعه المؤمنون. وقيل عامٌّ لهم وللمسلمين، أي ليس البر مقصوراً بأمر القبلة، أو ليس البر العظيم الذي يَحْسُنُ أَنْ تَذْهَبُوا بِشَأْنِهِ عَنْ غَيْرِهِ أمرها، وقرأ حمزة وحفص البرُّ بالنصب ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ أي ولكن البر الذي ينبغي أن يُهْتَمَّ به برُّ من آمن بالله، أو لكن ذا البر من آمن، ويؤيده قراءة من قرأ ولكن البار، والأول أوفق وأحسن. والمراد بالكتاب الجنس، أو القرآن. وقرأ نافع وابن عامر ولكن بالتخفيف ورفع البرِّ. ﴿وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي على حب المال، قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أي الصدقة أفضل قال: «أن تؤتيه وأنت صحيح صحيح تأمل العيش، وتخشى الفقر»^(١). وقيل الضمير لله، أو للمصدر. والجار والمجرور في موضع الحال. ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ يريد المحاييج منهم، ولم يُقَيَّد لعدم الالتباس. وقَدَّمَ ذَوِي الْقُرْبَىٰ لأن إيتاءهم أفضل كما قال عليه الصلاة والسلام «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوي رحمك اثنتان، صدقة وصله»^(٢).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٢٧٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وأورده ابن كثير في تفسيره (١/٢١٤) بعدما نقل كلام الحاكم، قال: وقد رواه وكيع عن الأعمش وسفيان عن زيد عن مرة عن ابن مسعود موقوفاً وهو أصح.

وذكره أبو نعيم في الحلية (٧/٢٣٨) من طريق مسعر عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود به وقال «مشهور من حديث مسعر رواه عنه الناس».

(٢) أخرجه الترمذي (٦٥٨) وقال: حديث حسن، وأخرجه النسائي (٢٥٨٣) وابن ماجه (١٨٤٤) وابن حبان =

وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع المسكين وهو الذي أسكتته الخلّة، وأصله دائم السكون كالمسكير للدائم السكر.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر، سمي به لملازمته السبيل كما سُمي القاطع ابن الطريق. وقيل الضيف لأن السبيل يعرف به^(١). ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، وقال عليه السلام «للسائل حق وإن جاء على فرسه»^(٢) ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفي تخليصها بمعاونة المكاتبين، أو فك الأسارى، أو ابتياع الرقاب لعتقها. ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله: «وَأَتَى المال» الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها. ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقاً كانت في المال سوى الزكاة. وفي الحديث (نسخت الزكاة كل صدقة). ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ عطف على من آمن. ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ نَصَبُهُ على المدح ولم يُعْطَفْ لفضل الصبر على سائر الأعمال. وعن الأزهري^(٣): البأساء في الأموال كالفقر، والضراء في الأنفس كالمرض. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت مجاهدة العدو.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها بكثرتها

= (الإحسان ١٤٣/٥) والحاكم (٤٠٧/١) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

(١) أي يقدمه، وأصل الرعاف السبق والتقدم (المصباح المنير مادة رعى).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٠١/١) وابن أبي شيبة في المصنف (١١٣/٣) وأبو داود (٣٠٦/٢) رقم (١٦٦٥)

والطبراني في الكبير (١٤١/٣) رقم (٢٨٩٣) وأبو يعلى في المسند (١٥٤/١٢) رقم (٦٧٨٤).

كلهم من طريق يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي.

وفيه يعلى ابن أبي يحيى المدني: مجهول - التقريب (٣٧٩/٢) رقم (٤١٦) -.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٣/٢٢ - ٢٠٤) رقم (٥٣٥) من حديث الهرماس بن زياد، وفيه عثمان بن قaid،

وهو ضعيف - التقريب (١٣/٢) -.

● وقال مالك في الموطأ (٩٩٦/٢) عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: فذكره. وهو مرسل والخلاصة أن

الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) الأزهري هو: محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهرى الهروي اللغوي الشافعي ارتحل في طلب العلم بعد

أن سمع ببلده من الحسين بن إدريس، ومحمد بن عبد الرحمن السامي وعدة، وسمع ببغداد من أبي القاسم

البغوي وابن أبي داود، وإبراهيم بن عرفة، وابن السراج، وأبي الفضل المنذري، وترك ابن دُرَيْدَ تَوْزَعًا، فإنه

قال: دخلت داره فألفيته على كبر سنه سكران.

وكان رأساً في اللغة والفقه، ثقة، ثباتاً، ديناً. وله كتاب «تهذيب اللغة» المشهور، وكتاب «التفسير» وكتاب

«تفسير ألفاظ المُرْنِي» وغيرها.

مات في ربيع الآخر سنة سبعين وثلاثمائة عن ثمانٍ وثمانين سنة.

[معجم الأدباء (١٧/١٦٤ - ١٦٧) وطبقات الشافعية للسبكي (٣/٦٣ - ٦٨)].

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَإِنِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿وَالْيَتِيمَ﴾. وإلى الثاني بقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿وَالْيَتِيمَ﴾. وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها، ولذلك وُصِفَ المستجمعُ بها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق، وإليه أشار بقوله عليه السلام «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان»^(١).^(٢)

(١٧٨) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طولٌ على الآخر، فأقسموا لقتلِ الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأمرهم أن يتباؤوا^(٣). ولا تدل على أن لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى، كما لا تدل على عكسه، فإن المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص غرضٌ سوى اختصاصِ الحكم، وقد بينا ما كان الغرض. وإنما منع مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما قتلَ الحر بالعبد سواء كان عبده أو عبداً غيره، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قتل عبده فجلدته الرسول ﷺ ونفاه سنة ولم يقده به^(٤) وروي عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل

(١) أخرجه ابن المنذر في تفسيره - كما في الدر المنثور للسيوطي (٤١٢/١) - من حديث أبي مسيرة.

(٢) وفي هذه الآية لفتات بيانية يجدر أن نشير إليها:

قوله «ليس البرُّ أن تولوا» فجعل المصدر المسبوك من أن وما بعدها هي الاسم وأخره عن الخبر وذلك لأن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به، والأعراف أحق بالاسمية، وكذا لمراعاة النظم.

وقوله: «ذوي القربى واليتامى» فقدم ذوي القربى لأن إيتاءهم صدقة وصلة ورحم.

وقوله «وفي الرقاب» عدم عن ذكرهم بما يفيد ملكيتهم إما لعدم الإقرار بملكيتهم أو عدم ثبوته رأساً أو للإشعار برسوخهم في الاستحقاق والحاجة ولهذا استخدم حرف الجر (في) المفيد للإحاطة التامة.

وقوله «والموفون بعهدهم» أثر صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء.

وقوله «والصابرين» غير سبكه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر.

وقوله «وحين البأس» زاد الحين على خلاف سابقها للإشعار بوقوعه أحياناً وسرعة انقضائه.

وقوله «وأولئك هم المتقون» وسط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم (أبو السعود ١٩٤/١).

(٣) أي أن يرجع كل واحد على الآخر بما عليه من حق.

(٤) أخرجه ابن ماجة (٨٨٨/٢) والدارقطني في السنن (١٤٤/٣) والبيهقي في السنن الكبرى

(٣٦/٨ - ٣٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٤/٩) كلهم من طريق إسحاق بن أبي فروة، عن إبراهيم بن

عبدالله بن حنين عن أبيه عن علي رضي الله عنه.

ومن طريق ابن أبي فروة أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: كما أخرجه الدارقطني (١٤٣/٣) - ١٤٤ =

مسلم بذى عهد ولا حر بعبد ولأن أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير تكبير. وللقياس على الأطراف، ومن سلم دلالة فليس له دعوى نسخ قوله تعالى ﴿الْأَنْفُسَ بِالنَّفْسِ﴾^(١) لأنه حكاية ما في التوراة فلا ينسخ ما في القرآن. واحتجت الحنفية به على أن مقتضى العمد القود وحده، وهو ضعيف إذ الواجب على التخيير يصدق عليه أنه وجب وكُتِبَ، ولذلك قيل التخيير بين الواجب وغيره ليس نسخاً لوجوبه. وقرأ كُتِبَ على البناء للفاعل والقصاص بالنصب، وكذلك كل فعل جاء في القرآن. ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي شيء من العفو، لأن عفا لازم. وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام في إسقاط القصاص. وقيل عفا بمعنى ترك، وشيء مفعول به وهو ضعيف، إذ لم يثبت عفا الشيء بمعنى تركه بل أعفاه. وعفا يُعْدَى بِعَنْ إِلَى الْجَانِي وَإِلَى الذَّنْبِ، قال الله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾^(٢) وقال ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾^(٣). فإذا عُذِيَ بِهِ إِلَى الذَّنْبِ عُذِيَ إِلَى الْجَانِي بِاللَّامِ، وعليه ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفي له عن جنايته من جهة أخيه، يعني ولي الدم. وذكره بلفظ الأخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرق له ويعطف عليه. ﴿فَأَتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ أي فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع. والمراد به وصية العافي بأن يطلب الدية بالمعروف فلا يُعْتَفَ، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان: وهو أن لا يمتل ولا ينخس. وفيه دليل على أن الدية أحد مقتضى العمد، وإلا لما رُغِبَ الأمر بأدائها على مطلق العفو. وللشافعي رضي الله تعالى عنه في المسألة قولان. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الحكم المذكور في العفو والدية. ﴿تَخَفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع، قيل: كُتِبَ على اليهود القصاص وحده وعلى النصارى العفو مطلقاً وخُيِّرَتِ هذه الأمة بينهما وبين الدية تيسيراً عليهم وتقديراً للحكم على حسب مراتبهم. ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بِعَدَاكَ﴾ أي قتل بعد العفو وأخذ الدية. ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل في الدنيا بأن يُقتل لا محالة لقوله عليه السلام «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذ الدية»^(٤).

= رقم (١٨٧) والبيهقي (٣٦/٨) من طريق محمد بن عبدالعزيز الرملي، عن إسماعيل بن عياش، عن الأوزاعي، عن عمرو بن شعيب به وإسحاق بن أبي فروة متروك - التقريب (٥٩/١) - وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨/٨) عن محمد بن عبدالعزيز الرملي: ليس عندهم بالمحمود وإلى الضعف ما هو، وقال الحافظ: صدوق يهيم، من رجال البخاري. وقال البيهقي: أسانيد هذه الأحاديث ضعيفة لا تقوم بشيء منها الحجة إلا أن أكثر أهل العلم على أن لا يقتل الرجل بعبد (٣٧/٨).

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

- (١) المائدة: ٤٥.
- (٢) التوبة: ٤٣.
- (٣) المائدة: ٩٥.
- (٤) أخرجه أبو داود (٤٥٠٧) وأحمد (٣٦٣/٣) وفيه مطر بن طهمان الوراق لم يسمع من الحسن البصري وضعفه أكثر من واحد فالسند ضعيف، وقد وضعفه أحمد شاكر في تخريج الطبري رقم (٢٦٠٣) وضعفه آخرون.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ آلَ لَيْبٍ لِّمَلَكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

(١٧٩) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعَرَفَ القصاص ونَكَرَ الحياة ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيكون سبب حياة نفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتُصَّ من القاتل سَلَمُ الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم، وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يواخذ به في الآخرة. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ يحتمل أن يكونا خبرين لحياة وأن يكون أحدهما خبراً والآخر صلة له، أو حالاً من الضمير المستكن فيه. وقرئ في القصص، أي فيما قُصَّ عليكم من حكم القتل حياة، أو في القرآن حياة للقلوب. ﴿يَتَأُولَىٰ آلَ لَيْبٍ﴾ ذوي العقول الكاملة، ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس. ﴿لِّمَلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في المحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو عن القصاص فتكفؤوا عن القتل.

(١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي حضرت أسبابه وظهرت أماراته^(١). ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مَالاً. وقيل مَالاً كثيراً، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه أن مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة درهم، فمنعه وقال: قال الله تعالى: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» والخير هو المال الكثير^(٢). وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رجلاً أراد أن يوصي فسأله كَمْ مَالُكَ؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كَمْ عِيَالُكَ؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» وأن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك^(٣). ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ مرفوع بكُتِبَ، وتذكير فعلها للفصل، أو على تأويل أن يوصي، أو الإيضاء ولذلك ذكر الراجع في قوله ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾. والعامل في إذا مدلول كُتِبَ لا الوصية لتقدمه عليها. وقيل مبتدأ خبره للوالدين، والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كقوله:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرْهَا وَالشَّرَّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللَّهِ مِثْلَانِ

وَرَدَّ بِأَنَّهُ إِنْ صَحَّ فَمِنْ ضَرُورَاتِ الشَّعْرِ. وكان هذا الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية الموارث

(١) قوله «إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» قدم المفعول لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها (أبو السعود ١٩٦/١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٠٨/١١) رقم ١٠٩٩٢ وعبدالرزاق في المصنف (٦٢/٩)، والحاكم في المستدرک (٢٧٣/٢ - ٢٧٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع. وذلك لما قاله أبو حاتم في المراسيل (ص ١٤٩)، والعلل (٥٤/١): «عروة عن علي مرسل». قلت: عروة ولد في أوائل خلافة عمر بن الخطاب، واستُخلف علي رضي الله عنه في سنة (٣٥هـ) فيمكن سماع عروة من علي قبل انتقاله إلى الكوفة.

وأخرجه الدارمي (٤٠٥/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧٠/٦) والطبري في «جامع البيان» (١٢١/٢). كلهم عن هشام بن عروة عن أبيه عنه... والأثر رجاله ثقات.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٠٨/١١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧٠/٩) وعبدالرزاق في المصنف (٦٣/٩) وسعيد بن منصور - كما في الدر المنثور (٤٢٢/١) - عنها. والأثر إسناده صحيح.

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

ويقوله عليه الصلاة والسلام «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، ألا لا وصية لوارث»^(١). وفيه نظر: لأن آية الموارث لا تعارضه بل تؤكد من حيث إنها تدل على تقديم الوصية مطلقاً، والحديث من الأحاد، وتلقي الأمة له بالقبول لا يلحقه بالمتواتر. ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين بقوله يوصيكم الله. أو بإيضاء المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله عليهم ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل فلا يفضل الغنى، ولا يتجاوز الثلث. ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً.

(١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ غيره من الأوصياء والشهود. ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي وصل إليه وتحقق عنده، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فما إثم الإيضاء المغتير أو التبديل إلا على مُبَدِّلِهِ لأنهم الذين حافوا وخالفوا الشرع. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبدل بغير حق.

(١٨٢) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ﴾ أي توقع وعلم، من قولهم أخاف أن ترسل السماء. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر مُوسٍ مشدداً. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً بالخطأ في الوصية. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف. ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع. ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعدٌ للمصلح، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم.

(١٨٣) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٢) يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام، وفيه توكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطبيب على النفس. والصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات بياض النهار، فإنها معظم ما تشتهيه النفس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي، فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها كما قال

(١) وهو حديث صحيح من حديث عمرو بن خارجة، وأبي أمامة. أما حديث عمرو فقد أخرجه أحمد في المسند (١٨٦/٤ - ١٨٧) وابن ماجه في السنن (٩٠٥/٢ رقم ٢٧١٢) والنسائي في السنن (٢٤٧/٦) والترمذي (٤٣٤/٤) رقم ٢١٢١ وقال: حديث حسن صحيح. والدارقطني (١٥٢/٤ رقم ١٠) والبيهقي (٢٦٤/٦) وأخرجه الطيالسي في المسند (ص ١٦٩ رقم ١٢١٧) والدارمي (٤١٩/٢) وهو حديث صحيح بشواهده كثيرة، وإلا فإن شهر بن حوشب ضعيف لسوء حفظه.

● وأما حديث أبي أمامة فأخرجه أحمد في المسند (٢٦٧/٥) وأبو داود (٢٩٠/٣ رقم ٢٨٧٠) وابن ماجه (٩٠٥/٢ رقم ٢٧١٣) والترمذي (٤٣٣/٤ رقم ٢١٢٠) وقال حديث حسن صحيح. والطيالسي في المسند (ص ١٥٤ رقم ١١٢٧) والبيهقي (٢٦٤/٦) والدولابي في الكنى (٦٤/١) وسعيد بن منصور في سننه (١٢٥/١) رقم ٤٢٧ وفي إسناده إسماعيل بن عياش وهو قوي في الشاميين وهذا الحديث من روايته عنهم.

(٢) كرر النداء بيا أيها الذين آمنوا لإظهار مزيد الاعتناء (أبو السعود ١/١٩٨).

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

عليه الصلاة والسلام «فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»^(١) أو الإخلال بأدائه لأصالته وقدمه.

(١٨٤) ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ مؤقتات بعدد معلوم، أو قلائل، فإن القليل من المال يعد عدداً والكثير يُهَالُ هَيْلًا، ونصبها ليس بالصيام لوقوع الفصل بينهما بل بإضمار صوموا لدلالة الصيام عليه، والمراد به رمضان أو ما وَجَبَ صومه قبل وجوبه ونُسِخَ به، وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كل شهر، أو بِكَمَّا كُتِبَ عَلَى الظرفية، أو على أنه مفعول ثانٍ لَكُتِبَ عليكم على السعة. وقيل معناه صومكم كصومهم في عدد الأيام، لما روي: أن رمضان كتب على النصارى، فوقع في برد أو حر شديد فحولوه إلى الربيع وزادوا عليه عشرين كفارةً لتحويله. وقيل زادوا ذلك لموتان أصابهم. ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضره الصوم أو يعسر معه. ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء إلى أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر. ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه صوم عدد أيام المرض أو السفر من أيام أخر إن أفطر، فحذف الشرط والمضاف والمضاف إليه للعلم بها. وقرئ بالنصب أي فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة. وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضي الله عنه ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا. ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نصف صاع من بُرٍّ أو صاع من غيره عند فقهاء العراق، ومُدٌّ عند فقهاء الحجاز. رُخِّصَ لهم في ذلك أول الأمر لما أمروا بالصوم فاشتد عليهم لأنهم لم يتعودوه ثم نسخ. وقرأ نافع وابن عامر برواية ابن ذكوان^(٢) بإضافة الفدية إلى الطعام وجمع المساكين، وقرأ ابن عامر برواية هشام^(٣) مساكين بغير إضافة الفدية إلى الطعام، والباقون بغير إضافة وتوحيد مسكين، وقرئ يُطَوَّقُونَهُ أَي يُكَلِّفُونَهُ وَيُقَلِّدُونَهُ مِنَ الطُّوقِ بمعنى الطاقة أو القِلادة، وَيُطَوَّقُونَهُ أَي يَتَكَلَّفُونَهُ أَوْ يَتَقَلَّدُونَهُ، وَيَطَوَّقُونَهُ بِالْإِدْغَامِ، وَيُطِيقُونَهُ عَلَى أَنْ أَصْلُهُمَا يُطِيقُونَهُ مِنْ فِعْلٍ وَتَفْعِيلٍ بِمَعْنَى يَطَوَّقُونَهُ وَيَتَطَوَّقُونَهُ، وَعَلَى هَذِهِ الْقَرَاءَاتِ يَحْتَمِلُ مَعْنَى ثَانِيًا وَهُوَ الرِّخْصَةُ لِمَنْ يَتَعَبُهُ الصَّوْمُ وَيَجْهَدُهُ - وَهُمْ الشُّيُوخُ وَالْعَجَائِزُ - فِي الْإِفْطَارِ وَالْفِدْيَةِ، فَيَكُونُ ثَابِتًا وَقَدْ أُولَ بِهِ الْقِرَاءَةُ الْمَشْهُورَةُ، أَيْ يَصُومُونَهُ جَهْدَهُمْ وَطَاقَتَهُمْ. ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية. ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع أو

(١) أخرجه البخاري (١١٩/٤) رقم ١٩٠٥) ومسلم (١٠١٨/٢) رقم ١٤٠٠) وأخرجه أبو داود (٥٣٨/٢) رقم ٢٠٤٦) والترمذي (٣٩٢/٣) رقم ١٠٨١) والنسائي (١٦٩/٤) و(٥٦/٦ - ٥٧) بنحوه وابن ماجه (٥٩٢/١) رقم ١٨٤٥) من حديث ابن مسعود.

● الوجاء: بكسر الواو والوَجْء وهو أن يُرَضَّ أنثيا الفحل رضاً شديداً يذهب شهوة الجماع، ويتنزل في قطعه منزلة الخصبي (لسان العرب: ٢١٤/١٥).

(٢) ابن ذكوان هو عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي. أخذ القراءة عن أيوب بن تميم عن يحيى بن الحارث الذماري عن ابن عامر، وابن عامر من القراء السبعة وتوفي ابن ذكوان (٢٤٢) هـ.

(٣) هشام: وكان قاضياً فقيهاً محدثاً ثقة ضابطاً، وأخذ القراءة عن عراك بن خالد المزني عن يحيى بن الحارث الذماري عن ابن عامر، وتوفي بدمشق عام (٢٤٥) هـ.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ
مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

الخير. ﴿خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا﴾ أيها المطيقون، أو المطوقون وجهدتم طاقتكم، أو المرخصون في الإفطار ليندرج تحته المريض والمسافر. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية أو تطوع الخير أو منهما ومن التأخير للقضاء. ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله أي اخترتموه. وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير لكم من ذلك.

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان، أو بدل من الصيام على حذف المضاف أي كتب عليكم الصيام صيام شهر رمضان. وقرئ بالنصب على إضمار صوموا، أو على أنه مفعول، وأن تصوموا وفيه ضعف، أو بدل من أيام معدودات. والشهر: من الشُّهرة، ورمضان: مصدر رمض إذا احترق، فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ومُنِعَ من الصرف للعلمية والألف والنون، كما مُنِعَ ذَايَةُ في ابن دَايَةَ علماً للغراب للعلمية والتأنيث، وقوله عليه الصلاة والسلام «من صام رمضان»^(١) فعلى حذف المضاف لأمن الالتباس، وإنما سموه بذلك إما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو لوقوعه أيام رَمَضِ الحر حين ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة. ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي ابتدء فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، أو أنزل فيه جملة إلى سماء الدنيا ثم نزل منجماً إلى الأرض، أو أنزل في شأنه القرآن وهو قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. وعن النبي ﷺ «نزلت صحف إبراهيم عليه السلام أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين»^(٢) والموصول بصلته خبر المبتدأ أو صفته والخبر فمن شهد، والفاء لوصف المبتدأ بما تضمن معنى الشرط. وفيه إشعار بأن الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصوم. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ حالان من القرآن، أي أنزل وهو هداية للناس بإعجازه وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه

(١) أخرجه البخاري (٩٢/١) رقم ٣٨ و(١١٥/٤) رقم ١٩٠١ و(٢٥٥/٤) رقم ٢٠١٤ ومسلم (٥٢٣/١) رقم ٥٢٤ (١٧٥) كلاهما من طرق عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

● وتمة الحديث «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه».

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٠٧/٤) والطبراني في الكبير (٧٥/٢٢) رقم ١٨٥ والطبري في «جامع البيان» (١٤٥/٢). كلهم من طريق عمران القطان عن قتادة عن ابن أبي مليح عن وائلة وقال الألباني في الصحيحة:

«هذا إسناد حسن رجاله ثقات، وفي القطان كلام يسير وله شاهد من حديث ابن عباس مرفوعاً نحوه».

أخرجه ابن عساكر (١/١٦٧/٢) و(١/٣٥٢/٥) من طريق علي بن أبي طلحة عنه. وهذا منقطع، لأن علياً هذا لم ير ابن عباس هـ.

قلت: وعمران القطان هذا حسن الحديث - التقريب (٨٣/٢) - والجرح والتعديل (٢٩٧/٧).

وَلَا إِسْأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

من الحكم والأحكام. ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه، والأصل فمن شهد فيه فليصم فيه، لكن وُضِعَ الْمُظْهَرُ موضع المضمر الأول للتعظيم، ونُصِبَ على الظرف وحذف الجائر ونصب الضمير الثاني على الاتساع. وقيل فمن شهد منكم هلال الشهر فليصمه، على أنه مفعول به كقولك: شهدت الجمعة أي صلاتها فيكون ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مخصصاً له، لأن المسافر والمريض ممن شهد الشهر ولعل تكريره لذلك، أو لثلاثيهم نسخه كما نسخ قرينه. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي يريد أن يسر عليكم ولا يعسر، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض. ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عُلِّلَ لفعل محذوف دل عليه ما سبق، أي وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر والمرخص بالقضاء ومراعاة عِدَّةٍ ما أفطر فيه والترخيص لتكملة العدة إلى آخرها على سبيل اللف، فإن قوله وتكملوا العدة علة الأمر بمراعاة العدة، وتكبروا الله علة الأمر بالقضاء وبيان كفيته، ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير. أو الأفعال كلٌ لفعله، أو معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم، أو لتعلموا ما تعلمون وتكملوا العدة، ويجوز أن يُعْطَفَ على اليسر أي ويريد بكم لتكملوا كقوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾^(١). والمعنى بالتكبير تعظيم الله بالحمد والثناء عليه ولذلك عُدِّي بعلی، وقيل تكبير يوم الفطر، وقيل التكبير عند الإهلال وما يحتمل المصدر والخبر، أي الذي هداكم إليه، وعن عاصم برواية أبي بكر وتكملوا بالتشديد.

(١٨٦) ﴿وَلَا إِسْأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي فقل لهم إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قُرب مكانه منهم، روي أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ أقريب ربُّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فترلت^(٢) ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ تقرير للقرب، ووعد للداعي بالإجابة. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أمر بالثبات والمداومة عليه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ راجين إصابة الرُّشد وهو إصابة الحق. وقرئ بفتح الشين وكسرها. واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه، ثم بين أحكام الصوم فقال:

(١) الصف: (٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٥٨/٢) وابن مردويه وأبو الشيخ - كما في الدر المنثور للسيوطي (٤٦٩/١) -

من طريق جرير عن عبدة السجستاني عن الصلب بن حكيم عن أبيه عن جده.

وقد عُرِفَ «الصلب» عن ابن جرير والسيوطي إلى «الصلت» بالمشاة، والصواب بالموحدة وهو مجهول. انظر

الإكمال لابن ماكولا (١٩٦/٥) وتبصير المتنبه (٨٣٩/٣).

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهَا فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٧) ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ روي أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حلَّ لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الآخرة أو يرقدوا، ثم: إن عمر رضي الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبي ﷺ واعتذر إليه، فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت^(١) وليلة الصيام: الليلة التي تصبح منها صائماً. والرفث: كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، وعُدِّي بآلى لتضمنه معنى الإفضاء، وإيثاره ههنا لتقبيح ما ارتكبهه ولذلك سماه خيانة. وقرئ الرفوث ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابس، ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه شبه باللباس قال الجعدي:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى عِظْفَهَا تَثَّثَ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور. ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب، وتنقيص حظها من الثواب، والاختيان أبلغ من الخيانة

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٦٠/٣) والطبري في جامع البيان (١٦٥/٢) كلهم من طريق «موسى بن جبير» مولى بني سلمة، عن كعب بن مالك قال عنه الحافظ: مستور - كما في التقريب (٢٨١/٢) -.

● المستور: من روى عنه أكثر من واحد ولم يوثق، وإليه الإشارة بلفظ مستور أو مجهول الحال.

وأخرج أبو داود (٣٤٧/١) رقم (٥٠٦) وأحمد (٢٤٦/٥) والطبري في «جامع البيان» (١٦٤/٢) كلهم من طريق ابن أبي ليلى عن معاذ بن جبل نحوه وقد تقدم أن ابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ ومع ذلك فقد صححه الألباني في صحيح أبي داود وأخرجه الطبري (١٦٥/٢) من حديث ابن عباس، وفي إسناده «عبدالله كاتب الليث» وهو ضعيف. وأخرجه أبو داود أيضاً (٧٣٦/٢) رقم (٢٣١٣) من حديث ابن عباس أيضاً وفيه «علي بن الحسين بن واقد» وهو ضعيف - كما في المختصر للمنذري (٢٠٧/٣) -.

وحسن الألباني إسناده الحديث في صحيح أبي داود. قلت: كون الحرمة مخصصة بالنوم قد ورد في حديث البراء عند البخاري (١٢٩/٤) رقم (١٩١٥) وأبي داود (٧٣٧/٢) رقم (٢٣١١٤) والدارمي (٥/٢) عنه قال: «كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفيطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى.

ورأى قبس بن صيرمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها أعنديك طعام؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه. فجاءته امرأته، فلما رآته قالت خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية (أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) ففرحوا فرحاً شديداً ونزلت (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ).

كالاكتساب من الكسب. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لما تبتم مما اقترتموه. ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره. ﴿فَالَّذِينَ بَشِيرُهُمْ﴾ لِمَا نسخ عنكم التحريم، وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة: إلزاق البشارة بالبشارة كُنِّي به عن الجماع. ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدره لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد، والمعنى: أن المباشرة ينبغي أن يكون غرضه الولد فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح لإقضاء الوطر، وقيل النهي عن العزل، وقيل عن غير المأني والتقدير وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غَبَس الليل بخيطين أبيض وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه، وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل.

ويجوز أن تكون من للتبعض، فإن ما يبدو بعض الفجر. وما روي أنها نزلت ولم ينزل من الفجر، فعمد رجال إلى خيطين أسود وأبيض ولا يزالون يأكلون ويشربون حتى يتبيناهم فنزلت^(١)، إن صح فلعله كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز، أو اكتفى أولاً باشتهارهما في ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم، وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم المصباح جنباً ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ بيان لآخر وقته وإخراج الليل عنه، فينفي صوم الوصال. ﴿وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ معتكفون فيها. والاعتكاف: هي اللبث في المسجد بقصد القرية. والمراد بالمباشرة: الوطء. وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك^(٢). وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد، وأن الوطء يحرم فيه ويفسده لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي الأحكام التي ذكرت. ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ نهى أن يقرب الحد الحاذر بين الحق والباطل لثلاث يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه. كما قال عليه الصلاة والسلام «إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»^(٣). وهو أبلغ من قوله فلا تعتدوها، ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

(١) أخرجه البخاري (١٣٢/٤) رقم (١٩١٧) و(١٨٢/١٨ - ١٨٣) رقم (٤٥١١) والنسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (١٢١/٤) - ومسلم (٧٦٧/٢) رقم (٣٥) كلهم من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد.

● وأخرج البخاري (١٣٢/٤) رقم (١٩١٦) و(١٨٢/٨) رقم (٤٥٠٩، ٤٥١٠) ومسلم (٧٦٦/٢) رقم (٣٣) من حديث عدي بن حاتم أنه هو عمد إلى خيطين أبيض وأسود، فذكر نحو حديث سهل.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (١٨٠/٢ - ١٨١) من طريقين عنه: الأول: عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع عن سعيد عنه.

الثاني: عن الحسن بن يحيى، عن عبدالرزاق، عن معمر عنه. وبشر بن معاذ، والحسن بن يحيى كلاهما صدوق، وباقي رجال الطريقين ثقات، فالأثر صحيح مرسل.

وقد روى الطبري معناه عن ابن عباس، والضحاك، والربيع، والسدي.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٦/١) رقم (٥٢) و(٢٩٠/٤) رقم (٢٠٥١) ومسلم (١٢١٩/٣) رقم (١٥٩٩/١٠٧) كلاهما من رواية الشعبي عن النعمان بن بشير.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي ولا يأكل بعضهم مال بعض بالوجه الذي لم يبيحه الله تعالى. وبين نصب على الظرف، أو الحال من الأموال. ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ عطف على المنهي، أو نصب بإضمار أن. والإدلاء: الإلقاء، أي ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام. ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم. ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة. ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثمًا، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح. روي أن عبدان الحضرمي ادعى على امرئ القيس الكندي قطعة من أرض ولم يكن له بيئته، فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس، فهم به فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾^(١) الآية، فارتدع عن اليمين، وسلم الأرض إلى عبدان، فنزلت^(٢). وفيه دليل على أن حكم القاضي لا ينفذ باطنًا، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار»^(٣).

(١٨٩) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ سألته معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم^(٤) فقالا: ما بال الهلال يبدو دقيقًا كالخيط، ثم يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا^(٥) ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ

(١) آل عمران: ٧٧.

(٢) الصحيح أن المخاصمة كانت بين ربيعة بن عبدان وبين امرئ القيس، وامرؤ القيس هذا هو صحابي جليل حفيد امرئ القيس الشاعر الجاهلي المشهور، وقد ثبت على الإسلام حين ارتدت قبيلته حتى قتل عمه المرتد ولعن الأشعث بن قيس على ارتداده. انظر ترجمته في أسد الغابة (١/١١٥) وفي الإصابة (١/٦٣).

وهذا الأثر أخرجه الواحد في أسباب النزول (ص ٥٥) عن مقاتل بن حيان ولم يذكر سنده وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبيرة وهو لم يسمع منه (تخريج الفتوح السماوي ص ٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥/٢٨٨ رقم ٢٦٨٠) و(١٣/١٥٧ رقم ٧١٦٩) و(١٢/٣٣٩ رقم ٦٩٦٧) ومسلم (٣/١٣٣٧ رقم ٤) وأبي داود (٤/١٢ رقم ٣٥٨٣) والترمذي (٤/٦٢٤ رقم ١٣٣٩).

والنسائي (٢/٣٠٤ رقم ٥٤٠٣) و(٢/٣٠٨ رقم ٥٤٢٤) وابن ماجه (٢/٧٧٧ رقم ٢٣١٧) ومالك (٢/٧١٩ رقم ١) وأحمد (٦/٢٠٣، ٣٩٠، ٣٠٨، ٣٢٠).

● اللحن: الميل عن جهة الاستقامة (النهاية مادة لحن).

(٤) ثعلبة بن غنم: هكذا في الأصل، والصحيح ثعلبة بن غنمة بن عدي الأنصاري الخزرجي، شهد العقبتين وبدراً، واستشهد يوم الخندق وقيل يوم خيبر. انظر الإصابة (١/٢٠١) وأسد الغابة (١/٢٤٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم وابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس =

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

وَالْحَجُّ فَإِنَّهُمْ سَأَلُوا عَنْ الْحِكْمَةِ فِي اخْتِلَافِ حَالِ الْقَمَرِ وَتَبَدُّلِ أَمْرِهِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُجِيبَ بِأَنَّ الْحِكْمَةَ الظَّاهِرَةَ فِي ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ مَعَالِمٌ لِلنَّاسِ يُؤَقَّتُونَ بِهَا أُمُورَهُمْ، وَمَعَالِمٌ لِلْعِبَادَاتِ الْمُؤَقَّتَةِ يُعْرِفُ بِهَا أَوْقَاتَهَا، وَخُصُوصاً الْحَجَّ فَإِنَّ الْوَقْتَ مَرَاعَى فِيهِ أَداءُ وَقْضَاءٍ. وَالْمَوَاقِيتُ: جَمْعُ مِيقَاتٍ مِنَ الْوَقْتِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُدَّةِ وَالزَّمَانِ: أَنَّ الْمُدَّةَ الْمَطْلُوقَةَ امْتِدَادُ حَرَكَةِ الْفَلَكَ مِنْ مَبْدئِهَا إِلَى مَنتهَا. وَالزَّمَانُ: مُدَّةٌ مَقْسُومَةٌ، وَالْوَقْتُ: الزَّمَانُ الْمَفْرُوضُ لِأَمْرٍ. ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وقرأ أبو عمرو وورش^(١) وحفص بضم الباء، والباقون بالكسر^(٢). ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف ولكن، ورفع البر. كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من ثقب أو فُرْجَةٍ وراءه، وَيُعْتَدُونَ ذَلِكَ بَرًّا، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر من اتقى المحارم والشهوات^(٣). ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين، أو أنه لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضاً من أفعالهم في الحج ذكره للاستطراد، أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيه ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيه ويختص بعلم النبوة عَقَّبَ بذكره جواب ما سألوه تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها، أو أن المراد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه. والمعنى: وليس البرُّ بأن تعكسوا مسائلكم ولكن البرُّ بَرٌّ مَنْ اتَّقَى ذَلِكَ وَلَمْ يَجْسِرْ عَلَى مِثْلِهِ. ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَهِهَا﴾ إذ ليس في العدول بَرٌّ فبأشبروا الأمور من وجوهها. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ لكي تظفروا بالهدى والبر^(٤).

(١٩٠) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه. ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قيل: كان ذلك قبل أن أمروا بقتال المشركين كافةً المقاتلين منهم والمحاجزين. وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم فإنهم يصدد قتال المسلمين وعلى قصده. ويؤيد الأول ما روي أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عام

به - كما في أسباب النزول للسيوطي ص ٢٨ -، قلت: إسناداه واه بسبب السدي والكلبي.

وأخرج الطبري في «جامع البيان» (١٨٥/٢) عن قتادة بسند صحيح: سألوا نبي الله ﷺ عن ذلك لِمَ جعلت هذه الأهلّة؟ فأَنزَلَ اللهُ فيها ما تسمعون «هي مواقيت للناس» فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولعدة نساءهم ومحل دينهم في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه.

(١) ورش هو عثمان بن سعيد المصري، ويلقب بورش لشدة بياضه، رحل إلى المدينة فقرأ على نافع، ثم رجع إلى مصر فانتهد إليه رئاسة الإقراء بها، توفي (١٩٧) هـ.

(٢) أي بضم الباء وكسر ها.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٠٣، ٤٥١٢).

(٤) أمر بالتقوى صراحة بعد بيان أن البر بَرٌّ مَنْ اتَّقَى إظهاراً لزيادة الاعتناء بالتقوى وتمهيداً لقوله «لعلكم تفلحون» (أبو السعود ٢٠٣/١).

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة - شرفها الله - ثلاثة أيام، فرجع لعمره القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم. أو الشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت (١) ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهد، أو المفاجأة به من غير دعوة، أو المثلة، أو قتل من نهيتم عن قتله. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يريد بهم الخير.

(١٩١) ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم في جِلٍّ أو حَرَمٍ. وأصل الثقف: الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً. فهو يتضمن معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال:

فَأَمَّا ثَقِفُونِي فَاقْتُلُونِي فَمَنْ أَثَقِفَ فَلَيْسَ إِلَى خُلُودِ

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي مكة، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح. ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يفتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وتآلم النفس بها. وقيل: معناه شركهم في الحرم وصدّهم إياكم عنه أشد من قتلهم إياهم فيه. ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تتفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام. ﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فلا تبالوا بقتالهم ثم فإنهم الذين هتكوا حرمة (٢) ﴿وَقَرَأَ حِمَزةً وَالْكَسَائِيَّ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ. والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقولهم قتلنا بنو أسد. ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ مثل ذلك جزاؤهم يفعل بهم مثل ما فعلوا.

(١٩٢) (١٩٣) ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً له ليس للشيطان فيه نصيب. ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا﴾ عن الشرك. ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فلا تعتدوا على المنتهين إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم، فوضع العلة موضع الحكم، وسمي جزاء الظلم باسمه للمشاكلة كقوله ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (٣) أو أنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم، والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء.

(١٩٤) ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩٧/٢) عن قتادة في تفسير قوله تعالى: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» الآية (١٩٤).

(٢) قوله: «فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ» عدل عن صيغة المفاعلة في قوله «فاقتلوهم» وقد ورد بها النهي والشرط لما فيها من وعد بالنصر والغلبة على الكافرين (أبو السعود ٢٠٤/١).

(٣) البقرة: (١٩٤).

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

لعمره القضاء فيه، وكرهوا أن يقتلوه في لحزمته فقليل لهم هذا الشهر بذاك وهتكه بهتكم فلا تبالوا به. ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾ احتجاج عليه، أي كل حرمة وهو ما يجب أن يُحافظَ عليها يجري فيها القصاص، فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عنة واقتلوه إن قاتلوكم. كما قال: ﴿فَمَنْ أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاغْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهو فذلّة التقرير. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الأنصار ولا تعتدوا إلى مالم يرخص لكم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

(١٩٥) ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولا تمسكوا كل الإمساك. ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاككم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهاليها وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت^(١)، أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدي إلى الهلاك المؤبد، ولذلك سمي البخل هلاكاً وهو في الأصل انتهاء الشيء في الفساد^(٢)، والإلقاء: طرح الشيء، وعُدِّي يألئ لتضمن معنى الانتهاء، والباء مزيدة والمراد بالأيدي الأنفس، والتهلكة والهلاك والهلك واحد فهي مصدر كالتضرّة والتسرّة، أي لا توقعوا أنفسكم في الهلاك، وقيل: معناه لا تجعلوها آخذة بأيديكم، أو لا تلقوا بأيديكم أنفسكم إليها فحذِفَ المفعول. ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاوِيج. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي اتنوا بهما تامين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالى، وهو على هذا يدل على وجوبهما، ويؤيده قراءة من قرأ وأقيموا الحج والعمرة لله، وما روى جابر رضي الله تعالى عنه «أنه قيل يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج، فقال: لا ولكن إن تعتمر خير لك»^(٣)

(١) أخرجه النسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٨٨/٣) - وأبو داود (٢٧/٣) رقم (٢٥١٢) والطبري في مسنده (ص ٨٢) والطبري في «جامع البيان» (٢/٢٠٤) والحاكم في المستدرک (٢/٢٧٥) و(٢/٨٤) عنه.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وقال الألباني: وقد وهما فإن الشيخين لم يخرجا لأسلم هذا، فالحديث صحيح فقط (الصحيحة ١٣).

(٢) قال الشوكاني: (والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا فتح القدير) (١/١٩٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/٣١٦) والترمذي (٣/٢٧٠) رقم (٩٣١) والدارقطني (٢/٢٨٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/٣٤٩) كلهم من طريق حجاج بن أرطاة، عن محمد بن المنكدر عنه. وإسناده ضعيف ومع ذلك قال الترمذي: حسن صحيح. وانظر كلام ابن حجر في التلخيص (٢/٢٢٦) فقد أيد ضعفه.

فمعارضٌ بما روي «أن رجلاً قال لعمر رضي الله تعالى عنه، إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليَّ أهللت بهما جميعاً، فقال: هديت لسنة نبيك»^(١) ولا يقال إنه فسّر وجَدَ أنهما مكتوبين بقوله أهللت بهما فجاز أن يكون الوجوب بسبب إهلاله بهما، لأنه رتب الإهلال على الوجدان وذلك يدل على أنه سبب الإهلال دون العكس^(٢). وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من ذُويّة أهلك، أو أن تفرد لكل منهما سفراً، أو أن تجرده لهما لا تشوبهما بغرض دينوي، أو أن تكون النفقة حلالاً. ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ مُعْتَم، يقال حصره العدو وأحصره إذا حبسه ومنعه عن المضي، مثل صده وأصده. والمرادُ حصرُ العدو عند مالك والشافعي رحمهما الله تعالى لقوله تعالى ﴿فَإِذَا آمَنْتُمْ﴾^(٣) ولنزوله في الحديبية، ولقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا حصر إلا حصر العدو^(٤) وكلُّ مُنْع من عدوٍّ أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام: «من كسر أو عرج فقد حل فعليه الحج من قابل»^(٥) وهو ضعيف^(٦) مؤوّل بما إذا شرط الإحلال به لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير^(٧): «حجي واشترطي وقولي: اللهم محلي حيث حبستني»^(٨) ﴿فَاَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعليكم ما استيسر، أو فالواجب ما استيسر، أو فاهدوا ما استيسر. والمعنى إن أحصر المحرم وأراد أن يتحلل

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٣/٢ رقم ١٧٩٨) والنسائي (١٤٦/٥ - ١٤٧ رقم ٢٧١٩) وابن ماجه (٩٨٩/٢ رقم ٢٩٧٠) وابن حبان (ص ٢٤٤ - ٢٤٥ رقم ٩٨٥، ٩٨٦ - الموارد) وأحمد في المسند (١٤/١، ٢٥، ٣٤، ٣٧) والبيهقي (٣٥٢/٤، ٣٥٤) كلهم من طرق عن أبي وائل عن الصُّبَيِّ بن معبد قال: كنت نصرانياً فأسلمت فأهللت بالحج والعمرة، فسمعتني سليمان بن ربيعة وزيد بن صرمان فقالا: هذا أضل من بعير فقدمت على عمر فذكرت له فقال: هُديت لسنة نبيك (مختصراً).

رجال الأثر ثقات والأثر صحيح. صححه الألباني (الإرواء رقم ٩٨٣).

(٢) ما ذهب إليه البيضاوي من وجوب العمرة هو مذهبه - مذهب الشافعية - ومن جمع بين الأدلة اختار أن العمرة سنة. وأجابوا عن الآية والأحاديث المصروفة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها، وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف.

(انظر فتح القدير للشوكاني ١/١٩٥ وروح المعاني ٢/٧٩).

(٣) البقرة: «١٩٦».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/٢١٤) من طريق ابن جريج عن طاوس عن أبيه به.

كما أخرجه من طريق مجاهد وعطاء عن ابن عباس بلفظ «الحصرُ حصر العدو» ثم ذكر ما يفعل من أحصر.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٣٣/٢ رقم ١٨٦٢) والترمذي (٢٧٧/٣ رقم ٩٤٠) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٩٨/٥ - ١٩٩ رقم ٢٨٦٠، ٢٨٦١) وابن ماجه (١٠٢٨/٢ رقم ٣٠٧٧) وأحمد في المسند (٤٥٠/٣) والدارمي (٦١/٢) كلهم من حديث الحجاج بن عمرو.

وهو حديث صحيح وقد صححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٦) لعل قول أبي حنيفة هو الأقوى، إذ الإحصار يكون من كل ما يمنع كالعدة ونحوه. وقد استعرض الألوسي الأدلة واختاره (روح المعاني ٢/٨١) وانظر ابن كثير (١/٢٢٠).

(٧) ضَبَاعَةُ بِنْتُ الزَّبِيرِ هِيَ: هِيَ ضَبَاعَةُ بِنْتُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الزَّبِيرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ الْهَاشِمِيَّةِ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ، لَهَا أَحَادِيثُ يَسِيرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. بَقِيَتْ ضَبَاعَةُ إِلَى بَعْدِ عَامِ أَرْبَعِينَ.

[الإصابة (٢٦/١٣) والاستيعاب (٦٩/١٣) وتهذيب التهذيب (١٢/٤٦٠)].

(٨) أخرجه البخاري (٥٠٨٩) ومسلم (٨٦٧/٢) وآخرون.

تحلل بذبح هدي تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى يبعث به ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أي لا تحلقوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ محله أي مكانه الذي يجب أن ينحر فيه، وحمل الأولون بلوغ الهدي محله على ذبحه حيث يحل الذبح فيه حلاً كان أو حرماً، واقتصراره على الهدي دليل على عدم القضاء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يجب القضاء، والمحل بالكسر - يطلق على المكان والزمان. والهدي: جمع هدية كجذبي وجدية، وقرئ من الهدى جمع هدية كمطى في مطية ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحل. ﴿أَوْ بِهِ أَذَىٰ مِّن رَّأْسِهِ﴾ كجراحة وقمل. ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعلية فدية إن حلق. ﴿مِّن صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة^(١) «لعلك آذاك هوأمك»، قال: نعم يا رسول الله قال: احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفقرى على ستة مساكين أو انسك شاة^(٢) والفرق ثلاثة أصع ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ الإحصار، أو كنتم في حال سعة وأمن. ﴿فَمَن تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ فمَن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله بالعمره قبل الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره. وقيل: فمَن استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يُحرم بالحج. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعلية دم استيسره بسبب التمتع، فهو دم جبران يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى، إنه دم نسك فهو كالأضحية ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي الهدي. ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل. قال أبو حنيفة رحمه الله في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه. ولا يجوز صوم يوم النحر وأيام التشريق عند الأكثرين. ﴿وَسَبَّحُوا إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أهليكم وهو أحد قولي الشافعي رضي الله تعالى عنه، أو نفرتم وفرغتم من أعماله وهو قوله الثاني ومذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وقرئ سبعة بالنصب عطفًا على محل ثلاثة أيام. ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ﴾ فذللك الحساب، وفائدتها أن لا يتوهم متوهم أن الواو بمعنى أو، كقولك جالس الحسن وابن سيرين، وأن يُعلم العدد جملة كما عُلِمَ تفصيلاً فإن أكثر العرب لم يحسنوا الحساب، وأن المراد بالسبعة هو العدد دون الكثرة فإنه يطلق لهما ﴿كَلِمَةً﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة في محافظة العدد، أو مبينة كمال العشرة فإنه أول عدد كامل إذ به تنتهي الآحاد وتتم مراتبها، أو مقيدة تقيد كمال بدليتها من الهدي. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الحكم

(١) كعب بن عجرة الأنصاري السالمي المدني، من أهل بيعة الرضوان له عدة أحاديث، مات سنة (٥٢هـ).

[تهذيب التهذيب (٣٩٠/٨) الإصابة (٢٩٧/٣) رقم (٧٤١٩)].

(٢) أخرجه البخاري (١٢/٤) رقم (١٨١٤) و(١٦/٤) رقم (١٨١٥) و(٤٤٤/٧) رقم (٤١٥٩) و(٤٥٧/٧) رقم (٤١٩٠)، (٤١٩١) و(١٢٣/١٠) رقم (٥٦٦٥) و(١٥٤/١٠) رقم (٥٧٠٣) و(٥٩٣/١١) رقم (٦٧٠٨) و(١٨٦/٨) رقم (٤٥١٧) ومسلم (٨٥٩/٢) رقم (٨٠) و(٨٦١/٢) رقم (٨٥) و(٨٦٢/٢) رقم (٨٦) والترمذي (٢١٣/٥) رقم (٢٩٧٤)، (٢٩٧٤) والنسائي (١٩٥/٥) رقم (٢٨٥٢) وأبو داود (٤٣١، ٤٣٠/٢) وابن ماجه (١٠٢٨/٢ - ١٠٢٩) رقم (٣٠٧٩)، (٣٠٨٠) ومالك في الموطأ (٤١٧/٩) رقم (٢٣٨، ٢٣٧) وأحمد في المسند (٢٤١/٤، ٢٤٢، ٢٤٣) والطياي في المسند (ص ١٤٣). من طرق وبألفاظ مختلفة عنه.

الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

المذكور عندنا، والتمتع عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، لأنه لا مُتعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عنده، فمن فعل ذلك أي التمتع منهم فعليه دمُ جناية. ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عندنا، فإنَّ مَنْ كان على أقل فهو مقيم في الحرم أو في حكمه. ومن مسكنه وراء الميقات عنده وأهل الحل عند طاوس^(١) وغير المكي عند مالك. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصاً في الحج ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢) لمن لم يتقه كي يصدقكم للعلم به عن العصيان.

(١٩٧) ﴿الْحَجَّ أَشْهَرُ﴾ أي وقته. كقولك البردُ شهران. ﴿مَعْلُومَتٌ﴾ معروفة وهي: شوال وذو القعدة وتسعة من ذي الحجة بليلة النحر عندنا، والعشر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وذو الحجة كله عند مالك. وبناء على الخلاف على أن المراد بوقته وقتُ إحرامه، أو وقتُ أعماله ومناسكه، أو مالا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقاً، فإن مالكا كره العمرة في بقية ذي الحجة. وأبو حنيفة رحمه الله وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه. وإنما سمي شهران وبعض شهر أشهراً إقامةً للبعض مقام الكل، أو إطلاقاً للجمع على ما فوق الواحد. ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ فمن أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن عندنا، أو بالتلبية أو سوق الهدي عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وهو دليل على ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى وأن من أحرم بالحج لزمه الإتمام. ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ فلا جماع، أو فلا فُحْش من الكلام. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ ولا خروج عن حدود الشرع بالسيئات وارتكاب المحظورات. ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا وراء مع الخدم والرفقة. ﴿فِي الْحَجِّ﴾^(٣) في أيامه، نفى الثلاثة على قصد النهي للمبالغة وللدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون، وما كانت منها مستقبحة في أنفسها ففي الحج أقبح، كلبسه الحرير في الصلاة والتطريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى مجبض العبادة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأولين بالرفع على معنى: لا يكونن رفث ولا فسوق. والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف في الحج، وذلك أن قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتتقف بالمشعر الحرام، فارتفع الخلاف بأن أمروا أن يقعوا أيضاً بعرفة. ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ

(١) طاوس: هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان، اليماني الحميري الجندي، مولى بحير بن ديسان، وقيل مولى همدان، وروى عن العبادة الأربعة وغيرهم، وروى عنه أنه قال: جالست خمسين من الصحابة. وكان رحمه الله عالماً متقناً، خبيراً بمعاني كتاب الله تعالى.....

وكان طاوس على جانب عظيم من الورع والأمانة، حتى شهد له بذلك أستاذه ابن عباس، فقال فيه: إني لأظن طاوساً من أهل الجنة. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة. وقال ابن معين: إنه ثقة. وقال الذهبي: كان طاوس شيخ أهل اليمن. مات بمكة سنة «ست ومائة» [تهذيب التهذيب (٨/٥ - ٩ رقم ١٤)].

(٢) إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة (أبو السعود ٢٠٧/١).

(٣) والإظهار في مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه والإشعار بعله الحكم (أبو السعود ٢٠٧/١).

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَتٍ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ
لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

يَسَلَّمَهُ اللَّهُ ﴿١٩٨﴾ حث على الخير عقب به النهي عن الشر ليستدل به ويستعمل مكانه. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ
الزَّادِ الْتَقْوَى﴾ وتزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، وقيل: نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون
ولا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون فيكونون كلاً على الناس، فأمرُوا أَنْ يَتَزَوَّدُوا ويتقوا الإبرام في
السؤال والتثقل على الناس^(١) ﴿وَأَتَقُونَ بِتَأْوِيلِ الْأَلْبَابِ﴾ فإن قضية اللب خشية الله وتقواه، حثهم على
التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل
المعزى عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الأبواب بهذا الخطاب.

(١٩٨) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا﴾ أي في أن تبغوا أي تطلبوا. ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾
عطاء ورزقاً منه، يريد الربح بالتجارة، وقيل: كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية
يقيمونها مواسم الحج، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا منه فنزلت. ﴿فَإِذَا
أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَتٍ﴾ دفعتم منها بكثرة، من أفضت الماء إذا صببته بكثرة، وأصله أفضتم أنفسكم
فحذف المفعول كما حذف في دفعتم من البصرة. وعرفت: جمع سمي به كاذرعات، وإنما تؤن
وكسر وفيه العلمية والتأنيث لأن تنوين الجمع تنوين المقابلة لا تنوين التمكن، ولذلك يُجمع مع
اللام، وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوضٍ لعدم الصرف، وهنا ليس كذلك. أو لأن
التأنيث إما أن يكون بالتاء المذكورة وهي ليست تاء تأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع
المؤنث، أو بتاء مقدرة كما في سعاد ولا يصح تقديرها لأن المذكورة تمنعه من حيث إنها كالبديل لها
لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت، وإنما سمي الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام
فلما أبصره عرفه، أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر فلما أراه إياه قال: قد عرفت،
أو لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا، أو لأن الناس يتعارفون فيه، وعرفت للمبالغة في ذلك وهي من
الأسماء المرتجلة إلا أن يجعل جمع عارف، وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون
إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾^(٢) أو مقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر
غير واجب بل مستحب، وعلى تقدير أنه واجب فهو واجب مقيّد لا واجب مطلق حتى تجب مقدمته
والأمر به غير مطلق. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتبعية والتهيل والدعاء. وقيل: بصلاة العشاءين. ﴿عِنْدَ
الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ جبل يقف عنده الإمام ويسمى قزح. وقيل: ما بين مازمي عرفة ووادي مُحسّر،
ويؤيد الأول ما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر - يعني بالمزدلفة - بغلّس، ركب

(١) أخرجه البخاري (٣/٣٨٣ - ٣٨٤ رقم ١٥٢٣) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري (٣/٥٩٣ رقم ١٧٧٠) و(٤/٨٨ رقم ٢٠٥٠) و(٤/٣٢١ رقم ٢٠٩٨) من طرق عن ابن عباس.

(٣) البقرة: ١٩٩.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾

ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر^(١) وإنما سمي مشعراً لأنه مغلّم العبادة، ووصف بالحرام لحرمة. ومعنى عند المشعر الحرام: مما يليه ويقرب منه فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي مُحَسَّر. ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْكُمْ﴾ كما علمكم، أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها. وما مصدرية أو كافة. ﴿وَأَن كُنْتُمْ مِن قَبْلِهِ﴾ أي الهدى. ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي الجاهلين بالإيمان والطاعة، وإن هي المخففة من الثقلة واللام هي الفارقة. وقيل: إن نافية واللام بمعنى إلا، كقوله تعالى ﴿وَأَن تَنْظُرَ لِمَنِ الْكَذِبُ﴾^(٢).

(١٩٩) ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة، والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمرُوا بأن يساووهم. وثم لتفاوت ما بين الإفاضتين كما في قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم. وقيل: من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام. وقرئ الناس بالكسر أي الناسي يريد آدم من قوله سبحانه وتعالى ﴿فَنَسِيَ﴾^(٣) والمعنى أن الإفاضة من عرفة شرع قديم فلا تغيره. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه.

(٢٠٠) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ فإذا قضيتُم العبادات الحُجَّةَ وفرغتم منها. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكره وبالغوا فيه كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخرة. وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إما مجرور معطوف على الذَّكْرُ يَجْعَلُ الذَّكْرَ ذِكْرًا على المجاز، والمعنى: فاذكروا الله ذكراً كذكركم آباءكم أو كذكر أشد منه وأبلغ، أو على ما أضيف إليه على ضعف بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكراً. وإما منصوب بالعطف على آباءكم وذكرًا من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكورية من آبائكم، أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره: أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم. ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ تفصيل للذاكرين إلى مُقِلٍّ لا يطلب بذكر الله تعالى إلا الدنيا ومُكْثِرٍ يطلب به خير الدارين، والمرادُ الحثُّ على الإكثار والإرشاد إليه. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا ومنحتنا في الدنيا ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي نصيب وحظ لأن همه مقصور بالدنيا، أو من طلب خلاق.

(١) أخرجه مسلم (٨٩١/٢) رقم (١٤٧) في سياق حديث حجة النبي صلى الله عليه وسلم الطويل.

(٢) الشعراء: (٦٦٦).

(٣) طه: (١١٥).

(٢٠١) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني الصحة والكفاف وتوفيق الخير. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ يعني الثواب والرحمة. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بالعفو والمغفرة، وقول علي رضي الله تعالى عنه: الحسنه في الدنيا المرأة الصالحة وفي الآخرة الحوراء وعذاب النار المرأة السوء وقول الحسن: الحسنه في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار أمثلة للمراد بها.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

(٢٠٢) ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني، وقيل إليهما. ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي من جنسه وهو جزاؤه، أو من أجله كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا﴾^(١) أو مما دُعوا به نعطيه من قدرناه فسمي الدعاء كسباً لأنه من الأعمال. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار لمحّة، أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا إلى الطاعات واكتساب الحسنات.

(٢٠٣) ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ كبروه في أدبار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق. ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ فمن استعجل التفر. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يوم القرّ والذي بعده^(٢)، أي فمن نفر في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار عندنا، وقبل طلوع الفجر عند أبي حنيفة. ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله. ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ومن تأخر في النفر حتى رمى في اليوم الثالث بعد الزوال، وقال أبو حنيفة: يجوز تقديم رميه على الزوال. ومعنى نفي الإثم بالتعجيل والتأخير التخيير بينهما والرد على أهل الجاهلية فإن منهم من أثم المتعجل ومنهم من أثم المتأخر. ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي الذي ذكر من التخيير، أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنفعة به، أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهيمه منهما. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مجامع أموركم ليعبأ بكم. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء بعد الإحياء، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق^(٣).

(٢٠٤) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ يروقك ويعظم في نفسك، والتعجب: حيرة تعرض للإنسان لجهله بسبب المتعجب منه. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بالقول، أي ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب

(١) نوح: ٢٥٥.

(٢) يوم القرّ هو أول أيام التشريق، وسبب به لأن الناس يقرّون في منى للنحر (المصباح المنير، مادة قر).

(٣) أكد الأمر بالتقوى بقوله «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فإنه من علم بالحشر والحساب والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعي إلى ملازمة التقوى (أبو السعود ١/ ٢١٠).

المعاش، أو في معنى الدنيا فإنها مراد من ادعاء المحبة وإظهار الإيمان، أو يبعجبك أي يعجبك قوله في الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك في الآخرة لما يعتريه من الدهشة والحبسة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يحلف ويستشهد الله على أن ما في قلبه موافق لكلامه. ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد العداوة والجدال للمسلمين. والخصامُ المخاصمة ويجوز أن يكون جمع خضم كصعب وصعاب بمعنى أشد الخصوم خصومة. قيل نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي^(١) وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدّعي الإسلام^(٢). وقيل في المنافقين كلهم.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أُتِفَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

(٢٠٥) ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أدبر وانصرف عنك. وقيل: إذا غلب وصار والياً. ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيّتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولادة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله بشؤمه القطرَ فيهلك الحرث والنسل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ لا يرضيه فاحذروا غضبه عليه.

(٢٠٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر بإتقانه لبجاجة، من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه والزمته إياه. ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ كفته جزاء وعذاباً، وجهنم علم لدار العقاب وهو في الأصل مرادف للنار. وقيل معرّب. ﴿وَلَيْسَ الْمُهَادُ﴾ جواب قسم مقدّر، والمخصوص بالذم محذوف للعلم به، والمهاد الفراش. وقيل ما يوطأ للجنب.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيعها أي يبذلها في الجهاد، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل. ﴿أُتِفَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلباً لرضاه. قيل: إنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي، أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم إن كنتم معكم ولا يضركم إن كنت عليكم فخلّوني وما أنا عليه وخذوا مالي فقبلوه منه وأتى المدينة^(٣). ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث

(١) الأخنس بن شريق الثقفي، أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة فأظهر له الإسلام فأعجب النبي ﷺ ذلك منه. ثم خرج من عند النبي ﷺ فمّر بزرع لقوم وحمّر، فأحرق الزرع وعقر الحمّر...

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣١٢/٢) عن السدي قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم إني صادق، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمّر بزرع لقوم، وحمّر، فأحرق الزرع، وعقر الحمّر. فأنزل الله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ...﴾

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣٢١/٢) وفيه أنها نزلت في صهيب وأبي ذر الغفاري، ثم ذكر قصتهما. وفي إسناده «سنيذ» وهو ضعيف.

وأخرج الطبري نحوه عن الربيع لكن لم يسم ذاك الرجل الذي نزلت فيه، وفي إسناده «ابن أبي جعفر عن أبيه» =

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
 عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾
 هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
 الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهد فعرضهم لثواب الغزاة والشهداء.

(٢٠٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ السِّلْم - بالكسر والفتح - الاستسلام والطاعة، ولذلك يُطْلَقُ في الصلح والإسلام. فتحه ابن كثير ونافع والكسائي وكسره الباقون. وكافة اسمٌ للجملة لأنها تكفُ الأجزاء من التفرق، حال من الضمير أو السلم لأنها تؤنث كالحرب قال:

السُّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعٌ

والمعنى استسلموا لله وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً، والخطاب للمنافقين، أو ادخلوا في الإسلام بكليتكم ولا تخلطوا به غيره. والخطاب لمؤمني أهل الكتاب، فإنهم بعد إسلامهم عَظَمُوا السَّبْتَ وحرَمُوا الإِبِلَ وَالْبَائِهَاتِ، أو في شرائع الله كلها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب، أو في شُعَبِ الإسلام وأحكامه كلها فلا تخلوا بشيء والخطاب للمسلمين. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ بالتفرق والتفريق. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

(٢٠٩) ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ عن الدخول في السلم. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه الانتقام. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا ينتقم إلا بحق.

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استفهام في معني النفي ولذلك جاء بعده. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي يأتيهم أمره أو بأسه كقوله تعالى. ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾^(١) ﴿فَجَاءَهَا بِأُسْنًا﴾^(٢) أو يأتيهم الله بآسئه فحذف المأتي به للدلالة عليه^(٣) بقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة كقُتْلَةٍ وقُلٍّ وهي ما أظلك، وقبرى ظلال كقِلَال. ﴿مِنْ الْغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض وإنما يأتيهم العذاب فيه لأنه مظنة الرحمة، فإذا جاء منه العذاب كان أظفَعُ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يُحْتَسَبُ كان أصعب فكيف إذا جاء من حيث يُحْتَسَبُ الخير. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ فإنهم الوسطة في إتيان أمره، أو الآتون على الحقيقة

= وكلاهما ضعيف.

ثم ذكر الطبري قولاً ثالثاً أنها نزلت في كل من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، وأسنده عن أبي هريرة، وعمر بن الخطاب، ورجحه.

(١) النحل: «٣٣».

(٢) الأعراف: «٤».

(٣) قوله «إلا أن يأتيهم الله» فيه التفات إلى الغيبة، وذلك للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم. وإيراد الانتظار بقوله «هل ينظرون» للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها (أبو السعود ١/٢١٣).

ببأسه. وقرئ بالجر عطفاً على ظلل أو الغمام. ﴿وَقُتِنَى الْأُمُورُ﴾ أتم أمر إهلاكهم وفرغ منه، وُضِعَ الماضي موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه. وقرئ وقضاء الأمر عطفاً على الملائكة. ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم على البناء للمفعول على أنه من الراجع، وقرأ الباقون على البناء للفاعل بالتأنيث غير يعقوب على أنه من الرجوع، وقرئ أيضاً بالتذكير وبناء المفعول.

سَلَّ بَنَى إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾
 زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

(٢١١) ﴿سَلَّ بَنَى إِسْرَءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ أو لكل أحد، والمراد بهذا السؤال تقيعهم. ﴿كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ معجزة ظاهرة، أو آية في الكتب شاهدة على الحق والصواب على أيدي الأنبياء، وكم خبرية أو استفهامية مقررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر إلى المبتدأ. وآية مميّزها. ومن لفصل. ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي آيات الله فإنها سبب الهدى الذي هو أجل النعم، يجعلها سبب الضلالة وازدياد الرجس أو بالتحريف والتأويل الزائغ. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها، وفيه تعريض بأنهم بدلوها بعد ما عَقَلُوهَا ولذلك قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة^(١).

(٢١٢) ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ حَسُنَتْ فِي أَعْيُنِهِمْ وَأُشْرِبَتْ مَحَبَّتُهَا فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّى تَهَالَكُوا عَلَيْهَا وَأَعْرَضُوا عَنْ غَيْرِهَا، وَالْمَزِينُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ فَاعِلُهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ زَيْنَ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَكُلٌّ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالْقُوَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَمَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ الْبَهِيَّةِ وَالْأَشْيَاءِ الشَّهِيَّةِ مُزَيْنٌ بِالْعَرَضِ.

﴿وَسَخَّرُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب، أي يستردلونهم ويستهنئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العُقبى، ومن للابتداء كأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم^(٢) ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لأنهم في عليين وهم في أسفل السافلين، أو لأنهم في كرامة وهم في مذلة، أو لأنهم يتناولون عليهم فيسخرون منهم كما سخرُوا منهم في الدنيا، وإنما قال والذين اتقوا بعد قوله من الذين آمنوا ليدل على أنهم متقون وأن استعلاءهم للتقوى^(٣) ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ في

(١) إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة (أبو السعود ١/٢١٣).

(٢) وإشارة صيغة الاستقبال في قوله «ويسخرون» للدلالة على استمرار السخرية منهم (أبو السعود ١/٢١٤).

(٣) وأن إعرابهم عن الدنيا لكونها مخلة ببتلهم إلى جناب القدس شاغلة عنه (أبو السعود ١/٢١٤).

الدارين. ﴿بَغْيَرٍ حَسَابٍ﴾ بغير تقدير فيوسّع في الدنيا استدراجاً تارة وابتلاء أخرى.

(٢١٣) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس أو نوح أو بعد الطوفان، أو متفقين على الجهالة والكفر في فترة إدريس أو نوح^(١). ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي فاختلّفوا فبعث الله، وإنما حُذِفَ لدلالة قوله فيما اختلفوا فيه. وعن كعب^(٢): الذي علمته من عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكور في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون^(٣) ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم.

﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من الكتاب، أي ملتبساً بالحق شاهداً به. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي الله، أو النبي المبعوث، أو كتابه^(٤) ﴿فِيمَا اختلفوا فيه﴾ في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التبس عليهم. ﴿وَمَا اختلف فيه﴾ في الحق، أو الكتاب. ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف، أي عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل مزيحاً للاختلاف سبباً لاستحكامه^(٥). ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا. ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفوا فيه﴾ أي للحق الذي اختلف فيه من

(١) والأول هو الأنسب بالنظم الكريم (أبو السعود ٢٠٤/١، وانظر ابن كثير ٢٣٧/١).

(٢) كعب: هو كعب الأحبار، روي عنه ونسب إليه كثير من الإسرائيليات وبعض ما نسب إليه حق واضح وبعضه كذب فاضح الأمر الذي جعل بعض النقاد يعتقد صحة كل ما نسب إليه، فيكيل له التهم جزافاً، ولا يرى كل مروياته الإسرائيلية إلا أكاذيب وأباطيل.

وإذا نحن تتبعنا حياة كعب في الإسلام، ورجعنا إلى مقالات بعض الصحابة فيه، وأحصينا من تحمل منهم عنه وروى له، ومن أخرج له من شيوخ الحديث في مصنفاتهم، لوجدنا فيه ما يدحض ما اتهم به. فقد أسلم كعب، على المشهور، في خلافة عمر رضي الله عنه وسكن المدينة وصحب عمر، وروى عنه وشارك في غزو الروم في خلافته.

ولقد كان كعب على مبلغ عظيم من العلم والمعرفة الواسعة حتى لهج بعض الصحابة بالثناء عليه، فهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يذكره فيقول «إن عند ابن الحميري لعلماً كثيراً» وجمهور العلماء على توثيق كعب ولذا لا نجد له ذكراً في كتب الضعفاء والمتروكين، حتى إن مسلماً أخرج له في صحيحه وكذلك أبو داود والترمذي والنسائي. وبذلك يتضح تحامل أحمد أمين ومحمد رشيد رضا على كعب الأحبار، كما أننا نعترض عليهما في اتهامهما لعلماء الجرح والتعديل بسبب عدم جرحهما لكعب.

والخلاصة أن كعباً مظلوماً من متهميه ولا أقول عنه إلا أنه معاً أمين، وعالم استُغْلِ اسمُه فنسب إليه روايات معظمها خرافات وأباطيل، لتروج بذلك على العامة ويتقبلها الأغمار من الجهالة. هـ.

[الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور: محمد السيد حسين الذهبي (ص ٩٥ - ١٠٤)].

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٧٨/٥، ١٧٩) وابن سعد في الطبقات (٥٤/١) من حديث أبي ذر وفيه: أبو عمر الشامي الدمشقي ضعيف - كما في التقريب (٤٥٤/٢) - وأخرجه أحمد (٢٦٥/٥ - ٢٢٦) والطبراني في الكبير - كما في المجمع (١٥٩/١) - من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي مداره على علي بن يزيد وهو ضعيف.

(٤) وإظهار لفظ الناس لزيادة التعيين (أبو السعود ٢١٤/١).

(٥) عبر عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما في تضاعيفه من الحق، فإن الإنزال لا يفيد تلك الفائدة (أبو السعود ٢١٤/١).

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِذِي الْإِقْبَالِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

اختلف. ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره أو بإرادته ولطفه. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يُضِلُّ سَالِكِهِ.

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفتهم. وأم منقطعة ومعنى الهمة فيها الإنكار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ ولم يأتكم، وأصل لما لم زيدت عليها ما، وفيها توقع ولذلك جعلت مقابل قد. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ حالهم التي هي مثل في الشدة. ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ بيان له على الاستئناف. ﴿وَزُلْزَلُوا﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد. ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر. وقرأ نافع يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية كقولك مريض حتى لا يرجوه. ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ استبطاء له لتأخره. ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ استئناف على إرادة القول أي فليل لهم ذلك إسعافاً لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر^(١)، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه الصلاة والسلام «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(٢).

(٢١٥) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن عمرو بن الجموح الأنصاري كان شيخاً ذا مال عظيم، فقال يا رسول الله ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها فترلت^(٣) ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَلِذِي الْإِقْبَالِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سئل عن المُنْفِقِ فأجيب ببيان المَصْرَفِ لأنه أهم، فإن اعتداد النفقة باعتباره ولأنه كان في سؤال عمرو وإن لم يكن مذكوراً في الآية، واقتصر في بيان المنفق على ما تضمنه قوله ما أنفقتم من خير. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ في معنى الشرط. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ جوابه أي إن تفعلوا خيراً فإن الله يعلم كنهه ويوفي ثوابه، وليس في الآية ما ينافيه فرض الزكاة لِئُسَخَّ به.

(١) وإثارة الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقديره مالا يخفى (أبو السعود ٢١٥/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٧٤/٤) رقم (٢٨٢٢) من حديث أنس. وأخرج البخاري (٣٢٠/١١) رقم (٦٤٨٧) ومسلم (٢١٧٤/٤) رقم (٢٨٢٣) وأحمد في المسند (٣٣٣/٢، ٣٥٤، ٣٧٣) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن المنذر - كما في الدر المنثور للسيوطي (٥٨٥/١) - عن مقاتل بن حيان ونقله الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٥٤ - ٥٥) عن أبي صالح عن ابن عباس تعليقا.

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ﴾ شاق عليكم مكروه طبعاً، وهو مصدرٌ نُعت به للمبالغة، أو فُعلٌ بمعنى مفعول كالحُبْز. وقرئ بالفتح على أنه لغة فيه كالضَّعْف والضَّعْف، أو بمعنى الإكراه على المجاز كأنهم أكرهوا عليه لشدته وعظم مشقته كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾^(١) ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما كُلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم. ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما نُهوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه وهو يفضي بها إلى الردى، وإنما ذُكر عسى لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها. ﴿وَاللَّهُ يَسْلَمُ﴾ ما هو خير لكم. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح والراجحة وإن لم يعرف عينها.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

(٢١٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبدالله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة - قبل بدر بشهرين - ليرصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبدالله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك غزوة رجب وهم يظنون من جمادى الآخرة، فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، وينذر فيه الناس إلى معاشهم. وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا، وردَّ رسول الله ﷺ العير والأسارى^(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام، والسائلون هم المشركون كتبوا إليه في ذلك تشنيعاً وتعييراً وقيل أصحاب السرية. ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتغال من الشهر الحرام. وقرئ عن قتال بتكرير العامل. ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي ذنب كبير، والأكثر أنه منسوخ بقوله تعالى ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٣) خلافاً لعطاء^(٤) وهو نسخ الخاص بالعام وفيه خلاف، والأولى منع دلالة الآية على حرمة القتال في الشهر

(١) الأحقاف: (١٥).

(٢) أخرجه أبو يعلى في المسند (١٠٢/٣ - ١٠٣ رقم ١٥٣٤/١٦) والطبري في «جامع البيان» (٣٤٩/٢ - ٣٥٠) والبيهقي في السنن الكبرى (١١/٩ - ١٢) من طريق معتمر بن سليمان قال: سمعت أبي عن صاحب له، وهو الحضرمي عن أبي السَّوَّار يحدث عن جندب بن عبدالله البجلي... الحديث وإسناده: حسن.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٩٨/٦) وقال: رواه الطبراني - في الكبير (١٦٢/٢ رقم ١٦٧٠) - ورجاله ثقات.

(٣) التوبة: (٥).

(٤) عطاء بن أبي رباح: هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح، المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة على أرجح الأقوال.

الحرام مطلقاً فإن قتالاً فيه نكرة في حيزٍ مُثَبَّتٍ فلا يعمُّ^(١). ﴿وَصَدَّقْ﴾ صرف ومنع. ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الإسلام، أو ما يوصل العبد إلى الله سبحانه وتعالى من الطاعات. ﴿وَكُفِّرْ بِهِ﴾ أي بالله. ﴿وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ على إرادة المضاف أي وصد المسجد الحرام كقول أبي ذؤاد:

أَكْلٌ أَمْرِيءُ تَخْشِييْنَ أَمْرًا وَنَارٌ تَوْقَدُ بِاللَّيْلِ نَارًا

ولا يحسن عطفه على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن عطف قوله ﴿وَكُفِّرْ بِهِ﴾ على ﴿وَصَدَّقْ﴾ مانع منه إذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة ولا على الهاء في به، فإن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة الجار. ﴿وَأَخْرَجَ أَهْلَهُ مِنْهُ﴾ أهل المسجد الحرام وهم النبي ﷺ والمؤمنون. ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن، وهو خبر عن الأشياء الأربعة المعدودة من كبائر قريش. وأفعل مما يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ﴿وَالْفِتْنَةَ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ﴾ أي ما ترتكبونه من الإخراج والشرك أظفح مما ارتكبوه من قتلى الحضرمي. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وإنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم، وحتى للتعليل كقولك أعبد الله حتى أدخل الجنة. ﴿إِنْ أَسْطَلُّوا﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم كقول الواثق بقوته: علي قرنه إن ظفرت بي فلا تُثَبِّتْ علي، وإيذان بأنهم لا يردونهم. ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ قيد الردة بالموت عليها في إحباط الأعمال كما هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، والمراد بها الأعمال النافعة. وقرئ حَبِطَتْ بالفتح وهي لغة فيه. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ لبطان ما تخيلوه وفوات ما للإسلام من الفوائد الدنيوية. ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بسقوط الثواب. ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كسائر الكفرة.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ



(٢١٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نزلت أيضاً في أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء. ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع في الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعلوا خطأ وقلة احتياط. ﴿رَحِيمٌ﴾ بإحزال الأجر والثواب.

= وحدث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليّ يا أهل مكة وعندكم عطاء.... [الجرح والتعديل (٣٣٠/٦) وغاية النهاية في طبقات القراء (٥١٣/١)].

(١) أوتر تنكير لفظ «قتال» احترازاً عن توهم التعيين، وإيذاناً بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أي قتال كان (أبوالسعود ٢١٧/١).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْفَوْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

(٢١٩) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ روي أنه نزل بمكة قوله تعالى ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(١) فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمرَ ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر فإنها مذهبة للعقل مُسْلِبَةٌ للمال، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبدالرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فأم أحدهم فقراً: ﴿قُلْ يَتَائِبُ الْكُفْرُوتِ﴾ لا أعبد ما تعبدون ﴿فَنَزَلَتْ﴾ لا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى ﴿^(٢) فَقُلْ مَنْ يَشْرِبُهَا، ثُمَّ دَعَا عَتَبَانَ بْنَ مَالِكٍ^(٣) سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ فِي نَفَرٍ فَلَمَّا سَكِرُوا افْتَخَرُوا وَتَنَاشَدُوا، فَأَنشَدَ سَعْدُ شِعْراً فِيهِ هَجَاءُ الْأَنْصَارِ، فَضْرِبَهُ أَنْصَارِي بِلِحَى بَعِيرٍ فَشَجَّهُ، فَشَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانٌ شَافِيٌّ فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾^(٤) فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انْتَهَيْنَا يَا رَبِّ^(٥). وَالْخَمْرُ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرُ خَمَرَةٍ إِذَا سَتَرَهُ، سَمِيَ بِهَا عَصِيرُ الْعَنْبِ وَالتَّمْرُ إِذَا اشْتَدَّ وَغَلَا كَأَنَّهُ يَخْمُرُ الْعَقْلَ، كَمَا سَمِيَ سَكْرًا لِأَنَّهُ يَسْكُرُهُ أَيُ حَجَرُهُ، وَهِيَ حَرَامٌ مُطْلَقًا وَكَذَا كُلُّ مَا أَسْكَرَ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: نَقِيعُ الزَّيْبِ وَالتَّمْرِ إِذَا طُبِخَ حَتَّى ذَهَبَ ثَلَاثُهُ ثُمَّ اشْتَدَّ حَلٌّ شُرْبُهُ مَا دُونَ السُّكْرِ^(٦). وَالْمَيْسِرُ أَيْضاً مَصْدَرٌ كَالْمَوْعِدِ، سَمِيَ بِهِ الْقِمَارُ لِأَنَّهُ أَخَذَ مَالَ الْغَيْرِ يُبْسَرُ أَوْ سَلَبَ يَسَارَهُ، وَالْمَعْنَى يَسْأَلُونَكَ عَنْ تَعَاطِيهِمَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿قُلْ فِيهِمَا﴾ أَيُ فِي تَعَاطِيهِمَا. ﴿إِنَّمَا كَبِيرٌ﴾ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى الْإِنْتِكَابِ عَنِ الْمَأْمُورِ وَارْتِكَابِ الْمَحْظُورِ. وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِي كَثِيرٌ بِالثَّاءِ. ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ مِنْ كَسْبِ الْمَالِ وَالطَّرَبِ وَالِاتِّذَاذِ وَمَصَادَقَةِ الْفَتْيَانِ، وَفِي

(١) النحل: «٦٧».

(٢) النساء: «٤٣».

(٣) عَتَبَانَ بْنَ مَالِكٍ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَجْلَانِ الْأَنْصَارِي الْخَزْرَجِي السَّالِمِي، صَحَابِيٍّ مِنَ الْبَدْرِيِّينَ أَخَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُمَرَ، مَاتَ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ. [الأعلام للزركلي (٤/٢٠٠)].

(٤) المائدة: «٩١».

(٥) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٥٣/١) وَأَبُو دَاوُدَ (٧٨/٤) رَقْمَ ٣٦٧٠ وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٥٣/٥) رَقْمَ ٣٠٤٩ وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢٧٨/٢) وَ(١٤٣/٤)، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافِقُهُ الذَّهَبِيُّ. وَالنَّسَائِيُّ (٨/٢٨٦) - ٢٨٧ رَقْمَ ٥٥٤٠ كُلُّهُمُ مِنْ طَرِيقٍ عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شَرْحِبِيلَ أَبِي مَيْسَرَةَ، عَنْ عُمَرَ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ أَيْضاً (١٤٣/٤) مِنْ طَرِيقِ حَمْزَةَ الزُّيَّاتِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرَّبٍ عَنْ عُمَرَ وَقَالَ: صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ وَوَافِقُهُ الذَّهَبِيُّ.

وَأَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ فِي «جَامِعِ الْبَيَانِ» (٣٦١/٢ - ٣٦٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَالسَّرِيِّ، وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعَ بَنَحُو مَاعِنْدَ أَبِي السَّعُودِ مُخْتَصَرًا وَمَطْلُوعًا.

(٦) قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ مُخَالَفٌ لِحَمْلِ الْكَلِمَةِ الْعُلَمَاءَ وَهُوَ قَوْلُ مُرْجُوحٍ، حَتَّى إِنْ الْفَتْوَى فِي الْمَذْهَبِ الْحَنْفِيِّ عَلَى خِلَافِهِ (انظر روح المعاني ١١٣/٢).

الخمير خصوصاً تشجيع الجبان وتوفير المروءة وتقوية الطبيعة^(١). ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي المفساد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة منهما، ولهذا قيل إنها المحرمة للخمر لأن المفسدة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل، والأظهر أنه ليس كذلك لما مر من إبطال مذهب المعتزلة. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ قيل سائله أيضاً عمرو بن الجموح سأل أولاً عن المُنْفَق والمَصْرَف، ثم سأل عن كيفية الإنفاق. ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ العفو نقبض الجهد ومنه يقال للأرض السهلة، وهو أن ينفق ما تيسر له بذله ولا يبلغ منه الجهد. قال:

خَذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطَقِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ بببضة من ذهب أصابها في بعض المغنم فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مراراً فقال: هاتها مغضباً فأخذها فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه ثم قال: «يأتي أحدكم بيماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى»^(٢). وقرأ أبو عمرو برفع العفو. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي مثل ما بين أن العفو أصلح من الجهد، أو ما ذكر من الأحكام، والكاف في موضع النصب صفة لمصدر محذوف أي تبيننا مثل هذا التبين، وإنما وَحَّدَ العلامة والمخاطب به جمع على تأويل القبيل والجمع^(٣)، ﴿لَمَّا كُم تَنفَكُّوْنَ﴾ في الدلائل والأحكام.

(١) وفي تقديم إثمه على منافعه ووصفه بالكبر ما يدل على غلبة الأول مالا يخفى (أبو السعود ٢١٩/١).

(٢) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أبو داود (٣١٠/٢ - ٣١١ رقم ١٦٧٣ - ١٦٧٤)، وابن حبان (ص ٢١٤ رقم ٨٣٩ - موارد) والحاكم في المستدرک (٤١٣/١) والدارمي (٣٩١/١) والطبري في جامع البيان (٣٦٦/٢) وابن خزيمة (٩٨/٤) وأبو يعلى في المسند (٦٥/٤ - ٦٦ رقم ٣١٩/٢٠٨٤).

كلهم من طريق محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد، عن جابر.

قال المنذري في المختصر (٢٥٣/٢ - ٢٥٤): في إسناده «محمد بن إسحاق».

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وليس كذلك فإن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم مقروناً بآخر، ثم هو مدلس، وقد عنعنه.

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في الإرواء رقم (٨٩٨).

قلت: وقد ورد في معنى حديث جابر أحاديث صحيحة: (منها): حديث سعد بن أبي وقاص، قال: كان رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد بي، فقلت: أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال لا. فقلت بالشرط؟ فقال: لا، ثم قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس الحديث.

أخرجه البخاري (١٦٤/٣ رقم ١٢٩٥) و(٣٦٣/٥ رقم ٢٧٤٢) و(٢٦٩/٧ رقم ٣٩٣٦) و(١٠٩/٨ رقم ٤٤٠٩) و(٤٩٧/٩ رقم ٥٣٥٤) و(١٢٣/١٠ رقم ٥٦٦٨) و(١٧٩/١١ رقم ٦٣٧٣) و(١٤/١٢ رقم ٦٧٣٣) ومسلم (١٢٥١/٣، ١٣٥٣ رقم ٥، ١٦٢٨/٨).

(ومنها): حديث أبي هريرة مرفوعاً: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وأبدأ بمن تعول».

أخرجه البخاري (٢٩٤/٣ رقم ١٤٢٦) وأحمد (٢٤٥/٢، ٢٧٨، ٤٠٢، ٤٣٤، ٤٧٦، ٤٨٠، ٥٢٤، ٥٢٧).

(ومنها): حديث حكيم بن حزام مرفوعاً: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنيه الله» أخرجه البخاري (٢٩٤/٣ رقم ١٤٢٧).

(٣) وصيغة الاستقبال في «يبين» لاستحضار الصورة (أبو السعود ٢١٩/١).

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْلِكُ قُلُوبَ إِصْلَاحٍ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ
 وَلَئِمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ
 مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

(٢٢٠) ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في أمور الدارين فتأخذون بالأصلح والأنفع فيهما وتجتنبون
 عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْلِكُ﴾ لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَتِهِمْ طُلُمًا﴾^(١) الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم والاهتمام بأمرهم فشق ذلك عليهم،
 فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي مداخلتهم لإصلاحهم، أو إصلاح أموالهم
 خير من مجانيبتهم. ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ حث على المخالطة، أي أنهم إخوانكم في الدين ومن
 حق الأخ أن يخالط الأخ. وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وعيد
 ووعد لمن خالطهم لإفساد وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾ أي ولو شاء
 الله إعناتكم لأعتكم، أي كلفكم ما يشق عليكم من العنت وهي المشقة ولم يجوز لكم مداخلتهم.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على الإعانات. ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ أي ولا تتزوجوهن، وقرئ بالضم أي ولا تزوجوهن من
 المسلمين. والمشركات تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون لقوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ
 اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٢) إلى قوله ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣) ولكنها خصت
 عنها بقوله ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(٤) روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثداً الغنوي^(٥) إلى
 مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين، فأتته عناق وكان يهاوها في الجاهلية فقالت: ألا تخلو؟ فقال:
 إن الإسلام حال بيننا، فقالت: هل لك أن تتزوج بي فقال نعم ولكن أستاذي رسول الله ﷺ فاستأمره،

(١) النساء: ١٠١.

(٢) أخرجه أبوداود (٢٩١/٣ - ٢٩٢ رقم ٢٨٧١) والنسائي (٢٥٦/٦ رقم ٦٣٦٩) والحاكم (٣٠٣/٢، ٣١٨) والطبري في جامع البيان (٣٦٩/٢ - ٣٧٠).

كلهم من طريق جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. قلت: وحسن الألباني الحديث في صحيح أبي داود.

(٣) التوبة: ٣٠.

(٤) التوبة: ٣١.

(٥) المائدة: ٥٥.

(٦) مرثد الغنوي: صحابي بدري، استشهد في عهد النبي ﷺ، سنة ثلاث أو أربع في غزوة ذات الرجيع.

[الإصابة (٣٩٨/٣) والتقريب (٢٣٦/٢)].

فنزلت^(١) ﴿وَلَا مَئْمَنَةٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾ أي ولأمرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، فإن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بحسنها وشمائلها، والواو للحال، ولو بمعنى إن وهو كثير. ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ ولا تزوجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا، وهو على عمومته. ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ تعليل للنهي عن مواصلتهم وترغيب في مواصلة المؤمنين. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المشركين والمشركات. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم. ﴿وَاللَّهُ﴾ أي وأوليأؤه، يعني المؤمنين حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه فخيماً لشأنهم. ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد والعمل الموصِلين إليهما فهم الأحقاء بالمواصلة. ﴿يُؤْذِنُهُ﴾ أي بتوفيق الله تعالى وتيسيره، أو بقضائه وإرادته. ﴿وَيَسِّرُ بَيْنَهُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يتذكروا، أو ليكونوا بحيث يرجى منهم التذكر لِمَا رَكَزَ في العقول من ميل الخير ومخالفة الهوى.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

(٢٢٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ روي أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض ولا يواكلونها، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح^(٢) في نفر من الصحابة عن ذلك فنزلت^(٣). والمحيض مصدر كالمجيء والمبيت، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر يسألونك بغير واو

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (١٤٨): نزولها في هذه القصة ليس بصحيح. قلت:

بل الصحيح أن آية النور «الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة» هي التي نزلت في قصة مرتد.

(٢) أبو الدحداح هو ثابت بن الدحداح، وهو الذي قال يوم أحد: إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت، فقاتلوا عن دينكم.. فحمل بمن معه من المسلمين فطعنه خالد فأنفذه فوق ميثاً، وقيل إنه جرح ثم برا ومات بعد ذلك على فراشه.. (الإصابة ١/١٩١).

(٣) أخرج مسلم (٢٤٦/١) رقم ١٦) والترمذي (٢١٤/٥) رقم ٢٩٧٧) والنسائي (١٨٧/١) رقم ٣٦٩) وأبو داود (١٧٧/١) رقم ٢٥٨) و(٦٢٠/٢) رقم ٢١٦٥) وابن ماجه (٢١١/١) رقم ٦٤٣) كلهم من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس، أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ. فأنزل الله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ... إلى آخر الآية (البقرة: ٢٢٢). فقال رسول الله ﷺ «اضنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجاء أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بَشْرٍ فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول كذا وكذا. فلأنجامهم؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما. فخرجا فاستقبلهما هديّة من لبني إلى النبي ﷺ. فأرسل في آثارهما. فسقاها فعرفا أن لم يجد عليهما. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣٨١/٢) عن قتادة نحو ما عند أبي السعد إلا سؤال أبي الدحداح. وأخرج أيضاً الطبري (٣٨١/٢) عن السدي في قوله: «ويسألونك عن المحيض» قال: سأل عن ذلك ثابت بن الدحداح.

ثلاثاً ثم بها ثلاثاً، لأن السؤالات الأول كانت في أوقات متفرقة والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع. ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ أي الحيض شيء مستقذر مؤذٍ مَنْ يقرُّهُ نفرة منه. ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوا مجامعتن لقوله عليه الصلاة والسلام «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتن إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم»^(١). وهو الاقتصاد بين إفراط اليهود وتفريط النصارى فإنهم كانوا يجامعون ولا يباليون بالحيض. وإنما وصفه بأنه أذى ورتب الحكم عليه بالفاء إشعاراً بأنه العلة. ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ تأكيد للحكم وبيان لغايته، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحاً قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية ابن عباس يَطْهَرْنَ أي يتطهرن بمعنى يغتسلن والتزاماً قوله ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فإنه يقتضي تأخير جواز الإتيان عن الغسل. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه إذا طهرت لأكثر الحيض جاز قربانها قبل الغسل^(٢). ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي المأني الذي أمركم الله به وحلله لكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتزهين عن الفواحش والأفذار، كمجامعة الحائض والإتيان في غير المأني.

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

(٢٢٣) ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. شبههن بها تشبيهاً لما يلقى في أرحامهن من النطف بالبذور ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي فاتوهن كما تأتون المحارث، وهو كالبيان لقوله تعالى ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾ من أي جهة شئتم، روي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت^(٣). ﴿وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ﴾ ما يدخر لكم من

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٩ رقم (١٥٢) لم أجده.

(٢) قول أبي حنيفة مرجوح، وهو خلاف الجمهور، لمادل عليه قوله «فإذا تطهرن» والقراءة الأخرى «حتى يَطْهَرْنَ». وانظر ترجيح قول غير أبي حنيفة عند الألوسي (روح المعاني ١٢٢/٢) والشوكاني في (فتح القدير ١/٢٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩/٨ رقم ٤٥٢٨) ومسلم (١٠٥٨/٢ - ١٠٥٩ رقم ١١٧ - ١١٩) من حديث جابر. ولمسلم من رواية النعمان بن راشد عن الزهري قوله: «إن شاء مُجَبَّةٌ، وإن شاء غير مُجَبَّةٍ، غير أن ذلك في صمام واحد».

● مجبة: أي منكبة على وجهها تشبيهاً بهيئة السجود [النهاية: ٢٣٨/١].

● غير مجبة: أي مستلقية أو مضطجعة.

● في صمام: قال ابن الأثير: والصمام ما نسد به الفرج، فيسمى به الفرج ويجوز أن يكون «في موضع صمام» على حذف المضاف.

[النهاية: ٥٤/٣].

وأخرجه أبو داود (٦١٨/٢ رقم ٢١٦٣) والترمذي (٢١٥/٥ رقم ٢٩٧٨) والنسائي في عشرة النساء (ص ١١٣ رقم ٨٨) وابن ماجه (٦٢٠/١ رقم ١٩٢٥) والدارمي (٢٥٨/٨ - ٢٥٩) و(١٤٥/٢ - ١٤٦) وليس عند أحد منهم قوله «فذكر ذلك لرسول الله ﷺ».

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

الثواب. وقيل هو طلب الولد. وقيل التسمية عند الوطء. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالاجتناب عن معاصيه. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَّوهُ﴾ فتزودوا مالا تفتضحون به. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الكاملين في الإيمان بالكرامة والنعيم الدائم. أَمَرَ الرسول ﷺ أن ينصحهم ويشر من صدقه وامثل أمره منهم.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في الصديق رضي الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها، أو في عبدالله بن رواحة حلف أن لا يكلم ختنه بشير بن النعمان^(١) ولا يصلح بينه وبين أخته. والعُرْضَةُ قُعْلَةٌ بمعنى المفعول كالقُبْضَةِ تُطْلَقُ لما يغرض دون الشيء وللمُعْرِضِ للأمر، ومعنى الآية على الأول ولا تجعلوا الله حاجزاً لما حلفتُم عليه من أنواع الخير، فيكون المراد بالإيمان الأمور المحلوف عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام لابن سمرة^(٢) «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فات الذي هو خير وكفر عن يمينك»^(٣). وأن مع صلتها عطف بيان لها، واللام صلة عُرْضَةٍ لما فيها من معنى الاعتراض، ويجوز أن تكون للتعليل ويتعلق أن بالفعل أو بعُرْضَةٍ أي ولا تجعلوا الله عرضة لأن تَبَرُّوا لأجل أيمانكم به، وعلى الثاني ولا تجعلوه معرضاً لأيمانكم فتبتذله بكثرة الحلف به، ولذلك ذم الحلاف بقوله ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مِّهِينٍ﴾^(٤) وأن تبروا علة للنهي أي أنهاكم عنه إرادة بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس، فإن الحلاف مجترى على الله تعالى، والمجترى عليه لا يكون براً متقياً ولا موثقاً به في إصلاح ذات البين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

(٢٢٥) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو الساقط الذي لا يُعْتَدُ به من كلام غيره، ولغو اليمين مالا عَقِدَ معه كما سبق به اللسان أو تكلم به جاهلاً لمعناه كقول العرب: لا والله وبلى والله لمجرد التأكيد لقوله ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، والمعنى: لا يؤاخذكم الله بعقوبة ولا كفارة بما لا قصد معه، ولكن يؤاخذكم بهما أو بأحدهما بما قصدتم من الأيمان وواطأت فيها قلوبكم ألسنتكم. وقال أبو حنيفة: اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من

(١) بشير بن النعمان: هو بشير بن سعد بن النعمان بن أگال، شهد أحداً والخندق مع أبيه والمشاهد كلها، قاله العدوي عن ابن القداح، ذكره ابن الدباغ [أسد الغابة (١/٢٣١) رقم (٤٦٠)].

(٢) ابن سمرة هو عبدالرحمن بن سمرة، من مسلمة الفتح، افتتح سجستان، سكن البصرة وتوفي فيها عام (٥٠) هـ (تقريب التهذيب ١/٤٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (١١/٥١٦ - ٥١٧ رقم ٦٦٢٢) و(١٣/١٢٣ - ١٢٤ رقم ٧١٤٧) ومسلم (٣/١٢٧٣ - ١٢٧٤ رقم ١٩) وأبو داود (٣/٥٨٤ رقم ٣٢٧٧) والترمذي (٤/١٠٦ رقم ١٥٢٩) والنسائي (٧/١٠) وأحمد (٥/٦١، ٦٢، ٦٣) والدارمي (٢/١٨٦) كلهم من طريق الحسن عن عبدالرحمن بن سمرة وفي الباب من حديث عدي بن حاتم وأبي هريرة وأبي موسى وغيرهم. انظر تخريجها في «الروضة الندية» بتحقيقنا (٢/٣٦٠).

(٤) القلم: «١٠».

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

الأيمان، ولكن يعاقبكم بما تعمَّدتم الكذب فيه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذ باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالمواخذة على يمين الجِدِّ تربصاً للتوبة.

(٢٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَابِهِمْ﴾ أي يحلفون على أن لا يجامعوهن. والإيلاء: الحلف، وتعديته بعلی ولكن لما ضمن هذا القسم معنى البعد عُدِّي بمن. ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ مبتدأ وما قبله خبره، أو فاعلُ الظرف على خلاف سبق. والتربص: الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف على الاتساع، أي للمؤلي حق التلبث في هذه المدة فلا يطالب بفيء ولا طلاق، ولذلك قال الشافعي: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده ﴿فَإِن فَاءُوا﴾ رجعوا في اليمين بالحنث، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمؤلي إثم حنثه إذا كفر، أو ما توخى بالإيلاء من ضرار المرأة ونحوه بالفیئة التي هي كالتوبة.

(٢٢٧) ﴿وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ وإن صمموا قصده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بغرضهم فيه، وقال أبو حنيفة: الإيلاء في أربعة أشهر فما فوقها، وحكمه أن المؤلي إن فاء في المدة بالوطء إن قدر وبالوعد إن عجز صح الفیء ولزم الواطئ أن يكفر وإلا بانت بعدها بطلقة. وعندنا يطالب بعد المدة بأحد الأمرين فإن أبى عنهما طلق عليه الحاكم.

(٢٢٨) ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ﴾ يريد بها المدخول بهن من ذوات الأقراء، لما دلت عليه الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر. ﴿يَتَرَبَّصُ﴾ خبر بمعنى الأمر، وتغيّر العبارة للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يسارع إلى امتثاله، وكان المخاطب قصداً أن يُمثّل الأمرُ فيخبر عنه كقولك في الدعاء: رحمك الله، وبناءؤه على المبتدأ يزيدُه فَضْلُ تأكيد. ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ تهيج وبغت لهن على التربص، فإن نفوس النساء طوامع إلى الرجال، فأمرن بأن يقمعنها ويحملنها على التربص. ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ نصب على الظرف، أو المفعول به. أي يتربصن مُضِيَّهَا. وقُرُوء جمع قَرْء وهو يطلق للحيض، كقوله عليه الصلاة والسلام «دعي الصلاة أيام أقرائك»^(١) وللطهر الفاصل بين الحيضتين كقول الأعشى:

(١) أخرجه أبوداود (١٩١/١) رقم (٢٨٠) والنسائي (١٢١/١) رقم (٢١١) من حديث فاطمة بنت أبي حبيش. وهو حديث صحيح.

وأخرجه النسائي (١٢١/١) رقم (٢١٠) من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ: «أن تترك الصلاة قدر أقرائها» وهو حديث صحيح.

قلت: وحديث فاطمة بنت أبي حبيش مخرّج في الصحيحين لكن ليس عندهما لفظ «أقراء». البخاري (٤٠٩/١) رقم (٣٠٦) و(٤٢٠/١) رقم (٣٢٠) و(٣٢٥/١) رقم (٣٢٥) و(٤٢٨/١) - ٤٢٩ رقم (٣٣١). ومسلم (٢٦٢/١) رقم (٦٢) كلاهما من حديث عائشة بلفظ «فإذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم وصلي». ولفظه في رواية للبخاري «دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها».

مَوْرَثَةٌ مَّالًا وَفِي الْحَيِّ رَفْعَةٌ لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرْوِهِ نِسَائِكَ

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد به في الآية لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض، كما قاله الحنفية لقوله تعالى ﴿فَطَلَّوْهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾^(١) أي وقت عدتهن. والطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان»^(٢) فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر «مُرّه فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء»^(٣). وكان القياس أن يُذكر بصيغة القلة التي هي الأقراء، ولكنهم يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر، ولعل الحكم لماعمة المطلقات ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناؤها. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو الحيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الرجعة، وفيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك. ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ليس المراد منه تقييد نفي الحل بإيمانهن، بل التنبيه على أنه ينافي الإيمان وأن المؤمن لا يجترى عليه ولا ينبغي له أن يفعل. ﴿وَيُؤْمِلُنَّ﴾ أي أزواج المطلقات. ﴿أَحَقُّ بِرِزْقِنَا﴾ إلى النكاح والرجعة إليهن، ولكن إذا كان الطلاق رجعياً للآية التي تتلوها فالضمير أخص من المرجوع إليه ولا امتناع فيه، كما لو كرر الظاهر وخصصه. والبُعولة جمع بعل والتاء لتأنيث الجمع كالعمومة والخولة، أو مصدر من قولك بَعَلَ حَسَنُ البُعولة نعت به، أو أقيم مقام المضاف المحذوف أي وأهل بعولتهن، وأفعل ههنا بمعنى الفاعل. ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي في زمان التربص. ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ بالرجعة للإضرار المرأة، وليس المراد

(١) الطلاق: (١).

(٢) أخرجه أبو داود (٦٣٩/٢) رقم (٢١٨٩) والترمذي (٤٨٨/٣) رقم (١١٨٢) وابن ماجه (٦٧٢/١) رقم (٢٠٨٠) والحاكم (٢٠٥/٢) والدارمي (١٧٠/٢) والدارقطني (٣٩/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٤٢٦/٧) كلهم من طريق أبي عاصم عن ابن جريج، عن مظاهر بن أسلم، عن قاسم بن محمد عن عائشة بلفظ: «وقروها حيضتان». قال أبو داود: هذا حديث مجهول.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لانعرفه مرفوعاً إلا من حديث مظاهر بن أسلم. قال الحاكم: لم يذكره - أي مظاهراً - أحد من مُتَقَدِّمِي مشايخنا بجرح، فالحديث صحيح إذا وافقه الذهبي، فقال الألباني: هذا من عجائب فإنه قد أورده في المغنى في الضعفاء (٦٦٣/٢) رقم (٦٢٩٥) وقال: قال ابن معين: ليس بشيء (الإرواء: رقم ٢٠٦٦). والخلاصة: أن الحديث ضعيف.

● وله شاهد من حديث ابن عمر: أخرجه ابن ماجه (٦٧٢/١) رقم (٢٠٧٩) والدارقطني (٣٨/٤) والبيهقي (٣٦٩/٧) والذهبي في الميزان (٢٠٤/٣) كلهم من طريق عمر بن شبيب بن عبدالله بن عيسى عن عطية العوفي عنه.

وعمر بن شبيب، وعطية العوفي: ضعيفان، قال الدارقطني والبيهقي منكر، غير ثابت من وجهين: الأول: أن عطية العوفي ضعيف، وسالم ونافع أثبت منه وأصح رواية.

الثاني: أن عمر بن شبيب ضعيف الحديث، لا يُحتج بروايته، ثم قالوا: والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً وقد رواه - الدارقطني والبيهقي - موقوفاً.

والصواب أن عدة الأمة كالحر، لأن أدلة الكتاب والسنة المشتملة على تفصيل العدة غير مختصة بالحرائر.

(٣) البخاري (٦٥٣/٨) رقم (٤٩٠٨) ومسلم (١٠٩٥/٢) رقم (١٤٧١).

منه شرطية قصد الإصلاح للرجعة بل التحريض عليه والمنع من قصد الضرار. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ولهن حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها، لا في الجنس. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق وفضل فيه، لأن حقوقهم في أنفسهم وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها، أو شرف وفضيلة لأنهم قوام عليهن وحراس لهن يشاركون في غرض الزواج ويخصون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام ممن خالف الأحكام. ﴿حَكِيمٌ﴾ يشرعها لحكم ومصالح.

الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

(٢٢٩) ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ﴾ أي التطلق الرجعي اثنان، لما روي أنه ﷺ سُئِلَ أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أو تسريح بإحسان»^(١). وقيل: معناه التطلق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، ولذلك قالت الحنفية الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة. ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالمراجعة وحسن المعاشرة، وهو يؤيد المعنى الأول. ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ بالطلقة الثالثة، أو بأن لا يراجعها حتى تبين، وعلى المعنى الأخير حكم مبتدأ وتخيير مطلق عَقَّبَ به تعليمهم كيفية التطلق. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي من الصدقات. روي أن جميلة بنت عبدالله بن أبي بن سلول، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعيبه في دين ولا خلق ولكني أكره الكفر في الإسلام، وما أطيقه بغضاً إني رفعت جانب الخباء فرأيت أقبلي في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً.. فنزلت^(٢). فاختلعت منه بحديقة كان أضدقها إياها. والخطاب مع الحكام وإسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الآمرون بهما عند الترافع. وقيل إنه خطاب للأزواج ومابعد خطاب للحكام وهو يشوش النظم على القراءة المشهورة. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي الزوجان. وقرئ يظننا وهو يؤيد تفسير الخوف بالظن. ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ بترك إقامة أحكامه من مواجب الزوجية. وقرأ حمزة ويعقوب يُخَافَا على البناء للمفعول،

(١) أخرجه أبو داود في مراسيله (ص ١٨٩ رقم ٢٢٠) وسعيد بن منصور في سننه (١/٣٤٠ - ٣٤١ رقم ١٤٥٦ و ١٤٥٧) وعبد الرزاق في المصنف (٦/٣٣٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٥/٢٥٩) والطبري في «جامع البيان» (٢/٤٠٥٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/٣٤٠) كلهم من طرق عن إسماعيل بن سميع، من حديث أبي رزين الأسدي به.

ورجاله ثقات، وقد ضعفه الشيخ أحمد شاكر لإرساله (الطبري رقم ٤٧٩٢، ٤٧٩٣).

(٢) قصة اختلاع زوجة ثابت بن قيس منه ثابتة بسند صحيح وفي روايات متعددة، ولكن ليس في شيء من طرق الحديث التصريح بنزول الآية في هذه القصة (الفتح السماوي ص ٢٨٠ - ٢٨٢) وجميلة هي بنت أبي بن سلول أخت عبدالله رأس المنافقين على الأرجح (تخريج الفتح السماوي ص ٢٧٨).

وإبدال أن بصليته من الضمير بدل الاشتمال، وقرئ تخافا وتقيما بقاء الخطاب. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكماء. ﴿أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ على الرجل في أخذ ما افتدت به نفسها واختلعت، وعلى المرأة في إعطائه. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما حد من الأحكام. ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتعدوها بالمخالفة. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تعقيب للنهي بالوعيد مبالغة في التهديد. واعلم أن ظاهر الآية يدل على أن الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق، ولا بجميع ماساق الزوج إليها فضلاً عن الزائد، ويؤيد ذلك قوله ﷺ «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا طَلَاقاً مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(١). وماروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لجميلة: «أتردين عليه حديثه؟» فقالت: أردها وأزيد عليها، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما الزائد فلا»^(٢). والجمهور استكروهه ولكن نَقَدُوهُ، فإن المنع عن العقد لا يدل على فساده وأنه يصح بلفظ المفاداة فإنه تعالى سماه افتداء. واختلف في أنه إذا جرى بغير لفظ الطلاق هل هو فسخ أو طلاق، ومن جعله فسخاً احتج بقوله:

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(٢٣٠) ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ فإن تعقبه للخلع بعد ذكر الطلقتين يقتضي أن يكون طلاقاً رابعة لو كان الخلع طلاقاً. والأظهر أنه طلاق لأنه فرقة باختيار الزوج فهو كالطلاق بالعوض، وقوله فإن طلقها متعلق

(١) أخرجه أحمد (٢٧٧/٥) وأبو داود (٦٦٧/٢) رقم (٢٢٢٦) وابن ماجه (١/٦٦٢) رقم (٢٠٥٥) والترمذي (٤٩٣/٣) رقم (١١٨٧) وقال حديث حسن.

وأخرجه الدارمي (١٦٢/٢) وابن حبان في الموارد رقم (١٣٢٠) والبيهقي في سننه (٣١٦/٧) والحاكم (٢٠٠/٢) وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال الألباني في «الإرواء» (١٠٠/٧) «وإنما هو على شرط مسلم وحده...» وهو حديث صحيح.

(٢) أخرج الدارقطني (٢٥٥/٣) عن أبي الزبير قال: إن ثابت بن قيس كانت عنده زينب بنت عبدالله بن أبي بن سلول، فذكر الحديث. وقال الحافظ: سنده قوي مع إرساله.

وقال ابن حجر في الفتح (٣٩٨/٩) فلعل لها إسمين، أو أحدهما لقبٌ وإلا «فجميلة» أصح. وقد وقع في حديث آخر أن اسم امرأة ثابت «حبيبة بنت سهل» لما أخرج مالك (٥٦٤/٢) والشافعي في ترتيب (٥٠/٢) وأحمد (٤٣٣/٦ - ٤٣٤) والدارمي (١٦٢/٢ - ١٦٣) وابن سعد في الطبقات (٤٤٥/٨) والطبري في جامع البيان (٤٦٢/٢) وابن منده كما في الإصابة (٢٧٠/٤) كلهم من طريق يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبدالرحمن قالت: إن حبيبة بنت سهل تزوجها ثابت بن قيس وكان رسول الله ﷺ قد هم أن يتزوجها. وإن ثابتاً ضربها، فأصبحت على باب رسول الله ﷺ في الغلس تشكوه، فذكر الحديث.

● وأخرج البيهقي في السنن الكبرى (٣١٣/٧) عن ابن عباس «أن جميلة بنت ابن سلول أتت النبي ﷺ تريد الخلع فقال لها: ما أصدقك؟ قالت: حديقة، قال: ردي عليه حديثه».

● وأخرج البخاري (٣٩٥/٩) رقم (٥٢٧٤) عن عكرمة «أن أخت عبدالله بن أبي. بهذا. وقال: تردين حديثه. قالت: نعم، فردتها وأمره يطلقها...».

بقوله ﴿أَطْلَقَ مَرَّتَانٍ﴾ أو تفسير لقوله ﴿أَوْ تَشْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ اعترض بينهما ذكر الخلع دلالة على أن الطلاق يقع مجاناً تارة وبِعَوَضٍ أخرى، والمعنى فإن طلقها بعد الثنتين. ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد ذلك الطلاق. ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ حتى تتزوج غيره، والنكاح يَسْتَدِلُّ إلى كل منهما كالزوج، وتعلّق بظاهره من اقتصر على العقد كابن المسيب^(١) واتفق الجمهور على أنه لا بد من الإصابة لما روي أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ: إن رفاعه طلقني فَبَتَّ طلاقِي، وإن عبدالرحمن بن الزبير تزوجني وإن مامعه مثل هَذَبَةِ الثوب. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: لا حتى تذوقي عُسَيْلَتَهُ ويذوق عُسَيْلَتَكَ»^(٢)، فالآية مطلقة قيدتها السنة، ويحتمل أن يفسر النكاح بالإصابة، ويكون العقد مستفاداً من لفظ الزوج، والحكمة في هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثاً والرغبة فيها. والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الأكثر، وجوزه أبوحنيفة مع الكراهة، وقد لمن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له^(٣). ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا﴾ أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بالزواج. ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حده الله وشرعه من حقوق الزوجية، وتفسير الظن بالعلم ههنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تُظَنُّ ولا تعلم، ولأنه لا يقال علمت أن يقوم زيد لأن أن الناصبة للتوقع وهو ينافي العلم. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي الأحكام المذكورة. ﴿يُخَيِّبُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ويعلمون بمقتضى العلم.

- (١) سعيد بن المسيب، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع ولد (١٣) هـ وتوفي بالمدينة (٩٤) هـ (الأعلام ١٠٢/٣).
- (٢) أخرجه البخاري (٢٤٩/٥) رقم ٢٦٣٩ ومسلم (١٠٥٥/٢ - ١٠٥٦) رقم ١١١/١١١ و(١٤٣٣/١١٢) وأبو داود (٧٣١/٢) رقم ٢٣٠٩، والترمذي (٤٢٦/٣) رقم ١١١٨ والنسائي (١٤٨/٦) وابن ماجه (٦٢١/١) رقم ١٩٣٢ وأحمد في المسند (٤٢/٦، ٢٦). كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها.
- (٣) أخرجه أحمد (٤٥٠/١) والنسائي (١٤٩/٦) والترمذي (٤٢٨/٣) رقم ١١٢٠ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحافظ: صححه ابن القطان، وابن دقيق العيد على شرط البخاري وقال الألباني: وهو كما قال. انظر التلخيص (١٧٠/٣) رقم ١٥٣٠.
- وأخرج أحمد في المسند (٨٧/١) وأبو داود (٥٦٢/٢) رقم ٢٠٧٦ وابن ماجه (٦٢٢/١) رقم ١٩٣٥ والترمذي (٤٢٧/٣) رقم ١١١٩ من حديث علي مثله. وهو حديث صحيح. صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٦/١) رقم ١٥٧١.
- وأخرج ابن ماجه (٦٢٣/١) رقم ١٩٣٦ والحاكم في المستدرک (١٩٩/٢) من حديث عقبة بن عامر. قال: «قال رسول الله ﷺ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: هُوَ الْمُحَلَّلُ لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ» وفي إسناده يحيى بن عثمان، وهو ضعيف وقد أعل بالإرسال. وهو حديث حسن. حسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٦/١) رقم ١٥٧٢.
- وأخرج أحمد (٣٢٣/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٨/٧) والبخاري في كشف الأستار (١٦٧/٢) رقم ١٤٤٢ وابن أبي حاتم في العلل (٤١٣/١) من حديث أبي هريرة نحوه. وحسنه البخاري.
- وأخرج الحاكم في المستدرک (١٩٩/٢) والطبراني في الأوسط - كما في «المجمع» (٢٦٧/٤) - من حديث عمر: «أنهم كانوا يعدّون التحليل سفاحاً في عهد رسول الله ﷺ» وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَنْ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

(٢٣١) ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَنْ أَجَلَهُنَّ﴾ أي آخر عدتهن، والأجل يطلق للمدة ولتمتهاها فيقال لعمر الإنسان وللموت الذي به ينتهي قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمُرِ وَمَوْتُ إِذَا انْتَهَى أَجَلُهُ

والبلوغ هو الوصول إلى الشيء، وقد يقال للدنو منه على الاتساع، وهو المراد في الآية ليصح أو يُرتب عليه. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ إذ لا إمساك بعد انقضاء الأجل، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل، وهو إعادة للحكم في بعض صورته للاهتمام به. ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن، كأن المطلق يترك المعتدة حتى تشارف الأجل ثم يراجعها لتطول العدة عليها، فنهى عنه بعد الأمر بضده مبالغة. ونُصِبَ ضراراً على العلة أو الحال بمعنى مضارين. ﴿لِنَعْتَدُوا﴾ لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الافتداء، واللام متعلقة بضراراً إذ المراد تقييده. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها للعقاب. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها من قولهم لمن لم يجد في الأمر إنما أنت هازيء، كأنه نهى عن الهزؤ وأراد به الأمر بضده. وقيل: كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول: كنت ألعب فتزلت^(١). وعنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاث جدهن جدّ وهزلهن جد، الطلاق والنكاح والعناق»^(٢) ﴿وَادْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ التي من جملتها الهداية، وبعثة محمد ﷺ بالشكر والقيام

(١) أخرجه ابن المنذر عن عبادة بن الصامت - كما في الدر المنثور (١/٦٨٣) -.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/٦٦٣ رقم ٢١٩٤) والترمذي (٣/٤٩٠ رقم ١١٨٤) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (١/٦٥٨ رقم ٢٠٣٩) والمستدرک (٢/١٩٨) وقال: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: فيه «لين». والدارقطني (٣/٢٥٦، ٢٥٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/٣٤٠ - ٣٤١) وابن الجارود في المنتقى (ص ٢٣٩ رقم ٧١٢) كلهم من طريق عبد الرحمن بن حبيب بن أردك عن عطاء بن أبي رباح، عن يوسف بن ماهك عن أبي هريرة. ● وأخرج الطبراني في المجمع (٤/٣٣٥) عن فضالة عن عبيد مرفوعاً: «ثلاث لا يجوز فيهن اللعيب: الطلاق والنكاح والعناق» وفي إسناده ابن لهيعة.

● وأخرج عبد الرزاق في المصنف (٦/١٣٤ رقم ١٠٢٤٩) عن أبي ذر مرفوعاً: «من طلق وهو لاعب فطلأه جائز، ومن أعتق وهو لاعب فعتقه جائز ومن نكح وهو لاعب فنكاحه جائز» وفي إسناده انقطاع.

● وأخرج عبد الرزاق في المصنف (٦/١٣٤ رقم ١٠٢٤٧) عن علي موقوفاً.

● وأخرج عبد الرزاق في المصنف (٦/١٣٤ رقم ١٠٢٤٨) عن عمر مرفوعاً. وقال الألباني في الإرواء (٦/٢٢٤ رقم ١٨٢٦): «والذي يتلخص عندي مما سبق أن الحديث حسن بمجموع طريق أبي هريرة الأولى التي حسنها الترمذي، وطريق الحسن البصري المرسلة، وقد يزداد قوة بحديث عبادة بن الصامت، والآثار المذكورة عن الصحابة فإنها - ولو لم يتبين لنا ثبوتها عنهم من كل واحد منهم - تدل على أن معنى الحديث كان معروفاً عندهم».

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوِلْدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

بحقوقها. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ القرآن والسنة، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما. ﴿يُعِظُكُمْ بِهِ﴾ بما أنزل عليكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد وتهديد.

(٢٣٢) ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، وعن الشافعي رحمه الله تعالى دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين. ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ المخاطب به الأولياء لما روي أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته جميلة أن ترجع إلى زوجها الأول بالاستئذان^(١) فيكون دليلاً على أن المرأة لا تزوج نفسها، إذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولي معنى^(٢)، ولا يعارض بإسناد النكاح إليهن لأنه بسبب توقفه على إذنهن. وقيل الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد مضي العدة ولا يتركونهن يتزوجن عدواناً وقسراً، لأنه جواب قوله وإذا طلقتم النساء. وقيل الأولياء والأزواج. وقيل الناس كلهم، والمعنى: لا يوجد فيما بينكم هذا الأمر فإنه إذا وجد بينهم وهم راضون به كانوا كالفاعلين له. والعضل الحبس والتضييق منه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج. ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ﴾ أي الخطاب والنساء وهو ظرف لأن ينكحن أو لاتعضلوهن. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة، حال من الضمير المرفوع أو صفة لمصدر محذوف أو تراضياً كائناً بالمعروف. وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفؤ غير منهي عنه. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى مامضى ذكره، والخطاب للجميع على تأويل القبيل أو كل واحد أو أن الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين، أو للرسول ﷺ على طريقة قوله ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقَتْهُ النِّسَاءُ﴾^(٣) للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لا يكاد يتصوره كل أحد. ﴿يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنه المتعظ به والمتفع. ﴿ذَلِكَ﴾ أي العمل بمقتضى ما ذكر. ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ أنفع. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ من دنس الآثام. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مافيه النفع والصلاح. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لقصور علمكم.

(١) أخرجه البخاري (١٩٢/٨ رقم ٤٥٢٩) و(١٨٣/٩ رقم ٥١٣٠) و(٤٨٢/٩ رقم ٥٣٣٠، ٥٣٣١) وأبو داود (٥٦٩/٢ - ٥٧٠ رقم ٢٠٨٧) والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٤٦١/٨) والترمذي (٢١٦/٥) رقم ٢٩٨١ كلهم من طريق الحسن عنه في سياق أطول من ذلك.

(٢) قال أبو السعود: (وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها، وإلا لما احتج إلى نهي الأولياء عن الفصل، لما أن النهي لدفع الضرر عنهن، فإنهن وإن قدرن على تزويج أنفسهن لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة) أبو السعود ٢٢٩/١.

(٣) الطلاق: ٩١.

(٢٣٣) ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ أمر عبر عنه بالخبر للمبالغة، ومعناه الندب أو الوجوب، فَيُخَصَّنَ بما إذا لم يرتضع الصبي إلا من أمه أو لم يوجد له ظئر^(١) أو عجز الوالد عن الاستتجار. والوالدات يعم المطلقات وغيرهن، وقيل يختص بهن إذ الكلام فيهن. ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أكد به بصفة الكمال لأنه مما يتسامح فيه. ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ بيان للمتوجه إليه الحكم أي ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة، أو متعلق بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة والأم ترضع له. وهو دليل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان ولا عبرة به بعدهما وأنه يجوز أن ينقص عنه. ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي الذي يولد له يعني الوالد، فإن الولد يولد له ويُنسب إليه. وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقضي لوجوب الإرضاع ومُؤَن المرضعة عليه. ﴿رِزْقَهُنَّ وَكِسْوَتَهُنَّ﴾ أجره لهن، واختلف في استتجار الأم فجوزه الشافعي ومنعه أبوحنيفة رحمه الله تعالى مادامت زوجة أو معتدة نكاح. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ حسب ما يراه الحاكم وفيه به وسعه. ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تعليل لإيجاب المؤن والتقييد بالمعروف ودليل على أنه سبحانه وتعالى لا يكلف العبد بما لا يطيقه وذلك لا يمنع إمكانه. ﴿لَا تَضَارَّ وَلِدَةً وَلَا يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ يُولَدُوهَا﴾ تفصيل له وتقرير، أي لا يكلف كل واحد منهما الآخر مالم يس في وسعه ولا يضاره بسبب الولد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب لاتضار بالرفع بدلاً من قوله لا تكلف، وأصله على القراءتين تضار بالكسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضار بالياء من صلته أي لا يضار الوالدان بالولد فيفرط في تعهده ويقصر فيما ينبغي له. وقرئ لاتضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضارّه يضرّه. وإضافة الولد إليها تارة وإليه أخرى استعطاف لهما عليه وتنبه على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق فلا ينبغي أن يضرّا به أو أن يتضارا بسببه. ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ عطف على قوله وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن، وما بينهما تعليل معترض، والمراد بالوارث وارث الأب وهو الصبي، أي مؤن المرضعة من ماله إذا مات الأب. وقيل الباقي من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام: «واجعله الوارث منّا»^(٢)، وكلا القولين يوافق مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إذ لانفقة عنده فيماعداد الولادة.

(١) الظئر يقال للمرأة الأجنبية التي تحضن ولد غيرها (المصباح المنير مادة ظئر).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٢٨/٥) رقم (٣٥٠٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٤٠٢) كلاهما من طريق عبيد الله بن زحر، عن خالد بن أبي عمران، عن ابن عمر، بلفظ: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يذغو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقسّم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدنيا، ومتّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا...^(١)

وقال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب. وقد روى بعضهم هذا الحديث عن خالد بن أبي عمران عن نافع عن ابن عمر.

وأخرجه من هذا الطريق النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٤٠١) من طريق «عبيد الله بن زحر أيضاً والحاكم (٥٢٨/١) من طريق كاتب الليث، عن الليث عن خالد بن عمران به بلفظ: «بارك لي في سمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني».

وقال صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

وقيل وارث الطفل وإليه ذهب ابن أبي ليلى. وقيل وارثه المحرم منه، وهو مذهب أبي حنيفة. وقيل عصابته وبه قال أبو زيد^(١) وذلك إشارة إلى ماوجب على الأب من الرزق والكسوة. ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ بَيْنَهُمَا قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ، وَالتَّشَاوُرَ وَالْمَشَاوَرَةَ وَالْمَشُورَةَ وَالْمَشُورَةَ اسْتِخْرَاجَ الرَّأْيِ، مِنْ شُرْثِ الْعَسَلِ إِذَا اسْتَخْرَجْتَهُ. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فِي ذَلِكَ وَإِنَّمَا اعْتَبِرَ تَرَاضِيهِمَا مِرَاعَاةً لِمَصْلَاحِ الطِّفْلِ وَحَذَرًا أَنْ يَقْدُمَ أَحَدُهُمَا عَلَى مَا يَضُرُّ بِهِ لِفَرْضِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ. ﴿وَلَا يَزِدُّكُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أَي تَسْتَرْضِعُوا الْمَرَاضِعَ لِأَوْلَادِكُمْ، يُقَالُ أَرْضَعْتُ الْمَرْأَةَ الطِّفْلَ وَاسْتَرْضَعْتُهَا إِيَّاهُ، كَقَوْلِكَ أَنْجَحَ اللَّهُ حَاجَتِي وَاسْتَنْجَحْتَهُ إِيَّاهُ، فَحَذَفَ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِيهِ وَإِطْلَاقُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلزَّوْجِ أَنْ يَسْتَرْضِعَ الْوَلَدَ وَيَمْنَعَ الزَّوْجَةَ مِنَ الْإِرْضَاعِ. ﴿وَإِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إِلَى الْمَرَاضِعِ. ﴿مَاءَ آيَتِهِمْ﴾ مَا أَرَدْتُمْ إِيْتَاءَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾^(٢) وَقِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ مَا آتَيْتُمْ، مِنْ أَتَى إِلَيْهِ إِحْسَانًا إِذَا فَعَلَهُ. وَقُرِئَ أَوْ تَيْتُمْ أَي مَا آتَاكُمْ اللَّهُ وَأَقْدَرَكُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْرَةِ. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ صَلَوةٌ سَلَّمْتُمْ، أَي بِالْوَجْهِ الْمَتَعَارِفِ الْمُسْتَحْسَنِ شَرْعًا. وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، وَلَيْسَ اشْتِرَاطُ التَّسْلِيمِ لِمَجَازِ الْإِسْتِرْضَاعِ بَلْ لِسُلُوكِ مَا هُوَ الْأَوَّلَى وَالْأَصْلَحُ لِلطِّفْلِ. ﴿وَأَلْقُوا لِلَّهِ﴾ مَبَالِغَةٌ فِي الْمَحَافَظَةِ عَلَى مَا شَرَعَ فِي أَمْرِ الْأَطْفَالِ وَالْمَرَاضِعِ. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَاتَمُلُونُ بِصِيرٍ﴾ حَثٌ وَتَهْدِيدٌ^(٣).

قلت: أما إسناد الترمذي والنسائي ففيه: «عبدالله بن زحر» وهو ضعيف - كما في الجرح والتعديل (٣١٥/٥) -.. كما هو منقطع بين خالد بن أبي عمران وابن عمر عند الترمذي. انظر تهذيب الكمال للمزي (١٤٢/٨) رقم (١٦٣٩). وأما إسناد الحاكم ففيه: «عبدالله بن صالح كاتب الليث»، وهو ضعيف وللحديث شاهدان: (الأول): حديث علي بن أبي طالب: أخرجه الطبراني في الصغير (٢٢٥/٢) رقم ١٠٧٠ - الروض الداني) والحاكم (٥٢٧/١) من طريق زين العابدين عنه بلفظ: «اللهم متعني بسمعي وبصري حتى تجعلهما الوارث مني» وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، قلت: زين العابدين لم يدرك علي بن أبي طالب - كما في المراسيل لابن أبي حاتم (ص ١٣٩ وص ١٨٦) -..

(والثاني): حديث عائشة: أخرجه الترمذي (٥١٨/٥) رقم ٣٤٨٠ والحاكم (٥٣٠/١) من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عروة عنها بلفظ «اللهم عافني في جسدي وعافني في بصري واجعله الوارث مني». وقال الترمذي: حسن غريب، سمعت محمداً - البخاري - يقول: حبيب بن أبي ثابت لم يسمع من عروة بن الزبير شيئاً. وقال الحاكم: صحيح الإسناد إن سلم سماع حبيب من عروة، وقال الذهبي: فيه «بكر من بكار» قال النسائي: «ليس بثقة» قلت: «تابعه» معاوية بن هشام عند الترمذي، وهو صدوق وخلاصة القول إن حديث ابن عمر حسن والله أعلم.

(١) أبو زيد: هو سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن قيس بن زيد بن النعمان بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج أبو زيد الأنصاري.

الإمام المشهور، كان إماماً نحويّاً، صاحب تصانيف أدبية ولغوية، قيل: كان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة، وأبو زيد ثلثي اللغة، والخليل بن أحمد نصف اللغة، وعمر بن كركرة الأعرابي يحفظ اللغة كلها. ومن تصانيف أبي زيد: لغات القرآن - اللامات، الجمع والتنثية، وغيرها.

توفي سنة (٢٢٥هـ) وقيل غير ذلك، عن ثلاث وتسعين سنة بالبصرة. [بغية الوعاة للسيوطي (١/٥٨٢ - ٥٨٣ رقم ١٢٢٢)].

(٢) المائدة: «٦».

(٣) في قوله «واعلموا أن الله...» إظهاراً للاسم الجليل في موضع الإضمار وذلك لتربية المهابة (أبو السعود :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرَضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

(٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي أزواج الذين، أو والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يترصدن بعدهم، كقولهم السَّنُّ مَنَوَانٍ بَدْرَهْمٌ^(١). وقرئ يَتَوَفَّوْنَ بفتح الياء أي يستوفون آجالهم، وتأنيت العشر باعتبار الليالي لأنها غُرر الشهور والأيام، ولذلك لا يستعملون التذكير في مثله قط ذهاباً إلى الأيام حتى إنهم يقولون صَمَتَ عَشْرًا ويشهد له قوله تعالى ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾^(٢) ثم ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾^(٣). ولعل المقتضي لهذا التقدير أن الجنين في غالب الأمر يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة إن كان أنثى فاعتبر أقصى الأجلين، وزيد عليه العشر استظهاراً إذ ربما تضعف حركته في المبدي فلا يحسُّ بها، وعموم اللفظ يقتضي تساوي المسلمة والكتابية فيه، كما قاله الشافعي والحرّة والأمة كما قاله الأصم^(٤)، والحامل وغيرها، لكن القياس اقتضى تنصيف المدة للأمة، والإجماع خصَّ الحامل منه لقوله تعالى ﴿وَأُولَتْ الْأَحْصَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٥). وعن علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنها تعتد بأقصى الأجلين احتياطاً. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة أو المسلمون جميعاً. ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع، ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكره فعليهم أن يكفوهن، فإن قصرن فعليهم الجناح. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التعريض والتلويح لإيهام المقصود بمالم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، كقول السائل جئتكَ لأُسَلِّمَ عليك، والكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك طويلُ النَّجَادِ للطويل وكثيرُ الرَّمَادِ للمضياف. والخُطْبَةُ بالضم والكسر اسم

(٢٣١/١).

(١) أي منوان منه بدرهم حيث حذف الضمير الرابط.

(٢) طه: ١٠٣.

(٣) طه: ١٠٤.

(٤) الأصم: هو يوسف بن يعقوب الواسطي أبو بكر الأصم، إمام جامع واسط، ومقرئها، ومَنْ انتهى إليه علوُّ رواية عاصم.

ولد سنة ثمان عشرة ومئتين، وتوفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة [معرفة القراء الكبار: (١/٢٥٠ رقم ١٥٦) وتاريخ بغداد (١٤/٣١٩ - ٣٢٠)].

(٥) الطلاق: ٤٤.

الحالة، غير أن المضمومة خُصَّت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها إنك جميلة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك. ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكره تصريحاً ولا تعريضاً. ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ. ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ استدراك على محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، عبر بالسر عن الوطء لأنه مما يُسرّ ثم عن العقد لأنه سبب فيه. وقيل معناه لا تواعدوهن في السر على أن المعنى بالمواعدة في السر المواعدة بمأستهنجن. ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو أن تُعرّضوا ولا تُصرّحوا، والمستثنى منه محذوف أي: لا تواعدوهن مواعدةً إلا مواعدةً معروفة أو إلا مواعدةً بقولٍ معروف. وقيل إنه استثناء منقطع من سِرًّا وهو ضعيف لادائه إلى قولك لا تواعدوهن إلا التعريض، وهو غير موعود. وفيه دليل حُرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز تعريضها إن كانت معتدة وفاة. واختلف في معتدة الفراق البائن والأظهر جوازه. ﴿وَلَا تَنْزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي ولا تعزموا عقد النكاح. وقيل معناه ولا تقطعوا عقد النكاح فإن أصل العزم القطع.

﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز. ﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾ ولا تعزموا. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ﴾ لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه وتعالى. ﴿حَلِيلٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

(٢٣٦) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعة من مهر. وقيل من وزر لأنه لا بدعة في الطلاق قبل الميسس. وقيل: كان النبي ﷺ يكثر النهي عن الطلاق فظن أن فيه حرجاً فنفي ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن. وقرأ حمزة والكسائي ثَمَّسُوهُنَّ بضم التاء ومد الميم في جميع القرآن. ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إلا أن تفرضوا، أو حتى تفرضوا أو وتفرضوا. والفرض تسمية المهر، وفريضة نصب على المفعول به بمعنى فَعِيلَة بمعنى مفعول. والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية، ويحتمل المصدر. والمعنى: أنه لا تبعة على المطلّق من مطالبة المهر إذا كانت المطلقة غير ممسوسة ولم يسم لها مهراً، إذ لو كانت ممسوسة فعليه المُستَى أو مهر المثل، ولو كانت غير ممسوسة ولكن سمي لها فلها نصف المسمى، فمنطوق الآية ينفي الوجوب في الصورة الأولى، ومفهومها يقتضي الوجوب على الجملة في الآخريتين. ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ عطف على مقدر أي فطلقوهن ومتعوهن، والحكمة في إيجاب المُتَّة جبراً إباحة الطلاق، وتقديرها مفوض إلى رأي الحاكم ويؤيده قوله: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ أي على كل من السعة والمقتير الضيق الحال ما يطيقه ويليق به، ويدل عليه قوله عليه السلام لأنصاري طلق امرأته المفوضة قبل أن يمسه «متعها»

بقلنسوتك»^(١). وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: هي درع وملحفة وخمار على حسب الحال إلا أن يقل مهر مثلها عن ذلك فلها نصف مهر المثل، ومفهوم الآية يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوضة التي لم يمسه الزوج، والحق بها الشافعي رحمه الله تعالى في أحد قوليه الممسوسة المفوضة وغيرها قياساً، وهو مقدم على المفهوم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان^(٢) بفتح الدال ﴿مَتَاعًا﴾ متمتعاً. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة. ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعاً، أو مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً. ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلقات بالتمتع وسماهم محسنين قبل الفعل للمشاركة ترغيباً وتحريضاً.

وَأَن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

(٢٣٧) ﴿وَأَن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ لما ذكر حكم المفوضة أتبعه حكم نسيها. ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهن، أو فالواجب نصف ما فرضتم لهن، وهو دليل على أن الجناح المنفي ثم تبعة المهر وأن لا متعة مع التشطير لأنه قسيمها ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ أي المطلقات فلا يأخذن شيئاً، والصيغة تحتل التذكير والتأنيث، والفرق في الأول أن الواو ضمير والنون علامة الرفع والثاني لام الفعل والنون ضمير والفعل مبني ولذلك لم يؤثر فيه أن ههنا ونصب المعطوف عليه. ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ﴾ أي الزوج المالك لعقده وحله عما يعود إليه بالتشطير فيسوق المهر إليها كاملاً، وهو مشعر بأن الطلاق قبل المسيس مخير للزوج غير مشطر بنفسه، وإليه ذهب بعض أصحابنا والحنفية. وقيل الولي الذي يلي عقد نكاحهن وذلك إذا كانت المرأة صغيرة، وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى. ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يؤيد الوجه الأول وعفو الزوج على وجه التخيير ظاهر وعلى الوجه الآخر عبارة عن الزيادة على الحق، وتسميتها عفواً إما على المشاكلة وإما لأنهم يسوقون المهر إلى النساء عند التزوج، فمن طلق قبل المسيس استحق استرداد النصف فإذا لم يستردّه فقد عفا عنه. وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو^(٣). ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) لم أقف عليه!!؟

(٢) ابن ذكوان هو عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي، اشتهر بالرواية عن ابن عامر أحد القراء السبعة، قال عنه أبو زرعة الدمشقي: إنه الحافظ الدمشقي، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمن ابن ذكوان أقرأ منه توفي عام (٢٤٢) هـ.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٥١/٧) والطبري في «جامع البيان» (٥٤٦/٢) والدارقطني (٢٧٩/٣) كلهم من طريق محمد بن عمرو، لكن البيهقي عنه عن أبي سلمة عنه، والطبري عنه عن نافع عنه والدارقطني عنه يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب وأبي سلمة معاً عنه، وعنه عن يحيى وعنه عن أبي سلمة من طريقين عنه وقال =

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

بَصِيرٌ ﴿ لا يضيع تفصلكم وإحسانكم.

(٢٣٨) ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها، ولعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها. ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ أي الوسطى بينها، أو الفضلى منها خصوصاً وهي صلاة العصر لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله بيوتهم ناراً»^(١). وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها واجتماع الملائكة. وقيل صلاة الظهر لأنها في وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام «أفضل العبادات أحزمها». وقيل صلاة الفجر لأنها بين صلاتي النهار والليل والواقعة في الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة. وقيل المغرب لأنها المتوسطة بالعدد ووتر النهار. وقيل العشاء لأنها بين جهريتين واقعتين طرفي الليل. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ: والصلاة الوسطى صلاة العصر^(٢)، فتكون صلاة من الأربع خست بالذكر مع العصر لانفرادهما بالفضل. وقرئ بالنصب على الاختصاص والمدح^(٣). ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ في الصلاة. ﴿ قَانِتِينَ ﴾ ذاكرين له في القيام، والقنوت الذكر فيه. وقيل خاشعين، وقال ابن المسيب المراد به القنوت في الصباح.

(٢٣٩) ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ من عدو أو غيره. ﴿ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ فصلوا راجلين أو راكبين ورجالاً جمع راجل أو رَجَلٍ بمعناه كقائم وقيام، وفيه دليل على وجوب الصلاة حال

الآبادي في الطرق الثلاث: رواه ثقات.

وبهذا يتقوى ما عند البيهقي ففي إسناده يحيى بن أبي حاطب وفيه كلام يسير.

(١) أخرجه مسلم ٤٣٧/١ رقم ٢٠٥ عن علي.

وأخرجه مسلم أيضاً رقم ٢٠٣، ٢٠٤ ليس فيهما ذكر العصر، لكن فيهما ما يُشعر بأنها العصر وهو قوله: حتى آتت: حتى غربت الشمس.

وأخرجه البخاري ١٠٥/٦ رقم ٢٩٣١ و(٤٠٥/٧) رقم ٤١١١ و(١٩٥/٨) رقم ٤٥٣٣ و(١٩٤/١١) رقم ٦٣٩٦ وعنده في الرقم الأخير «وهي صلاة العصر». وجزم الكرمانى بأنه مُدرج.

وأخرجه أبو داود (٢٨٧/١) رقم ٤٠٩ وعنده أيضاً «صلاة العصر». والترمذي (٢١٧/٥) رقم ٢٩٨٤ والنسائي (٢٣٦/١) رقم ٤٧٣ وعندهما ما يُشعر بأنها صلاة العصر، وهو قوله «حتى غربت الشمس».

● وأخرج مسلم (٤٣٧/١) رقم ٢٠٦ والترمذي (٢١٨/٥) رقم ٢٩٧٥ من حديث ابن مسعود مرفوعاً بلفظ «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

● وأخرج الترمذي (٢١٧/٥) رقم ٢٩٨٣ عن سمرة مرفوعاً بلفظ «صلاة الوسطى صلاة العصر».

(٢) وكانت هذه القراءة موجودة وقد صحت الأسانيد بنسخها كما ذكر الشوكاني في فتح القدير (٢٥٧/١).

(٣) وأرجح الأقوال في تعيين الصلاة الوسطى أنها صلاة العصر وهو ما ذهب إليه الجمهور. انظر فتح القدير للشوكاني ٢٥٦/١ حيث عرض الأدلة بإسهاب.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

المسايقة^(١) وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلى حال المشي والمسايقة ما لم يمكن الوقوف. ﴿فَلَمَّا آَمَنْتُمْ﴾ وزال خوفكم. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ صلوا صلاة الأمن^(٢)، أو اشكروه على الأمن. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ ذكراً مثل ما علمكم من الشرائع وكيفية الصلاة حالتي الخوف والأمن أو شكراً يوازيه، وما مصدرية أو موصولة. ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ مفعول علمكم.

(٢٤٠) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وحمة وحفص عن عاصم على تقدير والذين يتوفون منكم يوصون وصية، أو ليوصوا وصية، أو كُتِبَ الله عليهم وصية، أو ألزم الذين يتوفون وصية. ويؤيد ذلك قراءة كُتِبَ عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول مكانه. وقرأ الباقر بالرفع على تقدير ووصية الذين يتوفون، أو وحكمهم وصية، أو والذين يتوفون أهل وصية، أو كُتِبَ عليهم وصية، أو عليهم وصية وقرىء متاعاً بذلها. ﴿مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ نَصَبَ بيوصون إن أضمرت وإلا فبالوصية وبمتاع على قراءة من قرأ لأنه بمعنى التمتع. ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ بدل منه، أو مصدر مؤكد كقولك هذا القول غير ما تقول، أو حال من أزواجهم أي غير مُخْرِجات، والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يتمتعن بعدهم حولاً بالسكنى والنفقة، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وهو وإن كان متقدماً في التلاوة فهو متأخر في النزول، وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن، والسكنى لها بعد ثابتة عندنا خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله. ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ عن منزل الأزواج. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة. ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ كالطيب وترك الإحداد. ﴿مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ مما لم ينكره الشرع، وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والإحداد عليه وإنما كانت مخيرة بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ينتقم ممن خالفه منهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي مصالحهم.

(٢٤١) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أثبت المتعة للمطلقات جميعاً بعدما أوجبها لواحدة منهن، وإفراد بعض العام بالحكم لا يخصصه إلا إذا جوزنا تخصيص المنطوق بالمفهوم ولذلك أوجبها ابن جبير لكل مطلقة، وأول غيره بما يعم التمتع الواجب والمستحب. وقال قوم المراد

(١) حال المسايقة أي حال التحام القتال.

(٢) عبر عن الصلاة بالذكر لأنه معظم أركانها (أبو السعود ٢٣٦/١).

(٣) هو سعيد بن جبير بن هشام، الإمام العَلَم أبو عبدالله الأَسَدِيُّ الوَالِيُّ مولاهم الكوفي قرأ على ابن عباس، وقرأ عليه أبو عمرو، والمنهال بن عمرو، وقال ابن عباس لأهل الكوفة: تسألوني وفيكم سعيد بن جبير: وكان سعيد =

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

بالمَتَاع نفقة العدة، ويجوز أن تكون اللام للعهد والتكرير للتأكيد أو لتكرار القضية.

(٢٤٢) ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشاً ومعاداً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها.

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ، وقد يخاطب به من لم يرَ ومن لم يسمع فإنه صار مثلاً في التعجب. ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يريد أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيها طاعون فخرجوا هارين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويتقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالى وقدره. أو قوماً من بني إسرائيل دعاهم مَلِكُهُمْ إلى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم ^(١). ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي ألوف كثيرة. قيل عشرة. وقيل ثلاثون. وقيل سبعون وقيل متألفون جمع إلف أو ألف كقاعد وقعود والواو للحال. ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعول له. ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي قال لهم موتوا فماتوا كقوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٢) والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة بأمر الله تعالى ومشيتته. وقيل ناداهم به مَلِكٌ، وإنما أُسْنِدَ إلى الله تعالى تخويفاً وتهويلاً. ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ قيل مر حزقيل عليه السلام على أهل داوردان ^(٣) وقد عَرِيت عظامهم وتفرقت أوصالهم، فتعجب من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه نادِ فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى، فنادى فقاموا يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت. وفائدة القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وحثهم على التوكل والاستسلام للقضاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا ويفوزوا وقص عليهم حالهم ليستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرونه كما ينبغي، ويجوز أن يُراد بالشكر الاعتبار والاستبصار.

(٢٤٤) ﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ أن الفرار من الموت غير مُخْلَصٍ منه وأن المقدر لا محالة واقع أمرهم بالقتال إذ لو جاء أجلهم في سبيل الله وإلا فالنصر والثواب. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بما يقوله المتخلف والسابق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمrane وهو من وراء الجزاء.

من سادة التابعين علماً وفضلاً، وصدقاً وعبادة. واستشهد بواسط في شعبان، سنة خمس وتسعين.

[معرفة القراء للذهبي (٦٨/١ - ٦٩ رقم ٢٥) وسير أعلام النبلاء (٣٢١/٤ - ٣٤٢)].

(١) تعدية الرؤية بإلى في قوله «إلى الذين خرجوا» على تقدير كونها بمعنى الإبصار باعتبار معنى النظر، وعلى تقدير كونها إدراكاً قلبياً لتضمن معنى الوصول والانتفاء على معنى ألم ينته علمك إليهم (أبو السعود ٢٣٧/١).

(٢) الأنعام: «٧٣».

(٣) داوردان: قرية قبل واسط، وهي من نواحي شرق واسط، وبينهما فرسخ.

انظر معجم البلدان (٤٣٤/٢).

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَاقِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

(٢٤٥) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ من استفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء، وذا خبره، والذي صفة ذا أو بدله، وإقراض الله سبحانه وتعالى مثل لتقديم العمل الذي به يطلب ثوابه. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ إقراضاً حسناً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضاً حلالاً طيباً. وقيل: القرض الحسن بالمجاهدة والإنفاق في سبيل الله ﴿فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ فيضاعف جزاءه، أخرجه على صورة المغالبة للمبالغة، وقرأ عاصم بالنصب على جواب الاستفهام حملاً على المعنى، فإن من ذا الذي يقرض الله في معنى أيقرض الله أحد. وقرأ ابن كثير فيضعفه بالرفع والتشديد وابن عامر ويعقوب بالنصب. ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرة لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى. وقيل الواحد بسبعمائة، وأضعافاً جمع ضعف ونصبه على الحال من الضمير المنصوب، أو المفعول الثاني لتضمن المضاعفة معنى التصيير أو المصدر على أن الضعف اسم مصدر وجمعه للتنويع. ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يَغْتَر على بعض ويوسع على بعض حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كيلا يبدل حالكم. وقرأ نافع والكسائي والبزي وأبو بكر بالصاد ومثله في الأعراف في قوله تعالى ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾^(١) ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ما قدمتم.

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الملائكة يجتمعون للتشاور، ولا واحد له كالقوم ومن للبعيض. ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي من بعد وفاته ومن للابتداء. ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ هو يوشع، أو شمعون، أو شمويل عليهم السلام. ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أقم لنا أميراً نهض معه للقتال يدبر أمره ونصدر فيه عن رأيه، وجزم نقاتل على الجواب. وقرأ بالرفع على أنه حال أي ابعته لنا مقدّرين القتال، ويقاتل بالياء مجزوماً ومرفوعاً على الجواب والوصف لملكاً. ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ فضل بين عسى وخبره بالشرط، والمعنى أتوقع جبنكم عن القتال إن كتب عليكم، فأدخل هل على فعل التوقع مستفهماً عما هو المتوقع عنده تقريراً وتشبيهاً. وقرأ نافع عَسَيْتُمْ بكسر السين. ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي أي غرض لنا في ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجب ويحث عليه من الإخراج عن الأوطان والإفراد عن الأولاد، وذلك أن جالوت ومن معه من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فظهروا على بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء الملوك أربعمئة وأربعين. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ثلاثمئة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلَ مُوسَىٰ وَآلَ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

وعيد لهم على ظلمهم في ترك الجهاد.

(٢٤٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ طالوت علم عبري كدوداد وجعله فَعْلُوتًا من الطول تعسف يدفعه منع صرفه، روي أن نبيهم ﷺ لما دعا الله أن يملكهم أتى بعضا يُقَاسُ بها من يُمَلِّكُ عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أين يكون له ذلك ويستاهل. ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ والحال أنا أحق بالملك منه وراثة ومكنة وإنه فقير لا مال له يعتضد به، وإنما قالوا ذلك لأن طالوت كان فقيراً راعياً أو سقاءً أو دباغاً من أولاد بنيامين ولم تكن فيهم النبوة والملك، وإنما كانت النبوة في أولاد لاوي بن يعقوب والملك في أولاد يهوذا وكان فيهم من السبطين خلق. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك، أولاً بأن العمدة فيه اصطفاؤه الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وثانياً بأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب لا ما ذكرتم وقد زاده الله فيهما وكان الرجل القائم يمد يده فينال رأسه، وثالثاً بأن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتبه من يشاء، ورابعاً أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره.

(٢٤٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حُجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم. ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الصندوق فَعْلُوت من التَّوْب، وهو الرجوع فإنه لا يزال يرجع إلى ما يخرج منه، وليس بفَاعُول لِقَلَّة نحو سَلِسَ وَقَلَقَ، ومن قرأه بالهاء فلعله أبدله منه كما أبدل من تاء التأنيث لاشتراكهما في الهمس والزيادة، ويريد به صندوق التوراة وكان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين^(١). ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الضمير

(١) قوله عن التابوت (أنه كان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب...) هو من الإسرائيليات والإسرائيليات هي ما كان وارداً من العلم عن طريق بني إسرائيل سواء كان في كتبهم «التوراة والإنجيل» أو عن علمائهم.

والقرآن الكريم لم يبين في سياق القصص إلا ما تتم الحاجة إليه ويتعلق بغرض القصة. فهو يهمل التفاصيل التي لا فائدة في ذكرها في السياق.

وعليه فما ورد من تفاصيل عن الأسماء، وعن تعيين التابوت وطوله وشكل خشبه، وسفينة نوح وكيفيتها وأين استقرت... كل ذلك من الإسرائيليات التي أعرض القرآن عن تفصيلها.

للإتيان أي في إتيانه سكون لكم وطمأنينة، أو للتأبوت أي مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة. وكان موسى عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قديمه فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون. وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كراس الهرة وذنبها وجناحان فتتن فَيَزِفُ التابوت نحو العدو وهم يتبعونه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر. وقيل صورة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. وقيل التابوت هو القلب والسكينة ما فيه من العلم والإخلاص وإتيانه مصير قلبه مقرأ للعلم والوقار بعد أن لم يكن. ﴿وَقَيْئَةُ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ رُضَاضُ الْأَلْوَاخِ^(١) وعصا موسى وثيابه وعمامة هرون، وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما. والآل مقحم لتفخيم شأنهما، أو أنبياء بني إسرائيل لأنهم أبناء عمهما. ﴿تَحْمِيلَةُ الْمَلَائِكَةِ﴾ قيل رفعه الله بعد موسى فتزلت به الملائكة وهم ينظرون إليه. وقيل كان بعده مع أنبيائهم يستفتحون به حتى أفسدوا فغلبهم الكفار عليه، وكان في أرض جالوت إلى أن ملك الله طالوت فأصابهم بلاء حتى هلكت خمس مدائن فتشاءموا بالتأبوت فوضعوه على ثورين فساقتهما الملائكة إلى طالوت. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام النبي عليه الصلاة والسلام وأن يكون ابتداء خطاب من الله سبحانه وتعالى.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَرُوا لِبِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

(٢٤٩) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ انفصل بهم عن بلده لقتال العماليقة، وأصله فَصَلَ نَفْسَهُ عَنْهُ ولكن لما كثر حذف مفعوله صار كاللازم. روي: أنه قال لهم لا يخرج معي إلا الشاب النشيط الفارع، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيطاً فسلخوا مفازة^(٢) وسألوا أن يُجْزِيَ الله لهم نهراً. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ مُعَامِلُكُمْ معاملَةً الْمُخْتَبَرِ بما اقترحتموه. ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ

= ونحن لا يمكننا تصديق ولا تكذيب ما ورد من ذلك، إلا ما كان مخالفاً لصريح القرآن الكريم والسنة المطهرة (وانظر لبيان الإسرائيليات في التفسير الذهبي في التفسير والمفسرون ١/١٦٥) والبيضاوي يتعرض للإسرائيليات إلا أنه كثيراً ما يصدرها بلفظ قيل وروي الذي يدل على عدم الجزم به.

(١) رُضَاضُ الْأَلْوَاخِ أي فتاتها.

(٢) المفازة هي الموضع المُهْلِك، مأخوذ من فَوَّزَ بتشديد الواو - إذا مات - . وسميت مفازة لأنها مظنة الموت (المصباح المنير، مادة فوز).

فَلَيْسَ مَعِيَ ﴿١﴾ فليس من أشياعي، أو ليس بمُتَّحِدٍ معي. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مَعِيَ﴾ أي من لم يذقه من طَعِمَ الشيء إذا ذاقه مأكولاً أو مشروباً، قال الشاعر: وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نَقَاحاً^(١) وَلَا بَرْدًا. وإنما علم ذلك بالوحي إن كان نبياً كما قيل، أو بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا مَنْ أَغْرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ استثناء من قوله فمن شرب منه، وإنما قُدِّمَت عليه الجملة الثانية للعناية بها كما قُدِّمَ والصائبون على الخبر في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾^(٢) والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير، وقرأ ابن عامر والكوفيون غُرْفَةً بضم الغين. ﴿فَتَشْرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي فكَرَعُوا فيه إذ الأصل في الشرب منه أن لا يكون بوسط، وتعميم الأول ليتصل الاستثناء، أو أفرطوا في الشرب منه إلا قليلاً منهم. وقرئ بالرفع حملاً على المعنى فإن قوله فشربوا منه في معنى فلم يطيعوه والقليل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وقيل ثلاثة آلاف. وقيل: ألفاً، روي أن من اقتصر على الغُرْفَةِ كفته لشربه وإداوته^(٣)، ومن لم يقتصر غلب عليه واسودت شفته ولم يقدر أن يمضي وهكذا الدنيا لقاصد الآخرة. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي القليل الذين لم يخالفوه. ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض. ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لكثرتهم وقوتهم. ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾ أي قال الخُلَصَّ منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى. وقيل: هم القليل الذين ثبتوا معه، والضمير في قالوا للكثير المنحذلين عنه اعتذاراً في التخلف وتخذيلاً للقليل، وكأنهم تقاولوا به والنهر بينهما. ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ بحكمه وتيسيره، وكم تحتمل الخبر والاستفهام، ومن مبيّنة أو مزيدة. والفئة الفرقة من الناس من قَاوَتْ رأسه إذا شققته، أو من فاء رجع فوزئها فَعَةً أو قَلَةً^(٤). ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٥). بالنصر والإثابة^(٥).

(٢٥٠) ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ظهوروا لهم ودنوا منهم. ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَسِيتَ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٦) التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه

(١) النقاخ هو الماء العذب الذي ينقخ الفؤاد ببرده.

(٢) البقرة: ٦٢.

(٣) الإداوة هي وعاء الماء للتطهير.

(٤) روعي في الجواب نكتة بديعة، حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة - حسبما وقع في كلام أصحابهم - وهو مبالغة في رد مقالتهم وتسكين قلوبهم. وهو جواب ناشئ من ثقتهم بنصر الله وتأيده، ولا دخل في ذلك لظن لقاء الله تعالى... ولا ريب في أن ما ذكر في حيز الصلة ينبغي أن يكون مداراً للحكم الوارد على الموصول، فلا أقل من أن يكون وصفاً ملائماً له، فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأيده، عبر عنه بذلك مبالغة (أبو السعود ٢٤٣/١).

(٥) وقال أبو السعود: (فإن المراد بالمعية معية نصره وتوفيقه حتماً، وحملها على المعية بالإثابة يأباه أنهم إنما قالوه تسميةً لجوابهم وتأيداً له بطريق الاعتراض التذييلي تشجيعاً لأصحابهم وتثبيتاً لهم على الصبر المؤدي إلى الغلبة. ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالإثابة قطعاً) أبو السعود ٢٤٣/١.

(٦) «قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً» في التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال وإيثار الإفرغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفضيم من الجزالة مالا يخفى.

«وانصُرنا على القوم الكافرين» وضع الكافرين في موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده للإشعار بعله النصر =

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً.

(٢٥١) ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فكسروهم بنصره، أو مصاحبين لنصره إياهم إجابة لدعائهم. ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ قيل: كان إيشا في عسكر طالوت معه ستة من بني، وكان داود سابعهم وكان صغيراً يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد كلمه في الطريق ثلاثة أحجار وقالت له: إنك بنا تقتل جالوت، فحملها في مخلاته ورماه بها فقتله ثم روجه طالوت بنته. ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل ولم يجتمعوا قبل داود على ملك. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة. ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ كالسرد وكلام الدواب والطيور. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض وينصر المسلمين على الكفار ويكف بهم فسادهم لغلبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم. وقرأ نافع هنا وفي الحج دِفاعُ الله.

(٢٥٢) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام الجبابرة وقتل داود جالوت ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ. ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لما اختبرت بها من غير تعرف واستماع.

(٢٥٣) ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة قصصها في السورة، أو المعلومة للرسول ﷺ، أو جماعة الرسل. واللام للاستغراق. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره. ﴿مَنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ تفضيل له، وهو موسى عليه الصلاة والسلام. وقيل: موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، كلم الله موسى ليلة الحيرة وفي الطور، ومحمداً عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى وبينهما بؤن بعيد، وقرىء كَلَّمَ الله وكَاَلَّمَ الله بالنصب، فإنه كلم الله كما أن الله كلمه ولذلك قيل كلم الله بمعنى مكالمه^(١). ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾^(٢) بأن فضله على غيره من وجوه متعددة أو بمراتب متباعدة، وهو محمد ﷺ فإنه خصه بالدعوة العامة والحُجج

= عليهم (أبو السعود ١/٢٤٤).

(١) إيراد الاسم الجليل «الله» بطريق الالتفات لتربية المهابة (أبو السعود ١/٢٤٦).

(٢) غير الأسلوب عن سابقه لتربية ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشرف (أبو السعود ١/٢٤٦).

المتكاثرة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الفاتنة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه كأنه العَلَمُ المتَّعَيْنُ لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم عليه السلام خصصه بالخُلَّة التي هي أعلى المراتب. وقيل: إدريس عليه السلام لقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(١). وقيل: أولو العزم من الرسل. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ خَصَّه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، وجعل معجزاته سبب تفضيله لأنها آيات واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي هدى الناس جميعاً. ﴿مَا أَفْتَكَلُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي المعجزات الواضحة لاختلافهم في الدين وتضليل بعضهم بعضاً. ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ﴾ بتوفيقه التزام دين الأنبياء تفضلاً. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ لإعراضه عنه بخذلانه. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلُوا﴾ كرهه للتاكيد. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفق من يشاء فضلاً ويخذل من يشاء عدلاً. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتة الأقدام، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض، ولكن بقاطع^(٢) لأن اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل وأن الحوادث بيد الله سبحانه وتعالى تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً إيماناً أو كفراً.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

(٢٥٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ما أوجب عليكم إنفاقه. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فرطتم والخلاص من عذابه إذ لا بيع فيه فتحصلون ما تنفقونه، أو تفتدون به من العذاب، ولا خُلَّة حتى يُعينكم عليه أخلاقكم أو يسامحكم به. ولا شفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٣) حتى تتكلوا على شفعاء تشفع لكم في حط ما في ذممكم، وإنما رفعت ثلاثتها مع قصد التعميم لأنها في التقدير جواب: هل فيه بيع، أو خلعة، أو شفاعة؟ وقد فتحها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب على الأصل. ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يريد والتاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضعوا المال في غير موضعه وصرفوه على غير وجهه، فوضع الكافرون موضعه تغليظاً لهم وتهديداً كقوله ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾^(٤) مكان ومن لم يخرج وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار لقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ

(١) مريم: ٥٧.

(٢) أي بدليل قاطع لا ظن فيه.

(٣) طه: ١٠٩.

(٤) آل عمران: ٩٧.

الزكاة ﴿١﴾.

(٢٥٥) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر، والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غيره. وللنحاة خلاف في أنه هل يُضَمَّرُ للأخير مثل في الوجود أو يَصَحُّ أن يوجد^(٢). ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي يصح أن يَعْلَمَ وَيَقْدِرَ، وكل ما يصح له فهو واجب لا يزول لامتناعه عن القوة والإمكان. ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، فَيَعْمَلُ مِنْ قَامَ بالأمر إذا حفظه، وقرئ القِيَامُ والقِيَم. ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السَّنة فتورّ يتقدم النوم قال ابن الرقاع:

وَسَنَانٌ أَفْصَدَهُ النَّعَاسُ فَرَتَّقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ

والنوم حال تَغْرِضٍ للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً. وتقديم السَّنة عليه - وقياسُ المبالغة عكسه - على ترتيب الوجود^(٣). والجملة نفي للتشبيه وتأكيد لكونه حياً قيوماً، فإن من أَخَذَهُ نَعَاسٌ أو نوم كان مؤفَّ^(٤) الحياة قاصراً في الحفظ والتدبير، ولذلك ترك العاطف فيه وفي الجمل التي بعده^(٥). ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لقيوميته واحتجاج به على تفرده في الألوهية، والمراد بما فيهما ما وجد فيهما داخلاً في حقيقتهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما فهو أبلغ من قوله: له السموات والأرض وما فيهن. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بيان لكبرياء شأنه سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يساويه أو يُدَانِيهِ يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعاً واستكانةً فضلاً عن أن يُعَاوَفَهُ عناداً أو مناصبة أي مخاصمة. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضي، أو أمور الدنيا وأمور الآخرة، أو عكسه، أو ما يحشونه وما يعقلونه، أو ما يدركونه وما لا يدركونه. والضمير لما في السموات والأرض، لأن فيهما العقلاء، أو لما دل عليه مَنْ ذَا مِنَ الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ من معلوماته. ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يَعْلَمُوه، وعطفه على ما قبله لأن مجموعهما يدل على تفرده بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته سبحانه وتعالى. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تصوير لعظمته وتمثيل مجرد كقوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ

(١) فصلت: (٧٦).

(٢) أي الخلاف في إضمار خبر «لا».

(٣) قوله: (وتقديم السَّنة عليه - وقياسُ المبالغة عكسه -...) أي أنه في صورة الإثبات إذا أريد المبالغة يُقدم الأضعف فتقول: شجاع باسل، وفي صورة النفي بعكس ذلك فيُقدم الأقوى فتقول: ليس بباسل بل ليس بشجاع، والمقام هنا مقام نفي.

إلا أن تقديم السَّنة على النوم يفيد المبالغة، من حيث إن نفي السَّنة يدل على نفي النوم فنفيه ثانياً صريحاً يفيد المبالغة (حاشية الكازروني على تفسير البضاوي ١/٢٥٧).

(٤) قوله (مؤف الحياة) أي أصابته آفة الحياة.

(٥) وتوسيط كلمة «لا» بين السَّنة والنوم للتنبيص على شمول النفي لكل منهما، كما في قوله تعالى: «ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة».

وفي التعبير عن عدم اعتراء النوم بعدم الأخذ لمراعاة الواقع، لأن عروض السنة والنوم إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء (أبو السعود ١/٢٤٨).

جَمِيعًا قَبَضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ»^(١) ولا كرسي في الحقيقة، ولا قاعد^(٢). وقيل كرسيه مجاز عن علمه أو ملكه، مأخوذ من كرسي العالم والمَلِك. وقيل جسم بين يدي العرش ولذلك سمي كرسيًا محيط بالسَّمَوَاتِ السَّبع، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما السموات السبع والأرضون السبع من الكرسي، إلا كحلقة في فلاة، وفضلُ العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»^(٣) ولعله الفَلَكُ المشهور بفَلَكِ البروج، وهو في الأصل اسم لما يقعد عليه

(١) الزمر: «٦٧».

(٢) قدم البيضاوي القول بأن المراد بالكرسي تصوير لعظمته وتمثيل مجرد، وهو يدل على اختياره له، وتصدير بقية الأقوال بلفظ قيل الدال على ضعفها. وهو يفيد نفي حقيقة الكرسي. والذي حملهم على ذلك هو أن الكرسي في أصل اللغة اسم لما يُقعد عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد، ووصفه تعالى بذلك يفيد المشابهة بالمخلوقات. ونفي الكرسي قاله الزمخشري في الكشاف ١٥٣/١ وتبعه البيضاوي وأبو السعود ٢٤٨/١.

والواقع أنه لا داعي لذلك، وإلا يلزم منه نفي كثير من الصفات، قال الألوسي: (وأنت تعلم أن ذلك وأمثاله ليس بالداعي القوي لنفي الكرسي بالكلية، فالحق أنه ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة. وتوهُمُ التجسيم لا يُعبأ به، وإلا للزم نفي الكثير من الصفات، وهو بمعزل عن اتباع الشارع والتسليم له. وأكثر السلف الصالح جعلوا ذلك من المتشابه.. وفوضوا علمه إلى الله تعالى مع القول بغاية التنزيه والتقديس له تعالى شأنه) روح المعاني ١٠/٣.

وعليه فيكون معنى الكرسي أنه الجسم الذي وردت الآثار بوصفه وهو محيط بالسَّمَوَاتِ والأرض (انظر فتح القدير للشوكاني ٢٧٢/١، وروح المعاني للألوسي ٩/٣). ويمكن أن يراد به العلم، كما ذهب إليه بعض السلف (فتح القدير ٢٧٢/١) وقد رجح هذا القول ابن جرير الطبري.

والله أعلم بذلك.

(٣) أخرجه ابن مردويه - كما في تفسير ابن كثير (٣١٧/١) - من طريق محمد بن أبي السري، أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي، عن القاسم بن محمد الثقفي، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري.

- وفيه ابن السري، قال عنه ابن حجر في التقریب (٢٠٤/٢): صدوق كثير الغلط.

- ومحمد بن عبد الله التميمي: لم أجد ترجمته.

- والقاسم بن محمد الثقفي: مجهول.

وللحديث طرق أخرى:

(منها): ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٥٩) وابن حبان (ص ٥٣ رقم ٩٤ - موارد) و(ص ٥٠٨ رقم ٢٠٧٩ - موارد) والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٠٥، من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده عن أبي إدريس الخولاني عنه.

- وفيه: إبراهيم قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل (١٤٣/٢): كذاب.

(ومنها):

ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٠٦) والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٠٤ من طريق يحيى بن سعيد السعدي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير الليثي عنه.

- وفيه: يحيى السعدي. قال عنه العقيلي في الضعفاء (٤٠٤/٤): لا يتابع على حديثه.

وقال ابن حبان في المجروحين (١٢٩/٣): يروي المقلوبات والمُلزقات لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد.

(ومنها):

ولا يفضل عن مقعد القاعد، وكأنه منسوب إلى الكرسي وهو الملبد. ﴿وَلَا يَتُودُّهُ﴾ أي ولا يثقله، مأخوذ من الأود وهو الاعوجاج. ﴿حَقَّظْهُمَا﴾ أي حفظه السموات والأرض، فحذفت الفاعل وأضاف المصدر إلى المفعول. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه. ﴿الْعَظِيمُ﴾ المستخقر بالإضافة إليه كل ما سواه.

وهذه الآية مشتبهة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصف بالحياة، واجب الوجود لذاته موجد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزّه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور، لا يُناسِبُ الأشباح ولا يعتريه ما يعترى الأرواح، مالك المُلْك والمَلَكوت، ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إلا من أذن له عالمُ الأشياء كلها جليها وخفيها كُلِّيها وجزئها، واسع الملك والقدرة كل ما يصح أن يملك ويُقدّر عليه، لا يؤده شاق، ولا يشغله شأن، متعال عما يدركه، وهو عظيم لا يحيط به فهم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لئن أعظم آية في القرآن آية الكرسي، من قرأها بعث الله ملكاً يكتب من حسناته، ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة»^(١). وقال «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة

= ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٢٠) من طريق أصبغ بن الفرج عنه. وكذا أورده الذهبي في «العلو» ص ٩١ وقال: هذا مرسل وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف. (ومنها):

ما أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش (١/١١٤) - كما في الصحيحة (١/١٧٤) - وفي إسناده: «إسماعيل بن مسلم المكي» وهو ضعيف. والخلاصة أن الحديث حسن لغيره والله أعلم.

● قال الألباني في «الصحيحة» (١/١٧٦): «والحديث خَرَجَ مَخْرَجَ التفسير لقوله تعالى: «وسع كرسى السموات والأرض» وهو صريح في كون الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه جِزْم قائم بنفسه وليس شيئاً معنوياً. ففيه رد على من يتأوله بمعنى المُلْك وسعة السلطان، كما جاء في بعض التفسير. ما روى عن ابن عباس أنه العلم فلا يصح إسناده إليه لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة عنه. رواه ابن جرير. قال ابن منده: ابن أبي المغيرة ليس بالقوي في ابن جبيرة.

واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث، كما في بعض الروايات أنه موضع القدمين، وأن له أطيافاً كأطياف الرّخُل الجديدة، وأنه يحمله أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة... إلخ فهذا كله لا يصح مرفوعاً عن النبي ﷺ. وبعضه أشد ضعفاً من بعض، وقد خرّجَتْ بعضها فيما علقناه على كتاب: «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان» مُلْحَقاً بآخره. ط: المكتب الإسلامي.

(١) أخرج هذه الجملة مسلم في صحيحه (١/٥٥٦ رقم ٢٥٨) ولفظه: قال رسول الله ﷺ يا أبا المنذر: أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» قال: فضرب صدري، وقال «لهيكَ العلمُ أبا المنذر» من حديث أبي بن كعب.

وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» رقم (١٧٨) وأبو داود (٢/١٥١ رقم ١٤٦٠) وأحمد (٥/١٤١).

● وأخرج الطبراني في الكبير (١/٣٣٤ رقم ٩٩٩) من حديث الأسقع البكري، بلفظ: «سأله إنسان: أية آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» حتى انقضت الآية.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/٣٢١) وقال: فيه راوٍ لم يُسم - وهو مولى للأسقع - وقد وثق، وبقيّة رجاله =

مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلى صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجارِ جاره والآيات حوله^(١).

ثقات.

وأخرج ابن مردويه - كما في تفسير ابن كثير (٣١٤/١ - ٣١٥) - ولفظه: «خرج عمر بن الخطاب ذات يوم إلى الناس وهم سُحاطات - أي جماعات - فقال: أيكم يُخبرني بأعظم آية في القرآن؟ فقال ابن مسعود: على الخير سقطت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظمُ آية في القرآن: الله لا إله إلا هو الحي القيوم». وفي إسناده: عيسى بن موسى غنجار. قال الحاكم: تتبعت رواياته عن الثقات فوجدتها مستقيمة. قلت: حديثه هذا مستقيم فإن له شاهداً في الصحيح.

● وأخرج أحمد (١٧٨/٥، ١٧٩) والحاكم في المستدرک (٢٨٢/٢) كلاهما من طريق أبي عمرو الدمشقي، عن عبيد بن خشخاش، عنه.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. قلت: أبو عمرو الشامي الدمشقي ضعيف (التقريب: ٤٥٤/٢).
(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٨/٢) رقم ٢٣٩٥ من طريق أبي إسحاق عن حبة العرنى، سمعت علي بن أبي طالب يقول، فذكره دون قوله: «لا يواظب عليها إلا صديق أو عابد» وذكر ما بعده.
وفي إسناده: نهشل بن سعيد، وهو متروك - الميزان (٢٧٥/٤) - وكذلك «حبة العرنى» ضعفه البخاري وابن معين والنسائي، وقال الحافظ: صدوق له أغلاط وكان غالباً في التشيع - الجرح والتعديل (٢٥٣/٣) - والمجروحين (٢٦٧/١) والتقريب (١٤٨/١).

● وأخرجه البيهقي في «الشعب» أيضاً (٤٥٨/٢ - ٤٥٩) رقم ٢٣٩٦ من حديث أنس بلفظ «من قرأ في دبر كل صلاة مكية آية الكرسي حُفِظَ إلى الصلاة، ولا يحافظ عليها إلا نبي، أو صديق، أو شهيد» وإسناده ضعيف سالم الخياط - الميزان (١١١/٢ - ١١٢) -.

● وصدر الحديث أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (١٠٠) والطبراني في الكبير (١٣٤/٨) رقم ٧٥٣٢ وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (١٢٤) كلهم من طريق محمد بن جعفر، عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة.

قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد أحدها جيد.

والحديث أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢٤٤/١) وتعقب عليه السيوطي في اللآلئ (٢٣٠/١) وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢٨٧/١) ونقلًا عن الحافظ ابن حجر في تخريج المشكاة أنه قال: غفل ابن الجوزي فأورده في الموضوعات وهو من أسمع ما وقع له، وقد تابع أبا أمامة، علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وجابر، وأنس. ثم قال: إذا انضمت هذه الأحاديث بعضها إلى بعض أخذت قوة.

● وله شاهد عن المغيرة بن شعبة عند أبي نعيم في الحلية (٢٢١/٣) من رواية محمد بن كعب القرظي عنه. وغفل ابن الجوزي فأخرجه في الموضوعات.

وقال الألباني في الصحيحة (رقم ٩٧٢): إسناده ثقات إلا عمر بن إبراهيم، قال العقيلي في الضعفاء (٤٥/٣): لا يتابع عليه.

والخلاصة أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

(٢٥٦) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إذ الإكراه في الحقيقة إلزام الغير فغلاً لا يرى فيه خيراً يَحْمِلُهُ عليه، ولكن ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رُشْدٌ يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غيٌّ يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يَخْتَجِ إلى الإكراه والإلجاء. وقيل إخبار في معنى النهي، أي لا تُكْرَهُوا في الدين، وهو إما عام منسوخ بقوله ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(١)، أو خاص بأهل الكتاب لما روي أن أنصارياً كان له ابنان تنصرا قبل المبعث، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدْعُكما حتى تُسَلِّما فأبيا، فاختموا إلى رسول الله ﷺ فقال: الأنصاري يا رسول الله أَيْدُخُلْ بِعَقْبِي النَّارَ وأنا أنظر إليه فنزلت فخلاهما^(٢). ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ بالشیطان، أو الأصنام، أو كل ما عُبد من دون الله، أو صَدَّ عن عبادة الله تعالى. فَعَلُّوت من الطغيان قُلِبَتْ عينه ولامه. ﴿وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل^(٣). ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ طَلَب الإمساك عن نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق، وهي مستعارة لمتمسك الحق من النظر الصحيح والرأي القويم. ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها يقال فصمته فانفصم إذا كسرته. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات، ولعله تهديد على النفاق.

(٢٥٧) ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ محبهم^(٤)، أو متولي أمورهم، والمراد بهم مَنْ أراد إيمانه وثبت في علمه أنه يؤمن. ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾ بهدايته وتوفيجه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوسوس والشبه المؤدية إلى الكفر. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى الموصول إلى الإيمان، والجملة خبر بعد خبر، أو حال من المستكن في الخبر، أو من الموصول، أو منهما، أو استئناف مبين، أو مقرر للولاية^(٥). ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أي الشياطين، أو المُضِلَّاتُ من الهوى والشیطان وغيرهما. ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ من النور الذي منحوه بالفطرة، إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات، أو من نور البينات إلى ظلمات الشكوك

(١) التحريم: (٩).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/٣) وإسناده ضعيف. لضعف محمد بن حميد الرازي شيخ الطبري، وجهالة محمد بن أبي محمد، وعنينة محمد بن إسحاق.

(٣) قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى لتوقفه عليه، فإن التخلية متقدمة على التحلية (أبو السعود ٢٥٠/١) أو مراعاة للترتيب الواقعي أو للاتصال بلفظ الغي (روح المعاني ١٣/٣).

(٤) المحبة غير الولاية وإن كان من ثمرات المحبة ولاية الله تعالى.

(٥) وإفراد النور لبيان وحدة الحق، أما جمع الظلمات فليبين تعدد فنون الضلال (أبو السعود ٢٥٠/١).

والشبهات^(١). وقيل: نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام، وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار التسبب لا يأبى تعلق قدرته تعالى وإرادته بها. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وعيد وتحذير، ولعل عدم مقابله بوعده المؤمنين تعظيم لشأنهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَاركَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾^(٢) تعجيب من محاجة نمرود^(٣) وحماقته. ﴿أَنَّ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ لأن آتاه أي أبطره إتياء الملك وحمّله على المحاجة، أو حاج لأجله شكراً له على طريقة العكس كقولك عاديتني لأنني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إتياء الله الملك الكافر من المعتزلة. ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ظرف لحاج، أو بدل من أن آتاه الله الملك على الوجه الثاني. ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بخلق الحياة والموت في الأجساد. وقرأ حمزة ربّ بحذف الياء. ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بالعفو عن القتل وبالقتل. وقرأ نافع أنا بلا ألف. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أعرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقدر فيه على نحو هذا التمويه دفعاً للمشغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثالي خفي إلى مثالي جلّي من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى. ولعل نمرود زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك، وإنما حمّله عليه

(١) ولعل تغيير النظم في قوله «والذين كفروا...» للاحتراز عن وضع الطاغوت في مقابلة الاسم الجليل، ولقصد المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضاً (أبو السعود ٢٥١/١).

(٢) هذه الآية استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى: «ألم تر أنهم في كل واد يهيمون» - «الشعراء: ٢٢٥» - كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها. وقد بدى بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله، ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجترأه على المحاجة في الله عز وجل وما أتى بها في آثائها من العظيمة المنادية بكمال حماقة... (أبو السعود ٢٥١/١).

(٣) نمرود هو ملك بابل، وروي أنه ملك الدنيا مشارقها ومغاربها (ابن كثير ٢٩٦/١).

بَطَرُ الْمُلْكِ وحماقته أو اعتقاده الحلول. وقيل لما كسر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام سجنه أياماً ثم أخرجه ليحرقه، فقال له من ربك الذي تدعو إليه وحاجه فيه. ﴿قَبِهَتْ أَلَّذِي كَفَرْتُ﴾ فصار مبهوراً. وقرىء قَبِهَتْ أي فغلب إبراهيم الكافر^(١). ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية. وقيل لا يهديهم محجة الاحتجاج أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة.

(٢٥٩) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ تقديره أو أرايت مثل الذي فُحِذِفَ لدلالة ألم تر عليه، وتخصيصه بحرف التشبيه لأنَّ الْمُتَكَبِّرَ لِلْأَحْيَاءِ كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى بخلاف مدعي الربوبية. وقيل الكاف مزيدة وتقدير الكلام ألم تر إلى الذي حاج أو الذي مر. وقيل إنه عطف محمول على المعنى كأنه قيل: ألم تر كالذي حاج، أو كالذي مر. وقيل: إنه من كلام إبراهيم ذكره جواباً لمعارضته وتقديره أو إن كنت تحيي فأحيي كإحياء الله تعالى الذي مر على قرية، وهو عزيز بن شرحيا، أو الخضر، أو كافر بالبعث، ويؤيده نَظْمُهُ مع نمرود. والقرية بيت المقدس حين خربه بختنصر. وقيل القرية التي خرج منها الألوف. وقيل غيرهما واشتقاقها من القرى وهو الجمع. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خالية ساقطة حيطانها على سقفها. ﴿قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء واستعظماً لقدرة المحيي إن كان القائل مؤمناً، واستبعاداً إن كان كافراً. وأتى في موضع نصب على الظرف بمعنى متى أو على الحال بمعنى كيف^(٢). ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ فآلبسه ميتاً مائة عام، أو أماته الله فلبث ميتاً مائة عام. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ بِالْأَحْيَاءِ﴾^(٣). ﴿قَالَ كَيْفَ لَيْتُ نَبِيٍّ﴾ قال ليت نبي. ﴿قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كقول الظان. وقيل: إنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوماً ثم التفت فرأى بقية منها فقال أو بعض يوم على الإضراب. ﴿قَالَ بَلْ لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بمرور الزمان، واشتقاقه من السَّنة. والهاء أصلية إن قَدَّرْتَ لَمْ السَّنة هاء وهاء سكنت إن قدرت واواً، وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فأبدلت النون الثالثة حرف علة كتقضي البازي. وإنما أفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد. وقيل كان طعامه تيناً وعنباً وشرابه عصيراً أو لبناً وكان الكل على حاله. وقرأ حمزة والكسائي لم يتسنن بغير الهاء في الوصل. ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، أو انظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته حفظناه بلا ماء وعلف كما حفظنا الطعام والشراب من التغير، والأول أدل على الحال وأوفق لما بعده. ﴿وَلِنَجْمِكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وفعلنا ذلك لنجعلك آية. روي أنه أتى قومه على حماره وقال أنا عزيز فكذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك، وقالوا هو ابن الله. وقيل لما رجع إلى منزله كان شاباً وأولاده شيوخاً فإذا حدثهم بحدث قالوا حديث

(١) وإيراد الكفر في حيز الصلة للإشعار بعلّة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفراً (أبو السعود ٢٥٢/١).

(٢) وتقديم المفعول «هذه» على الفاعل «الله» للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشئ من جهتها لا من جهة الفاعل (أبو السعود ٢٥٣/١).

(٣) عبر عن إحيائه بالبعث للدلالة على سرعته وسهولة تأتبه على الباري تعالى كأنه بعثه من النوم، وللإيدان بأنه أعاده كهيته يوم موته عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال (أبو السعود ٢٥٣/١).

مائة سنة. ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الظَّالِمِ﴾ يعني عظام الحمار، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم^(١). ﴿كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾ كيف نحيتها، أو نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه، وكيف منصوب بنشْرِها والجملة حال من العظام أي: انظر إليها محياة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب نُشِرُها من أنشر الله الموتى، وقرأ نُشِرُها من نَشَرَ بمعنى أنشر. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعلُ تَبَيَّنَ مضمَر يفسره ما بعده تقديره: فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير^(٢). ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول للدلالة الثاني عليه، أو يفسره ما قبله أي فلما تبين له ما أشكل عليه. وقرأ حمزة والكسائي قال اعلم على الأمر والأمرُ مخاطبُهُ، أو هو نفسه خاطبها به على طريق التبكيت^(٣).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً، وقيل لما قال نمرود أنا أحيي وأميت قال له: إن إحياء الله تعالى برد الروح إلى بدنها، فقال نمرود: هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم. وانتقل إلى تقرير آخر، ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه على الجواب إن سئل عنه مرة أخرى. ﴿قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ﴾ بأنني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة، قال له ذلك - وقد علم أنه أغرقُ الناس في الإيمان - ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه. ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ أي بلى آمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بمضامة العيان إلى الوحي أو الاستدلال. ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة، وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذي هو صفة الطاوس، والصولة المشهور بها الديك، وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب، والتمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام. وإنما خصَّ الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان، والطير مصدر سمي به أو جمع كصخب. ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فأملهن واضممن إليك لتأملها وتعرف شَيَاتِيهَا لثلاث تلتبس عليك بعد الإحياء. وقرأ حمزة ويعقوب فصُرهن بالكسر وهما لغتان

(١) كرر الأمر بالنظر إلى العظام مع أن المراد عظام الحمار أيضاً لأن المأمور به أولاً هو النظر إليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد، وثانياً هو النظر إليها من حيث تعريضها الحياة ومبادئها، أي وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك بعدما شاهدته في نفسك (أبو السعود ٢٥٤/١).

(٢) تعرض لكسو العظام باللحم ولم يتعرض لكيفية نفخ الروح لأنها مما لا تقتضي الحكمة بيانه (أبو السعود ٢٥٤/١).

(٣) وإيثار صيغة المضارع في قوله «أعلم» للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظراً إلى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل، بل إنما تبدل بالعيان وصفه. وفيه إشعار بأنه إنما قال ما قال بناء على الاستبعاد العادي واستعظاماً للأمر (أبو السعود ٢٥٥/١).

قال:

وَمَا صَيَدُ الْأَغْنَاكِ فِيهِمْ حِيلَةً وَلَكِنْ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ تَصُورُهَا

وقال:

وَفَزَعٌ يَصِيرُ الْجَيْدَ وَخَفٌّ كَأَنَّهُ عَلَى اللَّيْثِ قِنَوَانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِحِ

وقرىء فُصِّرَ هُنَّ بضم الصاد وكسرهما وهما لغتان، مشددة الراء من صرّه يَصِرُهُ وَيُصِرُهُ إذا جمعه وفُصِّرَ هُنَّ من التصرية وهي الجمع أيضاً. ﴿ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي ثم جَزَّهْنَّ وفَزَّقَ أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك. قيل كانت أربعة. وقيل سبعة. وقرأ أبو بكر جَزُؤًا وَجُزُؤًا^(١) بضم الزاي حيث وقع. ﴿ثُمَّ أَدْعَهُنَّ﴾ قل لهن تعالين بإذن الله تعالى. ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً. روي أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها فيمسك رؤوسها، ويخلط سائر أجزائها ويوزعها على الجبال، ثم يناديها، ففعل ذلك فجعل كل جزء يطير إلى آخر حتى صارت جثثاً ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن. وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية، فعليه أن يُقْبِلَ على القُوى البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها، فيطأوعنه مسرعات متى دعاهن بدعاية العقل أو الشرع. وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وَيُؤْمِنُ الضَّرَاعَةُ فِي الدَّعَاءِ وَحَسَنَ الْأَدَبِ فِي السُّؤَالِ، إنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عُزيراً بعد أن أماته مائة عام^(٢). ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجز عما يريد. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله ويذره.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

(٢٦١) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة على حذف المضاف. ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ أسند الإنبات إلى الحبة لما كانت من الأسباب كما يسند إلى الأرض والماء، والمنبت على الحقيقة هو الله تعالى، والمعنى: أنه يَخْرُجُ منها ساقٌ يتشعب لكل منه سبعُ شعب لكل منها سنبلة فيها مائة حبة، وهو تمثيل لا يقتضي وقوعه وقد يكون في الدَّرة والدُّخْن وفي التُّبْرِ في الأراضي المُغَلَّة. ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ تلك المضاعفة.

(١) (جزؤ) هكذا مكتوبة في الأصل، ولعل الأصح أنها بطرح الهمزة وتشديد الزاي أي (جُزًا) وهي قراءة أبي جعفر (انظر البحر المحيط لأبي حيان ٢/٣٠٠).

(٢) قوله «ثم ادعهن يأتينك سعيًا» اقتصر على حكاية أوامره عز وجل من غير تعرض لامثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى للإيذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلاً (أبو السعود ١/٢٥٧).

﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ بفضلله وعلى حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

(٢٦٢) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ نزلت في عثمان رضي الله تعالى عنه فإنه جهز جيش العُسرة بألف بعير بأقنابها وأحلاسها، وعبدالرحمن بن عوف فإنه أتى النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة^(١). والمن أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه. والأذى أن يتناول عليه بسبب ما أنعم إليه. وثم للتفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى^(٢). ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لعله لم يدخل الفاء فيه وقد تضمن ما أسند إليه معنى الشرط إيهاماً بأنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا^(٣).

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يتأنيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ رد جميل. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز عن السائل والحاجة، أو نيل المغفرة من الله بالرد الجميل، أو عفو من السائل بأن يعذر ويغفر رده. ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ خبر عنهما، وإنما صح الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ عن إنفاق بمن وإيذاء. ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاملة من يمن ويؤذي بالعقوبة.

(٢٦٤) ﴿يَتَأْنِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما. ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كإبطال المنافق الذي يراني بإنفاقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة، أو مماثلين الذي ينفق رياء الناس، والكاف في محل النصب على المصدر أو الحال، ورياء نصب على المفعول له أو الحال بمعنى مرانياً أو المصدر أي إنفاق رياء. ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي فمثل المراني في إنفاقه. ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانَ﴾ كمثل حجر أملس. ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أملس نقياً من التراب. ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ لا ينتفعون

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٧٢ - ٧٣) عن الكلبي بدون إسناد.

(٢) قدم المن على الأذى لكثرة وقوعه.

وتوسيط كلمة «لا» بين المن والأذى للدلالة على شمول النفي لاتباع كل واحد منهما (أبو السعود ٢٥٨/١).

(٣) قال أبو السعود: (تخلى الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيدان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك إتباع المن والأذى أمرٌ يَبَيِّنُ لا يحتاج إلى التصريح بالسببية) ٢٥٨/١. أما ما ذكره البيضاوي فيأباه مقام الترغيب في الفعل.

بما فعلوا رثاء ولا يجدون له ثواباً، والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس، أو الجمع كما في قوله:

إِنَّ الَّذِي حَانَتْ بَفْلَجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ ﴿٢٦٥﴾ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٦﴾ إِلَى الْخَيْرِ وَالرَّشَادِ، وفيه تعريض بأن الرثاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتِكَ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ ﴿٢٦٥﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٦﴾ أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وتثبيتاً بعض أنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذل ماله لوجه الله ثبتت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه ثبتها كلها، أو تصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء مبتدأ من أصل أنفسهم. وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال. ﴿كَمَثَلِ جَنَّتِكَ بِرَبْوَةٍ﴾ أي ومثل نفقة هؤلاء في الزكاة كمثال بستان بموضع مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظراً وأزكى ثمرأً. وقرأ ابن عامر وعاصم بربوة بالفتح وقرئ بالكسر وثلاثتها لغات فيها^(١). ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا﴾ ثمرتها. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالسكون للتخفيف^(٢). ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل. والمراد بالضَّعْف المثل كما أريد بالزوج الواحد في قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(٣) وقيل: أربعة أمثاله، ونصبه على الحال أي مضاعفاً. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ﴾ أي فيصيبها، أو فالذي يصبها طلّ، أو فطل يكفيها لكرم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها. وهو المطر الصغير القطر، والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضم إليها من أحواله، ويجوز أن يكون التمثيل لحالهم عند الله تعالى باللجنة على الربوة ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين في زلفاهم بالوابل والطل. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن الرثاء وترغيب في الإخلاص.

(٢٦٦) ﴿أَيُودُ أَحَدُكُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار^(٤). ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) أي قرئ بفتح الراء وضمها وكسرها. ولم يذكر قراءة الضم لأنها الأصل عنده.

(٢) أي بسكون الكاف.

(٣) هود: ٤٤٠.

(٤) الود حب الشيء مع تمنيه.

والهمزة لإنكار الوقوع كقوله: أضرب أبي؟ لا لإنكار الواقع، كقولك: أضرب أباك؟ على أن مناط الإنكار ليس=

أَلَا تَنْهَرُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿ جَعَلَ الْجَنَّةَ مِنْهُمَا مَعَ مَا فِيهَا مِنْ سَائِرِ الْأَشْجَارِ تَغْلِيّاً لَهَا لَشَرْفِهَا وَكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ لِيُدَلَّ عَلَى احْتَوَائِهَا عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَشْجَارِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالثَّمَرَاتِ الْمَنَافِعُ. ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ أي كبر السن، فَإِنَّ الْفَاقَةَ وَالْعَالَةَ فِي الشَّيْخُوخَةِ أَصْعَبُ، وَالْوَاوُ لِلْحَالِ أَوْ لِلْعَطْفِ حَمَلاً عَلَى الْمَعْنَى، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَيُّودُ أَحَدِكُمْ لَوْ كَانَتْ لَهُ جَنَّةٌ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ. ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ صغار لا قدرة لهم على الكسب. ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ عطف على أصابه، أَوْ تَكُونُ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى. وَالْإِعْصَارُ رِيحٌ عَاصِفَةٌ تَنَعَّكُسُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ مُسْتَدِيرَةً كَعُمُودٍ، وَالْمَعْنَى تَمَثِيلُ حَالٍ مِنْ يَفْعَلُ الْأَفْعَالِ الْحَسَنَةَ وَيُضْمُّ إِلَيْهَا مَا يُخْبِطُهَا كَرِيَاءٍ وَإِذَاءٍ فِي الْحَسْرَةِ وَالْأَسَفِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَاشْتَدَّتْ حَاجَتُهُ إِلَيْهَا وَجَدَهَا مُخْبَطَةً بِحَالٍ مِنْ هَذَا شَأْنِهِ. وَأَشْبَهُهُمْ بِهِ مِنْ جَالِ يَسْرِهِ فِي عَالَمِ الْمَلَائِكَةِ وَتَرْقَى بِفِكْرِهِ إِلَى جَنَابِ الْجَبْرُوتِ، ثُمَّ نَكَصَ عَلَى عَقْبِهِ إِلَى عَالَمِ الرُّؤُوسِ وَالتَّفَتُّ إِلَى مَا سِوَى الْحَقِّ وَجَعَلَ سَعْيَهُ هَبَاءً مَنُوراً. ﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي تَتَفَكَّرُونَ فِيهَا فَتَعْتَبِرُونَ بِهَا.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿

(٢٦٧) ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ مِنْ حِلَالِهِ أَوْ جِيَادِهِ. ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي وَمِنْ طَيِّبَاتِ مَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْحَبُوبِ وَالثَّمَرَاتِ وَالْمَعَادِنِ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ لِتَقْدِيمِ ذِكْرِهِ. ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ ﴾ أي وَلَا تَقْصِدُوا الرَّدِيءَ مِنْهُ أَيَّ مِنَ الْمَالِ، أَوْ مِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ. وَتَخْصِيصُهُ بِذَلِكَ لِأَنَّ التَّفَاوُتَ فِيهِ أَكْثَرُ. وَقُرِئَ وَلَا تُؤْمَمُوا^(١) وَلَا تُيَمَّمُوا بِضَمِّ التَّاءِ. ﴿ تُنْفِقُونَ ﴾ حَالُ مَقْدَرَةٍ مِنْ فَاعِلٍ تَيَمَّمُوا، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ مِنْهُ وَيَكُونُ الضَّمِيرُ لِلْخَبِيثِ وَالْجُمْلَةُ حَالاً مِنْهُ. ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ ﴾ أي وَحَالِكُمْ أَنْتُمْ لَا تَأْخُذُونَهُ فِي حَقُوقِكُمْ لِرَدَائِهِ. ﴿ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ ﴾ إِلَّا أَنْ تَتَسَامَحُوا فِيهِ، مُجَازٌ مِنْ أَغْمَضَ بَصَرَهُ إِذَا غَضَهُ. وَقُرِئَ تُغْمَضُوا أَيَّ تُحْمَلُوا عَلَى الْإِغْمَاضِ، أَوْ تَوْجَدُوا مُغْمَضِينَ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانُوا يَتَصَدَّقُونَ بِحَشَفِ الثَّمَرِ وَشَرَارِهِ فَهَوَا عَنْهُ. ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عَنْ إِنْفَاقِكُمْ، وَإِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ لِاتِّفَاعِكُمْ. ﴿ حَمِيدٌ ﴾ بِقَبُولِهِ وَإِثَابِهِ.

(٢٦٨) ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ فِي الْإِنْفَاقِ، وَالْوَعْدُ فِي الْأَصْلِ شَانِعٌ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقُرِئَ الْفَقْرُ بِالضَّمِّ وَالسُّكُونِ، وَبِضْمَتَيْنِ، وَفَتْحَتَيْنِ^(٢). ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ وَيُغْرِيكُمْ عَلَى الْبَخْلِ،

= جميع ما يتعلق به الود بل إنما هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق (أبو السعود ١/ ٢٦٠).

(١) القراءة الواردة بفتح التاء، وعليه فتكتب الهمزة على ألف (ولا تأمّموا) وهي قراءة عبدالله بن مسعود. (البحر المحيط ١/ ٣١٨، وروح المعاني ٣/ ٣٩).

(٢) «الشيطان يعدكم الفقر» عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يُضِفْ مجيء الفقر إلى جهته للإيذان بمبالغته في =

والعرب تسمي البخيل فاحشاً. وقيل المعاصي ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أي يعدكم في الإنفاق مغفرة لدنوبكم. ﴿وَفَضْلًا﴾ خلفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا أو في الآخرة. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بإنفاقه.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْفِقُوهَا أَلْفُ قُرْآنٍ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ تحقيق العلم وإتقان العلم. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مفعول أول أخر للاهتمام بالمفعول الثاني ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بناؤه للمفعول لأنه المقصود. وقرأ يعقوب بالكسر أي ومن يؤتيه الله الحكمة^(١). ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: أي خير كثير؟ إذ حيز له خير الدارين. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ بما قص من الآيات أو ما يتفكر، فإن المتفكر كالمتذكر لما أودع الله في قلبه من العلوم بالقوة. ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ذُوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى.

(٢٧٠) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سرّاً أو علانية، في حق أو باطل. ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية^(٢). ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ فيجازيكم عليه. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها، أو يمتنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر. ﴿وَمَا مِنْ أَنْصَارٍ﴾ من ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

(٢٧١) ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فينعم شيئاً إبداءها. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين على الأصل. وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وقالون^(٣) بكسر النون وسكون العين، وروي عنهم بكسر النون وإخفاء حركة العين وهو أقيس. ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْفِقُوهَا أَلْفُ قُرْآنٍ﴾ أي تعطوها مع الإخفاء. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم، وهذا في التطوع ولمن لم يُغْرِفَ بالمال، فإن إبداء الغرض لغيره أفضل لنفي التهمة عنه. عن ابن عباس رضي الله عنهما: صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين

= الإخبار بتحقيق مجيئه، كأنه نزل في تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب إرادته، أو لوقوعه في مقابلة وعده تعالى على طريق المشاكلة. (أبو السعود ١/ ٢٦٢).

(١) «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ» أظهر لفظ الحكمة في مقام الإضمار لبيان الاعتناء بشأنها وللإشعار بأنها علة الحكم (أبو السعود ١/ ٢٦٢).

(٢) والنذر هو: أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر (المفردات للراغب مادة نذر).

(٣) قالون: هو أبو موسى عيسى بن مينا النحوي، اشتهر بالرواية عن نافع أحد القراء السبعة، ولقب بقالون لجودة قراءته، توفي سنة (٢٢٠) هـ.

ضعفاً^(١) ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بـالياء أي والله يكفر أو الإخفاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش^(٢) ويعقوب بالنون مرفوعاً على أنه جملة فعلية مبتدأة أو اسمية معطوفة على ما بعد الفاء أي: ونحن نكفر، وقرأ نافع وحمزة والكسائي به مجزوماً على محل الفاء وما بعده، وقرأ بالتاء مرفوعاً ومجزوماً والفعل للصدقات. ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ترغيب في الإسرار.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَاِنَّ اللَّهَ بِوَيْءٍ عَلَيْهِمْ﴾

(٢٧٢) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد والحث على المحاسن والنهي عن المقابح كالمن والأذى وإنفاق الخبيث. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته، وإنها تخص بقوم دون قوم. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من نفقة معروفة. ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تَمُنُوا عليه ولا تنفقوا الخبيث. ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ حال، وكأنه قال وما تنفقون من خير فلأنفسكم غير منفقين إلا لابتغاء وجه الله وطلب ثوابه، أو عطف على ما قبله أي وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجهه فما بالكم تَمُنُون بها وتنفقون الخبيث. وقيل: نفي في معنى النهي. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، فهو تأكيد للشرطية السابقة، أو ما يخلف للمنفق استجابة لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً»^(٣) روي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم، فكروها لَمَّا أسلموا أن ينفعوهم فنزلت^(٤). وهذا في غير الواجب

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩٢/٣) من طريق علي بن أبي طلحة عنه. وأورده الترمذي الحكيم في نوادره (ص ٣٧٦) عن ابن عباس قال: «جعل الله صدقة التطوع يَفْضَلُ سَرَّهَا علانياتها سبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانياتها تَفْضَلُ سَرَّهَا بخمسة وعشرين ضعفاً، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

(٢) ابن عياش، هو شعبة بن عياش بن سالم الأسدي، ويكنى أبا بكر، وهو إمام عالم اشتهر بالرواية عن عاصم أحد القراء السبعة، وتوفي ابن عياش (١٩٣) هـ بالكوفة.

(٣) أخرج البخاري (٣٠٤/٣ رقم ١٤٤٢) ومسلم (٧٠٠/٢ رقم ١٠١٠/٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: «اللَّهُمَّ اعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، ويقول الآخر: اللَّهُمَّ اعْطِ مُسْكًا تَلْفًا».

وفي الباب أحاديث وآثار. انظر تخريجها في «الزهد» للإمام وكيع (٢/٦٦٦ - ٦٦٨ رقم ٣٧٩).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٤/٤٠٢) - والحاكم في المستدرک (٢/٢٨٥) و(٤/١٥٦) =

أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُمُونَ﴾ أي لا تُنْقِصُونَ ثواب نفقاتكم.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بمحذوف أي اعمدوا للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، أو صدقاتكم للفقراء. ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أحصرهم الجهاد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا اشتغالهم به. ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ ذهاباً فيها للكسب. وقيل هم أهل الصفة كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم، وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة بفتح السين. ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال، ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ من الضعف وورثاة الحال، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحافاً. وهو أن يلزم المسؤول حتى يعطيه، من قولهم كَحَفْنِي من فَضْلٍ لِحَافِهِ، أي أعطاني من فضل ما عنده، والمعنى أنهم لا يسألون وإن سألوا عن ضرورة لم يُلْحُوا. وقيل: هو نفي للأمرين كقوله:

على لا حِب لا يهتدي بمناره

فنصبه على المصدر فإنه كنوع من السؤال، أو على الحال. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

(٢٧٤) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي يَعْمُونَ الأوقات والأحوال بالخير. نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية. وقيل في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه: لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً ودرهم نهاراً، ودرهم سرّاً ودرهم علانية. وقيل: في ربط الخيل في سبيل الله والإنفاق عليها^(١). ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر الذين

= والطبري (٩٥/٣) والطبراني في الكبير (٥٤/١٢) رقم (١٢٤٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى (١٩١/٤) كلهم من طريق سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الذهبي على شرط البخاري ومسلم. وأخرجه البزار (٤٢/٣ - كشف) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣٢٤/٦) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(١) لعل تقديم الليل على النهار والسر على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار (أبو السعود ٢٦٥/١).

ينفقون، والفاء للسببية. وقيل للعطف والخبر محذوف أي ومنهم الذين ولذلك جوز الوقف على وعلائية.

(٢٧٥) ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع في المطعومات وهو زيادة في الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم أو نقد بنقد إلى أجل، أو في العوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه، وإنما كتب بالواو كالصلاة للتفخيم على لغة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم. ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء. ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أي الجنون، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجن يمسّه فيختلط عقله ولذلك قيل: جَنُّ الرجل^(١). وهو متعلق بلا يقومون أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكل الربا، أو يقوم أو يبتخط فيكون نهوضهم وسقوطهم كالْمَصْرُوعِينَ لا لاختلال عقولهم ولكن لأن الله أربى في بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظّموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله. وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع، والفرق بين فإن من أعطى درهمين بدرهم ضيع درهماً، ومن اشترى سلعة تساوي درهماً بدرهمين فلعل مساس الحاجة إليها، أو توقع رواجها يجبر هذا الغبن. ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ إنكار لتسويتهم وإبطال القياس بمعارضة النص. ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فمن بلغه وعظ من الله تعالى وزجر كالنهي عن الربا^(٢). ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ﴾ فاتعظ وتبع النهي. ﴿فَلَمَّا سَلَفَ﴾ تقدم أخذه التحريم ولا يسترد منه، وما في موضع الرفع بالظرف إن جعلت من موصولة، وبالإبتداء إن جعلت شرطية على رأي سيبويه إذ الظرف غير معتمد على ما قبله. ﴿وَأَمَرُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان من قبول الموعظة وصدق النية. وقيل يحكم في شأنه ولا اعتراض لكم عليه. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا، إذ الكلام فيه. ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم كفروا به.

(١) قول البيضاوي: وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع... وقوله: وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجن يمسّه فيختلط عقله...

وهي مسألة اعتزالية خالف فيها المعتزلة أهل السنة، وهي: هل للشياطين أثر على الإنسان من حيث المس والصرع بما يتأثر فيه جسمه وعقله؟

فالمعتزلة ينكرون قدرة الشيطان على المس والصرع، وقالوا بأن الآية واردة على ما يزعمه العرب ويعتقدونه من أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع وأن الجن يمسّه فيختلط عقله. ونسب الألوسي ذلك إلى القفال من الشافعية... (انظر الكشف للزمخشري ١/١٦٥ وتبعه البيضاوي وكذا أبو السعود ١/٢٦٦).

أما أهل السنة فيرون أن للشيطان القدرة على الصرع وللجنى القدرة على المس. وقد دلت الأحاديث صراحة على ذلك. وتأثيرهم على من يستكين بأوهامه وتخيلاته لسلطانهم، أو يتعرض لتقبل مسهم وتخبطاتهم باستعاذته بهم والتماسه نفعهم، أو استخدامهم للإضرار بأعدائه من إخوانه من الإنس، أو يغفل عن ذكر الله وتلاوة القرآن ويتجافى عن التحصن بالأوراد والاستعاذات المأثورة.

(انظر روح المعاني للألوسي ٣/٤٩ والعقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة ص ٢٨٩).

(٢) «من ربه» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجيء الموعظة للتربية (أبو السعود ١/٢٦٦).

يَمَحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

(٢٧٦) ﴿يَمَحُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه. ﴿وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه، وعنه عليه الصلاة والسلام «إن الله يقبل الصدقة ويربها كما يربي أحدكم مهره»^(١). وعنه عليه الصلاة والسلام «ما نقصت زكاة من مال قط»^(٢). ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ لا يرضى ولا يحب محبته للتوايين. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مُصْرَ على تحليل المحرمات. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في ارتكابه.

(٢٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم منه. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ﴾ عَظَفَهُمَا على ما يعتمها لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من آت. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائت.

(٢٧٨) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ واركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا. ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أمرتم به. روي: أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. فنزلت^(٣).

(١) أخرج البخاري (٢٧٨/٣) رقم (١٤١٠) و(٤١٥/١٣) رقم (٧٤٣٠) ومسلم (٧٠٢/٢) رقم (٦٣، ١٠١٤/٦٤) والترمذي (٤٩/٣ - ٥٠ رقم ٦٦١ و٦٦٢) والنسائي (٥٧/٥) رقم (٢٥٢٥) وابن ماجه (٥٩٠/١) رقم (٨٨٢) والدارمي (٣٩٥/١) ومالك (٩٩٥/٢) رقم (١) وأحمد في المسند (٢٦٨/٢)، (٣٣١، ٣٨٢، ٤٠٤، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣١، ٤٧١، ٥٣٨، ٥٤١).

كلهم من طرق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعذلي تمر من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلؤه حتى تكون مثل الجبل».

(٢) أخرج أحمد في المسند (١٩٣/١) عن عبدالرحمن بن عوف قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث والذي نفس محمد بيده إن كنت لحالفاً عليهن، لا ينقص مالاً من صدقة فتصدقوا، ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجهه الله إلا رفعه الله بها - وقال أبو سعيد مولى بني هاشم - إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا يفتح عند باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».

● وأخرج أحمد أيضاً في المسند (٢٣١/٤) عن أبي كبشة الأنماري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: فأما الثلاث الذي أقسم عليهن فإنه ما نقص مال عبد صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فيصبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزاً ولا يفتح باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدثكم حديثاً فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر... الحديث».

● وأخرج مسلم (٢٠٠١/٤) رقم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مال، ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠٦/٣) عن السدي وفي إسناده «موسى بن هارون» وقد أخذ التفسير عن كتاب فارسه عن عمرو بن حماد. =

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

(٢٧٩) ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به، وقرأ حمزة وعاصم في رواية ابن عياش فأذنوا أي فاعلموا بها غيركم، من الأذن وهو الاستماع فإنه من طرق العلم. وتنكير حرب للتعظيم وذلك يقتضي أن يُقاتل المُزبي بعد الاستتابة حتى يفيء إلى أمر الله، كالبಾಗಿ، ولا يقتضي كفره. روي: أنها لما نزلت قالت ثقيف لا يذبي لنا بحرب الله ورسوله^(١). ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من الارتباء واعتقاد حله. ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالمطل والنقصان، ويُفهم منه أنهم إن لم يتوبوا فليس لهم رأس مالهم وهو سديد على ما قلناه، إذ المصّر على التحليل مرتد وماله فيء.

(٢٨٠) ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم ذو عسرة. وقرئ ذاً عسرة أي وإن كان الغريم ذا عسرة. ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكمُ نظرة، أو فعليكم نظرة، أو فليكن نظرة وهي الإنظار. وقرئ فَنَظِرَةٌ على الخبر أي فالمستحق ناظره بمعنى منتظره أو صاحب نظرتة على طريق النسب، وفتناظره على الأمر أي فسامحه بالنظرة. ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار، وقرأ نافع وحمزة بضم السين، وهما لغتان كمشركة ومشرقة. وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

وَأَخْلَفُوكَ عَدَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بالإبراء. وقرأ عاصم بتخفيف الصاد. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أكثر ثواباً من الإنظار، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه. وقيل: المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه الصلاة والسلام «لَا يَحِلُّ دَيْنٌ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فَيُؤَخِّرُهُ إِلَّا كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ»^(٢) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما فيه من الذكر

= وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠٧/٣) عن ابن جريج، وفي إسناده «سديد» وهو ضعيف. وأخرجه أبو يعلى - كما في المجمع (١١٩/٤ - ١٢٠) - عن ابن عباس في سياق أطول وقال الهيثمي: فيه «محمد بن السائب الكلبي» وهو كذاب.

(١) أي لا قوة ولا قدرة لنا بحرب الله ورسوله. (٢) أخرج أحمد في المسند (٤٤٣/٤) والطبراني في الكبير (٢٤٠/١٨) رقم (٦٠٣) كلاهما من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش، عن أبي داود - الأعمى - عن عمران بن حصين ولفظ أحمد «من كان له على رجل حق فمَن أَخْرَهُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ».

ولفظ الطبراني «إذا كان للرجل على رجل حق فأخْرَهُ إِلَى أَجَلِهِ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ، فَإِنْ أَخْرَهُ بَعْدَ أَجَلِهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ». وأبو داود الأعمى كذاب.

● وأخرج أحمد في المسند (٣٦٠/٥) والحاكم في المستدرک (٢٩/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥٧/٥) وأبو نعيم في أخبار أصفهان (٢٨٦/٢).

كلهم من رواية عبد الوارث، عن محمد بن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ =

الجميل والأجر الجزيل.

وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

(٢٨١) ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه. وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم^(١). ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر^(٢) ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال وضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة^(٣) وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً وقيل أحداً وثمانين يوماً. وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة ساعات.

= يقول: «من أنظر مُغَيْراً فله بكل يوم صدقة قبل أن يحلَّ الدَّيْنُ فإذا حلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ بعد ذلك فله بكل يوم مثله صدقة». قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: إنما هو على شرط مسلم وحده، لأن سليمان بن بريدة لم يخرج له البخاري شيئاً، وإنما أخرج هو ومسلم لأخيه «عبدالله بن بريدة». والحديث صححه الألباني في الإرواء (رقم: ١٤٣٨) والصحيحة (رقم: ٨٦).

● وأخرج الطبراني في الكبير (١٥١/١١ رقم ١١٣٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من أنظر مُغَيْراً إلى مَيْسَرَتِهِ أَنْظَرَهُ الله بذنبه إلى توبته».

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٣٥/٤) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الحكم بن الجارود ضعفه الأزدي وشيخ الحكم وشيخ شيخه لم أعرفهما.

● وأخرج البخاري (٣٠٧/٤ رقم ٢٠٧٧) و(٥٨/٥ رقم ٢٣٩١) و(٤٩٤/٦ رقم ٣٤٥١) ومسلم (١١٩٤/٣) رقم ١٥٦٠/٢٦ كلاهما من حديث حذيفة مرفوعاً «تَلَقَّتْ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَقَالُوا: أَعْمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئاً؟ قَالَ: كُنْتُ أَدِينُ النَّاسَ فَأَمَرَ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظَرُوا الْمُغَيْرُ، وَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمَوْسَرِ، قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَجَوَّزُوا عَنْهُ».

(١) تنكير اليوم للتفخيم والتهويل، وتعليق الانتقاء به للمبالغة في التحذير عما فيه من الشدائد والأحوال (أبو السعود ٢٦٨/١).

(٢) وتعميم التوفية لكل نفس للمبالغة في تهويل اليوم.. (أبو السعود ٢٦٨/١).

(٣) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (١٣٧/٧) والطبراني - كما في «المجمع» (٣٢٤/٦) - بإسناد رجال أحدهما ثقات وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١١٦/٢) وقال: أخرجه أبو عبيد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه... من طرق عن ابن عباس وهو حديث صحيح. وأخرج ابن أبي شيبة عن السدي وعطية العوفي، مثله. وأخرج ابن الأنباري عن أبي صالح وسعيد بن جبير. مثله.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَفَسَطُ عَنْهُ اللَّهُ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

(٢٨٢) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ أي إذا دأب بعضكم بعضاً، تقول: دأبته إذا عاملته نسيئة معطياً أو آخذاً. وفائدة ذِكر الدين أن لا يتوهم من التداين المجازاة، ويُعلم تنوعه إلى المؤجل والحال، وأنه الباعث على الكتابة ويكون مرجع ضمير فاكْتُبُوهُ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم الأيام والأشهر لا بالحصاد وقدم الحاج. ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ لأنه أوثق وأدفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلم^(١). ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ مَنْ يَكْتُبُ السُّوِيَّةَ لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ، وهو في الحقيقة أمر للمتدائنين باختيار كاتب فقيه دَيِّنَ حتى يَجِيءَ مَكْتُوبُهُ مَوْثُوقًا به مَعْدَلًا بِالْشَّرْعِ^(٢). ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب. ﴿أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ مثل ما علمه الله من كتبة الوثائق، أو لا يَأْبَ أَنْ يَنْفَعِ النَّاسَ بَكِتَابَتِهِ كما نَفَعَهُ اللهُ بتعليمها كَقَوْلِهِ ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(٣). ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة المُعْلَمَةُ. أَمَرَ بها بعد النهي عن الإباء عنها تأكيداً، ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر فيكون النهي عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة. ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وليكن المملّي مَنْ عليه الحق لأنه الْمُقَرَّرُ المشهود عليه، والإملاء والإملاء واحد. ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي المملّي، أو

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٢/٢٠٥ رقم ١٢٩٠٣) والحاكم (٢/٢٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/١٨١) والطبري في «جامع البيان» (٢/١١٦ - ١١٧).

كلهم من طرق عن قتادة، عن أبي حسان الأعرج أن ابن عباس سئل عن السلف، فقال: أشهد أن الله أحله، وأنزل فيه أطول آية في كتاب الله «يا أيها الذين آمنوا إذا تدايَنْتُمْ بدين إلى أجل مسمى فاكْتُبُوهُ». قال الحاكم: صحيح على شرطهما، وقال الذهبي: إبراهيم بن بشار الرمادي، عن ابن عينة. قلت لم ينفرد به إبراهيم، فله طرق أخرى عند غير الحاكم لكنه ليس من رجال الشيخين. وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (رقم: ١٣٦٩).

(٢) وحذف المفعول إما لتعنيه أو للقصد إلى إيقاع نفس الفعل أي ليفعل الكتابة. وقواه تنال «بينكم» للإيدان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتدائنين ويكتب كلامهما ولا يكتفي بكلام أحدهما (أبو السعود ١/٢٦٩).

(٣) القصص: «٧٧».

الكاتب^(١). ﴿وَلَا يَخْشَى﴾ ولا ينقص. ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي من الحق، أو مما أُملي عليه^(٢). ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ ناقص العقل مبذراً. ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صبيّاً أو شيخاً مختلاً. ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ أو غير مستطيع للإملال بنفسه لخرس أو جهل باللغة. ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي الذي يلي أمره ويقوم مقامه من قِيمَ إن كان صبيّاً أو مختل العقل، أو وكيل أو مترجم إن كان غير مستطيع. وهو دليل جزيان النيابة في الإقرار، ولعله مخصوص بما تعاطاه القِيمُ أو الوكيل. ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان. ﴿مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود وإليه ذهب عامة العلماء وقال أبو حنيفة: تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين. ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فليشهد أو فليستشهد رجل وامرأتان، وهذا مخصوص بالأموال عندنا وبما عدا الحدود والقصاص عند أبي حنيفة. ﴿مِمَّنْ رَضُوا مِنْ أَلْشَّهَدَاءِ﴾ لعلمكم بعدالتهم^(٣). ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ عِلَّةُ اعتبار العدد أي لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتهما ذكرتها الأخرى، والعلّة في الحقيقة التذكير ولكن لما كان الضلال سبباً له نُزِّلَ منزلته كقولهم: أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه، وكأنه قيل: إرادة أن تُذَكَّرَ إحداهما الأخرى إن ضلت، وفيه إشعار بنقصان عقلهن وقلة ضبطهن. وقرأ حمزة إن تضلّ على الشرط فتذكر بالرفع. وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب فتذكر من الإذكار^(٤). ﴿وَلَا يَأْبُ أَلْشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة أو التحمل، وسموا شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الواقع، وما مزيدة. ﴿وَلَا تَسْمُرُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ ولا تملأوا من كثرة مدايناتكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب. وقيل كتى بالسأم عن الكسل لأنه صفة المنافق، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لا يقول المؤمن كسلت»^(٥). ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ صغيراً كان الحق أو كبيراً، أو مختصراً كان الكتاب أو مُشيعاً. ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى أن تكتبوه. ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أكثر قسطاً. ﴿وَأَقْرَبُ لِلشَّهَدَةِ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها، وهما مبنيان من أقسط وأقام على غير قياس، أو من قاسط بمعنى ذي قسط وقويم، وإنما صحت الواو في أقوم كما صحت في التعجب لجموده. ﴿وَأَدْنَى الْأَلْتَرَاتِبِ﴾ وأقرب في أن لا تشكوا في جنس الدين وقدره وأجله والشهود ونحو ذلك. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ استثناء من الأمر بالكتابة. والتجارة الحاضرة تعم المبايعة بدين أو عين، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد أي: إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا، لبعده عن التنازع

(١) جمع بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة في التحذير (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٢) شدد القرآن في تكليف المملي حيث جمع بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس لما فيه من الدواعي إلى المنهي عنه، فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٣) قوله «ممن ترضون» تخصيصهم بالوصف المذكور مع أن اعتباره ينبغي أن يكون في كل شهيد وذلك لقلة اتصاف النساء به (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٤) ولعل إثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة في الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٥) لم أقف عليه.

والنسيان. ونصب عاصم تجارة على أنه الخير والاسم مضمر تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كقوله:

بني أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بَلَاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعَا
ورَفَعَهَا الباقون على أنها الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة. ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذا التبايع، أو مطلقاً لأنه أحوط. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة. وقيل: إنها للوجوب ثم اختلف في إحكامها ونسخها. ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يَحْتَمِلُ البناءين، ويدل عليه أنه قرئ ولا يضار بالكسر والفتح. وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتحريف والتغيير في الكُتُب والشهادة، أو النهي عن الضرر بهما مثل أن يُعَجَّلَا عن مهم ويُكَلَّفَا الخروج عما حُدَّ لهما، ولا يُعْطَى الكاتب جَعْلُهُ، والشهيد مؤنة مجيئه حيث كان. ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ الضرر أو ما نهيتم عنه. ﴿فَأِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ خروج عن الطاعة لا حق بكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه. ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كرر لفظة «الله» في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَيْنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثِقَ أَمْنَتُهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(٢٨٣) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مسافرين. ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَيْنْ مَقْبُوضَةً﴾ فالذي يُسْتَوْثَقُ به رهان، أو فعليكم رهان، أو فليؤخذ رهان. وليس هذا التعليق لاشتراط السفر في الارتهان كما ظنه مجاهد^(١) والضحاك^(٢) رحمهما الله تعالى لأنه عليه السلام رَهَنَ درعه في المدينة من يهودي على عشرين صاعاً من شعير أخذه لأهله^(٣)، بل لإقامة التوثق للارتهان مقام التوثق بالكتابة في السفر الذي

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي إمام في التفسير، ولد في مكة، وسمع عائشة وأبا هريرة، وعبدالله بن عمرو، وعبدالله بن عباس، وكان أقل أصحابه رواية عنه في التفسير ولكنه أوثقهم. قال: قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، أقف عند كل آية أسأله: فيما نزلت وكيف كانت؟ وهو أحد القائلين بالمذهب العقلي في تفسير القرآن. تنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة. قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به وقال الذهبي: «أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به» وله تفسير اعتمد عليه الشافعي والبخاري وغيرهما. مات سنة (١٠٤هـ).

[معجم المفسرين لنويهض (٢/٤٦٢ - ٤٦٣) والتفسير والمفسرون للذهبي (١/١٠٦ - ١٠٩)].

(٢) الضحاك: هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم ويقال أبو محمد الخراساني كان معلماً مرموق المكانة، ومفسراً مشهوراً. توفي سنة ١٠٥ وقيل غير ذلك.

[تهذيب التهذيب (٤/٣٩٧ - ٣٩٨) والميزان (٢/٣٢٥ - ٣٢٦)].

(٣) أخرجه البخاري (٤/٣٠٢ رقم ٢٠٦٨) و(٤/٣١٩ رقم ٢٠٩٦) و(٤/٣٩٩ رقم ٢٢٠٠) و(٤/٤٣٣ رقم ٢٢٥٢) و(٥/٥٣ رقم ٢٣٨٦) و(٥/١٤٢ رقم ٢٥٠٩) و(٦/٩٩ رقم ٢٩١٦) و(٨/١٥١ رقم ٤٤٦٧) ومسلم (٣/١٢٢٦ =

هو مظنة إعوازها. والجمهور على اعتبار القبض فيه غير مالك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو قَرُّهُنْ كَسُفِّهِنْ وكلاهما جمع رهين بمعنى مرهون، وقرئ بإسكان الهاء على التخفيف. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي بعض الدائنين بعض المدينين واستغنى بأمانته عن الارتهان. ﴿فَلْيَوَدَّ الَّذِينَ آوَتُمِنْ أَسَنَتِهِ﴾ أي دينه، سماه أمانة لاثمائه عليه بترك الارتهان به. وقرئ الذي آتَمِنَ بقلب الهمزة ياء، والذي آتَمِنَ بإدغام الياء في التاء وهو خطأ لأن المنقلبة عن الهمزة في حكمها فلا تدغم^(١). ﴿وَلَيَتَّقِ اللَّهَ رَبُّهُ﴾ في الخيانة وإنكار الحق وفيه مبالغات^(٢). ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود، أو المدينون والشهادة شهادتهم على أنفسهم. ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ أي يَأْثُمُ قلبه أو قلبه يَأْثُمُ. والجملة خبر إن. وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقتَرَفُهُ، ونظيره: العين زانية والأذن زانية، أو للمبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال، وكأنه قيل: تمكن الإثم في نفسه وأخذ أشرف أجزائه وفاق سائر ذنوبه. وقرئ قَلْبُهُ بالنصب كحسن وجهه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

(٢٨٤) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلْقًا وَمُلْكًا. ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ يعني ما فيها من السوء والعزم عليه لترتب المغفرة والعذاب عليه. ﴿يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ يوم القيامة. وهو حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض^(٣). ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مغفرته. ﴿وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه، وهو صريح في نفي وجوب التعذيب. وقد رفعهما ابن عامر وعاصم ويعقوب على الاستئناف، وجزَمَهما الباكون عطفاً على جواب الشرط، ومن جزم بغير فاء جعلهما بدلاً منه بدل البعض من الكل أو الاشتمال كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا ثُلُمِمَ بَنَا فِي دِيَارِنَا نَجِدُ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجَا

وإدغام الراء في اللام لخن إذ الراء لا تدغم إلا في مثلها. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة^(٤).

= رقم ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦/١٦٠٣ والنسائي (٢٨٨/٧ رقم ٤٦٠٩) من حديث عائشة.

● وأخرجه البخاري (٣٠٢/٤ رقم ٢٠٦٨) و(١٤٠/٥ رقم ٢٥٠٨) والنسائي (٢٨٨/٧ رقم ٢٦١٠) من حديث أنس.

(١) وقد أورد الألوسي قبول البعض لما رده البيضاوي (روح المعاني ٦٣/٣).

(٢) وفي الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالا يخفى (أبو السعود ٢٧٢/١).

(٣) الروافض: سُمُّوا بالرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر - وقيل لرفضهم زيد بن علي رضي الله عنه عندما أنكر عليهم الطعن في أبي بكر وعمر -، ومنعهم من ذلك فرفضوه فقال لهم زيد: رفضتموني؟ قالوا: نعم فبقى عليهم هذا الاسم. وأجمعت الرافضة على إثبات الإمامة عقلاً، وأن إمامة علي وتقديمه ثابت نصاً وأن الأئمة معصومون، وقالوا: إن الأمة ارتدت بتركها إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلى غير ذلك من الأقوال الفاسدة. وهم أربع وعشرون فرقة.

(٤) حصل إشكال كبير في فهم هذه الآية، حتى إنه أشكل على الصحابة أنفسهم.

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(٢٨٥) ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ شهادة وتنصيب من الله تعالى على صحة إيمانه والاعتداد به، وإنه جازم في أمره غير شك فيه ^(١). ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ لا يخلو من أن يُعْطَفَ المؤمنون على الرسول فيكون الضمير الذي ينوب عنه التنوين راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أو يُجْعَلَ مبتدأ فيكون الضمير للمؤمنين، وباعتباره يصح وقوع كل بخبره خبر المبتدأ، ويكون إفراؤ الرسول بالحكم إما لتعظيمه أو لأن إيمانه عن مشاهدة وعيان وإيمانهم عن نظر واستدلال. وقرأ حمزة والكسائي: وكتابه يعني القرآن أو الجنس. والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع في وُحْدَانِ الجنس والجمع في جموعه، ولذلك قيل: الكتاب أكثر من الكتب ^(٢). ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي يقولون لا نفرق. وقرأ يعقوب لا يُفَرِّقُ بالياء، على أن الفعل لكل، وقرئ لا يُفَرِّقُونَ حملاً على معناه كقوله تعالى ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَخِيرَةٍ﴾ ^(٣) واحد في معنى الجمع لوقوعه في سياق النفي كقوله تعالى ﴿فَمَا يَنْكُرُونَ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ^(٤) ولذلك دخل عليه بين، والمراد نفي الفرق بالتصديق والتكذيب ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أجابنا. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك. ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ اغفر لنا غفرانك، أو نطلب غفرانك ^(٥).

= إلا أن نص الآية يفيد أن الله تعالى يحاسب على ما تخفيه وما تظهره النفس، إلا أنه يغفر حديث النفس، ويؤيده قوله عليه السلام: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم أو تعمل به». ورجح الشوكاني في فتح القدير (٣٠٥/١) بأن الآية منسوخة.

ولعل الأول أولى وهو اختيار الألوسي فانظر أدلته وسبب اختياره في ذلك (روح المعاني ٦٤/٣).

وفي الآية لفتات بيانية: حيث قدم الجار والمجرور على الفاعل في قوله «يحاسبكم به الله» وذلك للاعتناء به.

وقدم الإبداء على الإخفاء بخلاف قوله تعالى: «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله» - آل عمران:

٢٩ - فلما أن المعلق بما في أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال الظاهرة، أما العلم فتعلقه بها

كتعلقه بالأعمال الخافية.. كما أن مرتبة الإخفاء مقدمة على مرتبة الإبداء (أبو السعود ٢٧٣/١).

(١) قوله «من ربه» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبية على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له عليه السلام (أبو السعود ٢٧٤/١).

(٢) وتغيير النظم عن سابقه لبيان التفاوت بين إيمانه عليه السلام وإيمانهم.

وفيه نوع تفصيل لما أجمل في سابقه وذلك لبيان الكفاية في الإيمان الإجمالي إن لم يوجد ما يخالفه (أبو السعود

٢٧٤/١).

(٣) النمل: «٨٧».

(٤) الحاقة: «٤٧».

= (٥) قدم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لأن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول.

﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع بعد الموت وهو إقرار منهم بالبعث.

(٢٨٦) ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تسعه قدرتها فضلاً ورحمة، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها كقوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١) وهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير. ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من شر لا ينتفع بطاعتها ولا يتضرر بمعاصيها غيرها. وتخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشر لأن الاكتساب فيه احتمال والشر تشبهه النفس وتنجذب إليه فكانت أجداً في تحصيله وأعمل بخلاف الخير. ﴿رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة، أو بأنفسهما إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلاً فإن الذنوب كالسموم فكما أن تناولها يؤدي إلى الهلاك - وإن كان خطأ - فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضي إلى العقاب وإن لم تكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمةً وفضلاً فيجوز أن يدعو الإنسان به استدامةً واعتداداً بالنعمة فيه، ويؤيد ذلك مفهوم قوله عليه الصلاة والسلام «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»^(٢). ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ

= والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للمبالغة في التضرع والجوار (أبو السعود ٢٧٦/١).

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط - كما في «المجمع» (٢٥٠/٦) - لكن بلفظ: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه». وقال الألباني في الإرواء (رقم: ٨٢) الحديث بلفظ «رفع عن أمتي...» منكر. ● وله شاهد من حديث ابن عباس:

أخرجه ابن ماجه (٦٥٩/١) رقم ٢٠٤٥ والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥٧/٧) من رواية عطاء بن أبي رباح عنه، بلفظ «إن الله تجاوز عن أمتي...».

قال البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (٣٥٣/١): «إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع - والظاهر أنه منقطع بين عطاء وابن عباس بدليل زيادة «عبيد بن عمير» في الطريق - وليس يبعد أن يكون السقط من جهة الوليد ابن مسلم، فإنه كان يدلس تدليس التسوية» هـ.

● والطريق التي أشار إليها البوصيري، أخرجه ابن حبان في الموارد رقم (١٤٩٨) والدارقطني (١٧٠/٤ - ١٧١) والحاكم (١٩٨/٢) وابن حزم في أصول الأحكام (١٤٩/٥) كلهم من طريق الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبيد بن عمير، عنه، بلفظ «تجاوز...».

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال الألباني احتج به ابن حزم، وصححه الشيخ أحمد شاكر - محقق المجلد - وصححه الألباني لكن أعله أبو حاتم في العلل (٤٣١/١) بدعوى أن الأوزاعي لم يسمعه عن عطاء، إنما سمعه من رجل لم يسمه.

ورده الألباني فقال: إن الأوزاعي ثقة. بل إمام جليل، فلا يجوز تضعيف حديث الثقة لا سيما إذا كان مثل الأوزاعي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٣/١١) رقم ١١٢٧٤ من طريق مسلم بن خالد الزنجي عن سعيد العلاف، عنه. ومسلم الزنجي، وسعيد العلاف كلاهما ضعيفان.

● وأخرجه ابن عدي في الكامل (١٩٢١/٥) في ترجمة عبد الرحيم بن زيد العمي، بلفظ «عفا لي، أو غفر لي...» والعمي ضعيف.

● وله شاهد من حديث أبي ذر، وثوبان، وابن عمر، وأبي بكره كلها فيها كلام تكلم عليها ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» رقم (٣٩).

عَلَيْنَا إِصْرًا ﴿ عِبَاءٌ ثَقِيلًا يَأْصِرُ صَاحِبُهُ أَيْ يَحْبِسُهُ فِي مَكَانِهِ، يَرِيدُ بِهِ التَّكْلِيفَ الشَّاقَّةَ. وَقُرِئَ وَلَا تُحْمَلْ بِالتَّشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ. ﴿ كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ حَمَلًا مِثْلَ حَمْلِكَ إِيَّاهُ عَلَى مَنْ قَبْلُنَا، أَوْ مِثْلَ الَّذِي حَمَلْتَهُ إِيَّاهُمْ فَيَكُونُ صِفَةً لِإِصْرًا. وَالْمُرَادُ بِهِ مَا كُفِّلَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ قَتْلِ الْأَنْفُسِ وَقَطْعِ مَوْضِعِ النَّجَاسَةِ وَخَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ وَصَرْفِ رُبْعِ الْمَالِ لِلزَّكَاةِ، أَوْ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَحَنِ. ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعُقُوبَةِ، أَوْ مِنَ التَّكْلِيفِ الَّتِي لَا تَفِي بِهَا الطَّاقَةُ الْبَشَرِيَّةُ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ وَإِلَّا لَمَا سَأَلَ التَّخْلُصَ مِنْهُ، وَالتَّشْدِيدُ هَهُنَا لَتَعْدِيَةِ الْفِعْلِ إِلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي. ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ وَامْحِ ذُنُوبَنَا. ﴿ وَاعْفِرْ لَنَا ﴾ وَاسْتَرْ عِيُونَنَا وَلَا تَفْضَحْنَا بِالْمُؤَاخَذَةِ. ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ وَتَعَطَّفْ بِنَا وَتَفَضَّلْ عَلَيْنَا. ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ سَيِّدُنَا. ﴿ فَأَنْصِرْنَا عَلَى الْفُجُورِ الْكَافِرِينَ ﴾ فَإِنْ مِنْ حَقِّ الْمَوْلَى أَنْ يَنْصُرَ مَوَالِيَهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، أَوْ الْمُرَادُ بِهِ عَامَةُ الْكُفْرَةِ.

روى أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت^(١). وعنه عليه الصلاة والسلام «أنزل الله تعالى آيتين من كنوز الجنة، كتبها الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأته عن قيام الليل^(٢). وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ

وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة رقم (٥٢٨). وقال: «ومجموع هذه الطرق تُظهر أن للحديث أصلاً...». وقد صحح ابن حبان والحاكم وغيرهما هذا الخبر كما أشرت إليه، وقال النووي في الروضة وفي الأربعين: إنه حسن... هـ. وخلاصة القول: إن الحديث حسن والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (١١٦/١) رقم (١٢٦/٢٠٠) والطبري في «جامع البيان» (١٤٣/٣ - ١٤٤) والترمذي (٢٢١/٥) رقم (٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٣٩٢/٤) - والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٢١٠ - ٢١١). من حديث ابن عباس. وغفل الحاكم فاستتركه في المستدرک (٢٨٦/٢ - ٢٨٧).
(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٥٤٥/٧) من حديث أبي مسعود الأنصاري وفي إسناده الوليد بن عباد، قال عنه ابن عدي: ليس من المعروفين. وأبان بن أبي سلمة عياش وهو متروك.
● قلت: أخرج الترمذي (١٥٩/٥ - ١٦٠ رقم ٢٨٨٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٩٦٧) والدارمي (٤٤٩/٢) وأحمد (٢٧٤/٤) والحاكم في المستدرک (٥٦٢/١).
من حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان.
وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
● وأخرج الطبراني في الكبير (٣٤٢/٧) رقم (٧١٤٦) من حديث شداد بن أوس مثل حديث النعمان بن بشير المتقدم.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣١٢/٦) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١٣٨/٢) وقال: أخرجه الطبراني بسند جيد.
● وأخرج أحمد (٣٨٣/٥) والطبراني في الكبير (١٨٨/٣) رقم (٣٠٢٥) والبيهقي في الشعب (٤٦٠/٢) رقم (٢٣٩٩) وفي دلائل النبوة (٤٧٤/٥ - ٤٧٥) كلهم من طريق ربيعي بن حراش عن حذيفة عن النبي ﷺ. قال: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».
وقال الهيثمي في «المجمع» (٣١٢/٦، ٣٢٤): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال=

الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»^(١). وهو يرد قول من استكّره أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال السورة التي تذكر فيها البقرة، كما قال عليه الصلاة والسلام «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة وتركها حسرة، ولن يستطيعها البطلة قيل: يا رسول الله وما البطلة؟ قال: السحرة»^(٢).



= الصحيح هـ.

● وأخرج مسلم (٣٧١/١) رقم (٥٢٢/٤) من هذا الوجه قال: قال النبي ﷺ «فضلنا على الناس بثلاث: جُعِلَتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» وذكر خصلة أخرى، قلت: هذه الخصلة: «أعطيت خواتيم البقرة من كنز تحت العرش». فقد قال الحاكم في المستدرك (٥٦٣/١): أخرج مسلم حديث أبي مالك الأشجعي عن ربيعي بن حراش عن حذيفة، فذكره.

● وأخرج ابن الفريس في «فضائل القرآن» رقم (١٧٤) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة، عن علقمة - عن أبي مسعود البدري قوله «من قرأ خاتمة سورة البقرة في ليلة أجزأت عنه عن قيام الليل» - . قلت: ولعل هذا هو الأشبه أي الموقوف فجعله أبان بن عياش مرفوعاً.

لكن يشهد له الحديث الآتي في التعليقة التالية.

(١) أخرجه البخاري (٣١٧/٧) رقم (٤٠٠٨) و(٥٥/٩) رقم (٥٠٠٨، ٥٠٠٩) و(٨٧/٩) رقم (٥٠٤٠) و(٩٤/٩) رقم (٥٠٥١) ومسلم (٥٥٤/١) رقم (٨٠٧/٢٥٥) وأبو داود (١١٨/٢) رقم (١٣٩٧) والترمذي (١٥٩/٥) رقم (٢٨٨١) والنسائي في «فضائل القرآن» رقم (٤٣، ٤٤، ٤٥) وفي عمل اليوم والليلة رقم (٧١٨ و٧١٩ و٧٢٠ و٧٢١) وابن ماجه (٤٣٥/١) رقم (١٣٦٩) والدارمي (٤٥٠/٢) كلهم من رواية عبدالرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود. وفي بعض الطرق عن عبدالرحمن بن يزيد، عن علقمة عنه، ثم قال عبدالرحمن: ثم لقينته وهو يطوف بالبيت فحدثني.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد الخدري - كما في الجامع الصغير رقم (٤٨٤١). وقال المناوي: فيه إسماعيل بن أبي زياد الشامي. قال الذهبي، قال الدارقطني: يضع الحديث. وأورده الألباني في ضعيف الجامع (٢٤٢/٣) رقم (٣٣٦٥) وحكم عليه بالوضع.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥١/١) وكذلك الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٣٤٤/٢) رقم (٣٥٥٩).

● وأخرج الحديث مسلم في صحيحه (٥٥٣/١) رقم (٨٠٤/٢٥٢) من حديث أبي أمامة مرفوعاً «اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ۝ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْقَيُّومُ ۝ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَآبُ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنْجِيلَ ۝ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ (٤) وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ ۝ (٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ (٦) هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ (٧)

(١) ﴿الْعَمَّ﴾ .

(٢) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْقَيُّومُ﴾ إنما فَتَحَ الميمَ في المشهور - وكان حقها أن يوقف عليها لإلقاء حركة الهمزة عليها - ليدلَّ على أنها في حكم الثابت لأنها أسقطت للتخفيف لا للذَّج، فإن الميم في حكم الوقف كقولهم واحدٌ اثنان بإلقاء حركة الهمزة على الدال لا لالتقاء الساكنين فإنه غير محذور في باب الوقف، ولذلك لم تحرك الميم في لام. وقرئ بكسرهما على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو بكر بسكونها والابتداء بما بعدها على الأصل. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْقَيُّومُ﴾^(١) روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور في البقرة الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي آل عمران الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي طه وعنت الوجوه للحي القيوم»^(٢).

(١) الحي: الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، والقيوم: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. ومن ضرورة اختصاص هذين الوصفين به تعالى استحقاق العبودية به تعالى (س٢/٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/٢٨٢ رقم ٧٩٢٥) من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «اسمُ الله الأعظمُ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِي الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه». وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١/٦٣). والحاكم (١/٥٠٦) كلهم من طريق الوليد بن مسلم، عن عبدالله بن العلاء بن زبر، عن أبي القاسم عنه.

وأخرجه الطبراني في الكبير أيضاً (٨/٢١٤ - ٢١٥ رقم ٧٧٥٨) وابن ماجه (٢/١٢٦٧ رقم ٣٨٥٦) من طريق عمرو بن أبي سلمة عن عيسى بن موسى عن غيلان بن أنس عن القاسم عنه.

(٣) ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القرآن نُجُوماً. ﴿يَالْحَقُّ﴾ بالعدل، أو بالصدق في أخباره، أو بالحجج المحققة أنه من عند الله، وهو في موضع الحال^(١). ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب. ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ جُمْلَةً على موسى وعيسى. واشتقاقهما من الوری والتَّجَل، ووزنهما بَتَفْعِلَة وإفْعِيل تَعَسَّفَ لأنهما أعجميان، ويؤيد ذلك أنه قرئ الأنجيل بفتح الهمزة وهو ليس من أبنية العربية، وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي التوراة بالإمالة في جميع القرآن، ونافعٌ وحمزةٌ بين اللفظين إلا قالون فإنه قرأ بالفتح كقراءة الباقيين.

(٤) ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل تنزيل القرآن. ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ على العموم إن قلنا إنا متعبدون بشرع مَنْ قبلنا، وإلا فالمراد به قومهما. ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ يريد به جنس الكتب الإلهية، فإنها فارقة بين الحق والباطل. دُكِرَ ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعم ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل، أو الزبور أو القرآن. وكُرِّر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه حياً مُنَزَّلاً ويتميز بأنه معجز يفرق بين المحق والمبطل، أو المعجزات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم^(٢). ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب. ﴿ذُو أَنْبَاءٍ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والثَّغْمَةُ عقوبة المجرم، والفعل منه نَقَمَ بالفتح والكسر، وهو وعيد جيء به بعد تقرير التوحيد والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النبوة تعظيماً للأمر وزجراً عن الإعراض عنه.

(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي شيء كائن في العالم كلياً كان أو جزئياً إيماناً أو كفراً، فعبر عنه بالسماء والأرض إذ الحسن لا يتجاوزهما. وإنما قَدَّمَ الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها، وهو كالدليل على كونه حياً.

(٦) وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي من الصور المختلفة، كالدليل على القيومية والاستدلال على أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره. وقرئ تَصَوَّرَكُمْ أي صوركم

● وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد:

أخرج أبو داود (١٦٨/٢ رقم ١٤٩٦) والترمذي (٥١٧/٥ رقم ٣٤٧٨) وابن ماجه (١٢٦٧/٢ رقم ٣٨٥٥) كلهم من طريق عبيد الله بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عنها عن النبي ﷺ: قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين» (واللهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) [البقرة: ١٦٣] وفاتحة آل عمران «آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم» وأخرجه أحمد (٤٦١-٦) من هذا الوجه لكن عنده قال في هاتين الآيتين: (اللَّهُ لا إله إلا هو الحي القيوم) و«آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم»: إن فيها اسم الله الأعظم.

قال الترمذي: حسن صحيح. قلت: لعله نظراً إلى شاهده المذكور من حديث أبي أمامة، وإلا ففيه «عبيد الله بن أبي زياد القداح» ليس بالقوي [التقريب: ٥٣٣/١].

وشهر بن حوشب: ليس بالقوي أيضاً [الضعفاء والمتروكين للنساء (رقم: ٣١٠)].

وحسن الألباني حديث أسماء بنت يزيد، وحديث أبي أمامة وانظر «الصحيحة» رقم: (٧٤٦) وصحيح أبي داود.

(١) وصيغة التفعيل في «نزل» للدلالة على التنجيم.

وتقديم الظرف «عليك» على المفعول «الكتاب» للاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر (س ٤/٢).

(٢) التنوين في عذاب للتخميم.

لنفسه وعبادته. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره جملة ما يعلمه ولا يقدر على مثل ما يفعله. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته. قيل: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، فإن وفد نجران لما حاجوا فيه رسول الله ﷺ نزلت السورة من أولها إلى تكف وثمانين آية تقريراً لما احتج به عليهم وأجاب عن شبههم.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

(٧) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها بأن حُفِظَتْ من الإجمال والاحتمال. ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أضله يُرد إليها غيرها. والقياس أمهات فأفرد على تأويل كل واحدة، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ محتملات لا يتضح مقصودها - لإجمال أو مخالفة ظاهر - إلا بالفحص والنظر، ليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقِّف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وياتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي الدرجات. وأما قوله تعالى ﴿الرَّ كِتَابٌ مُحْكَمٌ ءَإِنْشُرُ﴾^(١) فمعناه أنها حُفِظَتْ من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله ﴿كِتَابٌ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(٢) فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ. وأخرُ جمع أخرى، وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر ولا يلزم منه معرفته، لأن معناه أن القياس أن يعرف ولم يعرف لا أنه في معنى المعروف أو عن آخر من ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحق كالمبتدعة^(٣). ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طَلَبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه. ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلَبَ أن يؤولوه على ما يشتهونه، ويُحتمل أن يكون الداعي إلى الاتباع مجموع الطلِبَين أو كل واحدة منهما على التعاقب، والأول يناسب المعانيد والثاني يلائم الجاهل. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه. ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه. ومن وقف على إلا الله فسَّرَ المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية، أو بمبادلٍ القاطع على أن ظاهره غير مراد ولم يدل على ما هو المراد. ﴿يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ استئناف موضح لحال الراسخين، أو حال منهم، أو خبر إن جعلته مبتدأ. ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي كل من المتشابه والمحكم من عنده، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن

(١) هود: (١١).

(٢) الزمر: (٢٣).

(٣) والزيف هو الميل عن الاستقامة.

وجعل قلوبهم مقرأً للزيف مبالغة في عدولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد (س ٨/٢).

وحسن النظر وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس. واتصال الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتربيته وما قبلها في تصوير الجسد وتسويته، أو أنها جواب عن تشبث النصارى بنحو قوله تعالى ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرِّمٍ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(١). كما أنه جواب عن قولهم لا أب له غير الله، فتعين أن يكون هو أباه بأنه تعالى مصوّر الأجنة كيف يشاء فيصور من نطفة أب ومن غيرها، وبأنه صوره في الرحم والمصوّر لا يكون أب المصوّر.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ من مقال الراسخين. وقيل: استئناف، والمعنى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه، قال عليه الصلاة والسلام «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه»^(٢). وقيل: لا تُبَلِّغْنَا بِلَايَا تُزِغُ فِيهَا قُلُوبُنَا. ﴿بَعْدَ

(١) النساء: (١٧١).

(٢) وهو حديث صحيح بمتابعاته وشواهد:

● أخرجه أحمد في المسند (٣٠٢/٦، ٣١٥) والترمذي (٥٣٨/٥ رقم ٣٤٢٢) كلاهما من طريق شهر بن حوشب عن أم سلمة رضي الله عنها.

وقال الترمذي: حديث حسن. فلعله نظراً إلى شاهدة عند مسلم، وإلا شهر بن حوشب ليس بالقوي كما تقدم.

● وأخرجه أحمد في المسند (٢٥١/٦) وابن أبي عاصم في «السنن» (١٠٠/١ رقم ٢٢٤) والآجري في الشريعة ص ٣١٧ من طريق علي بن زيد - بن جدعان - عن أم محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن... الحديث».

وفي سننه: علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

وللحديث شواهد:

(منها): حديث عبدالله بن عمرو بن العاص. أخرجه مسلم (٢٠٤٥/٤ رقم ٢٦٥٤/١٧) وأحمد (١٦٨/٢)

وابن أبي عاصم (١٠٠/١ رقم ٢٢٢) والآجري في الشريعة ص ٣١٦ كلهم من طريق أبي عبدالرحمن الجُبلي عنه.

(منها): حديث أنس بن مالك: أخرجه أحمد (١١٢/٣) وابن أبي عاصم (١٠١/١ رقم ٢٢٥) والآجري في الشريعة ص ٣١٦ كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان - طلحة بن نافع - عنه.

(ومنها): حديث النّوّاس بن سميان أخرجه النسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٦١/٩) - وابن ماجه

(٧٢/١ رقم ١٩٩) وأحمد (١٨٢/٤) وابن أبي عاصم: (٩٨/١ رقم ٢١٩) والآجري في الشريعة (ص ٣١٧)

والحاكم (٥٢٥/١) و(٣٢١/٤) والبغوي في شرح السنة (١٦٦/١) وابن حبان (رقم: ٢٤١٩ - موارد) كلهم من

طريق عبدالرحمن بن يزيد، عن بسر بن عبيدالله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني عنه.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٦٩/١ رقم ٦٩):

هذا إسناد صحيح.

(ومنها): حديث نعيم بن همار أخرجه ابن أبي عاصم (٩٩/١ رقم ٢٢١) والطبراني في الكبير - كما في

«المجمع» (٢١١/٧) - وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

وقال الألباني: حديث صحيح وإسناده حسن.

إِذْ هَدَيْنَاكَ إِلَى الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ بِالْقِسْمَيْنِ مِنَ الْمَحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ، وَيُعَدَّ نَصَبٌ عَلَى الظَّرْفِ، وَإِذَا فِي مَوْضِعِ الْجَرِّ بِإِضَافَتِهِ إِلَيْهِ، وَقِيلَ إِنَّهُ بِمَعْنَى إِنْ. ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تَزْلِفُنَا إِلَيْكَ وَنَفُوزَ بِهَا عِنْدَكَ، أَوْ تَوْفِيقًا لِلثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ أَوْ مَغْفِرَةً لِلذُّنُوبِ. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ لِكُلِّ سَوَالٍ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْهَدَى وَالضَّلَالَةَ مِنَ اللَّهِ وَأَنَّهُ مُتَفَضِّلٌ بِمَا يَنْعَمُ عَلَى عِبَادِهِ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

(٩) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ لحساب يوم أو لجزائه^(١). ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والعزاء، نهبوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما يتعلق بالآخرة فإنها المقصد والمآل. ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ فإن الإلهية تنافيه، وللإشعار به وتعظيم الموعد كَوْنُ الخطاب. واستدل به الوعيدية^(٢)، وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو للدلائل منفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً^(٣).

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عام في الكفرة. وقيل: المراد به وفد نجران، أو اليهود، أو مشركو العرب. ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من رحمته، أو طاعته على معنى البدلية، أو من عذابه^(٤) ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ خطبها. وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها^(٥).

(١١) ﴿كَذَابٌ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ متصل بما قبله أي لن تغني عنهم كما لم تغن عن أولئك أو تُوقَدَ بهم كما توقد بأولئك، أو استئناف مرفوع المحل تقديره دأب هؤلاء كذابهم في الكفر والعذاب، وهو مصدر ذأب في العمل إذا كدح فيه فنقل إلى معنى الشأن. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ عطف على آل فرعون. وقيل استئناف. ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ حال بإضمار قد، أو استئناف بتفسير حالهم، أو خبر إن ابتدأت بالذين من قبلهم^(٦). ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهويل للمواخذة وزيادة تخويف الكفرة.

(١) حُذِفَ المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه تهويلاً له وتفضيلاً لما يقع فيه (س ٩/٢).

(٢) الوعيدية هم المعتزلة الذين يقولون بأنه تعالى وعد المؤمنين بالثواب وأوعد العاصين بالعقاب. فيقولون بالوعد والوعيد. أما أهل السنة فيقولون بالعفو نتيجة للتوبة.

(٣) وقوله «إن الله لا يخلف الميعاد» إظهار للاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيّب وللإشعار بعلّة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف (س ٩/٢).

(٤) وتقدير الأموال على الأولاد مع توسط حرف النفي إما لعراقاة الأولاد في كشف الكروب أو لأن الأموال هي أول ما يفرغ إليها عند نزول الخطوب (س ١٠/٢).

(٥) وإيثار الجملة الإسمية في قوله «وأولئك هم وقود النار» للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وللدلالة على كمال ملابتهم للنار (س ١٠/٢).

(٦) والالتفات إلى التكلم بقوله «كذبوا بآياتنا» للجري على سنن الكبرياء، وإلى الغيبة ثانياً بقوله «فأخذهم الله» =

قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَقْسَ الْأَمْهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْأَقْتَاتِ فَمَنْ تَقَتَّلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي قل لمشركي مكة ستغلبون يعني يوم بدر، وقيل لليهود فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقریش، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً^(١) لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، فترلت^(٢). وقد صدق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من دلائل النبوة. وقرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما على أن الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. ﴿وَيَقْسَ الْأَمْهَادُ﴾ تمام ما يقال لهم، أو استئناف وتقديره بشس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم.

(١٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الخطاب لقریش أو لليهود، وقيل للمؤمنين. ﴿فِي فِتْنَةِ الْأَقْتَاتِ﴾ يوم بدر. ﴿فَمَنْ تَقَتَّلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، وكان قريباً من ألف، أو مثلي عدد المسلمين وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وذلك كان بعد ما قللهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا مدداً من الله تعالى للمؤمنين، أو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا لهم ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم الله به في قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾^(٣). ويؤيده قراءة نافع ويعقوب بالتاء، وقرىء بهما على البناء للمفعول أي يريهم الله أو يريكم ذلك بقدرته. وفئة بالجرز على البدل من فئتين والنصب على الاختصاص، أو الحال من فاعل القتات^(٤). ﴿رَأَىٰ الْعَيْنِ﴾ رؤية ظاهرة معانية. ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ نصره كما أيد أهل بدر. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي التقليل والتكثير أو غلبة القليل عديم العدة في الكثير شاكي السلاح، وكون الواقعة آية أيضاً يحتملها ويحتمل وقوع الأمر على ما أخبر به الرسول ﷺ. ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لعظة لذوي البصائر. وقيل لمن أبصرهم.

= بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة (س ١١/٢).

- (١) أغماراً أي لا تجربة لهم ولا علم.
- (٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢٢٩/٢) معلقاً، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (٨١ - ٨٢) من طريق ابن إسحاق، وأخرجه البيهقي في الدلائل (١٧٣/٣ - ١٧٤) والطبري في جامع البيان (١٩٢/٣).
- وأبو داود في السنن (٤٠٢/٣) رقم ٣٠٠١ من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبیر أو عكرمة عنه ومحمد هذا مجهول والخلاصة أن الحديث ضعيف.
- (٣) الأنفال: ٦٦.
- (٤) وصف الفئة الأولى «المؤمنة» بالقتال في سبيل الله مدحاً لهم واعتداداً بقتالهم وإيداناً بأنه المدار في تحقق الآية. بينما وصف الفئة الثانية بالكفر ولم يصفها بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطاً لقتالهم عن درجة الاعتبار وإيداناً بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهبة (س ١٢/٢).

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١١﴾
﴿ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٢﴾

(١٤) ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ أي المشتبهات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها كقوله تعالى ﴿ أَحَبَّتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾^(١). والمزِين هو الله تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زين ابتلاء، أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع. وقيل الشيطان فإن الآية في معرض الذم. و(٢) فرق الجبائي بين المباح والمحرم^(٣). ﴿ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ بيان للشهوات. والقنطار المال الكثير. وقيل مائة ألف دينار. وقيل ملء مسك ثور. واختلف في أنه فلال أو فنعال، والمقنطرة مأخوذة منه للتأكيد كقولهم بكرة مبدرة. والمسومة المعلقة من السومة وهي العلامة، أو المرعية من أسام الدابة وسومها، أو المطهمة^(٤). والأنعام الإبل والبقر والغنم^(٥) ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إشارة إلى ما ذكر. ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية.

(١٥) ﴿ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ ﴾ يريد به تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا^(٦). ﴿ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ استئناف لبيان ما هو خير، ويجوز أن يتعلق اللام بخير ويرتفع جنات على هو جنات، ويؤيده قراءة من جرها بدلاً من خير. ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ مما يستقذر من النساء. ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر في جميع القرآن بضم الراء ما خلا الحرف الثاني في المائدة وهو قوله تعالى ﴿ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾^(٧) بكسر الراء، وهما لغتان. ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أي بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، أو بأحوال الذين اتقوا

(١) ص: (٣٢).

(٢) الجبائي هو: محمد بن عبد الوهاب الجبائي البصري، ولد سنة (٢٣٥هـ) من أئمة المعتزلة بالبصرة، وإليه تنسب فرقة الجبائية، ونسبته إلى «جبى» من قرى البصرة له تفسير مطول، رد عليه الأشعري. توفي سنة (٣٠٣هـ) ودفن بـ«جبى» [الأعلام للزركلي (٦/٢٥٦)].

(٣) وفي قوله تعالى «زين» إشار صيغة المبني للمفعول جرياً على سنن الكبرياء (س ١٤/٢).

(٤) قوله «المطهمة» أي التامة الخلق.

(٥) وفي قوله «من النساء والبنين» فقدم حب النساء لعراقتهم في معنى الشهوة فإنهن حباثل الشيطان. ولم يتعرض للبنات لعدم الاطراد في جبهن (س ١٤/٢).

(٦) إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق إليه (س ١٥/٢).

(٧) المائدة: (١٦).

فلذلك أعد لهم جنات^(١). وقد نبه بهذه الآية على نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلها رضوان الله تعالى لقوله تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٢) وأوسطها الجنة ونعيمها.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ
وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ صفة للمتقين، أو للعباد، أو مدح منصوب أو مرفوع. وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها.

(١٧) ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما، وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبيل الخير، وأما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها. وتوسط الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حيثئذ أشق والنفس أصفى والروح أجمع سيما للمجتهدين، قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون.

(١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بين وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزال الآيات الناطقة بها. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالإقرار. ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل في قسمه وحكمه، وانتصابه على الحال من الله وإنما جاز إفراده بها ولم يَجْزْ جاء زيد وعمرو ركباً لعدم اللبس كقوله تعالى ﴿وَهَبْنَاهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾^(٣)، أو من هو والعامل فيها معنى الجملة أي تفرد قائماً أو أحقها لأنها حال مؤكدة، أو على المدح، أو الصفة للمنفى وفيه ضعف للفصل وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة أو حالاً من الضمير. وقرئ القائم بالقسط على البدل عن هو أو الخبر لمحذوف. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيعلم أنه الموصوف بهما. وقدم العزيز لتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته. ورفعهما على البدل من الضمير أو الصفة لفاعل شهد.

(١) قوله «والله بصير بالعباد» إشارة وإشعار إلى أن من ذكر يستحق وصفه بالعبودية الحق (س ١٦/٢).

(٢) التوبة: (٧٢).

(٣) الأنبياء: (٧٢).

وقد روي في فضلها أنه عليه الصلاة والسلام قال «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وقى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة». وهي دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلِيسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلِيسْلَمُوا﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ. وقرأ الكسائي بالفتح على أنه بدل من أنه بدل الكل إن قُسر الإسلام بالإيمان أو بما يتضمنه، وبدل اشتمال إن قُسر بالشرعة، وقرئ إنه - بالكسر - وأن - بالفتح - على وقوع الفعل على الثاني واعتراض ما بينهما أو إجراء شهدة مجرى قال تارة وعلم أخرى لتضمنه معناه. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى، أو من أبواب الكتب المتقدمة في دين الإسلام فقال قوم إنه حق وقال قوم إنه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً، أو في التوحيد فثلث النصارى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(١). وقيل هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل هم النصارى اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالآيات والحجج. ﴿بَقِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة، لا لشبهة وخفاء في الأمر. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وعيد لمن كفر منهم^(٢).

(٢٠) ﴿إِنْ حَاجُّوكَ﴾ في الدين، أو جادلوك فيه بعدما أفتت الحجج. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أخلصت نفسي وجملي له لا أشرك فيها غيره، وهو الدين القويم الذي قامت به الحجج ودعت إليه الآيات والرسول. وإنما عبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسن للفصل، أو مفعول معه. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا كتاب لهم كمشركي العرب^(٣). ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة، أم أنتم بعد على كفركم ونظيره وقوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾^(٤) وفيه تعبير لهم بالبلادة أو المعاندة. ﴿فَإِنْ

(١) التوبة: «٣٠».

(٢) قوله «فإن الله» إظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة.

وفي ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إتياء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه.. دلالة على كمال شدة عقابهم (س ١٨/٢).

(٣) قوله «للذين أوتوا الكتاب» وضع الموصول الضمير لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفين (س ١٩/٢).

(٤) المائدة: «٩١».

أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا ﴿٢٠﴾ فقد نفَعُوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَمَا عَلَيْنَا الْبَلِّغُ﴾ أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِ بِالْعِبَادِ وَعَدٌ وَوَعِيدٌ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عَمَلًا بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(٢١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عَمَلًا بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه السلام، قتل أولهم الأنبياء ومتابعيهم وهم رضوا به وقصدوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين ولكن الله عصمهم، وقد سبق مثله في سورة البقرة. وقرأ حمزة ويقايلون الذين. وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر إن كليت ولعل ولذلك قيل الخبر^(١).

(٢٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ كقولك زيدٌ فافهم رجلٌ صالح، والفرق أنه لا يغير معنى الابتداء بخلافهما. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ يدفع عنهم العذاب.

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة أو جنس الكتب السماوية، ومن للتبعض أو للبيان. وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقيق^(٢). ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام وكتاب الله القرآن، أو التوراة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام دخل مدراسهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت. فقال: على دين إبراهيم. فقالا له إن إبراهيم كان يهودياً فقال: هلموا إلى التوراة فإنها بيتنا وبينكم. فأبيا فنزلت. وقيل نزلت في الرجم. وقرئ ليحكم على البناء للمفعول فيكون الاختلاف فيما بينهم، وفيه دليل على أن الأدلة السمعية حجة في الأصول. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ استبعاد لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب. ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض، والجملة حال من فريق وإنما ساغ لتخصصه بالصفة.

(١) تقييد قتل النبيين بغير حق للإيذان بأنه كان عندهم أيضاً بغير حق. وقوله «ويقتلون الذين يأمرون بالقسط» كرر فعل القتل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما في الوقت (س ١٩/٢).

(٢) التعبير عما أوتوه بالنصيب للإشعار باختصاصه بهم وكونه حقاً من حقوقهم التي يجب مراعاتها والعمل بموجبها. وتنكير النصيب للتفخيم لا للتحقير لأنه لا يساعده مقام المبالغة في تقييد حالهم (س ٢٠/٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢١٧/٣) وفي سننه (محمد بن أبي محمد) مجهول. وأورده السيوطي في «الدر» (١٧٠/٢) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التولي والإعراض. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ. ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل، أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

(٢٥) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ استعظام لما يحيق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات. روي أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار^(١). ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت. وفيه دليل على أن العبادة لا تحبب وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها، فإذن هي بعد الخلاص منها^(٢). ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الضمير لكل نفس على المعنى لأنه في معنى كل إنسان.

(٢٦) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم. وقيل: أصله يا الله أمتنا بخير^(٣)، فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته. ﴿مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ يتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، وهو نداء ثان عند سيوبه فإن الميم عنده تمنع الوصفية. ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ تعطي منه ما تشاء من تشاء وتسترد، فالملك الأول عام والآخران بعضان منه. وقيل: المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم^(٤). ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان. ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذكر الخير وحده لأنه المقضي بالذات والشر مقضي بالعرض، إذ لا يوجد شر جزئي مالم يتضمن خيراً كلياً، أو لمراعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه إذ روي أنه عليه السلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، فظهر فيه صخرة عظيمة لم يعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها

(١) ذكره الألوسي في تفسيره (١١٢/٣) بدون سند. ولم يعزه لأحد.

(٢) المراد به جزاء ما كسبت، إلا أنه أقيم المكسوب مقام جزائه إيداناً بكمال الاتصال والتلازم بينهما حتى كأنهما شيء واحد (س ٢١/٢).

(٣) أي دلنا على خير أو أقصدنا به.

(٤) وإشار الإيتاء على التملك لأن ملك غيره بطريق المجاز (س ٢١/٢).

وبرق منها برقٌ أضاء منه ما بين لابتئها^(١) لكان بها مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر معه المسلمون وقال «أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء. وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة على كلها فأبشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يُمَيِّتُكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفُرْق فتزلت^(٢). فنبه على أن الشر أيضاً بيده بقول ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَهُ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عَقَّبَ ذلك ببيان قدرته على معاقبة الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة الذلّ والعز وإيتاء الملك ونزعه. والولوج: الدخول في مضيق، وإيلاج الليل والنهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص. وإخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات من موادها وإماتتها، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه. وقيل: إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر الميِّت

(١) اللابة هي الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء (المصباح المنير مادة «لوب»).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج ٢١/١٣٣ - ١٣٤) والواحد في أسباب النزول (ص ٨٣ - ٨٤) والبغوي في تفسيره (٥١٠/٣) عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني قال: نثي أبي، عن أبيه به.

وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨٣/٤) في ترجمة سلمان، قال: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي قديك، قال: حدثني كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده به.

قلت: وكثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، المدني، ضعيف، ومنهم من نسه إلى الكذب [التقريب (١٧/٢) رقم ١٣٢].

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

وأخرجه أبو يعلى في المسند (٢٤٤/٣) رقم ١٦٨٥/٣٢ وأحمد في المسند (٣٠٣/٤) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» رقم (٤٣٠) وابن أبي شيبه في المصنف (٤٢١/١٤ - ٤٢٢) والنسائي في السير - كما في تحفة الأشراف (١٦٥/٢) - من طرق كلهم من رواية ميمون أبي عبد الله عن البراء بن عازب مختصراً، وإسناده ضعيف. وتصحفت «عن ميمون» في الدلائل «ابن ميمون».

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٣٠/٦ - ١٣١) وقال: رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقي رجاله ثقات.

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٣) وقوله «بيدك الخير» قدم الخير فأفاد التخصيص أي بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك. (س ٢١/٢).

بالتخفيف .

(٢٨) ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ نُهَوُا عَنْ مَوَالِيهِمْ لِقَرَابَةِ وَصَدَاقَةِ جَاهِلِيَّةٍ وَنَحْوِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ حُبُّهُمْ وَبَغْضُهُمْ إِلَّا فِي اللَّهِ، أَوْ عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِهِمْ فِي الْغَزْوِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ. ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إِمَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ الْأَحْقَاءُ بِالْمَوَالَاةِ، وَأَنَّ فِي مَوَالِيهِمْ مَدْوَحَةً عَنْ مَوَالَاةِ الْكَفَرَةِ. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أَيِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ^(١). ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أَيِ مِنْ وَلايَتِهِ فِي شَيْءٍ يَصَحُّ أَنْ يُسَمَّى وَلايَةً، فَإِنَّ مَوَالَاةَ الْمُتَعَادِينَ لَا يَجْتَمِعَانِ قَالَ :

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّي صَدِيقُكَ لَيْسَ النُّوْكَ عَنْكَ بِعَازِبٍ

﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤُوا مِنْهُنَّ نِقَتَهُ﴾ إِلَّا أَنْ تَخَافُوا مِنْ جِهَتِهِمْ مَا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ، أَوْ اتِّقَاءُ. وَالْفِعْلُ مَعْدِي بِمَنْ لَأَنَّهُ فِي مَعْنَى تَحَذَرُوا وَتَخَافُوا. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ تَقِيَّةً. مَنَعَ عَنْ مَوَالِيهِمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فِي الْأَوَاقَاتِ كُلِّهَا إِلَّا وَقْتَ الْمَخَافَةِ، فَإِنَّ إِظْهَارَ الْمَوَالَاةِ حِينَئِذٍ جَائِزٌ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: كُنْ وَسْطًا وَامْشِ جَانِبًا. ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِسُخْطِهِ بِمُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ وَمَوَالَاةِ أَعْدَائِهِ، وَهُوَ تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ مُشْعِرٌ بِتَنَاهِي النَّهْيِ فِي الْقُبْحِ. وَذِكْرُ النَّفْسِ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَحْذَرَّ مِنْهُ عِقَابٌ يَصُدُّرُ مِنْهُ تَعَالَى فَلَا يُؤْبَهُ دُونَهُ بِمَا يُحْذَرُ مِنَ الْكَفَرَةِ.

قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ أَيِ أَنَّهُ يَعْلَمُ ضَمَائِرَكُمْ مِنْ وَلايَةِ الْكَفَارِ وَغَيْرِهَا إِنْ تَخَفُّوْهَا أَوْ تَبْذَرُوهَا. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَعِلْنَكُمْ. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَيَقْدِرُ عَلَى عَقُوبَتِكُمْ إِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَمَّا نُهَيْتُمْ عَنْهُ. وَالآيَةُ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٢) وَكَانَهُ قَالَ وَيَحْذَرُكُمْ نَفْسُهُ لِأَنَّهَا مُتَصَفَّةٌ بِعِلْمِ ذَاتِي مُحِيطٍ بِالْمَعْلُومَاتِ كُلِّهَا وَقُدْرَةِ ذَاتِيَّةٍ تَعْمُ الْمَقْدُورَاتِ بِأَسْرَها، فَلَا تَجَسَّرُوا عَلَى عَصْيَانِهِ إِذَا مَا مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهَا قَادِرٌ عَلَى الْعِقَابِ بِهَا^(٣).

(٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يَوْمَ مَنْصُوبٌ بِتَوَدٍّ، أَيِ تَتَمَنَّى كُلُّ نَفْسٍ يَوْمَ تَجِدُ صَحَائِفَ أَعْمَالِهَا أَوْ جِزَاءَ أَعْمَالِهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ حَاضِرَةً لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ لَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، أَوْ بِمَضْمَرٍ نَحْوُ أَذْكَرُ، وَتَوَدُّ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي عَمِلَتْ

(١) «ومن يفعل» عبر عنه بالفعل للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره (س ٢٣/٢).

(٢) آل عمران: (٢٨).

(٣) وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار في قوله «والله على كل شيء قدير» لتربية المهابة وتهويل الخطب.

أو خبر لما عملت من سوء، وتجد مقصور على ما عملت من خير، ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود. وقرئ وَدَّتْ وعلى هذا يصح أن تكون شرطية ولكن الحمل على الخبر أَوْقَعُ معنى لأنه حكاية كائن وأوفق للقراءة المشهورة^(١). ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ أَنْفُسَكُمْ﴾ كرهه للتأكيد والتذكير. ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رافة بهم ومراعاة لصلاحهم، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم فترجى رحمته ويخشى عذابه.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه بحث بعملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا الله وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يفره إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته والحرص على مطاعته. ﴿يُحِبُّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر أي يرض عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويوئلكم في جوار قدسه، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تحب إليه بطاعته واتباع نبيه ﷺ. روي: أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه^(٢). وقيل: نزلت في وفد نجران لما قالوا: إنما نعبد المسيح حباً لله^(٣). وقيل: في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنهم يحبون الله فأمرُوا أَنْ يَجْعَلُوا لِقَوْلِهِمْ تصديقاً من العمل^(٤).

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل الماضي والمضاربة بمعنى فإن تولوا. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يرضى عنهم ولا يشني عليهم، وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على أن التولي كفر، وإنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

(٣٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية

- (١) «ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء» ذكر إحصار الخير دون الشر للإشعار بكون الخير مراداً بالذات، وكون إحصار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية (س ٢٤/٢).
- (٢) وضع الاسم الجليل موضع الإضمار للإشعار باستباحت وصف الألوهية للمغفرة والرحمة (س ٢٥/٢).
- (٣) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٨٦) من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنه.
- (٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٢٣٣) عن محمد بن جعفر بن الزبير.
- وكذلك الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٨٧). وفي سنده ضعف.
- (٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٢٣٢) من ثلاثة طرق عن الحسن مرسلاً. وهو ضعيف. وكذا أخرجه عن ابن جريج أيضاً.

والجسمانية، ولذلك قَوُّوا على مالم يقوَ عليه غيرهم. لما أوجب طاعة الرسول وبين أنها الجالبة لمحبة الله عَقَب ذلك ببيان مناقبهم تحريضاً عليها. وبه استدل على فضلهم على الملائكة. وآل إبراهيم: إسماعيل وإسحق وأولادهما - وقد دخل فيهم الرسول ﷺ - وآل عمران موسى وهرون ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، أو عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان بن العازار بن أبي يوذ بن يوزن بن زربابل بن ساليان بن يوحنا بن أوشيا بن أمون بن منشكن بن حازقا بن أخاز بن يوثام بن عوزيا بن يورام بن سافط بن ايشا بن راجعيم بن سليمان بن داود بن ايشى بن عويد بن سلمون بن ياعزبن نحشون بن عمياد بن رام بن حصروم بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة^(١).

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ حال أو بدل من الآلين أو منهما ومن نوح، أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. وقيل بعضها من بعض في الدين. والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فِعْلِيَّةً من الذر أو فَعُولَةٌ من الذرء أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها.

(٣٥) ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ فينتصب به إذ على التنازع. وقيل نصبه بإضمار اذكر، وهذه حنة بنت فافوذ جدة عيسى، وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون فظن أن المراد زوجته، ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصراً لابن ماثان وتزوج ابنته ايشاع، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روي أنها كانت عاقراً عجوزاً، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت: اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خَدَمِهِ، فحملت بمريم وهلك عمران. وكان هذا النذر مشروعاً في عهدهم للغلمان فلعلها بَنَتْ الأمر على التقدير أو طلبت ذَكَراً^(٢) ﴿مُحَرَّرًا﴾ معتقاً

(١) خص آل عمران بالذكر مع اندراجهم في آل إبراهيم لإظهار مزيد الاعتناء بأمر عيسى بسبب الاختلاف في شأنه. والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء.

ولم يذكر اصطفاء إبراهيم نفسه لأنه مفهوم من اصطفاء آله، ولم يصرح به لكمال شهرة أمره في الخلعة وكونه إمام الأنبياء (س ٢٦/٢).

(٢) التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن

إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة.

وتأكيد الجملة لإبراز وفور الرغبة في مضمونها.

وتقديم الجار والمجرور «لك» للاعتناء به (س ٢٧/٢).

لخدمته لا أشغله بشيء، أو مخلصاً للعبادة ونصبه على الحال. ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ ما نذرته. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ﴾ لقولي ونيتي^(١).

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنُورِمُ بَنِي لِّسَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ الضمير لما في بطنها وتأنيته لأنه كان أنثى، وجاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنيتها علم منه فإن الحال وصاحبها بالذات واحداً، أو على تأويل مؤنث كالنفس والحبلة. وإنما قالته تحسراً وتحزناً إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ أي بالشيء الذي وضعت. هو استئناف من الله تعالى تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بشأنها. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وَضَعْتُ على أنه من كلامها تسلية لنفسها أي ولعل الله سبحانه وتعالى فيه سراً، أو الأنثى كانت خيراً. وقرئ وَضَعْتُ على أنه خطاب الله تعالى لها. ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ بيان لقوله والله أعلم أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهِيت، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعنى وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون اللام للجنس. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ما قبلها من مقالها وما بينهما اعتراض، وإنما ذكرت ذلك لربها تقرباً إليه وطلباً لأن يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها فإن مريم في لغتهم بمعنى: العابدة. وفيه دليل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة. ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجبرها بحفظك^(٢). ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة. وعن النبي ﷺ «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه إلا مريم وابنها»^(٣). ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

(٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ فرضي بها في النذر مكان الذكر. ﴿يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾ أي بوجه حسن يُقْبَل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذكر، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة. روي أن حنة لما ولدتها لُقَّتْها في خِرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وقالت: دونكم هذه النذيرة،

(١) قصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهاال (س ٢٨/٢).

(٢) وصيغة المضارعة للدلالة على الاستمرار (س ٢٩/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦/٤٦٩ رقم ٣٤٣١) و(٨/٢١٢ رقم ٤٥٤٨) ومسلم (٤/١٨٣٨ رقم ١٤٦) و(١٤٧/٢٣٦٦) كلاهما من طريق الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.

فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم وصاحب قربانهم، فإن بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم فقال زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها فأبوا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفأ قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها زكريا. ويجوز أن يكون مصدراً على تقدير مضاف أي بذي قبول حسن، وأن يكون تقتل بمعنى استقبال كتقضى وتعجل أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن. ﴿وَأُنَبِّئُهَا بِبَنَاءٍ حَسَنًا﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ شدد الفاء حمزة والكسائي وعاصم، وقصروا زكريا غير عاصم في رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أي جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، وخفف الباقون. ومدوا زكرياء مرفوعاً. ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ أي الغرفة التي بنيت لها، أو المسجد، أو أشرف مواضعه ومقدمها، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس^(١). ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ جواب كلما وناصبه. روي: أنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس. ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء. وجعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه. ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تستبعده. قيل تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ولم ترضع ثدياً قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرت، أو بغير استحقاق تفضلاً به. وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى. روي أن فاطمة رضي الله تعالى عنها أهدت لرسول الله ﷺ رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها وقال: «هلمي يا بنية» فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحمًا فقال لها: «أئنّى لك هذا؟!» فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل» ثم جمع علياً والحسن والحسين وجمع أهل بيته عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها^(٢).

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۖ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ

(٣٨) ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ في ذلك المكان أو الوقت، إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان،

(١) وتقديم الظرف «عليها» للاعتناء بأمرها (س٢/٣٠).

(٢) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (١٨٦/٢) وعزه لأبي يعلى من حديث جابر. وأورده الحافظ في «الكافي الشاف» رقم (٢١٣) وقال: رواه أبو يعلى من حديث جابر، وهو من رواية ابن طيبة عن ابن المنكدر عنه. والمتن ظاهر النكارة. ● ولم أعثر عليه في مسند أبي يعلى المطبوع والله أعلم.

لِمَا رَأَى كَرَامَةَ مَرْيَمَ وَمَنْزِلَتَهَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كما وهبتها لحنَّة العجوز العاقر. وقيل لما رأى الفواكه في غير أوانِهَا انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ، فسأل وقال هب لي من لدنك ذرية، لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأَسباب المعهودة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.

(٣٩) ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي من جنسهم كقولهم زيد يركب الخيل. فإن المنادي كان جبريل وحده. وقرأ حمزة والكسائي فناده بالإمالة والتذكير. ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة. ويصلي صفة قائم، أو خبر، أو حال آخر، أو حال من الضمير في قائم. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ﴾ أي بأن الله. وقرأ نافع وابن عامر بالكسر على إرادة القول، أو لأن النداء نوع منه. وقرأ حمزة والكسائي يَبْشُرُكَ^(١)، ويحيى اسم أعجمي، وإن جعل عربياً فمفع صرْفه للتعريف ووزن الفعل. ﴿مُصَدِّقًا لِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ أي بعيسى عليه السلام سمي بذلك لأنه وُجد بأمره تعالى^(٢) دون أب فشابه البذعيات التي هي عالم الأمر، أو بكتاب الله سمي كلمة كما قيل كلمة الحويدة لقصيدته. ﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم، وكان فائقاً للناس كلهم في أنه مَا هَمَّ بِمَعْصِيَةٍ فُت. ﴿وَحَصُورًا﴾ مبالغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روي أنه مر في صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقت. ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئاً منهم أو كائناً من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة.

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرًا قَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ﴾ استبعاداً من حيث العادة، أو استعظماً، أو تعجباً، أو استفهاماً عن كيفية حدوثه. ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن وأثر في، وكان له تسع وتسعون ولامراته ثمان وتسعون سنة. ﴿وَأَمْرًا قَاقِرٌ﴾ لا تلد، من العَقَر وهو القطع لأنها ذات عقر من الأولاد. ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فاني وعجوز عاقر، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يفعل ما يشاء من خلق الولد، أو كذلك الله مبتداً وخبر أي الله على مثل هذه الصفة، ويفعل ما يشاء بيان له، أو كذلك خبر مبتداً محذوف أي الأمر كذلك، والله يفعل ما يشاء بيان له.

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ علامة أعرف بها الحَبَل لاستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة

(١) قال تعالى في سورة مريم «إنا نبشرك بغلام» - مريم «٧» - بإسناد التبشير إلى نون العظيمة. بينما عدل هنا عن إسناد التبشير إلى نون العظيمة - كما وقع في سورة مريم - للجري على سنن الكبرياء كما في قولهم: أمير المؤمنين يأمر لك بكذا، فالمعنى واحد (س٢/٣٢).

(٢) أي بقوله كن.

الانتظار. ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة ليخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاءً لحق النعمة، وكأنه قال آيتك أن يُحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال. ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ إشارة بنحو يد أو رأس، وأصله التحرك ومنه الراموز للبحر، والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير. وقرئ رَمَزًا بفتحيتين - كخدم - جمع رَامَزَ ورُمُزًا - كُرُسُل - جمع رَمُوزَ على أنه حال منه ومن الناس بمعنى مترامزين كقوله:

مَتَى مَا تَلَقَّنِي فَزْدَيْنِ تَرْجُفُ رَوَائِفُ أَلْيَتِيكَ وَتُسْتَنْطَارَا

﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحبسة، وهو مؤكد لما قبله مبين للغرض منه، وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. ﴿وَسَيَحِبُّ بِالْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب. وقيل من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل. ﴿وَالْإِنْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى. وقرئ بفتح الهمزة جمع يَكْرِ كِسْخَر وأسحار.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿٤٣﴾

(٤٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ كلموها شفاهاً كرامة لها، ومن أنكر الكرامة زعم أن ذلك كانت معجزة لذكرا أو إرهاباً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن الإجماع على أنه سبحانه وتعالى لم يستنبي امرأة لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾^(١)، وقيل ألهموها. والاصطفاء الأول تقبلها من أمها - ولم يقبل قبلها أنثى - وتفرغها للعبادة وإغناؤها برزق الجنة عن الكسب وتطهيرها عما يستقذر من النساء، والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها وتخصيصها بالكرامات السنية كالولد من غير أب وتبرئتها مما قدفتها به اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين^(٢).

(٤٣) ﴿يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها. وقدم السجود على الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن اركعي بالراكعين للإيذان بأن من ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين. وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالى ﴿أَمَنْ هُوَ فَنِتْ عَائَةَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾^(٣)، وبالسجود

(١) يوسف: (١٠٩).

(٢) «وإذ قالت الملائكة» أي واذكر إذ قالت... كرر التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الأحكام السابقة، فإنها من أحكام التربية الجسمية اللاتقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها (س ٣٥ / ٢).

(٣) الزمر: (٩).

الصلاة كقوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ لِلشُّجُودِ﴾^(١)، وبالركوع الخشوع والإخبات.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ما ذكرنا من القصص من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ﴾ أقداحهم للاقتراع، وقيل اقترعوا بأفلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركاً. والمراد تقرير كونه وحياً على سبيل التهكم بمنكره، فإن طريق معرفة الوقائع المشاهدة والسمع وعدم السماع معلوم لا شبهة فيه عندهم فبقي أن يكون الاتهام باحتمال العيان ولا يظن به عاقل. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أفلامهم أي يلقونها ليعلموا، أو يقولوا أيهم يكفل مريم. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تنافساً في كفالها^(٢).

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ بدل من إذ قالت الأولى وما بينهما اعتراض، أو مِنْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ على أن وقوع الاختصام والبشارة في زمان متسع كقولك لقيته سنة كذا. ﴿لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح لقبه وهو من الألقاب المشرفة كالصديق، وأصله بالعبرية مشيحاً ومعناه: المبارك، وعيسى معرب ايشوع واشتقاقهما من المنح لأنهما منسوخ بالبركة أو بما طهره من الذنوب أو مَسَحَ الأرضَ ولم يَقُمْ في موضع أو مَسَحَ جبريل، ومن العيس وهو بياض يعلوه حمرة، تَكَلَّفَ لا طائل تحته. وابن مريم لما كان صفة تُمَيِّزُ تمييز الأسماء نُظِمَتْ في سلكها، ولا ينافي تعدد الخبر وإفراد المبتدأ فإنه اسم جنس مضاف، ويُحتمل أن يراد به أن الذي يُعرف به ويتميز عن غيره هذه الثلاثة فإن الاسم علامة المسمى والمميز له ممن سواه، ويجوز أن يكون عيسى خبر مبتدأ محذوف وابن مريم صفته، وإنما قيل ابن مريم والخطاب لها تنبيهاً على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد تنسب إلى الآباء ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب. ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حال مقدرة من كلمة، وهي وإن كانت نكرة لكنها موصوفة، وتذكيره للمعنى. والوجهة في الدنيا النبوة وفي الآخرة الشفاعة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من الله، وقيل إشارة إلى علو درجته في الجنة أو رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة.

(٤٦) ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلام الأنبياء من غير تفاوت. والمهد مصدر سمي به ما يُمهد للصبي في مضجعه. وقيل إنه رُفِعَ شاباً والمراد وكهلاً بعد

(١) ق: «٤٠».

(٢) وتكرير «وما كنت لديهم» مع تحقق المقصود بعطف «إذ يختصمون» على «إذ يقولون»... للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه السلام عند إلقاء الأعلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه الصلاة والسلام، لا سيما إذا أريد باختصامهم تنازعهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب في الذكر مؤكد له (س ٣٦/٢).

نزوله، وذكر أحواله المختلفة المتنافية إرشاداً إلى أنه بمعزل عن الألوهية ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال ثالث من كلمة أو ضميرها الذي في يَكَلِّمُ.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ تعجب، أو استبعاد عادي، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره. ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ القائل جبريل، أو الله تعالى وجبريل حكى لها قول الله تعالى. ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

(٤٨) ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ كلام مبتدأ ذكر تطيباً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لما علمت أنها تلد من غير زوج، أو عطف على يشرك أو وجيهاً. والكتاب الكتبة أو جنس الكتب المنزل، وخص الكتابان لفضلهما. وقرأ نافع وعاصم ويعلمه بالياء^(١).

(٤٩) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول تقديره: ويقول أُرْسِلْتُ رسولاً بأنني قد جئتكم، أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مضمناً معنى النطق فكأنه قال: وناطقاً بأنني قد جئتكم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد على من زعم أنه مبعوث إلى غيرهم^(٢). ﴿أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ نصب بدل من أني قد جئتكم، أو جَزَّ بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم والمعنى: أقدر لكم وأصور شيئاً مثل صورة الطير، وقرأ نافع إني بالكسر ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل. ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيصير حياً طياراً بأمر الله، نيه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه. وقرأ نافع هنا وفي المائدة طائراً بالألف والهمزة. ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ الأكمة الذي ولد أعمى أو الممسوح العين، روي: أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أناه ومن لم يطق أناه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداوي إلا بالدعاء^(٣). ﴿وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن

(١) وهي قراءة أبو جعفر ويعقوب أي بالياء. وقرأ الباقون بالنون «ونعلمه» (المبسوط ص ١٤٣).

(٢) وقوله «من ربكم» تعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال بما سيأتي من الأوامر (س ٣٨/٢).

(٣) وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيا الأطباء رغم أنهم كانوا في غاية الحذاقة في زمنه عليه السلام (س ٣٩/٢).

الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية. ﴿وَأَنْتُمْ كُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ موفقين للإيمان فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات، أو مصدقين للحق غير معاندين.

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(٥٠) ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ عطف على رسولا على الوجهين، أو منصوب بإضمار فعل دل عليه قد جئتكم أي وجئتكم مصدقا. ﴿وَلِأَحَدٍ لَكُمْ﴾ مقدر بإضماره، أو مردود على قوله: أني قد جئتكم بآية، أو معطوف على معنى مصدقا كقولهم جئتكم معذرا ولا طيب قلبك. ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والثروب والسملك ولحوم الإبل والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخا لشرع موسى عليه الصلاة والسلام ولا يخل ذلك بكونه مصدقا للتوراة، كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بتناقض وتكاذب، فإن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

(٥١) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربكم وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فإنه دعوة الحق المجمع عليها فيما بين الرسل الفارقة بين النبي والساحر، أو جئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ اعتراض والظاهر أنه تكرير لقوله ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، والأول لتهيئة الحجة والثاني لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي لما جئتكم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعوا فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العلمية فإنه بملازمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتها عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم»^(١).

(٥٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك بالحواس. ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ملتجئا إلى الله تعالى أو ذاهبا أو ضامما إليه، ويجوز أن يتعلق الجار بأنصاري مضمنا

(١) أخرجه مسلم (٦٥/١) رقم ٣٨/٦٢ من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي.

وكذلك أخرجه ابن ماجه (١٣١٤/٢) رقم ٣٩٧٢ والترمذي (٦٠٧/٤) رقم ٢٤١٠ والنسائي في الكبرى - كما في

تحفة الأشراف (٢٠/٤) وأحمد في المسند (٤١٣/٣) و(٣٨٥/٤).

معنى الإضافة، أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى في نصري. وقيل (إلى) ههنا بمعنى مع أو في أو اللام. ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ حوارى الرجل خاصته من الحَوَر وهو البياض الخالص، ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن، سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم، وقيل كانوا ملوكاً يلبسون البيض استنصر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام من اليهود، وقيل قصارين يحورون الثياب أي يبيضونها. ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله. ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم^(١).

رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرَيْنِ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدايتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس.

(٥٤) ﴿وَمَكْرُؤًا﴾ أي الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وگُلوا عليه من يقتله غيلة. ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شَبَهه على من قصد اغتياله حتى قُتل. والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يُسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج^(٢) ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرَيْنِ﴾ أقوامهم مكرراً وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب.

(٥٥) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله أو خير الماكرين أو لمضمر مثل وقع ذلك. ﴿يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو متوفيك نائماً إذ روي أنه رفع نائماً، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن الخروج إلى عالم الملكوت. وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى^(٣). ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىٰ﴾ إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سوء جوارهم أو

(١) طلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك يوم القيامة إيذاناً بأن مرمى غرضهم السعادة الآخروية (س٢/٤٢).

(٢) المكر هو صرف الغير عما يقصده بحيلة، وهو ضربان محمود ومذموم، ولا يمنع وصفه تعالى بذلك فإن مكره بحق حيث يعاقب الجاحدين والظالمين بما يستحقون، ومن مكره تعالى أنه يعلي للظالمين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم يأخذهم بغتة...

(٣) الخلاف الذي حصل بين العلماء في وفاة عيسى عليه السلام ورفع له للسماء، لعل أرجح الأقوال فيها أنه تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم. انظر (روح المعاني ٣/١٧٩ وفتح القدير ١/٣٤٥).

ولعله الأوفق بظاهر الآيات، ولا يوجد ما يمنعه حتى نقول بخلاف الظاهر.

نصدهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ يعاونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصارى وإلى الآن لم تسمع غلبة لليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ الضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام ومن تبعه ومن كفر به، وغلب المخاطبين على الغائبين. ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلَفُونَ﴾ من أمر الدين.

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ بِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقْتُمُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

(٥٦) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ بِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾.

(٥٧) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ تفسير للحكم وتفصيل له. وقرأ حفص فيوفيههم بالياء ^(١). ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تقرير لذلك.

(٥٨) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره، وهو مبتدأ خبره ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ حال من الهاء ويجوز أن يكون الخبر ونتلوه حالاً على أن العامل معنى الإشارة، وأن يكونا خبرين، وأن يتصب بمضمر يفسره نتلوه. ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ المشتمل على الحكم، أو المحكم الممنوع عن تطرق الخلل إليه، يريد به القرآن وقيل اللوح.

(٥٩) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿خَلَقْتُمُ مِنْ تُرَابٍ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لما به الشبه، وهو أنه خلق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أم، شبه حاله بما هو أغرب منه إفحاماً للخصم وقطعاً لمواد الشبهة، والمعنى خلق قلبه من التراب. ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ أي أنشأه بشراً كقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ ^(٢) أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه، ويجوز أن يكون ثم لتراخي الخبر لا المخبر. ﴿فَيَكُونُ﴾ حكاية حال ماضية.

(٦٠) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ خبر محذوف أي هو الحق، وقيل الحق مبتدأ ومن ربك خبره، أي الحق المذكور من الله تعالى. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهيج لزيادة الثبات أو لكل سامع.

(٦١) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ من النصارى. ﴿فِيهِ﴾ في عيسى. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ﴾ أي من البينات الموجبة للعلم. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ هلموا بالرأي والعزم. ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾

(١) وقرأ الباقون بالنون «ففيهم» (المبسوط ص ١٤٣).

(٢) المؤمنون: ١٤.

وَأَنْفُسَكُمْ ﴿٦١﴾ أي يدعُ كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وأصقهم بقلبه إلى المباهلة ويخيل عليها، وإنما قدمهم على الأنفس لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلُ﴾ أي نتباهل بأن نلعن الكاذب منا. والبُهْلَةُ بالضم والفتح اللعنة، وأصله الترك من قولهم بهَلْتُ الناقة إذا تركتها بلا صرار. ﴿فَتَنْجَعَلُ لَنْتَ اللَّهِ عَلَى الْكَذِبِينَ﴾ عطف فيه بيان. روي أنهم لما دُعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم - ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا فاتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمتنوا» فقال أسقُفهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألو الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتَهلكوا. فاذعنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد. فقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لو تباهلوا لمُسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر^(١). وهو دليل على نبوته وفضل من أتى بهم من أهل بيته.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾

(٦٢) ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما قص من نبأ عيسى ومريم. ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ بجملتها خبر إن، أو هو فصل يفيد أن ما ذكره في شأن عيسى ومريم حق دون ما ذكره، وما بعده خبر واللام دخلت فيه لأنه أقرب إلى المبتدأ من الخبر، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ صرح فيه بمن المزیدة للاستغراق تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة لشاركه في الألوهية.

- (١) أخرجه أبو نعیم في «دلائل النبوة» (٢/٤٥٧ - ٤٥٨) رقم (٢٤٥): من طريق محمد بن مروان السدي، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس به وليس فيه ذكر ما صالح عليه، أي ألفي حلة. قلت: فيه ابن مروان: متروك متهم بالكذب.
- وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٢٩٩) عن محمد بن حميد، عن جرير، عن المغيرة عن الشعبي، ومحمد بن حميد: ضعيف.
 - وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٣٠٠) عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن حميد وسلمة: ضعيفان.
 - وأخرج أبو داود (٣/٤٢٩ - ٤٣٠) رقم (٣٠٤١) من طريق إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي - وهو المعروف بالشَّذِّي - عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حلة، النصف في صفر والبقية في رجب، يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم. . . . وهو طرف من هذه القصة.
 - قال المنذري في «المختصر» (٤/٢٥١): «في سماع الشَّذِّي من عبد الله بن عباس نظر. وإنما قيل: إنه رآه، ورأى ابن عمر، وسمع من أنس بن مالك رضي الله عنهم» هـ.
 - وقال الألباني في «ضعيف أبي داود»: ضعيف الإسناد.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

(٦٣) ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ وعيد لهم. وَوَضَعَ المظهر موضع المضممر ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفسادٌ للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس بل وإلى فساد العالم.

(٦٤) ﴿ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ يعم أهل الكتابين، وقيل يريد به وفد نجران أو يهود المدينة. ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب ويفسر ما بعدها. ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها. ﴿ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن يعبد. ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ولا نقول عزيز بن الله ولا المسيح بن الله ولا نطيع الأحرار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، لأن كلاً منهم بعضنا بشرٌ مثلنا. روي أنه لما نزلت ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(١) قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يارسول الله. قال: «ليس كانوا يُحَلُّونَ لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم قال: «هو ذاك»^(٢). ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن التوحيد. ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي لزمتمكم الحجة فاعترفوا بأننا مسلمون دونكم، أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل.

(تنبيه) انظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحجاج، يتن أولاً أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام وما تعاوَرَ عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يحل عُقدتهم ويُزيج شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما

(١) التوبة: (٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٨/٥ رقم ٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث «عبد السلام بن حرب» و«غطف بن أعين» ليس بمعروف في الحديث هـ.

قلت: عبد السلام هذا ثقة حافظ له مناكير كما ذكره ابن حجر في التقریب (٥٠٥/١ رقم ١١٨٦) وأما غطف هذا ضعفه ابن حجر في التقریب (١٠٦/٢ رقم ٢١) والذهبي في الميزان (٣٣٦/٣) وثقه ابن حبان (٣١١/٧) وذكره ابن أبي حاتم (٥٥/٧ رقم ٣١٥) ولم يتكلم فيه بشيء، وكذلك البخاري في التاريخ الكبير (١٠٦/٧ رقم ٤٧١) مع إخراجهم للحديث، وللحديث شاهدان:

(الأول): من حديث حذيفة بن اليمان أخرجه ابن عبد البر (١٠٩/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١١٦/١٠) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١١٤/١٠ ج/٦) وهو إن كان موقوفاً فله حكم المرفوع كما هو مقرر في مصطلح الحديث.

(والثاني): من حديث أبي العالية عند ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١١٥/١٠ ج/٦).

وبذلك يكون الحديث حسناً إن شاء الله.

وقد حسنه الألباني في غاية المرام رقم (٦) وابن تيمية في «الإيمان» ص ٦٤.

أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقاً أسهل وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرض عن ذلك وقال: ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءِ حَاجِّجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

(٦٥) ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزعم كل فريق أنه منهم وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم قبل موسى بألف سنة وعيسى بألفين فكيف يكون عليهما؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدعون المحال.

(٦٦) ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءِ حَاجِّجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ها حرف تنبيه نُبِّهُوا بها على حالهم التي غفلوا عنها، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، وحاججتم جملة أخرى مبينة للأولى، أي أنتم هؤلاء الحمقى، وبيان حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه في التوراة والإنجيل عناداً، أو تدعون وروده فيه فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذكر له في كتابكم من دين إبراهيم. وقيل هؤلاء بمعنى الذين وحاججتم صلتهم. وقيل ها أنتم أصله أنتم على الاستفهام للتعجب من حماقتهم فقلبت الهمزة هاء. وقرأ نافع وأبو عمرو ها أنتم حيث وقع بالمد من غير همز، وورش أقل مداً، وقنبل بالهمز من غير ألف بعد الهاء، والباقون بالمد والهمز، والبزي بقصر المد على أصله. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما حاججتم فيه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان. ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن العقائد الزائفة. ﴿مُسْلِمًا﴾ منقاداً لله وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأنهم مشركون لإشراكهم به عزيزاً والمسيح وردّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

(٦٨) ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الولي وهو القرب. ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من أمته. ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة. وقرىء والنبي بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه، وبالجبر عطفاً على إبراهيم. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى لإيمانهم.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتَيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ نزلت في اليهود لما دَعَوْا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية. ولو بمعنى أن. ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وبأله إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم، أو ما يضلون إلا أمثالهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وزره واختصاص ضرره بهم.

(٧٠) ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد ﷺ. ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنها آيات الله، أو بالقرآن وأنتم تشهدون نغته في الكتابين، أو تعلمون بالمعجزات أنه حق.

(٧١) ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ بالتحريف وإبراز الباطل في صورته، أو بالتقصير في التمييز بينهما. وقرىء تَلْسُونُ بالتشديد وتَلْسُونُ بفتح الباء أي تلبسون الحق مع الباطل كقوله عليه السلام: «كلايس ثوبني زور»^(١) ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نبوة محمد عليه السلام ونعته. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عالمين بما تكتُمونه.

(٧٢) ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أي أظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار. ﴿وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ واكفروا به آخره لعلهم يَشْكُون في دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخلل ظهر لكم، والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف^(٢) ومالك بن الصيف قال لأصحابهما لما حولت القبلة: آمِنُوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلُّوا إليها أول النهار ثم صلُّوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فَيَرْجِعُونَ. وقيل اثنا عشر من أحبار خيبر تفاوَلُوا بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نَظَرْنَا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنعت الذي ورد في التوراة لعل أصحابه يَشْكُون فيه.

(٧٣) ﴿وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ولا تُقَرِّزُوا عن تصديق قلب إلا لأهل دينكم، أو لا تُظْهِرُوا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/١٦٨١ رقم ٢٦٩/١٢٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأخرج البخاري (٩/٣١٧ رقم ٥٢١٩) وأبو داود (٥/٢٦٩ - ٢٧٠ رقم ٤٩٩٧) وأحمد في المسند (٦/٣٤٥)، ٣٤٦، ٣٥٣ من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق مثله.

(٢) كعب بن الأشرف: هو كعب بن الأشرف الطائي، من نيهان: شاعر جاهلي، كانت أمه من بني النضر، فدان باليهودية، أدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، والتشبيب بنسائهم. أمر النبي ﷺ بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.

[الأعلام للزركلي (٥/٢٢٥)].

إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم فإن رجوعهم أرجى وأهم. ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَيْتُ هَدَى اللَّهِ﴾ هو يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبت عليه. ﴿أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ متعلق بمحذوف أي دَبَّرْتُمْ ذلك وقتلتم لأن يؤتى أحد، والمعنى أن الحسد حملكم على ذلك، أو بلا تؤمنوا أي ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشباعكم ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام. وقوله ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَيْتُ هَدَى اللَّهِ﴾ اعتراض يدل على أن كيدهم لا يجدي بطائل، أو خبر إن على أن هدى الله يدل من الهدى. وقراءة ابن كثير أن يؤتى على الاستفهام للتقريع^(١) تؤيد الوجه الأول أي إلا أن يؤتى أحد دَبَّرْتُمْ، وقرئ إن على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. ﴿أَوْ يُعَاجِزُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن يؤتى على الوجهين الأولين، وعلى الثالث معناه: حتى يحاجوكم عند ربكم فيُدْحِضُوا حججتكم عند ربكم، والواو ضمير أحد لأنه في معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم. ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَضَلْ يَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤْدِهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْدِيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ رد وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة.

(٧٥) ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤْدِيهِ إِلَيْكَ﴾ كعب الله بن سلام استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداه إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْدِيهِ إِلَيْكَ﴾ كنفخاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر ديناراً فجحده. وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة، والخائنون في القليل اليهود إذ الغالب عليهم الخيانة. وقرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو يؤدّه إليك ولا يؤدّه إليك بإسكان الهاء، وقالون باختلاس كسرة الهاء وكذا روي عن حفص، والباقون بإشباع الكسرة. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ إلا مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البيعة. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله لا يؤده. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ بسبب قولهم. ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَكِيلٌ﴾ أي ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب - ولم يكونوا على ديننا - عتاب وذم. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ﴾ بادعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة. وقيل عامل اليهود رجلاً من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سَقَطَ حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم. وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر

والفاجر»^(١).

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

(٧٦) ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه أي بلى عليهم فيهم سبيل. ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ استئناف مقرر للجملته التي سدت بلى مسدّها، والضمير المجرور لمن أو لله، وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى مَنْ وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

(٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون. ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات. ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا. ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بما يسئروهم أو بشيء أصلاً وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم لقوله: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فإن من سَخِطَ على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد ﷺ وحُكِمَ الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة^(٢). وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به^(٣). وقيل: نزلت في ترافع كان بين الأشعث بن قيس^(٤) ويهودي في بئر أو أرض وتوجه الحلف على

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٣١٨) من طرق عن يعقوب القمي، عن جعفر، عن سعيد بن جبيرة به مرسلًا بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٣٢١) عن عكرمة، وفي إسناده ضعف. وليس فيه ذكر تبديل نعت النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/٣١٦ رقم ٢٠٨٨) و(٥/٢١٦ رقم ٢٦٧٥) و(٨/٢١٣ رقم ٤٥٥١) من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

● وقال الحافظ في الفتح (٨/٢١٣) جمعاً بين حديث عبدالله بن أبي أوفى وحديث ابن مسعود: لا منافاة بينهما، ويحمل على أن النزول كان بالسبيين جميعاً، ولفظ الآية أعم من ذلك.

(٤) الأشعث بن قيس بن مغدي كُرب بن معاوية بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مُزَيْع بن كندة.

له صحبة، ورواية.

وأصابت عينه يوم اليرموك. وكان أكبر أمراء عليٍّ يوم صفين. [الإصابة (١/٧٩) وطبقات ابن سعد (٦/٢٢)].

اليهودي^(١).

وَلِإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ آلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

(٧٨) ﴿وَلِإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني المحرفين ككعب ومالك وحيي بن أخطب. ﴿يَلُونُ آلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ يفتلون بها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، أو يعطفونها بشبه الكتاب. وقرىء يلون على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الضمير للمحرف المدلول عليه بقوله يلون. وقرىء ليحسبوه بالياء والضمير أيضاً للمسلمين. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وتشنيع عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً، أي ليس هو نازلاً من عنده. وهذا لا يقتضي أن لا يكون فعل العبد فعل الله تعالى^(٢). ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه.

(٧٩) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تكذيب ورد على عبدة عيسى عليه السلام. وقيل: إن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله أن نعبد غير الله وأن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني فتزلت^(٣). وقيل: قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا

(١) أخرجه البخاري (١٤٥/٥) رقم ٢٥١٥، (٢٥١٦) و(٢٧٩/٥) رقم ٢٦٦٧ و(٢٨٦/٥) رقم ٢٦٧٦ و(٢١٢/٨) - ٢١٣ رقم ٤٥٥٠ و(٥٤٤/١١) رقم ٦٦٥٩، (٦٦٦٠) و(٥٥٨/١١) رقم ٦٦٧٦، (٦٦٧٧) و(١٧٧/١٣) رقم ٧١٨٣، (٧١٨٤).

ومسلم (١٢٢/١ - ١٢٣ رقم ١٣٨/٢٢٠).

وأبو داود (٥٦٥/٣) رقم ٣٢٤٣ والترمذي (٥٦٩/٣) رقم ١٢٦٩.

والنسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٧٧/١) - كلهم من حديث ابن مسعود.

(٢) قوله «وما هو من عند الله» إظهار للاسم الجليل، وكذا قوله «وما هو من الكتاب» إظهار في موقع الإضمار لتحويل ما أقدموا عليه من القول (س٢/٥٢).

(٣) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٣٢٥/٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٣٨٤/٥) من طريق ابن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال حدثنا سعيد بن جبيرة، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: «اجتمعت نصارى نجران، وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله عز وجل فيهم «يا أهل الكتاب لِمَ تهاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده» إلى قوله «والله ولي المؤمنين» [آل عمران: ٦٥ - ٦٨]، فقال =

نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرّموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله^(١) ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ ولكن يقول كونوا ربانيين، والربانيّ منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللّحياني والرقباني، وهو الكامل في العلم والعمل. ﴿يَمَا كُنْتُمْ تُعَمِّمُونَ أَكَيْتَبَ وَيَمَا كُنْتُمْ تُدْرِسُونَ﴾ بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب تَعَلَّمُونَ بمعنى عالمين. وقرئ تَدْرِسُونَ من التدريس وتُدْرِسُونَ من أدرس بمعنى دَرَس كأكرم وكرم، ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير وبما كنتم تدرسونه على الناس^(٢).

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب عطفاً على ثم يقول، وتكون لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله ما كان أي ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، أو غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة، ورفع الباقون على الاستئناف ويحتمل الحال، وقرأ أبو عمرو على أصله برواية الدوري باختلاس الضم. ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ﴾ إنكار،

أبورافع القرظي حين اجتمع عنده النصارى والأخبار فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام أثريدُ منّا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني، يقال له الرُّبَيْسُ: وذلك تُريد يا محمد وإليه تدعو؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن أعبد غير الله أو أمر بعبادة غيره، وما بذلك بعثني ولا أمرني، فأنزل الله - عز وجل - في ذلك من قولهما: «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا».

(١) أورده الحافظ في «الكافي الشاف» رقم (٢٢١): وقال: لم أجد له إسناداً.

ونقله الواحدي في الأسباب - ص ٩٦ - عن الحسن البصري «أن رجلاً، فذكره».

قلت: ومرسل الحسن البصري لا يحتج به.

وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن مرسلًا - كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٥٠) -.

(٢) قوله تعالى «ما كان لبشر» إشعار بعلّة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة إليهم.

وقوله «بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون»: جعل خير كان مضارعاً لإفادة الاستمرار التجديدي.

وتكرير بما كنتم للإيذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية.

وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها، أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثاني لمن دونهم (س ٥٣/ ٢).

والضمير فيه للبشر وقيل لله. ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون لأن يسجدوا له.

(٨١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ قيل إنه على ظاهره، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم به أولى. وقيل معناه أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأمهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم. وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الفاعل، والمعنى وإذا أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أمهم. وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو إسرائيل، أو سماهم نبيين تهكماً لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا. واللام في لسا - وطفة لا تقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف، وما تحتلُ الشرطية، ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتل الخبرية. وقرأ حمزة لِمَا بالكسر على أَنَّ ما مصدرية أي لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب ثم مجيء رسول مصدق له أَخَذَ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه، أو موصولة والمعنى أخذه للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له، وقرئ لَمَّا بمعنى حين آتيتكم أو لَمَنْ أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقلاً، وقرأ نافع آتيناكم بالنون والالف جميعاً. ﴿قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي عهدي، سمي به لأنه يُؤَصِّرُ أي يُشَدُّ. وقرئ بالضم^(١) وهو إما لغة فيه كغير وغير أو جمع إصار وهو ما يشد به. ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، وقيل الخطاب فيه للملائكة. ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأنا أيضاً على إقراركم وتشاهدكم شاهد، وهو توكيد وتحذير عظيم.

فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٨٢) ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة.

(٨٣) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عطف على الجملة المتقدمة، والهمزة متوسطة بينهما للإنكار، أو محذوف تقديره أنتولون فغير دين الله تبغون. وتقدير المفعول لأنه المقصود بالإنكار. والفعل بلفظ الغيبة عند أبي عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب، وبالناء عند الباقيين على تقدير وقل له. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الفرق والإشراف على الموت، أو مختارين - كالملائكة والمؤمنين - ومسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدر أن يمتنعوا عما قضي عليهم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وقرئ بالياء على أن الضمير لمن^(٢).

(١) أي بضم الهمزة (أصري).

(٢) وقرئ بياء الخطاب «وإليه ترجعون».

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

(٨٤) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان والقرآن، كما هو منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم، وأيضاً المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم، أو بأن يتكلم عن نفسه على طريقة الملوك إجلالاً له. والنزول كما يُعدى بإلى لأنه ينتهي إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق، وإنما قُدِّم المنزل عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرّف له والعيار عليه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتصديق والتكذيب. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون أو مخلصون في عبادته^(١).

(٨٥) ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله. ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الواقعيين في الخسران، والمعنى أن المُعْرِض عن الإسلام والطالب لغيره فاقده للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها. واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل، والجواب إنه ينفي قبول كل دين يغيره لا قبول كل ما يغيره، ولعل الدين أيضاً للأعمال^(٢).

(٨٦) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله فإن الحائد عن الحق بعد ما وُضِّح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد. وقيل نفياً وإنكار له وذلك يقتضي أن لا تُقبل توبة المرتد^(٣)، وشهدوا عطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل ونظيره فأصدق وأكّن، أو حال بإضمار قد من كفروا وهو على الوجهين دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان، فكيف من جاء الحق وعرفه ثم أعرض عنه؟!

(١) «الأسباط» جمع سبط وهو الحافد، والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام.

وخص موسى وعيسى من بين النبيين لأن الكلام مع اليهود والنصارى.

وذكر عدم التفريق بين أحد منهم ولم يتعرض لنفي التفريق بين الكتب لأنه ذلك مستلزم له (س ٥٥/٢).

(٢) الإسلام هنا بمعنى الدين الذي جاء به محمد ﷺ، لا الإسلام الذي هو مرتبة من مراتب الشريعة.

(٣) والقول الأول أولى، فإن توبة المرتد تُقبل. ويدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى: «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو». - آل عمران ٨٩ -.

أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه على نفي جواز لعن غيرهم، ولعل الفرق أنهم مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مؤيسون عن الرحمة رأساً بخلاف غيرهم، والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فإن الكافر أيضاً يلعن مُنْكَرُ الحق والمُرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه.

(٨٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو العقوبة أو النار، وإن لم يجز ذكرهما لدلالة الكلام عليهما. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا، ويجوز أن لا يقدر له مفعول، بمعنى ودخلوا في الصلاح. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يقبل توبته. ﴿رَحِيمٌ﴾ يتفضل عليه. قيل: إنها نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على رذته فأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية فرجع إلى المدينة فتاب^(١).

(٩٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ كاليهود كفروا بعتسى والإنجيل بعد الإيمان بموسى والتوراة ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، أو كفروا بمحمد بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد والظعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق، أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفراً بقولهم نتربص بمحمد ريب المنون أو نرجع إليه ونناقضه بإظهاره. ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك فكفى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وزيادة كفرهم، ولذلك لم تدخل الفاء فيه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

(٩١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ لما كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية أدخل الفاء ههنا للإشعار به. وملء الشيء ما يملؤه. وذهباً نصب على

(١) أخرجه ابن حبان (رقم ١٧٢٨ - موارد) والحاكم (٢/٢٤٢) وابن جرير الطبري (٣/٣٤٠) والنسائي (٧/١٠٧) رقم (٤٠٦٨).

كلهم من طريق يزيد بن زريع عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وأخرجه أحمد (١/٢٤٧) من طريق علي بن عاصم عن داود به مختصراً، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده.

التمييز. وقرىء بالرفع على البدل من ملء أو الخبر لمحذوف. ﴿وَلَوْ أَفْتَدَى بِهٖ﴾ محمول على المعنى كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تقرب به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة، أو المراد ولو افتدى بمثله قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ^(١)﴾ والمثل يحذف ويراد كثيراً لأن المثليين في حكم شيء واحد ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مبالغة في التحذير وإقناط لأن من لا يقبل منه الفداء ربما يعفى عنه تكرمًا ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ في دفع العذاب. ومن مزيدة للاستغراق^(٢).

لَن نَّأَلُوا الْإِبْرَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾

(٩٢) ﴿لَن نَّأَلُوا الْإِبْرَ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير، أو لن تناولوا بر الله الذي هو الرحمة والرضى والجنة. ﴿حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من المال، أو ما يعمه غيره كبذل الجاه في معاونة الناس، والبذل في طاعة الله والمهجة في سبيله. روي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إلي بيرحاء فضعها حيث أراك الله، فقال: بخ بذاك مال رايح أو رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين^(٣). وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فقال: زيد إنما أردت أن أتصدق بها، فقال عليه السلام: «إن الله قد قبلها منك»^(٤). وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل، وأن الآية تعم الإنفاق الواجب والمستحب. وقرىء بعض ما تحبون وهو يدل على أن من للتبعض ويحتمل التبيين. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ أي من أي شيء محبوب أو غيره ومن لبيان ما. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

(٩٣) ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ أي المطعومات والمراد أكلها. ﴿كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ حلالاً لهم، وهو مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال تعالى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾^(٥) ﴿إِلَّا

(١) المائدة: «٣٦».

(٢) «ناصرين» صيغة الجمع لمراعاة الضمير، أي ليس لواحد منهم ناصر واحد (س٥٧/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥/٣) رقم (١٤٦١) و(٤٩٣/٤) رقم (٢٣١٨) و(٣٩٦/٥) رقم (٢٧٦٩) و(٢٢٣/٨) رقم (٤٥٥٤) و(٧٤/١٠) رقم (٥٦١١) ومسلم (٦٩٣/٢) رقم (٩٩٨/٤٢) ومالك في الموطأ (٩٩٥/٢) رقم (٢) من حديث عن أنس بن مالك.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣٤٨/٣) عن عمرو بن دينار مرسلًا. ورجاله ثقات وكذلك أخرجه عن أيوب معضلًا وانظر «الكافي الشاف» رقم (٢٢٤) لابن حجر.

(٥) الممتحنة: «١٠».

مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ ﴿١﴾ يَعْقُوبُ. ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ كَلْحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَنَاهَا. وَقِيلَ كَانَ بِهِ عِزْقُ النَّسَا فَنَذَرَ إِنْ شَفِيَ لَمْ يَأْكُلْ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّهُ إِلَيْهِ ^(١). وَقِيلَ: فَعَلَ ذَلِكَ لِلتَّدَاوِي بِإِشَارَةِ الْأَطْبَاءِ. وَاحْتِجَّ بِهِ مِنْ جُوزِ النَّبِيِّ أَنْ يَجْتَهِدَ، وَلِلْمَنْعِ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ بِإِذْنِ مَنْ أَلَّهِ فِيهِ فَهُوَ كِتْحَرِيمُهُ ابْتِدَاءً. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أَيُّ مَنْ قَبْلَ إِنْزَالِهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ لَظْلَمَهُمْ وَبَغْيَهُمْ عَقُوبَةً وَتَشْدِيداً، وَذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ فِي دَعْوَى الْبِرَاءَةِ مِمَّا نَعَى عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فِطْرُكُمْ مِمَّنْ الْأَلَدِينَ هَدَاؤُا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ﴾ ^(٢) وَقَوْلُهُ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَدَاؤُا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ ^(٣) الْآيَتَيْنِ، بِأَنْ قَالُوا لَسْنَا أُولَ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا كَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَى نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ بَعْدَهُ حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَيْنَا فَحَرَّمَ عَلَيْنَا كَمَا حَرَّمَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، وَفِي مَنَعِ النَّسَخِ وَالطَّعْنِ فِي دَعْوَى الرِّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُوَافَقَةً لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَحْلِيلِهِ لِحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَنَاهَا. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَمْرٌ بِمُحَاجَّتِهِمْ بِكِتَابِهِمْ وَتَبْكِيَّتِهِمْ بِمَا فِيهِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا. رَوَى: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَهُ لَهُمْ بُهْتُوا وَلَمْ يَجْشُرُوا أَنْ يَخْرُجُوا التَّوْرَةَ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ.

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

(٩٤) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ابْتَدَعَهُ عَلَى اللَّهِ بِزَعْمِهِ أَنَّهُ حَرَّمَ ذَلِكَ قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ مَنْ بَعْدَ مَا لَزِمَتْهُمْ الْحُجَّةُ. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الَّذِينَ لَا يَنْصِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَكَابِرُونَ الْحَقَّ بَعْدَمَا وَضَحَ لَهُمْ ^(١).

(٩٥) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ تَعْرِيفٌ بِكَذِبِهِمْ، أَيْ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ فِيمَا أَنْزَلَ وَأَنْتُمْ الْكَاذِبُونَ. ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أَيُّ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي هِيَ فِي الْأَصْلِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ مِثْلُ مِلَّتِهِ حَتَّى تَتَخَلَّصُوا مِنَ الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي اضْطَرَّتْكُمْ إِلَى التَّحْرِيفِ وَالْمُكَابَرَةِ لَتَسْوِيَةِ الْأَغْرَاضِ الدِّنْيَوِيَّةِ وَالزَّمْتِكُمْ تَحْرِيمَ طَيِّبَاتِ

(١) أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢/٢٩٢) مِنْ طَرِيقِ الثَّوْرِيِّ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا: أَنَّ إِسْرَائِيلَ أَخَذَهُ عَرَقُ النِّسَاءِ فَطَارَ بَيْتٌ فَجَعَلَ إِنْ شَفَاهُ اللَّهُ أَنْ لَا يَأْكُلَ لَحْمًا فِيهِ عُرُوقٌ قَالَ فَحَرَّمَتْهُ الْيَهُودُ فَتَزَلَّتْ: «كُلَّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» إِنْ هَذَا كَانَ قَبْلَ التَّوْرَةِ.

وَقَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافِقُهُ الذَّهَبِيُّ.

● وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/٢٧٨) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ بَهْرَامٍ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا مِثْلَهُ.

وَعَبْدُ الْحَمِيدِ بْنِ بَهْرَامٍ: صَدُوقٌ. وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ.

(٢) النِّسَاءُ: ١٦٠.

(٣) الْأَنْعَامُ: ١٤٦.

(٤) «فَأُولَئِكَ» مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْبَعْدِ لِلْإِذْنِ بَعْدَ مَنَازِلَتِهِمْ فِي الضَّلَالِ (س٢/٥٩).

أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه^(١) ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٨﴾

(٩٦) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي وضع للعبادة وجعل متعبداً لهم، والواضع هو الله تعالى. ويدل عليه أنه قرىء على البناء للفاعل^(٢). ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي ببكة^(٣)، وهي لغة في مكة كالنييط والنييط وأمر راتب وراتم ولازب ولازم، وقيل هي موضع المسجد. ومكة البلد من بكّة إذا زحمه، أو من بكه إذا دقه فإنها تبك أعناق الجبارة روي أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال: المسجد الحرام ثم بيت المقدس. وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة^(٤). وقيل أول من بناه إبراهيم ثم هُدم، فبناه قوم من جَزهم، ثم العمالقة، ثم قريش. وقيل هو أول بيت بناه آدم فانطمس في الطوفان؛ ثم بناه إبراهيم. وقيل: كان في موضعه قبل آدم بيت يقال له الضُّراح يطوف به الملائكة، فلما أهبط آدم أمر بأن يحجه ويطوف حوله ورفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات وهو لا يلائم ظاهر الآية. وقيل المراد إنه أول بيت بالشرف لا بالزمان. ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله، حال من المستكن في الظرف ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدتهم، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال:

(٩٧) ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وأن ضواري السباع تخالط الصيود في الحرم ولا تتعرض لها، وإن كل جبار قصده بسوء قهره الله كأصحاب الفيل. والجملة مفسرة للهدى، أو حال أخرى. ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ مبتدأ محذوف خبره أي منها مقام إبراهيم، أو بدل من آيات بدل البعض من الكل. وقيل عطف بيان على أن المراد بالآيات أثر القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين وتخصيصها بهذه الإلانة من بين الصخر وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء وحفظه مع كثرة أعدائه ألوف سنة، ويؤيده أنه قرىء آية بيّنة على التوحيد. وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة ففاصت فيه قدماء. ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ

(١) «فاتبعوا» الفاء للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه (س/٢/٥٩).

(٢) أي «وَضَعَ للناس».

(٣) قوله تعالى: «الذي ببكة» خبر إن، وأخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصيصها بسببين: الإضافة والوصف بالجملة بعدها أي للبيت الذي ببكة (س/٢/٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦/٤٠٧ رقم ٣٣٦٦) و(٦/٤٥٨ رقم ٣٤٢٥) ومسلم (١/٣٧٠ رقم ١/٥٢٠) كلاهما من طرق عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر.

﴿آمِنًا﴾ جملة ابتدائية، أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لأنه في معنى آمِنَ مَنْ دخله أي ومنها آمِنُ من دخله، أو فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأَمِنُ من دخله. اقتصَرَ بذكرهما من الآيات الكثيرة وطوى ذَكَرَ غيرهما كقوله عليه السلام «حب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة»^(١) لأن فيهما غُنْيَةً عن غيرهما في الدارين بقاء الأثر مدى الدهر والأَمِنَ من العذاب يوم القيامة. قال عليه السلام «من مات في أحد الحرمين، بعث يوم القيامة آمناً»^(٢). وعند أبي حنيفة من لزمه القتل برِدَّة أو قصاص أو غيرهما والتجأ إلى الحرم لم يُتعرض له ولكن أُلْجِئَ إلى الخروج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ قصده للزيارة على الوجه المخصوص. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص حِجُّ بالكسر وهو لغة نجد^(٣). ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص له، وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزاد والراحلة^(٤) وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال، ولذلك أَوْجِبَ الاستنابة على الزمن إذا وَجَدَ أَجْرَةً من ينوب عنه. وقال مالك

(١) أخرجه النسائي (٦١/٧) وأحمد (١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥) من حديث أنس بن مالك. وإسناده حسن.

(٢) وهو حديث ضعيف.

● أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٩٠/٣ رقم ٤١٥٨) من طريق ابن أبي قديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد «ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جوارى يوم القيامة».

وفيه سليمان بن يزيد الكعبي الخزاعي منكر الحديث ليس بقوي، قاله أبو حاتم في الجرح (١٤٩/٣).

● وأخرجه الطيالسي في المسند (ص ١٢ - ١٣) والبيهقي في «الشعب» (٤٨٨/٣ رقم ٤١٥٣) وفي «السنن الكبرى» (٢٤٥/٥) من طريق سوار بن ميمون أبو الجراح العبدي حدثني رجل من آل عمر عن عمر به. وفيه رجل من آل عمر: مجهول.

● وأخرجه الدارقطني في السنن (٢٧٨/٢ رقم ١٩٣) من رواية هارون بن أبي قزعة عن رجل من آل حاطب، عن حاطب به وفيه هارون بن أبي قزعة: ضعيف. ورجل من آل حاطب مجهول.

● وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٩٦/٣ رقم ٤١٨٠) والطبراني في الكبير (٢٤٠/٦ رقم ٦١٠٤) من حديث عبد الغفور بن سعيد الأنصاري عن أبي هاشم الرماني عن زاذان، عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي وجاء يوم القيامة من الآمين».

قال البيهقي: عبد الغفور هذا ضعيف. وروي بإسناد آخر أحسن من هذا. ثم ذكر طريق عبد الله بن المؤمل (٤٩٧/٣ رقم ٤١٨١).

وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢١٨/٢) من طريق عبد الله بن المؤمل أيضاً.

وتعقبه السيوطي في اللآلئ (١٢٩/٢) فقال: أفرط المؤلف. في إيراد هذين الحديثين في الموضوعات. ثم قال: والذي أستخير الله فيه وأحكم لمتن الحديث بالحسن لكثرة شواهد ثم ذكر الطرق المذكورة، والتي لا تصل بالحديث إلى درجة الحسن لغيره فهو حديث ضعيف بجميع طرقه.

وانظر تنزيه الشريعة لابن عراق (١٧٣/٢) والكافي الشاف لابن حجر رقم (٢٣١).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وعاصم برواية أبي بكر (حَجُّ البيت) بفتح الحاء (المبسوط) (ص ١٤٦).

(٤) أخرجه ابن ماجة (٩٦٧/٢ رقم ٢٨٩٧) وإسناده ضعيف لأن فيه «سويد بن سعيد» قال فيه الحافظ في التقریب:

(٣٤٠/١) صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه، وأفحش فيه ابن معين القول.

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

رحمه الله تعالى إنها بالبدن فيجب على من قَدِرَ على المشي والكسب في الطريق. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إنها بمجموع الأمرين^(١). والضمير في إليه للبيت أو الحج، وكل ما أتى إلى الشيء فهو سبيله. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ وَضَعَ كَفَرَ موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، ولذلك قال عليه السلام «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»^(٢). وقد أُكِّدَ أمرُ الحج في هذه الآية من وجوه الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر، وإبرازه في الصورة الاسمية، وإيراده على وجوه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولاً ثم تخصيصه ثانياً فإنه كإيضاح بعد إيهام وتثنية وتكرير للمراد، وتسمية ترك الحج كفراً من حيث إنه فِعْلُ الكفرة، وذكر الاستغناء فإنه في هذا الموضع مما يدل على المقت والخذلان. وقوله ﴿عَنِ الْمَلَائِكَةِ﴾ يدل عليه لما فيه من مبالغة التعميم والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعظم السُّخْطِ، لأنه تكليف شاق جامع بين كسر النفس وإتاعاب البدن وصرف المال والتجرد عن الشهوات والإقبال على الله. روي أنه لما نزل صَدْرُ الآية جَمَعَ رسول الله ﷺ أرباب الملل فخطبهم وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحُجُّوا». فأمنت به ملة واحدة وكفرت به خمسُ ملل، فنزل وَمَنْ كَفَرَ^(٣).

- (١) ما ذهب إليه أبو حنيفة من تفسير الاستطاعة بمجموع الأمرين أي الاستطاعة البدنية والمالية هو الأولى. وما وقع من بعض الأحاديث في بيان الاستطاعة بأنها الزاد والراحلة فإنه بيان لبعض شروط الاستطاعة، وتؤخذ بقية الشروط من أدلة أخرى. ولم يتعرض لصحة البدن لظهور الأمر. وعليه فتفسر الاستطاعة بعمومها.
- (٢) أخرجه الترمذي (١٧٦/٣) رقم (٨١٢) من حديث علي. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال. وهلال بن عبدالله مجهول، والحارث يُضَعَّفُ في الحديث.
- وقال ابن حجر في التقریب (٣٢٤/٢): عن هلال بن عبدالله هذا بأنه متروك.
- وأخرجه ابن عدي في الكامل (٢٥٨٠/٧) والعقيلي في الضعفاء (٣٤٨/٤) في ترجمة هلال، ونقلًا عن البخاري أنه منكر الحديث.
- وقال ابن عدي: ليس الحديث بمحفوظ.
- وله شاهد من حديث أبي أمامة:
- أخرجه الدارمي (٢٨/٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٣٠/٣) رقم (٣٩٧٩) وفي السنن الكبرى (٣٣٤/٤) عنه مرفوعاً بلفظ «من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً».
- وفيه: شريك القاضي: صدوق يخطئ كثيراً، تغير حفظه منذ ولي القضاء. [التقريب (٣٥١/١)].
- وليث بن أبي سليم: صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك. [التقريب (١٣٨/٢)].
- وعبدالرحمن بن سابط الجمحي المكي: ثقة كثير الإرسال. [التقريب (٤٨٠/١)].
- والخلاصة أن الحديث ضعيف. انظر «الكافي الشاف» رقم (٢٣٦)، والموضوعات لابن الجوزي (٢٠٩/٢) - (٢١٠).
- (٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج ٢٠) من طريق جوير عن الضحاك وهو معضل - لأن الضحاك بينه وبين النبي ﷺ واسطتان - وجوير متروك الحديث ساقط. وانظر «الكافي الشاف» رقم (٢٣٨).

﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩) ﴿يَتَّاهِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠)

(٩٨) ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بآياته السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره. وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما. ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ والحال أنه شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها لا ينفعكم التحريف والاستسارار^(١).

(٩٩) ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ﴾ كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقرع ونفي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مُستَقْبَح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب^(٢). وسبيلُ الله في دينه الحقُّ المأمور بسلوكه وهو الإسلام. قيل كانوا يفتنون المؤمنين ويُحَرِّشُونَ بينهم حتى أتوا الأوس والخزرج فذكروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادي والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصددهم عنه. ﴿تَبَعُونَهَا عِوَجًا﴾ حال من الواو أي باغين طالبين لها اعوجاجاً بأن تُلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه عوجاً عن الحق بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما، أو بأن تحرَّشوا بين المؤمنين لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم. ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ إنها سبيل الله والصدُّ عنها ضلال وإضلال، أو أنتم عُدُول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في القضايا. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم. ولما كان المُنْكَرُ في الآية الأولى كُفْرُهُمْ وهم يجهرُونَ به حَتْمًا بقوله ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدُّهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يُخَفُونَهُ ويحتالون فيه قال ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿يَتَّاهِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾^(٣) نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون، فمر بهم شاس بن قيس اليهودي فغاضه تألفهم واجتماعهم فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بُعث ويُشَدِّدُهم بعض ما قيل فيه، وكان الظَّفَر في ذلك اليوم للأوس، ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، واجتمع مع القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه وقال «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم

(١) قوله تعالى: «والله شهيد..» إظهار الجلالة في مع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب. وصيغة المبالغة في شهيد للتشديد في الوعيد (س/٦٣/٢).

(٢) ولذلك لم يعطفه على سابقه.

(٣) تلوين النسخاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيراً لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم. إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعاً لهم عن ذلك.

وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبهم.. (س/٦٤/٢).

بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بين قلوبكم، فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ^(١). وإنما خاطبهم الله بنفسه بعدما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلّمهم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ۚ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكار وتعجيب لكفرهم في حال اجتمع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر^(٢). ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه أو يلتجئ إليه في مجامع أموره. ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقد اهتدى لا محالة^(٣).

(١٠٢) ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ حق تقواه وما يجب منها، وهو است فراغ الوُسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٤) وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: هو أن يُطيع فلا يعصي، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وقيل هو: أن تنزه الطاعة عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب. وأصل تقاة وقية، فقلبت واوها المضمومة تاء كما في تودة وتخمة والياء ألفاً^(٥). ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، فإن النهي عن المُقَيّد بحالٍ أو غيرها قد يتوجه بالذات نحو الفعل تارة والقيد أخرى وقد يتوجه نحو المجموع دونهما، وكذلك النفي.

(١٠٣) ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه لقوله عليه السلام: «القرآن حبل الله المتين»^(٦). استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردي، كما أن التمسك بالحبل

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ - كما في «الدر المنثور» (٢/٢٧٨) - وأخرجه

ابن جرير في «جامع البيان» (٤/٢٣) عن زيد بن أسلم وفي سنده ضعف.

(٢) عدم إسناد التلاوة إلى رسول الله ﷺ للإيدان باستقلال كل منهما في الباب (س/٢٦٥).

(٣) وصف الصراط بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين ييغونها عوجاً (س/٢٦٥).

(٤) الثغابن: «١٦».

(٥) تكرير الخطاب بيا أيها الذين آمنوا تشریف إثر تشریف لندائهم بوصف الإيمان (س/٢٦٥).

(٦) أخرجه الترمذي (٥/١٧٢ رقم ٢٩٠٦) من حديث علي مطولاً وفيه قصة.

وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول. وفي الحارث مقال.

قلت: قوله وإسناده مجهول: لجهالة أبي المختار الطائي، وابن أخي الحارث الأعور [التقريب: (٢/٤٧٠)،

سبب للسلامة من التردّي والثوق به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحاً للمجاز. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين عليه ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي ولا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب، أو لا تفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة. ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف وزوال الغل. ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ﴾ في الجاهلية متقاتلين. ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. وقيل كان الأوس والخزرج أخوين فوق بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم برسوله ﷺ. ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ مشفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتكم في النار. ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بالإسلام. والضمير للحفرة، أو للنار، أو للشفا، وتأنيته لتأنيث ما أضيف إليه أو لأنه بمعنى الشفة فإن شفا البشر وشفتها طرفها كالجانب والجانبية، وأصله شَفَوُ قَلْبَتِ الْوَاوِ أَلْفًا فِي الْمَذْكَرِ وحذفت في المؤنث. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ دلالته. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى وازديادكم فيه.

= وأخرجه الدارمي (٤٣٤/٢ - ٤٣٥) والبزار في مسنده (٧١/٣ رقم ٨٣٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٤٨٢/١٠).

كلهم من طرق عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث عن الحارث به.
وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى إلا عن علي، ولا نعلم رواه عن علي إلا الحارث.
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (رقم ٢٤٥): «وله شاهد عن معاذ بن جبل، أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد، عن يونس بن ميسرة، وعن ابن إدريس بلفظ «ذكر رسول الله ﷺ الفتن فشدها. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله - فذكر الحديث بطوله -».
قلت: فيه عمرو بن واقد الدمشقي مولى قريش متروك [التقريب: (١٨/٢)].

وأخرجه الحاكم في المستدرک (٥٥٥/١) من حديث ابن مسعود مرفوعاً أيضاً بلفظ: «إن هذا القرآن مآدبة الله فاقبلوا من مآدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعبد ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد. اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول (آلم) حرف ولكن ألف ولام وميم».
قال الحاكم: «هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر» وقال الذهبي: «صالح ثقة خرج له مسلم. لكن إبراهيم بن مسلم ضعيف».

قلت: هنا متابعان لإبراهيم في رفعه، لكن ليس فيه قوله: القرآن حبل الله...

(الأول): عطاء بن السائب عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعاً، عند الخطيب في تاريخه (٢٨٥/١).

(الثاني): عاصم بن أبي النجود عن أبي الأحوص عنه، عند الحاكم (٥٦٦/١) كلاهما بلفظ: اقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إنني لا أقول (آلم) حرف ولكن (ألف) عشر و(لام) عشر و(ميم) عشر.
وحسن المحدث الألباني هذا القدر لمتابعة أحدهما للآخر.
انظر الصحيحة رقم (٦٦٠).

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

(١٠٤) ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ مِنْ للتبويض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له كل أحد إذ للمتصدي له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها. خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ولكن يسقط بفعل بعضهم، وهكذا كل ما هو فرض كفاية. أو للتبيين بمعنى وكونوا أمة يدعون وقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١). والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطف الخاص على العام للإيذان بفضله^(٢). ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المخصوصون بكمال الفلاح. روي أنه عليه السلام سئل من خير الناس فقال «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم»^(٣). والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر به، والنهي عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر.

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ كاليهود والنصارى اختلفوا في التوحيد والتزيه وأحوال الآخرة على ما عرفت. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه. والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع لقوله عليه السلام «اختلاف أمتي رحمة»^(٤). ولقوله عليه الصلاة والسلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد»^(٥).

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) حذف المفعول من الأفعال الثلاثة: يدعون ويأمرون وينهون إما للإيذان بظهوره أي يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم، أو للقصد إلى إيجاد نفس الفعل كما في قولك فلان يعطي ويمنع (س ٦٨/٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤٣٢/٦) والطبراني في الكبير (٢٥٧/٢٤) رقم ٦٥٧ كلاهما من رواية سماك عن عبدالله بن عميرة، عن زوج درة، عن درة به.

وأورده الهيثمي في «المجمع» وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٤) لا أصل له. بل باطل سنداً ومعنى. وقد نقل العلامة المناوي في فيض القدير (٢١٢/١) عن السبكي أنه قال: «وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع» هـ. وانظر تذكرة الموضوعات للفتني ص ٩٠، والمقاصد الحسنة للسخاوي ص ٦٩ وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٧٦/١ رقم ٥٧) وغيرها.

(٥) أخرجه البخاري (٣١٨/١٣ رقم ٧٣٥٢) ومسلم (١٣٤٢/٣ رقم ١٧١٦) وأبو داود (٧/٤ رقم ٣٥٧٤) وابن ماجه (٧٧٦/٢ رقم ٢٣١٤).

من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ نصب بما في لهم من معنى الفعل، أو بإضمار اذكر. وبياض الوجه وسواده كناية عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه^(١). وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ على إرادة القول أي فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم، وهم المرتدون أو أهل الكتاب كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعته، أو جميع الكفار كفروا بعدما أقروا به حين أشهدهم على أنفسهم أو تمكنوا من الإيمان بالنظر في الدلائل والآيات^(٢). ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أمر إهانة. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو جزاء لكفركم^(٣).

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني الجنة والثواب المخلد، عبّر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، وكان حق الترتيب أن يُقدّم ذكرهم لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أخرجه مخرج الاستئناف للتأكيد كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال هم فيها خالدون.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها^(٤). ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق كما قال^(٥).

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازي كلاً بما وعد له

= وأخرج الترمذي (٦١٥/٣ رقم ١٣٢٦) والنسائي (٢٢٣/٨ رقم ٥٣٨١) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ، فله أجر واحد».

قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقد صححه الألباني في الإرواء (٢٢٣/٨ رقم ٢٥٩٨).

(١) والأولى حمل بياض الوجه وسواده على الظاهر، إذ لا يوجد ما يمنعه.

(٢) قدم قوله «وَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ» لأن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم (س٢/٦٩).

(٣) جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل «بما كنتم تكفرون» للدلالة على استمرار كفرهم، أو على مضيه في الدنيا (س٢/٦٩).

(٤) والالتفات في «نَتْلُوهَا» لإبراز كمال العناية بالتلاوة (س٢/٧٠).

(٥) قوله «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» تذييل مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وآكده، فإن تنكير الظلم وتوجيه النفي إلى إرادته بصيغة المضارع وتعليق الحكم بآحاد الجمع المعرف والالتفات إلى الاسم الجليل للإشعار بعلّة الحكم بياناً لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه (س٢/٧٠).

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طَرَأَ كقوله تعالى ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وقيل كنتم في علم الله أو في اللوح المحفوظ أو فيما بين الأمم المتقدمين. ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم. ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ استئناف بيِّن به كونهم خير أمة، أو خير ثان لكنتم. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، لأن الإيمان به إنما يحق ويُعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أمر أن يؤمن به. وإنما أخره وحقه أن يُقدَّم لأنه قصَّد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيماناً بالله وتصديقاً به وإظهاراً لدينه. واستدل بهذه الآية على إن الإجماع حجة لأنها تقتضي كونهم أمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك. ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إيماناً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه. ﴿مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر، وهذه الجملة والتي بعدها واردتان على سبيل الاستطراد.

(١١١) ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ ضرراً يسيراً كطغني وتهديد. ﴿وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ﴾ ينهزموا ولا يضرؤكم بقتل وأسر. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفى إضرارهم سوى ما يكون بقول وقرَّر ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدُّبْرَةُ عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان. وقرئ لا يُنصَرُوا عطفاً على يُولُوا على أن ثم للتراخي في الرتبة فيكون عدم النصر مقيداً بقتالهم. وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع إذ كان ذلك حال قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسك بالباطل والجزية. ﴿أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ استثناء من أعم عام الأحوال، أي ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا معتصمين أو ملتبسين بذمة الله أو كتابه الذي آتاهم وذمة المسلمين أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين. ﴿وَبَآءُ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

(١) إيراد كلمة «ما» إما لتغليب غير

العقلاء على العقلاء أو لتزليلهم منزلة غيرهم إظهاراً لحقارتهم في مقام بيان عظمتهم تعالى (س ٧٠ / ٢).

أَلَمَسْكَنَةً ﴿ فِيهَا مَحِيطَةٌ بِهِمْ إِحَاطَةُ الْبَيْتِ الْمَضْرُوبِ عَلَى أَهْلِهِ، وَالْيَهُودِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ فَقَرَاءَ وَمَسَاكِينَ. ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبؤس بالغضب. ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقيد بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً^(١). ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الكفر والقتل. ﴿ يَمَاعَصُوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصفات يفضي إلى الكبائر والاستمرار عليها يؤدي إلى الكفر. وقيل معناه أن ضرب الذلة في الدنيا واستيجاب الغضب في الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث إنهم مخاطبون بالفروع أيضاً.

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(١١٣) ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ في المساوي، والضمير لأهل الكتاب. ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ استئناف لبيان نفي الاستواء^(٢)، والقائمة المستقيمة العادلة من أقيمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم. ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يتلون القرآن في تهجدهم. عبر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح. وقيل المراد صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روي أنه عليه الصلاة والسلام آخرها ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم»^(٣).

(١١٤) ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾

(١) إسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به، كما أن التحريف مع كونه من أفعال أبحارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم (س٢/٧٢).

(٢) وضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين، والإيذان بأن تلك الأمة ممن أوتي نصيباً وافراً من الكتاب (س٢/٧٣).

(٣) وهو حديث حسن.

أخرجه أحمد (٣٩٦/١) والنسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٢٥/٧) - وابن حبان (رقم: ٢٧٤ - موارد)، والبخاري في كشف الأستار (١٩٠/١ - ١٩١) من حديث ابن مسعود.

وأورده الهيثمي في المجمع (٣١٢/١) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري والطبراني في الكبير.

● وله شاهد من حديث عائشة، أخرجه البخاري (٤٧/٢ رقم ٥٦٦) و(٤٩/٢ رقم ٥٦٩) و(٣٤٩/٢ رقم ٨٦٢) و(٣٤٧/٢ رقم ٨٦٤).

ومسلم (٤٤١/١ رقم ٦٣٨/٢١٨) بلفظ «ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم وذلك قبل أن يفشو الإسلام في الناس».

● وشاهد آخر من حديث ابن عمر، أخرجه البخاري (٥٠/٢ رقم ٥٧٠) ومسلم (٤٤٢/١ رقم ٦٣٩/٢٢٠) وأبو داود (١٣٧/١ رقم ١٩٩) نحوه.

صفات آخر لأمة، وَصَفَهُمْ بخصائص ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين في الليل مشركون بالله ملحدون في صفاته واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته مدهنون في الاحتساب متباطئون عن الخيرات^(١).

﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناؤه.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

(١١٥) ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يضيع ولا ينقص ثوابه البتة. سمي ذلك كفراناً كما سمي توفية الثواب شكراً، وتعديته إلى مفعولين لتضمنه معنى الحرمان. وقرأ حفص وحزمة والكسائي وما يفعلوا من خير فلن يكفروه بالياء والباقون بالتاء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى^(٢).

(١١٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ من العذاب، أو من الغناء فيكون مصدراً. ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(١١٧) ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرة قربة أو مفاخرة وسمعة، أو المنافقون رياء أو خوفاً. ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد، والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصرصر، فهو في الأصل مصدر نُعِتَ بِهِ أو نُعْتُ وَصِفَ به البرد للمبالغة كقولك برد بارد. ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد، والمراد تشبيه ما أنفقوا في ضياعه بحزب كفار ضربته صِرٌّ فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة، وهو من التشبيه المركب ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث، ويجوز أن يقدر كَمَثَلِ مَهْلِكِ رِيحٍ وهو الحرث. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ما ظَلَمَ المنفقين بضياع نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتد بها، أو ما ظَلَمَ أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظَلَمُوا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به

(١) قوله «يسارعون في الخيرات» فقال في الخيرات ولم يقل إلى الخيرات كما وقع في قوله تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» - آل عمران - للإيذان بأنهم مستقرون في أصل الخير متقلبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل، لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها.

«وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ» أثر اسم الإشارة على الضمير للإشعار بعله الحكم والمدح (س٢/٧٤).

(٢) قوله «فلن يكفروه» إيثار صيغة البناء للمفعول للجري على سنن الكبرياء (س٢/٧٤).

العقوبة^(١). وقرىء ولكن أي ولكن أنفسهم يظلمونها، ولا يجوز أن يُقدَّر ضمير الشأن لأنه لا يحذف إلا في ضرورة الشعر كقوله:

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْعِشْقُ قَلْبَهُ وَلَكِنْ مَنْ يُنْصِرُ جُفُونَكَ يَغْشَقُ

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنَّتُمْ ءَؤْلَآءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَآبِ كُلِّهِ وَإِذَٱلْقَوْمُ قَالُوْآءَ ءَامَنَآ وَإِذَآ خَلَوْآ عَصَوْآ عَلَيْكُمْ ءَلَا نَآمِلُ مِنَ ٱلْعَظِيطِ قُلُ مَوْتُوْآ بِغِظَتِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

(١١٨) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يُعرِّفه الرجل أسراره ثقة به، شبه ببطانة الثوب كما شبهه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شِعار والناس دثار»^(٢). ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من دون المسلمين، وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف هو صفة بطانة أي بطانة كائنة من دونكم. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد، والألؤ التقصير وأصله أن يُعدى بالحرف وعدي إلى مفعولين كقولهم: لا آلؤك نصحاً على تضمين معنى المنع أو النقص. ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنوا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة وما مصدرية. ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي في كلامهم لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لقرط بغضهم. ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما بدا لأن بُدُوهُ ليس عن روية واختيار. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالة المؤمنين ومعاداة الكافرين. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما يبين لكم. والجمل الأربع جاءت مستأنفات على التعليل، ويجوز أن تكون الثلاث الأول صفات لبطانة.

(١١٩) ﴿هَآأَنَّتُمْ ءَؤْلَآءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي أنتم أولاء الخاطئون في موالة الكفار وتحبونهم ولا يحبونكم، بيان لخطئهم في موالاتهم وهو خبر ثان أو خبر لأولاء، والجملة خبر لأنتم كقولك: أنت زيد تحبه، أو صلته، أو حال والعامل فيها معنى الإشارة، ويجوز أن يُنصب أولاء بفعل مضمّر يفسره ما بعده وتكون الجملة خبراً. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَآبِ كُلِّهِ﴾ بجنس الكتاب كله، وهو حال من لا يحبونكم والمعنى: إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضاً فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ﴿وَإِذَٱلْقَوْمُ قَالُوْآءَ ءَامَنَآ﴾ نفاقاً وتغريراً ﴿وَإِذَآ خَلَوْآ عَصَوْآ عَلَيْكُمْ ءَلَا نَآمِلُ مِنَ ٱلْعَظِيطِ﴾ من أجله نأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفي

(١) قوله «ولكن أنفسهم يظلمون» قال أبو السعود: (وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص، إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول... وصيغة المضارع للتجدد والاستمرار) (س/٢/٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧/٨ رقم ٤٣٣٠) ومسلم (٧٣٨/٢ رقم ١٠٦١/١٣٩) وأحمد (٤٢/٤) من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم في أثناء حديث طويل.

● وأخرجه أحمد عن أبي هريرة (٤١٩/٢) وعن أبي قتادة (٣٠٧/٥) بلفظ: «الناس دثاري والأنصار شعاري».

سبيلاً. ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يهلكوا به. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحقن، وهو يحتمل أن يكون من المقول أي وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً، وأن يكون خارجاً عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(١٢٠) ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حدٍّ حَسَدُوا ما نالهم من خير ومنفعة. وشِمَتُوا بما أصابهم من ضر وشدة، والمسَّ مستعار للإصابة^(١) ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم، أو على مشاق التكليف. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ موالاتهم، أو ما حرم الله جل جلاله عليكم. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ بفضل الله عز وجل وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولأن المجدِّ في الأمر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال جرياً على الخصم، وضَمَّةُ الرَاء للاتباع كَضَمَّةِ مُدٍّ. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب لا يَضِرُّكُمْ من ضارَه يَضِرُّهُ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي محيط عِلْمُهُ فيجازيكم مما أنتم أهلُه^(٢). وقرئ بالياء أي: بما يعملون في عداوتكم عليم فيعاقبهم عليه.

(١٢١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي واذكر إذ غدوت^(٣). ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من حجرة عائشة رضي الله عنها. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تُزَلِّهِمْ، أو تسوي وتهيئ لهم ويؤيده القراءة باللام^(٤). ﴿مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواقف وأماكن له، وقد يستعمل المَقْعَد والمقام بمعنى المكان على الاتساع كقوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾^(٥) وقوله تعالى ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾^(٦). ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم^(٧). روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء - ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة - فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، وقد دعا عبدالله بن أبي بن سلول ولم يذعه قبل. فقال هو وأكثر الأنصار:

(١) أو للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة (س٧٧/٢).

(٢) وهذا المعنى الذي ذكره على قراءة من قرأ «بما تعملون».

(٣) أي حين غدوت. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها (س٧٧/٢).

(٤) أي «تبويء للمؤمنين».

(٥) القمر: ٥٥.

(٦) النمل: ٣٩.

(٧) وعبر عن خروجه عليه السلام بالغدو مع أن خروجه كان بعد صلاة الجمعة - والغدو هو الخروج غدوة - لأن المقصود بتذكير الوقت هو تذكير مخالفتهم لأمر النبي عليه السلام (س٧٨/٢).

أَقِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالْمَدِينَةِ وَلَا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَى عَدُوِّ إِلَّا أَصَابَ مِنَّا، وَلَا دَخَلَهَا عَلَيْنَا إِلَّا أَصَابَنَا مِنْهُ فَكَيْفَ وَأَنْتَ فِينَا؟ فَدَعَّاهُمْ فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَخْبَسٍ، وَإِنْ دَخَلُوا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ وَرِمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ. وَأَشَارَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَأَيْتَ فِي مَنَامِي بَقْرَةً مَذْبُوحَةٌ حَوْلِي فَأَوَّلْتُهَا خَيْرًا، وَرَأَيْتَ فِي ذَبَابٍ سَيْفِي ثَلَمًا فَأَوَّلْتُهُ هَزِيمَةً، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دُرْعٍ حَصِينَةٍ فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِينَةَ. فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ». فَقَالَ رِجَالٌ فَاتَتْهُمْ بَدْرٌ وَأَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ يَوْمَ أَحَدٍ أَخْرَجَ بَنَّا إِلَى أَعْدَائِنَا، وَبَالَغُوا حَتَّى دَخَلَ وَلَيْسَ لَأَمَّتِهِ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ نَدَمُوا عَلَى مِبَالِغَتِهِمْ وَقَالُوا: اصْنَع يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْتَ. فَقَالَ: «لَا يَنْبَغِي لَنَبِيِّ أَنْ يَلْبَسَ لَأَمَّتِهِ فَيُضَعَّهَا حَتَّى يُقَاتَلَ». فَخَرَجَ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَأَصْبَحَ بِشِغْبٍ أُخِذَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَنَزَلَ فِي عُذْوَةِ الْوَادِي وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ وَسَوَّى صَفَهُمْ، وَأَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ عَلَى الرَّمَاةِ وَقَالَ: «انْضَحُوا عَنَا بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَا مِنْ وَرَائِنَا»^(١).

إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

(١٢٢) ﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ متعلق بقوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أو بدل من إذ غدت. ﴿طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحي العسكر. ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أن تجبنا وتضعفا. روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج في زهاء ألف رجل ووعد لهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخذل ابن أبي في ثلاثمائة رجل وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا، فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري^(٢) وقال: أنشدكم الله والإسلام في نبيكم وأنفسكم. فقال: ابن أبي لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهم الحيان باتباعه فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ. والظاهر أنها ما كانت عزيمة لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي عاصمهما من اتباع تلك الخطرة، ويجوز أن يراد والله ناصرهما فما لهما يفشلان ولا يتوكلان على الله! ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر^(٣).

(١٢٣) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل. وبذر ماء بين مكة والمدينة كان

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٤ ج ٧٠ - ٧١) من طريق ابن إسحاق.

وأخرجه الطبري أيضاً (٣/٤ ج ٧٣) من رواية أسباط عن السدي.

وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥/٣٦٣ - ٣٦٥) عن معمر عن الزهري عن عروة.

(٢) عمرو بن حزم الأنصاري: هو عمرو بن حزم بن زيد بن لؤذان الأنصاري. يكنى أبا الضحاك، شهد الخندق وما بعدها، واستعمله النبي ﷺ على نجران. قال أبو نعيم مات في خلافة عمر وقيل غير ذلك - الإصابة

(٢/٥٣٢) - وقال ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٢/٥١٧): ... لم يشهد بدرًا فيما يقولون وأول مشاهدته

الخندق. قلت: والصواب أن الذي تبع المنافقين: عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري كما سيأتي.

(٣) إظهار الاسم الجليل «وعلى الله» للتبرك والتعليل فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى وفيه إشعار بأن

وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته (س ٧٩/٢).

لرجل يُسمى بدرًا فسمي به. ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حال من الضمير، وإنما قال أذلة ولم يقل ذلائل تنبيهاً على قِلَّتِهِمْ مع ذلتهم لضعف الحال وقلة المراكب والسلاح. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات^(١). ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره، أو لعلكم يُنعم الله عليكم فتشكرون، فَوَضَعَ الشكر موضع الإنعام لأنه سببه.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

(١٢٤) ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم. وقيل بدل ثانٍ من إذ غدوت على أن قوله لهم يوم أحد وكان مع اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة^(٢) ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ إنكار أن لا يكفيتهم ذلك وإنما جيء بـلنْ إشعاراً بأنهم كانوا كالأيسين من النصر لضعفهم وقتلتهم وقوة العدو وكثرتهم. قيل أمدتهم الله يوم بدر أولاً بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف. وقرأ ابن عامر مُنَزَّلِينَ بالتشديد للتكثير أو للتدرج.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي بلى يكفيكم. ثم وَعَدَ لَهُم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ﴾ أي المشركون. ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ من ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدرٌ من فارت القِدْرُ إذ غلت، فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التي لا ريث فيها ولا تراخي، والمعنى إن يأتوكم في الحال. ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ في حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير. ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ مُعَلِّمِينَ من التسويم الذي هو إظهارُ سِيَمَا الشَّيْءِ لقوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «تَسَوُّمُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتِ»^(٣)، أو مُرْسِلِينَ من التسويم بمعنى الأسامة^(٤).

(١) اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعاً بالصبر فيما سبق وما لحق للإشعار بأصالته وكون الصبر من مبادئه اللازمة له، ولذلك قدم عليه في الذكر.

وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيدان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم (س٢/٧٩).

(٢) وتخصيصه عليه السلام لتشريفه والإيدان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام وصيغة المضارع «تقول» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها (س٢/٨٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٨٢) عن يعقوب عن ابن عليه عن ابن عوف عن عمير بن إسحاق قال: «إن أول ما كان الصوف ليومئذ، يعني يوم بدر، قال رسول الله ﷺ. فذكره. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/٢٦١). والخلاصة أنه مرسل ضعيف.

● تسوموا: أي اعملوا لها علامة يعرف بها بعضكم بعضاً.

[النهاية: ٢/٤٣٩].

(٤) وهذا المعنى على قراءة من قرأ «مسومين» بفتح الواو.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة. ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر^(١). ﴿وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ولتسكن إليه من الخوف. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من العدة والعدد، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلى مدد وإنما أمدهم ووعد لهم به إشارة لهم وربطاً على قلوبهم، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر وحقاً على أن لا يُبالوا بمن تأخر عنهم. ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغالب في أقضيته. ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي يَنْصُرُ وَيَخْذُلُ بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متعلق بنصركم، أو وما النصر إن كان اللام فيه للعهد، والمعنى لِيُنْقِصَ مِنْهُمْ بِقَتْلِ بَعْضٍ وَأَسْرَ آخَرِينَ، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسّر سبعين من صناديدهم. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وَهْنٌ يَقَعُ فِي الْقَلْبِ، وأو للتنويع دون التردد ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ فينهزموا منقطعي الآمال.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض^(٢). ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله أو يكبتهم، والمعنى أن الله مالك أمرهم فلما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. ويحتمل أن يكون معطوفاً على الأمر أو شيء بإضمار أن، أي ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم أو تعذيبهم. وأن تكون أو بمعنى إلا أن، أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فَتَسَرَّ بِهِ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَتَشْفَى مِنْهُمْ. روي أن عتبة بن أبي وقاص شجّه يوم أحد وكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ، فجعل يمسحُ الدم عن وجهه ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟» فترلت^(٣). وقيل هَمَّ أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِمْ فَنَهَاها اللَّهُ لَعَلَّه بَأَن فِيهِمْ مَنْ يَوْمَنَ.

(١) وهو تلوين للخطاب لتشريف المؤمنين وللإيذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله ﷺ غني عنه بماله من التأيد الروحاني (س ٨١/٢).

(٢) وتخصيص النفي به عليه السلام للدلالة على الانتفاء من غيره بطريق أولى (س ٨٢/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/٨٨) عن معمر عن قتادة ومن طريق معمر أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/٤٥) عن محمد بن حُميد العبدى عن معمر به ولفظهما: «كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم».

● والحديث أخرجه البخاري (٦/٩٣ رقم ٢٩٠٣) و(٧/٣٧٢ رقم ٤٠٧٥) و(١٠/١٧٣ رقم ٥٧٢٢) ومسلم (٣/١٤١٦ رقم ١٧٩٠/١٠١) كلاهما من رواية أبي حازم عن سهل بن سعد وليس فيه ذكر من أصابه أو شجّه. =

﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم.

- وقال الحافظ بن حجر في «الكافي الشافعي» رقم (٢٥٥): «وسبأني - رقم ٢٦٤ - أن الذي شجّه عبدالله بن قمّة.
- وقال الواقدي: المثبت عندنا أن الذي رمى وجه النبي ﷺ عبدالله بن قمّة. والذي رمى شفته وأصاب رباعيته، عتبة بن أبي وقاص. وفي السيرة لابن هشام - (١١٥/٣) تعليقا من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى. وجرح شفته السفلى، وأن عبدالله بن شهاب شجّه في وجهه، وأن ابن قمّة جرح وجته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر، فأخذ عليّ بيده ورفع طلحة حتى استوى قائما، ومضى مالك بن سنان أبو أبي سعد الدم عن وجه النبي ﷺ ثم ازدروه. فقال النبي ﷺ: «من مسّ دمه دمي لم تصبه النار».
- وأخرج الطبراني في الكبير (١٥٤/٨ رقم ٧٥٩٦) من حديث أبي أمامة، أن عبدالله بن قمّة رمى رسول الله ﷺ فشجّ وجهه وكسر رباعيته، فقال خذها وأنا ابن قمّة، فقال له رسول الله ﷺ: مالك أقماك الله، فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة.
- وأورده الهيثمي في المجمع (١١٧/٦) وقال: فيه: حفص بن عمر العدني وهو ضعيف.
- وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٣/٤ ج ١٣٦) عن الزهري وغيره أن الذي أصاب النبي ﷺ عتبة، وأما عبدالله بن قمّة فأصاب مصعب بن عمير فقتله وظن أنه قتل محمداً ﷺ، وصاح أن محمداً قد قتل، فحصل ما حصل بهذه الإشاعة.
- وأخرج الطبري في تاريخه (٥٧٧/٢) عن السدي قال: أتى ابن قمّة الحارثي فرمى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه وشجّه في رأسه فأثقله، وتفرق عنه أصحابه... الحديث.
- ويمكن الجمع بينهما أن الاثنين اشتركا في مجموع الفعل فنقل كل راوٍ ما رأى.
- وأما سبب النزول:
- فقد أخرج مسلم (١٤١٧/٣ رقم ١٧٩١/١٠٤) من حديث أنس أنها نزلت بسبب قوله ﷺ في غزوة أحد: «كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم وكسروا رباعيته».
- وأخرج البخاري (٣٦٥/٧ رقم ٤٠٦٩) و(٢٢٥/٨ رقم ٤٥٥٩) من حديث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلانا وفلاتا، فأنزل الله «ليس لك من الأمر شيء».
- وأورد البخاري تسميتهم في صحيحه (٣٦٥/٧ رقم ٤٠٧٠) عن سالم بن عبدالله مرسلاً، ووصله أحمد في مسنده (٩٣/٢).
- وأخرج البخاري (٢٢٦/٨ رقم ٤٥٦٠) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر «اللهم العن فلانا وفلاتا - لأحياء من العرب - حتى أنزل الله «ليس لك من الأمر شيء».
- وفي رواية مسلم (٤٦٦/١ - ٤٦٧ رقم ٦٧٥/٢٩٤): «اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية» ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل «ليس لك من الأمر شيء».
- وقال الحافظ في فتح الباري (٣٦٥/٧) توفيقاً بين هذه الأحاديث في سبب نزول هذه الآية: «يحتمل أن تكون نزلت في الأمرين جميعاً، فإنهما كانا في قصة واحدة».
- والمقصود بالأمرين قصة شجّ النبي ﷺ ودعاه على فلان وفلان.
- وانظر الفتح (٣٦٦/٧) و(٢٢٧/٨) فقد أجاد وأفاد...

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً فله الأمر كله لا لك. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ صريح في نفي وجوب التعذيب، والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافي له^(١). ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم.

(١٣٠) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ لا تزيدوا زيادات مكررة. ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل منهم يُزَيِّ إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون^(٢). وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب مُضَاعَفَةً. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهيتهم عنه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين الفلاح.

(١٣١) ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم، وفيه تنبيه على أن النار بالذات مُعَدَّة للكافرين وبالعرض للعصاة.

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اتبع الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة، ولعل وعسى في أمثال ذلك دليل عزة التوصل إلى ما جعل خبراً له.

(١٣٣) ﴿وَسَارِعُوا﴾ بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة كالإسلام والتوبة والإخلاص. وقرأ نافع وابن عامر سارعوا بلا واو. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل لأنه دون الطول، وعن ابن عباس كسبع سموات وسبع أرضين لو وُصل بعضها ببعض^(٣)، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأنها خارجة عن هذا العالم.

(١٣٤) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، أو مدح منصوب أو مرفوع. ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي لا يخلون في حال ما يوافق ما قدروا عليه من قليل أو كثير. ﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ﴾ الممسكين عليه الكافين عن إمضائه

(١) قوله «يفغر لمن يشاء ويعذب من يشاء» أثر كلمة مِنْ في الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالمقلاء.. وتقديم المغفرة على التعذيب للإيذان بسبق رحمته تعالى غضبه (س٢/٨٤).

(٢) المراد بأكل الربا أخذه ولكن غير عنه بالأكل لأنه معظم ما يقصد بالأخذ، ولشيوعه في المأكولات.. (س٢/٨٤).

(٣) قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية (س٢/٨٥).

مع القدرة، مِنْ كَظَمَتِ الْقُرْبَةَ إِذَا مَلَأَتْهَا وَشَدَّدَتْ رَأْسَهَا^(١). وعن النبي ﷺ «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»^(٢). ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته، وعن النبي عليه الصلاة والسلام «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت»^(٣) ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس ويدخل تحته هؤلاء، والعهد فتكون الإشارة إليهم.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١٣٥) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعلة بالغة في القبح كالزنى. ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن أذنبوا أي

(١) قوله «والكاظمين» عدل إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار، أما الإنفاق فحيث كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد (س/٢/٨٥).

(٢) أخرج أبو داود (١٣٧/٥ رقم ٤٧٧٧) والترمذي (٣٧٢/٤ رقم ٢٠٢١) وابن ماجه (١٤٠٠/٢ رقم ٤١٨٦) عن سهل بن معاذ عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما يشاء». قال أبو داود: اسم أبي مرحوم عبدالرحمن بن ميمون. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وقال المنذري (١٦٤/٧) وسهل بن معاذ بن أنس الجهني: ضعيف. والذي روى عنه هذا الحديث: أبو مرحوم عبدالرحيم بن ميمون الليثي، مولا هم المصري، ولا يحتاج بحديثه. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٢٢٩/٦٥١٨) وصحيح ابن ماجه وغيرهما. ● وأخرج أبو داود (١٣٨/٥ رقم ٤٧٧٨) عن رجل من أنباء أصحاب النبي ﷺ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: نحوه، قال: «ملأه الله أمناً وإيماناً». قال المنذري (١٦٤/٧): فيه رواية مجهول.

وضعه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٩٦٨/٥٨٣٤) وضعيف أبي داود. ● وأخرج العقيلي في الضعفاء (١٠٣/٣) والبخاري في التاريخ الكبير (١٢٣/٦) والطبري في «جامع البيان» (٣/٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً».

قال العقيلي: وقد روي من غير هذا الطريق بأسانيد صالحة. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢٥٧): وعبدالجليل مجهول. ● وأخرج أحمد في المسند (٣٢٧/١) من حديث ابن عباس بلفظ: «..... وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبدالله إلا ملأ الله جوفه إيماناً». وأورده ابن كثير في تفسيره (٤١٤/١) وقال: «انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومثته حسن» هـ.

والخلاصة أن حديث أبي هريرة حسن لغيره والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان - كما في «الدر المنثور» (٣١٦/٢) -.

ذنب كان. وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، ولعل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك. ﴿ذَكُرُوا اللَّهَ﴾ تذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم. ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالندم والتوبة^(١). ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ﴾ استغفار بمعنى النفي معترض بين المعطوفين، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين لقوله ﷺ «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»^(٢). ﴿وَهُمْ يَمْلِكُونَ﴾ حال من يصروا أي ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به.

أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

(١٣٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خبر للذين إن ابتدأت به، وجملة مستأنفة مبينة لما قبلها إن عطفته على المتقين أو على الذين يتفقون. ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والثابنين جزاء لهم إن لا يدخلها المصرون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم. وتنكير جنات على الأول يدل على أن ما لهم أذون مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقاً بين القبيلين أنه فَضَّلَ آيَتهم بأن بيّن أنهم محسنون مستوجبون لمحبة الله، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع وتخطوا إلى التخصص بمكارمه. وَفَضَّلَ آيَةً هَؤُلَاءِ بقوله: ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ لأن المتدارك لتقصيره كالعامل لتحصيل بعض ما فوّت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارك والمحبوب والأجير، ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجر لهذه النكتة، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك يعني المغفرة والجنات.

(١) قدم الاستغفار على عدم الإصرار مع أن الواقع خلافه لبيان العناية بشأن الاستغفار (س ٢/ ٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٧/٢ رقم ١٥١٤) والترمذي (٥٥٨/٥ رقم ٣٥٥٩) والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٩٨ ج ٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٨/١٠) والبزار في مسنده (رقم: ٩٣) وأبو يعلى في مسنده (١٢٤/١، ١٢٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث أبي نصيرة، وليس إسناده بالقوي.

وقال البزار: رأيت في هذا الإسناد رجلين مجهولين، فتركت ذكر هذا الحديث.

قلت: الرجلان المجهولان هما: أبو رجاء مولى أبي بكر الصديق [التقريب: ٤٢١/٢] وأبو نصيرة مسلم بن عبيد [تهذيب التهذيب: ٢٨١/١٢].

وقال ابن حجر في «الكافي الشافى» رقم (٢٦١) «له شاهد أخرجه الطبراني في الدعاء - (٣/ ١٦٠٨ رقم ١٧٩٧) - من حديث ابن عباس» هـ. وقال محقق كتاب الدعاء الدكتور محمد سعيد البخاري: «وفي إسناده: أبو شيبة، وهو سعيد بن عبد الرحمن الأسدي، وهو مقبول. وبقي رجاله ثقات» هـ.

وحكم المحدث الألباني على حديث أبي بكر بالضعف في ضعيف أبي داود، وضعيف الترمذي وضعيف الجامع (٥/ ٨٢ رقم ٥٠٠٦).

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

(١٣٧) ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وقائع سننها الله في الأمم المكذبة كقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا قَتِيلًا﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾^(١) وقيل أمم قال:

ما عاين الناس من فضل كفضلكم ولا رأوا مثله في سالف السنين ﴿فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم.

(١٣٨) ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى قوله قد خلت، أو مفهوم قوله فانظروا أي أنه مع كونه بياناً للمكذبين فهو زيادة بصيرة وموعظة للمتقين، أو إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين، وقوله قد خلت جملة معترضة للحث على الإيمان والتوبة وقيل إلى القرآن.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد، والمعنى لا تضعفوا عن الجهاد بما أصابكم ولا تحزنوا على من قتل منكم. ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم شأنًا، فإنكم على الحق وقاتلكم الله وقتلكم في الجنة وإنهم على الباطل وقاتلهم للشيطان وقتلهم في النار، أو لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم، أو وأنتم الأعلى في العاقبة فيكون بشارة لهم بالنصر والغلبة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهي أي لا تهنوا إن صح إيمانكم، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق على الله أو بالأعْلون.

(١٤٠) ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم بضم القاف، والباقون بالفتح وهما لغتان كالضعف والضعف. وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها، والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون. وقيل كلا المسمين كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نصرفها بينهم تدليل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقوله:

فَيَوْمًا عَلَيْنَا وَيَوْمًا لَنَا وَيَوْمًا نُسَاءُ وَيَوْمًا نُسَرُّ

والمداولة كالمعاودة يقال داوت الشيء بينهم فتداولوه، والأيام تحتمل الوصف والخبر ونداولها يحتمل الخبر والحال والمراد بها: أوقات النصر والغلبة^(٢). ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف على علة

(١) الأحزاب: ٦١ - ٦٢.

(٢) «نداولها» عبر بصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأنها سنة مسلوكة في جميع الأمم (س/٢/٨٩).

محذوفة أي نداؤها ليكون كَيْت وكَيْت وليعلم الله إيداناً بأن العلة فيه غير واحدة وأن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يُعْلَم، أو الفعلُ المَعْلَلُ به محذوف تقديره وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حَرْفٍ فَعَلْنَا ذلك، والقصدُ في أمثاله ونقائضه ليس إلى إثبات علمه تعالى ونفيه بل إلى إثبات المعلوم ونفيه على طريق البرهان. وقيل معناه لَيُعْلَمَهُمْ علماً يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء موجوداً. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريدُ شهداءَ أُحُد، أو يتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائد. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا يَنْصُرُ الكافرين على الحقيقة وإنما يُغْلِبُهُمْ أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ليظهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم^(١).
﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً.

(١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم ومعناه الإنكار. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ولما تجاهدوا، وفيه دليل على أن الجهاد فرض كفاية. والفرق بين لَمَّا وَلَمْ إن فيه توقع الفعل فيما يستقبل. وقرئ يَعْلَمُ بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون^(٢) ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع. وقرئ بالرفع على أن الواو للحال كأنه قال: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون^(٣).

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي الحرب فإنها من أسباب الموت، أو الموت بالشهادة. والخطاب للذين لم يشهدوا بدرأ وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فآلخوا يوم أحد على الخروج. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ أي فقد رأيتموه معانين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو

(١) قوله «وليمحص الله» كرر اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض.

وأظهر الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص (س ٩١/٢).

(٢) وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم، لما بينهما من اللزوم المبني على لزوم تحقق الأول لتحقيق الثاني ضرورة استحالة تحقق شيء بدون علمه تعالى به. وإيثارها على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد فإنها إثبات لعدم جهادهم بالبرهان، وللايدان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى (س ٩١/٢).

(٣) قوله «ويعلم الصابرين» أثر اسم الفاعل على الموصول، أي قال الصابرين ولم يقل الذين صبروا للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على الفواصل (س ٩١/٢).

توبخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسبوا لها ثم جَبُّوا وانهزموا عنها، أو على تمنى الشهادة فإن في تمنىها تمنى غلبة الكفار^(١).

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

(١٤٤) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فسيخلُّوا كما خلُّوا بالموت أو القتل. ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ إنكاراً لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوهم بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به. وقيل الفاء للسببية والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلُّ الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد وفاته^(٢). روي أنه لما رمى عبدالله بن قميته الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، فذبت عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قميته وهو يرى أنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: قد قتلت محمداً وصرخ صارخاً ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو. إليّ عبادة الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباؤون. وقال بعضهم: ليت ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قُتل ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان قُتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم قال اللهم إني أعذر إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه وشد بسيفه فقاتل حتى قتل. فنزلت^(٣) ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ بارتداده بل يضر نفسه. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى أو بإذنه لملك الموت عليه

(١) وفي قوله «فقد رأيتموه» إشاراً للرؤية على الملاقة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة في مشاهدتهم (س/٢/٩٢).

(٢) قدم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت في شرف الوقوع فزجر الناس عن الانقلاب عنده وحملهم على الثبوت هناك أهم ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل (س/٢/٩٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٤/١١١) عن السدي قال: لما برز رسول الله ﷺ يوم أحد إليهم، يعني إلى المشركين... قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ اللهم إني أعذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل... وسنده منقطع.

الصلاة والسلام في قبض روحه، والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١) بالإحجام عن القتال والإقدام عليه، وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل. ﴿كِتَابًا﴾ مصدر مؤكّد إذ المعنى كُتِبَ الموت كتاباً. ﴿مُؤَجَّلًا﴾ صفة له أي مؤقّتاً لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلته الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا ينهاهون، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب وخلّوا مكانهم فانتهز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي من ثوابها. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

وَكَايْنٍ مَنِ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(١٤٦) ﴿وَكَايْنٍ﴾ أصله أي دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى كَمْ والنون تنوينٌ أثبت في الخط على غير قياس. وقرأ ابن كثير وكاين ككاعين، ووجه أنه قُلِبَ قَلْبُ الكلمة الواحدة كقولهم وعملي في لعمرى فصار كاين ثم حذفت الياء الثانية للتخفيف ثم أبدلت الياء الأخرى ألفاً كما أبدلت من طائي ﴿مَنِ نَبِيٍّ﴾ بيان له. ﴿قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم. وقيل جماعات والرَّبِّيُّ منسوب إلى الرِّبَّة وهي الجماعة للمبالغة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب قُتِلَ، وإسناده إلى ربيون أو ضمير النبي، ومعه ربيون حال منه، ويؤيد الأول أنه قرئ بالتشديد وقرئ رَّبِّيُّون بالفتح على الأصل وبالضم وهو من تغييرات النسب كالكسر. ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جُدُّهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن العدو أو في الدين. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا للعدو، وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده، والألف من إشباع الفتحة أو استكُون من الكون لأنه يطلب من نفسه أن يكون لمن يخضع له، وهذا تعريف بما أصابهم عند الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم^(٢).

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها وإضافة لما أصابهم إلى سوء أعمالها والاستغفار عنها، ثم طَلَبُ الثبوت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى

(١) الأعراف: (٣٤).

(٢) أظهر لفظة «الصابرين» في موضع الإضمار للشناء عليهم بالصبر وللإشعار بعلّة الحكم (س ٩٦/٢).

الإجابة، وإنما جعل قولهم خيراً لأن أن قالوا أغرّف لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث.

فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُدْكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۖ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

(١٤٨) ﴿فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فاتاهم الله بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر في الدنيا والجنة والنعيم في الآخرة، وخصّ ثوابها بالحسن إشعاراً بفضلها وأنه المعتمد به عند الله^(١).

(١٤٩) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُدْكُمْ﴾ أي إلى الكفر. ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً لما قُتِل. وقيل إن تستكينوا لأبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل عام في مطاوعة الكفرة والتزول على حكمهم فإنه يستجر إلى موافقتهم^(٢).

(١٥٠) ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم. وقرئ بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله مولاكم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره.

(١٥١) ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يريد ما قُدِف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، ونادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: «إن شاء الله». وقيل لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم، فالقى الله الرعب في قلوبهم. وقرأ ابن عامر والكسائي ويعقوب بالضم على الأصل في كل القرآن^(٣) ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم به. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي آلهة ليس على إشراكها حجة ولم ينزل عليهم به سلطاناً وهو كقوله:

وَلَا تَرَى الضُّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلطة لِحِذَّة اللسان. ﴿وَمَاؤُهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ أي مثواهم، فوُضِعَ الظاهر موضع المضمَر للتغليظ

(١) قوله «والله يحب المحسنين» أظهر وصف الإحسان موضع ضمير المعهودين للإشعار بأن ما حكي عنهم من الأقوال والأفعال من باب الإحسان (س/٩٧/٢).

(٢) صدر الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيزه.

ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها بإظهار مبايعتها لحال أعدائهم (س/٩٧/٢).

(٣) أي بضم العين (الرُّعْب).

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَضَعُودُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا نَّغْمًا لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي وَعْدُهُ إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. ﴿إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ تقتلونهم، من حَسَّه إذا أبطل حِسَّه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعف رأيكم، أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف العقل. ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني اختلاف الرماة حين انهزم المشركون فقال بعضهم فما موقفنا ها هنا، وقال آخرون لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانه أميرهم في نفر دون العشرة ونفر الباقيون للنهب وهو المعنى بقوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو، وجواب إذا محذوف وهو امتحنكم، ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الثابتون محافظة على أمر الرسول عليه السلام. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ثم كفكم عنهم حتى حالت الحال فغلبوكم. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ تفضلاً ولما علم من ندمكم على المخالفة. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالعفو، أو في الأحوال كلها سواء أدب لهم أو عليهم إذ الابتلاء أيضاً رحمة.

(١٥٣) ﴿إِذْ تَضَعُودُونَ﴾ متعلق بصَرَفَكُمْ أو لِيَبْتَلِيَكُمْ أو بمقدر كاذكروا. والإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض يقال: أضعدنا من مكة إلى المدينة. ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره. ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول إليّ عباد الله إليّ عباد الله أنا رسول الله من يَكُرُّ فله الجنة (٢). ﴿فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ في سافتكم أو جماعتكم الأخرى ﴿فَأَتْبِكُمْ غَمًّا نَّغْمًا﴾ عطف على صرفكم، والمعنى فجازاكم الله عن فشلكم وعصيانكم غمّاً متصلاً بغم، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ، أو فجازاكم غمّاً بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ

(١) أي أظهر لفظ الظالمين للإشعار بظلمهم في ذلك.

(٢) إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه إشباعاً في توبيخ المنهزمين (س ١٠٠/٢).

بعضيانكم له. ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ لتتمرنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على نفع فائت ولا ضرر لاحق. وقيل لا مزيدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجرح والهزيمة عقوبة لكم. وقيل الضمير في فأتاكم للرسول ﷺ أي فأساكم في الاعتماد بما نزل عليكم كما اعتمدتم بما نزل عليه ولم يؤزبكم على عصيانكم تسلياً لكم كيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ولا على ما أصابكم من الهزيمة ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَفْشِي طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْشَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

(١٥٤) ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا﴾ أنزل الله عليكم الأمن حتى أخذكم النعاس، وعن أبي طلحة غشيًا النعاس في المصاف حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه. والأمنة الأمن نُصِبَ على المفعول ونُعَاساً بدلٌ منها، أو هو المفعول وأمنة حالٌ منه متقدمة أو مفعول له أو حال من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة، أو علي أنه جمع آمن كبار وبَرَزة. وقرئ أمنة بسكون الميم كأنها المرة من الأمن^(١). ﴿يَفْشِي طَآئِفَةً مِنْكُمْ﴾ أي النعاس. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء رداً على الأمنة. والطائفة المؤمنون حقاً. ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ هم المنافقون. ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا هم أنفسهم وطلب خلاصها. ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ صفة أخرى لطائفة أو حال أو استئناف على وجه البيان لما قبله، وغير الحق نُصِبَ على المصدر أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به، وظن الجاهلية بدله وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي لرسول الله ﷺ وهو بدلٌ من يظنون. ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط. وقيل: أخبر ابن أبي بقتل بني الخزرج فقال ذلك، والمعنى إنا منعنا تدبير أنفسنا وتصريفها باختيارنا، فلم يبق لنا من الأمر شيء أو هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شيء ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون، أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو اعتراض. وقرأ أبو عمرو ويعقوب كله بالرفع على الابتداء. ﴿يَخْشَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ حال من الضمير يقولون أي يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون النصر مبطلين الإنكار والتكذيب. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي في أنفسهم وإذا خلا

(١) وتقدير الظرفين «عليكم» و«من بعد الغم» على المفعول «أمنة» للاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر (س٢/١٠١).

بعضهم إلى بعض، وهو بدل من يُخْفُونَ أو استئناف على وجه البيان له. ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما وعد محمد أو زعم أن الأمر كله لله ولأوليائه، أو لو كان لنا اختيار وتدبير ولم نبرح كما كان رأي ابن أبي وغيره. ﴿مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾ لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة. ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينجُ منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضاائه لا معقب لحكمه. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق وهو علة فعل محذوف أي وفعل ذلك ليبتلي، أو عطف على محذوف أي لبرز لتنفيذ القضاء أو لمصالح جمّة وللابتلاء، أو على قوله لكيلا تحزنوا. ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليكشفه ويميزه أو يُخَلِّصه من الوسوس. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

(١٥٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ يعني إن الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السبب في انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه واقتربوا ذنوباً لمخالفة النبي ﷺ بترك المركز والحرص على الغنيمة أو الحياة، فمُنِعُوا التأييد وقوة القلب. وقيل استزال الشيطان توليهم وذلك بسبب ذنوب تقدمت لهم فإن المعاصي يجزّ بعضها بعضاً كالطاعة. وقيل استزلهم بذكر ذنوب سلفت منهم فكروها القتال قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة. ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم واعتذارهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة الذنب كي يتوب.

(١٥٦) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين. ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ لأجلهم وفيهم، ومعنى أخوتهم اتفاقهم في النسب أو المذهب ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، وكان حقّه إذ لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ جمع غازٍ كعافٍ وعُفًى^(١). ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ مفعول قالوا وهو يدل على أن إخوانهم لم يكونوا مخاطبين

(١) وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب في الأرض لأنه المقصود بيانه في المقام، وذكر الضرب في الأرض توطئة له، وتقديمه لكثرة وقوعه.

وقال «أو كانوا غزاً» ولم يقل أو غزوا للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة، أو بانقضاء ذلك أي كانوا غزاة فيما مضى (س ١٠٣/٢).

به. ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقالوا على أن اللام لام العاقبة مثلها في «ليكون لهم عدواً وحزناً»^(١)، أو لا تكونوا أي لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول والاعتقاد ليجعله حسرة في قلوبهم خاصة، فذلك إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد، وقيل إلى ما دل عليه النهي أي لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، فإن مخالفتهم ومضادتهم مما يغمهم. ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رداً لقولهم أي هو المؤثر في الحياة والممات لا الإقامة والسفر فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم. وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي بالياء على أنه وعيد للذين كفروا^(٢).

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ قَدْ أَفْعَفْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَشَاورَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٧) ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي متم في سبيله وقرأ نافع وحمة والكسائي بكسر الميم من مات يمات. ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جواب القسم وهو ساذ مسد الجزء والمعنى: إن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل وإن وقع ذلك في سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وقرأ حفص بالياء^(٣).

(١٥٨) ﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم. ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ لإلى معبودكم الذي توجهتم إليه وبذلتهم مهجكم لوجهه لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزاءكم ويعظم ثوابكم. وقرأ نافع وحمة والكسائي متم بالكسر.

(١٥٩) ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ قَدْ أَفْعَفْ﴾ أي فبرحمة، وما مزيدة للتأكيد والتنبيه والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله وهو ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه. ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ سيء الخلق جافياً ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَآتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك. ﴿فَأَعْفَ عَنْهُمْ﴾ فيما يختص بك ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ﴾ فيما لله ﴿وَأَشَاورَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي في أمر الحرب

(١) القصص: (٨).

(٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد. وتعرض لعنوان البصر دون السمع لأن قوله «بما تعملون» أو «بما يعملون» عام يشمل القول والاعتقاد وما ينتج عنه من عمل (س/١٠٤/٢).

(٣) اقتصر على بيان خيرية القتل والموت في سبيله تعالى دون التعرض للإخبار بحصولهما لهم للإيدان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخيب منه تعالى بعد أن أطمعهم فيه. وقدم القتل في سبيله على الموت للترغيب فيه (س/١٠٤/٢). وقرأ الباقون بالتاء «تجمعون» (المبسوط ص ١٤٨).

إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاوَرَ فيه استظهاراً برأيهم وتطبيقاً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك، فإنه لا يعلمه سواه. وقرئ فإذا عَزَمْتُ على التكلم، أي فإذا عزمْتُ لك على شيء وعينته لك فتوكل على الله ولا تشاور فيه أحداً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح.

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

(١٦٠) ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر. ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم. ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد. ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد خذلانه، أو من بعد الله بمعنى إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم، وهذا تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر لهم سواه وآمنوا به^(١).

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ وما صح لنبي أن يخون في الغنائم فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال غل شيئاً من المغنم يَغْلُ غُلُولاً وأغلّ إغلالاً إذا أخذه في خفية، والمراد منه: إما براءة الرسول عليه السلام عما اتهم به إذ روي أن قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله ﷺ أخذها، أو ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم. وإما المبالغة في النهي للرسول ﷺ على ما روي أنه بعث طلائع، فغنم رسول الله ﷺ فقسم على من معه ولم يقسم للطلائع فترلت^(٢). فيكون تسمية حرمان بعض المستحقين غُلُولاً تغليظاً ومبالغة ثانية. وقرأ نافع وابن عامر وحزمة والكسائي ويعقوب أن يُغْلَّ على البناء للمفعول والمعنى: وما صح له أن يُوجد غالاً أو أن ينسب إلى الغلول. ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يأت بالذي غلّه يحمله على عنقه كما جاء في الحديث أو بما احتمل من وباله وإثمه. ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، وكان اللائق بما قبله أن يقال ثم يوفى ما كسبت لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله فالغالب مع عظم جرمه بذلك أولى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزداد في عقاب عاصيهم.

(١) تقديم الجاز والمجرور «وعلى الله» لإفادة قصره عليه تعالى، والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به (س/١٠٦/٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/١٥٦/٤) والواحدي في أسباب النزول ص ١٢٧ عن الضحاك مرسلًا. والضحاك لم يسمع من صفار الصحابة فحديثه معضل.

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ يَسْخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَيُنْسِ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

(١٦٢) ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ بالطاعة. ﴿ كَمَن بَاءَ ﴾ رجع. ﴿ يَسْخَطِ مِنَ اللَّهِ ﴾ بسبب المعاصي. ﴿ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَيُنْسِ الْمَصِيرُ ﴾ الفرق بينه وبين المرجع أنَّ المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع.

(١٦٣) ﴿ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ شُبِّهُوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب، أو هم ذوو درجات. ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ عالمٌ بأعمالهم ودرجاتهم صادرة عنهم فيجازيهم على حسبها^(١).

(١٦٤) ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه. وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها. وقرىء لِمَن مِّنُ اللَّهِ على أنه خبر مبتدأ محذوف مثل مَنَّهُ أو بَعَثَهُ. ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ من نَسَبِهِم، أو من جنسهم عربياً مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به. وقرىء من أَنفُسِهِم أي من أشرفهم لأنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم. ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جُهَلًا لم يسمعوا الوحي. ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال^(٢). ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي القرآن والسنة. ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، والمعنى وإنَّ الشأن كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر.

(١٦٥) ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ ﴾ الهمزة للتفريع والتقرير، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أخذ أو على محذوف مثل أفعلتم كذا وقلتم، ولَمَّا ظرفه المضاف إلى

(١) فسر البيضاوي أن الله بصير أي عالم، وهو يدل على أن كون الله تعالى بصيراً هو نفس كونه عالماً.

وقد تبع في هذا التفسير الزمخشري فنقله عنه (الكشاف ١/٢٢٧).

ومذهب الجمهور من أهل السنة بل والمعتزلة أن صفتي السمع والبصر زائدتان على العلم، وإن كان العلم مسبباً عن البصر إلا أنه يخالفه. فلو علمنا بشيء علماً تاماً ثم أبصرناه لوجدنا فرقاً بين الحالتين مما يدل على مخالفة العلم للبصر.

(انظر حاشية الكازروني على البيضاوي ٥١/٢ وانظر روح المعاني ٤/١١٢).

(٢) وسط التزكية بين قوله «يتلو...» ويعلمهم للإيدان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة مستقلة بنفسها. لأنه لو روعي نفس الترتيب الموجود بقوله تعالى: «... ربنا وابتعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» - البقرة (١٢٩) - لتبادر للفهم أن الكل نعمة واحدة (س ١٠٨/٢).

ما أصابتكم أي أفلتكم حين أصابتكم مصيبة وهي قتل سبعين منكم يوم أحد والحال إنكم نلتهم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطاعة، أو اختيار الخروج من المدينة. وعن علي رضي الله تعالى عنه باختياركم الفداء يوم بدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النصر ومنعه وعلى أن يصيب بكم ويصيب منكم.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنَجَّى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

(١٦٦) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنَجَّى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين يريد يوم أحد. ﴿فَيَا ذِينَ اللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه أو تخليته الكفار، سماها إذناً لأنها من لوازمه. ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١٦٧) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء^(١). ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا داخل في الصلة أو كلام مبتدأ. ﴿تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ تقسيم للأمر عليهم وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال. وقيل معناه قاتلوا الكفرة أو ادفعوهم بتكثيركم سواد المجاهدين، فإن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، أو لو نُحْسِنَ قتالاً لاتبعناكم فيه، وإنما قالوه دغلاً واستهزاء. ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لانخذلهم وكلامهم هذا، فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم. وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرةً منهم لأهل الإيمان، إذ كان انخذالهم ومقالهم تقوية للمشركين وتخذيلاً للمؤمنين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يَضْمُرُونَ، لا تواطىء قلوبهم ألسنتهم بالإيمان. وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصوير. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق. وما يخلوا به بعضهم إلى بعض فإنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملًا بأمارات.

(١٦٨) ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ رُفِعَ بدلاً من واو يكتُمون، أو نصب على الذم أو الوصف للذين نافقوا، أو جُرَّ بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم كقوله:

(١) قوله «وليعلم الذين نافقوا» أعاد الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قرن المنافقين باختلاف حال العلم بحسب التعلق بالفريقين، فإنه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه بالسابق وبالمنافقين على وجه جديد. وهو السر في إيراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الاستمرار والآخرين بموصول دال على الحدوث (س ١٠٩/٢).

عَلَى حَالِهِ لَوْ أَنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِمًا عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمٌ ﴿لَاخَوَانِهِمْ﴾ أي لأجلهم، يريد مَنْ قُتِلَ يَوْمَ أَحَدٍ مِنْ أَقَارِبِهِمْ أَوْ مِنْ جَنْسِهِمْ. ﴿وَقَعَدُوا﴾ حال مقدرة بقَدِ أَي قَالُوا قَاعِدِينَ عَنِ الْقِتَالِ. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ فِي الْقَعُودِ بِالْمَدِينَةِ. ﴿مَا قَتَلُوا﴾ كَمَا لَمْ تُقْتَلَ. قَرَأَ هِشَامٌ مَا قَتَلُوا بِتَشْدِيدِ التَّاءِ. ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَنْكُمْ تَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ الْقَتْلِ عَمَّنْ كَتَبَ عَلَيْهِ فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ وَأَسْبَابَهُ، فَإِنَّهُ أُخْرَى بِكُمْ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْقَعُودَ غَيْرُ مَغْنٍ عَنِ الْمَوْتِ، فَإِنْ أَسْبَابُ الْمَوْتِ كَثِيرَةٌ كَمَا أَنَّ الْقِتَالَ يَكُونُ سَبَبًا لِلْهَلَاكِ وَالْقَعُودُ سَبَبًا لِلنَّجَاةِ قَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

(١٦٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ نَزَلَتْ فِي شُهَدَاءِ أُحُدٍ. وَقِيلَ فِي شُهَدَاءِ بَدْرٍ وَالْخَطَابِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ لِكُلِّ أَحَدٍ. وَقُرِءَ بِالْيَاءِ عَلَى إِسْنَادِهِ إِلَى ضَمِيرِ الرُّسُولِ، أَوْ مَنْ يَحْسَبُ أَوْ إِلَى الَّذِينَ قَتَلُوا. وَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ مَحْذُوفٌ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ مَبْتَدَأٌ جَائِزُ الْحَذْفِ عِنْدَ الْقَرِينَةِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ قَتَلُوا بِالتَّشْدِيدِ لِكَثْرَةِ الْمَقْتُولِينَ. ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ أَي بَلْ هُمْ أَحْيَاءُ. وَقُرِءَ بِالنَّصْبِ عَلَى مَعْنَى بَلْ أَحْسَبُهُمْ أَحْيَاءُ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ذُوو زُلْفَى مِنْهُ ^(١). ﴿يُرْزَقُونَ﴾ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِكُونِهِمْ أَحْيَاءَ.

(١٧٠) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَهُوَ شَرَفُ الشَّهَادَةِ وَالْفُوزُ بِالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَةِ وَالْقَرَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّمَتُّعُ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يُسَرُّونَ بِالْبَشَارَةِ. ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أَي بِإِخْوَانِهِمْ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَقْتُلُوا فَيَلْحَقُوا بِهِمْ. ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَيِ الَّذِينَ مِنْ خَلْفِهِمْ زَمَانًا أَوْ رَتَبَةً. ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بَدَلَ مِنَ الَّذِينَ وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَحَالِ مَنْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ إِذَا مَاتُوا أَوْ قَتَلُوا كَانُوا أَحْيَاءَ حَيَاةٍ لَا يَكْدِرُهَا خَوْفُ وَقُوعِ مَحْذُورٍ وَحُزْنُ فَوَاتٍ مَحْبُوبٍ. وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ غَيْرُ الْهَيْكَلِ الْمَحْسُوسِ بَلْ هُوَ جَوْهَرٌ مَدْرِكٌ بِذَاتِهِ لَا يَفْنَى بِخَرَابِ الْبَدَنِ وَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ إِدْرَاكُهُ وَتَأْلَمُهُ وَالتَّذَاذُهُ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ ﴿الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْهَا﴾ ^(٢) الْآيَةُ، وَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مَعْلُوقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ» ^(٣). وَمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ وَلَمْ يَزَلْ الرُّوحَ إِلَّا رِيحًا وَعَرَضًا قَالَ هُمْ أَحْيَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا وَصَفُوا بِهِ فِي الْحَالِ لِتَحَقُّقِهِ وَدُثُوهِ أَوْ أَحْيَاءَ بِالذِّكْرِ أَوْ بِالْإِيمَانِ. وَفِيهَا حَثٌّ عَلَى الْجِهَادِ وَتَرْغِيبٌ فِي

(١) والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد تكريمة لهم (س ١١٢/٢).

(٢) غافر: ٤٦.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/٦٦ رقم ١٢٥) من حديث كعب، وكذلك أخرجه أحمد (٦/٣٨٦).

الشهادة وبعث على ازدياد الطاعة وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعم عليه ويشرى للمؤمنين بالفلاح.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

(١٧١) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرهه للتأكيد وليلحق به ما هو بيان لقوله ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، ويجوز أن يكون الأول بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم. ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(١) وتنكيرهما للتعظيم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة وأجوره مضیعة.

(١٧٢) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح، أو مبتدأ خبره: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بجملة، ومن البيان، والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد، لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون. روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الرّوحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنذّب أصحابه للخروج في طلبه وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج عليه الصلاة والسلام مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد - وهي ثمانية أميال من المدينة - وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا. فنزلت^(٢).

(١٧٣) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ يعني الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم كما يقال فلان يركب الخيل وماله إلا فرس واحد لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه روي: أنه نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله تعالى، فلما كان القابل خرج في أهل مكة حتى نزل بمر الظهران فأنزل الله

(١) يونس: (٢٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/٤١٦ - ١٧٧) عن عكرمة والسدي وغيرهما.

وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/٣١٤) عن ابن إسحاق عن شيوخه وهو حديث مرسل بجميع طرقه.

● وقد أخرج البخاري (٧/٣٧٣ رقم ٤٠٧٧) ومسلم (٤/١٨٨٠ رقم ٢٤١٨/٥٢/٥١) عن عائشة رضي الله عنها «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم» قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبوك منهم: الزبير، وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير.

الرعب في قلبه وبَدَأَ له أن يرجع، فمر به ركبٌ من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فَشَرَطَ لهم حمل بعير من زبيب إن ثَبَطُوا المسلمين. وقيل: لقي نُعَيْمُ بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشرًا من الإبل، فخرج نُعَيْمُ فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم أَتَوَكَّمُ في دياركم فلم يَقْلِتْ منكم أحد إلا شريد أَفْتَرُونَ أن تخرُجوا وقد جمعوا لكم فَفَتَرُوا، فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد» فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون حسبنا الله ^(١). ﴿فَرَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله أن أريد به نُعَيْمُ وحده، والبارز للمقول لهم، والمعنى: إنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت به يقينهم بالله وازداد إيمانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده، وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ويعضده قول ابن عمر رضي الله عنهما قلنا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يُدْخِلَ صاحبه الجنة وينقص حتى يُدْخِلَ صاحبه النار» ^(٢) وهذا ظاهر إن جَعَلَ الطاعة من جملة الإيمان وكذا إن لم تُجْعَل فإن اليقين يزداد بالألف وكثرة التأمل وتناصر الحجج ^(٣). ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ مُحْسِبُنَا وكافينا، من أَحْسَبَهُ إذا كفاه، ويدل على أنه بمعنى المُحْسِب أنه لا يستفيد بالإضافة تعريفاً في قولك هذا رجل حسبك. ﴿وَنِعَمَ الْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكل إليه هو فيه.

فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

(١٧٤) ﴿فَأَنْقَلَبُوا﴾ فرجعوا من بدر. ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه ﴿وَفَضْلٍ﴾ وريح في التجارة فإنهم لما أنزوا بدرًا واقفوا بها سوقاً فاتَّجَرُوا وربحوا. ﴿لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٥٩/٢ - ٦٠) بدون إسناد. كما ليس فيه أنه صلى الله عليه وسلم خرج في سبعين راكباً، بل فيه (هم ألف وخمسمائة وكانت الخيل عشرة أفراس) كما ليس فيه (هم يقولون: حسبنا الله) وهذا في قصة غزوة بدر الصغرى. قد تقدم أن ابن جرير رجح نزول الآية في غزوة حمراء الأسد.

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية علي بن عبدالعزيز، عن حبيب بن عيسى بن فروخ عن إسماعيل بن عبدالرحمن عن مالك عن نافع عنه. كما في «الكافي الشاف» رقم: (٢٨٥).

(٣) قضية زيادة الإيمان ونقصانه من المسائل الخلافية الشهيرة، ولكل فريق أدلته. وقد نصت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة على زيادة الإيمان ونقصانه.

إلا أن من أنكر الزيادة والنقصان أول النصوص على أن المراد هو زيادة ثمرته وآثاره والواقع أن الخلاف لفظي، فمن أنكر الزيادة والنقصان كان حديثه عن أصل الإيمان الذي يُخرج من الكفر ويُدخل في الإسلام وقالوا لو قلنا بالزيادة والنقصان وأبقيناه في إطار الإيمان فيكون قد نقص عن الحد المطلوب وهو الذي إذا نقص أدخل في الكفر، وبالتالي فأصل الإيمان وأساسه لا يزيد ولا ينقص.

إلا أن كلمة الإيمان عامة فتشمل التصديق القلبي وما ينتج عنه من قول وعمل، وقد يطلق على القول والعمل إيماناً باعتبارهما مسببَيْن عنه.. وإذا زاد عمل المؤمن الصالح فهو دليل على زيادة إيمانه وتصديقه وقوة يقينه، لأن لكل عمل أساسه من القلب.

وعليه فالأولى ترك النصوص على ظاهرها.

وذهب الرازي إلى أن المراد بزيادة إيمانهم هو ما حصل في قلوبهم من تأكيد العزم على محاربة الكفار (التفسير الكبير ٩/١٠٠).

من جراحة وكيد عدو. ﴿وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجرائهم وخروجهم. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب في الدين وإظهار الجراءة على العدو وبالحفظ عن كل ما يسوءهم وإصابة النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل، وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به.

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يريد به المبطئ نعيمًا أو أبا سفيان. والشيطانُ خبرٌ ذلكم وما بعده بيان لشيئته، أو صفته وما بعده خبر، ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أي إنما ذلكم قول الشيطان يعني إبليس عليه اللعنة. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول، أو يخوفكم أوليائهم الذين هم أبو سفيان وأصحابه. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس الثاني على الأول وإلى الأولياء على الثاني. ﴿وَخَافُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمري فجاهدوا مع رسولي. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إثار خوف الله تعالى على خوف الناس.

(١٧٦) ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه، وهم المنافقون من المتخلفين، أو قوم ارتدوا عن الإسلام. والمعنى لا يحزنك خوف أن يضروك ويعينوا عليك لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي لن يضروا أولياء الله شيئاً بمسارعتهم في الكفر، وإنما يضرون بها أنفسهم. وشيئاً يحتمل المفعول والمصدر. وقرأ نافع يُحْزِنُكَ بضم الياء وكسر الزاي حيث وقع ما خلا قوله في الأنبياء ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾^(١) فإنه فتح الياء وضم الزاي فيه، والباقون كذلك في الكل. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ نصيباً من الثواب في الآخرة، وهو يدل على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر، وفي ذكر الإرادة إشعاراً بأن كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته، وأن مسارعتهم في الكفر لأنه تعالى لم يرد أن يكون لهم حظ في الآخرة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع الحرمان عن الثواب^(٢).

(١) الأنبياء: «١٠٣».

(٢) قوله «يسارعون في الكفر» عدى الفعل بكلمة «في» التي تفيد الدخول والإحاطة للإشعار باستقرارهم في الكفر ودوام ملابتهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، وهو كقوله تعالى: «يسارعون في الخيرات» - المؤمنون: «٦١» - فإنه مؤذن بملابتهم للخيرات وتقلبهم في فنونها.

وهو بخلاف قوله تعالى «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» - آل عمران: «١٣٣» - حيث عدى الفعل «سارعوا» بكلمة «إلى» لأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها (س/١١٥).

وتقوله تعالى: «لن يضروا الله» علق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم وللإيدان بأن مضاربتهم بمنزلة مضارته سبحانه (س/١١٦).

وقوله تعالى «ولهم عذاب عظيم» وصف العذاب بالعظم ليتناسب مع حقارة ما أقدموا عليه وسارعوا فيه =

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنََّّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

(١٧٧) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين، أو ارتد من العرب.

(١٧٨) ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ﴾ خطاب للرسول عليه السلام، أو لكل من يَحْسَب. والذين مفعول، وأنما نملي لهم بدل منه. وإنما اقتصر على مفعول واحد لأن التعميل على البدل وهو ينوب عن المفعولين كقوله تعالى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾^(١)، أو المفعول الثاني على تقدير مضاف مثل: ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإماء خير لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإماء خير لأنفسهم، وما مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت متصلة في الإمام فأتبع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائي ويعقوب بالياء على أن الذين فاعل، وإن مع ما في حيزه مفعول، وفتح سينه في جميع القرآن ابنُ عامر وحمزة وعاصم. والإماء الإمهال وإطالة العمر، وقيل تخليتهم وشأنهم، من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ استئناف بما هو العلة للحكم قبلها، وما كافة، واللام لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة. وقرئ إنما بالفتح هنا وبكسر الأولى، ولا يحسن بالياء على معنى ولا يحسن الذين كفروا أن إماءنا لهم لازدياد الإثم بل للتوبة والدخول في الإيمان، وإنما نملي لهم خير اعتراض، معناه أن إماءنا خير لهم إن اتبهوا وتداركوا فيه ما فرط منهم. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ على هذا يجوز أن يكون حالاً من الواو أي ليزدادوا إثمًا معداً لهم عذاب مهين.

(١٧٩) ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره، والمعنى لا يترككم مختلطين لا يعرف مخلصكم من منافقكم حتى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخالص المخلصون منكم، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر النبي به بواطنكم ويستدل به على عقائدكم. وقرأ حمزة والكسائي حتى يُمَيِّزُ هنا وفي الأنفال بضم الياء وفتح الميم وكسر الياء وتشديدها، والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء. ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وما كان الله ليؤتي أحدكم علم الغيب فيطلع على ما في القلوب من كفر وإيمان، ولكن الله يجتبي لرسالته من يشاء فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها. ﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾

وَرُسُلِهِمْ ﴿بصفة الإخلاص، أو بأن تَعْلَمُوهُ وَحْدَهُ مَطْلَعاً عَلَى الْغَيْبِ وَتَعْلَمُوهُمْ عِبَاداً مُجْتَبِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا عَلِمَهُمُ اللَّهُ وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا مَا أَوْحَى إِلَيْهِمْ. روي أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت^(١)، وعن السدي أنه عليه السلام قال «عرضت عليّ أمّتي وأُعْلِمْتُ من يؤمن بي ومن يكفر». فقال المنافقون إنه يزعم أنه يعرف من يؤمن به ومن يكفر ونحن معه ولا يعرفنا فنزلت^(٢). ﴿وَيَنْ تَوَمَّنْ﴾ حق الإيمان. ﴿وَتَتَّقْ﴾ النفاق. ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ القراءات فيه على ما سبق. ومن قرأ بالتاء قَدَّر مضافاً ليتطابق مفعولاه أي ولا تحسبن بُخْل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذا من قرأ بالياء إن جعل الفاعل ضمير الرسول ﷺ، أو مَنْ يحسب وإن جعله الموصول كان المفعول الأول محذوفاً للدلالة يبخلون عليه أي ولا يحسبن البخلاء ببخلهم هو خيراً لهم. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي البخل. ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم^(٣). ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بيان لذلك، والمعنى سيُلْزَمُونَ وَيَبَال ما بخلوا به إلزام الطوق، وعنه عليه الصلاة والسلام «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً في عنقه يوم القيامة»^(٤). ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ولا ينفقونه في سبيله، أو أنه يرث منهم ما يُنْسِكُونَهُ ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والإعطاء. ﴿خَبِيرٌ﴾ فمجازيهم^(٥). وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج ٤/١٨٨) عن السدي.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٣٦) وهو من رواية السدي وبدون سند فهو مرسل، وقال المناوي في الفتح السماوي ص ٤٢٤: لم أقف عليه. لم أجده.

(٣) نص على كونه شراً رغم أنه مفهوم من نفي خيريته للمبالغة في ذلك (س ١٢٠/٢).

(٤) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٣/٢٦٨ رقم ١٤٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا «ولا يحسبن الذين يبخلون» [آل عمران: ١٨٠].

وأخرجه النسائي (٥/٣٩ رقم ٢٤٨٢) وأحمد في المسند (٢/٢٧٩، ٣٥٥).

● زَبَيْتَان: الزبيبتان: هما الزَبِيدَتَانِ فِي الشَّدَقَيْنِ. يقال: تكلم فلان حتى زَبَبَ شَدَقَاهُ، أي خرج الزَّبْدُ عليهما، ومنها الحية ذو الزبيبتين. وقيل: هما النكتتان السوداوان فوق عينيه.

● بلهزيمتيه: اللّهزيمتان: عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين. ويقال: هما مضيفتان عَليّتان تحتها.

(٥) قوله «فمجازيهم»، هذا المعنى على قراءة من قرأ «يعملون» بالياء، وقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (المبسوط ص ١٥٠).

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا يُقْرَبَانِ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَٰذِي قُلْتُمْ قَلِمًا قُلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾

(١٨١) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قالته اليهود لما سمعوا ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(١). وروي أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير حتى سأل القرض، فلطمه أبو بكر رضي الله عنه على وجهه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ وجحد ما قاله. فنزلت . والمعنى أنه لم يخف عليه وأنه أعد لهم العقاب عليه^(٢). ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي سنكتبه في صحائف الكتبة، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول، ولذلك نظمته مع قتل الأنبياء، وفيه تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجتراً على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول. وقرأ حمزة سيكتب بالياء وضمتها وفتح التاء وقتلهم بالرفع ويقول بالياء. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي وننتقم منهم بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المخرق، وفيه مبالغات في الوعيد. والذوق إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والحالات، وذكره ههنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم، ومعظم بخله به للخوف من فقده، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال.

(١٨٢) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب. ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ﴾ من قتل الأنبياء وقولهم هذا وسائر معاصيهم. عبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ عطف على ما قدمت وسببته للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء^(٣).

(١٨٣) ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك وحبي وفنحاص ووهب بن يهودا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا. ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا يُقْرَبَانِ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ بأن لا نؤمن

(١) البقرة: ٢٤٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/٤٤٤) عن ابن عباس وفي سنده: محمد بن أبي محمد مجهول.

(٣) والذي قال واحد كما يدل سبب النزول ولكنه اعتبره جمعاً لرضا الباقيين به (س٢/١٢١).

(٤) عبر عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها (س٢/١٢١).

لرسول حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل وهو أن يقرب بقربان فيقوم النبي فيدعو فتزل نار سماوية فتأكله، أي تحيله إلى طبعها بالإحراق. وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات شرع في ذلك. ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلاً جاؤوهم قبله كزكريا ويحيى بمعجزاتٍ آخر موجبة للتصديق وبما اقترحوه فقتلوهم، فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به وكان توقفهم وامتناعهم عن الإيمان لأجله فما لهم لم يؤمنوا بمن جاء به في معجزاتٍ آخر واجتروا على قتله.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾

(١٨٤) ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ تسلياً للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود، والزبر جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرت الشيء إذا حبسته، والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة القرآن. وقيل الزبر المواعظ والزواجر، من زبرته إذا زجرته. وقرأ ابن عامر وبالزبر، وهشام وبالكتاب بإعادة الجار للدلالة على أنها مغايرة للبينات بالذات.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وعد ووعد للمصدق والمكذب. وقرئ ذائقة الموت بالنصب مع التنوين وعدمه كقوله: وَلَا ذَاكِرُ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً تاماً وافياً. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يوم قيامكم من القبور، ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»^(١). ﴿فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾ بَعْدَ عَنْهَا، والزحرة في الأصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة.

(١) أخرجه الترمذي (٦٣٩/٤ - ٦٤٠ رقم ٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قلت: في سنده عطية العوفي وهو ضعيف. انظر التقريب (٢٤/٢).

والحديث ضعيف. انظر ضعيف الترمذي (رقم: ٢٥٩١/٤٣٧).

وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢٩١): «... وهو ضعيف».

ورواه الطبراني في الأوسط في ترجمة مسعود بن محمد الرملي بإسناده إلى أبي هريرة. وقال: لم يروه عن الأوزاعي إلا أيوب بن سويد. تفرد به ولده محمد - بن أيوب - عنه. قلت وهو ضعيف ١هـ.

قلت: محمد بن أيوب بن سويد الرملي. قال عنه ابن حبان: يروى عن أبيه عن الأوزاعي الأشياء الموضوعة لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه. وكان أبو زرعة يقول: هذا الشيخ أدخل في كتب أبيه أشياء موضوعة بخط طري، وكان يُحَدِّثُ بها، وضعفه الدارقطني أيضاً.

﴿وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَفَازَ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوز الظفر بالبغية. وعن النبي ﷺ «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»^(١). ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي لذاتها وزخارفها. ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ شبهها بالمتاع الذي يُدْلَسُ به على المُسْتَمَامِ ويُغَرَّ حتى يشتريه، وهذا لِمَنْ آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ. والغرور مصدر أو جمع غار.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمَّا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٦) ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي والله لتختبرن. ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات. ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب. ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ من هجاء الرسول ﷺ والطعن في الدين وإغراء الكفرة على المسلمين، أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال ويستعدوا للقائها حتى لا يرهقهم نزولها. ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على ذلك^(٢). ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مخالفة أمر الله. ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ يعني الصبر والتقوى. ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها، أو مما عزم الله عليه أي أمر به وببالغ فيه. والعزم في الأصل ثبات الرأي على الشيء نحو إمضائه.

(١٨٧) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ أي اذكر وقت أخذه^(٣). ﴿مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يريد به العلماء. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ حكاية لمخاطبتهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عباس بالياء لأنهم غيب، واللام جواب القسم الذي ناب عنه قوله ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ﴾ والضمير للكتاب. ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي الميثاق. ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يراعوه ولم يتلفتوا إليه. والتَّبَذُ وراء الظهر مثلاً في ترك الاعتداد وعدم الالتفات، ونقيضه جَعْلُهُ نصب عينيه وإلقاؤه بين عينيه. ﴿وَأَشْرَوْا بِهِ﴾. وأخذوا بَدْلَهُ. ﴿مُمَّا قَلِيلاً﴾ من حطام الدنيا

= انظر «المجروحين» (٢/٢٩٩) والضعفاء للدارقطني رقم (٤٩٣).

(١) أخرجه مسلم (٣/١٤٧٣ رقم ٤٦ / ١٨٤٤) والنسائي (٧/١٥٢ رقم ٤١٩١) وابن ماجه (٢/١٣٠٦ رقم ٣٩٥٦).

من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص في حديث طويل.

(٢) والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقد عبر عنهم بذلك للإشعار بمدار الشقاق والإيذان بأن بعض ما يسمعون منه مستند في زعمهم إلى الكتاب (س٢/١٢٣).

(٣) توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه - مع أنه المقصود - للمبالغة في إيجاب ذكره (س٢/١٢٤).

وأعراضها^(١). ﴿فَيْئَسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم، وعن النبي ﷺ «من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار»^(٢). وعن علي رضي الله تعالى عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا^(٣).

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

(١٨٨) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ومن ضمَّ الباء جعل الخطاب له وللمؤمنين^(٤)، والمفعول الأول الذين يفرحون

(١) وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ما يدل على فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الحقير على الشريف وتعكسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة والوسيلة مقصداً. فقد عبر بالاشتراء وهو مؤذن بالرغبة في المأخوذ والإعراض عن المعطى، وعبر عن المشتري بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة، وجعل الكتاب - الذي حقه التنافس فيه - مصحوباً بالباء الداخلة على الآلات والوسائل (س/٢/١٢٥).

(٢) وهو حديث حسن. ● أخرجه أبو داود (٦٧/٤ - ٦٨ رقم ٣٦٥٨) وأحمد في المسند (٢/٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣) من طريق حماد، عن علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». ● وأخرجه الترمذي (٢٩/٥ - ٣٠ رقم ٢٦٤٩) وابن ماجه (١/٩٦ رقم ٢٦١) وأبو يعلى في المسند (١١/٢٦٨ رقم ٦٣٨٣/٥٤٣) وأحمد (٢/٤٩٥) والطبراني (١/٣٧ رقم ٨٩ - منحة المعبود) من طريق عمارة بن زاذان، عن علي بن الحكم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

قال الترمذي: حديث أبي هريرة: حديث حسن وهو كما قال. وقد حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه. قلت: ويشهد له حديث عبدالله بن عمرو، عند الخطيب البغدادي في «التاريخ» (٥/٣٩) وصححه الحاكم (١/١٠٢) إذ قال: «هذا إسناد صحيح من حديث المصريين، على شرط الشيخين وليس له علة وفي الباب عن جماعة من الصحابة غير أبي هريرة رضي الله عنهم» ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (١/١٥٤ رقم ٩٦). كما يشهد له حديث جابر عند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/١٩٨) و(٩/٩٢) و(١٢/٣٦٩). وانظر العلل المتناهية لابن الجوزي (١/٩٦ - ١٠٧) باب إثم من سئل عن علم فكتمه.

تنبيه: قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢٩٤): «ليس في شيء من طرقه (عن أهله)». (٣) رواه الثعلبي من طريق الحارث بن أبي أسامة، أخبرنا عبد الوهاب الثقافي، حدثنا الحسن بن عمارة، حدثني الحكم بن عيينه، عن يحيى بن الجزار: سمعت علياً يقول: فذكره. والحسن متروك - (الجرح والتعديل (٢٨/٣)) - كما قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (رقم ٢٩٥).

وقال الحافظ أيضاً: ورؤيته في جزء الذراع، قال: كتب الحارث بن أسامة فذكره، وذكره ابن عبد البر في العلم. قال ويروي عن علي، وذكره صاحب الفردوس عن علي. فكانه وقف عليه مرفوعاً.

قلت: الذراع: هو أبو بكر أحمد بن نصر بن عبدالله بن الفتح الذراع، له جزء في الحديث رواه الحافظ بإسناده. (٤) أي قرأ «فلا تحسبنهم».

والثاني بمفازة، وقوله فلا تحسبنهم تأكيد والمعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق بمفازة: بمنجاة من العذاب أي فائزين بالنجاة منه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني، على أن الذين فاعلٌ ومفعولاً يحسبن محذوفان يدل عليهما مفعولاً مؤكّده، فكانه قيل: ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا فلا يحسبن أنفسهم بمفازة، أو المفعول الأول محذوف وقوله فلا تحسبنهم تأكيد للفعل وفاعله ومفعوله الأول. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم وتدليسهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأرؤهُ أنهم قد صدقوه وفرحوا بما فعلوا. فنزلت^(١). وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا به^(٢). وقيل: نزلت في المنافقين فإنهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة^(٣).

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقابهم. وقيل هو رد لقولهم إن الله فقير.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لدلائل واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم كما سبق في سورة البقرة، ولعل الاختصار على هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغير، وهذه متعرضة لجملة أنواعه فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار، أو جزئه كتغير العناصر بتبدل صورها أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبدل

(١) أخرجه البخاري (٢٣٣/٨ رقم ٤٥٦٨) ومسلم (٢١٤٣/٤ رقم ٢٧٧٨/٨) عن ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره: أن مروان قال ليوأبه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كلُّ امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يُحمد بما لم يعمل معذباً لنعذب أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء... فذكراه بطوله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٣/٨ رقم ٤٥٦٧) ومسلم (٢١٤٢/٤ رقم ٢٧٧٧/٧) من حديث أبي سعيد الخدري. أن رجالاً من المنافقين، في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قديم النبي ﷺ اعتذروا إليه. وأجبت أن يُحمدوا بما لم يفعلوا. فنزلت: «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب» [آل عمران: ١٨٨].

قلت: يحتمل أن تكون الآية نزلت فيهما جميعاً، وإلا فحديث أبي سعيد أرجح، لأن حديث ابن عباس مما انتقد على الشيخين. انظر «الإلزامات والتتبع» للإمام أبي الحسن، علي بن عمر الدارقطني (ص ٤٩٦ - ٤٩٩ رقم ١٧٧) تحقيق وتخريج الشيخ مقبل بن هادي الوادعي. وفتح الباري (٢٣٤/٨).

(٣) لم أقف عليه.

أوضاعها^(١). وعن النبي ﷺ «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(٢).

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

(١٩١) ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه عليه الصلاة والسلام «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»^(٣). وقيل معناه يُصَلُّون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين^(٤). «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماء»^(٥). فهو حجة للشافعي رضي الله عنه في أن المريض يصلي مضطجعا على جنبه الأيمن مستقبلاً بمقادير بدنه. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات كما قال عليه الصلاة والسلام «لا عبادة.....»

- (١) وتقديم الليل على النهار إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر في الليالي، وإما لتقدمه في الخلفية كما في قوله تعالى: «وَأَيُّ لَيْلٍ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ» - يس (٣٧) - أي نزيله منه فيخلفه (س ١٢٧/٢).
- (٢) أخرجه ابن حبان (٨/٢ - ٩ رقم ٦١٩) من طريق عثمان بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن زكريا، عن إبراهيم ابن سويد النخعي، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: زُرْ غَيًّا تَزِدُّ حَيًّا. قال: قالت: دُعُونَا مِنْ رَطَائِكُمْ هَذِهِ. قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قال: فسكت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي» فذكر الحديث.
- وقال الشيخ شعيب في تخريجه (٣٨٧/٢): «إسناده قوى على شرط مسلم، وأخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص ١٨٦ عن الفريابي، عن عثمان بن أبي شيبة، بهذا الإسناد.
- وله طرق أخرى عن عطاء عند أبي الشيخ ص ١٩٠ و ١٩١ وفيه أبو جناب الكلبي يحيى بن أبي حية، ضعفه لكثرة تدليسه، لكن صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه هـ.
- وأورده السيوطي في الدر المنثور (٤٠٩/٢) وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التفكير، وابن المنذر، وابن مردويه، والأصبهاني في الترغيب، وابن عساكر.
- وانظر «الكافي الشافعي» لابن حجر (رقم: ٢٩٨).
- (٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٢/١٠) والطبراني في الكبير (١٥٧/٢٠) رقم ٣٢٦ قال ابن حجر في الكافي الشافعي (ص ٣٦ رقم ٣٠١): وفي إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف.
- (٤) عمران بن الحصين هو: عمران بن حصين بن عبيد بن خلف، القدوة الإمام، صاحب رسول الله ﷺ، أبو نجيد الخزاعي، أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في وقت واحد سنة سبع، وله عدة أحاديث.
- توفي سنة اثنتين وخمسين.
- [الاستيعاب (١٩/٩) وشذرات الذهب (٦٢/١)].
- (٥) أخرجه البخاري (٥٨٧/٢) رقم ١١١٧ وأبو داود (٥٨٥/١) رقم ٩٥٢ والترمذي (٢٠٨/٢) رقم ٣٧٢ وابن ماجه (٣٨٦/١) رقم ١٢٢٣ والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٥/٣).

كالتفكير^(١). لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق، وعنه عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً: اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له»^(٢). وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ على إرادة القول أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا إشارة إلى المتفكر فيه أي الخلق على أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض، أو إليهما لأنهما في معنى المخلوق، والمعنى ما خلقته عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقته لحكم عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يدل على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض. ﴿فَقِنَا عَبْدًا النَّارِ﴾ للإخلال بالنظر فيه والقيام بما يقتضيه. وفائدة الفاء هي الدلالة على أن علمهم بما لأجله خُلِقَت السموات والأرض حَمَلَهُمْ على الاستعادة.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

(١٩٢) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ غاية الإخزاء، وهو نظير قولهم: من أدرك مَرعى الضَّمَان فقد أدرك^(٣)، والمراد به تهويل المستعاذ منه تنبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه، وفيه إشعار بأن العذاب الروحاني أقطع. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أراد بهم المُدْخِلِينَ، ووضع المظهر موضع المضمّر للدلالة على أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار وانقطاع النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفي الشفاعة لأن النصر دفعٌ بقهر^(٤).

(١٩٣) ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾ أوقع الفعل على المُسْمِع وحذف المسموع للدلالة وضمه عليه، وفيه مبالغة ليست في إيقاعه على نفس المسموع. وفي تنكير المنادي وإطلاقه ثم تقييده تعظيم لشأنه، والمراد به الرسول عليه الصلاة والسلام^(٥) وقيل القرآن، والنداء والدعاء ونحوهما يعدي

(١) وهو حديث ضعيف.

أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٣٠٧/٢) من حديث علي رضي الله عنه وفيه أبو رجاء محمد بن عبد الله الحبطي، قال عنه ابن حبان: «يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأئمة».

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف (ص ٣٦ رقم ٣٠٣): رواه الثعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة، وفي إسناده من لا يعرف.

(٣) أي فقد أدرك غاية المرعى أو المرعى الكامل...

(٤) صدر الآية بالنداء للمبالغة في التضرع والجوار. وأكدها بيان لإظهار كمال التعيين بمضمونها والإيدان لشدة الخوف. وأظهر النار في موضع الإضممار لتهويل أمرها. وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته (س ١٣١/٢).

(٥) أثر لفظ المنادي على الداعي للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الداني والقاصي لما فيه من =

بإلى واللام لتضمنها معنى الانتهاء والاختصاص. ﴿أَنۡءَامُوا۟ بِرَبِّكُمۡ فَتَآمَنُوا۟﴾ أي بأن آمنوا فامتثلنا. ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا فإنها ذاتُ تبعة. ﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ صغائرنا فإنها مستقبحة، ولكن مكفرة عن مجتنب الكبائر. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبِرَارِ﴾ مخصوصين بصحبته معدودين في زمرة، وفيه تنبيه على أنهم محبوبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. والأبرار جمع برٍّ أو بازٍ كآرياب وأصحاب.

رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنٓتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخْلَنَّهُمْ جَنَّتٍ بَحْرِيٍّ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي ما وعدتنا على تصديق رسلك من الثواب. لما أظهر امتثاله لما أمر به سأل ما وعده عليه لا خوفاً من إخلاف الوعد بل مخافة أن لا يكون من الموعودين لسوء عاقبة أو قصور في الامتثال أو تعبدًا واستكانة. ويجوز أن يعلق على بمحذوف تقديره: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً عليهم. وقيل معناه على السنة رسلك. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بأن تعصمنا عما يقتضيه. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الميعاد البعث بعد الموت. وتكرير ربنا للمبالغة في الابتهاال والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها. وفي الآثار: من حزنه أمر فقال خمس مرات ربنا أنجّاه الله مما يخاف^(١).

(١٩٥) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى طلبتهم، وهو أخص من أجاب ويُعدى بنفسه وباللام^(٢). ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي باني لا أضيع. وقرئ بالكسر على إرادة القول^(٣). ﴿مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنٓتِي﴾ بيان عامل. ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ لأن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، أو لأنهما من أصل واحد، أو لفرط الاتصال والاتحاد، أو للاجتماع والاتفاق في الدين. وهي جملة معترضة بين بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال. روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء. فنزلت^(٤). ﴿فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلخ، تفصيل لأعمال العمال وما أعد

= الإيذان برفع الصوت (س/١٣٢/٢).

(١) هو من قول جعفر الصادق (روح المعاني ٤/١٦٧).

(٢) وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الاستجابة (س/١٣٣/٢).

(٣) والالتفات هنا إلى التكلم والخطاب لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب (س/١٣٣/٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/٢٣٧ رقم ٣٠٢٣) والطبري في «جامع البيان» (٣/٤/٢١٥) والطبراني في الكبير (٢٣/٢٩٤ رقم ٦٥٢) وفي سننه رجل من بني سلمة، وقد بينه الحاكم (٢/٣٠٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجه ووافقه الذهبي.

قلت: قال الحافظ في «التقريب» (١/٣١٧ رقم ٣٧١): «سلمة بن عبدالله بن عمر بن أبي سلمة بن عبدالأسد =

لهم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم، والمعنى فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين. ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي﴾ بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿وَقَاتِلُوا﴾ الكفار. ﴿وَقَاتِلُوا﴾ في الجهاد. وقرأ حمزة والكسائي بالعكس لأن الواو لا توجب ترتيباً والثاني أفضل أو لأن المراد لما قُتل منهم قوم قاتل الباقون ولم يضعفوا. وشدد ابن كثير وابن عامر قتلوا للتكثير. ﴿لَا كُفْرًا عَنْهُمْ سِقَاتِهِمْ﴾ لامحونها. ﴿وَلَا دُخْلَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي أتيهم بذلك إثابة من عند الله تفضلاً منه، فهو مصدر مؤكد. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ على الطاعات قادر عليه.

لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُونَ الْمُهَادُّ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾

(١٩٦) ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، أو تشبته على ما كان عليه كقوله ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(١) أو لكل أحد، والنهي في المعنى للمخاطب وإنما جعل للقلب تنزيلاً للسبب منزلة المسبب للمبالغة، والمعنى لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم. روي أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهل. فنزلت^(٢).

(١٩٧) ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك القلب متاع قليل لقصر مدته في جنب ما أعد الله للمؤمنين. قال عليه الصلاة والسلام «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»^(٣). ﴿ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُونَ الْمُهَادُّ﴾ أي ما مهدوا لأنفسهم.

= المخزومي، وربما نسب إلى جد أبيه، وإلى جده، أخرج له الترمذي حديثاً فلم يسمه، قال: عن رجل من ولد أم سلمة، وسماه الحاكم. مقبول، من الثالثة، لم يذكره المزي. هـ.
قلت: ليس كما قال الحاكم فإن سلمة هذا لم يخرج له سوى الترمذي ولم يوثقه غير ابن حبان. وأما يعقوب بن حميد قال عنه الحافظ في التقریب (٣٧٥/٢): «صدوق ربما وهم» ومع ذلك فقد توبع.
● وأخرج الترمذي (٢٣٧/٥) رقم (٣٠٢٢) وأحمد (٣٢٢/٦) والحاكم (٣٠٥/٢ - ٣٠٦).
وابن جرير في «جامع البيان» (٤/٤٦، ٤٧) والطبراني في الكبير (٢٣/٢٨٠) رقم (٦٠٩) كلهم من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد عن أم سلمة قالت: يفرزو الرجال ولا يفرزو النساء وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» وعند الطبراني زيادة في آخره «ثم أنزلت» (إني لا أضيف عمل عامل) الآية.
والخلاصة أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

(١) القلم: «٨».

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٣٩) بدون إسناد.

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢١٩٣) رقم (٢٨٥٨/٥٥) والترمذي (٤/٥٦١) رقم (٢٣٢٢) وابن ماجه (٢/١٣٧٦) رقم (٤١٠٨) وأحمد (٢/٢٢٩ - ٢٣٠) من حديث ابن شداد.

(١٩٨) ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّفَقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَنْزَلَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ التَّوْلُ والتَّوْلُ ما يعد للنازل من طعام وشراب وصلة قال أبو الشعر الضبي^(١):

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزْلًا

وانتصابه على الحال من جنات والعاقل فيها الظرف. وقيل إنه مصدر مؤكد والتقدير أنزلوها نزلاً^(٢). ﴿وَمَاعِنْدَ اللَّهِ﴾ لكثرتة ودوامه. ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِبَايَعَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

(١٩٩) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه^(٣). وقيل في أربعين من نجران واثنتين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا^(٤). وقيل في أصحمة النجاشي لما نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ فخرج فصلى عليه فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على عِلْجٍ نصراني لم يره قط^(٥). وإنما دخلت اللام على الاسم للفصل بينه وبين إن بالظرف.

(١) أبو الشعر الضبي هو: يونس بن حبيب أبو عبدالرحمن الضَّبِّي وقيل الليثي بالولاء، إمام نَحَاةِ البصرة في عصره، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات، كانت حَلَقَتُهُ مجمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب. . . . وكان يونس عالماً بالشعر نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه، عارفاً بطبقات شعراء العرب حافظاً لأشعارهم يُرْجَعُ إليه في ذلك كُلِّهِ. وكان مولده سنة ثمانين، ومات سنة اثنتين وثمانين ومائة. [معجم الأدباء (٢٠/٦٤ - ٦٧ رقم ٣٩)].

(٢) إيراد التقوى في حيز الصلة للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى. وكذا إيراد البر في قوله «للأبرار» (س٢/١٣٥).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/٤٢١٩) عن ابن جريج.

(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٤/١٧٣) عن عطاء بدون سند.

(٥) ● أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/٤٢١٨) وابن عدي في التكمال (٣/١١٧١) من طريق أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن جابر بن عبدالله مرفوعاً، دون قوله: «ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي» وزاد فيه: «وكبر أربعاً».

وفيه أبو بكر الهذلي، قيل اسمه (سلمى بن عبدالله) قال الحافظ في التريب (٢/٤٠١) أخباري متروك الحديث.

● وأخرج الطبراني في الأوسط - كما في «المجمع» (٣/٣٨ - ٣٩) - عن أبي سعيد الخدري، قال لما قدم على النبي ﷺ وفاه النجاشي قال اخرجوا فصلوا على أخ لكم لم تروه قط فخرجنا وتقدم النبي ﷺ وصفنا خلفه فصلى وصلينا فلما انصرفنا قال المنافقون انظروا إلى هذا خرج فصلى على عِلْجٍ نصراني لم يره قط فأنزل الله ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾. إلى آخر الآية.

قال الهيثمي: وفيه عبدالرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف.

● وأخرج الطبراني في الكبير (٢٢/١٣٦ رقم ٣٦١) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/٣٩) عن وحشي بن حرب قال: لما مات النجاشي قال رسول الله ﷺ لأصحابه إن أخاكم النجاشي قد مات قوموا فصلوا عليه فقال رجل =

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين. ﴿خَشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن وجمعه باعتبار المعنى ﴿لَا يَسْتَرْوَنَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعله المحرّفون من أحبارهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ما خص بهم من الأجر ووعدته في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لعلمه بالأعمال وما يستوجبه من الجزاء واستغناؤه عن التأمل والاحتياط، والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

(٢٠٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا﴾ على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد. ﴿وَصَابِرُوا﴾ وغالبوا أعداء الله بالصبر على شدائد الحرب وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوى، وتخصيصه بعد الأمر بالصبر مطلقاً لشدته. ﴿وَرَابِطُوا﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو، وأنفسكم على الطاعة كما قال عليه الصلاة والسلام «من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة»^(٢). وعنه عليه الصلاة والسلام «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه، لا يفطر ولا ينفث عن صلاته إلا لحاجة»^(٣). ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فاتقوه بالتبري عما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المرتبة التي هي الصبر على مفضض الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات، المعبر

= يا رسول الله كيف نصلي عليه وقد مات في كفره فقال «ألا تسمعون إلى قول الله: «إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم» إلى آخر الآية.

قال الهيثمي: وفيه سليمان بن أبي داود الحراني وهو ضعيف.

● وأما صلاة النبي ﷺ على النجاشي فقد ثبت. أخرجه البخاري في صحيحه (١١٦/٣) رقم (١٢٤٥) وأطرافه في: (١٣١٨)، (٧، ١٣)، (٨، ١٣)، (١٣٣٣)، (٣٨٨٠)، (٣٨٨١). ومسلم (٢/٦٥٦ - ٦٥٧) رقم ٦٢، ٩٥١/٦٣ من حديث أبي هريرة.

(١) القصص: «٥٤».

(٢) أخرج مسلم (١/٢١٩) رقم (٢٥١/٤١) والترمذي (١/٧٢) رقم (٥١).

عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».

● ولم أجده بلفظ الكتاب.

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (٣/١٥٢٠) رقم (١٩١٣/١٦٣) عن سلمان، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه. وإن مات، جرى عليه عمله الذي كان يعملُهُ، وأُجرِي عليه رزقُهُ، وأَمِنَ الفتان».

وأخرجه أحمد في المسند (٥/٤٤٠، ٤٤١) وابن شعبة في المصنف (٥/٣٢٧) (٥/٣٣٧) بالفاظ متقاربة.

عنها بالشرعة والطريقة والحقيقة. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم»^(١). وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تجب الشمس»^(٢). والله أعلم.



(١) وهو حديث موضوع:

أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢٣٩/١ - ٢٤٠) من طريق أبي الخليل بزيع بن حسان، ومُخْلَد بن عبد الواحد، كلاهما عن علي بن زيد بن جدعان، عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب مرفوعاً: «من قرأ سورة كذا وكذا، فله كذا وكذا، فذكر سورة سورة».

وقال: «وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك، وفي إسناد الطريق الأول (بزيع) قال الدارقطني: وهو متروك، وفي الطريق الثاني (مُخْلَد) بن عبد الواحد قال ابن حبان: منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقة، وقد اتفق (بزيع) و(مُخْلَد) على رواية هذا الحديث عن علي بن زيد، وقد قال أحمد ويحيى: علي بن زيد ليس بشيء. وبعد هذا فنفي الحديث يدل على أنه مصنوع فإنه قد استنفذ السور وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية الزودة لا يناسب كلام رسول الله ﷺ» هـ.

قلت: انظر ترجمة أبي الخليل بزيع بن حسان في «الجرح» (٤٢١/٢) والمجروحين - (١٩٨/١ - ١٩٩) - والميزان (٣٠٦/١).

وترجمة مخلص بن عبد الواحد في «الجرح» (٣٤٨/٨) والمجروحين (٤٣/٣) والميزان (٨٣/٤).

● قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» ص ٣١٧: «ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبي بن كعب هذا موضوع. وقد اغتر به جماعة من المفسرين فذكروه في تفاسيرهم: كالثعلبي، والواحدي، والزمخشري ولا جرم فليسوا من أهل هذا الشأن» هـ.

● وقال ابن قيم الجوزية في «المنار المنيف» (ص ١١٣ رقم ٢٢٥): ومنها - أي من الأحاديث التي لم تثبت - «ذُكِرَ فضائل السور وثواب من قرأ سورة كذا فله أجر كذا» من أول القرآن لآخره، كما ذكر ذلك الثعلبي والواحدي في أول كل سورة، والزمخشري في آخرها. قال عبدالله بن المبارك: أظن الزنادقة وضعوها.

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الطبراني في الكبير (٤٨/١١) رقم ١١٠٠٢ وأورده الهيثمي في المجمع (١٦٨/٢) وابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٣١١) من حديث ابن عباس.

قال الهيثمي: وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف جداً.

وقال ابن حجر: إسناده ضعيف.

وحكم عليه المحدث الألباني بالوضع في «الضعيفة» رقم (٤١٥).

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا أَلْيَنَ أَمْوَالِهِمْ وَلَا
تَبَدَّلُوا الْحَبِثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم ^(١). ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عطف على خلقكم أي خلقكم من شخص واحد وخلق منه أمكم حواء من ضلع من أضلاعه، أو محذوف تقديره من نفس واحدة خلقها وخلق منها زوجها، وهو تقرير لخلقهم من نفس واحدة. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بيان لكيفية تولدهم منهما، والمعنى ونشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها، إذ الحكمة تقتضي أن يكن أكثر، وذكر كثيراً حملاً على الجمع، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليتها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها. وقرىء وخالق وبات على حذف مبتدأ تقديره وهو خالق وبات. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي يسأل بعضكم بعضاً تقول أسألك بالله، وأصله تتساءلون فأدغمت التاء الثانية في السين ^(٢). وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بطرحها. ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عطف على محل الجار والمجرور كقولك: مررت بزيد وعمراً، أو على الله أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فصلوها ولا تقطعوها. وقرأ حمزة بالجر عطفاً

(١) قوله «اتقوا ربكم» تعرض لعنوان الربوبية المنبثة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأيد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب (س ١٣٧/٢).

(٢) وهذا على قراءة من قرأ بتشديد السين «تساءلون» وهي قراءة الجمهور.

على الضمير المجرور وهو ضعيف لأنه كبعض الكلمة^(١). وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والأرحام كذلك، أي مما يُتقى أو يُتساءل به. وقد نبه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحام باسمه الكريم على أنّ صلتها بمكانٍ منه. وعنه عليه الصلاة والسلام «الرحم معلقة بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله»^(٢). ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً مطلعاً.

(٢) ﴿وَمَا تَوْأَلَّتْكُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ أي إذا بلغوا، واليتامى جمع يتيم وهو الذي مات أبوه، من اليتيم وهو الانفراد. ومنه الدرّة اليتيمة، إما على أنه لما جرى مجرى الأسماء كفارس وصاحب جُمع على يتائم، ثم قلب فقليل يتامى أو على أنه جمع على يتيمى كآسرى لأنه من باب الآفات. ثم جمع يتيمى على يتامى كآسرى وآسارى، والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ. ووروده في الآية إما للبلّغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يُدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد، ولذلك أمر بابتلائهم صغاراً. أو لغير البلّغ والحكم مقتيد فكانه قال: وآتوهم إذا بلغوا. ويؤيد الأول ما روي: أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال منه فمنعه فترزت^(٣). فلما سمعها العم قال: أطعنا الله ورسوله نعوذ بالله من الحوب الكبير. ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم بالأمر الطيب الذي هو حفظها. وقيل ولا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتعطوا الخسيس مكانها، وهذا تبديل وليس بتبدل. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ ولا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، أي لا تنفقوها معاً ولا تسوّوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام وهو فيما زاد على قدر أجره لقوله تعالى ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٤) ﴿لَهُ﴾ الضمير للأكل. ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذنباً عظيماً. وقرئ حوباً وهو مصدر حاب حوباً وحاباً كقال قولاً وقالاً^(٥).

(١) ما ذكره البيضاوي من ضعف قراءة حمزة «والأرحام» بالجر قول غير مقبول منه.

وقد نقله عن الزمخشري في الكشاف ٢٤١/١ وهو مذهب البصريين.

أما حمزة فهو من القراء السبعة المشهورين الذين تلتق الأمة قراءتهم بالقبول. ثم إن هذه القراءة قد قرأ بها غير السبعة كابن مسعود وابن عباس والنخعي والحسن البصري وغيرهم.

وأما ما ذكر من أنه غير موافق للعربية فغير صحيح، بل الصحيح جوازه فقد رجح ابن مالك جوازه واستشهد له بالنشر والنظم. (شرح ابن عقيل ٢/٢٤٠) وانظر رد أبي حيان في البحر المحيط ٣/١٥٩ على الزمخشري وابن عطية في رد قراءة حمزة.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٧/١٠) رقم ٥٩٨٩ عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «الرَّحِمُ شِجْنَةٌ، فَمَنْ وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

- وأخرجه مسلم (١٩٨١/٤) رقم ٢٥٥٥ عنها بلفظ الكتاب.

(٣) ذكره الثعلبي عن مقاتل والكلبي وسنده إليهما مذكور في أول الكتاب - كما في «الكافي الشاف» لابن حجر رقم (٣١٥) -. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٢) من قول مقاتل والكلبي.

قلت: مقاتل والكلبي هما كذابان.

(٤) النساء: ٦٦.

(٥) في الآية قدم أمر اليتامى للاعتناء بأمرهم وللملاستهم للأرحام، إذ الخطاب للأولياء والأوصياء ولما تفوض الوصاية إلى الأجانب.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾

(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن، إذ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها ضناً بها، فربما يجتمع عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن. أو إن خفتم أن لا تعدلوا في حقوق اليتامى فتخرجتم منها فخافوا أيضاً أن لا تعدلوا بين النساء فانكحوا مقداراً يمكنكم الوفاء بحقه، لأن المتحرّج من الذنب ينبغي أن يتخرج من الذنوب كلها على ما روي: أنه تعالى لما عظم أمر اليتامى تحرّجوا من ولايتهم وما كانوا يتخرجون من تكثير النساء وإضاعتهن فنزلت^(١). وقيل: كانوا يتخرجون من ولاية اليتامى ولا يتخرجون من الزنى، ف قيل لهم إن خفتم أن لا تعدلوا في أمر اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حل لكم. وإنما عبر عنهم بما ذهاباً إلى الصفة أو إجراءً لهم مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن، ونظيره ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٢). وقرئ تَقْسِطُوا بفتح التاء على أن لا مزيدة أي إن خفتم أن تجوروا. ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ معدولة عن أعداد مكررة وهي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. وهي غير منصرفة للعدل والصفة فإنها بُنِيَتْ صفاتٍ وإن كانت أصولها لم تُبْنِ لها. وقيل لتكرير العدل فإنها معدولة باعتبار الصفة والتكرير منصوبة على الحال من فاعل طاب، ومعناها: الإذن لكل ناكح يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه ومختلفين كقولك: اقتسموا هذه البكرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، ولو أُفردت كان المعنى تجويز الجمع بين هذه الأعداد دون التوزيع، ولو ذكرت بأوٍ لذهب تجويز الاختلاف في العدد. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد أيضاً. ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فاختاروا أو فانكحوا واحدة وذروا الجمع. وقرئ بالرفع على أنه فاعل محذوف أو خبره تقديره فتكفيكم واحدة، أو فالمقنع واحدة. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراي لخفة مؤنهن وعدم وجوب القسم بينهن ﴿ذَلِكَ﴾ أي التقليل منهن أو اختيار الواحدة أو التسري. ﴿أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أقرب من أن لا تميلوا، يقال عال الميزان إذا مال وعال الحاكم إذا جار، وعَوَّلَ الفريضة الميلُ عن حدّ السهام المسماة. وفُسر بأن لا تكثُر عيالكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم إذا مانهم، فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤن على الكناية، ويؤيده قراءة أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله، ولعل المراد بالعيال الأزواج وإن أريد الأولاد فلأن التسري

= والمراد بإيتاء أموالهم أن يقطع المخاطبون أطماعهم الفارغة عنها. وعبر عنه بالإيتاء مجازاً للإيدان بأنه ينبغي أن يكون مرادهم بذلك إيصالها إليهم لا مجرد ترك التعرض لها (س/٢/١٣٩).

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣٣/٤ - ٢٣٤) عن سعيد بن جبير والسدي وقتادة وابن عباس، وفي سنده عن ابن عباس أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف.

(٢) النساء: (٣).

مظنة قلة الولد بالإضافة إلى التزوج لجواز العزل فيه كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع .

(٤) ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ﴾ مهورهن . وقرء بفتح الصاد وسكون الدال على التخفيف ، وبضم الصاد وسكون الدال ، جمع صدقة كغرفة ، وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة كظلمة في ظلمة . ﴿نِحْلَةً﴾ أي عطية يقال نحله كذا نخله ونخللاً إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ، ومن فسرهما بالفريضة ونحوها نظر إلى مفهوم الآية لا إلى موضوع اللفظ ، ونصبها على المصدر لأنها في معنى الإيتاء أو الحال من الواو ، أو الصدقات أي آتوهن صدقاتهن ناحلين أو منحولة . وقيل المعنى نخلة من الله وتفضلاً منه عليهن فتكون حالاً من الصدقات . وقيل ديانة من قولهم انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه مفعول له ، أو حال من الصدقات أي ديناً من الله تعالى شرعه ، والخطاب للأزواج ، وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور موكياتهم . ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ للصدقات حملاً على المعنى ، أو جرى مجرى اسم الإشارة كقول رؤية :

كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْتُ الْبَهَقَ

إذ سئل فقال : أردت كأن ذاك ، وقيل للإيتاء ، ونفساً تمييز لبيان الجنس ولذلك وحّد ، والمعنى فإن وهبن لكم شيئاً من الصدقات عن طيب نفس ، لكن جعل العمدة طيب النفس للمبالغة وعدّاه بعن لتضمن معنى التجافي والتجاوز ، وقال : «منه» بعثاً لهنّ على تقليل الموهوب ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة . والهناء والمريء صفتان من هنأ الطعام ومرأ إذا ساغ من غير غصص ، أقيمتا مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أو جعلتا حالاً من الضمير . وقيل : الهنيء ما يلذه الإنسان ، والمريء ما تحمد عاقبته . روي : أن ناساً كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساق إليها . فنزلت^(١) .

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْغُوفًا ﴿٥﴾

(٥) ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم فيضيّعوها ، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم ، وهو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة . وقيل نهى لكل أحد أن يعمد إلى ما حوله الله تعالى من المال فيعطي امرأته وأولاده ، ثم ينظر إلى أيديهم . وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقولهم واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم وهو أوفق لقوله^(٢) : ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أي تقومون بها وتتعتشون ، وعلى الأول يؤول بأنها التي من

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/٤/٢٤٣) عن المعتمر عن أبيه ، به .

(٢) أضاف الأموال إلى الأولياء لا لكونها تحت ولايتهم - كما ذكر البيضاوي - بل تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء ، فكان أموالهم عين أموالهم كما في قوله تعالى : «ولا تقتلوا أنفسكم» - النساء «٢٩» - أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، حيث عبر عن بني نوعهم بأنفسهم مبالغة في زجرهم . (س/١٤٤/٢) .

إلا أنه تعالى أضاف الأموال إلى اليتامى في قوله «وآتوا اليتامى أموالهم» - النساء «٢٠» - ولم يصفه للأولياء مع أن =

جنس ما جعل الله لكم قياماً سمي ما به القيام قياماً للمبالغة. وقرأ نافع وابن عامر قِيَمًا بمعناه كَعَوِذَ بمعنى عِيَاذ. وقرىء قِيَامًا وهو ما يقام به. ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْوفاً﴾ عدة جميلة تطيب بها نفوسهم. والمعروف ما عرفه الشرع أو العقل بالحُسن، والمنكر ما أنكره أحدهما لقبحه.

وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ٦) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ٧)

(٦) ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين والتهدي إلى ضبط المال وحسن التصرف، بأن يكل إليه مقدمات العقد. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى بأن يُدْفَع إليه ما يتصرف فيه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ حتى إذا بلغوا حد البلوغ بأن يحتلم، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة كُتِبَ مَالُهُ وما عليه وأقيمت عليه الحدود»^(١). وثمانى عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وبلغُ النكاح كناية عن البلوغ، لأنه يصلح للنكاح عنده. ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ فإن أبصرتهم منهم رشداً. وقرىء أحستم بمعنى أحسنتهم. ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، ونظم الآية أن إن الشرطية جواب إذا المتضمنة معنى الشرط، والجملة غاية الابتلاء فكانه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إنباس الرشد منهم، وهو دليل على أنه لا يُدْفَع إليهم ما لم يؤنس منهم الرشد. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا زادت على سن البلوغ سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال، إذ الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دُفِعَ إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ مسرفين ومبادرين كبَرَهُم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبَرَهُم. ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من أكلها. ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه، ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولي له حق في مال الصبي، وعنه عليه الصلاة والسلام «أن رجلاً قال له إن في حجري يتيمًا أفأكل من ماله؟ قال: كُلْ بالمعروف غير متأثِّل مالاَ ولا واقٍ مَالَكُ بماله»^(٢) وإيراد

= الأموال في صورتين لهم، وذلك للإيذان بترتب الحكم على الوصف فيهما، فإن تسميتهن يتامى هناك يناسب قطع الطمع فيفيد المبالغة في رد الأموال إليهم فافتضى أن يقال «أموالهم»، أما الوصف هنا فهو السفاهة فتناسب أن لا يختصوا بشيء من المالكية لئلا يتورطوا في الأموال، فلذلك لم يصف أموالهم إليهم بل أضافها للأولياء (روح المعاني ٢٠١/٤).

(١) أخرجه البيهقي في الخلافيات من حديث أنس، وقال: إسناده ضعيف (الفتح السماوي ص ٤٥٩).

(٢) وهو حديث حسن.

أخرجه الثعلبي من طريق معاوية بن هشام. حدثنا الثوري عن ابن أبي نجيح عن الحسن العرنى عن ابن عباس.

هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهي للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموال اليتامى. ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها فإنه أنفى للتهمة وابتعد من الخصومة، ووجوب الضمان وظاهره يدل على أن القيم لا يصدق في دعواه إلا بالبينه وهو المختار عندنا وهو مذهب مالك خلافاً لأبي حنيفة. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً فلا تخالفوا ما أمرت به ولا تتجاوزوا ما حد لكم.

(٧) ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ يريد بهم المتوارثين بالقربة. ﴿وَمِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك بإعادة العامل. ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾^(١) أو حال إذ المعنى: ثبت لهم مفروضاً نصيب، أو على الاختصاص بمعنى أعني نصيباً مقطوعاً واجباً لهم، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه. روي أن أوس بن الصامت الأنصاري خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة، أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون: إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيج فشكت إليه فقال: ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله. فنزلت فبعث إليهما: لا تُفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين. فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾^(٢) فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم^(٣). وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب^(٤).

= رواه عبد الرزاق - كما في الدر المنثور (٤٣٧/٢) - وابن المبارك في البر والصلة - رقم ٢٠٩ - والطبري - (٣/٤ج/٢٦٠) - عن سفيان بن عيينة، عن ابن دينار، عن الحسن العربي فذكره مرسلاً. ووقع عند الطبري «الحسن البصري» والصواب «الحسن العربي» وقد كان يرسل عن ابن عباس. وروى أحمد - (٢٨٦/٢، ٢١٥) - وأبو داود - (٢٩٢/٣) - والسنائي - (٢٥٦/٦) - (٣٦٦٨) - وابن ماجه - (٩٠٧/٢) - وغيرهم من رواية عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: «جاء رجل النبي ﷺ الحديث. وروى ابن حبان - (ص ٥٠١ رقم ٢٠٤٨ - موارد) - من رواية صالح بن رستم، عن عمرو بن دينار عن جابر، قال: قال رجل لرسول الله ﷺ الحديث. وأخرج ابن عدي في الكامل (١٣٩٠/٤) في ترجمة صالح بن رستم وهو أبو عامر الخزائن وضعفه عن ابن معين. وقال: لم أجد له حديثاً منكراً. ورواه أبو نعيم في الحلية - (٣٥١/٣) - في ترجمة عمرو بن دينار. وقال: تفرد به الخزائن وهو ثقات البصريين. «الكافي الشاف» (رقم: ٣٢٣).

(١) النساء: «١١».

(٢) النساء: «١١».

(٣) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الفرائض - كما في الدر المنثور (٤٣٨/٢) -، وابن حجر في الإصابة (٨٠/١). والحديث ضعيف بهذا الإسناد لأن الحافظ صرح بأنه من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، والكلبي متروك. وانظر كلام ابن حجر في الإصابة (٨٠/١) و(٤٨٧/٤) «والكافي الشاف» رقم: ٣٢٦ فإنه مفيد في ذكر الاختلاف في ذلك الصحابي ووفاته وورثته، والاختلاف في سبب نزول هذه الآية.

(٤) قوله «وللنساء نصيب» أورد حكم النساء على الاستقلال ولم يقل للرجال وللنساء لبيان أصالتهن باستحقاق =

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾
وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا
سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ﴿١٠﴾

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ فأعطوهم شيئاً من المقسوم تطيباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم. وهو أمر نُدب للبلُّغ من الورثة، وقيل أمر وجوب، ثم اختلف في نسخه. والضمير لما ترك أو ما دل عليه القسمة ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمتنوا عليهم.

(٩) ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ أمرٌ للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرايرهم الضعاف بعد وفاتهم، أو للحاضرين المريض عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضرَّ بهم بصرف المال عنهم، أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه، جُعِلَ صلة للذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ذرية ضعافاً خافوا عليهم الضياع. وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه وبُعْثٌ على الترحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاده وتهديد للمخالف بحال أولاده. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعدما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى إذ لا ينفع الأول دون الثاني، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب، أو للمريض ما يَصُدُّه عن الإسراف في الوصية وتضييع الورثة ويذكِّره التوبة وكلمة الشهادة، أو لحاضري القسمة عذراً جميلاً ووعداً حسناً، أو أن يقولوا في الوصية ما لا يؤدي إلى مجاوزة الثلث وتضييع الورثة.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ ظالمين، أو على وجه الظلم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. ﴿نَارًا﴾ ما يجرّ إلى النار ويؤول إليها. وعن أبي بردة^(١) رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يبعث الله قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً». فقيل: من هم؟ فقال: «ألم تر أن الله يقول: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً»^(٢)

= الميراث والإشارة لتفاوت نصيب كل من الفريقين لإبطال حكم الجاهلية (س ١٤٦/٢).

(١) أبو بردة هو: أبو بردة بن نيار، بكسر النون بعدها تحتانية خفيفة، البلوي، حليف الأنصار، صحابي، اسمه هانيء، وقيل الحارث بن عمرو وقيل مالك بن هبيرة، مات سنة إحدى وأربعين، وقيل بعدها.

[التقريب (٢/ ٣٩٤ رقم ٨)].

(٢) أخرجه ابن حبان (ص ٦٣٩ رقم ٢٥٨٠ - موارد) وابن أبي شيبة في المسند، وأبو يعلى، والطبراني، =

﴿وَسَيُصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سيدخلون ناراً وأيّ ناراً! . وقرأ ابن عامر وابن عياش عن عاصم بضم الياء مخففاً، وقرأ به مشدداً^(١)، يقال صَلَّى النار قاسى حرها وصليته شويته وأصليته وصلّيته ألقيته فيها، والسعير فعيل بمعنى مفعول من سَعَرَت النار إذا ألهمت بها.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(١١) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يأمركم ويعهد إليكم. ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم، وهو إجمال، تفصيله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أي يعد كل ذكر بأثنين حيث اجتمع الصنفان فيضعف نصيبه. وتخصيص الذكر بالتخصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله، والتنبيه على أن التضعيف كافٍ للتفضيل فلا يُخْرَمَنَّ بالكلية وقد اشتركا في الجهة، والمعنى للذكر منهم فحذف للعلم به. ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ أي إن كان الأولاد نساءً خلصاً ليس معهن ذكر، فأثت الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات. ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ خبر ثان، أو صفة للنساء أي نساء زائدات على اثنتين. ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى منكم، ويدل عليه المعنى. ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي وإن كانت المولودة واحدة. وقرأ نافع بالرفع على كان التامة. واختلف في الثنتين فقال ابن عباس رضي الله عنهما حكمهما حكم الواحدة، لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما، وقال الباقر حكمهما حكم ما فوقهما، لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان. ثم لما أوهم ذلك أن يزداد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحققت الثلث مع أخيها فبالحرى أن تستحقه مع أخت مثلها. وأن البنتين أمسّ رحماً من الأختين وقد فرض لهما الثلثين بقوله تعالى ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾^(٢). ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ ولأبوي الميت. ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ بدل منه بتكرير العامل، وفائدته التخصيص على استحقاق كل واحد منهما السدس والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً. ﴿السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي للميت. ﴿وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى، غير أن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة وما بقي من ذوي الفروض أيضاً بالعصوبة. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ فحسب. ﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ مما ترك. وإنما لم يذكر حصة الأب لأنه لما فرض أن

= وابن أبي حاتم - كما في الدر المنثور (٢/٤٤٣) - وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٢) وعزاه لأبي يعلى والطبراني وقال: فيه زياد بن المنذر وهو كذاب.

انظر ترجمته في (المجروحين) (١/٣٠٦) والجرح والتعديل (٣/٥٤٥).

والتاريخ الكبير للبخاري (٣/٣٧١) والتقريب (١/٢٧٠).

(١) أي (سَيُصْلَوْنَ) وقراءة تشديد اللام أي (سَيُصْلَوْنَ).

(٢) النساء: (١١).

الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم عُلِمَ أن الباقي للأب، وكأنه قال: فلهما ما ترك أثلاثاً، وعلى هذا ينبغي أن يكون لها حيث كان معهما أحد الزوجين ثلث ما بقي من فرضه كما قاله الجمهور، لا ثلث المال كما قاله ابن عباس، فإنه يفضي إلى تفضيل الأنثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقرب وهو خلاف وضع الشرع. ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ بإطلاقه يدل على أن الإخوة يرثونها من الثلث إلى السدس وإن كانوا لا يرثون مع الأب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأم، والجمهور على أن المراد بالإخوة عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كان من الإخوة أو الأخوات، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا يحجب الأم من الثلث ما دون الثلاثة ولا الأخوات الخلص أخذاً بالظاهر. وقرأ حمزة والكسائي فلأُمِّه بكسر الهمزة اتباعاً للكسرة التي قبلها. ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها أي هذه الأنصبة للورثة من بعد ما كان من وصية أو دين. وإنما قال بأز التي للإباحة دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومنفردين، وقدم الوصية على الدين وهي متأخرة في الحكم لأنها مشبهة بالميراث شاقّة على الورثة مندوب إليها الجميع والدين إنما يكون على الندور. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بفتح الصاد^(١). ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وأجلكم، فتحروا فيهم ما أوصاكم الله به، ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه. روي أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخر في الجنة سأل أن يُرفع إليه فيرفع بشفاعته. أو من مورثيكم منهم، أو من أوصى منهم فعرضكم للشواب بإمضاء وصيته، أو من لم يوص فوفر عليكم ماله، فهو اعتراض مؤكد لأمر القسمة أو تنفيذ الوصية. ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، أو مصدر يوصيكم الله لأنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والرتب. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قضى وقدر.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

(١٢) ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي ولد وارث من بطنها، أو من صلب بنيتها أو بني بنيتها، وإن سفل ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم. ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ

كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّيْكُم تَوْصِيَّتُكُم بِهَا أَوْ دَيْنٌ ﴿فَرَضَ لِلرَّجُلِ بِحَقِّ الزَّوْاجِ ضِعْفٌ مَالٌ لِلْمَرْأَةِ كَمَا فِي النَّسَبِ، وَهَكَذَا قِيَاسُ كُلِّ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ اشْتَرَكَا فِي الْجِهَةِ وَالْقَرَبِ، وَلَا يَسْتَنِي مِنْهُ إِلَّا أَوْلَادُ الْأُمِّ وَالْمَعْتِقُ وَالْمَعْتِقَةُ، وَتَسْتَوِي الْوَاحِدَةُ وَالْعَدَدُ مِنْهُمْ فِي الرَّبْعِ وَالْثَمَنِ. ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ﴾ أَيِ الْمَيِّتِ. ﴿يُورَثُ﴾ أَيِ يُوْرَثُ مِنْهُ مِنْ وَرَثَ صَفَةٍ رَجُلٍ. ﴿كَكَلَالَةٍ﴾ خَبَرٌ كَانَ، أَوْ يُوْرَثُ خَبَرُهُ وَكَلَالَةٌ حَالٌّ مِنَ الضَّمِيرِ فِيهِ، وَهُوَ مَنْ لَمْ يُخْلَفْ وَلَدًا وَلَا وَالِدًا، أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ وَالْمُرَادُ بِهَا قَرَابَةٌ لَيْسَتْ مِنْ جِهَةِ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ الْوَارِثُ وَيُوْرَثُ مِنْ أُوْرَثِ، وَكَلَالَةٌ مِنْ لَيْسَ لَهُ بَوَالِدٍ وَلَا وَلَدٍ. وَقَرِئَ يُوْرَثُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ فَالرَّجُلُ الْمَيِّتُ، وَكَلَالَةٌ تَحْتَمِلُ الْمَعْنَى الثَّلَاثَةَ، وَعَلَى الْأَوَّلِ خَبَرٌ أَوْ حَالٌ وَعَلَى الثَّانِي مَفْعُولٌ لَهُ وَعَلَى الثَّلَاثِ مَفْعُولٌ بِهِ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْكَلَالِ قَالَ الْأَعَشَى:

فَالْيَتُّ لَا أَزْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَفَا حَتَّى أَلْأَقِي مُحَمَّدًا

فاستعيرت لقراءة ليست بالبعضية، لأنها كالة بالإضافة إليها، ثم وصف بها المورث والوارث بمعنى ذي كلاله كقولك فلان من قرأتي. ﴿أَوْ أَمْرَأَةً﴾ عطف على رجل. ﴿وَلَهُ﴾ أَيِ وَلِلرَّجُلِ، وَاكْتَفَى بِحُكْمِهِ عَنْ حُكْمِ الْمَرْأَةِ لِدَلَالَةِ الْعُطْفِ عَلَى تَشَارُكِهِمَا فِيهِ. ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾ أَيِ مِنَ الْأُمِّ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أَبِي^(١) وَسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ مِنَ الْأُمِّ، وَأَنَّهُ ذَكَرَ فِي آخِرِ السُّورَةِ أَنَّ لِلْأَخْتَيْنِ الثَّلَاثِينَ وَلِلْأَخَوَةِ الْكُلَّ، وَهُوَ لَا يَلِيْقُ بِأَوْلَادِ الْأُمِّ وَأَنْ مَا قَدَّرَ هُنَا فَرَضُ الْأُمِّ فَيُنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ لِأَوْلَادِهَا. ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ سَوَى بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى فِي الْقِسْمَةِ لِأَنَّ الْإِدْلَاءَ بِمَحْضِ الْأَنْثَوَةِ، وَمَفْهُومُ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ ذَلِكَ مَعَ الْأُمِّ وَالْجَدَّةِ كَمَا لَا يَرِثُونَ مَعَ الْبَنَتِ وَبِنْتِ الْإِبْنِ فَخَصَّ فِيهِ بِالْإِجْمَاعِ. ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّيْكُم تَوْصِيَّتُكُم بِهَا أَوْ دَيْنٌ غَيْرُ مُضَارٍّ﴾ أَيِ غَيْرِ مُضَارٍّ لَوَرِثَتِهِ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الثَّلَاثِ، أَوْ قَصْدِ الْمَضَارَةِ بِالْوَصِيَّةِ دُونَ الْقَرَبَةِ وَالْإِقْرَارِ بِدَيْنٍ لَا يَلْزُمُهُ، وَهُوَ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ يَوْصِي الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَالْمَدْلُولُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ يَوْصِي عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ كَثِيرٍ وَابْنِ عَامِرٍ وَابْنِ عِيَّاشٍ عَنْ عَاصِمٍ. ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ أَوْ مَنْصُوبٌ بِغَيْرِ مُضَارٍّ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ قَرِئَ غَيْرُ مُضَارٍّ وَصِيَّةٌ بِالْإِضَافَةِ أَيِ لَا يُضَارُّ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ الثَّلَاثُ فَمَا دُونَهُ بِالزِّيَادَةِ، أَوْ وَصِيَّةٌ مِنْهُ بِالْأَوْلَادِ بِالْإِسْرَافِ فِي الْوَصِيَّةِ وَالْإِقْرَارِ الْكَاذِبِ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِالْمَضَارِّ وَغَيْرِهِ. ﴿حَلِيمٌ﴾ لَا يَعَاجِلُ بِعَقُوبَتِهِ.

(١) أَبِي: هُوَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، أَبُو الْمَنْذَرِ، أَوْ أَبُو الطَّفِيلِ، شَهِدَ الْعَقَبَةَ وَبَدْرًا، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ، وَاخْتَلَفَ فِي وَفَاتِهِ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ، وَالْأَكْثَرُ أَنَّهُ مَاتَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ سَيِّدَ الْقُرَاءِ، وَأَحَدَ كِتَابِ الْوَحْيِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَعْلَمَ الصَّحَابَةَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. [أَسَدُ الْغَابَةِ (١/٤٩ - ٥١)].

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والموارث. ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١٤) ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ توحيد الضمير في يدخله وجمع خالدين للفظ والمعنى^(١). وقرأ نافع وابن عامر نُدْخِلْهُ بالنون. وخالدين حال مقدرة كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، وكذلك خالداً وليستا صفتين لجنات وناراً وإلا لوجب إبراز الضمير لأنهما جَرَيَا على غير هُما له.

(١٥) ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ﴾ أي يفعلنها، يقال: أتى الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها إذا فعلها، والفاحشة الزنى لزيادة قبحها وشناعتها. ﴿فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ فاطلبوا ممن قَدْفَهُنَّ أَرْبَعَةً من رجال المؤمنين تشهد عليهن. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجنًا عليهن. ﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ يستوفي أرواحهن الموت، أو يتوفاهن ملائكة الموت. قيل: كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنسخ بالحد، ويحتمل أن يكون المراد به التوصية بإمساكنهن بعد أن يُجلدن كيلاً يجري عليهن ما جرى بسبب الخروج والتعرض للرجال، لم يُذَكَّر الحد استغناء بقوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾^(٢) ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ كتعيين الحد المخلص عن الحبس، أو النكاح المغني عن السفاح.

(١٦) ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ يعني الزانية والزاني. وقرأ ابن كثير واللدان بتشديد النون وتمكين مد الألف، والباقون بالتخفيف من غير تمكين. ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتقريع، وقيل بالتعير والجلد. ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ علة الأمر بالإعراض وترك المذمة. قيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولاً وكان عقوبة الزنا الأذى ثم الحبس ثم الجلد. وقيل الأولى في السخافات، وهذه في اللواطين، والزانية والزاني في الزناة.

(١) وذلك أن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس فقال: «خالدين» أما الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة، فقال «خالدًا» (س/٢/١٥٤).

(٢) النور: «٢».

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده من تاب عليه إذا قبل توبته. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ متلبسين بها سفهاً فإن ارتكاب الذنب سفهً وتجاهل، ولذلك قيل من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، أي قبل حضور الموت لقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾^(١) وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر»^(٢) وسماه قريباً لأن أمد الحياة قريب لقوله تعالى ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾^(٣). أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبه فيطبع عليها فيتعذر عليهم الرجوع، ومن للتبعض أي يتوبون في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به وكتب على نفسه بقوله ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ والحكيم لا يعاقب التائب.

(١٨) ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ سوى بين من سوف يتوب إلى حضور الموت من الفسقة والكفار وبين من مات على الكفر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة، وكأنه قال وتوبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء. وقيل المراد بالذين يعملون السوء عصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات

(١) النساء: «١٨».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج ٤/٣٠١ - ٣٠٢) من حديث أبي أيوب واسمه «بشير بن كعب» وهو تابعي: فالحديث مرسل.

● وأخرج الترمذي (٥/٥٤٧ رقم ٣٥٣٧) وابن ماجه (٢/١٤٢٠ رقم ٤٢٥٣) والحاكم (٤/٢٥٧) وأحمد (٢/١٣٢، ١٥٣) كلهم من طريق عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن ابن عمر، وإلا عند ابن ماجه عن (عبد الله بن عمرو بن العاص) وقال المزي: هذا وهم - تحفة الأشراف (٥/٣٢٨) -.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (٢/٣٤٨ رقم ١٥٢٣): «هذا إسناد ضعيف لتدليس الوليد ومكحول الدمشقي...» هـ.

وللحديث شاهدين:

(الأول): أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج ٤/٣٠١) عن الحسن مرسلًا.

(والثاني): أخرجه أحمد (٥/١٧٤) والحاكم (٤/٢٥٧) من حديث أبي ذر مرفوعًا.

قلت: فهذين الشاهدين يرتقي حديث ابن عمر إلى درجة الحسن والله أعلم.

(٣) النساء: «٧٧».

المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون الكفار. ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيان أن العذاب أعده لهم لا يعجزه عذابهم متى شاء، والاعتداد التهيئة من العتاد وهو العدة، وقيل أصله أعددنا فأبدلت الدال الأولى تاء^(١).

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمُوهُنَّ فَنِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ كان الرجل إذا مات وله عصبه ألقى ثوبه على امرأته وقال: أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصدّاقها الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها لتفتدي بما ورثت من زوجها، فنهوا عن ذلك. وقيل: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث فتتزوجوهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه. وقرأ حمزة والكسائي كَرْهًا بالضم في مواضعه وهما لغتان، وقيل بالضم المشقة وبالفتح ما يُكره عليه. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ عطف على أن ترثوا، ولا لتأكيد النفي أي ولا تمنعهن من التزويج، وأصل العضل التضييق يقال عضلت الدجاجة بيضها. وقيل الخطاب مع الأزواج كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهن أو يختلن بمهورهن. وقيل تم الكلام بقوله كَرْهًا ثم خاطب الأزواج ونهاهم عن العضل^(٢). ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف، والاستثناء من أعمّ عام الظرف أو المفعول له تقديره ولا تعضلوهن للافتداء إلا وقت أن يأتين بفاحشة، أو ولا تعضلوهن لعله إلا أن يأتين بفاحشة. وقرأ ابن كثير وأبو بكر مُبَيَّنَةً هنا وفي الأحزاب والطلاق بفتح الباء والباقون بكسرها فيهن. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإنصاف في الفعل والإجمال في القول. ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي فلا تفارقوهن لكرهه النفس فإنها قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً، وقد تحب ما هو بخلافه. وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير، وعسى في الأصل علة الجزاء فأقيم مقامه. والمعنى فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

(٢٠) ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ﴾ تطليق امرأة وتزويج أخرى. ﴿وَأَتَيْتُمُوهُنَّ إِحْدَاهُنَّ﴾ أي إحدى الزوجات، جَمَعَ الضمير لأنه أراد بالزوج الجنس. ﴿فَنِطَارًا﴾ مالا كثيراً. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾

(١) الإشارة بأولئك لبيان بعد منزلتهم في سوء. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بكون العذاب معداً لهم. وتنكير العذاب ووصفه للتفخيم الذاتي والوصفي (س/٢/١٥٧).

(٢) وعبر عنه بالإذهاب لا بالأخذ للمبالغة في تقييده ببيان تضمنه لأمرين كل منهما محظور وهما الأخذ والإذهاب منهن لأنه عبارة عن الذهاب مستصحبا به (س/٢/١٥٨).

شَكِيًّا ﴿٢١﴾ أَي من قنطار. ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ استفهام إنكارٍ وتوبيخ، أَي أتأخذونه باهتين وآثمين، ويحتمل النصب على العلة كما في قولك: قعدت عن الحرب جنباً، لأن الأخذ بسبب بهتانهم واقترافهم المآثم. قيل لكان الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بهت التي تحته بفاحشة حتى يُلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليُضرفه إلى تزوج الجديدة، فنهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذي يَبْهتُ المكذوب عليه، وقد يستعمل في الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

(٢١) ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ إنكار لاسترداد المهر، والحال أنه وصل إليها بالملامسة ودخل بها وتقرر المهر. ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو حق الصحبة والممازحة، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقوله ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ﴾^(١) أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(٢).

(٢٢) ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ ولا تنكحوا التي نكحها آبائكم، وإنما ذكر «ما» دون «من» لأنه أريد به الصفة، وقيل ما مصدرية على إرادة المفعول من المصدر. ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بيان ما نكح على الوجهين. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من المعنى اللازم للنهي وكأنه قيل: وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح آبائكم إلا ما قد سلف، أو من اللفظ للمبالغة في التحريم والتعميم كقوله:

(١) البقرة: «٢٢٩».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٨٩/٢) رقم ١٢١٨/١٤٧ في سياق حديث حجة النبي ﷺ، الطويل. من حديث جابر.

وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٤/٣١١) مقتصرأ على ما يتعلق بالنساء من حديث جابر أيضاً.

● وأخرجه البزار (٢/٣٤ - كشف الأستار) أثناء حديث خطبة منى.

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/٤/٣١١) في سياق طويل.

من رواية موسى بن عبيدة الربذي - أحد الضعفاء - عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر، رفعه: «أيها الناس إن النساء عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/٢٦٨) وقال: رواه البزار وفيه عبيد الله بن موسى وهو ضعيف.

- العوان: جمع عانية وهي الأسيرة. [النهاية مادة: عنا]

- كلمة الله: قيل: معناه قوله تعالى «بإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»، وقيل: المراد بكلمة التوحيد إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم.

وقيل قوله: قوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» وهذا الثالث هو الصحيح. [صحيح مسلم بشرح النووي (٨/١٨٣)].

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

والمعنى ولا تنكحوا حلالاً أبائكم إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوهن، وقيل الاستثناء منقطع ومعناه لكن ما قد سلف فإن لا مؤاخذه عليه لأنه مقرر. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾ علة للنهي أي إن نكاحهن كان فاحشة عند الله ما رخص فيه لأمة من الأمم، ممقوتاً عند ذوي المروءات ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المقتي ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ سبيلٌ من يراه ويفعله.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِمَّنْ أَرْضَعَهُ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نَسَّيَكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾

﴿٢٣﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ليس المزاد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن، لأنه معظم ما يقصد منهن، ولأنه المتبادر إلى الفهم كتحریم الأكل من قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلِيَّةٌ﴾ ولأن ما قبله وما بعده في النكاح. وأمهاتكم تعم من ولدتك أو ولدتك من ولدتك أو ولدتك من ولدتك وإن سفلت، وأخواتكم الأخوات من الأوجه الثلاثة، وكذلك الباقيات، والعمة كل أنثى ولدتها من ولد ذكر أو ولدك، والخالة كل أنثى ولدتها من ولد أنثى ولدتك قريباً أو بعيداً، وبَنَاتُ الْأَخِ وبَنَاتُ الْأُخْتِ تتناول القُربى والبُعدي. ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِمَّنْ أَرْضَعَهُ﴾ نَزَلَ اللَّهُ الرِّضَاعَةَ مِثْلَ النَّسَبِ حتى سُمِّيَ الْمُرْضِعَةُ أُمًّا وَالْمُرْضِعَةُ أَخْتًا، وَأَمْرُهَا عَلَى قِيَاسِ النَّسَبِ بِاعْتِبَارِ الْمُرْضِعَةِ وَالْوَالِدِ الطِّفْلِ الَّذِي دَرَّ عَلَيْهِ اللَّبَنُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُخْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرَمُ مِنَ النَّسَبِ»^(١). واستثناء أخت ابن الرجل وأُمُّ أَخِيهِ مِنَ الرِّضَاعِ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ لَيْسَ بِصَحِيحٍ فَإِنْ حُرِّمَتْهُمَا مِنَ النَّسَبِ بِالصَّاهِرَةِ دُونَ النَّسَبِ. ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نَسَّيَكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ ذَكَرَ أَوَّلًا مُحَرَّمَاتِ النَّسَبِ، ثُمَّ مُحَرَّمَاتِ الرِّضَاعَةِ لِأَنَّ لَهَا لُحْمَةً كُلُّهَا النَّسَبِ، ثُمَّ مُحَرَّمَاتِ الْمَصَاهِرَةِ فَإِنَّ تَحْرِيمَهُنَّ عَارِضٌ لِمَصْلَحَةِ الزَّوْجِ. وَالرَّبَائِبُ جَمْعُ رَبِيبَةٍ، وَالرَّبِيبُ وَلَدُ الْمَرْأَةِ مِنْ آخَرٍ سَمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ يُرَبُّهُ كَمَا يُرَبُّ وَلَدَهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ، فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَإِنَّمَا لَحِقَهُ التَّاءُ لِأَنَّهُ صَارَ اسْمًا، وَمِنْ نَسَائِكُمْ مَتَعَلِّقٌ بِرَبَائِبِكُمْ، وَاللَّاتِي بِصِلَتِهَا صِفَةٌ لَهَا مَقِيدَةٌ لِلْفِظِ وَالْحُكْمُ بِالْإِجْمَاعِ قَضِيَّةٌ لِلنَّظْمِ،

(١) أخرجه البخاري (٢٥٣/٥) رقم ٢٦٤٦ و (٢١١/٦) رقم ٣١٠٥ و (١٣٩/٩) رقم ٥٠٩٩ ومسلم (١٠٦٨/٢) - ١٠٧٠ رقم ١، ٢، ٩ (١٤٤٤) من حديث عائشة.

وأخرجه البخاري (٢٥٣/٥) رقم ٢٦٤٥ ومسلم (١٠٧١/٢ - ١٠٧٢ رقم ١٢، ١٣ (١٤٤٧) من حديث ابن عباس.

ولا يجوز تعليقها بالأمهات أيضاً لأن من إذا علقته بالربائب كانت ابتدائية وإذا علقته بالأمهات لم يُجَزَ ذلك بل وجب أن يكون بياناً لنسائكم، والكلمة الواحدة لا تُحمَل على معنيين عند جمهور الأدباء اللهم إذا جعلتها للاتصال بقوله:

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُوراً فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي

على معنى أن أمهات النساء وبناتهن متصلات بهن، لكن الرسول ﷺ فرق بينهما فقال في رجل تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها «إنه لا بأس أن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها»^(١)، وإليه ذهب عامة العلماء، غير أنه روي عن علي رضي الله تعالى عنه تقييد التحريم فيهما. ولا يجوز أن يكون الموصول الثاني صفة للنساء لأن عاملهما مختلف - وفائدة قوله في حجوركم تقوية العلة وتكميلها - والمعنى أن الربائب إذا دخلتم بأمهاتهن وهن في احتضانكم أو بصدده تقوى الشبهة بينها وبين أولادكم وصارت أحقاء بأن تُجروها مجراهم لا تقييد الحرمة، وإليه ذهب جمهور العلماء، وقد روي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه جعله شرطاً، والأمهات والربائب يتناولان القرية والبعيدة. وقوله دخلتم بهن أي دخلتم معهن السر وهي كناية عن الجماع، ويؤثر في حرمة المصاهرة ما ليس بزنا كالوطء بشبهة أو ملك يمين، وعند أبي حنيفة لمس المنكوحة ونحوه كالدخول. ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس. ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ زوجاتهم، سميت الزوجة حليلة لجلها أو لحلولها مع الزوج. ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ في موضع الرفع عطفاً على المحرمات، والظاهر أن الحرمة غير مقصورة على النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين، ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما: حرمتها آية وأحلتهما آية^(٢)، يعينان هذه الآية وقوله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فرجع علي كرم الله وجهه التحريم وعثمان رضي

(١) أخرجه أبو قرة موسى بن طارق الزبيدي - ثقة يغرب (التقريب: ٢/ ٢٨٤) - في السنن، قال ذكر المثنى بن الصباح - ضعيف اختلط بآخره (التقريب: ٢/ ٢٢٨) - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. رفعه «أيما رجل نكح امرأة فدخل بها فلا يحل له نكاح ابنتها وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها. وأيما رجل نكح امرأة فدخل بها أو لم يدخل فلا يحل له نكاح أمها».

وأخرجه أبو يعلى والبيهقي - في السنن الكبرى (٧/ ١٦٠) - من طريق ابن المبارك عن المثنى به. والمثنى ضعيف.

لكن رواه الترمذي - في السنن (٣/ ٤٢٥ رقم ١١١٧) - والبيهقي - (٧/ ١٦٠) - أيضاً من طريق ابن لهيعة عن عمرو به. وقال: لا يصح، وإنما يرويه المثنى وابن لهيعة وهما ضعيفان.

ويشبه أن يكون ابن لهيعة أخذه عن المثنى لأن أبا حاتم قال - في المراسيل ص ١١٤ - لم يسمع ابن لهيعة بن عمرو بن شعيب شيئاً.

فلهذا لم يرتق هذا الحديث إلى درجة الحسن.

[انظر «الكافي الشاف» (رقم: ٣٣٧)].

(٢) حديث عثمان أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٥٣٨ ج ٣٤) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٦٩) والدارقطني في السنن (٣/ ٢٨١). أما حديث علي فرواه البزار (كشف الأستار ٢/ ١٦٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٦٩) =

الله عنه التحليل، وقول عليٍّ أظهرُ لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله عليه الصلاة والسلام «ما اجتمع الحلال والحرام إلا علب الحرام»^(١). ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من لازم المعنى، أو منقطعٌ معناه لكن ما قد سلف مفعول لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٤)

(٢٤) ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ذوات الأزواج، أحصهن التزويج أو الأزواج. وقرأ الكسائي بكسر الصاد في جميع القرآن لأنهن أحصن فزوجهن. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للنساين، والنكاح مرتفع بالسبي لقول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أصبنا سبايا يوم أوطس^(٢) ولهن أزواج كفار، فكرهنا أن نفع عليهن فسالنا النبي ﷺ، فترلت لا فاستحللناهن^(٣). وإياه عن الفرزدق بقوله:

وَدَاتِ حَلِيٍّ لِي أَنْكَحْتَهَا رِمَاخَنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تُطْلَقِ
وقال أبو حنيفة: لو سبي الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تحل للسابي. وإطلاق الآية والحديث حجة على... ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ مصدر مؤكد، أي كَتَبَ الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً. وقرئ كُتِبَ الله بالجمع، الرفع أي هذه رائص الله عليكم، وكتَبَ الله بلفظ الفعل. ﴿وَإِجْلَ لَكُمْ﴾ عطف على الفعل المضمر لذي نَصَبَ كتاب الله^(٤). وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم على البناء للمفعول عطفاً على حرمت. ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكَُمْ﴾ ما سوى المحرمات الثمان المذكورة. وخُصَّ عنه بالسنة ما في معنى المذكورات، كسائر محرمات الرضاع والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها. ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ مفعول له والمعنى أجل لكم ما وراء ذلكم إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالصرف في مهورهن، أو أثمانهن في حال كونكم محصنين غير مسافحين، ويجوز أن لا يُقدَّر مفعول تبتغوا وكأنه قيل إرادة أن تصرفوا أموالكم محصنين غير مسافحين، أو بدل مما وراء ذلك بدل الاشتمال. واحتج به الحنفية على أن المهر لا بد وأن يكون مالا، ولا حجة فيه. والإحصان العفة فإنها تحصين

= وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (المجمع ٢٦٩/٤).

(١) قال الولي العراقي: لا أصل لهذا الحديث (الفتح السماوي ص ٤٧٤) وكذا قال البيهقي في السنن الكبرى

(١٦٩/٧) وقد رواه عبدالرزاق في المصنف (١٩٩/٧ ج ١٢٧٧٢) موقوفاً.

(٢) أوطاس هو واد في ديار هوازن جنوبي مكة بنحو ثلاث مراحل، وكان يوم أوطاس في شوال بعد فتح مكة بنحو شهر (المصباح المنير مادة وطس).

(٣) أسباب النزول للواحد ص ١٠٩ ولباب النقول ص ٢٢١.

(٤) وهذا على معنى من قرأ «وأحل» بالبناء للفعل وقد قرئ بها (المبسوط ص ١٥٦).

لنفس عن اللوم والعقاب، والسفاح الزنا من السَّفْح وهو صبُّ المني فإنه الغرض منه. ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فَمَنْ تمتعتم به من المنكوحات، أو فما استمتعتم به منهن من جماع أو عُقْد عليهن. ﴿فَقَاتِلُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن فإن المهر في مقابلة الاستمتاع. ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة، أو صفة مصدر محذوف أي إيتاء مفروضاً، أو مصدر مؤنث. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاوَعْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ فيما يزداد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي، أو فيما تراوينا به من نفقة أو مقام أو فراق. وقيل: نزلت الآية في الْمُتَعَةِ التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة»^(١)، وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم سمي بها، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة أو تمتيعها بما تعطي. وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه^(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٢٥/٢) رقم (١٤٠٦/٢١) من رواية الربيع بن سبرة الجُهَنِيِّ عن أبيه.

وزاد «فمن كان عنده منهن شيء فليُخْلُ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتوهن شيئاً».

● وأما قوله: ثم أصبح: لم يُرد به أنه قال ذلك صبيحة الليلة التي أباحه قبلها بيوم، بل أراد أنه قال ذلك صباحاً («الكافي الشاف» رقم: ٣٤١).

(٢) أما رجوعه عن المتعة، فحديثه ضعيف.

أخرجه الترمذي (٤٣٠/٣) رقم (١١٢٢) والطبراني في الكبير (٣٨٩/١٠) رقم (١٠٧٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٥ - ٢٠٦) كلهم من طريق موسى بن عبيدة الرندي وهو ضعيف.

● وأما قوله: «اللهم إني أتوب إليك من قلبي بالمتعة» فلم أجده. قاله ابن حجر في «الكافي الشاف» (رقم: ٣٤٤).

● وإليك بعض أدلة تحريم نكاح المتعة:

١ - روى سبرة الجُهَنِيُّ قال: «أذن لنا رسول الله ﷺ في المتعة، فلم يخرج من مكة حتى حرّمها رسول الله ﷺ» وهو حديث صحيح.

أخرجه مسلم (١٠٢٦/٢) رقم (١٠٢٧)، ٢٤، ٢٥، ٢٦، (١٤٠٦/٢٨) وأحمد في المسند (٤٠٤/٣) والدارمي (١٤٠/٢) وأبو داود (٥٥٨/٢) رقم (٥٥٩)، ٢٠٧٢، (٣٠٧٣) والنسائي (١٢٦/٦)، (١٢٧) وابن ماجه (٦٣١/١) رقم (١٩٦٢) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٦٩٨ ورقم ٦٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٣٦٣/٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٢/٧)، (٢٠٣) والخطيب في تاريخ بغداد (١٠٥/٦)، (١٠٦) من طرق عنه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ نهى عن المتعة يوم خيبر» أخرجه البخاري (٤٨١/٧) رقم (٤٢١٦) ومسلم (١٠٢٧/٢) رقم (١٠٢٨)، ٢٩، (١٤٠٧/٣٢) والترمذي (٤٢٩/٣) رقم (١١٢١) والنسائي (١٢٥/٦)، (١٢٦) وابن ماجه (٦٣٠/١) رقم (١٩٦١) ومالك في الموطأ (٥٤٢/٢) رقم (٤١) والطيالسي في المسند (ص ١٨ رقم ١١١) وأحمد في المسند (٧٩/١) والدارمي (١٤٠/٢) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٦٩٧) والدارقطني في السنن (٢٥٧/٣) رقم (٥١) وأبو نعيم في الحلية (١٧٧/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠١/٧) والخطيب في تاريخ بغداد (٨٠٢/٦) من طرق عنه..

قال ابن الجوزي في «أخبار أهل الرسوخ» بتحقيقنا (رقم ١٥): الأحاديث متفقة على نسخ المتعة، إلا أن الأوائل تدل على وقوع التحريم بمكة. وحديث علي يدل على أن ذلك كان بخيبر وهو متقدم...

«وقال المازري: واختلفت الرواية في صحيح مسلم في النهي عن المتعة فيه أنه ﷺ نهى عنها يوم خيبر، وفيه أنه نهى عنها يوم فتح مكة فإن تعلق بهذا من أجاز نكاح المتعة وزعم أن الأحاديث تعارضت، وأن هذا الاختلاف =

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ
بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ
تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرع من الأحكام.

(٢٥) ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ غنى واعتلاء، وأصله الفضل والزيادة. ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ﴾ في موضع النصب بطولاً، أو بفعل مقدّر صفة له أي ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح
المحصنات أو من لم يستطع منكم غنى يبلغ به نكاح المحصنات يعني الحرائر لقوله: ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني الإماء المؤمنات. فظاهر الآية حجة للشافعي رضي الله تعالى عنه
في تحريم نكاح الأمة على من ملك ما يجعله صداق حرة، ومنع نكاح الأمة الكتابية مطلقاً، وأول
أبو حنيفة رحمه الله تعالى طول المحصنات بأن يملك فراشهن، على أن النكاح هو الوطاء وحمل قوله
﴿مِنْ فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾^(١) على الأفضل، كما حمل عليه في قوله ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ومن
أصحابنا من حمله أيضاً على التقييد وجوز نكاح الأمة لمن قدر على الحرية الكتابية دون المؤمنة حذراً
عن مخالطة الكفار وموالاتهم، والمحذور في نكاح الأمة رث الولد وما فيه من المهانة ونقصان حق
الزوج. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فاكثفوا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر ويتفاضل ما بينكم في
الإيمان، فرب أمة تفضل الحرية فيه، ومن حققكم أن تعتبروا فضل الإيمان لا فضل النسب، والمراد

= قادح فيها. قلنا: هذا الزعم خطأ وليس هذا تناقضاً لأنه يصح أن ينهى عنه في زمن ثم ينهى عنه في زمن آخر
توكيداً أو ليشتهر النهي ويسمعه من لم يكن سمعه أولاً فسمع بعض الرواة النهي في زمن وسمعه آخرون في زمن
آخر فنقل كلاً منهم ما سمعه وأضافه إلى زمان سماعه، ١هـ أورده النووي في شرح مسلم (١٧٩/٩).
«وأما قول الله عز وجل في سورة النساء (الآية: ٢٤) - بعقب ما حرم من النساء - فقال: «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ
ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ - أي عاقدتي النكاح الحلال غير زناة - فما استمتعتم به منهنَّ
فَأَتْوَهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً». فإن الزجاج ذكر أن هذه آية غلط فيها قوم غلطاً عظيماً لجهلهم باللغة، وذلك أنهم
ذهبوا إلى قوله «فما استمتعتم به منهنَّ» من المتعة التي قد أجمع أهل العلم أنها حرام، وإنما معنى فما استمتعتم
به منهنَّ، فما نكحتم منهن على الشريعة التي جرى في الآية أنه الإحصان أن تبتغوا بأموالكم محصنين أي عاقدتين
التزويج أي فيما استمتعتم به منهن على عقد التزويج الذي جرى ذكره فأتوهنَّ أجورهنَّ فريضة أي مهورهن، فإن
استمتع بالدخول بها أتى المهر تاماً، وإن استمتع بعقد النكاح أتى نصف المهر.
قال الأزهرى: المتاع في اللغة كل ما انتفع به فهو متاع، وقوله «ومتعوهنَّ على الموبع قدره» - [البقرة: ٢٣٦] -
ليس بمعنى رودوهنَّ المتع، إنما معناه أعطوهن ما يستمتعن، وكذلك قوله: «وللمطلقات متاع بالمعروف»
- [البقرة: ٢٤١] - قال: ومن زعم أن قوله فما استمتعتم به منهن التي هي الشرط في التمتع الذي يفعله الرافضة،
فقد أخطأ خطأ عظيماً لأن الآية واضحة بينة» ١هـ ذكره ابن منظور في لسان العرب (١٣/١٤ - ١٥).

تأنيسهم بنكاح الإماء ومنعهم عن الاستنكاف منه، ويؤيده: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أنتم وأرقاؤكم متناسبون نسبكم من آدم ودينكم الإسلام. ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ يريد أربابهن، واعتباراً إذنهم مطلقاً لا إشعار له على أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهم حتى يحتج به الحنفية. ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي أدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن، فحذف ذلك لتقدم ذكره، أو إلى مواليهن فحذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لأنه عوض حقّه فيجب أن يؤدي إليه، وقال مالك رضي الله عنه: المهر للأمة، ذهاباً إلى الظاهر ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بغير مظل وإضرار ونقصان. ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفاف. ﴿غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ﴾ غير مجاهرات بالسفاح. ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ أخلاء في السرّ ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾ بالتزويج. قرأ أبو بكر وحمزة بفتح الهمزة والصاد والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد. ﴿فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَحِشَةٍ زَنًى﴾ ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني الحرائر. ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ من الحد لقوله تعالى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وهو يدل على أن حد العبد نصف حد الحر، وأنه لا يُرجم لأن الرجم لا يتنصف. ﴿ذَلِكَ﴾ أي نكاح الإماء. ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ لمن خاف الوقوع في الزنى، وهو في الأصل انكسار العظم بعد الجبر، مستعار لكل مشقة وضرر ولا ضرر أعظم من مواجهة الإثم بأفحش القبائح. وقيل: المراد به الحد وهذا شرط آخر لنكاح الإماء. ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي وصبركم عن نكاح الإماء متعفين خير لكم. قال عليه الصلاة والسلام «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه»^(٢). ﴿وَاللَّهُ عَفُوءٌ﴾ لمن لم يصبر. ﴿رَحِيمٌ﴾ بأن رخص له.

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

(٢٦) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ ما تعبدكم به من الحلال والحرام، أو ما خفي عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم، وليبين مفعول يريد، واللام زيدت لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة كما في قول قيس بن سعد^(٣).

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَغْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ
وقيل المفعول محذوف، وليبين مفعول له أي يريد الحق لأجله. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ مناهج من تقدمكم من أهل الرشد لتسلكوا طرقهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، أو يرشدكم إلى ما يمنعكم عن المعاصي ويحثكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بها ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعها.

(١) النور: «٢».

(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير رقم (٣٨١١) للديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، ورمز لضعفه.

وقال المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٤١١/٣): قال السخاوي وغيره وفيه متروك.

وحكم الألباني على الحديث بالوضع في «ضعيف الجامع الصغير» (٣/١١٠ رقم ٢٧٧٦).

(٣) هو قيس بن سعد بن عباد، الأمير المجاهد أبو عبدالله سيد الخزرج وابن سيدهم أبي ثابت الأنصاري الخزرجي الساعدي صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه له عدة أحاديث.

وتوفي في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه [أسد الغابة (٤/٤٢٤) الجرح والتعديل (٧/٩٩)].

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرهه للتأكيد والمبالغة. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ يعني الفجرة فإن اتباع الشهوات الاثمار لها، وأما المتعاطي لما سَوَّغَهُ الشرع منها دون غيره فهو متبع له في الحقيقة لا لها. وقيل: المجوس. وقيل: اليهود فإنهم، يُحِلُّونَ الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخ. ﴿أَنْ يَمِيلُوا﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات. ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ بالإضافة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندور غير مستحل لها^(١).

(٢٨) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ فلذلك شرع لكم الشُّرْعَةُ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ السَّهْلَةُ، ورخص لكم في المضايق كإحلال نكاح الأمة. ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، هذه الثلاث ﴿وَلَا تَحْتَسِبُوا كِبَاءَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾^(٢)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَفْضُرُ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ﴾^(٣)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾^(٤)، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(٥)، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾^(٦)،^(٧).

(٢٩) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بما لم يبيحه الشرع كالغصب والربا والقمار. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ استثناء منقطع أي ولكن كون تجارة عن تراض غير منهى عنه، أو اقصدوا كون تجارة وعن تراض صفة لتجارة أي تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين، وتخصيص التجارة من الوجوه التي بها يحل تناول مال الغير لأنها أغلب وأرفق لذوي المروءات، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقاً. وقيل: المراد بالنهي المنع عن صرف المال فيما لا يرضاه الله، وبالتجارة صرفه فيما يرضاه. وقرأ الكوفيون تجارة بالنصب على كان الناقصة وإضمار الاسم أي إلا أن تكون التجارة أو الجهة تجارة. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بالبيع كما تفعله جهلة الهند أو بإلقاء النفس إلى التهلكة، ويؤيده ما روي: أن عمرو بن العاص تأوَّلَه التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي

(١) غير الأسلوب بين الجملتين «والله يريد»... «ويريد الذين» فالأولى اسمية للدلالة على استمرار الإرادة، والثانية فعلية للدلالة على حدوثها وللمباينة بين الإرادتين (س٢/١٦٩).

(٢) النساء: ٣١.

(٣) النساء: ٤٨.

(٤) النساء: ٤٠.

(٥) النساء: ١٢٣.

(٦) النساء: ١٤٧.

(٧) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/٤٥٥) عن ابن عباس وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/٤٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٦٨ رقم ٢٤٢٥) عن ابن مسعود وفيه «خمس آيات» وفي إسناده رجل لم يسم.

﴿١﴾، أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها، أو باقتراف ما يُذللها ويُزديها فإنه القتل الحقيقي للنفس. وقيل المراد بالأنفس مَنْ كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدة. جَمَعَ في التوصية بين حفظ النفس والمال الذي هو شقيقها من حيث إنه سبب قوامها استبقاء لهم ريثما تُستكمل النفوس وتستوفي فضائلها رافة بهم ورحمة^(٢)، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر ونهى عما نهى لقرط رحمته عليكم. وقيل: معناه إنه كان بكم يا أمة محمد رحيمًا لِمَا أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

(٣٠) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى القتل، أو ما سبق من المحرمات. ﴿عُدُوًّا وَظُلْمًا﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتياناً بما لا يستحقه. وقيل أراد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخله إياها. وقرئ بالتشديد من صُلِّي، ويفتح النون من صَلَاة يَصْلِيه ومنه شاة مصلية، ويُصْلِيه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث إنه سبب الصلي. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه.

(٣١) ﴿إِنَّ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، وقرئ كبير على إرادة الجنس. ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحوها عنكم. واختلف في الكبائر، والأقرب أن الكبير كل ذنب رتب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه،

(١) وهو حديث صحيح.

أخرجه أبو داود (٢٣٨/١) رقم (٣٣٤) لفظه قال: احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلتُ أن أهلك فتيمنت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعتني من الاغتسال وقلت: إني سمعتُ الله يقول «ولا تقتلوا أنفسكم» فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.

وعلقه البخاري في صحيحه (٤٥٤/١) باب (٧) فقال: يذكر عن عمرو بن العاص...

وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافى» (رقم: ٣٥١): «وهذا الحديث اختلف فيه على يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أنس عن عبدالرحمن فرواه عنه يحيى بن أيوب هكذا وخالف عمرو بن الحارث سنداً وممتناً، أما السند فزاد بين عبدالرحمن وعمرو أبا قيس مولى عمر، وأما المتن: فقال: بدل التيمم: فتوضأ وغسل مغابنه - أي بواطن الأنفخاد عند الحوالب «النهاية: ٣/٣٤١» - ووافق يحيى بن أيوب - الغافقي المصري أبو العباس: صدوق ربما وهم «التقريب: ٢/٣٤٣» - عليه ابنُ لهيعة عند إسحاق بن راهويه - وعند أحمد أيضاً في المسند (٢٠٣/٤) - وأخرجه بالسند الأول.

وأخرجه ابن حبان - في الإحسان (٤٣٨/٢) - بالسند الثاني، وأخرجه بالسندين الحاكم - (١٧٧/١) - والدارقطني - (١٧٨/١) رقم (١٢) و(١٧٩/١) رقم (١٣) هـ - .

(٢) وإشارته النهي عن قتل الأنفس على عدم التعرض لها لأنه أكثر وقوعاً (س/١٧٠).

وقيل ما عُلِمَ حرمة بقاطيع، وعن النبي ﷺ «أنها سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين»^(١). وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع^(٢). وقيل أراد به ههنا أنواع الشرك لقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) وقيل صغر الذنوب وكبرها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها، فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس وبينهما وسائط يصدق عليها الأمان، فمن عَنَ له أمران منها ودَعَتْ نفسه إليها بحيث لا يتمالك فكفها عن أكبرها كُفَّرَ عنه ما ارتكبه لما استحق من الثواب على اجتناب الأكبر، ولعل هذا مما يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال، ألا ترى أنه تعالى عاتب نبيه عليه الصلاة والسلام في كثير من خطواته التي لم تُعَدَّ على غيره خطيئة فضلاً عن أن يؤاخذها عليها. ﴿وَنَدْخَلَكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ الجنة وما وعد من الثواب، أو إدخالاً مع كرامة. وقرأ نافع هنا وفي الحج بفتح الميم وهو أيضاً يَحْتَمِلُ المكان والمصدر.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال فلعل عدمه خير، والمقتضي للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي معربة عن عدم الرضا بما قسم الله له، وأنه تشبه لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم، لأن تمنى ما لم يقدر له معارضة لحكمة القدر وتمنى ما قدر له بكسب بطالة وتضييع حظ وتمنى ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال^(٤). ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ بيان لذلك أي لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله، فاطلبوا الفضل من الله تعالى بالعمل لا بالחסد والتمنى، كما قال عليه الصلاة والسلام «ليس الإيمان بالتمنى»^(٥). وقيل المراد نصيب الميراث، وتفضيل الورثة بعضهم على بعض فيه، وجعل ما قسم لكل منهم على حسب ما عُرف من حاله الموجبة للزيادة والنقص كالمكتسب له.

(١) أخرجه البخاري (٣٩٣/٥) رقم (٢٧٦٦) و(١٨١/١٢) رقم (٦٨٥٧) ومسلم (٩٢/١) رقم (٨٩/١٤٥) وأبو داود (٢٩٤/٣) رقم (٢٨٧٤) والنسائي (٢٥٧/٦) رقم (٣٦٧١) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «اجتنبوا السبع الموبقات» إلا عندهم «السحر» بدل «عقوق الوالدين».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/٤١٥) عنه.

(٣) النساء: «٤٨».

(٤) وإيثار الإبهام فيما فضل الله به بعضهم على بعض للتفادي عن المواجهة بما يشق عليهم (س٢/١٧١).

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٢٩٠/٦) عن أبي هريرة في ترجمة محمد بن عبد الرحمن بن مجبر. وأخرج أحاديث أخرى وقال في آخرها: «وهذه الأحاديث عن مالك بأسانيدها بواطيل وله من البواطيل غير ما ذكر».

وذكره محمد الصفدي اليمني في «النوافع العطرة» (ص٢٨٧ رقم ١٥٩٧) وعزاه لابن النجار من حديث أنس وضعفه.

﴿وَسَلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لا تمنوا ما للناس واسألوا الله مثله من خزائنه التي لا تنفذ، وهو يدل على أن المنهي عنه هو الحسد، أو لا تمنوا واسألوا الله من فضله بما يقربه ويسوقه إليكم. وقرأ ابن كثير والكسائي وسلُّوا الله من فضله وسلُّهم فسَلَّ الذين وشبَّهه إذا كان أمراً مُواجهاً به وقبَل السين واو أو فاء بغير همز، وحمزة في الوقف على أصله، والباقون بالهمز. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان فيفضل عن علم وتبيان. روي أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا يغزو وإنما لنا نصف الميراث ليتنا كنا رجالاً. فنزلت^(١).

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُم نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴿٣٣﴾

(٣٣) ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل تركه جعلنا وراثاً يلونها ويحزونها ومما ترك بيان لكل مع الفصل بالعامل، أو لكل ميت جعلنا وراثاً مما ترك على أن من صلة موالي لأنه في معنى الوراث، وفي ترك ضمير كل والوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالي، وفيه خروج الأولاد فإن الأقربون لا يتناولهم كما لا يتناول الوالدين، أو لكل قوم جعلناهم موالي حفظ مما ترك الوالدان والأقربون، على أن جعلنا موالي صفة كل والراجع إليه محذوف على هذا فالجملة من مبتدأ وخبر. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾ موالي الموالاة، كان الحليف يُورَث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾^(٢) وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صحَّ ووُرث. أو الأزواج^(٣) على أن العقد عقد النكاح،

(١) أخرج الترمذي (٢٣٧/٥) رقم (٣٠٢٢) والحاكم (٣٠٥/٢ - ٣٠٦) وأحمد (٣٢٢/٦) وابن جرير (٤/٤٦/٥) - (٤٧) والطبراني في الكبير (٢٣/٢٨٠ رقم ٦٠٩) عنها أنها قالت: «يغزو الرجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث». فأنزل الله «ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض».... قال الترمذي: هذا حديث مرسل.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد أم سلمة، ووافقه الذهبي على تصحيحه. «وقد رد العلامة أحمد شاكر في تعليقه على الطبري قول الترمذي: «حديث مرسل» فقال إنه جزم بلا دليل، ومجاهد أدرك أم سلمة يقيناً وعاصرها، فإنه ولد سنة (٢١هـ) وأم سلمة ماتت بعد سنة (٦٠هـ) على اليقين، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال إلا أن يكون الراوي مدلساً، ولم يزعم أحد أن مجاهداً مدلس، إلا كلمة قالها القطب الحلبي في شرح البخاري، حكاهما عنه الحافظ في التهذيب (١٠/٤٤) ثم عقب عليها بقوله: ولم أر من نسب إلى التدليس، وقال الحافظ في الفتح أيضاً (٦/١٩٤) رداً على من زعم أن مجاهداً لم يسمع من عبدالله بن عمرو، لكن سماع مجاهد من عبدالله بن عمرو ثابت، وليس بمدلس فثبت عندنا اتصال الحديث وصحته والحمد لله» ١هـ. - كما في حاشية جامع الأصول (٢/٨٧ - ٨٨) ..

● تنبيه: لم أجده بلفظ القاضي المذكور والله أعلم.

(٢) الأنفال: «٥٧».

(٣) قوله أو الأزواج عطف على قوله موالي الموالاة.

وهو مبتدأ ضَمَّن معنى الشرط وخَبَرُهُ: ﴿فَتَأْتُوهُمْ نِصِيْبَهُمْ﴾ أو منصوبٌ بمضمر يفسره ما بعده كقولك: زيدا فاضربه، أو معطوفٌ على الوالدان، وقوله فتأتوهم جملة مسببة عن الجملة المتقدمة مؤكدة لها، والضمير للموالي^(١). وقرأ الكوفيون عَقَدَتْ بمعنى عقدت عهودهم إيمانكم فحُذِفَ العهود وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه ثم حُذِفَ كما حذف في القراءة الأخرى. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ تهديد على منع نصيبهم.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ لِحَنَّتْ قَنِينَتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ ذُنُوزَهُمْ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

(٣٤) ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية، وعُلِّل ذلك بأمرين وَهَبِي وكَسْبِي فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصُّوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة في مجامع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها والتعصيب وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق. ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ في نكاحهن كالمهر والنفقة. روي أن سعد بن الربيع^(٢) أحد نُبَاءِ الأنصار نَشَزَتْ عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ فشكى، فقال رسول الله ﷺ: لتقتص منه، فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير»^(٣). ﴿فَأَلْصَقَ لِحَنَّتْ قَنِينَتُ﴾ مطيعات لله قائمات

(١) وهذا المعنى على قراءة من قرأ «والذين عاقدت أيمانكم» وقد قرأ بها غير الكوفيين وأثبتها في الأصل «عاقدت» وانظر المبسوط ص ١٥٦.

(٢) سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي الحارثي البدري النقيب الشهيد الذي آخى النبي ﷺ بينه وبين عبدالرحمن بن عوف، فعزم على أن يعطي عبدالرحمن شطر ماله، ويطلق إحدى زوجتيه، ليتزوج بها، فامتنع عبدالرحمن من ذلك، ودعا له.

واستشهد في غزوة أحد وبه سبعون ضربة وهو الذي قال: رداً على رسول الله ﷺ حينما سأله وهو في الرمي الأخير: «جزاك الله عني خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك مني السلام، وقل لهم: إن سعداً يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف». [انظر الإصابة (١٤٤/٤) والاستيعاب (١٤٥/٤)].

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٣٥٣): «كذا ذكره الثعلبي والواحدى - ص ١٥١ - عن مقاتل به. ولأبي داود في المراسيل - رقم: ٢٧٤ - وابن أبي شيبة في المصنف (٢٩٩/٩) - والطبري في جامع البيان (٥٨/٥ ج ٤) - عن الحسن أن رجلاً لطم وجه امرأته، فأنت النبي ﷺ فشكت إليه. فقال: القصاص. فنزلت «الرجال قوامون على النساء».

ولابن مردويه عن علي بإسناد واه - انظر هذا الإسناد في تفسير ابن كثير (٥٠٣/١) - نحوه ولم يقل القصاص، =

بحقوق الأزواج. ﴿حَفِظْتُ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب أي يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، وعنه عليه الصلاة والسلام: «خير النساء امرأة إن نَظَرْتَ إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها». وتلا الآية^(١). وقيل لأسرارهم. ﴿يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بحفظ الله إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو بالذي حَفِظَهُ الله لهنّ عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن. وقرئ بما حَفِظَ الله بالنصب على أنّ ما موصولة فإنها لو كانت مصدرية لم يكن لِحَفِظَ فاعلٌ، والمعنى بالأمر الذي حفظ حقّ الله وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال. ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج من النشز. ﴿فَقِطُّوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد فلا تُدْخِلُوهُنَّ تحت اللَّحْفِ أو لا تباشروهن، فيكون كناية عن الجماع. وقيل المضاجع المبات أي لا تبايتوهن ﴿وَأَصْرِبُوهُنَّ﴾ يعني

= وزاد «أردت أمراً وأراد الله غيره» - قلت: وأخرج هذه الزيادة الطبري (٤/ج ٥٨/٥) والواحي في أسباب النزول (ص ١٥١ - ١٥٢) عن الحسن مرسلًا.

والخلاصة: أن الحديث مرسل، وإسناده إلى الحسن صحيح، ولكن مراسيل الحسن لا تقبل.

(١) أخرجه أبو داود (٢/٣٠٥ رقم ١٦٦٤) والحاكم في المستدرک (٢/٣٣٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/٨٣)،

وأبو يعلى في المسند (٤/٣٧٨ - ٣٧٩ رقم ٢٤٩٩/١٧٢٠) كلهم من طريق غيلان بن جامع عن عثمان أبي اليقظان عن جعفر بن إياس، عن مجاهد عن ابن عباس، إلا أبا داود فأخرجه من طريق غيلان عن جعفر بن إياس به، ورجال الإسناد كلهم ثقات وصحح الحاكم الحديث، وتعقبه الذهبي بقوله: عثمان لا أعرفه والخبر عجيب. بينما ضعف الألباني الحديث، كما في ضعيف الجامع (٣/٩٩). وهو الصواب.

● وأخرج النسائي (٦/٦٨ رقم ٣٢٣١) والحاكم (٢/١٦١، ١٦٢) وأحمد (٢/٢٥١، ٤٣٢، ٤٣٨) كلهم من طريق ابن عجلان عن سعيد عن أبي هريرة قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيّ النساء خير؟ قال التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال العراقي في تخریج الإحياء (٢/٣٩): «سنده صحيح» وتعقبهم الألباني في الصحيحة (٤/٤٥٣ - ٤٥٤): «وكذا قالوا، وليس كذلك، بل هو حسن فقط كما ذكرنا، فإن ابن عجلان متكلم فيه خاصة في روايته عن سعيد عن أبي هريرة، وهو في نفسه صدوق كما في «التقريب» وكذا «الميزان» قال: «وكان من الرفعاء والأئمة أولى الصلاح والتقوى، ومن أهل الفتوى، له حلقة في مسجد رسول الله ﷺ» ثم إنه لم يرو له مسلم إلا متابعة. قال الحاكم كما في «الميزان»: «أخرج له مسلم في كتابه ثلاثة عشر حديثاً كلها شواهد، وقد تكلم المتأخرون من أئمتنا في سوء حفظه».

قلت: فهو حسن الحديث إن شاء الله تعالى» هـ.

وتابع ابن عجلان أبو معشر السدي عند الطيالسي (ص ٣٠٦ رقم ٢٣٢٥).

والطبري (٤/ج ٦٠/٥) وأبو معشر اسمه: نجیح وهو ضعيف.

وللحديث شواهد (منها) ما أخرجه ابن ماجه (١/٥٩٦ رقم ١٨٥٧) من طريق علي بن يزيد الألهاني عن القاسم عن أبي أمامة، وعلي بن يزيد ضعيف جداً.

(ومنها) ما أخرجه الطبراني - كما في المجمع (٤/٢٧٣) من حديث عبدالله بن سلام - وقال الهيثمي: وفيه زريك بن أبي زريك ولم أعرفه، وبقيّة رجاله ثقات» قلت: زريك: وثقه ابن معين وابن الجنيّد كما في الجرح (٣/٦٢٤). وانظر «الكافي الشاف» رقم (٣٥٤) والصحيحة (٤/٤٥٤ - ٤٥٥).

وخلاصة القول إن حديث أبي هريرة حسن والله أعلم.

ضرباً غير مبرح ولا شائن، والأمور الثلاثة مُرتبة ينبغي أن يُدرج فيها. ﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ بالتوبيخ والإيذاء، والمعنى فآزِلُوا عَنْهُمْ التَّعَرُّضَ واجْعَلُوا مَا كَانَ مِنْهُمْ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فَإِنْ النَّاتِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ فاحذروه فإنه أقدر عليكم منكم على مَنْ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، أو إنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم، أو إنه يتعالى ويتكبر أن يظلم أحداً أو يُنقص حقه^(١).

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴿٣٥﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

(٣٥) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ خلافاً بين المرأة وزوجها. أَضْمَرَهُمَا وَإِنْ لَمْ يَجْرِ ذِكْرُهُمَا لَجَرَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِمَا، وإضافة الشقاق إلى الظرف إما لإجرائه مجرى المفعول به كقوله: يَا سَارِقُ اللَّيْلَةُ أَهْلُ الدَّارِ أو الفاعل كقولهم نهارك صائم. ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ فابعثوا أيها الحكام - متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو إصلاح ذات البين - رجلاً وسطاً يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح، وهذا على وجه الاستحباب فلو نَصَبَا من الأجانب جاز. وقيل الخطاب للأزواج والزوجات، واستدل به على جواز التحكيم، والأظهر أن النصب لإصلاح ذات البين أو لتبيين الأمر ولا يليان الجمع والتفريق إلا بإذن الزوجين، وقال مالك لهما أن يتخالعا إِنْ وَجَدَا الصَّلاحَ فِيهِ. ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير الأول للحَكَمَيْنِ والثاني للزوجين، أي إِنْ قَصِدَا الإِصْلَاحَ أَوْقَعَ اللَّهُ بِحَسَنِ سَعْيِهِمَا الْمَوَافَقَةَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ. وقيل كلاهما للحَكَمَيْنِ أي إِنْ قَصِدَا الإِصْلَاحَ يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا لِتَتَّفَقَ كَلِمَتُهُمَا وَيَحْصُلَ مَقْصُودُهُمَا. وقيل للزوجين أي إِنْ أَرَادَا الإِصْلَاحَ وَزَوَالَ الشَّقَاقِ أَوْقَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا الْأَلْفَةَ وَالْوَفَاقَ، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه^(٢). ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم كيف يَزِفُ الشَّقَاقَ وَيُوقِعُ الْوَفَاقَ.

(١) قوله تعالى: «الرجال قوامون» أوردتها بالجملة الاسمية والخبر بصيغة المبالغة للإيذان بعراقتهم في الاتصاف بما أسند إليهم.

وقوله «بعضهم على بعض» وَضَعَ الْبَعْضَ مَوْضِعَ الضَّمِيرَيْنِ لِلإِشْعَارِ بِغَايَةِ ظُهُورِ الْأَمْرِ وَعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّصْرِيحِ بِالْمُفْضَلِ وَالْمُفْضَلِ عَلَيْهِ.

وقوله «فإن أطعتمكم» تعرض لطاعتهم ولم يتعرض لعدم طاعتهم للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغي تحقيقه أو يتوقع منهن ذلك.. (س٢/١٧٤).

(٢) تعرض لإرادتهم للإصلاح ولم يتعرض لعدم إرادتهم لذلك لأنه هو الذي ينبغي أن يكون ويليق بشأنهما، وهو مرغّب للحَكَمَيْنِ فِي السَّعْيِ بِالْإِصْلَاحِ (س٢/١٧٥).

(٣٦) ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ صنماً أو غيره أو شيئاً من الإشراك جلياً أو خفياً^(١) ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بهما إحساناً. ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وبصاحب القرابة. ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ أي الذي قرب جواره، وقيل الذي له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين. وقرئ بالنصب على الاختصاص تعظيماً لحقه. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ البعيد، أو الذي لا قرابة له. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الجيران ثلاثة. فجار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب»^(٢). ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صَحْبَكَ وحصل بجنبك. وقيل المرأة. ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر أو الضعيف. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد والإماء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم. ﴿فَخُورًا﴾ يتفاخر عليهم.

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَاءً آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

(٣٧) ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من قوله من كان، أو نصب على الذم، أو رفع عليه أي هم الذين، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به. وقرأ حمزة والكسائي ههنا وفي الحديد بِالْبُخْلِ بفتح الحرفين وهي لغة. ﴿وَيَكْتُمُونَ مَاءً آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الغنى والعلم فهم أحقاء بكل ملامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وضع الظاهر فيه موضع المضممر إشعاراً بأن مَنْ هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، وما كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء. والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأَنْصَار تنصيحاً: لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر^(٣). وقيل في الذين كتموا صفة محمد ﷺ^(٤).

(١) صدر الآية بالأمر بعبادته والنهي عن الإشراك به حيث ابتدأ بما يتعلق بحقوقه تعالى، فهي أكد الحقوق. وقرنها بحقوق الوالدين تنبيهاً على عظم شأن حقوقهما (س/٢/١٧٥).

(٢) وهو حديث ضعيف.

أخرجه البزار (٢/٣٨٠ رقم ١٨٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٥/٢٠٧) من حديث جابر بن عبد الله.

قال البزار: لا نعلمه عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/١٦٤) وقال: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي وهو وضاع. قلت: عبد الله هذا تابعه الحسين بن عيسى البسطامي عند أبي نعيم. وهو صدوق.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث عطاء عن الحسن لم نكتبه إلا من حديث ابن أبي فديك. قلت: مدار الإسناد عند البزار وأبي نعيم على «عطاء الخراساني» وهو صدوق يهيم كثيراً، ويرسل ويدلس [التقريب: ٢/٣٢]. وقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف الجامع (٣/٨٨).

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير - (٤/٨٦ ج/٥) - وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس - كما في الدر المنثور (٢/٥٣٨) - وإسناده حسن.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير - (٤/٨٥ ج/٥) - وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة - كما في الدر المنثور =

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ عطف على الذين ييخلون، أو الكافرين. وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذي هو الإنفاق لا على من ينبغي من حيث إنهما طرفا إفراط وتفریط سواء في القبح واستجلاب الذم، أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ليتحرروا بالإنفاق مرضيه وثوابه وهم مشركو مكة. وقيل هم المنافقون. ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ تنبيه على أن الشيطان قرّنه فحملهم على ذلك وزينه لهم كقوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾^(١). والمراد إبليس وأعوانه الداخلة والخارجة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن يُقرن بهم الشيطان في النار.

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي وما الذي عليهم، أو أي تبعة تحقيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة، وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً فكيف إذا تضمن المنافع؟! وإنما قدّم الإيمان ههنا وأخره في الآية الأخرى^(٢) لأن القصد بذكره إلى التخصيص ههنا، والتعليل ثم^(٣) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم.

(٤٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لا يُنقص من الأجر ولا يزيد في العقاب أصغر شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة، ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء، والمنقل مفعال من الثقل، وفي ذكره إيماء إلى أنه وإن صغر قدره عظم جزاؤه. ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة، وأنت الضمير لتأنيث الخبر أو لإضافة المثقال إلى مؤنث، وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة. وقرأ ابن كثير ونافع حسنة بالرفع على كان التامة. ﴿يُضَاعِفُهَا﴾ يضاعف ثوابها. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يُضَعِّفُهَا وكلاهما بمعنى^(٤). ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾ يعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل زائداً على

= (٢/٥٣٨ - ٥٣٩) - وإسناده صحيح.

وأخرج ابن جرير (٤/٥٨٥ ج ٨٥) عن الحضرمي نحو ذلك بإسناد صحيح.

(١) الإسراء: ٢٧.

(٢) أي في الآية السابقة «والذين ينفقون».

(٣) قدم الإيمان هنا لأهميته ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه. أما تقديم إنفاقهم رثاء الناس على عدم إيمانهم - مع كون المؤخر أقبح - فلرعاية المناسبة بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به (س ١٧٧/٢).

(٤) قول البياضوي (كلاهما بمعنى) أي أن من قرأ (يضاعفها ويضعفها) بمعنى واحد. وقد ذهب إلى هذا أبو علي الفارسي وهو المختار عند أهل اللغة، كما ذكر الألوسي في روح المعاني ٣٣/٥.

لكن أبا حيان ذهب إلى أن كلام العرب يقتضي خلافه وقال: (لأن المضاعفة تقتضي زيادة المثل، فإذا شددت =

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَتَأَيَّاتُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَارِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

ما وعد في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاء جزيلاً، وإنما سماه أجراً لأنه تابع للأجر مزيد عليه.

(٤١) ﴿فَكَيْفَ﴾ أي فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾!؟ يعني نبئهم يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم، والعامل في الظرف مضمون المبتدأ والخبر من هؤل الأمر وتعظيم الشأن. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء لعلكم بعقائدهم واستجماع شرعك مجامع قواعدهم. وقيل هؤلاء إشارة إلى الكفرة المستفهم عن حالهم. وقيل إلى المؤمنين كقوله تعالى ﴿لَنَكُونَنَّ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١).

(٤٢) ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ بيان لحالهم حينئذ أي يود الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر، أو الكفرة والعصاة في ذلك الوقت أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى أو لم يُبْعَثُوا أو لم يُخْلَقُوا وكانوا هم والأرض سواء^(٢). ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرُونَ على كتمانهم لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال أي يودون أن تسوى بهم الأرض وحالهم أنهم لا يكتُمُونَ من الله حديثاً ولا يكذبونه بقولهم ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٣) إذ روي أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم، فيشتد الأمر عليهم فيتمنُونَ أن تسوى بهم الأرض. وقرأ نافع وابن عامر تُسَوَّى بهم على أن أصله تتسوى فادغمت التاء في السين، وقرأ حمزة والكسائي تُسَوَّى على حذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى.

(٤٣) ﴿يَتَأَيَّاتُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من نحو نوم أو خمر حتى تنتهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم. روي أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه صنع مأدبة ودعا نفراً من الصحابة - حين كانت الخمر مباحة - فأكلوا وشربوا حتى

= اقتضت البنية التكثير فوق مرتين إلى أقصى ما يزيد من العدد (البحر المحيط ٣/ ٢٥١).

(١) البقرة: «١٤٣».

(٢) قوله «الذين كفروا» عبر عنهم بالموصول لذمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلّة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل.

وقوله «وعصوا الرسول» أورده بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه (س ١٧٨/٢).

(٣) الأنعام: «٢٣».

تَمْلُؤُوا^(١)، وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلي بهم فقرا: أعبد ما تعبدون. فنزلت^(٢). وقيل أراد بالصلاة مواضعها وهي المساجد وليس المراد منه نهى السكران عن قربان الصلاة، وإنما المراد النهي عن الإفراط في الشرب، والسكر من السكر وهو السد. وقرئ سَكَارَى بالفتح، وسَكَرَى على أنه جمع كهلكى أو مفرد بمعنى وأنتم قوم سَكَرَى أو جماعة سَكَرَى وسَكَرَى كحُبْلَى على أنها صفة للجماعة. ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ عطف على قوله وأنتم سَكَارَى إذ الجملة في موضع النصب على الحال. والجُنْب الذي أصابته الجنابة، يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأنه يجري مجرى المصدر. ﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ متعلق بقوله ولا جنبا، استثناء من أعم الأحوال أي لا تقربوا الصلاة جنبا في عامة الأحوال إلا في السفر وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم، ويشهد له تعقيبه بذكر التيمم، أو صفة لقوله جنبا أي جنبا غير عابري سبيل، وفيه دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث^(٣). ومن فسر الصلاة بمواضعها فسر عابري سبيل بالمجتازين فيها، وجوز للجنب عبور المسجد، وبه قال الشافعي رضي الله عنه. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: لا يجوز له المرور في المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق. ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة. وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرز عما يلهمه ويشغل قلبه، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مَرَضًا يخاف معه من استعمال الماء فإن الواجد كالفارق، أو مَرَضًا يمنعه عن الوصول إليه. ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه. ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين، وأصل الغائط المكان المطمئن من الأرض. ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أو ما مسستم بَشَرَتَهُنَّ بَشَرَتَكُمْ، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن^(٤). وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة لَمَسْتُمْ، واستعماله كناية عن الجماع أقل من الملامسة. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ فلم يتمكنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود. ووجه هذا التقسيم أن المترخص بالتيمم إما محدث أو جنب، والحالة المقتضية له في غالب الأمر مرض أو سفر، والجنب لما سبق ذكره اقتصر على بيان حاله، والمُخْدِث لما لم يجر ذكره دُكِرَ من أسبابه ما يحدث بالذات وما يحدث بالعَرَض واستغني عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملًا، فكانه قيل: وإن كنتم جنبًا مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. أي

(١) تَمْلُؤُوا أي فترؤوا من الشرب.

(٢) وهو حديث صحيح.

أخرجه أبو داود (٨٠/٤ رقم ٣٦٧١) والنسائي (٤٠٧/٧) - كما في تحفة الأشراف والترمذي (٢٣٨/٥) رقم ٣٠٢٦ والحاكم (٣٠٧/٢) و(١٤٢/٤) والطبري (٩٤/٥ ج ٤). من حديث علي بن أبي طالب. وصححه الحاكم وأقره الذهبي. وصحح الألباني الحديث في صحيح أبي داود وغيره.

(٣) إلا أنه ضعيف والأحاديث الصحيحة تبين أن التيمم يرفع الحدث. انظر فتح القدير للشوكاني ١/٤٧٠.

(٤) قوله (وقيل أو جامعتموهن) ليدل على تضعيف رأي من قال: بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء إلا أن الأحاديث الصحيحة تفيد بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء كحديث وضع يد عائشة على قدميه عليه السلام وهو في الصلاة، ورواه مسلم والترمذي وحديث أنه عليه السلام قبل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ. وانظر مجمل الأدلة في فقه السنة ١/٥٠.

فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب لقوله تعالى في المائدة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾^(١) أي بعضه، وجعل من لا ابتداء الغاية تعسف إذ لا يفهم من نحو ذلك إلا التبعض، واليد اسم للعضو إلى المنكب، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه والقياس على الوضوء دليل على أن المراد ههنا وأيديكم إلى المرافق^(٢). ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسر الأمر عليكم ورخص لكم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعِنَا لِيَّا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾ من رؤية البصر أي ألم تنظر إليهم، أو القلب. وعدي بآلى لتضمن معنى الانتهاء. ﴿نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ حظاً يسيراً من علم التوراة لأن المراد أخبار اليهود. ﴿يَشْتُرُونَ الضَّلَلَةَ﴾ يختارونها على الهدى، أو يستبدلون بها بعد تمكنهم منه، أو حصوله لهم بإنكار نبوة محمد ﷺ. وقيل: يأخذون الرشى ويحرفون التوراة. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا﴾ أيها المؤمنون. ﴿السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق^(٣).

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم. ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمركم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ يعنيكم فثقوا عليه واكتفوا به عن غيره. والباء تزداد في فاعل كفى لتوكيد الاتصال الإسنادي بالاتصال الإضافي.

(٤٦) ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً فإنه يحتملهم وغيرهم، وما بينهما اعتراض

(١) المائدة: ٦٦.

(٢) لكن الأحاديث الصحيحة صرححت بمسح الكفين فقط، كحديث عمار في الصحيحين: أن النبي عليه السلام قال له: «إنما كان يكفيك هكذا». وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه.

أما حديث مسح اليدين إلى المرفقين فليس بصحيح، فقد رواه أبو داود (٣٣٠) عن ابن عمر بلفظ «ضرب بيديه على الحائط مسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه» وهو ضعيف كما في الفتح السماوي (ص ٤٩٣).

(٣) وقد عبر عنهم بالموصول للتنبيه على ما في حيز الصلة على كمال شناعتهم. وعبر عن فعلهم بالاشتراء - الذي هو استبدال السلعة بالثمن - لبيان كمال رغبتهم في الضلالة والإعراض عن الكتاب وما أوتوه.

وصيغة المضارع بقوله «يشترُونَ» و«يريدُونَ» للدلالة على استمرارهما وتجددهما (س ١٨٢ / ٢).

أو بيان لأعدائكم أو صلةً لنصيراً. أي ينصركم من الذين هادوا ويحفظكم منهم، أو خبر محذوف صفته يحرفون. ﴿الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم أي يُمِيلُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها. أو يُؤَوِّلُونَهُ عَلَى مَا يَشْتَهُونَ فَيُمِيلُونَهُ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ. وقرئ الكَلِمَ بكسر الكاف وسكون اللام جَمْعُ كَلِمَةٍ تخفيف كلمة. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. ﴿وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أي مدعواً عليك بلا سمعت لصمم أو موت، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه، أو اسمع غير مسمَع كلاماً ترضاه، أو اسمع كلاماً غير مسمَع إياك لأن أذنك تنبؤ عنه فيكون مفعولاً به، أو اسمع غير مسمَع مكروهاً من قولهم أسمعه فلان إذا سبته، وإنما قالوه نفاقاً. ﴿وَرَاعِنَا﴾ أَنْظَرْنَا نَكَلْمَكَ أو نفهم كلامك. ﴿لِيَأْأَلِ السِّنِينَ﴾ قَتَلًا بها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه السب، حيث وضعوا راعينا المشابه لما يتسابقون به موضع انظرنا وغير مسمَع موضع لا أسمعت مكروهاً، أو قتلًا بها وضماً لما يظهرون من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السب والتحقير نفاقاً. ﴿وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ استهزاء به وسخرية. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعَ وَأَنْظَرْنَا﴾ ولو ثبت قولهم هذا مكان ما قالوه. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل، وإنما يجب حذف الفعل بعد لو في مثل ذلك للدلالة أَنَّ رُوقُوعَهُ مَوْقِعُهُ. ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يُعْبَأُ بِهِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِبَعْضِ الْآيَاتِ وَالرُّسُلِ، ويحتمل أن يراد بِالْقَلَّةِ العدم كقوله:

قَلِيلُ التَّشْكِيِّ لِلْمُهِمِّ يَصِيُّهُ أو إلا قليلاً منهم آمنوا أو سيؤمنون

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۖ

(٤٧) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها، يعني الإقفاء، أو ننكسها إلى ورائها في الدنيا أو في الآخرة. وأصل الطمس إزالة الأغلام المائلة، وقد يطلق بمعنى الطلس في إزالة الصورة، ولمطلق القلب والتغيير، ولذلك قيل معناه من قبل أن نغير وجوهاً فنسلب وجوهاً وإقبالها ونكسوها الصُّغَارَ والإدبار، أو نردها إلى حيث جاءت منه، وهي أذرعات الشام يعني إجلاء بني النضير، ويقرب منه قول من قال إن المراد بالوجوه الرؤساء، أو مِنْ قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وَجُوهًا بِأَن نَّغْمِيَ الْأَبْصَارَ عَنِ الْإِعْتِبَارِ وَنَقْصِمَ الْأَسْمَاعَ عَنِ الْإِسْمَاعِ إِلَى الْحَقِّ بِالطَّبْعِ وَنَرُدَّهَا عَنِ الْهُدَايَةِ إِلَى الضَّلَالَةِ. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أو نخزيهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نمسحهم مسخاً مثل مسخهم، أو نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود. والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريقة الالتفات، أو للوجوه إن أريد به الوجهاء، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا. ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا قال إنه بَعْدُ مَرْتَقِبٌ أَوْ كَانَ وَقُوعُهُ مَشْرُوطاً بِعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ وَقَدْ آمَنَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه. ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً وكائنًا فيقع لا محالة ما أوعدتم به إن لم تؤمنوا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾
 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
 الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
 وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ لأنه بثَّ الحكم على خلود عذابه وأن ذنبه لا ينمحي عنه أثره فلا يستعد للغفو بخلاف غيره. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تفضلاً عليه وإحساناً. والمعتزلة علَّقه بالفعلين على معنى إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء. وهو من لم يتب ويغفر ما دونه لمن يشاء وهو من تاب، وفيه تقييد بلا دليل إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه ونقض لمذهبهم فإن تعليق الأمر بالمشيئة ينافي وجوب التعذيب قبل التوبة والصفح بعدها، فالآية كما هي حجة عليهم فهي حجة على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه خالد في النار. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ارتكب ما يستحق دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذلك الاختلاق.

(٤٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني أهل الكتاب قالوا: ﴿عَنْ أَنْبَتُوا اللَّهَ وَأَجَبَتُهُ﴾^(١) وقيل: ناس من اليهود جاؤوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: «لا» قالوا: والله ما نحن إلا كهيتهم ما عملنا بالنهار كُفِّرَ عنا بالليل وما عملنا بالليل كُفِّرَ عنا بالنهار^(٢). وفي معناتهم من زكى نفسه وأثنى عليها. ﴿بَلِ اللَّهُ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ تنبيه على أن تركيته تعالى هي المعتمد بها دون تركية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبيح، وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين. وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً. ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ﴾ بالذم أو العقاب على تركيتهم أنفسهم بغير حق. ﴿فِتْنًا﴾ أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شقِّ النواة يُضْرَبُ به المثل في الحقارة.

(٥٠) ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله وأزكياؤه عنده. ﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾ بزعمهم هذا أو بالافتراء. ﴿اللَّهُ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ لا يخفى كونه ماثماً من بين آثامهم.

(٥١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ﴾ نزلت في يهود كانوا يقولون إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوهم إليه محمد. وقيل في حُيَيِّ بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا تأمن مكرهم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم

(١) المائدة: «١٨».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافى» رقم (٣٦٦): «ذكره الثعلبي عن الكلبي» وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ١٥٥، والبغوي في تفسيره (٢/ ٢٣٣) عن الكلبي بدون سند. والكلبي منهم.

ففعّلوا^(١). والجنّت في الأصل اسمُ صنم فاستعمل في كل ما عُبد من دون الله، وقيل أصله الجبس وهو الذي لا خير فيه فقلبت سينه تاء. والطاغوت يطلق لكل باطل من معبود أو غيره. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأجلهم وفيهم. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إليهم. ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً^(٢).

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

(٥٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يمنع العذاب منه بشفاعه أو غيرها.

(٥٣) ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أم متقطعة، ومعنى الهمزة إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك وجحد لما زعمت اليهود من أن الملك سيصير إليهم. ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو الثَّقْرَة في ظهر النواة. وهذا هو الإغراق في بيان شتھم فإنهم إن بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفاقرين، ويجوز أن يكون المعنى إنكار أنهم أوتوا نصيباً من الملك على الكناية، وأنهم لا يؤتون الناس شيئاً. وإذا وقع بعد الواو والفاء «لا» لتشريك مفردٍ جاز فيه الإلغاء والإعمال، ولذلك قرئ «فإذا لا يؤتوا الناس على النصب».

(٥٤) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بل أychسدون رسول الله ﷺ وأصحابه، أو العرب، أو الناس جميعاً لأن

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥١/١١) رقم (١١٦٤٥) والبيهقي في دلائل النبوة (١٩٣/٣) عن ابن عباس. وليس عند أيهما قوله: «وأنتم أقرب إلى محمد...» إلى آخره، بل لفظهما: «أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: أنتم خير منه وأهدى سبيلاً» فأنزل الله: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» إلى آخر الآية.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/٧ - ٦) وقال: «رواه الطبراني وفيه «يونس بن سليمان الجمال» ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.

قلت: عند البيهقي في الدلائل «محمد بن يونس الجمال» لعل هذا هو الصواب لأن المزي ذكره في «تهذيب الكمال» (١٨٧/١١) في تلاميذ ابن عيينة ولم يذكر من اسمه «يونس بن سليمان الجمال».

ومحمد بن يونس الجمال بغدادى ضعيف - كما في «التقريب» (٢٢٢/٢) - وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/١٣٤) عن عكرمة قوله: وهو أقرب لسباق القاضي، وعزاه السيوطي لعبدالرزاق أيضاً في الدر المنثور (٥٦٣/٢) وإسناده حسن.

وأخرج الطبري أيضاً في «جامع البيان» (٤/١٣٣) عن ابن عباس، ورجاله ثقات. وأخرج الطبري كذلك (٤/١٣٤ - ١٣٥) عن عكرمة، وقتادة، وابن زيد بنحوه، وهي مراسيل صحيحة الإسناد.

وبهذا يتقوى حديث ابن عباس فيكون صحيحاً إن شاء الله.

(٢) قوله «من الذين آمنوا» هو من قبل الله لا من القائلين. وأوردتهم بوصف الإيمان تعريفاً لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجع عليهم المتصفين بأقبح القبائح (س١٨٩/٢).

من حسد على النبوة فكانما حسد الناس كلهم كمالهم ورشدهم، وبخهم وأنكر عليهم الحسد كما ذمهم على البخل وهما شر الرذائل وكان بينهما تلازماً وتجاذباً. ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبي الموعود منهم. ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء عمه. ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوة. ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ فلا يبعد أن يؤتاه الله مثل ما آتاهم^(١).

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من اليهود. ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بما ذكر من حديث آل إبراهيم. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به، وقيل معناه فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من كفر ولم يكن في ذلك توهين أمره فكذلك لا يؤمن كفراً هؤلاء أمرك. ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ناراً مسعورة يعذبون بها أي إن لم يُعجلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

(٥٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ كالبيان والتقرير لذلك. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بأن يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى كقولك: بدلت الخاتم قرطاً، أو بأن يُزال عنه أثر الإحراق ليعود إحساسه للعذاب كما قال: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي ليدوم لهم ذوقه. وقيل يخلق لهم مكانه جلد آخر، والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدركة لا لآلة إدراكها فلا محذور. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ يعاقب على وفق حكمته^(٢).

(٥٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ قدّم ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لأن الكلام فيهم وذكر المؤمنين بالعرض. ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ فثباتاً لا جُوب فيه^(٣) ودائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة. والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيد كقولهم: شمسٌ شامِسٌ وليلٌ أليّلٌ ويومٌ أيومٌ.

(١) تكرير الإتياء لما يقتضيه مقام التفضيل مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة (س/٢/١٩٠).

(٢) عبر عن إدراك العذاب بالذوق لبيان إحساسهم بالعذاب في كل مرة لإحساس الذائق بالمذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان لدوام الملابس، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلاسه، أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث إن القوة الذائقة أشد الحواس تأثراً.

ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب لأن النفس ربما تنوهم زوال الإدراك بالاحتراق (س/٢/١٩٢).

(٣) لا جُوب أي لا انقطاع فيه، من جاب الأرض إذا قطعها (المصباح المنير مادة جوب).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

(٥٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ خطاب يعم المكلفين والأمانات، وإن نزلت يوم الفتح في عثمان بن طلحة بن عبد الدار^(١) لما أغلق باب الكعبة وأبى أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فلوئى علي كرم الله وجهه يده وأخذه منه وفتح، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس رضي الله عنه أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة، فنزلت^(٢)، فأمره الله أن يرده إليه، فأمر علياً رضي الله عنه أن يرده ويعتذر إليه، وصار ذلك سبباً لإسلامه ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيت بين من ينفذ عليه أمركم، أو يرضى بحكمكم، ولأن الحكم وظيفة الولاية قيل الخطاب لهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به، فما منصوبة موصوفة ببيعظكم به أو مرفوعة موصولة به والمخصوص بالمدح محذوف وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكومات. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات

(٥٩) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية. أمر الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. وقيل علماء الشرع لقوله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٣). ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ﴾ من أمور الدين، وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد في حكمه بخلاف المرؤوس إلا أن يقال الخطاب لأولي الأمر على طريقة الالتفات. ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فراجعوا فيه. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ إلى كتابه. ﴿وَالرَّسُولِ﴾ بالسؤال عنه في زمانه، والمراجعة إلى سنته بعده. واستدل به منكرو القياس وقالوا: إنه تعالى أوجب رد المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس. وأجيب بأن رد المختلف إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس، ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة مثبت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالرّد إليهما على وجه القياس. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن الإيمان يوجب ذلك. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرد. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأحسن تأويلاً عاقبة أو أحسن تأويلاً من تأويلكم بلارد^(٤).

(١) عثمان بن طلحة حاجب البيت الحرام وأحد المهاجرين، له رواية خمسة أحاديث. توفي سنة إحدى وأربعين.

[أسد الغابة (٥٧٨/٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٢٠)].

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٥٧ - ١٥٨) وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٣٦٩): هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي (٢/٢٣٨) بغير إسناد. وعزه في الدر المنثور (٢/٥٧٠) لابن مردويه من طريق الكلبي عن ابن عباس.

(٣) النساء: «٨٣».

(٤) قدم خيريته لهم على أحسنه في نفسه لتعلق أنظارهم بما ينفعهم (س ١٩٤/٢).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

(٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن منافقاً خاصم يهودياً، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي، فلم يرضَ المنافق بقضائه وقال: نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرضَ بقضائه وخاصم إليك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق: أكذاك؟ فقال نعم، فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله ورسوله. فنزلت^(١). وقال جبريل إن عمر قد فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق، والطاغوت على هذا كعب بن الأشرف وفي معناه مَنْ يحكم بالباطل ويؤثر لأجله، سمي بذلك لفرط طغيانه أو لتشبهه بالشيطان، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه، كما قال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. وقرئ أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمع كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ أَهْمُ الطَّاغُوتِ يُخْرِجُونَهُمْ﴾^(٢).

(٦١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ وقرئ تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل اعتباطاً ثم ضم اللام لـ «واو الضمير». ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ هو مصدر أو اسم للمصدر الذي هو الصد، والفرق بينه وبين السد أنه غير محسوس والسد محسوس، ويصدون في موضع الحال^(٣).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٣٧١): «ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي عاصم عن ابن عباس في هذه الآية: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر وإسناده إلى الكلبي في خطبة كتابه.

وذكره الواحدي - في أسباب النزول ص ١٦٢ - أيضاً، ولابن أبي حاتم. وابن مردويه من رواية وهب عن ابن لهيعة عن أبي الأسود: «اختصم رجلان إلى النبي ﷺ، فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه ردنا إلى عمر، فانطلقنا إليه، فضرب عنق الذي قال: ردنا إلى عمر، فجاء الآخر فأخبره، فقال: ما كنت أظن عمر يجترئ على قتل مؤمن. فأنزل الله تعالى: «فلا وربك لا يؤمنون» الآية. فأهدر دمه».

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٣٣ - ٥٣٤) عن هذا الأثر بأنه أثر غريب وهو مرسل وابن لهيعة ضعيف. قلت: هو من رواية أحد العبادلة (ابن وهب) عنه، ورواية العبادلة عنه مقبولة عند المحدثين. لكن بقي كونه مرسلًا ومخالفاً لما جاء في الصحيحين من حديث الزبير الذي سيأتي تخريجه في الآية (٦٥) من هذه السورة.

(٢) البقرة: «٢٥٧».

(٣) قوله «رأيت المنافقين» أظهر لفظ المنافقين في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والإشعار بعله الحكم (س ١٩٥/٢).

(٦٢) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم. ﴿إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُّصِيبَةً﴾ قتل عمر المنافق أو النعمة من الله تعالى. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك. ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ حين يصابون للاعتذار، عطف على أصابتهم. وقيل على يصدون وما بينهما اعتراض. ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ حال. ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم نرد مخالفتك. وقيل جاء أصحاب القتل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يُحسن إلى صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(٦٣) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم. ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك وكفهم عما هم عليه. ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في معنى أنفسهم أو خالياً بهم فإن النصيح في السر أنجع. ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم. أمرهم بالتجافي عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام. وتعليق الظرف ببليغاً على معنى بليغاً في أنفسهم مؤثراً فيها ضعيفاً لأن معمول الصفة لا يتقدم على الموصوف، والقول البليغ في الأصل هو الذي يطابق مدلوله المقصود به.

(٦٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه، وكأنه احتج بذلك على أن الذي لم يرض بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافراً مستوجباً القتل، وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرض بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافراً مستوجباً القتل. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت. ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر أن وإذ متعلق به. ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص. ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شافعاً، وإنما عدل عن الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبهياً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب. ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة، وإن فسر وجد بصادف كان تواباً حالاً ورحيماً بدلاً منه أو حالاً من الضمير فيه.

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربك، ولا مزيدة لتأكيد القسم لا يُظَاهِرُ لا في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنها تُرَادُّ أيضاً في الإثبات كقوله تعالى ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(١). ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

فيما اختلف بينهم واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ ضيقاً مما حكمت به، أو مِنْ حُكْمِكَ أو شُكًّا من أجله، فإن الشاك في ضيق من أمره. ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلَامًا﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَتَذَكَّرُ لَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ تعرضوا بها للقتل في الجهاد، أو اقتلوا كما قتل بنو إسرائيل، وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا في معنى أمرنا. ﴿أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ خروجهم حين استتبوا من عبادة العجل. وقرأ أبو عمرو ويعقوب أن اقتلوا بكسر النون على أصل التحريك، أو أخرجوا بضم الواو للاتباع والتشبيه بواو الجمع في نحو قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ﴾^(١) وقرأ حمزة وعاصم بكسرها على الأصل، والباقون بضمهما إجراء لهما مجرى الهمزة المتصلة بالفعل. ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون. لما بين أن إيمانهم لا يتم إلا بأن يسلموا حق التسليم نبه على قصور أكثرهم ووفن إسلامهم، والضمير للمكتوب ودل عليه كتبنا، أو لأحد مصدري الفعلين وقرأ ابن عامر بالنصب على الاستثناء أو على إلا فعلاً قليلاً. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من متابعة الرسول ﷺ مطاوعته طوعاً ورجبة. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في عاجلهم وآجلهم. ﴿وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ في دينهم لأنه أشد لتحصيل العلم ونفي الشك أو تثبيتاً لثواب أعمالهم، ونصبه على التمييز. والآية أيضاً مما نزلت في شأن المنافق واليهودي. وقيل إنها والتي قبلها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة خاصم زبيراً في سراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل، فقال عليه الصلاة والسلام: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال حاطب: لأن كان ابن عمك. فقال عليه الصلاة والسلام اسق يا زبير ثم احبس الماء إلى الجدر واستوف حقه، ثم أرسله إلى جارك»^(٢).

(٦٧) ﴿وَإِذَا لَا تَتَذَكَّرُ لَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: وما يكون لهم بعد التثبيت فقال وإذا لو تثبتوا لا تيناهم لأن إذا جواب وجزاء.

(٦٨) ﴿وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يصلون بسلوكه جناب القدس ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي ﷺ «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم

(١) البقرة: «٢٣٧».

(٢) أخرجه البخاري (٣٤/٥) رقم ٢٣٥٩، (٢٣٦٠) ومسلم (١٨٢٩/٤ - ١٨٣٠) رقم ٢٣٥٧/١٢٩ وأبو داود (٥١/٤) رقم ٣٦٣٧) والنسائي (٢٣٨/٨) رقم ٥٤٠٧) والترمذي (٦٤٤/٣) رقم ١٣٦٣) وابن ماجه (٨٢٩/٢) رقم ٢٤٨٠) كلهم من طريق عروة عن عبدالله بن الزبير، عن الزبير.

يعلم»^(١).

(٦٩) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً. ﴿مِنَ الَّذِينَ صَدَّقُوا وَعَدَهُمُ اللَّهُ وَالصَّالِحِينَ﴾ بيان للذين، أو حال منه أو من ضميره. قسمهم أربعة أقسام بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم، وهم: الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل، ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها، ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله تعالى، ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته. ولك أن تقول المنعم عليهم هم العارفون بالله وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان، والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولاً فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً وهم الصديقون، والآخرين إما أن يكون عرفائهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون في العلم الذين هم شهداء الله في أرضه، وإما أن يكون بآمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون. ﴿وَحَسَنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ في معنى التعجب، ورفيقاً نصب على التمييز أو الحال، ولم يُجمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق، أو لأنه أريد وحسن كل واحد منهم رفيقاً. روي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله فقال: ما بي من وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزل، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً. فنزلت^(٢).

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٥/١٠) وقال: ذكره أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل. وقال الألباني في الضعيفة رقم (٤٢٢): موضوع؛ في الطريق إلى أحمد بن حنبل جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٣٧٤): «ذكره الثعلبي بغير سند، ونقله الواحدي في الأسباب - ص ١٦٥ - عن الكلبي. لكن لم يقل في آخره «فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إلى آخره» حكى ذلك عن جماعة من الصحابة، قال سعيد بن جبیر: حدثنا خلف بن خليفة عن عطاء بن السائب، عن الشعبي قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنت أحب إلي من نفسي وولدي وأهلي ومالي، ولولا أنني آتيتك فأراك لكنت: أي سأمت وبكى الأنصاري. فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت أنك ستموت مع النبيين عليهم الصلاة والسلام، ونحن إن دخلنا الجنة كنا دونك فأنزل الله على رسوله ﷺ «ومن يطع الله - الآية» فقال له: أبشر».

ومن طريقه أخرجه البيهقي في الشعب - (١٣١/٢) رقم (١٨٣٠) - ووصله الطبراني - في الكبير (٨٦/١٢) - ٨٧ =

ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِمًا ﴿٧١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ
 انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطُلَنَّ فَإِنْ أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ
 شَهِيدًا ﴿٧٣﴾ وَلَئِنْ أَصَبْتَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ
 فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

(٧٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ إشارة إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم. ﴿الْفَضْلُ﴾ صفته. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ خبره أو الفضل خبره ومن الله حال والعامل فيه معنى الإشارة. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ بجزء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله.

(٧١) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، والحذر والحذر كالآثر والأثر. وقيل ما يحذر به كالحزم والسلاح. ﴿فَانْفِرُوا﴾ فاخرجوا إلى الجهاد. ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة من ثبتت على فلان تثبية إذا ذكرت متفرق محاسنه ويُجمع أيضاً على ثبين جبراً لما حذف من عجزه. ﴿أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين كوكبة واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات.

(٧٢) ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطُلَنَّ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين. والمبطلون منافقوهم تناقلوا وتخلفوا عن الجهاد من بطاً بمعنى أبطأ وهو لازم، أو ثبطوا غيرهم كما ثبط ابن أبي ناساً يوم أحد، من بطاً منقولاً من بطؤ كثقل من ثقل. واللام الأولى للابتداء دخلت اسم إن للفصل بالخبر، والثانية جواب قسم محذوف، والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن في ليبطن والتقدير: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطن. ﴿فَإِنْ أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ كقتل وهزيمة. ﴿قَالَ﴾ أي المبطل. ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً فيصيني ما أصابهم.

(٧٣) ﴿وَلَئِنْ أَصَبْتَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ كفتح وغنيمة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أكده تنبيهاً على فزط تحسره. وقرئ بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى من. ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراض بين الفعل ومفعوله

= رقم (١٢٥٥٩) وقال الهيثمي في المجمع (٧/٧): فيه عطاء بن السائب وقد اختلط - وعنه ابن مردويه - كما في الدر المنثور (٥٨٨/٢) - ومن طريق خالد بن عبد الرحمن عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن عباس نحوه. ورواه الطبري - (٤/٥١٣) - من طريق يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير نحوه مرسلًا.

ورواه الطبراني في الصغير - (٢٦/١) - والواحد - في الأسباب ص ١٦٦ رقم ٢ - موصولاً من طريق عبد الله بن عمران العبادي عن فضيل بن عياض عن منصور بن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله والله إنك لأحب إلي من نفسي - الحديث بنحوه - . وأخرجه الواحدي - في الأسباب ص ١٦٥ رقم ١ - من طريق أخرى عن مسروق قال: قال: أصحاب محمد ﷺ فذكره مختصراً - وأخرجه الواحدي أيضاً ص ١٦٦ رقم ١ - من طريق روح عن قتادة كذلك مرسلًا.

وهو ﴿يَلْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال، أو حال من الضمير في ليقولن أو داخل في المقول أي يقول المبطىء لمن يبطئه من المنافقين وضعفة المسلمين تضريراً وحسداً، كأن لم يكن بينكم وبين محمد ﷺ مودة حيث لم يستعن بكم فتفوزوا بما فاز يا ليتني كنت معهم. وقيل: إنه متصل بالجملة الأولى وهو ضعيف، إذ لا يفصل أبعاض الجملة بما لا يتعلق بها لفظاً ومعنى. وكان مخففة من الثقلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب تكن بالتاء لتأنيث لفظ المودة^(١)، والمنادى في يا ليتني محذوف أي: يا قوم وقيل يا أطلق للتنبيه على الاتساع، فأفوز نصب على جواب التمني وقرئ بالرفع على تقدير فأننا أفوز في ذلك الوقت، أو العطف على كنت.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤) ﴿وَمِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥)

(٧٤) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي الذين يبيعونها بها، والمعنى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة، أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطلون، والمعنى حثهم على ترك ما حكي عنهم. ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعد له الأجر العظيم غلب أو غلب، ترغيباً في القتال وتكديباً لقولهم ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَوْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ وإنما قال ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين^(٢).

(٧٥) ﴿وَمِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَا تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حال والعامل فيها ما في الظرف من معنى الفعل. ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالى أي وفي سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو، أو على سبيل بحذف المضاف أي وفي خلاص المستضعفين، ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله تعالى يعم أبواب الخير وتخليص ضعفة المسلمين من أيدي الكفار أعظمها وأخصها. ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصد المشركين، أو ضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتحنين، وإنما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتنبيهاً على

(١) وفي الأصل «كان لم يكن بينكم...» بالياء.

(٢) قوله: «فليقاتل في سبيل الله...» قدم الظرف «في سبيل» على الفاعل للاهتمام به. وقوله: «فيقتل أو يغلب» قدم القتل للإيدان بتقديمه في استتباع الأجر (س ٢٠١/٢).

تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية. وقيل المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد. ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فاستجاب الله دعاءهم بأن يسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خير ولي وناصر بفتح مكة على نبيه صلى الله عليه وسلم، فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها، والقرية مكة والظالم صفتها، وتذكيره لتذكير ما أسند إليه فإن اسم الفاعل أو المفعول إذا جرى على غير من هو له كان كالفعل يذكر ويؤنث على حسب ما عمل فيه^(١).

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

(٧٦) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يصلون به إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان. ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين ضعيف لا يؤبه به فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه.

(٧٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي عن القتال. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ واشتغلوا بما أمرتم به. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه، وإذا للمفاجأة جواب لما، وفريق مبتدأ، منهم صفتهم، ويخشون خبره، وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول، وقع موقع المصدر أو الحال من فاعل يخشون على معنى يخشون الناس مثل أهل خشية الله منه. ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ عطف عليه إن جعلته حالاً وإن جعلته مصدرراً فلا، لأن أفعَلَ التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الله تعالى أي: وكخشية الله تعالى أو كخشية أشد خشية منه على الفرض، اللهم إلا أن تجعل الخشية ذات خشية كقولهم: جدّ جدّه على معنى يخشون الناس خشية مثل خشية الله تعالى، أو خشية أشد خشية من خشية الله. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ استزادة في مدة الكف عن

(١) قوله «وما لكم» فيه التفات للمبالغة في التحريض عليه وتأکید وجوبه.

وقوله «واجعل لنا من لذنك ولياً» قدم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر.

وتقديم اللام على من للمسارعة إلى إبراز كون المسؤول نافعاً لهم مرغوباً فيه لديهم (س/٢/٢٠٢).

القتال حذراً عن الموت، ويحتمل أنهم ما تفوهوا به ولكن قالوا في أنفسهم فحكى الله تعالى عنهم. ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ سريع التقضي ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه، أو من آجالكم المقدرة. وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي ولا يُظلمون لتقدم الغيبة^(١).

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(٧٨) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾ قرىء بالرفع على حذف الفاء كما في قوله:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرْهَا

أو على أنه كلام مبتدأ، وأينما متصل بلا تُظلمون. ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ في قصور أو حصون مرتفعة، والبروج في الأصل بيوت على أطراف القصور، من تبرجت المرأة إذا ظهرت. وقرىء مَشِيدَةً بكسر الياء وصفاً لها بوصف فاعلها كقولهم: قصيدة شاعرة، ومَشِيدَةً من شاد القصر إذا رفعه. ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ كما تقع الحسنة والسيدة على الطاعة والمعصية يقعان على النعمة والبلية، وهما المراد في الآية أي: وإن تصبهم نعمة كَحَضْبِ نسبها إلى الله سبحانه وتعالى، وإن تصبهم بلية كقحط ضافوها إليك وقالوا إن هي إلا بشؤمك كما قالت اليهود: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها. ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ييسط ويقبض حسب إرادته. ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يوعظون به وهو القرآن فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن الكل من عند الله سبحانه وتعالى، أو حديثاً ما كبهائم لا أفهام لها، أو حادثاً من صروف الزمان فيفتكرون فيه فيعلمون أن القابض والباسط هو الله سبحانه وتعالى^(٢).

(٧٩) ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ يا إنسان. ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي تفضلاً منه، فإن كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافى نعمة الوجود، فكيف يقتضي غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى». قيل ولا أنت؟ قال: «ولا أنا»^(٣). ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ من

(١) قوله: «الذين قيل لهم» ورد بناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي ﷺ للإيذان بكون ذلك بأمر الله تعالى.

وقوله: «إذا فريق منهم يخشون الناس...» ولعل توجيه التعجب إلى الكل مع صدور الخشية من بعضهم للإيذان بأنه ما كان ينبغي أن يصدر عن أحدهم ما ينافي حالهم الأولى (س ٢٠٣/٢).

(٢) قوله: «أينما تكونوا...» تلوين للخطاب بصرفه عن رسول الله ﷺ إلى المخاطبين اعتناء بالزامهم إثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه السلام (س ٢٠٤/٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٧/١٠) رقم ٥٦٧٣ و(٢٩٤/١١) رقم ٦٤٦٣. ومسلم (٢١٧٠/٤) رقم ٢٨١٦/٧٦ من حديث أبي هريرة.

بلية. ﴿فَإِنْ نَفْسٌ﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي، وهو لا ينافي قوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فإن الكل منه إيجاباً وإيضالاً غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر»^(١). والآيتان كما ترى لا حجة فيهما لنا وللمعتزلة. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ حالٌ قصد بها التأكيد إن علق الجار بالفعل والتعميم إن علق بها أي رسولاً للناس جميعاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢) ويجوز نصبه على المصدر كقوله: ولا خارجاً من في زور كلام. ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك بنصب المعجزات^(٣).

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام في الحقيقة مُبْلَغ، والامر هو الله سبحانه وتعالى. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله». فقال: المنافقون لقد قارف الشرك وهو ينهى عنه، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً. فنزلت^(٤). ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن طاعته. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وهو حال من الكاف^(٥).

= وأخرج البخاري (١١/٢٩٤ رقم ٦٤٦٧) ومسلم (٤/٢١٧١ رقم ٢٨١٨/٧٨) من حديث عائشة نحوه.

وأخرج مسلم (٤/٢١٧١ رقم ٢٨١٧/٧٧) من حديث جابر نحوه أيضاً.

(١) هذان حديثان:

فإن حديث عائشة أخرجه البخاري (١٠/١٠٣ رقم ٥٦٤٠) ومسلم (٤/١٩٩٢ رقم: ٢٥٧٢/٤٩) عنها مرفوعاً بلفظ: «ما من مصيبة، تُصِيبُ المسلم إلا كَفَّرَ اللهُ بها عنه، حتى الشوكة يُشَاكُهَا».

وأخرج البخاري (١٠/١٠٣ رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٤/١٩٩٢ رقم ٢٥٧٣/٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «ما يُصِيبُ المؤمن من وصبٍ، ولا نصبٍ، ولا سقمٍ، ولا حزنٍ، حتى الهمُّ يُهْمُّهُ إِلَّا كَفَّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ».

وأخرج الترمذي (٥/٣٧٨ رقم ٣٢٥٢) من حديث أبي موسى مرفوعاً بلفظ: «لا يصيبُ عبداً نكبةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، قال: وقرأ «وما أصابكم من مصيبة... الآية». وفي سنده شيخ من بني مرة مجهول.

(٢) سبأ: (٢٨).

(٣) قوله: «ما أصابك» تلويحٌ للخطاب وتوجيهه لكل واحد من الناس والالتفات فيه لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقاتلهم الباطلة والإيذان بأن مضمونه مبني على حكمة دقيقة حقيقة بأن يتولى بيانها علام الغيوب (س/٢٠٦).

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٣٧٥): لم أجده.

(٥) قوله: «من يطع الرسول» عبر عنه بالرسول للإيذان بأن مناط كون طاعته عليه السلام طاعة له تعالى ليس =

(٨١) ﴿وَقُولُوا﴾ إذا أمرتهم بأمر. ﴿طَاعَةٌ﴾ أي أمرنا طاعة أو منا طاعة، وأصلها النصب على المصدر ورفعها للدلالة على الثبات. ﴿فَإِذَا بَرَّرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ خرجوا. ﴿بَيْتَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي زورت خلاف ما قلت لها، أو ما قالت لك من القبول وضمنان الطاعة، والتبitt إما من البيتوتة لأن الأمور تدبر بالليل، أو من بيت الشعر، أو البيت المبني لأنه يسوي ويدبر. وقرأ أبو عمرو وحمزة بَيْت طائفة بالإدغام لقربهما في المخرج. ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ يشته في صحائفهم للمجازاة، أو في جملة ما يوحى إليك لتطلع على أسرارهم. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قلل المبالاة بهم أو تجاف عنهم. ﴿وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

(٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أذبار الشيء. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار. ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبل للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية. ولعل ذكره هنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحكم بل لاختلاف الأحوال في الحكم والمصالح.

(٨٣) ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف. ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أفضوه كما كان يفعله قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ، أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحى إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوا به لعدم حزمهم فكانت إذاعتهم مفسدة. والباء مزيدة أو لتضمن الإذاعة معنى التحدث. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي ولو ردوا ذلك الخبر. ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ إلى رأيه ورأي كبار أصحابه البصراء بالأمور، أو الأمراء. ﴿لَعَلِمَهُ﴾ لعلم ما أخبروا به على أي وجه يذكر. ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يستخرجون تدابيرهم بتجاربهم وأنظارهم. وقيل كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فتعود وبالأعلى على المسلمين، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعوهم منهم وتعرفوا أنه هل يذاع لعلم ذلك من هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي: يستخرجون علمه من جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء، يخرج من البئر أول ما يحفر. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإرسال الرسول وإنزال الكتاب.

﴿لَا تَبِعْتُمْ الشَّيْطَانَ﴾ والكفر والضلال. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا قليلاً منكم تفضل الله عليه بعقل راجح اهتدى به إلى الحق والصواب وعصمه عن متابعة الشيطان كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل، أو إلا اتباعاً قليلاً على الندور.

فَقَنِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿فَقَنِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَنْ تَتَّبِعُوا وَتَرْكُوا وَحَدَّكَ. ﴿لَا تُكَلِّفْ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إِلَّا فَعَلَ نَفْسَكَ لَا يَضُرُّكَ مَخَالَفَتُهُمْ وَتَقَاعُدُهُمْ، فَتَقَدَّمْ إِلَى الْجِهَادِ وَإِنْ لَمْ يَسَاعِدْكَ أَحَدٌ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكَ لَا الْجُنُودَ. رَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا النَّاسَ فِي بَدْرِ الصَّغْرَى إِلَى الْخُرُوجِ، فَكَرِهَهُ بَعْضُهُمْ. فَنَزَلَتْ. فَخَرَجَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَا مَعَهُ إِلَّا سَبْعُونَ لَمْ يَلَوْ عَلَى أَحَدٍ. وَقُرِءَ لَا تُكَلِّفْ بِالْجُزْمِ وَلَا تُكَلِّفْ بِالنُّونِ عَلَى بِنَاءِ الْفَاعِلِ أَيْ لَا تُكَلِّفْكَ إِلَّا فَعَلَ نَفْسَكَ، لَا أَنَا لَا نَكُلِّفُ أَحَدًا إِلَّا نَفْسَكَ لِقَوْلِهِ: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عَلَى الْقِتَالِ إِذْ مَا عَلَيْكَ فِي شَأْنِهِمْ إِلَّا التَّحْرِيزُ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي قَرِيشًا، وَقَدْ فَعَلَ بِأَنْ أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ حَتَّى رَجَعُوا. ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ مِنْ قَرِيشٍ. ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تَعْذِيبًا مِنْهُمْ، وَهُوَ تَقْرِيعٌ وَتَهْدِيدٌ لِمَنْ لَمْ يَتَّبِعْهُ.

(٨٥) ﴿مَّنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾ رَاعَى بِهَا حَقَّ مُسْلِمٍ وَدَفَعَ بِهَا عَنْهُ ضَرًّا أَوْ جَلَبَ إِلَيْهِ نَفْعًا ابْتِغَاءً لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْهَا الدُّعَاءُ لِمُسْلِمٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ اسْتَجِيبَ لَهُ وَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١). ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وَهُوَ ثَوَابُ الشَّفَاعَةِ وَالتَّسْبِيبِ إِلَى الْخَيْرِ الْوَاقِعِ بِهَا. ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً﴾ يَرِيدُ بِهَا مُحَرَمًا. ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نَصِيبٌ مِنْ وَزَرِهَا مَسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ مُقْتَدِرًا مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ إِذَا قَدَرَ قَالَ:

وَذِي ضُغْنٍ كَفَفْتُ الضُّغْنَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِينًا
أَوْ شَهِيدًا حَافِظًا، وَاسْتِقَاقَهُ مِنَ الْقُوَّةِ فَإِنَّهُ يَقْوِي الْبَدْنَ وَيَحْفَظُهُ.

(١) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ (٢٠٩٤/٤) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ، وَلَكَ، بِمِثْلِهِ». وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ (٢٠٩٤/٤) رَقْمَ (٢٧٣٣/٨٨) وَابْنُ الْبَخَارِ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ رَقْمَ (٦٢٥) وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١٩٥/٥).

عَنْ صَفْوَانَ (وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ) وَكَانَتْ تَحْتَهُ الدَّرْدَاءُ. قَالَ: قَدِمْتُ الشَّامَ، فَأَتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ. وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ فَقَالَتْ: أَتُرِيدُ الْحُجَّ الْعَامَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَادْعُ اللَّهَ لَنَا بِخَيْرٍ. فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ، بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ. كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ».

وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ الجمهور على أنه في السلام، ويدل على وجوب الجواب إما بأحسن منه وهو أن يزيد عليه ورحمة الله فإن قاله المسلم زاد وبركاته وهي النهاية، وإما برد مثله لما روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك». فقال الرجل: نقصتني، فأين ما قال الله تعالى، وتلا الآية. فقال صلى الله عليه وسلم: «إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله»^(١). وذلك لاستجماعه أقسام المطالب السالمة عن المضار وحصول المنافع وثباتها، ومنه قيل: أو للترديد بين أن يحيي المسلم ببعض التحية وبين أن يحيي بتمامها، وهذا الوجوب على الكفاية، وحيث السلام مشروع فلا يُرَدُّ في الخطبة وقراءة القرآن وفي الحمام وعند قضاء الحاجة ونحوها. والتحية في الأصل مصدر حيأك الله على الإخبار من الحياة، ثم استعمل للحكم والدعاء بذلك، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام. وقيل المراد بالتحية العطية وواجب الثواب أو الرد على المتهب، وهو قول قديم للشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها.

(٨٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر، أو الله مبتدأ والخبر: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي الله، والله ليخشنكم من قبوركم إلى يوم القيامة، أو مفضين إليه، أو في يوم القيامة، ولا إله إلا هو اعتراض. والقيام والقيامة كالطلاب والطلّابة وهي قيام الناس من القبور أو للحساب. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو في الجمع فهو حال من اليوم، أو صفة للمصدر ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنكار أن يكون أبداً أكثر صدقاً منه، فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله محال.

(٨٨) ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين. ﴿فِتْنَتَيْنِ﴾ أي فرقتين ولم تنفقوا على كفرهم، وذلك أن ناساً منهم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة، فلما

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/١٩٠) وابن أبي حاتم وابن مردويه - كما في الدر المنثور (٢/٦٠٥) - والطبراني في الكبير (٦/٢٤٦) رقم (٦١١٤) من حديث سلمان وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/٣٣) وقال: «رواه الطبراني وفيه هشام بن لاحق قواه النسائي وترك أحمد حديثه، وبقيّة رجاله رجال الصحيح» هـ. وقال السيوطي: سنده حسن.

وأخرج الطبراني في الكبير (١١/٣٥٨) رقم (١٢٠٠٧) من حديث ابن عباس. وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/٣٣) وقال: «رواه الطبراني في الكبير، والأوسط وفيه نافع بن هرمز وهو ضعيف جداً» هـ.

قلت: حديث سلمان يتقوى بحديث ابن عباس إلى درجة الحسن لغيره.

خرجوا لم يزلوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون في إسلامهم^(١). وقيل نزلت في المتخلفين يوم أحد^(٢)، أو في قوم هاجروا ثم رجعوا معتلين باجتواء المدينة والاشتياق إلى الوطن، أو قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة^(٣). وفتن حال عاملها لكم كقولك: ما لك قائماً. وفي المنافقين حال من فتنتين أي متفرقتين فيهم، أو من الضمير أي فما لكم تفترون فيهم، ومعنى الافتراق استفاد من فتنتين. ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكسهم بأن صيرهم للنار. وأصل الركس رد الشيء مقلوباً. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أن تجعلوه من المهتدين. ﴿وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى^(٤).

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٩٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَتِّلُوكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَقْتُمُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّتْ لَكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَالُ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩١﴾

(٨٩) ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ تَمَنَّوْا أَنْ تَكْفُرُوا ككفرهم. ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ فتكونون معهم سواء في الضلال، وهو عطف على تكفرون ولو نُصِبَ على جواب التمني لجاز. ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله لا لأغراض الدنيا، وسبيل الله ما أمر بسلوكه. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان. ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ كسائر الكفرة. ﴿وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي جانبوهم رأساً ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة.

(٩٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أي: إلا الذين يتصلون ويتنهبون إلى قوم عاهدوكم ويفارقون محاربتكم. والقوم هم خزاعة. وقيل: هم الأسلميون فإنه عليه الصلاة والسلام وادَّعَ وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن لجأ إليه فله من الجوار مثل ماله. وقيل بنو بكر بن زيد مناة. ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩٢/١) عن أبي سلمة. بلفظ مقارب.

قلت: ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وروايته هذه مخالفة للحديث الذي سيأتي بعد هذا الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٩٦/٤) رقم (١٨٨٤) و(٣٥٦/٧) رقم (٤٠٥٠) و(٢٥٦/٨) رقم (٤٥٨٩). ومسلم (٢١٤٠/٤) رقم (٢٧٧٦/٦) من حديث زيد بن ثابت.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٤/١٩٣) بسند ضعيف.

(٤) قوله «أتريدون أن تهتدوا من أضل الله» وضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر في حيز الصلة.

وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها كأن يقال: أنهدون.؟ للمبالغة في إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته فضلاً عن إمكان نفسه (س٢/٢١٣).

عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم، استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم مَنْ ترك المحاربين فلحق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكف عن قتال الفريقين، أو على صفة قوم وكأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم كافين عن القتال لكم وعليكم. والأول أظهر لقوله، فإن اعتزلوكم». وقرئ بغير العاطف على أنه صفة بعد صفة، أو بيان ليصلون، أو استئناف. ﴿حَصَرْتُ صُدُورَهُمْ﴾ حال بإضمار قد، ويدل عليه أنه قرئ حَصَرَةً صُدُورَهُمْ وَحَصَرَاتِ صُدُورَهُمْ، أو بيان لجاءوكم، وقيل صفة محذوف أي جاؤوكم فوماً حصرت صدورهم، وهم بنو مدلج جاؤوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين. والحصر الضيق والانقباض. ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي عن أن، أو لأن، أو كراهة أن يقاتلوكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قوى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم. ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ ولم يكفوا عنكم. ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم. ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد. ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّصْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ٩١ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٩٢

(٩١) ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ هم أسد وغطفان، وقيل بنو عبدالدار أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا المسلمين فلما رجعوا كفروا. ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ دُعَا إِلَى الْكُفْرِ وإلى قتال المسلمين. ﴿أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ عادوا إليها وقُلبوا فيها أقيح قلب. ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم. ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّصْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنتم منهم فإن مجرد الكف لا يوجب نفي التعرض. ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم، أو تسلطاً ظاهراً حيث أذنا لكم في قتلهم.

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له وليس من شأنه. ﴿أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق. ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ فإنه على عرضته. ونصبه على الحال أو المفعول له أي: لا يقتله في شيء من الأحوال إلا حال الخطأ أو لا يقتله لعله إلا للخطأ، أو على أنه صفة مصدر محذوف أي إلا قتلاً خطأ. وقيل: «ما كان» نفي في معنى النهي. والاستثناء منقطع أي لكن إن قتله خطأ فجزاؤه ما يُذكر. والخطأ ما لا يضامه القصد إلى الفعل أو الشخص، أو لا يقصد به زهوق الروح غالباً، أو لا يقصد به محذور كرمي مسلم في

صف الكفار مع الجهل بإسلامه، أو يكون فعلٌ غير المكلف. وقرئ خَطَاءً بالمد وخطأ كعصا بتخفيف الهمزة. والآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الأم، لقي حارث بن زيد في طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياشُ فقتله^(١). ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعله أو فواجبه تحرير رقبة والتحريرُ الإعناق، والحر كالعقيق للكريم من الشيء ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه، سمي به لأن الكرم في الأحرار واللؤم في العبيد. والرقبةُ عبر بها عن النَّسَمَة كما عبر عنها بالرأس. ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ محكوم بإسلامها وإن كانت صغيرة. ﴿وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر الموارث، لقول ضحاك بن سفيان الكلبي^(٢): كَتَبَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا مَرْثِي أَنْ أَوْزْتُ امْرَأَةً أَشِيمَ الضَّبَابِي مِنْ عَقْلِ زَوْجِهَا. وَهِيَ عَلَى الْعَاقِلَةِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَعَلَى بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَالِهِ. ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، سمي العفو عنها صدقة حثاً عليه وتنبهاً على فضله، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «كل معروف صدقة»^(٣). وهو متعلق بعَلَيْهِ، أو بِمُسَلَّمَةٍ، أي تجب الدية عليه أو يسلمها إلى أهله إلا حال تصدقهم عليه، أو زمانه فهو في محل النصب على الحال من القاتل أو الأهل أو الظرف. ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي فإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين، أو في تضاعفهم ولم يُعلم إيمانه فعلى قاتله الكفارة دون الدية لأهله إذ لا وراثه بينه وبينهم ولأنهم محاربون. ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان من قوم كفرة معاهدين أو أهل الذمة فحكمه حكم المسلمين في وجوب الكفارة والدية، ولعله فيما إذا كان المقتول معاهداً أو كان له وارث مسلم. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ رَقَبَةً بَأْنٌ لَمْ يَمْلِكْهَا وَلَا مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَيْهَا. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَكَتِّبَيْنِ﴾ فعلية أو فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين. ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المفعول له أي شرع ذلك توبة، من تاب الله عليه إذا قبل توبته، أو على المصدر أي وتاب الله عليكم توبة، أو الحال بحذف مضاف أي فعلية صيام شهرين ذا توبة. ﴿مَنْ أَلَّهِ﴾ صِفْتُهَا. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ﴾ بحاله. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما أمر في شأنه.

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ذكره الثعلبي بغير سند، والواحدى - ص ١٦٩ - ١٧٠ - عن الكلبي.

ورواه الطبري - في جامع البيان (٤/٢٠٤) - من طريق أسباط عن السدي بتغيير يسير. - قلت: سنده ضعيف - ولم يسم الحارث. فقال: ومعه رجل من بني عامر. وقال ابن إسحاق في المغازي: حدثني نافع عن ابن عمر عن أبيه قال: «أبعدت أنا وعياش عن أبي ربيعة هشام بن العاص، لما أردنا الهجرة، فأصبحت أنا وعياش. وحبس عنا هشام وفتى. وخرج أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش بالمدينة فكلما وقالوا له: إن أمك نذرت أن لا تمس رأسها بمشط، فذكر القصة بطولها» هـ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٨٦٦ رقم ٩) والترمذي (٤/٢٧ رقم ١٤١٥) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب أن عمر كان يقول: الدية على العاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً حتى أخبره الضحاك بن سفيان الكلبي أن رسول الله... فذكره.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح وهو كما قال.

(٣) أخرجه البخاري (١٠/٤٤٧ رقم ٦٠٢٢) من حديث جابر. وأخرجه مسلم (٢/٦٩٧ رقم ١٠٠٥/٥٢) من حديث حذيفة.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسَتْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

(٩٣) ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لما فيه من التهديد العظيم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً^(١)، ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافة، والجمهور على أنه مخصوص بمن لم يتب لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ﴾^(٢) ونحوه، وهو عندنا إما مخصوص بالمستحل له كما ذكره عكرمة^(٣) وغيره، ويؤيده أنه نزل في مقيس بن ضبابة^(٤) وجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار ولم يظهر قاتله، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يدفعوا إليه دينته، فدفعوا إليه، ثم حمل على مسلم فقتله ورجع إلى مكة مرتداً^(٥)، أو المراد بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

(٩٤) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سافرتم وذهبتم للغزو. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فاطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه. وقرأ حمزة والكسائي فثبتوا في الموضعين هنا وفي الحجرات، من الثبت. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ﴾ لمن حياكم بتحية الإسلام. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة السَّلم بغير الالف أي الاستسلام والانقياد، وفُسر به السلام أيضاً. ﴿لَسَتْ مُؤْمِنًا﴾ وإنما فعلت ذلك متعوذاً. وقرئ مؤمناً بالفتح أي مبدولاً له الأمان. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ، وهو حال من الضمير في تقولوا مُشْعِر بما هو الحامل لهم على العجلة وترك الثبت. ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ﴾ لكم. ﴿كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لِمَالِهِ. ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام تفوّهتم بكلمتي الشهادة فحُصّنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يُعلّم مواطاة قلوبكم السَّكْم. ﴿فَمَنْ أَكَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة في الدين. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل الله بكم، ولا تبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل امرئ مسلم. وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر وترتيب الحكم على ما ذكر من حالهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً به

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣/٨ رقم ٤٧٦٤). ومسلم (٢٣١٨/٤ رقم ٣٠٢٣/١٩) من رواية سعيد بن جبير عنه.

(٢) طه: ٨٣.

(٣) عكرمة ص ١٤٧/١ أبي السعود.

(٤) قيس بن ضبابة: استثناء رسول الله ﷺ يوم الفتح ممن أمته قتل وهو متعلق بأستار الكعبة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جبير (روح المعاني ٥/١١٥).

وبالغرض منه فلا تنهافتوا في القتل واحتاطوا فيه. روي أن سرية رسول الله ﷺ غزت أهل فِذْكَ فهربوا وبقي مرداس ثقةً بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقولٍ من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا به وكَبُرُوا كَبْرَ ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم، فقتله أسامة واستاق غنمه^(١) وقيل نزلت في المقداد مر برجل في غنيمة فأراد قتله فقال: لا إله إلا الله. فقتله وقال: وَدَّ لو فَرَّ بأهله وماله^(٢). وفيه دليل على صحة إيمان المَكْرَه^(٣) وأن المجتهد قد يخطيء وأن خطأه مغتفر.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾

(٩٥) ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الحرب. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضع الحال من القاعدین، أو من الضمير الذي فيه. ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بالرفع صفة للقاعدون لأنه لم يُقصد به قوم بأعيانهم، أو بدل منه. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالنصب على الحال أو الاستثناء، وقرئ بالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه. وعن زيد بن ثابت أنها نزلت ولم يكن فيها غير أولي الضرر فقال ابن أم مكتوم: وكيف وأنا أعمى؟ فغشي رسول الله ﷺ في مجلسه الوحي، فوقعت فخذُه على فخذي حتى خشيت أن ترضها ثم سري عنه فقال: «اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾»^(٤) أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة، وفائدته تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد في الجهاد رفعا لرتبته وأنفة عن انحطاط منزلته. ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٣٨٩): أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قلت: سنده هالك.

وأخرجه الطبري في «جامع البيان (٤/ج ٥/٢٢٤) من رواية أسباط عن السدي بتغيير يسير. وقد أخرج البخاري (٧/٥١٧ رقم ٤٢٦٩) و(١٢/١٩١ رقم ٦٨٧٢) ومسلم (١/٩٦ - ٩٧ رقم ١٥٨، ٩٦/١٥٩) كلاهما من طريق أبي طيبان عن أسامة بن زيد، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحتنا الحركات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: «لا إله إلا الله قطعته فوق في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه» إلى آخر الحديث.

(٢) أخرجه البزار (كشف الأستار ٣/٤٥) وقال الهيثمي: إسناده جيد (المجمع ٨/٩٤). (٣) قوله (وفيه دليل على صحة إيمان المَكْرَه) ليس على إطلاقه فهو يعد بظااهره مسلماً وأمره إلى الله تعالى، إذ لا يعرف حقيقة الإيمان إلا الله تعالى.

(٤) أخرجه البخاري (٦/٤٥ رقم ٢٨٣٢) و(٨/٢٥٩ رقم ٤٥٩٢) من رواية مروان بن الحكم عن زيد بن ثابت نحوه. وأخرجه أبو داود (٣/٢٤ رقم ٢٥٠٧) والحاكم (٢/٨١ - ٨٢) من رواية خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت نحوه أيضاً.

قلت: وقد أخرج البخاري (٦/٤٥ رقم ٢٨٣١) ومسلم (٣/١٥٠٨ رقم ١٨٩٨/١٤١) من حديث البراء بن عازب أيضاً نحوه.

وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَلْعَيْنِ دَرَجَةً ﴿٩٦﴾ جملة موضحة لما نُفِي الاستواء فيه، والقاعدون على التقيد السابق، ودرجة نُصِبَ بنزع الخافض أي بدرجة، أو على المصدر لأنه تضمن معنى التفضيل ووقع موقع المزة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة. ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين والمجاهدين. ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب. ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَلْعَيْنِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نُصِبَ على المصدر لأن فَضَّلَ بمعنى أجز، أو المفعول الثاني له لتضمنه معنى الإعطاء كأنه قيل: وأعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً.

(٩٦) ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ كل واحد منها بدل من أجراً، ويجوز أن ينتصب درجات على المصدر كقولك: ضربته أسواطاً، وأجراً على الحال عنها تقدمت عليها لأنها نكرة، ومغفرة ورحمة على المصدر بإضمار فعليهما. كرر تفضيل المجاهدين وبالح في إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهد وترغيباً فيه وقيل: الأول ما خولهم في الدنيا من الغنمة والظفر وجميل الذكر، والثاني ما جعل لهم في الآخرة. وقيل المراد بالدرجة الأولى ارتفاع منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى، وبالدرجات منازلهم في الجنة. وقيل القاعدون الأول هم الأضرأ والقاعدون الثاني هم الذين أذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم. وقيل المجاهدون الأولون من جاهد الكفار والآخرين من جاهد نفسه وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(١). ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما عسى أن يفرط منهم. ﴿رَحِيمًا﴾ بما وعد لهم.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

(٩٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يحتمل الماضي والمضارع، وقرئ توفئهم وتوفاهم على مضارع وفئت بمعنى أن الله يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها أي يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة فإنها نزلت في أناس من مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة واجبة^(٢). ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة توبيخاً لهم. ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ اعتذروا مما وبخوا به بضعفهم وعجزهم عن الهجرة، أو عن إظهار الدين وإعلاء كلمة الله. ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم أو تبكيتاً ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٥٢٣/٣ - ٥٢٤) في ترجمة واصل بن حمزة، وأخرجه البيهقي في الزهد (رقم ٣٧٤ ص ١٩٨) بلفظ: أنه عليه السلام قال: «قدمت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه». وفي سننه لث بن أبي سليم وهو ضعيف، وفيه غيره.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٥/١١، ٢٧٢) بلفظ «إن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين فكثروا سواد المشركين فيأتي السهم برماية فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله عز وجل فيهم «إن الذين توفأهم الملائكة الآية».

قلت: وقد أخرج هذا الحديث البخاري (٢٦٢/٨ رقم ٤٥٩٦) و(٣٧/١٣ رقم ٧٠٨٥).

فَنَهَاجُوا فِيهَا ﴿٩٧﴾ إِلَى قَطْرِ آخِرٍ كَمَا فَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَالْحَبْشَةِ. ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار. وهو خبر إنَّ، والفاء فيه لتضمن الاسم معنى الشرط، وقالوا فيمْ كنتم حالاً من الملائكة بإضمار قد، أو الخبر قالوا والعائد محذوف أي قالوا لهم، وهو جملة معطوفة على الجملة التي قبلها مستتجة منها. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ مصيرهم نار جهنم. وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبه محمد عليهما الصلاة والسلام^(١)».

إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميره والإشارة إليه. وذكر الولد إن أريد به المماليك فظاهر، وإن أريد به الصبيان فللمبالغة في الأمر والإشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة، فإنهم إذا بلغوا وقَدروا على الهجرة فلا محيص لهم عنها وأن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ صفة للمستضعفين إذ لا توقيت فيه، أو حال منه أو من المستكن فيه. واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما تتوقف عليه، واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

(٩٩) ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ ذُكِرَ بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيداناً بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصّد الفرصة ويعلق بها قلبه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾.

(١٠٠) ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا﴾ متحوّلاً من الرّغام وهو التراب. وقيل طريق يُرَاغِمُ قومه بسلوكه أي يفارقهم على رغم أنوفهم وهو أيضاً من الرّغام^(٢). ﴿وَسَعَةً﴾ في الرزق وإظهار الدين. ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ وقرئ يُدْرِكُهُ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ثم هو يدركه، وبالنصب على إضمار أن كقوله:

سَأَتْرُكَ مَنْزِلِي بَيْنِي تَمِيمٍ وَالْحَقُّ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرْيِحَا

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الوقوع والوجوب متقاربان، والمعنى: ثبت أجره عند الله

(١) أخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلاً - كما في الكافي الشاف رقم (٣٩٢) - قلت: مراسيل الحسن لا تقبل.

(٢) قوله «يجد في الأرض مراغماً..» عبر عنه بذلك لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجرين الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجروهم (س٢/٢٢٤).

تعالى ثبوت الأمر الواجب. والآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة^(١) حَمَلَهُ بَنُوهُ عَلَى سُرِيرٍ مَتَوَجِّهًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ التَّنْعِيمَ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ فَصَفَّقَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَذِهِ لَكَ وَهَذِهِ لِرَسُولِكَ أَبَايُكَ عَلَى مَا بَايَعَ عَلَيْهِ رَسُولُكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَاتَ^(٢).

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتُم. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ بتنصيف ركعاتها. ونفي الحرج فيه يدل على جوازها دون وجوبه، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتم في السفر^(٣)، وأن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله قَصُرْتُ وَأَتَمَمْتُ وَصُمْتُ وَأَفْطَرْتُ. فقال: «أَحْسَنْتَ يَا عَائِشَةُ»^(٤)، وأوجه أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم^(٥)، ولقول عائشة رضي الله

- (١) جندب بن ضمرة هو: ولعله ضمرة بن جندب.
رجح ابن حجر أن اسمه جندع بن ضمرة (الإصابة ١/ ٢٥١ رقم ١٢٣٢) الإصابة القسم الأول من حرف الضاد ٢١٣/٢.
- (٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٧٢ رقم ١١٧٠٩) وأبو يعلى (٥/ ٨١ رقم ٢٦٧٩/٣٥٢).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.
وأخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ ٢٤٠) عن ابن عباس بإسناد صحيح نحوه.
- (٣) أخرجه ابن أبي شيبه في المصنف (٢/ ٤٥٢) والبزار (١/ ٣٢٩ رقم ٦٨٢) والدارقطني (٢/ ١٨٩ رقم ٤٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤١) كلهم عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها.
ونقل البيهقي عن الدارقطني أن هذا إسناد صحيح. وقال: لهذا شاهد من حديث دلهم بن صالح، والمغيرة بن زياد، وطلحة بن عمرو وكلهم ضعيف.
- وقال ابن قيم الجوزية في (زاد المعاد): (١/ ٤٦٥): «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْصُرُ دَائِمًا، فَرَكِبَ بَعْضُ الرُّوَاةِ مِنَ الْحَدِيثِ حَدِيثًا، وَقَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْصُرُ وَتَمَّ هِيَ، فَغَلَطَ بَعْضُ الرُّوَاةِ، فَقَالَ: كَانَ يَقْصُرُ وَيُتِمُّ، أَيْ: «هُوَ» هـ.
- (٤) أخرجه النسائي (٣/ ١٢٢ رقم ١٤٥٦) والدارقطني (٢/ ١٨٨ رقم ٤٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤٢).
قال البيهقي: الأول متصل وهو إسناد حسن وعبدالرحمن قد أدرك عائشة فدخل عليها وهو مراقب.
وحكم الدارقطني على الحديث بالاتصال. لكن شيخ الإسلام ابن تيمية حكم عليه بالانقطاع، بين عبدالرحمن بن أسود وعائشة. وَضَعَفَ الْحَدِيثَ بِسَبَبِ هَذَا الْإِنْقِطَاعِ، وَبَدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْتَمِرْ فِي رَمَضَانَ، كَمَا هُوَ مُسْتَفَاضٌ، وَلَمْ تَكُنْ عَائِشَةُ تَخَالِفُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ يَصْلِي بِأَصْحَابِهِ مُقْصِرًا [مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٤٤ - ١٥٥)].
- وحكم الألباني في الإرواء (٣/ ٨ - ٩) عليه بالنكارة.
وخلاصة القول أن حديث عائشة منكر والله أعلم.
- (٥) أخرجه النسائي (٣/ ١١١ رقم ١٤٢٠) و(٣/ ١١٨ رقم ١٤٤٠) و(٣/ ١٨٣ رقم ١٥٦٦) وابن ماجه (١/ ٣٣٨ رقم ١٠٦٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٠) من طرق عنه.
وهو حديث صحيح. انظر الإرواء (٣/ ١٠٥ - ١٠٦).

تعالى عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت في الحضر^(١). فظاهرها يخالف الآية الكريمة، فإن صحّا فالأول مؤول بأنه كالتأم في الصحة والإجزاء، والثاني لا ينفي جواز الزيادة فلا حاجة إلى تأويل الآية: بأنهم أَلْفُوا الأربع فكانوا مظنةً لأن يخطر ببالهم أن ركعتي السفر قَصْر ونقصان، فسمي الإتيان بهما قصراً على ظنهم، ونفي الجناح فيه لتطيب به نفوسهم. وأقل سفر تُقصر فيه أربعة بُرْد عندنا وستة عند أبي حنيفة^(٢). قرىء تُقَصِّرُوا من أقصر بمعنى قصر. ومن الصلاة صفةً محذوف أي: شيئاً من الصلاة عند سيويه ومفعولٌ تُقَصِّرُوا بزيادة من عند الأخفش. ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُرْءَاً عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ شريطة باعتبار الغالب في ذلك الوقت، ولذلك لم يُعتبر مفهومها كما لم يُعتبر في قوله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ وقد تظاهرت السنن على جوازه أيضاً في حال الأمن. وقرىء من الصلاة أن يفتنكم بغير إن خِفْتُمْ، بمعنى كراهة أن يفتنكم وهو القتال والتعرض بما يُكره.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٩/٢ رقم ١٠٩٠) ومسلم (٤٧٨/١ رقم ٦٨٥) كلاهما من طريق ابن عيينه عن الزهري عن عروة عنها.

وفيه: قال الزهري: قلت لعروة: فما بال عائشة كانت تتم في السفر؟ قال: تأولت كما تأول عثمان.

وقال الحافظ: والمنقول أن سبب إتمام عثمان أنه كان يرى القصر مختصاً بمن كان شاخصاً سائراً، وأما من أقام في مكان في أثناء سفره، فله حكم المقيم فيتم والحجة فيه ما رواه أحمد (٩٤/٤) بإسناد حسن عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: لما قدم علينا معاوية حاجاً. صلى بنا الظهر ركعتين بمكة، ثم انصرف إلى دار الندوة، فدخل عليه مروان وعمرو بن عثمان، فقالا: لقد عبت أمر ابن عمك لأنه كان قد أتم الصلاة، قال: وكان عثمان حين أتم الصلاة إذا قدم مكة صلى بها الظهر والعصر والعشاء أربعاً أربعاً، ثم إذا خرج إلى منى وعرفة قصر الصلاة، فإذا فرغ من الحج وأقام بمنى، أتم الصلاة.

(٢) ما وقع الخلاف فيه في وجوب القصر وعدمه بين الأحناف والشافعية لكل فريق منهم دليله من صحيح السنة. أما مسافة القصر وهي أربعة بُرْد عند الشافعية وستة عند أبي حنيفة. - والبريد مسافة اثني عشر ميلاً - فقد صح من السنة والآثار خلافه، وأصح حديث وأصرحه في الباب حديث أنس حيث قال: كان النبي ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو فراسخ يصلي ركعتين. - رواه مسلم - وغيره.

وقد قال عنه ابن حجر في فتح الباري: (وهو أصح حديث ورد في بيان ذلك وأصرحه). ولا داعي لرد الحديث باضطرابه، وخاصة إذا أخذنا بالأكثر وهو ثلاثة فراسخ.

وإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالدَّيْنِ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾

(١٠٢) ﴿وإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ تعلق بمفهومه من خصص صلاة الخوف بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لفضل الجماعة، وعامة الفقهاء على أنه تعالى علّم الرسول صلى الله عليه وسلم كيفيتها ليأتى به الأئمة بعده فإنهم نواب عنه فيكون حضورهم كحضوره. ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو. ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي المصلون حزمًا. وقيل الضمير للطائفة الأخرى، وذكر الطائفة الأولى يدل عليهم^(١). ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ يعني المصلين. ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ أي غير المصلين. ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يحرسونكم يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومن يصلي معه، فغلب المخاطب على الغائب. ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ لاشتغالهم بالحراسة. ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ ظاهره يدل على أن الإمام يصلي مرتين بكل طائفة مرة كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخل، وإن أريد به أن يصلي بكل ركعة إن كانت الصلاة ركعتين، فكيفيته: أن يصلي بالأولى ركعة وينتظر قائماً حتى يتموا صلاتهم منفردين ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتي الأخرى فيتم بهم الركعة الثانية. ثم ينتظر قاعداً حتى يتموا صلاتهم ويسلموا بهم كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: يصلي بالأولى ركعة ثم تذهب هذه وتقف بإزاء العدو وتأتي الأخرى فتصلي معه ركعة، ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة الثانية بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تعود وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها. ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جعل الحذر آلة يتحصن بها المغازي فجمع بينه وبين الأسلحة في وجوب الأخذ، ونظيره قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَنَ﴾^(٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ تمنوا أن ينالوا منكم غزوة في صلاتكم فيشدون عليكم شدة واحدة، وهو بيان ما لأجله أمروا بأخذ الحذر والسلاح. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ رخصة لهم في وضعها إذا ثقل عليهم أخذها بسبب مطر أو مرض، وهذا مما يؤيد أن الأمر بالأخذ للوجوب دون الاستحباب. ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر كي لا يهجم عليهم العدو. ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم لتقوى قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة

(١) أي لا يضعوها ولا يلقوها، وإنما عبر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداءً (س/٢٢٧/٢).

(٢) الحشر: «٩».

عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله سبحانه وتعالى.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

(١٠٣) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أدبتم وفرغتم منها. ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فداوموا على الذكر في جميع الأحوال، أو إذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف فأدوها كيفما أمكن، قياماً مسافين ومقارعين، وقعوداً مُرامين وعلى جنوبكم مُتخنين. ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فعدّلوا واحفظوا أركانها وشرائطها واثتوا بها تامة. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ فرضاً محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال. وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة وأنها واجبة الأداء حال المسابقة والاضطراب في المعركة، وتعليل للأمر بالإتياء بها كيفما أمكن. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلي المحارب حتى يطمئن.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا. ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال. ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ إلزام لهم وتقريع على التواني فيه، بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختص بهم، وهم يرجون من الله بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم، فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها. وقرئ أن تكونوا بالفتح بمعنى ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون، ويكون قوله فإنهم يألمون علة للنهي عن الوهن لأجله. والآية نزلت في بدر الصغرى. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وضمائرکم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهى.

(١٠٥) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جرابٍ دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال دفعها إليّ طعمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك واقتضح وبرئ اليهودي، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يفعل^(١) ﴿يَمَّا أَرْكَكَ اللَّهُ﴾ بما عرّفك الله وأوحى به إليك، وليس من الرؤية بمعنى العلم وإلا لاستدعى ثلاثة مفاعيل. ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ أي لأجلهم والذب عنهم ﴿خَصِيمًا﴾ للبراء.

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَتُوءًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما همت به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن يستغفر.

(١٠٧) ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يخونونها فإن وبال خيانتهم يعود عليها، أو جعل المعصية خيانة لها كما جعلت ظلماً عليها، والضمير لطعمة وأمثاله أو له ولقومه فإنهم شاركوه في الإثم حيث شهدوا على براءته وخاصموا عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مبالغاً في الخيانة مصراً عليها. ﴿أَثِيمًا﴾ منهمكاً فيها. روي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بها ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.

(١٠٨) ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ يستترون منهم حياء وخوفاً. ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه وهو أحق بأن يستحيا ويخاف منه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ لا يخفي عليه سرهم فلا طريق معه إلا ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه. ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون ويزورون. ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ لا يفوت عنه شيء.

(١٠٩) ﴿هَتَأْتُمْ هَتُوءًا﴾ مبتدأ وخبر^(٢). ﴿جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً أو صلة عند من يجعله موصولاً. ﴿فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله.

(١) ذكره الواحدي في الأسباب (ص ١٨١) عن المفسرين.

وأخرجه الطبري (٤/ج ٢٦٧) من رواية سعيد عن قتادة، قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في شأن طعمة بن أبيرق فذكر القصة.

وأخرج الترمذي (٥/٢٤٤ - ٢٤٥ رقم ٣٠٣٦) والحاكم (٤/٣٨٥ - ٣٨٨) والطبراني في المعجم الكبير (٩/١٩ - ١٢ رقم ١٥) وفي إسناده لين بسبب عمر بن قتادة [التقريب: ٦٢/٢] وأما ابن إسحاق فقد صرح بالتحديث عند الحاكم ويشهد لها:

ما أخرجه الطبري (٤/ج ٢٦٨) عن قتادة وابن زيد مرسلأ بمعناه مختصراً وإسناده صحيح.

وظفر: بطن من الأنصار وبطن في بني سليم. ١. هـ - قاموس.

(٢) وفيه تلوين للخطاب وتوجيه لهم بطريق الالتفات إيذاناً بأن تعديد جنائهم يوجب مشافتهم بالتوبيخ والتقريع (س ٢/٢٣٠).

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

(١١٠) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ قبيحاً يسوء به غيره. ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بما يختص به ولا يتعداه. وقيل المراد بالسوء ما دون الشرك، وبالظلم الشرك. وقيل: الصغيرة والكبيرة. ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ بالتوبة. ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا﴾ لذنبه. ﴿رَحِيمًا﴾ متفضلاً عليه، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار. (١١١) ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يتعداه وبأله كقوله تعالى: ﴿وَأِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾^(١). ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته.

(١١٢) ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ صغيرة أو مالا عمد فيه. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد. ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ كما رمى طعمة زيدا، وَوَحَدَ الضمير لمكان أو^(٢) ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة، ولذلك سوى بينهما وإن كان مُقْتَرَفٌ أحدهما دون مقترف الآخر^(٣).

(١١٣) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإعلام ما هم عليه بالوحي، والضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي من بني ظفر. ﴿أَنْ يُضْلُوكَ﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال، والجملة جواب لولا، وليس القصد فيه إلى نفي همهم بل إلى نفي تأثيره فيه. ﴿وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ لأنه ما أزلك عن الحق وعاد وبأله عليهم. ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عصمك، وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر لا ميلاً في الحكم، ومن شيء في موضع النصب على المصدر أي شيء من الضرر ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من خفيات الأمور، أو من أمور الدين والأحكام. ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة.

(١١٤) ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ من متناجيهم كقوله تعالى ﴿وَإِذْ هُمْ

(١) الإسراء: (٧٧).

(٢) وتذكيره «به» لتغليب الإثم على الخطيئة، كأنه قيل ثم يرم بأحدهما (س ٢/ ٢٣٠).

(٣) وقوله «احتمل بهتاناً» أثر الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الإيذان بانعكاس تقديره مع ما فيه من الإشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر.

واكتفى ببيان عظم البهتان بالتنكير التفيخي، كأنه قيل: بهتاناً لا يقادر قدره (س ٢/ ٢٣١).

نَجَوَى^(١). أو من تناجيهم فقلوه: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ على حذف مضاف أي إلا نجوى من أمر، أو على الانقطاع بمعنى ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير. والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل، وفُسِّرَ ههنا بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع وسائر ما فسر به. ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أو إصلاح ذات البين^(٢). ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ بنى الكلام على الأمر ورُكِبَ الجزاء على الفعل ليدل على أنه لما دخل الأمر في زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدة والغرض هو الفعل واعتبار الأمر من حيث إنه وُضِلَ إليه، وقيد الفعل بأن يكون لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى لأن الأعمال بالنيات وأن كل من فعل خيراً رياءً وسمعة لم يستحق به من الله أجراً. ووَصَفَ الأجر بالعظم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا. وقرأ حمزة وأبو عمرو يؤتبه بالياء.

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِيهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

(١١٥) ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ يخالفه، من الشَّقَّ فإن كلا من المتخالفين في شق غير شق الآخر^(٣). ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل. ﴿تُولِيهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، ونُخِلَ بينه وبين ما اختاره. ﴿وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ وندخله فيها. وقرأ بفتح النون من صلاه. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم. والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك إما لحرمة كل واحد منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاقة محرمة ضم إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً كان اتباع سبيلهم واجباً، لأن ترك اتباع سبيلهم ممن عرف سبيلهم اتباع غير سبيلهم، وقد استقصيت الكلام فيه في (مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام).

(١١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كرهه للتأكيد، أو لقصة طعمة. وقيل جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال: إني شيخ منك في الذنوب، إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً منذ

(١) الإسراء: (٤٧).

(٢) وأثر هذه الثلاثة «الصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس» لأنه رأس عمل الخير المتعدي للناس ولأنه يحتاج للإسرار في أكثر الأحيان.

(٣) التعرض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعتهما فيما اجترأوا عليه من المشاقة والمخالفة، وتعليل الحكم الآتي بذلك (س ٢/ ٢٣٢).

عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه ولياً ولم أوقع المعاصي جرأة وما توهمت طرفة عين أنني أُعْجِزَ الله هرباً، وإني لنادم تائب، فما ترى حالي عند الله سبحانه وتعالى؟. فتزلت^(١) ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ صَلَاةً بَعِيدًا﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى فقد افترى لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب ومنشأ شركهم كان نوع افتراء وهو دعوى التبني على الله سبحانه وتعالى.

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَفِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾

(١١٧) ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا﴾ يعني اللات والعزى ومناة ونحوها، كان لكل حي صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان وذلك إما لتأنيث أسمائها كما قال:

وَمَا ذَكَرُ فَإِنْ يَسْمَنُ فَأُنْثَى شَدِيدَ الْأَرْمَ لَيْسَ لَهُ ضُرُوسٌ

فإنه عنى القِرَاد وهو ما كان صغيراً سمي قراداً فإذا كَبُرَ سمي حَلَمَةً، أو لأنها كانت جمادات والجمادات تؤنث من حيث إنها ضاهت الإناث لا نفعاً لها، ولعله سبحانه وتعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثاً لأنه ينفعل ولا يفعل، ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غير منفعل ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفِرط حماقتهم. وقيل المراد الملائكة لقولهم: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى، وهو جمع أنثى كريباب ورُبَي. وقرىء أنثى على التوحيد، وأُنْثَا على أنه جمع أنثى كحُبْث وخبيث، ووُثْنَا بالتخفيف ووُثْنَا بالثقل وهو جمع وَثْنٍ كَأَسْدٍ وَأَسْدٍ وَأُسْدٍ وَأُنْثَا وأُنْثَا بهما على قلب الواو لضمها همزة. ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ وإن يعبدون بعبادتها. ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكان طاعته في ذلك عبادة له. والمارد والمريد الذي لا يعلق بخير، وأصل التركيب للملابسة، ومنه صرح ممرد وغلَامُ أمرد وشجرة مرداء للتي تنثر ورقها.

(١١٨) ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ صفة ثانية للشيطان. ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَفِيبًا مَفْرُوضًا﴾ عطف عليه أي شيطاناً مَرِيداً جامعاً بين لعنة الله، وهذا القول الدال على فرط عداوته للناس.

وقد برهن سبحانه وتعالى أولاً على أن الشرك ضلال في الغاية على سبيل التعليل بأن ما يشركون به ينفعل ولا يفعل فعلاً اختيارياً، وذلك ينافي الألوهية غاية المنافاة، فإن الإله ينبغي أن يكون فاعلاً غير منفعل، ثم استدل عليه بأنه عبادة الشيطان وهي أفظع الضلال لثلاثة أوجه: الأول: أنه مَرِيد منهمك في الضلال لا يعلق بشيء من الخير والهدى، فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الهدى. والثاني: أنه ملعون لضلاله فلا تَسْتَجِيبُ مطاوعته سوى الضلال واللعن. والثالث: أنه في غاية العداوة والسعي

(١) ذكره الثعلبي من رواية الضحاك عن ابن عباس (الفتح السماوي ص ٥٢٦) وقال ابن حجر: وهو منقطع (الكافي الشاف ص ٤٩ رقم ٤٠٣) وذلك أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

في إهلاكهم، وموالاة مَنْ هذا شأنه غاية الضلال فضلاً عن عبادته. والمفروض المقطوع أي نصيباً قُدِّر لي وفُرض، مِنْ قولهم فرض له في العطاء.

وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيْنَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

(١١٩) ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ﴾ عن الحق. ﴿وَلَا مَنِيْنَهُمْ﴾ الأمانِي الباطلة كطول الحياة وأن لا بعث ولا عقاب. ﴿وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ يَشْقُونَهَا لتحريم ما أحل الله، وهي عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسواحب، وإشارة إلى تحريم ما أحل ونقص كل ما خلق كاملاً بالفعل أو القوة. ﴿وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ عن وجهه وصورته أو صفته، ويندرج فيه ما قيل من فُتء عين الحامي^(١) وخِصاء العبيد والوشم والوشر^(٢) واللواط والسَّخَق ونحو ذلك وعبادة الشمس والقمر وتغيير فطرة الله تعالى التي هي الإسلام واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زُلْفى، وعموم اللفظ يمنع الخِصاء مطلقاً لكن الفقهاء خَصُّوا في خِصاء البهائم للحاجة. والجمال الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقاً أو آتاه فعلاً. ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ إذا ضيع رأس ماله وبذل مكانه من الجنة بمكان من النار.

(١٢٠) ﴿يَعِدُهُمْ﴾ ما لا ينجزه. ﴿وَيُمْنِيْنَهُمْ﴾ ما لا ينالون. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة أو بلسان أوليائه.

(١٢١) ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلاً ومهرباً من حاص يحيص إذا عدل. وعنهما حالٌ منه، وليس صلة له لأنه اسم مكان، وإن جُعِلَ مصدرًا فلا يَعْمَل أيضاً فيما قبله.

(١٢٢) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾. أي وَعَدَهُ وعداً وحقاً ذلك حقاً، فالأول مؤكّد لنفسه لأن مضمون الجملة الإسمية التي قبله

(١) الحامي هو الفحل الذي حمى ظهره عن أن يُزَكَّب، وقيل فيه أنه إذا لُقِح ولد ولده فيقولون حمى ظهره فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى، وقيل: الذي يولد من ظهره عشرة أبطن... (روح المعاني ٤٣/٧).

(٢) الوشم هو: غرز الإبرة في الجلد ثم يذر فوقها ما يجعلها تخضر. والوشر هو: أن تحدّد المرأة أنيابها وترققها (المصباح المنير مادة وشم ووشر).

وَعُد، والثاني مؤكّد لغيره. ويجوز أن يُنصب الموصول بفعل يفسره ما بعده، ووَعُدُ الله بقوله سندخلهم، لأنه بمعنى نَعُدُّهم إدخالهم، وحقاً على أنه حال من المصدر. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ جملة مؤكدة بليغة. والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقُرْآنه بوعده الله الصادق لأوليائه، والمبالغة في توكيده ترغيباً للعباد في تحصيله.

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

(١٢٣) ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب يُنال بأمانيتكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان والعمل الصالح. وقيل: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. روي أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة. فنزلت^(١). وقيل^(٢): الخطاب مع المشركين ويدل عليه تقدّم ذكرهم، أي: ليس الأمر بأماني المشركين، وهو قولهم: لا جنة ولا نار وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء ل نكونن خيراً منهم وأحسن حالاً، ولا أمانى أهل الكتاب وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وقولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. ثم قرر ذلك وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ﴾ عاجلاً أو آجلاً، لما روي أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فمن ينجو مع هذا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما تحزن» أما تمرض، أما يصيبك أ للآواء؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: «هو ذاك»^(٣). ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا يجد لنفسه إذا جاوز

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/٥ ج ٢٨٨) من طرق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق مرسلاً، ورجاله ثقات.

وأخرج نحوه عن قتادة، بسند رجاله ثقات.

(٢) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٤/٥ ج ٢٩٠) من طرق عن مجاهد قال في قوله «ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب» قال: قالت قريش: لن نُبعث ولن نُعذب. ورجال إحدى الطرق ثقات.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: جاء حُبي بن أخطب إلى المشركين فقالوا: يا حيي إنكم أصحاب كتب فنحن خير أم محمد وأصحابه؟ فقال: أنتم خير منه فذلك قوله: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» إلى قوله: «ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً». ثم قال للمشركين «ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب»...

(٣) وهو حديث حسن بشواهده.

أخرجه أحمد (١١/١) وابن حبان (ص ٤٢٩ رقم ١٧٣٤ و ١٧٣٥) موارد. والحاكم (٣/٧٤ - ٧٥) وأبو يعلى (٩٧/١ رقم ٩٨) والطبري في جامع البيان (٤/٥ ج ٢٩٤).

قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. قلت: ضعيف لانقطاعه، فإن أبا بكر بن أبي زهير لم يدرك أبا بكر الصديق (انظر المراسيل لابن أبي حاتم ص ٢٥٨ رقم ٩٦٠).

وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه مسلم (٤/١٩٩٣ رقم ٢٥٧٤) والترمذي (٥/٢٤٧ رقم ٣٠٣٨) عن =

موالة الله ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

(١٢٤) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعضها أو شيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها. ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ﴾ في موضع الحال من المستكن في يعمل، ومن للبيان، أو من الصالحات أي كائنة من ذكر أو أنثى، ومن للابتداء. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حال، شرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور وتنبيهاً على أنه لا اعتداد به دونه فيه. ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بنقص شيء من الثواب، وإذا لم يُنْقَصْ ثوابُ المطيع فبالحرى أن لا يُزَادَ عقاب العاصي، لأن المُجَازِي أرحمُ الراحمين، ولذلك اقتصر على ذكره عقيب الثواب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر يدخلون الجنة هنا، وفي غافر ومريم بضم الياء وفتح الخاء، والباقون بفتح الياء وضم الخاء.

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله لا يعرف لها رباً سواه. وقيل بَذَل وجهه له في السجود. وفي هذا الاستفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أت بالحسنات تارك للسيئات. ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن سائر الأديان. وهو حالٌ من المتبع أو من الملة أو إبراهيم. ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره ولم يُضمَر تفضيماً لشأنه وتنصيصاً على أنه الممدوح. والخَلَّةُ من الخلال، فإنه وُدٌ تخلل النفس وخلطها. وقيل من الخَلَلِ فإن كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر، أو من الخل وهو الطريق في الرمل فإنهما يترافقان في الطريقة، أو من الخَلَّةِ بمعنى الخَصْلَةِ فإنهما يتوافقان في الخصال. والجملة استئناف جيء بها للترغيب في اتباع ملته صلى الله عليه وسلم والإيذان بأنه نهاية في الحسن وغاية كمال البشر. روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه ، فقال

ابن عيينة عن ابن محيظ عن محمد بن قيس بن مخزومة عنه قال: لما نزل «من يعمل سوءاً يجز به» شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «قاربوا وسددوا، وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها أو النكة ينكبها».

ورجاله كلهم ثقات إلا ابن محيظ وهو عبدالرحمن بن محيظ قال الحافظ: مقبول [التقريب ٥٩/٢].

لكن قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. قاله نظراً لشواهد.

وله شاهد من حديث عائشة مرفوعاً أخرجه ابن حبان (رقم ١٧٣٦ - موارد) ورجالها ثقات وله شاهد من حديث عائشة موقوفاً عليها أخرجه الحاكم (٣٠٨/٢) ورجالها رجال الشيخين إلا أبا المهلب فهو من رجال مسلم فقط. والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(١) يمتار منه: أي يطلب منه الميرة وهي الطعام.

خليله: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلت، ولكن يريد للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس، فاجتاز غلمانه ببطحاء ليثنة فملؤوا منها الغرائر حياة من الناس، فلما أخبروا إبراهيم ساءه الخبر فغلبته عيناه فنام، وقامت سارة إلى غرارة منها فأخرجت حواري واختبرت، فاستيقظ إبراهيم عليه السلام فاشتتم رائحة الخبز فقال: من أين لكم هذا؟ فقالت: من خليلك المصري، فقال: بل هو من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله خليلاً^(١).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً يختار منهما من يشاء وما يشاء. وقيل هو متصل بذكر العمال مقرر لوجوب طاعته على أهل السموات والأرض وكمال قدرته على مجازاتهم على الأعمال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدره فكان عالماً بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها.

(١٢٧) ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ في ميراثهن، إذ سبب نزوله أن عيينة بن حصن^(٢) أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخبرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نوزع من يشهد القتال ويجوز الغنيمة. فقال عليه الصلاة والسلام: «كذلك أمرت»^(٣) ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن. والإفتاء تبين المبهم. ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ عطف على اسم الله تعالى أو ضميره المستكن في يفتيكم، وساغ للفصل، فيكون الإفتاء مستنداً إلى الله سبحانه وتعالى وإلى ما في القرآن من قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ ونحوه، والفعل الواحد يُنسب إلى فاعلين مختلفين باعتبارين مختلفين، ونظيره أغناني زيد وعطاؤه، أو.....

(١) أخرجه ابن جرير (١٩١/٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص ٥٣٠).

قال ابن كثير: (وفي صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب، وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها) تفسير ابن كثير (١/٥٣٠).

(٢) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري من المؤلف، شهد حنيناً والطائف وكان أحق مطاعاً دخل على النبي ﷺ بغير إذن وأساء الأدب فصر النبي ﷺ على جفوته وأعرابيته وقد ارتد وآمن بطليحة ثم أسر فمن عليه الصديق ثم لم يزل مظهراً للإسلام وكان بنبهه عشرة آلاف فتاة، كان من الجرارة واسمه حذيفة ولقبه عيينة لشره عينه.

انظر (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (٤٣٢/١ رقم ٤٦٧٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٣٠٨/٢) وابن جرير (٢٩٩/٥) وغيرهما، وفي سنده مقال، إلا أن له طرقات كثيرة مرفوعة ومرسلة (الفتح السماوي ص ٥٣١).

استئناف^(١) معترض لتعظيم المتلو عليهم على أن ما يُتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره، والمراد به اللوح المحفوظ، ويجوز أن يُنصب على معنى ويبين لكم ما يُملَى عليكم، أو يُخَفَضَ على القسم كأنه قيل: وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب، ولا يجوز عطفه على المجرور في فيهن لاختلاله لفظاً ومعنى ﴿فِي يَتَمَى النِّسَاءِ﴾ صلة يُتلى إن عُطِفَ الموصول على ما قبله، أي يُتلى عليكم في شأنهن، وإلا فبدل من فيهن، أو صلة أخرى ليفتيكم على معنى الله يفتيكم فيهن بسبب يتامى النساء كما تقول: كلمتكم اليوم في زيد، وهذه الإضافة بمعنى من لأنها إضافة الشيء إلى جنسه. وقرئ ييامى بياءين على أنه أيامى فقلبت همزته ياء. ﴿الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي فُرِضَ لَهُنَّ من الميراث. ﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ في أن تنكحوهن أو عَنْ أن تنكحوهن، فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن إن كن جميلات ويأكلون ما لهن، وإلا كانوا يعضلونهن طمعاً في ميراثهن، والواو تحتل الحال والعطف. وليس فيه دليل على جواز تزويج اليتيمة، إذ لا يلزم من الرغبة في نكاحها جريان العقد في صغرها. ﴿وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنْ أَوْلَادِنَا﴾ عطف على يتامى النساء والعرب ما كانوا يورثونهم كما لا يورثون النساء. ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أيضاً عطف عليه أي ويفتيكم، أو ما يُتلى في أن تقوموا، هذا إذا جعلت في يتامى صلة لأحدهما، فإن جعلته بدلاً فالوجه نصبهما عطفاً على موضع فيهن، ويجوز أن يُنصب وأن تقوموا بإضمار فعل أي: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للفقهاء بالنصفة في شأنهم. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وعد لمن أثر الخير في ذلك.

وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

(١٢٨) ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ توقعت منه لما ظهر لها من المخايل. وامرأة فاعل فعل يفسره الظاهر. ﴿نُشُوزًا﴾ تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها. ﴿أَوْ إِعْرَاصًا﴾ بأن يُقِلَّ مجالستها ومحادثتها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن يتصالحا بأن تحط له بعض المهر، أو القسم، أو تهب له شيئاً تستميله به^(٢). وقرأ الكوفيون أن يُصلحا من أصلح بين المتنازعين، وعلى هذا جاز أن ينتصب صُلْحًا على المفعول به، وبينهما ظرف أو حال منه، أو على المصدر كما في القراءة الأولى، والمفعول بينهما أو هو محذوف. وقرئ يُصلحا من أصلح بمعنى اصطاح. ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة أو سوء العشرة أو من الخصومة، ولا يجوز أن يراد به التفضيل بل بيان أنه من الخيور كما أن الخصومة من الشرور، وهو اعتراض وكذا قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ ولذلك اغتفر عدم مجانستهما، والأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتهديد العذر في المماكسة. ومعنى إحضار

(١) قوله (أو استئناف) معطوف على قوله: (عطف على اسم الله تعالى)...

(٢) هذا المعنى على قراءة من قرأ «يُصْلِحَا» وقد كتبت في الأصل كذلك.

الأنفس الشخَّ جعلها حاضرة له مطبوعة عليه، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي إذا كرهها أو أحب غيرها. ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ في العشرة. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والخصومة. ﴿حَبِيرًا﴾ عليمًا به وبالعرض فيه فيجازيكم عليه، أقام كونه عالماً بأعمالهم مقام إثابته إياهم عليها الذي هو في الحقيقة جواب الشرط إقامة للسبب مقام المسبب^(١).

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾

(١٢٩) ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر، فلذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذهني فيما تملك ولا أملك»^(٢) ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي على تحري ذلك وبالغتم فيه. ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ بترك المستطاع والجور على المرغوب عنها، فإن ما لا يُذكر كله لا يترك كله. ﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من كانت له

(١) قوله: «فلا جناح عليهما» تعرض لنفي الجناح عنهما - مع أنه ليس من جانبها الأخذ الذي هو المظنة للجناح - لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطي والأخذ (س/٢/٢٣٩).

وفي قوله: «وإن تحسنوا وتتقوا...» خطاب للأزواج بطريق الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ولفظ التقوى، وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة مالا يخفى (س/٢/٢٣٩).

(٢) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أحمد في المسند (١٤٤/٦) وأبو داود (٦٠١/٢) والترمذي (٤٤٦/٣) رقم (١١٤٠) والنسائي (٦٣/٧) رقم (٣٩٤٣) وابن ماجه (٦٣٤/١) رقم (١٩٧١) وابن حبان (ص ٣١٧ رقم ١٣٠٥ - موارد) والحاكم في المستدرک (١٨٧/٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وصححه الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط في جامع الأصول (٥١٤/١١) لكن المحققين من الأئمة قد أعلوه. فقال النسائي عقبه: «أرسله حماد بن زيد». وقال الترمذي: «هكذا رواه غير واحد عن حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابه، عن عبدالله بن يزيد، عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقسم ورواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب، عن أبي قلابه، مرسلاً، أن النبي ﷺ كان يقسم.

وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة» هـ. وأورده ابن أبي حاتم في «العلل» (٤٢٥/١) من طريق حماد بن سلمة ثم قال: «فسمعت أبا زرعة يقول: لا أعلم أحداً تابع حماداً على هذا» وأيده ابن أبي حاتم بقوله: «قلت: روى ابن عليّ عن أيوب عن أبي قلابه. قال: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه. الحديث مرسلاً».

وقال الألباني في الإرواء (٨٢/٧): «قلت: وصله ابن أبي شيبه. فقد اتفق حماد بن زيد وإسماعيل بن عليه على إرساله. وكل منهما أحفظ وأضبط من حماد ابن سلمة، فروايتهما أرجح عند المخالفة، لا سيما إذا اجتماعا عليها. لكن الشطر الأول منه له طريق أخرى عن عائشة بلفظ «كان رسول الله ﷺ: لا يفضل بعضنا على بعض في القسم...» الحديث رقم (٢٠٢٠) وإن إسناده حسن» هـ.

امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»^(١). ﴿وَأِنْ تُصْلِحُوا﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيم يستقبل من الزمان. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

(١٣٠) ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا﴾ وقرئ وإن يتفارقا أي وإن يفارق كل منهما صاحبه. ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ منهما عن الآخر ببدل أو سلوة. ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ غناه وقدرته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ مقتدرًا متقنًا في أفعاله وأحكامه.

(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيه على كمال سعته وقدرته. ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ومن قبلهم، والكتاب للجنس، ومن متعلقة بوصينا أو بأوتوا، ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص. ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين. ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن اتقوا الله، ويجوز أن تكون أن مفسرة لأن التوصية في معنى القول. ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على إرادة القول أي: وقلنا لهم ولكم أن تكفروا فإن الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشرككم وتقواكم، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجته، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم. ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته حُمد وإن لم يُحمد.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكره ثالثاً للدلالة على كونه غنياً حميداً، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ راجع إلى قوله يغن الله كلًّا من سعته، فإنه توكل بكفائتهما، وما بينهما تقرير لذلك.

(١٣٣) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يفنكم، ومفعول يشأ محذوف دل عليه الجواب. ﴿وَيَأْتِ

(١) وهو حديث صحيح.

أخرجه أحمد في المسند (٣٤٧/٢، ٤٧١) وأبو داود (٦٠٠/٢) رقم (٢١٣٣) والنسائي (٦٣/٧) والترمذي (٤٤٧/٣) رقم (١١٤١) وابن ماجه (٦٣٣/١) رقم (١٩٦٩) والدارمي (١٤٣/٢) وابن حبان (ص ٣١٧) رقم (١٣٠٧) موارد) والحاكم في المستدرک (١٨٦/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وكذا ابن دقيق العيد، واستغربه الترمذي مع تصحيحه. وقال عبدالحق: هو خبر ثابت، لكن عليه أن هماماً تفرد به، وأن هماماً رواه عن قتادة فقال: كان يقول - كما في تلخيص الجبير لابن حجر (٢٠١/٣) رقم (١٥٧٩) -. قلت: قوله عبدالحق لا يعتبر علة قاذحة. وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٨٠/٧ - ٨١) رقم (٢٠١٧).

يَخْرِجُ ﴿ وَيُوجِدُ قَوْمًا آخَرِينَ أَوْ خَلْقًا آخَرِينَ مَكَانَ الْإِنْسِ. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ﴾ من الإعدام والإيجاد. ﴿ قَدِيرًا ﴾ بليغ القدرة لا يعجزه مراد، وهذا أيضاً تقرير لغناه وقدرته وتهديد لمن كفر به وخالف أمره. وقيل: هو خطاب لمن عادى رسول الله ﷺ من العرب، ومعناه معنى قوله تعالى ﴿ وَتَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾^(١) لما روي: أنه لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: «إنهم قوم هذا»^(٢).

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْإِقْصَ شَهَادَةِ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿

(١٣٤) ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ كالمجاهد يجاهد للغنيمة. ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فما له يطلب أحسهما فليطلبهما كمن يقول: ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، أو ليطلب الأشرف منهما، فإن من جاهد خالصاً لله سبحانه وتعالى لم تخطئه الغنيمة وله في الآخرة ما هي في جنبه كلا شيء، أو فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلاً ما يريد كقوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ ﴾^(٣) الآية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ عالماً بالأغراض فيجازي كلاً بحسب قصده.

(١٣٥) ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْإِقْصَ ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته. ﴿ شَهَادَةِ لِلَّهِ ﴾ بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله سبحانه وتعالى. وهو خبر ثان أو حال. ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تُقرروا عليها، لأن الشهادة بيان للحق سواء كان عليه أو على غيره.

(١) التوبة: «٣٩».

(٢) ذكره الطبري في «جامع البيان» (٤/ج ٣١٩/٥) تعليقا فقال: حَدَّثْتُ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ - وَهُوَ الدَّرَاوَرْدِيُّ - عَنْ سَهْلٍ بِهِ.

وقد وصله الطبري في تفسير سورة محمد (١٣/ج ٢٦/٦٦ - ٦٧) عند قوله تعالى: «وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم» [الآية: ٣٨]، لكنه من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه زيادة: «ولو كان الدين عند الثريا لتناولوه رجاله من الفرس».

وقد أخرجه البخاري (٨/٦٤١ رقم ٤٨٩٨) من طريق عبد العزيز الدراوردي أيضاً لكنه عنه عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة، في تفسير قوله تعالى: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» [الجمعة: ٣].

وحديث الدراوردي هذا أخرجه البخاري (٨/٦٤١ رقم ٤٨٩٧) متابعة بعد حديث سليمان بن بلال، عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة بلفظ «لو كان الإيمان عند الثريا لئالؤه رجال - أو رجل - من هؤلاء».

وأخرجه مسلم (٤/١٩٧٢ رقم ٢٣١) من طريق الدراوردي عن ثوربه أصولاً دون متابعة.

وقد استوعب أبو نعيم طرقه في أول تاريخ أصبهان.

(٣) الشورى: «٢٠».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ؕ وَالْكَتَبِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُنُوزِهِ وَرُسُلِهِ وَأَيُّومِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ أَنَّا كُفْرَانٌ لِّمَنْ كَانَ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِلْمَهْدِيِّينَ سُبُلًا ﴿٢٨﴾

(١٣٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني اليهود آمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ حين عبدوا العجل. ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بعد عوده إليهم. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعبسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم، أو قومًا تكرر منهم الارتداد ثم أصرروا على الكفر وازدادوا تماديًا في

وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لأنهم وسائط بين الله عز وجل وبين الرسل في إنزال الكتب (س ٢٤٣/٢).

الغي . ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويشتوا على الإيمان، فإن قلوبهم ضربت بالكفر وبصائرهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يُقبل منهم ولم يغفر لهم . وخبر كان في أمثال ذلك محذوف تعلق به اللام مثل : لم يكن الله مريداً ليغفر لهم .

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُفُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَيْتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على أن الآية في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين . ووضَّع «بشِّر» مكان أنذر تهكم بهم .

(١٣٩) ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب أو الرفع على الذم، بمعنى أريد الذين أو هم الذين . ﴿أَيْبَنُفُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ﴾ أيتعززون بمواليتهم . ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يتعزز إلا من أعزه الله، وقد كتب العزة لأوليائه فقال ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) ولا يؤذيه بعزة غيرهم بالإضافة إليهم .

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن . وقرأ عاصم نَزَّلَ وقرأ الباقون نَزَلَ على البناء للمفعول والقائم مقام فاعله . ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَيْتَ اللَّهِ﴾ وهي المخففة، والمعنى أنه إذا سمعتم^(٢) . ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ حالان من الآيات جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله : ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ الذي هو جزاء الشرط بما إذا كان من يجالسه هازئاً معانداً غير مرجو، ويؤيده الغاية . وهذا تذكُّر لما نزل عليهم بمكة من قوله : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾^(٣) الآية . والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا . ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتم بذلك، أو لأن الذين يُقَاعِدُونَ الخائضين في القرآن من الأبحار كانوا منافقين، ويدل عليه : ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم^(٤) . وإذا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يُذكر بعدها الفعل . وإفراد مثلهم لأنه كالمصدر، أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع . وقرئ بالفتح على البناء لإضافته إلى مبني، كقوله تعالى ﴿يَنْتَلِ مَا أَنْتُمْ نَظِيفُونَ﴾^(٥) .

(١) المنافقون : «٨» .

(٢) إضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها (س/٢/٢٤٥) .

(٣) الأنعام : «٦٨» .

(٤) قدم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين (س/٢/٢٤٥) .

(٥) الذاريات : «٢٣» .

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم. وهو بدل من الذين يتخذون، أو صفة للمنافقين والكافرين، أو ذم مرفوع أو منصوب، أو مبتدأ خبره: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ مظاهرين لكم فأنهم لنا ممّا غنمتم. ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الحرب فإنها سجال ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم. والاستحواذ: الاستيلاء، وكان القياس أن يقال استحاذ يستحاذ استحاذة فجاءت على الأصل. ﴿وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم فأشركونا فيما أصبتم. وإنما سمي ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً لخسة حظهم، فإنه مقصور على أمر دنيوي سريع الزوال. ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حينئذ أو في الدنيا. والمراد بالسبيل الحجة، واحتج به أصحابنا على فساد شراء الكافر المسلم، والحنفية على حصول البيئونة بنفس الارتداد، وهو ضعيف لأنه لا ينفي أن يكون إذا عاد إلى الإيمان قبل مضي العدة.

(١٤٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ سبق الكلام فيه أول سورة البقرة. ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ متشاكلين كالمكره على الفعل. وقرىء كَسَالَى بالفتح وهما جمعا كسلان. ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ ليحالفوهم مؤمنين. والمرااة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعَمَ وناعَمَ، أو للمقابلة فإن المرائي يُري مَنْ يرائيه عمله وهو يريه استحسانه. ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه وهو أقل أحواله، أو لأن ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل الذُّكْر فيها فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

(١٤٣) ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ حال من واو يراؤون كقوله: ولا يذكرون أي يراؤونهم غير ذاكرين مذبحين أو واو يذكرون، أو منصوب على الذم، والمعنى: مرددين بين الإيمان والكفر، من الذبذبة وهي جعل الشيء مضطرباً، وأصله الذي بمعنى الطرد. وقرىء بكسر الدال بمعنى يُذَبِّبُونَ قلوبهم أو دينهم أو يتذبذبون كقولهم: صلصل بمعنى تصلصل، وقرىء بالدال غير المعجمة بمعنى أخذوا تارة في دبة وتارة في دبة وهي الطريقة^(١). ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أو لا صائرين إلى أحد الفريقين بالكلية. ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الحق والصواب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾^(٢).

(١) أي قرىء «مُذَبِّدِينَ» وقرىء «مُذَبِّدِينَ».

(٢) النور: «٤٠».

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؕ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ؕ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

(١٤٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه صنيع المنافقين وديندهم فلا تشبهوا بهم. ﴿أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة بينة فإن موالاتهم دليل على النفاق، أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه.

(١٤٥) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة إذ ضموا إلى الكفر استهزاء بالإسلام وخداعاً للمسلمين، وأما قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(١) ونحوه فمن باب التشبيه والتغليظ. وإنما سميت طبقاتها السبع دَرَكَاتٍ لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرأ الكوفيون بسكون الراء^(٢) وهي لغة كالسطر والسطر، والتحريك أوجه لأنه يجمع على أدراك^(٣). ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منه.

(١٤٦) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن النفاق. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا به أو تمسكوا بدينه. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلا وجهه سبحانه وتعالى. ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن عدادهم في الدارين. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيساهمونهم فيه.

(١٤٧) ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أيتشقى به غيظاً أو يدفع به ضرراً أو يستجلب به نقعاً وهو الغني المتعالي عن النفع والضرر، وإنما يعاقب المصّر بكفره لأن إصراره عليه كسوء مزاج يؤدي إلى مرض فإذا أزاله بالإيمان والشكر ونقى نفسه عنه تخلص من تبعته. وإنما قدّم الشكر لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به. ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ مثيباً يقبل اليسير ويعطي الجزيل. ﴿عَلِيمًا﴾ بحق شكركم وإيمانكم.

(١٤٨) ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلا جهر من ظلم بالدعاء على الظالم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٨/١ - ٧٩ رقم ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠/٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) وقرأ الباقون بنصب الراء، أي «الدرك».

(٣) وما ذكره البيضاوي من ترجيح القراءة بفتح الراء غير مسلم، فكلاهما صحيح سنداً ولغة أما سنداً فكلاهما من المتواتر، وأما لغة فقد قال أبو حيان: (ولا يلزم ما ذكره من التأنيث، لأن الجنس المميز مفردة بهاء التأنيث يؤنث في لغة الحجاز ويذكر في لغة تميم ونجد. فعلى هذا يجوز تذكير الدرك وتأنيثه).

والتظلم منه. روي أن رجلاً ضاف قوماً فلم يُطعموه فاشتكاهم فعوتب عليه. فزت^(١). وقرئ من ظَلَمَ على البناء للفاعل، فيكون الاستثناء منقطعاً أي ولكن الظالم يفعل ما لا يحبه الله. ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لكلام المظلوم. ﴿عَلِيمًا﴾ بالظالم.

إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾

(١٤٩) ﴿إِنْ بُدُوا خَيْرًا﴾ طاعة وبراً. ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ أو تفعلوه سراً. ﴿أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ﴾ لكم المؤاخذه عليه، وهو المقصود. وذكر إبداء الخير وإخفائه تشييب له^(٢)، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو بعدما رخص له في الانتظار حملاً على مكارم الأخلاق.

(١٥٠) ﴿إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله. ﴿وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة: إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر يبعث ذلك كالكافر بالكل في الضلال كما قال الله تعالى ﴿فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾^(٣).

(١٥١) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا. ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره، أو صفة لمصدر الكافرين بمعنى: هم الذين كفروا كفراً حقاً أي يقيناً محققاً. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٤).

(١٥٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أضدادهم ومقابلوهم. وإنما دخل «بَيْنَ» على «أحد» وهو يقتضي متعدداً لعمومه من حيث إنه وقع في سياق النفي. ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ الموعودة لهم. وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر.

(١) أخرجه ابن جرير (٣-٢/٦) وعبدالرزاق في المصنف (٦٢٩/١٤٨) عن مجاهد مرسلًا، وروي من طريقين الأول فيه سنيد والثاني فيه المثني بن الصباح وهما ضعيفان، وفيه علة إرسال مجاهد.

(٢) قوله: (تشيب له) الضمير يعود على العفو. ومعنى ذلك: التمهيد والتوطئة له، ولعله من قولهم: شيب الشاعر بفلانة إذا قال فيها الغزل وعرض بحبها (انظر المصباح المنير مادة شيب).

(٣) يونس: «٣٢».

(٤) قوله «للكافرين» وضع المظهر موضع المضمّر ذماً لهم وتذكيراً لوصفهم (س٢/٢٤٩).

وقرأ حفص عن عاصم وقالون عن يعقوب بالياء على تلوين الخطاب^(١). ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا﴾ لما فرط منهم. ﴿رَجِيمًا﴾ عليهم بتضعيف حسناتهم.

يَسْتَلِكْ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَنَا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِّيثَقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَوْلِهِمْ الْأَنْبِيَاءُ بَغْيٌ حَقٌّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

(١٥٣) ﴿يَسْتَلِكْ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود قالوا: إن كنت صادقاً فاتتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه السلام^(٢)، وقيل: كتاباً محرراً بخط سماوي على ألواح كما كانت التوراة، أو كتاباً نعاينه حين ينزل، أو كتاباً إلينا بأعياننا بأنك رسول الله. ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن استكبرت ما سألوه منك فقد سألو موسى عليه السلام أكبر منه، وهذا السؤال وإن كان من آبائهم أسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم، والمعنى أن عزفهم راسخ في ذلك وأن ما اقترحوه عليك ليس بأول جهالاتهم وخيالاتهم. ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً أي أرنا نره جهرة، أو مجاهرين معانين له. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ نار جاءت من قبل السماء فأهلكتهم. ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم وسؤالهم ما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً. ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ هذه الجناية الثانية التي اقترفها أيضاً أوائلهم، والبيّنات: المعجزات، ولا يجوز حملها على التوراة إذ لم تأت بهم بعد. ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَنَا مُبِينًا﴾ تسلطاً ظاهراً عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم.

(١٥٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم لقبولهم. ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ على لسان موسى والطور مظل عليهم. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ على لسان داود عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يراد على لسان موسى حين ظلل الجبل عليهم، فإنه شرع السبت ولكن كان الاعتداء فيه والمسوخ به في زمن داود عليه الصلاة والسلام. وقرأ ورش عن نافع لا تَعْدُوا على أن أصله لا تتعدوا فأدغمت التاء في الدال، وقرأ قالون بإخفاء حركة العين وتشديد الدال والنص عنه بالإسكان. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا.

(١) وقرأ الباقر «نؤتيهم» بالنون.

وقد كتب الأصل كذلك، أي بالنون.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/٦) عن السدي وأخرج نحوه عن قتادة بسند صحيح (٨/٦).

(١٥٥) ﴿فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي فخالفوا ونقضوا ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم، وما مزيدة للتأكيد، والياء متعلقة بالفعل المحذوف، ويجوز أن تتعلق بحرمانا عليهم طيبات فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطف عليه إلى قوله فبظلم لا بما دل عليه قوله ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾ مثل لا يؤمنون لأنه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون من صلة وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل في جازه. ﴿وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن، أو بما جاء في كتابهم. ﴿وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِتَحِيٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنة مما تدعونا إليه. ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فجعلها محجوبة عن العلم، أو خذلها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبدالله بن سلام، أو إيماناً قليلاً إذ لا عبرة به لنقصانه.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾

(١٥٦) ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على «بكفرهم» لأنه من أسباب الطبع، أو على قوله «فبما نقضهم» ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله، ويكون تكرير ذكر الكفر إيذاناً بتكرار كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ يعني نسبتها إلى الزنا.

(١٥٧) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي بزعمه ويحتمل أنهم قالوه استهزاء، ونظيره «أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون» وأن يكون استئنافاً من الله سبحانه وتعالى بمدحه، أو وضعاً للذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ روي أن رهطاً من اليهود سبوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه إلى السماء، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقي عليه شبيهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقام رجل منهم فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب. وقيل: كان رجلاً ينافقه فخرج ليدل عليه، فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وقتل. وقيل: دخل طيطانوس اليهودي بيتاً كان هو فيه فلم يجده، وألقى الله عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى فأخذ وصلب، وأمثال ذلك من الخوارق التي لا تستبعد في زمان النبوة، وإنما ذمهم الله سبحانه وتعالى بما دل عليه الكلام من جراتهم على الله سبحانه وتعالى، وقصدهم قتل نبيه المؤيد بالمعجزات الباهرة، وتبجحهم به لا بقولهم هذا على حسب حسابناهم. وشبهه مُسْتَدًّا إلى الجائر والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول، أو في الأمر على قول من قال: لم يُقتل أحد ولكن أُرْجِفَ بقتله فشاع بين الناس، أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثَمَّ قتيلاً. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع

منه أن الله سبحانه وتعالى يرفعني إلى السماء: أنه رفع إلى السماء، وقال قوم: صُلبَ الناسوت وصعد اللاهوت. ﴿لَيْ شَكٌّ مِنْهُ﴾ لفي تردد، والشك كما يطلق على ما لا يرجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد، وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكد بقوله: ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْتَ الظَّنُّ﴾ استثناء منقطع أي لكنهم يتبعون الظن، ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره فيتصل الاستثناء. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قتلاً يقيناً كما زعموه بقولهم إنا قتلنا المسيح، أو متيقنين. وقيل معناه ما علموه يقيناً كقول الشاعر:

كَذَاكَ تُخْرِعُ عَنْهَا الْعَالِمَاتُ بِهَا وَقَدْ قَتَلْتُ بِعِلْمِي ذَلِكُمْ يَقِينًا^(١)
من قولهم قتل الشيء علماً ونحرته علماً إذا أردت أن تبلغ في علمك.

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَبِئَتِ أُولَئِكَ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾

(١٥٨) ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لعيسى عليه الصلاة والسلام.

(١٥٩) ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، فقله ليؤمنن به جملة قَسَمِيَّة وقعت صفة لأحد ويعود إليه الضمير الثاني، والأول لعيسى عليه الصلاة والسلام. والمعنى ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت ولو حين أن تُزْهَقَ روحه ولا ينفعه إيمانه، ويؤيد ذلك أنه قرئ: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ بضم النون لأن أحداً في معنى الجمع، وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولم ينفعهم إيمانهم. وقيل الضميران لعيسى عليه أفضل الصلاة والسلام، والمعنى: أنه إذا نزل من السماء آمن به أهل الملل جميعاً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، وتقع الأَمَنَةُ حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدعون^(٢)، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالكذب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

(١٦٠) ﴿فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي فبأي ظلم منهم. ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَبِئَتِ أُولَئِكَ لَهُمْ﴾ يعني ما ذكره

(١) من البسيط واليقين محرقة. اليقين فهو من باب طرب.

(٢) أخرجه ابن حبان (رقم ١٩٠١ و ١٩٠٣ - موارد) وأبو داود (٤/٤٩٨ رقم ٤٣٢٤) وأحمد في المسند (٢/٤٠٦)،

(٤٣٧) والحاكم (٢/٥٩٥) والطبري (٤/ج ٢٢/٢٢). عن أبي هريرة.

قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح. قلت وهو حديث صحيح.

في قوله: «وعلى الذين هادوا حرمنا» ﴿وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ناساً كثيراً، أو صدأً كثيراً^(١).

وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

(١٦١) ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، وفيه دليل على دلالة النهي على التحريم. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دون من تاب وآمن.

(١٦٢) ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم، أو من المهاجرين والأنصار. ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ خبر المبتدأ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ نصب على المدح إن جعل يؤمنون الخبر لأولئك، أو عطف على ما أنزل إليك، والمراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي: يؤمنون بالكتب والأنبياء. وقرئ بالرفع عطفاً على الراسخون، أو على الضمير في يؤمنون، أو على أنه مبتدأ والخبر أولئك سنؤتيهم. ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ رفعه لأحد الأوجه المذكورة. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدق من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية. ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح وقرأ حمزة سيؤتيهم بالياء.

(١٦٣) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن أمره في الوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ خصهم بالذكر مع اشتغال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم، والباقيين أشرف الأنبياء ومشاهيرهم. ﴿وَأَدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وقرأ حمزة زبوراً بالضم وهو جمع زُبر، بمعنى مزبور.

(١٦٤) ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمّر دل عليه أوحينا إليك كأرسلنا، أو فسرّه: ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذه السورة أو اليوم. ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وهو

(١) قوله: «فبظلم من الذين هادوا» لعل ذكرهم بهذا العنوان للإيذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعدما هادوا أي تابوا مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخس النفوس (س/٢/٢٥٣).

منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم، وقد فضل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾

(١٦٥) ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا، أو على الحال ويكون رسلاً موطئاً لما بعده كقولك مررت بزيد رجلاً صالحاً. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقولوا لولا أزلنا رسلاً فينبهنا ويعلمنا ما لم نكن نعلم، وفيه تنبيه على أن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس ضرورة لقصور الكل عن إدراك جزئيات المصالح والأكثر عن إدراك كلياتها. واللام متعلقة بأرسلنا أو بقوله مبشرين ومنذرين، وحجة اسم كان وخبره للناس أو على الله والآخر حال، ولا يجوز تعلقه بحجة لأنه مصدر، وبعد ظرف لها أو صفة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب فيما يريد. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من أمر النبوة وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز.

(١٦٦) ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ استدراك عن مفهوم ما قبله فكانه لما تعنتوا عليه بسؤال كتاب ينزل عليهم من السماء، واحتج عليهم بقوله إنا أوحينا إليك، قال: إنهم لا يشهدون ولكن الله يشهد، أو أنهم أنكروه ولكن الله يثبت ويقرره. ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز الدال على نبوتك. روي أنه لما نزل «إنا أوحينا إليك» قالوا «ما نشهد لك» فنزلت^(١). ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنزله متلبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ، أو بحال من يستعد للنبوة ويستأهل نزول الكتاب عليه، أو بعلمه الذي يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم، فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث حال من المفعول، والجملة كالتفسير لما قبلها ﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بنبوتك. وفيه تنبيه على أنهم يودون أن يعلموا صحة دعوى النبوة على وجه يستغني عن النظر والتأمل، وهذا النوع من خواص الملك ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك سوى الفكر والنظر، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره.

(١٦٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/٦٣١) من طريقين عن ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. ومحمد بن أبي محمد مجهول.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَقَامُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكَتَبِ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَدُوحٌ مِنْهُ فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

(١٦٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ محمداً عليه الصلاة والسلام بإنكار نبوته، أو الناس بصددهم عما فيه صلاحهم وخلصهم، أو بأعم من ذلك. والآية تدل على أن الكفار مخاطبون بالفروع إذ المراد بهم الجامعون بين الكفر والظلم. ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ليجزي حكمه السابق ووعدته المحتوم على أن من مات على كفره فهو خالد في النار. وخالدين حال مقدرة. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه.

(١٧٠) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لما قرر أمر النبوة وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ووعد من أنكرها خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد. ﴿فَقَامُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي إيماناً خيراً لكم، أو اثتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم عليه. وقيل تقديره يكن الإيمان خيراً لكم، ومنعه البصريون لأن كان لا يحذف مع اسمه إلا فيما لا بد منه ولأنه يؤدي إلى الشرط وجوابه. ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني وإن تكفروا فهو غني عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم، ونبه على غناه بقوله ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو يعم ما اشتملتا عليه وما رُكبتا منه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر لهم^(١).

(١٧١) ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبِ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الخطاب للفريقين، غلت اليهود في حط عيسى عليه الصلاة والسلام حتى رموه بأنه ولد من غير رشدة، والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً. وقيل الخطاب للنصارى خاصة فإنه أوفق لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ يعني تنزيهه عن الصاحبة والولد. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها^(٢). ﴿وَدُوحٌ مِنْهُ﴾ وذو روح صدر منه لا بتوسط ما يجري مجرى الأصل والمادة له. وقيل سمي روحاً لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب. ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح

(١) قوله «جاءكم الرسول بالحق من ربكم» إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته.

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين للإيذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم ترغيباً لهم في الامتثال بما بعده (س ٢٥٨/٢).

(٢) وقوله «كلمته» أي مكون بكلمته وأمره الذي هو كن من غير واسطة أب ولا نظفة (س ٢٥٩/٢).

ومريم، ويشهد عليه قوله تعالى ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(١) أو الله ثلاثة إن صح أنهم يقولون الله ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأب الذات وبالابن العلم وبروح القدس الحياة. ﴿أَنْتَهُوا﴾ عن التثليث. ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ نصبه كما سبق. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ﴾ أي واحد بالذات لا تعدد فيه بوجه ما. ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي أسبّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد فإنه يكون لمن يعادله مثل ويتطرق إليه فناء. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً لا يماثله شيء من ذلك فيتحذه ولداً. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الأشياء كاف في ذلك مستغن عن من يخلقه أو يعينه.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

(١٧٢) ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ لن يأنف، من نكفُ الدمع إذا نحيته بأصبعك كيلا يرى أثره عليك. ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديته شرف يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره. روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لَمْ تَعِيبْ صَاحِبَنَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمَنْ صَاحِبُكُمْ؟ قَالُوا: عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ؟» قَالُوا: تَقُولُ إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بَعَارُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ» قَالُوا: بَلَى. فَتَرَلْتُ^(٢) ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله. واحتج به من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقال: مَسَاقُهُ لِرَدِّ قَوْلِ النَّصَارَى فِي رَفْعِ الْمَسِيحِ عَنْ مَقَامِ الْعِبُودِيَّةِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمَعْطُوفُ أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ حَتَّى يَكُونَ عَدَمُ اسْتِنكَافِهِمْ كَالدَّلِيلِ عَلَى عَدَمِ اسْتِنكَافِهِ. وَجَوَابُهُ: أَنَّ الْآيَةَ لِلرَّدِّ عَلَى عَبْدَةِ الْمَسِيحِ وَالْمَلَائِكَةِ فَلَا يَتَجَهَّزُ ذَلِكَ، وَإِنْ سُلِّمَ اخْتِصَاصُهَا بِالنَّصَارَى فَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِالْعُطْفِ الْمُبَالَغَةَ بِاعْتِبَارِ التَّكْثِيرِ دُونَ التَّكْبِيرِ كَقَوْلِكَ: أَصْبَحَ الْأَمِيرُ لَا يَخَالِفُهُ رَئِيسٌ وَلَا مَرْؤُوسٌ، وَإِنْ أَرَادَ بِهِ التَّكْبِيرَ فَعَايَتُهُ تَفْضِيلُ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ الْكُرُوبِيُّونَ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، أَوْ مَنْ أَعْلَى مِنْهُمْ رَتَبَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْمَسِيحِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَذَلِكَ لَا يَسْتَلْزِمُ فَضْلَ أَحَدِ الْجَنْسَيْنِ عَلَى الْآخَرِ مُطْلَقاً وَالتَّزَاغَ فِيهِ ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ومن يرتفع عنها، والاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه وإنما يستعمل من حيث الاستحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون بالاستحقاق. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم^(٣).

(١) المائدة: «١١٦».

(٢) عزاء الواحد في أسباب النزول للكلبي (ص ١٩٠) والكلبي ضعيف، وهو بدون إسناد.

(٣) قوله «ومن يستنكف عن عبادته» جعل المستنكف عنه ههنا عبادته تعالى لا ما سبق لتعليق الوعيد بوصف ظاهر الثبوت للكفرة (س ٢/ ٢٦١).

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُلُّهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَسْرُؤُاْ هَلَكَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ ؕ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

(١٧٣) ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ تفصيل للمجازاة العامة المدلول عليها من فحوى الكلام، وكأنه قال: فسيحشرهم إليه جميعاً يوم يحشر العباد للمجازاة، أو لمجازاتهم فإن إثابة مقابلتهم والإحسان إليهم تعذيب لهم بالغم والحسرة^(١).

(١٧٤) ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُلُّهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ عنى بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن، أي قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة، وقيل: البرهان الدين أو رسول الله ﷺ أو القرآن^(٢).

(١٧٥) ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ في ثواب قدره بإزاء إيمانه وعمّله رحمة منه، لا قضاء لحق واجب. ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ إحسان زائد عليه. ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى ﴾ إلى الله سبحانه وتعالى، وقيل إلى الموعود. ﴿ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الآخرة.

(١٧٦) ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ أي في الكلاله، حُذِفَتْ لدلالة الجواب عليه. روي أن جابر بن عبد الله كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلاله فكيف أصنع في مالي؟ فتزلت وهي آخر ما نزل من الأحكام^(٣).

وكذلك فإن اتخاذ عيسى معبوداً استنكاف عن عبادته تعالى.

(١) وقدم الذين آمنوا على الذين استنكفوا لبيان فضلهم. وأوردتهم بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات (س/٢/٢٦٢).

(٢) وقوله «برهان من ربكم» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتربيتهم وتكميلهم (س/٢/٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (١١٤/١٠ رقم ٥٦٥١) و(٣/١٢ رقم ٦٧٢٣) و(١٣/٢٩٠ رقم ٧٣٠٩). ومسلم (٣/١٢٣٤ رقم ١٦١٦/٥) وأبو داود (٣/٣٠٨ رقم ٢٨٨٦) والترمذي (٤/٤١٧ رقم ٢٠٩٧) و(٥/٢٣٤ رقم ٣٠١٥) والنسائي (١/٨٧ رقم ١٣٨) وابن ماجه (١/٤٦٢ رقم ١٤٣٦) مختصراً، و(٢/٩١١ رقم ٢٧٢٨).

كلهم من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر - به.

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ سبق تفسيرها في أول السورة. ﴿إِنْ أَسْرَأْ هَٰلَكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ارتفع امرؤ بفعل يفسره الظاهر، وليس له ولد صفة له أو حال من المستكن في هلك، والواو في «وله» يحتمل الحال والعطف. والمراد بالأخت الأخت من الأبوين أو الأب لأنه لجعل أخوها عَصْبَةً وابن الأم لا يكون عَصْبَةً، والولد على ظاهره فإن الأخت وإن ورثت مع البنت عند عامة العلماء - غير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - لكنها لا ترث النصف. ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي والمرء يرث إن كان الأمر بالعكس. ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى إن أريد بيرثها يرث جميع مالها، وإلا فالمراد به الذكور إذ البنت لا تحجب الأخ، والآية كما لم تدل على سقوط الإخوة بغير الولد لم تدل على عدم سقوطهم به، وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب وكذا مفهوم قوله ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ إن فسرت بالميت. ﴿فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة، وتثنيته محمولة على المعنى، وفائدة الإخبار عنه باثنتين التنبية على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما. ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أصله وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكور. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْكَافِيَاتِ﴾ أي يبين الله لكم ضلالكم الذي من شأنكم إذا

= وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٣٠٧/٣) والطبري في جامع البيان (٤/٤١/٦) وأبو يعلى (١٥/٤) رقم (٢٠١٨) وابن الجارود (رقم: ٩٥٨) والحميدي (رقم: ١٢٢٩) وابن خزيمة (رقم: ١٠٦).
كلهم من طريق ابن عيينة عن ابن المنكدر عن جابر - به.
وأخرجه عبد بن حميد (رقم ١٠٦٤ - منتخب) وأبو داود (٣٠٨/٣) رقم (٢٨٨٧).
والنسائي في الكبرى (تحفة رقم: ٢٩٧٧) والطبري في جامع البيان (٤/٤١/٦) والطيلوسي (رقم: ١٧٤٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٣١/٦) والواحدي في أسباب النزول (ص ١٨٧ - ١٨٨).
من طريق أبي الزبير عن جابر - به.
وأخرج البخاري (٢٤٣/٨) رقم (٤٥٧٧) ومسلم (٣/١٢٣٤) رقم (١٦١٦/٦) والنسائي (تحفة رقم: ٣٠٦٠) والطبري في جامع البيان (٣/٢٧٦/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢١٢) والواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٤ - ١٤٥) من طريق ابن جريج عن ابن المنكدر عن جابر - به.
قلت: قد اختلفت الطرق والروايات في حديث جابر هذا وجاء في بعضها أن الآية التي نزلت في قصة فرضه هي آية «يوصيكم الله في أولادكم...» [النساء: ١١].
وفي بعض الروايات أن الآية هي «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله...» [النساء: ١٧٦].
وفي بعضها فنزلت آية الفرائض وفي البعض الآخر فنزلت آية الموارث. فقال الحافظ بالنسبة لرواية ابن جريج - في الفتح (٢٤٣/٨) -: «وقيل إنه وهم في ذلك وأن الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه الآية الأخيرة من النساء... لأن جابراً يومئذ لم يكن له والد ولا ولد، والكلالة من لا ولد له ولا والد...» هـ. ١.
ثم قال الحافظ في الفتح أيضاً (٢٤٤/٨): «ولم ينفر ابن جريج بتعيين الآية المذكورة فقد ذكرها ابن عيينة أيضاً على الاختلاف عنه... فالحاصل أن المحفوظ عن ابن المنكدر أنه قال (آية الموارث أو آية الفرائض)، والظاهر أنها «يوصيكم الله» كما صرح به في رواية ابن جريج ومن تابعه، وأما من قال إنها «يستفتونك» فعمدته أن جابراً لم يكن له حيثئذ وله، وإنما كان يورث كلالة، فكان المناسب لقصته نزول الآية الأخيرة، لكن ليس بلازم، لأن الكلالة مختلف في تفسيرها: فقليل هم اسم المال الموروث، وقيل اسم الميت، وقيل اسم الإرث، وقيل ما تقدم... هـ. ١. وانظر بقية كلام ابن حجر فإنه مفيد.

خُلِّيتُمْ وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه، أو يبين لكم الحق والصواب كراهة أن تضلوا. وقيل لثلاث تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، ووُزِّت ميراثاً وأُعطي من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرىء من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم»^(١).



(١) رواه الثعلبي والواحد في تفسيرهما، وهو موضوع. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢٣٩/١ - ٢٤٠) أبواب تتعلق بالقرآن، باب فضائل القرآن.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْتَفُونَ فُضُلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرَضُوا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الوفاء هو القيام بمقتضى العهد، وكذلك الإيفاء. والعقد العهد الموثق قال الحطيطه:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِحَارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرْبَا

وأصله الجمع بين الشيتين بحيث يعسر الانفصال، ولعل المراد بالعقود ما يعم العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده وألزمها إياهم من التكليف، وما يَعْقِدُونَ بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به، أو يحسن إن حملنا الأمر على المشترك بين الوجوب والندب. ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ تفصيل للعقود. والبهيمة كل حي لا يميز. وقيل كل ذات أربع، وإضافتها إلى الأنعام للبيان كقولك: ثوب خز، ومعناه البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية وألحق بها الطباء وبقر الوحش. وقيل هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم الأنياب، وإضافتها إلى الأنعام لملازمة الشبه^(١). ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلا محرم ما يتلى عليكم كقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَانَةُ﴾^(٢) أو إلا ما يتلى عليكم تحريمه. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير

(١) وقدم الجار والمجرور «لكم» على القائم الفاعل «بهيمة..» لإظهار العناية بالمقدم من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إلى وروده (س/٣/٢).

(٢) المائدة: «٣».

في لكم. وقيل من واو ﴿أَوْفُوا﴾ وقيل استثناء وفيه تعسف، والصيد يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ حال مما استكن في مُحلي، والحرم جمع حرام وهو المحرم. ﴿لَإِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من تحليل أو تحريم.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ يعني مناسك الحج، جمع شعيرة وهي اسم ما أشعر أي جعل شعاراً، سمي به أعمال الحج ومواقفه لأنها علامات الحج وأعلام النسك. وقيل دين الله لقوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾^(١) أي دينه. وقيل فرائضه التي حدها لعباده. ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه أو بالنسيء. ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ ما أهدي إلى الكعبة، جمع هدية كجذّي في جمع جدية السرح. ﴿وَلَا الْقُلُودَ﴾ أي ذوات القلائد من الهدى، وعطفها على الهدى للاختصاص فإنها أشرف الهدى، أو القلائد أنفسها والنهي عن إحلالها مبالغة في النهي عن التعرض للهدى، ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾^(٢). والقلائد جمع قلادة وهي ما قلّد به الهدى من نعل أو لَحَاء شجر أو غيرهما ليُعلم به أنه هدي فلا يُعرض له. ﴿وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ قاصدين لزيارته. ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَحْمَةٍ وَرِضْوَانًا﴾ أن يشيهم ويرضى عنهم، والجملة في موضع الحال من المستكن في آئتين وليست صفة له، لأنه عامل، والمختار أن اسم الفاعل الموصوف لا يعمل، وفائدته استنكار تعرض من هذا شأنه والتنبية على المانع له. وقيل معناه يتبعون من الله رزقاً بالتجارة ورضواناً بزعمهم، إذ روي أن الآية نزلت عام القضية في حُجّاج اليمامة لما هم المسلمون أن يتعرضوا لهم بسبب أنه كان فيهم الحطيم بن شريح بن ضبيعة وكان قد استاق سَرْح المدينة^(٣)، وعلى هذا فالآية منسوخة. وقرئ تبتغون على خطاب المؤمنين ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أذن في الاصطياد بعد زوال الإحرام، ولا يلزم من إرادة الإباحة ههنا من الأمر دلالة الأمر الآتي بعد الحظر على الإباحة مطلقاً. وقرئ بكسر الفاء على إلقاء حركة الوصل عليها وهو ضعيف جداً^(٤) وقرئ أخللتم يقال حل المحرم وأحل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم أو لا يكسبنكم. ﴿شَتَاتٍ قَوِيٍّ﴾ شدة بغضهم وعداوتهم، وهو مصدر أضيف إلى المفعول أو الفاعل. وقرأ ابن عامر وإسماعيل عن نافع وابن عياش عن عاصم بسكون النون، وهو أيضاً مصدر كليان أو نعت بمعنى: بغيض قوم، وقيلان في النعت أكثر كعطشان وسكران. ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لأن صدوكم عنه عام الحديبية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم. ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ بالانتقام، وهو ثاني مفعولي يجرمنكم فإنه يعدّى إلى واحد وإلى اثنين ككسب. ومن قرأ يُجرمنكم بضم الياء جعله منقولاً من المتعدي إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ﴾

(١) الحج: (٣٢).

(٢) النور: (٣١).

(٣) أخرجه ابن جرير عن عكرمة وعن السدي (٥٨/٦، ٥٩) وطريق السدي حسن (تخريج الفتح السماوي ص ٥٤٧) والحطيم جاء للنبي عليه السلام وأظهر له الإسلام فلما خرج مَرَّ بسرح المدينة فاستاق فطلبوه فعجزوا عنه.

(٤) قوله (ضعيف جداً) أي من جهة العربية لأن النقل إلى المتحرك مخالف للقياس. لكن أبا حيان بين أنه لم يُقرأ بكسر محض، بل قرئ بالإمالة المحضة لتوهم وجود كسرة همزة الوصل، كما أمالوا الفاء في فإذا لوجود كسرة إذا (البحر المحيط ٤٢١/٣).

وَالْتَقَوْا ﴿١﴾ عَلَى الْعَفْوِ وَالْإِغْضَاءِ وَمَتَابَعَةِ الْأَمْرِ وَمَجَانِبَةِ الْهَوَى . ﴿٢﴾ وَلَا تَعَاوُزُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿٣﴾ لِلتَّشْفِي وَالْإِنْتِقَامِ . ﴿٤﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ فانتقامه أشد .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فُسْقٌ يَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ﴾ بيان ما يتلى عليكم، والميتة ما فارقه الروح من غير تذكية. ﴿وَالْدَّمُ﴾ أي الدم المسفوح لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾^(١) وكان أهل الجاهلية يصبونه في الأمعاء ويشوونها. ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي رفع الصوت لغير الله به كقولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه. ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي التي ماتت بالخنق. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت، من وَقَذَتْهُ إِذَا ضَرَبَتْهُ. ﴿وَالْمُتَرَدِّيةُ﴾ التي تردت من علو أو في بئر فماتت. ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح، والتاء فيها للنقل. ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ وما أكل منه السبع فمات، وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم تحل. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. وقيل الاستثناء مخصص بما أكل السبع. والذكاة في الشرع لقطع الحلقوم والمريء بمحدد. ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ النصب واحد الأنصاب، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعتدون ذلك قربة. وقيل هي الأصنام، وعلى بمعنى اللام، أو على أصلها بتقدير وما ذبح مستى على الأصنام. وقيل هو جمع والواحد نصاب. ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ أي وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمرني ربي وعلى الآخر: نهاني ربي والثالث غفل، فإن خرج الأمر مَضُوعاً على ذلك وإن خرج الناهي تجنبوا عنه وإن خرج الغفل أجعلوها ثانياً، فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم لهم بالأزلام. وقيل: هو استقسام الجُزُور بالأقداح على الأنصاب المعلوم. وواحد الأزلام زَلَمَ كَجَمَلَ وَزَلَمَ كَصَرَدَ. ﴿ذَلِكُمْ فُسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام، وكونه فسقاً لأنه دخول في علم الغيب وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه، وافتراء على الله سبحانه وتعالى إن أريد بربي الله، وجهالة وشرك إن أريد به الصنم أو الميسر المحرم أو إلى تناول ما حرم عليهم. ﴿أَلْيَوْمَ﴾ لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية: وقيل أراد يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة في عرفة حجة الوداع. ﴿يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث وغيرها، أو من أن يغلبوكم عليه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم. ﴿وَأَخْشَوْنَ﴾ وأخلصوا الخشية لي. ﴿أَلْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على

أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد. ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، أو بفتح مكة وهدم منار الجاهلية. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ اخترته لكم ديناً من بين الأديان وهو الدين عند الله لا غير. ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض لما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي، والمعنى: فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات. ﴿فِي مَخْصَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل له ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة كقوله ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ به بأكله.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

(٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ لما تضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة، وقد سبق الكلام في ماذا، وإنما قال لهم ولم يقل لنا على الحكاية، لأن يسألونك بلفظ الغيبة وكلا الوجهين سائغ في أمثاله، والمسؤول ما أُحِلَّ لهم من المطاعم كأنهم لما تلي عليهم ما حُرِّم عليهم سألوا عما أُحِلَّ لهم. ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ مالم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه، ومن مفهومه حَرِّم مستخبثات العرب، أو مالم يدل نص ولا قياس على حرمة. ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطف على الطيبات إن جُعِلَتْ ما موصولة على تقدير وصيد ما علمتم، وجملة شرطية إن جُعِلَتْ شرطاً وجوابها فكلوا. والجوارح كواسب الصيد على أهلها، من سباع ذوات الأربع والطيور ﴿مُكَلِّينَ﴾ معلِّمين إياه الصيد، والمكَلَّبُ مُؤَدَّبُ الجوارح ومُضْرِبُهَا^(١) بالصيد، مشتق من الكَلَب، لأن التأديب يكون أكثر فيه وأثر، أو لأن كل سبع يسمى كلباً لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك»^(٢). وانتصابه على الحال من عَلَّمْتُم، وفائدتها المبالغة في التعليم. ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية، أو استئناف. ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله أن تُعَلِّمُوهُ من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه. ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو مالم تأكل منه، لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم «إن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على

(١) مضري الجوارح هو الذي اعتادها واجترأ عليها (المصباح المنير مادة ضري).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٣٩/٢) من حديث أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه كان لهب بن أبي لهب يسب النبي عليه السلام، فقال: «اللهم سلط عليه كلبك» فخرج في قافلة يريد الشام فتزلوا منزلاً فقال: إني أخاف دعوة محمد فحطوا متاعه حوله وقعدوا يحرسونه، فجاء الأسد فانتزعه فذهب.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

قلت: فيه العباس بن الفضل الأنصاري، عن الأسود بن شيبان، وذكره المزي في تلاميذ الأسود (العباس بن الفضل الأزرق). أياً كان منهما فكلامهما متروك. انظر التقریب (١/٣٩٨ - ٣٩٩). فالحديث موصوع.

نفسه»^(١)، وإليه ذهب أكثر الفقهاء، وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر، وقال آخرون: لا يشترط مطلقاً. ﴿وَأَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَيَّ﴾ الضمير لما علمتم والمعنى: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن بمعنى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته. ﴿وَالْتَقُوا اللَّهَ﴾ في محرماته. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيؤاخذكم بما جَلَّ ودق.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾

(٥) ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعم الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، واستثنى علي رضي الله تعالى عنه نصارى بني تغلب وقال: ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر^(٢)، ولا يلحق بهم المجوس في ذلك وإن ألحقوا بهم في التقرير على الجزية لقوله عليه الصلاة والسلام: «سُئِلُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ، غَيْرَ نَاكِحِي نِسَائِهِمْ وَلَا أَكَلِي ذَبَائِحِهِمْ»^(٣) ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ﴾ فلا عليكم أن تُطْعِمُوهُمْ وتبيعوه منهم، ولو حُرِّمَ عليهم لم يجز ذلك. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر، أو العفاف. وتخصيصهن بَعَثَ على ما هو الأولى. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وإن كن حريات، وقال ابن عباس لا تَحِلُّ الْحَرِيَّاتُ. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على ما هو الأولى. وقيل

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩/٩ رقم ٥٤٨٣) و(٦١٢/٩ رقم ٥٤٨٦ ورقم ٥٤٨٧) ومسلم (١٥٢٩/٣ رقم ٢، ١٩٢٩/٣) من حديث عدي بن حاتم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٧٢/٦ رقم ١٠٠٣٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٤/٩) عن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢٧٨/١ رقم ٤٢) والشافعي في ترتيب المسند (١٣٠/٢ رقم ٤٣٠) وعبد الرزاق في المصنف (٦٨/٦ رقم ١٠٠٢٥) و(٣٢٥/١٠ رقم ١٩٢٥٣) عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم، فقال عبدالرحمن بن عوف: أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب». وإسناده منقطع. وأخرج عبد الرزاق في المصنف (٦٨/٦ رقم ١٠٠٢٤) من طريق ابن جريج قال: أخبرني عمرو بن دينار عن بجاللة التميمي، أن عمر بن الخطاب لم يرد أن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. وإسناده متصل صحيح.

المراد بإيثارها التزامها ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفاءً بالنكاح. ﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا. ﴿وَلَا تُخْذِلِي أَخَذَانِ﴾ مسرين به. والخِذْنُ الصديق، يقع على الذكر والأنثى. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يريد بالإيمان شرائع الإسلام وبالكفر إنكاره والامتناع عنه.

(٦) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١) عبر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة. أو إذا قصدتم الصلاة لأن التوجه إلى الشيء والقيام إليه قصد له. وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً، والإجماع على خلافه لما روي أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: «عمداً فعلته»^(٢) ف قيل مُطْلَقٌ أريد به التقييد، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين. وقيل الأمر فيه للندب. وقيل كان ذلك أول الأمر ثم نُسخ، وهو ضعيف لقوله عليه الصلاة والسلام: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فَأَجْلُوا حلالها وحرّموا حرامها»^(٣) ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أمروا الماء عليها. ولا حاجة إلى ذلك خلافاً لمالك. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغمسول، ولذلك قيل: «إلى» بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾^(٤) أو متعلقة بمحذوف تقديره: وأيديكم مضافةً إلى المرافق، ولو كان كذلك لم يبقَ لمعنى التحديد ولا لذكره مزيد فائدة، لأن مطلق اليد يشتمل عليها. وقيل: إلى تفيد الغاية مطلقاً، وأما دخولها في الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وإنما يعلم من خارج ولم يكن في الآية، وكانت الأيدي متناولة لها فحكم بدخولها احتياطاً. وقيل إلى من حيث إنها تفيد الغاية تقتضي خروجها وإلا لم تكن غاية لقوله تعالى: ﴿فَنَظَرُوكَ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْآتِلِ﴾^(٦) لكن لما لم تتميز الغاية ههنا عن ذي الغاية وجب إدخالها احتياطاً. ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء مزيدة. وقيل للتبعيض، فإنه الفارق بين قولك مسحت المنديل وبالمنديل، ووجهه أن يقال إنها تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق فكأنه قيل: وألصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب بخلاف ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم فإنه كقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾. واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي رضي الله عنه تعالى أقل ما يقع عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه مَسَحَ رِيعَ الرَّأْسِ لأنه عليه الصلاة والسلام مسح

(١) النحل: «٩٨».

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢/١) رقم ٢٧٧/٨٦ وأبو داود (١٢٠/١) رقم ١٧٢) والترمذي (٨٩/١) رقم ٦١ والنسائي (٨٦/١) رقم ١٣٣ وابن ماجه (١٧٠/١) رقم ٥١٠ من حديث بريدة.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١١/٢) من طريق جبير بن نفير، قال: «دخلت على عائشة. فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت سورة المائدة... الحديث. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) هود: «٥٢».

(٥) البقرة: «٢٨٠».

(٦) البقرة: «١٨٧».

على ناصيته^(١) وهو قريب من الربع، ومالك رضي الله تعالى عنه مسح كله أخذاً بالاحتياط. ﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ نصبه نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب عطفاً على وجوهكم، ويؤيده: السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد إذ المسح لم يُحَدِّد. وجره الباقون على الجوار، ونظيره كثير في القرآن والشعر كقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يَوْمَ الْيَمِّ﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالجر في قراءة حمزة والكسائي، وقولهم: حُجْرٌ ضَبَّ خرب. وللنحاة باب في ذلك، وفائدته التنبيه على أنه ينبغي أن يقتصد في صب الماء عليها ويغسل غسلاً يقرب من المنسح. وفي الفصل بينه وبين أخويه إيماء على وجوب الترتيب. وقرأ بالرفع على وأرجلكم مغسولة. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا﴾ فاعتسلوا. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ سبق تفسيره، ولعل تكريره ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد الأمر بالطهارة للصلاة أو الأمر بالتيمم تضييقاً عليكم. ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ لينظفكم، أو ليطهركم عن الذنوب فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء، فمفعول يريد في الموضعين محذوف. واللام للعلة، وقيل مزيدة، والمعنى: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج حتى لا يرخص لكم في التيمم، ولكن يريد أن يطهركم وهو ضعيف لأن أن لا تقدَّر بعد المزيدة. ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ليتِمَّ بشره ما هو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم نعمته عليكم في الدين، أو ليتِمَّ برخصه إنعامه عليكم بعزائه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته. والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثني: طهارتان أصل وبدل، والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود، وأن ألتهما مائع وجامد، وموجبهما حدث أصغر وأكبر، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر، وأن الموعد عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة.

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

(٧) ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره. ﴿وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، أو ميثاق ليلة العقبة أو بيعة الرضوان^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١/٢٣٠ - ٢٣١ رقم ٨١، ٨٢، ٨٣/٢٧٤) من حديث المغيرة بن شعبة في قصة فيها: «ومسح بناصرته وعلى العمامة وعلى خفيه». وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/٣٨٠ رقم ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨) من حديثه أيضاً: «أن النبي ﷺ توضعاً ومسح على ناصيته».

والناصرية: مقدم الرأس.

(٢) وفائدة التقييد بقوله «إذ قلتم سمعنا وأطعنا» تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه (س/١١/٣).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في إنساء نعمته ونقض ميثاقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بخفياتها فيجازيكم عليها فضلاً عن جليات أعمالكم^(١).

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(٨) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا﴾ عداء بعلى لتضمنه معنى الحمل، والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشقياً مما في قلوبكم. ﴿ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى، وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به. وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأولى نزلت في المشركين وهذه في اليهود، أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء نائرة الغيظ.

(٩) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ إنما حذف ثاني مفعولي وعد استغناء بقوله لهم مغفرة فإنه استئناف يبينه. وقيل الجملة في موضع المفعول فإن الوعد ضرب من القول وكأنه قال: وعدهم هذا القول.

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هذا من عادته تعالى، أن يتبع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاء بحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطيب لقلوبهم.

(١١) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ روي أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان قاموا إلى الظهر معاً، فلما صلوا ندموا ألا كانوا أکبوا عليهم، وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى العصر، فرد الله عليهم كيدهم بأن أنزل عليهم صلاة الخوف^(٢). والآية إشارة إلى ذلك،

(١) وإظهار الاسم الجليل بقوله «إن الله» وهو موقع إضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة (س ٣/١٢).

(٢) قال ابن حجر في (الكافي الشافى) رقم (٤٤٦):

أخرجه «الطبري» من رواية النضر بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس بتغيير فيه، ولفظه قال: «خرج رسول الله ﷺ في غزاة. فلقي المشركين بمسقلان. فلما صلى الظهر فرأوه يركع ويسجد قال بعضهم لبعض: كان فرصة لكم لو أغرتم عليهم ما علوا بكم قال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى». والباقي نحوه..

وقيل إشارة إلى ما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى قريظة ونعه الخلفاء الأربعة يستقرضهم لدية مسلمين قتلها عمرو بن أمية الضمري يحسبهما مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك، فأجلسوه وهموا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رَحَى عظيمة يطرحتها عليه، فأمسك الله يده فتزل جبريل فأخبره فخرج^(١). وقيل: نزل رسول الله ﷺ منزلاً وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه، فجاء أعرابي فسل سيفه وقال: مَنْ يمنعك مني؟ فقال: الله! فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول ﷺ وقال: «مَنْ يمنعك مني؟» فقال: لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فنزلت^(٢) ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والإهلاك، يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط إليه لسانه إذا شتمه. ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ منعها أن تمتد إليكم ورد مضرتها عنكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر^(٣).

= وأصله في مسلم (١/٥٧٥ رقم ٨٤٠/٣٠٨) من رواية أبي الزبير عن جابر «غزونا مع النبي ﷺ قوماً من جهينة فقاتلونا قتالاً شديداً فلما صلينا الظهر قال المشركون: لو ملنا عليهم لا قطعناهم فقالوا: إنهم سيأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولى فأخبر جبريل النبي ﷺ، وذكر ذلك لنا رسول الله ﷺ فلما حضرت العصر صفتنا صفين.. الحديث».

وللترمذي (٥/٢٤٣ رقم ٣٠٣٥) والنسائي (٣/١٧٤ رقم ١٥٤٤) من طريق عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة نحوه. (١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٣/١٨٠) وأبو نعيم في الدلائل (٢/٦٢٩) من طريق محمد بن عمرو بن خالد الحراني عن أبيه عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير، قال: خرج رسول الله ﷺ فذكر نحوه.. كما أخرج البيهقي في الدلائل أيضاً (٣/٣٥٤) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان مرسلأ أيضاً. وعند أبي نعيم في الدلائل (٢/٦٢٨) من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ومن طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس. وعند الجميع (أتى بني النضير) دون (بني قريظة) وهو الصواب. وكذا أخرج الطبري في جامع البيان (٤/١٤٤ ج ٦) من طريق ابن إسحاق عن عمر بن عاصم وعبد الله بن أبي بكر بن حزم.

(٢) أخرجه البخاري (٦/٩٦ رقم ٢٩١٠) و(٦/٩٧ رقم ٢٩١٣) و(٧/٤٢٦ رقم ٤١٣٤) و(١٣٥ رقم ٤١٣٦) ومسلم (٤/١٧٨٦ - ١٧٨٧ رقم ١٣، ١٤/٨٤٣) من طرق عن جابر.

(٣) قوله «أن يبسطوا إليكم أيديهم» قدم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمساواة إلى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم حملاً لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمة دفعه.

وقوله «فكف أيديهم عنكم» أظهر أيديهم في موقع الإضرار لزيادة التقرير. (س ٣/١٣).

وقوله «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» أثر صيغة أمر الغائب وأسندها للمؤمنين لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني، وللإيدان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوى وازعج عن الإخلال بهما (س ٣/١٤).

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(١٢) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ شاهداً من كل سبط ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به. روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر، أمرهم الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال: إني كتبته لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا مَنْ فيها فإني ناصركم، وأمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أمروا به، فأخذ عليهم الميثاق واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار ونهاهم أن يحدثوا قومهم، فرأوا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم، ونكث الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ويوشع بن نون من سبط أفرائيم بن يوسف. ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالنصرة ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، وأصله الذب، ومنه التعزيز. ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير، وقرضاً يحتمل المصدر والمفعول. ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام في لئن ساء مسد جواب الشرط. ﴿ وَلَا دُخْلَنَّاكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم. ﴿ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه بخلاف من كفر قبل ذلك، إذ قد يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة.

(١٣) ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ طردناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية. ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ لا تفعل عن الآيات والنذر. وقرأ حمزة والكسائي قَسِيَةً، وهي إما مبالغة قاسية أو بمعنى رديئة من قولهم درهم قَسي إذا كان مغشوشاً، وهو أيضاً من القسوة فإن المغشوش فيه بيس وصلابة، وقرئ قَسِيَةً باتباع القاف للسين. ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ استئناف لبيان قسوة قلوبهم، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه، ويجوز أن يكون حالاً من مفعول لعناهم لا من القلوب إذ لا ضمير له فيه^(١). ﴿ وَنَسُوا حَظًّا ﴾

(١) قوله «يحرّفون» بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار.

وتركوا نصيباً وافياً. ﴿وَمَعَاذَكُرُوايَهُ﴾ من التوراة، أو من اتباع محمد ﷺ، والمعنى أنهم حرفوا التوراة وتركوا حفظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه، وقيل معناه أنهم حرفوها فزكت بشؤمه أشياء منها عن حفظهم، لما روي أن ابن مسعود قال: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية^(١). ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ خيانة منهم أو فرقة خائنة أو خائن، والتاء للمبالغة، والمعنى أن الخيانة والغدر من عاداتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم، وقيل استثناء من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ ﴿فَاعَفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزية. وقيل: مطلق نُسَخَ بآية السيف. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتنبية على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلاً عن العفو عن غيره.

(١٤) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّةٌ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم، وقيل تقديره ومن الذين قالوا إنا نصارى قوم أخذنا، وإنما قال: «قالوا إنا نصارى» ليدل على أنهم سمّوا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله سبحانه وتعالى. ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا﴾ فالزمننا، من غري بالشيء إذا لصق به. ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْدَاوَةُ وَالْبَقِصَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ بين فرق النصارى، وهم نسطورية^(٢) ويعقوبية^(٣)

(١) قال ابن حجر في الكافي الشافى رقم (٤٤٩).

«أخرجه ابن المبارك في الزهد - (ص ٢٢٩ رقم ٨٥١) -، قال أخبرنا عبدالرحمن المسعودي عن القاسم عن عبدالله بن مسعود قال: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم تعلمه بالخطيئة يعملها» وهذا منقطع.
- قلت: القاسم بن عبدالرحمن ثقة، يروي عن أبيه وجده مرسلًا - وكذا أخرجه الدارمي - (١٠٥/١) - والطبراني في الكبير (٢١٢/٩ رقم ٨٩٣٠) -.

قلت: وكذا وكيع في الزهد رقم (٢٦٩) في إحدى طريقيه، وأبو خيثمة في العلم رقم (١٣٢) والخطيب في اقتضاء العلم بالعمل (رقم: ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (١/١٣١) وابن عبد البر في بيان العلم (١/٢٣٩) كلهم من طريق المسعودي عن القاسم عن عبد الله بن مسعود.

وأخرجه وكيع في الزهد (٢٦٩) في إحدى طريقيه (والبهقي في المدخل رقم: ٤٨٧) عن المسعودي عن الحسن بن سعد عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه.

قلت: سماع وكيع من المسعودي قبل الاختلاط. وقد سمع عبدالرحمن بن عبدالله من أبيه انظر الجرح والتعديل (٢٤٨/٥) فإسناده صحيح.

(٢) النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة. قال: إن الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة. وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم.

انظر «الملل والنحل» للشهرستاني (ص ٢٢٥ - ٢٢٦).

(٣) اليعقوبية: أصحاب يعقوب. قالوا بالأقانيم الثلاثة كما ذكرنا، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح. وهو الظاهر بجسده، بل هو هو. وعنهم أخبرنا القرآن الكريم [لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم (المائدة الآية ٧٢)].

وملكانية^(١)، أو بينهم وبين اليهود. ﴿وَسَوْفَ يُنْصِتُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بالجزء والعقاب^(٢).

يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى، وَخَدَّ الكتاب لأنه للجنس. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ كنعت محمد ﷺ وآية الرجم في التوراة وبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام بأحمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل. ﴿وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يُخْبِر به إذا لم يَضْطَر إليه أمرٌ ديني، أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يعني القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز، وقيل يريد بالنور محمد ﷺ^(٣).

(١٦) ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ وَخَدَّ الضمير لأن المراد بهما واحد، أو لأنهما كواحد في الحكم. ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ من اتبع رضاه بالإيمان منهم. ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله. ﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من أنواع الكفر إلى الإسلام. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته

انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (ص ٢٢٦ - ٢٢٩).

(١) الملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. ومعظم الروم ملكانية. قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته. ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا، بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.

انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (ص ٢٢٣ - ٢٢٥).

(٢) وعبر عن العمل بالصنع للإيدان برسوخهم في ذلك. وعبر عن المجازاة بالتنبيه للتنبيه على أنهم لا يعلمون حقيقة ما يعملونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب (س ١٧/٣).

(٣) قوله «يا أهل الكتاب» أوردتهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب، وللمبالغة في التشنيع فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون.

وقوله «رسولنا» الإضافة فيه للتشريف والإيدان بوجوب اتباعه (س ١٨/٣).

أو توفيقه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق هو أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى ومؤدًى إليه لا محالة.

(١٧) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم. وقيل: لم يصرح به أحد منهم، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا لا إله إلا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح، فنسب إليهم لازم قولهم توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فمن يمنع من قدرته وإرادته شيئاً. ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ الْمَسِيحُ﴾ عيسى. ﴿ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ احتج بذلك على فساد عقولهم، وتقريره: أن المسيح مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إزاحة لما عرض لهم من الشبهة في أمره، والمعنى أنه سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض ومن أصل كخلق ما بينهما، فينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يُجَانِسُهُ إما مِنْ ذَكَرٍ وحده كما خلق حواء أو من أنثى وحدها كعيسى أو منهما كسائر الناس^(١).

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ أشياغ ابنه عزيراً والمسيح، كما قيل لأشياغ ابن الزبير الحبيبون أو المقربون عنده قُرْبِ الأولاد من والدهم، وقد سبق لنحو ذلك مزيد بيان في سورة آل عمران. ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي فإن صح ما زعمتم فلِمَ يعذبكم بذنوبكم فإن من كان بهذا المنصب لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسوخ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ ممن خلقه الله تعالى. ﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وهم من آمن به وبرسله. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم من كفر، والمعنى أنه يعاملكم معاملة سائر الناس لا مزية لكم عنده. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كلها سواء في كونها خلقاً وملكاً له. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(١٩) ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أي الدين وحُذِفَ لظهوره، أو ما كنتمم وحُذِفَ لتقدم ذكره، ويجوز أن لا يُقَدَّرَ مفعول على معنى يبذل لكم البيان، والجملة في موضع الحال أي جاءكم

(١) وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى (س/١٩/٣).

رسولنا مبيناً لكم. ﴿عَلَىٰ فَرْقٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، أو «يبين» حال من الضمير فيه. ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ كراهة أن تقولوا ذلك وتعتذروا به. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا بـ ﴿مَا جَاءَنَا﴾ فقد جاءكم. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإرسال ترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام إذ كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان بينهما ستمائة أو خمسمائة وتسع وستون سنة وأربعة أنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي^(١)، وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون إليه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورُ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِنَّ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ فأرشدكم وشرفكم بهم، ولم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء. ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي وجعل منكم أو فيكم، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثراً الأنبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهتموا بقتل عيسى، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله وجعلهم مالكين لأنفسهم وأمورهم سماءهم ملوكاً. ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها مما آتاهم الله، وقيل: المراد بالعالمين عالمي زمانهم.

(٢١) ﴿يَنْقُورُ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومسكن المؤمنين. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقيل الشام. ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قسّمها لكم، أو كتب في اللوح أنها تكون مسكناً لكم، ولكن إن آمتهم وأطعتم لقوله لهم بعدما عصوا: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾^(٢). ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، قيل لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا وقالوا: ليتنا متنا بمصر، تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر. أو لا تتردوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق على الله

(١) خالد بن سنان العبسي تردد فيه البعض، وبعضهم لم يشته، وبعضهم قال: إنه كان قبل عيسى عليه السلام.

إلا أنه مثبت في التاريخ، وله قصة في كتب الآثار مفصلة.

وصحح بعضهم إثبات نبوته وأنه كان قبل عيسى - عليهما السلام - (انظر روح المعاني ١٠٥/٦).

(٢) المائدة: (٢٦).

سبحانه وتعالى. ﴿فَنَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ثواب الدارين. ويجوز في فتنقلبوا الجزم على العطف، والنصب على الجواب.

(٢٢) ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلبين لا تتأني مقاومتهم، والجبار فعال من جَبَرَه على الأمر بمعنى أجبره وهو الذي يُجبر الناس على ما يريد. ﴿وَأَنَّا لَنَبْذُلُنَا لَدَيْكَ مَوَاجِدًا فَهَاتُوا بَيْنَنَا وَمِنْهَا قَوْمًا نَخْلُوتُ﴾ إذ لا طاقة لنا بهم.

(٢٣) ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب ويوشع. ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه. وقيل كان رجلا من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فعلى هذا الواو لبني إسرائيل، والراجع إلى الموصول محذوف أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل، ويشهد له أنه قرىء الذين يُخَافُونَ بالضم أي المخوفين، وعلى المعنى الأول يكون هذا من الإخافة أي من الذين يُخَوِّفُونَ من الله عز وجل بالتذكير أو يخوفهم الوعيد. ﴿أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان والتشيت وهو صفة ثانية لرجلان، أو اعتراض. ﴿أَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْآبَاءَ﴾ باب قرينهم أي باغثوهم وضاعطوهم في المضيق وامنعوهم من الأصحار. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَاسْكُنْوا فِيهِ وَاصْبِرُوا﴾ لتعسر الكثر عليهم في المضايق من عظم أجسامهم ولأنهم أجسام لا قلوب فيها، ويجوز أن يكون علمهما بذلك من إخبار موسى عليه الصلاة والسلام وقوله ﴿كُنَّا اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١). أو مما علما من عادة الله سبحانه وتعالى في نصرته رسله، وما عهدا من صنعه لموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه. ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مؤمنين به ومصدين بوعده.

قَالُوا يَمُوسَى إِنََّّا لَنَبْذُلُنَا لَدَيْكَ مَوَاجِدًا فَهَاتُوا بَيْنَنَا وَمِنْهَا قَوْمًا نَخْلُوتُ
قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

(٢٤) ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنََّّا لَنَبْذُلُنَا لَدَيْكَ مَوَاجِدًا﴾ نفوا دخولهم على التأكيد والتأييد. ﴿مَادَامُوا فِيهَا﴾ بدل البعض. ﴿فَإِذْ هَبَّ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ قاله شكوى بثَّه وحزنه إلى الله سبحانه وتعالى لما خالفه قومه وأيس منهم ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام، والرجلان المذكوران وإن كانا يوافقانه لم يثق عليهما لما كابد من تلون قومه، ويجوز أن يراد بأخي من يواخيني في الدين فيدخلان فيه. ويحتمل نصبه عطفاً على نفسي أو على اسم إن، ورفعاً عطفاً على الضمير في لا أملك أو على محل إن واسمها، وجؤه عند الكوفيين عطفاً على الضمير في نفسي. ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه، أو بالتباعد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم.

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾
 ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ
 لَأَقْنَلَكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٧﴾

(٢٦) ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ فإن الأرض المقدسة. ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم. ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عاملُ الظرف إما مُحَرَّمَةٌ فيكون التحريم موقتا غير مؤبد فلا يخالف ظاهر قوله: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١)، ويؤيد ذلك ما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام سار بعده بمن بقي من بني إسرائيل ففتح أريحاء وأقام بها ما شاء الله ثم قبض، وقيل: إنه قبض في التيه ولما احتضر أخبرهم بأن يوشع بعده نبي وأن الله سبحانه وتعالى أمره بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع وقتل الجبابرة وصار الشام كله لبني إسرائيل، وإما يتيهون^(٢) أي يسرون فيها متحيرين لا يرون طريقاً فيكون التحريم مطلقاً، وقد قيل: لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال إنا لن ندخلها بل هلكوا في التيه وإنما قاتل الجبابرة أولادهم. روي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراعس يسرون من الصباح إلى المساء فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظلمهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى وماؤهم من الحجر الذي يحملونه، والأكثر على أن موسى وهارون كانا معهم في التيه إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما وزيادة في درجتهم، وعقوبة لهم، وأنهما ماتا فيه مات هارون، وموسى بعده بسنة. ثم دخل يوشع أريحاء بعد ثلاثة أشهر، ومات الثقباء فيه بغتة غير كالب ويوشع. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ خاطب به موسى عليه الصلاة والسلام لما ندم على الدعاء عليهم وبين أنهم أحقاء بذلك لفسقهم.

(٢٧) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ﴾ قابيل وهابيل، أوحى الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، فسخط منه قابيل لأن توأمة كانت أجمل، فقال لهما آدم: قَرَّبَا قُرْبَانًا فَمِنْ أَيُّكُمَا قُبِلَ تزوجها، فقبِلَ قربان هابيل بأن نزلت ناراً فأكلته، فازداد قابيل سخطاً وفعل ما فعل. وقيل لم يُرِدْ بهما ابني آدم لصلبه وأنها رجلان من بني إسرائيل، ولذلك قال: ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٣). ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة مصدر محذوف أي تلاوة ملتبسة بالحق، أو حال من الضمير في ائُل، أو من «نبا» أي ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كُتُب الأولين ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ ظرف لبناء، أو حال منه، أو بدل على حذف مضاف أي وائل عليهم نبأهما نبا ذلك الوقت، والقربان اسم ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله سبحانه وتعالى من ذبيحة أو غيرها، كما أن الحُلْوَان اسم ما يُحَلَى به أي يعطى، وهو في الأصل مصدر ولذلك لم يُنَّ، وقيل: تقديره إذ قرب كل واحد منهما قرباناً. قيل كان قابيل صاحب زرع وقرب أردأ قمح عنده، وهابيل صاحب ضرع وقرب جملاً سميناً. ﴿فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ لأنه سخط

(١) المائدة: (٢٦).

(٢) قوله (وإما يتيهون) عطف على قوله: (عامل الظرف إما محرمة... وإما يتيهون...).

(٣) المائدة: (٣٢).

حكم الله سبحانه وتعالى ولم يُخلص النية في قربانه وقصد إلى أخس ما عنده. ﴿قَالَ لَا قَتْلَكَ﴾ توعده بالقتل لفُزط الحسد له على تقبل قربانه ولذلك. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ في جوابه أي إنما أتيت من قتل نفسك بترك التقوى لا من قبلي فلم تقتلني؟ وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره ويَجْتَهِدَ في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقٍ.

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعْتُ لَهُمْ نَفْسَهُمُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: كان هابيل أقوى منه ولكن تخرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالى لأن الدفع لم يُبَحْ بعد، أو تحريماً لما هو الأفضل قال عليه الصلاة والسلام: «كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل»^(١). وإنما قال: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ في جواب ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ﴾ للتبري عن هذا الفعل الشنيع رأساً والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه، ولذلك أكد النفي بالباء^(٢).

(٢٩) ﴿إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ تعليل ثان للامتناع عن المعارضة والمقاومة، والمعنى إنما أستسلم لك إرادة أن تَحْمِلَ إثمِي لو بسطت إليك يدي وإثمك ببسطك يدك إليّ، ونحوه: «المستبان ما قالوا فعلى البادىء ما لم يَعْتَدِ المظلوم»^(٣). وقيل معنى بإثمِي بإثم قتلي، وإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، وكلاهما في موضع الحال أي ترجع ملتبساً بالإثمين حاملاً لهما، ولعله لم يُرد معصية أخيه وشقاوته بل قُضده بهذا الكلام إلى أن ذلك إن كان لا محالة واقفاً فأريد أن يكون لك لا لي، فالمراد بالذات أن لا يكون له لا أن يكون لأخيه، ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته وإرادة عقاب العاصي جائزة.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعْتُ لَهُمْ نَفْسَهُمُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فسهلته له ووسعته، مِنْ طاع له المرتع إذا اتسع. وقرئ

(١) أخرجه أحمد في المسند (١١٠/٥) عن خباب وفي سنده رجل مجهول.

وأخرجه أحمد في المسند (٢٩٢/٥) عن خالد بن عرفطة. وفي إسناده: علي بن زيد بن جدعان: وهو ضعيف.

ومن طريق علي بن زيد أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢٥/٤) رقم (٤٠٩٩).

والحاكم في المستدرک (٥١٧/٤) وقال: تفرد به علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي ولم يحتجوا بعلي، وسكت عنه الذهبي.

(٢) قوله: «لئن بسطت إليّ صدره باللام الموطنة للقسم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح إيذاناً من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه (س ٢٧/٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٠/٤) رقم (٢٥٨٧) والبخاري في الأدب المفرد رقم (٤٢٣) وأبو داود (٢٠٣/٥) رقم (٤٨٩٤) والترمذي (٣٥٢/٤) رقم (١٩٨١) وغيرهم، كلهم من حديث أبي هريرة.

فطاوعت على أنه فاعل بمعنى فعل، أو على أن قتل أخيه كأنه دعاها إلى الإقدام عليه فطاوعته، وله زيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله. ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا، إذ بقي مدة عمره مطروداً محزوناً. قيل قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عقبة حراء. وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَلِّتُنِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ روي أنه لما قتله تحير في أمره ولم يدر ما يصنع به إذ كان أول ميت من بني آدم، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة، والضمير في ليرى الله سبحانه وتعالى، أو للغراب، وكيف حال من الضمير في يوراي، والجملة ثاني مفعولي يري، والمراد بسواة أخيه جسده الميت فإنه مما يستقبح أن يرى. ﴿قَالَ يُوَلِّتُنِي﴾ كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم. والمعنى يا ويلتي اخضري فهذا أوانك، والويل والويلة الهلكة. ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي﴾ لا أهتدي إلى مثل ما اهتدئ إليه، وقوله: فأوراي عطف على أكون وليس جواب الاستفهام إذ ليس المعنى ههنا لو عجزت لوأريت. وقرئ بالسكون على فانا أوراي، أو على تسكين المنصوب تخفيفاً. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله لما كابد فيه من التحير في أمره وحمله على رقبته سنة أو أكثر على ما قيل، وتلمذه للغراب واسوداد لونه وتبري أبويه منه. إذ روي أنه لما قتله اسود جسده، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكلاً، فقال: بل قتلته ولذلك اسود جسدك، وتبرأ منه ومكث بعد ذلك مائة سنة لا يضحك، وعُدِمَ الظفر بما فعله من أجله.

(٣٢) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بسببه قضينا عليهم، وأجل في الأصل مصدر أجل شراً إذا جناه استعمل في تعليل الجنايات كقولهم: من جرّاك فعلته، أي من أن جرّته أي جنيته، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تعليل، ومن ابتدائية متعلقة بكتبتنا أي ابتداء الكتب ونشؤه من أجل ذلك. ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس بوجوب الاقتصاص. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أو بغير فساد فيها كالشرك أو قطع الطريق. ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء وسن القتل وجراً للناس عليه، أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها. ﴿وَلَقَدْ

جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٣﴾ أي بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد كي يتحاموا عنها وكثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها. والإسراف التباعد عن حد الاعتدال في الأمر^(١).

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٥﴾

(٣٣) ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جعل محاربتهم محاربتهم تعظيماً. وأصل الحرب السلب والمراد به ههنا قطع الطريق، وقيل المكابرة باللصوصية وإن كانت في مضر. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي مفسدين، ويجوز نصبه على العلة أو المصدر لأن سعيهم كان فساداً فكانه قيل: ويفسدون في الأرض فساداً. ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ أي قصاصاً من غير صلب إن أفردوا القتل. ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي يصلبوا مع القتل إن قتلوا وأخذوا المال، وللفقهاء خلاف في أنه يقتل ويصلب أو يصلب حياً ويترك أو يطعن حتى يموت. ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن أخذوا المال ولم يقتلوا. ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ينفوا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع إن اقتصروا على الإخافة، وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس، وأو في الآية على هذا للتفصيل، وقيل: إنه للتخير والإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق. ﴿ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ ذل وفضيحة. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم.

(٣٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله سبحانه وتعالى، ويدل عليه قوله تعالى ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أما القتل قصاصاً فالإلى الأولياء يسقط بالتوبة وجوبه لا جواز، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد وإن أسقطت العذاب، وأن الآية في قطاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

(١) قوله: «ولقد جاءتهم رسلنا» صدر الآية بحرف التحقيق لكمال العناية بتحقيق مضمونها.

وقال «جاءتهم» ولم يقل أرسلنا إليهم.. للتصريح بوصول الرسالة إليهم، فإنه أدل على تناهيهم في العتو والمكابرة.

وقوله «بعد ذلك» وضع اسم الإشارة موضع الضمير للإيذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة. وما فيه من معنى البعد للإيحاء إلى علو درجته وبعد منزلته في عظم الشأن.

و«ثم» للتراخي في الرتبة والاستبعاد (س ٣/ ٣٠).

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

(٣٥) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلزلى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، مِنْ وَسَلٍ إِلَى كَذَا إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ وَفِي الْحَدِيثِ «الْوَسِيلَةُ مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»^(١). ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته.

(٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من صنوف الأموال. ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ واللام متعلقة بمحذوف تستدعيه لو، إذ التقدير لو ثبت أن لهم ما في الأرض، وتوحيد الضمير في به والمذكور شيثان: إما لإجرائه مجرى اسم الإشارة في نحو قوله تعالى: ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(٢)، أو لأن الواو في «ومثله» بمعنى مع. ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ جواب لو، ولَوْ بِمَا فِي حِيزِهِ خَيْرٌ إِنْ، والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تصريح بالمقصود منه، وكذلك قوله:

(٣٧) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وقرئ يُخْرَجُوا مِنْ أَخْرَجَ وَإِنَّمَا قَالَ ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ بدل وما يخرجون للمبالغة.

(٣٨) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ جملتان عند سيبويه إذ التقدير فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمهما وجملة عند المبرد، والفاء للسببية دخل الخبر لتضمنهما معنى الشرط إذ المعنى: والذي سرق والتي سُرقت. وقرئ بالنصب، وهو المختار في أمثاله لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلا بإضمار وتأويل^(٣). والسارقة: أخذ مال الغير في خفية، وإنما توجب القطع إذا كانت من جزئ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٢٨٨ رقم ٣٨٤/١١).

(٢) البقرة: ٦٨.

(٣) قول البيضاوي (وهو المختار في أمثاله) لا يفيد اختيار قراءة النصب والتي قرأ بها عيسى بن عمر على قراءة عامة القراء بالرفع.

وقد فهم البعض من كلام سيبويه أنه يختار قراءة النصب ويرجحها على قراءة عامة القراء بالرفع كما فهم منها الفخر الرازي في التفسير الكبير (١١/٢٢٢) وقد رد على سيبويه في ذلك مبيناً أن سيبويه طعن بالتواتر... وكذا فهم الشوكاني في فتح القدير (٢/٣٩).

لكن أبا حيان وغيره دافعوا عن سيبويه مبينين أنه لم يقصد إلى ذلك. وذلك أن جملة الأمر لا يصح أن تكون خبراً إذا جُرِّدَت عن الفاء، فلما دخلت الفاء عليها حَسُنَ ذلك. فسيبويه يقوي قراءة الرفع بسبب دخول الفاء على =

والمأخوذُ ربعُ دينارٍ أو ما يساويه لقوله عليه الصلاة والسلام: «القطع في ربع دينار فصاعداً»^(١) وللعلماء خلاف في ذلك لأحاديثٍ وردت فيه، وقد استقصيت الكلام فيه في شرح المصابيح. والمراد بالأيدي الأيمان، ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أيمانهما، ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(٢) اكتفاءً بثنية المضاف إليه، واليدُ اسمٌ لتمام العضو ولذلك ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المنكب، والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتى بسارق فأمر بقطع يمينه منه^(٣). ﴿جَزَاءُ يَمَا كَسَبَا تَكْلًا مِنْ اللَّهِ﴾ منصوبان على المفعول له، أو المصدر ودل على فعلهما فاقطعوا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٤).

فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ، وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(٣٩) ﴿فَن تَابَ﴾ من السراق. ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد سرقته. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمره بالتقصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة. وأما القطع فلا يسقطُ بها عند الأكثرين لأن فيه حقَّ المسروق منه.

(٤٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل أحد. ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدَّم التعذيب على المغفرة إيتاء على ترتيب ما سبق، أو لأن استحقاق التعذيب مُقدم، أو لأن المراد به القطع وهو في الدنيا.

(٤١) ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾ أي صنيع الذين يقعون في الكفر

= جملة الأمر «فاقطعوا» ولولاه لكان النصب أولى. (انظر البحر المحيط ٤٧٦/٣ وروح المعاني ١٣٢/٦).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٩) بلفظ «تقطع يد السارق في ربع دينار» وأخرجه مسلم (١٣١٢/٣ ج ٢-٣) بلفظ «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً».

(٢) التحريم: «٤».

(٣) أخرجه البيهقي وأبو نعيم في معرفة الصحابة من حديث الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة.

(٤) قوله تعالى «والسارق والسارقة» لما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضاً - مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة - وذلك لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزجر (س ٣/٣٤).

سريعاً أي في إظهاره إذا وجدوا منه فرصة^(١). ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِمَ وَلَمْ تُوْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين، والباء متعلقة بقالوا لا بآمننا، والواو تحتل الحال والعطف. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ عطف على من الذين قالوا ﴿سَمْعُوكَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر محذوف أي هم سماعون. والضمير للمفريقين، أو للذين يسارعون، ويجوز أن يكون مبتدأ ومن الذين خبره أي ومن اليهود قوم سماعون. واللام في للكذب: إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، أي: قابلون لما تفتريه الأخبار، أو للعلة والمفعول محذوف أي: سماعون كلامك ليكذبوا عليك فيه. ﴿سَمْعُوكَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي لجمع آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك وتجاوزوا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء، والمعنى على الوجهين أي مُضْغُون لهم قابلون كلامهم، أو سماعون منك لأجلهم والإنهاء إليهم، ويجوز أن تتعلق اللام بالكذب لأن سماعون الثاني مكرر للتأكيد أي: سماعون ليكذبوا لقوم آخرين. ﴿يُحَرِّقُونَ الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يُمِيلُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ الَّتِي وَضَعَهُ اللَّهُ فِيهَا، إما لفظاً: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنى: بحمله على غير المراد وإجرائه في غير موره. والجملة صفة أخرى لقوم، أو صفة لسماعون، أو حال من الضمير فيه، أو استئناف لا موضع له، أو في موضع الرفع خبراً لمحذوف أي هم يحرقون، وكذلك ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ أي إن أوتيتهم هذا المحرف فاقبلوه واعملوا به. ﴿وَإِنْ لَمْ تَوْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم محمد بخلافه ﴿فَاخْذَرُوا﴾ أي احذروا قبول ما أفتاكم به. روي أن شريفاً من خير زنى بشريفة، وكانا محصنين، فكرهوا رجمهما، فأرسلوهما مع رَهْطٍ منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله ﷺ عنه وقالوا: إن أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا، فأمرهم بالرجم، فأبوا عنه، فَجَعَلَ ابْنُ صُورِيَا حَكَمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَقَالَ لَهُ: «أُنْشِدُكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ لِمُوسَى وَرَفَعَ فَوْقَكُمُ الطُّورَ وَأَنْجَاكُم وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ وَحَلَّلَهُ وَحَرَّمَ هَلْ تَجِدُونَ فِيهِ الرِّجْمَ عَلَى مَنْ أَحْصَنَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَوَثَبُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: خِفْتُ إِنْ كَذَبْتُمْ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا الْعَذَابُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالزَّانِيَيْنِ فَرُجِمَا عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ^(٢). ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ ضلالته أو فضيحته. ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر، وهو كما ترى نص على فساد قول المعتزلة. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا

(١) قوله تعالى «يا أيها الرسول..» خطب عليه السلام بعنوان الرسالة للتشريف والإشعار بما يوجب عدم الحزن. وقوله «يسارعون في الكفر» فآثر كلمة «في» على كلمة «إلى» كما في قوله تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة..» - آل عمران - للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر وإنما يتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر (س ٣٦/٣).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، وابن المنذر - كما في الدر المنثور (٧٥/٣) - وليس فيه ذكر (خير) وفيه (إن) أحبار اليهود اجتمعوا في بيت المدارس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد زنى رجل بعد إحصانه بامرأة من اليهود، فذكر نحوه.

وأخرجه ابن جرير (٤/٦٢٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٤٦ - ٢٤٧) من حديث أبي هريرة. وإسناده ضعيف لجهالة رجل من مزينة.

وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر، فقد أخرجه البخاري (٦/٦٣١ رقم ٣٦٣٥) و(١٢/١٦٦ رقم ٦٨٤١) و(١٣/٥١٦ رقم ٧٥٤٣) ومسلم (٣/١٣٢٦ رقم ١٦٩٩).

خَزَىٰ ﴿ هَوَانٌ بِالْجَزِيَةِ وَالْخَوْفُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو الخلود في النار. والضمير للذين هادوا إن استأنفت بقوله: «ومن الذين وإلا فللفريقين».

سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَأَخْشَوْا وَلَا تَسْتَرَوْا بِتَابِعِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿ سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ ﴾ كرهه للتأكيد. ﴿ أَكْثَرُونَ لِلْحَقِّ ﴾ أي الحرام كالرشا، مِنْ سَحَتِهِ إِذَا اسْتَأْصَلَهُ لِأَنَّهُ مَسْحُوتُ الْبَرَكَةِ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب في المواضع الثلاثة بضمين وهما لغتان كالعُنُقِ والعُنُقِ، وقرأ بفتح السين على لفظ المصدر. ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إِذَا تَحَاكَمُوا إِلَيْهِ بَيْنَ الْحُكْمِ وَالْإِعْرَاضِ، ولهذا قيل: لو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول للشافعي، والأصح وجوبه إِذَا كَانَ الْمُتَرَاغِبَانِ أَوْ أَحَدُهُمَا ذَمِيًّا لِأَنَّا اتَّزَمْنَا الذَّبَّ عَنْهُمْ وَدَفَعْنَا الظُّلْمَ مِنْهُمْ، والآية ليست في أهل الذمة، وعند أبي حنيفة يجب مطلقاً. ﴿ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾ بأن يعادوك لإعراضك عنهم فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس. ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل الذي أمر الله به. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم.

(٤٣) ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ تعجيب من تحكيمهم مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبية على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع. وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم وإن لم يكن حُكْمُ اللَّهِ تعالى في زعمهم، ﴿ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ حال من التوراة إن رفعتها بالظرف، وإن جعلتها مبتدأ فمن ضميرها المستكن فيه، وتأنيتها لكونها نظيرة المؤنث في كلامهم لفظاً كمؤامة ودودة. ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم، وهو عطف على يحكمونك داخل في حكم التعجيب. ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكتابهم لإعراضهم عنه أولاً وعما يوافقه ثانياً، أو بك وبه.

(٤٤) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى ﴾ يهدي إلى الحق. ﴿ وَنُورٌ ﴾ يكشف عما استُهِمَ من الأحكام. ﴿ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى ومن بعده إن قلنا شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يُنسخ، وبهذه الآية تمسك القائل به. ﴿ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ صفة أجريت على النبيين مدحاً لهم وتنوياً بشأن المسلمين، وتعريضاً لليهود وأنهم بمعزل عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقفاءً هديهم. ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ متعلق بأنزل، أو يبحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم، وهو يدل على أن

النبيين أنبياءهم^(١). ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ زهادهم وعلمائهم السالكون طريقة أنبيائهم، عطف على النبيون ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف، والراجع إلى «ما» محذوف، ومن للتبيين. ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ رقباء لا يتركون أن يغير، أو شهداء يبينون ما يخفى منه كما فعل ابنُ صوريا. ﴿فَلَا تَخْشَوْا أَلْتَكْسَ وَأَخْشَوْا﴾ نهى للحكام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويُدهنوا فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو الرشوة والجاه ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مستهيناً به منكراً له. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله: الكافرون والظالمون والفاسقون، فكفرهم لإنكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه. ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حال انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها، أو لطائفة كما قيل هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى.

وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٥) ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وفرضنا على اليهود. ﴿فِيهَا﴾ في التوراة. ﴿أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي أن النفس تقتل بالنفس. ﴿وَالْعَيْنَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ رَفَعَهَا الكسائي على أنها جمل معطوفة على أَنَّ وما في حيزها باعتبار المعنى وكأنه قيل: وكُتِبْنَا عليهم النفسُ بالنفس، والعينُ بالعين، فإن الكتابة والقراءة تفعان على الجُمْل كالقول، أو مستأنفة ومعناها: وكذلك العينُ مفقوءةٌ بالعين، والأنفُ مجدوعة بالأنف، والأذنُ مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسِّن أو على أن المرفوع منها معطوف على المستكن في قوله بالنفس وإنما ساغ لأنه في الأصل مفصول عنه بالظرف والجار والمجرور حال مبيئة للمعنى، وقرأ نافع والأذنُ بالأذن وفي أذنيه بإسكان الذال حيث وقع. ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص، وقرأ الكسائي أيضاً بالرفع ووافقه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر على أنه إجمال للحكم بعد التفصيل. ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين^(٢). ﴿بِهِ﴾ بالقصاص أي فمن عفا عنه. ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدق. ﴿كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ للمتصدق يكفر الله به ذنوبه. وقيل للجاني يُسقط عنه ما لزمه. وقرئ فهو كفارته له، أي فالتصدق كفارته التي يستحقها بالتصدق له لا ينقص منها شيء. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القصاص وغيره. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

(١) قوله «للذين هادوا» وسَطَّهم بين النبيين وبين الربانيين والأخبار للإيدان بأن الأصل في الحكم بها وحمل الناس على ما فيها هم النبيون، وإنما الربانيون والأخبار خلفاء ونواب لهم في ذلك، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا...﴾ (س ٤١/٣).

(٢) عبر عنه بالتصدق للمبالغة في الترغيب (س ٤٣/٣).

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآيَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ أي وأتبعناهم على آثارهم، فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه، والضمير للنبين. ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ مفعول ثان، عدّي إليه الفعل بالباء. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وقرئ بفتح الهمزة. ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ في موضع النصب بالحال. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ عطف عليه وكذا قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١) ويجوز نصبهما على المفعول له عطفاً على محذوف، أو تعلقاً به، وعُطِفَ.

(٤٧) ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ عليه في قراءة حمزة^(٢)، وعلى الأول اللام متعلقة بمحذوف أي وآتيناه ليحكم، وقرئ وأن ليحكم على أن أن موصولة بالأمر كقولك: أمرتك بأن قم أي وأمرنا بأن ليحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ عن حكمه أو عن الإيمان إن كان مستهيناً به والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع، وحملها على وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر.

(٤٨) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي القرآن. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من جنس الكتب المنزلة، فاللام الأولى للعهد والثانية للجنس. ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ ورقياً على سائر الكتب يحفظه عن التغيير ويشهد له بالصحة والثبات. وقرئ على بُنية المفعول أي هو من عليه وحُوفِظَ من التحريف والحافظ له هو الله سبحانه وتعالى، أو الحفاظ في كل عصر. ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي بما أنزل الله إليك^(٣). ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه، فعن صلة لَّا تَتَّبِعْ لتضمنه معنى لا تنحرف، أو حال من فاعله أي لا تتبع أهواءهم مائلاً عما جاءك. ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وهي الطريقة إلى الماء، شُبِّهَ بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية. وقرئ بفتح الشين. ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقاً واضحاً في الدين من نهج الأمر إذا وضع. واستدل به على أنا غير متعبدین بالشرائع المتقدمة. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة

(١) تخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين لأنهم المهتدون بهداه والمتفعلون بجدواه (س ٤٣/٣).

(٢) قراءة حمزة بكسر اللام «وَلِيَحْكُمَ».

(٣) قدم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم. ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على ما في حيز الصلة للحكم. والالتفاف بإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار بعلو الحكم (س ٤٥/٣).

متفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل، ومفعول لو شاء محذوف دل عليه الجواب، وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعكم على الإسلام لأجبركم عليه. ﴿وَلَكِنْ لَّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءٍ آتَنَكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مدعين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفرطون في العمل. ﴿فَاسْتَقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل سبق والتقدم. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ استئناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد ووعد للمبادرين والمقصرين. ﴿فَيُنِزِّلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

وَأَن آحَكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٩) ﴿وَأَن آحَكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ عطف على الكتاب أي أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأن احكم، ويجوز أن يكون جملة بتقدير وأمرنا أن احكم. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أن يضلوك ويصرفوك عنه، وأن بصلته بدل من هم بدل الاشتغال أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. روي أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، إن بيننا وبين قومنا خصومة فتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ. فنزلت (١). ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني ذنب التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى، فعبر عنه بذلك تنبيهاً على أن لهم ذنوباً كثيرة وهذا مع عظمه واحد منها معدود من جملتها، وفيه دلالة على التعظيم كما في التنكير ونظيره قول لبيد:

أَوْ يَزْتَبِطُ بَعْضُ النَّفْسِ جِمَامُهَا

﴿وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ لمتوردون في الكفر معتدون فيه.

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الذي هو الميل والمداينة في الحكم، والمراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى. وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى (٢). وقرئ برفع الحكم على أنه مبتدأ ويغنون

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/٦/٢٧٣ - ٢٧٤) والبيهقي في الدلائل (٢/٥٣٦) وابن أبي حاتم - كما في الدر المنثور (٣/٩٦ - ٩٧) - كلهم من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس. وفيه محمد بن أبي محمد مجهول.

(٢) أخرج ابن أبي شيبة نحوه عن الشعبي قال: كان بين حيين من العرب قتال... فذكر القصة (الكافي الشاف)

خبره، والراجعُ محذوفٌ حَذَفَهُ في الصلاة في قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^(١) واستضعف ذلك في غير الشعر، وقرئ أَفَحَكَمَ الجاهلية أي يبغون حاكماً كحكام الجاهلية يحكم بحسب شهيتهم، وقرأ ابن عامر تبغون بالتاء على قُلْ لهم أفحكم الجاهلية تبغون. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي عندهم، واللام للبيان كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾^(٢) أي هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكماً من الله سبحانه وتعالى^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

(٥١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشرهم معاشرة الأحباب. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إيماء إلى علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتهم. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تراءى ناراها»^(٤) أو لأن الموالي لهم كانوا منافقين. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالة الكفار، أو المؤمنين بموالة أعدائهم^(٥).

= ص ٥٤ رقم (٤٥٥).

(١) الفرقان: (٤١).

(٢) يوسف: (٢٣).

(٣) قوله «أفحكم الجاهلية» قدم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه عليه السلام وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب (س ٤٧/٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥) والترمذي (١٦٠٤) مرفوعاً من حديث جابر، وأخرجه النسائي (٤٧٨٤) عن قيس مرسلأ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤/٤ ج ٣٨٣٦) من حديث خالد بن الوليد، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٢٥٣/٥) فهو حديث صحيح وصححه الألباني في الإرواء رقم (١٢٠٧) وفي صحيح الجامع (١٦/٢).

(٥) قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا» وصفهم بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه. وقوله «بعضهم أولياء بعض» أوتر الإجمال في البيان تعويلاً على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالة بين فريقي اليهود والنصارى.

وقوله «لا يهدي القوم الظالمين» وضع المظهر «الظالمين» موضع ضميرهم تنبيهاً على أن توليهم ظلم =

(٥٢) ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني ابن أبي وأضرابه^(١). ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم^(٢). ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روي أن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله ﷺ: إن لي موالي من اليهود كثيراً عددهم، وإنني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله، فقال ابن أبي: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالي. فنزلت^(٣). ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم. ﴿فَيَصْبِحُوا﴾ أي هؤلاء المنافقون. ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيَةً﴾ على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر الرسول ﷺ، فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم.

(٥٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرفع قراءة عاصم وحزمة والكسائي على أنه كلام مبتدأ، ويؤيده قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعاً بغير واو على أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ، وبالنصب قراءة أبي عمرو ويعقوب عطفاً على أن يأتي باعتبار المعنى، وكأنه قال: عسى أن يأتي الله بالفتح ويقول الذين آمنوا، أو يجعله بدلاً من اسم الله تعالى داخلاً في اسم عسى مُغْنِياً عن الخبر بما تضمنه من الحدث، أو على الفتح بمعنى عسى الله أن يأتي بالفتح ويقول المؤمنون فإن الإتيان بما يوجبه كالإتيان به. ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ بقول المؤمنين بعضهم لبعض تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما من الله سبحانه وتعالى عليهم من الإخلاص، أو يقولونه لليهود. فإن المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾^(٤) وجهد الأيمان أغلظها، وهو في الأصل مصدر، ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهداً أيماهم، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولذلك ساغ كونها معرفة، أو على المصدر لأنه بمعنى أقسموا. ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ﴾ إما من جملة المقول، أو من قول الله سبحانه وتعالى شهادة لهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم.

(٥٤) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ قرأه على الأصل نافع وابن عامر وهو كذلك في الإمام^(٥)، والباقيون بالإدغام. وهذا من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتد من

= (س ٤٨/٣).

(١) وضع الموصول موضع الضمير للإشارة إلى أن ما ارتكبه بسبب مرض النفاق (س ٤٨/٣).

(٢) وعدى فعل المسارعة بفي للدلالة على استقرارهم في الموالاة. (س ٤٨/٣).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ج ٢٧٥) وابن أبي شيبة - كما في الدر المنثور (٣/٩٩) من رواية عطية بن سعد.

وأخرج ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ج ٢٧٥) من طريق ابن إسحاق عن إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت.

(٤) الحشر: ١١.

(٥) أي بدالين «يَرْتَدُّ».

العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج وكان رئيسهم ذا الخمار الأسود العنسي، تنبأ باليمن واستولى على بلاده ثم قتله فيروز الديلمي ليلة قبض رسول الله ﷺ من غدها وأخبر الرسول ﷺ في تلك الليلة فسر المسلمون وأتى الخبر في أواخر ربيع الأول^(١). وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجاب: «من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فحاربه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجند من المسلمين وقتله وخشي قاتل حمزة. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالداً فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه سبع: فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قره بن سلمة القشيري، وبنو سُلَيْم قوم الفجاءة بن عبد ياليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة زوجة مسيلمة، وكِنْدَة قوم

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف (ص ٥٥ رقم ٤٦٠): «وفي هذا الكلام من التخليط غير شيء، فإن قوله: استولى على بلاد اليمن وأخرج عمال رسول الله ﷺ، ظاهره يقتضي أن لا يبقى منهم هناك أحد وليس الأمر كذلك، بل بقي منهم على ما كان عليه جماعة منهم من المهاجرين: ابن أبي أمية ومعه جميع السواحل. وكان باليمن أيضاً معاذ بن جبل وغيره من عمال رسول الله ﷺ في سواحل اليمن، وإنما استولى العنسي على صنعاء، وبعض البلاد الجبلية. وقد نقض الزمخشري - والقاضي - كلامه بقوله: فإنه ﷺ كتب إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. ولكن الجمع بين كلاميه: بأن مراده، إخراج عمال رسول الله ﷺ الذين حاربهم فيكون المراد إخراج بعضهم لا جميعهم» هـ.

وقال ابن حجر أيضاً في الكافي الشاف (رقم: ٤٦١). قوله: في آخر شهر ربيع الأول: ليس بصحيح فإنه ﷺ مات في أول شهر ربيع الأول. وقيل: في ثامنه. وقيل: في ثاني عشر. وسيأتي بيان الاختلاف في وقت المجيء برأس الأسود وقصة الأسود العنسي قد أخرجها مطولة جميع من صنف في الردة كابن إسحاق والواقدي وسيف بن عمر. وسيمة بن الفرات. وأخرجها الحاكم في الإكليل والبيهقي في الدلائل. قال الواقدي: اسم الأسود ذو الخمار. وقال غيره: اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار، لأنه كان يلقي على وجهه قناعاً ويهمهم. وكان له شيطانان أحدهما سحيق والآخر بشقيق، قال الواقدي: وملك الأسود نجران وأقام بها ستة أشهر ثم خرج في ستمائة ممن تبعه إلى صنعاء فحاصر الأساورة منهم باذان، وفيروز ودادويه في آخرين، وكانوا أسلموا وأرسلوا بإسلامهم فردة بن مسك المرادي فاقتل الفريقان حتى غلب الأسود فقتل منهم طائفة، وخير طائفة بين أن يخرجوا من صنعاء إلى بلد آخر ويقيموا بها ويضرب عليهم الخراج ويصيروا عبيداً له. واصطفى الأسود المرزبانة امرأة باذان لنفسه. وكانت جميلة وكان يشرب الخمر ويقع عليها ولا يغتسل ولا يصلي، فكرهته المرزبانة وأرسلت الأساورة وفيهم فيروز. فواعدتهم البستان في الوقت الذي يسكر فيه الأسود. فدخل عليه فيروز ودادويه وقيس بن مكشوح وهو سكران. فقالت المرزبانة: لفيروز وهو أحدثهم سناً: دونك الرجل. قال فيروز: كنت قد أنسيت سيفي من الدهش فوقعت على الأسود فخنفته حتى حوّلت وجهه إلى قفاه. ثم دخل صاحباه فحرزوا رأسه. واجتمع الأساورة بباب المدينة يقتلون أصحاب العنسي. فذكر تمام القصة. إنما اختصرناها.

وروى النسائي من حديث عبد الله بن فيروز الديلمي عن أبيه قال: «أتيت النبي ﷺ برأس الأسود العنسي» قال عبد الحق: لا يصح في هذا الباب شيء. وتعبه ابن القطان بأن إسناده النسائي صحيح، ولا يعارضه ما جاء أن الخبر بقتله إنما جاء أثر موت النبي ﷺ لأن رواية النسائي ليس فيها التصريح أنه صادف النبي ﷺ. نعم رواية الطبري زيادة تدل على ذلك» هـ.

الأسعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد، وكفى الله أمرهم على يده، وفي إمرة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه غسان قوم جبلة بن الأيهم تنصر وسار إلى الشام. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قيل هم أهل اليمن لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: «هم قوم هذا»^(١) وقيل الفُرس لأنه عليه الصلاة والسلام سئل عنهم ف ضرب يده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه»^(٢). وقيل الذين جاهدوا يوم القادسية ألفان من النخخ وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس. والراجع إلى مَنْ محذوف تقديره فسوف يأتي الله بقوم مكانهم. ومحبة الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، ومحبة العباد له إرادة طاعته والتحرز عن معاصيه^(٣). ﴿أَذَلُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم، جمع ذليل لا ذلول فإن جمعه ذلل، واستعماله مع «على» إما لتضمنه معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خاضعون لهم أو للمقابلة. ﴿أَعَزُّ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ شِدَاد متغلبين عليهم مِنْ عَزَّةٍ إذا غلبه. وقرئ بالنصب على الحال^(٤). ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة أخرى لقوم، أو حال من الضمير في أعزة. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه. أو حال بمعنى أنهم مجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين، فإنهم يخرجون في جيش المسلمين خائفين ملامة أوليائهم من اليهود فلا يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم. واللومة المرة من اللوم، وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف. ﴿فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَهُ مِن يَشَاءُ﴾ يمنحه ويوفق له ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفضل. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧١/١٧) رقم (١٠١٦) وأورده الهيثمي في المجمع (١٦/٧) وقال: رجاله رجال الصحيح.

وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٣/٢) من حديث عياض الأشعري وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن جرير في جامع البيان (٢٨٤/٦٩٠/٤) من طرق وفي إحدى طرقه (عن عياض عن أبي موسى نفسه) كما أخرج عن شريح بن عبيدة نحوه، وساق أقوالاً وآثاراً في تفسير هذه الآية ورجح ما روي عن عياض الأشعري.

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٦٤): «هكذا رواه. وهو وهم منه فإن هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة - (٣) - من طريق أبي الغيث عن أبي هريرة وهو متفق عليه - البخاري (٦٤١/٨) رقم (٤٨٩٧) ومسلم (١٩٧٢/٤) رقم (٢٣١) - وفي آية القتال - يعني سورة محمد الآية ٣٨ - رواه الترمذي - (٣٨٣/٥) رقم (٣٢٦٠) - وقال: حديث غريب في إسناده مقال. لأن فيه شيخاً مجهولاً من أهل المدينة - من حديث أبي هريرة - . قلت: وانظر تفسير الآية (١٣٣) من سورة النساء.

(٣) انظر التعليق على محبة الله للعباد ومحبة العباد لله وحقيقة ذلك الآية «١٦٥» من سورة البقرة.

(٤) قوله «أَذَلَّةٌ» . أعزّة صفتان لقوم وترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما (س٣/٥١).

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما نهى عن موالاة الكفرة ذكر عقبيه من هو حقيق بها، وإنما قال وليكم الله ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالى على الأصالة ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ صفة للذين آمنوا فإنه جرى مجرى الاسم، أو بدل منه، ويجوز نصبه ورفعاً على المدح. ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ متخشعون في صلاتهم وزكاتهم، وقيل هو حال مخصوصة يؤتون، أو يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارةً إليه. وإنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأل سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمة^(١)، واستدل بها الشيعة على إمامته زاعمين أن المراد بالولي المتولي للأموال والمستحق للتصرف فيها، والظاهر ما ذكرناه، مع أن حمل الجمع على الواحد أيضاً خلاف الظاهر، وإن صح أنه نزل فيه فلعله جيء بلفظ الجمع لترغيب الناس في مثل فعله فيندرجوا فيه، وعلى هذا يكون دليلاً على أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها وأن صدقة التطوع تسمى زكاة.

(٥٦) ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومن يتخذهم أولياء. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي فإنهم هم الغالبون، ولكن وُضِعَ الظاهر موضع المضمرة تنبيهاً على البرهان عليه فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتنوياً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حزبهم.

(٥٧) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في رفاعه بن زيد وسويد بن الحرث أظهرهما الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٦٣): «رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن كهيل قال تصدق علي بخاتمة وهو راكع فنزلت «إنما وليكم الله ورسوله» ولابن مردويه من رواية سفيان الثوري عن ابن سنان عن الضحاك، عن ابن عباس قال كان علي قائماً يصلي، فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمة فنزلت - قلت: الضحاك لم يلتق ابن عباس - وروى الحاكم في علوم الحديث - ص ١٠٢ - من رواية عيسى بن عبدالله بن عمر بن علي. حدثنا أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب قال: نزلت هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله» الآية. فدخل رسول الله ﷺ المسجد، والناس يصلون بين قائم وراكع وساجد، وإذا سائل فقال له رسول الله ﷺ أعطاك أحد شيئاً، قال: لا. إلا هذا الراكع يعني علياً أعطاني خاتمة. رواه الطبراني في الأوسط - (المجمع: ١٧/٧) وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم - في ترجمة محمد بن علي الصائغ. وعند ابن مردويه من حديث عمار بن ياسر، قال: وقف بعلي سائل وهو واقف في صلاته. الحديث وفي إسناده خالد بن يزيد العمري. وهو متروك - المجروحين (٢٨٤/١) والميزان (٦٤٦/١) - ورواه الثعلبي من حديث أبي ذر مطولاً وإسناده ساقط - هـ. وانظر تفسير ابن كثير (٧٤/٢) فقد ساق هذه الآثار وضعفها كلها. وقال: هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت كما تقدم... قلت: وهذا هو الصواب.

يواؤنهما^(١). وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزواً ولعباً إيماءً إلى العلة وتنبههاً على أن مَنْ هذا شأنه بعيد عن الموالاة جدير بالمعاداة والبغضاء. وفَصَّلَ المستهزئين بأهل الكتاب والكفار على قراءة من جَرَّه وهم أبو عمرو والكسائي ويعقوب. والكفار وإن عمَّ أهل الكتاب يطلق على المشركين خاصة لتضاعف كفرهم، وَمَنْ نصبه عطفه على الذين اتخذوا على أن النهي عن موالاة مَنْ ليس على الحق رأساً سواءً مَنْ كان ذا دين تَبَعَ فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك المناهي. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان حقاً يقتضي ذلك. وقيل إن كنتم مؤمنين بوعده ووعيده^(٢).

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

(٥٨) ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ أي اتخذوا الصلاة أو المناداة، وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة. روي: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحرَقَ الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطايير شررها في البيت فأحرقه وأهله^(٣). ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزؤ به، والعقل يمنع منه.

(٥٩) ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ هل تُنكرون منا وتُعيبون، يقال نَقَمَ منه كذا إذا أنكره وانتقم إذا كافاه. وقرىء تَنْقِمُونَ بفتح القاف وهي لغة. ﴿إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾ الإيمان بالكتب المنزل كلها. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ عطف على أَنْ أَمَنَّا وكان المستثنى لازم الأمرين وهو المُخَالَفة أي: ما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دَخَلْنَا الإيمان وأنتم خارجون منه، أو كان الأصلُ واعتقاد أن أكثركم فاسقون فحُذِفَ المضاف، أو على مَا أُنْزِلَ: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أُنْزِلَ ويأن أكثركم فاسقون، أو على علة محذوفة والتقدير: هل تنقمون منا إلا أَنْ أَمَنَّا لقلة إنصافكم وفِسْقكم، أو نصب بإضمار فعلٍ يدل عليه هل تنقمون أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو رفعٌ على الابتداء والخبر محذوف أي: وفِسْقكم ثابت معلوم عندكم ولكن حبُّ الرياسة والمال يمنعكم عن

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩٠/٦) وابن المنذر وابن أبي حاتم، وفي سنده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول (الفتح السماوي وتخريجه ص ٥٧٣).

(٢) قوله «من الذين أوتوا الكتاب» تعرض لعنوان إيتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالهم، لأن إيتاء وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم (س ٥٣/٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٢٩١/٦ ج ٤) عن السدي. وفي إسناده ضعف.

الإنصاف^(١). والآية خطاب لليهود سألوا رسول الله ﷺ عمن يؤمن به فقال: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾^(٢) إلى قوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى: لا نعلم ديناً شراً من دينكم^(٣).

(٦٠) ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ أي من ذلك المنقوم. ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ جزاء ثابتاً عند الله سبحانه وتعالى. والمثوبة مختصة بالخير كالعقوبة بالشر فوضعت ههنا موضعها على طريقة قوله:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيع

ونصبها على التمييز عن بشر. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ بدلٌ من بشرٍ على حذف مضاف أي بشرٌ من أهل ذلك من لعنه الله، أو بشرٍ من ذلك دينٍ من لعنه الله، أو خبرٌ محذوف أي هو من لعنه الله وهم اليهود أبعدهم الله من رحمته وسَخِطَ عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، وَمَسَخَ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسى عليه الصلاة والسلام. وقيل كِلا المسخين في أصحاب السبت مُسَخَّتْ شُبَّانُهُمْ قردة ومشايخُهم خنازير. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة مَنْ، وكذا عُبِدَ الطَّاغُوتُ على البناء للمفعول ورفع الطَّاغُوت، وَعُبِدَ بمعنى صار معبوداً، فيكون الراجع محذوفاً أي فيهم أو بينهم، ومن قرأ وعَابِدَ الطَّاغُوتِ أو عُبِدَ على أنه نعت كَفَطِنَ وَيَقِظُ أو عِبْدَةً أو عَبَدَ الطَّاغُوتِ على أنه جمع كخدم أو أن أصله عبدة فحذف التاء للإضافة عطْفُهُ على القردة، وَمَنْ قرأ وَعُبِدَ الطَّاغُوتِ بالجر عطفه على مَنْ. والمراد من الطَّاغُوتِ العجل، وقيل الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الملعونون. ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جَعَلَ مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم، وقيل مكاناً منصرفاً. ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ قَصَدَ الطريقَ المتوسط بين غلو النصارى وقَدَحَ اليهود، والمراد من صيغتي التفضيل الزيادة مطلقاً لا بالإضافة إلى المؤمنين في الشرارة والضلالة.

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

(٦١) ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا﴾ نزلت^(٤) في يهود نافقوا رسول الله ﷺ، أو في عامة المنافقين. ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك. والجملتان حالان من فاعل قالوا، وبالكفر وبه حالان من فاعلي دخلوا وخرجوا. وَقَدْ - وإن دخلت لتقريب

(١) وأسند الفسق لأكثرهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والعناد (س/٣/٥٤).

(٢) البقرة: ١٣٦.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩٢/٦) عن ابن عباس، وفي سنده محمد بن أبي محمد وهو مجهول. وأخرجه البيهقي في الدلائل (٢٧٥/٦) وفي إسناده الكلبي وهو متروك.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٢٩٦/٦ج/٤) وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة - كما في الدر المنثور (١١٠/٣) -.

الماضي من الحال ليصح أن يقع حالاً - أفادت أيضاً - لما فيها من التوقع - أن أمانة النفاق كانت لائحة عليهم، وكان الرسول ﷺ يظنه ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم.

وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من اليهود، أو من المنافقين. ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ أي الحرام وقيل الكذب لقوله: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾^(١) ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم، أو مجاوزة الحد في المعاصي. وقيل الإثم ما يختص بهم، والعدوان ما يتعدى إلى غيرهم. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي الحرام خصه بالذكر للمبالغة. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لبس شيئاً عملوه.

(٦٣) ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أبلغ من قوله لبس ما كانوا يعملون من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وترؤ وتحمي إجادة، ولذلك دُمَّ به خواصهم، ولأن ترك الحسنة أقبح من موقعة المعصية، لأن النفس تلتذ بها وتعمل إليها ولا كذلك ترك الإنكار عليها فكان جديراً بأبلغ الذم.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي هو ممسك يُقْتَرُ بالرزق، وغُلَّتْ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود، ولا قصد فيه إلى إثبات يد وغل وبسط، ولذلك يستعمل حيث لا يتصور ذلك كقوله:

جَادَ الْجَمَى بَسَطَ الْيَدَيْنِ بِوَابِلٍ شَكَرَتْ نَدَاهُ تِلَاعُهُ وَوَهَادَهُ

ونظيره من المجازات المركبة: شابت لمة الليل. وقيل معناه إنه فقير لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢). ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ دعاء عليهم بالبخل والنكد، أو بالفقر والمسكنة، أو بغل الأيدي حقيقة يُعْلَوْنَ أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة فتكون المطابقة من حيث اللفظ وملاحظة الأصل كقولك: سبني سب الله دابرَه. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ثنى اليد مبالغة في الرد ونفي البخل عنه تعالى، وإثباتاً لغاية الجود. فإن غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيه

(١) المائدة: (٦٣).

(٢) آل عمران: (١٨١).

بيديه، وتنبهاً على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يُعطى للاستدراج وما يُعطى للإكرام. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد لذلك أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا على تَعَاقُبِ سَعَةٍ وضيق في ذات يد، ولا يجوز جَعْلُهُ حالاً من الهاء للفصل بينهما بالخبر ولأنها مضاف إليها، ولا مِنَ اليدين إذ لا ضمير لهما فيه ولا من ضميرهما لذلك. والآية نزلت في فنحاص بن عازوراء فإنه قال ذلك لما كَفَّ الله عن اليهود ما بَسَطَ عليهم من السَّعة بشؤم تكذيبهم محمداً ﷺ، وأشرك فيه الآخرون لأنهم رضوا بقوله. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي هم طاغون كافرون ويزدادون طغياناً وكُفْراً بما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء^(١). ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارة شرٍ عليه ردهم الله سبحانه وتعالى بأن أوقع بينهم منازعة كَفَّ بها عنه شرهم، أو كلما أرادوا حربَ أحدٍ غلبوا فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بختنصر ثم أفسدوا فسلط عليهم فطرس الرومي ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمين. وللحرب صلة أوقدوا أو صفة ناراً. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي للفساد وهو اجتهادهم في الكيد وإثارة الحروب والفتن وهتك المحارم. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا يجازيهم إلا شراً.

(٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به. ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما عددنا من معاصيهم ونحوه. ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ﴾ التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها. ﴿وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ وجعلناهم داخلين فيها. وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجِبُ ما قبله وإن جَلَّ، وأن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يُسَلِّمْ^(٢).

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بإذاعة ما فيهما من نعت محمد عليه الصلاة والسلام والقيام بأحكامها. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني سائر الكتب المنزلة فإنها من حيث إنهم مكلفون بالإيمان بها كالمنزل إليهم، أو القرآن^(٣). ﴿لَا كَلُوا مِنْ فَوْقَيْهِ وَرَحِمَتْ آرْجُلُهُمْ﴾ لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، أو يكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع، أو يرزقهم الجنان البانعة الثمار. فيجتنونها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض. بَيَّنْ بذلك أَنَّ ما كَفَّ عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لِقُصُورِ الفيض، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، وقيل مقتصدة متوسطة في عداوته. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بش ما يعملونه، وفيه معنى التعجب أي ما أسوأ عَمَلَهُمْ وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه والإفراط في العداوة.

(١) قدم المفعول «كثيراً» للاعتناء به. وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لأن بعضهم ليس كذلك (س/٥٨/٣).

(٢) وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للتشجيع عليهم لأن أهلية الكتاب توجب إيمانهم به وإقامتهم له (س/٥٩/٣).

(٣) وإضافة الرب إلى ضميرهم مزيد لطف بهم في الدعوة إلى الإقامة (س/٦٠/٣).

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧) ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ أُمَّةٍ أَلْحَقَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سَعْيٍ رِجَالًا فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٩) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠)

(٦٧) ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ جميع ما أنزل إليك غير مراقبٍ أحداً ولا خائفٍ مكروهاً. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك. ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فما أدبت شيئاً منها، لأن كتمان بعضها يضيع ما أدّى منها كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به، أو فكأنك ما بلغت شيئاً منها كقوله: ﴿فَكَاَنَّمَا قَتَلَ النَّاسُ جَمِيعًا﴾^(١) من حيث إن كتمان البعض والكل سواء في الشفاعة واستجلاب العقاب. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر رسالاته بالجمع وكسر التاء. ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ عِدَّةٌ وضمان من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه صلى الله عليه وسلم من تعرض الأعداء وإلحاقه لمعاذيره. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يمكنهم مما يريدون بك. وعن النبي ﷺ: «بعثني الله برسالاته فضيقت بها ذرعاً، فأوحى الله تعالى إليّ إن لم تبلغ رسالتي عذبتك، وضمن لي العصمة فقويت»^(٢). وعن أنس رضي الله تعالى عنه، كان رسول الله ﷺ يُخرسُ حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة آدم فقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس»^(٣). وظاهر الآية يوجب تبليغ كل ما أنزل، ولعل المراد به تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد، وقصد بإنزاله إطلاعهم عليه فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه.

(٦٨) ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي دين يُعتدُّ به ويصح أن يسمى شيئاً لأنه باطل ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها أمرة بالإيمان بمن صدقه والمعجزة ناطقةٌ بوجوب الطاعة له، والمراد إقامة أصولها وما لم ينسخ من فروعها^(٤). ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ

(١) المائدة: (٣٢).

(٢) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن. انظر الدر المنثور (١١٦/٣ - ١١٧) كذلك ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣٩٦/٢) والشوكاني في (فتح القدير) (٦٠/٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١/٥) رقم (٣٠٤٦) وقال: هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن الجُريري عن عبدالله بن شقيق قال: كان النبي ﷺ يُخرس ولم يذكروا فيه عن عائشة. وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٣/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وأخرجه الطبري (٣٠٧/٦ ج/٤) كلهم من حديث عائشة.

وقد حسنه ابن حجر في الفتح. وكذلك الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) تقديم إقامة الكتابين على ما أنزل مع أن ما أنزل هو المقصود لرعاية حق الشهادة واستتزالهم عن رتبة الشقاق. =

أَتَكْفِرِينَ ﴿٦٨﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبليغهم إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم^(١).

(٦٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّاحِبُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إن، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك كقوله:

فَأَنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ

وقوله:

وإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ بَغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقٍ

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، وهو كاعتراض دل به على أنه لما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلها يُتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح كان غيرهم أولى بذلك، ويجوز أن يكون والنصارى معطوفاً عليه ومن آمن خبرهما وخبر إن مقدر دل عليه ما بعده كقوله:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ

ولا يجوز عطفه على محل إن واسمها فإنه مشروط بالفراغ من الخبر، إذ لو عطف عليه قبله كان الخبر خبر المبتدأ وخبر إن معاً فيجتمع عليه عاملان، ولا على الضمير في هادوا لعدم التأكيد والفصل، ولأنه يوجب كون الصابئين هوداً. وقيل إن بمعنى نعم وما بعدها في موضع الرفع بالابتداء. وقيل الصابئون منصوب بالفتحة وذلك كما جُوز بالياء جوز بالواو. ﴿مَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ في محل الرفع بالابتداء وخبره: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والجملة خبر إن أو خبر المبتدأ كما مرّ والراجع محذوف، أي: من آمن منهم، أو النصب على البدل من اسم إن وما عطف عليه. وقرئ والصابئين وهو الظاهر، والصابئون بقلب الهمزة ياء، والصابئون بحذفها من صبا بإبدال الهمزة ألفاً أو من صبوت لأنهم صَبَوْا إلى اتباع الشهوات ولم يتبعوا شريعاً ولا عقلاً.

(٧٠) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ لِيَذْكُرُوهُمْ وليبينوا لهم أمر دينهم. ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكاليف. ﴿قَرِيبًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ جواب الشرط، والجملة صفة رسلاً، والراجع محذوف أي رسول منهم. وقيل الجواب محذوف دل عليه ذلك وهو استئناف. وإنما جيء بيقتلون موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبهياً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً، ومحافظة على رؤوس الآي^(٢).

وإيراده بعنوان الإنزال إليهم لأنهم مأمورون بإقامته والإيمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب. وفي إضافة الرب إلى ضميرهم من اللطف في الدعوة (س ٦١/٣) وهذا على معنى أن ما أنزل هو القرآن الكريم.

(١) وإظهار لفظ الكافرين للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر (س ٦٢/٣).

(٢) وتقديم فريقاً في الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع إلى ما فعلوا به، لا للقصر (س ٦٣/٣).

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي سَرِيرٌ لَأَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مِنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَ لِلظَّالِمِينَ مِنَ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٧١) ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي وحسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب لا تكون بالرفع على أن هي المخففة من الثقيلة، وأصله أنه لا تكون فتنة فَخُفَّتْ أَنْ وَحُذِفَ ضمير الشأن فصار: أن لا تكون، وإدخال فعل الحُسبان عليها وهي للتحقيق تنزيل له منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم، وأنَّ أو أنَّ بما في حيزها ساذ مسد مفعوليه. ﴿فَعَمُوا﴾ عن الدين، أو الدلائل والهدى. ﴿وَصَمُوا﴾ عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا العجل. ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثم تابوا فتاب الله عليهم. ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ كرة أخرى. وقرىء بالضم فيهما على أن الله تعالى أعماههم وأصمهم أي رماههم بالعمى والصمم، وهو قليل، واللغة الفاشية أعمى وأصم. ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بدل من الضمير، أو فاعل والواو علامة الجمع كقولهم: أكلوني البراغيث، أو خبر مبتدأ محذوف أي العمى والصمم كثير منهم. وقيل مبتدأ والجملة قبله خبره وهو ضعيف لأن تقديم الخبر في مثله ممتنع. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم على وفق أعمالهم^(١).

(٧٢) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي سَرِيرٌ لَأَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي إني عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم. ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال. ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ يُمنَع من دخولها كما يُمنَع المحرَّم عليه من المحرم فإنها دار الموحدين^(٢). ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ فإنها المعدة للمشركين. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنَ أَنْصَارٍ﴾ أي وما لهم أحد ينصرهم من النار، فوضَعَ الظاهر موضع المضمرة تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك وعَدَلُوا عن طريق الحق، وهو يُحْتَمَل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه الصلاة والسلام، وأن يكون من كلام الله تعالى نبه به على أنهم قالوا ذلك تعظيماً لعيسى ﷺ وتقرباً إليه وهو معاديهم بذلك ومخاصمهم فيه، فما ظنك بغيره؟

(٧٣) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي أَحَدُ ثَلَاثَةٍ، وهو حكاية عما قاله النسطورية والملكانية منهم القائلون بالآقانيم الثلاثة وما سبق قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وما في الوجود ذات واجب مستحق للعبادة - من حيث إنه مُبْدِئ جميع الموجودات - إلا إله واحد. موصوف بالوحدانية متعالٍ عن قبول الشراكة. ومن مزيدة للاستغراق. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ولم يُوحَدُوا. ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسن الذين بقوا منهم على

(١) وصيغة المضارع في «يعملون» لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة (س/٣/٦٥).

(٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتحويل الأمر وتربية المهابة (س/٣/٦٦).

الكفر، أو ليمسّن الذين كفروا من النصارى، وضّعه موضع ليمسّمهم تكريراً للشهادة على كفرهم وتنبهها على أن العذاب على من دام على الكفر ولم ينقلع عنه فلذلك عقبه بقوله:

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّلَعِ أَنْظُرَ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ أي أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائفة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا. وفي هذا الاستفهام تعجيب من إصرارهم.

(٧٥) ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله خصه الله سبحانه وتعالى بالآيات كما خصهم بها، فإن إحياء الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى عليه السلام وهو أعجب، وإن خلقه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ كسائر النساء اللاتي يلازم الصدق، أو يُصَدِّقْنَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّلَعِ﴾ ويفتقران إليه افتقار الحيوانات. بين أولاً أقصى ما لهما من الكمال ودل على أنه لا يوجب لهما ألوهية لأن كثيراً من الناس يشاركنهما في مثله، ثم نبه على نقصهما وذكر ما ينافي الربوبية ويقضي أن يكونا من عداد المربوبات الكائنة الفاسدة، ثم عجب لمن يدعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُضَرَّفُونَ عن استماع الحق وتأمله. وثم لتفاوت ما بين العجبيين أي إن بياننا للآيات عَجَبٌ وإعراضهم عنها أعجب^(١).

(٧٦) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو وإن ملك ذلك بتمليك الله سبحانه وتعالى إياه لا يملكه من ذاته، ولا يملك مثل ما يضرُّ الله تعالى به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحة والسعة، وإنما قال «ما» نظراً إلى ما هو عليه في ذاته توطئة لنفي القدرة عنه رأساً وتنبهها على أنه من هذا الجنس ومن كان له حقيقة تُقْبَلُ المجانسة والمشاركة فبمعزول عن الألوهية، وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع. ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بالأقوال والعقائد فيجازي عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(٧٧) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي غُلُوا باطلاً فترفعوا عيسى عليه الصلاة

(١) وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب (س ٦٨/٣).

والسلام إلى أن تدعوا له الألوهية، أو تضعوه فتزعموا أنه لغير رشفة. وقيل الخطاب للنصارى خاصة^(١). ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد ﷺ في شريعتهم. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم. ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه ﷺ لما كذبوه وبغوا عليه، وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع.

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُوا ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٨) ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسانهما. وقيل إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسخهم الله تعالى قرده، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى عليه السلام ولعنهم فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعن الشنيع المقتضي للمسح بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم^(٢).

(٧٩) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيؤوا له، أو لا ينتهون عنه من قولهم تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تعجب من سوء فعلهم مؤكداً بالقسم^(٣).

(٨٠) ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل الكتاب. ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي لبئس شيئاً قدموه ليردوا عليه يوم القيامة. ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ هو المخصوص بالذم، والمعنى موجب سخط الله والخلود في العذاب، أو علة الذم والمخصوص محذوف أي لبئس شيئاً ذلك لأنه كسبهم السخط

(١) وذكرهم بعنوان أهل الكتاب للتذكير بأن الإنجيل أيضاً ينهاهم عن الغلو (س/٣/٦٩).

(٢) قوله «لُعِنَ» بناؤه للمفعول للجري على سنن الكبرياء.

وقوله «ذلك» أثر اسم الإشارة على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال قضاة وبعده في الشناعة (س/٣/٦٩).

(٣) قوله «كانوا لا يتناهون» جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لاستمرار عدم تناهيهم عن المنكر (س/٣/٦٩).

والخلود.

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ يعني نبيهم وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه السلام. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ آوِيَّةَ﴾ إذ الإيمان يمنع ذلك. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم، أو متردون في نفاقهم.

(٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ لشدة شكيמתهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى وركونهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُوا﴾ للذين جانبهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمود وإن كانت من كافر^(١).

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأْتِبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

(٨٣) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ عطف على لا يستكبرون، وهو بيان لركة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأييبهم عنه. والفيض انصباب عن امتلاء، فوضع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ من الأولى للابتداء، والثانية لتبيين ما عرفوا أو للتبعض بأنه بعض الحق، والمعنى أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف إذا عرفوا كله؟! ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بذلك أو بمحمد. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ من الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة.

(٨٤) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين والدخول في مداخلهم، أو جواب سائل قال لِمَ آمَنتُمْ؟ ولا تؤمن حال من الضمير والعامل ما في اللام من معنى

(١) وتقديم اليهود على المشركين مع كونهما في قرن واحد للإشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن في تقديمهم عليهم في قوله تعالى: «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا». ٤٠. إيداناً بتقدمهم عليهم في الحرص.

وقوله «الذين قالوا إنا نصارى» عبر عنهم بذلك إشعاراً بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله. واختلاف التعبير بين اليهود والنصارى لما بينهما من التباين (س/٣/٧١).

الفعل، أي أي شيء حصل لنا غير مؤمنين بالله أي بوحدانيته فإنهم كانوا مثلثين أو بكتابه ورسوله فإن الإيمان بهما إيمان به حقيقة، وذكره توطئة وتعظيماً، ونطمع عطف على نؤمن أو خبر محذوف، والواو للحال أي ونحن نطمع والعامل فيها عامل الأولى مقيداً بها أو نؤمن.

(٨٥) ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أي معتقده. ﴿جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور. والآيات الأربع روي أنها نزلت في النجاشي وأصحابه بعث إليه الرسول ﷺ بكتابه فقراه، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين، فأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكوا وآمنوا بالقرآن^(١) وقيل نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه وفدوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة يس فبكوا وآمنوا^(٢).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ عطف التكذيب بآيات الله على الكفر وهو ضرب منه لأن القصد إلى بيان حال المكذبين، وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب.

(٨٧) ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما طاب ولذ منه، كأنه لما تضمن ما قبله مدح النصارى على ترهيبهم والحث على كسر النفس ورفض الشهوات عقبة النهي عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حد الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) قال الولي العراقي: لم أجده.

وقال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٧٢): «أظن صاحب الكشف ذكره بالمعنى من قصة جعفر بن أبي طالب مع عمرو بن العاص لما أرسلته قريش بهديتها إلى النجاشي ليدفع إليهم جعفرأ ورفقاه فإن معنى ما ذكر موجوداً فيها إلا قراءة (مريم) أخرجه ابن إسحاق في المغازي من طريق ابن هشام من حديث أم سلمة» هـ.

● في الكافي الشاف: (طه) والصواب (مريم) وذكر قراءتها موجود في المغازي. (وابن حبان) والصواب (ابن هشام) كما في المغازي. انظر المغازي (ص ١٩٤ - ١٩٧). وأخرج ابن جرير في جامع البيان (٥/ج ٧/٥) عن الزهري أنه قال: ما زلت أسمع علماءنا يقولون: نزلت في النجاشي وأصحابه. وإسناد الأثر حسن. وأخرج ابن جرير في جامع البيان (٥/ج ٧/٥) عن عروة قال: كانوا يرون أن هذه الآيات نزلت في النجاشي. وإسناد الأثر صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ج ٧/٤) عن سعيد بن جبيرة.

وأخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ج ٧/٥) عن السدي أنه قال: بعث النجاشي إلى النبي ﷺ اثني عشر رجلاً يسألونه ويأتون بخبره، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن فبكوا فأنزل الله فيهم «وإذا سمعوا» إلى آخر الآية.

الْمُعْتَدِينَ ﴿١﴾. ويجوز أن يراد به ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حرم داعية إلى القصد بينهما. روي أن رسول الله ﷺ وصف القيامة لأصحابه يوماً وبالغ في إنذارهم، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك^(١) ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح^(٢) ويسبحوا في الأرض ويجتنبوا مذاكيرهم^(٣)، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني لم أؤمر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأكل اللحم والدسم وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». فنزلت^(٤).

(٨٨) ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، فيكون حلالاً مفعول كلوا ومما حال منه تقدمت عليه لأنه نكرة، ويجوز أن تكون من ابتدائية متعلقة بكلوا، ويجوز أن تكون مفعولاً وحلالاً حال من الموصول، أو العائد المحذوف، أو صفة لمصدر محذوف. وعلى الوجوه لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

(١) الودك: هو دسم اللحم.

(٢) المسح: كساء الشعر، والكثير منه (المسوح) بضم الميم. لسان العرب. مادة: مسح.

(٣) يجتنبوا مذاكيرهم: أي يقطعوها..

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٢٠٥ - ٢٠٦ بلفظ المصنف عن المفسرين بغير إسناد.

وقد أخرجه الطبري في جامع البيان (٥/ج ٩/٧ - ١٠) عن السدي.

وقال ابن حجر في الكافي الشاف (ص ٥٨): «وهو منتزع من أحاديث. وأصله في الصحيحين - البخاري (٩/١٠٤ رقم ٥٠٦٣) ومسلم (٢/١٠٢٠ رقم ١٤٠١/٥) - عن عائشة أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواجه عن عمله في السر. فقال بعضهم: لا أكل اللحم. وقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراشي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ولكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم. وأكل اللحم وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني.

وفي الصحيحين - البخاري (٩/١١٧ رقم ٥٠٧٣) ومسلم (٢/١٠٢٠ رقم ٦، ٧، ٨/١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص قال: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا».

وفي الصحيحين - البخاري (٣/٣٨ رقم ١١٥٣) ومسلم (٢/٨١٤ رقم ١٨٦ / ١١٥٩) - عن عبدالله بن عمرو بن العاص في قصة مراجعته النبي ﷺ في الصوم والصلاة. فقال: صلى الله عليه وسلم «صم وأفطر، وقم ونم. فإن لنفسك عليك حقاً... الحديث».

وروى الطبري (٥/ج ١٠/٧ - ١١) - من طريق ابن جريج عن مجاهد قال «أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبدالله بن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح». وفي سنده «سنيده» وهو ضعيف.

ومن طريق ابن جريج عن عكرمة (٥/ج ١١/٧) «أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى أبي حذيفة، في جماعة من الصحابة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس، وهموا بالاختصاص واجتمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم - الآية» قال: فبعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا، وصلوا وناموا. فليس منا من ترك سنناً» وفي سنده «سنيده» وهو ضعيف.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُكُمْ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الرجل: لا والله وبلى والله، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وفي أيمانكم صلة يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر، أو حال منه. ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية، والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم أو ينكث ما عقدتم فحذف للعلم به. وقرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم عقدتم بالتخفيف، وابن عامر برواية ابن ذكوان عاقدتم وهو من فاعل بمعنى فعل. ﴿فَكَفَّرتُكُمْ﴾ فكفارة نكثه أي الفعلة التي تذهب إثمه وتستره، واستدل بظاهره على جواز التكفير بالمال قبل الحنث وهو عندنا خلافاً للحنفية لقوله عليه الصلاة والسلام: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير»^(١). ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ مِنْ أَقْصَدِهِ في النوع أو القدر، وهو مُدٌّ لكل مسكين عندنا ونصف صاع عند الحنفية. و«ما» محله النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديره: أن تطعموا عشرة مساكين طعاماً من أوسط ما تُطعمون، أو الرفع على البدل من إطعام. وأهلون كأرضون. وقرئ أهاليكم بسكون الياء على لغة من يسكنها في الأحوال الثلاث كالآلف، وهو جمع أهل كالليالي في جمع ليل والأراضي في جمع أرض، وقيل هو جمع أهلاة. ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ عطف على إطعام، أو من أوسط إن جعل بدلاً. وهو ثوب يغطي العورة، وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار. وقرئ بضم الكاف وهو لغة كقدوة في قدوة وكأسوتهم بمعنى، أو كمثّل ما تطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقيراً تواسون بينهم وبينهم إن لم تُطعموهم الأوسط، والكاف في محل الرفع وتقديره: أو إطعامهم كأسوتهم. ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أو إعتاق إنسان، وشرط الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه الإيمان قياساً على كفارة القتل، ومعنى أو إيجاب إحدى الخصال الثلاث مطلقاً وتخييراً المكفر في التعيين. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي واحداً منها. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فكفارته صيام ثلاثة أيام، وشرط فيه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه التتابع لأنه قرئ ثلاثة أيام متتابعات، والشواذ ليست بحجة عندنا إذا لم تثبت كتاباً ولم تُزو سنة. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي المذكور. ﴿كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن تفضوا بها ولا تبدلوا لكل أمر، أو بأن تبثروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير، أو بأن تكفروها إذا حنثتم. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أعلام شرائعه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة التعليم أو نعمة الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

(١) أخرجه مسلم (٣/١٢٧١ - ١٢٧٢) رقم ١١، ١٢، ١٣، ١٤ / ١٦٥٠ من حديث أبي هريرة.

كما أخرجه مسلم (٣/١٢٧٢ - ١٢٧٣) رقم ١٥، ١٦، ١٧ / ١٦٥١ من حديث عدي بن حاتم.

وأخرج البخاري (١١/٥١٧) رقم ٦٦٢٣ ومسلم (٣/١٢٦٨) رقم ١٦٤٩ من حديث أبي موسى: «... وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين ثم أرى خيراً منها، إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير».

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾
 إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَذَا
 أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾

(٩٠) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ﴾ أي الأصنام التي نصبت للعبادة. ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ سبق تفسيرها في أول السورة. ﴿رِجْسٌ﴾ قذر تعاف عنه العقول، وأفرده لأنه خبر للخمر، وخبر المعطوفات محذوف أو لمضاف محذوف كأنه قال: إنما تعاطي الخمر والميسر. ﴿مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير للرجس، أو لما ذكر، أو للتعاطي. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه.

واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأن صدر الجملة بإنما، وقرنها بالأنصاب والأزلام. وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شرٌ بحت أو غالب، وأمر بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجئ منه الفلاح، ثم قرر ذلك بأن يبين ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال تعالى:

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ وإنما خصهما بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الويل تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان، وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن»^(١). وخص الصلاة من الذكر بالافراد للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان من حيث إنها عمادته والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرئياً على ما تقدم من أنواع الصوارف فقال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ إيذاناً بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الأعداء قد انقطعت.

(١) أخرجه البزار (٣/ ٣٥٣ - كشف) من حديث مجاهد عن عبدالله بن عمرو بهذا. ورواه الحارث بن أسامة (٢/ ١٠٥ - المطالب العالية) وأبو نعيم في الحلية (رقم: ٤٧٧ - الكافي الشاف) قلت: وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٥٤) - من طريقه من رواية الحسن عن عبدالله بن عمرو به.

وفيه الخليل بن زكريا - (متروك: التقريب (١/ ٢٢٨) - وفي الذي قبله ثابت بن محمد - (صدوق يخطئ في أحاديث: التقريب (١/ ١٧٧) - وهو أصلح حالاً من الخليل. ولابن ماجه (٢/ ١١٢٠ رقم ٣٣٧٥) من حديث أبي هريرة، بلفظ «مد من خمر كعابد وثن» وإسناده جيد - قلت: وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه - قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن سليمان الأصبهاني عن سهيل عن أبيه عنه به.

ورواه ابن حبان - (ص ٣٣٥ رقم ١٣٧٩ - موارد) - من حديث ابن عباس. بهذا اللفظ وقال: الشبه أن يكون فيمن استحلها. وفي مسند إسحاق ومن رواية عمر بن عبدالعزيز عن بعض أصحابه بلفظ «من شرب الخمر فمات مات كعابد وثن».

وللطبراني في الأوسط - (المجمع: ٥/ ٧٥) - من حديث أنس بلفظ: «المقيم على الخمر كعابد وثن. وإسناده ضعيف. والخلاصة أن الحديث حسن بمجموع طرقه والله أعلم.

[انظر (الكافي الشاف رقم: ٤٧٧) والصحيحة للمحدث الألباني (رقم: ٦٧٧)].

● وأخرج الترمذي (٢٥٤/٥ رقم ٣٠٥٠) والطيالسي (ص ٩٧ رقم ٧١٥) وابن حبان (ص ٤٣٠ رقم ١٧٤٠ - موارد) والطبري في جامع البيان (٥/ج ٣٧/٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مات رجال من أصحاب النبي ﷺ قبل أن تحرم الخمر. فلما حرمت الخمر قال رجال: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت «ليس على الذين آمنوا، وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات»

الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك بدّل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة إشارةً إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يُتَّقَى فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات تحزراً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً.

(٩٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبَلُّوْكُمْ اللَّهُ بِشَقٍّ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محزّمون. والتقليل والتحقيق في شيء للتنبيه على أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه. ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ لِيَتَمَيَّزَ الْخَائِفُ مِنَ عِقَابِهِ وَهُوَ غَائِبٌ مُنْتَظَرٌ لِقَوَّةِ إِيْمَانِهِ مِمَّنْ لَا يَخَافُهُ لَضَعْفِ قَلْبِهِ وَقِلَّةِ إِيْمَانِهِ، فَذَكَرَ الْعِلْمَ وَأَرَادَ وَقُوعَ الْمَعْلُومِ وَظُهُورَهُ أَوْ تَعَلُّقَ الْعِلْمِ. ﴿فَمَن أَعْتَدَى بِمَدَدِكَ﴾ بعد ذلك الابتلاء بالصيد. ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالوعيد لاحق به، فإن من لا يملك جأشه في مثل ذلك ولا يراعي حكم الله فيه فكيف به فيما تكون النفس أميل إليه وأحرص عليه؟.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لَّيْذُوقَ وَبَالَ أَمْرِؤْ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

(٩٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي مخرمون جمع حرام كرداح ورُدَح، ولعله ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم، وأراد بالصيد ما يؤكل لحمه لأنه الغالب فيه عرفاً ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «خمس يقتلن في الحل والحرم»: الحداة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور^(١)، وفي رواية أخرى الحية بدل العقرب^(٢)، مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ واختلّف في أن هذا النهي هل يُلغى حكم الذبح فيلحق مذبوح المُخْرِمِ بالميتة ومذبوح الوثني أو

[المائدة: ٩٤].

قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني بشواهد.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥/٦) رقم (٣٣١٤)، ومسلم (٨٥٦/٢) رقم (١١٩٨).

والترمذي (١٩٧/٣) رقم (٨٣٧) والنسائي (١٨٨/٥)، وابن ماجه (١٠٣١/٢) رقم (٣٠٨٧)، والطحاوي في المسند (ص ٢١٤ رقم ١٥٢١)، وأحمد في المسند (٩٧/٦، ٩٨)، والدارمي (٣٦/٢، ٣٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٦٦/٢)، والبيهقي (٢٠٩/٥). من رواية جماعة عن عائشة بالفاظ.

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٨/٢) رقم (١٢٠٠/٧٥).

لا فيكون كالشاة المغصوبة إذا ذبحها الغاصب. ﴿وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ ذاكراً لإحرامه عالماً بأنه حرام عليه قبل ما يقتله، والأكثر على أن ذكره ليس لتقييد وجوب الجزاء فإن إتلاف العائد والمخطيء واحد في إيجاب الضمان، بل لقوله ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ والآية نزلت فيمن تعمد إذ روي: أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمارٌ وحشٍ فطعنه أبو اليسر^(١) برمح فقتله. فنزلت^(٢). ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ برفع الجزاء، والمثل قراءة الكوفيين ويعقوب بمعنى فعلية أي فواجبه جزاءً يماثل ما قتل من النعم، وعليه لا يتعلق الجاز بجزاء للفصل بينهما بالصفة فإن متعلق المصدر كالصلة له فلا يوصف ما لم يتم بها، وإنما يكون صفته، وقرأ الباقون على إضافة المصدر إلى المفعول وإقحام مثل كما في قولهم مثلي لا يقول كذا^(٣)، والمعنى فعلية أن يُجزى مثل ما قتل، وقرئ فجزاءً مثل ما قتل بنصبهما على فليُجز جزاءً، أو فعلية أن يَجزي جزاءً يماثل ما قتل، وفجراؤه مثل ما قتل، وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما، والقيمة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وقال: يُقَوِّم الصيد حيثُ صيد فإن بلغت القيمة ثَمَنٌ هدي تخير بين أن يهدي ما قيمته قيمته وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُر أو صاعاً من غيره وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم، واللفظ للأول أوفق. ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ صفة جزاء، ويحتمل أن يكون حالاً من ضميره في خبره أو منه إذا أضفته أو وصفته ورفعته بخبر مقدر لمن، وكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد يحتاج إلى المماثلة في الخلقة والهيئة إليها، فإن الأنواع تشابه كثيراً. وقرئ ذو عدل على إرادة الجنس أو الإمام. ﴿هَدْيًا﴾ حال من الهاء في به أو من جزاء وإن نُؤن لتخصصه بالصفة، أو بدل من مثل باعتبار محله أو لفظه فيمن نصبه. ﴿بَلَّغَ الْكَعْبَةَ﴾ وصف به هدياً لأن إضافته لفظية، ومعنى بلوغه الكعبة ذبحه بالحرم والتصدق به، وقال أبو حنيفة يذبح بالحرم ويتصدق به حيث شاء. ﴿أَوْ كَفَرَةً﴾ عطف على جزاء إن رفعته، وإن نصبته فخبير محذوف. ﴿طَعَامًا مَسْكِينٍ﴾ عطف بيان، أو بدل منه، أو خبر محذوف أي هي طعام. وقرأ نافع وابن عامر كفارة طعام بالإضافة للتبيين كقولك: خاتم فضة، والمعنى عند الشافعي أو أن يكفر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدى من غالب قوت البلد فيعطي كل مسكين مُدّاً. ﴿أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أو ما سواه من الصوم فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وهو في الأصل مصدر أطلق للمفعول. وقرئ بكسر العين وهو ما عدل بالشيء في المقدر كعذل الحمل وذلك إشارة إلى الطعام، وصيماً تمييز للعدل. ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ متعلق بمحذوف أي فعلية الجزاء أو الطعام أو الصوم ليدوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى. وأصل الوَبَل الثقل ومنه الطعام الوبيل. ﴿عَقَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتل الصيد محرماً في الجاهلية أو قبل التحريم، أو في هذه المرة. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى مثل هذا. ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ فهو ينتقم الله منه. وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد كما حكى عن ابن عباس وشريح. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ مما أصر على عصيانه.

(١) أبو اليسر هو كعب بن عمرو الأنصاري، صحابي، بدري، توفي بالمدينة ٥٥ هـ (التقريب ١٣٥/٢).

(٢) البخاري (١٨٢١ - ١٨٢٣) ومسلم (٥٦ - ٦٤).

(٣) أي قرؤوا فجزاءً مثلاً.

أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَنَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٧﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾

(٩٦) ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ ما صيد منه مما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله لقوله عليه الصلاة والسلام في البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»^(١)، وقال أبو حنيفة لا يحل منه إلا السمك، وقبل يحل السمك وما يؤكل نظيره في البر. ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما قذفه أو نَضَبَ عنه. وقيل الضمير للصيد وطعامه أَكْلُهُ. ﴿مَتَنَعًا لَكُمْ﴾ تمتعاً لكم نصب على الغرض. ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي ولسيارتكم يتزودونه قديداً. ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ﴾ أي ما صيد فيه أو الصيد فيه، فعلى الأول يَحْرُمُ على الْمُحْرَمِ أيضاً ما صاده الحلال وإن لم يكن له فيه مدخل، والجمهور على حله لقوله عليه الصلاة والسلام «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يُصَدَّ لكم»^(٢) ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي محرمين وقرىء بكسر الدال من دام يَدَامُ. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(٩٧) ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ صَبَرَهَا، وإنما سمي البيت كعبة لتكعبه. ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ عطف بيان على جهة المدح، أو المفعول الثاني ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم أي سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أمر دينهم ودنياهم. وقرأ ابن عامر قِيَمًا على أنه مصدر على فعل كالشيع أَعْلَى عينه كما أعل في فعله، ونصبه على المصدر أو الحال. ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ﴾ سبق تفسيرها، والمراد بالشهر الشهر الذي يؤدي فيه الحج وهو ذو الحجة لأنه المناسب لقرنائه، وقيل الجنس. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره. ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

(١) وهو حديث صحيح.

أخرجه مالك في الموطأ (٢٢/١ رقم ١٢) وأبو داود (٦٤/١ رقم ٨٣)، والترمذي (١٠٠/١ رقم ٦٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٥٠/١ رقم ٥٩) و(١٧٦/١ رقم ٣٣٢)، و(٢٠٧/٧ رقم ٤٣٥٠)، وابن ماجه (١٣٦/١ رقم ٣٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٣١/١)، وابن خزيمة (٥٩/١ رقم ١١١) والشافعي في الأم (١٦/١)، وفي ترتيب المسند (٢٣/١ رقم ٤٢)، وأحمد في المسند (٢٣٧/٢، ٣٦١، ٣٧٨، ٣٩٢)، والدارمي (١٨٦/١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٤٧٨/٣)، وابن حبان في صحيحه (٢٧١/٢ رقم ١٢٤٠) و(ص ٦٠ رقم ١١٩ - موارد)، والحاكم في المستدرک (١٤٠/١)، وفي علوم الحديث ص ٨٧، والبيهقي (٣/١) وغيرهم. وهو من رواية مالك عن صفوان بن سليم، عن سعيد بن سلمة من آل ابن الأزرق، عن المغيرة بن أبي بزة أنه سمع أبا هريرة يقول: الحديث.

وانظر الكلام عليه في تخريجنا لبلوغ المرام الحديث الأول.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٦٢/٣)، وأبو داود (٤٢٨/٣ رقم ١٨٥١)، والترمذي (٢٠٣/٣ رقم ٨٤٦)، والنسائي (١٨٧/٥)، وابن خزيمة في صحيحه (١٨٠/٤ رقم ٢٦٤١)، وابن حبان في الموارد (ص ٢٤٣ رقم ٩٨٠)، والحاكم في المستدرک (٤٥٢/١)، والدارقطني في السنن (٢٩٠/٢ رقم ٢٤٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٠/٥)، وهو حديث ضعيف.

الْأَرْضِ ﴿ فَإِنَّ شَرْعَ الْأَحْكَامِ لَدَفْعِ الْمَضَارِّ قَبْلَ وَقُوعِهَا وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ الْمُرْتَبَةِ عَلَيْهَا دَلِيلُ حِكْمَةِ الشَّارِعِ وَكَمَالِ عِلْمِهِ . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ ﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق .

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن قَسَسَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

(٩٨) ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصر عليه ولمن أفلح عنه .

(٩٩) ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به أي الرسول، أتى بما أمر به من التبليغ ولم يبق لكم عذر في التفريط . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة .

(١٠٠) ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها، رَغِبَ به في مصالح العمل وحلال المال . ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والخطاب لكل معتبر ولذلك قال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ أي فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر وآثروا الطيب وإن قل . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ راجين أن تبلغوا الفلاح . روي: أنها نزلت في حُجَّاجِ الْيَمَامَةِ لما همَّ المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عنه وإن كانوا مشركين^(١) .

(١٠١) ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن قَسَسَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ الشرطية وما عطف عليها صفتان لأشياء والمعنى: لا تسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء إن تَظْهَرَ لكم تَغْمُكُمْ وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تَظْهَرَ لكم، وهما كمقدمتين تُنتِجَانِ ما يمنع السؤال وهو أنه مما يغمهم والعاقِلُ لا يفعل ما يغمه . وأشياء اسم جمع كطَرَفَاءٍ غير أنه قلبت لامه فجعلت لَفْعَاءَ . وقيل أَفْعَاءَ حذف لامه جمعٌ لشيء على أن أصله شيء كهين، أو شيء كصديق فخفف . وقيل أَفْعَالٌ جمع له من غير تغيير كبيت وأبيات ويرده منع صرفه . ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلف بها، إذ روي أنه لما نزلت ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾^(٢) قال سراقه بن مالك^(٣): أكلُ عام؟

(١) أخرجه ابن جرير (٥٩/٦) عن عكرمة والسدي، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ١٢٥ عن ابن عباس بنحوه .

وهو حسن عن طريق السدي كما في الفتح السماوي ص ٥٤٧ .

(٢) آل عمران: «٩٧» .

(٣) سراقه بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي أبو سفيان أسلم بعد الطائف «ب د ع» .

فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً فقال: «لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم». فنزلت^(١). أو استئناف أي عفا الله عما سلف من مسألتكم

= انظر تجريد أسماء الصحابة للذهبي (١/٢١٠ رقم ٢١٨٤).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٤٨٠):

«هذا السياق لم أجده لا عن سراقه ولا عن عكاشة. فأما سراقه: فروى مسلم - (٢/٨٨٦ رقم ١٤٧/١٢١٨) - من حديث جابر الطويل في صفة الحج: «فقال سراقه بن مالك بن جعشم: يا رسول الله، ألعامنا هذا، أم للأبد؟ قلت: وهو عند البخاري - (٣/٦٠٦ رقم ١٧٨٥) - أيضاً من وجه آخر عن جابر. وللنسائي - (٥/١٧٨ رقم ٢٨٠٦) - وابن ماجه - (٢/٩٩١ رقم ٢٩٧٧) - من حديث سراقه بن مالك نفسه أنه قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله، عمرتنا هذه لعامنا أم للأبد؟ فقال: لا، بل للأبد. دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» - قلت حديث سراقه صحيح -.

وأما عكاشة بن محصن: فرواه الطبري - في «جامع البيان» (٥/٨٢ ج ٧) - وابن مردويه - وأبو الشيخ: كما في الدر المنثور (٣/٢٠٦) - من طريق محمد بن زياد: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، كتب عليكم الحج، فقال عكاشة بن محصن الأسدي: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: أما أنا لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فأنزل الله «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء - الآية» وهو أقرب إلى سياق المصنف. دون ما في آخره مما ذكره المصنف فهو في الحديث الآتي.

وأخرج الطبري - في «جامع البيان» (٥/٨٢ ج ٧) - من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، عن ابن عباس، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فقال رجل: كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثاً، فقال: من السائل؟ فقل فلان. فقال «والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما أطقتموه، ولو تركتموه لكفرتم. فأنزل الله تعالى هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء.. الآية».

وأخرج الطبري في جامع البيان (٥/٨٢ ج ٧ - ٨٣) - أيضاً من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة أنه سمعه يقول: «قام رسول الله ﷺ في الناس، وقال: كتب عليكم الحج فقام رجل من الأعراب - فذكر الحديث، وفيه مقال: ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لكفرتم، وأما بقيته ففيما أخرجه مسلم (٢/٩٧٥ رقم ٤١٢ / ١٣٣٧) - من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

وقد سأل عن الحج الأقرع بن حابس فعند بعض أصحاب السنن - (أبو داود ٣٤٤/٢ رقم ١٧٢١) والنسائي (٥/١١١ رقم ٢٦٢٠) وابن ماجه (٢/٩٦٣ رقم ٢٨٨٦) - من حديث ابن عباس أن الأقرع بن حابس سأل رسول الله ﷺ: الحج في كل سنة أو مرة واحدة؟ فقال: مرة واحدة، فما زاد فهو تطوع».

وأخرجه الطبري - (في جامع البيان ٥/٨٣ ج ٧) - من هذا الوجه - قلت: سنده ضعيف - فسمى الرجل محصناً الأسدي، وعند غيره عكاشة بن محصن^١ هـ، وأما حديث علي فأخرجه الترمذي (٣/١٧٨ رقم ٨١٤) و(٥/٢٥٦ رقم ٣٠٥٥) وابن ماجه (٢/٩٦٣ رقم ٢٨٨٤) وأحمد (١/١١٣) والدارقطني (٢/٢٨٠ رقم ٢٠٢) من طريق أبي البخري عنه.

قال الترمذي: حديث علي حديث حسن غريب. وقال ابن حجر في التلخيص (٢/٢٢٠ رقم ٩٥٢): عن حديث =

فلا تعودوا لمثلها. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يَفُزُّط منكم ويعفو عن كثير، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يَغْنِيهِم فقال: «لا أَسْأَلُ عن شيء إلا أجبت» فقال رجل: أين أبي؟ فقال: «في النار» وقال آخر: مَنْ أبي؟ فقال: «حذافة» وكان يدعى لغيره فتزلت^(١).



قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الضمير للمسألة التي دل عليها تسألوا ولذلك لم يُعَدَّ بعن، أو لأشياء بحذف الجار. ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بسألها وليس صفة لقوم، فإن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثة ولا حالاً منها ولا خبراً عنها. ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي بسببها حيث لم يأتروا بما سألوا جحوداً.

= علي بأنه منقطع. وقد ضعفه الألباني في الإرواء (١٥٠/٤).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/٧٨١ - ٨٢) من حديث أبي هريرة وفي سنده عبدالعزيز بن أبان الأموي، من ولد سعيد بن العاص، كان كذاباً يضع الأحاديث وذمه يطول. وانظر رقم (١٠٢٩٥ - شاكراً) لتقف على ترجمته وترجمته (الحارث بن أبي سلمة) و(قيس بن الربيع الأسدي).

● وأخرج البخاري (٢١/٢) رقم (٥٤٠) بعضه من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة، فذكر أن فيها أموراً عظيماً، ثم قال «من أحب أن يسأل عن شيء فليسال، فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ما دمت في مقامي هذا». فأكثر الناس في البكاء، وأكثر أن يقول «سلوني» فقام عبدالله بن حذافة السهمي فقال: من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» ثم أكثر أن يقول «سلوني» فبك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فسكت. ثم قال «عرضت علي الجنة والنار أنفأ في عرض هذا الحائط، فلم أر كالخير والشر».

● ثم أخرج البخاري (١٨٧/١) رقم (٩٢) ومسلم (٤/١٨٣٤) رقم (٢٣٦٠/١٣٨) من حديث أبي موسى، قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب ثم قال للناس: سلوني عما شئتم قال رجل من أبي؟ قال: أبوك حذافة. فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال أبوك سالم مولى شيبة. فلما رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول الله إنا نتوب إلى الله عز وجل.

● وقد أخرج البخاري (٨/٢٨٠) رقم (٤٦٢١) ومسلم (٤/١٨٣٢) رقم (٢٣٥٩/١٣٤) من حديث أنس قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. قال: ففطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبي؟ قال أبوك فلان. فنزلت هذه الآية «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»...

● وأخرج البخاري (٨/٢٨٠) رقم (٤٦٢٢) وابن جرير في جامع البيان (٥/٧٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» حتى فرغ من الآية كلها.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في سبب نزولها أقوال أخرى، ثم جمع بينها بقوله: «... لا مانع أن يكون الجميع سبب نزولها والله أعلم» هـ.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ردٌّ وإنكار لما ابتدعه أهل الجاهلية وهو أنهم إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكرٌ بحروا أذنّها أي شقوها وخلوا سبيلها فلا تُركَّب ولا تُحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شُفيت فناقني سائبةً ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلئهم وإن ولدتهما قالوا: وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح لها الذكّر، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرماً ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى وقالوا: قد حُمي ظهره. ومعنى ما جعل ما شرع ووضع، ولذلك تعدّى إلى مفعول واحد وهو البحيرة، ومن مزيدة. ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الحلال من الحرام والمبيح من المحرم، أو الأمر من الناهي ولكنهم يُقلّدون كبارهم، وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

(١٠٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأن لا سند لهم سواه. ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال، والهمزة دخلت عليها لإنكار الفعل على هذه الحال أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين، والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بمن عُلِمَ أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد.

(١٠٥) ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي احفظوها والزموا إصلاحها، والجاز مع المجرور جُعِلَ اسماً لالزموا ولذلك نصب أنفسكم. وقرئ بالرفع على الابتداء. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لا يضرركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن يُنكر المنكر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيّره بيده فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»^(١). والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم، وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سَفَّهْتَ آبَاءَكَ، فنزلت^(٢). ولا يضرركم يَحْتَمِلُ الرفع على أنه مستأنف ويؤيده أن قرئ لا يضيركم، والجزم على الجواب أو النهي لكنه ضمت الراء اتباعاً لضمّة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة وتنصره قراءة من قرأ لا يَضُرُّكُمْ بالفتح، ولا يَضُرُّكُمْ بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعد للفريقين وتنبية على أن أحداً لا يواخذُ بذنب غيره.

(١) أخرجه مسلم (٦٩/١) رقم (٤٩/٧٨) من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه الثعلبي عن ابن زيد. انظر الفتح السماوي ص ٥٩٦.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾

(١٠٦) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي فيما أُمِرْتُمْ شهادةً بينكم، والمراد بالشهادة الإشهاد في الوصية، وإضافتها إلى الظرف على الاتساع. وقرئ شهادةً بالنصب والتنوين على لِيَقُمَ. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ إذا شارفه وظهرت أمارته، وهو ظرف للشهادة^(١). ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدلٌ منه، وفي إيداله تنبيه على أن الوصية مما ينبغي أن لا يُتْهَوَنَ فيه، أو ظرفٌ حَضَرَ. ﴿أَثْنَانِ﴾ فاعلُ شهادة، ويجوز أن يكون خبرها على حذف المضاف. ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي من أقاربكم، أو من المسلمين، وهما صفتان لاثنان. ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ عطفٌ على اثنان، ومن فسر الغير بأهل الذمة جعله منسوخاً، فإن شهادته على المسلم لا تُسمع إجماعاً. ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتُم فيها. ﴿فَأَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي قاربتم الأجل. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ تَقْفُونَهُمَا وتُصَيِّرُونَهُمَا، صفةٌ لآخِرَانِ، والشرط بجوابه المحذوف المدلول عليه بقوله: «أو آخِرَانِ من غيركم» اعتراضٌ، فائدته الدلالة على أنه ينبغي أن يشهد اثنان منكم فإن تعذر - كما في السفر - فمن غيركم، أو استئناف كأنه قيل: كيف نعمل إن ارتبنا بالشاهدين؟ فقال: تحبسونهما. ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار. وقيل أي صلاة كانت. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾ إن ارتاب الوارث منكم. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ مُقَسَّم عليه، وإن ارتبتم اعتراضٌ يفيد اختصاص القسم بحال الارتباب. والمعنى لا نستبدل بالقسم أو بالله عَرْضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذباً لطمع. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقسَّم له قريباً منا، وجوابه أيضاً محذوف أي لا نشترى. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمرنا الله بإقامتها، وعن الشعبي^(٢) أنه وَقَفَ على شهادة، ثم ابتدأ الله بالمد على حذف

(١) وقدم المفعول «أحدكم» على الفاعل لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها، فإنه أدخل في تهوين أمر الموت (س/٣/٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (٥/٧/١١١) عنه.

والشعبي هو: أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، قاضي الكوفة، سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة. قال ابن عيينة: كان الناس يقول بعد الصحابة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه. وقال ابن معين، وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبي ثقة، وقال عاصم ما رأيت أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبي، وقال ابن عطية: كان جلة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه، تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم.

[تهذيب التهذيب (٥/٥٧ - ٦٠) ومقدمة تفسير القرطبي (١/٣٤)].

حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه، وروي عنه بغيره كقولهم الله لأفعلن. ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيْتِينَ﴾ أي إن كتمنا. وقرئ كِلَامَيْنِ بحذف الهزمة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام النون فيها.

(١٠٧) ﴿فَإِنْ عُرِّ﴾ فإن أطلع. ﴿عَلَّ أَنْهَمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾ أي فعلاً ما أوجب إثماً كتحريف. ﴿فَفَاخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران. ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ﴾ من الذين جُني عليهم وهم الورثة^(١). وقرأ حفص استحق على البناء للفاعل وهو الأوليان. ﴿الْأُولَيْنِ﴾ الأحقان بالشهادة لقرايتهما ومعرفتهما، وهو خير محذوف أي: هما الأوليان، أو خبر آخران، أو مبتدأ خبره آخران، أو بدل منهما أو من الضمير في يقومان. وقرأ حمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم الأولين على أنه صفة للذين، أو بدل منه أي من الأولين الذين استحق عليهم، وقرئ الأولين على التثنية وانتصابه على المدح، والأولان وإعرابه إعراب الأوليان. ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتَيْهِمَا﴾ أصدق منها وأولى بأن تقبل. ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ وما تجاوزنا فيها الحق. ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الواضعين الباطل موضع الحق، أو الظالمين أنفسهم إن اعتدينا. ومعنى الآيتين أن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يشهد عدلين من ذوي نَسَبه أو دينه على وصيته، أو يوصي إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فأخرين من غيرهم، ثم إن وقع نزاع وارتباب أقسم على صدق ما يقولان بالتغليظ في الوقت، فإن أطلع على أنهما كذبا بأمانة أو مظنة حلف آخران من أولياء الميت، والحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين فإنه لا يخلف الشاهد ولا يعارض بميته بيمين الوارث وثابت إن كانا وصيين ورّد اليمين إلى الورثة إما لظهور خيانة الوصيين فإن تصديق الوصي باليمين لأمانته أو لتغيير الدعوى. إذ روي أن تيمماً الداري وعدي بن يزيد^(٢) خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً، فلما قدموا الشام مرض بديل فدون ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به وأوصى إليهما بأن يدفعوا متاعه إلى أهله ومات، ففتشاه وأخذوا منه إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشاً بالذهب فغيباه، فأصاب أهله الصحيفة فطالبوهما بالإناء، فجددا، فترافعا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، فحلفهما رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر عند المنبر وخلق سبيلهما، ثم وجد الإناء في أيديهما، فأتاهما بنو سهم في ذلك، فقالوا: قد اشتريناه منه ولكن لم يكن لنا عليه بينة فكرهنا أن نقر به، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿فَإِنْ عُرِّ﴾ فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا واستحقاه^(٣). ولعل تخصيص العدد فيهما لخصوص الواقعة.

(١) وهذا على معنى من قرأ بالبناء للمفعول، أي «استحق».

(٢) الصحيح أنه عدي بن بداء كما في الفتح السماوي ص ٥٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٨/٥ رقم ٣٠٥٩) وابن جرير في جامع البيان (١١٥/٧ ج ٥) قال الترمذي: «هذا حديث غريب، وليس إسناده بصحيح، وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عدي محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر وقد تركه أهل الحديث، وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن اسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر، ولا نعرف لسالم أبي النضر المدني رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ».

وقد روى عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه هـ.

قلت: وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٠/٣ - ٢٢١) وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، =

ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالَوْا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِأَذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لَئِيْلَةَ الْذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾

(١٠٨) ﴿ذَلِكَ﴾ أي الحكم الذي تقدم، أو تحليف الشاهد. ﴿أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَهَا﴾ على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة. وإنما جمع الضمير لأنه حكم يعم الشهود كلهم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة. فقله تعالى:

(١٠٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ ظرف له، وقيل بدل من مفعول واتقوا بدل الاشتمال، أو مفعول واسمعوا على حذف المضاف أي واسمعوا خبر يوم جمعهم، أو منصوب بإضمار اذكر. ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للرسول. ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ أي إجابة أجبتهم؟ على أن ماذا في موضع المصدر، أو بأي شيء أجبتهم؟ فحذف الجار، وهذا السؤال لتوبيخ قومهم كما أن سؤال الموءودة لتوبيخ الوائد ولذلك ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أي لا علم لنا بما لست تعلمه. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ فتعلم ما نعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا وما لا نعلم مما أضمرنا في قلوبهم، وفيه التشكي منهم ورد الأمر إلى علمه بما كابدوا منهم. وقيل المعنى لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا وإنما الحكم للخاتمة. وقرئ علام بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: إنك أنت، أي إنك أنت الموصوف بصفاتك المعروفة وعلام منصوب على الاختصاص أو النداء، وقرأ أبو بكر وحزمة الغيوب بكسر الغين حيث وقع.

(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ بدل من يوم يجمع وهو على طريقة

وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة.

● وأخرجه البخاري (٤٠٩/٥ رقم ٢٧٨٠) وأبو داود (٤/٣٠ رقم ٣٦٠٦) والترمذي (٥/٢٥٩ رقم ٣٠٦٠) مختصراً من حديث ابن عباس.

وقال ابن كثير في تفسيره (١١٧/٢): «وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين منهم عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدل على اشتهاها في السلف وصحتها هـ. والخلاصة أن الحديث حسن نظراً لما تقدم والله أعلم.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾^(١) والمعنى أنه سبحانه وتعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم وتعدد ما أظهر عليهم من الآيات فكذبته طائفة وسموهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة. أو نصب بإضمار اذكر^(٢). ﴿إِذْ أَيْدُتُكَ﴾ قويتك وهو ظرف لنعمتي، أو حال منه. وقرىء أيدتُك. ﴿يُروِجُ الْقُدُيْنَ﴾ بجبريل عليه الصلاة والسلام، أو بالكلام الذي يحيا به الدين أو النفس حياة أبدية ويظهر من الآثام ويؤيده قوله: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي كائنًا في المهد وكهلاً، والمعنى تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء، والمعنى إلحاق حاله في الطفولة بحال الكهولة في كمال العقل والتكلم، وبه استدل على أنه سينزل فإنه رفع قبل أن يكتهل. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران. وقرأ نافع ويعقوب طائراً، ويحتمل الأفراد والجمع كالباقر. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ يعني اليهود حين هموا بقتله. ﴿إِذْ جُنَّتْهُمْ اللَّيْلُ بِالنَّجْمِ﴾ ظرف لكففت. ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمِتٌ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين^(٣). وقرأ حمزة والكسائي إلا ساحر، فالإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

(١١١) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ﴾ أي أمرتهم على السنة رسلي. ﴿أَنْ آمِنُوا بِرِسُولِي﴾ يجوز أن تكون أن مصدرية، وأن تكون مفسرة. ﴿قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون.

(١١٢) ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ منصوب بذكر، أو ظرف لقالوا فيكون تنبيهاً على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ لم يكن بعد عن تحقيق واستحكام معرفة. وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة. وقيل المعنى هل يطيع ربك أي هل يجيبك، واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب. وقرأ الكسائي تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أي سؤال ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف. والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام، من ماد الماء يَمِيد إذا تحرك، أو من مادّة إذا أعطاه كأنها تُمِيد من تقدم إليه، ونظيرها قولهم شجرة مُطِعمَة. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، أو صدقتم في ادعائكم الإيمان.

(١) الآية في الأعراف «٤٤». وقوله: (على طريقة...) أي أن أصحاب الجنة إنما قالوا ذلك شماعة بأصحاب النار وتحسيراً لهم.

(٢) وقد خص عيسى عليه السلام بالذكر لأن شأنه متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب. وصيغة الماضي في قوله «إذ قال» للدلالة على تحقق الوقوع. (س/٣/٩٤).

(٣) وقوله «الذين كفروا» حيث وضع الموصول موضع الضمير لزمهم بما في حيز الصلة (س/٣/٩٥).

قَالُوا نُزِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَعَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

(١١٣) ﴿قَالُوا نُزِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عُذْرٍ وبيان لِمَا دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا بالأكل منها. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام عِلْمِ المشاهدة إلى تعلم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالى. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا﴾ في ادعاء النبوة، أو أن الله يجيب دعوتنا. ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إذا استشهدتنا، أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

(١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لَمَّا رَأَى أَنْ لَهُمْ غَرَضًا صَحِيحًا فِي ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُمْ لَا يَقْلَعُونَ عَنْهُ فَأَرَادَ إِلْزَامَهُمُ الْحُجَّةَ بِكَمَالِهَا. ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون يومُ نزولها عيداً نعظمه^(١). وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمي يوم العيد عيداً. وقرئ تَكُنْ على جواب الأمر. ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من لنا بإعادة العامل أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا. روي: أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذها النصارى عيداً. وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا. وقرئ لأولنا وأخرنا بمعنى الأمة أو الطائفة. ﴿وَأَيَّةٌ﴾ عطف على عيد. ﴿مِنْكَ﴾ صفة لها أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي. ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدة والشكر عليها. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

(١١٥) ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة إلى سؤالكم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم مُنَزِّلُهَا بالتشديد^(٢). ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي تعذيباً، ويجوز أن يجعل مفعولاً به على السعة. ﴿لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الضمير للمصدر، أو للعذاب إن أريد ما يُعَذَّبُ به على حذف حرف الجر. ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم، أو العالمين مطلقاً فإنهم مُسَخَّوْا قردة وخنازير ولم يعذب بمثل ذلك غيرهم. روي^(٣): أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم،

(١) قوله: «اللهم ربنا» ناداه مرتين مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية وذلك إظهاراً لغاية التضضرع ومبالغة في الاستدعاء (س/٩٨/٣).

(٢) كأن الأصل عند البيضاوي قراءة التخفيف «مُنَزِّلُهَا» وقد قرأ بها الأكثرون.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٠١٣) عن سلمان مطولاً. وأخرجه ابن أبي حاتم. كما في تفسير ابن كثير (١٢١/٢ - ١٢٣) من نفس طريق أبي الشيخ، وقال «هذا أثر غريب جداً...» وقال القرطبي في تفسيره (٣٧٢/٦) «في هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده».

وأورده السيوطي في الدر المنثور (٢٣٢/٣) وعزاه إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم =

فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مُثَلَّةً وعقوبة، ثم قام فتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني غسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله أَمِنْ طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكن اخترعه الله سبحانه وتعالى بقدرته كلوا ما سألتهم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا مِنْ هذه الآية آيةً أخرى، فقال: يا سمكة احبي بإذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنتِ فعادت مشوية ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسخوا. وقيل كانت تأتيمهم أربعين يوماً غباً يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون، حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك فمُسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً. وقيل لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة استعفوا وقالوا: لا نريد فلم تنزل. وعن مجاهد أن هذا مَثَلٌ ضربه الله لمقترحي المعجزات. وعن الصوفية: المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن، وعلى هذا فعمل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يقلعوا عن السؤال والحواء فيه فسأل لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؑ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ يَرِيدُ بِهِ تَوْبِيخَ الْكُفْرَةِ وَتَبْكِيَتِهِمْ. وَمَن دُونَ اللَّهِ صِفَةٌ لِلْإِلَهِينَ، أَوْ صِلَةٌ اتَّخَذُونِي. وَمَعْنَى «دُونِ» إِمَّا الْمَغَايِرَةُ فَيَكُونُ فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعَ عِبَادَةِ غَيْرِهِ كَلَّا عِبَادَةً فَمَنْ عَبَدَهُ مَعَ عِبَادَتِهِمَا كَانَهُمَا عَبْدَهُمَا وَلَمْ يَعْْبُدْهُ، أَوْ لِلْقُصُورِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَعْتَقِدُوا أَنََّّهُمَا مُسْتَقْلَلَانِ بِاسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ وَإِنَّمَا زَعَمُوا أَنَّ عِبَادَتَهُمَا تَوْصِلُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَأَنَّهُ قِيلَ: اتَّخَذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهِينِ مُتَوَصِّلِينَ بِنَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أَنْزَلَكَ تَنْزِيهًا مِّنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ شَرِيكَ. ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَقُولَ قَوْلًا لَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَقُولَهُ. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ تَعْلَمُ مَا أَخْفِيهِ فِي نَفْسِي كَمَا تَعْلَمُ مَا أَعْلَنَهُ، وَلَا أَعْلَمُ مَا تَخْفِيهِ مِنْ مَعْلُومَاتِكَ. وَقَوْلُهُ فِي نَفْسِكَ لِلْمَشَاكِلَةِ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالنَّفْسِ الذَّاتِ. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْجُمْلَتَيْنِ بِاعْتِبَارِ مَنْطُوقِهِ وَمَفْهُومِهِ.

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ تصريح بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه. ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ عطف بيان للضمير في به، أو بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً ليلزم بقاء الموصول بلا راجع، أو خبر مضممر أو مفعوله مثل هو أو أعني، ولا يجوز إبداله من ما أمرتني به فإن المصدر لا يكون مفعول القول، ولا أن تكون أن مفسرة لأن الأمر مسند إلى الله سبحانه وتعالى، وهو لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم والقول لا يفسر بل الجملة تحكي بعده إلا أن يؤول القول بالأمر فكان قيل: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به أن اعبدوا الله. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى السماء لقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾^(١) والتوفي أخذ الشيء وافياً، والموت نوع منه قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾^(٢). ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات. ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع عليه مراقب له.

(١١٨) ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك. ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلا عجز ولا استقبح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبت فعذل وإن غفرت ففضل. وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع التردد والتعليق بأن.

(١١٩) ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقرأ نافع يوم بالنصب على أنه ظرف لقال وخبر هذا محذوف، أو ظرف مستقر وقع خبراً والمعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع. وقيل إنه خبر ولكن بني على الفتح بإضافته إلى الفعل وليس بصحيح، لأن المضاف إليه معرب. والمراد بالصدق الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان للنفع.

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل ومن فيهن تغليبا للعقلاء وقال وما فيهن اتباعاً لهم غير أولي العقل

(١) آل عمران: «٥٥».

(٢) الزمر: «٤٢».

إعلاماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والتزول عن رتبة العبودية وإهانة لهم وتنبهاً على المجانسة المنافية للألوهية، ولأن ما يطلق متناولاً للأجناس كلها فهو أولى بإرادة العموم. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) هذا الحديث موضوع. انظر الموضوعات لابن الجوزي (١/٢٣٩ - ٢٤٠) أبواب تتعلق بالقرآن - باب فضائل القرآن -..
وانظر تخريجه مفصلاً في الكافي الشاف ص ٣٧ و ٦٠ رقم (٣١١ و ٤٨٤).

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ترتيبها ٦ آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد، ونبه على أنه المستحق له على هذه النعم الجسام حُمد أو لم يُحمد، ليكون حجة على الذين هم بربهم يعدلون. وَجَمْعُ السَّمَوَاتِ دُونَ الْأَرْضِ وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدمها لشرفها وعلو مكانها وتقدم وجودها. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أنشأهما. والفرق بين خَلَقَ وَجَعَلَ الذي له مفعول واحد: أن الخلق فيه معنى التقدير والجعل فيه معنى التضمن، ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية. وَجَمْعُ الظُّلُمَاتِ لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلال وبالنور الهدى، والهدى واحد والضلال متعدد، وتقديمها لتقدم الإعدام على الملكات. ومن زعم أن الظلمة عَرَضٌ يصاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملكة - كَالْعَمَى - ليس صرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عطف على قوله: «الحمد لله» على معنى: أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد. ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته، ويكون بربهم تنبيهاً على أنه خلق هذه الأشياء أسباباً لتكوّنهم وتعيشهم، فمن حقه أن يُحمد عليها ولا يكفر، أو على قوله «خَلَقَ» على معنى أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى «ثم»: استبعاد عدولهم بعد هذا البيان. والباء على الأول متعلقة بكفروا، وصلة يعدلون محذوفة أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل، وعلى الثاني متعلقة بיעدلون، والمعنى: أن

الكفار يعدلون ربهم الأوثان أي يسوونها به سبحانه وتعالى^(١).

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي ابتداء خلقكم منه، فإنه المادة الأولى وأن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه، أو خلق أبائكم فحذف المضاف. ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ أجل الموت. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل القيامة. وقيل الأول ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث، فإن الأجل كما يطلق لآخر المدة يطلق لجملتها. وقيل الأول النوم والثاني الموت. وقيل الأول لمن مضى والثاني لمن بقي ولمن يأتي. وأجل نكرة خُصِّصَتْ بالصفة ولذلك استغني عن تقديم الخبر، والاستئناف به لتعظيمه ولذلك نُكِّرَ ووصف بأنه مسمى أي مثبت معين لا يقبل التغيير، وأخبر عنه بأنه عند الله لا مدخل لغيره فيه بعلم ولا قدرة ولأنه المقصود بيانه. ﴿ثُمَّ أَنْتَرْتُمْ تَمَرُونُ﴾ استبعاد لامرئهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحبيهم إلى آجالهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث. والامتراء الشك، وأصله المزي وهو استخراج اللبن من الضرع^(٢).

(٣) ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ الضمير لله سبحانه وتعالى والله خبره. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق باسم الله، والمعنى: هو المستحق للعبادة فيهما لا غير، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾^(٣) أو بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ والجملة خبر ثان، أو هي الخبر والله بدل، ويكفي لصحة الظرفية كون المعلوم فيهما كقولك رميت الصيد في الحرم إذا كنت خارجة والصيد فيه، أو ظرف مستقر وقع خبراً، بمعنى أنه سبحانه وتعالى لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، ويعلم سرهم وجهركم بيان وتقرير له، وليس متعلقاً بالمصدر لأن صفته لا تتقدم عليه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُكْسِبُونَ﴾ من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أريد بالسر والجهر ما يخفى وما يظهر من أحوال الأنفس وبالمكتسب أعمال الجوارح.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ من الأولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبويض، أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن. ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه^(٤).

(١) قوله «خلق السموات والأرض» خصهما بالذكر لاشتغالهما على مجمل النعم.

وقوله «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» وضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع عليهم، وتقديم «بربهم» لمزيد الاهتمام والمصارعة إلى تحقيق مدار الإنكار. وتذكّر المفعول لظهوره أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتزيله منزلة اللازم إيداناً بأنه المدار في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول (س ١٠٥/٣).

(٢) قوله تعالى «خلقكم...» خصص خلقهم بالذكر لأن محل النزاع هو بعثهم ودلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر وهم بشؤون أنفسهم أعرف..

والالتفات إلى الخطاب لمزيد التشنيع والتوبيخ.

وقوله «ثم قضى أجلاً» فأورد كلمة «ثم» للإيدان بتفاوت ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكمة البالغة. (س ١٠٦/٣).

(٣) الزخرف: «٨٤».

(٤) والالتفات إلى الغيبة للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً. وصيغة المضارع =

(٥) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني القرآن وهو كاللزام مما قبله كأنه قيل: إنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا به لما جاءهم، أو كدليل عليه على معنى أنهم لما عرضوا عن القرآن وكذبوا به وهو أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذلك رتب عليه بالفاء. ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاع أمره^(١).

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بَرُوسٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي من أهل زمان. والقرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة، وقيل ثمانون، وقيل القرن أهل عصر فيه نبي أو فائق في العلم، قلت: المدة وإن كثرت واشتقاقه من قرنت. ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وقرزناهم فيها وأعطيناهم من القوى والآلات ما تمكنوا بها من أنواع التصرف فيها. ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ ما لم نجعل لكم من السعة وطول المقام يا أهل مكة، أو ما لم نعظكم من القوة والسعة في المال والاستظهار في العدد والأسباب. ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي المطر، أو السحاب، أو المظلة فإن مبدأ المطر منها. ﴿ مِدْرَارًا ﴾ أي مغزاراً. ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار. ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي لم يغن ذلك عنهم شيئاً. ﴿ وَأَنْشَأْنَا ﴾ وأحدثنا. ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ بدلاً منهم، والمعنى أنه سبحانه وتعالى كما قدر على أن يهلك من قبلكم كعاد وثمود وينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده يفكر أن يفعل ذلك بكم.

(٧) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ مكتوباً في ورق. ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ فمسوه، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا، ولأنه يتقدمه الإبصار حيث لا مانع، وتقييده بالأيدي لدفع التجوز فإنه قد يتجوز به للفحص كقوله ﴿ وَأَنَّا لَسْنَا السَّمَاءَ ﴾^(٢) ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ

= «تأتيهم» لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على الاستمرار التجديدي. وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتحويل ما اجترؤوا عليه (س ٣/ ١٠٩).

(١) قوله «.. أنباء..» أورده بلفظ الإنباء للإيدان بعظم شأنه لأن النبا لا يطلق إلا على الخبر العظيم الوقع (س ٣/ ١١٠).

(٢) الجن: «٨».

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٨﴾ تَعْتَنَّا وَعِنَادًا.

(٨) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ﴾ هَلَّا أُنْزِلَ مَعَهُ مَلَكٌ يَكَلِّمُنَا أَنَّهُ نَبِيٌّ كَقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَذِيرًا﴾^(١). ﴿وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ جواب لقولهم وبيان هو المانع مما اقترحوه والخلل فيه، والمعنى أن المَلَك لو أُنْزِلَ بحيث عاينوه كما اقترحوا لحق إهلاكهم فإن سنة الله قد جرت بذلك فيمن قبلهم. ﴿ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ بعد نزوله طرفه عين^(٢).

(٩) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتُ﴾ جواب ثانٍ إن جعل الهاء للمطلوب، وإن جعل للرسول فهو جواب اقتراح ثانٍ، فإنهم تارة يقولون لولا أنزل عليه ملك وتارة يقولون لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، والمعنى ولو جعلنا قريناً لك ملكاً يعاينونه أو الرسول ملكاً لمثلناه رجلاً كما مثل جبريل في صورة دحية الكلبي، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، وإنما رآهم كذلك الأفراد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوتهم القدسية. وللبسنا جواب محذوف أي ولو جعلناه رجلاً لبسنا أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم فيقولون ما هذا إلا بشر مثلكم. وقرىء لبسنا بلام واحد ولبسنا بالتشديد للمبالغة^(٣).

(١٠) ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلَ مِن قَبْلِكَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عما يرى من قومه. ﴿فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فأحاط بهم الذين كانوا يستهزئون به حيث أهلكوا لأجله، أو فنزل بهم وبآل استهزأهم^(٤).

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

(١١) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال كي تعتبروا، والفرق بينه وبين قوله ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾^(٥) أي السير تمة لأجل النظر

(١) الفرقان: (٧).

(٢) بناء الفعل الأول في الجواب للفاعل - أي قوله «أنزلنا» - مع أنه في السؤال مبنياً للمفعول لتحويل الأمر وتربية المهابة، وبناء الثاني للمفعول - أي «لقضي» - للجرى على سنن الكبرياء.

وكلمة «ثم» في قوله «ثم لا ينظرون» للتنبيه على تفاوت ما بين قضاء الأمر وعدم الإنظار (س/١١٣/٣).

(٣) قوله «لجعلناه رجلاً» إشاراً لكلمة «رجلاً» على بشرأ للإيدان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة (س/١١٣/٣).

(٤) قدم المفعول «الذين سخروا» على الفاعل للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم (س/١١٤/٣).

(٥) النمل: (٦٩).

ولا كذلك ههنا، ولذلك قيل معناه إباحة السير للتجارة وغيرها وإيجاب النظر في آثار الهالكين.

(١٢) ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وهو سؤال تبيكيت. ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقريراً لهم وتبهيهاً على أنه المتعين للجواب بالإِنفاق، بحيث لا يُمكنهم أن يذكروا غيره. ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ التزمها تفضلاً وإحساناً. والمراد بالرحمة ما يعم الدارين، ومن ذلك الهداية إلى معرفته والعلم بتوحيده بنصب الأدلة وإنزال الكتب والإمهال على الكفر. ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ﴾ استئناف وقسم للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي: ليجمعنكم في القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم، أو في يوم القيامة، وإلى بمعنى في. وقيل بدل من الرحمة بدل البعض فإن من رحمته بعثه إياكم وإنعامه عليكم. ﴿لَارْتَبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو الجمع. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم. وموضع «الذين» نصب على الذم، أو رفع على الخبر أي: وأنتم الذين، أو على الابتداء والخبر: ﴿فَهُمْ لَا يَوْمُورُ﴾ والفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسرانهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمان.

(١٣) ﴿وَلَكُمْ﴾ عطف على الله. ﴿مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ﴾ من السكنى، وتغديته بفي. كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(١) والمعنى ما اشتملا عليه، أو من السكون أي ما سكن فيهما وتحرك فأكثفني بأحد الضدين عن الآخر. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم فلا يخفى عليه شيء، ويجوز أن يكون وعيداً للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

(١٤) ﴿قُلْ أَضَرُّهُ أَلَّا تَتَذَكَّرُوا﴾ إنكار لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي، فلذلك قُدم وأولي الهمزة، والمراد بالولي المعبود لأنه رد لمن دعاه إلى الشرك. ﴿وَضَرُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعربيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرْتُها أي ابتدأتها^(٢). وجزه على الصفة لله، فإنه بمعنى الماضي، ولذلك قرئ فطر. وقرئ بالرفع والنصب على المدح. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرزق، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. وقرئ ولا يُطْعَم بفتح الباء وبمعنى الأول على أن الضمير لغير الله، والمعنى كيف أشرك بمن هو فاطر السموات والأرض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية وبينائهما للفاعل على أن الثاني من أولهم بمعنى استطعم أو على معنى أنه يُطْعَم تارة ولا يُطْعَم أخرى كقوله: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾^(٣). ﴿قُلْ إِنْ أُمِرْتُ أَنْ أُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابق أمته في الدين. ﴿وَلَا كُفْرًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي ولا تكونن، ويجوز عطفه على قل.

(١) إبراهيم: (٤٥).

(٢) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث (٣٧٣/٤) وفي فضائل القرآن، بإسناد حسن ليس فيه إلا (إبراهيم بن مهاجر) - كما في (الكافي الشاف) (ص ٦١ رقم ٣) - قلت: إبراهيم بن مهاجر: صدوق لين الحفظ من الخامسة من رجال مسلم.

[التقريب: (١/٤٤ رقم ٢٨٤) ورجال صحيح مسلم (١/٤٦ رقم ٤٦).]

(٣) البقرة: (٢٤٥).

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَا تُذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ لِتَمْسُكُوا أَتَمَعَ اللَّهُ إِلَهَهُ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، والشرط معترض بين الفعل والمفعول به وجوابه محذوف دل عليه الجملة.

(١٦) ﴿مَن يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يصرف العذاب عنه. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم يصرف على أن الضمير فيه لله سبحانه وتعالى، وقد قرئ بإظهاره. والمفعول به محذوف، أو يومئذ بحذف المضاف. ﴿فَقَدْ رَحِمْنَاهُ﴾ نجاه وأنعم عليه. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي الصرف أو الرحمة.

(١٧) ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ببلية كمرض وفقر. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ فلا قادر على كشفه. ﴿إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بَخِيرٌ﴾ بنعمة كصحة وغنى. ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على دفعه كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾^(١).

(١٨) ﴿وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره. ﴿الْخَبِيرُ﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم.

(١٩) ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ نزلت جين قالت قريش: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله^(٢). والشيء يقع على كل موجود، وقد سبق القول فيه في سورة البقرة. ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أي الله أكبر شهادة، ثم ابتداء ﴿شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو شهيد بيني وبينكم، ويجوز أن يكون الله شهيد هو الجواب لأنه سبحانه وتعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَا تُذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، واكتفي بذكر الإنذار عن ذكر البشارة. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ عطف على ضمير المخاطبين، أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة، وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه. ﴿أَتَيْتُكُمْ لِتَمْسُكُوا أَتَمَعَ اللَّهُ إِلَهَهُ أُخْرَى﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي بل أشهد أن لا إله إلا هو. ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني الأصنام.

(١) يونس: ١٠٧.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٢١٤ عن الكلبي بدون سند.

الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَلِلَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون رسول الله ﷺ بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل^(١). ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بخلاصهم. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركون. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ كان كذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحراً. وإنما ذكر «أو» وهم قد جمعوا بين الأمرين تنبيهاً على أن كلا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس. ﴿إِنَّهُ﴾ الضمير للشأن^(٢). ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فضلاً عما لا أحد أظلم منه.

(٢٢) ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا﴾ منصوب بمضمر تهويلاً للأمر. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي آلهتهم التي جعلتموها شركاء لله. وقرأ يعقوب يخشروهم ويقول بالياء. ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان، والمراد من الاستفهام التوبيخ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب عنهم.

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي كفرهم، والمراد عاقبته، وقيل معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها، مِنْ فِتْنَتِ الذهب إذا خلصته، وقيل جوابهم وإنما سماه فتنة لأنه كذب أو لأنهم قصدوا به الخلاص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم لم تكن بالتاء وفتنتهم بالرفع على أنها الاسم، ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصب على أن الاسم أن قالوا، والتانيث للخبر كقولهم من كانت أمك، والباقون بالياء والنصب. ﴿وَاللَّهُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يكذبون ويحلفون عليه مع علمهم بأنه لا ينفعهم من قَظ الحيرة والدهشة، كما يقولون: «ربنا أخرجنا منها» وقد أيقنوا بالخلود. وقيل معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا وهو لا يوافق قوله:

(٢٤) ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بنفي الشرك عنها، وحمله على كذبهم في الدنيا تعسف يخل بالنظم، ونظير ذلك قوله ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾^(٣). وقرأ حمزة والكسائي ربنا بالنصب على النداء أو المدح. ﴿وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء^(٤).

(١) وإيرادهم بعنوان إتياء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم (س/١١٨).

(٢) ومدار وضع ضمير الشأن موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره. وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن، فكانه قيل: إن الشأن الخطير هذا هو... (س/١١٩).

(٣) المجادلة: ١٨.

(٤) وإيقاع الافتراء عليها مع أنه في الحقيقة واقم على أحوالها من الإلهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة في =

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَرَكِبْنَا فِي قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَقًّا إِذَا حَأْوُوا بِإِخْدَائِكُمْ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَى الْآرِ فَقَالُوا بَلَيْنَا نَرُدُّهُ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٥) * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴿٢٥﴾ حين تتلو القرآن، والمراد أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان إني لأرى حقاً، فقال أبو جهل كلاً. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كنان، وهو ما يستر الشيء. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنع من استماعه، وقد مر تحقيق ذلك في أول البقرة. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم. ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَأْوُوا بِإِخْدَائِكُمْ﴾ أي بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم جاؤوك يجادلونك. وحتى هي التي تقع بعدها الجمل، لا عمل لها، والجملة إذا وجوابه وهو: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فَإِنْ جَعَلَ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ خرافات الأولين غاية التكذيب، ويجادلونك حالاً لمجيئهم، يجوز أن تكون الجارة وإذا جاؤوك في موضع الجز ويجادلونك حال ويقول تفسير له. والأساطير الأباطيل جمع أسطورة أو إسطورة أو أسطار جمع سطر، وأصله السطر بمعنى الخط^(٣).

(٢٦) * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ * أي ينهون الناس عن القرآن، أو الرسول ﷺ والإيمان به. ﴿وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ بأنفسهم، أو ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأون عنه فلا يؤمنون به كأبي طالب^(٤). ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ وما يهلكون بذلك. ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنْ ضرره لا يتعداهم إلى غيرهم.

(٢٧) * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَى الْآرِ * جوابه محذوف أي: لو تراه حين يوقفون على النار حتى يعاينوها أو يطلعون عليها أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيت أمراً شنيعاً. وقرىء وَقَفُوا على البناء للفاعل من وقف عليها وقفاً. ﴿فَقَالُوا بَلَيْنَا نَرُدُّهُ﴾ تمنياً للرجوع إلى الدنيا. ﴿وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ استئناف، كلامٌ منهم على وجه الإثبات كقولهم: دعني ولا أعود، أي وأنا لا أعود تركتني أولكم تتركني، أو عطفٌ على نرد، أو حالٌ من الضمير فيه فيكون في حكم التمني، وقوله ﴿وَأَنْتُمْ

أمرها كأنها نفس المفترى (س/٣/١٢٠).

(١) وقد أورد قوله «مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» بالإنفراد مراعاة للفظها، أما قوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» - يونس «٤٢» -

فقد راعى فيها جانب المعنى (س/٣/١٢١).

(٢) عند قوله «ختم الله على قلوبهم...» - البقرة «٧» -.

(٣) وقوله «الذين كفروا...» حيث وضع الموصول موضع ضميرهم ذماً لهم بما في حيز الصلة وإشعاراً بعلّة الحكم (س/٣/١٢١).

(٤) قوله «وينأون عنه» أي يتباعدون عنه إظهاراً لنفورهم عنه وتأكيداً لنهيهم عنه، ولذلك أخر النأي عن النهي، لأن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي (س/٣/١٢٢).

لَكَذِبُونَ»^(١) راجع إلى ما تضمنه التمني من الوعد. ونصبهما حمزة ويعقوب وحفص على الجواب بإضمار أن بعد الواو إجراء لها مجرى الفاء. وقرأ ابن عامر برفع الأول على العطف ونصب الثاني على الجواب.

بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ يَا بَنِي آدَمَ قَالُوا فَذُقُوا الْعَذَابَ ﴿٣٠﴾ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ الإضراب عن إرادة الإيمان المفهومة من التمني، والمعنى أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم أو قبائح أعمالهم فتمنوا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو رُدُّوا لآمنوا^(٢). ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ أي إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور. ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وعدوا به من أنفسهم.

(٢٩) ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على لعادوا أو على إنهم لكاذبون أو على نُهُوا، أو استئناف بذكر ما قالوه في الدنيا. ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الضمير للحياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

(٣٠) ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ مجاز عن الحبس للسؤال والتوبيخ، وقيل معناه وقفوا على قضاء ربهم أو جزائه، أو عرفوه حق التعريف. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ كأنه جواب قائل قال: ماذا قال ربهم حينئذ؟ والهمزة للتقريع على التكذيب والإشارة إلى البعث وما يتبعه من الثواب والعقاب. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ إقرار مؤكّد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء. ﴿قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو ببذله.

(٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ إذ فاتهم النعم واستوجبوا العذاب المقيم. ولقاء الله البعث وما يتبعه^(٣). ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ﴾ غاية لكذبوا لا لخسر، لأن خسرانهم لا غاية له. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ونصبها على الحال، أو المصدر فإنها نوع من المجي. ﴿قَالُوا يَحْسِرُنَا﴾ أي تعالني فهذا أوانك. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ قصرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أضمرت وإن لم يَجِرْ ذكرها للعلم بها، أو في الساعة، يعني في شأنها والإيمان بها. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام^(٤). ﴿أَلَا سَاءَ مَا

(١) الأنعام: ٢٨.

(٢) قوله «ما كانوا يخفون...» آثاره على إبراز صريح التكذيب كما في قوله تعالى: «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون» - الرحمن: ٤٣ - وذلك لمراعاة ما في مقابلته من الإبداء (س/١٢٣).

(٣) قوله «الذين كفروا» وضع الموصول موضع الضمير للإيذان بتسبب خسرانهم بما في حيز الصلة من التكذيب بلفظاته تعالى (س/١٢٥).

(٤) قوله: «وهم يحملون...» حال من فاعل قالوا، وفائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصوراً على ما ذكر من =

يَزُرُّونَ ﴿٣١﴾ بَشَرًا شَرًّا يَزُرُّونَهُ وَيُزُرُّهُمْ.

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ
الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ
فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٥﴾
وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ فَادْرَأْ عَلَى أَن يُنَزَّلَ آيَةٌ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٢) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي وما أعمالها إلا لعب ولهو يلهي الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية، وهو جواب لقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾^(١). ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لِدَوَامِهَا وخلوص منافعتها ولذاتها. وقوله ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عامر ولداؤ الآخرة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي الأمرين خير^(٢). وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب بالتاء على خطاب المخاطبين به، أو تغليب الحاضرين على الغائبين.

(٣٣) ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ معنى «قد» زيادة الفعل وكثرته كما في قوله:

وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهُ

والهاء في إنه للشأن. وقرئ ليحزنك من أحزن. ﴿فَأِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ في الحقيقة. وقرأ نافع والكسائي لا يكذبونك، من أكذبه إذا وجده كاذباً أو نسبته إلى الكذب. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولكنهم يجحدون بآيات الله ويكذبونها، فوضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا بجحودهم أو جحدوا لتمرّتهم على الظلم^(٣). والباء لتضمن الجحود معنى التكذيب. روي أن أبا جهل كان يقول: ما نكذبك وإنك عندنا لصادق وإنما نكذب ما جئتنا به. فنزلت^(٤).

الحسرة على ما فات بل إنهم يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال، وكذا للإيمان إلى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات، والسرّ فيه أن العذاب الروحاني أشد من الجسماني (س/٣/١٢٥).

(١) الأنعام: ٢٩.

(٢) أثبتنا في الأصل على من قرأ بالياء «أفلا يعقلون».

(٣) إيراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه كما في قوله تعالى: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» - النمل: ١٤ - (س/٣/١٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/٢٦١ رقم ٣٠٦٤) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب =

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسليمة لرسول الله ﷺ، وفيه دليل على أن قوله: لا يكذبونك ليس لنفي تكذيبه مطلقاً. ﴿فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم فتأس بهم واصبر. ﴿حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ فيه إيماء بوعد النصر للصابرين^(١). ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لمواعيده، من قوله: ﴿﴿﴾^(٢) لآيات^(٣). ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم.

(٣٥) ﴿وَإِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ﴾ عَظُمَ وَشَقَّ. ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عنك وعن الإيمان بما جئت به. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْلُغَ فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَامًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى جوف الأرض فتطلع لهم آية، أو مصعداً تصعد به إلى السماء فتُنزل منها آية. وفي الأرض صفة لنفقا، وفي السماء صفة لسُلماً، ويجوز أن يكونا متعلقين بتبغني، أو حالين من المستكن، وجواب الشرط الثاني محذوف تقديره فافعل، والجملة جواب الأول. والمقصود بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ لوفقههم للإيمان حتى يؤمنوا ولكن لم تتعلق به مشيئته، فلا تنهالك عليه. والمعتزلة أولوه بأنه لو شاء لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بالحرص على ما لا يكون والجزع في مواطن الصبر، فإن ذلك من دأب الجهلة.

(٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إنما يُجيب الذين يسمعون بفهم وتأمل، لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَلْقَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(٤) وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون. ﴿وَالْمَوْقِفُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ فيعلمهم حين لا ينفعهم الإيمان. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ للجزاء.

(٣٧) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي آية بما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أنزل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عناداً ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى

عن علي به.

وأخرجه الترمذي أيضاً من طريق عبدالرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق عن ناجية به، وقال الترمذي «لم يذكر فيه عن علي وهذا أصح».

قلت: وهذا الموقوف على ناجية، أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/١٨٢/٧).

من طريق يحيى بن آدم عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية به.

وأما الموصول فقد أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣١٥/٢) من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: «ما خرجه لناجية شيئاً» ثم تعقبه الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول (١٣٢/٢) التعليقة رقم (٢): «بقوله «وهذا صحيح، فإن الشيخين لم يخرجا لناجية بن كعب شيئاً، ولكنه تابعي ثقة، فالحديث صحيح، وإن لم يكن على شرطهما» هـ.

(١) الالتفات إلى نون العظيمة لإبراز الاعتناء بشأن النصر (س/١٢٨).

(٢) الصافات: «٣٧».

(٣) قوله «لكلمات الله» الالتفات فيه إلى الاسم الجليل للإشعار بعلو الحكم فإن الألوهية من موجبات أن لا يغالبه

أحد في فعل ولا يقع منه تعالى خُلف في قول (س/١٢٨).

(٤) ق: «٣٧».

الإيمان كشتق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكوا. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها^(١) وأن إنزالها يستجلب عليهم البلاء وأن لهم فيما أنزل مندوحة عن غيره. وقرأ ابن كثير يُنزل بالتخفيف والمعنى واحد.

وَمِمَّن دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا ضَعُفٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالنَّصَرَاءِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَمِمَّن دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ﴾ تدب على وجهها. ﴿وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواء، وصفه به قطعاً لمجاز السرعة ونحوها. وقرئ ولا طائر بالرفع على المحل. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها، والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية. وجُعِلَ الأُمم للحمل على المعنى. ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من الجليل والدقيق لم يُهمل فيه أمر حيوانٍ ولا جماد، أو القرآن فإنه قد دُوِّنَ فيه ما يُحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً. ومن مزيدة، وشيء في موضع المصدر لا المفعول به، فإن فَرَطَ لا يتعدى بنفسه وقد عُذِّي بفي إلى الكتاب. وقرئ ما فَرَطْنَا بالتخفيف. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الأُمم كلها فَيُنْصَفُ بعضها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجماء من القرآن^(٢). وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حشرها موتها^(٣).

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا ضَعُفٌ وَبُكْمٌ﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظم قدرته سماعاً تتأثر به نفوسهم. ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر ثالث أي خابطون في ظلمات الكفر، أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في الخبر. ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ من يشأ الله إضلاله يُضِلُّه، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة. ﴿وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(١) وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعناداً (س/٣/١٣١).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٧ رقم ٦٠/٢٥٨٢).

وأحمد في المسند (٢/٢٣٥، ٣٢٣، ٣٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أن رسول الله ﷺ قال «لَتَوْدُنَّ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقَادَ لِلشَّاءِ الْجَلَحَاءُ مِنَ الشَّاءِ الْقِرْنَاءُ».

- الجلاحاء: التي لا قرن لها [النهاية: (١/٢٨٤)].

- الجماء: كذلك [النهاية: (١/٣٠٠)].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/١٨٨ ج/٧) عن ابن عباس.

يَشَأْ يُجَعِّلَهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٠﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحملة عليه.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ استفهام تعجيب، والكاف حرف خطاب أكد به الضمير للتأكيد لا محل له من الإعراب لأنك تقول: أرايتك زيدا ما شأنه؟ فلو جعلت الكاف مفعولاً كما قاله الكوفيون لعديت الفعل إلى ثلاثة مفاعيل، وللزم في الآية أن يقال: أرايتموكم بل الفعل معلق أو المفعول محذوف تقديره: أرايتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها. وقرأ نافع أرايتكم وأرايت وأرايتم وأفرايتم وأفرايت وشبهها إذا كان قبل الراء همزة بتسهيل الهمزة التي بعد الراء، والكسائي يحذفها أصلاً، والباقون يحققونها، وحمزة إذا وقف وافق نافعاً. ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى من قبلكم. ﴿أَوَأَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾ وهولها، ويدل عليه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ وهو تبكيت لهم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الأصنام آلهة، وجوابه محذوف أي فادعوه.

(٤١) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصونه بالدعاء كما حكى عنهم في مواضع، وتقديماً للمفعول لإفادة التخصيص. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي ما تدعونه إلى كشفه. ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أي يتفضل عليكم، ولا يشاء في الآخرة. ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت لما ركز في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدة الأمر وهوله^(١).

(٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي قبلك، ومن زائدة^(٢). ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ أي فكفروا وكذبوا المرسلين فأخذناهم. ﴿يَا بَأْسَاءُ﴾ بالشدة والفقر. ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ والضر والآفات، وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ يتدللون لنا ويتوبون عن ذنوبهم.

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَلَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرَ كَيْفَ نَصَرِفُ أَلَايَتِ ثَمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٣) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ معناه نفى تضرعهم في ذلك الوقت مع قيام ما يدعوههم أي لم يتضرعوا. ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ استدراك على المعنى وبيان

(١) قوله «فيكشف..» توسط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيدان بترتبه على الدعاء خاصة (س/٣/١٣٣).

(٢) تصدير الجملة بالقسم لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونه (س/٣/١٣٣).

للمصارف لهم عن التضرع وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

(٤٤) ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا به. ﴿ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من أنواع النعم مراوحة عليهم بين نوبتي الضراء والسراء وامتنحاناً لهم بالشدة والرخاء إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكرراً بهم لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مكر بالقوم ورب الكعبة»^(١). وقرأ ابن عامر فتحننا بالتشديد في جميع القرآن، ووافقه يعقوب فيما عدا هذا والذي في الأعراف^(٢). ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِحُوا ﴾ أعجبوا ﴿ بِمَا أُوْتُوا ﴾ من النعم ولم يزدوا غير البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه سبحانه وتعالى. ﴿ أَخَذَتْهُمُ بَغْتَةً فَاِذَا هُمْ مُلْسُونَ ﴾ متحسرون آيسون^(٣).

(٤٥) ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد، مِنْ دَبْرِهِ دُبْرًا ودُبُورًا إذا تبعه. ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على إهلاكهم، فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخلص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها.

(٤٦) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَابْصَرَكُمْ ﴾ أصمكم وأعماكم^(٤). ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم. ﴿ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ أي بذلك، أو بما أخذ وختم عليه، أو بأحد هذه المذكورات. ﴿ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ نكررها تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين. ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴾ يُعرضون عنها، و«ثم» لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

(٤٧) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكُمُ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴾ من غير مقدمة. ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ بتقدمة أمانة تؤذن بحلولة، وقيل ليلاً أو نهاراً. وقرئ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً. ﴿ هَلْ يُهْلَكُ ﴾ أي ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب. ﴿ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴾ ولذلك صح الاستثناء المفرغ منه. وقرئ يهلك بفتح الياء^(٥).

(٤٨) ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ المؤمنين بالجنة^(٦). ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهم بهم. ﴿ فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ ما يجب إصلاحه على ما شرع لهم. ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من العذاب. ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بغوات الثواب^(٧).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن - كما في الدر المنثور (٣/٢٧٠) -.

(٢) الأعراف: ١٩٦.

(٣) قوله «فتحننا» في ترتيب الفتح على النسيان المذكور إشعار بأن التذكر في الجملة غير خال عن النفع (س/٣/١٣٣).

وقوله «فاذا هم مظلومون» إيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على تلك الحال الفظيعة (س/٣/١٣٤).

(٤) وتقديم السمع على البصر لأن مورد الآيات في المسموعات (س/٣/١٣٤).

(٥) وتقديم البغته على الجهرة لكونها أهول وأفظع (س/٣/١٣٥).

(٦) قوله «نرسل» بصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية (س/٣/١٣٥).

(٧) وتقديم نفي الخوف على نفي الحزن مراعاة للمقام (س/٣/١٣٥).

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهِمُ الْعَذَابُ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَيْنَا إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهِمُ الْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماساً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغني بتعريفه عن التوصيف. ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

(٥٠) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ مقدوراته أو خزائنه رزقه. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ما لم يُوحَ إلي ولم يُنْصَبَ عليه دليل، وهو من جملة المقول. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي من جنس الملائكة، أو أقدر على ما يقدرون عليه. ﴿إِنَّا أَتَيْنَا إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ تبرأ عن دعوى الألوهية والملكية وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للضال والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدعي المستحيل كالألوهية والملكية ومدعي المستقيم كالنبوة^(١). ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتهتدوا أو فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه.

(٥١) ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الضمير لما يوحى إلي. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون المفرطون في العمل، أو المجوزون للحشر مؤمناً كان أو كافراً مقرراً به أو متردداً فيه، فإن الإنذار ينفع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من يُحْشَرُوا، فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بعدما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا أمره بإكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضيةً لقريش. روي أنهم قالوا: لو طردت هؤلاء الأغبياء - يعنون فقراء المسلمين، كعمار وصهيب وخباب وسلمان - جلسنا إليك وحادثناك، فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا: فأقمهم عنا إذا جئناك، قال: «نعم»^(٢). وروي أن عمر رضي الله عنه قال له: لو

(١) تكرير الأمر بـ «قُلْ» لثنية التبكيت وتأکید الإلزام (س/٣/٣٠٢).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٦١ رقم ٧): «رواه البيهقي في الشعب في أواخره. والواحد في «الأسباب» من رواية أبي مشجعة بن ربعي عن سلمان قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينه بن بدر، والأقرع بن حابس، وذوهم فقالوا يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبان، وسلمان، وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك. فأنزل الله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم» - إلى قوله - للظالمين ناراً» فقام النبي ﷺ يلتمسهم الحديث».

فعلت حتى ننظر إلى ماذا يصيرون، فدعا بالصحيحة وبعلي رضي الله تعالى عنه ليكتب، فنزلت^(١). والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام، وقيل صلاتا الصبح والعصر. وقرأ ابن عامر بالغداة هنا وفي الكهف^(٢). ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ حال من يدعون أي يدعون ربهم مخلصين فيه. قيد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم وينافي بإعادهم. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليس عليك حساب إيمانهم^(٣)، فلعل إيمانهم عند الله أعظم من إيمان مَنْ تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا، وليس عليك اعتبار بواطنهم وإخلاصهم لِمَا اتَّسموا بسيرة المتقين وإن كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم، وقيل ما عليك من حساب رزقهم أي من فقرهم، وقيل الضمير للمشركين والمعنى: لا تؤاخذ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يَهْتَمَّ إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه. ﴿فَطَرَدَهُمْ﴾ فتبعدهم وهو جواب النفي ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهي، ويجوز عطفه على فتطردهم على وجه التسبب، وفيه نظر.

ولابن ماجه (١٣٨٢/٢ - ١٣٨٣ رقم ٤١٢٧)، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير (٧٥/٤ - ٧٧ رقم ٣٦٩٣) - وأبو نعيم في ترجمة خباب - الحلية (١٤٦/١ - ١٤٧) وإسحاق وأبو يعلى، والبخاري، والبيهقي. في الدلائل (٣٥٢/١ - ٣٥٣) والواحدي - في أسباب النزول ص ٢١٧ - من طريق أبي الكتود عن خباب في قوله تعالى «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء - الآية - إلى: الظالمين» قال: جاء الأقرع وعيينة فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب، وبلال، وعمار وخباب قاعداً في ناس من ضعفاء المؤمنين. فذكره مطولاً هـ.

● وأورده ابن كثير في تفسيره (١٣٩/٢) وقال عقبه: ورواه ابن جرير (٢٠١/٧ ج ٥) من حديث أسباط به، وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر هـ.

● وأخرج مسلم في صحيحه (١٨٧٨/٤ رقم ٤٥، ٢٤١٣/٤٦) من حديث سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا.

قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال ورجلان لسْتُ أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع. فحدث نفسه.

فأنزل الله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه».

● وأخرج أحمد (٤٢٠/١) وابن جرير (٢٠٠/٧ ج ٥) والطبراني في الكبير (٢٦٨/١٠ رقم ١٠٥٢٠) من حديث عبدالله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده أناس من المسلمين وصهيب وخباب، فقالوا يا محمد أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك. فأنزل الله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» إلى قوله «أليس الله بأعلم بالشاكرين» وأورده الهيثمي في «المجتمع» (٢١/٧) وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٠٢/٧ ج ٥) والواحدي في «الأسباب» ص ٢١٨ في قوله عكرمة.

وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٦١ رقم ٨) «هو في حديث خباب المذكور آنفاً دون مشورة عمر واعتذاره» هـ.

(٢) الكهف: «٢٨».

(٣) وتقديم «عليك» في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به - عليه السلام - إذ هو الداعي إلى تصديه - عليه السلام - لحسابهم (س ١٣٩/٣).

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُكُمْ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتن، وهو اختلاف أحوال الناس في أمور الدنيا. فتنا أي ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين فقدمنا هؤلاء الضعفاء على أشرف قريش بالسبق إلى الإيمان. ﴿لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي أهؤلاء مَنْ أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا؟ ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء، وهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾^(١). واللام للعاقبة أو للتعليل على أن فتنا متضمن معنى خذلنا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه وبمن لا يقع منه فيخذله.

(٥٤) ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الذين يؤمنون هم الذين يدعون ربهم، وصفهم بالإيمان بالقرآن وأتباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم ويشترهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله بعد النهي عن طردهم إيداناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقَرَّبَ ولا يطرد ويعز ولا يُذَلَّ ويُبَشَّرَ من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة. وقيل إن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنباً عظيماً، فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا، فنزلت^(٢). ﴿أَنْتُمْ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ استئناف بتفسير الرحمة. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح على البدل منها. ﴿يَجْهَلُكُمْ﴾ في موضع الحال أي من عمل ذنباً جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، كعمر فيما أشار إليه، أو ملتبساً بفعل الجهالة فإن ارتكاب ما يؤدي إلى الضرر من أفعال أهل السفه والجهل. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد العمل أو السوء. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود إليه. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتحه من فتح الأول غير نافع على إضمار مبتدأ، أو خبر أي فأمره أو فله غفرانه.

(٥٥) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح. ﴿نَقُصُّلُ الْآيَاتِ﴾ أي آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين المصريين منهم والأوابين. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على معنى ولتستوضح يا محمد سبيلهم فتعامل كلاً منهم بما يحق له فضلنا هذا التفصيل،

(١) الأحقاف: (١١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/٢٠٧/٧).

والفريابي وعبد بن حميد، وسدد في مسنده، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان مرسلًا - كما في الدر المنثور (٣/٢٧٦) -.

قلت: ماهان هو الحنفي أبو صالح الكوفي. قال الحافظ في التقریب (٢/٢٢٧) ثقة قتله الحجاج سنة (٨٣هـ).

وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم برفعه على معنى ولتبين سبلهم، والباقون بالياء والرفع على تذكير السبيل فإنه يذكر ويؤنث، ويجوز أن يعطف على علة مقدرة أي تفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين^(١).

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ﴾ صُرِفَتْ وَرُجِحَتْ بِمَا نُصِبَ لِي مِنَ الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد. ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ عن عبادة ما تعبدون من دون الله، أو ما تدعونها آلهة أي تسمونها. ﴿قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ﴾ تأكيد لقطع أطماعهم وإشارة إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم واستجهاال لهم، وبياناً لمبدأ ضلالهم وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد. ﴿قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا﴾ أي اتبعت أهواءكم فقد ضللت. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك^(٢).

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تنبيه على ما يجب اتباعه بعد ما بين ما لا يجوز اتباعه. والبينة الدلالة الواضحة التي تفصل الحق من الباطل. وقيل المراد بها القرآن والوحي، أو الحجج العقلية، أو ما يعمها. ﴿مِنْ رَبِّي﴾ من معرفته وأنه لا معبود سواه، ويجوز أن يكون صفة لبيته. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ الضمير لربي أي كذبتهم به حيث أشركتم به غيره، أو للبينة باعتبار المعنى. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣). ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيره. ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾^(٤) أي القضاء الحق، أو يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع إذا صنعها، فيما يقضي من تعجيل وتأخير وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر، وأصل الحكم المنع فكأنه منع الباطل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم «يَقْضُ» من قص الأثر، أو من قص الخبر. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ﴾ القاضين^(٥).

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالياء، أي «وليستبين» أي على تذكير الفعل.

(٢) قوله «قل لا أتبع» كرر الأمر بالقول اعتناء بشأن الأمور به، أو إيداناً باختلاف المقوليين، من حيث إن الأول حكاية لما من جهته تعالى من النهي والثاني لما من جهته ﷺ من الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه.

وقوله «وما أنا من المهتدين» عدل للجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار (س/٣/١٤١).

(٣) الأنفال: «٣٢».

(٤) أثبت البيضاوي في الأصل «يقضي» وقراءة حفص المتداولة «يقض».

(٥) قوله «من ربي» في التعرض فيه لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من التشريف ورفع المنزلة=

(٥٨) ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي أَكْثَرُ مِمَّا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب. ﴿لَقَضَى الْأَمْرَ رَبِّي وَبَيَّنَّاكُمْ﴾ لأهلكم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ في معنى الاستدراك كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يُمهّل منهم.

(٥٩) ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه جمع مَفْتَح - بفتح الميم - وهو المخزن، أو ما يتوصل به إلى المغيبات مستعار من المفاتيح الذي هو جمع مِفْتَح - بكسر الميم - وهو المفتاح، ويؤيده أنه قرىء مفاتيح، والمعنى أنه المتوصل إلى المغيبات المحيط علمه بها. ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ عطف للإخبار عن تعلق علمه تعالى بالمشاهدات على الإخبار عن اختصاص العلم بالمغيبات به. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات. ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ معطوفات على ورقة، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بدل من الاستثناء الأول بدل الكل على أن الكتاب المبين علم الله سبحانه وتعالى، أو بدل الاشتمال إن أريد به اللوح. وقرئت بالرفع للعطف على محل ورقة، أو رفعاً على الابتداء والخبر: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه ويراقبكم، استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتميز فإن أصله قبض الشيء بتمامه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يوقظكم، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي ﴿فِيهِ﴾ في النهار. ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ليلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالموت. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه. وقيل الآية خطاب للكفرة والمعنى أنكم ملقون كالجيف بالليل وكاسبون للآثام بالنهار، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون بالجزاء.

(٦١) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون.

والحكمة فيه أن المكلف إذا عَلم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشم منه احتشامه من خدومه المطلعين عليه^(١). ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ مَلَكُ الموت وأعوانه. وقرأ حمزة توفاه بالألف مماله. ﴿وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ﴾ بالتواني والتأخير. وقرئ بالتخفيف، والمعنى: لا يجاوزون ما حد لهم بزيادة أو نقصان.

ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرَيْنِ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه. ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ الذي يتولى أمرهم. ﴿الْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق. وقرئ بالنصب على المدح. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم لغيره فيه. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حَلْبِ شاة لا يشغله حساب عن حساب.

(٦٣) ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ من شدائدتهما، استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتها في الهول وإبطال الإبصار فليل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والبحر والغرق في البحر. وقرأ يعقوب يُنْجِيكُمْ بالتخفيف والمعنى واحد. ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ معلنين ومسررين، أو إعلاناً وإسراراً. وقرأ أبو بكر هنا وفي الأعراف^(٢) وَخُفْيَةً بالكسر^(٣)، وقرئ خيفة. ﴿لَّئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرَيْنِ﴾ على إرادة القول أي تقولون لئن أنجيتنا. وقرأ الكوفيون لئن أنجانا، ليوافق قوله تَدْعُونَهُ، وهذه إشارة إلى الظلمة.

(٦٤) ﴿قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِّنْهَا﴾ شدد الكوفيون وهشام، وخففه الباقون. ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ غم سواها. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ﴾ تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وإنما وضع «تشركون» موضع لا تشكرون تنبيهاً على أن من أشرك بعبادة الله سبحانه وتعالى فكأنه لم يعبه رأساً.

(٦٥) ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل^(٤). ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون. وقيل من فوقكم أكابركم وحكامكم ومن تحت أرجلكم سفلتكم وعبيدكم. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم. ﴿شِيْعًا﴾ فِرَقًا متحزبين على أهواء شتى، فينشب

(١) تقديم «عليكم» على المفعول «حفظه» للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (س/٣/١٤٤).

(٢) الأعراف: «٥٥».

(٣) أي بكسر الخاء «خُفْيَةً».

(٤) وتقديم «عليكم» على المفعول الصريح «عذاباً» للاعتناء به، والمصارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم، ولتهويل أمر المؤخر (س/٣/١٤٦).

القتال بينكم قال :

وَكَيْفَ لَبَسْتُهَا بِكَيْفٍ ۖ حَتَّىٰ إِذَا التَّسَّتْ نَفْسُهَا لَهَا يَدَيَّ
﴿ وَيَذِينَ بَعْضُكَ بِأَسَ بَعْضٍ ﴾ يقاتل بعضهم بعضاً . ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ تُصْرِفُ الْآيَاتِ ﴾ بالوعد والوعيد . ﴿ لَعَلَّهُمْ
يَفْقَهُونَ ﴾ .

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ
يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۖ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ
يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أي بالعذاب، أو بالقرآن ^(١) . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ الواقع لا محالة أو الصدق .
﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ وكُل إليّ أمركم فامنعكم من التكذيب أو أجازيكم، إنما أنا منذر والله
الحفيظ .

(٦٧) ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ ﴾ خبرٌ يريد به إما بالعذاب أو الإيعاد به . ﴿ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ وقت استقرار ووقوع .
﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند وقوعه في الدنيا والآخرة .

(٦٨) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطنن فيها . ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾
فلا تجالسهم وقم عنهم . ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أعاد الضمير على معنى الآيات لأنها القرآن . ﴿ وَإِمَّا
يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي . وقرأ ابن عامر يُنْسِيَنَّكَ بالتشديد . ﴿ فَلَا تَقْعُدْ
بَعْدَ الذِّكْرَىٰ ﴾ بعد أن تذكره . ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي معهم، فوضع الظاهر موضع المضمّر دلالة على
أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام .

(٦٩) ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ ﴾ وما يلزم المتقين من قبائح أعمالهم وأقوالهم الذين يجالسونهم .
﴿ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ شيء مما يحاسبون عليه . ﴿ وَلَكِنْ ذِكْرَىٰ ﴾ ولكن عليهم أن يذكروهم
ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها . وهو يحتمل النصب على المصدر،
والرفع على ولكن عليهم ذكرى، ولا يجوز عطفه على محل «من شيء» لأن مِنْ حِسَابِهِمْ يَأباه ولا على
«شيء» لذلك ولأن مِنْ لا تزداد في الإثبات . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴾ يجتنبون ذلك حياءً أو كراهة
لمساءتهم، ويحتمل أن يكون الضمير للذين يتقون والمعنى: لعلهم يشتون على تقواهم ولا تتلثم
بمجالستهم . روي: أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزأوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في
المسجد الحرام، ونطوف، فنزلت .

(١) وإيرادهم بلفظ «قَوْمُكَ» لبيان كمال سوء حالهم، فإن تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه - عليه السلام -
مما يقضي بغاية عتوهم ومكابرتهم (س/٣/١٤٦) .

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلَّ إِنَّكَ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

(٧٠) ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي بنوا أمر دينهم على التشهي وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كُلِّفوه لعباً ولهواً حيث سَخَرُوا به، أو جعلوا عيدهم الذي جُعِلَ ميقاتُ عبادتهم زماناً لهو ولعب. والمعنى أغرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم، ويجوز أن يكون تهديداً لهم كقوله تعالى: ﴿ذَرِفْ وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِداً﴾^(١) وَمَنْ جَعَلَهُ مَنْسُوخاً بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم وترك التعرض لهم. ﴿وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ حتى أنكروا البعث. ﴿وَذَكَرَ بِهِمْ﴾ أي بالقرآن. ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تُسَلِّمَ إلى الهلاك وتُرهن بسوء عملها. وأصل الإيسال والبسَل المنع، ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تغلت منه، والباسل الشجاع لا تمتاعه من قرنه، وهذا بسَل عليك أي حرام. ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها العذاب. ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ﴾ وإن تُقَدِّ كل فداء، والعدلُ الفدية لأنها تعادل المفدي وههنا الفداء. وكل نصب على المصدرية. ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ الفعل مسند إلى منها لا إلى ضميره بخلاف قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾^(٢) فإنه المفدى به. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي سُلِّمُوا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة. ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ تأكيد وتفصيل لذلك، والمعنى هم بين ماء مغلي يتجرجر في بطونهم ونارٍ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿قُلْ أَدْعُوا﴾ أنعبد. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ ما لا يقدر على نفعنا وضرنا. ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ ونرجع إلى الشرك^(٣). ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام. ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ كالذي ذهبت به مرده الجن في المهامه، استفعال من هوى يهوي هويّاً إذا ذهب. وقرأ حمزة استهواه بألف مماله. ومحل الكاف النصب على الحال من فاعل نُردُّ أي: مُشبهين الذين استهوته، أو على المصدر أي رداً مثل رد الذي استهوته. ﴿فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ متحيراً ضالاً عن الطريق. ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ لهذا المستهوي رفقة. ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستقيم، أو إلى الطريق المستقيم، وسماء هدى تسمية للمفعول بالمصدر. ﴿أَتَيْنَا قُلَّ﴾ يقولون له اتتنا. ﴿قُلَّ إِنَّكَ هَدَى

(١) المدثر: «١١».

(٢) البقرة: «٤٨».

(٣) وإشار لفظ «نُرَدُّ» على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد برد الغير تصريحاً بمخالفة المضلين وقطعاً لأطماعهم الفارغة وإيداناً بأن الارتداد من غير راد ليس في حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وإنكاره (س/١٤٩/٣).

اللَّهُ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ^(١). ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ وحده وما عداه ضلال. ﴿وَأَمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ من جملة المقول، عطف على إن هدى الله، واللام لتعليل الأمر أي أمرنا بذلك لنسلم وقيل هي بمعنى الباء وقيل هي زائدة.

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَنَّا الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَتَأْتِيهِمْ صَنَامًا ۖ أَلَيْسَ إِلَهُهُ إِلَّا أَنْتَ ۚ وَتَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ إِنَّكَ قَدِيرٌ ﴿٧٤﴾

(٧٢) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عطف على لنسلم أي للإسلام ولإقامة الصلاة، أو على موقعه كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا الصلاة. روي: أن عبدالرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فترلت^(٢). وعلى هذا كان أمر الرسول ﷺ بهذا القول إجابة عن الصديق رضي الله تعالى عنه تعظيماً لشأنه وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما. ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

(٧٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قائماً بالحق والحكمة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ جملة اسمية قُدِّمَ فيها الخبر أي قوله الحق يوم يقول، كقولك: القتال يوم الجمعة، والمعنى أنه الخالق للسموات والأرضين وقوله الحق نافذ في الكائنات. وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات، أو الهاء في وآتوه، أو بمحذوف دل عليه بالحق، وقوله الحق مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى. وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه كن فيكون، والمراد به حين يكون الأشياء ويُخْدِئُهَا أو حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الأموات وإحياءها. ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٣). ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو عالم الغيب. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ كالفلكة للآية^(٤).

(٧٤) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَتَأْتِيهِمْ صَنَامًا ۖ أَلَيْسَ إِلَهُهُ إِلَّا أَنْتَ ۚ وَتَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ إِنَّكَ قَدِيرٌ﴾ هو عطف بيان لأبيه، وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح فقبلهما عَلَمَانِ له كإسرائيل ويعقوب، وقيل الْعَلَمُ تارح وآزر وصف معناه الشيخ أو المعوج، ولعل منع صرفه لأنه أعجمي حمل على موازنه أو نعت مشتق من الأزَر أو الوزر، والأقرب أنه عَلَمٌ أعجمي على فاعل كعابر وشالغ، وقيل اسم صنم يَعْبُدُهُ فَلَقَّبَ بِهِ لِلزُّومِ عِبَادَتِهِ، أو أطلق عليه بحذف المضاف.

(١) وتكرير الأمر بـ«قل» للاعتناء بشأن المأمور (س/٣/١٥٠).

(٢) أورده المناوي في الفتح السماوي ص ٦١٠ وسكت عنه، وقال ابن همام: لم أفق عليه.

(٣) غافر: ١٦.

(٤) قوله تعالى: «وله الملك يوم ينفخ في الصور» قيد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة في الدنيا المصححة للملكية المجازية في الجملة (س/٣/١٥١).

وقيل المراد به الصنم ونصبه بفعل مضمر يفسره ما بعده أي أتعبد آزر ثم قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهًا﴾ تفسيراً وتقريراً، ويدل عليه أنه قرىء أَزْرًا تتخذ أصناماً بفتح همزة آزر وكسرهما وهو اسم صنم، وقرأ يعقوب بالضم على النداء وهو يدل على أنه علم. ﴿إِنِّي أَرَىٰ أَرْبَعًا مِّنْ قَوْمِكَ فِي ضَلَالٍ عَنَ الْحَقِّ﴾. ﴿ثُمَّ يَنصَرُّ﴾ ظاهر الضلالة.

وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلَٰكَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوِّمُ إِنِّي بِرِئِّ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(٧٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ومثل هذا التبصير نبصره، وهو حكاية حال ماضية. وقرىء تُرِي بالتاء ورفع الملكوت ومعناه تبصره دلائل الربوبية. ﴿مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ربوبيتها وملكها، وقيل عجائبها وبدائعها. والملكوت أعظم الملك، والتاء فيه للمبالغة. ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي ليستدل وليكون، أو وفعلنا ذلك ليكون.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ تفصيل وبيان لذلك، وقيل عطف على قال إبراهيم، وكذلك تُرِي اعتراض فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشداهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال. وجن عليه الليل ستره بظلامه. والكوكب كان الزهرة أو المشتري. وقوله: هذا ربي على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ثم يَكْزُرُ عليه بالإفساد، أو على وجه النظر والاستدلال، وإنما قاله زماناً مرافقه أو أول أوان بلوغه. ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي غاب. ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلَٰكَ﴾ فضلاً عن عبادتهم فإن الانتقال والاحتجاب بالأسرار يقتضي الأمان والحدوث وينافي الألوهية.

(٧٧) ﴿فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا﴾ مبتدئاً في الطلوع. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ استعجز نفسه واستعان بربه في ذلك الحق - فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه - إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً لتغير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذها إلهاً فهو ضال.

(٧٨) ﴿فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ ذكر اسم الإشارة لتذكير الخبر وصيانة للرب عن شبهة التأنيث. ﴿هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ كثرة استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم. ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوِّمُ إِنِّي بِرِئِّ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ من الأجرام المحدثثة المحتاجة إلى محدث يحدثها ومخصص يخصصها بما تختص به، ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدتها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

(٧٩) ﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإنما احتج بالأقول دون الزوج مع أنه أيضاً انتقال لتعدد دلالاته، ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال.

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْكُمُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وخاصموه في التوحيد. ﴿قَالَ أَتُحْكُمُونَ فِي اللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى. وقرأ نافع وابن عامر بخلاف عن هشام بتخفيف النون. ﴿وَقَدْ هَدَانِي﴾ إلى توحيده. ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي لا أخاف معبوداتكم في وقت لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أن يصيبني بمكره من جهتها، ولعله جواب لتخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ كانه علة الاستثناء، أي أحاط به علماً فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحق بي مكره من جهتها^(١). ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاقد والقادر والعاجز^(٢).

(٨١) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ ولا يتعلق به ضرر. ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وهو حقيق بأن يخاف منه كل الخوف، لأنه إشراك للمصنوع بالصانع وتسوية بين المقدور العاجز بالقادر الضار النافع. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ ما لم ينزل بإشراكه كتاباً، أو لم ينصب عليه دليلاً. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أي الموحدون أو المشركون، وإنما لم يقل أئنا أنا أم أنتم احترازاً من تركية نفسه^(٣). ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحق أن يخاف منه.

(٨٢) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ استئناف منه أو من الله بالجواب عما استفهم عنه، والمراد بالظلم ههنا الشرك لما روي أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة وقالوا: أئنا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»^(٤) وليس الإيمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق بالإشراك به. وقيل المعصية.

(٨٣) ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أو من قوله: ﴿أَتُحْكُمُونَ﴾ إليه. ﴿حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أرشدناه إليها، أو علمناه

(١) وإظهار لفظ «ربي» في موضع الإضمار لتأكيد المعنى المذكور والاستلذاذ بذكره تعالى (س/٣/١٥٥).

(٢) وفي إيراد لفظ التذكر دون التفكير ونظائره إشارة إلى أن أمر أصنامهم مركوز في العقول لا يتوقف إلا على التذكر (س/٣/١٥٥).

(٣) وجيء بصيغة التفضيل «أحق» المشعرة باستحقاقهم له في الجملة لاستئصالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الإنصاف (س/٣/١٥٦).

(٤) أخرجه البخاري (١/٨٧ رقم ٣٢) ومسلم (١/١١٤ رقم ١٢٤) والترمذي (٥/٢٦٢ رقم ٣٠٦٧) وأحمد في المسند (رقم: ٣٥٨٩ - شاكر) والطبري (رقم: ١٣٤٧٦ - شاكر) كلهم من حديث عبدالله بن مسعود.

إياها. ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ متعلق بحجتنا إن جُعِلَ خبرُ تلك وبمحدوفٍ إن جُعِلَ بدله، أي: آتيناها إبراهيم حجةً على قومه. ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن شَاءَ﴾ في العلم والحكمة. وقرأ الكوفيون ويعقوب بالتثنية^(١). ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في رفعه وخفضه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له^(٢).

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلا منهما. ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم، عذ هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه وشرف الوالد يتعدى إلى الولد. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه، وقيل لنوح عليه السلام لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم، فلو كان لإبراهيم اختص البيان بالمعدودين في تلك الآية والتي بعدها، والمذكورون في الآية الثالثة عطف على نوحاً. ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ﴾ أيوب بن أموص من أسباط عيص بن إسحاق. ﴿يُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ونجزى المحسنين جزاءً مثل ما جزينا إبراهيم برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ هو ابن مريم، وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت. ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ قيل هو إدريس جد نوح فيكون البيان مخصوصاً بمن في الآية الأولى، وقيل هو من أسباط هارون أخي موسى. ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي.

(٨٦) ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ هو اليسع بن أخطوب. وقرأ حمزة والكسائي واليسع، وعلى القراءتين هو عَلم أعجمي أدخل عليه اللام كما أدخل على اليزيد في قوله:

رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مُبَارَكاً شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ

﴿يُوشَعَ﴾ هو يونس بن متى. ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم. ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنبوة، وفيه دليل على فضلهم على مَنْ عداهم من الخلق.

(٨٧) ﴿وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ عطف على كلاً أو نوحاً أي فضلنا كلاً منهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فإن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطف على فضلنا أو هدينا. ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تكرير لبيان ما هُودوا إليه.

(١) وقرأ آخرون بكسر التاء في درجات دون تنوينها، ولعله الأصل عند البضاوي.

(٢) وفي وضع الرب موضع نون العظمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان أحوال إبراهيم عليه السلام إظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام (س/٣/١٥٧).

ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
هَدَىٰ اللَّهُ فِيهِدَهُمْ أَقْتَدَٰهُ قُلْ لَا أَتَّبِعُكُمْ عَلَىٰ حَرٍّ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي
خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

(٨٨) ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما دانوا به. ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلو شأنهم. ﴿لَحِطَٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها.

(٨٩) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس. ﴿وَالْحِكْمَ﴾ الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق. ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ والرسالة. ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي بهذه الثلاثة. ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني قريشاً. ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا﴾ أي بمراعاتها. ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وهم^(١) الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم. وقيل هم الأنصار أو أصحاب النبي ﷺ، أو كل من آمن به، أو الفرس. وقيل^(٢) الملائكة.

(٩٠) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم. ﴿فِيهِدَهُمْ أَقْتَدَٰهُ﴾ فاختص طريقهم بالافتداء، والمراد بهداهم ماتوافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلف فيها فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل ولا يمكن التآسي بهم جميعاً، فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله. والهاء في اقتداه للوقف ومن أثبتها في الدّرج ساكنة كابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم أجرى الوصل مجرى الوقف، ويحذف الهاء في الوصل خاصة حمزة والكسائي، وأشبعها بالكسر ابنُ عامر برواية ابن ذكوان على أنها كناية المصدر، وكسرهما بغير إشباع برواية هشام. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُكُمْ عَلَىٰ حَرٍّ﴾ أي على التبليغ أو القرآن. ﴿أَجْرًا﴾ جَعْلًا من جهتكم كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أمر بالافتداء بهم فيه. ﴿إِن هُوَ﴾ أي التبليغ أو القرآن أو الغرض. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ إلا تذكير وموعظة لهم.

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد. ﴿إِذْ قَالُوا مَا

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/٧ ج ٢٦٥) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/٧ ج ٢٦٤) عن أبي رجاء.

وأورده السيوطي في «الدر» (٣/٣١٢) ونسبه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴿١﴾ حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام وذلك من عظام رحمة وجلاتل نعمته، أو في السخط على الكفار وشدة البطش بهم حين جَسَرُوا على هذه المقالة، والقائلون هم اليهود قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن بدليل نقض كلامهم وإلزامهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾. وقراءة الجمهور: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُدَوِّنَهَا وَتُخَفُّونَ كَثِيرًا﴾ بالياء، وإنما قرأ بالياء ابن كثير وأبو عمرو حملاً على قالوا وما قدرُوا^(١)، وتضمن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم بالتوراة وذهمهم على تجزئتها بإبداء بعض انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقة وإخفاء بعض لا يشتهونه. وروي أن مالك بن الصيف قاله لما أغضبه الرسول ﷺ بقوله: «أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله يَبْغُضُ الحبر السمين؟» قال: نعم، إن الله يَبْغُضُ الحبر السمين، قال عليه الصلاة والسلام: «فَأنت الحبر السمين»^(٢). وقيل هم المشركون، وإلزامهم بإنزال التوراة لأنه كان من المشهورات الذائعة عندهم، ولذلك كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾^(٣). ﴿وَعَلَّمْتُمُ﴾ على لسان محمد ﷺ. ﴿مَا لَمْ تَقَالُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ زيادة على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم، ونظيره: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٤). وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أي أنزله الله أو الله أنزله، أمره بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متعين لا يمكن غيره وتنبهاً على أنهم بُهِتوا بحيث إنهم لا يقدرُونَ على الجواب. ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ في أباطيلهم فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة. ﴿يَلْمِزُونَ﴾ حال من هم الأول - والظرف صلة ذرهم أو يلعبون -، أو حال من مفعوله، أو فاعل يلعبون، أو من هم الثاني والظرف متصل بالأول.

(٩٢) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع. ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني التوراة أو الكتب التي قبله. ﴿وَلِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ عطف على ما دل عليه مبارك أي للبركات ولتنذر، أو علة لمحذوف أي ولتنذر أهل أم القرى أنزلناه. وإنما سميت مكة بذلك لأنها قِيلة أهل القرى ومَحَجُّهُمْ ومَجْتَمِعُهُمْ وأعظم القرى شأنًا، وقيل لأن الأرض دحيث من تحتها، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء أي ولينذر الكتاب. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فَإِنْ مَنْ صَدَّقَ بِالْآخِرَةِ خاف العاقبة ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبي والكتاب، والضمير يحتملهما ويحافظ على الطاعة. وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان.

(١) قراءتهم بالياء في: تجعلونه... ويبدونها... ويخفون.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/٧ ج ٢٦٧) عن سعيد بن جبيرة مرسلاً وفي سنده ابن حميد ضعيف. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٢٠ بدون سند، عن سعيد بن جبيرة.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٥/٧ ج ٢٦٧) عن عكرمة نحوه وفي سنده «سنيذ» وهو ضعيف.

(٣) الأنعام: (١٥٧).

(٤) النمل: (٧٦).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

(٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنه بعثه نبياً كمسيلمة^(١) والأسود العنسي^(٢)، أو اختلق عليه أحكاماً كعمرو بن لحي ومُتابعيه^(٣). ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبدالله بن سعد بن أبي سرح^(٤) كان يكتب لرسول الله ﷺ، فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٥) فلما بلغ قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾^(٦)، قال عبدالله: فتبارك الله أحسن الخالقين، تعجباً من تفصيل خلق الإنسان فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتبها فكذلك نزلت» فشك عبدالله وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال^(٧). ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ كالذين قالوا: «لو نشاء لقلنا مثل هذا»^(٨). ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ حذف مفعوله لدلالة الظرف عليه، أي ولو ترى الظالمين. ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ شدائده، مِنْ غمره الماء إذا غشيه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا

- (١) مسيلمة الكذاب من بني حنيفة، قاتلهم المسلمون بقيادة خالد وهم يوشذ أكثر العرب فاستشهد خلق كثير، وهزم الله بني حنيفة وقُتل مسيلمة. قتله وحشي بحرية.
- [تاريخ الإسلام للذهبي - عهد الخلفاء الراشدين - ص ٣٩، وتاريخ خليفة ص ١٠٩].
- (٢) الأسود العنسي: هو الذي غلب على صنعاء اليمن وقتل باذان عامل النبي ﷺ واستصفى امرأته المرزبانة لنفسه فتزوجها، وكانت تكرمه لما صنع بقومها. وخططت لقتله وتم لها ذلك.
- [المعرفة والتاريخ: للبسوي (٢٦٢/٣ - ٢٦٣) وتاريخ خليفة ص ١١٦ - ١١٧].
- (٣) هو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة، وهو أول من ولى البيت منهم، ثم رحل إلى قومه بالشام ورأى الأصنام تعبد فأعجبته عبادتها، وقدم مكة بهيل، ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقتها الحنيفة... وعمرو بن لحي أول من بحر البحيرة، وسبب السائبة، وجعل الوصيلة والهام.
- [«الأوائل» لأبي هلال العسكري ص ٦٠ - ٦٢].
- (٤) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح الأموي هو أخ لعثمان رضي الله عنه من الرضاعة ولأه عثمان على مصر، وقد فتحها مع عمرو بن العاص، وفتح في زمن ولايته على مصر بلاد إفريقية، واغتنم مالا كثيراً، توفي في حالة الصلاة واختلف في سنة وفاته وصحح ابن كثير سنة ست وثلاثين، وكذا ابن كثير.
- [الإصابة (٣١٦/٢) رقم ٤٧١١] وأسد الغابة (٣/٢٥٩ رقم ٢٩٧٤).
- (٥) المؤمنون: (١٢).
- (٦) المؤمنون: (١٤).
- (٧) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص ٢٢٠ من قول ابن عباس في رواية الكلبي وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/٢٧٣) من رواية أحمد بن المفضل الحفري عن أسباط عن السدي بزيادة في آخره.
- قلت: الحفري هذا صدوق شيعي في حفظه شيء: قاله ابن حجر في «التقريب» (١/٢٦ رقم ١٢٣).
- واعلم أن عبدالله بن سرح ارتد ثم إنه أسلم وحسن إسلامه.
- انظر «عيون الأثر» لابن سيد الناس (٢/١٧٥).
- (٨) الأنفال: (٣١).

أَيَّدِيهِمْ ﴿ بَقْبُض أُرُوحِهِمْ كَالْمَتَقَاضِي الْمَلْظُ ^(١) ، أو بالعذاب . ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي يقولون لهم أخرجوها إلينا من أجسادكم تغليظاً وتعنيفاً عليهم ، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا . ﴿ الْيَوْمَ ﴾ يريدون وقت الإمامة ، أو الوقت الممتد من الإمامة إلى ما لا نهاية له . ﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أي الهوان يريدون العذاب المتضمن لشدة وإهانة ، فإضافته إلى الهون لعراقته وتمكنه فيه . ﴿ يَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ كادعاء الولد والشريك له ودعوى النبوة والوحي كاذباً . ﴿ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فلا تأملون فيها ولا تؤمنون .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْتَكُمْ وَرَأَيْتُمْ ظُهُورَكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَإِنِّي تَوَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَإِنِّي الْإِصْبَاحُ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

(٩٤) ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ للحساب والجزاء . ﴿ فُرَادَى ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا ، أو عن الأعوان والأوثان التي زعتم أنها شفعاؤكم ، وهو جمع فَرَدَ والألف للتأنيث ككُسالَى . وقرىء فُرَاداً كُرْخَال وفُرَاد كَثَلَاث وفُرَادَى كسكرى . ﴿ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بدل منه أي على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد ، أو حال ثانية إن جُوز التعدد فيها ، أو حال من الضمير في فرادى أي مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلاً بهما ، أو صفة مصدر جئتمونا أي مجيئاً كما خلقناكم . ﴿ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة . ﴿ وَرَأَيْتُمْ ظُهُورَكُمْ ﴾ ما قدمتم منه شيئاً ولم تحتملوا نقيراً . ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي شركاء الله في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم . ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي تقطع وصلكم وتشتت جمعكم . والْبَيْنُ من الأضداد يستعمل للوصل والفصل ، وقيل هو الظرف أسند إليه الفعل اتساعاً والمعنى : وقع التقطع بينكم ، ويشهد له قراءة نافع والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على إضمار الفاعل لدلالة ما قبله عليه ، أو أقيم مقام موصوفه وأصله لقد تقطع ما بينكم وقد قرىء به . ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ ﴾ ضاع وبطل . ﴿ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أنها شفعاؤكم ، أو أن لا بعث ولا جزاء .

(٩٥) ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى ﴾ بالنبات والشجر . وقيل المراد به الشقاق الذي في الحنطة والنواة . ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ ﴾ يريد به ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله . ﴿ مِنَ الْمَمِيتِ ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب . ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ومخرج ذلك من الحيوان والنبات ، ذَكَرَهُ بلفظ الاسم حملاً على فالق الحب فإن قوله : يخرج الحي واقع موقع البيان له . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ ﴾ أي ذلكم المحيي المميت هو الذي يحق له العبادة . ﴿ فَإِنِّي تَوَفَّكُونَ ﴾ تُصرفون عنه إلى غيره .

(٩٦) ﴿ فَإِنِّي الْإِصْبَاحُ ﴾ شاقَّ عمود الصبح عن ظلمة الليل أو عن بياض النهار ، أو شاقَّ ظُلْمَةً

(١) المَلْظُ : أي الملح الذي ييسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة من غير إمهال .

الإصباح وهو الغَبَش الذي يليه. والإصباح في الأصل مصدر أصبح إذا دخل في الصباح سمي به الصبح. وقرئ بفتح الهمزة على الجمع وقرئ فالتق الإصباح بالنصب على المدح. ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن إليه التَّعَبُ بالنهار لاستراحته فيه؛ مِنْ سَكَنَ إِلَيْهِ إذا اطمأن إليه استئناساً به، أو يَسْكُنُ فيه الخلق من قوله تعالى: ﴿لَسْتُ كُنُؤًا فِيهِ﴾^(١). ونصبه بفعل دل عليه «جاعل» لا به^(٢) فإنه في معنى الماضي، ويدل عليه قراءة الكوفيين وجعلَ الليلَ حَمَلًا على معنى المعطوف عليه فإن فالتق بمعنى فلق ولذلك قرئ به، أو به^(٣) على أن المراد منه جَعَلَ مستمر في الأزمنة المختلفة وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ عطفًا على محل الليل ويشهد له قراءة تهما بالجذر، والأحسنُ نصبهما بجعلَ مقدراً. وقرئ بالرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف أي مجعولان. ﴿حُسْبَانًا﴾ أي على أدوار مختلفة يُحَسَّبُ بهما الأوقات ويكونان علمي الحسبان، وهو مصدر حَسَبَ - بالفتح - كما أن الحِسبان - بالكسر - مصدر حَسِبَ، وقيل جمع حساب كَشِهَابٍ وشُهَبَانٍ. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حساباً، أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص. ﴿الْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما والأنفع من التداوير الممكنة لهما.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعٍ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

(٩٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ خلقها لكم. ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر وإضافتها إليهما للملازمة، أو في مشبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة، وهو إفراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله «لكم» ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ بينها فضلاً فضلاً. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المتفهمون به.

(٩٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿فَمُسْتَوْعٍ وَمُسْتَوْعٍ﴾ أي فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض، أو موضع استقرار واستيداع^(٤). وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل. والمستودع اسم مفعول أي

(١) يونس: (٦٧).

(٢) الضمير يعود على (جاعل).

(٣) أي منصوب به أي بجاعل.

(٤) والتعبير عن كونهم في الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعي، كما أن التعبير عن كونهم في الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لأنهما ليس بمقرهم الطبيعي (س/٣/١٦٥).

فمنكم قاز ومنكم مستودع، لأن الاستقرار منا دون الاستيداع. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ﴾ ذكر مع ذكر النجوم «يعلمون» لأن أمرها ظاهر، ومع ذكر تخليق بني آدم «يفقهون» لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر.

(٩٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على تلوين الخطاب. ﴿بِهِ﴾ بالماء. ﴿بَنَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نبت كل صنف من النبات. والمعنى: إظهار القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المفتنة المسقية بماء واحد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُسْقَى يَمَاءً وَاحِدٌ وَنُفِضَ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾^(١). ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات، أو الماء. ﴿خَضِرًا﴾ شيئاً أخضر، يقال أخضر وأخضر كأغور وعور، وهو الخارج من الحبة المتشعب. ﴿تُخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر. ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل. ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنَازٌ﴾ أي وأخرجنا من النخل نخلاً من طلوعها قنوان، أو من النخل شيء من طلوعها قنوان، ويجوز أن يكون من النخل خبر قنوان ومن طلوعها بدل منه، والمعنى: وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو الأغذاق جمع قنو كصنوان جمع صنو. وقرئ بضم القاف كذب وذوبان، ويفتحها على أنه اسم جمع إذ ليس فعلان من أبنية الجمع. ﴿دَانِيَةً﴾ قريبة من المتناول، أو مثقلة قريب بعضها من بعض. وإنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها لدالتها عليه وزيادة النعمة فيها. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَبٍ﴾ عطف على نبات كل شيء. وقرأ نافع بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثم جنات أو من الكرم جنات، ولا يجوز عطفه على قنوان إذ العنب لا يخرج من النخل. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ أيضاً عطف على نبات، أو نصب على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم. ﴿مُتَشَبِّهَاتٍ﴾ حال من الرمان أو من الجميع، أي بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم. ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك. وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء والميم، وهو جمع ثمرة كخشبة وخشب أو ثمار ككتاب وكتب. ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يُثمر شيئاً لا يكاد يتنفع به. ﴿وَبَنَوُوهُ﴾ وإلى حال نضجه أو إلى نضيجه كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة، وهو في الأصل مصدر يَنْعَتِ الثمر إذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتجر. وقرئ بالضم وهو لغة فيه، ويانعه. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المتفنة من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجع ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله نذ يعارضه أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أي الملائكة بأن عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله؛ وسماهم جنات لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم، أو الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشیطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأي

(١) الرعد: «٤». وأثبتها على غير قراءة حفص عن عاصم. وقد قرأ بها قراء. وعند حفص «يُسْقَى».

الثنوية. ومفعولاً جعلوا: لله شركاء؛ والجنّ بدل من شركاء، أو شركاء الجنّ، والله متعلق بشركاء أو حالّ منه. وقرىء الجنّ بالرفع كأنه قيل مَنْ هم فقيل الجن، والجنّ بالجر على الإضافة للثنين. ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال بتقدير قد، والمعنى وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق. وقرىء وَخَلَقَهُمْ عطفاً على الجن أي وما يخلقونه من الأصنام أو على شركاء أي وجعلوا له اختلافهم للإفك حيث نسبوه إليه. ﴿وَحَرَّفُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافتروا له. وقرأ نافع بتشديد الراء للتكثير، وقرىء وحرفوا أي وزوروا. ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ فقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله. ﴿يَغَيِّرُ عَلَمَهُ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ويروا عليه دليلاً، وهو في موضع الحال من الواو أو المصدر أي خرقاً بغير علم. ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ وهو أن له شريكاً أو ولداً.

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، أو إلى الظرف كقولهم: ثَبَّتَ الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما. وقيل معناه المبدع وقد سبق الكلام فيه، ورفعهُ على الخبر والمبتدأ محذوف أو على الابتداء وخبره: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي من أين أو كيف يكون له ولد. ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ يكون منها الولد. وقرىء بالياء للفصل، أو لأن الاسم ضمير الله أو ضمير الشأن. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، وإنما لم يقل به لتطرق التخصيص إلى الأول. وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه: الأول: أنه من مبدعاته السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره ولا نظير له فلا ولد. والثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه وتعالى منزّه عن المجانسة. والثالث: أن الولد كفؤ الوالد ولا كفؤ له لوجهين: الأول أن كل ما عده مخلوقه فلا يكافئه. والثاني أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره بالإجماع.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أخبار مترادفة، ويجوز أن يكون البعض بدلاً أو صفة والبعض خبراً. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حكم مسبب عن مضمونها فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم ورقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها.

(١٠٣) ﴿لَا تَدْرِكُهُ﴾ أي لا تحيط به. ﴿الْبَصَرُ﴾ جمع بصر، وهي حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها. واستدل به المعتزلة على امتناع الرؤية وهو ضعيف، إذ ليس الإدراك مطلق

الرؤية ولا النفي في الآية عاماً في الأوقات فلعله مخصوص ببعض الحالات ولا في الأشخاص فإنه في قوة قولنا لا كل بصر يدركه مع أن النفي لا يوجب الامتناع. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ يحيط علمه بها. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار، ويجوز أن يكون من باب اللف أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكفيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن، سميت بها الدلالة لأنها تُجلي لها الحق وتبصرها به. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي أبصر الحق وآمن به. ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر لأن نفعه لها. ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عن الحق وضل. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وبأله. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ وإنما أنا منذر والله سبحانه وتعالى هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها، وهذا كلام ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام^(١).

(١٠٥) ﴿وَكَذَلِكَ نُصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ ومثل ذلك التصريف نصرف، وهو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة من الصرف وهو نقل الشيء من حال إلى حال. ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي وليقولوا درست صرّفنا، واللام لام العاقبة، والدّرس القراءة والتعلم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو دارست أي دارست أهل الكتاب وذاكرتهم، وابن عامر ويعقوب درست من الدروس أي قديمت هذه الآيات وعقّت كقولهم أساطير الأولين، وقرىء درست بضم الراء مبالغة في درست، ودُرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عُفيت، ودارست بمعنى درست أو دارست اليهود محمداً ﷺ، وجاز إضمارهم بلا ذكر لشهرتهم بالدراسة، ودرسن أي عنون ودرس أي درس محمد ﷺ ودارسات أي قديمات أو ذوات درس كقوله تعالى ﴿تَهْوِي عِشَّةً رَاضِيَةً﴾^(٢). ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ اللام على أصله لأن التبيين مقصود التصريف. والضمير للآيات باعتبار المعنى، أو للقرآن وإن لم يذكر لكونه معلوماً، أو للمصدر. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به^(٣).

(١٠٦) ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالتدين به. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع، أو حال مؤكدة من ربك بمعنى منفرداً في الألوهية. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت إلى آرائهم، ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمل الإعراض على ما يعم الكف عنهم.

(١) قوله «من ربكم» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمال اللطف بهم.

وقوله «ومن عمي» عبر عنه بالعمى تقيحاً له وتنفيراً عنه (س/٣/١٧٠).

(٢) الحاقة: «٢١».

(٣) ووصفهم بالعلم للإيدان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرّة (س/٣/١٧١).

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٧) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ توحيدهم وعدم إشراكهم. ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ وهو دليل على أنه سبحانه وتعالى لا يريد إيمان الكافرين وأن مراده واجب الوقوع. ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رقيباً. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمورهم.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح. ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يذكر به. وقرأ يعقوب عُدْوًا يقال عدا فلان عَدْوًا وَعُدْوًا وعداء وعدواناً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام كان يطعن في آلهتهم فقالوا لتتبهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك، فنزلت^(١). وقيل كان المسلمون يسبونهم فنهوا لثلا يكون سبهم سبباً لسب الله سبحانه وتعالى^(٢)، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر. ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يُمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً وتخليلاً، ويجوز تخصيص العمل بالشر وكل أمة بالكفرة لأن الكلام فيهم، والمشبّه به تزيين سب الله لهم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة عليه.

(١٠٩) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مصدر في موقع الحال، والداعي لهم إلى هذا القسم والتأكيد فيه التحكُّم على الرسول ﷺ في طلب الآيات واستحقار ما رأوا منها. ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم. ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم، استفهام إنكار. ﴿أَنَّهَا﴾ أي أن الآية المقترحة. ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا تدرون أنهم لا يؤمنون، أنكر السبب مبالغة في نفي المسبب، وفيه تنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وقيل «لا» مزيدة وقيل أنَّ بمعنى لعل إذ قرئ لعلها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب إنها بالكسر كأنه قال: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بما علم منهم والخطاب للمؤمنين فإنهم يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم، فنزلت. وقيل للمشركين إذ قرأ ابن عامر وحمزة «لا تؤمنون» بالتاء، وقرئ وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم فيكون إنكاراً لهم على حلفهم أي: وما يشعرهم أن قلوبهم حيث لم تكن مطبوعة كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات فيؤمنون بها.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/٧ ج ٣٠٩) عن ابن عباس.

وفي سنده «أبو صالح كاتب الليث» ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/٧ ج ٣٠٩) عن قتادة، بإسناده صحيح.

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ^{١١٠} أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١١﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عطف على لا يؤمنون أي: وما يشعركم أنا حينئذ نقبل أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه وأبصارهم فلا يبصرونه فلا يؤمنون بها. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بما أنزل من الآيات. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وندعهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين. وقرئ وَيُقَلِّبُ وَيَذَرُهُمْ على الغيبة، وتُقَلِّبُ على البناء للمفعول والإسناد إلى الأفئدة.

(١١١) ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ كما اقترحوا فقالوا: لولا أنزل علينا الملائكة فاتوا بآبائنا أو تأتي بالله والملائكة قبيلة، وقُبُلًا جمع قبيل بمعنى كفيل أي: كفلاء بما بشروا به وأنذروا به، أو جمع قبيل الذي هو جمع قبيلة بمعنى جماعات، أو مصدر بمعنى مقابلة كقبلاً وهو قراءة نافع وابن عامر، وهو على الوجه حال من كل وإنما جاز ذلك لعمومه. ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لما سبق عليهم القضاء بالكفر. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي: لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانهم، وقيل منقطع وهو حجة واضحة على المعتزلة^(١). ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم.

(١١٢) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي كما جعلنا لك عدواً جعلنا لكل نبي سببك عدواً، وهو دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه. ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ مرده الفريقين، وهو بدل من عدواً، أو أول مفعولي جعلنا وعدواً مفعوله الثاني، ولكل متعلق به أو حال منه. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعض الجن إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض. ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ الأباطيل المموهة منه، من زخرفه إذازينه. ﴿غَرُورًا﴾ مفعول له، أو مصدر في موقع الحال. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم^(٢). ﴿مَا فَعَلُوا﴾ أي ما فعلوا ذلك يعني معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإيحاء الزخارف، ويجوز أن يكون الضمير للإيحاء أو الزخرف أو الغرور، وهو أيضاً دليل على المعتزلة. ﴿فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وكفرهم.

(١) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة (س/٣/١٧٤).

(٢) الالتفات فيه والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لكمال اللطف في التسلية (س/٣/١٧٦).

وَلِلصَّغِيِّ إِلَيْهِ أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرِضُوهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ
أَتَّبِعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ
رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

(١١٣) ﴿وَلِلصَّغِيِّ إِلَيْهِ أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ عطف على غروراً إن جُعِلَ علة، أو متعلق
بمحذوف أي وليكون ذلك جَعَلْنَا لكل نبيّ عدواً. والمعتزلة لما اضطروا فيه قالوا: اللام لام العاقبة،
أو لام القسم كُسِرَتْ لما لم يؤكد الفعل بالنون، أو لام الأمر وضعفه أظهر. والصغوى: الميل،
والضمير لما له الضمير في فعلوه^(١). ﴿وَلَيَرِضُوهُ﴾ لأنفسهم. ﴿وَلَيَقْتَرِفُوا﴾ وليكتسبوا. ﴿مَا هُمْ
مُقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

(١١٤) ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبِعِي حَكَمًا﴾ على إرادة القول أي: قل لهم يا محمد أغير الله أطلب من يحكم
بيننا وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل، وغير مفعول أتبعي، وحكماً حال منه ويحتمل عكسه.
وحكماً أبلغ من حاكم ولذلك لا يوصف به غير العادل. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن
المعجز. ﴿مُفَصَّلًا﴾ مبيناً فيه الحق والباطل بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن
بإعجازه وتقريره مغني عن سائر الآيات. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ تأييد لدلالة
الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله سبحانه وتعالى، يعلم أهل الكتاب به لتصديقه ما عندهم
مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ولم يخالط علماءهم، وإنما وَصَفَ جميعهم بالعلم لأن
أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنى تأمل. وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب. وقرأ
ابن عامر وحفص عن عاصم منزل بالتشديد. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في
أنه منزل لجحود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهيج كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) أو خطاب الرسول ﷺ لخطاب الأمة. وقيل الخطاب لكل أحد على معنى
أن الأدلة لما تعاضدت على صحته فلا ينبغي لأحد أن يمترى فيه.

(١١٥) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده^(٣). ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار
والمواعيد. ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأقضية والأحكام. ونصبهما يحتمل التمييز، والحال، والمفعول له. ﴿لَا
مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعاً ذائعاً
كما فعل بالتوراة على أن المراد بها القرآن، فيكون ضماناً لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ كقوله:
﴿وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾^(٤) أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها. وقرأ الكوفيون ويعقوب
كلمة ربك أي ما تكلم به أو القرآن. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون فلا يهملهم.

(١) وخص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة إشعاراً بأنه المدار في إصغاء أفئدتهم لما يلقي إليهم (س/٣/١٧٦).

(٢) الأنعام: (١٤).

(٣) أثبت البيضاوي الأصل بالجمع على قراءة من قرأ بها «تمت كلمات ربك».

(٤) يوسف: (١٢).

وَأَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ
 كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ
 إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٦) ﴿وَأَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أكثر الناس يريد الكفار، أو الجهال، أو اتباع الهوى .
 وقيل الأرض أرض مكة . ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الطريق الموصل إليه ، فإن الضال في غالب
 الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال . ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، أو
 جهالاتهم وآراؤهم الفاسدة فإن الظن يطلق على ما يقابل العلم . ﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون على الله
 سبحانه وتعالى فيما ينسبون إليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه وتحليل الميتة وتحريم
 البحائر ، أو يُقدِّرون أنهم على شيء وحقيقته ما يقال عن ظن وتخمين .

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي أعلم بالفريقين ، ومن موصولة
 أو موصوفة في محل نصب بفعل دل عليه أعلم لا به فإن أفعل لا يُنصب الظاهر في مثل ذلك ، أو
 استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبر يضل والجملة معلق عنها الفعل المقدر . وقرئ من يضل أي يضل
 الله ، فتكون من منصوبة بالفعل المقدر أو مجرورة بإضافة أعلم إليه أي : أعلم المضلين من قوله
 تعالى : ﴿وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ﴾^(١) أو من أضلته إذا وجدته ضالاً ، والتفضيل في العلم بكثرتة وإحاطته
 بالوجوه التي يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير .

(١١٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال
 ويحللون الحرام ، والمعنى كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتف
 أنفه . ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استحابة ما أحله الله سبحانه وتعالى واجتناب
 ما حرمه .

(١١٩) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي غرض لكم في أن تخرجوا عن أكله
 وما يمنعكم عنه . ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ﴾^(٢) . وقرأ
 ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر فُضِّلَ على البناء للمفعول ، ونافع ويعقوب وحفص حَرَّمَ على البناء
 للفاعل . ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة . ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ﴾
 بتحليل الحرام وتحريم الحلال . قرأ الكوفيون بضم الياء والباقون بالفتح . ﴿بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾
 بتشبههم من غير تعلق بدليل يفيد العلم . ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل
 والحلال إلى الحرام .

(١) النساء : «٨٨» .

(٢) المائدة : «٣» .

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ ما يعلن وما يُسر، أو ما بالجوارح وما بالقلب. وقيل الزنا في الحوانيت واتخاذ الأخدان. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر في تحريم متروك التسمية عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب داود^(١) وعن أحمد مثله، وقال مالك والشافعي بخلافه لقوله عليه الصلاة والسلام: «ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه»^(٢) وفرق أبو حنيفة رحمه الله بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر غير اسم الله عليه لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فإن الفسق ما أهل لغير الله به، والضمير لما ويجوز أن يكون للأكل الذي دل عليه لا تأكلوا. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون. ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من الكفار. ﴿لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ﴾ بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله، وهو يؤيد التأويل بالميتة. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرم. ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك، وإنما حُسن حذف الفاء فيه لأن الشرط بلفظ الماضي.

(١٢٢) ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مثل به مَنْ هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل. وقرأ نافع ويعقوب ميئاً على الأصل. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ صفته وهو مبتدأ خبره: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ حال من المستكن في الظرف لا من الهاء في مثله للفصل، وهو مثل لمن بقي على الضلالة لا يفارقها بحال. ﴿كَذَلِكَ﴾ كما زين للمؤمنين إيمانهم. ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والآية نزلت في حمزة وأبي جهل وقيل في عمر أو عمار وأبي جهل.

(١) داود: هو الإمام داود بن علي بن خلف الأصبهاني الأصل الكوفي المولد البغدادى الدار الشهير بدادود الظاهري، المكنى بأبي سليمان، ولد سنة ٢٠١ وتوفي سنة ٢٧٠هـ.

الجرخ والتعديل، القسم الثاني من المجلد الأول ص ٤١٠.

(٢) ● أخرج عبد بن حميد، عن راشد بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم حلال سمي أو لم يسم مالم يتعمد، والصيد كذلك» كما في «الدر المنثور» (٣/٣٤٩).

● وأخرج أبو داود في «المراسيل» (ص ٢٧٨ رقم ٣٧٨) عن الصلت، قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله».

والصلت: هو السدوسي، تابعي، لين الحديث، أرسل حديثاً. (التقريب: ١/٣٧٠).

● ويعضد هذا المرسل بما رواه الدارقطني [في السنن (٤/٢٩٥ رقم ٩٦)] عن ابن عباس قال «إذا ذبح المسلم، فلم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسماً من أسماء الله».

قلت: وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/١٧٤ - ١٧٨) مذاهب العلماء - وأدلتهم في المسألة، والذي يُرجح مذهب أبو حنيفة ومن معه من التفريق بين العمد والنسيان - والله أعلم -.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ أَفَلَمْ نَعْلَمْ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

(١٢٣) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أي كما جعلنا في مكة أكبر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ليمكروا فيها. وجعلنا بمعنى صيرنا، ومفعولاه أكبر مجرميها على تقديم المفعول الثاني، أو في كل قرية أكبر، ومجرميها بدل ويجوز أن يكون مضافاً إليه إن فُسر الجعل بالتمكين، وأفعل التفضيل إذا أضيف جاز فيه الأفراد والمطابقة ولذلك قرئ أكبر مجرميها، وتخصيص الأكبر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحق بهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ذلك.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ يعني كفار قريش لما روي أن أبا جهل قال زاحمتنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنسب والمال وإنما هي بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده فيجتي لرسالاته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم رسالته^(١). ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ﴾ ذل وحقارة بعد كبرهم^(٢). ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يوم القيامة، وقيل تقديره من عند الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم، أو جزاء على مكرهم.

(١٢٥) ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان. ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فيتسع له ويفسح فيه مجاله، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهية لحلولة فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار عليه أفضل الصلاة والسلام حين سئل عنه فقال: «نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» فقالوا: هل لذلك من أمارة يعرف بها؟ فقال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله»^(٣). ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالجمع (رسالاته).

(٢) ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن إصابة ما يصيبهم لإجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبايح (س/٣/١٨٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ١٠٦ رقم ٣١٥) وزكيع في «الزهد» (١/٢٣٨ رقم ١٥) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٢١/١٣ رقم ١٦١٦١) والطبري في «جامع البيان» (٥/٢٦٨ ج ٢٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص ١٥٦ بأسانيدهم عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبدالله بن مسور المدائني.

ضَعِيقًا حَرْجًا ﴿١٢٦﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان. وقرأ ابن كثير ضَيْقًا بالتخفيف، ونافع وأبو بكر عن عاصم حَرْجًا بالكسر أي شديد الضيق، والباقون بالفتح وصفاً بالمصدر. ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ شبهه مبالغة في ضيق صدره بمن يزاوُل ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثلاً فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود. وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً في الهرب منه. وأصل يَصَّعَّدُ يتصعد وقد قرئ به، وقرأ ابن كثير يَضَعُد، وأبو بكر عن عاصم يَصَّاعِد بمعنى يتصاعد. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق. ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمَر للتعليل.

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٧﴾ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشِرُ الْإِنِّ قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنِّ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنِّ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣٠﴾

(١٢٦) ﴿وَهَذَا﴾ إشارة إلى البيان الذي جاء به القرآن، أو إلى الإسلام، أو ما سبق من التوفيق والخذلان. ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الطريق الذي ارتضاه، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه، أو عادلاً مطرداً. وهو حال مؤكدة كقوله: «وهو الحق مصدقاً» أو مقيدة، والعامل فيها معنى الإشارة. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى وأن كل

= وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٥٤) إلى ابن المنذر، والفرابي وابن أبي حاتم وابن مردويه. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/٢٧٨) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص ١٥٦ وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٣/٣٥٥) عن أبي جعفر عبدالله بن مسور المدائني عن النبي ﷺ. وقال البيهقي: وهذا منقطع.

قلت: أبو جعفر هذا: عبدالله بن مسور بن عبدالله بن عون بن جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي، سكن المدائن، روى عن النبي ﷺ رسلاً، كان يضع الحديث ويكذب.

[التاريخ الكبير (٥/١٩٥) والجرح والتعديل (٥/١٦٩)].

وقد روى الحديث موصولاً عن ابن مسعود من طرق، انظر تخريجها في «الزهد» الوكي (١/٢٣٩ - ٢٤٠) وكذلك له شواهد، عن قتادة والحسن والفضيل. انظر تخريجها كذلك المرجع السابق (١/٢٤٠).

وقال الشيخ عبدالرحمن عبدالجبار الفريوائي في الختام «وهذه الطرق كلها معلولة بالإرسال والانقطاع، هذا وقد ذكر ابن كثير طرق عبدالرزاق، وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي جعفر، وطرق ابن مسعود، وقال: (فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة يشد بعضها بعضاً).

قلت: كذا قال، والراجع أن الحديث من طريق ابن مسعود وهم من الرواة، وطريق أبي جعفر عبدالله بن مسور ضعيف جداً لأجله، والطرق الأخرى كلها معلولة والله أعلم هـ.

فالخلاصة: أن الحديث ضعيف.

ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

(١٢٧) ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ دار الله؛ أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره، أو دار تحيتهم فيها سلام. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه، أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ مؤاليهم أو ناصرهم. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم.

(١٢٨) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نصب بإضمار اذكر أو نقول، والضمير لمن يُحْشَر من الثقلين. وقرأ حفص عن عاصم وروح عن يعقوب يحشرهم بالياء^(١). ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ﴾ يعني الشياطين. ﴿قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم، أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كقوله: استكثر الأمير من الجنود. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُم مِّنَ الْإِنْسِ﴾ الذين أطاعوهم. ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، والجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم. وقيل استمتع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاوز وعند المخاوف، واستمتعهم بالإنس اعترافهم بأنهم يقدرون على إجارتهم. ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا﴾ أي البعث، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان واتباع الهوى وتكذيب البعث وتحسر على حالهم. ﴿قَالَ أَنَارُ مَثْوَانِكُمْ﴾ منزلكم، أو ذات مثواكم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال، والعامل فيها مثواكم إن جعل مصدراً ومعنى الإضافة إن جعل مكاناً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من النار إلى الزمهرير، وقيل إلا ما شاء الله قبل الدخول كأنه قيل: النار مَثْوَاكُمْ أبداً إلا ما أمهلكم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم.

(١٢٩) ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ نكل بعضهم إلى بعض، أو نجعل بعضهم يتولى بعضاً فيغويهم، أو أولياء بعض وقرناءهم في العذاب كما كانوا في الدنيا. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

(١٣٠) ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ الرسل من الإنس خاصة، لكن لما جمِعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك ونظيره: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٢) والمرجان يخرج من الملح دون العذب، وتعلق بظاهره قوم وقالوا بُعث إلى كل من الثقلين رسل من جنسهم. وقيل الرسل من الجن رسل الرسل إليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ﴾^(٣). ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالنون على قراءة من قرأ بها، أي «نحشرهم».

(٢) الرحمن: «٢٢».

(٣) الأحقاف: «٢٩».

يَوْمَكُمْ هَذَا ﴿١٣٠﴾ يعني يوم القيامة. ﴿قَالُوا﴾ جواباً. ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ بالجرم والعصيان وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب. ﴿وَعَرَّزْنَاهُمْ لِحَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المُنْخَدِجَةَ^(١) وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بَظْلَمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَّبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِرِكُمْ إِنْ عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١٣١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إرسال الرسل، وهو خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك. ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بَظْلَمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ تعليل للحكم، وأن مصدرية أو مخففة من الثقلية أي: الأمر لانتفاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه أو ملتبسين بظلم أو ظالماً وهم غافلون لم يُنبِّهوا برسول، أو بدل من ذلك.

(١٣٢) ﴿وَلِكُلِّ﴾ من المكلفين. ﴿دَرَجَةٍ﴾ مراتب ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم أو من جزائها، أو من أجلها. ﴿وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب. وقرأ ابن عامر بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة.

(١٣٣) ﴿وَرَّبُّكَ الْغَفِيُّ﴾ عن العباد والعبادة. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتأسيس لما بعده وهو قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ما به إليكم حاجة ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها العصاة. ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق^(٢). ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن لكنه أنباكم ترحماً عليكم.

(١٣٤) ﴿إِنْ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله. ﴿لَآتٍ﴾ لكائن لا محالة^(٣). ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ طالبكم به.

(١٣٥) ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِرِكُمْ﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مَكَّنَ مكانة إذا تمكن

(١) المُنْخَدِجَةُ أي الناقصة.

(٢) قوله «ما يشاء» أثر «ما» على من لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء (س/٣/١٨٧).

(٣) إشاراً لكلمة «الآت» على واقع ونحوه لبيان كمال سرعة وقوعه (س/٣/١٨٨).

أبلغ التمكن، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم مَكَان ومكانة كمقام ومقامة. وقرأ أبو بكر عن عاصم مكاناتكم بالجمع في كل القرآن وهو أمر تهديد، والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة والثبات على الإسلام، والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عليه فيحمله بالأمر على ما يفضي به إليه، وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَابُ الدَّارِ﴾ إن جعل من استفهامية بمعنى أئنا تكون له عاقبة الدار الحسنى التي خلق الله لها هذه الدار فمحلها الرفع وفعل العلم معلق عنه، وإن جعلت خبرية فالنصب يتعلمون أي فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة الدار، وفيه مع الإنذار إنصاف في المقال وحسن الأدب وتنبية على وثوق المنذر بأنه مُحِقٌّ. وقرأ حمزة والكسائي يكون بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لَشُرْكَائِنَا فَمَا كَانُوا لِشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانُوا لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرْكَائُهُمْ لِيُزْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٦) ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي مشركو العرب. ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق. ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لَشُرْكَائِنَا فَمَا كَانُوا لِشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانُوا لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ روي: أنهم كانوا يُعَيِّنُونَ شيئاً من حرث ونتاج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين وشيئاً منهما لآلهتهم وينفقونه على سدنتها ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى بذلوه بما لآلهتهم وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حياً لآلهتهم. وفي قوله «مما ذرأ» تنبيه على فرط جهالتهم فإنهم أشركوا الخالق في خلقه جماداً لا يَقْدِر على شيء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وفي قوله «بزعمهم» تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله به. وقرأ الكسائي بالضم^(١) في الموضعين وهو لغة فيه، وقد جاء فيه الكسر أيضاً كالوَدِّ والوَدِّ. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا.

(١٣٧) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك للتزيين في قسمة القربان. ﴿زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ﴾ بالوَدِّ ونحرمهم لآلهتهم. ﴿شُرْكَائُهُمْ﴾ من الجن أو من السدنة، وهو فاعل زين. وقرأ ابن عامر زَيْن على البناء للمفعول الذي هو القتل. ونصب الأولاد وجزء الشركاء

بإضافة القتل إليه مفصلاً بينهما بمفعوله وهو ضعيف في العربية معدود من ضرورات الشعر^(١) كقوله:

فَرَزَجْتُهُمَا بِمَزَجَةٍ رَجَّ الْقُلُوصِ أَبِي مُزَادَهُ

وقرىء بالبناء للمفعول وجرّ أولادهم ورفع «شركاؤهم» بإضمار فعل دل عليه زين. ﴿لِيُرْذَوْهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء. ﴿وَلِيَكْسُوا عَلَيْهِمَ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به. واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين والعاقبة إن كان من السدنة. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم، أو الشركاء التزيين، أو الفريقان جميع ذلك. ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ افتراءهم أو ما يفترونه من الإلفك.

وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمُ وَأَنْعَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

(١٣٨) ﴿وَقَالُوا هَذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعل لآلهتهم. ﴿أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ﴾ حرام، فِعْلٌ بمعنى مفعول كالدُّنْحِ يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى. وقرىء حُجْر بالضم وجرج أي مضيق. ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون خدام الأوثان والرجال دون النساء. ﴿بِرَعْمِهِمْ﴾ من غير حجة. ﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعني البحائر والسوائب والحوامي. ﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح وإنما يذكرون أسماء الأصنام عليها، وقيل لا يحججون على ظهورها. ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ نصب على المصدر لأن ما قالوه تقول على الله سبحانه وتعالى؛ والجار متعلق بقالوا أو بمحذوف هو صفة له، أو على الحال، أو على المفعول له والجار متعلق به أو بالمحذوف. ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بسببه أو بدله.

(١٣٩) ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ﴾ يعنون أجنّة البحائر والسوائب. ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ حلال للذكور خاصة دون الإناث إن وُلد حياً لقوله: ﴿وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ فالذكور والإناث فيه سواء، وتأنث الخالصة للمعنى فإن ما في معنى الأجنة، ولذلك وافق عاصم في رواية أبي بكر بن عامر في تكن بالتاء، وخالفه هو وابن كثير في مِيتة فنصب كغيرهم، أو التاء فيه للمبالغة كما في رواية الشعر، أو هو مصدر كالعافية وقع موقع الخالص. وقرىء بالنصب على أنه مصدر مؤكّد والخبر لذكورنا، أو حال من الضمير الذي في الظرف لا من الذي في ذكورنا

(١) ما ذهب إليه البيضاوي من تضعيف قراءة ابن عامر - وهي قراءة متواترة - تبع فيه الزمخشري (الكشاف ٤٢/٢) وقد رد أبو حيان رداً عنيفاً على الزمخشري مبيناً صحة قراءة ابن عامر وفق العربية الصحيحة، فقال: (وأعجب لمعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم...) البحر المحيط ٢٣٠/٤.

ولا من الذكور لأنها لا تتقدم على العامل المعنوي ولا على صاحبها المجرور. وقرئ خالص بالرفع والنصب وخالصة بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان والمراد به ما كان حياً، والتذكير في فيه لأن المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الذكر. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي جزاء وصفهم الكذب على الله سبحانه وتعالى في التحريم والتحليل من قوله: ﴿وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ﴾^(١) ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

(١٤٠) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي والفقر. وقرأ ابن كثير وابن عامر قتلوا بالتشديد بمعنى التكاثر. ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله سبحانه وتعالى رازق أولادهم لا هم، ويجوز نصبه على الحال أو المصدر. ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر ونحوها. ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ يحتمل الوجوه المذكورة في مثله^(٢). ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق والصواب.

(١٤١) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ﴾ من الكروم. ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات على ما يحملها. ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض. وقيل المعروشات ما غرسه الناس فعرشوه وغير معروشات ما نبت في البراري والجبال. ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ﴾ ثمره الذي يؤكل في الهيئة والكيفية، والضمير للزروع والباقي مقيس عليه، أو النخل والزروع داخل في حكمه لكونه معطوفاً عليه، أو للجميع على تقدير أكل ذلك أو كل واحد منهما، ومختلفاً حالاً مقدرة لأنه لم يكن ذلك عند الإنشاء. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضها. ﴿كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من ثمر كل واحد من ذلك. ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم يَبْنَعْ بعد. وقيل فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى. ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يريد به ما كان يُتصدق به يوم الحصاد لا الزكاة المقدرة لأنها فُرِضت بالمدينة والآية مكية. وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتنقية. وقرأ ابن كثير ونافع وحزمة والكسائي حصاده بكسر الحاء وهو لغة فيه. ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في التصديق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يرتضي فعلهم.

(١) النحل: «٦٢».

(٢) إظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم (س/٣/١٩١).

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَيْفُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيَكُمُ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

(١٤٢) ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام ما يخمل الأثقال وما يُفرش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره. وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها. ﴿كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ كلوا مما أحل لكم منه. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

(١٤٣) ﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ﴾ بدل من حمولة وفرشاً، أو مفعول كلوا ولا تتبعوا معترض بينهما أو فعل دل عليه، أو حال من «ما» بمعنى مختلفة أو متعددة. والزواج ما معه آخر من جنسه يزاوجه، وقد يقال لمجموعهما، والمراد الأول. ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين الكبش والنعجة. وهو بدل من ثمانية. وقرئ اثنان على الابتداء. والضأن اسم جنس كالإبل وجمعه ضئنين، أو جمع ضائن كتاجر وتجر. وقرئ بفتح الهمزة وهو لغة فيه. ﴿وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالفتح^(١) وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس، وقرئ المعزى^(٢). ﴿قُلْ ءَلَذَّكَرَيْنِ﴾ ذكر الضأن وذكر المعز. ﴿حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أم أنثيهما ونصب الذكركين والاثنتين بحرماً ﴿أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿نَيْفُونِي يَعْلَمُ﴾ بامرٍ معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه.

(١٤٤) ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ كما سبق والمعنى إنكار أن الله حرم شيئاً من الأجناس الأربعة ذكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إناثها رداً عليهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة أخرى وأولادها كيف كانت تارة زاعمين أن الله حرمها. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ بل أكنتم شاهدين حاضرين. ﴿إِذْ وَصَّيَكُمُ اللَّهُ بِهِذَا﴾ حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم مالم يحرم، والمراد كبرائهم المقررون لذلك، أو عمرو بن لحي بن قمعة المؤسس لذلك. ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا

(١) أي بفتح العين في المعز، أي «المعز».

(٢) وقدم هذه الأصناف الأربعة مع تأخرها في الإجمال السابق «حمولة وفرشاً» لكون هذين النوعين عرضة للأكل الذي هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة، وهو السر في الاختصار على الأمر به في قوله تعالى: «كلوا مما رزقكم الله» من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب ونحوه (س/٣/١٩٣).

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٦﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٧﴾

(١٤٥) ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي في القرآن، أو فيما أوحى إليّ مطلقاً، وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يُعلم بالوحي لا بالهوى. ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعاماً محرماً. ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً. أن يكون الطعام ميتة. وقرأ ابن كثير وحمة تكون - بالناء - لتأنيث الخبر، وقرأ ابن عامر بالياء ورفع الميتة على أن «كان» هي التامة. وقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ عطف على أن مع ما في حيزه أي إلا وجود ميتة أو دمًا مسفوحاً أي مصبوحاً كالدم في العروق لا كالكدب والطحال. ﴿أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ فإن الخنزير أو لحمه قدر لتعوده أكل النجاسة أو خبيث مخبث ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض للتعليل. ﴿أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ صفة له موضحة، وإنما سمي ما ذبح على اسم الصنم فسقاً لتوغله في الفسق، ويجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له من أهْل وهو عطف على يكون، والمستكن فيه راجع إلى ما رجع إليه المستكن في يكون. ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فمن دعت الضرورة. ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ. والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحى إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، وذلك لا ينافي ورود التحريم في شيء آخر، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء غيرها إلا مع الاستصحاب.

(١٤٦) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ كل ماله أصبع كالإبل والسباع والطيور. وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفراً مجازاً، ولعل المسبب عن الظلم تعميم التحريم. ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الثروب وشحوم الكلى، والإضافة لزيادة الربط. ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلا ما علقت بظهورهما. ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء، جمع حاوية أو حاويات كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن. وقيل هو عطف على شحومهما، وأو بمعنى الواو. ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ هو شحم الإلية لاتصالها بالمُصْعَص. ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم، أو الجزاء. ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في الإخبار، أو الوعد والوعد.

(١) قوله «بغير علم» وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى إيداناً بخروجهم في الظلم عن الحدود والنهايات، فإن من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه إذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه؟ (س/٣/١٩٤).

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

(١٤٧) ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يُهمل. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقام مقامه «ولا يرد بأسه» لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على تأنه لا زب بهم لا يمكن رده عنهم.

(١٤٨) ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إخبار عن مستقبل، ووقوع مخبره يدل على إعجازه. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء كقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١) كما فعلنا نحن ولا آبائنا، أرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله لا الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله إياها منهم حتى ينهض ذمهم به دليلاً للمعتزلة، ويؤيده ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا التكذيب لك في أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذب الذين من قبلهم الرسل، وعطف «آبائنا» على الضمير في «أشركنا» من غير تأكيد للفصل بـ «لَا». ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فتظهره لنا. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ ما تتبعون في ذلك إلا الظن. ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على الله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن سيما في الأصول، ولعل ذلك حيث يعارضه قاطع إذ الآية فيه.

(١٤٩) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه، وهي من الحجج بمعنى القصد كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه. ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها، ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين.

(١٥٠) ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ﴾ أحضروهم، وهو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز، وفعل يؤنث ويجمع عند بني تميم، وأصله عند البصريين: هألَمٌ مِنْ لَمْ إذا قصد حُذِفَتِ الألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل، وعند الكوفيين هل أم فحذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام، وهو بعيد لأن «هل» لا تدخل الأمر ويكون متعدياً كما في الآية ولازماً كقوله هلم إلينا. ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ يعني قدوتهم فيه، استحضرهم ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم كمن

يقلدهم، ولذلك قَيَّدَ الشهداء بالإضافة ووصفهم بما يقتضي العهد بهم. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تصدقهم فيه وبَيَّنَ لهم فسادهم، فإن تسليمه موافقة لهم في الشهادة الباطلة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ مِنْ وَضَعِ المظهر موضع المضمَر للدلالة على أن مكذِب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصداقاً بها. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كَعَبْدَةِ الأوثان. ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ الْيَمِينَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢)

(١٥١) ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أمرٌ من التعالي، وأصله أن يقوله مَنْ كان في علوٍّ لمن كان في سفلى فأتسع فيه بالتعميم. ﴿أَنِ اتْلُ﴾ أقرأ. ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ منصوب بآتل و«ما» تحتل الخبرية والمصدرية، ويجوز أن تكون استفهامية منصوبة بحرم، والجملة مفعول آتل لأنه بمعنى أقل، فكانه قيل آتل أي شيء حرم ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بحرم أو آتل^(١). ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ أي لا تشركوا به ليصح عطف الأمر عليه، ولا يمنعه تعليق الفعل المفسر بما حرم؛ فإن التحريم باعتبار الأوامر يرجع إلى أضدادها وَمَنْ جعل أن ناصبة فمحلها النصبُ بعلينكم - على أنه للإغراء - أو بالبدل من «ما» أو من عائد المحذوف - على أن لا زائدة - والجرُّ بتقدير اللام، أو الرفع على تقدير المتلو أن لا تشركوا أو المحرم أن تشركوا. ﴿شَيْئًا﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأحسنوا بهما إحساناً، ووضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ من أجل فقر ومن خشية كقوله: ﴿خَشِيَ إِمْلَاقًا﴾^(٢) ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ منع لموجبة ما كانوا يفعلون لأجله واحتجاج عليه. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ كبائر الذنوب أو الزنا. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل منه، وهو مثل قوله «ظاهر الإثم وباطنه». ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقود وقتل المرتد ورجم المحصن. ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر مفصلاً. ﴿وَصَّيْتُكُمْ بِهِ﴾ بحفظه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ترشدون فإن كمال العقل هو الرشد.

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالفعل التي هي أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتسميره. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى يصير بالغاً، وهو جمع شدة كنعمة وأنعم أو شدٌ كصبرٌ وأصر، وقيل

(١) والتعرض لعنوان الربوبية «ربكم» مع الإضافة إلى ضميرهم للاعتناء بإيجاب الانتهاء (س ٣/ ١٩٨).

(٢) الإسراء: «٣١».

مفرد كائنك. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والتسوية. ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكره عقيب الأمر معناه أن إيفاء الحق عسير عليكم فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فِي حُكُومَةٍ وَنَحْوِهَا. ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع. ﴿ذَلِكَمُ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون به. وقرأ حمزة وحفص والكسائي تذكرون بتخفيف الذال حيث وقع إذا كان بالتاء، والباقون بتشديدها.

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة. وقرأ حمزة والكسائي إن بالكسر على الاستئناف، وابن عامر ويعقوب بالفتح والتخفيف، وقرأ الباقون بها مشددة بتقدير اللام على أنه علة لقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ وقرأ ابن عامر صراطي بفتح الياء، وقرئ وهذا صراطي، وهذا صراط ربكم، وهذا صراط ربك. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ فتفرقكم وتزيلكم. ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان. ﴿ذَلِكَمُ﴾ الاتباع. ﴿وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والتفرق عن الحق.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ عطف على وصاكم، وثم للتراخي في الإخبار أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب. ﴿تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على كل من أحسن القيام به، ويؤيده أن قرئ على الذين أحسنوا أو على الذي أحسن تبليغه وهو موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، أو تماماً على ما أحسنه أي أجاده من العلم والتشريع أي زيادة على علمه إتماماً له. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي على الذي هو أحسن أو على الوجه الذي هو أحسن ما يكون عليه الكتاب. ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين، وهو عطف على تمام، ونصبهما يحتمل العلة والحال والمصدر. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل. ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بلاقائه للجزاء.

(١٥٥) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع. ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بواسطة أتباعه، وهو العمل بما فيه.

(١٥٦) ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا، علة لأنزلناه. ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى، ولعل الاختصاص في «إنما» لأن الباقي المشهور حينئذ من الكتب السماوية لم يكن غير

كتبهم. ﴿وَإِنْ كُنَّا﴾ إِنَّ هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَلِذَلِكَ دَخَلْتَ اللَّامَ الْفَارِقَةَ فِي خَبَرِ كَانَ، أَيْ وَإِنَّ كُنَّا. ﴿عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ قَرَأَتِهِمْ. ﴿لَقَفْلِيلٌ﴾ لَا نَدْرِي مَا هِيَ، أَوْ لَا نَعْرِفُ مِثْلَهَا.

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انْظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ عطف على الأول. ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لَحْدَةً أَذْهَانًا وَتَقَابَةً أَفْهَامًا وَلِذَلِكَ تَلَقَّفْنَا فَنَوْنًا مِنَ الْعِلْمِ كَالْقَصَصِ وَالْأَشْعَارِ وَالْخُطْبِ عَلَى أَنَا أَمِيون. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حجة واضحة تعرفونها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لِمَنْ تَأَمَّلَ فِيهِ وَعَمِلَ بِهِ ^(١). ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعد أن عرف صحتها، أو تمكن من معرفتها. ﴿وَصَدَفَ﴾ أَعْرَضَ أَوْ صَدَّ. ﴿عَنْهَا﴾ فَضَّلَ أَوْ أَضَلَّ. ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ شِدَّتِهِ. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ بِأَعْرَاضِهِمْ أَوْ صَدَمِهِمْ.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أَيْ مَا يَنْتَظِرُونَ، يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ وَهُمْ مَا كَانُوا مُنْتَظِرِينَ لِذَلِكَ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ يَلْحَقُهُمْ لِحُوقِ الْمُنْتَظَرِ شَبِهُوا بِالْمُنْتَظَرِينَ. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ أَوِ الْعَذَابِ. وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِي بِالْيَاءِ هُنَا وَفِي النَّحْلِ ^(٢). ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أَيْ أَمْرُهُ بِالْعَذَابِ، أَوْ كُلُّ آيَةٍ يَعْنِي آيَاتِ الْقِيَامَةِ وَالْهَلَاكِ الْكُلِّي لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي أَشْرَاطُ السَّاعَةِ ^(٣) وَعَنْ حَزِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَالْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: كُنَّا نَتَذَكَّرُ السَّاعَةَ إِذْ أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا تَذَاكُرُونَ؟ قُلْنَا: نَتَذَكَّرُ السَّاعَةَ، قَالَ: «إِنَّمَا لَا تَقُومُ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ: الدُّخَانُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ، وَخُسْفَاءٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخُسْفَاءٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخُسْفَاءٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالْدِّجَالُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَنُزُولُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنَارًا تَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ» ^(٤). ﴿يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾

(١) عبر عن القرآن الكريم بالبيئة إيذاناً بكمال تمكنهم من دراسته، ثم عبر عنه بالهدى والرحمة تنبيهاً على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة (س/٣/٢٠٢).

(٢) النحل: «٣٣».

(٣) والتعبير عنها بالبعض للتحويل والتفخيم، كما أن إضافة الآيات في الموضعين إلى اسم الرب المنيء عن المالكية الكلية لذلك وإضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف (س/٣/٢٠٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٢٥ - ٢٢٢٦ رقم ٢٩٠١/٣٩).

من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري.

وهو من الأحاديث التي تتبعها الدارقطني في «التبج» (ص ٢٥٨ رقم ٥٤) وقد قال «وهذا لم يرفعه غير فرات عن أبي الطفيل من وجه يصح مثله. ورواه عبدالعزيز بن رفيع وعبد الملك بن ميسرة عن أبي الطفيل موقوفاً...» =

كالمحتضر إذ صار الأمر عياناً والإيمان برهاني. وقرىء تنفع بالتاء لإضافة الإيمان إلى ضمير المؤنث. ﴿لَرَتَكُنَّ ءَامَنَاتٍ مِّن قَبْلُ﴾ صفة نفساً. ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ عطف على آمنت والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها أو مقدّمة إيمانها غير كاسبة في إيمانها خيراً، وهو دليل لمن لم يعتبر الإيمان المجرد عن العمل، وللمعتبر تخصيص هذا الحكم بذلك اليوم، وحمل التردد على اشتراط النفع بأحد الأمرين على معنى لا ينفع نفساً خلت عنها إيمانها، والعطف على لم تكن بمعنى لا ينفع نفساً إيمانها الذي أحدثته حينئذ وإن كسبت فيه خيراً. ﴿قُلْ أَنْظَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ وعيد لهم، أي: انتظروا إتيان أحد الثلاثة فإننا منتظرون له وحينئذ لنا الفوز وعليكم الويل.

(١٥٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو افترقوا فيه قال عليه الصلاة والسلام: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة»^(١). وقرأ حمزة والكسائي فارقوا أي باينوا. ﴿وَكَاثُوا شَيْعًا﴾ فرقاً تشيع كل فرقة إماماً.

١ـهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (٢٧/١٨) بعد كلام الدارقطني «وقد ذكر مسلم رواية ابن ربيع موقوفة كما قال، ولا يقدر هذا في الحديث فإن عبدالعزيز بن ربيع ثقة حافظ متفق على توثيقه فزيادته مقبولة» ١ـهـ. وتعقبه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في «التبج» ص ٢٦٠: «كذا قال النووي والصواب فإن فرائاً القزاز فهو راوي الرفع لابن ربيع.

وأقول: عبدالعزيز بن ربيع وفرائ القزاز كلاهما ثقة كما في التقريب، فيحمل على أن أبا الطفيل كان يحدث به على الوجهين وكلا الوجهين صحيح والله أعلم» هـ. والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) ● أخرج أبو داود (٤/٥ رقم ٤٥٩٦) والترمذي (٥/٢٥ رقم ٢٦٤٠).

وابن ماجه (١٣٢١/٢ - ١٣٢٢ رقم ٣٩٩١) وأحمد في المسند (٣٣٢/٢) والحاكم (١٢٨/١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وتعقبهما الألباني في «الصحيحة» (٣٥٦/١) بقوله «وفيه نظر فإن محمد بن عمرو، فيه كلام ولذلك لم يحتج به مسلم، وإنما روى له متابعة وهو حسن الحديث...» هـ.

● أخرج أبو داود (٥/٥ رقم ٤٥٩٧) والدارمي (٢/٢٤١) والحاكم (١٢٨/١) وأحمد (١٠٢/٤) عن معاوية بن أبي سفيان، أنه قام فينا، فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألاً إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفرق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

وزاد ابن يحيى وعمرو في حديثيهما «وإنه سيخرج من أمتي أقوام تُجَارَى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه» وقال عمرو «الكلب بصاحبه» لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله».

وقال الحاكم وقد ساقه عقب حديث أبي هريرة المتقدم «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث» ووافقه الذهبي.

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي من السؤال عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، أو أنت بريء منهم. وقيل هو نهى عن التعرض لهم، وهو منسوخ بآية السيف. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يتولى جزاءهم. ﴿ثُمَّ يُنْزِلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بالعقاب^(١).

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

(١٦٠) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله. وقرأ يعقوب عشرة بالتونين وأمثالها بالرفع على الوصف. وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر الكثرة دون العدد. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ قضية للعدل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

(١٦١) ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج. ﴿دِينًا﴾ بدل من محل إلى صراط؛ إذ المعنى هداني صراطاً كقوله: ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٢)، أو مفعول فعل مضمر دل عليه الملفوظ. ﴿قِيمًا﴾ فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة والمستقيم باعتبار الصيغة. وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي قِيمًا على أنه مصدر نُعت به وكان قياسه قِوَمًا كِعَوْضٍ فَأَعْلَ لإعلال فعله كالقيام. ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان لديناً. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف عليه.

(١٦٢) (١٦٣) ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ عبادتي كلها، أو قرباني، أو حجي. ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة، أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى

= وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٦٣ رقم ١٧): وإسناده حسن والخلاصة أن الحديث صحيح.

● وأخرج الترمذي (٢٦/٥ رقم ٢٦٤١) والحاكم (١٢٨/١).

عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: لِيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أُنِيَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذَوِ النُّعْلِ بِالنُّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أُنِيَ أُمُّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَإِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفَرَّقَ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي.

قال الترمذي: هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه.

قلت: في إسناده «عبدالرحمن الأفرقي» وهو ضعيف، لكن هذه الزيادة صحيحة انظر «الصحيحة» للالباني (٣٥٦/١ رقم ٢٠٣) و(٣٥٨/١ رقم ٢٠٤).

(١) عبر عن إظهاره بالتنبيه لما بينهما من الملازمة في أنهما سببان للعلم تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبهوا غافلين عن سوء عاقبته (س ٢٠٦/٣).

(٢) الفتح: «٢».

الممات كالوصية والتدبير، أو الحياة والممات أنفسهما. وقرأ نافع محياني بإسكان الياء إجراء للوصل مجرى الوقف. ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له ﴿خَالِصَةً لَهُ لَا أَشْرَكَ فِيهَا غَيْرًا﴾. ﴿وَبِذَلِكَ﴾ القول أو الإخلاص. ﴿أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأَزْرُهُ وَزِدْ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

(١٦٤) ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا﴾ فأشركه في عبادتي، وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ حال في موضع العلة للإنكار والدليل له، أي وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية. ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلا ينفعني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك. ﴿وَلَا نُزِرْ وَأَزْرُهُ وَزِدْ أُخْرَى﴾ جواب عن قولهم: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة. ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ بتبيين الرشد من الغي وتمييز المحق من المبطل.

(١٦٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السالفة على أن الخطاب للمؤمنين. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الشرف والغنى ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الجاه والمال ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت قريب، أو لأنه يسرع إذا أراده. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وصَفَ العقاب ولم يُضِفْهُ إلى نفسه وَوَصَفَ ذاته بالمغفرة وضمَّ إليه الوصف بالرحمة وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض كثير الرحمة مبالغ فيها كثير العقوبة مسامح فيها. عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد»^(١)، «فمن قرأ

(١) ● أخرجه الطبراني في الصغير (٨١/١) وأبو نعيم في الحلية (٤٤/٣) وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٢٤٣/٣) من حديث ابن عمر.

قال الطبراني: لم يروه عن ابن عون إلا يوسف بن عطية تفرد به إسماعيل بن عمرو.
وقال أبو نعيم: غريب من حديث ابن عون لم نكتبه إلا من حديث إسماعيل بن يوسف.
وقال الحافظ في التقریب (٣٨١/٢): يوسف بن عطية: متروك.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢١٥/١٢) رقم (١٢٩٣٠) عن ابن عباس وفيه علي بن زيد وفيه كلام وبقية رجاله رجال صحيح.

● وأخرجه الطبراني - كما في «المجمع» (٢٠/٧) - من حديث أنس بلفظ «ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين» وقال الهيثمي «رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبدالله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي. ولم أعرفها وبقية رجاله ثقات».

● وأخرجه الحاكم (٣١٥/٢) عن جابر، بلفظ «لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. فإن إسماعيل هذا هو السدي ولم يخرج البخاري ورد الذهبي عليه بقوله «لا والله لم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعاً» =

الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف مَلَك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة»^(١).



= قلت: وانظر «الدر المنثور» (٢٤٣/٣ - ٢٤٤) فقد ساق روايات عن علي وأبي جُحيفة وابن مسعود بدون أصانيد.
(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٦٣ رقم ١٨): «سبقت طرقة في سورة آل عمران. وله طريق أخرى أخرجهما الثعلبي من حديث أبي بن كعب بتمامه وفيه: عصمة. وهو متهم بالكذب». قلت: أبو عصمة: هو نوح بن أبي مريم المروزي يعرف بالجامع، قال الحافظ كذبوه في الحديث. وقال ابن المبارك: كان يضع الحديث.
انظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٤٨٤/٨) والضعفاء للعقيلي (٣٠٤/٤) والمجروحين (٤٨/٣)، والتقريب (٣٠٩/٢).

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ۝ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝
 اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝
 أَهْلَكْتُمَا فَعَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ
 قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَلَنَسْتَلِ الْذِّبِ أَنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِ الْمُرْسَلِينَ ۝

سورة الأعراف مكية غير ثمان آيات من قوله: ﴿وَسَلَّيْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾^(١)
 محكمة كلها.

وقيل: إلا قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) وآيها مائتان وخمس أو ست آيات.

(١) ﴿الْمَصِّ﴾ سبق الكلام في مثله^(٣).

(٢) ﴿كَتَبُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو كتاب، أو خبر المص، والمراد به السورة أو القرآن.
 ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ صفته^(٤). ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي شك، فإن الشك حرج الصدر أو ضيق قلب
 من تبليغه مخافة أن تكذب فيه أو تقصر في القيام بحقه، وتوجيه النهي فيه للمبالغة كقولهم: لا أرى
 ههنا. والفاء تحتمل العطف والجواب فكأنه قيل: إذا أنزل إليك لتنذر به فلا يحرج صدرك. ﴿لِتُنذِرَ
 بِهِ﴾ متعلق بأنزل أو بلا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخفهم أو
 علم أنه موفق للقيام بتبليغه. ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل النصب بإضمار فعلها أي لتنذر وتذكر ذكرى
 فلأنها بمعنى التذكير، والجر عطفاً على محل تنذر، والرفع عطفاً على كتاب أو خبراً

(١) من (١٦٣ - ١٧٠).

(٢) (١٩٩).

(٣) في أول سورة البقرة.

(٤) وبناء الفعل للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيضاحاً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه
 (س/٢٠٩).

لمحذوف^(١).

(٣) ﴿أَتَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعم القرآن والسنة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ^(٢) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ^(٢) ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يضلونكم من الجن والإنس. وقيل الضمير في من دونه لما أنزل، أي ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء. وقرء ولا تتبعوا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكر أقليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون حيث تنزكون دين الله وتتبعون غيره. وما مزيدة لتأكيد القلة، وإن جعلت مصدرية لم ينتصب قليلاً بتذكرون. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم تذكرون بحذف التاء، وابن عامر يتذكرون على أن الخطاب بعد مع النبي ﷺ^(٣).

(٤) ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ﴾ وكثيراً من القرى. ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان. ﴿فَجَاءَهَا﴾ فجاء أهلها. ﴿بِأَسْنَاءٍ﴾ عذابنا. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ باثنتين كقوم لوط، مصدر وقع موقع الحال. ﴿أَوْهُمْ قَاتِلُونَ﴾ عطف عليه أي: قاتلين نصف النهار كقوم شعيب، وإنما حذف واو الحال استثقلاً لاجتماع حرفي العطف، فإنها واو عطف استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير فإنه غير فصيح. وفي التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب، ولذلك خص الوقتين ولأنهما وقت دعة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع.

(٥) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم، أو ما كانوا يدعونه من دينهم. ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَاءٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسراً عليهم.

(٦) ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل. ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا به، والمراد من هذا السؤال توبيخ للكفرة وتقريرهم، والمعنى في قوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُؤْبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٤) سؤال استعلام. أو الأول في موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة.

فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَمٌ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾

(٧) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ﴾ على الرسل حين يقولون «لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب»، أو على الرسل والمرسل إليهم ما كانوا عليه. ﴿بَعْلَمٌ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم، أو بمعلومنا منهم. ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم فيخفى علينا شيء من أحوالهم.

(٨) ﴿وَالْوِزْنُ﴾ أي القضاء، أو وزن الأعمال وهو مقابلتها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف

(١) وتخصيص التذكير بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالكفرة. وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام (س/٣/٢١٠).

(٢) النجم: «٤».

(٣) وتخصيصهم بالذكر لمزيد تقييح حالهم بجمعهم بين المنكرين (س/٣/٢١١).

(٤) القصص: «٧٨».

الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم، ويؤيده ما روي: أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فيُنشَر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجلٌ مدُّ البصر، فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة^(١). وقيل توزن الأشخاص لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «إنه ليأتي العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»^(٢). ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الوزن. ﴿الْحَقُّ﴾ صفته، أو خبر محذوف ومعناه العدل السوي. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ حسناته، أو ما يوزن به حسناته فهو جمع موزون أو ميزان وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها، واقتراف ما عرضها للعذاب. ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فيكذبون بدل التصديق^(٣).

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مكناكم من سكنها وزرعها والتصرف فيها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ أسباباً تعيشون بها، جمع معيشة. وعن نافع أنه همزه تشبيهاً بما الباء فيه زائدة كصحائف^(٤). ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ فيما صنعت إليكم..

(١١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ^(٥) ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ثم صورناه، نزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره، أو ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه. ﴿ثُمَّ قُلْنَا

(١) أخرجه الترمذي (٢٤/٥ - ٢٥ رقم ٢٦٣٩) وابن ماجه (١٤٣٧/٢ رقم ٤٣٠٠) وابن حبان (ص ٦٢٥ رقم ٢٥٢٤) والحاكم (٦/١) من طرق عن عبدالله بن عمرو بن العاص. قال الترمذي: حسن غريب.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم فقد احتج مسلم بأبي عبد الرحمن الحجلي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وعامر بن يحيى مصري ثقة، والليث إمام، ويونس المؤدب ثقة متفق على إخراجه في الصحيحين.

قلت: - وكذلك رجال الترمذي وابن ماجه كلهم ثقات -.

وصحح الألباني الحديث. انظر «الصحيحة» (رقم: ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦/٨ رقم ٤٧٢٩) ومسلم (٢١٤٧/٤ رقم ٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا (س/٢١٤).

(٤) وتقديم اللام «لكم» على «فيها» لما أنه المنبئ عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارة إلى ذكره أهم (س/٢١٤).

(٥) وتصديرها والتي قبلها بالقسم وحرف التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونها (س/٢١٤).

لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴿١١﴾ وقيل ثم لتأخير الإخبار. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي أن تسجد، و«لا» صلة، مثلها في ثلثا يعلم مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه ومنبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود. وقيل الممنوع عن الشيء مضطر إلى خلافه فكأنه قيل: ما اضطررك إلى ألا تسجد^(١). ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور. ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواب من حيث المعنى، استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله كأنه قال: المانع أني خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به؟ فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً. ﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ تعليل لفضله عليه، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ﴾^(٢) أي بغير واسطة، وباعتبار الصورة كما نبه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٣) وباعتبار الغاية وهو ملائكة، ولذلك أمر الملائكة بسجوده لما بين لهم أنه أعلم منهم وأن له خواص ليست لغيره. والآية دليل الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة، ولعل إضافة خلق الإنسان إلى الطين والشیطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب.

(١٣) ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح. ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي، فإنها مكان الخاشع والمطيع. وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه. ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ممن أهانه الله لتكبره، قال عليه الصلاة والسلام «من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله»^(٤).

(١٤) ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم القيامة فلا تُثمتني، أو لا تعجل عقوبتي.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سأله ظاهراً، لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى: «إلى يوم الوقت المعلوم» وهو النفخة الأولى، أو وقت يعلم الله انتهاء أجله فيه، وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد وتعريضهم للثواب بمخالفته.

(١) ولعل الثاني هو الأولى، لأنه ورد «ما منعك أن تسجد». - ص (٧٥) - ورد «ما منعك ألا تسجد» ففي الأولى سأله عن المانع من سجوده لآدم، وفي الثانية سأله عن المانع من عدم سجوده له.

(٢) ص: (٧٥).

(٣) الحجر: (٢٩).

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/٢٧٥ رقم ٨١٣٩) عن عمر بن الخطاب موقوفاً بسند صحيح. وأخرجه البيهقي أيضاً (٦/٢٧٦ رقم ٨١٤٠) عن عمر بن الخطاب مرفوعاً. بسند صحيح أيضاً.

قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي﴾ أي بعد أن أمهلتني لاجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني بسبب إغوائك إياي بواسطتهم تسمية أو حملاً على الغي، أو تكليفاً بما غَوَيْت لأجله. والباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بأقعدن، فإن اللام تصد عنه، وقيل الباء للقسم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ ترصداً بهم كما يقعد القطاع للسابلة. ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طريق الإسلام، ونصبه على الظرف كقوله:

لَذَنْ يَهْزُ الْكَفَّ يَغِصْلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ الثَّغْلَبُ

وقيل تقديره على صراطك كقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن.

(١٧) ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي من جميع الجهات الأربع. مثل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع، ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وقيل لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من بين أيديهم من قبل الآخرة، ومن خلفهم من قبل الدنيا، وعن أيماهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يقال من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرّون على التحرز عنه، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرّون، وعن أيماهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم. وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما موجه إليهم، وإلى الآخرين بحرف المجاوزة فإن الآتي منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم، ونظيره قولهم جلست عن يمينه. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ مطيعين، وإنما قاله ظناً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ﴾^(١) لما رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً، وقيل سمعه من الملائكة.

(١٨) ﴿قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُورًا﴾ مذموماً من ذامه إذا ذمه. وقرئ مذموماً كمسؤول في مسؤول أو كمكول في مكيل، من ذامه يذيمه ذيماً. ﴿مَذْهُورًا﴾ مطروداً. ﴿لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم، وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط. وقرئ لَمَنْ بكسر اللام على أنه خبر لأملأن على معنى: لمن تبك هذا الوعيد، أو علة لاخرُج ولأملأن جواب قسم محذوف، ومعنى منكم منك ومنهم فغلب المخاطب.

وَبَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِيقٌ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِرُؤُوسِهِمَا فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَيْهَمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿وَبَنَادُمُ﴾ أي وقلنا يا آدم^(١). ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وقرئ هذا وهو الأصل لتصغيره على ذئاء، والهاء بدل من الياء^(٢). ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم، وتكونا يحتمل الجزم على العطف والنصب على الجواب.

(٢٠) ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي فعل الوسوسة لأجلهما، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهيمنة والخشخشة ومنه وسوس الحلبي. وقد سبق في سورة البقرة كيفية وسوسته. ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ ليظهر لهما، واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبر عنهما بالسوءة. وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع. ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا﴾ ما غطي عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو المضمومة همزة في المشهور كما قلبت في أوئصل تصغير واصل لأن الثانية مدة. وقرئ سواتهما بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو، وسواتهما بقلبها واواً وإدغام الواو الساكنة فيها. ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا﴾ إلا كراهة أن تكونا. ﴿مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة، واستدل به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً ما للملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقاً.

(٢١) ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِيقٌ النَّاصِحِينَ﴾ أي أقسم لهما على ذلك، وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة. وقيل أقسما له بالقبول. وقيل أقسما عليه بالله إنه لمن الناصحين فأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة.

(٢٢) ﴿فَذَلَّلَهُمَا﴾ فزلهما إلى الأكل من الشجرة، نبه به على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. ﴿بِرُؤُوسِهِمَا﴾ بما غرهما به من القسم فإنهما ظنا أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، أو ملتبسين بغرور. ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَيْهَمَا﴾ أي فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما. واختلف في أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما، وأن اللباس كان نوراً أو

(١) تصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلق المأمور به (س/٣/٢٢٠).

(٢) وتوجيه الخطاب لهما لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما في مباشرة المأمور به (س/٣/٢٢٠).

حلة أو ظفراً. ﴿وَطُفَافًا يَخْصِفَانِ﴾ أخذوا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة. ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ رَرٍ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ورق التين، وقرىء يُخْصِفَانِ من أخصف أي يخصفان أنفسهما ويخصفان من خصف ويخصفان وأصله يخصفان. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ عتاب على مخالفة النهي، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهَيْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنِيَّ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ النُّفُوسِ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة. ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر. وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قال ذلك على عادة المقربين في استعظام الصغير من السيئات واستحقار العظيم من الحسنات.

(٢٤) ﴿قَالَ أَهَيْطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو لهيما ولإبليس. كرر الأمر له تبعاً ليعلم أنهم قرناء أبداً وأخبر عما قال لهم متفرقاً. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال أي متعادين. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أي موضع استقرار. ﴿وَمَتْنَعٌ﴾ وتمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تقضى آجالكم.

(٢٥) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء. وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان ومنها تَخْرُجُونَ، وفي الزخرف كذلك تَخْرُجُونَ بفتح التاء وضم الراء.

(٢٦) ﴿يَبْنِيَّ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ أي خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾^(١) وقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾^(٢). ﴿يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. روي: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نظوف في ثياب عصينا الله فيها، فنزلت^(٣). ولعله ذكر قصة آدم مقدّمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. ﴿وَرِيشًا﴾

(١) الزمر: ٦٦.

(٢) الحديد: ٢٥.

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن جبير - كما في «الدر المنثور» (٤٣٩/٣).

وأصله في صحيح مسلم (٢٣٢٠/٤) رقم ٣٠٢٨/٢٥ من حديث ابن عباس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة. فتقول: من يُعيرني تطوفاً تُجعله على فرجها. وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كُله فمابدا منه فلا أجله

فنزلت هذه الآية «خذوا زينتكم عند كل مسجد» [الأعراف: ٣١].

ولباساً تتجملون به، والريش الجمال. وقيل مالا ومنه تريش الرجل إذا تمول. وقرىء رباشاً وهو جمع ريش كشعب وشعاب. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ خشية الله، وقيل الإيمان، وقيل السمات الحسن، وقيل لباس الحرب. ورفع بالابتداء وخبره: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أو خبر وذلك صفته كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ولباس التقوى بالنصب عطفاً على لباساً. ﴿ذَلِكَ﴾ أي إنزال اللباس. ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فيعرفون نعمته، أو يتعظون فيتورعون عن القبائح.

يَنْبِئُ ءَادَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَبْرِكُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿يَنْبِئُ ءَادَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ لا يمتحنكم بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم^(١). ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيم عن اتباعه والافتتان به. ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أخرج، وإسناد النزاع إليه للتسبب. ﴿إِنَّهُ يَبْرِكُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تعليل للنهي وتأكيد للتحذير من فتنه. وقبيله جنوده، ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سؤلوا لهم. والآية مقصود القصة وفذلكة الحكاية.

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين: تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه وتعالى، فأعرض عن الأول لظهور فساد رد الثاني بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، أو الحث على مكارم الخصال. ولا دلالة فيه على أن أقبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه أجلاً عقلي، فإن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آبائنا، فقيل ومن أين أخذ آبائكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى.

(٢٩) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وهو الوسط من كل أمر المتجاني عن طرفي الإفراط والتفريط. ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموا نحو

القبلة. ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقت سجود أو مكانه وهو الصلاة، أو في أي مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. ﴿وَأَذْعُوهُ﴾ وابدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي الطاعة فإن إليه مصيركم. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأكم ابتداء. ﴿تَعُودُونَ﴾ بإعادته فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة، وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها. وقيل كما بدأكم من التراب تعودون إليه. وقيل كما بدأكم حفاة عراة غرلاً تعودون. وقيل كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْنِي ۖ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَلَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

(٣٠) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفقهم للإيمان. ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ بمقتضى القضاء السابق. وانتصابه بفعل يفسره ما بعده أي وخذل فريقاً. ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لخذلانهم، أو تحقيق لضلالهم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ يدل على أن الكافر المخطيء والمعاند سواء في استحقاق الذم، وللغفار أن يحمله على المقصر في النظر.

(٣١) ﴿يَبْنِي ۖ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ ثيابكم لموازة عورتكم. ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لطواف أو صلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ما طاب لكم. روي: أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون به، فنزلت^(١). ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة^(٢). وقال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب في نصف آية فقال: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»^(٣). ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرتضي فعلهم.

(٣٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب وسائر ما يتجمل به. ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن كالدرع. ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المستلذات من

(١) ذكره البخاري في «معالم التنزيل» (٢٢٥/٣) بدون سند.

وذكره الواحدي في «الأسباب» ص ٢٢٦ من قول الكلبي في أهل الجاهلية...

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٠٥/٨) من حديث ابن عباس وعبدالله بن عمرو معاً وأخرجه النسائي (٧٩/٥) رقم ٢٥٥٩ وابن ماجه (١١٩٢/٢) رقم ٣٦٠٥.

وأحمد في المسند (١٨١/٢) والحاكم في المستدرک (١٣٥/٤) وعبد بن حميد في تفسيره كما في «الدر المنثور» (٤٤٣/٣) كلهم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٦٤ رقم ٢٥) لم أجدها إسناداً.

المآكل والمشارب. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة، لأن الاستفهام في من للإنكار. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالأصالة، والكفرة وإن شاركوهم فيها فتبّع. ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم، وانتصابها على الحال. وقرأ نافع بالرفع على أنها خبر بعد خبر. ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لهم.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْقَىٰ عَادَمٌ إِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَقٌّ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه، وقيل ما يتعلق بالفروج. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها. ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وما يوجب الإثم، تعميم بعد تخصيص. وقيل شرب الخمر. ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم أو الكبر، أفرد بالذكر للمبالغة. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكداً له معنى. ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ تهكم بالمشركين، وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته سبحانه وتعالى، والافتراء عليه كقولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة أو وقت نزول العذاب بهم، وهو وعيد لأهل مكة. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ انقضت مدتهم، أو حان وقتهم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت، أو لا يطلبون التأخر والتقدم لشدة الهول^(١).

(٣٥) ﴿يَبْقَىٰ عَادَمٌ إِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ شرط ذكره بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب كما ظنه أهل التعليم، وضمت إليها «ما» لتأكيد معنى الشرط ولذلك أكد فعلها بالنون، وجوابه: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والمعنى فمن اتقى التكذيب وأصلح عمله منكم والذين كذبوا بآياتنا منكم، وإدخال الفاء في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممن تقول على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله. ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ مما كتب لهم من الأرزاق والآجال. وقيل الكتاب اللوح

(١) صيغة الاستفعال «لا يستأخرون» للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له (س/٣/٢٢٥).

المحفوظ، أي مما أثبت لهم فيه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي يتوفون أرواحهم، وهو حال من الرسل، وحتى غايةً لنيلهم وهي التي يبتدأ بعدها الكلام. ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ وما وصلت بأين في خط المصحف وحققها الفصل لأنها موصولة. ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ غابوا عنا. ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولِيُّهُم لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ أي قال الله تعالى لهم يوم القيامة، أو أحد من الملائكة. ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي كائنين في جملة أمم مصابين لهم يوم القيامة. ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين. ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلق بادخلوا. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ أي في النار. ﴿لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالافتداء بها. ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار. ﴿قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ﴾ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع. ﴿لِأُولِهِم﴾ أي لأجل أولاهم إذ الخطاب مع الله لا معهم. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ سئوا لنا الضلال فافتدينا بهم. ﴿فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ مضاعفاً لأنهم ضلوا وأضلوا. ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم. ﴿وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكم أو ما لكل فريق. وقرأ عاصم بالياء على الانفصال.

(٣٩) ﴿وَقَالَتْ أُولِيُّهُم لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ عطفوا كلامهم على جواب الله سبحانه وتعالى لأخراهم ورتبوه عليه، أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من قول القادة، أو من قول الفريقين.

(٤٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي عن الإيمان بها. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لأدعيتهم وأعمالهم أو لأرواحهم، كما تفتح لأعمال المؤمنين وأرواحهم لتتصل بالملائكة. والتاء في تفتح لتأنيث الأبواب، والتشديد لكثرتها. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف، وحمزة والكسائي به وبالياء لأن التأنيث غير حقيقي والفعل مقدم، وقرئ على البناء للفاعل ونصب الأبواب بالتاء على أن الفعل للآيات، وبالياء لأن الفعل لله. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مثل في عظم الجزم وهو البعير فيما هو مثل في ضيق المسلك وهو ثقبه الإبرة، وذلك مما لا يكون فكذا ما يتوقف عليه. وقرئ الجمل كالفمل، والجمل كالغمر، والجمل كالقفل، والجمل كالنصب، والجمل كالجبيل وهو الجبل الغليظ من القنب، وقيل جبل السفينة. وسُمِّ بالضم والكسر وفي سم المخيط وهو والخياط ما يخاط به كالجزام والمحزم. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفطيع. ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ۖ فَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۚ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَكَّبُوا الْجَنَّةَ أَوْ رُشِّمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۖ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش. ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية، والتنوين فيه للبدل عن الإعلال عند سيبويه، وللصرف عند غيره. وقرئ غواشٍ على إلغاء المحذوف. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة، وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيهاً على أنه أعظم الإجماع.

(٤٢) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد، ولا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراض بين المبتدأ وخبره للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما تسعه طاقتهم ويسهل عليهم. وقرئ لا تكلف نفساً.

(٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ أي نخرج من قلوبهم أسباب الغل، أو نظهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التواد^(١). وعين علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم^(٢). ﴿فَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ لما جزأه هذا. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لولا هداية الله وتوفيقه، واللام لتوكيد النفي، وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله. وقرأ ابن عامر ما كنا بغير واو على أنها مبينة للأولى. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم. يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحاً بأن ما علموه يقيناً في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة. ﴿وَنُودُوا أَنْ تَتَكَّبُوا الْجَنَّةَ﴾ إذا رأوها من بعيد، أو بعد دخولها والمنادي له بالذات. ﴿أَوْ رُشِّمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أعطيتموها بسبب أعمالكم، وهو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة، أو خبر، والجنة صفة تلکم. وأن في المواقع الخمسة هي المخففة، أو المفسرة لأن المنادة والتأذين من القول.

(٤٤) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنما قالوه تبجحاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم، وإنما لم يقل ما وعدكم كما قال «ما وعدنا» لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصاً وعده بهم كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة. ﴿قَالُوا﴾

(١) صيغة الماضي «نزعنا» للإيذان بتحقيقه وتقرره (س/٣/٢٢٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/٨/١٨٣) عنه وهو منقطع.

وأخرجه ابن أبي شيبة في رواية ريعي عن علي وهو متصل. قاله الحافظ في «الكافي الشاف».

نَمَّ ﴿ وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَهَمَا لِفَتَانٍ. ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴿ قِيلَ هُوَ صَاحِبُ الصُّورِ. ﴿ يَبَيِّنُهُمُ ﴿ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ. ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي رِوَايَةِ اللَّيْزِيِّ وَابْنُ عَامِرٍ وَحُمَزَةُ وَالْكَسَائِيُّ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ بِالتَّشْدِيدِ وَالنَّصَبِ، وَقَرِئَ إِنَّ بِالْكَسْرِ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ أَوْ إِجْرَاءِ أَذْنٍ مَجْرَى قَالَ.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾ وَيَبَيِّنُهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ صفة للظالمين مقررة، أو ذم مرفوع أو منصوب. ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ زيفاً وميلاً عما هو عليه. والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم تكن منتصبه، وبالفتح ما كان في المنتصبه كالحائط والرمح. ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴾.

(٤٦) ﴿ وَيَبَيِّنُهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي بين الفريقين لقوله تعالى: ﴿ فَضَرِبَ بَيْنَهُمُ بَسُورٌ ﴾^(١) أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداها إلى الأخرى. ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ ﴾ وعلى أعراف الحجاب أي أعاليه، وهو السور المضروب بينهما، جمع عرف، مستعار من عرف الفرس. وقيل العرف ما ارتفع من الشيء فإنه يكون لظهوره أعرف من غيره. ﴿ رِجَالٌ ﴾ طائفة من الموحددين قصروا في العمل فيُحْبَسُونَ بين الجنة والنار حتى يقضي الله سبحانه وتعالى فيهم ما يشاء. وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو الشهداء رضي الله تعالى عنهم، أو خيار المؤمنين وعلمائهم، أو ملائكة يُزَوَّنُ في صورة الرجال. ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا ﴾ من أهل الجنة والنار. ﴿ بِسِيمَتِهِمْ ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله بها كبياض الوجه وسواده، فغلى من سام إليه إذا أرسلها في المرعى معلمة، أو من وسم على القلب كالجاء من الوجه، وإنما يعرفون ذلك بالإلهام أو تعليم الملائكة. ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أي إذا نظروا إليهم سلموا عليهم. ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ حال من الواو على الوجه الأول، ومن أصحاب على الوجوه الباقية.

(٤٧) ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا ﴾ نعوذ بالله^(٢). ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي في النار^(٣).

(٤٨) ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ ﴾ من رؤساء الكفرة. ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ كثرتمكم، أو جمعكم المال. ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الحق، أو على الخلق. وقريء تستكثرون من الكثرة.

(١) الحديد: «١٣».

(٢) والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثاني بخلافه (س/٣/٢٣٠).

(٣) وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حيثئذ من العذاب وسوء الحال - الذي هو الموجب للدعاء - إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفي العذاب فقط بل مع ما يوجهه ويؤدي إليه من الظلم (س/٣/٢٣٠).

أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾
وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا
إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ
الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا سَوَّاهُمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾
وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ
يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا
لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٩) ﴿أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ من تنمة قولهم للرجال، والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة. ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوا وهو أوفق للوجوه الأخيرة، أو فقل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى بعد أن خُبسوا حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا. وقيل لما عبروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله سبحانه وتعالى أو بعض الملائكة أهؤلاء الذين أقسمتم. وقرئ أَدْخُلُوا وَدَخَلُوا على الاستئناف، وتقديره دَخَلُوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم.

(٥٠) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أي صبوه، وهو دليل على أن الجنة فوق النار. ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة، أو من الطعام كقوله: علفتها تبنًا وماء باردًا. ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ منعها عنهم منع المحرّم من المكلف.

(٥١) ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كتحريم البحيرة والتصدية والمكاء حول البيت واللهو صرف الهمة بما لا يحسن أن يصرف به واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب بهز ﴿وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ﴾ نفعل بهم فعل الناسين فنتركهم في النار. ﴿كَمَا سَوَّاهُمْ هَذَا﴾ فلم يخطروه بباليهم ولم يستعدوا له. ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكما كانوا منكبين أنها من عند الله.

(٥٢) ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى عالم بعلم، أو مشتقاً على علم فيكون حالاً من المفعول. وقرئ فصلناه أي على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الهاء.

(٥٣) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلا ما يؤل إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ تركوه ترك الناسي. ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي قد تبين أنهم جاؤوا بالحق. ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ اليوم. ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد

إلى الدنيا. وقرىء بالنصب عطفًا على فيشفعوا، أو لأن أو بمعنى إلى أن، فعلى الأول المسؤول أحد الأمرين الشفاعة أو ردهم إلى الدنيا، وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد وهو الرد. ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جواب الاستفهام الثاني. وقرىء بالرفع أي فنحن نعمل. ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم في الكفر. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَأْكَائُهُمْ يَتَفَرَّتُونَ﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

(٥٤) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في ستة أوقات كقوله: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾^(١) أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليل للاختيار واعتباراً للنظائر وحثاً على الثاني في الأمور. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استوى أمره أو استولى، وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف، والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن. والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير المَلِكِ فإن الأمور والتدابير تنزل منه. وقيل المَلِكُ. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يغطيه به ولم يُذكر عكسه للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، ولذلك قرىء يغشي الليل النهارُ ورفع النهار. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بالتشديد فيه وفي الرعد^(٢)، للدلالة على التكرير. ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء. والحديثُ فعل من الحث، وهو صفة مصدر محذوف، أو حال من الفاعل بمعنى حاثاً أو المفعول بمعنى محثوثاً. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ بقضائه وتصريفه، ونصبها بالعطف على السموات ونصبُ مسخرات على الحال. وقرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف. ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية. وتحقيق الآية - والله سبحانه وتعالى أعلم - أنَّ الكفرة كانوا متخذين أرباباً فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٣) وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال وأشار إليه بقوله: «وخلق الأرض» أي ما في جهة السفلى في يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً وتصويرها ثانياً كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي

(١) الأنفال: ١٦.

(٢) الرعد: ٣.

(٣) فصلت: ١٢.

يَوْمَيْنِ ﴿١﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ (٢) أي مع اليومين الأولين لقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (٣) ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالمملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوين الليالي والأيام، ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤) ثم أمرهم بأن يدعوه متذللين مخلصين فقال:

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا فَقَالَا سُقْنَا لَكُمْ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ذوي تضرع وخفية فإن الإخفاء دليل الإخلاص. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، نبه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصعود إلى السماء. وقيل هو الصباح في الدعاء والإسهاب فيه. وعن النبي ﷺ، «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ «إنه لا يحب المعتدين» (٥)».

(٥٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بيعت الأنبياء وشرع الأحكام. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ذوي خوف من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم، وطمع في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع وتنبية على ما يتوسل به للإجابة، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم، أو لأنه صفة محذوف أي أمر قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، أو الذي هو مصدر كالنقيض، أو الفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره.

(٥٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي الريح على الوحدة. ﴿بُشْرًا﴾

(١) فصلت: «٩».

(٢) فصلت: «١٠».

(٣) السجدة: «٤».

(٤) الأعراف: «٥٤».

(٥) أخرجه أبو يعلى في المسند (٧١/٢) رقم ٧١٥/٢٧ وأحمد (١٧٢/١، ١٨٢٠) من طريق عبد الرحمن بن مهدي، وأبي النضر كلاهما عن شعبة بهذا الإسناد. وقد تصحّف فيه «ابن عبادية» إلى أبي عبادية.

وأخرجه أحمد (١٨٢/١) وأبو داود (١٦١/٤ - ١٦٢ رقم ١٤٨٠) من طريقين عن شعبة به، وفيه «ابن لسعد» بدل «مولى لسعد» وعند أحمد عن الاثنين معاً. وانظر تفسير ابن كثير (٢/٢٣١).

جمع نشور بمعنى ناشر، وقرأ ابن عامر نُشْرًا بالتخفيف حيث وقع، وحمزة والكسائي نُشْرًا بفتح النون حيث وقع على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان، وعاصم بُشْرًا وهو تخفيف بشر جمع بشير وقد قرىء به، وبُشْرًا بفتح الباء مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة، وبُشْرَى. ﴿بَيْتٌ يَدْعُو رَحْمَتَهُ﴾ قدام رحمته، يعني المطر فإن الصُّبَا تثير السحاب والشمال تجمععه والجنوب تدزه والدُّبُور تفرقه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ﴾ أي حملت، واشتقاقه من القلة فإن المقل للشيء يستقله. ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالهاء، جمعه لأن السحاب جمع بمعنى السحاب. ﴿سُقْنَتُهُ﴾ أي السحاب، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ. ﴿لِّلْكَرْمِ مَيْتٍ﴾ لأجله، أو لإحيائه، أو لسقيه. وقرىء ميت. ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح وكذلك. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ ويحتمل فيه عود الضمير إلى الماء، وإذا كان للبلد فالباء للإلصاق في الأول وللظرفية في الثاني، وإذا كان لغيره فهي للسببية فيهما. ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من كل أنواعها. ﴿كَذَٰلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت، أي كما نحياه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

(٥٨) ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الأرض الكريمة التربة. ﴿يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بمشيئته وتيسيره، عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغلزاره نفعه لأنه أوقعه في مقابلة: ﴿وَالَّذِي خَبثَ﴾ أي كالحره والسبخة. ﴿لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قليلاً عديم النفع، ونصبه على الحال وتقدير الكلام: والبلد الذي خبث لا يخرج نباته إلا نكداً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعاً مستتراً. وقرىء يُخْرِجُ أي يخرج به البلد، فيكون إلا نكداً مفعولاً ونكداً على المصدر أي ذا نكد ونكداً بالإسكان للتخفيف. ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نردها ونكرها. ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله فيتفكرون فيها ويعتبرون بها. والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها.

(٥٩) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ جواب قسم محذوف، ولا تكاد تطلق هذه اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع، فإن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها. ونوح بن لمك بن متوشلح بن إدريس أول نبي بعده، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين. ﴿فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ﴾ أي اعبدوه وحده^(١) لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ وقرأ الكسائي غيره بالكسر نعتاً أو بدلاً على اللفظ حيث وقع إذا

(١) وترك التقييد بـ(وحده) للإيذان بأنها العبادة حقيقة، وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة في شيء
(س ٢٣٥/٣).

كان قبل إله من التي تخفض، وقرىء بالنصب على الاستثناء. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن لم تؤمنوا، وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته. واليوم يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان^(١).

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

(٦٠) ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي الأشراف فإنهم يملؤون العيون رُواء. ﴿إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ زوال عن الحق. ﴿مُبِينٍ﴾ بين.

(٦١) ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي شيء من الضلال، بالغ في النفي كما بالغوا في الإثبات وعرض لهم به. ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استدراك باعتبار ما يلزمه، وهو كونه على هدى كأنه قال: ولكنني على هدى في الغاية لأنني رسول من الله سبحانه وتعالى.

(٦٢) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ صفات لرسول أو استئناف، ومساقها على الوجهين لبيان كونه رسولاً. وقرأ أبو عمرو أُبَلِّغُكُمْ بالتخفيف. وجمعُ الرسائل لاختلاف أوقاتها، أو لتنوع معانيها كالعقائد والمواظظ والأحكام، أو لأن المراد بها ما أوحى إليه وإلى الأنبياء قبله كصحف شيث وإدريس. وزيادة اللام في لكم للدلالة على إمحاض النصح لهم. وفي «أعلم من الله» تقرير لما أوعدهم به، فإن معناه أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها^(٢).

(٦٣) ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف أي أكذبتُم وعجبتُم. ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ من أن جاءكم. ﴿ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ رسالة أو موعظة. ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ على لسان رجل. ﴿مِنْكُمْ﴾ من جملتكم أو من جنسكم، فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(٣). ﴿يُنْذِرَكُمْ﴾ عاقبة الكفر والمعاصي. ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ منهما بسبب الإنذار. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالتقوى. وفائدة حرف الترجي: التنبيه على أن التقوى غير موجب، والترحم من الله سبحانه وتعالى تفضل، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله تعالى.

(٦٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وهم من آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل

(١) ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه وتكميل الإنذار (س/٣/٢٣٥).

(٢) في قوله «رسالات ربي» تخصيص لربوبيته تعالى به عليه السلام - بعد بيان عمومها للعالمين - للإشعار بعلّة الحكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم، فإن ربوبيته تعالى له عليه السلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته إليهم.

وقوله «وأنصح» بصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم (س/٣/٢٣٦).

(٣) المؤمنون: «٢٤».

تسعة بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به. ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ متعلق بجمعه أو بأنجيناها، أو حال من الموصول أو من الضمير في معه. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان^(١). ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عُمِيَ القلوب غير مستبصرين، وأصله عمين فخفف. وقرىء عامين والأول أبلغ لدلالته على الثبات.

﴿وَلِإِيَّاءِ إِخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٥) ﴿وَلِإِيَّاءِ إِخَاهُمْ﴾ عطف على نوحاً إلى قومه. ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لأخاهم والمراد به الواحد منهم، كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم، فإنه هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ابن عم أبي عاد، وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه. ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استأنف به ولم يعطف كأنه جواب سائل قال: فما قال لهم حين أرسل؟ وكذلك جوابهم. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وكان قومه كانوا أقرب من قوم نوح عليه الصلاة والسلام ولذلك قال «أفلا تتقون».

(٦٦) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد.

﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقت دين قومك. ﴿وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾.

(٦٧) ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(٦٨) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

(٦٩) ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ سبق تفسيره^(٢). وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراض عن مقابلتهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(٣)

(١) وتقديم ذكر إنجاء نوح عليه السلام على إغراقهم للمساواة إلى الإخبار به، والإيدان بسبق الرحمة - التي هي مقتضى الذات على الغضب - الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم (س/٣/٢٣٧).

(٢) قوله «وأنا لكم ناصح أمين» جيء بالجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار (س/٣/٢٣٨).

(٣) الآية: (٦٣).

تنبيه على أنهم عَرَفُوهُ بالأميرين. وقرأ أبو عمرو أُنْبِغُكُمْ في الموضعين في هذه السورة وفي الأحقاف^(١) مخففاً. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن مَلَكَ معمورة الأرض من رمل عالج إلى شجر عمان. خوفهم من عقاب الله ثم ذكّرهم بإنعامه. ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ قامة وقوة. ﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ تعميم بعد تخصيص. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعََكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجِيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والإعراض عما أشرك به آبائهم انهماكاً في التقليد وحباً لما أَلْفَوْهُ، ومعنى المجيء في أجئنا إما المجيء من مكان اعتزل به عن قومه أو من السماء على التهكم، أو القصد على المجاز كقولهم ذهب يسبي. ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله «أفلا تتقون» ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ فيه.

(٧١) ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ قد وجب وحق عليكم، أو نزل عليكم على أن المتوقع كالواقع. ﴿مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ﴿وَغَضَبٌ﴾ إرادة انتقام. ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ﴾ أي في أشياء سميتوها آلهة وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحققت كان استحقاقها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حجة، يبين أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمى، وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم، واستبدل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطاناً، وضعفهما ظاهر. ﴿فَأَنْظِرُوا﴾ لما وضح الحق وأنتم مصرون على العناد نزول العذاب بكم. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

(٧٢) ﴿فَأَنْجِيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ في الدين. ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ عليهم. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي استأصلناهم. ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان. روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وازدادوا عتواً فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان الناس حينئذ مسلمهم ومشرکهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عترة ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر، فلما

قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنّيهم الجرادتان قَيْتَانِ له، فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحيا أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم فعلم القيتين:

أَلَا يَأْقِيلُ وَيَحْكُ قُمْ فَهَنِيْمٌ لَعَلَّ اللَّهَ يُسْقِيَنَا الْغَمَامَا
فَيُسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادَا قَدْ اْمْسُوا مَا يُبَيِّنُونَ الْكَلَامَا

حتى غنتا به، فأزعجهم ذلك فقال مرثد: والله لا تُسْقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سبحانه وتعالى سقيتم، فقالوا لمعاوية: احبسه عنا لا يقدم معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال قيل: اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحبات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء يا قيل: اختر لنفسك ولقومك. فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من وادي المغيث فاستبشروا بها وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فاتوا مكة وعبدوا الله سبحانه وتعالى فيها حتى ماتوا^(١).

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَازِرٌ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابُ آلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ
سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

(٧٣) ﴿وَالِى ثَمُودَ﴾ قبيلة أخرى من العرب سموها باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل سموها به لقلّة مائهم من الثمد وهو الماء القليل. وقرىء مصروفاً بتأويل الحي أو باعتبار الأصل. وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. ﴿قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَازِرٌ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، وقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ استئناف لبيانها، و«آية» نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة، و«لكم» بيان لمن هي له آية، ويجوز أن تكون ناقة الله بدلاً أو عطف بيان ولكم خبراً عاملاً في آية، وإضافة الناقة إلى الله لتعظيمها ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسباب معهودة ولذلك كانت آية. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ العشب. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في الأمر وإزاحة للعدر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آلِيمٍ﴾ جواب للنهي.

(١) أورد هذه القصة ابن كثير عن محمد بن إسحاق، وقال: وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة... وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله (تفسير ابن كثير ٢/٢١٦).

(٧٤) ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض الحجر. ﴿تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبنون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللبن والآجر. ﴿وَنُحِثُّونَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وقرىء تَنَحُّونَ بالفتح وَتُنَحَّاتُونَ بالإشباع، وانتصاب بيوتاً على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتاً من الجبال، أو تنحون بمعنى تتخذون ﴿فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَالِحُ أَثْنَا بَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾

(٧٥) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي عن الإيمان. ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ أي للذين استضعفهم واستذلوهم. ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا بدل الكل إن كان الضمير لقومه وبدل البعض إن كان للذين. وقرأ ابن عامر وقال الملا بالواو. ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قالوه على الاستهزاء. ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نعم تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر فلذلك قال:

(٧٦) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ على وجه المقابلة^(١)، ووضعوا آمتم به موضع أرسل به رداً لما جعلوه معلوماً مُسَلِّماً.

(٧٧) ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فنحروها. أُسْنِدَ إلى جميعهم فَعَلُ بعضهم للملاسة، أو لأنه كان برضاهم. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ واستكبروا عن امتثاله، وهو ما بلغهم صالح عليه الصلاة والسلام بقوله: فذروها. ﴿وَقَالُوا يُصَالِحُ أَثْنَا بَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

(٧٨) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ خامدين ميتين. روي: أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا، وعمروا أعماراً طويلاً لا تنفي بها الأبنية، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في خصب وسعة فتعوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً من أشرافهم فأنذرهم، فسألوه آية فقال: آية آية تريدون؟ قالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وتدعو آلِهتنا فمن استجيب له أثبع، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها الكائبة وقال: له أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة

(١) أعيد الموصول مع صلته «الذين استكبروا» مع كفاية الضمير إيذاناً بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار (س/٣/٢٤٣).

جوفاء وَبَرَاءَ إِن فعلت صدقتك، فأخذ عليهم صالح موافقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن؟ فقالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض التَّوَجُّج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وَبَرَاءَ كما وَصَفُوا وهم ينظرون، ثم نَتَجَت ولداً مثلها في العظم فأمن به جندع في جماعة، وَمَنَعَ الباقيين من الإيمان ذَوَابُّ بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صغر كاهنهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وَتَرِد الماء غَبّاً^(١) فما ترفع رأسها من البثر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيههم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، فرقى سَقَبُهَا^(٢) جبلاً اسمه قارة فَرَعَاً ثلاثاً فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يُرْفَعَ عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه إذ انفجرت الصخرة بعد رُغائه فدخلها فقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة، ثم يصبِّحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفونوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا^(٣).

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾

(٧٩) ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ ظاهره أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر^(٤) وقال «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»^(٥). أو ذُكِرَ

(١) غَبّاً أي يوماً بعد يوم.

(٢) سَقَبُهَا أي فصيلها وهو فصيل الناقة.

(٣) أورد القصة ابن كثير ولم يعلق عليها (تفسير ابن كثير ٢/٢١٨) ونسبها الألويسي لمحمد بن إسحاق (روح المعاني ١٦٦/٨).

(٤) القليب: يعني قليب بدر. وهو حفرة رميت فيها جيف كفار قريش المقتولين ببدر. وفسر بالبثر العادية القديمة. ولفظه مذكر. ليس كلفظ البثر ولذا قال: وفيه قتلى بدر، والقتلى جمع قتل.

(٥) أخرج البخاري (٣٠٠/٧) رقم ٣٩٧٦ ومسلم (٢٢٠٤/٤) رقم ٢٨٧٥ عن أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمرَ يومَ بدرٍ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فَقَذَفُوا في طَوْىٍّ من أطواء بدرٍ خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمرَ براحلة فشدَّ عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الزكي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً. قال فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتضغيراً ونقمة وحسرة وندماً قلت: ويؤيد تفسير قتادة حديث أخرجه البخاري (٣٠١/٧) رقم ٣٩٨١ ومسلم (٦٤٣/٢) رقم ٩٣٢ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول. فذكر لعائشة، فقالت: «إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق. ثم قرأت «إنك =

ذلك على سبيل التحسر عليهم^(١).

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ
قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ
الْفَٰكِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا ۖ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

(٨٠) ﴿وَلَوْطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وقت قوله لهم، أو واذكر لوطاً وإذ بدل منه.
﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ توبيخ وتقريع على تلك الفعل المتبادية في القبح. ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ
الْعَالَمِينَ﴾ ما فعلها قبلكم أحد قط. والباء للتعدية، ومن الأولى لتأكيد النفي والاستغراق، والثانية
للتبعض. والجملة استئناف مقرر للإنكار كأنه وبخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ وهو أبلغ في
الإنكار والتوبيخ، وقرأ نافع وحفص إنكم على الإخبار المستأنف، و«شهوة» مفعول له أو مصدر في
موقع الحال، وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له
إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الوطر. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عن الإنكار إلى
الإخبار عن حالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار
عليها إلى الذم على جميع معاييهم، أو عن محذوف مثل لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الإسراف.

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي ما جاؤوا بما يكون جواباً عن
كلامه، ولكنهم قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه فيمن معه من المؤمنين من قريتهم والاستهزاء بهم فقالوا:
﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ أي من الفواحش^(٢).

(٨٣) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي من آمن به. ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تُسرّ الكفر.
﴿كَانَتْ مِنَ الْفَٰكِرِينَ﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي نوعاً من المطر عجيباً وهو مبين بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
سِجِّيلٍ﴾^(٣). ﴿فَأَنْظَرُوا ۖ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ روي: أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر مع

= لا تُسمع الموتى حتى قرأت الآية.

وإذا أردت الوقوف على المسألة وأدلتها فارجع إلى الكتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» تأليف
نعمان بن المفسر الألوسي. تحقيق وتخريج وتعليق المحدث محمد ناصر الدين الألباني.

(١) قوله «لا تحبون» بصيغة المضارع للدلالة على استمرارهم بذلك (س/٣/٢٤٤).

(٢) ووصفهم بالتطهير للاستهزاء والسخرية بهم (س/٣/٢٤٦).

(٣) هود: «٨٢». الحجر: «٧٤».

عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن، فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

(٨٥) ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله شعيب بن ميكائيل بن يسجر بن مدين، وكان يقال له خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لحسن مراجعته قومه. ﴿قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد المعجزة التي كانت له وليس في القرآن أنها ما هي، وما روي^(١) من محاربة عصا موسى عليه الصلاة والسلام التين وولادة الغنم التي دفعها إليه الدرع خاصة وكانت الموعودة له من أولادها ووقوع عصا آدم على يده في المرات السبع متأخرة عن هذه المقابلة، ويحتمل أن تكون كرامة لموسى عليه السلام أو إرهاباً لنبوته. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي آلة الكيل على الإضمام، أو إطلاق الكيل على المكيال كالعيش على المعاش لقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ كما قال في سورة هود: ﴿أَوْفُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ﴾^(٢) أو الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان مصدراً كالميعاد. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير. وقيل كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه^(٣). ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والخيف. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد ما أصلح أمرها أو أهلها الأنبياء وأتباعهم بالشرائع، أو أصلحوا فيها والإضافة إليها كالإضافة في «بل مكر الليل والنهار»^(٤). ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو في الإنسانية وحسن الأحدثة وجمع المال.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ بكل طريق من طرق الدين كالشيطان، وصراط الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى في شيء منها

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٧٦/٨) بدون راو ولا سند.

(٢) هود: «٨٥».

(٣) المكس هو نقص الثمن، إذ يأخذه بغير حق.

(٤) سبأ: «٣٣». والإضافة فيها على تقدير: بل مكرهم لنا دائماً ليلاً ونهاراً. (البيضاوي ٢/٢٦٢).

منعوه. وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعبياً إنه كذاب فلا يفesk عن دينك ويوعدون لمن آمن به. وقيل كانوا يقطعون الطريق. ﴿وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني الذي قعدوا عليه فوضع الظاهر موضع المضممر بياناً لكل صراط، ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقيحاً لما كانوا عليه أو الإيمان بالله. ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي بالله، أو بكل صراط على الأول، ومن مفعول تصدون على إعمال الأقرب ولو كان مفعول توعدون لقال وتصدونهم، وتوعدون بما عطف عليه في موقع الحال من الضمير في تقعدوا. ﴿وَتَجْعَلُونَهَا عِوَجاً﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشبه، أو وصفها للناس بأنها معوجة. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً﴾ عذدكم أو عذدكم. ﴿فَكَثُرَكُمْ﴾ بالبركة في النسل أو المال. ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم قبلكم فاعتبروا بهم.

وَأِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولُو كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّعْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

(٨٧) ﴿وَأِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ فتربصوا. ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي بين الفريقين بنصر المحققين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعد للكافرين. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا خيف فيه.

(٨٨) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي ليكون أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلبوا الجماعة على الواحد فخطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجري الجواب في قوله: ﴿قَالَ أُولُو كُنَّا كَرِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدونها في حال كراهتنا.

(٨٩) ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قد اختلفنا عليه. ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّعْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ شرط جوابه محذوف دليلاً: قد افترينا وهو بمعنى المستقبل لأنه لم يقع لكنه جعل كالواقع للمبالغة، وأدخل عليه «قد» لتقريبه من الحال أي قد افترينا الآن إن هممنا بالعود بعد الخلاص منها حيث نزع أن الله تعالى ندأ، وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه باطل وما أنتم عليه حق. وقيل إنه جواب قسم وتقديره: والله لقد افترينا. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ وما يصح لنا. ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ خذلاننا وارتدادنا، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله. وقيل أراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون. ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم. ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ احكم بيننا وبينهم، والفتاح

القاضي . والفتاحة الحكومة . أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل ، من فتح المشكل إذا بينه . ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَلَّاحِينَ ﴾ على المعنيين .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمُ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

(٩٠) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا ﴾ وتركتهم دينكم ^(١) . ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ لاستبدالكم ضلالتة بهداكم ، أو لفوات ما يحصل لكم بالبخل والتطفيف ، وهو ساد مسد جواب الشرط والقسم الموطأ باللام .

(٩١) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة وفي سورة الحجر : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ ^(٢) ولعلها كانت من مباديها . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴾ أي في مدينتهم .

(٩٢) ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا ﴾ أي استؤصلوا كأن لم يقيموا بها والمغنى المنزل ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ديناً ودنيا لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا ، فإنهم الرابعون في الدارين . وللتنبية على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول واستأنف بالجملتين وأتى بهما اسميتين .

(٩٣) ﴿ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم ، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم . والمعنى لقد بالغت في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصيح والإشفاق فلم تصدقوا قولي ، فكيف آسى عليكم . وقرىء فكيف آسي بإمالتين .

(٩٤) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ ﴾ بالبؤس والضر . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ حتى يتضرعوا ويتذلّلوا .

(٩٥) ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة ابتلاء لهم بالأمرين . ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾ كثروا عدداً وعدداً يقال عفا النبات إذا كثر ومنه إعفاء

(١) وتغيير الصلة «الذين كفروا» لأن مدار قولهم هذا هو الكفر ، كما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار (س ٢٥١/٣) .

(٢) الحجر : «٨٣» .

اللحي. ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ كفراناً لنعمة الله ونسياناً لذكره واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آبائنا منه مثل ما مسنا^(١). ﴿فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَإِنِ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٠﴾

(٩٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ وقيل مكة وما حولها. ﴿ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ مكان كفرهم وعصيانهم. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب، وقيل المراد المطر والنبات. وقرأ ابن عامر لفتحنا بالتشديد. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ الرسل. ﴿فَأَخَذْنَهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٩٧) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ عطف على قوله: ﴿فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وما بينهما اعتراض، والمعنى: أبعد ذلك أمّن أهل القرى؟! ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾ تبيّناً أو وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين، وهو في الأصل مصدر بمعنى البتوتة ويجيء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم. ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بيّناً.

(٩٨) ﴿أَوَإِنِ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «أو» بالسكون على التريديد. ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ ضحوة النهار، وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت. ﴿وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم.

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ تكرر لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ ومكر الله استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي يخلفون من خلا قبلهم ويرثون ديارهم، وإنما عدي يهد باللام لأنه بمعنى يبين^(٢) ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَنَّ الشَّأْنَ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على ما دل عليه، أو لم يهد أي يغفلون عن الهداية، أو منقطع عنه بمعنى ونحن

(١) ولعل تأخير السراء للإشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها (س/٢٥٣).

(٢) أو لتزليل فعل الهداية منزلة اللازم (س/٢٥٤).

نطبع، ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى وطبعنا لأنه في سياقه جواب لو لإفضائه إلى نفي الطبع عنهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واعتبار.

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ يعني قرى الأمم الماز ذكرهم. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ حال إن جُعِلَ القرى خبراً وتكون إفادته بالتقييد بها، وخبرٌ إن جُعِلَتْ صفة، ويجوز أن يكونا خبرين، ومن للتبعيض أي نقص بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لا نقصها. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيئهم بها. ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بما كذبوه من قبل الرسل بل كانوا مستمرين على التكذيب، أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم. ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ لأكثر الناس، والآية اعتراض، أو لأكثر الأمم المذكورين. ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ من وفاء عهد، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما عاهدوا إليه حين كانوا في ضرر مخافة مثل: ﴿لَنْ أُنَجِّيَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(١). ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ﴾ أي علمناهم. ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ من وجدت زيدا إذا لحافظ لدخول إن المخففة واللام الفارقة، وذلك لا يسوغ إلا في المبتدأ والخبر والأفعال الداخلة عليهما، وعند الكوفيين إن للنفي واللام بمعنى إلا.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ الضمير للرسل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾^(٢) أو للأمم^(٣). ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يعني المعجزات. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ بأن كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها، ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا. وفرعون لقب لَمَنْ ملك مصر ككسرى لَمَنْ ملك فارس، وكان اسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤).

(١) يونس: ٢٢.

(٢) الأعراف: ١٠١.

(٣) التعبير بـ«ثم» الدالة على التراخي للإيدان بأن بعثه عليه السلام تجرى على سنن السنة الإلهية من إرسال الرسل ترى. وتقدير «من بعدهم» على المفعول للاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر (س/٣/٢٥٧).

(٤) وتخصيص الملاء بالذكر مع أنهم داخلون في رسالته عليه السلام لأصالتهم في تدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في =

وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِتَآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك، وقوله:

(١٠٥) ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ لعله جواب لتكذيبه إياه في دعوى الرسالة، وإنما لم يذكر لدلالة قوله: «فظلموا بها» عليه، وكان أصله حقيقٌ عليَّ أَن لا أقول، كما قرأ نافع فقلب لأمن الإلباس كقوله: وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر. أو لأن ما لزمك فقد لزمته، أو للإغراق في الوصف بالصدق، والمعنى أنه حق واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، أو ضمن حقيق معنى حريص، أو وضع على مكان الباء لإفادة التمكن كقولهم: رميت على القوس وجئت على حال حسنة، ويؤيده قراءة أبي بالباء. وقرئ حقيق أن لا أقول بدون علي. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فخلهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال.

(١٠٦) ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِتَآيَةٍ﴾ من عند من أرسلك. ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في الدعوى.

(١٠٧) ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان، وهو الحية العظيمة. روي: أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعرَ فاغراً فاهُ بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذه فعاد عصا^(١).

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه. ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليها النظارة، أو بيضاء للنظار لا أنها كانت بيضاء في جيبها. روي: أنه عليه السلام كان آدم شديد الأدمة، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي بيضاء نورانية غلب شعاعها شعاع الشمس^(٢).

= الورود والصدور (س ٣/ ٢٥٧).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٩/ ١٤) عن السدي. وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن أبي حاتم (٣/ ٥١٢). وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٢ - ٢٦٣) عن ابن عباس والسدي. (٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٣) بدون راوٍ ولا سند. وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/ ٢١).

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السِّحْرُ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمْحُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾

(١٠٩) ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السِّحْرُ عَلِيمٌ ﴾ قيل قاله هو وأشرف قومه على سبيل التشاور في أمره، فحكى عنه في سورة الشعراء^(١) وعنهم ههنا.

(١١٠) ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ تشيرون في أن نفعل.

(١١١) ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾.

(١١٢) ﴿ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ كأنه اتفقت عليه آراؤهم فأشاروا به على فرعون. والإرجاء التأخير أي أخّر أمره، وأصله أَرْجَيْتُهُ كما قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب مِنْ أَرْجَأْتُ، وكذلك أَرْجَيْتُهُ^(٢) على قراءة ابن كثير على الأصل في الضمير، أو أَرْجَيْتُ مِنْ أَرْجَيْتُ كما قرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل والكسائي، وأما قراءته في رواية قالون أَرْجَيْتُ بِحَذْفِ الْيَاءِ فَلِلْاِكْتِفَاءِ بِالسَّكْرَةِ عَنْهَا، وَأَمَّا قِرَاءَةُ حَمْزَةٍ وَعَاصِمٌ وَحَفْصٌ أَرْجَيْتُ بِسُكُونِ الْهَاءِ فَلِتَشْبِيهِ الْمَنْفَصِلِ بِالْمُتَّصِلِ وَجَعَلَ جِهَ كِإِبْلِ فِي إِسْكَانِ وَسَطِهِ، وَأَمَّا قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ بِرَوَايَةِ ابْنِ ذَكْوَانَ أَرْجَيْتُ بِالْهَمْزَةِ وَكَسَرَ الْهَاءِ فَلَا يَرْضِيهِ النَّحَاةُ فَإِنَّ الْهَاءَ لَا تَكْسُرُ إِلَّا إِذَا كَانَ قَبْلَهَا كَسْرَةٌ أَوْ يَاءٌ سَاكِنَةٌ، وَوَجْهُهُ أَنَّ الْهَمْزَةَ لَمَّا كَانَتْ تَقْلُبُ يَاءً أُجْرِيَتْ مَجْرَاهَا^(٣). وقرأ حمزة والكسائي بكل سحّار فيه وفي يونس ويؤيده اتفاقهم عليه في الشعراء^(٤).

(١١٣) ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم^(٥). ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾^(٦) استأنف به كأنه جواب سائل قال: ما قالوا إذ جاؤوا؟ وقرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ على الإخبار وإيجاب الأجر كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم.

(١١٤) ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً. ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عطف على ما سَدَّ مسدّه «نعم» وزيادة على الجواب لتحريضهم.

(١١٥) ﴿ قَالُوا يَمْحُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ خيروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً

(١) الشعراء: (٣٤).

(٢) الذي وجدته في كتب القراءات «أرجئوه» بدون هاء في آخر الكلمة.

(٣) ما ذهب إليه البياضوي من تضعيف قراءة ابن عامر... غير مقبول، فإنها قراءة متواترة وثابتة عن النبي عليه السلام وقد تلقفتها الأمة بالقبول ولها توجيه في العربية. انظر في ذلك البحر المحيط (٣٦٠/٤).

(٤) الشعراء: (٣٧).

(٥) ولم يصرح بإرسال فرعون في طلب السحرة كما في قوله تعالى: «فأرسل فرعون في المدائن حاشرين» - الشعراء (٥٣) - للإيدان بمسارعة فرعون إلى الإرسال ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال (س٣/٢٥٩).

(٦) أثبتتها في الأصل بالاستفهام على قراءة من قرأ بها، أي «أئن لنا لأجراً».

للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلقوا قبله فنبهوا عليها بتغيير النظم إلى ما هو أبلغ وتعريف الخبر وتوسيط الفصل أو تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل فلذلك:

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُنَّ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

(١١٦) ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ كرمًا وتسامحًا، أو ازدراء بهم ووثوقًا على شأنه. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ بأن خيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم طلبوا رهبتهم. ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في فنه. روي أنهم ألغوا حبلاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي وركب بعضها بعضاً.

(١١٧) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حية. ﴿إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يزورونه من الإفك، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول. روي: أنها لما تلتفت حبالهم وعصيتهم وابتلعته بأسرها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا^(١). وقرأ حفص عن عاصم تَلْقَفُ ههنا وفي طه والشعراء^(٢).

(١١٨) ﴿فَوَقَّعَ الْحَقُّ﴾ فثبت لظهور أمره. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والمعارضة.

(١١٩) ﴿فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين، والضمير لفرعون وقومه.

(١٢٠) ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُنَّ سَاجِدِينَ﴾ جَعَلَهُمْ ملقين على وجوههم تنبيهاً على أن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبق لهم تمالك، أو أن الله ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلب الأمر عليه، أو مبالغة في سرعة خروهم وشدته.

(١٢١) ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أبدلوا الثاني من الأول لثلاثتهم أنهم أرادوا به فرعون.

(١٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بالله أو بموسى، والاستفهام فيه للإنكار. وقرأ حمزة والكسائي

(١) الفاء في قوله «إذا هي»... هي الفصيحة، أي فألقاها فصارت حية فإذا... وحذف ذلك للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب (س/٣/٢٦٠).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ بالتشديد «تَلْقَفُ». وقراءة حفص بالتخفيف هنا وفي طه: «٦٩» وفي الشعراء: «٤٥».

وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وهشام بتحقيق الهمزتين على الأصل. وقرأ حفص أمتم به على الإخبار، وقرأ قُبل قال فرعون، وأمتم يُبدل في حال الوصل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة ويمد بعدها مدة في تقدير ألفين، وقرأ في طه على الخبر بهمزة وألف، وقرأ في الشعراء على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة في تقدير ألفين، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة الأولى وتلين الثانية. ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ﴾ أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد. ﴿لِنُخْرِجَ مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ يعني القبط وتخلص لكم ولبنی إسرائيل. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهو تهديد مجمل تفصيله:

لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْقُمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّنَا بِأَيَّتِ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

(١٢٤) ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ من كل شق طرفاً. ﴿ثُمَّ لَأَضِلَّيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم. قيل إنه أول من سن ذلك فشرعه الله للقطاع تعظيماً لجرمهم ولذلك سماه محاربة لله ورسوله، ولكن على التعاقب لفرط رحمته.

(١٢٥) ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ بالموت لا محالة فلا نبالي بوعيدك، أو إنا منقلبون إلى ربنا وثوابه إن فعلت بنا ذلك، كأنهم استطابوه شغفاً على لقاء الله، أو مصيرنا ومصيرك إلى ربنا فيحكم بيننا.

(١٢٦) ﴿وَمَا نَنْقُمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّنَا بِأَيَّتِ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا﴾ وما تنكر منا. ﴿إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّنَا بِأَيَّتِ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك، ثم فزعوا إلى الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كما يُفرغ الماء، أو صب علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام. قيل إنه فعل بهم ما أوعدهم به. وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿أَنشَأَوْا مِنَّا أَتَبَعَكُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١).

(١٢٧) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطف على يفسدوا، أو جواب الاستفهام بالواو كقول الحطيئة:

أَلَمْ أَكُ جَارُكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ

على معنى أيكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك. وقرئ بالرفع على أنه عطف على أَتَنْذَرُ أو استئناف أو حال. وقرئ بالسكون كأنه قيل: يفسدوا ويذكرك كقوله تعالى ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ﴾^(٢) ﴿وَأَالِهَتَكَ﴾ معبوداتك. قيل كان يعبد الكواكب، وقيل صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً

(١) القصص: ٢٥.

(٢) المنافقين: ١٠.

إليه ولذلك قال: ﴿أَتَارَبُّكُمْ الْأَعْمَى﴾^(١) وقرىء إلهتك أي عبادتك. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْجِي نِسَاءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل لئعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده. وقرأ ابن كثير ونافع سنقتل بالتخفيف. ﴿وَلِإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ غالبون وهم مهجرون تحت أيدينا.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا مَطَّيَرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم. ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تسلياً لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له. وقرىء والعاقبة بالنصب، عطف على اسم إن. واللام في الأرض تحتل العهد والجنس.

(١٢٩) ﴿قَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل. ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادته. ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تصريحاً بما كنى عنه أولاً لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك، ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم. وقد روي أن مصر إنما فُتِحَ لهم في زمن داود عليه السلام^(٢). ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ بالجدوب لقلة الأمطار والمياه، والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به، ثم اشتق منها فقيل أسنت القوم إذا قحطوا. ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بكثرة العاهات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده^(٣).

(١٣١) ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والسعة. ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها. ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جذب وبلاء. ﴿يَطَّيَرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ يتشاءموا بهم ويقولوا: ما أصابنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغبابة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل

(١) النازعات: «٢٤».

(٢) مجيء فعل الطمع للجري على سنن الكبرياء (س/٣/٢٦٣).

(٣) وتصدير الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها (س/٣/٢٦٣).

التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي. وإنما عَرَفَ الحسنة وذكَّرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات، ونكَّر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع. ﴿أَلَا إِنَّمَا طَئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي سبب خيرهم وشرهم عنده وهو حكمته ومشيتته، أو سبب شؤمهم عند الله وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي سألت إليهم ما يسوءهم. وقرئ: إنما طَيْرُهُمْ، وهو اسم الجمع وقيل هو جمع^(١). ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى أو من شؤم أعمالهم^(٢).

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخَنُ لَكَ يَمُومِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

(١٣٢) ﴿وَقَالُوا مَهْمَا﴾ أصلها ما الشرطية ضُمَّت إليها ما المزیدة للتأكيد، ثم قلبت ألفها هاء استثقلاً للتكرير. وقيل مركبة من مة الذي يصوت به الكاف وما الجزائية، ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره. ﴿تَأْتِنَا بِهِ﴾ أي أيما شيء تحضرنا تأتنا به. ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ بيان لمهما، وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا: ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخَنُ لَكَ يَمُومِينَ﴾ أي لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا. والضمير في به وبها لمهما، ذكره قبل التبيين باعتبار اللفظ وأثَّه بعده باعتبار المعنى.

(١٣٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ ماء طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، وقيل الجدري، وقيل الموتان، وقيل الطاعون. ﴿وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ﴾ قيل هو كبار القِزْدان، وقيل أولادُ الجراد قبل نبات أجنحتها. ﴿وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ روي^(٣): أنهم مُطَرُوا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا الله فكشف عنهم ونبت لهم من الكلا والزروع ما لم يُعهد مثله ولم يؤمنوا. فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففرَّعوا إليه ثانياً، فدعا وخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا. فسلط الله عليهم القمل فأكل ما أبقاها الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصّها، ففرَّعوا إليه، فزُفِع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر. ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب

(١) وتصدير الجملة بأداة التنبيه «ألا» لإبراز كمال العناية بمضمونها (س/٣/٢٦٤).

(٢) ووصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون للإشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر إنما هو من عند الله (س/٣/٢٦٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس - كما في الدر المنثور (٣/٥١٩) -.

ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي وأفواههم عند التكلم، ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا، فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهود. ثم أرسل عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه، وقيل سلط الله عليهم الرعاف. ﴿ءَايَتِي﴾ نصب على الحال. ﴿مُفْصَلَاتٍ﴾ مبيّنات لا تُشكّل على عاقل أنها آيات الله ونقمة عليهم، أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعاً. وقيل إن موسى لبث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَلَغْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ يعني العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله الله عليهم بعد ذلك. ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ بعهده عندك وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك. وهو صلة لآدع، أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عنك، أو متعلق بفعل محذوف دل عليه التماسهم مثل أَسْعَفْنَا إِلَىٰ مَا نَطْلُبُ مِنْكَ بحق ما عهد عندك، أو قسم مجاب بقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أَقْسَمْنَا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلن.

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الفرق أو الموت. وقيل إلى أجل عينه لإيمانهم. ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب لما أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث من غير تأمل وتوقف فيه.

(١٣٦) ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأردنا الانتقام منهم. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي البحر الذي لا يدرك قعره. وقيل لُجَّتُهُ. ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها. وقيل الضمير للثقة المدلول عليها بقوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

(١٣٧) ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستبعاد وذبح الأبناء من مستضعفيهم. ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ يعني أرض الشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها. ﴿الَّتِي بَلَغْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة العيش. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالإنجاز عِدَّتُهُ إياهم بالنصرة والتمكين وهو قوله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ إلى قوله ﴿مَا

كَانُوا يَحْذَرُونَ^(١). وقرئ كلمات ربك لتعدد المواعيد ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم على الشدائد. ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ وخربنا. ﴿مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من القصور والعمارات^(٢). ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان. وقرأ ابن عامر وأبو بكر هنا وفي النحل يَغْرُسُونَ بالضم. وهذا آخر قصة فرعون وقومه.

وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ^(١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا مَاهُمْ فِيهِ وَيَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ^(١٤٠)

(١٣٨) وقوله: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ وما بعده ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن منَّ الله عليهم بالنعم الجسام وأراهم من الآيات العظام تسلياً لرسول الله ﷺ مما رأى منهم، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. روي^(٣): أن موسى عليه الصلاة والسلام عبّر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً. ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ فمروا عليهم. ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يقيمون على عبادتها، قيل كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل، والقوم كانوا من العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم، وقيل من لخم. وقرأ حمزة والكسائي يَعْكُفُونَ بالكسر. ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ مثلاً نعبده. ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها، وما كافة للكاف. ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصفهم بالجهل المطلق وأكّده لبُعْد ما صدر عنهم - بعد ما رأوا من الآيات الكبرى - عن العقل.

(١٣٩) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى القوم. ﴿مُتَّبِعُوا﴾ مكسر مدمر. ﴿مَا مَاهُمْ فِيهِ﴾ يعني أن الله يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها رُضاضاً ﴿وَيَطِلُ﴾ مضمحل. ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام بإيقاع هؤلاء اسم إن والإخبار عما هم فيه بالتبَّار وعما فعلوا بالبطلان، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لأن للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة وأن الإحباط الكلي لازب لما مضى عنهم تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

(١٤٠) ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أطلب لكم معبوداً. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من أمثالهم لما لم يستحقوه تفضلاً بأن قصدوا أن يشركوا به أحسن شيء من مخلوقاته.

(١) القصص: ١ - ٢.

(٢) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «يصنع» لاستحضار الصورة (س/٣/٢٦٧).

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/٢٧٣) من قول الكلبي.

وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/٤٠).

وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَبِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِّمَّقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرِنِي وَلَكِنِ أَنظُرَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ واذكروا صنيعه معكم في هذا الوقت. وقرأ ابن عامر أنجاهم. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ استئناف لبيان ما أنجاهم منه، أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما. ﴿يُقَبِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بدل منه مبين. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمة أو محنة عظيمة.

(١٤٢) ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ذا القعدة. وقرأ أبو عمرو ويعقوب ووعدنا. ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ من ذي الحجة. ﴿فِتْنَةٍ مِّمَّقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بالغاً أربعين. روي: أنه عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلُوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً. وقيل أمره بأن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه.

(١٤٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتناه، واللام للاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا. ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة، وفيما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ﴾ أرني نفسك بأن تمكيني من رؤيتك، أو تتجلى لي فانظر إليك وأراك. وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿لَن تَرِنِي﴾ دون لن أرى أو لن أريك أو لن تنظر إلي، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على مَعَدٍّ في الرائي لم يوجد فيه بعد، وجعل السؤال لتبكيته قومه الذين قالوا: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾^(١) خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا﴾^(٢) ولا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣).

(١) النساء: «١٥٣».

(٢) الأعراف: «١٣٨».

(٣) الأعراف: «١٤٢».

والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أن لا يراه أبداً وأن لا يراه غيره أصلاً فضلاً عن أن يدل على استحالتها، ودعوى الضرورة فيه مكابرة أو جهالة بحقيقة الرؤية. ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيقه، وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن. والجبل قبل هو جبل زبير. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ رَبُّهُ لُجُجَ الْجَبَلِ﴾ ظهر له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره. وقيل أعطى له حياة ورؤية حتى رآه. ﴿جَعَلَهُمْ دَكَّاءَ﴾ مذكوكاً مفتتاً، والدك والدق أخوان كالشك والشق. وقرأ حمزة والكسائي دكاء أي أرضاً مستوية، ومنه ناقة دكاء التي لا سنام لها، وقرئ دكاً أي قطعاً جمع دكاء. ﴿وَحَرَّمُوسَى صَعِقاً﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى. ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيماً لما رأى. ﴿سُبْحَانَكَ بَبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجراءة والإقدام على السؤال من غير إذن. ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مر تفسيره. وقيل معناه أنا أول من آمن بأنك لا ترى في الدنيا.

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

(١٤٤) ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك. ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ أي الموجودين في زمانك، وهارون وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع. ﴿بِرِسَالَتِي﴾ يعني أسفار التوراة. وقرأ ابن كثير ونافع برسالتي. ﴿وَبِكَلِمِي﴾ وبتكليمي إياك. ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أعطيتك من الرسالة. ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على النعمة فيه. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر. (١٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين. ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور، أي وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف في أن الألواح كانت عشرة أو سبعة، وكانت من زمرد أو زبرجد، أو ياقوت أحمر أو صخرة صماء لينها الله لموسى فقطعها بيده وسقفها بأصابعه وكان فيها التوراة أو غيرها. ﴿فَخُذْهَا﴾ على إضمار القول عطفاً على كتبنا، أو بدل من قوله: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ والهاء للألواح، أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء، أو للرسالات. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدة وعزيمة. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالإضافة إلى الانتصار، والافتصاص على طريقة التدب والحث على الأفضل كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. أو بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره، ويجوز أن يراد بالأحسن البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة، وهو المأمور به كقولهم الصيفُ أحر من الشتاء. ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم. وقرئ سأوريكهم بمعنى سأبين لكم من أوريت الزند، وسأورثكم، ويؤيده قوله ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾^(١).

سَاصْرِفْ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾

(١٤٦) ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِنِي﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس. ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقيل سَاصْرِفْهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما فعل فرعون فعاد عليه بإعلانها أو بإهلاكهم. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ صلة يتكبرون أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل، أو حال من فاعله. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ﴾ منزلة أو معجزة. ﴿لَا يُؤْمِنُوهَا﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد، وهو يؤيد الوجه الأول. ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم. وقرأ حمزة والكسائي الرُّشْدَ بفتحين، وقرئ الرُّشَادُ، وثلاثها لغات كالسقم والسقم والسقام، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات، ويجوز أن ينصب ذلك على المصدر أي سَاصْرِفْ ذلك الصرف بسببهما.

(١٤٧) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، أو ما وعد الله في الدار الآخرة. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ لا ينتفعون بها. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا جزاء أعمالهم.

(١٤٨) ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ من بعد ذهابه للميقات. التي استعاروا من القبط حين هموا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم أو ملكوها بعد هلاكهم. وهو جمع حُلِيٍّ كحُلِيٍّ وثَدِيٍّ. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر بالاتباع كدَلِيٍّ، ويعقوب على الأفراد^(١). ﴿عِجَلًا جَسَدًا﴾ بدنًا ذا لحم ودم، أو جسدًا من الذهب خاليًا من الروح، ونصبه على البدل. ﴿لَهُ خُورٌ﴾ صوت البقر. روي أن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حيًّا، وقيل صاغه بنوع من الحِيل فتدخل الريح جوفه وتصور. وإنما نسب الاتخاذ إليهم وهو فعله إما لأنهم رضوا به أو لأن المراد اتخاذهم إياه إلهًا. وقرئ جُور أي صباح. ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر، والمعنى ألم يروا حين اتخذه إلهًا أنه لا يقدر على كلام ولا على إرشاد سبيل كآحاد البشر حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر. ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذه إلهًا. ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعًا منهم.

(١) قراءة حمزة والكسائي «حُلِيِّهِمْ» وقراءة يعقوب «حُلِيِّهِمْ».

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ لِنَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَزَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعرض غمًا فتصير يده مسقوطاً فيها. وقرئ سَقَطَ على بناء الفعل للفاعل، بمعنى وقع العض فيها. وقيل معناه سقط الندم في أنفسهم. ﴿وَرَأَوْا﴾ وعلموا. ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل^(١). ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة. ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة^(٢). ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقراهما حمزة والكسائي بالتاء وربنا على النداء^(٣).

(١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب وقيل حزناً. ﴿قَالَ لِنَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتم العجل والخطاب للعبدة، أو أقمتم مقامي فلم تكفوا العبدة والخطاب لهارون والمؤمنين معه! وما نكرة موصوفة تفسر المستكن في بش، والمخصوص بالذم محذوف تقديره بش خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى من بعدي من بعد انطلاقي، أو من بعد ما رأيتم مني من التوحيد والتزيه والحمل عليه والكف عما ينافيه. ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أتركتموه غير تام، كأنه ضمنَّ عَجَلَ معنى سبق فعدي تعديته، أو أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين وقد رتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين. روي: أن التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه. ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ توهماً بأنه قصر في كفهم، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً لينا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل. ﴿قَالَ ابْنَ أُمِّ﴾ ذكر الأم ليرققه عليه وكانا من أب وأم. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي طه^(٤) يا ابن أُمِّ بالكسر، وأصله يا ابن أُمِّي فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفاً كالمنادى المضاف إلى الياء، والباقون بالفتح زيادة في التخفيف لطوله أو تشبيهاً بخمسة عشر. ﴿إِنْ الْقَوْمَ اسْتَزَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه، والمعنى بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخاة أو نسبة التقصير.

(١) وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية - مع كونه متأخراً عنها - للمسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته، كأنه سابق على الرؤية (س/٢٧٣).

(٢) وتقديم الرحمة على المغفرة - مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية - إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم (س/٢٧٣).

(٣) قراءة حمزة والكسائي «لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا».

(٤) طه: ٩٤.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيْنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتَلَكَّأُ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(١٥١) ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ بما صنعتُ بأخي. ﴿وَلِإِخِي﴾ إن فرط في كفهم، ضمه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعاً للشماتة عنه. ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام علينا. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

(١٥٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيْنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم. ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي خروجهم من ديارهم، وقيل الجزية. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم وهي قولهم هذا إلهكم وإله موسى، ولعله لم يفتّر مثلها أحد قبلهم ولا بعدهم.

(١٥٣) ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد السيئات. ﴿وَأَمَّنُوا﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه من الأعمال الصالحة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة. ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإن عظم الذنب كجريمة عبدة العجل وكثر كجرائم بني إسرائيل.

(١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن، وقد قرئ به. ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ باعتذار هارون، أو بتوبتهم. وفي هذا الكلام مبالغة وبلاغة من حيث إنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغري عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت. وقرئ سَكَّتَ وَأُسْكِتَ، على أن المسكت هو الله أو أخوه أو الذين تابوا. ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها. ﴿وَفِي نُحُوتِهَا﴾ وفيما نسخ فيها أي كتب، فُعلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة. ﴿هُدًى﴾ بيان للحق. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير. ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام على المفعول لضعف الفعل بالتأخير، أو حذف المفعول واللام للتعليل والتقدير يرهبون معاصي الله لربهم.

(١٥٥) ﴿وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل إليه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ روي أنه تعالى أمره أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان، فقال: ليتخلف منكم رجلان، فتشاجروا، فقال: إن لَمَنْ قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقيين، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجداً، فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة أي الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾ تمنى هلاكهم وهلاكه قبل أن يرى ما رأى، أو بسبب آخر، أو عنى به أنك قدِرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم وبإغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالإنقاذ

منها فإن ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم إحسانك. ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، وكان ذلك قاله بعضهم. وقيل المراد بما فعل السفهاء عبادة العجل، والسبعون اختارهم موسى لميقات التوبة عنها، فغشيتهم هيبة قلقوا منها ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم وأشرفوا على الهلاك، فخاف عليهم موسى فبكى ودعا فكشفها الله عنهم. ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية، أو أوجدت في العجل خواراً فراغوا به. ﴿ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ﴾ ضلّاله بالتجاوز عن حده، أو باتباع المخايل. ﴿ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ هداه فيقوى بها إيمانه. ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا ﴾ القائم بأمرنا. ﴿ فَأَغْفِرْ لَنَا ﴾ بمغفرة ما قارفنا. ﴿ وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة^(١).

﴿١٥٦﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا قَالُ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٧﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٨﴾

(١٥٦) ﴿وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الْكِتَابِ حُسْنَ عِيشَةٍ وَتَوْفِيقَ طَاعَةٍ﴾ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة.

﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ تبنا إليك، من هاد يهود إذا رجع. وقرىء بالكسر^(٢) من هاد يهده إذا أماله، ويحتمل أن يكون مبنياً للفاعل وللمفعول بمعنى أَمَلْنَا أَنْفُسَنَا وَأَمَلْنَا إِلَيْكَ، ويجوز أن يكون المضموم أيضاً مبنياً للمفعول منه على لغة من يقول عُوِدَ المريض. ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ تعذيبه.

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الدنيا المؤمن والكافر بل المكلف وغيره^(٣). ﴿فَسَاكِنْتَهَا﴾ فسألتها في الآخرة، أو فسأكتبها كتبة خاصة منكم يا بني إسرائيل. ﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ خصها بالذكر لإنافتها ولأنها كانت أشق عليهم. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُمْشُونَ﴾ فلا يكفرون بشيء منها.

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾ مبتدأ خبره يأمرهم، أو خبرٌ مبتدأٌ تقديره هم الذين، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل، والمراد من آمن منهم بمحمد ﷺ، وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى

(١) وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام (س٣/٢٧٧).

(٢) أى بكسر الهاء «هَذَا».

(٣) وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد، والمشينة معتبرة في جانب الرحمة أيضاً وعدم النصريح بها للإشعار بغاية الظهور (س، ٢٧٨/٣).

الله تعالى ونبياً بالإضافة إلى العباد. ﴿الَّذِي لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ﴾ وصفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته. ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ اسماً وصفه. ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ كالدم ولحم الخنزير، أو كالربا والرشوة. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة كتعيين القصاص في العمد والخطأ وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة. وأصل الإضر الثقل الذي يأصِر صاحبه أي يحبسه من الحراك لثقله. وقرأ ابن عامر أصارهم. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه بالتقوية. وقرأ بالتخفيف^(١) وأصله المنع ومنه التعزير. ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ لي. ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي مع نبوته يعني القرآن، وإنما سماه نوراً لأنه بإعجازه ظاهر أمره مظهر غيره، أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون «معه» متعلقاً باتبعوا أي واتبعوا النور المنزل مع اتباع النبي فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، ومضمون الآية جواب دعاء موسى عليه السلام.

قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

(١٥٨) ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الخطاب عام، وكان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقليين، وسائر الرسل إلى أقوامهم. ﴿جَمِيعًا﴾ حال من إليكم. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صفة لله وإن حيل بينهما بما هو متعلق المضاف إليه لأنه كال تقدم عليه، أو مدح منصوب أو مرفوع، أو مبتدأ خبره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو على الوجوه الأول بيان لما قبله، فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره، وفي ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالالوهية. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ﴾ ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرأ «وَكَلِمَتِهِ» على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضاً لليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له^(٢). ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة.

(١) أي بتخفيف الزاي «وَعَزَّرُوهُ».

(٢) إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال بأمره. ووصفه بالنبي الأمي لمدحه عليه السلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين (س/٣/٢٨١).

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ صَرْبٍ أَنْضَرْبَ بَعْصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرَءَاتِ وَالسَّلَاطِي كَلُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

(١٥٩) ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ يعني من بني إسرائيل. ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يهدون الناس مُحِقِّين أو بكلمة الحق. ﴿وَبِهِ﴾ بالحق. ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم في الحكم، والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. وقيل مؤمنو أهل الكتاب. وقيل قوم وراء الصين رآهم رسول الله ﷺ ليلة المعراج فآمنوا به^(١).

(١٦٠) ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ وصيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض. ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مفعول ثانٍ لقطع فإنه متضمن معنى صير، أو حال وتأتيه للحمل على الأمة أو القطعة. ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه ولذلك جمع، أو تمييز له على أن كل واحد من اثنتي عشرة أسباط فكانه قيل: اثنتي عشرة قبيلة. وقرئ بكسر الشين وإسكانها. ﴿أُمَمًا﴾ على الأول بدلٌ بعد بدل أو نعت أسباط، وعلى الثاني بدل من أسباط. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ في التيه. ﴿أَبَ صَرْبٍ بَعْصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ﴾ أي فضرِب فانْبَجَسَتْ، وحذفه للإيماء على أن موسى عليه السلام لم يتوقف في الامتثال. وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط. ﴿مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ ليقبهم حر الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرَءَاتِ وَالسَّلَاطِي كَلُوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا. ﴿مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة^(٢).

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بإضمار اذكر، والقرية بيت المقدس^(٣). ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ مثل ما في سورة البقرة معنى، غير أن قوله فكلوا فيها بالفاء أفاد تسبب سكناهم للأكل منها، ولم يتعرض له اكتفاء بذكره ثمة، أو بدلالة الحال عليه. وأما تقديم قوله «قولوا» على «وادخلوا» فلا أثر له في المعنى لأنه لا يوجب الترتيب، وكذا الواو العاطفة بينهما. ﴿نَقْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالغفران والزيادة عليه بالإثابة، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف للدلالة على أنه تفضل محض ليس في مقابلة ما أمروا به. وقرأ

(١) وصيغة المضارع في «يهدون» و«يعدلون» لحكاية الحال الماضية (س/٢٨١).

(٢) البقرة: ٥٨.

(٣) إيراد الفعل «قيل» على البناء للمفعول مع استناده إليه تعالى للجري على سنن الكبرياء، والإيذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل. وتغيير النظم بالأمر بالذكر للتشديد في التوبيخ (س/٢٨٣).

نافع وابن عامر ويعقوب تُغَفَّرُ بالتاء والبناء للمفعول وخطيئائكم بالجمع والرفع، غير ابن عامر فإنه وَحَّدَ، وقرأ أبو عمرو خطاياكم.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ مضى تفسيره فيها ^(١).

(١٦٣) ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ للتقرير والتفريع بتقديم كفرهم وعصيانهم والإعلام بما هو من علومهم التي لا تُعلم إلا بتعليم أو وحي ليكون لك ذلك معجزة عليهم. ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها وما وقع بأهلها. ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قرية منه وهي أيلة قرية بين مدين والطور ^(٢) على شاطئ البحر، وقيل مدين، وقيل طبرية. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت، وإذ ظرف لكانت أو حاضرة أو للمضاف المحذوف أو بدل منه بدل اشتمال. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف ليعدون، أو بدل بعد بدل. وقرىء يَعْدُونَ وأصله يعتدون، ويُعَدُّون من الإعداد أي يعدون آلات الصيد يوم السبت وقد نهوا أن يشتغلوا فيه بغير العبادة ^(٣). ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت، مصدر سَبَّتَ اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة. وقيل اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه، ويؤيد الأول أن قرىء يوم إسباتهم، وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يُسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وقرىء لا يُسْبِتُونَ من أَسَبَتْ، ولا يُسْبِتُونَ على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت، وشرعاً حال من الحيتان ومعناه ظاهرة على وجه الماء من شرع علينا إذا دنا وأشرف. ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم. وقيل كذلك متصل بما قبله أي لا تأتيتهم مثل إتيانهم يوم السبت، والباء متعلق بيعدون ^(٤).

(١٦٤) ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ عطف على إذ يعدون. ﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ جماعة من أهل القرية يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أيسوا من اتعاضهم. ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ مخترمهم. ﴿أَوْ

(١) البقرة: «٥٩».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج ٩٠/٩٠، ٩١) عن ابن عباس.

(٣) وإضافة الحيتان إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة (س ٢٨٤/٣).

(٤) وصيغة المضارع بقوله «نبلوهم» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجب منها (س ٢٨٥/٣).

مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿١٦٥﴾ فِي الْآخِرَةِ لِمَادِيهِمْ فِي الْعَصِيَانِ، قَالُوهُ مبالغَة في أن الوعظ لا ينفع فيهم، أو سؤالاً عن علة الوعظ ونفعه وكأنه تقاويل بينهم، أو قول من ارعوى عن الوعظ لمن لم يرعو منهم، وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاظهم رداً عليهم وتهكماً بهم. ﴿قَالُوا مَعْذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ جواب للسؤال أي موعظتنا إنهاء عذر إلى الله حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر^(١). وقرأ حفص معذرة بالنصب على المصدر أو العلة أي اعتذرنا به معذرة، أو وعظناهم معذرة^(٢). ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَفُونَ﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَآثِهِمْ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾

(١٦٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تركوا تارك الناسي. ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكرهم به صلحاؤهم. ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله. ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد، فعيل من بؤس بؤس إذا اشتد. وقرأ أبو بكر بئس على فيعل كضينع، وابن عامر بئس بكسر الباء وسكون الهمز على أنه بئس كحذر كما قرئ به فخفف عينه بنقل حركتها إلى الفاء ككبد في كبد، وقرأ نافع بئس على قلب الهمزة ياء كما قلبت في ذنب أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسماً، وقرئ بئس كريس على قلب الهمزة ياء ثم إدغامها، وبئس بالتخفيف كهين، وبائس كفاعل^(٣). ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَآثِهِمْ﴾ تكبروا عن ترك ما نهوا عنه كقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾^(٤). ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٥) والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى. روي: إن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين فقالوا: إن لهم شأنًا فدخلوا عليهم فإذا هم قردة فلم يعرفوا أنسبائهم ولكن القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسبائهم وتشم ثيابهم وتدور باكية حولهم ثم ماتوا بعد ثلاث. وعن مجاهد مسخت قلوبهم لا أبدانهم^(٦).

(١) الأصل عند البضاوي «معذرة» بالرفع.

(٢) في إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين «ربكم» نوع تعريض بالسائلين (س/٣/٢٨٥).

(٣) وتنكير العذاب للتفخيم (س/٣/٢٨٦).

(٤) الأعراف: «٧٧».

(٥) النحل: «٤٠».

(٦) رجح ابن كثير أن المسخ كان صورياً ومعنوياً، ورد قول مجاهد (تفسير ابن كثير ١/١٠٢).

وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ يَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ
وَإِنَّهُمْ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ
بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا
الْأَذَى وَيَقُولُونَ سِغْفَرْنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَارُ الْأَخْرَجُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

(١٦٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ﴾ أي أعلم، تَعَلَّلَ مِنَ الإيْذَانِ بمعناه كالْتَوَعَّدُ والإيْعاد، أو عزم لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله فأجري مجرى فعل القسم كَعَلِمَ الله وشهد الله، ولذلك أجيب بجوابه وهو: ﴿يَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ والمعنى وإذا أوجب ربك على نفسه ليسلطن على اليهود ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية. بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرَّب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذرايرهم وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً ﷺ ففعل ما فعل ثم ضرب عليهم الجزية، فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ عاقبهم في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُمْ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن.

(١٦٨) ﴿وَقَطَعْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا﴾ وفرقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تنمة لأدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط، وأما مفعول ثان أو حال. ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ تقديره ومنهم أناس دون ذلك، أي منحطون عن الصلاح وهم كَفَرْتُهُمْ وفسقتهم، صفة أو بدل منه، وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم. ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنعمة والنقم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتهون فيرجعون عما كانوا عليه.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين. ﴿خَلَفٌ﴾ بدل سوء، مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل جمع. وهو شائع في الشر، والخلف بالفتح في الخير، والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ. ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى﴾ حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا، وهو من الدنو أو الدناءة وهو ما كانوا يأخذون من الرُّشَا في الحكومة وعلى تحريف الكلم، والجملة حال من الواو. ﴿وَالَّذِينَ سَفَقُوا﴾ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، وهو يحتمل العطف والحال. والفعل مسند إلى الجار والمجرور، أو مصدر يأخذون. ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ حال من الضمير في لنا، أي يرجون المغفرة مصرين على الذنب عائدين إلى مثله غير تائبين عنه. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي في الكتاب. ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ عطف بيان للميثاق، أو متعلق به أي بأن يقولوا. والمراد توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب. ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فإنه تقرير، أو على ورثوا وهو اعتراض. ﴿وَاللَّذَارُ الْأَخْرَجُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ﴾ مما يأخذ هؤلاء. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على التلوين.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

(١٧٠) ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ عطف على الذين يتقون وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ اعتراض أو مبتدأ خبره: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمرة تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع. وقرأ أبو بكر يُمَسِّكُونَ بالتخفيف وإفراد الإقامة لإنافتها على سائر أنواع التمسكات^(١).

(١٧١) ﴿وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعهاء ورفعناه فوقهم، وأصل النقق الجذب. ﴿كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾ سقيفة، وهي ما أظلك. ﴿وَظَنُّوا﴾ وتيقنوا. ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجو ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن لأنه لم يقع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعن عليكم. ﴿خُذُوا﴾ على إضمار القول، أي وقلنا خذوا أو قائلين خذوا. ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدة وعزم على تحمل مشاقه، وهو حال من الواو. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالعمل به ولا تركوه كالمُنْسِي. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن، ومن ظهورهم بدل من بني آدم بدل البعض. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب ذرياتهم^(٢). ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ أي ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوههم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم ألسنت بربكم؟ قالوا بلى فتزل تمكينهم من العلم بها وتمكينهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل، ويدل عليه قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبه عليه بدليل.

(١٧٣) ﴿أَوْ قُولُوا﴾ عطف على أن تقولوا. وقرأ أبو عمرو كليهما بالياء لأن أول الكلام على الغيبة. ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فافتدينا بهم، لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك لحديث

(١) قوله «يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة» غير النظم في إقامة الصلاة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر في جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها.

وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات لإنافتها عليها (س/٣/٢٨٨).

(٢) قوله «وإذ أخذ...» أثر الأخذ على الإخراج للإبذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه الإخبار عن الاصطفاء وهو السبب في إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي (س/٣/٢٨٩).

رواه عمر^(١) رضي الله تعالى عنه، وقد حَقَّقْتُ الكلام فيه في شرحي لكتاب المصابيح. والمقصود من إيراد هذا الكلام إلزام اليهود بمقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعهم عن التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال كما قال:

وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

(١٧٤) ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن التقليد واتباع الباطل.

(١٧٥) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود. ﴿نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ هو أحد علماء بني إسرائيل، أو أمية بن أبي الصلت فإنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسلٌ رسولاً في ذلك الزمان، ورجا أن يكون هو فلما بعث محمد عليه السلام حسده وكفر به، أو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتي علم بعض كتب الله، ﴿فَآنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها^(٢). ﴿فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ حتى

(١) أخرج مالك في الموطأ (٢/٨٩٨ رقم ٢) وأحمد في المسند (١/٤٤، ٤٥) والبخاري في التاريخ الكبير (٨/٩٧) وأبو داود (٥/٧٩ - ٨٠ رقم ٤٧٠٣ ورقم ٤٧٠٤) والترمذي (٥/٢٦٦ رقم ٣٠٧٥) وابن حبان (ص ٤٤٧ رقم ١٨٠٤ - موارد) والحاكم (٢/٣٢٤ - ٣٢٥) كلهم من طريق مالك، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار عن عمر. إلا البخاري وأبو داود (رقم: ٤٧٠٤) فقد رواه عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة عن عمر.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً.

قلت: هذا الرجل هو «نعيم بن ربيعة الأزدي» وهو مقبول كما في «التقريب» (٢/٣٠٥). وهو حديث صحيح بشواهده.

(منها): حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي ولفظه «إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فقال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر». أخرجه أحمد في المسند (٤/١٨٦) والحاكم في المستدرک (١/٣١).

وأورده الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٤٨).

(ومنها): حديث أبي الدرداء بنحو حديث عبد الرحمن بن قتادة.

أخرجه أحمد في المسند (٦/٤٤١) والبخاري والطبراني - كما في «المجمع» (٧/١٨٥) -.

وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٤٩).

(ومنها) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بنحو حديث عمر في سياق أطول منه. أخرجه أحمد (٢/١٦٧) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/١٥٤ - ١٥٥ رقم: ٣٤٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/١٦٨).

وحسنه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٨٤٨) وتخريج السنة.

قلت: وانظر روايات أخرى عن جماعة من الصحابة في «الدر المشور» (٣/٥٩٨ - ٦٠٧).

(٢) عبر عنه بالانسلاخ المنبئ عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملافاة بينهما أبداً للإيدان بكمال مبايئته =

لحقه وقيل استتبعه. ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين. روي أن قومه سألوه أن يدعو على موسى ومن معه فقال: كيف أدعو على من معه الملائكة، فألحوا حتى دعا عليهم فبقوا في التيه.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَلِلْ الْكَلْبَ إِنْ تَحِمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

(١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء. ﴿بِهَا﴾ بسبب تلك الآيات وملازمتها. ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا، أو إلى السفالة. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إثارة الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضى الآيات، وإنما علق رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العبد تنبيهاً على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وأن عدمه دليل عدمها دلالة انتفاء المسبب على انتفاء سببه، وأن السبب الحقيقي هو المشيئة وأن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث إن المشيئة تعلقت به كذلك، وكان من حقه أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد إلى الأرض واتبع هواه مبالغة وتنبيهاً على ما حمله عليه وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ﴿فَشَلِلْ﴾ فصفتة التي هي مثل في الخسة. ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ كصفته في أخس أحواله، وهو: ﴿إِنْ تَحِمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي يلهث دائماً سواء حُمِلَ عليه بالزجر والطرود أو تُرِكَ ولم يُتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده. واللهث إدلاع اللسان من التنفس الشديد، والشرطية في موضع الحال والمعنى: لاهثاً في الحالتين، والتمثيل واقع موقع لازم التركيب الذي هو نفثي الرفع ووضع المنزلة للمبالغة والبيان. وقيل لما دعا على موسى عليه السلام خرج لسأته فوقع على صدره وجعل يلهث كالكلب. ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ﴾ القصة المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاعتاظ.

(١٧٧) ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ أي مثل القوم، وقرئ ساء مثل القوم على حذف المخصوص بالذم. ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها. ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ إما أن يكون داخلاً في الصلة معطوفاً على كذبوا بمعنى: الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتخطاها، ولذلك قدم المفعول.

(١٧٨) ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تصريح بأن الهدى والضلال من الله وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفراد في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين،

والاقتصارُ في الإخبارِ عن هداة الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء وتنبية على أنه في نفسه كمالٌ جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا. ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني المصريين على الكفر في علمه تعالى. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾^(١) إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله. ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي لا ينظرون إلى ما خلق الله نظر اعتبار. ﴿وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر. ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ وقيل الصفات. ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء. ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمي به نفسه كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كالكالات من الله، والعزى من العزيز ولا توافقهم عليه، أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقرأ حمزة هنا وفي فصلت يُلْحِدُونَ بالفتح يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ذكر ذلك بعد ما بين أنه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق عادلين في الأمر، واستدل به على صحة الإجماع لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله»^(٢)، إذ لو اختص بعهد الرسول أو

(١) حذف مفعول يفقهون للتعميم، أي لهم قلوب لا يفقهون بها أي شيء من شأنه أن يفقه (س/٣/٢٩٥).

(٢) أخرج البخاري (١٣/٢٩٣ رقم ٧٣١١) من حديث المغيرة عن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون».

وأخرجه مسلم (٢/١٥٢٣ رقم ١٧١/١٩٢١) عن المغيرة أيضاً بلفظ «لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون».

● وأخرج مسلم (٢/١٥٢٤ رقم ١٧٤/١٠٣٧) عن معاوية مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس».

غيره لم يكن لذكره فائدة فإنه معلوم^(١).

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

(١٨٢) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنستدرجهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً، وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستئزال درجة بعد درجة^(٢). ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم، عطف على سنستدرجهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداً ﷺ^(٣). ﴿مِّنْ جِنَّةٍ﴾ من جنون. روي: أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فخذأ فخذأ يحذرهم بأس الله تعالى فقال: قائلهم إن صاحبكم لمجنون بات يهُوت إلى الصباح، فنزلت^(٤). ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ موضح إنذاره بحيث لا يخفى على ناظر.

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ نظر استدلال. ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكتها ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوههم إليه. ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطف على ملكوت، وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وكذا اسم يكون. والمعنى: أولم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل

= ● وأخرج مسلم (١٥٢٣/٢) رقم ١٧٠/١٩٢٠ عن ثوبان مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم. حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» وليس في حديث قتبية «وهم كذلك».

● وأخرج مسلم (١٥٢٤/٢) رقم ١٧٣/١٩٢٣ عن جابر بن عبد الله مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي يُقَابِلُونَ على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

(١) والاقتصار على نعمتهم بهداية الناس للإيمان بأن اعتداءهم في أنفسهم أمر محقق غني عن التصريح به (س٣/٢٩٧).

(٢) وإضافة الآيات إلى نون العظمة لتشريفها واستعظام الإقدام على تكذيبها (س٣/٢٩٧).

(٣) والتعبير عنه بصاحبهم للإيمان بأن طول مصابحتهم له عليه السلام مما يطلعهم على نزاهته عليه السلام عن شائبة ما ذكر، ففيه تأكيد للنكير وتشديد له (س٣/٢٩٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٣٦) ج٩ عن قتادة.

وذكره الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٦٦ رقم ٤٢) - أخرجه - الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة.

مغافصة الموت ونزول العذاب. ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدُهُ﴾ أي بعد القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر. وقيل هو متعلق بقوله: «عسى أن يكون» كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه، فإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به، وقوله:

مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٦) ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ كالتقرير والتعليل له^(١). ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ بالرفع على الاستئناف. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء لقوله «من يضلل الله»، وحمزة والكسائي به وبالجزم عطفاً على محل فلا هادي له، كأنه قيل: لا يهده أحد غيره ويذرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال من هم.

(١٨٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي عن القيامة، وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها على طولها عند الله كساعة. ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها أي إثباتها واستقرارها. ورسو الشيء ثباته واستقراره، ومنه رسا الجبل وأرسى السفينة. واشتقاق أيان من أي لأن معناه أي وقت؟ وهو من أويت إليه لأن البعض أوى إلى الكل. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر به لم يُطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا^(٢). ﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا﴾ لا يظهر أمرها في وقتها. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره إلى وقت وقوعها، واللام للتأقيت كاللام في قوله: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾^(٣). ﴿نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ﴾ إلا فجأة على غفلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يُصلح حوضه والرجل يُسقي ماشيته والرجل يقوم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه»^(٤). ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ عالم بها، فعيل من حفي عن الشيء إذا سأل عنه،

(١) توحيد الضمير في حيز النفي نظراً إلى لفظ مَنْ، وجمعه في حيز الإثبات نظراً إلى معناها، وذلك للتخصيص على شمول النفي والإثبات للكل (س/٣/٣٠٠).

(٢) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأن توفيقه عليه السلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد (س/٣/٣٠١).

(٣) الإسراء: «٧٨».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/٩/١٤٠) عن قتادة.

وأخرج البخاري (١١/٣٥٢ رقم ٦٥٠٦) و(١٣/٨٢ رقم ١٧٢١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرأها الناس آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.» =

فإن مَنْ بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه استحکم علمه فيه، ولذلك عُدِّي بعن. وقيل هي صلة يسألونك. وقيل هو من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة، والمعنى يسألونك عنها كأنك حفي تتحفي بهم فتحضهم لأجل قرابتهم بتعليم وقتها. وقيل معناه كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه، مِنْ حَفِيٍّ بالشيء إذا فرح أي تكثره لأنه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ كرهه لتكرير يسألونك لما نيط به من هذه الزيادة وللمبالغة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لِيَأْتِيَنَا صَالِحًا فَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

(١٨٨) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ جلب نفع ولا دفع ضرر، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب^(١). ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار المنافع واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة^(٢). ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم المتفنعون بهما، ويجوز أن يكون متعلقاً بالبشير ومتعلق النذير محذوف.

(١٨٩) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم^(٣). ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها كقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٤). ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه، وإنما ذكر الضمير ذهاباً إلى المعنى ليناسب: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي جامعها. ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ خف عليها ولم تلق منه ما تلقى منه الحوامل غالباً من الأذى، أو محمولاً خفيفاً وهو النطفة. ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فاستمرت به أي قامت

ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه. ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقى فيه. ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها.

وأخرجه مسلم (٤/٢٢٧٠ رقم ٢٩٥٤/١٤١) بلفظ «تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم. والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم والرجل يلبط في حوضه، فما يصدُر حتى تقوم».

(١) وإعادة الأمر «قل» لإظهار كمال العناية بشأن الجواب، والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول (س٣/٣٠٢).

(٢) وتقديم النذير على البشير لأن المقام مقام الإنذار (س٣/٣٠٢).

(٣) إيقاع الموصول خبراً لتفخيم شأن المبتدأ، أي ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم... (س٣/٣٠٣).

(٤) النحل: (٧٢).

وقعدت. وقرىء فمَرَّتْ بالتخفيف، وفاسْتَمَرَّتْ به، وفَمَارَتْ من المور وهو المجيء والذهاب أو من المِزْيَةِ أي فظنت الحمل وارتابت منه. ﴿فَلَمَّا أَثَقَلَتْ﴾ صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها. وقرىء على البناء للمفعول أي أثقلها حملها. ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ ولدًا سويًا قد صلح بدنه. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على هذه النعمة المجددة.

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

(١٩٠) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ جعل أولادهما له شركاء فيما آتى أولادهما فسموه عبدالعزى وعبدمناف على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه^(١)، ويدل عليه قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(١٩١) ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ يعني الأصنام. وقيل^(٢): لما حملت حواء أتناها إبليس في صورة رجل فقال لها: ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج، فخافت من ذلك وذكرته لآدم فهما منه ثم عاد إليها وقال: إني من الله بمنزلة فإِنْ دَعَوْتَ اللَّهَ أَنْ يجعله خلقاً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبدالحرث، وكان اسمه حارثاً بين الملائكة فتقبلت، فلما ولدت سميها عبدالحرث. وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء. ويحتمل أن يكون الخطاب في خلقكم لآل قصي من قريش، فإنهم خلقوا من نفس قصي وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله الولد فأعطاها أربعة بنين فسميهم: عبدمناف، وعبدشمس، وعبدقصي، وعبدالدار. ويكون الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما. وقرأ نافع وأبو بكر شِرْكَاءَ أي شِرْكةً بان أشركا فيه غيره أو ذوي شرك وهم الشركاء، وهم ضمير الأصنام جيء به على تسميتهم إياها آلهة^(٣).

(١٩٢) ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لعبدتهم. ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها.

(١) وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر لأن المساق لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح (س/٣/٣٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/١٤٧) عن سعيد بن جبير.

وأخرج الترمذي (٥/٢٦٧ رقم ٣٠٧٧) عن سمرة عن النبي ﷺ قال: لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمي عبدالحارث، فعاش ذلك، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. وأخرجه أحمد في المسند (٥/١١) والحاكم (٢/٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبي والطبري (رقم: ١٥٥١٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد بن عبد الوارث، ولم يرفعه.

قلت: الحسن قد عنعن عند الجميع وهو مدلس، وهو لم يسمع من سمرة. فالحديث ضعيف.

وأعله الحافظ ابن كثير من ثلاثة وجوه: انظرها في تفسيره (٢/٢٨٦).

(٣) إيراد الأصنام بجمع العقلاء بحسب اعتقادهم فيها وإجرائهم لها مجرى العقلاء، وكذا تسميتها آلهة. ووصفها بالمخلوقة بعد وصفها بنفي الخالقية لإبانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه في حقها وإظهار غاية جهلهم. وعدم التعرض لخالقتها للإيذان بتعينه والاستغناء عن ذكره (س/٣/٣٠٥).

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

(١٩٣) ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي المشركين^(١). ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ إلى الإسلام. ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وقرأ نافع بالتخفيف وفتح الباء، وقيل الخطاب للمشركين وهم ضمير الأصنام أي: إن تدعوهم إلى أن يهدوكم لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ وإنما لم يقل أَمْ صمتتم للمبالغة في عدم إفادة الدعاء من حيث إنه مسوى بالثبات على الصمات، أو لأنهم ما كانوا يدعونها لحوائجهم فكانه قيل: سواء عليكم إحداثكم دعاءهم واستمراركم على الصمات عن دعائهم.

(١٩٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة. ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ من حيث إنها مملوكة مسخرة. ﴿فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم آلهة، ويحتمل أنهم لما نحتوها بصور الأناسي قال لهم: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض، ثم عاد عليه بالنقض فقال:

(١٩٥) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وقرئ إن الذين بتخفيف إن ونصب عباد على أنها نافية عملت عمل ما الحجازية ولم يثبت مثله، وَيَبْطِشُونَ بالضم ههنا وفي القصص والدخان^(٢). ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي. ﴿ثُمَّ كِيدُوا﴾ فبالغوا فيما تقدرن عليه من مكر، وهي أنتم وشركاؤكم. ﴿فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ فلا تُمهلون فإني لا أبالي بكم لو توقي على ولاية الله تعالى وحفظه^(٣).

(١٩٦) ﴿إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن^(٤). ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه.

(١٩٧) ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم.

(١٩٨) ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يُشبهون الناظرين إليك، لأنهم صوّروا بصورة مَنْ ينظر إلى من يواجهه.

(١) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لبيان مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكي (س ٣/٣٠٥).

(٢) القصص: ١٩٦ والدخان: ١٦٦.

(٣) وتقديم الأعين على الآذان لأنها أشهر من الآذان وأظهر عيناً وأثراً (س ٣/٣٠٧).

(٤) ووصفه تعالى بإنزال الكتاب للإشعار بدليل الولاية (س ٣/٣٠٧).

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتِيْعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

(١٩٩) ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تطلب ما يشق عليهم، من العفو الذي هو ضد الجهد، أو خذ العفو عن المذنبين أو الفضل وما يسهل من صدقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة. ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ المعروف المستحسن من الأفعال. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلا تمارهم ولا تكافتهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق أمرة للرسول باستجماعها.

(٢٠٠) ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ ينخسك منه نخس أي وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به كاعتراء غضب وفكر، والنزع والنسخ والنخس الغرز، شبه وسوسته للناس إغراء لهم على المعاصي وإزعاجاً بغرز السائق ما يسوقه. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك. ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو سمع بأقوال من آذاك عليهم بأفعاله فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان.

(٢٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ لُمة منه، وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم، أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب طَيْفٌ على أنه مصدر أو تخفيف طَيْفٌ كلتين وهتين، والمراد بالشیطان الجنس ولذلك جمع ضميره. ﴿تَذَكَّرُوا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ بسبب التذكر مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها، والآية تأكيد وتقرير لما قبلها وكذا قوله:

(٢٠٢) ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا يمددهم الشياطين. ﴿فِي الْغَيِّ﴾ بالتزيين والحمل عليه، وقرئ يُمِدُّونَهُمْ من أمد، ويُمَادُونَهُمْ كأنهم يُعِينُونَهُمْ بالتسهيل والإغراء وهؤلاء يعينونهم بالاتباع والامثال. ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يَرُدُّوهم، ويجوز أن يكون الضمير للإخوان أي لا يكفون عن الغي ولا يقصرون كالمتمقين، ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير إلى الجاهلين فيكون الخبر جارياً على ما هو له.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ من القرآن أو مما اقترحوه. ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا جمعتها تقولاً من نفسك كسائر ما تقرؤه، أو هلا طلبتها من الله. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتِيْعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ لست بمخترق للآيات، أو لست بمقترح لها. ﴿هَذَا بَصَآئِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب بها يبصر الحق ويدرك الصواب. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سبق تفسيره.

وَإِذَا قُرِئْتَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئْتَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلت في الصلاة، كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له . وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يُقرأ القرآن مطلقاً، وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف.

(٢٠٥) ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ عام في الأذكار من القراءة والدعاء وغيرهما، أو أمر للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً فوق السر ودون الجهر فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص. ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ بأوقات الغدو والعشيات. وقرىء والإيصال، وهو مصدر أصل إذا دخل في الأصل، وهو مطابق للغدو. ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني ملائكة الملائكة الأعلى. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه. ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين ولذلك شرع السجود لقراءته. وعن النبي ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي فيقول: يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار»^(٢) وعنه ﷺ «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً وكان آدم شافعاً له يوم القيامة»^(٣).

☆☆☆

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول عن قتادة ص ٢٣٣.

(٢) أخرجه مسلم ٨٧/١ رقم ٨١/١٣٢ وابن ماجه ٣٣٤/١ رقم ١٠٥٢ من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه الثعلبي عن أبي، وهو موضوع.

فهرس السور

اسم السورة	رقم الصفحة
خطبة الكتاب	٥
تفسير سورة الفاتحة	٧
تفسير سورة البقرة	٢٤
تفسير سورة آل عمران	٢٤٢
تفسير سورة النساء	٣٢٩
تفسير سورة المائدة	٤١٦
تفسير سورة الأنعام	٤٧٧
تفسير سورة الأعراف	٥٩١ - ٥٣٣

☆ ☆ ☆

فهرس الأجزاء

خطبة الكتاب	٥
سورة الفاتحة جـ/١	٧
سورة البقرة جـ/٢	١٤٥
سور البقرة جـ/٣	٢١٣
سورة آل عمران جـ/٤	٢٧٧
سورة النساء جـ/٥	٣٤٥
سورة النساء جـ/٦	٤٠٤
سورة المائدة جـ/٧	٤٥٥
سورة الأنعام جـ/٨	٥١٢
سورة الأعراف جـ/٩	٥٩١ - ٥٥٨

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

نَفْسُ الْبَيْضَاءِ

المسمى

أَنْوَالُ النَّبَا فِي أَسْرَارِ النَّبَاوِلِ

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البضاوي

ت : ٧٩١ هـ

حَقَّقَهُ وَوَعَلَقَ عَلَيْهِ وَخَرَجَ أَحَادِيثُهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

مُحَمَّدُ صَبَّحِي بْنُ حَسَنٍ حَلَّاقٍ فِي الدُّكُورِ مُحَمَّدُ أَحْمَدُ الْأَطْرَشُ

المجلد الثاني

جميع الحقوق محفوظة

لدار الرشيد

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م



سُورَةُ الْأَنْفَالِ

آياتها
٧٥ترتيبها
٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

(١) ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ أي الغنائم يعني حكمها، وإنما سميت الغنيمة نفلًا لأنها عطية من الله وفضل كما سمي به ما يشترطه الإمام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه. ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمره الله به. وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم المهاجرون منهم أو الأنصار^(١). وقيل شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينفله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم - وكان المال قليلاً - فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رداءً لكم وفئة تتحازون إلينا، فنزلت، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء^(٢)، ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفي بما وعد وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وعن سعد بن أبي

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٢٢/٥) و(٣٢٤/٥) وابن حبان (ص ٤١٠ رقم ١٦٩٣ - موارد) والحاكم في المستدرک (١٣٥/٢) و(٣٢٦/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٩٢/٦) و(٣١٥/٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٧٢) من طرق عن أبي أمامة عن عباد بن الصامت. وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٥/٣) رقم ٢٧٣٧ وابن حبان (ص ٤٣١ رقم ١٧٤٣ - موارد) والحاكم في المستدرک (٢/٢٢١ - ٢٢٢ - ٣٢٦) والنسائي - كما في تحفة الأشراف (١٣٢/٥) - من حديث ابن عباس. وهو حديث

وقاص^(١) رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيت به رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك اطرحة في القبض فطرحته، وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سَلْبِي فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهب فخذ^(٢). وقرىء يسألونك عِلْفَال بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام وإدغام نون عن فيها، ويسألونك الأنفال أي يسألك الشبان ما شرطت لهم. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة. ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله وتسليم أمره إلى الله والرسول. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه^(٣). ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

(٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرِعت لذكره استعظماً له ونهيياً من جلاله. وقيل هو الرجل يهَمُّ بمعصية فيقال له اتق الله فيتزع عنها خوفاً من عقابه. وقرىء وَجِلَتْ بالفتح وهي لغة، وفَرَقَتْ أي خافت. ﴿وَلِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ أَيْتُهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لزيادة المؤمن به، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة، أو بالعمل بموجبها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

(٤) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة والصدقة، وحققاً صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد كقوله: هو عبدالله حقاً. ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ كرامة وعلو منزلة. وقيل درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أُعِدَّ لهم في الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمدّه.

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/١٨٠) وأبو عبيد في الأموال (ص ٢٧٩ رقم ٧٥٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٧٣ ج ٩) وابن أبي شيبة، وابن مردويه كما في «الدر» (٣/٤). عنه.

ورجال إسناده ثقات، إلا أن محمد بن عبيد الله لم يدرك سعد بن أبي وقاص (المراسيل لابن أبي حاتم: ص ١٨٤ رقم ٦٦٥).

● وأخرجه أبو داود (٣/١٧٧ رقم ٢٧٤٠) والترمذي (٥/٢٦٨ رقم ٣٠٧٩) والنسائي في تفسيره (١/٥١٣ رقم ٢١٦) وابن جرير (٦/١٧٣ ج ٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢٩١) عن سعد نحوه.

● وأخرجه مسلم (٣/١٣٦٧ رقم ١٧٤٨/٣٣) عن سعد نحوه مختصراً.

(٢) وتوسط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة (س ٣/٤).

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾

(٥) ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال في كراحتهم إياها كحال إخراجك للحرب في كراحتهم له، وهي كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة. أو صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿ يَلِّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أي الأنفال ثبتت لله والرسول ﷺ مع كراحتهم ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة لأنها مهاجرة ومسكنه أو بيته فيها مع كراحتهم. ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ في موقع الحال أي أخرجك في حال كراحتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقاها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة، فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، عيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت قبل ذلك بثلاث عاتكة بنت عبدالمطلب أن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضى بهم إلى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذفران فتزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين إما العير وإما قريش، فاستشار فيه أصحابه فقال بعضهم: هلاً ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للعير، فردد عليهم وقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالوا فأحسننا، ثم قام سعد بن عباد فقال: انظر أمرك فامض فيه فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو: امض لما أمرك الله فلنا معك حيشما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾^(١) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف أن لا يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله، فقال: أجل، قال: آما بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسير بنا على بركة الله تعالى، فنشطه قوله ثم قال: سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني أنظر إلى مصارع

القوم^(١). وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بدر قيل له: عليك بالعبير فناده العباس وهو في وثاقه لا يصلح فقال له لِمَ؟ فقال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله^(٢).

يُجِدُّ لَوْلَاكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾

(٦) ﴿يُجِدُّ لَوْلَاكَ فِي الْحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقى العير عليه. ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ لهم أنهم يُنْصَرُونَ أينما توجهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلّة عددهم وعدم تأهبهم إذ روي أنهم كانوا رجالاً وما كان فيهم إلا فارسان، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

(٧) ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ على إضمار اذكر^(٣)، وإحدى ثاني مفعولي يعدكم وقد أبدل منها. ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل الاشتمال. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ يعني العير فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقاته النفير لكثرة عددهم وعددهم، والشوكة الحجة مستعارة من واحدة الشوك^(٤). ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يثبت ويعليه. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ الموحى

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/٩٨٥ - ١٨٦) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس وأخرجه أيضاً ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/٢٩٥ - ٣٠٦) من نفس الطريق.

● أما حديث نذب الرسول أصحابه لملاقاة العير فقد صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده صحيح.

● وأما حديث رؤيا عاتكة: فقد صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع.

● أما مشاورة النبي ﷺ لأصحابه، فقد أخرجه البخاري (٧/٢٨٧ رقم ٣٩٥٢) عن ابن مسعود. ومسلم (٣/١٤٠٣ - ١٤٠٤ رقم ١٧٧٩/٨٣) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/٢٢٩، ٣١٤، ٣٢٦) والترمذي (٥/٢٦٩ رقم ٣٠٨٠) والحاكم (٢/٣٢٧) من حديث ابن عباس.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وقال الألباني في ضعيف الترمذي ضعيف الإسناد.

قلت: رواية سماك عن هكرمة مضطربة. كما أن العباس كان من الأسارى فكيف عرف كلام الله هذا؟.

(٣) والتكثير بالوقت - مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث - للمبالغة في إيجاب ذكرها، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها - (س/٤/٦) -.

(٤) والتعبير عنهم بذلك للتنبيه على سبب مودتهم لملاقاتهم وموجب كراحتهم ونفرتهم عن موافاة النفير (س/٤/٧).

بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد. وقرىء بكلمته. ﴿وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ويستأصلهم، والمعنى: أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروهاً والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين.

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي فَعَلَ ما فَعَلَ، وليس بتكرير لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مُرَادِهِم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٩) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من إِذْ يَعِدْكُمْ، أو متعلق بقوله ليحق الحق، أو على إضمار اذكر، واستغاثتهم أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي رب انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين، وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه السلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه، فقال أبو بكر: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك^(١). ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ بآني ممدكم، فحذف الجارَ وسلط عليه الفعل. وقرأ أبو عمرو بالكسر^(٢) على إرادة القول أو إجراء استجابة مجرى قال لأن الاستجابة من القول. ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ مُتَّبِعِينَ الْمُؤْمِنِينَ أو بعضهم بعضاً، مِنْ أَرْدَفْتَهُ أَنَا إِذَا جِثْتُ بَعْدَهُ، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين، أو أنفسهم المؤمنين من أَرْدَفْتَهُ إِيَّاهُ فَرَدَفَهُ. وقرأ نافع ويعقوب مُرَدِّفِينَ - بفتح الدال - أي متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم، وقرىء مُرَدِّفِينَ بكسر الراء وضمها وأصله مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء في الدال فالتقى ساكنان فحركات الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الاتباع، وقرىء بآلاف ليوافق ما في سورة آل عمران^(٣). ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالآلف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة، أو وجوههم وأعيانهم، أو من قاتل منهم. واختلف في مقاتلتهم وقد روي أخبار تدل عليها^(٤).

(١٠) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾

(١) أخرجه مسلم (٣/١٣٨٣ - ١٣٨٤ رقم ٥٨/١٧٦٣) والترمذي في السنن (٥/٢٦١ رقم ٣٠٨١) وأحمد (١/٣٠ - ٣٢).

(٢) أي بكسر الهمزة «إني».

(٣) آل عمران: (١٢٥).

(٤) وصيغة الاستقبال في تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها المعجبة (س٧/٤).

فيزول ما بها من الوجل لفلتكم وذلتكم. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمدادُ الملائكة وكثرةُ العدد والأهْب ونحوهما وسائطُ لا تأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

(١١) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ﴾ بدلُ ثانٍ من إذ يعدكم لإظهار نعمة ثالثة، أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله من معنى الفعل أو بجعل أو بإضمار اذكر. وقرأ نافع بالتخفيف من أغشيته الشيء إذا غشيته إياه، والفاعل على القراءتين هو الله تعالى، وقرأ ابن كثير وأبو عمر يَغْشَاكُمُ النُّعَاسُ بالرفع. ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أمانة من الله، وهو مفعول له باعتبار المعنى فإن قوله يغشيكم النعاس متضمن معنى تنعسون، ويغشاكم بمعناه، والأمانة فغل لفاعله، ويجوز أن يراد بها الإيمان فيكون فعل المغشي، وأن تجعل على القراءة الأخيرة فعل النعاس على المجاز لأنها لأصحابه، أو لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف فلما غشيهم فكانه حصلت له أمانة من الله لولاها لم يغشهم كقوله:

يَهَابُ النَّوْمُ أَنْ يَغْشَى عُيُوناً تَهَابُكَ فَهُوَ نَفَارٌ شَرُودٌ

وَقَرَأَ أَمَنَةً كَرَحْمَةٍ وَهِيَ لَفَةٌ. ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ من الحدث والجنابة. ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني الجنابة لأنها من تخيله، أو وسوسته وتخوفه إياهم من العطش. روي أنهم نزلوا في كتيب أغفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنْصَرُونَ، وقد غلبتم على الماء وأنتم تصلون محدثين مجنبن وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، فأسفقوا فأنزل الله المطر، فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عُذُوتِهِ وَسَقَوْا الرِّكَابَ وَاغْتَسَلُوا وَتَوَضَّؤُوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة^(١). ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾ بدل ثالث، أو متعلق بيبثت. ﴿إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم، وهو مفعول يوحى. وقرأ بالكسر^(٢) على إرادة القول أو إجراء الوحي مجراه. ﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالبشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمحاربة أعدائهم، فيكون قوله: ﴿سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ كالتفسير لقوله أني معكم فثبتوا، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ومن منع ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين إما على تغيير الخطاب أو على أن قوله: ﴿سَأَلَتِي﴾ إلى قوله ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ تلقين

(١) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس (روح المعاني ١٧٦/٩).

(٢) أي بكسر الهمزة «إني».

للملائكة ما يشبتون المؤمنين به كأنه قال: قولوا لهم قولي هذا. ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس. ﴿وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع أي جُزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم^(١).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَايَأِيَّ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كَمْ فَذُوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب أو الأمر به، والخطاب للرسول، أو لكل أحد من المخاطبين قبل. ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بسبب مشاققتهم لهما، واشتقاقه من الشَّقَّ لأن كلاً من المتعادين في شق خلاف شق الآخر كالمعاداة من العدو والمخاصمة من الخصم وهو الجانب. ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَايَأِيَّ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

(١٤) ﴿ذَلِكَ كَمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات، ومحلّه الرفع أي: الأمر ذلكم أو ذلكم واقع، أو نُصِبَ بفعل دل عليه: ﴿فَذُوْقُوهُ﴾ أو غيره مثل باشروا أو عليكم، فتكون الفاء عاطفة. ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ عطف على ذلكم، أو نصب على المفعول معه، والمعنى ذوقوا ما عَجِّلَ لكم مع ما أجل لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما. وقرئ وإن بالكسر على الاستئناف.

(١٥) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبي إذا دب على مِقْعَدِهِ قليلاً قليلاً سمي به وُجِعَ على زحوف، وانتصابه على الحال. ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ بالانهمزام فضلاً أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم، والأظهر أنها محكمة مخصوصة بقوله: ﴿حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(٢) الآية، ويجوز أن ينتصب «زحفاً» حالاً من الفاعل والمفعول أي: إذا لقيتموهم مترحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا، أو من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا، وهم اثنا عشر ألفاً.

(١٦) ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ يريد الكرّ بعد الفر وتغرير العدو، فإنه من مكاييد الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم، ومنهم من لم يعتبر القرب لما روى ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ ففروا إلى المدينة فقلت: يا رسول الله نحن الفرارون فقال: «بل أنتم العكارون وأنا فتكتكم»^(٣).

(١) وتكرير الأمر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره (س/٤/١١).

(٢) الأنفال: ٦٥.

(٣) أخرجه أبو داود (١٠٦/٣ - ١٠٧ رقم ٢٦٤٧) والترمذي (٢١٥/٤ رقم ١٧١٦).

وأحمد (٧٠/٢، ٨٦، ١١١) والبيهقي في السنن الكبرى (٧٦/٩، ٧٧).

وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الحال، وإلا لغو لا عمل لها، أو الاستثناء من المولين أي إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً، ووزن متحيز مُتَفَيِّل لا مُتَفَعِّل وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز. ﴿فَقَدَبَاءَ يَضْطَرُّ مِنَ اللَّهِ وَمَاؤُهُ جَهَنَّمُ وَيُسْكَ الْمَصِيرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضعف لقوله: ﴿أَلْقَنَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الآية، وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئْسَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسْبًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

(١٧) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم. روي: أنه لما طلعت قريش من العتقل قال عليه الصلاة والسلام: «هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصباء فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبقَ مشرك إلا شغل بعينه، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر فيقول الرجل قتلْتُ وأسرت، فتزلت^(١). والفاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوههم ولكن الله قتلهم. ﴿وَمَا رَمَيْتُمْ﴾ يا محمد رمياً توصله إلى أعينهم ولم تقدر عليه: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي إذ أتيت بصورة الرمي. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ أتى بما هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكثتم من قطع دابرهم، وقد عرفت أن اللفظ يُطلق على المسمى وعلى ما هو كماله والمقصود منه. وقيل معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم. وقيل إنه نزل في طعنة طعن بها أبي بن خلف يوم أحد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات^(٢). أو رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كنانة بن أبي الحقيق على

= والبخاري في الأدب المفرد (رقم: ٩٧٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد.

قلت: يزيد هذا ضعيف. انظر ترجمته (٢٦٥/٩) والكمال (٢٧٢٩/٧) والمجروحين (١١٢/٣) والميزان (٤٢٣/٤).

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في الإرواء (رقم: ١٢٠٣).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/٩ ج ٢٠٤) عن هشام بن عروة مرسلاً وليس فيه (أمر جبريل له بذلك). وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/٩ ج ٢٠٥) عن ابن عباس، (أمر جبريل له بذلك). وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/٩ ج ٢٠٤ - ٢٠٥) عن حكيم بن حزام ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد.

وانظر «الكافي الشاف» للمحافظ ابن حجر (ص ٦٨ رقم ٦٤).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٣٦ والحاكم في المستدرک (٢/٣٢٧) وصححه ووافقه الذهبي. وساقه ابن كثير وبين أن المراد أن الآية تتناوله بعمومها لا أنها نزلت فيه بشكل خاص. (تفسير ابن كثير ٢/٢٨٣).

فراشه^(١)، والجمهور على الأول. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي ولكن بالتخفيف ورفع ما بعده في الموضعين^(٢). ﴿وَلِيُثَبِّتَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات فَعَلَّ مَا فَعَلَ. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن أو القتل أو الرمي، ومحلّه الرفع أي المقصود أو الأمر ذلكم، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف عليه أي المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو مؤهّن بالتشديد، وحفص مؤهّن كيد بالإضافة والتخفيف^(٣).

(١٩) ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين. ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ لمحاربتة. ﴿نَعْدًا﴾ لنصرته عليكم. ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ ولن تدفع. ﴿عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء أو المضار. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فتتكم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة. وقرأ نافع وابن عامر وحفص وأن بالفتح على تقدير ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك^(٤). وقيل: الآية خطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهيج العدو، ولن تغني حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإنه مع الكاملين في إيمانهم، ويؤيد ذلك:

(٢٠) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي ولا تتولوا عن الرسول، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٥) وقيل: الضمير للجهاد، أو للأمر الذي دل عليه الطاعة. ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواظع سماع فهم وتصديق.

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم كما ذكر في الفتح السماوي ص ٦٥٣.

(٢) وتجريد فعل الرمي عن المفعول به لأن المقصود الأصلي بيان حال الرمي نفيًا وإثباتًا (س ١٣/٤).

(٣) لعل الأصل عند البضاوي قراءة من قرأ «موهّن كيد» بتوئين الأول وتخفيفه وينصب الثاني.

(٤) لعل الأصل عند البضاوي الكسر، أي «إن الله مع المؤمنين».

(٥) النساء: (٨٠).

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادَّعوا السماع. ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماعاً ينتفعون به فكانهم لا يسمعون رأساً.

(٢٢) ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ شر ما يدب على الأرض، أو شر البهائم. ﴿ الصَّمُّ ﴾ عن الحق. ﴿ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إياه، عدَّهم من البهائم ثم جعلهم شرّها لإبطالهم ما ميزوا به وفُضِّلوا لأجله^(١).

(٢٣) ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ سعادة كتبت لهم، أو انتفاعاً بالآيات. ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تفهم. ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم. ﴿ لَتَوَلَّوْا ﴾ ولم ينتفعوا به، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول. ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ لعنادهم. وقيل^(٢) كانوا يقولون للنبي ﷺ: أخى لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك ونؤمن بك. والمعنى لأسمعهم كلام قصي.

(٢٤) ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ بالطاعة^(٣). ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ وخذ الضمير فيه لما سبق ولأن دعوة الله تُسمع من الرسول. وروي أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبي وهو يصلي، فدعاه، فعجل في صلاته ثم جاء، فقال: «ما منعك عن إجابتي؟» قال: كنت أصلي، قال: «ألم تُخَبِّر فيما أوحى إلي: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾»^(٤). واختلف فيه، فقيل: هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة فإن الصلاة أيضاً إجابة. وقيل لأن دعاءه كان لأمر لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، وظاهر الحديث يناسب الأول. ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهل موته. قال:

(١) وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكهم، فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه (س/٤/١٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/٣٤٤) بدون راوٍ ولا سند.

(٣) كرر النداء مع وصفهم بالإيمان لتثبيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يردُّ بعده من الأوامر (س/٤/١٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/٩/٢١٤) والترمذي (٥/١٥٥ رقم ٢٨٧٥) بنحوه، وقال هذا حديث حسن صحيح. وأحمد في المسند (٢/٤١٢ - ٤١٣) عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ على أبي بن كعب... الحديث.

وأخرجه البخاري (٨/١٥٦ رقم ٤٤٧٤) عن أبي سعيد بن المعلى.

وقال الحافظ في «الفتح» (٨/١٥٧): «وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب ولأبي سعيد المعلى، ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين، واختلاف سياقهما كما سألته» هـ.

وانظر تحفة الأحوذى للمباركفوري (٨/١٨٠).

لَا تَعْجَبَنَّ الْجَهُولَ حِلَّتْهُ فَذَلِكَ مَيِّتٌ وَتَوْبُهُ كَفَّ ن

أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال، أو من الجهاد فإنه سبب بقائكم إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم، أو الشهادة لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١).
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢) وتنبية على مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبها، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصوير وتخيل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته. وقرىء بين المرّ بالتشديد على حذف الهمة وإلقاء حركتها على الراء وإجراء الوصل مجرى الوقف على لغة من يشدد فيه. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَادْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَآيَدُكُمْ بِضُرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ اتقوا ذنباً يعمكم أثره كإقرار المنكر بين أظهركم والمداهنة في الأمر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد، على أن قوله لا تصيبين إما جواب الأمر على معنى إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم، وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهي ساغ فيه كقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾^(٣) وإما صفة لفتنة، ولا للنفي، وفيه شدوذ لأن النون لا تدخل المنفي في غير القسم، أو للنهي على إرادة القول كقوله:

حتى إذا جنّ الظلام واختلط جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب قط

وإما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبين وإن اختلفا في المعنى، ويحتمل أن يكون نهياً بعد الأمر باتقاء الذنب عن التعرض للظلم لأن وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه، ومن في منكم على الوجوه الأول للتبعض وعلى الآخرين للتبيين، وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح من غيركم. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(٢٦) ﴿وَادْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة يستضعفكم قريش، والخطاب للمهاجرين. وقيل للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) ق: ١٦٦.

(٣) النمل: ١٨.

والروم^(١). ﴿تَخَافُوتَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ كفار قريش، أو من عداهم فإنهم كانوا جميعاً معادين لهم مضادين لهم. ﴿فَتَأْوِيَكُمْ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تحصنون به عن أعاديكم. ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِبِصْرِهِ﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تُضمروا خلاف ما تظهرون، أو بالغلول في المغنم. وروي: أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرع وأريحاء بأرض الشام، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله، فنزلت. فشد نفسه على سارية في المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فقبل له: قد تيب عليك فحل نفسك فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده فقال: إن من تمام توبتي أن أهجّر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال عليه الصلاة والسلام «يجزيك الثلث أن تتصدق به»^(٢). وأصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه. ﴿وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ﴾ فيما بينكم وهو مجزوم بالعطف على الأول، أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون، أو أنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

(٢٨) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتْنَةٌ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب، أو محنة من

(١) قوله «إذ أنتم قليل» أثر الجملة الاسمية للإيدان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف (س٤/١٧).

(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند، لكن سنده إليه في أول الكتاب. وقد روى ابن إسحاق في المغازي: حدثنا إسحاق بن يسار عن عبد بن كعب السلمي: «أن رسول الله ﷺ حاصرهم - يعني قريظة - خمساً وعشرين ليلة - فذكر القصة بطولها - إلى أن قال: ابعت إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر فذكر قصة مختصرة.

وأخرجها البيهقي في الدلائل من طريق سعيد بن المسيب في قصة طويلة فذكر نحو ما هنا وهكذا ذكرها عبد الرزاق (٤٠٦/٥) عن معمر عن الزهري، قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك، فربط نفسه بسارية المسجد فذكر القصة».

وأخرجه الواقدي عن معمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك مثله كما في «الكافي الشاف» (ص ٦٩ رقم ٦٧).

الله تعالى ليلوكم فيهم فلا يحملنكم جهنم على الخيانة كأبي لبابة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، أو نصراً يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات، أو نجاة عما تحذرون في الدارين، أو ظهوراً يشهرُ أمركم ويث صيتكم من قولهم بثُّ أفعُل كذا حتى سَطَعَ الفرقان أي الصبح^(١). ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ويسترها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز والعفو عنكم. وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر. وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، وأنه ليس مما يوجب تقواهم عليه، كالسيد إذا وعد عبده إنعاماً على عمل.

(٣٠) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تذكّر لما مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكرهم واستيلائه عليهم، والمعنى واذكر إذ يَمْكُرُونَ بك. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثاق أو الحبس، أو الإثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبتته لا جراك به ولا براج. وقرئ ليُثْبِتُوكَ بالتشديد، وليُثْبِتُوكَ من البيات، وليُثْبِتُوكَ. ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم. ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم فرَّقُوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا من نجد سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تُعَدِّموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت، فقال الشيخ بش الرأي بآتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع، فقال بش الرأي يُفْسِدُ قوماً غيركم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العقل عَقَلْنَاهُ، فقال صدق هذا الفتى، ففترقوا على رأيه، فأتى جبريل النبي عليهما السلام وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيّت علياً رضي الله تعالى عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار^(٢). ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ برد مكرهم عليهم، أو بمجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين

(١) وتكرير الخطاب والوصف بالإيمان لإظهار كمال العناية بما بعده والإيذان بأن مقتضى الإيمان مراعاته والمحافظة عليه (س/٤/١٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي: حدثني من لا أتهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: =

معهم بأن أخرجهم على بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا. ﴿وَاللَّهُ حَيَّرَ النَّاصِرِينَ﴾ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره، وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة^(١)، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الدم.

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَأُمِطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ هو قول النضر بن الحارث، وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم فإنه كان قاصهم. أو قول الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام، وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا، وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة مع أنفقتهم وفرط استنكافهم أن يُغلبوا خصوصاً في باب البيان. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من القصص.

(٣٢) ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَأُمِطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل أبلغ في الجحود. روي أنه لما قال النضر إن هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال ذلك^(٢). والمعنى إن كان هذا حقاً منزلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبة على إنكاره، أو آتينا بعذاب أليم سواه، والمراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً. وقرئ الحق بالرفع على أن هو مبتدأ غير فصل، وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي ﷺ وهو تنزيله لا الحق مطلقاً لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كأساطير الأولين.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ﴾ بيان لما كان الموجب

= «لما اجتمعت قريش في دار الندوة وتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ اعترضهم إبليس في هيئة شيخ. فذكره مطولاً».

وأخرجه الطبري - في جامع البيان (٦/ج ٢٧٧) - وأبو نعيم في الدلائل - (١/٢٥٨ - ٢٦١) - من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح. وليس في أوله أن ذلك بسبب الأنصار. وقال عبدالرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة قال «لما كثر المسلمون فذكر معناها ووصلها الواقدي عن معمر بذكر عائشة قال: وعن ابن أبي خيثمة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس نحوه - كما في «الكافي الشاف» - للحافظ ابن حجر (ص ٦٩ رقم ٨).

قلت: أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/٣٨٩ - ٣٩٠) عن معمر عن قتادة دون عروة.

(١) قوله للمزاوجة أي للمشكلة.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٩/١٩٩) بدون راوٍ ولا سند.

لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى ﷺ بين أظهرهم خارج عن عادته غير مستقيم في قضائه، والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين، أو قولهم اللهم غفرانك، أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾^(١).

وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُٗٓ إِنَّا أَوْلِيَ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يُعذبون. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وحالهم ذلك، ومن صدهم عنه إلجاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة وإحصائهم عام الحديبية. ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُٗٓ﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء ونُدخل من نشاء. ﴿إِنَّا أَوْلِيَ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره، وقيل الضميران لله. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه، كأنه نبه بالأكثر أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم، أو ما يسمونه صلاة، أو ما يضعون موضعها. ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ صغيراً، فُعَال من مكأ يمكو إذا صَفَر. وقرئ بالقصر كالبكأ. ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ تصفيقاً، تَفْعِلَة من الصَّدَا، أو من الصَّدَّ على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء. وقرئ صلاتهم بالنصب على أنه الخبر المقدم، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاته. روي: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يُصَفِّرون فيها ويصفقون^(٢). وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يُخْلَطُونَ عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني القتل والأسر يوم بدر، وقيل عذاب الآخرة، واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود: اثنتا بعذاب. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقاداً وعملاً.

(٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر^(٣)، وكانوا

(١) هود: ١١٧.

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٠ بسند ضعيف لأن فيه عطية بن سعد العوفي وهو صدوق، كان يخطئ كثيراً، وكان شيعياً مدلساً.

(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٢٣٦) من قول مقاتل والكلبي بدون سند وكذلك البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٥).

● وأخرج ابن جرير (٦/ ٢٤٥) من طريق ابن إسحاق عن الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن

اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جُزُر. أو في أبي سفيان^(١) استأجر ليوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا. والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله. ﴿فَسَيُفْقُونَهَا﴾ بتمامها. ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أحد، ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وإنه لم يقع بعد. ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتها تصوير حسرة وهي عاقبة إنفاقها مبالغاً. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر وإن كان الحرب بينهم سجالاً قبل ذلك. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين ثبتوا على الكفر منهم إذ أسلم بعضهم. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يساقون.

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَلِيلُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح. واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ مما أنفقه المسلمون في نصرته، واللام متعلقة بقوله ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لِيُمِيزَ من التمييز وهو أبلغ من الميز. ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكافرين. ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنفقين. ﴿هُمُ﴾

=
عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن وعمر بن سعد بن معاذ قالوا: لما أصابته المسلمون يوم بدر من كفار قريش من أصحاب القلب ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بغيره، مشى عبدالله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كان له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم» إلى قوله والذين كفروا إلى جهنم يحشرون» وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢٢٤/٣ - ٢٢٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم - كما في فتح القدير (٣٠٧/٢) مرسلًا.. وهو صحيح الإسناد.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٤٤/٩ ج/٦) عن سعيد بن جبیر.

وأخرجه ابن جرير (٢٤٥/٩ ج/٦) عن ابن أبيزى.

وذكر الواحدي في «الأسباب» (ص ٢٣٧) ذلك عنهما بدون سند.

الْخَسِرُونَ ﴿٣٨﴾ الْكَامِلُونَ فِي الْخَسِرَانِ لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

(٣٨) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه، والمعنى قل لأجلهم. ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام. ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذنوبهم. وقرئ بالتاء والكاف على أنه خاطبهم^(١)، وَيُغْفَرُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى. ﴿وَلَنْ يُّعْذِبُوا﴾ إِلَى قِتَالِهِ. ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الَّذِينَ تَحْزَبُوا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِالتَّدْمِيرِ كَمَا جَرَى عَلَى أَهْلِ بَدْرَ فَلْيَتَوَقَّعُوا مِثْلَ ذَلِكَ.

(٣٩) ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لَا يَوْجِدُ فِيهِمْ شَرَكٌ. ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّهُ لِلَّهِ﴾ وَتَضْمَحِلُّ عَنْهُمْ الْأَدْيَانُ الْبَاطِلَةُ. ﴿فَإِنْ أَتَتْهُوا﴾ عَنِ الْكُفْرِ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾ فَيَجَازِيهِمْ عَلَى انْتِهَائِهِمْ عَنْهُ وَإِسْلَامِهِمْ. وَعَنْ يَعْقُوبَ تَعْمَلُونَ بِالتَّاءِ، عَلَى مَعْنَى فَإِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْجِهَادِ وَالِدَعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِخْرَاجِ مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ بِصِيرٍ فَيَجَازِيكُمْ، وَيَكُونُ تَعْلِيْقُهُ بَانْتِهَائِهِمْ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ كَمَا يَسْتَدْعِي إِثَابَهُمْ لِلْمَبَاشَرَةِ يَسْتَدْعِي إِثَابَةَ مَقَاتِلِهِمْ لِلتَّسَبُّبِ.

وَلَنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلَافَ لَكُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

(٤٠) ﴿وَلَنْ تَوَلَّوْا﴾ وَلَمْ يَنْتَهُوا. ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾ نَاصِرُكُمْ فَتَقُوا بِهِ وَلَا تَبَالُوا بِمَعَادَاتِهِمْ. ﴿نِعَمَ الْمَوْلَى﴾ لَا يَضِيعُ مِنْ تَوَلَّاهُ. ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ لَا يَغْلِبُ مِنْ نَصَرَهُ.

(٤١) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ أَيِ الَّذِي أَخَذْتُمُوهُ مِنَ الْكُفَّارِ قَهْرًا. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مِمَّا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّيْءِ حَتَّى الْخِيَطُ. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مَبْتَدَأُ خَبَرِهِ مَحْذُوفٌ أَيِ: فَتَابَتْ أَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ. وَقُرِئَ فَإِنْ بِالْكَسْرِ. وَالْجَمْهُورُ عَلَى أَنَّ ذَكَرَ اللَّهُ لِلتَّعْظِيمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾^(٢)، وَأَنَّ الْمُرَادَ قَسْمُ الْخُمْسِ عَلَى الْخُمْسَةِ الْمَعْطُوفِينَ. ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾ فَكَانَ قَالَ: فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ يُصْرَفُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَخْصِينَ بِهِ، وَحُكْمُهُ بَعْدَ بَاقٍ غَيْرِ أَنَّ سَهْمَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يُصْرَفُ إِلَى مَا كَانَ يُصْرَفُ إِلَيْهِ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا فَعَلَهُ الشَّيْخَانِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا^(٣). وَقِيلَ إِلَى الْإِمَامِ. وَقِيلَ إِلَى الْأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ سَقَطَ سَهْمُهُ وَسَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى بِوَفَاتِهِ وَصَارَ الْكُلُ مَصْرُوفًا إِلَى الثَّلَاثَةِ الْبَاقِيَةِ. وَعَنْ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ

(١) أَيِ قُرِئَ: ﴿إِنْ تَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَكُمْ...﴾.

(٢) التوبة: ٦٢.

(٣) الشَّيْخَانِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

تعالى عنه الأمر فيه مفوض إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم. وذهب أبو العالية^(١) إلى ظاهر الآية فقال يُقسم ستة أقسام ويصرف سهم الله إلى الكعبة، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ قبضة منه فيجعلها للكعبة ثم يقسم ما بقي على خمسة^(٢). وقيل سهم الله لبيت المال. وقيل هو مضموم إلى سهم الرسول ﷺ. وذوو القربى: بنو هاشم وبنو المطلب، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قسم سهم ذوي القربى عليهما فقال له عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما: هؤلاء إخوانك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام». وشبك بين أصابعه^(٣). وقيل بنو هاشم وحدهم. وقيل جميع قريش الغني والفقير فيه سواء. وقيل هو مخصوص بفقرائهم كسهم ابن السبيل. وقيل الخمس كله لهم والمراد باليتامى والمساكين وابن السبيل من كان منهم والعطف للتخصيص. والآية نزلت ببدر، وقيل الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. «إن كَثُرَ أَمَنَتُمْ بِاللَّهِ» متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أي: إن كنتم آمتتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإن العلم العملي إذا أمر به لم يُردّ منه العلم المجرد لأنه مقصود بالعرض والمقصود بالذات هو العمل. «وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا» محمد ﷺ من الآيات والملائكة والنصر. وقرئ «عُبْدُنَا» بضمين أي الرسول ﷺ والمؤمنين. «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» يوم بدر، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل. «يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ» المسلمون والكافرون. «وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَفَّيرٌ» فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

(٤٢) «إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَوَّةِ الدُّنْيَا» بدل من يوم الفرقان، والمُدَوَّة الثلاث شط الوادي وقد قرئ بها، والمشهور الضم، والكسر وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. «وَهُم بِالْمُدَوَّةِ الْقُصْوَى» البعدى من المدينة، تأنيث الأقصى وكان قياسه قلب الواو ياء كالدينا والعليا تفرقة بين الاسم والصفة فجاء على الأصل كالقود وهو أكثر استعمالاً من القُضْيَا. «وَالرَّكْبُ» أي العير، أو قوادها. «أَسْفَلَ مِنْكُمْ» في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل، وهو منصوب على الظرف واقع موقع الخبر، والجملة حال من الظرف قبله، وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على

(١) أبو العالية: رفيع بن مهران الرياحي البصري، محدث مقرأ مفسر، من كبار التابعين، أسلم بعد وفاة النبي ﷺ بستين، قيل عنه: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن منه، توفي ٩٣ هـ (معجم المفسرين ١/ ١٩١).

(٢) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (ص ٢٩٩ رقم ٨٣٦) وأبو داود في المراسيل (ص ٢٧٥ رقم ٣٧٤) وابن جرير (٦/ ٣١٠ - ٤) عن أبي العالية. بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٨٢ رقم ٢٩٧٨) و(٣/ ٣٨٣ رقم ٢٩٨٠) وابن ماجه (٢/ ٩٦١ رقم ٢٨٨١) من حديث جبير بن مطعم.

وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في الإرواء (رقم: ١٢٤٢). وأخرج البخاري (٦/ ٢٤٤ رقم ٣١٤٠) و(٦/ ٥٣٣ رقم ٣٠٥٢) و(٧/ ٤٨٤ رقم ٤٢٢٩) كلهم من طرق، عن الزهري عن سعيد بن المسيب عنه. ولفظه مثل لفظ أبي داود (رقم: ٢٩٧٨).

المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يُخَلَّوْا مراكزهم ويبدلوا متتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والنيثاء أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة، وكذا ذكُر مراكز الفريقين فإن العُدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يُمشى فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء بخلاف العُدوة القصوى، وكذا قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلقتم أنتم في الميعاد هينة منهم ويأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله تعالى خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً. ﴿وَلَكِنْ﴾ جُمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد. ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حقيقة بأن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه، وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ بدل منه أو متعلق بقوله مفعولاً، والمعنى: ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لثلا يكون له حجة ومعدرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإسلام. والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة، أو من هذا حاله في علم الله وقضائه. وقرئ لِيَهْلِكَ بِالْفَتْحِ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر ويعقوب من حيي بفك الإدغام للحمل على المستقبل. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لَسَمِيعٍ عَلِيمٍ﴾ بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتغال الأمرين على القول والاعتقاد.

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْنَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

(٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾ مقدّر باذكُر، أو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. ﴿وَلَوْ أَرْنَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم. ﴿وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر القتال وتفرقت أراؤكم بين الثبات والفرار. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع. ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها وما يغير أحوالها.

(٤٤) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ الضميران مفعولاً يُرِي وقليلاً حال من الثاني، وإنما قللهم في أعين المسلمين - حتى قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لمن إلى جنبه أتراهم سبعين؟ فقال أراهم مائة - تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل^(١): إن محمداً وأصحابه أكلتُ جزور، وقللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا^(٢) عليهم

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/٣٦٤) بدون سند.

وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/١٠).

(٢) كُتِبَت الهمزة على واو، والأصل كتابتها على نبرة.

ولا يستعدوا لهم، ثم كثروهم حتى يرونها مثلهم لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظام آيات تلك الواقعة فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إِبصار بعض دون بعض مع التساوي في الشروط. ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَأَن مَّفْعُولاً﴾ كرهه لاختلاف الفعل المَعْلَل به، أو لأن المراد بالأمر ثَمَّة الاكتفاء على الوجه المحكي ههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الإِشراك وحزبه. ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْإِسْلاَمِ بَطْرٌ وَلَا جُورٌ﴾.

يَتَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْإِسْلاَمِ بَطْرٌ وَلَا جُورٌ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

(٤٥) ﴿يَتَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْإِسْلاَمِ بَطْرٌ وَلَا جُورٌ﴾ حاربتهم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء مما غلب في القتال. ﴿فَاثْبُتُوا﴾ للقائهم. ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهرين بذكره مترقبين لنصره. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصره والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويُقبل عليه بشرايره^(١) فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا يتفك عنه في شيء من الأحوال.

(٤٦) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء، كما فعلتم بيدراً أو أحد. ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ جواب النهي. وقيل عطف عليه ولذلك قرئ: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بالجزم، والريحُ مستعارة للدَّوْلَة^(٢) من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه مُشَبَّهة بها في هبوبها ونفوذها. وقيل المراد بها الحقيقة، فإن النصره لا تكون إلا بريح يبعثها الله، وفي الحديث: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»^(٣). ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالكلاءة والنصرة.

(٤٧) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية الغير. ﴿بَطَرًا﴾ فخرًا وأشرًا. ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ ليشنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسولُ أبي سفيان أن ازجَعُوا فقد سَلِمَتْ عِيْرُكُمْ، فقال أبو جهل: لا والله حتى نَقْدُمُ بدراً ونشرب فيها الخمر وتعرّف علينا القِيَانُ ونطعم بها من حَضَرْنَا من العرب، فوافوها ولكن سَقُوا كأس المنايا وناحت عليهم النوائح، فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بَطْرِينَ مَرَاتِين، وأمرهم بأن

(١) أي بكليته.

(٢) الدَّوْلَة بفتح الدال وضمها من التداول. وقيل: الدَّوْلَة - بالضم - تكون في المال، وبالفتح تكون في الحرب (المصباح المنير مادة دَوَّل).

(٣) أخرجه البخاري (٢/٥٢٠ رقم ١٠٣٥) و(٦/٣٠٠ رقم ٣٢٠٥) و(٦/٣٧٦ رقم ٣٣٤٣) و(٧/٣٩٩ رقم ٤١٠٥). ومسلم (٢/٦١٧ رقم ٩٠٠) عن ابن عباس.

يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضده. ﴿وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معطوف على بَطَرًا إِنَّ جَعَلَ مصدرًا في موضع الحال، وكذا إِنَّ جُعِلَ مفعولاً له لكن على تأويل المصدر. ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيكم عليه.

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

(٤٨) ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ مقدر باذكر. ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ في معادة الرسول ﷺ وغيرها بأن وسوس إليهم. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ مقالة نفسانية، والمعنى: أنه ألقى في رؤعهم وخيل إليهم أنهم لا يغلِبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجيئة لهم حتى قالوا: اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين. ولكم خبر لا غالب، أو صفته، وليس صلته وإلا لاتصب كقولك: لا ضارباً زيداً عندنا. ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ﴾ أي تلاقى الفريقان. ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ رجع الفهقرى أي بطل كيده وعاد ما خيل إليهم أنه مجيئهم سبب هلاكهم. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي تبرأ منهم وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة. وقيل: لما اجتمعت قریش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإخنة وكاد ذلك يُشنيهم، فتمثل لهم إبليس بصورة سراقه بن مالك الكناني وقال لا غالب لكم اليوم وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده في يد الحارث بن هشام فقال له: إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهزموا، فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقه، فبلغه ذلك فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان^(١). وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ إني أخافه أن يصيبني بمكروه من الملائكة أو يهلكني ويكون الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه ما لم يَرَ قبله، والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون من كلامه وأن يكون مستأنفاً.

(٤٩) ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والذين لم يطمثوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة. وقيل هم المشركون. وقيل المنافقون والعطف لتغاير الوصفين. ﴿غَرَّ هَوَاهُ﴾ يعنون المؤمنين. ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا يدي لهم^(٢) به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠٨ ج ١٨).

عن ابن عباس بإسناد صحيح.

(٢) أي لا قوة لهم به.

الف. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ جواب لهم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يذلل من استجار به وإن قل ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابٌ آَلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَرِئًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ولو رأيت، فإن لو تجعل المضارع ماضياً عكسُ إن. ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْمَلَائِكَةُ ﴿بِيدٍ﴾، وإذ ظرف ترى، والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حالهم حينئذ، والملائكة فاعل يتوفى ويدل عليه قراءة ابن عامر بالتاء، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الله عز وجل وهو مبتدأ خبره: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾، والجملة حال من الذين كفروا، واستغني فيه بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على الضميرين. ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾ ظهورهم أو أستاههم، ولعل المراد تعميم الضرب أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عطف على يضربون بإضمار القول، أي ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة. وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا ألتهبت النار منها، وجواب لو محذوف لتفطيع الأمر وتهويله.

(٥١) ﴿ذَلِكَ﴾ الضرب والعذاب^(١). ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي وهو خبر لذلك. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ عطف على «ما» للدلالة على أن سببته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم، لأن لا يعذبهم بذنوبهم فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً حتى ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب. وظلام للتكثير لأجل العبيد.

(٥٢) ﴿كَذَّابٌ آَلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون. ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

(٥٣) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم. ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ بسبب أن الله. ﴿لَمْ يَكُ مُعْتَرِئًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنعمة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ، كتغيير قريش حالهم في صلة الرحم والكف عن تعرض الآيات والرسول بمعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام ومن تبعه منهم والسعي في إراقة دمائهم والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد المبعث، وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جري عادته تعالى على تغييره متى يغيروا حالهم. وأصل يك يكون فحذفت الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء

(١) وما فيه من معنى البصر للإشعار بكونهما في الغاية القاصية من الهول والفظاعة (س/٤/٢٧).

الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون. ﴿عَلَيْهِ﴾ بما يفعلون.

كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ^{٥٤} وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ^{٥٥} إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^{٥٦} الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُتَّقُونَ^{٥٧} فَمَا تَتَّقِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ^{٥٨} وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ^{٥٩}

(٥٤) ﴿كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ^{٥٤} وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ^{٥٤}﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وبيان ما أخذ به آل فرعون. وقيل الأول لتشبيه الكفر والأخذ به والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم. ﴿وَكُلَّ﴾ من الفرق المكذبة، أو من غرقى القبط وقتلى قريش. ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

(٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أصرروا على الكفر ورسخوا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يتوقع منهم إيمان، ولعله إخبار عن قوم مطبوعين على الكفر بأنهم لا يؤمنون، والفاء للعطف والتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، وقوله:

(٥٦) ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ﴾ بدل من الذين كفروا بدل البعض للبيان والتخصيص، وهم يهود قريظة عاهدتهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسينا ثم عاهدتهم فنكثوا ومالؤهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم. ومن لتضمين المعاهدة معنى الأخذ، والمراد بالمرة مرة المعاهدة أو المحاربة^(١). ﴿وَهُمْ لَا يُتَّقُونَ﴾ سُبَّة الغدر ومغبته، أو لا يتقون الله فيه، أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

(٥٧) ﴿فَمَا تَتَّقِفْنَهُمْ﴾ فإذا تصادفتم وتظفرون بهم، ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ مَنْ وراءهم من الكفرة. والتشريد تفريق على اضطراب. وقرئ فشرد بالذال المعجمة وكأنه مقلوب شذر، ومن خلفهم، والمعنى واحد فإنه إذا شرَّد مَنْ وراءهم فقد فعل التشريد في وراء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ﴾ لعل المشردين يتعظون.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ معاهدين. ﴿نَقُضْ عَهْدَ بَأَمَارَاتِ تُلُوحٍ لَكَ﴾. ﴿فَأَنِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم عهدهم. ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تتاجزهم الحرب فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في الخوف أو العلم بنقض العهد، وهو في موضع الحال من النابذ على

(١) قوله «ينقضون» بصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته في كل حال (س/٤/٣٠).

الوجه الأول أي ثابتاً على طريق سوي أو منه أو من المنبؤ إليهم أو منهما على غيره، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبد والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ خطاب للنبي ﷺ، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ مفعولاه وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص بالياء على أن الفاعل ضمير أحد أو من خلفهم، أو الذين كفروا والمفعول الأول أنفسهم فحذف للتركاز، أو على تقدير أن سبقوا وهو ضعيف لأن أن المصدرية كالموصول فلا تحذف أو على إيقاع الفعل على: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر وأن لا صلة وسبقوا حال بمعنى سابقين أي مُفْلَتِينَ، والأظهر أنه تعليل للنهي أي: لا تحسبهم سبقوا فأفلتوا لأنهم لا يفوتون الله، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وكذا إن كسرت إِنْ إلا أنه تعليل على سبيل الاستئناف. ولعل الآية إزاحة لما يحذر به من نبذ العهد وإيقاظ العدو، وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُمْ﴾ لناقضي العهد أو الكفار. ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبة بن عامر^(١) سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثاً^(٢). ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنه أقواه. ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تُربط في سبيل الله، فَعَال بمعنى مفعول، أو مصدر سمي به يقال ربط ربطاً ورباطاً ورباطاً ورباطة ورباطاً، أو جمع ربيط كفصيل وفصال. وقرئ رِبَاطُ الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة. ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ تخوفون به، وعن يعقوب تُرْهِبُونَ بالتشديد، والضمير لما استطعتم أو للإعداد. ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني كفار مكة. ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة. قيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفُرس. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يعرفهم^(٣). ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب^(٤).

(١) عقبة بن عامر: هو عقبة بن عامر بن نابي. الأنصاري السلمي بدري شهد العقبة الأولى وقتل باليمامة.

- تجريد أسماء الصحابة (١/٣٨٤ رقم ٤١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/١٥٢٢ رقم ١٦٧/١٩١٧) عنه.

(٣) فسر البيضاوي علم الله تعالى بالمعرفة، وهذا غير صحيح لأن المعرفة مكتسبة. قال الراغب الأصفهاني. (ويقال الله يعلم كذا، ولا يقال يعرف كذا) المفردات مادة «عرف».

(٤) والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك تربيه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى (س٤/٣٢).

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِتِ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٣) ﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤)

(٦١) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ مالوا ومنه الجناح. وقد يعدى باللام وإلى. ﴿لِلسَّلَامِ﴾ للصلح أو الاستسلام. وقرأ أبو بكر بالكسر. ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وعاهد معهم، وتأنيت الضمير لحمل السلم على نقيضها فيه. قال:

السَّلَامُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جَرَعٌ
وقرىء فاجنح بالضم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه، فإن الله يعصمك من
مكرهم ويحيقه بهم. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم. والآية مخصوصة بأهل الكتاب
لاتصالها بقصتهم وقيل عامة نسختها آية السيف.

(٦٢) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فإن مُحْسِبَك الله وكافيك قال جرير:

إِنِّي وَجَدْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسْبُكَمُ أَنْ تَلْبِسُوا حَرَّ الثِّيَابِ وَتَشْبَعُوا
﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعاً.

(٦٣) ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ (١) مع ما فيهم من العصبية والضعفينة في أدنى شيء والتهالك على
الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته ﷺ، وبيانه:
﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِتِ قُلُوبِهِمْ﴾ أي تناهى عداوتهم إلى حد لو أنفق منفق في إصلاح
ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته
البالغة، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء. ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ تام القدرة والغلبة لا يغصى عليه
ما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده، وقيل الآية في الأوس والخزرج كان بينهم
محن لا أمد لها ووقائع هلك فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوا
وصاروا أنصاراً.

(٦٤) ﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك. ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إما في محل نصب على
المفعول معه كقوله:

إِذَا كَانَتِ الْهَيْجَاءُ وَاشْتَجَرَ الْقَنَا فَحَسْبُكَ وَالضُّحَاكُ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ

أو الجر عطفاً على المكني عند الكوفيين، أو الرفع عطفاً على اسم الله تعالى أي كفاك الله
والمؤمنون. والآية نزلت بالبدياء في غزوة بدر، وقيل أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست

(١) وذكر القلوب للإشعار بأن التأليف بينها لا يتسنى وإن أمكن التأليف ظاهراً (س/٤/٣٣).

نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه فتزلت^(١). ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت في إسلامه.

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٥) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ بالغ في حثهم عليه، وأصله الحَرَض وهو أن ينهاك المرض حتى يشفى على الموت. وقرئ حَرَضٌ من الحرص. ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شرط في معنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله وتأيدته. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تَكُنْ بالتاء في الآيتين ووافقهم البصريان في وإن تَكُنْ منكم مائة. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر لا يثبتون ثبات المؤمنين رجاء الثواب وعوالي الدرجات قتلوا أو قُتِلُوا ولا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

(١) ● أخرجه الواحدي في «الأسباب» (ص ٢٣٨) والطبري في الكبير (٦٠/١٢) رقم (١٢٤٧٠) وأبو الشيخ وابن مردويه - كما في فتح القدير (٣٢٤/٢) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي. ثنا خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، وأسلم عمر تمام الأربعين فأنزل الله عز وجل «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين». وأورده الهيثمي في «المجتمع» (٢٨/٧) وقال: فيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب. ● وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما في فتح القدير (٣٢٤/٢). عن سعيد بن جبيرة نحوه، وذكر أنهم ثلاث وثلاثون. وهو مرسل. صححه السيوطي في «لباب النقول» ص ١٣٣. وقال الشيخ عصام بن عبدالمحسن الحميدان في تخريج أسباب النزول للواحدي ص ٢٣٨ عقب الحديث: ولا أراه يصح، لأسباب: -

١ - قول الحافظ ابن كثير «في هذا نظر لأن الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة، إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة» تفسير ابن كثير (٣٢٤/٢).

٢ - أن الثابت في السيرة أن عدد المؤمنين المهاجرين إلى أرض الحبشة ثلاث وثمانون رجلاً سوى النساء والأبناء ومن بقي بمكة (السيرة النبوية لابن هشام (٢٨٦/١، ٢٩٤)) (السيرة النبوية لمحمود شاكر: ١٠١، ١٠٢) وإسلام عمر كان بعد ذلك فكيف يكون تمام الأربعين؟

٣ - أن معنى الآية يضعف هذا السبب، فالآية تأمر النبي ﷺ والذين آمنوا معه أن يكون الله وحده حسبهم، في حين أن معنى السبب يوحي بأن معنى الآية: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين مثل عمر. وهذا التفسير مستبعد جداً، لأن القرآن دائماً يقرر أن الاعتماد على الله وحده هو صلب التوحيد كما قال تعالى: «وإن يُريدوا أن يخذعوك فإن حسبك الله» [الأنفال: ٦٢] وغير ذلك، وقد صح عن الشعبي أنه فسرها بمثل ما قررنا (٦/٣٧) وغيره، فتح القدير (٣٢٥/٢) والله أعلم. هـ.

أَلَنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَنْخِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

(٦٦) ﴿أَلَنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لما أوجب على الواحد مقاومة العشرة والثنات لهم وثقل ذلك عليهم خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل كان فيهم قلة فأمروا بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد والضعف ضعف البدن. وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فيها، وفيه لغتان الفتح وهو قراءة عاصم وحمزة والضم وهو قراءة الباقيين^(١). ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون^(٢).

(٦٧) ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ﴾ وقرء للنبي على العهد. ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ وقرأ البصريان بالتاء. ﴿حَتَّى يَنْخِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذلل الكفر ويقل جزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله، من أئخنه المرض إذا أثقله وأصله الثخانة، وقرء يَنْخِجُ بالتشديد للمبالغة. ﴿تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه. وقرء بجزر الآخرة على إضمار المضاف كقوله:

أَكُلْ أَمْرِي تَخْسِيْنَ أَمْرًا وَنَارٌ تُوقَدُ بِالْأَيْلِ نَارًا

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغْلِبُ أوليائه على أعدائه. ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين. روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستشار فيهم، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء مكنتي من فلان - لنسيب له - ومكن علياً وحمزة من أخويهما فنضرب أعناقهم، فلم يهو ذلك رسول الله ﷺ وقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَعْبَى فَإِنَّمَا مَتَى وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى

(١) أي بفتح الضاد وضما (الضعف، والضعف).

(٢) لم يتعرض هنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين - مع أن مدار الغلبة في صورتين هو مجموع الأمرين - أي نصر المؤمنين وخذلان الكافرين - وذلك اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر.

وما تشعر به كلمة «مع» من متبوعة مدخولها لأصالتهم من حيث إنهم المباشرون للصبر (س/٤/٣٥).

(٣) إبراهيم: ٣٦.

الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا^(١) فخير أصحابه فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يكيان فقال: يا رسول الله أخبرني فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت فقال: «أبكِ على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة»^(٢). والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يُقرون عليه.

لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُومًا مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطيء في اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوماً بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم. ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»^(٣). وذلك لأنه أيضاً أشار بالإثخان.

(٦٩) ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم. وقيل أمسكوا عن الغنائم فنزلت. والفاء للتسبب، والسبب محذوف تقديره: أبحت لكم الغنائم فكلوا. وينحوه تشبث من زعم أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة. ﴿حَلَالًا﴾ حال من المغنوم، أو صفة للمصدر أي أكلاً حلالاً. وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿رَحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

(٧٠) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُومًا مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ وقرأ أبو عمرو من الأسارى. ﴿إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ

(١) نوح: ٢٦.

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٣/١، ٣٨٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠٤٣) والترمذي (٢١٣/٤) رقم (١٧١٤) مختصراً مع الإشارة إلى القصة الطويلة، وأخرجه الترمذي أيضاً (٥/٢٧١) رقم (٣٠٨٤) والحاكم (٣/٢١ - ٢٢) والبيهقي في «الدلائل» (٣/١٣٨) من حديث عبدالله بن مسعود. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه. فالحديث ضعيف، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

● وأخرجه مسلم (٣/١٣٨٥) رقم (١٧٦٣/٥٨) في سياق أطول من ذلك لكنه من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠٤٨) لكن ليس فيه ذكر عمر بن الخطاب وفيه زيادة: لقوله: (أي سعد بن معاذ) يا نبي الله كان الإثخان أحب إليّ من استبقاء الرجال. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٧١ رقم ٨١). «ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر متقطع بمعناه. وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه «لو نزل العذاب ما أفلتت منه إلا ابن الخطاب».

خَيْرًا إِيْمَانًا وَإِخْلَاصًا. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء. روي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه كلفه رسول الله ﷺ أن يُفدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت؟! فقال: «أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم» فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي تعالى»، قال: فأشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل^(١)، قال العباس فأبدلني الله خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ يعني الأسرى. ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك. ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل. ﴿مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فامكنك منهم كما فعل يوم بدر فإن أعداؤا الخيانة فسيمكنك منهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(٧٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ هم المهاجرون هَجَرُوا أوطانهم حباً لله ولرسوله. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ فصرفوها في الكُراع^(٢) والسلاح وأنفقوها على المحاويع. ﴿وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بمباشرة القتال^(٣). ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم. ﴿أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٤) أو بالنصرة والمظاهرة. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ أي من توليهم في الميراث. وقرأ حمزة ولايتهم - بالكسر - تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكتابة والإمارة كأنه بتولييه صاحبه يزاوِل عملاً. ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/٣٢٤) من حديث عائشة.

وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهني.

(٢) الكراع أي الخيل.

(٣) ولعل تقديم الأموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً وأتم دفْعاً للحاجة حيث لا يتصور

المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال (س٤/٣٧).

(٤) الأنفال: (٧٥).

فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ ﴿ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين . ﴿ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴿ عهد، فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم . ﴿ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ في الميراث أو المؤازرة، وهو بمفهومه يدل على منع التوارث أو المؤازرة بينهم وبين المسلمين . ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولي بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار . ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر . ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ في الدين . وقرئ كثير .

(٧٤) ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه في الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال: ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لا تَبْعَةٌ لَهُ وَلَا مَنَّةٌ فِيهِ، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال:

(٧٥) ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار . ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ في التوارث من الأجانب . ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن . واستدل به على تورث ذوي الأرحام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من الموارث والحكمة في إنطاعتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولاً واعتبار القرابة ثانياً . عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فانا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطى حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته»^(١) .

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره كما في الفتح السماوي ص ٦٦٢ وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠) . فهو حديث موضوع .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعَاجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۖ وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۖ إِن يُّبَشِّرْكُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن يَأْمُرْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ
غَيْرُ مُعَاجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝

سورة التوبة مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة
وقيل إلا آيتين من قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾^(١)

وهي آخر ما نزل. ولها أسماء أخرى: التوبة والمقشقة والبُحُوث والمبعثرة والمنقرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدممة وسورة العذاب لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقة من النفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المنافقين وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم.

وآياتها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون. وإنما تُركت التسمية فيها لأنها نزلت لرفع الأمان وبسم الله أمان، وقيل كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه سورة أو آية بين موضعها وتوفي ولم يبين موضعها، وكانت قصتها تُشابه قصة الأنفال وتناسبها لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذها فضمت إليها^(٢)، وقيل لما اختلفت الصحابة في أنهما سورة واحدة هي سابعة السبع الطوال أو سورتان تُركت بينهما فرجة ولم تكتب بسم الله.

(١) ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي هذه براءة، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره واصله من الله ورسوله، ويجوز أن تكون براءة مبتدأ لتخصصها بصفتها والخبر: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقرئ بنبصها على اسمعوا براءة، والمعنى: أن الله ورسوله برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٦٨) والترمذي (٣٠٨٦) وأحمد (٥٧٥/١) والحاكم (٢/٢٢١، ٢٣٠) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

وإنما عُلِّقَت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم وإن كانت صادرة بإذن الله تعالى واتفاق الرسول فإنهما برئتا منها، وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلا أناساً منهم بنو ضَمْرَةَ وبنو كنانة فأمرهم بنبذ العهد إلى الناكثين وأمهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا فقال:

(٢) ﴿فَيَسْخَرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأنها نزلت في شوال. وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر، لما روي أنها لما نزلت أرسل رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه راكب العضباء^(١) ليقرأها على أهل الموسم، وكان قد بعث أبا بكر رضي الله تعالى عنه أميراً على الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل مني» فلما دنا علي رضي الله تعالى عنه سمع أبو بكر الرُغَاءَ^(٢) فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال مأمور، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله تعالى عنه وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أمرتُ بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيَان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده^(٣). ولعل قوله ﷺ لا يؤدي عني إلا رجل مني ليس على العموم، فإنه ﷺ بعث لأن يؤدي عنه كثير لم يكونوا من عِثْرته، بل هو مخصوص باليهود فإن عادة العرب أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها، ويدل عليه أنه في بعض الروايات «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي»^(٤). ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(٣) ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي إعلام، فعال بمعنى الإفعال كالأمان والعطاء، ورفع كرفع براءة على الوجهين. ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»^(٥) وقيل يوم عرفة لقوله ﷺ: «الحج عرفة»^(٦). ووضف الحج بالأكبر لأن العمرة تستمى

(١) أصل العضب القطع، والعضباء هي ناقة رسول الله ﷺ، وسميت بذلك لنجاتها لالشق أذنهما (المصباح المنير مادة عضب).

(٢) الرُغَاء: صوت البعير.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٦/١) رقم (٣٦٧) و(٤٨٣/٣) رقم (١٦٢٢) و(٢٧٩/٦) رقم (٣١٧٧) و(٨٢/٨) رقم (٤٣٦٣) و(٣١٧/٨) رقم (٤٦٥٥) ورقم (٤٦٥٦) و(٣٢٠/٨) رقم (٤٦٥٧). ومسلم (٩٨٢/٢) رقم (١٣٤٧/٤٣٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٩٠) وهو حديث حسن أو صحيح. انظر الفتح السماوي ص ٦٦٦.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٣/٢) رقم (١٩٤٥) والحاكم في المستدرک (٣٣١/٢) وابن ماجه (١٠١٦/٢) رقم (٣٠٥٨).

من حديث ابن عمر. وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٦) أخرج أحمد في المسند (٣٠٩/٤، ٣٣٥) وأبو داود (٤٨٥/٢) رقم (١٩٤٩) والترمذي (٢٣٧/٣) رقم (٨٨٩) والنسائي (٢٥٦/٥) وابن ماجه (١٠٠٣/٢) رقم (٣٠١٥) وابن حبان (ص ٢٤٩) رقم (١٠٠٩) والحاكم في المستدرک =

الحج الأصغر، أو لأن المراد بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقي الأعمال، أو لأن ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ووافق عيده أعياد أهل الكتاب، أو لأنه ظهر فيه عز المسلمين وذلّ المشركين. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ أي بأن الله. ﴿بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي من عهودهم. ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على المستكن في بريء، أو على محل إن واسمها في قراءة مَنْ كسرهما لإجراء للأذان مجرى القول، وقرىء بالنصب عطفاً على اسم إن أو لأن الواو بمعنى مع ولا تكرير فيه، فإن قوله براءة من الله إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بذلك ولذلك علّقه بالناس ولم يخصه بالمعاهدين. ﴿فَإِن تَبَيَّنَ﴾ من الكفر والغدر. ﴿فَهُوَ﴾ فالتوب ﴿حَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة أو ثبت على التولي عن الإسلام والوفاء. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْزَىٰ لِلَّهِ﴾ لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا. ﴿وَيَشِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيِهِ﴾ في الآخرة.

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

(٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين، أو استدراك فكانه قيل لهم بعد أن أمروا بنبد العهد إلى الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم. ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد ولم ينكثوه أو لم يقتلوا منكم ولم يضرركم قط^(١). ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدتهم ولا تُجروهم مجرى الناكثين. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

(٥) ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ﴾ انقضى، وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لا بسه من سلخ الشاة. ﴿الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ التي أبيع للناكثين أن يسيحوا فيها، وقيل هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وهذا مخل بالنظم مخالف للإجماع فإنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم إذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها. ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين. ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من حل أو حرّم. ﴿وَاخْصِرُوهُمْ﴾ وأسرهم، والاختيد الأسير. ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ واحبسوهم أو جيلوا بينهم وبين المسجد الحرام. ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾

= (٤٦٤/١) والدارقطني في السنن (٢/٢٤٠ رقم ١٩) وابن الجارود في المنتقى (ص ١٨٩ رقم ٤٦٨) والدارمي (٥٩/٢) والطبراني في منحة المعبود (١/٢٢٠ رقم ١٠٥٦) والبيهقي (٥/١١٦) والبغوي في شرح السنة (٧/٢٩٠ رقم ٢٠٠١). من حديث عبدالرحمن بن يعمر. وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في الإرواء (رقم ١٠٦٤).

(١) كلمة «ثم» للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة (س ٤٢/٤).

كل ممر لثلا يتبسطوا في البلاد، وانتصابه على الظرف. ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الشرك بالإيمان. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم. ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾ فدعوههم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلو سبيله. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف ووعد لهم الثواب بالتوبة.

وَأِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنُهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَأِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم. ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمّنه. ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر^(١). ﴿ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنُهُ﴾ موضع أمّنه إن لم يسلم، وأحد رُفِعَ بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء لأن إن من عوامل الفعل. ﴿ذَلِكَ﴾ الأمن أو الأمر. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وَغَرَّةِ صدورهم، أو لأن يفي الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه. وخبر يكون كيف وقُدِّم للاستفهام، أو للمشركين، أو عند الله، وهو على الأولين صفة للعهد أو ظرف له أو ليكون، وكيف على الآخرين حال من العهد، وللمشركين إن لم يكن خبراً فتبيين^(٢). ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم المستثنون قبل. ومحلّه النصب على الاستثناء، أو الجرّ على البدل، أو الرفع على أن الاستثناء منقطع أي: ولكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام^(٣). ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فترتبوا أمرهم فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهو كقوله: ﴿فَاتَّبِعُوا إِلَهُهُمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾^(٤) غير أنه مطلق وهذا مقيد، وما تحتمل الشرطية والمصدرية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سبق بيانه.

(٨) ﴿كَيْفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاء حكمه مع التنبيه على العلة. وحذف الفعل للعلم به كما في قوله:

وَحَبَّرَ ثَمَانِي أَلْفًا الْمَوْتَ بِالْقُرَى فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَقَلْبُ

(١) والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل الفصاحة (س/٤/٤٤).

(٢) وتكرير كلمة «عند» للإيذان بعدم الاعتماد به عند كل منهما على حدة (س/٤/٤٥).

(٣) والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والإشعار بسبب توكيدها (س/٤/٤٥).

(٤) التوبة: «٤».

أي فكيف مات^(١). ﴿وَأِنْ يَّظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي وحالهم أنهم إن يظفروا بكم. ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا فيكم. ﴿إِلَّا﴾ حلفاً وقيل قرابة قال حسان:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَكَ مِنْ قُرَيْشٍ كِلَالُ السَّقَبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ

وقيل ربوبية، ولعله اشتق للحلف من الإل وهو الجوار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، ثم استعير للقرابة لأنها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثم للربوبية والتربية. وقيل اشتقاقه من أَلَّ الشيء إذا جدهه أو من أَلَّ البرق إذا لمع. وقيل إنه عبري بمعنى الإله لأنه قرىء ايلا كجبرئيل وجبرئيل. ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله. ﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر. ولا يجوز جعله حالاً من فاعل لا يرقبوا، فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون، ولأن المراد إثبات إرضائهم المؤمنين بوعد الإيمان والطاعة والوفاء بالعهد في الحال واستيطان الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا لم يبقوا عليهم والحالية تنافيه^(٢). ﴿وَتَأَنَّى قُلُوبُهُمْ﴾ ما تنفوه به أفواههم. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ متمردون لا عقيدة تزعهم ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي عن الغدر والتعفف عما يجز إلى أحداثه السوء.

أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً وهو اتباع الأهواء والشهوات. ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار. والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أدهم إلى الصد. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عملهم هذا أو ما دل عليه قوله:

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لا تكرير. وقيل الأول عام في الناقضين، وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ في الشرارة.

(١١) ﴿إِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في

(١) قال أبو السعود: (وحذف الفعل المستكر للإيذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود ما يوجب استنكاره، لا لمجرد كونه معلوماً) س٤٦/٤.

(٢) ونسبة الإرضاء إلى الأفواه للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم (س٤٦/٤).

الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. ﴿وَنُقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين.

وَأِنْ نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَأِنْ نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وإن نكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان أو الوفاء بالعهود. ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب وتبحيح الأحكام. ﴿فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاء بالقتل. وقيل المراد بالأئمة رؤساء المشركين، فالتخصيص إما لأن قتلهم أهم وهم أحق به أو للمنع من مراقبتهم. وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي وروح عن يعقوب أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل، والتصريح بالياء لحن^(١). ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أي لا إيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام فقد نكث عهده، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر ليست يميناً، وهو ضعيف لأن المراد نفي الوثوق عليها لا أنها ليست بإيمان لقوله تعالى: ﴿وَأِنْ نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾. وقرأ ابن عامر لا إيمان لهم بمعنى لا أمان أو لا إسلام، وتثبت به من لم يقبل توبة المرتد وهو ضعيف لجواز أن يكون بمعنى لا يؤمنون على الإخبار عن قوم معينين أو ليس لهم إيمان فیراقبوا لأجله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ متعلق بقاتلوها، أي ليكون غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذنين.

(١٣) ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا﴾ تحريض على القتال، لأن الهمزة دخلت على النفي للإنكار فأفادت المبالغة في الفعل. ﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التي حلفوها مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بني بكر على خزاعة^(٢). ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ حين تشاوروا في

(١) القراءات في «أئمة» عند القراء السبعة هي أن بعضهم قرأ بهمزتين محقتين كما هو أصل قراءتها في العربية المشهورة. وقرأ قوم بتسهيل الهمزة الثانية بين أي بين مخرج الهمزة والياء والألف، ولعلها الأصل عند البضاوي. وقرأ قوم بإبدال الهمزة الثانية ياء صريحة، وقد أنكر الزمخشري هذه القراءة الأخيرة فقال: (وأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاجئ محرف) الكشف (١٤٢/٢) والبضاوي تبع الزمخشري في ذلك حيث قال: (والتصريح بالياء لحن). ... إلا أن هذه القراءة صحيحة وقد قرأ بها رأس القراء والنحاة، لذلك رد أبو حيان على الزمخشري فقال: (وذلك دأبه في تلحين المقرئين، وكيف يكون ذلك لحناً وقد قرأ به رأس البصريين والنحاة أبو عمرو بن العلاء وقارىء مكة ابن كثير وقارىء مدينة الرسول ﷺ نافع) البحر المحيط (١٥/٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» بدون سند (١٨/٤). وانظر القصة وتخريجها قريباً.

أمره بدار الندوة على ما مر ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١). وقيل^(٢) هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا بإخراجه من المدينة. ﴿وَهُمْ بِكَذِّهِمْ أَوَكَّ مَرُّهُ﴾ بالمعاداة والمقاتلة لأنه عليه الصلاة والسلام بدأهم بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به. فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم. ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءكم ولا تركوا أمره. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يُخشى إلا منه..

(١٤) ﴿فَقَاتِلُوهُمْ﴾ أمر بالقتال بعد بيان موجبه والتوبيخ على تركه والتوعيد عليه. ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعد لهم - إن قاتلوهم - بالنصر عليهم والتمكن من قتلهم وإذلالهم. ﴿وَيُكْشِفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني بني خزاعة. وقيل بطوناً من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديداً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

وَيَذْهَبْ غِيْظَ قُلُوْبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿وَيَذْهَبْ غِيْظَ قُلُوْبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم وقد أوفى الله بما وعدهم. والآية من المعجزات. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ابتداء إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره وقد كان ذلك أيضاً. وقرئ ويتوب بالنصب على إضمار أن على أنه من جملة ما أوجب به الأمر، فإن القتال كما تسبب لتعذيب قوم تسبب لتوبة قوم آخرين. ﴿وَاللَّهُ عَلِيْمٌ﴾ بما كان وما سيكون. ﴿حَكِيْمٌ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة.

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، وقيل للمنافقين. وأم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على الحساب. ﴿أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ولم يتبين الخلف منكم وهم الذين جاهدوا من غيرهم، نفى العلم وأراد نفى المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث إن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على جاهدوا داخل في الصلة. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. وما في «لما» من معنى التوقع منه على أن تبين ذلك متوقع. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم غرضكم منه وهو كالمزيج لما يتوهم من ظاهر قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾^(٣).

(١) الأنفال: (٣٠).

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٦١/١٠) من قول الجبائي.

(٣) وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقاً للعلم =

(١٧) ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ما صح لهم. ﴿ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام. وقيل هو المراد، وإنما جُمع لأنه قبلة المساجد وإمامها فعامره كعامر الجميع، ويدل عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد^(١). ﴿ شَهِيدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، وهو حال من الواو والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله وعبادة غيره. روي أنه لما أسر العباس عتبه المسلمون بالشرك وقطعية الرحم وأغلظ له علي رضي الله تعالى عنه في القول فقال: ما بالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحبيب ونفك العاني. فنزلت^(٢). ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك. ﴿ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴾ لأجله.

(١٨) ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ﴾ أي إنما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها تزيينها بالفُرش وتنويرها بالشُرج وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها وصيانتها مما لم تُبْنِ له كحديث الدنيا^(٣)، وعن النبي ﷺ:

= ومداراً للثواب.

وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين (س/٤/٤٩).

(١) أي (مسجد الله).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠/٩٥) وابن المنذر، وابن أبي حاتم - كما في «الدر» (٤/١٤٥) - عن ابن عباس بسند ضعيف.

وأخرجه ابن جرير (٦/١٠/٩٦) وأبو الشيخ - كما في «الدر» (٤/١٤٦) - عن الضحاك.

● وأخرج مسلم (٣/١٤٩٩ رقم ١١١/١٨٧٩) وابن جرير (٦/١٠/٩٥) وأحمد (٤/٢٦٩) والطبراني في الأوسط (١/٢٦٦ رقم ٤٢٣).

عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجلٌ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلام، إلا أن أنقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلام. إلا أن أعمُرَ المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ. وهو يوم الجمعة. ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. فأنزل الله عز وجل: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الآية إلى آخرها.

● وأخرجه ابن جرير (٦/١٠/٩٥ - ٩٦) من وجه آخر عن النعمان به، وإسناده صحيح.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٤/٥٦١ رقم ٢٣٢٢) وقال حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢/١٣٧٧ رقم ٤١١٢) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمٌ أو متعلمٌ.

● وأخرجه البغوي في شرح السنة (١٤/٢٢٩ رقم ٤٠٢٨) عن عبدالله بن صُمرة.

● وأخرجه أبو داود في «المراسيل» (رقم: ٥٠٢) وأحمد في الزهد (رقم: ١٥٤) عن محمد بن المنكدر، ورجال ثقات رجال الشيخين.

● وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/١٥٧) و(٧/٩٠) والبيهقي في الزهد (رقم: ٢٤٦) من حديث جابر بن عبدالله.

وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٣/٥٤٩ رقم ٤٢٨٠ - مع الفيض) وعزاه لأبي نعيم والضياء في المختارة، عن جابر. ورمز لصحته، وقال المناوي: رمز المصنف لحسنه.

«قال الله تعالى إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره»^(١). وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لما علم أن الإيمان بالله قريته وتمامه الإيمان به، ولدلالة قوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة عليه. ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي في أبواب الدين فإن الخشية عن المحاذير جبيلة لا يكاد العاقل يتمالك عنها. ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم؟ ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلموا عليها.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(١٩) ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ السقاية والعمارة مصدر أسقى وعمر فلا يُشبهان بالجث بل لا بد من إضمار تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج

● وأخرجه الطبراني - كما في «مجمع الزوائد» (٢٢٥/١٠) - من حديث أبي الدرداء. وقال الهيثمي «فيه خدش بن المهاجر ولم أعرفه، وبقي رجاله ثقات».

● وأخرجه البزار في المسند (١٠٨/٤ رقم ٣٣١٠ - كشف) من حديث عبدالله بن مسعود وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٦٤/٧) وقال: رواه البزار، وفيه المغيرة بن مطرف ولم أعرفه، وبقي رجاله وثقوا.

● وأخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٧/١) من حديث أبي سعيد الخدري. والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافى» (ص ٧٣ رقم ٩٦): لم أجده هكذا. وفي الطبراني - المعجم الكبير (٢٥٣/٦) رقم ٦١٣٩ و(٢٥٥/٦ رقم ٦١٤٥)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣١/٢) وقال: أحد أسانيد رجاله رجال الصحيح، قلت: يعني رقم (٦١٤٥) - عن سلمان عن النبي ﷺ: «من توضع في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم زائره».

وروى عبدالرزاق [في المصنف (٢٩٦/١١ رقم ٢٠٥٨٤)] - ومن طريقه الطبري عن معمر عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون، قال «وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: - وإن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها».

ومن هذا الوجه أخرجه عبدالله بن المبارك في الزهد - (ص ٢ رقم ٦) - هـ.

● وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (٢١٣/١٠) عن أبي سعيد الخدري بلفظ «يقول الله يوم القيامة أين جبراني؟ فتقول الملائكة، ومن ينبغي أن يكون جبرانك؟ فقول: عمار مسجدي». وقال: غريب من حديث أبي الهيثم سليمان بن عمرو العتواري، لا أعلم رواه له راوياً إلا «درجاً».

قلت: - وفيه مع ضعف دراج، بقية، وابن لهيعة.

وقال الحافظ العراقي في تخريج إحياء علوم الدين (١٥٢/١) سنده ضعيف. ثم قال بعد أن أورد الحديث «وهو في الشعب نحوه موقوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ بإسناد صحيح. وأسند ابن حبان في الضعفاء - (٨٩/٢) - (٩٠) - آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه» هـ.

كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن. ويؤيد الأول قراءة من قرأ سقاية الحاج وعمرة المسجد والمعنى إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبين عدم تساويهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام منهمكون في الضلالة فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب؟! وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين^(١).

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنى عند الله دونكم.

(٢١) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم، وقرأ حمزة يبشّرهم بالتخفيف، وتنكير المبشر به إشعاراً بأنه وراء التعيين والتعريف.

(٢٢) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأيد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحق دونه ما استوجبوه لأجله، أو نعيم الدنيا.

(٢٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في المهاجرين فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وزهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين^(٢). وقيل نزلت نهياً عن موالة التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة^(٣)، والمعنى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إن اختاروه وحرصوا عليه. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعهم الموالة في غير موضعها^(٤).

(١) وإسناد عدم الاستواء إلى الموصفين لأن الأهم بيان تفاوتهم.

وتوجيه النفي ههنا والإنكار فيما سبق «أجعلتم سقاية...» إلى الاستواء والتشبيه - مع أن دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين إنما هي الأفضلية دون التساوي والتشابه - للمبالغة في الرد عليهم، فإن نفي التساوي والتشابه نفي للأفضلية بالطريق الأولى (س/٤/٥٢).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٧٤ رقم ١٠١): أخرجه الثعلبي من رواية جوير عن الضحاك عن ابن عباس.

قلت: فيه ثلاث علل: التعليق، وضعف جوير، والانقطاع بين الضحاك عن ابن عباس.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٧٤): ذكره الثعلبي أيضاً عن مقاتل، وسنده إليه في أول الكتاب.

قلت: مقاتل هالك.

(٤) قوله «ومن يتولهم» أفراد الضمير في الفعل لمراعاة لفظ الموصول، وللإيذان باستقلال كل واحد منهم في =

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْرِيرٍ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ أقرباؤكم مأخوذ من العشرة. وقيل من العشرة فإن العشرة جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة. وقرأ أبو بكر وعشيرتكم وقرىء وعشائركم. ﴿ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ اكتسبتموها^(١). ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿ وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا ﴾ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ. الحب الاختياري دون الطبيعي، فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفظ عنه. ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴾ جواب ووعد والأمر عقوبة عاجلة أو آجلة. وقيل فتح مكة. ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ لا يرشدهم. وفي الآية تشديد عظيم وقل من يتخلص منه.

(٢٥) ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ يعني مواطن الحرب وهي مواقفها. ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ وموطن يوم حنين، ويجوز أن يقدر في أيام مواطن، أو يفسر الموطن بالوقت كمقتل الحسين، ولا يمنع إبدال قوله: ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ منه أن يعطف على موضع في مواطن فإنه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها إياهم في جمع المواطن. وحنين واد بين مكة والطائف، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون - وكانوا اثني عشر ألفاً، العشرة الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء - هوازن وثقيفاً وكانوا أربعة آلاف، فلما التقوا قال النبي ﷺ أو أبو بكر رضي الله تعالى عنه أو غيره من المسلمين: لن نُغْلِبَ اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقي رسول الله ﷺ في مركزه ليس معه إلا عمه العباس أخذاً بلبجامة وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته فقال للعباس - وكان صبيّاً - صبح بالناس، فتأدى: يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عُقْباً واحداً يقولون لبيك لبيك، ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال ﷺ هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفّاً من تراب فرماهم ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا^(٢). ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ ﴾ أي الكثرة. ﴿ شَيْئًا ﴾ من الإغناء أو من

= الانصاف بالظلم، لا أن المراد تولي فرد واحد (س/٤/٥٤).

(١) وصفت الأموال بذلك إيماء إلى عزتها عندهم لحصولها بكذ اليمين (س/٤/٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٣٩٨ - ١٣٩٩ رقم ١٧٧٥/٧٦) وأحمد (١/٢٠٧) من حديث العباس ببعض يسير.

وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/١٢٣ - ١٢٤) عن الربيع.

قلت: فيه أبو جعفر الرازي ضعيف، وكذلك أحمد بن عبد الجبار العطاردي ضعيف.

أمر العدو. ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها أي بسعتها لا تجدون فيها مفراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ﴾ الكفار ظهوركم. ﴿مُدْبِرِينَ﴾ منهزمين والإدبار الذهاب إلى خلف خلاف الإقبال.

ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٦) ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها وأمنوا. ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا^(١)، وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حالهما. وقيل^(٢) هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا. ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم أي الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والسبي. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بالتوفيق للإسلام. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم. روي أن ناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرهم وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا - وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى - فقال ﷺ: «اختاروا إما سبائكم وإما أموالكم» فقالوا ما كنا نَعْدِلُ بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ وقال: «إن هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإننا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فتعطيه مكانه، فقالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا» فرفعوا أنهم قد رضوا^(٣).

● وأخرج الحاكم في المستدرک (٤٨/٣) من حديث أنس قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة والمدينة أعجبهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل، فلما اشتد القتال ولو مدبرين... الحديث. قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح.

● وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه نحو حديث أنس - كما في الدر المنثور (١٥٨/٤).
(١) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن أبي رزي رضي الله عنه في قوله «وعذب الذين كفروا» قال: بالهزيمة والقتل. وفي قوله «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء» قال: على الذين انهزموا عن النبي ﷺ يوم حنين - كما في «الدر» (١٦٢/٤) -.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٧٥/١٠) عن الحسن.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٧٤ رقم ١٠٥): «ذكره الثعلبي بغير سند، وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق في المغازي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله. وذكرها البخاري - في صحيحه =

(٢٨) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ لخبث باطنهم، أو لأنه يجب أن يجتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسات فهم ملبسون لها غالباً. وفيه دليل على أن ما الغالب نجاسته نجس. وعن ابن عباس^(١) رضي الله تعالى عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب. وقرئ نَجَسٌ بالسكون وكسر النون وهو ككَبِدٍ في كَبِدٍ، وأكثر ما جاء تابِعاً لرجس. ﴿فَلَا يَقْرِئُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لنجاستهم، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو لل منع عن دخول الحرم. وقيل المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ يعني سَنَةَ بَرَاءة وهي التاسعة. وقيل سنة حجة الوداع. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقراً بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والأرفاق. ﴿فَسَوْفَ يُعْزِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه أو تفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً ووفق أهل تبالة وجرش فأسلموا وامتاروا لهم، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض. وقرئ عَائِلَةً، على أنها مصدر كالعافية أو حال. ﴿إِنْ شَاءَ﴾ قيده بالمشيئة لتقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبه على أنه تعالى متفضل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع.

فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يؤمنون بهما على ما ينبغي، كما بيناه في أول البقرة^(٢)، فإن إيمانهم كلا إيمان^(٣). ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة، وقيل رسوله هو الذي يزعمون أتباعه، والمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها. ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان للذين لا يؤمنون. ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ ما تقرر عليهم أن يعطوه، مشتق من جَزَى

= (٨/٣٢ رقم ٤٣١٨ - ٤٣١٩) - من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان، ورواها الطبري وغيره من رواية زهير بن حرد، وفيه الشعر الذي أنشده زهير هـ.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٨٦/١٠) عنه بدون سند.

(٢) البقرة: ٦١.

(٣) والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك في سلك المشركين (س/٤/٥٨).

دَيْنَهُ إِذَا قَضَاهُ. ﴿عَنْ يَدٍ﴾ حال من الضمير أي عن يد مؤاتية بمعنى منقادين، أو عن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه، أو عن غنى ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير، أو عن يد قاهرة عليهم بمعنى عاجزين أذلاء، أو من الجزية بمعنى نقداً مسلماً عن يد إلى يد، أو عن إنعام عليهم فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة. ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ أذلاء، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تؤخذ الجزية من الذمي وتوجأ عنه. ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب، ويؤيده أن عمر رضي الله تعالى عنه لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ أخذها من مجوس هَجَرَ^(١) وأنه قال: «سئوا بهم سنة أهل الكتاب»^(٢) وذلك لأن لهم شبهة كتاب فألحقوا بالكتابيين، وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى تؤخذ منهم إلا مشركي العرب لما روى الزهري^(٣) أنه ﷺ صالح عبدة الأوثان إلا من كان من العرب^(٤)، وعند مالك رحمه الله تعالى تؤخذ من كل كافر إلا المرتد. وأقلها في كل سنة دينار سواء فيه الغني والفقير، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى على الغني ثمانية وأربعون درهماً وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكسوب ربعها ولا شيء على الفقير غير الكسوب.

(٣٠) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبقَ فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة، وهو لما أحياء الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله. والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يُكذِّبوا مع تهالكهم على التكذيب. وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب عَزِيزٌ بالتثنية، على أنه عربي مخبر عنه بآبن غير موصوف به، وحذفه في القراءة الأخرى^(٥) إما لمنع صرفه للعجمة والتعريف أو لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحروف اللين أو لأن الابن وصفٌ والخبرٌ محذوف مثل معبودنا أو صاحبنا وهو مزيف لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدر. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم. وإنما قالوه استحالة لأن يكون وُلد بلا أب، أو لأن يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً. ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجاوز عنها، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان. ﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلُ

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الزكاة باب جزية أهل الكتاب (٤٢) وإسناده صحيح.

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة، الإمام أبو بكر القرشيّ الزهريّ المدني أحد الأعلام، من تابعي أهل المدينة من الطبقة الرابعة، كان حافظ زمانه، قال الليث بن سعد: قال ابن شهاب: ما صبر أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري. ولد سنة خمسين، وطلب العلم في أواخر عصر الصحابة وله نيف وعشرون سنة. وقد توفي سنة (١٢٤هـ).

[تهذيب الأسماء واللغات (٩٠/١ - ٩٢) ووفيات الأعيان (١٧٧/٤)].

(٤) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (١٠٣٨/٣٥) عن معمر عن الزهري.

(٥) القراءة الأخرى «عزير» بالضم من دون تنوين.

الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا، فحُذِفَ المضاف وأُقيِمَ المضاف إليه مقامه. ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ ﴿٣﴾ أي من قبلهم والمراد قداموهم على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، أو اليهود على أن الضمير للنصارى. والمضاهاة المشابهة، والهمز لغة فيه، وقرأ به عاصم، ومنه قولهم امرأة ضهيء على فاعيل للتي شابهت الرجال في أنها لا تحيض. ﴿٤﴾ قَسَلَهُمُ اللَّهُ دَعَاءَ عَلَيْهِمُ بِالْإِهْلَاكِ فَإِنْ قَاتَلَهُ اللَّهُ هَلَكَ، أو تعجب من شناعة قولهم. ﴿٥﴾ أَنْتَ يُؤَفِّكُوكَ ﴿٦﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿٣١﴾ اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٣١﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله، أو بالسجود لهم^(١). ﴿٣١﴾ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴿٣١﴾ بأن جعلوه ابناً لله^(٢). ﴿٣١﴾ وَمَا أُمِرُوا ﴿٣١﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون أرباباً فيكون كالل دليل على بطلان الاتخاذ. ﴿٣١﴾ لَا لِيَعْبُدُوا ﴿٣١﴾ ليطيعوا. ﴿٣١﴾ إِلَهًا وَاحِدًا ﴿٣١﴾ وهو الله تعالى وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة لله. ﴿٣١﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿٣١﴾ صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد. ﴿٣١﴾ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك.

(٣٢) ﴿٣٢﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا ﴿٣٢﴾ يخدموا. ﴿٣٢﴾ نُورَ اللَّهِ ﴿٣٢﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقده عن الولد، أو القرآن، أو نبوة محمد ﷺ. ﴿٣٢﴾ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴿٣٢﴾ بشركهم أو بتكذيبهم. ﴿٣٢﴾ وَيَأْبَى اللَّهُ ﴿٣٢﴾ أي لا يرضى. ﴿٣٢﴾ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ ﴿٣٢﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام. وقيل إنه تمثيل لحالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يطلب إطفاء نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده بنفخه، وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجب لأنه في معنى النفي^(٣). ﴿٣٢﴾ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ محذوف الجواب لدلالة

(١) الأخبار هم العلماء، والرهبان هم العباد.

(٢) وتخصيص المسيح بالاتخاذ يشير إلى أن اليهود لم يفعلوا ذلك بعزير. . وتأخير في الذكر - مع أن اتخاذهم له عليه السلام رباً معبوداً أقوى من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم - لأنه مختص بالنصارى. ونسبته عليه السلام إلى أمه - من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية - للإيدان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بالجهل والحمافة (س/٤/٦٠).

(٣) وفي إظهار النور في مقام الإضمار مضافاً إلى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف =

ما قبله عليه .

(٣٣) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ كالبيان لقوله: ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُنَزِّلَ ثُورَهُ﴾ ولذلك كرر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضَمَمُوا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله . والضميرُ في ليظهره للدين الحق، أو للرسول عليه الصلاة والسلام، واللام في الدين للجنس أي على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم .

(٣٤) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يأخذونها بالرشا في الأحكام . سَمَى أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه . ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه . ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنِرُونَ أَذْهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن يراد به الكثير من الأخبار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والضمن به، وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدون حقه ويكون اقترانه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ، ويدل عليه أنه لما نزل على المسلمين فذكر عمر رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم»^(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام «ما أدي زكاته فليس بكنز»^(٢) أي بكنز أوعد عليه، فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه، وأما قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها»^(٣) ونحوه فالمراد منها ما لم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام

= وإشعار بعلّة الحكم (س/٤/٦١) .

(١) وهو حديث ضعيف .
أخرجه أبو داود (٣٠٥/٢ - ٣٠٦ رقم ١٦٦٤) . والحاكم في المستدرک (٤٠٩/١) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي . وأقره ابن كثير في تفسيره (٣٦٥/٢) قال الألباني: غيلان بن جامع ليس من رجال البخاري، وإنما روى له مسلم وحده، ثم قال: وعلة هذا الحديث الانقطاع .
انظر كلامه المفيد حول الحديث في «الضعيفة» (٤٨٤/٣ - ٤٨٨ رقم ١٣١٩) .
(٢) أخرجه إيطراني في الأوسط - كما في «المجمع» (٦٤/٣) - وابن مردويه - كما في «الدر» (١٧٧/٤) - وابن عدي في «الكامل» (١٢٦٢/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٨٢/٤ - ٨٣) كلهم بأسانيدهم عن سويد بن عبد العزيز عن ابن عمر . وقال الهيثمي عنه: ضعيف . وقال الحافظ في «التقريب» (٣٤٠/١): «لين الحديث» .
● وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨٣/٤) من طريق نافع وعبدالله بن دينار عنه موقوفاً . وقال: وهذا هو الصحيح .

والموقوف: أخرجه البخاري (٢٧١/٣ ، ٣٢٤/٨) .

● وأخرج أبو داود (٢١٢/٢ - ٢١٣ رقم ١٥٦٤) عن أم سلمة قالت: كنت ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت يا رسول الله: أكثر هو؟ فقال: «ما بلغ أن تؤدي زكاته فزكّي فليس بكنز» .
قال المنذري في «المختصر» (١٧٥/٢): في إسناده عتاب بن بشر، أبو الحسن الحراني، وقد أخرج له البخاري، وتكلم في غير واحد .

وقال الألباني في «ضعيف أبي داود» (ص ١٥٥ رقم ١٥٦٤/٣٣٩) حسن - المرفوع منه فقط .

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (ج ١٠/١١٩) وأحمد في المسند (١٦٨/٥) عن أبي ذر وفيه: أبو مجيب مجهول . [تعجيل المنفعة: ص ٥١٨] .

فيما أورده الشيخان مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره»^(١) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكي بهما.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُورٌ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الْدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها. وأصله تحمى بالنار، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التانيث إلى صيغة التذكير، وإنما قال عليها والمذكور شيان لأن المراد بهما دنائير ودراهم كثيرة كما قال علي رضي الله تعالى عنه: أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز^(٢)، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْقُونَهَا﴾^(٣). وقيل الضمير فيهما للكنوز أو للأموال، فإن الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول، أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم. ﴿فُتْكُورٌ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾ لأن جمعهم وإمساكهم إياه كان لطلب الوجاهة بالغننى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية، أو لأنهم ازوؤوا عن السائل وأعرضوا عنه وولّوه ظهورهم، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد، أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقادير البدن ومآخيره وجنباؤه. ﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ﴾ على إرادة القول. ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها. ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي وبال كنزكم أو ما تكتزون. وقرئ تكتزون بضم النون.

(٣٦) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي مبلغ عددها. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ معمولٌ عدّة لأنها مصدر. ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ، أو في حكمه وهو صفة لاثني عشر، وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما فيه من معنى الثبوت أو بالكتاب إن جعل مصدراً، والمعنى: أن هذا أمر ثابت

= وأخرجه الطبراني في الكبير (١٦٨/٨ رقم ٧٦٣٦) عن أبي أمامة.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٢٥/٣) وقال فيه: بقية وهو مدلس قلت: وقد عنعن.

فالخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (٦٨٠/٢ رقم ٩٨٧/٢٤) وأبو داود (٣٠٢/٢ رقم ١٦٥٨). وابن جرير (٦/١٠/١٢٠) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠٩/٤ رقم ٧١٥٠) والطبري في «جامع البيان» (٦/١٠/١١٨ - ١١٩) وابن أبي حاتم - كما في «الدر» (٤/١٧٩) - عن علي بإسناد صحيح.

(٣) التوبة: «٣٤».

في نفس الأمر مذ خلق الله الأجرام والأزمنة. ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ واحد فَرْد وهو رجب وثلاثة سَرَد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَسُوا﴾ أي تحريم الأشهر الأربعة هو الدين القويم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام والعرب ورثوه منهما. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرمها. والجمهور على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة، وأولوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحرم وحال الإحرام، وعن^(١) عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم وفي الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا ويؤيد الأول ما روي أنه عليه الصلاة والسلام حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوال وذو القعدة^(٢). ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً، وهو مصدر كف عن الشيء، فإن الجميع مكفوف عن الزيادة، وقع موقع الحال. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بشارة وضمنان لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخِذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أي تأخير حزمة الشهر إلى شهر آخر، كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرّموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، وعن نافع برواية وزش إنما النسِيء بقلب الهمزة ياء وإدغام الياء فيها. وقرئ النسِيء بحذفها والنسء والنساء وثلاثتها مصادر نسأه إذا أخره. ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر ضمّوه إلى كفرهم. ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضلالاً زائداً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص يُضَلُّ على البناء للمفعول، وعن يعقوب يُضَلُّ على أن الفعل لله تعالى. ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا﴾ يحلون المنسي من الأشهر الحرم سنة ويحرمون مكانه شهراً آخر. ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ فيتركونه على حرمة. قيل: أول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني، كان يقوم على جمل في الموسم فينادي: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادي في القبائل إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرّموه. والجملتان تفسير للضلال أو حال. ﴿لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأربعة المحرمة، واللام متعلقة بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بمواطاة العدة وحدها من غير مراعاة الوقت. ﴿زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ وقرئ على البناء للفعل وهو الله تعالى، والمعنى خذلهم وأضلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء.

(٣٨) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخِذْتُمْ﴾ بتباطؤهم. وقرئ تَأْخِذْتُمْ

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/٤٥) بدون سند.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/٤٥) وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (١٠/٩٢) بدون سند.

على الأصل، وأنأقلتم؟ على الاستفهام للتوبيخ. ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق به كأنه ضَمَّن معنى الإخلاء والميل فعُدِّي بإلى، وكان ذلك في غزوة تبوك^(١) أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف في وقت عُسرة وقَيْظ مع بُعْد الشَّقَّة وكثرة العدو فشَقَّ عليهم. ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وغرورها. ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها. ﴿فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها. ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر^(٢).

إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ إن لا تنفروا إلى ما استُغْفِرتم إليه. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فطبع كَقَحْط وظهور عدو. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين كأهل اليمن وأبناء فارس^(٣) ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ إذ لا يقدح تناقلكم في نصر دينه شيئاً فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل الضمير للرسول ﷺ أي ولا تضروه فإن الله سبحانه وتعالى وَعَدَ له بالعصمة والنصر ووَعَدَهُ حق. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على التبدل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال:

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله كما نصره. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد، فحُذِفَ الجراء وأقيم ما هو كالل دليل عليه مقامه، أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره. وإسناد الإخراج إلى الكفرة لأن همُّهم بإخراجه أو قتله تسبَّب لإذن الله له بالخروج. وقرئ ثاني اثنين بالسكون على لغة من يجري المنقوص مجرى المقصور في الإعراب، ونصبه على الحال. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل مِنْ إِذْ أَخْرَجَهُ بَدَلُ البعض، إذ المراد به زمان متسع. والغار نقب في أعلى ثور، وهو جبل في يَمَنِي مكة على مسيرة ساعة، مكثاً فيه ثلاثاً. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان، أو ظرف لثاني.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج ١٠/١٣٤) عن مجاهد.

وذكر الواحدي في «الأسباب» ص ٢٤٦ ذلك بدون راو ولا سند.

(٢) وفي ترشيح الحياة الدنيا مما يؤذن بنفاسها ويستدعي الرغبة فيها وتحرير الآخرة عن مثل ذلك مبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة (س ٤/٦٥).

(٣) وإنما وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أي قوماً مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا. (س ٤/٦٥).

﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه. ﴿لَا تَخْزَنَ آبَاءُ اللَّهِ مَعَكُمْ﴾ بالعصمة والمعونة. روي أن المشركين طلَعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١) فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه وقيل لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه^(٢). ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أَمْنَتُهُ التي تسكن عندها القلوب. ﴿عَلَيْهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على صاحبه وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً. ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين، فتكون الجملة معطوفة على قوله «نَصَرَهُ الله». ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يعني الشرك، أو دعوة الكفر. ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْأُولَى﴾ يعني التوحيد، أو دعوة الإسلام، والمعنى وجعل ذلك بتخليص الرسول ﷺ عن أيدي الكفار إلى المدينة فإنه المبدأ له، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن، أو بحفظه ونصره له حيث حضر. وقرأ يعقوب وكلمة الله بالنصب عطفاً على «كلمة الذين»، والرفع أبلغ لما فيه من الإشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها وإن فاق غيرها فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار، ولذلك وَسَطَ الفصل. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره وتدبيره.

(٤١) ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا﴾ لنشاطكم له. ﴿وَقِفَالًا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو لقلّة عيالكم ولكثرتها، أو ركبناً ومشاة، أو خفافاً وثقالاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً، ولذلك لما قال ابن أم مكتوم^(٣) لرسول الله ﷺ: أَعْلَيَّ أَنْ أَنْفِرَ؟ قال: «نعم». حتى نزل: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٧٦ رقم ١٢٠): لم أجده هكذا. وفي الصحيحين - [البخاري: (٨/ ٣٢٥ رقم ٤٦٦٣) ومسلم (٤/ ١٨٥٤ رقم ١/ ٢٣٨١)] - عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال «نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار. فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

(٢) أخرجه الزوار والطبراني عن أبي مصعب المكي قال أدركت زيد بن أرقم، والمغيرة ابن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة بات في الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار فسترت وجه النبي ﷺ وأمر الله تبارك وتعالى فنسجت على وجه الغار، وأمر الله تبارك وتعالى حمامتين وحشيتين فوقعتا بضم الغار وأتى المشركون من كل فج حتى كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم وتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين فرجع فقال لأصحابه ليس في الغار شيء... الحديث - كما في «مجمع الزوائد» (٥٢/ ٦ - ٥٣) - وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم.

قلت: وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٣/ ٢٠ رقم ١٠٨٢) والعقيلي في الضعفاء (٤٢٢/ ٣) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤١٩/ ٢ رقم ٢٢٩) وغيرهم.

وفيه أبو مصعب المكي مجهول. وعون بن عمرو القيس: منكر الحديث مجهول. انظر «الميزان» (٣٠٦/ ٣).

والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

فائدة: - قال الشيخ محمد درويش الحوت في «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب» ص ٣٧٧: «فائدة: ما يذكر في السير من نبات شجرة عند فم الغار وقت هجرته ﷺ، وأنه فتح باب من ظهر الغار وظهر عنده نهر، وأن الحية لدغت أبا بكر في الغار باطل لا أصل له» - هـ.

(٣) لم أقف عليه.

وأورده الحافظ في «الكافي الشاف» ولم يخرججه رقم (١٢٣).

حَرَجٌ^(١). ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تركه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير علمتم أنه خير، أو إن كنتم تعلمون أنه خير، إذ إخبار الله تعالى به صدق فبادروا إليه.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبَعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ^(٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ^(٣) لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ^(٤) إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ^(٥)

(٤٢) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ أي لو كان ما دُعوا إليه نفعا دينيًّا. ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطًا. ﴿لَا تَبَعُوكُمْ﴾ لوافقوك. ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تُقَطَّعُ بمشقة. وقرئ بكسر العين والشين^(٢). ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتردين. ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ يقولون لو كان لنا استطاعة العدة أو البدن. وقرئ لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الضمير في قوله: ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ﴾^(٣). ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ساذ مسد جوابي القسم والشرط، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه. ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب، وهو بدل من سيحلفون لأن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك، أو حال من فاعله. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في ذاك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

(٤٣) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية عن خطئه في الإذن، فإن العفو من روادفه. ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كتى عنه بالعفو ومعاينة عليه، والمعنى لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلوا بأكاذيب وهلا توقفت؟ ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار. ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه. قيل إنما فعل رسول الله ﷺ شيئين لم يؤمر بهما: أخذه للعداء وإذنه للمنافقين، فعاتبه الله عليهما.

(٤٤) ﴿لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا فإن الخلاص منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الإذن فيه فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتقوى وعدة لهم بثوابه^(٤).

(١) النور: «٦١».

(٢) أي قرئ «بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ».

(٣) البقرة: «١٦».

(٤) تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول - الذي صلته فعل دال على الحدوث - وعن الفريق الثاني باسم الفاعل - المفيد للديموم - للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث في أمر خاص غير مصحح لنظمهم =

(٤٥) ﴿ إِنَّمَا يَسْتَفْزِزُكَ ﴾ في التخلف. ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ تخصيص الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر في الموضعين للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما. ﴿ وَأَزْنَابٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْدَّدُونَ ﴾ يتحIRON^(١).

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا خَلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧)

(٤٦) ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ ﴾ للخروج ﴿ عُدَّةً ﴾ أهبة. وقرئ عُدَّةٌ بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدُّوا الْبَيْنَ فَأَنْجَرَدُوا وَأَخْلَفُوكَ عَدَا الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

وعُدَّةٌ بكسر العين بالإضافة وعِدَّةٌ بغيرها. ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ استدراك عن مفهوم قوله: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ كأنه قال ما خرجوا ولكن تثبطوا لأنه تعالى كره انبعاثهم أي نهوضهم للخروج. ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل. ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول عليه السلام لهم. والقاعدین يحتمل المعذورين وغيرهم، وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم.

(٤٧) ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ ﴾ بخروجهم شيئاً. ﴿ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فساداً وشرأ، ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء، ولأجل هذا التوهم جعل الاستثناء منقطعاً، وليس كذلك لأنه لا يكون مفرغاً. ﴿ وَلَا ضَعُفًا خَلَلَكُمْ ﴾ ولا أسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب، أو الهزيمة والتخذيل، مِنْ وَضَعِ الْبَعِيرِ وَضْعاً إِذَا أَسْرَعَ. ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم، والجملة حال من الضمير في أوضعوا. ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ ضَعْفَةٌ يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نمامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم^(٢).

= في سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص لكنه أمر جار على عاداتهم المستمرة ناشئ عن رسوخهم في الكذب.

والتعبير عما يتعلق بالكذب بالعلم لأن المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلي فظهور صدقه إنما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه.. (س/٤/٦٩).

(١) قوله «وارتابت قلوبهم» عبر عن ريبها بالماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرره (س/٤/٧٠).

(٢) ووضع المظهر موضع المضمحل للتسجيل عليهم بالظلم، والتشديد في الوعيد، والإشعار بترتبته على الظلم (س/٤/٧١).

لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَنْفِتَنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوِلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٨) ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾ تشبثت أمرك وتفريق أصحابك. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني يوم أحد فإن ابن أبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع الرسول ﷺ إلى ذي جدة أسفل من ثنية الوداع انصرفوا يوم أحد. ﴿وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكائد والحيل ودوروا الآراء في إبطال أمرك. ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ بالنصر والتأييد الإلهي. ﴿وَبُظْهِرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعلا دينه. ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي على رغم منهم. والآيتان لتسليية الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم وبيان ما بثطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم تداركاً لما فوت الرسول ﷺ بالمبادرة إلى الإذن، ولذلك عوتب عليه.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي﴾ في القعود. ﴿وَلَا تَنْفِتَنِي﴾ ولا توقعني في الفتنة أي في العصيان والمخالفة بأن لا تأذن لي، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف إذن له أم لم يأذن، أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدي. أو في الفتنة ينساء الروم لما روي: أن جد بن قيس قال: قد علمت الأنصار أنني مولع بالنساء فلا تفتني بينات الأصفر ولكني أعينك بمالي فاتركني^(١). ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احترزوا عنه^(٢). ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ جامعة لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها..

(٥٠) ﴿إِنْ تُصِيبْكَ﴾ في بعض غزواتك. ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة. ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ لفرط حسدهم.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠٨٨) من طريق ابن جريج عن ابن عباس لسند ضعيف ومنقطع. ● وأخرج الطبراني معناه في «المعجم الكبير» (١٢/١٢٢ رقم ١٢٦٥٤) من طريق الضحاك عن ابن عباس. قلت: الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٣٠) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف». قلت: وفيه بشر بن عماره ضعيف أيضاً.

● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/٦٣ رقم ١١٠٥٢) نحوه دون ذكر الاسم من طريق مجاهد عن ابن عباس. وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٣٠) وقال: «رواه الطبراني وفيه أبو شيبه إبراهيم بن عثمان وهو ضعيف». قلت: بل هو متروك [التقريب (١/٣٩ رقم ٢٤١)].

(٢) وتصدير الجملة بحرف التنبيه «إلا» مع تقديم الظرف إيذاناً بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعماً منهم أن الفتنة إنما هي التخلف بغير إذن.

وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردى أسفل سافلين (س٤/٧٢).

﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ فِي بَعْضِهَا مُصِيبَةٌ﴾ كسر أو شدة كما أصاب يوم أحد. ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ تبجحوا بانصرافهم واستحمدوا رأيهم في التخلف. ﴿وَيَكْتُولُوا﴾ عن متحدتهم بذلك ومجتمعهم له، أو عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُمْ فَرِحُوا﴾ مسرورون^(١).

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقَبَّلَ مِنْكُمْ إِلَّا الْكُفْرُ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَذِرُونَ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ إلا ما اختصنا بإثباته وإيجابه من النصر أو الشهادة، أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ لا يتغير بموافقكم ولا بمخالفكم. وقرىء هل يصيبنا، وهل يصيبنا وهو من يفعل لا من فعل لأنه من بنات الواو لقولهم صاب السهم يصوب، واشتقاقه من الصواب لأنه وقوع الشيء فيما قصد به، وقيل من الصوب. ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكلوا على غيره^(٢).

(٥٢) ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ تنتظرون بنا^(٣). ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب: النصر والشهادة. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أيضاً إحدى السوأتين ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ بقارعة من السماء. ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتل على الكفر. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم.

(٥٣) ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ أمر في معنى الخبر، أي لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. وفائدته المبالغة في تساوي الإنفاقين في عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم، وهو جواب قول جد بن قيس وأعينك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أمرين أن لا يؤخذ منهم وأن لا يثابوا عليه وقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له.

(٥٤) ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم. وقرأ حمزة والكسائي أن يُقَبَّلَ بالياء لأن تأنيث النفقات غير حقيقي، وقرىء يُقَبَّلَ على أن

(١) وإسناد المساءة إلى الحسنة والمصرة إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وإن تصيبك مصيبة تسرهم للإيذان

باختلاف حالهم حالتي عروض المساءة والمصرة بأنهم في الأولى مضطرون وفي الثانية مختارون (س/٤/٧٣).

(٢) قوله «وعلى الله» أظهر الاسم الجليل في مقام الإضمار لإظهار التبرك والتلذذ به (س/٤/٧٣).

(٣) والتربص هو التمكث مع انتظار مجيء شيء خيراً كان أو شراً.

الفاعل لله. ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَاكٌ﴾ متقابلين. ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب. ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك استدراجاً لهم. وأصل الزهوق الخروج بصعوبة.

(٥٦) ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ إنهم لمن جملة المسلمين. ﴿وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ﴾ لكفر قلوبهم. ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركون فيظهِرون الإسلام تقيّة.

(٥٧) ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا﴾ حصناً يلجؤون^(١) إليه ﴿أَوْ مَغْرَبًا﴾ غيراناً. ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ نفقاً ينجحرون فيه مفتعل من الدخول. وقرأ يعقوب مُدْخَلًا من دخل، وقرأ مُدْخَلًا أي مكاناً يُدْخِلُونَ فيه أنفسهم، وَمُدْخَلًا وَمُدْخَلًا من تدخل واندخل ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه. ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسرعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح. وقرأ يَجْمَحُونَ ومنه الجُمَاة^(٢).

(٥٨) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ يعيبك. وقرأ يعقوب يَلْمِزُكَ بالضم، وابن كثير يَلْمِزُكَ. ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ في قسّمها. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ قيل إنها نزلت في أبي الجواظ المنافق فقال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يَقْسِمُ صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل^(٣). وقيل في ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يَقْسِمُ غنائم حنين فاستغطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم، فقال: أَعِدِلْ يا رسول الله فقال: «ويلك إن لم أعدل فمَنْ يَعْدِلُ»^(٤). وإذا للمفاجأة، نائبُ مناب الفاء الجزائية.

(٥٩) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما أعطاهم الرسول من الغنيمة أو الصدقة، وذكر الله

(١) وإشار صيغة الاستقبال في الشرط «يجدون» لإفادة استمرار عدم الوجدان (س ٤/ ٧٥).

(٢) الجُمَاة هي الناقة الشديدة العدو.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٧٦ رقم ١٢٦): «لم أجده».

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٦١٧ - ٦١٨ رقم ٣٦١٠) ومسلم (٢/ ٧٤٤ رقم ١٠٦٤/١٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري.

للتعظيم وللتنبية على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كفانا فضله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى. ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فيؤتينا أكثر مما آتانا. ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يغنيننا من فضله. والآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف تقديره لكان خيراً لهم. ثم بين مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ فقال:

﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٠)

(٦٠) ﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي الزكوات لهؤلاء المعدودين دون غيرهم، وهو دليل على أن المراد باللمز لزمهم في قسم الزكوات دون الغنائم. والفقير مَنْ لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته، من الفقار كأنه أصيب فقاره. والمسكين مَنْ له مال أو كسب لا يكفيه، من السكون كان العجز أسكنه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ﴾^(١) وأنه ﷺ كان يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر، وقيل بالعكس لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾. ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها. ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبهم، أو أشراف قد يترتب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم؛ وقد أعطى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك، وقيل أشراف يُستألفون على أن يسلموا فإنه ﷺ كان يعطيهم، والأصح أنه كان يعطيهم من خُمس الخُمس الذي كان خاصاً ماله وقد عُدَّ منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة. وقيل كان سهم المؤلفة لتكثير سواد الإسلام فلما أعزه الله وأكثر أهله سقط. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون المُكَاتِبَ شيء منها على أداء الثُّجُوم. وقيل بأن تبتاع الرقاب فتعتق وبه قال مالك وأحمد، أو بأن يُفدى الأسارى. والعدول عن اللام إلى «في» للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب، وقيل للإيذان بأنهم أحق بها. ﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ والمُذْبُونين لأنفسهم في غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله ﷺ «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغار في سبيل الله، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني، أو لعامل عليها»^(٢) ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وابتياح الكِرَاع والسلاح. وقيل وفي بناء القناطر والمصانع. ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر لما دل عليه الآية الكريمة أي فَرَضَ لهم الله الصدقات فريضة، أو حال من الضمير المستكن في للفقراء. وقرئ بالرفع على تلك فريضة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في

(١) الكهف: (٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٣٦) وابن ماجه (١٨٤١) والبيهقي (١٥/٧) ومالك في الموطأ (٢٦٨/١) والحاكم (٤٠٧/١) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر تصحيحه الفتح السماوي ص ٦٨٥.

مواضعها. وظاهر الآية يقتضي تخصيص استحقاق الزكاة بالأصناف الثمانية ووجوب الصرف إلى كل صنف وُجد منهم ومراعاة التسوية بينهم قضية للاشتراك وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين جواز صرفها إلى صنف واحد وبه قال الأئمة الثلاثة واختاره بعض أصحابنا، وبه كان يفتي شيخي والدي رحمهما الله تعالى على أن الآية بيان أن الصدقة لا تخرج منهم لا إيجاب قسّمها عليهم.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كل ما يُقال له ويصدق. سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من قُزط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، أو اشتق له فعل من أذن أذنًا إذا استمع كأنف وشلل. روي أنهم قالوا محمد أذن سامعة نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول^(١). ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أذن ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدق به لما قام عنده من الأدلة. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خلوصهم، واللام مزيدة للترقية بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم وإيمان الأمان. ﴿وَرَحْمَةُ﴾ أي وهو رحمة^(٢). ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحمًا عليكم. وقرأ حمزة ورحمته بالجر عطفاً على خير، وقرئ بالنصب على أنها علة فعل دل عليه أذن خير أي يأذن لكم رحمة. وقرأ نافع أذن بالتخفيف فيهما. وقرئ أذن خير على أن خير صفة له أو خبر ثان ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإيذائه^(٣).

(٦٢) ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا أو تخلفوا. ﴿لِيَرْضَوْكُمْ﴾ لترضوا عنهم، والخطاب للمؤمنين. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاء. وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين، أو لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك. ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ صدقاً.

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول بدون سند ص ٢٥٤ وأورد نحوه عن السدي وابن إسحاق.

(٢) وهو من إطلاق المصدر على الفاعل مبالغة (س ٧٧/٤).

(٣) قوله «يؤذون» في صيغة الاستقبال - المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه - إشعار بقبول توبتهم (س ٧٧/٤).

وقوله: «لهم عذاب أليم» في تكرير الإسناد بإثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبراً للموصول ما لا يخفى من المبالغة.

وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة «رسول الله» مضافاً إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنبه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب (س ٧٨/٤).

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَتَقَاتِلَ لَهُمُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلِ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذَرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تَعَذَّبَ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

(٦٣) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أن الشأن. وقرىء بالتاء. ﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يشاقق مفاعلة من الحد. ﴿فَأَتَقَاتِلَ لَهُمُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾ على حذف الخبر أي فحق أن له، أو على تكرير أن للتأكيد، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أنه ويكون الجواب محذوفاً تقديره من يحادد الله ورسوله يهلك. وقرىء فإن بالكسر. ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الهلاك الدائم.

(٦٤) ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وتهتك عليهم أستارهم، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقروء ومحتج به عليهم، وذلك يدل على ترددهم أيضاً في كفرهم وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيء. وقيل إنه خبر في معنى الأمر، وقيل كانوا يقولونه فيما بينهم استهزاء لقوله: ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ مبرز أو مظهر. ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

(٦٥) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ روي: أن ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فأخبر الله تعالى به نبيه، فدعاهم فقال: «قلتم كذا وكذا؟» فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر^(١). ﴿قُلِ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به وإلزاماً للحجة عليهم، ولا تعباً باعتذارهم الكاذب.

(٦٦) ﴿لَا تَعْذَرُوا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم فإنها معلومة الكذب. ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه. ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان. ﴿إِنْ نَعُفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء. ﴿تَعَذَّبَ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق أو مُقدمين على الإيذاء والاستهزاء^(٢). وقرأ عاصم بالنون فيهما، وقرىء بالياء وبناء الفاعل فيهما وهو الله، وإن نُعِفَ بالتاء والبناء على المفعول ذهاباً إلى المعنى كأنه قال: إن تُرَحِمَ طائفة.

(١) أخرجه ابن جرير (١٧٣/١٠) بإسناد صحيح. انظر الفتح السماوي ص ٦٨٦.

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ: «إِنْ يُعَفَّ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تَعَذَّبَ طَائِفَةٌ» وقد قرأ بها غير عاصم. انظر المبسوط لابن مهران ص ١٩٥.

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٧) ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعض الشيء الواحد. وقيل إنه تكذيب لهم في حليفهم بالله إنهم لمنكم وتقرير لقولهم وما هم منكم وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وهو قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن المبار، وقبض اليد كناية عن الشح. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ غفلوا عن ذكر الله وتركوا طاعته. ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من لطفه وفضله. ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

(٦٨) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود. ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاء، وفيه دليل على عظم عذابها. ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا ينقطع، والمراد به ما وُعدوه أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

(٦٩) ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم مثل الذين، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم^(١). ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ بيان لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم. ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإنه ما قُدِّرَ لصاحبه^(٢). ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المُخْدَجَةِ^(٣) من الشهوات الفانية والتهائم بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذات الحقيقية تمهيداً لزم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم. ﴿وَخُضْتُمْ﴾ ودخلتم في الباطل. ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه. ﴿أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة^(٤).

(١) «قبلكم» والالتفات فيه من الغيبة إلى الخطاب للتشديد عليهم بالخطاب (س/٤/٨١).

(٢) «فاستمتعوا» أورده بصيغة الاستفعال لبيان الاستزادة والاستدامة في التمتع (س/٤/٨١).

(٣) المُخْدَجَةُ أي الناقصة الفانية، وهو من أخذت الناقة إذا أَلْقَتْ ولدها ناقص الخلق (المصباح المنير، مادة خدج).

(٤) وإيراد اسم الإشارة في الموضعين للإشعار بعلية الأوصاف المشار إليها للحبوط والخسران (س/٤/٨٢).

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوَّوْا نُوحًا وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾
وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوَّوْا نُوحًا﴾ أغرقوا بالطوفان. ﴿وَعَادًا﴾ أهلكوا بالريح. ﴿وَتَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة. ﴿وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلك نمرود ببعوض وأهلك أصحابه. ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين وهم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قريات قوم لوط انتفكت بهم أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل. وقيل قريات المكذبين المتمردين وانتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر. ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ يعني الكل. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب^(١).

(٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله: ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(٢) ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأمور. ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

(٧٢) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ﴾^(٣) تستطيعها النفس أو يطيب فيها العيش وفي الحديث: «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر»^(٤). ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ إقامة وخلود. وعنه عليه الصلاة والسلام: «عَدْنُ دَارِ اللَّهِ الَّتِي لَمْ تَرَهَا

(١) قوله «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» حيث جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار ظلمهم... وتقديم المفعول «أنفسهم» لمجرد الاهتمام به... (س/٤/٨٢).

(٢) التوبة: (٦٧).

وقد عبر عن هؤلاء بالولاية فقال: «بعضهم أولياء بعض» بينما عبر عن أولئك بمن الاتصالية حيث قال «بعضهم من بعض» للإيدان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاهدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك، ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة (س/٤/٨٢).

(٣) وإظهار صفة الإيمان في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان لحصول ما تعلق به الوعد. وعدم التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للإيدان بأنه من لوازمه (س/٤/٨٣).

(٤) أخرج البزار (٣/٥١ - ٥٢ رقم ٢٢١٧ - كشف الأستار).

من طريق جسر بن فرقد، عن يحيى بن سعيد ابن أخي الحسن، عن الحسن، قال: لقيت عمران بن حصين =

عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك^(١). ومرجع العطف فيها يحتمل أن يكون إلى تعدد الموعود لكل واحد، أو للجميع على سبيل التوزيع، أو إلى تغاير وصفه فكانه وَصَفَهُ أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم أول ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معزى عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار عليين لا يعترهم فيها فناء ولا تغير، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال تعالى: ﴿وَرِضْوَنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء، وعنه ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً^(٢)». ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرضوان أو جميع ما تقدم. ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي تستحقرونه الدنيا وما فيها.

= وأبا هريرة فسألتهما عن تفسير هذه الآية «ومساكن طيبة في جنات عدن» قالوا: على الخير سقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: - قصر من دُرّة، في ذلك القصر سبعون ألف دار من زمّدة خضراء في كل بيت، منها سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش امرأة من الحور العين، في كل بيت مائدة على كل مائدة سبعون لوناً في كل بيت سبعون وصيفاً أو وصيفة يُعطى من القوة ما يأتي على ذلك كله في غداة واحدة.

قال البزار: لا نعلم أحداً رواه مرفوعاً إلا عمران، وأبا هريرة، ولا نعلم لهما طريقاً إلا هذا، وجسر: لين الحديث، وقد حدّث عنه أهل العلم. والحسن فلا يصحّ سماعه، عن أبي هريرة من رواية الثقات. وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣٠/٧) وقال «رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه جسر بن فرقد: - وهو ضعيف، وقد وثقه سعيد بن عامر، وبقية رجال الطبراني ثقات». والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) أخرجه البزار (١٩٢/٤) رقم ٣٥١٦ - كشف الأستار وابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠ ج ١٨٠) والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٣/١١٥١ - ١١٥٢) وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/٣٨ رقم ٢١) والعقيلي في «الضعفاء» (٢/٩٣) كلهم من طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء مرفوعاً.

قال ابن الجوزي «هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد، قال البخاري: هو منكر الحديث، وقال ابن حبان: هو منكر الحديث جداً، يروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك» هـ.

وقال البزار: «لا نعلم رواه بهذا اللفظ إلا أبو الدرداء، وزيادة لا نعلم روى عنه غير الليث، ولا نعلم أسند فضالة عن أبي الدرداء غير حديثين» وأورد الذهبي الحديث في «الميزان» (٢/٩٨) وقال «هذه ألفاظ منكّرة لم يأت بها غير زيادة» هـ.

والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (١١/٤١٥ رقم ٦٥٤٩) و(١٣/٤٨٧ رقم ٧٥١٨) ومسلم (٤/٢١٧٦ رقم ٢٨٢٩/٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

يَتَّيْبُهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَاؤُا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا
إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوَلُوا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَكُونُوا
فَضْلِهِ لَنَصَدَّقْنَ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿يَتَّيْبُهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ﴾ بالسيف. ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالزام الحجة وإقامة الحدود. ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في ذلك ولا تحايهم. ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّ الْمَصِيرُ﴾ مصيرهم.

(٧٤) ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ روي أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويُعيب المتخلفين، فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قاله فنزلت (١) فتاب الجلاس وحسنت توبته (٢). ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام. ﴿وَهُمْ أُولَاؤُا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من فتك الرسول، وهو أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخُطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقة السلاح فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا (٣)، أو إخراجهم وإخراج المؤمنين من المدينة، أو بأن يتوجوا عبدالله بن أبي وإن لم يرَضَ رسول الله ﷺ. ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما أنكروا أو ما وجدوا ما يورث نفمتهم. ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاييج في ضنك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى. والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو العلل. ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وهو الذي حمل الجلاس على التوبة، والضمير في يَكُ للتوب. ﴿وَإِنْ يَسْتَوَلُوا﴾ بالإصرار على النفاق. ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالقتل والنار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب.

(٧٥) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَكُونُوا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ نزلت في ثعلبة بن حاطب أتى النبي ﷺ فقال: ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال عليه الصلاة والسلام: يا ثعلبة قليل تؤدي

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/٢٨١ - ٢٨٢) وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف، في غير العبادلة. وليس الأثر عن العبادلة عنه.

(٢) وإيثار صيغة الاستقبال في «يخلفون» لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرار الحلف وصيغة الجمع في «قالوا» مع أن القائل هو الجلاس - للإيذان برضا الباقيين فكانهم قالوا (س٤/٨٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/٤٥٣) من حديث أبي الطفيل بلفظ مقارب للفظ الكتاب وفي إسناده. الوليد بن عبدالله بن جميع، صدوق بهم. قاله الحافظ في التقريب (٢/٣٣٣). وهو حديث حسن. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/٢٥٦) و(٥/٢٥٧ - ٢٥٨) عن عروة، وابن إسحاق. وفي إسناده عروة (ابن لهيعة) ضعيف. وفي إسناده ابن إسحاق: (أحمد بن عبد الجبار العطاري) ضعيف أيضاً.

شكره خير من كثير لا تطبيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ، فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال: «يا ويح ثعلبة» فبعث رسول الله ﷺ مصدقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومراً بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه الكتاب الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية فارجعا حتى أرى رأيي، فنزلت، فجاء ثعلبة بالصدقة فقال النبي ﷺ: «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل يحشو التراب على رأسه، فقال: «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فقبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فلم يقبلها، ثم جاء إلى عمر رضي الله تعالى عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله تعالى عنه^(١).

فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

(٧٦) ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ منعوا حق الله منه. ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله. ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها.

(٧٧) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للبخل والمعنى فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم. ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج ١٨٩ - ١٩٠) والبيهقي في «الدلائل» (٥/٢٨٩ - ٢٩٢) والطبراني في المعجم الكبير (٨/٢٦٠ رقم ٧٨٧٣).

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣١/٧ - ٣٢) وقال: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهماني وهو متروك. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٤٦ - ٢٤٧) وعزاه للحسن بن سفيان، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال والطبراني، وأبو منده، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر. عن أبي أمامة.

وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٧٧ رقم ١٣٣) «أخرجه الطبراني، والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم، والطبري، وابن مردويه. كلهم من طريق علي بن زيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة. وهذا إسناد ضعيف جداً. فقال السهيلي عن ابن إسحاق: ثعلبة بن حاطب قمر البدرين، وعن ابن إسحاق أيضاً في المناقبين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه فلعلهما اثنان» هـ. والخلاصة أن الحديث موضوع والله أعلم.

فائدة: لقد تكلم حفاظ الحديث ونقاده في هذه القصة بكلام واضح يبين جمعه وعلق عليه أخونا الشيخ «عذاب محمود الحمش» في رسالة سماها «ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه». فانظرها لزماً لتقف على بطلان هذه القصة، وفيها توضيحات مفيدة في الدفاع عن كتاب الله وسنة رسوله والذب عن صحابة رسول الله ﷺ.

يلقون الله بالموت أو يلقون عملهم أي جزاءه وهو يوم القيامة ﴿يَمَّا أَخَلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصديق والصلاح. ﴿وَيَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ويكونهم كاذبين فيه فإن خُلف الوعد متضمن للكذب مستقبح من الوجهين أو المقال مطلقاً. وقرئ يُكْذِبُونَ بالتشديد.

(٧٨) ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي المنافقون، أو من عاهد الله. وقرئ بالثناء على الالتفات. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَكْلِمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسروه في أنفسهم من النفاق، أو العزم على الإخلاف. ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، أو تسمية الزكاة جزية. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْفُيُوبَ﴾ فلا يخفى عليه ذلك^(١).

(٧٩) ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ذم مرفوع أو منصوب أو بدل من الضمير في سِرَّهُمْ. وقرئ يُلْمِزُونَ بالضم. ﴿الْمُطَوِّعِينَ﴾ المتطوعين. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ روي أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف درهم فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك الله له حتى صولحت إحدى امرأته عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم. وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسقي من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر فقال بت لي لنتي أجز بالجرير على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، فلَمَزَهُم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبدالرحمن وعاصم إلا رياء ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات. فنزلت^(٢). ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ إلا طاقتهم. وقرئ بالفتح^(٣) وهو مصدر جهد في الأمر إذا بالغ فيه. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون بهم. ﴿سَخَرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سُخْرِيَتِهِمْ، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٤) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على كفرهم.

(١) وفي إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى (س/٤/٨٦).

(٢) أخرج قصة تصديق عبدالرحمن. ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠٤/١٩٤) وابن مردويه وابن المنذر، وابن أبي حاتم - كما في «الدر» (٤/٢٥٠) - عن ابن عباس وفي سنده (كاتب الليث) وهو ضعيف.

وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠٤/١٩٤) من حديث أبي سلمة ورجاله ثقات إلا المثنى بن إبراهيم الأملی شيخ الطبري، فلم أجد من ترجم له. وتابع المثنى أبو كامل الجحدري عند البزار (٣/٥١ رقم ٢٢١٦) وأبو كامل ثقة حافظ - كما في التقريب (٢/١١٢) - وعمر بن أبي سلمة صدوق يخطيء - كما في التقريب (٢/٥٦) -.

وهذا الحديث وصله (طالوت بن عباد) عند البزار. فقال بهذا الإسناد عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وطالوت بن عباد هو الصيرفي الضبعي: صدوق كما في الجرح والتعديل (٤/٤٩٥). وانظر كلام الهيثمي في «المجتمع» (٧/٣٢) على هذا الحديث.

والخلاصة أن الحديث حسن إن شاء الله.

● وأخرج قصة عاصم بن عدي. ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠٤/١٩٦) عن ابن إسحاق. بسند ضعيف.

● وقصة تصديق أبي عقيل مخرج في الصحيحين البخاري (٨/٣٣٠ رقم ٤٦٦٨) ومسلم (٢/٧٠٦ رقم ١٠١٨/٧٢) من حديث ابن مسعود وانظر «الكافي الشاف» لابن حجر (رقم: ١٣٤).

(٣) أي بفتح الجيم «جَهْدَهُمْ». والجُهد - بضم الجيم - الطاقة، وافتتحها: المشقة (س/٤/٨٧).

(٤) البقرة: (١٥).

أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. روي أن عبدالله بن عبدالله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام، فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين، فنزلت^(١): ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٢). وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ما وراءه، فبين له أن المراد به التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمئة ونحوها في التكثير، لاشتغال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنه العدد بأسره. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ المتمردين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٣).

(٨١) ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ بعودهم عن الغزو خلفه يقال أقام خلاف الحي أي بعدهم، ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال. ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إيثاراً للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضا بئذ الأموال والمهج. ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض أو قالوه للمؤمنين تشبهاً. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثروها بهذه المخالفة. ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أن ما بهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٧٨ رقم ١٣٥): «لم أجده بهذا السياق».

وأصله في المتفق عليه - البخاري (٣٣٣/٨ رقم ٤٦٧٠) ومسلم (١٨٦٥/٤ رقم ٢٤٠٠/٢٥) - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما توفي عبدالله بن أبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمرُ فأخذ بثوب رسول الله، فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة» وسأزيده على السبعين. قال: إنه منافق قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله «ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره».

(٢) المنافقون: «٦».

(٣) التوبة: «١١٣».

فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعِذْهُمْ بِالْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَكُنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُورًا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾

(٨٢) ﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كناية عن السرور والغم والمراد من القلة العدم.

(٨٣) ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فإن رذك إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو من بقي منهم وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً. ﴿فَاسْتَعِذْهُمْ بِالْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَكُنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إخبار في معنى النهي للمبالغة. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تعليل له، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم، وأول مرة هي الخرجة إلى غزوة تبوك. ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي المتخلفين لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان. وقرئ مع الخلفين على قصر الخالفين.

(٨٤) ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ روي أن عبدالله بن أبي دعا رسول الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه سأل أن يستغفر له ويكفنه في شِعَارِهِ الذي يلي جسده ويصلي عليه، فلما مات أرسل قميصه ليكفّن فيه وذهب ليصلي عليه، فنزلت^(١). وقيل صلى عليه ثم نزلت، وإنما لم يُنّه عن التكفين في قميصه ونُهِيَ عن الصلاة عليه لأن الضنّ بالقميص كان مخللاً بالكرم ولأنه كان مكافأةً لألباسه العباس

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافى» (ص ٧٨ - ٧٩ رقم ١٣٦):

لم أجده هكذا. فأما أوله وهو «كان يقوم.. إلى آخره». وأما قصة عبدالله ففي الجناز من المستدرک - (٣٤١/١) - من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال: «دخل رسول الله ﷺ على عبدالله بن أبي ليعوده في مرضه الذي مات فيه، فلما عرف فيه الموت قال له: أما والله إن كنت لأنهاك عن حبّ يهود. فقال: قد أبغضهم، أسعد بن زرارة فما نفعه، فلما مات أتاه ابنه فقال: قد مات فأعطني قميصك أكفنه فيه. فترج عليه الصلاة والسلام قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله «بعث إليك لتستغفر لي لا لتوبخني فزاده الطبري (٦/١٠٦ ج ٢٠٦) من طريق معمر عن قتادة قال: أرسل عبدالله بن أبي وهو مريض إلى النبي ﷺ فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: أهلكك حب يهود. قال: يا رسول الله أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخني. وسأله قميصه أن يكفن فيه. فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه، ونفث في جلده ودلاه في قبره، فأنزل الله تعالى «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا».

وفي الدلائل للبيهقي (٢٨٥/٥) من طريق الواقدي بإسناده في هذه القصة قال: فقال «ليس هذا بحين عتاب، هو الموت، فإن مت فاحضر غسلني وأعطني قميصك أكفن فيه فأعطاه، ثم قال: وصل علي واستغفر لي» وفي رواية له فقال له ابنه وكان يقال له الحباب. فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، يا رسول الله أعطه قميصك الذي يلي جلدك».

قميصه حين أسر بيدراً^(١). والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر، ولذلك رتب النهي على قوله: ﴿مَاتَ أَبَدًا﴾ يعني الموت على الكفر، فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يخَيَّ ﴿وَلَا نَقُمُّ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لتأبيد الموت^(٢).

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ
الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٥) ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ تكرير للتأكيد، والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغتبطة عليها ويجوز أن تكون هذه في طريق غير الأول^(٣).

(٨٦) ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها. ﴿أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ بأن آمنوا بالله، ويجوز أن تكون أن المفسرة. ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الفضل والسعة. ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ الذين قعدوا لِعذر.

(٨٧) ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع النساء، جمع خالفة، وقد يقال الخالفة للذي لا خير فيه. ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في التخلف عنه من الشقاوة.

(٨٨) ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة. وقيل الحُور لقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ﴾^(٤) وهي جمع خيرة تخفيف خيرة. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب

(١) أخرجه البخاري (٢١٤/٣) رقم (١٣٥٠) و(١٤٤/٦) رقم (٣٠٠٨) من حديث جابر.

(٢) وقوله «ولا تصل على أحد منهم مات» جاء بصيغة الماضي «مات» تنبيهاً على تحقق الوقوع (س/٨٩/٤).

(٣) وتقديم الأموال على الأولاد مع كونهم أعز منها إما لعموم مساس الحاجة إليها بحسب الذات وبحسب الأفراد والأوقات، وإما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولاد لبقاء النوع، وإما لأنها أقدم في الوجود من الأولاد (س/٩٠/٤).

(٤) الرحمن: ٧٠.

(٥) تكرير اسم الإشارة للتوبيخ بشأنهم (س/٩١/٤).

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوثَ مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾

(٨٩) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الاخرية.

(٩٠) ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يعني أسداً وغطفان استأذنوا في التخلف معتردين بالجهد وكثرة العيال. وقيل^(١) هم رهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت طيئ على أهلينا ومواسينا. والمُعَذِّرُ إما من عَذَرَ في الأمر إذا قصر فيه موهماً أن له عُذراً ولا عذر له، أو من اعتذر إذا مهد العذر بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع لكن لم يُقرأ بهما. وقرأ يعقوب المَعَذِّرُونَ من أَعَذَرَ إذا اجتهد في العذر. وقرأ المَعَذِّرُونَ بتشديد العين والذال على أنه من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين، وقد اختلف في أنهم كانوا معتردين بالتصنع أو بالصحة فيكون قوله: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان وإن كانوا هم الأولين فكذبهم بالاعتذار. ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعتردين، فإن منهم من اعتذر لكسبه لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والنار.

(٩١) ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ كالهزيم والزمنى. ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفِقُونَ﴾ لفقرهم كجهينة ومزينة وبنى عذرة. ﴿حَرَجٌ﴾ إثم في التأخر. ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية كما يفعل الموالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلاً أو قولاً يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح. ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبته سبيل، وإنما وَضَعَ المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين غير معاتبين لذلك. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن؟.

(٩٢) ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على الضعفاء أو على المحسنين، وهم البكاؤون سبعة من الأنصار: معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبدالله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبدالله بن مغفل وعليه بن زيد، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك، فقال عليه السلام: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم

يكون^(١). وقيل هم بنو مُقَرَّنَ مَعْقِل وسويد والنعمان^(٢). وقيل أبو موسى وأصحابه. ﴿قُلْتُ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار قد^(٣). ﴿تَوَلَّوْا﴾ جواب إذا. ﴿وَأَعْيُتُهُمْ تَفْيِضُ﴾ تسيل. ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي دمعاً، فإن من للبيان، وهي مع المجرور في محل النصب على التمييز، وهو أبلغ من يفيض دمعها لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً. ﴿حَزَنًا﴾ نصب على العلة، أو الحال، أو المصدر لفعل دل عليه ما قبله. ﴿أَلَّا يَحْذَرُوا﴾ ثلثا يجدوا، متعلق بحزناً أو بتفيض. ﴿مَا يُفْقُونَ﴾ في مغزاهم.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

(٩٣) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعابة. ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ واجدون الأهبة. ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف إيثاراً للدعة. ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة. ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مغبته.

(٩٤) ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف. ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه السفرة. ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة، لأنه ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم، لأنه ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم، وهو ما في ضمائرهم من الشر والفساد^(٤). ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه فكانه استتابة وإمهال للتوبة^(٥). ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي إليه، فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم. ﴿فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه^(٦).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/١٠٣/٢١٣) عن محمد بن كعب وغيره.

(٢) أورده الواحدي عن مجاهد ص ٢٦٢.

(٣) وفي إشار «لا أجد» على ليس عندي من تلطيف الكلام وتطبيب قلوب السائلين ما لا يخفى، فكانه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده (س/٤/٩٢).

(٤) وقوله «نؤمن وتبأن» حيث جمع ضمير المتكلم في الموضعين للمبالغة في حسم أطماعهم من التصديق رأساً ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلاً وللإيذان باقتضاهم بين المؤمنين كافة (س/٤/٩٣).

(٥) وتقدير مفعول الرؤية على ما عطف على فاعله من قوله تعالى «ورسوله» للإيذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما، وللإشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل بأعمالهم (س/٤/٩٣).

(٦) والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به، وإشار التنبئة عليها لبيان أن المنبأ به هو الأخبار المتعلقة بأعمالهم، وللإيذان =

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

(٩٥) ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ فلا تعاتبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ ولا توبخوهم. ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الإعراض وترك المعاتبة. ﴿وَمَآ وَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن النار كففتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم. ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة.

(٩٦) ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ﴾ بخلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم. ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يُلْبِسُوا عليكم لا يمكنهم أن يُلْبِسُوا على الله فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاعتراض بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم^(١).

(٩٧) ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو. ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة. ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ وأحق بأن لا يعلموا. ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من الشرائع فرائضها وسننها. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر^(٢). ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يصيب به مسيئتهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

(٩٨) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ يَعْدُو﴾ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به. ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً إذ لا يحتسبه قربة عند الله ولا يرجو عليه ثواباً وإنما ينفق رياء أو تقيّة. ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ دوائر الزمان وتؤبّه لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم. والدائرة في الأصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور وسمي به عقبه الزمان، والسوء بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجل فاعل من دار يدور وسمي به عقبه الزمان، والسوء بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجل

= بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم وأنهم يعلمونها يومئذ (س/٤/٩٤).

(١) ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة الموجب لما حل بهم من السخط، وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك (س/٤/٩٤).

(٢) أهل الوبر يراد بهم الأعراب حيث يستخدمونه في سكناتهم والوبر للبعير كالصوف للغنم، وأهل المدر يراد بهم أهل القرى لأن معنى المدر الطين حيث يستخدمونه في سكناتهم (المصباح المنير مادة مدرّ ومدرّ).

صِدْق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الشَّوْءَ هنا. وفي الفتح^(١) بضم السين. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الإنفاق. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بما يضمرون.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

(٩٩) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ سبب قربات، وهي ثاني مفعولي يتخذ، وعند الله صفتها أو ظرف ليتخذ^(٢). ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ وسبب صلواته لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولذلك سنَّ للمتصدق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال ﷺ «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٣)، لأنه منصبه فله أن يتفضل به على غيره. ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ شهادة من الله بصحة معتقدهم وتصديق لرجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه وإنَّ المحققة للنسبة، والضمير لنفقتهم. وقرأ ورش قُرْبَةً بضم الراء. ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وعُدَّ لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين لتحقيقه، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لتقريره. وقيل الأولى في أسد وغطفان وبني تميم والثانية في عبدالله ذي البجادين وقومه.

(١٠٠) ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ هم الذين صلوا إلى القبليتين، أو الذين شهدوا بدرًا، أو الذين أسلموا قبل الهجرة. ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ أهل بيعة العقبة الأولى - وكانوا سبعة - وأهل بيعة العقبة الثانية - وكانوا سبعين - والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير. وقرأ بالرفع عطفاً على السابقون. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبليتين، أو من اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقرأ ابن كثير مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كما في سائر المواضع. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١) الفتح: ٦٦.

(٢) والتعرض لوصفهم بالإيمان بالله واليوم الآخر لبيان الاعتناء بإيمانهم واتصافهم به وبيان الفرق بين الفريقين (س/٤/٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣/٣٦١ رقم ١٤٩٧) ومسلم (٢/٧٥٦ - ٧٥٧ رقم ١٧٦/١٠٧٨) وأبو داود (٢/٢٤٦ رقم ١٥٩٠) والنسائي (٥/٣١ رقم ٢٤٥٩) وابن ماجه (١/٥٨٢ رقم ١٧٩٦) وأحمد في المسند (٤/٣٥٣). من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ نَعْلَمُهُمْ
سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا
وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أي وممن حول بلدتكم يعني المدينة. ﴿مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ﴾ هم جُهينة ومُزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها^(١). ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على ممن حولكم، أو خبر لمحدوف صفته: ﴿مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ ونظيره في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه قوله:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الشَّيَا

وعلى الأول صفة للمنافقين فُصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر، أو كلام مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهئهم في النفاق. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم، وهو تقرير لمهارتهم فيه وتتوهم في تحامي مواقع التهم إلى حد أخفي عليك حالهم مع كمال فطنتك وصدق فراستك. ﴿تَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونطلع على أسرارهم، إن قدروا أن يلبسوا عليك لم يقدرُوا أن يلبسوا علينا. ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. ﴿ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ إلى عذاب النار^(٢).

(١٠٢) ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أو ثقوا أنفسهم على سَواري المسجد لما بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يخلوا أنفسهم حتى تُحْلَمَ، فقال: «وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم، فترلت، فأطلقهم^(٣)». ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ خلطوا الفعل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب بأخر سىء هو التخلف وموافقة أهل النفاق. والواو إما بمعنى الباء كما في قولهم: بعت الشيء شاة ودرهماً، أو للدلالة على أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر. ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم وهي مدلول عليها بقوله: «اعترفوا بذنوبهم» ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن الثابت ويتفضل عليه.

(١) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة - كما في «الدر المنثور» (٢٧٣/٤).

(٢) وإسناد عذابهم السابق «سنعذبهم» إلى نون العظمة حسب إسناد ما قبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق «ثم يُردُّون» إلى أنفسهم للإيذان باختلافهما حالاً، وأن الأول خاص بهم وقوعاً وزماناً يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شامل لعامة الكفرة وقوعاً وزماناً (س/٩٨/٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج ١١/١٢ - ١٣).

ومراد السيوطي في «الدر» (٢٧٥/٤) نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» - (٢٧٢/٥) - عن ابن عباس بسند ضعيف.

(١٠٣) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ روي أنهم لما أُطْلِقُوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهّرنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فنزلت ^(١). ﴿تُطَهَّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله. وقرئ تُطَهَّرُهُمْ من أطهره بمعنى طهره، وتُطَهَّرُهُمْ بالجزم جواباً للأمر. ﴿وَتَرْكِبُهُمْ بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واغطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، وجمعها لتعدد المدعو لهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد ^(٢). ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بندايتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْتَشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخِرُوتٌ مُّرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما. ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا صحت، وتعديته بعن لتضمنه معنى التجاوز ^(٣). ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

(١٠٥) ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ ما شئتم. ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفى عليه خيراً كان أو شراً. ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى لا يخفى عنهم كما رأيتم وتبين لكم ^(٤). ﴿وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ﴾ بالمجازاة عليه ^(٥).

(١٠٦) ﴿وَآخِرُوتٌ﴾ من المتخلفين. ﴿مُّرْجُونَ﴾ مؤخرون أي موقوف أمرهم من أرجائه إذا أخرته ^(٦). وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص مُّرْجُونَ بالواو وهما لغتان. ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ في شأنهم. ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا على النفاق. ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا، والترديد للعباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادة الله تعالى. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم. وقرئ والله غفور

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/١١) والبيهقي في الدلائل (٢٧٢/٥) وفي إسناده كاتب الليث وهو ضعيف.

(٢) الأصل عند البيضاوي على قراءة من قرأ «صَلَّوَاتِكُ» بالجمع، وقد قرأ بها الباقون.

(٣) وإظهار صفة العبودية لله «عبادة» في موضع الإضمار للإشعار بعلية العبادة لقبولها (س/٤/١٠٠).

(٤) قوله «ورسوله» عطف على لفظ الجلالة، وتأخيرها عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت (س/٤/١٠٠).

(٥) وتقديم الغيب على الشهادة في الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره، أو للإيذان بأن رتبة السرّ متقدمة على رتبة العلن (س/٤/١٠١).

(٦) أثبت البيضاوي الأصل على قراءة من قرأ بالهمزة «مُرْجُونَ».

رحيم. والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله تعالى^(١).

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

(١٠٧) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ عطف على وآخرون مرجئون، أو مبتدأ خبره محذوف أي وفيمن وصفنا الذين اتخذوا، أو منصوب على الاختصاص. وقرأ نافع وابن عامر بغير الواو. ﴿ضِرَارًا﴾ مضارة للمؤمنين. وروي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلّة والليلة المطيرة والشاتية فصلّ فيه حتى نتخذه مصلى، فأخذ ثوبه ليقوم معهم، فنزلت، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، ففعل واتخذ مكانه كناسة^(٢)». ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه. ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء. ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقباً. ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الراهب فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجند يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقنسرين وحيداً، وقيل كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام. ومن قبل متعلق بحارب أو باتخذوا أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، لما روي أنه بُني قبيل غزوة تبوك فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتيه فقال: «إنا على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه» فلما قفل كرر عليه. فنزلت^(٣) ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢١٢٠/٤ - ٢١٢٨).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافى» (ص ٨٠ - ٨١ رقم ١٥٢).

«لم أجد بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد. وليس صدره بصحيح فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقاء أول ما هاجر، وبناء مسجد الضرار كان في غزوة تبوك. فبينهما تسع سنين.

لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفي عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال منهم (يخرج) جد عبدالله بن حنيف، ووديعه بن حزام، ومجمع بن جارية فبنوا مسجد النفاق - الحديث».

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢٨٥/٤) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ج ٢٤/١١) بسند ضعيف.

(٣) قال المناوي في الفتح السماوي ص ٧٠٣: لم أقف عليه، إلا أن ابن حجر ذكر أنه روى ابن مردويه من طريق =

ما أردنا بنائه إلا الخصلة الحسنی أو الإرادة الحسنی وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة. ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ يعني مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقاء من الاثنين إلى الجمعة لأنه أوفق للقصة، أو مسجد رسول الله ﷺ لقول أبي سعيد رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عنه فقال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»^(١) ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده، و«مَنْ» يعم الزمان والمكان كقوله:

لَمَنِ الدِّيَارُ بِقَنْةِ الْحَجَرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ
﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أولى بأن تصلي فيه. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيه من جنابه تعالى إدناء المحب حبيبه. قيل لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس! فقال عليه الصلاة والسلام: «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فأعادها، فقال عمر: إنهم مؤمنون وأنا معهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أترضون بالقضاء؟ قالوا: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: «أتصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم، قال: «أتشكرون في الرخاء؟ قالوا: نعم. فقال ﷺ: «أنتم مؤمنون ورب الكعبة»، فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا: يا رسول الله نَتْبِيعُ الْغَائِطِ الْأَحْجَارِ الثَّلَاثَةِ ثُمَّ نَتْبِيعُ الْأَحْجَارِ الْمَاءِ، فتلا النبي: رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا»^(٢).

= ابن إسحاق عن الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري.. فذكر نحوه.. انظر الكافي الشاف ص ٨١ رقم (١٥٢).

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥/٢) رقم ١٣٩٨/٥١٤ عنه.

قال ابن كثير: (وقد صرح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء.. ثم قال: (وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى) تفسير ابن كثير (٣٧٢/٢).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٨١ رقم ١٥٤) «لم أجده هكذا وكأنه ملفق من حديثين، فإن صدره أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله: «ورب الكعبة». وروى بقيته ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه» هـ.

● وأخرج الترمذي (٢٨٠/٥) رقم ٣١٠٠ وأبو داود (٣٨/١) رقم ٤٤ وابن ماجه (١٢٨/١) رقم ٣٥٧.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

(١٠٩) ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ ببيان دينه. ﴿عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ على قاعدة محكمة هو التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة. ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها^(١). ﴿فَاتَّخَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فادى به - لخوره وقلة استمسكه - إلى السقوط في النار، وإنما وضع شفا الجرف - وهو ما جرفه الوادي - الهائر في مقابلة التقوى تمثيلاً لما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس، ثم رشحه بانهياره به في النار ووضعه في مقابلة الرضوان تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى رضوان الله ومقتضياته التي الجنة أدناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على صدد الوقوع في النار ساعة فساعة ثم إن مصيرهم إلى النار لا محالة. وقرأ نافع وابن عامر أُسَّسَ على البناء للمفعول، وقرئ أساسُ بنيانه، وأُسُّ بنيانه على الإضافة، وأُسُّسُ، وأساسُ بالفتح والمد، وإساسُ بالكسر وثلاثها جمع أس، وتقوى بالتونين على أن الألف للإلحاق لا للتأنيث كثرى، وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر جُزِفَ بالتخفيف. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ بناؤهم الذي بنوه، مصدر أريد به المفعول^(٢) وليس بجمع ولذلك قد تدخله التاء، وَوَصَفَ بالمفرد وأخبر عنه بقوله: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً ونفاقاً، والمعنى

= عن أبي هريرة، قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية.

وقد ضعفه الحافظ في «التلخيص» (١١٢/١) وقال: وروى أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم عن عويم بن مساعده نحوه، وأخرجه الحاكم (١٥٥/١) من طريق مجاهد عن ابن عباس لما نزلت الآية بعث النبي ﷺ إلى عويم بن مساعده، فقال: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟ قال ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل دبره، فقال عليه السلام: هذا هو، وأخرج بنحوه ابن ماجة (١٢٧/١) رقم (٣٥٥) من حديث عتبة بن أبي حكيم، عن طلحة بن نافع، قال: حدثني أبو أيوب الأنصاري، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك. وقال الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» (٢١٩/١): «وسنده حسن وعتبة بن أبي حكيم فيه مقال. قال ابن عدي (١٩٩٥/٥): «أرجو أنه لا بأس به».

وأخرجه الحاكم (٣٣٤/٢) وصححه. ورواه أحمد (٢٤٨/١) وابن أبي شيبة من حديث محمد بن عبدالله بن سلام. وحكى أبو نعيم في معرفة الصحابة الخلاف فيه. على شهر بن حوشب ورواه الطبراني من حديث أبي أمامة.

والخلاصة أن الحديث قابل للتحسين.

(١) وترك الإضمار في قوله «أم من أسس» للإيذان باختلاف البنيانين ذاتاً مع اختلافهما وصفاً وإضافة (س/٤/١٠٣).

(٢) ووصفه بالموصول - الذي صلته فعله - للإيذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهن أساس، وللإشعار بعلّة الحكم (س/٤/١٠٤).

أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه عن قلوبهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك والإضمار وهو في غاية المبالغة. والاستثناء من أعم الأزمنة. وقيل المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار، وقيل التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً. وقرأ يعقوب «إلى» بحرف الانتهاء. وتُقطَّع - بمعنى تنقطع - وهو قراءة ابن عامر وحمزة وحفص، وقرىء يُقطَّع بالياء، وتُقطَّع بالتخفيف، وتُقطَّع قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب، ولو قطعت على البناء للفاعل والمفعول^(١). ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بنياتهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١١١) التَّائِبُونَ الْعَصِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِحُونَ الرَّكَعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١١٢) مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١١٣)

(١١١) ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. ﴿يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ استئناف ببيان ما لأجله الشراء. وقيل يقاتلون في معنى الأمر^(٢). وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبنى للمفعول، وقد عرفت أن الواو لا توجب الترتيب وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل. ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الشراء فإنه في معنى الوعد. ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ مذكوراً فيهما كما أثبت في القرآن. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً. ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم عظام المطالب^(٣) كما قال: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١١٢) ﴿التَّائِبُونَ﴾ رفع على المدح أي هم التائبون، والمراد بهم المؤمنون المذكورون، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا لقوله: ﴿وَكُلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾^(٤) أو خبره ما بعده أي التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال.

(١) أي قرىء «ولو قُطِّعَتْ قُلُوبُهُمْ» على البناء للمفعول، وقرىء «ولقد قُطِّعَتْ قُلُوبُهُمْ» على البناء للفاعل على أن الخطاب للنبي عليه السلام.

(٢) وتقديم حالة القتالية «يُقْتَلُونَ» على حالة المقتولية «يُقْتَلُونَ» للإيذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس (س/٤/١٠٥).

(٣) قوله «فاستبشروا» التفات إلى الخطاب تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم. والاستبشار: إظهار السرور (س/٤/١٠٦).

(٤) النساء: ٩٥.

وقرىء بالياء نصباً على المدح، أو جراً صفةً للمؤمنين. ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له الدين. ﴿الْحَمِيدُونَ﴾ لنعماته أو لما نابهم من السراء والضراء. ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون لقوله ﷺ «سياحة أمتي الصوم»^(١) شبه بها لأنه يعوق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد^(٢) أو لطلب العلم. ﴿الزَّكَّاتُونَ﴾ السَّكِينُونَ في الصلاة. ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة. ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي، والعاطف فيه للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع للتنبيه على أن ما قبله مفضل الفضائل وهذا مجملها. وقيل إنه للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك سمي واو الثمانية. ﴿وَشَرِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل. ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم كأنه قيل: وبشرهم بما يجلُّ عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

(١١٣) ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ روي أنه ﷺ قال لأبي طالب لما حضرته الوفاة: «قل كلمة أحاج لك بها عند الله» فأبى فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أزال استغفر لك ما لم أنه عنه» فترلت^(٣). وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الأبواء^(٤) فزار قبر أمه ثم قام مستعبراً فقال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأنزل علي الآيتين»^(٥). ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بأن ماتوا على الكفر. وفيه

(١) ● أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١١ ج ٣٩) عن عائشة موقوفاً عليها بلفظ «سياحة هذه الأمة الصوم» وفي إسناده إبراهيم بن يزيد متروك الحديث [التقريب (١/٤٦ رقم ٣٠٣)].

● وأخرج ابن جرير (٧/١١ ج ٣٧) عن عبيد بن عمير، قال: «سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: هم الصائمون» بإسناد حسن ولكنه مرسل.

● وأخرج ابن جرير (٧/١١ ج ٣٧) عن أبي هريرة، قال: قال لي رسول الله ﷺ «السائحون هم الصائمون» وفي إسناده حكيم بن حزام وهو متروك [الميزان (١/٥٨٥ رقم ٢٢١٨)].

● وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (٩/٢٥٦ رقم ٩٠٩٥) عن عبدالله بن مسعود قال: «السائحون: الصائمون» وأورده الهيثمي في المعجم (٧/٣٤) وقال فيه عاصم بن بدلة وقد وثقه جماعة وضعفه آخرون وبقي رجاله رجال الصحيح.

(٢) ● أخرج البغوي في شرح السنة (٢/٣٧٠ - ٣٧١ رقم ٤٨٤) من حديث عثمان بن مظعون أن النبي ﷺ قال «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» بإسناد ضعيف لضعف رشدين بن سعد، وابن أنعم الأفرقي.

● وأخرج أبو داود (٣/١٢ رقم ٢٤٨٦) عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، قال النبي ﷺ: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى» وهو حديث حسن قاله الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) ● أخرجه البخاري (٧/١٩٣ رقم ٣٨٨٤) ومسلم (١/٥٤ رقم ٢٤/٣٩).

من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه. وغفل الحاكم فاستدركه - كما في «الكافي الشاف» ص ٨٢ -.

(٤) ● مكان قريب من مكة.

(٥) ● أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١١ ج ٤٢) عن بريده مثله لكن ليس فيه ذكر نزول الآيتين. وإسناده =

دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طُلِبَ توفيقهم للإيمان، وبه دفع النقيض باستغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر فقال:

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ^(١) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ^(١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَّحِيمٌ^(١١٧)

(١١٤) ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وعدها إبراهيمُ أباه بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ﴾^(١) أي لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان فإنه يَجُبُّ ما قبله، ويدل عليه قراءة من قرأ أباه، أو وعدها إبراهيمُ أبوه وهي الوعد بالإيمان ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ بأن مات على الكفر، أو أوحى إليه بأنه لن يؤمن^(٢) ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قطع استغفاره. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ لكثير التآوه، وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه. ﴿حَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى. والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له مع شكاسته عليه.

(١١٥) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي لِيُسْمِيَهُمْ ضَلَالًا وَيُوَاخِذَهُمْ مُوَاخِذَتَهُمْ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ للإسلام. ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، وكأنه بيان عذر الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله لعمه أو لمن استغفر لأسلافه المشركين قَبْلَ المنع. وقيل إنه في قوم مضوا على الأمر الأول في القبلة والخمر ونحو ذلك. وفي الجملة دليل على أن الغافل غير مكلف. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

(١١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لما منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأساً بين لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصره إلا منه، ليتوجهوا بشرٍّ أشرَّهم إليه ويتبرؤوا مما عدها حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

(١١٧) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ من إذن المنافقين في التخلف أو برأهم

= حسن.

● وأخرج ابن جرير (٧/١١٤٢) عن ابن عباس بلفظ أن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك، فقال: وإن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه فأنزل الله «وما كان استغفار إبراهيم» إلى «لأواه حلیم» بسند ضعيف.

(١) الممتحنة: ٤٤.

(٢) أو تبين له أنه مُصَرَّ على الكفر، وهو الأنسب.

عن علة الذنوب كقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(١) وقيل: هو بغث على التوبة والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(٢) إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة وإظهاراً لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده. ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾ في وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عُسرة الظَّهْرِ - يَغْتَقِبُ العُسْرَةَ على بعير واحد - والزاد حتى قيل إن الرجلين كانا يفتسمان ثمرة والماء حتى شربوا القَيْظَ^(٣). ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان أو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم، والعائد إليه الضمير في منهم. وقرأ حمزة وحفص يزيغ بالياء لأن تأنيث القلوب غير حقيقي، وقرئ من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يعني المتخلفين. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتأكيد وتنبه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، أو المراد أنه تاب عليهم لِكَيْدُوْدَتِهِمْ. ﴿لَهُمْ فِي يَوْمٍ ذُوْءِ الْحِجَّةِ﴾.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِسُوءَاتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٨) ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ وتاب على الثلاثة: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع. ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ تخلفوا عن الغزو، أو خلف أمرهم فإنهم المرجؤون. ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، وهو مثلٌ لشدة الحيرة. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس ولا سرور. ﴿وَزَنُّوا﴾ وعلموا. ﴿أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ من سخطه. ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ إلا إلى استغفاره. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة. ﴿لِسُوءَاتِهِمْ﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليعتدوا من جملة التائبين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. ﴿الرَّحِيمُ﴾ المتفضل عليهم بالنعم.

(١١٩) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نية وقولاً وعملاً. وقرئ من الصادقين أي في توبتهم وإنابتهم فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم.

(١) الفتح: (٢٢).

(٢) النور: (٣١).

(٣) والتعبير عنه بالساعة لزيادة تميينه.

ووصف المهاجرين والأنصار باتباعهم له عليه السلام في تلك الساعة للمبالغة في بيان الحاجة إلى التوبة، وذلك أنهم لم يغنهم ذلك عنها فلا يستغني عنها غيرهم بالأولى والأخرى (س/٤/١٠٩).

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

(١٢٠) ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ نهي عبر به بصيغة النفي للمبالغة. ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ولا يصونوا أنفسهم عمال يصن نفسه عنه ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال. روي أن أبا خيشمة بلغ بستانه، وكانت له زوجة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصر وقربت إليه الرطب والماء البارد، فظفر فقال: ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضح والريح ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح، فمد رسول الله ﷺ طرْفَه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيشمة» فكانه، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له^(١). وفي لا يرغبوا يجوز النصب والعزم. ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ما كان من النهي عن التخلف أو وجوب المشايعة. ﴿ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ بسبب أنهم. ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ شيء من العطش. ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ تعب. ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ مجاعة. ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَلَا يَطْئُونَ ﴿ مَوْطِئًا ﴾ مكاناً. ﴿ يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ يغضبهم وطؤه. ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا ﴾ كالقتل والأسر والنهب. ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المشايعة. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل لكتب وتنبه على أن الجهاد إحسان أما في حق الكفار فلأنه سعى في تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المداوي للمجنون، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم.

(١٢١) ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ﴾ ولو علاقة. ﴿ وَلَا كَبِيرَةً ﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة. ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ في مسيرهم، وهو كل مُنْعَرَج ينفذ فيه السيل، اسم فاعل من وَدِيَ إذا سال فشاع بمعنى الأرض. ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ أثبت لهم ذلك. ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ بذلك.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٢٢/٥ - ٢٢٣) من طريق ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم نحوه.

وفي إسناده: أحمد بن عبد الجبار العطاردي: وهو ضعيف.

● وأخرجه البيهقي أيضاً (٢٢٥/٥) عن موسى بن عقبة.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٣١/٦ رقم ٥٤١٩) من طريق يعقوب بن محمد الزهري، ثنا إبراهيم بن عبدالله بن سعد بن خيشمة ثنا أبي عن أبيه به.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٩٢/٦ - ١٩٣) وقال: فيه يعقوب بن محمد الزهري وهو ضعيف. قال: الحافظ في الإصابة (٥٦/٣): «والحق أنه غيره لإطباق أهل السير على أن صاحب هذه الترجمة استشهد بيدر» نقله مخرج المعجم الكبير قلت: - ويشهد لبعض الحديث ما أخرجه مسلم في أثناء قصة كعب (٢١٢٢/٤) وانظر «الكافي الشاف» (ص ٨٢ رقم ١٦١).

﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أعمالهم.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّیَتَفَقَّهُوا فِي الدِّینِ وَلِیُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ یَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ یَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِیَحِذَرُوا فِیكُمْ غَلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ یَقُولُ أَیُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِیْمَانًا فَآمَنَّا بِالَّذِينَ ءَامَنُوا ءَفَرَادَ ثُمَّ ءِیْمَانًا وَهُمْ یَسْتَبِشِرُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾

(١٢٢) ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتشطوا جميعاً فإنه يخل بأمر المعاش. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعة قليلة. ﴿لِّیَتَفَقَّهُوا فِي الدِّینِ﴾ ليتكلفوا الفقه فيه ويتجشمو مشاق تحصيلها. ﴿وَلِیُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقه إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم وقيم لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد. ﴿لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ﴾ إرادة أن يحذروا عما يندرون منه، واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة نفر دوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذروا، فلو لم يعتبر الأخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك، وقد أشبع القول فيه تقريراً واعتراضاً في كتابي (المرصاد). وقد قيل للآية معنى آخر وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقه، فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي رجعوا للطوائف أي ولينذروا لبواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم.

(١٢٣) ﴿یَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ یَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل هم يهود حوالی المدينة كقریظة والنضیر وخیبر. وقيل الروم فإنهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة. ﴿وَلِیَحِذَرُوا فِیكُمْ غَلْظَةً﴾ شدة وصبراً على القتال. وقرئ بفتح الغين وضمها وهما لغتان فيها. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالحراسة والإعانة.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ سُوْرَةٌ فَمِنْهُمْ﴾ فمن المنافقين. ﴿مَّنْ یَقُولُ﴾ إنكاراً واستهزاء. ﴿أَیُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة. ﴿ءِیْمَانًا﴾ وقرئ أیکم بالنصب على إضمار فعل يفسره زادته. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ ءِیْمَانًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم. ﴿وَهُمْ یَسْتَبِشِرُونَ﴾ بنزولها لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَّادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كفر. ﴿فَرَّادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه.

(١٢٦) ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين. وقرئ بالناء. ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بأصناف البليات، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعابنون ما يظهر عليه من الآيات. ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم. ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ولا يعتبرون.

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً لما فيها من عيوبهم. ﴿هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي يقولون هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يره أحد قاموا وإن يره أحد أقاموا. ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة. ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان، وهو يحتمل الإخبار والدعاء. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبرهم.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم عربي مثلكم. وقرئ من أَنْفُسِكُمْ أي من أشرفكم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم. ﴿رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ قدّم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة محافظة على الفواصل.

(١٢٩) ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك. ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإنه يكفيك معزتهم ويعينك عليهم. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ المُلْك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط الذي تنزل منه الأحكام والمقادير. وقرئ العظيم بالرفع. وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: أن آخر ما نزل هاتان الآيتان، وعن النبي ﷺ: «ما نزل القرآن علي إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد فإنهما أنزلنا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة»^(١) والله أعلم.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٨٣ رقم ١٦٧): - أخرجه - الثعلبي من حديث عائشة بإسناد واه.

سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَافِعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(١) ﴿الرَّ﴾ فخمها^(١) ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص، وقرأ ورش بين اللفظين، وأمالها الباقون إجراء لآلف الراء مجرى المنقلبة من الياء. ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي والمراد من الكتاب أحدهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم أو لأنه كلام حكيم، أو محكم آياته لم ينسخ شيء منها.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب، وعَجَبًا خبرٌ كان واسمه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾. وقرئ بالرفع على أن الأمر بالعكس أو على أن كان تامة، وأن أوحينا بدل من عجبًا، واللام للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم. ﴿إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم. قيل كانوا يقولون العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الأمور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة هذا وإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال وخفة الحال أغوّن شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك. وقيل تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً كما سبق ذكره في سورة الأنعام^(٢). ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ أن هي المفسرة أو المخففة من الثقيلة، فتكون في موقع مفعول أوحينا. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عمم الإنذار إذ قلما من أحد

(١) أي الراء.

(٢) الأنعام: (٩١).

ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يُبشروا به حقيقة. ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ بأن لهم. ﴿قَدْ صَدَّقَ عَنْهُمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة، سميت قدماً لأن السبق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وإضافتها إلى الصدق لتحقيقها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿لَسَحِرٌ مِّثْلُ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيون لساحر على أن الإشارة إلى الرسول ﷺ، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة. وقرأ «ما هذا إلا سحر مبين».

(٣) ﴿إِنْ رَيْتُمْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات^(١). ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾ يُقَدَّرُ أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيء بتحريكه أسبابها وينزلها منه، والتدبير النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة^(٢). ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ تقرير لعظمته وعز جلاله ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية. ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غير إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحُدوده بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

(٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره، فاستعدوا للقاءه. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله «إليه مرجعكم» وعد من الله. ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد بدنه وإهلاكه. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بعذله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم لأنه العدل القويم كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم، لكنه غيّر النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة؛ والعقاب واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه؛ ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكانه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم. والآية كالتعليل لقوله تعالى: «إليه مرجعكم

(١) وجمع السموات دون الأرض لما هو مشهور من أنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والأحكام (س/٤/١١٨).

(٢) وإشار صيغة المضارع في قوله «يدبر» للدلالة على تجدد التدبير واستمراره (س/٤/١١٨).

جميعاً فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ أنه يَبْدَأُ - بالفتح - أي لأنه، ويجوز أن يكون منصوباً أو مرفوعاً بما نَصَبَ وعد الله أو بما نَصَبَ حقاً.

(٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ أي ذات ضياء، وهو مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط، والياء فيه منقلبة عن الواو. وقرأ ابن كثير برواية قبل هنا وفي الأنبياء وفي القصص^(١) ضياءً بهمزتين على القلب بتقديم اللام على العين. ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي ذا نور، أو سمي نوراً للمبالغة وهو أعم من الضوء كما عرفت. وقيل ما بالذات ضوء وما بالعَرَض نور، وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعَرَضٍ مقابلة الشمس والاكْتِسَاب منها. ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ الضمير لكل واحد أي قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل، أو للقمر، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازل وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علله بقوله: ﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملتكم وتصرفاتكم^(٢). ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا ملتبساً بالحق مراعيّاً فيه مقتضى الحكمة البالغة. ﴿يُقَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَمْلُؤُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها. وقرأ ابن كثير والبصريان وحفص يُفَصِّلُ بالياء.

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾

(٦) ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أنواع الكائنات. ﴿لَآيَاتٍ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته. ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ العواقب، فإنه يحملهم على التفكير والتدبر.

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها. ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها. ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ وسكنوا إليها مُقْصِرِينَ همهم على لذائذها وزخارفها، أو سكنوا فيها سكون من لا يزعم عنها^(٣). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادها، والعطف إما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على

(١) الأنبياء: «٤٨» والقصص «٧١».

(٢) وتقديم العدد على الحساب - مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجوداً وعِلماً على العكس - لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلاً وإن لم تتحد الجهة، أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر نازل من الحساب منزلة البسيط من المركب (س/٤/١٢١).

(٣) وإيثار الباء على كلمة «إلى» المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للإيذان بتبتمام الملابس ودوام المصاحبة والمؤانسة.

واختيار صيغة الماضي في «رضوا» و«اطمأننوا» للدلالة على التحقق والتقرر.

وصيغة المستقبل في «يرجون» للإيذان باستمرار عدم الرجاء (س/٤/١٢٢).

الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالأولين من أنكر البعث ولم يرَ إلا الحياة الدنيا وبالأخريين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له^(١).

أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ يِمَاكَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ يِمَاكَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بما واطبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي.

(٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أو لإدراك الحقائق كما قال عليه الصلاة والسلام «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»^(٢)، أو لما يريدونه في الجنة. ومفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح لكن دل منطق قوله: ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتمتع والردف له. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ استئناف أو خبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير، وقوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ خبر أو حال أخرى منه أو من الأنهار، أو متعلق بتجري أو يهدي.

(١٠) ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا﴾ أي دعاؤهم. ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اللهم إنا نسبحك تسبيحاً. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ ما يحيي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم. ﴿فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ وآخر دعائهم. ﴿أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أن يقولوا ذلك، ولعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعابنوا عظمة الله وكبريائه مجدوه وnectوه بنعوت الجلال، ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف

(١) وتكرير الموصول للتوسل به إلى جعل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها (س/٤/١٢٣).

(٢) وهو حديث باطل.

أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٤/١٠ - ١٥) من حديث أنس.

وقال أبو نعيم: «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه. وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل» هـ.

وأورده الفتني في «تذكرة الموضوعات» ص ٢٠. وقال: «لأبي نعيم ضعيف» هـ.

وأورده العجلي في «كشف الخفاء» (٣٤٧/٢) رقم ٢٥٤٢ وقال: «رواه أبو نعيم عن أنس» هـ.

وأورده الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٣٠٦ رقم ٤٤) وقال: «رواه أبو نعيم، وهو ضعيف» هـ.

وقال ابن السبكي: (٢٩٠/٦) لم أجد له إسناداً.

وانظر «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» استخراج أبي عبد الله الحداد (٢٠٧/١) رقم ١٩٠.

الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام «وأن هي المخففة من الثقلية، وقد قرىء بها وينصب الحمد.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُفَيْنِهِمْ يَعْمَهُوتَ﴾ (١١) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣)

(١١) ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ ولو يسره إليهم. ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم أو بأن المراد شر استعجلوه كقولهم «فأمطر علينا حجارة من السماء» وتقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه. ﴿لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا. وقرأ ابن عامر ويعقوب لقضى على البناء للفاعل وهو الله تعالى، وقرىء لقضينا^(١). ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُفَيْنِهِمْ يَعْمَهُوتَ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضي فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً^(٢).

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه. ﴿لِجَنبِهِ﴾ ملقى لجنبه، أي مضطجعاً. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ وفائدة التردد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ يعني مضى على طريقته واستمر على كفره، أو مر عن موقف الدعاء لا يرجع إليه. ﴿كَانَ لَمْ يَدْعُنَا﴾ كأنه لم يدعنا فحذف و حذف ضمير الشأن كما قال:

وَنَخَرُّ مُشْرِقُ اللَّوْنِ كَأَن تَذِيَاهُ حُقَّانَ

﴿إِنِ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ إلى كشف ضرر. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين. ﴿زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة^(٣). ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ حين ظلموا بالتكذيب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي ﴿وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم، وهو حال من الواو بإضمار قد أو عطف على ظلموا. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وما استقام لهم أن يؤمنوا

(١) وإيثار صيغة المبني للمفعول «لقضى» للجري على سنن الكبرياء (س/٤/١٢٥).

(٢) وفي وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطفان بما في حيز الصلة وإشعار بعلته للترك والاستدراج (س/٤/١٢٦).

(٣) قوله «قبلكم» التفات من الغيبة إلى الحضور للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسَمي (س/٤/١٢٧).

لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم وعلمه بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسول وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إهلاكهم ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ نجزي كل مجرم أو نجزيكم، فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرهم وأنهم أعلام فيه.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْبِئُ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ بِكَرٍّ أَوْ يَدَّلهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أنعملون خيراً أو شراً فنعاملكم على مقتضى أعمالكم، و«كيف» معمول تعملون فإن معنى الاستفهام يخُجَب أن يعمل فيه ما قبله، وفائدته الدلالة على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذاتها ولذلك يحسن الفعل تارة ويقبَحُ أخرى.

(١٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني المشركين^(١). ﴿أَنْتَ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ بِكَرٍّ أَوْ يَدَّلهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى، ولعلمهم سألوا ذلك كي يسعفهم إليه فيلزموه. ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ ما يصح لي. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ من قتل نفسي، وهو مصدر استعمل ظرفاً، وإنما اكتفي بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ تعليل لما يكون، فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض وردّ لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه وأخترعه ولذلك قيّد التبديل في الجواب وسماه عصياناً فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي بالتبديل^(٢). ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح^(٣).

(١٦) ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ غير ذلك^(٤). ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ ولا أعلمكم به على

(١) قوله «آياتنا» أضافها إليه تعالى لتشريفها والترغيب في الإيمان بها والترهيب من تكذيبها وإيراد فعل التلاوة مبنياً للمفعول مسنداً إلى الآيات للإشعار بعدم الحاجة لتعين التالي، وللإيدان بأن كلامهم في نفس المتلو دون التالي. (س/٤/١٢٨).

(٢) قوله «ربي» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - عليه السلام - لتهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته - عليه السلام - عنه. (س/٤/١٢٩).

(٣) وإيراد اليوم بالتووين التفخيمي ووضفه بالعظم لتهويل ما فيه من العذاب (س/٤/١٢٩).

(٤) وصدّر بالأمر المستقل «قل» مع كونه دخلاً تحت الأمر السابق إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه وإيداناً باستقلاله =

لساني، وعن ابن كثير ولأدراك - بلام التأكيد - أي لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، والمعنى أنه الحق الذي لا محيص عنه لو لم أُرسل به لأرسل به غيري. وقرئ ولا أذركم، ولا أذرائكم بالهمز فيهما على لغة من يقلب الألف المبدلة من الياء همزة، أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا جعلتكم بتلاوته خُصماء تدرؤوني بالجدال، والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتي حتى أجعله على نحو ما تشتهونه، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِكُمْ عُمَرَا﴾ مقدار عمر أربعين سنة. ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن لا أتله ولا أعلمه، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالماً ولم ينشئ قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً برزت فصاحته فصاحة كل منطق وعلاً عن كل منثور ومنظوم واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه عُلِمَ أنه معلم به من الله تعالى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس إلا من الله.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرِمُونَ ﴿١٧﴾
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تفادٍ مما أضافوه إليه كناية، أو تظليمٌ للمشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم إنه لذو شريك وذو ولد^(١). ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فكفر بها. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرِمُونَ﴾.

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فإنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضرر، والمعبود ينبغي أن يكون مثيراً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضرر^(٢). ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجد الضار النافع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده. ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً، أو هؤلاء شفعاؤه عنده، وما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له تحقق ما، وفيه تقريع وتهكم بهم ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف مؤكدة للنفي منبهة على أن ما يعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي، ولا شيء من الموجودات

= مفهوماً وأسلوباً (س/٤/١٢٩).

(١) وفي زيادة «كذباً» - مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك - للإيذان بأن ما أضافوه إليه ضمناً وحملوه - عليه السلام -

عليه صريحاً مع كونه افتراء على الله كذب في نفسه قُرِبَ افتراء يكون كذبه في الإسناد فقط (س/٤/١٣١).

(٢) وتقديم نفي الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذي هو أول المنافع (س/٤/١٣١).

فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به. ﴿سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أول النحل والروم^(١) بالثاء.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ موحدين على الفطرة أو متفقين على الحق، وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قتل قابيل هابيل^(٢) أو بعد الطوفان، أو على الضلال في فترة من الرسل. ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام فتبعتهم طائفة وأصرت أخرى. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق^(٣).

(٢٠) ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي من الآيات التي اقترحوها. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة من مفسد تصرف عن إنزالها. ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ لنزول ما اقترحتموه. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل علي من الآيات العظام واقترحكم غيره.

(٢١) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ صحة وسعة. ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ﴾ كقحط ومرض. ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ بالطمع فيها والاحتيال في دفعها. قيل قحط أهل مكة سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم الله بالحيا فطفقوا يقدحون في آيات الله ويكيدون رسوله. ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدهم، وإنما دل على سرعتهم المفضل عليها كلمة المفاجأة الواقعة جواباً لإذا الشرطية. والمكر إخفاء الكيد، وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله تعالى، وعن يعقوب يمكرون بالياء ليوافق ما قبله.

(١) النحل: ١، ٣، والروم: (٤٠).

(٢) وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج ٩٨/١١) عن مجاهد.

وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٣٤٩/٤) إلى ابن أبي شيبه، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) وصيغة الاستقبال في «يختلفون» لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار. وكذا قوله «ويقولون» بعده (س/٤/١٣٢ - ١٣٣).

هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَبْجَحْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظُنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ زُودُوا عَلَيْهَا أَمْرًا نَلِيلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ﴾ يحملكم على السير ويمكنكم منه. وقرأ ابن عامر يُنْشَرُّكُمْ بالنون والشين، من النشر. ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ في السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ بمن فيها، عدلَ عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب. ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بتلك الريح. جواب إذا، والضمير للفلك أو للريح الطيبة، بمعنى تلقتها. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف شديدة الهبوب. ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يجيء الموج منه. ﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أهلكوا وسُدت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو. ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ من غير إشراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، وهو بدل من ظنوا بدل اشتغال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم. ﴿لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على إرادة القول، أو مفعول دَعَوُا لأنه من جملة القول^(١).

(٢٣) ﴿فَلَمَّا أَبْجَحْتَهُمْ﴾ إجابة لدعائهم^(٢). ﴿إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فَاجَوْوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مبطلين فيه، وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة واحتراق زروعهم وقلع أشجارهم فإنها إفساد بحق. ﴿بِأَيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ فإن وباله عليكم، أو أنه على أمثالكم. أبناء جنسكم. ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ منفعة الحياة الدنيا لا تبقى ويبقى عقابها، ورفعته على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر بغيكم، ونَصَبَهُ حَفْصٌ على أنه مصدر مؤكد أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا أو مفعول البغي لأنه بمعنى الطلب فيكون الجاز من صلته والخبر محذوف تقديره بغيكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال، أو مفعول فعل دل عليه البغي وعلى أنفسكم خبره. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامة. ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه.

(٢٤) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حالها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار

(١) وفي قوله «من الشاكرين» من المبالغة - أي ثابتين في الشكر مثابرين عليه - ما ليس في أن يقال لنشكروا (س/٤/١٣٥).

(٢) والفاء للدلالة على سرعة الإجابة (س/٤/١٣٥).

الناس بها. ﴿كَلَّمَآ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً. ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ من الزروع والبقول والحشيش. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حُسْنَهَا وبهجتها. ﴿وَأَزْيَنَتْ﴾ تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروسي أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها. وازينت أصله تَزَيَّنَتْ فادغم، وقد قرئ على الأصل، وَأَزْيَنَتْ على أَفْعَلَتْ من غير إعلال كأغيلت والمعنى صارت ذات زينة، وازيانت كإياضت. ﴿وَوَطَّنَا أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها. ﴿أَتْنَهَا أَمْرُنَا﴾ ضَرَبَ زَرْعَهَا ما يجتاحه. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلنا زرعها. ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما حصد من أصله. ﴿كَأَن لَّمْ تَقَفْ﴾ كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث، والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة. وقرئ بالياء على الأصل. ﴿بِالْأَمْسِ﴾ فيما قبله. وهو مثَلٌ في الوقت القريب، والممثل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأةً وذهابه حطاماً بعدما كان غصاً والتفت وزين الأرض، حتى طمِعَ فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء، وإن وُلِّيَه حرفُ التشبيه لأنه من التشبيه المركب. ﴿كَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ فإنهم المتفكرون به.

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ دار السلام من التقضي والآفة، أو دار الله وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبيه على ذلك، أو دار يُسَلِّمُ اللهُ والملائكة فيها على مَنْ يدخلها والمراد الجنة. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيق. ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقها وذلك الإسلام والتدريج بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة وأن المَصِيرَ على الضلالة لم يُرد الله رَشَدَه.

(٢٦) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنی. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وما يزيد على المثوبة تفضلاً، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ وقيل^(١) الحسنی مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، وقيل^(٢) الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وقيل الحسنی الجنة والزيادة هي اللقاء^(٣). ﴿وَلَا يَرْهَقُ

(١) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١١ ج ١٠٧ - ١٠٨) عن قتادة قال:

كان الحسن يقول في هذه الآية «الذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال، الزيادة، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١١ ج ١٠٨) عن مجاهد.

(٣) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١١ ج ١٠٨) عن ابن زيد. في قوله «الذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال الحسنی: الجنة، وزيادة: ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة، وقرأ «وآتينا أجره في الدنيا» قال: ما آتاه مما يجب في الدنيا عجل له أجره فيها.

● وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنی أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنی الزيادة =

وُجُوهَهُمْ لا يَغْشَاهَا. ﴿قَتَرٌ﴾ غَبْرَةٌ فيها سواد^(١). ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ هوان، والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَقْبَدُونَ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله «للذين أحسنوا الحسنى» على مذهب من يجوز: في الدار زيد والحجرة عمرو، أو الذين مبتدأ والخبر جزاء سيئة بمثلها على تقدير: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أي أن تجازي سيئة بسيئة مثلها لا يزداد عليها، وفيه تنبيه على أن الزيادة هي الفضل أو التضعيف، أو كأنما أغشيت وجوههم، أو أولئك أصحاب النار وما بينهما اعتراض فجزاء سيئة مبتدأ وخبره محذوف أي فجزاء سيئة بمثلها واقع، أو بمثلها على زيادة الباء أو تقدير مقدر بمثلها^(٢). ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وقرئ بالياء^(٣). ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله، أو من جهة الله ومن عنده كما يكون للمؤمنين. ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ﴾ غطيت. ﴿وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لفرط سوادها وظلمتها، ومظلماً حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأنه العامل في قطعاً وهو موصوف بالجار والمجرور، والعامل في الموصوف عامل في الصفة أو معنى الفعل في من الليل. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب قطعاً بالسكون فعلى هذا يصح أن يكون مُظْلِمًا صفة له أو حالاً منه. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مما يحتج به الوعيدية. والجواب أن الآية في الكفار لاشتغال السيئات على الكفر والشرك ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة فلا يتناولهم قسيمة.

عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غرفاً من لآلىء، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته وعم ربنا جل ثناؤه بقوله: (وزيادة): الزيادات على الحسنى، فلم يخص منها شيئاً دون شيء، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعم كما عمه عز ذكره^١. وأخرج مسلم (١/١٦٣ رقم ١٨١/٢٩٧) عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وانظر تفسير ابن كثير (٢/٢٩٩ - ٤٣٠) وكتابنا «الأدلة المعتمدة في إثبات النظر إلى الله في الآخرة».

(١) قدم المفعول «وجوههم» على الفاعل «قتر» للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم، وللتشويق إلى المؤخر (س/٤/١٣٨).

(٢) وإيراد الكسب للإيدان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعهم وبسبب جنائتهم على أنفسهم (س/٤/١٣٨).

(٣) وفي إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيدان بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعاً (س/٤/١٣٩).

(٢٨) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني الفريقين جميعاً. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم^(١). ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله. ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ عطف عليه. وقرئ بالنصب على المفعول معه. ﴿فَرَزْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا الوصل التي كانت بينهم. ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ﴾ مجاز عن براءة ما عبده من عبادتهم فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم لأنها الآمرة بالإشراك لا ما أشركوا به. وقيل يُنطق الله الأصنام فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي يتوقعون منها. وقيل المراد بالشركاء الملائكة والمسيح وقيل الشياطين.

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ^٢ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه العالم بكنه الحال. ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة^(٢).

(٣٠) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام. ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ تختبر ما قدمت من عمل فتعابن نفعه وضره. وقرأ حمزة والكسائي تلو من التلاوة أي تقرأ ذكر ما قدمت، أو من التلو أي تتبّع عمله فيقودها إلى الجنة أو إلى النار. وقرئ نبلو بالنون ونصب كل وإبدال ما منه، والمعنى نختبرها أي نفعل بها فعل المختبر لحالها المتعرف لسعادتها وشقاوتها بتعرف ما أسلفت من أعمالها، ويجوز أن يراد به نصيب بالبلاء أي بالعذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون ما منصوبة بنزع الخافض. ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا. ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة لا ما اتخذوه مولى، وقرئ الحق بالنصب على المدح أو المصدر المؤكد. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع عنهم. ﴿مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

(٣١) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي منهما جميعاً فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحد منهما توسعة عليكم. وقيل من لبيان من على حذف المضاف، أي من أهل السماء والأرض. ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء. ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ومن يحيي ويميت، أو من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه. ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم، وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ إذ لا يقدرّون على المكابرة والعناد في ذلك

(١) قوله «الذين أشركوا» حيث خصص وصف إشراكهم بالذكر في حيز الصلة من بين ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظم جناياتهم (س/٤/١٣٩).

(٢) وقوله «عن عبادتكم» أي عبادتكم لنا، ولم يصرح به لظهوره وللإيذان بكمال الغفلة عنها (س/٤/١٤٠).

لفرط وضوحه. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُوتُونَ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَالْكُفْرَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي المتولي لهذه الأمور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم. ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ استفهام إنكار، أي ليس بعد الحق إلا الضلال فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال^(١). ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال^(٢)..

(٣٣) ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما حقت الربوبية لله أو أن الحق بعده الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة الله وحكمه. وقرأ نافع وابن عامر كلمات هنا وفي آخر السورة وفي غافر^(٣) ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة أو تعليل لحقيقتها، والمراد بها العدة بالعذاب.

(٣٤) ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن لم يساعدوا عليها، ولذلك أمر الرسول ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لأن لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

(٣٥) ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بنصب الحجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيق للنظر والتدبر، وهدي كما يُعَدَّى إلى لتضمنه معنى الانتهاء يُعَدَّى باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أسند إلى الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ أم الذي لا يهتدي إلا أن يهتدي من قولهم: أهدي بنفسه إذا اهتدى، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وهذا حال أشرف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير^(٤). وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر يَهْدِي بفتح الهاء وتشديد

(١) إظهار لفظة «الحق» إما لأن المراد به غير الأول أو لزيادة التقرير ومراعاة المقابلة بينه وبين الضلال (س/٤/١٤٢).

(٢) وقوله «تُصْرَفُونَ» حيث أثر صيغة المبني للمفعول للإيذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بإرادته، وإنما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجي (س/٤/١٤٢).

(٣) آخر السورة الآية ٩٦، وغافر الآية ٦٦.

(٤) وإنما نفى عنه الاهتداء - مع أن المفهوم نفي الهداية - لما أن نفيها مستتب لنفيه غالباً، فإن من اهتدى إلى الحق لا يخلو عن هداية (س/٤/١٤٤).

الدال، ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد، والأصل يهتدي فادغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين، وروى أبو بكر يهدي بإتباع الياء الهاء، وقرأ أبو عمرو بالإدغام المجرد ولم يبال بالتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك، وعن نافع برواية قالون مثله، وقرأء إلا أن يَهْدَى للمبالغة ﴿فَالْكَوْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل بطلانه.

وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

(٣٦) ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يعتقدونه. ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر الجميع أو مَنْ ينتمي منهم إلى تمييز ونظر ولا يرضى بالتقليد الضَّرْفُ^(١). ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد الحق. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، ويجوز أن يكون مفعولاً به ومن الحق حالاً منه، وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان.

(٣٧) ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ افتراء من الخلق. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها، ولا يكون كذباً، كيف وهو لكونه معجزاً دونها عيار عليها شاهد على صحتها؟! ونصبه بأنه خبر لكان مقدراً أو علة لفعل محذوف تقديره: ولكن أنزله الله تصديق الذي. وقرأء بالرفع على تقدير ولكن هو تصديق. ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ متنفياً عنه الريب. وهو خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب فإنه مفعول في المعنى، وأن يكون استئنافاً. ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر آخر تقديره كائناً من رب العالمين، أو متعلق بتصديق أو تفصيل ولا ريب فيه اعتراض، أو بالفعل المعلل بهما، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب أو من الضمير في فيه. ومساق الآية بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه.

(٣٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون. ﴿افْتَرَاهُ﴾ محمد ﷺ، ومعنى الهمزة فيه للإنكار. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ في البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً في النظم والعبارة. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله تعالى فإنه وحده قادر على ذلك^(٢). ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه.

(١) أو أن تخصيص الأكثر بذلك للإشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقبة التوحيد وبطلان الشرك (س٤/١٤٥).

(٢) وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتخصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم في غُذوة المضادة والمشاقة، لا لبيان=

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب. ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً من ذكر البعث والجزاء وسائر ما يخالف دينهم^(١). ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ثم إنهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه، ومعنى التوقع في «لَمَّا» أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقاً لأخباره مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن المكذبين. ﴿مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ من يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من سيؤمن به ويتوب عن الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المصرين.

(٤١) ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وإن أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة. ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فتبرأ منهم فقد أعذرت، والمعنى لي جزء عملي ولكم جزء عملكم حقاً كان أو باطلاً. ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخذون بعلمي ولا أؤاخذ بعملكم. ولما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخليه سبيلهم قيل إنه منسوخ بآية السيف.

(٤٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً^(٢). ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ تقدر على إسماعهم. ﴿لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم. وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك

= استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه (س/٤/١٤٦).

(١) والتعبير عنه «بما لم يحيطوا بعلمه» دون أن يقال: بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإيذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به ويأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به، لما أن إدارة الحكم على الموصول مشعرة بعلمية ما في حيز الصلة له (س/٤/١٤٦).

(٢) وجمع الضمير في «يستمعون» رعاية لجانب المعنى، كما أفرد فيما يأتي «مَنْ يَنْظُرُ». محافظة على ظاهر اللفظ. ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتهاء الحجاب والظلمة (س/٤/١٤٨).

لا توصف به البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولهم لما كانت مؤوفة^(١) بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناق.

وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك. ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ تقدر على هدايتهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك يحدث الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبني والإعراض عنهم.

(٤٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم. ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم، وفيه دليل على أن للعبد كسباً وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بمعنى أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله لا يظلمهم به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. وقرأ أبو عمرو والكسائي بالتخفيف ورفع الناس^(٢).

(٤٥) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور لهول ما يرون. والجملة التشبيهية في موضع الحال أي يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره: كان لم يلبثوا قبله أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كان لم يلبثوا قبله^(٣). ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا أول ما نشروا ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم. وهي حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾، أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم يحشرهم. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استئناف للشهادة على خسرانهم والتعجب منه، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في يتعارفون على إرادة القول^(٤). ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق استعمال ما منحوا من المعاون في تحصيل المعارف فاستكسبوا بها جهالات أدت بهم إلى الردى والعذاب الدائم.

(١) مؤوفة أي مصابة بالآفة.

(٢) أي «ولكن الناس».

(٣) وتخصيص الساعة بالنهار لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل (س/٤/١٥٠).

(٤) والتعبير عنهم بالموصول - مع كون المقام مقام إضمار - لدمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعليته لما أصابهم (س/٤/١٥٠).

وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَكَ فَلَا تَنَا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نبصرك. ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك كما أراه يوم بدر. ﴿أَوْ نَتُوفِّئَكَ﴾ قبل أن نريك. ﴿فَلَا تَنَا مَرَجِعُهُمْ﴾ فنريكه في الآخرة، وهو جواب نتوفئك، وجواب نريناك محذوف مثل فذاك. ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ مجاز عليه ذكر الشهادة، وأراد نتيجتها ومقتضاها، ولذلك رتبها على الرجوع بشم. أو مؤدَّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة.

(٤٧) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية. ﴿رَسُولٌ﴾ يُبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق. ﴿فَلَا إِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه. ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الرسول ومكذبيه. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل فأنجي الرسول وأهلك المكذبون. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقيل معناه لكل أمة يوم القيامة رسول تُنسب إليه فإذا جاء رسولهم الموقفَ ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بإنجاء المؤمنين وعقاب الكفار لقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاء به. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

(٤٩) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف أملك لكم فاستعجل في جلب العذاب إليكم^(٢). ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه، أو ولكن ما شاء الله من ذلك كائن. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب لهلاكهم. ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلون فسيحين وقتكم وينجز وعدكم^(٣).

(٥٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ الذي تستعجلون به. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم. ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم. ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وهو متعلق بأرايتم لأنه بمعنى أخبروني، والمجرمون

(١) الزمر: ٦٩.

(٢) وتقديم الضر لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه، وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز. وما وقع في

سورة الأعراف ١٨٨ من تقديم النفع للإشعار بأهميته والمقام مقامه (س/٤/١٥١).

(٣) وإظهار «أجلهم» في موقع الإضمار لزيادة التقرير، وإضافة الأجل إليهم لإفادة التعيين.

وقوله «يستأخرون» بصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم.

وتقديم يستأخرون على يستقدمون لأن المقصود الأهم هو بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة. أما قوله

تعالى: «ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» - الحجر ٥٥ - فلأن المراد هناك بيان سر تأخير عذابهم مع

استحقاقهم له (س/٤/١٥٢).

وُضِعَ موضع الضمير للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب لا أن يستعجلوه، وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطاه، ويجوز أن يكون الجواب ماذا كقولك إن أتيتك ماذا تعطيني وتكون الجملة متعلقة بأرايتهم أو بقوله:

أَتُءِرَ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُتُمْ بِهِ ؕ ءَآلَتْنِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَيْتُ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ؕ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿أَتُءِرَ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُتُمْ بِهِ﴾ بمعنى إن أناكم عذابه آتتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، وماذا يستعجل اعتراض، ودخول حرف الاستفهام على ثم لإنكار التأخير. ﴿ءَآلَتْنِ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب الآن آتتم به؟ وعن نافع آلان بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على قيل المقدر. ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ المؤلم على الدوام. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَكَ﴾ ويستخبرونك. ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أحق ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة تقوله بجد أم باطل تهزل به قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة، والأظهر أن الاستفهام فيه على أصله لقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَكَ﴾. وقيل إنه للإنكار، ويؤيده أنه قرئ أحق هو فإن فيه تعريضاً بأنه باطل، وأحق مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر أو خبر مقدم والجملة في موضع النصب بيستبشرونك. ﴿قُلْ إِي وَرَيْتُ﴾ أي ورأيته، إن العذاب لكائن أو ما ادعيته لثابت، وقيل كلا الضميرين للقرآن. وإي بمعنى نعم، وهو من لوازم القسم، ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال إِي والله ولا يقال إِي وحده. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب.

(٥٤) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدي على الغير ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها. ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله فلم يقدرُوا أن ينطقوا. وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن إخفاءها إخلاصها، أو لأنه يقال سرُّ الشيء لخالصته من حيث إنها تخفى ويضن بها. وقيل أظهروها من قولهم أسر الشيء وأسره إذا أظهره^(١). ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليس تكريراً لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم والثاني مجازاة المشركين على الشرك أو

(١) قوله «وأسروا» حيث عدل إلى صيغة الجمع - مع تحقق العموم في صورة الأفراد - لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعية والاجتماع.. (س/٤/١٥٤).

الحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير إنما يتناولهم لدلالة الظلم عليهم.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ۖ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٥) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب. ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب كائن لا خلف فيه^(١). ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون، لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

(٥٦) ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في العقبى لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت أو النشور.

(٥٧) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتكثير فيها للتعظيم.

(٥٨) ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ بإنزال القرآن، والباء متعلقة بفعل يفسره قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فإن اسم الإشارة بمنزلة الضمير تقديره بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو فليفرحوا فبذلك فليفرحوا، وفائدة ذلك التكرير التأكيد والبيان بعد الإجمال وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح أو بفعل دل عليه قد جاءكم، وذلك إشارة إلى مصدره أي فبمجيئها فليفرحوا^(٢). والفاء بمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء. فبهما فليفرحوا، أو للربط بما قبلها والدلالة على أن مجيء الكتاب الجامع بين هذه الصفات موجب للفرح، وتكريرها للتأكيد كقوله:

وَإِذَا هَلَكَتْ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاْجْزِعِي

وعن يعقوب فلتفرحوا بالتاء على الأصل المرفوض، وقد روي مرفوعاً ويؤيده أنه قرئ فافرحوا. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإنها إلى الزوال قريب، وهو ضمير ذلك. وقرأ ابن عامر تجمعون بالتاء، على معنى فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما تجمعونه أيها المخاطبون.

(١) إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعلّة الحكم.

وتصدير الجملتين بحرفي التنبيه والتحقيق «ألا إن» لبيان تحقق مضمونهما ووجوب المحافظة عليهما (س/٤/١٥٥).

(٢) وتكرير الباء في «رحمته» للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح (س/٤/١٥٦).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا مَا تَتْلُوا مِنَ الدِّينِ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

(٥٩) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ جعل الرزق مُتَرَدِّلاً لأنه مقدر في السماء محصل بأسباب منها، و«ما» في موضع النصب بأنزل أو بأرأيتم فإنه بمعنى أخبروني، و«لكم» دل على أن المراد منه ما حل ولذلك وبخ على التبعض فقال: ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا ﴾^(١) مثل: ﴿ هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حَبْرًا ﴾^(٢) ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لَذِكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾^(٣) ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ في التحريم والتحليل فتقولون ذلك بحكمه. ﴿ أَمَرَ عَلَى اللَّهِ تَقْتَرُونَ ﴾ في نسبة ذلك إليه، ويجوز أن تكون المنفصلة متصلة بأرأيتم وقُل مكرر للتأكيد وأن يكون الاستفهام للإنكار، وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير لافتراءهم على الله^(٤).

(٦٠) ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ أي شيء ظنهم؟^(٥) ﴿ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أيحسبون أن لا يجازوا عليه؟ وهو منصوب بالظن، ويدل عليه أنه قرئ بلفظ الماضي لأنه كائن، وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب. ﴿ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعمة.

(٦١) ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ ولا تكون في أمر، وأصله الهمز من شَأْنُ شَأْنُهُ إذا قصدت قصده، والضمير في ﴿ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ ﴾ له لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأن القراءة تكون لشأن فيكون التقدير من أجله، ومفعول تلو ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ على أَنَّ مِنْ تَبْعِيضٍ أو مزيدة لتأكيد النفي أو للقرآن، وإضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له أو لله. ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة وذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير. ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ رُقَبَاءُ مطلعين عليه. ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ تخوضون فيه وتندفعون. ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه. وقرأ الكسائي بكسر الزاي هنا وفي

(١) وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (س/٤/١٥٦).

(٢) الأنعام: ١٣٨.

(٣) الأنعام: ١٣٩.

(٤) وأظهر الاسم الجليل وقدمه على الفعل «تفترون» دلالة على كمال قبح افتراءهم وتأكيذاً للتبكيث عليهم (س/٤/١٥٦).

(٥) وزيادة لفظ «الكذب» مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً - لإظهار كمال قبح ما افعلوا، وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً (س/٤/١٥٧).

سباً^(١). ﴿مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ موازن نملة صغيرة، أو هباء. ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف ممكناً غيرهما ليس فيهما ولا متعلقاً بهما. وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها، والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها. ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرر لما قبله، و«لا» نافية وأصغر اسمها وفي كتاب خبرها. وقرأ حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر، وَمَنْ عَطَفَ على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرٌ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَجِيبُوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوات مأمول. والآية كمجمل فسرهُ قوله:

(٦٣) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وقيل الذين آمنوا وكانوا يتقون بياناً لتوليهم إياه.

(٦٤) ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما بشر به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، وما يريهم من الرؤيا الصالحة، وما يسبح لهم من المكاشفات وبشرى الملائكة عند النزاع. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، بياناً لتوليهم لهم، ومحل الذين آمنوا النصب أو الرفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء وخبره لهم البشرى. ﴿لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرٌ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلال لمواعيده. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين. ﴿هُوَ الْغَفُورُ الْعَلِيمُ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. وقرأ نافع يُحْزَنُكَ من أَخْزَنَهُ، وكلاهما بمعنى^(٢). ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئناف بمعنى التعليل، ويدل عليه القراءة بالفتح، كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم. ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعزمااتهم فيكافئهم عليها.

(١) سباً: (٣).

(٢) وتخصيص النهي عن الحزن بالإيراد - مع شمول النفي السابق للحزن أيضاً - لما أنه لم يكن فيه شيء شائبة خوف حتى ينهى عنه، وربما كان يعتربه في بعض الأوقات نوع حزن فسلي عن ذلك (س/٤/١٦١).

(٦٦) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثقلين^(١)، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً لا يصلح أحد منهم للربوبية فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له نداً أو شريكاً فهو كالدليل على قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي شركاء على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء، ويجوز أن يكون شركاء مفعول يَدْعُونَ ومفعول يتبع محذوف دل عليه: ﴿إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنهم أنها شركاء، ويجوز أن تكون ما استفهامية منصوبة بمتبع أو موصولة معطوفة على مَنْ. وقرئ تَدْعُونَ بالتاء الخطابية. والمعنى: أي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبين؟ أي أنهم لا يتبعون إلا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾^(٢) فيكون إلزاماً بعد برهان، وما بعده مصروف عن خطابهم لبيان سندهم ومنشأ رأيهم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله، أو يحزرون ويقدرّون أنها شركاء تقديرأ باطلاً.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ
عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَنْقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٧) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ تنبيه على كمال قدرته وعظم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفردّه باستحقاق العبادة، وإنما قال مبصراً ولم يقل لتبصروا فيه تفرقة بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار.

(٦٨) ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً﴾ أي تبناه. ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن التبني فإنه لا يصح إلا ممن يتصور له الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء. ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علة لتنزيهه، فإن اتخاذاً الولد مسبب عن الحاجة. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لغناه. ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ نفي لمعارض ما أقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطان قولهم، و«بهذا» متعلق بسلطان أو نعت له أو بعندكم كأنه قيل: إن عندكم في هذا من سلطان^(٣). ﴿أَنْقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجعلهم. وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ.

(١) وتخصيصهم بالذكر للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم إذا كانوا عبيداً له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك (س/٤/١٦١).

(٢) الإسراء: ٥٧.

(٣) والاتلفات من الغيبة إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام (س/٤/١٦٣).

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا اللَّهَ يَنْقُورُ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه. ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

(٧٠) ﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون به رئاستهم في الكفر أو حياتهم أو قلوبهم مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع في الدنيا. ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد. ﴿ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ خبره مع قومه. ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا اللَّهَ يَنْقُورُ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ عَظْمٌ وَشَقٌّ ﴾ نفسي كقولك فعلت كذا لمكان فلان، أو كوني وإقامتي بينكم مدة مديدة، أو قيامي على الدعوة. ﴿ وَتَذَكَّرِي ﴾ إياكم. ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وثقت به. ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ فاعزموا عليه. ﴿ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي مع شركائكم، ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير أن يؤكّد للفصل. وقيل إنه معطوف على أمركم بحذف المضاف أي وأمر شركائكم. وقيل إنه منصوب بفعل محذوف تقديره وادعوا شركاءكم وقد قرئ به، وعن نافع فاجمعوا من الجمع، والمعنى أمرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم. ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ ﴾ في قصدي. ﴿ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ مستوراً واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، مِنْ غَمَّةٍ إذا ستره. أو ثم لا يكن حالكم عليكم غمماً إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ ثُمَّ اقْضُوا ﴾ أدوا. ﴿ إِلَيَّ ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي. وقرئ ثم أفضوا إلى بالفاء أي انتهوا إليّ بشركم أو ابرزوا إليّ، من أفضى إذا خرج إلى الفضاء. ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ولا تمهلوني.

(٧٢) ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عرضتم عن تذكيري. ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يوجب توليكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني لتوليكم. ﴿ إِنْ أَجَرِيَ ﴾ ما ثوابي على الدعوة والتذكير. ﴿ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ لا تعلق له بكم يثيني به أمتم أو توليتم. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.

(٧٣) ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فأصروا على تكذيبه بعد ما ألزمهم الحجة وبتين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم، لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب. ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ من الفرق. ﴿ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ وكانوا ثمانين. ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا ﴾ من الهالكين به. ﴿ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

بالطوفان^(١). ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُنْذِرِينَ﴾ تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ، وتسلية له.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح. ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه. ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيמתهم في الكفر وخذلان الله إياهم. ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف. وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدره الله تعالى وكسب العبد، وقد مر تحقيق ذلك.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هؤلاء الرسل. ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا ﴿بِالآيَاتِ التَّسْعِ﴾^(٢). ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباعهما. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ معتادين الإجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترأوا على ردها.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك. ﴿قَالُوا﴾ من فرط تمردهم. ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر أنه سحر، أو فائق في فنه واضح فيما بين إخوانه.

(٧٧) ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ إنه لسحر فعُذِفَ المحكي المقول لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ لأنهم بتوا القول بل هو استئناف بإنكار ما قالوه، اللهم إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكي مفهوم قولهم، ويجوز أن يكون معنى أتقولون للحق أتعيبونه من قولهم فلان يخاف القالة كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا قَوْلَ يَذْكُرُهُمْ﴾^(٣) فيستغني عن المفعول^(٤).

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يُبطل سحر السحرة. ولأن العالم بأنه لا يفلح الساحر لا يُسحر، أو من تمام قولهم إن جعل أسحراً هذا محكياً كأنهم قالوا أجتتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون.

(١) قدم ذكر الإنجاء والاستخلاف على الإغراق لإظهار كمال العناية بشأن المقدم، ولتعجيل المسرة للسامعين، وللإيذان بسبق الرحمة على الغضب (س/٤/١٦٥)

(٢) وتخصيص الملاء بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والعلقات (س/٤/١٦٧).

(٣) الأنبياء: ٢٠٠.

(٤) وتقديم الخبر «سحر» للإيذان بأنه مدار الإنكار (س/٤/١٦٨).

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السِّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوَامَ أَنتُمْ مُلْقَوْنَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا﴾ لتصرفنا، واللفت والقتل أخوان. ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام. ﴿وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ الملك فيها سمي بها لاتصاف الملوك بالكبر، أو التكبر على الناس باستباعهم. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين فيما جئتما به^(١).

(٧٩) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بكل سَحَارٍ. ﴿عَلِيمٍ﴾ حاذق فيه.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السِّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوَامَ أَنتُمْ مُلْقَوْنَ﴾^(٢).

(٨١) ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحراً. وقرأ أبو عمرو السحر على أنَّ ما استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرها والسحر بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف تقديره أهو السحر، أو مبتدأ خبره محذوف أي السحر هو، ويجوز أن ينتصب ما بفعل يفسره ما بعده وتقديره أي شيء أتيتم. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يشبهه ولا يقويه^(٣). وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له^(٤).

(٨٢) ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويثبت. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بأوامره وقضاياه. وقرأ بكلمته. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٨٣) ﴿فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى﴾ أي في مبدأ أمره^(٥). ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل الضمير لفرعون والذرية

(١) وثنية الضمير في هذين الموضعين «لكما» بعد إفراده فيما تقدم باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر، وأما اللفت والمجيء له فحيث كان من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة (س/٤/١٦٩).

(٢) قوله «فلما...» عطف على مقدر وحذف للإيذان بسرعة امثالهم لأمر فرعون (س/٤/١٦٩).

(٣) وإظهار لفظ المفسدين للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلّة الحكم (س/٤/١٧٠).

(٤) ما ذكره البيضاوي من أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له ليس على إطلاقه، فمن السحر ما هو راجع إلى خفة اليد وهذا يسمى سحراً مجازاً. ومن السحر ما هو تمويه وتخيل للعيون، وهو لا تأثير له على الواقع إنما يوهم العين فقط، لذلك قال عن سحرة فرعون «سحروا أعين الناس...» - الأعراف: ١١٦. ومن السحر ماله أثر على الإنسان وقد سحر لبيد بن الأعمص اليهودي رسول الله ﷺ.

(٥) وهو معطوف على مقدر، ولم يذكر تمويلاً على ما ذكر في موطن آخر، وإيثاراً للإيجاز، وإيذاناً بأن في قوله تعالى «إن الله سيبطله» مما لا يحتمل الخلف أصلاً (س/٤/١٧٠).

طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامراته آسية وخازنه وزوجته وماشطته ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي مع خوف منهم، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذرية، أو للقوم. ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أن يعذبهم فرعون، وهو بدل منه أو مفعول خوف، وإفراده بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملائكة كان بسببه. ﴿وَأَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ لغالب فيها. ﴿وَأِنَّ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الكبر والعنوت حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين به. ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه. ﴿إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين، فإن المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه مقتضي له، والمشروط بالإسلام حصوله فإنه لا يوجد مع التخليط ونظيره إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت.

(٨٥) ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ولذلك أجيبت دعوتهم. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضع فتنة. ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

(٨٦) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجانب دعوته.

(٨٧) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ أي اتخذوا مباءة. ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تسكنون فيها، أو ترجعون إليها للعبادة. ﴿وَاجْعَلُوا﴾ أنتما وقومكما. ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك البيوت. ﴿قِبْلَةً﴾ مصلى، وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة، وكان موسى عليه السلام يصلي إليها. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيها، أمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا والجنة في العقبى. وإنما ثنى الضمير أولاً لأن النبوءة للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور، ثم جَمَعَ لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد، ثم وُحِدَ لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشريعة^(١).

(٨٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾ ما يترزين به من الملابس والمراكب

(١) وضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنه المدار في التبشير (س/٤/١٧١).

ونحوهما. ﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وأنواعاً من المال. ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما عُلِمَ من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك: لعن الله إبليس. وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت ويحتمل أن تكون للعلة لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنهم لما جعلوها سبباً للضلال فكانهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريماً للأول تأكيداً وتنبيهاً على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم مقدمة لقوله: ﴿رَبَّنَا أَطِيسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها، والطمس الممحو. وقرئ اطمس بالضم. ﴿وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي وأقسها واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ جواب للدعاء، أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ليضلوا، وما بينهما دعاء معترض.

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَاَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

(٨٩) ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ﴾ يعني موسى وهارون لأنه كان يؤمن. ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته. روي: أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة. ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى. وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان ولا تَتَّبِعَانِ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين، ولا تتبعان من تبع ولا تتبعان أيضاً.

(٩٠) ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جَوَزْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ حَتَّى بَلَّغُوا الشَّطَّ حَافِظِينَ لَهُمْ، وقرئ جَوَزْنَا وهو من فعل المرافد لفاعل كضعف وضاعف. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فأدركهم يقال: تَبِعْتَهُ حَتَّى أَتْبَعْتَهُ. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ باغين وعادين، أو للبغي والعدو. وقرئ وعدوًّا. ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ لحقه. ﴿قَالَ ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ﴾ أي بأنه. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي إنه بالكسر على إضمار القول، أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً لآمنت فنكسب عن الإيمان، أو أن القبول وبالغ فيه حين لا يُقبل^(١).

(٩١) ﴿ءَاَلَكُنْ﴾ أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار^(٢). ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ قبل ذلك مدة عمرك. ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمَفْسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان.

(١) وعبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته إيمان بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء واتباعه لمن كان يستبهم طمعاً في القبول والانتظام معهم في سلك النجاة (س/٤/١٧٣).

(٢) وفي حذف الفعل المذكور وإبراز الخبر المحكي في صورة الإنشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى (س/٤/١٧٣).

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نفذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً^(١)، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل. وقرأ يعقوب نُنَجِّيكَ من أنجى، وقرأ نُنَجِّيكَ بالحاء أي نلقيك بناحية من الساحل. ﴿بِدَنِكَ﴾ في موضع الحال أي بيدك عارياً عن الروح، أو كاملاً سوياً، أو عرياناً من غير لباس، أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرئ بأبدانك أي بأجزاء البدن كلها كقولهم هوى بإجرامه، أو بدروعك كأنه كان مُظَاهِراً بينها. ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل إذ كان في نفوسهم من عظمتهم ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مُطَرِّحاً على ممرهم من الساحل، أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وقرئ لمن خَلَقَكَ أي لخالقك آية أي كسائر الآيات، فإن إفراده إياك بالإلقاء إلى الساحل دليل على أنه تعمد منه لكشف تزويرك وإماطة الشبهة في أمرك، وذلك دليل على كمال قدرته وعلمه وإرادته، وهذا الوجه أيضاً محتمل على المشهور. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا. ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً، وهو الشام ومصر. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من اللذائذ. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

(٩٤) ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص على سبيل الفرض والتقدير. ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فإنه مُحَقَّقٌ عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه، أو تهييج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته لا إمكان وقوع الشك له ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا أشك ولا أسأل»^(٢). وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أو لكل من يسمع، أي إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك، وفيه تنبيه على أن كل من خالجه شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم. ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ واضحاً أنه لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين.

(١) وفي التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده من الإيمان هو النجاة، وتهكم به (س/٤/١٧٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ج ١١/١٦٨) عن قتادة من طريقين صحيحين.

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ الْخَرِيَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَقَعْنَا لَهُمْ الْيَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أيضاً من باب التهيج والتثيت وقطع الأطماع عنه كقوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾^(١).

(٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتت عليهم. ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذب كلامه ولا يُنتقض قضاؤه.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود. ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وحيث لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون.

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إليها كما أخر فرعون. ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها. ﴿إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ﴾ لكن قوم يونس عليه السلام. ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ أول ما رأوا أماراة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله. ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه، فيكون الاستثناء متصلاً لأن المراد من القرى أهاليها كأنه قال: ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس، ويؤيده قراءة الرفع على البدل. ﴿وَمَقَعْنَا لَهُمُ الْيَمِينَ﴾ إلى آجالهم. روي^(٢) أن يونس عليه السلام بُعث إلى أهل نينوى من الموصل، فكذبوه وأصرروا عليه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث وقيل إلى ثلاثين وقيل إلى أربعين، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشي مدينتهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المُسُوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدة ولدها فحنَّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأخلصوا التوبة وأظهروا الإيمان وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة.

(٩٩) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه. وهو دليل على القدرية في أنه تعالى لم يشأ إيمانهم أجمعين، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة، والتقيد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر. ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ﴾ بما لم يشأ الله منهم. ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه

(١) القصص: ٨٦.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ج ١١/١٧١) عن قتادة بسند صحيح.

فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روي أنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به، فنزلت. ولذلك قرره بقوله:

وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ﴾ بالله. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بإرادته وألطافه وتوفيقه، فلا تُجهد نفسك في هداها فإنه إلى الله. ﴿وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ﴾ العذاب أو الخذلان فإنه سببه. وقرىء بالزاي، وقرأ أبو بكر ونَجْعَلُ بالنون. ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع، ويؤيد الأول قوله:

(١٠١) ﴿قُلْ أَنْظِرُوا﴾ أي تفكروا. ﴿مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من عجائب صنعه لتدلكم على وحدته وكمال قدرته، وماذا إن جُعِلَتْ استفهامية عَلَّقَتْ انظروا عن العمل. ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله وحكمه. وما نافية أو استفهامية في موضع النصب.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره، مِنْ قولهم أيام العرب لوقائعها. ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك أو فانظروا هلاكي إني معكم من المنتظرين هلاككم.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف على محذوف دل عليه إلا مثل أيام الذين خلوا، كأنه قيل: نُهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم^(١)، على حكاية الحال الماضية. ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك الإنجاء، أو إنجاء كذلك ننجي محمداً وصحبه حين نُهلك المشركين، وحققاً علينا اعتراض ونصبه بفعله المقدر. وقيل بدل من كذلك. وقرأ حفص والكسائي نُنجي مخففاً.

(١٠٤) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة^(٢). ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ وصحته. ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً فاغرضوها على العقل الصرف وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحتها، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجودكم

(١) وما بينه وبين المعطوف عليه اعتراض جيء به مسارعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد (س/٤/١٧٨).

(٢) وأوثر الخطاب باسم الجنس مصدرًا بحرف التنبيه «يا» تعميماً للتبليغ وإظهاراً للعناية بشأن ما بُلِّغ إليهم (س/٤/١٧٩).

ويتوفاكم^(١). وإنما خص التوفي بالذكر للتهديد. ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحي، وحذف الجارِ مِنْ أَنْ يجوزُ أن يكون من المطرد مع أَنَّ وَأَنْ يكون من غيره كقوله:
أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلَ مَا أَمَرْتُ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

وَأَنْ أَفْعَلَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا مِنْ رَبِّكُم مِمَّنْ أَعْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

(١٠٥) ﴿وَأَنْ أَفْعَلَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطف على أن أكون غير أَنَّ صلة أن سحكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهم في الغرض لأن المقصود وضلها بما يتضمن معنى المصدر لتدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب، والمعنى وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض، والانتفاء عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه^(٢). ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته^(٣). ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ فإن دعوته. ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء.

(١٠٧) ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وإن يصبك به. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ يرفعه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله. ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ﴾ فلا دافع. ﴿لِفَضْلِهِ﴾ الذي أرادك به، ولعله ذكر الإرادة مع الخير والمرض مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده. ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالخير. ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

(١٠٨) ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا مِنْ رَبِّكُم﴾ رسوله أو القرآن ولم يبق لكم عذر. ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى﴾ بالإيمان والمتابعة. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه لها. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بالكفر بهما. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ لأن وبال الضلال عليها. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكل إلى أمركم، وإنما أنا

(١) وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية، وللإيذان بالمخالفة من أول الأمر (س/٤/١٧٩).

(٢) ومعنى حنيفاً أي مائلاً عن الأديان الباطلة.

(٣) وقوله «ولا تدع» تأكيد للنهي المذكور وتفصيل لما أجمل فيه وذلك إظهاراً لكمال العناية بالإلزام وكشفاً عن وجه بطلان ما عليه المشركون (س/٤/١٨٠).

بشير ونذير.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٩) ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بالامتثال والتبليغ. ﴿وَأَصِرْ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيتهم. ﴿حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ﴾ بالنصرة أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعاً على السرائر اطلاعه على الظواهر. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشرُ حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعده من غرق مع فرعون»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع، أورده ابن الجوزي في الموضوعات، أبواب ما يتعلق بالقرآن (١/٢٤٠).

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَأَنَّ يَرُدَّ فَرْدًا مِّنْكُمْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَأُولَٰئِكَ قُلُوبُهُمْ مُّصْهَرَةٌ بِرُوحٍ
عَظِيمٍ ﴿٣﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٤﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥﴾

(١) ﴿الرَّ كِتَبٌ﴾ مبتدأ وخبر، أو كتابٌ خبرٌ مبتدأٌ محذوف. ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ﴾ نُظِمَتْ نَظْمًا مُحْكَمًا لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى، أو مُنعت من الفساد والنسخ فإن المراد آيات السورة وليس فيها منسوخ، أو أُحْكِمَتْ بالحجج والدلائل، أو جُعِلَتْ حَكِيمَةً منقول من حَكَمَ - بالضم - إذا صار حكيمًا لأنها مشتملة على أمهات الحُكْم النظرية والعملية^(١). ﴿ثُمَّ فَصِّلَتْ﴾ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، أو بجعلها سورًا، أو بالإتزال نَجْمًا نَجْمًا^(٢)، أو فَصَّلَ فيها ولخص ما يحتاج إليه. وقرئ ثم فَصَّلَتْ أي فرقت بين الحق والباطل، وأحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمُتَكَلِّمِ. وثم للتفاوت في الحكم أو للتراخي في الأخبار. ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة أخرى لكتاب، أو خبر بعد خبر، أو صلة لأحْكِمَتْ أو فصلت، وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر أمره وما خفي.

(٢) ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ لِأَن لا تعبدوا. وقيل أن مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً للإغراء على التوحيد أو الأمر بالتبري من عبادة الغير كأنه قيل: ترك عبادة غير الله بمعنى الزموه أو اتركوها تركاً. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد.

(٣) ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عطف على ألا

(١) وفي إسناد الإحكام إلى الآيات من الدلالة على كونه في أقصى غاية منه، فإنه مسند لكل آية منه (س/٤/١٨٢).

(٢) أي جزءاً جزءاً.

تعبدوا^(١). ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم توسلوا إلى مطلوبكم بالتوبة فإن المُعْرِض عن طريق الحق لا بد له من الرجوع. وقيل استغفروا من الشرك ثم توبوا إلى الله بالطاعة، ويجوز أن يكون ثم لتفاوت ما بين الأمرين. ﴿يُغْنِيكُمْ مِّنَّا حَسَنًا﴾ يُغْنِيكُمْ في أمن ودعة. ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة، أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال والأرزاق والآجال، وإن كانت متعلقة بالأعمار لكنها مسماة بالإضافة إلى كل أحد فلا تتغير. ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعطى كل ذي فضل في دينه جزاءً فضله في الدنيا والآخرة، وهو وعد للموحد الثائب بخير الدارين. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن تولوا. ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف. وقرئ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا مِنْ وَلِيٍّ﴾. (٤) ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم، وهو شاذ عن القياس. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبكم أشد عذاب، وكأنه تقدير لكبر اليوم.

أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَاتِ الْأُصْدُورِ ﴿٦﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

(٥) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ﴾ ينتونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ، أو يولون ظهورهم. وقرئ: ينتوني بالياء والتاء من اثنونى وهو بناء مبالغة، وتثنون وأصله تثنون من الثن وهو الكلاء الضعيف أراد به ضعف قلوبهم أو مطاوعة صدورهم للثنى، وتثنين من اثنان كإياض بالهمزة، وتثنوي. ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ من الله بسرهم فلا يُطلع رسوله والمؤمنين عليه. قيل إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا: إذا أرخينا ستورنا واستغشنا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم؟ وقيل نزلت في المنافقين، وفيه نظر إذ الآية مكية والنفاق حدث بالمدينة^(٢). ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ألا حين يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم. ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم يستوي في علمه سرهم وعَلَنُهم فكيف يخفى عليه ما عسى يُظهرونه؟^(٣) ﴿إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَاتِ الْأُصْدُورِ﴾ بالأسرار ذات الصدور، أو بالقلوب وأحوالها^(٤).

(٦) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى

(١) والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم إلى طريق الابتغال في السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتع وإتياء الفضل... (س/٤/١٨٤).

(٢) الثابت في البخاري (٤٦٨١) أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يستحيون أن يتخلوا أو يجامعوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء.

(٣) وقدم السر على العلن نعيماً عليهم من أول الأمر وهو بخلاف قوله ما صنعوا، وإيذاناً بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه، وتحقيقاً للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه (س/٤/١٨٦).

(٤) كأنه قيل: إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية في صدورهم، يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون (س/٤/١٨٦).

بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام، أو مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة. ﴿كُلُّ﴾ كل واحد من الدواب وأحوالها. ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ. وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها، وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

(٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما وما فيها كما مرّ بيانه في الأعراف، أو ما في جهتي العلو والسفل. وجمّع السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل خلقهما لم يكن حائل بينهما لأنه كان موضوعاً على متن الماء، واستدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل كان الماء على متن الريح، والله أعلم بذلك. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ متعلق بخلق أي خلق ذلك كخلق مَنْ خلق ليعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم ودلائل وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها، وإنما جاز تعليق فعل البلوى لما فيه من معنى العلم من حيث إنه طريق إليه كالنظر والاستماع، وإنما ذكر صيغة التفضيل - والاختبار شامل لفرق المكلفين - باعتبار الحسن والقبح للتحريض على أحسن المحاسن والتحضيض على الترقى دائماً في مراتب العلم والعمل فإن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح ولذلك قال النبي ﷺ: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»^(١). والمعنى أيكم أكمل علماً وعملاً. ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة والكسائي إلا ساجر على أن الإشارة إلى القائل، وقرئ أنكم - بالفتح - على تضمن قلت معنى ذكرت؛ أو أن يكون أنَّ بمعنى علّ أي ولئن قلت عليكم مبعوثون، بمعنى توقعوا بعثكم ولا تبتوا بإنكاره لعدوه من قبيل ما لا حقيقة له مبالغة في إنكاره.

(٨) ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ الموعود. ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ إلى جماعة من الأوقات قليلة.

(١) رواه الطبري (٥/١٢) وابن مردويه كما في الدر المنثور (٤/٤٠٤) رواه الطبري بإسناد ساقط لأن فيه داود بن المحبر، ورواه ابن مردويه بإسناد أسقط لأن فيه سليمان بن عيسى ومحمد بن أشرس وانظر الفتح السماوي ص ٧١٩.

﴿لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاء. ﴿مَا يَحْسِبُهُمْ﴾ ما يمنعه من الوقوع. ﴿أَلَا يَوْمَ بَأْيِهِمْ﴾ كيوم بدر. ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ليس العذاب مدفوعاً عنهم، ويوم منصوب بخبر ليس مقدم عليه وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ وأحاط بهم، وَضَعَ الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون، فوضع تستهزئون موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء^(١).

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافُورًا ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه. ﴿إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافُورًا﴾ قطوع رجاءه من فضل الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به. ﴿كَافُورًا﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

(١٠) ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى. ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي المصائب التي ساءتني. ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ بطر بالنعم مغتر بها. ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها. وفي لفظ الإذاعة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء لأن الذوق إدراك الطعم والمس مبتدأ الوصول.

(١١) ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الضراء إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شكراً لآلائه سابقها ولاحقها. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة. والاستثناء من الإنسان، لأن المراد به الجنس فإذا كان محلي باللام أفاد الاستغراق، ومن حمله على الكافر لسبق ذكرهم جعل الاستثناء منقطعاً.

(١٢) ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ تترك تبليغ بعض ما يوحي إليك وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردهم واستهزائهم به، ولا يلزم من توقع الشيء - لوجود ما يدعو إليه - وقوعه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسل عن الخيانة في الوحي والثقة في التبليغ ههنا. ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ وعارض لك أحياناً ضيق صدرك بأن تتلوهم عليهم مخافة ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾ ينفقه في

(١) وفي التعبير عن العذاب بالموصول «ما» تهويل لمكانه وإشعار بعليّة ما ورد في حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته.

والتعبير بالماضي «حاق» للدلالة على تحقق الوقوع لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفيه من الدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به.

الاستبـاع كـالـملوك. ﴿أَرْجَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه، وقيل الضمير في به مبهم يفسره أن يقولوا. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك، ولا عليك ردوا أو اقترحوا، فما بالك يضيق به صدرك. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم.

أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ قُلٌّ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

(١٣) (١٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ قُلٌّ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ أم منقطعة، والهاء لما يوحى. ﴿قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ في البيان وحسن النظم، تحداهم أولاً بعشر سور ثم لما عجزوا عنها سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة، وتوحيد المثل باعتبار كل واحدة. ﴿مُفْتَرِينَ﴾ مخلفات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقت من عند نفسي فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر لتعلمكم القصص والأشعار وتعودكم القريض والنظم. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه مفترى ﴿فَأِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتهم إليه^(١)، وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول ﷺ، أو لأن المؤمنين كانوا أيضاً يتحدثونهم وكان أمر الرسول ﷺ متناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، وللتنبية على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم فلا يغفلون عنه، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه. ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن لا إله إلا الله لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيص هذا الكلام الثابت صدقه بإعجازه عليه، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذا تحقق عندهم إعجازه مطلقاً، ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم أي فإن لم يستجيبوا لكم إلى المظاهرة لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعاوضة فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبية على قيام الموجب وزوال العذر.

(١٥) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بإحسانه وبره. ﴿نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد. وقرئ يُوفِّ بالياء أي يوف الله، وتُوفِّ على البناء للمفعول، وتُوفِّ بالتخفيف والرفع لأن الشرط ماض كقوله:

(١) وعبر عنه بالاستجابة إيماء إلى أنه عليه السلام على كمال أمين من أمره، كان أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه (س/٤/١٩٢).

وإن أتاه كريمٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبَ مَالِي وَلَا حَرَمٌ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم. والآية في أهل الرياء، وقيل في المنافقين، وقيل في الكفرة وغرضهم وبرهم^(١).

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

(١٦) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ لأنه لم يبقَ لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله والعمدة في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص، ويجوز تعليق الظرف بصنعوا على أن الضمير للدنيا. ﴿وَبِطِلٌ﴾ في نفسه. ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه لم يعمل على ما ينبغي، وكان كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها. وقرئ باطلاً على أنه مفعول يعملون وما إبهامية أو في معنى المصدر كقوله:

وَلَا خَارِجاً مِّنْ فِي زُورٍ كَلَامٍ
وَبِطِلٌ عَلَى الْفَعْلِ^(٢)

(١٧) ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ برهان من الله يدل على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، والهمزة لإنكار أن يعقب من هذا شأنه هؤلاء المقصيرين همهم وأفكارهم على الدنيا وأن يقارب بينهم في المنزلة، وهو الذي أغنى عن ذكر الخبر وتقديره أفمن كان على بينة كمن كان يريد الحياة الدنيا، وهو حكم يعم كل مؤمن مخلص. وقيل المراد به النبي ﷺ، وقيل مؤمنو أهل الكتاب. ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل. ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن. ﴿كَتَبَ مُوسَىٰ﴾ يعني التوراة فإنها أيضاً تتلوه في التصديق، أو البينة هو القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل، أو لسان الرسول ﷺ على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظه. والضمير في يتلوه إما لمن أو للبينة باعتبار المعنى ومن قبله كتاب موسى جملة مبتدأة. وقرئ كتاب بالنصب عطفاً على الضمير في يتلوه أي يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة دالة على أنه حق كقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٣) وقرأ من قبل القرآن

(١) وعبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق - مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه - كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق - مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك - بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم (س/٤/١٩٣).

(٢) عطف على (وقرئ باطلاً...) أي وقرئ بطل على الفعل.

(٣) الأحقاف: (١٠١).

التوراة^(١). ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتمناً به في الدين. ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم لأنه الوصلة إلى الفوز بخير الدارين. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بينة. ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله ﷺ. ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ يردّها لا محالة. ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ من الموعد، أو القرآن. وقرىء مُزَيَّة بالضم. وهما الشك. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم واختلال فكرهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

(١٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كان أسنداً إليه ما لم ينزله، أو نفى عنه ما أنزله. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الكاذبون. ﴿يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ في الموقف بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم^(٢). ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم، وهو جمع شاهد كأصحاب أو شهيد كاشراف جمع شريف. ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ تهويل عظيم مما يحق بهم حينئذ لظلمهم بالكذب على الله.

(١٩) ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دينه. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب، أو ييغون أهلها أن يعوجوا بالردة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ والحال أنهم كافرون بالآخرة، وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم. ﴿وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعونهم من العقاب ولكنه آخر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشد وأدوم^(٣). ﴿يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ استئناف. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يُضْعَفُ بالتشديد. ﴿مَا لِتَصَامِهِمْ﴾ عن الحق وبغضهم له. ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله، وكأنه العلة لمضاعفة العذاب. وقيل هو بيان ما نفاه من ولاية الآلهة بقوله: ﴿وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فإن ما لا يسمع ولا يبصر لا يصلح للولاية وقوله: ﴿يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ اعتراض.

(٢١) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

(١) وقدم في الذكر المؤخر في النزول - أي قدم القرآن - لكونه وصفاً لازماً له غير مفارق عنه، ولعراقته في وصف التلو (س/٤/١٩٥).

(٢) عبر عن عرض أعمالهم بوجه أبلغ، فإن عرض العامل بعمله أفضح من عرض عمله مع غيبته (س/٤/١٩٦).

(٣) وجمع الأولياء باعتبار أفراد الكفرة أو باعتبار ما كانوا يدعون من دون الله تعالى (س/٤/١٩٧).

يَقْتَرُونَ ﴿٢١﴾ من الآلهة وشفاعتها، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة.

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ۚ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَرَ ۚ وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَبُّكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَبُّكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ۚ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾ لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم.

(٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له، من الخبت وهو الأرض المطمئنة. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون.

(٢٤) ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الكافر والمؤمن. ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَرَ وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ﴾ يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصاميه عن إسماع كلام الله تعالى وتأنيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين، أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة كقوله:

فَالْأَيْبُ الصَّاحِبِ فَالْغَانِمِ

وهذا من باب اللف والطباق. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هل يستوي الفريقان. ﴿مَثَلًا﴾ أي تمثيلاً أو صفة أو حالاً. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها.

(٢٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ﴾ بأني لكم. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحزمة بالكسر على إرادة القول. ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص.

(٢٦) ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بدل من أني لكم، أو مفعول مبين، ويجوز أن تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ﴾ مؤلم، وهو في الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جَذَّ جَذَّهُ ونهاؤه صائم للمبالغة.

(٢٧) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَبُّكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة. ﴿وَمَا نَرَبُّكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ﴾ أحسأونا جمع أرذل فإنه بالغة صار مثل الاسم كالأكبر، أو أرذل جمع رذل. ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ ظاهر الرأي من غير تعمق من البدو، أو أول الرأي من البدء، والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها. وقرأ أبو عمرو بالهمزة. وانتصابه بالظرف على حذف المضاف أي: وقت حدوث بادى الرأي، والعامل فيه اتبعك. وإنما استرذلوهم لذلك أو لفقرهم

فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأحظ بها أشرف عندهم والمحروم منها أرذل. ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ﴾ لك ولمتبعيك. ﴿عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يوهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة. ﴿بَلْ نَقُظُّكُمْ كَذِبِكُمْ﴾ إياك في دعوى النبوة وإياهم في دعوى العلم بصدقك فغلب المخاطب على الغائبين.

قَالَ يَقْوَرُ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَرُ مِنْ رَبِّي وَءَالَنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقْوَرُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَى كُفْرًا قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقْوَرُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿قَالَ يَقْوَرُ أَرَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَرُ مِنْ رَبِّي﴾ حجة شاهدة بصحة دعواي. ﴿وَأَلَنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ بآيتاء البينة أو النبوة. ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم فلم تهديكم. وتوحيد الضمير لأن البينة في نفسها هي الرحمة، أو لأن خفاءها يوجب خفاء النبوة، أو على تقدير فعميت بعد البينة وحذفها للاختصار، أو لأنه لكل واحدة منهما. وقرأ حمزة والكسائي وحفص فعميت أي أخفيت^(١)، وقرئ فعمتها على أن الفعل لله. ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ كَرِهُونَ﴾ أنكرهمكم على الاهتداء بها. ﴿وَأَنْتَرُ لَهَا كَرِهُونَ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها، حيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعاً وقدم الأعراف منهما جاز في الثاني الفصل والوصل.

(٢٩) ﴿وَيَقْوَرُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، وهو وإن لم يذكر فمعلوم مما ذكر. ﴿مَا لَآ﴾ جَعَلَا ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه المأمول منه. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم. ﴿إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ فيخاصمون طاردهم عنده، أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم؟^(٢) ﴿وَلَكِنِّي أَرَى كُفْرًا قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بقاء ربكم، أو بأفذارهم، أو في التماس طردهم، أو تسفهون عليهم بأن تدعوهم أراذل.

(٣٠) ﴿وَيَقْوَرُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ بدفع انتقامه. ﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتعرفوا أن التماس طردهم وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

(٣١) ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ رزقه وأمواله حتى جحدتم فضلي. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ عطف على عندي خزائن الله، أي: ولا أقول لكم أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني استبعاداً أو حتى أعلم أن هؤلاء اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب، وعلى الثاني يجوز عطفه على أقول. ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا. ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أقول في شأن من

(١) الأصل عند البياضاي قراءة من قرأ «فَعُمِّيَتْ».

(٢) والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم (س/٤/٢٠٢).

استرذلتموهم لفقرهم. ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فإن ما أعدّه الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ إِنَّ إِذْ أَلَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿إِنْ قُلْتَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. وَالْأَزْدَرَاءُ بِهِ افْتَعَالٌ مِنْ زَرَى عَلَيْهِ إِذَا عَابَهُ، قَلْبٌ تَأَوَّهُ دَالًّا لِتَجَانُسِ الرَّاءِ فِي الْجَهْرِ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى الْأَعْيُنِ لِلْمِبَالِغَةِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ اسْتَرَذَلُوهُمْ بِأَدْيِ الرُّؤْيَةِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ بِمَا عَايَنُوا مِنْ رَثَائَةِ حَالِهِمْ وَقَلَّةِ مَنَالِهِمْ دُونَ تَأَمُّلٍ فِي مَعَانِيهِمْ وَكَمَا لَا تَنْهَمُ.﴾

قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّزْنَاهُ قُلٌّ إِنْ أَفَرَزْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْعُرُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَا﴾ خاصمتنا. ﴿فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ فاطلته أو أتيت بأنواعه. ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا﴾ من العذاب. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك لا تؤثر فينا.

(٣٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

(٣٤) ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ شرط ودليل جواب، والجملة دليل جواب قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وتقدير الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي^(١)، ولذلك تقول لو قال الرجل أنت طالق إن دخلت الدار إن كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق، وهو جواب لما أوهموا من جداله كلام بلا طائل. وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلّقها بالإغواء وأن خلاف مراده محال. وقيل أن يغويكم أن يهلككم، مِنْ غَوَى الْفَصِيلُ غَوَى إِذَا بَشَمَ^(٢) فهللك. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ هو خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

(٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّزْنَاهُ قُلٌّ إِنْ أَفَرَزْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ وبأله. وقرئ أجرامي على الجمع. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْعُرُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ.

(١) وتقيد عدم نفع النصيح بإرادته - مع أنه محقق لا محالة - للإيذان بأن ذلك النصيح منه مقارن للإرادة، وللإهتمام به، ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم. وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه - حيث لم يقل إن كان الله يغويكم - مبالغة في بيان غلبة جنبه عز وعلا، حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للإهتمام به لا يجديهم عند مجرد إرادة الله سبحانه لإغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك؟.

وزيادة «كان» للإشعار بتقدم إرادته تعالى زماناً كتقدمها رتبة وللدلالة على تجلدها واستمرارها (س/٤/٢٠٥).

(٢) بَشَمَ إِذَا أَنْجَمَ مِنْ كَثَرَةِ الْأَكْلِ (المصباح المنير مادة بشم).

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ولا تتأسف. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أفتطه الله تعالى من إيمانهم ونهاه أن يغمتم بما فعلوه من التكذيب والإيذاء.

(٣٧) ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً بأعيننا، عبر بكثرة آله الحس الذي يُحَفِّظُ به الشيء ويراعى عن الاختلال والزيغ عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل. ﴿وَوَحِّينَا﴾ إليك كيف تصنعها. ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم. ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه.

(٣٨) ﴿وَصْنَعُ الْفُلَكَ﴾ حكاية حال ماضية^(١). ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ استهزؤا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برية بعيدة من الماء أو أن عزته، وكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً. ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل المراد بالسخرية الاستجهال^(٢).

(٣٩) ﴿فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني به إياهم وبالعذاب الغرق. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه، أو يحل عليه حلول الدين الذي لا انفكاك عنه. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار^(٣).

(٤٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقوله «ويصنع الفلك» وما بينهما حال من الضمير فيه، أو حتى هي التي يُبتدأ بعدها الكلام. ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور. والتنور تُنَوَّرُ الخبز ابتداءً منه النبوع على بخرق العادة، وكان في الكوفة في موضع مسجدها أو في الهند أو بعين وردة من أرض الجزيرة، وقيل التنور وجه الأرض أو أشرف موضع فيها. ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة. ﴿مِنْ كُلِّ﴾ من كل نوع من الحيوانات المنتفع بها. ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى. هذا على قراءة حفص، والباقون أضافوا^(٤) على معنى احمل اثنين من كل صنف ذكر وصنف أنثى^(٥). ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على زوجين

(١) لاستحضار صورتها العجيبة.

(٢) أو أطلق السخرية عليه للمشاكلة (س/٤/٢٠٧).

(٣) ووصف العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزي والعار عادة. والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد. وتخصيصه بالمؤجل وإيراد الأول بالإتيان في غاية الجزالة (س/٤/٢٠٧).

(٤) أي قراءة حفص «كُلٌّ» بالتثنية، وقراءة الباقيين بالإضافة «من كل زوجين».

(٥) قدم حمل كل زوجين على حمل الأهل وسائر المؤمنين لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج. أما البشر فإنما يدخلون الفلك باختيارهم فيخف فيه معنى الحمل، أو لأنها =

أو اثنين، والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنه كنعان وأمه وإعيلة فإنهما كانا كافرين. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ والمؤمنين من غيرهم^(١). ﴿وَمَاءَ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل كانوا تسعة وسبعين زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام اتخذ السفينة في سنتين من الساج وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسُنكها ثلاثين، وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في أسفلها الدواب والوحش وفي أوسطها الإنس وفي أعلاها الطير^(٢).

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَرُسْنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾

(٤١) ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي صيروا فيها، وجعل ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض. ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَرُسْنَهَا﴾ متصل بمحذوف أي اركبوا حالاً من الواو أي اركبوا فيها مستمين الله أو قائلين باسم الله وقت إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أن المجري والمزى للوقت أو المكان أو المصدر، والمضاف محذوف كقولهم: آتيتك خفوق النجم، وانتصابهما بما قدرناه حالاً، ويجوز رفعهما ببسم الله على أن المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ وخبر، أي إجراؤها بسم الله على أن بسم الله خبر أو صلة والخبر محذوف وهي إما جملة مقتضية لا تعلق لها بما قبلها أو حال مقدرة من الواو أو الهاء. وروي أنه كان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست. ويجوز أن يكون الاسم مُقْحَمًا كقوله: ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية حفص مجراها بالفتح من جرى^(٣)، وقرأ مَرْسَاهَا أيضاً من رسا وكلاهما يحتمل الثلاثة، ومُجْرِيهَا ومُرْسِيهَا بلفظ الفاعل صفتين لله. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لولا مغفرته لفرطتكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

(٤٢) ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه اركبوا أي فركبوا مستمين وهي تجري وهم فيها. ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ في موج من الطوفان، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه ليس بثابت، والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعاً وإن صح فلعل ذلك قبل التطبيق. ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان. وقرأ ابنها وابنة بحذف الألف على أن الضمير لامرأته، وكان

= تحمل بواسطة البشر (س/٤/٢٠٨).

(١) وإيثار صيغة الأفراد في «مَنْ آمَنَ» محافظة على لفظ مَنْ للإيذان بقلنتهم (س/٤/٢٠٨).

(٢) وتعيين نوع السفينة وشكلها من الإسرائيليات التي أعرض القرآن الكريم عن ذكرها لعدم الفائدة في ذلك.

(٣) وقرأتهم المذكورة بفتح الميم وكسر الراء على الإمالة. أما الباقون فقرأتهم مثلها إلا أنها بضم الميم (انظر المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤).

وقد أثبت البيضاوي الأصل بالألف «مجراها» وينبغي كتابتها بما يدل على الإمالة «مَجْرِبَهَا».

رَبِيَّةٌ. وقيل كان لغير رشده^(١) لقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ وهو خطأ إذ الأنبياء عصمت من ذلك، والمراد بالخيانة الخيانة في الدين، وقرئ ابنه على التذبة ولكونها حكاية سُوءِ حذف الحرف. ﴿وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه، مَفْعِل للمكان من عزله عنه إذا أبعد. ﴿يَبْقَىٰ أَزْكَبَ مَعْنًا﴾ في السفينة، والجمهور كسروا الياء ليدل على ياء الإضافة المحذوفة في جميع القرآن، غير ابن كثير فإنه وقف عليها في لقمان^(٢) في الموضع الأول باتفاق الرواة وفي الثالث في رواية قبل، وعاصم فإنه فتح هنا اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة من ياء الإضافة، واختلفت الرواية عنه في سائر المواضع، وقد أدغم الباء في الميم أبو عمرو والكسائي وحفص^(٣) لتقاربهما. ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ في الدين والانعزال.

قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَّخِذُ أَيْلَىٰ مَاءٍكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَىٰ وَغِيصَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

(٤٣) ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أن يغرقني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ إلا الراحم وهو الله تعالى، أو الإمكان من رحمهم الله وهم المؤمنون، رد بذلك أن يكون اليوم مُعْتَصِم من جبل ونحوه يعصم اللائد به إلا معتصم المؤمنين وهو السفينة. وقيل لا عاصم بمعنى لا ذا عصمة كقوله: ﴿فِي عَيْتَةٍ رَّازِيَةٍ﴾^(٤) وقيل الاستثناء منقطع أي لكن من رحمه الله يعصمه. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ فصار من المهلكين بالماء^(٥).

(٤٤) ﴿وَقِيلَ يَتَّخِذُ أَيْلَىٰ مَاءٍكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَىٰ﴾ نوديا بما ينادي به أولو العلم وأمرًا بما يؤمرون به تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المتقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه، والبلغ النشف، والإقلاع الإمساك. ﴿وَقُضِيَ الْمَاءُ﴾ نقص. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين. ﴿وَاسْتَوَتْ﴾

(١) أي ولدًا من سفاح. وقوله «لغير رشدة» تكنية موفقة واختيار لأدب اللفظ مع مقام النبوة، فلم يصرح بما قيل من الزنى وإن كان باطلاً، بل وإن كان في حق كافرة لمكان زوجها منها ﷺ.

(٢) لقمان الموضع الأول الآية (١٣) والموضع الثالث الآية (١٧).

(٣) هو حفص بن سليمان بن المغيرة بن أبي داود الأسدي الكوفي، ولد سنة تسعين من الهجرة، وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءة عاصم، تردد بين بغداد ومكة وهو يقرئ الناس القرآن الكريم. قال عنه الذهبي: هو في القراءة ثقة ثبت ضابط.

توفي سنة ثمانين ومائة هجرية على الصحيح.

[غاية النهاية (٢٥٤/١) والأعلام للزركلي (٢/٢٦٤)].

(٤) الحاقة: (٢١).

(٥) وفي إيراد «كان» دون صار مبالغة في كونه منهم (س/٤/٢١١).

واستقرت السفينة. ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل، وقيل بالشام، وقيل بآمل. روي^(١) أنه ركب السفينة عاشر رجب، ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم، فصار ذلك سنة. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هلاكاً لهم، يقال بُعْدٌ بُعْدًا وَبُعْدًا إِذَا أَبْعَدَ بُعْدًا بَعِيداً بحيث لا يُرجى عودته، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء. والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كُنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَسُوخُ إِنَّمَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مَائِتِسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

(٤٥) ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ وأراد نداءه بدليل عطف قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فإنه النداء. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإن كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه الخُف، وقد وعدت أن تنجي أهلي فما حاله أو فماله لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه. ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الذرع.

(٤٦) ﴿قَالَ يَسُوخُ إِنَّمَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر، وأشار إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء^(٢) تصف ناقة:

ترتع مارتعت حتى إذا اذكركت فإئتما هي إقبالاً وإدباراً

ثم بَدَلَ الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمنافضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب إنه عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ، أي عَمِلَ عملاً غير صالح. ﴿فَلَا تَتَّخِذْ مَائِتِسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لا تعلم أصواب هو أم ليس كذلك. وإنما سَمَى نداءه سؤالاً لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجازاً في شأن ولده، أو استفساراً المانع للإنجاز في حقه، وإنما سماه جهلاً وزجر عنه بقوله:

(١) إن صيام يوم عاشوراء سنة للحديث الذي أخرجه البخاري (٢٤٤/٤ رقم ٢٠٠٤) ومسلم (٧٩٥/٢ - ٧٩٦ رقم ١١٣٠) وأبو داود (٨١٨/٢ رقم ٢٤٤٤) وابن ماجه (٥٥٢/١ رقم ١٧٣٤) عن عبدالله بن عباس. قال: قَدِمَ النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه.

(٢) هي الخنساء بنت عمرو بن الشريد بن رباح بن ثعلبة بن عصىة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم السلمية الشاعرة المشهورة. اسمها تماضر. قال أبو عمر قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم.

وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.

[الإصابة (٢٨٧/٤ - ٢٨٩ رقم ٣٥٥)].

﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتبه عليه الأمر. وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون الشديدة^(١)، وكذلك نافع وابن عامر غير أنهما كسرا النون على أن أصله تسألنني فحذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكسرت الشديدة للياء ثم حذفت اكتفاء بالكسرة^(٢)، وعن نافع برواية رويس إثباتها في الوصل^(٣).

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْبُوحُ أَهْبُطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُنْظَرِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ فيما يستقبل^(٤). ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لا علم لي بصحته. ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال. ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بالتوبة والتفضل علي. ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أعمالاً.

(٤٨) ﴿قِيلَ يَنْبُوحُ أَهْبُطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ انزل من السفينة مسلماً من المكاره من جهتنا، أو مسلماً عليك. ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك أو زيادات في نسلك حتى تصير آدمياً ثانياً. وقرئ اهبط - بالضم - وبركة على التوحيد، وهو الخير النامي. ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ وعلى أمم هم الذين معك، سُمُوا أمماً لتحزبهم أو لتشعب الأمم منهم، أو وعلى أمم ناشئة ممن معك، والمراد بهم المؤمنون لقوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي ومن معك أمم ستمتعهم في الدنيا. ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، والمراد بهم الكفار من ذرية مَنْ معه. وقيل هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذاب ما نزل بهم.

(٤٩) ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح ومحلها الرفع بالابتداء وخبرها: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي بعضها. ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ خبر ثان. والضمير لها أي موحاة إليك، أو حال من الأنبياء، أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به، أو حال من الهاء في نوحها^(٥). ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ خبر آخر أي

(١) أي قرأ «فلا تسألن».

(٢) أي «فلا تسألن».

(٣) أي «فلا تسألني».

(٤) وإنما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها وتبركاً بذكر ما لقنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كونه ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك (س/٤/٢١٣).

(٥) والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة (س/٤/٢١٥).

مجهولة عندك وعند قومك من قَبْلِ إِيحَاتِنَا إِلَيْكَ، أو حال من الهاء في نوحها أو الكاف في إليك أي: جاهلاً أنت وقومك بها. وفي ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لَمَّا لم يسمعوها فكيف بواحد منهم؟ ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وأذية القوم كما صبر نوح. ﴿إِنْ أَلْقَيْتُ﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

وإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾
يَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُورُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ عطف على قوله: «نوحاً إلى قومه» وهوداً عطف بيان. ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وقرئ بالجر حملاً على المجرور وحده. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء.

(٥١) ﴿يَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خاطب كلُّ رسول به قومه لإزاحة للتهمة وتمحيضاً للنصيحة، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع^(١). ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ.

(٥٢) ﴿وَيَنْقُورُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ﴾ اطلبوا مغفرة الله بالإيمان ثم توسلوا إليها بالتوبة، وأيضاً التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كثير الدّر. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ ويضاعف قوتكم، وإنما رغبتهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه. ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم.

(٥٣) ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم. ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك، حال من الضمير في تاركي. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناط له من الإجابة والتصديق.

(١) وإيراد الموصول للتفخيم، وجعل صلته فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضاً عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر (س/٤/٢١٦).

إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبَكَ بَعْضُ إِلَهِنَا يَسُوءُ قَالِ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

(٥٤) ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبَكَ﴾ ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك، مِنْ عَرَاه يَعْرُوهُ إِذَا أَصَابَهُ. ﴿بَعْضُ إِلَهِنَا يَسُوءُ﴾ يجنون لسبك إياها وصدك عنها ومن ذلك تهذي وتكلم بالخرافات، والجملة مقول القول، وإلا لغو لأن الاستثناء مفرغ. ﴿قَالِ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

(٥٥) ﴿مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أجاب به عن مقالتهم الحمقاء بأن أشهد الله تعالى على براءته من آلهتهم وفراغه عن إضرارهم تأكيداً لذلك وتثبيتاً له، وأمرهم بأن يشهدوا عليه استهانة بهم، وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنظار حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عجزوا عن آخرهم - وهم الأقوياء الأشداء - أن يضروه لم يبقَ لهم شبهة أن آلهتهم - التي هي جماد لا يضر ولا ينفع - لا تتمكن من إضراره انتقاماً منه، وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجَمِّ الغفير من الجبابرة الفَتَّاكِ العَطَّاشِ إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقتة بالله، وتثبُّطهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه، ولذلك عقبه بقوله:

(٥٦) ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ تقريراً له، والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني فأني متوكل على الله واثق بكلاءته وهو مالكي ومالككم لا يحق بي ما لم يُرده ولا يقدرُون على ما لم يُقَدِّرْهُ^(١)، ثم برهن عليه بقوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي إلا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها، والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إنه على الحق والعدل لا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم.

(٥٧) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن تولوا. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فقد أدبت ما علي من الإبلاغ والزام الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم فقد أبلفتكم ما أُرسلت به إليكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع كأنه قيل: وإن تولوا يعزني ربي ويستخلف. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾ لتوليكم. ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر. وَمَنْ جَزَمَ يَسْتَخْلِفُ أَسْقَطَ النون منه. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ رقيب فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، أو حافظ مستولٍ عليه فلا يمكن أن يضره شيء.

(٥٨) ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾^(٢) عذابنا أو أمرنا العذاب. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وكانوا

(١) وجيء بلفظ الماضي «توكلت» لكونه أدل على الإنشاء المناسب للمقام (س/٤/٢١٨).

(٢) والتعبير عن العذاب بلفظ الأمر مع إضافة إلى ضميره تعالى وعن نزوله بالمجيء من التضخيم والتهويل ما لا يخفى (س/٤/٢١٩).

أربعة آلاف. ﴿وَبَيَّنَّا لَهُمْ مِنْ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ تكرير لبيان ما نجاهم منه وهو السموم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أديارهم فتقطع أعضائهم. أو المراد به تنجيتهم من عذاب الآخرة أيضاً، والتعريض بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ لَعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَبْقَوْنَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أُنْتُ اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم. ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنهم عصوا رسولهم ومن عصى رسولا فكأنما عصى الكل، لأنهم أمروا بطاعة كل رسول. ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني كبراءهم الطاغين. وعنيد من عند عتداً وعتداً وعنوداً إذا طغى، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يزيدهم.

(٦٠) ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم في العذاب^(١). ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوه، أو كفروا نعمه، أو كفروا به فحذف الجار. ﴿أَلَا بَعْدَ لَعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم، وإنما كرر «ألا» وأعاد ذكرهم تفضيلاً لأمرهم وحشاً على الاعتبار بحالهم. ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد. وفائدته تمييزهم عن عاد الثانية عاد إرم، والإيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود.

(٦١) ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَبْقَوْنَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ هو كونكم منها لا غيره فإنه خلق آدم ومواد النطف التي خلق نسله منها من التراب. ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ عمركم فيها واستبقاكم من العمر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، وقيل هو من العمرى بمعنى أعماركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ قريب الرحمة. ﴿مُجِيبٌ﴾ لداعيه.

(٦٢) ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور، أو أن توافقنا في الدين فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجائنا عنك.

(١) قوله «يوم القيامة» أي وأتبعوا يوم القيامة لعنة، وهي عذاب النار، وحذفت لدلالة الأولى عليها وللإيذان باستقلالها عنها واختلافهما (س/٤/٢٢٠).

﴿ أَتَنْهَكُنَّ أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ على حكاية الحال الماضية. ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان. ﴿ مُرْسٍ ﴾ موقع في الرية من أرابه، أو ذي رية على الإسناد المجازي من أراب في الأمر.

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَعْنَا ضَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِيذُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾

(٦٣) ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ بيان وبصيرة، وحرف الشك باعتبار المخاطبين. ﴿ وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ نبوة. ﴿ فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ ﴾ فمن يسعني من عذابه^(١) ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به. ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي ﴾ إِذَنْ باستباعتكم إياي. ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ غير أن تُخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران.

(٦٤) ﴿ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ انتصب آية على الحال وعاملها معنى الإشارة، ولكم حال منها تقدمت عليها لتكثيرها^(٢). ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ ﴾^(٣) تَزَع نباتها وتشرب ماءها. ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ عاجل لا يترأخى عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام^(٤).
(٦٥) ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ﴾ عيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا. ﴿ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ الأربعة والخميس والجمعة ثم تهلكون. ﴿ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير مكذوب فيه فاتسع فيه بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا

أو غير مكذوب على المجاز وكان الواعد قال له أفبي بك فإن وقى به صدقه وإلا كذبه، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول.

(٦٦) ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَعْنَا ضَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِيذُ ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة. وعن نافع يومئذ - بالفتح - على

(١) والعدول إلى إظهار لفظ الجلالة للتهويل (س/٤/٢٢١).

(٢) وإضافة الناقة إليه تعالى للتشريف وللتنبية على مفارقتها لما يجانسها من حيث الخلقة (س/٤/٢٢٢).

(٣) وإضافة الأرض إليه تعالى لتربية استحقاقها ذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها (س/٤/٢٢٢).

(٤) وتكثير السوء لتعميمه أي لا تمسوها بأي أمر يسوؤها.

اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفي المعارج في قوله ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ﴾^(١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَلْقَى الْقُرْآنَ الْمُرِيدُ﴾ القادر على كل شيء والغالب عليه.

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا نَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِنَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

﴿٦٧﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٦٧﴾ قد سبق تفسير ذلك في سورة الأعراف^(٢).

﴿٦٨﴾ كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا نَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴿٦٨﴾ نَوْنُهُ أَبُو بَكْرٍ ههنا وفي النجم^(٣)، والكسائي في جميع القرآن، وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو في قوله: ﴿الْبُعْدُ لِنَمُودَ﴾ ذهاباً إلى الحي أو الأب الأكبر.

﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ يعني الملائكة، قيل: كانوا تسعة وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. ﴿بِالْبُشْرَى﴾ ببشارة الولد، وقيل بهلاك قوم لوط. ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ سلمنا عليك سلاماً، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي أمرؤكم أو جوابي سلام أو وعليكم سلام، رَفَعَهُ إجابةً بأحسن من تحيتهم^(٤). وقرأ حمزة والكسائي سلم وكذلك في الذاريات^(٥) وهما لغتان كجزم وحرّام. وقيل المراد به الصلح. ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ فما أبطأ مجيئه به، أو فما أبطأ في المجيء به، أو فما تأخر عنه، والجاز في أن مقدّر أو محذوف. والحنيذ المشوي بالرضف. وقيل الذي يقطر ودكّه من حنذت الفرس إذا عرّفته بالجلال لقوله: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾^(٦).

﴿٧٠﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴿٧٠﴾ لا يمدون إليه أيديهم. ﴿نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أنكر ذلك منهم وخاف أن يريدوا به مكروهاً، ونكّر وأنكر واستنكر بمعنى. والإيجاس الإدراك، وقيل الإضمام ﴿قَالُوا﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ إنا ملائكة مرسلّة إليهم بالعذاب، وإنما لم نمدّ إليه أيدينا لأننا لا نأكل.

(١) المعارج: ١١١.

(٢) الأعراف: ٧٨ عند قوله «فأخذتهم الرجفة» ولعل الرجفة بعد الصيحة. وإظهار لفظ «ظلموا» للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلّة نزول العذاب بهم (س/٤/٢٢٣).

(٣) النجم: ٥١.

(٤) أي كان رده بأحسن من تحيتهم لرده بسلام مقدر بجملة اسمية أما سلامهم مقدر بجملة فعلية والاسمية أبلغ لأنها تفيد الدوام والاستمرار بينما الفعلية تفيد الحدوث.

(٥) الذاريات: ٢٥.

(٦) الذاريات: ٢٦.

وَأَمَرَأْتُهُ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُولاَنِي ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

(٧١) ﴿وَأَمَرَأْتُهُ قَائِمَةً﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة. ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لو طأ فإني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم. وقيل فضحكت فحاضت قال الشاعر:

وَعَهْدِي بِسَلْمَى ضَاحِكًا فِي لُبَابِهِ وَلَمْ يَغْدُ حُقًا نَذِيهَا أَنْ تَحَلَّمَا

ومنه ضحكت السمرة إذا سال صمغها. وقرئ بفتح الحاء. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ نصبه ابن عامر وحمة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام وتقديره: ووهبناها من وراء إسحاق يعقوب. وقيل إنه معطوف على موضع بإسحاق أو على لفظ إسحاق وفتحته للجر فإنه غير مصروف، ورُدَّ للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع على أنه مبتدأ.

وخبره الظرف، أي ويعقوب مولود من بعده. وقيل الراء ولد الولد رلعه سُمي به لأنه بعد الولد، وعلى هذا تكون إضافته إلى إسحاق ليس من حيث أن يعقوب عليه الصلاة والسلام وراءه بل من حيث إنه وراء إبراهيم من جهته، وفيه نظر. والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيى، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن وُلدا فسمّيا به وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد.

(٧٢) ﴿قَالَتْ يَتُولاَنِي﴾ يا عجباً، وأصله في الشر فأطلق على كل أمر فظيع. وقرئ بالياء على الأصل. ﴿أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين. ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ زوجي، وأصله القائم بالأمر. ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة أو مائة وعشرين، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى اسم الإشارة. وقرئ بالرفع على أنه خبرٌ محذوفٌ أي هو شيخ، أو خبرٌ بعد خبر، أو هو الخبر وبُعْلي بدل. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني الولد من هَرَمَيْن، وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك:

(٧٣) ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ مُتَكْرِن عليها فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربَه عاقل فضلاً عن من نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، وأهل البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة^(١). ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد. ﴿مَجِيدٌ﴾ كثير الخير والإحسان.

(١) وإظهار لفظ الجلالة في «رحمة الله» لزيادة تشریفها.

وقوله «عليكم...» حيث عدل إلى خطاب جمع المذكر لتعميم حكمه لإبراهيم عليه السلام (س/٤/٢٢٦).

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَذَكَّرُ فِيهِمُ
أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَانْتِهَاءٍ عَذَابٍ غَيْرَ مُرْدُوْرٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
قَالَ يَنْفِقُوهُ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾

(٧٤) ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي ما أوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم. ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ﴾ بدل الروح. ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ يجادل رسلنا في شأنهم ومجادلته إياهم قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾^(١). وهو إما جواب لما جيء به مضارعاً على حكاية الحال، أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترأ على خطابنا أو شرع في جدالنا، أو متعلق به أقيم مقامه مثل أخذ أو أقبل يجادلنا.

(٧٥) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه. ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس. ﴿مُنِيبٌ﴾ راجع إلى الله. والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه وفرط ترجمه.

(٧٦) ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِمُ﴾ على إرادة القول، أي قالت الملائكة يا إبراهيم. ﴿أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا﴾ الجدل ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قدّره بمقتضى قضائه الأزلي بعدابهم، وهو أعلم بحالهم. ﴿وَإِنَّهُمْ لَانْتِهَاءٍ عَذَابٍ غَيْرَ مُرْدُوْرٍ﴾ مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

(٧٧) ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمِهِمْ﴾ ساءه مجيئهم لأنهم جاؤوه في صورة غلمان، فظن أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بمكانهم صدره، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتياال فيه. ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، مِنْ عَصَبَةٍ إِذَا شَدَّ.

(٧٨) ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون إليه كأنهم يذفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي ومن قبل ذلك الوقت. ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الفواحش فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يهرعون لها مجاهرين. ﴿قَالَ يَنْفِقُوهُ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فدى بهن أضيافه كرمًا وحمية، والمعنى هؤلاء بناتي فتزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل فلا يُجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم للاحترمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارئ، أو مبالغة في تناهي خبث ما يرومونه حتى إن ذلك أهون منه، أو إظهاراً لشدة امتعاضه من ذلك كي يرقوا له. وقيل المراد بالبنات نساؤهم فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية، وفي حرف ابن مسعود ﴿وَأَرْوَجُهُمْ أَهْلَهُمْ﴾ وهو أب لهم ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أنظف فعلاً وأقل فحشاً كقوله: الميتة أطيب من المنسوب وأحل منه. وقرئ أظهر بالنصب على الحال، على أن هن خبر بناتي كقولك: هذا أخي هو الأفضل فإنه لا يقع بين الحال وصاحبها. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو

بإيثارهن عليهم. ﴿وَلَا تَحْزُون﴾ ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزية بمعنى الحياء. ﴿فِي ضَيْفٍ﴾ في شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه. ﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح.

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذكران.

(٨٠) ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ لو قويتُ بنفسي على دفعكم. ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قوي أتمنع به عنكم، شبهه بركن الجبل في شدته. وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد»^(١). وقرئ أو آوِي بالنصب بإضمار أن كأنه قال: لو أن لي بكم قوة أو أزيأ، وجواب لو محذوف تقديره لدفعتمكم. روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب^(٢).

(٨١) ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ﴾ لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا فهون عليك ودعنا وإياهم، فخلاهم أن يدخلوا، فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فخرجوا يقولون النجاء النجاء فإن في بيت لوط سحرة. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقطع من الإسرار. وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن من الشرى^(٣). ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ بطائفة منه. ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف أو لا ينظر إلى ورائه، والنهي في اللفظ لأحد وفي المعنى للوط. ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدل عليه أنه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، وهذا إنما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف فإنه إن فسر بالنظر إلى الوراء في الذهاب ناقص ذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البدل من أحد، ولا يجوز حمل القراءة على الروایتين في أنه خلفها مع قومها أو أخرجها فلما سمعت صوت العذاب ألفت وقالت يا قومها فأدركها حجر فقتلها، لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة، والأولى جعل الاستثناء في

(١) ● أخرجه البخاري (٤١٥/٦ رقم ٣٣٧٥) ومسلم (١٨٤٠/٤ رقم ٢٣٧٠/١٥٣) من طريق الأعرج عن أبي هريرة.

● وأخرجه البخاري (٤١٨/٦ رقم ٣٣٨٧) من طريق سعيد بن المسيب وأبي عبيدة عن أبي هريرة.

● وأخرجه البخاري (٤١١/٦ رقم ٣٣٧٢) ومسلم (١٣٣/١ رقم ٢٣٨).

من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠٨/١٢) بدون راو ولا سند.

وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (١٤٠/٤) عن ابن عباس.

(٣) أي بهزمة الوصل «فأسر» والشرى: السير ليلاً.

القراءتين من قوله: ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ﴾ مثله في قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١) ولا يبعد أن يكون أكثر القراء على غير الأفصح، ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحاً ولذلك علل طريقة الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع. ﴿وَأَن مَّوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ كانه علة الأمر بالإسراء. ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِيبَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴿٨٣﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

(٨٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا به، ويؤيده الأصل، وجعلُ التعذيب مسيئاً عنه بقوله: ﴿جَعَلْنَا عَنِيبَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنه جوابٌ لِمَا، وكان حقه جعلوا عاليها سافلها أي الملائكة المأمورون به فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر، فإنه روي^(٢) أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على المدن أو على شذاذها^(٣). ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر لقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾^(٤) وأصله سَنَكٌ كُلُّ فَعْرُبٍ. وقيل إنه من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته، والمعنى من مثل الشيء المرسل أو من مثل العطية في الإدرار أو من السجل أي مما كتب الله أن يعذبهم به، وقيل أصله من سجين أي من جهنم فأبدلت نونه لاماً. ﴿مَّنْضُودٍ﴾ نَضْدٌ مُّعَدّاً لعذابهم، أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً كقطار الأمطار، أو نضد بعضه على بعض وألصق به.

(٨٣) ﴿مُّسَوِّمَةً﴾ مُّعَلِّمة للعذاب. وقيل معلمة ببياض وحمرة. أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض، أو باسم من يُرمى بها. ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنه سأل جبريل عليه السلام فقال: يعني ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة»^(٥). وقيل الضمير للقرى أي هي قرية من ظالمي مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

(١) النساء: ٦٦.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ج ١٢/٨٠ - ٨١) عن سعيد.

(٣) وإسناد الجمل والأمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الأمر وتهويل الخطب (س ٢٣٠/٤).

(٤) الذاريات: ٣٣.

(٥) ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند - كما في «الكافي الشاف» (ص ٨٧ رقم ١٩٣).

(٨٤) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو أهل مدين وهو بلد بناه فسُمِّيَ باسمه. ﴿قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً - فإنه ملاك الأمر - ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخل بحكمة التعاوض. ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقها أن تفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تُنقصوا حقوقهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه. وهو في الجملة علة للنهي. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ لا يشذ منه أحد منكم، وقيل عذاب مهلك من قوله: ﴿وَأَحِيطَ بِشَرِّهِ﴾^(١)، والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال. ووصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه.

وَيَنْقُورُ أَوْفُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

(٨٥) ﴿وَيَنْقُورُ أَوْفُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمدهم التطفيف بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان، فإن الازدياد إيفاء، وهو مندوب غير مأمور به، وقد يكون محظوراً. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره^(٢)، وكذا قوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن العتو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل المراد بالبخس المكس كأخذ العشور في المعاملات، والعتو السرقة وقطع الطريق والغارة. وفائدة الحال إخراج ما يُقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام^(٣). وقيل معناه ولا تعتوا في الأرض مفسدين في أمر دينكم ومصالح آخرتكم.

(٨٦) ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ﴾ ما أبقاء لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تجمعون بالتطفيف. ﴿إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدقين لي في قلبي لكم. وقيل البقية الطاعة كقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاةُ﴾^(٤). وقرئ بَقِيَّةُ اللَّهِ بالتاء وهي تقواه التي تكف عن المعاصي.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أغذرت حين أنذرت، أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

(١) الكهف: ٤٢.

(٢) أو صرح بالنهي عن البخس بعد علمها مما تقدم اهتماماً بشأنه وترغيباً في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها (س/٤/٢٣١).

(٣) من خرق السفينة وقتل الغلام..

(٤) الكهف: ٤٦.

قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقْتَوِرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

(٨٧) ﴿ قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام، أجابوا به أمرهم بالتوحيد على الاستهزاء به والتهكم بصلواته والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تُؤاظب عليه. وكان شعيب كثير الصلاة فلذلك جَمَعُوا وخصوا الصلاة بالذكر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الأفراد، والمعنى: أصلاتك تأمرُك بتكليف أن تترك، فحُذِفَ المضاف لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. ﴿ وَأَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ عطفٌ على ما، أي وأن نترك فعلنا ما نشاء في أموالنا. وقرئ بالتاء فيهما على أن العطف على أن نترك وهو جواب النهي عن التطفيف والأمر بالإيفاء. وقيل كان ينهاهم عن تقطيع الدراهم والدنانير فأرادوا به ذلك. ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك، أو عللوا إنكار ما سمعوا منه واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك.

(٨٨) ﴿ قَالَ يَقْتَوِرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة. ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهل يسع لي مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟ وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء، والضمير في منه لله أي من عنده وبإعانتة بلا كد مني في تحصيله. ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه لاستبد به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته ولم أعرض عنه فضلاً عن أن أنهى عنه، يقال خالفتُ زيداً إلى كذا إذا قصدته وهو مولٌ عنه وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بأمرى بالمعروف ونهبي عن المنكر ما دمتُ أستطيع الإصلاح، فلو وجدت الإصلاح فيما أنتم عليه لمانهيتكم عنه. ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحدَ حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها: حق الله تعالى، وثانيها حق النفس، وثالثها حق الناس، وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه. وما مصدرية واقعة موقع الظرف، وقيل خبرية بدل من الإصلاح أي المقدار الذي استطعته، أو إصلاح ما استطعته فحُذِفَ المضاف. ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ وما توفيقِي لإصابة الحق والصواب إلا بهدأته ومعونته. ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء وما عده عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ. ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل. وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من الله

تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره، والإقبال عليه بشرائره^(١)، وحسم أطماع الكفار وإظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

وَيَنْقُورِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

(٨٩) ﴿وَيَنْقُورِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم. ﴿شِقَاقِي﴾ معاداتي. ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق. ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح. ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الرجفة. وأن يصلتها ثاني مفعولي جرم، فإنه يُعدى إلى واحد وإلى اثنين ككسب. وعن ابن كثير يُجرمَنكم - بالضم - وهو منقول من المتعدي إلى مفعول واحد، والأول أفصح فإن أجزم أقل دَوْرَانَا على السنة الفصحاء. وقرئ مِثْلَ بالفتح لإضافته إلى المبني كقوله:

لَمْ يُنْمَعْ الشُّرْبُ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَفَقَتْ حَمَامَةٌ فِي غُصُونِ ذَاتِ أَوْقَالٍ

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ زماناً أو مكاناً فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم^(٢)، أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوي فلا يبعد عنكم ما أصابهم، وإفراد البعيد لأن المراد وما إهلاكهم أو وما هم بشيء بعيد، ولا يبعد أن يُسَوَّى في أمثاله بين المذكر والمؤنث لأنها على زنة المصادر كالصهيل والشهيق.

(٩٠) ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ عما أنتم عليه. ﴿إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ عظيم الرحمة للتائبين. ﴿وَدُودٌ﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يودّه، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

(٩١) ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ﴾ ما نفهم. ﴿كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد وحُزْمَةُ البخس وما ذكرت دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم. وقيل قالوا ذلك استهانةً بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم عنه. ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً، أو مهيناً لأعز لك. وقيل أعمى بلغة حمير، وهو مع عدم مناسبته يرده التقيد بالظرف، ومنع بعض المعتزلة استنباء الأعمى قياساً على القضاء والشهادة والفرق بين. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ قومك، وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة. ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فتمنعنا عزتك عن الرجم، وهذا ديدن السفية المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد، وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه، ولذلك:

(١) بشرائره أي بكليته.

(٢) ولم يصرح بذكر ما أصابهم للإيذان بأن ذلك مغني عن ذكره لشهرته (س/٤/٢٣٥).

قَالَ يَنْقَوْمُ آرَهِطَىٰ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا ۚ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقَوْمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمًا ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

(٩٢) ﴿ قَالَ يَنْقَوْمُ آرَهِطَىٰ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا ۚ ﴾ وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والإهانة برسوله فلا تُبقون علي الله وتُبقون علي لرهطي، وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. وظهرياً منسوب إلى الظهر، والكسرُ من تغييرات النَّسَب. ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها فيجازي عليها.

(٩٣) ﴿ وَيَنْقَوْمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ سبق مثله في سورة الأنعام^(١). والفاء في فسوف تعلمون ثَمَّةٌ للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سببٌ لذلك، وحذفها ههنا لأنه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل. ﴿ وَمَن هُوَ كَذِبٌ ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسيم له كقولك: ستعلم الكاذب والصادق، بل لأنهم لما أوعده وكذبه قال: سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم. وقيل كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ومن هو كاذب على زعمهم. ﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ وانتظروا ما أقول لكم. ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ منتظر فاعيل بمعنى الراقب كالصريم، أو المراقب كالعشير، أو المرتقب كالرفيع.

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ إنما ذكَّره بالواو كما في قصة عاد إذ لم يسبقه ذِكْرُ وعدٍ يجري مجرى السبب له، بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذُكِرَ بعد الوعد وذلك قوله: ﴿ وَعَدُ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾^(٢) وقوله ﴿ إِنَّا مَوَدَّهُمْ الصَّيْحُ ﴾^(٣) فلذلك جاء بفاء السبية. ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا. ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمًا ﴾ مبتين، وأصل الجثوم اللزوم في المكان^(٤).

(٩٥) ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كأن لم يقيموا فيها. ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ شبههم بهم لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدین كانت من فوقهم . وقرئ

(١) الأنعام: (١٣٥).

(٢) هود: (٦٥).

(٣) هود: (٨١).

(٤) وقدم نتيجته عليه السلام على إهلاكهم اهتماماً بشأنها وإيضاحاً بسبق رحمته تعالى على غضبه (س/٢٣٧/٤).

(٥) والعدول عن الإضمار إلى الإظهار - أي أظهر لفظ مدین - ليكون أدل على طغيانهم الذي أدامهم إلى هذه المرتبة، وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم (س/٢٣٨/٤).

بَعُدَتْ بِالضَّمِّ عَلَى الْأَصْلِ، فَإِنَّ الْكَسْرَ تَغْيِيرٌ لِتَخْصِيصٍ مَعْنَى الْبَعْدَ بِمَا يَكُونُ بِسَبَبِ الْهَلَاكِ، وَالْبَعْدُ مَصْدَرُ لِهَمَّا وَالْبَعْدُ مَصْدَرُ الْمَكْسُورِ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَّ الرَّقْدُ الْمَرْقُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾

(٩٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بالتوراة أو المعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وهو المعجزات القاهرة، أو العصا؛ وإفراؤها بالذكر لأنها أبهرها، ويجوز أن يراد بهما واحد أي: ولقد أرسلنا بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً لإياها، فَإِنَّ أَبَانَ جَاءَ لَازِماً وَمَتَعْدِياً، والفرق بينهما أن الآية تعم الأمارة، والدليل القاطع والسلطان يُخَصُّ بِالْقَاطِعِ، والمبين يخص بما فيه جلاء.

(٩٧) ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ مرشد أو ذي رَشْدٍ، وإنما هو غي محض وضلال صريح. استبصارهم^(١).

(٩٨) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال، يقال قَدِمَ بمعنى تقدم. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه، ونَزَلَ النار لهم منزلة الماء فسمى إتيانها مورداً، ثم قال: ﴿وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي يشس المورد الذي وردوه فإنه يُرَاد لتبريد الأكباد وتسكين العطش والنار بالصد. والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإن من كان هذه عاقبته لم يكن في أمره رشد، أو تفسير له على أن المراد بالرشد ما يكون مأمون العاقبة حميدها.

(٩٩) ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ الدنيا. ﴿لَعْنَةُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يُلْعَنُونَ في الدنيا والآخرة^(٢). ﴿يَتَسَّ الرَّقْدُ الْمَرْقُودُ﴾ يشس العون المعان أو العطاء المُعْطَى، وأصل الرَقْد ما يضاف إلى غيره ليعمده. والمخصوص بالدم محذوف أي رَقْدَهُمْ وهو اللعنة في الدارين.

(١٠٠) ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك النبا. ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ المهلكة. ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ مقصوص عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ من تلك القرى باقي كالزروع القائم. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومنها عافي الأثر كالزروع المحصود.

(١) وتخصيص الملاء بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لكافة قومه وذلك لأصالتهم في الرأي وتدير الأمور واتباع غيرهم لهم في الورد والصدور (س/٢٣٨/٤).

(٢) واكتفي ببيان حالهم الفظيع عن بيان حال فرعون، كأنه قيل: إذا كان هذا حالهم فكيف بمن كان سبباً في إغوائهم وإضلالهم؟ (س/٢٣٩/٤).

والجملة مستأنفة، وقيل حال من الهاء في نقصه، وليس بصحيح إذ لا واو ولا ضمير.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَنْبِيْٓءٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

(١٠١) ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم. ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن عرضوها له بارتكاب ما يوجب. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع عنهم بل ضررتهم. ﴿آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته. ﴿وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَنْبِيْٓءٍ﴾ هلاك أو تخسير.

(١٠٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الأخذ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾. وقرئ أَخَذَ رَبُّكَ بالفعل، وعلى هذا يكون محل الكاف النصيب على المصدر. ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ﴾ أي أهلها^(١). وقرئ إذ، لأن المعنى على الماضي. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال من القرى، وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا بظلمهم وإنذار كل ظالم ظلم نفسه أو غيره من وخامة العاقبة. ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع غير مرجو الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما نزل بالأمم الهالكة، أو فيما قصه الله تعالى من قصصهم. ﴿لَآيَةً﴾ لعلها عبرة. ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يعتبر به عظمته لعلها بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة، أو ينزجر به عن موجباته لعلها بأنها من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، فإن من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار وجعل تلك الوقائع لأسباب فلكية اتفقت في تلك الأيام لا لذنوب المهلكين بها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة وعذاب الآخرة، دل عليه: ﴿يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يجمع له الناس. والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالة، وأن الناس لا ينفكون عنه، فهو أبلغ من قوله: ﴿يَوْمٌ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾^(٢). ومعنى الجمع له الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين فأتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به كقوله: في محفل من نواصي الناس مشهود، أي كثير شاهده، ولو جعل اليوم مشهوداً في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه فإن سائر الأيام كذلك.

(١٠٤) ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ أي اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلا لانتها مدة معدودة متناهية، على حذف المضاف وإرادة مدة التأجيل كلها بالأجل لا متنها فإنه غير معدود.

(١) وأسند الإهلاك إلى القرى للإشعار بسريان أثره إليها (س/٤/٢٤٠).

(٢) التغابن: ٢٩١.

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي الجزاء أو اليوم كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ﴾^(١) على أن يوم بمعنى حين، أو الله عز وجل كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾^(٢) ونحوه. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمة يأت بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسر. ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعته، وهو الناصب للظرف، ويحتمل نصبه بإضمار اذكر أو بالانتهاء المحذوف. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾^(٣) وهذا في موقف، وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾^(٤) ولا يؤذن لهم فيعذرون^(٥) في موقف آخر، أو المأذون فيه هي الجوابات الحققة والممنوع عنه هي الأعداء الباطلة. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد. ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد. والضمير لأهل الموقف وإن لم يذكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾، أو للناس^(٦).

(١٠٦) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير إخراج النفس والشهيق رده، واستعمالهما في أول النهيق وآخره، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه، أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير. وقرئ شقوا بالضم.

(١٠٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما - فإن النصوص دالة على تأييد دوامهم وانقطاع دوامهما - بل التعبير عن التأييد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل، ولو كان للارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السموات والأرض زوال عذابهم ولا من دوامه دوامهما إلا من قبيل المفهوم؛ لأن دوامهما كالملزوم لدوامه، وقد عرفت أن المفهوم لا يقاوم المنطوق. وقيل المراد سموات الآخرة وأرضها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾^(٧) وإن أهل الآخرة لا بد لهم من مظلٍّ ومقلٍّ، وفيه نظر لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها، وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأييد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعضيائهم فقد سعدوا بإيمانهم، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تقسيماً صحيحاً لأن من شرطه أن تكون صفة كل قسم

(١) يوسف: (١٠٧).

(٢) البقرة: (٢١٠).

(٣) النبأ: (٣٨).

(٤) المرسلات: (٣٥، ٣٦).

(٥) قدم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحذير وإنذار (س/٤٤١).

(٦) إبراهيم: (٤٨).

منتفية عن قسيمه، لأن ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع وههنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين، وأن حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين، أو لأن أهل النار يُنقلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله ولقائه، أو من أصل الحكم والمستثنى زمان توقفهم في الموقف للحساب لأن ظاهره يقتضي أن يكونوا في النار حين يأتي اليوم، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقاً غير مقيد باليوم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت. وقيل هو من قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ وقيل: «إلا» ههنا بمعنى سوى كقولك على ألف إلا الألفان القديمان والمعنى سوى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من غير اعتراض.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوزٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُونَ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوزٍ﴾ غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتبئية على أن المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع، ولأجله فُرق بين الثواب والعقاب بالتأييد. وقرأ حمزة والكسائي وحفص سَعِدُوا على البناء للمفعول من سَعَدَهُ اللهُ بمعنى أسعده. وعطاء نصب على المصدر المؤكد أي أعطوا عطاء، أو الحال من الجنة^(١).

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك بعد ما أنزل عليك من مآل أمر الناس. ﴿مِّمَّا يَعْبُدُونَ هَؤُلَاءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم، أو من حال ما يعبدونه في أنه يضر ولا ينفع. ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ﴾ استئناف معناه تعليل النهي عن المِرْيَةِ أي هم وآباؤهم سواء في الشرك، أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك فسيلحقهم مثله، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات. ومعنى كما يعبد كما كان يعبد، فحذف للدلالة من قبل عليه^(٢). ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجب. ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حال من النصيب لتقييد التوفية، فإنك تقول: وفية حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً.

(١) لم يذكر هنا أن لهم فيها بهجة وسروراً كما ذكر في أهل النار من أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً وذلك لأن المقام مقام تحذير وإنذار (س/٤/٢٤٢).

(٢) والتعبير بصيغة المضارع في «يعبدون» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها (س/٤/٢٤٣).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَيُوفَيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني كلمة الإنظار إلى يوم القيامة. ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل ليميز به عن المحق. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن كفار قومك. ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من القرآن. ﴿مُرِيبٌ﴾ موقِع في الريبة.

(١١١) ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ وإن كلَّ المختلفين المؤمنين منهم والكافرين، والتنوين بدل من المضاف إليه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتباراً للأصل^(١). ﴿لَمَّا لَيُوفَيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ اللام الأولى موطئة للقسم والثانية للتأكيد، أو بالعكس، وما مزيدة بينهما للفصل. وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة لمَّا بالتشديد^(٢)، على أن أصله لِمَنْ ما فقلت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميقات فحذفت أولاهن، والمعنى لِمَنْ الذين يوفينهم ربك جزاء أعمالهم. وقرأ لمَّا بالتنوين أي جميعاً كقوله: ﴿أَكْثَلًا﴾^(٣)، ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا﴾^(٤) على أن إن نافية ولمَّا بمعنى إلا، وقد قرئ به. ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

(١١٢) ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ لمَّا بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسول الله ﷺ بالاستقامة مثل ما أمر بها وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالوسط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفریط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «شيتني هود»^(٥). ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي تاب من الشرك والكفر وآمن

(١) أي بتخفيف «إن» فقرئت «إن» مع إعمالها بالنصب لاسمها «كلًا».

(٢) وكان الأصل عنده قراءة من قرأ بتخفيف «لَمَّا».

(٣) الفجر: ١٩.

(٤) يس: ٣٢.

(٥) وهو حديث صحيح.

أخرجه (٣٥٠/٤) وابن سعد في الطبقات (٤٣٥/١) من طريق شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شئت، قال: شيتني هود، والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه».

قلت: قد تابعه أبو الأحوص عن أبي إسحاق الهمداني به.

أخرجه الحاكم (٤٧٦/٢) وابن سعد في الطبقات (٤٣٦/١).

قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في «الصحيحة» (٦٧٦/٢) =

معك، وهو عطف على المستكن في استقم وإن لم يؤكّد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ولا تخرجوا عما حدّ لكم. ﴿إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مجازيكم عليه، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان^(١).

وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾

(١١٣) ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون هو الميل اليسير كالترجيّ بزيّهم وتعظيم ذكّهم واستدامته. ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ يركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وُجد منه ما يُسمى ظلماً كذلك فما ظنك بالركون إلى الظالمين؟ أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كلّ الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يُتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطابُ الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفریط فإنه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه. وقرئ تَزْكُوا فَتَمَسَّكُم - بكسر التاء - على لغة تميم، وتَزْكُوا على البناء للمفعول من أركنه. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم، والواو للحال. ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يُبقي عليكم. وثم لاستبعاد نصره إياهم وقد أوّدهم بالعذاب عليه وأوجه لهم، ويجوز أن يكون مُتَزَلًّا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فإنه لما بين أن الله معذبهم وأن غيره لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنهم لا يُنصرون أصلاً.

(١١٤) ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ غدوة وعشية، وانتصابه على الظرف لأنه مضاف إليه. ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، فإنه من أزلفه إذا قرّبه وهو جمع زُلْفَةٍ. وصلاة الغداة صلاة

= والحديث له شواهد:

(منها) ما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤٣٦/١) عن قتادة مرفوعاً مختصراً بلفظ «شيبتني هود وأخواتها». وإسناده صحيح لولا أنه مرسل. لكن أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٦/١٧) رقم (٧٩٠) عن عقبة بن عامر مرفوعاً به.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٧/٧): «ورجاله رجال الصحيح». (ومنها): ما أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤٥/٣) من طريق محمد بن سريّن عن عمران بن الحصين مرفوعاً بلفظ: «شيبتني هود وأخواتها».

وقال الألباني في «الصحيحة» (٦٧٩/٢): «وإسناده حسن».

والخلاصة أن الحديث صحيح. انظر «الصحيحة» رقم (٩٥٥).

(١) يريد من عبارته الانحراف عن مضمون النص ومحتواه باستعمال القياس والاستحسان ونحوه وليس المراد استعمال القياس والاستحسان بأصلهما، فإن استعمالهما هو إعمال للنصوص نفسها.

الصباح لأنها أقرب الصلاة من أول النهار وصلاة العشية صلاة العصر، وقيل الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزلف المغرب والعشاء. وقرئ زُلْفًا بضمين، وضمة وسكون كُبُسر وبُسر في بُسرة، وزُلْفَى بمعنى زلفة كقربى وقربة. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ يكفرنها. وفي الحديث «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنب الكبائر»^(١) وفي سبب النزول أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني قد أصبت من امرأة غير أني لم آتيا، فنزلت^(٢). ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى قوله فاستقم وما بعده وقيل إلى القرآن. ﴿ذَكَرَى لِلذَّكْرَيْنِ﴾ عظة للمتعتين.

(١) ● أخرج مسلم في صحيحه (٢٠٩/١ رقم ٢٣٣/١٥) وأحمد في المسند (٣٥٩/٢) من طريق هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهما».

● وأخرج (٤٨٤/٢) من طريق العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب عن أبيه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما ما لم تُغش الكبائر».

● وأخرج مسلم (٢٠٩/١ رقم ٢٣٣/١٦) والبخاري في شرح السنة (١٧٧/٢ رقم ٣٤٥) وأحمد (٤٠٠/٢). من طريق ابن وهب، عن أبي صخر، أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة. ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهما إذا اجتنب الكبائر».

(٢) ● أخرج الترمذي (٢٩٢/٥ رقم ٣١١٥) والنسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٣٠٧/٨) رقم (١١١٢٥) -.

من طريق موسى بن طلحة عن أبي اليسر بن عمرو، قال: أتته امرأة، وزوجها قد بعته النبي ﷺ في بعث، فقالت له: بعني بدرهم تمراً. فقال: فقلت لها - وأعجبتني - إن في البيت تمراً أطيب من هذا، فانطلق بها فغمزها وقبّلها، ففرغ ثم خرج فلقي أبا بكر فقال له: هلكك. قال: ما شأنك، فقصر عليه أمره، وقال له: هل لي من توبة؟ قال: نعم، تُب ولا تُعد ولا تخبر أحداً، ثم انطلق حتى أتى النبي ﷺ فقصر عليه فقال: «خلفت رجلاً من المسلمين غازياً في سبيل الله بهذا» وظننت أني من أهل النار، وأن الله لا يغفر لي أبداً، وأطرق عني نبي الله ﷺ حتى نزلت عليه (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فأرسل إليّ نبي الله ﷺ فقرأهنّ عليّ.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (١٣٧/١٢ ج ٧) والطبراني في الكبير (١٦٥/١٩ رقم ٣٧١) كلاهما من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن عبد الله بن مرهّب - به وقيس بن الربيع: «صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به».

قاله ابن حجر في «التقريب» [١٢٨/٢ رقم (١٣٩)].

والخلاصة أن الحديث حسن.

وأصل القصة في الصحيحين: أخرج البخاري (٣٥٥/٨ رقم ٤٦٨٧).

ومسلم (٢١١٥/٤ رقم ٣٩) من حديث ابن مسعود.

وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُ عَنْ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا
مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٥) ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ عدول^(١) عن
الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماء بأنه لا يعتد بهما
دون الإخلاص.

(١١٦) ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ فهلا كان. ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ﴾ من الرأي والعقل، أو أولو فضل
ولأنما سمي بقية لأن الرجل يستبقي أفضل ما يُخرجه؛ ومنه يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم،
ويجوز أن يكون مصدراً كالتقية أي ذور إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب، ويؤيده أنه قرئ
بَقِيَّةٌ وهي المرة من مصدر بَقَاهُ يَبْقِيهِ إذا راقبه. ﴿يَتَهُ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾
لكن قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك، ولا يصح اتصاله إلا إذا جُعِلَ استثناءً من النفي اللازم
للتحريض. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها
وأعرضوا عما وراء ذلك. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين. كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم
السالفة، وهو فسق الظلم فيهم وأتباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر. وقوله واتبع
معطوف على مضمّر دل عليه الكلام إذ المعنى: فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا، وكانوا
مجرمين عَطَفَ على اتَّبَعَ أو اعتراض. وقرئ وأتبع أي وأتبعوا جزاء ما أترفوا، فتكون الواو للحال،
ويجوز أن تفسر به المشهورة، ويعضده تقدّم الإنجاء.

(١١٧) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ بشرك. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم لا يضمّنون
إلى شركهم فساداً وتباغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه، ومن ذلك قدم الفقهاء عند
تراحم الحقوق حقوق العباد. وقيل الملْكُ يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

(١١٨) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مُسْلِمِينَ كلهم، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير
الإرادة وأنه تعالى لم يُرِدْ الإيمان من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعه. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بعضهم
على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقاً.

(١١٩) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً هداهم الله من فضله فاتفقوا على ما هو أصول دين الحق

(١) وعبر عن ذلك بنفي الإضاعة - مع أن عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقة - وذلك لبيان كمال نزاهته تعالى عن
ذلك بتصويره بصورة ما يتمتع صدره عنه سبحانه من القبائح، وكذا لإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه
(س/٢٤٦/٤).

والعمدة فيه. ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إن كان الضمير للناس فالإشارة إلى الاختلاف؛ واللام للعاقبة أو إليه وإلى الرحمة، وإن كان لمن فإلى الرحمة. ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيد، أو قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي من عصاتهم. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أو منهما أجمعين لا من أحدهما.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

(١٢٠) ﴿وَكُلًّا﴾ وكل نبأ. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ نخبرك به. ﴿مَا نَحْنُ بِكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ﴾ بيان لكلاً أو بدل منه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص وهو زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار، أو مفعول وكلاً منصوب على المصدر بمعنى كل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة^(١)، أو الأنباء المقتصة عليك. ﴿الْحَقُّ﴾ ما هو حق. ﴿وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة.

(١٢١) ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم. ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على حالنا.

(١٢٢) ﴿وَأَنْظِرُوا﴾ بنا الدوائر. ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل على أمثالكم.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خاصة لا يخفى عليه خافية مما فيهما. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فيرجع - لا محالة - أمرهم وأمرك إليه. وقرأ نافع وحفص يَرْجَعُ على البناء للمفعول. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك. وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهم فيجازي كلاً ما يستحقه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء هنا وفي آخر النمل^(٢). عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى»^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) وتقديم الظرف أي «في هذه» على الفاعل «الحق» لأن المقصود بيان منافع السورة (س/٤/٢٤٨).

(٢) النمل: «٩٣».

(٣) هو حديث موضوع كما ذكر ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٣٩ - ٢٤٢).

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئِي لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾

(١) ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ تلك إشارة إلى آيات السورة وهي المراد بالكتاب، أي تلك الآيات آيات السورة الظاهرة أمرها في الإعجاز أو الواضحة معانيها، أو المبيّنة لمن تدبرها أنها من عند الله، أو لليهود ما سألوا إذ روي أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام فنزلت.

(٢) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ سُمِّيَ البعض قرآناً لأنه في الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعض وصارَ علماً للكل بالغلبة، ونصبه على الحال وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي عربياً أو حال لأنه مصدر بمعنى مفعول، وعربياً صفة له أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال، وفي كل ذلك خلاف. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علّة لإنزاله بهذه الصفة، أي أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص مُعْجِز لا يُتَصَوَّرُ إلا بالإيحاء.

(٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١) أحسن الاقتصاص لأنه اقْتَصَصَ على أبداع الأساليب، أو

(١) أخرج الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٦٩) وابن جرير في «جامع البيان» (٧/١٢/١٥٠) والحاكم في «المستدرک» (٢/٣٤٥) وأبو يعلى في المسند (٢/٨٧ رقم ٧٤٠/٥٢) وابن حبان (رقم: ١٧٤٦) موارد.

عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: «نحن نقص عليك أحسن القصص» قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت، فأنزل الله تعالى «الرَّ تِلْكَ =

لأَسْمَاؤِهَا^(١) ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرير، وإنما أُجريت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم.

(٥) ﴿قَالَ يَبْنَؤُ﴾ تصغير ابن، صَغَرَهُ للشفقة أو لَصَغَرَ السن لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة. وقرأ حفص هنا وفي الصفات بفتح الياء^(٢). ﴿لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة، فهِمَّ يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته ويفوّقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم وبغيهم. والرؤيا كالرؤية غير أنها مختصة بما يكون في النوم، فُرّقَ بينهما بحرفي التانيث كالقربة والقربي، وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدّة، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه. وإنما عدّى كاد باللام وهو متعد بنفسه لتضمنه معنى فعل يتعدى به تأكيداً ولذلك أكد بالمصدر وعلله بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم عليه السلام وحواء فلا يألُو جَهْدًا في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد.

وَكَذَلِكَ يَجَنَّبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

(٦) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي وكما اجتنباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعزّ وكمال نفس. ﴿يَجَنَّبُكَ رَبُّكَ﴾ للنبوة والملك، أو لأمور عظام. والاجتناء من جييت الشيء إذا حصلته لنفسك. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾

(١) أخرجه البزار (٥٣/٣ رقم ٢٢٢) وابن جرير (٧/١٢/١٥١) والحاكم (٣٩٦/٤) والبيهقي في «الدلائل» (٢٧٧/٦) والعقيلي في «الضعفاء» (٢٥٩/١) وابن حبان في «المجروحين» (٢٥٠/١) وابن الجوزي في الموضوعات (١٤٥/١ - ١٤٦).

وزاد السيوطي نسبه في «الدر المنثور» (٤٩٨/٤) السعيد بن منصور، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي الشخير، وابن مردويه، وأبي نعيم. عنه.

قال البزار «لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، والحكم فليس بالقوي، وقد روى عنه جماعة».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٩/٧) رواه البزار وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك.

وقال البيهقي: تفرد به الحكم بن ظهير.

وقال العقيلي: لا يصح في هذا المتن عن النبي ﷺ شيء من وجه يثبت.

وقال ابن حبان: هذا الحديث لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ.

وقال ابن الجوزي: وكان واضعه قصد شين الإسلام بمثل هذا. وفيه جماعة ليسوا بشيء والخلاصة أن الحديث من الموضوعات.

(٢) الصفات: «١٠٢» وقرأ الباقون «يَابْنَؤُ» بكسر الياء، وهو الأصل عند البيضاوي.

كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك. ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا؛ لأنها أحاديث المَلَك إن كانت صادقة وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة، أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء. وهو اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل. ﴿وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ بالنبوة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة. ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به سائر بنيهِ؛ ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب، أو نَسْلِهِ. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾ بالرسالة. وقيل على إبراهيم بالخُلة والإنجاء من النار، وعلى إسحاق بإنقاذه من الذبح^(١) وفدائه بذبح عظيم. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾

(١) هذا على القول بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، والصحيح الثابت خلافة، لذلك أضع هنا كلمة ضافية لابن القيم، فيها أبطال القول بأن الذبيح هو إسحاق.

قال ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد» (٧١/١ - ٧٥): «وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غر أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازونه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى «لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط». وامراته قائمة فضحكت فيشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» [هود: ٧٠/٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياته.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان «يعقوب» مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة «ومن وراء إسحاق يعقوب» أي: ويعقوب من وراء إسحاق وقيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به، لأن البشارة قول مخصوص، وهي أول خبر سار صادق. وقوله تعالى «ومن وراء إسحاق يعقوب» جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: «من وراء إسحاق يعقوب»، والقاتل إذا قال: بشرت فلاناً بقدوم أخيه وثقله في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأميرين جميعاً. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة، ثم يُضعف الجُرُّ أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجرِّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف والمجرور. ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال «فلما أسلما وتلأ للجبين ونادياه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هذا لهو البلاء المبين» وفديته بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين [الصافات: ١٠٣ - ١١١]] ثم قال تعالى «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» [الصافات: ١١٢] فهذه بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أمر به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشِّر به غير الأول، بل هو كالنص فيه. فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي لما صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدر، أي مقدراً نبوته فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل. ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

أي من قبلك أو من قبل هذا الوقت. ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لأبويك^(١). ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاجتناء. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّالِينَ﴾

(٧) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي في قصتهم. ﴿آيَاتٌ﴾ دلائل قدرة الله تعالى وحكمته، أو

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمي الذبيح حليماً. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبيح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالى «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال سلامٌ قوم منكرون» [الذاريات: ٢٤، ٢٥] إلى أن قال «قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم» [الذاريات: ٢٨] وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته وهي المبشرة به، وأما إسماعيل، فمن الشبهة. وأيضاً فإنهما بُشرا به على الكبر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووجه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذ خليلاً، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها. فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد. جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خلصت الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبيح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود، فُسِّخَ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبّه أبوه، اشتدت غيرة «سارة» فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن «سارة» حرارة الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورافته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد الشبهة، فحينئذٍ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية ولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليُري عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جعل آثارهما ومواطئ أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، ومتعباتٍ لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يُريد رفعه من خلقه أن يمتنّ عليه بعد استضافته وذله وانكساره. قال تعالى «ونريد أن نعمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين» [القصص: ٥] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) والتعبير عنهما بالأب - مع كونهما أبا جده - للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام (س/٤/٢٥٤).

علامات نبوتك^(١). وقرأ ابن كثير آية. ﴿لِّلْسَالِيلِينَ﴾ لمن سأل عن قصتهم، والمراد بإخوته بنو علاته العشرة وهم: يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبالون ويشخر ودينه من بنت خالته ليا تزوجها يعقوب أولاً فلما توفيت تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف، وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرماً حينئذ وأربعة آخرون: دان ونفتالي وجاد وأشر من سريتين زلفة وبلهة.

إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين وتخصيصه بالإضافة لاختصاصه بالأخوة من الطرفين. ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ وحده لأن أفعُلُ مِنْ لا يُفَرَّقُ فيه بين الواحد وما فوقه والمذكر وما يقابله، بخلاف أخويه فإن الفرق واجب في المحلّ جائر في المضاف. ﴿وَنَحْنُ غُصْبَةٌ﴾ والحال أنا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيها، والعصبة والعصاة العشرة فصاعداً سموا بذلك لأن الأمور تغضب بهم. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لتفضيله المفضل أو لترك التعديل في المحبة. روي أنه كان أحب إليه لما يرى فيه من المخايل وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه، فنبأهم حسدُهم حتى حملهم على التعرض له.

(٩) ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ من جملة المحكي بعد قوله «إذ قالوا» كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا من قال لا تقتلوا يوسف. وقيل إنما قاله شمعون أو دان ورضي به الآخرون.

﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإيهامها، ولذلك نصبت كالظروف المبهمة. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ جواب الأمر. والمعنى يصفُ لكم وجه أبيكم فيقبل بكلية عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم في محبته أحد^(٢). ﴿وَتَكُونُوا﴾ جزم بالعطف على يخل، أو نصب بإضمار أن. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد يوسف أو الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه. ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتهم، أو صالحين مع أبيكم بصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه، أو صالحين في أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بعده بخلو وجه أبيكم.

(١٠) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ يعني يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً، وقيل روبيل. ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم^(٣). ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ في قعره، سُمي بها لغيبوبته عن أعين الناظرين. وقرأ نافع في

(١) وجمع الآيات للإشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية في الدلالة على نبوته عليه السلام (س/٤/٢٥٥).

(٢) وإيثار الخطاب في «لكم» وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (س/٤/٢٥٦).

(٣) وإظهار اسم يوسف في مقام الإضمار لاستجلاب شفقتهم عليه، أو لاستعظام قتله (س/٤/٢٥٦).

غيابات في الموضعين على الجمع كأنه لتلك الجب غيابات، وقرى غيبة، وغيابات بالتشديد. ﴿يَلْقَظُ﴾ يأخذه. ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ بعض الذين يسرون في الأرض. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ بمشورتي، أو إن كنتم على أن تفعلوا ما يفرق بينه وبين أبيه.

قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ لِمَ تخافنا عليه. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، أرادوا به استزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. والمشهور تأمناً بالإدغام بإشمام، وعن نافع بترك الإشمام، ومن الشواذ ترك الإدغام لأنهما من كلمتين وتيمناً بكسر التاء.

(١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. ﴿يَرْتَعْ﴾ تنسع في أكل الفواكه ونحوها، مِنْ الرُّتْعَةِ وهي الخصب. ﴿وَيَلْعَبُ﴾ بالاستباق والانتضال. وقرأ ابن كثير نَزَعَ بكسر العين على أنه مِنْ ارتعى يرتعي، ونافع بالكسر والياء فيه وفي يلعب^(١)، وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء والسكون على إسناد الفعل إلى يوسف^(٢)، وقرى يرتع من أرتع ماشيته، ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

(١٣) ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ لشدة مفارقتي عليّ وقلة صبري عنه. ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ لأن الأرض كانت مذابة. وقيل رأى في المنام أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره عليه. وقد همزها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية اليزيدي وأبو عمرو وقفاً، وعاصم وابن عامر وحمة دزجاً. واشتقاقه من تذابت الريح إذا هبت من كل جهة. ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

(١٤) ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام موطنه للقسم وجوابه: ﴿إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ضعفاء مغبونون، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسار، والواو في «ونحن عصابة» للحال^(٣).

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ وعزموا على إلقائه فيها، والبئر بئر بيت المقدس أو بئر بأرض الأردن أو بين مصر ومدين أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب، وجواب لما محذوف

(١) أي «يرتع ويلعب».

(٢) أي «يرتع ويلعب».

(٣) وإنما اقتصرنا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لأنه السبب القوي في المنع ولم يوردوا جواباً على الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (س/٢٥٨/٤).

مِثْلَ فَعَلُوا بِهِ مَا فَعَلُوا مِنَ الْأَذَى. فَقَدْ رَوَى أَنَّهُمْ لَمَّا بَرَزُوا بِهِ إِلَى الصَّحْرَاءِ أَخَذُوا يُوْذُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ حَتَّى كَادُوا يَقْتُلُونَهُ، فَجَعَلَ يَصِيحُ وَيَسْتَغِيثُ، فَقَالَ يَهُودًا: أَمَا عَاهَدْتُمُونِي أَنْ لَا تَقْتُلُونَهُ، فَأَتُوا بِهِ إِلَى الْبِئْرِ فَدَلُّوهُ فِيهَا، فَتَعَلَّقَ بِشْفِيرِهَا، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ وَنَزَعُوا قَمِيصَهُ لِيَلْطَخُوهُ بِالْدمِ وَيَحْتَالُوا بِهِ عَلَى أَبِيهِمْ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ رَدُّوا عَلَيَّ قَمِيصِي أَتَوَارَى بِهِ، فَقَالُوا: اذْغُ الْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُلْبَسُوكَ وَيُوْنَسُوكَ، فَلَمَّا بَلَغَ نَصْفَهَا الْقُوَّةَ وَكَانَ فِيهَا مَاءٌ فَسَقَطَ فِيهِ، ثُمَّ آوَى إِلَى صَخْرَةٍ كَانَتْ فِيهَا فِقَامٌ عَلَيْهَا يَبْكِي فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وَكَانَ ابْنُ سَبْعٍ عَشْرَةَ سَنَةً. وَقِيلَ كَانَ مُرَاهِقًا أَوْحَى إِلَيْهِ فِي صَغَرِهِ كَمَا أَوْحَى إِلَى يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَفِي الْقِصَصِ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ جُرَّدَ عَنْ ثِيَابِهِ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَمِيصٍ مِنْ حَرِيرِ الْجَنَّةِ فَأَلْبَسَهُ إِيَّاهُ، فَدَفَعَهُ إِبْرَاهِيمُ إِلَى إِسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ إِلَى يَعْقُوبَ فَجَعَلَهُ فِي تَمِيمَةٍ عُلِقَ بِهَا يُوسُفُ فَأَخْرَجَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْبَسَهُ إِيَّاهُ. ﴿لَتَنبَيِّنَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ لَتَحْدِثَنَّهُمْ بِمَا فَعَلُوا بِكَ. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنْكَ يُوسُفَ لَعَلَّوْا شَأْنَكَ وَبُعِدَهُ عَنْ أَوْهَامِهِمْ وَطَوَّلَ الْعَهْدَ الْمُغَيَّرَ لِلْحُلِيِّ وَالْهَيْثَاتِ، وَذَلِكَ إِمَارَةٌ إِلَى مَا قَالَ لَهُمْ بِمِصْرَ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ مِمْتَارِينَ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ. بِشْرُهُ بِمَا يُوْثِلُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ إِنْ نَاسًا لَهُ وَتَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ. وَقِيلَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ مُتَّصِلٌ بِأَوْحَيْنَا أَيْ أَنَسْنَاهُ بِالْوَحْيِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ذَلِكَ.

وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أَيِ آخِرِ النَّهَارِ. وَفَرَى عُشِيًّا وَهُوَ تَصْغِيرُ عَشَى، وَعُشَى بِالضَّمِّ وَالْقَصْرِ جَمْعُ أَعَشَى، أَيِ عُشُوا مِنَ الْبَكَاءِ. ﴿يَبْكُونَ﴾ مُتَبَاكِينَ. رَوَى أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ بِكَاءِهِمْ فَرَعَ وَقَالَ مَا لَكُمْ يَا بَنِي وَآيِنَ يُوسُفَ؟

(١٧) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نَتَسَابِقُ فِي الْعَدُوِّ أَوْ فِي الرَّمْيِ، وَقَدْ يَشْتَرِكُ الْإِفْتِعَالُ وَالتَّضَاعُلُ كَالِاتِّضَالِ وَالتَّنَاضُلِ. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بِمُصَدِّقٍ لَنَا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ لَسَوْءَ ظَنُّكَ بِنَا وَفَرَطَ مُحِبَّتِكَ لِيُوسُفَ.

(١٨) ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أَيِ ذِي كَذِبٍ بِمَعْنَى مَكْذُوبٍ فِيهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا بِالْمُصَدَّرِ لِلْمُبَالِغَةِ. وَفَرَى بِالنَّصَبِ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْوَاوِ أَيْ جَاوُوا كَاذِبِينَ، وَكَذَبَ بِالْدَالِ غَيْرِ الْمَعْجَمَةِ أَيْ كَذِبَ أَوْ طَرِيًّا. وَقِيلَ: أَصْلُهُ الْبَيَاضُ الْخَارِجُ عَلَى أَظْفَارِ الْأَحْدَاثِ فَشَبَّهَ بِهِ الدَّمُ اللَّاصِقَ عَلَى الْقَمِيصِ، وَعَلَى قَمِيصِهِ فِي مَوْضِعِ النَّصَبِ عَلَى الظَّرْفِ أَيْ فَوْقَ قَمِيصِهِ أَوْ عَلَى الْحَالِ مِنَ الدَّمِ إِنْ جَوَزَ تَقْدِيمُهَا عَلَى الْمَجْرُورِ. رَوَى: أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ بِخَبَرِ يُوسُفَ صَاحَ وَسَأَلَ عَنْ قَمِيصِهِ فَأَخَذَهُ وَأَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ وَبَكَى حَتَّى خَضِبَ وَجْهَهُ بِدَمِ الْقَمِيصِ وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ذَنْبًا أَحْلَمَ مِنْ هَذَا أَكَلَ ابْنِي وَلَمْ يَمِزْ عَلَيْهِ

قميصه^(١)، ولذلك ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي سهلت لكم أنفسكم وهونت في أعينكم أمراً عظيماً، من السؤل وهو الاسترخاء. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل، وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق»^(٢). ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ على احتمال ما تصفونه من إهلاك يوسف وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم إن صح.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةٌ وَلِلَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة يسرون من مدين إلى مصر فتزلوا قريباً من الجب، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء ويستقي لهم، وكان مالك بن ذعر الخزاعي. ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ فأرسلها في الجب ليملاها، فتدلى بها يوسف، فلما رآه ﴿قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلْمٌ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال تعالى فهذا أوانك، وقيل هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه. وقرأ غير الكوفيين يا بُشْرَايَ بالإضافة، وأمالَ فتحة الراء حمزة والكسائي، وقرأ ورش^(٣) بين اللظين، وقرأ يا بشريّ بالإدغام وهو لغة^(٤)، وبُشْرَايَ بالسكون على قصد الوقف. ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ أي الوارد وأصحابه من سائر الرفقة. وقيل أخفوا أمره وقالوا لهم دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وقيل الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته، فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا أَبَقَ منا فاشتروه، فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه^(٥). ﴿بِضْعَةٍ﴾ نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة، واشتقاقه من البَضْع^(٦) فإنه ما يُبْضَع من المال للتجارة. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه أسرارهم أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم.

(٢٠) ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه؛ وفي مرجع الضمير الوجهان، أو اشتروه من إخوته^(٧). ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١٢ ج ١٦٣) عن السدي.

(٢) وهو حديث ضعيف.

أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١٢ ج ١٦٦) عن جَبَّان بن أبي جبلة مرسلًا وفيه سنيد الحسين بن داود ضعيف.

(٣) هو عثمان بن سعيد بن عبدالله المصري، ويكنى أبا سعيد، و(ورش) لقب له لُقِبَ به لشدة بياضه.

كان جيد القراءة، حسن الصوت، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه لا ينازعه فيها منازع. توفي سنة سبع وتسعين ومائة عن سبع وثمانين سنة.

[غاية النهاية (١/٥٠٢)].

(٤) على لغة من يقلب الألف ياء ويدغمها في ياء المتكلم. تقول هَوَيَّ في هواي.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١٢ ج ١٦٩) عن ابن العباس.

(٦) والبضع هو القطع.

(٧) وعدل عن صيغة الافتعال - فلم يقل اشتروه - لأن أخذهم إنما كان بطريقة البضاعة لا بطريق الاجتباء والاقتناء (س/٤/٢٦٠).

مبخوس لزيه أو نقصانه. ﴿دَرَّهَمَ﴾ بدل من الثمن. ﴿مَعْدُودَةً﴾ قليلة فإنهم كانوا يزنون ما بلغ الأوقية ويعدون ما دونها. قيل^(١) كان عشرين درهماً وقيل^(٢) كان اثنين وعشرين درهماً. ﴿وَكَاثُوفِيهِ﴾ في يوسف. ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ الراغبين عنه، والضمير في وكانوا إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه لأنهم ألقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق. وفيه متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف، وإن جعل بمعنى الذي فهو متعلق بمحذوف يبينه الزاهدين لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير أو إطفير، وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي وقد آمن بيوسف عليه السلام ومات في حياته. وقيل كان فرعون موسى عاش أربعمئة سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٣). والمشهور أنه من أولاد فرعون يوسف. والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء. روي: أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبت في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به من جعل شراءه به غير الأول فقيل^(٤) عشرون ديناراً وزوجاً نعل وثوبان أبيضان. وقيل ملؤه فضة وقيل ذهباً. ﴿لِأَمْرَأَتِهِ﴾ راعيل أو زليخا. ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً أي حسناً، والمعنى أحسني تعهده. ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نتبناه وكان عقيماً لما تفرس فيه من الرشد، ولذلك قيل^(٥): أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت «يا أبت

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١٢/١٧٣) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/١٢/١٧٣) عن ابن عباس، بلفظ «كانت عشرين درهماً».

(٣) غافر: «٣٤».

(٤) هذا وغيره مما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ وهو من الأمور الغيبية، ولا يتوقف فهم الآية على شيء من هذه الروايات المأخوذة بجملتها من الإسرائيليات. حتى ولو كان لبعضها إسناد إلى بعض المفسرين من التابعين رحمهم الله.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٣٤٥) من رواية أبي الأحوص عن ابن مسعود.

وكذلك أخرجه (٣/٩٠) من رواية أبي عبيدة عنه.

وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي في كلا الطريقتين. منع أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٩/١٨٥) رقم ٨٨٢٩ و٨٨٣٠ من طريق سفيان وسعيد بن منصور عن أبي إسحاق

عن أبي الأحوص عن ابن مسعود.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٦٨) وقال «رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح إن =

استأجره^(١)، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله تعالى عنهما. ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وكما مكنا محبته في قلب العزيز أو كما مكناه في منزله أو كما أنجينا وعطفنا عليه العزيز مكنا له فيها. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مضمَر تقديره ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه، أي كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنه. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ لا يرد شيء ولا ينازعه فيما يشاء أو على أمر يوسف، أراد به إخوته شيئاً وأراد الله غيره فلم يكن إلا ما أَرَادَهُ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ^(٢) ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سنّ الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل سن الشباب ومبدؤه بلوغ الحلم. ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل، أو حُكْمًا بين الناس. ﴿وَعِلْمًا﴾ يعني علم تأويل الأحاديث. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاءً على إحسانه في عمله وإتقانه في عصفوان أمره.

(٢٣) ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَتَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ طلبت منه وتمحلت أن يواقعها، مِنْ رَادٍ يُرُودُ إِذَا جَاءَ وَذَهَبَ لَطَلَبَ شَيْءٍ وَمِنْهُ الرَّائِدُ^(٢). ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ قيل كانت سبعة، والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أَقْبَلْ وَبَادِرْ، أو تَهَيَّأْ، والكلمة على الوجهين اسم فعل بُني على الفتح كَأَيْنَ، واللام للتبيين كالتي في سُقيا لك. وقرأ ابن كثير بالضم وفتح الهاء تشبيهاً له بحَيْثُ، ونافع وابن عامر بالفتح وكسر الهاء كَعِيطَ، وقرأ هشامٌ كذلك إلا أنه يهمز وقد روي عنه ضم التاء وهو لغة فيه، وقرئ هَيْتَ كَجِيرٍ، وَهَيْتَ كَجِئْتَ مِنْ هَاءٍ يَهْيِءُ إِذَا تَهَيَّأَ، وقرئ هَيْتَ وَعَلَى هَذَا فَالْلامُ مِنْ صَلْتِهِ. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً. ﴿إِنَّهُ﴾ إِنَّ الشَّأْنَ. ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ سيدي قطفير أحسن تعهدي إذ قال لك في: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ فما جزاؤه أَنْ أَخُونَهُ فِي أَهْلِهِ. وقيل الضمير لله تعالى أي إنه خالقي أحسن منزلتي بأن عطف عليّ قلبه فلا أعصيه. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ المجازون الحسن

= محمد بن كثير هو العبدى، وإن كان هو الثقيفي فقد وثق على ضعف كثير فيه^١ هـ.

قلت: - والطريق الأخرى للطبراني رجالها أيضاً ثقات إلا شيخ الطبراني محمد علي الصائغ المكي، فقد ذكره ابن حبان في الثقات (١٥٢/٩).

والخلاصة أن الأثر صحيح والله أعلم.

(١) القصص: ٢٦.

(٢) والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السرّ أو للاستهجان بذكره. وإيراد الموصول «التي» لتقرير المرادة، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام (س/٤/٢٦٦).

بالسيء. وقيل الزنا فإن الزنا ظلم على الزاني والمزني بأهله.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ ۖ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ۖ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا﴾ قصدت مخالطته وقصد مخالطتها، والهَمُّ بالشيء قَصْدُهُ والعزم عليه ومنه الهَمَام وهو الذي إذا هم بشيء أمضاه، والمراد بهمه عليه الصلاة والسلام مِثْلُ الطَّبْعِ ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، أو مشاركة الهم كقولك قتلت له لو لم أخف الله. ﴿لَوْلَا أَنَّ رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ﴾ في قبح الزنا وسوء مغبته لخالفها لِسَبْقِ الْعُلَمَاءِ وكثرة المغالبة، ولا يجوز أن يجعل وهَمَّ بها جوابٌ لولا فإنها في حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابها، بل الجواب محذوف يدل عليه. وقيل رأى جبريل عليه الصلاة والسلام، وقيل تمثل له يعقوب عاضاً على أنامله، وقيل قطفير، وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مِثْلُ ذَلِكَ التثيت ثبتناه، أو الأمر مثل ذلك. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ خيانة السيد. ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ الزنا. ﴿مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام، أي الذين أخلصوا دينهم لله.

(٢٥) ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي تسابقا إلى الباب، فحُذِفَ الْجَارُ أَوْ ضَمِّنَ الْفِعْلُ معنى الابتدار. وذلك أن يوسف فرَّ منها ليخرج وأسرعت وراءه لئلا تمنعه الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ اجتذبت من ورائه فانقد قميصه، والقَدْ الشق طولاً والقَطُّ الشق عرضاً^(١). ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وصادفا زوجها. ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿إِيهَاماً﴾ بأنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وتغييره على يوسف وإغراءه به انتقاماً منه، وما نافية أو استفهامية بمعنى أي شيء جزاءه إلا السجن؟^(٢).

(٢٦) ﴿قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ طالبتني بالمؤاتاة، وإنما قال ذلك دفعاً لما عرضته له من السجن أو العذاب الأليم ولو لم تكذب عليه لما قاله. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل ابن عم لها. وقيل

(١) وإسناد القَدْ إليها خاصة - مع أن لقوة يوسف دخلاً فيه - إما لأنها الجزء الأخير للعلّة التامة، وإما للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج (س/٤/٢٦٧).

(٢) وعدم تعيين الجزاء لتحويله.

وقولها «بأهلك» حيث ذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز لإعظام الخطب وإغرائه على تحقيق ما تنوخواه (س/٤/٢٦٨).

ابن خال لها صبيّاً في المهد. وعن النبي ﷺ: «تكلم أربعة صغاراً ابنُ ماشطة فرعون، وشاهدُ يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام»^(١) وإنما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها. ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقد جيبه.

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يدل على أنها تبعتها فاجتذبت ثوبه فقدته. والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول، وتسميتها شهادة لأنها أدت مؤداها، والجمع بين إن وكان على تأويل أن يعلم أنه كان ونحوه ونظيره قولك: إن أحسنت إلي اليوم فقد أحسنت إليك من قبل، فإن معناه إن تمنن علي بإحسانك أمتن عليك بإحساني لك السابق. وقرئ مِنْ قُبُلٍ وَمِنْ دُبُرٍ بالضم لأنهما قُطِعا عن الإضافة كقُبُلٍ وبعْدُ، وبالفتح كأنهما جُعِلا علمين للجھتين فمُنعا الصرف، ويسكون العين.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ﴾ إن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً، أو إن السوء، أو إن هذا الأمر. ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها، أو لسائر النساء^(٢). ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإن كيد النساء أطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس ولأنهن يواجهن به الرجال والشيطان يوسوس به مسارقةً.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦/٦ رقم ٣٤٣٦) ومسلم (١٩٧٦/٤ - ١٩٧٧ رقم ٨) عن أبي هريرة. ● وأخرج أحمد (٣٠٩/١ - ٣١٠) وابن حبان في الموارد (ص ٣٩ رقم ٣٦) وأبو يعلى في المسند (٣٩٤/٤ - ٣٩٥ رقم ٢٥١٧/١٩٠) وابن جرير في «جامع البيان» (٧/١٢/١٩٣) والطبراني في الكبير (١٠/٤٥٠ - ٤٥١ رقم ١٢٢٧٩) والبزار في كشف الأستار (١/٣٧ رقم ٥٤).

كلهم من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً عليه عقب حديث ماشطة ابنة فرعون المرفوع.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٠٨/٨) فيه عطاء بن السائب قد اختلط. وتعقبه الشيخ أحمد شاكر بقوله: وفات الحافظ الهيثمي أن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل اختلاطه - كما في المسند رقم (٢٨٢٢) -. وقال العراقي في التقييد والإيضاح ص ٤٤٣: «قال يحيى بن سعيد القطان سمع حماد بن زيد من عطاء بن السائب قبل أن يتغير».

وقال النسائي رواية حماد بن زيد، وشعبة، وسفيان عنه جيدة هـ.

● وأخرج مسلم (٢٢٩٩/٤ - ٢٣٠١ رقم ٣٠٠٥/٧٣) من حديث صهيب الطويل وفيه «... حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتعاسست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري. فلأنك على الحق». ولمزيد من الإيضاح انظر «فتح الباري» (٦/٤٨٠).

(٢) وتعميم الخطاب للإشارة إلى أنه خُلِقَ في النساء عريق (س ٢٦٩/٤).

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وتفظنه للحديث. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ اكتمه ولا تذكره. ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يا راعيل. ﴿إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من القوم المذنبين من، خطيء إذا أذنب متعمداً. والتذكير للتغليب.

(٣٠) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ هي اسم لجمع امرأة وتأتي بهذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جُرد فعله، وضم النون لغة فيها. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ ظرف لقال أي أشغف الحكاية في مصر، أو صفة نسوة وكن خمساً: زوجة الحاجب والساقى والخباز والسجان وصاحب الدواب. ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ تطلب مواعدة غلامها إياها. والعزير بلسان العرب المَلِكُ. وأصل فتى فتى لقولهم فتيان، والفتوة شادة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ شغى شغاف قلبها وهو حجابها حتى وصل إلى فؤادها حباً، ونضبه على التمييز لصرف الفعل عنه. وقرىء شَغَفَهَا مِنْ شَعَفَ البعير إذا هنأه بالقطران فأحرقه. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال عن الرشد وبعد عن الصواب^(١).

(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن. وإنما سماه مكرراً لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره، أو قلن ذلك لتريهن يوسف، أو لأنها استكتمتن سرها فأفشينه عليها. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهم، قيل دعت أربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد. ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ حتى يتكئن والسكاكين بأيديهن فإذا خرج عليهن يُبْهَتْنَ ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها فيكئن بالحجة، أو يهابُ يوسفُ مكرها إذا خرج وحده على أربعين امرأة في أيديهن الخناجر. وقيل متكأ طعاماً أو مجلس طعام، فإنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب ترفاً ولذلك نُهي عنه. قال جميل^(٢):

فَظَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَاتَّكَأْنَا وَشَرِبْنَا الْحَالَ مِنْ قُلْبِنَا

وقيل المتكأ طعام يُحَرُّ حَزْأً كَانَ الْقَاطِعُ يَتَكَّى عَلَيْهِ بِالسَّكِينِ. وقرىء مُتَّكَأً بحذف الهمزة، ومتكأً بإشباع الفتحة كمنتزاح ومُتَّكَأً وهو الأترج أو ما يُقَطَّعُ مِنْ مَتَكِ الشَّيْءِ إِذَا بَتَكَه، وَمُتَّكَأً مِنْ تَكَّى يَتَكَّى إِذَا اتَّكَأَ. ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ عظمته وهَبْنِ حُسْنَهُ

(١) وإنما لم يقلن إنها لفي ضلال مبين إشعاراً بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن.

مجازفة، بل عن علم ورأي، مع التلويح بأنهن متزهات عن أمثال ما هي عليه (س/٢٧١/٤).

(٢) هو جميل بن عبد الله بن معمر العنبري، القضاعي (أبو عمرو) شاعر افتتن ببشنة من فتيات قومه. فتناقل الناس أخبارها. من آثاره: ديوان شعر. مات عام ٨٢هـ.

[معجم المؤلفين (٣/ ١٦٠ - ١٦١) والأعلام (٢/ ١٣٨)].

الفائق^(١). وعن النبي ﷺ: «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر»^(٢) وقيل كان يرى تلالو وجهه على الجدران. وقيل أكبرن بمعنى حُضِن من أكبرت المرأة إذا حاضت لأنها تدخل الكبر بالحوض، والهاء ضمير للمصدر أو ليوسف عليه الصلاة والسلام على حذف اللام أي حُضِن له من شدة الشبق كما قال المتنبي^(٣):

خَفِيَ اللَّهُ وَاسْتُرَ ذَا الْجَمَالِ بِرَقْعٍ فَإِنْ لَحَتْ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ

﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة. ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز وتعجباً من قدرته على خلق مثله. وأصله حاشا كما قرأ أبو عمرو في الدزج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً، وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، فوضع موضع التنزيه، واللام للبيان كما في قولك سقيا لك. وقرئ حاشَ الله بغير لام بمعنى براءة الله، وحاشاً لله بالتثنية على تنزيله منزلة المصدر. وقيل حاشا فاعل من الحشا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف، أي صار في ناحية الله مما يتوهم فيه. ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر، وهو على لغة الحجاز في إعمال ما عمل ليس لمشاركتها في نفي الحال. وقرئ بَشَرٌ بالرفع على لغة تميم، وبِشْرَى أي بعد مُشْتَرَى لنسيم. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا المَلَك.

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾

(٣٢) ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتني في الافتتان به قبل أن تتصورنه حق تصويره، ولو تصورته بما عايتن لعذرتني. أو فهذا هو الذي لمتني فيه، فَوَضَعَ ذلك موضع هذا رفعا لمنزلة المشار إليه. ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع طلباً للعصمة، أقرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته. ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ أي ما أمر به؛ فحذف الجار، أو أمري إياه بمعنى موجب أمري فيكون الضمير ليوسف. ﴿لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ من الأذلاء وهو مِنَ صَغِيرٍ - بالكسر - يَصْغُرُ صِغَرًا وَصَغَارًا، والصغير من صَغُرَ بالضم صِغَرًا. وقرئ ليكونن، وهو يخالف خط المصحف لأن النون كتبت فيه بالألف كنسفعاً على حكم الوقف وذلك في الخفيفة لشبهها بالتثنية.

(١) وقوله «فلما رأيته» عطف على مقدر يستدعيه المقام، وقد حذف تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهن (س/٤/٢٧٢).

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدى عن أبي سعيد. وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً. كما في الكافي الشافى رقم ٢٠٦ - قلت: أبو هارون العبدى ضعيف -.

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي (أبو الطيب) شاعر حكيم ولد في الكوفة، ونشأ في الشام. واتصل بسيف الدولة فانقطع إليه، ثم مضى إلى مصر، فمدح بها كافور الأحمدي،... من آثاره: ديوان شعر.

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَايَاتِهِ لِيَسْجُنْتَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي أثرٌ عندي من مؤاتاتها زناً نظراً إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشتهي النفس وذلك مما تكرهه. وإسنادُ الدعوة إليهن جميعاً لأنهن خوفنه من مخالفتها وزينَ له مطاوعتها، أو دعونه إلى أنفسهن. وقيل إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا، وإنما كان الأولى به أن يسأل الله العافية، ولذلك رد رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر^(٢). ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ وإن لم تصرف عني. ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إلي وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إلى جانبهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي، والصنوة الميل إلى الهوى ومنه الصُّبَا لأن النفوس تستطيعها وتميل إليها. وقرئ أصب من الصبابة وهي الشوق. ﴿وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعلمون بما يعلمون فإنهم والجهال سواء^(٣).

(٣٤) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمنه قوله: «ولا تصرف» ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فنبته بالعصمة حتى وطَّن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لدعاء الملئتين إليه. ﴿أَلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَايَاتِهِ﴾ ثم ظهر للعزير وأهله من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبي وقد القميص وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن، وفاعل بَدَأ مضمَر يفسره: ﴿لِيَسْجُنْتَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وذلك لأنها خدعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تُبَصَّرَ ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم فلبث في السجن سبع سنين. وقرئ بالتاء على أن بعضهم خاطب به العزيز على التعظيم أو العزيز ومن يليه، وعتى^(٤) بلغة هذيل.

(٣٦) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ أي أدخل يوسف السجن واتفق أنه أدخل حينئذ آخران من عبيد الملك «شَرَابِيَّةُ وَخُبَّازُهُ» للاتهام بأنهما يريدان أن يسمّاه. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ يعني الشَّرَابِيَّةُ. ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾

(١) أي بفتح السين «السِّجْن».

(٢) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام مرّ برجل وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال عليه السلام: «قد سألت البلاء، فسل الله العافية» رواه أحمد (٢٠٩/١) وإسناده حسن كما في تخريج كتاب الشكر لابن أبي الدنيا رقم (١٥٠) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

(٣) قوله «السجن أحب..» حيث عبر عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفاً من الحبس. والاقصار على ذكر السجن من حيث إن الصغار من فروعه ومستتبعاته (س/٤/٢٧٤).

(٤) عطف على قوله وقرئ بالتاء، أي قرئ «عتى حين» بالعين بدل الحاء وهي بلغة هذيل.

أي في المنام، وهي حكاية حال ماضية. ﴿أَعَصِرْ خَمْراً﴾ أي عنباً وسماء خمرأ باعتبار ما يؤول إليه. ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ أي الخباز. ﴿إِنِّي أُرْسِيْ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِيْ خَبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهش منه. ﴿نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَنْبِتُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يُحسِنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين، وإنما قالوا ذلك لأنهما رأياه في السجن يُذكر الناس وَيَعْبُرُ رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيْ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَحِي السِّجْنَ ءَأَزَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي بتأويل ما قصصتما علي، أو بتأويل الطعام يعني بيان ماهيته وكيفيته فإنه يشبه تفسير المشكل، كأنه أراد أن يدعوهم إلى التوحيد ويرشدهما إلى الطريق القويم قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه، كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير. ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا﴾ أي ذلك التأويل. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيْ﴾ بالإلهام والوحي وليس من قبيل التكهن أو التنجيم. ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي علمني ذلك لأنني تركت ملة أولئك.

(٣٨) ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أو كلامٌ مبتدأ لتهديد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق عليه، ولذلك جُوزَ للخامل أن يصف نفسه حتى يُعرفَ فيقتبس منه، وتكرير الضمير للدلالة على اختصاصهم وتأكيد كفرهم بالآخرة^(١). ﴿مَا كَانَ لَنَا مَعَ شَرِّ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أي شيء كان. ﴿ذَلِكَ﴾ أي التوحيد. ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا بِالْوَحْيِ﴾ وعلى سائر الناس يبعثنا لإرشادهم وتبئيتهم عليه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ المبعوث إليهم. ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا الفضل فيعرضون عنه ولا يتنبهون، أو من فضل الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

(٣٩) ﴿يَصْحَحِي السِّجْنَ﴾ أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله:

يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ أَهْلَ الدَّارِ

﴿ءَأَزَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ شتى متعددة متساوية الأقدام. ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالالوهية. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره.

(١) وقدم ذكر تركه لملتهم على اتباعه لملة آبائه لأن التولية مقدمة على التحلية (س/٤/٢٧٧).

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

(٤٠) ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر. ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي إلا أشياء باعتبار أسام أطلقتم عليها من غير حجة دل على تحقق مسمياتها فيها فكانكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة. والمعنى أنكم سميت ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها. ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ الذي دلت عليه الحجج. ما الحكم في أمر العبادة. ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث إنه الواجب لذاته الموجد للكل والمالك لأمره. ﴿ أَمَرَ ﴾ على لسان أنبيائه. ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ الذي دلت عليه الحجج. ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمُ ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج عن القويم. وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة: بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنها، ثم نض على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه. ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيخطون في جهالاتهم.

(٤١) ﴿ يَصْحَجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ يعني الشراي (١). ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ كما كان يسقيه قبل ويعود إلى ما كان عليه. ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ ﴾ يريد به الخباز. ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فقالا: كَذَبْنَا، فقال: ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي قُطِع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤول إليه أمركما ولذلك وَخَدَهُ، فإنهما وإن استفتيا في أمرين لكنهما أرادا استبانة عاقبة ما نزل بهما (٢).

(٤٢) ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ الظأن يوسف إن ذَكَرَ ذلك عن اجتهاد، وإن ذَكَرَهُ عن وحي فهو الناجي. إلا أن يؤول الظن باليقين. ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ اذكر حالي عند المَلِك كي يخلصني. ﴿ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ فأنسى الشراي أن يذكره لربه، فأضاف إليه المصدر لملاسته له أو على تقدير ذكر إخبار ربه، أو أنسى يوسف ذكر الله حتى استعان بغيره، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعاً بعد

(١) وإنما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلاً بذلك إلى إيهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوؤه (س/٤/٢٧٩).

(٢) وقد عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفضيلاً لشأنه، لأن الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشككة الحكم المبهمة الجواب.

وإشار صيغة الاستقبال في قوله «تستفتيان» مع سبق استفتائهما فيه لأنهما بصده حتى يقضي عليه السلام من الجواب وَطَرَهُ (س/٤/٢٧٩).

الخمس^(١). والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محمودة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء. ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضْع ما بين الثلاث إلى التسع، مِنَ البضْع وهو القطع.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ يَأْتِيهَا أَمْلَأُ آفُتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا نَاصِرًا ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُكُمْ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ﴾ لما دنا فَرَجُّهُ رأى الملك سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات مهازيل فابتلعت المهازيل السمان. ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها. ﴿وَأُخَرَ يَابِسَةٍ﴾ وسبعاً آخر يابسات قد أذركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبت عليها، وإنما استغنى عن بيان حالها بما قص من حال البقرات، وأجرى السمان على المميز دون المميز لأن التمييز بها، وَوَصَفَ السبع الثاني بالعجاف لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف؛ فإنه لبيان الجنس؛ وقياسه عُجْفٌ لأنه جمع عَجْفَاء لكن حُمِلَ على سِمَانٍ لأنه نقيضه. ﴿يَأْتِيهَا أَمْلَأُ آفُتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾ عَبَّرَ بِهَا^(٢). ﴿إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا نَاصِرًا﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها من العبور وهي المجاوزة، وعبرت الرؤيا عِبَارَةً أثبت من عَبَّرَ بِهَا تعبيراً، واللام للبيان، أو لتقوية العامل فإن الفعل لما أخر عن مفعوله ضَعُفَ فَقَوِيَ باللام كاسم الفاعل، أو لتضمن تعبرون معنى فعلى يُعَدَّى باللام كأنه قيل: إن كنتم تتنبئون لعبارة الرؤيا.

(٤٤) ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُكُمْ﴾ أي هذه أضغاث أحلام وهي تخاليطها، جمع ضِغْث، وأصله ما جمع من أخلاط النبات وحُزْم، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جَمَعُوا للمبالغة في وصف الحُلُم بالبطلان كقولهم: فلان يركب الخيل، أو لتضمنه أشياء مختلفة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة، فهو كأنه مقدمة ثانية للعذر في جهلهم بتأويله.

(٤٥) ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن وهو الشرايبي. ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مدة طويلة. وقرئ - إِمَّةٌ بكسر الهمزة - وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة، وأمه أي نسيان يقال أمة يأمه أمهاً إذ نسي، والجملة اعتراض ومقول القول: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي إلى من عنده علمه أو إلى السجن.

(١) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه. وهذا إسناد ساقط - كما في الكافي الشاف (ص ٩٠ رقم ٢١٣).

(٢) وعبر عنه بالإفتاء لتشريفهم وتفضيخ أمر رؤياه (س ٢٨٠/٤).

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرٍ
يَاسْتَسْتَلِعْنَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ
يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي فأرسل إلى يوسف فجاءه فقال يا يوسف، وإنما وصَّفه بالصدِّيق وهو المبالغ في الصدق لأنه جَرَّبَ أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه. ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرٍ يَاسْتَسْتَلِعْنَ﴾ أي في رؤيا ذلك^(١). ﴿لَعَلَّيْ أَزْجِعَ إِلَى النَّاسِ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك، وإنما لم يبت الكلام فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع فربما اخترم دونه ولا يعلمهم.

(٤٧) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي على عادتكُم المستمرة. وانتصابه على الحال بمعنى دائبين، أو المصدر بإضمار فعله أي تدأبون دابًّا، وتكون الجملة حالاً. وقرأ حفص دابًّا بفتح الهمزة وكلاهما مصدر داب في العمل^(٢). وقيل تزرعون أمرٌ أخرجه في صورة الخبر مبالغة لقوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ لئلا يأكله السوس، وهو على الأول نصيحة خارجة عن العبارة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

(٤٨) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن فأُسْنِدَ إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبر والمعبر به. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ تُحْرِزُونَ لبذور الزراعة.

(٤٩) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يُمَطَّرُونَ من الغيث، أو يغاثون من القحط من الغوث. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما يُعْصَر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار^(٣)، وقيل يحلبون الضروع. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي، وقرئ على بناء المفعول من عصره إذا أنجاه، ويحتمل أن يكون المبني للفاعل منه أي يُغِيثُهُم الله ويغيث بعضهم بعضاً، أو مَنْ أَعْصَرَتِ السَّحَابَةُ عَلَيْهِمْ فَعُدِّي بنزع الخافض أو بتضمينه معنى المطر. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أوَّل البقرات السماء والسنبلات

(١) قال له هنا «أفتنا» بينما قال في السابق هو وصاحبه «بئتنا» وذلك بعدما عاين من علو رتبته عليه السلام وفضله. وفي قوله «أفتنا» بالجمع - مع أنه المستفتي وحده - للإشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره (س/٤/٢٨٢).

(٢) الأصل عنده قراءة من قرأ بسكون الهمزة «دابًّا» ولم يقرأ غير حفص بفتحها.

(٣) والتعرض لذكر العَصْرِ - مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة، كما اكتفي به عن ذكر تصرفهم بالحبوب - إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب لأن المذكورات يتوقف صلاحها على أمورٍ أخرى غير المطر، وإما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به بشارة له.

وتكرير «فيه» إما للإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زماناً وعنواناً، وإما لأن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام. ولأجله قُدِّم في الموضعين على الفعلين (س/٤/٢٨٣).

الخضر بسنين مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجذبة وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جُمع في السنين المخصبة في السنين المجذبة، ولعله عَلِمَ ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجذب بالخصب أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهم.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتَنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

(٥٠) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه. ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تأتي في الخروج وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته ويُعْلَمَ أنه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغي أن يُجْتَهَدَ في نفي التهم ويُتَقَى مواقعُها. وعن النبي ﷺ: «لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة»^(١). وإنما قال فاسأله ما بال النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن تهيجاً له على البحث وتحقيق الحال، وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرمًا ومراعاة للأدب. وقرئ النسوة بضم النون. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قُلْنَ لي أطلع مولاتك، وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله عليه وعلى أنه بريء مما كُذِّفَ به والوعيد لهن على كيدهن.

(٥١) ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ قال الملك لهن ما شأنكن. والخطبُ أمر يَحِقُّ أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿إِذْ رَوَدْتَنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له وتعجب من قدرته على خُلُقٍ عفيف مثله. ﴿مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ من ذنب. ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ثبت واستقر، مِنْ حَصْحَصَ البعير إذا ألقى مَبَارِكَه ليناخ قال:

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثَفَنَاتِهِ وَنَاءً يَسْلَمَى نَوَاةً ثُمَّ صَمَمَا

أو ظهر مِنْ حَصٍّ شَعْرَه إذا ستأصله بحيث ظهرت بَشَرَةُ رَأْسِهِ. وقرئ على البناء للمفعول. ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾^(٢).

(٥٢) ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ قاله يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن، أي ذلك التثبت ليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب، وهو حال من الفاعل أو المفعول أي لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني، أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾

(١) رواه أحمد بلفظ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر» وفي الصحيحين بلفظ «... ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

(٢) يوسف: (٢٦).

لا يُنفذه ولا يسدّده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغة. وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجها وتوكيد لأمانته ولذلك عقبه بقوله:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِدِيَّ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أي لا أنزهها تنبيهاً على أنه لم يُرد بذلك تركية نفسه والعجب بحاله، بل إظهاراً ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق. وعن ابن عباس أنه لما قال: «ليعلم أني لم أخنه بالغيث» قال له جبريل ولا حين هممت فقال: ذلك. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا وقت رحمة ربي، أو إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك. وقيل الاستثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة. وقيل الآية حكاية قول راعيل والمستثنى نفس يوسف وأضرابه. وعن ابن كثير ونافع بالسُّوء على قلب الهمزة واواً ثم الإدغام. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر هم النفس ويرحم من يشاء بالعصمة، أو يغفر للمستغفر لذنبه المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

(٥٤) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِدِيَّ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لنفسي. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي فلما أتوا به فكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء. ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء. روي^(١) أنه لما خرج من السجن اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيريه وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرية، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه فقال: أحب أن أسمع رؤياي منك، فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض إليه امره. وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوج منه راعيل فوجدها عذراء وولد له منها أفرائيم وميشا.

(٥٥) ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ولّني أمرها، والأرض أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها ممن لا يستحقها. ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف فيه، ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة أثر ما تعم فوائده وتجل عوائده. وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد أن المَلِك أسلم على يده^(٢).

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢٥٠/٤) عن وهب بن منبه.

قلت: ولا يمكن الوقوف على الحكم عليه لأنه من الإسرائيليات.

(٢) إنما لم يذكر إجابة الملك لغناه عن التصريح وللتنبية على أن كل ذلك من الله تعالى والمَلِك وسيلة لتنفيذ قدر الله =

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْأَلَتَّرُونَ أَتَى أُوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر^(١). ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ﴾ ينزل من بلادها حيث يهوى. وقرأ ابن كثير نشاء بالنون. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً.

(٥٧) ﴿وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ الشرك والفواحش لعظمه ودوامه.

(٥٨) ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشام ونواحيهما، وتوجه إليه الناس فباعها أولاً بالدرهم والدنانير حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأي رأيك، فأعْتَقَهُمْ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ، وكان قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوبُ بنيه - غير بنيامين - إليه للميرة. ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾^(٢) أي عرفهم يوسف ولم يعرفوه لطول العهد ومفارقتهم إياه في سن الحداثة ونسيانهم إياه وتوهمهم أنه هلك وبُغْد حاله التي رأوه عليها من حاله حين فارقه وقلة تأملهم في حُلاه من التهيّب والاستعظام.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدتهم وأَوْقَرَ ركايبهم بما جاؤوا لأجله، والجهاز ما يعد من الأمتعة للثقل كعدد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى وما تزف به المرأة إلى زوجها. وقرئ بجهازهم بالكسر. ﴿قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ روي: أنهم لما دخلوا عليه قال: من أنتم وما أمركم لعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله إنما نحن بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال كم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أحدنا إلى البرية فهلك، قال: فكم أنتم ههنا قالوا عشرة، قال فأين الحادي عشر؟ قالوا عند أبنائنا يتسلى به عن الهالك، قال فمن يشهد لكم؟ قالوا لا يعرفنا أحدٌ ههنا فيشهد لنا، قال فَدْعُوا بَعْضَكُمْ عِنْدِي رَهِينَةً وَاتُّنُونِي بِأَخِيكُمْ مِنْ أَيْكُمُ حَتَّى أَصْدُقْكُمْ، فاقترعوا فأصاب شمعون. وقيل كان يوسف يعطي لكل نفر حِمْلًا فسألوه حِمْلًا زائداً لآخر لهم من أبيهم فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم. ﴿الْأَلَتَّرُونَ أَتَى أُوْفِي الْكَيْلِ﴾ أُتِمَّهُ. ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ للضيف والمضيفين لهم وكان أحسن إنزالهم وضيافتهم.

= (س/٤/٢٨٧).

(١) وفي التعبير عن الجعل بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميره سبحانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفى (س/٤/٢٨٧).

(٢) ولما كان إنكارهم لمعرفته مستمرة في المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية المفيدة للاستمرار (س/٤/٢٨٨).

فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦١﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٣﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفِظُ آخَانًا وَنَزِدَاكَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٦﴾

(٦٠) ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي ولا تقربوني ولا تدخلوا ديارى، وهو إما نهى أو نفي معطوف على الجزاء.

(٦١) ﴿ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنجته في طلبه من أبيه. ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ذلك لا نتوانى فيه.

(٦٢) ﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ ﴾ لغلماناه الكتيالين جمع فتى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص لفتيانه على أنه جمع الكثرة ليوافق قوله: ﴿ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ فإنه وكّل بكل رخل واحداً يعني فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام وكانت نعالاً وأدماء، وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضلاً عليهم وترفعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ لعلهم يعرفون حق ردها، أو لكي يعرفوها. ﴿ إِذَا انْقَلَبُوا ﴾ انصرفوا ورجعوا. ﴿ إِلَى أَهْلِهِمْ ﴾ وفتحوا أو عيبتهم. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع.

(٦٣) ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ حُكِمَ بِمَنَعِهِ بعد هذا إن لم نذهب ببنيامين. ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُلْ ﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل ما نحتاج إليه. وقرأ حمزة والكسائي بالياء على إسنادة إلى الأخ، أي يكتل لنفسه فينضم اكتياله إلى اكتياله. ﴿ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴾ من أن يناله مكروه.

(٦٤) ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقد قلتم في يوسف «وإننا له لحافظون» ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا ﴾ فاتوكل عليه وأفوض أمري إليه، وانتصاب حفظاً على التمييز، وحافظاً على قراءة حمزة والكسائي وحفص يحتمله والحال كقوله: لله دره فارساً، وقرىء خيرٌ حافظٌ، وخيرُ الحافظين. ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين.

(٦٥) ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ وقرىء رِدَّتْ بنقل كسرة الدال المدغمة إلى الراء نقلها في بيع وقيل. ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ ماذا نطلب هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا، أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه. وقرىء ما تَبْغِي على الخطاب أي: أي شيء نطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الدليل على صدقنا؟ ﴿ هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ استئناف موضح لقوله ما نبغي^(١). ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾

(١) وإيثار صيغة البناء للمفعول في «ردت» للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاء المفهوم من كمال =

معطوف على محذوف أي ردت إلينا فنستظهر بها ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا. ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ﴾ وسق بعير باستصحاب أخينا، هذا إذا كانت ما استفهامية فأما إذا كانت نافية احتمل ذلك واحتمل أن تكون الجمل معطوفة على ما نبغي، أي لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا ونحفظ أخانا. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيل قليل لا يكفيننا، استقلوا ما كِيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يُكَال لأخيهم، ويجوز أن تكون الإشارة إلى كيل بعير أي ذلك شيء قليل لا يضايقنا في الملك ولا يتعاضمه، وقيل إنه من كلام يعقوب ومعناه إن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

(٦٦) ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت. ﴿حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أي عهداً مؤكداً بذكر الله. ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ جواب القسم، إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتني به. ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تُغلبوا فلا تطيقوا ذلك، أو إلا أن تهلكوا جميعاً، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال والتقدير: لتأتني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم، أو من أعم العلل على أن قوله لتأتني به في تأويل النفي أي لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم كقولهم: أقسمت بالله إلا فعلت أي ما أطلب إلا فعلك. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم. ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه^(١). ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع.

(٦٧) ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبهة مشتهرين في مصر بالقربة والكرامة عند الملك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيُعانونا^(٢). ولعله لم يوصهم بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين. وللنفس آثار منها العين، والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في عودته «اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة»^(٣). ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

= غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله (س/٤/٢٩٠).

(١) وإشار صيغة الاستقبال «نقول» لاستحضار صورته المؤدي إلى تثبيتهم ومحافظةهم على تذكرة ومراقبته (س/٤/٢٩٢).

(٢) أي يصابوا بالعين.

(٣) أخرجه أحمد (١٨١/٢) وأبو داود (رقم ٣٨٩٣) والترمذي (٣٥١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ورجاله ثقات بلفظ «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ومن شر عباده، ومن شر همزات الشيطان، وأن يحضرون».

وله شاهد عند أحمد (٧٤/٤)، (٦/٦) من حديث الوليد بن الوليد، ورجاله ثقات لكن فيه انقطاع. ولفظه قال =

مما قضى عليكم بما أشرت به إليكم فإن الحذر لا يمنع القدر. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ يصيبكم لا محالة إن قضى عليكم سوءاً ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأن الواو للعطف والفاء لإفادة التسبب، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ عِثْرٍ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ رَأْيِي يعقوب واتباعهم له. ﴿مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما قضاه عليهم كما قال يعقوب عليه السلام، فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب. ﴿إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ استثناء منقطع، أي ولكن حاجة في نفسه، يعني شفقتة عليهم وحرازته من أن يعانون. ﴿قَضَاهَا﴾ أظهرها ووضي بها. ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بالوحي ونصب الحجج، ولذلك قال وما أغني عنكم من الله من شيء ولم يغتر بتدبيره^(١). ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر وأنه لا يغني عنه الحذر.

(٦٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل، روي^(٢) أنه أضافهم فأجلسهم مثنى مثنى فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: مَنْ يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن، افتعال من البؤس. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في حقنا فيما مضى.

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ المشربة. ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيل كانت مشربة جعلت صاعاً يكال به. وقيل كانت تُسقى الدواب بها ويكال بها وكانت من فضة، وقيل من ذهب. وقرئ وجعل على حذف جواب فلما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد. ﴿أَتَتْهَا آلُ عِثْرٍ إِنَّكُمْ

= يا رسول الله إني أجد وحشة، قال «إذا أخذت مضجعت فقل: أعوذ...».

والخلاصة فهو حديث حسن.

(١) وفي تأكيد الجملة بيان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه وتعالى من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبته وبيان علمه (س/٢٩٣/٤) ولذلك قالوا بعد «نفقد صراع الملك».

(٢) هذه التفصيلات في لقاء يوسف لأخيه أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٨/ج ١٣/١٥ - ١٦) وفي «تاريخه» (١٧٩/١) عن السدي، ووهب بن منبه. وهي من الإسرائيليات.

لَسَرْقُونَ ﴿١﴾ لعله لم يقله بأمر يوسف عليه الصلاة والسلام، أو كان تعبئة السقاية والنداء عليها برضا بنيامين، وقيل معناه إنكم لسارقون يوسف من أبيه، أو أنكم لسارقون. والعِيرُ القافلة، وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال لأنها تُعِير أي تتردد، ف قيل لأصحابها كقوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيل الله اركبي»^(١). وقيل جمع عير، وأصله فِعل فِعل كَسَفَفِ فِعلَ به ما فُعلَ بينضِر، تُجَوِّزُ به لقافلة الحمير ثم استُعير لكل قافلة.

قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي شيء ضاع منكم. والفَقْدُ غيبة الشيء عن الحسن بحيث لا يُعْرِفُ مكانه^(٢). وقرئ تُفْقِدُونَ من أَفْقَدْتُهُ غذا وجدته فقيداً.

- (١) قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٥١٣/٢ - ٥١٤ رقم ٣١٧٠).
 رواه أبو الشيخ في «الناسخ والمنسوخ» عن عبد الكريم قال: حدثني سعيد بن جبیر عن قصة المحاربين، قال كان ناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبأيك على الإسلام، فذكر القصة، وفيها فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس يا خيل الله اركبي، فركبوا، لا ينتظر فارساً فارساً.
 - وللعسكري عن أنس في حديث ذكره، فنادي منادي رسول الله ﷺ يا خيل الله اركبي.
 - وفي رواية له عن أنس أيضاً أن النبي ﷺ قال لحارثة بن النعمان: كيف أصبحت؟ - الحديث - وفيه أنه قال يا نبي الله ادع لي بالشهادة، فدعا له، قال: فنودي يوماً بالخيّل: يا خيل الله اركبي فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد.
 - ولابن عائذ في «المغازي» عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يومئذ - يعني يوم قريظة يوم الأحزاب - منادياً ينادي يا خيل الله اركبي.
 - وعزى السهيلي في «روضة» في غزوة حنين هذه اللفظة لمسلم فلتنظره.
 نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» - (١٨٦/٤ - ١٨٧) - أنه لما قدم رسول الله ﷺ من بني لحيان، فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ صرخ في المدينة فقال «يا خيل الله اركبوا» وجاءت عن علي، وخالد بن الوليد، ففي المستدرک للحاكم - (٣٦٥/٢ - ٥٦٦) - في قصة أويس عن أسيد بن جابر، فذكر قصة، وقال في آخرها فنادي علي «يا خيل الله اركبي» وفي الردة للواقدي عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم القيامة «يا خيل الله اركبي» فركبوا وساروا إلى بني حنيفة.
 - وقال أبو داود في السنن (٥٤/٣) باب النداء عند النفير يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سمى خيلنا بخيل الله.
 - وللعسكري عن حديث ابن نفع الحارثي عن شبيخة من قومه أن النبي ﷺ قال: الأناة في كل شيء خير إلا في ثلاث: إذا صبح في خيل الله فكونوا أول من شخص. وذكر حديثاً.
 - قال العسكري قوله: يا خيل الله اركبي على المجاز والتوسع، أراد يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصر لعلم المخاطب بما أراد، والله أعلم هـ.
 (٢) وصيغة المضارع في «تفقدون» لاستحضار الصورة.

(٧٢) ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وقرىء صَاعٌ، وصَوْعٌ بالفتح والضم والعين والغين، وصواغ من الصياغة. ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ حُمْلٌ بِعِيرٍ﴾ من الطعام جُعْلًا له. ﴿وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجعالة، وضمان الجُعْل قبل تمام العمل^(١).

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

(٧٣) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه معنى التعجب، والتاء بدل من الباء مختصة باسم الله تعالى ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك مما يدل على فُزط أمانتهم كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم وكَعَمُ الدواب^(٢) لثلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد^(٣).

(٧٤) ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ فما جزاء السارق أو السرق أو الصواع على حذف المضاف. ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة.

(٧٥) ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي جزاء سرقة أخذ من وُجد في رحله واسترقاقه، هكذا كان شرع يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقوله فهو جزاؤه تقرير للحكم والإزام له، أو خبر مَنْ، والفاء لتضمنها معنى الشرط أو جواب لها على أنها شرطية. والجملة كما هي خبر جزاؤه على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بالسرقة.

(٧٦) ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ فبدأ المؤذن. وقيل يوسف لأنهم رُدُّوا إلى مصر. ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين نفيًا للتهمة. ﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يُذَكَّر ويؤنث. ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وقرىء بضم الواو، وبقلبها همزة. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الكيد. ﴿كَذَلِكَ لِيُوسُفَ﴾ بأن علمناه إياه وأوحينا به إليه. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ مَلِكٌ مصر، لأن دينه الضربُ وتغريمُ ضعف ما أخذ دون الاسترقاق، وهو بيان للكيد. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، فالاستثناء

= وأجابوا بقولهم «ماذا تفقدون» ولم يقولوا ماذا سُرِق منكم لبيان كمال نزاهتهم، فلعله أن يكون فُقِدَ منهم (س/٢٩٥/٤).

(١) الجُعْل والجعالة هو الأجر.

(٢) عُمُ الدواب أي كَمُ أفواها.

(٣) لم يكتفوا بنفي الإفساد السرقة بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاماً للحجة عليهم وتحقيقاً للتعجب من اتهامهم بذلك (س/٢٩٥/٤).

من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعاً أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ بالعلم كما رفعنا درجته^(١). ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أرفع درجة منه، واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه، والجواب أن المراد كل ذي علم من الخلق لأن الكلام فيهم ولأن العليم هو الله سبحانه وتعالى، ومعناه الذي له العلم البالغ لغة ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا فوق كل العلماء عليم وهو مخصوص.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧) ﴿قَالُوا يَتَّخِذُ الْغُرُوبُ إِنَّا لَنَرَاهُ فِي صَرْحٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٨) ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ (٧٩)

(٧٧) ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قيل ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام وكانت تحضن يوسف وتجنه، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها، فشددت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها، فوجدت محزومة عليه، فصارت أحق به في حكمهم. وقيل^(٢) كان لأبي أمه صنم فسرقة وكسره وألقاه في الجيف. وقيل كان في البيت عناق^(٣) أو دجاجة فأعطاهما السائل. وقيل دخل كنيسة وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب. ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أكنها ولم يظهرها لهم، والضمير للإجابة أو المقالة أو نسبة السرقة إليه، وقيل إنها كناية بشرطة التفسير يفسرها قوله: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانًا﴾ فإنه بدل من أسرها. والمعنى قال في نفسه أنتم شر مكاناً أي منزلة في السرقة لسرقتكم أخاكم، أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه، وتأنيتها باعتبار الكلمة أو الجملة، وفيه نظر إذ المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

(٧٨) ﴿قَالُوا يَتَّخِذُ الْغُرُوبُ إِنَّا لَنَرَاهُ فِي صَرْحٍ مُّبِينٍ﴾ أي في السن أو القدر، ذكروا له حاله استعطافاً له عليه. ﴿فَخَذَ أَخَدًا مَّكَانَهُ﴾ بدله فإن أباه ثكلان على أخيه الهالك مستأنس به. ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فاتمم إحسانك، أو من المتعودين بالإحسان فلا تغير عاداتك.

(٧٩) ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ فَإِنْ أَخَذَ غَيْرَهُ ظَلَمَ عَلَى فتواكم فلو أخذنا أحدكم مكانه^(٤) ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ في مذهبكم هذا، وإن مراده أن الله أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله لمصلحته ورضاه عليه فلو أخذت غيره كنت ظالماً.

(١) وإشار صيغة الاستقبال في «نرفع» للإشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة (س/٤/٣٩٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨/١٣/٢٨) عن سعيد بن جبيرة. وكذلك أخرجه (٨/١٣/٢٨) عن قتادة.

قلت: لم يرد نص صحيح في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها. والله أعلم.

(٣) العناق هي الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول (المصباح المنير مادة عنق).

(٤) وإشار «من وجدنا متاعنا عنده» دون سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام، مع تمام المرام فإنهم لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محمل غير السرقة (س/٤/٢٩٩).

فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ
وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾
أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَا بَنَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ
لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ يسوا من يوسف وإجابته إياهم، وزيادة السين والتاء للمبالغة.
﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا واعتزلوا. ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين، وإنما وحده لأنه مصدر أو بزيته كما قيل هو
صديق، وجمعه أنجية كندية وأندية. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو روبيل، أو في الرأي وهو
شمعون، وقيل يهوذا. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ عهداً وثيقاً، وإنما جعل
خلفهم بالله مؤثقا منه لأنه يأذن منه وتأكيد من جهته. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ ومن قبل هذا. ﴿مَا فَرَّطْتُمْ فِي
يُوسُفَ﴾ قصرتم في شأنه. وما مزيدة ويجوز أن تكون مصدرية في موضع النصب بالعطف على
مفعول تعلموا - ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف - أو على اسم أن وخبره «في
يوسف» أو «من قبل»، أو الرفع بالابتداء والخبر من قبل وفيه نظر؛ لأن «قبل» إذا كان خبراً أو صلة
لا يقطع عن الإضافة حتى لا ينقص، وأن تكون موصولة أي: ما فرطتموه بمعنى ما قدمتموه في حقه
من الجناية، ومحله ما تقدم. ﴿فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر. ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي﴾ في
الرجوع. ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ﴾ أو يقضي لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم، أو بالمقاتلة معهم
لتخليصه. روي أنهم كلموا العزيز في إطلاقه، فقال روبيل: أيها الملك والله لنتركنا أو لأصبحن
صنيحة تضع منها الحوامل، ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف عليه السلام لابنه: قم
إلى جنبه فمسّه، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم فمسه الآخر ذهب غضبه، فقال روبيل
من هذا إن في هذا البلد ليزراً من بزر يعقوب. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

(٨١) ﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَا بَنَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر. وقرئ سُرِقَ
أي نسب إلى السرقة. ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه. ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ بأن رأينا أن الصواع استخرج من وعائه.
﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لباطن الحال. ﴿حَافِظِينَ﴾ فلا ندري أنه سرق أو سرق الصواع في رحله، أو
وما كنا للعواقب عالمين فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق، أو أنك تصاب به كما أصبت
بيوسف.

(٨٢) ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر أو قرية بقرها لحقهم المنادي فيها، والمعنى
أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير التي توجهنا فيهم وكنا
معهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تأكيد في محل القسم.

(٨٣) ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم قال: بل سولت أي
زينت وسهلت. ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أردتموه فقد رتموه، وإلا فما أدري الملك أن السارق يؤخذ

بسرقة؟ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فامري صبر جميل، أو فصبرٌ جميل أجمل. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي توقف بمصر. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيرهما.

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾
تَذَكَّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما صادف منهم. ﴿وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾ أي يا أسفاً تعالي فهذا أوائك، والأسف أشد الحزن والحسرة، والألف بدل من ياء المتكلم، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه - والحادث رزؤهما - لأن رزاه كان قاعدة المصيبات وكان غضاً أخذاً بمجامع قلبه.. ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته، وفي الحديث: «لم تُعْطَ أمة من الأمم» «إنا لله وإنا إليه راجعون» عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفاً^(١). ﴿وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ لكثرة بكائه من الحزن كأن العبرة مَحَقَّتْ سوادهما، وقيل ضَعُفَ بصره، وقيل عَمِيَ. وقرئ من الحَزَن. وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفرع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فإنه قلٌّ من يَمْلِكُ نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلبُ يجزع والعين تدمع، ولا نقول ما يُسْخِطُ الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون»^(٢). ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يُظْهِره، فعيل بمعنى مفعول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾^(٣) مِنْ كَظَمَ السَّقَاءَ إذا شده على مِلْئِهِ، أو بمعنى فاعل كقوله: ﴿وَالْحَكِيمُ مِنَ الْقَيْظِ﴾^(٤) مِنْ كَظَمَ الغيظ إذا اجترعه، وأصله كَظَمَ البعيرُ جَرَّتُهُ إذا ردها في جوفه.

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢١٥): «أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي، عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفر، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعاً.
- وأخرجه الطبراني في «الدعاء» - (٣/١٣٧٧ رقم ١٢٢٨) من وجه آخر عن سفيان بن زياد.
- ورواه عبد الرزاق - في التفسير (٦٣/١٢٩٨) - من طريق الطبري عن القوزي عن سفيان عن زياد المعصفر عن سعيد بن جبير أقول.

- وكذا رواه البيهقي في الشعب - (٧/١١٧ رقم ٩٦٩١) - من رواية أبي عامر عن الثوري قال: ورفع بعض الضعفاء وليس بشيء» هـ.

قلت: وأخرجه الطبراني أيضاً في الكبير (١٢/٤٠ رقم ١٢٤١١) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/٣٣٠) وقال: فيه محمد بن خالد الطحان وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٧٢ - ١٧٣ رقم ١٣٠٣) ومسلم (٤/١٨٠٧ - ١٨٠٨ رقم ٦٢). من حديث أنس في سياق أطول من هذا.

(٣) القلم: «٤٨».

(٤) آل عمران: «١٣٤».

(٨٥) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعاً عليه، فَحَذَفَ لا كما في قوله:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحَ قَاعِدًا

لأنه لا يلتبس بالإثبات، فإن القَسَمَ إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي. ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مُشْفِياً على الهلاك. وقيل الحَرَضُ الذي أذابه همٌّ أو مرض، وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يُجمع، والنعت بالكسر كَذِنْتُ وَذَنْتُ. وقد قرئ به، وبضمين كُجُب. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ من الميتين.

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرْزِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِشُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٦) ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرْزِي﴾ همي الذي لا أقدر الصبر عليه، مِنْ الْبَثِّ بمعنى النشر. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فَخَلُونِي وشكائتي. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ من صنعه ورحمته فإنه لا يُحِبُّ داعيته ولا يدعُ الملتجى إليه، أو مِنْ اللَّهِ بنوع من الإلهام. ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف. قيل رأى مَلَكُ الموت في المنام فسأله عنه فقال: هو حي، وقيل علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يَخْرُجَ له إِخْوَتُهُ سَجْدًا.

(٨٧) ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما وتفحصوا عن حالهما. والتحسس تَطَلَّبُ الإحساس. ﴿وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيسه. وقرئ مِنْ رُوحِ اللَّهِ أي من رحمته التي يحيا بها العباد. ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِشُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله وصفاته، فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

(٨٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ بعد ما رجعوا إلى مصر رجعة ثانية. ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ شدة الجوع. ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ﴾ رديئة أو قليلة تُرَدُّ وتدفع رغبة عنها، مِنْ أَزْجِيَّتِهِ إذا دفعته، ومنه ترجية الزمان. قيل كانت دراهم زيوفاً، وقيل صوفاً وسمناً، وقيل الصنوبر والحبة الخضراء، وقيل الأقط وسويق المُقْلِ^(١). ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فاتمم لنا الكيل. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برد أخينا أو بالمسامحة وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها^(٢). واختلف في أن حرمة الصدقة نعم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو تختص بنبيينا ﷺ. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء. والتصدق التفضل

(١) وإنما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة عليهم (س/٤/٣٠٣).

(٢) وسموه تصدقاً للتواضع، أو أرادوا التصديق فوق ما يعطيهم بالثمن (س/٤/٣٠٣).

مطلقاً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في القصر: «هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»^(١). لكنه اختص عرفاً بما يتغنى به ثواب من الله تعالى.

(٨٩) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفُ وَأَخِيهِ﴾ أي هل علمتم قبحة فبتم عنه، وفعلهم بأخيه: إفراده عن يوسف وإذلاله حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة. ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قبحة فلذلك أقدمتم عليه أو عاقبته، وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكهم لا معاتباً وتثريباً، وقيل أعطوه كتاب يعقوب في تخلص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك. وإنما جهلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال، أو لأنهم كانوا حيثئذ صبياناً طياشين.

قَالُوا أَيْنَ نَظَرُكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

(٩٠) ﴿قَالُوا أَيْنَ نَظَرُكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ﴾ استفهام تقرير، ولذلك حُقق بأن ودخول اللام عليه. وقرأ ابن كثير على الإيجاب^(٢). قيل عرفوه بزوانه وشماله حين كلمهم به، وقيل تبسم فعرفوه بشايه، وقيل رفع التاج عن رأسه فأروا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكانت لسارة ويعقوب مثلها. ﴿قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ من أبي وأمي، ذكره تعريفاً لنفسه به وتفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي بالسلامة والكرامة. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ أي يتق الله. ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَضَعَ المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جَمَعَ بين التقوى والصبر.

(٩١) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك.

(٩٢) ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تأنيب عليكم، تَفْعِيلٌ من الثَّرِب وهو الشحم الذي يغشى الكرش للإزالة كالتجليد، فاستعير للتقريع الذي يمزق العِزْض ويذهب ماء الوجه. ﴿أَيُّومَ﴾ متعلق بالتثريب أو بالمقدّر للجائر الواقع خبراً للتثريب، والمعنى لا أثربكم اليوم الذي هو مظلته فما ظنكم بسائر الأيام؟ أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنه صَفَح عن جريمتهم حيثئذ واعترفوا بها. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب، ومن كَرَّمَ يوسف عليه الصلاة والسلام أنهم لما عرفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنك تدعونا بالبكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحي منك لما قَرَطَ مِنَّا فيك، فقال: إن أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بَلَغَ عبداً بيع بعشرين درهماً

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧٨/١) رقم (٦٨٦).

(٢) أي قرأ «إنك».

ما بلغ، ولقد شرفتُ بكم وعظمت في عيونهم حيث علموا أنكم إخواني وأنا من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا أَاسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

(٩٣) ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ القميص الذي كان عليه. وقيل القميص المتوارث الذي كان في التعميد. ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يرجع بصيراً أي ذا بصر. ﴿وَأْتُونِي﴾ أنتم وأبي. ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بنسائلكم وذرائلكم ومواليكم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ من مصر وخرجت من عُمرانها. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره. ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله ريح ما عبق بقميصه من ريحه حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً. ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفند وهو نقصان عقل يحدث من هرم، ولذلك لا يقال عجوز مُفَنِّدَةٌ لأن نقصان عقلها ذاتي^(١). وجواب لولا محذوف تقديره لصدقتُموني أو لقلت إنه قريب.

(٩٥) ﴿قَالُوا﴾ أي الحاضرون. ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قُدماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للقاءه.

(٩٦) ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يهوذا، روي أنه قال: كما أحزنه بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه فأفرجه بحمل هذا إليه. ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه الصلاة والسلام أو يعقوب نفسه. ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام وإنزال الفرح. وقيل إني أعلم كلام مبتدأ والمقول لا تياسوا من روح الله، أو إني لأجد ريح يوسف.

(٩٧) ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا أَاسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسأله المغفرة.

(٩٨) ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخره إلى السحر أو إلى صلاة الليل أو إلى ليلة الجمعة تحريماً لوقت الإجابة، أو إلى أن يستحل لهم من يوسف، أو يعلم أنه عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة. ويؤيده ما روي أنه استقبل القبلة قائماً يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين، حتى نزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله أجاب دعوتك في ولدك

(١) يقال شيخ مُفَنِّدٌ ولا يقال عجوز مُفَنِّدَةٌ إلا أن تكون في شبابها ذات رأي فتفند في كبرها.

وعَقَدَ موافقهم بعدك على النبوة، وهو إن صح^(١) فدلِيل على نبوتهم وأن ما صدر عنهم كان قبل استنبأهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٩﴾ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٠﴾

(٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ روي^(٢) أنه وَجَّه إليه راحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، واستقبله يوسف والمَلِكُ بأهل مصر، وكان أولاده الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهزْمَى. ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ﴾ ضم إليه أباه وخالته واعتنقهما، نَزَّلَهَا منزلة الأم تنزِيلُ العم منزلة الأب في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَبَاكَ إِزْرَهُمْ وَاسْمَعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾^(٣)، أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه والراثة تدعى أماً ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من القحط وأصناف المكاره، والمشينة متعلقة بالدخول المكثف بالأمن، والدخول الأول كان في موضع خارج البلد حين استقبالهم.

(١٠٠) ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراها، وقيل معناه خروا لأجله سجداً لله شكراً، وقيل الضميرُ لله تعالى والواو لأبويه وإخوته. والرفع مؤخر عن الخُور، وإن قُدِّمَ لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما. ﴿وَقَالَ يَأْتِبَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ التي رأيتها أيام الصبا. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقاً. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يَذْكُرِ الجُبُّ لئلا يكون تثريباً عليهم. ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أفسد بيننا وحرش، مِنْ نَزَغِ الرائضِ الدابة إذا نَحَسَهَا وحملها على الجري. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة. روي^(٤) أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعفك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل، قال: أمرني جبريل عليه السلام، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبْسَطُ مني إليه فاسأله، فقال جبريلُ: الله أمرني بذلك لقولك ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾^(٥)، قال: فهلا خِفْتَنِي؟

(١) قال الألوسي: (والحق عدم الصحة) روح المعاني (٥٦/١٣).

(٢) غالب هذه الأخبار مأخوذة عن أهل الكتاب، والله أعلم.

(٣) البقرة: (١٣٣).

(٤) يوسف: (١٣).

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٢) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١٠٣)

(١٠١) ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ بعض الملوك وهو ملك مصر. ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الكتب أو الرؤيا، ومن أيضاً للتبويض لأنه لم يؤت كل التأويل. ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مُبدعهما. وانتصابه على أنه صفة المنادى، أو منادى برأسه. ﴿ أَنْتَ وَلِيِّ ﴾ ناصرى ومتولي أمري. ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما. ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ قبضني. ﴿ وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة. روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم توفي، وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به ودفنه ثمة، ثم عاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم تافت نفسه إلى الملك المخلد فتمنى الموت فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر في مدفنه حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعاً فيه، ثم نقله موسى عليه الصلاة والسلام إلى مدفن آبائه وكان عمره مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل أفرائيم وميشا - وهو جد يوشع بن نون - ورحمة امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام.

(١٠٢) ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه الصلاة والسلام، والخطاب فيه للرسول ﷺ، وهو مبتدأ. ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبران له. ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ كالدليل عليهما، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تحضر إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه، وإنما حذف هذا الشق استغناءً بذكره في غير هذه القصة كقوله: ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (١).

(١٠٣) ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم وبالغث في إظهار الآيات عليهم. ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر.

(١٠٤) ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ على الإنباء أو القرآن. ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ من جُعل (٢) كما يفعل حملة الأخبار. ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة من الله تعالى. ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ عامة.

(١٠٥) ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ ﴾ وكم من آية، والمعنى وكأي عدد شئت من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده. ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ على الآيات ويشاهدونها.

(١) هود: ٤٩.

(٢) الجُعل - بالضم - ومصدره الجُعل - بالفتح - وهو الأجرة على الشيء فعلاً أو قولاً. [النهاية: ٢٧٦/١].

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقرىء والأرض - بالرفع - على أنه مبتدأ خبره يمزون فيكون لها الضمير في عليها، وبالنصب على ويطؤون الأرض^(١)، وقرىء والأرض يمشون عليها، أي يترددون فيها فيرون آثار الأمم الهالكة.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته. ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره أو باتخاذ الأحرار أرباباً ونسبة التبني إليه تعالى، أو القول بالنور والظلمة، أو النظر إلى الأسباب ونحو ذلك. وقيل الآية في مشركي مكة، وقيل في المنافقين، وقيل في أهل الكتاب.

(١٠٧) ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها.

(١٠٨) ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد، ولذلك فسر السبيل بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ وقيل هو حال من الباء. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء. ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر في أدعو، أو على بصيرة لأنه حال منه، أو مبتدأ خبره على بصيرة. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزله تنزيهاً من الشركاء.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ رد لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾^(٢) وقيل معناه نفي استثناء النساء ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ كما يوحى إليك ويميزون بذلك عن غيرهم. وقرأ حفص نُوحِي في كل القرآن، ووافقه حمزة والكسائي في سورة الأنبياء^(٣). ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البدو. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين بالرسول والآيات فيحذروا تكذيبك، أو من المشغوفين بالدنيا المتهاكئين عليها فيقلعوا عن حبها. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ولدان الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء حملاً على قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل لهم أفلا تعقلون.

(١) أي وقرىء بنصب الأرض، على أنه مفعول بفعل محذوف يفسره «يمرون» وهو يطؤون.

(٢) فصلت: (١٤).

(٣) الآية: (٧) و(٢٥).

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(١١٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ غايةٌ محذوفٍ دلّ عليه الكلام، أي لا يغرهم تمادي أيامهم فإن من قبلهم أمهلوا حتى آيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع. ﴿وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم يُنصرون، أو كذبهم القوم بوعده الإيمان. وقيل الضمير للمرسل إليهم، أي وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد. وقيل الأول للمرسل إليهم والثاني للرسل، أي وظنوا أن الرسل قد كذبوا وأخلفوا فيما وُعد لهم من النصر وخُلف الأمر عليهم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن الرسل ظنوا أنهم أخلفوا ما وَعَدَهُم الله من النصر، إن صح^(١) فقد أراد بالظن ما يَهْجُس في القلب على طريق الوسوسة. هذا وإن المراد به المبالغة في التراخي والإمهال على سبيل التمثيل. وقرأ غير الكوفيين بالتشديد، أي وظن الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أوعدوهم. وقرئ كَذَّبُوا بالتخفيف وبناء الفاعل أي وظنوا أنهم قد كذبوا فيما حَدَّثُوا به عند قومهم لما تراخى عنهم ولم يروا له أثراً. ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ النبي والمؤمنين، وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب على لفظ الماضي المبني للمفعول^(٢)، وقرئ فنجأ. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إذا نزل بهم، وفيه بيان للمشيئين.

(١١١) ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ في قصص الأنبياء وأمهم، أو في قصة يوسف وإخوته. ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول المبرأة من شوائب الإلف والركون إلى الحسن. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً يُفترى. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاج إليه في الدين، إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال. ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقونه. وعن النبي ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهلها وما ملك يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يخسُد مسلماً»^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) رواه البخاري (٢٥٢٤).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة «فنجي» بنونين والبناء للفاعل، وقراءة عاصم ويعقوب وابن عامر «فُنْجِي».

(٣) وهو حديث موضوع أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي بن كعب (٢٣٩/١ - ٢٤٠).

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبَّكُمْ تَوْقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

سورة الرعد مدنية

وقيل مكية إلا قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية^(١) وهي ثلاث وأربعون آية.

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٩/٤):

«أخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سورة الرعد نزلت بمكة». وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة - رضي الله عنه - قال: سورة الرعد مكية. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت سورة الرعد بالمدينة. وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير - رضي الله عنه - قال: نزلت الرعد بالمدينة. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - قال: سورة الرعد مدنية، إلا آية مكية. «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» [الرعد: ٣١] هـ.

- وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٩٩/٤):

«اختلفوا في نزولها على قولين:

(أحدهما): أنها مكية. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبيرة وعطاء وقتادة. وروى صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين منها. قوله «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» إلى آخر الآية [الرعد: ٣١] وقوله «ويقول الذين كفروا لست مرسلًا» [الرعد: ٤٣].

(والثاني): أنها مدنية، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد، وروى عن ابن عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله «ولو أن قرآنًا سُيِّرَتْ به الجبال» إلى آخرها [الرعد: ٣١]. وقال بعضهم:

المدني منها قوله «هو الذي يريكم البرق» - إلى قوله - له دعوة الحق [الرعد: ١٤] هـ.

وقال السيوطي في «الإتقان» (٣٦/١) بعد أن ذكر الاختلاف في سبب نزولها.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْمَرَّ﴾ قيل معناه أنا الله أعلم وأرى. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني بالكتاب السورة، وتلك إشارة إلى آياتها، أي تلك الآيات آيات السورة الكاملة أو القرآن. ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ﴾ هو القرآن كله. ومحل الجبر بالعطف على الكتاب عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى، أو الرفع بالابتداء وخبره ﴿الْحَقُّ﴾ والجملة كالحجة على الجملة الأولى، وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزل بكونه حقاً فهو أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً، كالمثبت بالقياس وغيره مما نطق المنزل بحسن اتباعه^(١). ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

(٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ مبتدأ وخبر، ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر يدبر الأمر. ﴿يَغْيِرْ عَمَدٍ﴾ أساطين - جمع عماد - كإهاب وأهَب، أو عمود كأديم وأدم^(٢). وقرئ عُمِدٍ كُرْسُل. ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لعَمَد أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجُزمية واختصاصها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون بمخصص ليس بجسم ولا جسماني يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات. ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْفَرْشِ﴾ بالحفظ والتدبير. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره، وهي: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وإذا النجوم انكدرت^(٣). ﴿يَذَرُ الْأُمَرَاءُ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وغير ذلك. ﴿يُقْضَىٰ الْأَيْتُ﴾ يُنْزَلُها ويبيّنُها مفصلة، أو يُخْذِثُ الدلائل واحداً بعد واحد. ﴿لَقَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبِّكُمْ تَوْفَئُون﴾ لكي تفكروا فيها وتحققوا كمال قدرته، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتديرها قدير على الإعادة والجزاء.

(٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ بَسَطَهَا طَوَّلاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام ويتقلب عليها الحيوان.

والذي يجمع به بين الاختلاف: أنها مكية إلا آيات منها هـ.

- وقال سيد قطب في الظلال (٢٠٣٩/٤): -

السورة مكية بخلاف ما ورد في المصحف الأميري وبعض المصاحف - اعتماداً على بعض الروايات - أنها مدنية... ومكية السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها أو في جوها العام، الذي لا يخطئ تنسبه من يعيش فترة في ظلال القرآن هـ.

(١) وفي التعبير عنه بالموصول وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبني للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل إليه والإيماء إلى وجه بناء الخبر ما لا يخفى (س/٥/٢).

(٢) جمع إهاب على أهَب - بفتحتين - وكذلك أديم فهو على غير القياس والقياس بضميتين «أُهَب وأُدم» قال بعضهم: وليس في كلام العرب فِعَالٌ يُجْمَعُ على فَعَلٍ - بفتحتين إلا إهاب وأهَب وعِمَاد وعَمَد... (المصباح المنير مادة أهَب).

(٣) التكوير: (٢-١).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، مِنْ رِسا الشيء إذا ثبت، جمعُ راسية والتاءُ للتأنيث على أنها صفة أَجْبَلٍ أو للمبالغة^(١). ﴿وَأَنْهَارًا﴾ ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ متعلق بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين، كالحلو والحامض والأسود والأبيض والصغير والكبير. ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ أَنْهَارًا﴾ يُلْبِسُهُ مكانه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يُغْشَى بالتشديد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبر أمرها وهياً أسبابها.

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

(٤) ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ﴾ بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها تصلح للزراعة دون الشجر وبعضها بالعكس. ولولا تخصيصُ قادرٍ موقع لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويغرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامة متشاركة في النَّسَب والأوضاع. ﴿وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وبساتين فيها أنواع الأشجار والزرورع، وتوحيدُ الزرع لأنه مصدر في أصله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص وزرعٌ ونخيلٌ بالرفع عطفاً على وجنات^(٢). ﴿صِنْوَانٌ﴾ نخلات أصلها واحد. ﴿وَعَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ متفرقات مختلفات الأصول^(٣). وقرأ حفص بالضم، وهو لغة بني تميم، كقنوانٍ في جمع قنؤ. ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ في الثمر شكلاً وقدرًا ورائحة وطعمًا، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادرٍ مختار. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب يُسْقَى بالتذكير على تأويل ما ذكر، وحمزة والكسائي يُفْضَلُ بالياء ليطابق قوله: ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكير^(٤).

(١) ولم يذكر الموصوف - الذي هو الجبال - لإغناء غلبة الوصف بها.

والتعبير عن الجبال بهذا العنوان - أي الرواسي - لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها (س ٥/٤).

(٢) الأصل عند البضاوي قراءة من قرأ «وزرع ونخيل» بالجر، وقد قرأ بها غير مَنْ ذكر وهي عطفٌ على أعناب.

(٣) قال الراغب الأصفهاني في المفردات مادة (صنو): الصَّنُو: الغصن الخارج عن أصل الشجرة، يُقال هما صِنْوَا نخلة وفلان صِنْوَا أبيه، والثنية صِنْوَانٍ [بكسر النون] والجمع صِنْوَانٌ [بتنوين النون].

(٤) وفي الآية لفتات بيانية أشار إليها أبو السعود وهي أنه أفرد الزرع لمراعاة أصله، وقدم ذكر الجنات عليه - مع كونه عمود المعاش - لظهور حالها ومباينتها لسائرهما ورسوخ ذلك فيها.

ولعل تأخير ذكر النخيل لثلا يقع بينها وبين صفتها - وهي «صنوان وغير صنوان» - فاصل (س ٥/٥).

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ لَمْ يَلَفْ خَلْقٌ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ﴾ ٥ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ٦ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ٧

(٥) ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ يا محمد من إنكارهم البعث. ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ حقيق بأن يُتعجب منه، فإن من قدير على إنشاء ما قُص عليك كانت الإعادة أيسرُ شيء عليه، والآياتُ المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ فهي دالة على إمكان الإعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته. ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ لَمْ يَلَفْ خَلْقٌ جَدِيدٌ﴾ بدل من قولهم أو مفعول له، والعاملُ في «إذا» محذوف دل عليه «أنا لفي خلق جديد» ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث. ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون بالضلال لا يُرجى خلاصهم أو يُغْلون يوم القيامة. ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار.

(٦) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعقوبة قبل العافية، وذلك لأنهم استعجلوا ما هُددوا به من عذاب الدنيا استهزاء. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها ولم يُجوزوا حلول مثلها عليهم؟. والمثلة - بفتح الثاء وضمها كالصدقة والصدقة - العقوبة، لأنها مثلُ المعاقب عليه، ومنه المثل للقصاص وأمثلتُ الرجلَ من صاحبه إذا اقتصصته منه. وقرئ المثلات بالتخفيف، والمثلات بإثباع الفاء العين، والمثلات بالتخفيف بعد الإثباع، والمثلات بفتح الثاء على أنها جمع مثلة كركبة وركبات. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ مع ظلمهم أنفسهم. ومحلّه النصبُ على الحال، والعاملُ فيه المغفرة. والتقيدُ به دليل على جواز العفو قبل التوبة. فإن التائب ليس على ظلمه، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة لمجتنب الكبائر أو أول المغفرة بالستر والإمهال. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١) للكفار أو لمن شاء، وعن النبي ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه لما هُنا أحدُ العيش، ولولا وعيده وعقابه لأكَل كلُّ أحد»^(٢).

(١) قال ابن الجوزي في «ناسخ القرآن ومنسوخه» ص ٤٤٤ - ٤٤٥ :

«قد توهم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة، لأنه قال: المراد بالظلم ما هنا، الشرك. ثم نسخت بقوله «إن الله لا يغفر أن يشرك به» [النساء: ٤٨] وهذا التوهم فاسد لأن الظلم عام. وتخصيصه بالشرك ما هنا يحتاج إلى دليل. ثم إن كان المراد به الشرك، فلا يخلو الكلام من أمرين:

- إما أن يراد به التجاوز عن تعجيل عقابهم في الدنيا.

- أو الغفران لهم إذا رجعوا عنه، وليس في الآية ما يدل على أنه يغفر للمشركين إذا ماتوا على الشرك هـ.

وقال ابن الجوزي أيضاً في «زاد المسير» (٤/٣٠٦): «والمحققون على أنها محكمة» هـ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب «لما نزلت:

«وإن ربك لذو مغفرة، الآية» قال رسول الله ﷺ فذكره - كما في «الكافي الشاف» لابن حجر (ص ٩١ رقم ٢٢٢).

قلت: - مراسيل ابن المسيب مقبولة. ولكن في الأثر علي بن زيد بن جعدان ضعيف.

(٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ مُرْسَلٌ للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبؤتك من جنس المعجزات لا بما يُفْتَرَحُ عليك. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب، أو قادر على هدايتهم وهو الله تعالى لكن لا يهدي إلا من يشاء هدايته بما يُنَزَّلُ عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه وإنما لم يُنَزَّلْ لعلمه بأن اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهديهم لسبق قضائه عليهم بالكفر فقال:

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

(٨) ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ أي حَمَلَهَا أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمتروكة. ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وما تُنْقِصُه وما تزداده في الجَنَّةِ والمدة والعَدَد. وأقصى مدة الحمل أربع سنين عندنا، وخمس عند مالك، وستان عند أبي حنيفة. روي^(١) أن الضحاك ولد لستين وهرم بن حيان لأربع سنين^(٢). وأعلى عَدَدَه لا حد له، وقيل نهاية ما عرف به أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله: أخبرني شيخ باليمن أن امرأته وَلَدَتْ بطوناً في كل بطن خمسة. وقيل المراد نقصان دم الحيض وازدياده. وغاض جاء متعدياً ولازماً وكذا ازداد، قال تعالى: ﴿وَأَزْدَادُوا تَبَعًا﴾^(٣) فإن جعلتهما لازمين تعين ما أن تكون مصدرية، وإسنادهما إلى الأرحام على المجاز فإنهما لله تعالى أو لما فيها. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بِقَدَرٍ لا يجاوز ولا ينقص عنه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٤) فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين وهياً له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك. وقرأ ابن كثير ﴿هَادٍ﴾^(٥)

(١) هذا خبر مكذوب. قال ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/١٣٣).

(٢) هذا خبر مكذوب. قال ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/١٣٣).

قال ابن حزم في المحلى (١٠/١٣١ - ١٣٣) - «ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر، لقول الله تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً» [الأحقاف: ١٥] وقال تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» [البقرة: ٢٣]. فمن ادعى أن حملاً وفصلاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال الباطل والمحال ورد كلام الله عز وجل جهاراً» هـ.

ثم ذكر ابن حزم جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من تسعة أشهر، ولكنه عقب عليها بقوله «وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدق ولا يعرف من هو؟ ولا يجوز الحكم في دين الله بمثل هذا» هـ.

قلت: هذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده. وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

(٣) الكهف: (٢٥).

(٤) القمر: (٤٩).

(٥) الرعد: (٧).

﴿وَالِ﴾^(١) و﴿وَاقٍ﴾^(٢) ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٣) بالتنوين في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقيون يَصِلُونَ بالتنوين ويقفون بغير ياء.

عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٢﴾ لَمْ تُعَقِّبْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿٣﴾

(٩) ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ الغائب عن الحس. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الحاضر له. ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

(١٠) ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ﴾ في نفسه. ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ لغيره. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ طالب للخفاء في مختبأ بالليل. ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد^(٤)، مِنْ سَرَبٍ سُرُوبًا إذا برز، وهو عطف على مَنْ أو مستخف على أَنَّ من في معنى الاثنين كقوله:

تكن مثل مَنْ يا ذنب يصطحبان

كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار، والآية متصلة بما قبلها مقررته لكمال علمه وشموله.

(١١) ﴿لَمْ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب. ﴿مُعَقِّبْتُ﴾ ملائكة تعقب في حفظه، جمع مُعَقِّبَةٍ مِنْ عَقْبِهِ مبالغة عَقَبَهُ إذا جاء على عقبه كأن بعضهم يَغُفُّ بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها، أو اعتقب فادغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات. وقرئ مَعَاقِبٍ جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من حذف إحدى القافين. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من جوانبه، أو من الأعمال ما قدم وآخر. ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو يحفظونه من المضار، أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى. وقد قرئ به. وقيل مِنْ بمعنى الباء، وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات، وقيل المعقبات الحرس والجلالوة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ﴾ من العافية والنعمة. ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة. ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فلا راد له، فالعامل في إذا ما دل عليه الجواب. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع

(١) الرعد: ١١١.

(٢) الرعد: ٣٤.

(٣) النحل: ٩٦.

(٤) وتقديم الإسراء على الجهر والاستخفاء على السروب لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر، وإلا فنسبته إلى الكل سواء (س/٥/٨).

عنهم السوء، وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْجِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ،
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ
الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من أذاه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. وانتصابهما على العلة بتقدير المضاف أي إرادة خوفٍ وطمع أو التأويل بالإخافة والإطماع، أو الحال من البرق أو المخاطبين على إضمار ذو، أو إطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء. ﴿الثِّقَالَ﴾ وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع.

(١٣) ﴿وَيَسْجِيحُ الرَّعْدُ﴾ ويسبح سامعوه. ﴿بِحَمْدِهِ﴾ ملتبسين به فيضجون بسبحان الله والحمد لله، أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله وكمال قدرته ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته^(١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما، سئل النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَكٌ موكِل بالسحاب معه مخاريق^(٢) من نار يسوق بها

(١) التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص. وهو نوعان: تسبيح دلالة وتسبيح مقالة، أما تسبيح الدلالة فكل المخلوقات تدل على أن الله هو خالقها وأنه تعالى عالم قدير سميع بصير حي مريد.. وأما تسبيح المقالة فيكون من باب القول كما يتكلم الإنسان بلسانه.. ولما كان من منهج المعتزلة إخضاع جميع المخلوقات إلى حكم العقل قالوا بتعذر نطق المخلوقات وحملوها على غير الحقيقة... والبيضاوي تأثر بالزمخشري في بعض اعتزالياته وحمل السجود على غير الحقيقة.

لكنَّ النطق والقول غير مختص بالإنسان والله تعالى هو الذي أنطق الإنسان وعلمه البيان وهو قادر على إنطاق جميع المخلوقات. والنصوص كثيرة في ذلك وحملها على المجاز تكلف، فسلیمان عليه السلام علمه الله منطلق الطير وقد ذكر القرآن الكريم قصة محادثته مع الهدهد، وفي آخر الزمن تخرج دابة من الأرض تكلم الناس، والله تعالى يُنطق الألسنة والأيدي والأرجل فتشهد على صاحبها يوم القيامة وكذلك الجلود.. وقد تكلم في المهد عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره... وفي الصحيح أن نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام كان إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنِعَ له المنبر فاستوى عليه، صاحبت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تن أنين الصبي الذي يُسَكَّت حتى استقرت، فقال عليه السلام: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر» - رواه البخاري -.

فإذا كان الأمر كذلك من نطق الجمادات فلماذا يُستبعد نطق الرعد بالتسبيح لله تعالى ويُحمل على غير حقيقته؟! وقد أثبت القرآن الكريم عدم فهم الإنسان لتسبيح الجمادات كما قال تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً» - الإسراء (٤٤) -.

(٢) ثوب يلف، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وأراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه. [النهاية: ٢٢٦/٢].

السحاب»^(١). ﴿وَأَلْمَلَيْكَتُهُ مِنْ خِفَتِهِ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله، وقيل الضمير للرعد. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ فيهلكه. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسول الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم. والجدال التشدد في الخصومة من الجدال وهو الفتل. والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال فإنه روي أن عامر بن الطفيل وأزبد بن ربيعة - أخا لبيد - وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة ودار أريد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبه له رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت» فأرسل الله على أريد صاعقة فقتلته، ورمى عامراً بغدة فمات في بيت سلوئية، وكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت^(٢). ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ المماحلة: المكايدة لأعدائه، من محل فلان بفلان إذا كايدته وعرضه للهلاك، ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة، ولعل أصله المخل بمعنى القحط. وقيل فعال من المخل بمعنى القوة. وقيل مفعول من الحول أو الحيلة أُعِلَّ على غير قياس، ويعضده أنه قرئ بفتح الميم على أنه مفعول من حال يحول إذا احتال، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم: فسأعد الله أشد وموساه أحد.

لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

(١٤) ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ﴾ الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويدعى إلى عبادته دون غيره، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه، ويؤيده ما بعده. والحق على الوجهين ما يناقض الباطل، وإضافة الدعوة إليه لما بينهما من الملازمة، أو على تأويل دعوة المدعو الحق. وقيل الحق هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق. والمراد بالجمليتين إن كانت الآية في أريد وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يشعر به محال من الله إجابة لدعوة رسوله ﷺ أو دلالة على أنه على الحق، وإن كانت عامة فالمراد

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٤/٥) رقم (٣١١٧) عنه في سياق طويل.

وقال: حديث حسن غريب.

قلت: في إسناده بكير بن شهاب الكوفي قال الحافظ في التقریب (١٠٧/١): مقبول.

والحديث أخرجه أيضاً من هذا الوجه أحمد (٢٧٤/٢) في سياق أطول من سياق الترمذي وكذا النسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٣٩٤/٤).

والخلاصة أن الحديث حسن انظر «الصحیحة» للآلباني (رقم: ١٨٧٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج ١٣/١٢٦) عن ابن جريح مختصراً.

وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٧٢) عن ابن جرير وابن زيد مطولاً.

وكذلك أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٣٧٩ رقم ١٠٦٠) وأبو نعیم في الدلائل (١/٢٦٦). من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٤١) وقال: وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

قلت: - بل هو متروك انظر «التقریب» (١/٥١١).

وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول محالهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول ﷺ عليهم، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف الراجع، أو المشركون الذين يدعون الأصنام فحذف المفعول لدلالة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ عليه. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ من الطلبات. ﴿إِلَّا كَبْسِطَ كَتَبِهِ﴾ إلا استجابة كاستجابة مَنْ بسط كفيه ﴿إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ يطلب منه أن يبلغه. ﴿وَمَا هُوَ بِبَلِّغٍ﴾ لأنه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيان بغير ما جبل عليه، وكذلك آلهتهم. وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لها بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه فبسط كفيه ليشربه. وقرئ تَدْعُونَ - بالتاء - وباسط بالتنوين. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع وخسار وباطل.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يُحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتي الشدة والرخاء والكفرة كرهاً حال الشدة والضرورة ﴿وَظِلَالُهُمْ﴾ بالعرض، وأن يراد به انقيادهم لإحداث ما أراده منهم شأواً أو كرهاً، وانقياد ظلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص. وانتصاب طوعاً وكرهاً بالحال أو العلة، وقوله ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ظرفٌ ليسجد، والمراد بهما الدوام، أو حال من الظلال، وتخصيص الوقتين لأن الظلال إنما تُعظم وتكثر فيهما. والغدو جمع غداة كقني جمع قناة، والآصال جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر، ويؤيده أنه قد قرئ والإيصال وهو الدخول في الأصيل.

(١٦) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالفهما ومتولي أمرهما. ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه، أو لقنهم الجواب به ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ثم ألزمهم بذلك لأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل. ﴿أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا يقدرُونَ على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضرراً فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه، وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاء أن يشفعوا لهم. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها، والموحد العالم بذلك. وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم. ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ بل أجعلوا، والهمزة للإنكار، وقوله: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صفة لشركاء داخله في حكم الإنكار. ﴿فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ خلق الله وخلقهم، والمعنى أنهم ما اتخذوا الله شركاء خالفين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرُونَ على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق. ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ

كُلِّ شَيْءٍ أَي لا خالق غيره فيشاركه في العبادة. جعل الخلق موجب العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عن سواه ليدل على قوله ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالالوهية. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَاءٌ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا يَلْهَوْنَ

(١٧) ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء، أو من السماء نفسها فإن المبادئ منها. ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ أنهار، جمع وادٍ وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فأتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه، وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع. ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكبر. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ رَفَعَهُ، وَالزَّبَدُ وَضْرُ الْغَلْيَانِ. ﴿رَابِيًا﴾ عاليًا. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ يعم الفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه. ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب حُلَى. ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصود من ذلك بيان منافعها. ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي ومما يوقدون عليه زَبَدٌ مِثْلُ زَبَدِ الْمَاءِ وَهُوَ خَبَثُهُ، وَمِنْ لِلابْتِدَاءِ أَوْ لِلتَّبْعِيضِ. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس^(١)، وإضماره للعلم به. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ مَثَلُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَإِنَّهُ مِثْلُ الْحَقِّ فِي إِفَادَتِهِ وَثَبَاتِهِ بِالْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ فَتَسِيلُ بِهِ الْأَوْدِيَةُ عَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ وَالْمَصْلَحَةِ فَيَنْتَفِعُ بِهِ أَنْوَاعُ الْمَنَافِعِ، وَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ بَأَن يَثْبُتَ بَعْضُهُ فِي مَنَافِعِهِ وَيَسْلُكُ بَعْضُهُ فِي عُرُوقِ الْأَرْضِ إِلَى الْعَيُونِ وَالْقُبُورِ وَالْآبَارِ، وَبِالْفِلْزِ الَّذِي يُنْتَفَعُ بِهِ فِي صَوْنِ الْحُلَى وَاتِّخَاذِ الْأَمْتَةِ الْمُخْتَلَفَةِ وَيَدُومُ ذَلِكَ مَدَّةَ مَتَاوَلَةٍ، وَالْبَاطِلُ فِي قِلَّةِ نَفْعِهِ وَسُرْعَةِ زَوَالِهِ بِزَبْدِهِمَا، وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يُجْفَأُ بِهِ أَيْ يَرْمَى بِهِ السَّيْلُ وَالْفِلْزُ الْمَذَابُ. وَانْتِصَابُهُ عَلَى الْحَالِ - وَفَرَى جُفَاءً - وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ كَالْمَاءِ وَخِلَاصَةِ الْفِلْزِ. ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ يَنْتَفِعُ بِهِ أَهْلُهَا. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ لِإِبْضَاحِ الْمَشْتَبِهَاتِ.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا. ﴿لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ الْاسْتِجَابَةُ الْحَسَنَى. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وَهُمْ الْكُفَرَةُ، وَاللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِضَرْبٍ عَلَى أَنَّهُ جَعَلَ ضَرْبَ الْمَثَلِ لَشَأْنِ الْفَرِيقَيْنِ ضَرْبَ الْمَثَلِ لِهَمَا. وَقِيلَ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا خَيْرُ الْحُسْنَى - وَهِيَ الْمَثُوبَةُ أَوْ الْجَنَّةُ - وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا مَبْتَدَأُ خَيْرُهُ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَاءٌ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وَهُوَ عَلَى الْأَوَّلِ كَلَامٌ مَبْتَدَأُ لِبَيَانِ مَالٍ غَيْرِ الْمُسْتَجِيبِينَ. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وَهُوَ الْمُنَاقَشَةُ فِيهِ، بَأَن يَحَاسِبُ الرَّجُلُ بَذَنَهُ لَا يُغْفَرُ مِنْهُ شَيْءٌ. ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ مَرْجِعُهُمْ. ﴿جَهَنَّمُ وَفِيهَا يَلْهَوْنَ﴾ الْمَخْصُوصُ بِالْذَمِّ مَحْذُوفٌ.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَتُلُوا الْأَلْبَابَ﴾ (١٩) ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَاقَ﴾ (٢٠) ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢١) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٢) ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣)

(١٩) ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ فيستجيب. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ عَمَى القلب لا يستبصر فيستجيب، والهمزة لإنكار أن تقع شبهة في تشابههما بعد ما ضرب من المثل. ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُ أَتُلُوا الْأَلْبَابَ﴾ ذوو العقول المبرأة عن مشايعة الإلف ومعارضة الروم.

(٢٠) ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى، أو ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه. ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَاقَ﴾ ما وَفَّوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد، وهو تعميم بعد تخصيص.

(٢١) ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الرحم وموالاته المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيده عموماً. ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا^(١).

(٢٢) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى^(٢). ﴿أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بعضه الذي وجب عليهم إنفاقه. ﴿سِرًّا﴾ لمن لم يُعْرِفْ بالمال. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن عُرِفَ به. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعونها بها فيجأزون الإساءة بالإحسان، أو يُتْبِعُونَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ فتمحوها^(٣). ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة. والجملة خبر الموصولات إن رُفِعَتْ بالابتداء، وإن جُعِلَتْ صفات لأولي الألباب فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

(٢٣) ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبى الدار، أو مبتدأ خبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ والعَدْنُ: الإقامة، أي جنات يقيمون فيها، وقيل هو بطنان

(١) خص البيضاوي الخشية بخشية وعيده تعالى، لكن الظاهر أن المراد به مطلق الخشية.

وقوله تعالى في الأول «يخشون» وفي الثاني «يخافون» هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به (روح المعاني ١٤٠/١٣) وقد فرق الراغب بين الخشية والخوف فقال: (الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخْشَى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» - فاطر (٢٨) - المفردات مادة (خشي).

(٢) أورد الصبر بصيغة الماضي للدلالة على الاعتناء بشأنه ووجوب تحقيقه، فإنه ملاك الأمر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة (س ١٧/٥).

(٣) وتقديم المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة (س ١٧/٥).

الجنة^(١). ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ عطف على المرفوع في يدخلون وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر، أو مفعول معه والمعنى أنه يلحق بهم مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَلْغُ مَبْلَغُ فَضْلِهِمْ تَبَعاً لَهُمْ وَتَعْظِيماً لِسَانِهِمْ، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يُفَرِّقُونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالْوَصْلَةِ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ زِيَادَةً فِي أَنْسَاهُمْ، وَفِي التَّقْيِيدِ بِالصَّلَاحِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَجْرَدَ الْأَنْسَابِ لَا تَنْفَعُ. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين:

سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(٢٤) ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ بِشارة بدوام السلامة. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بعلَيْكُمْ، أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم، لا بسلام.. فإن الخبر فاصل. والباء للسببية أو للبدلية. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وقرئ فَنِعْمَ بفتح النون، والأصل نَعِمَ فَسُكُنَ الْعَيْنُ بِنَقْلِ كَسْرَتِهَا إِلَى الْفَاءِ وَبِغْيَرِهِ.

(٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ يعني مقابلي الأولين. ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهيج الفتن. ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ عذاب جهنم، أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عُقْبَى الدار.

(٢٦) ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسع ويضيقه. ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي أهل مكة. ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أشيروا بما نالوا من الدنيا ولم يَصْرِفُوهُ فِيمَا يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ نَعِيمَ الْآخِرَةِ وَاغْتَرَوْا بِمَا هُوَ فِي جَنْبِهِ تَزَرُّ قَلِيلُ النِّفْعِ سَرِيعُ الزَّوَالِ.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات^(٢). ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرى التعجب من قولهم: كأنه قال قل لهم ما أعظم عنادكم! إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية، ويهدي إليه من أناب بما جئت به بل بأدنى منه من الآيات.

(٢٨) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بدل من مَنْ، أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أنسا به

(١) أي وسطها.

(٢) وإظهار الموصول «الذين كفروا» لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من أقوال (س ١٩/٥).

واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو يذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تسكن إليه^(١).

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبْتَ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ يَمْشِي عَلَى غُرَارٍ ثَلَاثِي ظُهُورِ الْأَرْضِ فَاسْتَوُوا وَلَئِن لَّا تُدْرِكُوا الْوَعْدَ رَبِّكُمْ فِي سَاعَةٍ لَّا يُؤْتِيهِمْ فِيهَا وَلَئِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَشِرْنَا بَرُّسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثَمَمًا أَخَذْتُم بِكَفٍّ كَغَيْظِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣٢﴾

(٢٩) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ وهو فعلٌ من الطَّيَّب قلبت ياؤه واواً لضمّة ما قبلها، مصدر لطاب كبشري وزلّفي، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرئ: ﴿وَحَسُنَ مَا أَجَبْتَ﴾ بالنصب.

(٣٠) ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك، يعني إرسال الرسل قبلك. ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أرسلوا إليهم، فليس ببذع إرسالك إليهم. ﴿لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وحالهم أنهم يكفرون بالبالغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نعمة وخصوصاً ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم. وإنزال القرآن الذي هو مناط المنافع الدنيوية والدنيوية عليهم^(٢). وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، فقالوا: وما الرحمن؟!^(٣) ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ أي الرحمن خالقي ومتولي أمري. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي ومرجعكم.

(٣١) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابه، والمراد منه تعظيم شأن القرآن أو المبالغة في عناد الكفرة وتصميمهم أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارها. ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً. ﴿أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلَمْ تَرَ﴾ فتسمع فتقرؤه، أو فتسمع وتجب عند قراءته لكان هذا القرآن لأنه الغاية في الإعجاز والنهاية في التذكير والإنذار، أو

(١) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «وتطمئن» لإفادة دوام الاطمئنان وتجده حسب تجدد الآيات وتعددتها (س ٢٠/٥).

(٢) والعدول إلى المظهر المتعرض لوصف الرحمة «الرحمن» من حيث إن الإرسال ناشئ منها (س ٢١/٥).

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس من رواية الضحاك (ص ٢٧٩) ومعلوم أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

لما آمنوا به كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا لَإِلَيْهِمُ الْمَلَكُوتُ﴾^(١) الآية. وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن سرّك أن نتبعك فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فتتخذ فيها بساتين وقطائع، أو سخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت^(٢) وعلى هذا فتقطع الأرض قطعها بالسير. وقيل الجواب مقدم وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وما بينهما اعتراض. وتذكير كُلم خاصة لاشتغال الموتى على المذكر الحقيقي. ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شيء، وهو إضراب عما تضمنته لو من معنى النفي أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِصَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وذهب أكثرهم إلى أن معناه أفلم يعلم لما روي أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرؤوا أفلم يتبين، وهو تفسيره. وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم لأنه مسبب عن العلم، فإن الميؤوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علّقه بقوله: ﴿أَن لَّوِ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإن معناه نفي هدي بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو على الأول متعلق بمحذوف تقديره أفلم يأس الذين آمنوا عن إيمانهم علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، أو بآمنوا. ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا﴾ من الكفر وسوء الأعمال. ﴿قَارِعَةً﴾ داهية تفرعهم وتقلقهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ليفزعون منها ويتطايروا إليهم شررها. وقيل الآية في كفار مكة فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث سرايا عليهم فتغير حوالهم وتختطف مواشيهم، وعلى هذا يجوز أن يكون تحل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ رُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ ووعيداً للمستهزئين به والمقترحين عليه. والإملاء أن يترك ملاوة من الزمان في دعة وأمن. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ أي عقابي إياهم.

أَفَمَنْ هُوَ قَابِئٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَل رَّيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَابِئٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيب عليها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم، والخبر محذوف تقديره كمن ليس كذلك، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ

(١) الأنعام: (١١١).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٠/٢ - ٤١) وفي سنده عبد الجبار بن عمر الأيلي وهو ضعيف كما في التقريب

(٤٦٦/١) وفيه عبدالله بن عطاء وهو مدلس وقد عنعن (التقريب ٤٣٤/١).

والحديث ضعفه الهيثمي في المجمع (٨٥/٧).

شُرَكَاءَ ﴿ استئناف أو عطف على كسبت إن جعلت ما مصدرية. أو لم يوحدوه، وجعلوا عطف عليه، ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة. وقوله: ﴿ قُلْ سَمَوْهُمْ ﴾ تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها، والمعنى صِفُوهُمْ فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة. ﴿ أَمْ تَتَّبِعُونَ ﴾ بل أتنبؤونه. وقرئ تَتَّبِعُونَهُ بالتخفيف. ﴿ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء. ﴿ أَمْ يَظْهَرُ مِنْ الْقَوْلِ ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنى كتسمية الزنجي كافوراً، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز. ﴿ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ تمويههم فتخلوا بأباطيل ثم خالوها حقاً، أو كيدهم للإسلام بشركهم^(١). ﴿ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ سبيل الحق. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وَصَدُّوا بالفتح، أي وَصَدُوا الناس عن الإيمان، وقرئ بالكسر وَصَدُّوا بالتنوين. ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ يخذله. ﴿ قَالَهُ مِنْ هَاهُنَا ﴾ يوفقه للهدى.

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب. ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ لشدة ودوامه. ﴿ وَمَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ من عذابه أو من رحمته. ﴿ مِنْ وَاقٍ ﴾ حافظ.

(٣٥) ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ صفتها التي هي مَثَلٌ في الغرابة، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة. وقيل خبره: ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ على طريقة قولك صفة زيد أسمر، أو على حذف موصوف أي مَثَلُ الْجَنَّةِ جنة تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل، وهو على قول سيويه حال من العائد أو المحذوف أو من الصلة. ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع ثمرها. ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أي وظلها كذلك لا يُنْسَخُ كما ينسخ في الدنيا بالشمس. ﴿ تِلْكَ ﴾ أي الجنة الموصوفة. ﴿ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ مآلهم ومنتهاى أمرهم. ﴿ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ لا غير. وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقنات للكافرين.

(٣٦) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب كابن سلام وأصحابه وَمَنْ آمَنَ من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنا وثلاثون بالحبشة، أو عامتهم فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم. ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعني كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن

(١) ف قوله «الذين كفروا» وضع الموصول موضع المضر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالكفر (س/٢٤/٥).

الأشرف^(١) وأصحابه والسيد^(٢) والعاقب^(٣) وأشياعهما. ﴿مَنْ يُنْكِرْ بَعْضَهُ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم، أو ما يوافق ما حرفوه منها. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُرِيتُ أَنَّكُمْ عَبْدُ اللَّهِ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ﴾ جواب المنكرين أي قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحدته، وهو العمدة في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس يبذع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. وقرىء ولا أشرك بالرفع على الاستئناف. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ لا إلى غيره. ﴿وَلِلَّهِ مَتَابٌ﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم فلا معنى لإنكاركم المخالفة فيه.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ يَخُكِّمُ فِي الْقَضَايَا وَالْوُقَاتِ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ^(٤). ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه. وانتصابه على الحال. ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها. ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بنسخ ذلك. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك، وهو حسم لأطماعهم وتهيج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء وأولاداً كما هي لك. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه. ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ﴾ تُقَرِّحُ عَلَيْهِ وَحُكْمٌ يُلْتَمَسُ مِنْهُ. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنه المليء بذلك. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت وأمد حكم يُكْتَبُ عَلَى الْعِبَادِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ اسْتِصْلَاحُهُمْ.

(٣٩) ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ينسخ ما يَسْتَضَوِّبُ نَسْخَهُ ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما تقتضيه حكمته، وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها، وقيل يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلق به جزاء ويترك غيره مثبتاً أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه، وقيل يمحو قرناً ويثبت آخرين، وقيل يمحو الفاسدات

(١) انظر خبر كعب بن الأشرف مفصلاً في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/٧٤ - ٨٤).

(٢) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/٦٢٩) «والسيد: إِمَالَهُمْ، وصاحب رحلهم، ومجتمعهم، واسمه الأيهم» هـ.

(٣) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/٦٢٩) «العاقب أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يَضُدُّونَ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ وَأَمْرِهِ، واسمه عبدالمسيح» هـ.

(٤) والتعرض لوصفه حكماً - مع أن بعضه ليس بحكم - لتربية وجوب مراعاة وتحتم المحافظة عليه (س/٥/٢٦).

الكائنات^(١). وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وَيُبَيِّتُ بِالتَّشْدِيدِ. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوْفَيْنَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوْفَيْنَكَ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله^(٢). ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ لا غير. ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفل بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم، فإننا فاعلون له وهذا طلائعه.

(٤١) ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة. ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد له، وحقيقته الذي يُعَقِّبُ الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقَّب لأنه يَقْفُو غريمه بالاقضاء، والمعنى أنه حَكَمَ للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره. ومحل لا مع المنفي النصب على الحال، أي يحكم نافذاً حُكْمُهُ^(٣). ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين به منهم. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يؤبه بمكر دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فَيَعِدُّ جزاءها. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ من الحزين حيثما يأتيهم العذاب المَعْدُّ لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم. واللام تدل على أن المراد بالعقبى العاقبة المحمودة، مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو الكافر على إرادة الجنس، وقرئ الكافرون، والذين كفروا، والكُفْرُ أي أهله، وَسَيَعْلَمُ مِنْ أَعْلَمِهِ إذا أخبره.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود^(٤). ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه أظهر من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ

(١) والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات.

(٢) صيغة المضارع في «نعدهم» لحكاية الحال الماضية أو لتجده. وإيراد البعض رمز لإرادة بعض الموعود (س/٥/٢٧).

(٣) وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة بقوله «والله يحكم...» وبناء الحكم على الاسم الجليل «الله» من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى (س/٥/٢٨).

(٤) وصيغة الاستقبال بقوله «ويقول» لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيباً منها أو للدلالة على التجدد والاستمرار (س/٥/٢٩).

عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿ علم القرآن وما أَلِفَ عليه من النظم المعجز، أو عِلْمُ التوراة وهو ابن سلام وأضرابه، أو عِلْمُ اللوح المحفوظ وهو الله تعالى، أي كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يَغْلَمُ ما في اللوح المحفوظ إلاَّ هوَ شهيداً بيننا فيُخْزِي الكاذبَ مِثْلاً، ويؤيِّدُهُ قراءَةُ مَنْ قرأَ وَمِنْ عِنْدِهِ بالكسر وعِلْمُ الكتاب. وعلى الأول مرتفعٌ بالظرف فإنه معتمدٌ على الموصول، ويجوز أن يكون مبتدأً والظرف خبره وهو متعَيَّنٌ على الثاني. وَقُرِءَ وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكتابُ على الحرفِ والبناء للمفعول. عن رسول الله ﷺ «مَنْ قرأ سورة الرعد أُعْطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بوزن كلِّ سحابٍ مَضَى وكلُّ سحابٍ يكون إلى يوم القيامة من الموفينَ بعهدِ الله»^(١).



(١) حديث موضوع، رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي (الفتح السماوي ص ٧٤٢) وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠).

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَعُ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

سورة إبراهيم عليه السلام مكية^(١) وهي اثنتان وخمسون آية
بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الرَّكَعُ كَتَبَ﴾ أي هو كتاب. ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إليهم إلى ما تضمنته. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من أنواع الضلال. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله، مُسْتَعَاً من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب، وهو صلة لِتُخْرِجَ أو حال من فاعله أو مفعوله. ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ بتكرير العامل، أو استئناف على أنه جواب لِمَنْ يَسْأَلُ عنه. وإضافة الصراط إلى الله تعالى إما لأنه مقصده أو المظهر له. وتخصيص الوصفين للتنبية على أنه لا يَذِلُّ سَالِكُهُ ولا يَخِيبُ سَابِلُهُ.

(٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على قراءة نافع وابن عامر^(٢) مبتدأ وخبر، أو الله

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥).

«أخرج ابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن الزبير - رضي الله عنه - قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.

وأخرج النحاس في تاريخه، عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: سورة إبراهيم عليه السلام نزلت في مكة، سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً...» إلا آيتين نزلتا في قنلي بدر من المشركين وانظر «زاد المسير» (٣٤٣/٤).

(٢) قراءة نافع وابن عامر برفع لفظ الجلالة.

خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ والذي صِفَتُهُ. وعلى قراءة الباقيْنَ عطفٌ بيانٌ للعزيرِ لأنه كالعَلَمِ لاختصاصِهِ بالمعبودِ على الحقِّ. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وعيد لمن كفرَ بالكتاب ولم يَخْرُجْ بِهِ من الظلماتِ إلى النور. والويلُ نقيضُ الوألِ وهو النجاة، وأصله التَّضَبُّ لأنه مصدرٌ - إلا أنه لم يُشْتَقَّ منه فعلٌ - لكنه رُفِعَ لإفادة الثبات.

(٣) ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يختارونها عليها فإن المختارَ للشيء يطلب من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها من غيره. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتعويقِ الناس عن الإيمان. وقُرِئَ وَيُصَدُّونَ مِنْ أَصَدِّهِ وهو منقول من صَدَّ صُدُّوا إذا تَنَكَّبَ، وليس فصيحاً لأن في صَدَّه مندوحة عن تكلفِ التعدية بالهمزة. ﴿وَيَبْغَوْنَهَا عَوَجًا﴾ ويبغون لها زيفاً ونكوباً عن الحقِّ ليقدحوا فيه، فحذف الجارُّ وأوصل الفعل إلى الضمير. والموصولُ بِصِلَتِهِ يَحْتَمِلُ الجرَّ صفةً للكافرين والتَّضَبُّ على الذمِّ والرفعِ عليه، أو على أنه مبتدأٌ خبره: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ضلُّوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل. والبعُدُ في الحقيقة للضلالِ فوصِفَ به فَعْلُهُ للمبالغة، أو للأمر الذي به الضلالُ فوصِفَ به لملاسته.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ إلا بِلُغَةِ قومه الذي هو مِنْهُمْ وُبُعِثَ فيهم. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما أمروا به فيفقهوه عنه يُبَيِّنُ وسُرْعَةً، ثم ينقلوه ويترجموه إلى غيرهم فالهم أولى الناس إليه بأن يدعوهم وأحقُّ بأن يُنذَرهم، ولذلك أمر النبي ﷺ بإنذارِ عشيرته أولاً. ولو نَزَلَ على مَنْ بُعِثَ إلى أُمَمٍ مختلفة كَتَبَ على ألسنتهم استقلَّ ذلك بنوعٍ من الإعجاز، لكن أدَّى إلى اختلافِ الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الألفاظ ومعانيها والعلوم المتشعبة منها وما في إتعاب القرائح وكدِّ النفوس من القُرْبِ المقتضية لجزيل الثواب. وقُرِئَ بِلِسْنٍ وهو لغةٌ فيه كريش ورياش، ولُسُنٌ بضمين، وضمُّ وسكونٍ على الجمع كَعُمْدٍ وَعُمْدٍ. وقيل: الضميرُ في قومه لمحمد ﷺ وأن الله تعالى أنزلَ الكُتُبَ كُلَّهَا بالعربية، ثم تَرَجَّمَهَا جبريلُ عليه السلام أو كلُّ نبيٍّ بِلُغَةِ المنزَلِ عليهم، وذلك ليسَ بصحيح، يرَّده قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فإنه ضميرُ القوم، والتوراة والإنجيل ونحوهما لم تُنَزَلْ لتُبَيِّنَ للعرب. ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيخذله عن الإيمان. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيقِ له^(١). ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يُغْلَبُ على مشيئته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يُضِلُّ ولا يهدي إلا لحكمة.

(٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني اليدَ والعصاَ وسائرَ معجزاته. ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

(١) تقديم الإضلال على الهداية للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل، وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء. أو أن تقديم الإضلال لإبقاء ما كان على ما كان، والهداية إنشاء ما لم يكن (س/٣٢/٥).

أَلْظَلُمْتُمْ إِلَى الثُّورِ ﴿١﴾ بمعنى أي أخرج لأن في الإرسال معنى القول، أو بآن أخرج فإن صيغ الأفعال سواء في الدلالة على المصدر فيصيح أن توصل بها أن الناصبة. ﴿وَذَكَّرْتَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بوقائعه التي وقعت على الأمر الدارجة، وأيام العرب حروبها. وقيل بنعمائه وبلائه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يضرب على بلائه ويشكر على نعمائه فإنه إذا سمع بما أنزل على من قبل من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل: المراد لكل مؤمن وإنما عبر عنه بذلك تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَجِّبُوكُمْ أَنْبَاءَ كُفٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴿٢﴾ وَفِي ذَلِكَ لَبَلَاءٌ لِّمَنْ رَبَّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُوكُمْ لَمِنْ شَكْرْتُمْ لَا زَيْدَنَّكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٤﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٥﴾

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمته عليكم وقت إنجائه إياكم، ويجوز أن ينتصب بعلينكم إن جعلت مستقرة غير صلة للنعمة وذلك إذا أريد به العطية دون الإنعام، ويجوز أن يكون بدلاً من نعمة الله بدل الاشتمال. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَجِّبُوكُمْ أَنْبَاءَ كُفٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أحوال من آل فرعون، أو من ضمير المخاطبين والمراد بالعذاب هنا غير المراد به في سورة البقرة والأعراف^(١) لأنه مفسر بالتذبيح والقتل ثمّة ومعطوف عليه التذبيح هنا، وهو إما جنس العذاب أو استعبادهم أو استعمالهم بالأعمال الشاقة^(٢) ﴿وَفِي ذَلِكَ لَبَلَاءٌ لِّمَنْ رَبَّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاء منه. ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء والمراد بالبلاء النعمة.

(٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُوكُمْ﴾ أيضاً من كلام موسى عليه السلام، وتأذن بمعنى آذن كتوعد وأوعد غير أنه أبلغ لما في الفعل من معنى التكلف والمبالغة^(٣). ﴿لَمِنْ شَكْرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما أنعمت عليكم من الإنجاء وغيره بالإيمان والعمل الصالح. ﴿لَا زَيْدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة. ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمت عليكم. ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فلعلّي أعذبكم على الكفران عذاباً شديداً، ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد، والجملة مقول قول مقدّر أو مفعول تأذن على أنه جار مجزى قال لأنه ضرب منه.

(٨) ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِنَ الثَّقَلَيْنِ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم.

(١) سورة البقرة الآية (٤٩) والأعراف الآية (١٤١).

(٢) معنى يسومونكم أي ييغنونكم، من سامه خسفاً إذا أواه ظلماً، وأصل السوم الذهب في طلب الشيء، ومعنى يستحيون نساءكم أي ييقونهن في الحياة مع الذل والصغار.

(٣) والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث (س/٥/٣٥).

﴿حَيْدٌ﴾ مُسْتَحِقٌّ لِلْحَمْدِ فِي ذَاتِهِ، محمودٌ تَحْمَدُهُ الملائكةُ وَتَنْطِقُ بنعمته ذُرَّاتُ المخلوقاتِ، فما ضَرَرْتُمْ بالكفر إلا أَنْفَسَكُمْ حَيْثُ حَزَمْتُمْوْهَا مَزِيدَ الإِنْعَامِ وَعَرَضْتُمْوْهَا لِلْعَذَابِ الشَّدِيدِ.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

(٩) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى عليه الصلاة والسلام، أو كلامٌ مبتدأ من الله. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جملةٌ وَقَعَتْ اعتراضاً، أو الذين من بعدهم عطفٌ على ما قبله ولا يعلمهم اعتراضٌ، والمعنى أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله، ولذلك قال ابن مسعود^(١) رضي الله تعالى عنه: كَذَبَ النَّسَابُونَ. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فعَضُّوْهَا غِيظاً مما جاءت به الرسلُ عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾^(٢)، أو وضَعُوْهَا عليها تعجباً منه أو استهزاءً عليه كَمَنْ غَلَبَهُ الضَّحِكُ، أو إسكاتاً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرأَ لهم بإطباقِ الأفواه، أو أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ تنبيهاً على أن لا جوابَ لهم سواه، أو رَدُّوْهَا في أفواهِ الأنبياء يَمْنَعُونَهُمْ من التكلُّم، وعلى هذا يُخْتَمَلُ أن يكونَ تمثيلاً. وقيل الأيدي بمعنى الأيادي، أي رَدُّوا أيادي الأنبياء التي هي مواعظهم وما أَوْحِيَ إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم رَدُّوْهَا إلى حيثُ جاءت منه. ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان. وقرئَ تَدْعُونَا بالإدغام. ﴿مُرِيبٍ﴾ موقِعٌ في الريبة أو ذي ريبة وهي قلقُ النفس وأن لا تطمئنَّ إلى الشيء.

(١٠) ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ﴾ أَدْخَلْتُ همزةَ الإنكارِ على الظرفِ لأنَّ الكلامَ في المشكوك فيه لا في الشكِّ، أي إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتملُ الشكَّ لكثرة الأدلة وظهور دلالتها عليه، وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو صفةٌ أو بَدَلٌ، وشكٌّ مرتفعٌ بالظرف^(٣). ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بِبَعْثِهِ إِيَّانَا. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أو يدْعُوكُمْ إلى المغفرة كقولك: دعوتُه

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/١٣/١٨٧) عنه.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٩/٥) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) آل عمران: ١١٩.

(٣) لم يُجِبِ الرسل على قول الكافرين «إنا بما أُرْسِلْتُمْ به كافرون» لأن مقصدهم الأقصى هو الدعوة إلى الإيمان والتوحيد - وإظهارِ البينات وسيلة إلى ذلك - فاقْتَصَرُوا على بيان ما هو الغاية القصوى (س/٥/٣٧).

لِيَنْصُرُنِي، على إقامة المفعول له مقام المفعول به. ﴿مَنْ ذُوِيكُمْ﴾ بعض ذنوبكم وهو ما بينكم وبينه تعالى، فإن الإسلام يجتبه دون المظالم. وقيل جيء بمن في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن تفرقة بين الخطابين. ولعل المعنى فيه أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مُرَبَّيَّةٌ على الإيمان وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجلب عن المعاصي ونحو ذلك فتتناول الخروج عن المظالم. ﴿وَيُخْرِجَكُم مِّنَ الْآبِلِ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت سمّاه الله تعالى وجعله آخر أعماركم. ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْتَدِلَا بِبَشَرٍ مِّثْلُنَا﴾ لا فضل لكم علينا فلم تُخْصَوْنَ بالنبوة دوننا؟! ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً لبعث من جنس أفضل. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ بهذه الدعوى. ﴿فَأَنُوتَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم لهذه المزية، أو على صحة ادعائكم النبوة، كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البيّنات والحجج واقترحوا عليهم آية أخرى تعثاً ولجاجاً.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَكَذَٰلِكَ هَدَّيْنَا سُلَيْمَانَ وَلِجَنَّتَيْنِ عَلَىٰ مَاءٍ ۚ أَذِيتُهُنَّ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾

(١١) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ﴾ سلّموا مشاركتهم في الجنس وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله ومثله عليهم. وفيه دليل على أن النبوة عطائية وأن ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى. ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ليس إلينا الإتيان بالآيات ولا تستبدّ به استطاعتنا حتى نأتي بما اقترحتموه، وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى فيخص كل نبي بنوع من الآيات. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فلتتوكل عليه في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم. عمّموا الأمر للإشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً، ألا ترى قوله تعالى:

(١٢) ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه؟! ﴿وَقَدْ هَدَّيْنَا سُلَيْمَانَ﴾ التي بها نعرفه ونعلم أن الأمور كلها بيده. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف ههنا وفي العنكبوت^(١). ﴿وَلِجَنَّتَيْنِ عَلَىٰ مَاءٍ ۚ أَذِيتُهُنَّ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جواب قسم محذوف أكدوا به توكلهم وعدم مبالاهم بما يجري من الكفار عليهم. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن إيمانهم.

(١٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ خلّفوا على أن يكون أحد الأمرين: إمّا إخراجهم للرسل أو عودهم إلى ملتهم، وهو^(٢) بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا

(١) قراءة أبي عمرو بالتخفيف، أي بتخفيف الباء، أي بسكونها فقرأ «سُلَيْمَانَ» وقرأ بها هنا أي الآية (١٢) من سورة إبراهيم وفي العنكبوت (٦٩).

(٢) وهو أي العود.

على ملَّتْهُمْ قُطٌّ. ويجوز أن يكون الخطاب لكلِّ رسولٍ ومَنْ آمَنَ معه، فَعَلَّبُوا الجماعةَ على الواحد. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي إلى رُسُلِهِمْ. ﴿لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ على إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجزؤه لأنه نوعٌ منه.

وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضهم وديارهم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾^(١). وقرئ: لِيُهْلِكَنَّ وَلَيُسَكِّنَنَّكُمْ بالياء اعتباراً لأَوْحَى كقولك: أقسم زيدٌ ليُخْرِجَنَّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين. ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفي وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله، وقيل المقام مُقَحَّمٌ. ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار.

(١٥) ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم، من الفتاحة كقوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾^(٢)، وهو معطوف على فأَوْحَى. والضمير للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل للكفرة، وقيل للفرقتين، فإنَّ كلَّهم سألوه أن ينصُرَ المحقَّ ويُهْلِكَ المبطل. وقرئ: بلفظ الأمر عطفًا على لِيُهْلِكَنَّ^(٣). ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي ففتح لهم فأفلح المؤمنون وخاب كلُّ جبارٍ عاتٍ متكبرٍ على الله معانيدٍ للحق فلم يُفْلِحْ، ومعنى الخيبة إذا كان الاستفتاح من الكفرة أو من القبيلين كان أوقع.

(١٦) ﴿مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي من بين يديه^(٤) فإنه مُرْصَدٌ بها واقفٌ على شفيرها في الدنيا مبعوثٌ إليها في الآخرة. وقيل من وراء حياته، وحقيقته ما توارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ﴾ عطفٌ على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يُلقى ويسقى من ماء. ﴿صَدِيدٍ﴾^(٥) عطفٌ بيانٍ لماء، وهو

(١) الأعراف: «١٣٧».

(٢) الأعراف: «٨٩».

(٣) أي قرئ بكسر التاء في «واستفتحوا».

(٤) انظر «جامع البيان» (٨/ج ١٣/١٩٤ - ١٩٥) لابن جرير الطبري.

(٥) أخرج الترمذي (٤/٧٠٥ رقم ٢٥٨٣) والنسائي كما في تحفة الأشراف (٤/١٧٤ رقم ٤٨٩٤) وأحمد (٥/٢٦٥)

وابن المبارك في الزهد - زوائد نعيم على رواية المروزي - (رقم ٣١٤) والطبري في «جامع البيان»

(٨/ج ١٣/١٩٥ - ١٩٦) والطبراني في الكبير (٨/١٠٦ رقم ٧٤٦٠) والحاكم (٢/٣٥١، ٣٦٨ - ٣٦٩) وأبو نعيم

في الحلية (٨/١٨٢) والبيهقي في «البعث والنشور» (رقم: ٥٤٩) والبغوي في «شرح السنة» (١٥/٢٤٣ رقم

٤٤٠٥) كلهم من طريق صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: «ويُسقى

من ماء صديد يتجرعه» قال يُقَرَّبُ إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع

أمعائه حتى يخرج من دبره.

ما يسيل من جلود أهل النار^(١).

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلف جرعه. وهو صفة لماء، أو حال من الضمير في يُسْقَى ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ ولا يقارب أن يسغه فكيف يُسِغُهُ بل يَغْصُّ به فيطول عذابه. والسَّوْغُ جوازُ الشرابِ على الخلقِ بسهولة وقبولِ نفسٍ. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابه من الشدائد فتحيط به من جميع الجهات. وقيل من كل مكان من جسده حتى من أصول شجره وإبهام رجله. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه، وقيل هو الخلود في النار، وقيل حَسُّ الأنفاس. وقيل الآية منقطعة عن قصة الرسل نازلة في أهل مكة طلبوا الفتح الذي هو المطر في سنينهم التي أرسل الله تعالى عليهم بدعوة رسوله، فخبب رجاءهم فلم يَسْقِهِمْ ووعد لهم أن يَسْقِيَهُمْ في جهنم بدل سقياهم صديد أهل النار.

(١٨) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي فيما يُتْلَى عليكم صفتهم التي هي مثل في الغرابة، أو قوله ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ وهو على الأول جملة مُسْتَأَنَفَةٌ لبيان مثلهم. وقيل أعمالهم بدل من المثل والخبر كرماد. ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ حملته وأسرعته الذهاب به. وقرأ نافع الرياح. ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصف اشتداد الريح، وصف به زمانه للمبالغة كقولهم: نهائره صائم وليله قائم. شبه صنائعهم من الصدقة وصله الرِّحْم وإغاثة الملهوف وعنت الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم في حُبوطها وذهابها هباءً منثوراً، لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والتوجه بها إليه، أو أعمالهم للأصنام برماد طيرته الريح العاصف. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم. ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ لخبوطه فلا يرون له أثراً من

= يقول الله تعالى: «وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعائهم» [محمد: ١٥] ويقول الله تعالى: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب» [الكهف: ٢٩].

قال الترمذي: «هذا حديث غريب. هكذا قال محمد بن اسماعيل عن عبيد الله بن بسر ولا نعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث» هـ.

وقال الذهبي عن عبيد الله هذا «مجهول لا يُعرف» كما في الميزان (٤/٣).

وقال الألباني في «ضعيف الترمذي» (ص ٣٠٤ رقم ٤٧٧/٢٧٢٢): حديث ضعيف.

تنبيه: وقع عند ابن المبارك «عبد الله بن بشر» وهو خطأ.

ووقع عند الطبراني والحاكم وأبي نعيم والبيهقي «عبد الله بن بسر».

(١) الصديد: هو ما حال بين الجلد واللحم من القيح (المفردات مادة صدد) وتخصيصه بالذكر من بين أنواع العذاب يدل على أنه من أشد أنواعه (س ٣٩/٥).

الثواب^(١). وهو فذلكم التمثيل. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حُسنائهم أنهم محسنون. ﴿هُوَ﴾ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ فإنه الغاية في البُعْدِ عن طريق الحق.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ هَدًى سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَانَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضْتُمُ الْأَمْرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ، والمراد به أمته. وقيل لكل واحدٍ من الكفرة على التلويين. ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ والحكمة والوجه الذي يحق أن تخلق عليه. وقرأ حمزة والكسائي خالق السموات. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يُغْدِمْكُمْ ويخلق خلقاً آخر مكانكم، رُبَّ ذلك على كونه خالقاً للسموات والأرض استدلالاً به عليه، فإن من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطباع قَدَر أن يبدلهم بخلقٍ آخر ولم يمتنع عليه ذلك كما قال:

(٢٠) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بِمُتَعَذِّرٍ أو متعسر فإنه قادرٌ لذاته لا اختصاص له بمقدورٍ دون مقدور. ومن كان هذا شأنه كان حقيقاً بأن يؤمنَ به ويُعْبَدَ رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه يوم الجزاء.

(٢١) ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة لأمر الله تعالى ومحاسبتها، أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يُخْفُونَ ارتكاب الفواحش ويظنون أنها تَخْفَى على الله تعالى فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم. وإنما ذكرَ بلفظ الماضي لِتَحَقُّقِ وقوعه. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ الاتباع جَمْعُ ضعيفٍ يريدُ به ضعاف الرأي. وإنما كُتِبَتْ بالواو على لفظ مَنْ يَفْعُهم الألف قبل الهمزة فيمِيلُها إلى الواو. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لرؤسائهم الذين استَبَعُوهم واستغفروهم. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم. وهو جمعٌ تابع كغائبٍ وغيبٍ، أو مصدرٌ نُعِتَ به للمبالغة، أو على إضمارٍ مضافٍ. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ دافعون عَنَّا. ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْأَوَّلَى للبيان واقعة موقع الحال، والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعيض أي بعض شيء هو بعض عذاب الله، والإعرابُ ما سبق، ويَحْتَمَلُ أن تكون الأولى

(١) والاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام - مع أن لها عقوبات هائلة - للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعا لهم عند الله تعالى (س/٥/٤٠).

مفعولاً والثانية مصدرأ أي فهل أنتم مُعْتَنُونَ بعضَ العذاب بعضَ الإغناء. ﴿قَالُوا﴾ أي الذين استكبروا جواباً عن معاتبة الأتباع واعتذاراً عما فعلوا بهم. ﴿لَوْ هَدَّيْنَاهُ اللَّهَ﴾ للإيمان ووفقنا له. ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن ضللتنا فأضللتناكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم كما عرَضناكم له، لكن سَدَّ دُوننا طريق الخلاص. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر. ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ﴾ مَنْجَى ومهرب من العذاب، مَنْ الْحَيْصِ وهو العذل على جهة الفرار، وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالمبيت ومصدراً كالمغيب. ويجوز أن يكون قوله سواء علينا من كلام الفريقين ويؤيده ما رُوِيَ أنهم يقولون: تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك ثم يقولون سواء علينا^(١).

(٢٢) ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَحْكِمَ وَفُرعَ منه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيباً في الأشقياء مِنَ الثَّقَلَيْنِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز عدأ أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء. ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ وَعَدَ الْبَاطِلُ وهو الأُبعث ولا حساب، وإن كانا فالأصنام تشفع لكم. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ جعل بُيْنَ خَلْفٍ وعده كالإخلاف منه. ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تَسْلُطٍ فَالْجُنُكُم إلى الكفر والمعاصي. ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائي إياكم إليها بتسويلي، وهو ليس من جنس السلطان ولكنه على طريقة قولهم: تحية بينهم ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(٢). ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً. ﴿فَاسْتَجَبْتُ لِي﴾ أسرعتم إجابتي. ﴿فَلَا تُلْوُمُونِي﴾ بوسوستي فَإِنَّ مَنْ صرَّحَ العداوة لا يلام بأمثال ذلك. ﴿وَلَوْ مُوَأْنَفُسُكُمْ﴾ حيثُ أطمعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم لَمَّا دعاكم. واحتجت المعتزلة بأمثال ذلك على استقلال العبد بأفعاله وليس فيها ما يدل عليه، إذ يكفي لِصَحَّتِهَا أَنْ يكون لقدرة العبد مدخل ما في فعله وهو الكسب الذي يقوله أصحابنا. ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثكم من العذاب. ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثي^(٣). وقرأ حمزة بكسر الياء على الأصل في التقاء الساكنين، وهو أصل مرفوض في مثله لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع أنَّ حركة ياء الإضافة الفتح، فإذا لم تُكسَر وقبلها ألف فبالحري أن لا تُكسَر وقبلها ياء، أو على لغة مَنْ يَزِيدُ ياء على ياء الإضافة إجراء لها مَجْرَى الهاء والكاف في: ضربته وأعطيتك وحذف الياء اكتفاء بالكسرة^(٤). ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا

(١) أخرجه الطبراني عن كعب بن مالك مرفوعاً. وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه وفيه أنس بن القاسم. قال أبي حاتم هو مجهول.

[مجمع الزوائد (٤٣/٧) والدر المنثور (١٧/٥) والجرح والتعديل (٢/٢٨٨)].

(٢) أي من باب تأكيد الشيء بضده مبالغة.

(٣) وتعرض الشيطان لعدم إصراخه لهم وإصراخهم له - مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال - للمبالغة في عدم إصراخه إياهم، وإيذاناً بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الإصراخ فكيف من إصراخ الغير؟ (س٥/٤٣).

(٤) ما ذكره البيضاوي من التعليق على قراءة حمزة - وهي من المتواتر - غير مُسَلَّم به. وقد أنكر هذه القراءة جمع من أئمة اللغة كالقراء وأبي عبيد والأخفش والزجاج والزمخشري، واقتفى أثرهم بعض الخلف. وقد ناقش أبو حبان ما ذهبوا إليه وبين صحة هذه القراءة من حيث اللغة، إلا أن المشهور عند اللغويين ما قرأ به الجمهور من نصب الياء «بمُصْرِخِي». قال أبو حبان: (وما ذهب إليه مَنْ ذكرنا من النحاة لا ينبغي أن يلتفت إليه... فلا يجوز أن يقال فيها إنها خطأ أو قبيحة أو رديئة، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكنه قَلَّ استعمالها، ونص قطرب

أَشْرَكَتُمْ مِّن قَبْلُ ﴿٢٢﴾ مَا إِمَّا مَصْدَرِيَّةٌ وَمِنْ مُتَعَلِّقَةٍ بِأَشْرَكَتُمْ مِّنِي، أَي كَفَرْتُ الْيَوْمَ بِإِشْرَاكِكُمْ إِيَّاي مِّن قَبْلُ هَذَا الْيَوْمِ أَي فِي الدُّنْيَا بِمَعْنَى تَبَرَأْتُ مِنْهُ وَاسْتَنْكَرْتُهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾^(١). أَوْ مُوَصُولَةٌ بِمَعْنَى مَنْ، نَحْوُ مَا فِي قَوْلِهِمْ: سَبَحَانَ مَا سَعَّرَكُنَّ لَنَا، وَمِنْ مُتَعَلِّقَةٍ بِكَفَرْتُ أَي كَفَرْتُ بِالَّذِي أَشْرَكَتُمُونِي وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى بِطَاعَتِكُمْ إِيَّايَ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا مِّن قَبْلُ إِشْرَاكِكُمْ حِينَ رَدَدْتُ أَمْرَهُ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَأَشْرَكَ مَنْقُولٌ مِّن شَرَكْتُ زَيْدًا لِلتَّعْدِيَةِ إِلَى مَفْعُولٍ ثَانٍ. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تَمَّةٌ كَلَامِهِ، أَوْ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَفِي حِكَايَةِ أَمْثَالٍ ذَلِكَ لُطْفٌ لِلْسَامِعِينَ وَإِيقَاطٌ لَهُمْ حَتَّى يَحَاسِبُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَتَذَبَّرُوا عَوَاقِبَهُمْ.

وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمْرِهِ وَالْمَدْخُلُونَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ. وَقُرِئَ وَأَدْخَلَ عَلَى التَّكْلُمِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أَي تُحِيَّتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ فِيهَا بِالسَّلَامِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ.

(٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ كَيْفَ اعْتَمَدَهُ وَوَضَعَهُ. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أَي جَعَلَ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةً بَدَلًا مِّن مَّثَلًا وَكَشَجَرَةٍ صِفَتُهَا أَوْ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذوفٌ أَي هِيَ كَشَجَرَةٌ، وَأَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَفْعُولِي ضَرَبَ إِجْرَاءً لَهُ مَجْرَى جَعَلَ. وَقَدْ قُرِئَتْ بِالرَّفْعِ عَلَى الْابْتِدَاءِ. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فِي الْأَرْضِ ضَارِبٌ بِعُرْوَتِهِ فِيهَا. ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وَأَعْلَاهَا. ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ وَفُرُوعُهَا أَي أَفْنَانُهَا عَلَى الْاِكْتِفَاءِ بِلَفْظِ الْجِنْسِ لَا كِتْسَابِهِ الْاِسْتِغْرَاقَ مِنَ الْإِضَافَةِ. وَقُرِئَ ثَابِتٌ أَصْلُهَا، وَالْأَوَّلُ عَلَى أَصْلِهِ وَلِذَلِكَ قِيلَ إِنَّهُ أَقْوَى وَلَعَلَّ الثَّانِي أْبْلَغُ.

(٢٥) ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا﴾ تَعْطِي ثَمَرَهَا. ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وَقْتَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِإِثْمَارِهَا. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بِإِزَازِهِ خَالِقِهَا وَتَكْوِينِهِ. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لِأَن فِي ضَرْبِهَا زِيَادَةً إِفْهَامٍ وَتَذَكِيرٍ، فَإِنَّهُ تَصْوِيرٌ لِلْمَعَانِي وَإِدْنَاءٌ لَهَا مِنَ الْحُسْنِ.

(٢٦) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴿اجْتُثَّتْ﴾ اسْتُؤْصِلَتْ وَأُخِذَتْ جُثَّتُهَا بِالْكُلِّيَّةِ. ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لِأَن عُرْوَتَهَا قَرِيبَةٌ مِنْهُ. ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ اسْتِقْرَارٌ. وَاخْتِلَفَ فِي الْكَلِمَةِ

= على أنها لغة في بني يربوع... تفسير البحر المحيط (٥/٤٢٠).

(١) فاطر: «١٤».

والشجرة، فُفْسِرَتِ الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن، والكلمة الخبيثة بالشرك بالله تعالى والدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق، ولعل المراد بهما ما يعم ذلك فالكلمة الطيبة ما أغرب عن حق أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة ما كان على خلاف ذلك. وفُفْسِرَتِ الشجرة الطيبة بالنخلة وزوي ذلك مرفوعاً^(١)، وبشجرة في الجنة، والخبيثة بالحنظلة والكُشوث^(٢)، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعم ذلك.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يزالون إذا فُتِنُوا في دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيس وشمعون والذين قَتَلَهُمْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلا يتلعمثون إذا سُئِلُوا عن مُعْتَقِدِهِمْ في الموقف، ولا تدهشهم أهوال يوم القيامة. وزوي أنه ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: ثم تُعَادُ رُوحُهُ في جسده فيأتيه مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِيهِ فِي قَبْرِهِ ويقولان له: مَنْ رَبُّكَ وما دينك وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فيقول: رَبِّي اللَّهُ ودينِي الإسلامُ ونبيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فينادي منادٍ من السماء أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾^(٣). ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالاعتصار على التقليد فلا يهتدون إلى الحق ولا يَنْبُتُونَ في مواقف الفتن. ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه.

(٢٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ أي شُكِرَ نعمته كفرًا بأن وضعوه مكانه، أو بدَّلُوا نَفْسَ النعمة كفرًا، فإنهم لما كَفَرُواها سُلِبَتْ مِنْهُمْ فصاروا تَارِكِينَ لها مُحْضِلِينَ للكفر بدَّلَهَا كَآهِلَ^(٤) مكة، خَلَقَهُمُ اللهُ تعالى وَأَسْكَنَهُمْ حَرَمَهُ وجعلهم قَوَامَ بَيْتِهِ ووسَّعَ عليهم أبوابَ رِزْقِهِ وشَرَّفَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ،

(١) أخرج البخاري (١٤٥/١ رقم ٦١) ومسلم (٢١٦٤/٤ - ٢١٦٥ رقم ٢٨١١/٦٣) والبخاري في شرح السنة (٣٠٧/١ رقم ١٤٣) والنسائي في تفسيره (٦١٥/١ رقم ٢٨١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجْرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنِهَا مِثْلُ الْمَسْلَمِ، فَحَدَّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي إِنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ. ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ».

(٢) الكُشوث: هي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض.

(٣) أخرجه أبو داود (١١٤/٥ - ١١٥ رقم ٤٧٥٣) والحاكم (٣٧/١ - ٣٩) صحيحه على شرطهما. وأحمد في المسند (٢٨٧/٤) وابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٠/٣) من رواية المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء.

وأصله في الصحيحين من رواية سعد بن عبيدة عن البراء مرفوعاً.

البخاري (٢٣١/٣ رقم ١٣٦٩) ومسلم (٢٢٠١/٤ رقم ٢٨٧١/٧٣).

(٤) أخرج البخاري (٣٧٨/٨ رقم ٤٧٠٠) عن ابن عباس «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا قَالَ: هُمْ كَفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ».

فكفروا ذلك فَحَطُّوا سَبْعَ سَنِينَ وَأَسْرُوا وَقُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَصَارُوا أَذْلَاءً، فَبُقُوا مَسْلُوبِي النِّعْمَةِ وَمَوْصُوفِينَ بِالْكَفْرِ، وعن عمر^(١) وعلي^(٢) رضي الله تعالى عنهما: هُمُ الْأَفْجَرَانِ مِنْ قَرِيشَ بْنِ الْمَغِيرَةِ وَبَنُو أُمَيَّةَ، فَأَمَّا بَنُو الْمَغِيرَةِ فَكُفِّتُمُوهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَمَّا بَنُو أُمَيَّةَ فَمُتُّعُوا إِلَى حِينٍ. ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ﴾ الَّذِينَ شَايَعُوهُمْ فِي الْكُفْرِ. ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دَارَ الْهَلَاكِ بِحَمْلِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ.

جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيُسْكُ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَآسَاةٍ الثَّمُوهَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيانٍ لها. ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ حالٌ منها أو من القوم، أي داخلين فيها مُقَاسِمِينَ لِحَرْهَاءٍ أو مُفَسِّرٍ لِفِعْلٍ مُّقَدَّرٍ نَاصِبٍ لِّجَهَنَّمَ. ﴿وَيُسْكُ الْقَرَارُ﴾ أي ويشن المقرَّ جهنم.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو التوحيد. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوبَ بفتح الياء، وليس الضلالُ ولا الإضلالُ غرضُهم في اتخاذِ الأندادِ لكن لما كانَ نَتِيجَتُهُ جُعِلَ كَالْغَرَضِ^(٣). ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بشهواتكم أو بعبادةِ الأوثانِ فإنَّها من قبيلِ الشهواتِ التي يُتَمَتَّعُ بها. وفي التهديدِ بصيغة الأمرِ إِيذَانٌ بَأَنَّ المَهْدَدَ عليه كالمطلوبِ لإفضائه إلى المَهْدَدِ به، وأن الأمرينِ كائنانِ لا محالةً ولذلك علَّلهُ بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وأنَّ المخاطَبَ لانْهِيَاكِهِ فِيهِ كَالْمَأْمُورِ بِهِ مِنْ أَمْرِ مُطَاعٍ.

(٣١) ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خَصَّهم بِالْإِضَافَةِ تنوِيهاً لَهُمْ وَتَنْبِيهاً عَلَى أَنَّهُمُ الْمُقِيمُونَ لِحَقُوقِ الْعِبَادِيَّةِ، ومفعولٌ قُلْ محذوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ جَوَابُهُ: أُنِي قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفِقُوا. ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ فيكونُ إِيذَانًا بِأَنَّهُمْ لِفَرْطِ مَطَاوَعَتِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ بِحَيْثُ لَا يَنْفَكُ فَعْلُهُمْ عَنْ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُ كَالسَّبَبِ الْمَوْجِبِ لَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَا بِلَامِ الْأَمْرِ لِيَصِحَّ تَعَلُّقُ الْقَوْلِ بِهِمَا وَإِنَّمَا حَسُنَ ذَلِكَ ههنا وَلَمْ يَحْسُنْ فِي قَوْلِهِ:

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/١٣ ج ٢٢١) عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/١٣ ج ٢٢٢) عنه.

(٣) ظاهر النظم يقتضي الترتيب بأن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى، ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد، ثم إضلالهم لقوم المؤدي إلى إحلالهم دار البوار. لكنه غير الترتيب إلى ما هو عليه النظم الكريم لثنية التعجيب وتكريره وللإيذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر وإحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للإضلال أمر يقضي منه العجب بذاته (س ٥/٤٥).

مَحَمَّدٌ تَفِدْ نَفْسَكَ كُلَّ نَفْسٍ إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ أَمْرِ تَبَالاً

لدلالة قُلْ عليه. وقيل هما جواباً أقيموا وأنفقوا مقامين مقامهما، وهو ضعيف لأنه لا بد من مخالفة ما بين الشرط وجوابه ولأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة إذا كان الفاعل واحداً. ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ مُتَّصِبَانِ عَلَى الْمَصْدَرِ أَيِ إِنْفَاقٍ سِرٌّ وَعَلَانِيَةٌ، أَوْ عَلَى الْحَالِ أَيِ ذَوِي سِرٍّ وَعَلَانِيَةٍ، أَوْ عَلَى الظَّرْفِ أَيِ وَقْتِي سِرٌّ وَعَلَانِيَةٌ، وَالْأَحَبُّ إِعْلَانُ الْوَاجِبِ وَإِخْفَاءُ الْمَتَوَعَّ بِه. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ﴾ فَيَبْتَاعُ الْمَقْصُرُ مَا يَتَدَارَكُ بِهِ تَقْصِيرَهُ أَوْ يَفْدِي بِهِ نَفْسَهُ ^(١). ﴿وَلَا خِلَلٌ﴾ وَلَا مُخَالَةٌ فَيَشْفَعُ لَكَ خَلِيلٌ، أَوْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا انْتِفَاعَ فِيهِ بِمَبَايِعَةٍ وَلَا مُخَالَةٍ وَإِنَّمَا يَنْتَفَعُ فِيهِ بِالْإِنْفَاقِ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالفتح فيهما على النفي العام.

(٣٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس، مفعول لأخْرَجَ وَمِنْ الثَّمَرَاتِ بَيَانٌ لَهُ وَحَالٌ مِنْهُ، وَيُحْتَمَلُ عَكْسُ ذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْمَصْدَرُ فَيَنْتَصِبُ بِالْعَلَّةِ، أَوْ الْمَصْدَرُ لِأَنَّ أَخْرَجَ فِي مَعْنَى رَزَقَ ^(٢). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ﴾ بِمَشِيَّتِهِ إِلَى حَيْثُ تَوَجَّهْتُمْ ^(٣). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ فَجَعَلَهَا مُعَدَّةً لانتفاعكم وتصرفكم. وقيل تسخير هذه الأشياء تعليم كيفية اتخاذها.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يَدَّابَانِ فِي سَبِيلِهِمَا وَإِنَارَتُهُمَا وَإِصْلَاحٌ مَا يُضْلِحَانِهِ مِنَ الْمَكُونَاتِ. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يَتَعَابَانِ لِسَبَاتِكُمْ وَمَعَاشِكُمْ.

(٣٤) ﴿وَأَتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَاءٍ ثَمْرَةٌ﴾ أَيِ بَعْضِ جَمِيعِ مَا سَأَلْتُمُوهُ يَعْنِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَأَلْتُمُوهُ شَيْئاً، فَإِنَّ الْمَوْجُودَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ بَعْضٌ مَا فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِمَا سَأَلْتُمُوهُ مَا كَانَ حَقِيقاً بِأَنْ يُسْأَلَ لاحتياج الناس إليه سُئِلَ أَوْلَمَ يُسْأَلُ، وَمَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً وَمَوْصُوفَةً وَمَصْدَرِيَّةً وَيَكُونَ الْمَصْدَرُ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ. وَقُرِئَ مِنْ كُلِّ الْتَوْنِ، أَيِ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهِ وَسَأَلْتُمُوهُ بِلِسَانِ الْحَالِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَا نَافِيَةً فِي مَوْقِعِ الْحَالِ أَيِ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ سَائِلِيهِ. ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ لَا تَحْصُرُوهَا وَلَا تُطِيقُوا عَدَّ أَنْوَاعِهَا فَضْلاً عَنْ أَفْرَادِهَا، فَإِنَّهَا غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَفْرَدَ يَفِيدُ الْإِسْتِغْرَاقَ بِالْإِضَافَةِ. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ﴾ يَظْلُمُ النِّعْمَةَ بِإِغْفَالِ شُكْرِهَا، أَوْ يَظْلُمُ نَفْسَهُ بِأَنْ يَعْرِضَهَا لِلْجَزْمَانِ. ﴿كَفَّارٌ﴾ شَدِيدُ الْكُفْرَانِ. وَقِيلَ ظَلُومٌ فِي الشَّدَةِ يَشْكُو وَيَجْزَعُ كَفَّارٌ فِي النِّعْمَةِ يَجْمَعُ وَيَمْنَعُ.

(١) وتخصيص البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، والتذكير بإتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه.

وتخصيص التأكيد بانعدام البيع لميل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبه والضئفة به (س/٥/٤٧).

(٢) وتقديم المجرور «من السماء» على المنصوب «ماء» إما باعتبار كونه مبدأ لنزوله، أو لتسريفة كقولك: أعطاه السلطان من خزانته مالاً، أو للتشويق إلى المؤخر (س/٥/٤٧).

(٣) وتخصيص الفلك بالذكر للتخصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال (س/٥/٤٨).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ بلدة مكة. ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمنٍ لمن فيها، والفرق بينه وبين قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾^(١) أن المسؤول في الأول إزالة الخوف عنه وتصويره آمناً، وفي الثاني جعله من البلاد الآمنة. ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بعْذني وإياهم، ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ واجعلنا منها في مجانب. وقرئ: واجنبني وهما على لغة نجد، وأما أهل الحجاز فيقولون جنبني شره. وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم، وهو بظاهرة لا يتناول أحفاده وجميع ذريته. وزعم ابن عيينه^(٢) أن أولاد إسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يعبدوا الصنم محتجاً به، وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها ويسمونها الدوائر ويقولون البيت حجرٌ فحيثما نصبتنا حجراً فهو بمنزلته.

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ فلذلك سألت منك العصمة واستعدت بك من إضلالهم. وإسناد الإضلال إليهم باعتبار السببية كقوله تعالى ﴿وَعَرَّيْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٣). ﴿فَمَنْ يَبْعَنِي﴾ على ديني. ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي بغضي لا ينفك في أمر الدين. ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تقدّر أن تغفر له وترحمه ابتداءً، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فله أن يغفره حتى الشرك، إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره^(٤).

(٣٧) ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي أو ذرية من ذريتي، فحذف المفعول وهم إسماعيل ومن ولد منه فإن إسماعيل متضمن لإسكانهم. ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يعني وادي مكة فإنها حَجَرِيَّة لا تُنْبِتُ. ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرّمت التعرض له والتهاون به، أولم يزل معظماً مُمنعاً يهابه

(١) البقرة: (١٢٦).

(٢) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الكوفي. ولد في الكوفة ليلة النصف من شعبان من سنة (١٠٧هـ) وأدرك الأئمة الأربعة واجتمع بهم وتلمذ الشافعي وأحمد عليه، وقد رد على المعتزلة والمرجئة والقدرية، وحذر من البدع ونقّر من الغلو، وكان عالماً ورعاً متواضعاً جريئاً. مات ابن عيينة في مكة المكرمة (سنة: ١٩٨هـ).

[الحلية لأبي نعيم (٧/ ٢٧٠ - ٣١٨) والتاريخ للخطيب (٩/ ١٧٤ - ١٨٤).

والعقد الثمين للفارسي (٤/ ٥٩١ - ٥٩٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٤ - ٢٢٥).]

(٣) الأنعام: (٧٠).

(٤) صدر الدعاء بالدعاء «رب» إظهاراً لاعتناؤه به ورغبة في استجابته.

وقوله «ومن عصاني» عبر عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة، وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة (س/ ٥١).

الجبابة، أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سُمِّي عتيقاً أي أعتق منه. ولو دعا بهذا الدعاء أول ما قدم فلعله قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه. رُوي أن هاجر كانت لِسارة رضي الله عنها فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فَوَلَدَتْ منه إسماعيل عليه السلام، فغارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها، فأخرجهما إلى أرض مكة، فأظهر الله عين زمر، ثم إنَّ جُزْهُمَ رأوا ثمَّ طيوراً فقالوا لا طير إلا على الماء، فقصدوه فرأَوْهُمَا وعندَهُمَا عينٌ فقالوا: أشركنا في ما بك نُشْرِكُكَ في الباننا ففعلت. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام لام كني وهي متعلقة بأسكنك، أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع من كل مرتفعٍ ومرتفعٍ إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم^(١). وتكرير النداء وتوسطه للإشعار بأنها المقصودة بالذات من إسمائهم ثمة. والمقصود من الدعاء توقيفهم لها. وقيل لام الأمر والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أن يوقفهم لها. ﴿فَجَعَلَ أَفئدةَ سَكَّ النَّاسِ﴾ أي أفئدة من أفئدة الناس. ومن للتبعض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارسُ والرومُ ولحجَّت اليهود والنصارى، أو للابتداء كقولك: القلب مني سقيم أي أفئدة ناس. وقرأ هشامُ أفئدة بخلف عنه بياء بعد الهمزة. وقرئ أفئدة، وهو يُحتمل أن يكون مقلوب أفئدة كادر في أدور، وأن يكون اسم فاعلٍ من أفدت الرحلة إذا عجلت أي جماعة يعجلون نحوهم، وأفئدة بطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه فيه إخراجها بين بين ويجوز أن يكون من أفد. ﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً. وقرئ تهوى على البناء للمفعول من أهوى إليه غيره، وتهوى من هوى يهوى إذا أحب، وتعديته بالي لتضمينه معنى النزوع. ﴿وَأَرْزَقَهُمْ مِّنَ الشَّجَرِ﴾ مع سكناهم وادياً لا نبات فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة. فأجاب الله عز وجلَّ دعوته فجعله حرماً آمناً يُجْبَى إليه ثمرات كل شيء حتى تُوجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد.

(٣٨) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ﴾ تعلم سرنا كما تعلم علنا. والمعنى إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب لكنا ندعوك إظهاراً لعبوديتك وانقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندك. وقيل ما نخفي من وجد الفرقة وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك، وتكرير النداء للمبالغة في التضرع واللجأ إلى الله تعالى^(٢). ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لأنه العالم بعلم ذاتي يستوي نسبته إلى كل معلوم، ومن للاستغراق^(٣).

(٣٩) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد، قيّد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة وإظهاراً لما فيها من آلائه. ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ رُوي^(٤) أنه وُلِدَ له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة واثنتي عشرة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي لمجيئه من قولك سمع

(١) وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر الشعائر لفضلها (س/٥/٥٢).

(٢) وتقديم «ما نخفي» على «ما نعلن» لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجه أو لأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن (س/٥/٥٣).

(٣) والالتفات إلى الاسم الجليل «وما يخفى...» لتربية المهابة والإشعار بعلّة الحكم، وللإيدان بعمومه (س/٥/٥٣).

(٤) ذكر ذلك ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩٤/١٠) بدون سند.

الملكُ كلامي إذا اعتدَّ به، وهو من أبنية المبالغة العاملة عمَلَ الفعل أَضَيَّفَ إلى مفعوله أو فاعله على إسناد السَّماع إلى دعاء الله تعالى على المجاز. وفيه إشعارٌ بأنه دعا رَبَّهُ وسأل منه الولدَ فأجابه ووهبَ له سُؤلَه حينَ ما وقع اليأسُ منه ليكونَ من أجلِ النعمِ وأجلاها.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ مُعْدِلاً لها مواظباً عليها. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطفٌ على المنصوب في اجْعَلْنِي^(١). والتبويضُ لِعلمِهِ بإعلامِ الله أو استقراء عادته في الأمر الماضي أنه يكون في ذريته كفاً. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ واستجب دعائي أو وتقبل عبادتي.

(٤١) ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وقرئَ ولأبوي، وقد تقدّم عُذْرُ استغفاره لهما. وقيلَ أرادَ بهما آدمَ وحواءَ. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يثبتُ مستعازٌ من القيام على الرجلِ كقولهم: قامت الحرب على ساقٍ، أو يقومُ إليه أهلُه فحذفَ المضافَ أو أسندَ إليه قيامهم مجازاً.

(٤٢) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، والمرادُ به تشيئته على ما هو عليه من أنه تعالى مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية، والوعيدُ بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو لكلِّ مَنْ تَوَهَّمَ غَفْلَتَهُ جهلاً بصفاته واغتراراً بامهاله. وقيلَ إنه تسلية للمظلوم وتهديدٌ للظالم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخّرُ عذابهم^(٢) وعن أبي عمرو بالنون^(٣). ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي تشخصُ فيه أبصارهم فلا تفرُّ في أماكنها من هولِ ما ترى.

(٤٣) ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، أو مقبلين بأبصارهم لا يَطرُقون هيبَةً وخوفاً، وأصلُ الكلمة هو الإقبالُ على الشيء. ﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بل تثبَّتْ عيونهم شاخصة لا تَطرُفُ، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ خلأ أي خالية عن الفهم لِفَرَطِ الحيرة والدهشة، ومنه يقال للأحمق وللجبان قلبه هواءٌ أي لا رأيَ فيه ولا قوة، قال زهير:

(١) وتوحيد ضمير المتكلم بقوله «رب...» مع شمول دعوته لذريته - للإشعار بأنه المقتدى به في ذلك وذريته أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد - لا كما في قوله «ربنا إني أسكنت من ذريتي» فإن إساكنه لمن أسكنه إنما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوص بذريته (س/٥٤/٥).

(٢) وإيقاع التأخير عليهم - مع أن المؤخر إنما هو عذابهم - لتحويل الخطب، وتفضيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مُزْصِدُونَ لأمرٍ ما لا أنهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة، وللإيدان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه. ولو قيل إنما يؤخر عذابهم لما فهم ذلك (س/٥٥/٥).

(٣) أي «نؤخرهم».

هواء من الظلمان جُؤْؤُهُ

وقيل خالية عن الخير خاوية عن الحق.

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا
مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يا محمد. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يعني يوم القيامة، أو يوم الموت فإنه أول أيام عذابهم، وهو مفعول ثانٍ لأنذِر. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالشرك والتكذيب. ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أخر العذاب عنا أو رُدنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى حدٍّ من الزمان قريب، أو أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونحب دعوتك. ﴿نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ جوابٌ للأمر^(١) ونظيره: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ على إرادة القول، وما لكم جوابُ القسم جاء بلفظ الخطاب على المطابقة دون الحكاية، والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت. ولعلهم أقسموا بطراً وغروراً أو دلّ عليه حالهم حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً. وقيل أقسموا أنهم لا ينتقلون إلى دار أخرى وأنهم إذا ماتوا لا يزالون على تلك الحالة إلى حالة أخرى كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾^(٣).

(٤٥) ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي كعادٍ وثمود، وأصل سكن أن يُعَدَّى بفي كقرّ وغني وأقام، وقد يُستعمل بمعنى التبوّء فيجري مجراه كقولك سكنت الدار^(٤). ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ من أحوالهم أي بيّنا لكم أمثالهم في الكفر واستحقاق العذاب، أو صفات ما فعلوا وفعل بهم التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة.

(٤٦) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ المستفرغ فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل. ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ ومكتوبٌ عنده فعلهم فهو مُجَازِيهِمْ عليه، أو عنده ما يُمَكِّرُهُمْ به جزاء لمكرهم وإبطالاً له^(٥). ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العظم والشدة. ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ مُسَوًّى لإزالة الجبال. وقيل

(١) وصيغة الجمع «لرسل» لبيان اتفاق جميعهم على التوحيد وأن معصية أحدهم معصية للجميع، أو أن المحكي هو كلام ظالمي الأمم جميعاً (س/٥٦).

(٢) المنافقون: (١٠).

(٣) النحل: (٣٨).

(٤) وفي إيقاع الظلم على أنفسهم - بعد إطلاقه فيما سلف - إيدان بأن غائلة الظلم آيلة إلى صاحبه (س/٥٧).

(٥) وتسميته مكرّاً لكونه بمقابلة مكرهم أو لكونه في صورة المكر في الإتيان من حيث لا يشعرون (س/٥٨).

إِنْ نَافِيَةٌ وَاللَّامُ مُؤَكَّدَةٌ لَهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ﴾^(١) عَلَى أَنَّ الْجِبَالَ مَثَلٌ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْوِهِ. وَقِيلَ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ مَكْرُؤًا لِيَزِيلُوا مَا هُوَ كَالْجِبَالِ الرَّاسِيَةِ ثِبَاتًا وَتَمَكُّنًا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرَائِعِهِ. وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ لَتَزُولَ بِالْفَتْحِ وَالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهَا الْمَخَفَفَةُ وَاللَّامُ هِيَ الْفَاصِلَةُ، وَمَعْنَاهُ تَعْظِيمُ مَكْرِهِمْ. وَقَرِءَ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْبِ عَلَى لُغَةٍ مَنْ يَفْتَحُ لَمْ يَكُنْ^(٢). وَقَرِءَ وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ.

فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

(٤٧) ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾^(٣) ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٤). وَأَصْلُهُ مُخْلِفٌ رُسُلَهُ وَعْدَهُ، فَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ الثَّانِي إِذْنًا بِأَنَّهُ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ أَصْلًا كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ أَلِيمُكَادَ﴾^(٥) وَإِذَا لَمْ يَخْلِفْ وَعْدَهُ أَحَدًا فَكَيْفَ يُخْلِفُ رُسُلَهُ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ لَا يُمَآكِرُ قَادِرٌ لَا يُدَافَعُ. ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ.

(٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ بَدَلٌ مِنْ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ، أَوْ ظَرْفٌ لِلانْتِقَامِ، أَوْ مَقْدَرٌ بِإِذْنِ اللَّهِ أَوْ لَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ بِمُخْلِفٍ لِأَنَّ مَا قَبْلَ أَنْ لَا يَعْمَلُ فِيمَا بَعْدَهُ^(٦). ﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْأَرْضِ وَتَقْدِيرُهُ وَالسَّمَوَاتُ غَيْرُ السَّمَوَاتِ. وَالتَّبْدِيلُ يَكُونُ فِي الذَّاتِ كَقَوْلِكَ: بَدَّلْتُ الدِّرَاهِمَ دَنَانِيرَ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾^(٧)، وَفِي الصِّفَةِ كَقَوْلِكَ بَدَّلْتُ الْحَلَقَةَ خَاتَمًا إِذَا أَذْبَنَهَا وَغَيَّرْتَ شَكْلَهَا، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّفَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(٨) وَالآيَةُ تَحْتَمِلُهُمَا، فَعَنْ عَلِيٍّ^(٩) رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: تُبَدَّلُ أَرْضًا مِنْ فِضَّةٍ وَسَمَوَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ^(١٠) وَأَنْسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: يُخْشَرُ النَّاسُ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءَ لَمْ يُخْطِئْ عَلَيْهَا أَحَدٌ خَطِيئَةً. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١١) رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: هِيَ تِلْكَ الْأَرْضُ وَإِنَّمَا تُغَيَّرُ صِفَاتُهَا. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ^(١٢) رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ.

(١) الأنفال: (٣٣).

(٢) أي «لَتَزُولَ».

(٣) غافر: (٥١).

(٤) المجادلة: (٢١).

(٥) آل عمران: (٩).

(٦) وتقديم تبديل الأرض على السموات لقربها منا، ولكون تبديلها أعظم أثر بالنسبة إلينا (س/٥/٦٠).

(٧) النساء: (٥٦).

(٨) الفرقان: (٧٠).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج ١٣/٢٥١) عنه وزاد السيوطي نسبته في الدر (٥٧/٥) إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة».

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج ١٣/٢٤٩ - ٢٥٠) عنه، وانظر الدر المتثور (٥٦/٥ - ٥٧) وقال البيهقي: والموقوف أصح.

(١١) لم أقف عليه.

(١٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج ١٣/٢٥٢) عنه.

عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قُبْسُطٌ وَتُمَدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاطِيَّ» ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾^(١) اعلم أنه لا يلزم على الوجه الأول أن يكون الحاصل بالتبديل أرضاً وسماءً على الحقيقة، ولا يبعد على الثاني أن يجعل الله الأرض جهنم والسموات الجنة على ما أشعر به قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَّتٍ﴾^(٢) وقوله ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَاجِرِ لَفِي سِجِّينٍ﴾^(٣). ﴿وَبَرَزُوا﴾ من أجدادهم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ لمحاسبته ومجازاته. وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٤) فَإِنَّ الْأَمْرَ إِذَا كَانَ لَوَاحِدٍ غَلَابٌ لَا يُغَالَبُ فَلَا مُسْتَعَاذَ لِأَحَدٍ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا مُسْتَجَارَ.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾

(٤٩) ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرْنٌ بعضهم مع بعضٍ بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال كقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ﴾^(٥)، أو قُرْنُوا مع الشياطين، أو مع ما اكْتَسَبُوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة، أو قُرْنَتْ أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وهو يحتمل أن يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفته أيديهم وأرجلهم^(٦). ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ متعلق بمقرنين أو حال من ضميره. وَالصَّفَادُ القيد، وقيل الغل، قال سلامة بن جندل.

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَاقَى صِفَادًا يَعْضُ بِسَاعِدٍ وَيَعْظُم سَاقَ وَأَصْلُهُ الشَّدُّ.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قُمَصَانُهُمْ. ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وجاء قطران لُعْتَيْنِ فِيهِ^(٧)، وهو ما يُتَحَلَّبُ مِنَ الْأَبْهَلِ^(٨) فيطبخ فتها به الإبل الجزبي فيخرق الجرب بحدته، وهو أسود مُتْنِنٌ تشتعل فيه النار بسرعة، تُظَلَّى به جلود أهل النار حتى يكون طلاؤه لهم كالقُمَصِ ليجمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه وتترى ريحهم مع إسراع النار في جلودهم، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، ويحتمل أن يكون تمثيلاً لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديئة والهيئات الوحشية فيجلب إليها أنواعاً من الغموم والآلام. وعن يعقوب قطران. والقَطْرُ الثَّحَاسُ أو الصُّفْرُ المذاب، والآني المتناهي حره، والجملة حال ثانية أو حال من الضمير في مقرنين. ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ وتغشاها لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ولم يستعملوا في تدبيره مشاعرهم وحواسهم التي خُلِقَتْ فيها

(١) طه: (١٠٧).

(٢) المطففين: (١٨).

(٣) المطففين: (٨).

(٤) غافر: (١٦).

(٥) التكويد: (٧).

(٦) قوله «وترى» عدل إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار (س/٥/٦٠).

(٧) الأولى بفتح القاف وكسر الطاء «قَطِرَانٌ» والثانية بكسر القاف وسكون الطاء «قَطِرَانٌ» (المصباح المنير مادة قطر).

(٨) الأبهل نوع من الشجر.

لأَجَلِهِ^(١)، كما تَطَّلِعُ على أَفْئِدَتِهِمْ لِأَنَّهَا فَارِغَةٌ عَنِ الْمَعْرِفَةِ مَمْلُوءَةٌ بِالْجَهَالَاتِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ؟﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾^(٣).

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذِرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي كل نفس مُجْرِمَةً. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أو كل نفس من مُجْرِمَةٍ أو مطيعَةٍ، لأنه إذا بَيَّنَّ أن المجرمين يعاقبون لإجرامهم عَلِمَ أن المطيعين يثابون لطاعتهم، ويتعين ذلك إن عُلِقَ اللامُ بِبَرَرُوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه لا يشغله حساب عن حساب.

(٥٢) ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن أو السورة أو ما فيه العظة والتذكير أو ما وصفه من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾^(٤). ﴿بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ كفاية لهم في الموعظة. ﴿وَلِيُنْذِرُوا بِهِ﴾ عطف على محذوف أي لِيُنْصَحُوا وليُنْذِرُوا بهذا البلاغ، فتكون اللامُ متعلقةً بالبلاغ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره: وليُنْذِرُوا به أَنْزَلَ أو ثَلَّى. وقرئ بفتح الياء مَنْ نَذَرَ بِهِ إِذَا عَلِمَهُ وَاسْتَعْدَلَهُ.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة عليه أو المنبهة على ما يَدُلُّ عليه^(٥). ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ فيرتدعوا عما يُزِدْنِيهِمْ ويتدبروا بما يُخْطِئُهُمْ. واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي الغاية والحكمة في إنزال الكتب، تكميل الرسل للناس، واستكمال القوة النظرية التي مُنْتَهَى كَمَالُهَا التوحيد، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى، جَعَلَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْفَائِزِينَ بهما. وعن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ أَغْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ وَعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا»^(٦).

☆☆☆

(١) وتخصيص الوجوه بذلك لكونها أعز الأعضاء الظاهرة ومجمع المشاعر والحواس (س/٥/٦١).

(٢) الزمر: ٢٤.

(٣) القمر: ٤٨.

(٤) إبراهيم: ٤٢.

(٥) وتقديم الإنذار على العلم لأنه الداعي إلى التأمل المؤدي إلى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكر في قوله «وليذكر أولوا الأبواب» (س/٥/٦٢).

(٦) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضات (١/٢٤٠) وقد رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٧٤٦).

سُورَةُ الْحَجَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ
يَاْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

سورة الحجر مكية^(١) وهي تسع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آيات السورة، والكتابُ هو السورة، وكذا القرآن. وتنكيره للتفخيم أي آياتُ الجامعِ لكونه كتاباً كاملاً وقرآنًا يُبَيِّنُ الرُّشْدَ من الغيِّ بياناً غريباً.

(٢) ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حينَ عاينوا حالَ المسلمين عندَ نزولِ النصر، أو حلولِ الموت، أو يومَ القيامة. وقرأ نافعٌ وعاصمٌ رَبِّمَا بالتخفيف^(٢)، وقرىء رَبِّمَا بالفتح والتخفيف. وفيه ثمان لغات: ضمُّ الراء وفتحها مع التشديد والتخفيف وبتاء التانيث ودونها^(٣)، وما كافَّةٌ تكفُّه عن الجرِّ فيجوز دخوله على الفعل، وحقُّه أن يدخلَ الماضي لكن لما كان المترقِّبُ في أخبار الله تعالى كالماضي في تحقُّقه أُجْرِيَ مَجْرَاهُ، وقيل: ما نكرةٌ موصوفةٌ كقوله:

رَبِّمَا تَكْرَهُ الثُّقُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحُلِّ الْعَقَالِ

ومعنى التقليل فيه بالإيذان بأنهم لو كانوا يؤدُّون الإسلامَ مرةً فبالحرِّي أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يؤدُّونه كلَّ ساعة. وقيل تدهشهم أهوالُ القيامة فإن حانت منهم إفاقةٌ في بعض الأوقات تمنَّوا ذلك. والغيبَةُ في حكاية ودَادَتِهِمْ كالغيبَةِ في قولك: حلفَ بالله ليفعلنَّ.

(١) مكية بالإتفاق، وهو مروي عن ابن عباس وابن الزبير انظر الدر المنثور (٦١/٥).

(٢) وقرأ الباقون من السبعة بتشديد الباء.

(٣) وذكر ابن هشام في مغني اللبيب (١٣٨/١) أن فيها ست عشرة لغة. وقوله (وبتاء التانيث) أي بدل ما (ربت).

(٣) ﴿ذَرَهُمْ دَغَمٌ﴾. ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنيائهم^(١). ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ﴾ ويشغلهم توقُّعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه. والغرض إقناط الرسول ﷺ من ارعوائهم وإيذاؤه بأنهم من أهل الخذلان، وإن نصَّحهم بعد اشتغال بما لا طائل تحته، وفيه إلزام للحجَّة وتحذير عن إثارة التَّعَمُّع وما يؤدي إليه طول الأمل.

(٤) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أجلٌ مقدَّرٌ كُتِبَ في اللوح المحفوظ. والمستثنى جملة واقعة صفة لقريّة، والأصل أن لا تدخلها الواو كقوله: ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾^(٢) ولكن لما شابها صورته صورة الحال أَدْخَلْتُ تأكيداً لِلصُّوقِهَا بالموصوف.

(٥) ﴿مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ أي وما يستأخرون عنه^(٣)، وتذكير ضمير أُمَّةٍ فيه لِلْحَمْلِ على المعنى.

(٦) ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ نادوا به النبي ﷺ على التَّهَكُّم، ألا ترى إلى ما نادوه له وهو قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ونظير ذلك قولُ فرعون: إن رسولكم الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون، والمعنى إنك لتقول قول المجانين حين تدَّعي أن الله تعالى نزل عليك الذكر، أي القرآن^(٤).

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾

(٧) ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾ رَغِبَ لو مع ما كما رُكِبَتْ مع لا للمعنيين: امتناع الشيء لوجود غيره، والتحضيض. ﴿بِالْمَلَكَةِ﴾ ليصدقوك ويعضدوك على الدعوة، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. أو للعقاب على تكذيبنا لك كما أنت الأمم المكذبة قبل. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك.

(٨) ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ﴾ بالياء ونَضِب الملائكة على أن الضمير لله تعالى. وقرأ حمزة والكسائي

(١) وفي تقديم الأكل على التمتع إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمأكَل والمشارب (س/٥/٦٥).

(٢) الشعراء: (٢٠٨).

(٣) وصيغة الاستفعال «وما يستأخرون» للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له. وإيثار صيغة المضارع في الفعلين - بعدما ذكر نفي الإهلاك بصيغة الماضي - لأن المقصود بيان دوامها واستمرارها فيما بين الأمم الماضية والباقية. وإسنادهما إلى الأمة - بعد إسناد الإهلاك إلى القرية - لما أن السبق والاستتخار حال الأمة دون القرية. وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم - مع كون المقام مقام المبالغة في بيان تحقق عذابهم - إما باعتبار تقدم سبق في الوجود، وإما باعتبار أن المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك (س/٥/٦٦).

(٤) وتقديم الجار والمجرور «عليه» على القائم مقام الفعل «الذكر» لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكراً من الله تعالى، لا إلى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما في قوله تعالى «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم».

فإن الإنكار هناك متوجه إلى كون المنزل عليه رسول الله تعالى.

وإيراد الفعل على صيغة المجهول لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل (س/٥/٦٧).

وحفص بالنون، وأبو بكر بالتاء والبناء للمفعول ورفع الملائكة. وقرئ تَنَزَّلُ بمعنى تَنَزَّلُ. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق أي بالوجه الذي قدره واقتضته حكمته، ولا حكمة في أن تأتيكم بصور تشهدونها فإنه لا يزيدكم إلا كبساً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة فإن منكم ومن ذراريكم من سبقت كلمتنا له بالإيمان. وقيل الحق الوحي أو العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ إذا جواب لهم وجزاء لشرط مقدّر، أي ولو نزلنا الملائكة ما كانوا مُنْظَرِينَ.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ ﴿١٦﴾

(٩) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ ردّ لإنكارهم واستهزائهم، ولذلك أكّده من وجوه وقرّره بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي من التحريف والزيادة والنقص بأن جعلنا معجزاً مبيناً لكلام البشر، بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان، أو نفى تطرّق الخلل إليه في الدوام بضمّان الحفظ له كما نفى أن يُطعن فيه بأنه المنزّل له. وقيل الضمير في له للنبي ﷺ.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ في فرقهم، جمع شيعه وهي الفرقة المتفقه على طريق ومذهب من شاعه إذا تبعه، وأصله الشياغ وهو الحطب الصغار تُوقد به الكبار، والمعنى نبأنا رجالاً فيهم وجعلناهم رؤلاً فيما بينهم.

(١١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما يفعل هؤلاء، وهو تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام. وما للحال لا يدخل إلا مضارعاً بمعنى الحال، أو ماضياً قريباً منه، وهذا على حكاية الحال الماضية.

(١٢) ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ نُذِخْهُ. ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والسلك إدخال الشيء في الشيء، كالخيط في المخيط والرمح في المطعون، والضمير للاستهزاء. وفيه دليل على أن الله تعالى يوجّد الباطل في قلوبهم. وقيل للذكر فإن الضمير الآخر في قوله:

(١٣) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ له وهو خالٍ من هذا الضمير، والمعنى مثل ذلك السلك نسلك الذّكر في قلوب المجرمين مكذباً غير مؤمن به، أو بيان للجملة المتضمنة له، وهذا الاحتجاج ضعيف إذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها في المرجوع إليه ولا يتعيّن أن تكون الجملة حالاً من المجرمين، ولا ينافي كونها مفسّرة للمعنى الأول بل يقويه. ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم بأن خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم، أو بإهلاك من كذب الرسل منهم فيكون وعيداً لأهل مكة.

(١٤) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على هؤلاء المقترحين. ﴿بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون إليها ويروّون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يروّون، أو تصعد الملائكة وهم يشاهدونهم.

(١٥) ﴿لَقَالُوا﴾ من غُلُوهِمْ في العناد وتشكيكهم في الحق. ﴿إِنَّمَا سَكِرْتُمْ أَبْصَرْنَا﴾ سُدَّتْ عن الأبصار بالسُّحْرِ من السُّكْرِ، ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف^(١)، أو حُيِّرَتْ من الشُّكْرِ ويدلُّ عليه قراءة مَنْ قرأ سَكِرْتُمْ. ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ قد سَحَرْنَا محمدًا بذلك كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات. وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على البت بأن ما يَزُونُهُ لا حقيقة له بل هو باطلٌ خُيِّلَ إليهم بنوع من السُّحر.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشرَ مختلفةَ الهيئات والخواصُّ على ما دلَّ عليه الرُّصْدُ والتجربة مع بساطة السماء. ﴿وَرَزَقْنَاهَا﴾ بالأشكال والهيئات البهية. ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ الاعتبارين المستدلين بها على قدرة مُبدِعِها وتوحيد صانعِها.

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ بَرَزْتُمْ مِنْهَا ﴿٢٠﴾

(١٧) ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ فلا يَقْدِرُ أن يصعدَ إليها ويوسوسَ إلى أهلها ويتصرفَ في أمرها ويطلعَ على أحوالها.

(١٨) ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ بدلٌ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ. واستراقُ السمع اختلاسه سِرًّا، شبه به خَطْفَتَهُمُ السيرة من قُطَانٍ^(٢) السموات لما بينهم من المناسبة في الجوهر أو بالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها. وعن ابن عباس^(٣) رضي الله تعالى عنهما: أنهم كانوا لا يُخَجَّبُونَ عن السموات، فلما وُلِدَ عيسى عليه الصلاة والسلام مُنِعُوا من ثلاثِ سمواتٍ، فلما وُلِدَ محمدٌ ﷺ مُنِعُوا مِنْ كُلِّهَا بالشُّهْبِ. ولا يَقْدَحُ فيه تَكُونُهَا قَبْلَ المولد لجواز أن يكونَ لها أسبابٌ أُخَرُ. وقيل الاستثناء مُنْقَطِعٌ أي ولكنَّ مَنْ استرقَ السمعَ. ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ فَتَبِعَهُ وَلَحِقَهُ. ﴿شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ للمُبْصِرِينَ. والشُّهَابُ شَعْلَةُ نار ساطعة، وقد يُطْلَقُ للكوكبِ والسَّانِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ البريق.

(١٩) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسَطْنَاهَا. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو فيها وفي الجبال. ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ مقدَّرٌ بمقدار مُعَيَّنٍ تقتضيه حِكْمَتُهُ، أو مستحسنٌ مناسبٌ من قولهم كلامٌ موزونٌ، أو ما يُوزَنُ ويُقَدَّرُ، أو له وَزَنٌ في أبوابِ النعمة والمنفعة.

(٢٠) ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس. وقرئ معاشٍ بالهمزة على التشبيه بشمائل. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ بَرَزْتُمْ مِنْهَا﴾ عطفٌ على معاشٍ أو على محلٍّ لكم. ويريدُ به العيال والخدم

(١) قراءة ابن كثير بتخفيف الكاف والبناء للمفعول «سَكِرْتُمْ».

(٢) قُطَانٌ جمعٌ مفردا قاطن وهو المقيم.

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣٧٢/٤) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣٨٩/٤) عنه.

والممالكَ وسائرَ ما يظنون أنهم يَرْزُقُونَهُمْ ظناً كاذباً، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُمْ وإياهم. وَفَذَلِكَ الْآيَةُ: الاستدلالُ بِجَعْلِ الْأَرْضِ ممدودةً بمقدارٍ وشكلٍ مُعَيَّنَيْنِ مختلفةَ الأجزاء في الوضعِ مُخَدَّعةً فيها أنواعُ النباتِ والحيوانِ المختلفةِ خِلْقَةً وطبيعةً مع جوازِ أن لا تكونَ كذلكَ على كمالِ قدرتهِ وتناهيِ حكمتهِ والتفردِ في الألوهيةِ والامتنانِ على العبادِ بما أنعمَ عليهم في ذلكَ لِئَوْحُدُوهُ ويعبدوه، ثم بَالِغٍ في ذلكَ وقالَ:

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وُجِدَ منه. فضربَ الخزائنَ مثلاً لاقتداره، أو شبهَ مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يُحَوِّجُ إخراجها إلى كَلَفٍ واجتهاد. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ من بقاع القُدرة. ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ حدُّه الحكمةُ وتعلَّقَتْ به المشيئةُ، فَإِنَّ تخصيصَ بعضها بالإيجاد في بعضِ الأوقاتِ مشتقلاً على بعضِ الصفاتِ والحالات لا بدُّ له من مُخَصَّصٍ حكيمٍ.

(٢٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ حواملَ، شبهَ الرِّيحَ التي جاءت بخير من إنشاءِ سَحَابٍ ماطرٍ بالحاملِ كما شبهَ ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملقحاتٍ للشجر ونظيره الطوائعُ بمعنى المطيحاتِ في قوله:

وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيعُ الطَّوَائِعُ

وَقُرِئَ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ على تأويلِ الجنسِ. ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سُقْيَا. ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ قادرينَ متمكِّنينَ من إخراجهِ، نفَى عنهم ما أثبتهُ لنفسه، أو حافظينَ في الغُدْرانِ والعيونِ والآبارِ. وذلكَ أيضاً يدل على المدبِّرِ الحكيمِ كما تدل حركةُ الهواءِ في بعضِ الأوقاتِ من بعضِ الجهاتِ على وجهٍ ينتفع به الناسُ، فإن طبيعةَ الماءِ تقتضي الغورَ فَوْقُوفُهُ دُونَ حَدٍّ لا بدُّ له من سببٍ مخصَّصٍ.

(٢٣) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بإيجادِ الحياةِ في بعضِ الأجسامِ القابلةِ لها. ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها، وقد أَوَّلَ الحياةَ بما يعُمُّ الحيوانَ والنباتَ. وتكريرُ الضميرِ للدلالة على الحضرِ. ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقيون إذا ماتَ الخلائقُ كُلُّهَا.

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ مَنِ اسْتَقْدَمَ ولادةً وموتاً ومن استأخَرَ، أو مَنْ خرج من أصلابِ الرجالِ ومن لم يخرج بعدُ، أو مَنْ تقدَّم في الإسلامِ والجهادِ وسبقَ إلى الطاعةِ أو تأخَّرَ، لا يَخْفَى علينا شيءٌ من أحوالِكُمْ، وهو بيانٌ لكَمالِ عِلْمِهِ بعدَ الاحتجاجِ على كَمالِ قدرتهِ فإن ما يدلُّ على قدرتهِ دليلٌ على عِلْمِهِ. وقيلَ رَغِبَ رسولُ الله ﷺ في الصفِّ الأولِ فازدَحَمُوا عليه

فتزلت^(١). وقيل إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ فتقدم بعض القوم لئلا ينظر إليها وتأخر بعض ليصيرها فتزلت^(٢).

وَلَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿وَلَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالة للجزاء. وتوسيط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم لا غير. وتصدير الجملة بأن لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله: ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمه متيقن في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ وسع علمه كل شيء^(٣).

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ﴾ من طين يابس يصلصل أي يصوت إذا نُفِرَ. وقيل هو من صلصل إذا أتنن تضعيف صل. ﴿مِنْ حَمَلٍ﴾ طين تغير واسود من طول مجاورة الماء، وهو صفة صلصال

(١) لم أقف عليه.

وقد أخرج مسلم (٣٢٦/١ رقم ٤٤٠/١٣٢) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٦/٥ رقم ٣١٢٢) والنسائي (١١٨/٢ رقم ٨٧٠) وابن ماجه (٣٣٢/١ رقم ١٠٤٦) وابن حبان (ص ٤٣٣ رقم ١٧٤٩ - موارد) والحاكم في المستدرک (٣٥٣/٢) وأحمد في المسند (٣٠٥/١) والطبري في «جامع البيان» (٨/ج ٢٦/١٤) وابن أبي حاتم - كما في الدر المنثور للسيوطي (٧٣/٥) والطيايسي في المسند (ص ٣٥٤ رقم ٢٧١٢) والطبراني في الكبير (١٧١/١٢ رقم ١٢٧٩١).

كلهم بأسانيد عن نوح بن قيس الخدائي، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس - به قال الترمذي «وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء نحوه. ولم يذكر فيه عن ابن عباس. وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح» - هـ.

وقال المباركغوري في «التحفة» (٥٥١/٨) «لو صح حديث ابن عباس هذا لكان هو أولى الأقوال لكن الأشبه أنه قول أبي الجوزاء كما صرح به الترمذي» - هـ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٥٦٩/٢) «وهذا الحديث فيه نكارة شديدة...».

والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

قلت: ذكر ابن جرير الطبري تأويلين آخرين في الآية (٨/ج ٢٦/١٤).

(الأول): المستقدمين من الأمم والمستأخرين من أمة محمد ﷺ.

(الثاني): - المستقدمين في الخير والمستأخرين عنه.

وأسند كلا التأويلين عن جماعة من السلف، ثم قال رحمه الله تعالى:

«وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك، ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حي، ومن حادث منكم ممن لم يحدث بعد، لدلالة ما قبله من الكلام على ما بعده...»

وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء، والمستأخرين فيه لذلك ثم يكون الله عز وجل عم بالمعنى المراد منه جميع الخلق...» - هـ.

(٣) وتقديم صفة الحكمة على العلم للإيدان باقتضاها للحشر والجزاء (س ٧٣/٥).

أي كائن من حملاً. ﴿مَسْنُونٌ﴾ مصوّر من سنّة الوجه^(١). أو مصبوبٍ لِيَبْسَ وَيُتَصَوَّرَ كالجواهر المذابة تُصَبُّ في القوالب، من السنّ وهو الصبّ كأنه أفرغ الحمأ فصوّر منها تمثال إنسان أجوف، فَيَبْسَ حتى إذا نُقِرَ صَلَصلَ، ثم غيّر ذلك طوراً بعد طوّرٍ حتى سوّاه ونفخ فيه من روحه. أو منتني من سنتّ الحجر على الحجر إذا حَكَكْتَهُ به، فإنّ ما يسيل بينهما يكونُ منتناً ويُسمّى السنين.

وَالْبَآنَ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلَصلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٧) ﴿وَالْبَآنَ﴾ أبا الجنّ، وقيل إبليس، ويجوز أن يُراد به الجنس كما هو الظاهر من الإنسان، لأن تشعّب الجنس لما كان من شخص واحد خُلِقَ من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقاً منها. وانتصابه بفعلٍ يفسره: ﴿خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ﴾ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ. ﴿مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ من نار الحرّ الشديد النافذ في المسام، ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيطة كما لا يمتنع خلقها في الجواهر المجردة فضلاً عن الأجساد المؤلفة التي الغالب فيها الجزء الناري، فإنها أقبل لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضي. وقوله: ﴿مِنْ نَارِ﴾ باعتبار الغالب كقوله: ﴿خلقكم من ترابٍ﴾. ومساق الآية كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين، فهو للتبني على المقدمة الثانية التي يتوقّف عليها إمكان الحشر، وهو قبول المواد للجمع والإحياء.

(٢٨) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله^(٢) ﴿لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلَصلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

(٢٩) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ عدلت خلقته وهيأته لنفخ الروح فيه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ حتى جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيي. وأصل النفخ إجرأ الريح في تجويف جسم آخر، ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب وتفيض عليه الحيوانية فيسري حاملاً لها في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن جعل تعلّقه بالبدن نفخاً. وإضافة الروح إلى نفسه لما مرّ في النساء^(٣). ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ فاسقطوا له. ﴿سَاجِدِينَ﴾ أمر من وقع يقع.

(٣٠) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَكِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أكّد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص. وقيل أكّد بالكلّ للإحاطة وبأجمعين للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعةً، وفيه نظر إذ لو كان الأمر كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

(١) من سنة الوجه أي صورته.

(٢) وتذكير الوقت لأنه أدخل في تذكير ما وقع فيه من الحوادث. . والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشيء إلى كماله اللائق به شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشاراً بعلّة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام (س/٥/٧٤).

(٣) عند قوله تعالى: «ألقاها إلى مريم وروح منه» [النساء: ١٧١].

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْنَئُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

(٣١) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ إِنَّ جُعِلَ مُنْقَطِعاً انْصَلَ بِهِ قوله: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي ولكن إبليس أبى، وإن جُعِلَ مُتَّصِلاً كَانَ استئنافاً على أَنَّهُ جوابُ سائلٍ قال هلاً سجد.

(٣٢) ﴿قَالَ يَبْنَئُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ أي غَرَضِي لَكَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ. ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ لآدم.

(٣٣) ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصحُّ مِنِّي وينافي حالي أن أسجد. ﴿لِشَيْءٍ﴾ جسمانيّ كثيفٍ وأنا مَلَكٌ روحانيّ. ﴿خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ وهو أخسُّ العناصر، وخلقتني من نار وهي أشرفها، استنقص آدم عليه السلام باعتبار النوع والأصل وقد سبق الجواب عنه في سورة الأعراف^(١).

(٣٤) ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة أو زمرِ الملائكة. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرودٌ من الخير والكرامة، فَإِنَّ مَنْ يُطْرَدُ يُزَجَّمُ بالحجر أو شيطانٌ يُزَجَّمُ بالشُّهْب، وهو وعيد يتضمَّن الجواب عن شُبُهَتِهِ.

(٣٥) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ هذا الطرد والإبعاد. ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإنه مُتَّهَى أمدِ اللعن، فإنه يناسب أيامَ التكليف، ومنه زمانُ الجزاء. وما في قوله: ﴿فَأَذَنُ مُؤَدَّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢) بمعنى آخر يَنسَى عنده هذه. وقيل إنما حدَّ اللعن به لأنه أبعدُ غايةً يضربها الناسُ، أو لأنه يعذبُ فيه بما ينسى اللعنَ معه فيصيرُ كالزائل.

(٣٦) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ فأخزني، والفاء متعلقةٌ بمحذوف دلٌّ عليه: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾^(٣) ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد أن يجدَ فُسْحَةً في الإغواء أو نَجاةً من الموت، إذ لا موتَ بعدَ وقتِ البعث فأجابه إلى الأولِ دونَ الثاني.

(٣٧) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

(٣٨) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ المسمَّى فيه أجلُّك عند الله، أو انقراضُ الناسِ كُلِّهم وهو النفخةُ الأولى عند الجمهور، ويجوز أن يكون المرادُ بالأيام الثلاثة يومَ القيامة. واختلافُ العبارات لاختلافِ الاعتبارات، فعبرَ عنه أولاً بيومِ الجزاء لما عزفتُه، وثانياً بيومِ البعث إذ به يحصلُ العلم بانقطاع التكليف واليأسِ عن التضييل، وثالثاً بالمعلوم لوقوعه في الكلامين. ولا يلزم من ذلك أن لا يموت

(١) الأعراف: ١٢٢.

(٢) الأعراف: ٤٤.

(٣) الحجر: ٣٤.

فلعلَّه يموت أولَ اليوم ويُبْعَثُ مع الخلائق في تضاعيفه، وهذه المخاطبة وإن لم تكن بواسطة لم تدلَّ على منصبِ إبليسَ لأن خطابَ الله له على سبيل الإهانة والإذلال.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَوتُنِي﴾ الباء للقسَم، وما مصدرية، وجوابه: ﴿لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والمعنى: أقسمُ بإغوائك إِيَّايَ لَأَزِيَنَّ لَهُمُ الْمَعَاصِيَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ الْغُرُورِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾. وفي انعقادِ الْقَسَمِ بأفعالِ الله تعالى خلافاً. وقيلَ للسببية. والمعتزلة أَوَّلُو الْإِغْوَاءَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْغَيِّ. أو التَّسَبُّبِ لَهُ بِأَمْرِهِ إِيَّاهُ بِالسَّجُودِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو بِالْإِضْلَالِ عَنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ، واعتذروا عن إِمهَالِ اللَّهِ لَهُ - وهو سببٌ لزيادةِ غِيِّهِ وتسليطِ لَهُ عَلَى إِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ - بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ مِنْهُ وَمِمَّنْ تَبِعَهُ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَيَصِيرُونَ إِلَى النَّارِ أُنْهَلًا أَوْ لَمْ يُنْهَلْ وَأَنَّ فِي إِمهَالِهِ تَعْرِضاً لِمَنْ خَالَفَهُ لِاسْتِحْقَاقِ مُزِيدِ الثَّوَابِ. وَضَعْفُ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَى ذَوِي الْأَلْبَابِ. ﴿وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وَلَاخْمِلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَلَى الْغَوَايَةِ.

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرْطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعملُ فيهم كَيْدِي. وقرأ ابن كثير وابنُ عامر وأبو عمرو بالكسر^(١) في كُلِّ الْقُرْآنِ أَيِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا نَفْسَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى.

(٤١) ﴿قَالَ هَذَا صِرْطٌ عَلَى﴾ حَقٌّ عَلَيَّ أَنْ أَرَأِيَهُ. ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحرافَ عنه. والإشارةُ إلى ما تَضَمَّنَهُ الاستثناءُ وهو تَخْلِيصُ الْمُخْلِصِينَ مِنْ إِغْوَائِهِ، أَوِ الْإِخْلَاصُ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ طَرِيقٌ عَلَيَّ يُوْدِي إِلَى الْوَصُولِ إِلَيَّ مِنْ غَيْرِ اعْوِجَاجٍ وَضَلَالٍ. وقرئَ عَلَيَّ مِنْ عُلُوِّ الشَّرَفِ.

(٤٢) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ تصديقٌ لِإِبْلِيسَ فيما استثنَاهُ. وتغييرُ الْوَضْعِ^(٢) لِتَعْظِيمِ الْمُخْلِصِينَ، وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ عِصْمَتِهِمْ وَانْقِطَاعُ مَخَالِبِ الشَّيْطَانِ عَنْهُمْ، أَوْ تَكْذِيبُ لَهُ فيما أُوْهِمَ أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُخْلِصٍ مِنْ عِبَادِهِ فَإِنَّ مُنْتَهَى تَزْيِينِهِ التَّحْرِيطُ وَالتَّدْلِيسُ كَمَا قَالَ ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي﴾^(٣) وعلى هذا يكون الاستثناءُ منقطعاً، وعلى الأولِ يَدْفَعُ قَوْلُ مَنْ شَرَطَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَثْنَى أَقْلٌ مِنَ الْبَاقِي لِإِفْضَائِهِ إِلَى تَنَاقُضِ الْإِسْتِثْنَاءَيْنِ.

(٤٣) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لموعِدُ الْغَاوِينَ أَوْ الْمُتَّبِعِينَ. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدٌ لِلْضَمِيرِ. أَوْ حَالٌ،

(١) أي بكسر اللام في «المخلصين».

(٢) قوله (وتغيير الوضع) أي تغيير وضع النظم، فإنه فيما سبق كان المستثنى من الناس والمستثنى المخلصين، وهنا المستثنى من العباد والمستثنى الغاوين. (حاشية الكازروني على البيضاوي ص ١٧٠).

(٣) إبراهيم: ٢٢.

والعاملُ فيها الموعدُ إن جعلتهُ مصدرًا على تقديرِ مضافٍ، ومعنى الإضافة إن جعلتهُ اسمَ مكانٍ فإنه لا يعملُ.

(٤٤) ﴿لَمَّا سَعَىٰ أَتَوْبَ﴾ يدخلونَ منها لكثرتهم، أو طبقاتٌ ينزلونها بحسبِ مراتبهم في المتابعة وهي: جهنمُ ثم لظى ثم الحُطمةُ ثم السعيرُ ثم سقرٌ ثم الجحيمُ ثم الهاويةُ. ولعل تخصيصَ العددِ لانحصارِ مجاميعِ المهلكاتِ في الركونِ إلى المحسوساتِ ومتابعةِ القوةِ الشهويةِ والغضبيةِ، أو لأن أهلها سبعُ فِرَقٍ. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ من الاتباع. ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أفرز له، فأعلاها للموحدِينِ العصاة. والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين. وقرأ أبو بكر جُزُؤٌ بالثقل. وقرأ جُزٌ على حذفِ الهمة وإلقاء حركتها على الزاي ثم الوقفِ عليه بالتشديد ثم إجراء الوصل مَجْرَى الوقفِ. ومنهم حالٌ منه، أو من المستكينِ في الظرفِ لا في مقسوم لأن الصفة لا تعملُ فيما تقدّم موصوفها.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبَتْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

(٤٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من أتباعه في الكفر والفواحش، فإن غيرها مكفرة. ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل واحد جنة وعين، أو لكل عدة منهما كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(١) ثم قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٍ﴾^(٢) وقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾^(٣) الآية. وقرأ نافع وحفص وأبو عمرو وهشام «وعيون والعيون» بضم العين حيث وقع، والباقون بكسر العين.

(٤٦) ﴿أَذْخُلُوها﴾ على إرادة القول. وقرأ بقطع الهمة وكسر الخاء على أنه ماضٍ فلا يُكسَرُ التنوين. ﴿بِسَلَامٍ﴾ سالمين أو مسلمًا عليكم. ﴿ءَامِينَ﴾ من الآفة والزوال.

(٤٧) ﴿وَنَزَعْنَا﴾ في الدنيا بما ألف بين قلوبهم، أو في الجنة بتطيب نفوسهم. ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقدٍ كان في الدنيا، وعن علي رضي الله تعالى عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم^(٤). أو من التحاسد على درجات الجنة ومراتب القرب. ﴿إِخْوَانًا﴾ حالٌ من الضمير في جناتٍ أو فاعلٌ أذخُلُوها أو الضمير في آمين أو الضمير المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإضافة، وكذا قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾. ويجوز أن يكونا صفتين لإخواناً، أو حالٌ من ضميره لأنه بمعنى مُتَصَافِينَ، وأن يكون متقابلين حالاً من المستقر في على سُرُرٍ.

(١) الرحمن: (٤٦).

(٢) الرحمن: (٦٢).

(٣) محمد: (١١٥).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه وابن أبي شيبة والطبراني (فتح القدير ١٣٦/٣).

(٤٨) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ استئناف، أو حالٌ بعد حال، أو حالٌ من الضمير في متقابلين. ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإنَّ تمام النعمة بالخلود.

(٤٩) ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

(٥٠) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْآلِيمُ﴾ فذلَكةَ ما سبق مِنَ الوعدِ والوعيدِ وتقريرٌ له. وفي ذكرِ المغفرة دليل على أنه لم يُرَدِّ بالمتقين مَنْ يتقي الذنوبَ بِأسرها كبيرها وصغيرها، وفي توصيفِ ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيبِ ترجيحُ الوعدِ وتأكيده، وفي عطفِ

وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَظِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ على نبيء عبادي تحقيقٌ لهما بما يُعْتَبَرُونَ به^(١).

(٥٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا سلاماً. ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون، وذلك لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. ولأنهم امتنعوا من الأكل. والوجلُّ اضطراب النفس لِتَوْفَعٍ ما تكره.

(٥٣) ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ وقرئ لا تأجل مَنْ أَوْجَلَه، ولا تُؤَاجِلْ من وَاجَلَه بمعنى أوجَلَه. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجَلِ، فإن المبشِّر لا يُخَافُ منه. وقرأ حمزة نبشرك بفتح النون والتخفيفِ مِنَ البشر. ﴿يُعَلِّمُ﴾ هو إسحاق عليه السلام لقوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِالْحَقِّ﴾^(٢). ﴿عَلِيمٌ﴾ إذا بلغ.

(٥٤) ﴿قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ تعجُّبٌ من أن يُؤَلَّدَ له مع مسِّ الكِبَرِ إيَّاهُ، أو إنكارٌ لأن يُبَشِّرَ به في مثل هذه الحالة، وكذا قوله: ﴿فِيمَ بَشِّرُونَ﴾ أي فبأي أعجوبة تبشرون، أو فبأي شيء تبشرون فإن البشارة بما لا يُتَصَوَّرُ وقوعه عادةً بشارَةٌ بغير شيء. وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددةً في كلِّ القرآن على إدغام نون الجمع في نون الوقاية وكسرها^(٣)، وقرأ نافع بكسرها مخففةً على حذفِ نون الجمع استثقالاً لاجتماع المثلثين ودلالةً بإبقاء نون الوقاية وكسرها على الياء^(٤).

(٥٥) ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ﴾ بما يكون لا محالة، أو باليقين الذي لا لبس فيه، أو بطريقة هي حقٌّ

(١) لم يتعرض لعنوان رسالة الملائكة لأنهم لم يكونوا مرسلين إلى إبراهيم عليه السلام، بل أرسلوا إلى قوم لوط عليه السلام (س ٨١/٥).

(٢) الصافات: «١١٢».

(٣) أي «بُشِّرُونَ».

(٤) أي «بُشِّرُونَ».

وهو قول الله تعالى وأمره. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف من شيخ فإن وعجوز عاقر. وكان استعجاب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة، ولذلك:

(٥٦) ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ المخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١). وقرأ أبو عمرو والكسائي يَقْنَطُ بالكسر، وقرأ بالضم، وماضيها قَنَطَ بالفتح.

(٥٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي فما شأنكم الذي أُرسلتم لأجله سوى البشارة، ولعله علم أن كمال المقصود ليس البشارة لأنهم كانوا عدداً والبشارة لا تحتاج إلى العدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام، أو لأنهم بشروا في تضاعيف الحال لإزالة الوجَل ولو كانت تمام المقصود لا ابتدؤوا بها^(٢).

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُا لَمِنَ الْغَيْرِ ﴿٦٠﴾

(٥٨) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعني قوم لوط^(٣).

(٥٩) ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ إن كان استثناء من قوم كان منقطعاً إذ القوم مقيّد بالإجرام، وإن كان استثناء من الضمير في مجرمين كان متصلاً، والقوم والإرسال شاملين للمجرمين وآل لوط المؤمنين به وكان المعنى: إنا أرسلنا إلى قوم أجرم كلهم إلا آل لوط منهم لتهلك المجرمين ونُنَجِّي آل لوط منهم، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي مما يُعَذَّب به القوم. وهو استثناء إذا اتصل الاستثناء ومتصل بآل لوط جار مجزئ خبر لكن إذا انقطع، وعلى هذا جاز أن يكون قوله:

(٦٠) ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ﴾ استثناء من آل لوط، أو من ضميرهم، وعلى الأول لا يكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يجعل إنا لمنجؤهم اعتراضاً. وقرأ حمزة والكسائي لمُنَجُّوهم مخففاً. ﴿قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُا لَمِنَ الْغَيْرِ﴾ الباقي مع الكفرة لتهلك معهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم قَدْ رَأَىٰ هُنَا وفي النمل بالتخفيف^(٤). وإنما علّق^(٥) - والتعليق من خواص أفعال القلوب - لِتَضْمَنَ معنى العلم. ويجوز

(١) يوسف: (٨٧).

(٢) وتوسط «قال» بين قوله السابق وقوله «فما خطبكم...» للإيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتناؤه عليه. ثم إن خطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة - بعدما كان خطابه السابق مجرداً عن ذلك - لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر (س/٥/٨٢).

(٣) ووصفهم بالإجرام وبطريق التنكير لدمهم والاستهانة بهم (س/٥/٨٢).

(٤) النمل: (٥٧) «قَدْ رَأَىٰهَا».

(٥) قوله (وإنما علّق) أي فعل التقدير «قَدْ رَأَىٰ».

والتعليق هو: ترك العمل لفظاً دون معنى لمانع... وارجع لبيان معنى التعليق في شرح ابن عقيل (١/٤٣٣) باب=

أن يكون قَدْزَنَا أَجْرِي مَجْرَى قُلْنَا لَأَن التَّقْدِيرَ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ قَوْلٌ، وَأَصْلُهُ جَعَلُ الشَّيْءِ عَلَى مِقْدَارٍ غَيْرِهِ. وَإِسْنَادُهُمْ إِيَّاهُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ - وَهُوَ فَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِمَا لَهُمْ مِنَ الْقُرْبِ وَالِاخْتِصَاصِ بِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنِفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

(٦١) ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾^(١).

(٦٢) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ تَنَكَّرُكُمْ نَفْسِي وَتَتَفَرَّقُ عَنْكُمْ مَخَافَةً أَنْ تَطْرُقُونِي بِشَرٍّ.

(٦٣) ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أَيُّ مَا جِئْنَاكَ بِمَا تَنَكَّرْنَا لِأَجْلِهِ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا يَسُرُّكَ وَيُسْفِي لَكَ مِنْ عَدُوِّكَ، وَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي تَوَعَّدْتَهُمْ بِهِ فَيَمْتَرُونَ فِيهِ^(٢).

(٦٤) ﴿وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ﴾ بِالْيَقِينِ مِنْ عَذَابِهِمْ. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ.

(٦٥) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فَاهْذُبْ بِهِمْ فِي اللَّيْلِ. وَقُرْأَ الْحِجَازِيَانِ^(٣) بَوْضُلِ الْهَمْزَةِ مِنَ الشَّرَى وَهُمَا بِمَعْنَى، وَقُرِءَ فِيسَزٍ مِنَ السَّيْرِ. ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ فِي طَائِفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَقِيلَ فِي آخِرِهِ قَالَ:

اِفْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي الثُّجُومِ كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعٍ لَيْلٍ بِهِمْ
﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وَكُنْ عَلَى أَثَرِهِمْ تَذَوُّدُهُمْ وَتَسْرُعُ بِهِمْ وَتَطْلُعُ عَلَى حَالِهِمْ^(٤). ﴿وَلَا يَلْنِفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ﴾
لِيَنْظُرَ مَا وَرَاءَهُ فَيَرَى مِنَ الْهَوْلِ مَا لَا يَطِيقُهُ، أَوْ فَيَصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ، أَوْ لَا يَنْصَرِفُ أَحَدُكُمْ وَلَا يَتَخَلَّفُ
أَمْرًا لَغَرَضٍ فَيَصِيبُهُ الْعَذَابُ. وَقِيلَ نُهُوا عَنِ الْإِلْتِفَاتِ لِيُوطِنُوا نَفْسَهُمْ عَلَى الْمَهَاجَةِ. ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ إِلَى حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِالْمَضِيِّ إِلَيْهِ وَهُوَ الشَّامُ أَوْ مِصْرُ، فَعُدِّي وَامْضُوا إِلَى حَيْثُ وَتُؤْمَرُونَ إِلَى
ضَمِيرِهِ الْمَحذُوفِ عَلَى الْإِتْسَاعِ^(٥).

= ظَنَ وَأَخَوَاتُهَا.

(١) قوله «المرسلون» حيث وضع المظهر موضع الضمير للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الإهلاك والنتيجة (س ٨٣/٥).

(٢) ولعل تقديم هذه المقابلة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام بإهلاك قومه وتنجية آلِه عقيب ذكر بشارة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهما (س ٨٤/٥).

(٣) الحجازيان هما: نافع وابن كثير.

(٤) ولعل إيثار الاتباع على السَّوْق - مع أنه المقصود بالأمر - للمبالغة في ذلك، إذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر (س ٨٤/٥).

(٥) وإيثار المضى إلى ما ذكر على الوصول إليه وللحق به للإيذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين (س ٨٤/٥).

(٦٦) ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي وأوحينا إليه مَقْضِيًّا، ولذلك عُدِّيَ بـإلى. ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ مبهم يُفسره: ﴿أَنْتَ دَايِرَ هَتُولَاءَ مَقْطُوعٌ﴾ ومحلُّه التَّضْبُّ على البدلِ منه، وفي ذلك تفخيمٌ لِلْأَمْرِ وتعظيمٌ له. وقرئ بالكسر على الاستئناف، والمعنى: أنهم يُسْتَأْصَلُونَ عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد^(١). ﴿مُضْجِحِينَ﴾ داخلين في الضُّجْح، وهو حالٌ من هؤلاء أو من الضمير في مقطوع، وجمعه للحمل على المعنى فإنَّ دَايِرَ هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء.

(٦٧) ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ سدوم. ﴿يَسْتَيْشِرُونَ﴾ بأضيافٍ لوطٍ طمعاً فيهم.

(٦٨) ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون﴾ بفضيحة ضيفي فإنَّ مَنْ أَسِيءَ إلى ضيفه فقد أَسِيءَ إليه.

وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في ركوبِ الفاحشة. ﴿وَلَا تُخْزُون﴾ ولا تُذِلُّوني بِسَبَبِهِم من الخِزْي وهو الهوان، أو لا تُخْجِلُوني فيهم من الخَزَايَةِ وهو الحياء.

(٧٠) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ على أن تجيرَ منهم أحداً أو تمنعَ بيننا وبينهم فإنَّهم كانوا يتعرضون لكلِّ أحدٍ وكان لوطٌ يمنعهم عنه بِقَدَرٍ وَسُعِيهِ، أو عن ضيافةِ الناس وإنزالِهِم.

(٧١) ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني نساءَ القوم فإنَّ نبيَّ كلِّ أمةٍ بمنزلةِ أبيهم، وفيه وجوهٌ ذُكِرَتْ في سورة هود^(٢). ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ قضاء الوَطْرِ، أو ما أقول لكم.

(٧٢) ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قَسَمٌ بحياة المخاطَب، والمخاطَبُ في هذا القسم هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام وقيل لوطٌ عليه السلام قالتِ الملائكةُ له ذلك، والتقديرُ لعمرِكَ قسَمي، وهو لغةٌ في العُمُرِ يختصُّ به القسمُ لإيثارِ الأخفِّ فيه لأنه كثيرُ الدَّوْرِ على السَّتِّهِم. ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ لفِي غَوَايَتِهِمْ أو شِدَّةِ غِلْمَتِهِم التي أزالَتْ عقولَهُم وتمييزَهُم بين خطيئَتِهِم والصوابِ الذي يُشَارُ بِهِ إِلَيْهِمْ. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحIRON فَكَيْفَ يسمعون نُصْحَكَ. وقيلَ الضميرُ لقريش، والجملةُ اعتراضٌ.

(٧٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحةٌ هائلةٌ مهلكة. وقيل صيحةُ جبريلَ عليه السلام. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقتِ شروقِ الشمس.

(١) وإيثار اسم الإشارة «هؤلاء» على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار ثبوت الحكم.

ولإيراد صيغة المفعول «مقطوع» بدل صيغة المضارع لكونها أدخل في الدلالة على الوقوع.

وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بذلك، وتأخيرُه عن الجار والمجرور، وإبهامه أولاً ثم تفسيره ثانياً من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى (س/٥/٨٥).

(٢) هود: (٧٨).

فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَآمِرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنَجِّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

(٧٤) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ عالي المدينة أو عالي قُرَاهُم. ﴿سَافِلَهَا﴾ وصارت مُنْقَلِبَةً بهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر أو طين عليه كتابٌ من السَّجَل. وقد تقدَّم مزيدُ بيانٍ لهذه القصة في سورة هود.

(٧٥) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفكرين المتفرسين الذين يَتَشَبَّهُونَ في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بِسَمَتِهِ.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإن المدينة أو القرى. ﴿لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها.

(٧٧) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورُسُلِهِ.

(٧٨) ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ هم قومٌ شعيب كانوا يسكنون الغِيضَةَ فبعثه الله إليهم فكذبوه فَأَهْلِكُوا بِالظُّلْمَةِ. والأَيْكَةُ الشجرة المتكاثفة.

(٧٩) ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاك. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سدوم والأَيْكَةُ. وقيل الأَيْكَةُ ومَذِينُ فإنه كان مبعوثاً إليهما فكان ذِكْرُ إحداهما منبهاً على الأخرى. ﴿لِيَأْمُرَ ثُبَيْنَ﴾ لِبَطْرِيقٍ واضح. والإمام اسمٌ ما يُؤْتَمُّ به فُسْمِي به الطريق ومَطْمَرُ البناء واللوح لأنها مما يُؤْتَمُّ به.

(٨٠) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني ثمودَ كَذَّبُوا صالِحاً، وَمَنْ كَذَّبَ واحداً من الرُّسُلِ فكأنما كَذَّبَ الجميع. ويجوز أن يكون المراد بالمرسلين صالِحاً وَمَنْ معه من المؤمنين، والحِجَرُ وإِدِ بين المدينة والشام يسكنونه.

(٨١) ﴿وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني آيات الكتاب المُنَزَّلِ على نبيهم، أو معجزاته كالناقة وسَفِيهَا وشُرْبِهَا ودَرَّهَا، أو ما نُصِبَ لهم من الأدلة.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا يُنَجِّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ من الانهدام ونَقْبِ اللصوص وتخريبِ الأعداء لوثاقَتِهَا، أو مِنَ العذابِ لِفَرْطِ غَفْلَتِهِمْ أو حُسْبَانِهِمْ أَنَّ الجبالَ تحميهم منه.

(٨٣) ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

(٨٤) ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثارِ الأموال والعُدَدِ.

(٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خَلْقاً مُلْتَبِساً بِالْحَقِّ لا يلائمُ استمرارَ الفسادِ ودوامِ الشرورِ، فلذلك اقتضتِ الحكمةُ إهلاكَ أمثالِ هؤلاء وإزاحةَ فسادهم مِنَ الأرض. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقمُ اللهُ لك فيها ممن كَذَّبَكَ. ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ولا تعجلِ بانتقامِ منهم وعامِلُهُمْ معاملةَ الصَّفُوحِ الحليمِ. وقيل هو منسوخٌ بآية السيفِ.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم وبيده أمرُك وأمرُهُم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم فهو حقيقٌ بأن تكِلَ ذلك إليه ليحكم بينكم، أو هو الذي خلقكم وعِلِمَ الأصلح لكم، وقد علم أن الصّبح اليوم أصلح، وفي مصحف عثمان وأبي رضي الله عنهما هو الخالق، وهو يصلح للقليل والكثير والخلّاق يختص بالكثير.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا﴾ سبع آيات وهي الفاتحة. وقيل سبع سور وهي الطّوال وسابعتها الأنفال والتوبة فإنهما في حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية. وقيل التوبة وقيل يونس أو الحواميم السّبع. وقيل سبع صحائف وهي الأسباع^(١). ﴿مِنَ الْمَثَانِي﴾ بيان للسّبع، والمثاني من التشية أو الثناء فإن كل ذلك مثنى تكرر قراءته، أو ألفاظه، أو قصصه ومواضعه، أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مثنى على الله بما هو أهله من صفاته العظمى وأسمائه الحُسنى. ويجوز أن يراد بالمثاني القرآن أو كتب الله كلها فتكون من للتبويض. ﴿وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ إن أريد بالسّبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص. وإن أريد به الأسباع فمن عطف أحد الوصفين على الآخر.

(٨٨) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب. ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار، فإنه مستحققر بالإضافة إلى ما أوتيته فإنه كمال مطلوب بالذات مفضي إلى دوام اللذات. وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه «مَنْ أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغّر عظيماً وعظم صغيراً»^(٢). وروي أنه عليه الصلاة والسلام وافى بأذرعَات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فقال لهم: «لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع»^(٣). ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم لم يؤمنوا. وقيل إنهم المتمتعون به. ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ﴾

(١) أي سبعة أسباع القرآن. وانظر «زاد المسير» (٤/٤١٢ - ٤١٦) والطبري «جامع البيان» للطبري (٨/ج ١٤/٥٤ - ٥٥) والدر المنثور (٥/٩٥ - ٩٦) ففيها تفصيل هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٩٣ - ٩٤ رقم ٢٤٣): «لم أجده عن أبي بكر. وأخرجه ابن عدي - في الكامل (٢/٧٨٧) - في ترجمة حمزة النصيبي، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود رفعه «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه، فقد حقر عظيماً وعظم صغيراً» وحمزة اتهموه بالوضع.

وأخرجه إسحاق والطبري من حديث عبد الله بن عمر بلفظ «من أعطى القرآن، فرأى أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله - الحديث» ١ هـ.

● قال ابن عدي عن حمزة هذا «وكل ما يرويه أو عامته مناكير موضوعة والبلاء منه ليس ممن يروي عنه، ولا ممن يروي هو عنهم» هـ.

والخلاصة أن الحديث موضوع والله أعلم.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٧٧) عن الحسين بن الفضل، قال: إن سبع قوافل وافت من بصري =

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾ وَتَوَاضَعْ لَهُمْ وَارْفُقْ بِهِمْ.

(٨٩) ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أُنذِرُكُمْ ببيان وبرهانٍ أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ نَازِلٌ بِكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا.

كَمَا أُنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾

(٩٠) ﴿كَمَا أُنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم، فهو وصف لمفعول النذير أقيم مقامه، والمقتسمون هم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم ليُنْفِرُوا الناسَ عن الإيمان بالرسول ﷺ. فاهلكهم الله تعالى يومَ بَذْرِ، أو الرهط الذين اقتسموا أي تقاسموا على أن يُبَيِّتُوا صالحاً عليه الصلاة والسلام. وقيل هو صفة مُضْدرٍ محذوف يدُلُّ عليه: «ولقد آتيناك» فإنه بمعنى أنزلنا إليك، والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآن عِضِينَ حيث قالوا عناداً: بعضه حقٌ موافقٌ للتوراة والإنجيل وبعضه باطلٌ مخالفٌ لهما، أو قَسَمُوهُ إلى شِغَرٍ وَسِخْرِ وَكَهَانَةٍ وَأَسَاطِيرِ الْأُولِينَ، أو أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أَنَّ القرآن ما يقرأ مِنْ كتبهم، فيكون ذلك تسليّة لرسول الله ﷺ، وقوله: «لَا تَمُدَّنْ عَيْنِكَ» إلخ اعتراضاً مُمَدِّداً لها.

(٩١) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أجزاء جَمْعُ عِضَةٍ وأصلها عِضْوَةٌ من عَضَى الشاة إذا جعلها أعضاء، وقيل فَعْلَةٌ مِنْ عَضَّته إذا بَهَتَهُ وفي الحديث: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ العاضَةَ والمستعضِية»^(١). وقيل أسْحَاراً، وعن عِكْرمة العِضَةِ السُّخْرُ. وإنما جُمِعَ جَمْعُ السَّلَامَةِ جَبْراً لما حُذِفَ منه. والموصولُ بِصِلَتِهِ صِغَةً لِلْمُقْتَسِمِينَ، أو مبتدأ خبره:

(٩٢) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٩٣) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من التقسيم أو النَّسَبِ إلى السُّحْرِ فنجازيهم عليه. وقيل هو عامٌّ في كلِّ ما فعلوا من الكفر والمعاصي.

(٩٤) ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجْهَزْ به مِنْ صَدَعَ بِالْحُجَّةِ إذا تكلَّم بها جَهَاراً، أو فافْزُقْ به بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وأصله الإبانة والتمييز. وما مصدرية أو موصولة، والراجعُ محذوفٌ أي بما تُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الشرائع. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تلتفت إلى ما يقولون.

= وأذرعَات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد... فذكره.

وقال الواحدي: ويدل على صحة هذا قوله على أثرها «لا تمدن عينيك» الآية.

● أذرعَات: بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وكسر الراء المهملة: موضع بالشام (الصحيح. مادة: ذرع).

● البز: الثياب والأمتعة.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل في ترجمة سلمة بن وهرام وأخرجه أبو يعلى. وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، قال ابن حجر وهما ضعيفان، وله شاهد عند عبد الرزاق من روايته عن ابن جريج عن عطاء (الكافي الشافى ص ٩٤ رقم ٢٤٤)

والعاضة والمستعضية هما: الساحرة والمستحرة.

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾

(٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بِقَمْعِهِمْ وإفلاكهم. قِيلَ كانوا خمسةً من أشرف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، يبالغون في إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء به فقال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أَكْفِيَنَّهُمْ. فَأَوْمَأَ إِلَى سَاقِ الْوَلِيدِ فَمَرَّ بِنَبَالٍ فَتَعَلَّقَ بِثَوْبِهِ سَهْمٌ فَلَمْ يَنْعُطْ تَعْظُمًا لَأَخْذِهِ فَأَصَابَ عِزْقًا فِي عَقِبِهِ فَقَطَعَهُ فَمَاتَ، وَأَوْمَأَ إِلَى أَحْمَصِ الْعَاصِ فَدَخَلَتْ فِيهِ شَوْكَةٌ فَانْتَفَخَتْ رِجْلُهُ حَتَّى صَارَتْ كَالرَّحَى وَمَاتَ، وَأَشَارَ إِلَى أَنْفِ عَدِيِّ بْنِ قَيْسٍ فَامْتَخَطَ قَيْحًا فَمَاتَ، وَإِلَى الْأَسُودِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثٍ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ فَجَعَلَ يَنْطَحُ بِرَأْسِهِ الشَّجَرَةَ وَيَضْرِبُ وَجْهَهُ بِالشَّوْكِ حَتَّى مَاتَ، وَإِلَى عَيْنِي الْأَسُودِ بْنِ الْمُطَلَبِ فَعَمِيَ^(١).

(٩٦) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مِنَ الشَّرِكِ وَالطَّعْنِ فِي الْقُرْآنِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِكَ.

(٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فَافْرَغْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا نَابَكَ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ يَكْفِكَ وَيَكْشِفُ الْغَمَّ عَنْكَ، أَوْ فَتَرِّضْهُ عَمَّا يَقُولُونَ حَامِدًا لَهُ عَلَى أَنْ هَذَاكَ لِلْحَقِّ. ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَرَّغَ إِلَى الصَّلَاةِ^(٢).

(٩٩) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أَيِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ مَتِّقُنْ لِحَاقَهُ كُلَّ حَيٍّ مَخْلُوقٍ، وَالْمَعْنَى فَاغْبُذْهُ مَا دُمْتَ حَيًّا وَلَا تُخَلِّ بِالْعِبَادَةِ لِحَظَةً^(٣). عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجْرِ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ»^(٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣١٦/٢ - ٣١٨) من حديث ابن عباس بإسناد حسن.

وأخرجه الطبراني في الأوسط - كما في «المجمع» (٤٦/٧ - ٤٧) وقال الهيثمي: «فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات». انظر «الكافي الشاف» (ص ٩٤ رقم ٢٤٥).

(٢) أخرجه ابن جرير بهذا اللفظ (٢٦٠/١) وأخرجه أحمد (٣٨٨/٥) وأبو داود (١٣١٩) بلفظ: كان إذا حزبه أمر صلى، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٥٣/٣).
والحديث حسنة الألباني في صحيح الجامع (٤١٥/٥) ثم أحاله إلى تخريج المشكاة رقم (١٣٢٥) وقال هناك: إسناده ضعيف.

لكن الحديث فيه محمد بن عبد الله الدؤلي، وهو مقبول ولكن لا متابع له، فالحديث ضعيف كما في تخريج الفتح السماوي (ص ١٧٠).

(٣) وإسناد الإتيان إلى الموت للإيذان بأنه متوجه إلى الحيّ طالب للوصول إليه (س ٩٣/٥).

(٤) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢٣٩/١ - ٢٤٠).

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنَّهُ أَمَرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

سورة النحل مكية غير ثلاث آيات في آخرها وهي مائة وثمان وعشرون آية ^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَنَّهُ أَمَرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كانوا يستعجلون ما أَوْعَدَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ من قيام الساعة، أو إهلاك الله تعالى إياهم كما فعل يوم بدر استهزاء وتكديبا، ويقولون إن صَحَّ ما تقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت. والمعنى أن الأمر الموعود به بمنزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه ^(٢). ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَبَرُّاً وَجَلَّ عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم ^(٣). وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على وفق قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والباقون بالياء على تلوين الخطاب. أو على أن الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم، لما روي أنه لما نزلت «أتى أمر الله» فوثب النبي ﷺ ورفع الناس رؤوسهم فنزلت «فلا تستعجلوه» ^(٤).

(١) انظر «زاد المسير» فصل في نزولها - أي سورة النحل (٤/٤٢٥ - ٤٢٦). و«الدر المنثور» (١٠٧/٥).

(٢) عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب (س٥/٩٤).

(٣) وصيغة الاستقبال «يشركون» للدلالة على تجدد شركهم واستمراره. والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم (س٥/٩٥).

(٤) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٢٨٤) عن ابن عباس وبدون إسناد. وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس

(٢) ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ بالوحي أو القرآن فإنه يُخَيِّي به القلوب المَيِّتَةَ بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، وذكره عقيب ذلك إشارة إلى الطريق الذي به عَلِمَ الرسول ﷺ ما تحقَّق موعدهم به ودُنُوهُ وإزاحة لاستبعادهم اختصاصه بالعلم به. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يُنَزِّلُ من أُنَزَلَ، وعن يعقوب مثله، وعنه تَنَزَّلُ بمعنى تَنَزَّلُ. وقرأ أبو بكر تُنَزَّلُ على المضارع المبني للمفعول من التنزيل. ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بأمره أو مِنْ أَجْلِهِ. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أن يَتَّخِذَهُ رسولا. ﴿أَن أَنْزِرُوا﴾ بأن أَنْزِرُوا أي أَعْلِمُوا مَنْ نَزَّزْتُ بكذا إذا عَلَّمْتَهُ. ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أَنَّ الشَّانَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ^(١)، أو خَوْفُوا أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي بأنه لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، وقوله فاتقون رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود. وأن مفسرة لأنَّ الرُّوحَ بمعنى الوحي الدالُّ على القول، أو مصدرية في موضع الجر بدلا من الرُّوحِ أو النَّضْبِ بترع الخافض، أو مخففة من الثقيلة. والآية تدل على أنَّ نزول الوحي بواسطة الملائكة، وأن حاصله التنبية على التوحيد الذي هو مُنتَهَى كمال القوة العلمية والأمر بالتقوى الذي هو أَقْصَى كمال القوة العملية، وأن النبوة عطائية، والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته مِنْ حيث إنها تدلُّ على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لَقَدَّرَ على ذلك فيلزم التمانع.

(٣) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصَّصها بحكمته. ﴿نَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ منهما أو مما يفتقر في وجوده أو بقائه إليهما ومما لا يقدر على خلقهما. وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام.

(٤) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ جمادٍ لا جسَّ بها ولا حراك سائلة لا تحفظ الوضع والشكل. ﴿فَلَمَّا هُوَ خَصِيمٌ﴾ منطبق مجادل. ﴿ثُمَّ نَفْثٌ﴾ للحجة أو خصيم مكافئ لخالفه قائل: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وهي رميم؟ روي أن أَبِي بَنَ خَلْفِ آتَى النَّبِيَّ ﷺ بِعَظْمٍ رَمِيمٍ وقال: يَا مُحَمَّدُ أَتَرَى اللَّهَ يُحْيِي هَذَا بَعْدَ مَا قَدْ رَمَتْ؟ فَنَزَّلَتْ^(٢).

(٥) ﴿وَالْأَنْعَادَ﴾ الإبل والبقر والغنم. وانتصابها بِمُضَمَّرٍ يفسره: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أو بالعطف على الإنسان، وخلقها لكم بيان ما خَلِقَتْ لِأَجْلِهِ وما بعده تفصيل له. ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ ما يُدْفَأُ به فَيَقِي الْبَرْدَ. ﴿وَمِنْ ثَمَرَةٍ﴾ نسلها ودورها وظهورها. وإنما عبَّر عنها بالمنافع ليتناول عوضها^(٣). ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي تأكلون ما يُؤْكَلُ منها من اللحوم والشحوم والألبان. وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي، أو لأنَّ الأكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش وأما الأكل مِنْ سائر الحيوانات المأكولة فعلى سبيل التدوي أو التفكُّه.

(فتح القدير ٣/١٥٠).

(١) وتصدير الجملة بـ«أنه» للإيدان بداية بفخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة تقرير له في الذهن (س/٩٦).

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٧٨ - ٢٧٩). و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٦٨) و«زاد المسير» (٤/٤٢٨).

(٣) وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترفي إلى الأعلى (س/٩٧).

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا يَسِيقَ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة. ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تَرُدُّونَهَا مِنْ مَرَاعِيهَا إِلَى مَرَاجِهَا بالعشي. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تُخْرِجُونَهَا بِالْغَدَاةِ إِلَى المَرَاعِي فَإِنَّ الْأَقْيَّةَ تَتَرَبَّصُ بِهَا فِي الْوَقْتَيْنِ وَيَجْلُ أَهْلُهَا فِي أَغْيُنِ النَّاظِرِينَ إِلَيْهَا. وتقديم الإراحة لَأَنَّ الْجَمَالَ فِيهَا أَظْهَرُ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مَلَأَى الْبَطُونَ حافلة الضروع، ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرئَ حيناً على أَنَّ تُرِيحُونَ وَتَسْرَحُونَ وَضَفَانِ لَهُ بِمَعْنَى تُرِيحُونَ فِيهِ وَتَسْرَحُونَ فِيهِ.

(٧) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أَخْمَالَكُمْ. ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَيْفِهِ﴾ أَيِ إِنْ لَمْ تَكُنِ الْأَنْعَامُ وَلَمْ تُخْلَقْ فَضْلاً أَنْ تَحْمِلُوهَا عَلَى ظُهُورِكُمْ إِلَيْهِ. ﴿إِلَّا يَسِيقَ الْأَنْفُسَ﴾ إِلَّا يَكْلَفُوْهُ وَمَشَقُّهُ. وقرئَ بالفتح وهو لغة فيه، وقيل المفتوح مصدرُ شَقَّ الْأَمْرُ عَلَيْهِ وَأَصْلُهُ الصَّدْعُ وَالْمَكْسُورُ بِمَعْنَى النَّصْفِ، كَأَنَّهُ ذَهَبَ نِصْفُ قُوَّتِهِ بِالتَّعَبِ. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حَيْثُ رَحِمَكُمْ بِخَلْقِهَا لِانْتِفَاعِكُمْ وَتيسيرِ الْأَمْرِ عَلَيْكُمْ^(١).

(٨) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ عطفٌ عَلَى الْأَنْعَامِ. ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أَيِ لِتَرْكَبُوهَا وَتَتَزَيَّنُوا بِهَا زِينَةً، وَقِيلَ هِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَحَلِّ لِرَكْبِهَا. وَتَغْيِيرُ النِّظْمِ لِأَنَّ الزِينَةَ بِفِعْلِ الْخَالِقِ وَالرَّكُوبِ لَيْسَ بِفِعْلِهِ، وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ خَلْقِهَا الرُّكُوبُ وَأَمَّا التَّرَبُّصُ بِهَا فَحَاصِلٌ بِالْعَرَضِ. وقرئَ بغير واوٍ، وَعَلَى هَذَا يُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَّةً لِرَكْبِهَا أَوْ مَصْدرًا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ أَحَدِ الضَّمِيرَيْنِ أَيِ: مُتَزَيِّنِينَ أَوْ مُتَرَبِّصِينَ بِهَا. وَاسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى حُرْمَةِ لِحُومِهَا، وَلَا دَلِيلَ فِيهِ، إِذْ لَا يَلْزَمُ مِنْ تَعْلِيلِ الْفِعْلِ بِمَا يُقْصَدُ مِنْهُ غَالِباً أَنْ لَا يُقْصَدَ مِنْهُ غَيْرُهُ أَصْلاً، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْآيَةَ مَكِيَّةٌ وَعَامَةٌ الْمَفْسَّرِينَ وَالْمُحَدَّثِينَ عَلَى أَنَّ الْحُمْرَ الْأَهْلِيَّةَ حُرِّمَتْ عَامَ خَيْبَرَ. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لِمَا فَضَّلَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُخْتِاجُ إِلَيْهَا غَالِباً احتياجاً ضرورياً أَوْ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ أَجْمَلٍ غَيْرِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَاراً بِأَنَّ لَهُ مِنَ الْخَلْقِ مَا لَا عِلْمَ لَنَا بِهِ، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ مَا خَلَقَ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِمَّا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ^(٢).

(٩) ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ بَيَانُ مُسْتَقِيمِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْحَقِّ، أَوْ إِقَامَةِ السَّبِيلِ وَتَعْدِيلِهَا رَحْمَةً وَفَضْلاً، أَوْ عَلَيْهِ قَصْدُ السَّبِيلِ يَصُلُّ إِلَيْهِ مَنْ يَسْلُكُهُ لَا مُحَالَةً يَقَالُ سَبِيلٌ قَصْدٌ وَقَاصِدٌ أَيِ مُسْتَقِيمٌ، كَأَنَّهُ يَقْصَدُ الْوَجْهَ الَّذِي يَقْصَدُهُ السَّالِكُ لَا يَمِيلُ عَنْهُ. وَالْمُرَادُ مِنَ السَّبِيلِ الْجِنْسُ وَلِلذَلِكَ أَضَافَ إِلَيْهِ الْقَصْدَ وَقَالَ: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ حَائِذٌ عَنِ الْقَصْدِ أَوْ عَنِ اللَّهِ. وَتَغْيِيرُ الْأَسْلُوبِ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِحَقٍّ

(١) وَتَغْيِيرُ النِّظْمِ إِلَى الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ «تَحْمِلُ...» الدَّالَّةُ عَلَى مَجْرَدِ الْحَدُوثِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ لَيْسَتْ فِي الْعَمُومِ - بِحَسَبِ الْمُنْشَأِ وَبِحَسَبِ الْمُتَعَلِّقِ - وَفِي الشُّمُولِ لِلْأَوَاقَاتِ وَالْأَطْرَادِ فِي الْأَحْيَانِ الْمَعْهُودَةِ بِمَثَابَةِ النِّعْمِ السَّالِفَةِ فَإِنَّهَا بِحَسَبِ الْمُنْشَأِ - وَخَاصَّةً بِالْإِبْلِ - وَبِحَسَبِ الْمُتَعَلِّقِ بِالضَّارِبِينَ فِي الْأَرْضِ... وَأَمَّا سَائِرُ النِّعْمِ الْمَعْدُودَةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْأَنْعَامِ وَعَامَةً لِكُلِّ الْمَخَاطِبِينَ دَائِماً أَوْ فِي عَامَةِ الْأَوَاقَاتِ (س/٩٨/٥).

(٢) وَالْعُدُولُ إِلَى صِبْغَةِ الْاسْتِقْبَالِ فِي «وَيَخْلُقُ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ أَوْ لاسْتِحْضَارِ الصُّورَةِ (س/٩٨/٥).

على الله تعالى أن يبين طُرُق الضلالة، أو لأن المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعَرَض. وقرئ ومنكم جائز أي عن القصد. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتمام^(١).

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب، أو من جانب السماء. ﴿مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ ما تشربونه، ولكم صلة أنزل أو خبز شراب ومن تبعية متعلقة به، وتقديمها يومهم حضر المشروب فيه ولا بأس به لأن مياة العيون والآبار منه لقوله: ﴿فَسَلَكَ يَنْبِيعَ﴾^(٢) وقوله ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣) ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه يكون شجر يعني الشجر الذي ترعاه المواشي. وقيل كل ما نبت على الأرض شجر قال:

يَغْلِفُهَا اللَّحْمُ إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ وَالنَّخِيلُ فِي إِطْعَامِهَا اللَّحْمَ ضَرَرُ
﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ تزعون، من سامت الماشية وأسامها صاحبها، وأصله السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات.

(١١) ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ وقرأ أبو بكر بالنون على التخييم. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وبعض كلها إذ لم ينبت في الأرض كل ما يمكن من الثمار. ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لأنه سيصير غذاء حيوانياً هو أشرف الأغذية، ومن هذا تقديم الزرع، والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها^(٤). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾ على وجود الصانع وحكمته، فإن من تأمل أن الحبة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشئ أعلاها ويخرج منه ساق

(١) قوله «على الله» حيث أثر حرف الاستعلاء «على» على أداة الانتهاء «إلى» لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلي من غير أن يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه (س ١٠٠/٥).

(٢) الزمر: ٢١.

(٣) المؤمنون: ١٨.

(٤) تقديم الزرع على ما عده لأنه أصل الأغذية وعمود المعاش.

وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه أدام من وجه وفاكهة من وجه.

وتقديم النخيل على الأعناب لظهور أصالتها وبقائها.

وجمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة.

وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر - مع اندراجها تحت قوله تعالى «ومن كل الثمرات» للإشعار بفضلها. وتقديم

الشجر عليها - مع كونه غذاء للأنعام - لحصوله بغير صنع بشر، أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاق، فإن مقتضاها أن

يكون اهتمام الإنسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لأن أكثر المخاطبين من أصحاب المواشي

ليس لهم زرع ولا ثمر (س ١٠١/٥).

الشجرة، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها. ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع مع اتحاد المواد ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية إلى الكل، عليم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد، ولعل فضل الآية به لذلك.

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ بأن هيأها لمنافعكم ^(١). ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي﴾ حال من الجميع أي نفَعَكُم بها حال كونها مسخرات لله تعالى خلقها ودبرها كيف شاء، أو لما خلُقَن له بإيجاده وتقديره، أو لحكمه. وفيه إيذان بالجواب عما عسى أن يقال إن المؤثر في تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها، فإن ذلك إن سلم فلا ريب في أنها أيضاً ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجود المحتملة، فلا بد لها من مُوجِدٍ مَخْصُصٍ مختار واجب الوجود دفعاً للدور والتسلسل. أو مصدر ميمي جمع لاختلاف الأنواع. وقرأ حفص والنجوم مسخرات على الابتداء والخبر فيكون تعميماً للحكم بعد تخصيصه، ورفع ابن عامر الشمس والقمر أيضاً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمع الآية وذكر العقل لأنها تدل أنواعاً من الدلالة ظاهرة لذوي العقول السليمة غير مَحْجُوزَةٍ إلى استيفاء فكر كأحوال النبات.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على الليل، أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات. ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ﴾ أصنافه فإنها تتخالف باللون غالباً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أن اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم.

(١٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ جعله بحيث تتمكّنون من الانتفاع به بالركوب والاصطياد والغوص. ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك، ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يُسرَعُ إليه الفساد فيسارع إلى أكله، ولإظهار قدرته في خلقه عذبا طرياً في ماء زعاق. وتمسك به مالك والثوري على أن من حلف أن لا يأكل لحماً حنث بأكل السمك، وأجيب عنه بأن مبنى الإيمان على العرف وهو لا يفهم منه عند الإطلاق، ألا ترى أن الله تعالى سمى الكافر دابة ولا يحنث الحالف على أن لا يركب دابة بركوبه. ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان أي تلبسوها نساؤكم، فأُسْنِدَ إليهم لأنهم من جملتهم ولأنهم يتزين بها لأجلهم. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن. ﴿مَوَازِيرَ فِيهِ﴾ جوارى فيه تشبه

(١) وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماء إلى ما في المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين. وإشار صيغة الماضي «سخر» للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وإن تجددت آثاره. (س/٥/١٠١).

بحيزومها، من المخرو وهو شق الماء، وقيل صوت جري الفلك. ﴿وَلَسْتَبْتَعُوا مِن فَضْلِهِ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفون نعم الله تعالى فتقومون بحقوقها، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الإنعام من حيث إنه جعل المهالك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَكُم بِلِلِّ النَّجْمِ هُم يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبلاً رواسي. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، وذلك لأن الأرض قبل أن تُخلَق فيها الجبال كانت كُرَّةً خفيفة بسيطة الطنوع، وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك، أو أن تتحرك بأدنى سببٍ للتحريك فلما خُلِقَت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجَّهت الجبال بِثِقَلِهَا نحو المركز فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة. وقيل لما خلق الله الأرض جعلت تمرور فقلت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أُرْسِيَتْ بالجبال. ﴿وَأَنْهَارًا﴾ وجعل فيها أنهاراً، لأن ألقى فيه معناه^(١). ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لمقاصدكم، أو إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

(١٦) ﴿وَعَلَّمَكُم بِلِلِّ النَّجْمِ﴾ معالم يستدلُّ بها السابلة من جبلٍ وسهلٍ وريحٍ ونحو ذلك. ﴿وَبِلِلِّ النَّجْمِ هُم يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحار، والمراد بالنجم الجنس ويدل عليه قراءة وبِلِلِّ النَّجْمِ بضمين وضمة وسكون على الجمع. وقيل الثريا والفرقدان وبنات نعش والجذئ. ولعل الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء في مسائرهم بالنجوم. وإخراج الكلام عن سنن الخطاب وتقديم النجم وإقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم.

(١٧) ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾ إنكارٌ بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهي حكمته والتفرد بخلق ما عدَّ من مُبدعاته لأن يساويته ويستحق مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك بل على إيجاد شيء ما، وكان حق الكلام أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها. والمراد بمن لا يخلق كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلباً فيه أولو العلم منهم، أو الأصنام وأجزؤها مجرى أولي العلم لأنهم سموها آلهة ومن حق الإله أن يعلم، أو للمشاكله بينه وبين من يخلق، أو للمبالغة وكأنه قيل: إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده؟^(٢) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعريفوا فساد ذلك فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكرٍ والتفات.

(١) أي أن ألقى فيه معنى الجعل.

(٢) والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها (س/١٠٤/٥).

وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَّاجِرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(١٨) ﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تَضْبُطُوا عددها فضلاً أن يطبقوا القيام بشكرها، أتبع ذلك تعداد النعم والزام الحجة على تفرده باستحقاق العبادة تنبيهاً على أن وراء ما عدّد نعماً لا تنحصر، وأن حقّ عبادته تعالى غير مقدور. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يتجاوز عن تقصير في أداء شكرها. ﴿رَّحِيمٌ﴾ لا يقطعها لتفريطكم فيه ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها^(١).

(١٩) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من عقائدكم وأعمالكم، وهو وعيدٌ وتزييفٌ للشرك باعتبار العلم بعد تزييفه باعتبار القدرة^(٢).

(٢٠) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي والآلهة الذين تعبدونهم من دونه. وقرأ أبو بكر يدعون بالياء، وقرأ حفص ثلاثتها بالياء^(٣). ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ لما نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق بين أنهم لا يخلقون شيئاً ليتنجّح أنهم لا يشاركونه، ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم صفات تنافي الألوهية فقال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأنهم ذوات ممكنة مفتقرة الوجود إلى التخليق، والإله ينبغي أن يكون واجب الوجود^(٤).

(٢١) ﴿أَمْوَاتٌ﴾ هم أموات لا تعترينهم الحياة، أو أموات حالاً أو مآلاً. ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ بالذات ليتناول كل معبود، والإله ينبغي أن يكون حياً بالذات لا يعترينه الممات. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا يعلمون وقت بعثهم، أو بعث عبدتهم فكيف يكون لهم وقت جزاء على عبادتهم، والإله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب مقدراً للشواب والعقاب، وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف.

(٢٢) ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ تكريرٌ للمدعى بعد إقامة الحجاج. ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾. بيان لما اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق وذلك عدم إيمانهم بالآخرة، فإن المؤمن بها يكون طالباً للدلائل متأملاً فيما يسمع فيتفجع به، والكافر بها يكون حاله بالعكس، وإنكار قلوبهم ما لا يعرف إلا بالبرهان اتباعاً للأسلاف ورؤساً إلى المألوف، فإنه ينافي النظر والاستكبار عن اتباع الرسول وتصديقه والاتفات إلى قوله، والأول هو العمدة في الباب ولذلك رتب عليه ثبوت الآخرين.

(٢٣) ﴿لَّاجِرَمَ﴾ حقاً. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم، وهو في موضع الرفع

(١) تقديم وصف المغفرة على الرحمة لتقدم التولية على التحلية (س/١٠٥/٥).

(٢) وتقديم السر على العلن لبيان تحقيق المساواة بين العلمين كأن علمه تعالى بالسر أقدم فيه بالعلن، أو لأن كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمّر في القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم منه بحالته الثانية (س/١٠٥/٥).

(٣) ثلاثتها أي (تسرون وتعلنون وتدعون).

(٤) وبناء الفعل للمفعول «يُخْلَقُونَ» للإيذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله (س/١٠٦/٥).

يَجْرَمَ لِأَنَّهُ مُصَدِّرٌ أَوْ فِعْلٌ. ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فضلاً عن الذين استكبروا عَنْ تَوْحِيدِهِ أَوْ اتِّبَاعِ الرُّسُولِ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفَاقَ اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ﴾ القائل بعضهم على التَّهَكُّمِ أَوْ الْوَافِدُونَ عَلَيْهِمْ أَوْ الْمُسْلِمُونَ. ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مَا تَدْعُونَ نَزْوَهُ، أَوْ الْمَنْزِلُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ مَنْزَلاً عَلَى التَّهَكُّمِ أَوْ عَلَى الْفَرَضِ أَيِ عَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ مُنْزَلٌ فَهُوَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ لَا تَحْقِيقَ فِيهِ، وَالْقَائِلُونَ قِيلَ هُمْ الْمُقْتَسِمُونَ.

(٢٥) ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي قَالُوا ذَلِكَ إِضْلالاً لِلنَّاسِ فَحَمَلُوا أَوْزَارَ ضَلَالِهِمْ كَامِلَةً فَإِنَّ إِضْلالَهُمْ نَتِجَةُ رُسُوحِهِمْ فِي الضَّلَالِ. ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ وبعض أَوْزَارِ ضلال مَنْ يُضِلُّونَهُمْ وَهُوَ حِصَّةُ التَّسْبِيبِ. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ أَيِ يُضِلُّونَ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ. وَفَائِدَتُهَا الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ جَهْلَهُمْ لَا يُغْذِرُهُمْ، إِذْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْشُوا وَيُمَيِّزُوا بَيْنَ الْمَحَقِّ وَالْمَبْطُلِ. ﴿أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ بِشَسْ شَيْئاً يَزُرُونَهُ فِعْلُهُمْ.

(٢٦) ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي سَوَّوْا مَنْصُوبَاتٍ لِيَمْكُرُوا بِهَا رَسَلُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ﴿فَأَفَاقَ اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ فَأَتَاهَا أَمْرُهُ مِنْ جِهَةِ الْعَمَدِ الَّتِي بَنَوْا عَلَيْهَا بِأَنْ ضَعُضَتْ. ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وَصَارَ سَبَبُ هَلَاكِهِمْ. ﴿وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لَا يَحْتَسِبُونَ وَلَا يَتَوَقَّعُونَ، وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ. وَقِيلَ الْمَرَادُ بِهِ نُفُودُ بَنِي كَنْعَانَ بَنَى الصَّرْحَ بِبَابِلَ سُمُّكَ خَمْسَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ لِيَتَرَصَّدَ أَمْرُ السَّمَاءِ، فَأَهَبَّ اللَّهُ الرِّيحَ فَخَرَّ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ فَهَلَكُوا.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يُذِلُّهُمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ بِالنَّارِ^(١) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخِيلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُكَ﴾ أَضَافَ إِلَى نَفْسِهِ اسْتِهْزَاءً، أَوْ حِكَايَةً لِإِضْافَتِهِمْ زِيَادَةً فِي تَوْبِيخِهِمْ. ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ تُعَادُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَأْنِهِمْ. وَقَرَأْ نَافِعٌ بِكَسْرِ النُّونِ بِمَعْنَى تُشَاقِقُونِي فَإِنَّ مُشَاقَّةَ الْمُؤْمِنِينَ كَمُشَاقَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أَيِ الْأَنْبِيَاءُ أَوْ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ فَيُشَاقِقُونَهُمْ وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَيْهِمْ، أَوْ الْمَلَائِكَةُ. ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ الدَّلَّةُ وَالْعَذَابُ. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وَفَائِدَةُ قَوْلِهِمْ إِظْهَارُ الشَّمَاتَةِ بِهِمْ وَزِيَادَةُ الْإِهَانَةِ، وَحِكَايَتُهُ لِأَنَّ يَكُونُ لُطْفاً وَرَوْعَظاً لِمَنْ سَمِعَهُ.

(١) وتقديم الظرف «يوم» للإخبار بأن جزاءهم في الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخروياً فتبقى النفس مترقبة إلى روده

الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خِلْدِينَ فِيهَا فليَنسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾ وقرأ حمزة بالياء، وقرأء بإدغام في التاء^(١). وموضع الموصول يحتمل الأوجه الثلاثة^(٢). ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بأن عَرَّضُوهَا لِلْعَذَابِ الْمُخْلِذِ. ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ فَسَالَمُوا وَأَخْبَتُوا حِينَ عَابَتُوا الْمَوْتَ. ﴿مَا كُنَّا﴾ قَائِلِينَ مَا كُنَّا. ﴿نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كَفَرٍ وَعُذْوَانٍ، ويجوز أن يكون تفسيراً للسَّلَامِ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ الْقَوْلُ الدَّالُّ عَلَى الْإِسْلَامِ. ﴿بَلَى﴾ أَي فَتَجِيبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَلَى. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَهُوَ يَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ. وَقِيلَ قَوْلُهُ ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ اسْتِثْنَاءً وَرَجُوعٌ إِلَى شَرْحِ حَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى هَذَا أَوَّلَ مَنْ لَمْ يُجَوِّزِ الْكَذِبَ يَوْمَئِذٍ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَأَنَّا لَمْ نَكُنْ فِي زُعْمِنَا وَاعْتِقَادِنَا عَامِلِينَ سُوءًا، وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الرَّأْيُ عَلَيْهِمْ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ أَوْلُو الْعِلْمِ.

(٢٩) ﴿فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كُلُّ صِنْفٍ بِأَبْوَابِهَا الْمُعَدَّةُ لَهُ. وَقِيلَ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ أَصْنَافُ عَذَابِهَا. ﴿خِلْدِينَ فِيهَا فَلْيَنسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جَهَنَّمَ^(٣).

(٣٠) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ. ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ أَيْ أَنْزَلَ خَيْرًا، وَفِي نَصْبِهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَتَلَعَّمُوا فِي الْجَوَابِ، وَأُطْبِقُوهُ عَلَى السُّؤَالِ مُعْتَرِفِينَ بِالْإِنْزَالِ عَلَى خِلَافِ الْكُفْرَةِ. رُوِيَ أَنَّ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانُوا يَتَعَتُّونَ أَيَّامَ الْمَوْسِمِ مَنْ يَأْتِيهِمْ بِخَبَرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا جَاءَ الْوَاقِدُ الْمُقْتَسِمِينَ قَالُوا لَهُ مَا قَالُوا وَإِذَا جَاءَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا لَهُ ذَلِكَ^(٤). ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مَكَافَأَةٌ فِي الدُّنْيَا. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أَي وَلَكُونَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْهَا، وَهُوَ عِدَّةٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عَلَى قَوْلِهِمْ، وَيجوز أن يكون بما بعده حكاية لقولهم بدلاً وتفسيراً لخيراً على أنه مُتَنَصِّبٌ بِقَالُوا. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دَارُ الْآخِرَةِ فَحُذِفَتْ لَتَقْدُّمِ ذِكْرِهَا، وَقَوْلُهُ:

(٣١) ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ خَيْرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذوفٌ، وَيجوز أن يكون المخصوص بالمدح. ﴿يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْتَهَاتِ، وَفِي تَقْدِيمِ الظَّرْفِ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَجِدُ جَمِيعَ مَا يَرِيدُهُ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ. ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ مِثْلُ هَذَا الْجَزَاءِ يَجْزِيهِمْ، وَهُوَ يُؤَيِّدُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ.

(١) أي إدغام التاء في التاء بقوله «توفاهم».

(٢) أي الجر على النعت للكافرين أو بدلاً منهم، أو النصب أو الرفع على الذم.

وفائدة الموصول تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره لحين الموت دون من آمن (س/١٠٩/٥).

(٣) وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعليته (س/١٠٩/٥).

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٧/٥) بدون راء ولا سند.

الَّذِينَ نُوَفِّيهِمْ الْمَلَكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

﴿٣٢﴾ الَّذِينَ نُوَفِّيهِمُ الْمَلَكَةَ طَيِّبِينَ ﴿٣٢﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ظلمي أنفسهم. وقيل فَرَجَيْنَ ببشارة الملائكة إليهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم لِتَوَجُّهِ نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس. ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يحيفكم بَعْدُ مكروه. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين تُبْعَثُونَ فإنها مُعَدَّةٌ لكم على أعمالكم. وقيل هذا التوفي وفاة الحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ.

﴿٣٣﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴿٣٣﴾ ما ينتظر الكفار المارَّ ذُرِّهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل^(١). ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب. ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتدميرهم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه.

﴿٣٤﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴿٣٤﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه. والْحَقِيقُ لا يُسْتَعْمَلُ إلا في الشر.

﴿٣٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿٣٥﴾ إنما قالوا ذلك استهزاءً أو منعاً للبعثة والتكليف متمسكين بأنَّ ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدة فيها، أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها محتججين بأنها لو كانت مستقبحة لما شاء الله صُدِّورُها عنهم ولشاء خلافه ملجئاً إليه، لا اعتذاراً إذ لم يعتقدوا قُبْحَ أعمالهم، وفيما بعده تنبيه على الجواب عن الشبهتين. ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وحرَّموا حِلَّهُ ورُدُّوا رُسُلَهُ. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ إلا الإبلاغ الموضح للحق وهو لا يؤثر في هدي مَنْ شاء الله هُدَاهُ لكنه يؤدي إليه على سبيل التوسط، وما شاء الله وقوعه إنما يجب وقوعه لا مطلقاً بل بأسباب قدرها له^(٢). ثم بين أن البعثة أَمْرٌ جَرَتْ به السُّنَّةُ الإلهية في الأمم كُلِّها سبباً لهدى من أراد اهتدائه وزيادةً لضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج السيئ ويقويه ويضرُّ المنحرف ويفنيه بقوله تعالى:

(١) وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بأن إتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام (س/٥/١١١).

(٢) وإيراد كلمة «على» بقوله «على الرسل» للإيذان بأنهم في ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حق للناس عليهم إيفاؤه (س/٥/١١٢).

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يأمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ وفقهم للإيمان بإرشادهم. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ إذ لم يوفقهم ولم يُرْزِ هداهم، وفيه تنبيه على فساد الشبهة الثانية لما فيه من الدلالة على أن تحقق الضلال وثباته بفعل الله تعالى وإرادته من حيث إنه قسيم من هدى الله، وقد صرح به في الآية الأخرى. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يا معشر قريش. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ من عاد وثمود وغيرهم لعلكم تعتبرون^(١).

(٣٧) ﴿إِن تَحَرَّضَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ من يريد ضلاله وهو المعني بمن حَقَّتْ عليه الضلالة. وقرأ غير الكوفيين لا يُهْدَى على البناء للمفعول، وهو أبلغ. ﴿وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

(٣٨) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ عطف على: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه زيادةً في البيت على فساد، ولقد رد الله عليهم أبلغ رد فقال: ﴿بَلَى﴾ يبعثهم. ﴿وَعَدًّا﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه بلى فإن يبعث موعد من الله. ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه لامتناع الخلف في وعده، أو لأن البعث مُقْتَضَى حُكْمِهِ. ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد. ﴿وَلَكِنَّا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يبعثون، إما لعدم علمهم بأنه من مواجِبِ الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعه، ثم إنه تعالى بيّن الأمرين فقال:

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي يبعثهم ليبين لهم ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحق^(٢) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له من حيث الحكمة، وهو المميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب^(٣)، ثم قال:

(١) وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير إخبار بحلول العذاب للإيذان بأنه غني عن البيان وأن ليس الخبر كالبيان.

وترتيب النظر على السير لما أنه بعده، وأن ملاك الأمر في تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بأنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء (س/٥/١١٣).

(٢) والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته، وللإشعار بعلية ما ذكر في حيز الصلة للتبيين (س/٥/١١٤).

(٣) وخص الكافرين بإسناد العلم إليهم لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضاً (س/٥/١١٤).

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهو بيان إمكانه. وتقريره أنَّ تكوينَ الله بمحض قدرته ومشيبته لا تَوَقَّفَ له على سَبْقِ الموادِّ والمدد، وإلَّا لَزِمَ التسلسلُ، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداءً بلا سَبْقِ مادةٍ ومثالٍ أمكن له تكوينها إعادةً بعده. ونَصَبَ ابنُ عامرٍ والكسائي ههنا وفي يس^(١)، فيكون عطفاً على نقولٍ أو جواباً للأمر.

(٤١) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ هم رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون ظَلَمَهُمْ قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله ﷺ وهم بلالٌ وصهيبٌ وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله ﴿فِي اللَّهِ﴾ أي في حقه ولوجهه. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ مَبَاءَةٌ حَسَنَةٌ وهي المدينة أو تَبَوُّؤُهُ حَسَنَةً. ﴿وَلَآخِرَةَ أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال له: خُذْ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهِ، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل^(٢). ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضميرُ للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خيرَ الدارين لوافقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهدادهم وصبرهم.

(٤٢) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الشدائد كاذى الكفار ومفارقة الوطن، ومحله النصب أو الرفع على المدح. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إلى الله مفوضين إليه الأمر كله^(٣).

(٤٣) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ ردُّ لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أي جرتِ السُّنَّةُ الإلهية بأن لا يُبْعَثَ للدعوة العامة إلا بشراً يُوْحَى إليه على السنة الملائكة، والحكمة في ذلك قد ذكرت في سورة الأنعام^(٤)، فَإِنْ شَكَّكُمْ فِيهِ ﴿فَتَشَاءُ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أهل الكتاب أو علماء الأخبارِ لِيُعْلِمُوكُمْ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي الآية دليلٌ على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا مَلَكًا للدعوة العامة، وقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾^(٥) معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل لم يُبْعَثُوا إلى الأنبياء إلا مُتَمَثِّلِينَ بصورة الرجال، وَرَدَّ بما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريلَ صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

(١) أي بنصب «يكون» وفي سورة يس «٨٢» بينما قرأ الباقون «فيكون» بالرفع.

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن جرير.

(٣) تقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام توكلهم (س ١١٦/٥).

(٤) وهو قوله تعالى: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون» الأنعام «٩».

(٥) فاطر: «١».

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُمْ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٤) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالبينات والزبر أي المعجزات والكتب، كأنه جواب قائل قال: بِمَ أُرْسِلُوا؟ ويجوز أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً في الاستثناء مع رجالاً أي، وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط، أو صفة لهم أي رجالاً ملتبسين بالبينات، أو بيوحي على المفعولية، أو الحال من القائم مقام فاعله على أن قوله فاسألوا اعتراض، أو بلا تعلمون على أن الشرط للتبكي والإلزام. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن وإنما سُمِّيَ ذِكْرًا لأنه موعظة وتنبية. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذِّكْرِ بِتَوْسُطِ أَنْزَالِهِ إِلَيْكَ مِمَّا أَمَرُوا بِهِ وَنُهِوا عَنْهُ، أو مما تشابه عليهم، والتبيين أعم من أن ينص بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ وإرادة أن يتأملوا فيه فيتنبهوا للحقائق.

(٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي المكرات السيئات وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا برسول الله ﷺ وراموا صدأ أصحابه عن الإيمان. ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خُسِفَ بقارون. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بغتة من جانب السماء كما فُعِلَ بقوم لوط.

(٤٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أي متقلبين في مسائرهم ومتاجرهم. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(١).

(٤٧) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ على مخافة بأن يُهْلِكَ قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوفته إذا تَنَقَّضَتْ. رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عَلَى الْمُنْبَرِ: مَا تَقُولُونَ فِيهَا فَسَكْتُوا فَقَامَ شَيْخٌ مِنْ هَذِلٍ فَقَالَ: هَذِهِ لَغَنَاتُ التَّخَوُّفِ التَّنْقِصُ، فَقَالَ هَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهَا قَالَ نَعَمْ، قَالَ شَاعَرْنَا أَبُو كَبِيرٍ يَصِفُ نَاقَتَهُ:

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامَكَ قَرْدًا كَمَا تَخَوُّفَ عُودِ النَّبَعَةِ السَّفَنُ

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة.

(٤٨) ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ استفهام إنكار أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيها لِيُظْهَرَ لَهُمْ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَقَهْرُهُ فَيَخَافُوا مِنْهُ، وما موصولة مُبْهَمَةٌ بَيَانُهَا: ﴿يَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُمْ﴾ أي أولم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال مُنْفَعَةٌ. وقرأ حمزة والكسائي تَرَوْا بالتاء، وأبو عمرو تَفْتِيُوْا بالتاء. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ عن أيانها وعن شمائلها أي عن جانبي كل واحد منها، استعارة من يمين

(١) إيراد الجملة الإسمية للدلالة على دوام النفي لا نفي الدوام (س/٥/١١٧).

الإنسان وشِمَالِهِ، ولعلَّ توحيدَ اليمينِ وَجَمْعَ الشِّمَالِ باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير في ظلاله وَجَمْعِهِ في قوله: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهما حالان من الضمير في ظلاله. والمراد من السجود الاستسلام سواء كان بالطبع أو الاختيار، يُقَالُ سَجَدَتِ النَّخْلَةُ إِذَا مَالَتْ لكَثْرَةِ الْحَمْلِ وَسَجَدَ الْبَعِيرُ إِذَا طَأَّطَأَ رَأْسَهُ لِيُزَكِّبَ، وَسُجَّدًا حَالٌ مِنَ الظَّلَالِ، وهم داخرون حال من الضمير. والمعنى يرجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب متقادة لما قَدَّرَ لها من التفيؤ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد. والأجرام في أنفسها أيضاً داخرة أي صاغرة متقادة لأفعال الله تعالى فيها، وَجَمْعُ دَاخِرُونَ بِالْوَاوِ لِأَنَّ مِنْ جُمْلَتِهَا مَنْ يَعْقِلُ أَوْ لِأَنَّ الدَّخْوَرَ مِنْ أَوْصَافِ الْعُقْلَاءِ. وقيل المراد باليمين والشمال يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لأن الكواكب تظهر منه آخذة في الارتفاع والسطوع وشماله هو الجانب الغربي المقابل له من الأرض، فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعة على الربع الشرقي من الأرض.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا الْهَيْئَاتِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاتَّقُوا فَارْهَبُوا ﴿٦١﴾ وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينقاد انقياداً يعظم الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض، وقوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ بيان لهما، لأن الديب هو الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء^(١). ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْمُبَيَّنِّ بِهِ عَطْفٌ جَبْرِيلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ لِلتَّعْظِيمِ، أَوْ عَطْفٌ الْمَجْرَدَاتِ عَلَى الْجِسْمَانِيَّاتِ، وبه احتج مَنْ قَالَ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ أَرْوَاحٌ مُجَرَّدَةٌ، أَوْ بَيَانٌ لَهَا فِي الْأَرْضِ وَالْمَلَائِكَةُ تَكْرِيرٌ لَهَا فِي السَّمَوَاتِ وَتَعْيِينَ لَهُ إِجْلَالاً وَتَعْظِيماً، أَوْ الْمُرَادُ بِهَا مَلَائِكَتُهَا مِنَ الْحَفَظَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَمَا لَمَّا اسْتُعْمِلَ لِلْعُقْلَاءِ - كَمَا اسْتَعْمِلَ لغيرهم - كَانَ اسْتِعْمَالُهُ حَيْثُ اجْتَمَعَ الْقَبِيلَانِ أَوَّلَى مِنْ إِطْلَاقِ مَنْ تَغْلِيماً لِلْعُقْلَاءِ. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(٢). والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون، أو بيان له وتقرير لأن مَنْ خَافَ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَسْتَكْبِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٣) من الطاعة والتدبير،

(١) وتقديمه على الملائكة لِقَلَّتْهُ، ولثلا يقع فصل بين الميئين والهيئين.

وإفراد لفظ الدابة - مع أن المراد الجمع - لإفادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب (س/١١٨).

(٢) الأنعام: «٦١».

(٣) وإيراد «يُؤْمَرُونَ» مبنياً للمفعول جرياً عن سنن الجلالة، وإيضاحاً بعدم الحاجة للتصريح به لاستحالة استناده لغيره.

وفيه دليل على أَنَّ الملائكة مكلفون مُدَاوِرُونَ بين الخوف والرجاء.

(٥١) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلنَّهْيِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر العدد مع أَنَّ المعدود يدل عليه دلالة على أَنَّ مَسَاقَ النهي إليه، أو إيماءً بأنَّ الاثنيتين تنافي الألوهية كما ذَكَرَ الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ للدلالة على أَنَّ المقصود إثبات الوحداية دون الإلهية، أو للتنبيه على أَنَّ الوحدة من لوازم الإلهية^(١). ﴿فَاتَّبَعُوا فَأَرْهَبُوا﴾ نَقَلَ من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود، فكانه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فلا يباي فارهبون لا غير.

(٥٢) ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلْقًا وَمُلْكًا﴾ ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي الطاعة. ﴿وَاصِبًا﴾ لازماً، لما تقرر من أَنه الإله وحده والحقيق بأن يُزْهَبَ منه. وقيل واصباً من الوَصْبِ أي وله الدين ذا كُلفٍ. وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تُنْقُونَ﴾ ولا ضارَّ سواء كما لا نافع غيره، كما قال تعالى:

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتُلْزَمَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ ﴿٥٦﴾

(٥٣) ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي وأي شيء اتصل بكم من نعمة فهو مِنَّ الله، وما شرطية أو موصولة متضمنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإنَّ استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله لا لحصولها منه. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجوارُ رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة^(٢).

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ﴾ وهم كفاركم. ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره^(٣)، هذا إذا كان الخطاب عاماً، فإنَّ كان خاصاً بالمشركون كان مِنَ للبيان كأنه قال: إذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن تكون مِنَ للتبعض على أَنَّ يعتبر بعضهم كقوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾^(٤).

= سبحانه (س/٥/١١٩).

(١) وإظهار الفاعل «الله» وتخصيصه بالذكر للإيذان بأنه متعين الألوهية، وإنما المنهي عنه هو الإشراك به لا أن المنهي عنه مطلق اتخاذ إلهين.. (س/٥/١١٩).

(٢) وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهه من الدهر، وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنى ما ينطلق عليه اسم الجنس، مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام، والتعبير عن ملابتها للمخاطبين بباء الصاحبة، وإيراد ما المُعْرَبَة عن العموم ما لا يخفى من الجزالة والفخامة. ولعل إيراد «إذا» دون إن للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب (س/٥/١٢٠).

(٣) والتعرض لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبح ما ارتكبه من الإشراك والكفران (س/٥/١٢٠).

(٤) لقمان: (٣٢).

(٥٥) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آٰنَنَّهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم قصدوا بِشْرِكِهِمْ كفران النعمة أو إنكار كونها من الله تعالى. ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أَمُرٌ تهديد^(١). ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَغْلَظَ وَعِيدَهُ^(٢). وقرىء ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا، وعلى هذا جاز أن تكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد والفاء للجواب.

(٥٦) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلِهَتِهِم التي لا عِلْمَ لها لأنها جماد فيكون الضمير لما، أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالاتٍ مثل أنها تنفعهم وتشفع لهم على أن العائد إلى ما محذوف، أو لجهلهم على أن ما مصدرية والمجعول له محذوفٌ للعلم به. ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الزروع والأنعام. ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُنَّ مِمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنها آلهة حقيقة بالتقرب إليها، وهو وعيد لهم عليه^(٣).

وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

(٥٧) ﴿وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خُرَاعَةٌ وَكِنَانَةٌ يقولون: الملائكة بناتُ الله. ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيهٌ له من قولهم، أو تَعَجُّبٌ منه. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، ويجوز فيما يشتهون الرفعُ بالابتداء والنصبُ بالمعطفِ على البنات على أن الجَعْلَ بمعنى الاختيار، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكنه لا يبعدُ تجويزُهُ في المعطوف.

(٥٨) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ أَخْبِرَ بولادتها. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار أو دامَ النهارَ كله. ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس. واسودادُ الوجه كنايةٌ عن الاغتمام والتشوير^(٤). ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوءٌ غيظاً مِنَ المرأة.

(٥٩) ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم. ﴿مِنْ سُوءِ مَا يُبَشِّرُ بِهِ﴾ من سوءِ الْمَبَشِّرِ به عُرْفاً^(٥). ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ مُحَدِّثًا نَفْسَهُ متفكراً في أن يتركه. ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذَلٌّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يخفيه فيه وَيَدُسُّهُ، وتذكير الضمير للفظ ما. وقرىء بالتأنيث فيهما. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محلُّه عندهم.

(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفةُ السَّوْءِ، وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكرهية الإناث وَأَوْدِهِنَّ خَشِيةً

(١) والالتفات إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط (س/٥/١٢٠).

(٢) ولم يذكر مفعول «تعلمون» للإشعار بأنه لا يوصف من شدته (س/٥/١٢٠).

(٣) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب «لنسالن»... ينبئ عن كمال الغضب وشدة الوعيد (س/٥/١٢١).

(٤) التشوير هو الإشارة والتلويع، يقال: أشار إشارة وشور تشويراً أي لوح.. (المصباح المنير «شور»).

(٥) والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها عن درجة العقلاء (س/٥/١٢١).

الإملاق^(١). ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والوجود الفائق والتزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَيمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

(٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ بكفرهم ومعاصيهم. ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض، وإنما أضمرها من غير ذكرٍ لدلالة الناس والدابة عليها. ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ قطٌ يشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود^(٢) رضي الله تعالى عنه: كاذ الجعلُ يهلك في جُحره يذنب ابن آدم، أو مِنْ دَابَّةٍ ظالمة. وقيل لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء. ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سماء لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بل هلكوا أو عذبوا حينئذٍ لا محالة، ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكونوا كلهم ظالمين حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لجواز أن يُضَافَ إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم^(٣).

(٦٢) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، والاستخفاف بالرسول وأزاد الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ﴾ مع ذلك، وهو: ﴿أَنْتَ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي عند الله، كقوله: ﴿وَلَنْ رُجِعْتَ إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِيَ عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾^(٤). وقرئ الكذبُ جمع كذوب صفة لللسنة. ﴿لَا جَرَيمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ ردٌ لكلامهم وإثباتٌ لصدقه. ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ مقدّمون إلى النار من أفرطته في طلب الماء إذا قدّمته. وقرأ نافع بكسر الراء على أنه مِنْ الإفراط في المعاصي، وقرئ بالتشديد مفتوحاً من فَرَطْتُهُ في طلب الماء، ومكسوراً من التفریط في الطاعات.

(٦٣) ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ فأصروا على قبائحها وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا وعبرَ باليوم عن زمانها، أو فهو وَلِيُّهُمُ حين كان يُزَيْنُ لهم، أو يوم القيامة على أنه حكايةٌ حالٍ ماضية أو آتية. ويجوز أن يكون الضمير لقريش أي زين

(١) ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (س/٥/١٢٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/١٤/١٢٦) والبيهقي في الشعب (٧/٥٤ رقم ٧٤٧٨) وزاد السيوطي في الدر المنثور (٥/١٤٠) نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه.

(٣) صيغة الاستفعال بقوله «لا يستأخرون» للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له. وقوله «لا يستقدمون» تعرض لذكره - مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجي الأجل - مبالغة في بيان عدم الاستئثار بنظمه في سلك ما يمتنع (س/٥/١٢٢).

(٤) فصلت: «٥٠».

الشيطانُ لِلْكَفَرَةِ المتقدمينَ أعمالهم وهو وَلِيُّ هؤلاءِ اليومَ يغريهم وَيُغْوِيهم، وَأَنْ يُقَدَّرَ مضافٌ أي فهو وَلِيُّ أمثالهم، والولي القرين أو الناصرُ فيكونُ نفيًا للناصر لهم على أبلغ الوجوه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامة.

وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْثٍ وَدَمٍ لَنَا خَالِصًا يَأْتِي الشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

(٦٤) ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس. ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مِنَ التوحيد والقدر وأحوال المعاد وأحكام الأفعال. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوفان على محل لتبين فإنهما فعلاً المُنْزَلُ بخلاف التبيين^(١).

(٦٥) ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أثبت فيها أنواع النبات بعد يُسِّسَهَا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماعٌ تَدَبُّرٌ وإنصاف.

(٦٦) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ دلالةٌ يُعْبَرُ بها مِنَ الجهل إلى العلم. ﴿شَفِيفُكُمْ تَمَافِي بِطُونِهِمْ﴾ استئناف لبيان الْعِبْرَةِ، وإنما ذَكَرَ الضمير ووَحَّدَهُ ههنا لِلْفَظِ وَأَثَبَهُ في سورة المؤمنين^(٢) للمعنى، فَإِنَّ الْأَنْعَامَ اسْمٌ جَمْعٌ ولذلك عَدَّهُ سببويه في المفردات الْمَبْنِيَّةَ على أفعال كأخلاق وأكياس. وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ جَمْعٌ نَعَمْ جَعَلَ الضميرَ للبعض فَإِنَّ اللَّبَنَ لبعضها دون جميعها أو لواحدة أو له على المعنى، فَإِنَّ المراد به الجنس. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب نَسْفِينَكُمْ بالفتح هنا وفي المؤمنين. ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا﴾ فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الْقَرْثِ، وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الْكَرْشِ. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما^(٣): أن البهيمة إِذَا اغْتَلَفَتْ وانطبخ العلفُ في كَرْشِهَا كان أسفلهُ فرثاً وأوسطهُ لبناً وأعلاه دماً، ولعله إن صح فالمراد أَنَّ أَوْسَطَهُ يكون مادة اللَّبَنِ وأعلاه مادةُ الدم الذي يغذي البدنَ، لأنهما لا يتكونان في الْكَرْشِ بل الكبدُ يجذبُ صَفَارَةَ الطعام المنهضم في الكرش، ويبقى ثَقْلُهُ وهو الْقَرْثُ ثُمَّ يمسكها ريشاً يهضمها هضمًا ثانيًا فيحدث أخلاطاً أربعةً معها مائية، فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الْكَلْبَةِ والمرارة والطحال، ثُمَّ يُوزَعُ الباقي على الأعضاء بِحَسَبِهَا فَيُجْرَى إلى كُلِّ حَقَّةٍ على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم، ثم إن كَانَ الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قَدَرِ غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولاً إلى الرَّجَمِ لأجل الجنين فإذا انفصل انصبَّ

(١) تقديم التبيين على الهدى والرحمة لعله لتقدمه في الوجود.

وتخصيص الهدى والرحمة بالمؤمنين لأنهم المغفتمون لآثاره (س/١٢٣/٥).

(٢) المؤمنون: ٢١١.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/١٢٤ - ١٢٥) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/٤٦٤).

ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع، فَيَبْيَضُ بمجاورة لحومها العُدْدِيَّةِ البَيض فيصير لبناً، وَمَنْ تَدَبَّرَ صُنْعَ الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مَقَارِها ومجاريها والأسباب المولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به، اضْطُرَّ إلى الإقرار بكمال حِكْمَتِهِ وتناهي رحمته. وَمِنْ الْأَوَّلَى تبعية لأنَّ اللَّبَنَ بعض ما في بطونها والثانية ابتدائية كقولك: سَقَيْتُ مِنَ الْحَوْضِ، لأن بين الفَرث والدم المحل الذي يبدأ منه الإسقاء وهي متعلقة بنسقيكم أو حالاً من ﴿لَبَنًا﴾ قُدِّمَ عليه لتنكيره وللتنبية على أنه موضع العَبْرَةِ. ﴿خَالِصًا﴾ صافياً لَا يَسْتَضْجِبُ لَوْنُ الدَّمِ ولا رائحة الفَرثِ، أو مُصَفًى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه. ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور في حَلْقِهِمْ، وقرئ سَيِّغًا بالتشديد والتخفيف.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٧) ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ متعلق بمحذوف أي ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما، وقوله: ﴿نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ استئناف لبيان الإسقاء أو بتخذون، ومنه تكرير للظرف تأكيداً أو خبر لمحذوف صِفَتُهُ تتخذون، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه. وتذكير الضمير على الوجهين الْأَوَّلَيْنِ لأنه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأن الثمرات بمعنى الثَّمَرِ، والسَّكْرُ مصدرٌ سُمِّيَ به الخمر. ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب والدُّبْسِ والخَلِّ، والآية إن كانت سابقة على تحريم الخمرِ فِدَالَةٌ على كراهتها وإلا فجامعة بين العتاب والمِنَّة. وقيل السَّكْرُ النبيذ وقيل الطَّعْمُ قال:

جَعَلْتُ أَغْرَاضَ الْكِزَامِ سُكْرًا

أي تنقلت بأغراضهم. وقيل ما يسدُّ الجوعَ مِنَ السَّكْرِ فيكون الرزق ما يحصل من أثمانه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

(٦٨) ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أَلْهَمَهَا وقذف في قلوبها. وقرئ إلى النَّحْلِ بفتحين. ﴿أَنِ اتَّخِذِي﴾ بِأَنِ اتخذِي، ويجوز أن تكون أن مفسرة لأن في الإيحاء معنى القول، وتأنيت الضمير على المعنى فإن النحل مُذَكَّرٌ. ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ ذَكَرَ بحرف التبعيض لأنها لا تَبْنِي في كل جبل وكل شجر وكل ما يُعْرَشُ مِنْ كَرَمٍ أو سَقْفٍ ولا في كل مكان منها. وإنما سُمِّيَ ما تَبْنِيهِ لتعسّل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها أحدُ المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة، ولعلَّ ذِكْرَهُ للتنبية على ذلك. وقرئ بِبُيُوتًا بكسر الباء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يَعْرِشُونَ بضم الراء.

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهِنَّ شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ إِلَى أَزْدِلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

(٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من كل ثمرة تشتهينها مَرُّها وحُلْوُها. ﴿فَاسْلُكِي﴾ ما أَكَلْتِ. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ في مسالكه التي يحيلُ فيها بقدرته النورَ المرَّ عسلاً من أجوافِك، أو فاسلكي الطُّرُقَ التي ألهمك في عمل العسل، أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك سُبُلَ رَبِّكِ لا تتوعُرْ عليك ولا تَلْتَبِسُ. ﴿ذُلُلًا﴾ جَمْعُ ذَلُولٍ وهي حال من السبل، أي مُذَلَّلَةٌ ذَلَّلَهَا اللهُ تعالى وَسَهَّلَهَا لَكِ، أو من الضمير في اسلكي أي وأنتِ ذُلُلٌ متفادَةٌ لما أُمِرْتِ به. ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهِنَّ﴾ كأنه عَدَلَّ به عن خطاب النحل إلى خطاب الناس لأنه محلُّ الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم. ﴿شَرَابٌ﴾ يعني العسل لأنه مما يُشْرَبُ. واختِجَّ به مَنْ زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة فتستحيل في بطنها عسلاً ثم تقيء ادخاراً للشتاء، وَمَنْ زعم أنها تلتقط بأفواها أجزاءً طليّة^(١) حلوة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادخاراً فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كان العسل. فَسَّرَ البطونُ بالأفواه. ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسودٌ بِحَسَبِ اختلافِ سِنِّ النحل والفصل. ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما يكون معجونٌ إلا والعسلُ جُزءٌ منه. مع أن التنكير فيه مُشعرٌ بالتبعض، ويجوز أن يكون للتعظيم. وعن قتادة أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه فقال: «اسقه العسل»، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: «أذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك». فسقاه فشفاه الله تعالى فَبَرَأَ فكانما أَنشِطَ من عِقَالٍ^(٢). وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله من أحوال النحل. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَإِنَّ مَنْ تَدَبَّرَ اختصاصَ النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حقَّ التدبُّرِ عِلْمَ قطعاً أنه لا بدَّ له من خالقٍ قادرٍ حكيمٍ يلهمها ذلك ويحملها عليه.

(٧٠) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ بآجال مختلفة. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ﴾ يعاد. ﴿إِلَى أَزْدِلِ الْعُمُرِ﴾ أَخْسَهُ يعني ألْهَرَمَ الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل. وقيل هو خمس وتسعون سنة، وقيل خمس وسبعون^(٣). ﴿لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ ليصيرَ إلى حالةٍ شبيهة بحالة الطفولية في التَّسْنِينِ وسوء الفهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم. ﴿قَدِيرٌ﴾ يَمِيتُ الشابَّ النَشِيطَ ويبقي ألْهَرَمَ الفاني. وفيه تنبيه على أن تَفَاوُتَ آجال الناس ليس إلا بتقديرٍ قادرٍ حكيم، رَكَّبَ أبنيتهم وعدَّلَ أمزجتهم على قَدَرٍ معلوم، ولو

(١) قوله (طليّة) أي ذات بهجة.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩/١٠ رقم ٥٦٨٤) ومسلم (١٧٣٦/٤ - ١٧٣٧ رقم ٢٢١٧/٩١) والبغوي في شرح السنة (١٤٧/١٢ رقم ٣٢٣٢).

من طريق قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري.

(٣) وإثبات الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للإيدان بأن بلوغه والوصول إليه رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة (س/٥/١٢٦).

كان ذلك مقتضى الطباع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرِزْقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم موال يتولون رزقهم ورزق غيرهم ومنكم ممالك حالكهم على خلاف ذلك. ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ ﴾ بمعطي رزقهم. ﴿ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ على ممالكهم فإنما يردون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم. ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ فالموالي والممالك سواء في أن الله رزقهم، فالجملة لازمة للجملة المنفية أو مقررّة لها، ويجوز أن تكون واقعة موقع الجواب كأنه قيل: فما الذين فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ على ما ملكت أيمانهم فَيَسْتَوُوا في الرزق، على أنه ردّ وإنكار على المشركين فإنهم يشركون بالله بعض مخلوقاته في الألوهية ولا يرضون أن يشاركون عبدهم فيما أنعم الله عليهم فيساووه فيهم. ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ حيث يتخذون له شركاء، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحهم، والباء لتضمن الجحود معنى الكفر. وقرأ أبو بكر تعجدون بالتاء لقوله: «خلقكم» و«فضل بعضكم».

(٧٢) ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي من جنسكم لتأنسوا بها ولتكون أولادكم مثلكم. وقيل هو خلق حواء من آدم^(١). ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ وأولاد أولاد أو بنات فإن الحافد هو المسرع في الخدمة. والبنات يخدمن في البيوت أتم خدمة، وقيل هم الأختان على البنات، وقيل الربايب، ويجوز أن يراد بها البنون أنفسهم والعطف لتغاير الوصفين^(٢). ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من اللذائذ أو الحلاوات، ومن للتبعض فإن المرزوق في الدنيا أنموذج منها. ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم، أو أن من الطيبات ما يحرم كالبحائر^(٣) والسوائب^(٤). ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ حيث أضافوا نعمة إلى الأصنام، أو حرّموا ما أحل الله لهم. وتقديم الصلة على الفعل إما للاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغة، أو للمحافظة على الفواصل^(٥).

(١) ووضع الظاهر «لكم» موضع المضمرة للإيذان بأن المراد أنه جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره. وتقدير المجرور «لكم» للتشويق للمؤخر والاهتمام بالمقدم. (س ١٢٨/٥).

(٢) وتقدير المجرور باللام «لكم» على المجرور بمن «من أنفسكم» للإيذان من أول الأمر بعود منفعة الجعل إليهم إمداداً للتشويق وتقوية له (س ١٢٨/٥).

(٣) البحائر جمع بحيرة وهي الناقة التي تشق أذنّها إذا ولدت عشرة أبطن فلا تُركب ولا يحمل عليها (المفردات مادة بحر).

(٤) السوائب جمع سائبة وهي التي تُسيب في المرعى فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن (المفردات مادة سيب).

(٥) والالتفات إلى الغيبة في «يؤمنون ويكفرون». للإيذان باستيعاب حالهم للإعراض عنهم وصرف الخطاب إلى =

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ۖ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ۖ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَرِ رِزْقٍ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ من مطر ونبات، ورزقاً إن جعلته مصدراً فشيئاً منصوب به وإلا فبدل منه. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يتملكوه أو لا استطاعة لهم أصلاً، وجمع الضمير فيه وتوحيده في «لا يملك» لأن ما مفرد في معنى الآلهة، ويجوز أن يعود إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئاً من ذلك فكيف بالجماد.

(٧٤) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به، أو تقيسونه عليه فإنَّ ضَرْبَ المثل تشبيه حالٍ بحال^(١). ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فساد ما تعولون عليه من القياس - على أن عبادة عبيد المليك أدخل في التعظيم من عبادته - وعظم جزمكم فيما تفعلون. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جرأتم عليه فهو عليم للنهي، أو أنه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم دون نصه، ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال فإنه يعلم كيف تُضْرَبُ الأمثال وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف يُضْرَبُ فضرب مثلاً لنفسه ولَمَنْ عُبِدَ دُونَهُ فقال:

(٧٥) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ۖ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَرِ رِزْقٍ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي﴾^(٢) مثل ما يشرك به بالملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومثل نفسه بالحر المالك الذي رزقه الله مالاً كثيراً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء، واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله الغني القادر على الإطلاق. وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق. وتقييد العبد بالملوكية للتمييز عن الحر فإنه أيضاً عبد الله ويسلب القُدرة للتمييز عن المُكاتب والمأذون، وجعله قسيماً للمالك المتصرف يدل على أن المملوك لا يملك، والأظهر أن من نكرة موصوفة لطابق عبداً، وجمع الضمير في يستوون لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرار والعبيد؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له، لا يستحقه غيره فضلاً عن العبادة لأنه مولي النعم كلها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيضيفون نعمة إلى غيره ويعبدونه لأجلها.

= غيرهم من السامعين، تعجباً لهم مما فعلوه (س/١٢٨/٥).

(١) والالتفات فيه إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي (س/١٢٨/٥).

(٢) قوله تعالى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ» فيه التفات إلى التكلم للإشعار باختلاف حالي ضرب المثل والرزق.

وقوله «فهو ينفق» عبر بالجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الإنفاق واستمراره التجديدي.

وقوله «سراً وجهراً» حيث قدم السر على الجهر للإيذان بفضله عليه.

ووصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك لكنهم لا يعلمون بموجبه عناداً (س/١٣٠/٥).

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(٧٦) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ وَلَدٌ أَخْرَسَ لَا يَفْهَمُ وَلَا يُفْهَمُ. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ عِيَالٌ وَثِقْلٌ عَلَى مَنْ يَلِي أَمْرَهُ. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر. وقرئ: يُوَجِّهُهُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَيُوجِّهُ بِمَعْنَى يَتَوَجَّهُ كَقَوْلِهِ أَيْنَمَا أُوجِّهَ أَلْتَنَى سَعْدًا، وَتَوَجَّهَ بِلَفْظِ الْمَاضِي. ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ يَنْجَحُ وَكَفَايَةُ مُهِمٌ. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وَمَنْ هُوَ فَهْمٌ مُنْطَبِقٌ ذُو كَفَايَةٍ وَرُشْدٌ يَنْفَعُ النَّاسَ بِحَثِّهِمْ عَلَى الْعَدْلِ الشَّامِلِ لِمَجَامِعِ الْفَضَائِلِ. ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ لَا يَتَوَجَّهُ إِلَى مَطْلَبٍ إِلَّا وَيَبْلُغُهُ بِأَقْرَبِ سَبْعِي. وَإِنَّمَا قَابِلُ تِلْكَ الصِّفَاتِ بِهِذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ لِأَنَّهُمَا كَمَالٌ مَا يَقَابِلُهُمَا^(١)، وَهَذَا تَمَثِيلٌ ثَانٍ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ وَلِلْأَصْنَامِ لِإِبْطَالِ الْمَشَارَكَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَوْ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَخْتَصُّ بِهِ عِلْمُهُ لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ مَا غَابَ فِيهِمَا عَنِ الْعِبَادِ بَأَن لَمْ يَكُنْ مُحْسُوسًا وَلَمْ يَدَلَّ عَلَيْهِ مُحْسُوسٌ. وَقِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ عِلْمَهُ غَائِبٌ عَنِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ وَمَا أَمْرُ قِيَامِ السَّاعَةِ فِي سُرْعَتِهِ وَسَهُولَتِهِ. ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ إِلَّا كَرَجْعِ الطَّرْفِ مِنْ أَعْلَى الْحَدَقَةِ إِلَى أَسْفَلِهَا. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أَوْ أَمْرُهَا أَقْرَبُ مِنْهُ بَأَن يَكُونُ فِي زَمَانٍ نَصْفِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ بَلْ فِي الْآنِ الَّذِي تَبْتَدِئُ فِيهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُخَيِّئُ الْخَلَائِقَ دُفْعَةً وَمَا يُوجَدُ دُفْعَةً كَانَ فِي آنٍ، وَأَوْ لِلتَّخْيِيرِ أَوْ بِمَعْنَى بَلْ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنْ قِيَامَ السَّاعَةِ وَإِنْ تَرَاخَى، فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ كَالشَّيْءِ الَّذِي تَقُولُونَ فِيهِ هُوَ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ مِبَالِغَةً فِي اسْتِقْرَابِهِ. ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَيَقْدِرُ أَنْ يُخَيِّئَ الْخَلَائِقَ دُفْعَةً كَمَا قَدَّرَ أَنْ أَحْيَاهُمْ مُتَدَرِّجًا. ثُمَّ دَلَّ عَلَى قُدْرَتِهِ فَقَالَ:

(٧٨) ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ بِكسر الهمزة^(٢) عَلَى أَنَّهُ لُغَةٌ أَوْ إِتْبَاعٌ لِمَا قَبْلَهَا، وَحَمْزَةٌ بِكسرها وَكسر الميم. وَالْهَاءُ مَزِيدَةٌ مِثْلُهَا فِي إِهْرَاقٍ. ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ جَهْلًا لَا مُسْتَضْحِينَ جَهْلَ الْجَمَادِيَةِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أَدَاةٌ تَعْلَمُونَ بِهَا فَتُحْسِنُونَ بِمَشَاعِرِكُمْ جَزَائِاتِ الْأَشْيَاءِ فَتَدْرِكُونَهَا ثُمَّ تَتَبَهَوْنَ بِقُلُوبِكُمْ لِمَشَارَكَاتٍ وَمَبَايِنَاتٍ بَيْنَهَا بِتَكَرُّرِ الْإِحْسَاسِ حَتَّى تَحْصَلَ لَكُمْ الْعُلُومُ الْبَدِيعِيَّةُ، وَتَتِمَّكُنَا مِنْ تَحْصِيلِ الْمَعَالِمِ الْكُسْبِيَّةِ بِالنَّظَرِ فِيهَا^(٣). ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كَيْ تَعْرِفُوا مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ فَتَشْكُرُوهُ.

(١) تغيير الأسلوب في قوله «ومن يأمر بالعدل...» عن سابقه وذلك لمرعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين القرينتين (س ١٣٠/٥).

(٢) أي بكسر همزة «أمهاتكم».

(٣) وتقديم السمع على البصر لأنه طريق تلقي الوحي، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر. وإفراؤه باعتبار كونه مصدرًا في الأصل (س ١٣٢/٥).

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَثَمَنًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر وحمة ويعقوب بالتاء على أنه خطاب للعامة. ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذكَّلاتٍ للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المؤاتية له. ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه. ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فإن ثَقُلَ جَسَدُهَا يقتضي سقوطها ولا علاقة فوقها ولا دَعَامَةٌ تحتها تُمَسِّكُهَا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ تسخير الطير للطيران بأن خَلَقَهَا خِلْقَةً يمكن معها الطيران، وخلق الجوَّ بحيث يمكن الطيران فيه. وإمساكها في الهواء على خلاف طَبْعِهَا. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المتفعون بها.

(٨٠) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم كالبيوت المُنْتَخَذَةِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْمَدَرِ، فَعَلَ بِمَعْنَى مَفْعُول. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي الْقَبَابُ الْمُنْتَخَذَةُ مِنَ الْأَدَمِ. ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصُّوف والشَّعْرِ فإنها مِنْ حَيْثُ إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها مِنْ جلودها. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفةً يَخِفُّ عَلَيْكُمْ حَمْلُهَا وَنَقْلُهَا. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقت تَرْحَالِكُمْ. ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووضعها أو ضربها وقت الْحَضَرِ أو التَّزُولِ. وقرأ الحجازيان والبصريان^(١) يَوْمَ ظَعْنِكُمْ بِالْفَتْحِ وهو لغة فيه. ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ الصوف للضائفة والوبر للإبل والشَّعْرُ لِلْمَغْزِ. وإضافتها إلى ضمير الأنعام لأنها مِنْ جُمْلَتِهَا. ﴿أَثْنَا وَثَمَنًا﴾ ما يُنْبَسُ وَيُقْرَسُ. ﴿وَمَتَنًا﴾ ما يُتَجَرُّ بِهِ. ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى مدةٍ من الزمان فإنها لصلابتها تبقى مدةً مديدةً، أو إلى حين مماتكم، أو إلى أن تقضوا منه أوطاركم.

(٨١) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها. ﴿ظِلَالًا﴾ تتقون بها حرَّ الشمس. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مواضع تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها، جَمْعُ كُنٍّ. ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ﴾ ثياباً من الصوف والكُتَّانِ والقطن وغيرها. ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ حصّة بالذكر اكتفاءً بأحد الضدّين، أو لأنَّ وقاية الحرِّ كانت أهمَّ عندهم. ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ﴾ يعني الدروع والجواشين. والسَّرابِيلُ يعمُّ كلَّ ما يُنْبَسُ. ﴿كَذَلِكَ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت. ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تنظرون في نعمه فتؤمنون به وتنقادون لِحُكْمِهِ^(٢). وقرئ تُسَلِّمُونَ مِنَ السَّلَامَةِ أي تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تنظرون فيها فتسلمون من الشرك. وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

(١) الحجازيان: نافع وابن كثير، والبصريان: أبو عمرو ويعقوب.

(٢) وإفراد النعمة: إما لأن المراد بها المصدر، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل (س/٥/١٣٣).

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْنَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾

(٨٢) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ولم يقبلوا منك^(١). ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ فلا يضرك فإنما عليك البلاغ وقد بلغت. وهذا من إقامة السبب مقام المسبب.

(٨٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي يعرف المشركون نعمة الله التي عدّها عليهم وغيرها حيث يعترفون بها وبأنها من الله تعالى. ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا، أو بإعراضهم عن أداء حقوقها. وقيل: نعمة الله نبوة محمد ﷺ^(٢) عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عناداً، ومعنى «ثم» استبعاد الإنكار بعد المعرفة. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون عناداً. وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان العقل أو التفريط في النظر أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف، وإما لأنه يقام مقام الكل كما في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(٨٤) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار إذ لا عذر لهم، وقيل في الرجوع إلى الدنيا. وثمّ لزيادة ما يحقّ بهم من شدة المنع عن الاعتذار لما فيه من الإقناط الكلّي على ما يمتثلون به من شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْنَبُونَ﴾ ولا هم يستترضون، من العتبي وهي الرضا. وانتصاب «يوم» بمحذوف، تقديره: اذكّر أو خوّفهم أو يحقّ بهم ما يحق، وكذا قوله:

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ عذاب جهنم. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهّلون.

(٨٦) ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ﴾ أوثانهم التي ادّعوا شركاء، أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه. ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو التماس لأن يشطر عذابهم^(٤). ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة وإنما عبدوا أهواءهم كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾^(٥). ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به حينئذ، أو

(١) التفات إلى رسول الله ﷺ تسلياً له وإعراضاً عنهم.

(٢) وهو الذي رجحه الطبري في «جامع البيان» (٨/ج ١٤/١٥٨).

(٣) النحل: (٧٥).

(٤) يشطر عذابهم أي يوزع العذاب بينهم.

(٥) مريم: (٨٢).

فِي أَنَّهُمْ حَمَلُوهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالزُّمُومِ إِيَّاهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾^(١).

وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

(٨٧) ﴿وَالْقَوَا﴾ والقي الذين ظلموا. ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ﴾ الاستسلام لِحُكْمِهِ بعد الاستكبار في الدنيا. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع عنهم ويطل. ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

(٨٨) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر. ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ لِيَصْدَهُمْ. ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الْمُسْتَحَقَّ بكفرهم. ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين بِصَدِّهِمْ.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني نبيهم، فإن نبي كل أمة بُعث منهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ على أُمَّتِكَ. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ استئناف، أو حال بإضمار قد. ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ بياناً بليغاً. ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال بالإحالة إلى السُّنَّةِ أو القياس. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للجميع. وإنما جرمانُ المحروم من تفریطه. ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة.

(٩٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بالتوسط في الأمور، اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك والقول بالكسب المتوسط بين مخض الجبر والقدر، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب، وخُلُقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير. ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إحسان الطاعات. وهو إما بحسب الكمية كاللتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية كما قال عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٣). ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة. ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ عن الإفراط في متابعة

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) وإشار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (س ١٣٥/٥).

(٣) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان. أخرجه البخاري (١/١١٤ رقم ٥٠) ومسلم (١/٣٦ - ٣٧ رقم ٨) والبخاري في شرح السنة (١/٨ - ٩ رقم ٢).

القوة الشَّهَوِيَّة كألزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها. ﴿وَالْمُنْكَرُ﴾ ما ينكر على متعاطيه في إثارة القوة الغَضَبِيَّة. ﴿وَالْبَغْيُ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم، فإنها الشَّيْطَانَةُ التي هي مُقْتَضَى القوة الوهمية، ولا يوجد من الإنسان شرًّا إلا وهو مُنْدرَج في هذه الأقسام صادرٌ بِتَوْسُطِ إحدى هذه القوى الثلاث. ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر^(١). وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه^(٢). ولو لم يكن في القرآن غيرُ هذه الآية لصدق عليه أنه تَبَيَّنَ لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين. ولعلَّ إيرادها عَقِبَ قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ للتنبيه عليه. ﴿يَعْظُمُكُمْ﴾ بالأمر والنهي والمَيزِ بَيْنَ الخير والشر. ﴿لَمَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَعَفَّوْنَ.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

(٩١) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يعني البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ بُيَاعَةٌ﴾. وقيل كل أمر يجب الوفاء به، ولا يلائمه قوله: ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وقيل النذور. وقيل الإيمان بالله ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ أي أيمان البيعة أو مطلق الأيمان. ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها بِذِكْرِ الله تعالى، ومنه أَكَّدَ بقلب الواو همزة ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهدًا بتلك البيعة فإن الكفيل مُراعٍ لحال المكفول به رقيب عليه. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيمان والعهد.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ ما غزلته، مصدر بمعنى المفعول. ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِنَقَضَتْ أي نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام. ﴿أَنْكَا﴾ طاقات نُكِثَ قَتْلُهَا جَمْعُ نَكْثٍ، وانتصائه على الحال مِنْ غَزْلَهَا أو المفعول الثاني لِنَقَضَتْ فإنه بمعنى صَيَّرَتْ. والمراد به تشبيه الناقض بِمَنْ هذا شأنه، وقيل هي رِبْطَةٌ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ الْقُرَشِيَّةِ^(٤) فإنها كانت خَرْقَاءَ تَفْعَلُ ذلك. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ

(١) وهو جزء من أثر أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم: ٤٨٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٥٨) رقم ٢٣٩٤ وابن جرير في «جامع البيان» (٨/١٤٦٣) وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/١٦٠) نسبته إلى سعيد بن منصور، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والطبراني - كما في «المجمع» (٧/٤٩) وفيه: عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف، وبقي رجاله رجال الصحيح - والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، والطبراني، وأحمد عن ابن عباس (روح المعاني ١٤/٢١٩).

(٣) الفتح: (١٠).

(٤) ذكر البغوي في «معالم التنزيل» (٥/٣٩ - ٤٠) أن اسمها «رَبْطَةُ بِنْتُ عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم».

وانظر «زاد المسير» (٤/٤٨٥).

دَخَلَا بَيْنَكُمُ ﴿١٣﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي وَلَا تَكُونُوا أَوْ فِي الْجَارِ الْوَاقِعِ مَوْقِعَ الْخَبَرِ، أَيْ لَا تَكُونُوا مُتَشَبِّهِينَ بِأَمْرٍ هَذَا شَأْنُهَا مِتْخَذِي أَيْمَانِكُمْ مَفْسَدَةً وَدَخَلَا بَيْنَكُمْ، وَأَصْلُ الدَّخَلِ مَا يَدْخُلُ الشَّيْءُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ. ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ لَأَنْ تَكُونَ جَمَاعَةً أَزِيدَ عَدَدًا وَأَوْفَرُ مَالًا مِنْ جَمَاعَةٍ، وَالْمَعْنَى: لَا تَغْدُرُوا بِقَوْمٍ لِكُفْرَتِكُمْ وَقِلَّتِهِمْ أَوْ لِكثَرَةِ مَنَابِذِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ كَقَرِيشَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا رَأَوْا شُوكَةَ فِي أَعَادِي حُلَفَائِهِمْ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ وَحَالَفُوا أَعْدَاءَهُمْ. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضَّمِيرُ لَأَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ لَأَنْ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ أَيْ يَخْتَبِرُكُمْ بِكَوْنِهِمْ أَرْبَىٰ لِيَنْظُرَ أَتَمْسُكُونَ بِحَبْلِ الْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللَّهِ وَيَبِيعُوا رَسُولَهُ أَمْ تَغْتَرُونَ بِكثَرَةِ قَرِيشَ وَشُوكَتِهِمْ وَقِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَضَعْفِهِمْ. وَقِيلَ الضَّمِيرُ لِلرِّيَاءِ، وَقِيلَ لِلأَمْرِ بِالْوَفَاءِ. ﴿وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إِذَا جَازَاكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَشَئُلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(٩٣) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مُتَّفَقَةٌ عَلَى الْإِسْلَامِ. ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بِالْخِذْلَانِ. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بِالتَّوْفِيقِ. ﴿وَلِتَشَئُلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سَوَالٌ تَبْكِيئِيٍّ وَمَجَازَاةٌ.

(٩٤) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ﴾ تَصْرِيحٌ بِالنَّهْيِ عَنْهُ بَعْدَ التَّضْمِينِ تَأْكِيدًا وَمُبَالَغَةً فِي قُبْحِ الْمَنْهِيِّ. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أَيْ عَنْ مَحَبَّةِ الْإِسْلَامِ. ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عَلَيْهَا. وَالْمَرَادُ أَقْدَامُهُمْ، وَإِنَّمَا وَحَّدَ وَنَكَّرَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ زَلَّ قَدَمٌ وَاحِدَةً عَظِيمٌ فَكَيْفَ بِأَقْدَامٍ كَثِيرَةٍ؟! ﴿وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ﴾ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا. ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بِصَدِّكُمْ عَنِ الْوَفَاءِ أَوْ صَدِّكُمْ غَيْرَكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّ مَنْ نَقَضَ الْبَيْعَةَ وَارْتَدَّ جَعَلَ ذَلِكَ سُنَّةً لِّغَيْرِهِ. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فِي الْآخِرَةِ.

(٩٥) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وَلَا تَسْتَبْدِلُوا عَهْدَ اللَّهِ وَبَيْعَةَ رَسُولِهِ ﷺ. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عَرَضًا يَسِيرًا، وَهُوَ مَا كَانَتْ قَرِيشٌ يَعِدُونَ لضعفاء المسلمين وَيَشْتَرُونَ لَهُمْ عَلَى الْإِرْتِدَادِ. ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالتَّغْنِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِمَّا يَعِدُونَكُمْ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّمْيِيزِ.

(٩٦) ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا. ﴿يَنْفَدُ﴾ يَنْقُضِي وَيَفْنَى. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَةِ. ﴿بَاقٍ﴾ لَا يَنْفَدُ، وَهُوَ تَعْلِيلٌ لِلْحُكْمِ السَّابِقِ وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَاقٍ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ عَلَى الْفَاقَةِ وَأَذَى الْكُفَّارِ، أَوْ عَلَى مَشَاقِّ التَّكَالِيفِ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ بِالنُّونِ. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بِمَا يَرْجَحُ فَعْلُهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ كَالْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْدُوبَاتِ، أَوْ بِجَزَاءٍ أَحْسَنَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَمَنْ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾

(٩٧) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾ بَيَّنَّهُ بالنوعين دَفْعًا للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إِذْ لَا اعتِدَادَ بأعمال الكُفْرَةِ في استحقاق الثواب، وإنما المتوقَّعُ عليها تخفيفُ العذاب^(١). ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عَيْشًا طَيِّبًا فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُوسِرًا فَظَاهِرٌ وَإِنْ كَانَ مُعْسِرًا يَطِيبُ عَيْشَهُ بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقُّع الأجر العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُعْسِرًا فَظَاهِرٌ وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا لَمْ يَدْعُهُ الْجَزْءُ وَخَوْفُ الْفَوَاتِ أَنْ يَتَهَنَّا بِعَيْشِهِ. وقيل في الآخرة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة^(٢).

(٩٨) ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ إِذَا أَرَدْتَ قراءته كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾^(٣). ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يَعِذَّكَ مِنْ وَسْوَئِهِ لِثَلَا يَوْسُوسِكَ فِي الْقِرَاءَةِ. والجمهورُ على أَنَّهُ للاستحباب^(٤). وفيه دليل على أَنَّ المصلي يستعِذ في كل ركعة لِأَنَّ الْحُكْمَ الْمَتَرْتَّبَ عَلَى شَرْطٍ يَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِهِ قِيَاسًا. وتعقيبُهُ لِذِكْرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْوَعْدِ عَلَيْهِ إِذَا نَافَ بِالْإِسْتِعَاذَةِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. وعن ابن مسعود: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيهِ جبريلُ عن القلمِ عن اللوحِ المحفوظ»^(٥).

(٩٩) ﴿إِنَّهُ لَمَنْ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أوامره ولا يَقْبَلُونَ وَسْوَئَهُ إِلَّا فِيمَا يَحْتَقِرُونَ عَلَى نُذُورٍ وَغَفْلَةٍ، ولذلك أَمَرُوا بِالْإِسْتِعَاذَةِ، فَذَكَرُ السُّلْطَنَةِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْإِسْتِعَاذَةِ لِثَلَا يَوْهَهُمْ مِنْهُ أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا^(٦).

(١) وإِثَارَ إِيْرَادِهِ بِالْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَةِ الْحَالِيَةِ عَلَى نَظْمِهِ فِي سَلَكِ الصَّلَاةِ لِإِفَادَةِ وَجُوبِ دَوَامِهِ وَمُقَارَنَتِهِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ (س/٥/١٣٩).

(٢) والجمع في الضمائر العائدة إلى الموصول «مَنْ» لِمُرَاعَاةِ جَانِبِ الْمَعْنَى، كَمَا أَنَّ الْإِفْرَادَ فِيمَا سَلَفَ لِرِعَايَةِ جَانِبِ اللَّفْظِ. وَإِثَارَ ذَلِكَ عَلَى الْعَكْسِ لِأَنَّ وَقُوعَ الْجِزَاءِ بِطَرِيقِ الْاجْتِمَاعِ الْمُنَاسِبِ لِلْجُمُعَةِ، وَوُقُوعَ مَا فِي حِيزِ الصَّلَاةِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ بِطَرِيقِ الْإِفْتِرَاقِ وَالتَّعَاقُبِ الْمُنَاسِبِ لِلْإِفْرَادِ.

(٣) المائدة: (٦٦).

(٤) قال ابن حجر في «جامع البيان» (١٧٣/١٤/٨) «وليس قوله (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام ونذير، وذلك أنه لا خلاف بين الجمع أنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَلَمْ يَسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، قَبْلَ قِرَاءَتِهِ أَوْ بَعْدَهَا، أَنَّهُ لَمْ يَضِيعْ فَرَضًا وَاجِبًا».

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤٩٠/٤) «والاستعاذة عند القراءة سنة في الصلاة وغيرها».

(٥) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٩٦ رقم ٢٦١) «رواه الثعلبي مسلسلًا عن شيخه أبي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي إلى ابن مسعود. ورواه الواحدي في الوسيط عن الثعلبي هـ».

(٦) وفي التعرض لصفة الربوبية عِدَّةُ كَرِيْمَةٍ بِإِعَاذَةِ الْمُتَوَكِّلِينَ (س/٥/١٤٠).

إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يحبونه ويطيعونه. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ بالله أو بسبب الشيطان^(١). ﴿مُشْرِكُونَ﴾.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً﴾ بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ من المصالح فلعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه، وما لا يكون مصلحة حيث يكون مصلحة الآن فيثبت مكانه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ينزل بالتخفيف. ﴿قَالُوا﴾ أي الكفرة. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ متقول على الله تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب إذا. والله أعلم بما ينزل اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم، ويجوز أن يكون حالاً^(٢). ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب^(٣).

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام، وإضافة الروح إلى القدس وهو الطهر كقولهم: حاتم الجود^(٤). وقرأ ابن كثير روح القدس بالتخفيف. وفي ينزل ونزله تنبيه على أن إنزاله مدرجاً على حسب المصالح بما يقتضي التبديل. ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحكمة^(٥). ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليثبت الله الذين آمنوا على الإيمان بأنه كلامه، وأنهم إذا سمعوا النسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأنث قلوبهم. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين لحكمه، وهما معطوفان على محل ليثبت أي تثبيتاً وهداية وبشارة، وفيه تعريض بحصول أصداد ذلك لغيرهم. وقرئ ليثبت بالتخفيف.

(١٠٣) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يغنون جبراً الرومي غلام عامر بن الحضرمي. وقيل جبراً ويساراً كانا يصنعان السيوف بمكة وقرآن التوراة والإنجيل، وكان الرسول ﷺ يمر عليهما ويسمع ما يقرانه. وقيل عاشاً غلام حويط بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب. وقيل سلمان

(١) وتكرير الموصول «الذين» للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه (س/١٤٠/٥).

(٢) وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان بأن ذلك كفر ناشئة عن نزغات الشيطان وأنه وليهم (س/١٤١/٥).

(٣) وإسناد هذا الحكم لأكثرهم لأن منهم من يعلم ذلك وإنما ينكره عناداً (س/١٤١/٥).

(٤) أي للمبالغة في ذلك الوصف كأنه طبع منه.

(٥) وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية عليه - ﷺ - ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض (س/١٤١/٥).

الفارسي^(١). ﴿لِسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ﴾ لغة الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، مأخوذ من لَحِدِ القبر. وقرأ حمزة والكسائي يُلْحِدُونَ بفتح الياء والحاء، لسان أعجمي غيرُ بيِّن. ﴿وَهَذَا﴾ وهذا القرآن. ﴿لِسَانٌ عَكْرٌ مِّثْثٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والجملتان مُسْتَأْنَفَتَانِ لإبطال طَعْنِهِمْ، وتقريره يَحْتَمِلُ وجهين أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون ما تلقفه منه؟! وثانيهما: هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يَتَلَقَّفْ منه اللفظ، لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجزٌ باعتبار المعنى فهو معجز من حيث اللفظ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تَعَلُّمُهَا إلا بملازمة مُعَلِّمٍ فائقٍ في تلك العلوم مدةً متطاولةً، فكيف تَعَلَّمَ جميع ذلك من غلامٍ سوقِيٍّ سمع منه في بعض أوقاتٍ مروِّره عليه كلماتٍ أعجميةً لعلهما لم يعرفا معناها؟! وطَعْنُهُمْ في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليلٌ على غاية عَجْزِهِمْ.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لا يصدِّقون أنها من عند الله. ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة. وقيل إلى الجنة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، هدَّاهم على كفرهم بالقرآن بعد ما أَمَاطَ شُبُهَتَهُمْ وَرَدَّ طَعْنَهُمْ فِيهِ، ثُمَّ قَلَّبَ الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ:

(١٠٥) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافون عِقَاباً يردُّعُهُمْ عَنْهُ. ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا، أو إلى قريش. ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافات أعظم الكذب، أو الذين عادَّتهم الكذب لا يصرفهم عنه دينٌ ولا مروءة، أو الكاذبون في قولهم: إنما أنت مفترٌ إنما يعلمه بَشَرٌ.

(١٠٦) ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ بدل من الذين لا يؤمنون وما بينهما اعتراض، أو من أولئك، أو من الكاذبون. أو مبتدأ خبره محذوف دلٌّ عليه قوله: ﴿فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبٌ﴾. ويجوز أن ينتصب بالذم، وأن تكون من شرطية محذوفة الجواب دلٌّ عليه قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ على الافتراء أو كلمة الكفر، استثناء متصل لأن الكفر لغة يعمُّ القول والعقد كالإيمان. ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ لم تنغيِز عقيدته. وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب. ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقده

(١) تحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد.

وإنما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه - مع كونه أدخل في ظهور كذبهم - للإيذان بأن مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام إلى التعلم من شخص معين بل من البشر كائناً من كان (س/٥/١٤١).

وطاب به نفساً. ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أعظم من جُزْمِهِ. رُوي أنَّ قريشاً أكرهوا عماراً وأبوئيه ياسراً وسُمَيَّةَ على الارتداد، فَرَبَطُوا سُمَيَّةَ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ وَجِيءَ بِحَزْبَةٍ فِي قُبْلَاهَا وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتلوا ياسراً وهما أول قَتْلَيْنِ في الإسلام، وأعطاهم عمارٌ بلسانه ما أرادوا مُكْرَهًا فقيل: يا رسول الله إنَّ عماراً كَفَرَ فقال: «كَلَّا إِنْ عَمَارًا مِّلِيَّ إِيْمَانًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ، وَاخْتَلَطَ الْإِيْمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» فأتى عمارٌ: رسولَ الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «مَا لَكَ؟ إِنْ عَادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُمْ بِمَا قُلْتَ»^(١). وهو دليل على جواز التكلُّم بالكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنَّب عنه إغرازاً للدين كما فعله أبواه، لما رُوي أنَّ مسيلمة أخذَ رَجُلَيْنِ فقال لأَحَدِهِمَا: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ قال: فما تقول في؟ فقال: أنت أيضاً، فخلَّاهُ، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ، قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصمُّ، فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهيناً له»^(٢).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا
جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٧) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد. ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ بسبب أنهم آثروها عليها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الكافرين في علمه إلى ما يوجب ثبات الإيمان ولا يعصمهم من الزَّيغ.

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٩٦ رقم ٢٦٢): هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند ١ هـ. وأخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٨/١٤١ - ١٨٢) عن أبي مالك وقتادة مرسلًا بسند صحيح. أن الآية نزلت في عمار بن ياسر. وهذا مذهب جمهور المفسرين.

وانظر «الدر المنثور» (٥/١٧٢) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/١٨١) والمستدرك للحاكم (٢/٣٥٧).
(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٩٦ رقم ٢٦٣) «وأخرج ابن أبي شيبة قال: حدثنا إسماعيل بن علي عن يونس عن الحسن - مرسلًا - أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال: لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه، وقال: إني أصم فأعاد عليه فقال مثله فأمر بقتله. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم. فأرسله. فأتى النبي ﷺ فقال: هلكت. فقال: - وما شأنك؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه، فقال: «أما صاحبك فمضى على إيمانه. وأما أنت فأخذت بالرخصة».

وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» عن معمر - مفصلاً - قال: سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه. وذكر الواحدي في «المغازي» أن اسم المقتول: حبيب بن زيد عم عباد بن تميم واسم الآخر: عبدالله بن وهب الأسلمي. قال: وكانا في السافة. وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار» هـ.

(١٠٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ فَأَبَتْ عَنْ إدراك الحق والتأمل فيه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الحالة الراهنة عن تدبّر العواقب.

(١٠٩) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم وصرّفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِلٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ ﴿١١٤﴾

(١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ أي عُدُّوا كعمار رضي الله تعالى عنه بالولاية والنصر، وثم لِبَتَاعِدِ حَالِ هؤلاء عن حال أولئك. وقرأ ابن عامر قَتَلُوا بِالْفَتْحِ، أي من بعد ما عُدُّوا المؤمنين كالحضرمي أكره مولاة جَبْرًا حتى ارتدَّ ثم أسلم وهاجر. ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر^(١).

﴿لَغَفُورٌ﴾ لما فعلوا قبل. ﴿رَحِيمٌ﴾ منعم عليهم مجازاة على ما صنعوا بعد.

(١١١) ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب برحيم أو باذْكُر. ﴿بِجَدِلٍ عَنْ نَفْسِهَا﴾ تجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها لا يهمها شأن غيرها فتقول: نفسي نفسي. ﴿وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ﴾ جزاء ما عَمِلَتْ^(٢). ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُنْقُصُونَ أَجُورَهُمْ.

(١١٢) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فَأَبْطَرْتَهُمُ النعمة فكفروا فأنزل الله بهم نقمته، أو لِمَكَّةَ. ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ لا يُزْعِجُ أهلها خوف. ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها^(٣). ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً. ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ بنعمه، جَمْعُ نِعْمَةٍ

(١) وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظهار لكمال اللطف به عليه السلام وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعاً له (س/٥/١٤٤).

(٢) وإيثار إظهار النفس «كل نفس» على الإضمار لزيادة التقرير، وللإيذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية وإن كانتا في يوم واحد (س/٥/١٤٤).

(٣) وتغيير النظم عن صفتها الأولى «كانت آمنة..» لأن إتيان الرزق متجدد، وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (س/٥/١٤٥).

على ترك الاعتدال بالتاء كدزع وأذرع، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس^(١). ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له كقول كثير:

عمرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلَقَتْ لِضُحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

فإنه استعار الرِّدَاءَ للمعروف لأنه يصون عِزَّصَ صاحبه صَوْنُ الرِّدَاءِ لما يلقى عليه، وأضاف إليه الغَمْرَ الذي هو وَضْفُ المعروفِ والثَّوَالِ لا وَضَفَ الرِّدَاءِ نظراً إلى المستعار له، وقد يُنظَرُ إلى المستعار كقوله:

يَنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو رَوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرٍو بَنَ كَرٍ

لِي الشُّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونَكَ فَاعْتَجَزَ مِنْهُ بِشَطْرِ

استعار الرِّدَاءَ لسيفه ثم قال فاعتجَزَ نظراً إلى المستعار. ﴿يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بصنيعهم^(٢).

(١١٣) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكة عادَ إلى ذِكْرِهِمْ بعد ما ذَكَرَ مِنْهُمْ. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي حالَ التَّبَاسُهِمِ بِالظُّلْمِ والعذاب ما أصابهم مِنَ الْجَذَبِ الشَّدِيدِ، أو وقعة بدر.

(١١٤) ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلْالًا طَيِّبًا﴾ أَمَرَهُمْ بِأَكْلِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ وَشُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بعدما زجرهم عن الكفر وهذَّهم عليه بما ذَكَرَ من التمثيل والعذاب الذي حلَّ بهم، صَدَأَ لَهُمْ عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تطيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(١١٥) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿لَمَّا أَمَرَهُمْ بِتَنَاوُلِ مَا أَحَلَّ لَهُمْ عَدَّدَ عَلَيْهِمْ مُحْرَمَاتِهِ لِيَعْلَمَ أَنَّ مَا عَدَّهَا حَلَّ لَهُمْ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ بِأَهْوَائِهِمْ فَقَالَ:

(١) وأنعم جمع قلة، وأثر جمع القلة للتحويل، أي إذا كان كفران نعمة قليلة هذا جزاؤه، فكيف بكفران نعم كثيرة؟.

(٢) وتقديم الجوع على الخوف لكونه أنسب بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرزق وإيقاع الإذاقة للقرية للمبالغة. وفي صيغة الصنعة إيذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم (س/١٤٥/٥).

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِنِعْمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَيَا آدَمُ ائْتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

(١١٦) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾^(١) الآية، ومقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بإنما حَصَرَ المحرمات في الأجناس الأربعة إلا ما ضَمَّ إليه دليل: كالسباع والحُمُر الأهلية. وانتصاب الكذب بلا تقولوا، وهذا حلال وهذا حرام بدل منه، أو متعلقٌ بِتَصِفُ على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تَصِفُهُ أَلْسِنَتُكُمْ فتقولوا هذا حلال وهذا حرام، أو مفعولٌ لا تقولوا، والكذب مُنْتَصِبٌ بتصف وما مصدرية أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لَوْصِفِ أَلْسِنَتُكُمْ الكذب أي: لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به أَلْسِنَتُكُمْ من غير دليل، وَوَصِفُ أَلْسِنَتِهِمْ الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة وأَلْسِنَتُهُمْ تَصِفُهَا وتعرفها بكلامهم هذا، ولذلك عُدَّ مِنْ تَصْحِيحِ الكلام كقولهم: وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر. وقُرِئَ الكذب بالجر بدلاً من ما، والكذبُ جَمْعٌ كَذُوبٍ أو كَذَابٌ بالرفع صفة للأنسنة وبالنصب على الذم أو بمعنى الكَلِمِ الكواذب. ﴿لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ تعليل لا يتضمن الغرض. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لما كان المفتري يفترى لتحصيل مطلوب نفى عنهم الفلاح وبَيَّنَّه بقوله:

(١١٧) ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ما يفترى لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(١١٨) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾^(٢) ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرمانا. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالتحريم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة.

(١١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ﴾ بسببها أو ملتبسين بها ليعمَّ الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة. والسوء يعمُّ الافتراء على الله وغيره. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد

(١) الأنعام: (١٣٩).

(٢) الأنعام: (١٤٦).

التوبة^(١). ﴿لَقَوُّرٌ﴾ لذلك السوء. ﴿رَجِيمٌ﴾ يثيب على الإنابة.

(١٢٠) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفرقة في أشخاص كثيرة، كقوله:

لَيْسَ مِنْ اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وهو رئيسُ الموحدين وقدوةُ المحققين الذي جادل فِرَقَ المشركين وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة، ولذلك عقب ذِكْرَهُ بتزييف مذاهب المشركين مِنَ الشرك والطعن في النبوة وتحريم ما أحله، أو لأنه كان وحده مؤمناً وكان سائرُ الناس كفاراً. وقيل هي فِعْلَةٌ بمعنى مفعول كالرحلة والثخبة، مِنْ أُمَّةٍ إِذَا قَصَدَهُ أَوْ اقْتَدَى بِهِ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ لِلْإِسْتِفَادَةِ وَيَقْتَدُونَ بِسِيرَتِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي جَاءُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٢) ﴿فَاتَّبَعُوا اللَّهَ﴾ مطيعاً له قائماً بأوامره. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل. ﴿وَلَرَّيْكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

(١٢١) ﴿شَاكِرًا لِنِعْمِهِ﴾ ذُكِرَ بلفظ القلّة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة؟ ﴿أَجَبْتُهُ﴾ للنبوة. ﴿وَهَدَنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلى الله.

(١٢٢) ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأن حَبَّبَهُ إِلَى النَّاسِ حَتَّى أَنْ أَرَبَابَ الْعِلَالِ يَتَوَكَّلُونَ وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَرَزَقَهُ أَوْلَاداً طَيِّبَةً وَعُمُراً طَوِيلاً فِي السَّعَةِ وَالطَّاعَةِ^(٣). ﴿وَأَنَّمْ فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ لِمَنْ أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا سَأَلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٤).

(١٢٣) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّد. وَثُمَّ إِمَّا لِعَظِيمِهِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنْ أَجَلَ مَا أُوتِيَ إِبْرَاهِيمُ اتِّبَاعَ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِلَّتُهُ، أَوْ لِتَرَخِي أَيَّامِهِ^(٥). ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فِي التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ بِالرَّفْقِ وَإِيرَادِ الدَّلَائِلِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَالمُجَادَلَةِ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى حَسَبِ فَهْمِهِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بَلْ كَانَ قَدْوَةً لِلْمُوحِدِينَ.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ تعظيمُ السَّبْتِ، أَوْ التَّخْلِي فِيهِ لِلْعِبَادَةِ. ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أَيِ عَلَى نَبِيِّهِمْ، وَهَمَّ الْيَهُودُ أَمْرَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَتَفَرَّغُوا لِلْعِبَادَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَبَوْا وَقَالُوا: نَرِيدُ

(١) تكرير قوله تعالى «إِنَّ رَبَّكَ» لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه (س/٥/١٤٨).

(٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) والالتفات إلى التكلم «وآتيناه» لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وتفخيم مكانه عليه السلام (س/٥/١٤٩).

(٤) الشعراء: ٨٣.

(٥) وإيراد «ثم» التي هي للتراخي في الرتبة للإيدان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام (س/٥/١٥٠).

يوم السبت لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض، فالزمهم الله السبت وشدد الأمر عليهم. وقيل معناه إنما جُعِلَ وبَالَ السَّبْتِ وهو المسخُّ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصَّيْدَ فيه تارةً وحرّموه أخرى واحتالوا له الحيل، وذكرهم هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله^(١). ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَبَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١٢٦) بالمجازة على الاختلاف، أو بمجازة كل فريق بما يستحقه.

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(١٢٥) ﴿أَدْعُ﴾ مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ^(٢). ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام. ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ بالمقالة الْمُحْكَمَةِ، وهو الدليل الموضح للحق المزيج للشبهة. ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة، فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم. ﴿وَحَدِّ لَهُم﴾ وَجَادِلْ مُعَانِدِيهِمْ. ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأيسر والمقدمات التي هي أشهر، فإن ذلك أنفع في تسكين لَهَبِهِمْ وتبيين شَعْبِهِمْ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك بل الله أعلم بالضالين والمهتدين وهو المجازي لهم^(٣).

(١٢٦) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ لما أمره بالدعوة وبيّن له طُرُقَهَا أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة ومراعاة العدل مع مَنْ يَنَاصِبُهُمْ، فإن الدعوة لا تنفك عنه من حيث إنها تتضمن رَفَضَ العادات وترك الشهوات والقَذَحَ في دين الأسلاف والحكم عليهم بالكفر والضلال. وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة وقد مثل به فقال: «والله لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين

(١) بناء الفعل «جعل» للمفعول للجري على سنن الكبرياء وللإيذان بعدم الحاجة للتصريح بالفاعل.

وعبر عن ذلك بالجعل موصولاً بكلمة «على» وعبر عنهم بالاسم الموصول باختلافهم، فقيل: «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه» للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدي إلى العذاب، وبكونه معللاً باختلافهم في شأنه قبل الوقوع إيثاراً له على ما أمر الله تعالى به واختياراً للعكس (س/٥/١٥٠).

(٢) وحذف المفعول للتعميم.

(٣) تقديم الضالين لأن سياق الكلام فيهم.

وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لأنه تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها وإعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض، بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات.

وتكرير «هو أعلم» للتأكيد والإشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب (س/٥/١٥١).

مَكَانَكَ»^(١)، فنزلت، فكفّر عن يمينه. وفيه دليل على أن للمقتصص أن يماثل الجاني وليس له أن يجاوزَه. وحثّ على العفو تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجه الآكّد بقوله: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من الانتقام للمتقين، ثم صرح بالأمر به لرسوله لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ووثوقه عليه فقال:

(١٢٧) ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلا بتوفيقه وتثبيتته. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين أو على المؤمنين وما فعلَ بهم. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في ضيق صدرٍ مِنْ مَكْرِهِمْ. وقرأ ابن كثير في ضيقٍ بالكسر هنا وفي النمل^(٢) وهما لغتان كالقول والقليل، ويجوز أن يكون الضيق تخفيف ضيق. (١٢٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ المعاصي. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل، أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النحل لم يُحَاسِبْهُ الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية»^(٣).

☆☆☆

(١) أخرجه البزار في كشف الأستار (٣٢٦/٢) رقم (١٧٩٥) في سياق أطول عن أبي هريرة وأورده الهيثمي في «المجمع» (١١٩/٦) وقال «رواه البزار والطبراني، وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف» هـ.
● وأخرج الترمذي (٢٩٩/٥) رقم (٣١٢٩) عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُزَيِّنَنَّ عليهم. قال: فلما كان يوم فتح مكة، فأنزل الله تعالى «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» [النحل: ١٢٦].

فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ «كُفُّوا عن القوم إلا أربعة». وهو حديث حسن.

(٢) النمل: (٧٠).

(٣) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢٣٩/١).

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُمْنَ مَا يَكُونُ إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ يَلَّ الْأَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

سورة بني إسرائيل مكية،

وقيل إلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكَاذِبُوا وَلَيُفْتَنَنَّكَ﴾^(١) إلى آخر ثمان آيات، وهي مائة وإحدى عشرة آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سبحانه اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه يُسْتَعْمَلُ عَلَمًا لَهُ يَقْطَعُ عَنِ الْإِضَافَةِ وَيُمنَعُ عَنِ الصَّرْفِ قَالَ:

فَخَرُّهُ قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي سُبْحَانَ مِنْ عِلْقَمَةِ الْفَاخِرِ

وانتصابه بفعل متروك إظهاره، وتصدير الكلام به للتنزيه عن العجز عما دُكِرَ بعدُ. وَأَسْرَى وَسَرَى بمعنى. وليلاً نُصِبَ عَلَى الظرف، وفائدته الدلالة بتكثيره على تقليل مُدَّةِ الإسراء. ولذلك قرئ من الليل، أي بعضه كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾^(٢). ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بِعَيْنِهِ لَمَّا رَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ أَتَانِي جَبْرِيلُ بِالْبُرَاقِ»^(٣). أو من الحرم، وسمَّاه المسجد الحرام لأنه كلُّه مسجدٌ أو لأنه محيط به أو ليطابق

(١) الآية: (٧٣).

(٢) الإسراء: (٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٢/٦) رقم (٣٢٠٧) و(٢٠١/٧) رقم (٣٨٨٧) ومسلم (١٥٠/١) رقم (٢٦٤). من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

المبدأ المُنْتَهَى، لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فَأُسْرِيَ به ورجع من ليلته، وقصَّ القصةَ عليها وقال: «مُثِّلَ لي الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام فصليتُ بهم» ثمَّ خرجَ إلى المسجدِ الحرام وأخبر به قريشاً، فتعجبوا منه استحالةً، وارتدَّ ناسٌ ممن آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: إن كان قال لقد صدق، فقالوا: أَتَصَدِّقُهُ على ذلك، قال: إني لأَصَدِّقُهُ على أبعدَ من ذلك فَسُمِّيَ الصَّدِيقُ. واستنَّعَتْ طائفةٌ سافروا إلى بيت المقدس فجلُّي له فَطَفِقَ ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعتُ فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عِزِّنا، فأخبرهم بعددِ جمالها وأحوالها وقال: «تَقْدُمُ يومَ كذا مع طلوع الشمس يقدمها جَمَلٌ أَوْزَقُ» فخرجوا يشتدون إلى الشية فصادفوا العِزَّ كما أَخْبَرَ، ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إلا سحرٌ مبين^(١). وكان ذلك قَبْلَ الهجرة

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٩٧ رقم ٢٧١) ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند. وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.

ثم رأيت من رواية جوير عن الضحاك عن ابن عباس. أخرجه الحاكم في الإكليل والبيهقي عنه. لكن لم يسق لفظه.

وقد رواه النسائي (في التفسير رقم: ٣٠٥) - باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس.

- قلت: رجاله رجال الشيخين، غير محمد بن عبد الأعلى وهو ثقة أخرج له مسلم كما في «رجال صحيح مسلم» (رقم: ١٤٧٧). وعوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي.

وقد أخرجه أحمد (٣٧٤/١) مطولاً، وأبو يعلى في مسنده (١٠/٥ رقم ٢٧٢٠) وابن جرير في «تهذيب الآثار» مسند عبدالله بن عباس (٤٠٨/١ رقم ١٧) كلهم من حديث ثابت عن هلال بن خباب - به.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦٦/١ - ٦٧) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن هلال بن خباب، قال يحيى القطان: إنه تغير قبل موته، وقال: يحيى بن معين: لم يتغير ولم يختلط، ثقة مأمون، ورواه أبو يعلى...» هـ.

وذكره ابن كثير في التفسير (١٦/٣ - ١٧) عن المسند وقال «وهو إسناد صحيح» - وأورده ابن سعد - في الطبقات (٢١٣/١ - ٢١٥) من طريق أبي مرة مولى عقيل، عنهما نحوه - وأبو يعلى - كما في «المجمع» (٤١/٩ - ٤٢) مختصراً على تسمية أبي بكر الصديق - والطبراني (في الكبير (٤٣٢/٢٤ - ٤٣٤ رقم ١٠٥٩) من طريق عكرمة عنها نحوه. وأخرجه مختصراً على تسمية أبي بكر وهو متروك كما في «المجمع» (٤٢/٩) - من حديث أم هانئ مطولاً هـ.

- قلت: وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/١٥٢) من حديث أم هانئ لكنه من طريق أبي صالح مولاها عنها مختصراً.

وورد ذكر تسمية (الصديق) من حديث عائشة عن الحاكم في المستدرک (٦٢/٣ - ٦٣) وعنه البيهقي في «الدلائل» (٣٦١/٢) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣٦٠/٢) بسند صحيح عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلًا.

- قلت: ومن الملاحظ أن ابن حجر رحمه الله اقتصر في تخريج هذا الحديث على المصادر المذكورة، مع أن ما فيه مخرج في «الصحيحين» وغيرها.

فأخرج البخاري (١٩٦/٧ رقم ٣٨٨٦) و(٣٩١/٨ رقم ٤٧١٠) ومسلم (١٥٦/١ رقم ٢٧٦/١٧٠) من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال «لما كذبتني قريش، قمْتُ في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس. فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

بِسَنِّهِ^(١). واختُلِفَ في أنه كان في المنام أو في اليقظة برُوحه أو بجسده، والأكثرُ على أنه أُسْرِيَ بجسده إلى بيت المقدس، ثم عُرِجَ به إلى السموات حتى انتهى إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، ولذلك تعجَّب قريشٌ واستحالوه، والاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قُزْصِ الشمسِ ضِعْفُ ما بين طرفي كُرَّةِ الأرض مائةً ونيفاً وستين مرةً، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضعَ طرفها الأعلى في أقلَّ من ثانية، وقد بُزِهِنَ في الكلام أن الأجسام متساوية في قبول الأغراض وأن الله قادر على كل الممكنات فيقدر أن يخلق مثلَ هذه الحركة السريعة في بدن النبي ﷺ، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد. ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بركات الدين والدنيا، لأنه مَهْبِطُ الوحي وَمُتَعَبَّدُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لَدُنْ موسى عليه الصلاة والسلام. ومحفوف بالأنهار والأشجار. ﴿لِنُرِيَهُمْ آيَاتِنَا﴾ كَذَهَابِهِ فِي بُزْهَةِ مِنَ اللَّيْلِ مسيرة شهرٍ ومشاهدته بَيْتَ المقدس وَتَمَثُّلُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له ووقوفه على مقاماتهم. وَصَرْفُ الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات. وَقُرِئَ لِيُرِيَهُ بِالْيَاءِ. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال محمد ﷺ. ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه على حسب ذلك^(٢).

(٢) ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ على أن لا تتخذوا كقولك: كتبت إليك أن افعل كذا. وقرأ أبو عمرو بالياء على لأن لا يتخذوا. ﴿مِنْ دُونِ وَكِيلٍ﴾ رَبًّا تَكْلُونُ إِلَيْهِ أُمُورَكُمْ غَيْرِي.

(٣) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نُصِبَ على الاختصاص أو النداء إن قُرِئَ أن لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلًا، أو على أنه أحدُ مفعولي لا تتخذوا مِن دُونِي حَالٌ مِنْ وَكِيلٍ فيكون كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾^(٣). وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدلٌ من وَآوِ تتخذوا، وَذُرِّيَّةٌ بكسر الدال. وفيه تذكيرٌ بِإِنْعَامِ الله تعالى عليهم في إنجاء آبائهم من الغرقِ بِحَمْلِهِمْ مع نوح عليه السلام في السفينة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن نوحاً عليه السلام. ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يحمد الله تعالى على مجامع حالاته، وفيه إيماءٌ بِأَنِ إنجاءه وَمَنْ معه كان ببركة شُكْرِهِ، وَحَثٌّ لِلذَّرِيَّةِ على الاقتداء به. وَقِيلَ الضميرُ لموسى عليه الصلاة والسلام.

= وأخرج مسلم (١/١٥٦ رقم ١٧٢/٢٧٨) من حديث أبي هريرة بنحو ما تقدم عندها وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣) - (٢٦) تحت عنوان: ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء.

(١) قاله ابن سعد وغيره وبه جزم النووي، وبالع ابن حزم فنقل الإجماع فيه، وهو مردود فإن في ذلك اختلافاً كثيراً يزيد على عشرة أقوال... الفتح (٧/٢٠٣).

(٢) لم يذكر ههنا العروج بالنبي ﷺ إلى السماء - كما ذكر في سورة النجم - وذلك تقريباً للإسراء إلى قلوب السامعين (س ٥/١٥٥).

(٣) آل عمران: ٨٠.

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾
 فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا
 مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
 إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَاأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ
 وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

(٤) ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضياً مبنوئاً. ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة. ﴿لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ جواب قسم محذوف. أو قضينا، على إجراء القضاء المبتوت مجرى القسم. ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ إفسادتين أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتل شعياً وقيل أرمياء، وثانيهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام. ﴿وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولنتكبرن عن طاعة الله تعالى، أو لَنَظْلِمُنَّ النَّاسَ.

(٥) ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ وعد عقاب أولاهما. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ بُخْتَنْصَرَ عامل لهراسف على بابل وجنوده. وقيل جالوت الجزري. وقيل سنحاريب من أهل نينوى. ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي قوة وبطش في الحرب شديد. ﴿فَجَاسُوا﴾ فترددوا لطلبكم. وقرئ بالحاء المهملة، وهما أخوان. ﴿خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ وسطها للقتل والغارة فقتلوا كبارهم وَسَبَّوْا صِغَارَهُمْ وَحَرَّقُوا التَّوْرَةَ وَخَرَّبُوا الْمَسْجِدَ. والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أَوَّلُوا البعث بالتخلية وعدم المنع. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ وكان وعد عقابهم لابد أن يُفْعَلَ.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي الدولة والغلبة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بُعِثُوا عليكم، وذلك بأن ألقى الله في قلوب يهيم بن إسفنديار لما ورث الملك من جدّه كئناسف بن لهراسف شفقة عليهم، فردّ أسراهم إلى الشام وملك دانيال عليهم فاستولوا على مَنْ كان فيها من أتباع بُخْتَنْصَرَ، أو بأن سلط الله داود عليه الصلاة والسلام على جالوت فقتله. ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ مما كنتم والنفير مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من قومه، وقيل جَمْعُ نَفَرٍ وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

(٧) ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابه لها. ﴿وَإِنْ أَسَاأْتُمْ فَلَهَا﴾ فَإِنَّ وِثْرَهُ عَلَيْهَا، وإنما ذَكَرَهَا باللام ازدواجاً. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وعد عقوبة المرة الآخرة. ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليسوؤوا وجوهكم أي يجعلوها بادية آثار المساءة فيها، فحذف لدلالة ذِكْرِهِ أَوَّلًا عليه. وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر ليسوء على التوحيد، والضمير فيه للوعد أو لِلْبَعْثِ أو لله، وَيُعْصِدُهُ قِرَاءَةُ الْكَسَائِي بِالنُّونِ^(١). وقرئ لَسُوْانَ بالنون والياء والنون المخففة والمثقلة، وَلَسُوْانَ بفتح اللام على الأوجه الأربعة على أنه جواب إذا، واللام في قوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ هو بعثناهم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ لِيُهْلِكُوا. ﴿مَا عَلَوْا﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مُدَّةَ عُلُوِّهِمْ. ﴿تَتْبِيرًا﴾ ذلك بأن سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه

جودرز، وقيل حردوس، قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرايينهم فوجد فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دم قربان لم يُقبل مِنّا فقال: ما صدّقوني فقتل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأ الدم، ثم قال إن لم تُصدّقوني ما تركتُ منكم أحداً، فقالوا: إنه دم يَحْيى فقال لمثل هذا ينتقم رؤُكم منكم، ثم قال يا يحيى قد علم ربي ورؤك ما أصاب قومك من أجلك، فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقي أحداً منهم فهدأ.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الآخرة. ﴿وَإِنْ عُثِرْتُمْ﴾ نوبة أخرى. ﴿عُدْنَا﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم. وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ وقصد قتله، فعاد الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قُرَيْظَةَ وأجلى بني النضير وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ مَحْبَسًا لا يقدرّون على الخروج منها أبد الآباد. وقيل بساطاً كما يُسَطُّ الحَصِيرُ^(١).

(٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي وَيُبَشِّرُ بالتخفيف.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على أن لهم أجراً كبيراً، والمعنى أنه يبشر المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم، أو على يبشر بإضممار يُخِيرُ^(٢).

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ ويدعو الله تعالى عند غضبه بالشَّرِّ على نفسه وأهله وماله، أو يدعوه بما يَحْسَبُهُ خيراً وهو شر. ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ مثل دعائه بالخير. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته. وقيل المراد آدم عليه الصلاة والسلام فإنه لما انتهى الروح إلى سُرَّتِهِ ذهب لينهض فسقط^(٣). روي: أنه عليه السلام دفع أسيراً إلى سودة بنت زمعة، فرحمته لأنَّه فَاَزَحَتْ كتابه فهرب، فدعا عليها بقطع اليد ثم ندم، فقال عليه السلام: «اللهم إنما أنا بشرٌ فمن دعوتُ عليه فاجعل دعائي رحمةً له» فتزلت^(٤). ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وبالذعاء استعجاله بالعذاب استهزاءً

(١) وإنما عُذِلَ عن أن يقال: وجعلنا جهنم لكم، تسجيلاً على بالمؤد وذماً لهم بذلك وإشعاراً بعله الحكم (س/٥/١٥٨).

(٢) وتخصيص الآخرة بالذكر «لا يؤمنون بالآخرة» من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالإيمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم جزائنها الذي أنبا عنه قوله عز وجل «أعدنا لهم عذاباً أليماً» (س/٥/١٥٨).

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (٤٨/١٥) وفي سنده بشر بن عمار وهو ضعيف كما في التقريب (١/١٠٠).

(٤) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٩٧ رقم ٢٧٣) «لم أجده من هذه الجهة وقرأ أخرجه الواقدي في المغازي - (٢/٥٥٤ - ٥٥٥) - من رواية ذكوان عن عائشة «أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير، وقال لها: احتفظي به. قالت:

كقول النضر بن الحارث: اللهم انصر خيرَ الحزْبَيْنِ، اللهم إن كان هذا هو الحقُّ من عندك الآية. فَأُجِيبَ له فضربَ عنقه صَبْرًا يَوْمَ بدرٍ.

وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ تدلّان على القادر الحكيم بتعاقبهما على نَسَقٍ واحد بإمكان غيره. ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلَ﴾ أي الآية التي هي الليل بالإشراق، والإضافةُ فيهما للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود. ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة أو مُبْصِرَةٌ للناس من أبصره قَبُصَر، أو مُبْصِرًا أهله كقولهم: أَجَبَنَ الرجلُ إذا كان أهله جبناءً. وقيل الآيتان القمرُ والشمسُ، وتقدير الكلام وجعلنا نَيِّرِي الليل والنهار آيتين، أو جعلنا الليل والنهار ذَوِي آيتين. وَمَحْوُ آيَةِ اللَّيْلِ التي هي القمرُ جَعَلْنَاهَا مَظْلَمَةً في نفسها مَطْمُوسَةٌ النور، أو نَقَصَ نورُها شيئاً فشيئاً إلى المَحَاقِ، وجَعَلُ آيَةِ النَّهَارِ التي هي الشمسُ مُبْصِرَةً جَعَلْنَاهَا ذَاتَ شِعَاعٍ تُبْصِرُ الأشياءَ بضوئها^(١). ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسبابَ معاشِكُمْ وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم^(٢). ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ باختلافهما أو بحركاتهما. ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وجنس الحساب. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفقرون إليه في أمر الدين والدنيا. ﴿فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ بيناه بياناً غير مُلْتَبَسٍ.

(١٣) ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرُ فِي عُنُقِهِ﴾ عمله وما قُدِّرَ له كأنه طَيْرٌ إليه مِنْ عُنُقِ الْغَيْبِ وَوَكَّرِ الْقَدَرِ، لَمَّا كانوا يَتِيمُونَ ويتشاءمون بِسُنُوحِ الطَّائِرِ وبروحه اسْتُعِيرَ لما هو سببُ الخير والشر مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تعالى وعملِ العبد. ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ لزوم الطَّوْقِ فِي عُنُقِهِ. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا﴾ هي صحيفة عمله أو نَفْسِهِ الْمُتَنَقِّسَةِ بِأَثَارِ أَعْمَالِهِ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ الْاِخْتِيَارِيَّةَ تُخَدِّثُ فِي النَّفْسِ أَحْوَالًا وَلِذَلِكَ يُفِيدُ تَكْرِيرُهَا لَهَا مَلَكَاتٍ، وَنَضْبُهُ بِأَنَّهُ مَفْعُولٌ، أو حال من مفعول محذوف وهو ضمير الطائر، ويعضده قراءة يعقوب وَيُخْرِجُ مِنْ خَرَجٍ ويخرج، وقرئ وَيُخْرِجُ أي الله عز وجل. ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ لكشف الغطاء. وهما صفتان للكتاب، أو يلقاه صفةً ومنشوراً حال من مفعوله. وقرأ ابن عامر يُلْقَاهُ على البناء للمفعول من لَفَّيْتُهُ كذا.

= فلهوُثٌ مع امرأة فخرج ولم أشعر. فدخل يسأل عنه. فقلت والله ما أدري. فقال: قطع الله يدك، فذكر نحو ما تقدم. ورويناه في الجزء التاسع من حديث المخلص تخريج البقال. قال: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا أحمد بن صالح. حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا ١هـ.

(١) وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة (س ١٥٩/٥).

(٢) وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلاً بحكم الربوبية (س ١٦٠/٥).

أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَمَا أُرْخَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ على إرادة القول. ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي كفى نفسك، والباء مزيدة، وحسبياً تمييز، وعلى صلته. لأنه إما بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم وضريب القداح بمعنى ضاربها مِنْ حَسَبٍ عليه كذا، أو بمعنى الكافي فَوْضِعَ موضع الشهيد، لأنه يكفي المدعي ما أمهه. وتذكيره على أن الحساب والشهادة مما يتولاه الرجال، أو على تأويل النفس بالشخص.

(١٥) ﴿مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لا يُنجي اهتداؤه غيره ولا يُزدي ضلاله سواء. ﴿وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَمَا أُرْخَىٰ﴾ ولا تحمل نفس حاملة وزراً وزر نفس أخرى، بل إنما تحمل وزرها. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يَبَيِّنُ الْحُجَجَ وَيُمَهِّدُ الشَّرَائِعَ فَيُلْزِمُهُم الْحُجَّةَ، وفيه دليل على أن لا وجوب قبل الشرع.

(١٦) ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ وإذا تعلق إرادتنا بإهلاك قوم لإنفاذ قضائنا السابق، أو دنا وقتُه المقدَّر كقولهم: إذا أراد المريض أن يموت ازداد مرضه شدة. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها بالطاعة على لسان رسولي بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة والتمرد في العصيان، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة. وقيل أَمَرْنَاهُمْ بالفسق لقوله: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ كقولك أَمَرْتُهُ فقرأ فإنه لا يُفْهَمُ منه إلا الأمر بالقراءة، على أن الأمر مجازٌ مِنَ الْحَمْلِ عليه أو التسبب له، بأن صَبَّ عليهم من النعم ما أَبْطَرَهُمْ وأَفْضَىٰ بهم إلى الفسوق. ويحتمل أن لا يكون له مفعول مَنَوِيٌّ كقولهم: أَمَرْتَهُ فعصاني. وقيل معناه كَثَرْنَا، يقال: أَمَرْتُ الشَّيْءَ وَأَمَرْتُهُ فَأَمَرَ إِذَا كَثُرَتْهُ، وفي الحديث «خيرُ المال سُكَّةٌ مَّابُورَةٌ، ومُهْرَةٌ مَّامُورَةٌ»^(١)، أي كثيرة النَّتَاجِ، وهو أيضاً مجازٌ من معنى الطلب، ويؤيده قراءة يعقوب آمَرْنَا ورواية آمَرْنَا عن أبي عمرو، ويحتمل أن يكون منقولاً من أَمَرَ - بالضم - أَمَارَةٌ أي جعلناها أمراء. وتخصيص المترفين لأن غيرهم يتبعهم، ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر

(١) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أحمد في المسند (٤٦٨/٣) والطبراني في الكبير (٩١/٧) رقم ٦٤٧٠ و٦٤٧١ والقضاعي في مسند الشهاب (٢/٢٣٠ - ٢٣١ رقم ١٢٥٠ و١٢٥١) من حديث سويد بن هبيرة. وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٥٨/٥): وقال «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات». وانظر كلام ابن حجر عليه في الإصابة (١٠١/٢) وابن عبد البر في الاستيعاب (١١٥/٢) وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/٤٩٤ - ٤٩٥)، فقد أعلوه بالإرسال. والله أعلم.

● السُّكَّةُ: الطريقة المصطفة من النخل.

● المأبورة: ما أبر من النخل. [النهاية: (١٤/١)].

● مأمورة: كثيرة النتاج [النهاية: (٦٥/١)].

ومعنى الحديث: خير المال نتاج أو زرع.

على الفجور. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب السابقة بِحُلُولِهِ، أو بظهور معاصيهم، أو بانهمالكهم في المعاصي. ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّدُ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

(١٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً أهلكنا. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيان لَكُمْ وتمييز له. ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كَعَادٍ وَثَمُودَ. ﴿وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يدرك بواطنها وظواهرها فيعاقب عليها. وتقديم الخبر لتقدم مُتَعَلِّقُهُ^(١).

(١٨) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ مقصوراً عليها همه. ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ قَيَّدَ المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كلُّ مُتَمَنٍّ ما يتمناه ولا كلُّ واجِدٍ جميع ما يهواه، وَلِيُعْلَمَ أن الأمر بالمشيئة والهم فضلٌ. ولمن نريد بدلٌ من له بدلُ البعض. وقرئ ما يشاء، والضمير فيه لله تعالى حتى يطابق المشهورة، وقيل لِمَنْ فيكونُ مخصوصاً بمن أراد الله تعالى به ذلك. وقيل الآية في المنافقين كانوا يُراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى.

(١٩) ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ حقها من السعي، وهو الإتيان بما أمر به والانتهاز عما نُهي عنه لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا شِرْكَ معه ولا تكذيب فإنه العمدة^(٢). ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة. ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ من الله تعالى، أي مقبولاً عنده مثاباً عليه، فإنَّ شكر الله الثواب على الطاعة.

(٢٠) ﴿كَلَّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين بدلٌ من المضاف إليه. ﴿نُمَدِّدُ﴾ بالعتاء مرة بعد أخرى ونجعل أنفَهُ مدداً لسالفه. ﴿هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ﴾ بدل من كَلَّا. ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ من مُعْطَاةٍ، متعلق بنُمَدِّدٍ. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تَفْضِيلاً^(٣).

(٢١) ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وانتصاب كيف بِفَضْلُنَا على الحال. ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودرجاتها.

(١) أو لعمومه فإنه يتعلق بنير المبصرات.

(٢) وإيراد الإيمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما دُكر في حيز الصلة (س/١٦٤).

(٣) وإظهار «عطاء ربك» إظهاراً لمزيد الاعتناء بشأنه، وإشعاراً بعلية للحكم (س/١٦٥).

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَفَقَعْدَ مَذْمُومًا مَحْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته، أو لكل أحد. ﴿فَفَقَعْدَ﴾ فتصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة، أو فتعجز من قولهم قعد عن الشيء إذا عجز عنه. ﴿مَذْمُومًا مَحْذُولًا﴾ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى، ومفهومه أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً.

(٢٣) ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر أمراً مقطوعاً به. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ بأن لا تعبدوا. ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام، وهو كالتفصيل لسعي الآخرة. ويجوز أن تكون أن مفسرة ولا نهاية. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وبأن تحسنا، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش، ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإحسان لأن صلته لا تتقدم عليه. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ «إما» هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً، ولذلك صحَّ لحوق النون المؤكدة للفعل. وأحدهما فاعل يبلغن، وبدل على قراءة حمزة والكسائي من أَلْفٍ يَبْلُغَانُ الراجع إلى الوالدين، وكلاهما عطف على أحدهما فاعلاً أو بدلاً ولذلك لم يَجُزْ أن يكون تأكيداً للالف. ومعنى عندك أن يكونا في كنفك وكفالتك^(١). ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ﴾ فلا تتعجز مما يُسْتَقْدَرُ منهما وتُسْتَقْبَلُ مِنْ مَوْتِنِهِمَا. وهو صوت يدل على تَضَجُّرٍ، وقيل هو اسم الفعل الذي هو أتضجر، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين، وتنوينه في قراءة نافع وحفص للتنكير. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف^(٢)، وقرئ به منوناً، وبالضم للاتباع كمنذ منوناً وغير مُنَوَّن. والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً بطريق الأولى، وقيل عرفاً كقولك: فلان لا يملك النقيز والقطيمير، ولذلك منع رسول الله ﷺ حذيفة من قتل أبيه وهو في صف المشركين^(٣). نهى عما يؤذيها بعد الأمر بالإحسان بهما. ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا﴾ ولا ترجزهما عما لا يعجبك بإغلاظ، وقيل التَّهْيُّ والتَّهْرُ والنَّهْمُ أخوات. ﴿وَقُلْ لَهُمَا﴾ بدل التأفيف والتَّهْرِ. ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً لا شراسة فيه.

(٢٤) ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ﴾ تذلل لهما وتواضع فيهما، جَعَلَ لِلذَّلِيلِ جَنَاحًا كما جعل لبيد في

(١) تقديم الظرف «عندك» على المفعول للتشويق إلى وروده فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان. وتأخير الفاعل «أحدهما» عن الظرف والمفعول لثلا يطول الكلام به وبما عطف عليه.

وتوحيد ضمير الخطاب في «عندك» وفيما بعده - مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد، فإن المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما.. (س/١٦٦/٥).

(٢) أي «أُتْ».

(٣) قال ابن حجر: لم أجده، ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين، فإنه استشهد بأحد مع المسلمين بأيدي المسلمين خطأ. لكن نحو القصة المذكورة وردت لأبي عبيدة بن الجراح (الكافي الشاف ص ٩٩ رقم ٢٨٥).

قوله:

وَعِدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَقَرَّةَ إِذْ أَضْبَحَتْ بِإِدِّ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
لِلشَّمَالِ يَدَا أَوْ لِلْقَرَّةِ زِمَامًا، وَأَمَرَهُ بِخَفْضِهِ مِبَالِغَةً أَوْ أَرَادَ جَنَاحَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيفَ حَاتِمٌ إِلَى الْجُودِ، والمعنى واخفض لهما
جَنَاحَكَ الدَّلِيلَ. وقرئ الذَّلُّ بالكسر وهو الانقياد، والتَّعْتُ منه ذُلُولٌ. ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ مِنْ فَرْطِ
رحمتك عليهما لافتقارهما إلى مَنْ كَانَ أَفْقَرَ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمَا بِالْأَمْسِ. ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا﴾ وادع
الله تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُمَا بِرَحْمَتِهِ الْبَاقِيَةِ، وَلَا تَكْتَفِ بِرَحْمَتِكَ الْفَانِيَةِ وَإِنْ كَانَا كَافِرَيْنِ لِأَنَّ مِنَ الرَّحْمَةِ أَنْ
يَهْدِيَهُمَا: ﴿كَمَا رَزَقْنِي صَغِيرًا﴾ رَحْمَةً مِثْلَ رَحْمَتِهِمَا عَلَيَّ وَتَرْبِيَتَهُمَا وَإِرْشَادَهُمَا لِي فِي صَغَرِي وَفَاءً بِوَعْدِكَ
لِلرَّاحِمِينَ. رَوَى أَنْ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَبَوَيَّ بَلَغَا مِنَ الْكِبَرِ أَنِّي أَلِي مِنْهُمَا مَا وَلِيَا مِنِّي فِي
الصَّغَرِ فَهَلْ قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا، قَالَ: «لَا، فَإِنَّهُمَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهُمَا يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ
وَتُرِيدُ مَوْتَهُمَا»^(٢).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَمَاتِذَا الْقُرْآنُ حَقُّهُ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّ رَبِّ تَبَذَّرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ
كُفُورًا ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من قصد البرَّ إليهما واعتقاد ما يجب لهما من التوفير، وكأنه
تهديدٌ على أن يُضْمِرَ لهما كراهةً واستثقالاً. ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح. ﴿فَإِنَّهُمْ كَانَ
لِلْأَوَّابِينَ﴾ للتوابين. ﴿غَفُورًا﴾ مَا فَرَّطَ مِنْهُمْ غِنْدَ حَرَجِ الصَّدْرِ مِنْ أَذِيَةٍ أَوْ تَقْصِيرٍ، وفيه تشديدٌ عظيم،
ويجوز أن يكونَ عاماً لكلِّ تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه التائب من جنايته لِوُزُودِهِ على أثرِهِ.

(٢٦) ﴿وَمَاتِذَا الْقُرْآنُ حَقُّهُ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبرِّ عليهم. وقال أبو حنيفة: حَقُّهُمْ
إِذَا كَانُوا مُحَارِمَ فَقَرَاءِ أَنْ يَنْفَقَ عَلَيْهِمْ. وقيل المراد بذِي الْقُرْبَى أَقَارِبُ الرِّسُولِ ﷺ. ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ وَلَا بُدَّ رَبِّ تَبَذَّرًا﴾ بِصَرْفِ الْمَالِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي، وَإِنْفَاقَهُ عَلَى وَجْهِ الْإِسْرَافِ. وأصل التبذير التفريقُ.
وعن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ: «مَا هَذَا السَّرَفُ؟» قَالَ: أَوْ فِي الْوَضْءِ سَرَفٌ قَالَ: «نَعَمْ وَإِنْ
كَنتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»^(٣).

(٢٧) ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أمثالهم في الشَّرَارَةِ فَإِنَّ التَّضْيِيعَ وَالْإِتْلَافَ شَرٌّ، أَوْ

(١) الحجر: «٨٨».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ٩٨ رقم ٢٨٠): «لم أجده».

(٣) أخرجه أحمد (٢٢١/٢) وابن ماجه (٤٢٥). قال ابن حجر: وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف (الكافي الشاف ص ٩٩ رقم ٢٨٧).

أصدقاءهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم في الإسرافِ والصَّرْفِ في المعاصي. روي أنهم كانوا ينحرون الإبلَ ويتياسرون عليها ويُبذِّرون أموالهم في السُّمعةِ، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالإنفاق في القُرَبَاتِ. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ مبالغاً في الكفر به فينبغي أن لا يُطَاعَ^(١).

وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ كَانَتْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياة من الرد، ويجوز أن يراد بالإعراض عنهم أن لا ينفعهم على سبيل الكناية. ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ لا انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتكم فتعطيه، أو منتظرين له. وقيل معناه لِفَقْدِ رزقٍ من ربك ترجوه أن يفتح لك، فَوَضَعَ الابتغاء موضعه لأنه مُسَبَّبٌ عنه، ويجوز أن يتعلق بالجواب الذي هو قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أي فقل لهم قولاً ليناً ابتغاء رحمة الله برحمتك عليهم بإجمال القول لهم، والميسور من يسر الأمر مثل سَعِدَ الرَّجُلُ ونَجَسَ، وقيل القول الميسور الدعاء لهم بالميسور وهو اليسر مثل أغناكم الله تعالى ورزقنا الله وإياكم.

(٢٩) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبدّر، نهى عنهما أمراً بالاقتصاد بينهما الذي هو الكرم. ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالإسراف وسوء التدبير. ﴿مَحْسُورًا﴾ نادماً أو منقطعاً بك لا شيء عندك من حَسَرَهُ السَّفَرُ إذا بلغ منه. وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالساً أتاه صبيٌّ فقال: إن أمي تستكسبك درعاً، فقال ﷺ: «من ساعة إلى ساعة فعد إلينا» فذهب إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسبك الدرع الذي عليك، فدخل ﷺ داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد غُزباناً، وأذن بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج، فأنزل الله ذلك^(٢). ثم سلّاه بقوله:

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُوَسِّعُهُ وَيَضِيقُهُ بمشيئته التابعة للحكمة البالغة فليس ما يرهقك من الإضافة إلا لمصلحتك. ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ يعلم سرهم وعلمهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، ويجوز أن يُرَادَ أن البسط والقبط من أمر الله تعالى العالم بالسرائر

(١) تخصيص التبذير بالذكر للإيذان بأنه من الكفران المقابل للشكر.

والتعرض لوصف الربوبية «لربه» للإشعار بكمال عتوه، فإن كفران نعمة الرب - مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها - غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان (س/١٦٨/٥).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده (الكافي الشافى ص ٩٩ رقم ٢٨٩) لكن أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٩٤ بنحوه، وهو ضعيف أيضاً لأن في سنده سليمان بن سفيان الجهني وهو ضعيف (التقريب ٣٢٥/١) وأورد الواحدي أيضاً عن جابر بن عبد الله ص ٢٩٥ وبدون إسناد.

والظواهر، فأما العباد فعليهم أن يقتصدوا، أو أنه تعالى ييسط تارةً ويقبضُ أخرى فاستنوا بِسُنَّتِهِ ولا تقبضوا كلَّ القبضِ ولا تبسطوا كلَّ البسط، وأن يكون تمهيداً لقوله تعالى:

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ مخافة الفاقة. وقتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم مخافة الفقر فنهاهم عنه وضمن لهم أرزاقهم فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ذنباً كبيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع. والخطأ الإثم يقال خطيء خطأ كَأَثَمَ إِثْمًا. وقرأ ابن عامر خطأً وهو اسمٌ من أخطأ يُضَادُّ الصواب، وقيل: لغةٌ فيه كِمَثْلٍ وَمَثَلٍ وَجَذَرٍ وَحَذَرٍ، وقرأ ابن كثير خطأً بالمد والكسر وهو إما لغةٌ فيه أو مصدرٌ خاطأً، وهو وإن لم يُسَمَّعْ لكنه جاء تَخَاطَأً في قوله:

تَخَاطَأَ الْقَنَاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ وَخُزْطُومُهُ فِي مَنَاقِعِ الْمَاءِ رَاسِبٌ

وهو مبني عليه، وقرئ خطأً بالفتح والمد، وخطأً بحذف الهمزة مفتوحاً ومكسوراً^(١).

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلاً عن أن تباشروه. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ فِعْلَةٌ ظاهرةُ الفُحْجِ زائدته. ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وبس طريقاً طريقه، وهو الغضبُ على الأَبْضَاعِ المؤدي إلى قطع الأنساب وهنّج الفتن^(٢).

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتلٌ مؤمنٍ معصومٍ عَمْدًا. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غير مستوجبٍ للقتل. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ للذي يلي أمره بعد وفاته وهو الوارث. ﴿سُلْطَانًا﴾ تَسَلَّطًا بالمواخضة بمقتضى القتل على مَنْ عليه، أو بالقصاص على القاتل فإن قوله تعالى «مظلوماً» يدل على أن القتل عمدٌ عدوانٌ فإن الخطأ لا يُسَمَّى ظلمًا. ﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ أي القاتل. ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ بَأَن يَقْتُلَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ قَتْلَهُ، فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك أو الولي بِالْمَثَلَةِ. أو قتل غير القاتل، ويؤيد الأول قراءةُ أَبِي فلا تسرفوا. وقرأ حمزة والكسائي

(١) قوله «نرزقهم وإياكم» حيث قدم ضمير الأولاد على المخاطبين - بخلاف قوله تعالى في سورة الأنعام الآية «١٥١»: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» حيث أخر ضمير الأولاد - وذلك للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، أو لأن الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز، ولذلك قيل «من إملاق» وههنا الإملاق المتوقع، ولذلك قيل «خشية إملاق» فكانه قيل: نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيء وإياكم أيضاً رزقاً إلى رزقكم (س/١٦٩/٥).

(٢) والنهي عن قربانه للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن قربانه داع إلى مباشرته. وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة باعتبار أنه قتل للأولاد لأنه تضييع للأنساب (س/١٧٠/٥).

فلا تسرف على خطاب أحدهما. ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ عِلَّةُ النهي على الاستئناف، والضمير إما للمقتول فإنه منصور في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالشواب، وإما لوليّه فإن الله تعالى نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاية بمعونته، وإما للذي يقتله الولي إسرافاً بإيجاب القصاص أو التعزير والوزر على المسرف.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُولٌ ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فضلاً أن تتصرفوا فيه. ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالطريقة التي هي أحسن. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ غاية لجواز التصرف الذي دلّ عليه الاستثناء. ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ بما عاهدكم الله من تكاليفه، أو ما عاهدتموه وغيره. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُولٌ﴾ مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيّعه ويفي به، أو مسؤولاً عنه يُسأل الناكث ويعاتب عليه لِمَ نَكَثْتَ، أو يُسأل العهد تبكيثاً للناكث كما يقال للموءودة بأيّ ذنب قُتِلَتْ، فيكون تخيلاً. ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً^(١).

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي، وهو رومي عُزْبٌ ولا يَفْدَحُ ذلك في عريّة القرآن، لأن العجمي إذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الإعراب والتعريف والتكثير ونحوها صار عربياً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف هنا وفي الشعراء^(٢). ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وأحسن عاقبة، تفعليل من آل إذا رجع.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع. وقرئ ولا تقف من قاف أثره إذا قفاه، ومنه القافّة. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لم يتعلّق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب، واحتجّ به من منع اتباع الظن، وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سنّد، سواء كان قطعاً أو ظناً واستعماله بهذا المعنى سائغ وشائع، وقيل إنه مخصوص بالعقائد، وقيل بالرمي وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَفَا مُؤْمِناً بِمَا لَيْسَ فِيهِ حَبْسُهُ اللَّهُ فِي رَدْعَةِ الْخَبَالِ حَتَّى يَأْتِيَ بِالْمَخْرَجِ»^(٣). وقول

(١) قوله «إن العهد» حيث أظهر العهد في مقام الإضمار إظهاراً لكمال العناية بشأنه، أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (س/٥/١٧١).

(٢) الشعراء: ١٨٢٥.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ٩٩ رقم ٢٩١): لم أره بهذا اللفظ مرفوعاً، وإنما ذكره أبو عبيد في الغريب - (٤/٤٠٧) - من قول حسان بن عطية - ثقة فقيه (التقريب: ١/١٦٢) - فقال: حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عنه بهذا. وروى أحمد - في المسند (٣/٤٤١) - والطبراني من رواية معاذ بن أنس رفعه «من قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» وفي مسند الشاميين للطبراني من طريق مطر الوراق عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر «من قذف مؤمناً أو مؤمنة حبس في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج».

الكميث^(١) :

وَلَا أَزْمِي الْبَرِيءَ يَغْيِرْ ذَنْبٍ وَلَا أَقْفُو الْخَوَاصِنَ إِنَّا قَفِينَا ﴿٣٦﴾ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ ﴿٣٧﴾ أي كلُّ هذه الأعضاء، فأجراها مَجْرَى الْعُقْلَاءِ لما كانت مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على صاحبها، هذا وإن أولاء وإن غلبَ في العقلاء لكنه مِنْ حَيْثُ إنه اسمُ جَمْعٍ لِذَا وهو يعمُّ القبيلين جاء لغيرهم كقوله:

وَالْعَيْشُ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْأَيَّامِ

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ في ثَلَاثَتِهَا ضَمِيرُ كُلِّ أُنْثَى كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَسْئُولًا عَنْ نَفْسِهِ، يعني عما فَعَلَ به صاحبه، ويجوز أن يكون الضمير في عنه لمصدر لا تَقْفُ أو لصاحب السمع والبصر. وقيل مسؤولاً مُسْنَدٌ إِلَى عَنْهُ كقوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) والمعنى يسأل صاحبه عنه، وهو خطأ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم. وفيه دليل على أن العبد مُؤَاخَذٌ بِعُزْمِهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. وقرئ والعقلاء بقلب الهمزة واواً بعد الضمة ثم إبدالها بالفتح.

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾

(٣٧) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي ذا مَرَحٍ وهو الاختيال. وقرئ مَرَحًا وهو باعتبار الحكم أبلغ

- = وهو عند أبي داود - (٢٣/٤) رقم ٣٥٩٧ - من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ «من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج وهو يخرج مما قال».
- وأخرجه الحاكم - في المستدرک (٢٧/٢) - من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رفعه «من قال في مؤمن ما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج» هـ.
- وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وهو كما قال.
- والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.
- الردغة: - بفتح الراء وسكون الدال: طين ووحل كثير.
 - والخبال: - بالموحدة الفساد: ويكون في الأفعال والأبدان والعقول.
- قال ابن كثير ردغة الخبال: جاء تفسيره في الحديث.
- أنها عصارة أهل النار. [النهاية مادة: خبل وردغ (٢/٨)، ٢١٥].
- (١) هو الكميت بن زيد - وهو كوفي شاعر مقدم عالم بلغات العرب، خبير بأيامها ومن شعراء مضر وألستها المتعصبين على القحطانية المقارعين العالمين بالمثالب.
- يقال: - ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت، فمن صَحَّحَ الكميت نسبته صَحَّ، ومن طعن فيه وهَنَ.
- وهو أول من ناظر في التشيع مجاهرًا بذلك، وله في أهل البيت القصائد المشهورة ولد الكميت سنة (٦٠هـ) ومات سنة (١٢٦هـ) في خلافة مروان بن محمد.
- [خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب] لعبدالقادر بن عمر البغدادي. (١/١٤٤ - ١٤٧). [الفاتحة: (٧)].
- (٢)

وإن كان المصدر أكد من صريح النَّعْتِ. ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لن تَجْعَلَ فيها خَرْقًا بشدة وطأتِكَ. ﴿وَلَنْ يَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك، وهو تهكُّم بالمختال وتعليل للنهي بأن الاختيال حماقة مجرَّدة لا تعود يجذوى ليس في التذلل.

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقُلُوبٌ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾^(١) وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها المكتوبة في ألواح موسى عليه السلام. ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ يعني المنهي عنه، فإنَّ المذكورات مأمورات وَمَنَاهِ. وقرأ الحجازيان والبصريان^(٢) سَيِّئُهُ، على أنها خبرٌ كان، والاسمُ ضميرٌ كلّ، وذلك إشارة إلى ما نهى عنه خاصة، وعلى هذا قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدلٌ من سَيِّئُهُ أو صفةٌ لها محمولة على المعنى، فإنه بمعنى سَيِّئًا، وقد قرئ به، ويجوز أن ينتصب مكروهاً على الحال من المستكبر في كان أو في الظرف على أنه صفة سَيِّئُهُ. والمراد به المبغوض المقابل للمرضي، لا ما يقابل المراد لقيام القاطع، على أن الحوادث كلّها واقعة بإرادته تعالى^(٣).

(٣٩) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المتقدمة. ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، فإنَّ مَنْ لا قُضْدَ له بَطَلَ عمله ومن قصد بفعله أو تركه غيره ضاعَ سَعْيُهُ، وأنه رأسُ الحكمة وملاكُها، ورَبَّ عليه أولاً ما هو عائلته الشرك في الدنيا وثانياً ما هو نتيجه في العُقْبَى فقال تعالى: ﴿فَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك^(٤). ﴿مَدْحُورًا﴾ مُبْعَدًا من رحمة الله تعالى.

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ خطاب لمن قالوا الملائكة بناتُ الله، والهمزة للإنكار، والمعنى: أَفَحَصَّكُمْ رَبُّكُمْ بأفضل الأولاد وهم البنون. ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ بناتٍ لنفسه، وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعادتكم. ﴿إِنَّكُمْ لَقُلُوبٌ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها، ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تَكْرَهُونَ، ثم بجعل الملائكة الذين هم من أشرف خلقِ الله أدونهم.

(١) الإسراء: «٢٢».

(٢) الحجازيان: نافع وابن كثير، والبصريان أبو عمرو ويعقوب.

(٣) ووصف ذلك بمطلق الكراهة - مع أن البعض من الكبائر - للإيدان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عنه. (س/٥/١٧٢).

(٤) وإيراد الإلقاء مبنياً للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك (س/٥/١٧٣).

وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوءًا كَبِيرًا ﴿١٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٤﴾

(٤١) ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا﴾ كَوَزَّنَا هذا المعنى بوجوه من التقرير. ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ في مواضع منه، ويجوز أن يُرَادَ بهذا القرآن إبطال إضافة البنات إليه على تقدير: ولقد صرفنا هذا القول في هذا المعنى أو أوقعنا التصريف فيه. وقرئ صَرَفْنَا بالتخفيف. ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ ليتذكروا. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الفرقان^(١) لِيَذْكُرُوا من الذكر الذي هو بمعنى التذكير^(٢). ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وقِلَّة طُمَأْنِينَةٍ إليه.

(٤٢) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أيها المشركون، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالياء فيه وفيما بعده على أن الكلام مع الرسول ﷺ، ووافقهما نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب في الثانية على أن الأولي مما أمر الرسول ﷺ أن يخاطب به المشركين والثانية مما نَزَّه به نفسه عن مَقَالَتِهِمْ. ﴿إِذَا لَا بُدَّغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ جواب عن قولهم جزاء لَلَّوْ، والمعنى: لَطَلَبُوا إِلَى مَنْ هُوَ مَالِكُ الْمَلِكِ سَبِيلًا بالمعازرة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، أو بالتقرب إليه والطاعة لِعِلْمِهِمْ بقدرته وعجزِهِمْ كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾^(٣).

(٤٣) ﴿سُبْحَنَهُ﴾ ينزهه تنزيهاً. ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوءًا﴾ تعالياً. ﴿كَبِيرًا﴾ متباعدًا غاية البعد عما يقولون، فإنه في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته، واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه.

(٤٤) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال، حيث تدل بإمكانها وحدثها على الصانع القديم الواجب لذاته. ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يُفْهَم تَسْبِيحُهُمْ، ويجوز أن يُخْمَلَ التَسْبِيحُ على المشترك بين اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ وإلى ما لا يُتَصَوَّرُ منه وعليهما عند مَنْ جَوَزَ إطلاق اللفظ على معنیه. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر يُسَبِّحُ بالياء. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم. ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب منكم.

(١) الفرقان: «٥٠».

(٢) والاتلفات في «ليذكروا» إلى الغيبة للإيدان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكى للسامعين هتاتهم.

(س ١٧٤/٥).

(٣) الإسراء: «٥٧».

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْنِهِمْ نَقُورًا ﴿٤٦﴾ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَهَٰذَا كُنَّا عِزًّا وَرَفْنَا ۖ إِنَّ الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا﴾ يحجبهم عن فهم ما تقرأه عليهم. ﴿مَسْتُورًا﴾ ذا سترٍ كقوله تعالى: ﴿وَعَدُّهُمْ مَآثِيًا﴾^(١) وقولهم سَيَلٌ مُفْعَمٌ، أو مستوراً عن الحسن، أو بحجاب آخر لا يفهمون ولا يفهمون أنهم لا يفهمون^(٢). نفى عنهم أن يفهموا ما أنزل عليهم من الآيات بعد ما نفى عنهم التفقه للدلالات المنصوبة في الأنفس والآفاق تقريراً له وبياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة، كما صرح به بقوله:

(٤٦) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ثكثها وتحول دونها عن إدراك الحق وقوله. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه، ويجوز أن يكون مفعولاً لما دل عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي منعناهم أن يفقهوه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم عن استماعه. ولما كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى أثبت لمُنْكَرِيهِ ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ﴾ واحداً غير مشفوع به ألهمهم، مصدرٌ وقع موقع الحال، وأصله تُحَدُّ وحده بمعنى واحداً وحده. ﴿وَلَوْ عَلَى أَذْنِهِمْ نَقُورًا﴾ هرباً من استماع التوحيد ونقرة أو تولية، ويجوز أن يكون جمعٌ نافرٍ كقواعد وقعود.

(٤٧) ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ بسببه ولأجله من الهُزء بك وبالقرآن. ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرفٌ لأَعْلَمُ، وكذا: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم مستمعون إليك مضمرون له وحين هم ذوو نجوى يتناجون به، ونجوى مصدر ويحتمل أن يكون جمع نجى. ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ مقدرٌ بإذك. أو بدلٌ من إذ هم نجوى، على وضع الظالمون موضع الضمير للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا من باب الظلم. والمسحور هو الذي سحر فزال عقله، وقيل الذي له سحر وهو الرثة أي إلا رجلاً يتنفس ويأكل ويشرب مثلكم.

(٤٨) ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ مثلك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون. ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق في جميع ذلك. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طعن موجه فيهما فتون ويخبطون كالمتحير في أمره لا يدري ما يصنع، أو إلى الرشاد.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا أَهَٰذَا كُنَّا عِزًّا وَرَفْنَا﴾ خطاماً. ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضة الحي ويوسه الرميم من المباحدة والمنافاة. والعامل في «إذا» ما دل عليه مبعوثون، لا نفسه لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها. وخلقاً مصدر أو حال.

(١) مريم: ٦١.

(٢) قوله «الذين لا يؤمنون بالآخرة» حيث خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها من أعظم ما أمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك (س ١٧٥/٥).

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۖ ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ ۖ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۖ ﴿٥٣﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۚ إِنْ يَشَأْ يُزَحِّمَكُمْ أَوْ يُرَحِّمَكُمْ أَوْ يَشَأْ يَعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۖ ﴿٥٤﴾﴾

(٥٠) ﴿قُلْ﴾ جواباً لهم . ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ .

(٥١) ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها، فإنَّ قُدْرَتَهُ تعالى لا تقصر عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأغراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوثةً وقد كانت غَضَّةً موصوفة بالحياة قبل؟ والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يُعهد. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم تراباً وما هو أبعد منه من الحياة. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ فسيحركونها نخوك تعجباً واستهزاء. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فإن كل ما هو آت قريب، وانتصابه على الخبر أو الظرف أي يكون في زمان قريب، وأن يكون اسم عسى أو خبره والاسم مضمَر.

(٥٢) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ﴾ أي يوم يبعثكم فتنبعثون، استعار لهما الدعاء والاستجابة للتنبيه على سرعتهم وتيسر أمرهما وأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء. ﴿بِحَمْدِهِ﴾ حال منهم، أي حامدين الله تعالى على كمال قدرته كما قيل إنهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، أو منقادين لبعثه انقياد الحامدين عليه. ﴿وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتستقصرون مدة لبثكم في القبور كالذي مرَّ على قرية، أو مُدَّة حياتكم لما ترون من الهول.

(٥٣) ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ يعني المؤمنين. ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلمة التي هي أحسن ولا يخاشنوا المشركين. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ يهيج بينهم المراء والشر، فعمل المخاشنة بهم تفضي إلى العناد وازدياد الفساد. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ظاهر العداوة.

(٥٤) ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۚ إِنْ يَشَأْ يُزَحِّمَكُمْ أَوْ يُرَحِّمَكُمْ أَوْ يَشَأْ يَعَذِّبْكُمْ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراض أي قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا تصرخوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشر مع أن ختام أمرهم غيب لا يعلمه إلا الله. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أمرهم تفسيرهم على الإيمان، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً فذارهم ومز أصحابك بالاحتمال منهم. وروي أن المشركين أفرطوا في إيذائهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت^(١)، وقيل شتم عمر رضي الله تعالى عنه رجلاً منهم فهم به فأمره الله بالعفو^(٢).

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٨ من قول الكلبي وبدون إسناد.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٨ ولم ينسبه لأحد.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴿٥٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٨﴾ وَإِن مِّن قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ أَوْ مَعَذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٩﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٦٠﴾

(٥٥) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء، وهو ردٌ لاستبعاد قريش أن يكون يتيماً أبي طالب نبياً وأن يكون العراء الجوع أصحابه. ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية، لا بكثرة الأموال والأتباع حتى داود عليه الصلاة والسلام فإن شرفه بما أوحى إليه من الكتاب لا بما أوتيته من الملك. قيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿وَمَّا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء وأتمته خير الأمم المدلول عليه بما كتبت في الزبور من أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. وتنكيهه هنا وتعريفه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾^(١) لأنه في الأصل فعول للمفعول كالحلوب، أو المصدر كالقبول، ويؤيده قراءة حمزة بالضم، وهو كالعباس أو الفضل، أو لأن المراد آتينا داود بعض الزبور، أو بعضاً من الزبور فيه ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٥٦) ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنها آلهة. ﴿مِن دُونِهِ﴾ كالملائكة والمسيح وعزير. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون. ﴿كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقحط. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا تحويل ذلك منكم إلى غيركم.

(٥٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الآلهة يبتغون إلى الله القرابة بالطاعة. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل من وإي يبتغون، أي يبتغي من هو أقرب منهم إلى الله الوسيلة، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كسائر العباد فكيف تزعمون أنهم آلهة. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقة بأن يحذره كل أحد حتى الرسل والملائكة^(٢).

(٥٨) ﴿وَإِن مِّن قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ﴾ بالموت والاستتصال. ﴿أَوْ مَعَذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وأنواع البلية. ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ. ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً.

(٥٩) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ ما صرفنا عن إرسال الآيات التي اقترحها قريش. ﴿إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها

(١) الأنبياء: (١٠٥).

(٢) وهو تعليل لقوله «ويخافون عذابه». وتخصيصه بالتعليل لأن المقام مقام التحذير من العذاب، وأن بينهم وبين العذاب بونا بعيداً (س/١٧٩).

تكذيب أولئك، واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سُنَّتُنَا وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن منهم مَنْ يُؤْمِنُ أو يَلِدُ مَنْ يُؤْمِنُ. ثم ذَكَرَ بعضَ الأممِ المهلكةِ بتكذيب الآياتِ المقترحة فقال:

﴿وَأَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةِ﴾ بسؤالهم. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة ذات إِبْصَارٍ أو بَصَائِرَ، أو جاعلتهم ذوي بَصَائِرَ. وقرئ بالفتح. ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بها، أو فظلموا أنفسهم بسبب عَفْرِهَا^(١). ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ أي بالآياتِ المقترحة. ﴿إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصل فإن لم يخافوا نَزَلَ، أو بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن إلا تخويفاً بعذاب الآخرة، فإنَّ أَمْرَ مَنْ يُعِثَّتْ إليهم مؤخَّرٌ إلى يوم القيامة. والباء مزيدة أو في موقع الحال، والمفعول محذوف.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا^(٢) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا^(٣)

(٦٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ فهُم في قبضة قدرته، أو أحاط بقريش بمعنى أهلكهم مِنْ أَحَاطَ بِهِمُ الْعَدُوُّ، فهي بشارة بِوَقْعَةِ بدر. والتعبير بلفظ الماضي لِتَحَقُّقِ وقوعه. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ ليلة المعراج، وتعلّق به مَنْ قال إنه كان في المنام، وَمَنْ قال إنه كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية. أو عامّ الحديبية حين رأى أنه دخل مكة، وفيه أن الآية مكية إلا أن يُقَالَ رآها بمكة وحكاها حينئذ، ولعله رؤيا رآها في وقعة بدر لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾^(٢) ولما روي أنه لما ورد ماءه قال: «لكنني أنظر إلى مصارع القوم، هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان» فتسامعت به قریش واستسخروا منه^(٣). وقيل رأى قوماً من بني أمية يَزُقُونَ مِنبَرَهُ وَيَنْزُونَ عليه نَزْوُ الْقِرَدَةِ فقال: «هذا حظهم من الدنيا يُعْطَوْنُهُ بِإِسْلَامِهِمْ»^(٤)، وعلى هذا كان المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ ما حدث في أيامهم. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ عطف على الرؤيا وهي

(١) ولعل تخصيص ثمود بالذكر لأن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم، أو لأنها من جهة أنها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى: «قل كونوا حجارة أو حديدًا» الآية: (٥٠) (س ١٨١/٥).

(٢) الأنفال: (٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٣/٤) رقم ٢٨٧٣/٧٦ من حديث أنس بن مالك.

(٤) القول بأن المراد بالشجرة الملعونة هم بنو أمية فهو ضعيف جداً وجمهور المفسرين على خلافه، انظر تفسير ابن كثير (٤٨/٣).

وما ورد من أحاديث في ذلك إنما هو ضعيف جداً، حيث أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد (١١٢/١٥) بنحو ما أورده البيضاوي، قال ابن كثير فيه: وهذا السند ضعيف جداً، فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية (ابن كثير ٤٨/٣). وأخرج الحاكم (٤٨٠/٤) بنحوه أيضاً وفيه مسلم بن خالد الزنجي وهو ضعيف، وقد أعله ابن الجوزي في العلل (٢١٣/٢) وقال الجورقاني حديث باطل (الأباطيل ٢٥٣/١).

شجرة الزقوم، لما سمع المشركون ذكراً قالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر، ولم يعلموا أن مَنْ قَدَرَ أن يحمي وَيَرَّ السَّمَنَدَل من أن تأكله النار وأحشاء النعامة من أذى الجمر وقطع الحديد المحمَّاة الحُمْر التي تبتلعها قَدَرَ أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها. ولَعْنُهَا في القرآن لَعْنُ طَاعِمِيهَا وَصِفَتْ به على المجاز للمبالغة، أو وصفها بأنها في أصل الجحيم فإنه أبعَدُ مكانٍ من الرحمة، أو بأنها مكروهة مؤذية من قولهم طعامٌ ملعون لما كان ضاراً، وقد أُوكِلَ بالشيطان وأبي جهل والْحَكَمَ بن أبي العاصي. وقُرِأت بالرفع على الابتداء، والخبر محذوف أي والشجرة الملعونة في القرآن كذلك. ﴿وَتَخَوَّفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ إِلَّا عَتُورًا متجاوز الحد.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ لمن خلقته من طين فَتُصِيبُ بِتَرْعٍ الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول أي خلقته وهو طين، أو منه أي السجد له وأصله طين. وفيه على الوجه الثلاثة إيماة بعلوة الإنكار.

قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

(٦٢) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محلَّ له من الإعراب، وهذا مفعول أول والذي صِفَتُهُ والمفعول الثاني محذوف لدلالة صِلَتِهِ عليه، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كَرَّمْتُهُ عَلَيَّ بأمرني بالسجود له لِمَ كَرَّمْتُهُ عَلَيَّ^(١)؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ كلام مبتدأ، واللام مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، وجوابه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لاستأصلنهم بالإغواء إلا قليلاً لا أقدر أن أقاوم شكيمتهم، مِنْ احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلاً، مأخوذ من الحنك. وإنما علم أن ذلك يَسَهِّلُ له إما استنباطاً من قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾^(٢) مع التقرير، أو تَفْرُساً مِنْ خَلْقِهِ ذَا وَهْمٍ وشهوةٍ وغضب.

(٦٣) ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ امضي لما قصدته، وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سَوَّلَتْ له نفسه. ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾ جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب، ويجوز أن يكون الخطاب للتابعين على الالتفات. ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ مكملًا من قولهم: فِرْ لصاحبك عِرْضَه، وانتصابُ جزاء على المصدر بإضمار فعله أو بما في جزاؤكم من معنى تُجَازُونَ، أو حال موطئة لقوله «موفوراً».

(١) توسط «قال» بين كلامي إبليس اللعين للإيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتناؤه عليه بل على غيره (س ٥/١٨٣).

(٢) البقرة: ٣٠.

(٦٤) ﴿وَأَسْتَفْزِرْ﴾ واستخفف. ﴿مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ﴾ أَنْ تَسْتَفِزَّهُ، والفَرْ الخفيف. ﴿يَصَوِّتُكَ﴾ بدعائك إلى الفساد. ﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ﴾ وصيخ عليهم، مِنَ الْجَلَبَةِ وهي الصياح. ﴿يَحْيِيكَ وَرَجَلِكَ﴾ بأعوانك من راكب وراجل، والخيال: الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيَلُ الله اركبي»^(١) والرَّجُلُ اسمُ جَمْعٍ للراجل كالصَّخْبِ والرُّكْبِ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لِتَسْلُطِهِ عَلَى مَنْ يَغْوِيهِ بِمَغْوَارِ صَوْتٍ عَلَى قَوْمٍ فَاسْتَفْزَرَهُمْ مِنْ أَمَاكِنِهِمْ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِجَنْدِهِ حَتَّى اسْتَأْصَلَهُمْ. وقرأ حفص وَرَجَلِكَ بالكسر، وغيره بالضمُّ وهما لغتان كَنَدَسٍ وَنُدَسٍ^(٢) ومعناه وَجَمَعَكَ الرَّجُلَ، وقرئ وَرَجَالِكَ وَرَجَالِكَ^(٣). ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ بحملهم على كسبها وَجَمْعُهَا مِنَ الْحَرَامِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا لَا يَنْبَغِي. ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ بالحثِّ على التوصل إلى الولد بِالسَّبَبِ الْمَحْرُومِ، والإشراك فيه بِتَسْمِيَةِ عَبْدِ الْمُزَى، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحِرَفِ الذميمة والأفعال القبيحة. ﴿وَعَدَهُمْ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة لطول الأمل. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراض لبيان مواعيده الباطلة. والغرورُ تزيينُ الخطأ بما يوهم أنه صواب^(٤).

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَنْتَفِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا بِكُمْ رَجِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

(٦٥) ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ يعني المخلصين، وتعظيمُ الإضافة والتقيدُ في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٥) يَخْصُصُهُمْ. ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي على إغوائهم قدرة. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يتوكلون عليه في الاستعاذة منك على الحقيقة.

(٦٦) ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ﴾ هو الذي يُجْرِي. ﴿لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَنْتَفِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ الريح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا بِكُمْ رَجِيمًا﴾ حيثُ هيا لكم ما تحتاجون إليه وسَهَّلَ عليكم ما تَعَسَّرَ مِنْ أَسْبَابِهِ.

(٦٧) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ خوف الغرق. ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ﴾ ذهب عن خواطركم كُلُّ مَنْ تَدْعُونَهُ فِي حَوَادِثِكُمْ. ﴿إِلَّا إِلَاهُ﴾ وحده فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه فلا تدعون لكشفه إلا إياه، أو ضلَّ كُلُّ مَنْ تَعْبُدُونَهُ عَنْ إِغَاثَتِكُمْ إِلَّا اللَّهُ. ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ﴾ من الغرق. ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد. وقيل

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٧٠) من سورة يوسف.

(٢) الندس: الفهمُ وقد ندس كفرح.

(٣) اللفظ مكرر، ولعله وَرَجَّالَتِكَ.

(٤) والاتلفات إلى الغيبة بقوله «وما يعدهم»... لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الإشعار بعلية سيطرته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب (س/٥/١٨٤).

(٥) الحجر: (٤٠).

اتسعت في كفران النعمة كقول ذي الرِّمَّة:

عَطَاءٌ فَتَى تَمَكَّنَ فِي الْمَعَالِي فَأَعْرَضَ فِي الْمَكَارِمِ وَاسْتَطَالَ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا كالتعليل للإعراض.

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتُمْ قَامِتُمْ فحملكم ذلك على الإعراض، فإن مَنْ قَدَرَ أَنْ يَهْلِكَكُمْ في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البر بالخسف وغيره. ﴿أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أَنْ يَقْلِبُهُ اللهُ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِ، أَوْ يَقْلِبُهُ بِسَبَبِكُمْ فَبِكُمْ حَالٌ أَوْ صَلَةٌ لِيُخَسِّفَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فيه وفي الأربعة التي بعده. وفي ذكر الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحل كفروا وأعرضوا، وأن الجوانب والجهات في قدرته سواء لا مَعْقِلَ يُؤْمَنُ فيه من أسباب الهلاك. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تَخْضِبُ أي ترمي بالحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم من ذلك فإنه لا رادَّ لفضله.

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر^(١). ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ بخلق دواع تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ لا تمرُّ بشيء إلا قصفتُه أي كسرتُه. ﴿فَيُغْرِقَكُمْ﴾ وعن يعقوب بالتاء، على إسناده إلى ضمير الريح. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم أو كفرانكم نعمة الإنجاء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ مطالباً باتباعنا بانتصارٍ أو صرفٍ.

(٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكُّن من الصناعات وانسحاق الأسباب والمسببات العلوية والسُّفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقفُ الحَضَرُ دونَ إحصائه. ومن ذلك ما ذكَّره ابن عباس: وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده^(٢). ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على الدواب والشفن، مَنْ حَمَلَتْهُ حَمَلًا إِذَا جَعَلَتْ لَهُ مَا يَرْكَبُ، أَوْ حَمَلْنَاهُمْ فِيهِمَا حَتَّى لَمْ تُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَمْ يُغْرِقْهُمُ الْمَاءُ. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بِالْغَلَبَةِ والاستيلاء أو بالشرف والكرامة، والمستثنى جِنْسُ الملائكة عليهم الصلاة

(١) وإشارة كلمة «في» على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (س/٥/١٨٥).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طرق (فتح القدير ٣/٢٤٥).

والسلام أو الخواص منهن، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل بعض أفرادها، والمسألة موضع نظر، وقد أوّل الكثير بالكل وفيه تعسف.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُوِّلَتْ لَهُ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ نُصِيبُ بِإِضْمَارٍ أَذْكَرُ، أو ظرف لما دلّ عليه ولا يظلمون. وقرئ يَدْعُو وَيُدْعَى وَيُدْعَوُ عَلَى قَلْبِ الْأَلْفِ وَأَوَّاءٍ فِي لُغَةٍ مَن يَقُولُ أَفْعَوُ فِي أَفْعَى، أو على أن الواو علامة الجمع كما في قوله ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١) أو ضميره وكل بدل منه والنون محذوفة لِقَلَّةِ المبالاة بها فإنها ليست إلا علامة الرفع، وهو قد يُقَدَّرُ كما في يُدْعَى. ﴿كُلُّ أَنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ بمن ائتموا به من نبي أو مُقَدَّمٍ في الدين أو كتاب أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم التي قدّموها فيقال يا صاحب كتاب كذا، أي تنقطع عِلْقَةُ الأنساب وتبقى نِسْبَةُ الأعمال. وقيل بالقوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمهاتهم جَمْعُ أُمَّ كَخَفْتُ وَخِفَافٍ^(٢)، والحكمة في ذلك إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرفِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رضي الله عنهما وأن لا يُفْتَضَحَ أولادُ الزنا. ﴿فَمَنْ أُوِّيَ﴾ من المدعوين. ﴿كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي كتاب عمله. ﴿فَأُوِّلَتْ لَهُ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ابتهاجاً وتبجحاً بما يَرَوْنَ فيه. ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا يُنْقَضُونَ من أجورهم أدنى شيء^(٣)، وَجَمَعَ اسم الإشارة والضمير لأن مَنْ أُوِّيَ في معنى الجمع، وتعليقُ القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدل على أن مَنْ أُوِّيَ كتابه بشماله إذا أُطْلِعَ ما فيه غَشِيَهُمْ من الخجل والخيرة ما يَخْبِسُ أَلْسِنَتَهُمْ عن القراءة، ولذلك لم يذكُرْهم مع أن قوله:

(٧٢) ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أيضاً مُشْعِرٌ بذلك فإن الأعمى لا يقرأ الكتاب، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر رُشْدَهُ كان في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة. وقيل لأن الاهتداء بعد لا ينفعه. والأعمى مُسْتَعَارٌ مِنْ فَاقِدِ الْحَاسَّةِ. وقيل الثاني للتفضيل مِنْ عَمِيَ بقلبه كالأجهل والأبْلَهْ ولذلك لم يُمْلَهُ أبو عمرو ويعقوب، فإن أَفْعَلَ التفضيل تمامه بمنْ فَكَانَتْ أَلْفُهُ في حكم المتوسطِ كما في أعمالكم بخلاف النبت، فإن أَلْفَهُ واقعة في الطَّرْفِ لفظاً وَحُكْماً فكانت مُعَرَّضَةً للإمالة من حيث إنها تصيرُ ياء في التننية، وقد أمالهما حمزة والكسائي وأبو بكر، وقرأ وَرَشٌ بَيْنَ بَيْنَ فِيهِمَا.

(١) الأنبياء: (٤٣).

(٢) أورد هذا القول الزمخشري في الكشاف وقال إنه من بدع التفاسير (الكشاف ٣٦٩/٢) ويقصد بإظهار شرف الحسن والحسين أن نسبتهما إلى أمهما أفضل لأنها بنت رسول الله ﷺ.

(٣) الفتل هو القشرة التي في شق النواة، وهو مثل في القلة والحقارة.

وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٤﴾

(٧٣) ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيف، قالوا لا ندخل في أمرك حتى تُعطينا حصلاً نفتخر بها على العرب: لا نُعْشَرُ ولا نُحْشَرُ ولا نُجْبي في صلاتنا^(١)، وكلُّ رباً لنا فهو لنا وكل رباً علينا فهو موضوع عتاً، وأن تُمتنعاً باللات سنة وأن تُحرم وادينا كما حُرمت مكة، فإن قالت العرب لم فعلت ذلك فقل إن الله أمرني^(٢). وقيل في قريش قالوا لا نُمكنك من استلام الحَجَرِ حتى تِلْمَ بالهتنا وتَمْسَهَا بيدك^(٣). وإن هِي المخففة واللام هي الفارقة، والمعنى: أنَّ الشَّانَ قَارِبُوا بِمِبالِغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزال. ﴿عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الأحكام ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ غير ما أوحينا إليك. ﴿وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ ولو اتبعت مُرادهم لا تأخذوك بافتتانك ولياً لهم بريئاً من ولايتي.

(٧٤) ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَ لَكَ﴾ ولولا تبييننا إياك. ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ لقاربت أن تميل إلى اتباع مُرادهم، والمعنى أنك كنت على صَدَدِ الركون إليهم لقوة خِدَعِهِمْ وشِدَّةِ احتيالهم لكن أَدْرَكْتَكَ عِصْمَتُنَا فَمُنِعْتَ أَنْ تَقْرَبَ من الركون فضلاً أن تَرْكَنَ إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم بإجابتهم مع قوة الدواعي. إليها، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحِفْظِهِ.

(٧٥) ﴿إِذَا لَا دَفْنَاكَ﴾ أي لو قاربت لأدْفَنَاكَ. ﴿ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضِعْفُ ما نَعَذَّبُ به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأنَّ خطأ الخطير أخطر. وكان أصلُ الكلام عذاباً ضِعْفاً في الحياة وعذاباً ضِعْفاً في المماتِ بمعنى مُضاعِفاً، ثم حذف الموصوف وأُيِّنَتِ الصِّفَةُ مقامه، ثم أُضِيفَتْ كما يضاف موصوفها. وقيل: الضَّعْفُ من أسماء العذاب. وقيل المراد بِضِعْفِ الحياة عذاب الآخرة وَضِعْفُ المماتِ عذاب القبر: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب عنك.

- (١) معنى قولهم: لا نُعْشَرُ ولا نُحْشَرُ ولا نُجْبي في صلاتنا. أي لا ندفع العُشْرَ، ولا نحشر مع غيرنا - يريدون أن يكون لهم مجلساً خاصاً - ولا نجبي أي لا نقوم قيام الراكع - والله أعلم -.
- (٢) نقل المناوي عن الولي العراقي قوله: لم أقف عليه، وذكر أن الثعلبي قد أخرجه عن ابن عباس (الفتح السماوي ص ٧٧٨) لكن أورد الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٩٧) من قول عطاء عن ابن عباس ولم يذكر له سنداً، وأخرجه ابن جرير (١٣٠/١٥) بمعناه من طريق العوفي عن ابن عباس وهو ضعيف.
- (٣) أخرجه ابن جرير (١٣٠/١٥) عن سعيد بن المسيب بسند ضعيف. لكن أورد السيوطي في لباب النقول (الإسراء: ٧٣) أنه أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: خرج أمية وأبو جهل ورجال من قريش فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، تعال تمسح بالهتنا وندخل معك في دينك. وكان يحب إسلام قومه فرق لهم. فأنزل الله ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾. قال السيوطي: هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناده جيد، وله شاهد.

وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَرَأَى الْأَصَلْوَةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(٧٦) ﴿وَأَن كَادُوا﴾ وإن كاد أهل مكة. ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ ليزعجونك بمعاداتهم. ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مكة. ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ﴾ ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً، وقد كان كذلك فإنهم أهلَكُوا يَبْدِرُ بعد هجرته بسنة. وقيل الآية: نزلت في اليهود حسدوا مقام النبي بالمدينة فقالوا: الشام مقام الأنبياء فإن كنت نبياً فالحق بها حتى نؤمن بك، فوقع ذلك في قلبه فخرج مرحلة فنزلت، فرجع. ثم قُتِلَ منهم بنو قريظة وأجلِّي بنو النضير بقليل^(١). وقرئ لا يلبثوا منصوباً بإذا على أنه معطوف على جملة قوله: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ لا على خبر كاد فإن إذا لا تعمل إذا كان مُعْتَمِدُ ما بعدها على ما قبلها. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص خلافاً وهو لغة فيه قال الشاعر:

عفت الديار خلافتهم فكأئماً بسط الشواطئ بينهم حصاراً

(٧٧) ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا﴾ نصب على المصدر أي سنَّ الله ذلك سنة، وهو أن يهلك كل أمة لله أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم، فالسنة لله وإضافتها إلى الرسل لأنها من أجلهم، ويدل عليه: ﴿وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تغييراً.

(٧٨) ﴿أَفَرَأَى الْأَصَلْوَةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لزوالها ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «أتاني جبريل لِذُلُوكِ الشَّمْسِ حين زالت فصلى بي الظهر»^(٢). وقيل لغروبها، وأصل التركيب للانتقال، ومنه الدَّلْكُ فإنَّ الدَّلْكَ لا تستقر يده، وكذا كل ما تركب من الدال واللام: كدَلَجَ ودَلَعَ ودَلَفَ ودَلَّة. وقيل الدلوك من الدَّلْكِ لأنَّ الناظر إليها يَدْلُكُ عينه ليدفع شعاعها، واللام للتأنيث مثلها في: ثلاث خلون. ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إلى ظلمته وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة. ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ وصلاة الصبح، سميت

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢٥٤/٤) من حديث عبدالرحمن بن غنم وفي سنده أحمد بن عبد الجبار العطاردي مجمع على ضعفه. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣٢٠/٥). وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن عساكر.

(٢) أخرجه البيهقي في «معركة السنن والآثار» (١٩٤/٢) رقم (٢٣٤٤) والطبري في «جامع البيان» (٩/١٥/١٣٧) وابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص ١٠١ رقم ٢٩٩) كلهم من حديث أبي مسعود الأنصاري.

- قلت: رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين أبي بكر بن حزم وأبي مسعود كما عند ابن مردويه. وأصل حديث أبي مسعود في الصحيحين وغيرهما بدون تفسير الوقت. انظر البخاري (٣/٢) رقم (٥٢١) ومسلم (١/٢٥) رقم (٦١٠/١٦٧/١٦٦) وورد تفسير الأوقات عند أبي داود (١/٢٧٨) رقم (٣٩٤) وقال أبو داود «روى هذا الحديث عن الزهري معمر ومالك وابن عيينة وشعيب وغيرهم ولم يذكروا الوقت الذي صلى فيه ولم يفسروه...» ١ هـ.

وأصله في الصحيحين من حديث أنس. وفي صحيح مسلم من حديث بريدة، انظر البخاري (٢/٢١) رقم (٥٤٠) ومسلم (٤/١٨٣٢) رقم (٢٣٥٩).

وحديث بريدة: مسلم (١/٤٢٨) رقم (٦١٣/١٧٦).

قرآنًا لأنه ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً. واستدل به على وجوب القراءة فيها، ولا دليل فيه لجواز أن يكون التجوُّز لكونها مندوبةً فيها، نعم لو فُسِّرَ بالقراءة في صلاة الفجر دلَّ الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصاً وفي غيرها قياساً. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهدُ القدرة من تبدل الظلمة بالضياء والنوم الذي هو أخو الموت بالانتباه، أو كثير من المصلِّين، أو من حقّه أن يشهده الجُمُ الغفير. والآية جامعة للصلوات الخمس إن فُسِّرَ الدُّلُوكُ بالزوال، ووصلوات الليل وحدها إن فُسِّرَ بالغروب. وقيل المراد بالآية صلاة المغرب وقوله «للدُّلُوكُ الشمس إلى غسق الليل» بيان لمبدأ الوقت ومُنْتَهَاهُ، واستدلَّ به على أن الوقت يمتد إلى غروب الشفق^(١).

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

(٧٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة^(٢)، والضمير للقرآن. ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك. ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ مقاماً يحمد القائم فيه وكل من عرفه، وهو مُطْلَقٌ في كل مكان يتضمَّن كرامةً، والمشهور أنه مقام الشفاعة لما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي»^(٣) ولاشعاره بأن الناس يَحْمَدُونَهُ لقيامه فيه وما ذاك إلا مقام الشفاعة. وانتصابه على الظرف بإضمار فعله أي فيقيمك مقاماً أو بتضمين يبعثك معناه، أو الحال بمعنى أن يبعثك ذا مقام.

(٨٠) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي في القبر. ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ ادخالا مُرْضِيًا. ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ أي منه عند البعث. ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إخراجاً مُلَقًّى بالكرامة، وقيل المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة، وقيل إدخاله مكة ظاهراً عليها وإخراجها منها آمناً من المشركين، وقيل إدخاله الغار وإخراجها منه سالماً،

(١) والإظهار في مقام الإضمار بقوله «إن قرآن الفجر...» لبيان مزيد الاهتمام به (س/١٨٩).

(٢) التهجد هو الاستيقاظ من النوم للصلاة (روح المعاني ١٥/١٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٣/٥ رقم ٣١٣٧) وأحمد في المسند (٤٤١/٢، ٥٢٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٨٤/١١ رقم ١١٧٩٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٩/١٥٠ - ١٤٦) والبيهقي في «الدلائل» (٤٨٤/٥) من حديث أبي هريرة.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

- قلت في سنده: داود بن يزيد الأودي الكوفي: ضعيف. انظر الجرح والتعديل (٣/٤٢٧) والتقريب (١/٢٣٥).

ولكن للحديث شواهد انظر في «الدر المنثور» (٥/٣٢٤ - ٣٢٥) فيها حسن إن شاء الله.

● وفي الباب عن أنس عند البخاري (١٣/٤٢٢ رقم ٧٤٤٠).

● وعن ابن عمر عند البخاري (٣/٣٣٨ رقم ١٤٧٥).

وقيل إدخاله فيما حمّله من أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤدياً حقّه، وقيل إدخاله في كل ما يلايسه من مكان أو أمرٍ وإخراجه منه. وقرئ مَدْخَلَ وَمَخْرَجَ بالفتح على معنى أدخلني فأدخل دخولاً وأخرجني فأخرج خروجاً. ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ حُجَّةٌ تنصّرني على مَنْ خالفني أو مَلِكًا ينصُرُ الإسلامَ على الكفر، فاستجاب له بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١) ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(٢) ﴿لِيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ مَاهُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ^٧ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾

(٨١) ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وذهب وهلك الشرُّ، مِنْ زَهَقَ رُوْحُهُ إِذَا خَرَجَ. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ مُضْمَجًا غَيْرَ ثَابِتٍ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يومَ الفتح وفيها ثلثمائة وستون صنماً، فجعل ينكتُ بِمِخْصَرَتِهِ في عين كلِّ واحدٍ منها فيقولُ جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ فَيَنْكَبُ لَوَجْهِهِ، حتى أَلْقَى جميعها وبقي صنمٌ خُزَاعَةٌ فوقَ الكعبة وكان مِنْ صُفْرِ فقال: «يا عليُّ ارم به» فصعدَ فَرَمَى به فكَسَرَهُ^(٤).

(٨٢) ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ مَاهُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى، وَمِنْ للبيان فَإِنَّ كُلَّهُ كذلك. وقيل إنه للتبويض والمعنى أن منه ما يَشْفِي من المرض كالفاتحة وآياتِ الشفاء. وقرأ البصريان نُزِّلَ بالتخفيف. ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم وكفرهم به^(٥).

(٨٣) ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بالصحة والسَّعَةِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذِكْرِ الله. ﴿وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا﴾ لَوَى عِطْفَهُ وَبَعْدَ بِنَفْسِهِ عَنْهُ كَأَنَّهُ مُسْتَعْنٍ مُسْتَبِدٍ بِأَمْرِهِ، ويجوز أن يكونَ كنايةً عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبرين. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذَكْوَانَ هنا وفي فَصَّلَتْ^(٦) وناء، على القلبِ أو على أنه بمعنى نَهَضَ. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من مرض أو فَقْرٍ^(٧). ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد اليأس مِنْ رَوْحِ الله.

(١) المائدة: ٥٦.

(٢) الصف: ٩٩.

(٣) النور: ٥٥.

(٤) أخرجه البخاري (٤٠٠/٨ رقم ٤٧٢٠) ومسلم (١٤٠٨/٣ رقم ١٧٨١/٨٧) والترمذي (٣٠٣/٥ رقم ٣١٣٨) والنسائي في التفسير (٦٦٥/١ رقم ٣١٧) والطبراني في الصغير (٧٧/١ - ٧٨) عنه.

● وأخرج البيهقي في «الدلائل» (٧١/٥ - ٧٢) عن ابن عباس، قال «دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم قال: فأخذ قضيبه فجعل يهوي به على صنم صنم وهو يهوي حتى مرَّ عليها كلها» وإسناده ضعيف.

(٥) وإسناد الزيادة للقرآن - مع كونهم هم المزدادون بسوء صنيعهم - باعتبار كون القرآن سبباً في ذلك (س/١٩١).

(٦) فصلت: ٥١.

(٧) وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيدان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قل كل أحد يعمل على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، أو جوهر رُوحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أسد طريقاً وأبين منهجاً، وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين.

(٨٥) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره. ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من الإبداعات الكائنة بكن من غير مادة وتولد من أصل كأعضاء جسده، أو وجد بأمره وحدث بتكوينه على أن السؤال عن قدمه وحدوثه. وقيل مما استأثر الله بعلمه، لما روي أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة^(١). وقيل الروح جبريل، وقيل خلق أعظم من الملك، وقيل القرآن، ومن أمر ربي معناه من وخيه. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تستفيدونه بتوسط حواسكم، فإن اكتساب العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل من فقد حساً فقد علماً. ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيئاً من أحواله المعروفة لذاته، وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يلتبس به، فلذلك اقتصر على هذا الجواب كما اقتصر موسى في جواب «وما رب العالمين؟» بذكر بعض صفاته. روي: أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب؟ فقال: «بل نحن وأنتم»، فقالوا: ما أعجب شأنك! ساعة تقول «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً»^(٢)، وساعة تقول هذا، فترث^(٣): ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ

كذلك (س ١٩١/٥).

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٠٢ رقم ٣٠٦): «لم أجده هكذا. وذكره ابن هشام في السيرة - (٣٧١/١ - ٣٧٩) - عن زياد عن أبي إسحاق. وكذا أخرجه البيهقي في «الدلائل» - (٢٦٩/٢ - ٢٧٠) - من طريقه: «أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فقالوا لهم سلوه عن ثلاث: فإذا عرفها فهو نبي: سلوه عن أقوام ذهبوا في الأرض فلم يدر ما صنعوا القصة بطولها» ١هـ. ● وأخرج البخاري (٢٢٣/١ رقم ١٢٥) ومسلم (٢١٥٢/٤ رقم ٢٧٩٤/٣٢) عن ابن مسعود قال بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة - وهو يتوكأ على عسيب معه - فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم لا نسأله لا يجيء فيه شيء نكرهونه. فقال بعضهم لنسأله، فقام رجل منهم فقال يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت. فقلت: إنه يوحى إليه، فعمت فلما انجلي عنه فقال: «يسألونك عن الروح. قل الروح من أمر ربي، وما أوتيت من العلم إلا قليلاً» [الإسراء: ٨٥]. قال الأعمش: هكذا في قراءتنا.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٠٢ رقم ٣٠٧): (ذكره الثعلبي في تفسير لقمان بغير سند ولا راو). وروى ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة. لا أعلمه إلا عن ابن عباس. قال: =

سَجَرَةً أَقْلَمَ^(١). وما قالوه لِسُوءِ فَهْمِهِمْ، لَأَنَّ الْحِكْمَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنْ يَعْلَمَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ مَا تَسَعُّهُ الْقُوَّةُ الْبَشَرِيَّةُ بَلْ مَا يَنْتَظِمُ بِهِ مَعَاشُهُ وَمَعَادُهُ، وَهُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَعْلُومَاتِ اللَّهِ الَّتِي لَا نِهَآيَةَ لَهَا قَلِيلٌ يُنَالُ بِهِ خَيْرُ الدَّارَيْنِ وَهُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ كَثِيرٌ.

وَلَيْنَ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿ وَلَيْنَ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ اللام الأولى موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط، والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور^(٢) ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْنَا استرداده مسطوراً محفوظاً.

(٨٧) ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ ﴾ فإنها إن نَأَلَتْكَ فلعلها تستردُّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهبٍ به، فيكون امتناناً بإبقائه بعد المِثَّةِ في تنزيهه. ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ كإرساله وإنزال الكتاب عليه وإبقائه في حِفْظِهِ.

(٨٨) ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ في البلاغة وحُسنِ النَّظْمِ وكمال المعنى^(٣). ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وفيهم العربُ العزباء وأربابُ البيان وأهل التحقيق^(٤)، وهو جواب قَسَمٍ محذوف دلٌّ عليه اللامُ الموطَّئة، ولولا هي لكانَ جوابُ الشرط بلا جزم لكون الشرط ماضياً كقول زهير:

وإن آتاه خليلٌ يومَ منألو يُقولُ لأغائبٍ مَالي ولا حرم

= لما نزلت هذه الآية «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. فأنزل الله تعالى: «لو كان البحر مدداً لكلمات ربي لنفد البحر» هـ. قلت: وأخرج أحمد في المسند (٢٥٥/١) والطبري في «جامع البيان» (٩/١٥٥) من طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس نحوه. كما أخرج الطبري في «جامع البيان» (٩/١٥٧) عن عطاء بن يسار بإسناد ضعيف. لأن شيخ ابن إسحاق لم يسم.

(١) لقمان: (٢٧).

(٢) عبر عنه بالموصول «الذي...» تفخيماً لشأنه ووصفاً له بما في حيز الصلة ابتداء وإعلاماً بحاله من أول الأمر وأنه ليس من قبيل كلام المخلوق (س/١٩٣).

(٣) وتخصيص الثقلين من الإنس والجن بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة (س/١٩٣).

(٤) وإيثار الإظهار «بمثله» على إيراد الضمير الراجع إلى المثل المذكور احترازاً عن أن يتوهم أنَّ له مثلاً معيناً، وإيداناً بأن المراد نفي الإتيان بمثل ما. (س/١٩٣).

﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تظاهروا على الإتيان به، ولعله لم يذكر الملائكة لأن إتيانهم بمثله لا يخرجهم عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه، ويجوز أن تكون الآية تقريراً لقوله: ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْآتَهُرَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾

﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا كَرَّرْنَا بوجوهٍ مُّخْتَلِفَةٍ زِيَادَةً فِي التَّعْقِيبِ ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى كالمثل في غرابته ووقوعه مَوَاقِعَهَا فِي الْأَنْفُسِ. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً، وإنما جاز ذلك ولم يَجْزُ: ضَرَبْتُ إِلَّا زِيداً لَّأَنَّهُ مُتَأَوَّلٌ بِالنَّفْيِ.

﴿٩٠﴾ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ تعثُّناً واقتراحاً بعد ما لزمتهُمُ الْحُجَّةُ ببيان إعجاز القرآن وانضمام غيره من المعجزات إليه. وقرأ الكوفيون ويعقوب تَفْجُرُ بالتخفيف. والأرض أرض مكة، والينبوع عَيْنٌ لَا يَنْضُبُ مَاؤُهَا، يَفْعُولُ مِنْ تَبَعَ الْمَاءُ كَيَغْبُوبُ مِنْ عَبَّ الْمَاءُ إِذَا زَخَرَ.

﴿٩١﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْآتَهُرَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أو يكون لك بستانٌ يشتمل على ذلك.

﴿٩٢﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ يَغْنُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(١) وهو كَقَطْعٍ لَفْظاً وَمَعْنَى. وقد سَكَّنَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَحَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ إِلَّا فِي الرُّومِ^(٢)، وَابْنُ عَامِرٍ إِلَّا فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَأَبُو بَكْرِ وَنَافِعٌ فِي غَيْرِهِمَا وَحَفْصٌ فِيمَا عَدَا الطُّورِ^(٣)، وَهُوَ إِمَّا مُخَفَّفٌ مِنَ الْمَفْتُوحِ كَسِدْرَةٍ وَسِدْرٍ، أَوْ فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَالطُّخْنِ. ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ كَفِيلًا بِمَا تَدَّعِيهِ أَي شَاهِدًا عَلَى صَحْتِهِ ضَامِنًا لِدَرْكِهِ، أَوْ مُقَابِلًا كَالْعَشِيرِ بِمَعْنَى الْمَعَاشِرِ. وَهُوَ حَالٌ مِنَ اللَّهِ، وَحَالُ الْمَلَائِكَةِ مُحَذَّوْفَةٌ لِدَلَالَتِهَا عَلَيْهَا كَمَا حَذَفَ الْخَبَرُ فِي قَوْلِهِ:

فإني وقَّارٌ بها لغريبٌ

أو جماعة فيكون حالاً من الملائكة.

﴿٩٣﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ﴾ من ذهب، وقد قرئ به، وأصله الزينة. ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ فِي

(١) سبأ: ٩٠.

(٢) الروم: ٤٨.

(٣) الطور: ٤٤.

معارضها. ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ﴾ وحده. ﴿حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ وكان فيه تصديقك. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجباً من اقتراحاتهم أو تنزيهاً لله من أن يأتي أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة. وقرأ ابن كثير وابن عامر: قال سبحانه ربي، أي قال الرسول. ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس. ﴿رَسُولًا﴾ كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم على ما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها، على هذا هو الجواب المفضل وأما التفصيل فقد ذكر في آيات أخر كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾^(١) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾^(٢).

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩١﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكٌ يَمْشِي يَمْسُوكَ مُظْمِئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٢﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّمَا كَانَ عِبَادَةِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿٩٣﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وِجْهًا وَمَا وَلَّهُمْ مِنْهُم جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٤﴾

(٩٤) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي وما منعهم الإيمان بعد نزول الوحي وظهور الحق. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ إلا قولهم هذا^(٣)، والمعنى أنه لم يبق لهم شبهة تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن إلا أنكارهم أن يُرْسِلَ الله بشراً.

(٩٥) ﴿قُلْ﴾ جواباً لشبهتهم. ﴿لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكٌ يَمْشِي﴾ كما يمشي بنو آدم. ﴿مُظْمِئِينَ﴾ ساكنين فيها. ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ لَتُمَكِّنَهُمْ من الاجتماع به والتلقي منه، وأما الإنس فعائتهم عماء عن إدراك الملك والتلقف منه، فإن ذلك مشروط بنوع من التناسب والتجانس. وملاكاً يحتمل أن يكون حالاً من رسولاً وأن يكون موصوفاً به، وكذلك بشراً، والأول أوفق.

(٩٦) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسول الله إليكم بإظهاره المعجزة على وفق دعواي، أو على أني بلغت ما أُرْسِلْتُ به إليكم وأنكم عاندتم^(٤). وشهيداً نُصِبَ على الحال، أو التمييز. ﴿إِنَّمَا كَانَ عِبَادَةِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ يعلم أحوالهم الباطنة منها والظاهرة فيجازيهم عليها، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار.

(٩٧) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ يهدونه^(٥). ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

(١) الأنعام: ١٧.

(٢) الحجر: ٩٤.

(٣) وإنما عبر عنه بالقول إيذاناً بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصدق.

وحصر المانع من الإيمان فيما ذكر - مع أن لهم موانع شتى - لأنه معظمها، أو لأنه هو المانع بحسب الحال

(س/١٩٥/٥).

(٤) قوله «بيني وبينكم» ولم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة وإبانة للمباينة (س/١٩٦/٥).

(٥) قوله «فلن تجد لهم» حيث أثر ضمير الجماعة اعتباراً لمعنى من غب ما أثر في مقابلة الأفراد نظراً إلى لفظها =

عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ۖ يُسْحَبُونَ عَلَيْهَا أَوْ يَمْشُونَ بِهَا. روي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم»^(١) ﴿عَمِيًّا وَيَكْمًا وَصَمًّا﴾ لا يبصرون ما يُقَرُّ أعينهم ولا يسمعون ما يُلدُّ مسامعهم ولا ينطقون بما يُقْبَلُ منهم، لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر وتصاؤوا عن استماع الحق وأبوا أن ينطقوا بالصدق، ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار مؤوفي^(٢) القوى والحواس. ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سَكَنَ لَهَا بِأَنَّ أَكَلَتْ جُلُودَهُمْ وَلَحْمَهُمْ. ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ تَوْفِدًا بِأَنَّ نُبْدَلَ جُلُودَهُمْ وَلَحْمَهُمْ فتنعدهم ملتهبة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء، وإليه أشار بقوله:

ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لأن الإشارة إلى ما تقدّم من عذابهم.

(٩٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أولم يعلموا. ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإنهم ليسوا أشدَّ خلقاً منهم ولا الإعادة أصعبُ عليه من الإبداء. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الموت أو القيامة. ﴿فَأِنِ الظَّالِمُونَ﴾ مع وضوح الحق. ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً.

(١٠٠) ﴿قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ خزائن رزقه وسائر نعمه. وأنتم مرفوع بفعل يفُسِّره ما بعده، كقول حاتم: لو ذات سوارٍ لطمتني، وفائدة هذا الحذف والتفسير: المبالغة مع الإيجاز، والدلالة على الاختصاص. ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ لبخلتُم مخافة النَّفَادِ بالإنفاق، إذ لا أحد إلا ويختار النفع لنفسه، ولو أثر غيره بشيء فإنما يؤثره لِعَوَضٍ يفوقه، فهو إذن بخيلٌ بالإضافة إلى جُودِ الله تعالى وكرمه هذا وإنَّ البخلاء أغلبٌ فيهم. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ بخيلاً لأنَّ بناء أمره على الحاجة والضئِة بما يحتاج إليه وملاحظة العِوَاضِ فيما يبذله.

= تلويحاً بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال (س/١٩٦/٥).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٤/٢، ٣٦٣) والترمذي (٣٠٥/٥) رقم ٣١٤٢ وإسحاق والبخاري - كما في الكافي الشافعي (ص ١٠٢ رقم ٣٠٨) - من حديث أبي هريرة. وفيه علي بن مرثد وهو ضعيف. قال البخاري: لا نعلمه من حديث أبي هريرة إلا بهذا الإسناد. ورواه ابن مردويه من رواية أبي داود نفع عن أنس مثله.

وأصله في الصحيحين - البخاري (٣٧٧/١١) رقم ٦٥٢٣ ومسلم (٢١٦١/٤) رقم ٢٨٠٦/٥٤ - عن أنس أن رجلاً قال: «يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «اليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

(٢) قوله مؤوفي: أي أصابتهم آفة القوى والحواس ففقدوها.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِنِيِّ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى
مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ
مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

(١٠١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر وتثاقط الطور على بني إسرائيل، وقيل: الطوفان والسُّنون ونقص الثمرات مكان الثلاثة الأخيرة. وعن صفوان^(١) أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقدفوا مخصنة، ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تغدوا في السبت» فقَبِلَ اليهوديُّ يده ورجله^(٢). فعلى هذا المراد بالآيات الأحكام العامة للملئكة الثابتة في كل الشرائع، سُمِّيَتْ بذلك لأنها تدل على حال من يتعاطى متعلقها في الآخرة من السعادة أو الشقاوة. وقوله وعليكم خاصة اليهود أن لا تغدوا، حُكْمٌ مُسْتَأْنَفٌ زائد على الجواب، ولذلك غيّر فيه سياق الكلام. ﴿فَسْتَلَّ بِنِيِّ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ فقلنا له سلّمهم من فرعون ليرسلهم معك، أو سلّمهم عن حال دينهم ويؤيده قراءة رسول الله ﷺ فَسَالَ على لفظ الماضي بغير همز وهو لغة قريش وإذا متعلّق بقلنا أو سأل على هذه القراءة، أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم، أو عن الآيات ليظهر للمشركين صدقك أو لتسلي نفسك أو لتعلم أنه تعالى لو أتى بما اقترحوا لأصروا على العناد والمكابرة كمن قبلهم، أو ليزداد يقينك لأنّ تظاهر الأدلة يوجب قوة اليقين وطمأنينة القلب وعلى هذا كان إذ نُصِبَ بآتيناً أو بإضمار يخبروك على أنه جواب الأمر أو بإضمار اذكّر على الاستئناف. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ سَجَزَتْ فتخبّط عقلك.

(١٠٢) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون. وقرأ الكسائي بالضم على إخباره عن نفسه. ﴿مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ يعني الآيات. ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ بينات تبصرك صدقي ولكنك تعاند، وانتصابه على الحال^(٣). ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشر من قولهم: ما تبرّك عن هذا؟ أي ما صرفك، أو هالكاً. قَارَعَ ظَنَّهُ بِظَنِّهِ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الظَّنِّينِ، فَإِنَّ ظَنَّ فِرْعَوْنَ كَذِبٌ بَحْثٌ وَظَنُّ

(١) صفوان بن عسال: هو صفوان بن عسال المرادي، نزل الكوفة وروى عنه ابن مسعود مع جلالته.

(١/٢٦٦ رقم ٢٨٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٧٧/٥ رقم ٢٧٣٣) و(٣٠٥/٥ رقم ٣١٤٤) والنسائي (١٩٢/٤ - تحفة الأشراف) وابن ماجه

(٢/١٢٢١ رقم ٣٧٠٥) والحاكم (٩/١).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح لا يعرف له علة. وقال الذهبي: صحيح لا نعرف له علة ومع ذلك فقد ضعف الألباني

الحديث في ضعيف النسائي والترمذي وابن ماجه.

(٣) والتعرض لربوبيته تعالى للسّموات والأرض للإيذان بأنه لا يقدر على إتياء مثل هاتيك الآيات العظام إلا خالقهما

ومدبرهما (س/١٩٨).

موسى يحوم حول اليقين من تظاهر أماراته. وقرىء وإن أخالك يا فرعون لمثوراً على إن المخفة واللام هي الفارقة.

فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَيَلْحَقْ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون. ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ﴾ أن يستخف موسى وقومه وينفيهم^(١). ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مضر أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستتصال. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ فعمسنا عليه مكره فاستفزناه وقومه بالإغراق.

(١٠٤) ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد فرعون أو إغراقه. ﴿لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ الكثرة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة، يعني قيام القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مختلطين إياكم وإياهم ثم نخكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم، واللفيف الجماعات من قبائل شتى.

(١٠٥) ﴿وَيَلْحَقْ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله، وما نزل على الرسول إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه. وقيل وما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. ولعله أراد به نفى اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثواب. ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصي بالعقاب، فلا عليك إلا التبشير والإنذار.

(١٠٦) ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ نزلناه مفروقاً منجماً. وقيل فرقنا فيه الحق من الباطل فحذف الجار كما في قوله: ويوماً شهدناه. وقرىء بالتشديد لكثرة نجومه فإنه نزل في تضاعيف عشرين سنة. ﴿لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ﴾ على مهل وتؤدة، فإنه أيسر للحفظ وأعون في الفهم. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ على حسب الحوادث.

(١٠٧) ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيده كمالاً وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ تعليل له أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة وتمكنوا من التميز بين المحق والمبطل، أو رأوا نعتك وصفة ما أنزل إليك في تلك الكتب، ويجوز أن يكون تعليلاً لقول على سبيل التسلية كأنه قيل: تسأل بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكثر بإيمانهم وإعراضهم. ﴿إِذَا يُتْلَى

(١) أصل الاستفزاز الإزعاج، وقد كنى به عن إخراجهم (روح المعاني ١٥/١٨٦).

عَلَيْهِمُ ﴿الْقُرْآنُ﴾ ﴿يَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ سَجَدُوا﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله أو شكراً لإنجازِ وَعْدِهِ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ ببعثة محمد ﷺ على فترة من الرسل وإنزالِ القرآن عليه.

وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

(١٠٨) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ عن خلف الموعِد. ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إنه كان وعده كائناً لا محالة.

(١٠٩) ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ كَرَزَهُ لاختلاف الحال والسبب، فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله، وذكر الذَّنْ لانه أول ما يلقى الأرض من وجه الساجد^(١)، واللام فيه لاختصاص الحُزُور به. ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ كما يزيدهم علماً و يقيناً بالله.

(١١٠) ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ نزلت حين سمع المشركون رسول الله يقول: يا الله يا رحمان، فقالوا إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر^(٢)، أو قالت اليهود: إنك لتقل ذكراً الرحمن وقد أكثره الله في التوراة^(٣). والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما يُطلقان على ذاتٍ واحدة وإن اختلف اعتباراً إطلاقهما، والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق وعلى الثاني أنهما سيان في حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود وهو أجود لقوله: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والدعاء في الآية بمعنى التسمية، وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه، وأو للتخيير، والتنوين في أيّ عوض عن المضاف إليه، وما صلة لتأكيد ما في أيّ من الإبهام، والضمير في فله للمسمى لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام أيّ ما تدعو فهو حسن، فوضِع موضعهُ فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه وكونها حُسْنَى لدلالاتها على صفات الجلال والإكرام. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ بقراءة صلاتك حتى تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها. ﴿وَلَا تَخَافُوهَا﴾ حتى لا تُسمع من خَلْقِكَ من المؤمنين. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة. ﴿سَبِيلًا﴾ وسطاً فإن الاقتصاد في جميع الأمور محبوب. رُوِيَ أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُخَفِّتُ ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمر رضي الله عنه كان يَجْهَرُ ويقول أطرُد الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض

(١) أو للدلالة على إكمال التذلل.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/١٥٨٢) عن ابن عباس بسند ضعيف.

وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٤٨) نسبته لابن مردويه.

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٠٣) عن الضحاك بدون إسناد.

قليلاً^(١). وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخاف بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلاً بالإخفات نهاراً والجهر ليلاً^(٢).

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

(١١١) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ في الألوهية. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ وليّ يواليه من أجل مذكّره ليدفعها بمولاته. نفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختياراً واضطراراً وما يعاونه ويقويه، ورغب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحقّ جنس الحمد لأنه الكامل الذات المنفرد بالإيجاد المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتمجيد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقّه في ذلك.

رُوي أنه ﷺ كان إذا أفصح الغلام من بني عبدالمطلب علمه هذه الآية^(٣)، وعنه عليه السلام «من قرأ سورة بني إسرائيل فرّق قلبه عند ذكر الوالدين، كان له قنطار في الجنة»^(٤) والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

☆ ☆ ☆

- (١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج ١٥/١٨٦) عن محمد بن سيرين بسند صحيح. وأصله عند أبي داود (٢/٨١ - ٨٢ رقم ١٣٢٩) والترمذي (٢/٣٠٩ - ٣١٠ رقم ٤٤٧) والحاكم (١/٣١٠) عن أبي قتادة.
- قال الترمذي: هذا حديث غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني والله أعلم.
- (٢) قوله «وابتغ بين ذلك سبيلاً» أي وسطاً، وعبر عنه بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم إلى المطلوب (س ٥/٢٠٠).
- (٣) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٤٢٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/٥٥٦ رقم ١٠٣٢٨) عن عمرو بن شعيب. وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤/٣٣٤ رقم ٧٩٧٦) عن عبدالكريم أبي أمية. قلت: في الطرق الثلاثة (عبدالكريم أبي أمية) وهو ضعيف.
- (٤) حديث موضوع، رواه ابن مردويه والثعلبي والواحد في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص ٧٩١).

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فَيَمَّا يَلِيْزُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

سورة الكهف مكية^(١)

وقيلَ إلا قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية^(٢) ، وهي مائة وإحدى عشرة آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن، رتب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهاً على

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (١٠٢/٥): «روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة الكهف مكية وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وقتادة. وهذا إجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه. إلا أنه قد روي عن ابن عباس، وقتادة أن منها آية مدنية، وهي قوله «واصبر نفسك» [الكهف: ٢٨].»

- وقال مقاتل: من أولها إلى قوله تعالى: «صعيداً جزراً» [الكهف: ٨]، مدني. وقوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] الآيتان مدنية وباقيها مكي» هـ.

- وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٤/٥): «أخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة الكهف بمكة.

- وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير رضي الله عنه قال: نزلت سورة الكهف بمكة» هـ.

- وقال ابن حبيب الماوردي في «الثكن والعيون» (٢٨٣/٣) «سورة الكهف مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها وهي قوله تعالى «واصبر نفسك» [الكهف: ٢٨]» هـ.

وصحح ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٦١/١٠) بأن سورة الكهف مكية.

(٢) الكهف: ٢٨.

أنه أعظمُ نعمائه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمالُ العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاحُ المعاش والمعاد^(١). ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَوَجًا﴾ شيئاً من العوج باختلال في اللفظ وتنافٍ في المعنى، أو انحرافٍ من الدعوة إلى جناب الحق. وهو في المعاني كالعوج في الأعيان.

(٢) ﴿قِيَمًا﴾ مستقيماً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، أو قيماً بمصالح العباد فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها. وانتصابه بمضمّر تقديره جعله قيماً، أو على الحال من الضمير في له، أو من الكتاب على أن الواو في «ولم يجعل» للحال دون العطف، إذ لو كان للعطف لكان المعطوف فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه ولذلك قيل فيه تقديم وتأخير. وقرئ قيماً ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذر الذين كفروا عذاباً شديداً، فحذف المفعول الأول اكتفاءً بدلالة القرينة واقتصاراً على الغرض المسوق إليه. ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ صادراً من عنده. وقرأ أبو بكر بإسكان الدال - كإسكان الباء من سنع مع الإشمام ليدل على أصله - وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للإتيان^(٢). ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة^(٣).

(٣) ﴿مُكَثِّبِينَ فِيهِ﴾ في الأجر. ﴿أَبَدًا﴾ بلا انقطاع.

(٤) ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذر به استغناءً بتقدم ذكره^(٤).

(٥) ﴿مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو باتخاذ أو بالقول، والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مُفْرِط وتوهم كاذب أو تقليد لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثر والأثر. أو بالله، إذ لو علموه لما جوزوا نسبة الاتخاذ إليه. ﴿وَلَا يَلْبِثُهُمْ﴾ الذين تقولوه بمعنى التبي. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ عظمت مقالتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريك وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يُعِينَهُ ويخلفه إلى غير ذلك من الزيف، وكلمة نصب على التمييز. وقرئ بالرفع على الفاعلية، والأول أبلغ وأدل على المقصود. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لها، تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم، والخارج بالذات هو الهواء الحامل لها. وقيل صفة محذوف هو المخصوص بالذم لأن كبرها هنا بمعنى بش. وقرئ كبرت بالسكون مع الإشمام. ﴿إِنْ يَقُولُوا إِلَّا كَذِبًا﴾.

(١) قوله «الحمد لله الذي..» في وصفه تعالى بالموصول إشعار بعلية ما في حيز الصلة لاستحقاق الحمد وإيدان بعظم شأن التنزيل.

وقوله «عبده» في التعبير عنه بالعبد مضافاً إلى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه إلى أعلى معارج العبادة، وتشريف له، وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمُرْسَل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام. وتأخير المفعول الصريح «الكتاب» عن الجار والمجرور - مع أن حقه التقديم - وذلك ليتصل به قوله تعالى «ولم يجعل له عوجاً» (س ٢٠٢/٥).

(٢) قراءة أبي بكر «لَدْنِهِ».

(٣) وإجراء الموصول «الذين» على موصوفه المذكور «يعملون الصالحات» لما أن مدار قبول الأعمال هو الإيمان. وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، مع مراعاة تقديم التولية على التحلية (س ٢٠٣/٥).

(٤) وإيثار صيغة الماضي في «قالوا» للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم (س ٢٠٣/٥).

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنَّا يَتَّبِعُونَ عِجَابًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

(٦) ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ﴾ قائلها. ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ إذا ولّوا عن الإيمان، شبهة لما يداخله من الوجد على توليهم بمن فارقت أعزته فهو يتحسر على آثارهم ويبخع نفسه ووجداً عليهم. وقرئ باخع نفسك، على الإضافة. ﴿إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ بهذا القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ للتأسف عليهم أو متأسفاً عليهم، والأسف قرط الحزن والغضب. وقرئ أن بالفتح على لأن، فلا يجوز إعمال باخع إلا إذا جعل حكاية حال ماضية.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن. ﴿زِينَةً لِّهَا﴾ ولاهلها ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تعاطيه، وهو من زهد فيه ولم يغتر به وقنع منه بما يزجي به أيامه وصرفته على ما ينبغي. وفيه تسكين لرسول الله ﷺ^(١).

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ تهيد فيه، والجرز الأرض التي قطع نباتها. مأخوذ من الجرز وهو القطع، والمعنى إنا لنعيد ما عليها من الزينة تراباً مستويّاً بالأرض ونجعله كصعيد أملس لا نبات فيه.

(٩) ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ بل أحسبت. ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ في إبقاء حياتهم مدة مديدة. ﴿كَانُوا مِنَّا يَتَّبِعُونَ عِجَابًا﴾ وقصتهم - بالإضافة إلى خلق ما على الأرض من الأجناس والأنواع الفاتية للحصر على طبائع متباعدة وهيئات متخالفة تُعجِبُ الناظرين من مادة واحدة ثم ردها إليها - ليس بعجيب، مع أنه من آيات الله كالترز الحقيق. والكهف: الغار الواسع في الجبل. والرقيم: اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم، أو اسم قريتهم أو كلبهم. قال أمية بن أبي الصلت^(٢).

وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا الرَّقِيمُ مُجَاوِرًا وَصَيْدُهُمْو وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ مُجَدِّدٌ^(٣)

(١) وإيراد صيغة التفضيل «أحسن» - مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقيح لا إلى الحسن والأحسن - للإشعار بأن الغاية الأصلية للجعل المذكور إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين (س/٥/٢٠٥).

(٢) واسمه: عبدالله بن أبي ربيعة بن عون الثقفي، وقد صدقه النبي ﷺ في بعض شعره. وقال ابن قتيبة في طبقات الشعراء - ٣٢٩ - وكان أمية يُخبر أن نبياً يخرج قد أظلم زمانه وكان يؤمل أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً.

لم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً، في التاسعة، وقيل: إنه مات سنة تسع من الهجرة في الطائف كافراً قبل أن يُسلم الثقفيون.

[خزانة الأدب للبغدادي (١/٢٤٧ - ٢٥٣)].

(٣) من الطويل.

أَوْ لَوْحٍ رِصَاصِيٍّ أَوْ حَجَرِيٍّ رُقِمَتْ فِيهِ أَسْمَاؤُهُمْ وَجَعَلَ عَلَيَّ بَابَ الْكَهْفِ. وَقِيلَ أَصْحَابُ الرِّقِيمِ قَوْمٌ آخَرُونَ كَانُوا ثَلَاثَةً خَرَجُوا يَرْتَادُونَ لَأَهْلِهِمْ، فَأَخَذَتْهُمُ السَّمَاءُ فَأَوَّزُوا إِلَى الْكَهْفِ فَانْحَطَّتْ صَخْرَةٌ وَسَدَتْ بَابَهُ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ اذْكُرُوا أَيُّكُمْ عَمَلٌ حَسَنٌ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنَا بِبِرْكِهِ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اسْتَعْمَلْتُ أَجْرَاءَ ذَاتِ يَوْمٍ فَجَاءَ رَجُلٌ وَسَطَ النَّهَارِ وَعَمِلَ فِي بَقِيَّتِهِ مِثْلَ عَمَلِهِمْ فَأَعْطِيَتْهُ مِثْلَ أَجْرِهِمْ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمْ وَتَرَكَ أَجْرَهُ فَوَضَعَتْهُ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ، ثُمَّ مَرَّ بِي بَقَرٌ فَاشْتَرَيْتُ بِهِ فَصِيلَةً فَلَبِغْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ حِينٍ شَيْخًا ضَعِيفًا لَا أَعْرِفُهُ وَقَالَ: إِنَّهُ لِي عِنْدَكَ حَقٌّ وَذَكَرَهُ لِي حَتَّى عَرَفْتُهُ فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لَوَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا، فَانْصَدَعَ الْجَبَلُ حَتَّى رَأَوْا الضُّوْءَ. وَقَالَ آخَرُ: كَانَ فِيَّ فَضْلٌ وَأَصَابَتِ النَّاسَ شِدَّةٌ، فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ فَطَلَبَتْ مِنِّي مَعْرُوفًا فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكَ، فَأَبَتْ وَعَادَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ ثَلَاثًا، ثُمَّ ذَكَرْتُ لَزَوْجِهَا فَقَالَ أَجِيبِي لَهُ وَأَغِيثِي عِيَالَكِ، فَأَتَتْ وَسَلَّمَتْ إِلَيْهِ نَفْسَهَا، فَلَمَّا تَكَشَّفَتْهَا وَهَمَمْتُ بِهَا أَزْتَعِدْتُ، فَقُلْتُ: مَا لِكِ؟ قَالَتْ أَخَافُ اللَّهَ، فَقُلْتُ لَهَا: خِفْتِهِ فِي الشَّدَةِ وَلَمْ أَخَفْهُ فِي الرِّخَاءِ فَتَرَكْتَهَا وَأَعْطَيْتَهَا مُلْتَمَسَهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ لَوَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا، فَانْصَدَعَ حَتَّى تَعَارَفُوا. وَقَالَ الثَّالِثُ كَانَ لِي أَبَوَانِ هَرَمَانِ وَكَانَتْ لِي غَنَمٌ وَكُنْتُ أَطْعَمُهُمَا وَأَسْقِيُهُمَا ثُمَّ أَرْجَعُ إِلَى غَنَمِي، فَجَسَنِي ذَاتَ يَوْمٍ غَيْثٌ فَلَمْ أَتْرُخْ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ أَهْلِي وَأَخَذْتُ مَخْلَبِي فَحَلَبْتُ فِيهِ وَمَضَيْتُ إِلَيْهِمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ فَشَقُّ عَلَى أَنْ أَوْقِظَهُمَا، فَتَوَقَّعْتُ جَالِسًا وَمَحَلْبِي عَلَى يَدَيَّ حَتَّى أَبْقِظَهُمَا الصُّبْحَ فَسَقَيْتُهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ لَوَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا. فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا. وَقَدْ رَفَعَ ذَلِكَ نِعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ^(١).

(١٠) ﴿إِذَا دَاوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ يَعْنِي فِتْيَةً مِنْ أَشْرَافِ الرُّومِ أَرَادَهُمْ دَقْيَانُوسُ عَلَى الشَّرِكِ فَأَبَوْا وَهَرَبُوا إِلَى الْكَهْفِ، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تَوَجُّبٌ لَنَا الْمَغْفِرَةُ وَالرِّزْقُ وَالْأَمْنُ مِنَ الْعَدُوِّ. ﴿وَهَيَّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ مَفَارِقَةِ الْكُفَّارِ. ﴿رَشَدًا﴾ نَصِيرٌ بِسَبَبِهِ رَاشِدِينَ مُهْتَدِينَ، أَوْ اجْعَلْ أَمْرَنَا كُلَّهُ رَشَدًا كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ مِنْكَ أَسَدًا. وَأَصْلُ التَّهَيُّتَةِ إِحْدَاثُ هَيْئَةِ الشَّيْءِ^(٢).

فَضَرَبْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُغَ أَهْلَ الْحَرَمَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا ﴿١٤﴾

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ أَيَّ ضَرْبِنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا يَمْنَعُ السَّمْعَ، بِمَعْنَى أَنْفَتْنَاهُمْ إِنْ أَمَامَهُمْ لَا تُتَبَّهُهُمْ فِيهَا الْأَصْوَاتُ، فَحَذَفَ الْمَفْعُولُ كَمَا حَذَفَ فِي قَوْلِهِمْ: بَنَى عَلَى أَمْرَاتِهِ^(٣). ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ﴾

(١) أخرجه أحمد (٢٧٤/٤ - ٢٧٥) والقصة في الصحيحين من حديث ابن عمر:

البخاري (٤٠٨/٤ رقم ٢٢١٥) ومسلم (٢٠٩٩/٤ - ٢١٠١ رقم ٢٧٤٣).

(٢) وتقديم المجرورين «لنا، من أمرنا» على المفعول الصريح «رشدًا» لإظهار الاعتناء بهما، وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله...

وتقديم «لنا» على «من أمرنا» للإيذان من أول الأمر بكون المسؤول مرغوباً فيه لديهم (س ٢٠٦/٥).

(٣) وتخصيص الأذان بالذكر - مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم - لما أنها المحتاج إلى

ظرفان لضربنا. ﴿عَدَدًا﴾ أي ذواتٍ عَدَدٍ، ووصفُ السنينَ به يحتمل التكثيرَ والتقليلَ، فإن مدة لُبُّهُمْ كبعض يوم عنده.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ﴾ أبقظناهم. ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ليتعلق علمنا تعلُّقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلُّقاً استقبالياً. ﴿أَيُّ الْحَزِينِينَ﴾ المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لُبُّهُمْ. ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا﴾ ضَبَطَ أمدَ الزمانِ لُبُّهُمْ. وما في أيٍّ من معنى الاستفهام عُلِّقَ عنه لنعلم، فهو مبتدأ وأحصى خبره. وهو فعل ماضٍ وأمداً مفعول له ولما لبثوا حال منه أو مفعول له، وقيل إنه المفعول واللام مزيدةٌ وما موصولة وأمداً تمييز، وقيل أحصى اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد كقولهم: هو أحصى للمال وأفلس من ابنِ المُذَلِّقِ، وأمداً نصب بفعل دل عليه أحصى كقوله:

وَأَضْرَبُ مِنَّا بِالشُّيُوفِ الْقَوَانِسَا

(١٣) ﴿تَحْنُ نَفْصُ عَلَيَّكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق. ﴿لِأَنَّهُمْ فَتِيَّةٌ﴾ شبَّان، جمع فتى كصبي وصبيوة. ﴿ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ بالشَّيْتِ^(١).

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وقويناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال، والجرأة على إظهار الحق والرد على دقيانوس الجبار. ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يديه. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ والله لقد قلنا قولاً ذا شطط أي ذا بُعْدٍ عن الحق مُفْرِطٍ في الظلم^(٢).

هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ بِنَشْرِكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبِهِتَى لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرَفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَعْنَ كَهْفَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبْنَ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ. ﴿قَوْمًا﴾ عطف بيان. ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً﴾ خبره، وهو إخبار في معنى إنكار: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾ هلا يأتون. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على عبادتهم. ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ ببرهان ظاهر فإن الدين لا يُؤْخَذُ إلا به، وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردودٌ وأن التقليد فيه غيرُ

= الحجب عادة، إذ هي الطريقة للتيقظ غالباً لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق (س/٥/٢٠٦).

(١) والالتفات إلى الغيبة «إنهم فتية...» للإشعار بعلية وصف الربوبية لإيمانهم، ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم (س/٥/٢١٠).

(٢) قالوا «لن ندعو من دونه إلهاً» ولم يقولوا رباً، وذلك للتصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة، وللإشعار بأن مدار العبادة وصف الألوهية، وللإيدان بأن ربوبيته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكية المجازية (س/٥/٢١٠).

جائز. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه.

(١٦) ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطابٌ بعضهم لبعض. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوب، أي وإذا اعتزلتم القوم ومعبودهم إلا الله، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين. ويجوز أن تكون ما مصدرية على تقدير وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله، وأن تكون نافية على أنه إخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترضٌ بين إذ وجوابه لتحقيق اعتزالهم. ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ يسطر الرزق لكم ويوسع عليكم. ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ في الدارين. ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾ ما ترتفقون به أي تنتفعون، وجزئهم بذلك لتصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى. وقرأ نافع وابن عامر مرفقاً بفتح الميم وكسر الفاء، وهو مصدرٌ جاء شاذاً كالمرجع والمحيط فإن قياسه الفتح^(١).

(١٧) ﴿وَتَرَىٰ الشَّمْسَ﴾ لو رأيتم، والخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرَّ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم، لأن الكهف كان جنوبياً، أو لأن الله تعالى رَوَّرها عنهم. وأصله تتراور فادغمت التاء في الزاي، وقرأ الكوفيون بحذفها^(٢)، وابن عامر ويعقوب تَرَوَّرُ كَتَحَمَّرُ، وقرئ تَرَوَّرُ كَتَحَمَّارُ وكلها من التَّوَرَّرَ بمعنى الميل. ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ جهة اليمين وحقيقتها: الجهة ذات اسم اليمين. ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ تَقَرَّضُمُ﴾ تقطعهم وتصرم عنهم. ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ يعني يمين الكهف وشماله لقوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي وهم في مُتَسَّعٍ من الكهف، يعني في وسطه بحيث ينالهم رَوْحُ الهواء ولا يؤذيهم كربُ الغار ولا حرُّ الشمس، وذلك لأن باب الكهف في مقابلة بنات نعش، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرقُ رأس السرطان ومغربُه، والشمسُ إذا كان مدارها مدارَه تطلع مائلةً عنه مقابلةً لجانبه الأبيض وهو الذي يلي المغرب، وتغرب محاذيةً لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبيه، ويحلل عفونته ويعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويُبلي ثيابهم. ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي شأنهم وإيواؤهم إلى كهفٍ شأنه كذلك، أو إخبارك قصتهم، أو ازورار الشمس عنهم وقرضها طالعةً وغاربةً من آيات الله. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بالتوفيق. ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح، والمراد به إما الشفاء عليهم أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة ولكن المتنتفع بها مَنْ وفقه الله للتأمل فيها والاستبصار بها. ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ ومن يخذله. ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرِيْدًا﴾ من يليه ويرشده.

(١٨) ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً أَنْظَا﴾ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلبهم. ﴿وَهُمْ رُؤُودٌ﴾ نيام. ﴿وَتَقْلِبُهُمْ فِي رَقَدَتِهِمْ﴾ ذات اليمين وذات الشمال. كَيْلَا تَأْكُلَ الْأَرْضُ مَا يَلِيهَا مِنْ أْبْدَانِهِمْ على طول الزمان. وقرئ يُقْلِبُهُم بالياء والضميرُ لله تعالى، وتَقْلِبُهُمْ على المصدر منصوباً بفعل يدل عليه تحسبهم أي وترى تقلبهم. ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾ هو كلبٌ مرؤوا به فتبعهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال: أنا أحب أحباء الله فناموا وأنا

(١) لأن المصادر من فَعَلَ يَفْعُل تكون بفتح العين، فمصدر رجع مرجع لكنه شذ عن القياس.

(٢) قراءة الكوفيين «تَرَاوَرَّ» خفيفة الزاي.

أَحْرَسُكُمْ^(١). أَوْ كَلْبٌ رَاعٍ مَرُّوا بِهِ فَتَبِعَهُمْ وَتَبِعَهُ الْكَلْبُ^(٢)، وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: وَكَالْبِهِمْ أَيْ وَصَاحِبُ كَلْبِهِمْ. ﴿بَسِطْ ذِرَاعَيْهِ﴾ حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ وَلِذَلِكَ أَعْمَلَ اسْمَ الْفَاعِلِ. ﴿يَا لَوْصِيدُ﴾ يَفْنَاءُ الْكَهْفِ، وَقِيلَ الْوَصِيدُ الْبَابُ، وَقِيلَ الْعَتَبَةُ. ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فَنَظَرْتَ إِلَيْهِمْ، وَقُرِءَ لَوْ أَطْلَعْتَ بِضَمِّ الْوَاوِ. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لَهَرَبْتَ مِنْهُمْ، وَفِرَارًا يَحْتَمِلُ الْمَصْدَرُ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ التَّوَلِيَةِ وَالْعِلَّةُ وَالْحَالُ. ﴿وَلَمَلَّيْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ خَوْفًا يَمْلَأُ صَدْرَكَ بِمَا أَلْبَسَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْهَيْبَةِ، أَوْ لِعِظَمِ أَجْرَامِهِمْ وَانْفِتَاحِ عَيُونِهِمْ، وَقِيلَ لَوْحْشَةً مَكَانَهُمْ^(٣). وَعَنْ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ غَزَا الرُّومَ فَمَرَّ بِالْكَهْفِ فَقَالَ: لَوْ كَشَفْتَ لَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ فَنَظَرْنَا إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: لَيْسَ لَكَ ذَلِكَ قَدْ مَنَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ مَنْ هُوَ خَيْرُ مِنْكَ فَقَالَ: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ فَلَمْ يَسْمَعْ وَبَعَثَ نَاسًا فَلَمَّا دَخَلُوا جَاءَتْ رِيحٌ فَاحْرَقَتْهُمْ^(٤). وَقَرَأَ الْحِجَازِيَانِ لَمَلَّيْتُ بِالتَّشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ، وَابْنُ عَامِرٍ وَالْكَسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ رُغْبًا بِالتَّثْقِيلِ.

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

(١٩) ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ وَكَمَا أُنْمَاهُمْ آيَةُ بَعَثْنَاهُمْ آيَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِنَا. ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ لِيَسْأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيَتَعَرَّفُوا حَالَهُمْ وَمَا صَنَعَ اللَّهُ بِهِمْ فَيَزَادُوا يَقِينًا عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَسْتَبْصِرُوا بِهِ أَمَرَ الْبَعْثِ وَيَشْكُرُوا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ^(٥). ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بِنَاءٌ عَلَى غَالِبِ ظَنِّهِمْ لِأَنَّهُ النَّائِمُ لَا يَحْصِي مَدَّةَ نَوْمِهِ، وَلِذَلِكَ أَحَالُوا الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَوْلَ بَعْضِهِمْ وَهَذَا إِنكَارُ الْآخَرِينَ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ لَأَنَّهُمْ دَخَلُوا الْكَهْفَ غَدَوَةً وَانْتَبَهُوا ظَهِيرَةً وَظَنُّوا أَنَّهُمْ فِي يَوْمِهِمْ أَوِ الْيَوْمِ الَّذِي بَعْدَهُ قَالُوا ذَلِكَ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَى طُولِ أَظْفَارِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ قَالُوا هَذَا، ثُمَّ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ الْأَمْرَ مُلْتَبِسٌ لَا طَرِيقَ لَهُمْ إِلَى عِلْمِهِ أَخَذُوا فِيمَا يَهْمُهُمْ وَقَالُوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ وَالْوَرِقُ الْفِضَّةُ مُضْرُوبَةٌ كَانَتْ أَوْ غَيْرَ مُضْرُوبَةٍ. وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَحُمَزَةُ وَرُوخٌ عَنْ يَعْقُوبَ

(١) وهذا قول كعب الأحبار (روح المعاني ٢٢٥/١٥).

(٢) روي ذلك عن ابن عباس (روح المعاني ٢٢٥/١٥).

(٣) لعل تأخير ذكر الرعب عن ذكر التولية للإيدان باستقلال كل منهما في الترتيب على الاطلاع إذ لو روعي ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم ترتيب المجموع من حيث هو عليه، وللإشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد (س ٢١٣/٥).

(٤) قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم وعبيد بن محمد وأبو بكر بن أبي شيبة من رواية يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإسناده صحيح (الكافي الشافعي ص ١٠٣ رقم ٣١٣).

(٥) وجعل التساؤل غاية للبعث المعلن - فيما سبق - بالاختبار لأنه من أحكامه المترتبة عليه. والاقتصار على ذكر التساؤل لاستباحه لسائر آثاره (س ٢١٣/٥).

بالتخفيف^(١)، وقرء بالثقل وإدغام القاف في الكاف^(٢)، وبالتخفيف مكسور الواو مدغماً وغير مدغم، ورُدَّ المدغم لالتقاء الساكنين على غير حذّه^(٣). وحملهم له دليل على أن التزوّد رأي المتوكّلين، والمدينة طرسوس. ﴿فَلْيَنْظُرْ آثِيًّا﴾ أي أهلها. ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أحلّ وأطيب أو أكثر وأرخص. ﴿فَلْيَأْتِكُمْ رِزْقِي مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يُغَبَّنَ، أو في التخفي حتى لا يُعَرَفَ. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور.

إِنَّمَا إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ
أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا
عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾

(٢٠) ﴿إِنَّمَا إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم، والضمير للأهل المقدّر في أيها. ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يصيرونكم إليها كرهاً من العود بمعنى الصيرورة. وقيل كانوا أولاً على دينهم فأمّنوا^(٤). ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ إن دخلتم في ملّتهم.

(٢١) ﴿وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم لتزداد بصيرتهم أطلعنا عليهم. ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم. ﴿أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بالبعث أو الموعود الذي هو البعث. ﴿حَقٌّ﴾ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يُبعث. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وأن القيامة لا ريب في إمكانها، فإنّ من توفّي نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنين حافظاً أبدانها عن التحلل والتفتت ثم أرسلها إليها فدير أن يتوفّي نفوس جميع الناس ممسكاً إياها إلى أن يحشّر أبدانهم فيردّها عليها. ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ﴾ ظرف لأعثرنا، أي أعثرنا عليهم حين يتنازعون^(٥). ﴿يَتَنَزَّعُونَ﴾ أمر دينهم، وكان بعضهم يقول تبعث الأرواح مجردة وبعضهم يقول يبعثان معاً ليرتفع الخلاف وتبين أنهما يبعثان معاً، أو أمر الفتية حين أماتهم الله ثانياً بالموت فقال بعضهم ماتوا وقال آخرون ناموا نومهم أول مرة، أو قالت طائفة بنبي عليهم بنياناً يسكنه الناس ويتخذونه قربة، وقال آخرون لتتخذ عليهم مسجداً يُصلّى فيه كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا وقوله «ربهم أعلم بهم» اعتراض إما من الله رداً على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين، أو من المتنازعين في زمانهم، أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ، أو من المتنازعين للرد إلى الله بعد

(١) أي بإسكان الراء «يُوزَقُّكُمْ».

(٢) أي «يُوزَقُّكُمْ».

(٣) أجيب على الرد بأنه واقع في كلام العرب، لكن على شذوذ (روح المعاني ٢٣٠/١٥).

(٤) وإثارة كلمة «في» على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار الذي هو أشد شيء عندهم كراهة.

وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدي إلى الرجم

(س ٢١٤/٥).

(٥) وقدم عليه الغاية «ليعلموا». إظهار لكمال العناية بذكرها (س ٢١٥/٥).

ما تذكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم فلم يتحقق لهم ذلك. حُكِيَ أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسمُ دقيانوسَ اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك - وكان نصرانياً موثقاً - فقصَّ عليه القصصَ، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فُؤوا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلّموهم، ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شرِّ الجن والإنس، ثم رَجَعُوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليهم مسجداً. وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولاً ثلاثاً يفزعوا، فدخل فعَمِيَ عليهم المدخلُ فَبَنَوْا ثَمَّ مسجداً.

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين. ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة رجال يَزْبُعُهُمْ كلبهم بانضمامه إليهم. قيل هو قول اليهود، وقيل هو قول السيد من نصارى نجران وكان يعقوبياً. ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قاله النصارى أو العاقبُ منهم وكان نسطورياً. ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يرمون رمية بالخبر الخفي الذي لا مُطْلَعُ لهم عليه وإتياناً به، أو ظناً بالغيب من قولهم رَجِمَ بالظن إذا ظنَّ، وإنما لم يُذكر بالسين اكتفاءً بعطفه على ما هو فيه. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إنما قاله المسلمون بإخبار الرسول لهم عن جبريلَ عليهما الصلاة والسلام، وإيماء الله تعالى إليه: بأن أتبعه قوله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وأتبع الأولين قوله رجماً بالغيب، وبأن أثبت العلمَ بهم لطائفة بعد ما حصرَ أقوال الطوائف في الثلاثة المذكورة، فإن عدم إيراد رابع في نحو هذا المحلِّ دليلُ العدم مع أن الأصل يَنْفِيهِ، ثم ردَّ الأولين بأن أتبعهما قوله «رجماً بالغيب» ليتعين الثالث، وبأن أدخل فيه الواو على الجملة الواقعة صفةً للنكرة تشبيهاً لها بالواقعة حالاً من المعرفة لتأكيد لُصُوقِ الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمرٌ ثابت. وعن علي رضي الله عنه هم سبعة وثامنهم كلبهم^(١)، وأسماءهم: يملیخا ومکشلینیا ومشلینیا هؤلاء أصحابُ يمينِ الملك، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش أصحابُ يساره وكان يستشيرهم، والسابعُ الراعي الذي وافقهم، واسمُ كلبهم قطميرُ واسم مدينتهم أفسوس^(٢). وقيل الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٨٣/٣): «... وفي تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلبهم نظر في صحته والله أعلم، فإن غالب ذلك ملتقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى «فلا تمارِ فيهم إلا مراءً ظاهراً» أي سهلاً هيناً فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة» هـ.

- وقال ابن حجر في «الفتح» (٥٠٥/٦): «... وفي النطق بها - أي بأسمائهم - اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء» هـ.

(٢) قال ابن حجر في هذه الأسماء: في النطق بها اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء (فتح الباري ٥٠٥/٦).

والقليل منهم. ﴿فَلَا تَعْمَارُ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ فلا تجادل في شأن الفتية إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والرد عليهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قضيتهم سؤال مسترشد فإن أوحى إليك لمندوحة من غيره مع أنه لا علم لهم بها، ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤول وتزييف ما عنده فإنه مخل بمكارم الأخلاق.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾.

(٢٤) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نهى تاديب من الله تعالى لنبهه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذوي القرنين، فسألوه فقال: «اتنوني غداً أخبركم» ولم يستثن^(١) فأبطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً حتى شق عليه وكذبه قريش^(٢). والاستثناء من النهي أي ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه إنني فاعله فيما يستقبل إلا بأن يشاء الله، أي إلا ملتبساً بمشيئته قائلاً إن شاء الله أو إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله بمعنى أن يأذن لك فيه، ولا يجوز تعليقه بفاعل لأن استثناء اقتران المشيئة بالفعل غير سديد واستثناء اعتراضها دونه لا يناسب النهي ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾ مشيئة ربك وقل إن شاء الله. كما روي أنه لما نزل قال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله^(٣). ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرط منك نسياناً لذلك ثم تذكرته. وعن ابن عباس: ولو بعد سنة ما لم يَحْثُثْ^(٤)، ولذلك جَوَّز تأخير الاستثناء عنه. وعامة

(١) أي لم يقل: إن شاء الله.

(٢) أخرجه ابن المنذر عن مجاهد كما في الدر المنثور (٣٧٦/٥) وأخرج ابن جرير (١٩١/١٥) نحوه عن ابن عباس، وفي سنده رجل من أهل مصر، أي لم يُسم، وأورده الواحدي بقوله: قال المفسرون (أسباب النزول ص ٣٠٠).

وقد سبق بيان سبب نزول الآية «٨٥» الإسرائ. «ويسألونك عن الروح» وفيها أن قريشاً طلبت من اليهود إعطاءهم شيئاً يسألون محمداً - عليه السلام - عنه فقالوا: سلوه عن الروح وهو صحيح، لكن سؤاله جملة عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذوي القرنين لعله لم يثبت والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن مردويه بنحوه عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٣٧٧/٥).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٢٩/١٥) والطبراني في الكبير (٦٨/١١ ح ١١٠٦٩) والحاكم (٣٠٣/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٥٣/٧).

ومعنى قول ابن عباس: أن للحالف أن يستثني ولو بعد سنة، أي إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه إن شاء الله وذكر ذلك - ولو بعد سنة - فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بشئة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث (تفسير ابن كثير ٧٨/٣) وقال القرطبي: هذا في تدارك التبرك والتخلص عن الإثم، وأما الاستثناء المتغير للحكم فلا يكون إلا متصلاً.

الفقهاء على خلافه^(١) لأنه لو صحَّ ذلك لم يتقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يُعلم صدق ولا كذب، وليس في الآية والخبر أن الاستثناء المتدارك به من القول السابق بل هو من مقدّر مدلول به عليه، ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه، أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليعثك على التدارك، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليدذكرك المنسي. ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي﴾ يدلني. ﴿لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ لأقرب رشداً وأظهر دلالة على أنني نبي من نبي أصحاب الكهف. وقد هداه لأعظم من ذلك كقصص الأنبياء المتباعدة عنه أيامهم، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبل إلى قيام الساعة، أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسي.

(٢٥) ﴿وَلْيُثَوِّبِ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا شَعَابًا﴾ يعني لُبُّهُمْ فيه أحياءً مضروباً على آذانهم، وهو بيان لما أجمل قبل. وقيل إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا في مدة لُبُّهُمْ كما اختلفوا في عدَّتْهُمْ، فقال بعضهم ثلاثمائة، وقال بعضهم ثلاثمائة وتسع سنين. وقرأ حمزة والكسائي ثلاثمائة سنين بالإضافة على وضع الجمع موضع الواحد، ويحسنه هنا أن علامة الجمع فيه جَبُرَ لما حذف من الواحد وأن الأصل في العدد إضافته إلى الجمع، ومن لم يُضَفْ أبدل السنين من ثلاثمائة.

(٢٦) ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَكُمُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها، فلا خلق يخفي عليه علماً. ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ ذكر بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عما عليه إدراك السامعين والمبصرين، إذ لا يحجب شيء ولا يتفاوت دونه لطيف وكثيف وصغير وكبير وخفي وجليل، والهاء تعود إلى الله. ومحل الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه، وكان أصله أبصر أي صار ذا بصر ثم نُقِلَ إلى صيغة الأمر بمعنى الإنشاء فبرز الضمير لعدم لَبَاقِ الصيغة له أو لزيادة الباء كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ﴾^(٢). والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتغذية ومتعدية إن كانت للصورورة. ﴿مَا لَهُمْ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض. ﴿مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ مَنْ يتولى أمورهم. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ في قضائه. ﴿أَحَدًا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلاً. وقرأ ابن عامر وقالون عن يعقوب بالناء والجزم على نهى كل أحد عن الإشراك. ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث إنها من المعجَّبات بالإضافة إلى رسول الله على أنه وحى معجز أمره أن يداوم درسه ويلازم أصحابه فقال:

(٢٧) ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ من القرآن، ولا تسمع لقولهم «أنت بقرآن غير هذا أو بدله» ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره. ﴿وَلَنْ يَحْدُ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحًا﴾ ملتجأ تعدل عليه إن هممت به.

(١) وهو الراجح والصواب انظر «الروضة الندية» بتحقيق محمد صبحي حسن حلاق (٢/ ٣٥٨ - ٣٥٩).

(٢) الفرقان: ٥٨.

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

(٢٨) ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ واحبسها وثبتها. ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ في مجاميع أوقانهم، أو في طرفي النهار. وقرأ ابن عامر بالغداة، وفيه أن غدوة علم في الأكثر فتكون اللام فيه على تأويل التنكير. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ رضا الله وطاعته. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم، وتعديته بعن لتضمينه معنى نبا. وقرئ ولا تغد عينيك ولا تعد من أعداء وعداء. والمراد نهى الرسول ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين وتعلو عينه عن رثائه زبهم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حال من الكاف في المشهورة ومن المستكن في الفعل في غيرها. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ من جعلنا قلبه غافلاً. ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ كامية بن خلف في دعائك إلى طرد الفقراء عن مجلسك لصناديد قريش. وفيه تنبيه على أن الداعي له إلى هذا الاستدعاء غفلة قلبه عن المعقولات وانهماكه في المحسوسات، حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد، وأنه لو أطاعه كان مثله في الغباوة. والمعتزلة لما غاظهم إسناد الإغفال إلى الله تعالى قالوا: إنه مثل أجبتة إذا وجدته كذلك أو نسبته إليه، أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمة أي لم نسمه بذكرنا كقلوب الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان، واحتجوا على أن المراد ليس ظاهر ما ذكر أولاً بقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وجوابه ما مر غير مرة. وقرئ أغفلنا بإسناد الفعل إلى القلب على معنى حبسنا قلبه غافلين عن ذكرنا إياه بالمواخذه. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي تقدماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره يقال: فرس فرط أي متقدماً للخيل، ومنه الفرط.

(٢٩) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الحق ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى، ويجوز أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف ومن ربكم حالاً. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ لا أبالي بإيمان من آمن ولا كفر من كفر، وهو لا يقتضي استقلال العبد بفعله فإنه وإن كان بمشيئته فمشيئته ليست بمشيئته. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا. ﴿لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار، وقيل السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط، وقيل سرادقها دخانها، وقيل حائط من نار^(١) ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش. ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ كالجسد المذاب. وقيل كدودي الزيت وهو على طريقة قوله: فأغثوا بالصيلم. ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ إذا قدم ليشرّب من فرط حرارته، وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهل أو الضمير في الكاف. ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ المهل. ﴿وَسَاءَتْ النَّارُ﴾. ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأ، وأصل الارتفاق نضب المزقق تحت الخد، وهو لمقابلة قوله ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(٢) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

(١) والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه (س/٥/٢٢٠).

(٢) الكهف: ٢٣١.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كُلَّمَا أَكَلَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ يُطْعِمُوهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾

(٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبرٌ إنَّ الأولى هي الثانية بما في حيَّزها، والراجع محذوف تقديره مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا منهم أو مُسْتَغْنَى عنه بعموم مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا كما هو مستغنى عنه في قولك: نعم الرجل زيد، أو واقع موقعه الظاهر فإن مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا لا يحسن إطلاقه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات^(١).

(٣١) ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ وما بينهما اعتراض، وعلى الأول استئناف لبيان الأجر أو خبر ثانٍ. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ مِنَ الأولى للابتداء والثانية للبيان صفةً لأساور، وتنكيره لتعظيم حُسْنِهَا من الإحاطة به، وهو جمع أسورة أو إسوار في جمع سوار. ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة. ﴿مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ نمارق من الديباج وما غلظ منه جَمَعَ بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين. ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على الشُرُر كما هو هيئة المتنعمين. ﴿نِعَمَ الثَّوَابِ﴾ الجنة ونعيمها. ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ متكأ.

(٣٢) ﴿وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا﴾ للكافر والمؤمن. ﴿رَجُلَيْنِ﴾ حال رجلين مقدَّرين. أو موجودين هما أخوان من بني إسرائيل كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا، فاشتري الكافر بها ضياعاً وعقاراً وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى. وقيل المُمَثَّلُ بهما أخوان من بني مخزوم كافر وهو الأسود بن عبد الأشد ومؤمن وهو أبو سلمة عبد الله زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ. ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين. ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ من كروم، والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة للرجلين. ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بهما مؤزرًا بها كرومهما، يقال حفَّه القوم إذا أطافوا به وحفَّفته بهم إذا جعلتهم حافقين حوله، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشيته به. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ وسطهما. ﴿زَرْعًا﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العماراة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق.

(٣٣) ﴿كُلَّمَا أَكَلَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلَهُمَا﴾ ثمرها، وإفراد الضمير لإفراد كلتا. وقرئ كلُّ الجنتين آتى أكله. ﴿وَلَمْ يُطْعِمُوهُ شَيْئًا﴾ ولم تنقص من أكلها. ﴿شَيْئًا﴾ يُعْهَدُ في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل ويزيد بهما. وعن يعقوب وفَجَّرْنَا بالتخفيف^(٢).

(١) ولعل تغيير سبكه للإيذان بكمال تنافي مآلي الفريقين (س/٥/٢٢٠).

(٢) لعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل - مع أن الترتيب الخارجي على العكس - للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين، ولو عكس لفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها =

وَكَاثَ لَمْ تُمَرُّ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَمْ صَاحِبُكَ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّيَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿وَكَاثَ لَمْ تُمَرُّ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين، من ثَمَر ماله إذا كَثُر. وقرأ عاصم بفتح الثاء والميم، وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضمهما، وكذلك في قوله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾^(١) ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجعه في الكلام، مِنْ حَار إذا رَجَعَ. ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ حَشْمًا وأَعْوَانًا. وقيل أولاداً ذكوراً لأنهم الذين ينفرون معه.

(٣٥) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها. وإفراذ الجنة لأن المراد هو جنته وما مُتَّع به من الدنيا تنبيهاً على أن لاجنة له غيرها ولا حظ له في الجنة التي وَعِدَ المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ضارٌّ لها بِعُجْبِهِ وكُفْرِهِ ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أن تَفْنَى. ﴿هَذِهِ﴾ الجنة. ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلهته.

(٣٦) ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة. ﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث كما زعمت. ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ من جنته. وقرأ الحجازيان والشامي^(٢): ﴿مُنْقَلَبًا﴾ مرجعاً وعاقبةً لأنها فانية وتلك باقية. وإنما أَقَسَم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه لاستئصاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما تلقاه.

(٣٧) ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُكَ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴿لأنه أصل مادتك أو مادة أصلك﴾. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فإنها مادتك القريبة. ﴿ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ثم عَدَّلَكَ وكمَّلَكَ إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. جعل كُفْرَهُ بالبعث كفراً بالله تعالى لأن منشأ الشك في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكار على خَلْقِهِ إياه من التراب فإن من قدر على بدء خلقه منه قدر أن يعيده منه.

(٣٨) ﴿لَّيَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أصله لكن أنا فحذفت الهمزة بنقل الحركة إلى النون فتلاقت النونان فكان الإدغام. وقرأ ابن عامر ويعقوب في رواية بالألف في الوصل لتعويضها من الهمزة، أو لإجراء الوصل مُجْرَى الوقف، وقد قرئ لكن أنا على الأصل. وهو ضمير الشأن، وهو بالجملة الواقعة خبراً له خبر أنا أو ضمير الله، والله بدله، وربِّي خبره، والجملة خبر أنا، والاستدراك

= مترتب على بعض، فإن إتياء الأكل متفرع على السقي عادة. وفيه إيماء إلى أن إتياء الأكل لا يتوقف على السقي (س ٢٢١/٥).

(١) الكهف: ٤٢.

(٢) الشامي هو ابن عامر.

من أَكْفَرْتَ كانه قال: أنت كافر بالله لكني مؤمن به. وقد قرىء لكن هو الله ربي، ولكن أنا لا إله إلا هو ربي.

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيَ أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غَورًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَّهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيط بِشَمْرِهِ فَاصْبَحْ يَـُٔقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ﴾ وهلاً قلت عند دخولها^(١). ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأمر ما شاء أو ما شاء كائن، على أن ما موصولة. أو أي شيء شاء الله كان، على أنها شرطية، والجواب محذوف إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقلت لا قوة إلا بالله اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله، وأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها بمعونته وإقداره. وعن النبي ﷺ: «من رأى شيئاً فأعجبه، فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لم يضره»^(٢). ﴿إِنَّ تَرَنِّيَ أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يحتمل أن يكون أنا فصلاً وأن يكون تأكيداً للمفعول الأولى. وقرىء أقل بالرفع على أنه خبر أنا، والجملة مفعول ثانٍ لترني، وفي قوله ﴿وَوَلَدًا﴾ دليل لمن فسّر النفر بالأولاد.

(٤٠) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني، وهو جواب الشرط. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ على جنتك لكفرك. ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ مرامي جمع حُسْبَانَةٍ وهي الصواعق، وقيل هو مصدر بمعنى الحساب، والمراد به التقدير بتخريبها أو عذاب حساب الأعمال السيئة. ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً ملساء يُزَلَّقُ عليها باستئصال نباتها وأشجارها.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غَورًا﴾ أي غائراً في الأرض، مصدرٌ وُصِفَ به كالزَّلَقِ. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَّهُ طَلَبًا﴾ للماء الغائر تردداً في رده.

(٤٢) ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ وأهلك أمواله حسبما توقعه صاحبه وأنذره منه، وهو مأخوذٌ من أحاط به العدو فإنه إذا أحاط به غلبه وإذا غلبه أهلكه، ونظيره أتى عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلاً عليهم. ﴿فَاصْبَحْ يَـُٔقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لبطنٍ تلهفاً وتحسراً. ﴿عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ في عمارتها. وهو متعلقٌ بيقْلِبُ لأن تقليب الكفين كناية عن الندم فكانه قيل: فأصبح يندم، أو حال أي متحسراً

(١) وتقديم الظرف «إذ» على المخصص عليه «دَخَلْتَ...» للإيذان بتحتم القول في وقت الدخول من غير تريت (س ٢٢٣/٥).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤/٩٠ رقم ٤٣٧٠) تعليقاً عن أبي بكر الهذلي، عن ثمامة بن أنس عن أنس. - وأخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٢٠٧) متصلاً. وأبو بكر الهذلي متروك، وحجاج بن نصير ضعيف.

وقد ضعف الألباني الحديث في «ضعيف الجامع» (١٩٨/٥) وتخريج «العلم» (رقم: ٢٤٤).

على ما أنفق فيها. ﴿وَهِيَ خَاطِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقطت عروشها على الأرض وسقطت الكروم فوقها عليها. ﴿وَيَقُولُ﴾ عطف على يقلب أو حال من ضميره. ﴿يَلَيِّنُنِي لِأَشْرِكِ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه أتى من قِلِّ شِرْكِهِ فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله بستانه، ويحتمل أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما سبق منه.

وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِراً ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدمه. ﴿يَنْصُرُونَهُ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك أو ردّ المهلك أو الإتيان بمثله. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده. ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِراً﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله منه.

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وتلك الحال. ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ النصر له وحده لا يقدر عليها غيره تقديرًا لقوله ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ﴾ أو ينصر فيها أوليائه المؤمنين على الكفرة كما نصر - فيما فعل بالكافر - أخاه المؤمن، وبعضه قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي لأوليائه. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر^(١) ومعناه السلطان والملك أي هنالك السلطان له لا يغلب ولا يُمنع منه، أو لا يُعبد غيره كقوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ تَخْلُصِنَا لَهُ الَّذِينَ﴾^(٢) فيكون تنبيهاً على أن قوله ﴿يَلَيِّنُنِي لِأَشْرِكِ﴾ كان عن اضطرار وجزع مما دهاه. وقيل هنالك إشارة إلى الآخرة. وقرأ أبو عمرو والكسائي الحق بالرفع صفة للولاية، وقرئ بالنصب على المصدر المؤكّد، وقرأ عاصم وحمزة عُقْبًا بالسكون، وقرئ عُقْبِي وكلها بمعنى العاقبة.

(٤٥) ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ واذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها أو صفتها الغريبة. ﴿كَمَا﴾ هي كماء، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لاضرب على أنه بمعنى صير. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فالتف بسببه وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثره، أو نجع في النبات حتى روي ورف. وعلى هذا كان حقه فاختلط بنبات الأرض، لكنه لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته. ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً. ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ تفرقه. وقرئ تذريره من أذرى. والمشبّه به ليس الماء ولا حاله بل الكيفية المتزعة من الجملة، وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفاً ثم هشياً تطيره الرياح فيصير كأن لم يكن. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ من الإنشاء والإفاء. ﴿مُقْتَدِرًا﴾ قادراً.

(١) أي بكسر الواو من الولاية.

(٢) العنكبوت: ٦٥.

الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ
وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلِنَا مَا لَ
هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الدُّنْيَا﴾ يتزين بها الإنسان في دنياه وتغنى عنه عما قريب^(١).
﴿وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ﴾ وأعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبد الآباد. ويندرج فيها ما فُسر به من
الصلوات الخمس وأعمال الحج وصيام رمضان، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر،
والكلام الطيب. ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من المال والبنين. ﴿ثَوَابًا﴾ عائدة. ﴿وَحَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأن صاحبها ينال بها
في الآخرة ما كان يؤمل بها في الدنيا^(٢).

(٤٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ واذكر يوم نقلعها ونسيئها في الجو، أو نذهب بها فنجعلها هباء منبثاً.
ويجوز عطفه على عند ربك، أي الباقيات الصالحات خيرٌ عند الله ويوم القيامة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو
وابن عامر نُسَيِّرُ بالتاء والبناء للمفعول، وقرئ تَسَيِّرُ من سارت. ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ بادية برزت من تحت
الجبال ليس عليها ما يسترها. وقرئ وتُرى على بناء المفعول. ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ وجمعناهم إلى الموقف،
ومجيئهم ماضياً بعد نسيئهم وتري لتحقق الحشر أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا
ما وُعد لهم، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار قد. ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ فلم نترك. ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال غادره
وأغدره إذا تركه، ومنه الغدر لترك الوفاء، والغدير لما غادره السيل. وقرئ بالياء.

(٤٨) ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ﴾ شبه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان لا ليعرفهم بل ليأمر
فيهم. ﴿صَفًّا﴾ مُصْطَفَيْنَ لا يحجب أحد أحداً. ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وجه يكون
حالاً أو عاملاً في يوم نسيئهم. ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عُرَاة لا شيء معكم من المال والولد كقوله: ﴿وَلَقَدْ
جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾^(٣) أو أحياء كخَلَقْتُمْ الأولى لقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز الوعد
بالبعث والنشور وأن الأنبياء كذبوكم به، وبل للخروج من قصة إلى أخرى.

(٤٩) ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ صحائف الأعمال في الأيمان والشمائل أو في الميزان، وقيل هو كناية عن

(١) تقديم المال على البنين - مع كونهم أعز منه - لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك، وعمومه بالنسبة
إلى الأفراد والأوقات فإنه زينة وممد لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين وأما البنون فزيتهم وإمدادهم
إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الأبوة، ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع، ولأن الحاجة إليه
أمن من الحاجة إليهم، ولأنه أقدم منهم في الوجود، ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بلا مال
فهو في ضيق حال ونكال.

وإفراد الزينة - مع أنها مسندة إلى الاثنين - لأنها مصدر في الأصل أطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس الزينة
(س/٥/٢٢٥).

(٢) وتكرير كلمة «خير» للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة فيها (س/٥/٢٢٦).

(٣) الأنعام: (٩٤).

وضع الحساب^(١). ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب. ﴿وَيَقُولُونَ يَوَلِّتُنَا﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها من بين الهلكات. ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ تعجباً من شأنه. ﴿لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً﴾ هنة صغيرة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ إلا عددها وأحاط بها. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ مكتوباً في الصحف. ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتب عليه ما لم يفعل أو يزيد في عقابه الملائم لعمله.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

(٥٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ كرهه في مواضع لكونه مقدمة للأمور المقصود بيانها في تلك المحال، وههنا لما شئ على المفتخرين واستقبح صنيعهم قرر ذلك بأنه من سنن إبليس، أو لما بين حال المغرور بالدنيا والمعرض عنها - وكان سبب الاغترار بها حب الشهوات وتسويل الشيطان - زهدهم أولاً في زخارف الدنيا بأنها غرضة الزوال والأعمال الصالحة خير وأبقى من أنفسها وأعلاها، ثم نفروهم عن الشيطان بتذكير ما بينهم من العداوة القديمة. وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن. ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ حال بإضمار قد، أو استئناف للتعليل كأنه قيل: ما له لم يسجد؟! فقيل كان من الجن. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فخرج عن أمره بترك السجود، والفاء للسبب، وفيه دليل على أن الملك لا يعصى البتة وإنما عصى إبليس لأنه كان جنياً في أصله، والكلام المستقصى فيه في سورة البقرة^(٢). ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ أعقيب ما وجد منه تتخذونه، والهزة للإنكار والتعجب. ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أولاده أو أتباعه، وسماهم ذرية مجازاً. ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ من الله تعالى، إبليس وذريته.

(٥١) ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ نفى إحضار إبليس وذريته خلق السموات والأرض وإحضار بعضهم خلق بعض ليدل على نفى الاعتضاد بهم في ذلك، كما صرح به بقوله ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي أعواناً رداً لاتخاذهم أولياء من دون الله شركاء له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها، فوضع المضلين موضع الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتضاد بهم. وقيل الضمير للمشركين، والمعنى: ما أشهدتهم خلق ذلك وما خصصتهم بعلوم لا يعرفها غيرهم حتى لو آمنوا اتبعهم الناس كما يزعمون، فلا تلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضد بالمضلين لديني، ويعضده قراءة من قرأ وما كنت على خطاب الرسول ﷺ. وقرئ متخذاً المضلين على الأصل، وعضداً بالتخفيف، وعضداً بالإتباع، وعضداً كخادم جمع عاضد من عضده إذا قواه.

(١) وإشار الإفراد في «الكتاب» للاكتفاء بالجنس (س/٥/٢٢٧).

(٢) البقرة: (٣٤).

والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله (س/٥/٢٢٧).

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَعَلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾

(٥٢) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله تعالى للكافرين. وقرأ حمزة بالنون. ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أيهم شركائي وشفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي، وإضافة الشركاء على زعمهم للتوبيخ، والمراد ما عُدَّ من دونه، وقيل لإبليس وذريته. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادَوْهُمْ للإغاثة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فلم يُغِيثُوهم^(١). ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ بين الكفار وآلهم. ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه وهو النار، أو عداوة هي في شدتها هلاكٌ كقول عمر رضي الله عنه: لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً^(٢)، اسم مكان أو مصدر من وَبَقَ يَوْبُقُ وَبَقًا إذا هلك. وقيل البين الوصل أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة.

(٥٣) ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ فأيقنوا. ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ مخالطوها واقعون فيها. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرفاً أو مكاناً ينصرفون إليه.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل جنس يحتاجون إليه. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يتأني منه الجدل. ﴿جَدَلًا﴾ خصومةً بالباطل. وانتصابه على التمييز.

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ من الإيمان. ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وهو الرسول الداعي والقرآن المبين. ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ ومن الاستغفار من الذنوب. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا طلب أو انتظار أو تقدير أن تأتيم سنة الأولين، وهي الاستئصال فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ قُبُلًا عياناً. وقرأ الكوفيون قُبُلًا بضمين وهو لغة فيه أو جمع قبيل بمعنى أنواع، وقرأ بفتحين وهو أيضاً لغة يقال لقيته مقابلةً وقُبُلًا وقِبَلًا وقِبَلًا وقبلياً، وانتصابه على الحال من الضمير أو العذاب.

(٥٦) ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ للمؤمنين والكافرين. ﴿وَجَعَلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات. والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً. ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ ليزيلوا بالجدال. ﴿الْحَقَّ﴾ عن مقره ويطلبوه، من إحاضي القدم وهو إزلاقها وذلك قولهم للرسول: ﴿مَا أُنْتَرِ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلَنَا﴾^(٣) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾^(٤) ونحو ذلك. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ يعني

(١) وفي إيراد عدم استجابة الشركاء مع علمهم بأنهم لم يستجيبوا لهم تهكم بهم، وإيدان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح (س ٥/٢٢٩).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/٣٩٤) بدون عزوه إلى عمر ولم أجد له مخرجاً فيما أعلم.

وذكره الميداني في «الأمثال» (٣/١٦٣) رقم (٣٥٢٨) ولم يعزه إلى عمر.

(٣) يس: ١٥٥.

(٤) المؤمنون: ٢٤.

القرآن. ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ وإنذارهم أو والذي أُنذِرُوا به من العقاب. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ استهزاء. وقرىء هُزْأً بالسكون وهو ما يُسْتَهْزَأُ به على التقديرين^(١).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَنَّمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بالقرآن. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرها ولم يتذكر بها. ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتها. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه، وتذكير الضمير وإفراذه للمعنى. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم أن يستمعوه حتى استماعه. ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ تحقيقاً ولا تقليداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون وإذاً - كما عرفت جزاء وجواب للرسول ﷺ على تقدير قوله مالي لا أدعوهم، فإن حرصه ﷺ على إسلامهم يدل عليه.

(٥٨) ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة^(٢). ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾ استشهاد على ذلك بأمهال قريش مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وهو يوم بذر أو يوم القيامة. ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ منجى ولا ملجأ، يقال وَآلٌ إِذَا نَجَا وَآلٌ إِلَيْهِ إِذَا لَجَأَ إِلَيْهِ.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ يعني قرى عاد وثمود وأضرابهم، وتلك مبتدأ خبره: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أو مفعول مضمر مفسر به، والقرى صفته، ولا بد من تقدير مضاف في أحدهما ليكون مرجع الضمائر. ﴿لَمَّا ظَنَّمُوا﴾ كقريش بالتكذيب والمراء وأنواع المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم. وقرأ أبو بكر لمهلكهم بفتح الميم واللام أي لهلاكهم، وحفص بكسر اللام حملاً على ما شذ من مصادر يَفْعِلُ كالمرجع والمحيض.

(١) قراءة (هَؤُلَاءِ) بالسكون والهمز هي قراءة حمزة وهو من القراء السبعة، فالإشارة إليها بلفظ قرىء المنيء بالضعف غير سليم، ومن عادة البيضاوي الإشارة للقراءات الشاذة بلفظ قرىء.

(٢) وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأن المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب، وأما الرحمة فهي فعل وإيجاد ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى. وتقدير الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية، أو لأنه أهم بحسب الحال إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها (س/٥/٢٣١).

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أْبْرَحُ حَتَّى أَتَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ مقدّر باذكر. ﴿لِفَتْنِهِ﴾ يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام فإنه كان يخدمه ويتبعه ولذلك سماه فتاه، وقيل لعبده. ﴿لَا أْبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسير فحذف الخبر للدلالة حاله - وهو السفر - وقوله: ﴿حَتَّى أَتَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ من حيث إنها تستدعي ذا غاية عليه. ويجوز أن يكون أصله لا يبرح مسيري حتى أبلغ، على أن حتى أبلغ هو الخبر، فحذف المضاف وأقيم المضاف^(١) إليه مقامه، فانقلب الضمير والفعل، وأن يكون لا أبرح هو بمعنى لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه فلا يستدعي الخبر. ومجمع البحرين ملتحق بحري فارس والروم مما يلي المشرق وعد لقاء الخضر فيه، وقيل البحرين موسى وخضر عليهما الصلاة والسلام فإن موسى كان بحر علم الظاهر والخضر كان بحر علم الباطن. وقرئ مَجْمَعٌ بكسر الميم على الشذوذ من يفعل كالمشرق والمطلع^(٢). ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً. والمعنى حتى يقع إما بلوغ المجمع أو مضي الحقب، أو حتى أبلغ إلا أن أمضي زماناً أتقن معه فوات المجمع. والحقب الدهر وقيل ثمانون سنة وقيل سبعون. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام خطب الناس بعد هلاك القبط ودخوله مصر خطبةً بليغة فأعجب بها فقليل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا، فأوحى الله إليه بل أعلم منك عبدنا الخضر وهو بمجمع البحرين^(٣)، وكان الخضر في أيام أفريدون وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى. وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأني عبادك أفضى؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال فأني عبادك أعلم؟ قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو تردّه عن ردى، فقال إن كان في عبادك أعلم مني فادلّلني عليه، قال أعلم منك الخضر، قال: أين أطلبه؟ قال على الساحل عند الصخرة، قال كيف لي به؟ قال تأخذ حوتاً في مِكتل فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهب يمشيان^(٤).

(١) فالسير مضاف والباء مضاف إليه، وهي ياء المتكلم التي قام قوله «لا أبرح» مقامها لأنه بصيغة المتكلم، فقد حذف المضاف إذا (سير) وبقي ما قام المضاف إليه.

(٢) والمغرب، والقياس الفتح مفعّل.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٥، ٧٤٧٨) وليس فيه بعد هلاك القبط ودخول مصر خطبة بليغة...

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٧٧/١٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٤١٩/٥). وفي إسناده محمد بن حميد وهو ضعيف.

(٦١) ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا ﴾ أي مجمع البحرين، وبينهما ظرفٌ أُضِيفَ إليه على الاتساع أو بمعنى الوصل. ﴿ نَسِيَ مَوْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَطْلُبَهُ وَيَتَعَرَّفَ حَالَهُ، وَيُشْعُرَ أَنْ يَذْكُرَ لَهُ مَا رَأَى مِنْ حَيَاتِهِ وَوُقُوعِهِ فِي الْبَحْرِ. رَوَى: أَنَّ مَوْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَقَدَ فَاضْطَرَبَ الْحَوْتُ الْمَشْوِيُّ وَوُثِبَ فِي الْبَحْرِ، مَعْجَزَةً لِمَوْسَى أَوْ الْخَضِرِ، وَقِيلَ تَوْضُأً يَوْشَعُ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ فَانْتَضَحَ الْمَاءُ عَلَيْهِ فَعَاشَ وَوُثِبَ فِي الْمَاءِ، وَقِيلَ نَسِيًا تَقَفُّدَ أَمْرِهِ وَمَا يَكُونُ مِنْهُ أَمَارَةً عَلَى الظَّفَرِ بِالْمَطْلُوبِ ﴾ ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر منسلكاً، من قوله: ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾^(١)، وقيل أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاقٍ عليه. ونصبه على المفعول الثاني، وفي البحر حالٌ منه أو من السبيل، ويجوز تعلُّقه باتِّخَذَ.

(٦٢) ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ مجمع البحرين. ﴿ قَالَ لِفَتْنَتِهِ إِنْ شَاءَ غَدَاؤُنَا ﴾ ما نتغذى به. ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ قيل لم ينصب حتى جاوز الموعَد، فلما جاوزَه وسارَ الليلة والغد إلى الظهر ألْقِيَ عليه الجوع والنَّصَبُ. وقيل لم يَغِيْ موسى في سفر غيره، ويؤيده التقييدُ باسم الإشارة.

(٦٣) ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا ﴾ أَرَأَيْتَ ما دهاني إذ أَوَيْنَا. ﴿ إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ يعني الصخرة التي رقد عندها موسى، وقيل هي الصخرة التي دون نهر الزيت^(٢). ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ ﴾ فقدته أو نسيت ذكره بما رأيتُ منه. ﴿ وَمَا أَنَسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان، فإنَّ أنْ أَذْكُرَهُ بدلٌ من الضمير. وقرئ أنْ أَذْكُرْكَ، وهو اعتذار عن نسيانه بِشُغْلِ الشَّيْطَانِ له بوساوسه، والحال وإن كانت عجيبة لا يُنْسَى مثلها لكنه لما ضري بمشاهدة أمثالها عند موسى وألفها قلَّ اهتمامه بها، ولعله نسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار وانجذاب شراشره إلى جناب القدس بما عراه من مشاهدة الآيات الباهرة، وإنما نسبته إلى الشيطان هُضْماً لنفسه أو لأن عدم احتمال القوة للجانيين واشتغالها بأحدهما عن الآخر يُعَدُّ من نقصان^(٣). ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسَّربِ أو اتخذاً عجباً، والمفعول الثاني هو الظرف، وقيل هو مصدرُ فَعَلِهِ المضمَرُ أي قال في آخر كلامه، أو موسى في جوابه عجباً تعجباً من تلك الحال. وقيل الفعل لموسى أي اتخذ موسى سبيلَ الحوت في البحر عجباً.

(٦٤) ﴿ قَالَ ذَلِكَ ﴾ أي أمر الحوت. ﴿ مَا كُنَّا نَبْعَثُ ﴾ نطلبُ لأنه أَمَارَةُ الْمَطْلُوبِ. ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا ﴾ فرجعا في الطريق الذي جاء فيه. ﴿ قَصَصًا ﴾ يَقْصَصَانِ قَصَصًا أي يتبعان آثارهما اتباعاً، أو مقتضين حتى أتيا الصخرة.

(٦٥) ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الجمهور على أنه الخضر عليه السلام واسمُه بليابن ملكان^(٤)، وقيل اليسع، وقيل إلياس^(٥). ﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ هي الوحي والنبوة. ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ مما يختص بنا ولا يُعْلَمُ إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب.

(١) الرعد: (١٠).

(٢) وذكر الإواء إليها - مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين - لزيادة تعيين محل الحادثة (س/٥/٢٣٣).

(٣) وإيثار «أنْ أَذْكُرْ» على المصدر للمبالغة، فإن مدلوله نفس الحدث عند وقوعه (س/٥/٢٣٣).

(٤) انظر المعارف لابن قتيبة [ص ٤٢ وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٧٦ - ١٧٧)].

(٥) التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف (س/٥/٢٣٤).

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

(٦٦) ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ على شرط أن تعلمني، وهو في موضع الحال من الكاف. ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ علماً ذا رُشدٍ وهو إصَابَةُ الخير. وقرأ البصريان بفتحين وهما لغتان كالبُخل والبَحْل، وهو مفعول تعلمني ومفعول عَلَّمْتَ العائد المحذوف، وكلاهما منقولان من علم الذي له مفعول واحد، ويجوز أن يكون رُشدًا علةً لِأَتَّبِعُكَ أو مصدرًا بإضمار فعله. ولا ينافي ثبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أُرْسِلَ إليه فيما بُعِثَ به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه واستأذن أن يكون تابعاً له، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه.

(٦٧) ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلل ذلك واعتذر عنه بقوله:

(٦٨) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك، وخبراً تميز أو مصدر لأن لم تحط به بمعنى لم تُخبره.

(٦٩) ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غير منكّر عليه. ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عطف على صابراً أي ستجدني صابراً وغير عاصٍ، أو على ستجدني. وتعليق الوعد بالمشيئة إما للتيمن، وخلفه ناسياً لا يقدر في عصمته، أو لعلمه بصعوبة الأمر، فإن مشاهدة الفساد والصبر على خلاف المعتاد شديد فلا خلف، وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعة بمشيئة الله تعالى.

(٧٠) ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ فلا تخالفني بالسؤال عن شيء أنكرته مني ولم تعلم وجهه صيغته. ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أبتدئك ببيانه، وقرأ نافع وابن عامر فلا تسألني بالنون الثقيلة.

(٧١) ﴿فَانْطَلَقَا﴾ على الساحل يطلبان السفينة، ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضر فأساً فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها. ﴿قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ فَإِنْ خَرَقَهَا سبَبٌ لدخول الماء فيها المفضي إلى غرق أهلها. وقرئ لنغرق بالتشديد للتكثير، وقرأ حمزة والكسائي ليغرق أهلها على إسنادة إلى الأهل. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أتيت أمراً عظيماً، مِنْ أَمْرِ الْأُمُورِ إِذَا عَظُمَ.

(٧٢) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ تذكير لما ذكره قبل.

(٧٣) ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيت أو بشيء نسيت، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه أو

بنسياني إياها، وهو اعتذارٌ بالنسيان أخرجه في معرضِ النهي عن المؤاخذه مع قيامِ المانع لها. وقيل أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركتُ من وصيتك أول مرة. وقيل إنه من معاريضِ الكلام والمرادُ شيء آخر نسيه. ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ ولا تُغشني عُسراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذه على المنسي، فإن ذلك يُعسرُ علي متابعتك، وعسراً مفعول ثان لترهق فإنه يقال: رَهَقَهُ إذا غَشِيَهُ وأرهقه إياه. وقرئ عُسراً بضمين.

فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

(٧٤) ﴿فَأَنْطَلَقَا﴾ أي بعد ما خرجا من السفينة. ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل قَتَلَ عُنُقَهُ، وقيل ضرب برأسه الحائط، وقيل أضجعه فذبحه. والفاء للدلالة على أنه كما لقيه قتله من غير تروٍّ واستكشافٍ حال، ولذلك: ﴿قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي طاهرة من الذنوب. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ورويس عن يعقوب زاكية، والأول أبلغ، وقال أبو عمرو الزاكية التي لم تذنّب قط والزكية التي أذنبت ثم غفرت، ولعله اختار الأول، لذلك فإنها كانت صغيرة ولم تبلغ الحلم أو أنه لم يَرَهَا قد أذنبت ذنباً يقتضي قتلها أو قتلت نفساً فتقاد بها، نَبّه به على أن القتل إنما يباح حداً أو قصاصاً وكلا الأمرين منتفٍ. ولعل تغييرَ النظم - بأن جعلَ خَرْقَهَا جزاءً واعتراضَ موسى عليه الصلاة والسلام مُسْتَأْنَفًا في الأولى، وفي الثانية قَتَلَهُ من جملة الشرط واعتراضه جزاء - لأن القتل أقبُح والاعتراض عليه أدخل فكانَ جديراً بأن يُجْعَلَ عمدة الكلام، ولذلك فضله بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي منكراً. وقرأ نافع في رواية قالونَ وَوَرَشَ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكر نُكْرًا بضمين.

(٧٥) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد فيه «لك» مكافحةً بالعتاب على رفضِ الوصية، ووسماً بقلّة الثبات والصبر لما تكرر منه الاشتزاز والاستنكار، ولم يزَعوَ بالتذكير أول مرة حتى زاد في الاستنكار ثاني مرة.

(٧٦) ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي﴾ وإن سألتُ صُحِبْتَكَ. وعن يعقوبَ فلا تُصَحِّبْنِي، أي فلا تجعلني صاحبك. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ قد وجدتَ عُذراً من قبلي لما خالفْتُكَ ثلاث مراتٍ^(١). وعن رسول الله ﷺ «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب»^(٢). وقرأ نافع من لَدُنِّي بتحريك النون والاكتفاء بها عن نون الدُعامة كقوله: قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا.

(١) الظاهر أن المخالفة بعد قتل الغلام تعدّ مرتين، أما الثالثة فبعد إقامة الجدار، وكأنه سهو من قلم القاضي رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٦/٤) رقم (٣٩٨٤) والترمذي (٤٦٣/٥) رقم (٣٣٨٥) كلاهما من طريق عبدالله بن عباس، عن أبي بن كعب. قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. قلت: إسناده صحيح.

وقد أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/٢٨٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/٢١٩ - ٢٢٠) والحاكم (٢/٥٧٤) كلهم من حديث حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن أبي.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وأصله في صحيح مسلم (٤/١٨٥١) رقم (١٧٢) في سياق حديث طويل.

الْخُبِيِّينَ قُدَى . وأبو بكر لذني بتحريك النون وإسكان الدال إسكان الضاد من عضد .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أُنِيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابَوَا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

(٧٧) ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أُنِيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ أنطاكية، وقيل أبله البصرة، وقيل باجروان أرمينية. ﴿اسْتَطَعَا﴾
أَهْلُهَا فَابَوَا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴿وقرىء﴾ يُضَيِّفُوهُمَا من أضافه يقال ضافه إذا نزل به ضيفاً وأضافه وضيّفه أنزله،
وأصل التركيب للميل يقال ضاف السهم عن الغرض إذا مال^(١). ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ يداني
أن يسقط، فاستُعِيرَتِ الإرادة للمشاركة كما استعير لها الهمُّ والعزمُ قال:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدَرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَغْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ

وقال:

إِنَّ دَهْرًا يُلْمُ شَمْلِي بِجَنَلٍ لَزِمَانٌ يَهُمُّ بِالْإِخْسَانِ

وانقَضَ انفعَلَ من قضضته إذا كسرتة، ومنه انقضاضُ الطير والكواكب لِهَوِيّهِ، أو افْعَلَ من النقض.
وقرىء أن يُنْقَضَ، وأن يُنْقَاصَ بالصاد المهملة من انقاصتِ السنُّ إذا انشقت طولاً. ﴿فَأَقَامَهُ﴾
بِعِمَارَتِهِ أو بعمود عمّده به، وقيل مسحه بيده فقام، وقيل نقضه وبناه. ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾
تحريضاً على أخذ الجُعْلِ ليتعشا به، أو تعريضاً بأنه فُضُولٌ لِمَا فِي لَوْ من النفي، كأنه لما رأى
الحرمانَ ومِساسَ الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه. واتخذ افْعَلَ من تَخَذَ كاتَّبَعَ من تَبَعَ
وليس من الأخذ عند البصريين. وقرأ ابن كثير والبصريان لَتَخَذْتَ أي لأخذت، وأظهر ابن كثير
ويعقوب وحفص الذال وأدغمه الباقون.

(٧٨) ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ الإشارةُ إلى الفراق الموعود بقوله ﴿فَلَا تُصِجُنِي﴾ أو إلى الاعتراض
الثالث أو الوقت، أي هذا الاعتراض سببُ فراقنا أو هذا الوقت وقته، وإضافةُ الفراق إلى البين إضافةُ
المصدر إلى الظرف على الاتساع. وقد قرىء على الأصل^(٢). ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾
بالخير الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً من حيث الظاهر.

(٧٩) ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ لمحاويج، وهو دليل على أن المسكين يُطْلَقُ
على من يملك شيئاً إذا لم يكفّه. وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع الملك، أو لِرَمَانَتِهِمْ فَإِنِهَا
كانت لعشرة إخوة خمسة زَمْنِي وخمسة يعملون في البحر. ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أن أجعلها ذات عيب.
﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ قُدَامَهُمْ أو خلفهم وكان رجوعهم عليه، واسمه جَلَنْدِيُّ بْنُ كَرَكْرٍ وقيل منواريُّ بْنُ

(١) ولعل العدول إلى النظم الكريم عن أن يقول فاستطعماهم لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فإن الإباء من
الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع (س/٥/٢٣٧).

(٢) أي قرىء بالتثنية من غير إضافة «هذا فراقُ بَيْنِي» .

جلندى الأزدي. ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ من أصحابها. وكان حقُّ النظم أن يتأخر قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عن قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ لأن إرادة التعيب مسببة عن خوف الغضب، وإنما قُدِّمَ للعناية أو لأن السبب لما كان مجموع الأمرين: خوف الغضب ومسكنة الملاك ربِّه على أقوى الجزأين وأدعاهما وعقبه بالآخر على سبيل التقييد والتميم. وقرئ كلَّ سفينة سالحة، والمعنى عليها.

وَأَمَّا أَلْفَلَكُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَتَسْتَأْذِنُكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ فَأَتَعَ سَبِيلًا ﴿٨٥﴾

(٨٠) ﴿وَأَمَّا أَلْفَلَكُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أن يُغشيهما. ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوبه فيلحقهما شرًا، أو يَقْرُنَ بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يُغديهما بعلته فيرتدا بإضلاله أو بممالأته على طغيانه وكفره. وإنما خشي ذلك لأن الله تعالى أعلمه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن نجدة الحروري كتب إليه كيف قتله وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه إن كنت علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل^(١). وقرئ فخاف ربك، أي فكره كراهة من خوف سوء عاقبته، ويجوز أن يكون قوله: ﴿فَخَشِينَا﴾ حكاية قول الله عز وجل.

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾ أن يرزقهما بدله ولدًا خيرًا منه. ﴿زَكَاةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفًا على والديه. قيل وُلِدَتْ لهما جارية، فتزوجها نبي فولدت له نبيًا هدى الله به أمة من الأمم. وقرأ نافع وأبو عمرو يُبْدِلَهُمَا بالتشديد، وابنُ عامر ويعقوب وعاصم رُحْمًا بالتخفيف^(٢). وانتصابه على التمييز والعامل اسم التفضيل، وكذلك زكاة.

(٨٢) ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قيل اسمُهما أصرم وصريم، واسم المقتول جيسور. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ من ذهب وفضة، روي ذلك مرفوعاً^(٣)، والذمُّ على كنزهما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾^(٤) لمن لا يؤدي زكاتها وما تعلق بهما من الحقوق. وقيل من كُتِبَ

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٢٣/٤، ٤٢/٥) وأصله عند مسلم (١٤٤٥/٣ ج ١٣٨).

(٢) القراءة في «رحمًا» فقد قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء، وقرأ الباقون بإسكان الحاء. انظر الكشف عن وجوه القراءات (٧٢/٢) والميسوط لابن مهران ص ٢٣٨...

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٣/٥) رقم ٣١٥٢ والحاكم في المستدرک (٣٦٩/٢) من حديث أبي الدرداء وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله «بل يزيد بن يوسف متروك وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز» هـ. والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

(٤) التوبة: (٣٤).

العلم^(١). وقيل كان لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبْتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبْتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبْتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبْتُ لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبْتُ لمن يَعْرِف الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله^(٢). ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ تنبيه على أن سعيه ذلك كان لصلاحه. قيل كان بينهما وبين الأب الذي حُفِظَا فيه سبعة آباء وكان سَيَّاحًا واسمه كاشح. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي الحُلُمَ وكمال الرأي^(٣). ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ مرحومين من ربك، ويجوز أن يكون علة أو مصدرًا لأراد فإن إرادة الخير رحمة، وقيل متعلق بمحذوف تقديره فعلتُ ما فعلتُ رحمةً من ربك. ولعل إسناد الإرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشر للتعييب، وثانياً إلى الله وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بذكِّه، وثالثاً إلى الله وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين، أو لأن الأول في نفسه شرّ والثالث خير والثاني ممتزج، أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط. ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ﴾ وما فعلتُ ما رأيته. ﴿عَن أَمْرِي﴾ عن رأيي وإنما فعلته بأمر الله عز وجل، ومبني ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمُّلُ أهونهما لدفع أعظمهما، وهو أصل مُمَهَّد غير أن الشرائع في تفاصيله مختلفة. ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تستطع، فَحَذَفَ التاء تخفيفاً.

ومن فوائد هذه القصة أن لا يُعْجَب المرء بعلمه ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه فلعل فيه سرّاً لا يعرفه، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم ويراعي الأدب في المقابل، وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ثم يهاجر عنه.

(٨٣) ﴿وَنَسْتَلُونَكَ عَن ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ يعني إسكندر الروميّ ملك فارس والروم. وقيل المشرق والمغرب ولذلك سمي ذا القرنين، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها، وقيل لأنه انقضى في أيامه قرنان من الناس، وقيل كان له قرنان أي ضفيران، وقيل كان لتاجه قرنان. ويحتمل أنه لُقِب بذلك لشجاعته كما يقال الكباش للشجاع كأنه ينطح أقرانه. واختلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه. والسائلون هم اليهود سألوه امتحاناً، أو مشركو مكة. ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ خطاب للسائلين. والهاء لذي القرنين، وقيل لله.

(٨٤) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء، فَحَذَفَ المفعول. ﴿وَأَنبَتْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أرادته وتوجه إليه. ﴿سَبَّأًا﴾ وَضَلَّةٌ توصله إليه من العلم والقدرة والآلة.

(٨٥) ﴿فَأَنبَغَ سَبَّأًا﴾ أي فأراد بلوغ المغرب فاتبع سبباً يوصله إليه. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر بقطع الألف مُحَقَّقَةً.....

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٩/٢) عن ابن عباس وصححه، وقال الذهبي: صحيح.

(٢) أخرجه البزار عن أبي ذر مرفوعاً (كشف الأستار ٥٧/٣) وذكر الهيثمي أن فيه من لا يعرفه (المجمع ٥٣/٧). وأخرجه ابن عدي في ترجمة أبي بن سفيان (٣٨٤/١) من طريقه عن أبي حازم عن ابن عباس موقوفاً. وقال: وما يرويه عن رواه منكر كله.

(٣) في إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة. (س ٢٣٩/٥).

التاء^(١).

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ۖ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأ، مِنْ حَمِئَتِ البئر إذا صارت ذات حمأ^(٢). وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر حامية أي حارة، ولا تنافي بينهما لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين، أو حمية على أن ياءها مقلوبة عن الهمزة لكسر ما قبلها. ولعله بلغ ساحل المحيط فرأها كذلك إذ لم يكن في مَطْمَح بصره غيرُ الماء، ولذلك قال: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ ولم يقل كانت تغرب. وقيل إن ابن عباس سمع معاوية يقرأ «حامية»، فقال: حمية، فبعث معاوية إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة^(٣) ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ عند تلك العين. ﴿قَوْمًا﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما لَفَظَهُ البحر، وكانوا كفاراً فخيرهم الله بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان كما حكى بقوله: ﴿قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ أي بالقتل على كفرهم. ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع. وقيل خيره الله بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل، ويؤيده الأول قوله:

(٨٧) ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ أي فاختر الدعوة وقال: أما من دعوته فظلم نفسه بالإصرار على كفره أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك فنعذبه أنا ومن معي في الدنيا بالقتل، ثم يعذبه الله في الآخرة عذاباً منكرًا لم يُعهد مثله.

(٨٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو ما يقتضيه الإيمان. ﴿فَلَهُ﴾ في الدارين. ﴿جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ﴾ فعلته الحسنی. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص جزاء منوناً، منصوباً على الحال، أي فله المثوبة الحسنی مجزياً بها أو على المصدر لفعله المقدر حالاً أي يُجزى بها جزاء، أو التمييز، وقرئ منصوباً غير منون على أن تنوينه حُذِفَ لالتقاء الساكنين، ومنوناً مرفوعاً على أنه المبتدأ والحسنی بدله. ويجوز أن يكون أما وإما للتقسيم دون التخيير أي ليكون شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان، فالأول لمن أصر على الكفر والثاني لمن تاب عنه. ونداء الله إياه إن كان نبياً فبوحي وإن كان غيره

(١) وقرأ الباقون «فأتبع» بهمزة الوصل وتشديد التاء، هنا والآية (٩٢): «ثم أتبع سبياً».

(٢) وهي الطين الأسود.

(٣) أخرجه ابن جرير (٩/١٦٦ ج ١١) وفي إسناده: سعيد بن مسلمة الأموي، وهو ضعيف.

● وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس أن القصة كانت مع عمرو بن العاص وفي إسناده سند وهو ضعيف.

● كما أخرج عن ابن عباس أيضاً أنه كان يقرأ (حامية) مثل معاوية، وفي إسناده: عبدالله أبو صالح كاتب الليث، وهو ضعيف.

● قلت: وانظر «الدر المنثور» (٥/٤٥٠ - ٤٥٢).

فبإلهام أو على لسان نبي. ﴿وَسَقُولُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِنَا﴾ بما نأمر به. ﴿يُسْرًا﴾ سهلاً ميسراً غير شاق، وتقديره ذا يسر. وقرىء بضميتين.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

(٨٩) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ثم أتبع طريقاً يوصله إلى المشرق.

(٩٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تَطْلُعُ الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض. وقرىء بفتح اللام على إضمار مضاف، أي مكان مَطْلِعُ الشمس فإنه مصدر. ﴿وَجْدهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا﴾ من اللباس أو البناء، فإن أرضهم لا تُمسك الأبنية أو أنهم اتخذوا الأسراب بدل الأبنية.

(٩١) ﴿كَذَلِكَ﴾ أي أمرُ ذي القرنين كما وصفناه في رِفْعَةِ المكان وبَسْطَةِ الملك، أو أمرُهُ فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفةً مصدرٍ محذوف لوجد أو نجعل، أو صفةً قوم أي على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم الشمس في الكفر والحكم. ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات والعُدَد والأسباب. ﴿خُبْرًا﴾ علماً تعلق بظواهره وخفائيه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علمُ اللطيف الخبير.

(٩٢) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

(٩٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدُّهُ، وهما جبلا أزمينية وأذربيجان، وقيل جبلان مُنِيفَانِ في أواخر الشمال في منقطع أرض التُّرك من ورائهما يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ. وقرأ نافع وابنُ عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوبُ بين السَّدَّيْنِ بالضم، وهما لغتان، وقيل المضموم لما خلقه الله تعالى والمفتوح لما عمله الناسُ لأنه في الأصل مصدر سُمِّيَ به حَدَثٌ يُخْذُهُ النَّاسُ، وقيل بالعكس. وبين - هنا - مفعول به، وهو من الظروف المتصرفة. ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم. وقرأ حمزة والكسائي لَا يَفْقَهُونَ أي لَا يَفْهَمُونَ السامع كلامهم ولا يبينونه لتلعنهم فيه.

(٩٤) ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ قال مترجمُهُم، وفي مصحف ابن مسعود قال الذين من دونهم. ﴿إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قبيلتان من ولد يافث بن نوح، وقيل يَأْجُوجُ من الترك ومَأْجُوجُ من الجبل. وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقيل عريبيان من أج الظليم إذا أسرع، وأصلهما الهمز كما قرأ عاصم، ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث. ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع. قيل كانوا يَخْرُجُونَ أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه، وقيل كانوا يأكلون

الناس. ﴿فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا﴾ نُخْرِجُهُ مِنْ أَمْوَالِنَا. وقرأ حمزة والكسائي خَرَجًا، وكلاهما واحد كالتنول والتوال. وقيل الخراج على الأرض والذمة، والخرج المصدر. ﴿عَلَى أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يَحْجُزُ دُونَ خُرُوجِهِمْ عَلَيْنَا. وقد ضمه من ضم الشَّذِينَ غير حمزة والكسائي.

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

(٩٥) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ما جعلني فيه مَكِينًا من المال والمُلْك خَيْرٌ مما تَبَذَّلُون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه. وقرأ ابن كثير مَكَّنِّي على الأصل. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بقوة فَعَلَةٍ، أو بما أَتَقَوَّى به من الآلات. ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً، وهو أكبر من السدِّ مِنْ قولهم ثوب مُرَدَّم إذا كان رِقَاعاً فوق رِقَاعٍ^(١).

(٩٦) ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قِطْعَهُ، وَالزُّبْرَةُ القطعة الكبيرة، وهو لا ينافي ردَّ الخراج والاقتصار على المعونة لأن الإيتاء بمعنى المناولة، ويدل عليه قراءة أبي بكر ردماً اتنوني بكسر التنوين موصولة الهمة على معنى جيتوني بزُبُر الحديد. والباء محذوفة حذفها في أمرئك الخير، ولأن إعطاء الآلة من الإعانة بالقوة دون الخراج على العمل^(٢). ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بين جانبي الجبلين بتنزيدها. وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريان بضميتين، وأبو بكر بضم الصاد وسكون الدال، وقرئ بفتح الصاد وضم الدال، وكلها لغات من الصَّدْف وهو الميل لأن كلا منهما منزع عن الآخر، ومنه التصادف للتقابل. ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي قال للعمَّالَة انفخوا في الأكوار والحديد. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ جعل المنفوخ فيه^(٣). ﴿نَارًا﴾ كالنار بالإحماء. ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي آتوني قِطْرًا أي نحاساً مذاباً أُفْرِغْ عليه قِطْرًا، فَحَذَفَ الأول لدلالة الثاني عليه. وبه تمسك البصريون على أن إعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى، إذ لو كان قِطْرًا مفعول آتوني لأَضْمِر مفعول أُفْرِغْ حذراً من الإلباس. وقرأ حمزة وأبو بكر قال آتوني موصولة الألف.

(٩٧) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا﴾ بحذف التاء حذراً من تلاقي متقاربين. وقرأ حمزة بالإدغام جامعاً بين الساكنين على غير حدّه. وقرئ بقلب السين صاداً ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أَنْ يَغْلُوهُ بالصعود لارتفاعه وانملاسه. ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبًا﴾ لثخنه وصلابته. وقيل حَفَرَ لِلْأَسَاسِ حَتَّى بَلَغَ الْمَاءَ، وجعله من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى سارَى أَعْلَى الْجَبَلَيْنِ، ثم وضع المنافع حتى صارت كالنار، فصب النحاس المذاب عليه فاختلط والتصق ببعضه ببعض وصار

(١) وتقديم «بينكم» على «بينهم» لإظهار كمال العناية بمصالحهم (س/٥/٢٤٥).

(٢) ولعل تخصيص الأمر بالإيتاء لزبر الحديد دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لأن الحاجة إليها أَمْسَنُ إذ هي الركن في بناء السد، ووجودها أعز. (س/٥/٢٤٥).

(٣) وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين لأنه العمدة في ذلك (س/٥/٢٤٦).

جبالاً صلدًا. وقيل بناء من الصخور مرتبطاً ببعضها ببعض بكلايب من حديد ونحاس مذاب في تجاوبها.

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۚ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۚ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِّلْكَافِرِينَ نَرُؤُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَلُكُهُمُ الْبُحُورُ أَرْسَالًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾

(٩٨) ﴿قَالَ هَذَا﴾ هذا السدُّ أو الإقذارُ على تسويته. ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ على عباده. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة بأن شارف يوم القيامة. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ مذكواً مبسوطاً مسوياً بالأرض، مصدر بمعنى مفعول ومنه جَمَلَ أَدَكٌ لِمَنْبَسِطِ السَّنام. وقرأ الكوفيون دَكَّاءَ بالمد، أي أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ كائناً لا محالة. وهذا آخرُ حكاية قول ذي القرنين.

(٩٩) ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يَخْرُجُونَ مما وراء السدِّ يَمُوجُونَ في بعضٍ مزدحمين في البلاد، أو يَمُوجُ بعضُ الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون، إنسهم وجنهم حيارى، ويؤيده قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ للحساب والجزاء^(١).

(١٠٠) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ وأبرزناها وأظهرناها لهم^(٢).

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي يُنْظَرُ إليها فأذْكَرُ بالتوحيد والتعظيم. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ استماعاً لذكرى وكلامي لإفراط صممهم عن الحق، فإن الأصمَّ قد يستطيع السمع إذا صيغ به وهؤلاء كأنهم أصمَّت مسامعهم بالكلية.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أفتنوا، والاستفهامُ للإنكار. ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ اتخذاهم الملائكة والمسيح ﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ معبودين نافعههم أو لا أعدبهم به. فحذف المفعول الثاني كما يُحذف الخبرُ للقرينة، أو سدَّ «أن يتخذوا» سدَّ مفعوليهِ. وقرئ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أفكافيهم في النجاة؟ وأن بما في حيزها مرتفعٌ بأنه فاعلُ حَسَبُ، فإن النعت إذا اعتمدَ على الهمزة ساوى الفعل في العمل، أو خبرٌ له. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِّلْكَافِرِينَ نَرُؤُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَلُكُهُمُ الْبُحُورُ أَرْسَالًا﴾ ما يقام للنزول، وفيه تهكم وتنبية على أن لهم وراءها من العذاب ما تُستحقر دونه.

(١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ نصب على التمييز. وجمعُ لأنه من أسماء الفاعلين، أو لتنوع أعمالهم.

(١) لم يتعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار، ولثلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الأولى والآخرة (س ٢٤٧/٥).

(٢) وتخصيص العرض بهم - مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة - لأن ذلك لأجلهم خاصة (س ٢٤٧/٥).

الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ
كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكِلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جِثْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

(١٠٤) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ضاع وبطل لكفرهم وعُجبهم كالرهابنة فإنهم خسروا دنياهم وأخراهم. ومحلّه الرفع على الخبر المحذوف فإنه جواب السؤال، أو الجزؤ على البدل، أو النصب على الهم. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ بعُجبهم واعتقادهم أنهم على الحق.

(١٠٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالقرآن، أو بدلائله المنصوبة على التوحيد والنبوة^(١). ﴿وَلِقَائِهِمْ﴾ بالبعث على ما هو عليه أو لقاء عذابه. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بكفرهم فلا يُثابون عليها. ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ فنزدي بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، أو لا نضع لهم ميزاناً يوزن به أعمالهم لانحباطها.

(١٠٦) ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، وقوله: ﴿جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ﴾ جملة مبيّنة له، ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أي جزاؤهم به، أو جزاؤهم بذله وجهنم خبره، أو جزاؤهم خبره، وجهنم عطف بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي بسبب ذلك.

(١٠٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ فيما سبق من حكم الله ووعدِهِ. والفردوس أعلى درجات الجنة، وأصله البستان الذي يجمع الكرم والنخل.

(١٠٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تحولاً إذ لا يجدون أطيب منها حتى تنازعهم إليه أنفسهم، ويجوز أن يراد به تأكيد الخلود.

(١٠٩) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا﴾ ما يُكْتَب به، وهو اسم ما يُمدّ به الشيء كالخبر للدواة والسليط للسراج. ﴿لِكَلِمَتِ رَبِّي﴾ لكلمات علمه وحكمته. ﴿لَنَفِذَ الْبَحْرُ﴾ لنفذ جنس البحر بأمره، لأن كل جسم متناهٍ. ﴿قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتِ رَبِّي﴾ فإنها غير متناهية لا تنفذ كعلمه. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿وَلَوْ جِثْنَا بِمِثْلِهِ﴾ بمثل البحر الموجود. ﴿مَدَدًا﴾ زيادة ومعونة، لأن مجموع المتناهيين متناهٍ بل مجموع ما يدخل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تنامي الأبعاد، والمتناهي ينفذ قبل أن ينفذ غير المتناهي لا محالة. وقرئ ينفذ بالياء، وممدداً بكسر الميم جمع مدة وهي ما يستمدّه الكاتب، وممدداً. وسبب نزولها^(٢) أن اليهود قالوا في كتابكم ﴿وَمَنْ يُوْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٣) وتقرؤون ﴿وَمَا أُوتِشْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤).

(١) والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقييح حالهم في الكفر المذكور (س/٢٤٩).

(٢) أخرجه الواحدي بنحوه عن ابن عباس ولم يذكر سنده (أسباب النزول ص ٣٠٧).

(٣) البقرة: ٢٦٩.

(٤) الإسراء: ٨٥.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدعي الإحاطة على كلماته. ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ وإنما تميزت عنكم بذلك. ﴿فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يؤمل حسن لقائه أو يخاف سوء لقائه. ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ يرتضيه الله. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ بأن يرائيه أو يطلب منه أجراً. روي أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ: «إني لأعمل العمل لله فإذا أطلع عليه سرتي، فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه». فنزلت تصديقاً له^(١) وعنه عليه الصلاة والسلام «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»^(٢). والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة. وعن النبي ﷺ: «من قرأها عند مضجعه كان له نوراً في مضجعه يتلأل إلى مكة، حشوا ذلك النور ملائكة يُصلون عليه حتى يقوم، فإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلأل من مضجعه إلى البيت المعمور، حشوا ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ»^(٣). وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»^(٤).

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٢٩٩) عن ابن عباس بغير سند.

وأخرجه ابن منده وأبو نعيم في «الصحابة» وابن عساكر - كما في «فتح القدير» (٣/٣١٨) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لقالة الناس، فلا يريد به الله، فنزلت الآية. وهذا إسناد مظلم كله كذابون، فالحديث باطل.

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة بهذا، ومن هذا الوجه. أخرجه الثعلبي، وأبو قاسم الطلحي - وهو الأصهباني: التذكرة (٤/١٢٧٧) - في الترغيب. كما في «الكافي الشاف» (ص ١٠٥ رقم ٣٣٣).

ثم قال: وفي الباب عن محمود بن لبيد. ورفع «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال الرياء أخرجه أحمد - في المسند (٥/٤٢٨) والدارقطني في غرائب مالك، والبيهقي في «الشعب» - (٥/٣٣٣ رقم ٦٨٣١) - من رواية عمرو بن أبي عمرو بن قتادة عنه. وعن شداد بن أوس قال «كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر» أخرجه الطبراني - في الكبير (٧/٢٨٩ رقم ٧١٦٠) وابن مردويه. وفي إسناده ابن لهيعة - كما في «الكافي الشاف» رقم (٣٣٣).

وقد تعاقبه يحيى بن أيوب المقابري عند الحاكم (٤/٣٢٩) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: يحيى صدوق فيه مقال. لكن الحديث يرتقي إلى الحسن والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٠٥).

قلت: هو الإسناد الذي تقدم في رقم (٣٣٤) والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٣٩) بلفظ «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها...».

وابن السني في «اليوم والليلة» رقم (٦٧٧) من حديث معاذ بن أنس الجهني، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٠٥ رقم ٣٣٤) وفي إسناده ابن لهيعة - ضعيف من قبل حفظه - وأخرجه الطبراني - في «الكبير» (٢٠/١٩٧ رقم ٤٤٣) - من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن زيان بن قائدوم ضعفاء. والخلاصة أن الحديث ضعيف. =

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ
وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

سورة مريم مكية، إلا آية السجدة^(١)، وهي ثمانٍ أو تسع وتسعون آية^(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿كَهَيْعَصَ﴾ أمال أبو عمرو الهاء لأن أَلِفَاتِ أسماء التهجي ياءات، وابنُ عامر وحمزةُ الياء، والكسائي وأبو بكر كليهما، ونافعُ بَيْنَ بَيْنَ، ونافع وابنُ كثير وعاصمٌ يُظْهِرُونَ دَالَ الهجاء عند الذال، والباقون يدغمونها.

(٢) ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ خبرٌ ما قبله إن أَوَّلَ بالسورة أو بالقرآن فإنه مشتمل عليه، أو خبرٌ محذوفٌ أي هذا المثلُّ ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ، أو مبتدأٌ حَذَفَ خبره أي فيما يتلى عليك ذَكْرُهَا. وقرئ ذَكَرْ رَحْمَةً على الماضي، وذَكَرْ على الأمر. ﴿عَبْدُكَ﴾ مفعولُ الرحمة أو الذكر، على أن الرحمة فاعله على

(١) الآية: «٥٨».

(٢) سورة مريم مكية بالإجماع.

فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت سورة مريم بمكة.

[انظر «الدر المنثور» (٤٧٦/٥) و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/٧٢ - ٧٣)].

الاتساع كقولك: ذكّرني جودُ زيد. ﴿زَكَّرَآءُ﴾ بدلٌ منه، أو عطف بيانٍ له.

(٣) ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله سِتَان والإخفاء أشد إخبائاً وأكثر إخلاصاً، أو لثلاثِ يَلام على طلب الولد في إِبَانِ الْكِبَرِ، أو لثلاثِ يَطْلَعُ عليه مواليه الذين خافهم، أو لأن ضَعْفَ الهرم أخفى صوته. واختلف في سِنِّهِ حينئذ، فقليل ستون، وقليل سبعون، وقليل خمس وسبعون، وقليل خمس وثمانون، وقليل تسع وتسعون.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ تفسيرٌ للنداء، والوهن الضعف. وتخصيصُ الْعَظْمِ لأنه دَعَامَةُ البدن وأصلُ بَنائه ولأنه أَصْلَبُ ما فيه، فإذا وَهَنَ كان ما وراءه أَوْهَنَ، وتوحيده لأن المراد به الجنس. وقرئ وَهْنٌ وَوَهْنٌ بالضم والكسر، ونظيره كَمِلَ بالحركات الثلاث. ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شَبَّهَ الشَّيْبَ في بياضه وإنارته بشَوَاطِئِ النَّارِ وانتشاره، وفشوه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجهُ مُخْرَجَ الاستعارة، وأسند الاشتعالَ إلى الرأس الذي هو مكانُ الشَّيْبِ مبالغاً، وجعله مميّزاً إيضاحاً للمقصود، واكتفى باللام على الإضافة للدلالة على أن علمَ المخاطب بتعين المراد يُغني عن التقييد. ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ بل كلما دعوتك استجبت لي، وهو توسلٌ بما سلف معه من الاستجابة، وتنبيهٌ على أن المدعو له وإن لم يكن معتاداً فإجابته معتادة، وأنه تعالى عوّده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يُخَيَّبَ من أطمعه^(١).

(٥) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ يعني بني عمّه وكانوا أشدَّ بني إسرائيل، فخاف أن لا يُحْسِنُوا خلافته على أُمته وَيُذِلُّوا عليهم دينهم. ﴿مِنْ وَرَاءِي﴾ بعد موتي. وعن ابن كثير بالمد والقصر بفتح الياء. وهو يتعلق بمحذوف، أو بمعنى الموالي أي خفت فعلَ الموالي من ورائي، أو الذين يُلَوْنُ الأمر من ورائي. وقرئ خَفْتُ الموالِيَ من ورائي، أي قَلُّوا وعَجَزُوا عن إقامة الدين بعدي، أو خَفُّوا ودرجوا قُدَّامِي، فعلى هذا كان الظرف متعلقاً بخفت. ﴿وَكَاثَرَتِ أَمْرَاتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد. ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ فإن مثله لا يُرجى إلا من فضلك وكمال قدرتك، فإني وامراتي لا نصلح للولادة. ﴿وَلِيًّا﴾ من صُلْبِي^(٢).

(٦) ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ﴾ صفتان له، وَجَزَمَهُمَا أبو عمرو والكسائي على أنهما جواب الدعاء، والمرادُ وراثَةُ الشَّرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال. وقل يَرِثُنِي الْحُبُورَةُ فإنه كان حَبِيراً، ويرث من آل يعقوب المُلْكُ، وهو يعقوب بنُ إِسْحَاقَ عليهما الصلاة والسلام. وقل يعقوب كان أخاً زكريا، أو عمران بنُ ماثان من نسل سليمان عليه السلام. وقرئ يَرِثُنِي وَأَرِثُ آلُ يعقوب على الحال من أحد الضميرين، وَأَرِثُ بالتصغير لصغره، وَأَرِثُ مِنْ آلٍ يعقوب على أنه فاعل يَرِثُنِي وهذا

(١) والتعرض لوصف الربوبية مع إضافته لضميره عليه السلام لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع (س٥/٢٥٤).

(٢) قدم قوله «وكانت امرأتي عاقراً» على قوله «فهب لي..» لكون مدلوله أهم عنده. وتأخير «وليّاً» عن الجازين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٥/٢٥٤).

يسمى التجريد في علم البيان لأنه جُرد عن المذكور أولاً مع أنه المراد. ﴿وَجَعَلَهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ترصاه قولاً وعملاً^(١).

يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

(٧) ﴿يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ جواب لندائه ووعده بإجابة دعائه. وإنما تولى تسميته تشريفاً له. ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يُسم أحدٌ يحيى قبله، وهو شاهد بأن التسمية بالاسامي الغربية تنويه للمسمى. وقيل سَمِيًّا شبيهاً كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٢) لأن المتماثلين يتشاركان في الاسم، والأظهر أنه أعجمي وإن كان عربياً فمنفول عن فعل كي يعيش ويعمل. وقيل سُمِّي به لأنه حَيَّي به رَحْمُ أمه، أو لأن دينُ الله حَيَّي بدعوته.

(٨) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ جَسَاوَةٌ وقُحُولًا في المفصل^(٣)، وأصله عَتُو كقعود فاستقلوا توالي الضمتين والواوين فكسروا التاء فانقلبت الواو الأولى ياء، ثم قلبت الثانية وأدغمت. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عِتِيًّا بالكسر، وإنما استعجب الولد من شيخ فإن عجز عاقر اعترافاً بأن المؤثر فيه كمال قدرته وأن الوسائط عند التحقيق ملغاة^(٤)، ولذلك:

(٩) ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى أو المَلَكُ المبلِّغُ للبشارة تصديقاً له. ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر كذلك، ويجوز أن تكون الكاف منصوبة بقال في ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وذلك إشارة إلى مبهم يفسره: ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ ويؤيد الأول قراءة من قرأ «وهو على هَيْنٍ» أي الأمر كما قلتُ أو كما وعدتُ وهو على ذلك يهون عليّ، أو كما وعدت وهو عليّ هَيْنٌ لا احتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب. ومفعولُ قال الثاني محذوف. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ بل كنت معدوماً صرفاً، وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشيء، وقرأ حمزة والكسائي وقد خلقناك.

(١٠) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة أعلم بها وقوع ما بشرتني به. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

(١) وتوسط «رب» بين مفعولي اجعل للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه (س/٥/٢٥٥).

(٢) مريم: ٦٥.

(٣) يقال: جسا الشيء يجسو إذا ييس وصلب. وكذا قَجَل، يقال: قَجَل الشيء قَجَلًا إذا ييس جلده على عظمه (المصباح المنير مادة جَسَوَ وقجل).

(٤) لعله عليه السلام ابتداء ههنا بذكر حال امرأته، بينما في سورة آل عمران قدم ذكر نفسه «قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر». - الآية ٤٠ - لأنه هنا قد ذُكر حاله في تضاعيف دعائه. أما هنالك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته، لما أن المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب (س/٥/٢٥٦).

النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ سَوِيٍّ الْخَلْقِ مَا بَكَ مِنْ خَرَسٍ وَلَا بَكْمٍ، وإنما ذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران^(١) للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس والتجرؤ للذكر والشكر ثلاثة أيام ولياليهن.

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَبِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴿١٢﴾ وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٥﴾ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٦﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٧﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٨﴾

(١١) ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ من المصلى أو من الغرفة. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ فأوما إليهم لقوله: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾^(٢). وقيل كتب لهم على الأرض. ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ صلوا أو نزهاوا ربكم. ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طرفي النهار، ولعله كان مأموراً بأن يستبح ويأمر قومه بأن يوافقوه. وأن تحتل أن تكون مصدريه، وأن تكون مفسرة.

(١٢) ﴿يَبِيحِي﴾ على تقدير القول. ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجذ واستظهار بالتوفيق. ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا﴾ يعني الحكمة وفهم التوراة، وقيل النبوة أحكم الله عقله في صباه واستنباه.

(١٣) ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ ورحمة منا عليه، أو رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما. عطف على الحكم. ﴿وَزَكَاةً﴾ وطهارة من الذنوب، أو صدقة أي تصدق الله به على أبويه. أو مكنه ووفقه للتصدق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي.

(١٤) ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وباراً بهما. ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ عاقاً أو عاصي ربه.

(١٥) ﴿وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ﴾ من الله. ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم. ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من عذاب النار وهو القيامة.

(١٦) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ﴾ في القرآن. ﴿مَرْيَمَ﴾ يعني قصتها. ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ اعتزلت، بدل من مريم بدل الاشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها، أو بدل الكل لأن المراد بمريم قصتها وبالظرف الأمر الواقع فيه وهما واحد، أو ظرف لمضاف مقدر. وقيل إذ بمعنى أن المصدريه كقولك: أكرمتك إذ لم تكرمني فتكون بدلاً لا محالة. ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شرقي بيت المقدس، أو شرقي دارها، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قيلة. ومكاناً ظرفاً أو مفعول، لأن انتبذت متضمن معنى أنت.

(١٧) ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ سترأ. ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ قيل قعدت في مُشْرِفَةٍ للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها - وكانت تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا

(١) آل عمران ٤١: «قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا».

(٢) آل عمران: ٤١.

حاضت وتعود إليه إذا طهرت - فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل عليه السلام متمثلاً بصورة شاب أمرّد سويّ الخلق لتستأنس بكلامه، ولعله لتهيج شهوتها به فتحنّدر نطفتها إلى رحمها^(١).

قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ من غاية عفافها. ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ تتقي الله وتحتفل بالاستعاذة. وجوابُ الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي فأني عائذة منك، أو فتتعظ بتعويدي، أو فلا تتعرض لي، ويجوز أن يكون للمبالغة أي إن كنت تقياً متورعاً فأني أتعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك؟
(١٩) ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذت به^(٢). ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدُّرْع^(٣)، ويجوز أن يكون حكاية لقول الله تعالى، ويؤيده قراءة أبي عمرو والأكثر عن نافع ويعقوب بالياء^(٤). ﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح.

(٢٠) ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ ولم يباشرنني رجلٌ بالحلال، فإن هذه الكنايات إنما تُطلقُ فيه، أما الزنا فإنما يقال فيه خَبَثٌ بها وَقَجَرَ ونحو ذلك، ويعضّده عطفُ قوله: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عليه، وهو فاعول من البغي قُلِبَتْ واؤه ياءً وأدغمت ثم كُسرت الغين اتباعاً ولذلك لم تلحقه التاء، أو فاعيل بمعنى فاعل ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة، أو للتَّسْبِ كطالق.

- (١) وهذا القول الأخير لا يوافقه مقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة، وكذا ما بعده حينما استعاذت بالرحمن.. ولا يوجد ما يدل على أنه عليه السلام جاءها وهي تغتسل فاتخاذها للحجاب لا يعني للغسل فإنه كان من عاداتها الخلوة للعبادة، يدل عليه قوله تعالى «كلما دخل عليها زكريا المحراب..».
- (٢) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها، والإشعار بعملة الحكم فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها (س/٥/٢٦٠).
- (٣) قال الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/٢٤١): «أشار الله تعالى إلى كيفية حمل مريم: أنه نفخ فيها، فوصل النفخ إلى فرجها، فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا» [التحریم: ١٢] وقال «والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا» [الأنبياء: ٩١]. والذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله تعالى «إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً» ولا ينافي ذلك إسنادُ الله جلّ وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله «فنفخنا» لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ، فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، ومن أجل كونه بإذنه ومشيته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا منه بمشيته جلّ وعلا - أسنده إلى نفسه - والله تعالى أعلم.
- وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط. بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل هـ.
- (٤) أي «لِيَهَبَ».

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَهَا آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾
 فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ
 هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٣﴾

(٢١) ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي ونفعل ذلك لنجعلها آية، أو لنبين به قدرتنا ولنجعلها، وقيل عطفٌ على ليهب على طريقة الالتفات. ﴿آيَةً لِلنَّاسِ﴾ علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا. ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ على العباد يهتدون بإرشاده. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي تعلق به قضاء الله في الأزل، أو قدّر وسطر في اللوح، أو كان أمراً حقيقياً بأن يُقضى ويُفعل لكونه آية ورحمة.

(٢٢) ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأن نَفَخَ في دِرْعِهَا فدخلت النفخة في جوفها وكان مدة حملها سبعة أشهر، وقيل ستة، وقيل ثمانية ولم يعيش مولودٌ وضع لثمانية غيره، وقيل ساعة كما حملته نبذته. وسُمِّيَها ثلاث عشرة سنة، وقيل عشر سنين^(١)، وقد حاضت حيضتين. ﴿فَإَنْتَبَذَتْ بِهِ﴾ فاعتزلت وهو في بطنها كقوله: تَدُوسُ بَنَاتُ الْجَمَاجِمِ وَالتَّرِيبَا. والجار والمجرور في موضع الحال. ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل أقصى الدار.

(٢٣) ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ فالجأها المخاض، وهو في الأصل منقول من جاء، لكنه خُصَّ به في الاستعمال كأتى في أعطى. وقرئ المَخَاضُ بالكسر، وهما مصدر مَخَضَتِ المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج. ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتستر به وتعتمد عليه عند الولادة، وهو ما بين العِزْق والغصن، وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء. والتعريف إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثمَّ غيرها، وكانت كالمتعالم عند الناس، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليربها من آياته ما يُسْكِن روعتها ويُطعمها الرطب الذي هو خُرْسَةُ^(٢) النَّفْسَاءِ الموافقة لها. ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ استحياء من الناس ومخافة لومهم. وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر مُثٌّ من مات يموت. ﴿وَكَُنْتُ نَسِيًّا﴾ ما من شأنه أن يُنسى ولا يُطلب، ونظيره الذَّبْحُ لما يُذبح. وقرأ حمزة وحفص بالفتح^(٣)، وهو لغة فيه أو مصدرٌ سمي به، وقرئ به وبالهزم^(٤) وهو الحليب المخلوط بالماء يُنسؤه أهله لقلته. ﴿مَّنْسِيًّا﴾ مَنَسِيَ الذكر بحيث لا يخطر ببالهم. وقرئ بكسر الميم على الإثباع.

(١) قال سيد قطب رحمه الله في «الظلال» (٢٣٠٦/٤ - ٢٣٠٧): «إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته. هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقه فمضغة فعظام ثم تُكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز. فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية... كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً، ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة... ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين، فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها... هـ.

(٢) خُرْسَةُ النَّفْسَاءِ أي طعامها (المصباح المنير مادة خرس).

(٣) أي بفتح النون «نَسِيًّا» بينما قرأ الباقون بكسر النون.

(٤) القراءة بالهزم أي (نَسَتْ وَنَسَتْ) بفتح النون وكسرها.

فَنَادَيْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ عيسى، وقيل جبريل كان يقبل الولد، وقيل تحتها أسفل من مكانها. وقرأ نافع وحزمة والكسائي وحفص وروث من تحتها بالكسر والجر على أن في نادى ضمير أحدهما، وقيل الضمير في تحتها النخلة. ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي لا تحزني أو بأن لا تحزني. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جَذُولًا، هكذا روي مرفوعاً^(١). وقيل سرياً من السَّوْءِ^(٢) وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.

(٢٥) ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ وأمليه إليك والباء مزيدة للتأكيد، أو افعلي الهز والإمالة به، أو هزي الثمرة بهزه. والهز تحريك بجذب ودفع. ﴿تُسْقِطُ عَلَيْكَ﴾ تتساقط فادغمت التاء الثانية في السين، وحذفها حمزة^(٣)، وقرأ يعقوب بالياء^(٤)، وحفص تُسَاقِطُ من ساقطت بمعنى أسقطت، وقرئ تُتَسَاقِطُ وتُسْقِطُ وتُسَقِطُ فالتاء للنخلة والياء للجذع. ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ تمييز أو مفعول. روي أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاءً، فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخصاً ورطباً. وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها، فإن مثلها لا يتصور أن يرتكب الفواحش، والمنبهة لمن رآها على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يُخِيلَهَا من غير فعل، وأنه ليس ببذع من شأنها مع ما فيه من الشراب والطعام، ولذلك رتب عليه الأمرين فقال:

(٢٦) ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ أي من الرطب وماء السري، أو من الرطب وعصيره. ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وطبّي نفسك وارفضي عنها ما أحزنك، وقرئ وقري بالكسر وهو لغة نجد، واشتقاقه من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، أو من القرّ فإن دمة السرور باردة ودمة الحزن حارة ولذلك يقال قرّة العين للمحبوب، وسختها للمكروه. ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فإن تري آدمياً. وقرئ تَرِينَ على لغة من يقول لَبَأْتُ^(٥) بالحج لتأخ بين الهمزة وحرف اللين. ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ صمتاً، وقد قرئ به، أو صياماً وكانوا لا يتكلمون في صيامهم. ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ بعد أن أخبرتكم بنذري، وإنما أكلم الملائكة وأناجي ربي. وقيل أخبرتهم بنذرها بالإشارة، وأمرها بذلك لكراهة المجادلة والاكتفاء بكلام عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه قاطع في قطع الطاعن.

(١) أخرجه ابن جرير (٦٩/١٦) والحاكم (٣٧٣/٢) وعبد الرزاق وابن مردويه في تفسيرهما (الفتح السماوي ص ٨١١) كلهم موقوفاً على البراء بن عازب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وأخرج نحوه مرفوعاً الطبراني في الكبير (٣٤٦/١٢) ح ١٣٣٠٣ وأبو نعيم في الحلية (٣٤٦/٣) في ترجمة عكرمة. وفي سنده أيوب بن نهيك وهو ضعيف.

(٢) والسَّوْءُ سخاء في مروة (مختار الصحاح مادة سرا).

(٣) قراءة حمزة «تَسَاقِطُ» بالتاء خفيفة السين.

(٤) قراءة يعقوب «تَسَاقِطُ» بالياء مشددة السين.

(٥) لَبَأْتُ بالحج أي لَبِئْتُ مِنَ التَّلْبِيَةِ.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

(٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ أي مع ولدها. ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعة إليهم بعد ما طهرت من النفاس. ﴿تَحْمِلُهُ﴾ حاملة إياه. ﴿قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي بديعاً منكراً، من فرئ الجلد^(١).

(٢٨) ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ﴾ يعنون هارون النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الإخوة، وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة، وقيل هو رجل طالح أو صالح كان في زمانهم شبهوها به تهكماً، أو لما رأوا قبل من صلاحها، أو شتموها به. ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ تقرير لأن ما جاءت به فرئ، وتنبيه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، أي كلموه ليجيبكم. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نعهد صبيّاً في المهد كلمه عاقل. وكان زائدة، والظرف صلة من، وصبيّاً حال من المستكن فيه، أو تامة أو دائمة كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢) أو بمعنى صار.

(٣٠) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أنطقه الله تعالى به أولاً لأنه أول المقامات، وللدرد على من يزعم ربوبيته. ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ الإنجيل. ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

(٣١) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفاعاً معلماً للخير، والتعبير بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو بجعل المحقق وقوعه كالواقع. وقيل أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً. ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ حيث كنت. ﴿وَأَوْصَانِي﴾ وأمرني. ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ زكاة المال إن ملكته، أو تطهير النفس عن الرذائل. ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

(٣٢) ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ وباراً بها، عطف على مباركاً. وقرئ بالكسر، على أنه مصدرٌ وصِف به، أو منصوب بفعل دل عليه أوصاني، أي وكلفني برّاً، ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفاً على الصلاة. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عند الله من قرط تكبره.

(٣٣) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو على يحيى. والتعريف للعهد والأظهر أنه للجنس. والتعريض باللعن على أعدائه، فإنه لما جعل جنس السلام على نفسه عرض بأن ضده عليهم كقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعَ الْهُدَى﴾^(٣) فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى.

(١) وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب (س/٥/٢٦٣).

(٢) النساء: ١٧.

(٣) طه: ٤٧.

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْآخَرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي الذي تقدم نعتُه هو عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيبٌ لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ والطريق البرهاني حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ثم عكس الحكم. ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ خبر محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه، والإضافة للبيان، والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة. وقيل صفة عيسى أو بدلٌ أو خبر ثانٍ ومعناه كلمة الله. وقرأ عاصمٌ وابن عامر ويعقوبٌ قولٌ بالنصب على أنه مصدر مؤكد، وقرئ قال الحق وهو بمعنى القول. ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ في أمره يشكون أو يتنازعون، فقالت اليهودُ ساحرٌ وقالت النصارى ابنُ الله. وقرئ بالتاء على الخطاب.

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ تكذيبٌ للنصارى وتنزيهٌ لله تعالى عما بهتوه. ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تكيثٌ لهم، فإن من إذا أراد شيئاً أوجده يكنُ كان منزهاً عن شبه الخلق إلى الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإناث. وقرأ ابن عامر فيكون بالنصب على الجواب.

(٣٦) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران^(١). وقرأ الحجازيان والبصريان وأن بالفتح على: ولأن، وقيل إنه معطوف على الصلاة.

(٣٧) ﴿فَأَخْلَفَ الْآخَرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ اليهود والنصارى. أو فرق النصارى، نستورية قالوا إنه ابن الله، ويعقوبية قالوا هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وملكانية قالوا هو عبدالله ونبه. ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود يوم عظيم هو له وحسابه وجزاؤه وهو يوم القيامة، أو من وقت الشهود، أو من مكانه فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألستهم وأرأبهم^(٢) وأرجلهم بالكفر والفسق، أو من وقت الشهادة أو من مكانها. وقيل هو ما شهدوا به في عيسى وأمه.

(٣٨) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجبٌ معناه أن أسماعهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي يوم القيامة جديرٌ بأن يُعجبَ منهما بعدما كانوا صماً عمياً في الدنيا، أو التهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ، وقيل أمرٌ بأن يُسمعهم ويُبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحق بهم فيه. والجار والمجرور على الأول في موضع الرفع، وعلى الثاني في موضع النصب ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أوقع الظالمون موقع الضمير إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم، وسجل على إغفالهم بأنه ضلالٌ بين.

(١) آل عمران: ٥١.

(٢) أرابهم أي أعضاؤهم، فإن الإزب يستعمل في الحاجة وفي العضو (المصباح المنير مادة أرب).

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

(٣٩) ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسر الناس، المسيء على إساءته والمحسن على قلة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار، وإذ بدل من اليوم أو ظرف للحسرة. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال متعلقة بقوله «في ضلال مبين» وما بينهما اعتراض. أو بأنذرهم أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين، فتكون حالاً متضمنة للتعليل.

(٤٠) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم مُلْكٌ ولا ملك، أو نتوفى الأرض ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفى الوارث لإرثه. ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يُردون للجزاء.

(٤١) ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق، أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله. ﴿نَبِيًّا﴾ استنباه الله.

(٤٢) ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من إبراهيم، وما بينهما اعتراض، أو متعلق بكان أو بصديقاً نبياً. ﴿لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ﴾ التاء معوضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتى ويقال يا أبتا، وإنما تُذكر للاستعطف ولذلك كررها. ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فَيَعْرِفُ حَالَكَ وَيَسْمَعُ ذِكْرَكَ ويرى خضوعك. ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ في جلب نفع أو دفع ضرر. دعاه إلى الهدى وبين ضلاله واحتج عليه أبلغ احتجاج وأرشقه برفق وحسن أدب، حيث لم يصرح بضلاله بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصريح ويأبى الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي غاية التعظيم، ولا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام، وهو الخالق الرازق المحيي المميت المعاقب المثيب، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح، والشيء لو كان حياً مميزاً سمياً بصيراً مقتدرًا على النفع والضرر - ولكن كان مُمكنًا - لاستنكف العقل القويم عن عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبين، لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر؟! ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق القويم والصراط المستقيم لما لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي، فقال:

(٤٣) ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ولم يُسمِ أباه بالجهل المُفْرِط ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف بالطريق، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه - مع خلوه عن النفع - مستلزم للضرر، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان من حيث إنه الأمر به، فقال:

(٤٤) ﴿يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ ولما استهجن ذلك بين وجه الضر فيه بأن الشيطان مستعص على ربك المولي للنعم كلها بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاصر، وكل عاصر حقيق بأن تُسترد منه النعم ويُنتقم منه^(١)، ولذلك عقبه بتخويفه سوء عاقبته وما يجر إليه فقال:

(١) قوله «إن الشيطان» حيث أظهر «الشيطان» في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

يَتَأْتِي إِيَّاهُ خَافٌ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَذَرُهُمْ لِيْن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿يَتَأْتِي إِيَّاهُ خَافٌ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قريناً في اللعن والعذاب تليه ويليك، أو ثابتاً في موالاته فإنه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب. وذكرُ الخوف والمسّ وتكثيرُ العذاب إما للمجاملة، أو لخباء العقاب. ولعل اقتصاره على عصيان الشيطان من بين جانياته لارتفاع همته في الربانية، أو لأنه ملائكتها، أو لأنه من حيث إنه نتيجة معاداته لآدم وذريته مُبْتَدَأٌ عليها^(١).

(٤٦) ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَذَرُهُمْ﴾ قَابَلَ استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل يا أباي بيا بُنَيَّ، وآخره وقَدَم الخبر على المبتدأ وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب كأنها مما لا يَزَعِب عنها عاقل، ثم هدّده فقال: ﴿لِيْن لَّمْ تَنْتَه﴾ عن ممالك فيها أو الرغبة عنها. ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بلساني يعني الشتم والذم، أو بالحجارة حتى تموت أو تبعد مني. ﴿وَأَهْجُرَنِي﴾ عطفٌ على ما دل عليه لأرجمنك أي فاحذرنى واهجرني. ﴿مَلِيًّا﴾ زماناً طويلاً مِن المَلَاوَة، أو مليّاً بالذهاب عني.

(٤٧) ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ توديعٌ ومتاركةٌ ومقابلةٌ للسيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بُعدٌ ما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ لعله يوفقك للتوبة والإيمان، فإن حقيقة الاستغفار للكافر استدعاءُ التوفيق لما يوجب مغفرته. وقد مر تقريره في سورة التوبة^(٢) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَفِيًّا﴾ بليغاً في البرّ والإلطف.

(٤٨) ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ بالمهاجرة بدني. ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ وأعبده وحده. ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ خائباً ضائع السغي مثلكم في دعاء آلهتكم. وفي تصدير الكلام بعسى التواضع وهضم النفس، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل غير واجبتي، وأن ملاك الأمر خاتمته وهو غيبٌ.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام. ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل من فارقه من الكفرة. قيل إنه لما قصد الشام أتى أولاً حَرَّان وتزوج بسارة، وولدت له إسحاق وولد منه يعقوب. ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء، أو لأنه أراد أن يذكّر إسماعيل بفضله على الانفراد. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وكلاً منهما أو منهم.

= والتعرض لوصف الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه (س/٥/٢٦٧).

(١) إظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب (س/٥/٢٦٧).

(٢) التوبة: (٨٠).

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَادَّكَّرَ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَرْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَادَّكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلُ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمِنَا﴾ النبوة والأموال والأولاد. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفخر بهم الناس ويؤمنون عليهم، استجابة لدعوته: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾^(١). والمراد باللسان ما يوجد به، ولسان العرب لغتهم. وإضافته إلى الصدق وتوصيفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يؤمنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار وتحول الدول وتبدل الملل.

(٥١) ﴿وَادَّكَّرَ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ موخداً أخلص عبادته عن الشرك والرياء، أو أسلم وجهه لله وأخلص نفسه عما سواه. وقرأ الكوفيون بالفتح^(٢) على أن الله أخلصه. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قدّم رسولا مع أنه أخلص وأعلى.

(٥٢) ﴿وَنَذَرْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من ناحيته اليمنى من اليمين وهي التي تلي يمين موسى، أو من جانبه اليمون من اليمين بأن تمثل له الكلام من تلك الجهة. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريبٌ تشريف، شبهه بمن قربه الملك لمناجاته. ﴿نَجِيًّا﴾ مناجياً، حال من أحد الضميرين. وقيل مرتفعاً من النجوة وهو الارتفاع، لما روي أنه رُفِعَ فوق السموات حتى سمع صرير القلم.

(٥٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمِنَا﴾ من أجل رحمتنا، أو بعض رحمتنا. ﴿أَخَاهُ﴾ معاضدة أخيه ومؤازرته إجابة لدعوته: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾^(٣) فإنه كان أسن من موسى، وهو مفعول أو بدلٌ على تقدير أن تكون من للتبعض ﴿هَارُونَ﴾ عطف بيان له. ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

(٥٤) ﴿وَادَّكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلُ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ ذكره بذلك لأنه المشهور به والموصوف بأشياء في هذا الباب لم تُعهد من غيره، وناهيك أنه وَعَدَ الصبر على الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٤) فوقى^(٥) ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته.

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ اشتغالا بالأهم وهو أن يُقْبَلَ الرجلُ على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٦). ﴿وَأَمَرَ أَهْلَكَ

(١) الشعراء: ٨٤.

(٢) أي بفتح اللام «مُخْلَصًا».

(٣) طه: ٢٩.

(٤) الصافات: ١٠٢.

(٥) فَصَّلَ ذِكْرَهُ عَنْ ذِكْرِ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَأُورِدَهُ مُتَفَرِّدًا لِإِبْرَازِ كَمَالِ الْإِعْتِنَاءِ بِأَمْرِهِ (س/٥/٢٧٠).

(٦) الشعراء: ٢١٤.

بِالصَّلَاةِ ﴿١﴾. ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (٢). وقيل أهله أمته، فإن الأنبياء آباء الأمم. ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله.

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ﴾ وهو سبط شيث وجد أبي نوح عليهم الصلاة والسلام، واسمه أخنوخ، واشتقاق إدريس من الدرس يرده منع صرفه، نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة دزسه، إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

(٥٧) ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني شرف النبوة والزلفى عند الله، وقيل الجنة، وقيل السماء السادسة أو الرابعة.

(٥٨) ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس عليهم الصلاة والسلام. ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ بيان للموصول. ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار، ويجوز أن تكون من فيه للتبويض لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملنا خصوصاً، وهم من عدا إدريس فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الباقون. ﴿وَإِسْرَءِيلَ﴾ عطف على إبراهيم أي ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ ومن جملة من هديناهم إلى الحق. ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ للنبوة والكرامة. ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبر لأولئك إن جعلت الموصول صفته، واستئناف إن جعلته خبره لبيان خشيتهم من الله ولما خبايتهم له مع ما لهم من علو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله تعالى. وعن النبي عليه الصلاة والسلام «أتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا» (٣). والبكي جمع بك كالسجود في جمع ساجد. وقرئ يئلى بالياء لأن التانيث غير حقيقي، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الباء.

(٥٩) ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فَعَقِبَهُمْ وجاء بعدهم عَقِبُ سَوْءٌ، يقال خَلَفَ صدق - بالفتح -

(١) طه: (١٣٢).

(٢) التحريم: ٦٦.

(٣) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤/١) رقم (١٣٣٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٣١/١٠) وأبو يعلى في المسند (٤٩/٢) - ٥٠ رقم (٦٨٩/١) من حديث سعد بن أبي وقاص.

قال البوصيري في (مصباح الزجاجة) (٢٤٠/١) رقم (٤٧٤): «هذا إسناد فيه أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع ضعيف متروك... هـ».

فالحديث ضعيف، وكذلك ضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجة.

وخلف سوء - بالسكون - . ﴿أَصَاغُوا الصَّلَاةَ﴾ تركوها أو أخروها عن وقتها. ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ كشرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في المعاصي. وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾: مَنْ بَنَى الشَّدِيدَ، وَرَكِبَ الْمَنْظُورَ، وَلَبَسَ الْمَشْهُورَ. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ شراً كقوله:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَخْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لَا يَغْدَمَ عَلَى الْغَيِّ لَأَيْمًا
أو جزاء غي كقوله تعالى: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾^(١) أو غياً عن طريق الجنة، وقيل هو واد في جهنم يستعبد منه أوديتها^(٢).

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُهُمْ مَأْنِيًا ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يدل على أن الآي في الكفرة. ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب على البناء للمفعول من أَدْخَلَ. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ولا يُنْقَصُونَ شيئاً من جزاء أعمالهم، ويجوز أن ينتصب شيئاً على المصدر، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا يُنْقَصُ أجورهم.

(٦١) ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها، أو منصوب على المدح. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. وعدن^(٣) عَلِمَ لأنه المضاف إليه في العلم، أو عَلِمَ للعَدْن بمعنى

(١) الفرقان: «٦٨».

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٢٧٤) والبيهقي في «البعث» رقم (٤٧٠ و ٤٧١) وهناد في «الزهد» رقم (٢٧٦) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة رقم (٣٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (٩/١٠٠ ج ٦) والطبراني في الكبير (٩/٢٥٩ رقم ٩١٠٦ - ٩١١٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٠٦) كلهم عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه. وليس عند أيهم قوله «تستعبد منه أوديتها». وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه. ومع ذلك قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

● وله شاهد من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «غي وأثام نهران في أسفل جهنم يسبل فيهما صديد أهل النار وهما اللذان ذكر الله في كتابه «فسوف يلقون غياً» ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً».

- أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (رقم: ٣٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٩/١٠٠ ج ٦) والدولابي في «الكنى» (١٣/١) والطبراني في «الكبير» (٨/٢٠٦ رقم ٧٧٣١) والبيهقي في «البعث» رقم (٤٧٤).

- وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٣٨٩) وقال: «رواه الطبراني وفيه ضعف قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون» هـ.

والخلاصة أن حديث أبي أمامة ضعيف.

● ولأثر ابن مسعود شاهد من قول عائشة أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/٢٦٢) والبراء بن عازب عند البيهقي في «البعث» وشفي بن مانع عند المروزي في الصلاة (رقم: ٣٨).

والخلاصة أن تفسير الغي بواد في جهنم ثابت مرفوعاً وموقوفاً، نظراً إلى الشواهد.

(٣) ظاهر السياق أن عدن - على تلك القراءة ممنوعة من الصرف لنقلها من المصدر إلى العلمية، كسخر لو قصد بها =

الإقامة كَبْرَةً، ولذلك صَحَّ وَضُفَّ ما أَضِيفَ إليه بقوله: ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي وعدھا إياھم وهي غائبة عنهم، أو وهم غائبون عنها، أو وعدهم بإيمانهم بالغيب. ﴿إِنَّهُ﴾ إن الله. ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ الذي هو الجنة. ﴿مَأْتِيًا﴾ يأتيها أهلها الموعد لهم لا محالة، وقيل هو من أتى إليه إحساناً أي مفعولاً مُنْجَزًا.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَأْكِنٌ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

(٦٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضول كلام. ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ ولكن يسمعون قولاً يَسْلَمُونَ فيه من العيب والنقيصة، أو تسليم الملائكة عليهم، أو تسليم بعضهم على بعض على الاستثناء المنقطع، أو على أن معنى التسليم إن كان لغواً فلا يسمعون لغواً سواه كقوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فَلَوْلَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ^(١)

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وأهلها أغنياء عنه، فهو من باب اللغو ظاهراً، وإنما فائدته الإكرام. ﴿وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعمين والتوسط بين الزهادة والرغبة، وقيل المراد دوام الرزق ودوروه.

(٦٣) ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ تُبْقِيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مالٌ مورثه، والوراثه أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تُعْقَبُ بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل برّد ولا إسقاط. وقيل يُورَثُ المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا زيادةً في كرامتهم. وعن يعقوب نُورِثُ بالتشديد.

(٦٤) ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية قول جبريل عليه الصلاة والسلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذوي القرنين والروح ولم يدرك ما يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً حتى قال المشركون ودّعه ربّه وقلاه، ثم نزل ببيان ذلك^(٢). والنزّل النزول على مهل لأنه مطاوع نزل، وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل، والمعنى وما ننزل وقتاً غيبً وقتاً إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته. وقرئ وما يَنْزِلُ بالياء، والضمير للوحي. ﴿لَهُمْ مَأْكِنٌ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايين لا تنتقل من مكان إلى مكان، ولا تنزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيته. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

= سحرٌ بعينه معروف مُنْع، ومنه القراءة «إِلَّا آل لوط نجيناهم بسحر». هذا ما بدا لي، والله به أعلم.
(١) البيت من الطويل.

وهو توجيه لطيف جداً للآية المجيدة، وهذا من قبيل ما يعرف - في البلاغة - بالمدح بما يشبه الذم، كبيت النابغة الشهير، فإن فلول السيف ليس عيباً لأنه دليل الشجاعة وخوض المعارك.

- والمعنى نفسه في قوله ﷺ «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش...» وقريش مشهورة بفصاحتها ورقة لغتها.

(٢) سبق تخريجه عند الآية (٢٤) من سورة الكهف و(٨٥) من سورة الإسراء، وهو غير صحيح، والله أعلم.

نَسِيًّا ﴿ تَارِكًا لَكَ ، أَي مَا كَانَ عَدَمُ التَّزُولِ إِلَّا لِعَدَمِ الْأَمْرِ بِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ تَرْكِ اللَّهِ لَكَ وَتَوَدِيعِهِ إِيَّاكَ كَمَا زَعَمَتِ الْكُفْرَةُ وَإِنَّمَا كَانَ لِحِكْمَةٍ رَأَاهَا فِيهِ . وَقِيلَ أَوَّلُ الْآيَةِ حِكَايَةُ قَوْلِ الْمُتَّقِينَ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَالْمَعْنَى وَمَا تَنْزِلُ الْجَنَّةُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ وَلُطْفِهِ ، وَهُوَ مَالِكُ الْأُمُورِ كُلِّهَا السَّالِفَةِ وَالْمُتَرَقِّبَةِ وَالحَاضِرَةِ فَمَا وَجَدْنَاهُ وَمَا نَجَدَهُ مِنْ لُطْفِهِ وَفَضْلِهِ . وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ تَقْرِيرٌ مِنَ اللَّهِ لِقَوْلِهِمْ ، أَي وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا لِأَعْمَالِ الْعَامِلِينَ وَمَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَيْهَا . وَقَوْلُهُ :

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾

(٦٥) ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بَيَانٌ لَامْتِنَاعِ النِّسْيَانِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ خَيْرٌ مَحْذُوفٍ أَوْ بَدَلٍ مِنْ رَبِّكَ ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ خُطَابٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مَرْتَبٌ عَلَيْهِ ، أَي لَمَّا عَرَفْتَ رَبَّكَ لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْسَاكَ ، أَوْ أَعْمَالُ الْعَمَالِ فَأَقْبِلْ عَلَى عِبَادَتِهِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا وَلَا تَتَشَوَّشْ بِإِبْطَاءِ الْوَحْيِ وَهَزْءِ الْكُفْرِ . وَإِنَّمَا عَدِي بِاللَّامِ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الثَّبَاتِ لِلْعِبَادَةِ فِيمَا يُوْرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَشَاقِّ ، كَقَوْلِكَ لِلْمُحَارِبِ : اصْطَبِرْ لِقَرْنِكَ . ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ مَثَلًا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى إِلَهًا ، أَوْ أَحَدًا سُمِّيَ اللَّهُ فَإِنَّ الْمَشْرُوكِينَ وَإِنْ سَمَّوْا الصَّنَمَ إِلَهًا لَمْ يَسْمُوهُ اللَّهُ قَطُّ ، وَذَلِكَ لظُهُورِ أَحَدِيَّتِهِ تَعَالَى ، وَتَعَالَى ذَاتُهُ عَنْ الْمِمَّاثِلَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَقْبَلِ اللَّبْسَ وَالْمُكَابِرَةَ ، وَهُوَ تَقْرِيرٌ لِلْأَمْرِ أَي إِذَا صَحَّ أَنْ لَا أَحَدَ مِثْلُهُ وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ لَمْ يَكُنْ بَدَلٌ مِنَ التَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ وَالِاشْتِغَالِ بِعِبَادَتِهِ وَالِاصْطِبَارِ عَلَى مَشَاقِهَا .

(٦٦) ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ ﴾ الْمُرَادُ بِهِ الْجَنْسُ بِأَسْرِهِ فَإِنَّ الْمَقُولَ مَقُولٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَقْلَهُ كُلُّهُمْ ، كَقَوْلِكَ : بَنُو فُلَانٍ قَتَلُوا فُلَانًا وَالْقَاتِلُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ . أَوْ بَعْضُهُمُ الْمَعْهُودُ وَهُمْ الْكُفْرَةُ أَوْ أَبِيُّ بْنُ خُلْفٍ ^(١) فَإِنَّهُ أَخَذَ عِظَامًا بِالْيَةِ فَفَتَّهَا وَقَالَ : يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّنَا نُبْعَثُ بَعْدَ مَا نَمُوتُ . ﴿ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴾ مِنْ الْأَرْضِ أَوْ مِنْ حَالِ الْمَوْتِ . وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ وَإِبْلَاؤُهُ حَرْفُ الْإِنْكَارِ لِأَنَّ الْمُنْكَرَ كَوْنُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَقَتِ الْحَيَاةِ ، وَانْتِصَابُهُ بِفَعْلٍ دَلَّ عَلَيْهِ أَخْرَجَ لَا بِهِ فَإِنَّ مَا بَعْدَ اللَّامِ لَا يَعْمَلُ فِيمَا قَبْلُهَا ، وَهِيَ هُنَا مُخْلِصَةٌ لِلتَّوَكِيدِ مَجْرُودَةٌ عَنْ مَعْنَى الْحَالِ كَمَا خُلِصَتْ الْهَمْزَةُ وَاللَّامُ فِي يَا اللَّهُ لِلتَّعْوِيزِ فَسَاغَ اقْتِرَانُهَا بِحَرْفِ الْاسْتِقْبَالِ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ ذَكْوَانَ إِذَا مَا مِثُّ بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ مَكْسُورَةٍ عَلَى الْخَبَرِ .

(٦٧) ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ ﴾ عَطْفٌ عَلَى يَقُولِ . وَتَوْسِيطُ هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَاطِفِ - مَعَ أَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يَتَقَدَّمَ هُمَا - لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمُنْكَرَ بِالذَّاتِ هُوَ الْمَعْطُوفُ ، وَأَنَّ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ إِنَّمَا نَشَأَ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ لَوْ تَذَكَّرَ وَتَأَمَّلَ ﴿ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ بَلْ كَانَ عَدَمًا صَرَفًا لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ أَعْجَبُ مِنْ جَمْعِ

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٣٠١) عن الكلبي .
وانظر «الجامع لأحكام القرآن» (١١/١٣١) .

المواد بعد التفريق وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وقالون عن يعقوب يذكُر من الذُكر الذي يراد به التفكير، وقرئ يَتَذَكَّر على الأصل.

(٦٨) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم باسمه تعالى مضافاً إلى نبيه تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن رسول الله ﷺ. ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف أو مفعول معه، لما روي أن الكفرة يُحْشَرُونَ مع قُرَنَائِهِمْ من الشياطين الذين أغوَوْهم، كلٌّ مع شيطانه في سِلْسَلَة، وهذا وإن كان مخصوصاً بهم ساغ نسبته إلى الجنس بأسره، فإنهم إذا حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا جميعاً معهم. ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ ليرى السعداء مانجاهم الله منه فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما آذخروا لمعادهم عِدَّةً ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم ﴿حِثِّيًّا﴾ على ركبهم لما يدهمهم من هول المَطْلَع، أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، وأهل الموقف جاثون لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾^(١) على المعتاد في مواقف التقاول. وإن كان المراد بالإنسان الكفرة فلعلهم يُساقون جُثَاةً من الموقف إلى شاطئ جهنم إهانةً بهم، أو لعجزهم عن القيام لما عراهم من الشدة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص حِثِّيًّا بكسر الجيم.

(٦٩) ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شاعت ديناً. ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ مَنْ كان أعصى وأعتى منهم فنطرُحهم فيها، وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو كثيراً من أهل العصيان ولو خص ذلك بالكفرة فالمراد أنه يميّز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يُدْخِلُ كلاً طبقته التي تليق به. وأيُّهم مبني على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يُبْنَى كسائر الموصولات، لكنه أُعْرِبَ حملاً على كلٍّ وبعض للزوم الإضافة، وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوبً المحل بنزعن، ولذلك قرئ منصوباً. ومرفوعٌ عند غيره إما بالابتداء على أنه استفهامي وخبره أشدّ والجمله محكية وتقدير الكلام: لنزعن من كل شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد؛ أو معلقٌ عنها لنزعن لتضمّنه معنى التمييز اللازم للعلم؛ أو مستأنفة والفعل واقعٌ على «مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ» على زيادة مِنْ؛ أو على معنى لنزعن بعض كل شيعة، وإما بشيعة لأنها بمعنى تشيع، وعلى للبيان أو متعلق بأفعل، وكذا الباء في قوله:

(٧٠) ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَؤْتَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي لنحن أعلم بالذين هم أولى بالصِّلِي، أو صِلِيَّهِمْ أولى بالنار وهم المنتزعون، ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص صِلِيًّا بكسر الصاد.

(٧١) ﴿وَلَإِنْ يَنْكُرُ﴾ وما منكم، الثفات إلى الإنسان، ويؤيده أنه قرئ وإن منهم. ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إلا واصلها وحاضرٌ دونها يمرّ بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار، فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة»^(٢) وأما قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا

(١) الجاثية: (٢٨).

(٢) لم يثبت رفعه ولكنه مروي من قول خالد بن معدان وهو تابعي كبير، وقد رواه عنه عبدالله بن المبارك في الزهد

مُبْعَدُونَ^(١) فالمراد عن عذابها. وقيل ورودها الجواز على الصراط فإنه ممدود عليها. ﴿كَانَ عَلَى رَيْكَ حَتْمًا مَقْصِيًّا﴾ كان ورودهم واجباً أوجبه الله على نفسه وقضى به، بأن وعد به وعداً لا يمكن خلفه. وقيل أقسم عليه.

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾

(٧٢) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فيساقون إلى الجنة. وقرأ الكسائي ويعقوب نُنَجِّي بالتخفيف، وقرئ ثم بفتح الثاء أي هناك. ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ منهاراً بهم كما كانوا، وهو دليل على أن المراد بالورود الجثو حوالها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد تجائبهم، وتبقى الفجرة فيها منهاراً بهم على هياتهم.

(٧٣) ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ مرثلات الألفاظ مبيّنات المعاني بنفسها أو ببيان الرسول ﷺ وواضحات الإعجاز. ﴿قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأجلهم أو معهم. ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين. ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ موضع قيام أو مكاناً. وقرأ ابن كثير بالضم أي موضع إقامة ومنزل. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً ومجتمعاً. والمعنى أنهم لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها والدخل عليها أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى، لقصور نظرهم على الحال وعلمهم بظاهر من الحياة الدنيا، فردّ عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله:

(٧٤) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ وكم مفعول أهلكنّا، ومن قرن بيانه، وإنما سمي أهل كل عصر قرناً - أي مقدماً - من قرن الدابة وهو مقدمها لأنه يتقدم من بعده، وهم أحسن صفة لكم، وأثناً تمييز عن النسبة. وهو متاع البيت، وقيل هو لما جدّ منه والخزئي ما رث والرثي المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن والخبز. وقرأ نافع وابن عامر ريثاً على قلب الهمزة وإدغامها أو على أنه من الرّي الذي هو النعمة، وقرأ أبو بكر ريثاً على القلب، وقرئ ريثاً بحذف الهمزة، وزياً من الزي وهو الجمع فإنه محاسن مجموعة. ثم بين أن تمتيعهم استدراج وليس بإكرام، وإنما العيار على الفضل والنقص ما يكون في الآخرة بقوله:

(٧٥) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فيمدّه ويُمهله بطول العمر والتمتع به، وإنما أخرجه

= (ص ١٢٢ رقم ٤٠٧) وأبو عبيد القاسم بن سلام في الغريب (٤/ ٣٤٧) مادة أهل) وابن أبي شيبة في المصنف

(١٣/ ٥٦١) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٢) في ترجمة خالد بن معدان.

وهذا الأثر صحيح السند (تخريج الكافي الشافعي ص ٨١٨) ص ٥٩٨ (١).

(١) الأنبياء: ١٠١١.

على لفظ الأمر إيداناً بأن إمهاله مما ينبغي أن يفعله استدراجاً وقطعاً لمعاذيره^(١) كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾^(٢) وكقوله: ﴿أَوَلَمْ نَعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾^(٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية المذ. وقيل غاية قول الذين كفروا للذين آمنوا، أي قالوا أي الفريقين حتى إذا رأوا ما يوعدون. ﴿إِنَّمَا أَلْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ﴾ تفصيل للموعود، فإنه إما العذاب في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا﴾ من الفريقين بأن عاينوا الأمر على عكس ما قدروه وعاد ما مُتَّعُوا به خُذْلَاناً ووبالاً عليهم، وهو جواب الشرط، والجملة محكية بعد حتى. ﴿وَأَضَعُفُ جُنْدًا﴾ أي فئة وأنصاراً، قابل به أحسن ندياً من حيث إن حُسن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم.

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنُرْثِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ عطفٌ على الشرطية المحكية بعد القول، كأنه لما بين أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله أراد أن يبين أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأن الله عز وجل أراد به ما هو خير له وعوضه منه. وقيل عطفٌ على فليمدد، لأنه في معنى الخبر كأنه قيل مَنْ كان في الضلالة يزيد الله في ضلاله ويزيد المقابل له هداية. ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ﴾ الطاعات التي تبقى عائدتها أبد الآباد، ويدخل فيها ما قيل من الصلوات الخمس وقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عائدة مما مُتَّعَ به الكفرة من النعم المخدجة^(٤) الفانية التي يفتخرون بها، سيّما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة والعذاب الدائم كما أشار إليه بقوله: ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ والخير ههنا إما لمجرد الزيادة، أو على طريقة قولهم الصيفُ أحرّ من الشتاء أي أبلغ في حرّه منه في برده^(٥).

(٧٧) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ نزلت في العاص بن وائل، كان لخبّاب عليه مالٌ فتقاضاه فقال له: لا حتى تكفر بمحمد، فقال: لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث، قال فإذا بعثت جئتني فيكون لي ثمّ مال وولد فأعطيك^(٦). ولما كانت الرؤية أقوى سندٍ الإخبار

(١) وصفهم بالتمكّن «كان في...» لزمهم والإشعار بعله الحكم (س/٥/٢٧٧).

(٢) آل عمران: «١٧٨».

(٣) فاطر: «٣٧».

(٤) المخدجة أي الناقصة.

(٥) وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيدها (س/٥/٢٧٨).

(٦) أخرجه البخاري (٤/٣١٧ رقم ٢٠٩١) و(٤/٤٥٢ رقم ٢٢٧٥).

استعمل أرايت بمعنى الإخبار، والفاء أصلها في التعقيب والمعنى: أخبر بقصة هذا الكافر عقب حديث أولئك. وقرأ حمزة والكسائي وُلْدًا وهو جمع وَلَد كَأَسَد في أُسْد، أو لغة فيه كَالْعَرَب والعُزْب.

(٧٨) ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ أَقْد بلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى عِلْم الغيب الذي توخَّده به الواحد القهار، حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالا وولداً وتألَّى عليه. ﴿أَوَاتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أو اتخذ من عالم الغيب عهداً بذلك، فإنه لا يُتَوَصَّلُ إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقتين. وقيل العهد كلمة الشهادة والعمل الصالح، فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد عليه^(١).

(٧٩) ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبه على أنه مخطيء فيما تصوره لنفسه. ﴿سَنَكْنُبُ مَا يَقُولُ﴾ سنظهر له أنا كتبنا قوله، على طريقة قوله * إذا ما انتسبنا لم تلدني لثيمة * أي تبين أنني لم تلدني لثيمة. أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدو وحفظها عليه؛ فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ﴾^(٢). ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ونطوِّل له من العذاب ما يستأهله، أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافتراءه واستهزائه على الله جلّت عظمته، ولذلك أكدّه بالمصدر دلالة على فرط غضبه عليه.

(٨٠) ﴿وَنَرِثُهُ﴾ بموته. ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني المال والولد. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة. ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا، فضلاً أن يؤتى ثم زائداً. وقيل فرداً رافضاً لهذا القول منفرداً عنه.

(٨١) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ليتعزّزوا بهم حيث يكونون لهم وُصلة إلى الله وشفعاء عنده.

(٨٢) ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار لتعزّزهم بها. ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا، لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾^(٣). أو سينكر الكفرة لسوء العاقبة أنهم عبدوها، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٤) ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ يؤيد الأول إذا قُسر الضد بضد العز أي ويكونون عليهم ذلاً، أو بضدهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد بها نيرانهم، أو جعل الواو للكفرة أي يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها. وتوحيده لوخدة المعنى الذي به مضادتهم، فإنهم بذلك كالشيء الواحد، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «وهم يدُّ على من سواهم»^(٥). وقرئ كَلَّا بالتثنية على قلب الألف نوناً في الوقف قلب السلام.

= و(٥/٧٧ رقم ٢٤٢٥) و(٨/٤٢٩ رقم ٤٧٣٢) و(٨/٤٣٠ رقم ٤٧٣٣) و(٨/٤٣٠ رقم ٤٧٣٤) و(٨/٤٣١ رقم ٤٧٣٥).

ومسلم (٤/٢١٥٣ رقم ٣٥، ٣٦/٢٧٩٥) والنسائي في التفسير (رقم: ٣٤٢) والترمذي (٥/٣١٨ رقم ٣١٦٢) عن حديث خباب بن الارت.

(١) والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيثار ما يدعيه (س/٢٧٩).

(٢) ق: «١٨».

(٣) البقرة: «١٦٦».

(٤) الأنعام: «٢٣».

(٥) وهو جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤/٦٧٠ رقم ٤٥٣١) وابن ماجه (٢/٨٩٥ رقم ٢٦٨٥) وأحمد (٢/١٨٠).

ألف الإطلاق في قوله:

أَقْلِي اللَّؤْمَ عَاذِلٌ وَالْعِتَابَيْنِ

أو على معنى كل هذا الرأي كلاً، وكلاً على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

(٨٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بأن سَلَطْنَاهُمْ عليهم أو قَبَضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ. ﴿تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ تَهْزُهُمْ وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات، والمراد تعجيب رسول الله ﷺ من أقاويل الكفرة وتماديهم في الغي وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة.

(٨٤) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم. ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ والمعنى لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبقَ لهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة.

(٨٥) ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ نجتمعهم. ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾ إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، واختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿وَفْدًا﴾ وافدين عليه كما يَقْدُ الوُقَاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

(٨٦) ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم. ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ عَطَاشًا فَإِنَّ مَنْ يَرِدُ الْمَاءَ لَا يَرُدُّهُ إِلَّا لِعَطَشٍ، أو كالدواب التي ترد الماء.

(٨٧) ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ الضمير فيها للعباد المدلول عليها بذكر الْقِسْمَيْنِ، وهو الناصب لليوم. ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ إلا من تحلى بما يُسْتَعَدُّ به وَيَسْتَأْهِلُ أَنْ يَشْفَعَ لِلْعَصَاةِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَى مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى، أو إلا من اتخذ من الله إِذْنًا فِيهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾^(١) من قولهم: عَهْدَ الْأَمِيرِ إِلَى فَلَانٍ بِكَذَا إِذَا أَمَرَهُ بِهِ. ومحلّه الرَفْعُ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الضَّمِيرِ، أو النَّصْبُ عَلَى تَقْدِيرِ مِضَافٍ أَيْ إِلَّا شَفَاعَةً مِنْ اتَّخَذَ، أو عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ. وقيل الضمير

= (٢١١، ٢١٥) كلهم من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

● وأخرجه أبو داود (٦٦٦/٤ - ٦٦٩ رقم ٤٥٣٠) والنسائي (١٩/٨ - ٢٠ رقم ٤٧٣٤) وأحمد (١٢٢/١)

وأبو يعلى (٢٨٢/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٩/٨) كلهم من حديث علي رضي الله عنه.

● وحديث علي له طريق آخر أخرجه أحمد (١١٩/١) وابنه في زوائده (١٢٢/١) والنسائي (٢٤/٨) رقم

(٤٧٤٥).

والخلاصة أن الحديث صحيح. وانظر الإرواء (٢٥٠/٤ - ٢٥١ رقم ١٠٥٨).

(١) طه: ١٠٩.

للمجرمين، والمعنى: لا يملكون الشفاعة فيهم إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً يستعد به أن يشفع له بالإسلام.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِجْرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

(٨٨) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ الضمير يحتمل الوجهين، لأن هذا لما كان مقولاً فيما بين الناس جاز أن يُنسب إليهم.

(٨٩) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى. والإد - بالفتح والكسر - العظيم المنكر، والإدَّة الشدة، وأدني الأمر وأدني أنفلي وعظم علي.

(٩٠) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب يَنْفَطَرْنَ، والأول أبلغ لأن التفعل مُطَاوِعُ فَعَلٍ والانفعال مُطَاوِعُ فَعَلٍ ولأن أصل التفعل التكلف. ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِجْرُ الْجِبَالِ هَذَا﴾ تهذ هداً أو مهدودة أو لأنها تهذ أي تكسر، وهو تقرير لكونه إدًّا، والمعنى أن هول هذه الكلمة وعظمتها بحيث لو نُصِّوَتْ بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفتتت من شدتها، أو أن فظاعتها مُجْلِيَةٌ لغضب الله بحيث لولا جلhme لخرب العالم وبدد قوائمه غضباً على مَنْ تفوه بها.

(٩١) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ يحتمل النصب على العلة لتكاد أو لهذا على حذف اللام وإفضاء الفعل إليه، والجرُّ بإضمار اللام أو بالإبدال من الهاء في منه، والرفع على أنه خبرٌ محذوف تقديره الموجبُ لذلك أن دعوا، أو فاعلٌ هذا أي هدها دعاء الولد للرحمن، وهو مِنْ دَعَا بمعنى سَمَى المتعدي إلى مفعولين، وإنما اقتصر على المفعول الثاني ليعيط بكل ما دَعَى له ولداً، أو مِنْ دَعَا بمعنى نَسَبَ الذي مطاوعه ادعى إلى فلان إذا انتسب إليه.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا يليق به اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلاً له مستحيل، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عدها نعمةً ومُنعم عليه فلا يجانس مَنْ هو مَبْدَأُ النعم كلها ومُولي أصولها وفروعها، فكيف يمكن أن يتخذ ولدًا؟! ثم صرح به في قوله:

(٩٣) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما منهم. ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد. وقرئ آتَى الرحمن على الأصل.

(٩٤) ﴿لَقَدْ أَخَصَنَّمْ﴾ حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه وقبضة قدرته. ﴿وَعَدَهُمْ عَذَابًا﴾ عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار.

(٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ منفرداً عن الأتباع والأنصار فلا يجانسُه شيء من ذلك ليتخذَه ولداً ولا يناسبه ليشرك به.

(٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ سيُحْدِث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها، وعن النبي ﷺ «إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض»^(١). والسين إما لأن السورة مكية وكانوا ممقوتين حيثثذ بين الكفرة فوعدهم ذلك إذا دجأ الإسلام، أو لأن الموعود في القيامة حين تُغْرَض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فيتزع ما في صدورهم من الغل^(٢).

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِسَإِئِكَ﴾ بلغتك، والباء بمعنى على أو على أصله لتضمن يَسْرَنَاهُ معنى أنزلناه أي أنزلناه بلغتك. ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى. ﴿وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ أشداء الخصومة آخذين في كل لديد، أي شق من المراء لِفِرْط لَجَاجِهِمْ فبشر به وأنذر.

(٩٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ تخويفٌ للكفرة وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم. ﴿هَلْ نَحْنُ بِمَبْعُوثٍ مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل نشعر بأحد منهم وتراه. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وقرىء تُسْمَعُ من أسمع. والركز الصوت الخفي، وأصل التركيب هو الخفاء، ومنه ركز الرمح إذا غيَّب طرفه في الأرض، والركاز المال المدفون. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله»^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣/٦ رقم ٣٢٠٩) و(٤٦١/١٣ رقم ٧٤٨٥) ومسلم (٢٠٣٠/٤ رقم ٢٦٣٧/١٥٧) حديث أبي هريرة.

(٢) والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود من آثارها (س/٢٨٣).

(٣) رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي - كما في «الكافي الشاف» (رقم: ٣٦٠) - وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٣٩/١، ٢٤٠) وتقدم الكلام عليه في آخر آل عمران.

سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ
الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن
تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

سورة طه مكية^(١) ، وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طه﴾ فَخَمَّهَا قَالُونَ^(٢) وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل، وفخَّم الطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه، وأمالهما الباقون. وهما من أسماء الحروف. وقيل معناه يا رجل على لغة عك^(٣) ، فإن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، والاستشهاد بقوله:

(١) مكية كلها في قول الجميع.

فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت طه بمكة، وأخرجه أيضاً ابن مردويه عن ابن الزبير. [انظر الدر المنثور] (٥/٥٤٨) و«زاد المسير» (٥/٢٦٨) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/١٦٣).

(٢) هو عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصمد، و(قالون) لقب له. لُقِّبَ به (نافع) لجودة قراءته، كان قارئ المدينة المنورة. قال أبو محمد البغدادي: كان (قالون) أصم شديد الصمم، لا يسمع البوق، فإذا قرأ عليه القرآن سمعه. توفي بالمدينة المنورة سنة عشرين ومائتين في عهد الخليفة المأمون.

(٣) قال ابن جرير (٩/١٦٦ ج ١ - ١٣٧): «والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه: قول من قال: معناه يا رجل. لأنها كلمة معرفة في عك فيما بلغني وأن معناها فيهم: يا رجل، أنشدت لمتمم بن نويرة:

هتفت بطّة في القتال فلم يُجِبْ فخفّت عليه أن يكون مؤيلاً

إِنَّ السَّاهَةَ طَاهَا فِي خَلَاتِكُمْ لَا قَدَسَ اللَّهُ أَخْلَاقَ الْمَلَائِكِينَ
ضعيف لجواز أن يكون قَسَمًا كقوله حم لا ينصرون. وقرئ طَه على أنه أمر للرسول ﷺ بأن يطأ
الأرض بقدميه^(١)، فإنه كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، وأن أصله طَأ فقلبت همزته هاء أوقت
في يطاء ألفاً كقوله * لا هُنَاكَ المَرْتَع * ثم بنى عليه الأمرَ وضم إليه هاء السكت، وعلى هذا يحتمل أن
يكون أصل طه طَاهَا، والألفُ مبدلةً من الهمزة، والهاء كناية الأرض. لكن يَزِيدُ ذلك كتابتهما على
صورة الحرف، وكذا التفسير بيَّا رجلُ، أو اكتفى بشطري الكلمتين وعبر عنهما باسمهما.

(٢) ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ خبر طه إن جعلته مبتدأ على أنه مؤول بالسورة أو القرآن، والقرآن
فيه واقع موقع العائد وجوابه إن جعلته مُقَسِّمًا به ومنادى له إن جعلته نداءً، واستئناف إن كانت جملة
فعلية أو اسمية بإضمار مبتدأ، أو طائفة من الحروف محكية والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب
بفرض تأسفك على كفر قريش إذ ما عليك إلا أن تبلغ، أو بكثرة الرياضة وكثرة التهجد والقيام على
ساق. والشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقى من راضٍ المهر، وسيد القوم أشقاهم. ولعله عدل إليه
للإشعار بأنه أنزل عليه ليسعد. وقيل رد وتكذيب للكفرة، فإنهم لما رأوا كثرة عبادته قالوا إنك لتشقى
بترك ديننا وإن القرآن أنزل عليك لتشقى به^(٢).

(٣) ﴿إِلَّا نَذْكِرْكَ﴾ لكن تذكيراً، وانتصائها على الاستثناء المنقطع. ولا يجوز أن يكون بدلاً من
محل لتشقى لاختلاف الجنس، ولا مفعولاً له لأنزلنا فإن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين. وقيل
هو مصدر في موقع الحال من الكاف أو القرآن، أو مفعول له على أن لتشقى متعلق بمحذوف هو صفة
القرآن أي ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه إلا تذكرة. ﴿لَمَنْ يَخْشَى﴾ لمن في قلبه خشية ورقة
تتأثر بالإنذار، أو لمن علم الله منه أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع به.

(٤) ﴿تَزِيلًا﴾ نصبٌ بإضمار فعله أو بيخشي، أو على المدح، أو البدل من تذكرة إن جعل حالاً.
وإن جعل مفعولاً له لفظاً أو معنى فلا، لأن الشيء لا يُعَلَّلُ بنفسه ولا بنوعه. ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ
الْعُلَى﴾ مع ما بعده إلى قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٣) تفخيم لشأن المنزل بفرض تعظيم المنزل بذكر
أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول
العالم، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات العلى، وهو جمع العليا تأنيث
الأعلى، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام

(١) ورد ذلك عن علي وابن عباس، وأخرجه ابن مردويه والبيهقي في الشعب (فتح القدير ٣/ ٣٦٠) والبخاري (كشف
الاستار ٥٨/ ٣) والقاضي عياض في الشفاء (٤١/ ١).

وهو ضعيف بجميع طرقه كما في تخريج الفتح السماوي (ص ٨٢٣).

وعليه فالأولى أن يكون «طه» مثل بقية الحروف المقطعة في أوائل السور.

(٢) ما ورد أن الكفرة قالوا بأن القرآن أنزل عليك لتشقى به.. أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ٣١٢) بسنده
عن الضحاك، وكذا أخرجه ابن جرير والطبراني في المعجم الكبير (٣١٢/ ١ ج ٩٨٩) وفي سنده موسى بن عبيدة
وهو ضعيف (التقريب ٢/ ٢٨٦) وضعفه الهيثمي أيضاً (المجمع ٤/ ١٢٦).

(٣) طه: «٨».

والتقادير وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال:

(٥) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١).

(٦) ﴿لَمْ يَلَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته، ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم عقب ذلك بإحاطة علمه تعالى بجليات الأمور وخفياتها على سواء فقال:

(٧) ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْيُسْرَى وَأَخْفَى﴾ أي وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس. وفيه تنبيه على أن شرع الذكر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله بل لتصوير النفس بالذكر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع والجوار، ثم إنه لما ظهر بذلك أنه المستجمع لصفات الألوهية بين أنه المتفرد بها والمتوحد بمقتضاها فقال:

(٨) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وَمَنْ فِي مِثْنِ خَلْقِ الْأَرْضِ صَلَةً لِنَزِيلٍ أَوْ صِفَةٍ لَهُ. والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام، وتفخيم المتزل من وجهين: إسناده إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام، والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث إنه كلام مَنْ هذا شأنه. ويجوز أن يكون أنزلناه حكاية كلام جبريل والملائكة النازلين معه. وقرئ الرحمن على الجر صفة لِمَنْ خلق، فيكون «على العرش استوى» خبرٌ محذوف، وكذا إن رُفِعَ الرحمن على المدح دون الابتداء، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً. والثرى الطبقة الترابية من الأرض وهي آخر طبقاتها^(٢). والحسنى تأنيث الأحسن، وفُضِّلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلالاتها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها.

(٩) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ قَفَى تمهيد نبوته ﷺ بقصة موسى ليأتى به في تحمل أعباء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.

(١٠) ﴿إِذْ رَأَيْنَاكَ ظُرْفًا لِلْحَدِيثِ لِأَنَّهُ حَدَّثَ، أَوْ مَفْعُولٌ لِأَذْكُرَ. قِيلَ إِنَّهُ اسْتَأْذَنَ شَعِيباً^(٣) عَلَيْهِمَا الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى أُمِّهِ، وَخَرَجَ بِأَهْلِهِ فَلَمَّا وَافَى وَادِي طَوًى وَفِيهِ الطُّورُ وُلِدَ لَهُ ابْنٌ فِي

(١) وصفه تعالى بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى (س/٦/٥).

(٢) الثرى هو التراب، وذكره - مع دخوله تحت ما في الأرض - لزيادة التقرير (س/٦/٥).

(٣) قال سيد قطب في الظلال (٥/٢٦٨٧ رقم التعليق: ١) «سبق أن قلت مرة في الظلال: إنَّ هذا الرجل هو شعيب. وقلت مرة إنه قد يكون النبي شعيباً أو لا يكون.. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدین، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبقَ معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب - النبي - بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بتي نبهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل. يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره.. ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات» هـ.

ليلة شاتية مظلمة مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته إذ رأى من جانب الطور ناراً. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أقيموا مكانكم. وقرأ حمزة «لأهله امكثوا» وهنا وفي القصص^(١) بضم الهاء في الوصل، والباقون بكسرها. ﴿إِنِّي نَارٌ نَارًا﴾ أبصرتها إبصاراً لا شبهة فيه، وقيل الإيناس إبصاراً ما يؤنس به. ﴿لَعَلِّي أُنِيبُكُمْ مِّنْهَا بِقَسَيْ﴾ بشعلة من النار، وقيل جمرة. ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين، فإن أفكار الأبرار مائلة إليها في كل ما يعن لهم. ولما كان حصولهما مترقباً بنى الأمر فيهما على الرجاء، بخلاف الإيناس فإنه كان مُحققاً ولذلك حققه لهم ليوطنوا أنفسهم عليه. ومعنى الاستعلاء في «على النار» أن أهلها مشرفون عليها، أو مستعلون المكان القريب منها كما قال سيويه في: مررت بزيد إنه لصُوق بمكان يقرب منه.

فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾

(١١) ﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾ أي النار وجد ناراً بيضاء تنقد في شجرة خضراء. ﴿نُودِيَ يَمُوسَى﴾. (١٢) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فَتَحَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو أَي بَأْتِي، وكسره الباقون بإضمار القول أو إجراء النداء مجراه، وتكرير الضمير للتوكيد والتحقيق. قيل إنه لما نودي قال: مَنْ المتكلم؟ قال: إني أنا الله، فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمع من جميع الجهات وجميع الأعضاء. وهو إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً، ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة. ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أَمَرَهُ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْحِفْوَ تَوَاضِعٌ وَأَدَبٌ، وَلِذَلِكَ طَافَ السَّلَفُ حَافِينَ، وَقِيلَ لِنَجَاسَةِ نَعْلَيْهِ فَإِنَّهُمَا كَانَتَا مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ مَدْبُوعٍ^(٢)، وَقِيلَ مَعْنَاهُ فَرَّغْ قَلْبَكَ مِنَ الْأَهْلِ وَالْمَالِ. ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ تعليل للأمر باحترام البقعة، والمقدس يحتمل المعنيين. ﴿طُوًى﴾ عطف بيان للوادي، ونُوتُهُ ابْنُ عَامِرٍ وَالْكُوفِيُّونَ بِتَأْوِيلِ الْمَكَانِ. وَقِيلَ هُوَ كَثَّى مِنَ الطِّيِّ مَصْدَرٌ لِنُودِي أَوِ الْمُقَدَّسِ، أَي نُودِيَ نَدَاءً مِنْ أَوْ قُدُسٍ مَرَّتَيْنِ.

(١٣) ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوّة. وقرأ حمزة وأنا اخترناك. ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ للذي يوحى إليك، أو للوحي. واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين.

(١٤) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ بدلٌ ممّا يوحى، دالٌّ على أنه مقصور على تقرير التوحيد

(١) القصص: ٢٩.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٤١٠ - مع التحفة) وقال «هذا حديث غريب. لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج، وحميد الأعرج هو ابن علي الأعرج، منكر الحديث».

- وأخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٣٧٩) وصححه على شرط البخاري فتعقبه الذهبي بقوله: «بل ليس على شرط البخاري، وإنما غره أن في الإسناد حميد بن قيس كذا وهو خطأ إنما هو حميد الأعرج الكوفي ابن علي، أو ابن عمار، أحد المتروكين، فظنه المكي الصادق» هـ.

الذي هو متتهى العلم والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ خصها بالذكر وأفردتها بالأمر للعلّة التي أناط بها إقامتها، وهو تذكّر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره. وقيل لذكرى لأنّي ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأنّ أذكرك بالثناء، أو لذكرى خاصة لا تُراثي بها ولا تشوبها بذكر غيري. وقيل لأوقات ذكّري وهي مواقيت الصلاة، أو لذكر صلاتي، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها إذا ذكرها، إن الله تعالى يقول «أقم الصلاة لذكري»^(١).

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة^(٢). ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ولولا ما في الإخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار لما أخبرت به، أو أكاد أظهرها من أخفائها إذا سلب خفاءه، ويؤيده القراءة بالفتح من خفاء إذا أظهره. ﴿لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلق بآتية أو بأخفيها على المعنى الأخير.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ عن تصديق الساعة، أو عن الصلاة. ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ نهى الكافر أن يصد موسى عليه الصلاة والسلام عنها، والمراد نهيه أن ينصد عنها كقولهم: لا أرينك ههنا، تنبيهاً على أن فطرته السليمة لو خلّيت بحالها لا اختارها ولم يُعرض عنها، وأنه ينبغي أن يكون راسخاً في دينه فإن صد الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه. ﴿وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ميل نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدجة فقصر نظره عن غيرها. ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فتهلك بالانصداد بصدّه.

(١٧) ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ استفهام يتضمن استيقاظاً لما يُريه فيها من العجائب. ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال من معنى الإشارة، وقيل صلة تلك. ﴿يَمْوَسَّىٰ﴾ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه.

(١٨) ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ وقرئ عَصِيَّ عَلَى لُغَةٍ هَذِيل^(٣). ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ اعتمد عليها إذا أعيت أو وقفت على رأس القطيع. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي. وقرئ أَهْشُ وكلاهما من هَشَّ الخبز يَهْشُ إذا انكسر لهشاشته^(٤)، وقرئ بالسّين من الهَسَّ وهو زجر الغنم. أي

(١) أخرجه البخاري (٧٠/٢) رقم ٥٩٧ ومسلم (٤٧٧/١) رقم ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٦٨٤.

والبغوي في «شرح السنة» (٢٤١/٢) من حديث أنس.

وكذلك أخرجه مسلم (٤٧١/١) رقم ٦٨٠/٣٠٩ من حديث أبي هريرة.

(٢) عبر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين (س/٨/٦).

(٣) نسب العصا إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها يمينه، وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه الصلاة والسلام (س/١٠/٦).

(٤) وتعدية الفعل أهش بـ «على» لتضمين معنى الانحاء والإقبال (س/١٠/٦).

أنحي عليها زاجراً لها. ﴿وَلِيَّ فِيهَا مَنَارٌ أُخْرَى﴾ حاجات آخر، مثل أن كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وعَرَضَ الزندين على شعبيتها وألقى عليها الكساء واستَظَلَّ به، وإذا قَصُرَ الرِّشَاءُ^(١) وَصَلَهُ بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها. وكأنه ﷺ فهم أن المقصود من السؤال أن يذكُر حقيقتها وما يرى من منافعها، حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة - مثل أن تشتعل شعبته بالليل كالشمع وتصيران دلوأ عند الاستقاء وتطول بطول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو وينبع الماء بركزها وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فَوَكَّزَهَا - علم أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجماً على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه.

قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى﴾^(٢).

(٢٠) ﴿فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جاناً تارة نظراً إلى المبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى وحية أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحاليين. وقيل كانت في ضخامة الثعبان وجلادة الجان ولذلك قال «كأنها جان».

(٢١) ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنه لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر خاف وهرب منها^(٣). ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ هيئتها وحالتها المتقدمة، وهي فِعْلَةٌ من السير تَجَوَّزَ بها للطريقة والهيئة. وانتصابها على نزع الخافض أو على أن أعاد منقول من عادة بمعنى عاد إليه، أو على الظرف أي سنعيدها في طريقته، أو على تقدير فِعْلُهَا أي سنعيد العصا بعد ذهابها تسير سيرتها الأولى فتنتفع بها ما كنت تنتفع قبل. قيل لما قال له ربه ذلك اطمأنت نفسه حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

(٢٢) ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضد، يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر، استعارة من جناحي الطائر سُميا بذلك لأنه يجنحهما عند الطيران. ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ﴾ كأنها مشعة. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير عاهة وقبح، كنى به عن البرص كما كنى بالسوءة عن العورة لأن الطباع تعافه وتنفر عنه. ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ معجزة ثانية. وهي حال من ضمير تخرج كبيضاء، أو من ضميرها، أو مفعول بإضممار خذ أو دونك.

(١) الرشاء هو الحبل (مختار الصحاح مادة رشا).

(٢) تكرير النداء لتأكيد التنبيه (س/٦/١٠).

(٣) وفي عطف النهي «لا تخف» على الأمر «خذها» إشعار بأن عدم النهي عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط (س/٦/١١).

لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾
وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾
وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىٰ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذُرُكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ
يَمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي
الْبَيْمِ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي
أَخْطَاكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ
مِنَ الْغَمِّ وَفَتْنَاكَ فُلُونًا فَلَمَّثْتَ سِنَّينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

(٢٣) ﴿لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ متعلق بهذا المضمرة أو بما دل عليه آية أو القصة التي دللنا بها أو فعلنا ذلك لنريك، والكبرى صفة آياتنا أو مفعول نريك، ومن آياتنا حال منها.

(٢٤) ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ بهاتين الآيتين واذعه إلى العباد. ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ عصي وتكبر.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ لما أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأل أن يشرح صدره ويُفصح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه والتلقي لما ينزل عليه ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع. وفائدة «لي» إبهام المشروح والميسر أولاً، ثم رفعه بذكر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغة.

(٢٧) ﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي﴾.

(٢٨) ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ فإنما يَحْسُنُ التبليغ من البليغ، وكان في لسانه رثة من جمرة أدخلها فاه، وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ بلحيته ونفثها، فغضب وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه^(١)، ولعل تبييض يده كان لذلك. وقيل احترقت يده فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرا، ثم لما دعاه قال إلى أي رب تدعوني؟ قال إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنه. واختلف في زوال العقدة بكما لها فمن قال به تمسك بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾^(٢) ومن لم يقل احتج بقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾

(١) وهو جزء من حديث «الفتون» عن ابن عباس موقوفاً عليه.

أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/١٦٤ - ١٦٧) وأبو يعلى في المسند (٥/١٠ - ٢٩ رقم ٢٦١٨).

- وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٥٦ - ٦٦) وقال: رجاله رجال الصحيح غير أصعب بن زيد، والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان.

- وقال ابن كثير في تفسيره (٣/١٦١): «رواه النسائي في السنن الكبرى - التفسير رقم ٣٤٦ - وأخرجه أبو جعفر ابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيرهما كلهم من حديث يزيد بن هارون، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك أيضاً» هـ.

(٢) طه: (٣٦).

لِسَكَاتٍ^(١) وقوله ﴿وَلَا يَكَاذِبِينَ﴾^(٢). وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه مطلقاً بل عقدة تمنع الإفهام، ولذلك نكرها وجعل يفقهوا جواب الأمر. ومن لساني «يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً عَقْدَةً، وَأَنْ يَكُونَ صِلَةً احْتِلَ.

(٢٩) ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾.

(٣٠) ﴿هَٰؤُلَاءِ أَخِي﴾ يعني على ما كلفتني به. واشتقاق الوزير إما من الوزر لأنه يحمل الثقل عن أميره، أو من الوزر وهو الملجأ لأن الأمير يعتصم برأيه ويلتجئ إليه في أموره، ومنه الموازنة. وقيل أصله أوزير من الأزر بمعنى القوة، فعيل بمعنى مُفَاعِل كالعشير والجليل قلبت همزته واواً كقلبها في موازر. ومفعولاً اجعل: وزيراً وهارون، قُدِّمَ ثانيهما للعناية به، و«لي» صلة أو حال، أولي وزيراً وهارون عطف بيان للوزير، أو وزيراً من أهلي ولي تبين كقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٣)، وأخي على الوجه بدل من هارون أو مبتدأ خبره:

(٣١) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي﴾.

(٣٢) ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ على لفظ الأمر، وقراهما ابنُ عامر بلفظ الخبر على أنهما جواب الأمر^(٤).

(٣٣) ﴿كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾.

(٣٤) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإن التعاون يهتج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايد.

(٣٥) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَاصِيِرًا﴾ عالماً بأحوالنا، وأن التعاون مما يصلحنا، وأن هارون نعم المعين لي فيما أمرتني به.

(٣٦) ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَى﴾ أي مسؤولك، فَعِل بمعنى مفعول كالخُبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي أنعمنا عليك في وقت آخر^(٥).

(٣٨) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بإلهام أو في منام أو على لسان نبي في وقتها أو ملك - لا على وجه النبوة - كما أوحى إلى مريم. ﴿مَا يُوْحَى﴾ ما لا يعلم إلا بالوحي، أو مما ينبغي أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به.

(٣٩) ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ بأن اقذفيه، أو أي اقذفيه لأن الوحي بمعنى القول. ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ والقذف يقال للإلقاء وللوضع كقوله تعالى: ﴿وَوَقَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ﴾^(٦)، وكذلك الرمي كقوله: * غَلَامٌ

(١) القصص: ٣٤.

(٢) الزخرف: ٥٢.

(٣) الإخلاص: ٤.

(٤) قراءة ابن عامر «أَشْرِكُهُ» بضم الالف وسكون الكاف، وبفتح الالف وقطعها من اشد أي «أَشْدِدْ».

(٥) وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء به.

(٦) الحشر: ٢٢.

رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا * ﴿فَلْيَلْقِهِ إِلِيمٌ بِالسَّاحِلِ﴾ لَمَّا كَانَ الْفَاءُ الْبَحْرُ إِيَّاهُ إِلَى السَّاحِلِ أَمْرًا وَاجِبَ الْحَصُولِ لَتَعْلُقَ الْإِرَادَةُ بِهِ وَجَعَلَ الْبَحْرُ كَأَنَّهُ ذُو تَمَيِّزٍ مُطِيعٌ أَمْرُهُ بِذَلِكَ وَأَخْرَجَ الْجَوَابَ مَخْرَجَ الْأَمْرِ. وَالْأَوَّلَى أَنْ تُجْعَلَ الضَّمَاثِرُ كُلُّهَا لِمُوسَى مِرَاعَاةً لِلنَّظْمِ، فَالْمَقْذُوفُ فِي الْبَحْرِ وَالْمَلْقَى إِلَى السَّاحِلِ، وَإِنْ كَانَ التَّابُوتُ بِالذَّاتِ فَمُوسَى بِالْعَرَضِ. ﴿يَأْخُذُهُ عَذْرُؤٌ لِي وَعَدْوٌ لَّهُ﴾ جَوَابٌ فَلْيَلْقِهِ. وَتَكَرَّرَ عَدُوٌّ لِلْمَبَالِغَةِ، أَوْ لِأَنَّ الْأَوَّلَ بِاعْتِبَارِ الْوَاقِعِ وَالثَّانِي بِاعْتِبَارِ الْمَتَوَقَّعِ. قِيلَ إِنَّهَا جَعَلَتْ فِي التَّابُوتِ قُطْنًا وَوَضَعَتْ فِيهِ ثُمَّ قَبْرَتَهُ وَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، وَكَانَ يَشْرَعُ مِنْهُ إِلَى بَسْتَانَ فَرَعُونَ نَهَرٌ فَدَفَعَهُ الْمَاءُ إِلَيْهِ فَأَدَاهُ إِلَى بَرَكَةٍ فِي الْبَسْتَانِ، وَكَانَ فَرَعُونَ جَالِسًا عَلَى رَأْسِهَا مَعَ امْرَأَتِهِ أَسِيَّةَ بِنْتَ مَزَاحِمَ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ فَفُتِّحَ فَإِذَا هُوَ صَبِيٌّ أَصْبَحُ النَّاسُ وَجْهًا، فَأَحْبَبَهُ حُبًّا شَدِيدًا كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي﴾ أَيِ مُحِبَّةٍ كَائِنَتْ مِنْ قَدْ زَرَعْتَهَا فِي الْقُلُوبِ بِحَيْثُ لَا يَكَادُ يَصْبِرُ عَنْكَ مِنْ رَأْيِكَ، فَلِذَلِكَ أَحْبَبَكَ فَرَعُونَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعْلَقَ «مَنِّي» بِالْقَيْتِ، أَيِ أَحْبَبْتِكَ وَمَنْ أَحْبَبَهُ اللَّهُ أَحَبَّتْهُ الْقُلُوبُ. وَظَاهِرُ اللَّفْظِ أَنَّ الْيَمَّ أَلْقَاهُ بِسَاحِلِهِ وَهُوَ شَاطِئُهُ، لِأَنَّ الْمَاءَ يَسْحُلُهُ فَالْتَّقَطَ مِنْهُ، لَكِنْ لَا يَبْعُدُ أَنْ يُؤَوَّلَ السَّاحِلُ بِجَنْبِ فَوْهَةِ نَهْرِهِ. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ لِتُرَبَّى وَيُحَسِّنَ إِلَيْكَ، وَأَنَا رَاعِيكَ وَرَاقِبُكَ. وَالْعَطْفُ عَلَى عِلَّةٍ مُضْمَرَةٍ مِثْلَ لِيُعْطَفَ عَلَيْكَ، أَوْ عَلَى الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ بِإِضْمَارِ فِعْلٍ مَعْلَلٍ مِثْلَ فَعَلْتُ ذَلِكَ. وَقُرِئَ: وَلِتُصْنَعَ بِكَسْرِ اللَّامِ وَسُكُونِهَا وَالْجَزْمُ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ، وَلِتُصْنَعَ بِالنَّصْبِ وَفَتْحِ التَّاءِ أَيِ وَلِيَكُنْ عَمَلُكَ عَلَى عَيْنِ مَنِّي لِئَلَّا تَخَالَفَ بِهِ عَنْ أَمْرِي.

(٤٠) ﴿إِذْ تَسُوَّى أَخْتُكَ﴾ ظَرْفٌ لِأَلْقَيْتُ أَوْ لِتُصْنَعَ، أَوْ بَدَلَ مِنْ إِذْ أَوْحَيْنَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا وَقْتُ مَتَاعٍ. ﴿فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَقْبَلُ ثَنِي الْمَرَضِعِ، فَجَاءَتْ أُخْتُهُ مَرْيَمُ مَتَفَحِّصَةً خَبْرَهُ فَصَادَفَتْهُمْ يَطْلُبُونَ لَهُ مَرْضِعَةً يَقْبَلُ ثَنِيهَا فَقَالَتْ «هَلْ أَدُلُّكُمْ»، فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَنِيهَا. ﴿فَرَجَعْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ وَفَاءً بِقَوْلِنَا: ﴿إِنَّا رَادُّهُ إِلَىٰ لَبِ﴾ ^(١) ﴿كَتَفَرَّ عَيْنَهَا﴾ بِلِقَائِكَ. ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ هِيَ بِفِرَاقِكَ، أَوْ أَنْتَ عَلَىٰ فِرَاقِهَا وَفَقْدِ إِشْفَاقِهَا. ﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا﴾ نَفْسَ الْقَبْطِيِّ الَّذِي اسْتَغْنَاهُ عَلَيْهِ الْإِسْرَائِيلِيُّ. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ غَمُّ قَتْلِهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَاقْتِصَاصِ فَرَعُونَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْأَمْنِ مِنْهُ بِالْهَجْرَةِ إِلَىٰ مَدِينٍ. ﴿وَقَنَّكَ قُنُونًا﴾ وَابْتِلِينَكَ ابْتِلَاءً، أَوْ أَنْوَاعًا مِنَ الْابْتِلَاءِ عَلَىٰ أَنَّهُ جَمَعَ فِتْنٍ أَوْ فِتْنَةٍ عَلَىٰ تَرْكِ الْإِعْتِدَادِ بِالتَّاءِ كَحُجُوزٍ وَبُدُورٍ فِي حُجْزَةٍ وَبِذَرَةٍ، فَخَلَّصْنَاكَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَهُوَ إِجْمَالُ لِمَا نَالَهُ فِي سَفَرِهِ مِنَ الْهَجْرَةِ عَنِ الْوَطَنِ وَمِفَارِقَةِ الْأَلْفِ وَالْمَشْيِ رَاجِلًا عَلَىٰ حَذَرٍ وَفَقْدِ الزَّادِ وَأَجْرِ نَفْسِهِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ أَوَّلُهُ وَلَمَّا سَبَقَ ذِكْرُهُ. ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لَبِثْتُ فِيهِمْ عَشْرَ سِنِينَ قَضَاءً لِأَوْفَى الْأَجَلَيْنِ. وَمَدْيَنَ عَلَىٰ ثَمَانَ مَرَاكِلَ مِنْ مِصْرَ. ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قَدَّرْتُهُ لِأَنَّهُ أَكَلَمَكَ وَأَسْتَنْبَحْتَكَ غَيْرَ مُسْتَقْدِمٍ وَقْتُهُ الْمَعِينُ وَلَا مُسْتَأْخِرٍ، أَوْ عَلَىٰ مِقْدَارِ مِنَ السَّنِّ يُوْحَىٰ فِيهِ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ. ﴿يَمُوسَىٰ﴾ كَرَّرَهُ عَقِيبَ مَا هُوَ غَايَةُ الْحِكَايَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُبَيَّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾ واصطفيتك لمحبتي. مثله فيما خوله من الكرامة بمن قربه الملك واستخلصه لنفسه^(١).

(٤٢) ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ بمعجزاتي. ﴿وَلَا نُبَيَّا﴾ ولا تفترا ولا تقصرا. وقرىء تَبَيَّنَا بكسر التاء. ﴿فِي ذِكْرِي﴾ لا تنسياني حينما تقلبتما. وقيل في تبليغ ذكري والدعاء إلي.

(٤٣) ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أمر به أولاً موسى عليه الصلاة والسلام وحده، وهنا إياه وأخاه فلا تكرير. قيل أوحى إلى هارون أن يتلقى موسى، وقيل سمع بمقبله فاستقبله.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَنَا﴾ مثل ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾^(٢) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى^(٣) فإنه دعوة في صورة عَرْض ومشورة حذراً أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليكما؛ أو احتراماً لما له من حق التربية عليك. وقيل كَتَبَاهُ، وكان له ثلاث كُتَي: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة^(٣). وقيل عَدَاهُ شباباً لا يهرم بعده ومُلْكَا لا يزول إلا بالموت. ﴿لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ متعلق باذهبا أو قولاً أي: باشراً الأمر على رجائكما وطمعكما أنه يثمر، ولا يخيب سعيكما فإن الراجي مجتهد والآيس متكلف. والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم، ولذلك قدم الأول أي إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهمه فيخشى.

(٤٥) ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ أن يَفْجَل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة، مِنْ فَرَطَ إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فَرَطَ يسبق الخيل. وقرىء يَفْرِطُ من أفرطته إذا حملته على العجلة، أي نخاف أن يحمله حامل من استكبار أو خوف على الملك أو شيطان إنسي أو جني على المعالجة بالعقاب، وَيُفْرِطُ من الإفراط في الأذية. ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أو أن يزداد طغياناً فيخطئ إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب^(٤).

(٤٦) ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ بالحفظ والنصر. ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول

(١) والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى «وَفَتَّاكَ» ونظيره السابقين تمهيد لإفراد لفظ النفس اللاتق بالمقام، فإنه أدخل في تحقيق معنى الاصطناع (س/١٧/٦).

(٢) النازعات: (١٨، ١٩).

(٣) لم أقف على ضبط هذه الكنية، غير أن المتبادر أن تكون بضم الميم وهي كنية إبليس - لعنه الله - وقد تكون بالكسر، بمعنى العقل أو الشدة والقوة والله سبحانه أعلم. وذو مرة بكسرها جبريل عليه السلام.

(٤) وإظهار كلمة «أن» مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الإعتناء بالأمر، والإشعار بتحقيق الخوف من كل منهما (س/١٨/٦).

وفعل، فأُخِذَ في كل ما يصرف شره عنكما نصرتي لكما. ويجوز أن لا يقدر شيء على معنى إنني حافظكما سامعاً ومبصراً، والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تمّ الحفظ.

فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبَهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَآئِفَةٍ مِّنْ رَبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ۖ مَن أَتْبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ ۖ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

(٤٧) ﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أطلقهم. ﴿وَلَا تَعْذِْبَهُمْ﴾ بالتكاليف الصعبة وقتل الولدان، فإنهم كانوا في أيدي القبط يستخدمونهم ويتعبدونهم في العمل ويقتلون ذكور أولادهم في عام دون عام. وتعقيب الإتيان بذلك^(١) دليل على أن تخلص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان، ويجوز أن يكون للتدرج في الدعوة. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَآئِفَةٍ مِّنْ رَبِّكَ﴾ جملة مقررّة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، وإنما وُحِدَ الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددتها، وكذلك قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ﴾^(٢)، ﴿فَأَتِ بِثَآئِفَةٍ﴾^(٣)، ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾^(٤). ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ أَتْبَعَ الْهُدَىٰ﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين، أو السلامة في الدارين لهم.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أن عذاب المنزلين على المكذبين للرسول، ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لأن التهديد في أول الأمر أهم وأنجع وبالواقع أليق.

(٤٩) ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ أي بعد ما أنبأه وقال له ما أمرا به، ولعله حُذِفَ لدلالة الحال عليه فإن المطيع إذا أمر بشيء فعله لا محالة. وإنما خاطب الاثنين وخص موسى عليه الصلاة والسلام بالنداء لأنه الأصل وهارون وزيره وتابعه، أو لأنه عرف أن له رتبة ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحّمه ويدلّ عليه قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ وَلَا يُكَادُ يُبِينُ﴾^(٥).

(٥٠) ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأنواع ﴿خَلْقَهُ﴾ صورته وشكله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفعون به، فقدم المفعول الثاني لأنه المقصود ببيانه. وقيل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجاً. وقرئ خَلَقَهُ صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ، فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل مخلوق ما يصلحه. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثم عزّفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً. وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره، وإعراجه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات المنعم

(١) أي بالأمر بإرسال بني إسرائيل معهم.

(٢) الأعراف: (١٠٥).

(٣) الشعراء: (١٥٤).

(٤) الشعراء: (٣٠).

(٥) الزخرف: (٥٢).

على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عده مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بُهت الذي كفر وأفحم عن الدخول عليه فلم يرَ إلا صَرَفَ الكلام عنه.

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾

(٥١) ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة؟.

(٥٢) ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي هو غيب لا يعلمه إلا هو، وإنما أنا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به. ﴿فِي كِتَابٍ﴾ مثبت في اللوح المحفوظ. ويجوز أن يكون تمثيلاً لتمكنه في علمه بما استحقظه العالم وقيدته بالكتابة، ويؤيده: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ والضلال أن تخطيء الشيء في مكانه فلم تهتد إليه، والنسيان أن تذهب عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات. ويجوز أن يكون سؤاله دخلاً على إحاطة قدرة الله تعالى بالأشياء كلها، وتخصيصه أبعاضها بالصور والخواص المختلفة بأن ذلك يستدعي علمه بتفاصيل الأشياء وجزئياتها والقرون الخالية مع كثرتهم وتمادي مدتهم وتباعد أطرافهم كيف أحاط علمه بهم وبأجزائهم وأحوالهم، فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله وأنه مثبت عنده لا يضل ولا ينسى^(١).

(٥٣) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مرفوع صفةً لربي، أو خبرٌ لمحذوف، أو منصوبٌ على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي الزخرف^(٢) مَهْدًا أي كالمهد تتمدونها وهو مصدر سمي به، والباقون مِهَادًا وهو اسمٌ ما يُمهد كالفرش أو جمعٌ مَهْدٍ، ولم يختلفوا في الذي في النبأ^(٣). ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، وإيداناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته، وعلى هذا نظائره كقوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾^(٤) ﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾^(٥) الآية. ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض. ﴿مِنْ نَبَاتٍ﴾ بيانٌ أو صفة لأزواجاً، وكذلك: ﴿شَتَّى﴾ ويحتمل أن يكون صفة لنبات، فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع، وهو جَمْعٌ شتيت كمریض ومریض، أي متفرقات في الصور والأغراض والمنافع يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم، فلذلك قال:

(١) وإظهار «ربي» في موقع الإضمار للتلذذ بذكره، ولزيادة التقرير، والإشعار بعلّة الحكم فإن الربوبية مما يقتضي عدم الضلال والنسيان (س/٦/٢١).

(٢) الزخرف: ١٠٠.

(٣) حيث قرؤوا جميعاً «مهَاداً» في قوله: «ألم نجعل الأرض مهَاداً» - النبأ «٦» -.

(٤) فاطر: ٢٧.

(٥) النمل: ٦٠.

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٤﴾ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَابَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

(٥٤) ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ وهو حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي أخرجنا أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا، والمعنى مُعِيدُهَا لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح، جمع نَهْيَةٌ^(١).

(٥٥) ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ فإن التراب أصل خلقه أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالموت وتفكيك الأجزاء^(٢). ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصور السابقة ورد الأرواح إليها.

(٥٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا﴾ بصرناه إياها أو عرفناه صحتها^(٣). ﴿كُلَّهَا﴾ تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى، أو أنه عليه السلام أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من المعجزات ﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى من فرط عناده. ﴿وَابَىٰ﴾ الإيمان والطاعة لعنوه..

(٥٧) ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أرض مصر. ﴿بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كونه محققاً حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه.

(٥٨) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ مثل سحره. ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ وعداً لقوله: ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ فإن الإخلاف لا يلائم الزمان والمكان^(٤). وانتصاب ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ بفعل دل عليه المصدر لابه لأنه موصوف، أو بأنه بدل من موعداً على تقدير مكان مضاف إليه، وعلى هذا يكون طباق الجواب في قوله:

(٥٩) ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، أو بإضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول، أو وعدكم وعد يوم الزينة. وقرئ يوم بالنصب وهو ظاهر في أن المراد بهما المصدر. ومعنى سوى متصفاً يستوي مسافته إلينا وإليك، وهو في النعت كقولهم: قومٌ عِدِّي في الشذوذ. وقرأ ابن عامر

(١) وتخصيص أولي النهي لأنهم المتفكرون بها (س/٦/٢٢).

(٢) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (س/٦/٢٢).

(٣) وتصديرها بالقسم للعناية، وإسناد الإرادة إلى نون العظمة لتحويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في المكابرة (س/٦/٢٢).

(٤) قدم فرعون ضميره على ضمير موسى ووسط كلمة النفي «لا» بينهما للإيذان بمسارعة إلى عدم الإخلاف (س/٦/٢٤).

وعاصم وحمزة ويعقوب بالضم^(١). وقيل في يوم الزينة يوم عاشوراء^(٢)، أو يوم النيروز^(٣)، أو يوم عيد كان لهم في كل عام، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في الإفطار. ﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ صُحُيَّ﴾ عطف على اليوم أو الزينة. وقرئ على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون، والياء على أن فيه ضمير اليوم أو ضمير فرعون على أن الخطاب لقومه.

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَايْلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ ما يُكَادُ به، يعني السحرة وآلاتهم. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ الموعد.

(٦١) ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَايْلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدعوا آياته سحراً. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ فيهلككم ويستأصلكم، وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب بالضم من الاسحات وهو لغة نجد وتميم، والسخت لغة الحجاز. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ﴾ كما خاب فرعون، فإنه افترى واحتمل ليبقى الملك عليه فلم ينفعه.

(٦٢) ﴿فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي تنازعت السحرة في أمر موسى حين سمعوا كلامه، فقال بعضهم: ليس هذا من كلام السحرة. ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ بأن موسى إن غلبنا اتبعناه، أو تنازعوا واختلفوا فيما يعارضون به موسى وتشاوروا في السر. وقيل الضمير لفرعون وقومه. وقوله:

(٦٣) ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾ تفسير لأسروا النجوى، كأنهم تشاوروا في تلفيقه حذراً أن يغلبا فيتبعهما الناس. وهذان اسم إن على لغة بلحريث بن كعب فإنهم جعلوا الألف للثنى وأعربوا المثنى تقديراً، وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها، وقيل إن بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر وفيهما أن اللام لا تدخل خبر المبتدأ، وقيل أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف. وقرأ أبو عمرو إن هذين وهو ظاهر، وابن كثير وحفص إن هذان على أنها هي المخففة واللام هي الفارقة أو النافية واللام بمعنى إلا. ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ بالاستيلاء عليها. ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾^(٤). وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى: ﴿أَرْسِلْ مَعَايِنِي لِاسْتَوِيلَ﴾^(٥). وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرفهم من حيث إنهم قدوة لغيرهم.

(١) أي بضم السين في «سوى» بينما قرأ الباقر بكسر السين.

(٢) انظر هذه الأقوال في «جامع البيان» (٩/١٦٧) و«الدر المنثور» (٥/٥٨٤ - ٥٨٥).

(٣) أول يوم من السنة.

(٤) غافر: ٢٦.

(٥) الشعراء: ١٧.

فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى ﴿٦٩﴾

(٦٤) ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ فازمعوه واجعلوه مُجْمَعاً عليه لا يتخلف عنه واحد منكم. وقرأ أبو عمرو فاجتمعوا ويعضده قوله ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُمْ﴾^(١) والضمير في قالوا إن كان للسحرة فهو قول بعضهم لبعض. ﴿ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾ مصطفين لأنه أهيّب في صدور الرائيين. قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ فاز بالمطلوب من غلب وهو اعتراض.

(٦٥) ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ أي بعد ما أتوا مراعاة للأدب. وأن بما يعده منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية محذوف، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا أو الأمر إلقاءك أو إلقاءنا.

(٦٦) ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ مقابلة أدب بأدب وعدم مبالاة بسحرهم، وإسعافاً إلى ما أوهموا من الميل إلى البدء بذكر الأول في شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ، ولأن يُبرزوا ما معهم ويستنفذوا أقصى وسعهم ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه. ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أي فآلقوا فإذا حبالهم وعصيتهم، وهي للمفاجأة، والتحقيق أنها أيضاً ظرفية تستدعي متعلقاً ينصبها وجملته تضاف إليها، لكنها خُصت بأن يكون المتعلق فِعْلَ المفاجأة والجملته ابتدائية، والمعنى: فآلقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت تخيل سعي حبالهم وعصيتهم من سحرهم، وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت فخيّل إليه أنها تتحرك. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان وَرَوْحٌ تُخَيَّلُ بآلتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعصي وإبدال أنها تسعى منه بدل الاشتمال، وقرئ يُخَيَّلُ بالياء على إسناده إلى الله تعالى، وتخيّل بمعنى تخيل.

(٦٧) ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ فأضمر فيها خوفاً من مفاجاته على ما هو مقتضى الجيلة البشرية، أو من أن يخالجه الناس شك فلا يتبعوه.

(٦٨) ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ ما توهمت. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكداً بالاستئناف، وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل.

(٦٩) ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أبهمه ولم يقل عصاك تحقيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيتهم وألق العويذة التي في يدك، أو تعظيماً لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمتها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً فألقه. ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ تبتلغه بقدرة الله تعالى، وأصله تلتقف فحذفت إحدى التاءين، وتاء المضارعة تحتل التانيث والخطاب على إسناد الفعل إلى المسبب. وقرأ ابن عامر برواية

ابن ذكوان بالرفع على الحال أو الاستئناف، وحفصٌ بالجزم والتخفيفِ على أنه مِنْ لَقَفْتُهُ بمعنى تلقفته. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ أن الذي زوروا وافتعلوا. ﴿كَيْدُ سِحْرٍ﴾ وقرئ بالنصب، على أن ما كافة وهو مفعول صنعوا. وقرأ حمزة والكسائي سحر بمعنى ذي سحر، أو بتسمية الساحر سحراً على المبالغة، أو بإضافة الكيد إلى السحر للبيان كقولهم: عَلِمُ فقه. وإنما وُحِدَ الساحر لأن المراد به الجنس المطلق، ولذلك قال: ﴿وَلَا يَقْلُحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس. وتنكير الأول لتنكير المضاف كقول العجاج:

يَوْمَ تَرَى الثُّفُوسُ مَا أَعَدَّتْ فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مَدَّتْ
كانه قيل إنما صنعوا كيد سحري. ﴿حَيْثُ أَقْبَلُ﴾ حيث كان وأين أقبل.

فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِطَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْصِ مَا أَنْتَ قَاصٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا﴾ أي فألقى فتلقفت فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته، فآلقاهم ذلك على وجوههم سُجَّدًا لله توبة عما صنعوا وإعتاباً وتعظيماً لما رأوا. ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ قَدَّمَ هَارُونَ لكبر سنه، أو لِزُيُوتِ الآيَةِ، أو لأن فرعون رُبِّي موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قَدَّمَ ذِكْرَهُ لربما تُؤْهِمُ أن المراد فرعونُ وذِكْرُ هَارُونَ على الاستتباع. روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها.

(٧١) ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ﴾ أي لموسى واللامُ لتضمن الفعل معنى الاتباع. وقرأ قبل وحفص آمنتم له على الخبر، والباقون على الاستفهام. ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان له. ﴿إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لِعَظِيمُكُمْ فِي فَنَكُمُ وَأَعْلَمُكُمْ بِهِ، أو لَأَسْتَادَكُمْ. ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلتم. ﴿فَلَأَقْطِطَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومن ابتدائية كأن القطع ابتداءً من مخالفة العضو العضو، وهي مع المجرور بها في حيز النصب على الحال أي لأقطعنها مختلفات. وقرئ لأقطعن ولأصلبن بالتخفيف. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ شَبَّهَ تَمَكَّنَ المصلوب بالجذع بتمكُنَ المظروف بالظرف، وهو أول مَنْ صَلَبَ. ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ﴾ يريد نفسه وموسى، لقوله ﴿ءَامَنْتُمْ لَمْ﴾ واللامُ مع الإيمان في كتاب الله لغير الله، أراد به توضيح موسى والهزة به، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء. وقيل رب موسى الذي آمنوا به. ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وأدوم عقاباً.

(٧٢) ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك. ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا﴾ موسى به، ويجوز أن يكون الضمير فيه لِمَا. ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات. ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ عطف على ما جاءنا، أو قَسَمَ^(١). ﴿فَاقْصِ مَا

(١) إيراده تعالى بعنوان فاطرته لهم للإشعار بعلّة الحكم، فإن خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم إثارهم له عليه سبحانه وتعالى (س/٦/٣٠).

أَنْتَ قَاضٍ ﴿٧٣﴾ مَا أَنْتَ قَاضِيهِ أَيْ صَانِعُهُ أَوْ حَاكِمُهُ بِهِ. ﴿إِنَّمَا نَقَضَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إِنَّمَا تَصْنَعُ مَا تَهْوَاهُ، أَوْ تَحْكُمُ مَا تَرَاهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، فَهُوَ كَالْتَعْلِيلِ لِمَا قَبْلَهُ وَالتَّمْهِيدِ لِمَا بَعْدَهُ. وَقُرِئَ تُقَضِّى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، كَقَوْلِكَ: صِيَمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّكُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

(٧٣) ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي. ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ مِنْ مَعَارِضَةِ الْمَعْجِزَةِ^(١). رَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَرَأَيْتَ إِنْ مَوَسَىٰ نَائِمًا، فَوَجَدُوهُ تَحْرُسُهُ الْعَصَا، فَقَالُوا مَا هَذَا بِسِحْرِ إِنْ السَّاحِرِ إِذَا نَامَ بَطَلَ سِحْرُهُ، فَأَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَعَارِضُوهُ. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ جَزَاءُ، أَوْ خَيْرٌ ثَوَابًا وَأَبْقَىٰ عِقَابًا.

(٧٤) ﴿إِنَّكُمْ﴾ إِنْ الْأَمْرَ^(٢). ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بِأَنْ يَمُوتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ وَعَصْيَانِهِ. ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيَسْتَرِيحُ. ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حَيَاةً مَهْنَأَةً.

(٧٥) ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ فِي الدُّنْيَا. ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ الْمَنَازِلُ الرَّفِيعَةُ.

(٧٦) ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾ بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ. ﴿تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى الْإِشَارَةِ أَوْ الْاسْتِقْرَازِ. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ مِنْ أَدْنَسِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي. وَالْآيَاتُ الثَّلَاثُ يُخْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ كَلَامِ السَّحَرَةِ، وَأَنْ تَكُونَ ابْتِدَاءَ كَلَامٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى^(٣).

(٧٧) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أَيْ مِنْ مِصْرَ^(٤). ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ فَاجْعَلْ لَهُمْ، مِنْ قَوْلِهِمْ ضَرْبٌ لَهُ فِي مَالِهِ سَهْمًا. أَوْ فَاتَّخِذْ، مِنْ ضَرْبِ اللَّبَنِ إِذَا عَمِلَهُ. ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ يَابَسًا، مَصْدَرٌ وَصِفٌ بِهِ، يُقَالُ يَبَسَ يَبْسًا وَيَبَسًا كَسَقِمَ سَقَمًا وَسَقَمًا، وَلِذَلِكَ وَصِفَ بِهِ الْمُؤْتِ شَاةٌ يَبَسٌ لِلَّتِي جَفَتْ لَبْنَهَا. وَقُرِئَ يَبَسًا، وَهُوَ إِمَّا مُخَفَّفٌ مِنْهُ أَوْ وَضْفٌ عَلَىٰ فَعْلٍ كَصَعَبُ أَوْ جَمْعُ يَابَسٍ كَصَخْبٍ وَصِفَ بِهِ الْوَاحِدُ مِبَالِغَةً كَقَوْلِهِ:

(١) تخصيص إكراههم على السحر بالذكر - مع اندراجهم في خطابهم - إظهاراً لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته.

وَذِكْرُ الْإِكْرَاهِ لِلإِذْنِ بِأَنَّهُ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنْهُ مَعَ صُدُورِهِ عَنْهُمْ بِالْإِكْرَاهِ (س/٦/٣٠).

(٢) وتصديره بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونه (س/٦/٣٠).

(٣) وتقديم ذكر حال المجرم للمساورة إلى بيان أشد عذابه ودوامه رداً على ما ادعاه فرعون بقوله «أينا أشد عذاباً وأبقى» (س/٦/٣١).

(٤) والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباداً له تعالى لإظهار الرحمة، والاعتناء بأمرهم، والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدتهم وهم عباده عز وجل (س/٦/٣١).

كَأَنَّ قُتُودَ رَخْلِي جِيَنَ ضَمَّتْ حَوَالِبَ غَزَزَا وَمَعِي جِيَاعَا

أو لتعدده معني فإنه جعل لكل سبط منهم طريقاً. ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ حال من المأمور أي آمناً من أن يدرككم العدو، أو صفة ثانية والعائد محذوف. وقرأ حمزة لا تَخَفْ على أنه جواب الأمر. ﴿وَلَا تَخَشَى﴾ استئناف أي وأنت لا تخشى، أو عطف عليه والألف فيه للإطلاق كقوله ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(١) أو حال بالواو والمعنى ولا تخشى الغرق^(٢).

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِيٰٓ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾

(٧٨) ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل فأخبر فرعون بذلك فقص أثرهم، والمعنى فأتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثاني. وقيل فأتبعهم بمعنى فأتبعهم ويؤيده القراءة به. والباء للتعدية، وقيل الباء مزيدة والمعنى: فاتبعهم جنوده وذادهم خلفهم. ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الضمير لجنوده أوله ولهم، وفيه مبالغة ووجازة أي: غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله. وقرئ فغشاهم ما غشاهم أي غطاهم ما غطاهم، والفاعل هو الله تعالى أو ما غشاهم أو فرعون لأنه الذي ورطهم للهلاك.

(٧٩) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم، وهو تهكم به في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٣) أو أضلهم في البحر وما نجا.

(٨٠) ﴿يَبْنِيٰٓ إِسْرَءِيلَ﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون على إضمار قلنا، أو للذين منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما فعل بأبائهم. ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ﴾ فرعون وقومه. ﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ بمناجاة موسى وإنزال التوراة، وإنما عدّ المواعدة إليهم وهي لموسى أوله وللسبعين المختارين للملابسة^(٤). ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوىٰ﴾ يعني في التيه.

(٨١) ﴿كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته. وقرأ حمزة والكسائي أنجيتكم ووعدتكم وما رزقناكم على التاء، وقرئ ووعدتكم ووعدناكم والأيمن بالجر على الجوار مثل: جُحِرُ ضَبٌّ خرب. ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ فيما رزقناكم بالإخلاص بشكره والتعدي لما حد الله لكم فيه كالشرف والبطر والمنع عن المستحق. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ فيلزمكم عذابي ويجب لكم، مِنْ حَلِّ الدَيْنِ إذا وجب أدائه. ﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ فقد تردى وهلك، وقيل وقع في الهاوية. وقرأ الكسائي يَحُلُّ وَيَخُلُّ بالضم، مِنْ حَلِّ يَحُلُّ إذا نزل.

(١) الأحزاب: ١٠٠.

(٢) وتقديم نفي الخوف المذكور للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا إنا لمذكرون (س/٦/٣٢).

(٣) غافر: ٢٩.

(٤) وسراية منفعتها إليهم وإيفاء لمقام الامتنان حقه (س/٦/٣٣).

وإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعَجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَنْقُورِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفْتَالُ عَلَيْكُمُْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي ﴿٨٦﴾

(٨٢) ﴿وإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عن الشرك. ﴿وَأَمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ثم استقام على الهدى المذكور.

(٨٣) ﴿وَمَا أَعَجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ سؤال عن سبب العجلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقیصة في نفسها انضم إليها إغفال القوم وإيهام التعظم عليهم، فلذلك أجاب موسى عن الأمرين وقدم جواب الإنكار لأنه أهم.

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ أي ما تقدمتهم إلا بخطأ يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم بعضاً. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك^(١).

(٨٥) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ ابتليناهم بعبادة العجل بعد خروجك من بينهم، وهم الذين خلّفهم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً. ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته. وقرىء وأضلّهم أي أشدّهم ضلالاً لأنه كان ضالاً مُضِلّاً. وإن صح أنهم أقاموا على الدين بعد ذهابه عشرين ليلة وحسبوا بأيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل وأن هذا الخطاب كان له عند مقدّمه إذ ليس في الآية ما يدل عليه كان ذلك إخباراً من الله له عن المترقب بلفظ الواقع على عادته، فإن أصل وقوع الشيء أن يكون في علمه ومقتضى مشيئته. والسامري منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة، وقيل كان علجاً^(٢) من كرمان، وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً.

(٨٦) ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿غَضْبَنَ﴾ عليهم. ﴿أَسْفًا﴾ حزناً بما فعلوا. ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور. ﴿أَفْتَالُ عَلَيْكُمُْ الْعَهْدُ﴾ أي الزمان يعني زمان مفارقتهم لهم. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ يجب عليكم. ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادة ما هو مثل في الغباوة. ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي﴾ وغدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به^(٣). وقيل هو من أخلف وعده إذا وجد الخلف فيه، أي فوجدتم الخلف في وعدي لكم بالعود بعد الأربعين، وهو لا يناسب الترتيب على الترديد ولا على الشق الذي يليه ولا جوابهم له.

(١) وزيادة «رب» لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر (س/٦/٣٤).

(٢) علجاً أي شديداً (المصباح المنير مادة علج).

(٣) أضاف المصدر إلى المفعول «موعدي» وكذا إضافته لموسى عليه السلام وذلك لتبجيل حالهم (س/٦/٣٥).

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّمْ يَخُورْ ففَقَالُوا هَذَا إِلَهُهُمْ كُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ وَاللَّهُ مُوسِيءٌ فَتَنِي ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَنْقُورُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا ﴾ بأن ملكنا أمرنا، إذ لو خيلنا وأمرنا ولم يسؤل لنا السامري لما أخلفناه. وقرأ نافع وعاصم بِمَلِكِنَا بالفتح، وحمزة والكسائي بالضم، وثلاثتها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء. ﴿ وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ حُمِلْنَا أحمالاً من حُلِي القبط التي استعرتها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس، وقيل استعاروا لعيد كان لهم ثم لم يردوا عند الخروج مخافة أن يعلموا به، وقيل هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوه. ولعلمهم سموها أوزاراً لأنها آثام، فإن الغنائم لم تكن تَحِلُّ بعد، أو لأنهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي. ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أي في النار. ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ أي ما كان معه منها. روي أنهم لما حَسِبُوا أن العدة قد كملت قال لهم السامري: إنما أخلف موسى ميعادكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجُر فيها ناراً ونقذف كل ما معنا فيها ففعلوا. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وَرَوَّحَ حَمَلْنَا بالفتح والتخفيف.

(٨٨) ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ من تلك الحلي المذابة. ﴿ لَّمْ يَخُورْ ﴾ صوت العجل. ﴿ ففَقَالُوا ﴾ يعني السامري ومن افتتن به أول ما رآه. ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أن ترك ما كان عليه من إظهار الإيمان.

(٨٩) ﴿ أَفَلَا يَرْجِعُ ﴾ أفلا يعلمون. ﴿ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً. وقرئ يَرْجِعُ بالنصب، وفيه ضعف لأن أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين^(١). ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ولا يقدر على إنفاعهم وإضرارهم.

(٩٠) ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل رجوع موسى عليه الصلاة والسلام، أو قول السامري، كأنه أول ما وقع عليه بصره حين طلع من الحفرة توهم ذلك وبادر تحذيرهم. ﴿ يَنْقُورُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ بالعجل. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ لا غير^(٢). ﴿ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ في الثبات على الدين.

(٩١) ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ ﴾ على العجل وعبادته. ﴿ عَكِفِينَ ﴾ مقيمين. ﴿ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ وهذا الجواب يؤيد الوجه الأول.

(١) لكنهم حملوا الرؤية على أنها بمعنى الإبصار لا العلم.. وأجاز الفراء وابن الأنباري وقوع أن الناصبة بعد أفعال اليقين (روح المعاني ٢٤٩/١٦).

وتعليق الإبصار بما ذكر - مع كونه أمراً عديماً - للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيب عقولهم (س ٣٦/٦).

(٢) والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق (س ٣٧/٦).

قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٧﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٨﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٩﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ﴿٢٠﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٢١﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٢٢﴾

(٩٢) ﴿قَالَ يَهْرُونَ﴾ أي قال له موسى حين رجع . ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل .

(٩٣) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع من كفر به، أو أن تأتي عَقْبِي وتلحقني . ولا مزيدة كما في قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾^(١) . ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ بالصلابة في الدين والمحاماة عليه .

(٩٤) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ خصص الأم استعطافاً وترقيقاً، وقيل لأنه كان أخاه من الأم، والجمهور على أنهما كانا من أب وأم . ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي بشعر رأسي قبض عليهما يجره إليه من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان عليه الصلاة والسلام حديداً خشناً متصلباً في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل . ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لو قاتلت أو فارتقت بعضهم ببعض . ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ حين قلت ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ﴾ فإن الإصلاح كان في حفظ الدماء والمداراة لهم أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك .

(٩٥) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي﴾ أي ثم أقبل عليه وقال له منكراً ما خطبك؟ أي ما طلبك له وما الذي حملك عليه؟ وهو مصدر خَطَبَ الشيء إذا طلبه .

(٩٦) ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وقرأ حمزة . والكسائي بالتاء على الخطاب أي علمت بما لم تعلموه وفطنت لما لم تفتنوا له، وهو أن الرسول الذي جاءك روحاني محض لا يمس أثره شيئاً إلا أحياء . أو رأيته ما لم تروه، وهو أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاءك على فرس الحياة . وقيل إنما عرفه لأن أمه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون، وكان جبريل يغذوه حتى استقل . ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ من تربة مَوْطئه . والقبضة المرة من القبض، فأطلق على المقبوض كضرب الأمير . وقرئ بالصاد، والأول للأخذ بجميع الكف والثاني للأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الحُضْم والحُضْم . والرسول جبريل عليه الصلاة والسلام، ولعله لم يسمه لأنه لم يعرف أنه جبريل أو أراد أن ينبه على الوقت وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور . ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحلي المذاب أو في جوف العجل حتى حيي . ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ زينته وحسنه لي .

(٩٧) ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ﴾ عقوبة على ما فعلت . ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خوفاً من أن يمسك أحد فتأخذك الحمى وَمَنْ مَسَكَ، فتتحامى الناس ويتحاموك وتكون طريداً وحيداً كالوحشي

النافر. وقرىء لا مَسَاسَ كَفَجَارٍ وهو علم للمسة. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة. ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ لن يخلفه الله وينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك في الدنيا. وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر اللام أي لن تُخْلِفَ الواعد إياه وسيأتيك لا محالة، فحذف المفعول الأول لأن المقصود هو الموعد، ويجوز أن يكون من أخلفت الموعد إذا وجدته خُلِفاً. وقرىء بالنون على حكاية قول الله. ﴿وَأَنْظُرْ إِلَيَّ إِلَهَكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاقِبًا﴾ ظلمت على عبادته مقيماً فحذف اللام الأولى تخفيفاً. وقرىء بكسر الظاء على نقل حركة اللام إليها. ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ أي بالنار ويؤيده قراءة لَنُحَرِّقَنَّهُ، أو بِالْمِبْرَدِ على أنه مبالغة في حَرَقَ إذا بَرَدَ بالمبرد ويعضده قراءة لَنُحَرِّقَنَّهُ^(١). ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ ثم لَنُذَرِّبَنَّهُ رماداً أو مبروداً. وقرىء بضم السين. ﴿فِي أَلْيَسٍ نَسْفًا﴾ فلا يصادف منه شيء. والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهار غباوة المفتتين به لمن له أدنى نظر.

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

(٩٨) ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ المستحق لعبادتكم. ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا أحد يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة. ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كل ما يصح أن يُعْلَمَ، لا العجل الذي يَصَاحُ وَيُحَرَّقُ وإن كان حياً في نفسه كان مثلاً في الغباوة. وقرىء وَسَّعَ، فيكون انتصاب عِلْمًا على المفعولية لأنه وإن انتصب على التمييز في المشهورة لكنه فاعل في المعنى فلما عدي الفعل بالتضعيف إلى المفعولين صار مفعولاً.

(٩٩) ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الاقتصاص يعني اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من أخبار الأمور الماضية والأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتنبيهاً وتذكيراً للمستبصرين من أمتك. ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ كتاباً مشتملاً على هذه الأفاصيص والأخبار حقيقاً بالتفكر والاعتبار، والتنكير فيه للتعظيم. وقيل ذكراً جميلاً وصيتاً عظيماً بين الناس.

(١٠٠) ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاة. وقيل عن الله. ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وذنوبه، سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يَفْذَحُ الحامل وينقض ظهره. أو إثماً عظيماً.

(١٠١) ﴿خَلِيدِينَ فِيهِ﴾ في الوزر أو في حملة، والجمع فيه والتوحيد في أعرض للحمل على المعنى واللفظ. ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ أي بشس لهم، ففيه ضمير مبهم يفسره حِمْلًا، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء حملاً وزرهم، واللام في لهم للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾^(٢). ولو جعلت ساء بمعنى أحزن والضمير الذي فيه للوزر أشكل أمر اللام ونَصَبُ حِمْلًا، ولم يُفَظْ مزيد معنى^(٣).

(١) يقال حَرَّقَ الحديد حَرَقًا إذا برده بالمِبرَد وحكَّ بعضه ببعض ومضارعه يَحْرُقُ (مختار الصحاح «حرق»).

(٢) يوسف: ٢٢٣.

(٣) وإعادة «يوم القيامة» لزيادة التقرير وتهويل الأمر (س/٦/٤١).

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْفَتُونَ يَنْتَهُمُ إِنَّ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنَّ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَنَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

(١٠٢) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وقرأ أبو عمرو بالنون على إسناد النفخ إلى الأمر به تعظيماً له أو للنافخ، وقرئ بالياء المفتوحة على أن فيه ضميراً لله أو ضمير إسرافيل وإن لم يجر ذكره لأنه المشهور بذلك، وقرئ في الصُّور وهو جنح صورة وقد سبق بيان ذلك ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ وقرئ ويخشرو المجرمون ﴿زُرْقًا﴾ زرق العيون. وُصفوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العين، ولذلك قالوا: صفة العدو أسود الكبد أصهب السبال. أزرق العين. أو عمياً، فإن حدقة الأعمى تزرأق^(١).

(١٠٣) ﴿يَخْفَتُونَ يَنْتَهُمُ﴾ يخفضون أصواتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، والخفت خفض الصوت وإخفاؤه. ﴿إِنَّ﴾ ما ﴿لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي في الدنيا يستقصرون مدة لبثهم فيها، لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتهما في قضاء الأوطار واتباع الشهوات. أو في القبر لقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾^(٢) إلى آخر الآيات.

(١٠٤) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم. ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم رأياً أو عملاً. ﴿إِنَّ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ استرجاح لقول مَنْ يكون أشد تقالاً منهم.

(١٠٥) ﴿وَنَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ عن مآل أمرها، وقد سأل عنها رجلٌ من ثقيف^(٣). ﴿فَقُلْ﴾ لهم. ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها.

(١٠٦) ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارها، أو الأرض وإضمارها من غير ذكر لدلالة الجبال عليها كقوله تعالى ﴿فَاتَرَكْ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾^(٤). ﴿قَاعًا﴾ خالياً ﴿صَفْصَفًا﴾ مستوياً كأن أجزائها على صف واحد.

(١٠٧) ﴿لَا تَبْقَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ اعوجاجاً ولا نتوءاً إن تأملت فيها بالقياس الهندسي. وثلاثتها أحوال مترتبة، فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس، ولذلك ذكّر العوج - بالكسر - وهو يخص بالمعاني والأمت وهو التواء السير. وقيل لا ترى استئناف مبين للحالين.

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ نسفت على إضافة اليوم إلى وقت النسف، ويجوز أن يكون بدلاً ثانياً

(١) أو يحشرون زرق الأبدان، وذلك في غاية التشويه فإنه لا تزرأق الأبدان إلا من مكابدة الشدائد وجفاف رطوبتها (روح المعاني ١٦/ ٢٦٠).

(٢) غافر: ٤٦.

(٣) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن الذي سأل هم قريش سألوه عليه السلام استهزاء (روح المعاني ١٦/ ٢٦١).

(٤) النحل: ٦١.

من يوم القيامة. ﴿يَنْتَعِمُونَ الدَّاعِيَ﴾ داعي الله إلى المحشر، قيل هو إسرئيل يدعو الناس قائماً على صخرة بيت المقدس فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه. ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ خفضت لمهابته. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتاً خفياً، ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر.

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. ﴿١١٠﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ الاستثناء من الشفاعة أي إلا شفاعة من أذن له، أو من أعم المفاعيل أي إلا من أذن في أن يشفع له فإن الشفاعة تنفعه. فمن على الأول مرفوع على البدلية وعلى الثاني منصوب على المفعولية. وأذن يحتمل أن يكون من الإذن ومن الأذن^(١). ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه، أو قوله لأجله وفي شأنه.

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدمهم من الأحوال. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. عِلْمًا﴾ ولا يحيط علمهم بمعلوماته، وقيل بذاته، وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعها فإنهم لم يعلموا جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه.

(١١١) ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ ذلت وخضعت له خضوع العنا وهم الأسارى في يد الملك القهار، وظاهرها يقتضي العموم. ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين فتكون اللام بدل الإضافة، ويؤيده: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وهو يحتمل الحال والاستئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم.

(١١٢) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعض الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الخيرات. ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منع ثواب مستحق بالوعد ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقصان، أو جزاء ظلم وهضم لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه. وقرئ فلا يَخَفُ على النهي.

(١١٣) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ عطف على «كذلك نقص» أي مثل ذلك الإنزال أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد. ﴿أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة^(٢). ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ مكررين آيات الوعيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي فتصير التقوى لهم ملكة. ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة واعتباراً حين يسمعونها فتبسطهم عنها، ولهذه النكتة أسند التقوى إليه والإحداث إلى القرآن.

(١) الأذن هو الاستماع.

(٢) قوله «أنزلناه» حيث أضمر ذكر القرآن من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركزاً في العقول حاضراً في الأذهان (س/٦/٤٤).

فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْدَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾

(١١٤) ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا تماثل ذاته ذاتهم. ﴿الْمَلِكُ﴾ النافذ أمره ونهيه الحقيقي بأن يرجئ وعده ويخشي وعيده. ﴿الْحَقُّ﴾ في ملكوته يستحقه لذاته، أو الثابت في ذاته وصفاته. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ نهى عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال على سبيل الاستطراد. وقيل نهى عن تبليغ ما كان مجعلاً قبل أن يأتي بيانه. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سأل الله زيادة العلم بدل الاستعجال، فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة.

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ ولقد أمرناه، يقال تقدم الملك إليه وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه إذا أمره، واللام جواب قسم محذوف. وإنما عطف قصة آدم على قوله: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾^(١) للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان وعرقهم راسخ في النسيان. ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ من قبل هذا الزمان. ﴿فَنَسَى﴾ العهد ولم يغنَ به حتى غفل عنه، أو ترك ما وُصِّي به من الاحتراز عن الشجرة. ﴿وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ تصميم رأي وثباتاً على الأمر، إذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يُزَلَّ الشيطان ولم يستطع تغريره، ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يُجْرَبَ الأمور ويدوق شريها وأريها^(٢). وعن النبي ﷺ «لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه»، وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزماً^(٣). وقيل عزماً على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمده. ونجد إن كان من الوجود الذي بمعنى العلم فله عزماً مفعولاه، وإن كان من الوجود المناقض للعدم فله حال من عزماً أو متعلق بنجد.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. مقدر بأذكر، أي اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قد سبق القول فيه. ﴿أَبَى﴾ جملة مستأنفة لبيان ما منعه من السجود وهو الاستكبار، وعلى هذا لا يقدر له مفعول مثل السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فَسَجَدُوا﴾ لأن المعنى أظهر الإباء عن المطاوعة.

(١١٧) ﴿فَقُلْنَا يَنْدَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾ فلا يكون سبباً لإخراجكما، والمراد نهيهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما. ﴿مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ وأفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قيّم عليها، ومحافظة على الفواصل. أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش، وذلك وظيفة الرجال، ويؤيده قوله:

(١) طه: ١١٣.

(٢) قوله شريها وأريها أي مؤرها وحلوها، فإن معنى «الأري» العمل (مختار الصحاح مادة أري).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/١٦/٢٢١ - ٢٢٢). وسعيد بن منصور، وابن المنذر وابن عساكر - كما

في «الدر المنثور» (٥/٦٠٣) - عن أبي أمامة موقوفاً.

قلت: في إسناد ابن جرير: سنيذ بن داود. وهو ضعيف.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ
يَتَّادِمُ هَلْ أَذُكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبُلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
مَخِصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهَيْطًا
مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا
يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾.

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ فإنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشَّبْعُ والرَّيُّ والكسوة والكنز^(١) مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائصها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر عنها. والعاطف وإن ناب عن أن لكنه ناب من حيث إنه عامل لا من حيث إنه حرف تحقيق، فلا يمتنع دخوله على أن امتناع دخول إن عليه. وقرأ نافع وأبو بكر وإنك لا تظماً بكسر الهمزة، والباقون بفتحها.

(١٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ فانتهى إليه وسوسته. ﴿قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَذُكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ الشجرة التي من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً، فأضافها إلى الخلد أي الخلود لأنها سببه بزعمه. ﴿وَمُلْكٌ لَّا يَبُلَىٰ﴾ لا يزول ولا يضعف.

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخِصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أخذوا يلزقان الورق على سواتهما للتستر، وهو ورق التين ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بأكل الشجرة. ﴿فَغَوَىٰ﴾ فضلَّ عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة، أو عن الرُّشْد حيث اغتر بقول العدو. وقرئ فَغَوَى من غوى الفصيل إذا اتَّخَم من اللبن. وفي النعمي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم للزلة وزجر بليغ لأولاده عنها.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ﴾ اصطفاه وقربه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، من أجبى إلى كذا فاجتبيته مثل جَلَيْت على العروس فاجتليتها، وأصل معنى الكلمة الجمع. ﴿فَقَابَ عَلَيْهِ﴾ فقبل توبته لما تاب. ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثبات على التوبة والتثبت بأسباب العصمة.

(١٢٣) ﴿قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الخطاب لآدم وحواء، أو لـه ولإبليس. ولما كانا أصلي الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، أو لاختلال حال كل من النوعين بواسطة الآخر ويؤيد الأول قوله: ﴿فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ كتاب ورسول. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا^(٢). ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

(١) الكنز هي الثروة.

(٢) قوله «فمن اتبع هداي» حيث وضع الظاهر موضع المضمّر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه (س/٤٧/٦).

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَأَنْ نَفْسُهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْشَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِكِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَتَرُ لَأُولَى الْتَهَى ﴿١٢٨﴾

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ عن الهدى الذاكِر لي والداعي إلى عبادتي. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ضيقاً، مصدرٌ وصف به ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث، وقرئ ضَنْكِي كسكري. وذلك لأن مجامع همته ومطامح نظره تكون إلى أعراض الدنيا متهاكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنه تعالى قد يُضيق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾^(١) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾^(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾^(٣) الآيات. وقيل هو الضريع^(٤) والزقوم في النار، وقيل عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ قرئ بسكون الهاء على لفظ الوقف، وبالجزم عطفاً على محل ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ لأنه جواب الشرط. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ أعمى البصر أو القلب، ويؤيد الأول:

(١٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ وقد أمالهما حمزة والكسائي لأن الألف منقلبة من الياء، وفرق أبو عمرو بأن الأول رأس الآية ومحل الوقف فهو جدير بالتغيير.

(١٢٦) ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلت، ثم فسرهُ فقال: ﴿أَنْتَ أَيْنَأَنْ نَفْسُهَا﴾ واضحة نيرة. ﴿فَنَسِينَهَا﴾ فعميت عنها وتركها غير منظور إليها. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل تركك إياها. ﴿الْيَوْمَ تُنْشَى﴾ ترك في العمى والعذاب.

(١٢٧) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل كذب بها وخالفها. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ وهو الحشر على العمى، وقيل عذاب النار أي وللنار بعد ذلك. ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ من ضنك العيش أو منه ومن العمى، ولعله إذا دخل النار زال عماءه ليرى محله وحاله أو مما فعله من ترك الآيات والكفر بها.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مُسَنِّدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، أو الرسول، أو ما دل عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي إهلاكنا إياهم أو الجملة بمضمونها. والفعل على الأولين معلق بجري مجرى أعلم، ويدل عليه القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِكِهِمْ﴾ ويشاهدون آثار هلاكهم. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَتَرُ لَأُولَى الْتَهَى﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي.

(١) البقرة: (٦١).

(٢) المائدة: (٦٦).

(٣) الأعراف: (٩٦).

(٤) نبت في الحجار يُقال له الشبرق له شوك كبار، وقال الفيروز آبادي: لا تقربه دابة لخبثه، أعاذنا الله منه.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

(١٢٩) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي العِدَّةُ بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة. ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لكان مثل ما نزل بعد وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة، وهو مَصْدَرٌ وصف به أو اسم آلة سمي به اللازم لفُزِطَ لزومه كقولهم: لَزَأُ خَصْم. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على كلمة، أي ولولا العِدَّةُ بتأخير العذاب وأجلٌ مسمى لأعمارهم أو لعذابهم - وهو يوم القيامة أو يوم بدر - لكان العذاب لازماً. والفصلُ للدلالة على استقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب^(١)، ويجوز عطفه على المستكن في كان أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين له.

(١٣٠) ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وَصَلٌ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، أو نَزْهه عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص حامداً له على ما ميّزك بالهدى معترفاً بأنه المولي للنعم كلها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما في آخر النهار، أو العصر وحده. ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ ومن ساعاته، جمع إِنَّا بالكسر والقصر^(٢)، أو آناء بالفتح والمد. ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني المغرب والعشاء. وإنما قدّم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل، فإن القلب فيه أجمع والنفس أميل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمر^(٣)، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَوَّحٌ قِيلًا﴾^(٤). ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تكريرٌ لصلاتي الصبح والمغرب إرادة الاختصاص، ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقوله:

ظَهَرَاهُمَا مِثْلَ ظُهُورِ التَّيْسَيْنِ

أو أمرٌ بصلاة الظهر، فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الآخر، وجمعه باعتبار النصفين أولان النهار جنس، أو بالتطوع في أجزاء النهار. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ متعلق بسبح أي سبح في هذه الأوقات طمعاً أن تنال عند الله ما به تُرضي نفسك. وقرأ الكسائي وأبو بكر بالبناء للمفعول أي يُرضيك ربك.

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي نظر عينيك. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون مثله. ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في به والمفعول منهم أي الذي مَتَّعْنَا بِهِ، وهو أصناف بعضهم أو ناساً منهم. ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ منصوب بمحذوف دل عليه مَتَّعْنَا، أو به على تضمينه معنى أعطينا، أو بالبدل من محل به أو من أزواجاً بتقدير مضاف ودونه، أو بالذم وهي الزينة والبهجة. وقرأ يعقوب

(١) وللمسارعة إلى بيان جواب لولا (س/٤٩/٦).

(٢) تكتب بالقصر «إني» وقيل «إني» وإنّو (مختار الصحاح مادة أني).

(٣) أحمر أي أمتن وأشد (مختار الصحاح مادة حُمُر).

(٤) المزمّل: ٦٦.

بالفتح^(١) وهو لغة كالجَهْرَة في الجَهْرَة، أو جمعُ زاهر وصفٌ لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعيمهم وبهاء زِيَّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم ونختبرهم فيه، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه. ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ وما آذرك في الآخرة، أو ما رزقك من الهدى والنبوة. ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿وَأَبْقَى﴾ فإنه لا ينقطع.

وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّعَ أَيُّنِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَنَخْزِيَ ﴿١٣٤﴾

(١٣٢) ﴿وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أمرُهُ بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمره بها ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصائصهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة. ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وداوم عليها. ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ أي أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم ففرغ بالك لأمر الآخرة. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلتَّقْوَى﴾ لذوي التقوى. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية^(٢).

(١٣٣) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بآية تدل على صدقه في إهداء النبوة، أو بآية مقترحة إنكاراً لما جاء به من الآيات، أو للاعتداد به تعتداً وعناداً. فالزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من العلم أو العمل على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً وأبقى أثراً فكذا ما كان من هذا القبيل، وتبهم أيضاً على وجه أبين من الوجوه المختصة بهذا الباب فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتمالها على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية - مع أن الآتي بها أمي لم يرها ولم يتعلم ممن علمها - إعجازٌ بين، وفيه إشعار بأنه - كما يدل على نبوته - برهانٌ لما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وتلك ليست كذلك، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها. وقرئ الصُّخْفِ بالتخفيف، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم أو لم تأتهم بالناء والباقون بالياء.

(١٣٤) ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل محمد عليه الصلاة والسلام أو البينة، والتذكير لأنها في معنى البرهان، أو المراد بها القرآن. ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّعَ أَيُّنِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ﴾ بالقتل والسبي في الدنيا. ﴿وَنَخْزِيَ﴾ بدخول النار يوم القيامة، وقد قرئ بالبناء للمفعول فيهما.

(١) أي بفتح الهاء في «زَهْرَة»، أي «زَهْرَة».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط - كما في «الدر المنثور» (٦١٣/٥) - وأبو نعيم في الحلية

(١٧٦/٨) من حديث عبدالله بن سلام. وقال الهيثمي في «المجمع» (٦٧/٧): رجاله ثقات.

قلت: محمد بن حمزة هو ابن يوسف بن عبدالله بن سلام. ففي الإسناد انقطاع.

قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا^{١٣٥} فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾

(١٣٥) ﴿قُلْ كُلُّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم. ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم. ﴿فَتَرَبِّصُوا﴾ وقرء فتمتعوا. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم. وقرء السَّوَاء أي الوسط الجيد، والشَّوَاي، والسَّوَاء أي الشر، والشَّوِي هو تصغيره. ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ من الضلالة. وَمَنْ في الموضعين للاستفهام ومحلها الرفع بالابتداء، ويجوز أن تكون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط على أن المراد به النبي ﷺ. وعنه ﷺ «من قرأ طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع من حديث أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْاَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِسْنَا نِسَاءِ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

سورة الأنبياء مكية وأيّها مائة واثنان عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ بالإضافة إلى ما مضى، أو ما عند الله لقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ وَرَنَّهُ قَرِيبًا ﴿١﴾ وقوله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٢) أو لأن كل ما هو آتٍ قريبٌ وإنما البعيدُ ما انقضى ومضى. واللام صلة لاقترب، أو تأكيد للإضافة، وأصله اقترَبَ حسابُ الناسِ ثم اقترَبَ للناسِ الحسابُ ثم اقترَبَ للناسِ حسابهم (٣)، وخصَّ الناسُ

(١) المعارج: (٧).

(٢) الحج: (٤٧).

(٣) وتقديم اللام في «لِلنَّاسِ» على الفاعل «حسابهم» للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم.

بالكفار لتقييدهم بقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عن الحساب. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التفكير فيه، وهما خبران للضمير، ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكن في معرضون.

(٢) ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ﴾ ينبههم عن سِنَةِ الغفلة والجَهالة. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ صفةٌ لذكر، أو صلة ليأتيهم^(١). ﴿تُخَذِّلُ﴾ تنزيلةً لذكر على أسماعهم التنبيه كي يتعظوا. وقرئ بالرفع حملاً على المحل. ﴿إِلَّا أَسْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفُزط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكير في العواقب ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من الواو، وكذلك:

(٣) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهي والذهول عن التفكير فيه، ويجوز أن يكون مِّن واو يلعبون. وقرئت بالرفع على أنها خبر آخر للضمير. ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث خفي تناجيهم بها. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدلٌ من واو «وأسروا» للإيماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به، أو فاعل له والواو لعلامة الجمع، أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره، وأصله وهؤلاء أسروا النجوى، فوضع الموصول موضعه تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم، أو منصوب على الذم. ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ بُصُورُونَ﴾ بأمره، في موضع نصب بدلاً من النجوى، أو مفعولاً لقول مقدر. كأنهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء الرسالة لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، واستلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحرٌ فأنكروا حضوره، وإنما أسروا به تشاوراً في استنباط ما يهدم أمره ويُظهر فسادَه للناس عامة.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ جهراً كان أو سراً فضلاً عما أسروا به، فهو أكد من قوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) ولذلك اختير ههنا^(٣)، وليطابق قوله ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ في المبالغة. وقرأ حمزة والكسائي وحفصٌ قال بالإخبار عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه ما يُسرون ولا ما يُضمرُونَ.

(٥) ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَحْلَامُ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضرابٌ لهم عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليطُ أحلام، ثم إلى أنه كلامٌ افتراه، ثم إلى أنه قول شاعر، والظاهر أن «بل» الأولى لتتام حكاية والابتداء بأخرى. أو للإضراب عن تحاورهم في شأن الرسول ﷺ وما ظهر عليه من الآيات إلى تفاؤلهم في أمر القرآن، والثانية والثالثة لإضرابهم عن كونه أباطيلٌ خُيِّلَ إليه وخُلِطت عليه إلى كونه مفتریاتٍ اختلقها من تلقاء نفسه، ثم إلى أنه كلامٌ شِعْري يُخَيَّلُ إلى السامع معاني لا حقيقة لها ويرغبه فيها، ويجوز أن يكون الكل من الله تنزيلاً لأقوالهم في دَرْج الفساد لأن كونه شِعْراً أبعد من كونه مفترىً لأنه مشحونٌ بالحقائق والحكم وليس فيه ما يناسب قول الشعراء، وهو أبعد من كونه أحلاماً

= وفي إسناد الاقتراب - المنيء عن التوجه نحوهم - إلى الحساب لتفخيم شأنه وتهويل أمره (س/٦/٥٣).

(١) والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (س/٦/٥٤).

(٢) الفرقان: ٦٦.

(٣) أي اختير لفظ القول بقوله «يعلم القول» على لفظ السر في الآية الأخرى لأن القول مشتمل على السر والجهر ولإثبات علمه تعالى بالسر والجهر على حد سواء ولا تفاوت بينهما (س/٦/٥٥).

لأنه مشتمل على معييات كثيرة طابقت الواقع، والمفترى لا يكون كذلك بخلاف الأحلام، ولأنهم جربوا رسول الله ﷺ نيفاً وأربعين سنة وما سمعوا منه كذباً قط، وهو أبعد من كونه سحراً لأنه يجانسه من حيث إنهما من الخوارق. ﴿فَلْيَأْنِتُنَا بِآيَاتِكَ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي كما أرسل به الأولون، مثل اليد البيضاء والعصا وإبراء الأكمه وإحياء الموتى، وصحة التشبيه من حيث إن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية.

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية. ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ باقتراح الآيات لما جاءتهم. ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لو جتهد بهم وهم أغنى منهم. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم، إذ لو أتى به ولم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستتصال كمن قبلهم.

(٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جواب لقولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾^(١) فأمرهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة ليزول عنهم الشبهة. والإحالة عليهم إما للإلزام فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويتقون بقولهم، أو لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً. وقرأ حفص نوحى بالنون.

(٨) ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ نفى لما اعتقدوا أنها من خواص الملك عن الرسل تحقيقاً لأنهم كانوا أبقاراً مثلهم، وقيل جواب لقولهم: ﴿مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٢). ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ تأكيد وتقرير له، فإن التعيش بالطعام من توابع التحليل المؤدي إلى الفناء^(٣). وتوحيد الجسد لإرادة الجنس، أو لأنه مصدر في الأصل، أو على حذف المضاف، أو تأويل الضمير بكل واحد، وهو جسم ذو لون فلذلك لا يطلق على الماء والهواء، ومنه الجساد للزعران، وقيل جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتداده.

(٩) ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي في الوعد. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ يعني المؤمنين بهم ومن في إبقائه حكمة، كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته، ولذلك حُميت العرب من عذاب الاستتصال. ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي.

(١٠) ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش ﴿كِتَابًا﴾ يعني القرآن. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صيتكم كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَك وَلِقَوْلِكَ﴾^(٤)، أو موعظتكم، أو ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون.

(١) الأنبياء: ٣.

(٢) الفرقان: ٧.

(٣) وفي إشار لفظ «ما كانوا» على أن يقال وما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم (س/٦/٥٧).

(٤) الزخرف: ٤٤.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ لَاتَّخِذَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٧﴾

(١١) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ واردة عن غضب عظيم، لأن القصم كسرٌ يُبين تلاؤم الأجزاء بخلاف القصم. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة لأهلها، وُصِفَتْ بِهَا لَمَّا أُقِيمَتْ مُقَامَهُ. ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاك أهلها. ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ مكانهم.

(١٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ فلما أدركوا شدة عذابنا إدراك المشاهد المحسوس، والضميرُ للأهل المحذوف. ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين راکضين دوابهم، أو مُشَبَّهِينَ بِهِمْ مِنْ فَرْطِ إِسْرَاعِهِمْ.

(١٣) ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ على إرادة القول أي قيل لهم استهزاء لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال، والقاتل ملكٌ أو مَنْ نَمَّ من المؤمنين. ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من التمتع والتلذذ، والإترافُ إبطارُ النعمة. ﴿وَمَسْكِنِكُمْ﴾ التي كانت لكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾ غداً عن أعمالكم، أو تعذبون، فإن السؤال من مقدمات العذاب، أو تُفَصِّدُونَ للسؤال والتشاور في المهام والنوازل.

(١٤) ﴿قَالُوا يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَلَمْ يَرَوْا وَجْهَ النِّجَاةِ لِذَلِكَ لَمْ يَنْفَعَهُمْ. وقيل إن أهل حَضُورٍ من قرى اليمن بُعِثَ إِلَيْهِمْ نَبِيٌّ فَقَتَلُوهُ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بُخْتَنَصْرَ فَوْضَعَ السِّيفَ فِيهِمْ، فَغَادَى مِنْ السَّمَاءِ يَا لَثَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، فَغَادُوا وَقَالُوا ذَلِكَ.

(١٥) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ فما زالوا يرددون ذلك، وإنما سماه دعوى لأن المُولَّوَلِ كَأَنَّهُ يَدْعُو الْوَيْلَ وَيَقُولُ: يَا وَيْلُ تَعَالِ فَهَذَا أَوَانُكَ، وَكُلُّ مَنْ تِلْكَ وَدَعْوَاهُمْ يَحْتَمِلُ الْأَسْمِيَةَ وَالْخَبْرِيَّةَ. ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ مثل الحصيد وهو النبت المحصود، ولذلك لم يجمع. ﴿خَامِدِينَ﴾ ميتين، مِنْ خَمَدَتِ النَّارُ. وهو مع حصيداً بمنزلة المفعول الثاني، كقولك: جعلته حلواً حامضاً، إذ المعنى: وجعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود، أو صفة له، أو حال من ضميره.

(١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ وإنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكراً لذوي الاعتبار وتسبباً لما ينتظم به أمورُ العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال.

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ لَاتَّخِذَهُمْ﴾ ما يُتْلَهُ بِهِ وَيُلْعَبُ. ﴿لَاتَّخِذَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ من جهة قدرتنا، أو من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجزئات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتك في رفع السقوف وتزويقها وتسوية الفُرُش وتزيينها. وقيل للهو الولدُ بلغة اليمن، وقيل الزوجة والمراد به الرد على النصاري ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ ذلك، ويدل على جواب الجواب المتقدم. وقيل إن نافية والجملة كالنتيجة للشرطية.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾
أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب، أي بل من شأننا أن نُغلب الحق - الذي من جملة الجِدِّ - على الباطل - الذي من عِداده اللهو^(١) - . ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ فيمحقُّه، وإنما استعار لذلك القَذْفَ - وهو الرميُّ البعيدُ المستلزمُ لصلابة المرمى - والذمَّغَ - الذي هو كسرُ الدماغ بحيث يُشقُّ غشاؤه المؤدي إلى زهوق الروح - تصويراً لإبطاله به ومبالغة فيه. وقرئ: فَيَدْمَغُهُ بالنصب كقوله:

سَأَتْرُكَ مَنْزِلِي لِنَبِيِّ تَمِيمٍ وَالْحَقُّ بِالْحَجَّازِ فَأَسْتَرِيحَا

وَوَجْهٌ - مع بُغْده - الحملُ على المعنى والعطفُ على الحق. ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ هَالِكٌ، والزُّهوقُ ذهابُ الرُّوح، وذكره لترشيح المجاز^(٢). ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ مما تصفونه به مما لا يجوز عليه، وهو في موضع الحال، وما مصدرية أو موصولة أو موصوفة.

(١٩) ﴿وَلَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَلْقاً وَمُلْكاً. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة المنزّلين منه لكرامتهم عليه منزلة المقربين عند الملوك. وهو معطوف على مَنْ فِي السَّمَوَاتِ؛ وإفراؤه للتعظيم أو لأنه أعمُّ منه من وجه، أو المرادُ به نوع من الملائكة مُتَعَالٍ عن التبوُّء في السماء والأرض، أو مبتدأ خبره: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتعظمون عنها. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يغيثون منها، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحُسور تنبيهاً على أن عبادتهم يثقلها ودوامها حقيقة بأن يُستحسر منها ولا يَسْتَحْسِرُونَ.

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يزهونه ويعظمونه دائماً. ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من الواو في يسبحون؛ وهو استئناف، أو حال من ضمير قَبْلِهِ.

(٢١) ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا﴾ بل اتخذوا، والهمزة لإنكارِ اتّخاذهم. ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ صفةٌ لآلهة. أو متعلقة بالفعل على معنى الابتداء، وفائدتها التحقير دون التخصيص. ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ الموتى، وهم وإن لم يصرحوا به لكن لَزِمَ ادّعاؤهم لها الإلهية، فإن من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات، والمرادُ به تجهيلهم والتهكم بهم، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهمُ لاختصاص الإنشار بهم.

(٢٢) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ غيرُ الله، وُصِفَ بإلّا لتعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها ودلالته على ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه، والمرادُ ملازمته لكونها مطلقاً أو معه

(١) وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شئونه تعالى بالذكر للتخلص إلى ما سيأتي من الوعيد (س/٦/٦٠).

(٢) وفي إذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى (س/٦/٦٠).

حملاً لها على غير، كما استثني بغير حملاً عليها، ولا يجوز الرفع على البدل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير موجب. ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلتنا، لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنها إن توافقت في المراد تطاردت عليه القدر وإن تخالفت فيه تعاوقت عنه. ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ المحيط بجميع الأجسام الذي هو محل التدابير ومنشأ التقادير^(١). ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.

لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفريده بالالوهية والسلطنة الذاتية. ﴿وَهُمْ يُسْتَلَوْنَ﴾ لأنهم مملوكون مستعبدون، والضمير للآلهة أو للعباد.

(٢٤) ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً﴾ كرهه استعظماً لكفرهم واستفظاعاً لأمرهم وتبكيئاً وإظهاراً لجهلهم، أو ضمناً لإنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل على معنى أوجدوا آلهة يُشِيرُونَ الموتى فاتخذوهم آلهة لما وجدوا فيهم من خواصّ الألوهية؟ أو وجدوا في الكتب الإلهية الأمر بإشراكهم فاتخذوهم متابعين للأمر، ويعضد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساد عقله وعلى الثاني ما يدل على فساد عقله. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ذلك إما من العقل أو من النقل، فإنه لا يصح القول بما لا دليل عليه، كيف وقد تطابقت الحجج على بطلانه عقلاً ونقلاً؟! (٢) ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك؟ والتوحيد لما لم يتوقف على صحته بعثة الرسل وإنزال الكتب صح الاستدلال فيه بالنقل. ومن معي: أمته، ومن قبلي الأمم المتقدمة، وإضافة الذكر إليهم لأنه عظمتهم. وقرئ بالتنوين والإعمال^(٣)، وبه وبين الجارة^(٤) على أنَّ مَعَ اسمٌ هو ظرفٌ كَقَبْلٍ وَبَعْدُ وَشِبْهَهُمَا، وَيَعْدَمُهَا. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ ولا يميزون بينه وبين الباطل. وقرئ الحق بالرفع على أنه خبر محذوفٍ وُسْطً للتأكيد بين السبب والمسبب. ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتباع الرسول من أجل ذلك.

(٢٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنَّ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي من حيث إنه خبرٌ لاسم الإشارة مخصوصٌ بالموجود بين أظهرهم وهو الكتب الثلاثة. وقرأ حفص وحمزة والكسائي نوحى إليه بالنون وكسر الحاء، والباقون بالياء وفتح الحاء.

(١) وإيراد لفظ الجلالة «الله» في موضع الإضمار للإشعار بعلو الحكم؛ فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزهه تعالى عما لا يليق به، ولترية المهابة وإدخال الروعة (س/٦/٦٢).

(٢) وإضافة البرهان إليهم للتهكم بهم (س/٦/٦٢).

(٣) أي «هذا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي» كقوله تعالى «أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً».

(٤) أي هذا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ ..

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ نزلت في خُزاعة حيث قالوا الملائكة بناتُ الله^(١) ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك. ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون وليسوا بالأولاد. ﴿مُكْرَمُونَ﴾ وفيه تنبيه على مَذْحَضِ القوم. وقرئ بالتشديد.

(٢٧) ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقوله كما هو دَيْدُنُ العبيد المؤدبين، وأصله لا يسبق قولهم قوله فَتَسْبِ السَّبِقُ إليه وإليهم، وجعل القول محلّه وأداته تنبيهاً على استهجان السبق المعرّض به للقائلين على الله ما لم يَقُلْهُ، وأنبت اللام على الإضافة اختصاراً وتجاوياً عن تكرير الضمير. وقرئ لا يَسْبِقُونَهُ - بالضم - من سابقته فسبقتُه أسبقه. ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعملون قط ما لم يأمرهم به.

(٢٨) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدّموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يَضْبُطُونَ أنفسهم ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أن يُشْفَعَ له مهابةً منه. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ عظمتُه ومهابته. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون. وأصل الخشية خوفٌ مع تعظيم، ولذلك خُصُّ بها العلماء، والإشفاق خوف مع اعتناء، فإن عُدِّي بِمَنْ فمعنى الخوف فيه أَظْهَرُ وإن عُدِّي بعلَى فبالعكس.

(٢٩) ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ من الملائكة أو من الخلائق. ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ يريد به نفي البُنية وإدعاء ذلك عن الملائكة وتهديد المشركين بتهديد مدعي الربوبية. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ مَنْ ظلم بالإشراك وإدعاء الربوبية.

(٣٠) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو لم يعلموا. وقرأ ابن كثير بغير واو. ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا﴾ ذات رتق أو مرتوقتين، وهو الضمّ والالتحام أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقةً متحدة. ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بالتنويع والتمييز، أو كانت السمواتُ واحدة ففتّقت بالتحريكات المختلفة حتى صارت أفلاكاً، وكانت الأرضون واحدة فجعلت باختلاف كيفياتها وأحوالها طبقاتٍ أو أقاليم. وقيل كانتا بحيث لا فُرْجة بينهما ففُرج. وقيل كانتا رتقاً لا تُمطر ولا تُثبت ففتقناهما بالمطر والنبات، فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق أو السموات بأسرها على أن لها مدخلاً ما في الأمطار. والكفرة وإن لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً فإن الفتق عارضٌ مفتقر إلى مؤثر واجب ابتداء أو

(١) والتعرض لعنوان الرحمانية لإبراز كمال شناعة مقاتلتهم الباطلة (س/٦/٦٣).

بوسط، أو استفساراً من العلماء ومطالعة للكتب. وإنما قال كانتا ولم يقل كنَّ لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض. وقرئ رَتَقًا بالفتح على تقدير شيئاً رتقاً أي مرتوقاً كالرَفْضِ بمعنى المرفوض. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وخلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾^(١) وذلك لأنه من أعظم مواده، أو لفرض احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه، أو صيرنا كل شيء حيٍّ بسبب من الماء لا يحيا دونه. وقرئ حياً على أنه صفة كل، أو مفعول ثانٍ، والظرف لغوٍ والشيء مخصوص بالحيوان. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع ظهور الآيات.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَّا يَن مَّتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ ثابتات، من رسا الشيء إذا ثبت. ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ كراهة أن تميل بهم وتضطرب، وقيل لأن لا تميد فحذف لا لأمن الإلباس. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو الرواسي. ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ مسالك واسعة. وإنما قدّم فجاجاً وهو وصف له ليصير حالاً فيدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك، أو ليبدل منها سُبُلًا فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسّعها للسابلة^(٢) مع ما يكون فيه من التوكيد. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم.

(٣٢) ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن الوقوع بقدرته، أو الفساد والإخلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو استراق السمع بالشُّهب. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته وتناهي حكمته التي يُحَسُّ ببعضها ويُتَحَثُ عن بعضها في علمي الطبيعة والهيئة. ﴿مُعْرَضُونَ﴾ غير متفكرين.

(٣٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ أي كل واحد منهما، والتنوين بدل من المضاف إليه، والمراد بالفلك الجنس كقولهم: كساهم الأمير حُلَّةً. ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يُسرعون على سطح الفلك إسراع السابح على سطح الماء، وهو خبر كل والجملة حال من الشمس والقمر، وجاز انفردهما بها لعدم اللبس، والضمير لهما، وإنما جُمع باعتبار المطالع، وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة فِعْلُهُمْ.

(٣٤) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَّا يَن مَّتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا نتربص به رَبِّب المنون، وفي معناه قوله:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سِيلَقِي الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

والفاء لتعلق الشرط بما قبله، والهمزة لإنكاره بعد ما تقرر ذلك.

(١) النور: ٤٥.

(٢) جماعة السائرين.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ
 كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا
 الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا
 عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ذائقة مرارة مفارقتها جسدها، وهو برهان على ما أنكروه. ﴿وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ ونعاملكم معاملة المختبر. ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم. ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاء، مضدر من غير لفظه. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق.

(٣٦) ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ إلا مهزوءاً به ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي يسوء، وإنما أطلقه لدلالة الحال فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء. ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ﴾ بالتوحيد، أو بإرشاد الخلق بيعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم، أو بالقرآن. ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ منكرون، فهم أحق أن يُهزا بهم، وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر.

(٣٧) ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته، كقولك: خلق زيد من الكرم. جَعَلَ ما طُبِعَ عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة في لزومه له، ولذلك قيل: إنه على القلب. وَمِنْ عَجَلَتِهِ مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد. روي أنها نزلت في النضر بن الحارث^(١) حين استعجل العذاب. ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ نِقَماتي في الدنيا كوقعة بدر وفي الآخرة عذاب النار. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها، والنهي عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها.

(٣٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وَقْتُ وَغْدِ الْعَذَابِ أَوْ الْقِيَامَةِ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

(٣٩) ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ محذوف الجواب، وحين مفعول يعلم، أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعجلون منه بقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وهو حين تُحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدرّون على دفعها ولا يجدون ناصراً يمنعها لما استعجلوا. ويجوز أن يُترك مفعول يعلم ويضمّر لحين فعل، بمعنى: لو كان لهم علم لما استعجلوا يعلمون بطلان ما هم عليه حين لا يكفون^(٢). وإنما وُضِعَ الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على ما أوجب لهم ذلك^(٣).

(١) ذكره القرطبي في «الجامع» (٢٨٩/١١).

(٢) وإيثار صيغة المضارع في الشرط «لو يعلم» وإن كان المعنى على الماضي لإفادة استمرار عدم العلم (س٦/٦٧).

(٣) أي قال: «لو يعلم الذين كفروا» ولم يقل: لو يعلمون، فأظهر لفظ الذين كفروا وذلك ليدل على ما أوجب لهم =

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٠) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ العِدَّةُ أو النارُ أو الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، مصدرٌ أو حال. وقرئ بفتح الغين. ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فتغلبهم أو تحيرهم. وقرئ الفعلان بالياء. والضميرُ للوعد أو الحين وكذا في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ لأن الوعد بمعنى النار أو العِدَّة والحين بمعنى الساعة، ويجوز أن يكون للنار أو للبغته. ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يُمهَلون، وفيه تذكير بامهالهم في الدنيا.

(٤١) ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وَعَدُّ لَهُ بَأْسٌ مَا يَفْعَلُونَهُ بِهِ يَحِقُّ بِهِمْ كَمَا حَاقَ بِالْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْأَنْبِيَاءِ مَا فَعَلُوا، يعني جزاءه^(١).

(٤٢) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمستهزئين. ﴿مَن يَكْلُؤُكُمْ﴾ يحفظكم. ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ من بأسه إن أراد بكم، وفي لفظ الرحمن تنبيه على أن لا كاليء غير رحمته العامة وأن اندفاعه بمهلته^(٢) ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لا يُخْطِرُونَهُ بِإِلَهُمُ فَضْلاً أَنْ يَخَافُوا بِأَسَهُ، حَتَّى إِذَا كَلَّوْا مِنْهُ عَرَفُوا الْكَالِيَّ وَصَلُّوهُمُ لِلسُّؤَالِ عَنْهُ.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا﴾ بل أَلَهُمُ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ تَتَجَاوَزُ مَنَعَنَا، أَوْ مِنْ عَذَابٍ يَكُونُ مِنْ عِنْدِنَا. والإضرابان عن الأمر بالسؤال على الترتيب، فإنه عن المُعْرِضِ الغافل عن الشيء بعيد وعن المُعْتَقِدِ لنقيضه أبعد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئناف بإبطال ما اعتقدوه، فَإِنَّ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِ نَفْسِهِ وَلَا يَصْحَبُهُ نَصْرُ اللَّهِ فَكَيْفَ يَنْصُرُ غَيْرَهُ؟!

(٤٤) ﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم، وهو الاستدراج والتمتع بما قُدِّرَ لَهُمْ مِنَ الْأَعْمَارِ. أَوْ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى بَطْلَانِهِ بَيَانٌ مَا أَوْهَمَهُمْ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى مَتَعُهُمُ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَمْهَلَهُمْ حَتَّى طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ فَحَسِبُوا أَنَّ لَا يَزَالُوا كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بِسَبَبٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ عَقِبَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَمْلٌ كَاذِبٌ فَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾

= ذلك وهو دخولهم النار.

وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر لكونهما أشهر الجوانب، ولأن الإحاطة بهما يستلزم الإحاطة بالكل (س/٦٨/٦).

(١) وتقديم «بالذين سخروا» على الفاعل الذي هو «ما كانوا به...» للمساواة إلى بيان لحوق الشر بهم (س/٦٨/٦).

(٢) وتقديم الليل على النهار لأن الدواهي أكثر وقوعاً فيه وأشد وقعاً (س/٦٩/٦).

أرض الكفرة. ﴿تَقْصُصْهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يُجريه الله تعالى على أيدي المسلمين. ﴿أَفَهُمْ أَغْلِبُونَ﴾ رسول الله والمؤمنين^(١).

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ بما أوحى إلي. ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ وقرأ ابن عامر ولا تُسمع الصم على خطاب النبي ﷺ، وقرأ بالياء على أن فيه ضميره^(٢). وإنما سماهم الصم ووضع موضع ضميرهم للدلالة على تصامهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون. ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ منصوب بيسمع أو بالدعاء. والتقيّد به لأن الكلام في الإنذار، أو للمبالغة في تصامهم وتجاهلهم.

(٤٦) ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أدنى شيء. وفيه مبالغت، ذكّر المسمّ، وما في النفحة من معنى القلة فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء، والبناء الدالّ على المّرة. ﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ من الذي يُنذرون به. ﴿لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لدعوا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ العدل توزن بها صحائف الأعمال. وقيل وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل. وإفراد القسط لأنه مصدر وُصف به للمبالغة. ﴿لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه، كقولك: جئت لحمس خلّون من الشهر. ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ من حقها أو من الظلم. ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار حبة. ورفع نافع «مثقال» على كان التامة. ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها. وقرأ آتينا بمعنى جازينا بها من الإيتاء فإنه قريب من أعطينا أو من المؤاتاة فإنهم آتوه بالأعمال وآتاهم بالجزاء، وأتينا من الثواب، وجئنا^(٣). والضمير للمثقال، وتأتيه لإضافته إلى الحبة. ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا.

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي الكتاب الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يُستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة، وذكراً يتّعظ به المتقون أو ذكّر ما يحتاجون إليه من الشرائع. وقيل الفرقان النصر، وقيل فلق البحر. وقرأ ضياءً بغير واو على أنه حال من الفرقان^(٤).

(١) وفي تعريف «الغالبون» تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها (س٦/٧٠).

(٢) أي ضمير النبي عليه السلام، أي «ولا يُسمع الصمّ الدعاء».

(٣) أي قرىء «آتينا وأتينا وجئنا».

(٤) وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به.

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ عَاشِكُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾

(٤٩) ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ صفة للمتقين، أو مدحٌ لهم منصوب أو مرفوع. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول. ﴿وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون. وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعريض^(١).

(٥٠) ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن. ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير خيرُه. ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ استفهام توبيخ.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ الاهتداء لوجوه الصلاح، وإضافته^(٢) ليدل على أنه رُشِدٌ مثله وأن له شأنًا. وقرئ رُشْدُهُ وهو لغة. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل موسى وهارون أو محمد عليه الصلاة والسلام. وقيل من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال: إني وجهت. ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ عَلِمْنَا أَنَّهُ أَهْلٌ لِمَا آتَيْنَاهُ، أو جامعٌ لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال. وفيه إشارة إلى أن فِعْلَهُ سبحانه وتعالى باختيارٍ وحكمة، وأنه عالم بالجزئيات.

(٥٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ متعلق بآتيناه أو برُشْدَهُ أو بمحذوف، أي اذْكُر من أوقات رُشْدِهِ وقتَ قوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ عَاشِكُونَ﴾ تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها، فإن التمثال صورة لا روح فيها لا يضر ولا ينفع. واللام للاختصاص لا للتعدية، فإن تعدية العكوف بعلی، والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها، ويجوز أن يؤول بعلی أو يُضْمَن العكوف معنى العبادة.

(٥٣) ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾ فقلدناهم، وهو جواب عما لزم الاستفهام من السؤال عما اقتضى عبادتها وحملهم عليها.

(٥٤) ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ منخرطين في سلك ضلال لا يخفى على عاقل، لعدم استناد الفريقين إلى دليل. والتقليد إن جاز فإنما يجوز لمن علم في الجملة أنه على حق.

(٥٥) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ كأنهم لاستبعادهم تضليله إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة، فقالوا أيجدُ تقوله أم تلعب به^(٣).

(١) وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر - بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق - للإيدان بكونها معظم المخوفات، وللتخصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون.

وإثبات الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه (س/٦/٧١).

(٢) أي وإضافة الرشد إلى إبراهيم عليه السلام.

(٣) وفي إيراد الشق الأخير «أم أنت من اللاعبين» بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيدان برجحانه عندهم =

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا هَٰذَا بِلِهْتِنَا إِنَّمَا لَنَا الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾

(٥٦) ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه. ومَنْ للسَّموات والأرض أو للسمائل، وهو أَدْخَلَ في تضليلهم وإلزام الحجة عليهم. ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي المذكور من التوحيد. ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ من المتحققين له والمبرهنين عليه، فإن الشاهد مَنْ تحقق الشيء وحققه.

(٥٧) ﴿وَتَاللَّهِ﴾ وقرىء بالباء، وهي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وفيها تعجب. ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ لاجتهدن في كسرها، وَلَفْظُ الكيد وما في التاء من التعجب لصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل. ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا﴾ عنها. ﴿مُدِيرِينَ﴾ إلى عيدكم، ولعله قال ذلك سراً.

(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذُذًا﴾ قُطَاعاً فُعَال بمعنى مفعول كالحُطَام، من الجَذِّ وهو القطع. وقرأ الكسائي بالكسر وهو لغة أو جمعٌ جَذِيدٌ كخِفَافٍ وَخَفِيفٍ، وقرىء بالفتح. وَجَذُذًا جمع جَذِيدٌ وَجَذُذًا جمع جُذَّة. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ للأصنام كَسَّرَ غَيْرَهُ واستبقاه وجعل الفأس على عنقه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرده واشتهاره بعداوة آلهتهم فيحتاجهم بقوله: بل فعله كبيرهم فيحججهم، أو أنهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن كاسرها إذ من شأن المعبود أن يُرْجَعَ إليه في حل العقْد فيبكتهم بذلك، أو إلى الله أي يرجعون إلى توحيده عند تحققهم عجز آلهتهم.

(٥٩) ﴿قَالُوا﴾ حين رجعوا. ﴿مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِإِلَهِنَا إِنَّمَا لَنَا الظَّالِمِينَ﴾ يَجُزَّأَنَّهُ عَلَى الْآلِهَةِ الْحَقِيقَةِ بِالْإِعْظَامِ، أو بإفراطه في حطمها، أو بتوريط نفسه للهلاك.

(٦٠) ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبيهم، فلعله فعله. وَيَذْكُرُ ثاني مفعولي سَمِعَ، أو صفة لفتى مصححةٌ لِأَن يَتَعَلَّقَ بِهِ السَّمْعُ، وهو أبلغ في نسبة الذِّكْر إليه. ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ خبرٌ محذوفٌ أي هو إبراهيم، ويجوز أن يُزْفَعَ بالفعل لأن المراد به الاسم.

(٦١) ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم تَمَكَّنَ الراكب على المركوب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بفعله أو قوله أو يحضرون عقوبتنا له.

(٦٢) ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ حين أحضره^(١).

= (س/٦٣/٧٣).

(١) اقتصر على حكاية قولهم دون ذكر مجيئهم به للتنبية على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غني عن البيان (س/٦٤/٧٤).

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ لِكْرٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾

(٦٣) ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ أسند الفعل إليه تجوزاً لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبب لمباشرته إياه، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضي كما لو قال لك من لا يُحْسِنُ الخطَّ فيما كتبتَه بخط رشيق: أنتَ كتبتَ لهذا فقلتَ بل كتبتَه أنتَ، أو حكاية لما يلزم من مذهبهم جوازَه، وقيل إنه في المعنى متعلق بقوله ﴿ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ وما بينهما اعتراض. أو إلى ضمير فتى أو إبراهيم^(١). وقوله كبيرُهُم هذا مبتدأ وخبر ولذلك وَقَفَ على فعله. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لإبراهيمَ ثلاثُ كَذِبَاتٍ»^(٢) تسمية للمعارض كذباً لما شابَهَتْ صورُها صورته.

(٦٤) ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ وراجعوا عقولهم. ﴿ فَقَالُوا ﴾ فقال بعضهم لبعض. ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لا مَنْ ظلمتموه بقولكم إنه لمن الظالمين.

(٦٥) ﴿ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شَبَّهَ عَوْدَهُمْ إِلَى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه. وقرئ نَكَّسُوا بالتشديد، ونَكَّسُوا أي نكسوا أنفسهم. ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها، وهو على إرادة القول.

(٦٦) ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ إنكار لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر، فإنه ينافي الألوهية.

(٦٧) ﴿ أَفِ لَكُمْ لِكْرٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ تضجّر منه على إصرارهم بالباطل البين. وأت صوت المتضجر، ومعناه قبحاً ونتاجاً، واللام لبيان المتأفف له^(٣). ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قَبَحَ صنيعكم.

(٦٨) ﴿ قَالُوا ﴾ أَخَذُوا في المضارة لما عَجَزُوا عن المحاجة. ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ فإن النار أهول ما يُعاقب به. ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ إن كنتم ناصرين لها نصراً مؤزراً. والقائل فيهم رجل من أكراد فارس اسمه هيون خُصِفَ به الأرض، وقيل نمرود.

(٦٩) ﴿ قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ذات برد وسلام، أي أبردي برداً غير ضار. وفيه مبالغات: جَعَلَ النار المسخرة لقدرته مأمورة مطيعة، وإقامة كوني ذات برد مقام أبردي، ثم حُذِفَ

(١) قوله (أو إلى ضمير فتى أو إبراهيم) عطف على قوله أسند الفعل إليه تجوزاً.

(٢) هو عند البخاري بلفظ «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات...» رقم (٣٣٥٨، ٥٠٨٤).

(٣) وإظهار لفظ الجلالة «الله» لمزيد استصحاب ما فعلوا (س٦/٧٦).

المضاف وأقيم المضافُ إليه مقامه. وقيل نُصِبَ سلاماً بفعله أي وسَلَّمْنَا سلاماً عليه. روي أنهم بنوا حظيرة بكوئي^(١) وجمعوا فيها ناراً عظيمة ثم وضعوه في المنجنيق مغلولاً^(٢) فرموا به فيها، فقال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: فسَلَّ ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي^(٣)، فجعل الله تعالى - بركة قوله - الحظيرة روضة^(٤) ولم يحترق منه إلا وثاقه، فاطلع عليه نمرود من الصرح فقال إني مُقَرَّبٌ إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام^(٥)، وكان إذ ذاك ابن سِتِّ عشرة سنة^(٦). وانقلاب النار هواء طيباً ليس يذع غير أنه هكذا على خلاف المعتاد، فهو إذن من معجزاته. وقيل كانت النار بحالها لكنه سبحانه وتعالى دفع عنه أذاها، كما ترى في السَّمْدَل^(٧) ويُشْعِرُ به قوله: «على إبراهيم».

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

(٧٠) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ مكرًا في إضراره. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أخسرَ من كل خاسر لما عاد سعيهم برهاناً قاطعاً على أنهم على الباطل وإبراهيم على الحق وموجباً لمزيد درجته واستحقاقهم أشدَّ العذاب.

(٧١) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، وبركائه العامة أن أكثر الأنبياء بُعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية، وقيل كثرة النعم والخصب الغالب. روي أنه عليه الصلاة والسلام نزل بفلسطين ولوط عليه الصلاة والسلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة^(٨).

(١) بضم أوله، وبالثاء المثناة، وهي بالعراق، ولد فيها إبراهيم عليه السلام.

(٢) انظر البحر المحيط (٣٢٨/٦).

(٣) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٥٠/١) بلفظ «علمه بحالي غنى عن سؤالي» حكاية عن الخليل عليه السلام. وقال ابن تيمية: موضوع.

(٤) أخرج البخاري (٢٢٩/٨ رقم ٤٥٦٤) عن ابن عباس قال «كان آخر قول إبراهيم حين أُلقيَ في النار» (حسبي الله ونعم الوكيل).

(٥) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣٦٧/٥ - ٣٦٨).

(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/١٧ ج ٤٥) عن شعيب الجبائي.

(٧) السَّمْدَلُ: - طائر إذا انقطع نسلُهُ وَهَرِمَ أُلْقَى نفسه في الجَمْر فيعود إلى شبابه. قاله أبو سعيد. وقال غيره: هو دابة يدخل النار فلا تَحْرِقُه [لسان العرب (٣٧٦/٦)].

(٨) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/١٧ ج ٤٧) عن ابن إسحاق.

وذكر ابن جرير أقوالاً أخرى، ثم قال مرجحاً أن هجرة إبراهيم كانت من العراق إلى الشام، «وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يُقَمَّ بها، ولم يتخذها وطناً لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي =

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ﴿٧٣﴾ بِأَمْرِنَا ۖ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٤﴾ وَلَوْطَا ۖ أَأَيْنَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَيْنَتْهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْثِثَ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوُوءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوُوءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٨﴾

(٧٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ عَطِيَّةٌ فِيهِمَا، أَوْ وَلَدٌ وَلَدٌ، أَوْ زِيَادَةٌ عَلَى مَا سَأَلَ وَهُوَ إِسْحَاقُ فَتَخْتَصُّ بِيَعْقُوبَ وَلَا بَأْسَ بِهِ لِلْقَرِينَةِ. ﴿وَكُلًّا﴾ يَعْنِي الْأَرْبَعَةَ. ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ بَانَ وَقْتَنَاهُمْ لِلصَّلَاحِ وَحَمَلْنَاهُمْ عَلَيْهِ فَصَارُوا كَامِلِينَ.

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ يُقْتَدَى بِهِمْ. ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَإِرْسَالُنَا إِيَّاهُمْ حَتَّى صَارُوا مَكْمَلِينَ. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ لِيَحْتَوِهِمْ عَلَيْهَا فَيَتَمَّ كَمَالُهُمْ بِانْضِمَامِ الْعَمَلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَأَصْلُهُ أَنْ تَفْعَلَ الْخَيْرَاتِ ثُمَّ فِعْلًا الْخَيْرَاتِ ثُمَّ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ وَهُوَ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ لِلتَّفْضِيلِ، وَحُذِفَتْ تَاءُ الْإِقَامَةِ الْمُعْوَضَةِ مِنْ إِحْدَى الْأَلْفَيْنِ لِقِيَامِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهَا. ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾ مُوَحِّدِينَ فِي الْعِبَادَةِ، وَلِذَلِكَ قَدَّمَ الصَّلَاةَ.

(٧٤) ﴿وَلَوْطَا ۖ أَأَيْنَتْهُ حُكْمًا﴾ حِكْمَةً أَوْ نُبُوَّةً أَوْ فَصْلًا بَيْنَ الْخَصْمِ. ﴿وَعِلْمًا﴾ بِمَا يَنْبَغِي عِلْمُهُ لِلْأَنْبِيَاءِ. ﴿وَبَجَيْنَتْهُ مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ قَرْيَةِ سَدُومَ. ﴿الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْثِثَ﴾ يَعْنِي اللَّوَاظَةَ. وَصَفَهَا بِصِفَةِ أَهْلِهَا أَوْ أَسْنَدَهَا إِلَيْهَا عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَتِهَا مَقَامَهُ، وَبَدَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوُوءٍ فَسَقِينَ﴾ فَإِنَّهُ كَالْتَعْلِيلِ لَهُ.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ فِي أَهْلِ رَحْمَتِنَا أَوْ جَنَّتِنَا. ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَى.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ إِذْ دَعَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى قَوْمِهِ بِالْهَلَاكِ. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مِنْ قَبْلِ الْمَذْكُورِينَ. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دَعَاةً. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ مِنَ الطُّوفَانِ أَوْ أَذَى قَوْمِهِ. وَالْكَرْبُ الْغَمُّ الشَّدِيدُ.

(٧٧) ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ مُطَاوَعُ انتَصَرَ، أَيَّ جَعَلْنَاهُ مُنْتَصِرًا^(١). ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوُوءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لِاجْتِمَاعِ الْأَمْرَيْنِ: تَكْذِيبِ الْحَقِّ وَالْإِنْهَامَا فِي الشَّرِّ، وَلَعَلَّهُمَا لَمْ يَجْتَمِعَا فِي قَوْمٍ إِلَّا وَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

= بَارَكَ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ هـ.

(١) قَالَ أَبُو السَّعُودِ: (وَحَمَلَهُ عَلَى فَاتَنْصِرُ يَأْبَاهُ مَا ذُكِرَ مِنْ دَعَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ ظَاهَرَهُ يَوْجِبُ إِسْنَادَ الْإِنْتِصَارِ إِلَيْهِ تَعَالَى مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَهْوِيلِ الْأَمْرِ (س٧٨/٦)).

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

(٧٨) ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ في الزرع، وقيل في كرم تدلت عناقيد. ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ رعته ليلًا^(١). ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما عالمين^(٢).

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ الضمير للحكومة أو للفتوى. وقرئ فأفهمناها. روي أن داود حكم بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة: غَيْرُ هَذَا أَزَقُّ بِهِمَا، فَأَمَرَ بِدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بآلبانها وأولادها وأشعارها والحرث^(٣) إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادان. ولعلمها قالا اجتهدا. والأول نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني، والثاني مثل قول الشافعي بغرم الحيلولة في العبد المغيصوب إذا أبق، وحكمه في شرعنا: عند الشافعي وجوب ضمان المثلّف بالليل إذ المعتاد ضبط الدواب ليلًا وهكذا قضى النبي ﷺ لما دخلت ناقة البراء حائطاً وأفسدته فقال: «على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل»^(٤)، وعند أبي حنيفة لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ لقوله ﷺ: «جرح العجماء جبار»^(٥). ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دليل على أن خطأ المجتهد لا يُقَدَح فيه. وقيل على أن كل مجتهد مصيب، وهو مخالف لمفهوم قوله تعالى: «ففهمناها»، ولولا النقل لاحتمل توافقهما، على أن قوله فهمناها لإظهار ما تفضل عليه في صغره. ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ يُقَدِّسْنَ الله معه إما بلسان الحال، أو بصوت يتمثل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام. وقيل يسرن معه، من السباحة، وهو حال أو استئناف لبيان وجه التسخير. ومع متعلقة بسخرنا أو يسبحن. ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه. وقرئ بالرفع على الابتداء أو العطف على الضمير على ضعف. ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لأمثاله، فليس يبدع منا وإن كان عجبا عندكم.

(٨٠) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ عمل الدزع، وهو في الأصل اللباس قال:

الْبَسَ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا إِمَّا نَعِيمَهَا وَإِمَّا بُوسَهَا

(١) النفس رعي الماشية في الليل وأصله الانتشار والفرق (روح المعاني ١٧/٧٤).

(٢) وجملة «كنا لحكمهم...» جملة معترضة مقررة للحكم ومفيدة لمزيد الاعتناء بشأنه (س/٧٨/٦).

(٣) أي وأمر برفع الحرث...

(٤) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الأفضية (ج ٢٧) وأبو داود (٣٥٦٩) وابن ماجه (٢٣٣٢).

وهو حديث صحيح. أما الحديث الآتي «جرح العجماء جبار» فهو عام، وهذا حكم خاص، والعام ينبي على الخاص ويُرد إليه، فالمصير في هذا إلى حديث البراء كما أفاده الخطابي في معالم السنن على هامش سنن أبي داود.

(٥) أخرجه البخاري (١٤٩٩، ٢٣٥٥، ٦٩١٢) ومسلم، كتاب الحدود، باب جرح العجماء (ج ٤٥)، وجبار: هذر.

قبل كانت صفائح فحلقتها وسردها. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بعلم أو صفة للبوس. ﴿لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ بدل منه بَدَلُ الاشتمال بإعادة الجاز. والضمير لداود عليه الصلاة والسلام أو للبوس، وفي قراءة ابن عامر وحفص بالتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرغ، وفي قراءة أبي بكر ورؤيس بالنون لله عز وجل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ذلك، أمرٌ أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتفريع.

وَلَسَلِّمَنَّ الريحَ عاصِفةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾

(٨١) ﴿وَلَسَلِّمَنَّ﴾ وسخرنا له، ولعل اللام فيه دون الأول لأن الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له، وفي الأول أمرٌ يظهر في الجبال والطير مع داود وبالإضافة إليه. ﴿الريحَ عاصِفةً﴾ شديدة الهبوب من حيث إنها تُبْعِدُ بكرسيه في مدة يسيرة كما قال تعالى ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾^(١) وكانت رُخَاءً في نفسها طيِّبة. وقيل كانت رُخَاءً تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته. ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ﴾ بمشيئته، حال ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها. ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ إلى الشام رَوَّاحاً بعدما سارت به منه بُكْرَةً. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ فنَجْريه على ما تقتضيه الحكمة.

(٨٢) ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ في البحار ويُخرجون نفائسها. وَمِنْ عَطْفٍ على الريح، أو مبتدأ خبره ما قبله، وهي نكرة موصوفة. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ ويتجاوزون ذلك إلى أعمال آخر كبناء المدن والقصور. واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لِمَا يُشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْنِيْلٍ﴾^(٢). ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يُفْسِدُوا على ما هو مقتضى جبلتهم.

(٨٣) ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ باني مسني الضر. وقرئ بالكسر^(٣) على إضمار القول أو تضمين النداء معناه. والضُّرُّ بالفتح^(٤) شائع في كل ضرر، وبالضم خاص بما في النفس كمرضٍ وهُزال. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وَصَفَ ربه بغاية الرحمة بعدما ذَكَرَ نفسه بما يوجبها واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال. وكان رومياً من ولد عيص بن إسحاق استنبأه الله وكثر أهله وماله، فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرضي في بدنه ثمانين سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات. روي أن امرأته - مَاخِرَ بَنَتْ مِيشَا بن يوسف أو رحمة بنت إفرائيم بن يوسف - قالت له يوماً: لو دعوت الله؟ فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلاني مدة رخائي.

(١) سبأ: (١٢).

(٢) سبأ: (١٣).

(٣) أي بكسر الهمزة «إني».

(٤) أي بفتح الضاد.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ فَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُمْ أَهْلَهُمْ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

(٨٤) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ فَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ بالشفاء من مرضه. ﴿وَآتَيْنَاهُمْ أَهْلَهُمْ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ بأنَّ وُلد له ضِعْفُ ما كان، أو أُخِيَّ ولده وولِد له منهم نوافل^(١). ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ رحمة على أيوب وتذكِرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أُثيب، أو لرحمتنا للعابدين فإنا نذكُرهم بالإحسان ولا ننسَاهم.

(٨٥) ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ يعني إيلياس، وقيل يوشع، وقيل زكريا سمي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى، أو تكفل أمته، أو له ضِعْفُ عمل أنبياء زمانه وثوابهم، والكِفْلُ يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضعف. ﴿كُلٌّ﴾ كل هؤلاء. ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على مشاق التكليف وشدائد التَّوْب.

(٨٦) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ يعني النبوة أو نعمة الآخرة. ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

(٨٧) ﴿وَذَا النُّونِ﴾ وصاحب الحوت يونس بن متى ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ لقومه لما برم بطول دعوتهم وشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مهاجراً عنهم قبل أن يؤمَّر، وقيل: وَعَدَهُم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يَعْرِفَ الحال فَظَنَّ أَنَّهُ كَذَبَهُمْ وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة، أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لِخَوْفِهِمْ لِحُوقِ العذاب عندها. وقرئ مُغْضِبًا. ﴿فُظِّنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نُضَيِّقَ عليه، أو لن نقضي عليه بالعقوبة من القَدَر، ويعضده أنه قرئ مثقلاً^(٢)، أو لن نُعْمِلَ فيه قدرتنا، وقيل هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا، أو خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه فسميت ظناً للمبالغة. وقرئ بالياء^(٣)، وقرأ يعقوب على البناء للمفعول، وقرئ به مثقلاً^(٤). ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل. ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ بأنه لا إله إلا أنت. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ من أن يُعْجِزَكَ شيء. ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة، وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»^(٥).

(١) يقال لولد الولد نافلة (المصباح المنير مادة نفل).

(٢) أي قرئ «نُقَدِّرُ» بضم النون وفتح القاف وكسر الدال مشددة.

(٣) أي «يُقَدِّرُ» بفتح الياء وكسر الدال المخففة.

(٤) قراءة يعقوب «يُقَدِّرُ» وقرئ «يُقَدَّرُ».

(٥) أخرجه الترمذي (٥٢٩/٥) رقم ٣٥٠٥ والحاكم (٥٠٥/١) و(٣٨٢/٢) و(٥٨٣/٢)، قال الحاكم صحيح الإسناد

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَّرِيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾

(٨٨) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه، وقيل ثلاثة أيام. والغم غم الالتقام، وقيل غم الخطيئة. ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من غموم دعوا الله فيها بالإخلاص. وفي الإمام نُجَي ولذلك أخفى الجماعة النون الثانية فإنها تُخْفَى مع حروف الفم، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بتشديد الجيم على أن أصله تُنَجِّي فحذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في تَظَاهِرُونَ، وهي وإن كانت فاءً فحذفها أَوْقَعَ من حذف حرف المضارعة التي لمعنى، ولا يَفْدَحُ فيه اختلاف حركتي النونين فإن الداعي إلى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الإدغام، وامتناع الحذف في تتجافى لخوف اللبس^(١). وقيل هو ماض مجهول أُسْنِدَ إلى ضمير المصدر وسُكِّنَ آخره تخفيفاً، ورُدَّ بأنه لا يُسند إلى المصدر والمفعول مذكور والماضي لا يُسكن آخره.

(٨٩) ﴿وَزَكَّرِيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ وحيداً بلا ولد يرثني. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فإن لم ترزقني مَنْ يرثني فلا أبالي به.

(٩٠) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عُقرها، أو لذكرياً بتحسين خلقها وكانت حُرْدَةً. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير^(٢). ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذوي رَغَب ورَهَب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة، أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية. ﴿وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ مُخْبِتِينَ أو دائبين الوجَل. والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال.

= . ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في تخريج الكلم الطيب رقم (١٢٢).

- من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ «دعوة ذي النون إذ دعا هو في بطن الحوت أن «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» - رفعه - فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له.

- وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٥٦٠) وأحمد (١٧٠/١) وأبو يعلى (١١٠/٢) بهذا الإسناد وسياق أحمد وأبي يعلى طويل، فيه قصة.

- وأخرجه أبو يعلى (٦٥/٢) من طريق مطلب بن عبد الله بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه بلفظ «من دعا بدعاء يونس استجيب له».

وله شاهد: أخرجه الحاكم (٥٠٥/١) من طريق محمد بن المهاجر عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده. بلفظ «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه، فقل له بلى، فقال: دعاء ذي النون «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) لبس المضارع بالماضي لو حذفت إحدى التاءين.

(٢) وتعدي فعل المسارعة بـ «في» دون إلى للإيدان بكونهم داخلين في الخيرات غير خارجين عنها.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَرَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

(٩١) ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الحلال والحرام، يعني مريم^(١). ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي في عيسى عليه الصلاة والسلام فيها أي أحييناه في جوفها، وقيل فعلنا النفخ فيها. ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ من الروح الذي هو بأمرنا وحده، أو من جهة روحنا يعني جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أي قصتهما أو حالهما، ولذلك وَحَّدَ قَوْلَهُ: ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فإن مَنْ تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الصانع تعالى.

(٩٢) ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي إن ملة التوحيد والإسلام مِلَّتُكُمْ التي يجب أن تكونوا عليها، فكونوا عليها ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتباع. وقرئ أُمَّتُكُمْ بالنصب على البدل، وأمة بالرفع على الخبر، وقرئنا بالرفع عن أنهما خبران. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري. ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ لا غير.

(٩٣) ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ صَرَفَهُ إِلَى الْغَيْبَةِ التَّفَاتَا لِنَعْيِي عَلَى الَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ وجعلوا أمره قِطْعاً موزعة بقبیح فعلهم إلى غيرهم. ﴿كُلُّ﴾ من الفرق المتحزبة. ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فنجازيهم^(٢).

(٩٤) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله. ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ فلا تضييع. ﴿لِسَعِيهِ﴾ استعير لمنع الثواب كما استعير الشكر لإعطائه، ونقّي الجنس للمبالغة^(٣). ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ مُثْبِتُونَ فِي صَحِيفَةِ عَمَلِهِ لَا يَضِيعُ بوجهِ مَا.

(٩٥) ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ وممتنع على أهلها غير متصور منهم. وقرأ أبو بكر وحزمة والكسائي وَجِزْمٌ بكسر الحاء وإسكان الراء، وقرئ حَرَمٌ^(٤). ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ حكمنا بإهلاكها، أو وجدناها هالكة. ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ رجوعهم إلى التوبة أو الحياة، ولا صِلَةً. أو عدم رجوعهم للجزاء، وهو مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساذ مسد خبره أو دليل عليه، وتقديره: توبتهم أو حياتهم أو عدم بعثهم. أو لأنهم لا يرجعون ولا ينيبون، وحرام خبر محذوف أي وحرام عليها ذاك وهو المذكور في الآية

(١) والتعبير عنها بالموصول «التي» لتفخيم شأنها وتزيهها عما زعموه في حقها (س/٦/٨٣).

(٢) وإيراد اسم الفاعل «راجعون» للدلالة على الثبات والتحقق (س/٦/٨٤).

(٣) وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به (س/٦/٨٤).

(٤) قوله وقرئ «حرم» أي بفتح الحاء وسكون الراء، وفتح الحاء وكسر الراء والتونين، وبكسر الراء وفتح الحاء والميم على المضني، وبضم الراء وفتح الحاء والميم على المضني أيضاً، وفتح الحاء والراء والميم على المضني أيضاً، وبضم الحاء وكسر الراء المشددة وفتح الميم على البناء للمفعول.

المتقدمة، ويؤيده القراءة بالكسر^(١). وقيل حرام عَزَمَ وموجب عليهم أنهم لا يرجعون.

حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُواِ يَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾

(٩٦) ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ متعلق بحرام، أو بمحذوف دل الكلام عليه، أو بلا يرجعون أي يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها. وهو فتح سد يأجوج ومأجوج، وهي «حتى» التي يُحكى الكلام بعدها، والمحكي هي الجملة الشرطية. وقرأ ابن عامر ويعقوب فُتِحَتْ بالتشديد. ﴿وَهُمْ﴾ يعني يأجوج ومأجوج، أو الناس كلهم. ﴿مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ نَشَزَ من الأرض، وقرىء جَدَبٍ وهو القبر. ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يُسرعون، مِنْ نَسْلَانِ الذئب. وقرىء بضم السين.

(٩٧) ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ وهو القيامة. ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُواِ﴾ جواب الشرط، وإذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كقوله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾^(٢) فإذا جاءت الفاء معها تظاهرتا على وصل الجزاء بالشرط فيؤكد، والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار. ﴿يَتَوَلَّوْنَآ﴾ مقدر بالقول، واقع موقع الحال من الموصول. ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ لم نعلم أنه حق. ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنذر.

(٩٨) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يحتمل الأوثان وإيليس وأعوانه، لأنهم بطاعتهم لهم في حكم عِبَدَتِهِمْ، لما روي^(٣) أنه عليه الصلاة والسلام لما تلا الآية على المشركين قال له ابن الزبعرى: قد خَصَمْتُكَ وَرَبَّ الكعبة، أليس اليهود عبدوا عُزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مُلُوح

(١) أي بكسر الهمزة «إنهم».

(٢) الروم: ٣٦.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥٣/١٢) رقم (١٢٧٣٩) من طريق عاصم بن بهدلة عن أبي رزين عن ابن عباس.

- وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦٩/٧) وقال: فيه عاصم بن بهدلة وقد وثق وضعفه جماعة.

- وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/١٧ ج ٩٧) من طريق سعيد بن جبيرة. والحاكم (٣٨٥/٢) من طريق عكرمة. كلاهما عنه مختصراً وفيه «فقال المشركون» وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

● وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص ١١١ - ١١٢: «تنبيهان»: (أحدهما): اشتهر في السنة كثير من علماء المعجم، وفي كتبهم أن النبي ﷺ قال: في هذه القصة لابن الزبعرى.

«ما أجهلك بلغة قومك. فإني قلت: وما تعبدون. وهي لما لا يعقل ولم أقل ومن تعبدون» هـ. وهو شيء لا أصل له. ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند.

(الثاني): - قال السهيلي اعتراض ابن الزبعرى غير لازم. لأن الخطاب مخصوص بقريش وما تعبدون من الأصنام. ولذلك أتى بما الواقعة على ما لا يعقل» هـ.

وحديث ابن عباس الذي تقدم ينقض عليه هذا التأمل. فإنه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون الله.

عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ ^(١) الآية وعلى هذا يعم الخطاب ويكون ما مؤولاً بمن أو بما يعنه، ويدل عليه ما روي أن ابن الزبغوي قال: هذا شيء لألهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال ﷺ: «بل لكل من عبد من دون الله». ويكون قوله إن الذين بياناً للتجاوز أو للتخصيص، فأخر عن الخطاب. ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يؤمى به إليها وتهيج به، من حصبة يخبه إذا رماه بالحصباء. وقرئ بسكون الصاد وضمّاً بالمصدر. ﴿أَن تَرٰلَهَا وَرَدَوٰكُ﴾ استئناف أو بدل من حصب جهنم، واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على أن ورودهم لأجلها.

لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهُمَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ هَذَا ثَمَرُ فِعْلِهِمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

- (٩٩) ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهُمَا﴾ لأن المؤاخذة بالعذاب لا يكون إلهاً. ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا خلاص لهم عنها.
- (١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين وتنفس شديد، وهو من إضافة فعل البعض إلى الكل للتغلب إن أريد بما تعبدون الأصنام. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من الهول وشدة العذاب. وقيل لا يسمعون ما يسرهم.
- (١٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي الخصلة الحسنى، وهي السعادة أو التوفيق بالطاعة أو البشري بالجنة. ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم يُزَفَعُونَ إلى أعلى عليين. روي ^(٢) أن علياً كرم الله وجهه خطب وقرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وابن الجراح، ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول:
- (١٠٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ وهو بدل من مبعدون أو حال من ضميره سيق للمبالغة في إبعادهم عنها. والحسيس صوتٌ يُحَسُّ به. ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ دائمون في غاية التمتع. وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به.
- (١٠٣) ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾ النفخة الأخيرة لقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي

(١) الأنبياء: ١٠١.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٩٨٦/٣) من رواية ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير وكان من سمار علي.

وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف، وابن عم النعمان بن بشير مجهول، فالأثر ضعيف. وأخرج ابن جرير (١٠/١٧ ج ٩٦) من طريق محمد بن حاطب عن علي وليس فيه إلا «عثمان منهم» وإسناده صحيح.

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ^(١)، أو الانصرافُ إلى النار، أو حين يُطْبَقُ على النار، أو يُذْبَح الموت. ﴿وَنَلَقَّاهُمُ الْمَلَكُ﴾ تستقبلهم مهتئين لهم. ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ يومُ ثوابكم، وهو مقدر بالقول. ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ مقدر باذْكُر، أو ظرفٌ لِلْإِحْزَانِ أو تَلْقَاهُمْ، أو حالٌ مقدَّرة من العائد المحذوف من توعدون. والمرادُ بالطيِّ ضدُّ النشر، أو المَخْو من قولك اطوى عني هذا الحديث، وذلك لأنها نُشِرَتْ مَظْلَّةً لبني آدم فإذا انتقلوا قُوِّضَتْ عنهم. وقرئ بالياء والبناء للمفعول^(٢). ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ طياً كطي الطومار لأجل الكتابة أو لما يُكتب أو كُتِب فيه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع^(٣)، أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه. وقيل السِّجِلُّ مَلَكٌ يطوي كُتُب الأعمال إذا رفعت إليه، أو كاتبٌ كان لرسول الله ﷺ. وقرئ السِّجِلُّ كالدُّلُو، والسِّجِلُّ كالْعُتْلُ، وهما لغتان فيه. ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأً إعادةً مِثْلَ بَدَأْنَا إياه في كونهما إيجاباً عن العدم، أو جمعاً بين الأجزاء المتبددة. والمقصودُ بيانُ صحة الإعادة بالقياس على الإبداء، لشُمُول الإمكان الذاتي المُصَحَّح للمقدورية، وتناول القدرة القديمة لهما على السواء. وما كَافَّةٌ أو مصدرية، وأول مفعولٌ لبَدَأْنَا أو لفعل يفسره: ﴿نُعِيدُهُ﴾ أو موصولة والكافُ متعلقة بمحذوف يفسره نعيده، أي نعيد مثل الذي بدأنا وأولَ خَلْقٍ ظرف لبَدَأْنَا أو حال من ضمير الموصول المحذوف. ﴿وَعَدًا﴾ مقدر بفعله تأكيداً لِنُعِيدُهُ، أو منتصبٌ به لأنه عِدَّةٌ بالإعادة. ﴿عَلَيْنَا﴾ أي علينا إنجازُه. ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك لا محالة.

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ في كتاب داود عليه السلام. ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي التوراة، وقيل المرادُ بالزبور جنسُ الكتب المتزلة وبالذكر اللوحُ المحفوظ. ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي أرضَ الجنة، أو الأرض المقدسة. ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعني عامة المؤمنين، أو الذين كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مشارقَ الأرض ومغاربها، أو أمة محمد ﷺ.

(١٠٦) ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أي فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿لَبَلَاغًا﴾ لِكِفَايَةِ أو لَسَبَبِ بُلُوغٍ إلى البُغْيَةِ. ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ همُّهم العبادة دون العادة.

(١٠٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأن ما بُعِثَ به سببٌ لإسعادهم وموجبٌ لصلاح معاشهم ومعادهم، وقيل كونه رحمةً للكفار أَمْنُهُمْ به من الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال.

(١) النمل: ٨٧.

(٢) أي يُطْوَى.

(٣) أي جمع الكتاب «للكُتُب».

قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا
الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

(١٠٨) ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد، وذلك لأن المقصود الأصلي من بعثه مقصورٌ على التوحيد، فالأولى لقصر الحكم على الشيء والثانية على العكس. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون العبادة لله تعالى على مقتضى الرحي المصدق بالحجة، وقد عرفت أن التوحيد مما يصح إثباته بالسمع.

(١٠٩) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم ما أمرت به، أو حربي لكم. ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ مُسْتَوِينَ في الإعلام به، أو مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به، أو في المعادة، أو إيداناً على سواء. وقيل أعلمتكم أنني على سواء أي عذلي واستقامتي رأي بالبرهان النير. ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ وما أدري. ﴿أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين أو الحشر، لكنه كائن لا محالة.

(١١٠) ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ما تُجاهرون به من الطعن في الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه.

(١١١) ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ وما أدري لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة في افتتانكم أو امتحان لينظر كيف تعملون. ﴿وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته.

(١١٢) ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أفض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لاستعجال العذاب والتشديد عليهم. وقرأ حفص قال على حكاية قول رسول الله ﷺ، وقرىء ربُّ بالضم، ورتبي أحكم على بناء التفضيل، وأحكم من الإحكام. ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ كثير الرحمة على خلقه. ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه المعونة. ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال بأن الشوكة تكون لهم وأن راية الإسلام تحقق إيماناً ثم تسكن وأن الموعد به لو كان حقاً لنزل بهم، فأجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فخيب أمانيتهم ونصر رسوله ﷺ. وقرىء بالياء وعن النبي ﷺ «من قرأ اقترب حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكّر اسمه في القرآن»^(١) والله تعالى أعلم.

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

انظر (الكافي الشافعي) (ص ١١٢ رقم ١٤).

سُورَةُ الْحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِدُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

سورة الحج مكية

إلا ست آيات من «هذان خصمان» إلى «صراط الحميد»^(١) وأيّها ثمان وسبعون آية

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/٤٠١ - ٤٠٢).

«روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلها. غير آيتين نزلتا بالمدينة:

قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف)، والتي تليها [الحج: ١٢، ١٣].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول... إلى آخر الأربع [الحج: ٥٣ - ٥٧] وقال عطاء بن يسار: نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة:

(هذان خصمان) واللذان بعدها [الحج: ٢٠ - ٢٢] وقال أبو سليمان الدمشقي: أولها مدني إلى قوله تعالى: (وبشر المحسنين) [الحج: ٣٨] وسائرهما مكّي. وقال الثعلبي: هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: (هذان خصمان) إلى قوله تعالى (الحميد) [الحج: ٢٠ - ٢٥] وقال هبة الله بن سلامة: هي من أعاجيب سور القرآن لأن فيها مكياً ومدنياً وحضرياً وسفرياً وحربياً وسلمياً وليلياً ونهارياً وناسخاً ومنسوخاً.

فأما المكّي، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها.

وأما المدني، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين.

وأما الليلي، فمن أولها إلى آخر خمس آيات.

وأما النهاري، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع.

وأما السفري، فمن رأس تسع إلى اثنتي عشرة.

وأما الحضري، قال رأس العشرين [منها] نسب إلى المدينة، لقرب مدته.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ تحريكها للأشياء على الإسناد المجازي، أو تحريك الأشياء فيها فأضيفت إليها إضافة معنوية بتقدير في، أو إضافة المصدر إلى الظرف على إجرائه مجرى المفعول به. وقيل هي زلزلة تكون قبيل طلوع الشمس من مغربها، وإضافتها إلى الساعة لأنها من أشراتها. ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ هائل. علل أمرهم بالتقوى بفضاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يؤمنهم منها سوى التدرع بلباس التقوى فيتقوا على أنفسهم ويتقوها بملازمة التقوى.

(٢) ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ تصويرٌ لهولها، والضمير للزلزلة، ويوم منصوب بتذهل. وقرىء تذهل وتذهل مجهولاً ومعروفاً أي تذهلها الزلزلة. والذهول الذهاب عن الأمر بدهشة. والمقصود الدلالة على أن هولها بحيث إذا دهشت التي ألقت الرضيع نديها نزعت من فيه وذهلت عنه. وما موصولة أو مصدرية. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ كأنهم سكارى. ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ على الحقيقة. ﴿وَلَكِنْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فأرهقهم هولُه بحيث طير عقولهم وأذهب تمييزهم. وقرىء تُرى من أُرئت قائماً أو رُويت قائماً بنصب الناس ورفع على أنه نائبُ الفاعل. وتأنيته على تأويل الجماعة، وإفراذه بعد جمعه لأن الزلزلة يراها الجميع، وأثرُ السَّكر إنما يراه كل أحد على غيره. وقرأ حمزة والكسائي سُكرى كعطشى، إجراءً للسَّكر مجرى العلل.

(٣) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضر بن الحارث^(١)، وكان جديلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت، وهي تعمه وأضرابه. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في المجادلة أو في عامة أحواله. ﴿كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ متجذد للفساد، وأصله العُزْيُ.

(٤) ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ على الشيطان. ﴿أَنَّهُم مِّن قَوْلِهِ﴾ تبعه، والضمير للشأن. ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ خبر لمن أو جواب له، والمعنى كتب عليه إضلال من يتولاه لأنه جُبِلَ عليه. وقرىء بالفتح^(٢) على تقدير فشأنه أنه يُضله لأعلى العطف فإنه يكون بعد تمام الكلام، وقرىء بالكسر في الموضعين على حكاية المكتوب أو إضمار القول أو تضمين الكتب معناه. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه.

يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتُوفٍ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝

(٥) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً. وقرىء من البعث بالتحريك كالجَلْب. ﴿فإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم فإنه يُرِيح رَيْبَكُمْ فإننا خلقناكم. ﴿مِّن تَرَابٍ﴾ بخلق آدم منه، أو الأغذية التي يتكون منها المني. ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ مني، من التطف وهو الصب.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم - كما في «الدر المنثور» (٨/٦).

(٢) أي بفتح الهمزة في «أنه» في الموضعين.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة. ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم، وهي في الأصل قَدْرٌ ما يُمَضَّغ. ﴿تُخَلَقُ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ﴾ مُسَوِّاةٌ لا نقص فيها ولا عيب وغير مُسَوِّاةٍ، أو تامة وساقطة، أو مصوِّرة وغير مصورة. ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدرج قُدْرَتَنَا وحِكمَتَنَا، وأن ما قَبِلَ التغيّر والفساد والتكوّن مرة قَبْلُها أخرى، وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً قدر على ذلك ثانياً. وحُذِفَ المفعول إيماءً إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذّكر. ﴿وَنُقَرِّفُ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ﴾ أن نقره. ﴿إِلَّا أَجَلَ مُسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه أربع سنين. وقرىء ونُقَرِّ بال نصب، وكذا قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ عطفاً على نَبَيِّنَ، كأن خَلَقَهُمْ مُدْرَجاً لغرضين: تبين القدرة، ونُقَرِّبَهُم في الأرحام حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف. وقرئنا^(١) بالياء رفعاً ونصباً، ويُقَرِّ بالياء، ونُقَرِّ من قررت الماء إذا صببته. وطفلاً حالٌ أجريت على تأويل كل واحد، أو للدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر. ﴿ثُمَّ لِنَبْلُغُ أَشُدَّكُمْ﴾ كمالكم في القوة والعقل، جمع شِدَّة كالأنعم جمع نعمة، كأنها شدة في الأمور. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَّى﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله. وقرىء يَتُوفَّى أي يتوفاه الله تعالى. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرْدُ إِلَى أَزْدَلِ الْأَعْمُرِ﴾ وهو الهرم والخرف. وقرىء بسكون الميم. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما عملهُ ويُنكر ما عرفه. والآية استدلال ثانٍ على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره. ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة يابسة، مِنْ هَمَدَتِ النار إذا صارت رماداً. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَخَارَتْ﴾ تحركت بالنبات. ﴿وَرَبَّتْ﴾ وانتفخت. وقرىء وربأت أي ارتفعت. ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل صنف ﴿بَهِيحٍ﴾ حَسَنٍ رائق. وهذه دلالة ثالثة كررها الله تعالى في كتابه لظهورها وكونها مشاهدة.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

(٦) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة وإحياء الأرض بعد موتها، وهو مبتدأ خبره: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي بسبب أنه الثابت في نفسه الذي به تتحقق الأشياء. ﴿وَأَنْتُمْ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وأنه يَقْدِرُ على إحيائها، وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة^(٢). ﴿وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قُدْرته لذاته الذي نَسْبَتُهُ إلى الكل على سواء. فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها.

(٧) ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه^(٣) ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي

(١) قوله : (وقرئنا) عائدة على الفعلين نَقَرَّ ، ونخرجكم ..

(٢) وتخصيص إحياء الموتى بالذكر - مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها - للتصريح بما فيه النزاع والدفع في

نحور الكافرين ، وتقديمه لإبراز الاعتناء به (س ٦/ ٩٥) .

(٣) وإيثار صيغة الفاعل في «آتية» للدلالة على تحقيق إتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة إياه (س ٦/ ٩٥) .

أَلْقُبُورِ ﴿بِمَقْتَضَى وَعْدِهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْخُلْفَ.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾

(٨) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة بقوله: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ على أنه لا سند له عن استدلال أو وحي، أو الأول في المقلدين وهذا في المقلدين، والمراد بالعلم العلم الفطري ليصح عطف الهدى والكتاب عليه.

(٩) ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ متكبراً، وثني العطف كناية عن التكبر كَلَمَى الجِدِّ، أو مُغْرِضاً عن الحق استخفافاً به. وقرئ بفتح العين أي مانع تَعَطُّفُهُ. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ علة للجدال، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء، على أن إعراضه عن الهدى المتمكن منه بالإقبال على الجدال الباطل خروج من الهدى إلى الضلال، وأنه من حيث مؤداه كالغرض له. ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر. ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ المحروق وهو النار.

(١٠) ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ على الالتفات، أو إرادة القول أي يقال له يوم القيامة ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي^(١). ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وإنما هو مُجَازٍ لهم على أعمالهم. والمبالغة لكثرة العبيد.

(١١) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ على طَرَفٍ من الدين لا ثَبَاتَ له فيه، كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظفر قَرٍّ وإلا قَرَّ. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ روي أنها نزلت في أعاريب قدموا المدينة، فكان أحدهم إذا صح بَدَنُهُ وَتَجَّتْ فرسه مُهراً سَرِيّاً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال: ما أَصَبْتُ منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أَصَبْتُ إلا شراً وانقلب^(٢). وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصائب فتشام بالاسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أَقْلَنِي فقال: «إن الإسلام لا يُقَالُ» فنزلت^(٣). ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا

(١) وإسناده إلى يده لأن الاكتساب عادة يكون بالأيدي (س/٦/٩٧).

(٢) ذكره الواحدي في الأسباب «ص/٣٠٧».

وأخرج معناه البخاري (٨/٤٤٢ رقم ٤٧٤٢) وابن أبي شيبة، والإسماعيلي وابن أبي حاتم - كما في فتح الباري (٨/٤٤٣) - وابن مردويه - كما في «فتح القدير» (٣/٤٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما -.

(٣) ذكره الواحدي في الأسباب «ص/٣٠٧».

وأخرجه ابن مردويه - كما في «فتح القدير» (٣/٤٤٢) و«فتح الباري» (٨/٤٤٣) عنه وإسناده ضعيف.

قلت: وأخرج البخاري (٨/٤٤٢ رقم ٤٧٤٢) في تفسير هذه الآية، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: «ومن الناس من يعبد الله على حرف» قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، وتنجت =

وَالْآخِرَةُ ﴿١١﴾ بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد. وقرى خاسراً بالنصب على الحال، والرفع على الفاعلية. ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيماً على خسرانه أو على أنه خبرٌ محذوف. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ إذ لا خسران مثله.

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ﴾ يَعْبُدُ جماداً لا يضر بنفسه ولا ينفع. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن المقصد، مستعارٌ من ضلال مَنْ أبعد في التيه ضالاً.

(١٣) ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ﴾ بكونه معبوداً لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة. ﴿أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ الذي يُتَوَقَّعُ بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى. واللامُ معلقةٌ ليدعو من حيث إنه بمعنى يزعم، والزعم قول مع اعتقاد، أو داخله على الجملة الواقعة مقولاً إجراءً له مُجرى يقول. أي يقول الكافر ذلك بدعاء وصراخ حين يرى استضراره به، أو مستأنفةً على أن يدعو تكريزاً للأول وَمَنْ مبتدأ خبره: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ الناصر. ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ الصاحب^(١).

(١٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إثابة الموحّد الصالح وعقاب المشرك الطالح لا دافع له ولا مانع.

(١٥) ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ كلام فيه اختصار، والمعنى: أن الله ناصرٌ رسولَه في الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه. وقيل المراد بالنصر الرزق، والضمير لِمَنْ. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فَلْيَسْتَقْصِرْ في إزالة غيظه أو جزعه بأن يفعل كل ما يفعله الممتلىء غيظاً، أو المُبَالِغُ جزءاً حتى يَمُدَّ حبلاً إلى سماء بيته فيختنق، مِنْ قَطَعَ إذا اختنق فإن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه. وقيل فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عِنانها فيجتهد في دفع نصره أو تحصيل رزقه. وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر لِيَقْطَعْ بكسر اللام. ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ فليتصور في نفسه. ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ فعله ذلك، وسماء على الأول كيداً لأنه انتهى ما يقدر عليه. ﴿مَا يَغِيظُ﴾ غيظه أو الذي يغيظه من نصر الله. وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله لاستعجالهم وشدة غيظهم على المشركين.

= خيله قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تلِدْ امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

(١) وإيراد صيغة التفضيل في «أقرب» مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة في تقييح حاله والإمعان في ذمه (س/٩٨/٦).

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ فِيهَا مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ
وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ
وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَٰذَا خِطْمَانِ أَخْصَمُوا فِي رِبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ
يُصَّبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال. ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أنزلنا القرآن كله. ﴿آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾ واضحات.
﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ ولأن الله يهدي به أو يثبت على الهدى. ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايته أو إباته، أنزله كذلك
مبيناً.

(١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ بالحكومة بينهم وإظهار المحق منهم على المبطل، أو الجزاء فيجازي كل ما يليق به ويدخله
المحل المعد له، وإنما أدخلت إن على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ﴾ عالم به مراقب لأحواله.

(١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يتسخر لقدرته ولا يتأتى عن تدبيره، أو
يدل بذلته على عظمة مدبره. وَمَن يجوز أن يعم أولي العقل وغيرهم على التغليب، فيكون قوله:
﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾ أفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها. وقرئ
والدواب بالتخفيف كراهة التضعيف أو الجمع بين الساكنين^(١). ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ عطف عليها إن
جوز إعمال اللفظ الواحد في كل واحد من مفهومي، وإسناده باعتبار أحدهما إلى أمر وباعتبار الآخر
إلى آخر، فإن تخصيص الكثير يدل على خصوص المعنى المسند إليهم. أو مبتدأ خبره محذوف، يدل
عليه خبر قسيمه نحو حق له الثواب. أو فاعل فعل مضمّر، أي ويسجد له كثير من الناس سجود
طاعة. ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ بكفره وإيائه عن الطاعة، ويجوز أن يجعل وكثيراً تكريراً للأول مبالغة
في تكثير المحققين بالعذاب وأن يُعْطَفَ به على الساجدين بالمعنى العام موصوفاً بما بعده. وقرئ
حَقَّ بالضم، وحقاً بإضمار فعله. ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ﴾ بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة، وقرئ
بافتح^(٢) بمعنى الإكرام. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الإكرام والإهانة.

(١٩) ﴿هَٰذَا خِطْمَانِ﴾ أي فوجان مختصمان، ولذلك قال: ﴿أَخْصَمُوا﴾ حملاً على المعنى ولو
عكس لجاز، والمراد بهما المؤمنون والكافرون. ﴿فِي رِبِّهِمْ﴾ في دينه أو في ذاته وصفاته. وقيل
تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقال اليهود: نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم، وقال

(١) والمراد بالرؤية في «ألم تر» العلم، وقد عبر عنه بها إشعاراً بظهور المعلوم (س/٦/١٠٠).

(٢) أي بفتح الراء أي مُكْرَم.

المؤمنون: نحن أحنُّ بالله آمنا بمحمد ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسداً، فنزلت^(١). ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فُضِّلَ لخصومتهم وهو المعني بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٢). ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ﴾ قُدِّرَتْ لَهُمْ على مقادير جثثهم. وقرىء بالتخفيف. ﴿ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ نيران تحيط بهم إحاطة الثياب. ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ حال من الضمير في لهم، أو خبر ثان. والحميم الماء الحار.

يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ^(٢٠) وَلَهُمْ مَقْمَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ^(٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ^(٢٢) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ^(٢٣)

(٢٠) ﴿يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي يؤثر من فزط حرارته في بطونهم تأثيره في ظاهرهم فتذاب به أحشائهم كما تذاب به جلودهم. والجملة حال من الحميم، أو من ضميرهم. وقرىء بالتشديد للتكثير^(٣).

(٢١) ﴿وَلَهُمْ مَقْمَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ سياط منه يُجلدون بها، جمع مقمعة، وحقيقتها ما يُقمع به أي يُكف بعنف.

(٢٢) ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ من النار. ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ من غموها، بدل من الهاء بإعادة الجار. ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي فخرجوا أعيدوا لأن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج، وقيل يضربهم لهيب النار فيرفعهم إلى أعلاها فيضربون بالمقامع فيهرون فيها. ﴿وَذُوقُوا﴾ أي وقيل لهم ذوقوا. ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي النار البالغة في الإحراق.

(٢٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ غير الأسلوب فيه وأسند الإدخال إلى الله تعالى وأكده بيان إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من حَلَيْت المرأة إذا البستها الحلَى. وقرىء بالتخفيف، والمعنى واحد. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صفة مفعول محذوف، وأساور جمع أسورة وهو جمع سوار. ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ بيان له. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف عليها لا على ذهب لأنه لم يُعهد السوار منه إلا أن يراد المرصعة به. ونصبه نافع وعاصم عطفاً على محلها أو إضمار الناصب مثل وُؤُوتون، وروى حفص بهمزتين، وترك أبو بكر والسوسي عن أبي عمرو الهمزة

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٣١٨) عن ابن عباس بدون إسناد وأخرجه ابن جرير (٩٩/١٧) عن ابن عباس من طريق عطية العوفي، وسنده ضعيف لضعف عطية.

ولكن أخرج البخاري (٣٩٦٥، ٤٧٤٤) أن الآية نزلت في مبارزة حمزة وعبيدة وعلي مع عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر.

(٢) الحج: ١٧.

(٣) وتأخير الجلود إما لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر مع أن ملاستها على العكس (س ١٠١/٦).

الأولى، وقرئ لُولُوا بقلب الثانية واوًا، وَلُولِيَا بقلبهما واوَيْن ثم قلب الثانية ياء، وَلِيلِيَا بقلبهما ياءَيْن، وَلُولِي كَأَذَلٍ^(١). ﴿وَلِبَاسُتُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غير أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة، أو للمحافظة على هيئة الفواصل.

وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَافُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَبْطُلِمْ نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو قولهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدُّهُ﴾^(٢) أو كلمة التوحيد. ﴿وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ المحمود نفسه، أو عاقبته وهو الجنة أو الحور، أو المستحق لذاته الحمد وهو الله سبحانه وتعالى وصراطه الإسلام.

(٢٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا يريد به حالاً واستقبالاً وإنما يريد به استمرار الصد منهم كقولهم: فلان يعطي ويمنع، ولذلك حَسَنَ عَطْفُهُ على الماضي. وقيل هو حال من فاعل كفروا، وخبرٌ إن محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون. ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عطف على اسم الله. وأَوَّلُهُ الحنفية بمكة، واستشهدوا بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَافُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ - أي المقيم والطارىء - على عدم جواز بيع دورها وإجارتها، وهو مع ضعفه مُعَارِضُ بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(٣) وشراء عمر رضي الله تعالى عنه دار السجن فيها من غير نكير^(٤). وسواءٌ خبرٌ مقدَّم، والجملة مفعولٌ ثانٍ لجعلناه إن جعل للناس حالاً من الهاء وإلا فحالٌ من المستكن فيه. ونصبه حفص على أنه المفعول أو الحال، والعاكفُ مرتفع به، وقرئ العاكف بالجر على أنه بدل من الناس. ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ مما تُرك مفعوله ليتناول كل مُتَنَاولٍ، وقرئ بالفتح^(٥) من ورود. ﴿بِالْحَكَاكِ﴾ عدول عن القصد ﴿بِطَلْمٍ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له أي مُلْحِداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام. ﴿تُذَقُّهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ جوابٌ لمن.

(١) أَذَلٍ جمع ذَلُو.

(٢) الزمر: ٧٤.

(٣) الحشر: ٨٨.

(٤) نقل البيضاوي عن الحنفية غير محرر، فالفتوى عند الحنفية خلاف ذلك، والمنقول عن أبي حنيفة بأنه لا بأس ببيع بناء مكة ويكره بيع أرضها، وفي رواية عنه بأنه لا بأس ببيع أرضها، وكره أبو حنيفة إجارة البيوت في مكة أيام الموسم.

انظر تحرير هذه المسألة في روح المعاني (١٧/١٣٨).

(٥) أي بفتح الباء «يرذ».

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ
عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ
الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

(٢٦) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾ أي واذكر إذ عيناؤه وجعلناه له مباءة، وقيل اللام زائدة، ومكانَ ظرفٍ أي وإذ أنزلناه فيه. قيل: رُفِعَ البيت إلى السماء وانطمس أيام الطوفان فأعلمه الله مكانه بريح أرسلها فكُنِست ما حوله فبناه على أسنه القديم. ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أَنْ مفسرة لبوأننا من حيث إنه تضمن معنى تعبنا لأن التبوئة من أجل العبادة، أو مصدرية موصولة بالنهي أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وطهر بيتي من الأوثان والأقدار لمن يطوف به ويصلي فيه. ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك، كيف وقد اجتمعت؟. وقرئ يُشرك بالياء، وقرأ نافع وحفص وهشام بَيْتِي بفتح الياء.

(٢٧) ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ نادٍ فيهم. وقرئ وأذن. ﴿بِالْحَجِّ﴾ بدعوة الحج والأمر به. روي أنه عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حُجُّوا بيت ربكم، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب من سبق في علمه أن يحج^(١). وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ أمر بذلك في حجة الوداع. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مُشاةً جمعٌ راجل كقائم وقيام. وقرئ بضم الراء مخفف الجيم ومثقله، ورجالي كعجالي. ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بُعْدُ السفر فهزله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفةٌ لضامر محمولة على معناه. وقرئ يأتون صفة للرجال والركبان، أو استئناف فيكون الضمير للناس. ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق. ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. وقرئ مَعِيق يقال بثر بعيدة العُمُق والمُعَقُّ بمعنى.

(٢٨) ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ لِيَحْضَرُوا. ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ دينيةً ودنيوية، وتنكيرها لأن المراد بها نوعٌ من المنافع مخصوصٌ بهذه العبادة. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها. وقيل كنى بالذكر عن النحر لأن ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى. ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ هي عشرُ ذي الحجة، وقيل أيام النحر. ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ علّق الفعل بالمرزوق وبينه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من لحومها، أمرٌ بذلك إباحةً وإزاحةً لما عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوع به دون الواجب. ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة. ﴿الْفَقِيرَ﴾ المحتاج، والأمرُ فيه للوجوب وقد قيل به في الأول.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس - كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥) - .

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ما يندرون من البر في حجهم، وقيل مواجب الحج. وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الرُّكْن الذي به تمام التحلل فإنه قرينة قضاء التَّفَث، وقيل طواف الوداع. وقرأ ابن عامر وحده بكسر اللام فيهما. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس، أو المُعْتَق من تسلط الجبابة فكم من جبار رسا إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى؟ وأما الحجاجُ فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه.

(٣٠) ﴿ذَلِكَ﴾ خبرٌ محذوف أي الأمر ذلك، وهو وأمثاله تَطَلُّقٌ للفصل بين كلامين. ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه، أو الحَرَم وما يتعلق بالحج من التكاليف. وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ فالتعظيم خير له. ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ثواباً. ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلا المتلو عليكم تحريمه، وهو ما حُرِّم منها لعارض كالهيئة وما أهل به لغير الله، فلا تُخرجوا منها غير ما حرمه الله كالبحيرة والسائبة. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تُجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأسُ الزور، كأنه لما حث على تعظيم الحُرُمات أتبعه ذلك رداً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حَكَمَ بذلك. وقيل شهادة الزور لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «عَدَلْتُ شهادةُ الزور الإِشْرَاقَ بالله تعالى» ثلاثاً، وتلا هذه الآية (١). والزُّور من الزُّور وهو الانحراف كما أن الإفك من الأفك وهو الصرف، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع.

(١) أخرجه أبو داود (٢٤/٤) رقم ٣٥٩٩ والترمذي (٥٤٧/٤) رقم ٢٣٠٠ وابن ماجه (٧٩٤/٢) رقم ٢٣٧٢ وأحمد (٣٢١/٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/١٧ج/١٥٤) والطبراني في الكبير (٢٤٩/٤) رقم ٤١٦٢ كلهم من طريق محمد بن عبيد عن سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك. وسكت عليه أبو داود، وقال الترمذي: هذا عندي أصح، وخريم بن فاتك له صحبه. وقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف ابن ماجه.

● وأخرجه الترمذي (٥٤٧/٤) رقم ٢٢٩٩ وأحمد (٢٣٣/٤) رقم ٣٢٢ وابن جرير (١٠/١٧ج/١٥٤). كلهم من طريق مروان الفزاري، عن سفيان بن زياد العصفري عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم وفاتك بن فضالة مجهول الحال كما في التقريب (١٠٧/٢) رقم ١. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ. والخلاصة أن الحديث مرسل ضعيف.

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبَرٌ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ وهما حالان من الواو. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ فإن الأهواء الرديئة توزع أفكاره. وقرأ نافع وحده فَتَخْطَفُهُ بفتح الخاء وتشديد الطاء. ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة. وأو للتخيير كما في قوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١)، أو للتنويع فإن من المشركين مَنْ لا خلاص له أصلاً، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بُعد، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعنى: ومن يشرك بالله فقد هلك نفسه هلاكاً يشبه أحد الهالكين.

(٣٢) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبَرٌ اللَّهِ﴾ دين الله، أو فرائض الحج ومواضع نُسُكِهِ، أو الهدايا لأنها من معالم الحج، وهو أوفق لظاهر ما بعده. وتعظيمها أن تختارها حسناً سماناً غالية الأثمان. روي أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَّة^(٢) من ذهب^(٣)، وأن عمر رضي الله تعالى عنه أهدى نجبية^(٤) طلبت منه بثلاثمائة دينار^(٥). ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمها منه من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات، والعائد إلى مَنْ، وذكر القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور أو الآمرة بهما.

(١) البقرة: (١٩).

(٢) البُرَّة هي الحلقة التي تجعل في أنف الجمل.

(٣) ● أخرج البزار في الكشف (١٩/٢ رقم ١١٠٤) عن ابن عباس أن النبي ﷺ أهدى مائة بدنة مقلدة مجللة، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٢٥/٣) وقال «رواه البزار وفيه الحجاج بن أرطاة وهو ثقة لكنه مدلس» هـ.

● وأخرج أبو داود (٣٦٠/٢ - ٣٦١ رقم ١٧٤٩) والحاكم (٤٦٧/١) وأبو يعلى في المسند (٣٣٨/٤ - ٣٣٩) والطبراني في الكبير (٩١/١١ رقم ١١١٤٧) و(٩٢/١١ رقم ١١١٤٨) وأحمد في المسند (٢٦١/١) كلهم من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيع عن مجاهد عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هدايا رسول الله ﷺ جملاً كان لأبي جهل في رأسه بُرَّة فُضَّة. قال ابن منهال: بُرَّة من ذهب. زاد النفيلى، يغيظ بذلك المشركين.

قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وسكت أبو داود والمنذري على الحديث. وحسنه الألباني في صحيح أبو داود.

(٤) النجبية مؤنث «فعل» من نجب أي الفاضل من الإبل [النهاية (١٧/٥)].

(٥) أخرجه أبو داود (٣٦٥/٢ رقم ١٧٥٦) والبخاري في التاريخ الكبير (٢٣١/٢) من حديث ابن عمر.

قال البخاري: لا نعرف لجهم سماعاً من سالم. وقال الذهبي فيه جهالة، وقال الحافظ: مقبول. [الميزان (٤٢٦/١)] والتقريب (١٢٥/١).

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلُمُوا وَيُسِرِّ الْمُخِيتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي لكم فيها منافع دَرَّهَا ونسلها وصوفها وظهرها إلى أن تنحر، ثم وقت نحرها منتهية إلى البيت أي ما يليه من الحرم. وثم تحتمل التراخي في الوقت والتراخي في الرتبة، أي لكم فيها منافع دنيوية إلى وقت النحر وبعده منافع دينية أعظم منها، وهو على الأولين إما متصل بحديث الأنعام والضمير فيه لها، أو المراد على الأول لكم فيها منافع دينية تنتفعون بها إلى أجل مسمى هو الموت ثم محلها منتهية إلى البيت العتيق الذي ترفع إليه الأعمال، أو يكون فيها ثوابها وهو البيت المعمور أو الجنة، وعلى الثاني لكم فيها منافع التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولكل أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ متعبداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر^(١) أي موضع نُسَك. ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ دون غيره ويجعلوا نسيتهم لوجهه، علل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من المناسك تذکر المعبود. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند ذبحها، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نَعَمًا. ﴿فَالنَّهْكَمُ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلُمُوا﴾ أخلصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك. ﴿وَيُسِرِّ الْمُخِيتِينَ﴾ المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات صفتهم.

(٣٥) ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هيبة منه، لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من الكلف والمصائب. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها. وقرئ والمقيميين الصلاة على الأصل. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

(٣٦) ﴿وَالْبُدْنَ﴾ جمع بَدَنَة كخشب وخشبة، وأصله الضم وقد قرئ به^(٢)، وإنما سميت بها الإبل لعظم بدنها، مأخوذة من بَدَن بَدَانَة. ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في إجزائها عن سبعة بقوله عليه الصلاة والسلام «البَدَنَة عن سبعة والبقرة عن سبعة»^(٣) تناول اسم البدنة لها شرعاً، بل الحديث

(١) أي بكسر السين في «منسكاً».

(٢) أي وأصله ضم الدال، وقد قرئ بضم الدال «والبُدْن».

(٣) أخرجه أبو داود (٢٣٩/٣) رقم ٢٨٠٩ عن جابر. وهو حديث صحيح.

● وأخرج مسلم (٩٥٥/٢) رقم ١٣١٨/٣٥١ ومالك في الموطأ (٤٨٦/٢) رقم ٩ والترمذي (٢٤٨/٣) رقم ٩٠٤ وأبو داود (٢٣٩/٣) رقم ٢٨٠٧ والنسائي (٢٢٢/٧) رقم ٤٣٩٣ والدارمي (٧٨/٢).

يمنع ذلك، وانتصابه بفعل يفسره. ﴿جَعَلْنَهَا لَكُمْ﴾ ومن رفعه جعله مبتدأ. ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منافع دينية ودنيوية. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك. ﴿صَوَافٍ﴾ قائمات قد صَفَّنَ أيديهن وأرجلهن. وقرئ صَوَافٍ من صَفَّنَ الفرس إذا قام على ثلاث وعلى طرف حافر الرابعة لأن البدنة تُغَلَّل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرئ صوافنا بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف، وصَوَافِي أي خوالص لوجه الله، وصَوَافِي بسكون الياء على لغة من يسكن الياء مطلقاً كقولهم: أعطِ القوس باريها. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْفُقَرَاءَ﴾ الراضي بما عنده وبما يُعطى من غير مسألة ويؤيده قراءة الفقع، أو السائل من قَنَعْتُ إليه قَنوعاً إذا خضعت له في السؤال. ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ والمعترض بالسؤال. وقرئ والمعتري، يقال عَرَّه وعراه واعتراه واعتراه. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياماً. ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ مع عِظَمها وقوتها حتى تأخذوها منقاداً فتعقلوها وتحبسوها صاقفةً قوائمها، ثم تطعنون في لَبَائِهَا^(١). ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ﴾ لن يُصِيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول. ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها. ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ المهرقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء. ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالى والتقرب إليه والإخلاص له. وقيل كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القرابين لَطَخُوا الكعبة بدمائها قُرْبَةً إلى الله تعالى، فَهَمَّ به المسلمون، فَنَزَلَتْ^(٢). ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرهه تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظمتها باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحِّدوه بالكبرياء. وقيل هو التكبير عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها. وما تحتل المصدرية والخبرية، وعلى متعلقة بتكبروا لتضمُّنه معنى الشكر. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويذرونه.

(٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ غائلة المشركين. وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون يُدْفِعُ أي يبالغ في الدفع مبالغة من يُغَالِب فيه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله. ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته، كَمَنُ يتقرب إلى الأصنام بذبيحته فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم.

= عن جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُهْلَيْنَ بالحج، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بَدَنَةٍ.

(١) اللَّبَةُ هي موضع النحر والجمع لَبَابٌ (مختار الصحاح مادة لب).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج نحوه (فتح القدير ٤٥٦/٣).

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

(٣٩) ﴿أَذِنَ﴾ رُخِّصَ. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي على البناء للفاعل وهو الله. ﴿لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ المشركين، والمأذون فيه محذوفٌ لدلالته عليه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أي الذين يقاتلهم المشركون. ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: «اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال» حتى هاجر فأنزلت^(١). وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نُهي عنه في نَيْفٍ^(٢) وسبعين آية. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وَعَدَّ لَهُمُ بِالنَّصْرِ كَمَا وَعَدَ بِدَفْعِ أَذَى الْكُفَّارِ عَنْهُمْ^(٣).

(٤٠) ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني مكة. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير موجب استحقاقه به. ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ على طريقة قول النابغة.

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ^(٤)
وقيل منقطع. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين. ﴿لَهُدَمَتِ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل. وقرأ نافع وإدراع، وقرأ نافع وابن كثير لَهُدَمَتِ بالتخفيف. ﴿صَوَامِعُ﴾ صوامع الرهبانية. ﴿وَبِيعٌ﴾ بَيْعُ النَّصَارَى. ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصلى فيها، وقيل أصلها صَلُوتَا بِالْعِبْرَانِيَةِ فَعُرِّبَتْ. ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ مساجد المسلمين. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفة للأربع أو لمساجد خصت بها تفضيلاً. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ من ينصر دينه، وقد أنجز وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ على نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء.

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١١٣ رقم ٢٩) «لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين قلت: هو منتزع من أحاديث. أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حبان قوله «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي ﷺ في قتالهم بمكة. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك فلما خرج النبي ﷺ إلى المدينة أنزل الله عليه «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا...» وذكر الطبري أن الصحابة رضي الله عنهم استأذنوا رسول الله ﷺ في قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وسراً. فأنزل الله «إن الله لا يحب كل خوان كفور» فلما هاجروهم أحلهم ما لهم وقاتلهم فقال «أذن للذين يقاتلون...» الآية هـ.

(٢) النَيْفُ معناه الزيادة، وهو من واحد إلى ثلاث، أما البضع فمن أربع إلى تسع، ولا يقال إلا بعد عَقْدٍ أي عشرة ونيف أو مائة ونيف أو ألف ونيف (المصباح المنير مادة نيف).

(٣) والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سُنَنِ الْكِبَرِيَاءِ، وتأكيده بَيَانٌ وباللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطئ نفوس المؤمنين (س ١٠٨/٦).

(٤) من الطويل.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ الْمُعْطَلَةَ وَقَصَّרُ الْمَشِيدِ ﴿٤٥﴾

(٤١) ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين. وقيل بدل ممن ينصره. ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه، وفيه تأكيد لما وعدّه.

(٤٢) ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾.

(٤٣) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

(٤٤) ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ تسليّة له ﷺ بأن قومه إن كذّبوه فهو ليس بأوحدي في التكذيب، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه. ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ غير فيه النظم وبُني الفعل للمفعول لأن قومه بنو إسرائيل ولم يكذبوه وإنما كذبه القبط، ولأن تكذيبه كان أشنع وآياته كانت أعظم وأشيع. ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ فأمهلتهم حتى انصرفت^(١) آجالهم المقدرة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكاً والعمارة خراباً.

(٤٥) ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإهلاك أهلها، وقرأ البصريان بغير لفظ التعظيم^(٢). ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي أهلها. ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقطة حيطانها على سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، فيكون الجاز متعلقاً بخاوية، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر أي هي خالية وهي على عروشها أي: مُطْلَة عليها بأن سقطت وبقيت الحيطان مائلة مشرقة عليها. والجملة معطوفة على «أهلكناها» لا على «وهي ظالمة» فإنها حال والإهلاك ليس حالاً خواتماً، فلا محل لها إن نصبت كأني بمقدر يفسره أهلكنا وإن رفعته بالابتداء فمحلها الرفع. ﴿وَيَبْرِئُ الْمُعْطَلَةَ﴾ عطف على قرية أي وكم بئر عامرة في البوادي تركت لا يُستقى منها لهلاك أهلها. وقرئ بالتخفيف^(٣)، من أعطله بمعنى عطله. ﴿وَقَصَّرُ الْمَشِيدِ﴾ مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه، وذلك يقوي أن معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء عروشها. وقيل المراد ببئر بئر في سفح جبل بحضرموت، ويقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلها^(٤).

(١) انصرفت أي انقضت.

(٢) أي بالتاء «أهلكناها» والبصريان هما أبو عمرو ويعقوب.

(٣) أي بتخفيف الطاء «مُعْطَلَةٌ».

(٤) وهو قول الضحاك، ولكن ظاهر التنكير يفيد عدم إرادة معيّنين منهما (روح المعاني ١٧/١٦٦).

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أُمِلَّتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كَارِهُ مَيِّينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حث لهم على أن يسافروا ليرؤا مصارع المهلكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُغفل من التوحيد بما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال. ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُسمع من الوحي والتذكير بحال مَنْ شاهدوا آثارهم. ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار، وفي تعمي راجع إليه والظاهر أقيم مقامه. ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ عن الاعتبار، أي ليس الخلل في مشاعرهم وإنما أقيمت عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد. وذكر الصدر للتأكيد ونفي التجوز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص البصر. قيل لما نزل ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾^(١) قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت^(٢) ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾^(٣).

(٤٧) ﴿وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ المتوعد به. ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لامتناع الخلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين لكنه صبور لا يُعجل بالعقوبة. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ بيان لتناهي صبره وتأنيهِ حتى استقصر الممدد الطوال، أو لتمادي عذابه وطول أيامه حقيقة، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة. وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي بالياء.

(٤٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكم من أهل قرية، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب، ورجع للضمائر والأحكام مبالغة في التعميم والتهويل. وإنما عطف الأولى بالفاء وهذه بالواو لأن الأولى بدل من قوله «فكيف كان نكير» وهذه في حكم ما تقدمها من الجملتين لبيان أن المتوعد به يحق بهم لا محالة وأن تأخير عاداته تعالى. ﴿أُمِلَّتْ لَهَا﴾ كما أمهلتكم. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلكم. ﴿ثُمَّ أَخَذْنَا﴾ بالعذاب. ﴿وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ وإلى حكمي مرجع الجميع.

(٤٩) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كَارِهُ مَيِّينٌ﴾ أوضح لكم ما أنذركم به. والاقتصار على الإنذار - مع عموم الخطاب وذكر الفريقين - لأن صدر الكلام ومساقه للمشركون، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة في غيظهم.

(٥٠) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما بذر منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله.

(١) الإسراء: (٧٢).

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٦٨/١٧) والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧٧/١٢).

(٣) الحج: (٤٦).

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والإبطال. ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين مشاقين للساعين فيها بالقبول والتحقيق، مِنْ عَاجَزَهُ فَأَعْجَزَهُ وَعَجَزَهُ إِذَا سَابَقَهُ فَسَبَقَهُ، لَأَن كَلًّا مِنَ الْمُتَسَابِقِينَ يَطْلُبُ إِعْجَازَ الْآخَرِ عَنِ اللَّحُوقِ بِهِ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو مُعْجِزِينَ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ﴾ النار الموقدة، وقيل اسمٌ دَرَكَوْهُ.

(٥٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرسول مَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرِيعَةٍ مُجَدَّدَةٍ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا، وَالنَّبِيُّ يَعْصِيهِ وَمَنْ بَعَثَهُ لِتَقْرِيرِ شَرْعٍ سَابِقٍ كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَلِذَلِكَ شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ عُلَمَاءَ أُمَّتِهِ بِهِمْ^(١)، فَالْنَبِيُّ أَعَمُّ مِنَ الرَّسُولِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَتَلُ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا» قِيلَ فَكَمْ الرُّسُلُ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةُ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا»^(٢). وَقِيلَ الرَّسُولُ مَنْ جَمَعَ إِلَى الْمَعْجَزَةِ كِتَابًا مُتَزَلًّا عَلَيْهِ، وَالنَّبِيُّ غَيْرُ الرَّسُولِ مَنْ لَا كِتَابَ لَهُ. وَقِيلَ الرَّسُولُ مَنْ يَأْتِيهِ الْمَلِكُ بِالْوَحْيِ، وَالنَّبِيُّ يَقَالُ لَهُ وَلِمَنْ يُوْحَى إِلَيْهِ فِي الْمَنَامِ. ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ زَوَّرَ فِي نَفْسِهِ مَا يَهْوَاهُ. ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فِي تَشْهِيهِ مَا يُوْجِبُ اشْتِغَالَهُ بِالدُّنْيَا كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «وَإِنَّهُ لَيَغْتَابُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٣). ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فَيُطْلِعُهُ وَيُذْهِبُ بِهِ بِعَصْمَتِهِ عَنِ الرُّكُونِ إِلَيْهِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَا يُزِيحُهُ. ﴿ثُمَّ

(١) يشير المؤلف إلى ما اشتهر «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (رقم ٧٠٢) «قال شيخنا ومن قبله الدميري والزركشي: أنه لا أصل له. وزاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر...» هـ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٦/٥) وإسحاق، من رواية معان بن رفاعه، عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ: كم الأنبياء؟ فقال مثله.

وفيه معان بن رفاعه ضعيف [التقريب (٢/٢٥٨)] وعلي بن يزيد ضعيف، وأخرجه ابن حبان في الموارد (ص ٥٢ - ٥٤ رقم ٩٤) و(ص ٥٠٨ رقم ٢٠٧٩). من طريق إبراهيم بن هشام الفسائي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر فذكره في حديث طويل جداً.

وأفرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور، ولم يصب في ذلك: فإنها طريقاً أخرجه في المستدرک (٢/٥٩٧) وغيره، من رواية يحيى بن سعيد السعدي عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله، يحيى السعدي ضعيف [المجروحين (٣/١٢٩)]. ولكن لا يأتي الحكم بالوضع مع هذه المتابعة - انظر «الكافي الشاف» (ص ١١٣ - ١١٤ رقم ٣٠) -.

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٥ رقم ٢٧٠٢/٤١) وأبو داود (٢/١٧٧ - ١٧٨ رقم ١٥١٥) من حديث الأعرز المزني.

● ليغان: - قال أهل اللغة: الغين والغيم بمعنى واحد، والمراد هنا ما يتغشى القلب. قال القاضي: - قيل المراد العترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه. فإذا أفرغ عنه أو غفل عُدَّ ذلك ذنباً، واستغفر منه (صحيح مسلم).

يُخَيِّمُ اللَّهُ أَيْتَهُ ﴿١﴾ ثُمَّ يُثَبِّتُ آيَاتِهِ الدَّاعِيَةَ إِلَى الْإِسْتِغْرَاقِ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِأَحْوَالِ النَّاسِ. ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَفْعَلُهُ بِهِمْ. قِيلَ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِزَوَالِ الْمَسْكَنَةِ فَتَزَلَّتْ. وَقِيلَ تَمَنَّى لِحَرْصِهِ عَلَى إِيْمَانِ قَوْمِهِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ، وَاسْتَمَرَّ بِهِ ذَلِكَ حَتَّى كَانَ فِي نَادِيهِمْ فَتَزَلَّتْ عَلَيْهِ سُورَةُ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ^(١) فَأَخَذَ يَقْرُؤُهَا، فَلَمَّا بَلَغَ ﴿وَمَنْزُورَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَى﴾ ^(٢) وَسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ حَتَّى سَبَقَ لِسَانُهُ سَهْوَ إِلَى أَنْ قَالَ: تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَإِنْ شَفَاعَتُهُنَّ لَتُرْتَجَى، فَفَرَحَ بِهِ الْمَشْرُكُونَ حَتَّى شَايَعُوهُ بِالسُّجُودِ لِمَا سَجَدَ فِي آخِرِهَا، بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ فِي الْمَسْجِدِ مُؤْمِنٌ وَلَا مُشْرِكٌ إِلَّا سَجَدَ، ثُمَّ نَبِهَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاغْتَمَ لَذَلِكَ فَغَزَاهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ. وَهُوَ مُرَدُّودٌ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ ^(٣)، وَإِنْ صَحَّ فَابْتِلَاءٌ يَتَمَيَّزُ بِهِ الثَّابِتُ عَلَى الْإِيْمَانِ عَنِ الْمَتَزَلِّزِ فِيهِ. وَقِيلَ تَمَنَّى قَرَأَ كَقَوْلِهِ:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِسْلِ

وَأُمْنِيَّتُهُ قِرَاءَتُهُ. وَإِلْقَاءُ الشَّيْطَانِ فِيهَا أَنْ تَكَلَّمَ بِذَلِكَ رَافِعاً صَوْتَهُ بِحَيْثُ ظَنَّ السَّامِعُونَ أَنَّهُ مِنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ رُذِّ أَيْضاً بِأَنَّهُ يُخَلِّ بِالْوَثُوقِ عَلَى الْقُرْآنِ وَلَا يَنْدَفِعُ بِقَوْلِهِ ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَيِّمُ اللَّهُ أَيْتَهُ﴾ لِأَنَّهُ أَيْضاً يَحْتَمِلُهُ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى جَوَازِ السَّهْوِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَتَطْرُقُ الْوَسْوسَةُ إِلَيْهِمْ.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۖ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ

(٥٣) ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ عِلَّةٌ لِمَتَمَكِّنِ الشَّيْطَانُ مِنْهُ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤَلَّفِي أَمْرَ ظَاهِرٍ عَرَفَهُ الْمُحَقِّقُ وَالْمُبْطَلُ. ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شَكٌّ وَنِفَاقٌ. ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الْمَشْرُكِينَ. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي الْفَرِيقَيْنِ، فَوَضَعَ الظَّاهَرَ مَوْضِعَ ضَمِيرِهِمْ قَضَاءً عَلَيْهِمْ بِالظُّلْمِ. ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عَنِ الْحَقِّ أَوْ عَنِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ.

(٥٤) ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْحَقُّ النَّازِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَوْ تَمَكِّنُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْإِلْقَاءِ هُوَ الْحَقُّ الصَّادِرُ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّهُ مِمَّا جَرَتْ بِهِ عَادَتُهُ فِي الْإِنْسِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ.

(١) النجم: ١١.

(٢) النجم: ٢٠.

(٣) أخرج هذه القصة البزار (٧٢/٣) والطبراني في الكبير (٥٣/١٢) رقم (١٢٤٥٠) عن ابن عباس.

قال البزار: «لا نعلمه يروي بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، وأمية بن خالد ثقة مشهور. وإنما يُعرف هذا من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس» هـ.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١١٥/٧) ورجال البزار والطبراني رجال الصحيح. قلت: - القائل الشيخ حمدي السلفي - والضعف من التردد والشك بالإضافة إلى ما ذكره البزار.

وأفضل ما يرجع إليه في هذه القصة رسالة الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني بعنوان:

[نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق]. وانظر «روح المعاني» للألوسي (١٧٥/١٧ - ١٨٤) «وفتح القدير»

الشوكاني (٤٦١/٣) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧٩/١٢) وما بعدها.

﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن أو بالله. ﴿فَتُخْبِتَ لَمْ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية. ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيما أشكل. ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو نظر صحيح يوصلهم إلى ما هو الحق فيه.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾
 الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾
 لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ﴾ في شك. ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أو الرسول، أو مما ألقى الشيطان في أمنيته، يقولون ما بآله ذكرها بخير ثم ارتد عنها؟ ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة أو أشراتها أو الموت. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم حرب يُقتلون فيه كيوم بدر، سمي به لأن أولاد النساء يُقتلون فيه فيصرون كالعقم، أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيماً فوصف اليوم بوصفها اتساعاً، أو لأنه لا خير لهم فيه، ومنه الريح العقيم لما لم تُنشأ مطراً ولم تلقح شجراً، أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة فيه. أو يوم القيامة على أن المراد بالساعة غيره، أو على وضعه موضع ضميرها للتهويل.

(٥٦) ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ﴾ التنوين فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغاية، أي: يوم تزول ميزتهم. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بالمجازاة، والضمير يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

(٥٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وإدخال الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم فلذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: هم في عذاب^(١).

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد. ﴿أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الجنة ونعيمها، وإنما سوى بين من قُتل في الجهاد ومن مات حتف أنفه في الوعد لاستوائهما في القصد وأصل العمل. روي أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قُتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا؟ فنزلت. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب.

(٥٩) ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ هو الجنة فيها ما يحبونه. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في العقوبة.

(١) قوله «فأولئك» استعمل اسم الإشارة للبعيد لبيان بعد منزلتهم في الشر والفساد (س/٦/١١٤).

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصَرَّتْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (٦٠)
 ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٦١) ﴿ذَلِكَ
 يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢)
 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٦٣)

(٦٠) ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك. ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ ولم يزد في الاقتصاص، وإنما سمي الابتداء بالعقاب - الذي هو الجزاء - للازدواج أو لأنه سببه. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة. ﴿لِيَنْصَرَّتْهُ اللَّهُ﴾ لا محالة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمتصر حيث اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما نذَّب الله إليه بقوله: ﴿وَلَمْ يَصِرْ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١)، وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرته وتعالى شأنه لما كان يعفو ويغفر فغيره بذلك أولى، وتنبية على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

(٦١) ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك النصر، ﴿يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بسبب أن الله تعالى قادرٌ على تغليب الأمور بعضها على بعض، جارٍ عادته على المداولة بين الأشياء المتعاند، ومن ذلك إيلاج أحد الملوين في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص منه، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغيب الشمس وعكس ذلك بإطلاعها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع قول المعاقب والمعاقب. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما.

(٦٢) ﴿ذَلِكَ﴾ الوصفُ بكمال القدرة والعلم. ﴿يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت في نفسه الواجب لذاته وحده، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواه عالماً بذاته وبما عداه، أو الثابت الإلهية، ولا يصلح لها إلا من كان قادراً عالماً. ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلهاً، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر بالتاء على مخاطبة المشركين، وقرئ بالبناء للمفعول فتكون الواو لِمَا فإنه في معنى الآلهة. ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته، أو باطل الألوهية. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على الأشياء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ على أن يكون له شريك لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر منه سلطاناً.

(٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ استفهامٌ تقرير، ولذلك رُفِعَ ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عطفٌ على أنزل، إذ لو نُصِبَ جواباً لدل على نفى الاخضرار كما في قولك: ألم تر أنني جئتكم ففكرمني، والمقصود إثباته^(٢). وإنما عُدِلَ به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد

(١) الشورى: «٤٣».

(٢) أتى الفعل المضارع «تُصْبِحُ» مرفوعاً، ولم يأت منصوباً على أنه جواب للاستفهام، لأنه لو كان منصوباً لبطل الغرض، وذلك أن المراد إثبات الاخضرار، ولو كان منصوباً لأفاد نفى الاخضرار، كما تقول لصاحبك: ألم تر أنني أنعمت عليك فتشكر، فإن نصبت الفعل «فتشكر» فتكون قد نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه وإن رفعت أثبت شكره.

زمان^(١). ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه أو لطفه إلى كل ما جَلَّ ودَقَّ. ﴿خَيْرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة.

لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

(٦٤) ﴿لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلْكاً. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ في ذاته عن كل شيء. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله.

(٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ جعلها مذلَّةً لكم مُعَدَّةً لمنافعكم. ﴿وَالْفُلْكَ﴾ عطفٌ على ما أو على اسم أن، وقرئ بالرفع على الابتداء. ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ حالٌ منها أو خبر. ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ من أن تقع أو كراهة، بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلا بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه ردٌ لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية فتكون قابلةً للميل الهابط قبولاً غيرها. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث هيا لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم أنواع المضار.

(٦٦) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصر ونُطفأ. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا جاء أجلكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود نعم الله مع ظهورها.

(٦٧) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ متعبداً أو شريعة تعبدوا بها، وقيل عيداً. ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ينسكونه. ﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ﴾ سائر أرباب الملل. ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر الدين أو النسائك لأنهم بين جهال وأهل عناد، أو لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع، وقيل المراد نهى الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى نزاعهم، فإنها إنما تنفع طالب الحق وهؤلاء أهل مراء، أو عن منازعتهم كقولك: لا يُضَارُّ بك زيد وهذا إنما يجوز في أفعال المبالغة للتلازم، وقيل نزلت في كفار خُزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله. وقرئ فلا يُنْزِعُ عَنْكَ على تهيج الرسول والمبالغة في تشبته على دينه، على أنه من نازعته فزاعته إذا غلبته. ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى توحيدهِ وعبادته. ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق إلى الحق سوي.

= وعليه فقد ورد الفعل المضارع في الآية مرفوعاً «فتصبح» وكانت الفاء عاطفة وليست سببية، وكان الاستفهام للتقرير، والفعل «فتصبح» معطوف على الفعل «أنزل».

(١) أي أن الفعل «فتصبح» ورد بصيغة المضارع دون الماضي، فقال «فتصبح» ولم يقل فأصبحت للدلالة على بقاء أثر المطر واستمراره.

أو لاستحضار الصورة البديعة (الألوسي ١٧/١٩١).

وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ اللَّهَ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

(٦٨) ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ﴾ وقد ظهر الحق ولزمت الحجة. ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها، وهو وعيدٌ فيه رفق.

(٦٩) ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالشواب والعقاب. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات. ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

(٧٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء. ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ هو اللوح كتبه فيه قبل حدوثه، فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إن الإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ، أو الحكم بينكم. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على سواء.

(٧١) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ حجة تدل على جواز عبادته. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم. ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يقرر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم.

(٧٢) ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ من القرآن^(١). ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الإلهية. ﴿نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ الإنكار، لفرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً، وهذا منتهى الجهالة، وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضع الضمير. أو ما يقصدونه^(٢) من الشر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾ يَبْشُرُونَ وَيَبْطِشُونَ بِهِمْ. ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ﴾ أي هو النار كأنه جواب سائل قال: ما هو، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقرئ بالنصب على الاختصاص، وبالجزم بدلاً من شر، فتكون الجملة استثنافاً كما إذا رُفعت خبراً أو حالاً منها. ﴿وَبَشَرٌ الْمَصِيرُ﴾ النار.

(١) وصيغة المضارع في «تتلى» للدلالة على الاستمرار التجديدي (س/٦/١٢٠).

(٢) قوله: أو ما يقصدونه عطف على قوله الإنكار، أي تعرف في وجوه الذين كفروا الإنكار أو ما يقصدونه من الشر.

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۖ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا
قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ
النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

(٧٣) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ﴾ بَيَّنَّ لَكُمْ حَالُ مُسْتَغْرِبَةٍ أَوْ قِصَّةٌ رَائِعَةٌ وَلِذَلِكَ سَمَّاها مَثَلًا، أَوْ جُعِلَ
لِلَّهِ مَثَلٌ أَيْ مِثْلٌ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ. ﴿فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾ لِلْمِثْلِ أَوْ لِشَأْنِهِ اسْتِمَاعٌ تَدَبُّرٌ وَتَفَكُّرٌ ﴿إِنَّ
الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي الْأَصْنَامَ. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ بِالْيَاءِ، وَقَرَأَ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ. وَالرَّاجِعُ إِلَى
الْمَوْصُولِ مَحذُوفٌ عَلَى الْأَوَّلِينَ. ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى خَلْقِهِ مَعَ صِغَرِهِ، لِأَنَّ لَنْ بِمَا فِيهَا
مِنْ تَأْكِيدِ النِّفْيِ دَالَّةٌ عَلَى مَنَافَاةٍ مَا بَيْنَ الْمُنْفِيِّ وَالْمُنْفَى عَنْهُ. وَالذُّبَابُ مِنَ الذَّبِّ لِأَنَّهُ يُذَبُّ، وَجَمْعُهُ أَذْبَةٌ
وَذِبَانٌ. ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أَيْ لِلخَلْقِ، هُوَ بِجَوَابِهِ الْمَقْدَرُ فِي مَوْضِعٍ حَالٍ جِيءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ
لَا يَقْدِرُونَ عَلَى خَلْقِهِ مُجْتَمِعِينَ لَهُ مُتَعَاوِنِينَ عَلَيْهِ فَكَيْفَ إِذَا كَانُوا مُفْرَدِينَ؟! ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ جَهْلُهُمْ غَايَةُ التَّجْهِيلِ بَأَنَ أَشْرَكُوا إِلَهًا قَدَّرَ عَلَى الْمَقْدُورَاتِ كُلِّهَا وَتَفَرَّدَ بِإِيجَادِ
الْمَوْجُودَاتِ بِأَسْرَها تَمَائِيلَ هِيَ أَعْجَزُ الْأَشْيَاءِ، وَبَيْنَ ذَلِكَ بِأَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ أَقْلِ الْأَحْيَاءِ وَأَذْلُهَا
وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، بَلْ لَا تَقْوَى عَلَى مَقَاوِمَةِ هَذَا الْأَقْلِ الْأَذَلِّ وَتَعْجِزُ عَنْ ذَبِّهِ عَنْ نَفْسِهَا وَاسْتِنْقَاذِ
مَا يَخْتِطِفُهُ مِنْ عِنْدِهَا. قِيلَ كَانُوا يَطْلُونَهَا بِالطِّيبِ وَالْعَسَلِ وَيُغْلِقُونَ عَلَيْهَا الْأَبْوَابَ فَيَدْخُلُ الذُّبَابُ مِنْ
الْكُوَى فَيَأْكُلُهُ. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ عَابَدُوا الصَّنَمَ وَمَعْبُودَهُ، أَوِ الذُّبَابُ يَطْلُبُ مَا يَسْلُبُ عَنِ
الصَّنَمِ مِنَ الطِّيبِ، وَالصَّنَمُ يَطْلُبُ الذُّبَابَ مِنْهُ السَّلْبَ، أَوِ الصَّنَمُ وَالذُّبَابُ كَانَهُ يَطْلُبُهُ لِيَسْتَنْقِذَ مِنْهُ
مَا يَسْلُبُهُ وَلَوْ حَقَّقَتْ وَجَدَتْ الصَّنَمَ أَضْعَفَ بِدَرَجَاتٍ.

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ حَيْثُ أَشْرَكُوا بِهِ وَسَمَّوْا بِاسْمِهِ مَا هُوَ أَبْعَدُ
الْأَشْيَاءِ عَنْهُ مَنَاسِبَةٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ عَلَى خَلْقِ الْمُمَكِّنَاتِ بِأَسْرَها. ﴿عَزِيزٌ﴾ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، وَالْهَيْبَةُ
الَّتِي يَعْبُدُونَهَا عَاجِزَةٌ عَنْ أَقْلِهَا مَقْهُورَةٌ مِنْ أَذْلِهَا.

(٧٥) ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يَتَوَسَّطُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْوَحْيِ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾
يَدْعُونَ سَائِرَهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَيُلْقُونَ إِلَيْهِمْ مَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ لَمَّا قَرَّرَ وَحْدَانِيَّتَهُ فِي الْأُلُوهِيَةِ وَنَفَى أَنْ
يُشَارَكَ غَيْرُهُ فِي صِفَاتِهَا بَيَّنَّ أَنَّ لَهُ عِبَادًا مُصْطَفَيْنَ لِلرَّسَالَةِ يُتَوَسَّلُ بِإِجَابَتِهِمْ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَمُنْتَهَى الدَّرَجَاتِ لِمَنْ سِوَاهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ تَقْرِيرًا لِلنَّبُوءَةِ وَتَرْجِيْفًا
لِقَوْلِهِمْ: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَالْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ مَدْرُكٌ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا.

(٧٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عَالَمٌ بِوَاقِعِهَا وَمُتَرَقِّبُهَا. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُ
الْأُمُورُ كُلُّهَا لِأَنَّهُ مَالِكُهَا بِالذَّاتِ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ مِنَ الْإِصْطِفَاءِ وَغَيْرِهِ وَهُمْ يَسْأَلُونَ.

يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(٧٧) ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ في صلاتكم، أمرهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونهما أول الإسلام، أو صلّوا، وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخزّوا له سُجّداً. ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبدكم به. ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وتحزّوا ما هو خيرٌ وأصلحُ فيما تأتون وتذرون كنوافل الطاعات وصلّة الأرحام ومكارم الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعّلوا هذه كلّها وأنتم راجون الفلاح غير متيقنين له واثقين على أعمالكم، والآية آية سجدة عندنا لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام «فُضِّلَتِ سُورَةُ الْحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ مِنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يِقْرُؤْهَا»^(١).

(٧٨) ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى

(١) أخرجه أبو داود (١٢١/٢) رقم (١٤٠٢) والترمذي (٤٧١/٢) رقم (٥٧٨) وأحمد (١٥١/٤)، (١٥٥) والدارقطني في السنن (٤٠٨/١) والطبراني في الكبير، (٣٠٧/١٧) رقم (٨٤٦، ٨٤٧) والحاكم (٢٢١/١) و(٣٩٠/٢) كلهم من رواية ابن لهيعة عن مشرّح بن هاعان عن عقبة، قال: قلت: يا رسول الله في سورة الحج سجدة، قال: نعم، إن لم تسجدتهما فلا تقرأهما.

قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي.

قلت: لعل سبب ضعفه عنده (ابن لهيعة) ومشرّح، لكن الراوي عن ابن لهيعة عند أبي داود أحد المبادلة أما مشرّح فهو مقبول.

وقد صحّح الشيخ أبو الأشبال الحديث فقال: هو حديث صحيح فإن ابن لهيعة ومشرّح بن هاعان ثقتان. وصحّحه الحاكم باعتضاده بالآثار الصحيحة المروية عن: عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن عمر وابن مسعود، وأبي موسى وأبي الدرداء، وعمار رضي الله عنهم. وقد أخرج آثارهم الحاكم. وللحديث شاهد مرفوع من حديث عمرو بن العاص. أخرجه أبو داود (١٢٠/٢) رقم (١٤٠١) وابن ماجه (٣٣٥/١) رقم (١٠٥٧) كلاهما عن طريق الحارث بن سعيد العتقي عن عبد الله بن منين عنه أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدة.

والحارث بن سعيد مقبول [التقريب (١٤٠/١)] لكنه يتقوى بحديث ابن لهيعة وآثار الصحابة المذكورين. وقال الألباني في تخريج المشكاة (رقم: ١٠٢٩): «إسناده ضعيف، فيه عبد الله بن منين وفيه جهالة وقال في ضعيف الجامع (٩٥/٤): ضعيف. بينما مال الحافظ ابن كثير (٢٢١/٣) إلى تصحيحه حيث قال في حديث ابن لهيعة: فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع وأكثر ما نقموا عليه تدليسه.

ثم أورد آثار الصحابة وقال: فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً. كما صحّح الحديث الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تخريج «جامع الأصول» (٥٥٥/٥) رقم (٣٧٨٨). والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

الجهاد الأكبر^(١). ﴿حَقَّ جِهَادُهُ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعكس، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك: هو حق عالم، وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعاً، أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعول لوجه الله تعالى ومن أجله. ﴿هُوَ اجْتَنَبَكُمْ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته، وفيه تنبيه على المقتضي للجهاد والداعي إليه وفي قوله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق بتكليف ما يشد القيام به عليكم إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به من حيث شقّ عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»^(٢). وقيل: ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة، وشرع لهم الكفارات في حقوقه، والأروش والذيات في حقوق العباد ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ منتسبة على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبلها بحذف المضاف أي: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، أو على الإغراء أو على الاختصاص. وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم. ﴿هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل قرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِي هَذَا﴾ وفي القرآن. والضمير لله تعالى ويدل عليه أنه قرىء الله سماكم، أو لإبراهيم. وتسميتهم بمسلمين في القرآن - وإن لم تكن منه - كانت بسبب تسميته من قبل في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾^(٣). وقيل: وفي هذا تقديره: وفي هذا بيان تسميته إياكم مسلمين. ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ يوم القيامة، متعلقاً بسماكم. ﴿شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ بأنه بلغكم، فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته، أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى. ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم. ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لما خصكم بهذا الفضل والشرف. ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ وثقوا به في مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو، إذ لا مثل له سبحانه في الولاية والنصرة، بل لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة. عن النبي عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الحج أُعطي من الأجر كحجة حجها وعُمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي»^(٤).

☆☆☆

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافعي» (ص ١١٤ رقم ٣٣): «كذا ذكره الثعلبي بغير سند». وأخرجه البيهقي في «الزهد» (ص ١٩٨ رقم ٣٧٤) عن جابر قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاه فقال: قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل وما الجهاد الأكبر. قال: مجاهدة العبد هواه.

قال البيهقي: هذا إسناد ضعيف. وانظر كشف الخفاء للعجلوني (١/٥١١ رقم ١٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/٢٥١ رقم ٧٢٨٨) ومسلم (٢/٩٧٥ رقم ٤١٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) البقرة: (١٢٨).

(٤) وهو حديث موضوع.

وقد تقدم الكلام على إسناده في آخر آل عمران.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾

سورة المؤمنون مكية وهي مائة وتسع عشرة آية عند البصريين وثمانية عشرة عند الكوفيين

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا بأمانيتهم. وقد تُثِبَّ المتوقَّع - كما أنَّ لَمَّا تَنْفِيهِ - وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، ولذلك تُقَرَّبُهُ من الحال، ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صُدِّرت بها بشارتهم. وقرأ ورشٌ عن نافعٍ قَدْ أَفْلَحَ بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها، وقرأ أَفْلَحُوا على لغة «أكلوني البراغيث» أو على الإبهام والتفسير، وَأَفْلَحَ بالضم اجتزاء بالضممة عن الواو، وَأَفْلَحَ على البناء للمفعول.

(٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى متذللون له مُلْزَمُونَ أَبْصَارَهُمْ مساجدهم. روي^(١) أنه ﷺ كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت رمي ببصره نحو مسجده

(١) أخرجه الحاكم (٣٩٣/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٣/٢).

من حديث أبي هريرة بلفظ «كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت: «الذين هم في صلاتهم خاشعون» فطأ رأسه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم لولا خلاف فيه على محمد - ابن سيرين - عنه مرسلًا.

وقال الذهبي: الصحيح مرسلًا وكذا قال البيهقي.

● والمرسل أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص ٩٦ رقم ٤٥) وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/١٨ ج ٢).

وأنه رأى رجلاً يعبت بلحيته فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه»^(١).

(٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ﴾ عما لا يعينهم من قول أو فعل ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لما بهم من الجِدِّ ما شغلهم عنه. وهو أبلغ من الذين لا يلهون من وجوه: جعل الجملة اسمية، وبناء الحكم على الضمير، والتعبير عنه بالاسم، وتقديم الصلة عليه. وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً؛ فإن أصله أن يكون في عرضٍ غير عرضه. وكذلك قوله:

(٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجتنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه، والزكاة تقع على المعنى والعين، والمراد الأول لأن الفاعل فاعل الحدث لا المحل الذي هو موقعه، أو الثاني على تقدير مضاف^(٢).

(٥) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ لا يبذلونها.

(٦) ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ زوجاتهم أو سرياتهم. و«على» صلة لحافظون من قولك احفظ على عنان فرسي، أو حال أي حافظوها في كافة الأحوال إلا في حال الزوج أو التسري؛ أو بفعل^(٣) دل عليه غير ملومين. وإنما قال (ما) إجراء للمماليك مجرى غير العقلاء إذ المملك أصل شائع فيه، وإفراد ذلك بعد تعميم قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لأن المباشرة أشهى الملاهي إلى النفس وأعظمها خطراً. ﴿فَأَنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الضمير لحافظون، أو لمن دل عليه الاستثناء أي فإن بذلوا لأزواجهم أو إمائهم فإنهم غير ملومين على ذلك.

(٧) ﴿فَمَنْ أَتَىٰ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان.

(٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق. ﴿رُغُوعَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها. وقرأ ابن كثير هنا وفي المعارج^(٤) لأمانتهم على الأفراد، لأمن الإلباس أو لأنها في الأصل مصدر.

= عن ابن سيرين، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة، نظر هكذا وهكذا، فلما نزلت «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون». نظر هكذا، وقال أبو شهاب: يبصره نحو الأرض.

قال الشيخ شعيب: رجاله ثقات، رجال الشيخين. أبو شهاب: اسمه عبدربه بن نافع الكنايني الحنط. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٨٣/٦) وزاد نسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٨٤ بسند ضعيف من حديث أبي هريرة. وانظر «فيض القدير» (٣١٩/٥) رقم (٧٤٤٧) والإرواء (٩٢/٢) رقم (٣٧٣) وقال الألباني «فهو - أي الحديث - لا يصح لا مرفوعاً ولا موقوفاً، والمرفوع أشد ضعفاً، بل هو موضوع وكأنه لذلك لم يعرج عليه البيهقي فلم يورده في سننه الكبرى - على سعتها - وإنما أورده (٢٨٩/٢) موقوفاً معلقاً. والله سبحانه أعلم» هـ.

(٢) وتوسط الحديث عن الإعراض عن اللغو بين الحديث عن الصلاة والزكاة لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة (س ١٢٤/٦).

(٣) قوله: أو بفعل عطف على قوله أو حال، أي أن «على» متعلقة بمحذوف وقع حالاً أي حافظوها أو متعلقة بفعل دل عليه «غير ملومين».

(٤) المعارج: (٣٢٢).

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

(٩) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها. ولفظ الفعل فيه إما في الصلاة من التجدد والتكرار، ولذلك جمعه غير حمزة والكسائي. وليس ذلك تكريراً لِمَا وصفهم به أولاً، فإن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها^(١). وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيمٌ لشأنها.

(١٠) ﴿أُولَئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات. ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الأحياء بأن يُسْمُوا وَرَثَةً دون غيرهم.

(١١) ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه وتقيده للورثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيذاً، وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعده مبالغة فيه. وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أثبت الضمير لأنه اسم للجنة أو لطبقها العليا.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ من خلصة سُلَّت من بين الكدر. ﴿وَمِنْ طِينٍ﴾ متعلقٌ بمحذوف لأنه صفة لسلالة، أو من بيانية، أو بمعنى سلالة لأنها في معنى مسلوقة فتكون ابتدائية كالأولى. والإنسان آدم عليه الصلاة والسلام خلق من صفوة سُلَّت من الطين، أو الجنس فإنهم خلِقوا من سلالات جعلت نُطْفَةً بعد أدوار، وقيل المراد بالطين آدم لأنه خلق منه والسلالة نُطْفَتُهُ.

(١٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ ثم جعلنا نسله، فحذف المضاف ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها. أو ثم جعلنا السلالة نُطْفَةً، وتذكير الضمير على تأويل الجوهر أو المسلول أو الماء. ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ مستقرٌ حصين، يعني الرِّجَم وهو في الأصل صفة للمستقر وُصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار.

(١٤) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ بأن أحلنا النطفة البيضاء علقَةً حمراء. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ فصيرناها قطعة لحم ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ بأن صلبناها ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ مما بقي من المضغة، أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها. واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات، والجمع لاختلافها في الهيئة والصلابة. وقرأ ابن عامر وأبو بكر على التوحيد، أي توحيد العظام، أي «فخلقنا المضغة عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا». والجمع، وقرأ بإفراد أحدهما وجمع الآخر^(٢). ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وهو صورةُ البدن أو الروح أو

(١) والفصل بين الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها للإيذان بأن كلا منهما فضيلة مستقلة بنفسها، ولو قرئاً في الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة (س/٦/١٢٥).

(٢) قراءة ابن عامر وأبي بكر على التوحيد، أي توحيد العظام، أي «فخلقنا المضغة عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا». وقرأ بإفراد أحدهما وجمع الثاني، فقرأ «فخلقنا المضغة عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا» وقرأ «فخلقنا المضغة عِظْمًا

القوى بنفخه فيه، أو المجموع. وثم لما بين الخلقين من التفاوت، واحتج به أبو حنيفة على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في قدرته وحكمته^(١). ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المقدرين تقديراً، فحذف المميز لدلالة الخالقين عليه.

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفْلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُّهٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ لصاترون إلى الموت لا محالة، ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت دون اسم الفاعل، وقد قرئ به^(٢).

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ للمحاسبة والمجازاة.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ سموات، لأنها طُورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل بالنعل وكل ما فوقه مثله فهو طريقه؛ أو لأنها طُرق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السموات، أو عن جميع المخلوقات، ﴿غَفْلِينَ﴾ مُهْمِلِينَ أمره بل نحفظها عن الزوال والاختلال، ونُدبِر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة.

(١٨) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يكثر نفعه ويقل ضرره، أو بمقدار ما علمنا من صلاحهم. ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ فجعلناه ثابتاً مستقراً، ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ على إزالته بالافساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطه. ﴿لَقَادِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله. وفي تنكير (ذهاب) إيحاء إلى كثرة طرقه ومبالغة في الإبعاد به، ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنِ يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾^(٣).

(١٩) ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ بالماء. ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿فَوَكُّهٌ كَثِيرٌ﴾ تفهكون بها ﴿وَمِنْهَا﴾ ومن الجنات ثمارها وزروعها. ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغدياً، أو تُرْزَقُونَ وتحصلون معاشكم من قولهم: فلان يأكل من جرفته، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أي لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه.

= فكسونا العظم لحماً.

(١) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية؛ ولإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظ أنه يسارع إلى التكلم به إجلالاً وإعظاماً لشؤنه تعالى (سر ١٢٦/٦).

(٢) أي قرئ باسم الفاعل «لَمَيِّتُونَ».

(٣) الملك: «٣٠».

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلَيْنِ ﴿٢٠﴾ وَلَئِنَّ لَكُمْ فِي الْآنَعَمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّشْفِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

(٢٠) ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جنات. وقرئت بالرفع على الابتداء، أي ومما أنشأنا لكم به شجرة ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ جبل موسى عليه الصلاة والسلام بين مصر وأيلة وقيل بفلسطين، وقد يقال له طور سينين. ولا يخلو من أن يكون الطور للجبل وسيناء اسم بقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علم له كأمري القيس. ومنع صرفه للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة، لا للألف لأنه فيعال كديماس من السناء - بالمد - وهو الرفعة أو بالقصر وهو الثور، أو ملحق بفعلال كعلباء من السنين، إذ لا فعلاء بألف التأنيث. بخلاف سينا على قراءة الكوفيين والشامي ويعقوب، فإنه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء، لا فعلال إذ ليس في كلامهم. وقرىء بالكسر والقصر^(١). ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي تنبت ملتبساً بالدهن ومستصحباً له، ويجوز أن تكون الباء صلة معدية لتنبت كما في قولك: ذهبت يزيد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في رواية ثبت، وهو إما من أثبت بمعنى ثبت كقول زهير:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عِنْدَ يُوتِيهِمْ قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَثْبَتَ النُّبْلُ^(٢)

أو على تقدير ثبت زيتونها ملتبساً بالدهن. وقرىء على البناء للمفعول^(٣) وهو كالأول، وتثمر بالدهن^(٤)، وتخرج بالدهن، وتخرج الدهن، وتنت بالدهان. ﴿وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلَيْنِ﴾ معطوف على الدهن جارٍ على إعرابه عطف أحد وصفي الشيء على الآخر، أي تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنياً يدهن به ويُسْرَج منه وكونه إداماً يُصْبَغ فيه الخبز - أي يُغْمَس فيه - للاتدام. وقرىء وصباغ كدباغ في دِغ.

(٢١) ﴿وَلَئِنَّ لَكُمْ فِي الْآنَعَمِ لَعِبْرَةً﴾ تعتبرون بحالها وتستدلون بها. ﴿نُّشْفِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو من العلف، فإن اللبن يتكون منه، فمن للتبويض أو للابتداء. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب نسفيكم بفتح النون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ في ظهورها وأصوافها وشعورها. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتتفَعون بأعيانها.

(٢٢) ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام فإن منها ما يُحْمَل عليه كالإبل والبقر. وقيل المراد الإبل، لأنها هي المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة^(٥).

(١) أي قرىء بكسر السين وبدون همزة «سيناء».

(٢) من الطويل.

(٣) قوله على البناء للمفعول أي (تَنْبُتُ) بضم التاء وفتح الباء.

(٤) قوله وتثمر... معطوف على قوله وقرىء...

وقال الألوسي: (وما روي من قراءة عبدالله «تخرج الدهن» وقراءة أبي «تثمر بالدهن» محمول على التفسير على ما في البحر [أي البحر المحيط] لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه، ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور) (روح المعاني ٢٢/١٨).

(٥) ذو الرمة واسمه غيلان بن عقبة أحد بني عدي بن عبدمناة بن أذ.

سَفِينَةً بِرِ تَحْتِ خَدَي زِمَامُهَا^(١)

فيكون الضمير فيه كالضمير في ﴿وَعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾^(٢). ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تَحْمَلُونُ﴾ في البر والبحر^(٣).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَرُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ فَرِصُوا بِهِ حَتَّى جِئَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونُ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَرُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى آخر القصص مسوق لبيان كفران الناس ما عُدَّ عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق بهم من زوالها ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استئناف لتعليل الأمر بالعبادة. وقرأ الكسائي «غيره» بالجزء على اللفظ. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون أن يُزِيلَ عنكم نعمه فيهلككم ويعذبكم برفضكم عبادته إلى عبادة غيره وكفرانكم نعمه التي لا تُحصى.

(٢٤) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُوا الْأَشْرَافَ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴿لَعَوَاهُمْ﴾ ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أن يطلب الفضل عليكم ويسودكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يرسل رسولا ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ رسلا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون نوحا عليه الصلاة والسلام أي ما سمعنا به أنه نبي، أو ما كلمهم به من الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفي إله غيره، أو من دعوى النبوة وذلك إما لفرط عنادهم أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة.

(٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ﴾ أي جنون ولاجله يقول ذلك ﴿فَرِصُوا بِهِ﴾ فاحتملوه وانتظروا. ﴿حَتَّى جِئَ﴾ لعله يُفِيق من جنونه.

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ بعدما أيس من إيمانهم ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما وعدتهم من العذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونُ﴾ بدل تكذيبهم إياي أو بسببه.

(٢٧) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا نحفظه أن تُخطيء فيه أو يفسده عليك مفسد ﴿وَوْحَيْنَا﴾ وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو نزول العذاب ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾.

= [خزانة الأدب (١٠٦/١ - ١١٠)].

(١) من الطويل.

(٢) البقرة: ٢٢٨.

(٣) وفي الجمع بينها وبين الفلك في إيقاع الحمل عليها مبالغة في تحملها للحمل. وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة - مع كونها من المنافع الحاصلة منها - عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها (س/٦/١٢٩).

روي^(١) أنه قيل لنوح إذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماء منه أخبرته امرأته فركب. ومحلّه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كِنْدَةَ، وقيل عينُ وردة من الشام وفيه وجوه أخرُ ذكرُها في هود^(٢) ﴿فَاسْأَلْتُ فِيهَا﴾ فادخل فيها، يقال سلك فيه وسلك غيره، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾^(٣). ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئْتَيْنِ﴾ من كل أمّتي الذكّر والأنثى واحدين مزدوجين. وقرأ حفص من كلّ بالتنوين، أي من كل نوع زوجين، واثنين تأكيداً ﴿وَأَهْلَكَ﴾ وأهل بيتك، أو من آمن معك. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي القول من الله تعالى بإهلاكه لكفره. وإنما جيء بعلی لأن السابق ضارٌّ، كما جيء باللام حيث كان نافعاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾^(٤). ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومن هذا شأنه لا يُشفع له ولا يُشفع فيه، كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله:

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُوتُونَ ﴿٣٢﴾

﴿٢٨﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ في السفينة أو في الأرض. ﴿مُنْزَلاً مُّبَارَكاً﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين على قراءة أبي بكر، وقرئ منزلاً بمعنى إنزالاً أو موضع إنزال. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ثناءً مطابق لدعائه، أمره بأن يشفعه به مبالغة فيه وتوسلاً به إلى الإجابة، وإنما أفرد بالامر - والمعلّق به أن يستوي هو ومن معه - إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه مندوحة عن دعائهم فإنه يحيط بهم.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ يستدل بها ويعتبر أولو الاستبصار والاعتبار ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، أو ممتحنين عبادنا بهذه الآيات. وإن هي المخففة، واللام هي الفارقة.

﴿٣١﴾ ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد أو ثمود.

﴿٣٢﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح. وإنما جعل القول موضع الإرسال ليدل على أنه

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٦/١٨) بدون راو ولا سند.

(٢) هود: ٤٠.

(٣) المدثر: ٤٢.

(٤) الأنبياء: ١٠١.

(٥) الأنعام: ٤٥.

لم يأتهم من مكان غير مكانهم، وإنما أوحى إليه وهو بين أظهرهم ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ تفسير لأرسلنا، أي قلنا لهم على لسان الرسول عبدوا الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَعِيدُكُمْ
أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لعله ذكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول ﷺ، بخلاف قول قوم نوح وحيث استؤنف به فعلى تقدير سؤال ﴿وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ بقاء ما فيها من الثواب والعقاب، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ ونعمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد. ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ في الصفة والحالة. ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة، وما خبرية، والعائد إلى الثاني منصوب محذوف أو مجرور حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه.

(٣٤) ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ حيث أذلتكم أنفسكم، وإذا جزاء للشرط وجواب للذين قاولوهم من قومه.

(٣٥) ﴿أَعِيدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ مجردة عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، وأنكم تكررون لأول أكد به لما طال الفصل بينه وبين خبره. أو أنكم لمخرجون مبتدأ خبره الظرف المقدم، أو فاعل للفعل المقدر جواباً للشرط والجملة خبر الأول؛ أي: أنكم إخراجكم إذا متم؛ أو أنكم إذا متم وقع؛ لأن اسمه جئة.

(٣٦) ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ﴾ بعد التصديق أو الصحة. ﴿لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ أو بعدما توعدون، واللام للبيان كما في ﴿هَيَّاتَ لَكَ﴾^(١) كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل فما له هذا الاستبعاد؟ قالوا لما توعدون. وقيل هيات بمعنى البعد، وهو مبتدأ خبره لما توعدون. وقرئ بالفتح منوناً للتنكير، وبالضم منوناً على أنه جمع هية وغير منون تشبيهاً بقبيل، وبالكسر على الوجهين، وبالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاء^(٢).

(٣٧) ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن التكرير وإشعاراً بأن تعينها مغني عن التصريح بها، كقوله:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَحْمَلُ

ومعناه لا حياة إلا هذه الحياة لأن إن نافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس

(١) يوسف: «٢٣».

(٢) قراءات (هيات) هي: هَيَّاتَا، هَيَّاتَ، هَيَّاتُ، هَيَّاتِ، هَيَّاتِ، هَيَّاتِ.

فكانت مثل لا التي تنفي ما بعدها نفى الجنس. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت بعضنا ويولد بعض. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

(٣٨) ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدعيه من إرساله له وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم. ﴿بِمَا كَذَبُونَ﴾ بسبب تكذيبهم إياي.
(٤٠) ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن زمان قليل، وما صلة لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة. ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ﴾ على التكذيب إذا عاينوا العذاب.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ جبريل صاح عليهم صيحة هائلة تصدعت منها قلوبهم فماتوا، واستدل به على أن القوم قوم صالح. ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالوجه الثابت الذي لا دافع له، أو بالعدل من الله كقولك فلان يقضي بالحق، أو بالوعد الصدق. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ شبههم في دمارهم بغثاء السيل وهو حميله كقول العرب «سال به الوادي» لمن هلك. ﴿فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل الإخبار والدعاء. ويعداً مصدرُ بُعِدَ إذا هلك، وهو من المصادر التي تُنصب بأفعال لا يستعمل إظهارها. واللامُ لبيان من دُعي عليه بالبعد. ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ هي قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم.

(٤٣) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا﴾ الوقت الذي حُدَّ لهلاكها، ومن مزيده للاستغراق. ﴿وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ الأجل.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ متواترين واحداً بعد واحد، من الوتر وهو الفرد، والياء بدل من الواو كتولج وتيقور، والألف للتأنيث لأن الرسل جماعة. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتنوين على أنه مصدرُ بمعنى المؤاترة وقع حالاً، وأماله حمزة وابن عامر والكسائي^(١). ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ إضافة الرسول مع الإرسال إلى المرسل ومع المجيء إلى المرسل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه والمجيء الذي هو انتهاء إليهم^(٢) ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم يُبقِ منهم

(١) كتبت كلمة (تترا) بالألف المقصورة، والرسم القرآني هو بالألف الممدودة، أما الرسم القرآني بالألف المقصورة فهي على قراءة من قرأ بها منونة، والله أعلم.

(٢) يريد من هذه العبارة أن إضافة الرسول إلى الأمة، ثم إضافة الإرسال إلى المرسل وهو الله تعالى «أرسلنا» وإضافة المجيء إلى المرسل إليهم وهم الأمة «كلما جاء أمة رسولها».

إلا حكايات يُسمَر بها، وهو اسمُ جمعٍ للحديث، أو جمعُ أحداثٍ وهي ما يُتحدث به تلهياً ﴿فَبَعْدَ الْقَوَمِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبَدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع^(١) ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة واضحة ملزمة للخصم. ويجوز أن يراد به العصا، وإفراؤها لأنها أولُ المعجزات وأتمها؛ تعلقَتْ بها معجزات شتى؛ كانقلابها حيةً وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها وحراستها ومصيرها شجرةً خضراء مثمرة ورشاً ودلوأ، وأن يراد به المعجزات وبالآيات الحجج، وأن يراد بهما المعجزات فإنها آياتٌ للنبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبي ﷺ.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على الإيمان والمتابعة ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين.

(٤٧) ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثنى البشر لأنه يطلق للواحد كقوله: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٢) كما يطلق للجمع كقوله: ﴿فَأِمَّا تَرِينَ مِن لَّبَسٍ آحَدًا﴾^(٣) ولم يُثنِ المثل لأنه في حكم المصدر، وهذه القصص كما ترى تشهد بأن قصارى شبه المنكرين للنبوة قياسٌ حال الأنبياء على أحوالهم لما بينهم من المماثلة في الحقيقة، وفساده يظهر للمستبصر بأدنى تأمل، فإن النفوس البشرية وإن شاركت في أصل القوى والإدراك لكنها متباينة الأقدام فيهما، وكما ترى في جانب نقصان أغبياء لا يعود عليهم الفكر براءة، يمكن أن يكون في طرف الزيادة أغبياء عن التفكير والتعلم في أكثر الأشياء وأغلب الأحوال فيدركون ما لا يدرك غيرهم ويعلمون ما لا ينتهي إليه علمهم، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾^(٤). ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿لَنَا عِبَدُونَ﴾ خادمون منقادون كالعباد.

(٤٨) ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر قلزم.

(٤٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل، ولا يجوز عود الضمير إلى فرعون وقومه لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم. ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارف والأحكام.

= لأن الإرسال منه تعالى بداية فأضيف إليه، والمجيء منتهى الإرسال فأضيف إليهم.

(١) الآيات التسع هي: العصا، اليد، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، نقص الثمرات، الطاعون، فلق البحر. قال الشوكاني: (ولا يصح عدّ فلق البحر منها هنا، لأن المراد الآيات التي كذبوا بها واستكبروا عنها) (فتح القدير ٣/ ٤٨٥).

(٢) مريم: ١٧.

(٣) مريم: ٢٦.

(٤) الكهف: ١١٠.

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ بولادتها إياه من غير مسيس، فالآية أمرٌ واحد مضافٌ إليهما. أو جعلنا ابنَ مريمَ آيةً بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزاتٌ أُخرُ، وأمّه آيةٌ بأن ولدت من غير مسيس، فحذفت الأولى للدلالة الثانية عليها^(١). ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة، أو دمشق أو رَمْلَةٌ فلسطين، أو مصر^(٢) فإن قراها على الرُّبَا. وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء، وقرئ رُبَاوة بالضم والكسر. ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقرٌّ من الأرض منبسطة. وقيل ذاتِ ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماء معين ظاهر جارٍ، فعيل من مَعَن الماء إذا جرى وأصله الإبعادُ في الشيء، أو من الماعون وهو المنفعة لأنه نفاع، أو مفعول مِنْ عانه إذا أدركه بعينه لأنه لظهوره مُدْرَك بالعيون. وُصِف ماؤها بذلك لأنه الجامعُ لأسباب التنزه وطيب المكان.

(٥١) ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ نداءٌ وخطابٌ لجميع الأنبياء، لا على أنهم خُوطبوا بذلك دفعةً لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة بل على معنى أن كلاً منهم خُوطب به في زمانه، فدخل تحته عيسى دخولاً أولياً ويكون ابتداءً كلام تنبيهاً على أن تهية أسباب التنعم لم تكن له خاصة وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرعٌ قديم، واحتجاجاً على الرهبانية في رفض الطيبات، أو حكايةً لما ذكر لعيسى وأمّه عند إيوائهما إلى الربوة ليقنّيا بالرسول في تناول ما رزقا. وقيل النداء له ولفظ الجمع للتعظيم، والطيبات ما يستلذ به من المباحات. وقيل الحلال الصافي القوام، فالحلال ما لا يُعصى الله فيه، والصافي ما لا يُنسئ الله فيه، والقوام ما يُمسك النفس ويحفظ العقل ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فإنه المقصودُ منكم والنافعُ عند ربكم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه.

(٥٢) ﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ أي ولأن هذه والمعلّل به فاتقون، أو واعلموا أن هذه، وقيل أنه معطوف على ما تعملون. وقرأ ابن عامر بالتخفيف، والكوفيون بالكسر على الاستئناف ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ملّتكم ملّةً واحدة أي متحدةً في الاعتقاد وأصول الشرائع، أو جماعتكم جماعةً واحدة متفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة، ونصبُ أمةً على الحال ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ في شق العصا ومخالفة الكلمة.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ فتقطعوا أمرَ دينهم جعلوه أدياناً مختلفة، أو فترقوا وتحزبوا، وأمرهم منصوبٌ بنزع الخافض أو التمييز، والضميرُ لما دل عليه الأمة من أربابها أولها. ﴿زُبُرًا﴾ قطعاً جمع

(١) ذكره مقدماً عليه السلام على أمه لأصالته فيما ذكر من كونه آية، كما أن تقديم أمه في قوله تعالى: «وجعلناها وابنها آيةً للعالمين» - الأنبياء: «٩١» - لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ (س/١٣٧/٦).

(٢) ذكر هذه الأقوال الطبري في «جامع البيان» (١٠/١٨ ج ٢٥ - ٢٧) ثم قال مرجحاً: «وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك: أنها مكان مرتفع ذو استواء، وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرملة، لأن الرملة لا ماء بها معين. والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين» هـ.

زَبُور الذي بمعنى الفِرقة ويؤيده القراءة بفتح الباء فإنه جمع زُبُرة، وهو حال من أمرهم أو من الواو، أو مفعول ثانٍ لتقطعوا فإنه متضمنٌ معنى جعل. وقيل كتباً من زُبُرَت الكتاب، فيكون مفعولاً ثانياً، أو حالاً من أمرهم على تقدير مثل كتب. وقرئ بتخفيف الباء كُرْسُل في رُسُل ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من المتحيزين ﴿بِمَالِهِمْ﴾ من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعْجِبُونَ معتقدون أنهم على الحق.

فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يُرِيدُونَ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

(٥٤) ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ في جهالتهم، شبهها بالماء الذي يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها أو لاعبون بها. وقرئ في غمراتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

(٥٥) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ أن ما نعطيهم ونجعله لهم مدداً، ﴿مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ بيان لما وليس خيراً له، فإنه غير معائب عليه، وإنما المعائب عليه اعتقادهم أن ذلك خيرٌ لهم، خبره.

(٥٦) ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والراجعُ محذوف والمعنى: أيعسبون أن الذي نُمِدُّهم به نُسارع به لهم فيما فيه خيرٌهم وإكرامهم. ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بل هم كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج لا مسارعة في الخير. وقرئ يُمِدُّهم على الغيبة وكذلك يُسارع ويُسرع، ويحتمل أن يكون فيهما ضميرُ المُمَدِّ به، ويسارع مبنياً للمفعول.

(٥٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ من خوف عذابه. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ حذرون.

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبة والمُنزلة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولها.

(٥٩) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُرِيدُونَ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شُرَكَاءَ جلياً ولا خفياً^(١).

(٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ يُعْطُونَ ما أعطوه من الصدقات. وقرئ يأتون ما آتَوْا، أي يفعلون ما فعلوا من الطاعات^(٢) ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة أن لا يُقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللاتقِ فيؤاخذ به. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لأن مرجعهم إليه، أو من أن مرجعهم إليه، وهو يعلم ما يخفى عليهم.

(٦١) ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى: ﴿فَأَنتَهُمُ اللَّهُ تَوَّابٌ أَلَدُنْيَا﴾^(٣)

(١) التعرض لعنوان الربوبية في المواقع الثلاثة للإشعار بعليتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك (س/٦/١٤٠).

(٢) تكرير الموصول «الذين» للإيذان باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حاليها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها (س/٦/١٤٠).

(٣) آل عمران: «١٤٨».

فيكون إثباتاً لهم ما نُفِيَّ عن أضدادهم^(١) ﴿وَهُمْ لَهُمْ سَبِقُونَ﴾ لأجلها فاعلمون السبق أو سابقون الناس إلى الطاعة أو الثواب أو الجنة، أو سابقونها أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا كقوله تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾^(٢).

وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ إِنْكِرًا مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قدر طاقتها، يريد به التحريض على ما وُصِفَ به الصالحين وتسهيله على النفوس ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ يريد به اللوح، أو صحيفة الأعمال. ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب أو نقصان ثواب.

(٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب الكفرة ﴿فِي غَمَرٍ﴾ في غفلة غامرة لها ﴿مِّنْ هَذَا﴾ من الذي وُصِفَ به هؤلاء، أو من كتاب الحفظه ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ﴾ خبيثة ﴿مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ متجاوزة لما وُصفوا به أو متخطية عما هم عليه من الشرك. ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ معتادون فعلها.

(٦٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعّميهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر، أو الجوع حين دعا عليهم الرسول ﷺ فقال: «اللهم اشدّد وطأتك على مُضَرِّ واجعلها عليهم سِنَّينَ كسني يوسف»^(٣). فقُحطوا حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المُخْرِقَة. ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ فاجتروا الصُّرَاخ بالاستغاثة، وهو جواب الشرط، والجملة مبتدأ بعد حتى، ويجوز أن يكون الجواب:

(٦٥) ﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ﴾ فإنه مقدر بالقول أي قيل لهم لا تجاروا اليوم^(٤). ﴿إِنْكِرًا مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾ تعليل للنهي، أي لا تجاروا فإنه لا ينفعكم إذ لا تُؤمنون منّا، أو لا يلحقكم نصر ومعونة من جهتنا.

(١) أسند سبحانه المسارعة إليهم ولم يقل يسارع لهم كسابقه، حيث غيّر الأسلوب وذلك للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم.

وإيثار كلمة (في) على كلمة «على» فقال «في الخيرات» وذلك للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة كالأية «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» (س/٦/١٤٠).

(٢) المؤمنون: «٦٣».

(٣) الحديث مركب من حديثين.

الشرط الأول إلى قوله: (كسني يوسف) أخرجه البخاري (٢/٢٩٠ رقم ٨٠٤) و(٢/٤٩٢ رقم ١٠٠٦) ومسلم (١/٤٦٧ رقم ٢٩٤) من حديث أبي هريرة.

وينحو الشرط الثاني أخرجه البخاري (٢/٢٩٣ رقم ١٠٠٧) و(٨/٣٦٣ رقم ٤٦٩٣).

و(٨/٥١١ رقم ٤٧٧٤) و(٨/٥٤٧ رقم ٤٨٠٩) و(٨/٥٧٣ رقم ٤٨٢١ و ٤٨٢٢ و ٤٨٢٣ و ٤٨٢٤) ومسلم

(٤/٢١٥٦ رقم ٣٩). من حديث ابن مسعود.

وانظر «الكافي الشاف» (ص ١١٥ رقم ٤١).

(٤) تخصيص اليوم بالذكر لتحويله، والإيذان بتفويتهم وقت الجوار (س/٦/١٤٢).

قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِبُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ حِجَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِبُونَ﴾ تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقها والعمل بها، والنكوص الرجوع قهقري.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ الضمير للبيت، وشهوة استكبارهم وافتخارهم بأنهم قوامه أغنت عن سبق ذكره، أو لاياتي فإنها بمعنى كتابي، والباء متعلقة بمستكبرين لأنه بمعنى مكذبين، أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعه أو بقوله ﴿سَمِرًا﴾ أي تسمرّون بذكر القرآن والطمع فيه، وهو في الأصل مصدرٌ جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة، وقرئ سَمَرًا جمع سامر ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهجر - بالفتح - إما بمعنى القطيعة أو الهديان، أي تعرضون عن القرآن أو تهجدون في شأنه، أو الهجر - بالضم - أي الفحش، ويؤيد الثاني قراءة نافع تهجدون من أهجَرَ وقرئ تهجدون على المبالغة.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ﴾ أي القرآن ليعلموا أنه الحق من ربهم بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ من الرسول والكتاب، أو من الأمن من عذاب الله تعالى فلم يخافوا كما خاف آبائهم الأقدمون كإسماعيل وأعقابه فآمنوا به وبكتابه ورسوله وأطاعوه.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصدق وحسن الخلق وكمال العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك مما هو صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا﴾ دعواه لأحد هذه الوجوه إذ لا وجه له غيرها، فإن إنكار الشيء قطعاً أو ظناً إنما يتجه إذا ظهر امتناعه بحسب النوع أو الشخص، أو بحث عما يدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد.

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ حِجَّةٌ﴾ فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحهم عقلاً وأدقهم نظراً ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم فلذلك أنكروه. وإنما قيّد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم مَنْ تَرَكَ الإيمان استنكافاً من توبيخ قومه، أو لقلّة فطنته وعدم فكرته، لا كراهة للحق.

(٧١) ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهة شتى. ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ كما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١). وقيل لو اتبع الحق أهواءهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالم فلم يبق، أو لو اتبع الحق الذي جاء به محمد ﷺ أهواءهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة وأهلك العالم من فزط غضبه، أو لو اتبع الله أهواءهم بأن أنزل ما يشتهونه من الشرك والمعاصي لخرج عن الألوهية ولم يقدر أن يُمسك السموات والأرض،

وهو على أصل المعتزلة. ﴿بَلْ أَلَبَّيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذكْرهم، أي وعظهم أو صيتهم، أو الذكر الذي تمنّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾^(١) وقرئ بذكرهم^(٢). ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَأُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ قيل إنه قسيمُ قوله «أم به جنة» ﴿خَرْجًا﴾ أجراً على أداء الرسالة. ﴿فَخَرَجَ رَيْكَ﴾ رزقه في الدنيا، أو ثوابه في العقبى. ﴿خَيْرٌ﴾ لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم. والخَرْجُ بإزاء الدخْل، يقال لكل ما تُخْرِجُه إلى غيرك، والخَرْجُ غالبٌ في الضريبة على الأرض، ففيه إشعارٌ بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ، ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه. وقرأ ابن عامر خَرْجاً فَخَرْجٌ، وحمزة والكسائي خَرْجاً فَخَرَجٌ للمزاوجة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ تقرير لخيرية خراجه تعالى.

(٧٣) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقولُ السليمةُ على استقامته لا عِوَجَ فيه يوجب اتهامهم له. واعلم أنه سبحانه ألزَمَهُمُ الْحُجَّةَ وَأَزَاحَ الْعِلَّةَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، بَأَن حَصَرَ أَقْسَامَ مَا يُوْدِي إِلَى الْإِنْكَارِ وَالْإِتْهَامِ وَبَيَّنَ انْتِفَاءَهَا مَا عَدَا كِرَاهَةَ الْحَقِّ وَقِلَّةَ الْفِطْنَةِ.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ عن الصراط السوي. ﴿لَنُكَبُّونَ﴾ لعادلون عنه، فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه.

(٧٥) ﴿لَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ يعني القحط. ﴿لَلْجَأُ﴾ لثبتوا، واللَّجَاجُ التماس في الشيء. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوة الرسول والمؤمنين. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى. روي أنهم قحطوا حتى أكلوا العِلْهَزَ^(٣)، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أنشدك الله والرحم ألسْتَ تزعم أنك بُعثت رحمة للعالمين؟ قال: «بلى» فقال: قتلْتَ الآباءَ بالسيف والأبناءَ بالجوع، فنزلت^(٤).

(١) الصفات: ١٦٨.

(٢) وفي إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظيمة «أُتِينَاهُمْ» بعد إسناده إلى ضميره - ﷺ - تنويه لشأن النبي - عليه السلام - وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل (س/١٤٥).

(٣) العلهز هو شيء يتخذونه في سنّي المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. وقيل: شيء ينبت ببلاد بني سليم له أصل كأصل البردي (النهاية في غريب الحديث ٢٩٣/٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٨١/٤) من طريق علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس في سياق حديث إسلام ثمامة بن أثال، فيه «فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: ألسْتَ تزعم أنك بُعثت رحمة للعالمين؟ فقال بلى، قال فقد قتلْتَ الآباءَ بالسيف والأبناءَ بالجوع فأَنزَلَ اللهُ «ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون» [المؤمنون: ٧٦].

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ بل أقاموا على عُتُوهم واستكبارهم. واستكان استفعل من الكون لأن المفتقر انتقل من كون إلى كون، أو افتعل من السكون أشبعت فتحته. ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ وليس من عادتهم التضرع، وهو استشهاده على ما قبله.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني الجوع فإنه أشد من القتل والأسر، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون آيسون من كل خير حتى جاءك أعتاهم يستعطفك.

(٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ لُحِصُوا بها ما نُصِبَ من الآيات ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتتفكروا فيها وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرونها شكراً قليلاً لأن العُمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله، والإذعان لما نحيها من غير إشراك، وما صلة للتأكيد.

(٧٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ خلقكم وبثكم فيها بالتناسل. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تُجْمَعُونَ يوم القيامة بعد تفرقكم.

(٨٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ ويختص به تعاقبهما لا يقدر عليه غيره، فيكون رداً لنسبته إلى الشمس حقيقة، أو لأمره وقضائه تعاقبهما، أو انتقاص أحدهما وازدياد الآخر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالنظر والتأمل، أن الكل منا وأن قدرتنا تعم المُمَكِّنات كلها وأن البعث من جملتها. وقرئء بالياء على أن الخطاب السابق لتغليب المؤمنين.

(٨١) ﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي كفار مكة. ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ آباؤهم ومن دان بدينهم.

(٨٢) ﴿قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ استبعاداً، ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخلقوا.

(٨٣) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا أكاذيبهم التي كتبوها، جمع أسطورة لأنه يستعمل فيما يتلى به كالأعاجيب والأصاحيك. وقيل جمع أسطر جمع سطر.

(٨٤) ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك، فيكون استهانة بهم وتقريراً لفرض جهالتهم حتى جهلوا مثل هذا الجلي الواضح إلزاماً بما لا يمكن لمن له مُسَكَّة من العلم إنكاره، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال:

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريح قد اضطَرَّهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها. ﴿قُلْ﴾

أي بعد ما قالوه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداء قادرٌ على إيجادها ثانياً، فإن بدء الخلق ليس أهونَ من إعادته. وقرئ تذكرون على الأصل.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوتُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾

(٨٦) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فإنها أعظم من ذلك.

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بغير لام فيه وفيما بعده على ما يقتضيه لفظ السؤال ﴿قُلْ أَفَلَا نُنْقِوتُ﴾ عقابه فلا تُشركوا به بعض مخلوقاته ولا تُنكروا قدرته على بعض مقدوراته.

(٨٨) ﴿قُلْ مَنْ فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ملكه غاية ما يمكن، وقيل خزائنه. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يُغِيث من يشاء ويحرسه. ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ولا يُغاث أحدٌ ولا يُمنع منه، وتعديته بعلى لتضمنين معنى التضرع.

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ فمن أين تُخدعون فتُضَرَفُونَ عن الرشد مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة!.

(٩٠) ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعد بالشور. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث أنكروا ذلك.

(٩١) ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لتفدسه عن مماثلة أحد. ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ يساهمه في الألوهية. ﴿إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ جواب مُحاجَّتِهِمْ وجزاء شرطٍ حُذِفَ للدلالة ما قبله عليه، أي لو كان معه آلهة كما تقولون لذهب كلٌ منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، وظهر بينهم التحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء، واللازم باطل بالإجماع والاستقراء وقيام البرهان على استناد جميع الممكّنات إلى واجب واحد. ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده.

(٩٢) ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ خبرٌ مبتدأ محذوف، وقد جرّه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص على الصفة، وهو دليلٌ آخرٌ على نفي الشريك بناءً على توافقه في أنه المنفرد بذلك، ولهذا رتب عليه ﴿فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ بالفاء.

(٩٣) ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ لأن ما والنون للتأكيد. ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة.

(٩٤) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قريباً لهم في العذاب، وهو إما لهضم النفس أو لأن شؤم الظلمة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ

خَاصَّةً^(١). عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيه - عليه السلام - أن له في أمته نعمة ولم يُطلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاء. وتكريرُ النداء وتصديرُ كل واحد من الشرط والجزاء به فضلٌ تضرعٌ وجُوار.

وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

(٩٥) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ لكننا نؤخره علماً بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون، أو لأننا لا نعدبهم وأنت فيهم، ولعله ردٌّ لإنكارهم الموعود واستعجالهم له استهزاءً به. وقيل قد أراه، وهو قتلٌ بدر أو فتح مكة.

(٩٦) ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ وهو الصفحُ عنها والإحسانُ في مقابلتها، لكن بحيث لم يؤدَّ إلى وهن في الدين. وقيل هي كلمة التوحيد والسيئة الشرك. وقيل هو الأمرُ بالمعروف والسيئة المنكر، وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالِك، وأقدرُ على جزائهم فوَكِّلْ إلينا أمرهم.

(٩٧) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ وسأوسهم، وأصلُ الهمز التَّخَسُّسُ ومنه مهمازُ الرائض^(٢)، شبه حشهم الناسَ على المعاصي بهمز الراضة للدواب على المشي، والجمعُ للمرات أو لتتوع الوسائس أو لتعدد المضاف إليه.

(٩٨) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ يحوموا حولي في شيء من الأحوال، وتخصيصُ حال الصلاة وقراءة القرآن وحلولِ الأجل لأنها أخرى الأحوال بأن يُخَافَ عليه^(٣).

(٩٩) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ متعلقٌ بيصفون، وما بينهما اعتراضٌ لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله من الشيطان أن يُزِلَّه عن الحِلْمِ ويُغْيِيَه على الانتقام، أو بقوله إنهم لكاذبون. ﴿قَالَ﴾ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة لما اطلع على الأمر. ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ رُدُّوني إلى الدنيا. والواو لتعظيم المخاطب، وقيل لتكرير قوله أرجعني كما قيل في قفا وأطرقا.

(١٠٠) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الإيمان الذي تركته، أي لعلِّي آتي الإيمان وأعمل فيه، وقيل في المال أو في الدنيا. وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا عاين المؤمنُ الملائكة قالوا أترجعك إلى الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله تعالى، وأما الكافر فيقول رب

(١) الأنفال: ٢٥.

(٢) مهماز الرائض: حديدة تربط على مؤخر رجله ينخس به الدابة لتسرع أو لتثب.

(٣) وإعادة الفعل «أعوذ» مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهاال في الاستدعاء (س/٦/١٥٠).

ارجعون»^(١). ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ مِّنْ طَلَبِ الرَّجْعَةِ وَاسْتِبْعَادٌ لِّهَا. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ يعني قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُون﴾ إلخ، والكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض. ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ لا محالة لتسلط الحسرة عليه. ﴿وَمِنْ رَرَائِهِمْ﴾ أمامهم، والضمير للجماعة. ﴿بَرَزُوا﴾ حائل بينهم وبين الرجعة. ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقنات كل عن الرجوع إلى الدنيا لِمَا عُلِمَ أَنَّهُ لَا رَجْعَةَ يَوْمَ الْبَعْثِ إِلَى الدُّنْيَا وَإِنَّمَا الرَّجُوعُ فِيهِ إِلَى حَيَاةٍ تَكُونُ فِي الْآخِرَةِ.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة، والقراءة بفتح الواو وبكسر الصاد يؤيد أن الصُّور أيضاً جمع الصورة^(٢). ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الخيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه، أو يفتخرون بها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما يفعلون اليوم. ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغاله بنفسه، وهو لا يناقض قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٣) لأنه عند النفخة وذلك بعد المحاسبة أو دخول أهل الجنة الجنة والنار. (١٠٢) ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ موزونات عقائده وأعماله، أي فمن كانت له عقائد وأعمال صالحة يكون لها وزن عند الله تعالى وقدر. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات. (١٠٣) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ومن لم يكن له ما يكون له وزن، وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(٤). ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ غبنوها حيث ضيعوا زماناً استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ بدل من الصلة، أو خبر ثانٍ لأولئك. (١٠٤) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ﴾ تحرقها، واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً^(٥). ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق، والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان. وقرئ كَالِحُونَ. (١٠٥) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول أي يقال لهم ألم تكن. ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تأنيب وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذاب لأجله.

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/١٨ ج ٥٢) عن ابن جريج مرسلاً. وفيه «سنيذ» ضعيف.

(٢) أي أن المعنى يكون: فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، وهو معنى قراءة من قرأ «في الصُّور» و«في الصُّور»، فإن المذكور في هاتين القراءتين جمع صورة لا بمعنى القرن قطعاً، والأصل توافق معاني القراءات. ولا تنافي بين النفخ في الصُّور بمعنى القرن - الذي جاء في الأخبار ودلت عليه آيات أخر - وبين النفخ في الصُّور جمع صورة، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك. انظر روح المعاني (١٨/٦٤).

(٣) الطور: «٢٥».

(٤) الكهف: «١٠٥».

(٥) وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل (س/٦/١٥١).

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٧) ﴿قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (١٠٨) ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (١١٠) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآيُزُونَ﴾ (١١١) ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (١١٢)

(١٠٦) ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ مَلَكْنَا بحيث صارت أحوالنا مؤديةً إلى سوء العاقبة. وقرأ حمزة والكسائي شَقَاوَتُنَا - بالفتح - كَالسَّعَادَةِ، وقرأ بالكسر كَالكِتَابَةِ. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب. ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا.

(١٠٨) ﴿قَالَ أَخْسُوا فِيهَا﴾ اسْكُتُوا سَكُوتَ هَوَانٍ فِي النَّارِ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مَقَامَ سُؤَالٍ، مِنْ خَسَأَتْ الْكَلْبُ إِذَا زَجَرْتَهُ فَخَسِئَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ أَوْ لَا تَكَلِّمُونِ رَأْسًا. قِيلَ إِنْ أَهْلُ النَّارِ يَقُولُونَ أَلْفَ سَنَةٍ: رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا، فَيُجَابُونَ: حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي، يَقُولُونَ أَلْفًا: رَبَّنَا أَمْتًا اثْنَتَيْنِ، فَيُجَابُونَ: ذَلِكَ بِأَنَّهُ دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، يَقُولُونَ أَلْفًا: «يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ»^(١) فَيُجَابُونَ: إِنْكُمْ مَا كُنْتُمْ، يَقُولُونَ أَلْفًا: رَبَّنَا أَخْرَجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ، فَيُجَابُونَ: أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ، يَقُولُونَ أَلْفًا: رَبَّنَا أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا، فَيُجَابُونَ: أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ، يَقُولُونَ أَلْفًا: رَبِّ ارْجِعُونِ، فَيُجَابُونَ: اخْسَؤُوا فِيهَا، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهَا إِلَّا زَفِيرٌ وَشَهْقٌ وَعَوَاءٌ^(٢).

(١٠٩) ﴿إِنَّهُمْ﴾ إِنْ الشَّأْنَ، وَفَرَّغَ بِالْفَتْحِ أَيُّ لَانِهِ. ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ الصَّحَابَةُ، وَقِيلَ أَهْلُ الصُّفَّةِ. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

(١١٠) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا﴾ هُزُواً. وَفَرَّغَ وَحْمَزَةُ وَالْكَسَائِيُّ هُنَا وَفِي صَ بِالضَّمِّ^(٣)، وَهُمَا مَصْدَرٌ سَخِرَ زِيدَتْ فِيهِمَا يَاءُ النَّسَبِ لِلْمُبَالَغَةِ، وَعِنْدَ الْكُوفِيِّينَ الْمَكْسُورُ بِمَعْنَى الْهُزْءِ، وَالْمُضْمُومُ مِنَ السُّخْرَةِ بِمَعْنَى الْإِنْقِيَادِ وَالْعُبُودِيَّةِ. ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ مِنْ فَرْطِ تَشَاغُلِكُمْ بِالْإِسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، فَلَمْ تَخَافُونِي فِي أَوَّلِيَّائِي. ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ اسْتِهْزَاءً بِهِمْ.

(١١١) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَى إِذَاكُم. ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآيُزُونَ﴾ فَوَزُّهُمْ بِمَجَامِعِ مُرَادَاتِهِمْ مَخْصُوصِينَ بِهِ، وَهُوَ ثَانِي مَفْعُولِي جَزَيْتُهُمْ. وَفَرَّغَ وَحْمَزَةُ وَالْكَسَائِيُّ بِالْكَسْرِ اسْتِثْنَاءً^(٤).

(١١٢) ﴿قُلْ﴾ أَيُّ اللَّهِ، أَوْ الْمَلِكُ الْمَأْمُورُ بِسْؤَالِهِمْ. وَفَرَّغَ ابْنُ كَثِيرٍ وَحْمَزَةُ وَالْكَسَائِيُّ عَلَى الْأَمْرِ^(٥)

(١) الزخرف: «٧٧».

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٩٥/٢) وصححه الذهبي بنحوه.

(٣) سورة ص «٦٣» أي بضم السين «سُخْرِيًّا».

(٤) أي بكسر الهمزة في «أنهم».

(٥) أي «قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ».

لِلْمَلَكِ أَوْ لِبَعْضِ رُؤَسَاءِ أَهْلِ النَّارِ. ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أحياء أو أمواتاً في القبور. ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييزاً لكم.

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

(١١٣) ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم في النار، أو لأنها كانت أيام سرورهم وأيام السرور قصاراً، أو لأنها منقضية والمنقضي في حكم المعدوم. ﴿فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ الذين يتمكنون من عد أيامها إن أردت تحقيقها فإنما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها، أو الملائكة الذين يعدون أعمار الناس ويحسون أعمالهم. وقرئ العادين - بالتخفيف - أي الظلمة فإنهم يقولون ما نقول، والعادين أن القدماء المعمرين فإنهم أيضاً يستقصرون.

(١١٤) ﴿قُلْ﴾ وفي قراءة حمزة والكسائي قُلْ. ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تصديق لهم في مقالهم.

(١١٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ توبيخ على تغافلهم. وعبثاً حال بمعنى عابثين، أو مفعول له أي: لم نخلقكم تلهياً بكم وإنما خلقناكم لتعبدكم ونجازيكم على أعمالكم، وهو كالدليل على البعث. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على أنما خلقناكم أو عبثاً. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم.

(١١٦) ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ﴾ الذي يحق له الملك مطلقاً، فإن من عداه مملوك بالذات مالك بالعرض من وجه دون وجه وفي حال دون حال. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن ما عداه عبيد له. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ الذي يحيط بالأجرام وينزل منه أحكاماً والأقضية والأحكام، ولذلك وصفه بالكرم أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرئ بالرفع على أنه صفة الرب.

(١١٧) ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يعبد إفراداً أو إشراكاً. ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة أخرى لإلهاً لازمة له فإن الباطل لا برهان به، جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلاً عما دل الدليل على خلافه، أو اعتراض بين الشرط والجزاء لذلك ﴿فَأَنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فهو مجاز له مقدار ما يستحقه. ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ إن الشأن، وقرئ بالفتح على التعليل أو الخبر أي حسابه عدم الفلاح. بدأ السورة بتقرير فلاح المؤمنين وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحمه فقال:

(١١٨) ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المؤمنین بشرته الملائكة

بالروح والريحان وما تقرُّ به عينه عند نزول ملك.....

الموت»^(١). وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «لقد أنزلت عليّ عشرُ آيات، مَنْ أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر»^(٢). ورُوي «أن أولها وآخرها من كنوز الجنة، من عمل بثلاث آياتٍ من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح»^(٣).



(١) وهو حديث موضوع.

تقدم الكلام على إسناده في آخر سورة آل عمران.

(٢) وهو حديث ضعيف.

أخرجه الترمذي (٣٢٦/٥) رقم (٧١٧٣) والنسائي (٨٣/٨ - تحفة الأشراف) من حديث عمر.

وقال النسائي: «هذا حديث منكر. لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه... والله أعلم» هـ.

وأخرجه الحاكم في المستدرک (٣٩٢/٢) وقال: صحيح الإسناد.

وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبدالرزاق عن شيخه ذا فقال: أظنه لا شيء.

قال الحافظ في التقریب (٣٨٥/٢): يونس بن سليم: مجهول.

والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١١٦ رقم ٤٥): «لم أجده».

سُورَةُ النُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

سورة النور مدنية^(١) وهي أربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورة، أو فيما أوحينا إليك سورة ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ صفتها، ومَنْ نصبها جعله مفسراً لناصرها فلا يكون له محلٌّ إلا إذا قُدِّرَ ائْتُلُ أو دونك أو نحوه. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وفرضنا ما فيها من الأحكام، وبشده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها، أو المفروض عليهم، أو للمبالغة في إيجابها ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ﴾ واضحات الدلالة^(٢) ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتتقون المحارم. وقرئ بتخفيف الذال^(٣).

(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ أي فيما فرضنا أو أنزلنا حكمهما وهو الجلد، ويجوز أن يُرْفَعَا بالابتداء والخبر ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ والفاء لتضمينها معنى الشرط إذ اللام بمعنى الذي. وقرئ بالنصب على

(١) مدنية كلها بإجماع العلماء.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النور بالمدينة، وأخرج عن ابن الزبير مثله.

انظر «الدر المنثور» (١٢٤/٦) و«زاد المسير» (٣/٦).

(٢) وتكرير أنزلنا لإبراز كمال العناية بشأنها (س/١٥٥/٦).

(٣) من عادة البيضاوي الإشارة للقراءات غير المتواترة بلفظ قرئ، إلا أنه هنا أشار بلفظ قرئ لمن قرأ بتخفيف الذال وهي قراءة متواترة قرأ بها حمزة وعلي وخلف وحفص. انظر تفسير النسفي (١٣٠/٣).

إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من نصب سورة لأجل الأمر، والزان بلا ياء^(١)، وإنما قَدِمَ الزانية لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرضِ نفسها عليه، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها. والجلد ضرب الجلد، وهو حكمٌ يُخصَّ بمن ليس بمحصنٍ لما دل على أن حدَّ المحصن هو الرجم، وزاد الشافعي عليه تغريب الحرِّ سنة لقوله عليه الصلاة والسلام «البكرُ بالبكر جلدٌ مائة وتغريبٌ عام»^(٢)، وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدهما الآخر نسخاً مقبولاً أو مردوداً. وله في العبد ثلاثة أقوال. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والإصابة في نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلام أيضاً وهو مردودٌ برجمه عليه الصلاة والسلام يهوديين^(٣)، ولا يعارضه: «من أشرك بالله فليس بمُحصن»^(٤) إذ المراد بالمحصن الذي يقتصر له من المسلم. «وَلَا تَأْخُذْهُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ» رحمة. «فِي دِينِ اللَّهِ» في طاعته وإقامة حدِّه فتعطلوه تُسامحوا فيه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لو سرقت فاطمة بنتُ محمد لقطعت يدها»^(٥). وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة^(٦)، وقرئت بالمد على فعالة. «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» فإن الإيمان يقتضي الجدَّ في طاعة الله تعالى والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التهيج. «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَافِقَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» زيادة في التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب. والطائفةُ فرقةٌ يمكن أن تكون حاققةً حول شيء، من الطوف، وأقلها ثلاثة وقيل واحداً واثنان، والمراد جمع يحصل به التشهير.

(٣) «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ» إذ الغالب أن المائل إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافحة لا يرغب فيها الصلحاء، فإن المشاكلة علةٌ للألفة والتضام والمخالفة سببٌ للنفرة والافتراق. وكان حقُّ المقابلة أن يقال والزانية لا تنكح إلا من هو زانٍ أو مشرك، لكن المراد بيان أحوال الرجال في الرغبة فيهن، لأن الآية نزلت في ضَعْفَةِ المهاجرين لما هموا أن يتزوجوا بغايا يكرين أنفسهن لِيُنْفِقنَ عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية^(٧) ولذلك قدم الزاني. «وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» لأنه تشبهُ بالفساق وتعرضُ للتهمة وتسبُّبُ لسوء القالة والطنن في النسب وغير ذلك من المفساد، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً. وقيل النفْيُ بمعنى النهي، وقد قرئ به. والحرمة على ظاهرها، والحكمُ مخصوصٌ بالسبب الذي ورد فيه أو منسوخٌ بقوله تعالى «وَأَنْكِحُوا الْأَبْنَاءَ مِنكُمْ»^(٨) فإنه يتناول المسافحات، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أولُه

(١) قوله: والزان بلا ياء معطوف على قوله وقرئ بالنصب، أي وقرئ والزان بلا ياء.

(٢) لم أجده.

(٣) أخرجه البخاري (٦/٦٣١ رقم ٣٦٣٥) ومسلم (٣/١٣٢٦ رقم ١٦٩٩/٢٦) من حديث ابن عمر.

(٤) لم أجده.

(٥) أخرجه البخاري (٦/٥١٣ رقم ٣٤٧٥) و(٧/٨٧ رقم ٣٧٣٣) و(١٢/٨٧ رقم ٦٧٨٨) ومسلم (٣/١٣١٥ رقم ٨ -

(١١) وأبو داود (٤/٥٣٧ - ٥٣٨ رقم ٤٣٧٣) والترمذي (٤/٣٧ - ٣٨) والنسائي (٨/٧٢ - ٧٥ رقم ٤٨٩٤ -

٤٩٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أي بفتح همزة رافة أي رَأْفَةً، وقرئت رَافَةً.

(٧) أخرجه ابن جرير (١٠/٧١ ج ١٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بإسناد صحيح.

(٨) النور: (٣٢).

سِفَاحٍ وَآخِرُهُ نِكَاحٌ وَالْحَرَامُ لَا يَحْرَمُ الْحَلَالَ»^(١)، وقيل المراد بالنكاح الوطء فيؤول إلى نهى الزاني عن الزنا إلا بزانية، والزانية أن يزني بها إلا زانٍ وهو فاسد.

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يقذفونهن بالزنا، لوصف المقذوفات بالإحصان وذكرهن عقيب الزواني واعتبار أربعة شهداء بقوله ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ والقذف بغيره مثل يا فاسق ويا شارب الخمر يوجب التعزير كقذف غير المحصن، والإحصان ههنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا، ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى. وتخصيص المحصنات لخصوص الواقعة، أو لأن قذف النساء أغلب وأشنع. ولا يشترط اجتماع الشهود عند الأداء ولا تعتبر شهادة زوج المقذوفة خلافاً لأبي حنيفة، وليكن ضربه أخف من ضرب الزنا لضعف سببه واحتماله، ولذلك نقص عدده. ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ أي شهادة كانت لأنه مفتري. وقيل شهادتهم في القذف، ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجلد خلافاً لأبي حنيفة، فإن الأمر بالجلد والنهي عن القبول سيان في وقوعهما جواباً للشرط لا ترتيب بينهما فيرتبان عليه دفعة، كيف وحاله قبل الجلد أسوأ مما بعده ﴿أَبَدًا﴾ ما لم يتب، وعند أبي حنيفة إلى آخر عمره. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المحكوم بفسقهم.

(٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن القذف. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام للحد أو الاستحلال من المقذوف. والاستثناء راجع إلى أصل الحكم وهو اقتضاء الشرط لهذه الأمور؛ ولا يلزمه سقوط الحد به كما قيل لأن من تمام التوبة الاستسلام له أو الاستحلال؛ ومحل المستثنى النصب على الاستثناء، وقيل إلى النهي ومحلّه الجزئ على البدل من هم في لهم، وقيل إلى

(١) إن الحديث يتألف من حديثين:

(الأول): (أوله سفاح وآخره نكاح) موقوف على ابن عباس.

(والثاني): (الحرام لا يحرم الحلال) مرفوع من حديث عائشة.

● أما حديث ابن عباس الموقوف: فقد أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٢/٧). وابن أبي شيبة في

«المصنف» (٢٤٨/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٥/٧). والدارقطني في «السنن» (٢٦٨/٣) رقم ٩١.

● أما حديث عائشة المرفوع: فقد أخرجه الدارقطني في «السنن» (٢٦٨/٣) رقم ٩٠ وابن حبان في

«المجروحين» (٩٨/٢ - ٩٩) والبيهقي في السنن الكبرى (١٦٩/٧) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٦٨/٤ -

٢٦٩) وعزه للطبراني في الأوسط. وقال: فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري وهو متروك.

● ولحديث عائشة شاهد من حديث ابن عمر.

أخرجه ابن ماجه (٦٤٩/١) رقم ٢٠١٥ والدارقطني في «السنن» (٢٦٨/٢) رقم ٨٩.

قال البوصري في «مصباح الزجاجه» (٣٥٠/١) رقم ٧٢٢ «هذا إسناد ضعيف، لضعف عبدالله بن عمر

العمري... هـ.

والخلاصة أن حديث عائشة ضعيف والله أعلم.

الآخيرة^(١) ومحله النصب لأنه من موجب، وقيل منقطع متصل بما بعده. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ علة للاستثناء.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾
وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُونَ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ نزلت في هلال بن أمية رأى رجلاً على فراشه^(٢). وأنفسهم بدل من شهداء أو صفة لهم على أن إلا بمعنى غير. ﴿فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ﴾ فالواجب شهادة أحدهم أو فعليهم شهادة أحدهم وأربع نصب على المصدر، وقد رفعه حمزة والكسائي وحفص على أنه خبر شهادة. ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بشهادات لأنها أقرب، وقيل بشهادة لتقدمها. ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فيما رماها به من الزنا، وأصله على أنه فحذف الجار وكسرت إن وعُلق العامل عنه باللام تأكيداً.

(٧) ﴿وَالْخَمْسَةَ﴾ والشهادة الخامسة ﴿أَنْ لَعْنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في الرمي. هذا لعان الرجل، وحكمه: سقوط حد القذف عنه، وحصول الفرقة بينهما بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً»^(٣). وتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة، ونفي الولد إن تعرض له فيه، وثبوت حد الزنا على المرأة لقوله:

(٨) ﴿وَيَذَرُونَ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي الحد. ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماني به.

(٩) ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في ذلك، ورفع الخامسة بالابتداء وما بعدها الخبر، أو بالعطف على أن تشهد، ونصبها حفص عطفاً على أربع. وقرأ نافع ويعقوب أن لعنة الله وأن غضب الله بتخفيف النون فيهما وكسر الضاد وفتح الباء من غضب ورفع الهاء من اسم الله^(٤)، والباقون بتشديد النون فيهما ونصب التاء وفتح الضاد وجر الهاء^(٥).

(١) قوله: وقيل إلى النهي... وقيل إلى الآخرة. معطوف على قوله، والاستثناء راجع إلى الحكم...

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٩/٨ رقم ٤٧٤٧) والبخاري في شرح السنة (٢٥٩/٩ - ٢٦٠).

(٣) أخرجه الدارقطني (٢٧٦/٣) وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٢٥١/٣) إسناده جيد. وله شواهد من حديث سهل بن سعد الساعدي أخرجه الدارقطني (٢٧٥/٢) وفي سنده عياض الفهري لين الحديث كما في التقريب (٩٦/٢). ومن حديث علي وابن مسعود أخرجه الدارقطني (٢٧٧/٢).

(٤) ذكر البيضاوي أن قراءة نافع ويعقوب واحدة، لكن ذكر ابن مهران في كتابه المبسوط في القراءات العشر ص ٢٦٦ أن يعقوب قد قرأ «أَنْ لَعْنَتُ اللَّهُ» و«أَنْ غَضَبَ اللَّهُ» فهي بنصب الضاد والله أعلم.

(٥) وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء كثيراً ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى (س ١٥٩/٦).

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَمْ يُعَذِّبْهُ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ متروك الجواب للتعظيم، أي لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة.

(١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ بأبلغ ما يكون من الكذب، من الإفك وهو الصّرف لأنه قول مافوك عن وجهه. والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله تعالى عنها، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام استصحبها في بعض الغزوات فأذن ليلة في القفول بالرحيل، فمشت لقضاء حاجة ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع فرجعت لتلمسه، فظن الذي كان يُرخلها أنها دخلت الهودج فرخله على مطيتها وسار، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمة أحداً فجلست كي يرجع إليها مُنشد، وكان صفوان بن المعطل السلمي رضي الله تعالى عنه قد عرس وراء الجيش فأصبح عند منزلها فعرفها فأناخ راحلته فركبتها فقادها حتى أتيا الجيش، فأنهت به. ﴿عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ جماعة منكم، وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصاة، يريد عبدالله بن أبي وزيد بن رفاعه وحسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحننة بنت جحش ومن ساعدتهم، وهي خبر إن، وقوله ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ﴾ مستأنف، والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم، والهاء للإفك. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله بإتزال ثمانى عشرة آية في براءتكم، وتعظيم شأنكم، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن بكم خيراً ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ لكل جزاء ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ مُعظمه. وقرأ يعقوب بالضم^(١)، وهو لغة فيه ﴿مِنْهُمْ﴾ من الخائضين، وهو ابن أبي فإنه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله ﷺ، أو هو وحسان ومسطح فإنهما شايعا بالتصريح به. والذي بمعنى الذين ﴿لَمْ يُعَذِّبْهُ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. أو في الدنيا بأن جلدوا، وصار ابن أبي مطروداً مشهوراً بالنفاق، وحسان أعمى أشل اليدين، ومسطح مكفوف البصر.

(١٢) ﴿لَوْلَا﴾ هلاً، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾^(٢). وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذّبونهم عن أنفسهم. وإنما جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف لأنه منزل منزلة من حيث إنه لا ينفك عنه، وذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكر الظرف أهم فإن التحضيض على أن لا يخلوا بأوله. ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقن المطلع على الحال.

(١) أي بضم الكاف (كُبْرَهُ).

(٢) الحجرات: (١١).

لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ من جملة المقول تقريراً لكونه كذباً، فإن ما لا حجة عليه كذبٌ عند الله أي في حكمه، ولذلك رتب الحد عليه.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى لولا فضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ورحمته في الآخرة بالعمو والمغفرة المقدران لكم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ خضتم. ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُسْتَحَقَّرُ دونه اللوم والجلد.

(١٥) ﴿إِذْ﴾ ظرف لمستم أو أفضتم. ﴿تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، يقال تلقى القول كتلقفه وتلقنه. وقرىء تَلَقَّوْنَهُ عَلَى الْأَصْلِ، وتَلَقَّوْنَهُ مِنْ لِقْيِهِ إِذَا لَقِيَهُ، وتَلَقَّوْنَهُ بِكسر حرف المضارعة، وتَلَقَّوْنَهُ مِنْ إِقَائِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وتَلَقَّوْنَهُ وَتَأَلَّقَّوْنَهُ مِنَ الْأَلْقِ وَالْإِلْقِ وَهُوَ الْكَذِبُ، وَتَتَقَفَّوْنَهُ مِنْ ثِقْفَتِهِ إِذَا طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ، وَتَقَفَّوْنَهُ أَيِ تَتَبَعُونَهُ ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب. ﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(١) ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعه له. ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر واستجرار العذاب. فهذه ثلاثة آثام مرتبة علّق بها مسُّ العذاب العظيم: تلقى الإفك بالستهم، والتحدث به من غير تحقق، واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

(١٦) ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا﴾ ما ينبغي وما يصح لنا. ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ يجوز أن تكون الإشارة إلى القول المخصوص وأن تكون إلى نوعه، فإن قذف أحاد الناس محرماً شرعاً فضلاً عن تعرض الصديقة ابنة الصديق حُرمة رسول الله ﷺ. ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تعجب من ذلك الإفك أو ممن يقول ذلك، وأصله أن يذكر عند كل متعجب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعب عليه مثله، ثم كثر فاستعمل لكل متعجب. أو تنزيه لله تعالى من أن تكون حُرمة نبيه فاجرة، فإن فجورها يُنْفَرُ عنه وَيُخْلَ بِمَقْصُودِ الزَّوْاجِ بِخِلَافِ كُفْرِهَا، فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله: ﴿هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ لعظمة المبهوت عليه، فإن حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها.

(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ كراهة أن تعودوا، أو في أن تعودوا. ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء مكلفين ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يمنع عنه، وفيه تهيبٌ وتقريع.

وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها^(١). ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدابيره ولا يجوز الكشحنة^(٢) على نبيه ولا يقرره عليها.

(١٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يريدون ﴿أَنْ تَشِيعَ﴾ أن تنتشر. ﴿الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالحد والسعير إلى غير ذلك. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضمائر ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهر، والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة.

(٢٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة، ولذا عطف قوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ على حصول فضله ورحمته عليهم، وحذف الجواب وهو مستغنى عنه بذكره مرة^(٣).

(٢١) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ بإشاعة الفاحشة. وقرئ بفتح الطاء، وقرأ نافع والبيزي وأبو عمرو وأبو بكر وحمزة بسكونها ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ بيان لعله النهي عن اتباعه، والفحشاء ما أفرط قبحه، والمنكر ما أنكره الشرع^(٤). ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ﴿مَا زَكَا﴾ ما طهر من دنسها. ﴿مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ آخر الدهر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ بحمله على التوبة وقبولها. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِمَقَالِهِمْ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

(٢٢) ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف، افتعال من الألتة، أو لا يقصر من الألو. ويؤيد الأول أنه قرئ ولا يَتَأَلَّ، وأنه نزل في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد حلف أن لا يُنفق على مسطح بغد وكان ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ في الدين ﴿وَالسَّعَةِ﴾ في المال، وفيه

(١) إظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي، والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة (س/٦/١٦٣).

(٢) الكشحنة هي إضمار العداوة.

(٣) إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرافة والرحمة (س/٦/١٦٤).

(٤) قال: «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ» ولم يقل ومن يتبعها فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير (س/٦/١٦٤).

دليل على فضل أبي بكر وشرفه رضي الله تعالى عنه ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ على أن لا يؤتوا، أو في أن يؤتوا. وقرئ بالتاء على الالتفات. ﴿أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، أي ناساً جامعين لها لأن الكلام فيمن كان كذلك، أو لموصوفات أقيمت مقامها فيكون أبلغ في تعليل المقصود ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ عما فرط منهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإغماض عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقال: بلى أحب، ورجع إلى مسطح نفقته^(١).

إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تُنْفَخُ عَنْهُمْ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴿٢٤﴾ يَوْمَذِ يُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ العفاف. ﴿عَمَّا قُذِفَ بِهِ﴾ باله و برسوله، استباحة لِعرضهن وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أبي ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لما طعنوا فيهن. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم، وقيل هو حكم كل قاذف ما لم يتب، وقيل مخصوص بمن قذف أزواج النبي ﷺ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا توبة له، ولو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٢٤) ﴿يَوْمَ تُنْفَخُ عَنْهُمْ﴾ ظرف لما في لهم من معنى الاستقرار، لا للعذاب لأنه موصوف. وقرأ حمزة والكسائي بالياء للتقدم والفصل. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها، وفي ذلك مزيد تهويل للعذاب.

(٢٥) ﴿يَوْمَذِ يُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ جزاءهم المستحق ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لمعاينتهم الأمر ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ الثابت بذاته الظاهر ألوهيته لا يشاركه في ذلك غيره، ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه، أو ذو الحق البين أي العادل الظاهر عدله، ومن كان هذا شأنه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة.

(٢٦) ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أي الخبائث يتزوجن الخبث وبالعكس، وكذلك أهل الطيب فيكون كاللذيل على قوله ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل بيت النبي ﷺ، أو الرسول وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجته

(١) أخرجه البخاري (٢٧٢/٥) رقم (٢٦٦١) و(٤٣٤/٧) رقم (٤١٤١) و(٤٤٥/٨) رقم (٤٧٥٠) و(٥٦٤/١١) رقم (٦٦٧٩) ومسلم (٢١٣٦/٤) رقم (٥٦). كلاهما في سياق حديث الإفك الطويل. من حديث عائشة.

(٢) وتقديم (عليهم) على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارة لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٦/١٦٦).

عليه الصلاة والسلام ولم يُقرَّر عليها، وقيل الخبيثات والطيبات من الأقوال، والإشارة إلى الطيبين، والضمير في يقولون للآفكين، أي مبرؤون مما يقولون فيهم، أو للخبيثين والخبيثات أي مبرؤون من أن يقولوا مثل قولهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، ولقد برأ الله أربعة بأربعة: برأ يوسف عليه الصلاة والسلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بإنطاق ولدها، وعائشة رضي الله تعالى عنها بهذه الآيات الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي لا تسكنونها، فإن الآجر والمُعبر أيضاً لا يدخلان إلا بإذن. ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ تستأذنوا، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من أنس الشيء إذا أبصره، فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يُراد دخوله أو يؤذن له، أو من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش فإن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له، فإذا له أذن استأنس، أو تتعرفوا هل ثم إنسان من الإنس ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا السلام عليكم أَدْخُلْ؟ وعنه عليه الصلاة والسلام: «التسليم أن يقول السلام عليكم أَدْخُلْ ثلاث مرات، فإن أذن له دخل وإلا رجع»^(١). ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي الاستئذان أو التسليم خير لكم من أن تدخلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية، كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حُيْتُمْ صباحاً أو حُيْتُمْ مساءً ودخل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي، قال: «نعم»، قال: إنها ليس لها خادمٌ غيري أأستأذن عليها كلما دخلتُ، قال: «أتحب أن تراها غُرِيَانَةً»، قال: لا، قال: «فاستأذن»^(٢). ﴿لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف، أي أنزل عليكم أو قيل لكم هذا إرادة أن تذكروا وتعملوا بما هو أصلح لكم.

(٢٨) ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ يَأْذَنُ لَكُمْ ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتى يَأْتِيَ مَنْ يَأْذَنُ لَكُمْ، فإن

(١) لم أجده بهذا اللفظ. نعم أخرج البخاري (٢٧/١١) رقم (٦٢٤٥) ومسلم (٣/١٦٩٤ - ١٦٩٧) رقم (٣٣ - ٣٧).

في سياق قصة أبي موسى مع عمر رضي الله عنهم. من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٩٦٣) وأبو داود في المراسيل (ص ٣٣٦) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٠/١١١ - ١١٢) من حديث عطاء بن يسار مرسلًا.

قال ابن عبد البر في «المهيد» (١٦/٢٢٩): «... وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ. وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه...». هـ. وقال الشيخ شعيب في تخريج «المراسيل» رجاله ثقات رجال الشيخين هـ.

المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط، بل وعلى ما يخفيه الناس عادة مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور، واستثنى ما إذا عرض فيه حَزَقٌ أو غَزَقٌ أو كان فيه منكراً ونحوها ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تُلِحُّوا. ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ الرجوع أظهر لكم عما لا يخلو الإلحاح والوقوف على الباب عنه من الكراهة وترك المروءة، أو أنفع لدينكم ودنياكم ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذكرون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالرُّبْط^(١) والحوانيت والخانات والخانات^(٢) ﴿فِيهَا مَتَعٌ﴾ استمتاع. ﴿لَكُمْ﴾ كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة، وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله المسكونة وغيرها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلع على عورات.

(٣٠) ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي ما يكون نحو محرم. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، ولما كان المستثنى منه كالشاذ النادر بخلاف الغض أطلقه، وقيد الغض بخرف التبعض. وقيل حفظ الفروج ههنا خاصة سترها. ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ أنفع لهم أو أظهر لما فيه من البعد عن الريبة. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجاله أبصارهم واستعمال سائر حواسهم وتحريك جوارحهم وما يقصدون بها، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون.

(٣١) ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من الرجال ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر أو التحفظ عن الزنا، وتقديماً الغض لأن النظر يريد الزنا. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالخلي والياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحل أن تُبْدَى له. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاوله الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سترها حرجاً، وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف، أو ما يعتم المحاسن الخلقية والتزينية، والمستثنى هو الوجه والكفان لأنها ليست بعورة،

(١) الرُّبْط هي ما بينى للفقراء.

(٢) لعل المراد بها الأماكن الخيرية أو الحمامات.

والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرّة عورة لا يحل لغير الزوج، والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُصْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ ستراً لأعناقهن. وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وهشام بضم الجيم. ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كثره لبيان من يحل له الإبداء ومن لا يحل له. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج بكزّه. ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ أَخَوَاتَهُنَّ﴾ لكثرة مداخلتهن عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهن وقلّة توقع الفتنة من قبلهم لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة، وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معنى الإخوان، أو لأن الأحوط أن يستترن عنهم حذراً أن يصفوهن لأبنائهم ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني المؤمنات فإن الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال أو النساء كلهن، وللعلماء في ذلك خلاف. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعُم الإماء والعبيد، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد وهبه لها وعليها ثوب إذا قتعت به رأسها لم يبلغ رجلها وإذا غطت رجلها لم يبلغ رأسها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأس»، إنما هو أبوك وغلأمك^(١). وقيل المراد بها الإماء، وعبد المرأة كالأجنبي منها. ﴿أَوْ النَّسَبِيُّ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ^(٢) والممسوحون^(٣)، وفي المجبوب^(٤) والخصي خلاف، وقيل البله الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء. وقرأ ابن عامر وأبو بكر «غير» بالنصب على الحال ﴿أَوْ الطِّفْلُ الَّذِي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع، أو لعدم بلوغهم حدّ الشهوة، من الظهور بمعنى الغلبة. والطفل جنسٌ وُضع موضع الجمع اكتفاءً بدلالة الوصف. ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ليتقنع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال، وهو أبلغ من النهي عن إظهار الزينة وأدل على المنع من رفع الصوت. ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلو أحد منكم من تفريط سيما في الكف عن الشهوات، وقيل توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه وإن جُبّ بالإسلام لكنه يجب الندم عليه والعزم على الكف عنه كلما يُتذكر. وقرأ ابن عامر «أيّه المؤمنين» وفي الزخرف «يا أيّه الساحر»^(٥) وفي الرحمن «أيّه الثقلان»^(٦) بضم الهاء في الوصل في الثلاثة، والباقون بفتحها، ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن بالألف، ووقف الباقر بغير الألف. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بسعادة الدارين.

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩/٤) وفي إسناده: سالم بن دينار وثقه ابن معين.

وقال أحمد: أرجو أنه لا بأس به، وقال أبو زرعة: لين الحديث، وقال الحافظ: مقبول.

[انظر «الجرح والتعديل» (١٨٠/٤ - ١٨١) و«التقريب» (٢٧٩/١) رقم (٦).]

والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) الشيخ الهيم: الفاني وهي همة.

(٣) الممسوح: من لا آلة له.

(٤) المجبوب: مقطوع الذكر.

(٥) الزخرف: «٤٩».

(٦) الرحمن: «٣١».

وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِن عِلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ۚ إِن أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَتْنَعُوا ۚ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ لما نهى عما عسى يُفضي إلى السفاح المُخِلِّ بالنسب المقتضي للألفة وحسن التربة ومزيد الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بأمر النكاح الحافظ له. والخطابُ للأولياء والسادة. وفيه دليل على وجوب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبهما، وإشعارُ بأن المرأة والعبد لا يَسْتَبْدَان به إذ لو استبدا لما وجب على الولي والمولى. وأيامى مقلوبُ أيامى كيتامى، جمع أيم وهو العزب ذكراً كان أو أنثى بكراً كان أو ثيباً قال:

فَإِن تَنكِحَنِى أَنكِحْ وَإِن تَتَأَيَّمِى - وَإِن كُنْتَ أَفْتَى مِنكُمْ - أَتَأَيَّمِى^(١)

وتخصيصُ الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم، وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه. ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ ردٌ لما عسى يمنع من النكاح، والمعنى لا يَمْنَعَنَّ فقرُ المخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله غنيةً عن المال فإنه غادر ورائخ. أو وعدٌ من الله بالإغناء لقوله ﷺ: «اطْلُبُوا الْغِنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ»^(٢)، لكن مشروطاً بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ إِن شَاءَ﴾^(٣). ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ ذو سعة لا تنفذ نعمته إذ لا تنتهي قدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ يسطُ الرزقَ ويقدر على ما تقتضيه حكمته.

(٣٣) ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ﴾ وليجتهد في العفة وقمع الشهوة. ﴿الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا﴾ أسبابه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما يُنْكِحُ به، أو بالوُجْدَانِ التمكن منه. ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به. ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ﴾ المكاتبه، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبك على كذا من الكتاب لأن السيد

(١) من الطويل.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ. وفي معناه حديث «التمسوا الرزق بالنكاح» أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد - وهو ضعيف - وابن مردويه من رواية أبي السائب سلام بن جنادة عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعاً «تزوجوا النساء فإنهن يأتيان بالمال». قال الحاكم - (١٦١/٢) - تفرد به سلم وهو ثقة. وقال البزار - (١٤٩/٢) - كشف) - والدارقطني في العلل - وغير سلم يرويه مراسلاً. انتهى. وهو كما قال.

- وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة - (في المصنف: ١٢٧/٤) - عن أبي أسامة، فلم يذكر عائشة.

- وكذلك أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص ١٨٠ رقم ٢٠٣) عن أبي توبة - واسمه الربيع - عن أبي أسامة - ورجاله ثقات رجال الشيخين -.

- وأخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف في تاريخ جرجان - ص ٢٤٢ - بلفظ «عليكم بالتزويج فإنه... الرزق» - من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولاً. والحسين متهم بالكذب - المجروحين. - (١) - ٢٤٤ - (٢٤٥) -.. انظر «الكافي الشاف» (ص ١١٩ رقم ٧٧).

(٣) التوبة: «٢٨».

كتب على نفسه عتقه إذا أدى المال، أن لأنه مما يكتب لتأجيله، أو من الكُتْب بمعنى الجمع لأن العِوض فيه يكون مُتَجَمًّا بُنْجُومَ بضمِّ بعضِها إلى بعض ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمةً، والموصول بصلته مبتدأ خبره: ﴿فَكَابَتْهُمْ﴾ أو مفعولٌ لمضمرٍ هذا تفسيره، والفاء لتضمين معنى الشرط. والأمر فيه للندب عند أكثر العلماء، لأن الكتابة معاوضةً تتضمن الارفاق فلا تجب كغيرها، واحتجاجُ الحنفية بإطلاقه على جواز الكتابة الحالية ضعيفٌ لأن المطلق لا يعم، مع أن العجز عن الأداء في الحال يمنع صحتها كما في السلم فيما لا يوجد عند المحل. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أمانةً وقدرةً على أداء المال بالاحتراف، وقد روي مثله مرفوعاً^(١). وقيل صلاحاً في الدين. وقيل مالاً، وضعفه ظاهرٌ لفظاً ومعنى، وهو شرط الأمر فلا يلزم من عدمه عدمُ الجواز. ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ أمرٌ للموالي كما قبله بأن يبذلوا لهم شيئاً من أموالهم، وفي معناه حطُّ شيء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر، ويكفي أقلُّ ما يتمول. وعن علي رضي الله تعالى عنه يحطُّ الربع^(٢)، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الثلث^(٣). وقيل ندبٌ لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يؤتوا ويعتقوا، وقيل أمرٌ لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة، ويحلُّ للمولى وإن كان غنياً، لأنه لا يأخذه صدقةٌ كالدائن والمشتري، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بريرة: «هو لها صدقةٌ ولنا هدية»^(٤). ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَئِيتَكُمْ﴾ إماءكم. ﴿عَلَى الْإِغْيَاءِ﴾ على الزنا، كانت لعبدالله بن أبي سئ جوارٍ يُكرههن على الزنا، وضرب عليهن الضرائب فشكا بعضهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت^(٥). ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً، شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاعُ النهي بامتناع المنهي عنه. وإيثارُ «إِنْ» على «إِذَا» لأن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ النادر. ﴿لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لهن، أؤله إن تاب، والأولُ أوفقٌ للظاهر ولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم»، ولا يرد عليه أن المُكْرَهَةَ غيرُ آئمةٍ فلا حاجة إلى المغفرة لأن الإكراه لا ينافي المؤاخظة بالذات، ولذلك حرُم على المُكْرَهَةِ القتلُ وأوجب عليه القصاص.

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل كما في تحفة الأشراف (١٣/٤١٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/١٨ج/١٢٩) عنه.

(٣) انظر «جامع البيان» (١٠/١٨ج/١٣١) والمصنف لعبد الرزاق (٨/٣٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣/٣٥٥ رقم ١٤٩٣) و(٥/٢٠٣ رقم ٢٥٧٨) و(٩/١٣٨ رقم ٥٠٩٧) و(٩/٤٠٤ رقم ٥٢٧٩) و(٥/٤١٠ رقم ٥٢٨٤) و(١٢/٣٩ رقم ٦٧٥١) ومسلم (٢/٧٥٥ رقم ١٧١ - ١٧٢) و(٢/١١٤٣ - ١١٤٥ رقم ١٠، ١١، ١٢، ١٤) من حديث عائشة في حديث قصة بريرة وعتقها.

(٥) أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل بهذا وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب - كما في «الكافي الشاف» (ص ١١٩ رقم ٨٢).

وهو عند مسلم (٤/٢٣٢٠ رقم ٢٦ / ٢٧) من حديث جابر.

- وأخرجه البزار (٣/٦٠ - كشف) والطبراني في الكبير (١١/٢٨٤ رقم ١١٧٤٧) من حديث ابن عباس.

- وأخرجه البزار من حديث أنس نحوه وفي إسناده حديث أنس كذاب - كما في «مجمع الزوائد» (٧/٨٣).

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي يَوْمٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهَا فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ يعني الآيات التي بُيِّنَت في هذه السورة وأوضحت فيها الأحكام والحدود. وقرأ ابن عامر وحفص وحزمة والكسائي بالكسر في هذا وفي الطلاق^(١) لأنها واضحة تصدقها الكتب المتقدمة والعقول المستقيمة من بَيِّن بمعنى تبيين، أو لأنها بينت الأحكام والحدود. ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أو ومثلاً من أمثال من قبلكم أي وقصةً عجيبة مثل قصصهم، وهي قصة عائشة رضي الله تعالى عنها فإنها كقصة يوسف ومريم. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني ما وعظ به في تلك الآيات، وتخصيص المتقين لأنهم المتفعون بها، وقيل المراد بالآيات القرآن والصفات المذكورة صفاته.

(٣٥) ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور في الأصل كيفية تُدرِكها الباصرة أولاً وبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيران على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك: زيد كرم بمعنى ذو كرم، أو على تجوز إما بمعنى منور السموات والأرض، وقد قرئ به فإنه تعالى نورهما بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء، أو مدبرهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور، أو موجدُهما فإن النور ظاهرٌ بذاته مظهر لغيره وأصل الظهور هو الوجود كما أن أصل الخفاء هو العدم. والله سبحانه وتعالى موجود بذاته موجد لما عده، أو الذي به تُدرَك، أو يُدرَك أهلها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه، ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرِك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكات ليست لذاتها وإلا لما فارقته فهي إذن من سبب يُفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سُموا أنواراً، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه هادي من فيهما فهم بنوره يهتدون، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشرافه أو لاشتغالها على الأنوار الحسية والعقلية وقصور الإدراكات عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ صفة نوره العجيبة الشأن، وإضافته إلى ضميره سبحانه وتعالى دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره ﴿كَمِشْكَوَةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي الكوة الغير النافذة. وقرأ الكسائي برواية

الدوري^(١) بالإمالة. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراجٌ ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأنبوبة في وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة ﴿الْمِصْبَاحُ فِي نُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج ﴿الرَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء متلألئ كالزُّهرة في صفائه وزُهرته، منسوبٌ إلى الدُّرِّاءِ، وفُعِيل كُمُرَيْتٍ من الدرء فإنه يدفع الظلام بضوئه، أو بعضُ ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قُلبت همزته ياءً، ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي دريءٌ كشرِيب وقد قرئ به مقلوباً^(٢). ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي ابتداءً ثقب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت ذُبَالَتُهُ بزَيْتِهَا، وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم إبدال الزيتونة عنها تفخيماً لسانها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أوقد، وحمزة والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى الزجاجه بحذف المضاف، وقرئ تَوَقَّدَ من تتوقد، ويَوَقَّدُ بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين، بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتي تكون على قُلةٍ أو صحراء واسعة، فإن ثمرتها تكون أنضج وزيتها أصفى، أو لانبثاقها في شرق المعمورة وغربها بل في وسطها وهو الشام فإن زيتونه أجود الزيتون، أو لا في مضيئ تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها أو في مقناة تغيب عنها دائماً فتركها نيئاً وفي الحديث: «لا خير في شجرة ولا نبات في مقناة»^(٣) ولا خير فيهما في مضيئ^(٤) ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألأه وفرط وبيصه. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ نور متضاعف فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعته. وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دل عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيه للهدى من حيث إنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح، وإنما ولي الكاف المشكاة لاشتمالها عليه وتشبيهه به أوفق من تشبيهه بالشمس، أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبي: مثل نور المؤمن، أو تمثيل لما منح الله به عباده من القوى الدراكة الخمس المترتبة التي منوط بها المعاش والمعاد وهي: الحساسة التي تُدرك بها المحسوسات بالحواس الخمس، والخيالية التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائق الكلية والمفكرة وهي التي تولد المعقولات لتستنتج منها علم ما لم تعلم، والقوة القدسية التي تتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ

(١) الدوري: هو حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان بن عدي بن أبو عمر الدوري صهبان ويقال صهيب أبو عمر الدوري الأزدي البغدادي النحوي الدوري الضريز نزيل سامراء إمام القراءة وشيخ الناس في زمانه ثقة ثبت كبير ضابط أول من جمع القراءات ونسبته إلى الدور موضع ببغداد ومحلة بالجانب الشرقي.
قال الأهوازي رحل الدوري في طلب القراءات وقرأ سائر الحروف السبعة وبالشواذ. [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ ص ٢٥٥].

(٢) قوله قرئ به مقلوباً أي (دُرِّي).

(٣) المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١١٩ رقم ٨٥): لم أجده.

عِبَادَتًا^(١) بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي: المشكاة، والزجاجة، والمصباح، والشجرة، والزيت، فإن الحساسة كالمشكاة لأن محلها كالكَوَى ووجهها إلى الظاهر لا تُدرك ما وراءها، وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المُدْرَكَات من الجوانب وضبطها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشمل عليه من المعقولات، والعاقلة كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارف الإلهية، والمفكرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهاية لها الزيتون المثمرة بالزيت الذي هو مادة المصاييح التي لا تكون شرقية ولا غربية لتجودها عن اللواحق الجسمية، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفة في القبيلين منتفعة من الجانبين، والقوة القدسية كالزيت فإنها لصفاتها وشدة ذكاؤها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم، أو تمثيل للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدء أمرها خالية عن العلوم مستعدة لقبولها كالمشكاة؛ ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئيات بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلألئة في نفسها قابلة للأنوار، وذلك التمكن إن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتون وإن كان بالحدس فكالزيت وإن كان بقوة قدسية فكالتي يكاد زيتها يضيء لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحي والإلهام الذي مثله الناز من حيث إن العقول تشتعل عنه، ثم إذا حصلت لها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت كانت كالمصباح، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ لهذا النور الثاقب ﴿مَنْ يَشَأْ﴾ فإن الأسباب دون مشيئته لاغية إذ بها تمامها ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ إدناء للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً، وفيه وعد ووعد لمن تدبرها وإن لم يكثر بها.

(٣٦) ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت، أو توقد في بيوت فيكون تقييداً للممثل به بما يكون تحبيراً ومبالغة فيه فإن قناديل المساجد تكون أعظم، أو تمثيلاً لصلاة المؤمنين أو أبدانهم بالمساجد، ولا ينافي جمع البيوت وحدة المشكاة إذ المراد بها ماله هذا الوصف بلا اعتبار وخذة ولا كثرة. أو بما بعده^(٢) وهو يسبح، وفيها تكرير مؤكد، لا يذكّر لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله. أو بمحذوف مثل سبحوا في بيوت، والمراد بها المساجد لأن الصفة ثلاثتها. وقيل المساجد الثلاثة والتكبير للتعظيم ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم. ﴿وَيَذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ عامٌ فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ينزهونه أي يصلّون له فيها بالغدوات والعشيات، والغدوّ مصدرٌ أطلق للوقت، ولذلك حسن اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل. وقرئ والإيصال وهو الدخول في الأصيل، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يُسَبِّحُ بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه، وقرئ تسبح بالتاء مكسوراً لتأنيث الجمع، ومفتوحاً على إسناده إلى أوقات الغدو.

(١) الشورى: «٥٢».

(٢) قوله: أو بما بعده... أو بمحذوف هو معطوف على قوله: متعلق بما قبله.

رِجَالٌ لَا لُتْهِمَ بَحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٦)

(٣٧) ﴿رِجَالٌ لَا لُتْهِمَ بَحْرَةٌ﴾ لا تشغلهم معاملة رابحة ﴿وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ مبالغة بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعاوضة، أو بأفراد ما هو الأهم من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويتوقع بالشراء. وقيل المراد بالتجارة الشراء فإنه أصلها ومبدؤها. وقيل الجلب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجر في كذا إذا جلبه، وفيه إيماء بأنهم تجار^(١). ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ عوض فيه الإضافة من التاء المعوضة عن العين^(٢) الساقطة بالإعلال كقوله:

وَأَخْلَفُوكَ عِدَّ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدْتُمَا^(٣)

﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ ما يجب إخراجُه من المال للمستحقين ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ تضطرب وتتغير من الهول، أو تتقلب أحوالها فتفقه القلوب ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصره، أو تتقلب القلوب مع توقع النجاة وخوف الهلاك، والأبصار من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى بكتبهم.

(٣٨) ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بيسبح أو لا تلهمهم أو يخافون ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أحسن جزاء ما عملوا الموعود لهم من الجنة ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أشياء لم يعدهم بها على أعمالهم ولم تخطر ببالهم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير للزيادة وتنبية على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا بِقِيَعَةٍ﴾ والذين كفروا حالهم على ضد ذلك، فإن أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله يجدونها لاغية مخيبة في العاقبة كالسراب، وهو ما يرى في الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرّب أي يجري، والقيعة بمعنى القاع وهو الأرض الخالية عن النبات وغير المستوية، وقيل جمعه كجار وجيرة. وقرى بقيعات كديمات في ديمة ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ أي العطشان، وتخصيصه لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند ميسر الحاجة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ﴾ جاء ما توهمه ماء، أو موضعه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما ظنه ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ عقابه أو زبانيته أو وجده محاسباً إياه ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ استعراضاً أو مجازاة ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله

(١) وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها.

وإفراد البيع بالذكر - مع اندراجة تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن وربح ما عداه متوقع - (س ١٧٩/٦).

(٢) وهي الواو في الأصل (أقوام الصلاة) حذفت الواو وعوض عنها التاء (إقامة) وقوله عن الأمر أي عدة الأمر بمعنى وحده.

(٣) من البسيط.

حساب عن حساب. روي أنها نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية، تعبد في الجاهلية والتمس الدين، فلما جاء الإسلام كفر^(١).

أَوْ كُظِّلِمَتْ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ طُلُمْتُ بِعَظْمِهَا فَوْقَ بَعْضِ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۚ

(٤٠) ﴿أَوْ كُظِّلِمَتْ﴾ عطف على كسراب. وأو للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لُج البحر والأمواج والسحاب، أو للتنوع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحة فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ ذي لُج أي عميق منسوب إلى اللُج وهو معظم الماء ﴿يَغْشَاهُ الْبَحْرُ﴾ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ أي أمواج مترادفة متراكمة ﴿مِّنْ فَوْقِهِ﴾ من فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ غطى النجوم وحجب أنوارها، والجملة صفة أخرى للبحر ﴿طُلُمْتُ﴾ أي هذه ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وقرأ ابن كثير ظلمات بالجر على إبدالها من الأولى أو بإضافة السحاب إليها في رواية البزي^(٢) ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ﴾ وهي أقرب ما يرى إليه ﴿لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة^(٣):

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْدِرْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةٍ يَبْرَحُ

والضماير للواقع في البحر وإن لم يجر ذكره لدلالة المعنى عليه ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ ومن لم يقدّر له الهداية لم يوفقه لأسبابها. ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ خلاف الموفق الذي له نور على نور.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاق بالوحي أو الاستدلال ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ينزّه ذاته عن كل نقص وآفة أهل السموات والأرض، ومن لتغليب العقلاء، أو الملائكة والثقلان بما يدل عليه من مقال أو دلالة حال ﴿وَالطَّيْرِ﴾ على الأول تخصيص لما فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر ولذلك قيدها بقوله ﴿صَفَّتْ﴾ فإن إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجو بأسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره ﴿كُلُّ﴾ كل واحد مما ذكر أو من الطير ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي قد علم

(١) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٨٢/١٢) قال مقاتل: نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبدشمس.

(٢) البزي: أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة.

وقال الأهوازي أبو بزة الذي ينسب إليه البزي اسمه بشار فارس من أهل همدان أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي والبزة الشدة ومعنى أبو بزة أبو شدة ويقال إن نافعاً هو أبو بزة الإمام أبو الحسن البزي المكي مقرئ مكة ومؤذن الحرام ولد سنة سبعين ومائة استأذ محقق ضابط ومتن [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ ص ١١٩].

(٣) ذي الرمة: سبق ترجمته في سورة المؤمنون.

الله دعاءه وتزيهه اختياراً أو طبعاً لقوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أو عليم كل على تشبيه حاله في الدلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخصه بحال من علم ذلك مع أنه لا يبعد أن يلهم الله تعالى الطير دعاءً وتسييحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيُشها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء.

وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه الخالق لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنة واجبة الانتهاء إلى الواجب. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الجميع.

(٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِي سَحَابًا﴾ يسوقه، ومنه البضاعة المزجاة فإنه يُزجها كل أحد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ بأن يكون قرعاً فيضم بعضه إلى بعض، وبهذا الاعتبار صح (بينه) إذ المعنى بين أجزائه. وقرأ نافع برواية ورش يؤلف غير مهموز. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ﴾ من فتوقه، جمع خلل كجبال في جبل. وقرىء من خلله. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الغمام، وكل ما علاك فهو سماء ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾ من قطع عظام تشبه الجبال في عظمها أو جمودها ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال، والمفعول محذوف أي ينزل مبتدأ من السماء من جبال فيها من برد برداً، ويجوز أن تكون من الثانية أو الثالثة للتبعض واقعة موقع المفعول، وقيل المراد بالسماء المظلة، وفيها جبال من برد كما في الأرض جبال من حجر، وليس في العقل قاطع يمنعه، والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوي البرد هناك اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل برداً، وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً فينقبض وينعقد سحاباً ينزل منه المطر أو الثلج، وكل ذلك لا بد أن يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالتها وأوقاتها، وإليها أشار بقوله ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ والضمير للبرد ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ ضوء برقه. وقرىء بالمد بمعنى العلو، ويادغام الدال في السين، وبرقه بضم الباء وفتح الراء وهو جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة، وبضمها للإتباع. ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة^(١). وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد للضد من الضد. وقرىء يذهب على زيادة الباء.

(٤٤) ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور أو بما يعم ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما تقدم ذكره ﴿لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لدلالة

(١) وفي إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره، وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض (س/٦/١٨٥).

على وجود الصانع القديم، وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزهه على الحاجة وما يُفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة.

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ حيوان يدب على الأرض. وقرأ حمزة والكسائي خالط كل دابة بالإضافة ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ هو جزء مادته، أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة، وقيل من ماء متعلق بدابة وليس بصلة لخلق ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية وإنما سمي الزحف مشياً على الاستعارة أو المشاكلة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالثعالب والوحش، ويندرج فيه ماله أكثر من أربع كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع، وتذكير الضمير لتغليب العقلاء، والتعبير عن الأصناف ليوافق التفصيل الجملة، والترتيب لتقديم ما هو أعرف في القدرة ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطباع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته^(١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

(٤٦) ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبر لمعانيها ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام الموصول إلى درك الحق والفوز بالجنة.

(٤٧) ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ نزلت في بشر المنافق، خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوهم إلى النبي ﷺ^(٢). وقيل في مغيرة بن وائل خاصم علياً رضي الله عنه في أرض فأبى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ^(٣). ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعناهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ بالامتناع عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بعد قولهم هذا ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبهم، أو إلى الفريق منهم، وسلب الإيمان عنهم لتوليهم. والتعريف فيه للدلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفتهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه.

(٤٨) ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم النبي ﷺ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعو إليه،

(١) إظهار اسم الجلالة «الله» في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيدان بأنه من أحكام الألوهية (س/١٨٦/٦).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٢٧.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٩٣/١٢).

وَذَكِّرْ اللَّهَ لِعَظِيمِهِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى أَنْ حَكَمَهُ ﷺ فِي الْحَقِيقَةِ حَكَمُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فَاجَأَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ الْإِعْرَاضَ إِذَا كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ لَعَلِّهِمْ بِأَنْكَ لَا تَحْكُمَ لَهُمْ، وَهُوَ شَرْحٌ لِلتَّوَلَّى وَمُبَالَغَةٌ فِيهِ.

وَلَا يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أَمَرْتَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٩) ﴿وَلَا يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أَي الْحُكْمُ لَا عَلَيْهِمْ ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ مُنْقَادِينَ لَعَلِّهِمْ بِأَنَّهُ يَحْكُمُ لَهُمْ، وَإِلَيْهِ صَلََّةٌ لِّيَأْتُوا أَوْ لِمُذْعِنِينَ، وَتَقْدِيمُهُ لِلِاخْتِصَاصِ.

(٥٠) ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ كُفْرٌ أَوْ مَيْلٌ إِلَى الظُّلْمِ ﴿أَمْ ارْتَابُوا﴾ بَأَنَّ رَأَا مِنْكَ تُهْمَةٌ فَرَال يَقِينُهُمْ وَثَقْتُهُمْ بِكَ. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ فِي الْحُكُومَةِ ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إِضْرَابٌ عَنِ الْقِسْمِينَ الْآخِرِينَ لِتَحْقِيقِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَوَجْهُ التَّقْسِيمِ أَنَّ امْتِنَاعَهُمْ إِمَّا لَخَلَلٍ فِيهِمْ أَوْ فِي الْحَاكِمِ، وَالثَّانِي إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُحَقَّقًا عَنْدهُمْ أَوْ مُتَوَقَّعًا وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ، لِأَنَّ مَنْصِبَ نُبُوته وَفَرْطَ أَمَانَتِهِ ﷺ يَمْنَعُهُ فَتَعِينَ الْأَوَّلِ، وَظُلْمُهُمْ يَمَعُ خَلَلٌ عَقِيدَتُهُمْ وَمَيْلٌ نَفُوسِهِمْ إِلَى الْحِيْفِ، وَالْفَصْلُ لِنَفِي ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِمْ سِيَمَا الْمَدْعُوِّ إِلَى حُكْمِهِ.

(٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ عَلَى عَادَتِهِ تَعَالَى فِي اتِّبَاعِ ذِكْرِ الْمُحَقِّ الْمَبْطُلِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى مَا يَنْبَغِي بَعْدَ إِنْكَارِهِ لِمَا لَا يَنْبَغِي، وَقَرَأَ قَوْلٌ بِالرَّفْعِ، وَلِيُحْكَمَ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى ضَمِيرِ مَصْدَرِهِ عَلَى مَعْنَى لِيَفْعَلَ الْحُكْمَ.

(٥٢) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِيمَا يَأْمُرُهُ، أَوْ فِي الْفَرَائِضِ وَالسَّنَنِ ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ عَلَى مَا صَدَرَ عَنْهُ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عَمَرِهِ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ وَقَالُونَ عَنْ نَافِعٍ بِلَا يَاءٍ ^(١)، وَأَبُو بَكْرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِسُكُونِ الْهَاءِ ^(٢)، وَحَفْصٌ بِسُكُونِ الْقَافِ فَشَبَّهَ تَقَهُ بِكَتْفٍ وَخَفَفَ، وَالْهَاءُ سَاكِنَةٌ فِي الْوَقْفِ بِالْإِتِّفَاقِ. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بِالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ.

(٥٣) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إِنْكَارٌ لِلْامْتِنَاعِ عَنْ حُكْمِهِ ﴿لَنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ الْخُرُوجَ عَنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿لِيَخْرُجُنَّ﴾ جَوَابٌ لِأَقْسَمُوا عَلَى الْحِكَايَةِ. ﴿قُلْ لَا تُفْسِمُوا﴾ عَلَى الْكُذْبِ. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أَي الْمَطْلُوبُ مِنْكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ لَا الْيَمِينُ عَلَى الطَّاعَةِ النِّفَاقِيَةِ الْمُنْكَرَةِ، أَوْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ أَمْثَلُ مِنْهَا، أَوْ لَتَكُنْ طَاعَةٌ. وَقُرِئَتْ بِالنَّصْبِ عَلَى: أَطِيعُوا طَاعَةً ^(٣). ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ سِرَاتُكُمْ.

(١) قوله بلا ياء أي بلا إشباع للهاء بالياء، مع كسر القاف.

(٢) مع كسر القاف أيضاً.

(٣) التعبير عن الطاعة بأنها معروفة للإيدان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد (س/٦/١٨٩).

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمَيْتِ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۚ

(٥٤) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغة في تبييتهم (١) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من التبليغ. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمَيْتِ﴾ التبلغ الامثال (٢). ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ في حكمه. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمَيْتِ﴾ التبلغ الموضح لما كُلفتم به، وقد أدى، وإنما بقي ما حملتم فإن أديتم فلكم وإن توليتم فعليكم.

(٥٥) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خطاب للرسول ﷺ وللأمة، أزل له ولمن معه، ومن للبيان (٣) ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ليجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم. وهو جواب قسم مضمير تقديره وعدهم الله وأقسم ليعملهم، أو الوعد في تحققه منزل منزلة القسم. ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيل استخلفهم في مصر والشام بعد الجبابرة. وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام، وإذا ابتداء ضم الألف والباقيون بفتحهما وإذا ابتدؤا كسروا الألف. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت (٤). ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ من الأعداء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف. ﴿أَمْنًا﴾ منهم. وكان رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يُصبحون في السلاح ويُمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعود والموعود عليه لغيرهم بالإجماع. وقيل الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة. ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حال من الذين لتقييد التوعد بالثبات على التوحيد، أو استئناف ببيان المقضي للاستخلاف والأمن. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومن ارتد أو كفر هذه النعمة. ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد الوعد أو حصول الخلافة. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمة العظيمة.

(١) كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به، والإشعار باختلافهما من حيث إن المقول في الأول نهي بطريق الرد والتفريع وفي الثاني أمر بطريق التكليف والتشريع (س/٦/١٨٩).

(٢) ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه مؤنة باقية في عهدتهم بعد (س/٦/١٨٩).

(٣) توسيط الظرف (منكم) بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم (س/٦/١٩٠).

(٤) وتقديم (لهم) على المفعول الصريح (دينهم) للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقاً إليه وترغيباً لهم في قبوله عند ورود (س/٦/١٩١).

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارٌ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَسْتَفْزِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوُّفَاتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به، ولا يبعد عطف ذلك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعدٌ على المأمور به، فيكون تكرير الأمر بطاعة الرسول ﷺ للتأكيد وتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كما علق به الهدى.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفار معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم، و(في الأرض) صلة معجزين. وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على أن الضمير فيه لمحمد ﷺ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء، أو الذين كفروا فاعل، والمعنى ولا يحسبن الكفار في الأرض أحداً معجزاً لله، فيكون معجزين في الأرض مفعوليه، أو لا يحسبونهم معجزين، فحذف المفعول الأول لأن الفاعل والمفعولين لشيء واحد فاكْتَفَى بذكر اثنين عن الثالث. ﴿وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارٌ﴾ عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين وماوهم النار، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيق نفي الإعجاز. ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ المأوى الذي يصيرون إليه.

(٥٨) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَسْتَفْزِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ رجوع إلى تمتة الأحكام السالفة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها والوعيد عليها والوعيد على الإعراض عنها. والمراد به خطاب الرجال والنساء، غلب فيه الرجال، لما روي أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت^(١). وقيل أرسل رسول الله ﷺ مدلج بن عمرو الأنصاري^(٢) وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعو عمر، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لو ددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدماًنا أن لا يدخلوا هذه الساعات علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت هذه الآية^(٣). ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ والصبيان الذين لم

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ٣٢٩ عن مقاتل.

(٢) هو مدلج الأنصاري بعثه النبي ﷺ في شغل إلى عمر إن صح ذلك. (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (٢/٦٦ رقم ٧٢٤).

(٣) أخرجه ابن منده من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس - كما في «الإصابة» =

يَلْبَسُوا مِنَ الْأَحْرَارِ، فَعَبْرٌ عَنِ الْبُلُوغِ بِالْإِحْتِلَامِ لِأَنَّهُ أَقْوَى دَلَالَتُهُ. ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. مَرَّةً ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لِأَنَّهُ وَقْتُ الْقِيَامِ مِنَ الْمَضَاجِعِ وَطَرَحِ ثِيَابِ النَّوْمِ وَلِبْسِ ثِيَابِ الْبِقَظَةِ. وَمَحَلُّهُ النَّصَبُ بَدَلًا مِنْ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَوْ الرَّفْعُ خَبَرًا لِمَحْذُوفٍ أَيْ هِيَ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ ثِيَابَكُمْ لِلْبِقَظَةِ لِلْقِيلُولَةِ. ﴿مِنْ الظَّهْرِ﴾ بَيَانٌ لِلْحِينَ ^(١). ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لِأَنَّهُ وَقْتُ التَّجَرُّدِ عَنِ اللَّبَاسِ وَالِاتِّحَافِ بِاللِّحَافِ. ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ أَيْ هِيَ ثَلَاثُ أَوْقَاتٍ يَخْتَلِفُ فِيهَا تَسْتُرُكُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ مَا بَعْدَهُ، وَأَصْلُ الْعَوْرَةِ الْخَلْلُ وَمِنْهَا أَعْوُرُ أَنْ مَكَانَ وَرَجُلٍ أَعْوُرَ. وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ وَحُمَزَةُ وَالْكَسَائِيُّ ثَلَاثَ بِالنَّصَبِ بَدَلًا مِنْ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدُهَا﴾ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ فِي تَرْكِ الِاسْتِثْنَاءِ. وَلَيْسَ فِيهِ مَا يَنْفِي آيَةَ الِاسْتِثْنَاءِ فَيَنْسَخُهَا لِأَنَّهُ فِي الصَّبِيَّانِ وَمَمَالِكِ الْمَدْخُولِ عَلَيْهِ، وَتِلْكَ فِي الْأَحْرَارِ الْبَالِغِينَ. ﴿طَوَّفُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ هُمْ طَوَافُونَ، اسْتِثْنَاءٌ بِبَيَانِ الْعَذْرِ الْمُرْخَصِ فِي تَرْكِ الِاسْتِثْنَاءِ وَهُوَ الْمَخَالَطَةُ وَكَثْرَةُ الْمَدَاخِلَةِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَعْلِيلِ الْأَحْكَامِ، وَكَذَا فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ وَغَيْرِهَا بِأَنَّهَا عَوْرَاتٌ. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بَعْضُكُمْ طَائِفٌ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَطُوفُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ. ﴿كَذَلِكَ﴾ مِثْلُ ذَلِكَ التَّبْيِينِ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أَيْ الْأَحْكَامِ. ﴿وَاللَّهُ بِأَحْوَالِكُمْ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا شَرَعَ لَكُمْ.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الَّذِينَ بَلَغُوا مِنْ قَبْلِهِمْ فِي الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا، وَاسْتَدَلَّ بِهِ مِنْ أَوْجِبِ اسْتِثْنَاءِ الْعَبْدِ الْبَالِغِ عَلَى سَيِّدَتِهِ، وَجَوَائِهُ أَنْ الْمُرَادَ بِهِمُ الْمَعْهُودُونَ الَّذِينَ جُعِلُوا قَسِيمًا لِلْمَمَالِكِ فَلَا يَنْدَرِجُونَ فِيهِمْ. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا وَمِبَالِغَةً فِي الْأَمْرِ بِالِاسْتِثْنَاءِ.

(٦٠) ﴿وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الْعَجَائِزُ اللَّاتِي قَعَدْنَ عَنِ الْحَيْضِ وَالْحَمْلِ. ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لَا يَطْمَعْنَ فِيهِ لِكِبَرِهِنَّ. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أَيْ الثِّيَابُ الظَّاهِرَةُ كَالْجِلْبَابِ، وَالْفَاءُ فِيهِ لِأَنَّ اللَّامَ فِي الْقَوَاعِدِ بِمَعْنَى اللَّاتِي أَوْ لَوْصَفَهَا بِهَا. ﴿غَيْرَ مُتَّبِعَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ غَيْرَ مَظْهَرَاتٍ زِينَةً مِمَّا أُمِرْنَ بِإِخْفَائِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ^(٢). وَأَصْلُ التَّبَرُّجِ التَّكَلُّفُ فِي إِظْهَارِ مَا يَخْفَى مِنْ قَوْلِهِمْ: سَفِينَةٌ بَارِجَةٌ لَا غَطَاءَ عَلَيْهَا، وَالتَّبَرُّجُ سَعَةُ الْعَيْنِ بِحَيْثُ يُرَى بَيَاضُهَا مُحِيطًا بِسَوَادِهَا كُلِّهِ لَا يَغِيبُ مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا أَنَّهُ خُصَّ بِتَكْشِفِ الْمَرْأَةِ زِينَتَهَا وَمَحَاسِنَهَا لِلرِّجَالِ. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ مِنَ الْوَضْعِ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ التَّهْمَةِ. ﴿وَاللَّهُ سَكِينٌ﴾ لِمَقَالَتِهِنَّ لِلرِّجَالِ. ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَقْصُودِهِنَّ.

(٣/٣٩٥) .. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ٣٢٩ عن ابن عباس.

وهو حديث باطل إسناده مظلم.

(١) والتصريح بوضع الثياب في هذا الوقت دون الأول (قبل الفجر). والآخر (بعد العشاء) لقلة زمان القيلولة ولكثرة الورد والصدور، فهو مظنة لظهور الأحوال. أما الوقتين الآخرين فالتجرد فيه أمر معروف ولا يحتاج للتصريح به (س ٦/١٩٣).

(٢) النور: ٣١.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا الْإِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفى لما كانوا يتخرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم، أو أكلهم من بيت من يدفع إليهم المفتاح ويبيع لهم التبسط فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافة أن لا يكون ذلك من طيب قلب، أو من إجابة من دعوهم إلى بيوت آبائهم وأولادهم وأقاربهم فيقطعونهم كراهة أن يكونوا كلاً عليهم، وهذا إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة، أو كان في أول الإسلام ثم نسخ بنحو قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾^(١). وقيل نفى للخرج عنهم في القعود عن الجهاد، وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده. ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكُم، فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيتته لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»^(٢)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن أطيب ما يأكل المؤمن من كسبه، وإن ولده من كسبه»^(٣). ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

(١) الأحزاب: (٥٣).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢/٧٦٩ رقم ٢٢٩١) من حديث جابر.

- قال البوصيري في «مصابح الزجاجة» (٢/٢٥ رقم ٨١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط البخاري وله شاهد من حديث عائشة، رواه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه. ورواه أبو داود - (٣/٨٠١ رقم ٣٥٣٠) - وابن ماجة - (٢/٧٦٩ رقم ٢٢٩٢) - من حديث عبدالله بن عمرو» هـ.

ووافقه الألباني على تصحيحه في الإرواء رقم (٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/٨٠٠، ٨٠١ رقم ٣٥٢٨، ٣٥٢٩) والترمذي (٣/٦٣٩ رقم ١٣٥٨) والنسائي (٧/٢٤٠ - ٢٤١ رقم ٤٤٤٩ و ٤٤٥٠) وابن ماجة (٢/٧٦٩ رقم ٢٢٩٠) وابن حبان (ص ٢٦٨ رقم ١٠٩١ - موارد) والحاكم (٢/٤٦) وعبدالرزاق في «المصنف» (٩/١٣٣) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/١٥٨) وأحمد في المسند (٦/٣١، ٤١، ١٢٧، ١٦٢، ١٧٣، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٠) والدارمي (٢/٢٤٧) والطالسي في مسنده (ص ٢٢١).

كلهم من طريق عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة. إلا أن في إحدى روايتي أبي داود (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (٦/٢٠٢) عن أمه بدل عمته. وفي إحدى روايتي ابن أبي شيبة. والحاكم (أبيه) وكان في أصل المصنف (أبيه) فجعله المحقق (أمه) من السنن الكبرى. قال الألباني في الإرواء (٣/٣٣٠): =

أَعْمَيْكُمْ أَوْ بُيُوتٌ عَمَّكُمْ أَوْ بُيُوتٌ أَخْوَلَكُمْ أَوْ بُيُوتٌ خَلَّتْكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴿١﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضيعة أو ماشية وكالة أو حفظاً، وقيل بيوت الممالك. والمفاتيح جمع مَفْتَح وهو ما يفتح به، وقرئ مِفْتَاحَهُ. ﴿أَوْ صَدِيقُكُمْ﴾ أو بيوت صديقكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسُرُّ به، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة، ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسط بينهم، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطع بسرقة مال المخرم. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يخرجون أن يأكل الرجل وحده^(١)، أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه^(٢)، أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطباع في القذارة والنهمة^(٣). ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة. ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثابتة بأمره مشروعة من لُذنه، ويجوز أن تكون من صلة للتحية فإنه طلب الحياة وهي من عنده تعالى، وانتصابها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم. ﴿مُبْرَكَةٌ﴾ لأنها يرجى بها زيادة الخير والثواب. ﴿طَيِّبَةٌ﴾ تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي: «متى لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين»^(٤). ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ كرره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختمة به، وفصل الأولين بما هو المقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي الحق والخير في الأمور.

(٦٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من صميم قلوبهم. ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور، ووصف الأمر بالجمع للمبالغة. وقرئ أمر جميع ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذن لهم، واعتباره في كمال الإيمان لأنه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فإن ديدنه التسلل والفرار، ولتعظم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، ولذلك أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وأن

= ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عمة عمارة فلم أعرفها.

● وله سند آخر أخرجه النسائي (٢٤١/٧) رقم ٤٤٥١ و٤٥٥٢ وابن ماجه (٧٢٣/٢) رقم ٢١٣٧ وأحمد

(٢٢٠، ٤٢/٦) كلهم من طريق الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة.

قال الألباني في الإرواء (٣٣٠/٣) إسناده صحيح.

والخلاصة أن الحديث صحيح. والله أعلم.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٣٠.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٣١.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٣١.

(٤) أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص ٤٥٢ - ٤٥٣ رقم ٨٨٣) بسند ضعيف.

وانظر «الكافي الشاف» (ص ١٢٠ رقم ٩١).

الذهاب بغير إذن ليس كذلك. ﴿فَإِذَا اسْتَعْذَرْتُكَ لِعِصْيَانِهِمْ﴾ ما يعرض لهم من المهام، وفيه أيضاً مبالغة وتضييق الأمر ﴿فَإِذَا لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويض للأمر إلى رأي الرسول ﷺ، واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه، ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن تكون تابعة لعلمه بصدقه فكان المعنى: فائذن لمن علمت أن له عذراً. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفرطات العباد. ﴿رَحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم.

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٦٤

(٦٣) ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ لا تقيسوا دعاءه بإياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبة والمراجعة بغير إذنه محرمة. وقيل لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداء من وراء الحجرات ولكن بقلبه المعظم مثل يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجب، أو لا تجعلوا دعاءه ربّه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب. ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ﴾ ينسلون قليلاً قليلاً من الجماعة، ونظير تسلل تدرج وتدخل ﴿لَوْ آذًا﴾ يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذن له فينطلق معه كأنه تابعه. وانتصابه على الحال. وقرئ بالفتح^(١). ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سبباً خلاف ستمته، وعن لتضمينه معنى الإعراض. أو يصدّون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه، وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه، والضمير لله تعالى، فإن الأمر له في الحقيقة، أو للرسول فإنه المقصود بالذكر. ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. واستدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتضى لأحد العذابين، فإن الأمر بالحدز عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب^(٢).

(٦٤) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص، وأنما أكد علمه بقدر لتأكيد الوعيد ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجع المنافقون إليه

(١) أي بفتح اللام.

(٢) وإعادة الفعل صريحاً «يصيبهم» للاعتناء بالتهديد والتحذير (س/٦/١٩٩).

للجزاء، ويجوز أن يكون الخطابُ أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الالتفات. وقرأ يعقوبُ بفتح الياء وكسر الجيم. ﴿فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه. ﴿وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشرَ حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران. [«الكافي الشاف» (ص ١٢١ رقم ٩٢)].

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا

نُشُورًا ﴿٣﴾

سورة الفرقان مكية^(١) وآيها سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ تكاثر خيرُهُ، من البركة وهي كثرة الخير، أو تزايد على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، فإن البركة تتضمن معنى الزيادة، وترتيبه عن إنزاله الفرقان لما فيه من كثرة الخير أو لدلالته على تعاليه. وقيل دام، من بروتك الطير على الماء ومنه البركة لدوام الماء فيها، وهو لا يتصرف فيه ولا يستعمل إلا الله تعالى. والفرقان مصدرُ فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما سُمِّيَ به القرآن لفصله بين الحق والباطل بتقريره، أو الموحِّ والمبطل بإعجازه، أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في الإنزال. وقرئ على عباده وهم رسولُ الله ﷺ وأُمَّته كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ﴾^(٢) أو الأنبياء على أن الفرقان اسمُ جنس للكتب السماوية. ﴿يَكُونُ﴾ العبدُ أو الفرقان

(١) مكية السورة واضحة من موضوعها وأسلوبها، وهذا يتفق مع قول الجمهور.

انظر «زاد المسير» (٧١/٦) و«الدر المنثور» (٢٣٤/٦) و«الجامع لأحكام القرآن» (١/١٣) و«البحر المحيط» (٤٨٠/٦).

(٢) النور: «٣٤».

﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار، هذه الجملة وإن لم تكن معلومة لكنها لقوة دليلها أجريت مجرى المعلوم وجعلت صلة^(١).

(٢) ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوع أو منصوب ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كقول الشنوية. أثبت له الملك مطلقاً ونفى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أحدثه إحداثاً مُراعِياً فيه التقدير حسب إرادته كخَلَقَ الإنسان من موادَّ مخصوصة وصور وأشكال معينة ﴿فَقَدَرُ نَقِيرٌ﴾ فقدره وهياه لما أراد منه من الخصائص والأفعال، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير، واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك، أو فقدّره للبقاء إلى أجل مسمى. وقد يُطلق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدّره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً.

(٣) ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ لما تضمن الكلام إثبات التوحيد والنبوة أخذ في الرد على المخالفين فيهما. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن عبديتهم ينحتونهم ويصورونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ دفع ضرر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ ولا جلب نفع^(٣) ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُوا﴾ ولا يملكون إماتة أحد وإحياءه أولاً وبغثة ثانياً، ومن كان كذلك فمعزل عن الألوهية لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها، وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۖ وَقَالُوا
أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ

(٤) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ﴾ كذب مصروف عن وجهه ﴿افْتَرَاهُ﴾ اختلقه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبر عنها بعبارته، وقيل جبر ويسار وعداس وقد سبق في قوله ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾^(٤) ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا﴾ بجعل الكلام المعجز إفكاً مختلقاً متلفاً من اليهود ﴿وَزُورًا﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه. وأتى وجاء يُطلقان بمعنى فعل فيُعَذِّبان تغديته.

(٥) ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ماسطره المتقدمون ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها. وقرئ على البناء للمفعول لأنه أُمِّيٌّ، وأصله اكتتبها كاتب له، فحذف اللام وأضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب، ثم حذف الفاعل وبني الفعل للضمير فاستتر فيه ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ليحفظها، فإنه أُمِّيٌّ لا يقدر أن يكرر من الكتاب، أو ليُكتب.

(١) وعدم التعرض للتبشير لانسحاق الكلام على أحوال الكفرة (س/٦/٢٠٠).

(٢) ونظمه في سلك الصلة للإيدان بأن مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل، لا سيما بعد تقرير ما قبله (س/٢/٢٠١).

(٣) وتقدير ذكر الضر لأن دفعه - مع كونه أهم في نفسه - أول مراتب النفع وأقدمها (س/٦/٢٠٢).

(٤) النحل: ١٠٣.

قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

(٦) ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه أعجزكم عن أحركم بفصاحته وتضمنه أخباراً عن مغيبات مستقبلية وأشياء مكنونة لا يعلمها إلا عالم الأسرار فكيف تجعلونه أساطير الأولين. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فلذلك لا يعجل في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم أن يضرب عليكم العذاب صباً.

(٧) ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ ما لهذا الذي يزعم الرسالة، وفيه استهانة وتهكم ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لطلب المعاش كما نمشي، والمعنى إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا، وذلك لِعَمَهُمْ وقصور نظرهم على المحسوسات، فإن تميز الرسل عن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأحوال نفسانية كما أشار إليه تعالى بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾^(١). ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ لنعلم صدقه بتصديق الملك.

(٨) ﴿أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ فيستظهر به ويستغني عن تحصيل المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ هذا على سبيل التنزل أي إن لم يلقَ إليه كنز فلا أقل من أن يكون له بستان كما للدهاقين والياسير^(٢) فيتعيش برزعه. وقرأ حمزة والكسائي بالنون، والضمير للكفار ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظالمون موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ سحر فغلب على عقله. وقيل ذا سحر وهو الرنة، أي بشراً لا ملكاً.

(٩) ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل﴾ أي قالوا فيك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة. ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الطريق الموصل إلى معرفة خواص النبي والمميز بينه وبين المتنبي فخبطوا خبط عشواء ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى القدح في نبوتك أو إلى الرشد والهدى.

(١٠) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ مما قالوا، لكن أخره إلى الآخرة لأنه خير وأبقى^(٣) ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بدل من خيراً ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ عطف على محل الجزاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع، لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جزائه الجزم

(١) الكهف: «١١٠».

(٢) الدهاقين: كلمة معربة وتطلق على رئيس القرية وعلى التاجر وعلى من له مال وعقار (المصباح المنير «دُهقان»).

والياسير: هم أصحاب السعة والمال وضده المعاسير.

(٣) وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيدان بأن عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحكيم والمصالح (س ٢٠٥/٦).

والرفع كقوله:

وَإِنْ أَنَاءُ خَلِيلٍ يَوْمَ مَسْعَاةٍ يَقُولُ لَا غَائِبَ مَالِي وَلَا حَرَمٌ^(١)
 ويجوز أن يكون استئنافاً بوعده ما يكون له في الآخرة. وقرئ بالنصب على أنه جواب بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا
 وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

(١١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ فقُصِرَتْ أنظارُهُم على الحُطَامِ الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فطعنوا فيك لفقرك، أو فلذلك كذبوك لا لما تمحلوا من المطاعن الفاسدة، أو فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة، أو فلا تعجب من تكذيبهم إياك فإنه أعجب منه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الاستعار، وقيل هو اسمٌ لجَهَنَّمَ فيكون صرفه باعتبار المكان.

(١٢) ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ إذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه السلام: «لا تترأى ناراهما»^(٢) أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز، والتأنيث لأنه بمعنى النار أو جهنم^(٣) ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يُرى منه ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا﴾ صوتَ تغيط، شبه صوتَ غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوتٌ يُسمع من جوفه، هذا وإن الحياة لما لم تكن مشروطةً عندنا بالبُنية أمكن أن يخلق الله فيها حياةً فترى وتتغيظ وتزفرُ وقيل إن ذلك لزبانيتها فُنسب إليها على حذف المضاف.

(١) من البسيط.

(٢) أخرج الترمذي (٤/١٥٥ رقم ١٦٠٤) وأبو داود (٣/١٠٤ رقم ٢٦٤٥) والنسائي (٨/٣٦ رقم ٤٧٨٠) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم، فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأمر لهم بنصف العقل، وقال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: «لا تراءى ناراهما».

ورجال إسناده ثقات، ولكن البخاري، وأبو حاتم، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم. قال الترمذي: وهذا أصح، يعني المرسل، وقال: سمعت محمداً - أي البخاري - يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل.

والخلاصة أن الحديث صحيح دون جملة العقل. انظر الإرواء رقم (١٢٠٧).

● لا تراءى ناراهما: أن لا يكون كل واحد منهما بحيث يرى نَارَ صاحبه، فجعل الرؤية للنار ولا رؤية لها، يعني: أن تَدْنُو هذه من هذه، يقال: داري تنظر إلى دار فلان، أي: تقابلها. وقيل: معناه: أنه أراد نار الحرب، يقول: ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف تتفقان؟ وكيف يُساكنهم في بلادهم وهذه حال هؤلاء.

وهذه حال هؤلاء؟ [جامع الأصول (٤/٤٤٦)].

(٣) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيدان بأن التغيط والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم (س/٦/٢٠٦).

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا﴾ في مكان، ومنها بيان تقدم فصار حالاً ﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادة العذاب فإن الكرب مع الضيق والروح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها كعرض السموات والأرض ﴿مُقَرَّنَيْنِ﴾ قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً، أي يتمنون الهلاك وينادونه فيقولون تعال يا ثبؤراة فهذا حيثك .

(١٤) ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ أي يقال لهم ذلك ^(١) ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لأن عذابكم أنواع كثيرة، كل نوع منها ثبورٌ لشدة، أو لأنه يتجدد لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ^(٢) أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبورٌ.

(١٥) ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الإشارة إلى العذاب، والاستفهام والتفضيل والترديد للتقريع مع التهكم، أو إلى الكثر والجنة، والراجع إلى الموصول محذوف، وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح أو للدلالة على خلودها، أو التمييز عن جنات الدنيا ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله أو اللوح، أو لأن ما وعده الله تعالى في تحققه كالواقع ﴿جَزَاءً﴾ على أعمالهم بالوعد ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلبون إليه، ولا يمنع كونها جزاء لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم مع جواز أن يراد بالمتقين من يتقي الكفر والتكذيب لأنهم في مقابلتهم.

(١٦) ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ما يشاؤون من النعيم، ولعله تقصير همم كل طائفة على ما يليق برتبته، إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك شأواً الكامل بالشهي، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من أحد ضمائرهم ﴿كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا﴾ الضمير في كان لما يشاؤون، والوعد الموعود أي كان ذلك موعوداً حقيقاً بأن يسأل ويطلب، أو مسؤولاً سأله الناس في دعائهم ﴿رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ ^(٣) أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم، وما في (على) من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالى، ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز، فإن تعلق الإرادة بالوعود مقدم على الوعد الموجب للإنجاز.

(١٧) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء. وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالياء ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعبد كل معبود سواه تعالى، واستعمال (ما) إما لأن وضعه أعم ولذلك يطلق

(١) وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفطيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة (س/٦/٢٠٧).

(٢) النساء: ٥٦١.

(٣) آل عمران: ١٩٤.

لكل شبح يُرى ولا يُعرف، أو لأنه أريد به الوصفُ كأنه قیل ومعبودُهم، أو لتغليب الأصنام تحقيراً، أو اعتبار الغلبة عبادةً، أو يخص الملائكة وعزيراً والمسيح بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنام يُنطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب. وقرأ ابن عامر بالنون ﴿وَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح، وهو استفهامٌ تقريع وتبكيت للعبدة، وأصله أضللتهم أو ضلوا فغير النظم ليلي حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب، وحذف صلة الضل مبالغة.

قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ تعجباً مما قيل لهم لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء. أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسييحه وتوحيده فكيف يليق بهم إضلال عبيده. أو تنزيهاً لله تعالى عن الأنداد ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ ما يصح لنا ﴿أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ للعصمة، أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحداً دونك. وقرئ نَتَّخِذُ على البناء للمفعول، من اتخذ الذي له مفعولان كقوله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١) ومفعوله الثاني من أولياء. ومن للتبعيض، وعلى الأول مزيدة لتأكيد النفي ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ﴾ بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم، وإسناداً له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه، وهو عين ما ذهبنا إليه فلا ينتهز حجة علينا للمعتزلة ﴿وَكَانُوا﴾ في قضائك ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين، مصدرٌ وُصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمع بائر كعائذ وعوذ.

(١٩) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ التفات إلى العبدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول، والمعنى فقد كذبكم المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ في قولكم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلوناو والباء بمعنى في، أو مع المجرور بدل من الضمير. وعن ابن كثير بالياء أي كذبوكم بقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي المعبودون، وقرأ حفص بالتاء على خطاب العابدين ﴿صَرْفًا﴾ دفعاً للعذاب عنكم، وقيل حيلة من قولهم إنه ليتصرف أي يحتال ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ يُعينكم عليه ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هي النار. والشرط وإن عم كل من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيدٌ بعدم المزاحم وفاقاً، وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْبًا مُنْجُوًّا ﴿٢٢﴾

(٢٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي إلا رسلاً إنهم فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه كقوله تعالى ﴿وَمَا يَأْتِي إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾^(١)، ويجوز أن تكون حالاً اكتفي فيها بالضمير وهو جواب لقولهم ﴿مَا لِي هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٢). وقرئ يَمْشُونَ أي يمشيهم حوائجهم أو الناس ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ابتلاء، ومن ذلك ابتلاء الفقراء بالأغنياء، والمرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم، وهو تسلية لرسول الله ﷺ على ما قالوه بعد نقضه، وفيه دليل على القضاء والقدر ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علة للجعل، والمعنى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة لنعلم أيكم يصبر، ونظيره قوله تعالى ﴿يَلْبِسُكُمْ أَكْبَرُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٣) أو حث على الصبر على ما افتتنوا به ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن يصبر، أو بالصواب فيما يتبلى به وغيره.

(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ بالخير لكفرهم بالبعث، أو لا يخافون لقاءنا بالشر على لغة تهمامة، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء، ومنه الرؤية فإنه وصول إلى المرئي، والمراد به الوصول إلى جزائه، ويمكن أن يراد به الرؤية على الأول ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فتخبرنا بصدق محمد ﷺ، وقيل فيكونوا رسلاً إلينا ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيأمرنا بتصديقه واتباعه ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق لأفراد من الأنبياء الذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك ﴿وَعَتَوْا﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات القاهرة فأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة ما سدّت دونه مطامع النفوس القدسية، واللام جواب قسم محذوف، وفي الاستئناف بالجملة حسن وإشعاراً بالتعجب من استكبارهم وعُتُوهم كقوله:

وَجَارُهُ جَسَّاسٍ أَبْنَا بَنَاهَا كَلْبِيًّا غَلَتْ نَابَ كُلَّيْبٍ بَاوَاهَا

(٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ ملائكة الموت أو العذاب، ويوم تُصب باذكُر أو بما دل عليه^(٤) ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه بمعنى يُمنعون البشري أو

(١) الصافات: ١٦٤.

(٢) الفرقان: ٧.

(٣) الملك: ٢١.

(٤) وإنما قيل «يوم يَرَوْنَ» دون أن يقال يوم ينزل الملائكة إيذاناً من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه، بل على وجه آخر غير معهود (س/٢١١/٦).

يَعْدَمُونَهَا^(١)، ويومئذ تكرر أو خبر، وللمجرمين تبين أو خبر ثان أو ظرف لما يتعلق به اللام، أو لبشرى إن قدرت منونة غير مبنية مع لا فإنها لا تعمل. وللمجرمين إما عام يتناول حكمه حكمهم من طريق البرهان ولا يلزم عن نفي البشرى لعامة المجرمين حينئذ نفي البشرى بالعفو والشفاعة في وقت آخر، وإما خاص وضع موضع ضميرهم تسجيلاً على جرمهم وإشعاراً بما هو المانع للبشرى والموجب لما يقابلها ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾ عطف على المدلول أي ويقول الكفرة حينئذ هذه الكلمة استعاذة وطلباً من الله تعالى أن يمنع لقاءهم وهي مما كانوا يقولون عند لقاء عدو أو هجوم مكروه، أو تقولها الملائكة بمعنى حراماً محرماً عليكم الجنة أو البشرى. وقرئ حُجراً بالضم وأصله الفتح، غير أنه لما اختص بموضع مخصوص غير كَقَعْدَكَ وَعَمْرَكَ، ولذلك لا يتصرف فيه ولا يظهر ناصبه، ووصفه بمحجور للتأكيد كقولهم موتٌ مات.

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشْهَقُ السَّمَاءُ بِالدَّمِيمِ وَزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أي وعمدنا. إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم كقري الضيف وصله الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرط اعتباره، وهو تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا على سلطانهم فقدم إلى أشياءهم فمزقها وأبطلها ولم يبق لها أثراً. والهباء غبار يرى في شعاع يطلع من الكوة، من الهبة وهي الغبار، ومنثوراً صفته، شبه عملهم المحبط بالهباء في حقارته وعدم نفعه، ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمه أو تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوها، أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر كقوله تعالى ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(٢).

(٢٤) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ مكاناً يستقر فيه في أكثر الأوقات للتجالس والتحدث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يؤوى إليه للاسترواح بالأزواج والتمتع بهن، تجوزاً له من مكان القيلولة على التشبيه، أو لأنه لا يخلو من ذلك غالباً إذ لا نوم في الجنة. وفي «أحسن» رمز إلى ما يتميز به مقيلهم من حسن الصور وغيره من التحاسين، ويحتمل أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارة إلى أن مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة، والتفضيل إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمتربين في الدنيا. روي أنه يُفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقبل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

(٢٥) ﴿وَيَوْمَ تَشْهَقُ السَّمَاءُ﴾ أصله تششق فحذفت التاء، وأدغمها ابن كثير ونافع وابن عامر ويعقوب. ﴿بِالدَّمِيمِ﴾ بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ

(١) والعدل إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرى (س/٦/٢١١).

(٢) البقرة: ٦٥.

مِّنَ أَمْرِكُمْ وَالْمَلَكُوتُ ﴿١﴾ ﴿وَزَلَّ الْمَلَكُوتُ تَزِيلًا﴾ في ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد. وقرأ ابن كثير ونزل، وقرئ، ونزلت وأنزل ونزل ونزل الملائكة بحذف نون الكلمة.

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَلَّيْتَنِي لَئِنِّي لَأَتَّخِذُ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

(٢٦) ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ الثابت له لأن كل ملك يبطل يومئذ ولا يبقى إلا ملكه فهو الخير، وللرحمن صلته، أو تبين، ويومئذ معمول الملك لا الحق لأنه متأخر، أو صفته والخبر يومئذ أو للرحمن (٢) ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديداً.

(٢٧) ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ من قزط الحسرة. وعضُّ اليدين وأكل البنان وحزق الأسنان ونحوها كنايةات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما، والمراد بالظالم الجنس. وقيل عقبه بن أبي معيط كان يُكثر مجالسة النبي ﷺ، فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل، وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال صبات فقال: لا، ولكن آلي أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له، فقال لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبرق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف» فأسر يوم بدر فأمر علياً فقتله وطعن ألياً بأحد في المبارزة فرجع إلى مكة ومات (٣). ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى النجاة، أو طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم تشعب بي طرق الضلالة.

(٢٨) ﴿يَوَلَّيْتَنِي﴾ وقرئ بالياء على الأصل ﴿لَئِنِّي لَأَتَّخِذُ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني من أضله، وفلان كناية عن الأعلام كما أن هنا كناية عن الأجناس.

(٢٩) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله أو كتابه، أو موعظة الرسول، أو كلمة الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني الخليل المضل أو إبليس لأنه حمله على مخالفته ومخالفة الرسول، أو كل من تشيطن من جن وإنس ﴿لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ يواله حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه. فعول من الخذلان.

(١) البقرة: (٢١٠).

(٢) وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأن اتصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة (س/٦/٢١٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢/٦٠٦) عن ابن عباس بنفس السياق. وانظر «الكافي الشاف» لابن حجر (ص ١٢١ رقم ٩٤).

وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

(٣٠) ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ محمد يومئذ، أو في الدنيا بشأ إلى الله تعالى ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ قريشاً ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ بأن تركوه وصدوا عنه، وعنه عليه الصلاة والسلام «من تعلم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه»^(١) أو هجروا ولغوا فيه إذا سمعوه، أو زعموا أنه هُجِرَ وأساطير الأولين، فيكون أصله مهجوراً فيه فحذف الجائر، ويجوز أن يكون بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول، وفيه تخويف لقومه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكروا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب.

(٣١) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما جعلناه لك فاصبر كما صبروا، وفيه دليل على أنه خالق الشر. والعدو يحتمل الواحد والجمع ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِيرًا﴾ لك عليهم.

(٣٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أي أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر لثلا يناقض قوله ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ دفعة واحدة كالكتب الثلاثة، وهو اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن للتفريق فوائد، منها ما أشار إليه بقوله ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوي بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه، لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى حيث كان عليه الصلاة والسلام أمياً وكانوا يكتبون، فلو ألقى عليه جملة ليعيل بحفظه، ولعله لم يستب له فإن التلقف لا يتأتى إلا شيئاً فشيئاً، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص في المعنى، ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه، ولأنه إذا نزل به جبريل حالاً بعد حال يثبت به فؤاده، ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية، فإنه يعين على البلاغة. و(كذلك) صفة مصدر محذوف والإشارة إلى إنزاله مفرقاً، فإنه مدلول عليه بقوله ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفرة ولذلك وقف عليه فيكون حالاً، والإشارة إلى الكتب السابقة، واللام على الوجهين متعلق بمحذوف. ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تودة وتمهل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين، وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفليجها.

(٣٣) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ سؤال عجيب كأنه مثل في البطلان يريدون به القدح في نبوتك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الدامغ له في جوابه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسن بياناً أو معنى من سؤالهم، أو لا يأتونك بحال عجيبة يقولون هلا كانت هذه حاله إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وما هو أحسن كشفاً لما بُعثت له.

(١) أخرجه الثعلبي من طريق هدية عن أنس، وأبو هدية كذاب.

- كما في «الكافي الشاف» (ص ١٢١ رقم ٩٥).

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي مقلوبين أو مسحوبين عليها، أو متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم إليها وعنه عليه الصلاة والسلام «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه»^(١) وهو ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبره: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والمفضل عليه هو الرسول ﷺ على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ﴾^(٢) كأنه قيل إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقير مكانه وتضليل سبيله، ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً، وقيل إنه متصل بقوله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾^(٣) ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة.

(٣٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة، ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة، لأن المتشاركين في الأمر متوازون عليه.

(١) أخرجه البيهقي - في البعث (رقم: ٢٦٢) من تحقيق الصاعدي - من طريق سدد عن بشر بن المفضل عن علي بن زيد عن أوس بن أبي أوس، عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا.

وأصله في الترمذي - (٣٠٥/٥) رقم (٣١٤٢) وقال: هذا حديث حسن - والبخاري وأحمد - في المسند (٣٦٣/٢) - وإسحاق وابن أبي شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس بن خالد - وأوس مجهول كما قال الحافظ في التقریب (٨٥/١) -.

وعند الحاكم - (٥٦٤/٤) وقال: واحتج به النسائي - من رواية أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبي ذر حدثني الصادق المصدوق «أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ ثَلَاثَةَ أَفْوَاجٍ. فَوْجًا طَاعِمِينَ لَا يَسِينُ رَاكِبِينَ. وفَوْجًا يَمْشُونَ وَيَسْعُونَ. وفَوْجًا تَسْبِجُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَى النَّارِ».

وفي الترمذي - (٦١٦/٤) رقم (٢٤٢٤) و(٣٠٥/٥) رقم (٣١٤٣) - والنسائي - في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٤٣٣/٨) - من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم رفعه إنكم محشورون إلى الله ركباناً ورجالاً وتمرون على وجوهكم» - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٢١ رقم ٩٧) -.

قلت: وقع في «الكافي الشاف» (من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم) وهو خطأ والصواب (من رواية بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة).

وقلت: لم يخرج النسائي من طريق بهز بن حكيم به، وإنما أخرجه من طريق سويد بن حجير أبي قزعة عن حكيم به.

وأخرجه الحاكم من كلا الطريقين، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الحاكم بهز أيضاً مأمون ولا يحتاج في روايته إلى متابع.

والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) المائدة: ٦٠.

(٣) الفرقان: ٢٤.

فَقُلْنَا أَذْهَبَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ
أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ
وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكَلَّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنْوَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي
أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ يعني فرعون وقومه ﴿بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا﴾ أي فذهبوا إليهم فكذبوهم فدمرناهم، فاقصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود منها وهو إلزام الحجة ببيعة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم، والتعقيب باعتبار الحكم لا الوقوع. وقرئ: ﴿فَدَمْزَلْنَاهُمْ، فَذَمَّرْنَاهُمْ، فَذَمَّرْنَاهُمْ﴾ على التأكيد بالنون الثقيلة.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ كذبوا نوحاً ومن قبله، أو نوحاً وحده ولكن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكل، أو بعثة الرسل مطلقاً كالبراهمة ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يحتمل التعميم والتخصيص فيكون وضعاً للظاهر موضع المضمّر تظليماً لهم.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ عطف على هم في جعلناهم، أو على الظالمين لأن المعنى ووعدنا الظالمين، وقرأ حمزة وحفص وثمود على تأويل القبيلة ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعبياً فكذبوه، فبينما هم حول الرس وهي البئر الغير المطوية فانهارت فحُسف بهم ويديارهم. وقيل الرس قرية بفلج^(١) اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث إليهم نبي فقتلوه فهلكوا. وقيل الأخدود، وقيل بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار، وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون، وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح أو دمع وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إذا أعوزها الصيد، ولذلك سُميت مُغْرِباً فدعا عليها حنظلة فأصابها الصاعقة ثم إنهم قتلوه فأهلكوا. وقيل هم قوم كذبوا نبيهم ورثوه أي دسوه في بئر^(٢) ﴿وَقُرُونًا﴾ وأهل أعصار، قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وعشرون ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلمها إلا الله.

(٣٩) ﴿وَكَلَّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ﴾ يتنا له القصص العجيبة من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أهلكوا كما قال ﴿وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَنْبِيرًا﴾ فتنه تفتيتاً، ومنه التبر لفتات الذهب والفضة، وكلاً الأول منصوب بما دل عليه ضربنا كأنذرنا، والثاني بتبرنا لأنه فارغ.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَنْوَا﴾ يعني قريشاً مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوَاءِ﴾

(١) فلج اليمامة هي قرية في اليمامة يقال لها الرس، وأصل الفلج الظفر والفوز (مختار الصحاح مادة فلج).

(٢) لم يبق على هذه الأقوال في المعنى بأصحاب الرس دليل ثابت. ورجح الطبري في «جامع البيان»

(١١/ج ١٩/١٤) أنهم أصحاب الأخدود. وبعض الأقوال الأخرى مردودة بنصوص أخرى.

وانظر «الدر المنثور» (٢٥٦/٦ - ٢٥٧).

يعني سدوم عظمى قرى قوم لوط أمطرت عليها الحجارة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في مرار مرورهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نَذْرًا﴾ بل كانوا كفرًا لا يتوقعون نشورًا ولا عاقبة فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمروا بها كما مرت ركابهم، أو لا يأملون نشورًا كما يأمله المؤمنون طمعًا في الثواب، أو لا يخافونه على اللغة التهامية.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ ما يتخذونك إلا موضع هُزء أو مهزوءًا به ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ محكي بعد قول مضمر، والإشارة للاستحقار، وإخراج بعث الله رسولاً في معرض التسليم بجعله صلة وهم على غاية الإنكار تهكم واستهزاء، ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً.

(٤٢) ﴿إِنْ﴾ إنه ﴿كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا﴾ ليصرفنا عن عبادتها بفطر اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يوردها مما يسبق إلى الذهن بأنها حُجج ومعجزات ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثبنا عليها واستمسكنا بعبادتها، ولولا في مثله تقيد الحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ كالجواب لقولهم ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا﴾ فإنه يفيد نفياً ما يلزمه ويكون الموجب له، وفيه وعيد ودلالة على أنه لا يهملهم وإن أمهلهم.

(٤٣) ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يبصر دليلاً، وإنما قُدم المفعول الثاني للعناية به ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي وحالاً هذا، فالاستفهام الأول للتقرير والتعجب والثاني للإنكار.

(٤٤) ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بل أنت حسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فتجدي لهم الآيات أو الحجج فنتهم بشأنهم وتطمع في إيمانهم، وهو أشد مذمة مما قبله حتى حُق بالإضراب عنه إليه، وتخصيص الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر استكباراً وخوفاً على الرئاسة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدا وتُميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار، ولأنها إن لم تعتقد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً، بخلاف هؤلاء، ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هنيئ الفتنة وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذم، وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنعه ^(١) ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ كيف بسطه، أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده رؤك، فغَيَّرَ النظمُ إشعاراً بأنه المعقولُ من هذا الكلام لوضوح برهانه، وهو دلالةٌ حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعلُ الصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس منه، أو ألم يتتبع علمك إلى أن ربك كيف مد الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيَّبُ الأحوال، فإن الظلمة الخالصة تُفَرِّطُ الطبعَ وتُسَدُّ النظرَ، وشعاعُ الشمس يُسَخِّنُ الجوَّ ويَبْهَرُ البصرَ، ولذلك وَصَفَ به الجنة فقال: «وظلٌّ ممدود» ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ ثابتاً، من الشكنى أو غير متقلص، من السكون بأن يجعل الشمس مُقيمةً على وضع واحد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلُعَ فيقع ضوءها على بعض الأجرام، أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها ^(٢).

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعه، لما عَبرَ عن إحداثه بالمد بمعنى التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك مصالحُ الكون ويتحصَّلَ به ما لا يُحصى من منافع الخلق، وثم في الموضعين لتفاضل الأمور أو لتفاضل مبادئ أوقَاتِ ظهورها. وقيل مدُّ الظل لما بنى السماء بلا بُدَّ، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها ولو شاء لجعله ثابتاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس عليه دليلاً، أي مسلطاً عليه مستتباً إياه كما يستتبع الدليل المدلول، أو دليل الطريق مَنْ يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهي غاية نقصانه، أو قبضاً سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المظلمة والمُظَلَّ عليها.

(٤٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبه ظلامه باللباس في ستره ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدان بقطع المشاغل، وأصلُ السبت القطع، أو موتاً كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ ^(٣) لأنه قطع الحياة ومنه المسبوت للميت ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ذا نشور أي انتشارٍ ينتشر فيه الناس للمعاش، أو بعثٍ من النوم بعثُ الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذجٌ للموت والنشور. وعن لقمان عليه السلام يا بُني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتُنشَرُ.

(١) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه عليه السلام، وللإيدان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى (س/٦/٢٢٢).

(٢) والآلتفات إلى نون العظمة في (جعلنا) لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبئ عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة، وهو السر في إيراد كلمة التراخي ثم. (س/٦/٢٢٢).

(٣) الأنعام: ٦٠.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَابِئَ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا ﴿٥٠﴾

(٤٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادة للجنس ﴿بُشْرًا﴾ ناشرات للسحاب جمع نشور، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف، وحمزة والكسائي به ويفتح النون على أنه مصدر وصف به، وعاصم بُشْرًا تخفيف بُشْر جمع بشور بمعنى مبشر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني قدام المطر ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ مطهراً لقوله ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾^(١) وهو اسم لما يطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به. قال عليه الصلاة والسلام: «التراب طهور المؤمن»^(٢) «طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبعا إحداهن بالتراب»^(٣). وقيل بليغا في الطهارة. وفعل وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضبوث وللمصدر كالقبول وللإسم كالذنوب، وتوصيف الماء به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميم للمنة فيما بعده فإن الماء الطهور أهناً وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطئهم بذلك أولى.

(٤٩) ﴿لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا﴾ بالنبات، وتذكير ميتاً لأن البلدة في معنى البلد، ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجري مجرى الجامد ﴿وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا﴾ يعني أهل البوادي الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسي، وتخصيصهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار، والمنافع فيهم وبما حولهم من الأنعام غنية عن شقيا السماء، وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالباً مع أن مساق هذه الآيات كما هو للدلالة على عظم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة. والأنعام قنية الإنسان وعامة منافعهم وعلية معاشهم منوطة بها، ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها. وقرئ نسقيه بالفتح، وسقى وأسقى لغتان، وقيل أسقاه جعل له سقياً، وأناسي بحذف ياء وهو جمع إنسي أو إنسان كظرابي في ظريبان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء.

(٥٠) ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب، أو المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغيرة، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما عامٌ أمطر من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء. وتلا هذه الآية^(٤) أو في الأنهار والمنافع. ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك

(١) الأنفال: (١١١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٥/١) رقم (٣٣٢) و(٢٣٧/١) رقم (٣٣٣) والترمذي (٢١١/١ - ٢١٢) رقم (١٢٤) والنسائي (١٧١/١) رقم (٣٢٢). وهو حديث حسن.

انظر «نصب الراية» (١٤٨/١ - ١٤٩) والتلخيص لابن حجر (١/١٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣١٤/٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٠٣/٢) من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

ويقوموا بشكره، أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها، أو جحودها بأن يقولوا مُطَرْنَا بَنُو كَذَا. وَمَنْ لَا يَرَى الْإِمطَارَ إِلَّا مِنَ الْأَنْوَاءِ كَانَ كَافِرًا بخلاف من يرى أنها من خلق الله، والأنواءُ وسائلٌ وأماراتٌ بجعله تعالى.

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا تَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ نبياً يُنذِرُ أهلها فيخفُّ عليك أعباء النبوة، لكن قصرنا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق.

(٥٢) ﴿فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وهو تهيجٌ له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين ﴿وَجَهْدُهُمْ بِهِ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه (فلا تطع) والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حَقِّ فِعالهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لأن مجاهدة السفهاء بالحُجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف، أو لأن مخالفتهم ومعاداتهم فيما بين أظهرهم مع عُتُوهم وظهورهم، أو لأنه جهادٌ مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى.

(٥٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان، من مَرَج دابته إذا خلاها ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قَامِعٌ للعطش من فَرْطِ عذوبته ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغُ الملوحة. وقرىء مِلْحٌ على فِعْلٍ، ولعل أصله مَالِحٌ فُخِّفَ كِبَرُده في بارد ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا تَحْجُورًا﴾ وتنافراً بليغاً كأن كلاً منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوذ للمتعوذ عنه. وقيل حدّاً محدوداً وذلك كدِجْلَةٍ تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخٌ لا يتغير طعمها، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم مثل النيل، وبالبحر المِلْحِ البحرُ الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة في الفصل واختلاف الصفة، مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كل عنصر أن تضامّت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية.

(٥٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ يعني الذي خَمَّرَ به طينة آدم، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع لُبُشَرٌ وتسلس وتقبل الأشكال والهيئات بسهولة، أو النطفة ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً يُنسب إليهم، وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن كقوله تعالى ﴿يَجْعَلُنَّ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(١). ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

= قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وهو كما قال.

(١) القيامة: ٣٩.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۖ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَٰهًا مِنْ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني الأصنام أو كل ما عُبد من دون الله إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضرر ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك، والمراد بالكافر الجنس أو أبو جهل. وقيل هيناً مهيناً لا وقع له عنده، من قولهم ظهرت به إذا نبذته خلف ظهره فيكون كقوله ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾^(١).

(٥٦) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ للمؤمنين والكافرين.

(٥٧) ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة الذي يدل عليه إلا مبشراً ونذيراً ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ إلا فعل من شاء ﴿أَنْ يَتَّخِذَ إِلَٰهًا مِنْ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أن يتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله واستثناءه منه قلعا لشبهة الطمع وإظهارا لغاية الشفقة، حيث اعتد بإنفاعك نفسك بالتعرض للثواب والتخلص عن العقاب أجراً وافياً مرضياً به مقصوراً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم تعود عليه بالثواب من حيث إنها بدالته. وقيل الاستثناء منقطع، معناه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل.

(٥٨) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ في استكفاء شروهم والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ ونزهه عن صفات النقصان مثنياً عليه بأوصاف الكمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿خَيْرًا﴾ مطلقاً فلا عليك إن آمنوا أو كفروا.

(٥٩) ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ قد سبق الكلام فيه^(٢)، ولعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث إنه الخالق للكل والمتصرف فيه، وتحريض على الثبات والثبات في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تئودة وتدريج. والرحمن خبر الذي إن جعلته مبتدأ ولمحذوف إن جعلته صفة للحي، أو بدل من المستكن في استوى، وقرئ بالجذر صفة للحي. ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ فاسأل عما ذكر من الخلق والاستواء عالماً يُخبرك بحقيقته وهو الله تعالى، أو جبريل، أو من وجده في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه، وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يُخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ والخبر

(١) آل عمران: (٧٧).

(٢) سبق الكلام فيه في الأعراف (٥٤).

ما بعده، والسؤال كما يُعَدَى بعن لتضمُّنه معنى التفتيش يُعَدَى بالباء لتضمُّنه معنى الاعتناء. وقيل إنه صلة خيراً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ لأنهم ما كانوا يُطْلِقُونَهُ عَلَى اللَّهِ، أو لأنهم ظنوا أنه أراد به غيره ولذلك قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي للذي تأمرنا به يعني تأمرنا بسجوده، أو لأمرنا من غير عرفان. وقيل لأنه كان معزباً لم يسمعه. وقرأ حمزة والكسائي يأمرنا بالياء على أنه قول بعضهم لبعض ﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي الأمر بالسجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

(٦١) ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يعني البروج الاثني عشر سُمِّيت به وهي القصور العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها واشتقاقه من التبرج لظهوره ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ يعني الشمس لقوله ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾^(١). وقرأ حمزة والكسائي سُرْجاً وهي الشمس والكواكب الكبار ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل. وقرء وقمر أي ذا قمر وهو جمع قمراء، ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرُّشْد والرَّشْد والعُزْب والعُزْب.

(٦٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي خلفه يخلف كلُّ منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه، أو بأن يعتقبا لقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾^(٢) وهي للحالة من خلف كالرُّكْبَة والجلِسة ﴿لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بأن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أن لا بد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم، أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين؛ مَنْ فاتَه وزده في أحدهما تداركه في الآخرة. وقرأ حمزة أن يذكّر من ذكر بمعنى تذكّر، وكذلك ليذكروا ووافقه الكسائي فيه^(٣).

(٦٣) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ مبتدأ وخبره ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾^(٤) أو ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ وإضافتهم إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل، أو لأنهم الراسخون في عبادته، على أن (عباد) جمعُ عابد كتاجر وتجار ﴿هَوْنًا﴾ هينين أو مشياً هيناً، مصدرٌ وُصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينته

(١) نوح: ١٦.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) أي وقرأ حمزة «ولقد صرفناه بينهم ليذكروا» بتخفيف الذال كما مرَّ في الآية (٥٠) من سورة الفرقان، ووافقه الكسائي في التخفيف في قوله «ليذكروا».

انظر المبسوط لابن مهران ص ٢٧١.

(٤) الفرقان: ٧٥.

وتواضع ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ تَسْلَمًا مِنْكُمْ وَمُتَارَكَةً لَكُمْ لَا خَيْرَ بَيْنَنَا وَلَا شَرٍّ، أَوْ سَدَادًا مِنْ الْقَوْلِ يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِيذَاءِ وَالْإِثْمِ، وَلَا يَنَافِيهِ آيَةُ الْقِتَالِ لَتَنْسَخَهُ فَإِنْ الْمَرَادُ بِهِ الْإِغْضَاءُ عَنِ السَّفَهَاءِ وَتَرْكُ مُقَابَلَتِهِمْ فِي الْكَلَامِ.

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾

(٦٤) ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ في الصلاة، وتخصيصُ البيوتة لأن العبادة بالليل أحْمَزُ^(١) وأبعدُ عن الرياء وتأخيرُ القيام للزَّوِيِّ، وهو جمعُ قائم، أو مصدرُ أُجِرِيَ مجراه.

(٦٥) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ لازماً ومنه الغريمُ لملازمته، وهو إِيْذَانُ بَأْنِهِمْ مَعَ حَسَنِ مَخَالَطَتِهِمْ مَعَ الْخَلْقِ وَاجْتِهَادِهِمْ فِي عِبَادَةِ الْحَقِّ وَجِلُونَ مِنَ الْعَذَابِ مَبْتَهِلُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي صَرْفِهِ عَنْهُمْ لِعَدَمِ اعْتِدَادِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَوُثُوقِهِمْ عَلَى اسْتِمْرَارِ أَحْوَالِهِمْ.

(٦٦) ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أَيِ بَنَسَتْ مُسْتَقَرًّا، وفيها ضميرٌ مبهم يفسره المميِّزُ، والمخصوصُ بالذمِّ ضميرٌ محذوفٌ به ترتبط الجملةُ باسمِ إِنْ، أو أَخَزَنْتُ. وفيها ضميرٌ اسمُ إِنْ، ومستقراً حالٌ أو تمييز، والجملةُ تعليلٌ للعللة الأولى أو تعليلٌ ثانٍ، وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله.

(٦٧) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ لَمْ يَجَاوِزُوا حَدَّ الْكَرَمِ ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ وَلَمْ يَضْيَقُوا تَضْيِيقَ الشَّحِيحِ، وَقِيلَ الْإِسْرَافُ هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي الْمَحَارِمِ وَالتَّقْتِيرُ مَنَعُ الْوَاجِبِ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ النَّاءِ، وَنَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَالْكُوفِيُّونَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ النَّاءِ مِنْ أَقْتَرٍ، وَقَرِئَ بِالتَّشْدِيدِ وَالْكَلِّ وَاحِدٌ ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وَسَطًا عَدْلًا سَمِيَ بِهِ لَاسْتِقَامَةُ الطَّرْفَيْنِ كَمَا سُمِّيَ سَوَاءٌ لَاسْتَوَائِهِمَا. وَقَرِئَ بِالْكَسْرِ وَهُوَ مَا يُقَامُ بِهِ الْحَاجَةُ لَا يُفْضَلُ عَنْهَا وَلَا يَنْقُصُ. وَهُوَ خَيْرٌ ثَانٍ أَوْ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ بَيْنَ ذَلِكَ لِفَوَاءٍ، وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمٌ كَانَ لَكُنْهُ مَبْنِيٌّ لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرٍ مُمْكِنٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى الْقَوَامِ فَيَكُونُ كَالْإِخْبَارِ بِالشَّيْءِ عَنْ نَفْسِهِ.

(٦٨) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أَيِ حَرَمَهَا بِمَعْنَى حَرَمِ قَتْلِهَا^(٢) ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالْقَتْلِ الْمَحْذُوفِ، أَوْ بِمَا يَقْتُلُونَ ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ نَفَى عَنْهُمْ أَمَهَاتِ الْمَعَاصِي بَعْدَمَا أُثْبِتَ لَهُمْ أَصُولُ الطَّاعَاتِ إِظْهَاراً لِكَمَالِ إِيْمَانِهِمْ وَإِشْعَاراً بِأَنَّ الْأَجْرَ الْمَذْكُورَ مُوَعُودٌ

(١) أحمز أي أقوى وأمتن. انظر مختار الصحاح مادة (حمز).

(٢) والتصريح بوصفهم بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص، وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلكه، وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم (س/٦/٢٢٩).

لللجامع بين ذلك، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء إثم أو إثمًا بإضمار الجزاء، وقرئ أيتاماً أي شذائد يقال يوم ذو أيام أي صعب.

يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَنَّا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بدل من يلقَ لأنه في معناه كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا ثُلُمٌ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجْذُ حَطْبًا جَزْلًا وَتَارًا تَأَجَّجَا^(١)

وقرأ أبو بكر بالرفع على الاستئناف أو الحال وكذلك ﴿وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَنَّا﴾ وابن كثير ويعقوب يُضَعَفُ بالجزم، وابن عامر بالرفع فيهما مع التشديد وحذف الألف في يَضَعَفُ، وقرئ ويُخْلَدُ على بناء المفعول مخففاً، وقرئ مثقلاً. وتضعيفُ العذاب مضاعفته لانضمام المعصية إلى الكفر ويدل عليه قوله:

(٧٠) ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن يمحوَ سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم، أو يبدل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة. وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات.

(٧١) ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ عن المعاصي بتركها والندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يتلاقى به ما قرط، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرجع إلى الله بذلك ﴿مَتَابًا﴾ مرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، أو يتوب متاباً إلى الله الذي يحب التائبين ويصطنع بهم؛ أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وهو تعميم بعد تخصيص.

(٧٢) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة، أو لا يحضرون محاضرات الكذب، فإن مشاهدة الباطل شركة فيه ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ ما يجب أن يلقى ويُطرح ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يُستهجن التصريح به.

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالوعظ أو القراءة ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر، بل أكتبوا عليها سامعين بأذان واعية مبصرين بعيون راعية، فالمراد من النفي نفى الحال دون الفعل كقولك: لا يلقاني زيد مسلماً. وقيل الهاء للمعاصي المدلول عليها باللغو.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾
 أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِبَ سَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ
 مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيارة الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله سر بهم قلبه وقرت بهم عينه لما يرى من مساعدتهم له في الدين وتوَلَّى لحقوقهم به في الجنة، ومن ابتدائية أو بيانية كقولك: رأيت منك أسداً. وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر وذريرتنا، وقرأ ابن عامر والحريمان وحفص ويعقوب وذريرتنا بالألف. وتنكير الأعين لإرادة تنكير القرّة تعظيماً، وتقليلها لأن المراد أعيُن المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده إما للدلالة على الجنس وعدم اللبس كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾^(١) أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم. وقيل جمع أم كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم^(٢).

(٧٥) ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أعلى مواضع الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾^(٣) وللقرأة بها، وقيل هي من أسماء الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على المشاق من مفض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِبَ سَلَامًا﴾ دعاء بالتعمير والسلامة أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، أو ببقية دائمة وسلامة من كل آفة. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يُلَقَّوْنَ من لقي.

(٧٦) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابل ساءت مستقراً معنى ومثله إعراباً.

(٧٧) ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ ما يصنع بكم، من عبأت الجيش إذا هيأته، أو لا يعتد بكم ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ لولا عبادتكم فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء. وقيل معناه ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة. وما إن جعلت استفهامية فمحلها النصب على المصدر كأنه قيل: أي عبء يعبا بكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بما أخبرتكم به حيث خالفتموه. وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم: كذب القتال إذا لم يبالغ فيه. وقرئ فقد كذب الكافرون أي الكافرون

(١) غافر: ٦٧.

(٢) إعادة الموصول في المواقع السبعة - مع كفاية ذكر الصلوات بطريق العطف على صلة الموصول الأول - للإيدان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل.

وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي (س/٦/٢٣١).

(٣) سبأ: ٣٧.

منكم لأن توجّه الخطاب إلى الناس عامة بما وُجد في جنسهم من العبادة والتكذيب. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاء التكذيب لازماً يحقّ بكم لا محالة، أو أثره لازماً بكم حتى يَكُبَّكم في النار، وإنما أضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيه على أنه لا يكتنّهُ الوصف، وقيل المراد قتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلِ لِزَامًا. وقرئ لِزَامًا بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب»^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٢٢ رقم ١٠٥). وانظر آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْنِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَحِمْنَا مَحْدَثٍ إَلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

سورة الشعراء مكية

إلا قوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاؤون إلى آخرها وهي مائتان وست أو سبع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طَسَّرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالإمالة، ونافع بين بين، كراهة للعود إلى الياء المهروب منها، وأظهر نونه حمزة لأنه في الأصل منفصل عما بعده.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه وصحته، والإشارة إلى السورة أو القرآن على ما قرر في أول البقرة.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ قاتل نفسك، وأصل البنع أن يبلغ بالذبح التُّخَاع وهو عرقٌ مستبطنُ الفقار وذلك أقصى حد الذبح، وقرئ باخع نفسك بالإضافة، ولعل للإشفاق أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا أو خيفة أن لا يؤمنوا.

(٤) ﴿إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً﴾ دلالة ملجئة إلى الإيمان أو بلية قاسرة عليه ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ متقادين، وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الخبر على أصله. وقيل لما وُصفت الأعناق بصفات العقلاء أُجريت مجراهم. وقيل المراد بها الرؤساء أو

الجماعات من قولهم: جاءنا عُتُقٌ من الناس لِفُوجٍ منهم. وقرئ خاضعةً وظلت، عطفٌ على نزل عطفَ (واكن) على (فأصدق) لأنه لو قيل أنزلنا بدله لصح.

(٥) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ موعظةٌ أو طائفة من القرآن ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ يوحى إلى نبيه ﴿مُحَمَّدٍ﴾ مجلِّدٍ إنزاله لتكرير التذكير وتنويع التقرير ﴿إِلَّا كَأَنَّهُ مُعْرِضِينَ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه.

(٦) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المُخْبِرُ به عنهم ضمناً في قوله ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي إذا مسهم عذابُ الله يومَ بدر أو يوم القيامة ﴿أَنبَتُوا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً، وكان حقيقاً بأن يُصدق ويُعظم قدره. أو يكذب فيستخف أمره.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ محمود كثير المنفعة، وهو صفة لكل ما يُحمد ويُرضى، وههنا يحتمل أن تكون مقيدة لما يتضمن الدلالة على القدرة، وأن تكون مبينةً منبهةً على أنه ما من نبت إلا وله فائدة إما وحده أو مع غيره، وكل لإحاطة الأزواج، وكم لكثرتها.

(٨) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف، أو في كل واحد ﴿لَآيَةً﴾ على أن مُنبتَهَا تَأْمُ القدرة والحكمة، سابغُ النعمة والرحمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر، الرحيم لمن تاب وآمن.

(١٠) ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ مقدّرُ باذكر أو ظرف لما بعده ﴿أَنْ أَنْتَ﴾ أي انت أو بأن انت ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبح أولادهم.

(١١) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من الأول أو عطفٌ بيانٍ له، ولعل الاختصارَ على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك. ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئنافٌ أتبعه إرساله إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه. وقرئ بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم، وهم وإن كانوا غيباً حينئذ أُجروا مُجْرَى الحاضرين في كلام المرسل إليهم من حيث إنه مبلّغٌ إليهم وإسماعه مبدأٌ إسماعهم، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مودعه، وقرئ بكسر النون اكتفاءً بها عن ياء الإضافة، ويحتمل أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون كقوله ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ .

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ رتب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة: خوف الكذب، وضيق القلب انفعالاً عنه، وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق، لأنها إذا اجتمعت مست الحاجة إلى معين يقوي قلبه وينوب منابه متى تعثره حنسة حتى لا تختل دعوته ولا تنبتر حجته، وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر، بل طلباً لما يكون معونة على امثاله وتمهيد عُذره فيه. وقرأ يعقوب ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفاً على يكذبون، فيكونان من جملة ما خاف منه.

(١٤) ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ أي تبعة ذنب فحذف المضاف أو سمي باسمه، والمراد قتل القبطي وإنما سماه ذنباً على زعمهم، وهذا اختصار قصته المبسوطة في مواضع ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به قبل أداء الرسالة، وهو أيضاً ليس تعللاً وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة، كما أن ذاك استعداد واستظهار في أمر الدعوة وقوله:

(١٥) ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ إجابة له إلى الطلبتين بوعده بدفع بلائهم اللازم ردعه عن الخوف، وضم أخيه إليه في الإرسال، والخطاب في فاذهباً على تغليب الحاضر لأنه معطوف على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت والذي طلبته ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني موسى وهرون وفرعون ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأظهر كما عليه، مثل نفسه تعالى بمن حضر مجادلة قوم استماعاً لما يجري بينهم وترقباً لإمداد أوليائه منهم، مبالغة في الوعد بالإعانة، ولذلك تجوز بالاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو مطلق إدراك الحروف والأصوات، وهو خبر ثانٍ أو الخبر وحده ومعكم لغو.

(١٦) ﴿فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أفرد الرسول لأنه مصدر وُصف به فإنه مشترك بين المرسل والرسالة، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَائِسُونَ مَا فَهْتُ عَنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

ولذلك ثنى تارة وأفرد أخرى، أو لاتحادهما للأخوة أو لوحدة المرسل والمرسل به، أو لأنه أراد أن كل واحد منا.

(١٧) ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمن معنى القول، والمراد خلهم ليذهبوا معنا إلى الشام.

(١٨) ﴿قَالَ﴾ أي فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾

طفلاً سُمِّيَ به لقربه من الولادة. ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدينَ عشرَ سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين، ثم بقي بعد الغرق خمسين.

وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتَى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتَى فَعَلْتَ﴾ يعني قتل القبطي، وبخه به معظماً إياه بعدما عدد عليه نعمته. وقرىء فِعَلْتَكِ بالكسر لأنها كانت قِتْلَةً بالوكر ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمتي حتى عمدتَ إلى قتل خواصِّي، أو ممن تكفّرهم الآن فإنه عليه الصلاة والسلام كان يعايشهم بالتقية فهو حال من إحدى التاءين، ويجوز أن يكون حكماً مبتدأً عليه بأنه من الكافرين بآلهيته أو بنعمته لما عاد عليه بالمخالفة، أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم.

(٢٠) ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الجاهلين وقد قرىء به^(١)، والمعنى من الفاعلين فعلَ أولي الجهل والسفَه، أو من الخاطئين لأنه لم يتعمد قتله، أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكرُ لأنه أراد به التأديب، أو الناسين من قوله تعالى ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾^(٢).

(٢١) ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ حكمة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رد أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته ثم كر على ما عدّ عليه من النعمة ولم يصرح برده لأنه كان صدقاً غير قادح في دعواه، بل نبه على أنه كان في الحقيقة نعمةً لكونه مسبباً عنها فقال:

(٢٢) ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي وتلك التريبةُ نعمةٌ تمنها علي ظاهراً، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل وقصدُهم بذبح أبنائهم، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك. وقيل إنه مقدر بهمة الإنكار أي تلك نعمة تمنها علي وهي أن عبدت، ومحل أن عبدت الرفع على أنه خبرٌ محذوف، أو بدل في نعمة، أو الجرُّ بإضمار الباء أو النصبُ بحذفها. وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمّة وأن عبّدت عطفُ بيانها والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمةً تمنها علي، وإنما وجد الخطابُ في تمنها وجمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده، والخوفُ والفرارُ منه ومن ملّته.

(٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لما سمع جوابَ ما طعن به فيه ورأى أنه لم يرعَ بذلك شرع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل.

(٢٤) ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عرّفه بأظهر خواصّه وآثاره لما امتنع تعريفُ الأفراد إلا

(١) قال أبو حيان في تفسير البحر المحيط (١١/٧): وفي قراءة عبدالله وابن عباس «وأنا من الجاهلين» ويظهر أنه تفسير للضالين لا قراءة مروية عن الرسول ﷺ.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله:

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم موقنين الأشياء محققين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسة ممكنة لترتيبها وتعدد أحوالها، فلها مبدىء واجب لذاته، وذلك المبدىء لا بد وأن يكون مبدأ لسائر الممكنات: ما يمكن أن يُحَسَّنَ بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب، أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما مُحَالٌ، ثم ذلك الواجب لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

(٢٥) ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ جوابه، سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله، أو يزعم أنه رب السموات وهي واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية، أو غير معلوم افتقارها إلى مؤثر.

(٢٦) ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ عدولاً إلى ما لا يمكن أن يتوهم فيه مثله ويشك في افتقاره إلى مصور حكيم ويكون أقرب إلى الناظر وأوضح عند التأمل.

(٢٧) ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخر. وسماء رسولاً على السخرية.

(٢٨) ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تشهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمور الكائنات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك. لا ينهم أولاً، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم.

(٢٩) ﴿قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ عدولاً إلى التهديد عن المحااجة بعد الانقطاع وهكذا ديدن المعاند المحجوج، واستدل به على ادعائه الألوهية وإنكاره الصانع وأن تعجبه بقوله ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾^(١) من نسبة الربوبية إلى غيره، ولعله كان دهرياً اعتقد أن من ملك قطراً أو تولى أمره بقوة طالعه استحق العبادة من أهله، واللام في المسجونين للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجوني فإنه كان يطرحهم في هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك جعل أبلغ من لأسجنتك.

(٣٠) ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي أنفعل ذلك ولو جئتك بشيء يبين صدق دعواي، يعني المعجزة فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته والدلالة على صدق مدعي نبوته، فالواو للحال وليها الهمزة بعد حذف الفعل.

قَالَ فَاتَّ بِهٖۤ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِیْنٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظْرِیْنَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُۥ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِیْمٌ ﴿٣٤﴾ یُرِیْدُ أَنْ یُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْبَعٌ فِی الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِیْنَ ﴿٣٦﴾ یَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَآرٍ عَلِیْمٍ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِیْقَتِ یَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِیلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَبْغِ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ أَغْلَبِیْنَ ﴿٤٠﴾

(٣١) ﴿ قَالَ فَاتَّ بِهٖۤ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ في أن لك بينة أو في دعواك، فإن مدعي النبوة لا بد له من حجة.

(٣٢) ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِیْنٌ ﴾ ظاهرٌ ثُعْبَانِيَّتُهُ، واشتقاقُ الثعبان من ثَعَبْتُ الماءَ فانتعب إذا فجرته فانفجر.

(٣٣) ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظْرِیْنَ ﴾ روي أن فرعون لما رأى الآية الأولى قال فهل غيرها، فأخرج يده قال فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغطي الأبصار ويسد الأفق.

(٣٤) ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُۥ ﴾ مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِیْمٌ ﴾ فائق في علم السحر.

(٣٥) ﴿ یُرِیْدُ أَنْ یُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ بهره سلطان المعجزة حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم واتثمارهم وتغييرهم عن موسى وإظهار الاستشعار عن ظهوره واستيلانه على ملكه.

(٣٦) ﴿ قَالُوا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أخز أمرهما. وقيل احبسهما ﴿ وَأَرْبَعٌ فِی الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِیْنَ ﴾ شرطاً يحشرون السحرة.

(٣٧) ﴿ یَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَآرٍ عَلِیْمٍ ﴾ يفضلون عليه في هذا الفن. وأمالها ابنُ عامر وأبو عمرو والكسائي، وقرئ بكل ساحر.

(٣٨) ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِیْقَتِ یَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ لما وُت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة.

(٣٩) ﴿ وَقِیلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴾ فيه استبطاء لهم في الاجتماع حثاً على مبادرتهم إليه كقول تأبط شراً:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا أَوْ عَبْدَ رَبِّ أَخَاعُونَ بِنِ مِخْرَاقِ
أي ابعت أحدهما إلينا سريعاً.

(٤٠) ﴿ لَعَلَّنَا نَبْغِ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ أَغْلَبِیْنَ ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلبوا، والترجي باعتبار الغلبة المقترضة للاتباع، ومقصودهم الأصل أن لا يتبعوا موسى لا أن يتبعوا السحرة، فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأَجْرُ إِيَّاكَ لَآتَيْنُكَ الْغُلَبَاءَ ۖ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۚ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ۚ قَالُوا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ وَأَفْكُؤُنَا ۚ قَالُوا لَمَّا يَأْفِكُونَ ۚ قَالَتْ لِي السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ۚ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۚ قَالَ آمَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبَتْكُمْ أَعْمِيعٌ ۚ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۚ

(٤١) ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأَجْرُ إِيَّاكَ لَآتَيْنُكَ الْغُلَبَاءَ ۖ ﴾ .

(٤٢) ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه إن غلبوا، فإذا على ما يقتضيه من الجواب والجزاء، وقرئ نَعِمَ بالكسر وهما لغتان.

(٤٣) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ أي بعدما قالوا له إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقيين، ولم يُرد به أمرهم بالسحر والتمويه بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلاً به إلى إظهار الحق.

(٤٤) ﴿ قَالُوا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ وَأَفْكُؤُنَا ۚ قَالُوا لَمَّا يَأْفِكُونَ ﴾ أفسموا بعزته على أن الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر.

(٤٥) ﴿ قَالَتْ لِي السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴾ وتبلى، وقرأ حفص تلقف بالتخفيف ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقليبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيتهم أنها حيات تسعى، أو إفكهم، تسمية للمأفوك به مبالغة.

(٤٦) ﴿ قَالَتْ لِي السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴾ لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر، وفيه دليل على أن انتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لا حقيقة له، وأن البحر في كل فن نافع. وإنما بذل الخورور بالإلقاء ليشاكل ما قبله ويدل على أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم كأنهم أخذوا فطرحوا على وجوههم، وأنه تعالى ألقاهم بما خولهم من التوفيق.

(٤٧) ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بدل من ألقى بدل الاشتمال، أو حال بإضمار قد.

(٤٨) ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ إبدالاً للتوضيح ودفع التوهم، والإشعار على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه على أيديهما.

(٤٩) ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم، أو فواعدكم على ذلك وتواطأتم عليه، وأراد به التلبس على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح أأمتهم بهمزتين ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال ما فعلتم وقوله ﴿ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبَتْكُمْ أَعْمِيعٌ ﴾ بيان له.

(٥٠) ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾ لا ضرر علينا في ذلك ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ بما ثوعدنا به فإن الصبر عليه محاء للذنوب موجب للثواب والقرب من الله تعالى، أو بسبب من أسباب الموت والقتل أنفعها وأرجاها.

إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا﴾ لأن كنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أتباع فرعون، أو من أهل المشهد، والجملة في المعنى تعليل ثانٍ لنفي الضمير، أو تعليل للعلة المتقدمة. وقرئ إن كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة، أو على طريقة المُدِلِّ بأمره نحو إن أحسنت إليك فلا تنس حقي.

(٥٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وذلك بعد سنين أقامها بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزدوا إلا عتواً وفساداً، وقرأ ابن كثير ونافع أن أسر بعبادي بكسر النون ووصل الألف من سري، وقرئ أن سز من السير ﴿إِنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده، وهو علة الأمر بالإسراء أي أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مضحين كان لكم تقدّم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم.

(٥٣) ﴿فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ﴾ حين أخير بسراهم. ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ العساكر ليتبعوهم.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ على إرادة القول وأما استقلالهم وكانوا سِتِّمِائَةِ أَلْفٍ وسبعين ألفاً بالإضافة إلى جنوده، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمته سبعمائة ألف. والشِرْذِمَةُ الطائفة القليلة، ومنها ثوب شرادُم لما يلي وتقطع، وقليلون باعتبار أنهم أسباط، كل سبط منهم قليل.

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ﴾ لفاعلون ما يغيظنا.

(٥٦) ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ وإنا لجميع من عادتنا الحذر واستعمال الحزم في الأمور، أشار أولاً إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من قُزط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثاً عليه، أو اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كي لا يُظنَّ به ما يكسر سلطانه، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان^(١) والكوفيون حاذرون، والأول للثبات والثاني للتجدد، وقيل الحاذر المؤدي في السلاح وهو أيضاً من الحذر لأن ذلك إنما يفعل حذراً، وقرئ حادرون بالدال المهملة أي أقوياء قال:

أَحِبُّ الصَّبِيِّ الشَّوْءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرٌ
أو تَامُوا السِّلَاحَ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوْجِبُ حِدَارَةً فِي أَجْسَامِهِمْ.

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ بأن خلقنا داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

(١) هو محمد بن سليمان بن أحمد بن ذكوان، أبو طاهر البعلبكي المؤذن، مقرأ معمر عالي السند صالح نزيل صيدا. ولد سنة (٢٦٤هـ) ومات سنة (٣٥٤هـ). [غاية النهاية (١٤٨/٢)].

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

(٥٨) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني المنازل الحسنة والمجالس البهية..

(٥٩) ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجنا فهو مصدر، أو مثل ذلك المقام الذي كان لهم على أنه صفة مقام، أو الأمر كذلك فيكون خبراً لمحذوف. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

(٦٠) ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ وقرئ فاتبعوهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

(٦١) ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ﴾ تقارباً بحيث رأى كل واحد منهما الآخر، وقرئ تراءت الفئتان ﴿أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ لملحقون، وقرئ لمدركون من أدرك الشيء إذا تابع ففني، أي: لمتتابعون في الهلاك على أيديهم^(١).

(٦٢) ﴿قَالَ كَلَّا﴾ لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والثصرة ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة منهم، روي أن مؤمن آل فرعون كان بين يدي موسى فقال: أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيتك آل فرعون، فقال: أمرت بالبحر ولعلي أومر بما أصنع.

(٦٣) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ بحر القلزم أو النيل ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي ففُضِرَ فانفلق وصار اثني عشر فرقا بينها مسالك ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ كالجبل المنيّف الثابت في مقره فدخلوا في شعابها، كل سببط في شعب.

(٦٤) ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ وقربنا ﴿ثُمَّ الْآخِرِينَ﴾ فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم.

(٦٥) ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا.

(٦٦) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

(٦٧) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ وآية آية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما تنبه عليها أكثرهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقي في مصر من القبط، وبنو إسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٢).

(٦٨) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

(١) وفي قوله «إنا لمدركون» حيث جاؤوا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفي التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللاحق (س/٦/٢٤٥).

(٢) البقرة: «٥٥».

وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُمِغِيثِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

(٦٩) ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي العرب ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

(٧٠) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم ليريه أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة.

(٧١) ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُمِغِيثِينَ﴾ فاطالوا جوابهم بشرح حالهم معه تبجحاً به وافتخاراً، ونظّل ههنا بمعنى ندوم. وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

(٧٢) ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أيسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه. وقرئ يسمعونكم أي يسمعونكم الجواب عن دعائكم، ومجيئه مضارعاً مع إذ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها.

(٧٣) ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ على عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ من أعرض عنها.

(٧٤) ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو يتوقع منهم ضرر أو نفع، والتجأوا إلى التقليد.

(٧٥) ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾.

(٧٦) ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ فإن التقدم لا يدل على الصّحة ولا ينقلب به الباطل حقاً.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ يريد أنهم أعداء لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوّه، أو إن المغرّي بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفع في النصيح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول. وإفراد العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسب ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبده، وكان من آبائهم من عباده.

(٧٨) ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق^(١) له من أمور المعاش والمعاد كما قال ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾^(٢) هدايةً مدرّجةً من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضار، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من الرحم، ومنتهائها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بلذاتها. والفاء للسببية إن جعل الموصول مبتدأ، وللعطف إن جعل صفة رب العالمين فيكون اختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية. وقوله:

(١) وصف الله تعالى بأنه خلقه مع أنه خالق للجميع من باب التصريح بالنعم الخاصة ولكون ذلك أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى (س/٦/٢٤٨).

(٢) الأعلى: ٢٣.

وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجَحِّينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصِّلَاحِ كَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾

(٧٩) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ على الأول مبتدأ محذوف الخبر للدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده، وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على أن كل واحدة من الصلوات مستقلة باقتضاء الحكم.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطف على يطعمني ويسقين لأنه من روادفهما من حيث إن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب، وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى لأن المقصود تعديد النعم، ولا ينتقض بإسناد الإمامة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يحسن به لا ضرر فيه وإنما الضرر في مقدماته وهي المرض، ثم إنه لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب التي تستحق دونها الحياة الدنيوية، وخلاص من أنواع المكن والبليات، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر، والصحة إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص عليها قهراً وذلك بقدرته الله العزيز العليم.

(٨١) ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجَحِّينِ﴾ في الآخرة.

(٨٢) ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر، وطلباً لأن يغفر لهم ما يفرط منهم واستغفاراً لما عسى ينذر منه من الصغائر، وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث: إني سقيم، بل فعله كبيرهم هذا، وقوله هي أختي، ضعيف لأنها معارضة وليست خطايا.

(٨٣) ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ كما في العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق. ﴿وَالْحَقِّقْ بِالصِّلَاحِ كَ﴾ ووفني للكمال في العمل لأنظّم به في عداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره.

(٨٤) ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ جاهاً وحسن صيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك ما من أمة إلا وهم محبوبون له مثنون عليه. أو صادقاً من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه وهو محمد ﷺ.

(٨٥) ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة وقد مر معنى الورثة فيها.

(٨٦) ﴿وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ طريق الحق وإن كان هذا الدعاء بعد موته فلعله كان لظنه أنه كان يخفي الإيمان تقيّة من نمرود ولذلك وعده به، أو لأنه لم يمنع بعد من الاستغفار للكفار.

(٨٧) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ بمعاتبتي على ما فرطت، أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الوراث، أو بتعذبي لخفاء العقابة وجواز التعذيب عقلاً، أو بتعذيب والدي، أو ببعثه في عداد الضالين وهو من الخزي بمعنى الهوان، أو من الخزاية بمعنى الحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير للعباد لأنهم معلومون أو للضالين.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ دُسُوبِكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾

(٨٨) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليم القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر آفاته، أو لا ينفعان إلا مالٌ من هذا شأنه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاء له يوم القيامة. وقيل الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أي لا ينفع غنى إلا غناه. وقيل منقطع، والمعنى لكن سلامة من أتى الله بقلب سليم تنفعه.

(٩٠) ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجحون بأنهم المحشورون إليها^(١).

(٩١) ﴿وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ فيرونها مكشوفةً ويتحسرون على أنهم المَسوقون إليها، وفي اختلاف الفعلين ترجيح لجانب الوعد.

(٩٢) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾.

(٩٣) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أين آلهتكم الذين تزعُمون أنهم شفعاؤكم ﴿هَلْ يَصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم لأنهم وآلهتهم يدخلون النار كما قال.

(٩٤) ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ أي الآلهة وعبدتهم، والكَبْكَبَة تكرير الكبّ لتكرير معناه كأن من ألقى في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ متبعوه من غصاة الثقلين. أو شياطينه ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للجنود إن جعل مبتدأ خبره ما بعده أو للضمير وما عطف عليه وكذا الضمير المنفصل وما يعود إليه في قوله:

(٩٦) ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾.

(٩٧) ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ على أن الله يُنطق الأصنام فتخاصم العبدَة ويؤيده الخطاب في قوله:

(٩٨) ﴿إِذْ دُسُوبِكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في استحقاق للعبادة، ويجوز أن تكون الضمائر للعبدة كما في قالوا والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهمالكهم في الضلالة متحسرون عليها^(٢).

(١) وصيغة الماضي فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه في سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره (س/٦/٢٥١).

(٢) وصيغة المضارع في «نُسُوبِكُمْ» لاستحضار الصورة الماضية (س/٦/٢٥٢).

وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتُ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾

(٩٩) ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ .

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء .

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إِذِ الْإِخْلَاءُ يَوْمئذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ، أو فما لنا من شافعين ولا صديق ممن نَعُدُّهم شفعاء وأصدقاء، أو وقعنا في مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق، وجمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، أو لأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء، أو لإطلاق الصديق على الجمع كالعدو لأنه في الأصل مصدر كالحنين والصهيل .

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ تَمْنٌ للرجعة أُقِيمَ فيه (لو) مُقَامَ لَيْتَ لتلاقيهما في معنى التقدير . أو شرطٌ حُذِفَ جوابه . ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابُ التمني أو عطفٌ على كَرَّةٍ، أي: لو أن لنا أن نَكُرَّ فنكون من المؤمنين .

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَآيَةً﴾ لحجة وعِظَةٌ لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظَمِ ترتيب وأحسنِ تقرير، يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالفته معهم وكمالِ إشفاقه عليهم وتصوُّر الأمر في نفسه، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً لهم ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر قومه . ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ به .

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحدٌ من ذريتهم .

(١٠٥) ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ القومُ مؤنثة ولذلك تُصغر على قُوَيْمَةٍ وقد مر الكلام في تكذيبهم المرسلين .

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ لأنه كان منهم ﴿أَلَا نَنْقُوتُ﴾ الله فتركوا عبادة غيره .

(١٠٧) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيكم .

(١٠٨) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فيما أمركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه .

(١٠٩) ﴿وَمَا أَتَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والتَّصَحُّحُ ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(١١٠) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ كرهه للتأكيد والتنبيه على دلالة كل واحد من أمانته وحسَم طمعه على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء في أجري في الكلمات الخمس .

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ (١١١) قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ١١٢ ﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿ ١١٣ ﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١١٤ ﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿ ١١٥ ﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْشُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿ ١١٦ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿ ١١٧ ﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١١٨ ﴾ فَانجِنْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿ ١١٩ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿ ١٢٠ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٢١ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ١٢٢ ﴾

(١١١) ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ الأقلون جاهلاً ومالاً، جمعُ الأرذل على الصحة، وقرأ يعقوب وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهد أو تبع كبطل وأبطال، وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على الخطام الدنيوية، حتى جعلوا اتباع المُقلِّين فيها مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه، وأشاروا بذلك إلى أن اتباعهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك:

(١١٢) ﴿ قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أنهم عملوه إخلاصاً أو طمعاً في طعمة وما عليّ إلا اعتبار الظاهر.

(١١٣) ﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي ﴾ ما حسابهم على بواطنهم إلا على الله فإنه المطلع عليها. ﴿ تَشْعُرُونَ ﴾ لعلمتم ذلك ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون.

(١١٤) ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب لما أوهم قولهم من استدعاء طردهم وتوقيف إيمانهم عليه حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه. وقوله:

(١١٥) ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رجلٌ مبعوثٌ لإنذار المكلفين عن الكفر والمعاصي سواء كانوا أعراءً أو أذلاءً فكيف يليق بي في طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء، أو ما عليّ إلا إنذاركم إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليّ أن أطردهم لاسترضائكم.

(١١٦) ﴿ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْشُوحْ ﴾ عما تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ من المشتومين أو المضروبين بالحجارة.

(١١٧) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ إظهاراً لما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له واستخفافهم عليه.

(١١٨) ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ فاحكم بيني وبينهم من الفتاحة ﴿ وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من قُصدهم أو شؤم عملهم.

(١١٩) ﴿ فَانجِنْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء.

(١٢٠) ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ بعد إنجائه ﴿ الْبَاقِينَ ﴾ من قومه.

(١٢١) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ شاعت وتواترت ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

(١٢٢) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتْ وَعُيُونٌ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أنه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسم أبيهم.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾.

(١٢٥) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

(١٢٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾.

(١٢٧) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تصدير القصص بها دلالة على أن البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه ويُبعدة عن عقابه، وكان الأنبياء متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع، مُبرِّئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ بكل مكان مرتفع، ومنه ريع الأرض لارتفاعها ﴿ءَايَةً﴾ علماً للمارة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بينائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها. أو بروج الحمام، أو بنياناً يجتمعون إليه للعبث بمن يمر عليهم، أو قصوراً يفتخرون بها.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مآخذ الماء وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ فتَحْكُمُونَ بنيانها.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بسيف أو سوط ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ متسلطين غاشمين بلا رافة ولا قصد تأديب ونظر في العاقبة.

(١٣١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ فيما أَدْعُوكم إليه فإنه أنفع لكم.

(١٣٢) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كرهه مرتباً على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد، والوعيد على تركه بالانقطاع، ثم فصل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساوئهم المدلول عليها إجمالاً بالإنكار في ألا تتقون مبالغة في الإيقاظ والحث على التقوى فقال:

(١٣٣) ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ﴾.

(١٣٤) ﴿وَجَنَّتْ وَعُيُونٌ﴾ ثم أوعدهم فقال:

(١٣٥) ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدر على الإنعام قدر على الانتقام.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مَنِ اسْتَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾ أَتَتَرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٥﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٦﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْنًا فَرِهِينَ ﴿١٤٨﴾

(١٣٦) ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ فإننا لا نرعوي عما نحن عليه، وتغييرُ شقِّ النفي عما تقتضيه المبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه.

(١٣٧) ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ما هذا الذي جئنا به إلا كذبُ الأولين، أو ما خُلِقْنَا هذا إلا خلقُهم نحيا ونموت مثلهم ولا بعث ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة خُلُقُ الأولين بضمين أي ما هذا الذي جئت به إلا عادةُ الأولين كانوا يُلَفَّقُونَ مثله، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خُلُقُ الأولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم تزل الناسُ عليها.

(١٣٨) ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ على ما نحن عليه.

(١٣٩) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بسبب التكذيب بريح صرصر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

(١٤٠) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

(١٤١) ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

(١٤٢) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

(١٤٣) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

(١٤٤) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مَنِ اسْتَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

(١٤٥) ﴿ أَتَتَرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴾ إنكار لأن يُترَكوا كذلك، أو تذكيرٌ للنعمة في تخلية الله إياهم

وأسبابِ تنعمهم آمينين ثم فسرهُ بقوله:

(١٤٦) ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

(١٤٧) ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ لطيفٌ لين لِلطُّفِّ الثمر، أو لأن النخل أنثى، وطلع أنث النخل أطفٌ وهو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شماريخُ القنوَ، أو مُتَدَلٌّ منكسرٌ من كثرة الحمل، وإفرادُ النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار.

(١٤٨) ﴿ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْنًا فَرِهِينَ ﴾ بطرين، أو حاذقين من الفَراهة وهي النشاط، فإن الحاذق

يعمل بنشاط وطيب قلب. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فَرِهِين وهو أبلغ من فارهين.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾

(١٥٠) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

(١٥١) ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ استعير الطاعة التي هي انقياد الأمر لامثال الأمر، أو تُسبب حكم الأمر إلى أمره مجازاً.

(١٥٢) ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وصف موضع لإسرافهم ولذلك عطف ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ على يفسدون دلالة على خلوص فسادهم.

(١٥٣) ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين سُحِرُوا كثيراً حتى غلب على عقولهم، أو من ذوي السحر وهي الرثة أي من الأناسي، فيكون:

(١٥٤) ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكيداً له ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك.

(١٥٥) ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ ﴾ أي بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها ﴿ لَهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء كالسقي والقيت للحظ من السقي والقوت. وقرى بالضم ﴿ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ فاقصروا على شربكم ولا تراحموها في شربها.

(١٥٦) ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عظم اليوم لعظم ما يحل فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب.

(١٥٧) ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أسند العقر إلى كلهم لأن عاقرها إنما عقرها برضاهم ولذلك أخذوا جميعاً ﴿ فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب لا توبة، أو عند معاينة العذاب ولذلك لم ينفعهم.

(١٥٨) ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي العذاب الموعود ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماءً بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عُصِمُوا عن مثله ببركة من آمن منهم.

(١٥٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

(١٦٠) ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(١٦١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

(١٦٢) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ .

فَأَنقُضْ اللَّهُ وَأَطِيعُونَ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾

(١٦٣) ﴿ فَأَنقُضْ اللَّهُ وَأَطِيعُونَ ﴾ .

(١٦٤) ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١٦٥) ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكرا لا يشارككم فيه غيركم، أو أتأتون الذكرا من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم، فالمراد بالعالمين على الأول كل من ينكح وعلى الثاني الناس .

(١٦٦) ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ ﴾ للبيان إن أريد به جنس الأنثى، أو للتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن فيكون تعريضا بأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم أيضاً ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات، أو مُفْرِطُونَ فِي الْمَعَاصِي وهذا من جملة ذاك، أو أحقأ بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمة .

(١٦٧) ﴿ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ ﴾ عما تدعيه أو عن نهينا وتقييح أمرنا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ من المنفيين من بين أظهرنا، ولعلهم كانوا يُخرجون من أخرجوه على عُنْفٍ وسوء حال .

(١٦٨) ﴿ قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ من المبغضين غاية البغض لا أقف عن الإنكار عليه بالإبعاد، وهو أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال، لدلالته على أنه معدود في زميرتهم مشهور بأنه من جملتهم .

(١٦٩) ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤمه وعذابه .

(١٧٠) ﴿ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أهل بيته والمتبعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم .

(١٧١) ﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ هي امرأة لوط ﴿ فِي الْغَابِرِينَ ﴾ مقدرة في الباقيين في العذاب إذ أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم . وقيل كائنة فيمن بقي في القرية فإنها لم تخرج مع لوط .

(١٧٢) ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ أهلكتناهم .

(١٧٣) ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ وقيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة فأهلكهم ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴾ اللام فيه للجنس حتى يصح وقوع المضاف إليه فاعل ساء، والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم .

(١٧٤) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَلِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿١٧٥﴾ وَلِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ .

﴿١٧٦﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ الأيكة غيضة ثبّت ناعم الشجر، يريد غيضة بقرب مدين تسكنها طائفة فبعث الله إليهم شعيباً كما بعثه إلى مدين وكان أجنبياً منهم فلذلك قال :

﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ولم يقل أخوهم شعيب . وقيل الأيكة شجرٌ ملتفٌ وكان شجرهم الدوم وهو المقل، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ليكة بحذف الهمزة وإبقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهي اسم بلدتهم، وإنما كتبت ها هنا وفي ص بغير ألف اتباعاً للفظ .

﴿١٧٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ .

﴿١٧٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ .

﴿١٨٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ .

﴿١٨١﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴿١٨١﴾ أتموه . ﴿١٨١﴾ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ الناقصين حقوق الناس بالتطيف .

﴿١٨٢﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ بالميزان السوي، وهو إن كان عربياً فإن كان من القسط ففعلال بتكرير العين وإلا ففعلال . وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف .

﴿١٨٣﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿١٨٣﴾ ولا تنقصوا شيئاً من حقوقهم ﴿١٨٣﴾ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق .

﴿١٨٤﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ وذوي الجيل الأولين يعني من تقدمهم من الخلائق .

﴿١٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ .

﴿١٨٦﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴿١٨٦﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه . ﴿١٨٦﴾ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ في دعواك .

﴿١٨٧﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴿١٨٧﴾ قطعة منها، ولعله جوابٌ لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد . وقرأ حفص بفتح السين ﴿١٨٧﴾ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ في دعواك .

﴿١٨٨﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ وبعباده منزل عليكم ما أوجبه لكم عليه في وقته المقدر له

لا محالة .

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ على نحو ما اقترحوا بأن سلط الله عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى غلت أنهارهم وأظلمت سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليها ناراً فاحترقوا ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١٩١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هذا آخرُ القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسليّة لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به، وأطرادُ نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به، واقتراحهم له استهزاء وعدم مبالاة به يدفع أن يقال إنه كان بسبب اتصالات فلكية أو كان ابتلاء لهم لا مؤاخذه على تكذيبهم.

(١٩٢) ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

(١٩٣) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾.

(١٩٤) ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ تقريرٌ لحقيقه تلك القصص وتنبية على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ، فإن الإخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل، والقلب إن أراد به الروح فذاك وإن أراد به العضو فتخصيصه لأن المعاني الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق، ثم تصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة، والروح الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام فإنه أمينُ الله على وحيه. وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد الزاي ونصب الروح الأمين ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك.

(١٩٥) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ واضح المعنى لثلاثاً يقولوا ما نصنع بما لا نفهمه فهو متعلق بنزل، ويجوز أن يتعلق بالمنذرين أي لتكون ممن أنذروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

(١٩٦) ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وإن ذكره أو معناه لفي الكتب المتقدمة.

(١٩٧) ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد ﷺ ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أن يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم وهو تقريرٌ لكونه دليلاً. وقرأ ابن عامر تكن بالياء وآية بالرفع على أنها الاسم،

(١) ووصفه تعالى بربوبية العالمين للإيدان بأن تنزله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (س/٦/٢٦٣).

والخبر لهم، وأن يعلمه بدلٌ، أو الفاعل وأن يعلمه بدلٌ ولهم حال، أو أن الاسم ضميرُ القصة وآيةٌ خبرٌ (أن يعلمه) والجملة خبرٌ تكن.

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

(١٩٨) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ كما هو زيادةٌ في إعجازه أو بلغة العجم.

(١٩٩) ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ لِفِرْطِ عِنَادِهِمْ واستكبارهم، أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم، والأعجمين جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جُمع جُمع السلامة.

(٢٠٠) ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ أدخلناه ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والضمير للكفر المدلول عليه بقوله ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) فتدل الآية على أنه بخلق الله، وقيل للقرآن أي أدخلناه فيها فعرفوا معانيه وإعجازه ثم لم يؤمنوا به عناداً.

(٢٠١) ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ الملجئ إلى الإيمان.

(٢٠٢) ﴿ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بآتيانه.

(٢٠٣) ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ تحسراً وتأسفاً.

(٢٠٤) ﴿ أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فيقولون أمطر علينا حجارةً من السماء، فآتينا بما تعدنا، وحالهم عند نزول العذاب طلبُ النظرة ^(٢).

(٢٠٥) ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾.

(٢٠٦) ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾.

(٢٠٧) ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ لم يغن عنهم تمتعهم المتطاوُلُ في دفع العذاب وتخفيفه.

(٢٠٨) ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ أنذروا أهلها إلزاماً للحجة.

(٢٠٩) ﴿ ذِكْرَى ﴾ تذكرةٌ ومحلُّها النصبُ على العلة أو المصدرِ لأنها في معنى الإنذار، أو الرفْعُ على أنها صفةٌ منذرون بإضمار ذووا، أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم في التذكرة، أو خبرٌ محذوفٌ والجملة اعتراضية ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فنهلك غيرَ الظالمين، أو قبل الإنذار.

(١) الشعراء: ١٩٩.

(٢) قدم الجار والمجرور «أفبعذابنا» للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى، مع ما فيه من رعاية للفواصل (س/٢٦٦).

وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَاءِ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾

(٢١٠) ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ كما زعم المشركون أنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة.

(٢١١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ وما يصح لهم أن يتزولوا به ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يقدرُونَ.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمْعَزُولُونَ﴾ لأنه مشروط بمشاركة في صفاء الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية، ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل ذلك، والقرآن مشتمل على حقائق ومعاني لا يمكن تلقاها إلا من الملائكة.

(٢١٣) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ تهيج لازدياد الإخلاص ولطف لساثر المكلفين.

(٢١٤) ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم. روي أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال: لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي، قالوا نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(١).

(٢١٥) ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لئن جانبك لهم، مستعاز من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط، ومن للتبيين لأن من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو غيره، أو للتبعيض على أن المراد من المؤمنين المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان.

(٢١٦) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ولم يتبعوك ﴿فَقُلْ إِنَّي بِرِئَاءِ مَا تَعْمَلُونَ﴾ بما تعملونه أو من أعمالكم.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم. وقرأ نافع وابن عامر فتوكل على الإبدال من جواب الشرط.

(٢١٨) ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد.

(٢١٩) ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ وترددك في تصفح أحوال المجتهدين كما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما نسخ قيام فرض الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن^(٢). أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أممتهم، وإنما

(١) أخرجه البخاري (٥٥١/٦) رقم (٣٥٢٥) و(٥٠١/٨) رقم (٤٧٧٠) و(٥٣٩/٨) رقم (٤٨٠١) و(٧٣٧/٨) رقم (٤٩٧١) و(٧٣٧/٨) رقم (٤٩٧٢).

ومسلم (١٩٣/١) رقم (٢٠٨/٣٥٥) من حديث ابن عباس.

(٢) لم أقف عليه؟

وصفه الله تعالى بعلمه بحاله التي بها يستأهل ولايته بعد وصفه بأن من شأنه قهر أعدائه ونصر أوليائه تحقيقاً للتوكل وتطميناً لقلبه عليه .

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تنويه .

(٢٢١) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ .

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لما بين أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكد ذلك بأن بين أن محمداً ﷺ لا يصح أن يتنزلوا عليه من وجهين: أحدهما أنه إنما يكون على شرير كذاب كثير الإثم، فإن اتصال الإنسان بالغائبات لما بينهما من التناسب والتواء، وحال محمد ﷺ على خلاف ذلك. وثانيهما قوله:

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ﴾ أي الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون منهم ظنوناً وأمارات لنقصان علمهم، فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها كما جاء في الحديث^(١) «الكلمة يخطفها الجن فيقزها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» ولا كذلك محمد ﷺ فإنه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تُحصى وقد طابق كلها، وقد فُسر الأكثر بالكل لقوله تعالى ﴿كل أفَّاك أثيم﴾^(٢) . والأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجن. وقيل الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملائكة الأعلى قبل أن يرجعوا فيختطفون منهم بعض المغيبات ويوحون به إلى أوليائهم، أو يلقون مسموعهم منهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ يُسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم.

(٢٢٤) ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ وأتباع محمد ﷺ ليسوا كذلك، وهو استئناف أبطل كونه عليه الصلاة والسلام شاعراً وقرره بقوله:

(٢٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها، وأغلب كلماتهم في النسيب بالحرم والغزل والابتهاج^(٣) وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه، وإليه أشار بقوله:

(١) أخرجه البخاري (١٠/٢١٦ رقم ٥٧٦٢) و(١٠/٥٩٥ رقم ٦٢٣١) و(١٣/٥٣٥ رقم ٧٥٦١) ومسلم (٤/١٧٥٠ رقم ١٢٢، ١٢٣) من حديث عائشة في أطول من ذلك.

(٢) الشعراء: «٢٢٢».

(٣) الابتهاج: ادعاء فعل الفجور ولم يفعله. انظر «بهر» في القاموس.

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وكأنه لما كان إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى، وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء تكلم في القسمين وبين منافاة القرآن لهما ومضادة حال الرسول ﷺ لحال أربابهما. وقرأ نافع يتبعهم على التخفيف، وقرىء بالتشديد وتسكين العين تشبيهاً لبعضه بعضاً.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثر ذكر الله ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته، ولو قالوا هجواً أرادوا به الانتصار ممن هجاهم ومكافحة هُجاة المسلمين كعبدالله بن رواحة^(١) وحسان بن ثابت^(٢) والكعبين^(٣)، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان: «قل وروح القدس معك»^(٤). وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام قال له: «أهْجُهم فوالذي نفسي

(١) عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة، الأمير السعيد الشهيد أبو عمرو الأنصاري الخزرجي البصري النقيب الشاعر.

شهد بداراً والعقبة. يكنى أبا محمد، وأبا رواحة، وليس له عقب. وكان من كُتَّاب الأنصار... [الجرح والتعديل (٥٠/٥) وشذرات الذهب (١٢/١) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٦٥/١)].

(٢) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: الصحابي، شاعر النبي ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدرِكوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، وكان من سكان المدينة. واشتهرت مدائحه في الغسانيين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته لم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً، لعله أصابته.

قال أبو عبيدة: فَضَّلَ حسانُ الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في الإسلام. وشاعر اليمانيين في الإسلام. وكان شديد الهجاء، فحل الشعر. توفي سنة (٥٤هـ). [الأعلام للزركلي (١٧٥/٢ - ١٧٦)].

(٣) المقصود بهما كعب بن مالك بن أبي كعب عمرو بن العَين الخزرجي السلمي عقي، فاته بدر، توفي في دمشق. انظر تجريد أسماء الصحابة ج ٢ ص ٢٣.

وكعب بن زهير بن أبي سلمى: صحابي وشاعر مُجَوِّد كثير الشعر. انظر «خزانة الأدب» (١٥٣/٩ - ١٥٥).

(٤) أخرج البخاري (٣٠٤/٦ رقم ٣٢١٣) و(٤١٦/٧ رقم ٤١٢٣) و(٤١٢٤) و(٥٤٦/١٠ رقم ٦١٥٣). ومسلم (١٩٣٣/٤ رقم ٢٤٨٦/١٥٣).

عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت «أهْجُهم أو هَاجِهم وجبريل معك».

● وأخرج البخاري (٥٤٨/١ رقم ٤٥٣) و(٣٠٤/٦ رقم ٣٢١٢) و(٥٤٦/١٠ رقم ٦١٥٢) ومسلم (١٩٣٢/٤ - ١٩٣٣ رقم ٢٤٨٥/١٥١).

عن أبي هريرة أنَّ عمر مرَّ بحسان وهو يُنشد الشعر في المسجد. فَلَحَظَ إليه.

فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة. فقال: أُنشدُك الله! أسمعْتَ

بيده لهو أشدُّ عليهم من النبل»^(١) ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم، وفي أيَّ منقلب ينقلبون أي بعد الموت من الإيهام والتهويل، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما حين عهد إليه، وقرئ أي مُنْقَلَبَتِ يَنْقَلِبُونَ من الانفلات وهو النجاة والمعنى: أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا عن عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجهٌ من وجوه الانفلات. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام»^(٢).



= رسول الله ﷺ يقول «أَجِبْ عني اللهم أيده بروح القدس» قال: اللهم نعم.

(١) أخرج مسلم (٤/١٩٣٥ رقم ١٥٧/٢٤٩٠).

عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهْجُوا قريشاً. فإنه أشدُّ عليها من رَشَقٍ بالنبل» وفي آخره قصة.

● وأخرج الترمذي (٥/١٣٩ رقم ٢٨٤٧) والنسائي (٥/٢٠٢ رقم ٢٨٧٣) و(٥/٢١١ - ٢١٢ رقم ٢٨٩٣)، عن

أنس - في أثناء حديث - فقال النبي ﷺ: «خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فلهمي أسرع من نضح النبل».

وهو حديث صحيح. وانظر ما قاله المحدث الألباني في «مختصر الشامل» (رقم ٢١٠).

(٢) وهو حديث موضوع.

رواه الثعلبي وابن مردويه عن حديث أبي بن كعب - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٢٢ رقم ١٠٥) وقد تقدم

الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّامِلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾

سورة النمل، مكية وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طَسَّ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الإشارة إلى آي السورة^(١)، والكتاب المبين إما اللوح المحفوظ - وإبائه أنه خُط فيه ما هو كائنٌ فهو بينه للناظرين فيه، وتأخيرُه باعتبار تعلق علمنا به وتقديمه في (الحِجْر) باعتبار الوجود - أو القرآن، وإبائه لما أودع فيه من الحكَم والأحكام، أو لصحته بإعجازه. وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، وتكثيره للتعظيم. وقرئ وكتاب بالرفع على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

(٢) ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعامل فيهما معنى الإشارة، أو بدلان منها أو خبران آخران أو خبران لمحذوف.

(١) وما في اسم الإشارة من معنى البعد - مع قرب العهد بالمشار إليه - للإيدان ببعد منزلته في الفضل والشرف (س/٦/٢٧١).

(٣) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الذين يعملون الصالحات من الصلاة والزكاة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تنمة الصلة والواو للحال أو للعطف، وتغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم الأوحدون فيه، أو جملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فإن تحمّل المشاق إنما يكون لخوف العاقبة والثوق على المحاسبة، وتكرير الضمير للاختصاص^(١).

(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ زين لهم أعمالهم القبيحة بأن جعلها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس، أو الأعمال الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المثوبات عليها ﴿فَهُمْ يَظُنُّونَ﴾ عنها لا يدركون ما يتبعها من ضرر أو نفع.

(٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ أشد الناس خسراناً لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة.

وَأَنَّكَ لَلْفَلْقَى الْفَرَّاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَأَنَّكَ لَلْفَلْقَى الْفَرَّاتِ﴾^(٢) . ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي حكيم وأي عليم، والجمع بينهما مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن علوم القرآن منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله:

(٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر قصته إذ قال ويجوز أن يتعلق بعليم ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن حال الطريق لأنه قد ضله، وجمع الضمير - إن صح أنه لم يكن معه غير امرأته - لما كُتِبَ عنها بالأهل، والسين للدلالة على بعد المسافة والوعد بالإتيان وإن أبطأ ﴿أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ﴾ شعلة نار مقبوسة، وإضافة الشهاب إليه لأنه قد يكون قبساً وغير قبس، ونونه الكوفيون ويعقوب على أن القبس بدل منه أو وصف له لأنه بمعنى المقبوس، والعدتان على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في طه، والترديد للدلالة على أنه إن لم يظفر بهما لم يعد أحدهما بناءً على ظاهر الأمر، أو ثقة بعبادة الله تعالى أنه لا يكاد يجمع جرمانين على عبده ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة.

(٨) ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي بورك فإن النداء فيه معنى القول، أو بأن بورك على أنها مصدرية أو مخففة من الثقلة، والتخفيف وإن اقتضى التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لكنه دعاء وهو يخالف غيره في أحكام كثيرة. ﴿مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من في مكان النار وهو البقعة المباركة المذكورة

(١) وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لأنهما قريتا الإيمان (س/٦/٢٧٢).

(٢) تصديره بحرفي التوكيد «إِنَّ وَاللَّام» لإبراز كمال العناية بمضمونه (س/٦/٢٧٣).

في قوله تعالى ﴿نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾^(١) وَمِنْ حَوْلِ مَكَانِهَا، والظاهر أنه عام في كل من في تلك الأرض، وفي ذلك الوادِ وحواليها من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء وكفائهم أحياء وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى. وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون، وتصدير الخطاب بذلك بشارته بأنه قد قُضي له أمرٌ عظيم تنتشر بركته في أقطار الشام ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ من تمام ما نودي به لثلاثيهم من سماع كلامه تشبيهاً وللتعجب من عظمة ذلك الأمر. أو تعجب من موسى لما دهاه من عظمته.

يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ ۝ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ يُعَقِّبُ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ۚ ۝ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ ۝ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ رِجَالُهَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۚ ۝

(٩) ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ الهاء للشأن وأنا الله جملة مفسرة له، أو للمتكلم وأنا خبره والله بيان له. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفتان لله ممهدتان لما أراد أن يظهره، يريد أنا القويُّ القادر على ما يُبعد من الأوهام كقلب العصا حية، الفاعلُ كلُّ ما أفعله بحكمة وتدبير.

(١٠) ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على بورك أي نودي أن بورك مَنْ في النار وأن ألق عصاك، ويدل عليه قوله وأن ألق عصاك بعد قوله أن يا موسى إني أنا الله بتكرير أن ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك باضطراب^(٢) ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حية خفيفة سريعة، وقرىء جَانٌّ على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ يُعَقِّبُ﴾ ولم يرجع، من عقب المقاتل إذا كَرَّ بعد الفرار، وإنما رُعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به ويدل عليه قوله ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ﴾ أي من غيري ثقة بي أو مطلقاً لقوله ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حين يوحى إليهم من قِزط الاستغراق فإنهم أخوف الناس أي من الله تعالى، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة فيخافون منه.

(١١) ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استثناء منقطع استدرك به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم، وفيهم من فرطت منه صغيرة فإنهم وإن فعلوها أتبعوا فعلها ما يُبطلها ويستحقون به من الله مغفرة ورحمة فإنه لا يخاف أيضاً، وقصد تعريض موسى بوكزه القبطي. وقيل متصل وثم بدلٌ مستأنف معطوف على محذوف أي من ظلم ثم بدل ذنبه بالتوبة.

(١٢) ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنه كان بُدْرعة صوف لا كُم لها. وقيل الجيبُ القميصُ لأنه يُجاب^(٣) أي يقطع ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ آفة كبرص ﴿فِي ثِيَابٍ رِجَالُهَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ في جملتها أو معها على أن التسع هي الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، والجذب في بواديهم،

(١) القصص: ٣٠١.

(٢) والفاء للدلالة على سرعة وقوع مضمونها (س/٦/٢٧٤).

(٣) تقول: جبت القميص أجبيه وأجوبه.

والنقصان في مزارعهم، ولمن عدّ العصا واليد من التسع أن يعدّ الآخرين واحداً ولا يعدّ الفلق لأنه لم يُبعث به إلى فرعون. أو اذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَفُؤَيْهِ﴾ وعلى الأولين يتعلق بنحو مبعوثاً أو مرسلًا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا﴾ بأن جاءهم موسى بها ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة، اسمُ فاعلٍ أُطلق للمفعول، وإشعاراً بأنها لِفَرْطِ اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تُبصر نفسها لو كانت مما يبصر، أو ذات تبصر من حيث إنها تهدي، والعُمى لا تهدي فضلاً عن أن تهدي، أو مبصرة كلٍّ من نظر إليها وتأمل فيها. وقرئ مبصرة أي مكاناً يكثر فيه التبصر ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضحٌ سحريته.

(١٤) ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وكذبوا بها ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وقد استيقنتها لأن الواو للحال ﴿ظُلُمًا﴾ لأنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعاً عن الإيمان. وانتصابهما على العلة من جحدوا ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ طائفة من العلم وهو علمُ الحُكْم والشرائع، أو علماً أي علم^(١). ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة هذه النعمة كأنه قال: ففعلاً شكراً له ما فعلاً وقالوا الحمد لله ﴿الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من لم يؤت علماً أو مثل علمهما، وفيه دليلٌ على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبروا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما، وتحريضٌ للعالم على أن يحمّد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضع ويعتقد أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير.

(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ النبوة أو العلم أو الملك بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيهِ وكانوا تسعة عشر ﴿وَقَالَ يَبْنَئُهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تشهيراً لنعمة الله وتنوياً بها. ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علمُ منَظِقِ الطير وغير ذلك من عظام ما أوتيه، والنطق والمنطق في المتعارف كلُّ لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً وقد يطلق لكل ما يصوّت به على التشبيه، أو التبّع كقولهم نطق الحمامة ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد، فإن الأصوات الحيوانية من حيث إنها تابعة للتخيلات مُنَزَّلَةٌ مُنَزَّلَةَ العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما من جنسه، ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوت حيوان عِلِمَ بقوته القدسية التخيل الذي صوّته والغرض الذي توخاه به. ومن ذلك ما

(١) تصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه (س/٦/٢٧٦).

(٢) وتقديم الجن على الإنس في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الأمر، لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير (س/٦/٢٧٧).

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِءَ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ وتعرّف الطير فلم يجد فيها الهدهد ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أم منقطعةً كأنه لما لم يره ظن أنه حاضرٌ ولا يراه لسائر أو غيره فقال: مالي لا أراه، ثم احتاط فلاح له أنه غائبٌ فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائبٌ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له.

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتف ريشه وإلقائه في الشمس، أو حيث النمل يأكله، أو جعله مع ضده في قفص. ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ بحجة تبين عذره، والحلف في الحقيقة على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث، لكن لما اقتضى ذلك وقوع أحد الأمور الثلاثة ثلث المحلوف عليه بعطفه عليهما، وقرأ ابن كثير أو ليأتيني بنونين الأولى مفتوحة مشددة.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ زماناً غير مديد يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً منه، وقرأ عاصم بفتح الكاف. ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِءَ﴾ يعني حال سبأ، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به لتحقاق إليه نفسه ويتصاغر لديه علمه، وقرئ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق. ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ وقرأ ابن كثير برواية البزي وأبو عمرو غير مصروف على تأويل لقبيلة والبلدة، والقواس بهمزة ساكنة. ﴿بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ بخبر متحقق. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً فوافى صنعاء ظهيرةً فأعجبته نزاهة أرضها فترل بها ثم لم يجد الماء - وكان الهدهد رائده لأنه يُحسن طلب الماء - فتفقده لذلك فلم يجده إذ خلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقفاً فأنحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له، ثم رجع بعد العصر وحكى ما حكى، ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها.

(٢٣) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان، والضمير لسبأ أو لأهلها. ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ عظمته بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها. وقيل كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عرضاً وسفكاً، أو ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر.

(٢٤) ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كأنهم كانوا يعبدونها ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ عبادة الشمس وغيرها من مقابح أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ إِلَى أُلْقَى إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾

(٢٥) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فصددهم لثلاثا يسجدوا أو زين لهم أن لا يسجدوا على أنه بدل من أعمالهم، أو لا يهتدون إلى أن يسجدوا بزيادة لا. وقرأ الكسائي ويعقوب ألا بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء، ومناداه محذوف أي: ألا يا قوم اسجدوا كقوله:

وَقَالَتْ أَلَا يَا أَسْمَعَ أَعْظَمَكَ بِخُطْبَةٍ فَقُلْتُ سَمِيعاً فَأَنْطَقِي وَأَصِيبِي

وعلى هذا صح أن يكون استئنافاً من الله أو من سليمان والوقف على لا يهتدون، فيكون أمراً بالسجود وعلى الأول ذمّاً على تركه وعلى الوجهين يقتضي وجوب السجود في الجملة لا عند قراءتها، وقرىء هَلَا وَهَلَا بقلب الهمزة هاءً وألا تسجدون وهلا تسجدون على الخطاب ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وصف له تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلم حثاً على سجوده ورداً على من يسجد لغيره، والخباء ما خفي في غيره، وإخراجه إظهاره، وهو يعم إشراق الكواكب وإنزال الأمطار وإنبات النبات بل الإنشاء فإنه إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفعل، والإبداع، فإنه إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود، ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته. وقرأ حفص والكسائي ما تخفون وما تعلنون بالتاء.

(٢٦) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أول الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها،

فبين العظيمين بوناً.

(٢٧) ﴿قَالَ سَنْظُرُ﴾ سنعرف، من النظر بمعنى التأمل ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي أم

كذبت، والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل.

(٢٨) ﴿أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ ثم تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

(٢٩) ﴿قَالَتْ﴾ أي بعد ما أُلْقِيَ إليها ﴿يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ إِلَى أُلْقَى إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه أو مُرْسِلِهِ، أو

لأنه كان مختوماً أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به^(١).

(٣٠) ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ استئناف كأنه قيل لها ممن هو وما هو؟ فقالت إنه، أي إن الكتاب أو

العنوان من سليمان ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أي وإن المكتوب أو المضمون وقرىء بالفتح على الإبدال من كتاب أو التعليل لكرمه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

(١) لم يذكر فعل الهدهد وما أمر به إيداناً بكمال مسارعة إلى إقامة ما أمر به من الخدمة، وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره (س/٦/٢٨٣).

أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاؤُا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

(٣١) ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ﴾ أن مفسرة أو مصدريه فتكون بصلتها خبر محذوف أي هو، أو المقصود أن لا تعلموا، أو بدل من كتاب ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منافقين، وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود، لاشتماله على البسمة الدالة على ذات الصانع تعالى وصفاته صريحاً أو التزاماً، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل، والأمر بالإسلام الجامع لأمها الفاضل، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة.

(٣٢) ﴿قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أجيوني في أمري الفتى واذكروا ما تستصوبون فيه ^(١) ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ما أبت أمراً إلا بمحضركم. استعطفنهم بذلك ليمالئوها على الإجابة.

(٣٣) ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاؤُا قُوَّةٍ﴾ بالأجساد والعدد ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ نجدة وشجاعة ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ موكول ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من المقاتلة أو الصلح تطغك وتتبع رأيك.

(٣٤) ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ غنوة وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ تزييف لما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القوى الذاتية والعرضية، وإشعاراً بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خططهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم، ثم إن الحرب سجالاً لا تدري عاقبتها ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَآ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم وتقرير بأن ذلك من عاداتهم الثابتة المستمرة، أو تصديق لها من الله عز وجل.

(٣٥) ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ بيان لما ترى تقديمه في المصالحة، والمعنى إني مرسله رسلاً بهدية أذفعه بها عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك. روي ^(٢) أنها بعثت منذر بن عمرو في وفد وأرسلت معهم غلماناً على زي الجوارى وجوارى على زي الغلمان، وحققا فيه درة عذراء وجزعة مفعوجة الثقب وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة ثقباً مستويًا وسلك في الخرزة خيطاً، فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمة شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريل بالحال فطلب الحق وأخبر عما فيه، فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية.

(١) وكررت حكاية قولها (قالت) للإيدان بغاية اعتنائها بما في حيزه من قولها (س/٦/٢٨٤).

(٢) هذه الرواية من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٧٥).

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَأَيَّأُ الْاَلْمَلُؤُاُ أَيُّكُم يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ﴾ أي الرسول ﴿أَوْ مَا أَهْدَتْ إِلَيْهِ وَقرىء فلما جاؤوا﴾ ﴿قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ خطابٌ للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب. وقرأ حمزة ويعقوب بالإدغام، وقرىء بنون واحدة وينونين وحذف الياء. ﴿فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ﴾ من النبوة والملك الذي لا مزيد عليه، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها، وبإمالتها الكسائي وحده ﴿خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وقع لها عندي ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما يهدي إليكم حياً لزيادة أموالكم، أو بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم، والإضراب عن إنكار الإمداد بالمال عليه وتقليله إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو قياس حاله على حالهم في قصور الهمة بالدنيا والزيادة فيها.

(٣٧) ﴿أَرْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرىء بهم. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أسراء مهانون.

(٣٨) ﴿قَالَ يَتَأَيَّأُ الْاَلْمَلُؤُاُ أَيُّكُم يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالة على عظم القدرة وصدقته في دعوى النبوة، ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تُنكره. ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحل أخذها إلا برضاها.

(٣٩) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ خبيثٌ مارد ﴿بَيَّأُ لَهُ لِأَنَّهُ يُقَالُ لِلرَّجُلِ الْخَبِيثِ الْمُنْكَرِ الْمَعْفَرِ أَقْرَانَهُ، وَكَانَ اسْمُهُ ذُكْوَانٌ أَوْ صَخْرًا﴾ ﴿أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار، ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لا أختزل منه شيئاً ولا أبدله.

(٤٠) ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ آصف بن برخيا وزيره، أو الخضر أو جبريل عليهما السلام أو ملكٌ أیده الله به^(١)، أو سليمان عليه السلام نفسه فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه، والخطاب في: ﴿أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعفريت كأنه استبطأه فقال له ذلك، أو أراد إظهار معجزة في نقله فتحداهم أولاً ثم أراهم أنه يتأتى له ما لا يتأتى لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم، والمراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة أو اللوح، وأتيك في الموضعين صالح

(١) انظر هذه الأقوال في «جامع البيان» (١١/ج ١٩/١٦٢ - ١٦٣) و«زاد المسير» (٦/١٧٥) و«الدر المنثور» (٦/٣٦٠ - ٣٦١).

للفعلية والاسمية، والطرف تحريك الأجفان للنظر فوضع موضعه، ولما كان الناظر يوسف بإرسال الطرف كما في قوله:

وَكُنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعْبَثُكَ الْمَنَظَرُ

وصف برد الطرف والطرف بالارتداد، والمعنى أنك تُرسل طرفك نحو شيء فقبل أن تزده أحضر عرشها بين يديك، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه ﴿فَلَمَّارَةٌ﴾ أي العرش ﴿مُسْتَقَرًّا عِنْدُكُمْ﴾ حاصلًا بين يديه ﴿قَالَ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر على شاكلة المخلصين من عباد الله تعالى ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ تفضل به علي من غير استحقاق، والإشارة إلى التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره، والكلام في إمكان مثله قد مر في آية الإسراء ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حولٍ مني ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد نفسي في البين، أو أقصر في أداء مواجهه ومحلها نصب على البدل من الياء ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنه به يستجلب لها دوام النعمة ومزيدها ويحط عنها عبء الواجب ويحفظها عن وصمة الكفران ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَذِيبٌ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالأنعام عليه ثانياً.

قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

(٤١) ﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتغيير هيئته وشكله ﴿نَنْظُرْ﴾ جواب الأمر، وقرئ بالرفع على الاستئناف ﴿أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته أو الجواب الصواب، وقيل إلى الإيمان بالله ورسوله إذا رأت تقدّم عرشها وقد خلفته مغلفةً عليه الأبواب موكلّةً عليها الحراس.

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ تشبيهاً عليها زيادةً في امتحان عقلها إذ ذكرت عنده بسخافة العقل ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولم تقل هو هو لاحتمال أن يكون مثله وذلك من كمال عقلها ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من تمتة كلامها كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت: وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصحة نبوتك قبل هذه الحالة، أو المعجزة مما تقدم من الآيات. وقيل إنه من كلام سليمان عليه السلام وقومه، وعطفوه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله ورسوله حيث جوزت أن يكون ذلك عرشها تجويزاً غالباً، وإحضاره ثمة من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أي وأوتينا العلم بالله وقدرته وصحة ما جاء به عنده قبلها وكنا منقادين لحكمه ولم نزل على دينه، ويكون غرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكراً لله تعالى.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وصدها عبادتها الشمس عن التقدم إلى الإسلام، أو وصدها الله عن عبادتها بالتوفيق للإيمان. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وقرئ بالفتح على الإبدال من فاعل صدها على الأول، أي صدها نشؤها بين أظهر الكفار، أو التعليل له.

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۖ
 قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ
 صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ
 لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَاعْتِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
 بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٤) ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ القصر وقيل عَرَصَةُ الدار ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ روي أنه أمر قبل قدومها ببناء قصر صحته من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقها. وقرأ ابن كثير برواية قبل ساقها بالهمز حملاً على جمعه سُوق وأسوق. ﴿قَالَ إِنَّهُمْ﴾ إن ما تظنيه ماء ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملس ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي الشمس، وقيل بظني بسليمان فإنها حسبت أنه يُغرقها في اللُجَّة. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيما أمر به عباده، وقد اختلف في أنه تزوجها أو زوجها من ذي ثُبُع ملك همدان.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بأن اعبدوا الله، وقرئ بضم النون على إتباعها الباء ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ففاجؤوا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق، والواو لمجموع الفريقين.

(٤٦) ﴿قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة فتقولون اتنا بما تعدنا ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى نزول العقاب فإنهم كانوا يقولون إن صدق إيعاده ثُبْنَا حينئذ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ قبل نزوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبولها فإنها لا تقبل حينئذ.

(٤٧) ﴿قَالُوا أَطِيعْنَا﴾ تشاء منا ﴿بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ﴾ إذ تابعت علينا الشدائد، أو وقع بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم ﴿قَالَ طَاعْتِكُمْ﴾ سبيكم الذي جاء منه شرُّكم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

(٤٨) ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة أنفس، وإنما وقع تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى، والفرق بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة. ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح.

(١) هذه الرواية من الإسرائيليات وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر بعض المرويات في ذلك (٣/٣٧٨ - ٣٧٩) «والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلفاة، عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم... من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ والله الحمد والمنة» هـ.

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكْرُؤُهُمْ مَكْرَأٌ وَمَكْرَتُهُمْ مَكْرَأٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا
دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبِئْسَ مَا يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ تَكُونُ الْخَوَاصِرُ يَمَاطُ أَيْمَانُكُمْ فِي ذَلِكَ لَأَيُّهُ لِقَوْمِهِمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ طَافَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ
الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْتَكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

(٤٩) ﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أمرٌ مقول أو خبرٌ وقع بدلاً أو حالاً بإضمار قد ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنبأغتن صالحاً وأهله ليلاً. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على خطاب بعضهم لبعض، وقرىء بالياء على أن تقاسموا خبر ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ فيه القراءات الثلاث ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ فضلاً أن تولينا إهلاكهم، وهو يحتمل المصدر والزمان والمكان وكذا مهلك في قراءة حفص فإن مفعلاً قد جاء مصدراً كمرجع. وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً ﴿وَأِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ ونحلف إننا لصادقون، أو والحال إننا لصادقون فيما ذكرنا لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً، أو لأننا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثمة رجلاً بل رجلين.

(٥٠) ﴿وَمَكْرُؤُهُمْ مَكْرَأٌ﴾ بهذه المواضع ﴿وَمَكْرَتُهُمْ مَكْرَأٌ﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، روي أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شُعب يصلي فيه فقالوا: زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشُعب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشُعب فهلكوا ثمة وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أشار إليه قوله:

(٥١) ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكان إن جعلت ناقصة فخيرها كيف وإننا دمرناهم استئناف أو خبرٌ محذوف لا خبرٌ كان لعدم العائد، وإن جعلتها تامة فكيف حال. وقرأ الكوفيون ويعقوب أنا دمرناهم بالفتح على أنه خبرٌ محذوف أو بدلٌ من اسم كان أو خبرٌ له وكيف حال.

(٥٢) ﴿فَبِئْسَ مَا يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ تَكُونُ الْخَوَاصِرُ يَمَاطُ أَيْمَانُكُمْ فِي ذَلِكَ لَأَيُّهُ لِقَوْمِهِمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهي حالٌ عمِل فيها معنى الإشارة. وقرىء بالرفع على أنه خبرٌ مبتدأ محذوف ﴿يَمَاطُ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيُّهُ لِقَوْمِهِمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيتعظون.

(٥٣) ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ صالحاً ومن معه ﴿وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ الكفر والمعاصي فلذلك خُصوا بالنجاة.

(٥٤) ﴿وَلَوْ طَافَ﴾ واذكر لو طافاً، أو وأرسلنا لو طافاً للدلالة ولقد أرسلنا عليه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بدلٌ على الأول وظرفٌ على الثاني ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون فُحْشَهَا، مِنْ بَصَرِ الْقَلْبِ، واقتراءُ القبايح من العالم بقبحها أقبح، أو يبصرها بعضكم من بعض لأنهم كانوا يعلنون بها فتكون أفحش.

(٥٥) ﴿أَيْتَكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بيانٌ لإتيانهم الفاحشة، وتعليقه بالشهوة للدلالة على قُبْحه، والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلبُ النسل لا قضاء الوطر. ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ اللاتي خُلِقن لذلك

(٦١) ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدل من أَمَّنْ خلق السموات وجعلها قراراً بإبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يتأتى استقرار الإنسان والدواب عليها ﴿وَجَعَلْ جُلُودَهَا﴾ وسطها ﴿أَنْهَرًا﴾ جارية

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبلاً تكون فيها المعادن وتنبع من حضيضها المنابع ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح، أو خليجَي فارس والروم ﴿حَاجِزًا﴾ برزخاً وقد مر بيانه في سورة الفرقان ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فيشركون به.

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطرُّ الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجوء إلى الله تعالى من الاضطراب، وهو افتعالٌ من الضرورة، واللام فيه للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر. ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوؤه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ خلفاء فيها بأن ورثكم سُكنائها والتصرف فيها ممن قبلكم ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ الذي خصكم بهذه النعم العامة والخاصة ﴿قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾ أي تذكرون آلاءه تذكراً قليلاً، وما مزيدة والمراد بالقلة العدم أو الحقارة المزيحة للفائدة. وقرأ أبو عمرو وهشامٌ وروح بالياء، وحمزة والكسائي وحفصٌ بالياء وتخفيف الذال^(١).

(٦٣) ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم وعلامات الأرض، والظلمات ظلمات الليالي، وإضافتها إلى البر والبحر للملاسة، أو مشتبهات الطرق، يقال طريقة ظلمات وعمياء للتي لا منارَ بها ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المطر، ولو صح أن السبب الأكثر في تكون الرياح مُعاودة الأذخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لانكسار حرّها وتمويجها الهواء فلا شك أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك من خلق الله تعالى، والفاعلُ للسبب فعل المُسَبَّب. ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ يقدر على مثل ذلك. ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

(٦٤) ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ والكفرة وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالحُجج الدالة عليها ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بأسباب سماوية وأرضية ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على أن غيره يقدر على شيء من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إشراككم فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية.

(٦٥) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لما بين اختصاصه تعالى بالقدرة التامة الفائقة العامة أتبعه ما هو كاللازم له، وهو التفرد بعلم الغيب، والاستثناء منقطع، ورفع المستثنى على اللغة التيمية للدلالة على أنه تعالى إن كان ممن في السموات والأرض ففيها من يعلم الغيب مبالغة في نفيه

(١) وفي تدليل الكلام بنفي التذكر عنهم إيذان بأن مضمونه مركوز في ذهن كل ذكي وغبي وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره (س/٦/٢٩٥).

عنهم، أو متصل على أن المراد ممن في السموات والأرض من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها، فإنه يعلم الله تعالى وأولي العلم من خلقه وهو موصول أو موصوف ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متى يُنشرون، مركبة من أي وأن، وقُرئت بكسر الهمزة والضمير لمن وقيل للكفرة.

بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ ذَا كُنَّا تُرَبًّا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك بنفي شعورهم بما هو مألهم لا محالة بالغة فيه، بأن أضرب عنه وبين أن ما انتهى وتكامل فيه أسباب علمهم من الحُجج والآيات وهو أن القيامة كائنة لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ لا يدركون دلالتها لاختلال بصيرتهم، وهذا وإن اختص بالمشركون ممن في السموات والأرض نسب إلى جميعهم كما يُسند فعل البعض إلى الكل، والإضرابات الثلاث تنزِيلٌ لأحوالهم، وقيل الأول إضراب عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم إلى وصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً بهم، وقيل ادراك بمعنى انتهى واضمحل من قولهم أدركت الثمرة لأن تلك غايتهما التي عندها تعدم. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بل أدرك بمعنى تابع حتى استحكم، أو تابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تابَعُوا في الهلاك، وأبو بكر أدرك وأصلهما تفاعل وافتعل. وقرئ أدرك بهمزةً وأدرك بالفتح بينهما، وبل أدرك، وبل تدارك وبل أدرك وبل أدرك وأم أدرك أو تدارك، وما فيه استفهام صريح أو مُضْمَن من ذلك فإنكاراً، وما فيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالأدراك على التهكم، وما بعده إضراب عن التفسير مبالغة في نفيه ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عَمُونَ، أو ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم.

(٦٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ ذَا كُنَّا تُرَبًّا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ كاليان لِعَمَهُمْ، والعامل في إذا ما دل عليه أننا لمخرجون، وهو نُخْرَج لا مُخْرَجُونَ لأن كلاً من الهمزة وإن واللام مانعة من عمله فيما قبلها، وتكرير الهمزة للمبالغة في الإنكار، والمراد بالإخراج الإخراج من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة، وقرأ نافع إذا كنا بهمزة واحدة مكسورة، وقرأ ابن عامر والكسائي إننا لمخرجون بنونين على الخبر.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل وغد محمد ﷺ، وتقديم هذا على نحن لأن المقصود بالذكر هو البعث وحيث أخر فالمقصود به المبعوث ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ التي هي كالأسمار.

(٦٩) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم، والتعبير عنهم بالمجرمين ليكون لطفًا بالمؤمنين في ترك الجرائم.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذبيهم وإعراضهم ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج صدر، وقرأ ابن كثير بكسر الصاد وهما لغتان، وقرئ ضيق أي أمر ضيق ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم فإن الله يعصمك من الناس.

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ العذاب الموعود ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ﴾ تبعكم ولحقكم، واللام مزيدة للتأكيد، أو الفعل مضمّن معنى فعل يتعدى باللام مثل دنا. وقرئ بالفتح وهو لغة فيه^(١) ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلوله وهو عذاب يوم بدر، وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يطلقونها إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمز منهم كال تصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله تعالى ووعدته.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي، والفضل والفاضلة الأفضال وجميعها فضول وفواضل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تخفيه وقرئ بفتح التاء من كُنْتُ أي سترت ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عداوتك فيجازيهم عليه.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ خافية فيهما، وهما من الصفات الغالبة والتاء فيهما للمبالغة كما في الراوية، أو اسمان لما يغيب ويخفى كالتاء في عافية وعاقبة ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بين، أو مبين ما فيه لمن يطالعه، والمراد اللوح أو القضاء على الاستعارة.

(٧٦) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح.

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بين بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِ﴾ بما يحكم به وهو الحق، أو بحكمته ويدل عليه أنه قرئ بحكمه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه وحكمه.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا ثبال بمعاداتهم ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره.

(١) وإشار ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسى أن يردفكم... لكونه أدل على تحقق الوقوع (س/٦/٢٩٨).

إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طمعه عن مشايعتهم ومعاصدتهم رأساً، وإنما شُبِّهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم، كما شُبِّهوا بالصَّمِّ بقوله ﴿وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن إسماعهم في هذه الحالة أبعد. وقرأ ابن كثير ولا يسمع الصَّمَّ.

(٨١) ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر. وقرأ حمزة وحده: وما أنت تهدي العمى ﴿إِنْ تَسْمِعُ﴾ أي ما يُجدي إسماعك ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ من هو في علم الله كذلك ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون، من أسلم وجهه لله^(١).

(٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دنا وقوع معناه وهو ما وعدوا به من البعث والعذاب^(٢) ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ وهي الجَسَّاسة، روي^(٣) أن طولها ستون ذراعاً ولها أربع قوائم ورَعَبٌ ورِيشٌ وجناحان، لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب. وروي^(٤) أنه عليه الصلاة والسلام سُئل من أين مخرجها فقال: «من أعظم المساجد حرمةً على الله» يعني المسجد الحرام ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام، وقيل من الكلّم إذ قرىء تكلمهم. وروي^(٥) أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما الصلاة والسلام، فتتكت بالعصا في مسجد المؤمن نكتة بيضاء فيبيض وجهه، وبالخاتم في أنف الكافر نكتة سوداء فيسود وجهه ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ خروجها وسائر أحوالها فإنها من آيات الله تعالى. وقيل القرآن، وقرأ الكوفيون أن الناس بالفتح ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يتقنون، وهو حكاية معنى قولها أو حكايتها لقول الله عز وجل أو علة خروجها، أو تكلمها على حذف الجار.

(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يعني يوم القيامة ﴿مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ بيان للفوج أي فوجاً مكذبين، ومن الأولى للتبعض لأن أمة كل نبي وأهل كل قرن شامل للمصدقين والمكذبين ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارة عن كثرة عددهم وتباعد أطرافهم.

(١) وإيراد الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية لأن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية (س/٦/٣٠٠).

(٢) عبر عن الساعة بالقول لأنه مصداق للقول الناطق بمجيئها، وعبر عنه بالوقوع للإيدان بشدة وقعها وتأثيرها (س/٦/٣٠٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/١٥٠ ج/٢٠) عن حذيفة مرفوعاً وقال عنه ابن كثير (٣/٣٨٧): «إسناده لا يصح».

(٤) أخرجه ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد أراه رفعه - كما في «الدر المنثور» (٦/٣٨٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/١٥٠ ج/٢٠) عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً وإسناده لا يصح كما قال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٨٧).

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسِكُنَا فِيهِ وَلَنَهَارٍ مُّبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال أي أكذبتكم بها بادىء الرأي غير ناظرين فيها نظراً يُحِيط علمكم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب، أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحقيقها ﴿أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم أي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك، وهو للتبكي إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا غير ذلك.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حل بهم العذاب الموعود وهو كبُهم في النار بعد ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ليتحقق لهم التوحيد ويرشدوهم إلى تجويز الحشر وبعثه الرسل، لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهر، وأن من قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قدر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان، وأن من جعل النهار ليُبصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يُخَلَّ بما هو مناط جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسِكُنَا فِيهِ﴾ بالنوم والقرار ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإن أصله ليُبصروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المَجْعُولِ عليها بحيث لا ينفك عنها ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لدلالاتها على الأمور الثلاثة.

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ في الصور أو القرن، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نُفِخ في البوق. ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الهول. وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا يفزع بأن يثبت قلبه. قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقيل الحور والخزنة وحملة العرش، وقيل الشهداء، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام لأنه صُفِقَ مرة، ولعل المراد ما يعم ذلك. ﴿وَكُلُّ أَتَوَةٍ﴾ حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية، أو راجعون إلى أمره، وقرأ حمزة وحفص أتوه على الفعل، وقرأه أناه على التوحيد للفظ الكل ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين وقرىء دَخِرِينَ.

(٨٨) ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ ثابتة في مكانها ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ في السرعة، وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد تبين حركتها ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو لمضمون الجملة المتقدمة كقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾^(١) ﴿الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ عالم بظواهر الأفعال وبواطنها فيجازيكم عليها كما قال:

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَجٍ يَوْمَذِئَامٍ ۖ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ إذ ثبت له الشريف بالخسيس والباقي بالفاني وسبعُمائة بواحدة،

وقيل خيرٌ منها أي خيرٌ حاصل من جهتها وهو الجنة، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وهشام خبير بما يفعلون بالياء والباقون بالتاء ﴿وَهُمْ مِّنْ فَرَجٍ يَوْمَذِئَامٍ﴾ يعني به خوف عذاب يوم القيامة، وبالاول ما يلحق الإنسان من التهيب لما يرى من الأحوال والعظائم لذلك يعمُّ الكافر والمؤمن، وقرأ الكوفيون بالتنوين لأنَّ المراد فرَجٌ واحدٌ من أفزاع ذلك اليوم، وأمنَ يتعدى بالجارِّ وبنفسه كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾^(١). وقرأ الكوفيون ونافعٌ يومئذٍ بفتح الميم والباقون بكسرها.

(٩٠) ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ قيل بالشرك ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فكُتِبوا فيها على وجوههم، ويجوزُ أن يُرَادَ بالوجوه أنفسهم كما أُرِيدَتْ بالأيدي في قوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٢) ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الالتفاتِ أو بإضمارِ القولِ أي قيلَ لهم ذلك.

(٩١) ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أمر الرسول ﷺ بأن يقولَ لهم ذلك بعدما بيَّن المبدأ والمعادَ وشرحَ أحوالَ القيامةِ، إشعاراً بأنه قد أتمَّ الدعوةَ وقد كُتِلَتْ وما عليه بعدُ إلا الاشتغالُ بشأنه والاستغراقُ في عبادةِ ربِّه، وتخصيصُ مكَّةَ بهذه الإضافة تشريفاً لها وتعظيمٌ لشأنها. وقرئَ التي حَرَّمَها. ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً ومُلْكاً. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام.

(٩٢) ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ وأنَّ أوْظَبَ على تلاوته لتكشفَ لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً، أو اتباعه وقرئَ واتلُ عليهم وأن اتلُ ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ باتباعه إيايَ في ذلك ﴿فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فإنَّ منافعه عائدةٌ إليه. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بمخالفتي ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ فلا عليَّ من وبالٍ ضلاله شيءٌ إذ ما على الرسولِ إلا البلاغُ وقد بلغتُ.

(٩٣) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة النبوة أو على ما علَّمني ووفَّقني للعمل به. ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ القاهرة في الدنيا كوقعة بدرٍ وخروج دابة الأرض، أو في الآخرة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أنها آياتُ الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تحسبوا أنَّ تأخيرَ عذابكم لغفلته عن أعمالكم. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالياء. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ طَس كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ

(١) الأعراف: «٩٩».

(٢) البقرة: «١٩٥».

حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ سُلَيْمَانَ وَكَذَّبَ بِهِ وَهُودًا وَصَالِحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَشُعَيْبًا، وَيَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ يَنَادِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي، وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٢٦ رقم ١٣٠) وتقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

فهرس السور

اسم السورة	رقم الصفحة
تفسير سورة الأنفال	٥
تفسير سورة التوبة	٣٥
تفسير سورة يونس	٨٨
تفسير سورة هود	١٢٠
تفسير سورة يوسف	١٥٧
تفسير سورة الرعد	١٩٥
تفسير سورة إبراهيم	٢١٣
تفسير سورة الحجر	٢٣٣
تفسير سورة النحل	٢٥١
تفسير سورة الإسراء	٢٨٩
تفسير سورة الكهف	٣٢٦
تفسير سورة مريم	٣٥٩
تفسير سورة طه	٣٨٢
تفسير سورة الأنبياء	٤١٢
تفسير سورة الحج	٤٣٧
تفسير سورة المؤمنون	٤٦٢
تفسير سورة النور	٤٨٤
تفسير سورة الفرقان	٥١٢
تفسير سورة الشعراء	٥٣٤
تفسير سورة النمل	٥٧٨ - ٥٥٩

☆ ☆ ☆

فهرس الأجزاء

٥	سورة الأنفال بقية جـ /٩/
٢١	سورة الأنفال جـ /١٠/
٧٣	سورة التوبة جـ /١١/
١٢١	سورة هود جـ /١٢/
١٧٨	سورة يوسف جـ /١٣/
٢٣٣	سورة الحجر جـ /١٤/
٢٨٩	سورة الإسراء جـ /١٥/
٣٤٩	سورة الكهف جـ /١٦/
٤١٢	سورة الأنبياء جـ /١٧/
٤٦٢	سورة المؤمنون جـ /١٨/
٥١٨	سورة الفرقان جـ /١٩/
٥٧٨ - ٥٧١	سورة النمل جـ /٢٠/

☆ ☆ ☆

أَيُّهَا النَّبِيُّ
أَيُّهَا النَّبِيُّ

المسمى

تفسير البصائر

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الله بن محمد (شهرزادى الريزى)

حَقَّقَهُ وَوَضَعَ عَلَيْهِ وَحُجَّجَ أَحَادِيثَهُ وَصَبَّغَ نَصَّهُ

مُحَمَّدُ صَبَّغِي حَسَنُ خَلَّاقٍ وَ مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ الْأَطْرَش

المجلد الثالث

مكتبة تفسير القرآن
بيروت - لبنان

دار القرآن
بيروت

المسحى

تقسیم البضای

تأليف

الذی یعنی نصره بن ابی سعید خدری بن عمر بن محمد (رضی اللہ عنہ) (الضیائی کے

حَقَّقَهُ وَوَعَلَّ عَلَيْهِ وَخَرَجَ أَحَادِيثُهُ وَضَبَطَ نَصْرَهُ

مَحَمَّدٌ صَبِيحِي حَسَنُ خَلْقٍ وَ مَحَمَّدٌ أَحْمَدُ الْأَطْرَشِ

المجلد الثالث

هو محمد بن الامين
بيروت - لبنان

سأدركهم حين
يشتق - ميسور

تَفْسِيرُ الْبَيْضَوَيْ

المسمى

أَنْوَارُ النُّزَايَا أَسْرَارُ النَّبَايَا

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت ٧٩١ هـ

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ وَخَرَجَ أَحَادِيثَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

مُحَمَّدُ صَبَّحِي بْنُ حَسَنٍ حَلَّاقٌ فِي الدُّكُورِ مُحَمَّدُ أَحْمَدُ الْأَطْرَشُ

المجلد الثالث

جميع الحقوق محفوظة

لدار الرشيد

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م



سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

سورة القصص مكية^(١)

وقيل إلا قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب إلى قوله لا نبتغي الجاهلين وهي ثمانون
وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طَسَمَ﴾.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

(٣) ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ نقرؤه بقراءة جبريل، ويجوز أن يكون بمعنى ننزله مجازاً ﴿مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ بعض نبيهما، مفعول نتلو ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُحَقِّقِينَ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المتتبعون به.

(٤) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ استئناف مبين لذلك البعض، والأرض أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٩) و«زاد المسير» (٦/ ٢٠٠).

شَيْعًا ﴿ فِرْقًا يُشِيعُونَهُ فِيمَا يَرِيدُ، أَوْ يَشِيعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي طَاعَتِهِ، أَوْ أَصْنَافًا فِي اسْتِخْدَامِهِ اسْتُغْمِلَ كُلُّ صِنْفٍ فِي عَمَلٍ، أَوْ أَحْزَابًا بِأَنْ أَغْرَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ كَيْ لَا يَتَّفِقُوا عَلَيْهِ ﴾ يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل، والجملة حال من فاعل جعل، أو صفة لشيعاً أو استئناف، وقوله ﴿ يُدَيِّعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ بدل منها، كان ذلك لأن كاهناً قال له يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده، وذلك كان من غاية حمقه فإنه لو صدق لم يندفع بالقتل وإن كذب فما وجهه؟ ﴿ إِنَّكَ كَانتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فلذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء ليتخيل فاسد.

(٥) ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَنْ تَفْضَلَ عَلَيْهِمْ بِإِنْقَادِهِمْ مِنْ بَاسِهِ، وَرِيدُ حِكَايَةِ حَالٍ مَاضِيَةٍ مَعْطُوفَةٍ عَلَى (إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمَا وَقَعَانِ تَفْسِيرًا لِلنَّبَأِ، أَوْ حَالٍ مِنْ يَسْتَضَعِفُ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ مَقَارِنَةِ الْإِرَادَةِ لِلْإِسْتِضْعَافِ مَقَارِنَةُ الْمَرَادِ لَهُ، لِحَوَازِ أَنْ يَكُونَ تَعْلُقُ الْإِرَادَةِ بِهِ حِينَئِذٍ تَعْلُقًا اسْتِقْبَالِيًّا مَعَ أَنَّ مَنَّةَ اللَّهِ بِخَلَاصِهِمْ لَمَّا كَانَتْ قَرِيبَةً الْوُقُوعِ مِنْهُ جَازَ أَنْ تَجْرِيَ مَجْرَى الْمَقَارِنِ ﴿ وَتَجْعَلَهُمْ أُمَّةً ﴾ مَقْدَمِينَ فِي أَمْرِ الدِّينِ ﴿ وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ لِمَا كَانَ فِي مُلْكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

وَيُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَيُرَى فِرْعَوْنُ وَهَمَنْ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أَمْرِ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَكَلَّمِيهِ فِي أَلِيمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿ فَالْقَطْعُ ۚ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنْ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾

(٦) ﴿ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَأَصْلُ التَّمْكِينِ أَنْ تَجْعَلَ لِلشَّيْءِ مَكَانًا يَتِمَكَّنُ فِيهِ ثُمَّ اسْتَعِيرَ لِلتَّسْلِيْطِ وَإِطْلَاقِ الْأَمْنِ ﴿ وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَنْ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ مِنْ ذَهَابِ مُلْكِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ عَلَى يَدِ مَوْلُودٍ مِنْهُمْ. وَقَرَأَ حَمْرَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَيُرَى بِالْيَاءِ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا بِالرَّفْعِ.

(٧) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أَمْرِ مُوسَى بِالْهَامِ أَوْ رُؤْيَا ﴾ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴿ مَا أَمْكَنَكَ إِخْفَاؤُهُ. ﴿ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ ﴾ بِأَنْ يُحَسَّنَ بِهِ. ﴿ فَكَلَّمِيهِ فِي أَلِيمٍ ﴾ فِي الْبَحْرِ يَرِيدُ النَّيْلَ. ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ عَلَيْهِ ضَيْعَةً وَلَا شِدَّةً ﴿ وَلَا تَحْزَنِي ﴾ لِفِرَاقِهِ. ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عَنْ قَرِيبٍ بِحَيْثُ تَأْمِنِينَ عَلَيْهِ ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ رُؤْيًى أَنَّهَا لَمَّا ضَرَّ بِهَا الطَّلَقُ دَعَتْ قَابِلَةً مِنَ الْمَوَكَّلَاتِ بِحَبَالِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَعَالَجَتْهَا، فَلَمَّا وَقَعَ مُوسَى عَلَى الْأَرْضِ هَالِهَا نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَارْتَعَشَتْ مَفَاصِلُهَا وَدَخَلَ حُبُّهُ فِي قَلْبِهَا بِحَيْثُ مَنَعَهَا مِنَ السَّعَايَةِ، فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ أَلَحَّ فِرْعَوْنُ فِي طَلَبِ الْمَوَالِيدِ وَاجْتَهَدَ الْعِيُونَ فِي تَفْخِصِهَا فَأَخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا فَقَذَفَتْهُ فِي النَّيْلِ.

(٨) ﴿ فَالْقَطْعُ ۚ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ تَعْلِيلٌ لِّلْتَقَاطِهِمْ إِيَّاهُ بِمَا هُوَ عَاقِبَتُهُ وَمُؤَدَّاهُ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْغُرْضِ الْحَامِلِ عَلَيْهِ. وَقَرَأَ حَمْرَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَحَزَنًا. ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنْ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا

خَطِيعِكُمْ ﴿٩﴾ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَلَيْسَ يَبْذِعُ مِنْهُمْ أَنْ قَتَلُوا الْوَفَاَ لِأَجْلِهِ ثُمَّ أَخَذُوهُ يَرْتُونَهُ لِيَكْبَرَ وَيَفْعَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ، أَوْ مَذْنِبِينَ فَعَاقِبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ رَأَى عَدُوَّهُمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ، فَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ لِتَأْكِيدِ خَطِيئَتِهِمْ أَوْ لِبَيَانِ الْمَوْجِبِ لِمَا ابْتَلَوْا بِهِ، وَقُرِئَ خَاطِئِينَ تَخْفِيفُ خَاطِئِينَ أَوْ خَاطِئِينَ الصَّوَابِ إِلَى الْخَطَا.

وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرٍ مُوسَى فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ﴾ أي لفرعون حين أخرجته من التابوت ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ هو قرءة عين لنا لأنهما لما رآياه أخرج من التابوت أحياه، أو لأنه كانت له ابنة برصاء وعالجها الأطباء بريق حيوان بحري يشبه الإنسان فلطخت برصها بريقه فبرئت، وفي الحديث أنه قال: لك لالي^(١). ولو قال هو لي كما هو لك لهداه الله كما هداها. ﴿لَا نَقْتُلُوهُ﴾ خطاب بلفظ الجمع للتعظيم ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ فَإِنَّ فِيهِ مَخَالِيلَ الْيَمْنِ ودلائل النفع، وذلك لما رأته من نور بين عينيه وارتضاعه إبهامته لبناً وبرء البرصاء بريقه ﴿أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا﴾ أو نتبناه فإنه أهل له ﴿وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ حال من الملتقطين أو من القائلة والمقول له أي وهم لا يشعرون أنهم على الخطأ في التقاطه أو في طمع النفع منه والتبني له، أو من أحد ضميرني نتخذة على أنَّ الضمير للناس أي وهم لا يشعرون أنه لغيرنا وقد تبنيناه.

(١٠) ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرٍ مُوسَى فَرِحًا﴾ صِفراً من العقل لما دهمها من الخوف والخيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون كقوله تعالى ﴿وَأَفْقَدَتْهُمْ هَوَاءً﴾^(٢) أي خلأ لا عقول فيها، ويؤيده أنه قرئ فرحاً من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أي هدر، أو من الهم لفزط وثوقها بوعد الله تعالى أو سماعها أنَّ فرعون عطف عليه وتبناه ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أنها كادت لتظهر بموسى أي بأمره وقصته من فزط الضجر أو الفرح لتبنيه. ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات. ﴿لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعد الله، أو من الواثقين بحفظه لا بتبني فرعون وعطفه. وقرئ موسى لإجراء للضمة في جوار الواء مجرى ضممتها في استدعاء همزها همز واو وجوه وهو علة الربط، وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله.

(١١) ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ مريم. ﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعي أثره وتبني خبره. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ عن بُعد، وقرئ عن جانب وعن جنب وهو بمعناه. ﴿وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ أنها تقص أو أنها أخته.

(١) أخرجه النسائي في التفسير كما في «تحفة الأشراف» (٤/٤٣٨).

(٢) إبراهيم: (٤٣).

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيحُونَ ﴿١٧﴾
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَانَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ وَدَخَلَ
الْمَدِينَةَ عَلَىٰ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ
شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ ومنغناه أن يرتضع من المرضعات، جمعُ مَرَضِعٍ أو مَرَضِعٍ وهو الرِّضَاعُ، أو موضِعُهُ يعني الثدي. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل قصِّها أثره. ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ لأجلِكُم. ﴿وَهُمْ لَهُمْ نَصِاحُونَ﴾ لا يقصِّرون في إرضاعه وتربيته، روي^(١) أن هَامَانَ لما سمعه قال: إنها لتعرفه وأهلُه فخذوها حتى نُخَبِّرَ بحاله، فقالت: إنما أردتُ وَهُمْ لِلْمَلِكِ نَاصِحُونَ، فأمرها فرعونُ أن تأتي بِمَنْ يكفله فأتت بِأُمِّهَا وموسى على يدِ فرعونَ يبكي وهو يعلِّله، فلما وجدَ ريحها استأنَسَ والتقَّمَ ثَدْيَهَا فقال لها: مَنْ أنتِ منه فقد أبى كلَّ ثديٍ إلا ثديكَ؟ فقالت: إني امرأةٌ طيبةُ الريح طيبةُ اللبنِ لا أُوتى بِصَبِيٍّ إلا قَبِلَنِي فدفعه إليها وأجرى عليها، فرجعتُ به إلى بيتها من يومها، وهو قوله تعالى:

(١٣) ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ، كَيْ نَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولدها. ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ بفراقه. ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ عِلْمَ مشاهدة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ وَعْدَهُ حَقٌّ فيرتابون فيه، أو أَنَّ الغرض الأصلي من الردِّ عِلْمُهَا بذلك وما سواه تَبَعٌ، وفيه تعريضٌ بما فَرَطَ منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون.

(١٤) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ مبلَّغُه الذي لا يزيدُ عليه نشوُه وذلك من ثلاثينَ إلى أربعينَ سنةً فَإِنَّ العقلَ يكْمُلُ حينئذٍ. ورُوِيَ أَنه لم يُنْعَثْ نبيٌّ إلا على رأسِ الأربعينَ سنةً^(٢). ﴿وَأَسْتَوَى﴾ قدُه أو عقلُه. ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي نبوءةً. ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين، أو عِلْمَ الحكماء والعلماء وسَمَتَهُمْ قبلَ استنبائِهِ، فلا يقولُ ولا يفعلُ ما يُسْتَجْهَلُ فيه، وهو أوفى لنظمِ القصيدة لأنَّ الاستنباءَ بعدَ الهجرةِ في المراجعةِ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثْلُ ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه. ﴿نَجْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانِهِم.

(١٥) ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ ودخل مصر آتياً من قصر فرعون وقيل منف أو حاثين، أو عين شمس من نواحيها. ﴿عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقت لا يُعتَاد دخولها ولا يتوقعونه فيه، قيل كان وقت القيلولة

(١) وهم من الإسرائيليات. ولكنه ليس بعيد عن الطغات.

(٢) لم أجده. قاله ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٢٦ رقم ١٣١).

وقيل بين العشاءين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعِنِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل، والآخر من مخالفيه وهم القبط، والإشارة على الحكاية. ﴿فَاسْتَعْنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي﴾ هو ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فسأله أن يغيثه بالإعانة ولذلك عُدِّي بعلي وقرىء بعلي وقرىء استعانه. ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ فضرب القبطي بجمع كفه، وقرىء فلكره أي فضرب به صدره. ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ فقتله وأضله فأنهى حياته من قوله ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾^(١). ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكن له اغتيالهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عدّه من عمل الشيطان وسمّاه ظلماً واستغفر منه على عادتهم في استعظام محقرات فرطت منهم. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتله. ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ ذنبي. ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ لاستغفاره. ﴿إِنَّكُمْ هُوَ﴾ الْغَفُورُ ﴿لِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم.

(١٧) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ قسم محذوف الجواب أي أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة وغيرها لآثوبي. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أو استعطف أي بحق إنعامك عليّ اعصمني فلن أكون مُعيناً لمن أدت معاونته إلى جُرم. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه لم يستثن فإبتلي به مرة أخرى^(٢)، وقيل معناه بما أنعمت عليّ من القوة أُعين أولياءك فلن أستعملها في مظاهرة أعدائك.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ يترقب الاستفادة. ﴿إِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستغيثه مشتق من الصُراخ. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ بين الغواية أنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر.

(١٩) ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأنَّ الْقُبْط كانوا أعداء لبني إسرائيل. ﴿قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ قاله الإسرائيلي لأنه لما سمّاه غويّاً ظنَّ أنه يبطش عليه، أو القبطي وكأنه توهم من قوله أنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي. ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ ما تريد. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ تطاول على الناس ولا تنظر في العواقب. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن، ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملئه وهُموا بقتله فخرج مؤمن آل فرعون وهو ابن عمّه ليُخبره كما قال تعالى:

(١) الحجر: ٦٦.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٩٨/٦).

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَحْمُوسَىٰ ابْنُ الْمَلَأِ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَذْيَنٌ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَذْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ يسرعُ صفةُ رجلٍ، أو حالٌ منه إذا جُعِلَ من أقصى المدينة صفةً له لا صلةً لـجاء لأنَّ تخصيصه بها يُلحِّقُه بالمعارف. ﴿قَالَ يَحْمُوسَىٰ ابْنُ الْمَلَأِ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بِسَبِّكَ، وإنما سُمِّيَ التشاورُ ائتماراً لأنَّ كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر. ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ اللام للبيان وليس صلةً للناصحين لأنَّ معمولَ الصلة لا يتقدَّم الموصول.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة. ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق طالب. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ خلَّصني منهم واحفظني من لحوقهم.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَذْيَنٌ﴾ قبالة مَذْيَنَ قرية شعيب، سُمِّيَتْ باسم مدين بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ولم تكن في سلطانِ فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ توكلًا على الله وحسن ظنٍّ به، وكان لا يعرف الطريق فعنَّ له ثلاث طرقٍ فأخذ في أوسطها وجاء الطلابُ عقيبَهُ فأخذوا في الآخرين.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَذْيَنَ﴾ وصلَ إليه وهو بئرٌ كانوا يسقون منها. ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوق شفيرها. ﴿أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ جماعةٌ كثيرةٌ مختلفين. ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم. ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم. ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعانِ أغنامَهُما عن الماءِ لئلا تختلطَ بأغنامهم. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما تذودان. ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ تصرف الرعاة مواشيَهُم عن الماءِ حذراً عن مزاحمة الرجال، وحذف المفعول لأنَّ الغرض هو بيان ما يدلُّ على عفتِهِما ويدعوه إلى السقي لهما ثمَّ دونه. وقرأ أبو عمرو وابنُ عامرٍ يَصْدُرُ أي ينصرف. وقرئ الرِّعَاءُ بالضمِّ وهو اسمُ جمع كالرُّخَالِ. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كبير السنُّ لا يستطيع أن يخرج للسقي فيرسلنا اضطراراً.

(٢٤) ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ مواشيَهُما رحمةً عليهما. قيل^(١) كانت الرعاة يضعون على رأس البئر حجراً لا يُقْلَهُ إلا سبعة رجالٍ أو أكثر فأقلَّه وحده مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم، وقيل كانت بئراً أخرى عليها صخرة فرفعها واستقى منها. ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ لأي

شيء أنزلت إليّ. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير وحمله الأكثرون على الطعام. ﴿فَقِيدٌ﴾ محتاج سائل ولذلك عُدِّي باللام، وقيل معناه إني لما أنزلت إليّ من خير الدين صرتُ فقيراً في الدنيا، لأنه كان في سعة عند فرعون، والغرض منه إظهار التبجح والشكر على ذلك.

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَأَبَتِ اسْتَفْجَرَهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي مستحيية متخفئة. قيل كانت الصغرى منهما وقيل الكبرى، واسمها صفوراء أو صفراء وهي التي تزوجها موسى عليه السلام. ﴿قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ﴾ ليكافئك. ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ جزاء سقيك لنا، ولعل موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابها ليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر بمعرفته لا طمعاً في الأجر، بل روي^(١) أنه لما جاءه قدم إليه طعاماً فامتنع عنه وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا حتى قال له شعيب عليه الصلاة والسلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. هذا وأن كل من فعل معروفاً فأهدى بشيء لم يحرم أخذه. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يريد فرعون وقومه.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ يعني التي استدعته. ﴿يَتَأَبَتِ اسْتَفْجَرَهُ﴾ لرعي الغنم. ﴿إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ تعليل شائع يجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستنجار والمبالغة فيه، جعل خير اسماً وذكر الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه امرؤ مجرب معروف. روي^(٢) أن شعيباً قال لها وما أعلمك بقوة فذكرت إقلال الحجر وأنه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه.

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠٧/٦) لابن عساكر عن أبي حازم. وما انفرد به ابن عساكر من الرواية فهو ضعيف. انظر مقدمة زوائد الجامع الصغير للسيوطي.

(٢) قال سيد قطب في «الظلال» (٢٦٨٧/٥):

«ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى، كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه - فيما قالوا - إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل. فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين، أو سقى لهما مع الرعاء» هـ.

وقال سيد قطب في «الظلال» (٢٦٨٨/٥) أيضاً:

«ولا حاجة كذلك لما رواه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي خلفي ودلني على الطريق خوف أن يراها أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها ورفع الهواء ثوبها عن كعبها فهذا كله تكلف لا داعي له. ودفع لريبة لا وجود لها.

وموسى - عليه الصلاة والسلام - عفيف النظر، نظيف الحسن، وهي كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة، فالعفة تنفع في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع» هـ.

● أما ما يذكره القاضي من أن الشيخ الكبير هو «شعيب» فقد تقدم الرد عليه في سورة طه.

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشَقَّ عَلَيْكَ سَتَعْدِفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ﴾ أي تأجر نفسك مني أو تكون لي أجيراً، أو تشيبي من أجرك الله. ﴿ثَمَنِي حِجَجٍ﴾ ظرفٌ على الأولين ومفعولٌ به على الثالث بإضمارٍ مضافٍ أي رعية ثماني حجاج. ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا﴾ عملتَ عشرَ حجاج. ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ فإتمامه من عندك تفضلاً لا من عندي إلزاماً عليك. وهذا استدعاء العقد لا نفسه، فلعله جرى على أجره معينة وبمهر آخر أو برعية الأجل الأول ووعد له أن يوفي الأخير إن تيسر له قبل العقد، وكانت الأغنام للمزوجة مع أنه يمكن اختلاف الشرائع في ذلك. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشَقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمام العشر أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال، واشتقاق المشقة من الشق فإن ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك في إطاقته ورأيك في مزاولته. ﴿سَتَعْدِفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة.

(٢٨) ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي ذلك الذي عاهدتني فيه قائمٌ بيننا لا نخرجُ عنه. ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ أطولهما أو أقصرهما. ﴿قَضَيْتَ﴾ وفيتك إياه. ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ لا تعتدي عليّ بطلب الزيادة فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان، أو فلا أكون متعدياً بترك الزيادة عليه كقولك لا إثم عليّ، وهو أبلغ في إثبات الخيرة وتساوي الأجلين في القضاء من أن يُقال إن قضيت الأقصر فلا عدوان عليّ. وقرئ أَيْمًا كقوله:

تَنْظَرْتُ نَضْرًا وَالسَّمَاكِينَ أَيَّمَا عَلَيَّ مِنَ الْغَيْثِ اسْتَهْلَتْ مَوَاطِرُهُ^(١)

وأيُّ الأجلين ما قضيت فتكون ما مزيدة لتأكيد الفعل أي: أيُّ الأجلين جرّدت عزمي لقضائه، وعدوان بالكسر. ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ من المشاركة. ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهدٌ حفيظ.

(٢٩) ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ بامرأته. روي أنه قضى أقصى الأجلين ومكث بعد ذلك عنده عشرًا أخرى ثم عزم على الرجوع^(٢). ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أبصر من الجهة التي تلي

(١) من الطويل.

(٢) أخرج البخاري (٢٨٩/٥ - ٢٩٠ رقم ٢٦٨٤) عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على خبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى =

الطور. ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي مَاتَكُمْ مِنْهَا يُخْبِرُ﴾ بخبر الطريق. ﴿أَوْ جَذَوْفٍ﴾ عود غليظ سواء كان في رأسه ناز أو لم يكن.

قال:

بَآتَ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا جَزَلَ الْجَذَى غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ^(١)
وقال آخر:

وَأَلْقَى عَلَى قَبَسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً شَدِيدًا عَلَيْهِ حَرُّهَا وَالْيَهَابُهَا^(٢)
ولذلك بيّنه بقوله: ﴿مِنَ النَّارِ﴾ وقراً عاصمٌ بالفتح، وحمزةٌ بالضمّ وكلّها لغاتٌ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بها.

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسْ إِفْتَ أَنَا
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسْ أَقِيلَ
وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
مِنَ الرَّهْبِ فَذَا نِكَ بَرَهَنَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

(٣٠) ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أتاه النداء من الشاطئ الأيمن لموسى. ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾ متصل بالشاطيء أو صلة لنودي. ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ بدل الاشتمال لأنها كانت ثابتة على الشاطئ. ﴿أَنْ يَمْوِسْ﴾ أي يا موسى. ﴿إِفْتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا وإن خالف ما في طه والنمل لفظاً فهو طنبقه في المقصود.

(٣١) ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ﴾ أي فآلقاها فصارت ثعباناً واهتزت فلما رآها تهتز. ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ في الهيئة والجثة أو في السرعة. ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ منهزماً من الخوف. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع. ﴿يَمْوِسْ﴾ نودي يا موسى. ﴿أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لدي المرسلون.

(٣٢) ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخلها. ﴿تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ عيب. ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يديك المبسوطتين تتقي بهما الحية كالخائف الفرع بإدخال اليمنى تحت عضد اليسرى وبالعكس، أو

= أكثرهما وأطيهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل.

● المقصود بقوله: رسول الله ﷺ: من اتصف بذلك ولم يرد شخصاً بعينه.

(١) من البسيط.

(٢) من الطويل.

بإدخالهما في الجيب فيكون تكريراً لغرض آخر وهو أن يكون ذلك في وجه العدو إظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة، ويجوز أن يراد بالضم التجلّد والثبات عند انقلاب العصا حية استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمّن واطمأن ضمهما إليه. ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ من أجل الرّهب أي إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلّداً وضبطاً لنفسك. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر بضم الراء وسكون الهاء، وقرىء بضمهما، وقرأ حفص بالفتح والسكون والكل لغات. ﴿فَذَانِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد، وشدّده ابن كثير وأبو عمرو ورويس. ﴿بَرْهَنَانِ﴾ حجتان وبُرْهان فُعْلَان لقولهم أبْرَه الرجل إذا جاء بالبرهان من قولهم بَرَه الرجل إذا ابيض، ويُقال برهأ وبرهْرَه للمرأة البيضاء وقيل فُعْلَال لقولهم بَرَهْنَ. ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ مُرسلاً بهما. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهٖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقًا﴾ فكانوا أحقّاء بأن يُرسل إليهم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بها.

(٣٤) ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ معيناً وهو في الأصل اسم ما يُعان به كالدفع، وقرأ نافع رِدْءاً بالتخفيف. ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بتخليص الحق وتقرير الحجّة وترفيف الشبهة. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوعني عند المحاجة، وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكأنه أُسِنْد إليه إسناد الفعل إلى السبب. وقرأ عاصم وحمزة يصدقني بالرفع على أنه صفة والجواب محذوف.

(٣٥) ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك به فإنّ قوّة الشخص بشدة اليد على مزاوله الأمور، ولذلك يُعبّر عنه باليد وشدّها بشدة العضد. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا﴾ غلبة أو حجة. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاء أو حجاج. ﴿بِآيٰتِنَا﴾ متعلّق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا، أو بنجعل أي نسلطكما بها، أو بمعنى لا يصلون أي تمتنعون منهم، أو قسم جوابه لا يصلون، أو بيان للغالبون في قوله: ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلة لما بينه أو صلة له على أن اللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ سحرٌ تختلقه لم يُفعل قبل مثله، أو سحرٌ عمله ثم تفتريه على الله؛ أو سحرٌ موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا﴾ يعنون السحر أو ادعاء النبوة. ﴿فِي ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ كأننا في أيامهم.

وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنَّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

﴿٣٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ﴿﴾ فيعلمُ أني محقٌّ وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير قال بغير واو. لأنه قال ما قاله جواباً لمقاليهم، ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد. ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ العاقبة المحموده فإن المراد بالدار الدنيا وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأنها خُلِقَتْ مجازاً إلى الآخرة، والمقصود منها بالذات هو الثواب والعقاب إنما قصِدَ بالعرض. وقرأ حمزة والكسائي يكون بالياء. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن العاقبة في العقبى.

﴿٣٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴿﴾ نفى علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعده، ولذلك أمر ببناء الصرح ليصعد إليه ويتطلع على الحال بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنَّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى﴾ كأنه توهم أنه لو كان لكان جسماً في السماء يمكن الترقى إليه ثم قال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أو أراد أن بيني له رصداً يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولة، وقيل المراد بنفي العلم نفى المعلوم كقوله تعالى ﴿أَتُنَبِّئُكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) فإن معناه بما ليس فيهن، وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقيق معلوماتها فيلزم من انتفاؤها لك انتفاؤها، ولا كذلك العلوم الانفعالية، قيل أول من اتخذ الأجر فرعون ولذلك أمر باتخاذها على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظيم؛ ولذلك نادى هامان باسمه بيا في وسط الكلام.

﴿٣٩﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿﴾ بغير استحقاق. ﴿وَزَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالنشور. وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم.

﴿٤٠﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴿﴾ كما مر بيانه، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ واستحقاق للمأخوذين كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم، ونظيره قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٢) ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾^(٣) ﴿فَانظُرْ﴾

(١) يونس: «١٨».

(٢) الأنعام: «٩١».

(٣) الزمر: «٦٧».

يا محمد. ﴿ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ وحذر قومك عن مثلها.

وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

(٤١) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً﴾ قدوة للضلال بالحمل على الإضلال، وقيل بالتسمية كقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾^(١)، أو بمنع الألفاظ الصارفة عنه. ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ إلى موجباتها من الكفر والمعاصي. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

(٤٢) ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طرداً عن الرحمة، أو لعن اللاعنين يلعنهم الملائكة والمؤمنون. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ من المطرودين، أو ممن قُبِحَ وجوههم.

(٤٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط. ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنواراً لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل. ﴿وَهُدًى﴾ إلى الشرائع التي هي سُبُلُ الله تعالى. ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنهم لو عملوا بها نالوا رحمة الله سبحانه وتعالى. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حالٍ يُزَجَّى منهم التذكُّر، وقد فسر بالإرادة وفيه ما عرفت.

(٤٤) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ يريد الوادي، أو الطور فإنه كان في شقِّ الغرب من مقام موسى، أو الجانب الغربي منه والخطابُ لرسول الله ﷺ أي ما كنت حاضراً. ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ إذ أوحينا إليه الأمر الذي أردنا تعريفه. ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه، وهم السبعون المختارون للميقات، والمراد الدلالة على أنَّ إخباره عن ذلك من قبيل الإخبار عن المعيّات التي لا تُعرف إلا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله:

(٤٥) ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي ولكننا أوحينا إليك لأننا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى فتطاولت عليهم المدد، فحُرِّفَتِ الْأَخْبَارُ وَتَغَيَّرَتِ الشَّرَائِعُ واندست العلوم، فحذف المستدرك وأقام سببه مقامه. ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً. ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيب والمؤمنين به. ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ التي فيها قصتهم. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك ومخبرين لك بها.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنْتَ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ لعل المراد به وقت ما أعطاه التوراة وبالأول حين ما استنبأه لأنهما المذكوران في القصد. ﴿وَلَكِنْ﴾ علمناك. ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وقرئت بالرفع على هذه رحمة من ربك. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلق بالفعل المحذوف. ﴿مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنة، أو بينك وبين إسماعيل، على أنَّ دعوة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام كانت مختصة ببني إسرائيل وما حوَالَيْهِمْ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

(٤٧) ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لولا الأولى امتناعية والثانية تحضيضية واقعة في سياقها، لأنها إنما أُجِيبَتْ بالفاء تشبيهاً لها بالأمر مفعولٌ يقولوا المعطوف على تصيبيهم بالفاء المعطية معنى السببية المنبهة على أنَّ القول هو المقصود بأن يكون سبباً لانتفاء ما يُجاب به، وأنه لا يصدر عنهم حتى تلجئهم العقوبة والجواب محذوف والمعنى: لولا قولهم إذا أصابته عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولا يبلغنا آياتك فتتبعها ونكون من المصدقين، ما أرسلناك أي إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم والزاماً للحجة عليهم. ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ يعني الرسول المصدق بنوع من المعجزات. ﴿وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ من الكتاب جملةً واليد والعصا وغيرها اقتراحاً وتعتاً. ﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم كفره زمان موسى، أو كان فرعون عربياً من أولاد عاد. ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ يعني موسى وهارون، أو موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام. ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعاونا بإظهار تلك الخوارق أو بتوافق الكتائين. وقرأ الكوفيون سحران بتقدير مضاف أو جعلهما سخرين مبالغة، أو إسناد تظاهريهما إلى فعلهما دلالة على سبب الإعجاز. وقرئ أظاهراً على الإدغام. ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ أي بكل منهما أو بكل الأنبياء.

(٤٩) ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ مما أنزل على موسى وعلى محمد، وإضمارهما لدلالة المعنى، وهو يؤيد أنَّ المراد بالساحرين موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام. ﴿أَنْتَ صَادِقٌ﴾ إنا ساحران مختلفان، وهذا من الشروط التي يُراد بها الإلزام والتبكيث، ولعلَّ مجيء حرف الشك للتهكم بهم.

فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنْذَرُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا إِلَهُكُمُ الَّذِي كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أَوَلَيْكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾

(٥٠) ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فحذف المفعول للعلم به، ولأنَّ فعل الاستجابة يُعدَّى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي، فإذا عُذِّي إليه حُذِفَ الدعاء غالباً كقوله:

وَدَاعٍ دَعَا بِأَمْنٍ يُجِيبُ إِلَى الثَّدَا فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إذ لو اتبعوا حجةً لآتوا بها. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهام بمعنى النفي. ﴿يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ في موضع الحال للتأكيد أو التقييد، فإنَّ هوى النفس قد يوافق الحق. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل التذكير، أو في النظر لتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون ويطيعون.

(٥٢) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب^(١)، وقيل في أربعين من أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام^(٢)، والضمير في من قبله للقرآن كالمستكن في:

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُنْذَرُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا إِلَهُكُمُ الَّذِي كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ استئناف بيان ما أوجب إيمانهم به. ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ استئناف آخر للدلالة على أنَّ إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذٍ، وإنما هو أمرٌ تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن، أو تلاوته عليهم باعتقادهم صحته في الجملة.

(٥٤) ﴿أَوَلَيْكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ مرةً على إيمانهم بكتابهم ومرةً على إيمانهم بالقرآن. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى المشركين

(١) انظر «زاد المسير» (٢٠٢٩/٦) و«الدر المنثور» (٤٢٦/٦).

(٢) انظر «زاد المسير» (٢٢٩/٦).

وقال سيد قطب في «الظلال» (٢٧٠٠/٥ - ٢٧٠١):

وأياً من كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادٍ وقع، يعلمونه ولا ينكرونه كي يقفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق وتعلم مطابقتها لما بين أيديها من الكتاب. ولا يصدها عنه صاد من هوى، ولا من كبر، وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتناول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء. هـ.

وَمَنْ هَاجَرَهُمْ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ. ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالطاعة المعصية لقوله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»^(١). ﴿وَمَنَّا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ في سبيل الخير.

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ تَكْرُماً. ﴿وَقَالُوا﴾ لِلْأَعْيُنِ. ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ متاركة لهم وتوديعاً، أو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه. ﴿لَا نَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾ لا نطلب صُحبتهم ولا نريدُها.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدرُ على أن تُدخلهم في الإسلام. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فیدخله في الإسلام. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعدين لذلك. والجمهورُ على أنها نزلت في أبي طالب فإنه لما احتضر جاءه رسولُ الله ﷺ وقال: «يا عمُّ قل لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله» قال: يا ابن أخي قد علمتُ إنك لصادقٌ ولكن أكره أن يُقال خُدع عند الموت^(٢).

(٥٧) ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ نُخْرِجُ مِنْهَا. نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب - وإنما نحن أكلة رأسٍ - أن يتخطفونا من أرضنا^(٣) فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أَوْ لَمْ نجعل مكانهم حَرَمًا ذا أَمْنٍ بِحُرْمَةِ الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ يَتَنَاحَرُ الْعَرَبُ حَوْلَهُ وَهُمْ آمِنُونَ فِيهِ. ﴿يُجِئُ إِلَيْهِ﴾ يُجْمَعُ فِيهِ، وقرأ نافع ويعقوب في رواية بالتاء. ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كُلِّ أَوْبٍ. ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ فإذا كَانَ هَذَا حَالُهُمْ وَهُمْ عِبْدَةُ الْأَصْنَامِ فَكَيْفَ نَعْرِضُهُمْ لِلتَّخَوُّفِ وَالتَّخْطِيفِ إِذَا ضَمُّوا إِلَى حُرْمَةِ الْبَيْتِ حُرْمَةَ التَّوْحِيدِ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جَهْلَةٌ لَا يَتَفَتَّحُونَ لَهُ وَلَا يَتَفَكَّرُونَ

(١) أخرجه أحمد (١٥٣/٥، ١٥٨، ١٧٧) والترمذي (٣٥٥/٤ - ٣٥٦ رقم ١٩٨٧).

وقال حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم (٥٤/١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وأخرجه الدارمي (٣٢٣/٢) من حديث أبي ذر.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥/١) رقم ٤١ و٢٥/٤٢ من حديث أبي هريرة. وأخرجه البخاري مطولاً بلفظ آخر (٥٠٦/٨ رقم ٤٧٧٢) من حديث المسيب.

(٣) أخرجه النسائي في «التفسير» (رقم: ٤٠٥) عن ابن عباس بسند منقطع. وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج ٢٠/٩٤) بسند ضعيف. والخلاصة أن الحديث ضعيف.

ليعلموه، وقيل إنه متعلق بقوله من لدنا أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم لا يعلمون إذ لو علموا لما خافوا غيره، وانتصاب رزقاً على المصدر من معنى يُجَبى، أو حال من الثمرات لتخصيصها بالإضافة، ثم بين أن الأمر بالعكس فإنهم أحق بأن يخافوا من بأس الله على ما هم عليه بقوله:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِلَك مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أَوْتِشِرْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكم من أهل قرية كانت حالهم كحالهم في الأمن وخفض العيش حتى أشروا فدمر الله عليهم وخرب ديارهم. ﴿فَنِلَك مَسْكِنُهُمْ﴾ خاوية. ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السكنى إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم، أو لا يبقى من يسكنها من شؤم معاصيهم. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم، وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو بجعلها ظرفاً بنفسها كقولك: زيد ظني مقيم، أو بإضمار زمانٍ مضاف إليها أو مفعولاً على تضمين بطرت معنى كفرت.

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما كانت عادته. ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ في أصلها التي هي أعمالها، لأن أهلها تكون أفطن وأنبل. ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾ لإلزام الحجّة وقطع المعذرة. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بتكذيب الرسل والعتو في الكفر.

(٦٠) ﴿وَمَا أَوْتِشِرْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا. ﴿فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا﴾ تمتعون وتزینون به مدة حياتكم المنقضية. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو ثوابه. ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خاصة وبهجة كاملة. ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه أبدي. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة.

(٦١) ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعداً بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود. ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ مدرّكه لا محالة، لامتناع الخلف في وعده، ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية. ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستغقب بالتحسر على الانقطاع. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذاب، وثم للتراخي في الزمان أو الرتبة. وقرأ نافع وابن عامر في رواية والكسائي ثم هو يسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل، وهذه الآية كالنتيجة التي قبلها ولذلك رُتبت عليها بالفاء.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمِّيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطفٌ على يوم القيامة أو منصوبٌ بـاذكُرْ. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما.

(٦٣) ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بثبوت مقتضاه وحصول مؤداه وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١) وغيره من آيات الوعيد. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي هؤلاء الذين أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول. ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أغويناهم فغَوُوا غِيًّا مثل ما غَوَيْنَا، وهو استئناف للدلالة على أنهم غَوُوا باختيارهم وأنهم لم يفعلوا بهم إلا وسوسةً وتسويلاً، ويجوز أن يكون الذين صفةً وأغويناهم الخبر لأجل ما اتصل به إفادة زيادة على الصفة، وهو إن كَانَ فَضْلَةً لَكِنَّهُ صَارَ مِنَ اللُّوْازِمِ. ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاره من الكفر هَوَىٰ منهم، وهو تقريرٌ للجملة المتقدمة ولذلك خلث عن العاطف وكذا. ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم. وقيل ما مصدرية متصلة بـتَبَرَّأْنَا أي تبرأنا من عبادتهم إِيَّانَا.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ من فَرَطِ الحيرة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لعجزهم عن الإجابة والنضرة. ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لازماً بهم. ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لوجه من الحيل يدفعون به العذاب، أو إلى الحق لما رَأَوُا العذاب لو للتمني أي تمنوا أنهم كانوا مهتدين.

(٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ على الأول فإنه تعالى يسأل أولاً عن إشراكهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياء.

(٦٦) ﴿فَعِمِّيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فصارت الأنبياء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعموا عن الأنبياء لكنه عكس مبالغة ودلالة على أنَّ ما يحضرُ الذهن إنما يُقْبَضُ ويُرَدُّ عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره، والمراد بالأنبياء ما أجابوا به الرسل أو ما يعمُّها وغيرها، فإذا كانت الرسل يتتبعون في الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله تعالى فما ظنُّك بالضلال من أممهم، وتعدية الفعل بعلَى لتضمينه معنى الخفاء. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والعلم بأنه مثله في العجز.

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ آيَاتٍ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بِضْيَاءٌ أَوْ لَاسَمْعُونَ ﴿٧١﴾

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من الشرك. ﴿وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وجمع بين الإيمان والعمل الصالح. ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام، أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح.

(٦٨) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ لا موجب عليه ولا مانع له. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي التخيير كالطيرة بمعنى التطيير، وظاهره نفي الاختيار عنهم رأساً والأمر كذلك عند التحقيق، فإن اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها، وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف، ويؤيده ما روي أنه نزل في قولهم ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾^(١). وقيل ما موصولة مفعول ليختار والراجع إليه محذوف والمعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي الخير والصالح. ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ تنزيه له أن ينازعه أحد أو يزاوجه اختياره اختياراً. ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو مشاركة ما يشركونه.

(٦٩) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوة الرسول وحفده. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعن فيه.

(٧٠) ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو. ﴿لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ لأنه المولي للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمدُه المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا بقولهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(٢) - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾^(٣) ابتهاجاً بفضلِهِ والتذاذاً بحمده. ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في كل شيء. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنشور.

(٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ آيَاتٍ سَرْمَدًا﴾ دائماً من السرد وهو المتابعة والميم مزيدة كميم دلامصي. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بِضْيَاءٌ﴾ كان حقه هل إله فذكر بمن على زعيمهم أن غيره آلهة. وعن ابن كثير بضياء بهمزتين. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبير واستبصار.

(١) الزخرف: (٣١) وانظر أسباب النزول للسيوطي ص ١٥٣.

(٢) فاطر: (٣٤).

(٣) الزمر: (٧٤).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قُرُونَكُمْ كَاتٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

(٧٢) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ بإسكانها في وَسَطِ السماءِ أو تحريكها على مدارٍ فوقِ الأفقِ. ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةٌ عن متاعِ الأشغالِ، ولعلَّه لم يصفِ الضياءَ بما يقابله لأنَّ الضوءَ نعمةٌ في ذاته مقصودٌ بنفسه ولا كذلك الليلُ، ولأنَّ منافعِ الضوءِ أكثرُ مما يقابله ولذلك قَرَنَ أَفْلا تَسْمَعُونَ وباللَّيْلِ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ استفادةَ العقلِ من السَّمْعِ أكثرُ من استفادتهِ من البَصَرِ.

(٧٣) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ في النَّهَارِ بأنواعِ المكاسبِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تعرفوا نعمةَ الله في ذلك فتشكروه عليها.

(٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تَقْرِيعٌ بَعْدَ تَقْرِيعٍ للإشعارِ بأنه لا شيءَ أَجْلَبُ لَغَضَبِ اللَّهِ مِنَ الْإِشْرَاقِ بِهِ، أوِ الْأَوَّلُ لتقريرِ فسادِ رأيهم والثاني لبيانِ أَنَّهُ لم يكنْ عن سِنْدٍ وإنما كان محضَ تَشْهٍ وَهْوَى.

(٧٥) ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا. ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيُّهم يشهدُ عليهم بما كانوا عليه. ﴿فَقُلْنَا﴾ للأُممِ. ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحةِ ما كنتم تدَّيْنُونُ به. ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذٍ. ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحدٌ. ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغابَ عنهم غيبةُ الضائعِ. ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الباطلِ.

(٧٦) ﴿إِنَّ قُرُونَكُمْ كَاتٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ كان ابنُ عمِّه يصهرُ بنَ قَاهْتِ بْنِ لاوِي وكان ممن آمنَ به. ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ فطلبَ الفضلَ عليهم وأن يكونوا تحتَ أمرِهِ، أو تكبَّرَ عليهم أو ظَلَمَهُمْ. قيل وذلك حين ملكهُ فرعونُ على بني إسرائيلَ، أو حسدَهُم لما رَوِيَ أَنَّهُ قال لموسى عليه السلام: لك الرسالةُ ولهارونُ الحُبورةُ وأنا في غيرِ شيءٍ إلى متى أصبر؟ قال موسى هذا صنعُ الله. ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ﴾ من الأموالِ المدخرةِ. ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ خبرٌ إِنَّ، والجملةُ صلةٌ وهو ثاني مفعولي آتَى، وناء به الحِملُ إذا أثقله حتى أماله، والعُصْبَةُ والعِصَابَةُ الجماعةُ الكثيرةُ واغصَصُوا اجتمعوا. وقرئ

لَيَنْوُءُ بِالْبَاءِ عَلَى إِعْطَاءِ الْمُضَافِ حُكْمَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ. ﴿إِذْ قَالَ لَمُ قَوْمُهُ﴾ منصوبٌ بتنوءٍ. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر والفرح بالندى مذمومٌ مطلقاً لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح كما قيل:

أشد الغم عندي في سرورٍ تيقن عنه صاحبه انتقلاً

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيْنَاكُمْ﴾^(١)، وعلل النهي ها هنا بكونه مانعاً من محبة الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارف الدنيا.

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

(٧٧) ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من الغنى. ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بصرفه فيما يوجبها لك فإن المقصود منه أن يكون وضلة إليها. ﴿وَلَا تَنْسَ﴾ ولا تترك ترك المنسي. ﴿نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك. ﴿وَأَحْسِنَ﴾ إلى عباد الله. ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم الله عليك. وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأمر يكون علة للظلم والبغي، نهى له عما كان عليه من الظلم والبغي. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

(٧٨) ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالجاه والمال، وعلى علم في موضع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها، وقيل هو الكيمياء، وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب، وقيل العلم بكنوز يوسف، وعندى صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك: جاز هذا عندي أي في ظني واعتقادي. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة وسمعه من حفاظ التواريخ، أو ردّ لدعائه للعلم وتعظيمه به بنفي هذا العلم عنه أي عنده مثل ذلك العلم الذي ادّعى. ولم يعلم هذا حتى بقي به نفسه مصارع الهالكين. ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال استعلام فإنه تعالى مطلع عليها، أو معاتبة فإنهم يُعَذَّبُونَ بها بغتة، كأنه لما هدد قارون بذكر إهلاك من قبله ممن كانوا أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأن بين أنه لم يكن مطلعاً على ما يخضهم بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم معاقبهم عليها لا محالة.

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْضَّالُّونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ كما قيل إنه خرج على بغلة شهباء عليه الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زِيَّه. ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على ما هو عادة الناس من الرغبة. ﴿يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ تمنوا مثله لا عينه حدراً عن الحسد. ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بأحوال الآخرة للمتقين. ﴿وَيَلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لا يُرتضى. ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ في الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مما أوتي قارون بل من الدنيا وما فيها. ﴿وَلَا يُلْقَاهَا﴾ الضمير فيه للكلمة التي تكلم بها العلماء أو للثواب، فإنه بمعنى المثوبة أو الجنة أو للإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة. ﴿إِلَّا الْضَّالُّونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصي.

(٨١) ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ رُوِيَ^(١) أنه كان يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقربته حتى نزلت الزكاة، فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره، فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل ليرفضوه، فَبَزَطَلَ بَعِيَّةً لَترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيباً فقال: مَنْ سَرَقَ قَطْعَنَاهُ، وَمَنْ زَنَى غَيْرَ مُحْصَنٍ جُلْدَنَاهُ، وَمَنْ زَنَى مُحْصَنًا رَجَمْنَاهُ، فقال قارون ولو كنت قال: ولو كنت، قال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فَجَزْتَ بَفَلَانَةٍ فَأُخْضِرْتُ، فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق فقالت: جعل لي قارون جُعلاً على أن أرميك بنفسي، فخر موسى شاكياً منه إلى ربه فأوحى إليه أن مُرِ الْأَرْضَ بِمَا شِئْتَ فقال: يا أرضُ خذيه فأخذته إلى ركبتيه، ثم قال خذيه إلى وسطه، ثم قال خذيه فأخذته إلى عُقْبِهِ، ثم قال خذيه فَخَسَفْتُ بِهِ وَكَانَ قَارُونُ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَلَمْ يَرْحَمْهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مَا أَفْطَكَ اسْتَرْحِمَكَ مَرَاراً فَلَمْ تَرْحَمْهُ، وَعَزَّتِي وَجَلَالِي لَوْ دَعَانِي مَرَّةً لِأَجْبَتُهُ، ثُمَّ قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّمَا فَعَلَهُ لِيرْتَهُ، فدعا الله تعالى حتى خَسَفَ بَدَارَهُ وَأَمْوَالَهُ. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أعوانٍ مشتقة من قَاوَتْ رَأْسَهُ إِذَا مِيلَتْهُ. ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيدفعون عنه عذابه. ﴿وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ﴾ الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر إذا منعه منه فامتنع.

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢٢٤/٦) عن ابن عباس.

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَاثُرُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾

(٨٢) ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ منزلته. ﴿بِالْأَمْسِ﴾ منذ زمانٍ قريب. ﴿يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ يبسط ويقدّر بمقتضى مشيئته لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض، ويكأن عند البصريين مركب من وى للتعجب وكان للتشبيه والمعنى: ما أشبه الأمر أن الله يبسط الرزق. وقيل من ونك بمعنى ونلك وأن تقديره ونك اعلم أن الله. ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعطينا ما تمنينا. ﴿لَخَسَفَ بَنَّا﴾ لتوليدنا فينا ما ولدته فيه، فحسف بنا لأجله. وقرأ حفص بفتح الخاء والسين. ﴿وَيَكَاثُرُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم من ثواب الآخرة.

(٨٣) ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم كانه قال: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها، والدار صفة والخبر: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ غلبة وقهراً. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يرضاه الله.

(٨٤) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ذاتاً وقدرأً ووصفاً. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير تهجيناً لحالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم. ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم ما كانوا يعملون مقامه مبالغة في المماثلة.

(٨٥) ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه. ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي معاد، وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه، أو مكة^(١) التي اغتذت بها على أنه من العادة رده إليها يوم الفتح، كانه لما حكم بأن العاقبة للمتقين وأكد ذلك بوعده المحسنين ووعيد المسيئين وعدة بالعاقبة الحسنی في الدارين. روي أنه لما بلغ جحفة في مهاجره اشتاق إلى مولده ومولد آبائه فنزلت^(٢). ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعله يفسره أعلم. ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال يعني به نفسه والمشركون، وهو تقرير للوعد السابق وكذا قوله:

(١) أخرجه البخاري (٨/٥٠٩ - ٥١٠ رقم ٤٧٧٣) عن ابن عباس.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤١٤): «وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكيًا، والله أعلم» هـ.

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكن ألقاه رحمة منه، ويجوز أن يكون استثناءً محمولاً على المعنى كأنه قال: وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبتهم.

(٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ عن قراءتها والعمل بها. ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ﴾ وقرىء يصدُّكَ من أَصَدَ. ﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيده. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتهم.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ هذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إلا ذاته فإن ما عداه ممكن هالك في حد ذاته معدوم. ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في الخلق. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء بالحق. عن النبي ﷺ «من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد مَنْ صدَّق موسى وكذَّب ولم يبق مَلَكٌ في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً»^(١).



(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب. كما في «الكافي الشاف» (ص ١٢٧ رقم ١٤٣) وهو حديث موضوع تقدم الكلام في آخر آل عمران.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ

سورة العنكبوت مكية وآياتها تسع وستون آية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الَّذِينَ﴾ سبق القول فيه، ووقوع الاستفهام بعده دليل استقلاله بنفسه أو بما يُضمَرُ معه.

(٢) ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ﴾ الحسابُ مما يتعلّق بمضامين الجمل للدلالة على جهة ثبوتها ولذلك اقتضى مفعولين متلازمين أو ما يسدُّ مسدّهما كقوله: ﴿أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ فَإِنَّ معناه أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمناً، فالترك أول مفعوليّه وغير مفتونين من تمامه ولقولهم آمناً هو الثاني كقولك: حسبتُ ضربه للتأديب، أو أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمناً بل يمتحنهم الله بمشاقّ التكليف، كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب في الأنفس

(١) انظر «الدر المنثور» (٤٤٩/٦) و«زاد المسير» (٢٥٣/٦) والبحر المحيط (١٣٩/٧) و«الجامع لأحكام القرآن» (٣٢٣/١٣) وفي ظلال القرآن (٢٧١٨/٥).

والأموالِ لِيَتَمَيَّزَ الْمُخْلِصُ مِنَ الْمُنَافِقِ وَالثَّابِتُ فِي الدِّينِ مِنَ الْمُضْطَرِّبِ فِيهِ، وَلِيُنَالُوا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا عَوَالِي الدَّرَجَاتِ، فَإِنَّ مَجَرَّدَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَانَ عَنْ خُلُوصٍ لَا يَقْتَضِي غَيْرَ الْخُلُوصِ مِنَ الْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ. رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ جَزَعُوا مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ^(١)، وَقِيلَ فِي عَمَّارٍ وَقَدْ عَذَّبَ فِي اللَّهِ تَعَالَى^(٢)، وَقِيلَ فِي مُهْجَعٍ مَوْلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَمَاهُ عَامِرُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَتَلَهُ فَجَزَعَ عَلَيْهِ أَبُوهُ وَامْرَأَتُهُ^(٣).

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مُتَّصِلٌ بِأَحْسَبَ أَوْ بَلَا يَفْتَنُونَ، وَالْمَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ سَنَةٌ قَدِيمَةٌ جَارِيَةٌ فِي الْأُمَمِ كُلِّهَا فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَقَّعَ خِلَافُهُ. ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فَلْيَتَعَلَّقَنَّ عِلْمُهُ بِالْامْتِحَانِ تَعَلُّقًا حَالِيًّا يَتَمَيَّزُ بِهِ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي الْإِيمَانِ وَالَّذِينَ كَذَبُوا فِيهِ، وَيَنْوِطُ بِهِ ثَوَابَهُمْ وَعِقَابَهُمْ وَلِذَلِكَ قِيلَ الْمَعْنَى وَلْيُمَيَّزَنَّ أَوْ لِيُجَازِيَنَّ، وَقَرِئَ وَلْيُعْلَمَنَّ مِنَ الْإِعْلَامِ أَيِ وَلْيَعْرِفْتَهُمُ اللَّهُ النَّاسَ أَوْ لِيَسْمَنْتَهُمْ بِسِمَةٍ يُعْرِفُونَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِبْيَاضِ الْوُجُوهِ وَسَوَادِهَا.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الْكَفَرُ وَالْمَعَاصِي فَإِنَّ الْعَمَلَ يَعْمُ أَفْعَالُ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ. ﴿أَنْ يَسْقُونَا﴾ أَنْ يَفُوتُونَا فَلَا نَقْدِرُ أَنْ نَجَازِيَهُمْ عَلَى مَسَاوِيهِمْ وَهُوَ سَاءٌ مَسَدٌّ مَفْعُولِي حَسِبَ لَاشْتِمَالِهِ عَلَى مَسْنَدٍ وَمَسْنَدٍ إِلَيْهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَضْمَنَّ حَسِبَ مَعْنَى قَدَّرَ أَوْ أُمَ مَنْقُطَعَةٌ وَالْإِضْرَابُ فِيهَا لِأَنَّ هَذَا الْحِسَابَ أَبْطُلُ مِنَ الْأَوَّلِ وَلِهَذَا عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيِ بِشَرِّ الَّذِي يَحْكُمُونَهُ، أَوْ حَكْمًا يَحْكُمُونَهُ حَكْمَهُمْ هَذَا فَحُذِفَ الْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ.

(٥) ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ فِي الْجَنَّةِ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِلِقَاءِ اللَّهِ الْوَصُولُ إِلَى ثَوَابِهِ، أَوْ إِلَى الْعَاقِبَةِ مِنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، عَلَى تَمَثُّلِ حَالِهِ بِحَالِ عَبْدٍ قَدِمَ عَلَى سَيِّدِهِ بَعْدَ زَمَانٍ مَدِيدٍ وَقَدْ أَطْلَعَ السَيِّدُ عَلَى أَحْوَالِهِ، فَمَا أَنْ يَلْقَاهُ بِشَرٍّ لِمَا رَضِيَ مِنْ أَفْعَالِهِ أَوْ بِسَخِطٍ لِمَا سَخِطَ مِنْهَا. ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ﴾ فَإِنَّ الْوَقْتَ الْمَضْرُوبَ لِلِقَائِهِ. ﴿لَاتِ﴾ لَجَاءٍ وَإِذَا كَانَ وَقْتُ الْلِقَاءِ آتِيًا كَانَ الْلِقَاءُ كَائِنًا لَا مُحَالَةً، فَلْيُبَادِزْ مَا يَحِقُّ أَمَلَهُ وَيَصْدُقْ رَجَاءَهُ أَوْ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْقُرْبَةَ وَالرِّضَا. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِ الْعِبَادِ. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِعَقَائِدِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج ٢٠/١٢٩) عن الشعبي، وذكره الواحدي في الأسباب (ص ٣٤٠).

(٢) أخرجه ابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن عبدالله بن عبيد بن عمير - كما في «الدر المنثور» (٤٥٠/٦) -.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٢٧ رقم ١٤٤) «ذكره الثعلبي عن مقاتل...».

ثم قال: «وسنده إلى مقاتل في أول كتابه، وفي «الدلائل» لابن أبي شيبة من طريق القاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود قال: «أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر» هـ.

وذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٣٤٠).

● قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/١٩٩ - ٢٠٠): «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب وفي هذه الجماعة فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها، بقية الدهر وذلك أن الفتنة من الله تعالى، والاختبار باق في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك وإذا اعتبر أيضاً كل موضع فيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التي تشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر» هـ.

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ نفسه بالصبر على مضض الطاعة والكف عن الشهوات. ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعتَهُ لها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فلا حاجة به إلى طاعتهم، وإنما كلّف عباده رحمة عليهم ومراعاة لصلاحتهم.

(٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الكفر بالإيمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم.

(٨) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ بآبائهما فعلاً ذا حُسن، أو كانه في ذاته حَسَنٌ لفرط حُسنه ووصى يجري مجرى أمرٍ معنًى وتصرفاً. وقيل هو بمعنى قال أي قلنا له أحسن بوالديك حسناً. وقيل حسناً منتصبٌ بفعلٍ مُضمرٍ على تقدير قولٍ مفسرٍ للتوصية أي قلنا، أولهما، أو افعل بهما حسناً، وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه. وقرئ حسناً وإحساناً. ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بالهتة، عبّر عن نفيا بنفي العلم بها إشعاراً بأن ما لا يُعلمُ صحته لا يجوزُ اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بطلانه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا بدّ من إضمار القول إن لم يُضمر قبل. ﴿إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن برّ بوالديه ومن عقى. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه، والآية نزلت^(١) في سعد بن أبي وقاص وأمه حمّة، فإنها لما سمعت بإسلامه حلفت أنها لا تنتقل من الصّح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتدّ ولبثت ثلاثة أيام كذلك، وكذا التي في لقمان^(٢) والأحقاف^(٣).

(٩) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ في جملتهم، والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين وامتتّى أنبياء الله المرسلين، أو في مُدْخِلِهِمْ وهو الجنة.

(١٠) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بأن عذبهم الكفرة على الإيمان. ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ ما يصيبه من أذيتهم في الصرف عن الإيمان. ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الصرف عن الكفر. ﴿وَلَئِنْ

(١) ذكره الواحدي في الأسباب (ص ٣٤٠ - ٣٤١) والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند، والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص (٤/ ١٨٧٧ رقم ١٧٤٨) بغير هذا السياق - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٢٧ رقم ١٤٦) -.

(٢) الآية: «١٥».

(٣) الآية: «١٥».

جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴿١٠﴾ فَتَحْ وَغْنِمَةٌ ﴿١١﴾ ﴿لَقَوْلُنَا إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدِّينِ فَأَشْرِكُونَا فِيهِ، والمراد المنافقونَ أو قومٌ ضَعُفَ إيمانُهُم فارتدوا من أذى المشركين ويؤيدُ الأولُ. ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من الإخلاصِ والنفاقِ.

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَقْرَءُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ فيجازي الفريقين.

(١٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ الذي نسلكه في ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ إن كان ذلك خطيئةً أو إن كان بعثٌ ومواخذةٌ، وإنما أمرُوا أنفسهم بالحملِ عاطفينَ على أمرهم بالاتباع مبالغةً في تعليقِ الحملِ بالاتباع والوعدِ بتخفيفِ الأوزارِ عنهم إن كانتِ تشجيعاً لهم عليه، وبهذا الاعتبار ردٌّ عليهم وكذبهم بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ من الأولى للتبيين والثانية مزيدةٌ والتقدير: وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم.

(١٣) ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أثقال ما اقترفته أنفسهم. ﴿وَأَنْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وأنقالاً آخرَ معها لما تسببوا له بالإضلالِ والحملِ على المعاصي من غير أن ينقصَ من أثقالِ مَنْ تبعهم شيءٌ^(١). ﴿وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ سؤالٌ تقريعٍ وتبكيتٍ. ﴿عَمَّا كَانُوا يَقْرَءُونَ﴾ من الأباطيل التي أضلُّوا بها.

(١٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ بعد المبعثِ، إذ رُوي أنه بُعثَ على رأسِ الأربعين ودعا قومه تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفانِ ستين، ولعل اختيارَ هذه العبارة للدلالة على كمالِ العددِ فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقربُ منه ولما في ذكرِ الألفِ من تخيلٍ طولِ المدةِ إلى السامع، فإنَّ المقصودَ من القصةِ تسليةَ رسولِ الله ﷺ وتثبيتَهُ على ما يكابده من الكفرة، واختلافِ المميزين كما في التكريرِ من البشاعة. ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ طوفانُ الماءِ وهو لَمَّا طاف بكثرةٍ من سيلٍ أو ظلامٍ أو نحوهما. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بالكفر.

(١٥) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي نوحاً عليه الصلاة والسلام. ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ ومنَ أركبَ معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين، وقيل ثمانية وسبعين، وقيل عشرة نصفهم ذكورٌ ونصفهم إناث. ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي السفينةَ أو الحادثة. ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يتعظون ويستدلُّون بها.

(١) التعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة (س ٧/ ٣٣).

وَأِبرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَأِبرَاهِيمَ﴾ عطفٌ على نوحاً أو نُصِبَ بإضمار اذْكُرْ، وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين إبراهيم. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ظرفٌ لأرسلنا أي أرسلناه حينَ كَمُلَ عقله وتمَّ نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به، أو بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ إنْ قَدَّرَ باذْكُرْ. ﴿وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه. ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر وتميِّزُونَ ما هو خيرٌ مما هو شرٌّ، أو كنتم تنظرون في الأمور بنظر العلم دون نظر الجهل.

(١٧) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتكذبون كذباً في تسميتها آلهةً وأدعاء شفاعتها عند الله تعالى، أو تعملونها وتنجتونها للإفك، وهو استدلالٌ على شرارة ما هم عليه من حيث إنه زورٌ وباطلٌ. وقرئ تُخْلِقُونَ من خَلَقَ للتكثير وتَخْلُقُونَ من تَخَلَّقَ للتكلف. وإفكاً على أنه مصدرٌ كالكذب أو نعتٌ بمعنى خلقاً ذا إفك. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليلٌ ثانٍ على شرارة ذلك من حيث إنه لا يجدي بطلان، ورزقاً يحتمل المصدر بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم وأن يُزَادَ المرزوق وتذكيره للتعميم. ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كله فإنه المالك له. ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ متوسلين إلى مطالبتكم بعبادته مقتدين لما حَفَّكُمْ من النعم بشكره، أو مستعدين للقائه بهما، فإنه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرئ بفتح التاء.

(١٨) ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ وإنْ تكذبوني. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من قبلي مِنَ الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما ضرَّ أنفسهم حيث سَبَّبَ لما حلَّ بهم من العذاب فكذا تكذيبكم. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ الذي يُرَالُ معه الشكُّ وما عليه أن يُصَدَّقَ ولا يكذب، فالآية وما بعدها من جملة قصة إبراهيم إلى قوله ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾^(١) ويحتمل أن تكون اعتراضاً بذكر شأن النبي ﷺ وقريش وهذم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم، توسطَ بين طَرَفَيِ قِصَّتِهِ من حيث إنَّ مساقها لتسليّة رسول الله ﷺ والتنفيس عنه، بأنَّ أباه خليل الله صلوات الله عليهما كان ممنوّاً بنحو ما مُنِيَ به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ من مادةٍ ومن غيرها. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالتاء على تقدير القول، وقرئ يبدأ. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إخبارٌ بالإعادة بعد الموت معطوفٌ على أو لم يروا لا على يبدىء، فإنَّ الرؤية غير واقعة عليه، ويجوز أن تؤلَّ الإعادة بأنْ ينشأ في كل سنة مثل

ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوهما وتُعْطَفُ على يدي. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى الإعادة أو إلى ما ذُكِرَ من الأمرين. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِدَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَاسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حكاية كلام الله لإبراهيم أو محمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء، فإنه والإعادة نشأتان من حيث أن كلا اختراع وإخراج من العدم، والإفصاح باسم الله مع إيقاعه مبتدأ بعد إضماره في بدأ والقياسُ الاقتصارُ عليه للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة، وأن مَنْ عُرِفَ بالقدرة على الإبداء ينبغي أن يُحْكَمَ له بالقدرة على الإعادة لأنها أهون والكلام في العطف مامراً، وقرىء النشأة كالرأفة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى كلِّ الممكنات على سواء فيقدر على النشأة الأخرى كما قدر على النشأة الأولى.

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمته. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تُرَدُّونَ.

(٢٢) ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم عن إدراككم. ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إن فرزتم من قضائه بالتواري في الأرض أو الهبوط في مهاويها، والتحصن في السماء أو القلاع الذاهية فيها وقيل ولا مَنْ في السماء كقول حسان:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحْهُ وَيَنْصُرْهُ سَوَاءٌ

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم عن بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم.

(٢٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِدَةِ اللَّهِ﴾ بدلائل وحدانيته أو بكتبه. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ بالبعث. ﴿أُولَئِكَ يَاسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي يأسون منها يوم القيامة، فعبر عنه بالماضي للتحقق والمبالغة، أو أيسوا في الدنيا لإنكار البعث والجزاء. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم.

(٢٤) ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قوم إبراهيم له، وقرىء بالرفع على أنه الاسم والخبر ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وكان ذلك قول بعضهم لكن لما قيل فيهم ورضي به الباقون أُسِنْدَ إلى كلهم. ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي فقدوه في النار فأنجاه الله منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في إنجائه منها. ﴿لَآيَاتٍ﴾ هي حفظه من أذى النار، وإخمادها مع عظيمها في زمان يسر وإنشاء روض مكانها. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المتفعمون بالتفحص عنها والتأمل فيها.

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَيْكُم النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾
 ﴿فَقَامَنَ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(٢٥) ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لتتواذوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها، وثاني مفعولي اتخذتم محذوف، ويجوز أن تكون مودة المفعول الثاني بتقدير مضاف أي اتخذتم أوثان سبب المودة بينكم أو بتأويلها بالمودودة. وقرأها نافع وابن عامر وأبو بكر منونة ناصبة بينكم والوجه ما سبق، وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس مرفوعة مضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي مودودة أو سبب مودة بينكم. والجملة صفة أوثاناً أو خبر إن على أن ما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف وهو المفعول الأول. وقُرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرئ ﴿لَقَدْ قَطَعَ بَيْنَكُمْ﴾^(١) وقرئ إنما مودة بينكم. ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يقوم التناكر والتلاعن بينكم، أو بينكم وبين الأوثان على تغليب المخاطبين كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾^(٢). ﴿وَمَا أَوْثَانُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

(٢٦) ﴿فَقَامَنَ لَمْ لُوطٌ﴾ هو ابن أخيه وأول من آمن به، وقيل إنه آمن به حين رأى النار لم تحرقه. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من قومي. ﴿إِلَى رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي يمنني من أعدائي. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. روي^(٣) أنه هاجر من كوثي من سواد الكوفة مع لوط وامراته سارة ابنة عمه إلى حران، ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين، ونزل لوط سدوم.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً ونافلة حين أسس من الولادة من عجوز عاقر، ولذلك لم يذكر إسماعيل. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ فكثر منهم الأنبياء. ﴿وَالْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ﴾ على هجرته إلينا. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بإعطاء الولد في غير أوانه، والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وإنماء أهل الملل إليه والشأن والصلاة عليه إلى آخر الدهر. ﴿وَلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ لِيْسَ الصَّالِحِينَ﴾ لفي عداد الكامين في الصلاح.

(٢٨) ﴿وَلُوطًا﴾ عطف على إبراهيم أو على ما عطف عليه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في الفجح. وقرأ الحرميان وابن عامر وحفص بهزمة مكسورة على

(١) الأنعام: «٩٤».

(٢) مريم: «٨٢».

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/٢٣٨).

الخبر^(١) والباقون على الاستفهام وأجمعوا على الاستفهام في الثاني. ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استئناف مقررٌ لفاحشيتها من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع وتحاشت عنه النفوس حتى أقدموا عليها لخبث طينتهم.

أَيْتَكُمْ لَتَأْتُنَّكَ الرَّجَالُ وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُوكَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابٍ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَافَكَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾

(٢٩) ﴿أَيْتَكُمْ لَتَأْتُنَّكَ الرَّجَالُ وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة حتى انقطع الطريق، أو تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث. ﴿وَتَأْتُوكَ فِي نَادِيكُمْ﴾ في مجالسكم الغاصية بأهلها ولا يقال للنادي إلا لما فيه أهله. ﴿الْمُنْكَرُ﴾ كالجماع والضراط وحل الإزار وغيرها من القبائح عدم مبالاة بها. وقيل الخذف ورمي البناديق. ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابٍ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في استقبح ذلك أو في دعوى النبوة المفهومة من التوبيخ.

(٣٠) ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب. ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ باتباع الفاحشة وسنّها فيمن بعدهم، وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقّاء بأن يُعَجَّلَ لهم العذاب.

(٣١) ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ بالبشارة بالولد والنافلة. ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قرية سدوم، والإضافة لفظية لأن المعنى على الاستقبال. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم لهم بإصرارهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر وأنواع المعاصي.

(٣٢) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعتراضٌ عليهم بأن فيها من لم يظلم، أو معارضة للموجب بالمنع وهو كون النبي بين أظهرهم. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ تسلّم لقوله مع ادّعاء مزيد العلم به وأنهم ما كانوا غافلين عنه وجواب عنه بتخصيص الأهل بمن عداؤه وأهله، أو تأقيت الإهلاك بإخراجهم منها، وفيه تأخير للبيان عن الخطاب. ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقيين في العذاب أو القرية.

(٣٣) ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ﴾ جاءته المساءة والغم يسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء، وأن صلة لتأكيد الفعلين واتصالهما. ﴿وَصَافَكَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ وضاقت بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أي

(١) أي قروا «إذ قال لقومه إنكم» بهمزة واحدة، بينما قرأ الباقر «أنكم»، وأجمعوا على الاستفهام في الثاني أي في قوله «أنكم لتأتون الرجال...».

طاقته كقولهم ضاقت يده وبإزائه رَحَبَ ذُرْعُهُ بكذا إذا كان مطيقاً له، وذلك لأنَّ طَوِيلَ الذراع ينال ما لا يناله قصيرُ الذراع. ﴿وَقَالُوا﴾ لما رأوا فيه أثر الضجرة. ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ على تمكُّنهم منا. ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنْكَ الْفِتْرَةُ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لَنُنْجِيَنَّهُ وَمُنْجُوكَ بالتخفيف، ووافقه أبو بكر وابن كثير في الثاني. وموضع الكاف الجرُّ على المختار، ونُضِبَ أَهْلَكَ بإضمارِ فعل، أو بالعطفِ على محلِّها باعتبارِ الأصل.

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْتٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عذاباً منها، سُمِّيَ بذلك لأنه يُفْلِقُ المعذَّبَ مِنْ قولهم ارتجز إذا ارتجس أي اضطرب. وقرأ ابن عامر مُنْزِلُونَ بالتشديد. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.

(٣٥) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ هي حكايتها الشائعة أو آثار الديار الخربة، وقيل الحجارة الممطرة فإنها كانت باقية بعد، وقيل بقية أنهارها المسودة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، وهو متعلق بتزكنا أو آية.

(٣٦) ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجون به ثوابه فأقيم المسبب مقام السبب، وقيل إنه من الرجاء بمعنى الخوف. ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

(٣٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة وقيل صيحة جبريل عليه السلام لأنَّ القلوب ترجف لها. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ في بلدهم أو دورهم، ولم يُجْمَعْ لِأَمْنِ النَّبِيِّ. ﴿جِثِيمٍ﴾ باركين على الرُكْبِ ميتين.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ منصوبان بإضمارِ اذكر أو فعل دلَّ عليه ما قبله مثلُ أَهْلَكْنَا. وقرأ حمزة وحفص ويعقوب وثمود غير منصرفٍ على تأويل القبيلة. ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ﴾ أي تبين لهم بعض مساكنهم، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها. ﴿وَزَيْتٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي الذي بيَّنه الرسل لهم. ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ متمكنين من النظر والاستبصار ولكنهم لم يفعلوا، أو متبينين أنَّ العذاب لا حق بهم بإخبار الرسل لهم ولكنهم لجؤا حتى هلكوا.

(٣٩) ﴿وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ معطوف على عادًا، وتقديمُ قارونَ لشرفِ نبيه. ﴿وَلَقَدْ

جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِكِينَ ﴿٤٠﴾ فَاتَيْنَ بِلْ أَدْرَكَهُمُ أَمْرُ اللَّهِ مِنْ سَبْقِ طَالِبِهِ إِذَا فَاتَهُ .

فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٠) ﴿فَكَلَّا﴾ من المذكورين. ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ عاقبناه بذنوبه. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباء، أو ملكاً رماهم بها كقوم لوط. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كمدين وثمود. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من عادته عز وجل. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعرض للعذاب.

(٤١) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فيما اتخذوه مُعْتَمِدًا وَمَتَكَلًا. ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجته في الوهن والخور بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقة وانتفاعاً ما، أو مثلهم بالإضافة إلى الموحد كمثليها بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجص، والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، والتاء فيه كطاء طاغوت ويجمع على عناكب وعناكب وعكاب وعكبة وأعكب. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يرجعون إلى علم لعلوا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهن من ذلك، ويجوز أن يكون المراد ببيت العنكبوت دينهم سماء به تحقيقاً للمثيل فيكون المعنى: وإن أوهن ما يعتمد به في الدين دينهم.

(٤٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله يعلم، وقرأ البصريان بالياء حملاً على ما قبله وما استفهامية منصوبة بتدعون ويعلم معلقة عنها ومن للتبيين أو نافية ومن مزيدة وشيء مفعول تدعون أو مصدرية وشيء مصدر أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول تدعون عائدها المحذوف، والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل وعلى الآخرين وعيد لهم. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعليل على المعنيين فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يُعَدُّ شيئاً بمن هذا شأنه، وأن الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل الغاية كالمعدوم، وأن من هذا وصفه قادر على مجازاتهم.

(٤٣) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ﴾ يعني هذا المثل ونظائره. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لما بعد من أفهامهم. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ ولا يعقل حُسْنَهَا وفائدتها. ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي. وعن ع أن هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سُخْطَهُ»^(١).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٢٧ رقم ١٤٩): «أخرجه - داود بن المحبر في كتاب «العقل» =

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٤) ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ مُحَقَّقًا غَيْرَ قَاصِدٍ بِهِ بَاطِلًا، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِالذَّاتِ مَنْ خَلَقَهَا إِفَادَةُ الْخَيْرِ وَالِدَّلَالَةُ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَأَنَّهُمُ الْمُتَتَفِعُونَ بِهِ.

(٤٥) ﴿أَتُلُّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقِرَاءَتِهِ وَتَحَفُّظًا لِأَلْفَاظِهِ وَاسْتِكْشَافًا لِمَعَانِيهِ، فَإِنَّ الْقَارِئَ الْمُتَامِّلَ قَدْ يَنْكَشِفُ لَهُ بِالتَّكْرَارِ مَا لَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ أَوَّلَ مَا قَرَعَ سَمْعَهُ. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ بَأَن تَكُونَ سَبَبًا لِلانْتِهَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي حَالِ الْإِسْتِغَالِ بِهَا وَغَيْرِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَذَكِّرُ اللَّهَ وَتَوَرِّثُ النَّفْسَ خَشْيَةً مِنْهُ. رُويَ أَنَّ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ وَلَا يَدْعُ شَيْئًا مِنَ الْفَوَاحِشِ إِلَّا ارْتَكَبَهُ، فَوُصِفَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: «إِنَّ صَلَاتَهُ سَتْنَاهُ» فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَابَ^(١). ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وَلِلصَّلَاةِ أَكْبَرُ مِنْ سَائِرِ الطَّاعَاتِ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهَا بِهِ لِلتَّعْلِيلِ بَأَنَّ اشْتِمَالَهَا عَلَى ذِكْرِهِ هُوَ الْعِمْدَةُ فِي كَوْنِهَا مَفْضَلَةً عَلَى الْحَسَنَاتِ نَاهِيَةً عَنِ السَّيِّئَاتِ، أَوْ لِدُكْرِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ بِرَحْمَتِهِ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ بِطَاعَتِهِ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ مِنْهُ وَمِنْ سَائِرِ الطَّاعَاتِ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ أَحْسَنَ الْمَجَازَةِ.

والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» - (بقية الباحث رقم ١٠٣٠) - عنه من حديث جابر. وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدي، والبغوي - في «معالم التنزيل» (٢٤٣/٦) - وذكره ابن الجوزي في الموضوعات هـ.

وذكر ابن حجر في «المطالب العالية» (٢١٥/٣ - ٢١٦) أحاديث من كتاب «العقل» لداود بن المحبر. ثم قال: «وهذه الأحاديث من كتاب العقل لداود بن المحبر، وكلها موضوعة ذكرها الحارث في مسنده عنه».

قلت: وأورد ابن عراق الحديث في «تنزيه الشريعة» (٢١٤/١).

وقال الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٦٠/٨) في ترجمة (داود بن المحبر).

«حدثنا الصُّورِيُّ قال: سمعتُ الحافظ عبد الغني بن سعيد يقول: قال الدارقطني: إن كتاب «العقل» وضَّعه أربعة: أولهم مَيْسَرَةُ بن عَبْدِ رَبِّهِ، ثُمَّ سَرَقَهُ مِنْهُ دَاوُدُ بْنُ الْمَحْبَرِ، فَرَكَّبَهُ بِأَسَانِيدٍ غَيْرِ أَسَانِيدٍ مَيْسَرَةَ، وَسَرَقَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَجَاءٍ، فَرَكَّبَهُ بِأَسَانِيدٍ أُخْرَى، ثُمَّ سَرَقَهُ سَلِيمَانُ بْنُ عَيْسَى السَّجْزِيُّ فَأَتَى بِأَسَانِيدٍ أُخْرَى».

والخلاصة أنه لا يصح في العقل حديث. انظر «المنار المنيف» لابن قيم الجوزية ص ٦٦ - ٦٧.

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٢٨ رقم ١٥٢): «ولم أجده».

وقد قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في مقدمة كتاب «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» للقياري (ص ٢٥): «قولهم في الحديث: لا أعرفه، أو: لم أعرفه، أو: لم أقف عليه، أو: لا أعرف له أصلاً، أو: لم أجده له أصلاً، أو: لم أقف له على أصل، أو: لا أعرفه بهذا اللفظ، أو: لم أره بهذا اللفظ. أو: لم أجده، أو: لم أجده هكذا، أو: لم يرد فيه شيء، أو: لا أعلم من أخرجه ولا إسناده، ونحو هذه العبارات إذا صدر من أحد الحفاظ المعروفين، ولم يتعقبه أحد كفى للحكم على ذلك الحديث بالوضع» هـ.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِمِيزِنٍ إِذَا لَزَبْتَ الْمُبْطُلُونَ﴾ (٤٨)

(٤٦) ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخسونة باللين والغضب بالكظم والمشغبة بالتضح، وقيل هو منسوخ بآية السيف إذ لا مجادلة أشد منه وجوابه أنه آخر الدواء، وقيل المراد به ذو العهد منهم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(١) أو بنقض العهد ومنع الجزية. ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ هو من المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فإن قالوا باطلا لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم»^(٢). ﴿وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ﴾ مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أجبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

(٤٧) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال. ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وحياً مصدقاً لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هم عبدالله بن سلام وأضرابه، أو من تقدم عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب. ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ ومن العرب أو أهل مكة أو ممن في عهد الرسول من أهل الكتابين. ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها. ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ إلا المتوغلون في الكفر فإن جزمهم به يمنعهم عن التأمل فيما يقيد لهم صدقها لكونها معجزة بالإضافة إلى الرسول ﷺ كما أشار إليه بقوله:

(٤٨) ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِمِيزِنٍ﴾ فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة أمي لم يُعرف بالقراءة والتعلم خارق للعادة، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي، ونفي للتجوز في الإسناد. ﴿إِذَا لَزَبْتَ الْمُبْطُلُونَ﴾ أي لو كنت ممن يخطئ ويقرأ لقالوا لعلّه تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين، وإنما سمّاهم مبطلين لكفرهم أو لارتياحهم بانتفاء وجه واحد من وجوه الإعجاز المكاره، وقيل لارتاب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك على خلاف ما في كتبهم فيكون إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدّر.

(١) المائدة: «٦٤».

(٢) أخرجه أبو داود (٥٩/٤ رقم ٣٦٤٤) وابن حبان (ص ٥٨ رقم ١١٠ - موارد) وأحمد في المسند (١٣٦/٤) والطبراني في الكبير (٣٤٩/٢٢ - ٣٥١ رقم ٨٧٤ - ٨٧٩) وعبد الرزاق في المصنف (١١٠/١١) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢) كلهم من طريق الزهري عن ابن أبي نملة الأنصاري عن أبيه في سياق أطول من ذلك. وقال الحافظ في «التقريب» (٣٠٧/٢ رقم ١٤٨): «نملة بن أبي نملة» مقبول. فالحديث بهذا الإسناد فيه ضعف يسير يجبره حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (١٧٠/٨ رقم ٤٤٨٥) و(٣٣٣/١٣ رقم ٧٣٦٢) و(٥١٦/١٣ رقم ٧٥٤٢).

بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ سَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾

(٤٩) ﴿بَلْ هُوَ﴾ بل القرآن. ﴿آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ المتوغلون في الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها حتى لم يعتدوا بها.

(٥٠) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى، وقرأ نافع وابن عامر والبصريان وحفص آيات. ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزلها كما يشاء لست أملكها فأتاكم بما تقتبحونه. ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإيافته بما أُعْطِيتُ من الآيات.

(٥١) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آية مغنية عما اقترحوه. ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدّين به فلا يزال معهم آية ثابتة لا تضمحل بخلاف سائر الآيات، أو يُتْلَى عليهم يعني اليهود بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة. ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة. ﴿وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وتذكرة لمن همّه الإيمان دون التعت. وقيل إن أناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتب كتبت فيها بعض ما يقول اليهود، فقال: «كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبئهم إلى ما جاء به غير نبئهم» فترلت^(١).

(٥٢) ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا﴾ بصدقي وقد صدقني بالمعجزات، أو بتبليغي ما أُرسلتُ به إليكم ونُضحى ومقابلتكم إياي بالتكذيب والتعت. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه حالي وحالكم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما يُعْبَدُ من دون الله. ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ منكم. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

(٥٣) ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم: أمطر علينا حجارة من السماء. ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ لكل عذاب أو قوم. ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة في الدنيا كوقعة بدر أو الآخرة عند نزول الموت بهم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بآتيانه.

(٥٤) ﴿سَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب، أو هي كالمحيطه بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم. واللام للعهد على وضع الظاهر موضع

(١) أخرجه الدارمي (١٢٤/١) وأبو داود في «المراسيل» (ص ٣٢٠ رقم ٤٥٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج ٢١/٧) من حديث ابن جعدة مرسلًا - وإسناد الدرامي صحيح وهو مرسل -.

المضمر للدلالة على موجب الإحاطة، أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم.

يَوْمَ يَفْشَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَبْعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

(٥٥) ﴿يَوْمَ يَفْشَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ظرف لمحيطه أو مقدرة مثل كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ. ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ من جميع جوانبهم. ﴿وَيَقُولُ﴾ الله أو بعض ملائكته بأمره لقراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالنون. ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءه.

(٥٦) ﴿يَبْعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهّل لكم العبادة في بلدة ولم يتيسّر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتمشى لكم ذلك، وعنه عليه الصلاة والسلام: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام»^(١). والفاء جواب شرط محذوف إذ المعنى إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرضي فأخلصوها في غيرها.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تناله لا محالة. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ومن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له. وقرأ أبو بكر بالياء.

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم. ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علالي. وقرأ حمزة والكسائي لشئوئهم أي لنقيمهم من الثواء فيكون انتصاب غرماً لإجرائه مجرى لننزلنهم، أو بترع الخافض، أو بتشبيه الظرف المؤقت بالمبهم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمِلِينَ﴾ وقرئ فينعم والمخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله.

(٥٩) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والمشاق. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولا يتوكلون إلا على الله.

(٦٠) ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخره، وإنما تصبغ ولا معيشة عندها. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة، فإنهم لما أمروا بالهجرة قال بعضهم كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت^(٢). ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم هذا. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضميركم.

(١) التصريح بذكرهم، وإنما عدل عنه إلى الغائب فذكر صفتهم.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٨٢/٦) والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٣٦٠/١٣) والبخاري في «معالم التنزيل» (٢٥٢/٦).

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَلِئِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(٦١) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ المسؤول عنهم أهل مكة. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يُضَرَفُونَ عن توحيدهم بعد إقرارهم بذلك.

(٦٢) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون الموسع له والمضيق عليه واحداً على أن البسط والقبض على التعاقب وألا يكون على وضع الضمير موضع من يشاء وإبهامه لأن من يشاء مبهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالحهم ومفاسدهم.

(٦٣) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصمك من مثل هذه الضلالة، أو على تصديقك وإظهار حجتك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيتناقضون حيث يقرّون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم إنهم يشركون به الصنم، وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم.

(٦٤) ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ إشارة تحقير وكيف لا وهي لا تزول عند الله جناح بعوضة. ﴿إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ إلا كما يلهي ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويتهجون به ساعة ثم يتفرقون متعبين. ﴿وَلِئِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ لهي دار الحياة الحقيقية لا متنازع طريان الموت عليها، أو هي في ذاتها حياة للمبالغة، والحيوان مصدر حي سمي به ذو الحياة وأصله حيّان فقلبت الياء الثانية واواً وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة، ولذلك اختير عليها ههنا. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لم يؤثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة، والحياة فيها عارضة سريعة الزوال.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ متصل بما دلّ عليه شرح حالهم أي هم على ما وُصفوا به من الشرك فإذا ركبوا البحر. ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كائنين في سورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه ليعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجزؤا المعاودة إلى الشرك.

(٦٦) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام فيه لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة. ﴿وَلِيَسْتَمْنَعُوا﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادمهم عليها، أو لام الأمر على التهديد ويؤيده قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع وليستمعوا بالسكون. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك حين يُعَاقَبُونَ.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ^{٦٨} أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة. ﴿أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ أي جعلنا بلدَهم مصوناً عن التَّهْبِ والتعدّي آمناً أهله عن القتل والسي. ﴿وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يُخْتَلَسُونَ قتلاً وسيّاً إذ كانت العرب حوله في تغاورٍ وتناهبٍ. ﴿أَفِيَا الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله يؤمنون بالصنم أو الشيطان. ﴿وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيثُ أشركوا به غيره وتقديم الصّلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة.

(٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ^{٦٨}﴾ يعني الرسول أو الكتاب، وفي لَمَّا تسفيه لهم بأن لم يتوافقوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ تقريرٌ لثوابهم كقوله: أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا أي ألا يستوجبون الثواء فيها وقد افترؤا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب، أو لاجترائهم أي ألم يعلموا أن في جهنم مَثْوًى للكافرين حتى اجترؤوا مثل هذه الجراءة.

(٦٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ في حقنا، وإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا، أو لنزيدنهم هدايةً إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾^(١) وفي الحديث: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»^(٢). ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والإعانة. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْعَنْكَبُوتِ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ»^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) محمد: «١٧».

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٥/١٠ - ١٥) من حديث أنس بن مالك.

وقال أبو نعيم رحمه الله «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولة وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل» هـ.

وأورده الألباني في «الضعيفة» رقم (٤٢٢) وحكم عليه بالوضع، وقال: وفي الطريق إليه جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

(٣) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحد من حديث أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٢٨ رقم ١٥٨) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي ضِعِّ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

سورة الروم مكية

إلا قوله «فسبحان الله» الآية

وأيها ستون أو تسع وخمسون آية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْمَ﴾ ..

(٢) ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ ..

(٣) ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة عندهم، أو في أدنى أرضهم من العرب، واللام بدل من الإضافة. ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول. وقرئ غلبهم وهو لغة كالجلب والجلب. ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ ..

(١) مكية بالإجماع دون خلاف. انظر «الدر المنثور» (٤٧٨/٦) و«زاد المسير» (٢٨٦/٦) و«الجامع لأحكام القرآن» (١/١٤) و«المحرر الوجيز» (٢٤١/١٢).

(٤) ﴿فِي بَيْضِ سِنِينَ﴾ رُوي^(١) أَنَّ فَارِسَ غَزَا الرُّومَ فَوَافَوْهُمْ بِأَذْرَعَاتٍ وَيُضْرَى، وَقِيلَ بِالْجَزِيرَةِ وَهِيَ أَدْنَى أَرْضِ الرُّومِ مِنَ الْفَرَسِ فَغَلَبُوا عَلَيْهِمْ وَبَلَغَ الْخَبْرُ مَكَّةَ فَفَرَحَ الْمُشْرِكُونَ وَشِمَتُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَقَالُوا: أَنْتُمْ وَالنَّصَارَى أَهْلُ كِتَابٍ وَنَحْنُ وَفَارِسُ أُمَيُّونَ وَقَدْ ظَهَرَ إِخْوَانُنَا عَلَى إِخْوَانِكُمْ وَلَنُظْهِرَنَّ عَلَيْكُمْ فَتْرَلَتْ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ: لَا يَقْرَأُ اللَّهُ أَعْيُنَكُمْ فَوَاللَّهِ لَتُظْهِرَنَّ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ بَعْدَ بَيْضِ سِنِينَ، فَقَالَ لَهُ أَبِي بْنُ خَلْفٍ: كَذَبْتَ اجْعَلْ بَيْنَنَا أَجَلًا أَنُاجِبُكَ عَلَيْهِ، فَنَاجَبَهُ^(٢) عَلَى عَشْرِ قَلَانِصَ^(٣) مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَجَعَلَا الْأَجَلَ ثَلَاثَ سِنِينَ، فَأَخْبَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ الْبَيْضُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ فزَايَدَهُ فِي الْخَطَرِ وَمَادَّهُ فِي الْأَجَلِ، فَجَعَلَاهُ مِائَةَ قُلُوصٍ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ وَمَاتَ أَبِيٌّ مِنْ جَرَحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ قَوْلِهِ مِنْ أُحُدٍ وَظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ يَوْمَ الْحَدِيبَةِ فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ الْخَطَرَ مِنْ وَرَثَةِ أَبِيٍّ، وَجَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «تَصَدَّقْ بِهِ»^(٤) وَاسْتَدَلَّتْ بِهِ الْحَنْفِيَّةُ عَلَى جَوَازِ الْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ فِي دَارِ الْحَرْبِ، وَأُجِيبَ بِأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْقِمَارِ، وَالْآيَةُ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِأَنَّهَا إِخْبَارٌ عَنِ الْغَيْبِ. وَقُرِءَ غَلَبَتْ بِالْفَتْحِ وَسَيُغْلَبُونَ بِالضَّمِّ وَمَعْنَاهُ أَنَّ الرُّومَ غَلَبُوا عَلَى رَيْفِ الشَّامِ وَالْمُسْلِمُونَ سَيُغْلَبُونَهُمْ، وَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ نَزُولِهِ غَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَفَتَحُوا بَعْضَ بِلَادِهِمْ وَعَلَى هَذَا تَكُونُ إِضَافَةُ الْغَلَبِ إِلَى الْفَاعِلِ. ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِمْ غَالِبِينَ وَهُوَ وَقْتُ كَوْنِهِمْ مَغْلُوبِينَ، وَمِنْ بَعْدِ كَوْنِهِمْ مَغْلُوبِينَ وَهُوَ وَقْتُ كَوْنِهِمْ غَالِبِينَ أَيْ لَهُ الْأَمْرُ حِينَ غَلَبُوا وَحِينَ يُغْلَبُونَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِقَضَائِهِ، وَقُرِءَ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدٍ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرٍ مُضَافٍ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ قِيلَ قَبْلًا وَبَعْدًا أَيْ أَوَّلًا وَآخِرًا. ﴿وَيَوْمَ تَغْلِبُ الرُّومُ﴾. ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(٥) ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾ مَنْ لَهُ كِتَابٌ عَلَى مَنْ لَا كِتَابَ لَهُ لَمَا فِيهِ مِنْ انْقِلَابِ التَّفَاوُلِ وَظُهُورِ صَدَقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرَا بِهِ الْمُشْرِكِينَ وَغَلَبَتِهِمْ فِي رَهَانِهِمْ وَازْدِيَادِ يَقِينِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَقِيلَ يَنْصُرِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِظْهَارِ صَدَقِهِمْ أَوْ بِأَنَّهُ وَلِيٌّ بَعْضُ أَعْدَائِهِمْ بَعْضًا حَتَّى تَفَانُوا. ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فَيَنْصُرُ هَؤُلَاءِ تَارَةً وَهَؤُلَاءِ أُخْرَى. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يَنْتَقِمُ مِنْ عِبَادِهِ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ تَارَةً وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِالنَّصْرِ هُمْ بَنَصْرِهِمْ أُخْرَى^(٥).

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٤/٥) رقم ٣١٩٤ من حديث نيار بن مكرم الأسلمي.

قال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب.

وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أحمد في المسند (٢٧٦/١)، (٣٠٤) والترمذي (٣٤٣/٥) - ٣٤٤ رقم ٣١٩٣ وابن جرير في «جامع البيان» (١١/١٦٢) والطبراني في الكبير (٢٩/١٢) رقم ١٢٣٧٧ والحاكم في المستدرک (٤١٠/٢).

وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي وصححه أيضاً أحمد شاكر في المسند (رقم: ٢٤٩٥).

(٢) المناجاة: المخاطرة والمراعاة.

(٣) القُلُوص من الإبل بمنزلة الجارية من النساء وهي الشابة (المصباح المنير - مادة قلص).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه ابن كثير في تفسيره (٤٣٣/٣) إليه. من حديث البراء.

(٥) وتقديماً «العزیز» على «الرحیم» لتقدمه في الاعتبار (س/٧/٥٠).

وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤنك لنفسه لأن ما قبله في معنى الوعد. ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لا امتناع الكذب عليه تعالى. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده ولا صحة وعده لجهلهم وعدم تفكيرهم.

(٧) ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ما يشاهدونه منها والتمتع بزخارفها. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ التي هي غايتها والمقصود منها. ﴿هُم غَفْلُونَ﴾ لا تخطر ببالهم، وهم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره، والجملة خبر الأولى، وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة المبدلة من قوله: لا يعلمون تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها، فإن من العلم بظاهرها معرفة حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها ولذلك نكر ظاهراً، وأما باطنها فإنها مجاز إلى الآخرة ووصلة إلى نيلها وأنموذج لأحوالها، وإشعاراً بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختص بظاهر الدنيا.

(٨) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أولم يحدثوا التفكير فيها، أو أولم يتفكروا في أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها، ومراة يُجْتَلَى فيها للمستبصر ما يُجْتَلَى له في الممكنات بأشهرها ليتحقق لهم قدرة مبدعها على إعادتها مثل قدرته على إبدائها. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ متعلق بقول أو علم محذوف يدل عليه الكلام. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تنتهي عنده ولا تبقى بعده. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ﴾ بقاء جزائه عند انقضاء الأجل المسمى أو قيام الساعة. ﴿لَكَافِرُونَ﴾ جاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية وأن الآخرة لا تكون.

(٩) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تقرير لسيرهم في أقطار الأرض ونظرهم في آثار المدثرين قبلهم. ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود. ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ وقلبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وزرع البذور وغيرها. ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ وعمروا الأرض. ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ من عمارة أهل مكة إياها فإنهم أهل واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في غيرها، وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها، إذ مداؤ أمرها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة وهم ضعفاء ملجئون إلى دار لا نفع لها. ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ﴾ ليفعل بهم ما تفعل الظلمة فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير. ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عملوا ما أدى إلى تدميرهم.

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْءُ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾

(١٠) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْءُ﴾ أي ثم كان عاقبتهم العاقبة السَّوْءُ أو الخصلة السَّوْءُ، فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم وأنهم جاؤوا بمثل أفعالهم، والسوء تأنيث الأسوأ كالحسنى أو مصدر كالشرى نعت به. ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ علة أو بدل أو عطف بيان للسَّوْءِ، أو خبر كان والسوء مصدر أسأؤوا أو مفعوله بمعنى، ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة أن طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، ويجوز أن تكون السوء صلة الفعل وأن كذبوا تابعها والخبر محذوف للإبهام والتهويل، وأن تكون أن مفسرة لأن الإساءة إذا كانت مفسرة بالكذب والاستهزاء كانت متضمنة معنى القول، وقرأ ابن عامر والكوفيون عاقبة بالنصب على أن الاسم السوء وأن كذبوا على الوجوه المذكورة^(١).

(١١) ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشئهم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعيدهم. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروث بالياء على الأصل.

(١٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يسكتون متحزين آيسين يقال ناظرته فأبلس إذا سكت وآيس من أن يحتج ومنه الناقة المبلس التي لا ترعو، وقرئ بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته.

(١٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ ممن أشركوهم بالله. ﴿شُفَعَاءٌ﴾ يجيرونهم من عذاب الله، ومجيئه بلفظ الماضي لتحققه. ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يكفرون بالهتهم حين ينسوا منهم، وقيل كانوا في الدنيا كافرين بسببهم، وكتب في المصحف شفعا وعلموا بني إسرائيل بالواو وكذا السَّوْءُ بالألف إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

(١٤) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ أي المؤمنون والكافرون لقوله تعالى:

(١٥) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ أرض ذات أزهار وأنهار. ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون سروراً تهلك له وجوههم.

(١٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مُدْخِلُونَ لا يغيبون عنه.

(١٧) ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

(١) وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع «يستهزئون» للدلالة على استمراره وتجده (س٧/٥٣).

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إخبارٌ في معنى الأمرِ بتنزيه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتتجدد فيها نعمته، أو دلالة على أنَّ ما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتنزيهه واستحقاقه الحمد ممن له تمييزٌ من أهل السموات والأرض. وتخصيصُ التسبيح بالمساء والصباح لأنَّ آثار القدرة والعظمة فيهما أظهر، وتخصيصُ الحمد بالعشيّ - الذي هو آخرُ النهار من عَشَى العَيْنِ إذا نقصَ نورُها - والظهِيرة التي هي وسطه لأنَّ تجدد النعم فيهما أكثر. ويجوزُ أن يكونَ عشيًّا معطوفاً على حينَ تمسون وقوله ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعتراضاً. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّ الآيةَ جامعةٌ للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء وتصبحون صلاةَ الفجر. وعشيًّا صلاةَ العصر وتظهرون صلاةَ الظهر^(١)، ولذلك زعم الحسن^(٢) أنها مدنيةٌ لأنه كان يقولُ كان الواجبُ بمكَّةَ ركعتين في أيِّ وقتٍ اتفقتا وإنما فرضه الخمس بالمدينة، والأكثرُ على أنها فُرِضَتْ بمكَّةَ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من سرَّه أن يُكَالَ له بالقفيز الأوفى فليقل فسيحان الله حين تمسون الآية»^(٣). وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قال حين يصبح فسيحان الله حين تمسون إلى قوله وكذلك تُخْرَجُونَ أدرك ما فاته في ليلته، ومن قاله حين يمسي أدرك ما فاته في يومه»^(٤). وقرئ حيناً تمسون وحيناً تصبحون، أي تمسون فيه وتصبحون فيه.

(١٩) ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالنطفة والبيضة، أو يعقبُ الحياة الموت وبالعكس. ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُنْسِهَا. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإخراج. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم فإنه أيضاً تعقيبُ الحياة الموت، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج ٢٩/٢١) والطبراني في الكبير (٣٠٤/١٠) رقم (١٠٥٩٦) والحاكم في المستدرک (٤١٠/٢ - ٤١١) عنه.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الألويسي في «روح المعاني» (١٦/٢١) ثم قال وهو خلاف مذهب الجمهور.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٢٩ رقم ١٦٣) «أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط» هـ.

قلت: انظر ترجمة بشر هذا في «الجرح والتعديل» (٣٥٥/٢) والميزان (٣١٥/١).

(٤) أخرجه أبو داود (٣١٦/٥) رقم (٥٠٧٦) والطبراني في الكبير (٢٣٩/١٢) رقم (١٢٩٩١) وابن عدي في «الكامل» (١٢٢٦/٣) والعتيلي في «الضعفاء» (١٠٠/٢) من حديث ابن عباس.

قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٢٩ رقم ١٦٤) «وإسناده ضعيف» وقال البخاري في التاريخ الكبير (٤٦٠/٣): لا يصح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٢٧/٥).

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوُيُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أي في أصل الإنشاء لأنه خلق أصلهم منه. ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض.

(٢١) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ لأنَّ حواءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ وسائر النساء خلقن من نطفِ الرجال، أو لأنهنَّ من جنسهم لا من جنس آخر. ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ لتميلوا إليها وتألّفوا بها فإن الجنسية علّة للضمِّ، والاختلاف سبب للتنافر. ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي بين الرجال والنساء، أو بين أفراد الجنس. ﴿ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ بواسطة الزواج حال الشبق وغيرها بخلاف سائر الحيوانات نظماً لأمر المعاش، أو بأنَّ تعيّن الإنسان متوقّف على التعارف والتعاون المخوج إلى التوادّ والتراحم، وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كقوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾^(١). ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحكم.

(٢٢) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ لغايتكم بأنَّ علّم كلَّ صنفٍ لغته أو ألهمه وضعها وأقدره عليها، أو أجناس نطفكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقتين متساويتين في الكيفية. ﴿ وَالْوُيُكُمُ ﴾ بياض الجلد وسواده، أو تخطيطات الأعضاء وهياكلها وألوانها، وحلاها بحيث وقع التمايز والتعارف حتى أنَّ التوأمين مع توافق موادّهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ لا تكاد تخفى على عاقلٍ من ملّكٍ أو إنسٍ أو جنٍّ. وقرأ حفص بكسر اللام ويؤيده قوله ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾^(٢).

(٢٣) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وتقوي القوى الطبيعية وطلب معاشكم فيهما، أو منامكم بالليل وابتغائكم بالنهار فلفاً وضمّاً بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأنَّ كلّاً من الزمانين وإن اختصَّ بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة، ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴾ سماع تفهم واستبصار فإنَّ الحكمة فيه ظاهرة.

(٢٤) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾ مقدّر بأنَّ المصدرية كقوله:

(١) ص: «٤٣».

(٢) العنكبوت: «٤٣».

أَلَا أَيْهَذَا الزَّاجِرِ أَخْضَرَ الْوَعَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي
أَوْ الفعلُ فيه منزلة المصدرِ كقولهم: تسمعُ بالمعيدي خَيْرٌ من أنْ تراه، أو صفةٌ لمحذوفٍ تقديره
آيةٌ يريكم بها البرقُ كقوله:

فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْنِي الْعَيْشَ أَكْذَحَ
﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة للمسافر. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث للمقيم، ونَضْبُهُمَا على العلةِ لفعلٍ يلزمُ
المذكورُ فإنَّ إراءَتَهُم تستلزمُ رؤيتَهُم أوله على تقدير مضافٍ نحو إرادةِ خوفٍ وطمعٍ، أو تأويلُ الخوفِ
والطمعِ بالإخافة والإطماع، كقولك فعلته رغماً للشيطان، أو على الحال مثل كَلَّمْتُهُ شِفَاهًا. ﴿وَيُزِيلُ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً﴾ وقرئ بالتشديد. ﴿فَيُخِي بِهِنَّ الْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُنْسِهَا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباطِ أسبابها وكيفيةِ تكونها ليظهرَ لهم كمالُ قدرةِ
الصانعِ وحِكمته.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَكُمْ مِنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَلِيلُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ
الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿٢٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴿قيامهما بإقامته لهما وإرادته لقيامهما في حيزيها
المعنيين من غير مقيم محسوس، والتعبيرُ بالأمرِ للمبالغة في كمالِ القدرة والغنى عن الآلة. ﴿ثُمَّ إِذَا
دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطفتُ على أن تقومَ على تأويل مفرد كأنه قيل: ومن آياته قيامُ
السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة واحدة فيقولُ أيها الموتى اخرجوا،
والمرادُ تشبيهُ سرعةِ ترتبِ حصولِ ذلك على تعلُّقِ إرادته بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّمِ عملٍ بسرعة
ترتبِ إجابةِ الداعي المطاع على دعايته، وثُمَّ إما لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه ومن الأرض متعلقٌ بدعا
كقولك: دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي لا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها، وإذا الثانيةُ
للمفاجأة ولذلك نابت مناب الفاء في جواب الأولى.

﴿٢٦﴾ وَلَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَلِيلُونَ ﴿منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عنه.

﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴿بعد هلاكهم. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والإعادةُ أسهلُّ عليه من
الأصلِ بالإضافة إلى قدركم والقياسِ على أصولكم وإلا فهما عليه سواءٌ ولذلك قيل الهاءُ للخلق،
وقيل أهونٌ بمعنى هينٍ وتذكيرٌ هو لأهونٌ أو لأنَّ الإعادةَ بمعنى أن يعيد. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ﴾ الوصفُ
العجيبُ الشأنُ كالقدرةِ العامةِ والحكمةِ التامةِ وَمَنْ فَسَّرَه بقول لا إله إلا الله أرادَ به الوصفَ
بالوحدانية. ﴿الْأَعْلَى﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يصفه به ما فيها دلالةٌ
ونطقاً. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادرُ الذي لا يعجزُ عن إبداءٍ ممكنٍ وإعادته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري
الأفعال على مقتضى حِكمته.

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ متزعا من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم. ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من ممالئكم. ﴿ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ من الأموال وغيرها. ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ فتكونون أنتم وهم فيه شرعا يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم وأنها معارة لكم، ومن الأولى للابتداء والثانية للتبعيض والثالثة لمزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ تخافونهم أن يستبدوا بتصرف فيه. ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض. ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك التفصيل. ﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾^(١) نبينها فإن التفصيل مما يكشف المعاني ويوضحها. ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال.

(٢٩) ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالإشراك. ﴿ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ جاهلين لا يكفهم شيء فإن العالم إذا اتبع هواه ربما رده علمه. ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ فمن يقدر على هدايته. ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ يخلصونهم من الضلالة ويحفظونهم عن آفاتهما.

(٣٠) ﴿ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ فقومه له غير ملتفت أو ملتفت عنه، وهو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به. ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ خلقته نصب على الإغراء أو المصدر لمادلاً عليه ما بعدها. ﴿ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ خلقهم عليها وهي قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه، أو ملة الإسلام فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها، وقيل العهد المأخوذ من آدم وذريته. ﴿ لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ لا يقدر أحد يغيره أو ما ينبغي أن يغير. ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له، أو الفطرة إن فسرت بالملة. ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ استقامته لعدم تدبرهم.

(٣١) ﴿ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى، وقيل منقطعين إليه من الناب وهو حال من الضمير في الناصب المقدر لفطرة الله أو في أقم لأن الآية خطاب للرسول ﷺ والأمة لقوله: ﴿ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ غير أنها صُدِّرت بخطاب الرسول ﷺ تعظيماً له.

(٣٢) ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ بدل من المشركين وتفریقهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم، وقرأ حمزة والكسائي فارقوا بمعنى تركوا دينهم الذي أمروا به. ﴿ وَكَانُوا شِيعًا ﴾ فرقا تشايح

(١) وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها (س ٥٩/٧).

كُلُّ إِمَامَها الَّذِي أَضَلَّ دِينَها. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظناً بأنه الحق، ويجوز أن يجعل فرحون صفة كل على أن الخبر من الذين فرحوا.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا آذَيْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنَةٌ أَوْ بَرَاءَةٌ مِنْ رَبِّكَ فَإِنْ كَانَ لِقَوْمٍ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ مَشْفِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَكَانَ ذَا الْقُرْآنِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا ءَاتَيْنَا مِنْ رَبٍّ لَئِنَّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْنَا مِنْ ذَكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٣) ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ شدة. ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين من دعاء غيره. ﴿ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ خلاصاً من تلك الشدة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأ فريق منهم بالإشراك برّبهم الذي عافاهم. (٣٤) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر بمعنى التهديد لقوله: ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ غير أنه التفت فيه مبالغة، وقرئ وليتمتعوا. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تمتعكم، وقرئ بالياء التحتية على أن تمتعوا ماضٍ.

(٣٥) ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وقيل ذا سلطان أي ملكاً معه برهان. ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة كقوله ﴿كَتَبْنَا بِطُوقِ عَيْتِكُمْ بِالْحَقِّ﴾^(١) أو نطق. ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ بإشراكهم وصحته، أو بالأمر الذي بسببه يشركون به في ألوهيته.

(٣٦) ﴿وَإِذَا آذَيْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ نعمة من صحة وسعة. ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ بطروا بسببها. ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنَةٌ﴾ شدة. ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بشؤم معاصيهم. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فاجزوا القنوط من رحمته. وقرأ الكسائي وأبو عمرو بكسر النون.

(٣٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة.

(٣٨) ﴿فَكَانَ ذَا الْقُرْآنِ حَقًّا﴾ كصلة الرحم، واحتج به الحنفية على وجوب النفقة للمحارم وهو غير مشعر به. ﴿وَالْمُسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ما وظف لهما من الزكاة، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لمن بسط له ولذلك رُتب على ما قبله بالفاء. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ذاته أو جهته أي يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً، أو جهة التقرب إليه لا جهة أخرى. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم.

(٣٩) ﴿وَمَا ءَاتَيْنَا مِنْ رَبٍّ لَئِنَّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْنَا مِنْ ذَكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ زيادة محرمة في المعاملة أو عطية يتوقع بها مزيد مكافأة، وقرأ ابن كثير بالقصر بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا. ﴿لَئِنَّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ليزيد ويزكو في أموالهم. ﴿فَلَا يَرَوْنَ

عِنْدَ اللَّهِ ﴿٤٠﴾ فَلَا يَزُكُّوْهُ عِنْدَهُ وَلَا يَبَارِكُ فِيهِ، وَقَرَأْ نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ لَتَرِيُوْا أَيْ لَتَزِيدُوا أَوْ لَتَصِيرُوا ذَوِي رِبَا. ﴿٤١﴾ وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ ذِكْوَةٍ تُرِيدُوْنَ وَجْهَ اللَّهِ ﴿٤٢﴾ تَبْتَغُوْنَ بِهِ وَجْهَهُ خَالِصاً ﴿٤٣﴾ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٤٤﴾ ذَوُو الْأَضْعَافِ مِنَ الثَّوَابِ وَنَظِيرُ الْمُضْعِفِ الْمُقْوِيَّ وَالْمُوسِرِ لَذِي الْقُوَّةِ وَالْيَسَارِ، أَوْ الَّذِينَ ضَعَّفُوا ثَوَابَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِبِرَّةِ الزَّكَاةِ. وَقَرَأَ بَفَتْحِ الْعَيْنِ. وَتَغْيِيرُهُ عَنْ سَنَنِ الْمَقَابِلَةِ عِبَارَةً وَنَظْماً لِلْمِبَالِغَةِ، وَالِاتِّفَاتِ فِيهِ لِلتَّعْظِيمِ كَأَنَّهُ خَاطَبٌ بِهِ الْمَلَائِكَةَ وَخَوَاصَّ الْخَلْقِ تَعْرِيفاً لِحَالِهِمْ، أَوْ لِلتَّعْمِيمِ كَأَنَّهُ قَالَ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ، وَالرَّاجِعُ مِنْهُ مَحْذُوفٌ إِنَّ جُعِلَتْ مَا مَوْصُولَةٌ تَقْدِيرُهُ الْمُضْعِفُونَ بِهِ، أَوْ فَمُؤْتُوهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِينِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ﴾ أثبت له لوازم الألوهية ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها مؤكداً بالإنكار على ما دلَّ عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق، ثم استتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوز أن تكون الكلمة الموصولة صفة والخبر هل من شركائكم والرباط من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله، ومن الأولى والثانية تفيد أن شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفي وكل منها مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء.

(٤١) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجذب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصية ومحق البركات وكثرة المضار، أو الضلالة والظلم. وقيل المراد بالبحر قري السواحل. وقرئ والبحور. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه، وقيل ظهر الفساد في البر بقتل قابيل أخاه وفي البحر بأن جلندا ملك عمان كان يأخذ كل سفينة غصباً. ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ بعض جزائه فإنَّ تمامه في الآخرة. واللام للعلَّة أو للعاقبة. وعن ابن كثير ويعقوب لِيُذِيقَهُمْ بِالنَّوْنِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ لتشاهدوا مصداق ذلك وتحققوا صدقه. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ استئناف للدلالة على أنَّ سوء عاقبتهم كان لِفُشُوِّ الشُّرِكِ وَغَلْبَتِهِ فِيهِمْ، أَوْ كَانَ الشُّرِكُ فِي أَكْثَرِهِمْ وَمَا دُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي فِي قَلِيلٍ مِنْهُمْ.

(٤٣) ﴿فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِينِ﴾ البليغ الاستقامة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ لا يقدر أن يرده أحد، وقوله: ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ متعلق بياي، ويجوز أن يتعلَّقَ بِمَرَدٍّ لِأَنَّهُ مُصَدِّرٌ عَلَى مَعْنَى لَا يَرُدُّهُ اللَّهُ لِتَعْلُقِ إِرَادَتِهِ الْقَدِيمَةَ بِمَجِيئِهِ. ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ﴾ يتصدعون أي يتفرون فريق في الجنة وفريق في السعير كما قال:

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَنْ آيَنَيْهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(٤٤) ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي وبأله وهو النار المؤبدة. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾ يُسَوِّوْنَ منزلاً في الجنة، وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص.

(٤٥) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عِلَّةٌ ليمهدون أو ليصدقون، والاقتصار على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء على فخوى قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإن فيه إثبات البغض لهم والمحبة للمؤمنين، وتأكيده اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم إلى التصريح بهم تعليل له ومن فضله دالٌّ على أن الإثابة تفضل محض، وتأويله بالعطاء أو الزيادة على الثواب عدول عن الظاهر.

(٤٦) ﴿وَمَنْ آيَنَيْهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ﴾ الشمال والصبا والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الذبور فريخ العذاب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»^(١) وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على إرادة الجنس. ﴿مُبَشِّرَتٍ﴾ بالمطر. ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المنافع التابعة لها، وقيل الخضب التابع لتزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها والعطف على علة محذوفة دلٌ عليها مبشرات أو عليها باعتبار المعنى، أو على يرسل بإضمار فعل معلل دلٌ عليه. ﴿وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني تجارة البحر. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله تعالى فيها.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا﴾ بالتدمير. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشعار بأن الانتقام لهم وإظهاراً لكرامتهم حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم،

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافى» (ص ١٢٩ رقم ١٦٨): «أخرجه الشافعي في ترتيب المسند (١/١٧٥) رقم ٥٠٢. - أخبرني من لا أتهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. ومن طريقه أخرجه - البيهقي - في المعرفة وفي الدعوات. وهذا المبهمة هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف. وله طرق أخرى عن أبي يعلى - في المسند (٤/٣٤١) رقم ٢٤٥٦ - والطبراني في الكبير (١١/٢١٣) - ٢١٤ رقم ١١٥٣٢ - وابن عدي - في الكامل (٢/٧٦٣) من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به. وحسين ضعيف أيضاً. هـ.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٣٥ - ١٣٦) وقال «رواه الطبراني وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.

قلت: وقال الحافظ في التقریب (١/١٧٨) رقم ٣٨٣ «متروك» وقال الهيثمي فيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك. وقد وثقه الحصين بن نمير وبقيته رجاله رجال الصحيح [المجمع ١٠/١٣٥ - ١٣٦].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم» ثم تلا ذلك^(١). وقد يُوقف على حقاً على أنه متعلق بالانتقام.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ﴾ متصلاً تارة. ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ في سَمَتِهَا. ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ سائراً أو واقفاً مطبقاً وغير مطبق من جانبٍ دون جانبٍ إلى غير ذلك. ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ قطعاً تارة أخرى، وقرأ ابنُ عامر بالسكون على أنه مخففٌ أو جمعُ كسفةٍ أو مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿فَنَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر. ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ في التارتين. ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني بلادهم وأراضينهم. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لمجيء الخصب.

(٤٩) ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ المطر. ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ تكريرٌ للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام بأسهم، وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ لايسين. (٥٠) ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار ولذلك جمعه ابنُ عامر وحمزة والكسائي وحفص. ﴿كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وقرئ بالتاء على إسناده إلى ضمير الرحمة. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ يعني إنَّ الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها. ﴿لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ لقادر على إحيائهم فإنه إحداثٌ لمثل ما كان في موادِّ أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أنَّ إحياء الأرض إحداثٌ لمثل ما كان فيها من القوى النباتية، هذا ومن المحتمل أن يكون من الكائنات الراحنة ما يكون من موادِّ ما تفتت وتبددت من جنسها في بعض الأعوام السالفة. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على سواء.

(٥١) ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ فرأوا الأثر أو الزرع فإنه مدلولٌ عليه بما تقدّم، وقيل السحاب لأنه إذا كان مصفراً لم يمتز، واللام موطئةٌ للقسم دخلت على حرفٍ الشرط، وقوله: ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ جوابٌ سدّ مسدّد الجزاء ولذلك فُسِّرَ بالاستقبال. وهذه الآية ناعيةٌ على الكفار بقلّة تثبتهم وعدم تدبّرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكيرهم وسوء رأيهم، فإنَّ النظر السيئ يقتضي أن يتوكلوا على الله ويلتجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم، ولا يياسوا من رحمته، وأن يبادروا إلى الشكر

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٧/٤) رقم (١٩٣١) وأحمد (٤٥٠/٦) عن أبي الدرداء.

وقال الترمذي هذا حديث حسن.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١٧٥/٢٤ - ١٧٦ رقم (٤٤٢) وابن عدي في الكامل (١٦٣٥/٤) وأحمد (٤٦١/٦) وأبو نعيم في الحلية (٦٧/٦) عن أسماء بنت يزيد مرفوعاً نحوه والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

والاستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولم يفرطوا في الاستبشار، وأن يصبروا على بلائه إذا ضرب زرعهم بالاصفرار ولا يكفروا نعمة.

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٢) ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ وهم مثلهم لما سدوا عن الحق مشاعرهم. ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالة، فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يفتن منه بواسطة الحركات شيئاً، وقرأ ابن كثير بالياء مفتوحة ورفع الصم.

(٥٣) ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ سَمَّاهُمْ عُمَى لفقدهم المقصود الحقيقي من الأبصار أو لعمى قلوبهم، وقرأ حمزة وحده تهدي العمى. ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى، ويجوز أن يراد بالمؤمن المشارف للإيمان. ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهم به.

(٥٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾^(١) أو خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك إذا بلغت الحلم أو تعلق بأبدانكم الروح. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذ منكم السن، وفتح عاصم وحمزة الضاد في جميعها والضم أقوى لقول ابن عمر رضي الله عنهما: قرأتها على رسول الله ﷺ من ضَعْفٍ فأقراني من ضَعْفٍ^(٢). وهما لغتان كالفقر والفقر. والتكثير مع التكرير لأن المتأخر ليس عين المتقدم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من ضعف وقوة وشيبة وشيبة. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ فإن التردد في الأحوال المختلفة مع إمكان غيره دليل العلم والقدرة.

(٥٥) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة سُمِّيَتْ بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتة وصارت علماً لها بالغلبة كالكوكب للزهرة. ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا﴾ في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم، وفي الحديث: «ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون»^(٣)

(١) النساء: «٢٨».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٣/٤) رقم ٣٩٧٨ والترمذي (١٨٩/٥) رقم ٢٩٣٦ وأحمد في المسند (٥٨/٢ - ٥٩) عنه. وفيه عطية بن سعد العوفي: ضعيف.

وحسن الألباني الحديث في صحيح أبي داود.

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٢٩ رقم ١٧٢) «لم أجده هكذا. وفي الصحيحين - البخاري (٥٥١/٨) رقم ٤٨١٤ و(٦٨٩/٨) رقم ٥٩٣٥ ومسلم (٢٢٧١/٤) رقم ١٤١ - عن أبي هريرة - فوعاً «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون يوماً، قال: أبيت».

وهو محتمل الساعات والأيام والأعوام. ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ استقلوا مدةً لُبَّتهم إضافةً إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الصَّرفِ عن الصدق والتحقيق. ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يُضْرَفُونَ في الدنيا.

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جِثَّتْهُمْ بَيَاطَةٌ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من الملائكة والإنس. ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في علمه أو قضائه، أو ما كتبه لكم أي أوجبه أو اللوح أو القرآن وهو قوله ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾^(١). ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ردُّوا بذلك ما قالوه وحلفوا عليه. ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتموه. ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حقٌّ لتفريطكم في النظر، والفاء لجوابٍ شرطٍ محذوفٍ تقديره: إن كنتم منكرين البعث فهذا يومه، أي فقد تبين بطلان إنكاركم.

(٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ﴾ وقرأ الكوفيون بالياء لأنَّ المعذرة بمعنى العذر، أو لأنَّ تأنيسها غير حقيقي وقد فصل بينهما. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُدْعَوْنَ إلى ما يقتضي إعتابهم، أي إزالة عتابهم من التوبة والطاعة كما دُعوا إليه في الدنيا، من قولهم استعتبني فلانٌ فأعتبته أي استرضاني فأرضيته.

(٥٨) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد وصفناهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال، مثل صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بينا لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول. ﴿وَلَكِنْ جِثَّتْهُمْ بَيَاطَةٌ﴾ من آيات القرآن. ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من فزط عنادهم وقساوة قلوبهم. ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين. ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ مزورون.

(٥٩) ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع. ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يطلبون العلم ويُضِرُّون على خرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق.

(٦٠) ﴿فَأَصْبِرْ﴾ على أذاهم. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بضميرتك وإظهار دينك على الدين كله. ﴿حَقٌّ﴾ لا بد من إنجازه. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ﴾ ولا يحملنك على الخفة والقلق. ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم، فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وعن يعقوب بتخفيف النون، وقرئ

وَلَا يَسْتَحِقُّكَ أَيُّ لَا يُزِيغَنَّكَ فَيَكُونُوا أَحَقُّ بِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ . عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرُّومِ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ مَلَكٍ سَبَّحَ اللَّهَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَأَدْرَكَ مَا ضَيَّعَ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب - كما في «الكافي الشافعي» (ص ١٢٩ رقم ١٧٣) وهو حديث موضوع.

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة لقمان مكية

إلا آية وهي ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(١) فإن وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيف لأنه لا ينافي شرعتهما بمكة. وقيل إلا ثلاثاً من قوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾^(٢). وهي أربع وثلاثون آية، وقيل ثلاث وثلاثون.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْم﴾.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ سبق بيانه في يونس.

(٣) ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعامل فيهما معنى الإشارة. وَرَفَعَهُمَا حمزة على الخبر بعد الخبر، أو الخبر لمحذوف.

(٤) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيان لإحسانهم، أو تخصيص لهذه الثلاثة

(١) لقمان: «٤».

(٢) لقمان: «٢٧».

من شُعبه لفضل اعتداده بها. وتكرير الضمير للتوكيد ولما حيل بينه وبين خبره.

(٥) ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لاستجماعهم العقيدة الحقّة والعمل الصالح.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ما يلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتبار بها والمصاحك وفضول الكلام. والإضافة بمعنى من، وهي تبينية إن أراد بالحديث المنكر، وتبعية إن أراد به الأعم منه. وقيل نزلت في النضر بن الحارث اشترى كتب الأعاجم، وكان يحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عادٍ وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار والأكاسرة^(١). وقيل كان يشتري القيان ويحملهن على معاشره من أراد الإسلام ومنعه عنه^(٢). ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه أو قراءة كتابه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، بمعنى لينبت على ضلاله ويزيد فيه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقرأة القرآن. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ السبيل سُخرية. وقد نصبه^(٣) حمزة والكسائي ويعقوب وحفص عطفاً على لِيُضِلَّ. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لإهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه.

(٧) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً لا يعبا بها. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ مُشابهاً حاله حال من لم يسمعها. ﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا﴾ مُشابهاً من في أذنيه ثقل لا يقدر أن يسمع، والأولى حال من المستكن في ولي أو في مستكبراً، والثانية بدل منها أو حال من المستكن في لم يسمعها، ويجوز أن يكونا استئنافين. وقرأ نافع في أذنيه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أعلمه بأن العذاب يحق به لا محالة. وذكر البشارة على التهكم.

(٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي لهم نعيم الجنات، فـعكس للمبالغة.

(٩) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم، والعامل ما تعلق به اللام. ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان، الأول لنفسه والثاني لغيره، لأن قوله لهم جنات وعد وليس كل وعد حقاً. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته.

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٥٦) من قول الكلبي ومقاتل، وأخرج البيهقي في الشعب نحوه عن ابن عباس (فتح القدير ٢٣٦/٤).

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٥٦) عن مجاهد. قال: نزلت في شراء القينات والمغنيات.

(٣) أي نصب «يتخذها».

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي ۚ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ۖ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ۖ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

(١٠) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قد سبق في الرعد^(١). ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي﴾ جبلاً شوامخاً. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميد بكم، فإن تشابه أجزائها يقتضي تبدل أحيائها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز ووضع معينين. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من كل صنف كثير المنفعة^(٢). وكأنه استدل بذلك على عزته التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله:

(١١) ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ هذا الذي دُكر مخلوقه فماذا خلق آلهمتكم حتى استحقوا مشاركته؟ وماذا نُصِبَ بخلق، أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته فأروني معلق عنه. ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على ناظر، ووضع الظاهر موضع المضمرة للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ يعني لقمان بن باعوراء من أولاد آزر ابن أخت أيوب^(٣) أو خالته، وعاش حتى أدرك داود عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم وكان يُفتي قبل مبعثه، والجمهور على أنه كان حكيماً^(٤) ولم يكن نبياً. والحكمة في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال: نِعَمْ لَبِئْسُ الْحَرْبِ أَنْتَ، فقال: الصمْتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعله^(٥)، وأن داود عليه السلام قال له يوماً كيف أصبحت؟ فقال أصبحت في

(١) الرعد: ٢٠.

(٢) والاتفات إلى نون العظمة في أنزلنا وأنبتنا لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها (س ٧٠/٧).

(٣) انظر البحر المحيط (١٨٦/٧).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤٥٢/٣ - ٤٥٣).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٢٢/٢ - ٤٢٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٦٤ رقم ٥٠٢٦) وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص ٧٠) كلهم من طريق ثابت عن أنس به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

● قلت: وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/١٦٨ رقم ٢٤٠) عن أنس مرفوعاً.

وفي إسناده (زكريا بن يحيى المنقري - أو المقرئ) - ضعفه ابن يونس كما في الميزان (٧٩/٢) واللسان (٤٨٨/٢).

وفيه أيضاً (علي بن مسعدة) وهو صدوق له أوهام [التقريب (٢/٤٤)]. وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/١٠٨ رقم التعليقة ٢) «أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس - (٢/٤١٧ رقم ٣٨٥١) - من حديث =

يَدِّي غَيْرِي، فَتَفَكَّرَ دَاوُدُ فِيهِ فَصَبَقَ صَعْقَةً، وَأَنَّهُ أَمَرَهُ بِأَنْ يَذْبَحَ شَاةً وَيَأْتِيَ بِأَطْيَبِ مُضْغَتَيْنِ مِنْهَا فَاتَى
بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ ثُمَّ بَعْدَ أَيَّامٍ أَمَرَهُ بِأَنْ يَأْتِيَ بِأَخْبَثِ مُضْغَتَيْنِ مِنْهَا فَاتَى بِهِمَا أَيْضاً فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:
هُمَا أَطْيَبُ شَيْءٍ إِذَا طَابَا وَأَخْبَثُ شَيْءٍ إِذَا خُبْنَا. ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ لِأَنْ أَشْكُرَ، أَوْ أَيُّ أَشْكُرَ فَإِنْ إِيْتَاءَ
الْحِكْمَةِ فِي مَعْنَى الْقَوْلِ. ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لِأَنْ نَفْعُهُ عَائِدٌ إِلَيْهَا وَهُوَ دَوَامُ النِّعْمَةِ
وَاسْتِحْقَاقُ مَزِيدِهَا. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الشُّكْرِ. ﴿حَمِيدٌ﴾ حَقِيقٌ بِالْحَمْدِ وَإِنْ لَمْ
يُحْمَدْ، أَوْ مَحْمُودٌ يَنْطِقُ بِحَمْدِهِ جَمِيعُ مَخْلُوقَاتِهِ بِلِسَانِ الْحَالِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ لِقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾

(١٣) ﴿وَلِذَلِكَ قَالَ لِقْمَنُ لِابْنِهِ﴾ أَنْعَمَ أَوْ أَشْكَمَ أَوْ مَا ثَانَ. ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي﴾ تَصْغِيرُ إِشْفَاقٍ، وَقَرَأَ
ابْنُ كَثِيرٍ هُنَا وَفِي يَابُنِي أَتَمَّ الصَّلَاةَ بِإِسْكَانِ الْيَاءِ، وَحَفْصٍ فِيهِمَا وَفِي يَابُنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ بِفَتْحِ الْيَاءِ،
وَمِثْلُهُ الْبَرْزِيُّ فِي الْآخِرِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ فِي الثَّلَاثَةِ بِكَسْرِ الْيَاءِ. ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قِيلَ كَانَ كَافِرًا فَلَمْ يَزَلْ بِهِ
حَتَّى أَسْلَمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَلَى لَا تُشْرِكْ جَعَلَ بِاللَّهِ قَسَمًا. ﴿إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لِأَنَّهُ تَسْوِيَةٌ بَيْنَ مَنْ
لَا نِعْمَةَ إِلَّا مِنْهُ وَمَنْ لَا نِعْمَةَ مِنْهُ.

(١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا﴾ ذَاتَ وَهْنٍ، أَوْ تَهْنُ وَهْنًا ﴿عَلَى وَهْنٍ﴾ أَيُّ تَضَعُفٍ
ضَعْفًا فَوْقَ ضَعْفٍ فَإِنَّهَا لَا تَزَالُ يَتَضَاعَفُ ضَعْفُهَا. وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ. وَقُرِئَ بِالتَّحْرِيكِ^(١)،
يُقَالُ: وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا وَوَهْنٌ يَوْهِنُ وَهْنًا. ﴿وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وَفِطَامُهُ فِي انْقِضَاءِ عَامَيْنِ وَكَانَتْ تُرَضِعُهُ
فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ. وَقُرِئَ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَقْصَى مَدَّةِ الرِّضَاعِ حَوْلَانِ. ﴿أَنْ
أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ تَفْسِيرُ لَوْصِينَا، أَوْ عِلَّةٌ لَهُ، أَوْ بَدَلٌ مِنْ وَالِدَيْهِ بِدَلِّ الْإِشْتِمَالِ. وَذَكَرَ الْحَمَلُ
وَالْفِصَالُ فِي الْبَيْنِ اعْتِرَاضٌ مُؤَكَّدٌ لِلتَّوَصِيَةِ فِي حَقِّهَا خُصُوصًا، وَمَنْ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمَنْ
قَالَ مَنْ أَبْرُ؟ أَتُكُّ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ ثُمَّ أَبَاكَ^(٢). ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ فَأَحَاسِبُكَ عَلَى
شُكْرِكَ وَكَفْرِكَ.

= ابن عمر بسند ضعيف، والبيهقي في «الشعب» (٤/٢٦٤ رقم ٥٠٢٧) من حديث أنس بلفظ (حكم) بدل (حكمة)
وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال: والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو
وابن حبان في كتاب روضة العقلاء - ص ٧٠ - بسند صحيح إلى أنس هـ.

(١) أي بتحريك الهاء في وهناً ووهن.

(٢) وهو حديث حسن.

أخرجه أبو داود (٥/٣٥١ رقم ٥١٣٩) والترمذي (٤/٣٠٩ رقم ١٨٩٧) وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/١٣٢)
وأحمد في «المسند» (٥/٢، ٣، ٤، ٥)، والحاكم في «المستدرک» (٤/١٥٠) والطبراني في الكبير (١٩/٤٠٤ -
٤٠٦) وهناد (رقم ٩٦٥) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في الإرواء (رقم ٨٣٠٧).

وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِيٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ باستحقاقه الإشراف تقليداً لهما، وقيل أراد بنفي العلم به نفيه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ﴾ صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم. ﴿وَأَتَّبِعْ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ مرجعك ورجعهما. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما. والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تَلَوُا الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراف فما ظنك بغيرهما؟! روي نزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمه، مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تَطْعَمَ فيها شيئاً^(١)، ولذلك قيل من أناب إليه أبو بكر رضي الله عنه فإنه أسلم بدعوته.

(١٦) ﴿يَبْنِيٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي أن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تَكُ مثلاً في الصغر كحبة الخردل. ورفع نافع «مثقال» على أن الهاء ضمير القصة، وكان تامةً، وتأنيتها لإضافة المثقال إلى الحبة كقول الشاعر:

كما شَرِقَتْ صدرُ القناة من الدم

أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة. ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة، أو أعلاه كمخدب السموات^(٢)، أو أسفله كمقعر الأرض. وقرئ بكسر الكاف، مِنْ وَكُنَ الطائر إذا استقر في وَكُنْتِهِ. ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يُحْضِرُهَا فيحاسب عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي. ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

(١٧) ﴿يَبْنِيٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ تكميلاً لنفسك. ﴿وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك. ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ من الشدائد، سَيِّمًا في ذلك. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر، أو إلى كل ما أُمِرَ به. ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب، مصدر أطلق للمفعول، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله «فإذا عزم الأمر» أي جَدَّ.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِلْهُ عنهم ولا تولِّهم صفحةً وجهك كما يفعل المتكبرون، مِنْ

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول بدون سند ص ٣٤٦.

(٢) مَخْدَبُ السَّمَوَاتِ أي ما ارتفع منها، والمَخْدَبُ هو ما ارتفع من الأرض (مختار الصحاح مادة حذب).

الصَّعَرُ وهو - أو الصَّيْدُ^(١) - داءٌ يعتري البعيرَ فيلوي عنقه. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي ولا تُصَاعِزْ، وقرئ ولا تُضْعِزْ، والكل واحد مثل علاه وأعلاه وعالاه. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فرحاً، مصدر وقع موقع الحال أي تمرح مرحاً. أو لأجل المرح وهو البطر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ علة للنهي. وتأخيرُ الفخور وهو مقابل للمصترَّ خذَه والمختال للماشي مرحاً لتوافق رؤوس الآي.

وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ^(١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ^(٢٠)

(١٩) ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ توسط فيه بين الديب والإسراع. وعنه عليه الصلاة والسلام، «سرعة المشي تُذهب بهاء المؤمن»^(٢) وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع^(٣) فالمراد ما فوق ديبب المتماوت. وقرئ بقطع الهمزة من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية. ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ وانقص منه وأقصر. ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أوحشها. ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ والحمير مثل في الدم سيما نهاقه، ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين. وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراج مخرج الاستعارة مبالغة شديدة، وتوحيد الصوت لأن المراد تفضيل الجنس في التكثير دون الآحاد أو لأنه مصدر في الأصل.

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ بأن جعله أسباباً محصلة لمنافعكم. ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن مكنكم من الانتفاع به بوسط أو غير وسط ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه، وقد مر شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة. وقرئ وأصبغ بالإبدال، وهو جارٍ في كل

(١) أي هو من الصَّعَر بمعنى الصيد وهو داء يعتري البعير... (روح المعاني ٩٠/٢١).

(٢) وهو حديث منكر جداً.

● أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٧٢٧/٥) من حديث أبي هريرة، وفيه عمار بن مطر العنبري، أحاديثه بواطيل. قاله ابن عدي.

● وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٥٤٠/٧) من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه الوليد بن سلمة عامة أحاديثه غير محفوظة. قاله ابن عدي.

● وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٦٧٣/٥) من حديث عبدالله بن عمر، وفيه عمر بن محمد بن صهبان الأسلمي وعامة أحاديثه ما لا يتابعه الثقات عليه والغلبة على حديثه المناكير. قاله ابن عدي.

● وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٩٠/١٠) من طريق أبي معشر عن سعيد عن أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً. قاله الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٣٠ رقم ١٨١).

وقال الألباني في «الضعيفة» (٧٤/١) «ويكفي في رد هذا الحديث أنه مخالف لهدى النبي ﷺ في مشيه».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٣٠ رقم ١٨٢): «ذكره ابن الأثير في «النهاية» (٣٧٠/٤).

قلت: لعله أخذه من الفائق. وفي الطبقات لابن سعد (٢٩٠/٣) من رواية سليمان بن أبي حثمة.

قال: قالت الشفاء بنت عبدالله، وهي أم سليمان: كان عمر إذا مشى. فذكره هـ.

سين اجتماع مع الغين أو الخاء أو القاف كَصَلَحَ وصقر. وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص نَعَمَهُ بالجمع والإضافة. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في توحيدهِ وصفاته. ﴿يَغْيِرَ عَلَيْهِ﴾ مستفاد من دليل. ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجع إلى رسول. ﴿وَلَا كِتَابٌ مُّنِيرٌ﴾ أنزله الله، بل بالتقليد كما قال:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَٰكِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُہُ مِنْ بَعْدِہٖ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

(٢١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهو منع صريح من التقليد في الأصول. ﴿أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ يحتمل أن يكون الضمير لهم ولآبائهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ إلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك وجواب لو محذوف مثل لا تتبعوه، والاستفهام للإنكار والتعجب.

(٢٢) ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ بأن فوض أمره إليه وأقبل بشرائره عليه، من أسلمت المتاع إلى الزبون، ويؤيده القراءة بالتشديد، وحيث عدِّي باللام فلتضمئن معنى الإخلاص. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله. ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ تعلق بأوثق ما يتعلق به، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاهر جيل فتمسك بأوثق عرى الجبل المتدلي منه. ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ إذ الكل صائر إليه.

(٢٣) ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ﴾ فإنه لا يضررك في الدنيا والآخرة. وقرء فلا يُحْزِنُكَ مِنْ أَخْزَنَ وليس بمستفيض. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الدارين. ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ بالإهلاك والتعذيب. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فمُجَازٍ عَلَيْهِ فَضلاً عما في الظاهر.

(٢٤) ﴿نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتيعاً أو زماناً قليلاً، فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ، أو يضْمَنُ إلى الإحراق الضغط.

(٢٥) ﴿وَلَٰكِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذاعته. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم.

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يُحمد.

(٢٧) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً. وتوحيد شجرة لأن المراد

تفصيل الآحاد. ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحر المحيط بسعته مَدَاداً ممدوداً بسبعة أبحر، فأغنى عن ذكر المِداد بمدّه لأنه مِنْ مَدِّ الدَّوَاءِ وأمدّها^(١). ورفَعُهُ للعطف على محل أن ومعموليها ويمده حال، أو للابتداء على أنه مستأنف أو الواو للحال. ونَصَبَهُ البصريان بالعطف على اسم أن أو إضمار فعل يفسره يمدّه. وقرئ تَمُدُّهُ وُيَمِّدُهُ بالياء والتاء. ﴿مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد. وإيثارُ جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر. والآية جواب لليهود سألوها رسول الله ﷺ أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) وقد أنزل التوراة وفيها علم كل شيء.

مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٌ وَاحِدَةٌ﴾ إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن لأنه يكفي لوجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مبصر لا يشغله إدراك بعضها عن بعض فكذلك الحق.

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي﴾ كلٌّ من النَّبْتَيْنِ يجري في فلكه. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى منتهى معلوم، الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر، وقيل إلى يوم القيامة. والفرق بينه وبين قوله: ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أن الأجل ههنا منتهى الجري وثمة غرضه حقيقة أو مجازاً، وكلا المعنيين حاصل في الغايات. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

(٣٠) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الذي ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها. ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته، أو الثابت إلهيته. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله، أو الباطل إلهيته^(٤)، وقرأ البصريان والكوفيون غير أبي بكر بالياء. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ مترفع على كل شيء ومتسلط عليه.

(١) إسناد المد إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط - مع كونه أعظم منها - لأنها هي المجاورة للجبال ومنايع المياه الجارية، وإليها تنصب الأنهار العظام أولاً ومنها ينصب إلى البحر المحيط ثانياً (س/٧/٧٥).

(٢) الإسراء: ٨٥.

(٣) النحل: ٤٠.

(٤) والتصريح ببطلان ما يدعون من دونه - مع أنه يشير إليه قوله «هو الحق» - وذلك لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد، وللإيذان بأن الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستبعا فقط بل بطريق الاستقلال أيضاً (س/٧/٧٦).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه، وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وكمال حكمه وشمول إنعامه. والباء للصلة أو الحال. وقرئ الفُلك بالثقل، وبنعمات الله بسكون العين، وقد جوز في مثله الكسر والفتح والسكون. ﴿لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ﴾ دلالته. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاق فيتعب نفسه بالتفكر في الآفاق والأنفس. ﴿شَكُورٍ﴾ يعرف النعم ويتعرف مانحها، أو للمؤمنين فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ علاهم وغطاهم. ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ كما يُظَلُّ من جبل أو سحاب أو غيرهما. وقرئ كالظلال، جمع ظلة كقُلة وقلال. ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ﴾ مقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد، أو متوسط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار فإنه نقض للعهد الفطري، أو لما كان في البحر. والختر أشد الغدر. ﴿كَفُورٍ﴾ للنعم.

(٣٣) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ لا يقضي عنه. وقرئ لا يُجْزَى من أجزأ إذا أغنى، والراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطف على والد، أو مبتدأ خبره: ﴿هُوَ جَارٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب. ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن خلفه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان بأن يُرْجِيكم التوبة والمغفرة فيُجَسِّرْكم على المعاصي.

(٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ علم وقت قيامها. لما روي أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال: متى قيام الساعة؟ وإني قد ألفت حباتي في الأرض فمتى السماء تمطر؟ وحمل امرأتي أذكر أم أنثى؟ وما أعمل غداً وأين أموت؟ فنزلت^(١). وعنه عليه الصلاة والسلام: «مفتاح الغيب خمس» وتلا

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٣١ رقم ١٨٥): «هكذا ذكره الواحدي - في الأسباب (ص ٣٤٧) - والثعلبي بغير سند، وأخرجه الطبري - في «جامع البيان» (١١/ج ٨٧/٢١ - ٨٨) - وابن أبي حاتم - كما في «الدر المنثور» (٥٣٠/٦) - من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد إن امرأتي حبلى فأخبرني متى تلد؟ فذكره» هـ.

هذه الآية^(١). ﴿وَنَزَّلُ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ في إتيانه المقدّر له والمحلّ المعين له في علمه. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت. روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل من هذا؟ قال: ملك الموت، فقال كأنه يريدني فمرّ الريح أن تحملني وتلقيني بالهند، ففعل، فقال الملك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك^(٢). وإنما جعل العلم لله تعالى والدراية للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العالَمين، ويدل على أنه إن أعمل حيلة وأنفذ فيها وسعه لم يعرف ما هو الحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم يُنصّب له دليل عليه. وقرئ بأية أرض، وشبهه سيوبه تأنيثها بتأنيث كل في كلهن. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها. ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة، وأعطيت من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر»^(٣).



(١) أخرجه البخاري (٥١٣/٨ - ٥١٤ رقم ٤٧٧٨) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٧١ رقم ٢٢٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٠٥/١٣) وأبو نعيم في «الحلية» (١١٨/٤) عن شهر بن حوشب. وشهر هذا صدوق كثير الأوهام والإرسال - كما في التقريب (٣٥٥/١) -.

(٣) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

سورة السجدة مكية، وآيها ثلاثون آية، وقيل تسع وعشرون آية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْم﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فمبتدأ خبره:

(٢) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ على أن التنزيل بمعنى المنزل، وإن جعل تعديداً للحروف كان تنزيل خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فيكون ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في فيه، لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً، ولا ريب فيه حال من الكتاب، أو اعتراض والضمير فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله:

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فإنه إنكار لكونه من رب العالمين، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنه تقرير له. ونظم الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين؛ وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجيباً منه؛ فإن أم منقطعة، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وبين المقصود من تنزيله فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ إذا كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم.

(٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ مر بيانه في

الأعراف^(١). ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ ما لكم إذا جاوزتم رضا الله أحدٌ ينصركم ويشفع لكم. أو ما لكم سواء وليٌّ ولا شفيع، بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في مواطنٍ نصركم، على أن الشفيع متجاوزٌ به للناصر، فإذا خذلكم لم يبقَ لكم وليٌّ ولا ناصر. ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بمواعظ الله تعالى.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۚ ذَٰلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ ۚ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۚ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ۚ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۚ

(٥) ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلةً أنازها إلى الأرض. ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ثم يصعد إليه ويثبت في علمه موجوداً. ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ في برهة من الزمان متطاولةٍ يعني بذلك استطالة ما بين التدبير والوقوع، وقيل يدبر الأمر بإظهاره في اللوح فينزل به الملكُ ثم يعرجُ إليه في زمان هو كألف سنة لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرة ألف سنة فإن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر، وقيل يدبر الأمر إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله يوم القيامة، وقيل يدبر الأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي. ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلّة المخلصين والأعمال الخالص. وقرئ: يُعْرَجُ وَيَعْدُونَ.

(٦) ﴿ ذَٰلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فيدبر أمرهما على وفق الحكمة. ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره. ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ على العباد في تدبيره، وفيه إيمان بأنه سبحانه يراعى المصالح تفضلاً وإحساناً.

(٧) ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ خلقه موثقاً عليه ما يستعد له ويليق به على وفق الحكمة والمصلحة، وخلق به بدلاً من كلّ بدلٍ الاشتغال، وقلّ علم كيف يخلقه من قولهم قيمة المرء ما يحسنه أي يحسن معرفته، وخلقه مفعول ثانٍ. وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على الوصف، فالشيء على الأول مخصوص بمنفصل وعلى الثاني بمتصل. ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ ﴾ يعني آدم. ﴿ مِنْ طِينٍ ﴾.

(٨) ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ ذريته، سميت بذلك لأنها تنسل منه أي تنفصل. ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ممتهن.

(٩) ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ قومه بتصوير أعضائه على ما ينبغي. ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً له وإشعاراً بأنه خلق عجب وأن له شأناً له مناسبة ما إلى الحضرة الربوبية، ولأجله قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه. ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ خصوصاً لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا^(٢). ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ تشكرون شكراً قليلاً.

(١) الأعراف: «٥٤».

(٢) وتقديم «لكم» على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق للمؤخر (س ٧ / ٨٠).

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا نتميز منه، أو غبنا فيها. وقرئ ضلّلنا بالكسر من ضل يضل، وصلّلنا من صل اللحم إذا أتن، وقرأ ابن عامر إذا على الخبر؛ والعامل فيه ما دل عليه: ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو: نُبْعَثُ أو يُجَدِّدُ خَلْقُنَا. وقرأ نافع والكسائي ويعقوب أنا على الخبر. والقائل أبي بن خلف، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده. ﴿كَفِرُونَ﴾ جاحدون.

(١١) ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً ولا يُبقي منكم أحداً. والتفعل والاستفعال يلتقيان كثيراً كتقصيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته. ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ بقبض أرواحكم وإحصاء آجالكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

(١٢) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من الحياء والخزي. ﴿رَبَّنَا﴾ قائلين ربنا. ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتنا. ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك. ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا، وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً. ويجوز أن تكون للتمني، والمضي فيها وفي إذ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع. ولا يُقدَّر لترى مفعول، لأن المعنى لو يكون منك رؤية في هذا الوقت، أو يُقدَّر ما دل عليه صلة إذ. والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد^(١).

(١٣) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له. ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك تصريح بعدم إيمانهم - لعدم المشيئة - المسبب عن سبق الحكم بأنهم من أهل النار، ولا يدفعه جعل ذوق العذاب مسبباً عن نسيانهم العاقبة وعدم تفكرهم فيها بقوله:

(١٤) ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له. ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم من الرحمة، أو في العذاب ترك المنسي. وفي استئنافه وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كزر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله، وتعليقه بأفعالهم السيئة من التكذيب والمعاصي - كما علله بتركهم تدبّر أمر العاقبة والتفكير فيها - دلالة على أن كلا منهما يقتضي ذلك.

(١) عدلوا للجملة الاسمية «إنا موقنون» وذلك لإظهار ثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه (س ٧/٨٢).

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٥)
 ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١٦) ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧)

(١٥) ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ وعظوا بها. ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ خوفاً من عذاب الله. ﴿ وَسَبَّحُوا ﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث. ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ حامدين له شكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى^(١). ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإيمان والطاعة كما يفعل مَنْ يُصِرَّ مستكبراً.
 (١٦) ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ ﴾ ترتفع وتنحى. ﴿ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ الفرش ومواضع النوم. ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ داعين إياه. ﴿ خَوْفًا ﴾ من سخطه. ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في رحمته. وعن النبي ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل»^(٢). وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد جاء مناد ينادي بصوت يُسمع الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم مَنْ أُولَىٰ بالكرم، ثم يرجع فينادي: لِيُقَمَّ الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: لِيُقَمَّ الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائر الناس»^(٣) وقيل كان أناس من الصحابة يُصلّون من المغرب إلى العشاء فتزلت فيهم^(٤). ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير.

(١٧) ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ مما تَقَرُّ به عيونهم. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله ما أطلعتهم عليه، أقرؤوا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أُخْفِيَ لَهُمْ»^(٥). وقرأ حمزة ويعقوب أُخْفِيَ لَهُمْ على أنه مضارعٌ أَخْفَيْتُ، وقرىء تُخْفِي وَأُخْفِي

- (١) والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلّة التسبيح والتحميد، وبأنهم يفعلونها بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (س/٧/٨٤).
- (٢) أخرجه أحمد (٢٤٨/٥) والحاكم في المستدرک (٤١٢/٢ - ٤١٣) من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً به.
- والترمذي (١١/٥ - ١٢ رقم ٢٦١٦) وابن ماجة (١٣١٤/٢) رقم ٣٩٧٣ وعبد بن حميد رقم (١١٢) وأحمد في المسند (٢٣١/٥) والطبراني في الكبير (١٣٠/٢٠) رقم ٢٦٦ عن معاذ في أثناء حديث مرفوع نحوه. وهو حديث صحيح. انظر إرواء الغليل (رقم: ٤١٣).
- (٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٣١ رقم ١٩١) - أخرجه - إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولاً وهو عند الحاكم - (٣٩٨/٢ - ٣٩٩) - هـ.
- قلت: صححه الحاكم ووافقه الذهبي.
- (٤) أخرجه أبو داود (١٣٢١/٧٩، ١٣٢٣) من حديث أنس. ويشهد له ما أخرجه الترمذي (٣٤٦/٥) رقم ٣١٩٦ أيضاً من حديث أنس وقوى إسناده الشيخ عبدالقادر الأرنبوط في تخريج جامع الأصول (٣٠٣/٢).
- (٥) أخرجه البخاري (٥١٥/٨، ٥١٦ رقم ٤٧٧٩ و٤٧٨٠) ومسلم (٢١٧٤/٤ - ٢١٧٥ رقم ٢٨٢٤/٤، ٣، ٢) من حديث أبي هريرة.

والفاعل للكل هو الله، وَقُرَّتْ أَعْيُنُ لاختلاف أنواعها. والعلمُ بمعنى المعرفة، وما موصولة أو استفهامية معلق عنها الفعل. ﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جُزُوا جزاء، أو أُخْفِيَ للجزاء فإن إخفائه لعلو شأنه. وقيل هذا لقوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ خارجاً عن الإيمان ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ في الشرف والمثوبة، تأكيد وتصريح، والجمع للحمل على المعنى.

(١٩) ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ فإنها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة. وقيل المأوى جنة من الجنان. ﴿نُزُلًا﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران^(١). ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

(٢٠) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ﴾ مكان جنة المأوى للمؤمنين. ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ عبارة عن خلودهم فيها. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم.

(٢١) ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ عذاب الدنيا، يريد ما مُجِنُوا به من السَّنةِ سبع سنين والقتل والأسر. ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل مَنْ بقي منهم. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر. روي أن الوليد بن عقبة فاخرَ علياً رضي الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات^(٢).

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتفكر فيها. وثم لاستبعاد الإعراض عنها - مع فرض وضوحها - وإرشادها إلى أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلاً كما في بيت الحماسة.

وَلَا يَكْشِفُ الْغَمَّ إِلَّا ابْنُ حَرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا^(٣)

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ فكيف ممن كان أظلم من كل ظالم؟!.

(١) آل عمران: (١٩٨).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٣١ رقم ١٩٤): «أخرجه - ابن مردويه، والواحد ص ٣٤٩ - ٣٥٠ من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي: أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملاً منك لكتيبة. فقال علي: اسكت يا فاسق، فإنما أنت فاسق. فنزلت».

وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

«تنبيه»: «قوله إن ذلك شجر بينهما يوم بدر غلط فاحش. فما كان الوليد حيثن رجلاً».

(٣) من الطويل.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أُولَئِكَ يَهْدِيهِمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَسُوفُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك. ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِنْ لِقَائِهِ﴾ من لقائك الكتاب كقوله: ﴿وَأِنَّكَ لَلْقَى الْقُرْآنَ﴾^(١) فإنما آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه فليس ذلك ببذع لم يكن قط حتى ترتاب فيه، أو من لقاء موسى للكتاب، أو من لقائك موسى. وعنه عليه الصلاة والسلام: «رأيت ليلة أُسري بي موسى عليه السلام رجلاً آدم طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة»^(٢). ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي المنزل على موسى. ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم به أو بتوفيقنا له. ﴿لِمَا صَبَرُوا﴾ وقرأ حمزة والكسائي ورويس لِمَا صَبَرُوا أي لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يقضي فيميز الحق من الباطل بتمييز المُحَقِّق من المبطل. ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

(٢٦) ﴿أُولَئِكَ يَهْدِيهِمْ﴾ الواو للعطف على مثنوي من جنس المعطوف. والفاعل ضمير ما دل عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة من أهلكناهم من القرون الماضية، أو ضمير الله بدليل القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ يعني أهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم. وقرئ يَمْشُونَ بالتشديد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وانعاط.

(٢٧) ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَسُوفُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ التي جُرَزَ نباتها أي قطع وأزيل، لا التي لا تُنبَت لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ وقيل اسم موضع باليمن. ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع. ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ كالتين والورق. ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ كالحب والتمر. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيستدلون به على كمال قدرته وفضله.

(٢٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ النصر أو الفضل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا﴾^(٣) ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الوعد به.

(١) النحل: ٦٦.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤/٦) رقم (٣٢٣٩) و(٤٢٨/٦) رقم (٣٣٩٤) ومسلم (١٥١/١) رقم (٢٢٦) من حديث ابن عباس.

(٣) الأعراف: ٨٩.

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ وهو يومُ القيامة فإنه يومُ نَصْرِ المؤمنين على الكفرة والفضل بينهم، وقيل يوم بدر أو يوم فتح مكة. والمراد بالذين كفروا المقتولون منهم فيه فإنهم لا ينفعهم إيمانهم حالَ القتل ولا يُمَهَّلون، وانطبأه جواباً على سؤالهم من حيث المعنى باعتبار ما عُرف من غرضهم؛ فإنهم لما أرادوا به الاستعجال تكذيباً واستهزاء أُجيبوا بما يَمْنَع الاستعجال.

(٣٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبهم، وقيل هو منسوخ بآية السيف. ﴿وَانْتَظِرْ﴾ النصرَ عليهم. ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ الغلبة عليك. وقرئ بالفتح، على معنى أنهم أحقاء بأن يُنْتَظَرَ هلاكهم، أو أن الملائكة ينتظرونه. عن النبي ﷺ: «من قرأ ألم تنزِيلُ وتبارك الذي بيده الملك أُعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر»^(١) وعنه: «من قرأ ألم تنزِيلُ في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام»^(٢).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبي عصمة عن زيد العمي عن أبي بصرة عن ابن عباس عن أبي، وعند ابن مردويه من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر. وفي إسناد داود بن معاذ وهو ساقط. كما في «الكافي الشاف» (ص ١٣١ رقم ١٩٥).

(٢) قال ابن حجر في «المرجع السابق» (ص ١٣١ - ١٣٢ رقم ١٩٦): لم أجده.

سُورَةُ الْاِحْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أُنْقَى اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ وَأَتَّبِعَ مَا يُوحَىٰ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۖ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۖ مَا جَعَلَ
اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ
أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۚ

سورة الأحزاب مدنية وآياتها ثلاث وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أُنْقَى اللَّهُ﴾ ناداه بالنبِّي وأمره بالتقوى تعظيماً له وتفخيماً لشأن التقوى، والمراد به الأمر بالثبات عليه ليكون مانعاً له عما نُهي عنه بقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فيما يعود بوهن في الدين^(١). روي أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه في المودعة التي كانت بينه وبينهم وقام معهم ابن أبي ومعتب بن قشير والجدُّ بن قيس فقالوا له: ارفض ذكر آلِهتنا وقلْ إن لها شفاعَةً وندعُك وربك فنزلت. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة.

(٢) ﴿وَأَتَّبِعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ كالنهي عن طاعتهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فَمُوح إِلَيْكَ ما تصلح به أعمالك ويغني عن الاستماع إلى الكفرة، وقرأ أبو عمرو بالياء على أن الواو ضمير الكفرة والمنافقين أي أن الله خبيرٌ بمكائدهم فيدفعها عنك.

(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وكل أمرك إلى تدبيره. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمور كلها.

(١) ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب ص ٣٥١ بغير إسناد كما في «الكافي الشاف» (ص ١٣٢ رقم ٢٠٠).

(٤) ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ ۚ لَّأَنَّ الْقَلْبَ مَعْدِنُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْمُتَعَلِّقُ بِالنَّفْسِ الْإِنْسَانِيِّ أَوَّلًا وَمَنَعَ الْقَوَى بِأَسْرِهَا وَذَلِكَ يَمْنَعُ التَّعَدُّدَ. ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ وَمَا جَمَعَ الزَّوْجِيَّةَ وَالْأُمُومَةَ فِي امْرَأَةٍ وَلَا الدَّعْوَةَ وَالْبَنُوَّةَ فِي رَجُلٍ ۚ وَالْمَرَادُ بِذَلِكَ رَدُّ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَزْعُمُ مِنْ أَنَّ اللَّيْبَ الْأَرِيْبَ لَهُ قَلْبَانٍ وَلِذَلِكَ قِيلَ لِأَبِي مَعْمَرٍ أَوْ جَمِيلِ بْنِ أَسَدٍ الْفَهْرِيِّ ذُو الْقَلْبَيْنِ، وَالزَّوْجَةُ الْمَظَاهِيرُ عَنْهَا كَالْأُمِّ وَدَعِيَ الرَّجُلُ ابْنَهُ وَلِذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ لَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ الْكَلْبِيِّ عَتِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ابْنُ مُحَمَّدٍ، أَوِ الْمَرَادُ نَفْيُ الْأُمُومَةِ وَالْبَنُوَّةِ عَنِ الْمَظَاهِيرِ عَنْهَا وَالْمَتَّبَعِيُّ وَنَفْيُ الْقَلْبَيْنِ لِمَتَمَهِيدِ أَصْلٍ يُخْمَلَانِ عَلَيْهِ. وَالْمَعْنَى كَمَا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ لِأَدَائِهِ إِلَى التَّنَاقُضِ، وَهُوَ أَنَّ يَكُونَ كُلُّ مِنْهُمَا أَصْلًا لِكُلِّ الْقَوَى، وَغَيْرَ أَصْلٍ لَمْ يَجْعَلِ الزَّوْجَةَ وَالِدَةً وَالدَّعِيَّ اللَّذِينَ لَا وَلَادَةَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ أُمَّهُ وَابْنَهُ اللَّذِينَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ وَلَادَةٌ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو اللَّائِي بِالْيَاءِ وَخَذَهُ عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ اللَّاءُ بِهَمْزَةٍ فَخُفِّفَتْ، وَعَنِ الْحِجَازِيِّينَ مِثْلُهُ، وَعَنْهُمَا وَعَنْ يَعْقُوبَ بِالْهَمْزِ وَخَذَهُ، وَأَصْلُ تَظَاهِرُونَ تَظَاهَرُونَ فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ الثَّانِيَةُ فِي الظَّاءِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ تَظَاهِرُونَ بِالْإِدْغَامِ وَحَمْزَةً وَالْكَسَائِي بِالْحَذْفِ وَعَاصِمٌ تَظَاهِرُونَ مِنْ ظَاهَرَ، وَقُرِئَ تَظَاهِرُونَ مِنْ ظَهَرَ بِمَعْنَى ظَاهَرَ كَعَقْدَ بِمَعْنَى عَاقَدَ وَتَظَاهِرُونَ مِنْ الظُّهُورِ. وَمَعْنَى الظَّهَارِ: أَنَّ يَقُولَ لِلزَّوْجَةِ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي، مَأْخُودٌ مِنَ الظَّهْرِ بِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ كَالْتَلِيَّةِ مِنَ لَبَّيْكَ وَتَعْدِيَّتِهِ بِمَنْ لَتَضَمُّنُهُ مَعْنَى التَّجَنُّبِ لِأَنَّهُ كَانَ طَلَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْإِسْلَامِ يَقْتَضِي الطَّلَاقَ أَوْ الْحَرَمَةَ إِلَى آدَاءِ الْكُفَّارَةِ كَمَا عَدَى آلِي بَهَا، وَهُوَ بِمَعْنَى حَلَفَ وَذَكَرَ الظَّهْرَ لِلْكِنَايَةِ عَنِ الْبَطْنِ الَّذِي هُوَ عَمُودُهُ فَإِنَّ ذِكْرَهُ يَقَارِبُ ذِكْرَ الْفَرْجِ، أَوْ لِلتَّغْلِيظِ فِي التَّحْرِيمِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَحْرُمُونَ إِتْيَانَ الْمَرْأَةِ وَظَهْرَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَدْعِيَاءُ جَمْعٌ دَعِيَ عَلَى الشَّدُوذِ وَكَأَنَّهُ شُبَّةٌ بِفَعِيلٍ بِمَعْنَى فَاعِلٍ فَجُمِعَ جَمْعَهُ. ﴿ ذَلِكُمْ ۚ إِنْ شَارَ إِلَى مَا ذُكِرَ أَوْ إِلَى الْآخِرِ. ﴿ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْأَعْيَانِ كَقَوْلِ الْهَازِي. ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ۚ مَالَهُ حَقِيقَةٌ عَيْنِيَّةٌ مُطَابِقَةٌ لَهُ. ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۚ سَبِيلَ الْحَقِّ. ۝

أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

(٥) ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ۚ أُتَسَبَّوهُمْ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ إِفْرَادٌ لِلْمَقْصُودِ مِنْ أَقْوَالِهِ الْحَقَّةُ وَقَوْلُهُ: ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ تَعْلِيلٌ لَهُ، وَالضَّمِيرُ لِمَصْدَرِ ادْعُوهُمْ وَأَقْسَطُ أَفْعَلُ تَفْضِيلُ قَصْدَ بِهِ الزِّيَادَةُ مُطْلَقًا مِنَ الْقِسْطِ بِمَعْنَى الْعَدْلِ، وَمَعْنَاهُ الْبَالِغُ فِي الصَّدَقِ. ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ۚ فَتَنْسِبُوهُمْ إِلَيْهِمْ. ﴿ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۚ أَيُ فُهِمَ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ. ﴿ وَمَوْلَاكُمْ ۚ وَأَوْلِيَاؤُكُمْ فِيهِ فَقُولُوا هَذَا أَخِي وَمَوْلَايَ بِهَذَا التَّأْوِيلِ. ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَا إِنَّمْ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكَ مَخِطَتَيْنِ قَبْلَ النَّهْيِ أَوْ بَعْدَهُ عَلَى النِّسْيَانِ أَوْ سَبَقِ اللِّسَانِ. ﴿ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَلَكِنَّ الْجُنَاحَ فِيمَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ أَوْ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ فِيهِ الْجُنَاحُ. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۚ لِعَفْوِهِ عَنِ الْمَخْطِئَةِ. وَاعْلَمْ أَنَّ التَّبَنِيَّ لَا عِبْرَةَ بِهِ عِنْدَنَا وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ يَوْجِبُ عِتْقَ مَمْلُوكِهِ وَيُثْبِتُ النَّسَبَ لِمَجْهُولِهِ الَّذِي يُمْكِنُ إِحْقَاقُهُ بِهِ. ۝

الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لَيْسَ لَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

(٦) ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ في الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس، فلذلك أطلق، فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وأمره أنفذ عليهم من أمرها وشفقتهم عليه أنتم من شفقتهم عليها. روي: أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناسٌ نستأذن آبائنا وأمهاتنا فنزلت^(١). وقرىء وهو أب لهم أي في الدين فإن كل نبي أب لأمتيه من حيث أنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون أخوة. ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ لسا أمهات النساء^(٢). ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وذوو القربات. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث وهو نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالات في الدين. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح أو فيما أنزل، وهو هذه الآية أو آية الموارث أو فيم فرض الله. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ بيان لأولي الأرحام، أو صلة لأولي أي أولو الأرحام بحق القرابة أُولَىٰ بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة. ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع! والمراد بفعل المعروف التوصية، ومنقطع ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ كان ما ذكر في الآيتين ثابتاً في اللوح أو القرآن. وقيل في التوراة.

(٧) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ﴾ مقدّر باذكر وميثاقهم عهدهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم. ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصّهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع وقدم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ عظيم الشأن أو مؤكداً باليمين، والتكرير لبيان هذا الوصف تعظيماً له.

(٨) ﴿لَيْسَ لَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم، أو تصديقهم إياهم تكيّفاً لهم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادق، أو المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على أخذنا من جهة أن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين، أو على ما دلّ عليه ليسأل كأنه قال فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين.

(١) ذكره الماوردي في تفسيره (٣٧٣/٤) عن النقاش.

(٢) أخرج الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٩٣٦/٢) من طريق مطر الأعنق عن خرقاء، قالت: قلت لعائشة: يا أمه، قالت «لست أم نسايتكم، إنما أنا أم الرجال». وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦٤/٨) من طريق مسروق أن امرأة قالت لعائشة: يا أمه. فقالت: لست بأمك، أنا أم رجالكم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَ وَكُم مِّنْ قَوْفِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَأَهَّلِ يَتَرَبَّ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

(٩) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزاب وهم قريش و غطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ريح الصبا. ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكة. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما سمع بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة ثم خرج إليهم في ثلاثة آلاف والخندق بينه وبينهم، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى بعث الله عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتية، فأخصرتهم وسقت التراب في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم وماجت الخيل بعضها في بعض وكثرت الملائكة في جوانب العسكر، فقال طليحة بن خويلد الأسدي أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، وقرأ البصريان بالياء أي بما يعمل المشركون من التحزب والمحاربة. ﴿بَصِيرًا﴾ رايًا.

(١٠) ﴿إِذْ جَاءَ وَكُم﴾ بدل من إذا جاء تكم. ﴿مِّنْ قَوْفِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من قِبَل المشرق بنو غطفان. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قِبَل المغرب قريش. ﴿وَلِإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت عن مستوى نظرها حيرةً وشخصاً. ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ رُغْباً فَإِنَّ الرِّثَّةَ تَنْتَفِخُ من شِدَّةِ الرِّوْعِ فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي منتهى الحلقوم مَدْخَلُ الطعام والشراب. ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ الأنواع من الظن فظن المخلصون الثبوت القلوب أن الله منجز وعده في إعلاء دينه، أو ممتحنهم فخافوا الزلل وضعفوا الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكي عنهم^(١)، والألف مزيدة في أمثاله تشبيهاً للفواصل بالقوافي وقد أجزى نافع وابن عامر وأبو بكر فيها الوصل مجرى الوقف، ولم يزدوها أبو عمرو وحمزة ويعقوب مطلقاً وهو القياس.

(١١) ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ اختبروا فظهر المخلص من المنافق والثابت من المترزل. ﴿وَزُلْزِلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا﴾ من شِدَّةِ الفزع وقرئ زلزالاً بالفتح.

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد. ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الظفر وإعلاء الدين. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وعداً باطلاً. قيل قائله معتب بن قشير قال يعدنا محمد بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ما هذا إلا وعد غرور.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني أوس بن قيطي وأتباعه. ﴿يَتَأَهَّلِ يَتَرَبَّ﴾ أهل المدينة، وقيل هو

اسمُ أرضٍ وقعت المدينة في ناحية منها ﴿لَا مَقَامَ﴾ لا موضع قيام. ﴿لَكُمْ﴾ ها هنا، وقرأ حفص بالضم على أنه مكانٌ أو مصدرٌ من أقام. ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم هاربين، وقيل المعنى لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا، أو لا مقام لكم يثرب فارجعوا كفاراً ليمكنكم المقام بها. ﴿وَيَسْتَفِذْنَ فَسِيحٌ مِّنْهُمُ النَّاسَ﴾ للرجوع^(١). ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غيرُ حصينة وأصلها الخلل، ويجوز أن يكون تخفيفُ العورة من عَوْرَتِ الدَّارِ إذا اختَلَّتْ وقد قرئ بها. ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينة. ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي وما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ۚ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْلَوْنَ الْآذِنُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۚ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ دُخِلَتِ المدينة أو بيوتهم. ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها وحَذَفَ الفاعل للإيماء بأن دخول هؤلاء المتحزبين عليهم ودخول غيرهم من العساكر سيان في اقتضاء الحكم المرتب عليه. ﴿ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ﴾ الرِّدَّةَ ومقاتلة المسلمين. ﴿لَآتَوَاهَا﴾ لأعطوها، وقرأ الحجازيان بالقصر بمعنى لجأوها وفعلوها. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا﴾ بالفتنة أو بإعطائها. ﴿إِلَّا بَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب، وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد تمام الارتداد إلا يسيراً.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْلَوْنَ الْآذِنُ﴾ يعني بني حارثة عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ حين قُتِلُوا ثُمَّ تابوا أن لا يعودوا لمثله. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ عن الوفاء به مجازي عليه.

(١٦) ﴿قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فإنه لا بد لكل شخص من حَتَفِ أنفٍ، أو قَتْلٍ في وقتٍ معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم. ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإن نفعكم الفرار مثلاً فمَنَعْتُمْ بالتأخير لم يكن ذلك التمتع إلا تمتعاً، أو زماناً قليلاً.

(١٧) ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي أو يصيبكم بسوء إن أَرَادَ بِكُمْ رحمةً فاخْتَصَرَ الكلام كما في قوله:

مَتَقَلِّدًا سِيفًا وَرُمَحًا

أو حملَ الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضر عنهم.

(١٨) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ المثبطين عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون. ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾

(١) صيغة المضارع في «يستأذن» لاستحضار الصورة (س ٧/ ٩٤٠).

من ساكني المدينة. ﴿هَلَمْ إِلَيْنَا﴾ قَرَّبُوا أَنْفُسَكُمْ إِلَيْنَا وَقَدْ ذَكَرَ أَضْلَهُ فِي الْإِنْعَامِ. ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إِلَّا إِيثَانًا أَوْ زَمَانًا أَوْ بَاسًا قَلِيلًا، فَإِنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ وَيَتَّبِعُونَ مَا أَمَكْنُ لَهُمْ، أَوْ يَخْرُجُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنْ لَا يَقَاتِلُونَ إِلَّا قَلِيلًا كَقَوْلِهِ ﴿مَا قَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) وَقِيلَ إِنَّهُ مِنْ تَمَتُّةٍ كَلَامُهُمْ وَمَعْنَاهُ لَا يَأْتِي أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ حَرْبَ الْأَحْزَابِ وَلَا يَقَاوِمُونَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا.

أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَكَوُونَ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء عليكم بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله أو الظفر أو الغنيمة، جمع شحيح ونضبها على الحال من فاعل يأتون أو المعوقين أو على الذم. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم. ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ﴾ كنظر المغشي عليه أو كدوران عينية، أو مشبهين به أو مشبهة بعينه. ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من معالجة سكرات الموت خوفاً ولو اذاً بك. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم. ﴿سَلَفُوكُمْ﴾ ضربوكم. ﴿بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ ذريعة يطلبون الغنيمة، والسلق البسط بقهر باليد أو اللسان. ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ نُصِبَ عَلَى الْحَالِ أَوْ الذَّمِّ، وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ الرَّفْعِ وَلَيْسَ بِتَكَرُّرٍ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُقَيَّدٌ مِنْ وَجْهِ. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ إخلاصاً. ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ فإظهر بطلانها إذ لم تثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً لتعلق الإرادة به وعدم ما يمنعه عنه.

(٢٠) ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي هؤلاء لجبنهم يظنون أنَّ الأحزاب لم ينهزموا، وقد انهزموا ففرُّوا إلى داخل المدينة. ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كَرَّةٌ ثَانِيَةٌ. ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ تمنَّوا أَنَّهُمْ خَارِجُونَ إِلَى الْبَدْوِ حَاصِلُونَ بَيْنَ الْأَعْرَابِ. ﴿يَسْتَكَوُونَ﴾ كُلٌّ قَادِمٌ مِنْ جَانِبِ الْمَدِينَةِ. ﴿عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ﴾ عَمَّا جَرَى عَلَيْهِمْ. ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ هَذِهِ الْكَرَّةُ وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ قِتَالٌ. ﴿مَا قَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رِيَاءٌ وَخَوْفًا مِنَ التَّعْيِيرِ.

(٢١) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ خَصْلَةٌ حَسَنَةٌ مِنْ حَقِّهَا أَنْ يُؤْتَسَى بِهَا كَالثَبَاتِ فِي الْحَرْبِ وَمُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ، أَوْ هُوَ فِي نَفْسِهِ قُدُورَةٌ يَحْسُنُ التَّأْسِي بِهِ كَقَوْلِكَ فِي الْبَيْضَةِ عَشْرُونَ مَثَا حَدِيدًا أَوْ هِيَ فِي نَفْسِهَا هَذَا الْقُدْرُ مِنَ الْحَدِيدِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَهُوَ لَعْفٌ فِيهِ. ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أَيِ ثَوَابِ اللَّهِ أَوْ لِقَاءِهِ وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ، أَوْ أَيَّامِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ خُصُوصًا. وَقِيلَ هُوَ كَقَوْلِكَ أَرْجُو زَيْدًا وَفَضْلَهُ، فَإِنَّ الْيَوْمَ الْآخِرَ دَاخِلٌ فِيهَا بِحَسَبِ الْحُكْمِ وَالرَّجَاءُ يَحْتَمِلُ الْأَمَلَ وَالْخَوْفَ

ولمن كان صلةً لحسنه أو صفةً لها. وقيل بدلٌ من لكم والأكثرُ على أنَّ ضميرَ المخاطبِ لا يُبدلُ منه. ﴿وَدَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ وَقَرَنَ بِالرَّجَاءِ كَثْرَةَ الذِّكْرِ المؤدية إلى ملازمة الطاعة، فَإِنَّ الْمُؤْتَسِيَ بِالرَّسُولِ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ.

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(١) الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام «سَيَسْتَدُ الْأَمْرُ بِاجْتِمَاعِ الْأَحْزَابِ عَلَيْكُمْ وَالْعَاقِبَةُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ»^(٢). وقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهُمْ سَائِرُونَ إِلَيْكُمْ بَعْدَ تِسْعٍ أَوْ عَشْرِ»^(٣) وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الراء وفتح الهمزة^(٤). ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ظهر صدقُ خبرِ الله ورسوله، أو صدقاً في الثَّغْرَةِ والثَّوَابِ كما صَدَقَا في البلاء، وإظهارُ الاسمِ للتعظيم. ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ فيه ضميرٌ لما رأوا، أو الخطبُ أو البلاء. ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله ومواعيده. ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديره.

(٢٣) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثباتِ مع الرسول ﷺ والمقاتلةِ لإعلاء الدين من صدقني إذا قال لك الصدق، فَإِنَّ الْمَعَاهِدَ إِذَا وَفَّى بعهده فقد صدق فيه. ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ نَذَرُهُ بِأَنْ قَاتَلَ حَتَّى اسْتَشْهَدَ كَحِمَزَةٍ وَمُصْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ وَأَنْسِ بْنِ النَّضْرِ، وَالتَّخْبُ النَّذْرُ وَاسْتُعِيرَ لِلْمَوْتِ لِأَنَّهُ كَنَذَرٍ لَزِمَ فِي رِقْبَةٍ كُلِّ حَيَوَانٍ. ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ﴾ الشَّهَادَةُ كَعَثْمَانَ وَطَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ﴿وَمَا بَدَّلُوا الْعَهْدَ وَلَا غَيْرَهُ﴾ تَبْدِيلًا شَيْئاً مِنَ التَّبْدِيلِ. رُوِيَ أَنَّ طَلْحَةَ ثَبَّتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى أُصِيبَتْ يَدُهُ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ»^(٥) وفيه تعريضٌ لأهل النفاق ومرض القلبِ بالتبديل، وقوله:

(١) البقرة: (٢١٤).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٣٣ رقم ٢٠٨): «لم أجده».

وذكره الألويسي في «روح المعاني» (١٦٩/٢١) عن ابن عباس نقلاً عن البحر المحيط.

(٤) من (رأى) أي بكسر الراء وفتح همزة (رأى).

(٥) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٣٣ رقم ٢١٠) «أخرجه - الثعلبي من رواية جرير بن حازم عن عروة في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ - الآية - منهم طلحة بن عبيدالله فذكره».

وقد روى مفرقاً من غير هذا الوجه، فقضيته أن يده أصيبت، أخرجه البخاري (٨٢/٧) رقم (٣٧٢٤) و(٣٥٩/٧) رقم (٤٠٦٣) من رواية قيس بن أبي حازم «رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها رسول الله ﷺ يوم أحد» والنسائي من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال «لما كان يوم أحد كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلاً من الأنصار. فذكر القصة مطولة».

قوله «أوجب طلحة» أخرجه الترمذي (٢٠١/٤) رقم (١٦٩٢) و(٦٤٣/٥ - ٦٤٤) رقم (٣٧٣٨) وابن حبان (ص ٥٤٦) رقم ٢٢١٢ - موارد) والحاكم (٢٥/٣) وابن أبي شيبة وإسحاق وأبو يعلى والبزار من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبيدالله بن الزبير عن أبيه به - هـ.

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعليل للمنطوق والمعروض به، فكأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى، والتوبة عليهم مشروطة بتوبتهم أو المراد بها التوفيق للتوبة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن تاب.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الأحزاب. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ متغيطين. ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ غير ظافرين وهما حالان بتداخل أو تعاقب. ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث ما يريد. ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على كل شيء.

(٢٦) ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ ظاهروا الأحزاب. ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني قريظة. ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم جمع صَيْصِيَّة وهي ما يُتَحَصَّنُ به ولذلك يُقَالُ لِقَرْنِ الثَّوْرِ وَالظَّبْيِ وَشَوْكَةِ الدِّيكِ. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف وقرئ بالضم. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وقرئ بضم السين روي: أَنَّ جبريل أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، فقال: أنتزع لأمتك والملائكة لم يضعوا السلاح؟ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِالسَّيْرِ إِلَى بَنِي قَرِظَةَ وَأَنَا عَامِدٌ إِلَيْهِمْ فَأَذِّنْ فِي النَّاسِ أَنْ لَا يَصْلُوا الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ، فحاصرهم إحدى وعشرين أو خمساً وعشرين حتى جهدهم الحصار فقال لهم: تنزلون على حُكْمِي فَأَبَوْا فقال: على حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَرَضُوا بِهِ، فحُكْمُ سَعْدٍ بِقَتْلِ مَقَاتِلِهِمْ وَسَبْيِ ذُرَارِيهِمْ وَنَسَائِهِمْ، فَكَتَبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» فقتل منهم ستمائة أو أكثر وأسّر منهم سبعمائة^(١).

(١) هذه الرواية تشمل أحاديث عدة:

(أ) حديث (أوقد وضعت السلاح): أخرجه البخاري (٤٠٧/٧ رقم ٤١١٧) وأحمد (٨٢/٢١ - الفتح الرباني) والبيهقي في «الدلائل» (٥/٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(ب) حديث (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة): أخرجه البخاري (٤٠٧/٧ رقم ٤١١٩) - ومسلم (٣/١٣٩١ رقم ٦٩/١٧٧٠) والبيهقي في «الدلائل» (٦/٤ - ٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(ج) حديث (حكم سعد بن معاذ في بني قريظة): أخرجه البخاري (٦/١٦٥ رقم ٣٠٤٣) و(٧/١٢٣ رقم ٣٨٠٤) و(٧/٤١١ رقم ٤١٢١) و(١١/٤٩ رقم ٦٢٦٢) ومسلم (٣/١٣٨٨ - ١٣٨٩ رقم ٦٤/١٧٦٨) والبيهقي في «الدلائل» (٤/١٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَأَوْزَكْتُمْ أَرْضَهُمْ وَوَدَّيَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَاتُمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَجُكَ إِن كُنْتُمْ تَرُدُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتَعُكُمْ وَأَسْرَحُكُمْ سَرَلًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُمْ تَرُدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ فِي الْأَخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

(٢٧) ﴿وَأَوْزَكْتُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم. ﴿وَدَّيَرَهُمْ﴾ حصونهم. ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام جعل عقارهم للمهاجرين فتكلم فيه الأنصار فقال: «إنكم في منازلكم» وقال عمر رضي الله عنه: أما تُخَمَّسُ كما خَمَسَتْ يومَ بدرٍ فقال: «لا إنما جُعِلَتْ هذه لي طُعْمَةً»^(١). ﴿وَأَرْضَاتُمْ تَطْعُوهَا﴾ كفارس والروم، وقيل خيبر وقيل كل أرض تُفْتَحُ إلى يوم القيامة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدر على ذلك.

(٢٨) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَجُكَ إِن كُنْتُمْ تَرُدُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ السَّعَة والتَّعَمُّم فيها. ﴿وَزِينَتَهَا﴾ زخارفها. ﴿فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتَعُكُمْ﴾ أعطاكمُ المتعة. ﴿وَأَسْرَحُكُمْ سَرَلًا جَمِيلًا﴾ طلاقاً من غير ضرارٍ وبدعة. روي أنهم سأله ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت^(٢). فبدأ بعائشة رضي الله عنها فخيرها فاختارت الله ورسوله، ثم اختارت الباقيات اختارها فشكر الله لهنَّ ذلك فأنزل ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾^(٣) وتعلق التسريح بإرادتهنَّ الدنيا وجعلها قسيماً لإرادتهنَّ الرسول يدلُّ على أنَّ المخيرة إذا اختارت زوجها لم تُطَلَّقَ خلافاً لزيد والحسن ومالك وإحدى الروایتين عن عليٍّ، ويؤيده قول عائشة رضي الله عنها «خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه»^(٤). ولم يعد طلاقاً، وتقديم للتمتع على التسريح المسبب عنه من الكرم وحسن الخلق. قيل لأنَّ الفرقه كانت بإرادتهنَّ كاختيار المخيرة نفسها فإنه طلقه رجعية عندنا وبائنة عند الحنفية، واختلف في وجوبه للمدخل بها وليس فيه ما يدلُّ عليه. وقُرِئ أُمْتَعُكُمْ وَأَسْرَحُكُمْ بالرفع على الاستئناف.

(٢٩) ﴿وَإِن كُنْتُمْ تَرُدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ فِي الْأَخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يُسْتَخَفَّرُ دونه الدنيا وزينتها ومن للتبيين لأنهنَّ كلهنَّ كنَّ محسنات.

(٣٠) ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ بكبيرة. ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ ظاهر قبْحها على قراءة ابن كثير وأبي بكر والباقون بكسر الياء. ﴿يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفي عذاب غيرهنَّ أي مثليه، لأنَّ الذنب منهنَّ أقبح فإنَّ زيادة قُبْحِهِ تنبُع زيادة فضل المذنب، والنعمة عليه ولذلك جعل حدَّ الحرِّ ضعفي

(١) أخرجه الواقدي باب غزوة بني النضير (١/٣٧٨ - ٣٧٩) عن أم العلاء وأخرجه الواقدي أيضاً (١/٣٧٧) من طريق المسور بن رفاعه.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٢١١٥٧) من حديث الحسن مرسلاً بنحوه، بإسناد صحيح إلى الحسن.

(٣) الأحزاب: ٥٢.

(٤) أخرجه البخاري (٩/٣٦٧) رقم ٥٢٦٢ ومسلم (٢/١١٠٣) رقم ١٤٧٧.

حدَّ العبدِ، وعُوتِبَ الأنبياءُ بما لا يعاتبُ به غيرُهم وقرأ البصريانِ يُضَعَّفُ على البناءِ للمفعول ورفَّع العذابَ، وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ نُضَعَّفُ بالنونِ وبناءِ الفاعلِ ونُضِبَ العذابُ. ﴿وَكَاثَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عن التضعيفِ كونُهُنَّ نساءَ النبيِّ وكيفَ وهو سببُهُ.

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكِنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٣١) يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣٣)

(٣١) ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكِنَّ﴾ وَمَنْ يَدْمُ عَلَى الطَّاعَةِ. ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَلَعَلَّ ذِكْرَ اللَّهِ لِلتَّعْظِيمِ أَوْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مَرَّةً عَلَى الطَّاعَةِ وَمَرَّةً عَلَى طَلِبِهَا رِضَا النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْقَنَاعَةِ وَحُسْنِ الْمَعَاشِرَةِ. وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيُّ وَيَعْمَلُ بِالنِّسَاءِ حَمَلًا عَلَى لَفْظِ مَنْ وَيُؤْتِيهَا عَلَى أَنَّ فِيهِ ضَمِيرَ اسْمِ اللَّهِ. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ فِي الْجَنَّةِ زِيَادَةً عَلَى أَجْرِهَا.

(٣٢) ﴿يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أَصْلُ أَحَدٍ وَحَدٍ بِمَعْنَى الْوَاحِدِ، ثُمَّ وُضِعَ فِي النَّفْيِ الْعَامِّ مُسْتَوِيًّا فِيهِ الْمَذْكُورُ وَالْمُؤَنَّثُ وَالْوَاحِدُ وَالْكَثِيرُ، وَالْمَعْنَى لَسْتَنَّ كَجَمَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ جَمَاعَاتِ النِّسَاءِ فِي الْفَضْلِ. ﴿إِنْ أَتَقَيْتُنَّ﴾ مُخَالَفَةً حُكْمِ اللَّهِ وَرِضَا رَسُولِهِ. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ فَلَا تَجِئْنَ بِقَوْلِكُنَّ خَاضِعًا لِيُنَّا مِثْلَ قَوْلِ الْمَرْبِيَّاتِ. ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ فُجُورٌ. وَقُرِءَ بِالْجَزْمِ (١) عَطْفًا عَلَى مُحَلٍّ فِعْلٍ النَّهْيِ عَلَى أَنَّهُ نَهْيٌ مَرِيضٍ الْقَلْبِ عَنِ الطَّمَعِ عَقِيبَ نَهْيِهِنَّ عَنِ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ حَسَنًا بَعِيدًا عَنِ الرِّبَةِ.

(٣٣) ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ مِنْ وَقَرَّ يَقْرُ وَقَارًا أَوْ مِنْ قَرَّ يَقْرُ حَذَفَتِ الْأُولَى مِنْ رَأْيِ أَفْزَنَ وَنُقِلَتْ كَسْرُهَا إِلَى الْقَافِ، فَاسْتُغْنِيَ عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَعَاصِمٍ بِالْفَتْحِ مِنْ قَرَزَتْ أَقْرُ وَهُوَ لَغَةٌ فِيهِ، وَيُخْتَلَمُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَارَ يَقَارُ إِذَا اجْتَمَعَ. ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ تَبَرُّجًا مِثْلَ تَبَرُّجِ النِّسَاءِ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، وَقِيلَ هِيَ مَا بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ، وَقِيلَ الزَّمَانُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَلْبَسُ دِرْعًا مِنَ اللَّؤْلُؤِ فَتَمَشِي وَسَطَ الطَّرِيقِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى الرِّجَالِ وَالْجَاهِلِيَّةُ الْآخَرَى مَا بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقِيلَ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى جَاهِلِيَّةُ الْكُفْرِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَالْجَاهِلِيَّةُ الْآخَرَى جَاهِلِيَّةُ الْفُسُوقِ فِي الْإِسْلَامِ، وَيَعْضُدُهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ فِيكَ جَاهِلِيَّةً، قَالَ جَاهِلِيَّةُ كُفْرٍ أَوْ إِسْلَامٍ قَالَ بَلْ جَاهِلِيَّةُ كُفْرٍ» (٢). ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِي سَائِرِ مَا أَمَرَكَنَّ

(١) قوله وقرىء بالجزم أي بجزم الفعل (فيطمع).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٣٤ رقم ٢١٧): «لم أجده عن أبي الدرداء. وإنما هو في الصحيحين البخاري (٨٤/١ رقم ٣٠) و(١٧٣/٥ - ١٧٤ رقم ٢٥٤٥) و(٤٦٥/١٠ رقم ٦٠٥٠) - ومسلم (٣/ ١٢٨٢) -

به ونهاكَنَّ عنه. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ الذَّنْبَ المدُّنْسَ لِعِزِّضِكُمْ وهو تعليلٌ لأمرهنَّ ونَهْيهنَّ على الاستئنافِ ولذلك عَمَّمَ الحُكْمَ. ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نُصِبَ على النداءِ أو المدحِ. ﴿وَيُطَهِّرُكُمْ﴾ عن المعاصي. ﴿تَطْهِيرًا﴾ واستعارةُ الرِّجْسِ للمعصية والترشيح بالتطهير للتغفير عنها. وتخصيصُ الشيعةِ أهل البيتِ بفاطمة وعلي وابنيهما رضي الله عنهم لما روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات غُدُوَّةٍ وعليه مِرْطٌ مرْجَلٌ من شعرٍ أسودَ فجلسَ فأتَتْ فاطمةُ رضي الله عنها فأدخلها فيه، ثم جاء عليٌّ فأدخله فيه ثم جاء الحسنُ والحسينُ رضي الله عنهما فأدخلهما فيه ثم قال: إنما يريدُ الله ليذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ^(١)، والاحتجاجُ بذلك على عِصْمَتِهِمْ وكونِ إجماعِهِمْ حُجَّةً ضَعِيفَةً لَأَنَّ التَّخْصِصَ بِهِمْ لَا يَنَاسِبُ مَا قَبْلَ الْآيَةِ وما بعدها، والحديثُ يقتضي أنهم من أهل البيت لا أنه ليسَ غيرهم.

وَأَذْكُرْتُ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝

(٣٤) ﴿وَأَذْكُرْتُ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ من الكتاب الجامع بين الأمرين وهو تذكيرٌ بما أنعم الله عليهم من حيث جعلَهُنَّ أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ ومهبطَ الوحي وما شاهدنَّ من بَرَخَاءِ الوحي مما يوجبُ قوةَ الإيمانِ والحرصَ على الطاعةِ حثًا على الانتهاءِ والائتمارِ فيما كُلِّفْنَ به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم ويدبِّرُ ما يصلحُ في الدين ولذلك خَيْرُكُمْ وَوَعظُكُمْ، أو يعلمُ مَنْ يصلحُ لنبوته وَمَنْ يصلحُ أَنْ يَكُونَ أَهْلَ بَيْتِهِ.

(٣٥) ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الداخلين في السِّلْمِ المنقادِينَ لحُكْمِ اللَّهِ. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المصدقين بما يجبُ أَنْ يُصَدَّقَ به. ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ المداومين على الطاعة. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في القول والعمل. ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على الطاعاتِ وعن المعاصي. ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم. ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ بما وَجِبَ في مالِهِمْ. ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ الصومَ المفروض. ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ عن الحرام. ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ بقلوبهم وألسنتِهِمْ. ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ لما اقْتَرَفُوا من الصغائرِ لأنهم مكفرون. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعتِهِمْ، والآيةُ وغْدٌ لَهُنَّ ولأمثالِهِمْ على الطاعةِ

= ١٢٨٣ رقم ٣٨ - ٤٠) من حديث أبي ذر أنه رضي الله عنه قال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

(١) أخرجه مسلم (٤/١٨٨٣ رقم ٢٤٢٤/٦١) من حديث عائشة.

● المرط: هو كساء، جمعه مروط.

● المرجل: هو الموش المنقوش عليه صور رجال الإبل.

والتدُّع بهذه الخصال. روي أَنَّ أزواجَ النبي ﷺ قلن: يا رسولَ الله ذَكَرَ اللهَ الرجالَ في القرآنِ بخيرِ فما فينا خيرٌ نُذكرُ به فنزلت^(١). وقيل: لما نزلَ فيهنَّ ما نزلَ قال نساءُ المسلمينَ فما نزلَ فينا شيءٌ فنزلت^(٢) وعُطِفَ الإناثُ على الذكورِ لاختلافِ الجنسينِ وهو ضروريٌّ، وعُطِفَ الزوجينِ على الزوجينِ لتغايرِ الوصفينِ فليس بضروريٍّ ولذلك تُركَ في قوله ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ﴾^(٣) وفائدتهُ الدلالةُ على أَنَّ إعدادَ المعدِّ لهم للجمعِ بين هذه الصفاتِ.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ ما صحَّ له. ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي قضى رسولُ الله، وذُكِرَ اللهُ لتعظيمِ أمره والإشعارِ بأنَّ قضاءه قضاءُ الله، لأنه نزلَ في زينب بنتِ جحش بنتِ عَمَّتِه أُمَيَّة بنتِ عبدالمطلب خطبها رسولُ الله ﷺ لزيد بنِ حارثة فابثَ هي وأخوها عبدُالله^(٤). وقيل في أمِّ كلثوم بنتِ عتبةَ وهبَتْ نفسها للنبي ﷺ فزَوَّجها من زيد^(٥). ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أَنْ يختاروا من أمرهم شيئاً بل يجبُ عليهم أَنْ يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختيارِ الله ورسوله، والخِيَرَةُ ما يُسَخَّرُ وُجُمِعَ الضميرُ الأولُ لعمومِ مؤمنٍ ومؤمنة من حيثُ إنهما في سياقِ النفي، وُجُمِعَ الثاني للتعظيم. وقرأ الكوفيون وهشامٌ «يكون» بالياء. ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ بَيَّنَّ الانحرافَ عن الصوابِ.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لِعِتْقِهِ واختصاصه. ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفَّقك الله فيه وهو زيد بنُ حارثة. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينب. وذلك: أنه عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٢٢/١٠) والطبراني في الكبير (١٠٨/١٢) رقم (١٢٦١٤).

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩١/٧): «رواه الطبراني وفيه قابوس وهو ضعيف، وقد وثق، وبقيته رجاله ثقات» هـ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤/٥) رقم (٣٢١١) والطبراني في الكبير (٣١/٢٥ - ٣٢) رقم (٥١، ٥٢، ٥٣). مرسلًا وموصولًا من حديث عكرمة عن أم عمارة الأنصارية.

وخلاصة القول أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

(٣) التحريم: «٥».

(٤) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣٠١/٣) رقم (٢٠٦) من حديث زينب بنت جحش.

في سياق أطول من هذا، وإسناده ضعيف. انظر «الكافي الشاف» (ص ١٣٤) رقم (٢٢٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٢٢/١٢) من حديث ابن زيد. فالحديث معضل لأن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم من أتباع التابعين.

أَبْصَرَهَا بَعْدَ مَا أَنْكَحَهَا إِيَّاهُ فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ، وَسَمِعَتْ زَيْنَبُ بِالتَّسْبِيحِ فَذَكَرَتْ لَزَيْدٍ فَفُطِنَ لَذَلِكَ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ كَرَاهَةٌ صُحْبَتِهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ: أَرِيدُ أَنْ أَفَارِقَ صَاحِبَتِي، فَقَالَ: «مَالِكٌ؟ أَرَأَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ؟» فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنْهَا إِلَّا خَيْرًا وَلَكِنَّهَا لَشَرَفَهَا تَتَعَزَّمُ عَلَيَّ، فَقَالَ لَهُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»^(١) «وَاتَّقِ اللَّهَ» فِي أَمْرِهَا فَلَا تَطْلُقْهَا ضِرَارًا وَتَعَلُّلاً بَتَكْثُرِهَا. «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» وَهُوَ نِكَاحُهَا إِنْ طَلَّقَهَا أَوْ إِرَادَةَ طَلْقِهَا. «وَتَخْشَى النَّاسَ» تَعْيِيرَهُمْ إِيَّاكَ. بِهِ. «وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» إِنْ كَانَ فِيهِ مَا يَخْشَى، وَالْوَاوُ لِلْحَالِ، وَلَيْسَتْ الْمَعَانِي عَلَى الْإِخْفَاءِ وَخَدَهُ فَإِنَّهُ حَسَنٌ بَلْ عَلَى الْإِخْفَاءِ مَخَافَةٌ قَالَتِ النَّاسُ وَإِظْهَارِ مَا يَنْفِي إِضْمَارَهُ، فَإِنْ الْأَوَّلَى فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنْ يَصُمْتَ أَوْ يَفُوضَ الْأَمْرَ إِلَى رَبِّهِ. «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا» حَاجَةً بِحَيْثُ مَلَّهَا وَلَمْ يَبْقَ لَهُ فِيهَا حَاجَةٌ وَطَلَّقَهَا وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا. «زَوَّجْنَاهَا» وَقِيلَ قِضَاءُ الْوَطَرِ كَنَائَةً عَنِ الطَّلَاقِ مِثْلُ لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ. وَقُرِئَ زَوَّجْنَاهَا، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَ بِتَزْوِيجِهَا مِنْهُ أَوْ جَعَلَهَا زَوْجَتَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ عَقْدٍ. وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ كَانَتْ تَقُولُ لِسَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى إِنْكَاحِي وَأَنْتَنَ زَوْجَكُنَّ أَوْلِيَا وَكُنَّ^(٢). وَقِيلَ كَانَ زَيْدُ السَّفِيرِ فِي خُطْبَتِهَا وَذَلِكَ ابْتِلَاءٌ عَظِيمٌ وَشَاهِدٌ بَيِّنٌ عَلَى قُوَّةِ إِيْمَانِهِ. «لَكِنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا» عِلَّةٌ لِلتَّزْوِيجِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حُكْمَهُ وَحُكْمَ الْأُمَّةِ وَاحِدَةٌ إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ» أَمْرُهُ الَّذِي يَرِيدُهُ «مَفْعُولًا» مَكُونًا لَا مُحَالَةً كَمَا كَانَ تَزْوِيجُ زَيْنَبَ.

(٣٨) «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» قَسَمَ لَهُ وَقَدَّرَ مِنْ قَوْلِهِمْ فَرَضَ لَهُ فِي الدِّيَوَانِ، وَمِنْهُ فَرُوضُ الْعَسْكَرِ لِأَرْزَاقِهِمْ. «سُنَّةَ اللَّهِ» سُنَّ ذَلِكَ سُنَّةً. «فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ نَفْيُ الْحَرَجِ عَنْهُمْ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ. «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا» قِضَاءُ مَقْضِيًّا وَحُكْمًا مَبْتُوتًا.

(١) قَالَ الْحَافِظُ فِي «الكَافِي الشَّافِي» (ص ١٣٤ رَقْم ٢٢٤) «ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ بِغَيْرِ سَنَدٍ، وَأَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ - فِي «جَامِعِ الْبَيَانِ» (١/٢ ج ١٣) - مَعْنَاهُ مِنْ رَوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ أَسْلَمَ» هـ.
وَهُوَ حَدِيثٌ مُعْضَلٌ لِأَنَّ ابْنَ زَيْدٍ مِنْ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ. بِالْإِضَافَةِ أَنَّ ابْنَ زَيْدٍ ضَعِيفٌ.
● وَأَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» (١٠١/٨ - ١٠٢) وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢٣/٤ - ٢٤) مِنْ رَوَايَةِ الْوَاقِدِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ الْأَسْلَمِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَانَ نَحْوَهُ.
وَهُوَ حَدِيثٌ مُرْسَلٌ لِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى مِنْ صُغَارِ التَّابِعِينَ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى ضَعْفِ الْوَاقِدِيِّ.
وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ الْحَدِيثَ بَاطِلٌ سَنَدًا وَمَتْنًا.
فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَسْتَنْدَ إِلَى مِثْلِ هَذَيْنِ الْإِسْنَادَيْنِ الْهَالِكَيْنِ فِي إِثْبَاتِ خَبَرٍ فِيهِ نِيلٌ مِنْ عَصْمَةِ الْمَعْصُومِ ﷺ.

● وَقَالَ الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ بَعْدَمَا فَسَّرَ آيَةَ عَلَى تَأْوِيلِهَا الصَّحِيحِ: «وَفِي هَذَا مَا يَهْدِينَا إِلَى كُلِّ الرُّوَايَاتِ الَّتِي رُوِيَتْ عَنْ هَذَا الْحَادِثِ، وَالَّتِي تَشَبَّهَ بِهَا أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَصَاغُوا حَوْلَهَا الْأَسَاطِيرَ وَالْمُفْتَرِيَّاتِ» هـ. «فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ» (٥/٢٨٦٩).

وَانْظُرْ كَلَامَ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدِ الْغَزَالِيِّ فِي فَهْمِ السِّيَرَةِ ص ٤٣٩ - ٤٤١، فَقَدْ أَجَادَ وَأَفَادَ وَلَوْلَا مَلَالُ الطُّوْلِ لَنَقَلْتُهُ لَكَ.
وَانْظُرْ كَلَامَ ابْنِ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (٨/٥٢٤) عَنِ الْآثَارِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي التَّشَاغُلَ بِهَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣/٤٠٣ - ٤٠٤ رَقْم ٧٤٢٠) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

(٣٩) ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ صفةٌ للذين خلّوا أو مدّحٌ لهم منصوبٌ أو مرفوعٌ، وقرئ رسالة الله. ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ تعريضٌ بعد تصريح. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً فينبغي أن لا يُخشى إلا منه.

(٤٠) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ على الحقيقة فيثبت بينه وبينه ما بين الوالد وولده من حُرْمَةِ المصاهرة وغيرها، ولا ينتقض عمومُه بكونه أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال ولو بلغوا كانوا رجاله لا رجالهم. ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ وكلُّ رسولٍ أبو أمته لا مطلقاً بل من حيث إنه شفيقٌ ناصحٌ لهم، واجبٌ التوقير والطاعة عليهم وزيدٌ منهم ليس بينه وبينه ولادة. وقرئ رسولُ الله بالرفع على أنه خبرٌ مبتدأٌ محذوف، ولكنَّ بالتشديد على حذف الخبر أي ولكنَّ رسولُ الله من عرفتم أنه لم يعيش له ولدٌ ذكرٌ. ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وآخَرَهُم الذي ختمَهُم أو ختمُوا به على قراءة عاصم بالفتح، ولو كان له ابنٌ بالغ لاقَ بمنصبه أن يكون نبياً كما قال عليه الصلاة والسلام في إبراهيم حين تُوفِّي: «لو عاش لكان نبياً»^(١) ولا يقدح فيه نزولُ عيسى بعده لأنه إذا نزل كان على دينه، مع أن المراد منه أنه آخرٌ من نبيِّء. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة وكيف ينبغي شأنه.

(٤١) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يغلبُ الأوقات ويعمُّ الأنواع بما هو أهله من التقديس والتحميد والتهليل والتمجيد.

(٤٢) ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أولُ النهارِ وآخرُهُ خصوصاً، وتخصيصُهُما بالذكر للدلالة على فضلِهِما على سائر الأوقات لكونهما مشهودَينِ كإفراد التسيب من جملة الأذكار لأنه العمدة فيها. وقيل الفعلان موجَّهانِ إليهما. وقيل المراد بالتسيب الصلاة.

(٤٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ بالرحمة. ﴿وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم﴾ بالاستغفار لكم والاهتمام بما يُصلحُكم، والمراد بالصلاة المشترك وهو العناية بصلاح أمرِكُم وظهور شرفِكُم مستعازٍ من الصلوة. وقيل الترحم والانعطاف المعنوي مأخوذٌ من الصلاة المشتبهة على الانعطاف الصوري الذي هو الركوع والسجود،

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٨٤/١) رقم ١٥١١ من حديث ابن عباس.

وقال البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (٢٦٩/١) رقم ٥٤٥ «هذا إسناد ضعيف لضعف إبراهيم بن عثمان أبي شيبة» هـ.

● وأخرج البخاري (٥٧٧/١٠) رقم ٦١٩٤ وابن ماجه (٤٨٤/١) رقم ١٥١٠ من حديث ابن أبي أوفى:

ولو قضى أن يكون بعد محمد ﷺ نبيٌّ عاش ابنه ولكن لا نبيٌّ بعده.

واستغفارُ الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين ترخُّمٌ عليهم سيِّما وهو السببُ للرحمة من حيثُ إنهم مجابو الدعوة. ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيثُ اعتنى بصلاح أمرهم وإنافه قذرهم واستعمل في ذلك ملائكة المقرَّبين.

يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

(٤٤) ﴿يَحْيَتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أو يحيون. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يومَ لقائه عند الموت أو الخروج من القبور، أو دخول الجنة. ﴿سَلَامٌ﴾ إخبارٌ بالسلامة عن كلِّ مكروه وآفة. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هي الجنة، ولعلَّ اختلاف التَّظْم لمحافظة الفواصل والمبالغة فيما هو أهمُّ.

(٤٥) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ على مَنْ بُعِثَ إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم، وهو حال مقدَّرة. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

(٤٦) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى الإقرار به وتوحيده وما يجبُ الإيمانُ به من صفاته. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتيسيره وأُطْلِقَ له من حيثُ أنه من أسبابه وقيد به الدعوة إيداناً بأنه أمرٌ صعبٌ لا يتأى إلا بمعونة من جنابِ قُدْسِهِ. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يُسْتَضَاءُ به عن ظلمات الجهالات ويُقْتَبَسُ من نوره أنوارُ البصائر.

(٤٧) ﴿وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على سائر الأمم أو على جزاء أعمالهم، ولعله معطوفٌ على محذوفٍ مثلُ فراقِبِ أحوالِ أُمَّتِكَ.

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ تهيجٌ له على ما هو عليه من مخالفتهم. ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ إيذاءهم إياك ولا تحنطل به، أو إيذاءك إياهم مجازاةً أو مواخذةً على كُفْرِهِمْ، ولذلك قيل إنه منسوخٌ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه يكفيهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمرُ في الأحوالِ كُلِّهَا، ولعله سبحانه وتعالى لما وَصَفَهُ بخمس صفاتٍ قابلٍ كلاً منها بخطابٍ يناسبه، فحذفَ مقابلَ الشاهد وهو الأمرُ بالمراقبة لأن ما بعده كالتفصيل له، وقابلَ المَبَشِّرَ بالأمرِ ببشارة المؤمنين والنذيرَ بالنهي عن مراقبة الكفار، والمبالاة بأذاهم، والداعي إلى الله بتيسيره بالأمرِ بالتوكلِ عليه، والسراج المنيرُ بالاكْتِفَاءُ به فإنَّ مَنْ أَنَارَهُ اللهُ برهانا على جميع خلقه كان حقيقاً بأن يُكْتَفَى به عن غيره.

(٤٩) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ تجامعوهنَّ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بِالْفِ وضمَّ التاء. ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ﴾ أيام يترصَّن فيها بأنفسهنَّ. ﴿تَعُدُّونَهَا﴾ تَسْتَوْفُونَ عَدَدَهَا من عَدَدَتِ الدراهم فاعتدَّها كقولك: كِلْتُهُ فَاكْتَالُهُ، أو تعدُّونها. والإسنادُ إلى الرجالِ للدلالة

على أنَّ العدة حقُّ الأزواج كما أشعرَ به فما لكم، وعن ابن كثير تعتدونها مجففاً على إبدال إحدى الدالين بالياء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها، وظاهره يقتضي عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة وتخصيص المؤمنات. والحكم عامٌّ للتنبيه على أنَّ من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنةً تخيراً لنظفته، وفائدة ثم إزاحه ما عسى أن يتوهم تراخي الطلاق ريثما تمكن الإصابة كما يؤثر في النسب يؤثر في العدة. ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي إن لم يكن مفروضاً لها فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة ويجوز أن يؤوَّل التمتع بما يعُمُّهما، أو الأمر بالمشترك بين الوجوب والندب فإنَّ المتعة سنةٌ للمفروض لها. ﴿وَسَرَّجُوهُنَّ﴾ أخرجوهنَّ من منازلكنَّ إذ ليس لكم عليهنَّ عدةٌ. ﴿سَرَّاحِيلاً﴾ من غير ضراير ولا منع حق، ولا يجوز تفسيره بالطلاق الشني لأنه مرتب على الطلاق، والضمير لغير المدخول بهنَّ.

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَائِتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ النَّبِيِّ هَاجِرْنَ مَعَكَ وَأَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٠

(٥٠) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَائِتَ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهنَّ لأنَّ المهر أجْرٌ على البضع، وتقييد الإحلال له بإعطائها معجلة لا لتوقُّف الحِلِّ عليه بل لإثارة الأفضل له كتقييد إحلالة المملوكة بكونها مسبية بقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فإنَّ المشترية لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها، وتقييد القرائب بكونها مهاجراتٍ معه في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ النَّبِيِّ هَاجِرْنَ مَعَكَ﴾ ويختلُّ تقييد الحِلِّ بذلك في حقِّه خاصَّةً ويعضده قول أم هانئ بنت أبي طالب: خَطَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فاعتذرتُ إليه فعدرتني، ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحلَّ له لأنبي لم أهاجر معه، كنتُ من الطُّلَقَاءِ^(١). ﴿وَأَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ نُصِبَ بفعل يفسره ما قبله أو عطفٌ على ما سبق، ولا يدفعه التقييد بأنَّ التي للاستقبال فإنَّ المعنى بالإحلال والإعلام بالحِلِّ أي: أعلمناك حِلَّ امرأة مؤمنة تهبُّ لك نفسها ولا تطلبُ مهرًا إن اتفقَ ولذلك نكرها. واختلَفَ في اتفاق

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥/٥) رقم (٣٢١٤) والحاكم (٤٢٠/٢) و(٥٣/٤) والطبراني في الكبير (٤٠٥/٢٤) - ٤١٦ رقم (٩٨٥) و(٤١٣/٢٤) رقم (١٠٠٧) وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٢٢ - ٢٠) - (٢١). كلهم من رواية السدي عن أبي صالح عن أم هانئ. قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١٤٣/٢٤) رقم (١٠٠٥) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هانئ.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٣٦/٢٤) رقم (١٠٦٧) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن أم هانئ. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٧١/٤): «رجاله ثقات».

ذلك، والقاتل به ذَكَرَ أربعاً: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم. وقرئ أن بالفتح أي لأن وهبت أو مدّة أن وهبت كقولك: اجلس ما دام زيد جالساً. ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ شرط للشرط الأول في استيجاب الحِلِّ فإن هَبَّتْهَا نفسها منه لا توجب له حِلَّها إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول. والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي ﷺ مكرراً، ثم الرجوع إليه في قوله: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الدُّنْيَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ إيذاناً بأنه مما خصّ به لشرف نبوته وتقدير لاستحقاق الكرامة لأجله. واحتج به أصحابنا على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة لأن اللفظ تابع للمعنى وقد خصّ عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختص باللفظ، والاستنكاح طلب النكاح والرغبة فيه، وخالصة مصدر مؤكّد أي خلص إحلالها أو إحلال ما أخللنا لك على القيود المذكورة خلوصاً لك، أو حال من الضمير في وهبت أو صفة لمصدر محذوف أي هبة خالصة. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ من شرائط العقد وجوب القسم والمهر بالطء حيث لم يُسم. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغي أن يفرض عليهم، والجملة اعتراض بين قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ومتعلّقة وهو خالصة للدلالة على أن الفرق بينه وبين المؤمنين في نحو ذلك لا لمجرد قصد التوسيع عليه، بل لمعان تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسر التحرز عنه. ﴿رَحِيمًا﴾ بالتوسعة في مظان الحرج.

﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُتَوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ أَنْبَغْتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۚ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۚ﴾

(٥١) ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ﴾ تؤخرها وترك مضاجعتها. ﴿وَتُتَوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ وتضم إليك من نشاء وتضاجعها، أو تطلق من نشاء وتمسك من نشاء. وقرأ نافع وحزمة والكسائي وحفص ترجي بالياء والمعنى واحد. ﴿وَمِنْ أَنْبَغْتِ﴾ طلبت. ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ طلقت بالرجعة. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء من ذلك. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ذلك التفويض إلى مشيتك أقرب إلى قرّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً، لأن حكم كلهن فيه سواء، ثم إن سوّيت بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن به نفوسهم. وقرئ تُقَرَّر بضم التاء وأعينهن بالنصب، وتُقَرَّر بالبناء للمفعول، وكلهن تأكيد نون يرضين، وقرئ بالنصب تأكيداً لهن. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فاجتهدوا في إحسانه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور. ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يُتَّقَى.

(٥٢) ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ بالياء لأن تأنيت الجمع غير حقيقي، وقرأ البصريان بالتاء. ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التسع وهو في حقه كالأربع في حقنا، أو من بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له نكاح أخرى. ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ حسن الأزواج المستبدلة، وهو حال من فاعل تبدل دون مفعوله وهو من

أزواج لتوَعُّله في التنكير، وتقديره مفروضاً إعجابك بهنَّ. واختُلِفَ في أنَّ الآيةَ محكمةٌ أو منسوخةٌ بقوله ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ ﴾^(١) على المعنى الثاني فإنه وإن تقدَّما قراءه فهو مسبوقٌ بها نزولاً. وقيل المعنى لا يحلُّ لك النساءُ من بعدِ الأجناس الأربعة اللاتي نصَّ على إحلالهنَّ لك ولا أن تبدلَ بهنَّ أزواجاً من أجناسٍ أُخرَ. ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ استثناءٌ من النساءِ لأنه يتناول الأزواج والإماء، وقيل منقطعٌ. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَرَقِيبًا ﴾ فتحفظوا أمركم ولا تتخطوا ما حدَّ لكم.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

(٥٣) ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ إلا وقت أن يؤذنَ لكم، أو إلا ما دوناً لكم. ﴿ إِلَى طَعَامٍ ﴾ متعلقٌ بيؤذنَ لأنه متضمنٌ معنى يُدْعَى للإشعار بأنه لا يحسنُ الدخولُ على الطعام من غير دعوة وإن أذنَ كما أشعرَ به قوله: ﴿ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ ﴾ غيرَ منتظرين وقته، أو إدراكه حال من فاعل لا تدخلوا أو المجزور في لكم. وقرئَ بالجزءِ صفةً لطعام فيكون جارياً على غير من هوله بلا إبراز الضمير، وهو غير جائر عند البصريين وقد أمال حمزة والكسائي إناؤه لأنه مصدرٌ أتى الطعام إذا أدرك. ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ تفرَّقوا ولا تمكثوا، ولأنه خطابٌ لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، مخصوصةٌ بهم وبأمثالهم وإلا لما جازَ لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لهم. ﴿ وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ لحديثٍ بضميمكم بعضاً، أو لحديث أهل البيت بالتسُّع له، عطفٌ على ناظرين أو مقدَّرٌ بفعلٍ أي: ولا تدخلوا أو ولا تمكثوا مستأنسين. ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ اللبث. ﴿ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ ﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا ينبغي. ﴿ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ ﴾ من إخراجكم بقوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي مِنْ الْحَقِّ ﴾ يعني أن إخراجكم حقٌ فينبغي أن لا يترك حياء كما لم يتركه الله ترك الحيي فأمركم بالخروج، وقرئ لا يستحي بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء. ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ﴾ شيئاً يُنتَفَعُ به. ﴿ فَسْأَلُوهُنَّ ﴾ المتاع. ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ستر. روي أن عمر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله يدخل عليك البُرُّ والفاجرُ فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فنزلت»^(٢). وقيل نه عليه الصلاة والسلام كان يُطعمُ ومعه بعض أصحابه، فأصابته يد رجلٍ يد عائشة رضي الله عنها فكرة النبي ﷺ ذلك

(١) الأحزاب: ٥١.

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٤٣٨) من رواية أنس عن عمر رضي الله عنه: وقد أخرجه البخاري في سياق (وافقت ربي في ثلاث) انظر (١/٥٠٤ رقم ٤٠٢) و(٨/١٦٨ رقم ٤٤٨٣) و(٨/٥٢٧ رقم ٤٧٩٠).

وقولوا السلام عليك أيها النبي وقيل وانقادوا لأوامره، والآية تدلُّ على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة، وقيل تجب الصلاة كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»^(١) وقوله «مَنْ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ»^(٢)، وتجوز الصلاة على غيره تبعاً، وتكرره استقلالاً لأنه في العرف صار شعاراً لذكر الرسول ﷺ، ولذلك كره أن يُقال محمدٌ عز وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً.

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَتَّخِذُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾

(٥٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي، أو يؤذون رسول الله بكسر رُبَاعِيَّتِهِ. وقولهم شاعرٌ مجنونٌ ونحو ذلك، وذكر الله للتعظيم له. ومن جوز إطلاق اللفظ على معنيين فسره بالمعنيين باعتبار المعمولين. ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته. ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ يهينهم مع الإيلام.

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ بغير جناية استحَقُّوا بها الإيذاء. ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ظاهراً. قيل إنها نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه^(٣)، وقيل في أهل الإفك^(٤)، وقيل في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات^(٥).

(٥٩) ﴿يَتَّخِذُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ يغطين وجوههن وأبدانهن بملاحفهن إذا برزن لحاجة، ومن للتبعيض فإن المرأة ترخي بعض جلبابها وتلفع ببعض ﴿وَذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ يُمَيَّزْنَ من الإماء والقينات. ﴿فَلَا يُؤْذِينَ﴾ فلا يؤذيهن أهل الرية بالتعرض لهن. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف. ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها.

(١) أخرجه الترمذي (٥٥٠/٥) رقم ٣٥٤٥ وأحمد في المسند (٢/٢٥٤) وابن حبان في «الموارد» (ص ٤٩٧) رقم ٢٠٢٨ من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال. وله شاهد من حديث مالك بن الحويرث. أخرجه ابن حبان في «الموارد» (ص ٥٩٣) رقم ٢٣٨٦.

(٢) وهو جزء من حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن حبان في «الموارد» (ص ٤٩٧) رقم ٢٠٢٨. وكذلك من حديث مالك بن حويرث الذي أخرجه ابن حبان كما في «الموارد» (ص ٥٩٣) رقم ٢٣٨٦.

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٣٦٢) عن مقاتل بدون سند.

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/٣٧٦).

(٥) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٣٦٢) عنهما بدون سند.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أَخَذُوا وَفُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ (٦١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٦٤) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٥) ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٦٦)

(٦٠) ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عن نفاقهم. ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعفُ إيمانٍ وقلةُ ثباتٍ عليه، أو فجورٍ عن تزلزلهم في الدين أو فجورهم. ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يرجفون أخبارَ السوء عن سرايا المسلمين ونحوها من إرجافهم، وأصله التحريك من الرجفة وهي الزلزلة سُمِّيَ به الإخبار الكاذب لكونه مترزلاً غير ثابت. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنامرئك بقتالهم وإجلائهم، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على لغريتك، وثم للدلالة على أنَّ الجلاء ومفارقة جوار الرسولٍ أعظم ما يصيبهم. ﴿فِيهَا﴾ في المدينة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً أو جواراً قليلاً.

(٦١) ﴿مَلْعُونِينَ﴾ نُصِبَ على الشتم أو الحال، والاستثناء شاملٌ له أيضاً أي: لا يجاورونك إلا ملعونين، ولا يجوز أن يُنصب عن قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقُفُوا أَخَذُوا وَفُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ لأنَّ ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مصدرٌ مؤكّد أي سنَّ الله ذلك في الأمم الماضية، وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه أينما ثُقِفُوا. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأنه لا يبدلها ولا يقدر أحدٌ أن يبدلها.

(٦٣) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ عن وقت قيامها استهزاءً وتعنتاً أو امتحاناً. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لم يُطْلِع عليه ملكاً ولا نبياً. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ شيئاً قريباً أو تكون الساعة عن قريب، وانتصابه على الظرف، ويجوز أن يكون التذكير لأنَّ الساعة في معنى اليوم، وفيه تهديدٌ للمستعجلين وإسكاتٌ للمتعتنين.

(٦٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الانقاد.

(٦٥) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يحفظهم. يدفع العذاب عنهم.

(٦٦) ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ تُصَرَفُ من جهة إلى جهة كاللحم يُشَوَّى بالنار، أو من حالٍ إلى حال، وقرئ تُقَلَّبُ بمعنى تتقلب، وتقلب. ومتعلق الظرف^(١). ﴿يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فلن تُبتلى بهذا العذاب.

(١) وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أعظم الأعضاء، ففيه مزيد تفضيع للأمر وتهويل للخطب (س/١١٦/٧).

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا إِتَيْنَاكَ مِنْهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْتُمْ لَعْنَا كَبِيرَا ﴿٦٨﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهَا ﴿٦٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

(٦٧) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ يعنون قاداتهم الذين لقنهم الكفر، وقرأ ابنُ عامر ويعقوبُ ساداتنا على جمع الجمع للدلالة على الكثرة. ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ بما زينوا لنا.

(٦٨) ﴿رَبَّنَا إِنَّا إِتَيْنَاكَ مِنْهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ﴾ مثلي ما آتينا منه لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا. ﴿وَالْعَنْتُمْ لَعْنَا كَبِيرَا﴾ كثير العدد، وقرأ عاصمٌ بالباء أي لعنا هو أشدُّ اللعن وأعظمه.

(٦٩) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ فأظهر براءته من مقولهم يعني مؤذاه ومضمونه، وذلك أنَّ قارونَ حرَّضَ امرأةً على قذفه بنفسها فعصمه الله كما مرَّ في القصص، أو أنَّهم ناسٌ يقتلُ هرونَ لما خرجَ معه إلى الطور فماتَ هناك، فحملته الملائكة ومروا به حتَّى رأوه غيرَ مقتولٍ. وقيل أحياء الله فأخبرهم ببراءته، أو قذفه بعيب في بدنه من برصٍ أو آذرةٍ لفرطِ تسرُّه حياءً فأطلعهم الله على أنه بريء منه. ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهَا﴾ ذا قربةٍ وَوَجَاهَةٍ، وقُرِئَ وكان عبدُ الله وجيهاً.

(٧٠) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤذي رسوله. ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قاصداً إلى الحقِّ من سدٍّ يسدُّ سداداً، والمرادُ النهي عن ضده كحديث زينب من غير قصدٍ.

(٧١) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ يوفِّقكم للأعمال الصالحة، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعلها مكفرةً باستقامتكم في القول والعمل. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي. ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

(٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ﴾ تقريرٌ للوعد السابق بتعظيم الطاعة، وسماها أمانةً من حيث إنها واجبةُ الأداء، والمعنى أنها لعظمة شأنها بحيث لو عُرضت على هذه الأجرام العظام وكانت ذات شعورٍ وإدراكٍ لأبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا، وأشفقْنَ منها وحملها الإنسان مع ضعف بُنيته ورخاوة قوته، لا جرم فإنَّ الراعي لها والقائم بحقوقها بخير الدارين. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيث لم يف بها ولم يراع حقها. ﴿جَهُولًا﴾ بكُنْه عاقبتها، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار الأغلب. وقيل المراد بالأمانة الطاعة التي تعمُّ الطبيعية والاختيارية، وبعرضها استدعاؤها الذي يعمُّ طلب الفعل من المختار وإرادة صدره من غيره، وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها، ومنه قولهم حاملُ الأمانة ومحمِّلُها لمن لا يؤدِّيها فتبرأ ذمته، فيكون الإباء عنه إتياناً بما يمكن أن يتأى منه، والظلم والجهالة الخيانة والتقصير. وقيل إنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال

لها: إني فرضت فريضةً وخلقْتُ جنَّةً لمن أطاعني فيها، وناراً لمن عصاني، فقلن نحنُ مسخَّراتٌ على ما خلقْتنا لا نحتملُ فريضةً ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً، ولما خلقَ آدمَ عرضَ عليه مثلَ ذلك فحملَه، وكان ظلوماً لنفسه بتحمله ما يشقُّ عليها جهولاً بوخامةِ عاقبتِه، ولعلَّ المراد بالأمانةِ العقلُ أو التكليفُ، وبعرضها عليهنَّ اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهنَّ، وبإبائهنَّ الإباءَ الطبيعيَّ الذي هو عدمُ اللياقةِ والاستعدادِ، وبحملِ الإنسانِ قابليتهِ واستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً لما غلبَ عليه من القوة الغضبية والشَّهويَّة، وعلى هذا يحسنُ أن يكونَ علةً للحملِ عليه فإنَّ من فوائدِ العقلِ أن يكونَ مهيمناً على القوتينِ حافظاً لهما عن التعدِّي ومجازةِ الحدِّ، ومعظمُ مقصودِ التكليفِ تعديلُهما وكسرُ سُوَرَتِهما.

(٧٣) ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(١) تعليلٌ للحملِ من حيثُ إنه نتيجةُ كالتأديبِ للضربِ في ضربته تأديباً، وذكرُ التوبةِ في الوعدِ إشعارٌ بأنهم كونهم ظلوماً جهولاً في جِبِلَّتِهِمْ لا يخلِّيهم عن فرطاتهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ حيثُ تابَ عن فرطاتهم وأتابَ بالفوزِ على طاعتِهِمْ. قال عليه الصلاة والسلام «مَنْ قرأ سورةَ الأحزابِ وعلمَها أهله أو ما ملكَتْ يمينُه أُعْطِيَ الأمانَ من عذابِ القبرِ»^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.
وانظر آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ سَبَأٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝

سورة سبأ مكية

وقيل إلا قوله: «ويرى الذين أوتوا العلم» الآية، وآيها أربع وخمسون آية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً ونعمة، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وعلى تمام نعمته. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لأن ما في الآخرة أيضاً كذلك، وليس هذا من عطف المقيد على المطلق فإن الوصف بما يدل على أنه المنعم بالنعم الدنيوية قيد الحمد بها، وتقديم الصلة للاختصاص فإن النعم الدنيوية قد تكون بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا كذلك نعم الآخرة. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدارين. ﴿الْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء.

(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالغيث ينفذ في موضع وينبع في آخر، وكالكنوز والدفائن والأموات.

(١) قال الضحاك وابن السائب، ومقاتل: فيها آية مدنية. وهي قوله «ويرى الذين أوتوا العلم» [سبأ: ٦] - كما في «زاد المسير» (٤٣١/٦) -.

وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٧٣): «أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة سبأ بمكة. وأخرج ابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال: سورة سبأ مكية.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات والفِلِزَّاتِ وماء العيون. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير والأرزاق والأنداء والصواعق. ﴿وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخرَة والأدخنة. ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ للمفترطين في شكر نعمته مع كثرتها، أو في الآخرة مع ماله من سوابق هذه النعم الفاتية للحضر.

(٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ إنكاراً لمجيئها أو استبطاءً استهزاءً بالوعد به. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردُّ لكلامهم وإثبات لما نفوه. ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبِ﴾ تكريرٌ لإيجابه مؤكِّداً بالقسم مقررًا لوصف المقسم به بصفات تقرُّر إمكانه وتنفي استبعاده على ما مرَّ غير مرَّة، وقرأ حمزة والكسائي عَلَامُ الغيب للمبالغة، ونافع وابن عمر ورويس عالم الغيب بالرفع على أنه خبرٌ محذوفٌ أو مبتدأٌ خبره. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقرأ الكسائي لَا يَعْزُبُ بالكسر. ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لنفي العزوب، ورفعُهما بالابتداء، ويؤيده القراءة بالفتح على نفي الجنس، ولا يجوز عطفُ المرفوع على مثنى والمفتوح على ذرَّةٍ بأنه فتحٌ في موضع الجرِّ لامتناع الصرفِ لأنَّ الاستثناء بمنعه، اللهمَّ إلا إذا جُعِلَ الضميرُ في عنه للغيب وجُعِلَ المثنى في اللوح خارجاً عنه لظهوره على المطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب شيءٌ إلا مسطوراً في اللوح.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۚ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ۚ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ

(٤) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عِلَّةٌ لقوله لتأتينكم وبيان لما يقتضي إتيانها. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعب فيه ولا من عليه.

(٥) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ بإبطال وترهيد الناس فيها. ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين كي يفوتونا. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين أي مثبطين عن الإيمان من أرادته. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ﴾ من سيء العذاب. ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم، ورفعُه ابن كثير ويعقوب وحفص.

(٦) ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ويعلم أولو العلم من الصحابة ومن شايعهم من الأُمّة، أو من مسلمي أهل الكتاب. ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ القرآن. ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ ومن رَفَعَ الحقَّ جعل هو مبتدأً والحق خبره، والجملة ثاني مفعولي يَرَى، وهو مرفوع مستأنف للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وقيل منصوبٌ معطوفٌ على ليجزي أي وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق عياناً كما علموه الآن برهاناً ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيد والتدُّع بلباس التقوى.

(٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال بعضهم لبعض. ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿يُنْبِئُكُمْ﴾ يحدثكم بأعجب الأعاجيب. ﴿إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ﴾ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ.

تَنْشَوُونَ خَلْقًا جَدِيدًا بَعْدَ أَنْ تُمَزَّقَ أَجْسَادُكُمْ كُلَّ تَمْزِيقٍ وَتَفْرِيقٍ بِحَيْثُ تَصِيرُ تَرَابًا^(١). وتقديمُ الظرف للدلالة على البعد والمبالغة فيه، وعامله محذوف دلَّ عليه ما بعده فَإِنَّ ما قبله لم يقارنْهُ وما بعده مضاف إليه، أو محجوب بينه وبينه بيان، وممزَّقٌ يُخْتَمَلُ أَنْ يكون مكاناً بمعنى إذا مُرِّقْتُمْ وذهبت بكم السيولُ كُلَّ مذهبٍ وطُرُخْتُمْ كُلَّ مطرحٍ، وجديدٌ بمعنى فاعلي من جدَّ كحديدٍ من حدَّ؛ وقيل بمعنى مفعولٍ من جدَّ النساجُ الثوبَ إذا قطعه.

أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّالَةُ الْحَدِيدِ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنونٌ يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، واستُبدِلَ بجعلِهِم إياه قسيم الافتراء غير معتقدين صدقه على أَنَّ بين الصدق والكذب واسطة، وهو كُلُّ خيرٍ لا يكون عن بصيرة بالمخبر عنه، وضعفه بين لأن الافتراء أخصُّ من الكذب. ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ردُّ من الله تعالى عليهم ترديدهم، وإثبات لهم ما هو أفظع من القسمين، وهو الضلال البعيد عن الصواب بحيث لا يُزجى الخلاص منه وما هو مؤذاه من العذاب، وجعله رسلاً له في الوقوع ومقدماً عليه في اللفظ للمبالغة في استحقاقهم له، والبعد في الأصل صفة الضال، ووصف الضلال به على الإسناد المجازي.

(٩) ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ تذكير بما يعاينونه مما يدُّ على كمال قدرة الله، وما يُخْتَمَلُ فيه إزاحة لاستحالتهم الإحياء حتى جعلوه افتراءً وهزواً، وتهديداً عليها. والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى ما أحاطَ بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أهم أشدُّ خلقاً أم السماء، وإنا إن نشأ نخسف بهم الأرض أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات. وقرأ حمزة والكسائي يشأ ويخسف ويسقط بالياء لقوله أفترى على الله، والكسائي وخده بإدغام الفاء في الباء، وحفص كسفاً بالتحريك. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ النظر والتفكر فيهما وما يدلان عليه. ﴿لَآيَةٌ﴾ لدلالة. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه فإنه يكون كثير التأمل في أمره.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي على سائر الأنبياء وهو ما ذكّر بعد، أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن^(٢). ﴿يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ﴾ رجعي معه التسبيح أو

(١) أتى بالجملة الاسمية حيث عدل عن الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقاً جديداً وذلك للإشباع في الاستبعاد والتعجب (س/٧/١٢٣).

(٢) تنكير كلمة «فضلاً» للتفخيم.

وقوله «منا» لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية، وتقديمه على المفعول الصريح وهو «فضلاً» وذلك للاهتمام =

النوحه على الذنب، وذلك إما بخلق صوتٍ مثل صوتِه فيها أو بحملها إياه على التسييح إذا تأمل ما فيها أو سيري معه حيث سار. وقرىء أُوْبِي من الأُوْب أي ازجعي في التسييح كلما رجع فيه، وهو بدلٌ من فضلاً أو من آتينا بإضمار قولنا أو قلنا. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ عطفٌ على محلِّ الجبال ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على لفظها تشبيهاً للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية أو على فضلاً، أو مفعولٌ معه لأُوْبِي، وعلى هذا يجوز أن يكون الرفع بالعطف على ضميره وكان الأصل ولقد آتينا داودَ منا فضلاً تأويب الجبال والطير، فبدل بهذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظم شأنه وكبرياء سلطانه، حيث جعل الجبال والطير كالعقلاء المناقدين لأمره في نفاذ مشيئته فيها. ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ جعلناه في يده كالسمع يُصَرِّفه كيف يشاء من غير إحماء وطرقٍ بالإلته أو بقوته.

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَةً وَقَدَّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَليحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَسْلَيْمَنَ الرِّيحُ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمَنْ أَلْجَنَ مِنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَأْسِيَتْ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ ﴿١٣﴾

(١١) ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعْمَلْ فأن مفسرة أو مصدرية. ﴿سَابِغَةً﴾ دروعاً واسعات، وقرىء صابغات. وهو أولٌ من اتخذها. ﴿وَقَدَّرْ فِي السَّرْدِ﴾ وقدر في نسجها بحيث يتناسب حلقها، أو قدر مساميرها فلا تجعلها دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتنخرق. ورُدَّ بأن دروعه لم تكن مسمرة ويؤيده قوله ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾. ﴿وَاعْمَلُوا صَليحاً﴾ الضمير فيه لداود وأهله. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

(١٢) ﴿وَلَسْلَيْمَنَ الرِّيحُ﴾ أي وسخرنا له الريح. وقرىء الريح بالرفع أي ولسليمان الريح مسخرة، وقرىء الرياح. ﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ﴾ جريها بالعادة مسيرة شهر وبالعشي كذلك، وقرىء غُدُوها وروحتها. ﴿وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ النحاس المذاب أساله له من معدنه فنبع منه نبوع الماء من ينبوع، ولذلك سمّاه عيناً، وكان ذلك باليمن. ﴿وَمَنْ أَلْجَنَ مِنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطف على الريح ومن الجن حال مقدّمة، أو جملة من مبتدأ وخبر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمره. ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل منهم. ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ عما أمرناه من طاعة سليمان. وقرىء يُزِغ من أزاغه. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة.

(١٣) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة، سميت بها لأنها يُذَبُّ عنها ويُحارب عليها. ﴿وَتَمْثِيلٍ﴾ وصوراً هي تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراهم الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. وحرمة التصاوير شرعٌ مجدّد. روي^(١) أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه وسُرتين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله الثُمران بأجنحتيهما.

= بالمقدم والتشويق إلى المآخر.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١٩/٢٢) ثم قال معقّباً: «فأمر غير مستبعد فإن ذلك يكون بآلات تتحرك عند الصعود وعند القعود فتحرك الذراعين والأجنحة وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك في الغرابة» هـ.

﴿وَجَفَّانٍ﴾ وصحاف. ﴿كَالْجَوَابِ﴾ كالحياض الكبار جمع جابية من الجبابة وهي من الصفات الغالبة كالدابة. ﴿وَقُدُّورٍ رَاسِيَّتٍ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها. ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ حكاية عما قيل لهم، وشكراً نُصِبَ على العلة أي اعملوا له واعبدوه شكراً، أو المصدر لأن العمل له شكر، أو الوصف له أو الحال أو المفعول به. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ المتوفرون على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفي حقه، لأن توفيقه الشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهايته، ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر.

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَ بَلَدُكُمْ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي على سليمان. ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾ ما دل الجنَّ وقيل آله. ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي الأرضة أضيفت إلى فعلها، وقرىء بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يُقَالُ: أَرْضَتِ الْأَرْضُ خَشْبَةً أَرْضًا فَأَرْضَتْ^(١) أَرْضًا مَثَلُ أَكَلَتِ الْقَوَادِحُ الْإِنْسَانَ أَكَلًا فَأَكَلَتْ أَكَلًا. ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ عصاه من نسأت البعير إذا طردته لأنها يُطْرَدُ بها. وقرىء بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً على غير قياس إذ القياس إخراجها بينَ بينَ، ومنسأته على مفعالة كمبضاء في مَبْضَاةٍ، ومن سآته أي طرف عصاه مستعار من سآة القوس وفيه لغتان كما في قَحْوَةٍ وَقَحْوَةٍ، وقرأ نافع وأبو عمرو منسأته بآلف بدلاً من الهمزة، وابنُ ذكوانَ بهمزة ساكنة، وحمزة إذا وقف جعلها بينَ بينَ. ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علمت الجنُّ بعد التباس الأمر عليهم. ﴿أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته حينما وقع فلم يلبثوا حولاً في تسخيره إلى أن خَرَّ، أو ظهرت الجنُّ، وأنَّ بما في حيَّره بدلٌ منه أي ظهر أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب. وذلك^(٢) أنَّ داودَ أَسَسَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ في موضع فسطاط موسى عليهما الصلاة والسلام فمات قبل تمامه، فوصى به إلى سليمان عليه السلام فاستعمل الجنَّ فيه فلم يتمَّ بعدُ إذ دنا أجله وأُغْلِمَ به، فأراد أن يعمِّي عليهم موته ليتيموه فدعاهم فَبَنَوْا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه فقبضَ روحه وهو متكئٌ عليها، فبقي كذلك حتى أَكَلَتْهَا الْأَرْضُ فَخَرَّ ثم فتحو عنه وأرادوا أن يعرفوا وقتَ موته، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت يوماً وليلةً مقداراً فَحَسَبُوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، ومُلِّكَ وهو ابنُ ثلاثة عشرة سنة، وابتدأ عمارَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لأربع مَضْنِينَ من مُلْكِهِ.

(١٥) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ومنع الصرف عنه ابن كثير

(١) أرضت أرضاً، على ما لم يسم فاعله.

(٢) انظر «روح المعاني» للألوسي (١٢٣/٢٢ - ١٢٤).

وأبو عمرو لأنه صار اسم القبيلة، وعن ابن كثير قلبُ همزته ألفاً ولعله أخرجه بينَ بينَ فلم يؤدّه الراوي كما وجب. ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ في مواضع سُكنَاهُمْ، وهي باليمن يقال لها مأربُ بينها وبينَ صنعاء مسيرةُ ثلاثة أيام. وقرأ حمزة وحفصُ بالإفرادِ والفتح، والكسائي بالكسرِ حملاً على ما شذَّ من القياس كالـمسجد والمطْلِع. ﴿ءَايَةً﴾ علامة دالةٌ على وجودِ الصانع المختار، وأنه قادرٌ على ما يشاء من الأمور العجيبة مُجازٍ للمحسنِ والمسيءِ معاضدةً للبرهانِ السابق كما في قِصَّةِ داودَ وسليمانَ عليهما الصلاة والسلام. ﴿جَنَّاتٍ﴾ بدلٌ من آيةٍ أو خبرٌ محذوف تقديره الآية جنتان. وقرئ بالنصبِ على المدح، والمرادُ جماعتانِ من البساتين. ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعةٌ عن يمينِ بلدهم وجماعةٌ عن شماله، كلُّ واحدةٍ منهما في تقارُّبها وتضامُنهما كأنَّها جنةٌ واحدةٌ، أو بستاناً كُلُّ رجلٍ منهم عن يمينِ مسكنه وعن شماله. ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَِّمَّ﴾ حكاية لما قال لهم نبيُّهم، أو لسانُ الحالِ أو دلالةٌ بأنهم كانوا أحرَّاءَ بأن يُقالَ لهم ذلك. ﴿بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ استئنافٌ للدلالة على موجبِ الشكر، أي هذه البلدةُ التي فيها رِزْقُكم بلدةٌ طيبة ورَبُّكم الذي رزقكم وطلبَ شُكْرُكم ربُّ غفور فرطت مَنْ يشكره. وقرئ الكلُّ بالنصبِ على المدح^(١). قيل كانت أخصبُ البلادِ وأطيبُها لم يكن فيها عاهةٌ ولا هامةٌ.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثِلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ۚ

(١٦) ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ سَيْلُ الأمرِ العَرِمِ أي الصعبِ من عَرِمِ الرجلِ فهو عارِمٌ وعَرِمٌ إذا شرسَ خلقه وصُعِبَ، أو المطرُ الشديد، أو الجرُّدُ أضافَ إليه السيلَ لأنه نَقَبَ عليهم سكرًا ضربته لهم بلقيسُ فحققت به ماءُ الشجرِ وتركت فيه ثقباً على مقدارِ ما يحتاجون إليه، أو المسناةُ التي عقدت سكرًا على أنه جمعُ عَرِمَةٍ وهي الحجارةُ المركومة. وقيل اسمٌ وادٍ جاء السيلُ من قِبَلِهِ وكان ذلك بينَ عيسى ومحمدَ عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثِلٍ خَمْطٍ﴾ ثمرٍ بشعٍ فإنَّ الخمطَ كُلُّ نَبْتٍ أَخَذَ طعمًا من مرارةٍ، وقيل الأراكُ أو كُلُّ شجرٍ لا شوكَ له، والتقدير أَكْلُ أَكْلٍ خَمْطٍ فَحُذِفَ المضافُ وأُقيِمَ المضافُ إليه مقامه في كونه بدلاً أو عطفَ بيانٍ. ﴿وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفانِ على أَكْلٍ لا على خَمْطٍ، فإنَّ الأَثَلَ هو الطرفاءُ ولا ثمرَ له، وقرنا بالنصبِ عطفاً على جنتين، ووصفَ السدرَ بالقِلَّةِ فإنَّ جَنَاهُ وهو النَّبْتُ مما يطيبُ أَكْلُهُ ولذلك يغرسُ في البساتين، وتسميةُ البدلِ جنتينِ للمشاكلةِ والتهكُّم. وقرأ أبو عمرو وذواتي أَكْلٍ بغيرِ تنوينِ الكلام، وقرأ الحرميانِ بتخفيفِ أَكْلٍ.

(١٧) ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ بِمَا كَفَرُوا﴾ بكفرائهم النعمة أو بكفرهم بالرسلي، إذ رُوِيَ أنه بعثَ إليهم ثلاثة

(١) أي قرئ ببلدة طيبة ورَباً غفوراً، وذلك على تقدير اسكنوا بلدة طيبة واعبدوا رباً غفوراً. انظر روح المعاني (١٢٦/٢٢).

عشر نبياً فكذبوهم، وتقديمُ المفعولِ للتعظيم لا للتخصيص. ﴿وَهَلْ تُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ وهل يجازى بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ في الكفران أو الكفر. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص نُجَازِي بالنون والكفور بالنصب.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها وهي قرى الشام. ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة يظهر بعضها لبعض، أو راکبة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل. ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ بحيث يقبل الغادي في قرية، ويبث الرائح في قرية إلى أن يبلغ الشام. ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ على إرادة القول بلسان الحال أو الميال. ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل أو نهار. ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا آمنين وإن طالت مدة سفرهم فيها، أو سيروا فيها ليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن.

(١٩) ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ أشيروا النعمة وملؤا العافية كني إسرائيل فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتناولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الأزواد، فأجابهم الله بتخريب القرى المتوسطة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بعد، ويعقوب ربنا باعد بلفظ الخبر على أنه شكوى منهم ليغدر سفرهم إفراطاً في الترفه وعدم الاعتداد بما أنعم الله عليهم فيه، ومثله قراءة من قرأ ربنا بعد، أو بعد على النداء وإسناد الفعل إلى بين. ﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث بطروا النعمة ولم يعتدوا بها. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم تعجباً، وضرب مثل فيقولون: تفرقوا أيدي سبأ. ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ففرقناهم غاية التفريق حتى لحق غسان منهم بالشام، وأنماز بيثرب، وجزأهم بتهامة، والأزد بعمان. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر. ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي. ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه مثل فعلته جهداً، ويجوز أن يعدى الفعل إليه بنفسه كما في ﴿صَدَقَ وعده﴾. لأنه نوع من القول، وشدده الكوفيون بمعنى حقق ظنه أو وجده صادقاً. وقرى بنصب إبليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجد ظنه صادقاً، والتخفيف بمعنى قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم، وبرفعيهما والتخفيف على الأبدان وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهماكهم في الشهوات أو ببني آدم حين رأى أباهم النبي ضعيف العزم، أو ماركب فيهم من الشهوة والغضب، أو سمع من الملائكة قولهم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾^(١) فقال: ﴿وَلَا ضَلَّاهُمْ﴾^(٢) و﴿وَلَا غَوَيْنَهُمْ﴾^(٣). ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلا فريقاً هم المؤمنون لم

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) النساء: ١١٩.

(٣) الحجر: ٣٩.

يَتَّبِعُوهُ، وَتَقْلِيلُهُمْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْكُفَّارِ، أَوْ إِلَّا فَرِيقًا مِنْ فِرْقِ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ فِي الْعِصْيَانِ وَهُمْ الْمَخْلُصُونَ.

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقاً يترتب عليه الجزاء، أو ليمتيز المؤمن من الشاك، أو ليؤمن مَنْ قَدَّرَ إيمانه ويشك من قَدَّرَ ضلاله، والمراد من حصول العلم حصول متعلقة مبالغة وفي نظم الصَّلَتَيْنِ نكتة لا تخفى. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾ محافظ والزنتان متاحتان.

(٢٢) ﴿قُلِ﴾ للمشركين. ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي زعمتموهم آلهة، وهما مفعولا زعم حذف الأول لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته مقامه، ولا يجوز أن يكون هو مفعوله الثاني لأنه لا يلتزم مع الضمير كلاماً ولا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه. ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والمعنى ادعوه فيما يهتكم من جلب نفع أو دفع ضرر لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم، ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعني الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ في أمر ما، وذكرهما للعموم العزفي، أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام، أو لأن الأسباب القريبة للشر والخير سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ من شركة لا خلقاً ولا ملكاً. ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يعينه على تدبير أمرهما.

(٢٣) ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾ فلا ينفعهم شفاعة أيضاً كما يزعمون إذ لا تنفع الشفاعة عند الله. ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أذن له أن يشفع، أو أذن أن يشفع له لعل شأنه ولم يثبت ذلك، واللام على الأول كاللام في قولك: الكرم لزيد وعلى الثاني كاللام في قولك: جنتك لزيد. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بضم الهمزة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ غاية لمفهوم الكلام من أن ثم توقفاً وانتظاراً للإذن أي يترقبون فزعين حتى إذا كشف الفرغ عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بالإذن، وقيل الضمير للملائكة وقد تقدم ذكرهم ضمناً. وقرأ ابن عامر ويعقوب فرغ على البناء للفاعل. وقرئ فرغ أي نفى الوجل من فرغ الزاد إذا فني. ﴿قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض. ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة. ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ قالوا قال القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وهم المؤمنون، وقرئ بالرفع أي مقوله الحق. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي من الأنبياء أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه.

(٢٤) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يريد به تقرير قوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ إذ لا جواب سواه، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعموا في الجواب مخافة الإلزام فهم مقررون به

بقلوبهم. ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإنَّ أحدَ الفريقين من الموحِّدين المتوحِّدُ بالرزقِ والقدرةِ الذاتيةِ بالعبادة، والمُشركين به الجمادَ النازل في أدنى المراتبِ الإمكانيةِ لَعَلَّ أحدَ الأمرين من الهدى والضللالِ المبيِّنين، وهو بعدَ ما تقدَّم من التقريرِ البليغِ الدال على مَنْ هو على الهدى ومَنْ هو في الضلالِ أبلغُ من التصريحِ لأنه في صورةِ الإنصافِ المُسَكِّتِ للخُصْمِ المشاغِبِ، ونظيره قولُ حسان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفءٍ فَشَرُّكُمْ لِي خَيْرُكُمْ الْفِدَاءُ

وقيل إنه على اللَّفِّ والتَّشْرِ وفيه نظرٌ واختلافُ الحرفين لأنَّ الهادي كَمَنْ صعدَ مناراً ينظر الأشياءَ ويتطلَّعُ عليها أو ركبَ جواداً يركضُه حيثُ يشاء، والضالُّ كأنه منغمِسٌ في ظلامٍ مرتبكٍ لا يرى شيئاً أو محبوسٌ في مطمورةٍ لا يستطيعُ أن يتفصَّى منها.

قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٥) ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أَدْخَلَ في الإنصافِ وأبلغُ في الإخبارِ حيثُ أسندَ الإجماعَ إلى أنفسهم والعملَ إلى المخاطبين.

(٢٦) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامة. ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ يحكمُ ويفصلُ بأنَّ يُدْخَلَ المحقِّقِينَ الجنةَ والمبطلين النارَ. ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكمُ الفاضِلُ في القضايا المتغلقة. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يُفصَّى به.

(٢٧) ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ لأرى بأيِّ صفةٍ ألحقتهم بالله في استحقاقِ العبادة، وهو استفسارٌ عن شُبُهَتِهِمْ بعدَ إلزامِ الحجَّةِ عليهم زيادةً في تبكيَّتِهِمْ. ﴿كَلَّا﴾ ردُّ لهم عن المشاركة بعد إبطالِ المقايسة. ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الموصوفُ بالغلبةِ وكمالِ القدرةِ والحكمةِ، وهؤلاء الملحقون به متَّسمون بالدلَّةِ متأبِّيةٌ عن قبولِ العلمِ والقدرةِ رأساً، والضميرُ لله أو للشأنِ.

(٢٨) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالاً عامَةً لهم من الكفِّ فإنَّها إذا عمَّتْهم قد كَفَّتْهم أن يخرجَ منها أحدٌ منهم، أو إلا جامعاً لهم في الإبلاغِ فهي حال من الكافِ والتاء للمبالغةِ، ولا يجوزُ جعلُها حالاً من الناسِ على المختارِ. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملُهم جهلُهم على مخالفتِكَ.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فَرَطِ جَهْلِهِمْ. ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنونُ المبشِّرَ به والمنذَرَ عنه أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾^(١) ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يخاطبونُ به رسولَ الله ﷺ والمؤمنين.

قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْخُنْ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾

(٣٠) ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ وغدٌ يومٍ أو زمانٌ وغدٌ، وإضافته إلى اليوم للتبيين ويؤيده أنه قرىء يومٌ على البدل، وقرىء يومٌ بإضمار أعني. ﴿لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ﴾ إذا فاجأكم وهو جوابٌ تهديد جاء مطابقاً لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإنكار.

(٣١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا بما تقدمه من الكتب الدالة على النعت. قيل إن كَفَرًا مَكَّةَ سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون نفعه في كتبهم فغضبوا وقالوا ذلك، وقيل الذي بين يديه يوم القيامة. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في موضع المحاسبة. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ يتحاورون ويتراجعون القول. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ يقول الأتباع. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ للرؤساء. ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ﴾ لولا إضلالكم وصدكم إيانا عن الإيمان. ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتباع الرسول ﷺ.

(٣٢) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْخُنْ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ أنكروا أنهم كانوا صادقين لهم عن الإيمان وأثبتوا أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أعرضوا عن الهدى وآثروا التقليد عليه، ولذلك بنوا الإنكار على الاسم.

(٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إضرابٌ عن إضرابهم أي: لم يكن إجرامنا الصاد بل مكرهم لنا دائماً ليلاً ونهاراً حتى أغورثم علينا رأيينا. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ والعاطف يعطفه على كلامهم الأول، وإضافة المكر إلى الظرف على الاتساع. وقرىء مكر الليل بالنصب على المصدر، ومكر الليل بالتنوين ونصب الظرف، ومكر الليل من الكرور. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأضمر الفريقان الندامة على الضلال والإضلال وأخفاها كلٌ عن صاحبه مخافة التعبير، أو أظهرها فإنه من الأضداد إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب كما في أشكيتُهُ. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في أعناقهم فجاء بالظاهر تنويعاً بدمهم وإشعاراً بموجب أغلالهم. ﴿هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يفعل بهم ما يفعل إلا جزاء على أعمالهم، وتعدية يجزى إما لتضمين معنى يقضي أو بنزع الخافض.

(٣٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ تسليّة لرسول الله ﷺ مما مُني به من قومه،

وتخصيص المتنعمين بالكذب لأن الداعي المعظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ على مقابلة الجمع بالجمع.

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤٠﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكُلَا إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾

(٣٥) ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ فنحن أولى بما تدعونه إن أمكن. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ إما لأن العذاب لا يكون، أو لأنه أكرمنا بذلك فلا يهيننا بالعذاب.

(٣٦) ﴿قُلْ﴾ رداً لحسبانهم. ﴿إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولذلك يختلف فيه الأشخاص المتماثلة في الخصائص والصفات، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يوجبانه لم يكن بمشيئته. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة وكثيراً ما يكون للاستدراج كما قال:

(٣٧) ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ قرينة والتي إما لأن المراد وما جماعة أموالكم وأولادكم، أو لأنها صفة محذوف كالتقوى والخضلة. وقرىء بالذي أي بالشيء الذي يقربكم. ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استثناء من مفعول تقربكم، أي الأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربّه على الصلاح، أو من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف. ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ أن يجازوا الضعف إلى عشر فما فوقه، والإضافة إضافة المصدر إلى المفعول. وقرىء بالإعمال على الأضل، وعن يعقوب رفعهما على إبدال الضعف ونصب الجزاء على التمييز أو المصدر لفعله الذي دل عليه لهم. ﴿بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ من المكاري. وقرىء بفتح الراء وسكونها، وقرأ حمزة في الغرفة على إرادة الجنس.

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَتِنَا﴾ بالرد والطعن فيها. ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين لأنبيائنا أو ظائنين أنهم يفوتوننا. ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

(٣٩) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يوسع عليه تارة ويضيّق عليه أخرى، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرير. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ عوضاً إما عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإن غيره وسط في إيصال رزقه لا حقيقة لرازيته.

(٤٠) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المستكبرين والمستضعفين. ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكُلَا إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريباً للمشركين وتبكيتاً لهم وإقناطاً لهم عما يتوقعون من شفاعتهم، وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم، ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله. وقرأ حفص ويعقوب بالياء فيهما.

قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالِ يَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْنَئِنْ تَبَتُّ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَاءَ آيِنْتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آيِنْتُهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِيَوْمٍ وَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرْدِي ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أنت الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل كانوا يتمثلون لهم ويختلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم. ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ الضمير الأول للإنس أو للمشركين، والأكثر بمعنى الكل والثاني للجن.

(٤٢) ﴿قَالِ يَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذ الأمر فيه كله له لأن الدار دار جزاء وهو المجازي وخده. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطف على لا يملك مبين للمقصود من تمهيده.

(٤٣) ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْنَئِنْ تَبَتُّ قَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ فيستبعضكم بما يستبدعه. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون القرآن. ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ لعدم مطابقة ما فيه الواقع. ﴿مُفْتَرٍ﴾ بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ لأمر النبوة أو للإسلام أو للقرآن، والأول باعتبار معناه وهذا باعتبار لفظه وإعجازه. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ سحرته، وفي تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامتين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في لما من المبادأة إلى البت بهذا القول إنكارٌ عظيم له وتعجبٌ بليغ منه.

(٤٤) ﴿وَمَا آيِنْتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليل على صحة الإشراك. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه، وقد بان من قبل أن لا وجه له فمن أين وقع لهم هذه الشبهة، وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرايهم ثم هددهم فقال:

(٤٥) ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما كذبوا. ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آيِنْتُهُمْ﴾ وما بلغ هؤلاء عُشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغ أولئك عُشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى. ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحين كذبوا رُسُلِي جاءهم إنكارى بالتدمير فكيف كان نكيرى لهم فليحذر هؤلاء من مثله، ولا تكرير في كذب لأن الأول للتكثير والثاني للتكذيب، أو الأول مطلق والثاني مقيد ولذلك عطف عليه بالفاء.

(٤٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِيَوْمٍ وَاحِدَةٍ﴾ أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هي ما دل عليه: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ وهو القيام من مجلس رسول الله ﷺ، أو الانتصاب في الأمر خالصاً لوجه الله معرضاً عن

المراء والتقليد. ﴿مَتْنِي وَفَرَدَي﴾ متفرقين اثنين اثنين وواحدًا واحدًا، فَإِنَّ الازدحام يشوشُ الخاطر ويخلطُ القول. ﴿ثُمَّ تَنفَكُّوْا﴾ في أمرِ محمدٍ ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقته، ومحلُّه الجرُّ على البدل أو البيان أو الرفع أو النصب بإضمارِ هو أعني. ﴿مَا يَصْحَحِكُمْ مِّنْ حِجَّةٍ﴾ فتعلموا ما به من جنونٍ يحمله على ذلك، أو استئنافٌ مُنبِّهٌ لهم على أَنَّ ما عرفوا من رجاحة عقله كافٍ في ترجيح صدقه، فإنه لا يدعه أَنْ يتصدَّى لادعاء أمرٍ خطيرٍ وخطبٍ عظيمٍ من غير تحقُّقٍ ووثوقٍ ببرهانه، فيفتضح على رؤوسِ الأشهاد ويلقي نفسه إلى الهلاك، فكيف وقد انضمَّ إليه معجزاتٌ كثيرة. وقيل: ما استفهامية والمعنى: ثم تفكروا أي شيء به من آثارِ الجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قُدَّامُهُ لَأنَّهُ مبعوثٌ في نسيم الساعة.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي شيء سألتكم من أجرٍ على الرسالة. ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفْيُ السؤال عنه، كأن جعلَ النبيَّ مستلزمًا لأحدِ الأمرين إما الجنونُ وإما توقُّعُ نفعٍ دنيوي عليه، لأنه إما أَنْ يكونَ لغرضٍ أو لغيره وأياً ما كان يلزم أحدهما ثُمَّ نفَى كلاَ منهما. وقيل ما موصولةٌ مرادٌ بها ما سألهُم بقوله ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن سَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(١) وقوله ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٢) واتخاذُ السبيل ينفعهم وقرباهُ قُرْبَاهُمْ. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مَطْلَعٌ يعلمُ صدقي وخلوصَ نيتي، وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي بإسكان الباء.

(٤٨) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يلقيه وينزله على مَنْ يجتبيه من عباده، أو يرمي به الباطل فيدمغه أو يرمي به إلى أقطار الآفاق، فيكونُ وغداً بإظهار الإسلام وإفشائه. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بفتح الباء. ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ صفةٌ محمولةٌ على محلٍّ إِنَّ واسمها، أو بدلٌ من المستكنِّ في يقذفُ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ محذوفٌ. وقرئ بالنصبِ صفةٌ لربي أو مقدراً بأعني. وقرأ حمزة وأبو بكر الغيوبَ بالكسرِ كالبُيُوتِ، وبالضمِّ كالْعُشُورِ^(٣)، وقرئ بالفتح كالصُّبُورِ على أنه مبالغةٌ غائبٌ.

(٤٩) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلامُ. ﴿وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ وزهقَ الباطلُ أي الشركُ بحيثُ لم يبقَ له أثرٌ مأخوذٌ من هلاكِ الحيِّ، فإنه إذا هلكَ لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادةٌ قال:

أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِهِ عَيْدٌ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ^(٤)

وقيل الباطلُ إبليسُ أو الصنمُ، والمعنى لا ينشئُ خلقاً ولا يعيده، أو لا يبدي خيراً لأهله

(١) الفرقان: «٥٧».

(٢) الشورى: «٢٣».

(٣) قرأ ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي (الغُيوب) بكسر الغين، وقرأ الباقون بالضم (الغُيوب).

(٤) من مخلع البسيط.

ولا يعيده. وقيل ما استفهامية منتصبة بما بعدها.

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ
فَزَعُوا فَلَآ قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾
وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الحق. ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ فَإِنَّ وبال ضلالي عليها، لأنه بسببها إذ هي
الجاهلة بالذات والأمارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قابل الشرطية بقوله: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي﴾
فإنَّ الاهتداء بهديته وتوفيقه. ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه.

(٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فَزَعُوا﴾ عند الموت أو البعث أو يوم بذر، وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً
فظيحاً. ﴿فَلَآ قُوَّةَ﴾ فلا يفوتون الله بهرب أو تحصن. ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهر الأرض إلى
باطنها، أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بذر إلى القلب، والعطف على فزعوا، أو لا قوت،
ويؤيده أنه قرىء وأُخِذَ عطفاً على محلّه أي: فلا قوت هناك وهناك أُخِذَ.

(٥٢) ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مرّ ذكره في قوله ﴿مَا يَصَاحِبُكُمْ﴾^(١).
﴿وَءَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾ ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فإنه في حيز
التكليف وقد بُعد عنهم، وهو تمثيل لحالهم في الاستخلاص بالإيمان بعدما فات عنهم أوانه وبُعد
عنهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة. وقرأ أبو عمرو
والكوفيون غير حفصي بالهمز على قلب الواو لضمّتها.

أو أنه من ناشئ الشيء إذا طلبته قال رؤبة:

أَفَحَمَنِي جَارُ أَبِي الْجَامُوشِ إِلَيْكَ نَاشِ الْقَدَرِ التَّوْشِ

أو من ناشئ إذا تأخرت ومنه قوله:

تَمَنَّى نَشِيشاً أَنْ يَكُونَ أَطَاعَنِي وَقَدْ حَدَّثَتْ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورٌ^(٢)

فيكون بمعنى التناول من بُعد.

(٥٣) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام أو بالعذاب. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ذلك أوان
التكليف. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يُطهر لهم الرسول عليه الصلاة
والسلام من المطاعين؛ أو في العذاب من البث على نفيه. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ من جانب بعيد من أمره،
وهو الشبه التي تمحلوها في أمر الرسول ﷺ، أو حال الآخرة كما حكاها من قبل. ولعله تمثيل لحالهم
في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه. وقرىء وَيَقْذِفُونَ على

(١) سبأ: «٤٦».

(٢) من الطويل.

أَنَّ الشَّيْطَانَ يَلْقَى إِلَيْهِمْ وَيُلْقِنُهُمْ ذَلِكَ، وَالْعَطْفُ عَلَى وَقَدْ كَفَرُوا عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ أَوْ عَلَى قَالُوا فَيَكُونُ تَمْثِيلًا لِحَالِهِمْ بِحَالِ الْقَاضِيَةِ فِي تَحْصِيلِ مَا ضَيَّعُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا.

وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّزِيغٍ ﴿٥٤﴾

(٥٤) ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان والنجاة به من النار. وقرأ ابنُ عمرَ والكسائيُّ بإشمام الضمِّ للحاء. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ بأشباههم من كَفَرَةِ الْأُمَمِ الدَّارِجَةِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّزِيغٍ﴾ موقع في الريبة، أو ذي ريبة منقول من المشكِّك، أو الشكُّ نُعْتُ به الشكُّ للمبالغة. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَبَأٍ لَمْ يَبْقَ رَسُولٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفِيقًا وَمَصَافِحًا»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٣٨ رقم ٢٥٤) - وهو حديث موضوع. وانظر الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثُلُثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ
وَهُوَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

سورة الملائكة مكية^(١)، وآياتها خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما من الفطر بمعنى الشقّ كأنه شقّ العدم بإخراجهما منه، والإضافة محضة لأنه بمعنى الماضي. ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا﴾ وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده، يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه. ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثُلُثَ وَرُبْعٍ﴾ ذوي أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها نحو ما وكلهم الله عليه فيتصرفون فيه على أمرهم به، ولعله لم يُردّ به خصوصية الإعداد ونفي ما زال عليها، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح^(٢) ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ استئناف للدلالة على أنّ تفاوتهم في ذلك

(١) انظر «الدر المنثور» (٣/٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣/٦ رقم ٣٢٣٢) و(٨/٦١٠ رقم ٤٨٥٧) ومسلم (١/١٥٨ رقم ٢٨٠ - ٢٨٢) من حديث ابن مسعود، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».

ولفظ ابن حبان في صحيحه (٨/١١٤ - الإحسان): «رأيت جبريل عند سدة المنتهى وله ستمائة جناح ينشر في ريشه الدر والياقوت».

بمقتضى مشيئته ومؤدى حكمته لا أمر تستدعيه ذواتهم، لأنَّ اختلاف الأصناف، والأنواع بالخواص والفصول إن كان لذواتهم المشتركة لزم تنافي لوازم الأمور المتفقة وهو محال، والآية متناولة زيادات الصور والمعاني كملاحاة الوجه وحسن الصوت وحصافة العقل وسماحة النفس. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتخصيص بعض الأشياء بالتحصيل دون بعض، إنما هو من جهة الإرادة.

(٢) ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ما يُطْلَقُ لَهُمْ ويرسلُ وهو من تجوُّز السبب للمسبَّب. ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ كنعمة وأمن وصحة وعلم ونبوة^(١). ﴿فَلَا تُمَسِّكُ لَهُاَ﴾ يجبُّها. ﴿وَمَا يُمَسِّكُ فَلاَ تُرْسِلْ لَهُاَ﴾ يُطْلِقُهُ، واختلاف الضميرين لأنَّ الموصول الأول مفسر بالرحمة والثاني مطلق بتناولها والغضب، وفي ذلك إشعار بأنَّ رحمته سبقت غضبه. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يشاء ليس لأحد أن ينازعه فيه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان. ثم لما بين أنه الموجد للملك والملوك والمتصرف فيهما على الإطلاق أمر الناس بشكر إنعامه فقال:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ ۚ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۚ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ احفظوها بمعرفته حقها والاعتراف بها وطاعة مؤلَّيها، ثم أنكر أن يكون لغيره في ذلك مدخل فيستحق أن يشرك به بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ﴾ فمن أي وجه تُصَرِّفون عن التوحيد إلى إشراك غيره به، ورفع «غير» للحمل على محل من خالق بأنه وصف أو بدل، فإنَّ الاستفهام بمعنى النفي، أو لأنه فاعل خالق، وجره حمزة والكسائي حملاً على لفظه، وقد نُصِبَ على الاستثناء، ويرزقكم صفة لخالق أو استثناء مفسر له أو كلام مبتدأ، وعلى الأخير يكون إطلاق هل من خالق مانعاً من إطلاقه على غير الله.

(٤) ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي فتأس بهم في الصبر على تكذيبهم، فوضع فقد كذبت موضع استغناء بالسبب عن المسبب، وتنكير رسل للتعظيم المقتضي زيادة التسلية والحث على المصابرة. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالحرش والجزاء. ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلْفَ فيه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فيذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة والسعي لها. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان بأن يمتنعكم المغفرة مع الإصرار على المعصية، فإنها وإن أمكنت لكنَّ الذنب بهذا التوقع كتناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة. وقرئ بالضم وهو مصدر أو جمع كثعود^(٢).

(١) عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها مثلاً.

وتنكير (رحمة) للإشاعة والإيهام (س ١٤٢/٧).

(٢) وتكرير فعل النهي «لا تغرنكم، لا يغرنكم» للمبالغة فيه، واختلاف الغرورين في الكيفية (س ١٤٣/٧).

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّهُ بُخْلُ مَنْ يَشَاءُ مَنِ يَهْدِ مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

(٦) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة. ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذرٍ منه في مجاميع أحوالكم. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ تقريرٌ لعداوته وبيانٌ لغرضه في دعوةٍ شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى الدنيا.

(٧) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعيدٌ لمن أجاب دعاءه ووعدٌ لمن خالفه وقطعٌ للأمانى الفارغة، وبناءٌ للأمر كله على الإيمان والعمل الصالح وقوله.

(٨) ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ تقريرٌ له أي أفمن زُيِّنَ له سوء عمله بأن غلبَ وهمُه وهواه على عقله حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقاً والقيح حسناً، كمن لم يُزَيَّنْ له بل وُقِّقَ حتى عرف الحق واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه، فحذف الجواب لدلالة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقيل تقديره أفمن زُيِّنَ له سوء عمله ذهب نفسك عليهم حسرة، فحذف الجواب لدلالة: ﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ عليه ومعناه فلا تُهلك نفسك عليهم للحسراتِ على غيهم وإصرارهم على التكذيب، والفاآت الثلاث للسببية غير أنَّ الأوليين دخلتا على السبب والثالثة دخلت على المسبب، وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف اغتمامه على أحوالهم أو كثرة مساوي أفعالهم المقتضية للتأسف، وعليهم ليس صلة لها لأنَّ صلة المصدر لا تتقدّمه بل صلة تذهب أو بيانٌ للمتحرّر عليه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

(٩) ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح. ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ عل حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة، ولأن المراد بيان أحداثها بهذه الخاصية ولذلك أسنده إليها، ويجوز أن يكون اختلاف الأفعال للدلالة على استمرار الأمر. ﴿فَسُقْنَتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بالتشديد. ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره، أو بالسحاب فإنه سبب السبب أو الصائر مطراً. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد بُيْسها، والعدول فيهما من الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص لما فيهما من مزيد الصنع. ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي مثل إحياء المواتِ نشورُ الأمواتِ في صحّة المقدورية، إذ ليس بينهما إلا احتمال اختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا مدخل له فيها. وقيل في كيفية الإحياء فإنه تعالى يرسل ماءً من تحت العرش تنبث منه أجسادُ الخلق.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الشرف والمنعة. ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فليطلبها من عنده فإن له كلها، فاستغنى بالدليل عن المدلول. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ بيان لما يُطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح، وصعودهما إليه مجاز عن قبوله إياهما، أو صعود الكُتُب بصحيفتهما. والمستكر في يرفعه للكلم فإن العمل لا يُقبل إلا بالتوحيد ويؤيده أنه نصب العمل، أو للعمل فإنه يحقق الإيمان ويقويه، أو لله وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة. وقرئ يُصعد على البناءين والمُصعد هو الله تعالى أو المتكلم به أو الملك. وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن. وعنه عليه الصلاة والسلام «هو سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم تُقبل»^(١). ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ المكرات السيئات يعني مكرات قريش للنبي عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وتداولهم الرأي في إحدى ثلاث حنسه وقيله وإجلاله. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يؤبه دونه بما يمكرون به. ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾ يفسد ولا ينفذ لأن الأمور مقدرة لا تتغير به كما دل عليه بقوله:

(١١) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ بخلق آدم عليه السلام منه. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ بخلق ذريته منها. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكرانا وإناثا. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا معلومة له. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ وما يمد في عمر من مصيره إلى الكبر. ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ من عمر المعمر لغيره بأن يُعطى له عمر ناقص من عمره، أو لا ينقص من عمر المنقوص عمره بجعله ناقصاً، والضمير له وإن لم يُذكر لدلالة مقابله عليه أو للعمر على التسامح فيه ثقة بفهم السامع كقولهم: لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق. وقيل الزيادة والنقصان في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبت في اللوح مثل: أن يكون فيه إن حج عمره فعمره ستون سنة وإلا فأربعون. وقيل المراد بالنقصان ما يمر من عمره وينقضي فإنه يُكتب في صحيفة عمره يوماً فيوماً، وعن يعقوب ولا ينقص على البناء للفاعل. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ هو علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ أو الصحيفة. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارة إلى الحفظ أو الزيادة أو النقص.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافى» (ص ١٣٨ رقم ٢٦٠): «أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية علي بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً.

ورواه الحاكم - (٤٢٥/٢) - والبيهقي في الأسماء، والطبري - في «جامع البيان» (١٢/ج ٢٢/١٢٠) - مرفوعاً عن ابن مسعود رضي الله عنه هـ.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِنَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾
يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضَرْبٌ مِثْلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْفُرَاتُ الَّذِي يَكْسِرُ الْعَطَشَ وَالسَائِغُ الَّذِي يَسْهُلُ انْحِدَارُهُ، وَالْأُجَاجُ الَّذِي يَحْرَقُ بِمِلْحِهِ. وَقُرِئَ سَيِّغٌ بِالتَّشْدِيدِ، وَسَيِّغٌ بِالتَّخْفِيفِ، وَمِلْحٌ عَلَى فِعْلٍ. ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ اسْتَطْرَافٌ فِي صِفَةِ الْبَحْرَيْنِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ النِّعَمِ، أَوْ تَمَامُ التَّمَثِيلِ وَالْمَعْنَى: كَمَا أَنَّهُمَا وَإِنْ اشْتَرَكَا فِي بَعْضِ الْفَوَائِدِ لَا يَتَسَاوَيَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمَا لَا يَتَسَاوَيَانِ فِيمَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنَّهُ خَالَطَ أَحَدُهُمَا مَا أَفْسَدَهُ وَغَيَّرَهُ عَنْ كَمَالِ فِطْرَتِهِ، لَا يَتَسَاوَى الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَإِنْ اتَّفَقَ اشْتِرَاكُهُمَا فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاوَةِ لِاخْتِلَافِهِمَا فِيمَا هُوَ الْخَاصِيَّةُ الْعَظْمَى وَهِيَ بَقَاءُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْفِطْرَةِ الْأَصْلِيَّةِ دُونَ الْآخَرِ، أَوْ تَفْضِيلُ الْأُجَاجِ عَلَى الْكَافِرِ بِمَا يَشَارِكُ فِيهِ الْعَذَبُ مِنَ الْمَنَافِعِ. وَالْمُرَادُ بِالْحِلْيَةِ اللَّالِيَّةِ وَالْيَوَاقِيتِ. ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ﴾ فِي كُلِّ. ﴿مَوَازِيرَ﴾ تَشَقُّ الْمَاءِ بِجَزْيَتِهَا. ﴿لِنَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بِالنَّقْلَةِ فِيهَا، وَاللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَوَازِيرَ، وَيَجُوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْأَفْعَالُ الْمَذْكُورَةُ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عَلَى ذَلِكَ، وَحَرْفُ التَّجَرُّيِّ بِاعْتِبَارِ مَا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْحَالِ.

(١٣) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هِيَ مَدَّةُ دَوْرِهِ أَوْ مَتْنَاهُ أَوْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ الْإِشَارَةُ إِلَى الْفَاعِلِ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَفِيهَا إِشْعَارٌ بِأَنَّ فَاعِلِيَّتَهُ لَهَا مَوْجِبَةٌ لِثُبُوتِ الْأَخْبَارِ الْمُرَادِفَةِ، وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمُلْكُ كَلَامًا مُبْتَدَأً فِي قُرْآنٍ. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَفَرُّدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَالرَّبُّوبِيَّةِ، وَالْفِطْمِيرُ لِفَاقَةُ النَّوَاةِ.

(١٤) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ لِأَنَّهُمْ جَمَادٌ ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ. ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْإِنْفَاعِ، أَوْ لِتَبَرُّئِهِمْ مِنْكُمْ مِمَّا تَدْعُونَ لَهُمْ. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ﴾ بِإِشْرَاكَكُمْ لَهُمْ يَقْرُونَ بِطُلَانِهِ أَوْ يَقُولُونَ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وَلَا يَخْبَرُكَ بِالْأَمْرِ مَخْبِرٌ مِثْلُ خَبِيرٍ بِهِ أَخْبَرَكَ وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ الْخَبِيرُ بِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ دُونَ سَائِرِ الْمَخْبِيرِينَ. وَالْمُرَادُ تَحْقِيقُ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ حَالِ آلِهَتِهِمْ وَنَفْيِ مَا يَدْعُونَ لَهُمْ.

(١٥) ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ فِي أَنْفُسِكُمْ وَمَا يَعْنِي لَكُمْ، وَتَعْرِيفُ الْفُقَرَاءِ لِلْمَبَالِغَةِ فِي فَقْرِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَشَدَّةِ افْتِقَارِهِمْ وَكَثْرَةِ احتياجهم هم الْفُقَرَاءُ، وَأَنَّ افْتِقَارَ سَائِرِ الْخَلَائِقِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى فَقْرِهِمْ

غير معتد به ولذلك قال ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾^(١). ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات حتى استحق عليهم الحمد.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقوم آخرين أطوع منكم، أو بعالم آخر غير ما تعرفونه.

(١٧) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر أو متعسر.

(١٨) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس أئمة إنهم نفس أخرى، وأما قوله ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾^(٢) ففي الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، وكل ذلك أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم. ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ نفس أثقلها الأوزار. ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ تحمل بعض أوزارها. ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تُجب لحمل شيء منه نفى أن يُحمل عنها ذنبها كما نفى أن يُحمل عليها ذنب غيرها. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المدعو ذا قرابتها، فاضمر المدعو لدلالة إن تدع عليه. وقرىء ذو قربي على حذف الخبر وهو أولى من جعل كأن التامة فإنها لا تلائم نظم الكلام. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلواتهم، أو غائباً عنهم عذابه. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فإنهم المنتفعون بالإنذار لا غير، واختلاف الفعلين لما مر من الاستمرار. ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ﴾ ومن تطهر من دنس المعاصي. ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفعه لها، وقرىء ومن أزكى فإنما يزكى وهو اعتراض مؤكد لخشيته وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازيهم على تزكيهم.

(١٩) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الكافر والمؤمن، وقيل هما مثلاً للصنم والله عز وجل.

(٢٠) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ولا الباطل ولا الحق.

(٢١) ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ولا الثواب ولا العقاب، ولا لتأكيد نفى الاستواء، وتكريرها على الشقين لمزيد التأكيد. والحرور فعول من الحر غلب على السموم. وقيل السموم ما يهبط نهاراً والحرور ما تهب ليلاً.

(٢٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر

(١) النساء: (٢٨).

(٢) العنكبوت: (١٣).

الفعل. وقيل للعلماء والجهلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته فيوقفه لفهم آياته والاعتاظ بعظاته. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ومبالغة في إقناطه عنهم.

إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليك إلا الإنذار وأما الإسماع فلا إليك ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم.

(٢٤) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ محققين أو محققاً، أو إرسالاً مصحوباً بالحق، ويجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً بالوعيد الحق ونذيراً بالوعيد الحق. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أهل عصر. ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى. ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من نبي أو عالم يُنذِر عنه، والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة سيما وقد قرّن به من قبل، أو لأنّ الإنذار هو الأهم المقصود من البعثة.

(٢٥) ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الشاهدة على نبوتهم. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ كصُحف إبراهيم عليه السلام. ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ كالنوراة والإنجيل على إرادة التفصيل دون الجمع، ويجوز أن يراد بهما واحد، والعطف لتغاير الوصفين.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكار بالعقوبة.

(٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أجناسها وأصنافها على أنّ كلّ منها ذو أصنافٍ مختلفة، أو هيئاتها من الصفرة والخضرة ونحوهما. ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ أي ذو جدٍ أي خُططٍ وطرائق يُقال جدّة الحمار للخطّة السوداء على ظهره. وقرىء جُدَدٌ بالضم جمعٌ جديدة بمعنى الجدة، وجَدَدٌ بفتحين وهو الطريق الواضح. ﴿بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ بالشدة والضعف. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على بيضٍ أو على جُدَدٍ كأنه قيل: ومن الجبال ذو جدٍ مختلفة اللون ومنها غرابيب متحدة اللون، وهو تأكيدٌ مضمّرٌ يفسره ما بعده فإنّ الغريب تأكيدٌ للأسود ومن حقّ التأكيد أن يتبع المؤكّد، ونظير ذلك في الصفة قول النابغة:

وَالْمُؤْمِنُ الْعَائِذَاتُ الطَّيْرُ يَمْسَحُهَا^(١)

وفي مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرير باعتبار الإضمار والإظهار.

وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ﴾ كاختلاف الثمار والجبال. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إذ شرطُ الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فَمَنْ كَانَ أَعْلَمَ بِهِ كَانَ أَخْشَى مِنْهُ وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «إِنِّي أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَّقَاكُمْ لَهُ»^(١) ولذلك أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ أَعْمَالِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ حَصْرُ الْفَاعِلِيَّةِ وَلَوْ أُخِّرَ انْعَكَسَ الْأَمْرُ. وَقَرَأَ بِرَفْعِ اسْمِ اللَّهِ وَنَضَبِ الْعِلْمَاءِ عَلَى أَنَّ الْخَشْيَةَ مُسْتَعَارَةٌ لِلتَّعْظِيمِ، فَإِنَّ الْمَعْظَمَ يَكُونُ مَهْنِيًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقبٌ للمصير على طغيانه غفورٌ للتائب عن عضيانه.

(٢٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يداومون على قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمةً لهم وعنواناً، والمراد بكتاب الله القرآن أو جنسٌ كُتِبَ الله فيكون ثناءً على المصدقين من الأمر بعد اقتصاص حال المكذبين. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيف اتفق من غير قصد إليهما. وقيل السرُّ في المسنونة والعلانية في المفروضة. ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ تحصيل ثواب الطاعة وهو خبرٌ إنَّ. ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لَن تَكْسُدَ وَلَن تَهْلِكَ بِالْخُسْرَانِ صفةٌ للتجارة وقوله:

(٣٠) ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ علةٌ لمدلوله أي ينتفي عنها الكساد وتنقُ عند الله ليوقيهم بنفاقها أجور أعمالهم، أو لمدلول ما عدَّ من امتثالهم نحو فعلوا ذلك ليوقيهم أو عاقبة ليرجون. ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ على ما يقابل أعمالهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لفرطاتهم. ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم أي مجازيهم عليها، وهو علةٌ للتوفية والزيادة أو خبرٌ إنَّ ويرجون حالاً مِنْ وَاوْ وَأَنفَقُوا.

(٣١) ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن وَمِنَ اللَّتَبِينَ أَوِ الْجِنْسِ وَمِنَ اللَّتَبِيعِضِ. ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أحقه مصدقاً لما تقدّمه من الكتب السماوية حالٌ مؤكدةٌ لِأَنَّ حَقِّيَّتَهُ تَسْتَلْزِمُ مُوَافَقَتَهُ إِيَّاهُ فِي الْعَقَائِدِ وَأَصُولِ الْأَحْكَامِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بالبواطن والظواهر فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيارٌ على سائر الكتب، وتقديم الخبر للدلالة على أَنَّ الْعُمْدَةَ فِي ذَلِكَ الْأُمُورُ الرُّوحَانِيَّةُ.

(٣٢) ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ حَكَمْنَا بِتَوْرِيثِهِ مِنْكَ أَوْ نَوْرَثُهُ فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْمَاضِي لِتَحْقُيقِهِ، أَوْ أَوْرَثْنَاهُ مِنْ

(١) وهو جزء من حديث أخرجه البخاري (١٠٤/٩ رقم ٥٠٦٣) ومسلم (١٢٩/٤ - الآفاق الجديدة). من حديث أنس.

الأمم السالفة، والعطفُ على إَنَّ الذين يتلون والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ اعتراضٌ لبيان كيفية التوريت. ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني علماء الأمة من الصحابة وَمَنْ بعدهم، أو الأمة بأسرهم فَإِنَّ اللَّهَ اضْطَفَّاهُمْ على سائر الأمم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به. ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ يعملُ به في غالب الأوقات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ بضمّ التعليم، والإرشاد إلى العمل، وقيل الظالمُ الجاهل والمقتصدُ المتعلّم والسابقُ العالم. وقيل الظالمُ المجرم والمقتصدُ للذي خلطَ الصالحَ بالسيء، والسابقُ الذي ترجّحت حسناته بحيثُ صارت سيئاته مكفّرة، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنةَ يرزقون فيها بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يُخَسَّبُونَ في طولِ المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته»^(١) وقيل الظالمُ الكافر على أَنَّ الضميرَ للعباد، وتقديمه لكثرة الظالمين ولأنَّ الظلمَ بمعنى الجهل والركون إلى الهوى مقتضى الجبلة. والاقتصادُ والسبقُ عارضان. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى التوريت أو الاصطفاء أو السبق.

جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۚ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۚ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۚ

(٣٣) ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأ وخبرٌ والضميرُ للثلاثة أو للذين أو للمقتصد والسابق، فإنَّ المرادَ بهما الجنس، وقرئ جنةً عدن، وجناتِ عدنٍ منصوبٌ بفعلٍ يفسره الظاهر، وقرأ أبو عمرو يُدْخِلُونَهَا على البناء للمفعول. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مقدّرة، وقرئ يَدْخُلُونَ من حَلَّتِ المرأةُ فهي حالية. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ مِنَ الأولى للتبعض، والثانية للتبيين. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على ذهبٍ أي من ذهبٍ مرصّع باللؤلؤ، أو من ذهبٍ في صفاء اللؤلؤ ونَصَبُهُ نافع وعاصمٌ رحمهما الله تعالى عطفاً على محلٍّ مِنْ أَسَاوِرَ. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

(٣٤) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ همهم من خوفِ العاقبة، أو همهم من أجلِ المعاشِ وآفاته، أو من وسوسةِ إبليسَ وغيرها، وقرئ الحُزْنَ. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين. ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

(٣٥) ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دارُ الإقامة. ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من إنعامه وتفضله أذ لا واجبَ عليه. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلا إذ لا تكليفَ فيها ولا كدًا، أتبعَ نفْيَ النَّصَبِ نفْيَ ما يتبعه مبالغة.

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩٤/٥، ١٩٨) و(٤٤٤/٦) من حديث أبي الدرداء، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩٥/٧) وقال: «رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح وهي هذه إن كان علي بن عبد الله الأزدي سمع من أبي الدرداء فإنه تابعي» هـ.

وله شاهد من حديث عوف بن مالك، أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩/١٨ - ٨٠) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩٦/٧) وقال: وفيه سلامة بن روح وثقة ابن حبان وضعفه جماعة وبقيّة رجاله ثقات.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحْكَمُ عليهم بموتٍ ثانٍ. ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا، ونُصِبُهُ بإضمار أن، وقرئ فيموتون عطفاً على يُقْضَى كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ﴾^(١). ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلما خبت زبدت إسماعها. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء. ﴿نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ مبالغ في الكفر أو الكفران. وقرأ أبو عمرو يُجْزَى على بناء المفعول وإسناده إلى كل، وقرئ يجازى.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون يفتعلون من الصُّرَاخ وهو الصياح استُعْمِلَ في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته. ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول. وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحرُّر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح والآن تحقق لهم خلافه. ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ جواب من الله وتوبيخ لهم وما يتذكَّر في متناول كلِّ عُمُرٍ يمكن المكلف فيه من التفكُّر والتذكُّر، وقيل ما بين العشرين إلى الستين. وعنه عليه الصلاة والسلام «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة»^(٢). والعطف على معنى أولم نعمركم فإنه للتقرير كأنه قال: عمركم وجاءكم النذير وهو النبي ﷺ أو الكتاب، وقيل العقل أو الشيب أو موت الأقارب. ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عنهم.

(٣٨) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه خافية فلا يخفى عليه أحوالهم. ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل له لأنه إذا عَلِمَ مضمرة الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلمَ بغيرها.

(٣٩) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ مُلقًى إليكم مقاليد التصرف فيها، وقيل خلفاً بعد خلف جمع خليفة والخلفاء جمع خليفة. ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ جزاء كفره. ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيان له، والتكرير للدلالة على عن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء فُجْبه ووجوب التجنب عنه، والمراد بالمقن بالبغيض مقت الله وبالخسار خسار الآخرة.

(١) المرسلات: «٣٦».

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٨/١١) رقم ٦٤١٩ من حديث أبي هريرة.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني آلهتهم والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء الله أو لأنفسهم فيما يملكونه. ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بدل من أرايتكم بدل الاشتمال لأنه بمعنى أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء أروني أي جزء من الأرض استبدؤا بخلقه. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم لهم شركة مع الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك شركة في الألوهية ذاتية. ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ ينطق على أنا اتخذناهم شركاء. ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ على حجة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية، ويجوز أن يكون هم للمشركين كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾^(١) وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والكسائي «على بَيِّنَاتٍ» فيكون إيماء إلى أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل. ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لما نفى أنواع الحجج في ذلك أضرب عنه يذكر ما حملهم عليه وهو تغريز الأسلاف الأخلاف، أو الرؤساء الأتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه.

(٤١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ كراهة أن تزولا فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ، أو يمتنهما أن تزولا لأن الإمساك منع. ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ ما أمسكهما. ﴿مِّنْ بَعْدِي﴾ من بعد الله أو من بعد الزوال، والجملة ساذجة مسددة الجوابين ومن الأولى زائدة والثانية للابتداء. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهذا هَذَا كما قال تعالى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾^(٢).

(٤٢) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ وذلك أن قريشاً لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى لو أننا رسول لنكوننَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ، أي من واحدة من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم، أو من الأمة التي يُقال فيها هي إِحْدَى الْأُمَمِ تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي النذير أو مجيئه على التسبب. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعداً عن الحق.

(٤٣) ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بدل من نفوراً أو مفعول له. ﴿وَمَكْرُ السَّيِّئِ﴾ أصله وإن مكروا المكر

(١) الروم: (٣٥).

(٢) مريم: (٩٠).

السيء فحذف الموصوف استغناءً بوضفه ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر ثم أضيف. وقرأ حمزة وحده بسكون الهمزة في الوصل^(١). ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ولا يحيط. ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهو الماكر وقد حاق بهم يوم بذر. وقرىء ولا يحيق المكر أي ولا يحيق الله. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ إذ لا يبدلها بجعله غير التعذيب تعذيباً ولا يحولها بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم، وقوله:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

(٤٤) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ استشهاد علم بما يشاهدونه في مسائرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين. ﴿وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليسبقه ويفوته. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ بالأمور كلها. ﴿قَدِيرًا﴾ عليها.

(٤٥) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي. ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ ظهر الأرض. ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من نَسَمَةٍ تدب عليها بشؤم معاصيهم، وقيل المراد بالدابة الإنسان وخذه لقوله: ﴿وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم على أعمالهم. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمَلَائِكَةِ دَعَنَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أَيِّ بَابٍ شِئَتْ»^(٢).

☆ ☆ ☆

(١) أي قرأ حمزة بسكون همزة «السيء».

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه - كما في «الكافي الشاف» (ص ٣٩ رقم ٢٧٤) -.

سُورَةُ يَسٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسَ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾
لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي
أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

سورة يس مكية^(١)

وعنه عليه الصلاة والسلام: «يس تُدعى المعِمةُ تعمُ صاحبها خير الدارين
والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة»^(٢) وأيها ثلاث وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يس﴾ كآلم في المعنى والإعراب. وقيل معناه يا إنسان بلغه طيء على أن أضله يا أنيسين
فاقتصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل من الله في أيمن. وقرئ بالكسر كجبر، وبالفتح على البناء

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة يس بمكة. وأخرج
ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة يس بمكة. [الدر المنثور (٣٧/٧)].

(٢) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص ١٠٠ رقم ٢١٦) من حديث أبي بكر، وكذلك أخرجه البيهقي في
«الشعب» (٢/٤٨٠ رقم ٢٤٦٥) وقال البيهقي: «تفرد به محمد بن عبد الرحمن هذا عن سليمان وهو منكر.
وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/٢٤٧) وقال: قال النسائي: محمد بن الرحمن الجدعاني متروك
الحديث.

وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/٢٨٩): «الجدعاني لم يتهم بكذب بل وثق فقال فيه أحمد وأبو زرعة
لا بأس به فغاية حديثه أن يكون ضعيفاً». والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

كَأَيِّنْ. أو الإعرابُ على اتلُ يس أو بإضمارِ حرفِ القسم، والفتحةُ لمنع الصرفِ، وبالضمِّ^(١) بناءً كحيثُ أو إعراباً على هذه يس. وأمالَ الياءَ حمزةُ والكسائيُّ وروحٌ وأبو بكرٌ، وأدغمَ النونَ في واوٍ.

(٢) ﴿وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ﴾ ابنُ عامرٍ والكسائيُّ وأبو بكرٌ وورشٌ ويعقوبٌ، وهي واوُ القسمِ أو العطفِ إن جُعِلَ يس مُقسماً به.

(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لَمِنَ الذين أُرْسِلُوا.

(٤) ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيدُ والاستقامةُ في الأمور، ويجوزُ أن يكونَ على صراطٍ خبراً ثانياً أو حالاً من المستكينِ في الجارِّ والمجرور، وفائدتهُ وصفُ الشرعِ صريحاً بالاستقامةِ وإن دُلَّ عليه لمن المرسلين التزاماً.

(٥) ﴿تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ﴾ خبرٌ محذوفٌ والمصدرُ بمعنى المفعولِ. وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالنصبِ بإضمارِ أعني أو فَعَلَهُ على أنه على أضله، وقرىء بالجرِّ على البدلِ مِنَ الْقُرْآنِ^(٢).

(٦) ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بتنزيلِ أو بمعنى لمن المرسلين. ﴿مَا أَنْذَرْنَا آبَاؤَهُمْ﴾ قوماً غيرَ مُنْذَرِ آبَاؤُهُمْ يعني آبَاءَهُم الأقربينَ لتطاوُلِ مدَّةِ الفترة، فيكونُ صفةً مبيِّنةً لشدةِ حاجتهم إلى إرساله، أو الذي أنذِرَ به أو شيئاً أنذِرَ به آبَاؤُهُم الأبعدون، فيكونُ مفعولاً ثانياً لِتُنْذِرَ، أو إنذارُ آبائهم على المصدر. ﴿فَهُمْ غَفِلُونَ﴾ متعلِّقٌ بالنفي على الأولِ أي لم يُنْذِرُوا فَبَقُوا غافلين، أو بقوله إنك لمن المرسلين على الوجوه الأخرى أي أرسلناك إليهم لتنذِرهم فإنهم غافلون.

(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٣). ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم ممَّنَ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ تقريرٌ لِتَضْمِينِهِمْ على الكفرِ، والطبعُ على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآياتُ والتُّنْذِرُ، بتمثيلهم بالذين غُلَّتْ أعناقهم. ﴿فَهِيَ إِلَى آَذَانٍ﴾ فالأغْلَالُ واصلَةٌ إلى آذَانِهِمْ فلا تخلِيهم يُطَاطُونُ رؤوسهم له. ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم في أَنَّهُمْ لا يلتفتون لَفَتِ الْحَقُّ ولا يعطفون أعناقهم نَحْوَهُ ولا يُطَاطُونُ رؤوسهم له.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وبمن أحاطَ بهم سدَّانِ فغَطَّى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظرِ في الآياتِ والدلائلِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ سَدًّا بالفتح وهو لغةٌ فيه، وقيل ما كان بفعلِ الناسِ فبالفتح وما كان بخلقِ الله فبالضمِّ. وقرىء فَأَعْشَيْنَاهُمْ من العشاء. وقيل الآيتانِ في بني مخزوم، خَلَفَ أبو جهل أن يرضخَ رأسَ النبي ﷺ فأتاه وهو يصلي ومعه حجرٌ ليدمغه، فلما رفعَ يده انشئت إلى عُنُقِهِ ولزقَ الحجرُ بيده حتى فكَّوه عنها بجُهدٍ، فرجع إلى قومه فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله

(١) أي وقرىء بالضم.

(٢) وفي تخصيصِ الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرافة العامة حتَّى على الإيمان به ترهيباً وترغيباً، وإشعاراً بأن تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة (س ١٥٩/٧).

(٣) هود: «١١٩».

بهذا الحجر فذهب فأغمى الله بصره^(١).

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سبق في سورة البقرة تفسيره.

(١١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتب عليه البغية المرومة. ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به. ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ وخاف عقابه قبل حلوله ومعانيه أهواله، أو في سريره ولا يغتر برحمته فإنه كما هو رحمن منتقم قهار. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

(١٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الأموات بالبعث أو الجهال بالهداية. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة. ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ الحسنة كعلم علموه وحيس وقفوه، والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ.

(١٣) ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ ومثل لهم من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أي مثال واحد، وهو يتعدى إلى مفعولين لتضمنه معنى الجغل وهما: ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ على حذف مضاف أي اجعل لهم مثل أصحاب القرية مثلاً، ويجوز أن يقتصر على واحد ويجعل المقدّر بدلاً من الملفوظ أو بياناً له، والقرية أنطاكية. ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بدل من أصحاب القرية، والمرسلون رسل عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أهلها وإضافته إلى نفسه في قوله:

(١٤) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ لأنه فعل رسوله وخليفته وهما يحيى ويونس، وقيل غيرهما. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ فقوينا، وقرأ أبو بكر مخففاً من عزه إذا غلبه. وحذف المفعول للدلالة ما قبله عليه، ولأن المقصود ذكر المعزز به. ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون. ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا حبيباً النجار يرعى غنماً فسألهما فأخبراه فقال: أمعكما آية فقالا: نشفي المريض ونبرى الأكمة والأبرص، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرأ فآمن حبيب وفشا الخير، فشفي على أيديهما خلق كثير وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما: ألنا إله سوى إلهيتنا؟ قالوا: نعم من أوجدك وإلهتك، قال: حتى أنظر في أمركما

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج ٢٢/١٥٢) عن عكرمة.

وقال الحافظ في «الكافي الشافى» (ص ١٣٩ - ١٤٠ رقم ٢٧٥) «أخرجه ابن إسحاق في السيرة في كلام طويل، ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن محمد بن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس «أن أبا جهل، قال: إني أعاهد الله لأجلس غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه. فذكر نحوه إلى قوله قد يبست يده على حجره، حتى قذف الحجر بين يديه. وأصله في البخاري - (٨/٧٢٤) رقم ٤٩٥٨ - من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه».

فَحَبَسَهُمَا، ثُمَّ بَعَثَ عِيسَى شَمْعُونَ فَدَخَلَ مَتَنَكَّرًا وَعَاشَرَ أَصْحَابَ الْمَلِكِ حَتَّى اسْتَأْنَسُوا بِهِ وَأَوْصَلُوهُ إِلَى الْمَلِكِ فَأَنْسَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ يَوْمًا: سَمِعْتُ أَنَّكَ حَبَسْتَ رَجُلَيْنِ فَهَلْ سَمِعْتَ مَا يَقُولَانِهِ، قَالَ فَدَعَاَهُمَا فَقَالَ شَمْعُونَ مَنْ أَرْسَلَكُمَا قَالَا: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، فَقَالَ صِفَاؤُهُ وَأَوْجِزَا، قَالَا: يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ، قَالَ وَمَا آيَتُكُمَا، قَالَا: مَا يَتَمَنَّى الْمَلِكُ، فَدَعَا بَغْلَامَ مَطْمُوسَ الْعَيْنَيْنِ فَدَعَاوَا اللَّهَ حَتَّى انشَقَّ لَهُ بَصَرُهُ، وَأَخَذَا بُنْدُقَتَيْنِ فَوَضَعَاَهُمَا فِي حَدَقَتَيْهِ فَصَارَتَا مُقْلَتَيْنِ يَنْظُرُ بِهِمَا، فَقَالَ شَمْعُونَ أَرَأَيْتَ لَوْ سَأَلْتَ آلِهَتَكَ حَتَّى تَصْنَعَ مِثْلَ هَذَا حَتَّى يَكُونَ لَكَ وَلَهَا الشَّرَفُ، قَالَ لَيْسَ لِي عَنْكَ سِرٌّ آلِهَتُنَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تَبْصُرُ وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ قَدَرَ إِلَهُكُمَا عَلَى إِحْيَاءِ مَيِّتٍ أَمَّا بِهِ، فَأَتَوْا بَغْلَامَ مَاتَ مِنْذُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ فَدَعَاوَا اللَّهَ فَقَامَ وَقَالَ: إِنِّي أَذْخِلْتُ فِي سَبْعَةِ أَوْدِيَةٍ مِنَ النَّارِ وَأَنَا أَحْذَرُكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَأَمِينُوا، وَقَالَ فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَرَأَيْتُ شَابًا حَسَنًا يَشْفَعُ لِهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ فَقَالَ الْمَلِكُ مَنْ هُمْ قَالَ شَمْعُونَ وَهَذَانِ فَلَمَّا رَأَى شَمْعُونَ أَنَّ قَوْلَهُ قَدْ أَثَّرَ فِيهِ نَصَحَهُ فَأَمَنَ فِي جَمْعٍ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ صَاحَ عَلَيْهِمْ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهَلَكُوا.

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَٰهُكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ لا مزية لكم علينا تقتضي اختصاصكم بما تدَّعون، ورفَّع بشرٍ لانتقاض النفي المقتضي إعمال ما بالآل. ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وحي ورسالة. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة.

(١٦) ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَٰهُكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم، وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته، وهو المحسن للاستشهاد فإنه لا يحسن إلا ببيّنة.

(١٨) ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وذلك لاستغرابهم ما ادَّعَوْهُ واستقباحهم له وتنفرهم عنه. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن مخالفتكم هذه. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٩) ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ سبب شؤمكم معكم وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم، وقرئ طيركم معكم. ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ وعظمتكم، وجواب الشرط محذوف مثل تطيّرتم أو توعّدتم بالرجم والتعذيب. وقد قرئ بالف بين الهمزتين، وبفتح أن بمعنى أنطيرتم لأن ذُكرتم، وأن بغير الاستفهام وأين ذُكرتم بمعنى طائرُكم معكم حيث جرى ذُكرُكم وهو أبلغ. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قوم عادتكم الإسراف في العصيان فمن جاءكم الشؤم، أو في الضلال ولذلك توعّدتم وتشاءمتم بمن يجب أن يُكرّم ويُتبرك به.

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنْ أَدْرَأْتُ لِي ضَلَالٌ مُبِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنْ أَمْنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٠) ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب النجار وكان ينحس أصنامهم وهو ممن آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وبينهما ستمائة سنة، وقيل كان في غار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل اتاهم وأظهر دينه. ﴿قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾.

(٢١) ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا﴾ على التصح وتبليغ الرسالة. ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدارين.

(٢٢) ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ على قراءة غير حمزة فإنه يسكن الياء في الوصل، تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاء النصيح، حيث أراد لهم ما أراد لها والمراد تفرغهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغة في التهديد، ثم عاد إلى المساق الأول فقال:

(٢٣) ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ لا تنفعني شفاعتهم. ﴿وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ بالثبيرة والمظاهرة.

(٢٤) ﴿إِنْ أَدْرَأْتُ لِي ضَلَالٌ مُبِينٌ﴾ فإن إشار ما لا ينفع ولا يدفع ضرراً بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضرر، وإشراكه به ضلال بين لا يخفى على عاقل، وقرأ نافع ويعقوب وأبو عمرو بفتح الياء.

(٢٥) ﴿إِنْ أَمْنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿فَاسْمِعُونِ﴾ فاسمعوا إيماني، وقيل الخطاب للرسل فإنه لما نصح قومه أخذوا يرجمونهم فأسرع نحوهم قبل أن يقتلوه.

(٢٦) ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه بشرى له بأنه من أهل الجنة، أو إكراماً وإذناً في دخولها كسائر الشهداء، أو لما هموا بقتله رفعة الله إلى الجنة على ما قاله الحسن، وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له؛ فإنه معلوم، والكلام استئناف في حيز الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نضر دينه وكذلك: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ فإنه جواب عن السؤال عن قوله عند ذلك القول، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم على اكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة على دأب الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق. وقرىء المكرمين. وما خبرية أو مصدرية والباء صلة يعلمون، أو استفهامية جاءت على الأضل والباء صلة غفر أي بأي شيء غفر لي، يريد به المهاجرة عن دينهم والمصابرة على أدبهم.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (٢٩) ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠) ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٣١) ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَامٍ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٣٢) ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣)

(٢٨) ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد هلاكه أو رفعه. ﴿مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ لإهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كُفِينَا أَمْرَهُمْ بصيحة ملك، وفيه استحقاق لإهلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام. ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ وما صحَّ في حِكْمَتِنَا أَنْ نَنْزِلَ جُنْدًا لإهلاك قَوْمِهِ إِذْ قَدَّرْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا وجعلنا ذلك سببًا لانتصارك من قومك، وقيل ما موصولة معطوفة على جندي أي ومما كُنَّا مُنْزِلِينَ على مَنْ قَبْلَهُمْ من حجارة وريح وأمطار شديدة.

(٢٩) ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ ما كانت الأخذُ أو العقوبة. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بها جبريل عليه السلام، وَفُرِثَ بالرفع على كان التامة. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ مَيِّتُونَ، شَبَّهُوا بِالنَّارِ رَمَزًا إِلَى أَنَّ الْحَيَّ كَالنَّارِ السَّاطِعَةِ وَالْمَيِّتَ كَرَمَادِهَا، كما قال لبيد:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضُوئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ^(١)

(٣٠) ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ تعالي فهذه من الأحوال التي من حقها أَنْ تحضري فيها، وهي ما دلَّ عليها: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فَإِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاصِحِينَ الْمَخْلُصِينَ الْمَنُوطَ بِنُصْحِهِمْ خَيْرُ الدَّارَيْنِ أَحَقُّ أَنْ يَتَحَسَّرُوا وَيَحْزَنُوا عَلَيْهِمْ، وَقَدْ تَلَهَّفَ عَلَى حَالِهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَحَسُّرًا مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ لِتَعْظِيمِ مَا جَنَّوْهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَيُؤْيِدُهُ قِرَاءَةُ يَا حَسْرَتَا، وَنَضْبُهَا لَطُولُهَا بِالْجَارِ الْمُتَعَلِّقِ بِهَا، وَقِيلَ بِإِضْمَارِ فِعْلِهَا وَالْمَنَادَى مُحذُوفٌ، وَفَرَىءَ يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْفَاعِلِ أَوْ الْمَفْعُولِ، وَيَا حَسْرَةَ بِالْهَاءِ عَلَى الْعِبَادِ بِإِجْرَاءِ الْوَصْلِ مَجْرَى الْوَقْفِ.

(٣١) ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا وَهُوَ مَعْلُقٌ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ﴾ لِأَنَّ «كَمْ» لَا يَعْمَلُ فِيهَا مَا قَبْلَهَا وَإِنْ كَانَتْ خَبْرِيَّةً لِأَنَّ أَصْلَهَا الْاسْتِفْهَامُ. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بَدَلٌ مِنْ كَمْ عَلَى الْمَعْنَى أَيْ أَلَمْ يَرَوْا كَثْرَةَ إِهْلَاكِنَا مَنْ قَبْلَهُمْ كَوْنَهُمْ غَيْرَ رَاجِعِينَ إِلَيْهِمْ. وَفَرَىءَ بِالْكَسْرِ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ.

(٣٢) ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَامٍ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْجَزَاءِ، وَإِنْ مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاللَامُ هِيَ الْفَارِقَةُ وَمَا مَزِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَحَمْزُهُ لَمَّا بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى إِلَّا فَتَكُونُ إِنْ نَافِيَةً، وَجَمِيعٌ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَلَدَيْنَا ظَرْفٌ لَهُ، أَوْ لِمُحْضَرُونَ.

(٣٣) ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ وَقَرَأَ نَافِعٌ بِالتَّشْدِيدِ. ﴿أَحْيَيْتَهَا﴾ خَيْرٌ لِلْأَرْضِ، وَالْجُمْلَةُ خَيْرُ آيَةٍ،

أو صفة لها إذ لم يرد بها معيئة وهي الخبر أو المبتدأ والآية خبرها، أو استئناف لبيان كونها آية. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنس الحب. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدّم الصلة للدلالة على أَنَّ الحبَّ معظم ما يُؤْكَلُ ويُعَاشُ به.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ من أنواع النخل والعنب، ولذلك جمعهما دون الحبِّ فإنَّ الدالَّ على الجنس مشعرٌ بالاختلاف ولا كذلك الدالُّ على الأنواع، وذكرُ النخيل دون التمور ليطابق الحبَّ والأعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصُّنع. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقرئ بالتخفيف، والفَجْرُ والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيون، فحذف الموصوف وأُقيمت الصفة مقامه، أو العيون ومن مزيده عند الأخفش.

(٣٥) ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ ثمر ما ذَكَرَ وهو الجنات. وقيل الضميرُ لله تعالى على طريقة الالتفات، والإضافة إليه لأنَّ الثمر بخلقه. وقرأ حمزة والكسائي بضميتين وهو لغة فيه أو جمع ثمار، وقرئ بضمه وسكون. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطفت على الثمر والمراد ما يُتَّخَذُ منه كالعصير والدُّبْس ونحوهما، وقيل ما نافية والمراد أنَّ الثمر بخلق الله لا يفعلهم، ويؤيد الأول قراءة الكوفيين غير حفص بلا هاء فإنَّ حذفه من الصلة أحسن من غيرها. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أمر بالشكر من حيث إنه إنكارٌ لِتَرْكِه.

(٣٦) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الأنواع والأصناف. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الذَّكَرَ والأنثى. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأزواجاً مما لم يُظَلِّعْهُمُ اللهُ تعالى عليه ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته.

(٣٧) ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نزيله ونكشفه عن مكانه مستعاراً من سَلَخِ الجلد، والكلام في إعرابه ما سبق. ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام.

(٣٨) ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدٍّ معيَّن ينتهي إليه دورها فُسِّبَ بِمُسْتَقَرِّ المسافر إذا قطع مسيره، أو لكبد السماء فإنَّ حَرَكَتَهَا فيه يوجد فيها بطاء بحيث يُظَنُّ أَنَّ لها هناك وَفَقَةً قال:

وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا بِالْجَوِّ تَذْوِيمٌ^(١)

أو لاستقرار لها على نهج مخصوص، أو لمنتهى مقدَّر لكلِّ يومٍ من المشارق والمغارب فإنَّ لها في دورها ثلثمائة وستين مشرقاً ومغرباً تطلع كلُّ يومٍ من مطلعٍ وتغرب من مغربٍ ثم لا تعود إليهما

إلى العام القابل، أو لمنقطع جزئها عند خراب العالم. وقرىء لا مستقر لها أي لا سكون فإنها متحركة دائماً، ولا مستقر على أن لا بمعنى ليس. ﴿ذَلِكَ﴾ الجري على هذا التقدير المتضمن للبحر التي تُكِلُّ الفطن عن إحصائها. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور. ﴿الْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ قدرنا مسيره. ﴿مَنَازِلَ﴾ أو سيره في منازل وهي ثمانية وعشرون: الشيطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العواء، السماك، الغفر، الزبانا، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر، الرشا، وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، فإذا كان في آخر منازلها وهو الذي يكون فيه قبيل الاجتماع دق واستقوس. وقرأ الكوفيون وابن عامر والقمر بنصب الراء. ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ كالشمر الممعوج، فغلون من الانعراج وهو الاعوجاج. وقرىء كالعرجون وهما لغتان كالبريون والبريون^(١). ﴿الْقَدِيرِ﴾ العتيق وقيل ما مر عليه حول فصاعداً.

(٤٠) ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ يصح لها ويتسهل. ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة سيره فإن ذلك يخل بتكوين النبات، وتعيش الحيوانات، أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله، أو سلطانه فتطمس نوره، وإيلاء حرف النفي الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها. ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه، وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكساً للأول. وتبديل الإدراك بالسبق لأنه الملايم لسرعة سيره. ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلهم، والتنوين عوض عن المضاف إليه، والضمير للشمس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات، أو للكواكب فإن ذكرهما مشعر بهما. ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسرون فيه بانسباط.

(٤١) ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم، أو صبيانهم ونساءهم الذين يستضجونهم، فإن الذرية تقع عليهم لأنهن مزارعها. وتخصيصهم لأن استقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب. وقرأ نافع وابن عامر ذرياتهم. ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء، وقيل المراد فلك نوح عليه الصلاة والسلام، وحمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلاهم هم وذرياتهم، وتخصيص الذرية لأنه أبلغ في الامتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز.

(٤٢) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ من مثل الفلك. ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر، أو من السفن والزوارق.

(١) هو السندس، غير أن الفيروز في المحيط أورده بضم الباء وبكسرهما مع فتح الياء.

وَأِنْ نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٣) ﴿وَأِنْ نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ فلا مغيبَ لهم يحرسُهم عن الغرق، أو فلا إغاثةَ كقولهم أتاها الصريحُ. ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ ينجون من الموتِ به.

(٤٤) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا﴾ إلا لرحمةٍ ولتمتعٍ بالحياة. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ زمانٍ قُدِّرَ لآجالِهِم.

(٤٥) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ الوقائع التي خلَّت، أو العذابُ المعدُّ في الآخرة، أو نوازلُ السماءِ ونوائِبُ الأرضِ كقوله ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) أو عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة أو عكسه، أو ما تقدَّم من الذنوبِ وما تأخَّر. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا راجينَ رحمةَ الله، وجوابُ إذا محذوفٌ دلٌّ عليه قوله:

(٤٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذابِ أعرضوا لأنَّهم اعتادوه وتمرنوا عليه^(٢).

(٤٧) ﴿وَلَا إِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ على محاوِيجِكُمْ. ﴿قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانع يعني معطلةً كانوا بمكَّة. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تهكُّماً بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمورَ بمشيئته. ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ على زعمِكُمْ، وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراءُ المؤمنين إيهاماً بأنَّ الله تعالى لما كان قادراً أن يطعمهم ولم يطعمهم فنحنُ أحقُّ بذلك، وهذا من فزطِ جهالتهم فإنَّ الله يطعمُ بأسبابٍ منها حتَّى الأغنياء على إطعام الفقراءِ وتوفيقهم له. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حيثُ أمرتُمونا ما يخالفُ مشيئةَ الله، ويجوزُ أن يكونَ جواباً من الله لهم، أو حكايةَ لجواب المؤمنين لهم.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنونَ وعدَ البعثِ.

(٤٩) ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظرون. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأولى. ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يتخاصمونَ في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطرُ ببالهم أمرُها كقوله ﴿أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٣) وأصله يختصمونَ فسكنتِ النَّاءُ وأدغمتِ ثم كسرتِ الخاءُ لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر بكسرِ الياءِ للاتباع، وقرأ ابنُ كثيرٍ وورشٌ وهشامٌ بفتحِ الخاءِ على إلقاء حركةِ النَّاءِ إليه، وأبو عمرو وقالونُ به مع الاختلاسِ، وعن نافعٍ الفتحُ فيه والإسكانُ والتشديدُ وكأنه جَوَزَ الجمعَ بينَ

(١) سبأ: ٩٩.

(٢) وصيغة المضارع في تأنيهم للدلالة على الاستمرار التجديدي (س/٧/١٧٠).

(٣) يوسف: ١٠٧.

الساكنين إذا كان الثاني مدغمًا، وقرأ حمزة يُخْصِمُونَ من خَصَمَهُ إذا جادلَهُ.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۖ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾

(٥٠) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم. ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فَيَرَوْا حَالَهُمْ بِلِ يَموتون حيثُ تَبَغَّتُهُمْ.

(٥١) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي مرة ثانية وقد سبق تفسيره في سورة المؤمنين^(١). ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور، جمعُ جَدَثٍ وقرئ بالفاء. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يُسْرِعُونَ وقرئ بالضم.

(٥٢) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا﴾ وقرئ يا ويلتنا. ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وقرئ من أَهْبَنَّا من هَبَّ من نومه إذا انْتَبَهَ ومن هَبَّنَا بمعنى أَهْبَنَّا، وفيه ترشيحٌ ورمزٌ وإشعارٌ بأنهم لاختلاطِ عقولهم يظنون أنهم كانوا نياماً، وَمَن بَعَثَنَا ومن هَبَّنَا على الجارّة والمصدر، وسكتَ حفصٌ وحده عليها سكتةً لطيفةً، والوقفُ عليها في سائر القراءات حسنٌ. ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ وما مصدريةٌ، أو موصولةٌ محذوفةٌ الراجع، أو هذا صفةٌ لمرقدنا وما وعد خبرٌ محذوفٌ، أو مبتدأٌ خبره محذوفٌ أي هذا ما وعدَ الرحمنُ وصدقَ المرسلون، أو ما وعدَ الرحمنُ وصدقَ المرسلون حقٌ، وهو من كلامهم، وقيل جوابٌ للملائكة أو المؤمنين عن سؤالهم، معدولٌ عن سُنَّته تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبهاً بأن الذي يهْمُهُم هو السؤال عن البعثِ دونَ الباعثِ كأنهم قالوا: بعثكم الرحمنُ الذي وعدكم البعثَ وأرسل إليكم الرسلَ فصّدّقوكم وليس الأمرُ كما تظنون، فإنه ليس يُبْعَثُ النَّائِمُ فيهمكم السؤالُ عن الباعثِ وإنما هو البعثُ الأكبرُ ذو الأحوال.

(٥٣) ﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانت الفعلَةُ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأخيرة، وقرئت بالرفع على كانَ التامة. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمجرد تلك الصيحة وفي كل ذلك تهوينُ أمرِ البعثِ والحشرِ واستغناؤُهُما عن الأسبابِ التي ينوطانِ بها فيما يشاهدونه.

(٥٤) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حكايةٌ لما يُقالُ لهم حينئذ تصويراً للموعودِ وتمكيناً له في النفوس وكذا قوله:

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ متلذذون في التَّعَمُّةِ مِنَ الْفَكَاهَةِ، وفي تنكيرِ شُغْلٍ وإيهامه تعظيمٌ لما هم فيه من البهجة والتلذذ، وتنبيةٌ على أنه أعلى ما يحيطُ به الأفهامُ ويعربُ عن كُنْهِهِ

(١) والتعبير بصيغة الماضي «نُفِخَ» للدلالة على تحقق الوقوع (س٧/١٧١).

الكلام^(١). وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو في شغل بالسكون، ويعقوب في رواية فكهُونَ للمبالغة، وهما خبران لأن، ويجوز أن يكونَ في شغلٍ صلةً لفاكهونَ. وقرأ فكهُونَ بالضم وهو لغة كُنْطُسٍ ونَطْسٍ، وفاكهين وفكهين على الحال من المستكين في الظرف، وشغلٍ بفتحيتين وفتح وسكون والكل لغات.

هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ﴾ جمع ظل كشعابٍ أو ظِلَّةٍ كقبابٍ ويؤيده قراءة حمزة والكسائي في ظللٍ. ﴿عَلَى الْأَرْيَافِ﴾ على السرير المزين. ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ وهم مبتدأ خبره في ظلال، وعلى الأرائك جملة مستأنفة أو خبر ثانٍ أو متكون والجاءان صلتان له، أو تأكيد للضمير في شغلٍ أو في فاكهون، وعلى الأرائك متكون خبر آخر لأن، وأزواجهم عطف على هم للمشاركة في الأحكام الثلاثة، وفي ظلال حال من المعطوف والمعطوف عليه.

(٥٧) ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ ما يدعون به لأنفسهم يفتعلون من الدعاء كاشتوى واجتمَلَ إذا شوى وجمل لنفسه، أو ما يتداعونه كقولك ازتموه بمعنى تراموه، أو يَتَمَنُونَ من قولهم ادع علي ما شئت بمعنى تمنه علي، أو ما يدعونه في الدنيا من الجنة ودرجاتها، وما موصولة أو موصوفة مرتفعة بالابتداء، ولهم خبرها وقوله:

(٥٨) ﴿سَلَامٌ﴾ بدل منها أو صفة أخرى، ويجوز أن يكون خبرها أو خبر محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي ولهم سلام، وقرأ بالنصب على المصدر أو الحال أي لهم مرادهم خالصاً. ﴿قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ أي يقول الله أو يُقَالُ لهم قولاً كائناً من جهته، والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم ومتمناتهم، ويَحْتَمَلُ نصبه على الاختصاص.

(٥٩) ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُجْرِمُونَ﴾ وانفردوا عن المؤمنين وذلك حين يُسَارُّ بهم إلى الجنة كقوله ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِرُ بِنَفَرٍ قُوتٍ﴾^(٢). وقيل اعتزلوا من كل خير أو تفرقوا في النار فإن لكل كافر بيتاً ينفرد به لا يرى ولا يرى.

(٦٠) ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ من جملة ما يُقَالُ لهم تقريباً وإلزاماً للحجة، وعهده إليهم ما نصب لهم من الحُجَج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته الزاجرة عن عبادة غيره، وجعلها عبادة الشيطان، لأنه الأمر بها والمزين لها. وقرأ إعهد بكسر حرف المضارعة، وأخذ وأخذ على لغة بني تميم. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تعليل للمنع عن عبادته بالطاعة فيها يحملهم عليه.

(١) والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحقيقها بتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للإيدان بغاية سرعة تحقيقها ووقوعها، ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك (س ٧/١٧٣).

(٢) الروم: ١٤.

وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

(٦١) ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ عطفٌ على أَنْ لَا تَعْبُدُوا^(١). ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى ما عهَدَ إليهم أو إلى عبادته، فالجملة استئنافٌ لبيان المقتضي للعهد بِشَقِّهِ أو بالشقِّ الآخر، والتكثير للمبالغة والتعظيم، أو للتبعض فإنَّ التوحيدَ سلوكٌ بعضِ الطريقِ المستقيم.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ رجوعٌ إلى بيان معاداة الشيطان مع ظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقلٍ ورأي، والجِبِلُّ الخلق. وقرأ يعقوبٌ بضمين، وابنُ كثيرٍ وحمزةٌ والكسائيُّ بهما مع تخفيفِ اللام، وابنُ عامرٍ وأبو عمرو بضمّة وسكونٍ مع التخفيف، والكلُّ لغاتٌ، وقرئَ جِبِلًّا جمعُ جَبَلَةٍ كخَلْقَةٍ وَخَلْقٍ، وجِبِلًّا واحدُ الأجيال.

(٦٣) ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

(٦٤) ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ذوقوا حرّها اليومَ بكفرِكُم في الدنيا.

(٦٥) ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ نمنعُها عن الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بظهورِ آثارِ المعاصي عليها ودلالاتها على أفعالها، أو إنطاقُ الله إياها وفي الحديثِ «إنهم يجحدون ويخاصمون فيختمون على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم»^(٢).

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ لمسنا أعينهم حتى تصيرَ ممسوحة. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ فاستبقوا إلى الطريقِ الذي اعتادوا سلوكه. وانتصابه بنزع الخافض، أو بتضمين الاستباق معنى الابتدار، أو جعل المسبوق إليه مسبوقاً على الاتساع، أو بالظرف. ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ الطريقُ وجهةُ السلوكِ فضلاً عن غيره.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم. ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ مكانهم بحيثُ يجمدُون فيه، وقرأ أبو بكر مكاناتهم. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ ذهاباً. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا رجوعاً، فوضِعَ الفعلُ موضِعَهُ للفواصل، وقيل لا يرجعون عن تكذيبهم، وقرئَ مُضِيًّا باتباع الميم الضادِ المكسورة لقلب الواو ياءً كالْعَتِيّ وَالْعَتِيّ، ومَضِيًّا كصبي. والمعنى أنَّهم بكفرهم ونقضهم ما عهَدَ إليهم أحقاء بأن يُفَعَلَ بهم ذلك، لكنَّا لم نفعل لشمول الرحمة لهم واقتضاء الحكمة إمهالهم.

(١) وتقديم النهي عن عبادة الشيطان على الأمر بعبادة الله لأن التولية مقدمة على التحلية، كما في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) (س/٧/١٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٨٠ رقم ٢٩٦٩/١٧) من رواية الشعبي عن أنس.

وَمَنْ نَعِمَّرَهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُٗٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾

(٦٨) ﴿وَمَنْ نَعِمَّرَهُ﴾ ومن نُظِلَّ عُمُرُهُ. ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ نُقَلِّبُهُ فِيهِ فَلَا يَزَالُ يَتَزَايَدُ ضَعْفُهُ وانتفاضُ بُنْيَتِهِ وَقُوَّاهُ عَكْسَ مَا كَانَ عَلَيْهِ بَدْءُ أَمْرِهِ، وَابْنُ كَثِيرٍ عَلَى هَذِهِ يَشْبَعُ ضَمَّةُ الْهَاءِ عَلَى أَصْلِهِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمَزُهُ نُنَكِّسْهُ مِنَ التَّنْكِيسِ وَهُوَ أَبْلَغُ وَالتَّنْكِيسُ أَشْهَرُ. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ قَدَرَ عَلَى الطَّمْسِ وَالْمَسْخِ فَإِنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِمَا وَزِيَادَةٌ، غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى تَدْرِجٍ. وَقَرَأَ نَافِعٌ بِرَوَايَةِ ابْنِ عَامِرٍ وَابْنِ ذَكْوَانَ وَيَعْقُوبَ بِالتَّاءِ لَجَرِي الْخَطَابِ قَبْلَهُ.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ رَدُّ لِقَوْلِهِمْ إِنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ أَيْ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ بِتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ لَا يَمَانِلُهُ لَفْظًا وَلَا مَعْنَى، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْفَى وَلَا مُوزُونٍ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ مَا يَتَوَخَّاهُ الشُّعْرَاءُ مِنَ التَّخِيلَاتِ الْمُرْغَبَةِ وَالْمُنْفَرَةِ وَنَحْوِهَا. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُٗٓ﴾ وَمَا يَصْحُحُ لَهُ الشِّعْرُ وَلَا يَتَأَنَّى لَهُ إِنْ أَرَادَ قَرْضَهُ عَلَى مَا خَبَرْتُمْ طَبْعَهُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ»^(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «هل أنت إلا إصبعٌ دُمِيتَ وفي سبيلِ الله ما لقيت»^(٢).

اتِّفَاقِيٍّ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَقَصْدٍ مِنْهُ إِلَى ذَلِكَ، وَقَدْ يَقَعُ مِثْلُهُ كَثِيرًا فِي تَضَاعُفِ الْمَشْهُورَاتِ، عَلَى أَنَّ الْخَلِيلَ مَا عَدَّ الْمَشْهُورَ مِنَ الرِّجْزِ شِعْرًا، هَذَا وَقَدْ رَوَى أَنَّهُ حَرَّكَ الْبَاءَ يَنْ وَكَسَرَ التَّاءَ الْأُولَى بِلا إِشْبَاعٍ وَسَكَنَ الثَّانِيَةَ، وَقِيلَ الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ أَيْ وَمَا يَصْحُحُ لِلْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ شِعْرًا. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ وَإِرْشَادٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾ وَكُتَابٌ سَمَويٌّ يَتْلَى فِي الْمَعَابِدِ، ظَاهِرٌ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِعْجَازِ.

(٧٠) ﴿لِيُنذِرَ﴾ الْقُرْآنُ، أَوِ الرِّسُولُ ﷺ. وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَابْنِ عَامِرٍ وَيَعْقُوبَ بِالتَّاءِ. ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ عَاقِلًا فَهَمَّا فَإِنَّ الْغَافِلَ كَالْمَيِّتِ، أَوْ مُؤْمِنًا فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ بِالْإِيمَانِ، وَتَخْصِيصُ الْإِنْذَارِ بِهِ لِأَنَّهُ الْمُنْتَفَعُ بِهِ. ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ﴾ وَتَجِبُ كَلِمَةُ الْعَذَابِ. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الْمَصْرُوفِينَ عَلَى الْكُفْرِ، وَجَعَلَهُمْ فِي مِقَابِلَةٍ مَنْ كَانَ حَيًّا إِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ لِكُفْرِهِمْ وَسُقُوطِ حُجَّتِهِمْ وَعَدَمِ تَأْمُلِهِمْ أَمَوَاتٌ فِي الْحَقِيقَةِ.

(٧١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مِمَّا تَوَلَّيْنَا إِحْدَاثَهُ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْدَاثِهِ غَيْرُنَا، وَذِكْرُ

(١) أخرجه البخاري (٦٩/٦ رقم ٢٨٦٤) و(٧٥/٦ رقم ٢٨٧٤) و(١٠٥/٦ رقم ٢٩٤٠) و(١٦٤/٦ رقم ٣٠٤٢) و(٢٧/٨ - ٢٨ رقم ٤٣١٥، ٤٣١٦، ٤٣١٧).

ومسلم (٣/١٤٠٠ - ١٤٠١ رقم ٧٨، ٧٩، ١٧٧٦/٨٠) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخاري (٦/١٩ رقم ٢٨٠٢) و(١٠/٥٣٧ رقم ٦١٤٦) ومسلم (٣/١٤٢١ رقم ١٧٩٦/١١٢) من حديث جندب بن سفيان.

الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرد بالإحداث. ﴿أَنْعَمَّا﴾ خصّها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع. ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ متملكون لها بتمليكنا إيّاها، أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إيّاها لهم قال:

أَضْبَحْتُ لَا أُخِمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَقَرَا^(١)

وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٨﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَا يَخْرُجُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٨١﴾

(٧٦) ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وصيّرتها منفادة لهم. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبهم. وقرئ ركوبتهم، وهي بمعناه كالجلوب والحلوبة، وقيل جمعه وركوبهم أي ذو ركوبهم أو فَمِنْ منافعها ركوبهم. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمه.

(٧٣) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار. ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ من اللبن جمع مشرب بمعنى الموضع، أو المصدر، وأمال الشين ابن عامر وحده برواية هشام. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله في ذلك إذ لولا خلقه لها وتذليله إيّاها كيف أمكن التوصل إلى تحصيل هذه المنافع المهمة.

(٧٤) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أشركوها به في العبادة بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة، وعلموا أنه المتفرد بها. ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاء أن ينصروهم فيما حزبهم من الأمور، والأمر بالعكس لأنهم.

(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ لَآلِهَتِهِمْ﴾ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ مُعْذُونَ لحفظهم والذب عنهم، أو محضرون أثرهم في النار.

(٧٦) ﴿فَلَا يَخْرُجُكَ﴾ فلا يهتك، وقرئ بضم الياء من أخزن. ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحاد والشرك، أو فيك بالكذب والتهجين. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فنجازيهم عليه وكفى ذلك أن تسلى به، وهو تعليل للنهي على الاستئناف ولذلك لو قرئ أنا بالفتح على حذف لام التعليل جاز.

(٧٧) ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ تسليّة ثانية بتهمين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر، وفيه تقبيح بليغ لإنكاره حيث عجب منه وجعله إفراطاً في الخصومة بيناً، ومنافاة لبحود القدرة على ما هو أهون مما عمله في بدء خلقه، ومقابلة النعمة التي لا مزيد عليها - وهي خلقه من أحسن شيء وأمنه شريفاً مكرماً - بالعقوب والتكذيب. روي أن أبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم بال يفتنه بيده وقال: أترى الله يحيي هذا بعد ما رم، فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم ويبعثك

ويدخلك النار» فترث^(١). وقيل معنى فإذا هو خصيمٌ مبین فإذا هو بعد ما كان ماءً مهيناً ممیزٌ منطبقٌ قادر على الخصامِ معرِبٌ عما في نفسه.

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نفى القدرة على إحياء الموتى، أو تشبيهه بخلقه بوضفه بالعجز عما عجزوا عنه. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ خلقنا إياه. ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ منكر إياه مستبعداً له، والرميم ما بلي من العظام، ولعله فعلٌ بمعنى فاعلٍ من رم الشيء صار اسماً بالغلبة ولذلك لم يؤنث، أو بمعنى مفعولٍ من رممته. وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء.

(٧٩) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قدرته كما كانت لا متناهي التغيير فيه، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها، فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأجزاء والقوى التي كانت فيها أو إحداث مثلها.

(٨٠) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ كالمرخ والعفار^(٢). ﴿نَارًا﴾ بأن يسحق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتندح النار. ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ لا تشكون فإنها نارٌ تخرج منه، ومن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيةها كان أقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غصاً فيس وبلي، وقرىء من الشجر الخضراء على المعنى كقوله ﴿فَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾^(٣).

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مع كبر جزمهما وعظم شأنهما. ﴿بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما، أو مثلهم في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد، وعن يعقوب يقدر. ﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ من الله تعالى لتقرير ما بعد النفي مشعرٌ بأنه لا جواب سواه. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ كثير المخلوقات والمعلومات.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج ٢٣/٣٠) عن مجاهد، وأخرجه الحاكم (٤٢٩/٢) من حديث ابن عباس. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وأخرجه ابن جرير (١٢/ج ٢٣/٣٠) عن سعيد بن جبيرة.

(٢) المرخ والعفار نوعان من الشجر تُندح منه النار (مختار الصحاح مادة عفر).

(٣) الواقعة: ٥٢.

(٨٢) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ إِنَّمَا شَأْنُهُ. ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ أي تَكُونُ. ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكونُ أي يحدثُ، وهو تمثيلٌ لتأثير قدرته في مراده بأمْرِ المطاع للمطيع في حصولِ المأمورِ من غيرِ امتناع وتوقُّفٍ وافتقارٍ إلى مزاولةِ عملٍ واستعمالِ آلةٍ قطعاً لمادةِ الشُّبهة، وهو قياسُ قدرةِ الله تعالى على قدرةِ الخلقِ، ونَصَبُهُ ابنُ عامرٍ والكسائيُّ عطفاً على يقولُ.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيهٌ له عما ضربوا له، وتعجيبٌ عما قالوا فيه معللاً بكونه مالِكاً للأمرِ كُلِّهِ قادراً على كلِّ شيءٍ. ﴿وَالَّذِي تُرْجَعُونَ﴾ وُعْدٌ ووَعِيدٌ للمقرِّينَ والمنكرينَ، وقرأ يعقوبُ بفتح التاء. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنتُ لا أعلمُ ما رويَ في فضلِ يسَ كيفَ خَصَّتْ به فإذا أنه بهذه الآية^(١). وعنه عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قلباً وقلبُ القرآنِ يسَ، وأيُّما مسلمٍ قرأها يريدُ بها وجهَ الله غَفَرَ اللهُ له وأُعْطِيَ من الأجرِ كأنَّما قرأ القرآنَ اثنتين وعشرينَ مرَّةً، وأيُّما مسلمٍ قرأه عنده إذا نزلَ به ملكُ الموتِ سورةَ يسَ نزلَ بكلِّ حرفٍ منها عشرةُ أملاكٍ يقومونَ بينَ يديه صفوفاً يصلُّونَ عليه ويستغفرونَ له، ويشهدونَ غُسلَهُ ويشيعونَ جنازَتَهُ ويصلُّونَ عليه، ويشهدونَ دَفْنَهُ، وأيُّما مسلمٍ قرأ يسَ وهو في سكراتِ الموتِ لم يقبضْ ملكُ الموتِ روحَه حتى يجيئه رضوانُ بِشْرِيَّةٍ من الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبضُ روحَه وهو رَيَّانٌ، ويمكثُ في قبره وهو رَيَّانٌ، ولا يحتاجُ إلى حوضٍ من حياضِ الأنبياء حتى يدخلَ الجنةَ وهو رَيَّانٌ»^(٢).



- (١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٤٠ رقم ٢٨٥): «لم أجده».
- (٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٤٠ رقم ٢٨٦): «أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب. وأوله في الترمذي - (١٦٢/٥) رقم ٢٨٨٧ - من رواية هارون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس. وقال: غريب وهارون مجهول. وفي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة. فأما حديث أبي هريرة فأخرجه البزار وفيه حميد المكي مولى آل علقمة وهو ضعيف، وحديث أبي بكر أخرجه الحكيم الترمذي هـ. وقال الترمذي في السنن (١٦٣/٥) «وفي الباب عن أبي بكر الصديق، ولا يصح من قبل إسناده إسناده ضعيف» هـ. وحكم الألباني في «الضعيفة» على حديث أنس بالوضع (رقم: ١٦٩).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۚ فَالزَّجَرِجِ زَجْرًا ۚ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۚ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۚ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۚ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ۚ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۚ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۚ

سورة الصافات مكية^(١) وأيهما مائة واثنان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾.

(٢) ﴿فَالزَّجَرِجِ زَجْرًا﴾.

(٣) ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ أقسم بالملائكة الصافين في مقام العبودية، على مراتب باعتبارها تفيض عليهم الأنوار الإلهية، منتظرين لأمر الله الزاجرين الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به فيها، أو الناس عن المعاصي بلهام الخير، أو الشياطين عن التعرض لهم التالين آيات الله وجلالاً قُدسه على أنبيائه وأوليائه، أو بطوائف الأجرام المرئية كالصفوف المرصوفة والأرواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس ﴿يَسْحَبُونَ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(٢) أو بنفوس العلماء الصافين في العبادات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح التالين آيات الله وشرائعه، أو بنفوس الغزاة الصافين

(١) قال ابن الجوزي في «روح المعاني» (٢٣/٦٤): «مكية كلها بإجماعهم» وقال الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/٦٤): «مكية ولم يحكوا في ذلك خلافاً وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين، ومائة واثنان وثمانون عند غيرهم...» هـ.

(٢) الأنبياء: «٢٠».

في الجهادِ الزاجرينَ الخيلَ أو العدوَّ التالينَ ذَكَرَ الله لا يشغلهم عنه مبارأة العدوِّ. والعطفُ لاختلاف الذواتِ أو الصفاتِ، والفاءُ لترتيبِ الوجودِ كقوله:

يا لهفَ زيابةً للحارثِ الصـ ————— ابـحِ فالغانمِ فالآيبِ

فإنَّ الصفَّ كمالٌ والزَّجَرَ تكميلٌ بالمنعِ عن الشرِّ، أو الإشاقة إلى قبولِ الخيرِ والتلاوةِ إفاضته، أو الرتبةُ كقوله عليه الصلاة والسلام «رحمَ الله المحلِّقينَ فالمقصرينَ»^(١) غيرَ أنه لفضلِ المتقدمِ على المتأخِّرِ وهذا للعكسِ. وأدغمَ أبو عمرو وحمزةُ التاءاتِ فيما يليها لتقارُّبها فإنَّها من طرفِ اللسانِ وأصولِ الشنايا.

(٤) ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جوابٌ للقسم، والفائدةُ فيه تعظيمُ المقسَمِ به وتأكيدُ المقسَمِ عليه على ما هو المألوفُ في كلامهم، وأما تحقيقُه فبقوله تعالى.

(٥) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ فإنَّ وجودَها وانتظامَها على الوجهِ الأكملِ مع إمكانِ غيره دليلٌ على وجودِ الصانعِ الحكيم، ووحدانيته على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، وربُّ بدلٌ من واحدٍ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ محذوفٌ وما بينهما يتناولُ أفعالَ العبادِ فيدلُّ على أنَّها من خلقه، والمشاركُ مشارقُ الكواكبِ أو مشارقُ الشمسِ في السَّنةِ وهي ثلاثمائة وستونَ مشرقاً، تشرقُ كلَّ يومٍ في واحدٍ ويحسبُها تختلفُ المغاربُ، ولذلك اُكتفى بذكرها مع أنَّ الشروقَ أدلُّ على القدرةِ وأبلغُ في النعمةِ، وما قيل إنها مائةٌ وثمانونَ إنما يصحُّ لو لم تختلفُ أوقاتُ الانتقالِ.

(٦) ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلَمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القُرْبَى منكم. ﴿زَيْنَةُ الْكَوَاكِبِ﴾ بزينةٍ هي الكواكبُ والإضافةُ للبيان، ويعضدُه قراءةُ حمزةٍ ويعقوبُ وحفصُ بتنوينِ زينةٍ وجَرَّ الكواكبِ على إبدالها منه، أو بزينةٍ هي لها كأضوائها وأوضاعها، أو بأنَّ زَيْنَا الكواكبِ فيها على إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ فإنَّها كما جاءتِ اسماً كالليقةِ جاءتِ مصدرًا كالنسبةِ ويؤيدهُ قراءةُ أبي بكرٍ بالتنوينِ، والنصبُ على الأصلِ أو بأنَّ زَيْنَتَهَا الكواكبُ على إضافتهِ إلى الفاعلِ، وركوزُ الثوابتِ في الكرةِ الثامنةِ وما عدا القمرَ من السياراتِ في السَّتِّ المتوسطةِ بينها وبينَ السماءِ الدنيا أنْ تحقَّقَ لم يقدِّح في ذلك، فإنَّ أهلَ الأرضِ يرونَهَا بأسرها كجواهرٍ مشرقةٍ متألِّثةٍ على سطحِها الأزرقِ بأشكالٍ مختلفةٍ.

(٧) ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوبٌ بإضمارِ فعله، أو العطفُ على زينةٍ باعتبارِ المعنى، كأنه قال إنا خلقنا الكواكبَ زينةً للسماءِ الدنيا وحفظاً. ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ خارجٌ من الطاعةِ برميِ الشَّهْبِ.

(٨) ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا أَلَمًا أَلَعَلَّ﴾ كلامٌ مبتدأٌ لبيانِ حالهم بعدَ ما حفظَ السماءَ عنهم، ولا يجوزُ جعلُه صفةً لكلِّ شيطانٍ، فإنه يقتضي أنْ يكونَ الحفظُ من شياطينَ لا يسمعونَ، ولا علةٌ للحفظِ على حذفِ اللامِ كما في جثثك أنْ تكرمني، ثم حذفَ أنْ وأهدرها كقوله:

ألا أيُّ هذا الزاجري أحضرَ الوغى^(٢)

(١) لم أجده بهذا اللفظ. ولكن أخرج البخاري (٣/ ٥٦١ رقم ١٧٢٧) ومسلم (٢/ ٩٤٥ رقم ١٣٠١) بنحوه من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) شطر من الطويل.

فإن اجتماع ذلك منكرٌ والضمير لكل باعتبار المعنى، وتعدية السماع بإلى لتضمينه معنى الإصغاء مبالغةً لنفيه، وتهويلاً لما يمنعه من، ويدلُّ عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص بالتشديد من التسمع، وهو طلبُ السماع، والملا الأعلى الملائكة وأشراقهم. ﴿وَيَقْدُفُونَ﴾ ويؤمنون. ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا صعوده.

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾

(٩) ﴿دُحُورًا﴾ علة أي للدحور وهو الطرد، أو مصدر لأنه والقذف متقاربان، أو حال بمعنى مدحورين أو منزوع عنه الباء جمع دُحِر، وهو ما يُطْرَدُ به ويقويه القراءة بالفتح، وهو يحتمل أيضاً أن يكون مصدراً كالقبول أو صفة له أي قذفاً دحوراً. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي عذاب آخر. ﴿وَاصِبٌ﴾ دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة.

(١٠) ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء من وإو يسمعون ومن بدل منه، والخطف الاختلاس، والمراد اختلاسُ كلام الملائكة مسارقةً ولذلك عرف الخطفة. وقرئ خَطَفَ بالتشديد مفتوح الخاء ومكسورها، وأصلها اختطف. ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ أتبع بمعنى تبع، والشهاب ما يرى كأنَّ كوكباً انقضَّ، وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين إن صحَّ لم يناف ذلك، إذ ليس فيه ما يدلُّ على أنه ينقض من الفلك ولا في قوله ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾^(١) فَإِنَّ كُلَّ نَبْرٍ يحصل في الجوّ العالي فهو مصباح لأهل الأرض، وزينة للسماء من حيث إنه يرى كأنه على سطحه، ولا يبعد أن يصير الحادث كما ذكر في بعض الأوقات رجماً لشياطين تصعد إلى قُرب الفلك للتسمع، وما روي أن ذلك حدث بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام إن صحَّ فلعل المراد كثرة وقوعه أو مصيره دحوراً. واختلف في أن المرجوم يتأذى به فيرجع أو يحترق به، لكن قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يتردعون عنه رأساً، ولا يُقال إنَّ الشيطان من النار فلا يحترق، لأنه ليس من النار الصّرف كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها. ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء كأنه يثقب الجوّ بضوئه.

(١١) ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبرهم، والضمير لمشركي مكة أو لبني آدم. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ يعني ما ذكر من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما، والمشارق والكواكب والشهب الثواقب، ومن لتغليب العقلاء ويدلُّ عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك، وقراءة من قرأ أم من عدّنا، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم وكعاد وثمود، وإن المراد إثبات المعاد ورد استحالته، والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى من قبلهم سواء، وتقريره أن استحالة ذلك إما لعدم قابلية المادة، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب الحاصل من ضمّ الجزء المائي إلى الجزء الأرضي،

وهما باقياَن قَابِلَانِ لِلانضمامِ بعدُ، وقد علموا أنَّ الإنسانَ الأولَ إنما تولَّد منه إما لاعترافهم بحدوثِ العالمِ أو بقصةِ آدمَ، وشاهدوا تولَّد كثيرٌ مِنَ الحيواناتِ منه بلا توسُّطِ واقعةٍ، فلزِمَهم أن يَجُوزُوا إعادَتَهم كذلك، وإما لعدمِ قدرةِ الفاعلِ، وَمَنْ قَدَرَ على خَلْقِ هذه الأشياءِ قَدَرَ على ما لا يُعْتَدُّ به بالإضافةِ إليها سَيِّما وَمِنْ ذلكَ بذوُّهم أولاً، وقدرته ذاتيةٌ لا تتغيَّرُ.

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ آءَا مِنَّا وَكَأَنَّا نُرْآكُمَا وَعَظْمًا آءَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَّابًا أَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾

(١٢) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى وإنكارهم للبعث. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجُّبك وتقريرك للبعث، وقرأ حمزة والكسائيُّ بضمِّ التاء أي بلغ كمال قدرتي وكثرة خلائقي أن تعجبتُ منها، وهؤلاء لجَهْلهم يسخرون منها. أو عَجِبْتُ من أن ينكِرَ البعثُ ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يجوزُه. والعجبُ من الله تعالى إما على الفرضِ والتخييلِ أو على معنى الاستعظامِ اللازمِ له فإنه روعةٌ تعتري الإنسانَ عند استعظامه الشيء، وقيل إنه مقدَّرُ بالقولِ أي: قال يا محمدُ بل عَجِبْتَ.

(١٣) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ وإذا وُعِظُوا بشيءٍ لا يَتَعَطَّونَ به، أو إذا ذُكِّرَ لهم ما يدلُّ على صِحَّةِ الحشرِ لا ينتفعون به لبلاذتهم وقلةِ فِكْرهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزةٌ تدلُّ على صدقِ القائلِ به. ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾ يبالغون في السخرية ويقولون إنه سحرٌ، أو يستدعي بعضهم من بعضٍ أن يسخرَ منها.

(١٥) ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا﴾ يعنون ما يَرَوْنَهُ. ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ سِخْرِيَّتُهُ.

(١٦) ﴿آءَا مِنَّا وَكَأَنَّا نُرْآكُمَا وَعَظْمًا آءَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصلُه انبعث إذا مِتْنَا فبدَّلوا الفعليةَ بالاسميةَ وقَدَّموا الظرفَ وكزُّوا الهمزةَ مبالغةً في الإنكارِ، وإشعاراً بأنَّ البعثَ مستنكِرٌ في نفسه وفي هذه الحالةِ أشدُّ استنكاراً، فهو أبلغُ من قراءةِ ابنِ عامرٍ بطرحِ الهمزةِ الأولى، وقراءةُ نافعٍ والكسائيِّ ويعقوبَ بطرحِ الثانيةِ.

(١٧) ﴿أَوَّابًا أَوَّلُونَ﴾ عطفٌ على محلٍّ إنَّ واسمِها، أو على الضميرِ في مبعوثون فإنه مفعولٌ منه بهمزةِ الاستفهامِ لزيادةِ الاستبعادِ لبعْدِ زمانهم، وسكَّن نافعٌ بروايةِ قالونَ بنِ عامرٍ والواوُ على معنى التريديدِ.

(١٨) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون، وإنما اكْتُفِيَ به في الجوابِ لِسَبْقِ ما يدلُّ على جوازِهِ وقيامِ المعجزِ على صدقِ المخبرِ عن وقوعه، وقُرِئَ قال أي اللهُ أو الرسولُ، وقرأ الكسائيُّ وحده نَعَمْ بالكسرِ وهو لغةٌ فيه.

(١٩) ﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ جوابٌ شرطٍ مقدَّرٍ أي إذا كان ذلك فإنما البعثةُ زجرةٌ أي صيحةٌ واحدةٌ، وهي النفخةُ الثانيةُ من زَجَرِ الراعي غَنَمَهُ إذا صاحَ عليها وأمرها في الإعادةِ كأمرِ كُنْ في الإبداءِ، ولذلك رُتِبَ عليها. ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ فإذا هم قيامٌ من مراقبهم أحياءٌ يبصرون، أو ينتظرون ما يُفَعَّلُ بهم.

وَقَالُوا يَنْتَوِينَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٠) ﴿وَقَالُوا يَنْتَوِينَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ اليوم الذي نُجَازَى بأعمالنا وقد تمَّ به كلامهم وقوله:

(٢١) ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ جوابُ الملائكة، وقيل هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض، والفصلُ القضاء، أو الفرقُ بينَ المحسينَ والمسيء.

(٢٢) ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَمَرُ الله للملائكة، أو أَمَرُ بعضهم لبعضٍ بحشرِ الظَّالِمَةِ من مقامهم إلى الموقف. وقيل منه إلى الجحيم. ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وأشباهم عابد الصنم مع عبدة الصنم وعابد الكوكب مع عبدة كقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾^(١) أو نساءهم اللاتي على دينهم أو قرناءهم من الشياطين. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

(٢٣) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرها زيادةً في تحسيرهم وتخجيلهم، وهو عامٌ مخصوصٌ بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾^(٢) الآية، وفيه دليلٌ على أنَّ الذين ظلموا هم المشركون. ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ فعرفوهم طريقاً ليسلكوها.

(٢٤) ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف. ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم، والواو لا توجبُ الترتيبَ مع جوازِ أن يكونَ موقفهم متعدداً.

(٢٥) ﴿مَا لَكُمْ لَا نَنْصَرُونَ﴾ لا ينصُرُ بعضُكم بعضاً بالتخليص، وهو توبيخٌ وتقريعٌ.

(٢٦) ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادونٌ لعجزهم وانسدادِ الحِيلِ عليهم، وأصلُ الاستسلام طلبُ السلامة أو متسلمون كأنه يسلمُ بعضهم بعضاً ويخذه.

(٢٧) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساء والأتباع أو الكفرةَ والقرناء. ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسألُ بعضهم بعضاً للتوبيخ ولذلك فسَّرَ بيخصاصمون.

(٢٨) ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه وأيمنها، أو عن الدين، أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نافع السانح فتبغناكم وهلكنا، مستعارٌ من يمينِ الإنسان الذي هو أقوى الجانبين وأشرفهما وأنفعهما، ولذلك سُمِّيَ يميناً وتيمَّنَ بالسانح، أو عن القوة والقهر فتقُسرونا على الضلال، أو عن الحلفِ فإنهم كانوا يحلفون لهم إنهم على الحق.

(٢٩) ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) الواقعة: (٧).

(٢) الأنبياء: (١٠١).

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰيْقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰلِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَٰتِنَا لِشَاِعٍ تَجْنُونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَٰيِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٠) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أجابهم الرؤساء أولاً بمنع إضلالهم بأنهم ضالّين في أنفسهم، وثانياً بأنهم ما أجبروهم على الكفر إذ لم يكن لهم عليهم تسلط وإنما جنحوا إليه لأنهم كانوا قوماً مختارين الطغيان.

(٣١) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰيْقُونَ﴾.

(٣٢) ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰلِينَ﴾ ثم بيّنوا أنّ ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمراً مقضياً لا محيص لهم عنه، وإن غاية ما فعلوا بهم أنهم دَعَوْهُمْ إلى الغي لأنهم كانوا على الغي فاحبُّوا أن يكونوا مثلهم، وفيه إيماء بأن غوايتهم في الحقيقة ليست من قبيلهم إذ لو كان كلُّ غواية لإغواء غاوٍ فَمَنْ أَغْوَاهُمْ.

(٣٣) ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فَإِنَّ الْأَتْبَاعَ وَالتَّبَوِّعِينَ. ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية.

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل. ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بالمشاركين لقوله تعالى:

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن كلمة التوحيد، أو على مَنْ يدعوهم إليه.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَٰتِنَا لِشَاِعٍ تَجْنُونَ﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام.

(٣٧) ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ردُّ عليهم بأن ما جاء به من التوحيد حقٌ قام به البرهان وتطابق عليه المرسلون.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمْ لَذَٰيِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسل^(١)، وقرئ بنصب العذاب، على تقدير

النون كقوله:

وَلَا ذَاكِرُ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا

وهو ضعيفٌ في غير المحلّ باللام وعلى الأصل.

(٣٩) ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع إلا أن يكون الضمير في تُجْزَوْنَ لجميع المكلفين

فيكون استثناءؤهم عنه باعتبار المماثلة، فإن ثوابهم مضاعفٌ، والمنقطع أيضاً بهذا الاعتبار.

(١) الالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم (س ٧/ ١٩٠).

أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكُهُمْ مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيَّضَاءَ لَّدُنْهُ لِلشَّرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

(٤١) ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ خصائصه من الدوام، أو تمخُّص اللذة ولذلك فسَّره بقوله:

(٤٢) ﴿فَوَاكُهُمْ﴾ فَإِنَّ الفاكهة ما يقصدُ للتلذُّذ دون التغذية والقوت بالعكس، وأهل الجنة لما أُعِيدُوا على خَلْقَةٍ مُحْكَمَةٍ محفوظة عن التحلُّل كانت أرزاقهم فواكه خالصة. ﴿وَهُمْ مُّكْرَمُونَ﴾ في نيِّله يصل إليهم من غير تعب وسؤال كما عليه رزق الدنيا.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ في جنات ليس فيها إلا النعيم، وهو ظرف أو حال من المستكن في مكرمون، أو خبر ثانٍ لأولئك وكذلك:

(٤٤) ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ يَحْتَمِلُ الحال أو الخبر فيكون: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حالاً من المستكن فيه أو في مكرمون، وأن يتعلَّق بمتقابلين فيكون حالاً من ضمير مكرمون.

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر أو خمر كقوله: وَكَأْسٌ شَرِبْتَ عَلَى لَذَّةٍ. ﴿مِّنْ مَّعِينٍ﴾ من شراب معين، أو نهر معين أي ظاهر للعيون، أو خارج من العيون، وهو صفة للماء من عان الماء إذا تَبَعَ. وَصَفَ به خمر الجنة لأنها تجري كالماء، أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يُطْلَبُ من أنواع الأشربة لكمال اللذة، وكذلك قوله:

(٤٦) ﴿بَيَّضَاءَ لَّدُنْهُ لِلشَّرِبِينَ﴾ وهما أيضاً صفتان لكأس، ووصفها بلذَّة إما للمبالغة أو لأنها تأتي لذ بمعنى لذيذ كطَبَّ ووزنه فَعْلٌ قال:

وَلَذُّ كَطَنَمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكْتُهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ^(١)

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ غائلة كما في خمر الدنيا كالخمار من غاله يغوله إذا أفسده ومنه الغول. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ يسكرون من نَزَفَ الشارب فهو نزيفٌ ومزوفٌ إذا ذهب عقله، أفرده بالنفي وعطفه على ما يعثمه لأنه من عِظَمِ فسادِه كأنه جنسٌ برأسه. وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي وتابعهما عاصم في الواقعة من أنزَفَ الشارب إذا نَقَدَ عقله أو شرابه، وأصله للنفاذ يُقَالُ نَزَفَ المطعون إذا خرج دمه كله ونزحت الركيَّة حتى نرفتھا.

(٤٨) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قَصَرْنَ أَبْصَارَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ. ﴿عِينٌ﴾ نُجِّلَ الْعْيُونُ^(٢) جمع عيناء.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شَبَّهَهُنَّ بِبَيْضِ التَّعَامِ المصون عن الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صُفْرَةٍ؛ فإنه أحسن ألوان الأبدان.

(١) من الطويل.

(٢) نُجِّلَ الْعْيُونُ أي واسعات العيون (المصباح المنير مادة نجل).

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾
 أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْ نَأْتِيَنَّهُم مَّطْلِعُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
 تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى
 وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ معطوفٌ على يُطَافُ عليهم أي يشربون فيتحدّثون على الشراب قال:

وَمَا بَقِيََتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ^(١)
 والتعبيرُ عنه بالماضي للتأكيد فيه فإنه الذُّ تلك اللذاتِ إلى العقل، وتساؤلهم عن المعارفِ والفضائلِ وما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

(٥١) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ في مكالمتهم. ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ جليسٌ في الدنيا.

(٥٢) ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ يوبّخني على التصديق بالبعث، وقرىء بتشديد الصاد من التصديق.

(٥٣) ﴿أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْ نَأْتِيَنَّهُم مَّطْلِعُونَ﴾ لمجزيون من الدين بمعنى الجزاء.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائل. ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، وقيل القائل هو الله أو بعض الملائكة يقول لهم: هل تحبون أن تطَّلِعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم؟ وعن أبي عمرو مَطْلِعُونَ فَأُطْلِعَ بالتخفيف وكسر النون وضمّ الألفِ على أنه جعل اطلاعهم سبب اطلاعهم من حيث أن أدب المجالسة يمنع الاستبداد به، أو خاطب الملائكة على وضع المتصلِ موضع المنفصلِ كقوله:

هُمُ الْأَمْرُونَ الْخَيْرَ وَالْفَاعِلُونَ

أو شبه اسم الفاعل بالمضارع.

(٥٥) ﴿فَأَطْلَعَ﴾ عليهم. ﴿قَرَاءَهُ﴾ أي قرينه. ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسطه.

(٥٦) ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزْدِينَ﴾ لتهلكني بالإغواء، وقرىء لتَغْوِينَ وإن هي المخففة واللام هي الفارقة.

(٥٧) ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهداية والعصمة. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك فيها.

(٥٨) ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ أي أنحنُ مخلّدون منعمون فما نحن بميتين، أي بمن شأنه الموت، وقرىء بمائتين.

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾ التي كانت في الدنيا وهي متناولَةٌ لما في القبر بعد الإحياء للسؤال، ونَصَبَهَا على المصدرِ من اسم الفاعل. وقيل على الاستثناء المنقطع. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكفار، وذلك تمام كلامه لقرينه تقريباً له أو معاودةً إلى مكالمته جلسائه تحدّثاً بنعمة الله، أو تبجّحاً بها وتعجباً

منها وتعريضاً للقرين بالتوبيخ.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَكَاكُونٌ مِّنْهَا الْبُطُونُ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

(٦٠) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللَّهِ لِتَقْرِيرِ قَوْلِهِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَةِ وَالْخُلُودِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْعَذَابِ.

(٦١) ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أَي لِنِيلِ مِثْلِ هَذَا يَجِبُ أَنْ يَعْمَلَ الْعَامِلُونَ لَا لِلْحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَشْبُوبَةِ بِالْآلَامِ السَّرِيعَةِ الْإِنْصِرَامِ، وَهُوَ أَيْضاً يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ.

(٦٢) ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ شَجَرَةٌ ثَمَرُهَا نُزِّلَ لِأَهْلِ النَّارِ، وَانْتِصَابُ نُزْلاً عَلَى التَّمْيِيزِ أَوْ الْحَالِ، وَفِي ذِكْرِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَا ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ بِمَنْزِلَةِ مَا يُقَامُ لِلنَّازِلِ، وَلَهُمْ وَرَاءَ ذَلِكَ مَا تَقْصُرُ عَنْهُ الْأَفْهَامُ، وَكَذَلِكَ الزَّقُّومُ لِأَهْلِ النَّارِ، وَهُوَ اسْمُ شَجَرَةٍ صَغِيرَةٍ الْوَرَقِ ذِفِرٌ مَرَّةٌ تَكُونُ بَتَهَامَةً سُمِّيَتْ بِهِ الشَّجَرَةُ الْمَوْصُوفَةُ.

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ مُحَنَّةٌ وَعَذَابٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ ابْتِلَاءٌ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا أَنَّهَا فِي النَّارِ قَالُوا كَيْفَ ذَلِكَ وَالنَّارُ تَحْرِقُ الشَّجَرَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ حَيَوَانٍ يَعِيشُ فِي النَّارِ وَيَلْتَذُّ بِهَا فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى خَلْقِ الشَّجَرِ فِي النَّارِ وَحِفْظِهِ مِنَ الْإِحْرَاقِ.

(٦٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ مُنْبَتُّهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ وَأَغْصَانُهَا تَرْتَفِعُ إِلَى دَرَكَاتِهَا.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا﴾ حَمَلُهَا مُسْتَعَارٌ مِنْ طَلْعِ التَّمْرِ لِمِشَارَكَةِ إِيَّاهُ فِي الشَّكْلِ، أَوْ الطَّلُوعِ مِنَ الشَّجَرِ. ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فِي تَنَاهِي الْقُبْحِ وَالْهَوْلِ، وَهُوَ تَشْبِيهٌُ بِالْمُتَخَيَّلِ كَتَشْبِيهِ الْفَاتِكِ الْحَسَنِ بِالْمَلَكِ. وَقِيلَ الشَّيَاطِينُ حَيَاتٌ هَائِلَةٌ قَبِيحَةٌ الْمَنْظَرِ لَهَا أَعْرَافٌ، وَلَعَلَّهَا سُمِّيَتْ بِهَا لِذَلِكَ.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ لَكَاكُونٌ مِّنْهَا﴾ مِنَ الشَّجَرَةِ أَوْ مِنْ طَلْعِهَا. ﴿فَمَا لَوْ كُنَّا مِنْهَا الْبُطُونُ﴾ لَغَلْبَةِ الْجُوعِ أَوْ الْجَبْرِ عَلَى أَكْلِهَا.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أَي بَعْدَ مَا شَبِعُوا مِنْهَا وَغَلَبَهُمُ الْعَطَشُ وَطَالَ اسْتِسْقَاؤُهُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ لَمَّا فِي شَرَابِهِمْ مِنْ مَزِيدِ الْكَرَاهَةِ وَالْبِشَاعَةِ. ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لَشَرَاباً مِنْ غَسَّاقٍ، أَوْ صَدِيداً مَشُوباً بِمَاءٍ حَمِيمٍ يَقْطَعُ أَمْعَاءَهُمْ، وَقُرِءَ بِالضَّمِّ وَهُوَ اسْمُ مَا يُشَابُّ بِهِ، وَالْأَوَّلُ مُصَدَّرٌ سُمِّيَ بِهِ.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مُصِيرُهُمْ. ﴿لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ إِلَى دَرَكَاتِهَا أَوْ إِلَى نَفْسِهَا، فَإِنَّ الزَّقُّومَ وَالْحَمِيمَ نُزِّلَ يُقَدَّمُ إِلَيْهِمْ قَبْلَ دُخُولِهِمْ، وَقِيلَ الْحَمِيمُ خَارِجٌ عَنْهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾^(١) يوردون إليه كما تُورَدُ الْإِبِلُ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى الْجَحِيمِ، وَيُؤْيِذُهُ أَنَّهُ

قُرِئَ ثُمَّ إِنَّ مِنْ قَلْبِهِمْ .

إِنَّهُمْ أَلَفُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ .

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال، والإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يُزَعَجُونَ على الإسراع على آثارهم، وفيه إشعارٌ بأنهم بادروا إلى ذلك من غير توقُّفٍ على نظريٍّ وبخثٍ .

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك . ﴿أَكْثَرُ الْأُولِينَ﴾ .

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أنبياءً أنذروهم من العواقب^(١) .

(٧٣) ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ من الشدة والفضاعة .

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلا الذين تنبَّهوا بإنذارهم فاخلصوا دينهم لله، وقرئ بالفتح^(٢) أي الذين أخلصهم الله لدينه، والخطاب مع الرسول ﷺ، والمقصود خطاب قومهم فإنهم أيضاً سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم .

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ﴾ شروع في تفصيل القصص بعد إجمالها، أي ولقد دعانا حين أيس من قومهم . ﴿فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف منها ما حذف لقيام ما يدل عليه .

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الغرق أو أذى قومهم .

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ إذ هلك من عداهم وبقوا متناسلين إلى يوم القيامة، إذ روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير بنيهِ وأزواجهم .

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمر .

(٧٩) ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ﴾ هذا الكلام جيء به على الحكاية والمعنى يسلمون عليه تسليماً . وقيل هو سلام من الله عليه ومفعول تركنا محذوف مثل الشاء . ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ متعلقٌ بالجاء والمجرور ومعناه الدعاء بشوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعاً .

(١) تكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (س ٧/ ١٩٥) .

(٢) قوله: وقرئ بالفتح، أي بفتح اللام من قوله «المخلصين» .

(٨٠) ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لما فعل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة له على إحسانه .

﴿ إِنَّمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿ ٨٢ ﴾ ﴿ وَآتَ مِنْ شَيْعِنِهِ لِبَرَاهِيمَ ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ ﴿ ٨٤ ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿ ٨٥ ﴾ أَفَبِكُلِّ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿ ٨٦ ﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٨٧ ﴾ فَتَنَّا نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿ ٨٨ ﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿ ٨٩ ﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿ ٩٠ ﴾

(٨١) ﴿ إِنَّمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره وأصاله أمره .

(٨٢) ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ يعني كفار قومه .

(٨٣) ﴿ وَآتَ مِنْ شَيْعِنِهِ ﴾ ممن شايعة في الإيمان وأصول الشريعة . ﴿ لِبَرَاهِيمَ ﴾ ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالباً ، وكان بينهما ألفان وثمانية وأربعون سنة ، وكان بينهما نبيان هوذا وصالح .

(٨٤) ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ ﴾ متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة أو بمحذوف هو اذكر . ﴿ بِقَلْبِ سَلِيمٍ ﴾ من آفات القلوب أو من العلائق خالص لله أو مخلص له ، وقيل حزين من السليم بمعنى اللديغ . ومعنى المجيء به ربه : إخلاصه له كأنه جاء به متحفاً إيّاه .

(٨٥) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ بدل من الأولى أو ظرف لجاء أو سليم .

(٨٦) ﴿ أَفَبِكُلِّ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أي تريدون آلهة دون الله إفاً مقدّم المفعول للعناية ثم المفعول له لأن الأهم أن يقرر أنهم على الباطل ومبني أمرهم على الإفك ، ويجوز أن يكون إفاً مفعولاً به ، وآلهة بدل منه على أنها إفاً في نفسها للمبالغة ، أو المراد بها عبادتها بحذف المضاف أو حالاً بمعنى إفكين .

(٨٧) ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته ، أو أشركتم به غيره أو امتنتم من عذابه ، والمعنى إنكار ما يوجب ظناً فضلاً عن قطع يصد عن عبادته ، أو يجوز الإشراك به أو يقتضي الأمن من عقابه على طريقة الإلزام وهو كالحجة على ما قبله .

(٨٨) ﴿ فَتَنَّا نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ فرأى مواقعها وأتصالاتها ، أو في علمها أو في كتابها ، ولا منع منه مع أن قصده إيهامهم وذلك حين سألوه أن يعبد معهم .

(٨٩) ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أراهم أنه استدلل بها لأنهم كانوا منجمين على أنه مشارف للسقم لثلاثي يخرجوه إلى مغبدهم ، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون وكانوا يخافون العدوى ، أو أراد إني سقيم القلب لكفركم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو منه أو بصد الموت ومنه المثل : كفى بالسلامة داء ، وقول لبيد :

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِداً لِيُصَحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ

(٩٠) ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ هاربين مخافة العدوى .

فَرَاغَ إِلَىٰ إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ إِلَهِهِمْ﴾ فذهب إليها في خفية من روعة الثعلب وأصله الميل بحيلة. ﴿فَقَالَ﴾ أي للأصنام استهزاء. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعام الذي كان عندهم.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ﴾ بجوابي.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمال عليهم مستخفياً، والتعديء بعلى للاستعلاء وإن الميل لمكروه. ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ مصدر لراغ عليهم لأنه في معنى ضربهم، أو لمضمر تقديره فراغ عليهم يضربهم وتقيدته باليمين للدلالة على قوته فإن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل، وقيل باليمين بسبب الحلف وهو قوله ﴿وَاللَّهُ لَا كِيدَ إِلَّا لَهُ الْكَاسِبِينَ﴾^(١).

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة ويحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو كما شرحه في قوله ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهَيْنَا﴾^(٢) الآية. ﴿يَزْفُونَ﴾ يسرعون، من زفيف النعام. وقرأ حمزة على بناء المفعول من أَرْفَهُ أي يحملون على الزفيف. وقرئ يَزْفُونَ أي يزف بعضهم بعضاً، وَيَزْفُونَ من وزف يزف إذا أسرع، وَيَزْفُونَ من زفاه إذا حداه كان بعضهم يزف بعضهم لتسارعهم إليه.

(٩٥) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ما تنحتونه من الأصنام.

(٩٦) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تعملونه فإن جوهرها بخلقها وشكلها وإن كان بفعالهم، ولذلك جعل من أعمالهم، فياقداره إياهم عليه وخلقها ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعدد، أو عملكم بمعنى معمولكم ليطابق ما تنحتون، أو إنه بمعنى الحدث فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى فيهم كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك، وبهذا المعنى تمسك أصحابنا على خلق الأعمال، ولهم أن يرجحوه على الأولين لما فيهما من حذف أو مجاز.

(٩٧) ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدة من الجحمة وهي شدة التأجج، واللام بدل الإضافة، أي جحيم ذلك البنيان.

(٩٨) ﴿فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ فإنه لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً ثيراً على علو شأنه، حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً.

(٩٩) ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني ربي وهو الشام، أو حيث أنتجرت فيه لعبادته. ﴿سَيِّدِينَ﴾ إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي، وإنما بت القول لسبق وعده أو لفرط توكله، أو

(١) الأنبياء: ٥٧.

(٢) الأنبياء: ٥٩.

البناء على عادته معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه الصلاة والسلام حين ﴿قَالَ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(١) فلذلك ذُكِرَ بصيغة التوقع.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَنَابِتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

(١٠٠) ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة، يعني الولد لأن لفظ الهبة غالب فيه ولقوله:

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ بشره بالولد وبأنه ذَكَرٌ يبلغ أوان الحُلُم، فإنَّ الصبي لا يوصف بالحلم ويكون حليماً وأي حلم مثل حلمه حين عَرَضَ عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢). وقيل ما نَعَتَ الله نبياً بالحلم لعزّة وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام، وحالهما المذكورة بعد تشهّد عليه.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ﴾ أي فلما جدَّ وبلغ أن يسعى معه في أعماله، ومعه متعلّق بمحذوف دل عليه السعي لا به لأنَّ صلة المصدر لا تتقدّمه ولا يبلغ فإنَّ بلوغهما لم يكن معاً كأنه قال: فلما بلغ السعي فليل مع مَنْ فليل معه. وتخصيصه لأنَّ الأب أكمل في الرفق والاستصلاح له فلا يستسعيه قبل أوانه، أو لأنه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة. ﴿قَالَ يَبْنَؤُا﴾ وقرأ حفص بفتح الياء. ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ يُخْتَمَلُ أنه رأى ذلك وأنه رأى ما هو تعبيرة وقيل إنه رأى ليلة التروية أن قائلاً يقول له: إِنَّ الله يأمر بك بذبح ابنك، فلما أصبح روى^(٣) أنه من الله أو من الشيطان، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره وقال له ذلك، ولهذا سُمِّيَت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر، والأظهر أن المخاطب إسماعيل عليه السلام لأنه الذي وهب له أثره الهجرة ولأنَّ البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام «أنا ابن الذبيحين»^(٤). فأحدهما جدّه إسماعيل والآخر أبوه عبدالله، فإنَّ جدّه عبدالمطلب نذر أن يذبح

(١) القصص: (٢٢).

(٢) الصافات: (١٠٢).

(٣) روى أي تفكّر في الأمر ونظر فيه من الزوّة وهو التفكير.

(٤) قال الألباني في «الضعيفة» (رقم: ٣٣١) «لا أصل له بهذا اللفظ» هـ.

قلت: أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج ٢٣/٨٥) والحاكم في المستدرک (٥٥٤/٢) من رواية الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم، فقال بعضهم: الذبيح إسماعيل وقال بعضهم: إسحاق الذبيح، فقال معاوية: سقطتم على الخبير، كنا عند رسول الله ﷺ فأناه الأعرابي فقال: يا رسول الله خلقت البلاد يابسة والماء يابساً، هلك المال، وضاع العيال فعد علي بما آفاه الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، فقلنا: يا أمير المؤمنين وما الذبيحان؟ قال إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم نذر، فذكره... هـ.

ولداً إن سهل الله له حفر زمزم أو بلغ بنوه عشرة، فلما سهل أقرع فخرج السهم على عبد الله ففداه بمائة من الإبل، ولذلك سُنَّتِ الدية مائة، ولأن ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة، ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ أيُّ النسب أشرف فقال: «يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله»^(١) فالصحيح أنه قال: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم والزوائد من الراوي. وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء فيهما. ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرْىٰ﴾ من الرأي، وإنما شاوره فيه وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله فثبتت قدمه إن جزع، ويأمن عليه إن سلم وليوطن نفسه عليه فيهنو ويكتسب المثوبة بالانقياد له قبل نزوله. وقرأ حمزة والكسائي ما ذا تُري بضم التاء وكسر الراء خالصة، والباقون بفتحها، وأبو عمرو يميلُ فتحة الراء، وورش بين وبين، والباقون بإخلاص فتحها. ﴿قَالَ يَكْتُبُ﴾ وقرأ ابن عامر بفتح التاء. ﴿أَفَعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به فحذفاً دفعة، أو على الترتيب كما عرفت أو أمرَك على إرادة المأمور به والإضافة إلى المأمور، أو لعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به، أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر، ولعل الأمر في المنام دون اليقظة لتكون مبادرتهم إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والإخلاص، وإنما ذكر بلفظ المضارع لتكرار الرؤيا. ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ على الذبيح أو على قضاء الله، وقرأ نافع بفتح الياء.

(١٠٣) ﴿فَلَمَّا آسَلَمَا﴾ استسلمات لأمر الله أو سلما الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه، وقد قرى بهما وأصلها سلم هذا لفلان إذا خلص له فإنه سلم من أن ينازع فيه. ﴿وَتَلَّامُ لِّلْجَبِينِ﴾ صرعه على شقه فوق جبينه

= وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي: إسناده واه.

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٨٤/١٠) رقم (١٠٢٧٨) من حديث ابن مسعود، أن النبي ﷺ سئل من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله»، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٠٢/٨). وقال «رواه الطبراني، وبقي مدلس، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه» هـ. قال الألباني في «الضعيفة» (رقم: ٣٣٤): «ولكن بقية قد توبع عليه، فقد رواه ابن المظفر في «غرائب شعبة» (١/١٣٨) عن معاوية بن حفص وبقيّة معاً عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود به. ورواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وهو الصواب أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٨/٩) رقم (٨٩١٦). قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساقه في تفسيره (١٩/٤): «وهذا صحيح عن ابن مسعود».

قال الألباني: والحديث صحيح مرفوعاً دون قوله «إن إسحاق ذبيح الله» فإن هذه الزيادة منكورة. فقد أخرج البخاري (٤١٤٣/٦) رقم (٣٣٧٤) و(٤١٧/٦) رقم (٣٣٨٣) و(٤٦٨٩) رقم (٣٨٩/٦) و(٣٣٥٣). ومسلم (١٨٤٦/٤) رقم (٢٣٧٨/١٦٨) من حديث أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فمن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». فالحديث ليس فيه «ذبيح الله» فدل على نكارتها. وقد جاءت أحاديث في أن إسحاق هو الذبيح ولكنها كلها ضعيفة... هـ.

على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة. وقيل كبّه على وجهه بإشارته لثلا يرى فيه تغيراً يرقُّ له فلا يذبّه، وكان ذلك عند الصخرة بمئى، أو في الموضع المشرف على مسجده، أو المنحَر الذي يُنحَر فيه اليوم.

وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُ إِبرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾

(١٠٤) ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُ إِبرَاهِيمُ﴾ .

(١٠٥) ﴿قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات. وقد روي أنه أمر السكين بقوّته على حلّقه مراراً فلم تقطع، وجواب لما محذوف تقديره كان ما كان مما ينطلق به الحال ولا يحيط به المقال، من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوقن غيرهما لمثله، وإظهار فضلهما به على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لإفراج تلك الشدة عنهما بإحسانهما، واحتجّ به من جوّز النسخ قبل وقوعه فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالذبح لقوله ﴿يَا أَبَتِ افعل ما تؤمر﴾^(١) ولم يحصل.

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الابتلاء البين الذي يتميّز فيه المخلص من غيره، أو المحنة البينة الصعوبة فإنه لا أصعب منها.

(١٠٧) ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ بما يُذبح بدله فیتّم به الفعل. ﴿عَظِيمٍ﴾ عظيم الجثة سمين، أو عظيم القدر لأنه يفدي به الله نبياً ابن نبي، وأيّ نبي من نسله سيد المرسلين. قيل كان كبشاً من الجنة. وقيل وغلاً أهبط عليه من ثبير. وروي أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سته، والفادي على الحقيقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإنما قال وفديناه لأن الله المعطي له والامر به على التجوّز في الفداء أو الإسناد، واستدلّ به الحنفية على أنّ من نذر ذبح وليس فيه ما يدل عليه.

(١٠٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ .

(١٠٩) ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبرَاهِيمَ﴾ سبق بيانه في قصة نوح عليه السلام.

(١١٠) ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لعلّه طرح عنه إنّ اكتفاء بذكره مرة في هذه القصة.

(١١١) ﴿إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

(١١٢) ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ مقضياً نبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشّر به وقت البشارة، فإنّ وجود ذي الحال غير شرط بل الشرط مقارنة

تعلقُ الفعلُ به لاعتبارِ المعنى بالحال، فلا حاجةَ إلى تقديرٍ مضافٍ يُجعلُ عاملاً فيهما مثلاً وبشرناه بوجودِ إسحقَ أي بأن يوجدَ إسحقُ نبياً من الصالحين، ومع ذلك لا يصيرُ نظيرُ قوله ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(١١) فإن الداخلينَ مقدرونَ خلودَهم وقتَ الدخول، وإسحقُ لم يكن مقدراً نبوةً نفسه وصلاحتها حينما يوجدُ، ومن فسرَ الذبيحَ بإسحقَ جعلَ المقصودَ من البشارة نبوته، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيمٌ لشأنه وإيماءٌ بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمالِ والتكميلِ بالفعل على الإطلاق.

وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ^{﴿١١٣﴾} وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ^{﴿١١٤﴾} وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ^{﴿١١٥﴾} وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ^{﴿١١٦﴾} وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ^{﴿١١٧﴾} وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ^{﴿١١٨﴾} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ^{﴿١١٩﴾} سَلَّمْنَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ^{﴿١٢٠﴾} إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^{﴿١٢١﴾} إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ^{﴿١٢٢﴾} وَإِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ^{﴿١٢٣﴾}

(١١٣) ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيمَ في أولاده. ﴿وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب، أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا، وقرىء وبركنا. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله أو إلى نفسه بالإيمان والطاعة. ﴿وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿مُيَسَّرٌ﴾ ظاهرٌ ظلّمه، وفي ذلك تنبيهٌ على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأنّ الظلم في أعقابها لا يعودُ عليهما بنقيصةٍ وعيبٍ.

(١١٤) ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من تغلب فرعون أو الغرق.

(١١٦) ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ ثم الضميرُ لهما مع القوم. ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ على فرعون وقومه.

(١١٧) ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة.

(١١٨) ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريق الموصِل إلى الحق والصواب.

(١١٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾.

(١٢٠) ﴿سَلَّمْنَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

(١٢١) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق مثل ذلك.

(١٢٣) ﴿وَإِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين سبط هرون أخي موسى بُعث بعده. وقيل إدريس لأنه قرىء إدريس وإدراش مكانه، وفي حرف أبي رضي الله عنه وإنَّ إيليس. وقرأ ابنُ ذكوان مع خلافٍ عنه بحذفِ همزة الياس.

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تُنتَفُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَخَّيْنَهُ وَآهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تُنتَفُونَ﴾ عذاب الله.

(١٢٥) ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه أو أتطلبون الخير منه، وهو اسم صنم كان لأهل بَكَّ من الشام وهو البلد الذي يُقال له الآن بعلبك. وقيل البعل الربُّ بلغة اليمن، والمعنى أتدعون بعض البعول. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وتركون عبادته، وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار المعني بالهمزة ثم صرح به بقوله:

(١٢٦) ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالنصب على البدل^(١).

(١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ﴾ أي في العذاب، وإنما أطلقه اكتفاءً منه بالقرينة، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عُرْفًا.

(١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ مستثنى من الواو لا من المحضرين لفساد المعنى.

(١٢٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

(١٣٠) ﴿سَلَامٌ عَلَى يَاسِينَ﴾ لغة في الياس كسيناء وسين، وقيل جمع له مراد به هو وأتباعه كالمهلبين، لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام أو للمنسوب إليه بحذف ياء النسب كالأعجيين وهو قليل ملبس، وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب على إضافة آل إلى ياسين لأنهما في المصحف موصولان فيكون ياسين أبا إلياس، وقيل محمد عليه الصلاة والسلام أو القرآن أو غيره من كتب الله، والكل لا يناسب نظم سائر القصص ولا قوله:

(١٣١) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٣٢) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ الظاهر أن الضمير لالياس.

(١٣٣) ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

(١٣٤) ﴿إِذْ بَخَّيْنَهُ وَآهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾.

(١٣٥) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾.

(١) والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكار تركهم عبادته تعالى، والإشعار ببطلان آراء آبائهم أيضاً (س/٧/٢٠٤).

ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُرَوِّنُهُمْ عَنْهُم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَالَيْلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِن يَأْمُرْ
لَعَيْنُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَمَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ
مِلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ
سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾

(١٣٦) ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ سبق بيانه.

(١٣٧) ﴿وَإِنَّا لَنُرَوِّنُهُمْ عَنْهُم مُّصْبِحِينَ﴾ على منازلهم في متاجرهم إلى الشام، فإنّ سدوم في طريقه. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

(١٣٨) ﴿وَيَالَيْلٍ﴾ أي ومساءً أو نهراً وليلاً، ولعلها وقعت قريب منزل يمرُّ بها المرتحل عنه صباحاً والفاصد لها مساءً. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس فيكم عقلٌ تعتبرون به.

(١٣٩) ﴿وَإِن يَأْمُرْ لَعَيْنُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقرئ بكسر النون.

(١٤٠) ﴿إِذْ أَتَى هَرَبٌ﴾ هرب، وأصله الهرب من السيّد لكن لما كان هرباً من قومه بغير إذن ربّه حسن إطلاقه عليه. ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

(١٤١) ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع أهله. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة، وأصله المزلق عن مقام الظفر. روي ^(١) أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله، فركب السفينة فوقفت فقالوا: ها هنا عبدٌ أبى فافترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال أنا الأبى ورَمَى بنفسه في الماء.

(١٤٢) ﴿فَالْقَمَمَةُ الْخَوْتُ﴾ فابتلعه من اللقمة. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في الملامة، أو آت بما يُلام عليه أو ملِيمٌ نفسه، وقرئ بالفتح مبنياً من لَيْمَ كمشيب في مشوب.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره، أو في بطن الحوت وهو قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٢) وقيل من المصلين.

(١٤٤) ﴿لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حياً وقيل ميتاً، وفيه حثٌ على إكثار الذكر وتعظيم لشانه، ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء.

(١٤٥) ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه. ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالمكان الخالي عما يغطيه من شجرٍ أو نبت. روي ^(٣) أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونسُ ويسبح حتى انتهوا إلى البرِّ فلفظه، واختلف في مدة لبثه فقليل بعض يوم وقيل ثلاثة أيام وقيل سبعة، وقيل عشرون وقيل أربعون. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مما ناله، قيل صار بدنه كبذن الطفل حين يولد.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٤٣/٢٣) بصيغة التمريض.

(٢) الأنبياء: «٨٧».

(٣) ذكر ذلك الألوسي في «روح المعاني» (١٤٥/٢٣) بصيغة التمريض.

وَأَبْلَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقُطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَتَمَنَّوْا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتَيْهِمْ زَرَبًا لَّيِّنًا وَلَهُمْ أَلْبَنُوكَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾

(١٤٦) ﴿وَأَبْلَتْنا عَلَيْهِ﴾ أي فوقه مظلة عليه. ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَّقُطِينٍ﴾ من شجر ينسبط على وجه الأرض ولا يقوم على ساقه، يفعل من قطن بالمكان إذا أقام به، والأكثر على أنها كانت الدُّبَاءُ غَطَّتُهُ بأوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه، ويدل عليه أنه قيل لرسول الله ﷺ: «إنك لتحب القرع»، قال: «أجل هي شجرة أخي يونس»^(١). وقيل التين وقيل الموز تغطى بورقة واستظل بأغصانه وأظفر على ثماره.

(١٤٧) ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرب عنهم وهم أهل نينوى، والمراد به ما سبق من إرساله أو إرسال ثانٍ إليهم أو إلى غيرهم. ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في رأى الناظر أي إذا نظر إليهم، قال هم مائة ألف أو يزيدون والمراد الوصف بالكثرة وقرىء بالواو.

(١٤٨) ﴿فَتَمَنَّوْا﴾ فصدقوه أو فجددوا الإيمان به بمحضره. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى، ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع الكبر وأولي العزم من الرسل، أو اكتفاءً بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة.

(١٤٩) ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ زَرَبًا لَّيِّنًا وَلَهُمْ أَلْبَنُوكَ﴾ معطوف على مثله، في أول السورة أمر رسوله أولاً باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث، وساق الكلام في تقريره جازاً لما يلائمه من القصص، موصولاً بعضها ببعض، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمية حيث جعلوا الله البنات لأنفسهم البنين في قولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخرى، التجسيم وتجويز الفناء على الله تعالى، فإن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة، وتفضيل أنفسهم عليه حيث جعلوا أوضاع الجنسين له وأرفعهما لهم، واستهانتهم بالملائكة حيث أثوهم ولذلك كرر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله في كتابه مراراً، وجعله مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، والإنكار ها هنا مقصور على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما، أو لأن فسادهما مما تدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل للاستفهام عن التقسيم.

(١٥٠) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَهِدُونَ﴾ وإنما خص علم المشاهدة لأن أمثال ذلك لا تُعلم إلا بها، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكين معرفته بالعقل الصّرف مع ما فيه من الاستهزاء، والإشعار بأنهم لفزط جهلهم يثبتون به كأنهم قد شاهدوا خلقهم.

(١٥١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾

(١٥٢) ﴿وَلَدَّ اللَّهُ﴾ لعدم ما يقتضيه وقيام ما ينفيه. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يتدينون به، وقرىء ولد الله أي الملائكة ولده، فعّل بمعنى مفعول يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٤١ رقم ٢٩٨): لم أجده.

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتَنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾

(١٥٣) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء. وعن نافع كسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام لدلالة أم بعدها عليها، أو على الإثبات بإضمار القول أي لكاذبون في قولهم اصطفى، أو إبداله من وَلَدَ الله.

(١٥٤) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يرتضيه عقل.

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزه عن ذلك.

(١٥٦) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنائه.

(١٥٧) ﴿فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا﴾ يعني الملائكة ذكركم باسم جنسهم وضعا منهم أن يبلغوا هذه المرتبة، وقيل قالوا إن الله تعالى صاهر الجن فخرجت الملائكة، وقيل قالوا الله والشياطين إخوان^(١). ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ إن الكفرة أو الإنس والجن إن فسرت بغير الملائكة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في العذاب.

(١٥٩) ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الولد والنسب.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من المحضرين منقطع، أو متصل إن فسّر الضمير بما يعظمهم وما بينهما اعتراض، أو من يصفون.

(١٦١) ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عود إلى خطابهم.

(١٦٢) ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ على الله. ﴿بِفَتَنَيْنِ﴾ مفسدين الناس بالإغواء.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ إلا من سبق في علمه أنه من أهل النار، ويصلاها لا محالة، وأنتم ضمير لهم، ولآلهتهم غلب فيه المخاطب على الغائب، ويجوز أن يكون وما تعبدون لما فيه من معنى المقارنة ساداً مسدداً الخبر أي إنكم وآلهتكم قرناء لا تزالون تعبدونها، ما أنتم على ما تعبدونه بفاتنين بباعثين على طريق الفتنة إلا ضالاً مستوجباً للنار مثلكم، وقرىء صال بالضم على أنه جمع محمول على معنى من ساقط وواو الالتقاء الساكنين، أو تخفيف صائل على القلب كشاك في شائك، أو المحذوف منه كالمسي كما في قولهم: ما باليت به بالة، فإن أصلها بالية كعافية.

(١٦٤) ﴿وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم والمعنى:

(١) وفي جملة «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً» التفات إلى الغيبة للإيدان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكى جانيهم لآخرين (س ٢٠٨/٧).

وما مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فِي تَدْبِيرِ الْعَالَمِ، وَتُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا وَمَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ مِنْ كَلَامِهِمْ لِيَتَّصَلَ بِقَوْلِهِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ﴾^(١) كَأَنَّهُ قَالَ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّ الْمَشْرُكِينَ مُعَذَّبُونَ بِذَلِكَ وَقَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ تَزْيِهَا لَهُ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَشْنَوْا الْمَخْلَصِينَ تَبَرُّةً لَهُمْ مِنْهُ، ثُمَّ خَاطَبُوا الْمَشْرُكِينَ بِأَنَّ الْإِفْتِتَانَ بِذَلِكَ لِلشَّقَاوَةِ الْمَقْدَّرَةِ، ثُمَّ اعْتَرَفُوا بِالْعُبُودِيَّةِ وَتَفَاوُتِ مَرَاتِبِهِمْ فِيهِ لَا يَتَجَاوَزُونَهَا فَحُذِفَ الْمَوْصُوفُ وَأُقِيمَتِ الصِّفَةُ مَقَامَهُ.

وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ﴿١٧٠﴾ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٤﴾ فَنُفِّلْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٥﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٦﴾

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون الله عما لا يليق به، ولعلَّ الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة، وهذا في المعارف، وما في إنَّ واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص لأنهم المواظبون على ذلك دائماً من غير فترة دون غيرهم. وقيل هو من كلام النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين والمعنى: وما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ فِي الْجَنَّةِ أَوْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ وَالْمُنَزهَةِ لَهُ عَنِ السُّوءِ.

(١٦٧) ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ أي مشركو قريش.

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ كتاباً من الكتب التي نزلت عليهم.

(١٦٩) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة له ولم نخالف مثلهم.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي لما جاءهم الذِّكْرُ الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم.

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدنا لهم النَّصْرَ والغلبة وهو قوله:

(١٧٢) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾.

(١٧٣) ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وهو باعتبار الغالب والمقضى بالذات، وإنما سمَّاه كلمةً وهي كلمات لانظامهم في معنى واحد.

(١٧٤) ﴿فَنُفِّلْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر، وقيل يوم الفتح.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالهم حينئذ، والمراد بالأمر الدلالة على أن ذلك كائن قريب كأنه

قَدَامُهُ. ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ مَا قَضَيْنَا لَكَ مِنَ التَّأْيِيدِ وَالتُّصْرَةِ وَالثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَسَوْفَ لِلْوَعِيدِ لَا لِلتَّبْعِيدِ.

أَفْعِدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

(١٧٦) ﴿أَفْعِدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ روي ^(١) أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزلت.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ فإذا نزل العذاب بفنائهم، شَبَّهَ بِجَيْشٍ هَجَمَهُمْ فَأَنَاحَ بِفَنَائِهِمْ بَغْتَةً، وَقِيلَ الرَّسُولُ. وقرئ نزل على إسناده إلى الجائر والمجرور ونزل أي العذاب. ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فبئس صباح المنذرين صباحهم، واللام للجنس والصبح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب، ولما كثرت فيهم الهجومات والغارات في الصباح سموا الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر. (١٧٨) ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾.

(١٧٩) ﴿وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد إلى تأكيد، وإطلاق بعد تقييد للإشعار بأنه يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرة وأنواع المساءة، أو الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة.

(١٨٠) ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما قاله المشركون فيه على ما حكي في السورة، وإضافة الرب إلى العزة لاختصاصها به إذ لا عزة إلا له أو لمن أعزّه، وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية والثبوتية مع الإشعار بالتوحيد.

(١٨١) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ تميم للرسول بالتسليم بعد تخصيص بعضهم.

(١٨٢) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة ولذلك أخره عن التسليم، والمراد تعليم المؤمنين كيف يحمّدونه ويسلمون على رسله. وعن علي ^(٢) رضي الله عنه: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمَكْيَالِ الْأَوْفَى مِنَ الْأَجْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيَكُنْ آخِرَ كَلَامِهِ مِنْ مَجْلِسِهِ: سُبْحَانَ رَبِّكَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وعن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ وَالصَّافَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ جَنِيٍّ وَشَيْطَانٍ، وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ مَرَدَّةُ الْجَنِّ وَالشَّيَاطِينِ، وَبُرِّئَ مِنَ الشَّرِّ وَشَهِدَ لَهُ حَافِظُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْمُرْسَلِينَ» ^(٣).

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٥٦/٢٣).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٤١ رقم ٣٠٠): «أخرجه - عبدالرزاق - في المصنف (٢/٢٣٦ رقم ٣١٩٦) - والثعلبي من رواية الأصم بن نباته - الحنظلي التميمي لين الحديث، ليس بشيء (الجرح والتعديل: (٣١٩/٢ - ٣٢٠)) - عن علي موقوفاً. ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي ﷺ مرسلًا» هـ.

(٣) أخرجه الثعلبي، وابن مردويه والواحد من طرق عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران. وانظر «الكافي الشاف» (ص ١٤١ رقم ٣٠١).

سُورَةُ صَٰٓءٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثُّ
مَنَاصِرُ ﴿٣﴾ وَجِئُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجْتَبَأٌ ﴿٥﴾

سورة ص مكية^(١)، وآياتها ست أو ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿صَّ﴾ وقرىء بالكسر لالتقاء الساكنين، وقيل إنه أمرٌ من المصاداة بمعنى المعارضة، ومنه الصدى فإنه يعارض الصوت الأول، أي عارض القرآن بعملك، وبالفتح^(٢) لذلك أو لحذف حرف القسم وإيصال فعله إليه أو إضماره، والفتح في موضع الجر فإنها غير مصروفة لأنها علم السورة، وبالجر^(٣) والتنوين على تأويل الكتاب. ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الواو للقسم إن جعل ص اسماً للحرف، أو مذكوراً للتحدي، أو للرمز بكلام مثل صدق محمد عليه الصلاة والسلام، أو للسورة خبر المحذوف أو لفظ الأمر. وللعطف^(٣) إن جعل مُقْسَمًا به كقولهم: الله لأفعلن - بالجر - والجواب محذوف دل عليه ما في ص من الدلالة على التحدي أو الأمر بالمعادلة - أي إنه لمعجز أو لواجب العمل به - أو إن محمداً لصديق أو قوله:

(٢) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا به. ﴿فِي عِزِّهِمْ﴾ أي استكبار عن الحق. ﴿وَشِقَاقِي﴾ خلاف الله ورسوله ولذلك كفروا به، وعلى الأولين الإضراب أيضاً من

(١) انظر «الدر المنثور» (١٤٢/٧).

(٢) قوله (وبالفتح) أي وقرىء بالفتح، وكذا قوله (وبالجر).

(٣) قوله وللعطف معطوف على قوله (للقسم) أي والواو للعطف.

الجواب المقدّر، ولكن من حيث إشعاره بذلك، والمراد بالذّكر العِظَةُ أو الشرف والشهرة، أو ذِكرُ ما يحتاج إليه في الدين من العقائد والشرائع والمواعيد، والتكثير في عِزَّة وشقاق للدلالة على شدّتهما. وقرئ في عِزَّة أي غفلة عما يجب عليهم النظر فيه.

(٣) ﴿كَرَاهَلِكَايْنِ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ وعيدٌ لهم على كفرهم به استكباراً وشقاقاً. ﴿فَنَادَوْا﴾ استغاثة أو توبة أو استغفاراً. ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس الحين حين مناص. ولا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيت للتأكيد كما زيدت على رَبِّ وثُمَّ خُصِّتْ بلزوم الأحيان وحذف أحد المعمولين، وقيل هي النافية للجنس أي ولا حين مناصٍ لهم وقيل للفعل، والنصب بإضماره أي ولا أرى حين مناصٍ، وقرئ بالرفع على أنه اسم لا أو مبتدأ محذوف الخبر أي ليس حين مناصٍ حاصلًا لهم أو لا حين مناصٍ كائنٌ لهم، وبالكسر كقوله:

طَلَبُوا صُلَحْنَا وَلَا تَ أَوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنَّ لَا تَ حِينَ بَقَاءٍ^(١)

إما لأنَّ لَا تَ تجزُّ الأحيان كما أنَّ لولا تجزُّ الضمائر في قوله: لَوْلَاكَ هَذَا الْعَامُ لَمْ أَخْجُجْ، أو لأنَّ أَوَانَ شُبَّةٌ يَأْذُ لأنه مقطوعٌ عن الإضافة إذ أصله أَوَانٌ صُلَحَ، ثم حُمِلَ عليه مناصٌ تنزيلاً لما أُصْنِفَ إليه الظرف منزلة لما بينهما من الاتحاد إذ أصله يَحِينَ مناصُهم، ثم بنى الحين لإضافته إلى غير متمكن. ولاتٍ بالكسر كَجَنَرٍ، وتقف الكوفية عليها بالهاء كالأسماء، والبصرية بالتاء كالأفعال. وقيل إِنَّ التاء مزيدة على حين لاتصالها به في الإمام^(٢) ولا يُرَدُّ عليه أنَّ خطَّ المصحف خارجٌ عن القياس إذ مثله لم يُعْهَد فيه، والأصل اعتباره إلا فيما خصّه الدليل ولقوله:

الْعَاطِفُونَ تَحِينَ لَا مِنِّ عَاطِفٍ وَالْمُطْعَمُونَ زَمَانَ مَا مِنِّ مُطْعَمٍ
والمناص المنجا من ناصه بنوصه إذا فات.

(٤) ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ بشرٌ مثلهم أو أميٌّ من عدايدهم. ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذمّاً لهم، وإشعاراً بأنَّ كُفْرَهُمْ جَسَرَهُمْ على هذا القول. ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ فيما يظهره معجزة. ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقوله على الله تعالى.

(٥) ﴿أَجْعَلِ آلَهُآ إِلَهًا وَجِدًا﴾ بأن جعل الألوهية التي كانت لهم لواحد. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغ في العُجْب فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا، وما نشاهدُه من أنَّ الواحد لا يفي علمُه وقدرته بالأشياء الكثيرة. وقرئ مشدداً وهو أبلغ ككرام وكرام. وروي أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش، فاتوا أبا طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر رسول الله ﷺ وقال: هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ماذا يسألوني»، فقالوا: ارفضنا وارضض ذُكْرَ آلِهتنا وندعك وإلهك، فقال: «أرايتم إن أعطيتكم ما سألتكم، أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب

(١) من الخفيف.

(٢) قوله في الإمام أي في المصحف الإمام وهو المصحف العثماني.

وتدين لكم بها العجم؟» فقالوا: نعم وعشراً، فقال: «قولوا لا إله إلا الله»، فقاموا وقالوا ذلك^(١).

وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾

(٦) ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله ﷺ. ﴿أَنْ آمَسُوا﴾ قائلين بعضهم لبعض امشوا. ﴿وَاصْبِرُوا﴾ واثبتوا. ﴿عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ على عبادتها فلا ينفعكم مكالمتها، وأن هي المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التناول يشعر بالقول. وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول، وامشوا من مشيت المرأة إذا كثرت أولادها، ومنه الماشية أي اجتمعوا. وقرىء بغير أن، وقرىء يمشون أن اصبروا. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ إن هذا الأمر لشيء من ريب الزمان يُراد بنا فلا مرد له، أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يريده كل أحد، أو إن دينكم لشيء يطلب ليؤخذ منكم.

(٧) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بالذي يقوله. ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ في الملة التي أدرکنا عليها آبائنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل فإن النصراني يثلثون. ويجوز أن يكون حالاً من هذا

- (١) أخرجه الترمذي (٣٦٥/٥ رقم ٣٢٣٢) والنسائي في التفسير (رقم: ٤٥٦) وقال الترمذي: حديث حسن ورجاله - سوى يحيى بن عمار - ثقات، شيخ المصنف هو التيمي، يحيى هو ابن سعيد القطان، ويحيى بن عمار هذا لا يدري ما حاله، وقد ذكره ابن حبان في الثقات (٦٠٥/٧) وقد تفرد عنه الأعمش، وسماه أبو أسامة: عباد - غير منسوب -، ووقع في رواية أحمد (٣٦٢/٢): عباد بن جعفر، وقال عنه الحافظ في «التقريب» (٣٥٤/٢) رقم (١٣٩) «مقبول». وقيل في اسمه (يحيى بن عباد) كذا وقع في بعض الروايات.
- وقد أخرجه أحمد (٢٢٧/١)، والطبري في «جامع البيان» (١٢/٢٣ ج ١٢٥) وأبو يعلى (٤٥٥/٤) رقم (٢٥٨٣/٢٥٦) وابن حبان في الموارد (ص ٤٣٥ رقم ١٧٥٧). والحاكم (٤٣٢/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٨/٩) والواحدي في «الأسباب» (ص ٣٦٦) كلهم من حديث الأعمش عن يحيى بن عمار عن سعيد - به -.
- وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وكذا قال أبو الأشبال في تعليقه على المسند (٣١٤/٣ رقم ٢٠٠٨). قلت: في إسناده يحيى بن عمار هذا.
- وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (١٤٢/٧) نسبه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس - به -.
- وأخرجه أحمد (٣٦٢/٢) والطبري في «جامع البيان» (١٢/٢٣ ج ١٢٥) والنسائي في التفسير (رقم: ٤٥٧) كلهم من حديث الأعمش بن عباد، عن سعيد - به -.
- وسماه في رواية أحمد: عباد بن جعفر، وفيها التصريح بسماع الأعمش، وقد ذكر ابن حبان، عباد بن جعفر في الثقات، ولكنه غير هذا، فالذي ذكره يروى عن أشعث بن عبد الملك.
- وروى عنه عثمان بن أبي شيبة فهو متأخر عن هذا.
- وأخرجه ابن إسحاق - كما في السيرة النبوية لابن هشام (٦٧/٢ - ٦٨) - قال: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن عباس، عن بعض أهله، عن ابن عباس - فذكره بنحوه -، وليس فيه ذكر الآيات.
- ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الحاكم (٤٣٢/٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال: العباس ثقة. قلت: وإسناده حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من العباس. والخلاصة أن الحديث حسن.

أي ما سمعنا من أهل الكتاب ولا الكهان بالتوحيد كائنًا في الملة المترتبة. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلَاقٌ﴾ كذب اختلقه.

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ ﴿٨﴾ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾

(٨) ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ إنكارٌ لاختصاصه بالوحي وهو مثلهم أو أذونٌ منهم في الشرف والرئاسة كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(١) وأمثال ذلك دليلٌ على أنَّ مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ من القرآن أو الوحي لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل، وليس في عقيدتهم ما يثبتون به من قولهم هذا ساحرٌ كذابٌ إن هذا إلا اختلاقٌ. ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ﴾ بل لم يدُوقُوا عذابي بعدُ فإذا ذاقوه زال شكُّهم، والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسَّهم العذاب فيلجئهم إلى تصديقه.

(٩) ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ بل عندهم خزائنُ رحمته، وفي تصرفهم حتى يصيبوا بها من شأوا ويصرفوها عمَّن شأوا، فيتخيرُ للنبوة بعضُ صناديدهم، والمعنى أن النبوة عطيةٌ من الله يتفضل بها على مَنْ يشاء من عباده لا مانعَ له فإنه العزيزُ أي الغالبُ الذي لا يُغلبُ، الوهابُ الذي له أن يهبَ كلَّ ما يشاء لمن يشاء، ثم رشح ذلك فقال:

(١٠) ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كأنه لما أنكر عليهم التصرف في نبوته بأن ليس عندهم خزائنُ رحمته التي لا نهايةَ لها، أردف ذلك بأنه ليس لهم مدخلٌ في أمرِ هذا العالمِ الجسماني الذي هو جزءٌ يسيرٌ من خزائنه فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها. ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ جوابٌ شرطٍ محذوف أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارج التي يتوصلُ بها إلى العرش حتى يستَوْوا عليه ويدبروا أمرَ العالم، فينزِلُوا الوحيَ إلى مَنْ يستصوبون. وهو غايةُ التهكم بهم، والسببُ في الأصلِ هو الوصلة، وقيل المراد بالأسبابِ السمواتُ لأنها أسباب الحوادثِ السُّفلية.

(١١) ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي هم جندٌ ما من الكفار المتحزبين على الرسل، مهزومٌ مكسور عما قريب فمن أين لهم التدابيرُ الإلهية والتصرفُ في الأمور الربانية، أو فلا تكثرُ بما يقولون، وما مزيدةٌ للتقليل كقولك: أكلتُ شيئاً ما، وقيل للتعظيم على الهزاء وهو لا يلائم ما بعده، وهنالك إشارةٌ إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول.

(١٢) ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ذو الملكِ الثابت بالأوتاد كقوله:

وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مَلِكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ^(٢)

(١) الزخرف: «٣١».

(٢) من الكامل.

مأخوذ من ثبات البيت المطنّب بأوتاده، أو ذو الجموع الكثيرة سُئِموا بذلك لأن بعضهم يشدُّ بعضاً كالوتد يشدُّ البناء. وقيل نَصَبَ أربع سوارٍ وكان يمد يدي المعذَّب ورجليه إليها ويضربُ عليها أوتاداً ويتركه حتى يموت.

وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ ۖ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَُا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

(١٣) ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾ وأصحاب الغيضة وهم قوم شعيب، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر لَيْكَةٍ. ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ يعني المتحزبين على الرسل الذين جعل الجند المهزوم منهم.

(١٤) ﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ﴾ بيان لما أُسْنِدَ إليهم من التكذيب على الإبهام مشتمل على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلاً على استحقاقهم للعذاب، ولذلك رُتِبَ عليه: ﴿فَحَقَّ عِقَابُ﴾ وهو إما مقابلة الجمع بالجمع، أو جعلُ تكذيب الواحد منهم تكذيب جميعهم.

(١٥) ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ﴾ وما ينتظر قومك أو الأحزاب فإنهم كالحضور لاستحضارهم بالذكر، أو حضورهم في علم الله تعالى ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى. ﴿مَّا لَهَُا مِنْ فَوَاقٍ﴾ من توقُّفٍ مقدار فَوَاقٍ، وهو ما بين الحلبتين، أو رجوع وترداد فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع، وقرأ حمزة والكسائي بالضم وهما لغتان.

(١٦) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا﴾ قِسْطَنَا من العذاب الذي توعدنا به، أو الجنة التي تعدّها للمؤمنين وهو من قطه إذا قطعه، وقيل صحيفة الجائزة قِطٌّ لأنها قطعة من القرطاس، وقد فُسِّرَ بها أي: عَجَّلْ لَنَا صحيفة أعمالنا للنظر فيها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ استعجلوا ذلك استهزاء.

(١٧) ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ واذكر لهم قصته تعظيماً للمعصية في أعينهم، فإنه مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والمكرّمات لما أتى صغيرة نزل عن منزلته ووبّخه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفتن فاستغفر ربه وأتاب فما الظن بالكفرة وأهل الطغيان، أو تذكّر قصته وضن نفسك أن تزل فيلقاك ما لقيه من المعاتبة على إهمال عنان نفسه أدنى إهمال. ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوة يُقَالُ فلان أيدٍ وذو أيدٍ وآدٍ وأيادٍ بمعنى. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى مرضاة الله تعالى، وهو تعليل للأيدٍ ودليل على أن المراد به القوة في الدين، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل.

(١٨) ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ قد مرّ تفسيره، ويسبّحن حالاً وُضِعَ موضع مسبحات لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال^(١). ﴿بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ووقت الإشراق وهو

(١) قوله «سخرنا الجبال معه...» ولم يقل له لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلي فيها إليه - عليه الصلاة والسلام - كتسخير الريح وغيرها لسليمان - عليه السلام - بل بطريق التبعية له - عليه =

حينَ تشرقُ الشمسُ أي تضيءُ ويصفو شعاعُها وهو وقتُ الضحى، وأما شروقُها فطلوعُها يقال شَرَقَ الشمسُ ولما تشرقَ. وعن أم هانئ رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاةَ الضحى وقال «هذه صلاةُ الإِشراقِ»^(١). وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفتُ صلاةَ الضحى إلا بهذه الآية^(٢).

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهْءٍ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَءَايَتْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ إليه من كل جانب، وإنما لم يراعِ المطابقةَ بين الحالين لأنَّ الحشرَ جملةٌ أدلُّ على القدرةِ منه مدرجاً، وقرئ والطيرُ محشورةٌ بالمبتدأ والخبر. ﴿كُلُّ لَهْءٍ أَوَّابٌ﴾ كلُّ واحد من الجبالِ والطيرِ لأجلِ تسبيحه رجاءً إلى التسبيح، والفرقُ بينه وبين ما قبله أنه يدلُّ على الموافقةِ في التسبيح وهذا على المداومةِ عليها، أو كلُّ منهما ومن داودَ عليه الصلاة والسلام مرجعُ الله التسبيح.

(٢٠) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ وقوَّيناهُ بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، وقرئ بالتشديد للمبالغة. قيل: إنَّ رجلاً ادعى بقرّة على آخرَ وعجزَ عن البيان، فأوحى إليه أن يقتل المدعى عليه فأعلمه فقال: صدقتُ إني قتلتُ أباه وأخذتُ البقرة فعظمتُ بذلك هيئته. ﴿وَأَيَّتْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوة أو كمالَ العلم وإتقانَ العمل. ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ وفصلَ الخصامَ بتمييز الحقِّ عن الباطل، أو الكلامَ المخلصَ الذي ينه المخاطبُ على المقصودِ من غير التباسٍ يراعي فيه مظاهرَ الفصلِ والوصلِ والعطفِ والاستئنافِ والإضمارِ والإظهارِ والحذفِ والتكرارِ ونحوها، وإنما سُمِّيَ به أما بعدُ لأنه يفصلُ المقصودَ عما سبقَ مقدمةً له من الحمدِ والصلاة، وقيل هو الخطابُ القصدُ الذي ليس فيه اختصارٌ مخلٌ ولا إشباعٌ مملٌ كما جاء في وصفِ كلامِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام فصلٌ لا نَزْرٌ ولا هذْرٌ.

(٢١) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ﴾ استفهامٌ معناه التعجيبُ والتشويقُ إلى استماعه، والخضُمُ في الأصلِ مصدرٌ ولذلك أُطلقَ على الجمعِ. ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إذ تصعدوا سورَ الغرفة، تفعلُّ من السورِ كَتَسَمَّرُ من السَّنامِ، وإذ متعلّقٌ بمحذوفٍ أي نبأ تحاكمِ الخضمِ إذ تسوَّروا، أو بالنبا على أنَّ المراد به

= الصلاة والسلام - والافتداء به في عبادة الله تعالى (س/٧/٢١٩).

(٢١) أخرج الطبراني في الأوسط - كما في «المجمع» (٧/٩٩).

عن ابن عباس قال: كنت أمر بهذه الآية - يُسَبِّحَنَّ بالعشي والإشراق - فما أدري ما هي العشي والإشراق حتى حدثتني أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء بحفنة كاني أنظر إلى أثر العجين فيها فتوضأ ثم قام فصلى الضحى فقال: يا أم هانئ هي صلاة الإشراق. وقال الهيثمي: فيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف وأخرج الحاكم (٥٣/٤) من وجه آخر عن عبدالله بن الحارث عن ابن عباس «كان يصلي الضحى حتى أدخلناه على أم هانئ فقلت لها: أخبري ابن عباس. قالت: دخل رسول الله ﷺ في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات. قال فخرج ابن عباس وهو يقول: هذه صلاة الإشراق» وسكت عليه الحاكم والذهبي. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٤٢ رقم ٣٠٤) «هذا موقوف وهو أصح».

الواقع في عهد داود عليه الصلاة والسلام، وأن إسناده أتى إليه على حذف مضاف أي قصة نبأ الخصم لما فيه من معنى الفعل لا بآتي لأن إتيانه الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن حيثئذ وإذ الثانية في:

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً وَلِيَ نَجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِيَّايَ نَجَاجَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ بدل من الأولى أو ظرف لتسوروا. ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزءاً زمانه: يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للوعظ ويوماً للاشتغال بخاصته، فتسور عليه ملائكة على صورة الإنسان في يوم الخلوة. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ﴾ نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاب الخصم خصماً. ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وهو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور. ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تجز في الحكومة، وقرئ ولا تشطط أي ولا تبعد عن الحق ولا تشطط ولا تُشاط، والكل من معنى الشطط وهو من مجاوزة الحد. ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي إلى وسطه وهو العدل.

(٢٣) ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ بالدين أو بالصُّحبة. ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً وَلِيَ نَجَةً وَاحِدَةً﴾ هي الأنثى من الضأن، وقد يكتى بها عن المرأة، والكناية والتمثيل فيما يُساق للتعريض أبلغ في المقصود، وقرئ تَسَعٌ وَتَسْعُونَ بفتح التاء ونجعة بكسر النون، وقرأ حفص بفتح ياء لي نجعة. ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ ملكيتها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل اجعلها كفلي أي نصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ وغلبني في مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده، أو في مغالبته إياي في الخطبة يُقال: خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطاباً حيث زوّجها دوني. وقرئ وعازني أي غالبني، وعزني على تخفيف غريب.

(٢٤) ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِيَّايَ نَجَاجَةً﴾ جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه ولعله قال ذلك بعد اعترافه، أو على تقدير صدق المدعي، والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله، وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم جمع خليط ﴿لَيَبْغِي﴾ ليتعدي. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وقرئ بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله: اضرب عنك الهُموم طارِقها، وب حذف الياء اكتفاء بالكسرة. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ أي وهم قليل، وما مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم. ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ابتليناه بالذنوب أو امتحناه بتلك الحكومة هل ينتبه بها. ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لذنبه. ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه، أو خرّ للسجود راكعاً أي مصلياً كأنه أحرم بركعتي

الاستغفار. ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة، وأقصى ما في هذه القضية الإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام ود أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله فتبته الله بهذه القصة فاستغفر وأناب عنه. وما روي أن بصره وقع على امرأة فعشيقها وسعى حتى تزوجها ولدت منه سليمان، إن صح فلعله خطب مخطوبته أو استترله عن زوجته، وكان ذلك معتاداً فيما بينهم، وقد واسى الأنصار المهاجرين بهذا المعنى. وما قيل إنه أرسل أوربا إلى الجهاد مراراً وأمر أن يقدم حتى قتل فتزوجها هزءً وافتراءً، ولذلك قال علي رضي الله عنه: من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين^(١). وقيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواماً فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم غرضهم وأراد أن ينتقم منهم، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له فاستغفر ربه مما هم به وأناب.

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي ما استغفر عنه. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ مرجع في الجنة.

(٢٦) ﴿يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ استخلفناك على الملك فيها، أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق. ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ بحكم الله. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ ما تهوى النفس، وهو يؤيد ما قيل إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي وتظلم الآخر قبل مسألته. ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دلالة التي نصّبها على الحق. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى^(٢).

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ لا حكمة فيه، أو ذوي باطل بمعنى مبطلين عابثين كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾^(٣) أو للباطل الذي هو متابعة الهوى، بل للحق الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدبر بالشرع كقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾^(٤) على وضعه موضع المصدر مثل هنيئاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الإشارة إلى خلقها باطلاً، والظن بمعنى المظنون. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ بسبب هذا الظن^(٥).

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٤٢ رقم ٣٠٦): «لم أجده». اهـ.

(٢) وإظهار «سبيل الله» في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيدان بكمال شناعة الضلال عنه (س ٧/٢٢٣).

(٣) الأنبياء: «١٦».

(٤) الذاريات: «٥٦».

(٥) وَضَعَ الموصول «للذين كفروا» موضع ضميرهم للإشعار بما في حيز الصلة بعليّة كفرهم له (س ٧/٢٢٤).

أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبَّوْا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ ءَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْخِیَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أم منقطعة والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الحزبين التي هي من لوازم خلقها باطلاً ليدل على نفيه وكذا التي في قوله: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ كأنه أنكز التسوية أولاً بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم، ويجوز أن يكون تكريراً للإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية من الحكيم الرحيم، والآية تدل على صحة القول بالحشر، فإن التفاضل بينهما إما أن يكون في الدنيا والغالب فيها عكس ما يقتضي الحكمة فيه، أو في غيرها وذلك يستدعي أن يكون لهم حالة أخرى يُجَارُونَ بها.

(٢٩) ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ﴾ نفاغ، وقرئ بالنصب على الحال. ﴿لِيَذَبَّوْا ءَايَاتِهِ﴾ ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة. وقرئ ليتدبروا على الأصل ولتدبروا أي أنت وعلماؤك أممك. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وليتعض به ذوو العقول السليمة، أو ليستخضروا ما هو كالمركز في عقولهم من فزط تمكّنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل، فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع، وإرشاد إلى ما يستقل به العقل، ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر للثاني.

(٣٠) ﴿وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ أي نعم العبد سليمان إذ ما بعده تعليل للمدح وهو في حاله. ﴿إِنَّهُ ءَوَّابٌ﴾ رجاع إلى الله بالتوبة، أو إلى التسبيح مرجع له.

(٣١) ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ظرف لأواب أو لينعم، والضمير لسليمان عند الجمهور ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ بعد الظهر ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ الصافن من الخيل الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل، وهو من الصفات المحمودة في الخيل الذي لا يكاد يكون إلا في العراب الخالص. ﴿الْخِیَادُ﴾ جمع جواد أو جود، وهو الذي يسرع في جزيه وقيل الذي يجود في الركض، وقيل جمع جيد. روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس، وقيل أصابها أبوه من العمالة فورثها منه فاستعرضها فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العضر، أو عن وزد كان له فاغتم لما فاته فاستردّها فعرّها تقرباً لله.

(٣٢) ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أصل أحببت أن يُعدى بعلى لأنه بمعنى أثرت لكن لما أُنِيبَ مناب أنبت عُدي تعديته، وقيل هو بمعنى تقاعدت من قوله:

مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحَبَّ

أي برك، وحُبُّ الخير مفعول له، والخير المأل الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويَحْتَمَلُ أنه سمّاها خيراً لتعلق الخير بها. قال عليه الصلاة والسلام: «الخيال معقود بنواصيها الخير إلى يوم

القيامة»^(١). وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس، شبه غروبها بتواري المحجبة بحجابها، وإضمارها من غير ذكرٍ لدلالة العشي عليها.

رُدُّوْهَا عَلَى فُطْفِقٍ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

(٣٣) ﴿رُدُّوْهَا عَلَى﴾ الضمير للصفاف. ﴿فُطْفِقَ مَسْحًا﴾ فأخذ بمسح السيف مسحاً^(٢). ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته^(٣) إذا ضرب عنقه، وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حباً لها. وعن ابن كثير بالسوق على همز الواو لضمه ما قبلها كمؤقن، وعن أبي عمرو بالسوق، وقرئ بالساق اكتفاءً بالواحد عن الجمع لأمن الإلباس.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وأظهر ما قيل فيه ما روى مرفوعاً أنه قال: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل، فوالذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً^(٤). وقيل وُلِدَ له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك، فكان يغذوه في السحاب فما شعر به إلا أن أُلْقِيَ على كرسيه ميتاً فتنبه على خطئه بأن لم يتوكل على الله. وقيل إنه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب ابنته جرادة، فأحبها وكان لا يرقاً دمعها جزعاً على أبيها، فأمر الشياطين فمثّلوا لها صورته فكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتِه في ملكه، فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة وخرج إلى الفلاة باكية متضرّعة، وكانت له أمٌ وليد اسمها أمينة إذا دخل للطهارة أعطاها خاتمة وكان ملكه فيه، فأعطاها يوماً فتمثّل لها بصورته شيطاناً اسمه صخرٌ وأخذ الخاتم وتختّم به وجلس على كرسيه، فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه في كل شيء إلا في نسائه وغير سليمان عن هيئته، فأتاها لطلب الخاتم فطرذته فعرف أن الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البيوت يتكفّف حتى مضى أربعون يوماً عدد ما عُبدت الصورة في بيته، فطار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة فوقعت في يده فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختّم به وخرّ ساجداً، وعاد إليه الملك، فعلى هذا الجسد صخرٌ سمّي به وهو جسم لا روح فيه لأنه كان متمثلاً بما لم يكن كذلك، والخطيئة تغافلته عن حال أهله لأنّ اتخاذ التماثيل كان جائزاً حينئذ، وسجود الصورة بغير علمه لا يضر.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣/٦) رقم ٣٦٤٤ ومسلم (١٤٩٢/٣) رقم ٩٦ من حديث ابن عمر. وفي الباب من حديث عروة البارقي، وجبر، وأبي هريرة.

(٢) والفاء فصيحة أفصحت عن جملة حذف ثقة بدلالة الحال عليها، وإبذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر (س٢٢٦/٧).

(٣) العلوة بالكسر أعلى الرأس أو العنق.

(٤) أخرجه البخاري (١١/٥٢٤) رقم ٦٦٣٩ ومسلم (٣/١٢٧٦) رقم ١٦٥٤ والبغوي في شرح السنة (١/١٤٧) رقم ٧٩ من حديث أبي هريرة.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ نُلْقَى وَحُشْنٌ مَتَابٍ ﴿٤٠﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنْ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾

(٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لي مناسبة لحالي، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبية، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته كقولك: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال، على إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يُعطى أحد مثله فيكون منافسة، وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يُجعل للدعاء بصدد الإجابة. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء.

(٣٦) ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ فذلّلناها لطاعته إجابة لدعوته، وقرئ الرياح. ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾ لينّة من الرخاوة لا تزعزع، أو لا تخالف إرادته كالمأمور المنقاد. ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أراد من قولهم أصاب الصواب فاخطأ الجواب.

(٣٧) ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الريح. ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدل منه.

(٣٨) ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ عطف على كل كانه فصل الشياطين إلى عملة استعملهم في الأعمال الشاقة كالبنا والغووص، ومردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر، ولعل أجسامهم شفافة صلبة فلا ترى ويمكن تقييدها، هذا والأقرب أن المراد تميل كفهم عن الشرور بالإقران في الصفد وهو القيد، وسمي به العطاء لأنه يرتبط به المنعم عليه. وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعد وأوعد وفي ذلك نكتة.

(٣٩) ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك والبسطة والتسلط على ما لم يُسلط به غيرك عطاؤنا. ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فأعط من شئت وامنع من شئت. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من المستكن في الأمر، أي غير محاسب على منته وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك أو من العطاء وصلة له وما بينهما اعتراض. والمعنى أنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره، وقيل الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد باليمن والإمساك إطلاقهم وإبقاؤهم في القيد.

(٤٠) ﴿وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ نُلْقَى وَحُشْنٌ مَتَابٍ﴾ في الآخرة مع ماله من الملك العظيم في الدنيا. ﴿وَحُشْنٌ مَتَابٍ﴾ هو الجنة.

(٤١) ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو ابن عيص بن إسحاق وامرأته ليا بنت يعقوب صلوات الله عليه. ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ بدل من عبدنا، وأيوب عطف بيان له. ﴿أَنْ مَسَّنِيَ﴾ بأن مسني، وقرأ حمزة بإسكان الياء وإسقاطها في الوضل. ﴿الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ بتعب. ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم وهي حكاية لكلامه الذي ناداه به ولولا هي لقال إنه مسه، والإسناد إلى الشيطان إما لأن الله مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل إنه أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يُعنه، أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغره، أو لسؤاله امتحاناً لصبره فيكون اعترافاً بالذنب أو مراعاة للأدب، أو لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه

وأخرجوه من ديارهم، أو لأن المراد بالتَّصَبِّبِ والعذاب ما كان يُوسَّوسُ إليه في مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة، ويغريه على الجزع. وقرأ يعقوبُ بفتح النون على المصدر، وقرأ بفتحين وهو لغة كالرُّشْدِ والرَّشْدِ، وبضمينٍ للتثقل.

أَرْكَضُ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ يَدَكَ ضِعْفًا فَإُضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

(٤٢) ﴿أَرْكَضُ بِرَجْلِكَ﴾ حكاية لما أُجيب به أي اضرب برجليك الأرض. ﴿هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي فضربها فنبعث عينٌ فقيل هذا مُغْتَسِلٌ أي ماء تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرُك، وقيل نبعث عينان حارَّةً وباردةً فاغتسل من الحارة وشرب من الأخرى.

(٤٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ بأن جمعناهم عليه بعدَ تفرُّقهم أو أحييناهم بعد موتهم، وقيل وهبنا له مثلهم. ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ حتى كان له ضعف ما كان. ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ لرحمتنا عليه ﴿وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر واللجأ إلى الله فيما يحقُّ بهم.

(٤٤) ﴿وَخُذْ يَدَكَ ضِعْفًا﴾ عطفٌ على اركض والضَّغْتُ الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه. ﴿فَأُضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ﴾ روي أن زوجته ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت إفرائيم بن يوسف ذهبت لحاجة فابطأت فحلف إن برىء ضربها مائة ضربة، فحلَّ الله يمينه بذلك، وهي رخصة باقية في الحدود. ﴿وَإِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال، ولا يخلُّ به شكواه إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمي جزعاً كتمني العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك خيفة أن يفتره أو قومه في الدين. ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ أيوب. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ مقبلٌ بشارشه على الله تعالى.

(٤٥) ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابن كثير عبدنا وضمَّ الجنس موضع الجمع، أو على أن إبراهيم وحده لمزيد شرفه عطف بيان له، وإسحاق ويعقوب عطف عليه. ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، فعبر بالأيدي عن الأعمال لأن أكثرها بمباشرتها، وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها، وفيه تعريضٌ بالبطلَّة الجَهَالِ أنهم كالزُّمْنَى والعُمَاة.

(٤٦) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ جعلناهم خالصين لنا بخصله خالصة لا شوب فيها هي: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ تذكُّرهم الدار الآخرة دائماً فإنَّ خلوصهم في الطاعة بسببها، وذلك لأن مطمحَ نظرهم فيما يأتون ويذرون جوار الله والفوز بلاقائه، وذلك في الآخرة، وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار الحقيقة والدنيا مَعْبَرٌ، وأضاف نافع وهشامٌ بخالصة إلى ذكرى للبيان أو لأنه مصدرٌ بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله.

(٤٧) ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ لَمِنَ المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في الخير جمعٌ خيرٍ كشرٍّ وأشرارٍ. وقيل جمعٌ خيرٍ أو خيرٍ على تخفيفه كأمواتٍ في جمع ميتٍ أو ميتٍ.

وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنِ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفَنَّنَةٍ لَهُمُ الْأُبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرَفِ ﴿٥٢﴾ أَنزَابٌ ﴿٥٣﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٥﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٦﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسُوا الْمَهَادُ ﴿٥٧﴾

(٤٨) ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ هو ابنُ أخطوبَ استخلفه إلياسُ على بني إسرائيلَ ثم استنَّيَّء، واللامُ فيه كما في قوله: رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدَ مُبَارَكًا. وقرأ حمزة والكسائي واليسع تشبيهاً بالمنقول من ليسع من اليسع. ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ ابنُ عَمِّ يسعٍ أو بشر بن أيوب. واختلفَ في نبوته ولقبه فقيل قرأ إليه مائة نبيٍّ من بني إسرائيلَ من القتلِ فأواهم وكفلهم، وقيل كفلَ بعمل رجلٍ صالح كان يصلي كلَّ يوم مائة صلاةٍ ﴿وَكُلٌّ﴾ أي وكلهم. ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.

(٤٩) ﴿هَذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من أمورهم. ﴿ذِكْرٌ﴾ شرفٌ لهم، أو نوعٌ من الذكر وهو القرآن. ثم شرعَ في بيانِ ما أعدَّ لهم ولأمثالهم فقال: ﴿وَإِنِ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجعٌ.

(٥٠) ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ عطف بيانٍ لحسنِ مآبٍ وهو من الأعلام الغالبة لقوله ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْقُرْآنِ﴾^(١) وانتصب عنها. ﴿مُفَنَّنَةٍ لَهُمُ الْأُبُوبُ﴾ على الحالِ والعاملُ فيها ما في المتقين من معنى الفعل، وقرئنا مرفوعتين على الابتداء والخبر، أو أنَّهما خبرانٍ لمحذوفٍ.

(٥١) ﴿مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ حالان متعاقبان أو متداخلان من الضمير في لهم لا من المتقين للفصل، والأظهر أن يدعون استئناف لبيان حالهم فيها، ومتكئين حالٌ من ضميره، والاقصاؤُ على الفاكهة للإشعار بأنَّ مطاعهم لمحضر التلذُّذ، فإنَّ التغذيةِ للتحلل ولا تحلل ثمة.

(٥٢) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرَفِ﴾ لا ينظرون إلى غير أزواجهنَّ. ﴿أَنزَابٌ﴾ لذاتُ لهم فإنَّ التحابَّ بين الأقربان أثبت، أو بعضهن لبعض لا عجزَ فيهنَّ ولا صبيَّة، واشتقاقه من الترابِ فإنه يمشهن في وقتٍ واحدٍ.

(٥٣) ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لآجاله فإنَّ الحسابَ علَّةُ الوصولِ إلى الجزاء، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بالياء ليوافق ما قبله.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ انقطاع.

(٥٥) ﴿هَذَا﴾ أي الأمرُ هذا أو هذا كما ذكرَ أوخذَ هذا. ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾.

(٥٦) ﴿جَهَنَّمَ﴾ إعرابه ما سبق. ﴿يَصْلَوْنَ﴾ حالٌ من جهنم. ﴿فَنَسُوا الْمَهَادُ﴾ الممهدُ والمفترش، مستعارٌ من فراشِ النائم، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ وهو جهنمُ لقوله ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾^(٢).

(١) مريم: «٦١».

(٢) الأعراف: «٤١».

هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَمَا خَيْرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقَنَّبٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ مِنْهُمُ إِلَّا النَّارُ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَيْسَ الْقَرَارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾

(٥٧) ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ﴾ أي ليدوقوا هذا فليذوقوه، أو العذاب هذا فليذوقوه، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره: ﴿حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ وهو على الأولين خبرٌ محذوف أي هو حميم، والعَسَاقُ ما يغسق ما يغسق من صديد أهل النار من غَسَقَتِ العين إذا سالَ دمعها، وقرأ حفصٌ وحمزة والكسائي غَسَاقٌ بتشديد السين.

(٥٨) ﴿وَمَا خَيْرٌ﴾ أي مذوقٌ أو عذابٌ آخر، وقرأ البصريان وأخرى أي ومذوقات أو أنواع عذابٍ آخر. ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ من مثل هذا المذوق أو العذاب في الشدة. وتوحيد الضمير على أنه لما ذكر، أو للشراب الشامل للحميم والغساق، أو للغساق. وقرئ بالكسر وهو لغة. ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أجناسٌ خبرٌ لآخر أو صفةٌ له أو للثلاثة. أو مرتفعٌ بالجاء والخبر محذوفٌ مثل لهم.

(٥٩) ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقَنَّبٌ مَعَكُمْ﴾ حكاية ما يُقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النارَ واقتَحَمَهَا معهم فَوْجٌ تبعهم في الضلال، والاقترحام ركوبُ الشدة والدخول فيها. ﴿لَا مَرْجَأَ بِهِمْ﴾ دعاء من المتبوعين على أنبائهم أو صفة لفوج، أو حالٌ أي مقولاً فيهم لا مرجأ أي ما أتوا بهم رخباً وسعة. ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ داخلون النارَ بأعمالهم مثلنا.

(٦٠) ﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع للرؤساء. ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ﴾ بل أنتم أحقُّ بما قلتم، أو قيل لنا لضلالكم وإضلالكم كما قالوا: ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا﴾ قَدَّمْتُمْ العذاب أو الصَّلِيَّ لنا بإغوائنا وإغرائنا على ما قَدَّمْتُمُوهُ من العقائد الزائفة والأعمال القبيحة. ﴿فَيْسَ الْقَرَارِ﴾ فَيْسَ المقرُّ جهنم.

(٦١) ﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع أيضاً. ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ مضاعفاً أي ذا ضعفٍ وذلك أن يزيدَ على عذابه مثله فيصيرَ ضعفين كقوله ﴿رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(١).

(٦٢) ﴿قَالُوا﴾ أي الطاغوت. ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين يَسْتَرْذِلُونَ ويسخرون بهم.

(٦٣) ﴿أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا﴾ صفةٌ أخرى لرجالاً، وقرأ الحجازيان وابن عامر وعاصمٌ بهمزة الاستفهام على أنه إنكارٌ على أنفسهم وتأنيبٌ لها في الاستسغار منهم، وقرأ نافع وحمزة والكسائي سُخْرِيًا بالضم، وقد سبق مثله في المؤمنين. ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت. ﴿عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ فلا نراهم أم معادلة لما لنا لا نرى على أن المراد نفى رؤيتهم لغيبتهم كأنهم قالوا: أليسوا ها هنا أم زَاغَتْ عنهم أبصارنا، أو لاتخذناهم على القراءة الثانية بمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسغار منهم أم تحقيرهم، فإن زِيغَ

الأبصار كناية عنه على معنى إنكارهما على أنفسهما، أو منقطعة والمراد الدلالة على أن استردآلهم والاستسحار منهم كان لزيغ أبصارهم وقصور أنظارهم على رثاثة حالهم.

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾

(٦٤) ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكيناه عنهم. ﴿لَحَقُّ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال: ﴿تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ﴾ وهو بدل من لحق أو خبر محذوف، وقرئ بالنصب على البدل من ذلك.

(٦٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين. ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أنذركم عذاب الله. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشراكة والكثرة في ذاته. ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء يريد قهره.

(٦٦) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منه خلقها وإليه أمرها. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب. ﴿الْغَفَّارُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب لمن يشاء، وفي هذه الأوصاف تقرير للتوحيد ووعد ووعد للموحدين والمشركين، وتنبية ما يشعر بالوعيد، وتقديمه لأن المدعو به هو الإنذار.

(٦٧) ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي ما أنبأكم به من أني نذير من عقوبة من هذه صفته وأنه واحد في ألوهيته، وقيل ما بعده من نبي آدم. ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾.

(٦٨) ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتماذي غفلتكم، فإن العاقل لا يعرض عن مثله كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة، أما على التوحيد فما مر وأما على النبوة فقله:

(٦٩) ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإن إخباره عن تقاول الملائكة وما جرى بينهم على ما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع، ومطالعة كتاب لا يتصور إلا بالوحي، وإذ متعلق بعلم أو بمحذوف. إذ التقدير من علم بكلام الملائكة الأعلى.

(٧٠) ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي لأنما كأنه لما جوز أن الوحي يأتيه بين بذلك ما هو المقصود به تحقيقاً لقوله ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾^(١) ويجوز أن يرتفع بإسناد يوحى إليه، وقرئ إنما بالكسر على الحكاية.

(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ بدل من إذ يختصمون مبين له فإن القصة التي دخلت إذ عليها مشتملة على تقاول الملائكة وإبليس في خلق آدم عليه السلام، واستحقاقه للخلافة والسجود على ما مر في البقرة، غير أنها اختصرت اكتفاءً بذلك واقتصاراً على ما هو المقصود منها، وهو إنذار المشركين على استكبارهم على النبي عليه الصلاة والسلام بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم عليه السلام، هذا ومن الجائز أن يكون مقاوله الله تعالى إياهم بواسطة ملك، وأن يفسر الملائكة الأعلى

بما يعلم الله تعالى والملائكة.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ
أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ
الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾

(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ عدلتُ خلقتُه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه، وإضافته إلى نفسه لشرفه وطهارته. ﴿فَقَعُوا لَهُمْ﴾ فخرُّوا له. ﴿سَجِدِينَ﴾ تكرمةً وتبجيلاً له وقد مرَّ من الكلام فيه في البقرة.

(٧٣) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

(٧٤) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكْبَرَ﴾ تعظم. ﴿وَكَانَ﴾ وصار. ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ باستنكاره أمر الله تعالى واستكباره عن المطاوعة، أو كان منهم في علم الله تعالى.

(٧٥) ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ خلقتُه بنفسِي من غير توسُّط كَابٍ وَأُمٍّ، والثنية لما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل، وقرىء على التوحيد، وترتيب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم، أو بأنه الذي تشبَّه به في تزكِّه وهو لا يصلح مانعاً إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض سِيِّمًا وله مزيد اختصاص. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ تكبرت من غير استحقاقٍ أو كنت ممن علا واستحقَّ التفوق، وقيل استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين، وقرىء استكبرت بحذف الهمزة لدلالة أم عليها أو بمعنى الإخبار.

(٧٦) ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إبداء للمنازع وقوله: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ دليل عليه وقد سبق الكلام فيه.

(٧٧) ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماء، أو من الصورة الملكية. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود من الرحمة ومحل الكرامة.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾

(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾

(٨٠) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾

(٨١) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ مرَّ بيانه في الجبر.

(٨٢) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ فبسلطانك وقهرك. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٤) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٥) وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٦﴾

(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين أَخْلَصَهُمُ اللهُ لطااعته وعصمهم من الضلالة، أو أخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القراءتين.

(٨٤) ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي فالحق الحق وأقوله، وقيل الحق الأول اسمُ الله نَصَبَهُ بحذف حرف القسم كقوله: إِنَّ عَلَيْكَ اللهُ أَنْ تُبَايَعَا.

(٨٥) وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وما بينهما اعتراضٌ وهو على الأول جوابٌ محذوفٌ والجملة تفسيرٌ للحق المقول، وقرأ عاصمٌ وحمزة برفع الأول على الابتداء أي الحق يميني أو قسمي، أو الخبرُ أي أنا الحق، وقرأ مرفوعين على حذفِ الضمير من أقول كقوله: كله لم أصنع. ومجرورين على إضمارِ حرفِ القسم في الأول، وحكاية لفظِ المقسم به في الثاني للتأكيد، وهو سائغٌ فيه إذا شارك الأول ورفع الأول وجزه ونصب الثاني وتخريجه على ما ذكرناه، والضمير في منهم للناس إذ الكلامُ فيهم، والمرادُ بمنك من جنسِكَ ليتناول الشياطينَ وقيل للثقلين، وأجمعين تأكيدٌ له أو للضميرين.

(٨٦) ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على القرآن أو تبليغ الوحي. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتصفين بما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالي فانتحل النبوة، وأنقول القرآن.

(٨٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين.

(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد، أو صدقه بإتيان ذلك. ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفيه تهديدٌ. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (ص) كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشرُ حسنةٍ، وعصمه الله أن يُصْرَ على ذنبٍ صغيرٍ أو كبيرٍ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي رضي الله عنه.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٤٢ رقم ٣١٥).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ
الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
زُلْفَىٰ إِنْ أَلَّاهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

سورة الزُّمَرِ مكية^(١)

إلا قوله: «قل يا عبادي» الآية، وآيها خمسٌ وسبعون أو اثنتان وسبعون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبرٌ محذوفٌ مثلُ هذا أو مبتدأٌ خبره. ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وهو على
الأولِ صلةٌ لتنزيل، أو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ عمِلَ فيها معنى الإشارة أو التنزيل، والظاهرُ أنَّ الكتابَ على
الأولِ السورةُ وعلى الثاني القرآن، وقرئ تنزيلٌ بالنصبِ على إضمارِ فعلٍ نحو اقرأ أو الزم^(٢).

(٢) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحقِّ أو بسببِ إثباتِ الحقِّ وإظهاره وتفصيله.
﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ممحّصاً له الدينَ من الشركِ والرياء. وقرئ برفعِ الدينِ عن الاستئنافِ
لتعليلِ الأمرِ. وتقديمُ الخبرِ لتأكيدِ الاختصاصِ المشتقِّ من اللامِ كما صرَّحَ به مؤكداً، وإجراؤه مجرى
المعلومِ المقررِّ لكثرةِ حُججه وظهورِ براهينه فقال:

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (٢٣٢/١٥) و«روح المعاني» (٢٣٢/٢٣) و«زاد المسير» (١٦٠/٧).

(٢) والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثرهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهي من غير
مدافع ولا ممانع، وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة (س٧/٢٤٠).

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي ألا هو الذي وجب اختصاصه بأن يُخْلِصَ له الطاعة، فإنه المتفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمل المتخذين من الكفرة والمتخذين من الملائكة وعيسى والأصنام على حذف الراجع وإضمار المشركين من غير ذكر لدلالة المساق عليهم، وهو مبتدأ خبره على الأول. ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ بإضمار القول. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وهو متعین على الثاني، وعلى هذا يكون القول المضمر بما في حيزه حالاً أو بدلاً من الصلوة، وزلفى مصدر أو حال، وقرئ قالوا ما نعبدهم وما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله حكاية لما خاطبوا به آلهتهم ونعبدهم بضم النون اتباعاً. ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار، والضمير للكفرة ومقابلهم، وقيل لهم ولمعبودهم فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يوفق للاهتداء إلى الحق. ﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فإنهما فاقد البصيرة.

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزواجاً يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

(٤) ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعموا. ﴿لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إذ لا موجود سواه إلا هو مخلوقه لقيام الدلالة على امتناع وجود واجبين وجوب استناد ما عدا الواجب إليه، ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الولد له ثم قرر ذلك بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فإن الألوهية الحقيقية تتبع الوجوب المستلزم للواحدة الذاتية، وهي تنافي المماثلة فضلاً عن التوالد، لأن كل واحد من المثليين مركب من الحقيقة المشتركة، والتعئين المخصوص، والقهاية المطلقة تنافي قبول الزوال المحوج إلى الولد، ثم استدلل على ذلك بقوله:

(٥) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس باللباس، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة، أو يجعله كآراً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو منتهى دوره أو منقطع حركته. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ﴾ على كل ممكن الغالب على كل شيء. ﴿الْغَفَّارُ﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة.

(٦) ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ استدلال آخر بما أوجده في العالم السفلي مبدوء به من خلق الإنسان لأنه أقرب وأكثر دلالة وأعجب، وفيه على ما ذكره ثلاث دلالات: خلق آدم أولاً من غير أب وأم، ثم خلق حواء من قصيراه، ثم تشعب الخلق الفاتت للحضر منهما. وثم للعطف على

محذوف هو صفة نفس مثل خلقها أو على معنى واحدة أي من نفسٍ وُحِدَتْ ثم جُعِلَ منها زوجها فشَقَّعَها بها، أو على خلقكم لتفاوت ما بين الآيتين، فإن الأولى عادةٌ مستمرةٌ دون الثانية. وقيل أخرج من ظهره ذريته كالذر ثم خلق منها حواء. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ وقضى أو قسم لكم، فإن قضايه وقسمه توصف بالتزول من السماء حيث كُتِبَتْ في اللوح المحفوظ، أو أخذت لكم بأسباب نازلة كاشعة الكواكب والأمطار. ﴿مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةً آُرُوجُ﴾ ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمغز. ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بيان لكيفية خلق ما ذُكِرَ من الأناسي والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة، غير أنه غلب أولي العقل أو خصَّهم بالخطاب لأنهم المقصودون^(١) ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ حيواناً سواً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف. ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة، أو الصلب والرحم والبطن. ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي هذه أفعاله. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحق لعبادتك والمالك. ﴿لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره. ﴿فَأَن تَصْرَفُونَ﴾ يُعَدَّلَ بكم عن عبادته إلى الإشراك.

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾

(٧) ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ﴾ عن إيمانكم. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لاستمرارهم به رحمة عليهم. ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سبب فلا حُكْم، وقرأ ابن كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائي بإشباع ضمة الهاء لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك، وعن أبي عمرو ويعقوب إسكانها وهو لغة فيها. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

(٨) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ لزوال ما ينازع العقل في الدلالة على أن مبدأ الكل منه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ﴾ أعطاه من الخول وهو التعهد، أو الخول وهو الافتخار. ﴿نِعْمَةٌ مِّنْهُ﴾ من الله. ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ أي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه، أو ربه الذي كان يتضرع إليه وما مثل الذي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾^(٢). ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل النعمة. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء، والضلal والإضلال لما كانا نتيجة جعله صح تعليقه بهما وإن لم يكونا غرضين. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمر تهديد فيه إشعار بأن الكفر نوع تشبه لا سند له، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ولذلك علله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة.

(١) وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد (س٧/٢٤٣).

(٢) الليل: «٣».

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَاتَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۖ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ قائمٌ بوظائف الطاعات. ﴿ءَاتَاءَ الْيَلِّ﴾ ساعاته، وأم متصلةٌ بمحذوفٍ تقديره: الكافر خيرٌ أم من هو قانتٌ، أو منقطعةٌ والمعنى بل آمن هو قانتٌ كمن هو بضده، وقرأ الحجازيان وحمزةً بتخفيف الميم بمعنى آمن هو قانتٌ لله كمن جعل له أنداداً. ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ حالان من ضمير قانتٍ، وقرئنا بالرفع على الخبر بعد الخبر، والواو للجمع بين الصفتين^(١) ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ في موضع الحال أو الاستئناف للتعليل. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفى لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيه باعتبار القوة العملية على وجه أبلغ لمزيد فضل العلم. وقيل تقريرٌ للأول على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَبِ﴾ بأمثال هذه البيانات، وقرئ يذكُر بالإدغام.

(١٠) ﴿قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ بلزوم طاعته. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا مثوبةٌ حسنةٌ في الآخرة. وقيل معناه للذين أحسنوا حسنةً في الدنيا هي الصَّحَّةُ والعافية، وفي هذه بيانٌ لمكانِ حسنةٍ. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعسَّر عليه التوفُّر على الإحسان في وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن منه. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على مشاقِّ الطاعات من احتمالِ البلاء ومهاجرة الأوطان لها. ﴿أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حسابُ الحساب، وفي الحديث إنه «يُنْصَبُ الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم، ولا يُنْصَبُ لأهل البلاء بل يُنْصَبُ عليهم الأجرُ صَبّاً حتى يتمنى أهلُ العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرر بالمقاريض مما يذهب به أهلُ البلاء من الفضل»^(٢).

(١١) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ موخداً له.

(١٢) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأُمِرْتُ بذلك لأجل أن أكون مقدّمهم في الدنيا والآخرة، لأن

(١) وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة (س/٧/٢٤٥).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٤٣ رقم ٣١٩): «أخرجه الثعلبي وابن مردويه، من حديث أنس رضي الله عنه. وإسناده ضعيف جداً.

وأورده أبو نعيم في «الحلية» - (٩١/٣) - في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني، وهو في معجمه الكبير (١٨٤/١٢) رقم ١٢٨٢٩ - بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً هـ.

قلت: جابر بن زيد ثقة فقيه كما في «التقريب» (١/١٢٢). وفي سند الطبراني (مراجعة بن الزبير) وهو ممن يحتمل ويكتب حديثه كما في «الكامل» لابن عدي (٤/٢٤٢٠).

والخلاصة أن الحديث قابل للتحسين لتعاقد الطرفين.

قَصَبَ السَّبْقِ فِي الدِّينِ بِالْإِخْلَاصِ أَوْ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ. وَالْعَطْفُ لِمَغَايِرَةِ الثَّانِي الْأَوَّلَ بِتَقْيِيدِهِ بِالْعِلَّةِ، وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّ الْعِبَادَةَ الْمَقْرُونَةَ بِالْإِخْلَاصِ وَإِنْ اقْتَضَتْ لِدَانِهَا أَنْ يُؤْمَرَ بِهَا فَهِيَ أَيْضاً تَقْتَضِيهِ لِمَا يُلْزِمُهَا مِنَ السَّبْقِ فِي الدِّينِ، وَيُجَوِّزُ أَنْ تُجْعَلَ اللَّامُ مُزِيدَةً كَمَا فِي أَرْدَتْ لِأَنَّ أَفْعَلَ فَيَكُونُ أَمْرٌ بِالتَّقَدُّمِ فِي الْإِخْلَاصِ وَالْبَدءُ بِنَفْسِهِ فِي الدَّعَاءِ إِلَيْهِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِهِ.

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴿١٣﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمة ما فيه.

﴿١٤﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ أمر بالإخبار عن إخلاصه وأن يكون مخلصاً له دينه بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص خائفاً عن المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم، ولذلك رغب عليه قوله:

﴿١٥﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴿١٥﴾ تهديداً وخذلاناً لهم. ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ الكاملين في الخسران. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالضلال. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ حين يدخلون النار بدل الجنة لأنهم جمعوا وجوه الخسران. وقيل وخسروا أهلهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده. ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ مبالغة في خسرانهم لما فيه من الاستئناف والتصدير بالآلة وتوسيط الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين.

﴿١٦﴾ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ﴿١٦﴾ شرح لخسرانهم. ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق من النار هي ظلل للآخرين. ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ذلك العذاب هو الذي يخوفهم به ليجتنبوا ما يوقعهم فيه. ﴿يَعْبُدُونَ﴾ فأنقون ولا تعترضوا لما يوجب سخطي.

﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ﴿١٧﴾ البالغ غاية الطغيان فعلت منه بتقديم اللام على العين بُنِيَ للمبالغة في المصدر كالرحموت، ثم وُصِفَ به للمبالغة في النعت ولذلك اختص بالشیطان. ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال منه. ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه بشرائيرهم عما سواه. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بالثواب على السنة الرسلي، أو الملائكة عند حضور الموت. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾.

﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١٨﴾ وَضَعَ فِيهِ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ ضَمِيرِ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَبْدَأِ اجْتِنَابِهِمْ وَأَنَّهُمْ نَقَادٌ فِي الدِّينِ يَمِيزُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَيُؤْثِرُونَ الْأَفْضَلَ فَالْأَفْضَلَ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لديه . ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة، وفي ذلك دلالة على أنَّ الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ جملة شرطية معطوفة على محذوف دل عليه الكلام؛ تقديره أنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، فكُرِّرت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير لذلك وللدلالة على أنَّ من حُكِمَ عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف فيه، وأن اجتهد الرسل في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار، ويجوز أن يكون أفأنت تنقذ جملة مستأنفة للدلالة على ذلك، والإشعار بالجزاء المحذوف .

(٢٠) ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرْفٌ﴾ علالي بعضها فوق بعض . ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بُنِيَتْ بناءً النازل على الأرض . ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت تلك الغرف . ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله لهم غرف في معنى الوعد . ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ ولأنَّ الخلف نقص وهو على الله محال .

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر . ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فادخله . ﴿يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ هي عيون ومجاري كائنة فيها، أو مياه نابعات فيها إذ ينبوع جاء للمنبع وللنابع فصبها على الظرف أو الحال . ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ أصنافه من بُرٍّ وشعير وغيرهما، أو كفيافته من خضرة وحمرة وغيرهما . ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتم جفافه لأنه إذا تمَّ جفافه حان له أن يثور عن منبته . ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ من يُنْسِه . ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ فتاتاً . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾ لتذكيراً بأنه لا بدَّ من صانع حكيم دبره وسوَّاه، أو بأنه مثل الحياة الدنيا فلا تغتر بها . ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إذ لا يتذكَّر به غيرهم .

(٢٢) ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ حتى تمكَّن فيه يُيسِّر، عبَّر به عمَّن خلق نفسه شديدة الاستعداد لقبوله غير متأبئة عنه من حيث أنَّ الصِّدْرَ محلُّ القلب المنبوع للروح المتعلق للنفس القابلة للإسلام . ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ يعني المعرفة والاهتداء إلى الحق . وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» فقيل: فما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله»^(١) وخبر من محذوف دل عليه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من أجل ذكره وهو أبلغ من أن يكون عن مكان من، لأنَّ القاسي من أجل الشيء أشدَّ تأبياً عن قبوله من القاسي

(١) وهو حديث ضعيف تقدم تخريجه في سورة الأنعام الآية (١٢٥) .

عنه لسبب آخر، وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بامتناع ذكر شرح الصدر، وأسندته إلى الله وقابله بقساوة القلب وأسندته إليه. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يظهر للنّاظر بأدنى نظر، والآية نزلت في حمزة وعليّ وأبي لهب وولده^(١).

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ سَوَاءٌ أَلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَبَهُمْ أَلْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن، روي أنّ أصحاب رسول الله ﷺ ملّوا ملّة فقالوا له حدثنا فنزلت^(٢). وفي الابتداء باسم الله وبناء نزل عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزل واستشهاد على حسنه. ﴿كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ بدل من أحسن أو حال منه، وتشابّهه تشابه أبعاضه في الإعجاز وتجاوب النظم وصحّة المعنى، والدلالة على المنافع العامة. ﴿مَثَانِي﴾ جمع مثنى أو مثنى أو مثنى على ما مرّ في الحجر، وصف به كتاباً باعتبار تفاصيله كقولك: القرآن سور وآيات، والإنسان: عظام وعروق وأعصاب، أو جعل تمييزاً من متشابهة كقولك: رأيت رجلاً حسناً شمائله. ﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تشمّر خوفاً مما فيه من الوعيد، وهو مثل في شدّة الخوف واقشعراؤ الجلد تقبضه وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس بزيادة الراء ليصير رباعياً كتركيب أقمطر من القمط وهو الشد. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بالرحمة وعموم المغفرة، والإطلاق للإشعار بأنّ أضل أمره الرحمة وأنّ رحمته سبقت غضبه، والتعديّة إلى التضمين معنى السكون والاطمئنان، وذكر القلوب لتقدّم الخشية التي هي من عوارضها. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء. ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ ومن يخذله. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يخرجهم من الضلال.

(٢٤) ﴿أَفَمَنْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ﴾ يجعله درقة بقي به نفسه لأنه يكون يداؤه مغلولاً إلى عنقه فلا يقدر أن يتقي إلا بوجهه. ﴿سَوَاءٌ أَلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كمن هو آمن منه، فحذف الخبر كما حذف في نظائره.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي لهم فوضع الظاهر موضعاً تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بالموجب لما يقال لهم وهو: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وباله، والواو للحال وقد مقدّرة.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَبَهُمْ أَلْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها.

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٣٦٩) بدون سند.

وانظر «زاد المسير» (١٧٤/٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٢٤ ج ٢١١) بسند منقطع.

فَإِذَا قَهُمُ اللَّهُ لِلْغَزَى فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

(٢٦) ﴿فَإِذَا قَهُمُ اللَّهُ لِلْغَزَى﴾ الذَّلَّ. ﴿فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ كالمسوخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء. ﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ﴾ المعدَّ لهم. ﴿أَكْبَرُ﴾ لشِدَّتِهِ ودَوَامِهِ. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا به.

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجُ إليه الناظرُ في أمر دينه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ﴾ يَتَعَطَّوْنَ بِهِ.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من هذا والاعتمادُ فيها على الصفةِ كقولك: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، أو مدحٌ له. ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ لا اختلالَ فيه بوجه ما هو أبلغُ من المستقيم وأخصُّ بالمعاني. وقيل بالشكِّ استشهاده بقلوبه:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ مِنَ الْإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ
وهو تخصيصٌ له ببعض مدلوله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عِلَّةٌ أُخْرَى مرتبةٌ على الأولى.

(٢٩) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشرك والموحد. ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ مثلُ المشرك على ما يقتضيه مذهبه من أن يدعي كل واحد من معبوديه عبوديته، ويتنازعوا فيه بعبدٍ يتشارك فيه، جمعٌ يتجاذبون ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة في تحيُّره وتورُّع قلبه، والموحد بمن خلص لواحد ليس لغيره عليه سبيلٌ، ورجلاً بدلٌ من مثلي وفيه صلةُ شركاء، والتشاكسُ والتشاخصُ الاختلافُ. وقرأ نافع وابنُ عامر والكوفيون سَلَمًا بفتحين، وقرئ بفتح السين وكسرها مع سكون اللام وثلاثتها مصادِرُ سَلِمَ نُعِتَ بها، أو حُذِفَ منها ذا ورجلٌ سالمٌ أي وهناك رجلٌ سالمٌ، وتخصيصُ الرجلِ لأنه أظنُّ للضرِّ والنفع. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفةٌ وحالٌ ونصبٌ على التمييزِ ولذلك وحده، وقرئ مثلين للإشعارِ باختلافِ النوع، أو لأنَّ المرادَ على استويانٍ في الوصفين على أنَّ الضميرَ للمثلين فإنَّ التقديرَ مِثْلُ رَجُلٍ وَمِثْلُ رَجُلٍ. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلُّ الحمدِ له لا يشاركه فيه على الحقيقةِ سواءً، لأنه المنعمُ بالذاتِ والمالكُ على الإطلاق. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غَيْرُهُ مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فَإِنَّ الْكُلَّ بِصَدْرِ الْمَوْتِ وَفِي عَدَادِ الْمَوْتِ، وقرئ مائتٌ ومائتون لأنه مما سيحدثُ.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليبِ المخاطبِ على الغيبِ. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجُّ عليهم بأنك كنتَ على الحقِّ في التوحيدِ وكانوا على الباطلِ في التشريكِ، واجتهدتَ في الإرشادِ والتبليغِ ولجؤا في التكذيبِ والعنادِ، ويعتدرون بالأباطيلِ مِثْلُ أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَوَجَدْنَا آبَاءَنَا. وقيل المرادُ به الاختصامُ العامُ يخاصمُ الناسَ بعضهم بعضاً فيما دار بينهم في الدنيا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢)
 وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
 هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

(٣٢) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ وهو ما جاء به محمد ﷺ. ﴿إِذْ جَاءَهُۥٓ﴾ من غير توقُّفٍ وتفكُّرٍ في أمره. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وذلك يكفيهم مجازاة لأعمالهم، واللام تحتلُّ العهد والجنس، واستدلَّ به على تكفير المبتدعة فإنهم يكذبون بما علِمَ صدقه وهو ضعيفٌ لأنه مخصوصٌ بمن فاجأ ما علِمَ مجيء الرسول به بالكذب.

(٣٣) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ اللام للجنس ليتناول الرسل والمؤمنين لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وقيل هو النبي ﷺ، والمراد هو ومن تبعه كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(١). وقيل الجاني هو الرسول والمصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وذلك يقتضي إضمار الذي وهو غير جائر. وقرئ وصدق به بالتخفيف أي صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل من غير تحريف أو صار صادقاً بسببه لأنه معجزٌ يدلُّ على صدقه، وصدق به على البناء للمفعول.

(٣٤) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ خصَّ الأسوأ للمبالغة فإنه إذا كفر كان غيره أولى بذلك، أو للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون أنهم مقصرون مذنبون وأن ما يفرط منهم من الصغائر أسوأ ذنوبهم، ويجوز أن يكون بمعنى السيء كقولهم: الناقص والأشجُّ أعدلا بني مروان، وقرئ أسوء جمع سوء. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ ويعطيهم ثوابهم. ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتعدُّ لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم فيها.

(٣٦) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ استفهام إنكارٍ للنفي مبالغة في الإثبات، والعبْدُ رسولُ الله ﷺ ويُحتملُ الجنس، ويؤيده قراءة حمزة والكسائي عباده، وفُسِّرَ بالأنبياء صلواتُ الله عليهم. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني قريشاً فإنهم قالوا له إنا نخاف أن تخيلك آلهتنا بعينك إياها. وقيل إنه بعث خالداً ليكسر العزى فقال له سادتها أخذركها فإن لها شدة، فعمد إليها خالدٌ فهشم أنفها فنزل تخويفُ خالدٍ منزلة تخويفه لأنه الأمر له بما خوف عليه. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا ينفَع ولا يضر. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الرشاد.

(٣٧) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّضِلٍّ﴾ إذ لا رادَّ لفعله كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ منيعٍ. ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه.

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتِيَّ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَكُنْ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لوضح البرهان على تفرده بالخلقية. ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ ﴾ أي رأيتم بعد ما تحققتُم أنَّ خالق العالم هو الله تعالى، وأنَّ إِلَهَتُكُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَصِيبَنِي بِضُرٍّ هَلْ يَكْشِفُهُ. ﴿ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ ﴾ بنفع. ﴿ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتِيَّ ﴾ فيمسكُها عني، وقرأ أبو عمرو كاشفاتُ ضَرِّه مَمْسَكَتُ رَحْمَتِهِ بالتَّوْنِ فِيهِمَا وَنَصَبِ ضَرِّهِ وَرَحْمَتِهِ. ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ كافياً في إصابة الخيرِ ودفع الضرِّ إذ تقرر بهذا التقرير أنه القادرُ الذي لا مانعَ لما يريدُه من خيرٍ أو شرٍّ. رُوي أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَأَلَهُمْ فَسَكْتُوا فَزَلَّ ذَلِكَ. وإنما قال كاشفاتُ وممسكاتُ على ما يصفونَهَا به من الأُنُوثة نَبِيهَاً عَلَى كَمَالِ ضَعْفِهَا. ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ لعلَّهم بأنَّ الكلَّ منه تعالى.

(٣٩) ﴿ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالِكُمْ، اسمٌ للمكانِ اسْتَعْيَرَ للحال كما استعيرَ هنا وحيثُ مِنَ المكانِ للزمانِ، وقرئَ مكاناتِكُمْ. ﴿ إِنِّي عَمِلْتُ ﴾ أي على مكانتي فحذِفَ للاختصار والمبالغة في الوعيد، والإشعارِ بأنَّ حاله لا يَفُتْ فإنه تعالى يزيده على مرِّ الأيام قوَّةً ونصرةً ولذلك توَعَّدَهُم بِكَوْنِهِ مَنْصُوراً عَلَيْهِمْ فِي الدَّارَيْنِ فقال: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

(٤٠) ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ فَإِنَّ خِزْيَ أَعْدَائِهِ دَلِيلُ غَلْبَتِهِ، وقد أَخْزَاهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَذْرِ. ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائمٌ وهو عَذَابُ النَّارِ.

(٤١) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴾ لِأَجْلِهِمْ فإنه مناطُ مصالحِهِمْ وَمَعَادِهِمْ. ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ مُتَبَسِّباً بِهِ. ﴿ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلِنَفْسِهِ ﴾ إذ نَفَعَ بِهِ نَفْسَهُ. ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ فَإِنَّ وَبَالَه لَا يَتَخَطَّاهَا. ﴿ وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ ﴾ وما وَكَّلْتُ عَلَيْهِمْ لِتَجْبُرَهُمْ عَلَى الْهُدَى وَإِنَّمَا أُمِرْتُ بِالْبَلَاغِ وَقَدْ بَلَغْتَ.

(٤٢) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أي يقبضُها عن الأبدانِ بأنَّ يقطعَ تعلُّقَها عنها وتصرُّفَها فيها، إما ظاهراً وباطناً وذلك عندَ الموتِ، أو ظاهراً لا باطناً وهو في النوم. ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ وَلَا يَرُدُّهَا إِلَى الْبَدَنِ، وقرأ حمزة والكسائي قُضِيَ بِضَمِّ الْقَافِ وَكسِرِ الضَّادِ وَالْمَوْتَ بِالرَّفْعِ. ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ﴾ أي النَّائِمَةَ إِلَى بَدْنِهَا عِنْدَ الْبِقْطَةِ. ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو الْوَقْتُ الْمَضْرُوبُ لِمَوْتِهِ وهو غاية جنسِ الإرسالِ. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّ

في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثلُ شعاع الشمس، فالنفسُ التي بها العقلُ والتمييزُ، والروحُ التي بها النفسُ والحياةُ، فيتوقَّيان عند الموتِ وتتوقَّى النفسُ وحدها عند النوم^(١). قريبٌ مما ذكرناه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ من التوقِّي والإمساك والإرسال. ﴿لَا يَنْتَبِهُ﴾ دالةٌ على كمالِ قدرته وحكمته وشمولِ رحمته. ﴿لَيَقَوْمٌ يَنْفَكُرُونَ﴾ في كيفية تعلُّقها بالأبدانِ وتوقُّفها عنها بالكلية حين الموتِ، وإمساكها باقيةً لا تنفَى بفنائها، وما يعترِبها من السعادة والشقاوة والحكمة في توقُّفها عن ظواهرها وإرسالها حيناً بعد حينٍ إلى توقُّفي آجالها.

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

(٤٣) ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذت قريشٌ. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ تشفع لهم عند الله. ﴿قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو كانوا على هذه الصفة كما شاهدوهم جماداتٍ لا تقدِّر ولا تعلم.

(٤٤) ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً﴾ لعلَّه ردُّ لما عسى يجيئون به وهو أنَّ الشفعاء أشخاصٌ مقرَّبون هي تماثيلهم، والمعنى أنه مالكُ الشفاعة كلها لا يستطيع أحدٌ شفاعةً إلا بإذنه ورضاه، ولا يستقلُّ بها، ثمَّ قَوَّرَ ذلك فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه مالكُ الملكِ كله لا يملك أحدٌ أن يتكلَّم في أمره دونَ إذنه ورضاه. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يومَ القيامة فيكون الملكُ له أيضاً حينئذٍ.

(٤٥) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دونَ آلهتهم. ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ انقبضت ونفرت. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأوثان. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرطِ افتنانهم بها ونسيانهم حقَّ الله، ولقد بالغَ في الأمرين حتى بلغَ الغايةَ فيهما، فإنَّ الاستبشارَ أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسطَ له بشرةٌ وجهه، والاشمئزازُ أن يمتلئ غماً حتى ينقبضَ أديمُ وجهه، والعاملُ في ﴿إِذَا ذُكِرَ﴾ العاملُ في إذا المفاجأة.

(٤٦) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ التجيء إلى الله بالدعاء لما تحيرت في أمرهم وضيَّجت من عنادهم وشدة شكيمتهم، فإنه القادرُ على الأشياءِ والعالمُ بالأحوالِ كلها. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فانتَ وحدك تقدِّر أن تحكمَ بيني وبينهم.

(٤٧) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وعيدٌ

شديد وإقناط كلي لهم من الخلاص. ﴿وَبَدَأْهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ زيادة مبالغة فيه وهو نظير قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾^(١) في الوعد.

وَبَدَأْهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٨) ﴿وَبَدَأْهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تُعرضُ صحائفهم. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه.

(٤٩) ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبار عن الجنس بما يغلب فيه، والعطف على قوله ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾^(٢) بالفاء لبيان مناقضتهم وتعكيسهم في التسبب بمعنى أنهم يشمتون عن ذكر الله وحده ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسهم ضر دعوا من أشمازوا من ذكره دون من استبشروا بذكره، وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطينا إياه تفضلاً فإنَّ التحويل مختص به. ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجوه كسبه، أو باني سأعطاه لما لي من استحقاقه، أو من الله بي واستحقاقي، والهاء فيه لما إن جعلت موصولة وإلا فللنعمة، والتذكير^(٣) لأنَّ المراد شيء منها. ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ امتحان له أشكر أم يكفر، وهو رد لما قاله وتأنيت الضمير باعتبار الخير أو لفظ النعمة، وقرئ بالتذكير. ﴿وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وهو دليل على أنَّ الإنسان للجنس.

(٥٠) ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(٤) لأنها كلمة أو جملة، وقرئ بالتذكير. ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قارون وقومه فإنه قال ورضي به قومه. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا..

(٥١) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم أو جزاء أعمالهم، وسماء سيئة لأنه في مقابلة أعمالهم السيئة رمزاً إلى أنَّ جميع أعمالهم كذلك. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالعتو. ﴿مِن هَٰؤُلَاءِ﴾ المشركين ومن اللبائن أو للتبعيض. ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب أولئك، وقد أصابهم فإنهم فحطوا سبع سنين وقتل بدير صناديدهم. ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين.

(٥٢) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ حيث حبس عنهم الرزق سبعا ثم بسط لهم

(١) السجدة: «١٧».

(٢) الزمر: «٤٥».

(٣) تذكير الضمير مع أنه يعود على مؤنث.

(٤) الزمر: «٤٩».

سبعاً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادث كلها من الله بوسط أو غيره.

﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

(٥٣) ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي، وإضافة العباد تخصّصه بالمؤمنين على ما هو عزف القرآن. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسوا من مغفرته أولاً وتفضله ثانياً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفواً ولو بعد بَعْدُ، وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية، والتعليل بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغة. وإفادة الحضر والوعيد بالرحمة بعد المغفرة، وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في عبادي من الدلالة على الدلالة والاختصاص المقتضيين للترحم، وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقها، وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعاً، ووضع اسم الله موضع الضمير للدلالة على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق، والتأكيد بالجميع. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أحبُّ أن تكون لي الدنيا وما فيها بها» فقال رجل: يا رسول الله ومن أشرك؟ فسكت ساعة ثم قال: «ألا ومن أشرك ثلاث مرات»^(١). وما روي أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الوثن وقتل النفس بغير حق لم يُغفر له فكيف ولم نهاجز وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس فنزلت^(٢). وقيل في عياش والوليد بن الوليد في جماعة افتتنوا^(٣)، أو في الوحشي لا ينفي عمومها^(٤) وكذا قوله:

(٥٤) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ فإنها لا تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن التوبة والإخلاص في العمل وتنافي الوعيد بالعذاب.

(٥٥) ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ القرآن أو المأمور به دون المنهي عنه، والعزائم

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/ج ٢٤/١٥) وأحمد (٥/٢٧٥) والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٧/١٠٠) من حديث ثوبان.

قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٦٩.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٢/ج ٢٤/١٥) عن ابن عمر، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث في هذه الرواية.

(٤) أخرج البخاري (٨/٥٤٩ رقم ٤٨١٠) ومسلم (١/١١٣ رقم ١٢٢/١٩٣) وأبو داود (٤/٤٦٥ رقم ٤٢٧٣) والحاكم (٢/٤٠٣).

عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسن. ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر...» [الفرقان: ٦٨] ونزل: «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم... الآية».

دُونَ الرُّخْصِ أَوْ النَّاسِخِ دُونَ الْمُنْسُوحِ، وَلَعَلَّهُ مَا هُوَ أَنْجَى وَأَسْلَمُ كَالْإِنَابَةِ وَالْمَوَاطَبَةِ عَلَى الطَّاعَةِ.
﴿يَنْ قِيلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بِمَجِيئِهِ فَتَتَذَكَّرُوا.

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول، وتنكير نفس لأنَّ القائل بعضُ الأنفسِ أو للتكثيرِ كقولِ الأغشى:
وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ
أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضِبَا
﴿بَحْسَرَتٍ﴾ وقرئ بالياء على الأضل. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ بما قصرت. ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ في جانبه أي
في حقّه وهو طاعته. قال سابق البربري:

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ وَامْنِي لَهُ كَبْدٌ حَرِيٌّ عَلَيْكَ تَقَطَّعَ
وهو كنايةٌ فيها مبالغةٌ كقوله:

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَاللَّدَى فِي قُبَّةٍ ضَرَبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ

وقيل ذاته على تقدير مضافٍ كالطاعة، وقيل في قربه من قوله «والصاحب بالجنب»، وقرئ في ذكرِ
الله. ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ المستهزئين بأهله، ومحلُّ ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ نصبٌ على الحالِ كأنه قال فرَّطْتُ
وأنا ساخرٌ.

(٥٧) ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بالإرشادِ إلى الحقِّ. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الشركَ والمعاصي.

(٥٨) ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل، وأو
للدلالة على أنَّها لا تخلو من هذه الأقوال تحييراً وتعلُّلاً بما لا طائلَ تحته.

(٥٩) ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ردٌّ من الله عليه لما تضمَّنه
قوله ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ من معنى النفي وفضله عنه لأنَّ تقديمه يفرقُ القرائنَ، وتأخيرُ المودودِ يخلُ
بالنظم المطابق للوجودِ لأنه يتحسَّرُ بالتفريط ثم يتعلَّلُ بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة، وهو لا يمنع تأثيرَ
قدرة الله في فعلِ العبدِ ولا ما فيه من إسنادِ الفعلِ إليه كما عرفت، وتذكيرُ الخطابِ على المعنى،
وقرئ بالتأنيثِ للنفسِ.

(٦٠) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بأنَّ وصفه بما لا يجوزُ كاتخاذِ الولد. ﴿وُجُوهُهُمْ
مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدةِ أو بما يتخيلُ عليها من ظلمةِ الجهل، والجملةُ حالٌ إذ الظاهرُ أنَّ تَرَى
من رؤيةِ البصرِ واكتفيَ فيها بالضميرِ عن الواو. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مقامٌ. ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن
الإيمان والطاعة وهو تقريرٌ لأنهم يَرَوْنَ كذلك.

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَارَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَمْ يَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾

(٦١) ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقرئ ويُنَجِّي. ﴿بِمَفَارَتِهِمْ﴾ بفلاجهم مفعلة من الفوز، وتفسيرها بالنجاة تخصيصها بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب، وقرأ الكوفيون غير حفص بالجمع تطبيقاً لهم، والباء فيها للسببية صلة لينجي أو لقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهو حال أو استئناف لبيان المفازة.

(٦٢) ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من خيرٍ وشرٍّ وإيمان وكفر. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف.

(٦٣) ﴿لَمْ يَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، وهو كناية عن قدرته وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها، وهو جمع مفليد أو مقلاد من قلده إذا ألزمته، وقيل جمع إقليد معرب إكليد على الشذوذ كمذاكير. وعن عثمان رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن المقلد فقال: «تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخِر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»^(١). والمعنى على هذا إن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ متصل بقوله ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(٢) وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١١٧/١ - ١١٨) و(٢٣١/٤ - ٢٣٢) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٧٣) والذهبي في الميزان (٨٤/٤ - ٨٥).

وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٤٤/١ - ١٤٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص ١٣ من حديث ابن عمر.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١١٥/١٠) وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» وفيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف» هـ.

وقال ابن الجوزي: «وهذا حديث لا يصح قال: أما الأغلب فقال يحيى: ليس بشيء وأما مخلد فقال ابن حبان منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقات، وأما عبدالرحيم فكذا في رواية يوسف القاضي، وفي رواية العقيلي عبدالرحمن المدني وهو ضعيف. وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ لأنه منزه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد» هـ.

وقال الذهبي: «هذا موضوع فيما أرى» هـ.

وانظر «تنزيه الشريعة» (١٩٢/١ - ١٩٣).

(٢) الزمر: ٦١.

مهيمنٌ على العبادِ مطلقٌ على أفعالهم مجازٍ عليها، وتغييرُ النظم للإشعارِ بأنَّ العمدَةَ في فلاحِ المؤمنينَ فضلُ الله وفي هلاكِ الكافرينَ أنْ خسروا أنفسهم، وللتصريحِ بالوعدِ والتعريضِ بالوعيدِ قضيةً للكرمِ أو بما يليه، والمرادُ بآياتِ الله دلائلُ قدرته واستبدادهُ بأمرِ السمواتِ والأرضِ، أو كلماتُ توحيده وتمجيده، وتخصيصُ الخسارِ بهم لأنَّ غيرَهُم ذو حظٍّ من الرحمةِ والثوابِ.

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرَوْفَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

(٦٤) ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرَوْفَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي أغْيَرَ الله أَعْبُدْ بعدَ هذه الدلائلِ والمواعيدِ، وتأمروني اعتراضٌ للدلالة على أنَّهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استسلم بعضُ آلهتنا ونؤمنُ بإلهك لفرطِ غباوتهم، ويجوزُ أنْ ينتصبَ غيرُ بما دلَّ عليه تأمروني أنْ أَعْبُدْ لأنه بمعنى تعبدونني على أنْ أصله تأمروني أنْ أَعْبُدْ فحذفَ أنْ ورفعَ كقوله:

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَخْضِرِ الْوَعَى

ويؤيده قراءةُ أَعْبُدْ بالنصبِ، وقرأ ابنُ عامرٍ تأمروني بإظهارِ النونينِ على الأضلِّ، ونافعٌ بحذفِ الثانيةِ فإنها تُحذفُ كثيراً.

(٦٥) ﴿لَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي من المرسل. ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كلامٌ على سبيلِ الفرض، والمرادُ به تهيجُ الرسل وإقناتُ الكفرة والإشعارُ على حكمِ الأُمَّةِ، وإفرادُ الخطابِ باعتبارِ كلِّ واحدٍ، واللامُ الأولى موطنُ القسمِ والأخريانِ للجوابِ، وإطلاقُ الإحباطِ يُحتملُ أنْ يكونَ من خصائصهم لأنَّ شِرْكَهم أقبحُ، وأنْ يكونَ على التقييدِ بالموتِ كما صرَّح به في قوله ﴿ومن يتردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾^(١) وعطفُ الخسرانِ عليه من عطفِ المسبَّبِ على السببِ.

(٦٦) ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ﴾ ردُّ لما أمروه به ولولا دلالةُ التقديمِ على الاختصاصِ لم يكنْ كذلك. ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إتمامه عليك، وفيه إشارةٌ إلى موجبِ الاختصاصِ.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما قدرُوا عَظَمَتَهُ في أنفسهم حقَّ تعظيمه حيثُ جعلُوا له شركاءَ ووصفوه بما لا يليقُ به، وقرئ بالتشديد. ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ تنبيهٌ على عظمته وحقارةِ الأفعالِ العظامِ التي تتحيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قدرته، ودلالةٌ على أنَّ تخريبَ العالمِ أهونُ شيءٍ عليه على طريقةِ التمثيلِ والتخييلِ من غيرِ اعتبارِ القبضةِ واليمينِ حقيقةً ولا مجازاً كقولهم: شابتْ لَمَّةُ الليلِ، والقبضةُ المرَّةُ من القبضِ أَطْلَقْتُ بمعنى القبضةِ

وهي المقدارُ المقبوضُ بالكفِّ تسميةً بالمصدرِ، أو بتقديرِ ذاتِ قبضةٍ. وقرئ بالنصبِ على الظرفِ تشبيهاً للمؤقتِ بالمبهمِ، وتأكيذُ الأرضِ بالجميعِ لأنَّ المرادَ بها الأرضُ السبعُ أو جميعُ أبعاضِها البادية والغائرةُ. وقرئ مطوياتٍ على أنها حالٌ، والسمواتُ معطوفةٌ على الأرضِ منظومةٌ في حكمِها. ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعدَ وأعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكِهم، أو ما يضافُ إليه من الشركاءِ.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني المرة الأولى. ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ خرَّ ميتاً أو مغشياً عليه. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قيل جبريلُ ومكائيلُ وإسرافيلُ فإنهم يموتون بعدُ. وقيل حَمَلَةُ العرشِ. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ نفخةٌ أخرى وهي تدلُّ على أنَّ المرادَ بالأولى، ونفخٌ في الصورِ نفخةٌ واحدةٌ كما صرَّحَ به في مواضع، وأخرى تحتلُّ النصبَ والرفعَ. ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمونٌ من قبورهم أو متوقفون، وقرئ بالنصبِ على أنَّ الخبرَ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ وهو حالٌ من ضميره والمعنى: يلقَّبونَ أبصارهم في الجوانبِ كالمبهوتين أو ينتظرونَ ما يُفَعَّلُ بهم.

(٦٩) ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقامَ فيها من العدلِ، سمَّاهُ نوراً لأنه يزيِّنُ البقاعَ ويظهرُ الحقوقَ كما سُمِّيَ الظلمُ ظلمةً. وفي الحديثِ «الظلم ظلماتٌ يوم القيامة»^(١). ولذلك أضافَ اسمَه إلى الأرضِ، أو بنورِ خُلِقَ فيها بلا واسطةٍ أجسامَ مضيئةٍ ولذلك أضافه إلى نفسه. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ للحسابِ والجزاء من وُضِعَ المحاسبُ كتابَ المحاسبة بين يديه، أو صحائفُ الأعمالِ في أيدي العمالِ، واكْتَفَى باسمِ الجنسِ عن الجمعِ. وقيل اللوحُ المحفوظُ يُقَابَلُ به الصحائفُ. ﴿وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الذين يشهدون للأمرِ وعليهم من الملائكةِ والمؤمنين، وقيل المستشهدون. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين العبادِ. ﴿بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ أو زيادةٍ عقابٍ على ما جَرَى به الوعد.

(٧٠) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ جزاءه. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيءٌ من أفعالهم، ثم فصلَ التوفيةَ فقال:

(١) أخرجه البخاري (١٠٠/٥) رقم (٢٤٤٧) ومسلم (١٩٩٦/٤) رقم (٢٥٧٩/٥٧) وأحمد (١٣٧/٢، ١٥٦) والترمذي (٣٧٧/٤) رقم (٢٠٣٠) من حديث ابن عمر. وأخرجه مسلم (١٩٩٦/٤) رقم (٢٥٧٨/٥٦) وأحمد (٣٢٣/٣) من حديث جابر.

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾

(٧١) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض على تفاوت أقدامهم في الضلالة والشرارة، جمع زمرة، واشتقاقها من الزمر وهو الصوت. إذ الجماعة لا تخلو عنه، أو من قولهم: شاة زمرة قليلة الشعر، ورجل زمراً قليل المروءة، وهي الجمع القليل. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها، وحتى هي التي تُحكى بعدها الجملة، وقرأ الكوفيون فُتِحَتْ بتخفيف التاء. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تقريباً وتوبيخاً. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم. ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث إنهم علّلوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ كلمة الله بالعذاب علينا وهو الحكم عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار، وَوَضَعَ الظَّاهِرَ فِيهِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة، وقيل هو قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْيَتِيمِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

(٧٢) ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَنَّهُمُ الْقَائِلَ لتهويل ما يُقَالُ لهم. ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى﴾ مكان. ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس، والمخصوص بالذم سبق ذكره، ولا ينافي إشعاره بأن مثواتهم في النار لتكبرهم عن الحق أن يكون دخولهم فيها لأن كلمة العذاب حقت عليهم، فإن تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بَعْمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ. وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بَعْمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ بِهِ النَّارَ»^(٢).

(٧٣) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ﴾ إسراراً بهم إلى دار الكرامة، وقيل سيق مراكبهم إذ لا يُذهَبُ بهم إلّا راكبين. ﴿زُمَرًا﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ حُذِفَ جواب إذا للدلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به

(١) هود: ١١٩.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٨٩٨ - ٨٩٩ رقم ٢) وأبو داود (٥/٨٠ رقم ٤٧٠٣) والترمذي (٥/٢٦٦ رقم ٣٠٧٥) وأحمد (١/٤٤ - ٤٥) من حديث عمر.

قال الترمذي: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً.

إلا أن المحدث الألباني قال في ضعيف أبي داود (صحيح - إلا مسح الظهر -).

الوصف، وأن أبواب الجنة تُفتح لهم قبل مجيئهم غير منتظرين، وقرأ الكوفيون فُتِحَتْ بالتخفيف. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعترئكم بعدُ مكروه. ﴿طَبَّتُمْ﴾ طَهُزْتُمْ من دَنَسِ المعاصي. ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود فيها، والفاء للدلالة على أنَّ طَبَّتُمْ سبب لدخولهم وخلودهم، وهو لا يمنع دخول العاصي بعفوه لأنه مطَّهَّرُهُ.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدُّهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدُّهُ﴾ بالبعث والثواب. ﴿وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ﴾ يريدون المكان الذي استقرُّوا فيه على الاستعارة، وإيراثها تمليكها مخلقة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه. ﴿نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي يتبوا كلُّ منا في أي مقام أَرَادَهُ من جَنَّتِهِ الواسعة، مع أن في الجنة مقاماتٍ معنوية لا يتمنع وادُّوها. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ الجنة.

(٧٥) ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ محذقين. ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي حوله، ومن مزيدة أو لابتداء الحفوف. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين بحمده. والجملة حال ثانية أو مقيدة للأولى، والمعنى ذاكرين له بوضفني جلاله وإكرامه تلذذاً به، وفيه إشعار بأنَّ منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة، أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على ما قُضِيَ بيننا بالحق. والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينهم أو الملائكة وعلى ذكْرِهِمْ لِتَعْنِيهِمْ وتعظيمهم. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين»^(١). عن عائشة رضي الله عنها «أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كلَّ ليلة بني إسرائيل والزمر»^(٢) والله أعلم.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٧٥/٥) رقم (٣٤٠٥) وأحمد (٦٨/٦، ١٢٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص ٤٣٤) رقم (٧١٢) والحاكم (٤٣٤/٢) من حديث عائشة في أثناء حديث. قال الترمذي: حسن غريب، وسكت عليه الحاكم والذهبي. وحسن الحديث الدكتور فاروق حمادة في تحقيق عمل اليوم والليلة للنسائي.

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝

سورة المؤمن مكية^(١) وآياتها خمس وثمانون
بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حَمْدٌ﴾ أماله ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر صريحاً، ونافع برواية وزر وأبو عمرو بينَ، وقرىء بفتح الميم على التحريك لالتقاء الساكنين، أو النصب بإضمار اقرأ. ومنع صرفه للتعريف والتأنيث، أو لأنها على زنة أعجمي كقبايل وهاويل.

(٢) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ لعل تخصيص الوصفين لما في القرآن من الإعجاز والحكم الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة.

(٣) ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ صفات أخرى لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود منه، والإضافة فيها حقيقة على أنه لم يُرد بها زماناً مخصوصاً.

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة.

وأخرج ابن جرير عن الشعبي - رضي الله عنه - قال: أخبرني مسروق رضي الله عنه أنها أنزلت بمكة.

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - قال: نزلت الحواميم جميعاً بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت حم (المؤمن) بمكة، انظر الدر المنثور: (٢٦٨/٧).

وَأُرِيدَ بِشَدِيدِ الْعِقَابِ مُشَدَّدَهُ أَوْ الشَّدِيدِ عِقَابَهُ، فَحُذِفَ اللَّامُ لِلِازْدِوَاجِ وَأَمِنَ الْإِلْتِبَاسُ أَوْ إِبْدَالُ، وَجَعَلَهُ وَخَذَهُ بَدَلًا مَشَوِّشٌ لِلنَّظْمِ. وَتَوَسَّطُ الْوَائِ بَيْنَ الْأَوَّلَيْنِ لِإِفَادَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ مَحَوِّ الذُّنُوبِ وَقَبُولِ التَّوْبَةِ، أَوْ تَغَايُرِ الْوُضُفَيْنِ إِذْ رُبَّمَا يُتَوَهَّمُ الْإِتِّحَادُ، أَوْ تَغَايُرُ مَوْقِعِ الْفَعْلَيْنِ لِأَنَّ الْغَفَرَ هُوَ السِّرُّ فَيَكُونُ لِلذَّنْبِ بَاقٍ وَذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَتَبَّ (فَإِنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ)^(١). وَالتَّوْبُ مُصَدَّرٌ كَالْتَّوْبَةِ، وَقِيلَ جَمْعًا. وَالطُّوْلُ الْفَضْلُ بِتَرْكِ الْعِقَابِ الْمُسْتَحَقِّ. وَفِي تَوْحِيدِ صِفَةِ الْعَذَابِ مَغْمُورَةً بِصِفَاتِ الرَّحْمَةِ دَلِيلُ رُجْحَانِهَا. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فَيَجِبُ الْإِقْبَالُ الْكُلِّيُّ عَلَى عِبَادَتِهِ. ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فَيَجَازِي الْمَطْيَعُ وَالْعَاصِي.

(٤) ﴿مَا يُجَدِّدُ فِي عَائِدَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لَمَّا حَقَّقَ أَمَرَ التَّنْزِيلِ سَجَّلَ بِالْكَفْرِ عَلَى الْمُجَادِلِينَ فِيهِ بِالطَّعْنِ وَإِدْحَاضِ الْحَقِّ لِقَوْلِهِ ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾^(٢) وَأَمَّا الْجِدَالُ فِيهِ لِحَلِّ عُقْدِهِ وَاسْتِنَابِ حَقَائِقِهِ وَقَطْعِ تَشَبُّثِ أَهْلِ الزَّيْغِ بِهِ وَقَطْعِ مَطَاعِنِهِمْ فِيهِ فَمِنْ أَعْظَمِ الطَّاعَاتِ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ جِدَالَ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ»^(٣) بِالتَّنْكِيرِ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ جِدَالَ فِيهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ. ﴿فَلَا

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (٢/١٤٢٠ رَقْم ٤٢٥٠) وَالتَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١٠/١٨٥ رَقْم ١٠٢٨١) وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَةِ (٤/٢١٠) وَالْقُضَاعِيُّ فِي مُسْنَدِ الشَّهَابِ رَقْم (١٠٨) وَالسَّهْمِيُّ فِي تَارِيخِ جَرَّجَانَ ص ٣٩٩ وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى (١٠/١٥٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

قُلْتُ: فِي سَنَدِهِ انْقِطَاعٌ لِأَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِيهِ. لَكِنْ لِلْحَدِيثِ مَتَابِعٌ وَشَوَاهِدٌ يَرْتَقِي بِهَا إِلَى دَرَجَةِ الْحَسَنِ.

أَمَّا الْمَتَابِعُ فَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى (١٠/١٥٤) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزْرِيِّ عَنْ زِيَادِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

أَمَّا الشَّوَاهِدُ: (فَالْأَوَّلُ) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ (١٠/١٥٤) وَفِي الشَّعْبِ (٥/٤٣٦ رَقْم ٧١٧٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَفِي سَنَدِهِ سَلَمُ بْنُ سَالِمٍ، وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ كِلَاهُمَا ضَعِيفٌ.

(وَالثَّانِي): أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ (١٠/١٥٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَتْبَةَ الْخَوْلَانِيِّ.

(وَالثَّلَاثُ): أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَةِ» (١٠/٣٩٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ وَفِي سَنَدِهِ: يَحْيَى بْنُ أَبِي خَالِدٍ، وَابْنُ أَبِي سَعْدٍ كِلَاهُمَا مُجْهُولٌ.

وَالْحَدِيثُ حَسَنُهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ كَمَا نَقَلَ عَنْهُ السَّخَاوِيُّ وَقَالَ: يَعْنِي لَشَوَاهِدِهِ.

وَكَذَا الْأَلْبَانِيُّ. الْمَقَاصِدُ الْحَسَنَةُ (رَقْم: ٣١٣) وَالضَّعِيفَةُ (رَقْم ٦١٥ وَ٦١٦).

(٢) غَافِرٌ: «٥٥».

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ (ص ٣٠٢ رَقْم ٢٢٨٦) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بَلْفُظٍ: «لَا تَجَادَلُوا فِي الْقُرْآنِ فَإِنْ جَدَلْتُمْ فِيهِ كُفْرٌ».

وَفِي إِسْنَادِهِ: فُلَيْحُ بْنُ سَلِيمَانَ وَهُوَ صَدُوقٌ كَثِيرُ الْخَطَا. لَكِنْ الْحَدِيثُ لَهُ شَوَاهِدٌ يَنْجِبُ بِهَا هَذَا الضَّعْفُ وَقَدْ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ (٢/١٢١٠ رَقْم ٧٢٢٣).

وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٤/٢٠٤، ٢٠٥) مِنْ حَدِيثِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ فِي سِيَاقٍ طَوِيلٍ بَلْفُظٍ «لَا تَمَارَوْا فِيهِ فَإِنْ الْمَرَاءُ فِيهِ كُفْرٌ».

وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ: وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ رَجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ - كَمَا فِي «الصَّحِيحَةِ» (رَقْم: ١٥٢٢) -.

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا (٤/١٦٩ - ١٧٠) وَابْنُ جَرِيرٍ فِي «جَامِعِ الْبَيَانِ» (١/١٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي جَهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ كَحَدِيثِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ.

يَعْرُزُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْيَلَدِ ﴿٥﴾ فَلَا يَغْرُزُكَ إِمَهُالُهُمْ وَإِقْبَالُهُمْ فِي دَنِيَاهُمْ وَتَقْلُبُهُمْ فِي بِلَادِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ بِالتَّجَارَاتِ الْمَرْبِجَةِ فَإِنَّهُمْ مَأْخُودُونَ عَمَّا قَرِيبٍ بِكَفْرِهِمْ أَخَذَ مَنْ قَبْلَهُمْ كَمَا قَالَ:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والذين تحزَّبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح كعادٍ وشمود. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هؤلاء. ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرىء برسولها. ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ لِيَتَمَكَّنُوا من إصابته بما أرادوا من تعذيبٍ وقتلٍ من الأخذ بمعنى الأسر. ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقة له. ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ لِيُزِيلُوهُ بِهِ. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك جزاء لهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمررون على ديارهم وترون أثره، وهو تقريرٌ فيه تعجيبٌ.

(٦) ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وعيده أو قضاؤه بالعذاب. ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكفرهم. ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بدلٌ من كلمة ربك بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى.

(٧) ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الكروبيئون أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجوداً، وحملهم إياه وحفيظهم حوله مجازاً عن حفظهم وتدبيرهم له، أو كناية عن قُرْبِهِمْ من ذي العرش ومكانتهم عنده وتوسطهم في نفاذ أمره. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرون الله بمجامع الشناء من صفات الجلال والإكرام، وجعل التسبيح أصلاً والحمد حالاً لأنَّ الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح أصلاً. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أخبر عنهم بالإيمان إظهاراً لفضله وتعظيماً لأهله، ومساقُ الآية لذلك كما صرح به بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وإشعاراً بأنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ وَسُكَّانَ الْفَرْشِ في معرفته سواء رداً على المجسمة^(١)، واستغفارهم شفاعتهم وحملهم على التوبة وإلهامهم ما يوجب المغفرة، وفيه تنبيه على أنَّ المشاركة في الإيمان توجب التضخُّع والشفقة وإنَّ تخالف الأجناس لأنها أقوى المناسبات كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢). ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربَّنَا وهو بيانٌ ليستغفرون أو حالٌ. ﴿وَسِعَتْ

= وإخرج أبو داود (٩/٥ رقم ٤٦٠٣) وأحمد (٢٨٦/٢، ٣٠٠، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨) وابن جرير في «جامع البيان» (١/١١) والحاكم (٢٢٣/٢) وابن حبان (ص ٤٤٠ رقم ١٧٨٠) من حديث أبي هريرة، بلفظ «المراء في القرآن كفر». وصححه الألباني في الصحيحة (رقم: ١٥٢٢).

(١) انظر «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية. تحقيق: د. محمد رشاد سالم (١/١٠٤ - ١١١).

(٢) الحجرات: (١٠).

كُلُّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ۖ أَي وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ فَأَزِيلَ عَنْ أَصْلِهِ لِلْإِغْرَاقِ فِي وَضْفِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ. والمبالغة في عمومها، وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ها هنا. ﴿فَأَعْرِضْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق. ﴿وَفِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ واحفظهم عنه وهو تصريح بعد إشعارٍ للتأكيد والدلالة على شدة العذاب.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١)

(٨) ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ وعدتهم إياها. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على هم الأول أي أدخلهم ومعهم هؤلاء ليتم سرورهم، أو الثاني لبیان عموم الوعد، وقرىء جنة عدن وصلح بالضم وذرئتهم بالتوحيد. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع عليه مقدور. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ومن ذلك الوفاء بالوعد.

(٩) ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ العقوبات أو جزاء السيئات، وهو تعميم بعد تخصيص، أو تخصيص بمن صلح أو المعاصي في الدنيا لقوله: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾ أي ومن تقها في الدنيا فقد رحمتها في الآخرة كأنهم طلبوا السبب بعد ما سألوا المسبب. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الرحمة أو الوقاية أو مجموعهما.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ يوم القيامة فيقال لهم: ﴿لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم أنفسكم الأمانة بالسوء. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرف لفعل دل عليه المقْتُ الأول لا له لأنه أخبر عنه، ولا للثاني لأن مقتهم أنفسهم يوم القيامة حين عاينوا جزاء أعمالهم الخبيثة إلا أن يؤوّل بنحو بالصيف ضيغت اللبن، أو تعليل للحكم وزمان المقتنين واحد.

(١١) ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ﴾ إِمَاتَيْنِ بأن خلقتنا أمواتاً أولاً ثم صيرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا، فإن الإماتة جعل الشيء عديم الحياة ابتداءً، أو بتصغير كالتصغير والتكبير، ولذلك قيل سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل^(١)، وإن خصص بالتصغير فاختيار الفاعل المختار أحد مفعوليه تصييراً وصرف له عن الآخر. ﴿وَأُحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ﴾ الإحياء الأولى وإحياء البعث. وقيل الإماتة الأولى عند انخراط الأجل

(١) أي خلقه كبيراً. لا أنه خلقه صغيراً ثم كبره، وهم كانوا في حكم الموتى قبل الخلق لأنهم كانوا أحياء ثم أماتهم الله كما يقتضيه ظاهر لفظ الإماتة.

والثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال والإحياء ما في القبر والبعث، إذ المقصودُ اعترافهم بعد المعاينة بما غفلوا عنه ولم يكثرثوا به ولذلك تسبَّب بقوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فَإِنَّ اعْتَرَفَهُمْ لَهَا مِنْ اغْتِرَارِهِمْ بالدنيا وإنكارِهِم البعث. ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ نوع خروج من النار. ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق فنسلُّكه وذلك إنما يقولونه من قُرْطِ قنوطهم تعلُّلاً وتحجيراً ولذلك أُجِيبُوا بقوله:

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أنه. ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ متحداً أو توحد وخذَه فُحِذَفَ الفعل وأُفِنِمَ مقامه في الحالية. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتوحيد. ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ بالإشراك. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحق للعبادة حيث حكمَ عليكم بالعذاب السَّرمِدِ الدائم. ﴿الْعَلِيِّ﴾ عن أن يُشْرَكَ به ويسوَّى بغيره. ﴿الْكَبِيرِ﴾ حيث حكمَ على مَنْ أشركَ وسوَّى به بعضَ مخلوقاته في استحقاقِ العبادة بالعذاب السَّرمِدِ.

(١٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يُعْلَمَ تكميلاً لنفوسكم. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أسباب رزقٍ كالمطر^(١) مراعاةً لمعاشكم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها المغفول عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى. ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكير فيها، فَإِنَّ الْجَازِمَ بشيء لا ينظر فيما ينافيه.

(١٤) ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم وشقَّ عليهم.

(١٥) ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ خبران آخران للدلالة على علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال على تفردِه في الألوهية، فَإِنَّ مِنْ أَرْتَفَعَتْ دَرَجَاتُ كَمَالِهِ بَحِثٌ لَا يَظْهَرُ دُونَهَا كَمَالٌ وكان العرش الذي هو أصلُ العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصحُّ أن يُشْرَكَ به، وقيل الدرجات مراتبُ المخلوقات أو مصاعِدُ الملائكة إلى العرش أو السموات أو درجاتُ الثواب. وَقُرِيَءَ رَفِيعٌ بالنصب على المدح. ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ خبرٌ رابعٌ للدلالة على أَنَّ الرُّوحَانِيَّاتِ أَيْضاً مَسْخَرَاتٌ لِأَمْرِهِ بإظهار آثارها وهو الوحي، وتمهيدٌ للنبوة بعد تقرير التوحيد، والروح الوحي ومن أمره بيانه لأنه أمرٌ بالخير أو مبدؤه والامرُّ هو المَلَكُ المبلِّغ. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يختاره للنبوة، وفيه دليلٌ على أنها

(١) وإفراد المطر بالذكر - مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفردِه بعنوان كونه من آثار رحمته وجلال نعمته الموجبة للشكر -.

وصيغة المضارع في الفعلين «يريكُم» و«ينزل» للدلالة على تجرد الإراءة والتنزيل واستمرارهما (س٧/ ٢٧٠).

عطائية ﴿لِيُنذِرَ﴾ غاية الإلقاء، والمستكن فيه لله. أو لمن أو للروح، واللام مع القرب تؤيد الثاني. ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يوم القيامة، فإن فيه تتلاقى الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض، أو المعبودون والعباد أو الأعمال والعمال.

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شيء أو ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالهم وسرائرهم. ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم، وهو تقرير لقوله هم بارزون وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا. ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم، ولما يجاب به، أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً.

(١٧) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كأنه نتيجة لما سبق، وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذاتها وألمها. ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعاً.

(١٨) ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي القيامة سُمِّيت بها لأزوفها أي قربها، أو الخطة الآزفة وهي مشارفتهم النار وقيل الموت. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترتفع عن أماكنها فتلتصق بخُلُوقهم فلا تعود فيترَوِّحوا ولا تخرج فيستريحوا. ﴿كَظِيمِينَ﴾ على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى لأنه على الإضافة، أو منها أو من ضميرها في لدى وجمعه كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء كقوله ﴿فَظَلَّتْ أَعْتَقَهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ﴾^(١). أو من مفعول أنذرهم على أنه حال مقدرة. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب مشفق. ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ولا شفيع مشفع، والضمائر إن كانت للكفار وهو الظاهر كان وضع الظالمين موضع ضميرهم للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم.

(١٩) ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه، أو خيانة الأعين. ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ من الضمائر، والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء.

(٢٠) ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ تهكم بهم لأن الجماد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي. وقرأ

نافع وهشام بالتاء على الالتفات أو إضمار قل. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقريرٌ لِعَلِمِهِ بخائنة الأعين وقضائِهِ بالحق، ووعدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحالٍ ما يدعون من دونه.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

(٢١) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعادٍ وثمود. ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً، وإنما جيء بالفضل - وحقه أن يقع بين معرفتين - لمضارعة أفعالٍ من المعرفة في امتناع دخول اللام عليه^(١). وقرأ ابن عامر أشد منكم بالكاف. ﴿وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مثل القلاع والمدائن الحصينة. وقيل المعنى وأكثر آثاراً كقوله: متقلداً سيفاً وزمناً ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يمنع العذاب عنهم.

(٢٢) ﴿ذَلِكَ﴾ الأخذ. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الأحكام الواضحة. ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يؤنبه بعقابٍ دون عقابه. (٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني المعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وحجة قاهرة ظاهرة، والعطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيماً لشأنه.

(٢٤) ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ يعنون موسى عليه الصلاة والسلام، وفيه تسليّة لرسول الله ﷺ وبيان لعاقبة من هو أشد الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربهم زماناً.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي أعيدها عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام. ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع، ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لتعميم الحكم والدلالة على العلة.

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ كانوا يكفونه عن قتله ويقولون إنه ليس الذي تخافه بل هو

(١) قوله: وإنما جيء بالفضل... أي ضمير الفصل وهو قوله «هم» حيث وقع بين اسم كان وخبرها... وذكر البيضاوي أن من حق ضمير الفصل أن يقع بين معرفتين، وجاز هنا وقوعه قبل نكرة لأن صيغة «افعل من» مثل المعرفة حيث يمتنع دخول اللام عليه... ولكن الألوسي قال: (ولا يتعين وقوعه بين معرفتين... نعم الأصل الأكثر فيه ذلك) روح المعاني (٦٠/٢٤).

ساحرًا، ولو قتلته ظنَّ أنك عجزتَ عن معارضة بالحجة، وتعلَّله بذلك مع كونه سفاكًا في أهون شيء دليل على أنه تيقن أنه نبيٌّ فخاف من قتله، أو ظنَّ أنه لو حاوله لم يتيسر له ويؤيده قوله. ﴿وَلِيدَعُ رَبَّهُ﴾ فإنه تجلَّد وعدمُ مبالاة بدعائه. ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله. ﴿أَنْ يَبْدِلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغيِّر ما أنتم عليه من عبادته وعبادة الأصنام لقوله تعالى ﴿وَيَذَرَكُ وَءَالِهَتَكَ﴾^(١). ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ما يفسدُ دنياكم من التحارب والتهاجِر إن لم يقدر أن يطلَّ دينكم بالكلية. وقرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو وابنُ عامر بالواو على معنى الجمع، وابنُ كثير وابنُ عامر والكوفيون غير حفصٍ بفتح الباء والهاء ورفع الفساد.

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۖ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۚ

(٢٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ أي لقومه لما سمع بكلامه. ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ صدرَّ الكلام بأن تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكَّد في دفع الشرِّ هو العبادُ بالله، وخصَّ اسمَ الربِّ لأنَّ المطلوب هو الحفظ والتربية، وإضافته إليه وإليه وإلهم حثاً لهم على موافقته لما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة، ولم يسمَ فرعون وذكر وضمّاً يعثه وغيره لتعميم الاستعاذة ورعاية الحقِّ والدلالة على الحامل له على القول. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي عُذْتُ فيه وفي سورة الدخان بالإدغام وعن نافع مثله^(٢).

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من أقاربه. وقيل من متعلِّق بقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ والرجلُ إسرائيليٌّ أو غريب موحد كان ينافقهم. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أنقصدون قتله. ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ لأن يقول، أو وقت أن يقول من غير روية وتأمّل في أمره. ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وحده وهو في الدلالة على الحضر مثلُ صديقي زيد. ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المتكثرة الدالة على صدقه من المعجزات والاستدلالات. ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أضافه إليهم بعد ذكر البيّنات احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم إلى الاعتراف به، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ لا يتخطاه وبإل كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله. ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقل من أن يصيبكم بعضه، وفيه مبالغة في التحذير وإظهاراً للإنصاف وعدم التعصّب، ولذلك قدّم كونه كاذباً أو

(١) الأعراف: (١٢٧).

(٢) قول البياضوي: قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «عذت» فيه أي في هذا الموطن من سورة غافر، وفي سورة الدخان آية (٢٠) بالإدغام أي بإدغام الذال في التاء، وعن نافع مثله أي وورد عن نافع مثله حيث ورد عن نافع ذلك برواية إسماعيل. (انظر المبسوط لابن مهران ص ٣٢٧).

يَصْنَعُكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ عَذَابٍ الدُّنْيَا وَهُوَ بَعْضُ أَوْعِيَدِهِ، كَأَنَّهُ خَوْفُهُمْ بِمَا هُوَ أَظْهَرُ احْتِمَالاً عَنْدهُمْ، وَتَفْسِيرُ الْبَعْضِ بِالْكُلِّ كَقَوْلِ لَبِيدٍ:

تَرَاكَ أَمَكْنَةً إِذَا لَمْ أَزُصْهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ الثُّفُوسِ حَمَامُهَا^(١)

مردود لأنه أراد بالبعض نفسه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج ثالث ذو وجهين: أحدهما أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات ولما عضده بتلك المعجزات.

وثانيهما: أَنَّ مَنْ خَذَلَهُ اللَّهُ أَهْلَكَه فلا حاجة لكم إلى قتله. ولعله أراد به المعنى الأول وخيّل إليهم الثاني لتلّين شكيمتهم، وعرض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب وطريق النجاة.

يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٢) وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ^(٣) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ^(٤) وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ^(٥)

(٢٩) ﴿يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ غالبين عالين. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر. ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي فلا تفسدوا أي فلا تفسدوا أمركم ولا تعرضوا لبأس الله بقتله فإنه إن جاءنا لم يمتنعنا منه أحد، وإنما أدرج نفسه في الضميرين لأنه كان منهم في القرابة وليريه أنه معهم ومساهمهم فيما ينصحه لهم. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ﴾ ما أشير عليكم. ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ وأستصوبه من قتله وما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب وقلبي ولساني متواطئان عليه. ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الصواب، وقرئ بالتشديد على أنه فعّال للمبالغة من رشد كعلام، أو من رشد كعباد لا من أرشد كجبار من أجبر لأنه مقصور على السماع أو بالنسبة إلى الرشد كعواج وبتات.

(٣٠) ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ في تكذيبه والتعرض له. ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ مثل أيام الأمم الماضية يعني وقائعهم، وجمع الأحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم.

(٣١) ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثل جزاء ما كانوا عليه دائماً من الكفر وإيذاء الرسل. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام، وهو أبلغ من قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢) من حيث إن المنفي فيه حدوث تعلّق إرادته بالظلم.

(٣٢) ﴿وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾ يوم القيامة ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار كما حكى في الأعراف. وقرئ بالتشديد وهو أن يندب بعضهم من بعض كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾^(٣).

(١) من معلقته من الكامل.

(٢) فصلت: «٤٦».

(٣) عبس: «٣٤».

يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنْ أَيْنَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ﴾ عن الموقف. ﴿مُدْبِرِينَ﴾ منصرفين عنه إلى النار. وقيل فارّين عنها. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ يعصمكم من عذابه. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ يوسف بن يعقوب على أن فرعونه فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد، أو سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل موسى. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين. ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ مات. ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ضمناً إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده، أو جزماً بأن لا يبعث من بعده رسول مع الشك في رسالته، وقرئ أَلَنْ يبعث الله على أن بعضهم يقرر بعضاً بنفي البعث. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضلال. ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ في العصيان. ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ شاك فيما تشهد به البينات لِعَلْبَةِ الوهم والانهماك في التقليد.

(٣٥) ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ بدل من الموصول الأول لأنه بمعنى الجمع. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ بغير حجة بل إما بتقليد أو بشبهة داحضة. ﴿كَبْرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيه ضمير من وإفراذه للفظ، ويجوز أن يكون الذين آمنوا مبتدأ وخبره كَبْرٌ على حذف مضاف أي: وجدال الذين يجادلون كَبْرٌ مقتاً أو بغير سلطان وفاعل كَبَرٌ: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كَبَرٌ مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله: ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ استئنافاً للدلالة على الموجب لجدالهم. وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان قلباً بالتنوين على وصفه بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما كقولهم: رأيت عيني وسمعت أذني، أو على حذف مضاف أي على كل ذي قلب متكبر.

(٣٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنْ أَيْنَ لِي صَرْحًا﴾ بناءً مكشوفاً عالياً من صَرْح الشيء إذا ظهر. ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ الطرق.

(٣٧) ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ بيان لها. وفي إيهامها ثم إيضاحها تفخيماً لشأنها وتشويقاً للسامع إلى معرفتها. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ عطف على أبلغ. وقرأ حفص بالنصب على جواب الترجي ولعله أراد أن يبيّن له رصداً في موضع عالٍ يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية، فبرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إياه، أو أن يرى فساد قول موسى بأن أخباره من إله السماء يتوقف على إطلاعه ووصوله إليه، وذلك لا يتأى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، وذلك لجهله بالله وكيفية استنبائه. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ في دعوى

الرسالة. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل التزيين، ﴿زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الرشاد، والفاعل على الحقيقة هو الله تعالى ويدل عليه أنه قرئ زَيْنَ بالفتح وبالتوسط الشيطان. وقرأ الحجازيان والشامي^(١) وأبو عمرو وصدَّ على أنَّ فرعون صدَّ الناسَ عن الهدى بأمثال هذه التموهيات والشبهات ويؤيده: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي خسار.

وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتْنٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ﴾ يعني مؤمن آل فرعون. وقيل موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ بالدلالة. ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي.

(٣٩) ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتْنٌ﴾ تمتع يسير لسرعة زوالها. ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لخلودها.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله، وفيه دليل على أنَّ الجنايات تغرم بمثلها. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافاً مضاعفة فضلاً منه ورحمة. ولعل تقسيم العمال وجعل الجزاء جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة. وتفضيل الثواب لتغليب الرحمة، وجعل العمل عمدة والإيمان حالاً للدلالة على أنه شرط في اعتبار العمل وأن ثوابه أعلى من ذلك.

(٤١) ﴿وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة واهتماماً بالنادى له. ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نُصَحَهُ، وعطفه على النداء الثاني الداخل على ما هو بيان لما قبله، ولذلك لم يعطف على الأول، فإن ما بعده أيضاً تفسير لما أجمل فيه تصريحاً أو تعريضاً أو على الأول.

(٤٢) ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل والدعاء كالهداية في التعدية إلى اللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ﴾ بربوبيته. ﴿عِلْمٌ﴾ والمراد نفي المعلوم والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان فاعتقادها لا يصح إلا عن إيقان. ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ﴾ المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة، والتمكين من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران.

لَا جَرَمَ أَنْتَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْكَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا ردَّ لما دَعَوُهُ إِلَيْهِ، وَجَرَمَ فعلٌ بمعنى حَقَّ وفاعله: ﴿أَنْتَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي حقَّ عدمُ دعوة الهتكُم إلى عبادتها أصلاً لأنها جماداتٌ ليس لها ما يقتضي ألوهيتها أو عدمُ دعوة مُستجابة، أو عدمُ استجابة دعوة لها. وقيل جَرَمَ بمعنى كَسَبَ وفاعله مستَكِرٌّ فيه أي كَسَبَ ذلك الدعاء إليه أن لا دعوة له بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهورُ بطلانِ دعوته، وقيل فَعَلَ من الجزم بمعنى القطع كما إنَّ بُدْأَ مِنْ لا بَدْءَ فَعَلَ من التبييد وهو التفريق، والمعنى لا قطعَ لِبطْلانِ دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقتٍ ما فتتقلب حقاً، ويؤيده قولهم لا جرمَ إنه لغةٌ فيه كالرَّشْدِ والرُّشْدِ. ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ بالموت. ﴿وَأَبْكَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة والطغيان كالإشراك وسفكِ الدماء. ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها.

(٤٤) ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقرئَ فسَتَذْكُرُونَ أي فسيذكرُ بعضُكم بعضاً عندَ معانيه العذاب. ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِنَ النصيحة. ﴿وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ ليعصمني من كلِّ سوء. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيحرُسُهم وكأنه جوابٌ توعَّدُهم المفهومُ مِنْ قوله:

(٤٥) ﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ شدائدَ مكرهم. وقيل الضميرُ لموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ بفرعون وقومه فاستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك. وقيل بطلبة المؤمنين من قومه فإنه فرَّ إلى جبلٍ فأتبعه طائفةٌ فوجدوه يصلي والوحوشُ حوله صفوفاً فرجعوا رُغْباً فقتلهم. ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ الغرق أو القتل أو النار.

(٤٦) ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملةٌ مُستأنفة أو النارُ خبرٌ محذوفٌ ويُعْرَضُونَ استئنافٌ للبيان، أو بدلٌ ويُعْرَضُونَ حالٌ منها، أو مِنْ الآلِ وَفُرِثَتْ منصوبةٌ على الاختصاصِ أو بإضمارِ فعلٍ يفسره يُعْرَضُونَ مِثْلَ يَصْلُونَ، فَإِنَّ عَرَضَهُمْ على النارِ إحراقهم بها من قولهم: عرضَ الأسارى على السيفِ إذا قَتَلُوا به، وذلك لأرواحهم كما رَوَى ابنُ مسعودٍ^(١) أَنَّ أرواحهم في أجوافِ طيورٍ سودٍ تُعْرَضُ على النارِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا إلى يومِ القيامة، وَذَكَرَ الوقتين تحتلُّ التخصيصَ والتأيدَ، وفيه دليلٌ على بقاء النفس وعذابِ القبر. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي هذا ما دامت الدنيا فإذا قامتِ الساعةُ قيل لهم: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يا آلَ فرعون. ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم فإنه أشدُّ مما كانوا فيه، أو أشدَّ عذاب جهنم. وقرأ حمزة والكسائي ونافعٌ ويعقوبٌ وحفصٌ أَدْخِلُوا على أمرِ الملائكةِ بإدخالهم النارَ.

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٢٦/٧ - ٢٢٨) بدون سند.
وانظر «البحر المحيط» (٤٦٨/٧) و«الجامع لأحكام القرآن» (٣١٨/١٥).

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾

(٤٧) ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ واذكُرْ وَفَتْ تَخَاصُّمِهِمْ فِيهَا، وَيُحْتَمَلُ الْعَطْفُ عَلَى غَدَوًا. ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ تفصيل له. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تبعاً كخادم في جَمْعِ خَادِمٍ أَوْ ذَوِي تَبَعٍ بِمَعْنَى أَتْبَاعٍ عَلَى الْإِضْمَارِ أَوْ التَّجَوُّزِ. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ بِالذَّفْعِ أَوْ الْحَمْلِ، وَنَصِيباً مَفْعُولٌ بِهِ لَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ مُغْنُونَ أَوَّلُهُ بِالتَّضْمِينِ أَوْ مُصَدَّرٌ كَشَيْئاً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾^(١). فَيَكُونُ مِنْ صِلَةٍ لِمُغْنُونَ.

(٤٨) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ نَحْنُ وَأَنْتُمْ فَكَيْفَ نَغْنِي عَنْكُمْ وَلَوْ قَدَرْنَا لِأَغْنَيْنَا عَنْ أَنْفُسِنَا، وَقُرِئَ عَلَى التَّأَكُّدِ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى كُلُّنَا وَتَوْنِيهِ عَوْضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَلَا يَجُوزُ جَعْلُهُ حَالاً مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي الظَّرْفِ فَإِنَّهُ لَا يَعْمَلُ فِي الْحَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ كَمَا يَعْمَلُ فِي الظَّرْفِ الْمُتَقَدِّمِ كَقَوْلِكَ: كُلُّ يَوْمٍ لَكَ ثَوْبٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بَأَنَّهُ أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ.

(٤٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أَي لِحَزَنَتِهَا، وَوَضَعَ جَهَنَّمَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِلتَّهْوِيلِ، أَوْ لِبَيَانِ مَحَلِّهِمْ فِيهَا، إِذْ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ جَهَنَّمَ أَبْعَدَ ذَرَكَاتِهَا مِنْ قَوْلِهِمْ: بَثْرٌ جَهَنَّمَ بَعِيدَةُ الْفَقْرِ. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قَدَّرَ يَوْمٌ. ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ شَيْئاً مِنَ الْعَذَابِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ يَوْمًا بِحَذْفِ الْمُضَافِ وَمِنْ الْعَذَابِ بَيَانُهُ.

(٥٠) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَرَادُوا بِهِ إِلْزَامَهُمُ لِلْحُجَّةِ وَتَوْبِيخَهُمْ عَلَى إِضَاعَتِهِمْ أَوْقَاتَ الدُّعَاءِ، وَتَعْطِيلَهُمْ أَسْبَابَ الْإِجَابَةِ. ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾ فَإِنَّا لَا نَجْتَرِئُ فِيهِ إِذْ لَمْ يُؤْذَنْ لَنَا فِي الدُّعَاءِ لِأَمْثَالِكُمْ، وَفِيهِ إِقْنَاطٌ لَهُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضَيَاعٍ لَا يُجَابُ، وَفِيهِ إِقْنَاطٌ لَهُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ.

(٥١) ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِالْحُجَّةِ وَالظَّفَرِ وَالْإِنْتِقَامِ لَهُمْ مِنَ الْكَفَرَةِ. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أَي فِي الدَّارَيْنِ، وَلَا يَنْتَقِضُ ذَلِكَ بِمَا كَانَ لِأَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَلَبَةِ أحياناً إِذِ الْعِبْرَةُ بِالْعَوَاقِبِ وَغَالِبُ الْأَمْرِ، وَالْأَشْهَادُ جَمْعُ شَاهِدٍ كصَاحِبٍ وَأَصْحَابٍ، وَالْمَرَادُ بِهِمْ مَنْ يَقُومُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّهَادَةَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا
بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
ءَايَاتِ اللَّهِ يَخْتَرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ
إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٢) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ بدلٌ من الأول، وعدمُ نفعِ المعذرة لأنها باطلة، أو لأنه لم يُؤذَنَ لهم فيعتذروا. وقرأ غيرُ الكوفيين ونافعٌ بالتاء. ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعدُ عن الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ جهنم.

(٥٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ ما يهتدي به في الدين من المعجزاتِ والصُّحفِ والشرائع. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ وتركنا عليهم بَعْدَهُ من ذلك التوراة.

(٥٤) ﴿هُدًى وَذِكْرًا﴾ هدايةً وتذكراً أو هادياً ومذكراً. ﴿لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقولِ السليمة.

(٥٥) ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بالتَّصْبِرِ لا يخلُفه، واستشهد بحالِ موسى وفرعون. ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ وأقبل على أمرِ دينك وتداركِ فَرَطَاتِكَ بِتَرْكِ الأولَى، والاهتمامِ بأمْرِ العِدا بالاستغفار، فإنه تعالى كافيك في النصرِ وإظهارِ الأمرِ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ وذم على التسبيحِ والتحميدِ لربك. وقيل صلُّ لَهْذَيْنِ الوقتَيْنِ، إذ كان الواجبُ بمكةَ ركعتين بُكْرَةً وركعتين عِشَاءً.

(٥٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ يَخْتَرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ عامٌ في كلِّ مجادلٍ مُبْطِلٍ وإن نزلَ في مشركي مكةَ واليهودِ حين قالوا: لَسْتُ صَاحِبِنَا بل هو المسيحُ بنُ داودَ يبلغُ سلطانه البرَّ والبحرَ وتسيرُ معه الأنهارُ. ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبرٌ عن الحقِّ وتعظمٌ عن التفكرِ والتعلم، أو إرادةُ الرياسةِ أو أنَّ النبوةَ والمُلْكَ لا يكونانِ إلا لهم. ﴿مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ﴾ ببالغي دفعِ الآياتِ أو المراد. ﴿فَاستَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجىءُ إليه. ﴿إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

(٥٧) ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فَمَنْ قَدَّرَ على خَلْقِهَا مع عَظَمِهَا أولاً من غيرِ أصلٍ قَدَّرَ على خَلْقِ الإنسانِ ثانياً من أضلِّ، وهو بيانٌ لا شكلٌ ما يجادلون فيه مِنْ أمرِ التوحيدِ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لِفَرْطِ غَفْلَتِهِمْ واثْبَاطِهِمْ أهواءهم.

(٥٨) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الغافلُ والمستبصرُ. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ والمحسنُ والمسيءُ فينبغي أن يكونَ لهم حالٌ يظهر فيها التفاوتُ، وهي فيما بعدُ البعثُ، وزيادةُ «لا» في المسيءِ لأنَّ المقصودَ نفْيُ مساوِيتهِ للمحسنِ فيما له من الفضلِ والكرامةِ. والعاطفُ

الثاني عطفُ الموصولِ بما عُطِفَ عليه على الأعمى والبصيرِ لتغايرِ الوصفين في المقصود، أو الدلالة بالصراحة والتمثيل. ﴿فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُوتَ﴾ أي تذكراً ما قليلاً يتذكرون، والضمير للناس أو الكفار. وقرأ الكوفيون بالتاء على تغليب المخاطب، أو الالتفاتِ أو أمرِ الرسولِ بالمخاطبة.

إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّارِيبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيَالٍ لِّيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾

(٥٩) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّارِيبَ فِيهَا﴾ في مجيئها لوضوح الدلالة على جوازها. وإجماع الرُّسل على الوعدِ بوقوعها. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها لقصور نظرهم على ظاهر ما يحشون به.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ اعبُدوني. ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أُثَبِّتْ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين، وإن فُسِّرَ الدعاء بالسؤال كان الاستكبارُ الصارفُ عنه منزلاً منزلةً للمبالغة. أو المرادُ بالعبادة الدعاء فإنه من أبوابها. وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر سيّدخلون بضمّ الياء وفتح الخاء.

(٦١) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيَالٍ لِّيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه بأن خلقه بارداً مظلماً ليؤدي إلى ضعفِ الحركات وهدوءِ الحواسِّ. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبَصِّرُ فِيهِ أَوْ بِهِ، وإسنادُ الإبصارِ إليه مجازٌ فيه مبالغةٌ ولذلك عدلَ به عن التعليل إلى الحال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لا يوازيه فضلٌ، وللإشعارِ به لم يقلْ لِمُفْضَلٍ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لِجَهْلِهِم بِالْمُنْعِمِ وإغفالهم مواقعِ النعم، وتكريرُ الناسِ لتخصيصِ الكُفْرانِ بهم.

(٦٢) ﴿ذَلِكَُمُ﴾ المخصوصُ بالأفعالِ المقتضية للالوهية والربوبية. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبارٌ مترادفةٌ تخصّصُ اللاحقة السابقة وتقرؤها. وقرئ خالقٌ بالنصب على الاختصاص، فيكون لا إله إلا هو استثناءً بما هو كالنتيجة للأوصافِ المذكورة. ﴿فَاتَّقُوا تَوْفَكُونَ﴾ فكيف ومن أيّ وجه تُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره.

(٦٣) ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كما أفكوا أفك عن الحقِّ كلُّ من جحدَ بآياتِ الله ولم يتأملها.

(٦٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ استدلالٌ ثانٍ بأفعالٍ آخرَ مخصوصة. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ بأن خلقكم منتصبِ القامة بادي البشرى متناسبِ الأعضاء والتخطيطات متهيأ لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذائذ. ﴿ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن كلَّ ما سواه مربوبٌ مفتقرٌ بالذاتِ معرضٌ للزوال.

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَعُوهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرَّفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾

(٦٥) ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ المتفرّد بالحياة الذاتية. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجد سواه ولا موجود يساويه أو يدانيه في ذاته وصفاته. ﴿فَكَادَعُوهُ﴾ فاعبدوه. ﴿مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قائلين له.

(٦٦) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ من الحجج والآيات أو من الآيات، فإنها مقويّة لأدلة العقل منبهة عليها. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن أنقاد له أو أخلص له ديني.

(٦٧) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أطفالاً، والتوحيد لإرادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ اللام فيه متعلّقة بمحذوف تقديره: ثم يبيقكم لتبلغوا وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا﴾ ويجوز عطفه على لتبلغوا. وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام شيوخاً بضم الشين. وقرأ شيخاً كقوله طفلاً. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ من قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد. ﴿وَلِيَبْلُغُوا﴾ ويفعل ذلك لتبلغوا: ﴿أَجْلاً مُّسَمًّى﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحجج والعيبر.

(٦٨) ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ﴾ فإذا أرادته. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاج في تكوينه إلى عدّة وتجنّس كلّفة، والفاء الأولى للدلالة على أنّ ذلك نتيجة ما سبق من حيث إنه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقّفة على العدد والمواد.

(٦٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرَّفُونَ﴾ عن التصديق به، وتكرير ذم المجادلة لتعدد المجادل أو المجادل فيه أو للتأكيد.

(٧٠) ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بالقرآن أو بجنس الكتب السماوية. ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب أو الوحي والشرائع. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاء تكذيبهم.

(٧١) ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ظرف ليعلمون إذ المعنى علي الاستقبال، والتعبير بلفظ الماضي لتيقّنه. ﴿وَالسَّلْسِلُ﴾ عطف على الأغلال أو مبتدأ خبره. ﴿يُسْحَبُونَ﴾.

فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِّسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتُوفِيَنَّكَ فإِلَيْنَا لِرُجْعُونِ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ والعائدُ محذوفٌ أي يُسْحَبُونَ بها، وهو على الأوّل حالٌ. وقُرِئَ والسلاسلُ يُسْحَبُونَ بالنصبِ وفتح الباءِ على تقديم المفعولِ وعطفِ الفعليةِ على الاسمِيةِ، والسلاسلُ بالجرِّ حملاً على المعنى إذ الإغلالُ في أعناقهم بمعنى أعناقهم في الأغلال؛ أو إضماراً للباءِ ويدلُّ عليه القراءةُ به. ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يُخْرَقُونَ من سَجَرِ التنورِ إذا ملأه بالوقودِ، ومنه السجِرُ للصديقِ كأنه سُجِرَ بالحبِّ أي ملىء. والمراد أنهم يُعَذَّبُونَ بأنواعٍ من العذابِ ويُثَقَّلُونَ من بعضها إلى بعضٍ.

(٧٣) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

(٧٤) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عَنَّا وذلك قبلَ أن تُفَرَّنَ بهم آلهتهم، أو ضاعوا عَنَّا فلم نجدْ ما كنَّا نتوقَّعُ منهم^(١). ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي بل تبينَ لنا لم نكن نعبدُ شيئاً بعبادتهم فإنهم ليسوا شيئاً يُعْتَدُّ به كقولك: حسبته شيئاً فلم يكن. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثلُ ذلك الضلالِ. ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ حتى لا يهتدوا إلى شيءٍ ينفعهم في الآخرة، أو يضلُّهم عن آلهتهم حتى لو تطالَّبوا لم يتصادقوا.

(٧٥) ﴿ذَلِكَ﴾ الإضلالُ^(٢). ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تَبْتَزُّونَ وتتكبرون. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو الشركُ والطغيانُ. ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تتوسَّعون في الفرح، والعدولُ إلى الخطابِ للمبالغةِ في التوبيخ.

(٧٦) ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الأبوابُ السبعةُ المقسومةُ لكم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدَّرينَ الخلودَ. ﴿فَبَلِّسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحقِّ جهنمُ، وكان مُقتَضَى التَّظْمِ فَبَشَّرَ مدخلُ المتكبرينَ ولكن لما كان الدخولُ المقيَّدُ بالخلودِ بسببِ الثَّوَاءِ عَبَّرَ بالمثوى.

(٧٧) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بهلاكِ الكافرينَ. ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ لا محالة. ﴿فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ﴾ فإن نُرِكَ، وما مزيدةٌ لتأكيد الشرطيةِ ولذلك لحقتِ النونُ الفعلَ ولا تلحقُ مع أن وخذها. ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ وهو القتلُ والأسرُ. ﴿أَوْ نتُوفِيَنَّكَ﴾ قبلَ أن تراه. ﴿فإِلَيْنَا لِرُجْعُونِ﴾ يومَ القيامةِ فنجازيهم بأعمالهم، وهو جوابُ نتوفيتُكَ، وجوابُ نريَنَّكَ محذوفٌ مثلُ فذاك، ويجوزُ أن يكونَ جواباً لهما بمعنى إن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإننا نعذبهم في الآخرةِ أشدَّ العذابِ، ويدلُّ على شدِّتهِ الاختصارُ بِذِكْرِ الرجوعِ في هذا المعْرِضِ.

(١) وصيغة الماضي في «ضلوا» للدلالة على تحقق وقوع الفعل (س/٧/٢٨٥).

(٢) والالتفات «ذلكم» إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ (س/٧/٢٨٥).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيل عددُ الأنبياء مائة ألفٍ وأربعة وعشرون ألفاً^(١)، والمذكورُ قصصُهم أشخاصٌ معدودةٌ. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنَّ المعجزاتِ عطايا قَسَمَهَا بينهم على ما اقتضته حِكْمَتُهُ كسائرِ القِسَمِ، ليس لهم اختيارٌ في إظهارِ بعضها والاستبدادِ بآياتِ المقترحِ بها. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذابِ في الدنيا أو الآخرة. ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ بإنجاءِ المحقِّ وتعذيبِ المبطلِ. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون باقتراحِ الآياتِ بعد ظهورِ ما يغنيهم عنها.

(٧٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فَإِنَّ مِنْ جِنْسِهَا مَا يُؤْكَلُ كالغنمِ ومنها ما يُؤْكَلُ وَيُرْكَبُ كالإبلِ والبقَرِ.

(٨٠) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كالإلبان والجلود والأوبار. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرةِ عليها. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البرِّ. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحرِ. ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما قال وعلى الفلكِ ولم يقل في الفلكِ للمزاوجةِ، وتغييرُ النَّظْمِ في الأكلِ لأنه في حَيْزِ الضرورةِ. وقيل لأنه يُقَصَّدُ به التَّعِيشُ - وهو من الضرورياتِ - والتلذُّذُ، والركوبُ والمسافرةُ عليها قد تكون لأغراضٍ دينيةٍ واجبةٍ أو مندوبةٍ، أو للفرقِ بَيْنَ العَيْنِ والمنفعةِ.

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلالةُ الدالةِ على كمالِ قدرته وقُزْطِ رحمته. ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي فأيَّ آيةٍ من تلكِ الآياتِ^(٢). ﴿تُنْكِرُونَ﴾ فإنها لظهورها لا تقبلُ الإنكارَ، وهو ناصبٌ أيّ إذ لو قدَّرْتَهُ متعلِّقاً بضميره كان الأولى رفعه، والفرقةُ بالتاء في أيّ أغربُ منها في الأسماءِ غيرِ الصفاتِ لإبهامِهِ.

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ما بقيَ منهم من القصور والمصانع ونحوهما. وقيل آثَارُ أقدامهم في الأرضِ لِعِظَمِ أفعالهم. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما الأولى نافيةٍ أو استفهاميةٌ منصوبةٌ بأغنى، والثانيةُ موصولةٌ أو مصدريةٌ مرفوعةٌ به.

(١) انظر «جامع البيان» (١٢/ج ٢٤/٨٦ - ٨٧).

«وروح المعاني» (٨٨/٢٤).

(٢) وإضافة الآياتِ إلى الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابةِ وتهويلِ إنكارها (س/٢٨٦/٧).

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾
 فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا
 رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

(٨٣) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات. ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ واستحققوا عِلْمَ الرُّسُلِ. والمراد بالعلم عقائدهم الزائغة وشبهههم الداحضة كقوله ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾^(١) وهو قولهم: لا تُبْعَثْ ولا نَعْدَبُ؛ وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ونحوها؛ وسمّاها علماً على زعمهم تهكماً بهم، أو عِلْمَ الطَّبَائِعِ والتنجيم والصنائع ونحو ذلك، أو عِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ؛ وفرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به؛ ويؤيده: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقيل الفرخ أيضاً للرسل فإنهم لما رأوا تمادي جهل الكفار وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم.

(٨٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شِدَّةَ عَذَابِنَا. ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ يعنون الأصنام.

(٨٥) ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ لامتناع قبوله حينئذٍ ولذلك قال ﴿لَمْ يَكْ﴾ بمعنى لم يصحَّ ولم يستقم، والفاء الأولى لأنَّ قوله ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ كالنتيجة لقوله ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾، والثانية لأنَّ قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ كالتفسير لقوله ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ والباقيتان لأنَّ رؤية البأس مسببة عن مجيء الرسل، وامتناع نفي الإيمان مسبب عن الرؤية. ﴿سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي سنَّ الله ذلك سنة ماضية في العباد وهي من المصادر المؤكدة. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس، اسمُ مكانٍ استُعِيرَ للزمان. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِ لَمْ يَبْقَ رُوحُ نَبِيٍّ وَلَا صِدِّيقٍ وَلَا شَهِيدٍ وَلَا مُؤْمِنٍ إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ»^(٢).

☆ ☆ ☆

(١) النمل: «٦٦».

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحد من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٤٥ رقم ٣٤٥) وهو حديث موضوع، تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَتَبْتُ فَصَّلَاتٍ ءَايَتُهُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَأَلْقُونَا فِيْ أَكْثَنَةٍ مِّمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْءَاذَانَا وَقُرْءَانًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ ﴿٥﴾

سورة فصلت مكية^(١) وآيها ثلاث أو أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حَمْدٌ﴾ إن جعلته مبتدأ فخبرة.

(٢) ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وإن جعلته تعديداً للحروف فتزليل خبر محذوف أو مبتدأ لتخصيصه بالصفة وخبره:

(٣) ﴿كَتَبْتُ﴾ وهو على الأولين بدل منه أو خبر آخر أو خبر محذوف، ولعل افتتاح هذه السور السبع بحم وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة في النظم والمعنى، وإضافة التزليل إلى الرحمن الرحيم للدلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدينية. ﴿فُصِّلَاتٍ ءَايَتُهُ﴾ مُيِّرَتْ باعتبار اللفظ والمعنى. وقرئ فُصِّلَتْ أي فصل بعضها من بعض باختلاف الفواصل والمعاني، أو فُصِّلَتْ بين الحق والباطل. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نُصِبَ على المدح أو الحال من فُصِّلَتْ، وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه.

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت (حم) السجدة بمكة، وأخرج ابن مردويه عن الزبير - رضي الله عنه - مثله. انظر: الدر المنثور (٣٠٨/٧).

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يعلمون العربية أو لأهل العلم والنظر، وهو صفة أخرى لقرآناً أو صلةً لتنزيل، أو لفصلت، والأوّل أولى لوقوعه بين الصفات.

(٤) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ للعاملين به والمخالفين له، وقُرنا بالرفع على الصفة للكتاب أو الخبر لمحذوف. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ عن تدبره وقبوله. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تأمل وطاعة.

(٥) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية جمع كنان. ﴿مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي أَذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صمم، وأصله الثقل، وقرىء بالكسر^(١). ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يمنعنا عن التواصل، ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ. وهذه تمثيلات لثبوت قلوبهم عن إدراك ما يدعوهم إليه واعتقادهم ومجّ أسماعهم له، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ. ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك أو في إبطال أمرنا. ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۚ الَّذِينَ لَا يَتُوبُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۜ أَنْدَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ

(٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقّي منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبؤ عنه العقول والأسماع، وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، وقد يدلّ عليهما دلائل العقل وشواهد النقل. ﴿فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستقيموا في أفعالكم متوجّهين إليه، أو فاستووا إليه بالتوحيد والإخلاص في العمل. ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل، ثم هدّدهم على ذلك فقال. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ من فزط جهالتهم واستخفافهم بالله.

(٧) ﴿الَّذِينَ لَا يَتُوبُونَ الزَّكَاةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق، وذلك من أعظم الرذائل، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. وقيل معناه لا يفعلون ما يزكي أنفسهم وهو الإيمان والطاعة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم للآخرة.

(٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ ۖ عَظِيمٌ﴾ عظيم. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا يُمْنُ به عليهم من المن وأصله الثقل، أو لا يقطع من منّت الجبل إذا قطعت. وقيل نزلت في المرضى والهزّمي إذا عجزوا عن الطاعة كُتِبَ لهم الأجر كأصلح ما كانوا يعملون.

(٩) ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ في مقدار يومين، أو نوبتين وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون. ولعل المراد من الأرض ما في جهة السفّل من الأجرام البسيطة ومن خلقها في يومين أنه خلق لها أصلاً مشتركاً ثم خلق لها صوراً بها صارت أنواعاً، وكفرهم به إلحادهم في ذاته

وصفاته^(١). ﴿وَجَعَلُوا لَهُ أُنْدَادًا﴾ ولا يصح أن يكون له نِدٌّ. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خالق جميع ما وُجدَ من الممكناتِ ومربّيها.

وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا﴾ استئنافٌ غيرٌ معطوفٍ على خلقٍ للفضل بما هو خارجٌ عن الصلّة. ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ مرتفعةٌ عليها ليظهرَ للُنظَّارِ ما فيها من وجوه الاستبصارِ وتكونُ منافعُها معرّضةً للطلابِ. ﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾ وأكثرَ خيرها بأن خلقَ فيها أنواعَ النباتِ والحيوانِ. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أقواتٌ أهلها بأن عيّنَ لكلِّ نوعٍ ما يصلحُ به، أو أقواتاً تنشأ منها بأن حصّصَ حدوثَ كلِّ قوتٍ بقطرٍ من أقطارِها، وقرىءَ وقسمَ فيها أقواتها. ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تمتّةٍ أربعةِ أيامٍ كقولك: سرّتُ من البصرةِ إلى بغدادَ في عشرةِ أيامٍ، وإلى الكوفةِ في خمسةِ عشرَ يوماً. ولعلّه قال ذلك ولم يقل في يومين للإشعارِ باتصالهما باليومين الأولين والتصريحِ على الفذلكة. ﴿سَوَاءً﴾ أي استوت سواءً بمعنى استواء، والجملةُ صفةٌ لأيامٍ ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ بالجرّ. وقيلَ حالٌ من الضميرِ في أقواتها أو في فيها، وقرىءَ بالرفعِ على هي سواءً. ﴿لِلْسَّائِلِينَ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ تقديره هذا الحضّرُ للسائلينَ عن مدّةِ خلقِ الأرضِ وما فيها، أو بقدرِ أي قدّرَ فيها الأقواتَ للطلابينَ لها^(٢).

(١١) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصدَ نحوها من قولهم استوى إلى مكانٍ كذا إذا توجهَ إليه توجهاً لا يلوي على غيره، والظاهرُ أنّ ثُمّ لتفاوتٍ ما بينَ الخَلْقَتَيْنِ لا للتراخي في المدّةِ لقوله ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٣) ودحّوها متقدّمٌ على خلقِ الجبالِ من فوقها. ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أمرٌ ظلمانيّ، ولعلّه أرادَ به مادّتها أو الأجزاءَ المتصغّرةَ التي رُكِّبَتْ منها. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا﴾ بما خلقتُ فيكما من التأثيرِ والتأثّرِ وأبرزاً ما أودعْتُكما من الأوضاعِ المختلفةِ والكائناتِ المتنوعةِ، أو اثنيّاً في الوجودِ على أنّ الخلقَ السابقَ بمعنى التقديرِ أو الترتيبِ للرتبةِ أو الإخبارِ، أو إتيانَ السماءِ حدوثُها وإتيانَ الأرضِ أن تصيرَ مدحوةً وقد عرفتَ ما فيه، أو لئلاّ كلّ منكما الأخرى في حدوثٍ ما أريدَ توليدهُ منكما ويؤيدهُ قراءةُ وآتيا من المؤاتاةِ أي لتوافقَ كلّ واحدةٍ أختها فيما أرذتُ منكما. ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ شتّمًا ذلك أو أبيئتما، والمرادُ إظهارُ كمالِ قدرتهِ ووجوبِ وقوعِ مُرادِهِ لا إثباتِ الطوعِ والكُرهِ لهما، وهما مصدرانِ وقعا موقعَ الحالِ. ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ منقادينَ بالذاتِ، والأظهرُ أنّ المرادَ تصويرُ تأثيرِ قدرتهِ فيهما وتأثّرهما بالذاتِ عنها، وتمثيلهما بأمرِ المطاعِ وإجابةِ المطيعِ الطائعِ كقوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤) وما قيل من أنه تعالى

(١) في قوله: «أأنتم لتكفرون» أتى بيان واللام إما لتأكيد الإنكار، أو للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد (س/٨/٤).

(٢) ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لبيان اعتناؤه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادي عيشهم قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان (س/٨/٥).

(٣) النازعات: ٣٠.

(٤) البقرة: ١١٧.

خَاطَبَهُمَا وَأَقْدَرَهُمَا عَلَى الْجَوَابِ إِنَّمَا يُتَصَوَّرُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَإِنَّمَا قَالَ طَائِعِينَ عَلَى الْمَعْنَى بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِمَا مَخَاطَبَتَيْنِ كَقَوْلِهِ ﴿سَجِدِينَ﴾^(١).

فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحَفَظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً أُولَئِكَ كَانُوا لَإِلَهِهِمْ الْأَصْنَامُ فَاذْكُرُونَهُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فخلقهن خلقاً إبداعياً وأنقنَ أمرهنَّ، والضميرُ للسَّماءِ على المعنى أو مبهم، وسبعُ سمواتٍ حالٌّ على الأول وتمييزٌ على الثاني. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قيلَ خلقَ السمواتِ يومَ الخميس والشمس والقمر والنجوم يومَ الجمعة. ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ شأنها وما يتأذى منها بأن حَمَلَهَا عليه اختياراً أو طبعاً. وقيل أوحى إلى أهلها بأوامره ونواهيهِ. ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ فَإِنَّ الْكَوَاكِبَ كُلَّهَا تُرَى كَأَنَّهَا تَتَلَأَلُ عَلَيْهَا. ﴿وَحَفَظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات، أو من المستزقة حفظاً. وقيل مفعولٌ له على المعنى كأنه قال: وخصَّصنا السماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظاً. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ البالغُ في القُدرة والعِلْم.

(١٣) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعدَ هذا البيان. ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ فحذَّره أن يصيبَهُم عذابٌ شديدُ الوقع كأنه صاعقة. ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ وقُرِئَ صَعَقَةً مِثْلَ صَعَقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ وهي المَرَّةُ من الصَّعِقِ أو الصَّعِقِ يُقَالُ صَعَقْتُهُ الصَّاعِقَةُ صَعَقًا فَصَعِقَ صَعَقًا.

(١٤) ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ حالٌّ من صاعقة عَادٍ، ولا يجوزُ جَعْلُهُ صَفَةً لصاعقةٍ أو ظرفاً لِأَنْذَرْتُكُمْ لفسادِ المعنى. ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَتَوْهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ واجتهدوا بهم من كُلِّ جِهَةٍ، أو مِنْ جِهَةِ الزَّمَنِ الْمَاضِي بِالْإِنْذَارِ عَمَّا جَرَى فِيهِ عَلَى الْكُفَّارِ، وَمِنْ جِهَةِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْتَحْذِيرِ عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَكُلٌّ مِنَ اللَّفْظَيْنِ يَحْتَمِلُهُمَا، أَوْ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِذْ قَدْ بَلَغَتْهُمْ خَبَرُ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَخْبَرَهُمْ هُوْدٌ وَصَالِحٌ عَنِ الْمَتَأَخِّرِينَ دَاعِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِمْ أَجْمَعِينَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنِ الْكَثْرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾^(٢). ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بَانَ لَا تَعْبُدُوا أَوْ أَيْ لَا تَعْبُدُوا. ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ بِرِسَالَتِهِ. ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ عَلَى زَعْمِكُمْ. ﴿كَافِرُونَ﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِشَرِّ مِثْلِنَا لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْنَا.

(١٥) ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فَتَعَظَّمُوا فِيهَا عَلَى أَهْلِهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ. ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً﴾ اغْتِرَاراً بِقُوَّتِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ. قِيلَ كَانَ مِنْ قُوَّتِهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَنْزِعُ الصَّخْرَةَ فَيَقْتُلُهَا

(١) يوسف: «٤».

(٢) النحل: «١١٢».

بيده. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة فإنه قادرٌ بالذاتِ مقتدرٌ على ما لا يتناهى، قويٌّ على ما لا يقدرُ عليه أحدٌ غيره. ﴿وَكَانُوا يَنْتَهِتَانِ يَجْحَدُونَ﴾ يعرفون أنها حقٌّ وينكرونها وهو عطفٌ على فاستكبروا.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)

(١٦) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بادرةٌ تُهلِكُ بشدةٍ بزدها من الصرِّ وهو البردُ الذي يُصرُّ أي يُجمَعُ، أو شديدة الصوت في هبوبها من الصرير. ﴿فِي أَيَّامٍ مَّحْسَاتٍ﴾ جمعٌ نحسةٍ من نَحَسٍ نحساً نقيضٌ سَعَدٌ سَعْدًا، وقرأ الحجازيان والبصريان بالسكونِ على التخفيفِ أو النعتِ على فعلٍ^(١)، أو الوصفِ بالمصدرِ، قيل كُنَّ آخِرَ شَوَالٍ من الأربعاء إلى الأربعاء، وما عَذَبَ قومٌ إلا في يومٍ الأربعاء. ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضاف العذاب إلى الخزي وهو الذلُّ على قضدٍ وصفه به لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الأصلِ صفةُ المعذَّبِ وإنما وُصِفَ به العذابُ على الإسنادِ المجازي للمبالغة. ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بدفعِ العذابِ عنهم.

(١٧) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فدللناهم على الحقِّ بِنُصْبِ الحُجَجِ وإرسالِ الرُّسُلِ. وقرئ ثمودٌ بالنصبِ بفعلٍ مضمرٍ يفسره ما بعده، ومنوئاً في الحالين، وبضمِّ التاء. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الضلالةَ على الهدى. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ﴾ صاعقةٌ من السماءِ فأهلكتهم، وإضافتها إلى العذابِ ووصفه بالهونِ للمبالغة. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيارِ الضلالةِ.

(١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ من تلك الصاعقةِ.

(١٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ وقرئَ يُحْشَرُ على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ. وقرأ نافعٌ نَحْشَرُ بالنونِ مفتوحةً وضمُّ الشينِ ونصبِ أعداءٍ^(٢). ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُخْبَسُ أولُهم على آخرِهِم لنلأ يتفرَّقوا وهو عبارةٌ عن كثرةِ أهلِ النارِ.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ إذا حضروها، وما مزيده لتأكيدِ اتصالِ الشهادةِ بالحضورِ. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأنَّ يُنطقها اللهُ تعالى، أو يُظهِرُ عليها آثاراً تدلُّ على ما اقترف بها فتنتطقُ بلسانِ الحالِ.

(١) فائدة وجه السكون في نخسات كونها وصفاً، فإن الاسم إذا كان وصفاً يسكن جمعه المؤنث، ويحرك إذا لم يكن يكن كذلك، لذلك تقول في جمع ضربة ضربات وغرفة غرفات، وتقول في ضخمة ضخّمات وخذله خذلات بالسكون لأنها وصف، والخذلة هي الممثلة لحماً، توصف بها المرأة.

(٢) والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعله ما يحق بهم من ألوان العذاب. والتعبير عن الحشر بأنه إلى النار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم أو لأن حسابهم يكون على شفيرها (سر ٨/٩).

وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَإِيَّاهُ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ سؤال توبيخ أو تعجب، ولعل المراد به نفس التعجب. ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، أو ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذي أنطق كل حي، ولو أول الجواب والنطق بدلالة الحال بقي الشيء عاماً في الموجودات الممكنة. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَإِيَّاهُ تُرْجَعُونَ﴾ يُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَمَامَ كَلَامِ الْجُلُودِ وَأَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً.

(٢٢) ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي كنتم تسترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضاحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم بها فما استترتم عنها. وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق أنه لا يمرؤ عليه حال إلا وهو عليه رقيب. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك أجتراكم على ما فعلتم.

(٢٣) ﴿وَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ظنهم هذا، وهو مبتدأ وقوله: ﴿ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ﴾ خبر إن له ويجوز أن يكون ظنكم بدلاً وأرداكم خبراً. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ صار ما منحوا للاستسعاد به في الدارين سبباً لشقاء المنزلين.

(٢٤) ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ لا خلاص لهم عنها^(١). ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ يسألوا العتبي وهي الرجوع إلى ما يُسْحَبُونَ. ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ المجابين إليها ونظيره قوله تعالى حكاية ﴿أَجَزِعْنَا أَمَّ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾^(٢) وقريء وأن يستعتبوا فما هم من المعتبين، أي إن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات المكنة.

(٢٥) ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ وقدرنا. ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة. ﴿قُرَنَاءَ﴾ أخذاناً من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيص على البيض وهو القشر. وقيل أصل القيص البدل ومنه المقايضة للمعاوضة. ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة وإنكاره. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب. ﴿فِي أَمْرِ﴾ في جملة أمر كقوله:

(١) والالتفات إلى الغيبة «بصبروا...» للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويحكي سوء حالهم لغيرهم، أو للإشعار بابتعادهم عن حيز الخطاب وإقائهم في غاية دركات النار (س/٨/١١).

(٢) إبراهيم: «٢١».

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْفُوكاً فَقِي آخِرِينَ قَدْ أَفْكُوا
وهو حال من الضمير المجزور. ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم.
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير لهم وللأمر.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَآيِلُنَا
يَجْهَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ
الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا
تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وعارضوه بالخرافات أو ارفعوا أصواتكم بها
لنشوشه على القاريء، وقرىء بضم الغين والمعنى واحد يقال لغى يلغي ولغا يلغو إذا هذى. ﴿لَعَلَّكُمْ
تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونه على قراءته.

(٢٧) ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المراد بهم هؤلاء القائلون، أو عامة الكفار. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سيئات أعمالهم وقد سبق مثله.

(٢٨) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأسوأ. ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبره. ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء أو خبر
محذوف. ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في النار. ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ فإنها دار إقامتهم، وهو كقولك: في هذه الدار دار
سرور، وتعني بالدار عينها على أن المقصود هو الصفة. ﴿جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَآيِلُنَا يَجْهَدُونَ﴾ ينكرون الحق أو
يلغون، وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

(٢٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني شيطاني النوعين الحاملين على
الضلالة والعصيان. وقيل هما إبليس وقابيل فإنهما سنا الكفر والقتل، وقرأ ابن كثير وابن عامر
ويعقوب وأبو بكر والسوسي أزنا بالتخفيف كفتح في فخذ، وقرأ الدوري باختلاص كسرة الراء.
﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسهما انتقاماً منهما، وقيل نجعلهما في الدرك الأسفل. ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾
مكاناً أو دلاً.

(٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته. ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ في العمل وثم
لتراخيه عن الإقرار في الرتبة من حيث إنه مبدأ الاستقامة، أو لأنها عسر قلما تتبع الإقرار، وما روي عن
الخلفاء الراشدين^(١) في معنى الاستقامة من الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض فجزئياتها.
﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن، أو عند
الموت أو الخروج من القبر. ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ ما تقدمون عليه. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلقتهم، وأن مصدرية
أو مخففة مقدرة بالباء أو مفسرة. ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسل.

نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(٣١) ﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نلهمكم الحقَّ ونَحْمِلُكُمْ عَلَى الْخَيْرِ بَدَلًا مَا كَانَتِ الشَّيَاطِينُ تَفْعَلُ بِالْكَفَرَةِ. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بِالشَّفَاعَةِ وَالْكَرَامَةِ حَيْثُمَا يَتَعَادَى الْكَفَرَةُ وَقُرْنَاؤُهُمْ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ مِنَ اللَّذَائِذِ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(١) مَا تَتَمَنُّونَ مِنَ الدَّعَاءِ بِمَعْنَى الطَّلَبِ وَهُوَ أَعْمُ مِنَ الْأَوَّلِ.

(٣٢) ﴿تَزُولُ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ حَالٌ مِنْ مَا تَدْعُونَ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ مَا يَتَمَنُّونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يُغْطَوْنَ مِمَّا لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ كَالْتَّزَلُّ لِلضَّيْفِ.

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إِلَى عِبَادَتِهِ. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ. ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تَفَاخُرًا بِهِ وَاتِّخَاذًا لِلْإِسْلَامِ دِينًا وَمَذْهَبًا مِنْ قَوْلِهِمْ: هَذَا قَوْلُ فَلَانٍ لِمَذْهَبِهِ. وَالْآيَةُ عَامَةٌ لِمَنْ اسْتَجْمَعَ تِلْكَ الصِّفَاتِ. وَقِيلَ نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ^(٢)، وَقِيلَ فِي الْمُؤَذِّنِينَ^(٣).

(٣٤) ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ فِي الْجَزَاءِ وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَلَا الثَّانِيَةِ مُزِيدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ادْفَعْ السَّيِّئَةَ حَيْثُ اعْتَرَضَتْكَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا وَهِيَ الْحَسَنَةُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَحْسَنِ الزَّائِدَ مُطْلَقًا، أَوْ بِأَحْسَنِ مَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا بِهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَإِنَّمَا أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ الِاسْتِنَافِ عَلَى أَنَّهُ جَوَابُ مَنْ قَالَ: كَيْفَ أَصْنَعُ؟ لِلْمُبَالَغَةِ وَلِذَلِكَ وَضَعَ أَحْسَنَ مَوْضِعَ الْحَسَنَةِ. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أَيِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ صَارَ عَدُوُّكَ الْمَشَاقُّ مِثْلَ الْوَلِيِّ الشَّفِيقِ.

(٣٥) ﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾ وَمَا يُلْقَى هَذِهِ السَّجِيَّةُ وَهِيَ مُقَابِلَتُهُ الْإِسَاءَةَ بِالْإِحْسَانِ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فَإِنَّهَا تَحْبِسُ النَّفْسَ عَنِ الْإِنْتِقَامِ. ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَكَمَالِ النَّفْسِ وَقِيلَ الْحَظُّ الْجَنَّةُ.

(٣٦) ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ نَحْسٌ، شَبَّهَ بِهِ وَسُوسَتُهُ لِأَنَّهَا تَبْعُثُ الْإِنْسَانَ عَلَى مَا لَا يَنْبَغِي كَالِدَفْعِ بِمَا هُوَ أَسْوَأُ، وَجَعَلَ النَّزْغَ نَازِعًا عَلَى طَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ؛ أَوْ أُرِيدَ بِهِ نَازِعٌ وَصِفًا لِلشَّيْطَانِ بِالمَصْدَرِ. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ مِنْ شَرِّهِ وَلَا تَطْعُهُ. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِاسْتِعَاذَتِكَ. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِبَيْتِكَ أَوْ بِصَلَاحِكَ.

(١) وعدم الاكتفاء بعطف «ما تدعون» على «ما تشتهي» للإشباع في البشارة والإيذان باستقلال كل منهما (س/٨/١٣).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٣٢٥/٧ لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٣٢٥/٧ لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه من وجه عن عائشة رضي الله عنها.

وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْفِيلٌ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

(٣٧) ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم. ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير للأربعة المذكورة، والمقصود تعليق الفعل بهما إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ولا يختار. ﴿ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أخص العبادات وهو موضع السجود عندنا لا قتران الأمر به، وعند أبي حنيفة آخر الآية الأخرى لأنه تمام المعنى.

(٣٨) ﴿ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الامتنال. ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة. ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي دائماً لقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أي لا يملون.

(٣٩) ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل. ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ تزخرفت وانتفخت بالنبات، وقرئ ربأت أي زادت. ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا ﴾ بعد موتها. ﴿ لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الإحياء والإماتة.

(٤٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ ﴾ يميلون إلى الاستقامة. ﴿ فِي ءَايَاتِنَا ﴾ بالطمع والتحريف والتأويل الباطل والإلغاء فيها. ﴿ لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا ﴾ فنجازيهم على إلحادهم. ﴿ أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمناً مبالغة في إحماد حال المؤمنين. ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ تهديد شديد. ﴿ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بالمجازاة.

(٤١) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ بدل من قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا ﴾^(١) أو مستأنف، وخبر إن محذوف مثل معاندون أو هالكون أو أولئك ينادون، والذكر القرآن. ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ عَزِيزٌ ﴾ كثير النفع عديم النظر أو منيع لا يتأذى بإبطاله وتحريفه.

(٤٢) ﴿ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات أو مما فيه من الأخبار الماضية والأمور الآتية. ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ ﴾ أي حكيم. ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من نعمة.

(٤٣) ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك. ﴿ إِلَّا مَا قَدْفِيلٌ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ إلا مثل ما قال لهم

كفار قومهم، ويجوز أن يكون المعنى ما يقول الله لك إلا مثل ما قال لهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، وهو على الثاني يُخْتَمَلُ أن يكون المقول بمعنى أن حاصل ما أوجي إليك وإليهم وعد المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۖ إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَاذْنُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جواب لقولهم: هَلَّا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ، وَالضَّمِيرُ لِلذَّكَرِ. ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أَكَلَامُ أَعْجَمِيٍّ وَمَخَاطَبُ عَرَبِيٍّ، إِنْكَارٌ مَقْرُورٌ لِلتَّخْصِيصِ. وَالْأَعْجَمِيُّ يُقَالُ لِلَّذِي لَا يُفْهَمُ كَلَامُهُ. وَهَذَا قِرَاءَةُ أَبِي بَكْرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكَسَانِيُّ، وَقَرَأَ قَالُونَ وَأَبُو عَمْرٍو بِالْمَدِّ وَالتَّسْهِيلِ وَوَرِثَ بِالْمَدِّ وَإِدَالِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا، وَابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ ذَكْوَانَ وَحَفْصٌ بغير المدِّ بتسهيل الثانية، وَقُرِئَ أَعْجَمِيٌّ وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى الْعَجَمِ، وَقَرَأَ هِشَامٌ أَعْجَمِيٌّ عَلَى الْإِخْبَارِ. وَعَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَلَّا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ فَجُعِلَ بَعْضُهَا أَعْجَمِيًّا لِإِفْهَامِ الْعَجَمِ وَبَعْضُهَا عَرَبِيًّا لِإِفْهَامِ الْعَرَبِ، وَالْمَقْصُودُ إِبْطَالُ مُقْتَرَحِهِمْ بِاسْتِزْامِهِ الْمَحْذُورَ، أَوْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَنْفَكُونَ عَنِ التَّعَتُّتِ فِي الْآيَاتِ كَيْفَ جَاءَتْ. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ إِلَى الْحَقِّ. ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لِمَا فِي الصَّدُورِ مِنَ الشَّكِّ وَالشَّيْبَةِ. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ. ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ هُوَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وَذَلِكَ لِنَصَائِهِمْ عَنْ سَمَاعِهِ وَتَعَامِيهِمْ عَمَّا يَرِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ، وَمَنْ جَوَزَ الْعُطْفَ عَلَى عَامِلِينَ مُخْتَلِفِينَ عُطِفَ ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى. ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَيَّ صَمٍّ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لَهُمْ فِي عَدَمِ قَبُولِهِمُ الْحَقَّ وَاسْتِمَاعِهِمْ لَهُ بِمَنْ يُصَاحُّ بِهِ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ كَمَا اخْتَلَفَ فِي الْقُرْآنِ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وَهِيَ الْعِدَّةُ بِالْقِيَامَةِ وَفَضْلُ الْخُصُومَةِ حِينَئِذٍ، أَوْ تَقْدِيرُ الْآجَالِ. ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بِاسْتِصْالِ الْمَكْذِبِينَ. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وَإِنَّ الْيَهُودَ أَوْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ. ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ مِنَ التَّوَرَةِ أَوْ الْقُرْآنِ. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوجِبٌ لِلْاضْطِرَابِ.

(٤٦) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ نَفْعُهُ. ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضَرُّهُ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فَيَفْعَلُ بِهِمْ مَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ.

(٤٧) ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أَيَّ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا إِذْ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ مِنْ أَوْعِيَّتِهَا جَمْعُ كُمٍ بِالْكَسْرِ. وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٌ وَحَفْصٌ مِنْ ثَمَرَاتٍ بِالْجَمْعِ لِاخْتِلَافِ

الأنواع، وقُرِئَ بجميع الضمير أيضاً. وما نافية، ومن الأولى مزيدة للاستغراق، ويُحتمل أن تكون موصولة معطوفة على الساعة ومن مبينة بخلاف قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ﴾ بمكان. ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا مقروناً بعلمه واقعاً حسب تعلقه به. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ برغمكم. ﴿قَالُوا مَا أَذْنُكَ﴾ أعلمناك. ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ من أحد يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا عنهم لما عاينا الحال فيكون السؤال سهم للتوبيخ، أو من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنا. وقيل هو قول الشركاء أي ما منا من يشهد لهم بأنهم كانوا محقين.

وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْتَعِزُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّلُ بِقَنُوطٍ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا إِذْ كَفَرُوا دُعَاءَ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

(٤٨) ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لا ينفعهم أو لا يروونه. ﴿وَوَظَنُوا﴾ وأيقنوا. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب، والظن معلق عنه بحرف النفي.

(٤٩) ﴿لَا يَسْتَعِزُّ الْإِنْسَانُ﴾ لا يمل. ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في النعمة، وقُرِئَ من دعاء بالخير. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضيقة. ﴿فَيَتَوْسَّلُ بِقَنُوطٍ﴾ من فضل الله ورحمته وهذا صفة الكافر لقوله ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١) وقد بولغ في يأسه من جهة البنية والتكرير وما في القنوط من ظهور أثر اليأس.

(٥٠) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه. ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ حقي أستحقه لِمَا لِي من الفضل والعمل، أولي دائماً لا يزول. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ تقوم. ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أي ولئن قامت على التوهم كان لي عند الله الحالة الحسنَى من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعيم الدنيا فلاستحقاق لا ينفك عنه. ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلنخبرنهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بحقيقة أعمالهم ولنُبَصِّرَنَّهُمْ عَكْسَ مَا اعْتَقَدُوا فيها. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنهم التقصّي عنه.

(٥١) ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر. ﴿وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا﴾ وانحرف عنه أو ذهب بنفسه وتباعد عنه بكلّيته تكبراً، والجانب مجاز عن النفس كالجنب في قوله ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٢). ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدَّوْهُ دُعَاءَ عَرِيضٍ﴾ كثير، مستعار ممّا له عرض متسع للإشعار بكثرة واستمراره، وهو أبلغ من الطويل إذ الطول أطول المتدادين. فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله.

(٥٢) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ من غير

(١) يوسف: (٨٧).

(٢) الزمر: (٥٦).

نظري واتباع دليل. ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي من أضل منكم، فوضع الموصول موضع الضمير شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم.

سَتْرِيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيقَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَكْفِيَهُمْ شَيْءٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴿٥٤﴾

(٥٣) ﴿سَتْرِيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ يعني ما أخبرهم النبي عليه الصلاة والسلام به من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة. ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم، أو ما في بدن الإنسان من عجائب الصنع الدالة على كمال القدرة. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول أو التوحيد أو الله ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أو لم يكف ربك، والفاء مزيدة للتأكيد كأنه قيل: أو لم تحصل الكفاية به، ولا تكاد تزداد في الفاعل إلا مع كفى. ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، والمعنى أولم يكفك أنه تعالى على كل شيء شهيد محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة، أو مطلع فيعلم حالك وحالهم، أو لم يكف الإنسان رادعاً عن المعاصي أنه تعالى مطلع على كل شيء لا يخفى عليه خافية.

(٥٤) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيقَةٍ شَكٍّ﴾ وقرىء بالضم وهو لغة كخفية وخفية. ﴿مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث والجزاء. ﴿أَلَّا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفصيلها، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ السَّجْدَةِ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ»^(١).

☆☆☆

(١) وهو حديث موضوع. أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه وتقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

سورة حم عسق مكية^(١)، وهي ثلاث وخمسون آية، وتسمى سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حم﴾.

(٢) ﴿عسق﴾ لعله اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدًا آيتين، وإن كانا اسمًا واحدًا فالفصل ليطابق سائر الحواميم، وقرئ حم سق.

(٣) ﴿كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ أي مثل ما في هذه السورة من المعاني، أو إحياء مثل إحيائها أوحى الله إليك وإلى الرسل من قبلك، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وأن إحياء مثله عادته، وقرأ ابن كثير يوحى بالفتح على أن كذلك مبتدأ ويوحى خبره المسند إلى ضميره، أو مصدر ويوحى مسند إلى إليك، والله مرتفع بما دل عليه يوحى، والعزیز الحكيم صفتان له مقررَتان لعلو شأن الموحى به كما مر في السورة السابقة، أو بالابتداء كما في قراء نوحى بالنون، والعزیز وما بعده أخبار أو العزیز الحكيم صفتان. وقوله:

(٤) ﴿لهم ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم﴾ خبران له وعلى الوجوه الأخر استئناف مقرر لعزته وحكمته.

(٥) ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء. ﴿ يَنْفَطَرْنَ ﴾ يتشققن من عظمة الله، وقيل من ادعاء الولد له. وقرأ البصريان وأبو بكر ينفطرن بالنون والأول أبلغ لأنه مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر، وقرىء تنفطرن بالتاء لتأكيد التانيث وهو نادر. ﴿ مِنْ قَوْفِهِنَّ ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن فوقانية، وتخصيصها على الأول لأن أعظم الآيات وأدلها على علو شأنه من تلك الجهة، وعلى الثاني ليدل على الانفطار من تحتهن بالطريق الأولى. وقيل: الضمير للأرض فإن المراد بها الجنس. ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وإعداد الأسباب المقررة إلى الطاعة، وذلك في الجملة يعم المؤمن والكافر، بل لو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد. وحيث خص بالمؤمنين فالمراد به الشفاعة. ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ إذ ما من مخلوق إلا وهو ذو حظ من رحمته. والآية على الأول زيادة تقرير لعظمته، وعلى الثاني دلالة على تقدسه عما نسب إليه، وإن عدم معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء باستغفار الملائكة وفراط غفران الله ورحمته.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

(٦) ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ شركاء وأنداد. ﴿ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿ وَمَا أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ ﴾ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ بموكل بهم أو بموكل إليك أمرهم.

(٧) ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ الإشارة إلى مصدر يوحى أو إلى معنى الآية المتقدمة، فإنه مكرراً في القرآن في مواضع جمّة فتكون الكاف مفعولاً به وقرآنًا عربياً حالاً منه. ﴿ لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى أَهْلَ أُمِّ الْقُرَى ﴾ وهي مكة شرفها الله تعالى. ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب. ﴿ وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ يوم القيامة يُجْمَع فيه الخلائق أو الأرواح والأشباح، أو العمال والأعمال، وحذف ثاني مفعولي الأول وأول مفعولي الثاني للتهويل وإيهام التعميم، وقرىء لينذر بالياء والفعل للقرآن. ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراض لا محل له من الإعراب. ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف يُجْمَعُونَ أولاً ثم يفرقون، والتقدير منهم فريق، والضمير للمجموعين للدلالة الجمع عليه، وقرنا منصوبين على الحال منهم أي وتندّر يوم جمعهم متفرقين بمعنى مشارفين للتفرق، أو متفرقين في داري الثواب والعقاب.

(٨) ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مهتدين أو ضالين. ﴿ وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ بالهداية والحمل على الطاعة. ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي يدعهم بغير ولي ولا نصير في عذابه، ولعل تغيير المقابلة للمبالغة في الوعيد إذ الكلام في الإنذار^(١).

(١) أو للإيدان بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى كما في =

أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۖ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾

(٩) ﴿أَمْ أَخَذُوا﴾ بل اتَّخَذُوا. ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ كالأصنام. ﴿قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوف مثلُ إنَّ أرادوا أولياء بحقٍّ فالله هو الولي بالحق. ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية.

(١٠) ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم والكفار. ﴿فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين. ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ مفوضٌ إليه يميز المحقَّ من المبطل بالنصر أو بالإثابة والمعاقبة. وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكم من كتاب الله. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجاميع الأمور. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع في المعضلات.

(١١) ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبرٌ آخرٌ لذلِّكم أو مبتدأٌ خبره: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ وقرئ بالجرِّ على البدل من الضمير أو الوصفِ لإلى الله. ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسِكُم. ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء. ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً، أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً. ﴿يَذُرُّكُمْ﴾ يكثرُكم من الذرء وهو البثُّ وفي معناه الذرُّ والذُرُّ، والضمير على الأول للناس والأنعام على تغليب المخاطبين العقلاء. ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير، وهو جعلُ الناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالدٌ فإنه كالمنبع للبتِّ والتكثير. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثله شيءٌ يزاوجه ويناسبه، والمراد من مثله ذاته كما في قولهم: مثلك لا يفعل كذا، على قصدِ المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفي عمن يناسبه ويسدُّ مسدَّه كان نفيه عنه أولى، ونظيره قول رقيقة بنتِ صيفي في سقيا عبدالمطلب: أَلَا وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِدَاتِهِ. وَمَنْ قَالَ الكافُ فيه زائدةٌ لعله عنى أنه يعطى معنى ليس مثله غير أنه أكد لما ذكرناه. وقيل مثله صفته أي ليس كصفته صفة. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يسمع ويبصر.

(١٢) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خزائنها. ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسِّع ويضيق على وفق مشيئته. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعله على ما ينبغي.

(١٣) ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي شرع لكم من الدين دينَ نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام وَمَنْ بينهما من أرباب الشرائع، وهو الأصل المشترك فيما

بينهم^(١)، المفسر بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله. ومحله النصب على البدل من مفعول شرع، أو الرفع على الاستئناف كأنه جوابٌ وما ذلك المشروع، أو الجزر على البدل من هاء به. ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل أما فروغ الشرائع فمختلفة كما قال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(٢) ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ عَظُمُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يجتلب إليه، والضمير لما تدعوهم أو للدين. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ بِالْإِشْرَادِ وَالتَّوْفِيقِ﴾ ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ يقبل إليه.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني الأمم السالفة. وقيل أهل الكتاب لقوله ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ﴾^(٣) ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ العلم بأن التفريق ضلال متوعد عليه، أو العلم بمبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام، أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها. ﴿بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ عداوة أو طلباً للدنيا. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإمهال. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة أو آخر أعمارهم المقدرة. ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستتصال المبطلين حين اقترفوا لعظم ما اقترفوا. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، أو المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد أهل الكتاب. وقرئ ورثوا وورثوا. ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من كتابهم لا يعلمونه كما هو أو لا يؤمنون به حق الإيمان، أو من القرآن. ﴿مُرِيبٌ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة.

(١٥) ﴿فَلِذَلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفريق أو الكتاب، أو العلم الذي أوتيته. ﴿فَادْعُ﴾ إلى الاتفاق على الملة الحنيفية أو الاتباع لما أوتيت، وعلى هذا يجوز أن تكون اللام في موضع إلى لإفادة الصلة

(١) خص الأنبياء المذكورين للتنبيه على علو شأنهم، ولاستماله قلوب الكفرة إليه.

وإشار الإيحاء «وأوحينا» على ما قبله «شرع...» وما بعده «وصينا» لما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة.

والالتفات إلى نون العظمة «وأوحينا...» لإظهار كمال الاعتناء بإيحاته، وهو السر في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً.

وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً.

وتوجيه الخطاب إليه - عليه الصلاة والسلام - بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام (س/٨/٢٥).

(٢) المائدة: (٤٨).

(٣) البينة: (٤).

والتعليل. ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ واستقم على الدعوة كما أمرك الله تعالى. ﴿وَلَا تَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ والباطلة. ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني جميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات، والأول إشارة إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية. ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالق الكل ومتولي أمره. ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ وكل مجازى بعمله. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا حجاج بمعنى لا خصومة إذ الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة مجال ولا للخلاف مبدأ سوى العناد. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة. ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الكل لفصل القضاء. وليس في الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية القتال.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِشُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ﴾ في دينه. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه، أو من بعد ما استجاب الله لرسوله فأظهر دينه بنصره يوم بذر، أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته واستفتحوا به. ﴿جَحِشُهُمْ﴾ ^(١) دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ زائلة باطلة. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لمعاندتهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

(١٧) ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب. ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بعيداً من الباطل، أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والشرع الذي تُوزَنُ به الحقوق ويسوي بين الناس، أو العدل بأن أنزل الأمر به، أو آلة الوزن بأن أوحى بإعدادها. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانها فأتبع الكتاب واعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي تُوزَنُ فيه أعمالك وتوفى جزاءك. وقيل تذكير القريب لأنه بمعنى ذات قريب، أو لأن الساعة بمعنى البعث.

(١٨) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون منها مع اغتيالها لتوقع الثواب. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي الكائن لا محالة. ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها من المزية، أو من مريت الناقة إذا مسح ضرعها بشدة للحلب لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات إلى المحسوسات، فمن لم يهتد لتجويزه فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه.

(١٩) ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ بَرَّ بِهِمْ بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام. ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرزقه

(١) عبر عن أباطيلهم بالحجة مجازاة معهم على زعمهم الباطل (س/٨/٢٨).

كما يشاء فيخص كلًا من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة. ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزَدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ ثوابها شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعملٍ ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة، والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ويُقال للزرع الحاصل منه. ﴿نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ فنعطيه بالواحد عشرًا إلى سبعمائة فما فوقها. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ شيئاً منها على ما قسمنا له. ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

(٢١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ بل أَلَهُمْ شركاء، والهمزة للتقرير والتفريع، وشركاؤهم شياطينهم. ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ بالتزوين. ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. وقيل شركاؤهم أوثانهم وإضافتها إليهم لأنهم اتخذوها شركاء، وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم بما تدبئوا به، أو صور من سنه لهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء، أو العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة. ﴿لَفُتِنَ بِهِمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو المشركين وشركائهم. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقرئ أن بالفتح عطفاً على كلمة الفصل أي ولولا كلمة الفصل وتقدير عذاب الظالمين في الآخرة لَفُتِنَ بِهِمْ في الدنيا، فإن العذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

(٢٢) ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في القيامة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من السيئات. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي وبأله لاحق بهم أشفقوا أو لم يُشفقوا. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ في أطيب بقاعها وأنزهها. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ما يشتهونه ثابت لهم عند ربهم. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين. ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذي يصغر دونه ما لغيرهم في الدنيا.

(٢٣) ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ذلك الثواب الذي يبشّرهم الله به فحذف الجار ثم العائد، أو ذلك التبشير الذي يبشّره الله عباده. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي يُبَشِّرُ مِنْ بَشَرَةٍ وَفُرِيءَ يُبَشِّرُ مِنْ أَبْشَرَةٍ. ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أتعاطاه من التبليغ والبشارة. ﴿أَجْرًا﴾ نفعا منكم. ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي تودؤني لقرباني منكم. أو تودؤوا قرباني، وقيل الاستثناء منقطع والمعنى: لا أسألكم أجراً قط، ولكني أسألكم المودة، وفي القربى حالٌ منها أي إلا المودة ثابتة في ذوي القربى متمكنة في أهلها، أو في حق القرابة ومن أجلها كما جاء في الحديث «الحب في الله

والبغض في الله^(١). رُوِيَ: أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قَرَابَتُكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجِبَتْ مَوَدَّتُهُمْ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَإِبْنَاهُمَا»^(٢). وقيل القربى التقرب إلى الله أي إلا أَنْ تَوَدُّوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقرئ إلا مودة في القربى. ﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً﴾ ومن يكتسب طاعة سيما حب آل رسول الله ﷺ، وقيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومودته لهم^(٣). ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ في الحسنة بمضاعفة الثواب، وقرئ يزد أي يزد الله وحسنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لمن أذنب. ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون. ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ افترى محمد بدعوى النبوة أو القرآن. ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ استبعاداً للافتراء عن مثله بالإشعار على أنه إنما يجترأ عليه من كان مختوماً على

(١) ذكره الدبلي في «الفردوس» رقم (٢٧٨٧) من حديث أنس. وعزاه إليه صاحب كتر العمال رقم (٢٤٦٨٨) بلفظ: «الحب في الله فريضة، والبغض في الله فريضة».

● وأخرج أبو داود (٦٠/٥) رقم (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة. بلفظ: «من أحب الله وأبغض الله فقد استكمل الإيمان» وهو حديث صحيح.

● وأخرج الترمذي (٦٧٠/٤) رقم (٢٥٢١) وأحمد (٤٣٨/٣)، (٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس بلفظ: «من أعطى الله ومنع الله وأحب الله وأبغض الله وأنكح الله فقد استكمل الإيمان» قال الترمذي حديث حسن وهو كما قال.

● وأخرج أحمد (١٤٦/٥) من حديث أبي ذر، بلفظ: «إن أحب الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله». وفيه رجل لم يسم.

● وأخرج أحمد (٢٨٦/٤) من حديث البراء، بلفظ: «أوسط عرى الإسلام الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله».

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٤/١١) رقم (١٢٢٥٩).

وزاد السيوطي في الدر المنثور (٣٤٨/٧) نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وقال: بسند ضعيف.

وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٤٥ رقم ٣٥٠): «أخرجه: الطبراني، وابن أبي حاتم، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس، وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه».

ففي البخاري - (٥٢٦/٦) رقم (٣٤٩٧) و(٥٦٤/٨) رقم (٤٨١٨) - من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية. فقال سعيد بن جبیر قربي آل محمد ﷺ؟ فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قریش إلا كان له فيهم قرابة - الحديث - هـ.

والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) ذكره الألويسي في «روح المعاني» (٣٣/٢٥).

قلبه جاهلاً برَّبِّه، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا وكأنه قال: إِنَّ يَسْأَلُ اللَّهَ خُذْ لَكَ يَخْتَمُ عَلَى قَلْبِكَ لَتَجْتَرِيءَ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ. وَقِيلَ يَخْتَمُ عَلَى قَلْبِكَ يَمْسِكُ الْقُرْآنَ أَوْ الْوَحْيَ عَنْهُ، أَوْ يَرْبِطُ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ فَلَا يَشُقُّ عَلَيْكَ أَذَاهُمْ. ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا يَكْفُرُونَ﴾ استئناف لنفي الافتراء عما يقوله بأنه لو كان مُفْتَرِيًا لَمَحَقَهُ إِذْ مِنْ عَادَتِهِ تَعَالَى مَحْوُ الْبَاطِلِ وَإِبْثَاتُ الْحَقِّ بَوْخِيهِ أَوْ بِقَضَائِهِ، أَوْ بَوْعْدِهِ بِمَحْوِ بَاطِلِهِمْ وَإِبْثَاتِ حَقِّهِ بِالْقُرْآنِ، أَوْ بِقَضَائِهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ، وَسَقُوطُ الْوَاوِ مِنْ يَمْنَحُ فِي بَعْضِ الْمَصَاحِفِ لِاتِّبَاعِ اللَّفْظِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾^(١).

(٢٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بِالتَّجَاوُزِ عَمَّا تَابُوا عَنْهُ، وَالْقَبُولُ يُعْدَى إِلَى مَفْعُولٍ ثَانٍ يَمِنْ وَعَنْ لِنُضْمَتِهِ مَعْنَى الْأَخْذِ وَالْإِبَانَةِ، وَقَدْ عُرِفَتْ حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ. وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ هِيَ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: عَلَى الْمَاضِي مِنَ الذُّنُوبِ النَّدَامَةُ، وَلِتَضْيِيعِ الْفَرَائِضِ الْإِعَادَةُ، وَرُدُّ الْمَظَالِمِ وَإِذَابَةُ النَّفْسِ فِي الطَّاعَةِ كَمَا رَبَّيْتَهَا فِي الْمَعْصِيَةِ وَإِذَاقُهَا مَرَارَةَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتُهَا حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَالْبُكَاءُ بِدَلِّ كُلِّ ضَحِكٍ ضَحْكَتِهِ. ﴿وَيَعْقُوا عَنْ السَّيِّئَاتِ﴾ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا لِمَنْ يَشَاءُ. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فِيجَازِي وَيَتَجَاوَزُ عَنْ إِتْقَانٍ وَحِكْمَةٍ. وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ غَيْرُ أَبِي بَكْرٍ مَا تَفْعَلُونَ بِالتَّاءِ.

(٢٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيِ يَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهُمْ فَحَذَفَ اللَّامَ كَمَا حَذَفَ فِي ﴿وَإِذَا كَانُوا مِنْهُمْ﴾^(٢) وَالْمَرَادُ إِجَابَةُ الدُّعَاءِ، أَوْ الْإِثَابَةُ عَلَى الطَّاعَةِ، فَإِنَّهَا كَدَعَاءٍ وَطَلِبٍ لِمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»^(٣)، أَوْ يَسْتَجِيبُونَ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَيْهَا. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عَلَى مَا سَأَلُوا وَاسْتَحَقُّوا وَاسْتَوْجَبُوا لَهُ بِالِاسْتِجَابَةِ. ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بِدَلِّ مَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الثَّوَابِ وَالتَّفَضُّلِ.

(٢٧) ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لَتَكَبَّرُوا وَأَفْسَدُوا فِيهَا بَطَرًا، أَوْ لَبَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، اسْتِيلَاءٌ وَاسْتِعْلَاءٌ وَهَذَا عَلَى الْغَالِبِ، وَأَصْلُ الْبَغْيِ طَلِبُ تَجَاوُزِ الْاِقْتِصَادِ فِيمَا يَتَحَرَّى كَمِيَّةً أَوْ كَيْفِيَّةً. ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقُدْرٍ﴾ بِتَقْدِيرٍ. ﴿مَا يَشَاءُ﴾ كَمَا اقْتَضَتْهُ مَشِئَتُهُ. ﴿إِنَّهُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾ يَعْلَمُ خَفَايَا أَمْرِهِمْ وَجَلَايَا حَالِهِمْ فَيَقْدُرُ لَهُمْ مَا يَنْاسِبُ شَأْنَهُمْ. رُوِيَ أَنَّ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَمَنَّوْا الْغِنَى فَتَرَلَتْ^(٤). وَقِيلَ

(١) الإسراء: ١١١.

(٢) المطففين: ٣.

(٣) أخرجه الترمذي (٤٦٢/٥) رقم (٣٣٨٣) وابن ماجه (١٢٤٩/٢) رقم (٣٨٠٠) وابن حبان (ص ٥٧٨) رقم ٢٣٢٦ - موارد) والحاكم (٤٩٨/١) من حديث جابر.

قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وقال الألباني: حديث حسن - صحيح الجامع (رقم: ١١٠٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج ٢٥/٣٠) عن أبي هانئ قال: سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون... فذكره.

وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٢/٧) نسبته لابن المنذر وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠٤/٧) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

في العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعوا^(١).

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصْبَحَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

﴿٢٨﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴿﴾ المطر الذي يغيثهم من الجذب ولذلك خُصَّ بالنافع، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ينزل بالتشديد. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أيسوا منه، وقرىء بكسر النون. ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ونشر رحمته. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد على ذلك.

﴿٢٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿﴾ فإنها بذاتها وصفاتها تدلُّ على وجود صانع قادر حكيم. ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عطف على السموات أو الخلق. ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من حيٍّ على إطلاق اسم المسبب على السبب، أو مما يدبُّ على الأرض وما يكون في أحد الشئين يصدق أنه فيهما في الجملة. ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ﴾ أي في أي وقت يشاء. ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكِّن منه وإذا كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع.

﴿٣٠﴾ وَمَا أَصْبَحَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴿﴾ فبسبب معاصيكم. والفاء لأنَّ ما شرطية أو متضمنة معناه، ولم يذكرها نافع وابن عامر استغناء بما في الباء من معنى السببية. ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب فلا يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين، فإنَّ ما أصاب غيرهم فلا سبب آخر منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر عليه.

﴿٣١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴿﴾ فاثنتين ما قضى عليكم من المصائب. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحرصكم عنها. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿٣٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ ﴿﴾ السفن الجارية. ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال. قالت الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهُدَاهُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

﴿٣٣﴾ ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ وقرىء الرياح. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ فيبقين ثوابت على ظهر البحر. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكلِّ مَنْ وَكَّلَ هَمَّتُهُ وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكير في آياته، أو لكلِّ مؤمن كامل الإيمان، فإنَّ الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

(١) خرجوا في طلب الكلا فشغلهم الجذب عن القتال.

أَوْ يُوقِعَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيءَ آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْلِصُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿أَوْ يُوقِعَهُنَّ﴾ أو يهلكهنَّ بإرسال الريح العاصفة المغرقة، والمراد إهلاك أهلها لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وأصله أو يرسلها فيوقعنَّ لأنه قسيم يسكن فاقصر فيه على المقصود كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ إذ المعنى أو يرسلها فيوقن ناساً بذنوبهم وينج ناساً على العفو منهم، وقرئ ويعفو على الاستئناف.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيءَ آيَاتِنَا﴾ عطفٌ على علوِّ مقدرة مثل لیتقم منهم ويعلم، أو على الجزاء، ونُصِبَ نَصْبُ الواقع جواباً للأشياء الستة لأنه أيضاً غير واجب، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئناف، وقرئ بالجزم عطفاً على يعفُ فيكون المعنى ويجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير آخرين. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ﴾ محيد من العذاب، والجملة معلقٌ عنها الفعل.

(٣٦) ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ تمتعون به مدة حياتكم. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلوص نفعه ودوامه. وما الأولى موصولة تضمنت معنى الشرط من حيث إن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. وعن علي رضي الله تعالى عنه: تصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بماله كله فلامه جَمْعٌ فزلت^(١).

(٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ والذين بما بعده عطفٌ على للذين آمنوا، أو مدحٌ منصوبٌ أو مرفوع، وبناء يغفرون على ضميرهم خبراً للدلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب، وقرأ حمزة والكسائي كبير الإثم.

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له^(٢). ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ذو شورى بينهم لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه. وذلك من قُرْط تدبرهم وتيقظهم في الأمور، وهي مصدرٌ كالفَتْيَا بمعنى التشاور. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله الخير.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْلِصُونَ﴾ على ما جعله الله لهم كراهة التذلل، وهو وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر أمهات الفضائل، وهو لا يخالف وصفهم بالغفران، فإنه ينبىء عن عجز المغفور والانتصار عن مقاومة الخصم، والحلم عن العاجز محمود وعن المتغلب مذموم لأنه إجراء وإغراء على البغي، ثم عَقَّب وصفهم بالانتصار للمنع عن التعدي.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٤٥/٢٥) بدون سند.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٤٦/٢٥) بدون سند.

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَتٍ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾

(٤٠) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وسمي الثانية سيئة للزدواج، أو لأنها تسوء من تنزل به. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين عدوه. ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عِدَّةٌ مبهمَةٌ تدل على عِظَمِ الموعد. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين في الانتقام.

(٤١) ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ بعد ما ظلم، وقد قرئ به. ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ بالمعاقبة والمعاقبة.

(٤٢) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يبتدونهم بالإضرار ويطلبون ما لا يستحقونه تجبراً عليهم. ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ظلمهم وبغيهم.

(٤٣) ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ﴾ على الأذى. ﴿وَعَفَرَ﴾ ولم ينتصر. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي إِنَّ ذَلِكَ مِنْهُ فحذف كما حذف في قولهم: السمنُ مَتَوَانٍ بدرهم، للعلم به.

(٤٤) ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من ناصرٍ يتولاه من بعد خُذْلَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ. ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ حين يرونها فذكر بلفظ الماضي تحقيقاً. ﴿يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هل إلى رجعة إلى الدنيا.

(٤٥) ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار، ويدل عليه العذاب. ﴿خَشِيعَتٍ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ متذللين متقاصرين مما يلحقهم من الدل. ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يبتدئ نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالمصبور^(١) ينظر إلى السيف. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾ بالتعريض للعذاب المخلد. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ظرف لخسروا والقول في الدنيا، أو لِقَالَ أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحال. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ تمام كلامهم أو تصديق من الله لهم.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى أو النجاة.

(٤٧) ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ لا يردّه الله بعد ما حكم به ومن صلة

لَمَرَدٍّ. وَقِيلَ صَلَٰةٌ يَأْتِي أَيُّ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ مِنْ اللَّهِ لَا يُمْكِنُ رُدُّهُ. ﴿مَالَكُمْ مِنْ مَلَجٍ﴾ مَفْرُ. ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّكَيرٍ﴾ إِنكَارٌ لِمَا اقْتَرَفْتُمُوهُ لِأَنَّهُ مَدْرُونٌ فِي صَحَافٍ أَعْمَالِكُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِ أَلَسْتُمْكُمْ وَجَوَارِحُكُمْ.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَحَ بِهَا وَإِنْ نُضِيبُهُمْ سَيْئَةً يُمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رَقِيبًا أَوْ مُحَاسِبًا. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ وَقَدْ بَلَّغْتَ. ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَحَ بِهَا﴾ أَرَادَ بِالْإِنْسَانَ الْجِنْسَ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ نُضِيبُهُمْ سَيْئَةً يُمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ بَلِغُ الْكَفْرَانِ يَنْسَى النِّعْمَةَ رَأْسًا وَيَذْكُرُ الْبَلِيَّةَ وَيَعْظُمُهَا وَلَا يَتَأَمَّلُ سَبَبَهَا، وَهَذَا وَإِنْ اخْتَصَّ بِالْمُجْرِمِينَ جَازَ إِسْنَادُهُ إِلَى الْجِنْسِ لِغَلَبَتِهِمْ وَانْدِرَاجِهِمْ فِيهِ. وَتَصْدِيرُ الشَّرْطِيَّةِ الْأُولَى بِإِذَا وَالثَّانِيَةِ بِإِنْ لِأَنَّ إِذَا نِعمَةٍ مُحَقَّقَةٍ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا عَادَةٌ مُقْتَضَاةٌ بِالذَّاتِ بِخِلَافِ إِصَابَةِ الْبَلِيَّةِ، وَإِقَامَةُ عَلَّةِ الْجَزَاءِ مَقَامَهُ وَوَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِّ فِي الثَّانِيَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ مُوسَمٌ بِكَفْرَانِ النِّعْمَةِ.

(٤٩) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَهَذَا أَنْ يَقْسَمَ النِّعْمَةَ وَالْبَلِيَّةَ كَيْفَ يَشَاءُ. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ مِنْ غَيْرِ لَزُومٍ وَمَجَالٍ اعْتِرَاضٍ. ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾.

(٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ بَدَلٌ مِنْ يَخْلُقُ بَدَلُ الْبَعْضِ، وَالْمَعْنَى يَجْعَلُ أَحْوَالَ الْعِبَادِ فِي الْأَوْلَادِ مُخْتَلِفَةً عَلَى مُقْتَضَى الْمَشِيئَةِ فِيهِبُ لِبَعْضٍ إِمَّا صِنْفًا وَاحِدًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى أَوْ الصَّنِفَيْنِ جَمِيعًا وَيَعْقُمُ آخَرِينَ. وَلَعَلَّ تَقْدِيمَ الْإِنَاثِ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ لِتَكْثِيرِ النَّسْلِ، أَوْ لِأَنَّ مَسَاقَ الْآيَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْوَاقِعَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مَشِيئَةُ اللَّهِ لَا مَشِيئَةُ الْإِنْسَانِ وَالْإِنَاثِ كَذَلِكَ، أَوْ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي الْبَلَاءِ وَالْعَرَبُ تَعْدُهُنَّ بَلَاءً، أَوْ لِتَطْيِيبِ قُلُوبِ آبَائِهِنَّ، أَوْ لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى الْفَوَاصِلِ وَلِذَلِكَ عَرَّفَ الذَّكَورَ، أَوْ لِجَبْرِ التَّأَخِيرِ. وَتَغْيِيرُ الْعَاطِفِ فِي الثَّلَاثِ لِأَنَّهُ قَسِيمُ الْمَشْرُوكِ بَيْنَ الْقَسَمَيْنِ، وَلَمْ يَحْتَاجْ إِلَيْهِ الرَّابِعُ لِإِفْصَاحِهِ بِأَنَّهُ قَسِيمُ الْمَشْرُوكِ بَيْنَ الْأَقْسَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ. ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ﴾ فَيَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ بِحِكْمَةٍ وَاخْتِيَارٍ.

(٥١) ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وَمَا صَحَّ لَهُ. ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كَلَامًا خَفِيًّا يُذَرِّكُ لِأَنَّهُ بِسُرْعَةٍ تَمَثَّلُ لَيْسَ فِي ذَاتِهِ مَرْغَبًا مِنْ حُرُوفٍ مُقَطَّعَةٍ تَتَوَقَّفُ عَلَى تَمَوُّجَاتٍ مُتَعَاوِيَةٍ. وَهُوَ مَا يَعُمُّ الْمَشَافَةَ بِهِ كَمَا رُويَ فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ، وَمَا وَعَدَ بِهِ فِي حَدِيثِ الرُّؤْيَا، وَالْمُهْتَفَ بِهِ كَمَا اتَّفَقَ لِمُوسَى فِي طُورِ وَالطُّورِ، وَلَكِنَّ عَطْفَ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ عَلَيْهِ يَخْصُهُ بِالْأَوَّلِ فَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الرُّؤْيَا لَا عَلَى امْتِنَاعِهَا. وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ الْإِلَهَامُ وَالْإِلْقَاءُ فِي الرُّوعِ، أَوْ الْوَحْيُ الْمُنَزَّلُ بِهِ الْمَلِكُ إِلَى الرُّسُلِ فَيَكُونُ

المراد بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أو يرسل إليه نبياً فيبلغ وحيه كما أمره، وعلى الأول المراد بالرسول الملك الموحى إلى الرسل، ووحياً بما عطف عليه منتصب بالمصدر لأن من وراء حجاب صفة كلام محذوف، والإرسال نوع من الكلام، ويجوز أن يكون وحياً ويرسل مضمرين ومن وراء حجاب ظرفاً وقعت أحوالاً. وقرأ نافع أو يرسل برفع اللام. ﴿إِنَّهُ عَلِيُّ﴾ عن صفات المخلوقين. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته فيكلم تارة بوسط، وتارة بغير وسط إما عياناً وإما من وراء حجاب.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۚ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۚ

(٥٢) ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني ما أوحى إليه، وسمّاه روحاً لأن القلوب تحيا به، وقيل جبريل والمعنى أرسلناه إليك بالوحي. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي قبل الوحي، وهو دليل على أنه لم يكن متعبداً قبل النبوة بشرع. وقيل المراد هو الإيمان بما لا طريق إليه إلا السمع. ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي الروح أو الكتاب أو الإيمان. ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق للقبول والنظر فيه. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام، وقرىء لتهدى أي ليهديك الله.

(٥٣) ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ بدل من الأول. ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلْكاً. ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ بارتفاع الوسائط والتعلقات، وفيه وغدٌ ووعدٌ للمطيعين والمجرمين. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ حَمْدَ عَسَقِ كَانَ مَمَّنْ تَصَلَّى عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْتَرْحِمُونَ لَهُ»^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسنادهما إلى أبي بن كعب - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٤٦ رقم ٣٦٥) -. وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ
أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا
وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ﴿٩﴾

سورة الزخرف مكية^(١)

وقيل إلا قوله: ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾^(٢) وأيها تسع وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربيًّا، وهو من البدائع لتناسب القسم
والمقسم عليه، كقول أبي تمام: وَثَنَايَاكَ أَنَّهَا أَغْرِيضُ. ولعلَّ إقسام الله بالأشياء استشهادًا بما فيها من
الدلالة على المقسم عليه، وبالقرآن من حيث إنه معجزٌ مبينٌ لطريق الهدى وما يُخْتَأَجُ إليه في الديانة،
أو بيِّنٌ للعرب ما يدل على أنه تعالى صَبَّره كذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

(٤) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ عطفٌ على إنا، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر على الاستئناف. ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ في

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣٠١/٧): «وهي مكية بإجماعهم. وقال مقاتل: هي مكية إلا آية وهي قوله: «واسأل من أرسلنا» [الزخرف: ٤٥].

(٢) الزخرف: «٤٥».

اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية، وقرئ إم الكتاب بالكسر. ﴿لَدَيْنَا﴾ محفوظاً عندنا عن التغيير. ﴿لَعَلَّيْ﴾ رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغوة، أو محكم لا ينسخه غيره. وهما خبران لأن وفي «أم الكتاب» متعلق بعليّ واللام لا تمنعه، أو حال منه ولدينا بدل منه أو حال من أم الكتاب.

(٥) ﴿أَفَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أفنذوده ونبعذه عنكم مجازاً من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض، قال طرفة^(١):

اضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسِ الْفَرَسِ

والفاء للعطف على محذوف أي أنهملكم فنضرب عنكم الذكر، وصفحاً مصدر من غير لفظه فإن تنحية الذكر عنهم إعراض أو مفعول له أو حال بمعنى صافحين، وأصله أن ثولي الشيء صفحة عُنُقِكَ. وقيل إنه بمعنى الجانب فيكون ظرفاً ويؤيده أنه قرئ صفحاً بالضم، وحيثئذ يُحْتَمَلُ أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح بمعنى صافحين، والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه. ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا تُسْرِفُونَ﴾ أي لأن كنتم، وهو في الحقيقة علة مقتضية لتريك الإعراض عنهم، وقرأ نافع وحمزة والكسائي إن بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك استجهاً لهم، وما قبلها دليل الجراء.

(٦) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾.

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي من القوم المفسرين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى الرسول مخبراً عنهم. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ وسلف في القرآن قصتهم العجيبة، وفيه وعد للرسول ووعد لهم بمثل ما جرى على الأولين.

(٩) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لعله لازم مقولهم أو ما دل عليه إجمالاً أقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجّة عليهم، فكانهم قالوا الله كما حكى عنهم في مواضع آخر وهو الذي من صفته ما سرد من الصفات، ويجوز أن يكون مقولهم وما بعده استئنافاً.

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو. شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين نحو (٨٦ - ٦٠ ق هـ = ٥٣٨ - ٥٦٤ م) وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه.

ثم أرسله بكتاب إلى المكعب (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعب، شاباً، في (هجر) قيل: ابن عشرين عاماً، وقيل ابن ست وعشرين، أشهر شعره معلقته، ومطلعها:

(لخولة أطلال ببرقة نهد)

وقد شرحها كثيرون من العلماء. وجمع المحفوظ من شعره في «ديوان» مطبوع.

[الأعلام للزركلي (٣/٢٢٥)].

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتستقرون فيها وقرا غير الكوفيون مهاداً بالالف.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك.

(١١) ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ بمقدار ينفع ولا يضر. ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ مال عنه النماء، وتذكيره لأن البلدة بمعنى البلد والمكان^(١). ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإنشار. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تُنْشَرُونَ من قبوركم، وقرا ابن عامر وحمزة والكسائي تُخْرَجُونَ بفتح التاء وضمّ الراء.

(١٢) ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أصناف المخلوقات. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ما تركبونه على تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره إذ يقال: ركب الدابة وركب في السفينة، أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال:

(١٣) ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي ظهور ما تركبون، وجمعه للمعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكروها بقلوبكم معترفين بها حامدين عليها. ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين من أقرن الشيء إذا أطاقه، وأصله وجده قرينته إذ الصعب لا يكون قرينة الضعيف. وقرىء بالتشديد والمعنى واحد. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله» فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كل حال سبحانه الذي سخر لنا هذا»^(٢) إلى قوله:

(١٤) ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، واتصاله بذلك لأن الركوب للتنقل، والنقلة العظمى هو

(١) والالفت إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره (س/٨/٤١).

(٢) وهو حديث صحيح.

أخرجه أبو داود (٣/٧٧ رقم ٢٦٠٢) والترمذي (٥/٥٨ رقم ٣٤٤٦) والنسائي كما في تحفة الأشراف (٧/٤٣٦ رقم ١٠٢٤٨) وابن حبان (ص ٥٩١ رقم ٢٣٨٠ و ٢٣٨١) والحاكم (٢/٩١ - ٩٢) وأحمد (١/٩٧، ١٢٨) والطيالسي في المسند (ص ٢٠ رقم ١٣٢).

كلهم من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن علي بن ربيعة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو الأحوص فقد أخرج الشيخان من طريقه عن أبي إسحاق. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الشيخ أحمد شاكر في المسند (رقم: ٧٥٣).

إسناده صحيح.

وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

الانقلاب إلى الله تعالى، أو لأنه مخطرٌ فينبغي للراكب أن لا يغفل عنه ويستعدَّ للقاء الله تعالى.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِشَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصلٌ بقوله ﴿ولئن سألتهم﴾ أي وقد جعلوا له بعد ذلك الاعتراف من عباده ولدًا فقالوا الملائكة بناتُ الله، ولعله سمَّاه جزأً كما سُمِّي بعضاً لأنه بضعةٌ من الوالد دلالةٌ على استحالةِ على الواحدِ الحقِّ في ذاته، وقرأ أبو بكر جزأً بضمّتين. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرُ الكفرانِ ومن ذلك نسبةُ الولدِ إلى الله لأنها من فَرْطِ الجهلِ به والتحقيرِ لشأنه.

(١٦) ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ معنى الهمزة في أم للإنكارِ والتعجب من شأنهم حيث لم يقنعوا بأن جعلوا له جزءاً حتى جعلوا له من مخلوقاته أجزاءً أحسنَّ مما اختيرَ لهم وأبغضُ الأشياءِ إليهم، بحيث إذا بُشِّرَ أحدهم بها اشتدَّ غمُّه به كما قال.

(١٧) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً إذ الولد لا بدَّ وأن يماثلَ الوالد^(١). ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ صار وجهه أسودَّ في الغاية لما يعتريه من الكآبة. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوءٌ قلبه من الكرب، وفي ذلك دلالاتٌ على فساد ما قالوه، وتعريفُ البنين بما مرَّ في الذكور^(٢)، وقرئ مسودَّ ومسودَّ على أنَّ في ظلِّ ضميرِ المبشِّرِ ووجهه مسودَّ جملةً وقعت خبراً.

(١٨) ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ﴾ أي أو جعلوا له، أو اتخذ مَنْ يتربَّى في الزينة يعني البنات. ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ في المجادلة. ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ مقررٌ لما يدَّعيه من نقصانِ العقل وضعفِ الرأي، ويجوز أن يكون مَنْ مبتدأٌ محذوفُ الخبر أي أو من هذا حالةٌ ولده. وفي الخصام متعلِّقٌ بمبين، وإضافةٌ غيرُ إليه لا يمنعه لما عرفت. وقرأ حمزة والكسائي وحفصٌ يُنشَأُ أي يُربَّى. وقرئ يُنشَأُ ويُنشَأُ بمعناه ونظيرُ ذلك أعلاه وعلاه وعالاه بمعنى.

(١٩) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِشَاءً﴾ كفر آخرُ تضمَّنه مقالهم شنعَ به عليهم، وهو جعلهم أكملَ العبادِ وأكرمهم على الله تعالى أنقصهم رأياً وأخسهم صنفاً. وقرئ عبيدٌ، وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوبٌ عندَ على تمثيل زلفاهم. وقرئ أنثاء وهو جمعُ الجمع. ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ أحضروا خلقَ الله إياهم فشاهدوهم إنثاءً، فإنَّ ذلك مما يُعلمُ بالمشاهدة وهو تجهيلٌ وتهكُّمٌ به. وقرأ نافعٌ أشهدوا بهمة الاستفهام وهمزة مضمومة بينَ بين، وأشهدوا بمدَّةً بينهما. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة. ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ أي عنها يومَ القيامة، وهو وعيدٌ شديد. وقرئ

(١) والالتفات إلى الغيبة للإيدان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكى لغيرهم تعجيباً منها (س/٨/٤٢).

(٢) مر في سورة الشورى آية (٤٩ - ٥٠).

سَيُكْتَبُ وَسَيُكْتَبُ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ، وشهاداتهم وهي أَنَّ لله جزءٌ أو أَنَّ له بناتٍ وهنَّ الملائكةُ، ويُساءلون مِن المسألة.

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنَيْنَافُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانظُرْنَا مِنهُمْ فَأَنظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٠) ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي لو شاء عدم عبادة الملائكة ما عبدناهم فاستدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها أو على حُسْنِهَا، وذلك باطلٌ لأن المشيئة ترجح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منهيّاً حسناً كان أو غيره، ولذلك جهلهم فقال: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتمحلون تمحلاً باطلاً، ويجوز أن تكون الإشارة إلى أصل الدعوى كأنه لما أبدى وجوه فسادها وحكى شبهتهم المزيّفة نفى أن يكون لهم بها علمٌ من طريق العقل، ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سندٌ من جهة النقل فقال:

(٢١) ﴿أَمْ أَنَيْنَافُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن أو أدعائهم ينطق على صحة ما قالوه. ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ بذلك الكتاب متمسكون.

(٢٢) ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهالة، والأمة الطريقة التي تؤمُّ كالراحلة للمرحول إليه، وقرئت بالكسر وهي الحالة التي يكون عليها الأم أي القاصد ومنها الدئير.

(٢٣) ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ تسليّة لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلالٌ قديم، وأن مقدّمهم أيضاً لم يكن لهم سندٌ منظور إليه، وتخصيص المترفين إشعاراً بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد.

(٢٤) ﴿قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي أتبعون آباءكم ولو جئتمكم بدين أهدى من دين آبائكم، وهي حكاية أمر ماضٍ أوحى إلى النذير، أو خطابٌ لرسول الله ﷺ، ويؤيد الأول أنه قرأ ابنُ عامر وحفص قال، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي وإن كان أهدى إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه.

(٢٥) ﴿فَانظُرْنَا مِنهُمْ﴾ بالاستئصال. ﴿فَانظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ولا تكثر بتكذيبهم.

(٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكُرْ وقت قوله هذا ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل، أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بُدٌّ من التقليد فإنه أشرف آبائهم. ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بريء من

عبادتكم أو معبودكم، مصدرٌ نُعتَ به ولذلك استوى فيه الواحدُ والمتعددُ والمذكرُ والمؤنثُ، وقرىءَ بريءٌ وبراءٌ ككريمٍ وكِرامٍ.

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُمْ سَيَّهَدِينَ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٧) ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع أو متصل على أنَّ ما يعمُّ أولي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام والأوثان، أو صفة على أنَّ ما موصوفة أي إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني. ﴿فَإِنَّهُمْ سَيَّهَدِينَ﴾ سيثبتني على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراء ما هداني إليه.

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو الله كلمة التوحيد. ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى توحيده. وقرىء كلمة وفي عقبه على التخفيف، وفي عاقبه أي فيمن عقبه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك بدعاء من وحد.

(٢٩) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ هؤلاء المعاصرين للرسول ﷺ من قريش وآباءهم بالمد في العمر والنعمة، فاغتروا لذلك وانهمكوا في الشهوات. وقرىء مَتَّعْتُ بالفتح على أنه تعالى اعترض به على ذاته في قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ مبالغة في تعبيرهم. ﴿حَقَّقَ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ دعوة التوحيد أو القرآن. ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة بما له من المعجزات، أو مبين للتوحيد بالحجج والآيات.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ لينبئهم عن غفلتهم ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ زادوا شرارة فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به، فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحققوا الرسول.

(٣١) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ من إحدى القريتين مكة والطائف. ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاء والمال كالوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم، ولم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية، لا الترخف بالزخارف الدنيوية.

(٣٢) ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجب من تحكّمهم، والمراد بالرحمة النبوة. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهم عاجزون عن تدبيرها وهي خويصة أمرهم في دنياهم، فمن أين لهم أن يذنبوا أمر النبوة التي هي أعلى المراتب الأنسية، وإطلاق المعيشة يقتضي أن يكون حلالها وحرامها من الله. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وأوقفنا بينهم التفاوت في الرزق وغيره. ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِرِيًّا﴾ ليستعمل بعضهم بعضاً في حوائجهم فيحصل بينهم تآلف وتضام ينتظم بذلك نظام العالم، لا لكمال في الموسع ولا لنقص في المقتر، ثم إنه لا اعتراض لهم علينا في ذلك ولا تصرف

فكيف يكون فيما هو أعلى منه. ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ يعني هذه النبوة وما يتبعها. ﴿حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، والعظيم مَنْ رَزَقَ منها لا مِنْهُ.

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾

(٣٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لولا أن يرغبوا في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا فيجتمعوا عليه. ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعد جمع معراج، وقرىء ومعارج جمع معراج. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلون السطوح لحقارة الدنيا، ولبيوتهم بدل مِنْ لِمَنْ بدل الاشتمال أو على كقولك: وهبت له ثوباً لقميصه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسقفاً اكتفاءً بجمع البيوت، وقرىء سقفاً بالتخفيف، وسقوفاً وسقفاً وهي لغة في سقفاً.

(٣٤) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُ﴾ أي أبواباً وسُروراً من فضة.

(٣٥) ﴿وَزُخْرَفًا﴾ وزينة عطف على سقفاً أو ذهباً عطف على محل من فضة ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إن هي المخففة واللام هي الفارقة. وقرأ عاصم وحزمة وهشام بخلاف عنه لما بالتشديد بمعنى إلا وإن نافية، وقرىء به مع إن وما ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي، وفيه دلالة على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا، وإشعار بما لأجله لم يجعل ذلك للمؤمنين حتى يجتمع الناس على الإيمان، وهو أنه تمتع قليل بالإضافة إلى ما لهم في الآخرة مخل به في الأغلب لما فيه من الآفات قل مَنْ يتخلص عنها كما أشار إليه بقوله:

(٣٦) ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات، وقرىء يعيش بالفتح أي يغم يغمر إذا كان في بصره آفة وعشي إذا تعشى بلا آفة كعرج وعرج، وقرىء يعيشو على أن مَنْ موصولة^(١). ﴿نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يوسوسه ويغويه دائماً، وقرأ يعقوب بالياء على إسناده إلى ضمير الرحمن، وَمَنْ رفع يعيشو ينبغي أن يرفع نقيض.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن الطريق الذي من حقه أن يُسَبَّلَ، وجمع الضميرين للمعني إذ المراد جنس العاشي والشیطان المقيض له. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الضمائر الثلاثة الأول له والباقيان للشيطان.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي العاشي، وقرأ الحجازيان وابن عامر وأبو بكر جآنا أي العاشي

(١) إضافة الذكر إلى اسم الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين (س/٨/٤٧).

والشيطان. ﴿قَالَ﴾ أي العاشي للشيطان. ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بَعْدَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَنَلَبَّ الْمَشْرِقَ وَتَوَّي وَأُضِيفَ الْبَعْدُ إِلَيْهِمَا. ﴿فَيَسَّ الْقَرَيْنُ﴾ أَنْتَ.

وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

(٣٩) ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي ما أنتم عليه من التمني. ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ إِذْ صَحَّ أَنْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الدُّنْيَا بَدَلُ مِنَ الْيَوْمِ. ﴿أَنْكُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾ لِأَنَّ حَقَّكُمْ أَنْ تَشْرِكُوا أَنْتُمْ وَشِيَاطِينَكُمْ فِي الْعَذَابِ كَمَا كُنْتُمْ مُشْرِكِينَ فِي سَبَبِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُسْنَدَ الْفِعْلُ إِلَيْهِ بِمَعْنَى: وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ اشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ كَمَا يَنْفَعُ الْوَاقِعِينَ فِي أَمْرِ صَعِبٍ مُعَاوَنَتُهُمْ فِي تَحْمِلِ أَعْيَانِهِ وَتَقْسِمُهُمْ لِمُكَابَدَةِ عَنَائِهِ، إِذْ لِكُلِّ مِنْكُمْ مَا لَا تَسْعُهُ طَاقَتُهُ. وَقُرِئَ إِنَّكُمْ بِالْكَسْرِ وَهُوَ يَقْوَى الْأَوَّلَ.

(٤٠) ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى﴾ إنكار وتعجب من أن تحمل هو الذي يقدر على هدايتهم بعد تمزقهم على الكفر واستغراقهم في الضلال بحيث صار عَشَاهُمْ عَمَى مَقْرُونًا بِالصَّمِّ. كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْعِبُ نَفْسَهُ فِي دَعَاءِ قَوْمِهِ وَهُمْ لَا يَزِيدُونَ إِلَّا غَيًّا، فَنَزَلَتْ. ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْعَمَى بِاعْتِبَارِ تَغَايُرِ الْوَصْفَيْنِ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْمَوْجِبَ لِذَلِكَ تَمَكُّنُهُمْ فِي ضَلَالٍ لَا يَخْفَى.

(٤١) ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فَإِنْ قَبَضْنَاكَ قَبْلَ أَنْ نَبْصُرَكَ عَذَابَهُمْ، وَمَا مَزِيدُهُ مُؤَكَّدَةٌ بِمَنْزِلَةِ لَامِ الْقِسْمِ فِي اسْتِجْلَابِ النُّونِ الْمُؤَكَّدَةِ ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(٤٢) ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أَوْ إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نُرِيَنَّكَ مَا وَعَدْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَقُرِئَ يَعْقُوبُ بِرَوَايَةِ رُوَيْسٍ أَوْ نُرِيَنَّكَ بِإِسْكَانِ النُّونِ وَكَذَا نَذْهَبَنَّ. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ لَا يَفُوتُونَنَا.

(٤٣) ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الْآيَاتِ وَالشَّرَائِعِ، وَقُرِئَ أَوْحَى عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى. ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لَا عُوجَ لَهُ.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ﴾ لَشَرَفٍ لَكَ. ﴿وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ إِي عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَنْ قِيَامِكُمْ بِحَقِّهِ.

(٤٥) ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أَيِ وَاسْأَلِ أَمَمَهُمْ وَعُلَمَاءَ دِينِهِمْ، وَقُرِئَ ابْنُ كَثِيرٍ وَالْكَسَائِيُّ بِتَخْفِيفِ الْهَمْزَةِ. ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ هَلْ حَكَمْنَا بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهَلْ جَاءَتْ فِي مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْإِسْتِشْهَادُ بِإِجْمَاعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالِدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِبَدْعٍ ابْتَدَعَهُ فَيَكْذِبُ وَيُعَادِي لَهُ، فَإِنَّهُ كَانَ أَقْوَى مَا حَمَلَهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْمُخَالَفَةِ.

(٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَرِيدُ

بإقتصاصه^(١) تسليّة رسول الله ﷺ ومناقضة قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢) والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد ليتأملوا فيها.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ آلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾

(٤٧) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فاجزؤا وقت ضحكهم منها، أو استهزؤا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.

(٤٨) ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا هي بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات، والمراد وصف الكلّ بالكبر كقولك: رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض، وكقوله:

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ لَأَقِيتُ سَيِّدَهُمْ مثلُ التُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

أو إلا وهي مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار. ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالسنين والطوفان والجراد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على وجه يُزجى رجوعهم.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ﴾ نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيمتهم وفزط حماقتهم، أو لأنهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحراً. وقرأ ابن عامر بضمّ الهاء ﴿أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ﴾ فيكشف عنا العذاب. ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ بعهده عندك من النبوة، أو من أن يستجيب دعوتك، أو أن يكشف العذاب عمّن اهتدى، أو بما عهد عندك فوِّقْتَ به وهو الإيمان والطاعة. ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ فاجزؤا نكث عهدهم بالاهتداء.

(٥١) ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه. ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ في مجموعهم أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمن بعضهم. ﴿قَالَ يَبْقَوْمِ آلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ تحت قصري أو أمري، أو بين يدي في جناني. والواو إما عاطفة لهذه الأنهار على الملك وتجري حال منها، أو واو حالٍ وهذه مبتدأ والأنهار صفتها وتجري خبرها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة. ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرياسة، من المهانة وهي القلة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما به من الرتبة فكيف يصلح للرسالة، وأم إما

(١) بقصّ خبره.

(٢) الزخرف: ٣١١.

منقطعة والهمزة فيها للتقرير إذ قدّم من أسباب فضله، أو متصلةً على إقامة المسبّب مقام السبب. والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون فتعلمون أني خيرٌ منه.

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ۖ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

(٥٣) ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي فهلاًّ أُلقي عليه مقاليد الملك إن كان صادقاً، إذ كانوا إذا سؤدوا رجلاً سؤروه وطوّقوه بسوارٍ وطوقٍ من ذهب، وأساوره جمع أسوارٍ بمعنى السوارِ على تعويض التاء من ياء أساوير، وقد قرئ به. وقرأ يعقوب وحفص أسورة وهي جمع سوارٍ، وقرئ أساور جمع أسورة؛ وأُلقي عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقرن، أو متقارنين من اقرن بمعنى تقارن.

(٥٤) ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فطلب منهم الخفة في مطاوعته أو فاستخف أحلامهم. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق.

(٥٥) ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان منقول من أسف إذا اشتد غضبه. ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليوم.

(٥٦) ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم، مصدر نعت به أو جمع سالف كخادم وخادم. وقرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام جمع سليف كرغف ورغيف أو سالف كصبر جمع صابر أو سلف كخشب، وقرئ سلفاً بإبدال ضمة اللام فتحة أو على أنه جمع سلفة أي ثلة قد سلفت. ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ وعظة لهم أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال لهم فيقال: مثلكم مثل قوم فرعون.

(٥٧) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه ابن الزبعرى لما جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^(١) أو غيره بأن قال النصارى أهل كتاب وهم يعبدون عيسى عليه السلام ويزعمون أنه ابن الله والملائكة أولى بذلك، أو على قوله تعالى ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾^(٢) أو أن محمداً يريد أن نعبده كما عبد المسيح. ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ في قریش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثل. ﴿يَصِدُّونَ﴾ يضجون فرحاً لظنهم أن الرسول ﷺ صار ملزماً به. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالضم من الصدود أي يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل هما لغتان نحو يعكف ويعكف.

(١) الأنبياء: «٩٨».

(٢) الزخرف: «٤٥».

وَقَالُوا أَلَهْتْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِّلْسَاعَةِ فَلَا تَمْتَرُكْ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَقَالُوا أَلَهْتْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي آلهتنا خيرٌ عندك أم عيسى عليه السلام فإن يكن في النار فتلكن آلهتنا معه، أو آلهتنا الملائكة خيرٌ أم عيسى عليه السلام فإذا أجاز أن يُعبدَ ويكونَ ابنُ الله كانَتْ آلهتنا أولى بذلك، أو آلهتنا خيرٌ أم محمدٌ ﷺ فنعبده وندعُ آلهتنا. وقرأ الكوفيون آلهتنا بتحقيق الهمزتين وألفٌ بعدهما. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدْلِ والخصومة لا لتمييز الحق من الباطل. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شدادُ الخصومة حراسٌ على اللجاج.

(٥٩) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة. ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائر لبني إسرائيل، وهو كالجواب المزيج لتلك الشبهة.

(٦٠) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ لو لدنا منكم يا رجال كما ولدنا عيسى من غير أب، أو لجعلنا بدلَكُمْ. ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ملائكةٌ يخلقونكم في الأرض، والمعنى أنَّ حالَ عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبةً فإنه تعالى قادرٌ على ما هو أعجبُ من ذلك، وأنَّ الملائكةَ مثلكم من حيث إنها ذواتٌ ممكنةٌ يحتملُ خلقُها توليداً كما جاز خلقُها إبداعاً، فمن أين لهم استحقاقُ الألوهية والانتسابُ إلى الله سبحانه وتعالى.

(٦١) ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنَّ عيسى عليه السلام. ﴿لَعِلْمٌ لِّلْسَاعَةِ﴾ لأنَّ حدوثه أو نزوله من أشراطِ الساعة يُعلمُ به دنؤها، أو لأن إحياء الموتى يدلُّ على قدرة الله تعالى عليه. وقرئ لعلمٌ أي لعلامةٌ ولذكرٌ على تسمية ما يذكر به ذكراً، وفي الحديث «ينزلُ عيسى عليه السلام على ثنية بالارض المقدسة يُقالُ لها أفيقٌ ويده حربةٌ يقتلُ بها الدجالَ، فيأتي بيتَ المقدس والناسُ في صلاة الصبح فيتأخَّرُ الإمام فيقدمه عيسى عليه الصلاة والسلام ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتلُ الخنازيرَ ويكسرُ الصليبَ، ويخربُ البيعَ والكنائسَ، ويقتلُ النصارى إلا من آمن به^(١). وقيل الضميرُ للقرآن فإنَّ فيه الإعلامَ بالساعة والدلالة عليها. ﴿فَلَا تَمْتَرُكْ بِهَا﴾ فلا تشكَّنَّ فيها. ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٤٧ رقم ٣٧٣): «أخرجه - الثعلبي بغير سند. وهو موجود في أحاديث متفرقة.

فقوله: «ثنية أفيق» عند الحاكم - (٤/٤٧٨) - من حديث عثمان بن أبي العاص.

و

وقوله: «وعليه ممصرتان» عند أحمد - (٤٠٦/٢) - والحاكم من حديث أبي هريرة.

وقوله: «والناس في صلاة الصبح» عند ابن ماجه - (٢/١٣٥٩ رقم ٤٠٧٧) من حديث أبي أمامة.

وقوله: «فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب» في «الصحيح» - البخاري (٤/٤١٤ رقم ٢٢٢٢) ومسلم (١/١٣٥ - ١٣٧ رقم ١٥٥) - من حديث «أبي هريرة» هـ.

هَدَايَ أَوْ شَرْعِي أَوْ رَسُولِي. وَقِيلَ هُوَ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ أَمَرَ أَنْ يَقُولَهُ. ﴿هَذَا﴾ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ. ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لَا يَضِلُّ سَالِكُهُ.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ بِنِعَادٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن المتابعة. ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ثابتٌ عداوته بأن أخرجكم عن الجنة وعرضكم للبلية.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحات. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشرعة. ﴿وَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلق بأمر الدنيا، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يُبعثوا لبيانه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١). ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أبلغه عنه.

(٦٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبُّد بالشرائع. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمور وهو تمتة كلام عيسى عليه الصلاة والسلام، أو استئناف من الله تعالى يدل على ما هو مقتضي للطاعة في ذلك.

(٦٥) ﴿فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفِرَقُ المتحزبة. ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصاري أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث إليهم. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المتحزبين ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ﴾ هو القيامة.

(٦٦) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو للذين ظلموا. ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غافلون عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارهم لها.

(٦٧) ﴿الْأَخِلَاءُ﴾ الأحياء. ﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادون يومئذ لانقطاع العلق لظهور ما كانوا يتخالون له سبباً للعذاب. ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فَإِنَّ خِلَتَهُمْ لَمَّا كَانَتْ فِي اللَّهِ تَبْقَى نَافِعَةً أَبَدَ الْآبَادِ.

(٦٨) ﴿بِنِعَادٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكاية لما يُنادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بغير الياء.

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٦/٤) رقم (٢٣٦٣/١٤١) من طريق حماد بن سلمة عن هشام عن عروة عن عائشة وعن ثابت عن أنس؛ قالوا: إن النبي ﷺ مرَّ بقوم يلحقون. فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شيباً. فمرَّ بهم فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَآثِئُهُم مِّنَ الْأَنْفُسِ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْهِ تَارُتُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مِّنْكَثُونَ ﴿٧٧﴾

(٦٩) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ صفة المنادي. ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حال من الواو أي الذين آمنوا مخلصين، غير أن هذه العبارة أكد وأبلغ.

(٧٠) ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ نساؤكم المؤمنات. ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسَرُّون سروراً يظهر حباؤه أي أثره على وجوهكم، أو تزيّنون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً يُبَالِغُ فيه، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الصحف جمع صحفة، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له. ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَآثِئُهُم مِّنَ الْأَنْفُسِ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وحفص تشتبه الأنفس على الأصل. ﴿وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته وذلك تعميم بعد تخصيص ما يُعَدُّ من الزوائد في التثنم والتلذذ. ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فَإِنَّ كُلَّ نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر في ثاني الحال.

(٧٢) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ ورثتموها، شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه عليه العامل، وتلك إشارة إلى الجنة المذكورة وقعت مبتدأ والجنة خبرها، والتي أورثتموها صفتها أو الجنة صفة تلك والتي خبرها أو صفة الجنة والخبر بما كنتم تعملون، وعليه يتعلّق الباء بمحذوف لا بأورثتموها.

(٧٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بعضها تأكلون لكثرتها ودوام نوعها، ولعلّ تفصيل التثنم بالمطاعم والملابس وتكريره في القرآن وهو حقير بالإضافة إلى سائر نعيم الجنة لما كان بهم من الشدة والفاقة.

(٧٤) ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكاملين في الإجرام وهم الكفار لأنه جعل قسيم المؤمنين بالآيات، وحكى عنهم ما يخصّ بالكفار. ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبر إن أو خالدون خبر والظرف متعلّق به.

(٧٥) ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً والتركيب للضعف. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة.

(٧٦) ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ مر مثله غير مرّة وهم فصل.

(٧٧) ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ﴾ وقرئ يا مال على الترخيم مكسوراً ومضموماً، ولعله إشعار بأنهم لضعفهم لا يستطيعون تأدية اللفظ بالتمام ولذلك اختصروا فقالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْهِ تَارُتُكَ﴾ والمعنى سل ربنا أن يقضي

علينا من قضى عليه إذا أماته، وهو لا ينافي بإبلاسهما فإنه جَوَّازٌ وتمنُّ للموت من فزط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مُنْكَثُونَ﴾ لا خلاصَ لكم بموتٍ ولا بغيره.

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزال، وهو تنمة الجواب إن كان في قال ضميرُ الله وإلا فجوابٌ منه فكانه تعالى تولى جوابهم بعد جواب مالك. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ لما في اتباعه من إتعاب النفس وآداب الجوارح.

(٧٩) ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ في تكذيب الحق وردّه ولم يقتصروا على كراهته. ﴿فَأِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أمراً في مجازاتهم. والعدول عن الخطاب للإشعار بأن ذلك أسوأ من كراهتهم، أو أم أحكم المشركون أمراً من كيدهم بالرسول فإننا مبرمون كيدنا بهم، ويؤيده قوله:

(٨٠) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديث أنفسهم بذلك. ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وتناجيهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما. ﴿وَرُسُلُنَا﴾ والحفظة مع ذلك. ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمة لهم. ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

(٨١) ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ منكم فإن النبي ﷺ يكون أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح له، وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن تعظيم الوالد تعظيم ولده، ولا يلزم من ذلك صحة كبنوة الولد وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفياً على أبلغ الوجوه كقوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١) غير أن «لو» ثم مشعرة بانتفاء الطرفين، وإن ههنا لا تشعر به ولا بنقيضه فإنها لمجرد الشريطة، بل الانتفاء معلوم لانتهاء الدال على انتفاء ملزومه، والدلالة على أن إنكاره الولد ليس لعناد ومراء بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به. وقيل معناه إن كان له ولدٌ في زعمكم فأنا أول العابدين لله الموحدين له أو الأنفين منه، أو من أن يكون له ولدٌ من عبدٍ يعبد إذا اشتد أنفه، أو ما كان له ولدٌ فأنا أول الموحدين من أهل مكة. وقرأ حمزة والكسائي وُلْدٌ بالضم وسكون اللام.

(٨٢) ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن كونه ذا ولدٍ فإن هذه الأجسام لكونها أصولاً ذات استمرار تبرزت عما يتصف به سائر الأجسام من توليد المثل، فما ظنك بمبدعها وخالقها.

(٨٣) ﴿فَذَرَهُمْ يَحْضُوا﴾ في باطلهم. ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم. ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي يوم القيامة، وهو دلالة على أن قولهم هذا جهلٌ واتباعٌ هوى، وإنهم مطبوعٌ على قلوبهم معذبون في الآخرة.

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهْمُ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ
شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّا
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٤) ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ مستحق لأن يُعْبَدَ فيهما، والظرف متعلق به لأنه
بمعنى المعبود أو متضمنٌ معناه كقولك: هو حاتمٌ في البلد، وكذا فيمن قرأ الله والراجع مبتدأ
محذوفٌ لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه، ولا يجوز جعله خبراً له لأنه لا يبقى له عائدٌ لكن
لو جُعِلَ صلةٌ وقُدِّرَ الإلهُ مبتدأً محذوفٌ يكون به جملةٌ مبنيةٌ للصلة دالةٌ على أن كونه في السماء بمعنى
الألوهية دون الاستقرار، وفيه نفى الألوهة السماوية والأرضية واختصاصه باستحقاق الألوهية. ﴿ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ كالدليل عليه.

(٨٥) ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهْمُ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كالهواء. ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ العلم بالساعة التي
تقوم القيامة فيها. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصمٌ وروُحٌ بالتاء
على الالتفات للتهديد.

(٨٦) ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ ﴾ كما زعموا أنهم شفعاءهم عند الله. ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ
بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بالتوحيد، والاستثناء متصلٌ إن أُريدَ بالموصول كلُّ ما عُبِدَ من دون الله لاندرج
الملائكة والمسيح فيه، ومنفصلٌ إن خُصَّ بالأصنام.

(٨٧) ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ﴾ سألت العابدين أو المعبودين. ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لتعذير المكابرة فيه من
قَرِطِ ظهوره ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ يُضَرَفُونَ عن عبادته إلى عبادة غيره.

(٨٨) ﴿ وَقِيلَ لَهُ ﴾ وقول الرسول ونصبه للعطف على سرهم، أو على محل الساعة أو لإضمار فعله
أي وقال قبله. وجزه عاصم وحزمة عطفاً على الساعة، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره. ﴿ يَرْبِّ إِنَّا
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أو معطوفٌ على علم الساعة بتقدير مضاف. وقيل هو قسمٌ منصوبٌ بحذف الجار
أو مجرورٌ بإضماره، أو مرفوعٌ بتقدير وقيله يا ربِّ قسمي، وإن هؤلاء جوابه.

(٨٩) ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم. ﴿ وَقُلْ سَلِّمْ ﴾ تسلّم منكم ومتاركةً.
﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تسليّة للرسول ﷺ وتهديدٌ لهم، وقرأ نافع وابن عامر بالتاء على أنه من المأمور بقوله.
عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يُقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم
ولا أنتم تحزنون»^(١).

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٤٧ رقم ٣٧٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۚ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۚ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۚ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۚ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۚ

سورة الدخان مكية^(١)

إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾^(٢) الآية، وهي سبع أو تسع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حَمِّ﴾.

(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ القرآن والواو للعطف إن كان حم مقسماً به وإلا فللقسم والجواب قوله:

(٣) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ ليلة القدر، أو البراءة^(٣) ابتدئ فيها إنزاله، أو أنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أنزل على الرسول ﷺ نجوماً وبركتها لذلك، فإن نزول القرآن سبب للمنافع الدينية والدنيوية، أو لما فيها من نزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الأقضية. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف يبين المقتضى للإنزال وكذلك قوله:

(١) أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة (حم) الدخان وأخرج ابن مردويه، عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت بمكة سورة الدخان. «الدر المشثور» (٧/٣٩٧).

(٢) الدخان: «١٥».

(٣) ليلة البراءة هي ليلة النصف من شعبان (انظر روح المعاني ٢٥/١١٠).

(٤) ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فإن كونها مفرقة الأمور المحكمة أو الملتبسة بالحكمة يستدعي أن ينزل فيها القرآن الذي هو من عظامها، ويجوز أن يكون صفة ليلة مباركة وما بينهما اعتراض، وهو يدل على أن الليلة ليلة القدر لأنه صفتها لقوله ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ وقرئ يُفَرَّقُ بالتشديد، ويُفَرَّقُ كلُّ أي يفرقه الله، ويُفَرَّقُ بالنون.

(٥) ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو مزيد تفخيم للأمر، ويجوز أن يكون حالاً من كلٍّ أو أمر، أو ضميره المستكن في حكيم لأنه موصوف، وأن يكون المراد به مقابل النهي وقَعَ مصدرًا ليفرق أو لفعله مضمرًا من حيث إن الفرق به، أو حالاً من أحد ضميري أنزلناه بمعنى أمرين أو مأمورًا. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

(٦) ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بدلٌ من إنا كنّا منذرين أي أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل الرحمة عليهم، ووضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك، فإنه أعظم أنواع التربية أو علة ليفرق أو أمراً، ورحمة مفعولٌ به أي يفصل فيها كلُّ أمر أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من شأننا أن نرسل رحمتنا، فإن فضل كلُّ أمر من قسمة الأرزاق وغيرها وصدور الأوامر الإلهية من باب الرحمة. وقرئ رحمة على تلك رحمة. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم، وهو بما بعده تحقيق لربوبيته فإنها لا تحق إلا لمن هذه صفاته.

(٧) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خبر آخر أو استئناف. وقرأ الكوفيون بالجر بدلاً من ربك. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم، أو كنتم موقنين في إقراركم إذا سئلتهم من خلقها؟ فقلتم الله، علمتم أن الأمر كما قلنا، أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ كما تشهدون. ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ وقرئ بالجر بدلاً من ربك.

(٩) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ رد لكونهم موقنين.

(١٠) ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر لهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهية الدخان من ضعف بصره، أو لأن الهواء يظلم عام القحط لقلّة الأمطار وكثرة الغبار، أو لأن العرب تسمي الشرّ الغالب دخاناً وقد قحطوا حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها، وإسناد الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفه عن الأمطار، أو يوم ظهور الدخان المعدود في أسراط الساعة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال: «أول الآيات الدخان ونزول عيسى عليه السلام، وناز تخرج من قعر عدن أثنين تسوق الناس إلى المحشر» قيل وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية وقال: «يملا ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهية الزكام، وأما الكافر فهو

كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودُّبره^(١) أو يومَ القيامة والدخانُ يَحْتَمِلُ المعنيين .

يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

(١١) ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم صفةٌ للدخان وقوله ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

(١٢) ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مقدَّر بقولٍ وقع حالاً وإنا مؤمنون وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم .

(١٣) ﴿أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ من أين لهم وكيف يتذكرون بهذه الحالة . ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بيِّن لهم ما هو أعظمُ منها في إيجاب الإذكار من الآيات والمعجزات .

(١٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أي قال بعضهم يعلمه غلامٌ أعجمي لبعض ثقيف . وقال آخرون إنه مجنون .

(١٥) ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لما دعا رُفِعَ القحطُ ﴿قَلِيلًا﴾ كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم . ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى الكفر غبَّ الكشف، ومن فسَّر الدخان بما هو من الأشرار قال: إذا جاء الدخان غَوَتْ الكفار بالدعاء فيكشفه الله عنهم بعد الأربعين، فريثما يكشفه عنهم يرتدون، ومن فسَّره بما في القيامة أوَّله بالشرط والتقدير .

(١٦) ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ يوم القيامة أو يومَ بذرٍ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه . ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ لا لمنتقمون فإنَّ إنَّ تحجزه عنه، أو بدلٌ من يوم تأتي . وقرئ نبطشُ أي نجعلُ البطشة الكبرى باطشةً بهم، أو نحملُ الملائكة على بطشهم وهو التناول بصولة .

(١٧) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، أو أوقفناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم . وقرئ بالتشديد للتأكيد أو لكثرة القوم . ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرفٍ نسبه وفضلٍ حسبه .

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج ٢٥/١١٤) والبغوي في «معالم التنزيل» (٧/٢٣٠) من حديث حذيفة بن اليمان .

وقال ابن جرير: «... وإنما لم أشهد له بالصحة - أي الحديث - لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث، هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا، فقلت له: فقرأته عليه، فقال: لا، فقلت له: فقرئ عليّ عليه وأنت حاضر فأقرَّ به، قال: لا، فقلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني به قوم فعرضوه عليّ وقالوا لي: اسمعه منا فقرؤوه عليّ، ثم ذهبوا، فحدثوا به عني، أو كما قال؛ فلما ذكرت من ذلك لم أشهد له بالصحة...» هـ .

أَنْ أَدُّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرَعَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَرُزُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينِ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

(١٨) ﴿ أَنْ أَدُّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ ﴾ بأن أدوهم إليّ وأرسلوا معي، أو بأن أدوا إليّ حقّ الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله، ويجوز أن تكون أن مخففة ومفسرة لأنّ مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة. ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ غير متهم لدلالة المعجزات على صدقه، أو لائتمان الله إياه على وحيه وهو علّة الأمر.

(١٩) ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ ولا تتكبروا عليه بالاستهانة بوحيه ورسوله، وأن كالأولى في وجهيها. ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ﴾ علّة للنهي، ولذكر الأمين مع الأداء والسلطان مع العلاء شأن لا يخفى. (٢٠) ﴿ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ التجأت إليه وتوكلت عليه. ﴿ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتماً أو أن تقتلوني. وقرئ عُدْتُ بالإدغام فيه.

(٢١) ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْزِلُونِ ﴾ فكونوا بمعزلي مني لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا إليّ بسوء فإنه ليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم.

(٢٢) ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعدما كذبه. ﴿ أَنْ هَؤُلَاءَ ﴾ بأن هؤلاء ﴿ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سمّاه دعاء، وقرئ بالكسر على إضمار القول.

(٢٣) ﴿ فَأَسْرَعَ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ أي فقال أسر أو قال إن كان الأمر كذلك فأسر، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بوصل الهمزة من سَرَى ﴿ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم.

(٢٤) ﴿ وَاتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ولا تضربه بعصاك ولا تغيّز منه شيئاً ليدخله القبط ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وقرئ بالفتح بمعنى لأنهم.

(٢٥) ﴿ كَمْ تَرَكُوا ﴾ كثيراً تركوا. ﴿ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

(٢٦) ﴿ وَرُزُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ محافل مزينة ومنازل حسنة.

(٢٧) ﴿ وَنَعْمَ ﴾ وتنعم. ﴿ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينِ ﴾ متنعمين، وقرئ فكهين.

(٢٨) ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجناهم أو الأمر كذلك. ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ عطف على المقدّر أو على تركوا ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ليسوا منهم في شيء وهم بنو إسرائيل، وقيل غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مضر.

(٢٩) ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم كقولهم: بكث عليهم السماء والأرض وكسفت لمهلكهم الشمس في نقيض ذلك. ومنه ما روي في

الأخبار: إن المؤمن ليكي عليه مصلاه ومحل عبادته ومصعد عمله ومهبط رزقه^(١). وقيل تقديره فما بكت عليهم أهل السماء والأرض ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ ممهلين إلى وقت آخر.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَتْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٠) ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم.

(٣١) ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب على حذف المضاف، أو جعله عذاباً لإفراطه في التعذيب، أو حال من المهين بمعنى واقعاً من جهته، وقرئ من فرعون على الاستفهام تنكيراً له لنكر ما كان عليه من الشيطنة. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً. ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في العتو والشرارة، وهو خبر ثانٍ أي كان متكبراً مسرفاً، أو حال من الضمير في عالياً أي كان رفيع الطبقة من بينهم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بأنهم أحقاء بذلك، أو مع علم منا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالمي زمانهم.

(٣٣) ﴿وَءَايَتْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى. ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ نعمة جليلة أو اختبار ظاهر.

(٣٤) ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ يعني كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حل بهم. ﴿لَيَقُولُونَ﴾.

(٣٥) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزیلة للحياة الدنيوية، ولا قصد فيه إلى إثبات ثانية كما في قولك: حج زيد الحجة الأولى ومات. وقيل لما قيل إنكم تموتون موتة يعقبها حياة كما تقدم منكم موتة كذلك قالوا إن هي إلا موتتنا الأولى، أي ما الموتة التي من شأنها كذلك إلا الموتة الأولى. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين.

(٣٦) ﴿فَأَتَوْا بِآبَائِنَا﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم ليدل عليه.

(٣٧) ﴿أَهْمُ خَيْرٌ﴾ في القوة والمنعة. ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تبع الحميري الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند، وقيل هدمها وكان مؤمناً وقومه كافرين ولذلك ذمهم دونه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما أدري أكان تبع نبياً أم غير غير.....»

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٢٥/١٢٤ - ١٢٥) من ثلاثة طرق من حديث ابن عباس نحوه اثنان منها ضعيفان وأحدهما صحيح.

نبي^(١). وقيل لملوك اليمن التابعة لأنهم يتبعون كما قيل لهم الأقبال لأنهم يتقيلون. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ استئناف بمآل قوم تبع، والذين من قبلهم هدد به كفار قريش، أو حال بإضمار قد أو خبر من الموصول إن استؤنف به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ بيان للجامع المقتضي للإهلاك.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعَيْتَ^(٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ^(٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ^(٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ^(٤٣)

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وما بين الجنسين وقرىء وما بينهما ﴿لَعَيْتَ﴾ لا هين، وهو دليل على صحة الحشر كما مر في الأنبياء وغيرها.

(٣٩) ﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإيمان والطاعة، أو البعث والجزاء. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة نظرهم.

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ فصل الحق عن الباطل، أو المحق عن المبطول بالجزاء، أو فصل الرجل عن أقاربه وأحابئه. ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقرىء موعدهم. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وقرىء ميقاتهم بالنصب على أنه الاسم أي إن ميعاد جزائهم في يوم الفصل.

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ بدل من يوم الفصل أو صفة لميقاتهم، أو ظرف لما دل عليه الفصل لاله للفصل. ﴿مَوْلَى﴾ من قرابة أو غيرها. ﴿عَنْ مَوْلَى﴾ أي مولى كان. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لمولى الأول باعتبار المعنى لأنه عام.

(٤٢) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه، ومحله الرفع على البدل من الواو والنصب على الاستثناء. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا ينصر منه من أراد تعذيبه. ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه.

(٤٣) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ وقرىء بكسر الشين، ومعنى الزقوم سبق في الصفات^(٢).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافى» (ص ١٤٨ رقم ٣٨٧): «أخرجه - الثعلبي من طريق عبدالرزاق عن معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة بهذا.

والمعروف بهذا الإسناد «ما أدري ألعين هو أم لا، وما أدري أعزير نبي أم لا».

أخرجه أبو داود - (٥٤/٥ رقم ٤٦٧٤) - وكذا الحاكم - (٣٦/١) و(١٤/٢) و(٤٥٠/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي - لكن قال: ذو القرنين بدل «عزير».

قال الدارقطني تفرد به عبدالرزاق وغيره أرسله - هـ.

قلت: ووافق الحاكم والذهبي والألباني في «الصحيحة» (رقم: ٢٢١٧) والخلاصة أن الحديث صحيح. ولمزيد من البيان انظر «الصحيحة».

(٢) الزقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير زقم فلان وتزقم إذا ابتلع شيئاً كريهاً. (المفردات للراغب الأصفهاني ص ٢١٣).

طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ حُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ
الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ
هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

(٤٤) ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ الكثيرُ الآثام، والمرادُ به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه.

(٤٥) ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو ما يمهلُ في النار حتى يذوب. وقيل درديُّ الزيت^(١). ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾
وقرأ ابن كثير وحفصٌ ورويس بالياء على أن الضميرَ للطعام، أو الزقوم لا للمهل إذ الأظهر أن الجملةَ
حالٌ من أحدهما.

(٤٦) ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ غليانا مثلَ غَلِيهِ.

(٤٧) ﴿حُدُوهُ﴾ على إرادة القول، والمقولُ له الزبانية. ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ فجرؤوه، والعتلُ الأخذُ بمجامع
الشيء وجزؤه بقهر، وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوبُ بالضم وهما لغتان. ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾
وسطه.

(٤٨) ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كان أصله يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ فقليل
يُصَبُّ من فوق رؤوسهم عذابٌ هو الحميمُ للمبالغة، ثم أضيفَ العذابُ إلى الحميمِ للتخفيفِ وزيدٌ من
الدلالة على أن المصبوبَ بعضُ هذا النوع.

(٤٩) ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي وقولوا له ذلك استهزاءً به وتقريعاً على ما كان يزعمه،
وقرأ الكسائي أنك بالفتح أي ذق لأنك أو عذاب أنك.

(٥٠) ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إِنَّ هَذَا الْعَذَابَ ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تَشْكُونَ وتمارون فيه.

(٥١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ في موضع إقامة، وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم ﴿أَمِينٍ﴾ يأمنُ
صاحبه عن الآفة والانتقال.

(٥٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ﴾ بدلٌ من مقامٍ جيء به للدلالة على نزاهته، واشتماله على ما يُستلذُّ به
من المأكَل والمشارِب.

(٥٣) ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ من الضمير في الجارِّ أو استئناف، والسندسُ
مارقٌ من الحرير، والإستبرقُ ما غلظَ منه معرَّبٌ استبره، أو مشتقٌ من البراقة. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في
مجالسهم ليستأنسَ بعضهم ببعض.

(٥٤) ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمرُ كذلك أو آتيانهم مثل ذلك. ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ قرناهم بهنَّ ولذلك
عُدِّي بالباء، والهوراءُ البيضاءُ والعيناءُ عظيمةُ العينين، واختلفَ في أنهنَّ نساءُ الدنيا أو غيرها.

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ ءَامِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّاهُمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْزَقْهُمْ مِنْهُ مُّزِقَبُونَ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتخصَّصُ شيءٌ منها بمكان ولا بزمان. ﴿ءَامِينٍ﴾ من الضرر.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ بل يَخِيُونَ فيها دائماً، والاستثناء منقطع أو متصل والضمير للآخرة، والموت أول أحوالها، أو الجنة والمؤمن يشارفها بالموت ويشاهدها عنده فكانه فيها، أو الاستثناء للمبالغة في تعميم النفي وامتناع الموت فكانه قال: لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموت الأولى في المستقبل. ﴿وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وقرئ ووقَّاهم على المبالغة.

(٥٧) ﴿فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي أُعْطُوا كلَّ ذلك عطاءً وتفضلاً منه. وقرئ بالرفع أي ذلك فضل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاصٌ عن المكاره وفوزٌ بالمطالب.

(٥٨) ﴿إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه حيث أنزلناه بلغتك وهو فذلِكَ السورة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا.

(٥٩) ﴿فَأَرْزَقْهُمْ مِنْهُ مُّزِقَبُونَ﴾ فانتظر ما يحلُّ بهم. ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحلُّ بك. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ حَمَّ الدَّخَانِ لَيْلَةً جُمُعَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث ضعيف جداً.

أخرجه الترمذي (١٦٣/٥) رقم (٢٨٨٩) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٦٧٩) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقداد يضعف. ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد» هـ. وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٥/٥) رقم (٥٧٧٩): «ضعيف جداً» هـ.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَخِلَافِ أَلْبُلِّ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

سورة الجاثية مكية^(١) وأيتها سبع أو ست وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حَمَّ﴾.

(٢) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ إن جعلت حمّ مبتدأ خبره تنزيل الكتاب احتجّت إلى إضمار مثل ذلك تنزيل حمّ، وإن جعلتها تعديداً للحروف كان تنزيل مبتدأ خبره: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقيل حمّ مفسّم به وتنزيل الكتاب صفته، وجواب القسم:

(٣) ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو يُحْتَمَلُ أن يكون على ظاهره وأن يكون المعنى إن في خلق السموات لقوله:

(٤) ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ وَلَا يَحْسُنُ عطف ما على الضمير المجرور بل عطفه على المضاف إليه بأحد الاحتمالين، فإنّ بثّه وتنوّعه واستجماعه لما به يتمّ معاشه إلى غير ذلك دلائل على وجود الصانع المختار. ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ محمول على محلّ إن واسمها، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالنصب حملاً على الاسم.

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/٤٢٢) وزاد المسير (٧/٣٥٤).

(٥) ﴿وَخَلِيفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ من مطرٍ، وسمَّاه رزقاً لأنه سببه. ﴿فَأَخْيَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُنْسِهَا. ﴿وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ﴾ باختلاف جهاتها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائي وتصريف الرياح^(١). ﴿ءَايَتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه القراءتان ويلزمهما العطف على عاملين في والابتداء، أو إنَّ إلا أن يُضْمَرَ في أو ينصب آيات على الاختصاص أو يرفع بإضمار هي، ولعلَّ اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور.

تِلْكَ ءَايَتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَتِ اللَّهِ تَنْتَلِي عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَوْ يَسْمَعُهَا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَسَبُهُمْ شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿تِلْكَ ءَايَتُ اللَّهِ﴾ أي تلك الآيات دلالته ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حال عاملها معنى الإشارة. ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبس به أو ملتبسة به. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بعد آيات الله، وتقديم اسم الله للمبالغة والتعظيم كما في قولك أعجبني زيدٌ وكرمه أو بعد حديث الله وهو القرآن كقوله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ﴾^(٢) وآياته دلالته المتلوة أو القرآن، والعطف لتغاير الوصفين. وقرأ الحجازيان وحفص وأبو عمرو وروخ يؤمنون بالياء ليوافق ما قبله.

(٧) ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

(٨) ﴿يَسْمَعُ ءَايَتِ اللَّهِ تَنْتَلِي عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ﴾ يقيم على كفره. ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات. وثمَّ لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات كقوله: يَرَى غَمَرَاتٍ ثُمَّ يَزُورُهَا^(٣). ﴿كَانَ لَوْ يَسْمَعُهَا﴾ أي كأنه فحُفَّتْ وحُذِفَ ضميرُ الشأن، والجملة في موضع الحال، أي يصِرُّ مثل غير السامع. ﴿فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره. والبشارة على الأصل أو التهكم.

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَتِنَا شَيْئًا﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها. ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك من غير أن يرى فيها ما يناسب الهُزءَ، والضمير لآياتنا وفائدته الإشعار بأنه إذا سمع كلاماً وعلم أنه من الآيات بادَرَ إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على ما سمعه، أو لشيء لأنه بمعنى الآية. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

(١٠) ﴿مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ من قدامهم لأنهم متوجهون إليها، أو من خلفهم لأنها بعد آجالهم. ﴿وَلَا

(١) تأخير الرياح عن إنزال المطر - مع تقدمه عليه في الوجود - إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جعلتها سوق السفن في البحار (س/٦٨/٨).

(٢) الزمر: ٢٣.

(٣) شطر من الطويل.

يُعْزِي عَنْهُمْ ﴿١٠﴾ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ. ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال والأولاد. ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله. ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ﴾ أي الأصنام (١). ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحملونه.

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْزِيَ الْفُلُوكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿هَذَا هُدًى﴾ الإشارة إلى القرآن ويدل عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص برفع أليم، والرجز أشد العذاب.

(١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه. ﴿لِيَجْزِيَ الْفُلُوكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره وأنتم راكبوها. ﴿وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ التجارة والغوص والصيد وغيرها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بأن خلقها نافعة لكم. ﴿مِّنْهُ﴾ حال من ما أي سخر هذه الأشياء كائنة منه، أو خبر لمحدوف أي هي جميعاً منه، أو لما في السموات وسخر لكم تكريراً للتأكيد أو لما في الأرض. وقرئ مئة على المفعول له، ومئة على أنه فاعل سخر على الإسناد المجازي أو خبر محدوف. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنائعه.

(١٤) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حذف المقول لدلالة الجواب عليه، والمعنى قل لهم اغفروا يغفروا أي يغفوا ويصفحوا. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يتوقعون وقائعه بأعدائه من قولهم: أيام العرب لوقائهم، أو لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم ووعدهم بها. والآية نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه غفاري فهم أن يبطش به (٢). وقيل إنها منسوخة بآية القتال. ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ علة للأمر، والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو الشيع، والكسب المغفرة أو الإساءة أو ما يعتمدهما. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي لنجزى بالنون؛ وقرئ ليجزى قوم، وليجزى قوماً أي ليجزي الخير أو الشر أو الجزاء، أعني ما يُجزى به لا المصدر فإن الإسناد إليه سيمًا مع المفعول به ضعيف.

(١٥) ﴿مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي لها ثواب العمل وعليها عقابه. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

(١) توسيط حرف النفي «لا» بين المعطوفين - مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجل من عدم إغناء الأموال والأولاد - حيث إنه مبني على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم بهم (س/٦٩/٨).

(٢) حكاة النحاس والمهدوي عن ابن عباس - كما في «روح المعاني» (١٤٧/٢٥).

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾
 وَعَآتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ
 أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً تَحِيَّهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

(١٦) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة النظرية والعملية، أو فضل
 الخصومات. ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما أحل الله
 من اللذائذ. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم.

(١٧) ﴿وَعَآتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أدلة في أمر الدين ويندرج فيها المعجزات. وقيل آيات من أمر
 النبي عليه الصلاة والسلام مبينة لصدقه. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾
 بحقيقة الحال. ﴿بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ عداوة وحسداً. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾
 بالمواخذه والمجازاة.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ طريقة ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين. ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فاتبع شريعتك الثابتة
 بالحجج. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراء الجهال التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش قالوا له
 ارجع إلى دين آبائك.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مما أراد بك. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسية
 علّة الانضمام فلا توالهم باتباع أهوائهم. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فواله بالتقى واتباع الشريعة.
 (٢٠) ﴿هَذَا﴾ أي القرآن أو اتباع الشريعة. ﴿بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾ بينات تبصّرهم وجه الفلاح.
 ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمة من الله. ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقين.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجترأ
 الاكتساب ومنه الجارحة. ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيرهم. ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مثلهم وهو ثاني
 مفعولي نجعل وقوله: ﴿سَوَاءٌ تَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل منه إن كان الضمير للموصول الأول لأن المماثلة
 فيه، إذ المعنى إنكار أن يكون حياتهم ومماتهم سيئين في البهجة والكرامة كما هو للمؤمنين، وبدل
 عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص سواء بالنصب على البدل، أو الحال من الضمير في الكاف، أو
 المفعولية. والكاف حال وإن كان للثاني فحال منه أو استئناف يبين المقضى للإنكار، وإن كان لهما
 فبدل أو حال من الثاني، وضمير الأول والمعنى إنكار أن يستوا بعد الممات في الكرامة أو ترك
 المواخذه كما استوا في الرزق والصحة في الحياة، أو استئناف مقرر لتساوي محيا كل صنف ومماته
 في الهدى والضلال، وقرئ مماتهم بالنصب على أن مخيأهم ومماتهم طرفان كمقدم الحاج. ﴿سَاءَ مَا
 يَحْكُمُونَ﴾ ساء حكمهم هذا أو بش شيئاً حكموا به ذلك.

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢١﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا نُنَادِيهِمْ عَلَيْهِمْ أَيُّنَا يَنْتَزِعُ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كانه دليل على الحكم السابق من حيث إنَّ خلق ذلك بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات. ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على بالحق لأنه في معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل ولتجزى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب، وتسمية ذلك ظلماً ولو فعله الله لم يكن منه ظلماً لأنه لو فعله غيره لكان ظلماً كالابتلاء والاختبار.

(٢٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى فكانه يعبد، وقرىء آلهة هواه لأنه كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه. ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ﴾ وخذله. ﴿وَعَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالماً بضلاله وفساد جوهر روحه. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ فلا يبالي بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار، وقرأ حمزة والكسائي غشوة. ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ من بعد إضلاله. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقرىء تذكرون.

(٢٤) ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ﴾ ما الحياة أو الحال. ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نكون أمواتاً نطفاً وما قبلها ونحيا بعد ذلك، أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا، أو يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة، ويحتمل أنهم أرادوا به التنازع فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إلا مرور الزمان وهو في الأصل مدة بقاء العالم من دهره إذا غلبه. ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني نسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الاستقلال، أو إنكار البعث أو كليهما. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إذ لا دليل لهم عليه وإنما قالوه بناء على التقليد والإنكار لما لم يُحسوا به.

(٢٥) ﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ أَيُّنَا يَنْتَزِعُ﴾ واضح الدلالة على ما يخالف معتقدتهم أو مبنات له. ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ﴾ ما كان لهم متشبهت يعارضونها به. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإنما سمّاه حجة على حسبانهم ومسايقهم، أو على أسلوب قولهم تحية بينهم ضرب وجيع^(١) فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً.

(٢٦) ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فإن من

قَدَرَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ قَدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ، وَالْحِكْمَةُ اقْتَضَتْ الْجَمْعَ لِلْمَجَازَةِ عَلَى مَا قُرِّرَ مَرَارًا، وَالْوَعْدُ الْمَصْدَقُ بِالْآيَاتِ دَلٌّ عَلَى وَقُوعِهَا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَمَكْنَ الْإِتْيَانُ بِآبَائِهِمْ لَكِنَّ الْحِكْمَةَ اقْتَضَتْ أَنْ يُعَادُوا يَوْمَ الْجَمْعِ لِلْجَزَاءِ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِقَلَّةِ تَفَكُّرِهِمْ وَقُصُورِ نَظَرِهِمْ عَلَى مَا يَحْسُونَهُ.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْذِرُ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْذِرُ مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

(٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعميمٌ للقُدرة بعدَ تخصيصِها. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويخسر يومَ تقومُ ويومئذٍ بدلٌ منه.

(٢٨) ﴿وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ مجتمعةٌ من الجنَّةِ وهي الجماعةُ، أو بركةٌ مستوفزةٌ على الرُّكْبِ. وقرىء جاذيةٌ أي جالسةٌ على أطرافِ الأصابع لاستيفازِهِمْ. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ صحيفةُ أعمالِها. وقرأ يعقوبٌ كلٌّ على أنه بدلٌ من الأول. وتدعى صفةٌ أو مفعولٌ ثانٍ. ﴿الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ محمولٌ على القول.

(٢٩) ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ أضافَ صحائفَ أعمالِهِمْ إلى نفسه لأنه أمرُ الكُتْبَةِ أَنْ يَكْتُبُوا فِيهَا أَعْمَالَهُمْ ^(١) ﴿يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يشهدُ عليكم بما عملتُمْ بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ نستكتبُ الملائكةُ. ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالُكم.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي من جملتها الجنةُ. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الظاهرُ لخلوصِهِ عن الشوائبِ.

(٣١) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْذِرُ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيقالُ لهم أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلِي فلم تكن آياتي تُنْذِرُ عليكم، فحذفَ القولَ والمعطوفُ عليه اكتفاءً بالمقصودِ واستغناءً بالقرينة. ﴿فَاستَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها. ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾ عادتكم الإجرامُ.

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ يحتملُ الموعدَ به والمصدرَ. ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ هو أو متعلقُهُ لا محالةً. ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إفرادٌ للمقصودِ، وقرأ حمزة بالنصبِ عطفاً على اسمِ إِنْ. ﴿قُلْتُمْ مَا نَنْذِرُ مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيءُ الساعةِ استغراباً لها. ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصلُهُ نظنُّ ظناً فأدخلَ حرفاً للنفي والاستثناءَ لإثباتِ الظنِّ ونفي ما عداه كأنه قال: ما نحنُ إلا نظنُّ ظناً، أو لنفي ظنِّهم فيما سِوَى ذلك مبالغةً ثم أكدهُ بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ أي لإمكانه، ولعلَّ ذلك قولٌ بعضهم تحيروا بين ما سمعوا من آبائِهِمْ وما ثَلِيثٌ

(١) أو لتفخيم شأنه وتهويل أمره (س/٨/٧٤).

عليهم من الآيات في أمر الساعة.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِنَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ﴾ ظهر لهم. ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ على ما كانت عليه بأن عرفوا قُبْحَهَا وعابوها وخامَةً عاقِبَتَهَا، أو جزاءها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهو الجزاء.

(٣٤) ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ﴾ نترككم في العذاب ترك ما يُنسى. ﴿كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ كما تركتم عِدَّتَهُ ولم تبالوا به، وإضافة لقاء إلى يوم إضافة المصدر إلى ظرفه. ﴿وَمَاْوِنَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

(٣٥) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوا﴾ استهزأتم بها ولم تتفكروا فيها. ﴿وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾ وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضمّ الراء. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ﴾ لا يُطْلَبُ منهم أن يعتبروا ربهم أي يرضوه لفوات أوانه.

(٣٦) ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذ الكلُّ نعمة منه ودالٌّ على كمال قدرته.

(٣٧) ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذ ظهر فيها آثارها. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغْلَبُ. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قَدَّرَ وقَضَى فاحمدوه وكبروه وأطيعوا له. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ حَمَّ الْجَاثِيَةِ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَسَكَّنَ رَوْعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص ١٤٩ رقم ٣٩٢) وانظر الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝١ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٤

سورة الأحقاف مكية^(١) وآياتها أربع أو خمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حَمْدٌ﴾.

(٢) ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق وهو ما تقتضيه الحكمة والمعدلة، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم والبعث للمجازاة على ما قرّره مراراً. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ويتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكل وهو يوم القيامة، أو كل واحد وهو آخر مدّة بقائه المقدّرة له. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا﴾ من هول ذلك الوقت، ويجوز أن تكون ما مصدرية. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله.

(٤) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي أخبروني عن حال الهتكم بعد تأمل فيها، هل يُعقل أن يكون لها في أنفسها مدخل في خلق شيء من أجزاء العالم

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة (حم) الأحقاف وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. كما في «الدر المنثور» (٧/٤٣٣).

فتستحقُّ به العبادة، وتخصيصُ الشرك بالسموات احترازٌ عما يُتَوَهَّمُ أنَّ للوسائطِ شركةً في إيجاد الحوادث السفلية. ﴿أَتُنَوِّي يَكْتَبُ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ من قبل هذا الكتاب يعني القرآن فإنه ناطقٌ بالتوحيد. ﴿أَوْ أَتُكْرَمُونَ عَلَيْهِ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين علٌّ فيها ما يدلُّ على استحقاقهم للعبادة أو الأمر به. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، وهو إلزامٌ بعدم ما يدلُّ على ألوهيتهم بوجه ما نقلاً بعد إلزامهم بعدم ما يقتضيها عقلاً، وقرىء إثارةً بالكسر أي مناظرة فإنَّ المناظرة تثير المعاني وأثرة أي شيء أُوْثِرْتُمْ به، وأثرة بالحركات الثلاث في الهزمة وسكون الثاء فالمفتوحة للمرة من مصدرٍ أَثَرَ الحديث إذا رواه والمكسورة بمعنى الأثرة والمضمومة اسمٌ ما يُؤْثَرُ.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُنَادَيْنَا يَنْتَبِطِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّيْتُمْ قُلُوبَنَا إِنْ أَفَرَّتْهُمْ قُلُوبُنَا فَلَا مَلِكُوتَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

(٥) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ إنكارٌ أن يكون أحدٌ أضلَّ من المشركين حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة مَنْ لا يستجيب لهم لو سمع دعاءهم، فضلاً أن يعلم سرائرهم، ويراعي مصالحهم. ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ ما دامت الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ لأنهم إما جمادات وإما عبادٌ مسحرون مشغولون بأحوالهم^(١).

(٦) ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم. ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ مكذِّبين بلسان الحال أو المقال. وقيل الضمير للعائدين وهو كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ رَئِيسًا مَّا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٢).

(٧) ﴿وَإِذَا نُنَادَيْنَا يَنْتَبِطِ﴾ واضحات أو مبنات. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ لأجله وفي شأنه، والمرادُ به الآيات، ووضعه موضع ضميرها ووضع الذين كفروا موضع ضمير المتلو عليهم للتسجيل عليها بالحق وعليهم بالكفر والانهماك في الضلالة. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حينما جاءهم من غير نظير وتأمل. ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ بطلانه.

(٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّيْتُمْ﴾ إضرابٌ عن ذكر تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه وإنكارٌ له وتعجيبٌ. ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَّتْهُمْ قُلُوبُنَا﴾ على الفرض. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي إن عاجلني الله بالعقوبة فلا تقدرُونَ على دفع شيء منها، فكيف أجترأ عليه وأعرض نفسي للعقاب من غير توقع نفع ولا دفع ضرر من قبلكم. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تندفعون فيه من القذح في آياته. ﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

(١) وضمائر العقلاء «وهم...» لإجرائهم إياها مجرى العقلاء.

ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة - مع ظهور حالها - لتهكم بها وبعيدتها، كقوله تعالى: «إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ» (س/٨/٧٨).

(٢) الأنعام: «٢٣».

يشهد لي بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والإنكار، وهو وعيدٌ بجزاء إفاضتهم. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وإشعارٌ بحلم الله عنهم مع عظم جُزئهم.

قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا آدَرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُمُّ إِنِ أُنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ بديعاً منهم أَدْعُوْكُمْ إِلَى مَا لَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ، أَوْ أَقْدُرُ عَلَى مَا لَمْ يقدروا عليه، وهو الإتيان بالمقترحات كلها. ونظيره الخِفْتُ بمعنى الخفيف. وقرئ بفتح الدال على أنه كقيم أو مقدر بمضاف أي ذا بذع. ﴿وَمَا آدَرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُمُّ﴾ في الدارين على التفصيل إذ لا علم لي بالغيب، ولا لتأكيد النفي المشتمل على ما يفعل بي، وما إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة. وقرئ يَفْعَلُ أي يفعل الله. ﴿إِنِ أُنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ لا أتجاوزُه، وهو جوابٌ عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوحَ إليه من الغيوب، أو استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذى المشركين. ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من عقاب الله. ﴿مُبِينٌ﴾ يبين الإنذار بالشواهد المبينة والمعجزات المصدقة.

(١٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي القرآن. ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وقد كفرتم به، ويجوز أن تكون الواو عاطفة على الشرط وكذا الواو في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلا أنها تعطفه بما عطفَ عليه على جملة ما قبله. والشاهد هو عبد الله بن سلام، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام، وشهادته ما في التوراة من نعت الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن المطابقة له، أو مثل ذلك وهو كونه من عند الله. ﴿فَقَامَنَ﴾ أي بالقرآن لما رآه من جنس الوحي مطابقاً للحق. ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ استئناف مشعر بأن كفرهم به لضلالهم المسبب عن ظلمهم، ودليل على الجواب المحذوف مثل أَلَسْتُمْ ظالمين.

(١١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأجلهم. ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان أو ما أتى به محمدٌ عليه الصلاة والسلام. ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهم سقاطٌ إذ عامتهم فقراء وموالٍ ورعاة، وإنما قاله قريشٌ وقيل بنو عامر وغطفان وأسدٌ وأشجعٌ لما أسلم جُهينةً ومزينةً وأسلمٌ وغفارٌ، أو اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ ظرفٌ لمحذوفٍ مثل ظَهَرَ عَنَادِهِمْ وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبب عنه وهو كقولهم: أساطير الأولين.

(١٢) ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ وَمَنْ قَبْلَ الْقُرْآنِ وهو خبرٌ لقوله: ﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ ناصبٌ لقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحال. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه وقد قرئ به. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من ضمير كتابٍ في مصدقٍ أو منه لتخصيصه الصفة. وعاملها معنى الإشارة، وفائدتها الإشعار بالدلالة

على أن كونه مصدقاً للتوراة كما دلّ على أنه حقّ دلّ على أنه وحيّ وتوقيفٌ من الله سبحانه وتعالى. وقيل مفعولُ مصدّقٍ أي يصدّقُ ذا لسانٍ عربيٍّ بإعجازه. ﴿يُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ علّةُ مصدّقٍ، وفيه ضميرُ الكتابِ أو الله أو الرسول، ويؤيد الأخير قراءةُ نافع وابن عامر والبرقي بخلافٍ عنه ويعقوبُ بالناء ﴿وَيُنْشِرُ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطفٌ على محلّه.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ جمَعوا بين التوحيد الذي هو خلاصةُ العلم والاستقامة في الأمور التي هي منتهى العمل، وثُمَّ للدلالة على تأخّر رتبة العمل وتوقّف اعتباره على التوحيد. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوقِ مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فواتِ محبوب، والفاء لتضمين الاسم معنى الشرط.

(١٤) ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية، وخالدين حالاً من المستكنّ في أصحاب، وجزاء مصدرٌ لفعلٍ دلّ عليه الكلامُ أي جُوزوا جزاءً.

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ وقرأ الكوفيون إحساناً، وقرئ حُسناً أي إيصاءً حسناً. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ذاتُ كرهٍ أو حملاً ذا كرهٍ وهو المشقة. وقرأ الحجازيان وأبو عمرو وهشام بالفتح، وهما لغتانِ كالفقر والفقر، وقيل المضموم اسمٌ والمفتوح مصدرٌ. ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ﴾ ومدةُ حملِهِ وفصالِهِ، والفصالُ الفطامُ ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ وفصلُهُ أو وقته والمرادُ به الرضاعُ التامُّ المنتهي به ولذلك عبّر به كما عبّر بالأمد عن المدة، قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٍ عِدَّةَ الْعُمُرِ وَمَوَدٌ إِذَا انْتَهَى أَمْدُهُ^(١)

﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ كلُّ ذلك بيانٌ لما تكابده الأمُّ في تربية الولد مبالغةً في التوصية بها، وفيه دليلٌ على أن أقلَّ مدّة الحمل ستة أشهرٍ لأنه إذا حطّ منه الفصالُ حولانٍ لقوله تعالى ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ﴾^(٢) بقي ذلك وبه قال الأطباء، ولعلَّ تخصيصَ أقلِّ الحملِ وأكثرِ الرِّضَاعِ لانضباطهما وتحقُّقِ ارتباطِ حكمِ النَّسَبِ والرِّضَاعِ بهما. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ إذا اكتملَ واستحكم قوّته وعقله. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يُبعثْ نبيٌّ إلا بعدَ الأربعين. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني وأصله أولغني من أوزغته بكذا. ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ يعني نعمة الدين أو ما يعيها وغيرها، وذلك يؤيد ما روي

(١) البيت من الخفيف، ومود: ميت راحل، اسم فاعل من أودى.

(٢) البقرة: «٢٣٣».

أنها نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه ^(١) لأنه لم يكن أحد أسلمَ هو وأبواه من المهاجرين والأنصارِ سواه. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ نكره للتعظيم أو لأنه أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضا الله عز وجل. ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ واجعل لي الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم ونحوه قوله:

وَأَنْ تَعْتَذِرَ بِالْمَحَلِّ عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا إِلَى الضَّيْفِ يَجْرُخُ فِي عَرَاقِبِهَا نُضْلِي
﴿إِنِّي ثَبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه أو يشغل عنك. ﴿وَأَيُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصين لك.

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَايِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني طاعاتهم فإنَّ المباح حسنٌ ولا يُثَابُ عليه. ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لتوبتهم، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون فيهما. ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ كائنين في عدادهم أو مثابين أو معدودين فيهم. ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾ مصدرٌ مؤكَّد لنفسه فإنَّ يتقبل ويتجاوز وعدٌ. ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي في الدنيا.

(١٧) ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ مبتدأ خبره أولئك، والمراد به الجنس وإن صحَّ نزولها في عبدالرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ^(٢)، فإنَّ خصوص السبب لا يوجب التخصيص. وفي أفَّ قراءاتٍ ذُكرت في سورة بني إسرائيل ^(٣). ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ﴾ أُنْعَثَ، وقرأ هشام أتعِدَانِي بنونٍ واحدة مشددة. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فلم يرجع أحدٌ منهم. ﴿وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ﴾ يقولان: الغياث بالله منك، أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للإيمان. ﴿وَيْلَكَ ءَايِنَ﴾ أي يقولان له ويلك، وهو الدعاء بالشور بالحث على ما يخاف على تركه. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلهم التي كتبوها.

(١٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بأنهم أهل النار وهو يرُدُّ النزول في عبدالرحمن لأنه يدلُّ على أنه من أهلها لذلك وقد جُبَّ عنه إن كان لإسلامه. ﴿فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوله في أصحاب الجنة. ﴿مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّسِ﴾ بيانٌ للأُمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليلٌ للحكم على الاستئناف.

(١) انظر تفسير البغوي (٤/٢٥٨). وانظر «زاد المسير» (٧/٣٧٨).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/١٧١): «ومن زعم أنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فقوله ضعيف لأن عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه». وانظر البحر المحيط (٨/٦١).

(٣) انظر سورة الإسراء: «٢٣».

والقراءات في «أف» هي: قرأ نافع وحفص «أف» منوناً بكسر الفاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر «أف» بفتح الفاء غير منون، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «أف» بكسر الفاء غير منون (المبسوط لابن مهران ص ٢٢٨).

وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْعَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۖ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ۚ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾

(١٩) ﴿وَلِكُلِّ﴾ من الفريقين. ﴿دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ مراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، أو من أجل ما عملوا والدرجات غالباً في المثوبة وها هنا جاءت على التغليب. ﴿وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ جزاءها، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وابن ذكوان بالنون. ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ بنقص ثواب وزيادة عقاب.

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعذبون بها. وقيل تُعرض النار عليهم فقلب مبالغة كقولهم: عرضت الناقة على الحوض. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي يُقال لهم أذهبتم، وهو ناصب اليوم. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالاستفهام، غير أن ابن كثير يقرؤه بهمة ممدودة وهما يقرأان بها وبهمزتين محقتين. ﴿طِبْعَكُمْ﴾ لذاتكم. ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفائها. ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيء. ﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الهوان وقد قرئ به. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله، وقرئ تفسقون بالكسر.

(٢١) ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هوداً. ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوق الشيء إذا اعوج، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشحر^(١) من اليمن. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ﴾ الرسل. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قبل هود وبعده، والجملة حال أو اعتراض. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي لا تعبدوا، أو بأن لا تعبدوا فإن النهي عن الشيء إنذار من مضرته^(٢). ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائل بسبب شريككم.

(٢٢) ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ لتصرفنا. ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عن عبادتها. ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب على الشرك. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك.

(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا علم لي بوقت عذابكم ولا مدخل لي فيه فاستعجل به، وإنما علمه عند الله فيأتيكم به في وقته المقدر له. ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم وما على الرسول إلا البلاغ. ﴿وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون أن الرسل يُعْثُوا مبلّغين منذرين لا معذبين مقترحين.

(١) بفتح الشين وتكسر، ساحل البحرين عدن وعمان.

(٢) وسط قوله: «وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه» بين الإنذار وبين «ألا تعبدوا إلا الله» وذلك للمسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد، وللايذان باشتراكهم في العبارة المحكية (س/٨/٨٥).

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيْنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيْهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾
تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ
فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا
أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحاباً عرضَ في أفق السماء. ﴿مُسْتَقِيلًا أَوْدِيْنِهِمْ﴾ متوجّه أوديتهم، والإضافة فيه لفظية وكذا في قوله: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي قال هوذا عليه الصلاة والسلام بل هو: ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب، وقرئ قل بل: ﴿رِيحٌ﴾ هي ريح، ويجوز أن يكون بدل ما. ﴿فِيْمَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفتها وكذا قوله:

(٢٥) ﴿تُدْمِرُ﴾ تهلك. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من نفوسهم وأموالهم. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إذ لا توجد نابضة حركة ولا قابضة سكون إلا بمشيئته، وفي ذكر الأمر والرب وإضافته إلى الريح فوائد سبق ذكرها مراراً، وقرئ يدمر كل شيء من دمر دماراً إذا هلك فيكون العائد محذوفاً أو الهاء في ربها، ويحتمل أن يكون استئنافاً للدلالة على أن لكل ممكن فناء مقضياً لا يتقدم ولا يتأخر، وتكون الهاء لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لو حضرت بلادهم لا ترى إلا مساكنهم، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي لا يرى إلا مساكنهم بالياء المضمومة ورفع المساكن. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾. روي أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح اعتزل بالمؤمنين في الحظيرة وجاءت الريح فأملت الأحقاف على الكفرة، وكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام، ثم كُشِفَتْ عنهم واحتملتهم فقدقتهم في البحر.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيْهِ﴾ إن نافية وهي أحسن من ما ههنا لأنها توجب التكرير لفظاً ولذلك قُلِبَتْ ألفها هاء في مهما، أو شرطية محذوفة الجواب والتقدير، ولقد مكناهم في الذي أو في شيء إن مكناكم فيه كان بغيتكم أكثر، أو صلة كما في قوله:

يُرْجِي الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَيَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ

والأول أظهر وأوفق لقوله ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾^(١) ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا﴾^(٢). ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانحها تعالى ويواظبوا على شكرها. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الإغناء وهو القليل. ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ صلة لما أغنى وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث إن الحكم مرتب على ما أضيف إليه، وكذلك حيث. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب.

(١) مريم: (٧٤).

(٢) غافر: (٢١).

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ يا أهل مكة. ﴿مِنَ الْقُرَى﴾ كحجر ثمود وقرى قوم لوط. ﴿وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا﴾ بتكريرها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم.

(٢٨) ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ فهلاً منعتهم من الهلاك ألهمهم الذين يتقربون بهم إلى الله تعالى حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وأول مفعولي اتخذوا الراجع إلى الموصول محذوف، وثانيهما قرباناً وآلهة بدل أو عطف بيان، أو آلهة وقرباناً حال أو مفعول له على أنه بمعنى التقرب. وقرى قرباناً بضم الراء. ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرهم وامتنع أن يستمدوا بهم امتناع الاستمداد بالضال. ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره صرفهم عن الحق. وقرى أفكهم بالتشديد للمبالغة، وأفكهم أي جعلهم أكف، وأفكهم أي قولهم الأفك أي ذو الإفك. ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

(٢٩) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أملناهم إليك، والنفر دون العشرة وجمعه أنفاز. ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ حالٌ محمولة على المعنى. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن أو الرسول. ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ قالوا بعضهم لبعض اسكتوا لنسمعه. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أتم وفرغ من قراءته، وقرى على بناء الفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي منذرين إليهم بما سمعوا. روي أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده^(١).

(٣٠) ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ من العقائد. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من الشرائع.

(٣١) ﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم، وهو ما يكون في

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٥٠ رقم ٤٠٣): «متفق عليه - البخاري (٦٦٩/٨ رقم ٤٩٢١) ومسلم (٣٣١/١) رقم ٤٤٩/١٤٩ - بمعناه من رواية سعيد بن جبيرة عن ابن عباس دون أوله. ودون قوله «وكانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة» ودون قوله: «في جوف الليل يصلي» ودون قوله «نينوى» ودون قوله «عند منصرفه إلى آخره». وأما زوبعة: فأخرجه الحاكم - في المستدرک (٤٥٦/٢) - من رواية ذر عن ابن مسعود قال: (هبطوا يعني الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن بطن نخلة. فلما سمعوا قالوا أنصتوا). وكانوا تسعة أحدهم زوبعة. فأنزل الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ - الآية﴾ وقوله «نينوى» أخرجه الطبراني - في «جامع البيان» (١٣/٢٦ ج ٣١) - من رواية قتادة عن هذه الآية قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث» هـ.

خالص حق الله، فإنَّ المظالم لا تُغفرُ بالإيمان. ﴿وَيُجْزَمُ مِّنْ عَذَابِ الْبَرِّ﴾ هو مُعَدُّ للكفار، واحتجَّ أبو حنيفة رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارة على أن لا ثواب لهم، والأظهر أنهم في توابع التكليف كنبى آدم.

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ خَلْقَهُنَّ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ يُغَيِّمَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ إذ لا ينجي منه مهرب^(١). ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه.

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ خَلْقَهُنَّ﴾ ولم يتعب ولم يعجز، والمعنى أنَّ قدرته واجبة لا تنقص ولا تنقطع بالإيجاد أبد الآباد. ﴿يَقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ يُغَيِّمَ الْمَوْتُ﴾ أي قادر، ويدل عليه قراءة يعقوب يقدر، والباء مزيدة لتأكيد النفي فإنه مشتمل على أن وما في حيَّزها ولذلك أجاب عنه بقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود، كأنه صدَّر السورة بتحقيق المبدأ أراد ختمها بإثبات المعاد.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ منصوب بقول مضمَر مقوله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ والإشارة إلى العذاب. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم في الدنيا، ومعنى الأمر هو الإهانة بهم والتوبيخ لهم.

(٣٥) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أولو الثبات والجد منهم فإنك من جملتهم، ومن للتبيين، وقيل للتبعض، وأولو العزم منهم أصحاب الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها وصبروا على تحمُّل مشاقها ومعاودة الطاعنين فيها، ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليه السلام. وقيل الصابرون على بلاء الله كنوح صَبَرَ على أذى قومه كانوا يضربونه حتى يُغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح ولده، والذبيح على الذبح، ويعقوب على فقد الولد والبصر، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه ﴿إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(٢).

(١) وإظهار «داعي الله» من غير اكتفاء بأحد الضميرين للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير، وتربية المهابة، وإدخال الروعة.

وتقييد الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها (س/٨/٨٩).

(٢) الشعراء: ٦١١ - ٦٢٢.

وداودُ بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لينةً على لينة. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لكفار قريش بالعذاب فإنه نازلٌ بهم في وقته لا محالة. ﴿كَانَ يَوْمَ يَرْوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ استقصروا من هوله مدةً لُبْنهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة. ﴿بَلَّغْ﴾ هذا الذي وُعِظتم به أو هذه السورة بلاغ أي كفاية، أو تبليغٌ من الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده أنه قرىء بلغ، وقيل بلاغٌ مبتدأ خبره لهم وما بينهما اعتراضٌ أي لهم وقتٌ يبلغون إليه كأنهم إذا بلغوه ورأوا ما فيه استقصروا مدةً عُمُرهم، وقرىء بالنصب أي بلغوا بلاغاً. ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الاتعاظ أو الطاعة. وقرىء يهلكُ بفتح اللام وكسرهما من هلك وهلك، ونُهْلِكُ بالنون ونضِبِ القوم. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورة الأحقافِ كُتِبَ له عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ رَمْلَةٍ في الدنيا»^(١).



(١) وهو حديث موضوع. أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكافي الشاف» (ص ١٥١ رقم ٤٠٦).
وتقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

سورة محمد صلى الله عليه وسلم
وتسمى سورة القتال، وهي مدنية^(١) وقيل مكية، وآيها سبع أو ثمان وثلاثون أو أربعون آية
بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدخول في الإسلام وسلوك طريقه، أو منعوا الناس عنه كالمطعمين يوم بدر، أو شياطين قريش، أو المصريين من أهل الكتاب، أو عام في جميع من كفر وصد. ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ جعل مكارمهم - كصلة الرحم وفك الأسارى وحفظ الجوار - ضالة أي ضائعة محيطة بالكفر، أو مغلوبة مغمورة فيه كما يضل الماء في اللبن، أو ضلال حيث لم يقصدوا به وجه الله، أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسوله والصد عن سبيله بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله.
- (٢) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعُمُّ المهاجرين والأنصار والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم.

(١) أخرج ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنزلت سورة القتال بالمدينة. وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة «الذين كفروا» كما في «الدر المنثور» (٤٥٦/٧).

﴿وَأَمَّا بِنَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ تخصيصٌ للمنزّل عليه مما يجبُ الإيمانُ به تعظيماً له وإشعاراً بأنّ الإيمان لا يتمُّ دونه، وأنه الأصلُ فيه، ولذلك أكّده بقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ اعتراضاً على طريقة الحضر. وقيل حقيقته بكونه ناسخاً لا يُنسخُ. وقرئ نَزَلَ على البناء للفاعل، وأنزَلَ على البناءين^(١)، ونَزَلَ بالتخفيف. ﴿كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ سَتَرَهَا بالإيمان وعملهم الصالح. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد.

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَتَّ بَعْدُ وَإِلَمَا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾

(٣) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح وهو مبتدأ خبره. ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بسبب اتباع هؤلاء الباطل واتباع هؤلاء الحق، وهذا تصريح بما أشعر به ما قبلها ولذلك سُمِّي تفسيراً. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب. ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يبين لهم. ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ أحوال الفريقين أو أحوال الناس، أو يضرب أمثالهم بأن جعل اتِّباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخبيثتهم واتباع الحق مثلاً للمؤمنين، وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم.

(٤) ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في المحاربة. ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر، وأُنِيبَ منابه مضافاً إلى المفعول ضمّاً إلى التأكيد والاختصار. والتعبيرُ به عن القتل إشعاراً بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقاب حيث أمكن، وتصويرٌ له بأشنع صورة. ﴿حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشخين وهو الغليظ. ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ فأسروهم واحفظوهم، والوَتَاق بالفتح والكسر ما يُوثَقُ به. ﴿فَمَا مَتَّ بَعْدُ وَإِلَمَا فِدَاءً﴾ أي فإما تموتون متّاً أو تفدون فداءً، والمراد التخيير بعد الأسر بين المنّ والإطلاق وبين أخذ الفداء، وهو ثابتٌ عندنا فإنّ الذِّكْرَ الحرَّ المكلف إذا أُسِرَ تَخَيَّرَ الإمام بين القتل والمنّ والفداء، والاسترقاق منسوخٌ عند الحنفية أو مخصوصٌ بحرب بدرٍ فإنهم قالوا يتعيّن القتل أو الاسترقاق. وقرئ فِدَاءً كعصاً. ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ آلتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع، أي تنقضي الحرب ولم يبق إلا مسلمٌ أو مسالمٌ. وقيل آثامها والمعنى حتى يضع أهل الحرب شيزكهم ومعاصيهم، وهو غاية للضرب أو الشدّ أو للمنّ والفداء أو للمجموع بمعنى أنّ هذه الأحكام جاريةٌ فيهم حتى لا يكونَ حربٌ مع المشركين بزوال شوكتهم. وقيل بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمرُ ذلك، أو افعلوا بهم ذلك. ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لا ننقم منهم بالاستئصال. ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ولكن أمركم بالقتال ليبْلُوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب العظيم، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر. ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا، وقرأ البصريان وحفصٌ قُتِلُوا أي استشهدوا.

(١) أي على البناء للفاعل «أُنزَلَ» وعلى البناء للمفعول «أُنزِلَ».

﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ فلن يضيّعها. وقرىء يَضِلُّ من ضَلَّ، وَيُضِلُّ على البناء للمفعول.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُضْلُ أَعْمَلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾

(٥) ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى الثواب، أو سيثبت هدايتهم. ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾.

(٦) ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ وقد عرفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها فعملوا ما استحقوها به، أو بيّنها لهم بحيث يعلم كل واحد منزلته ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق، أو طيبها لهم من العُزف وهو طيب الرائحة، أو حدّدها لهم بحيث يكون لكل جنة مفرزة.

(٧) ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ ﴾ إِنْ تنصروا دينه ورسوله. ﴿ يَنْصُرْكُمْ ﴾ على عدوّكم. ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار.

(٨) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُضْلُ ﴾ فعثوراً لهم وانحطاطاً ونقضه لما قال الأعشى: فالتَّعَسُ أولى بها من أَنْ أقولَ لَعَا. وانصابه بفعله الواجب إضماره سماعاً، والجملة خبر الذين كفروا أو مفسرةً لناصبه. ﴿ وَأَضْلَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ عطف عليه.

(٩) ﴿ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ ﴾ القرآن لما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما أَلْفَوْه واشتهته أنفسهم، وهو تخصيصٌ وتصريحٌ بسببه الكفر بالقرآن للتعسّر والإضلال. ﴿ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ ﴾ كرّره إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن ولا ينفك عنه بحال.

(١٠) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ استأصل عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم. ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمّر. ﴿ أَمْثَلُهَا ﴾ أمثال تلك العاقبة أو العقوبة، أو الهلكة لأنّ التدمير يدل عليها، أو السنة لقوله تعالى ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ ﴾^(١).

(١١) ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ناصرهم على أعدائهم. ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ فيدفع العذاب عنهم، وهو لا يخالف قوله ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴾^(٢) فَإِنَّ المولى فيه بمعنى المالك.

(١٢) ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ ﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا. ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ حريصين غافلين عن العاقبة. ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ منزل ومقام.

(١) الفتح: «٢٣».

(٢) يونس: «٣٠».

وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ على حذف المضاف وإجراء أحكامه على المضاف إليه، والإخراج باعتبار التسبب^(١). ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بأنواع العذاب. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم العذاب وهو كالحال المحكيّة.

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ حجة من عنده وهو القرآن، أو ما يعمّه، والحجج العقلية كالنبي ﷺ والمؤمنين. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ كالشرك والمعاصي. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في ذلك لا شبهة لهم عليه فضلاً عن حجة.

(١٥) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي فيما قصصنا عليك صفتها العجيبة. وقيل مبتدأ خبره: كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ، وتقدير الكلام أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد، أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فعزى عن حرف الإنكار وحذف ما حذف استغناءً يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينّة والتابع للهوى بمكابرة من يسوي بين الجنة والنار، وهو على الأول خبر محذوف تقديره: أفمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار، أو بدل من قوله ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾ وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بينة في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة^(٢). ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ استئناف لشرح المثل أو حال من العائد المحذوف، أو خبر لمثل. وآسن من أسن الماء بالفتح إذا تغير طعمه وريحه، أو بالكسر على معنى الحدوث. وقرأ ابن كثير آسن. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ لم يصب قارصاً ولا حازراً. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لذية لا يكون فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سُكر وخمار تأنيث لذ أو مصدر نعت به بإضمار ذات، أو تجويز، وقرئت بالرفع على صفة الأنهار والنصب على العلة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها، وفي ذلك تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنة بأنواع ما يُستلذ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصها وينقصها، والتوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ صنف على هذا القياس. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ عطف على الصنف المحذوف. أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم مغفرة. ﴿كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ مكان تلك الأشربة. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من فزط الحرارة.

(١) وصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها في الإهلاك لقوة جنابتها. (س/٨/٩٥).

(٢) وعبر عنهم بالمتقين إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها (س/٨/٩٥).

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ يعني المنافقين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ ويسمعون كلامه فإذا خرجوا. ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي لعلماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ ما الذي قال الساعة، استهزاء أو استعلاماً إذ لم يُلقوا له آذانهم تهاوناً به، وأنفاً من قولهم: أنف الشيء لما تقدم منه مستعار من الجارحة، ومنه استأنف واثنتف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتلفاً، أو حال من الضمير في قال، وقرأ ابن كثير أنفاً^(١).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فلذلك استهزؤوا وتهاونوا بكلامه.

(١٧) ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي زادهم الله بالتوفيق والإلهام، أو قول الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ بين لهم ما يتقون أو أعانهم على تقواهم، أو أعطاهم جزاءها.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ فهل ينتظرون غيرها. ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ بدل اشتغال من الساعة، وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ كالعلة له، وقرئ أن تأتيم على أنه شرط مُستأنف جزاؤه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ والمعنى أن تأتيم الساعة بغتة لأنه قد ظهر أماراتها كمبعث النبي عليه الصلاة والسلام، وانشقاق القمر فكيف لهم ذكراهم أي تذكركم إذا جاءتهم الساعة بغتة، وحينئذ لا يفرغ له ولا ينفع^(٢).

(١٩) ﴿فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِهِ﴾ أي إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها وهضمها بالاستغفار لذنبك. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ولذنوبهم بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعي غفرانهم، وفي إعادة الجار وحذف المضاف إشعاراً بفزط احتياجهم وكثرة ذنوبهم وأنها جنس آخر، فإن الذنب له ماله تبعه ما بترك الأولى. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ في الدنيا فإنها مراحل لا بد من قطعها. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في العقبى فإنها دار إقامتكم فاتقوا الله واستغفروه وأعدوا لمعادكم.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي هلاً نزلت سورة في أمر الجهاد. ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾

(١) يقال: ذكره آنفاً وأنفاً وسالفاً.

ذكر الأولى والثالثة الرازي في مختاره، وذكر القراءتين الفيروز في قاموسه هـ.

(٢) وتقديم «إذا جاءتهم» على «ذكراهم» للإشعار بغاية سرعة مجيئها. (س/٨/٩٧).

تُحْكَمَةُ ﴿ مِيْنَةٌ لَا تَشَابُهَ فِيهَا. ﴿ وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتَالُ ﴾ أي الأمر به. ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ضعف في الدين وقيل: نفاق. ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ جُبْنًا ومخافة. ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ فَوِيلٌ لَهُمْ، أَفَعَلُ مِنَ الْوَلِيِّ وَهُوَ الْقَرْبُ، أَوْ فَعَلَى مِنْ آلٍ وَمَعْنَاهُ الدَّعَاءُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَلِيَهُمُ الْمَكْرُوهُ أَوْ يُؤُولَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَلْهَدَى الشَّيْطَانُ سَوَلًا لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ استئناف أي أمرهم طاعة أو طاعة وقول معروف خير لهم، أو حكاية قولهم لقراءة أبي يقولون طاعة. ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أي جدّ وهو لأصحاب الأمر، وإسناده إليه مجازٌ وعامل الظرف محذوف، وقيل ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو الإيمان. ﴿ لَكَانَ ﴾ الصدق ﴿ خَيْرًا لَهُمْ ﴾.

(٢٢) ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ فهل يُتَوَقَّعُ منكم ^(١). ﴿ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أمور الناس وتأمرتُم عليهم، أو أعرضتم وتوليتُم عن الإسلام. ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ تناحراً على الولاية وتجاذباً لها، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاور ومقاتلة الأقارب، والمعنى أنهم لضغفهم في الدين وحرصهم على الدنيا أحقّاء بأن يُتَوَقَّعَ ذلك منهم مَنْ عرف حالهم ويقول لهم: هل عسيتم، وهذا على لغة الحجاز فإنّ بني تميم لا يُلْحِقُونَ الضمير به، وخبره أن تفسدوا وإن توليتُم اعتراض، وعن يعقوب توليتُم أي إن تولاكم ظلمة خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم وتقطّعوا من القطع، وقرئ تَقَطَّعُوا من التقطّع.

(٢٣) ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المذكورين ^(٢). ﴿ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ لإفسادهم وقطيعة الأرحام. ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الحق. ﴿ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ فلا يهتدون سبيله.

(٢٤) ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾ لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر، وقيل أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها التقرير، وتنكير القلوب لأنّ المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة، أو لفزط جهالتها ونكرها كأنها مبهمّة منكورة. وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أفعال مناسبة لها مختصة بها لا تجانس الأفعال المعهودة. وقرئ إقفالها على المصدر.

(٢٥) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ أي ما كانوا عليه من الكفر. ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَلْهَدَى ﴾

(١) التفات إلى المخاطب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقرير (س/٨/٩٨).

(٢) التفات إلى الغائب للإيذان بأن ذكر هتاتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيره (س/٨/٩٩).

بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سَهَّلَ لَهُمْ اقترافَ الكبائر من الشُّولِ وهو الاسترخاء. وقيل حملهم على الشهوات من الشُّولِ وهو التَّمَنِّي، وفيه أنَّ الشُّولَ مهموزٌ قُلِبَتْ هَمْزُهُ واوًا لُزِمَ ما قبلها ولا كذلك التسويلُ، ويمكنُ رُدُّه بقولهم هما يتساوِان، وقرئ سَوَّلَ على تقدير مضافٍ أي كَبَدُ الشَّيْطَانِ سَوَّلَ لَهُمْ. ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ ومدَّ لَهُمْ في الآمال والأمانِي، أو أَهْلَهُمُ اللهُ تعالى ولم يعاجِلْهم بالعقوبة لقراءة يعقوبَ وأُمْلِي لَهُمْ أي وأنا أُمْلِي لَهُمْ فتكونُ الواوُ للحال أو الاستئناف، وقرأ أبو عمرو وأُمْلِي لَهُمْ على البناء للمفعول وهو ضميرُ الشَّيْطَانِ أو لَهُمْ.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ يَصْرِيئُوتُ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْتَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي قال اليهودُ الذين كفروا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام بعدَ ما تبَيَّنَ لَهُمْ نَعْتُهُ للمنافقين، أو المنافقون لَهُمْ أو أحدُ الفريقين للمشركين. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بعض أموركم أو في بعض ما تأمرون به، كالقعود عن الجهاد والموافقة في الخروج معهم إن أُخْرِجُوا والتظاهر على الرسول ﷺ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ومنها قولهم هذا الذي أفشاهُ اللهُ عليهم، وقرأ حمزة والكسائي وحفصُ إسْرَارَهُمْ على المصدر.

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ﴾ فكيف يعملون ويحتالون حيثُذ، وقرئ توفَّاهم وهو يحتمل الماضي والمضارع المحذوف إحدى تاءيه. ﴿يَصْرِيئُوتُ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ﴾ تصويرٌ لتوقيهم بما يخافون منه ويجبئون عن القتال له.

(٢٨) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى التوقي الموصوف. ﴿بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾ من الكفر كَكُفْرَانِ نعتِ الرسول عليه الصلاة والسلام وعصيانِ الأمر. ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ﴾ ما يرضاهُ من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ لذلك.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ أن لن يبرزَ اللهُ لرسوله ﷺ والمؤمنين. ﴿أَضْغَنْتَهُمْ﴾ أحقادهم.

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم^(١). ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ بعلاماتهم التي نَسِمُهُم بها، واللامُ لامُ الجواب كُرِّرَتْ في المعطوف. ﴿وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ جوابٌ قسم محذوف، ولحنُ القول أسلوبه، أو إمالته إلى جهة تعريضٍ وتورية، ومنه قيل للمخطيء لاحتُ لأنه يعدلُ بالكلام عن الصواب. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيجازيكم على حساب قُضْدِكُمْ إذ الأعمالُ بالنيات.

(١) الالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بالإراءة (س/٨/١٠١).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآغْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴿٣٦﴾

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة. ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على مشاقه. ﴿وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسننها وقبحها، أو أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم المؤمنين في صدقها وكذبها. وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة بالياء لتوافق ما قبلها، وعن يعقوب ونبلو بسكون الواو على تقدير ونحن نبلو.

(٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ هم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بكفرهم وصددهم، أو لن يضروا رسول الله ﷺ بمشاقته، وحذف المضاف لتعظيمه وتفضيحه مشاقته. ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ثواب حسنات أعمالهم بذلك، أو مكايدهم التي نصبوها في مشاقته فلا يصلون بها إلى مقاصدهم ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

(٣٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بما أبطل به هؤلاء كالكفر والنفاق والعُجب والرياء والمن والأذى ونحوها، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

(٣٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ عام في كل من مات على كفره وإن صَحَّ نزوله في أصحاب القليب، ويدل بمفهومه على أنه قد يُغْفَرُ لمن لم يَمُتْ على كفره سائر ذنوبه.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ فلا تضعفوا. ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ ولا تدعوا إلى الصلح خَوَرًا وتذللًا، ويجوز نصبه بإضمار إن. وقرىء ولا تدعوا من ادعى بمعنى دعا، وقرأ أبو بكر وحمزة بكسر السين. ﴿وَأَنْتُمْ الْآغْلَوْنَ﴾ الأغلبون. ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ناصركم. ﴿وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَالَكُمْ﴾ ولن يضيع أعمالكم، مِنْ وَتَرْتُ الرجل إذا قتل متعلقاً به من قريب أو حميم فأفردته منه من الوتر، شبه به تعطيل ثواب العمل وإفراذه منه^(١).

(٣٦) ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾ لا ثبات لها. ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم. ﴿وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ جميع أموالكم بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر والعشر.

(١) عبر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوتر الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها (س/٨/١٠٢).

إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُذُوا ۚ وَأَخْرَجَ أَصْفَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآأَنَآ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِئَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۖ وَأَنُتُمُ الْفُقَرَاءُ ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ فيجهدكم بطلب الكل، والإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية يُقَالُ: أحفى شاربَه إذا استأصله. ﴿تَبَخَّلُوا﴾ فلا تعطوا. ﴿وَأَخْرَجَ أَصْفَانَكُمْ﴾ ويضعنكم على رسول الله ﷺ والضميرُ في يخرجُ لله تعالى، ويؤيده القراءة بالنون أو البخل لأنه سبب الإضغان، وقرىء وتُخْرِجُ بالتاء والياء ورفع أضغانكم.

(٣٨) ﴿هَآأَنَآ هَؤُلَاءِ﴾ أي أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله ﴿تَدْعُونَ لِئَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استئناف مقررٌ لذلك، أو صلةٌ لهؤلاء على أنه بمعنى الذين وهو يعمُ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما. ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ ناسٌ يبخلون وهو كالدليل على الآية المتقدمة. ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ فإنَّ نفعَ الإنفاق وضرَّ البخل عائدانِ إليه، والبخلُ يُعَدَّى بعن وعلى لتضمُّنه معنى الإمساك والتعدي فإنه إمساك عن مستحق. ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنُتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ فما يأمرُكم به فهو لاحتياجكم إليه فإن امتثلتم فلُكم وإن توليتم فعليكم. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا عَظَفٌ عَلَى أَن تَتُومُوا﴾ ﴿يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يُقِيمُ مقامكم قوماً آخرين. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ في التولي والزهد في الإيمان، وهم الفرسُ لأنه سُئِلَ عليه الصلاة والسلام عنه وكان سلمانُ إلى جنبه فضربَ فخذه وقال: «هذا وقومُه»^(١) أو الأنصارُ أو اليمنُ أو الملائكة. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ مُحَمَّدٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَن يَسْقِيَهُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(٢).

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٣/٥ - ٣٨٤ رقم ٣٢٦٠ و ٣٢٦١) والحاكم في المستدرک (٤٥٨/٢) والطبري في جامع البيان (١٣/ج ٢٦ - ٦٧) من حديث أبي هريرة.

قال الترمذي في الإسناد الأول: في إسناده مقال. ولم يقل في الآخر شيئاً، لكنه من طريق عبدالله بن جعفر المدني وهو ضعيف. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وسكت عنه الذهبي. وهو عند الحاكم من طريق عبدالعزيز الدراودي.

وأخرجه البخاري (٦٤١/٨ رقم ٤٨٩٧) والترمذي (٤١٣/٥ رقم: ٣٣١٠) من طريق ثور بن زيد الديلي عن أبي الغيث عن أبي هريرة.

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه وتقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

سورة الفتح مدنية^(١)

نزلت في مرجع رسول الله ﷺ من الحديبية وآيها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ وعدٌ بفتح مكة، والتعبير عنه بالماضي لتحققه. أو بما اتفق له في تلك السنة كفتح خيبر وفدك. أو إخبار عن صلح الحديبية، وإنما سماه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلح وتسبب لفتح مكة، وفرغ به رسول الله ﷺ لسائر العرب فغزاهم وفتح مواضع، وأدخل في الإسلام خلقاً عظيماً، وظهر له في الحديبية آية عظيمة وهي أنه نزح ماؤها بالكلية فتمضمض ثم مجّه فيها فدرّث بالماء حتى شرب جميع من كان معه^(٢)، أو فتح الروم فإنهم غلبوا الفرس في تلك السنة، وقد عرفت كونه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة الروم. وقيل الفتح بمعنى القضاء أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابل.

(٢) ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ علّة للفتح من حيث إنه مسبّب عن جهاد الكفار والسّغي في إزاحة الشرك

(١) انظر «الدر المنثور» (٥٠٧/٧). و«المحرر الوجيز» (٨٤/١٥).

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨١/٦) رقم ٣٥٧٧ عن البراء بن عازب.

ولإعلاء الدين وتكميل النفوس الناقصة قهراً ليصير ذلك بالتدريج اختياراً، وتخليص الضعفة عن أيدي الظلمة. ﴿مَا تَقَدَّمُ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميع ما قرط منك مما يصح أن تعاتب عليه. ﴿وَيَسِّرَ لَكُمْ أَسْرَكُمْ﴾ بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة. ﴿وَيَهْدِكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسيم الرئاسة.

(٣) ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ نصرأ فيه عز ومنة، أو يُعزَّز به المنصور فوصف بوضفه مبالغة^(١).

(٤) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ الثبات والطمأنينة. ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى ثبتوا حيث تقلق النفوس وتدحض الأقدام. ﴿لِيُزَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها، أو نزل فيها السكون إلى ما جاء به الرسول ﷺ ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالله واليوم الآخر. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر أمرها فيسلط بعضها على بعض تارة ويوقع فيما بينهم السلم أخرى كما تقتضيه حكمته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يقدر ويدبر.

لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوَاءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٢﴾

(٥) ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ علّة بما بعده لما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) من معنى التدبير، أي دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله فيه ويشكروها فيدخلهم الجنة ويعذب الكفار والمنافقين لما غاظهم من ذلك، أو فتخنا أو أنزل أو جميع ما ذكر أو ليزدادوا، وقيل إنه بدل منه بدل الاشتمال. ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يغطيها ولا يظهرها. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي الإدخال والتكفير. ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لأنه منتهى ما يطلب من جلب نفع أو دفع ضرر، وعند حال من الفوز.

(٦) ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ عطف على يدخل إلا إذا جعلته بدلاً فيكون عطفاً على المبدل منه^(٣). ﴿الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوَاءِ﴾ ظن الأمر السوء وهو أن لا ينصر رسوله والمؤمنين. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ﴾ دائرة ما يظنون ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطأهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو دائرة السوء بالضم وهما لغتان، غير أن المفتوح غلب في أن يُصاف إليه ما يُراد ذوهُ والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدر. ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطف لما استحقوه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا. والواو في الأخيرين - والموضع موضع الفاء. إذ اللعن سبب للإعداد والغضب سبب له - لاستقلال الكل في الوعيد بلا اعتبار السببية. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم.

(١) إظهار الاسم الجليل «الله» لإظهار كمال العناية بشأن النصر (س/٨/١٠٤).

(٢) الفتح: «٧».

(٣) وفي تقديم المنافقين عن المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحف منهم بالعذاب (س/٨/١٠٥).

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

(٨) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ على أمتك. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ على الطاعة والمعصية.

(٩) ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والأمة، أو لهم على أن خطابه منزل منزلة خطابهم. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقووه بتقوية دينه ورسوله ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظموه. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزهوه أو تفضلوا له. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوة وعشيًا أو دائماً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة بالياء، وقرئ تُعَزِّرُوهُ بسكون العين، وتُعَزِّرُوهُ بفتح التاء وضم الزاي وكسرهما، وتُعَزِّرُوهُ بالزائين، وتُوَقِّرُوهُ من أوقره بمعنى وقره.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لأنه المقصود ببيعته. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حال أو استئناف مؤكّد له على سبيل التخييل. ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ نقض العهد. ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ في مبايعته ﴿فَمَسِيئَتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة. وقرئ عهده. وقرأ حفص عليه بضم الهاء، وابن كثير ونافع وابن عامر وروح فسنوته بالنون. والآية نزلت فيبيعة الرضوان^(١).

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم أسلم وجُهينة ومُزينة وغفار استنفرهم رسول الله ﷺ عامَ الحديبية فتخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهاليهم، وإنما خلفهم الخذلان. وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش إن صدّوهم. ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم، وقرئ بالتشديد للتكثير. ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ من الله على التخلف. ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في الاعتذار والاستغفار. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنعكم من مشيئته وقضائه. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضرّكم كقتل أو هزيمة أو خلل في المال والأهل عقوبة على التخلف، وقرأ حمزة والكسائي بالضم. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ما يُضادُّ ذلك، وهو تعريض بالرد. ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيعلم تخلفكم وقصدكم فيه.

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة [شجرة سمر] فبايعناه فنزلت الآية. [أسباب النزول، جلال السيوطي ص ٢٦٥].

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّرَ ذَالِكُ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظنكم أن المشركين يستاصلونهم، وأهلون جمع أهل، وقد يُجمع على أهلات كإرضاء على أن أصله أهلة، وأما أهال فاسم جمع كليات ﴿وَزُيِّرَ ذَالِكُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكّن فيها، وقرىء على البناء للفاعل وهو الله أو الشيطان. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الظن المذكور، والمراد التسجيل عليه بالسوء أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسوله من الأمور الزائفة. ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين عند الله لفساد عقيدتكم وسوء نيتكم.

(١٣) ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضع الكافرين موضع الضمير إيداناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره، وتنكير سعيراً للتهويل أو لأنها نازة مخصوصة.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره كيف يشاء. ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إذ لا وجوب عليه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فإن الغفران والرحمة من ذاته، والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض، ولذلك جاء في الحديث الإلهي: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

(١٥) ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني المذكورين. ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانم خير فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم. ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ أن يغيروه وهو وعده لأهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خير، وقيل قوله تعالى ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾^(٢) والظاهر أنه في تبوك. والكلام اسم للتكليم غلب في الجملة المفيدة. وقرأ حمزة والكسائي كلّم الله وهو جمع كلمة. ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ نفى في معنى النهي. ﴿كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. من قبل تهيتهم للخروج إلى خيبر. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن يشاركتكم في الغنائم، وقرىء بالكسر. ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً وهو فطنتهم لأموال الدنيا، ومعنى الإضراب الأول ردّ منهم أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات

(١) أخرج البخاري رقم (٣١٩٤) وأطرافه (٧٤٠٤)، (٧٤٢٢) و(٧٤٥٣) و(٧٥٥٤) ومسلم رقم (٢٧٥١).
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي».

(٢) التوبة: (٨٣).

للعسدى، والثاني ردٌّ من الله لذلك وإثباتٌ لجهلهم بأمور الدين.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأَنْسٍ شَدِيدٍ تَقْبَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كَرَّرَ ذِكْرَهُمْ بهذا الاسم مبالغةً في الذمِّ وإشعاراً بشناعة التخلف. ﴿سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأَنْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفة أو غيرهم ممن ارتدوا بعدَ رسولِ الله ﷺ، أو المشركين فإنه قال: ﴿تَقْبَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ أي يكون أحدُ الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير كما دلَّ عليه قراءة أو يسلمون، ومنَ عداهم يقاتل حتى يسلم أو يعطي الجزية. وهو يدلُّ على إمامة أبي بكر رضي الله عنه إذ لم تنفك هذه الدعوة لغيره إلا إذا صحَّ أنهم ثقيف وهوازن فإنَّ ذلك كان في عهد النبوة. وقيل فارسُ والرومُ ومعنى يسلمون ينقادون ليتناولوا تقبلهم الجزية. ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عن الحديبية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم.

(١٧) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ لما أوعد على التخلف نفى الحرج عن هؤلاء المعذورين استثناءً لهم عن الوعيد^(١). ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فضلُ الوعد وأجملُ الوعيد مبالغةً في الوعد لسبق رحمته، ثم جبرَّ ذلك بالتهديد على سبيل التعميم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ الترهيبُ ها هنا أنفع من الترغيب، وقرأ نافع وابنُ عامر ندخله ونعذبه بالنون.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ لما نزلَ الحديبية بعثَ جَوَّاسَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخَزَاعِيَّ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فهُمْؤُوا بِهِ فَمَنَعَهُ الْأَحَابِيشُ فَرَجَعَ، فَبَعَثَ عِثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَحَبَسُوهُ فَأَرْجَفَ بِقَتْلِهِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ وَكَانُوا أَلْفًا وَثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ، وَبَايَعَهُمْ عَلَى أَنْ يَقَاتِلُوا قَرِيشًا وَلَا يَفِرُّوا عَنْهُمْ وَكَانَ جَالِسًا تَحْتَ سَمَرَةٍ أَوْ سَدْرَةٍ^(٢). ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص. ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطمأنينة، وسكونُ النفس بالتشجيع أو

(١) وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة (س/٨/١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٢٤/٤ - ٣٢٥) من حديث المسورين مخزومة ومروان بن الحكم مطولاً. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٣٣/٤، ١٣٤، ١٣٥) بسند ضعيف عن عروة بن الزبير، وعن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم.

وأما حديث البيعة بدون ذكر السبب فهو في الصحيحين من طرق وألفاظ مختلفة، البخاري (٤٤٣/٧) ومسلم (١٤٨٣/٣).

والشجرة: بضم الميم - من شجر الطلح - وهو شجر عظيم من شجر العضاة.

الصُّلْحِ. ﴿وَأَنْتَبَهُمْ فَتَحَاقَرِبَا﴾ فتح خيبر غِبَّ انصرافهم، وقيل مكة أو هَجَرَ.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجْدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني مغانم خيبر. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ غالباً مراعيًا مقتضى الحكمة.

(٢٠) ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني مقام خيبر. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، أو أيدي قريش بالصلح. ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة أو الغنيمة. ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمانة يعرفون بها أنهم من الله بمكان، أو صدق الرسول في وعدهم فتح خيبر في حين رجوعه من الحديبية، أو وعد المغانم أو عنواناً لفتح مكة، والعطف على محذوف هو علة لكف، أو عجل مثل لتسلموا، أو لتأخذوا أو العلة لمحذوف مثل فعل ذلك. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه.

(٢١) ﴿وَأُخْرَى﴾ ومغانم أخرى معطوفة على هذه، أو منصوبة بفعل يفسره قد أحاط الله بها مثل قضى، ويُختم رفعها بالابتداء لأنها موصوفة وجزؤها بإضمار رب. ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ بعد لما كان فيها من الجولة. ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ استولى فأظفركم بها وهي مغانم هوازن أو فارس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأن قدرته ذاتية لا تختص بشيء دون شيء.

(٢٢) ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصالحوها. ﴿لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ﴾ لانهمزوا. ﴿ثُمَّ لَا يَجْدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي سن غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال تعالى ﴿لَا غَلْبَ لَنَا وَأَنْتَ أَرْسَلْنَا﴾^(١). ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

(٢٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي كفار مكة. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكة. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أظهركم عليهم، وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد^(٢).

(١) المجادلة: (٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج ٢٦/٩٥) عن ابن حميد الرازي وهو ضعيف. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٥٣ رقم ٤٢٤): «وفي صحته نظر لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية...» هـ.

وقيل كان ذلك يوم الفتح واستشهد به على أن مكة فتحت غنوة وهو ضعيف إذ السورة نزلت قبله. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم أولاً طاعة لرسوله وكفهم ثانياً لتعظيم بيته، وقرأ أبو عمرو بالياء ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عليه.

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رُسُولَهُ الرُّبُيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحِقِّينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُ﴾ يدلُّ على أن ذلك كان عامَ الحديبية، والهدي ما يُهْدَى إلى مكة. وقرىء الهدي وهو فاعل بمعنى مفعول، ومحلّه مكانه الذي يحلُّ فيه نحره والمراد مكانه المعهود وهو منى لا مكانه الذي لا يجوز أن ينحرف في غيره، وإلا لما نحره الرسول ﷺ حيث أخصر فلا ينتهض حجة للحنفية على أن مذبح هذي المخصر هو الحرم. ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين. ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أن توقعوا بهم وتبيدوهم قال:

وَوَطَّئْنَا وَطْأً عَلَى حَنَقِي وَطْءَ الْمُقَيَّدِ ثَابِتَ الْهَرَمِ

وقال عليه الصلاة والسلام «إِنَّ آخَرَ وَطْءٍ وَطْئَهَا اللَّهُ بوج»^(١) وهو وادٍ بالطائف كان آخر وقعة للنبي ﷺ بها، وأصله الدوس وهو بدل الاشتمال من رجال ونساء أو من ضميرهم في تعلموهم. ﴿فَنُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ﴾ من جهتهم. ﴿مَعَرَّةٌ﴾ مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم وللتأشيف عليهم، وتعبير الكفار بذلك والإثم بالتقصير في البحث عنهم مفعلة من عزّه إذا أغراه ما يكرهه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بأن تطوؤهم أي تطوؤهم غير عالمين بهم، وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف

(١) أخرجه أحمد (١٧٢/٤) والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٦١، من حديث يعلى العامري. وفيه سعيد بن أبي راشد: مقبول، قاله الحافظ في التقریب. وقال عنه الذهبي في «الكاشف» صدوق. والحديث له شاهد من حديث (خولة بنت حكيم) أخرجه أحمد (٤٠٩/٦) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٦١). وفي إسناده: محمد بن أبي سويد الطائفي: مجهول، قاله الحافظ في التقریب. وخلاصة القول أن الحديث حسن والله أعلم. قلت: أول البيهقي الحديث ومذهب السلف إمرار صفاته تعالى كما جاءت دون تأويل ولا تعطيل ولا تكييف.

أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ. ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾. عَلَّةٌ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ كَفَّ الْأَيْدِي عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ صَوْنًا لِمَنْ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْ كَانَ ذَلِكَ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ أَيْ فِي تَوْفِيقِهِ لَزِيَادَةِ الْخَيْرِ أَوْ لِلْإِسْلَامِ. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ مُؤْمِنِيهِمْ أَوْ مُشْرِكِيهِمْ. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لَوْ تَفَرَّقُوا وَتَمَيَّزَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَقَرِءُ تَزَايَلُوا. ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَقْدَرٌ بِأَذْكُرْ أَوْ ظَرَفٌ لِعَذْبِنَا أَوْ صَدُوكُمْ. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الْإِنْفَةَ. ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الَّتِي تَمْنَعُ إِذْعَانَ الْحَقِّ. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الثَّبَاتَ وَالْوَقَارَ وَذَلِكَ مَا رُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا هَمَّ بِقِتَالِهِمْ بَعَثُوا سَهِيلَ بْنَ عَمْرٍو وَحُوَيْطَبَ بْنَ عَبْدِ الْعَزَى وَمَكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ لِيَسْأَلُوهُ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ عَامِهِ عَلَى أَنْ يُخْلِيَ لَهُ قَرِيشٌ مَكَّةَ مِنَ الْقَابِلِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَأَجَابَهُمْ وَكَتَبُوا بَيْنَهُمْ كِتَابًا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «اكَتَبَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَقَالُوا مَا نَعْرِفُ هَذَا اكَتَبَ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قَالَ: «اكَتَبَ هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ أَهْلَ مَكَّةَ» فَقَالُوا: لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَا قَاتَلْنَاكَ، اكَتَبَ هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَهْلَ مَكَّةَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اكَتَبَ مَا يَرِيدُونَ» فَهَمَّ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَأْبُوا ذَلِكَ وَيَبْطِشُوا عَلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ فَتَوَقَّروا وَتَحَمَّلُوا^(١). ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ كَلِمَةَ الشَّهَادَةِ أَوْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ اخْتَارَهَا لَهُمْ، أَوْ الثَّبَاتَ وَالْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ، وَإِضَافَةَ الْكَلِمَةِ إِلَى التَّقْوَى لِأَنَّهَا سَبَبُهَا أَوْ كَلِمَةُ أَهْلِهَا. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ مِنْ غَيْرِهِمْ. ﴿وَأَهْلُهَا﴾ وَالْمُسْتَأْهِلِينَ لَهَا. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فَيَعْلَمُ أَهْلُ كُلِّ شَيْءٍ وَيَسْرُهُ لَهُ.

(٢٧) ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ رَأَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ وَأَصْحَابُهُ دَخَلُوا مَكَّةَ آمِنِينَ وَقَدْ حَلَّقُوا وَقَصَّروا، فَقَصَّ الرُّؤْيَا عَلَى أَصْحَابِهِ فَفَرَحُوا وَحَسِبُوا أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي عَامِهِمْ، فَلَمَّا تَأَخَّرَ قَالَ بَعْضُهُمْ وَاللَّهِ مَا حَلَقْنَا وَلَا قَصَرْنَا وَلَا رَأَيْنَا الْبَيْتَ فَتَزَلَّتْ^(٢) وَالْمَعْنَى صَدَقَهُ فِي رُؤْيَاةٍ. ﴿بِالْحَقِّ﴾ مَلْتَبِسًا بِهِ فَإِنْ مَا رَأَاهُ كَائِنٌ لَا مُحَالَةَ فِي وَقْتِهِ الْمَقْدَرُ لَهُ وَهُوَ الْعَامُ الْقَابِلُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِالْحَقِّ صِفَةً مُصَدِّرٍ مَحْذُوفٍ أَيْ صَدَقًا مَلْتَبِسًا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْقَصْدُ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الثَّابِتِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْمَتَزَلِّزِ فِيهِ، وَأَنْ يَكُونَ قِسْمًا إِمَّا بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ بِنَقِيضِ الْبَاطِلِ وَقَوْلُهُ: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ جَوَابُهُ وَعَلَى الْأَوَّلِينَ جَوَابٌ قِسْمٌ مَحْذُوفٌ. ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تَعْلِيقٌ لِلْعُدَّةِ. بِالْمَشِيئَةِ تَعْلِيمًا لِلْعِبَادِ، أَوْ إِشْعَارًا بِأَنَّ بَعْضَهُمْ لَا يَدْخُلُ لِمَوْتٍ أَوْ غِيْبَةٍ أَوْ حِكَايَةِ لِمَا قَالَهُ مَلِكُ الرُّؤْيَا، أَوِ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ. ﴿ءَامِنِينَ﴾ حَالٌ مِنَ الْوَاوِ، وَالشَّرْطُ مُعْتَرِضٌ. ﴿مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أَيْ مُحَلِّقًا بَعْضَكُمْ وَمُقَصِّرًا آخَرُونَ. ﴿لَا

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي «السِّيَرَةِ» (٣/٤٢٧، ٤٤٠) وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٤/٣٢٤ - ٣٢٦) مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ. وَقَدْ صَرَحَ بِالسَّمَاعِ عِنْدَ ابْنِ هِشَامٍ وَسَنَدُهُ مُتَّصِلٌ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ وَلَمْ يَصْرَحْ ابْنُ إِسْحَاقَ بِالسَّمَاعِ عِنْدَ أَحْمَدَ. وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ الْحَدِيثَ حَسَنٌ.

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥/٣٠٣ - ٣٠٤) رَقْمَ ٢٦٩٨، ٢٦٩٩ وَمُسْلِمٌ (٣/١٤٠٩ - ١٤١١) رَقْمَ ٩٠، ٩١، ١٧٨٣/٩٢ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ وَمُسْلِمٌ (٣/١٤١١) رَقْمَ ١٧٨٤/٩٣ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» (٤/١٦٤) وَابْنُ جُرَيْرٍ فِي «جَامِعِ الْبَيَانِ» (١٣/١٠٧) بِإِسْنَادَيْنِ أَحَدُهُمَا إِسْنَادُ الْبَيْهَقِيِّ، وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى مُجَاهِدٍ.

تَخَافُونَ ﴿٢٨﴾ حالٌ مؤكدة أو استئنافٌ أي لا تخافون بعد ذلك . ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة في تأخير ذلك . ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة . ﴿فَتَحَاقَرَبَ﴾ هو فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعد .

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٩﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَعِبُهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَزَادَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرْعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ ملتبساً به أو بسببه أو لأجله . ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام . ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليغلبه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقاً، وإظهار فساد ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهله إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون، وفيه تأكيد لما وعده من الفتح . ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن أو على نبوته بإظهار المعجزات .

(٢٩) ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ جملةٌ مبيّنة للمشهود به، ويجوز أن يكون رسول الله صفةً ومحمدٌ خبرٌ محذوف أو مبتدأ : ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوفٌ عليه وخبرهما . ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأشداء جمعٌ شديد ورحماء جمع رحيم، والمعنى أنهم يغلبون على من خالف دينهم ويتراحمون فيما بينهم كقوله ﴿أَذَلُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١) . ﴿تَرْتَعِبُهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشغولون بالصلاة في أكثر أوقاتهم . ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ الثواب والرضا . ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يريد السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود، فعلى من سأمه إذا أعلمه وقد قرئت ممدودةً ومن أثر السجود بيانها أو حالٌ من المستكين في الجار . ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الوصف المذكور، أو إشارةٌ مبهمَةٌ يفسرها كزرع . ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ صفتهم العجيبة الشأن المذكورة فيها . ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ عطفٌ عليه أن ذلك مثلهم في الكتابين وقوله : ﴿كَزَرْعٍ﴾ تمثيلٌ مستأنفٌ أو تفسيريٌّ أو مبتدأ، وكزرع خبره . ﴿أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾ فراخه يُقَالُ أَشْطَأَ الزَّرْعُ إِذَا فَرَّخَ، وقرأ ابن كثير وابن عامر برواية ابن ذكوان شَطَأَهُ بفتح الشاء وهو لغةٌ فيه، وقرئ شَطَأَهُ بتخفيف الهمزة، وشطاءً بالمد، وشطه بنقل حركة الهمزة وحذفها، وشطوه بقلبها واواً . ﴿فَزَادَهُ﴾ فقواه من المؤازرة وهي المعاونة أو من الإيزار وهي الإعانة، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان فَازَرَهُ كَأَجَرَهُ فِي آجَرِهِ . ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ . ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق، وعن ابن كثير سَوَقَهُ بالهمزة . ﴿يُعْجِبُ الزُّرْعَ﴾ بكثافته وقوته وغلظه وحسن منظره . وهو مثلٌ ضربته الله تعالى للصحابة قلوا في بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس . ﴿لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ علةٌ لتشبيهم بالزرع في زكاته واستحكامه أو لقوله :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَإِنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا سَمِعُوهُ غَاظَهُمْ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ
 للبيان. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمدٍ عليه الصلاة والسلام فتح
 مَكَّةَ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع. أخرجه ابن مردويه والواحدي بالإسناد إلى أبي بن كعب. وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ

سورة الحجرات مدنية^(١) وآياتها ثمان عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا﴾ أي لا تقدموا أمراً، فحذف المفعول لِإِذْهَبَ الوهم إلى كل ما يمكن، أو تُرِكَ لأنَّ المقصود نفْيُ التقديم رأساً، أو لا تتقدموا ومنه مقدمة الجيش لمتقدميهم، ويؤيده قراءة يعقوب لا تَقْدَمُوا. وقرئ لا تَقْدُمُوا من القُدوم^(٢). ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مستعار مما بين الجهتين المسامتين ليدي الإنسان تهجيناً لما نُهوا عنه، والمعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكما به.

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحجرات بالمدينة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢٩/١٥): «وهي مدنية بإجماع من أهل التأويل رضي الله عنهم».

(٢) تصدير الخطاب بالنداء لتنبية المخاطبين على أن ما في خيره أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتقليه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتشيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به (س/٨/١١٥).

وقيل المراد بين يدي رسول الله ﷺ، وذكر الله تعظيم له وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله. ﴿وَأَنفُوا اللَّهَ﴾ في التقديم أو مخالفة الحكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

(٢) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلمتموه فلا تجاوزوا أصواتكم عن صوته. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته محاماة على الترحيب ومراعاة للأدب. وقيل معناه ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً وخاطبوه بالنبي والرسول، وتكرير النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الاتعاظ والدلالة على استقلال المنادى له وزيادة الاهتمام به. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ﴾ كراهة أن تحبط فيكون علّة للنهي، أو لأن تحبط على أن النهي عن الفعل المعلل باعتبار التأدية لأن في الجهر والرفع استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحيط، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة. وقد روي أن ثابت بن قيس^(١) كان في أذنه وقرة وكان جهورياً، فلما نزلت تخلف عن رسول الله ﷺ فتفقدته ودعاه، فقال: يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة»^(٢). ﴿وَأَن تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطة.

(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ يخفصونها. ﴿عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مراعاة للأدب أو مخافة عن مخالفة النهي. قيل كان أبو بكر وعمر بعد ذلك يسرانه حتى يستفهمهما. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ جربها للتقوى ومزنها عليها، أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها، فإن الامتحان سبب المعرفة. واللام صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى، فإنها لا تظهر إلا باصطبار عليها، أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه وميز إبريزه من خبثه. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لغضهم وسائر طاعاتهم، والتذكير للتعظيم، والجملة خبر ثانٍ لأن، أو استئناف لبيان ما هو جزاء الغاضين إحماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين، والمبتدأ اسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم، والخبر الموصول بصلة دللت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بغضهم والارتضاء له، وتعرضاً بشناعة الرفع والجهر وأن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك.

(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ من خارجها خلفها أو قدامها، ومن ابتدائية فإن المناذرة نشأت من جهة الراء، وفائدتها الدلالة على أن المنادى داخل الحجرة إذ لا بد وأن يختلف المبتدأ والمنتهى بالجهة، وقرىء الحُجُرَات بفتح الجيم وسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهي القطعة من الأرض المحجورة بحائط، ولذلك يقال لحظيرة الإبل حجرة. وهي فعلة بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة، والمراد حجرات نساء النبي عليه الصلاة والسلام وفيها كناية عن خلوته بالنساء ومناديتهن من ورائها،

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك بن امرئ القيس بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج أبو محمد وقيل

أبو عبد الرحمن خطيب الأنصار شهد أحداً وقتل باليمامة [تجريد أسماء الصحابة. الذهبي ج ١ ص ٦٤].

(٢) أخرجه البخاري (٦/٦٢٠ رقم ٣٦١٣) و(٨/٥٩٠ رقم ٤٨٤٦) ومسلم (١١/١١٠ رقم ١٨٧، ١٨٨) عنه.

إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوهُ من ورائها، أو بأنهم تفرَّقوا على الحجراتِ متطلبين له، فأسندَ فعلَ الأبعاضِ إلى الكلِّ. وقيل إن الذي ناداه عيينةُ بنُ حصن والأقرع بنُ حابس، وقدَا على رسولِ الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقتَ الظهيرة وهو راقِدٌ فقالا يا محمد اخرج إلينا، وإنما أُسِنِدَ إلى جميعهم لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به، أو لأنه وجد فيما بينهم. ﴿أَكْذَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقلُ يقتضي حسنَ الأدبِ ومراعاةَ الحشمةِ سيِّما لمن كان بهذا المنصبِ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقُ بْنُا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَتِهِمْ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولو ثبت صبرُهم وانتظارُهم حتى تخرجَ إليهم، فإنَّ أُنَّ وإنْ دلَّتْ بما في حيزها على المصدرِ دلَّتْ بنفسها على الثبوتِ، ولذلك وجبَ إضمارُ الفعلِ وحتى تفيدَ أنَّ الصبرَ ينبغي أن يكونَ مغنياً بخروجه، فإنَّ حتى مختصةٌ بغاية الشيء في نفسه ولذلك تقول: أكلْتُ السمكةَ حتى رأسها، ولا تقول حتى نصفها، بخلافٍ إلى فإنها عامة، وفي إليهم إشعارٌ بأنه لو خرجَ لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجَّه إليهم. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكان الصبرُ خيراً لهم من الاستعجالِ لما فيه من حفظِ الأدبِ وتعظيمِ الرسولِ الموجهين للثناء والثواب والإسعافِ بالمسؤول، إذ روي أنهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبرِ فأطلق النصفَ وفادى النصفَ. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث اقتصرَ على النصيحِ والتفريعِ لهؤلاء المسيئين الأدبِ التاركين تعظيمَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

(٦) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقُ بْنُا فَتَبَيَّنُوا﴾ فتعرفوا وتصفَّحوا، روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بنَ عقبة ^(١) مصداقاً ^(٢) إلى بني المصطلق وكان بينه وبينهم إحنة ^(٣)، فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله ﷺ قد ارتدوا ومنعوا الزكاةَ فهم بقتالهم فنزلت ^(٤). وقيل بعث

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط إبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية بن عبدشمس في دمشق، من مسلمة الفتح وأمه أروى أم عثمان بن عفان.

[تجريد أسماء الصحابة. الذهبي ج ٢ ص ١٢٩].

(٢) عاملاً في الصدقة.

(٣) الإحنة: العداوة.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/٤٠١ رقم ٩٦٠) وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٢٦/١٢٣) من حديث أم سلمة.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/١١١) وقال: «رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».

● وبنحوه أخرجه أحمد في المسند (٤/٢٧٩) والطبراني في الكبير (٣/٣١٠ رقم ٣٣٩٥) من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/١٠٩): «رجال أحمد ثقات».

وانظر «الكافي الشاف» (ص ١٥٦ رقم ١٨). وتفسير ابن كثير (٤/٢٢٣).

إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متجهدين فسلموا إليه الصدقات فرجع^(١)، وتنكير الفاسق والنبا للتعميم، وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل من حيث أن المعلق على شيء بكلمة إن عدم عند عدمه، وأن خبر الواحد لو وجب تبينه من حيث هو كذلك لما رتب على الفسق، إذ الترتيب يفيد التعليل وما بالذات لا يعلل بالغير. وقرا حمزة والكسائي فتثبتوا أي فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال. ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ كراهة إصابتكم. ﴿قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ جاهلين بحالهم. ﴿فَنُصِصُوا﴾ فتصيروا. ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ مغتمين غمًا لازماً متمنين أنه لم يقع، وتركيب هذه الأحرف الثلاثة دائر مع الدوام.

وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

(٧) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أنَّ بما في حيزه ساد مسد مفعولي اعلموا باعتبار ما قيد به من الحال وهو قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ فإنه حال من أحد ضميري فيكم، ولو جعل استئنافاً لم يظهر للأمر فائدة. والمعنى أنَّ فيكم رسول الله على حالٍ يجب تغييرها وهي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث، ولو فعل ذلك لعنتم أي لوقعتم في الجهد من العنت، وفيه إشعار بأن بعضهم أشار إليه بالإيقاع ببني المصطلق وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ استدراك بيان عذرهم، وهو أنه من قزط حبهم للإيمان وكراهتهم للكفر حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد، أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم إحكاماً لفعلهم وتعريضاً بدم من فعل ويؤيده قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السوي، وكراهة يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد فإذا شدد زاد له آخر، لكنه لما تضمن معنى التبغيض نزل كراهة منزلة بغض فعُدِّي إلى آخر بالي، أو نزل إليكم منزلة مفعول آخر. والكفر: تغطية نعم الله بالجحود، والفسوق: الخروج عن القصد، والعصيان: الامتناع عن الانقياد.

(٨) ﴿فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ﴾ تعليل لكراهة أو حبب، وما بينهما اعتراض لا للراشدون فإن الفضل فعل الله، والرشد وإن كان مستبياً عن فعله مسنداً إلى ضميرهم أو مصدرٌ لغير فعله فإن التحبيب والرشد فضل من الله وإنعام. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث يفضل وينعم بالتوفيق عليهم.

(٩) ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع.

= وخلاصة الحديث أنه حسن والله أعلم.

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٥٦ رقم ١٩): لم أره.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالتصحيح والدعاء إلى حكم الله تعالى. ﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ تعدت عليها. ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نَفِيلٍ حَتَّى تَقَىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ ترجع إلى حكمه أو ما أمر به، وإنما أُطلق الفيء على الظل لرجوعه بعد نسخ الشمس، والغنيمة لرجوعها من الكفار إلى المسلمين. ﴿فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بفصل ما بينهما على ما حكم الله، وتقييد الإصلاح بالعدل ها هنا لأنه مظنة الحيف من حيث إنه بعد المقاتلة. ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ واعدلوا في كل الأمور. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يحمدهم فعلهم بحسن الجزاء. والآية نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال^(١)، وهي تدل على أن الباغي مؤمن وأنه إذا قبض عن الحرب ترك كما جاء في الحديث لأنه فيء إلى أمر الله تعالى، وأنه يجب معاونته من بني عليه بعد تقديم النصيح والسعي في المصالحة.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَبِّ بَشَرِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ من حيث إنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، وهو تعليل وتقرير للأمر بالإصلاح ولذلك كرره مرتباً عليه بالفاء فقال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتخصيص، وخص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق. وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج. وقرئ بين إخوانكم وإخوانكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة حكمه والإهمال فيه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على تقواكم.

(١١) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض إذ قد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر. والقوم مختص بالرجال لأنه إما مصدر نُعت به فشاغ في الجمع، أو جمع لقائم كزائر وزور والقيام بالأمور وظيفه الرجال كما قال تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(٢) وحيث فسّر بالقبيلين كقوم عاد وفرعون؛ فإما على التغليب أو الاكتفاء بذكر الرجال على ذكرهن لأنهن توابع. واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع. وعسى باسمها استئناف بالعلة الموجبة للنهي، ولا خبر لها لإغناء الاسم عنه. وقرئ عسوا أن يكونوا، وعسين أن يكنّ فهي على هذا ذات خبر. ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ولا يغتب بعضكم بعضاً فإن المؤمنين كنفس واحدة، أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لزم نفسه. واللمز الطعن باللسان. وقرأ يعقوب بالضم. ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَبِّ﴾ ولا يذغ بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عُرُفاً. ﴿بَشَرِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي بش الذكّر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به، والمراد به إما

(١) أخرجه البخاري (٢٩٧/٤) رقم (٢٦٩١) ومسلم (١٤٢٤/٣) رقم (١٧٩٩) من حديث أنس.

(٢) النساء: ٣٤.

تهجينُ نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين خصوصاً إذ روي أنَّ الآية نزلت في صفية بنت حيي رضي الله عنها، أثت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها «هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد عليهم السلام»^(١) أو الدلالة على أنَّ التناثر فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستفبح. ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ عما نُهي عنه. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب.

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّهُ بِغَضِ الظَّنِّ إِنَّهُ وَلَا يَحْسَسُوهُ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ شُعْبًا وَقَبَائِلَ لِّيَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلَيْسَ لَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ كونوا منه على جانب، وإيهام الكثير لاحتياط في كل ظنٍّ ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل، فإن من الظنِّ ما يجب اتباعه كالظنِّ حيث لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظنِّ بالله سبحانه وتعالى، وما يحرم كالظنِّ في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظنُّ السوء بالمؤمنين، وما يباح كالظنِّ في الأمور المعاشية. ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾ مستأنف للأمْرِ، والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه. والهمزة فيه بدلٌ من الواو كأنه يثم الأعمال أي يكسرها. ﴿وَلَا يَحْسَسُوهُ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، تفعل من الجسِّ باعتبار ما فيه من معنى الطلب كالتلُّسِّ، وقرئ بالحاء من الحسن الذي هو أثر الجسِّ وغايته، ولذلك قيل للحواس الخمس الجواسر. وفي الحديث: «لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»^(٢). ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته. وسئل عليه الصلاة والسلام عن الغيبة فقال «أَنْ تَذَكَرَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ فَقْدٌ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقْدٌ بَهْتَهُ»^(٣). ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل لما يناله المغتاب من عرض

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٣٩٣) عن عكرمة عن ابن عباس به بدون سند.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨/٤) رقم ٢٠٣٢) وابن حبان (ص ٣٥٩ رقم ١٤٩٤ - موارد).

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد. وروى عن أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ نحو هذا.

● والشاهد الذي أشار إليه الترمذي أخرجه أبو داود (١٩٤/٥ رقم ٤٨٨٠) وأحمد في المسند (٤٢١/٤) من حديث أبي برزة الأسلمي.

● وله شاهد من حديث البراء بن عازب أخرجه أبو يعلى في المسند (٢٣٧/٣ - ٢٣٨ رقم ١٦٧٥).

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٩/٧٠) وأبو داود (١٩١/٥ رقم ٤٨٧٤) والترمذي (٣٢٩/٤ رقم ١٩٣٤) من =

المغتتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام المقرّر، وإسناد الفعل إلى أحدٍ للتعميم، وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة وتمثيل الاغتيال بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخاً وميتاً وتعقيب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك. والمعنى إن صحَّ ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرِهْتُمُوهُ ولا يمكنكم إنكار كراهته وانتصاب ميتاً على الحال من اللحم أو الأخ. وشدّده نافع. ﴿وَأَنْقَوُا آلَهُ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ لمن اتقى ما نُهي عنه وتاب مما فرط منه، والمبالغة في التَّوَابِ لأنه بليغ في قبول التوبة إذ يجعل صاحبها كمن لم يذنب، أو لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم، روي: أن رجلين من الصحابة بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ يبغيا لهما إداماً، وكان أسامة على طعامه فقال: ما عندي شيء فأخبرهما سلمان فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها، فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟» فقالا: ما تناولنا لحماً، فقال: «إنكما قد اغتبتما» فنزلت^(١).

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدم وحواء عليهما السلام، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب. ويجوز أن يكون تقريراً للأخوة المانعة عن الاغتيال. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعبُ الجمع العظيم المتسبون إلى أصلي واحد وهو يجمع القبائل. والقبيلة تجمع العائلات. والعمارة تجمع البطون. والبطن تجمع الأفخاذ. والفخذ يجمع الفصائل، فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، وعباس فصيلة. وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضاً لا للتفاخر بالأباء والقبائل. وقرىء لتعارفوا بالإدغام ولتعارفوا. ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ فإن التقوى بها تكمل النفوس وتتفاضل بها الأشخاص، فمن أراد شرفاً فليَتَمَسَّهْ منها كما قال عليه الصلاة والسلام: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله»^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام «يا أيها الناس إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله»^(٣). ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُمْ﴾ بكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم.

(١٤) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة جذية وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بالأنثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون الصدقة ويمثون^(٤). ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب، ولم يحصل لكم

= حديث أبي هريرة.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٥٨ رقم ٣٦): «هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو. وفي

الترغيب لأبي القاسم الأصهباني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلة نحوه» هـ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/ ٢٧٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٨) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٩ رقم ٣٢٧٠) من حديث ابن عمر في سياق أطول من ذلك وهذا جزء منه.

وقال الترمذي: وعبد الله بن جعفر يضعف، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه. وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٧٠٠).

(٤) أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى أن ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلك بنو فلان فأنزل الله «يمنون عليك أن أسلموا».

وأخرج البزار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن الحسن وأن ذلك لما فتحت مكة.

إلا لما منتقم على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإسلام وترك المقاتلة كما دل عليه آخرُ السورة. ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فإن الإسلام انقيادٌ ودخول في السلم وإظهار الشهادتين وترك المحاربة يشعرُ به، وكان نظمُ الكلام أن يقول لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أو لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدلَ منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القولِ بالإيمان والجزمِ بإسلامهم، أو لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدلَ منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القولِ بالإيمان والجزمِ بإسلامهم، وقد فقدَ شرطَ اعتباره شرعاً. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيتُ لقولوا فإنه حالٌ من ضميره أي: ولكن قولوا أسلمنا ولم تواطئ قلوبكم السنتكم بعد. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص وترك النفاق. ﴿لَا يَلْتَكُرْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ لا ينقضكم من أجورها. ﴿شَيْئاً﴾ من لا تَ يليت شيئاً إذا نقص، وقرأ البصريان لا يالتكم من الألت وهو لغة غطفان. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما قرط من المطيعين. ﴿رَحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة، وفيه إشارة إلى ما أوجب نفي الإيمان عنهم، وثم للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس حال الإيمان فقط بل فيه وفيما يستقبل فهي كما في قوله ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾^(١). ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعته والمجاهدة بالأموال والأنفس تصلح للعبادات المالية والبدنية بأسرها. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا في ادعاء الإيمان.

(١٦) ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ﴾ أنخبرونه به بقولكم آمنا. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، وهو تجهيل لهم وتوبيخ. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون، فنزلت هذه الآية.

(١٧) ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعدون إسلامهم عليك مئةً وهي النعمة التي لا يستثيب مولها ممن

= وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ. سنة تسع وفيهم طلحة بن خويلد ورسول الله في المسجد مع أصحابه فسلموا وقال متكلمهم: يا رسول الله إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبده ورسوله وجنتك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن لمن وراءنا سلم فأنزل الله «يؤمنون عليك أن أسلموا».

وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبيرة قال: أتى قوم من الأعراب من بني أسد النبي ﷺ فقالوا: جنتك ولم نقاتك فأنزل الله «يؤمنون عليك أن أسلموا».

انظر [أسباب النزول، السيوطي ص ٢٧٢، ص ٢٧٣].

(١) الأحقاف: (١٣).

بذلها إليه، من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته. وقيل النعمة الثقيلة من المن. ﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي بإسلامكم، فنصب بترع الخافض أو تضمين الفعل معنى الاعتدال. ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ على ما زعمتم مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء وقرئ إن هداكم بالكسر، وإذ هداكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله أي فله المنة عليكم، وفي سياق الآية لطف وهو أنهم لما سئوا ما صدر عنهم إيماناً ومثوا به فنفى أنه إيماناً وسمّاه إسلاماً بأن قال يمتنون عليكم بما هو في الحقيقة إسلام وليس بجدير أن يمتن به عليك، بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فله المنة عليهم بالهداية له لا لهم.

(١٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سرركم وعلايتكم فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم، قرأ ابن كثير بالياء لما في الآية من الغيبة. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه»^(١).

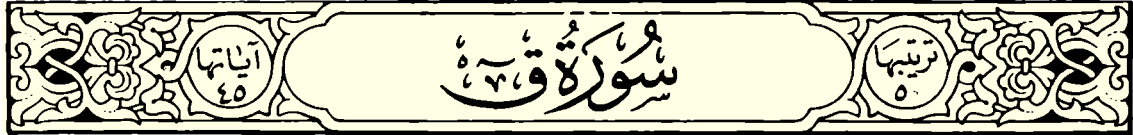
☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب به.

وهو حديث موضوع.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٥٩ رقم ٤٠).

وتقدم الكلام في آخر سورة آل عمران.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوِ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِیْجٍ ﴿٥﴾

سورة ق مكية^(١) ، وهي خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ الكلام فيه كما مرّ في ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . والمجيد: ذو المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد، أو لأن من علّم معانيه وامتلأ أحكامه مُجْدًا .

(٢) ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم أحدٌ من جنسهم أو من أبناء جلدتهم . ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ حكاية لتعجبهم، وهذا إشارة إلى اختيار الله محمدًا ﷺ للرسالة . وإضمار ذكرهم ثم إظهاره للإشعار بتعنتهم بهذا المقال، ثم التسجيل على كفرهم بذلك، أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة، والمبالغة فيه بوضع الظاهر موضع ضميرهم، وحكاية تعجبهم مبهمًا إن كانت الإشارة إلى منبهم يفسره ما بعده، أو محملًا إن كانت الإشارة إلى محذوف دل عليه «منذر» ثم تفسيره أو تفصيله لأنه أدخل في الإنكار إذ الأول استبعاد لأن يفضل عليهم مثلهم، والثاني استقصار لقدرة الله تعالى عما هو أهون مما يشاهدونه من صنعه .

(٣) ﴿أَوِ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أنرجع إذا مِتْنَا وَصِرْنَا تُرَابًا، ويدل على المحذوف قوله: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي بعيدٌ عن الوهم أو العادة أو الإمكان . وقيل الرجوع بمعنى المرجوع .

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/١٥٨) «وهي مكية بإجماع من المتأولين» هـ .

(٤) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما تأكل من أجساد موتاهم، وهو رد لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه، وقيل إنه جواب القسم والقسم واللام محذوف لطول الكلام. ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، أو محفوظ عن التغيير، والمراد إما تمثيل علمه بتفاصيل الأشياء بعلم من عنده كتاب محفوظ يطالعُه، أو تأكيد لعلمه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

(٥) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ يعني النبوة الثابتة بالمعجزات، أو النبي ﷺ، أو القرآن. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهْمٌ﴾ وقرئ لما بالكسر. ﴿فِي أَمْرِ مَرِيجٍ﴾ مضطرب من مرج الخاتم في أضبعه إذا خرج، وذلك قولهم تارة إنه شاعر وتارة إنه ساحر وتارة إنه كاهن.

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

(٦) ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث. ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم. ﴿كَيْفَ بَيَّنَّاهَا﴾ رفعناها بلا عمد. ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب. ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ فتوق بأن خلقها ملاء متلاصقة الطباق.

(٧) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت^(١). ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل صنف. ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن.

(٨) ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنعه، وهما علتان للأفعال المذكورة معنى وإن انتصبتا عن الفعل الأخير.

(٩) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أشجاراً وأثماراً. ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يخصد كالبر والشعير^(٢).

(١٠) ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً أو حوامل من أسقت الشاة إذا حملت فيكون من أفعال فهو فاعل، وإفرادها بالذكر لفزط ارتفاعها وكثرة منافعها^(٣). وقرئ باصقات لأجل القاف. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ منصود بعضه فوق بعض، والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر.

(١١) ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ علة لأنبتنا أو مصدر، فإن الإنبات رزق. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء. ﴿بَلَدَةً

(١) والتعبير عنها بالرواسي للإيذان بأن إلقاءها بإرساء الأرض بها (س/٨/١٢٦).

(٢) وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود بالذات (س/٨/١٢٧).

(٣) وتوسط الحب بين النخل وبين الجنات لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية، مع ما فيها من مراعاة الفواصل (س/٨/١٢٧).

مَيِّتًا ﴿أَرْضًا جَذْبَةً لَا نَمَاءَ فِيهَا﴾ ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ كما حيث هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم^(١).

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾

(١٢، ١٣) ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعون إياه وقومه ليلانم ما قبله وما بعده. ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ أخدانه لأنهم كانوا أصهاره.

(١٤) ﴿وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ سبق في الحجر والدخان. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي كل واحد أو قوم منهم أو جميعهم، وإفراد الضمير لإفراد لفظه. ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ فوجب وحل عليه وعيدي، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد لهم.

(١٥) ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة، من عي بالأمير إذا لم يهتد لوجه عمله، والهمزة فيه للإنكار. ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول بل هم في خلط، وشبهة في خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة، وتنكير الخلق الجديد لتعظيم شأنه والإشعار بأنه على وجه غير متعارف ولا معتاد.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ما تحدّث به نفسه وهو ما يخطر بالبال، والوسوسة الصوت الخفي ومنها وسواس الحلي. والضمير لما إن جعلت موصولة والباء مثلها في صوت بكذا، أو للإنسان إن جعلت مصدرية والباء للتعدية. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد، تجوّز بقرب الذات لقرب العلم لأنه موجب، وحبل الوريد مثل في القرب قال: والموت أدنى من الوريد. والحبل العزق وإضافته للبيان، والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدّمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، وقيل سمي وريداً لأن الروح تردّه.

(١٧) ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مقدّر بأذكر أو متعلّق بأقرب، أي هو أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقّى أي يتلقن الحفيظان ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكين فإنه أعلم منهما ومطلع

(١) قوله «كذلك الخروج».

قدم فيها الخبر للإشارة إلى القصر.

ومافيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبته، أي مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شيء مخالف لها.

وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء وعن حياة الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس (س/٨/١٢٧).

على ما يَخْفَى عليهما، لكنه لحكمة اقتضته وهي ما فيه من تشديد يثبُط العبدَ عن المعصية، وتأكيده في اعتبار الأعمال وضبطها للجزاء وإلزام للحجة يوم يقومُ الأشهاد. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ﴾ أي عن اليمين قعيدٌ وعن الشمال قعيدٌ، أي مقاعدُ كالجلس فحذف الأول لدلالة الثاني عليه كقوله: فأني وقيادُ بها لغريبٌ. وقد يُطلقُ الفعلُ للواحدِ والمتعدد كقوله تعالى ﴿وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(١).

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

(١٨) ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يرمي به من فيه^(٢). ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ مَلَكٌ يرقُبُ عمله. ﴿عَتِيدٌ﴾ معدٌّ حاضرٌ، ولعله يكتبُ عليه ما فيه ثوابٌ أو عقابٌ وفي الحديث: «كاتب الحسنات أمينٌ على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحبُ اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعاتٍ لعله يسبحُ أو يستغفر»^(٣).

(١٩) ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريبٍ عند الموت وقيام الساعة، ونبه على اقترابه بأن عبَّر عنه بلفظ الماضي، وسكرة الموت شدُّهُ الذاهبة بالعقل والباءُ للتعدية كما في قولك: جاء زيدٌ بعمرو. والمعنى وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر أو الموعودَ الحقَّ، أو الحقَّ الذي ينبغي أن يكونَ من الموت أو الجزاء، فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ له أو مِثْلُ الباءِ في ﴿تَبَّتْ بِالْذَّهْنِ﴾^(٤). وقرئ سكرةُ الحقِّ بالموتِ على أنها لشدتها اقتضتِ الزهوقَ أو لاستعقابها له كأنها جاءت به، أو على أنَّ الباءَ بمعنى مع. وقيل سكرةُ الحقِّ سكرة الله وإضافتها إليه للتهويل. وقرئ سكراتُ الموتِ. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الموتِ. ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تميل وتنفّر عنه والخطابُ للإنسان.

(٢٠) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني نفخة البعث. ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ أي وقتُ ذلك يومَ تحقُّقِ الوعيدِ

(١) التحريم: «٤».

(٢) وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص (س/٨/١٢٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٩١/٥) رقم (٧٠٥١) والطبراني في الكبير (٢١٧/٨ - ٢١٨ رقم ٧٧٦٥) وأبو نعيم في الحلية (١٢٤/٦) كلهم من طريق عروة بن رويم.

وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٩٠/٥) رقم (٥٠٤٩) والطبراني في الكبير (٢٩٥/٨ - ٢٩٦ رقم ٧٩٧١) من طريق جعفر بن الزبير.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٢٥/٨) رقم (٧٧٨٧) من طريق ثور بن يزيد. كلهم عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٠٨/١٠) وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها وثقوا وقال في طريق جعفر بن الزبير: فيه جعفر بن الزبير وهو كذاب.

وحسن الألباني الحديث في «الصحيحة» (٣/٢١٠ رقم ١٢٠٩).

(٤) المؤمنون: «٢٠».

وإنجازه، والإشارة إلى مصدر نُفِخَ^(١).

(٢١) ﴿وَحَآتَ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان أحدهما يسوقه والآخر يشهد بعمله، أو ملك جامع للوصفين. وقيل السائق كاتب السيئات، والشهيد كاتب الحسنات. وقيل السائق نفسه أو قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله، ومحل معها النصب على الحال من كل لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة.

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عِتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدِ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾

(٢٢) ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ على إضمار القول، والخطاب لكل نفس إذ ما من أحد إلا وله اشتغال ما عن الآخرة أو للكافر. ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الغطاء الحاجب لأمر المعاد وهو الغفلة، والانهماك في المحسوسات والالفت بها وقصور النظر عليها. ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذ لزوال المانع للأبصار. وقيل الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى: كنت في غفلة من أمر الديانة فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن، فبصرك اليوم حديد ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون. ويؤيد الأول قراءة من كسر التاء والكافات على خطاب النفس.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ قال الملك الموكل عليه. ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عِتِيدٌ﴾ هذا ما هو مكتوب عندي حاضر لدي، أو الشيطان الذي قُبِضَ له هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم هيأته لها بإغوائي وإضلالي، وما إن جُعِلَتْ موصوفة فعتيد صفتها وإن جعلت موصولة فبدلها أو خبر بعد خبر أو خبر محذوف.

(٢٤) ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو الملكين من خزنة النار، أو لواحد وتثنية الفاعل منزلة منزلة تثنية الفعل وتكريره كقوله:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَقَّانَ أَنْزَجِرَ وَإِنْ تَدْعَانِي أَخْمِرْ عِزْضًا مُّمنعاً^(٢)

أو الألف بدل من نون التأكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف، ويؤيده أنه قرئ أَلْقَيْنَ بالنون الخفيفة. ﴿عِنْدِ﴾ معانيد للحق.

(٢٥) ﴿مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة. وقيل المراد بالخير الإسلام فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه عنه. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متعد. ﴿مُرِيبٍ﴾ شاك في الله وفي دينه.

(٢٦) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط وخبره. ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أو بدل من كل كفار فيكون فألقياه تكريراً للتوكيد، أو مفعول لمضمر يفسره فألقياه.

(٢٧) ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي الشيطان المقيض له، وإنما استؤنفت كما تُستأنف الجملة الواقعة في حكاية

(١) وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضاً لتهويله، ولذلك بدى ببيان حال الكفرة (س/٨/١٣٠).

(٢) من الطويل.

التقاول فإنه جوابٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه. ﴿رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ﴾ كأنَّ الكافر قال هو أطعاني فقال قرينه ربنا ما أطفيئته بخلاف الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها للدلالة على الجمع بين مفهوميها في الحصول، أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه: ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ فاعنته عليه فإنَّ إغواء الشياطين إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي مائلاً إلى الفجور كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾^(١).

قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَلِيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى. ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي في موقف الحساب فإنه لا فائدة فيه، وهو استئناف مثل الأول. ﴿وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في كسبي وعلى السنة رسلي فلم يبق لكم حجة. وهو حال تعليل للنهي أي لا تخاصموا عالمين بأني أوعدكم، والباء مزيدة أو معدية على أنَّ قدَّم بمعنى تقدَّم، ويجوز أن يكون بالوعد حالاً والفعل واقعاً على قوله:

(٢٩) ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي بوقوع الخلف فيه فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي. وعفو بعض المذنبين لبعض الأسباب ليس من التبديل فإنَّ دلائل العفو تدلُّ على تخصيص الوعيد. ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فأعذَّب مَنْ ليس لي تعذيبه.

(٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ سؤال وجواب جيء بهما للتخييل والتصوير، والمعنى أنها مع اتساعها تطرح فيها الجنة والناس فوجاً فوجاً حتى تمتلئ لقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾^(٢)، أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد فراغ، أو أنها من شدة زفيرها وجذتها وتشبُّثها بالعصاة كالمستكثرة لهم والطالبة لزيادتهم. وقرأ نافع وأبو بكر يقول بالياء والمزيد إما مصدر كالمحيد أو مفعول كالمبيع، ويوم مقدَّر باذکر أو ظرف لِنَفْعٍ فيكون ذلك إشارة إليه فلا يفتقر إلى تقدير مضاف.

(٣١) ﴿وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قُرِبَتْ لَهُمْ. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مكاناً غير بعيد، ويجوز أن يكون حالاً وتذكيره لأنه صفة محذوف، أو شيئاً غير بعيد أو على زنة المصدر أو لأنَّ الجنة بمعنى البستان.

(٣٢) ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على إضمار القول، والإشارة إلى الثواب أو مصدر أزلفت. وقرأ ابن كثير بالياء. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع إلى الله تعالى، بدل من المتقين بإعادة الجار. ﴿حَفِيفٍ﴾ حافظ لحدوده.

(٣٣) ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَلِيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ بعد بدل أو بدل من موصوفٍ أواب، ولا يجوز أن يكون في حكمه لأن مَنْ لا يوصف به أو مبتدأ خبره.

(١) إبراهيم: (٢٢٢).

(٢) الأعراف: (١٨).

أَدْخُلُوهَا يَسْلَمُ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ على تأويل يُقَالُ لَهُمْ ادخلوها، فَإِنَّ مَنْ بِمَعْنَى الْجَمْعِ وَالْغَيْبِ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ أَوْ الْمَفْعُولِ، أَوْ صِفَةً لِمَصْدَرٍ أَوْ خَشْيَةً مُلْتَبَسَةً بِالْغَيْبِ حَيْثُ خَشِيَ عِقَابَهُ وَهُوَ غَائِبٌ، أَوْ الْعِقَابَ بَعْدَ غَيْبٍ أَوْ هُوَ غَائِبٌ عَنِ الْأَعْيُنِ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ. وَتَخْصِيصُ الرَّحْمَنِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، أَوْ بِأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَوَصْفُ الْقَلْبِ بِالْإِنَابَةِ إِذِ الْاعتِبَارُ بِرَجُوعِهِ إِلَى اللَّهِ. ﴿يَسْلَمُ﴾ سَالِمِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَزَوَالِ النَّقْمِ، أَوْ مُسَلِّمًا عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ وَمَلَأَتْكَتِهِ. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ يَوْمُ تَقْدِيرِ الْخُلُودِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(١).

(٣٥) ﴿لَمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وَهُوَ مَا لَا يَخْطُرُ بِأَلْهَمٍ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ.

(٣٦) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ قَبْلَ قَوْمِكَ. ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ قُوَّةَ كَعَادٍ وَثُمُودَ وَفِرْعَوْنَ. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فَخَرَقُوا فِي الْبِلَادِ وَتَصَرَّفُوا فِيهَا، أَوْ جَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَجَالٍ حَذَرَ الْمَوْتِ، فَالْفَاءُ عَلَى الْأَوَّلِ لِلتَّشْبِيهِ وَعَلَى الثَّانِي لِمَجَرَّدِ التَّعْقِيبِ، وَأَصْلُ التَّنْقِيبِ التَّنْقِيرُ عَنِ الشَّيْءِ وَالْبَحْثُ عَنْهُ. ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أَيُّ لَهْمٍ مِنَ اللَّهِ أَوْ مِنَ الْمَوْتِ. وَقِيلَ الضَّمِيرُ فِي نَقَّبُوا لِأَهْلِ مَكَّةَ أَيُّ سَارُوا فِي أَسْفَارِهِمْ فِي بِلَادِ الْقُرُونِ فَهَلْ رَأَوْا لَهُمْ مَحِيصًا حَتَّى يَتَوَقَّعُوا مِثْلَهُ لَأَنْفُسِهِمْ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ قَرِئَ فَنَقَّبُوا عَلَى الْأَمْرِ، وَقَرِئَ فَنَقَّبُوا بِالْكَسْرِ مِنَ التَّنَقُّبِ وَهُوَ أَنْ يَنْتَقِبَ خَفُّ الْبَعِيرِ أَوْ أَكْثَرُوا السَّيْرَ حَتَّى نَقَبَتْ أَقْدَامُهُمْ أَوْ أَخَفَافُ مَرَاكِبِهِمْ.

(٣٧) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فِيمَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ. ﴿لَذِكْرًا﴾ لِتَذَكُّرٍ. ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أَيُّ قَلْبٌ وَاعٍ يَتَفَكَّرُ فِي حَقَائِقِهِ. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أَيُّ أَصْفَى لاسْتِمَاعِهِ. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حَاضِرٌ بِذِهْنِهِ لِيَفْهَمَ مَعَانِيَهُ، أَوْ شَاهِدٌ بِصَدَقِهِ فَيَتَعَطَّى بِظَوَاهِرِهِ وَيَنْزَجِرُ بِزَوَاجِرِهِ، وَفِي تَنْكِيرِ الْقَلْبِ وَإِبْهَامِهِ تَفْخِيمٌ وَإِشْعَارٌ بِأَنَّ كُلَّ قَلْبٍ لَا يَتَفَكَّرُ وَلَا يَتَدَبَّرُ كَلَّا قَلْبٍ.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مَرَّةً تَفْسِيرُهُ مَرَارًا. ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ مِنْ تَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ، وَهُوَ رَدٌّ لِمَا زَعَمَتِ الْيَهُودُ مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى بِدَأْ خَلْقِ الْعَالَمِ يَوْمَ الْأَحَدِ وَفَرَعٌ مِنْهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاسْتِرَاحَ يَوْمَ السَّبْتِ وَاسْتَلْقَى عَلَى الْعَرْشِ.

(٣٩) ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ مَا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، فَإِنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ الْعَالَمِ بِلَا عِيَاءٍ قَدَرَ عَلَى بَغْثِهِمْ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، أَوْ مَا يَقُولُ الْيَهُودُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّشْبِيهِ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾

وَنَزَّهَهُ عَنِ الْعَجْزِ عَمَّا يُمْكِنُ، وَالْوَصْفُ بِمَا يُوْجِبُ التَّشْبِيهَ حَامِداً لَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ مِنْ إِصَابَةِ الْحَقِّ وَغَيْرِهَا. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ يعني الفجرَ والعصرَ وقد عرفتَ فضيلةَ الوقتينِ.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(٤٠) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي وسبِّحه بعضَ الليل. ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ وأعقابَ الصلواتِ جمعُ دُبُرٍ من أدبَرَ، وقرأَ الحجازيانَ وحمزةٌ وخلفٌ بالكسرِ من أدبرتِ الصلاةُ إذا انقضتْ. وقيل المرادُ بالتسبيحِ الصلاةُ، فالصلاةُ قبلَ الطلوعِ الصبحِ وقبلَ الغروبِ: الظهرُ، والعصرُ. ومن الليل: العشاءُ، والتهجدُ وأدبارُ السجودِ النوافلُ بعدَ المكتوباتِ. وقيل الوترُ بعدَ العشاءِ.

(٤١) ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ لِمَا أَخْبَرَكَ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ تَهْوِيلٌ وَتَعْظِيمٌ لِلْمُخْبِرِ بِهِ. ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ إِسْرَافِيلُ أَوْ جَبْرِيلُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَقُولُ: أَيُّهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ وَاللَّحُومُ الْمَتَمَزِقَةُ وَالشُّعُورُ الْمَتَفَرِّقَةُ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ^(١). ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بَحِثْ يَصِلْ نَدَاؤُهُ إِلَى الْكُلِّ عَلَى سِوَاءٍ، وَلَعَلَّهُ فِي الْإِعَادَةِ نَظِيرُكَ فِي الْإِبْدَاءِ، وَيَوْمَ نُصِيبُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ يَوْمُ الْخُرُوجِ.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ بَدَلٌ مِنْهُ وَالصَّيْحَةُ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ. ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالصَّيْحَةِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْبَعْثُ لِلْجَزَاءِ. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ مِنَ الْقُبُورِ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَدْ يُقَالُ لِلْعِيدِ.

(٤٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ فِي الدُّنْيَا. ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ لِلْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ.

(٤٤) ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ وَفَرَى تَشَقَّقُ. وَفَرَى عَاصِمٌ وَحَمْزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ وَخَلْفٌ وَأَبُو عَمْرٍو بِتَخْفِيفِ الشَّيْنِ. ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مُسْرِعِينَ. ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ﴾ بَعْثٌ وَجَمْعٌ. ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هَيِّنٌ، وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ لِلِاخْتِصَاصِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَتَسَيَّرُ إِلَّا عَلَى الْعَالِمِ الْقَادِرِ لِذَاتِهِ الَّذِي لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَيْفَ يَشَاءُ وَحِدَةً﴾^(٢).

(٤٥) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بِمَسْلُطٍ تَقْسُرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، أَوْ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَرِيدُ وَإِنَّمَا أَنْتَ دَاعٍ. ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فَإِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ قَ هُوَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَارَاتِ الْمَوْتِ وَسُكْرَاتِهِ»^(٣). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

☆ ☆ ☆

(١) انظر [تفسير البغوي (٧/٣٦٦)] وانظر فتح القدير (٥/٨١).

(٢) لقمان: ٢٨.

(٣) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. كما في «الكافي الشاف» (ص ١٥٩ رقم ٤٦). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرَّوًا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَلَمَقَسَمْتَ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ﴿٩﴾ قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِءَ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

سورة والذاريات مكية^(١) وآيها ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرَّوًا﴾ يعني الرياح تذر التراب وغيره، أو النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد، أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام التاء في الذال.
- (٢) ﴿فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا﴾ فالسحب الحاملة للأمطار، أو الرياح الحاملة للسحاب، أو النساء الحوامل، أو أسباب ذلك. وقرئ على تسمية المحمول بالمصدر.
- (٣) ﴿فَالْجَارِيَتِ يُسْرًا﴾ فالسفن الجارية في البحر سهلاً، أو الرياح الجارية في مهايبها، أو الكواكب التي تجري في منازلها. ويسراً صفة مصدر محذوف أي جرياً ذا يسر.
- (٤) ﴿فَلَمَقَسَمْتَ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها، أو ما يعظمهم وغيرهم من أسباب القسمة، أو الريح يقسمن الأمطار بتصرف السحاب، فإن حملت على ذوات مختلفة فالغاء لترتيب الأقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلا فالغاء

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/١٩٧): «وهي مكية بإجماع من المفسرين».

لترتيب الأفعال إذ الرياح مثلاً تذرُّو الأبخرة إلى الجوّ حتى تنعقد سحباً، فتحمله فتجري به باسطة له إلى حيث أُمِرَتْ به فتقسم المطر.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُعَدُّونَ لَصَادِقٌ﴾ .

(٦) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّيْ﴾ جواب القسم كأنه استدلّ باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث للجزاء الموعود، وما موصولة أو مصدرية والدينُ الجزاء والواقعُ الحاصل.

(٧) ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ذاتِ الطرائق، والمرادُ إما الطرائق المحسوسة التي هي مسيرُ الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النُّظَّارُ ويتوصَّلُ بها إلى المعارف، أو النجوم فإنَّ لها طرائق أو أنها تزيّنها كما يزيّن الموشى طرائق الوشي؛ جمعُ حبيكة كطريقة وطريق أو حباك كمثال ومُثل. وقرىء الحُبُك بالسكون، والحَبِك كالإبل، والحَبِك كالسِّلِك، والحَبِك كالجبل، والحَبِك كالنَّعم، والحَبِك كالبرق.

(٨) ﴿إِنَّا لَنُفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في الرسول ﷺ وهو قولهم تارة إنه شاعرٌ وتارة إنه ساحر وتارة إنه مجنون، أو في القرآن أو القيامة أو أمر الديانة، ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها.

(٩) ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ﴾ يُضَرِّفُ عنه والضميرُ للرسول أو القرآن أو الإيمان، من صَرَفَ إذ لا صَرَفَ أشدُّ منه فكأنه لا صَرَفَ بالنسبة إليه، أو يُضَرِّفُ مَنَ صَرَفَ في علم الله وقضائه ويجوز أن يكون الضمير للقول على معنى يصدر، أَفِكُ من أَفِكُ عن القولِ المختلفِ وبسببه كقوله: ينهون عن أكلٍ وعن شرب. أي يصدرُ تناهيهم عنهما وبسببهما وقرىء أَفِكُ بالفتح أي من أَفِكُ الناسُ وهم قريش كانوا يصدّون الناسَ عن الإيمان.

(١٠) ﴿قُلْ الْفَرَصُونَ﴾ الكذابون من أصحاب القول المختلف، وأصله الدعاء بالقتل أجري مجرى اللعن.

(١١) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ في جهل يغمرهم. ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أُمِرُوا به.

(١٢) ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي فيقولون متى يومُ الجزاء أي وقوعه، وقرىء إِيَّانَ بالكسر.

(١٣) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يُخَرَّقُونَ جوابُ للسؤال أي يقع يومُ هم على النارِ يفتنون، أو هو يومُ هم على النارِ يفتنون، وفتح يومٍ لإضافته إلى غير متمكّن ويدلُّ عليه أنه قرىء بالرفع.

(١٤) ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي مقولاً لهم هذا القول. ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا العذاب هو الذي كنتم به تستعجلون، ويجوز أن يكون هذا بدلاً من فتنتكم والذي صفته.

(١٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ .

(١٦) ﴿ءَاخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابِلِينَ لما أعطاهم راضين به، ومعناه أنَّ كلَّ ما آتاهم حسنٌ مرضيٌّ متلقًى بالقبول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا ذَلِكَ مُّحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم وهو تعليلٌ لاستحقاقهم ذلك.

(١٧) ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ تفسير لإحسانهم، وما مزيده أي يهجعون في طائفة من الليل أو يهجعون هجوعاً قليلاً، أو مصدرية أو موصولة أي في قليل من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه،

ولا يجوز أن تكون نافية لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها. وفيه مبالغاة لتقليل نومهم واستراحتهم، ذكر القليل والليل الذي هو وقت السبات، والهجوع الذي هو الفراغ من النوم وزيادة ما.

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴿٢٤﴾

(١٨) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم، وفي بناء الفعل على الضمير إشعاراً بأنهم أحقاً بذلك لوفور علمهم بالله وخشيتهم منه.

(١٩) ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله وإشفاقاً على الناس. ﴿لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ للمستجدي والمتعفف الذي يظن غنياً فيحرم الصدقة.

(٢٠) ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوانات، أو وجوه دلالات من الدخو والسكون وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته وقرط رحمته.

(٢١) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي وفي أنفسكم آيات إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير يدل دلالته مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال الغريبة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظراً من يعتبر.

(٢٢) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسباب رزقكم أو تقديره. وقيل المراد بالسماء السحاب وبالرزق المطر فإنه سبب الأقوات. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب لأن الجنة فوق السماء السابعة، أو لأن الأعمال وثوبها مكتوبة مقدرة في السماء. وقيل إنه مستأنف خبره:

(٢٣) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وعلى هذا فالضمير لما وعلى الأول يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ولما ذكر من أمر الآيات والرزق والوعد. ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أي مثل نطقكم كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك. ونصبه على الحال من المستكين في لحق، أو الوصف لمصدر محذوف أي أنه لحق حقاً مثل نطقكم. وقيل إنه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت بمعنى شيء وأن بما في حيثها إن جعلت زائدة، ومحل الرفع على أنه صفة لحق، ويؤيده قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر بالرفع.

(٢٤) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبية على أنه أوجي إليه، والضيف في الأصل مصدرٌ ولذلك يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْمُتَعَدِّ. قيل كانوا اثني عشر ملكاً. وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وسمّاهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف. ﴿الْمُكْرَمِ﴾ أي مكرم عند الله أو عند إبراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاخْطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾

(٢٥) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ للحديث أو الضيف أو المكرمين. ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلّم عليك سلاماً. ﴿قَالَ سَلَّمَ﴾ أي عليكم سلامٌ، عدّل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم. وقرنا مرفوعين، وقرأ حمزة والكسائي قَالَ سَلَّمَ، وقرىء منصوباً والمعنى واحد. ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي أنتم قومٌ منكرون، وإنما أنكرهم لأنه ظنّ أنهم بنو آدم ولم يعرفهم، أو لأنّ السلام لم يكن تحيتهم فإنه علم الإسلام وهو كالتعريف عنهم.

(٢٦) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيفه فإنّ من أدب المضيف أن يبادر بالقرى حذراً من أن يكفه الضيف أو يصبر منتظراً. ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لأنه كان عامة ماله البقر^(١).

(٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعه بين أيديهم. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي منه، وهو مشعرٌ بكونه حينئذٍ والهمزة فيه للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب إن قاله أول ما وضعه، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم.

(٢٨) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمر منهم خوفاً لما رأى إعراضهم عن طعامه لظنه أنهم جاؤوه لشر. وقيل وقع في نفسه أنهم ملائكة أُرْسِلُوا للعذاب. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسلُ الله. قيل مسح جبريلُ العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ هو إسحق عليه السلام. ﴿عَلِيمٍ﴾ يكملُ علمه إذا بلغ.

(٢٩) ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ﴾ سارة إلى بيتها وكانت في زاوية تنظرُ إليهم. ﴿فِي صَرْقٍ﴾ في صيحة من الصرير، ومحلّه النصب على الحال أو المفعول إن أول فأقبلت بأخذت. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمت بأطراف الأصابع جبهةَها فغَلَ المتعجب. وقيل وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عجوز عاقرة فكيف ألد.

(٣٠) ﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الذي بشرنا به. ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وإنما نخبرك به عنه. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فيكون قوله حقاً وفعله محكماً.

(٣١) ﴿قَالَ فَاخْطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمرٍ عظيم سأل عنه.

(١) الفاء في قوله «فجاء بعجل سمين» فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيضاحاً بكمال سرعة المجيء بالطعام، كما في قوله تعالى: «أَن اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ...» - الشعراء ٦٣ - .. والمعنى: فذبح عجلاً فحنّده فجاء به.. (س/٨/١٤٠).

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبَيْهِ وَفَالَ سَحَرًا أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ فِي أَلِيمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

(٣٢) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط .

(٣٣) ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ﴾ يريد السَّجِيل فإنه طينٌ متحجّر .

(٣٤) ﴿مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مرسلّة من أسمت الماشية، أو معلّمة من السومة وهي العلامة . ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدّ في الفجور .

(٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قوم لوط وإضمّارها ولم يجر ذكرها لكونها معلومة . ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط .

(٣٦) ﴿فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ غير أهل بيت من المسلمين . واستدلّ به على اتّحاد الإيمان والإسلام، وهو ضعيف لأن ذلك لا يقتضي إلا من صدّق المؤمن والمسلم على من اتّبعه، وذلك لا يقتضي اتّحاد مفهوميهما لجواز صدق المفهومات المختلفة على ذات واحدة .

(٣٧) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ علامة . ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فإنهم المعتبرون بها، وهي تلك الأحجار أو صخر منضود فيها أو ماء أسود متنزّ .

(٣٨) ﴿وَفِي مُوسَى﴾ عطف على وفي الأرض، أو تركنا فيها على معنى وجعلنا في موسى كقوله: علفتها تبناً وماء بارداً^(١) . ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هو معجزاته كالعصا واليد .

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبَيْهِ﴾ فأعرض عن الإيمان به كقوله ﴿وَتَكَايَاهُ﴾^(٢) أو فتولّى بما كان يتقوى به من جنوده، وهو اسم لما يُزكّن إليه الشيء ويتقوى به . وقرىء بضم الكاف . ﴿وَقَالَ سَحَرًا﴾ أي هو ساحر . ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنه جعل ما ظهر عليه من الخوارق منسوباً إلى الجن، وتردّد في أنه حصل ذلك باختياره وسفيه أو بغيرهما .

(٤٠) ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ فِي أَلِيمٍ﴾ فأغرقناهم في البحر . ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يلام عليه من الكفر والعناد، والجملة حالٌ من الضمير في فأخذناه .

(٤١) ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ سئها عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن منفعة، وهي الدبور أو الجنوب أو النكباء .

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ كالرماد من الرمّ وهو البلى والتفتت .

(١) من الرجز، أي وسقيتها ماء، فحذف اكتفاء بالأول، ونحوه: وزجّج الحواجب والعيونا، أي وكخلن .

(٢) الإسراء الآية: «٨٣» وفصلت الآية: «٥١» .

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا أَصْبَحُوا بِآيَاتِ اللَّهِ قَانِطِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَفِي هَارُونَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبِّي أَعِدِّ لِي آيَةً ۖ قَالَ هَاجِمِي بِالنَّارِ حَارَّةً فَعَتَا فِرْعَوْنُ فَكَرِهَهَا اللَّهُ لَخَلْفَتَا إِيسَىٰ ۖ وَفِي زُفَرٍ إِذْ يُدْعَىٰ الْمَرْءُ الْمُنِيبُ ﴿٤٦﴾ وَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَمَرُّ بِكَ وَالْوَأْدُ تَرْتَدُّ عَلَيْكَ ۖ فَنِجِّنِي وَأَنْجِلِ الْيَتَامَىٰ مِنَ الْكَلْبِ الْمُنِيبِ ﴿٤٧﴾ وَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَمَرُّ بِكَ وَالْوَأْدُ تَرْتَدُّ عَلَيْكَ ۖ فَنِجِّنِي وَأَنْجِلِ الْيَتَامَىٰ مِنَ الْكَلْبِ الْمُنِيبِ ﴿٤٨﴾ وَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَمَرُّ بِكَ وَالْوَأْدُ تَرْتَدُّ عَلَيْكَ ۖ فَنِجِّنِي وَأَنْجِلِ الْيَتَامَىٰ مِنَ الْكَلْبِ الْمُنِيبِ ﴿٤٩﴾ وَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَمَرُّ بِكَ وَالْوَأْدُ تَرْتَدُّ عَلَيْكَ ۖ فَنِجِّنِي وَأَنْجِلِ الْيَتَامَىٰ مِنَ الْكَلْبِ الْمُنِيبِ ﴿٥٠﴾ وَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَمَرُّ بِكَ وَالْوَأْدُ تَرْتَدُّ عَلَيْكَ ۖ فَنِجِّنِي وَأَنْجِلِ الْيَتَامَىٰ مِنَ الْكَلْبِ الْمُنِيبِ ﴿٥١﴾ وَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَمَرُّ بِكَ وَالْوَأْدُ تَرْتَدُّ عَلَيْكَ ۖ فَنِجِّنِي وَأَنْجِلِ الْيَتَامَىٰ مِنَ الْكَلْبِ الْمُنِيبِ ﴿٥٢﴾

(٤٣) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيره قوله ﴿تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾^(١).

(٤٤) ﴿فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ﴾ أي العذاب بعد الثلاث. وقرأ الكسائي الصعقة وهي المرة من الصَّغِقَ. ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها فإنها جاءتهم معانيةً بالنهار.

(٤٥) ﴿فَمَا أَصْبَحُوا بِآيَاتِ اللَّهِ قَانِطِرِينَ﴾ كقوله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾^(٢). وقيل من قولهم ما يقوم به إذا عجز عن دفعه. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ﴾ ممتنعين منه.

(٤٦) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدلُّ عليه. أو اذكر ويجوز أن يكون عطفاً على محل في عاد، ويؤيده قراءة أبي عمرو وحزمة والكسائي بالجر. ﴿مِّن قَبْلٍ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان.

(٤٧) ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ بقوة. ﴿وَأَنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون من الوُسْع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق، أو لموسعون السماء أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق.

(٤٨) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهذناها لتستقروا عليها. ﴿فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ أي نحن.

(٤٩) ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناس. ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن التعدد من خواصِّ الممكنات وأن الواجب بالذات لا يقبل التعدد والانقسام.

(٥٠) ﴿فَقَرُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ من عقابه بالإيمان والتوحيد وملازمة الطاعة. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ﴾ أي من عذابه المعد لمن أشرك أو عصى. ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن كونه منذراً من الله بالمعجزات، أو مبين ما يجب أن يُخَذَّرَ عنه.

(٥١) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إفراد لأعظم ما يجب أن يُفَرَّ منه. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تكرير للتأكيد، أو الأول مرتب على ترك الإيمان والطاعة والثاني على الإشراك.

(٥٢) ﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر مثل ذلك، والإشارة. إلى تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ساحراً أو مجنوناً وقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ كالتفسير له، ولا يجوز نصبه بآتى أو ما يفسره لأن ما بعد ما النافية لا يعمل فيما قبلها.

(١) هود: ٦٥.

(٢) الأعراف: ٧٨.

﴿أَتَوْاصُوا بِهٖٓ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُوْنَ ۝٥٣﴾ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَی نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ۝٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

(٥٣) ﴿أَتَوْاصُوا بِهٖٓ﴾ أي كان الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُوْنَ﴾ إضرابٌ عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه.

(٥٤) ﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن مجادلهم بعدما كررت عليهم الدعوة فآبؤا إلا الإصرار والعناد. ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ على الإعراض بعد ما بذلت جهدك في البلاغ.

(٥٥) ﴿وَذَكَرْ﴾ ولا تدع التذكير والموعظة. ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَی نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من قدر الله إيمانه أو من آمن فإنه يزداد بها بصيرة.

(٥٦) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها. جَعَلَ خَلْقَهُمْ مغيباً بها مبالغة في ذلك؛ ولو حُملَ على ظاهره، مع أن الدليل يمنعه لنا في ظاهر قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾^(١) وقيل معناه إلا لأمرهم بالعبادة أو ليكونوا عباداً لي^(٢).

(٥٧) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ أي ما أريد أن أضرفكم في تحصيل رزقي فاشتغلوا بما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به، والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم، ويَحْتَمَلُ أَنْ يُقَدَّرَ بقل فيكون بمعنى قوله ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^(٣).

(٥٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق، وفيه إيماء باستغنائه عنه، وقرىء إني أنا الرزاق. ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ شديد القوة، وقرىء المتين بالجر صفة للقوة.

(٥٩) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي للذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب نصيباً من العذاب. ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة، وهو مأخوذ من مقاسمة الشقاة الماء بالدلاء فإن الذنوب هو الدلو العظيم المملوء. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ جوابٌ لقولهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

(٦٠) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة أو يوم بدر. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ

(١) الأعراف: (١٧٩).

(٢) ولعل تقديم خلق الجن في الذكر لتقدمه على خلق الإنس في الوجود (س/٨/١٤٤).

(٣) الأنعام: (٩٠).

(٤) يس: (٤٨).

سورة الذاريات أعطاه الله عشرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ ريحٍ هبَّتْ وجَرَتْ في الدنيا»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.
كما في «الكافي الشاف» (ص ١٥٩ رقم ٥٠). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكُتِبَ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١)

سورة الطور مكية^(١) وآيها تسع أو ثمان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالطُّورِ﴾ يريدُ طورَ سينينَ، وهو جبل بمدينَ سمعَ فيه موسى عليه السلام كلامَ الله تعالى، والطور الجبلُ بالسريانية أو ما طارَ من أوجِ الإيجادِ إلى حضيضِ الموادِ، أو من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

(٢) ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ مكتوبٍ، والسطر ترتيبُ الحروف المكتوبة. والمراد به القرآنُ أو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ، أو ألواحِ موسى عليه السلام، أو في قلوب أوليائه من المعارفِ والحكم أو ما تكتبه الحفظة.

(٣) ﴿فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ الرِّقُّ الجلدُ الذي يُكْتَبُ فيه استُعِيرَ لما كُتِبَ فيه الكتابُ، وتنكيرُهُما للتعظيم والإشعارِ بأنهما ليسا من المتعارفِ فيما بين الناس.

(٤) ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ يعني الكعبةَ وعمارَتها بالحجاج والمجاورين، أو الضراح وهو في السماء الرابعة. وعمارته كثرةُ غاشيته من الملائكة، أو قلبُ المؤمن وعمارته بالمعرفة والإخلاص.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٢٩/١٥): «وهي مكية بإجماع من المفسرين والرواة».

(٥) ﴿وَالسَّمَاءَ الَّرْفُوعَ﴾ يعني السماء.

(٦) ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ أي المملوء وهو المحيط، أو الموقد من قوله ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾^(١) روي أنه تعالى يجعل يوم القيامة البحار ناراً يسجر بها نار جهنم^(٢)، أو المختلط من السجير وهو الخليط.

(٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ لنازل.

(٨) ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ يدفعه، ووجه دلالة هذه الأمور المقسم بها على ذلك أنها أمور تدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته وصدق أخباره وضبطه أعمال العباد للمجازاة.

(٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ تَضْطَرِبُ، والمور تردّد في المجيء والذهاب، وقيل تحرك في تموج. ويوم ظرف.

(١٠) ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تسير عن وجه الأرض فتصير هباء^(٣).

(١١) ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم.

الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(١٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي في الخوض في الباطل.

(١٣) ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ يُدْفَعُونَ إليها دفعا بعنف، وذلك بأن تُغَلَّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجمَع نواصيهم إلى أقدامهم فيُدْفَعُونَ إلى النار. وقرئ يُدْعَوْنَ من الدعاء فيكون دعاء حالاً بمعنى مدعوين، ويوم بدل من يوم تمور أو ظرف لقول مقدّر محكيه.

(١٤) ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي يُقَالُ لهم ذلك.

(١٥) ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا﴾ أي كنتم تقولون للوحي هذا سحر أفهذا المصداق أيضاً سحر، وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والتوبيخ. ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا أيضاً كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدل عليه، وهو تقريع وتهكم، أو: أم سُدَّتْ أبصاركم كما سُدَّتْ في الدنيا على زعمكم حين قلتم إنما سكرت أبصارنا.

(١٦) ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ أي ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه فإنه

(١) التكويد: (٦).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣٨٦/٧) بدون راو ولا سند.

(٣) وتأكيّد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي موراً عجباً وسيراً بديعاً لا يدرك كنههما (س/٨/١٤٧).

لا محيصَ لكم عنها. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي الأمران الصبرُ وعدمه. ﴿إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليلٌ للاستواء فإنه لما كان الجزاء واجب الوقوع كان الصبرُ وعدمه سَيِّئِينَ في عدم النفع.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾

(١٧) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في أية جناتٍ وأي نعيم، أو في جناتٍ ونعيمٍ مخصوصةٍ بهم.

(١٨) ﴿فَكِهِينَ﴾ ناعمين متلذذين. ﴿بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وقرىء فكِهِينَ وفاكهونَ على أنه الخبرُ والظرفُ لغوٌ. ﴿وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ عطفٌ على آتاهم إن جعل ما مصدرية، أو في جناتٍ أو حالٌ بإضمارٍ قَدْ مِنَ المستَكِنُ في الظرفِ أو الحالِ، أو من فاعلٍ آتَى أو مفعولٍ أو منهما^(١).

(١٩) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي أكلاً وشراباً هنيئاً، أو طعاماً وشراباً هنيئاً وهو الذي لا تنغيص فيه. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه أو بدله، وقيل الباءُ زائدةٌ وما فاعلٌ هنيئاً، والمعنى هتأكم ما كنتم تعملون أي جزأوه.

(٢٠) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مصطفوفةٌ ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ الباءُ لما في التزويج من معنى الوصل والإلصاق، أو للسببية إذ المعنى صيّرناهم أزواجاً بسبيهنَّ، أو لما في التزويج من معنى الإلصاق والقرنِ ولذلك عطف:

(٢١) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على حورٍ أي قرنائهم بأزواجٍ حورٍ ورفقاءً مؤمنين. وقيل إنه مبتدأٌ خبره أَلْحَقْنَا بِهِمْ وقوله: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ اعتراضٌ للتعليل، وقرأ ابن عامر ويعقوبُ ذرياتهم بالجمع وضمَّ التاءَ للمبالغة في كثرتهم والتصريح، فإنَّ الذرِّيَّةَ تقعُ على الواحدِ والكثيرِ، وقرأ أبو عمرو وأتبعناهم ذرياتهم أي جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقيل بإيمانٍ حالٌ من الضمير أو الذرية أو منهما. وتنكيره للتعظيم، أو الإشعارُ بأنه يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان. ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في دخول الجنة أو الدرجة. لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قال «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ لِنَقَرِّ بِهِمْ عَيْنُهُ» ثم تلا هذه الآية^(٢). وقرأ نافع وابنُ عامر والبصريان ذرياتهم.

(١) في قوله «ووقاهم ربهم» أظهر كلمة الرب في موقع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم وذلك للتشريف والتعليل (س٨/١٤٨).

(٢) أخرجه البزار (٣/٧٠ رقم ٢٢٦٠ - كشف) وأبو نعيم في الحلية (٤/٣٠٢) وابن عدي في الكامل (٦/٢٠٦٦) عن ابن عباس.

قال البزار: لا نعلم أسنده إلا الحسن عن قيس، وقد رواه الثوري عن عمرو بن مَرْة موقوفاً. وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/١١٤) وقال: رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه ضعف. =

﴿وَمَا أَلْتَهُمْ﴾ وما نقضناهم. ﴿مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بهذا الإلحاق فإنه كان يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِنَقْصِ رِثْيَةِ الْآبَاءِ أَوْ بِإِعْطَاءِ الْأَبْنَاءِ بَعْضَ مَثُوبَاتِهِمْ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِالتَّفْضِيلِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ اللَّائِقُ بِكَمَالِ لُطْفِهِ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنْ أَلَيْتَ يَأْلِتُ، وَعَنْهُ لِنَاهُمْ مِنْ لَا تَ يَلِيتُ، وَأَلْتَنَاهُمْ مِنْ أَلَتْ يُزْلِتُ، وَوَالْتَنَاهُمْ مِنْ وَلَتْ يَلِتُ، وَمَعْنَى الْكُلِّ وَاحِدٌ. ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ بِعَمَلِهِ مَرهُونٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنْ عَمِلَ صَالِحًا فَتَكَّهُ وَإِلَّا أَهْلَكَهُ.

وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾

(٢٢) ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم وقتاً بعد وقتٍ ما يشتهون من أنواع التمتع.

(٢٣) ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا﴾ يَتَعَاطُونَ هُمْ وَجَلَسَاؤُهُمْ بِتَجَادِبٍ. ﴿كَأْسًا﴾ خَمراً سَمَّاهَا بِاسْمِ مَحَلِّهَا وَلِذَلِكَ أَتَى الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ﴾ أَي لَا يَتَكَلَّمُونَ بَلْغُو الْحَدِيثِ فِي أَثْنَاءِ شُرْبِهَا، وَلَا يَفْعَلُونَ مَا يُؤْتِمُّ بِهِ فَاعِلُهُ كَمَا هُوَ عَادَةُ الشَّارِبِينَ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾^(١) وَقَرَأَهُمَا ابْنُ كَثِيرٍ وَالْبَصْرِيَّانِ بِالْفَتْحِ.

(٢٤) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أَي بِالْكَأْسِ. ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أَي مَمَالِكٌ مَخْصُوصُونَ بِهِمْ. وَقِيلَ هُمْ أَوْلَادُهُم الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ. ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ مَصُونٌ فِي الصُّدْفِ مِنْ بَيَاضِهِمْ وَصَفَائِهِمْ. وَعَنْهُ عَلَيْهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ فَضْلَ الْمَخْدُومِ عَلَى الْخَادِمِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(٢).

(٢٥) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ﴾ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ.

● وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤٦٨/٢) والبيهقي في الاعتقاد (ص ٩٠) من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفاً.

● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/١٣ ج ٢٧/٢٤ - ٢٥) من طريق شعبة وسماعة عن عمرو بن مرة به موقوفاً.

فرواية هؤلاء الثقات أرجح من رواية قيس بن الربيع، لأن فيها ضعفاً. فالصحيح هو الموقوف لكن مثل هذا لا يقال من قبيل الرأي.

● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/٤٤٠ - ٤٤١ رقم ١٢٢٤٨) والصغير (١/٢٢٩) من طريق سالم الأفطس عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول يارب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بالحقاقهم به وقرأ ابن عباس «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان» إلى آخر الآية.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/١١٤) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والكبير وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف» هـ.

(١) الصافات: «٤٧».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٢٧ ج ٢٩) من طريق معمر، وسعيد عن قتادة بإسناد صحيح.

(٢٦) ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عصيان الله معتنين بطاعته، أو وجلين من العاقبة.

فَمَنْ لِّلَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُهُمْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴿٣٦﴾

(٢٧) ﴿فَمَنْ لِّلَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة والتوفيق. ﴿وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم، وقرىء ووقنا بالتشديد.

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ذلك في الدنيا. ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده أو نسأله الوقاية. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن، وقرأ نافع والكسائي أنه بالفتح. ﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة.

(٢٩) ﴿فَذَكَّرَ﴾ فابحث على التذكير ولا تكثر بقولهم. ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمد الله وإنعامه. ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يقولون.

(٣٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ ما يقلق النفوس من حوادث الدهر، وقيل المنون الموت فعول من منه إذا قطعه.

(٣١) ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ﴾ أترصد هلاككم كما ترصدون هلاكهم.

(٣٢) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُهُمْ﴾ عقولهم. ﴿هَذَا﴾ بهذا التناقض في القول فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى عقله والشاعر يكون ذا كلام موزون متسق مخيل، ولا يتأتى ذلك من المجنون، وأمر الأجلام به مجاز عن أدائها إليه. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد. وقرىء بل هم.

(٣٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه. ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيرمونه بهذه المطاعن لكفرهم وعنادهم.

(٣٤) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ مثل القرآن. ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في زعيمهم إذ فيهم كثير ممن عُدوا فصحاء فهو رد للأقوال المذكورة بالتحدي، ويجوز أن يكون ردًا للقول فإن سائر الأقسام ظاهر الفساد.

(٣٥) ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أم أخذوا وقدروا من غير محدث ومقدر فلذلك لا يعبدونه، أو من أجل لا شيء من عبادة ومجازاة. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يؤيد الأول فإن معناه أم خلقوا أنفسهم ولذلك عقبه بقوله:

(٣٦) ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ وأم في هذه الآيات منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار. ﴿بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ﴾ إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض قالوا الله إذ لو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَا تِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾
 أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ
 يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ
 السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾

(٣٧) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ خزائن رزقه حتى يزرُقوا النبوة من شاؤوا، أو خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختارته حكمته. ﴿أَمْ لَهُمُ الْمَصْيطِرُونَ﴾ الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف شاؤوا. وقرأ قبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وحمزة بخلاف عن خلاد بين الصاد والزاي، والباقون بالصاد خاصة.

(٣٨) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء. ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يؤخى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن. ﴿فَلَيَا تِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة واضحة تصدق استماعه.

(٣٩) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ فيه تسفيه لهم وإشعار بأن من هذا رأيه لا يعد من العقلاء فضلاً أن يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيتطلع على الغيوب^(١).

(٤٠) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ﴾ من التزام غزم. ﴿مُثْقَلُونَ﴾ محمّلون الثقل فلذلك زهدوا في اتباعك.

(٤١) ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه.

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص فيكون وضعه موضع الضمير للتسجيل على كفرهم، والدلالة على أنه الموجب للحكم المذكور. ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم الكيد أو يعود عليهم وبإل كيدهم، وهو قتلهم يوم بدر أو المغلوبون في الكيد من كايده فكيده.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو شركة ما يشركونه به.

(٤٤) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعة. ﴿مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم. ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ هذا سحب تراكم بعضه على بعض، وهو جواب قولهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٢).

(٤٥) ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو عند النفخة الأولى، وقرئ يلقوا وقرأ ابن عامر وعاصم يَصْعَقُونَ على المبني للمفعول من صعقه أو أضغفه.

(١) والالتفات إلى الخطاب في «ولكم» لتشديد ما في أم المنقطعة من الإنكار والتوبيخ (س/٨/١٥١).

(٢) الشعراء: «١٨٧».

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ
النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي شيئاً من الإغناء في رد العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص. ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي دون عذاب الآخرة وهو عذاب القبر أو المواخذة في الدنيا كقتلهم ببذر والقحط سبع سنين. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

(٤٨) ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بآمالهم وإبقائك في عنايتهم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حفظنا بحيث نراك ونكلؤك، وجمع العين لجمع الضمير والمبالغة بكثرة أسباب الحفظ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قُمتَ أو من منامك أو إلى الصلاة.

(٤٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فإنَّ العبادة فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ من الرياء، ولذلك أفردته بالذكر وقدمه على الفعل. ﴿وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل، وقرء بالفتح أي في أعقابها إذا غربت أو خفيت. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. كما في «الكافي الشاف» (ص ١٦٠ رقم ٥٦).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّجْمِ

آياتها
٦٢ترتيبها
٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾

سورة والنجم مكية^(١) وآيها إحدى أو اثنتان وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسم بجنس النجوم أو الثريا فإنه غلب فيها إذا غرب أو انتثر يوم القيامة أو انقضَّ أو طلع فإنه يُقَالُ: هوى هويًا بالفتح إذا سقط وغرب، وهويًا بالضم إذا علا وصعد، أو بالنجم من نجوم القرآن إذا نزل أو النبات إذا سقط على الأرض، أو إذا نما وارتفع على قوله^(٢).
- (٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ما عدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم، والخطابُ لقريش^(٣). ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٥٣/١٥): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».

وهي أول سورة أعلن بها رسول الله ﷺ وجهه بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال: يكفيني هذا. وسبب هذه السورة أن المشركين قالوا إن محمداً يتقول القرآن ويخلق أقواله فنزلت السورة في ذلك هـ.

(٢) تقييد القسم بوقت الهوي لأن النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب، وإنما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده، مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من تدلي جبريل من الأفق الأعلى ودنوه منه عليهما السلام (س/٨/١٥٤).

(٣) وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صَاحِبَيْهِ لهما للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وإحاطتهم خبراً ببراءته عليه الصلاة والسلام مما نفي عنه بالكلية، واتصافه عليه السلام بغاية الهدى والرشاد فإن طول صحبتهم له =

وما اعتقد باطلاً والخطابُ لقريش، والمراد نفْيُ ما ينسبونُ إليه.

(٣) ﴿وَمَا يَطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآنُ أو الذي ينطقُ به. ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي إلا وحْيٌ يوحيه اللهُ إليه، واحتجَّ به من لم يرَ الاجتهادَ له. وأجيبَ عنه بأنه إذا أُوحِيَ إليه بأن يجتهدَ كان اجتهدَهُ وما يستند إليه وحياً، وفيه نظرٌ لأن ذلك حيثئذٍ يكون بالوحي لا الوحي.

(٥) ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ مَلَكٌ شديد قُوَاهُ وهو جبريلُ عليه السلام فإنه الواسطة في إبداء الخوارق، رُوِيَ أنه قلعَ قرى قوم لوط ورفعها إلى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين.

(٦) ﴿ذُومِرَقَ﴾ حصافةٌ في عقله ورأيه. ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها. قيل^(١) ما رآه أحدٌ من الأنبياء في صورته غيرَ محمد عليه الصلاة والسلام مرتين، مرةً في السماء ومرةً في الأرض، وقيل استوى بقوته على ما جعلَ له من الأمر.

(٧) ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ في أفق السماء والضميرُ لجبريلَ عليه السلام.

(٨) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من النبيِّ عليه الصلاة والسلام. ﴿فَتَدَلَّى﴾ فتعلقَ به وهو تمثيلٌ لعروجه بالرسول ﷺ. وقيل ثم تدلَّى من الأفقِ الأعلى فدنا فيكون من الرسولِ إشعاراً بأنه عُرِجَ به غير منفصلٍ عن محلِّه تقريراً لشدة قوته، فإنَّ التدلِّيَ استرسالٌ مع تعلُّقٍ كتدلي الثمرة، ويقال دَلَّى رجله من السرير وأدلى دلوهُ، والدوالي الثمرُ المعلقُ.

(٩) ﴿فَكَانَ﴾ جبريلُ عليه السلام كقولك: هو مني معقداً إزار، أو المسافةُ بينهما. ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدارُهما. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ على تقديركم كقوله أو يزيدون، والمقصودُ تمثيل مَلَكَةِ الاتصالِ وتحقيقِ استماعه لما أُوحِيَ إليه بنفي البعدِ الملبس.

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ جبريلُ عليه السلام. ﴿إِلَىٰ عَبْدِيهِ﴾ عبدالله، وإضمماره قبلَ الذِّكْرِ لكونه معلوماً كقوله ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾^(٢) ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ جبريلُ عليه السلام وفيه تفخيمٌ للموحى به أو اللهُ إليه. وقيل الضمائرُ كُلُّها لله تعالى، وهو المعني بشديد القوى كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٣)، ودُنُوهُ منه برفع مكانته وتدلُّيه جذبُه بشرائره إلى جنابِ القدس.

(١١) ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ما رأى ببصره من صورة جبريلَ عليه السلام أو الله تعالى، أي ما كذبَ بصره بما حكاه له فإنَّ الأمورَ القدسيةَ تُدْرَكُ أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر، أو ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك كان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره، أو ما رآه بقلبه

= عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً (س/٨/١٥٤).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٦٠ رقم ٥٩): «لم أجده هكذا. وذكر المرتين تقدم في الذي قبله» هـ.

(٢) فاطر: «٤٥».

(٣) الذاريات: «٥٨».

والمعنى أنه لم يكن تخيلاً كاذباً. ويدلُّ عليه أنه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ: هل رأيت ربَّك؟ فقال: «رأيتُه بفؤادي»^(١). وقرأ هشام ما كَذَبَ، أي صدَّقه ولم يشكَّ فيه.

أَفْتَمُرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿أَفْتَمُرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ أفتجادلونه عليه، من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مَرَى الناقة كأنَّ كلاً من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب أفتمرونه، أي أفتغلبونه في المراء من ماريته فمريتُهُ؛ أو أفتجحدونه من مراءه حقه إذا جحدَه. وعلى لتضمين الفعل معنى الغلبة فإنَّ المماري والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ مرَّة أخرى، فعلة من النزول أقيمت مقام المرَّة ونصبت نصبها إشعاراً بأنَّ الرؤية في هذه المرة كانت أيضاً بنزول ودنؤ، والكلام في المرئي والدنؤ ما سبق. وقيل تقديره ولقد رآه نازلاً نزلة أخرى، ونصبها على المصدر، والمراد به نفى الريبة عن المرة الأخيرة.

(١٤) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ التي ينتهي إليها أعمال الخلاق وعلمهم، أو ما ينزل من فوقها ويصعد من تحتها، ولعلها شُبِّهت بالسدر وهي شجرة التَّيِّبِ لأنهم يجتمعون في ظلِّها. وروي مرفوعاً أنها في السماء السابعة^(٢).

(١٥) ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ الجنة التي يأوي إليها المتقون أو أرواح الشهداء^(٣).

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها بحيث لا يكتنفها نعمت ولا يحصيها عدٌّ، وقيل يغشاها الجمُّ الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها^(٤).

(١٧) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ ما مال بصرُ رسول الله ﷺ عما رآه. ﴿وَمَا طَغَى﴾ وما تجاوزَه بل أثبتَه إثباتاً صحيحاً مستيقناً، أو ما عدلَ عن رؤية العجائب التي أمرَ برؤيتها وما جاوزها.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملكوتية والملكوتية

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وقد أخرج مسلم في صحيحه (١٥٨/١) رقم (١٧٦/٢٨٤) عن ابن عباس موقوفاً. بلفظ «رأه بقلبه» و(١٥٨/١) رقم (٢٨٥/...) بلفظ «رأه بفؤاده مرتين».

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (١٤٥/١ - ١٤٧) رقم (١٦٢/٢٥٩) من حديث أنس بن مالك. ضمن حديث طويل: «... ثم ذهب إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كأذان الفيلة. وإذا ثمرها كالقلال. قال، فلما غشيتها من أمر الله ما غشى تغيرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله إليَّ ما أوحى...».

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤٠٦/٧) بدون سند عن مقاتل والكلبي.

وانظر «جامع البيان» (١٣/ج ٢٧/٥٥).

(٤) وصيغة المضارع في «يغشى» لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيدان باستمرار الغشيان بطريق التجدد (س/١٥٧).

ليلة المعراج وقد قيل: إنها المعنية بما رأى. ويجوز أن تكون الكبرى صفة للآيات على أن المفعول محذوف أي شيئاً من آيات ربه أو من مزيدة.

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾

(١٩) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾.

(٢٠) ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ﴾ هي أصنام كانت لهم، فاللات كانت لثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا يلؤون عليها أي يطوفون. وقرأ هبة الله عن البرقي ورويس عن يعقوب اللات بالتشديد على أنه سمي به لأنه صورة رجل كان يلبس السويق بالسمن ويطعم الحاج. والعزى بالتشديد سمره^(١) لغطفان كانوا يعبدونها فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها^(٢). وأصلها تأنيث الأعز. ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة أو لثقيف وهي فعلة من مناه إذا قطعه فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين ومنه منى. وقرأ ابن كثير مناة وهي مفعلة من التوء فإنهم كانوا يستمطرون الأنواء عندها تبركاً بها. وقوله الثالثة الأخرى صفتان للتأكيد كقوله تعالى ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾^(٣) أو الأخرى من التأخر في الرتبة.

(٢١) ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ إنكار لقولهم: الملائكة بنات الله، وهذه الأصنام استوطنتها جنيات من بنائه، أو هياكل الملائكة وهو المفعول الثاني لقوله أفرايتهم.

(٢٢) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ جائرة حيث جعلتم له ما تستكفون منه وهي فعلى من الضيز وهو الجور، لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء كما قيل في يضر فإن فعلى بالكسر لم تأت وصفاً. وقرأ ابن كثير بالهمز من ضأزه إذا ظلمه على أنه مصدر نعت به.

(٢٣) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ الضمير للأصنام أي ما هي باعتبار الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها لأنهم يقولون إنها آلهة وليس فيها شيء من معنى الألوهية، أو للصفة التي تصفونها بها من كونها آلهة وبنات وشفعاء، أو للأسماء المذكورة فإنهم كانوا يطلقون اللات عليها باعتبار استحقاقها للعكوف على

(١) السمره من شجر الطلح (مختار الصحاح مادة سمر).

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٥٦٧) بإسناد حسن وأبو يعلى في سننه (١٩٦/٢) رقم ٩٠٢/٣ بإسناد صحيح.

وأبو نعيم في الدلائل (٢/٦٨٧ رقم ٤٦٣) وذكره ابن سعد في الطبقات (٢/١٤٥) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/١٧٦) وقال: «رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف» هـ. قلت: وفاته أن ينسب إلى أبي يعلى.

وزاد السيوطي في «الدر» (٧/٦٥٢) نسبته لابن مردويه.

(٣) الأنعام: «٣٨».

عبادتها، والعزى لعزتها ومناة لاعتقادهم أنها تستحق أن يتقرب إليها بالقرابين. ﴿سَمِيتُوهَا﴾ سَمِيتُمْ بها.

﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ بهواكم. ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ برهان تتعلقون به. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ وقرىء بالتاء. ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق تقليداً وتوهمًا باطلاً. ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ وما تشتهي أنفسهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ الرسول أو الكتاب فتركوه.

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَرَّ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾

(٢٤) ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والمعنى ليس له كل ما يتمناه والمراد نفى طمعهم في شفاعاة الآلهة وقولهم ﴿وَلَكِنْ رُجِعَتْ إِلَى رَبِّهِ إِنْ لِي عِنْدَهُمُ الْحُسْنَى﴾^(١) وقولهم ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢) ونحوهما.

(٢٥) ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ يعطي منهما ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

(٢٦) ﴿وَكَرَّ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم شيئاً ولا تنفع^(٣). ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ في الشفاعاة. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من الملائكة أن يشفع أو من الناس أن يشفع له. ﴿وَيَرْضَى﴾ ويراه أهلاً لذلك فكيف تشفع الأصنام لعبادتهم.

(٢٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي كل واحد منهم. ﴿تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ بأن يسموه بنتاً.

(٢٨) ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بما يقولون، وقرىء بها أي بالملائكة أو بالتسمية. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ فإن الحق الذي هو حقيقة الشيء لا يذكرك إلا بالعلم، والظن لا اعتبار له في المعارف الحقيقية، وإنما العبرة به في العمليات وما يكون وصلة إليها.

(٢٩) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فأعرض عن دعوته والاهتمام بشأنه فإن من غفل عن الله وأعرض عن ذكره وانهماك في الدنيا بحيث كانت تنتهي همته ومبلغ علمه لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل.

(٣٠) ﴿ذَلِكَ﴾ أي أمر الدنيا أو كونها شهية. ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ لا يتجاوزه علمهم، والجملة اعتراض مقرر لقصور همهم بالدنيا وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ تعليل

(١) فصلت: (٥٠).

(٢) الزخرف: (٣١).

(٣) وجمع الضمير في شفاعتهم - مع أفراد الملاك - باعتبار المعنى (س/٨/١٦٠).

للأمر بالإعراض، أي إنما يعلم الله مَنْ يَجِيبُ مَنْ لا يَجِيبُ فلا تَتَعَبُ نَفْسَكَ في دعوتهم إذ ما عليك إلا البلاغُ وقد بَلَّغْتُ^(١).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤)

(٣١) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ بعقاب ما عملوا من السوء أو بمثله أو بسبب ما عملوا من السوء، وهو علّة دلّ عليه ما قبله أي خلق العالم وسواه للجزاء، أو ميّز الضالّ عن المهتدي وحفظ أحوالهم لذلك. ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ بالمشوبة الحسنى وهي الجنة، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى^(٢).

(٣٢) ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ ﴾ ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما رُتّب عليه الوعيد بخصوصه، وقيل ما أوجب الحدّ. وقرأ حمزة والكسائي وخلف كبير الإثم على إرادة الجنس أو الشرك. ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ ما فَحَشَ من الكبائر خصوصاً. ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ إلا ما قلّ وصغر فإنه مغفور من مجتنبى الكبائر، والاستثناء منقطع ومحلّ الذين النصب على الصفة أو المدح أو الرفع على أنه خبرٌ محذوف. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، أو له أن يغفر ما شاء من الذنوب صغيرها وكبيرها، ولعلّه عَقَبَ به وعيّد المسيئين ووَعدَ المحسنين لئلا يياسَ صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهّم وجوب العقاب على الله تعالى. ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أعلم بأحوالكم منكم. ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتداء خلقكم من التراب بخلق آدم وحينما صوّركم في الأرحام. ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فلا تُثَنُّوا عليها بذكاء العمل وزيادة الخير، أو بالطهارة عن المعاصي والردائل. ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ فإنه يعلم التقى وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صُلْبِ آدم عليه السلام.

(٣٣) ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ عن اتباع الحق والشبّات عليه.

(٣٤) ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ وقطع العطاء من قولهم أكدى الحافر إذا بلغ الكدية وهي الصخرة الصلبة فترك الحفر. والأكثر على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يتبع رسول الله ﷺ فعيره بعض المشركين وقال: تركت دين الأشياخ وضللتهم؛ فقال: أخشى عذاب الله تعالى، فضمن أن يتحمّل عنه العقاب إن أعطاه بعض ماله، فارتدّ وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقي^(٣).

(١) وتكرير قوله: «هو أعلم» لزيادة التقرير والإيضاح بكمال تباين المعلومين (س/٨/١٦١).

(٢) وتكرير الفعل يجزي لإبراز كمال الاعتناء بأمر الجزاء، والتنبيه على تباين الجزاءين (س/٨/١٦١).

(٣) ذكره الطبري في «جامع البيان» (١٣/٢٧/٧٠) والواحدي في «الأسباب» (ص٣٩٩) والقرطبي في «الجامع» =

أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَزَرَهُ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

(٣٥) ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَى﴾ يعلم أنَّ صاحبه يتحمل عنه .

(٣٦) ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ .

(٣٧) ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ وقر وأنتم ما التزمه وأمر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله، وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود حتى أتاه جبريل عليه السلام حين ألقي في النار فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا، وذبح الولد، وأنه كان يمشي كل يوم فرسخاً^(١) يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم. وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأنَّ صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم .

(٣٨) ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرَهُ﴾ أن هي المخففة من الثقيلة وهي بما بعدها في محل الجر بدلاً مما في صحف موسى، أو الرفع على هو أن لا تزر كأنه قيل ما في صحفهما؟ فأجاب به، والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يخالف ذلك قوله تعالى ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٢) وقوله عليه الصلاة والسلام «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(٣) فإن ذلك للدلالة والتسبب الذي هو وزرُهُ .

(٣٩) ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ إلا سعيه أي كما لا يؤاخذ أحد بذنب الغير لا يثاب بفعله، وما جاء في الأخبار من أنَّ الصدقة والحج ينفعان الميت فليكون الناي له كالنائب عنه .

(٤٠) ﴿وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى﴾ .

(٤١) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أي يُجْزَى العبد سعيه بالجزاء الأوفر فنصب بنزع الخافض، ويجوز أن يكون مصدراً وأن تكون الهاء للجزاء المدلول عليه بيجزى والجزاء بدلُهُ .

(٤٢) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ انتهاء الخلائق ورجوعهم، وقرء بالكسر على أنه منقطع عما في الصحف وكذلك ما بعده .

(٤٣) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ .

(٤٤) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره فإنَّ القاتل ينقض البنية والموت

= لأحكام القرآن (١٧/١١١) .

(١) الفرسخ = ٥٥٤٤ مترأ. وانظر كتابنا: «الإيضاحات العصرية للمقاييس والمكايل والأوزان الشرعية» فصل «الفرسخ» .

(٢) المائدة: (٣٢) .

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧/٢) رقم (٧٠٤) من حديث جرير .

يحصل عنده بفعل الله تعالى على سبيل العادة.

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّهُ عَلَيهِ النَّشْأَةُ الْآخَرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَتَقْنَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَفَسَّنَاهَا مَا عَشَىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

(٤٥) ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

(٤٦) ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ تدفق في الرحم أو تخلق، أو يُقَدَّرُ منها الولد من متى إذا قَدَرَ.

(٤٧) ﴿وَأَنَّهُ عَلَيهِ النَّشْأَةُ الْآخَرَىٰ﴾ الإحياء بعد الموت وفاءً بوعده، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بالمدة وهو أيضاً مصدر نشأ.

(٤٨) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطى القنية وهو ما يتأكل من الأموال، وإفراؤها لأنها أشفُ الأموال أو أرضى، وتحقيقه جعل الرضا له قنية.

(٤٩) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ يعني العبور وهي أشدُّ ضياءً من الغميصاء، عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ وخالف قريشاً في عبادة الأوثان، ولذلك كانوا يسمون الرسول ﷺ ابن أبي كبشة. ولعل تخصيصها للإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وإن وافق أبا كبشة في مخالفتهم خالفه أيضاً في عبادتها.

(٥٠) ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ القدماء لأنهم أولى الأمر هلاكاً بعد قوم نوح عليه الصلاة والسلام. وقيل عاد الأولى قوم هود وعاد الآخرة إرم. وقرئ عاداً لولى بحذف الهمزة ونقل ضممتها إلى لام التعريف، وقرأ نافع وأبو عمرو عاداً لولى بضم اللام بحركة الهمزة وبإدغام التنوين، وقالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو.

(٥١) ﴿وَتَمُودًا﴾ عطف على عاداً لأن ما بعده لا يعمل فيه. وقرأ عاصم وحمزة بغير تنوين ويقفان بغير الألف، والباقون بالتنوين ويقفون بالألف. ﴿فَمَا أَتَقْنَىٰ﴾ الفريقين.

(٥٢) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أيضاً معطوف عليه. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل عاد وثمود. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَىٰ﴾ من الفريقين لأنهم كانوا يؤذونه ويفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به جراك.

(٥٣) ﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ﴾ والقرى التي انتفكت بأهلها أي انقلبت، وهي قرى قوم لوط. ﴿أَهْوَىٰ﴾ بعد أن رفعها فقلبها.

(٥٤) ﴿فَفَسَّنَاهَا مَا عَشَىٰ﴾ فيه تهويل وتعميم لما أصابهم.

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تشكك، والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد^(١). والمعدودات وإن

(١) وإسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه، وذلك أن صيغة التفاعل وإن كانت موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يكون كل من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً، لكنها قد تجرد عن المعنى الثاني فيراد بها المعنى الأول فقط كما في يتداعونهم أي يدعونهم، وقد تجرد عنهم أيضاً فيكتفى بتعدد =

كانت نعماً ونقماً سماًها آلاء من قتل ما في نِقَمِهِ من العَبَرِ والمَوَاعِظِ للمعتبرين. والانتقام للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين.

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

(٥٦) ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ أي هذا القرآن إنذارٌ من جنس الإنذارات المتقدمة، أو هذا الرسول نذيرٌ من جنس المنذرين الأولين.

(٥٧) ﴿أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ﴾ دنت الساعة الموصوفة بالدنو في نحو قوله تعالى ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾^(١).

(٥٨) ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله لكنه لا يكشفها، أو الآن بتأخيرها إلا الله، أو ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله إذ لا يطلع عليه سواه، أو ليس لها من غير الله كشفٌ على أنها مصدر كالعافية.

(٥٩) ﴿أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿تَعَجُّبُونَ﴾ إنكاراً.

(٦٠) ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء. ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ تحزناً على ما فرطتم.

(٦١) ﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ لاهون أو مستكبرون من سَمَدٍ البعير في مسيره إذا رفع رأسه، أو مغثون لِتُسْغَلُوا الناس عن استماعه من الثمود وهو الغناء.

(٦٢) ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي واعبدوه دون الآلهة - عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النجم أعطاه

الله عشر حسنات بعدد من صدَّق بمحمد وجحد به بمكة»^(٢).

☆ ☆ ☆

الفعل بتعدد متعلقه كما في الآية «فبأي آلاء ربك تتمازى» فإن المراء متعدد بتعدد الآلاء (س/١٦٥/٨).

القمر: «١».

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكافي الشاف»

(١) (ص ١٦١/رقم ٧٠). وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

(٢)

سُورَةُ الْقَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حَكَمُهُ بَلَلُغَةُ فَمَا تَعْنِ النَّذْرُ ۚ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكِيرٍ ۚ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۚ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ۚ

سورة القمر مكية^(١) وآياتها خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ رُوِيَ أَنَّ الْكَفَارَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ آيَةَ فَانْشَقَّ الْقَمَرُ^(٢) . وقيل معناه سينشق يوم القيامة ويؤيد الأول أنه قرئ وقد انشق القمر أي اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها انشقاق القمر، وقوله:

(٢) ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ عن تأملها والإيمان بها. ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ مُطَرِّدٌ وهو يدل على أنهم رأوا قبله آياتٍ آخرَ مترادفةً ومعجزاتٍ متتابعةٍ حتى قالوا ذلك، أو محكمٌ من المِرَّةِ يقال أمرته فاستمر إذا أحكمته فاستحكمت، أو مستبشعٌ من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته، أو ما زلَّ ذاهبٌ لا يبقى.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩١/١٥): «وهي مكية بإجماع إلا آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس هي مكية، وقال قوم هي مما نزل ببدر، وقيل بالمدينة وهي «سيهزم الجمع» الآية هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١/٦) رقم ٣٦٣٧ و(٧/١٨٢) رقم ٣٨٦٨ و(٨/٦١٧) رقم ٤٨٦٧) ومسلم (٤/٢١٥٩) رقم ٢٨٠٢/٤٦ من حديث أنس.

(٣) ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهو ما زَيْنَ لهم الشيطانُ من رد الحقِّ بعد ظهوره، وذكرُهما بلفظ الماضي للإشعارِ بأنهما من عاداتهم القديمة. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ منتهٍ إلى غاية من خذلانٍ أو نصرٍ في الدنيا وشقاوةٍ، أو سعادةٍ في الآخرة فإنَّ الشيءَ إذا انتهى إلى غايته ثَبَّتَ واستقرَّ. وقرئ بالفتح أي ذو مستقرٍّ بمعنى استقرارٍ، وبالكسرِ والجرِّ على أنه صفةُ أمرٍ، وكلُّ معطوفٍ على الساعة^(١).
(٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ في القرآن ﴿مِّنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة. ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجارٌ من تعذيبٍ أو وعيد، وتاءُ الافتعالِ تُقْلَبُ دالاً مع الدالِّ والدالِّ والزاي للتناسبِ، وقرئ مزجراً بقلبها زايًا وإدغامها.

(٥) ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ غايتها لا خللَ فيها وهي بدلٌ من ما أو خبرٌ لمحذوف، وقرئ بالنصب حالاً من ما فإنها موصولةٌ أو مخصوصةٌ بالصفة فيجوز نصبُ الحال عنها. ﴿فَمَا تَعْنِ الثُّدُرُ﴾ نفى أو استفهامٌ إنكارٍ، أي فأيُّ غناءٍ تغني الثُّدُرُ وهو جمع نذير بمعنى المنذر، أو المنذر منه أو مصدرٌ بمعنى الإنذار^(٢).

(٦) ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأنَّ الإنذارَ لا يغني فيهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ﴾ إسرافيلُ، ويجوزُ أن يكون الدعاءُ فيه كالأمرِ في قوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣) وإسقاطُ الباءِ اكتفاءً بالكسرة للتخفيفِ، وانتصابُ يومٍ بـيُخرجونَ أو بإضمارِ اذكر. ﴿إِلَى شَيْءٍ نُّكِّرٍ﴾ فظيعٌ تنكره النفوسُ لأنها لم تعهذ مثله وهو هولُ يومِ القيامة، وقرأ ابن كثيرٌ نُكِرَ بالتخفيفِ، وقرئ نُكِرَ بمعنى أُنكِرَ.

(٧) ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من قبورهم خاشعاً ذليلاً أبصارهم من الهول، وإفراذه وتذكيره لأنَّ فاعله ظاهر غيرُ حقيقيٍّ التأنيثِ، وقرئ خاشعةً على الأصل، وقرأ ابن كثيرٍ ونافع وابن عامر وعاصمٌ خُشْعًا، وإنما حَسُنَ ذلك ولم يحسنَ مررتُ برجالٍ قاثمين غلمانهم لأنه ليس على صيغة تشبه الفعل، وقرئ خُشْعٌ أبصارهم على الابتداء والخبر فتكونُ الجملةُ حالاً. ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموُّج والانتشار في الأمكنة.

(٨) ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين ما دُنِيَ أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعبٌ.

(٩) ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام وهو تفصيلٌ بعد إجمال، وقيل معناه كَذَّبُوهُ تكذيباً على عقبِ تكذيبٍ كلِّما خلا منهم قَزَنٌ مكذِّبٌ تبعه قَزَنٌ مكذِّبٌ، أو كذبوه بعدما كذبوا الرسل^(٤). ﴿وَقَالُوا اجْنُونُ﴾ هو مجنون. ﴿وَأَزْدَجِرْ﴾ وَزَجَرَ عن التبليغ بأنواع الأذية، وقيل إنه من جملة قيلهم أي هو مجنونٌ وقد ازدجرته الجنُّ وتخبَّطته.

(١) وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به (س/١٦٧).

(٢) وصيغة المضارع في «تغني» للدلالة على تجدد عدم الإغناء واستمراره حسب تجدد مجيء الزواجر واستمراره (س/١٦٨).

(٣) البقرة: ١١٧.

(٤) وفي ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحلّه، وزيادة تشنيع لمكذبيه (س/١٦٩).

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ ﴿١٧﴾ كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾

(١٠) ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ غلبني قومي. ﴿فَانْتَصِرَ﴾ فانتقم لي منهم وذلك بعد يأسه منهم. فقد روي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنفه حتى يختر مغشياً عليه فيفيق ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون^(١).

(١١) ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ منصّب، وهو مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها، وقرأ ابن عامر ويعقوب ففتحنا بالتشديد لكثرة الأبواب.

(١٢) ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة، وأصله وفجرنا عيون الأرض فغير للمبالغة. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ ماء السماء وماء الأرض. وقرئ الماء إن لاختلاف النوعين، والماوإن بقلب الهمزة واوا. ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حال قدرها الله تعالى في الأزل من غير تفاوت، أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل على قدر ما أخرج، أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

(١٣) ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ ذات أخشاب عريضة. ﴿وَدُسُرٍ﴾ ومسامير جمع دسار من الدسر، وهو الدفع الشديد وهي صفة للسفينة أقيمت مقامها من حيث إنها كالشرح لها تؤدي مؤداها.

(١٤) ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا. ﴿جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي فعلنا ذلك جزاء لنوح لأنه نعمة كفروها، فإن كل نبي نعمة من الله تعالى ورحمة على أمته، ويجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير، وقرئ لمن كفر أي للكافرين.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ أي السفينة أو الفعلة. ﴿آيَةً﴾ يُغْتَبَرُ بها إذ شاع خبرها واشتهر. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ﴾ معتبر، وقرئ مذكير على الأصل، ومذكير بقلب التاء ذالاً والإدغام فيها.

(١٦) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ استفهام تعظيم ووعيد، والنذر يحتمل المصدر والجمع.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ سهّلناه أو هيّأناه من يسر ناقته للسفر إذا رحّلها. ﴿لِلذِّكْرِ﴾ للذكور والانتعاض بأن صرفنا فيه أنواع المواعظ والعبر، أو للحفظ بالاختصار وعذوبة اللفظ. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ﴾ متعيط.

(١٨) ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ وإنذاري أتى لهم بالعذاب قبل نزوله، أو لمن بعدهم

في تعذيبهم^(٢).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٨٦ رقم ٢٧٨) من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير. ورجاله ثقات، وإسناده صحيح مرسل. وانظر «فتح الباري» (٢٨٢/١٢). وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه البخاري (٢٨٢/١٢) رقم ٦٩٢٩) ومسلم (١٤١٧/٣) رقم ١٧٩٢/١٠٥) وأحمد (٣٨٠/١) رقم ٤٢٧، ٤٣٢، ٤٤١، ٤٥٣، ٤٥٦ - ٤٥٧) كلهم من طريق شقيق عنه.

(٢) لم يتعرض لكيفية تكذيبهم له روماً للاختصار، ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب (س ٨/١٧٠).

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَبْتَ ثُمُودَ بِالنُّذْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّمَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أَلَمَلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسِلُوا النِّاقَةَ فَنِنَّةً لَهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَلِرَ ﴿٢٧﴾

(١٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بارداً أو شديداً الصوت. ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ شؤم. ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ أي استمر شؤمُهُ، أو استمرَّ عليهم حتى أهلكهم، أو على جميعهم كبيرهم وصغيرهم فلم يُتَبَّ منهم أحداً، أو اشتدَّ مرارته وكان يوم الأربعاء آخر الشهر.

(٢٠) ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ تفلعهم، روي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فتزعهم الريح منها وصرعهم موتى. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ أصول نخلٍ منقلعٍ عن مغارسه ساقطٍ على الأرض. وقيل شبهوا بالأعجاز لأن الريح طيرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم، وتذكير منقلعٍ للحمل على اللفظ، والتأنيث في قوله: أعجاز نخل خاوية للمعنى.

(٢١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ كثره للتحويل. وقيل الأول لما حاق بهم في الدنيا، والثاني لما يحقُّ بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصتهم ﴿لَنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَى﴾^(١).
(٢٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾.

(٢٣) ﴿كَذَبْتَ ثُمُودَ بِالنُّذْرِ﴾ بالإنذارات والمواعظ، أو الرسل.

(٢٤) ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّمَّا﴾ من جنسنا أو من حملنا لا فضلَ له علينا، وانتصابه بفعلٍ يفسره ما بعده، وقرئ بالرفع على الابتداء، والأول أَوْجَهُ للاستفهام. ﴿وَاحِدًا﴾ منفرداً لا يتبع له أو من آحادهم دون أشرافهم. ﴿نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ﴾ جمعٌ سعيَرٌ كأنه عكسوا عليه فزُتُّوا على اتباعهم إياه ما رُتِّبَ على تركِ اتباعهم له، وقيل الشُّعْرُ الجنونُ ومنه ناقةٌ مسعورةٌ.

(٢٥) ﴿أَلَمَلَقِيَ الذِّكْرُ﴾ الكتابُ أو الوحي. ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وفيما من هو أحقُّ منه بذلك. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ حمله بطره على الترفع علينا بادعائه إياه.

(٢٦) ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ﴾ عند نزولِ العذاب بهم أو يوم القيامة. ﴿مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ الذي حمله أشْرُهُ على الاستكبار عن الحق وطلبِ الباطل، أصالحٌ عليه السلام أم مَنْ كَذَّبَهُ؟ وقرأ ابن عامر وحمزة ورويس ستعلمون على الالتفاتِ أو حكاية ما أجابهم به صالحٌ، وقرئ الأشرُّ كقولهم حذرٌ في حذرٍ والأشرُّ أي الأبلغ في الشرارة وهو أصلٌ مرفوض كالآخر.

(٢٧) ﴿إِنَّا مَرْسِلُوا النِّاقَةَ﴾ مخرجوها وباعثوها. ﴿فَنِنَّةً لَهُمْ﴾ امتحاناً لهم. ﴿فَأَرْقَبَهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصَّر ما يصنعون. ﴿وَأَصْطَلِرَ﴾ على أذاهم.

وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُّوطٍ بِالَّذِي هُوَ يُنْذِرُ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكَرَةٌ عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٩﴾

(٢٨) ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسومٌ لها يومٌ ولهم يومٌ، وبينهم لتغليب العقلاء. ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ﴾ يحضره صاحبه في نوبته أو يحضره عنه غيره.

(٢٩) ﴿فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ فاجترأ على تعاطي قتلها فقتلها، أو فتعاطى السيف فقتلها، والتعاطي تناول الشيء بتكلف.

(٣٠، ٣١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿صَيْحَةً جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْظِرِ﴾ كالشجر اليابس المتكسر الذي يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة لماشيته في الشتاء^(١). وقرئ بفتح الظاء أي كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ .

(٣٣) ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُّوطٍ بِالَّذِي هُوَ يُنْذِرُ﴾ .

(٣٤) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم. ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ في سحرٍ وهو آخر الليل أو مسحرين.

(٣٥) ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا﴾ إنعاماً منا، وهو علة لنجينا. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط. ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ فكذبوا بالنذر متساكين.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ﴾ قصدوا الفجور بهم. ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ فمسخناها وسويناها بسائر الوجه. روي أنهم لما دخلوا داره غنوة صفقهم جبريل عليه السلام صفقة فأغماهم^(٢). ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ فقلنا لهم ذوقوا على السنة الملائكة أو ظاهر الحال.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكَرَةٌ﴾ وقرئ بكرة غير مصروفة على أنَّ المراد بها أولُ نهار معيَّن. ﴿عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ يستقر بهم حتى يسلمهم إلى النار.

(٣٩) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ .

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/١٤٢ - ١٤٣).

(٢) انظر تفسير البغوي (٧/٤٣٢) فقد ذكره بدون سند.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٢﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ﴿٣﴾ أَكْفَارًا كُفِّرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٥﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٦﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٧﴾

(٤٠) ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ كرر ذلك في كل قصة إشعاراً بأنَّ تكذيب كلِّ رسول مقتضى لنزول العذاب واستماع كلِّ قصة مستدعٍ للادكار والاعتاظ، واستئنافاً للتنبيه والاعتاظ لثلاث يغلبهم السهو والغفلة، وهكذا تكرير قوله ﴿ فَإِنِّي آتٍ بِكُم بِبَرَاءَةٍ فِي الزُّبُرِ ﴾^(١) و ﴿ وَيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾^(٢) ونحوهما.

(٤١) ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴾ اكتفى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك منهم^(٣).

(٤٢) ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ يعني الآيات التسع. ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ ﴾ لا يُغَالَبُ. ﴿ مُقْتَدِرٌ ﴾ لا يعجزه شيء.

(٤٣) ﴿ أَكْفَارًا كُفِّرْتُمْ ﴾ يا معشر العرب. ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ ﴾ الكفار المعدودين قوة وعدة أو مكانة وديناً عند الله تعالى. ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أم نزل لكم في الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو في أمان من العذاب.

(٤٤) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ جماعة أمرنا. ﴿ مُنْتَصِرٌ ﴾ ممتنع لا ترام أو منتصر من الأعداء لا نُغْلَبُ، أو متناصِرٌ ينصر بعضنا بعضاً والتوحيد على لفظ الجميع.

(٤٥) ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ أي الأدبار وإفراده لإرادة الجنس، أو لأن كل واحد يولي دُبُرَهُ وقد وقع ذلك يوم بدر وهو من دلائل النبوة. وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه لما نزلت قال: لم أعلم ما هو، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول «سيهزم الجمع» فعلمته^(٤).

(٤٦) ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ موعد عذابهم الأصلي وما يحقق بهم في الدنيا فمن طلائعه. ﴿ وَالسَّاعَةُ أَذَى أَشَدُّ، والداهية أمر فظيع لا يُهْتَدَى لدوائه. ﴿ وَأَمْرٌ ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا.

(١) الرحمن: «١٣».

(٢) المرسلات: «١٥».

(٣) وصدرت قصتهم بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاعتاظ (س/٨/١٧٣).

(٤) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٦٢ رقم ٧٥): «أخرجه - عبدالرزاق عن معمر عن قتادة، وعن أيوب عن عكرمة «أن عمر - فذكره» وأتم منه. ورواه من هذا الوجه إسحاق - كما في المطالب العالية (٣/ ٣٨١ رقم ٣٧٥٩) وفيه انقطاع - والطبري - (١٣/ ج ٢٧/ ١٠٨) - وابن أبي حاتم.

ورواه الطبري في الأوسط من رواية عبدالمجيد بن أبي داود عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولاً - هـ. وانظر «فتح الباري» (٧/ ٢٨٩ - ٢٩٠) و«الدر المنثور» (٧/ ٦٨١).

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴿٥٥﴾

(٤٧) ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق في الدنيا. ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران في الآخرة.

(٤٨) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يُجْرُونَ عليها. ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يُقَالُ لَهُمْ ذُوقُوا حَرَّ النَّارِ وَالْمَهَا فَإِنَّ مَسَّهَا سَبَبُ التَّالِمِ بِهَا، وَسَقَرُ عِلْمٌ لِحَبْنَمَ وَلِذَلِكَ لَمْ يُضَرَفْ مِنْ سَقَرْتُهُ النَّارُ وَصَقَرْتُهُ إِذَا لَوَّحْتُهُ.

(٤٩) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا خلقنا كلَّ شيءٍ مقدراً مرتباً على مقتضى الحكمة، أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، وكلَّ شيءٍ منصوبٌ بفعلٍ يفسره ما بعده، وقرئ بالرفع على الابتداء وعلى هذا فالأولى أَنْ يُجْعَلَ خَلْقُنَاهُ خَبِراً لَا نَعْتاً لِيُطَابِقَ الْمَشْهُورَةَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَخْلُوقٌ بِقَدَرٍ، وَلَعَلَّ اخْتِيَارَ النَّصْبِ هَاهُنَا مَعَ الْإِضْمَارِ لِمَا فِيهِ مِنَ النُّصُوصِ عَلَى الْمَقْصُودِ.

(٥٠) ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ إِلَّا فَعْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَهُوَ الْإِبْجَادُ بِلا مَعَالِجَةٍ وَمَعَانَاةٍ، أَوْ إِلَّا كَلِمَةً وَاحِدَةً وَهُوَ قَوْلُهُ كُنْ. ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ فِي الْيُسْرِ وَالسَّرْعَةِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾^(١).

(٥١) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أَشْبَاهَكُمْ فِي الْكُفْرِ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ مَنَعُظٍ.

(٥٢) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ الْحَفَظَةِ.

(٥٣) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ. ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ مَسْطُورٌ فِي اللُّوحِ.

(٥٤) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أَنَهَارٍ وَاتَّفَقَ بِاسْمِ الْجَنَسِ، أَوْ سَعَةٍ، أَوْ ضِيَاءٍ مِنَ النَّهَارِ. وَقرئ نَهْرٍ وَبِضْمِ الْهَاءِ جَمْعُ نَهْرٍ كَأَسَدٍ وَأَسَدٍ.

(٥٥) ﴿فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ﴾ فِي مَكَانٍ مَرْضِيٍّ، وَقرئ مَقَاعِدَ صَدِيقٍ. ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ مُقَرَّبِينَ عِنْدَ مَنْ تَعَالَى أَمْرُهُ فِي الْمَلِكِ، وَالْإِقْتِدَارِ بَحِثِ أَهْمَتُهُ ذَوُو الْأَفْهَامِ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْقَمَرِ فِي كُلِّ غَبٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ»^(٢).

(١) النحل: «٧٧».

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكاف الشاف» (ص ١٦٢ رقم ٧٦).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾

سورة الرحمن مكية أو مدنية أو متبعضة^(١)، وآيها ثمان وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ﴾. (١)

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ لما كانت السورة مقصورةً على تعدادِ النعمِ الدنيويةِ والأخرويةِ صَدَّرَهَا
بالرحمن^(٢)، وقَدَّمَ ما هو أصلُ النعمِ الدينيةِ وأجلُّها وهو إنعامُهُ بالقرآنِ وتنزيله وتعليمه؛ فإنه أساسُ

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٩/١٥): «وهي مكية فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين.
وقال نافع بن أبي نعيم، وعطاء، وقتادة، وكريب، وعطاء الخراساني عن ابن عباس هي مدنية. نزلت عند إياية
سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم.
والأول أصح.

ولما نزلت حين قالت قريش بمكة: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟
وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه، وذلك قبل الهجرة
هـ.

وانظر «الدر المنثور» (٦٨٩/٧). و«زاد المسير» (١٠٥/٨).

(٢) وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على =

الدين ومنشأ الشرع وأعظم الوحي وأعز الكتب؛ إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها مصدق لنفسه ومصدق لها، ثم أتبعه قوله:

(٣) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾.

(٤) ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ إيماء بأن خلق البشر وما يميز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو التعبير عما في الضمير وأفهام الغير لما أدركه لتلقي الوحي وتعرف الحق وتعلم الشرع. وإخلاء الجمل الثلاث التي هي أخبار مترادفة للرحمن عن العاطف لمجيئها على نهج التعديد.

(٥) ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ يجريان بحساب معلوم مقدّر في بروجهما ومنازلهما، وتتسق بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات، ويُعلم السّنون والحساب.

(٦) ﴿وَالنَّجْمُ﴾ والنبات الذي ينجم أي يطلع من الأرض ولا ساق له. ﴿وَالشَّجَرُ﴾ الذي له ساق. ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقياد الساجد من المكلفين طوعاً. وكان حق النظم في الجملتين أن يقال: وأجرى الشمس والقمر وأسجد النجم والشجر، أو الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان له، ليطابقا ما قبلهما وما بعدهما في اتصالهما بالرحمن، لكنهما جُردتا عما يدل على الاتصال إشعاراً بأن وضوحه يغنيه عن البيان. وإدخال العاطف بينهما لاشتراكهما في الدلالة على أن ما يُحسن به من تغيرات أحوال الأجرام العلوية والسفلية بتقديره وتديره.

(٧) ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعة محلاً ومرتبّة، فإنها منشأ أفضيته ومنتزّل أحكامه ومحل ملائكته، وقرى بالرفع على الابتداء. ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ العدل بأن وفر على كل مستعد مستحقه، ووفاى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه السلام: «بالعدل قامت السموات والأرض»^(١). أو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما، كأنه لما وصف السماء بالرفعة من حيث إنها مصدر القضايا والإقرار أراد وصف الأرض بما فيها مما يظهر به التفاوت ويعرف به المقدار ويسوّى به الحقوق والمواجب.

(٨) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ لئلا تطغوا فيه أي لا تعتدوا ولا تجاوزوا الإنصاف، وقرى لا تطغوا على إرادة القول.

(٩) ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوّى لأنه المقصود من وضعه، وتكريره مبالغة في التوصية به وزيادة حث على استعماله، وقرى ولا تخسروا بفتح التاء وضم السين وكسرها، وتخسروا بفتحها على أن الأصل ولا تخسروا في الميزان فحذف الجار وأوصل الفعل.

(١٠) ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوة. ﴿لِلنَّاسِ﴾ للخلق، وقيل الأنام كل ذي روح.

= أصالته وجلالة قدره (س/٨/١٧٦).

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

وقد أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج ٢٧/١١٨) عن قتادة، قوله: «ألا تطغوا في الميزان، اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك، وأوف كما تحب أن يوفى لك، فإن بالعدل صلاح الناس» وإسناده صحيح.

فِيهَا فَتَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

(١١) ﴿فِيهَا فَتَكْهَةٌ﴾ ضروبٌ مما يُتَفَكَّهُ به. ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أوعيةُ التمرِ جمعُ كِمٍّ، أو كلُّ ما يُكَمُّ أي يغطَّى من ليفٍ وسَعَفٍ وكفري^(١) فإنه يُتَفَكَّهُ به كالمكموم كالجذع والجمار والتمر.

(١٢) ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ كالحنطة والشعير وسائر ما يُتَغَذَّى به، والعصفُ ورقُ النبات اليابس كالتين. ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني المشموم، أو الرزق من قولهم: خرجتُ أطلب ريحانَ الله. وقرأ ابن عامر والحبُّ ذا العصف والريحانُ أي وخلقَ الحبَّ والريحانَ أو وأخصُّ، ويجوزُ أن يُرَادَ وذا الريحانِ فحذفَ المضاف، وقرأ حمزة والكسائي والريحانَ بالخفضِ ما عدا ذلك بالرفع، وهو فيعلان^(٢) من الروحِ فَقِيلَتِ الواوُ ياءٌ وأدغم ثم خَفَّفَ، وقيل روحان فقلبتُ واوه ياءً للتخفيف.

(١٣) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطابُ للثقلين المدلولِ عليهما بقوله ﴿لِلْأَنفَارِ﴾ وقوله ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾^(٣).

(١٤) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ الصلصالُ الطينُ اليابس الذي له صلصلةٌ، والفخار الخزفُ وقد خلقَ الله آدمَ من ترابٍ جعله طيناً ثم حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً فلا يخالفُ ذلك قوله خلقه من ترابٍ ونحوه.

(١٥) ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ الجنُّ أو أبا الجنِّ. ﴿مِنْ مَّارِجٍ﴾ من صافٍ من الدخان. ﴿مِنْ نَّارٍ﴾ بيانٌ لما رج فإنه في الأصلُ للمضطربِ من مرجٍ إذا اضطربَ.

(١٦) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أفاضَ عليكما في أطوارِ خَلْقِكُمَا حتى صَيَّرَكُمَا أَفْضَلَ

(١) الكُفْرَى: بالضم وتشديد الراء المفتوحة والكافور من الطيب.

(٢) قوله فيعلان ظاهره أن أصل ريحان: رَيُوحان، ويؤيده قوله وأدغم، فصار: رَيَحان على ما هو معلوم من اجتماع الواو والياء ومسبق إحداهما بالسكون. ثم خفف إلى ريحان، ولأن ريحان من خمسة أحرف وفيعلان من ستة. والله أعلم.

(٣) والتعرض لعنوان الربوبية المنبثة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ.

ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى: كفَّروهم بها، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً أو اشتراكاً صريحاً أو دلالة؛ فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها.

والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك، فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة، أي فإذا كان الأمر كما فُضِّلَ فبأي فرد من أفراد آلاء مالِكُمَا ومربِكُمَا بتلك الآلاء تكذبان، مع أن كلاً منها ناطق بالحق شاهد بالصدق (س/١٧٨).

المرجبات وخلاصة الكائنات.

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكَمَا تُكْذَّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكَمَا تُكْذَّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكَمَا تُكْذَّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكَمَا تُكْذَّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَسَبَقَتْ وَجُهُ رِيكٌ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾

(١٧) ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ شرقي الشتاء والصيف ومغربيهما.

(١٨) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكَمَا تُكْذَّبَانِ﴾ مما في ذلك من الفوائد التي لا تُحصى، كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك.

(١٩) ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلهما من مرجئ الدابة إذا أرسلتها، والمعنى أرسل البحر المِلْحَ والبحر العذب. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ يتجاوران ويتماسن سطوحهما، أو بحري فارس والروم يلتقيان في المحيط لأنها خليجان يتشعبان منه.

(٢٠) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى أو من الأرض. ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا يبغى أحدهما على الآخر بالمازجة وإبطال الخاصية، أو لا يتجاوزان حدّيهما بإغراق ما بينهما.

(٢١) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكَمَا تُكْذَّبَانِ﴾.

(٢٢) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ كبار الدرّ وصغاره، وقيل المرجان الخرز الأحمر وإن صحَّ أنَّ الدرّ يخرج من الملح، فعلى الأول إنما قال منهما لأنه مُخْرَجٌ من مجتمع الملح والعذب، أو لأنهما لما اجتماعاً صاراً كالشيء الواحد فكان المخرج من أحدهما كالمخرج منهما. وقرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب يُخْرُجُ، وقرئ نخرج، ويُخْرَجُ بنصب اللؤلؤ والمرجان.

(٢٣) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكَمَا تُكْذَّبَانِ﴾.

(٢٤) ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ أي السفن جمعُ جارية، وقرئ بحذف الياء ورفع الراء كقوله:

لَهَا ثَنَاءٌ أَرْبَعُ حِسَانٍ وَأَرْبَعُ فَكْلَهَا ثَمَانٍ.

﴿الْمُنشَآتُ﴾ المرفوعات الشَّرْعُ، أو المصنوعات، وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الشين أي الرافعات الشَّرْعِ، أو اللاتي ينشئن الأمواج أو السير. ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال جمع عَلَمٍ وهو الجبل الطويل.

(٢٥) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكَمَا تُكْذَّبَانِ﴾ من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره.

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ مَنْ على الأرض من الحيوانات أو المرجبات وَمَنْ للتغليب، أو من الثقلين. ﴿فَانٍ﴾.

(٢٧) ﴿وَسَبَقَتْ وَجُهُ رِيكٌ﴾ ذاته، ولو استقرت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله أي الوجه الذي يلي جهته. ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذو الاستغناء المطلق والفضل العام.

﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٨) ﴿يَسْتَلْهُمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢٩) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٠) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ (٣١) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٢) ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٣)

(٢٨) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما ذكرنا قبل من بقاء الرب وإبقاء ما لا يخصى مما هو على صدد الفناء رحمةً وفضلاً، أو مما يترتب على فناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم.

(٢٩) ﴿يَسْتَلْهُمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم مفتقرون إليه في ذواتهم وصفاتهم وسائر ما يهتمهم ويعرُّ لهم، والمراد بالسؤال ما يدل على الحاجة إلى تحصيل الشيء في ذواتهم وصفاتهم نطقاً كان أو غيره. ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كل وقت يُخْدِثُ أشخاصاً ويحدِّدُ أحوالاً على ما سبق به قضاؤه. وفي الحديث: «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين»^(١). وهو ردُّ لقول اليهود إنَّ الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

(٣٠) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما يسعفُ به سؤالكما وما يخرجُ لكما من مكنٍ العدم حيناً فحيناً.

(٣١) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ أي ستَجَرِّدُ لحسابكم جزائكم وذلك يومَ القيامة، فإنه تعالى لا يفعلُ فيه غيره. وقيل تهديدٌ مستعارٌ من قولك لمن تهدُّهُ سافرُكٌ لك، فإنَّ المتجرِّدَ للشيء كان أقوى عليه وأجدُّ فيه، وقرأ حمزة والكسائي بالياء، وقرأ سنفِغُ إليكم أي سنقصدُ إليكم. والثقلان الإنسان والجنُّ سُمِّيَا بذلك لِثِقَلِهِمَا على الأرض، أو لرزانة رأيهما وقدرهما، أو لأنهما مُثْقَلَانِ بالتكليف.

(٣٢) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣٣) ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هارين من الله فآرين من قضائه. ﴿فَانْفُذُوا﴾ فاخرجوا. ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ. ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ إلا بقوة وقهرٍ وأتى لكم ذلك، أو إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا ما في السموات والأرض فانفذوا لتعلموا لكن لا تنفذون ولا تعلمون إلا ببيئَةِ نصبها الله تعالى فتخرجون عليها بأفكاركم.

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٣/١) رقم ٢٠٢ من حديث أبي الدرداء.

قال البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (٧٠/١) رقم ٧١: «هذا إسناد حسن لتقاصر الوزير عن درجة الحفاظ والإتقان... روى البخاري (٦٢٠/٨) - هذا الحديث تعليقاً موقوفاً في تفسير سورة الرحمن. ورواه ابن حبان في صحيحه - (ص ٤٣٧ رقم ١٧٦٣ - موارد) - من طريق أم الدرداء به.

لكن لم ينفرد به الوزير بن صبيح فقد رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده... عن أبي الدرداء موقوفاً فذكره.

وانظر «مجمع الزوائد» (١١٧/٧ - ١١٨) وكتاب السنة لابن أبي عاصم (١٣٠/١) رقم ٣٠١.

والخلاصة: أن الحديث حسن والله أعلم.

فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾ فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٩﴾ فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾ فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤١﴾ فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾

(٣٤) ﴿فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أي من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة، أو مما نصبُ من المصاعد العقلية والمعارض النقلية فتنفذون بها إلى ما فوق السموات العلما.

(٣٥) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ﴾ لهب. ﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٍ﴾ ودخان قال:

تُضَيُّ كَضَوْءِ السِّرَاجِ السَّلِيلِ ط لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسًا
أو صفراً مذاباً يُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. وقرأ ابن كثير شَوَاظٌ بالكسر وهو لغة ونحاس بالجر عطفاً
على نارٍ، ووافقه فيه أبو عمرو ويعقوب في رواية، وقرئ ونحاس وهو جمع كلُّحَفٍ. ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾
فلا تمتنعان.

(٣٦) ﴿فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ فَإِنَّ التَّهْدِيدَ لَطْفٌ وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْمُطِيعِ وَالْعَاصِي بِالْجَزَاءِ وَالْإِنْتِقَامِ
مِنَ الْكُفَّارِ فِي عِدَادِ الْآلَاءِ.

(٣٧) ﴿فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أي حمراء كوردة، وقرئت بالرفع على كان التامة فيكون من
باب التجريد كقوله:

وَلَيْسَ بَقِيَّتُ لَأَرْحَلَ بِغَزْوَةٍ تخوي الغنائم أو يموت كريم^(١)

﴿كَالَّذِينَ﴾ وهو اسم لما يذعن به كالحزام، أو جمع دهن. وقيل هو الأديم الأحمر.

(٣٨) ﴿فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أي مما يكون بعد ذلك.

(٣٩) ﴿فَيَوْمَ﴾ أي في يوم تنشق السماء. ﴿لَا يُسْتَلُ عَنْ ذَنبِهِ إِنْ وَلَا جَانٌّ﴾ لأنهم يُعْرِفُونَ بِسِيَمَاهِمَ
وذلك حين ما يخرجون من قبورهم ويُخْشَرُونَ إِلَى الْمَوْقِفِ ذُوداً ذُوداً^(٢) على اختلاف مراتبهم، وأما
قوله تعالى ﴿فَرَبِّكَ لَسْتَلْنَهُمْ﴾^(٣) ونحوه فحين يُحَاسِبُونَ فِي الْمَجْمَعِ، والهاء للإنس باعتبار اللفظ
فإنه وإن تأخر لفظاً تقدّم رتبة.

(٤٠) ﴿فَيَايَءَ الْآءِ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أي مما أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم.

(٤١) ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَمَاهُمْ﴾ وهو ما يعلمونهم من الكآبة والحزن. ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ مجموعاً
بينهما، وقيل يؤخذون بالنواصي تارة وبالأقدام أخرى.

(١) من الكامل.

(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها، والكثير أذواد. (مختار الصحاح مادة ذود).

(٣) الحجر: «٩٢».

فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤١﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٢﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٣﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٤﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٥﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٦﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٧﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٨﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٤٩﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٠﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥١﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٢﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجْنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٣﴾

(٤٢) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٣) ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ .

(٤٤) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بين النار يُخْرِقُونَ بها. ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماءٌ حارٌّ. ﴿ءَانِ﴾ بلغَ النهايةَ في الحرارة يُصْبُ عَلَيْهِمْ، أو يُسْقَوْنَ منه. وقيل إذا استغاثوا من النار أُغِيثُوا بالحميم.

(٤٥) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٦) ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ موقفه الذي يقفُ فيه العبادُ للحساب، أو قيامه على أحواله من قامَ عليه إذا رآقه، أو مقامَ الخائفِ عند ربه للحساب بأحدِ المعنيين فأضيفَ إلى الربِّ تفخيماً وتهويلاً، أو ربّه ومقامٌ مقمّمٌ للمبالغة كقوله:

دُعِرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَقِيتُ عَنْهُ مَقَامَ الذُّبِّ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ

﴿جَنَّاتٍ﴾ جنّةٌ للخائفِ الإنسي والأخرى للخائفِ الجنّي، فإنَّ الخطابَ للفريقين والمعنى لكل خائفين منكما أو لكل واحد جنّةً لعقيدته وأخرى لعمله، أو جنّةً لفعل الطاعاتِ وأخرى لترك المعاصي، أو جنّة يُثَابُ بها وأخرى يُتَفَضَّلُ بها عليه، أو روحانيةً وجسمانية. وكذا ما جاء مثني بعدُ.

(٤٧) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٨) ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أنواع من الأشجار والثمارِ جمعُ فَرْ، أو أغصانُ جمعُ فَنَنْ وهي الغصنة التي يتشعّب من فرع الشجرة، وتخصّصُها بالذكرِ لأنها التي تورق وتثمر وتمد الظلّ.

(٤٩) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٠) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شأوا في الأعالي والأسافل. قيل إحداهما التسليمُ والأخرى السلسيل.

(٥١) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٢) ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفانِ غريبٌ ومعروفٌ، أو رطبٌ ويابسٌ.

(٥٣) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٤) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ من ديباج ثخين، وإذا كانتِ البطائنُ كذلك فما ظنُّك بالظواهر، ومتكئين مدحٌ للخائفين أو حالٌ منهم، لأن من خافَ في معنى الجمع. ﴿وَجْنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ﴾ قريبٌ يناله القاعدُ والمضطجعُ. وجنى اسمٌ بمعنى مجنيٍّ. وقرئ بكسر الجيم.

فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

(٥٥) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٦) ﴿فِيهِنَّ﴾ في الجنانِ فإنَّ جنتانِ تدلُّ على جنانٍ هي للخائفين، أو فيما فيهما من الأماكن والقصور، أو في هذه الآلاءِ المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش. ﴿قَصِيرَاتُ الظُّرْفِ﴾ نساء قصرن أبصارهنَّ على أزواجهنَّ. ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ لم يمسَّ الإنسياتِ إِنْسٌ ولا الجنياتِ جنٌّ، وفيه دليلٌ على أن الجنَّ يطمثون. وقرأ الكسائي بضم الميم.

(٥٧) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي حمرة الوجنة وبياض البشرة وصفائهما.

(٥٩) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٦٠) ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ﴾ في العمل. ﴿إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ في الثواب وهو الجنة.

(٦١) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٦٢) ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ومن دون تَيْنِكَ الجنتين الموعودتين للخائفين المقرَّبين جنتانٍ لمن دونهم من أصحاب اليمين.

(٦٣) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٦٤) ﴿مُدْهَمَّتَانِ﴾ خضراوانِ تضربانِ إلى السوادِ من شدة الخضرة، وفيه إشعارٌ بأن الغالب على هاتين الجنتين النباتُ والرياحين المنبسطة على وجه الأرض، وعلى الأوليين الأشجارُ والفواكهُ دلالةً على ما بينهما من التفاوتِ.

(٦٥) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٦٦) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتانِ بالماء وهو أيضاً أقلُّ مما وصف به الأوليين وكذا ما بعده.

(٦٧) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٦٨) ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾ عطفهما على الفاكهة بيانا لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهةٌ وغذاءٌ وثمرَةُ الرمان فاكهةٌ ودواءٌ، واحتجَّ به أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على أن مَنْ حلف لا يأكلُ فاكهةً فأكلَ رطباً أو رماناً لم يحنث.

(٦٩) ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

فِيهِمْ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌكُمْ تُكْذِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌكُمْ تُكْذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئْنُنْ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌكُمْ تُكْذِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكِينٌ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِي حَسَنٍ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌكُمْ تُكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾ بَرَزَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

(٧٠) ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ أي خيراتٌ فُحِّقَتْ لَأَنَّ خيرا الذي بمعنى أخيرَ لا يُجْمَعُ؛ وقد قُرِئَ على الأصل. ﴿حِسَانٌ﴾ حسانُ الخلقِ والخلقِ.

(۷۱) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٧٢) ﴿حُرِّمَتْ مَقْصُورَاتُ فِي الْخِيَابِ﴾ قُصِرْنَ فِي خُدُورِهِنَّ، يُقَالُ امْرَأَةٌ قَصِيرَةٌ وَقَصُورَةٌ وَمَقْصُورَةٌ أَيْ مَخْذَرَةٌ، أَوْ مَقْصُورَاتُ الطَّرَفِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ.

(۷۳) ﴿فَيَايَا آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٧٤) ﴿لَمْ يَطْمِئِنُّوا إِلَىٰ قَبْلِهِمْ وَلَا جَاَنُوا﴾ كَحُورِ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ فَإِنَّهُمَا يَدْلَاٰنِ عَلَيْهِم.

(۷۵) ﴿فَيَأْتِيَهُمُ الْآلَاءُ رَنِيكًا مَّا تَكْذِبَانِ﴾ .

(٧٦) ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ﴾ وسائد أو نمارق جمع رفرقة. وقيل الرفرف ضرب من البسط أو ذيل الخيمة وقد يقال لكل ثوب عريض. ﴿خَضِرَ وَعَبْقَرِيَّ حِسَانٍ﴾ العبقري منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه اسم بلد للجن فينسبون إليه كل شيء عجيب، والمراد به الجنس ولذلك جمع حسان حملاً على المعنى.

(۷۷) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٧٨) ﴿نَبِّذَكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمه من حيث إنه مطلق على ذاته فما ظنك بذاته. وقيل الاسم بمعنى الصفة، أو مقحم كما في قوله.

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا^(١). ﴿ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وقرأ ابن عامر بالرفعِ صفةً للاسم. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ أَدَّى شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ»^(٢).

☆☆☆

(١) من الطويل .

(۲) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٦٢ رقم ٨١). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعِنِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ
بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّفُونَ السَّيِّفُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

سورة الواقعة مكية^(١) ، وآياتها ست وتسعون آية
بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إذا حدثت القيامة، سمّاها واقعةً لتحقق وقوعها، وانتصاب إذا بمحذوف
مثل اذكر أو كان كيت وكيت.

(٢) ﴿لَيْسَ لَوْعِنِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله تعالى، أو تكذب في نفيها كما
تكذب الآن، واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾^(٢) أو ليس لأحد في وقعتها كاذبة فإن من
أخبر عنها صدق، أو ليس لها حينئذ نفس تحدث صاحبها بإطاعة شدتها واحتمالها وتغريره عليها من
قولهم: كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم إذا شجعت عليه وسوّلت له أنه يطيقه.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٥٤/١٥): «وهي مكية بإجماع ممن يعتد بقوله من المفسرين. وقيل إن
فيها آيات مدنية، أو مما نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت» هـ.

(٢) الآية: «٢٤» من سورة الفجر.

واللام في قوله «قدمت لحياتي» للتعليل أو للتوقيت، أي قدمت لأجل حياتي أو لوقت حياتي.
واللام هنا كذلك. (انظر البيضاوي ٧٨٥/٢).

(٣) ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ تخفضُ قومًا وترفعُ آخرين، وهو تقرير لعظميتها فإنَّ الوقائعَ العظامَ كذلك، أو بيانٌ لما يكون حينئذٍ من خفضِ أعداءِ الله ورفعِ أوليائه، أو إزالة الأجرامِ عن مقارِّها بنثرِ الكواكب وتسييرِ الجبال في الجوِّ، وقُرئتْ بالنصبِ على الحال^(١).

(٤) ﴿إِذَا رَجَّعَتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ حُرِّكَتْ تحريكاً شديداً بحيث ينهدمُ ما فوقها من بناءٍ وجبلٍ، والظرف متعلِّقٌ بخافضةٍ أو بدلٌ من إذا وقعت.

(٥) ﴿وَسَيَّتِ الْجِبَالُ سَيًّا﴾ أي فُتَّتْ حتى صارت كالسَّويقِ الملتوتِ من بسِّ السويقِ إذا لته، أو سيقت وسيَّرت من بسِّ الغنمِ إذا ساقها.

(٦) ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً﴾ غباراً. ﴿مُتَّبِئًا﴾ متشيراً.

(٧) ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً. ﴿ثَلَاثَةً﴾ وكلُّ صنفٍ يكون أو يُذكرُ مع صنفٍ آخرَ زوجٌ.

(٨) ﴿فَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ﴾.

(٩) ﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَالِ﴾ فأصحاب المتزلة السنية وأصحاب المتزلة الدنيئة من تيمُّنهم باليمين وتساؤمهم بالشمال، أو أصحاب اليمين والمشامة الذين يُؤْتَوْنَ صحائفهم بأيمانهم والذين يأتونها بشمائلهم، أو أصحاب الثُّننِ والشُّومِ فإنَّ السعداءَ ميامينٌ على أنفسهم بطاعتهم والأشقياءَ مشائيمٌ عليها بمعصيتهم. والجملتان الاستفهاميتان خبران لما قبلهما بإقامة الظاهر مقام الضمير، ومعناهما التعجبُ من حال الفريقين^(٢).

(١٠) ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة بعدَ ظهور الحقِّ من غير تلعم وتوان، أو سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات، أو الأنبياء فإنهم مقدِّمو أهل الأديان هم الذين عرفت حالهم وعرفت مآلهم كقول أبي النجم:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي^(٣)

أو الذين سبقوا إلى الجنة^(٤).

(١١) ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

(١٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ الذين قُرِبَتْ درجاتهم في الجنة وأُغْلِيَتْ مراتبهم.

(١٣) ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هم كثيرٌ من الأولين يعني الأمم السالفة من لدن آدم إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

(١) وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل (س/١٨٨).

(٢) وقوله «ما أصحاب اليمين» حيث وضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل في التفضيم، حيث الأصل أن يقول ما هم؟ لكنه ذكرهم ثانية للتفخيم (س/١٨٩).

(٣) من الرجز.

(٤) ولعل تأخير ذكر السابقين - مع كونهم أسبق الأقسام وأقدمهم في الفضل - ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم. على أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقاً معرب عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه (س/١٨٩).

وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾
يَأْكُوبُ وَأَبَاقُ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾

(١٤) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يخالف ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن أمتي يكثرون سائر الأمم»^(١) لجواز أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعو هذه أكثر من تابعيهم، ولا يردّه قوله في ﴿لَا ضَحْبَ الْيَمِينِ﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(٢). لأن كثرة الفريقين لا تنافي أكثرية أحدهما، وروي مرفوعاً أنهما من هذه الأمة^(٣)، واشتقاقها من الثَّلْ وهو القطع.

(١٥) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ خبر آخر للضمير المحذوف، والموضونة المنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت، أو المتواصلة من الوضن وهو نسج الدر.

(١٦) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ﴾ حالان من الضمير في على سُرُرٍ.

(١٧) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة. ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ مُبَقَّوْنَ أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم.

(١٨) ﴿يَأْكُوبُ وَأَبَاقُ﴾ حال الشرب وغيره، والكوب إناء بلا عروة ولا خرطوم له، والإبريق إناء له ذلك. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ من خمر.

(١٩) ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ بخمار. ﴿وَلَا يُزْفُونَ﴾ ولا تنزف عقولهم، أو لا ينفذ شرابهم. وقرأ الكوفيون بكسر الزاي لَا يَصَدَّعُونَ بمعنى لا يتصدعون أي لا يتفرقون.

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

● وقد أخرج الترمذي (٦٨٣/٤ رقم ٢٥٤٦) وابن ماجه (١٤٣٣/٢ رقم ٤٢٨٩) من رواية سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً بلفظ «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم».

قال الترمذي: هذا حديث حسن. قلت: في سند الترمذي «حسين بن يزيد الطحان» وهو لين الحديث كما قال ابن حجر في التقریب (١٨١/١).

ولكن الترمذي حسنه لمتابعته عند ابن ماجه.

● وأخرج البخاري (٣٧٨/١١ رقم ٦٥٢٨) و(٥٢٣/١١ رقم ٦٦٤٢) ومسلم (٢٠٠/١ - ٢٠١ رقم ٢٢١) من حديث ابن مسعود، قال: كنا في قبة فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا نعم. قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: «والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة. وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، وما أنتم من أهل الشرك إلا كالشعره البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعره السوداء في جلد الثور الأحمر».

(٢) الواقعة: «٤٠، ٣٩، ٣٨».

(٣) أخرجه الطيالسي في المسند (ص ١٢٠ رقم ٨٨٦) موقوفاً. ومسدد كما في المطالب العالیه: (٣٨٣/٣ رقم ٣٧٦٨) موقوفاً ومرفوعاً. ومدار إسنادهما على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف - وله شاهد عند أحمد (٢٩٣/١٨ رقم ٤٥٠) الفتح الرباني - من حديث أبي هريرة.

وأخرجه الطبراني بإسنادين، قال الهيثمي (١١٩/٧): «رجال أحدهما رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو ثقة سيء الحفظ» هـ.

وَفَكَهْفٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحَوْرٍ عَيْنٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْنِيماً ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهْفٍ كَثِيرٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾

(٢٠) ﴿وَفَكَهْفٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي يختارون.

(٢١) ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يتمنون.

(٢٢) ﴿وَحَوْرٍ عَيْنٍ﴾ عطفٌ على ولدانٍ، أو مبتدأٌ محذوفٌ الخبرِ أي وفيها، أو ولهم حورٌ، وقرأ حمزة والكسائي بالجرِّ عطفاً على جناتٍ بتقدير مضافٍ أي هم في جناتٍ ومصاحبة حورٍ، أو على أكوابٍ لأنَّ معنى يطوف عليهم ولدانٌ مخلدون بأكواب ينعمون بأكواب، وقرئنا بالنصبِ على ويؤتون حوراً.

(٢٣) ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ﴾ المصونُ عما يضرُّ به في الصفاء والنقاء.

(٢٤) ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يفعلُ ذلك كله بهم جزاءً بأعمالهم.

(٢٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً﴾ باطلاً. ﴿وَلَا تَأْنِيماً﴾ ولا نسبةً إلى الإثم أي لا يُقال لهم أثمتم.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي قولاً. ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ بدلٌ من قِيلَا كقوله تعالى ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً إِلَّا سَلَامًا﴾^(١) أو صفته أو مفعوله بمعنى إلا أن يقولوا سلاماً، أو مصدرٌ. والتكريرُ للدلالة على فشو السلام بينهم. وقرئ سلامٌ على الحكاية.

(٢٧) ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾.

(٢٨) ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ لا شوك فيه من خضد الشوك إذا قطعه، أو مثني أغصانه من كثرة حمليه من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطبٌ.

(٢٩) ﴿وَطَلْحٍ﴾ وشجر موزٍ، أو أمٌ غيلان وله أنوار كثيرة طيبة الرائحة، وقرئ بالعين. ﴿مَنْضُودٍ﴾ نُضِدَ حملُهُ من أسفلِهِ إلى أعلاه.

(٣٠) ﴿وَظِلِّ مَمْدُودٍ﴾ منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت.

(٣١) ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ يُسْكَبُ لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا بلا تعبٍ، أو مصبوبٍ سائلٍ كأنه لما شبه حال السابقين في التمتع بأعلى ما يُصَوَّرُ لأهل المدنِ شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي إشعاراً بالتفاوت بين الحالين.

(٣٢) ﴿وَفَكَهْفٍ كَثِيرٍ﴾ كثيرة الأجناس.

(٣٣) ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع في وقتٍ. ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تُمنع عن تناولها بوجهٍ.

وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣١﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُورٍ وَحَمِيرٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٌّ مِّنْ يَّخْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَلْمَعُوتُنَّ ﴿٤٧﴾

(٣٤) ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر أو منضدة مرتفعة. وقيل الفُرُشُ النساء وارتفاعها أنها على الأرائك، ويدل عليه قوله:

(٣٥) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً﴾ أي ابتدأناهنَّ ابتداءً جديداً من غير ولادة إيداء أو إعادة. وفي الحديث «هنَّ اللواتي قُبِضْنَ في دار الدنيا عجائز شُفَطاً رُمَصاً، جعلهنَّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد، كلما أتاهنَّ أزواجهنَّ وجدوهنَّ أبكاراً»^(١).

(٣٦) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

(٣٧) ﴿عُرُبًا﴾ متحبيات إلى أزواجهنَّ جمعُ عروب، وسكنَ راءه حمزة وأبو بكر، ورُوي عن نافع وعاصم مثله. ﴿أَتْرَابًا﴾ فإنَّ كلَّهن بنات ثلاث وثلاثين وكذا أزواجهنَّ.

(٣٨) ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلق بأنشأنا أو جعلنا، أو صفة لأبكاراً أو خبرٌ لمحذوفٍ مثلُ هنَّ أو لقوله:

(٣٩) ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾.

(٤٠) ﴿وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وهي على الوجوه الأول خبرٌ محذوف.

(٤١) ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾.

(٤٢) ﴿فِي سُمُورٍ﴾ في حرٍّ نارٍ ينفذُ في المسام. ﴿وَحَمِيرٍ﴾ وماءٍ متناهٍ في الحرارة.

(٤٣) ﴿وَظِلٌّ مِّنْ يَّخْمُومٍ﴾ من دخانٍ أسودَ يفعلون من الحممة.

(٤٤) ﴿لَا بَارِدٍ﴾ كسائر الظل. ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ولا نافع، نفى بذلك ما أوهم الظل من الاسترواح.

(٤٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ منهمكين في الشهوات.

(٤٦) ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الذَّنْبُ العظيم يعني الشرك، ومنه بلغ الغلامُ الحِنثُ أي الحُلُمُ ووقتُ المواخذة بالذَّنْبِ، وَحِنْثٌ في يمينه خلافُ بَرٍّ فيها وتَحَنُّثٌ إذا تأثَّم.

(٤٧) ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَلْمَعُوتُنَّ﴾ كُرِّرَتِ الهمزة للدلالة على إنكار البعث

مطلقاً وخصوصاً في هذا الوقت كما دخلتِ العاطفة في قوله:

(١) أخرج الترمذي (٤٠٢/٥) رقم (٣٢٩٦) عن أنس رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ (إنا أنشأناهنَّ إنشاءً) قال: «إنَّ من المنشآت التي كُنَّ في الدنيا عجائز عُمُشاً رُمَصاً».

قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث.

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٣/ج ٢٧/١٨٥) وانظر تفسير ابن كثير (٤/٣١٢).

أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كَلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالَّذِينَ مِنهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شُرْبَ أَلْهِيمٍ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾

(٤٨) ﴿أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ للدلالة على أنَّ ذلك أشدُّ إنكاراً في حقِّهم لتفاؤم زمانهم وللفضل بها حَسَنَ العطف على المستكين في لمبعوثون، وقرأ نافع وابن عامر أَوْ بالسكون وقد سبق مثله. والعامل في الظرف ما دلَّ عليه مبعوثون، لا هو للفضل بأنَّ والهمزة ^(١).

(٤٩) ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ^(٢).

(٥٠) ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ وقرئ لمجمعون. ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ما وَقَّت به الدنيا وحدث من يوم معيَّن عند الله معلوم له.

(٥١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ أي بالبعث، والخطاب لأهل مكة وأضرابهم.

(٥٢) ﴿لَا كَلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ﴾ مِنَ الْأَوَّلَى لِلابتداء والثانية للبيان.

(٥٣) ﴿فَالَّذِينَ مِنهَا الْبُطُونَ﴾ من شدة الجوع.

(٥٤) ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ لغلبة العطش، وتأنيث الضمير في منها وتذكيره في عليه على معنى الشجر ولفظه، وقرئ من شجرة فيكون التذكير للزقوم فإنه تفسيرها.

(٥٥) ﴿فَشَرِبُوا شُرْبَ أَلْهِيمٍ﴾ الإبل التي بها الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء، جمع أهيم وهيماء قال ذو الرمة:

فَأَصْبَحْتُ كَالْهِيمَاءِ لَا الْمَاءُ مُبَرَّدٌ صَدَاهَا وَلَا يَقْضِي عَلَيْهَا هَيَامُهَا

وقيل الرمال على أنه جمع هَيَامٍ بالفتح وهو الرمل الذي لا يماسك جُمِعَ على هُيْمٍ كسُحِبٍ، ثم حُفِّبَ وفُعِلَ به ما فُعِلَ بجمع أبيض، وكلٌّ من المعطوف والمعطوف عليه أخصُّ من الآخر من وجهٍ فلا اتحاد. وقرأ نافع وحمزة وعاصم شُرْبَ بضم الشين.

(٥٦) ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يومَ الجزاء فما ظنُّك بما يكون لهم بعد ما استقروا في الجحيم، وفيه تهكم كما في قوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ^(٣) لأنَّ النُّزْلَ ما يُعَدُّ للنَّازِل تَكْرِمَةً له، وقرئ نُزْلُهُم بالتخفيف.

(٥٧) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ بالخلقي متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه، أو بالبعث فإن مَنْ قَدَرَ عَلَى الْإِبْدَاءِ قَدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ.

(١) وتقديم التراب على العظام لعراقته في الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية (س/٨/١٩٥).

(٢) في تقديم «الأولين» على «الآخرين» مبالغة في الرد، حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم، مع مراعاة الترتيب الوجودي (س/٨/١٩٥).

(٣) التوبة: ٣٤.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾

(٥٨) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ أي ما تقدفونه في الأرحام من الططف، وقرىء بفتح التاء من مَنَى النطفة بمعنى أمناها.

(٥٩) ﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ تجعلونه بشراً سويتاً. ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

(٦٠) ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ قَسَمْنَاهُ عَلَيْكُمْ وَأَقْتَنَّا مَوْتَ كُلِّ بَوْقَةٍ مَعَيْنٍ، وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا يسبقنا أحدٌ فيهرب من الموت أو يغير وقته، أو لا يغلبنا أحدٌ من سبقته على كذا إذا غلبته عليه.

(٦١) ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ على الأول حالٌ أو علةٌ لقدَرنا وعلى بمعنى اللام، وما نحن بمسبوقين اعتراضٌ وعلى الثاني صلةٌ، والمعنى على أن نبذل منكم أشباهكم فنخلق بدلَكم، أو نبذل صفاتكم على أن أمثالكم جمعٌ مثل بمعنى صفة. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في خلقتي أو صفاتي لا تعلمونها.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا قَدَرَ عَلَى النَّشْأَةِ الْآخَرَىٰ فَإِنَّهَا أَقْلٌ صنعاً لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثال، وفيه دليلٌ على صحة القياس.

(٦٣) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ تبذرون حبه.

(٦٤) ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ تنبتونه. ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ المنبتون.

(٦٥) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ هشيماً. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبون أو تندمون على اجتهدكم فيه، أو على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتحدثون فيه، والفكة التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث. وقرىء فِظَلْتُمْ بالكسر، وفظلتم على الأصل.

(٦٦) ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ لمزموه غرامة ما أنفقنا، أو مُهْلِكُونَ لهلاك رزقنا من الغرام، وقرأ أبو بكر أئنا لمغرمون على الاستفهام.

(٦٧) ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ﴾ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمْنَا رِزْقَنَا، أو محدودون لا مَجْدُودُونَ.

(٦٨) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي العذب الصالح للشرب^(١).

(٦٩) ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ من السحاب واحده مُزْنَةٌ، وقيل المزن السحاب الأبيض وماؤه أعذب. ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ بقدرتنا. والرؤية إن كانت بمعنى العلم فمتعلقة بالاستفهام.

(١) وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به (س/٨/١٩٨).

لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾

(٧٠) ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ ملحاً أو من الأجاج فإنه يحرق الفم، وحذف اللام الفاصلة بين جواب ما يتمحض للشرط وما يتضمن معناه لعلم السامع بإمكانها، أو الاكتفاء بسبق ذكرها أو يختص ما يقصد لذاته ويكون أهم وفقدته أصعب بمزيد التأكيد. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أمثال هذه النعم الضرورية. (٧١) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ تقدحون.

(٧٢) ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ يعني الشجرة التي منها الزناد^(١).

(٧٣) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ جعلنا نار الزناد. ﴿تَذْكِرَةً﴾ تبصرة في أمر البيع كما مر في سورة يس^(٢)، أو في الظلام أو تذكيراً وأنموذجاً لنار جهنم. ﴿وَمَتَاعًا﴾ ومنفعة. ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ الذين ينزلون القواء وهي الفقر، أو للذين خلت بطونهم أو مزادهم من الطعام، من أقوت الدار إذا خلت من ساكنيها.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره فإن إطلاق اسم الشيء ذكره. والعظيم صفة للاسم أو الرب، وتعقيب الأمر بالتسبيح لما عدد من بدائع صنعه وإنعامه إما لتزيهه تعالى عما يقول الجاحدون لوحدايته الكافرون لنعمته، أو للتعجب من أمرهم في غمط نعيمه، أو للشكر على ما عدها من النعم.

(٧٥) ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، أو فأقسم ولا مزيدة للتأكيد كما في ﴿لَيْلًا يَلْعَلُ﴾^(٣) أو فلأننا أقسم فحذف المبتدأ وأشبع فتحة لام الابتداء، ويدل عليه قراءة فلاقسم، أو فلا رد لكلام يخالف المقسم عليه. ﴿بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ بمساقطها، وتخصيص المغارب لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر لا يزول تأثيره، أو بمنازلها ومجاريها. وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها، وقرأ حمزة والكسائي بموقع.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفزط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى، وهو اعتراض في اعتراض فإنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه، ولو تعلمون اعتراض بين الموصوف والصفة.

(٧٧) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، أو حسن مرضي في جنسه.

(١) والتعبير عن خلقها بالإنشاء - المنبئ عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة - لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التي لا تخلو عن النار، حتى قيل: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار - كما أن التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله تعالى «ثم أنشأناه خلقاً آخر» لذلك (س/٨/١٩٨).

(٢) سورة يس آية: «٨٠».

(٣) الحديد: «٢٩».

فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾

(٧٨) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ مصون وهو اللوح المحفوظ.

(٧٩) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ لا يَطْلُعُ عَلَى اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية وهم الملائكة، أو لا يمسُّ القرآن إلا المطهرون من الأحداث فيكون نفيًا بمعنى النهي، أو لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر. وقرىء المتطهرون والمطهرون والمطهرون من أظْهَرَهُ بمعنى طَهَّرَهُ، والمطهرون أي أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والإلهام.

(٨٠) ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صفةٌ ثالثة أو رابعة للقرآن، وهو مصدرٌ نُعِتَ بِهِ وقرىء بالنصب أي نُزِّلَ تنزيلاً.

(٨١) ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن. ﴿أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ متهاونون به كمن يُذْهِبُ فِي الأمر أي يُلِينُ جَانِبَهُ ولا يتصلَّب فيه تهاوناً به.

(٨٢) ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكرَ رِزْقِكُمْ. ﴿أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ أي بمانجه حيث تنسبونه إلى الأنواء، وقرىء شُكْرُكُمْ أي وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به وتكذبون أي بقولكم في القرآن أنه سحر وشعر، أو في المطر أنه من الأنواء.

(٨٣) ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي النفس.

(٨٤) ﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ﴾ حالكم، والخطاب لمن حول المحتضر، والواو للحال.

(٨٥) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ أي ونحن أعلم. ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر. ﴿مِنْكُمْ﴾ عبَّرَ عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطلاع. ﴿وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ﴾ لا تدركون كُنْهَ ما يجري عليه.

(٨٦) ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينٍ﴾ أي مجزيين يوم القيامة أو مملوكين مقهورين من دانه إذا أذله واستعبده، وأصل التركيب للذل والانقياد.

(٨٧) ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ ترجعون النفس إلى مقرها وهو عاملُ الظرف والمحضضُ عليه بلولا الأولى. والثانية تكريرٌ للتوكيد وهي بما في حيزها دليلُ جواب الشرط، والمعنى إِنْ كُنْتُمْ مَمْلُوكِينَ مَجْزِيَيْنَ كما دَلَّ عَلَيْهِ جُحْدُكُمْ أفعالَ الله وتكذيبكم بآياته. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أباطيلكم فلولا ترجعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم.

(٨٨) ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي إِنْ كَانَ الْمُتَوَقَّى مِنَ السَّابِقِينَ.

(٨٩) ﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحة، وقرىء فَرَوْحٌ بالضم، وفُسِّرَ بِالرَّحْمَةِ لأنها كالسبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة. ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزقٌ طيبٌ. ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ذاتُ تنعيم.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

(٩٠) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

(٩١) ﴿فَسَلِّمْ لَكَ﴾ يا صاحبَ اليمين. ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي من إخوانك يسلمون عليك.

(٩٢) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ يعني أصحاب الشمال، وإنما وصفهم بأفعالهم زجراً عنها وإشعاراً بما أوجب لهم ما أوعدهم به.

(٩٣) ﴿فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ﴾.

(٩٤) ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ﴾ وذلك ما يجد في القبر من سموم النار ودخانها.

(٩٥) ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي الذي ذُكِرَ في السورة أو في شأن الفرق. ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي حق الخبر اليقين.

(٩٦) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فنزهه بذكر اسمه وتعالى عما لا يليق بعظمته شأنه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث ضعيف.

أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٨٠) والبيهقي في «الشعب» (٤٩١/٢ - ٤٩٢) والحاثر بن أبي أسامة في مسنده (١٧٨ من زوائده)، وابن لال في «حديثه» (١/١١٦) وابن بشران في «الأمالي» (ج ٢٠/٣٨/١) - كما في الضعيفة (٣٠٤/١ - ٣٠٥ رقم ٢٨٩) - وغيرهم من طريق أبي شجاع عن أبي طيبة عن ابن مسعود مرفوعاً.

وفيه علل: النكارة في منته، والانقطاع، وضعف روايته، واضطرابه. وانظر الضعيفة (رقم: ٢٨٩) و«الكافي الشاف» (ص ١٦٣ رقم: ٩٢) وفيض القدير (٢٠١/٦).

سُورَةُ الْحَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

سورة الحديد مدنية^(١)

وقيل مكية، وآيها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دُكِرَ هَاهُنَا وفي الحشر والصف بلفظ الماضي، وفي الجمعة والتغابن بلفظ المضارع إشعاراً بأن مَنْ شَأْنٍ مَا أُسْنِدَ إِلَيْهِ أَنْ يَسْبِّحَهُ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ، لَأَنَّهُ دَلَالَةٌ جَلِيلَةٌ لَا تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْحَالَاتِ. ومجيء المصدر مطلقاً في بني إسرائيل أبلغ من حيث إنه يشعر بإطلاقه على استحقاق التسبيح من كُلِّ شَيْءٍ وفي كُلِّ حَالٍ. وإنما عُدِّي باللام وهو متعَدُّ بِنَفْسِهِ - مثلاً نصحتُ له في نصحتَه - إشعاراً بأنَّ إيقاع الفعل لأجل الله وخالصاً لوجهه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حالٌ يشعرُ بما هو المبدأ للتسبيح.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٩٦/١٥): «وهي مدنية فيما قال النقاش وغيره بإجماع من المفسرين. وقال غيره مكية»

وانظر «زاد المسير» (١٦٠/٨) و«الدر المنثور» (٤٥/٨).

(٢) ﴿لَمْ تَلِكْ أَلْسِنَاتٌ وَلَا أَرْضٌ﴾ فإنه الموجد لها والمتصرف فيها. ﴿يُنْجِي وَيُصِيبُ﴾ استئناف أو خبر لمحذوف ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرها. ﴿قَدِيرٌ﴾ تام القدرة.

(٣) ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ السابق على سائر الموجودات من حيث إنه موجد لها ومُخَدِّئُهَا. ﴿وَالْآخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها، أو هو الأول الذي تبدأ منه الأسباب وتنتهي إليه المسببات، أو الأول خارجاً والآخر ذهنياً. ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الظاهر وجوده لكثرة دلائله والباطن حقيقة ذاته فلا تكتنفها العقول، أو الغالب على كل شيء والعالم بباطنه. والواو الأولى والآخره للجمع بين الوصفين، والمتوسطة للجمع بين المجموعين. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عنده الظاهر والخفي.

(٤) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالبدور. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالامطار. ﴿وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ كالابخرة. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه. ولعل تقديم الخلق على العلم لأنه دليل عليه.

لَمْ تَلِكْ أَلْسِنَاتٌ وَلَا أَرْضٌ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

(٥) ﴿لَمْ تَلِكْ أَلْسِنَاتٌ وَلَا أَرْضٌ﴾ ذكره مع الإعادة كما ذكره مع الإبداء لأنه كالمقدمة لهما. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

(٦) ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بمكنوناتها.

(٧) ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها فهي في الحقيقة له لا لكم، أو التي استخلفكم عن قبلكم في تملكها والتصرف فيها، وفيه حث على الإنفاق وتهوين له على النفس. ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعد فيه مبالغات؛ جعل الجملة اسمية وإعادة ذكر الإيمان والإنفاق وبناء الحكم على الضمير وتنكير الأجر ووصفه بالكبير.

(٨) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي وما تصنعون غير مؤمنين به كقولك: مالك قائماً. ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ حال من ضمير تؤمنون، والمعنى أي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات. ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان قبل ذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر، والواو للحال من مفعول يدعوكم. وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول ورفع ميثاقكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما فإن هذا موجب لا مزيد عليه.

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ۖ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَمْنٍ مِنْ بَشَرِكُمْ أَلَيْسَ لِيَوْمِ جَنَّتْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعْ لِيُخْرِجَكُم﴾ أي الله أو العبد. ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث تنبهم بالرسول والآيات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية.

(١٠) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ وأي شيء لكم في ألا تنفقوا. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يكون قُرْبَةً إليه ^(١). ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرث كل شيء فيهما فلا يبقى لأحد مال، وإذا كان كذلك فإنفاقه بحيث يستخلف عوضاً يبقى وهو الثواب كان أولى ^(٢). ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً﴾ بيان لتفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم من السبق وقوة اليقين وتحري الحاجات حثاً على تحري الأفضل منها بعد الحث على الإنفاق، وذكر القتال للاستطراد، وقسيم مَن أَنْفَقَ محذوف لوضوحه ودلالة ما بعده عليه، والفتح فتح مكة إذ عز الإسلام به وكثر أهله وقلت الحاجة إلى المقاتلة والإنفاق. ﴿مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ﴾ أي من بعد الفتح. ﴿وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ﴾ أي وعد الله كلاً من المنفقين المثوبة الحسنة وهي الجنة. وقرأ ابن عامر وكل بالرفع على الابتداء أي وكل وعد الله ليطابق ما عطف عليه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بظاهره وباطنه فيجازيكم على حسبه. والآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فإنه أول مَن آمن وأنفق في سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضرباً أشرف به على الهلاك ^(٣).

(١١) ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي مَن الذي ينفق ماله في سبيله رجاء أن يعوضه فإنه كَمَن يقرضه، وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له. ﴿فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ﴾ أي يُعْطِي أَجْرَهُ. أضعافاً. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه ينبغي أن يُتَوَخَّى وإن لم يُضَاعَف، فكيف وقد يضاعف أضعافاً. وقرأ عاصم فيضاعفه بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى فكأنه قال: أيقرض الله أحد فيضاعفه له، وقرأ ابن كثير فيضعفه مرفوعاً، وقرأ ابن عامر ويعقوب فيضعفه منصوباً.

(١٢) ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لقوله وله أو فيضاعفه أو مقدر بالذكر ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ﴾ ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَمْنٍ مِنْ بَشَرِكُمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين. ﴿بُشْرِكُمْ أَلَيْسَ لِيَوْمِ جَنَّتْ﴾ أي يقول لهم مَن يتلقاهم من الملائكة بُشْرَاكم أي المبشّر به

(١) وتعيين المنفق فيه لتشديد التوبيخ (س/٨/٢٠٦).

(٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار «ولله» لزيادة التقرير وتربية المهابة (س/٨/٢٠٦).

(٣) انظر «جامع البيان» للطبري (١٣/٢٧/٢٢٠ - ٢٢١) والبحر المحيط (٨/٢١٩).

جَنَاتٍ، أَوْ بَشَارِكُمْ دُخُولُ جَنَاتٍ. ﴿١٣﴾ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ النُّورِ وَالْبَشْرَى بِالْجَنَاتِ الْمَخْلُودَةِ.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ بدلٌ من يومٍ ترى. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ انتظرونا فإنهم يُسْرِعُ بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف، أو انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورٍ بين أيديهم. وقرأ حمزة أنظرونا على أنَّ أتادهم ليلحقوا بهم إمهالٌ لهم. ﴿نَقْتِسِ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ نُصِيبُ منه. ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ إلى الدنيا. ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة، فإنه يتولد منها أو إلى الموقف فإنه من ثَمَّةٍ يُقْتَبَسُ، أو إلى حيثُ شتُمُ فاطلبوا نوراً آخرَ فإنه لا سبيلَ لكم إلى هذا، وهو تهكُّمٌ بهم وتخيبٌ من المؤمنين أو الملائكة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين. ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط. ﴿لَمْ يَأْتِ﴾ يدخلُ منه المؤمنون. ﴿بَاطِنُهُ﴾ باطنُ السورِ أو الباب. ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ لأنه يلي الجنة. ﴿وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ من جهته لأنه يلي النار.

(١٤) ﴿يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر. ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالنفاق. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر. ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتُم في الدين. ﴿وَأَمَانِي﴾ كامتدادِ العمر. ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت. ﴿وَأَمَانِي﴾ الشيطان أو الدنيا.

(١٥) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ فداء. وقرأ ابن عامر ويعقوبُ بالناء. ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهراً وباطناً. ﴿مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ هي أولى بكم كقول لبيد^(١):

فَعَدَتْ كِلَا الْفَرَجَيْنِ تَخِيبُ أَنَّهُ مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلَفَهَا وَأَمَامَهَا

وحقيقته مجرائكم أي مكانكم الذي يُقَالُ فيه هو أولى بكم كقولك: هو مِثْنَةُ الكرم أي مكان قول

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ. ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، قيل: هو

مَاعَاتِبُ الْمَرْءِ الْكَرِيمِ كُنْفُسُهُ وَالْمَرْءُ يَصْلِحُهُ الْجِلْسُ الصَّالِحُ

وترجم له رضي الله عنه محمد علي حمد الله في شرح الزوزني، ونسب إليه بيتاً واحداً هو:

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتَنِي أَجْلِي حَتَّى أَكْتَسِبْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرّاً

وهو من البسيط، والأول من الكامل، ومسكن لبيد الكوفة...

[الأعلام، للزركلي (٥/٢٤٠)].

القاتل إنه لكرِيمٌ، أو مكانكم عما قريب من الولي وهو القرب، أو ناصركم على طريقة قوله: تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ، أو متوليكم يتولاكم كما توليتم موجباتها في الدنيا. ﴿وَيْشَ الْمَصِيدِ﴾ الناز.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (١٦) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١٨) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٩)

(١٦) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ألم يأت وقته، يُقَالُ أَنَّى الأمرُ يَأْنِي أُنْيَا وأنا وإنّا إذا جاء إناءه، وقرىء ألم يئن بكسر الهمزة وسكون النون من أنّ يئنُ بمعنى أتى، وألما يأن. رُوِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا مُجِدِّبِينَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا هَاجَرُوا أَصَابُوا الرِّزْقَ وَالنِّعْمَةَ فَفَتَرُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، فَتَزَلَّتْ^(١). ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي القرآن وهو عطفٌ على الذِّكْرِ عطفُ أحدِ الوصفين على الآخر، ويجوزُ أن يراد بالذكر أن يُذَكَّرَ اللهُ. وقرأ نافع وحفص ويعقوب نَزَلَ بالتخفيف، وقرىء أُزِلَ. ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ عطفٌ على تخشع. وقرأ رويسٌ بالتاء، والمراد النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حُكِيَ عنهم بقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فطال عليهم الأجل لطول أعمارهم وآمالهم، أو ما بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم. وقرىء الأمد وهو الوقت الأطول. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في كتابهم من فزط القسوة.

(١٧) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيلٌ لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بالإحياء والأموات ترغيباً في الخشوع وزجراً عن القساوة. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تكمل عقولكم.

(١٨) ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ وَالتَّصَدِّقَاتِ، وقد قرىء بهما. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بتخفيف الصاد أي الذين صدقوا الله ورسوله. ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ عطفٌ على معنى الفعل في المحلّ باللام لأن معناه: الذين أضدقوا، أو صدقوا وهو على الأول للدلالة على أَنَّ الْمُعْتَبَرُ هو التصدُّقُ المقرون بالإخلاص. ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ معناه والقراءة في يُضَاعَفُ كما مرَّ غير أنه لم يُجَزَمْ لأنه خبرٌ إنَّ، وهو مسندٌ إلى لهم أو إلى ضمير المصدر.

(١٩) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، أو هم المبالغون في الصدق فإنهم آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله ورسوله

(١) وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عما في التوراة فإن فيها العجائب فنزلت هذه الآية وقال غيرهما. نزلت في المؤمنين. [أسباب النزول، لأبي الحسن الواحدي النيسابوري ص ٤٠٦].

والقائمون بالشهادة لله ولهم، أو على الأمم يوم القيامة. وقيل والشهداء عند ربهم مبتدأ وخبر، والمراد به الأنبياء من قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾^(١) أو الذين استشهدوا في سبيل الله. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم. ولكنه من غير تضعيف ليحلّ التفاوت، أو الأجر والنور الموعودان لهم. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فيه دليل على أنَّ الخلود في النار مخصوص بالكفار من حيث إنَّ التركيب يشعر بالاختصاص. والصُّحبة تدلُّ على الملازمة عرفاً.

أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

(٢٠) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ لما ذكر حال الفريقين في الآخرة حَقَّرَ أمور الدنيا أعني ما لا يتوصلُ به إلى الفوز الآجل، بأن بيَّن أنها أمورٌ خيالية قليلة النفع سريعة الزوال لأنها لعب يتعب الناس فيه أنفسهم جداً إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة، وهو يُلهونَ به أنفسهم عما يهتهم، وزينة كالملابس الحسنة والمواكب البهية والمنازل الرفيعة، وتفاهُرٌ بالأنساب أو تكاثُرٌ بالعدد والعُدَد، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ وهو تمثيل لها في سرعة تقضيها وقلة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى وأعجب به الحَرَّاثُ، أو الكافرون بالله لأنهم أشدَّ إعجاباً بزينة الدنيا ولأنَّ المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها، والكافر لا يتخطى فكره عما أحسَّ به فيستغرق فيه إعجاباً، ثم هاج أي يسَّ بعاهة فاصفرَّ ثم صار حطاماً، ثم عظم أمور الآخرة الأبدية بقوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ تنفيراً عن الانهماك في الدنيا وحثاً على ما يوجبُ كرامة العُقبى، ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي لمن أقبلَ عليها ولم يطلب إلا الآخرة. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ أي لمن أقبلَ عليها ولم يطلب بها الآخرة.

(٢١) ﴿سَابِقُوا﴾ سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى موجباتها. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي عرضها كعرضهما وإذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول، وقيل المراد به البسطة كقوله ﴿فَذُودُ عَاكِ عَرِيضٍ﴾^(٢) ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأن الإيمان وحده كافٍ في استحقاقها. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ ذلك للعود يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ منه التفضل بذلك وإن عظم قدره.

(١) النساء: (٤١).

(٢) فُصِّلَتْ: (٥١).

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُحْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

(٢٢) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كجذب وعاهة. ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفة. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ إلا مكتوبة في اللوح مثبتة في علم الله تعالى. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ نخلقها، والضمير للمصيبة أو الأرض أو للانفس ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي إثباته في كتاب. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة.

(٢٣) ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أي أثبت وكتب كي لا تحزنوا ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ بما أعطاكم الله منها فإن مَنْ عَلِمَ أَنَّ الْكُلَّ مَقْدَرٌ هَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ. وقرأ أبو عمرو بما آتاكم من الإتيان ليعادل ما فاتكم، وعلى الأول فيه إشعار بأن فواتها يلحقها إذا خُلِيت وطباعها، وأما حصولها وإبقاؤها فلا بدّ لهما من سبب يوجدها ويبقيها، والمراد نفى الأسى المانع عن التسليم لأمر الله والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إذ قلّ مَنْ يَبْتَثُ نَفْسَهُ فِي حَالِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ^(١).

(٢٤) ﴿الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُحْلِ﴾ بدل من كل مختال فإن المختال بالمال يرضى به غالباً، أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لأنّ معناه وَمَنْ يعرض عن الإنفاق فإنّ الله غني عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ولا ينفعه التقرب إليه بشكر مَنْ نَعِمَ، وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق. وقرأ نافع وابن عامر فإنّ الله الغني.

(٢٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الملائكة إلى الأنبياء أو الأنبياء إلى الأمم. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ ليبين الحق ويميز صواب العمل. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ لتسوى به الحقوق ويقام به العدل كما قال تعالى ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وإنزاله إنزال أسبابه والأمر بإعداده، وقيل أنزل الميزان إلى نوح عليه السلام، ويجوز أن يُرَادَ بِهِ الْعَدْلُ. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ليقام به السياسة وتدفع به الأعداء كما قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنّ آلات الحروب متخذة منه. ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ إذا ما من صنعوا إلا والحديد آلاتها. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار، والمطف على محذوف دل عليه ما قبله فإنه حال يتضمّن تعليلاً، أو اللام صلة لمحذوف أي أنزله ليعلم الله. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المستكن في نصره. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على إهلاك مَنْ أراد إهلاكه. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يفتقر إلى نُصْرَةٍ وإنما أمرهم بالجهاد ليتفجروا به ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه.

(١) وفي تخصيص التذليل بالنهي عن الفرح المذكور إيذان بأنه أقبح من الأسى (س/٨/٢١١).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كُفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(٢٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ بآي استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب. وقيل المراد بالكتاب الخط. ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ فمن الذرية أو مِنَ المرسل إليهم وقد دلَّ عليهم أرسلنا. ﴿ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم، والعدول عن سني المقابلة للمبالغة في الذم والدلالة على أنَّ الغلبة للضلال.

(٢٧) ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ أي أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام، والضمير لنوح وإبراهيم وَمِنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، أو من عاصَرَهُمَا من الرسل لا للذرية، فإن الرسل الملقى بهم من الذرية. ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ وقرأ بفتح الهمزة، وأمره أهون من أمر البرطيل لأنه أعجمي^(١). ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً ﴾ وقرأ رافة على فعالة. ﴿ وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أي وابتدعوا رهابية ابتدعوها، أو رهابية مُبتدعة على أنها من المجعولات وهي المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس، منسوبة إلى الرهبان وهو المبالغ في الخوف من رَهَب كالخشيان من خَشْيٍ، وقرئت بالضم كأنها منسوبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب ورُكبان. ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضناها عليهم. ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ استثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. وقيل متصل فإنَّ ما كتبناها عليهم بمعنى ما تعبدناهم بها وهو كما ينفي الإيجاب المقصود منه دفع العقاب ينفي النذب المقصود منه مجرد حصول مرضاة الله، وهو يخالف قوله ابتدعوها إلا أن يُقَالَ ابتدعوها ثم نُدَبُوا إليها، أو ابتدعوها بمعنى استحدثوها وأتوا بها، أو لأنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم. ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ أي فما رَعَوْهَا جميعاً. ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ بضم التثنية والقول بالاتحاد وقصد السمع والكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها. ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أتوا بالإيمان الصحيح ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ وحافظوا حقوقها. ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من المتسمين باتباعه. ﴿ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ خارجون عن حال الاتباع.

(٢٨) ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالرسول المتقدمة. ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما نهاكم عنه. ﴿ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ ﴾

محمد عليه الصلاة.....

(١) أي لا يلزم منه مراعاة أبنية العرب.

والسلام^(١). ﴿يُؤْتِكُمْ كُفْلَيْنِ﴾ نَصِيْبَيْنِ. ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لإِيمَانِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِيمَانِكُمْ مِنْ قَبْلِهِ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُثَابُوا عَلَى دِينِهِمُ السَّابِقِ وَإِنْ كَانَ مَنْسُوخاً بِبِرْكَةِ الْإِسْلَامِ، وَقِيلَ الْخَطَابُ لِلنَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا فِي عَصْرِهِ. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يَرِيدُ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾^(٢) أَوِ الْهَدَى الَّذِي يُسَلِّكُ بِهِ إِلَى جَنَابِ الْقُدُّسِ. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(٢٩) ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أَي لِيَعْلَمُوا وَلَا مَزِيدُهُ وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ قَرِءَ لِيَعْلَمَ وَلَكِي يَعْلَمَ وَلَئِنْ يَعْلَمَ بِإِدْغَامِ النُّونِ فِي الْيَاءِ. ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أَنْ هِيَ الْمَخْفُفَةُ وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَنَالُونَ شَيْئاً مِّمَّا ذُكِّرَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ نَيْلِهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ وَهُوَ مُشْرُوطٌ بِالْإِيمَانِ بِهِ، أَوْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِهِ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِي أَعْظَمِهِ وَهُوَ النُّبُوَّةُ فَيَخْصُصُوهَا بِمَنْ أَرَادُوا وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وَقِيلَ لَا غَيْرُ مَزِيدَةٍ، وَالْمَعْنَى لَثَلَا يَعْتَقِدُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ النَّبِيُّ وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَلَا يَنَالُونَهُ، فَيَكُونُ وَأَنَّ الْفَضْلَ عَطْفاً عَلَى لَثَلَا يَعْلَمُ، وَقَرِءَ لَيْلًا يَعْلَمُ وَوَجْهُهُ أَنَّ الْهَمْزَةَ حُذِفَتْ وَأَدْغَمَتِ النُّونُ فِي اللَّامِ ثُمَّ أُبْدِلَتْ يَاءً. وَقَرِءَ لَيْلًا عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْحُرُوفِ الْمَفْرَدَةِ الْفَتْحُ. عَنْ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَدِيدِ كُتِبَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَجْمَعِينَ»^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) وفي إطلاق كلمة الرسول إيذاناً بأنه عليه الصلاة والسلام - فردُّ في الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره (س٨/٢١٤) -.

(٢) الحديد: ١٢٢.

(٣) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٦٤ رقم ٩٨). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

سورة المجادلة مدنية

وقيل العشر الأول مكّي والباقي مدني^(١)، وآيها اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ رُوِيَ أَنَّ خولة بنت ثعلبة ظاهَرَ عنها زوجها أوسُ بنُ الصّامت، فاستفتت رسول الله ﷺ فقال: «حرمتِ عليه»، فقالت: ما طلقني، فقال: «حرمتِ عليه»، فاغتمت لصغير أولادها وشكت إلى الله تعالى، فنزلت هذه الآيات الأربع^(٢)، وقد تُشعرُ بأن

(١) وهي مدنية بالإجماع. إلا أن النقاش حكى أن قوله تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثة» الآية. مكّي. قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤٣٤/١٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٨١/٢) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج ٢٨/٥) وابن ماجه (١/٦٦٦) رقم ٢٠٦٣ وابن أبي عاصم في السنة (١/٢٧٨) رقم ٦٢٥ والواحدي في الأسباب (ص ٤٠٨) كلهم من طريق تميم بن سلمة عن عروة به. وإسناده صحيح. ويشهد له:

الرسول عليه الصلاة والسلام أو المجادلة يتوقع أَنَّ الله يسمعُ مجادلَتَها وشكواها ويفرِّجُ عنها كربها. وأذْغَمَ حمزة والكسائي وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر دالها في السين. ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ^(١) تَحَاوُرَكُمَا﴾ تراجُعَكُمَا الكلام وهو على تغليب الخطاب. ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ للأقوال والأحوال.

(٢) ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ الظَّهَارُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لَامْرَأَتِهِ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي مُشْتَقٌّ مِنَ الظَّهْرِ، وَالْحَقُّ بِهِ الْفَقْهَاءُ تُشَبِّهُهَا بِجَزءٍ أَنْثَى مَحْرَمٍ. وفي منكم تهجينٌ لعاديتهم فيه، فإنه كان من أيمان أهل الجاهلية. وأصل يظاهرون يتظاهرون، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي يظاهرون من أظاهر وعاصم يظاهرون من ظاهر. ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي على الحقيقة. ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تشبه بهن في الحرمة إلا مَنْ ألحقها الله بهنَّ كالمرضعاتِ وأزواجِ الرسول ﷺ، وعن عاصم أمهاتهم بالرفع على لغة بني تميم، وقرئ بأمهاتهم وهو أيضاً على لغة من ينصب. ﴿وَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا مَنكَرَاتٍ مِنْ أَقْوَالٍ﴾ إذ الشرع أنكره. ﴿وَزُورًا﴾ منحرفاً عن الحق فإن الزوجة لا تشبه الأم. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلف منه مطلقاً، أو إذا تيب عنه.

(٣) ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي إلى قولهم بالتدارك ومنه المثل: عاد الغيث على ما أفسد، وهو بنقض ما يقتضيه وذلك عند الشافعي بإمساك المظاهر عنها في النكاح زماناً يمكنه مفارقتها فيه إذ التشبيه يتناول حرمة لصحة استثنائها عنه وهو أقلُّ ما ينتقض به، وعند أبي حنيفة باستباحة استمتاعها ولو بنظرة شهوة، وعند مالك بالعزم على الجماع، وعند الحسن بالجماع أو بالظَّهَارِ في الإسلام على أَنَّ قوله يظاهرون بمعنى يعتادون الظَّهَارَ إذ كانوا يظاهرون في الجاهلية وهو قول الثوري، أو بتكراره لفظاً وهو قول الظاهرية. أو معنى بأن يحلف على ما قال وهو قول أبي مسلم، أو إلى المقول فيها بإمساكها أو استباحة استمتاعها أو وطئها. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعلهم أو فالواجب اعتقاق رقية والفاء للسببية، ومن فوائدها الدلالة على تكرُّر وجوب التحرير بتكرُّر الظَّهَارِ. والرقبة مقيدة بالإيمان عندنا قياساً على كفارة القتل. ﴿مَنْ قَتَلَ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ أَنْ يَسْتَمْتَعَ كُلُّ مِنَ الْمَظَاهِرِ والتماهي عنها بالآخر لعموم اللفظ ومقتضى التشبيه، أو أَنْ يَجَامِعَهَا وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلكم الحكم بالكفارة. ﴿تَوْعُظُونَ بِهِ﴾ لأنه يدلُّ على ارتكاب الجنابة الموجبة للغرامة ويردع عنه. ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية.

(٤) ﴿مَنْ لَمْ يَحْذَرَ﴾ أي الرقبة والذي غاب ماله واجد. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ فَإِنْ أَفْطَرَ بِغَيْرِ عَذْرِ لَزِمَهُ الْإِسْتِثْنَاءُ وَإِنْ أَفْطَرَ لِعَذْرِ فَفِيهِ خِلَافٌ، وَإِنْ جَامَعَ الْمَظَاهِرَ عَنْهَا لَيْلًا لَمْ يَنْقُطِ التَّبَاعُ عَنْدَنَا خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا. ﴿مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي الصَّوْمَ لَهُمْ أَوْ مَرَضٍ مَزْمَنٍ أَوْ شَبَقٍ مَفْرِطٍ فَإِنَّهُ ﷺ رَخَّصَ لِلْأَعْرَابِيِّ الْمَفْطَرِ أَنْ يَعْدَلَ لِأَجَلِهِ. ﴿فَلْيُطْعَمْ سِتِينَ مِسْكِينًا﴾

= ما أخرجه البخاري تعليقاً (٣٧٢/١٣) ووصله النسائي (١٦٨/٦) رقم (٣٤٦٠) وأحمد في المسند (٤٦/٦) والحاكم في المستدرک (٤٨١/٢) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج ٢٨/٥) والواحدي في الأسباب (ص ٤٠٨) عن تميم به. وإسناده صحيح.

(١) وإظهار الاسم الجليل «الله» في الموقعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بوصف الألوهية وتأكيد استقلال الجملتين (س ٢١٦/٨).

ستين مئذاً بمدّ رسول الله ﷺ، وهو رطلٌ وثلاثٌ لأنه أقلُّ ما قيل في الكفاراتِ وجنسه المخرج في الفطرة، وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يعطي كلَّ مسكينٍ نصفَ صاعٍ من بُرٍّ أو صاعاً من غيره. وإنما لم يذكر التماساً مع الطعام اكتفاءً بذكره مع الآخرين، أو لجوازه في خلال الإطعام كما قال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك البيان أو التعليم للأحكام. ومحلُّه النصبُ بفعلٍ معلَّلٍ بقوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في جاهليّتكم. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ لا يجوزُ تعديها. ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ﴾ أي الذين لا يقبلونها. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو نظيرُ قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبِتُوا كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ بِمَا كَبِتُوا اللَّهُ جَمِيعًا فَيَنْتِثُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَخَصَّنَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنِثُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعادونهما، فإنَّ كلاً من المتعاديَّين في حدٍّ غير حدٍّ الآخر، أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما. ﴿كَبِتُوا﴾ أخزوا وأهلكوا وأصل الكبَّت الكبُّ. ﴿كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني كفار الأمم الماضية. ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ تدلُّ على صدق الرسول وما جاء به. ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم.

(٦) ﴿يَوْمَ يَنْتِثُهُمُ اللَّهُ﴾ منصوبٌ بهمين أو بإضمار اذكر. ﴿جَمِيعًا﴾ كلُّهم لا يدعُ أحداً غير مبعوثٍ أو مجتمعين. ﴿فَيَنْتِثُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي على رؤوس الأشهاد تشهيراً لحالهم وتقريراً لعذابهم. ﴿أَخَصَّنَهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عدداً لم يغيب منه شيء. ﴿وَنَسُوهُ﴾ لكثرت أو تعاونهم به. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء.

(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلياً وجزئياً. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ أي ما يقع من تناجي ثلاثة، ويجوز أن يقدر مضافاً أو يؤول نجوى بمتناجين ويجعل ثلاثة صفةً لها، واشتقاقها من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض فإنَّ السرَّ أمرٌ مرفوعٌ إلى الذهن لا يتيسر لكلِّ أحدٍ أن يطلع عليه. ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلا الله يجعلهم أربعة من حيث إنه يشارِكهم في الاطلاع عليها، والاستثناء من أعم الأحوال. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ ولا نجوى خمسة. ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتخصيصُ العديدين إما لخصوص الواقعة فإنَّ الآية نزلت في تناجي المنافقين، أو لأنَّ الله تعالى وثّر يحبُّ الوثر، والثلاثة أول الأوتار أو لأنَّ التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين وثالث يتوسط بينهما. وقرئ ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال بإضمار يتناجون أو تأويل نجوى بمتناجين. ﴿وَلَا آدَنٌ مِنْ ذَلِكَ﴾ ولا أقلُّ مما ذكر كالواحد

والاثنيين. ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ كالسنة وما فوقها. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم. وقرأ يعقوبُ ولا أكثر بالرفع عطفاً على محلٍّ من نجوى أو محلٍّ لا أدنى بأن جعلت لا لنفي الجنس. ﴿أَبْنِ مَا كَانُوا﴾ فإن علمه بالأشياء ليس لقرب مكانٍ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة. ﴿ثُمَّ يَنْتَهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ تفضيحاً لهم وتقريراً لما يستحقونه من الجزاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل على السواء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيَلْسَنُ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

(٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(١)، نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فهاهم رسول الله ﷺ ثم عادوا لمثل فعلهم^(٢). ﴿وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواصي بمعصية الرسول. وقرأ حمزة وَيَتَنَجَّوْنَ وهو يفتعلون من التجوى، وروى عن يعقوب مثله. ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ فيقولون السام عليك^(٣)، أو أنعم صباحاً والله تعالى يقول ﴿وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾^(٤). ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيما بينهم. ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلا يعذبنا الله بذلك لو كان محمداً نبياً. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها. ﴿فَيَلْسَنُ الْمَصِيرُ﴾ جهنم.

(٩) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كما يفعله المنافقون وعن يعقوب فلا تتنجوا. ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَى﴾ بما يتضمن خبر المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول. ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تأتون وتذرون فإنه مجازيكم عليه.

(١٠) ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ أي النجوى بالإثم والعدوان. ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ فإنه المزين لها والحامل عليها. ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بتوهمهم أنها في نكية أصابهم. ﴿وَلَيْسَ﴾ أي الشيطان أو التناجي.

(١) صيغة المضارع «يعودون» للدلالة على تكرار عودهم وتجده واستحضار صورته العجيبة.

(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٤١٠ - ٤١١) عن مجاهد وابن عباس بدون سند.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (١١/١٩٩ - ٢٠٠ رقم ٦٤٠١) عن عائشة رضي الله عنها: أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليك. قال: وعليكم. فقالت عائشة السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم. فقال: رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق، وإياك والعنف - أو الفحش - قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في». وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٢/٢٧٠ - ٢٧١ رقم ٣٣١٣) و«معالم التنزيل» (٨/٥٦).

(٤) النمل: «٥٩».

﴿بِضَارِهِمْ﴾ بضار المؤمنين. ﴿شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بمشيئته. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يبالوا بنجواهم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

(١١) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ توسعوا فيه وليفسخ بعضكم عن بعض من قولهم: افسخ عني أي تنح، وقرىء تفاسسوا. والمراد بالمجلس الجنس ويدل عليه قراءة عاصم بالجمع، أو مجلس رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يتضاؤون به تنافساً على القرب منه وحزواً على استماع كلامه. ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر وغيرها. ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا﴾ انهضوا للتوسعة أو لما أميئتم به كصلاة أو جهاد، أو ارتفعوا عن المجلس. ﴿فَانْشُرُوا﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما. ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ بالنصر وحسن الذكر في الدنيا ولإيوائهم غرف الجنان في الآخرة. ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعه، ولذلك يُقْتَدَى بالعالم في أفعاله ولا يُقْتَدَى بغيره. وفي الحديث «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(١). ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد لمن لم يتمثل الأمر أو استكرهه.

(١٢) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ فتصدقوا قدامها مستعاراً ممن له يدان، وفي هذا الأمر تعظيم الرسول وإنفاق الفقراء والنهي عن الإفراط في السؤال والميز بين المخلص والمنافق ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا. واختلِفَ في أنه للندب أو للوجوب لكنه منسوخ بقوله ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾^(٢) وهو إن اتصل به تلاوة لم يتصل به نزولاً. وعن علي كرم الله وجهه إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحدٌ غيري، كان لي دينار فصرفته فكنْتُ إذا ناجيته تصدقت ب درهم^(٣)، وهو على القول بالوجوب لا يقدح في غيره فلعله لم يتفق للأغنياء مناجاة في مدة بقائه، إذ روي أنه لم يبق إلا عشرًا وقيل إلا ساعة. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك التصدق. ﴿خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي لأنفسكم من الريبة وحب المال وهو يشعر بالندبية لكن قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لمن لم يجده حيث رخص له في المناجاة بلا تصدق أدل على الوجوب.

(١) أخرجه أبو داود (٥٨/٤ رقم ٣٦٤١) والترمذي (٤٩/٥ رقم ٢٦٨٢) وابن ماجه (٨١/١ رقم ٢٢٣) وأحمد (١٩٦/٥) وابن حبان (ص ٤٨ رقم ٨٠ - موارد) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٣٣/١ - ٣٤) كلهم في سياق طويل هذا جزء منه من حديث أبي الدرداء. وهو حديث صحيح.

وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجه وأبي داود. . .

(٢) المجادلة: (١٣).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٨١/٢ - ٤٨٢) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي به وأنتم منه. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقْتُمْ ۖ فِإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا
مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ۝ اتَّخَذُوا
أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿ ۝ أَشَفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقْتُمْ ۖ ﴾ أخفتم الفقر من تقديم الصدقة أو أخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر، وجمع صدقات لجمع المخاطبين أو لكثرة التناجي. ﴿ ۝ فِإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه، وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم مما قام مقام توبتهم. وإذ على بابها، وقيل بمعنى إذا أو إن. ﴿ ۝ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فلا نفرطوا في أدائهما. ﴿ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك. ﴿ ۝ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطناً.

(١٤) ﴿ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ والوا. ﴿ ۝ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني اليهود. ﴿ ۝ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ لأنهم منافقون مذنبون بين ذلك. ﴿ ۝ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ ﴾ وهو ادعاء الإسلام. ﴿ ۝ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن المحلوف عليه كذب كمن يحلف بالغموس، وفي هذا التقييد دليل على أن الكذب يعلم ما يعلم المخبر عدم مطابقته وما لا يعلم. وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان في حجرة من حجراته فقال: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان، فدخل عبدالله بن نبل المنافق وكان أزرق، فقال عليه الصلاة والسلام له: علام تشمتني أنت وأصحابك؛ فحلف بالله ما فعل ثم جاء بأصحابه فحلفوا، فنزلت^(١).

(١٥) ﴿ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً. ﴿ ۝ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فتمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه.

(١٦) ﴿ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ أي التي حلفوا بها، وقرئ بالكسر أي إيمانهم الذي أظهروه. ﴿ ۝ جُنَّةً ﴾ وقاية دون دمائهم وأموالهم. ﴿ ۝ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فصدوا الناس في خلال أمنهم عن دين الله بالتحريش والتشبيط. ﴿ ۝ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ وعيد ثانٍ بوصف آخر لعذابهم. وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٤٠/١) والبخاري (٧٤/٣ - كشف) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٢٨ج ٢٣) والطبراني في الكبير (٧/١٢ رقم ١٢٣٠٧) والحاكم في المستدرک (٤٨٢/٢).

كلهم من طريق سماك بن حرب عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس.

لكن ما عند أحمد والبخاري وابن جرير، بعكس ما عند الطبراني والحاكم.

فعند أحمد والبخاري وابن جرير، أن المنافق هو الذي قال للنبي ﷺ: يا محمد، علام تشمتني أنت وأصحابك وجعل يحلف...

وعند الطبراني والحاكم مثلما عند القاضي.

وكذلك عند الطبراني والحاكم اختلاف آخر مما عند غيرهما، وهو أن عندهما أن الله أنزل «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم» [المجادلة: ١٨].

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(١٧) ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قد سبق مثله.

(١٨) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ﴾ أي الله تعالى على أنهم مسلمون. ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾ في الدنيا ويقولون إنهم لمنكم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ في حلفهم الكاذب لأن تمكن النفاق في نفوسهم بحيث يُخَيَّلُ إليهم في الآخرة أنَّ الإيمان الكاذبة تروِّج الكذب على الله كما تروِّجه عليكم في الدنيا. ﴿أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ البالغون الغاية في الكذب حيث يكذبون مع عالم الغيب والشهادة ويحلفون عليه.

(١٩) ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ استولى عليهم من حُذْتُ الإبل وأحذثها إذا استوليت عليها، وهو مما جاء على الأصل. ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ لا يذكرونه بقلوبهم ولا بالستهم. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ جنوده وأتباعه. ﴿أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم فوّتوا على أنفسهم النعيم المؤبد وعرضوها للعذاب المخلد.

(٢٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذل خلق الله (١).

(٢١) ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللوح. ﴿لَأَعْلَبُكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي بالحجة، وقرأ نافع وابن عامر رُسُلِي بفتح الباء. ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ﴾ على نصر أنبيائه. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلب عليه شيء في مُرَادِهِ.

(٢٢) ﴿لَا يَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي لا ينبغي أن تجدهم واديين أعداء الله، والمراد أنه لا ينبغي أن يوادوهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ولو كان المحادون أقرب الناس إليهم. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الذين لم يوادوهم. ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أثبتة فيها، وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان، فإن جزء الثابت في القلب يكون ثابتاً فيه، وأعمال الجوارح لا تثبت فيه. ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي من عند الله وهو نور القلب أو القرآن، أو بالنصر على العدو. قيل الضمير للإيمان فإنه سبب لحياة القلب. ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بقضائه أو بما وعدهم

(١) عبر عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيز الصلة على أن مادة من حاد الله ورسوله محادة لهما، والإشعار بعله الحكم (س/٢٢٣).

من الثواب. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ جنده وأنصار دينه. ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بخير الدارين. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمَجَادِلَةِ كُتِبَ مِنْ حِزْبِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٦٦ رقم ١١٩).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ يَدِيَهُمْ بِيُوتِهِمْ وَأَيْدِيَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْتَزَلُوا يَتَأُولَى الْأَبْصَرِ ﴿٢﴾

سورة الحشر مدنية^(١) وآياتها أربع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي (٢) أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة صالح بن النضير على أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما ظهر يوم بدر قالوا: إنه النبي المنعوت في التوراة بالنصرة، فلما هُزم المسلمون يوم أُحُد ارتابوا ونكثوا وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا أباسفيان، فأمر رسول الله ﷺ أخا كعب من الرضاعة فقتله غيلة، ثم صَبَّحَهُم بالكتائب وحاصَرَهُمْ حتى صالحوا على الجلاء فجلا أكثرهم إلى الشام ولحق طائفة بخيبر والحيرة

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤٥٩/١٥): «هذه السورة مدنية باتفاق من أهل العلم» هـ. وانظر «الدر المنثور» (٨٨/٨).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٦٦ رقم ١٢٠): «لم أجد له إسناداً، بل ذكره الثعلبي هكذا بغير سند» هـ.

وذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٤١٦) بدون سند.

قلت: قصة غزوة بني النضير وجلائهم مروية في كتب المغازي والسير بغير هذا السياق. انظر «فتح الباري» (٣٢٩/٧) وطبقات ابن سعد (٥٧/٢ - ٥٨) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/١٧٦ - ١٨٦) وغيرها من الكتب.

● وأما قتل كعب بن الأشرف فمخرج في صحيح البخاري (٣٣٦/٧ - ٣٣٧ رقم ٣٠٣٧) ومسلم (٣/١٤٢٥ - ١٤٢٦ رقم ١٨٠١/١١٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

فانزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي في أول حشرهم من جزيرة العرب إذ لم يصنهم هذا الذلُّ قبل ذلك أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله تعالى عنه إياهم من خيبر إليه، أو في أول حشر الناس إلى الشام وآخر حشرهم أنهم يُحْشَرُونَ إليه عند قيام الساعة فيدرُكهم هناك، أو أنَّ ناراً تخرجُ من المشرق فتحشُرهم إلى المغرب. والحشر إخراجُ جمع من مكانٍ إلى آخر. ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم. ﴿وَوَلَّوْا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أنَّ حصونهم تمنعهم من بأس الله. وتغييرُ النَّظْمِ وتقديمُ الخبر وإسنادُ الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فزط وثوقهم بحصانيتها، واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزَّة ومنعة بسببها، ويجوز أن تكون حصونهم فاعلاً لمانعتهم. ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ﴾ أي عذابه وهو الرعب والاضطرارُّ إلى الجلاء، وقيل الضميرُ للمؤمنين أي فاتاهم نصرُ الله، وقرئ فاتاهم الله أي العذاب أو النصر. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ لقوة وثوقهم. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وأثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي يملؤها. ﴿يُخْرِبُونَ يُؤْتِيهِمُ يُدْيِرُ﴾ ضناً بها على المسلمين وإخراجاً لما استحسنا من آلياتها. ﴿وَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم أيضاً كانوا يخربون ظواهرها نكايَةً وتوسيعاً لمجال القتال. وعطفها على أيديهم من حيث إن تخريب المؤمنين مسبَّب عن نقضهم فكانهم استعملوهم فيه، والجملة حالٌ أو تفسيرٌ للرعب. وقرأ أبو عمرو يخربون بالتشديد وهو أبلغ لما فيه من التكثير. وقيل الإخرا ب التعطيل أو ترك الشيء خراباً والتخريب الهدم. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاعتظوا بحالهم فلا تغدروا ولا تعتمدوا على غير الله، واستدلَّ به على أنَّ القياسَ حجةٌ من حيث إنه أمرٌ بالمجازاة من حالٍ إلى حال وحملها عليها في حكم لما بينهما من المشاركة المقتضية له على ما قررناه في الكتب الأصولية.

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمُ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴿٣﴾

(٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الخروج من أوطانهم. ﴿لَعَذَّبُهمُ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسي كما فعل بني قريظة. ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ استئنافٌ معناه أنهم إن نَجَوْا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

(٤) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر مما حاق بهم وما كانوا بصدده وما هو معدٌّ لهم أو إلى الأخير.

(٥) ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾ أي شيء قطعتم من نخلة فعلةٌ من اللؤن ويجمعُ على ألوان، وقيل من اللين ومعناها النخلة الكريمة وجمعها أليان. ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضميرُ لما، وتأتيه لأنه مفسَّرٌ باللين.

﴿ فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَسْوَاحِهِمْ أَصْلُحُوا أَكْثَفَاءَ بِالضَّمَةِ عَنِ الْوَاوِ أَوْ عَلَىٰ أَنَّهُ كَرُّهُنَّ. ﴾ ﴿ فَيَا ذِينَ اللَّهِ ﴾ فبأمره .
 ﴿ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴾ علةٌ لمحذوفٍ أي وفعلتُم، أو وأذن لكم في القطع ليجزيهم على فسقهم
 بما غاظهم منه . رُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ قَالُوا: قَدْ كُنْتُ يَا مُحَمَّدُ تَنْهَى عَنِ
 الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا؟ فَتَزَلَّتْ ^(١) . وَاسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ هَذَا دِيَارِ الْكُفَّارِ
 وَقَطْعِ أَشْجَارِهِمْ زِيَادَةً لَغِيظِهِمْ .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
 وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَهُكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
 فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

(٦) ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ وما أعاده عليه بمعنى صيرَه له أو ردَّه عليه، فإنه كان حقيقةً بأن يكونَ
 له لأنه تعالى خلق الناسَ لعبادته وخلقَ ما خلقَ لهم ليتوسَّلُوا به إلى طاعته فهو جديرٌ بأن يكونَ
 للمطيعين . ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من بني النضير أو من الكفرة . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فما أجزيتُم على تحصيله من
 الوجيف وهو سرعة السير . ﴿ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ما يُرَكَّبُ من الإبل غلبَ فيه كما غلبَ الرَّاكِبُ على
 راجِبه، وذلك إن كان المرادُ فيء بني النضير، فَلأنَّ قَراهم كانت على ميلين من المدينة فمشوا إليها
 رجالاً غيرَ رسولِ الله ﷺ فإنه ركبَ جملاً أو حماراً، ولم يجرَ مزيدُ قتالٍ ولذلك لم يُعْطَ الأنصارُ منه
 شيئاً إلا ثلاثة كانت بهم حاجةٌ . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بقذفِ الرعبِ في قلوبهم . ﴿ وَاللَّهُ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعلُ ما يريد تارةً بالوسائطِ الظاهرة وتارةً بغيرها .

(٧) ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ بيانٌ للأول ولذلك لم يعطف عليه ^(٢) . ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
 الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ ﴾ اختلف في قسمِ الفِئء، فقيل يُسَدَّسُ لظاهر الآية ويُصَرَّفُ سهمُ الله
 في عمارةِ الكعبةِ وسائرِ المساجِدِ، وقيل يخمسُ لأنَّ ذِكْرَ اللَّهِ لِلتَّعْظِيمِ وَيُصَرَّفُ الآنَ سهمُ الرسولِ عليه
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الإمامِ على قولٍ وإلى العساكرِ والثغورِ على قولٍ وإلى مصالحِ المسلمين على
 قولٍ. وقيل يُخَمَّسُ خُمُسُهُ كَالْغَنِيمَةِ فإنه عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يقسمُ الخمسَ كذلك ويصرفُ
 الأُخماسَ الأربعةَ كما يشاءُ والآنَ على الخلافِ المذكورِ . ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ ﴾ أي الفِئء الذي حقُّه أن يكونَ
 للفقراءِ . وقرأ هشام في روايةٍ بالناء . ﴿ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ الدُّولةُ ما يتداوله الأغنياءُ ويدورُ بينهم كما

(١) أخرج البخاري (٦٢٩/٨ رقم ٤٨٨٤) ومسلم (١٣٦٥/٣ رقم ١٧٤٦/٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البؤيرة فأنزل الله تعالى «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها...».

(٢) وَضَعَ «أهل القرى» موضع قوله «منهم» - أي من بني النضير - للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحاً ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركا ب (فتح القدير ١٩٧/٥).

كان في الجاهلية، وقرئ دَوْلَةً بمعنى كيلا يكونَ الفيءُ ذا تداول بينهم أو أخذه غلبةً تكون بينهم، وقرأ هشام دولةً بالرفع على كان التامة أي كيلا يقع دولةً جاهليةً. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ وما أعطاكم من الفيء أو من الأمر. ﴿فَحْذَرُوا﴾ لأنه حلالٌ لكم، أو فتمسكوا به لأنه واجبُ الطاعة. ﴿وَمَا نَهَيْكُم عَنْهُ﴾ عن أخذه منه، أو عن إتيائه. ﴿فَانْتَهُوا﴾ عنه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفةِ رسوله. ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالفه.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(٨) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ بدلٌ من لذي القربى وما عُطِفَ عليه فإنَّ الرسولَ لا يسمَّى فقيراً. ومن أعطى أغنياء ذوي القربى خَصَّصَ الإبدال بما بعده والفيء بفيء بني النضير. ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ فإنَّ كفارَ مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ حالٌ مقيدة لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم. ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بأنفسهم وأموالهم. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ عطفٌ على المهاجرين، والمراد بهم الأنصار الذين ظهر صدقهم فإنهم لزموا المدينة والإيمان وتمكنوا فيها، وقيل المعنى تبوءوا دارَ الهجرة ودارَ الإيمان فحذف المضاف من الثاني والمضاف إليه من الأول وعوضَ عنه اللام، أو تبوءوا الدارَ وأخلصوا الإيمان كقوله: عَلَفَتْهَا تِينًا وَمَاءً بَارِدًا^(١). وقيل سَمِيَ المدينة بالإيمان لأنها مظهره ومصيره. ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل هجرة المهاجرين. وقيل تقديرُ الكلام والذين تبوءوا الدارَ من قبلهم والإيمان. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ولا يثقل عليهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ في أنفسهم. ﴿حَاجَةً﴾ ما تحملُ عليه الحاجة كالطلب والحزاة والحسد والغيط. مما أُعْطِيَ المهاجرون من الفيء وغيره. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ ويقدمون المهاجرين على أنفسهم حتى إن كان عنده امرأتان نزلَ عن واحدة وزوجها من أحدهم. ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ حاجةٌ من خصائص البناء وهي فَرْجُهُ^(٢). ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حتى

(١) أي علفتها تيناً وسقيتها ماء.

(٢) ورد في سبب نزول هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إني مجاهد، فأرسل إلى بعض نساؤه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال النبي ﷺ: «مَنْ يَضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رَحْلِهِ، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. وفي رواية قال لامرأته: هل عندك شيء؟ فقالت: لا، إلا قوت صبياني، قال: عليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فتؤمهم، وإذا دخل ضيفنا فاطفئي السراج وأريه أنا ناكل، فقعدا وأكل الضيف وبتا طاوئين، فلما أصبح غدا =

يَخَالِفُهَا فِيمَا يَغْلِبُ عَلَيْهَا مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَبَغْضِ الْإِنْفَاقِ. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الْفَائِزُونَ بِالشَّأْنِ الْعَاجِلِ وَالثَّوَابِ الْآجِلِ.

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنِطُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم الذين هاجروا حين قوي الإسلام، أو التابعون بإحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل: إِنَّ الْآيَةَ قَدْ اسْتَوْعِبَتْ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أي لإخواننا في الدين. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حَقْدًا لَهُمْ. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فحقيق بأن تجيب دعاءنا.

(١١) ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يريد الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر أو الصداقة والموالة. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم. ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالكم أو حُذْلَانِكُمْ. ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي من رسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ لنعاونتكم. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك كما قال:

(١٢) ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وكان كذلك فإنَّ ابن أبي وأصحابه راسلوا بني النضير بذلك ثم أخلفوهم، وفيه دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن. ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير. ﴿لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ﴾ انهزاماً. ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ بعد بل يأخذلهم الله ولا ينفعهم نصره المنافقين، أو نفاقهم إذ ضمير الفعلين يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلْيَهُودِ وَأَنْ يَكُونَ لِلْمَنَافِقِينَ.

(١٣) ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ أي أشدُّ مرهوبةً مصدرٌ للفعل المبني للمفعول. ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ فإنهم كانوا يَضْمُرُونَ مخافتهم من المؤمنين. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ على ما يظهرونه نفاقاً فإنَّ استبطانَ رهبتكم سبب لإظهار مرهبة الله. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حقَّ خشيته ويعلموا أنه الحقيق بأن يُخْشَى.

(١٤) ﴿لَا يَقْنِطُوكُمْ جَمِيعًا﴾ اليهود والمنافقون. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين. ﴿إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق. ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ لفرط رهبتهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو جدار، وأمال

أبو عمرو فتحة الدال. ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي وليس ذلك لضعفهم وجنيتهم فإنه يشتد بأسهم إذا حارب بعضهم بعضاً، بل لقذف الله الرعب في قلوبهم ولأن الشجاع يجبن والعزیز يذل إذا حارب الله ورسوله. ﴿نَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين. ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ متفرقة لافتراق عقائدهم واختلاف مقاصدهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَمْقُلُونَ﴾ ما فيه صلاحهم وإن تشقت القلوب يوهن قواهم.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا دَمَّتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

(١٥) ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل اليهود كمثل أهل بدر، أو بني قينقاع إن صح أنهم أخرجوا قبل النصير، أو المهلكين من الأمم الماضية. ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب. وانتصابه بمثل إذ التقدير كوجود مثل. ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوء عاقبة كفرهم في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(١٦) ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثل الشيطان. ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أغراه على الكفر إغراء الأمر المأمور. ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال:

(١٧) ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ والمراد من الإنسان الجنس. قيل أبو جهل قال له إبليس يوم بدر ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾^(١) الآية، وقيل راهب حمله على الفجور والارتداد. وقرئ عاقبتهما وخالدان على أنه خبر إن وفي النار لغو.

(١٨) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا دَمَّتْ لِغَدٍ﴾ ليوم القيامة سمّاه به لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة كغده، وتنكيره للتعظيم، وأما تنكير النفس فلاستقلال النفس النواظر فيما قدّمت للآخرة كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تكرير للتأكيد، أو الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالعمل والثاني في ترك المحارم لاقتراحه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي.

(١٩) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ نسوا حقه. ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ فجعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها، أو أراهم يوم القيامة من الهول ما أنساهم أنفسهم. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسوق.

(٢٠) ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين استكملوا نفوسهم فاستأهلوا الجنة والذين استمهنوها فاستحقوا النار، واحتج به أصحابنا على أن المسلم لا يقتل بالكافر. ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ

أَلْفَايُزُونَ ﴿٢٠﴾ بالنعيم المقيم .

لَوْ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿لَوْ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ تمثيل وتخييل كما مر في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾^(١) ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَإِنَّ الإشارة إليه وإلى أمثاله . والمراد توبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن لقساوة قلبه وقلة تدبره ، والتصدع الشقق . وقرئ مصدعاً على الإدغام .

(٢٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾ ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية وأحوالها ، وما حضر له من الأجرام وأعراضها . وتقديم الغيب لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به ، أو المعدم والموجود ، أو السر والعلاية . وقيل الدنيا والآخرة . ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .

(٢٣) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ البالغ في التزاهة عما يوجب نقصاناً . وقرئ بالفتح^(٢) وهو لغة فيه . ﴿السَّلَامُ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة ، مصدرٌ وُصِفَ به للمبالغة . ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن ، وقرئ بالفتح^(٣) بمعنى المؤمن به على حذف الجار . ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء مفعلٌ من الأمنِ قَلْبَتْ همزته هاء^(٤) . ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ الذي جَبَرَ خلقه على ما أَرَادَهُ ، أو جَبَرَ حالهم بمعنى أصلحه . ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجةً أو نقصاناً . ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذ لا يشركه في شيء من ذلك .

(٢٤) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته . ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئاً من التفاوت . ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد . ومن أراد الإطناب في شرح هذه الأسماء وأحوالها فعليه بكتابي المسمى بمنتهى المنى . ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ لأنها دالة على محاسن المعاني . ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لتزهره عن النقائص كلها . ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجامع للكلمات

(١) الأحزاب : ٧٢ .

(٢) أي يفتح القاف من كلمة القدوس .

(٣) أي يفتح الميم ، أي «المؤمن» .

(٤) قال الشوكاني : يقال : هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء .

قال الواحدي : وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن . والأول أولى (فتح القدير ٢٠٨/٥) .

بأسرها فإنها راجعةٌ إلى الكمال في القدرة والعلم. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورة الحشر غفرَ الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي من رواية يزيد بن أبان عن أنس بهذا - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٦٧ رقم ١٢٧) ويزيد بن أبان كذاب.

قلت: لم يخرج الثعلبي في بداية السورة حسب عادته، وإنما أخرج عن ابن عباس مرفوعاً: «من قرأ سورة الحشر لم تبقى جنة ولا نار ولا عرش ولا الكرسي ولا الحجاب ولا السموات السبع ولا الأرضون السبع والهوام والطير والشجر والدواب والجيال والشمس والقمر والملائكة إلا صلوا عليه، فإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً».

وهو من طريق محمد بن شجاع عن زيد العمي عن أبي نضرة عنه، وزيد العمي ضعيف.

سُورَةُ الْمُتَحَنِّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَقْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾

سورة الممتحنة مدنية ^(١) وآياتها ثلاث عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، فإنه لما علم أن رسول الله ﷺ يغزو أهل مكة كتب إليهم أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا جذركم، وأرسل كتابه مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام فأعلم رسول الله، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها واخلوها فإن أثبت فاضربوا عنقها، فأدركوها ثممة فجحدت فهتوا بالرجوع، فسل علي رضي الله تعالى عنه السيف فأخرجته من عقاصها، فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غشيتك منذ نصحتك ولكني كنتُ امرأً ملصقاً في قريش وليس لي فيهم من يحمي أهلي، فأردت أن آخذ عندهم يداً وقد علمت أن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره ^(٢) ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ تُفْضُونَ إليهم المودة

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤٨٢/١٥): «وهي مدنية بإجماع المفسرين. وانظر «الدر المنثور» (١٢٤/٨). «وزاد المسير» (٢٣٠/٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٣/٨ - ٦٣٤) رقم (٤٨٩٠) من حديث علي.

بالمكاتبة، والباء مزيدة أو إخبار رسول الله ﷺ بسبب المودة، والجملة حال من فاعل لا تتخذوا أو صفة لأولياء جرت على غير من هي له، ولا حاجة فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروط في الاسم دون الفعل. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ حال من فاعل أحد الفعلين. ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي من مكة وهو حال من كفروا أو استئناف لبيانه. ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ بأن تؤمنوا به، وفيه تغليب المخاطب، والانتفات من التكلم إلى الغيبة للدلالة على ما يوجب الإيمان. ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم. ﴿جِهَدُوا فِي سَبِيلِي وَآيِنَا مَرْضَاتِي﴾ علة للخروج وعمدة للتعليق وجواب الشرط محذوف دل عليه لا تتخذوا. ﴿فُتِّرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ بدل من تلقون أو استئناف معناه: أي طائل لكم في إسرار المودة أو الإخبار بسبب المودة. ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي منكم. وقيل أعلم مضارع والباء مزيدة وما موصولة أو مصدرية. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي من يفعل الاتخاذ. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأه.

إِنْ يَشْفِقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۚ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَكُنَا وَإِلَيْكَ آئِبْنَا وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ۚ

(٢) ﴿إِنْ يَشْفِقُوكُمْ﴾ يظفروا بكم. ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ﴾ ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم. ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ﴾ ما يسوؤكم كالقتل والشتم. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنوا ارتدادكم. ومجيء ودوا وحده بلفظ الماضي للإشعار بأنهم ودوا ذلك قبل كل شيء، وأن ودادتهم حاصلة وإن لم يشفقوكم.

(٣) ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم. ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين ثوالون المشركين لأجلهم. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يفرق بينكم بما عزاكم من الهول فيفر بعضكم من بعض فما لكم ترفضون اليوم حق الله لمن يفر منكم غدا، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الصاد والتشديد وفتح الفاء، وقرأ ابن عامر يُفْصَلُ على البناء للمفعول وهو بينكم، وقرأ عاصم يُفْصَلُ. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة. اسم لما يؤتسى به. ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ صفة ثانية أو خبر كان ولكم لغو أو حال من المستكين في حسنة أو صلة لها لا لأسوة لأنها وصفت. ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ ظرف لخبر كان. ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾ جمع بريء كظريف وظرفاء. ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم أو بمعبودكم، أو بكم وبه فلا نعتد بشانكم وألهيتكم. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فتتقلب العداوة والبغضاء ألفة ومحبة. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله أسوة حسنة فإن استغفاره لأبيه الكافر ليس مما ينبغي أن يأثسوا به، فإن كان قبل النهي أو لموعدة وعدها إياه. ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من تمام قوله المستثنى، ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أجزائه. ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَكُنَا وَإِلَيْكَ آئِبْنَا وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ متصل بما قبل الاستثناء أو أمر

من الله للمؤمنين بأن يقولوه تَمِيمًا لما وصَّاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار^(١).

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

(٥) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نتحمَّله. ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يجير المتوكل ويجيب الداعي^(٢).

(٦) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكرير لمزيد الحث على التأسي بإبراهيم ولذلك صُدِّرَ بالقسم وأبدل قوله: ﴿لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ من لكم فإنه يدل على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم، وإن تركه مؤذناً بسوء العقيدة ولذلك عقبه بقوله. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه جدير بأن يُوعَدَ به الكفرة.

(٧) ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ لما نزل ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾^(٣) عادي المؤمنين أقاربهم المشركين وتبرؤوا عنهم، فوعدهم الله بذلك وأنجز إذ أسلم أكثرهم وصاروا لهم أولياء. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم.

(٨) ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء لأن قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل من الذين. ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وتفضوا إليهم بالقسط أي العدل. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين. روي أن قتيلة بنت عبد العزى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول، فنزلت^(٤).

(٩) ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمشركي مكة فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا المخرجين. ﴿أَن تَوَلَّوهُمْ﴾ بدل من الذين بدل

(١) قدم الجار والمجرور «عليك» لقصر التوكل والإنابة والمصير إلى الله عز وجل (س/٨/٢٣٧).

(٢) وتكرير النداء «ربنا» للمبالغة في التضرع والجوار (س/٨/٢٣٨).

(٣) الممتحنة: «١».

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢/٢٤ - منحة المعبود) والحاكم في المستدرک (٢/٤٨٥) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٦٦ ج ٢٨) والطبراني كما في «المجمع» (٧/١٢٣) كلهم من طريق مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده عبد الله بن الزبير. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: فيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة وبقية رجاله رجال الصحيح. وقال الحافظ في «التقريب» (٢/٢٥١) عن مصعب هذا بأنه لين الحديث.

الاشتمال. ﴿وَمَنْ يَتْلَمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَابَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَلُّوا مَا أَنَفَقْتُمْ وَلَيْسَلُوا مَا أَنَفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنَفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاخبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهم لسانهم في الإيمان. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ فإنه المطلع على ما في قلوبهم. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ العلم الذي يمكنكم تحصيله وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات، وإنما سماه علماً إيداناً بأنه كالعلم في وجوب العمل به. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي إلى أزواجهن الكفرة لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ والتكرير للمطابقة والمبالغة، أو الأولى لحصول الفرق والثانية للمنع عن الاستئناف. ﴿وَأَثُوهُمْ مَا أَنَفَقُوا﴾ ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك لأن صلح الحديبية جرى على أن من جاءنا منكم ردذناه فلما تعدر عليه ردّهن لورود النهي عنه لزمه رد مهورهن، إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان بعد الحديبية إذ جاءته سبعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة فأقبل زوجها مسافراً المخزومي طالباً لها، فزلت، فاستخلفها رسول الله ﷺ، فحلفت، فأعطي زوجها ما أنفق وتزوجها عمر رضي الله تعالى عنه^(١). ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإن الإسلام حال بينهما وبين أزواجهن الكفار. ﴿إِذَا ءَابَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ شرط إيتاء المهر في نكاحهن إيداناً بأن ما أعطي أزواجهن لا يقوم مقام المهر. ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ بما يعتصم به الكافرات من عقد وسبب جمع عصمة، والمراد نهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات. وقرأ البصريان ولا تمسكوا بالتشديد. ﴿وَسَلُّوا مَا أَنَفَقْتُمْ﴾ من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار. ﴿وَلَيْسَلُوا مَا أَنَفَقُوا﴾ من مهور أزواجهن المهاجرات. ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ يعني جميع ما ذكر في الآية. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ استئناف أو حال من الحكم على حذف الضمير، أو جعل الحكم حاكماً على المبالغة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما تقتضيه حكمته.

(١١) ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أحد من أزواجكم، وقد قرئ به، وإيقاع شيء موقعه للتحقير والمبالغة في التعميم، أو شيء من مهورهن. ﴿إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ﴾ فجاءت عقبتكم أي نوبتكم من أداء المهر، شبه الحكم بأداء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بامر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره. ﴿فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنَفَقُوا﴾ من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة أبي المشركون أن يؤدوا مهر الكوافر،

فَنَزَلَتْ^(١). وَقِيلَ مَعْنَاهُ إِنَّ فَاتِكُمْ فَاصْبِتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ عُقْبَىٰ وَهِيَ الْغَنِيمَةُ فَاتُوا بِدَلِّ الْفَائِثِ مِنَ الْغَنِيمَةِ. ﴿وَأَقْفُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهِ يَقْتَضِي التَّقْوَىٰ مِنْهُ.

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَتُ يُبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَ وَلَا يَزْنِيَ وَلَا يَقْتُلَ وَلَا يَكْذِبَ وَلَا يَأْتِيَ بِيَهْتَنِ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَتُ يُبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ نزلت يومَ الفتح فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء. ﴿وَلَا يَسْرِقَ وَلَا يَزْنِيَ وَلَا يَقْتُلَ وَلَا يَكْذِبَ وَلَا يَأْتِيَ بِيَهْتَنِ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في حسنة تأمرهم بها، والتقييد بالمعروف - مع أنَّ الرسول ﷺ لا يأمر إلا به - تنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق^(٢). ﴿فَبَايَعَهُنَّ﴾ إذا بايعتك بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء^(٣). ﴿وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني عامة الكفار أو اليهود. إذ روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم^(٤). ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لكفرهم بها أو لعلمهم بأنهم لا حظَّ لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيَّد بالآيات. ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أن يُنْعَثُوا أو يُثَابَرُوا أو ينالهم خيرٌ منهم، وعلى الأولِ وضع الظاهر فيه موضع المضمَر للدلالة على أنَّ الكفر آيسهم. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمَمْتَحَنَةِ كَانَ لَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ شَفَعَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

☆ ☆ ☆

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٩٩/٨) بدون راوٍ ولا سند.

(٢) وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهن لكثرة وقوعها منهن (س/٢٤١/٨).

(٣) وتقيد مبايعتهم بما ذكر. من مجيئهم لحنثهم على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهم إليها (س/٢٤١/٨).

(٤) انظر «البحر المحيط» (٢٥٩/٨).

(٥) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٦٩ رقم ١٤٢). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ صَلَاتَهُ وَيُعْتَمِدُونَ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوضٍ ﴿٤﴾

سورة الصف مدنية، وقيل مكية^(١) وآيها أربع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق تفسيره.

(٢) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ رُوِيَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا وَأَنْفُسَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ صَلَاتَهُ وَيُعْتَمِدُونَ صَفًّا﴾^(٢) فَوَلَّوْا يَوْمَ أُحُدٍ، فَتَزَلَّتْ^(٣). وَلَمْ مَرْغَبَةٌ مِنْ لَامِ الْجَزْرِ وَمَا الْاسْتِفْهَامِيَّةُ، وَالْأَكْثَرُ عَلَى حَذْفِ أَلْفِهَا مَعَ حَرْفِ

(١) وهي مدنية في قول الجمهور. وقال مكِّي عن ابن عباس والمهدوي عن عطاء ومجاهد أنها مكية. والأول أصح لأن معاني السورة تعضده ويشبه أن يكون فيها المكِّي والمدني. قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥٠٢/١٥).

(٢) الصف: «٤».

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص ٤٢٧. بدون سند.

وأخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٢٨ ج ٨٣ - ٨٤) عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله، لا شك فيه، وجهاد أهل معصية الذين خالفوا الإيمان، ولم يقرأوا به فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره فقال الله «يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون» وسنده صحيح.

الجرّ لكثرة استعمالها معاً واعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه.

(٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المقت أشدُّ البغض. ونصبه على التمييز للدلالة على أن قولهم هذا مقتٌ خالص كُبرَ عند مَنْ يحقرُّ دونه كلُّ عظيم مبالغته في المنع عنه.

(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ مصطفين، مصدرٌ وصِفَ به. ﴿كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرَضُوصٌ﴾ في تراصهم من غير فُرْجَةٍ، حالٌ من المستكين في الحال الأولى. والرضُ اتصال بعض البناء ببعض واستحكامه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذَوْنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ مقدراً بذكر أو كان كذا. ﴿يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذَوْنِي﴾ بالعصيان والرمي بالأذرة^(١). ﴿وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جئتكم من المعجزات، والجملة حال مقررة للإنكار، فإنَّ العلم بنبوته يوجب تعظيمه ويمنع إيذائه، وقد لتحقيق العلم. ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عن الحق. ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هداية موصلة إلى معرفة الحق أو إلى الجنة.

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ولعله لم يقل يا قوم كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا نسب له فيهم. ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا﴾ في حال تصديقي لما تقدمني من التوراة وتبشيري برسول يأتي من بعدي. والعامل في الحالين ما في الرسول من معنى الإرسال لا الجأز لأنه لغو إذ هو صلة للرسول فلا يعمل. ﴿رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام، والمعنى أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه، فذكر أول الكتب المشهورة الذي حكم به النبيون، والنبي الذي هو خاتم المرسلين. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الإشارة إلى ما جاء به أو إليه، وتسميته سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة حمزة والكسائي هذا ساحر على أن الإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

= وأخرج ابن جرير نحوه عن أبي صالح ومجاهد (١٤/ج ٢٨/٨٤) ونقل عن بعض المفسرين أنهم قالوا: إنها نزلت في توبيخ قوم من المسلمين، كان أحدهم يفتخر بالفعل من أفعال الخير التي لم يفعلها فيقول: فعلت كذا وكذا، فعذله الله على افتخارهم بما لم يفعلوا كذباً.

وهذا أخرجه ابن جرير عن قتادة والضحاك (١٤/ج ٢٨/٨٤ - ٨٥) ثم قال: وقال آخرون: بل هذا توبيخ من الله لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون.

وهذا أخرجه ابن جرير عن ابن زيد (١٤/ج ٢٨/٨٥) ورجح القول الأول بدليل خطابه تعالى «يا أيها الذين آمنوا». وانظر «الدر المنثور» (٨/١٤٦ - ١٤٧). «وزاد المسير» (٨/٢٤٩ - ٢٥٠).

و«الجامع لأحكام القرآن» (١٨/٧٧ - ٧٨). وأسباب النزول للواحدي (ص ٤٢٦).

(١) الأذرة انتفاخ الخصية (المصباح المنير، مادة أذر).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَحْرٍ لُجْجِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

(٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يُدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته المقتضي له خير الدارين فيضع موضع إجابته الافتراء على الله بتكذيب رسوله وتسمية آيته سحراً فإنه يعلم إثبات المنفي ونفي الثابت. وقرء يدعي يقال دعاه وأدعاه كلمته والتمسه. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يرشدكم إلى ما فيه فلاحهم.

(٨) ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ أي يريدون أن يطفئوا، واللام مزيدة لما فيها من معنى الإرادة تأكيداً لها كما زيدت لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها في لا أبا لك، أو يريدون الافتراء ليطفئوا. ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ يعني دينه أو كتابه أو حجته. ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بطغنيهم فيه. ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ مُبْلِغُ غَايَتِهِ بنشره وإعلانه، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بالإضافة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إرغاماً لهم.

(٩) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ بالقرآن أو المعجزة. ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ والملة الحنيفة. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليغلبه على جميع الأديان. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك.

(١٠) ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَحْرٍ لُجْجِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وقرأ ابن عامر تنجيكم بالتشديد.

(١١) ﴿تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ استئناف مبين للتجارة وهو الجمع بين الإيمان والجهاد المؤدي إلى كمال عزهم، والمراد به الأمر وإنما جيء بلفظ الخبر إيداناً بأن ذلك مما لا يترك. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم إذ الجاهل لا يعتد بفعله.

(١٢) ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جوابٌ للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، أو لشريط أو استفهام دل عليه الكلام تقديره أن تؤمنوا وتجاهدوا، أو هل تقبلون أن أدلكم بغفر لكم، ويعد جعله جواباً لهل أدلكم لأن مجرد دلالاته لا توجب المغفرة. ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة.

(١٣) ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة، وفي تحبونها تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل. وقيل أخرى منصوبة بإضمار يعطيكم، أو تحبون أو مبتدأ خبره: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو على الأول بدل أو بيان، وعلى قول النصب خبر محذوف، وقد قرء بما عطف عليه بالنصب على البدل أو الاختصاص أو المصدر. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل. ﴿وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على محذوف مثل: قل يا أيها الذين آمنوا وبشروا، أو على تؤمنون فإنه في معنى الأمر كأنه قال:

آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم يا رسول الله بما وعدتهم عليهما آجلاً وعاجلاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

(١٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ وقرأ الحجازيان وأبو عمرو بالتنوين واللام لأنَّ المعنى كونوا بعض أنصار الله. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من جنديٍّ موجهٍ إلى نصرته الله ليطابق قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ والإضافة الأولى إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص، والثانية إضافة الفاعل إلى المفعول، والتشبيه باعتبار المعنى إذ المراد قل لهم كما قال عيسى بن مريم، أو كونوا أنصاراً كما قال الحواريون حين قال لهم عيسى مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ. والحواريون أصفياؤه، وهم أول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً، من الحوَر وهو البياض. ﴿فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ أي بعيسى. ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بالحجة وبالحرِب وذلك بعد رفع عيسى. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ فصاروا غالبين. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الصَّفِّ كَانَ عِيسَى مُصْلِيًّا عَلَيْهِ مُسْتَغْفِرًا لَهُ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رَفِيقُهُ^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص ١٦٩ رقم ١٤٥).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

آياتها
١١ترتيبها
٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ۝^(١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝^(٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝^(٣)

سورة الجمعة مدنية^(١) وآياتها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾ وقد قرئ الصفتان الأربع بالرفع على المدح.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ أي في العرب لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون. ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من جملتهم أمياً مثلهم. ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ من كونه أمياً مثلهم لم يُعْهَدْ منه قراءة ولا تعلم. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من خبائث العقائد والأعمال. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرآن والشرعة، أو معالم الدين من المنقول والمعقول، ولو لم يكن له سواه معجزة لكفاه. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ من الشرك وخبث الجاهلية، وهو بيان لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم، وإزاحة لما يُتَوَهَّم أَنَّ الرسول تعلم ذلك من معلم. وإن هي المخففة، واللام تدل عليها.

(٣) ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطف على الأميين، أو المنصوب في يعلمهم وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٧/١٦): «وهي مدنية. وذكر النقاش قولاً إنها مكية، وذلك خطأ ممن قاله، لأن أمر اليهود لم يكن إلا بالمدينة، وكذلك أمر الجمعة لم يكن قط بمكة، أعني إقامتها وصلاتها، وأما أمر الانفضاض فلا مرية في كونه بالمدينة...» هـ.

إلى يوم الدين، فإنَّ دعوته وتعليمه يعمُّ الجميع. ﴿لَمَّا بَلَغُوا بِهِمْ﴾ لم يلحقوا بهم بعدُ وسيلحقون. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في تمكنه من هذا الأمر الخارق للعادة. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في اختياره وتعليمه.

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣﴾ وَلَا يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفَرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُمْ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْشِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

(٤) ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ ذلك الفضل الذي امتاز به عن أقرانه فضله. ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تفضلاً وعطيةً. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي يستحقُّ دونه نعيمُ الدنيا، أو نعيمُ الآخرة أو نعيمُهما.

(٥) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ﴾ علِّموها وكلفوا العمل بها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوا بها أو لم يتففعوا بما فيها. ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ كتباً من العلم يتعب في حملها ولا يتففع بها. ويحمل حالاً والعامل فيه معنى المثل، أو صفةً إذ ليس المراد من الحمار معيئاً. ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي مثل الذين كذبوا وهم اليهود المكذبون بآيات الله الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ويجوز أن يكون الذين صفةً للقوم والمخصوص بالذم محذوفاً. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

(٦) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ نهؤدوا. ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ إذ كانوا يقولون نحنُ أبناءُ الله وأحباءه. ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دارِ البلية إلى محلِّ الكرامة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعيمكم.

(٧) ﴿وَلَا يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما قدَّموا من الكفر والمعاصي. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيجازيهم على أعمالهم.

(٨) ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفَرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافون أن تتمنوه بلسانكم مخافة أن يصيبكم فتؤخذوا بأعمالكم. ﴿فَإِنَّهُمْ مُلْقِيكُمْ﴾ لاحقٌ بكم لا تفوتونه، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف، وكان فرارهم يسرع لحوقه بهم. وقد قرئ بغير فاء، ويجوز أن يكون الموصول خبراً والفاء عاطفة. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْشِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن يجازيكم عليه.

(٩) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ أي إذا أُدِّن لها. ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ بيانٌ لإذا. وإنما سمي جمعة الاجتماع الناس فيه للصلاة، وكان العربُ تسميه العروبة. وقيل سُمِّي كعب بن لؤي لاجتماع الناس فيه إليه، وأول جمعة جمعها رسولُ الله ﷺ أنه لما قدم المدينة نزل قباء فأقام بها إلى الجمعة، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة في وادٍ لبني سالم بن

عوف^(١). ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فامضوا إليه مسرعين قضاءً فإن السعي دون العذو. والذكرُ الخطبةُ، وقيل الصلاة. والأمر بالسعي إليها يدُّ على وجوبها. ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ واتركوا المعاملة. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي السعي إلى ذكر الله. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من المعاملة فإن نفع الآخرة خير وأبقى. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشرَّ الحقيقين، أو إن كنتم من أهل العلم.

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أُدِيتَ وفُرغَ منها. ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إطلاق لما حُظِرَ عليهم، واحتجَّ به مَنْ جعل الأمر بعد الحظر للإباحة. وفي الحديث «ابتغوا من فضل الله ليس بطلب الدنيا وإنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله»^(٢). ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ واذكروه في مجامع أحوالكم ولا تخصُّوا ذكره بالصلاة. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بخير الدارين.

(١١) ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب للجمعة فمرت عليه غير تحمل الطعام، فخرج الناس إليهم إلا اثني عشر رجلاً، فنزلت^(٣). وإفراؤ التجارة برد الكناية لأنها المقصودة؛ فإن المراد من اللهو الطبل الذي كانوا يستقبلون به العير والترديد للدلالة على أنَّ منهم من انفَضَّ لمجرد سماع الطبل ورؤيته، أو للدلالة على أنَّ الانفضاض إلى التجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموماً كان الانفضاض إلى اللهو أولى بذلك، وقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه. ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي على المنبر. ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب. ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ فإنَّ ذلك محققٌ مخلدٌ بخلاف ما تتوهمون من نفعهما ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فتوكلوا عليه واطلبوا الرزق منه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الجمعة أُعْطِيَ من الأجر عشر حسنات بعدد مَنْ أتى الجمعة وَمَنْ لَمْ يَأْتِهَا فِي أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ»^(٤).

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥١٢/٢) من حديث عبد الرحمن بن عويم أخبرني بعض قومي.

وقال البخاري في التاريخ الكبير (٣٢٥/٥) في هذا الإسناد مرسل.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٢٣/٨) بدون سند.

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٤٢٩) بدون سند. وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٢٤/٨) عن الحسن وأبي مالك بدون سند أيضاً.

وانظر «الكافي الشاف» (ص ١٧١ رقم ١٥٩).

(٤) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٢ رقم ١٦٠).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

سورة المنافقين مدنية^(١) وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ الشهادة إخبار عن علم من الشهود وهو الحضور والاطلاع، ولذلك صدق المشهور به وكذبهم في الشهادة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم لم يعتقدوا ذلك

(٢) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ حلفهم الكاذب أو شهادتهم هذه، فإنها تجري مجرى الحلف في التوكيد، وقرىء إيمانهم. ﴿جُنَّةً﴾ وقاية من القتل والسبي. ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدأ أو صدوداً. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم وصددهم.

(٣) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكلام المتقدم أي ذلك القول الشاهد على سوء أعمالهم، أو إلى الحال المذكورة من النفاق والكذب والاستعجان بالإيمان^(٣). ﴿يَأْتِيَهُمْ ءَامِنُوا﴾ بسبب أنهم آمنوا ظاهراً. ﴿ثُمَّ

(١) وهي مدنية بإجماع، قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/١٥).

(٢) إظهار «المنافقين» في موقع الإضمار لذهمهم، والإشعار بعلّة الحكم (س/٢٥١/٨).

(٣) الاستعجان بالإيمان أي الاستتار به، يقال جتّه الليل أي ستره وغطاه، ومنه قوله تعالى: «فلما جنّ عليه الليل» - الأنعام ٧٦ -.

كَفَرُوا ﴿١﴾ سِرَّاءَ، أَوْ آمَنُوا إِذَا رَأَوْا آيَةً ثُمَّ كَفَرُوا حَيْثُمَا سَمِعُوا مِنْ شَيَاطِينِهِمْ شَبْهَةً. ﴿٢﴾ فَطُغِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴿٣﴾ حَتَّى تَمَرَّنُوا عَلَى الْكُفْرِ فَاسْتَحْكَمُوا فِيهِ. ﴿٤﴾ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٥﴾ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَلَا يَعْرِفُونَ صِحَّتَهُ.

﴿١﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴿٢﴾ كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْفًى يُوَفِّكُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦﴾ يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

(٤) ﴿١﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴿٢﴾ لُصْخَامَتِهَا وَصَبَاحَتِهَا. ﴿٣﴾ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴿٤﴾ لِدَلَاقَتِهِمْ وَحَلَاوَةِ كَلَامِهِمْ، وَكَانَ ابْنُ أَبِي جَسِيمًا فَصِيحًا يَحْضُرُ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَمْعٍ مِثْلِهِ، فَيُعْجِبُ بِهِ كَلَامَهُمْ وَيَصْغِي إِلَى كَلَامِهِمْ. ﴿٥﴾ كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ﴿٦﴾ حَالٌ مِنَ الضْمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي ﴿قَوْلِهِمْ﴾ أَيِ تَسْمَعُ لَمَا يَقُولُونَهُ مُشَبَّهِينَ بِأَخْشَابٍ مَنْصُوبَةٍ مُسْنَدَةٍ إِلَى الْحَائِطِ فِي كَوْنِهِمْ أَشْبَاحًا خَالِيَةً عَنِ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ، وَقِيلَ الْخُشْبُ جَمْعُ خَشْبَاءَ وَهِيَ الْخَشْبَةُ الَّتِي تُخَرَّ جَوْفُهَا شُبَّهَوا بِهَا فِي حَسَنِ الْمَنْظَرِ وَقُبْحِ الْمَخْبِرِ. وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَالْكَسَائِيُّ وَقَبِيلٌ عَنْ ابْنِ كَثِيرٍ بِسُكُونِ الشَّيْنِ عَلَى التَّخْفِيفِ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ كُبْدُنٌ فِي جَمْعٍ بَدَنَةٍ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ وَاقِعَةٍ عَلَيْهِمْ لِجُنَيْنِهِمْ وَأَتَاهُمُ، فَعَلَيْهِمْ ثَانِي مَفْعُولِي يَحْسَبُونَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِلَتُهُ وَالْمَفْعُولُ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الضَّمِيرُ لِلْكُلِّ وَجَمْعُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْخَبَرِ لَكِنْ تَرْتُبُ قَوْلُهُ: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ عَلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ لِلْمُنَافِقِينَ. ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ طَلَبٌ مِنْ ذَاتِهِ أَنْ يُلْغَنَهُمْ، أَوْ تَعْلِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْعُوا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ. ﴿أَنْفًى يُوَفِّكُونَ﴾ كَيْفَ يُضَرِّفُونَ عَنِ الْحَقِّ.

(٥) ﴿١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُوا رُءُوسَهُمْ ﴿٢﴾ عَطَفُوهَا إِعْرَاضًا وَاسْتِكْبَارًا عَنْ ذَلِكَ. وَقَرَأَ نَافِعٌ بِتَخْفِيفِ الْوَاوِ. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يَعْرِضُونَ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عَنِ الْاعْتِدَارِ.

(٦) ﴿١﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٢﴾ لِرُسُوحِهِمْ فِي الْكُفْرِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الْخَارِجِينَ عَنِ مِظَنِّهِ الْإِسْلَامِ لِأَنَّهُمْ أَكْهَمُ فِي الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ.

(٧) ﴿١﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴿٢﴾ أَيِ لِلْأَنْصَارِ. ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ يَعْنُونَ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ. ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بِيَدِهِ الْأَرْزَاقُ وَالْقِسْمُ. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذَلِكَ لَجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ.

(٨) ﴿١﴾ يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ﴿٢﴾ رُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا نَازَعَ أَنْصَارِيًّا فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ عَلَى مَاءٍ، فَضَرَبَ الْأَعْرَابِيُّ رَأْسَهُ بِخَشَبَةٍ، فَشَكَّى إِلَى ابْنِ أَبِي قَتَالَةَ فَقَالَ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُوا، وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، عَنِّي بِالْأَعَزِّ نَفْسَهُ

وبالأذل رسول الله ﷺ^(١). وقرء ليخرجن بفتح الباء، وليُخرجن على بناء المفعول، ولنخرجن بالنون، ونَضِبُ الأعزُّ والأذل على هذه القراءات مصدرٌ أو حال على تقدير مضافٍ كخروج أو إخراج أو مثل^(٢) ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والله الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فَرَطٍ جهلهم وغرورهم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لا يشغلکم تدبیرها والاهتمام بها عن ذكره الصلوات وسائر العبادات المذكورة للمعبود، والمراد نهيمهم عن اللهو بها. وتوجيه النهي إليها للمبالغة ولذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي اللهو بها وهو الشغل. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

(١٠) ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ بعض أموالكم إدخاراً للآخرة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي يرى دلائله^(٣) ﴿فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ هلاً أمهلتنی. ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أمد غير بعيد. ﴿فَأَصَّدَّقْتُ﴾ فاتصدقت. ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بالتدارك، وجزم أكن للعطف على موضع الفاء وما بعده. وقرأ أبو عمرو وأكون منصوباً عطفاً على فأصدقت، وقرء بالرفع على وأنا أكون فيكون عِدَّةً بالصلاح.

(١١) ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ ولن يمهلهما. ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ آخر عمرها. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمُجَازٍ عليه. وقرأ أبو بكر بالياء ليوافق ما قبله في الغيبة. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة المنافقين برىء من النفاق»^(٤).

☆ ☆ ☆

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٧٢ رقم ١٦١): «هكذا ذكره الواقدي في المغازي بغير إسناد، وعزاه إلى الثعلبي والواحدي ولأصحاب السير...»

وأصل القصة في «الصحيحين» البخاري (٨/ ٦٤٤ رقم ٤٩٠٠) ومسلم (٤/ ٢١٤٠ رقم ٢٧٧٢) من حديث زيد بن أرقم... هـ.

(٢) وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به (س ٨/ ٢٥٣).

(٣) وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (س ٨/ ٢٥٤).

(٤) وهو حديث موضوع.

أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٢ - ١٧٣ رقم ١٦٥).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّجْمَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
فِيكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

سورة التغابن مختلف فيها^(١) وآياتها ثمانى عشر آية

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بدلاليتها على كماله واستغنائه. ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قدم الظرفين للدلالة على اختصاص الأمرين به من حيث الحقيقة. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل على سواء. ثم شرع فيما ادّعاه فقال:
- (٢) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَبِكُمْ كَافِرٌ﴾ مقدر كفره موجه إليه ما يحمله عليه. ﴿وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ مقدر إيمانه موقف لما يدعوه إليه^(٢). ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعالمكم بما يناسب أعمالكم.
- (٣) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ فصوّرکم من جملة ما خلق فيهما بأحسن صورة، حيث زئبكم بصفوة أوصاف الكائنات، وخصكم بخاصة خصائص المبدعات، وجعلكم أنموذج جميع المخلوقات. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فأحسنوا سرائرکم حتى لا يمسح بالعذاب ظواهرکم.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٥/١٦): «قال بعض المفسرين هي مدنية، وقال آخرون هي مكية إلا قوله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم... إلى آخر السورة فإنه مدني...».

(٢) وتقديم الكفر لأنه الأغلب فيما بينهم، والأنسب بمقام التوبيخ (س/٨/٢٥٥).

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ۖ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۖ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

(٤) ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا يخفى عليه ما يصح أن يُعلم كلياً كان أو جزئياً، لأن نسبة المقتضي لعلمه إلى الكل واحدة. وتقديم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته أولاً وبالذات وعلى علمه بما فيها من الإتيان والاختصاص ببعض الأنحاء.

(٥) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الكفار. ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح عليهم السلام. ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ ضرر كفرهم في الدنيا، وأصله الثقل ومنه الويل لطعام ينقل على المعدة، والوابل المطر الثقيل القطار. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الوبال والعذاب. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أن الشأن. ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ إنكروا وتعجبوا من أن يكون الرسل بشراً. والبشر يطلق للواحد والجمع. ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرسول ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن التدبر في البيّنات. ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن كل شيء فضلاً عن طاعتهم. ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن عبادتهم وغيرها. ﴿حَمِيدٌ﴾ يدل على حمده كل مخلوق.

(٧) ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ الزعم: ادعاء العلم، ولذلك يتعدى إلى مفعولين، وقد قام مقامهما أن بما في حيزه. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أي بلى تُبعثون. ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ قسم أكد به الجواب. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لقبول المادة وحصول القدرة التامة.

(٨) ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني القرآن فإنه بإعجازه ظاهرٌ بنفسه مظهرٌ لغيره مما فيه شرّحه وبيّانه^(١). ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فمجازٍ عليه^(٢).

(٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرف لتنبؤ أو مقدّر باذّكر، وقرأ يعقوب نجمعكم. ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ لأجل ما فيه من الحساب والجزاء، والجمع جمع الملائكة والثقلين. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يغبن فيه بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس، مستعار من تغابن التجار، واللام فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقي وهو التغابن في أمور الآخرة لعظمها ودوامها. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا﴾ أي

(١) والالتفات إلى نون العظمة «أنزلناه» لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال (س/٨/٢٥٧).

(٢) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيد استقلال الجملة (س/٨/٢٥٧).

عملاً صالحاً. ﴿يُكَفِّرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين، ولذلك جعله الفوز العظيم لأنه جامع للمصالح من دفع المضار وجلب المنافع.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَنْدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ كأنها والآية المتقدمة بيانٌ للتغابن وتفصيلٌ له.

(١١) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بتقديره وإرادته. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ للشبات والاسترجاع عند حلولها. وقرئ يَهْدِ قَلْبَهُ بالرفع على إقامته مقامَ الفاعل، وبالنصب على طريقة سفه نفسه، ويَهْدُ بالهمزة أي يسكن. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حتى القلوب وأحوالها.

(١٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فإن توليتم فلا بأس عليه إذ وظيفته التبليغ وقد بلغ^(١).

(١٣) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن إيمانهم بأن الكل منه يقتضي ذلك.

(١٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَنْدُوا لَكُمْ﴾ يشغلهم عن طاعة الله أو يخاصمهم في أمر الدين أو الدنيا. ﴿فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ ولا تأمنوا غوائلهم. ﴿وَإِن تَعَفَّوْا﴾ عن ذنوبهم بترك المعاقبة. ﴿وَتَصَفَّحُوا﴾ بالإعراض وترك التريب عليها. ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم.

(١٥) ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار لكم. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم.

(١) وكرر الأمر بالطاعة للتأكيد، والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية، وتوضيح مورد التولي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي عن طاعة الرسول وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإشعار بمدار الحكم الذي هو كون وظيفته عليه الصلاة والسلام محض البلاغ، ولزيادة تشجيع التولي عنه (س/٢٥٨/٨).

فَأَنفِقُوا آلَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿فَأَنفِقُوا آلَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابدلوا في تقواه جُهدكم وطاقاتكم. ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ مواظمه. ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أوامره. ﴿وَأَنفِقُوا﴾ في وجوه الخير خالصاً لوجهه. ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي افعلوا ما هو خير لها، وهو تأكيد للحث على امثال هذه الأوامر، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف تقديره: إنفاقاً خيراً أو خبراً لكان مقدراً جواباً للأوامر. ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سبق تفسيره.

(١٧) ﴿إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ﴾ تصرفوا المال فيما أمره. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقروناً بإخلاص وطيب قلب. ﴿يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ يجعل لكم بالواحد عشر إلى سبعمائة وأكثر، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعفه لكم. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بركة الإنفاق. ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل بالقليل. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

(١٨) ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ لا يخفى عليه شيء. ﴿الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ تامُّ القدرة والعلم، عن النبي ﷺ «من قرأ سورة التغابن دُفِعَ عنه موتُ الفجأة»^(١) والله أعلم.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٣ رقم ١٧٠).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ مُنَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

سورة الطلاق مدنية^(١) وآيها اثنتا عشرة أو إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ خصَّ النداء وعمَّ الخطاب بالحكم لأنه أمام أمته فنداؤه كندايتهم، أو لأنَّ الكلام معه والحكم يعثمهم. والمعنى إذا أردتم تطليقهنَّ على تنزيل المشارف له منزلة الشارع فيه. ﴿فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي في وقتها وهو الطهر، فإنَّ اللام في الأزمان وما يشبهها للتأقيت، ومنَّ عدَّ العدة بالحيض علَّت اللام بمحذوف مثل مستقبلات، وظاهره يدلُّ على أنَّ العدة بالأطهار وأنَّ طلاق المعتدة بالأقراء ينبغي أن يكون في الطهر، وأنه يحرم في الحيض من حيث إنَّ الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده ولا يدل على عدم وقوعه، إذ النهي لا يستلزم الفساد، كيف وقد صحَّ أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لما طلق امرأته حائضاً أمره النبي ﷺ بالرجعة وهو سبب نزوله^(٢). ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة والإضرار بهنَّ. ﴿لَا

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٤/١٦): «وهي مدنية بإجماع أهل التفسير».

(٢) أخرج حديث ابن عمر البخاري (٨/٦٥٣ رقم ٤٩٠٨).

تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ ﴿١﴾ مِنْ مَسَاكِينَهُنَّ وَقَتَ الْفِرَاقِ حَتَّى تَقْضِيَ عِدَّتَهُنَّ. ﴿٢﴾ وَلَا يَخْرُجَنَّ ﴿٣﴾ بِاسْتِبدَادِهِنَّ
أَمَّا لَوْ اتَّفَقَا عَلَى الْإِنْتِقَالِ جَازَ إِذِ الْحَقُّ لَا يَعْدُوهُمَا، وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَ النَّهْيَيْنِ دَلَالَةٌ عَلَى اسْتِحْقَاقِهَا
السُّكْنَى وَلِزَوْمِهَا مِلَازِمَةً مَسْكَنِ الْفِرَاقِ وَقَوْلُهُ: ﴿٤﴾ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴿٥﴾ مُسْتَشْنَى مِنَ الْأَوَّلِ،
وَالْمَعْنَى إِلَّا أَنْ تَبْذَوْ عَلَى الزَّوْجِ فَإِنَّهُ كَالشُّوزِ فِي إِسْقَاطِ حَقِّهَا، أَوْ إِلَّا أَنْ تَزْنِيَ فَتُخْرِجَ لِإِقَامَةِ الْحَدِّ
عَلَيْهَا، أَوْ مِنَ الثَّانِي لِلْمُبَالَغَةِ فِي النَّهْيِ وَالِدَلَالَةِ عَلَى أَنْ يَخْرُجَهَا فَاحْشَةُ. ﴿٦﴾ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴿٧﴾ الْإِشَارَةُ
إِلَى الْأَحْكَامِ الْمَذْكُورَةِ. ﴿٨﴾ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴿٩﴾ بِأَنْ عَرَضَهَا لِلْعِقَابِ. ﴿١٠﴾ لَا تَدْرِي ﴿١١﴾ أَيِ
النَّفْسِ أَوْ أَنْتَ أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْ الْمَطْلُوقُ. ﴿١٢﴾ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١٣﴾ وَهُوَ الرِّغْبَةُ فِي الْمَطْلُوقَةِ بِرَجْعَةٍ أَوْ
اسْتِثْنَاءٍ.

فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ
ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

(٢) ﴿٢﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ ﴿٣﴾ شَارَفْنَ آخَرَ عِدَّتِهِنَّ. ﴿٤﴾ فَامْسِكُوهُنَّ ﴿٥﴾ فَرَاغَهُنَّ. ﴿٦﴾ بِمَعْرُوفٍ ﴿٧﴾ بِحَسَنِ عَشْرَةٍ
وَإِنْفَاقٍ مَّنَاسِبٍ، ﴿٨﴾ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴿٩﴾ بِإِيْفَاءِ الْحَقِّ وَاتِّقَاءِ الضَّرَارِ مِثْلَ أَنْ يَرَاغِبَهَا ثُمَّ يَطْلُقَهَا تَطْوِيلًا
لِعِدَّتِهَا. ﴿١٠﴾ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴿١١﴾ عَلَى الرَّجْعَةِ أَوْ الْفَرْقَةِ تَبَرُّيًا عَنِ الرِّبَةِ وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ، وَهُوَ نَدْبُ
كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿١٢﴾ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴿١٣﴾ ^(١) وَعَنِ الشَّافِعِيِّ وَجُوبُهُ فِي الرَّجْعَةِ ^(٢). ﴿١٤﴾ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ ﴿١٥﴾ أَيُّهَا
الشُّهُودُ عِنْدَ الْحَاجَةِ. ﴿١٦﴾ لِلَّهِ ﴿١٧﴾ خَالصًا لُّوْجِهَهُ. ﴿١٨﴾ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ ﴿١٩﴾ يَرِيدُ الْحَقَّ عَلَى الْإِشْهَادِ وَالْإِقَامَةِ،
أَوْ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْآيَةِ. ﴿٢٠﴾ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٢١﴾ فَإِنَّهُ الْمَتَّعُ بِهِ وَالْمَقْصُودُ بِذِكْرِهِ. ﴿٢٢﴾ وَمَنْ
يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٣﴾.

(٣) ﴿٣﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٤﴾ جُمْلَةً اعْتِرَاضِيَّةً مُّؤَكَّدَةٌ لِّمَا سَبَقَ بِالْوَعْدِ عَلَى الْإِتِّقَاءِ عَمَّا نَهَى عَنْهُ
صَرِيحًا أَوْ ضِمْنًا مِنَ الطَّلَاقِ فِي الْحَيْضِ، وَالْإِضْرَارِ بِالْمَعْتَدَةِ وَإِخْرَاجِهَا مِنَ الْمَسْكَنِ، وَتَعْدِي حُدُودِ اللَّهِ
وَكِتْمَانِ الشَّهَادَةِ وَتَوَقُّعِ جَفَلٍ عَلَى إِقَامَتِهَا بِأَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا مِمَّا فِي شَأْنِ الْأَزْوَاجِ مِنَ الْمَضَائِقِ
وَالْغُمُومِ، وَيَرْزُقُهُ فَرَجًا وَخَلْفًا مِنْ وَجْهِهِ لَمْ يَخْطُرْ بِإِلَالِهِ. أَوْ بِالْوَعْدِ لِعَامَةِ الْمُتَّقِينَ بِالْخُلَاصِ عَنْ مَضَارِّ
الدَّارَيْنِ وَالْفُوزِ بِخَيْرِهِمَا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ. أَوْ كَلَامٌ جِيءَ بِهِ لِلْإِسْتِطْرَادِ عِنْدَ ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ.
وَعَنْهُ ﷺ «إِنِّي لَا أَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِهَا لَكَفْتَهُمْ، ﴿٥﴾ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴿٦﴾ فَمَا زَالَ يَرْزُقُهَا وَيُعِيدُهَا» ^(٣).

(١) البقرة: (٢٨٢).

(٢) راجع مذاهب العلماء في ذلك «الجامع لأحكام القرآن» (١٥٧/١٨ - ١٥٩).

(٣) وهو حديث ضعيف.

أخرجه ابن ماجه (١٤١١/٢ رقم ٤٢٢٠) والحاكم في المستدرک (٤٩٢/٢) وأحمد في «الزهد» (رقم: ٧٨٩)

كلهم من طريق أبي السليل عن أبي ذر.

قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣٤٢/٢ رقم ١٥٠٦): «هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع. أبو السليل =

وروي أن سالم بن عوف بن مالك الأشجعي^(١) أسره العدو، فشكا أبوه إلى رسول الله ﷺ فقال له «اتق الله وأكثِر قول لا حول ولا قوة إلا بالله» ففعل، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستأقها^(٢). وفي رواية «رجع ومعه غنيمات ومتاع». ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ كافيته. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد، وقرأ حفص بالإضافة، وقرأ بالبعث أمره أي نافذ، وبالغاً على أنه حال والخبر: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقدير أو مقداراً أو أجلاً لا يتأني تغييره، وهو بيان لجوب التوكل وتقرير لما تقدم من تأقبت الطلاق بزمان العدة والأمر بإحصائها وتمهيد لما سيأتي من مقاديرها.

وَالَّتِي بَيِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾

(٤) ﴿وَالَّتِي بَيِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ لكبرهن: ﴿إِنْ أَرْبَبْتُمْ﴾ شككنم في عدتهن أي جهلنم. ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ روي أنه لما نزل ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٣) قيل فما عدة اللاتي لم يحضن؟ فنزلت^(٤). ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ أي واللاتي لم يحضن بعد ذلك. ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ منتهى عدتهن. ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهو حكم يعم المطلقات والمتوفى عنهم أزواجهن، والمحافظة على عمومه أولى من محافظة عموم قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾^(٥) لأن عموم أولات الأحمال بالذات وعموم أزواجاً بالعرض، والحكم معلل ها هنا بخلافه ثمة، ولأنه صح أن سبعة بنت الحرث وضعت بعد وفاة زوجها بليالي فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال «قد حللت فتزوجي»^(٦)، ولأنه متأخر النزول فتقديمه في العمل تخصيص وتقديم الآخر بناءً للعام على الخاص

لم يدرك أبا ذر قاله في «التهذيب» - (٤٠١/٤) - ورواه النسائي في «التفسير» - (رقم: ٦٢٣) - عن محمد بن عبد الأعلى عن المعتمر بن سليمان به.

ورواه أحمد بن منيع في مسنده بزيادة طويلة كما أفردته في زوائد المسانيد العشرة.

فقال: ثنا يزيد بن هارون ثنا كهمس بن الحسن فذكره هـ.

(١) هو مالك بن عوف الأشجعي وقيل: أبو عوف وقيل سالم بن عوف وقع أسيراً فجاء والده شاكياً إلى الرسول فأمره

أن يكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.. ففك أسره. ونزل قوله تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً».

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٠٦/٦ - ١٠٧) من طريق علي بن بزيمة عن أبي عبيدة عن ابن مسعود، وعن أبي عبيدة قوله. وفيه أبو عبيدة لم يدرك أباه.

وأخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٤ رقم ١٨٠) قلت: والكلبي وأبو صالح ضعيفان، بل الكلبي متروك.

(٣) البقرة: «٢٢٨».

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٤٣٦ بدون سند.

(٥) البقرة: «٢٣٤».

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٣/٨ رقم ٤٩٠٩) ومسلم (١١٢٢/٢ - ١١٢٣ رقم ١٤٨٥/٥٧) كلاهما من رواية

أبي سلمة بن عبد الرحمن عن كريب مولى ابن عباس عن أم سلمة.

والأول راجع للوفاق عليه. ﴿وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها. ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يسهل عليه أمره ويوفقه للخير.

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ يُكْفِرْ عَنْهُ سِتَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا ﴿١٠﴾

(٥) ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام. ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها. ﴿يُكْفِرْ عَنْهُ سِتَاتِهِ﴾ فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ. ﴿وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة.

(٦) ﴿أَسْكُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أي مكان من مكان سكناكم. ﴿مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ من وسعكم أي مما تطيقونه، أو عطف بيان لقوله من حيث سكنتم. ﴿وَلَا تُضَارُّوهُمْ﴾ في السكنى. ﴿لِيَضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ﴾ فتلجئوهم إلى الخروج. ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدة، وهذا يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات والأحاديث تؤيده. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد انقطاع علقه النكاح. ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع. ﴿وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ وليأمر بعضكم بعضاً بجميل في الإرضاع والأجر. ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ تَضَايَقْتُمْ﴾ فسرع له أخرى امرأة أخرى، وفيه معاتبه للام على المعاصرة.

(٧) ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعته. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وفيه تطيب لقلب المعسر ولذلك وعد له باليسر فقال: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي عاجلاً وآجلاً.

(٨) ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أهل قرية. ﴿عَنَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أعرضت عنه إعراض العاتي المعاندي. ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة. ﴿وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيرًا﴾ منكرًا والمراد حساب الآخرة وعذابها. والتعبير بلفظ الماضي للتحقيق.

(٩) ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عقوبة كفرها ومعاصيها. ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ لا ربح فيه أصلاً.

(١٠) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكريز للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها في قوله: ﴿فَاتَّقُوا

اللَّهُ يَتَأُولَى الْآلَتَبِ ﴿ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِالحِسَابِ اسْتِقْصَاءَ ذُنُوبِهِمْ وَإِثْبَاتُهَا فِي صَحْفِ الحِفْظَةِ، وَبِالعَذَابِ مَا أُصِيبُوا بِهِ عَاجِلًا. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. ﴿

رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعَالَمِ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

(١١) ﴿رَسُولًا﴾ يعني بالذِّكْرِ جبريل عليه السلام لكثرة ذكره، أو لنزوله بالذِّكْرِ وهو القرآن، أو لأنه مذكور في السموات أو ذا ذكرٍ أي شرفٍ. أو محمداً عليه الصلاة والسلام لمواظبته على تلاوة القرآن أو تبليغه، وعبر عن إرساله بالإنزال ترشيحاً أو لأنه مسبب عن إنزال الوحي إليه، وأبدل منه رسولاً للبيان أو أراد به القرآن. ورسولاً منصوب بمقدّر مثل أُرْسِلَ، أو ذُكِرَ مُصَدِّرُ ورسولاً مفعوله أو بدله على أنه بمعنى الرسالة. ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ حال من اسم الله أو صفة رسولاً، والمراد بالذين آمنوا في قوله: ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الذين آمنوا بعد إنزاله أي ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح أو ليخرج من علم أو قدر أنه يؤمن ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون. ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ فيه تعجيب وتعظيم لما رزقوا من الثواب.

(١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي وخلق مثلهن في العدد من الأرض، وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن. ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ علة لخلق أو ليتنزل، أو مضمّر يعثهما فإن كلا منهما يدل على كمال قدرته وعلمه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله ﷺ» (١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٤) رقم (١٨٧).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُنَوِّبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

سورة التحريم مدنية^(١) وآياتها اثنتا عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ رُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَلَا بِمَارِيَّةَ فِي نَوْبَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا أَوْ حَفْصَةَ، فَاطْلَعَتْ عَلَى ذَلِكَ حَفْصَةُ فَعَاتَبَتْهُ فِيهِ فَحَرَّمَ مَارِيَّةَ، فَتَزَلَّتْ^(٢). وَقِيلَ شَرِبَ

(١) قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحْرُورِ الْجَزِيرِ» (٤٦/١٦): «وَهِيَ مَدِينَةُ بِلْجَمَاعِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِإِخْلَافٍ هـ».

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ (١٨٥/٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَفِيهِ أَنَّهُ نَامَ فِي يَوْمِ عَائِشَةَ.

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْكَافِي الشَّافِي» (ص ١٧٥): «لَمْ أَقِفْ فِي شَيْءٍ مِنَ الطَّرِيقِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إِلَّا فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ - كَمَا تَقَدَّمَ - قُلْتُ: فِيهِ الْوَاقِدِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَشُعْبَةُ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ضَعِيفٌ أَيْضًا».

وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَيْضًا ابْنُ جُرَيْرٍ فِي «جَامِعِ الْبَيَانِ» (١٤/٢٨ ج ١٥٧) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِسَنَدٍ فِيهِ ضَعْفَاءُ مِنْ أَسْرَةٍ وَاحِدَةٍ.

كَمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ (١٤/٢٨ ج ١٥٦) عَنْ الضَّحَّاكِ. وَالضَّحَّاكُ لَمْ يَلْقَ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَأَمَّا نَزُولُ الْآيَةِ فِي أَمْرِ تَحْرِيمِ النَّبِيِّ ﷺ مَارِيَةَ الْقُبْطِيَّةِ، فَقَدْ أَخْرَجَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَالشَّعْبِيِّ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَيْضًا. وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢/٤٩٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَصَحَّحَهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

عسلاً عند حفصة، فواطأت عائشة سودة وصفية فقلن له إنا نشم منك ريح المغافير^(١) فحرم العسل، فنزلت^(٢). ﴿تَبَيَّنَ مَرَضَاتُ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسيرٌ لتحريم أو حال من فاعله أو استئناف لبيان الداعي إليه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لك هذه الزلة فإنه لا يجوز تحريم ما أحله الله. ﴿رَحِمَكَ﴾ حيث لم يؤخذك به وعاتبك محاماة على عصمتك.

(٢) ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقدته بالكفارة، أو الاستثناء فيها بالمشيئة حتى لا تحث من قولهم: حلل في يمينه إذا استثنى فيها، واحتج بها من رأى التحريم مطلقاً أو تحريم المرأة يميناً، وهو ضعيف إذ لا يلزم من وجوب كفارة اليمين فيه كونه يميناً مع احتمال أنه عليه الصلاة والسلام أتى بلفظ اليمين كما قيل. ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ متولي أمركم. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه.

(٣) ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يعني حفصة. ﴿حَدِيثًا﴾ تحريم مارية أو العسل، أو أن الخلافة بعده لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما. ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّتْ بِهِ﴾ أي فلما أخبرت حفصة عائشة رضي الله تعالى عنهما بالحديث. ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأطلع النبي عليه الصلاة والسلام على الحديث أي على إفشائه. ﴿عَرَفَ بَعْضُهُمْ﴾ عَرَفَ الرسول ﷺ حفصة بعض ما فعلت. ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ عن إعلام بعض تكراً أو جازاها على بعض بتطليقه إياها وتجاوز عن بعض، ويؤيده قراءة الكسائي بالتخفيف فإنه لا يحتمل ههنا غيره لكن المشدد من باب إطلاق اسم المسبب على السبب والمخفف بالعكس، ويؤيد الأول قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّاهُ بِهِ قَالَتْ مَنْ أَبْأَنَّاكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمِ الْخَيْرُ﴾ فإنه أوفق للإسلام.

(٤) ﴿إِنْ نُوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ﴾ خطابٌ لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في المعاتبة. ﴿فَقَدَّصَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من مخالصة رسول الله عليه الصلاة والسلام بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه. ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ وإن تظاهرا عليه بما يسوؤه، وقرأ الكوفيون بالتخفيف. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلن يُغدَم من يظاھرهُ من الله والملائكة وصلحاء المؤمنين، فإن الله ناصرُه وجبريلُ رئيسُ الكروبيين قرينه، ومن صلح من المؤمنين أتباعه وأعوأه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ متظاهرون، وتخصيصُ جبريلَ عليه السلام لتعظيمه،

(١) المغافير: جمع مفردة مغفور، وهو شيء له رائحة كريهة وهو صمغ حلو الطعم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦/٨ رقم ٤٩١٢) و(٣٧٤/٩ رقم ٥٢٦٧) و(٥٧٤/١١ رقم ٦٦٩١) ومسلم (١١٠٠/٢) - ١١٠١ رقم ١٤٧٤/٢٠. عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير؟ إني أجِدُ منك ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنتُ أشربُ عند زينب بنت جحش فلن أعودَ له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً). وأخرج البخاري (٣٧٤/٩ - ٣٧٥ رقم ٥٢٦٨) ومسلم (١١٠١/٢ رقم ١٤٧٤/٢١) من حديث عائشة أيضاً قالت: كان النبي ﷺ يحب الحلواء والعسل، فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يَحْتَبِسُ، ثم ذكرت احتيالها على حفصة مع سودة وصفية، وليس في هذه الرواية ذكر نزول الآية.

وانظر فتح الباري للجمع والتوفيق بين السببين (٣٧٦/٩ - ٣٧٧).

والمراد بالصالح الجنس ولذلك عُمِّمَ بالإضافة وبقروله بعد ذلك تعظيمٌ لمظاهرة الملائكة من جملة ما ينصره الله تعالى به.

عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ تَنَبَّاتٍ عِيدَاتٍ سَيِّحَاتٍ نَّيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ على التغليب، أو تعميم الخطاب، وليس فيه ما يدل على أنه لم يطلق حفصة وأن في النساء خيراً منهن لأن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطبيق واحدة والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه. وقرأ نافع وأبو عمرو يُبَدِّلُهُ بالتخفيف^(١). ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ﴾ مقرّاتٍ مخلصاتٍ أو متفاداتٍ مصدقاتٍ. ﴿قَنَاطٍ تَنَبَّاتٍ﴾ مصلياتٍ أو مواظباتٍ على الطاعات. ﴿سَيِّحَاتٍ﴾ عن الذنوب. ﴿عِيدَاتٍ﴾ متعبّداتٍ أو متدلّلاتٍ لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿سَيِّحَاتٍ﴾ صائماتٍ، سُمِّي الصائم سائحاً لأنه يسبح بالنهار بلا زاد، أو مهاجرات. ﴿نَّيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وسَطُ العاطف بينهما لتنافيهما ولأنهما في حكم صفة واحدة إذ المعنى مشتملاتٍ على الشياتٍ والأبكار.

(٦) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات. ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب. وقرىء وأهلوكم عطف على وإوقوا، فيكون أنفسكم أنفس القبيلتين على تغليب المخاطبتين. ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ ناراً تتقدّ بهما اتقاد غيرها بالحطب. ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ تلي أمرها وهم الزبانية. ﴿غُلَاطٌ شِدَادٌ﴾ غلاظ الأقوال شداد الأفعال، أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة. ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ فيما مضى. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيما يُسْتَقْبَل، أو لا يمتنعون عن قبول الأوامر والتزامها ويؤدّون ما يؤمرون به.

(٧) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يُقَالُ لهم ذلك عند دخولهم النار، والنهي عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم أو العذر لا ينفعهم.

(٨) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ بالغة في النصح وهو صفة التائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة، وصِفَتْ به على الإسناد المجازي مبالغة، أو في النصيحة وهي الخياطة كأنها تنصح ما خرق الذنوب. وقرأ أبو بكر بضمّ النون وهو مصدرٌ بمعنى النصح كالشكر والشكور، أو النصيحة كالثبات والثبوت تقديره ذات نصوح أو تنصح نصوحاً، أو توبوا نصوحاً لأنفسكم. وسئل علي رضي الله تعالى

(١) قراء. نافع وأبو عمرو بتشديد الدال يُبَدِّلُهُ (المبسوط لابن مهران ص ٢٣٨).

عنه عن التوبة فقال: يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، وللغراض الإعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود، وأن تربّي نفسك في طاعة الله كما ربّيتها في المعصية. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ذكر بصيغة الإطماع جزياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنه تفضل. والتوبة غير موجبة وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ ظرف ليدخلكم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ عطف على النبي عليه الصلاة والسلام إحمداً لهم وتعريضاً لمن ناوَاهم، وقيل مبتدأ خبره: ﴿تُؤْتُهُم يَتَّىٰ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيهِمْ﴾ أي على الصراط. ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا طفيء نور المنافقين. ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورًا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل تفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضلاً.

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَيُشَى الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَقِيلَ مِنَ الْقَنِينِ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة. ﴿وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ﴾ واستعمل الخشونة فيما تجاهدكم به إذا بلغ الرفق مداً. ﴿وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَيُشَى الْمَصِيرُ﴾ جهنم أو ماوهم.

(١٠) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ مثل الله تعالى حالهم في أنهم يعاقبون بكفرهم ولا يُحَابُونَ بما بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين من النسبة بحالهما. ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ يريد به تعظيم نوح ولوط عليهما السلام. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنفاق. ﴿فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلم يغن النبيان عنهما بحق الزواج شيئاً إغناء ما. ﴿وَقِيلَ﴾ أي لهما عند موتهما أو يوم القيامة. ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام.

(١١) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ شبه حالهم في أن وصلة الكافرين لا تضرهم بحال آسية رضي الله عنها ومنزلتها عند الله مع أنها كانت تحت أعدى أعداء الله. ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ظرف للمثل المحذوف. ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قريباً من رحمتك أو في أعلى درجات المقرّبين. ﴿وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ من نفسه الخبيثة وعمله السيء. ﴿وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من القبط التابعين له في الظلم.

(١٢) ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على امرأة فرعون تسلياً للأرامل. ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في فرجها، وقرئ فيها أي في مريم أو في الجملة. ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ من

روح خلقناه بلا توسُّط أصل. ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا﴾ بِصُحُفِهِ الْمُنَزَّلَةِ أَوْ بِمَا أُوحِيَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ. ﴿وَكُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ﴾ أَوْ جَنْسِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ الْبَصْرِيِّينَ وَحَفْصُ الْجَمْعِ، وَقُرِءَ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَكُتِبَ أَيْ بَعِثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْإِنْجِيلُ. ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِينِ﴾ مِنْ عِدَادِ الْمَوَاطِبِينَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالتَّذْكِيرُ لِلتَّغْلِيْبِ وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّ طَاعَتَهَا لَمْ تَقْصُرْ عَنْ طَاعَةِ الرِّجَالِ الْكَامِلِينَ حَتَّى عُدَّتْ مِنْ جُمْلَتِهِمْ، أَوْ مِنْ نَسْلِهِمْ فَتَكُونُ مِنْ ابْتِدَائِيَّةٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعُ: أَسِيَةُ بِنْتُ مَزَاحِمَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ. وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»^(١) وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ التَّحْرِيمِ آتَاهُ اللَّهُ تَوْبَةً نَصُوحًا»^(٢).



(١) أخرجه الثعلبي كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٦ رقم ٢٠٥) وأبو نعيم في الحلية (٩٩/٥) من حديث أبي موسى.

وأصله في الصحيحين البخاري (٦/٤٧١ - ٤٧٢ رقم ٣٤٣٣) ومسلم (٤/١٨٨٦ - ١٨٨٧ رقم ٢٤٣١/٧٠) عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون.

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٦ رقم ٢٠٦). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْمَلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى
مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾

سورة الملك مكية ^(١)، وتسمى الواقعة والمنجية لأنها تقي قارئها وتنجيهِ من عذاب القبر،
وأيها ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ بقبضة قُدْرَتِهِ التصرفُ في الأمور كلها. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على كل ما يشاء قديرٌ.

(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قَدَّرهما أو أوجدَ الحياةَ وأزالها حَسْبَمَا قَدَّرَه. وقَدَّمَ الموتَ لقوله ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ ^(٢) ولأنه أَدْعَى إلى حسنِ العمل. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعامِلَكُم معاملةَ المختبرِ بالتكليفِ أيها المكلفون. ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصوبُهُ وأخلصُهُ، وجاء مرفوعاً: «أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارمِ الله تعالى، وأسرعُ في طاعته» ^(٣). جملةٌ واقعةٌ موقعُ المفعولِ ثانياً لفعلِ البلوى المتضمنُ معنى

(١) وهي مكية بإجماع - كما في «المحرر الوجيز» لابن عطية (٥٩/١٦) -.

(٢) البقرة: «٢٨».

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشافى» (ص ٨٦ رقم ١٨٩): «أخرجه - داود بن المجير في كتاب العقل - والحاثر في مسنده عنه، والطبري وابن مردويه عن طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر. وداود ساقط. وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك، وإسناده أسقط من الأول» هـ.

العلم، وليس هذا من باب التعليق لأنه يَخْلُ به وقوع الجملة خبراً، فلا يعلّق الفعل عنها بخلاف ما إذا وقعت موقع المفعولين. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل. ﴿الْفُتُورُ﴾ لمن تاب منهم.

(٣) ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض، مصدر طابقت النعل إذا خلطتها طباقاً على طبقٍ وُصِفَ به، أو طويقت طباقاً أو ذات طباقٍ جمع طبق كجبلٍ وجبالٍ، أو طبقاً كرخبة ورحاب. ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائي من تفوتٍ ومعناها واحد كالتعاهد والتعهد، وهو الاختلاف وعدم التناسب من الفوت كأن كلا من المتفاوتين فات عنه بعض ما في الآخر، والجملة صفة ثانية لسبع وُضِعَ فيها خلق الرحمن موضع الضمير للتعظيم والإشعار بأنه تعالى يخلق مثل ذلك بقدرته الباهرة رحمةً وتفضلاً وأن في إبداعها نعمةً جليلاً لا تُحصى، والخطاب فيها للرسول أو لكل مخاطب وقوله: ﴿فَأَنجِبِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ متعلق به على معنى التسبب، أي قد نظرت إليها مراراً فانظر إليها مرة أخرى متأملاً فيها لتعاین ما أخبرت به من تناسبها واستقامتها واستجماعها ما ينبغي لها. والفطور الشقوق، والمراد الخلل من فطره إذا شقه.

ثُمَّ أَتَجِبِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿١﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٢﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُ الِّمَصِيرُ ﴿٣﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٤﴾

(٤) ﴿ثُمَّ أَتَجِبِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعتين أخرتين في ارتداد الخلل، والمراد بالثنية التكرير والتكثير كما في لبك وسعدتك، ولذلك أجاب الأمر بقوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ بعيداً عن إصابة المطلوب كأنه طرد عنه طرداً بالصغار. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة.

(٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أقرب السموات إلى الأرض^(١). ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ بالكواكب المضيئة بالليل إضاءة الشرج فيها، والتكثير للتعظيم ولا يمنع ذلك كون بعض الكواكب مركوزة في سمواتٍ فوقها إذ التزين بإظهارها فيها ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدة أخرى وهي رجم أعدائكم، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمي به ما يؤرجم به بانقضاض الشهب المسببة عنها. وقيل معناه وجعلناها رجوماً وظنونا لشياطين الإنس وهم المنجمون. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

(٦) ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرهم. ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُ الِّمَصِيرُ﴾ وقرئ بالنصب على أن للذين عطف على لهم وعذاب على عذاب السعير.

(٧) ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتاً كصوت الحمير. ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم غليان المزجل بما فيه.

(١) تصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها (س/٩/٤).

تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ تتفرق غيظاً عليهم، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم، ويجوز أن يُراد غيظ الزبانية. ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفرة. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يخوفكم هذا العذاب وهو توبيخ وتبكيت.

(٩) ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي فكذبنا الرسل وأفرطنا في التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً، وبلغنا في نسبتهن إلى الضلال، فالنذر إما بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدرٌ مقدَّرٌ بمضافٍ أي أهل إنذار، أو منعت به للمبالغة أو الواحد، والخطاب له ولأمثاله على التغليب، أو إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل، أو على أن المعنى قالت الأفواج قد جاء إلى كل فوج منّا رسولٌ من الله فكذبناهم وضللناهم، ويجوز أن يكون الخطاب من كلام الزبانية للكفار على إرادة القول فيكون الضلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو عقابه الذي يكونون فيه.

(١٠) ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحثٍ وتفتيشٍ اعتماداً على ما لاح من صدقهم بالمعجزات. ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ فتفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين. ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ في عذابهم ومن جملتهم.

(١١) ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ حين لا ينفعهم، والاعتراف إقرار عن معرفة، والذنب لم يُجمع لأنه في الأصل مصدرٌ، أو المراد به الكفر. ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فأسحقهم الله سُحقاً أبعدهم من رحمته، والتغليب للإيجاز والمبالغة والتعليل، وقرأ الكسائي بالثقل^(١).

(١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يخافون عذابه غائباً عنهم لم يعاينوه بعد، أو غائبين عنه أو عن أعين الناس، أو بالمخفي منهم وهو قلوبهم. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تصغر دونه لذاث الدنيا.

(١٣) ﴿وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بالضمائر قبل أن يعبر عنها سراً أو جهراً^(٢).

(١٤) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم السرّ والجهر من أوجد الأشياء حسبما قدرته حكمته. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن، أو ألا يعلم الله من خلقه، وهو بهذه

(١) قوله: وقرأ الكسائي بالثقل أي بضم الحاء من قوله «فَسُحْقًا».

(٢) وتقاييم السر على الجهر للإيدان بافتضاح أمرهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أندر منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية... أو لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر (س/٦/٩).

المثابة والتقييد بهذه الحال يستدعي أن يكون ليعلم مفعول ليفيد. رُوي^(١) أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء، فيخبر الله بها رسوله، فيقولون: أسروا قولكم لثلاث سمع إله محمد فنبت الله على جهلهم.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

(١٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ لينة يسهل لكم السلوك فيها. ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ في جوانبها أو جبالها، وهو مثل لفزط التذليل فإن منكب البعير ينبو عن أن يطأه الراكب ولا يتدلل له، فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يمشى في مناكبها لم يبق شيء لم يتدلل. ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ والتمسوا من نعم الله. ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ المرجع فيسألهم عن شكر ما أنعم عليكم.

(١٦) ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ﴾ يعني الملائكة الموكلين على تدبير هذا العالم، أو الله تعالى على تأويل من في السماء أمره أو قضاؤه، أو على زعم العرب فإنهم زعموا أنه تعالى في السماء، وعن ابن كثير وأمنتم بقلب الهمزة الأولى وأوا لانضمام ما قبلها، وأمنتم بقلب الثانية ألفاً وهو قراءة نافع وأبي عمرو ورويس. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ فيغيثكم فيها كما فعل بقارون وهو بدل من بدل الاشتمال. ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب، والمور التردد في المجيء والذهاب.

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي (٨/٣٢١).

- قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٨/٣٢٢): «وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «أمنتم» بهزتين (من في السماء) قال ابن عباس: أمنتم عذاب من في السماء وهو الله عز وجل؟!» هـ.

ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري (٨/٦٧ رقم ٤٣٥١) ومسلم (٢/٧٤٢ رقم ١٠٦٤/١٤٤) وأحمد في المسند (٤/٣) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن بذهيبية في أديم مقروط لم تحصل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عينية بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه: كُنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء...» الحديث.

● وأخرج مسلم (١/٣٨١ - ٣٨٢ رقم ٥٣٧/٣٣) ضمن قصة طويلة:

عن معاوية بن الحكم السلمي؛ قال: «وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قَبْلَ أَحَدِ الْجَوَانِيَةِ فَأُطْلِعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ إِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسِفُونَ، لَكِنِّي صَكَّكْتُهَا صَكَّةً. فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَّمْ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أَعْتَقُهَا؟ قَالَ: «إِثْنِي بِهَا» فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ فِي السَّمَاءِ. قَالَ «مِنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ «أَعْتَقُهَا فَإِنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ».

وأخرجه أبو داود (١/٥٧٠ - ٥٧٣ رقم ٩٣٠) والنسائي (٣/١٤ - ١٨ رقم ١٢١٨) وأحمد في المسند (٥/٤٤٧، ٤٤٨ - ٤٤٩) والطيالسي في المسند (ص ١٥٠ رقم ١١٠٥) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/٣٩١ - ٣٩٢ رقم ٦٥٢) وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (١/٢١٥ رقم ٤٨٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٢١ - ٤٢٢) وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (ص ١٢١ - ١٢٢) وغيرهم.

وانظر الأدلة الأخرى في «التحفة في مذاهب السلف» للشوكاني بتحقيقي (ص ٢١ - ٢٤).

أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَوَاتٍ وَيَقْيِضَنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَن يَمْشِيَ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِيَ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

(١٧) ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أن يُمْطَرَّ عليكم حَصْبَاءً. ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴾ كيف إنذارى إذا شاهدتم المنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حيثنذ.

(١٨) ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكارى عليهم بإنزال العذاب، وهو تسليّة للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين.

(١٩) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَوَاتٍ ﴾ باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانها، فإنهنّ إذا بسطنها صَفَفْنَ قِوَادِمَهَا. ﴿ وَيَقْيِضَنَ ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهنّ وقتاً بعد وقتٍ للاستظهار به على التحريك، ولذلك عدل به إلى صيغة الفعل للفرقة بين الأصل في الطيران والطارىء عليه. ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجوّ على خلاف الطبع. ﴿ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ الشامل رحمته كلّ شيء بأن خلقهنّ على أشكالٍ وخصائص هيأتهنّ للجري في الهواء. ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبّر العجائب.

(٢٠) ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ عديل لقوله أو لم يروا على معنى أو لم تنظروا في أمثال هذه الصنائع، فلم تعلموا قدرتنا على تعذيبهم بنحو خسف وإرسال حاصب، أم لكم جند ينصركم من دون الله إن أرسل عليكم عذابه فهو كقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾ (١) إلا أنه أخرج مخرج الاستفهام عن تعيين من ينصركم إشعاراً بأنهم اعتقدوا هذا القسم، ومن مبتدأ وهذا خبره والذي بصلته صفته وينصركم وصف لجندٍ محمول على لفظه (٢). ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ لا معتمد لهم (٣).

(٢١) ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ ﴾ أم من يُشَارُ إليه ويقال هذا الذي يرزقكم. ﴿ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ بامساك المطر وسائر الأسباب المخلصة والموصلة له إليكم. ﴿ بَلْ لَجُوا ﴾ تماذوا. ﴿ فِي عُتُوٍّ ﴾ عناد. ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ شراذم عن الحق لتنفّر طباعهم عنه.

(٢٢) ﴿ أَفَن يَمْشِيَ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ ﴾ يُقَالُ كَبَيْتُهُ فَكَبَّ وهو من الغرائب كقشع الله السحاب فأقشع، والتحقيق أنهما من باب انفض بمعنى صار ذا كبّ وذا قشع، وليس مطاوعى كبّ وقشع بل المطاوع لهما انكب وانقشع، ومعنى مكباً أنه يعثر كلّ ساعة ويخثر على وجهه لوعورة طريقه واختلاف المطاوع.

(١) الأنبياء: (٤٣).

(٢) والالتفات إلى الخطاب في «ينصركم» لتشديد التبكيت (س/٨/٩).

(٣) والالتفات إلى الغيبة في «إن الكافرون» للإيدان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم (س/٨/٩).

أجزائه، ولذلك قابله بقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ قائماً سالماً من العثار. ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاء والجهة، والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين والدينين بالمسلكين، ولعل الاكتفاء بما في الكب من الدلالة على حال المسلك للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يُسمَّى طريقاً، كمشي المتعسف في مكان متعادٍ غير مستوٍ. وقيل المراد بالمكب الأعمى فإنه يتعسف فيكب وبالسوي البصير، وقيل مَنْ يَمْشِي مكباً هو الذي يُخْشَرُ على وجهه إلى النار ومن يَمْشِي سَوِيًّا الذي يُخْشَرُ على قدميه إلى الجنة.

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتسمعوا المواعظ. ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتنظروا صنائعهُ. ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتفكروا وتعتبروا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمالها فيما خُلِقَتْ لأجلها.

(٢٤) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء.

(٢٥) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي الحشر أو ما وعدوا به من الخسف والحاصب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين.

(٢٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ﴾ أي عِلْمُ وَفْتِهِ. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يطلع عليه غيره. ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ والإنذار يكفي فيه العلم بل الظن بوقوع المحذر منه.

(٢٧) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الوعد فإنه بمعنى الموعود. ﴿زُلْفَةً﴾ ذا زلفه أي قرب منهم. ﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن علتها الكآبة وساءتها رؤية العذاب. ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ تطلبون وتستعجلون تفعلون من الدعاء، أو تدعون أن لا بعث فهو من الدغوى.

(٢٨) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ أمتين. ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا. ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لا ينجيهم أحد من العذاب ميتاً أو بقينا، وهو جواب لقولهم نرتبص به رب المنون.

(٢٩) ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الذي أدعوكم إليه مولني النعم كلها. ﴿أَمَنَّا بِهِ﴾ للعلم بذلك ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ للوثوق عليه والعلم بأن غيظه بالذات لا يضُر ولا ينفع، وتقديم الصلة للتخصيص والإشعار به. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ منا ومنكم، وقرأ الكسائي بالياء.

(٣٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض بحيث لا تناله الدلاء مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿فَمَنْ

يَأْتِيَكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿١﴾ جَارٍ أَوْ ظَاهِرٌ سَهْلٌ الْمَأْخِذِ. عَنْ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمَلِكِ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافى» (ص ١٧٦ رقم ٢٠٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْقَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَحْجُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعُمُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ يُدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَزَ مَشَاءَ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾

سورة ن مكية^(١) وآياتها اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

١ (١) ﴿ت﴾ من أسماء الحروف، وقيل اسم الحوت والمراد به الجنس، أو البهيموت^(٢) وهو الذي عليه الأرض، أو الدواة فإن بعض الحيتان يُسْتَخْرَجُ منه شيء أشد سواداً من النَّفْسِ^(٣) يَكْتُبُ به، ويؤيد الأول سكونه وكتبه بصورة الحرف. ﴿وَالْقَلَمِ﴾ وهو الذي خط اللوح، أو الذي يُخَطُّ به أقسم به تعالى لكثرة فوائده. وأخفى ابن عامر والكسائي ويعقوب النون إجراء للواو المنفصل مجرى المتصل؛ فإنَّ النون الساكنة تُخْفَى مع حروف الفم إذا اتصلت بها، وقد رُوِيَ ذلك عن نافع وعاصم، وقرئت بالفتح والكسر كص. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يكتبون، والضمير للقلم بالمعنى الأول على التعظيم، أو بالمعنى

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٧٣): «وهي مكية ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل» هـ.

(٢) البهيموت اسم لسمة عليها الأرض، وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ت وَالْقَلَمِ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «النون السمكة التي عليها قرار الأرضين...» (الدر المنثور ٦/٣٨٩).

(٣) النفس: هو الشيء الذي يكتب به (مختار الصحاح مادة نفس).

الثاني على إرادة الجنس. وإسنادُ الفعل إلى الآلة وإجراؤه مجرى أولي العلم لإقامته مقامهم، أو لأصحابه، أو للحفظة، وما مصدرية أو موصولة.

(٢) ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جوابُ القسم والمعنى ما أنت بمجنونٍ مُنْعَمًا عليك بالنبوة وحصافة الرأي، والعاملُ في الحال معنى النفي. وقيلَ بمجنونِ الباء لا تمنعُ عمله فيما قبله لأنها مزيدة، وفيه نظرٌ من حيث المعنى^(١).

(٣) ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ على الاحتمال والإبلاغ. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فإنه تعالى يعطيك بلا توسُّط.

(٤) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إذ تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك، وسُئِلَتْ عائشة رضي الله تعالى عنها عن خُلُقِهِ ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن^(٢)، أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

(٥) ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُحِّرْهُ﴾.

(٦) ﴿يَا أَيَّتُهَا الْمَفْتُونُ﴾ أيكم الذي فُتِنَ بالجنون والباء مزيدة، أو بأيكم الجنون على أنَّ المفتون مصدرٌ كالمعقول والمجلود، أو بأي الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أو بفريق الكافرين، أي في أيهما يوجد مَنْ يستحقُّ هذا الاسم.

(٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهم المجانين على الحقيقة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الفائزين بكمال العقل^(٤).

(٨) ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ نهيجٌ للتصميم على معاصيتهم.

(٩) ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ تلاينهم بأن تدعِ نهيجهم عن الشرك، أو توافقهم فيه أحياناً^(٥). ﴿فَيَذَهُنَّ﴾ فيلأينونك بترك الطعن والموافقة، والفاء للعطف أي ودُّوا التداهن وتمنَّوه لكنَّهم أخَّروا أدهانهم حتى تدهن، أو للسببية أي ودُّوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذٍ، أو ودُّوا أدهانك فهم الآن يدهنون طمعاً فيه، وفي بعض المصاحف فيدهنوا على أنه جواب التمني.

(١٠) ﴿وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير الرأي من المهانة وهي الحقارة.

(١١) ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب. ﴿مَشَّامٍ بَنَمِيرٍ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية.

(١) والتعرض لوصف الربوبية «ربك» مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه - عليه السلام - والإيدان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءها (س/٩/١١).

(٢) أخرجه مسلم (٥١٣/١) رقم (٧٤٦/١٣٩) في سياق طويل هذا جزء منه. وأخرجه الحاكم (٤٩٩/٢) مختصراً بلفظ المصنف. وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وهذا وهم منه فإن مسلماً أخرجه كما رأيت.

(٣) المؤمنون: «١».

(٤) وزيادة «هو أعلم» لزيادة تقرير علمه تعالى (س/٩/١٢).

(٥) عبر عن مدهانتهم بالطاعة التي نهى عنها قبل للمبالغة في الزجر والتنفير (س/٩/١٣).

مَنَعَ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُنِيَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَكِ اسْطِطِرُّوا أَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْفَرْطُورِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُ أَهْبَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرِمَنَّا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُرُّنَايُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿مَنَعَ لِّلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإيقان والعمل الصالح. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز في الظلم. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.
(١٣) ﴿عُنِيَ﴾ جاف غليظ من عتله إذا فادّه بعنفٍ وغلظوه. ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعدما عدّ من مثاليه.
﴿زَنِيمٍ﴾ دعي مأخوذ من زنمتي الشاة وهما المتدليتان من أذنها وحلقها، قيل هو الوليد بن المغيرة ادّعاء أبوه بعد ثمانين عشرة من مولده، وقيل الأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعدّاده في زهرة.
(١٤) ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

(١٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَكِ اسْطِطِرُّوا أَوَّلِينَ﴾ قال ذلك حينئذٍ لأنه كان متمولاً مستظهِراً بالبنين من فَرْطُ غُرُورِهِ، لكنّ العامل مدلول قال لانفسه، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، ويجوز أن يكون علة لِلأُطْعَمِ أي لا تطعم مَنْ هذه مثاله لأن كان ذا مالٍ. وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةٌ ويعقوبٌ وأبو بكرٌ أن كان على الاستفهام، غير أن ابن عامر جعل الهمزة الثانية بينَ أي ألان كان ذا مال كَذَبَ، أو أُطْعِمُهُ لأن كان ذا مال. وقرئ إن كان بالكسر على أن شرط الغنى في النهي عن الطاعة كالتعليل بالفقر في النهي عن قتل الأولاد، أو أن شرطه للمخاطب أي لا تطعه شارباً يساره لأنه إذا أطاع للغني فكأنه شرطه في الطاعة.

(١٦) ﴿سَنَسِفُهُ﴾ بالكسب. ﴿عَلَى الْفَرْطُورِ﴾ على الأنف وقد أصاب أنف الوليد جراحة يوم بذّر فبقي أثره، وقيل هو عبارة عن أن يذله غاية الإذلال كقولهم: جدّع أنفه، رغم أنفه، لأن السمة على الوجه سيما على الأنف شين ظاهر، أو نسود وجهه يوم القيامة.

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُ﴾ بلونا أهل مكة شرفها الله تعالى بالقحط. ﴿كَأَبْلَوْنَاهُ أَهْبَابَ الْجَنَّةِ﴾ يريد البستان الذي كان دون صنعاء بفرسخين، وكان لرجلٍ صالح، وكان ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل وألقته الريح. أو بعد من البساط الذي يُسَطُّ تحت النخلة، فيجتمع لهم شيء كثير، فلما مات قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعلُه أبونا ضاق علينا الأمر، فحلفوا ليصرمها وقت الصباح خفية عن المساكين كما قال: ﴿إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرِمَنَّا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعنها داخلين في الصباح.

(١٨) ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ ولا يقولون إن شاء الله، وإنما سمّاه استثناء لما فيه من الإخراج غير أن المخرج به خلاف المذكور والمخرج بالاستثناء عنه، أو لأن معنى لأخرج إن شاء الله ولا أخرج إلى أن يشاء الله واحد، أو ولا يستنون حصّة المساكين كما كان يخرج أبوهم.

(١٩) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ طائف. ﴿بَلَاءٌ طَائِفٌ﴾ مبتدأ منه. ﴿وَهَرُّنَايُونَ﴾.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صرّم ثماره بحيث لم يبق فيه شيء. فعيل بمعنى مفعول، أو كالليل باحتراقها واسودادها، أو كالنهار بابيضاضها من فرط اليأس سُمياً بالصريم لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه أو كالرمل.

فَنَادَا مُصْحِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْوِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهَرَبَ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوُونَ ﴿٣٠﴾

(٢١) ﴿فَنَادَا مُصْحِحِينَ﴾ .

(٢٢) ﴿أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْوِكُمْ﴾ أَنْ اخْرُجُوا أو بَانَ اخْرُجُوا إِلَيْهِ غَدْوَةً، وتعدية الفعل بعلَى إما لتضمينه معنى الإقبال أو لتشبيه الغدو للصرام بغدو العدو المتضمن لمعنى الاستيلاء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾ قاطعين له.
(٢٣) ﴿فَأَنْطَلَقُوا وَهَرَبَ يَخْفَتُونَ﴾ يتشاورون فيما بينهم وَخَفَى وَخَفَتْ وَخَفَدَ بمعنى الكتم، ومنه الخفدود للخفاش.

(٢٤) ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ أَنْ مفسرة، وقرئ بطرحها على إضمار القول، والمراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكيته من الدخول كقولهم: لا أريتك ها هنا.

(٢٥) ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرِينَ﴾ وعدوا قادرين على نكيد لا غير، من حَارَدَتِ السَّنةُ إذا لم يكن فيها مطرٌ، وحارَدَتِ الإبلُ إذا منعَتْ دَرَّهَا. والمعنى أنهم عزموا أَنْ يَتَنَكَّدُوا على المساكين فَيَتَنَكَّدَ عليهم بحيث لا يقدرُونَ إلا على النكيد، أو غدوا حاصلين على النكيد والحرمان مكان كونهم قادرين على الانتفاع. وقيل الحَرْدُ بمعنى الحَرْدِ وقد قرئ به أي لم يقدرُوا إلا على حَقِّ بعضهم لبعض كقوله ﴿يَتْلَوْنَ﴾^(١) وقيل الحَرْدُ القصدُ والسرعة قال:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَخْرُدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغْلَةِ

أي غَدُوا قاصدين إلى جَنَّتِهِمْ بسرعة قادرين عند أنفسهم على صِرَافِهَا. وقيل عَلِمَ لِلجَنَّةِ.

(٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أول ما رَأَوْهَا. ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ طريق جَنَّتِنَا وما هي بها.

(٢٧) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي بعد ما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا بل نحن ﴿مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمْنَا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ رأياً، أو سَيِّئاً. ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خُبثِ نَيْتِكُمْ، وقد قاله حينما عزموا على ذلك ويدل على هذا المعنى.

(٢٩) ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي لولا تستنون فُسْمِي الاستثناء تسبيحاً لتشارِكهما في التعظيم، أو لأنه تنزيه عن أَنْ يجري في ملكه ما لا يريده.

(٣٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً، فإنَّ منهم مَنْ أشار بذلك ومنهم من استصوبه ومنهم من سكت راضياً ومنهم من أنكره.

قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَافِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةَ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

(٣١) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَافِينَ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى.

(٣٢) ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة، وقد روي^(١) أنهم أبدلوا خيراً منها. وقرئ يبدلنا بالتخفيف. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ راجون العفو طالبون الخير. وإلى لانتهااء الرغبة، أو لتضمنها معنى الرجوع.

(٣٣) ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة العذاب في الدنيا. ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لاحترزوا عما يؤذيهم إلى العذاب.

(٣٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة، أو في جوار القدس. ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعيم الخالص.

(٣٥) ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ إنكار لقول الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صَحَّ أَنَّا بُنِعْتُ كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا.

(٣٦) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ التفات فيه تعجب من حكمهم واستبعاد له، وإشعار بأنه صادر من اختلال فكر واعوجاج رأي.

(٣٧) ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ من السماء. ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ تقرأون.

(٣٨) ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم ما تختارونه وتشتهونه، وأصله أَنَّ لَكُمْ بِالْفَتْحِ لَأنه المدروس فلما جيء باللام كسرت، ويجوز أن يكون حكاية للمدروس أو استئنافاً. وتخير الشيء واختاره أخذ خيرة.

(٣٩) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ عهد مؤكدة بالإيمان. ﴿بَلِغَةَ﴾ متناهية في التوكيد، وقرئت بالنصب على الحال والعامل فيها أحد الظرفين. ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ متعلق بالمقدر في لكم أي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدها حتى نحكمكم في ذلك اليوم، أو ببالغة أي أيمان تبلغ ذلك اليوم. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم لأن معنى أم لكم أيماناً علينا أم أقسمنا لكم.

(٤٠) ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ﴾ بذلك الحكم قائم يدعيه ويصححه.

(٤١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم إذ لا أقل من التقليد. وقد نبه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل يدل عليه لاستحقاق أو وعد أو محض تقليد على الترتيب تنبيهاً على مراتب النظر وتزييفاً

لما لا سند له. وقيل المعنى أم لهم شركاء يعني الأصنام يجعلونهم مثل المؤمنين في الآخرة، كأنه لما نفى أن تكون التسوية من الله تعالى نفى بهذا أن تكون مما يشاركون الله به.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾

(٤٢) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب، وكشف الساق مثل في ذلك، وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب. قال حاتم:

أخو الحزب إن عصت به الحزب عضها وإن شمرت عن ساقها الحزب شمرًا^(١)

أو يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً مستعاراً من ساق الشجر وساق الإنسان، وتنكيره للتهويل أو للتعظيم. وقرئ تكشف وتكشف بالتاء على بناء الفاعل أو المفعول، والفعل للساعة أو الحال. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ توبيخاً على تركهم السجود إن كان اليوم يوم القيامة، أو يدعون إلى الصلوات لأوقاتها إن كان وقت النزاع. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لذهاب وقته أو زوال القدرة عليه.

(٤٣) ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ تلحقهم ذلة. ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ في الدنيا أو زمان الصحة. ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ متمكنون منه مزاحو العلل فيه.

(٤٤) ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثَ﴾ كله إليّ فإني أكفيكه. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنذنبهم من العذاب درجة درجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراج وهو الإنعام عليهم لأنهم حسبوه تفضيلاً لهم على المؤمنين.

(٤٥) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهاتهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ لا يدفع بشيء، وإنما سمى إنعامه استدراجاً بالكيد لأنه في صورته.

(٤٦) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على الإرشاد. ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ﴾ من غرامة. ﴿مُثْقَلُونَ﴾ بحملها فيعرضون عنك.

(٤٧) ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح أو المعانيات. ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ منه ما يحكمون به ويستغنون به عن علمك.

(٤٨) ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم. ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يونس عليه الصلاة والسلام. ﴿إِذْ نَادَى﴾ في بطن الحوت. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظاً من الضجرة فتبتلي ببلائه.

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ رِيعَةً مِنْ رَبِّهِ لَنُيَذَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٩) ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ رِيعَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني التوفيق للتوبة وقبولها، وحسن تذكير الفعل للفضل، وقرىء تداركته وتداركه أي تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا أن كان يُقال في تتداركه. ﴿لَنُيَذَّ بِالْعَرَاءِ﴾ بالأرض الخالية عن الأشجار. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ مليء مطرود عن الرحمة والكرامة، وهو حال يعتمد عليها الجواب لأنها المنفية دون التنبذ.

(٥٠) ﴿فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ﴾ بأن ردّ الوحي إليه، أو استنبأه إن صحَّ أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعة. ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من الكاملين في الصلاح بأن عصمه من أن يفعل ما تركه أولى، وفيه دليل على خلق الأفعال. والآية نزلت حين هم رسول الله ﷺ أن يدعو على ثقيف. وقيل بأحد حين حلَّ به ما حلَّ فأراد أن يدعو على المنهزمين.

(٥١) ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ إن هي المخففة واللام دليلها والمعنى: أنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يُزْلِقُونَ قدمك، أو يهلكونك من قولهم نظَرَ إليَّ نظراً يكاد يصرعني أي لو أمكنه بنظره الصرع لفعله، أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين؛ إذ روي أنه كان في بني أسد عيانون، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ، فنزلت^(١). وفي الحديث: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقَذْرَ»^(٢) ولعله يكون من خصائص بعض النفوس. وقرأ نافع لَيُزْلِقُونَكَ من زَلَقْتَهُ فزَلَقَ

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص ٤٤٣ بدون سند.

(٢) أخرجه ابن عدي (٢٤٠٣/٦) وأبو نعيم في الحلية (٩٠/٧) والخطيب في تاريخ بغداد (٢٤٤/٩) من حديث جابر.

وأشار الذهبي في «الميزان» (٢٧٥/٢) إلى هذا الحديث وحكم عليه بالنكارة.

وقال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري تفرد به معاوية».

وقال الألباني في «الصحيحة» (٢٥١/٣): «... وإسناده حسن عندي لأن شعيب بن أيوب وثقه الدارقطني وابن حبان، وجرحه أبو داود جرحاً مبهماً فقال: إني لأخاف الله تعالى في الرواية عنه» هـ.

● وله شاهد بالمعنى من حديث أبي ذر بلفظ «إن العين لتولع الرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً ثم يتردى منه».

أخرجه أحمد (١٤٦/٥) والبخاري (٤٠٣/٤ - ٤٠٤ - كشف) وابن عدي في الكامل (٩٧١/٣) عنه.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠٦/٥) وقال: «رواه أحمد والبخاري، ورجال أحمد ثقات، وقال الألباني في «الصحيحة» (٥٨١/٢): «وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات معروفون غير محجن هذا أورده في «تعجيل المنفعة»

(ص ٣٩٥) - من هذا الإسناد - وقال: «ذكره ابن حبان في الثقات - (٤٤٨/٥) - هـ.

● وله شاهد آخر بالمعنى أيضاً من حديث ابن عباس بلفظ: «العين حق تستنزل الحالق».

أخرجه أحمد (٢٧٤/١، ٢٩٤) والطبراني في الكبير (١٨٤/١٢) رقم (١٢٨٣٣) والحاكم (٢١٥/٤) عنه. وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبي.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠٧/٥) وقال: «رواه أحمد والطبراني وفيه دويد البصري، وقال أبو حاتم لين، وبقية رجاله ثقات» هـ.

كحزنته فحزناً، وقرىء ليزهقونك أي ليهلكونك. ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي القرآن أي ينبعث عند سماعه بغضهم وحسدُهم. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ حيرة في أمره وتنفيراً عنه.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لما جئتوه لأجل القرآن بين أنه ذكْرٌ عامٌّ لا يدركه ولا يتعاطاه إلا مَنْ كان أكمل الناس عقلاً وأميزهم رأياً. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْقَلَمِ أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الَّذِينَ حَسَنَ اللَّهُ أَخْلَاقَهُمْ»^(١).

☆ ☆ ☆

= والخلاصة أن الحديث حسن بشواهد الله أعلم.

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٧ رقم ٢١٣). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ
حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَثَلٌ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾

سورة الحاقة مكية (١)، وآيها اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿الْحَاقَّةُ﴾ أي الساعة أو الحالة التي يحق وقوعها، أو التي تحق فيها الأمور أي تُعرف حقيقتها، أو تقع فيها حوائق الأمور من الحساب والجزاء على الإسناد المجازي، وهي مبتدأ خبرها:
- (٢) ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ وأصله ما هي أي: أي شيء هي على التعظيم لشأنها والتهويل لها، فوضع الظاهر موضع الضمير لأنه أهول لها.
- (٣) ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ وأي شيء أعلمك ما هي، أي أنك لا تعلم كنهها فإنها أعظم من أن تبلغها دراية أحد، وما مبتدأ وأدراك خبره.
- (٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ﴾ بالحالة التي تفرغ فيها الناس بالإفراغ والأجرام بالانفطار والانتشار، وإنما وُضعت موضع ضمير الحاقة زيادة في وصف شدتها.
- (٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة وهي الصيحة، أو الرجفة لتكذيبهم بالقارعة، أو بسبب طغيانهم بالتكذيب وغيره على أنها مصدر كالعاقبة وهو لا يطابق قوله:

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز».

(٩٢/١٦): «وهي مكية بالإجماع».

- (٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا أَهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي شديدة الصوت أو البرد من الصر أو الصرر. ﴿عَاتِيَةً﴾ شديدة العصف كأنها عثت على خزانها فلم يستطيعوا ضبطها، أو على عاد فلم يقدروا على ردها.
- (٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَلَطَهَا عَلَيْهِمْ بِقُدْرَتِهِ، وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ أَوْ صِفَةٌ جِيءَ بِهِ لِنَفْيِ مَا يُتَوَهَّمُ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ اتِّصَالَاتِ فَلَكِيَّةٍ، إِذْ لَوْ كَانَتْ لَكَانَ هُوَ الْمَقْدَّرُ لَهَا وَالْمُسَبَّبُ. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ لِيَالٍ وَلَلَّيَالِيًا حُسُومًا﴾ متتابعات جمع حاسم من حسمت الدابة إذا تابعت بين كَيْهَا، أو نَحَسَاتٍ حسمت كل خير واستأصلته، أو قاطعاتٍ قطعت دابرهم، ويجوز أن يكون مصدراً منتصباً على العلة بمعنى قطعاً، أو المصدر لفعله المقدر حالاً أي تحسمهم حسوماً ويؤيده القراءة بالفتح، وهي كانت أيام العجوز من صبيحة أربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وإنما سُمِّيَتْ عجوزاً لأنها عَجَزُ الشتاء، أو لأنَّ عجوزاً من عادٍ توارث في سربٍ فانتزعنها الريح في الثامن فأهلكتها. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ﴾ إن كنت حاضراً في مهابها أو في الليالي والأيام. ﴿صَرَعَى﴾ موتى جمع صريع. ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصول نخلي. ﴿خَاوِبِيَّ﴾ متأكلة الأجواف.

فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَصَوَّرَ رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾

- (٨) ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ من بقية أو نفس باقية أو بقاء.
- (٩) ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ ومن تقدمه. وقرأ البصريان والكسائي ومن قبله أي ومن عنده من أتباعه، ويدل عليه أنه قرئ ومن معه. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ قرئ قوم لوط والمراد أهلها. ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ أو بالفعل، أو الأفعال ذات الخطأ.
- (١٠) ﴿فَصَوَّرَ رَسُولُ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها. ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ زائدة في الشدة زيادة أعمالهم في القبح.
- (١١) ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ جاوز حده المعتاد، أو طغى على خزانها وذلك في الطوفان وهو يؤيد من قبله. ﴿حَمَلَتُكُمْ﴾ أي آباءكم وأنتم في أصلابهم. ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام.
- (١٢) ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ لنجعل الفعلية وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين. ﴿تَذْكِرَةً﴾ عبرة ودلالة على قدرة الصانع وحكمته وكمال قهره ورحمته. ﴿وَتَعِيَهَا﴾ وتحفظها، وعن ابن كثير تعيها بسكون العين تشبيهاً بكتف، والوعى أن تحفظ الشيء في نفسك والإيعاء أن تحفظه في غيرك. ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكير فيه والعمل بموجبه، والتذكير للدلالة على قلتها وأن من هذا شأنه مع قلته تسبب لإنجاء الجم الغفير وإدامة نسلهم. وقرأ نافع أذن بالتخفيف.
- (١٣) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها تفخيماً لشأنها وتنبهاً على مكانها عاد إلى شرحها. وإنما حسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقيدته، وحسن تذكيره

للفضل، وقرئ نفخة بالنصب على إسناد الفعل إلى الجار والمجرور والمراد بها النفخة الأولى التي عندها خراب العالم.

وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَبُ ﴿١٩﴾

(١٤) ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رُفِعَتْ من أماكنها بمجرد القدرة الكاملة، أو بتوسط زلزلة أو ريح عاصفة. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ فضربت الجبلتان بعضهما ببعض ضربة واحدة فيصير الكل هباءً، أو قبسطناً بسطة واحدة فصارتا أرضاً لا عوج فيها ولا أمناً لأن الدك سبب للتسوية، ولذلك قيل ناقة دكاء للتي لا سنام لها، وأرض دكاء للمتسعة المستوية.

(١٥) ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ. ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة.

(١٦) ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ لتزول الملائكة. ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة مسترخية.

(١٧) ﴿وَالْمَلَكُ﴾ والجنس المتعارف بالملك. ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ جوانبها جمع رجا بالقصر، ولعله تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان وانضواء أهلها إلى أطرافها وحواليها، وإن كان على ظاهره فلعل هلاك الملائكة أثر ذلك. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء، أو فوق الثمانية لأنها في نية التقديم. ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ﴾ ثمانية أملاك، لما روي مرفوعاً «أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين»^(١). وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله، ولعله أيضاً تمثيل لعظمته بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام وعلى هذا قال:

(١٨) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ تشبيهاً للمحاسبة بعرض السلطان العسكر لتعرف أحوالهم، وهذا وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم اسماً لزمان متسع تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار صح جعله ظرفاً للكل. ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرة على الله تعالى حتى يكون العرض للاطلاع عليها، وإنما المراد منه إفشاء الحال والمبالغة في العدل، أو على الناس كما قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْلَى التَّوَابِرُ﴾^(٢) وقرأ حمزة والكسائي بالياء للفضل.

(١٩) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ تفصيل للعرض. ﴿فَيَقُولُ﴾ تبجحاً. ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَبُ﴾ هاء اسم لخذ، وفيه لغات أجودها هاء يا رجل وهاء يا امرأة وهاء يا رجلان أو يا امرأتان وهاء يا رجال

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج ٢٩/٥٩) عن ابن إسحاق. وفيه محمد بن حميد الرازي ضعيف. كما أن الحديث معضل.

● وقال صاحب البحر المحيط (٨/٣٢٤): «وذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكلاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً» هـ.

(٢) الطارق: «٩».

وهاؤُنْ يا نسوةُ، ومفعولُه محذوفٌ، وكتابه مفعولٌ اقروا لأنه أقربُ العَامِلَيْنِ، ولأنه لو كانَ مفعولٌ هَاؤُمَ لَقِيلَ اقرووه إذ الأوْلَى إضماره حيثُ أمكنَ والهاءُ فيه وفي حَسَابِيه ومَالِيه وسلْطَانِيه لِلسَّكْتِ ثَبُتٌ فِي الوقْفِ وتسقطُ فِي الوصلِ، واستُحِبَّ الوقْفُ لثباتها فِي الإمام، ولذلك قرئ بِإثباتها فِي الوصلِ.

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسَابِيَّةٌ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيَّةٍ ﴿٢٥﴾ وَلَرَأُوتَ مَا حَسَابِيَّةٌ ﴿٢٦﴾ يَلَيِّنِيهَا كَأَنَّ الْفَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهٖ ﴿٢٨﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ﴿٣٠﴾ تَرْلَجْجِمَ صَلْوُهُ ﴿٣١﴾

(٢٠) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسَابِيَّةٌ﴾ أي علمتُ، ولعلَّه عبَّرَ عنه بِالظَّنِّ إشعاراً بأنه لَا يَقْدَحُ فِي الاعتقادِ مَا يَهْجِسُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْخَطَرَاتِ الَّتِي لَا تَنْفَكُ عَنْهَا الْعُلُومُ النَّظَرِيَّةُ غَالِبًا.

(٢١) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ذاتِ رِضا عَلَى النِّسْبَةِ بِالصَّيغَةِ، أَوْ جَعَلَ الْفِعْلَ لَهَا مَجَازًا وَذَلِكَ لَكُونِهَا صَافِيَةً عَنِ الشَّوَابِ دَائِمَةً مَقْرُونَةً بِالتَّعْظِيمِ.

(٢٢) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مَرْتَفَعَةِ الْمَكَانِ لِأَنَّهَا فِي السَّمَاءِ، أَوْ الدَّرَجَاتِ أَوْ الْأَبْنِيَةِ وَالْأَشْجَارِ.

(٢٣) ﴿قُطُوفُهَا﴾ جَمْعُ قِطْفٍ وَهُوَ مَا يُجْتَنَى بِسُرْعَةٍ وَالْقِطْفُ بِالْفَتْحِ الْمَصْدَرُ. ﴿دَانِيَةٌ﴾ يَتَنَاوَلُهَا الْقَاعِدُ.

(٢٤) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ بِإِضْمَارِ الْقَوْلِ، وَجُمِعَ الضَّمِيرُ لِلْمَعْنَى. ﴿هَنِيئًا﴾ أَكَلًا وَشَرِبًا هَنِيئًا أَوْ هَتْمًا هَنِيئًا. ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بِمَا قَدَّمْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الْمَاضِيَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا.

(٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ لَمَّا يَرَى مِنْ قُبْحِ الْعَمَلِ وَسُوءِ الْعَاقِبَةِ. ﴿يَلَيِّنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيَّةٍ﴾.

(٢٦) ﴿وَلَرَأُوتَ مَا حَسَابِيَّةٍ﴾.

(٢٧) ﴿يَلَيِّنِيهَا﴾ يَأْلِيَتِ الْمَوْتَةَ الَّتِي مِثُّهَا. ﴿كَأَنَّ الْفَاضِيَةَ﴾ الْقَاطِعَةَ لِأَمْرِي فَلَمْ أُبْعَثْ بَعْدَهَا، أَوْ يَأْلِيَتِ هَذِهِ الْحَالَةَ كَانَتِ الْمَوْتَةُ الَّتِي قَضَتْ عَلَيَّ لِأَنَّهُ صَادِقُهَا أَمْرٌ مِنَ الْمَوْتِ فَتَمَتَّنَاهُ عِنْدَهَا، أَوْ يَأْلِيَتِ حَيَاةَ الدُّنْيَا كَانَتِ الْمَوْتَةُ وَلَمْ أُخْلَقْ فِيهَا حَيًّا.

(٢٨) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهٖ﴾ مَالِي مِنَ الْمَالِ وَالتَّبَعِ. وَمَا نَفَيْتُ الْمَفْعُولَ مُحذَوْفٌ، أَوْ اسْتَفْهَامٌ لِإِنْكَارِ مَفْعُولٍ لِأَغْنَىٰ.

(٢٩) ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ مُلْكِي وَتَسْلُطِي عَلَى النَّاسِ، أَوْ حُجَّتِي الَّتِي كُنْتُ أَحْتِجُّ بِهَا فِي الدُّنْيَا. وَقُرَأَ حَمْزُهُ عَنِّي مَالِي سُلْطَانِي بِحَذْفِ الْهَاءِ فِي الْوَصْلِ، وَالْبَاقُونَ بِإِثْبَاتِهَا فِي الْحَالِ.

(٣٠) ﴿خَذُوهُ﴾ يَقُولُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِخَزَنَةِ النَّارِ. ﴿فَعْلُوهُ﴾.

(٣١) ﴿تَرْلَجْجِمَ صَلْوُهُ﴾ ثُمَّ لَا تُضْلُوهُ إِلَّا الْجَحِيمَ، وَهِيَ النَّارُ الْعُظْمَى لِأَنَّهُ كَانَ يَتَعَطَّمُ عَلَى النَّاسِ.

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٢) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي طويلة. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده وهو فيما بينها مرهق لا يقدر على حركة، وتقديم السلسلة كتقديم الجحيم للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يُعَذَّبُ به، وثم لتفاوت ما بينها في الشدة.

(٣٣) ﴿إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة، وذكر العظيم للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم فيها استوجب ذلك.

(٣٤) ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ولا يحض على بذل طعامه أو على إطعامه فضلاً عن أن يبذل من ماله، ويجوز أن يكون ذكر الحض للإشعار بأن تارك الحض بهذه المتزلة فكيف بتارك الفعل. وفيه دليل على تكليف الكفار بالفروع، ولعل تخصيص الأمرين بالذكر لأن أفتح العقائد الكفر بالله تعالى وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب.

(٣٥) ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ﴾ قريب يحميه.

(٣٦) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غسالة أهل النار وصديدهم فغسلين من الغسل.

(٣٧) ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أصحاب الخطايا من خطيء الرجل إذا تعمّد الذنب لا من الخطأ المضاد للصواب. وقرئ الخاطيون بقلب الهمزة ياء، والخطاؤون بطرحها.

(٣٨، ٣٩) ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغناؤه عن التحقيق بالقسم، أو فأقسم ولا مزيدة، أو فلا ردّ لإنكارهم البعث وأقسم مستأنف. ﴿وَمَا تَبْصِرُونَ﴾ ﴿وَمَا لَا تَبْصِرُونَ﴾ بالمشاهدات والمعيات وذلك يتناول الخالق والمخلوقات بأسرها.

(٤٠) ﴿إِنَّهُ﴾ ﴿إِنَّ الْقُرْآنَ﴾ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلغه عن الله تعالى فإن الرسول لا يقول عن نفسه. ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو محمد أو جبريل عليهما الصلاة والسلام.

(٤١) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمون تارة. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ تصدقون لما ظهر لكم صدقه تصديقاً قليلاً لفزط عناذك.

(٤٢) ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ كما تدعون أخرى. ﴿قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ تذكرون تذكراً قليلاً، فلذلك يلتبس الأمر عليكم وذكر الإيمان مع نفي الشاعرية للتذكير مع نفي الكاهنية، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمرٌ يبين لا ينكره إلا معاندٌ بخلاف مبايئته للكهانة، فإنها تتوقف على تذكر أحوال الرسول ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم. وقرأ ابن كثير ويعقوب بالياء فيهما.

نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَذَكَّرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّكُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

(٤٣) ﴿نَزِيلٌ﴾ هو تنزيل. ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَّلَهُ عَلَى لِسَانِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٤٤) ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ سُمِّيَ الْاِفْتِرَاءُ تَقْوِيلاً لَّأَنَّهُ قَوْلٌ مُّتَكَلِّفٌ، وَالْأَقْوَالُ الْمَفْتَرَاةُ أَقَاوِيلُ تَحْقِيرًا لِّهَا كَأَنَّهُ جَمْعُ أَفْعُولَةٍ مِنَ الْقَوْلِ كَالْأَصْحَابِكِ.

(٤٥) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ بِيَمِينِهِ.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ أَي نِيَاطَ قَلْبِهِ بِضَرْبِ عُنُقِهِ، وَهُوَ تَصْوِيرٌ لِإِهْلَاكِهِ بِأَفْطَحِ مَا يَفْعَلُهُ الْمَلُوكُ بِمَنْ يَغْضَبُونَ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ الْمَقْتُولَ بِيَمِينِهِ وَيَكْفَحُهُ بِالسِّيفِ وَيَضْرِبُ بِهِ جَنْدَهُ، وَقِيلَ الْيَمِينُ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ.

(٤٧) ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ عَنِ الْقَتْلِ أَوْ الْمَقْتُولِ. ﴿حَاجِزِينَ﴾ دَافِعِينَ وَصَفٌ لِأَحَدٍ فَإِنَّهُ عَامٌّ وَالْخَطَابُ لِلنَّاسِ.

(٤٨) ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ وَإِنَّ الْقُرْآنَ. ﴿لَتَذَكَّرُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لِأَنَّهُمُ الْمُتَفَعِّلُونَ بِهِ.

(٤٩) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ فَنَجَازِيهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ.

(٥٠) ﴿وَإِنَّكُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إِذَا رَأَوْا ثَوَابَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

(٥١) ﴿وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ لِلْيَقِينِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فَسَبَّحَ اللَّهُ بِذِكْرِ اسْمِهِ الْعَظِيمِ تَنْزِيهاً لَهُ عَنِ الرِّضَا بِالتَّقْوَلِ عَلَيْهِ وَشُكْرًا عَلَى مَا أَوْحَى إِلَيْكَ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَاقَةِ حَاسِبُهُ اللَّهُ تَعَالَى حَسَاباً يَسِيراً»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدُودٍ وَالْوَاهِدِيُّ وَالثَّعْلَبِيُّ عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ كَمَا فِي «الكَافِي الشَّافِي» (ص ١٧٧ رقم ٢١٧).
وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي آخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ أَفْئِدَةِ الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَخْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾

سورة المعارج مكية^(١)، وآيها أربع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داع به بمعنى استدعاه ولذلك عدِّي الفعل بالباء، والسائل هو النضر بن الحارث فإنه قال: «إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ»^(٢) الآية، أو أبو جهل فإنه قال «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ»^(٣) سأله استهزاء، أو الرسول عليه الصلاة والسلام استعجل بعذابهم. وقرأ نافع وابن عامر سأل وهو إما من السؤالِ على لغة قريش قال:

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠٦/١٦): «وهي مكية لا خلاف بين الرواة في ذلك».

(٢) الأنفال الآية «٣٢».

وأخرج الحديث الحاكم في «المستدرک» (٥٠٢/٢) عن سعيد بن جبیر. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: على شرط البخاري فقط.

وأورده السيوطي في «الدر» (٢٧٧/٨) وزاد نسبته للغريابي، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٥٥/٢٩) بدون سند ولا راو.

سألت هذيلٌ رسولَ الله فاحشةً ضلّت هذيلٌ بما سألت ولم تُصِبِ

أو من السيلان ويؤيده أنه قرئ سأل سيلٌ على أنَّ السيلَ مصدرٌ بمعنى السائل كالغور والمعنى سأل وإدب عذاب. ومُضِيّ الفعل لتحقق وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدرٍ أو في الآخرة وهو عذاب النار.

(٢) ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفةٌ أخرى لعذاب أو صلةٌ لواقع وإن صحَّ أن السؤالَ كان عمَّن يقع به العذاب كان جواباً، والباءُ على هذا لتضمينِ سأل معنى اهتمَّ ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ يرُدُّه.

(٣) ﴿مَنْ أَلَّهِ﴾ من جهته لتعلُّق إرادته ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعد وهي الدرجات التي يَصْعَدُ فيها الكلمُ الطيبُ العملُ الصالحُ أو يترقَّى فيها المؤمنون في سلوكهم أو في دار ثوابهم أو مراتب الملائكة أو في السموات فإنَّ الملائكة يعرجون فيها.

(٤) ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ استئنافٌ لبيان ارتفاع تلك المعارج وبُعْد مداها على التمثيل والتخييل، والمعنى أنها بحيث لو قُدِّرَ قطعها في زمان لكان في زمان يقدر بخمسين ألف سنة من سني الدنيا. وقيل معناه تعرج الملائكة والروح إلى عرشه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة من حيث إنهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسان فيها لو فرض لا أنَّ ما بين أسفل العالم وأعلى شُرَفَاتِ العرش مسيرة خمسين ألف سنة لأن ما بين مركز الأرض ومقرع السماء الدنيا على ما قيل مسيرة خمسمائة عام وثخن كل واحد من السموات السبع والكرسي والعرش كذلك، وحيث قال في يوم كان مقداره ألف سنة يريد زمان عروجهم من الأرض إلى محذب السماء الدنيا. وقيل في يوم متعلِّق بواقع أو سأل إذا جُعِلَ من السيلان والمراد به يوم القيامة واستطالته إما لشدته على الكفار أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات أو لأنه على الحقيقة كذلك، والروح جبريل عليه السلام وإفراده لفضله أو خلق أعظم من الملائكة.

(٥) ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لا يشوبه استعجالٌ واضطرابٌ قلبٍ وهو متعلِّقٌ بِسَأَلٍ لأن السؤالَ كان عن استهزاء أو تعنتٍ وذلك مما يضجره أو عن تضجرٍ واستبطاءٍ للنصر أو بسأل لأن المعنى قرب وقوع العذاب فاصبر فقد شارفت الانتقام.

(٦) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ الضمير للعذاب أو يوم القيامة ﴿بِمِذَا﴾ من الإمكان.

(٧) ﴿وَنَرَنَاهُ فِي سَبِيلٍ﴾ منه أو من الوقوع.

(٨) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ ظرفٌ لقريباً أي يمكن يوم تكون أو لمضمر دلَّ عليه واقعٌ أو بدل من في يوم إن علق به، والمهل المذاب في مهلٍ كالفلزات أو دردي الزيت.

(٩) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً لأنَّ الجبالَ مختلفةُ الألوان فإذا بُسِثَ وطِيرَتْ في الجو أشبهت العِهْن المنفوش إذا طيرته الريح.

(١٠) ﴿وَلَا يَسْأَلُ قَرِيبٌ قَرِيبًا عَنْ حَالِهِ﴾ ولا يسأل قريبٌ قريباً عن حاله. وعن ابن كثير ولا يُسأل على بناء المفعول أي لا يُطلب من حميمٍ حميمٌ، أو لا يسأل منه حاله.

(١١) ﴿يُضَرُّوهُمْ﴾ استئنافٌ أو حال تدل على أن المانع من هذا السؤال هو التشاغلُ دون الخفاء أو

ما يغني عنه من مشاهدة الحال كيباض الوجه وسواده . وجمعُ الضميرين لعموم الحميم . ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ .
﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِنَبِيٍّ﴾ .

وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ
لِلْشَوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾
وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾

(١٢) ﴿وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ حالٌ من أحد الضميرين أو استئناف يدلُّ على أن اشتغال كل مجرم بنفسه بحيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلاً أن يهتم بحاله ويسأل عنها . وقرأ نافع والكسائي بفتح ميم يومئذٍ ، وقرئ بتنوين عذابٍ ونصب يومئذ به لأنه بمعنى تعذيب .
(١٣) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرته الذين فصل عنهم ﴿الَّتِي تُتَوَبُّ﴾ تضمُّه في النسب أو عند الشدائد .
(١٤) ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين أو الخلائق ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ عطفٌ على يفتدي أي ثم ينجيه الافتداء وثم للاستبعاد .

(١٥) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للمجرم عن الودادة ودلالةٌ على أنَّ الافتداء لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير للنار أو مبهمٌ يفسره ﴿لَظَىٰ﴾ وهو خبرٌ أو بدل أو للقصة ولظى مبتدأ خبره :

(١٦) ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ وهو اللهب الخالص وقيل علمٌ للنار منقولٌ من اللَّظَى بمعنى اللهب . وقرأ حفص عن عاصم نزاعةً بالنصب على الاختصاص أو الحال المؤكدة أو المتقلبة على أن لظى بمعنى متلظى والشوى الأطراف أو جمع شواة وهي جلدة الرأس .

(١٧) ﴿تَدْعُو﴾ تجذب وتُخَصِّرُ كقول ذي الرِّمة ، تدعو أُنْفَه الرَّبِّ ، مجازٌ عن جذبها وإحضارها لمن فرَّ عنها ، وقيل تدعو زبانيتهَا ، وقيل تدعو تهلك مِنْ قولهم دعاه الله إذا أهلكه ﴿مَنْ أَذْبَرَ﴾ عن الحقِّ ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة .

(١٨) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ وجمع المال فجعله في وعاء وكنزه حرصاً وتأميلاً .

(١٩) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ شديد الحرص قليل الصبر .

(٢٠) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضر ﴿جَزُوعًا﴾ يكثر الجزع .

(٢١) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ السعة ﴿مَنُوعًا﴾ يبالغ بالإمساك ، والأوصاف الثلاثة أحوالٌ مقدرةٌ أو محققةٌ لأنها طبائعٌ جُبِلَ الإنسان عليها ، وإذا الأولى ظرفٌ لجزوعاً والأخرى لمنوعاً .

(٢٢) ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ استثناءٌ للموصوفين بالصفات المذكورة بعد من المطبوعين على الأحوال المذكورة قبل لمضادة تلك الصفات لها من حيث إنها دالةٌ على الاستغراق في طاعة الحق والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل وتلك ناشئة من الانهماك في حبِّ العاجل وقصور النظر عليها .

الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ
الَّذِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾
إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لَأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ
مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿٢٣﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿﴾ لا يشغلهم عنها شاغلٌ.

﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿﴾ كالزكوات والصدقات الموقوفة.

﴿٢٥﴾ لِلسَّائِلِ ﴿﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأل فيحسب نفسه غنياً فيُحرّم.

﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الَّذِينَ ﴿﴾ تصديقاً بأعمالهم وهو أن يتعب نفسه ويصرف ماله طمعاً في المشوبة

الأخرى ولذلك ذكر الدين.

﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿﴾ خائفون على أنفسهم.

﴿٢٨﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿﴾ اعتراضٌ يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله وإن بالغ في

طاعته.

﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿﴾

﴿٣٠﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿﴾

﴿٣١﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿﴾ سبق تفسيره في سورة المؤمنين.

﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿﴾ حافظون، وقرأ ابن كثير لأمانتهم يعني لا يخونون ولا ينكرون

ولا يخفون ما علموه من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿﴾ وقرأ يعقوب وحفص بشهاداتهم لاختلاف الأنواع^(١).

﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿﴾ فيراعون شرائطها ويكملون فرائضها وسُنَّتها. وتكرير ذكر الصلاة

ووصفهم بها أولاً وآخرأ باعتبارين للدلالة على فضلها وإنافيتها على غيرها، وفي نظم هذه الصلاة
مبالغاً لا تخفى^(٢).

﴿٣٥﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿﴾ بثواب الله تعالى.

(١) وتخصيص القيام بالشهادة مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها (س/٣٣/٩).

(٢) وتكرير الموصولات «الذين» لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات، كما في قول من قال:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب في المزدحم

(س/٣٤/٩).

فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُلِّبَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٦﴾ أَطِيعُوا كُلَّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٣٩﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤٠﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَحْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٣﴾

(٣٦) ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُلِّبَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ حولك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين.

(٣٧) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ فِرْقًا شَتَى، جمعُ عِزَّةٍ وأصلها عزوةٌ من العزو، وكان كلُّ فرقةٍ تعتري إلى غير مَنْ تعتري إليه الأخرى، وكان المشركون يحتفونَ حولَ رسولِ الله ﷺ حلقاً حلقاً ويستهنئون بكلامه.

(٣٨) ﴿أَطِيعُوا كُلَّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان وهو إنكارٌ لقولهم لو صحَّ ما يقوله لنكون فيها أفضلَ حظاً منهم كما في الدنيا.

(٣٩) ﴿كَلَّا﴾ ردُّعٌ لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تعليلٌ له والمعنى أنهم مخلوقون من نطفةٍ مذرَّةٍ لا تناسبُ عالمَ القدسِ فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة ولم يتخلَّق بالأخلاق الملكية لم يستعدَّ لدخولها، أو إنكم مخلوقون من أجل ما تعلمون وهو تكميلُ النفسِ بالعلم والعمل فمن لم يستكملها لم يتبوأ في منازل الكاملين، أو الاستدلالُ بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية التي بنوا الطمع على فرضها فرضاً مستحيلاً عندهم بعد ردِّعهم عنه.

(٤٠) ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾.

(٤١) ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلقٍ أمثلَ منهم أو نعطي محمداً بدلاً من هو خيرٌ منكم وهم الأنصار. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك.

(٤٢) ﴿فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ مرَّ في آخر سورة الطور^(١).

(٤٣) ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَحْدَاثِ سِرَاعًا﴾ مسرعين جمعُ سريعٍ ﴿كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ منصوبٍ للعبادة أو علمٍ ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون. وقرأ ابن عامر وحفصٌ إلى نُصْبٍ بضم النون والصاد، والباقون من السبعة نُصْبٍ بفتح النون وسكون الصاد، وقرئ بالضم على أنه تخفيف نُصْبٍ أو جمعٌ.

(٤٤) ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ﴾ مرَّ تفسيره ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَالٍ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَعْطَاهُ ثَوَابَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ»^(٢).

(١) الطور: «٤٥».

(٢) وهو حديث موضوع. أخرجه الواحدي وابن مردويه والشعلبي من حديث أبي بن كعب كما ذكره الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٧٧ رقم ٢٢١). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

سورة نوح مكية^(١) وآياتها تسع أو ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ﴾ أي بأن أنذر أي بالإنذار، أو بأن قلنا له أنذر، ويجوز أن تكون مفسرة لتضمين الإرسال معنى القول، وقرئ بغير أن على إرادة القول. ﴿قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب الآخرة أو الطوفان.

(٢) ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

(٣) ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ مرّ في الشعراء نظيره وفي أن يُخْتَمَلُ الوجهان.

(٤) ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يغفر لكم بعض ذنوبكم وهو ما سبق فإن الإسلام يجتبه فلا يؤاخذكم به في الآخرة. ﴿وَيُخَذِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قدّر لكم بشرط الإيمان والطاعة. ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ إنَّ الأجل الذي قدّره. ﴿إِذَا جَاءَ﴾ على الوجه المقدّر به أجلاً. وقيل إذا جاء الأجل الأطول. ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير. ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك، وفيه أنهم لانهمّاكهم في حبّ الحياة كأنهم شاكّون في الموت.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/١٢٠): «وهي مكية بإجماع المتأولين».

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ ﴿٧﴾ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿١٠﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾

(٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً.

(٦) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ عن الإيمان والطاعة، وإسناد الزيادة إلى الدعاء على السببية كقوله ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^(١).

(٧) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان. ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه. ﴿جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ﴾ سَدُّوا مسامعهم عن استماع الدعوة. ﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ تَغَطُّوا بها لئلا يروني كراهة النظر إليّ مَنْ فَرَّطَ كراهة دعوتي، أو لئلا أعرّفهم فادعُوهم، والتعبير بصيغة الطلب للمبالغة. ﴿وَأَصْرُوا﴾ وأكثبوا على الكفر والمعاصي مستعار من أصرَّ الحمار على العانة^(٢) إذا صرَّ أذنيه وأقبل عليها. ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباعي. ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ عظيماً.

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي دعوتهم مرة بعد أخرى وكرة بعد أولى على أي وجه أمكنني. وثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بينهما أغلظ من الأفراد، أو لتراخي بعضها عن بعض. وجهاراً نُصِبَ على المصدر لأنه أحد نوعي الدعاء؛ أو صفة مصدر محذوف بمعنى دعاء جهاراً أي مجاهرأ به، أو الحال فيكون بمعنى مجاهرأ.

(١٠) ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين وكانهم لما أمرهم بالعبادة قالوا: إن كنا على حق فلا نتركه وإن كنا على باطل فكيف يقبلنا ويلطف بنا من عصيانه، فأمرهم بما يجب معاصيهم ويجلب إليهم المنع ولذلك وعدهم عليه ما هو أوقع في قلوبهم. وقيل لما طالبت دعوتهم وتمادى إصرارهم حبس الله عنهم القطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نسايتهم فوعدهم بذلك على الاستغفار عما كانوا عليه بقوله:

(١١) ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

(١٢) ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء، والسماء تحتل المظلة والسحاب، والمدراة كثير الدور ويستوي في هذا البناء المذكر والمؤنث، والمراد بالجنات البساتين.

(١) التوبة: (١٢٤).

(٢) القطيع من حمير الوحش.

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمَ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّزِيذُهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كُبَارًا ﴿٢٢﴾

(١٣) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تأملون له توقيراً أي تعظيماً لمن عبده وأطاعه فتكونوا على حال تأملون فيها تعظيمها إياكم، والله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار، أو لا تعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه. وإنما عبّر عن الاعتقاد بالرجاء التابع لأدنى الظن مبالغاً.

(١٤) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حال مقررة للإنكار من حيث إنها موجبة للرجاء فإنه خلقهم أطواراً أي تارات، إذ خلقهم أولاً عناصر. ثم مركبات تغذى بها الإنسان ثم أخلاطاً ثم نُطْفَاءً ثم عَلَقاً ثم مُضْغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأهم خلقاً آخر، فإنه يدلُّ على أنه يمكن أن يعيدهم تارة أخرى فيعظمهم بالثواب وعلى أنه تعالى عظيم القدرة تام الحكمة، ثم أتبع ذلك ما يؤيده من آيات الآفاق فقال:

(١٥) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي في السموات وهو في السماء الدنيا، وإنما نُسب إليهن لما بينهما من الملاسة. ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ مثلها به لأنها تزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض كما يزيلها السراج عما حوله.

(١٧) ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أنشأكم منها فاستعير النبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث والتكوين من الأرض، وأصله أنبتكم من الأرض نباتاً فنبت نباتاً فاختصره اكتفاء بالدلالة الالتزامية.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالحشر، وأكده بالمصدر كما أكده به الأول دلالة على أن الإعادة محققة كالإبداء، وأنها تكون لا محالة.

(١٩) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلبون عليها.

(٢٠) ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ واسعة جمع فِجْ، ومن لتضمن الفعل معنى الاتخاذ.

(٢١) ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمَ عَصَوِي﴾ فيما أمرتهم به. ﴿وَأَتَّبِعُوا مَن لَّزِيذُهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ واتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، وفيه أنهم إنما اتبعوهم لوجاهة حصلت لهم بالأموال والأولاد وأدت بهم إلى الخسار. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي والبصريان وولده بالضم والسكون، على أنه لغة كالحزن والحزن أو جمع كالأسد.

(٢٢) ﴿وَمَكْرُؤًا﴾ عطف على لم يزد والضمير لمن وجمعه للمعنى. ﴿مَكْرًا كُبَارًا﴾ كبيراً في الغاية فإنه أبلغ من كبار وهو من كبير، وذلك احتيالهم في الدين وتحريش الناس على أذى نوح.

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿٢٨﴾

(٢٣) ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي عبادتها. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ولا تذرُنَّ هؤلاء خصوصاً. قيل هي أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا صُوروا تبرُّكاً بهم، فلما طال الزمان عُبدوا، وقد انتقلت إلى العرب فكان وُدُّ لكلب، وسواعٌ لهمدان، ويغوثٌ لمذحج، ويعوقٌ لمُرَاد، ونسرٌ لحمير. وقرأ نافع وُدًّا بالضم، وقرئ يغوثاً ويعوقاً للتناسب، ومنع صرفهما للعلمية والعجمة.

(٢٤) ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ الضمير للرؤساء أو للأصنام كقوله ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾^(١). ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ عطفٌ على ربِّ إنهم عصوني^(٢)، ولعلَّ المطلوب هو الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم لا في أمر دينهم، أو الضياع والهلاك كقوله ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾^(٣).

(٢٥) ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ من أجل خطيئاتهم، وما مزيدة للتأكيد والتفخيم، وقرأ أبو عمرو مما خطاياهم. ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان. ﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ المراد عذاب القبر أو عذاب الآخرة، والتعقيب لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، أو لأن المسبب كالمتعقب للسبب وإن تراخى عنه لفقد شرط أو وجود مانع، وتنكير النارٍ للتعظيم، أو لأنَّ المراد نوعٌ من النيران. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ تعريضٌ لهم باتخاذ آلهة من دون الله لا تقدر على نصرهم.

(٢٦) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً وهو مما يُسْتَعْمَلُ في النفي العام فَيَعَالٍ مِنَ الدَّارِ أو الدَّوْرِ. وأصله ديوارٌ ففُعِلَ به ما فُعِلَ بأصل سيّد لأفعال وإلا لكان دَوَّارًا.

(٢٧) ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال ذلك لما جرّبهم واستفروا أحوالهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف شيمهم وطباعهم.

(٢٨) ﴿رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ لِمَلِكِ بْنِ مَتوشلخ وشمخا بنتِ أنوش وكانا مؤمنين. ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ منزلي أو مسجدي أو سفيتي. ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ هلاكاً. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ نُوحٍ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَذَرُكُهُمْ دَعْوَةُ نُوحٍ»^(٤).

(١) إبراهيم: «٣٦».

(٢) ووضع الظاهر «الظالمين» موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفترط وتعليل الدعاء عليهم به (س ٩/٤١).

(٣) القمر: «٤٧».

(٤) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٧ رقم ٢٢٧).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْجِنِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۖ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ
بِرَبِّنَا أَحَدًا ۖ (٢) وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۖ (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۖ (٤)
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ (٥)

سورة الجن مكية^(١) وآيها ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقرئ أحيى وأصله وحي من وحى إليه فقلبت الواو همزة لضممتها ووحى على الأصل وفاعله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة. والجن أجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية أو الهوائية، وقيل نوع من الأرواح المجردة، وقيل نفوس بشرية مفارقة عن أبدانها. وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبر الله به رسوله. ﴿فَقَالُوا﴾ لما رجعوا إلى قومهم. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ كتاباً. ﴿عَجَبًا﴾ بديعاً مبيناً لكلام الناس في حسن نظمه ودقة معناه. وهو مصدرٌ وُصف به للمبالغة.

(٢) ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ إلى الحق والصواب. ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ على ما نطق به الدلائل القاطعة على التوحيد.

(٣) ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأه ابن كثير والبصريان بالكسر على أنه من جملة المحكي بعد القول، وكذا ما بعده إلا قوله ﴿وَأَلَّوْا اسْتَقَمُوا﴾^(٢)، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾^(٣)، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/١٣٠): «وهي مكية بإجماع المفسرين».

(٢) الجن: «١٦».

(٣) الجن: «١٨».

فَأَمَّ ﴿١﴾ فَإِنِهَا مِنْ جَمَلَةِ الْمَوْحَى بِهِ وَوَافَقَهُمْ نَافِعٌ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَّا فِي قَوْلِهِ ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ﴾ ^(٢) عَلَى أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ أَوْ مَقُولٌ، وَفَتْحُ الْبَاقُونَ الْكُلَّ إِلَّا مَا صُدِّرَ بِالْفَاءِ عَلَى أَنَّ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ فَمَعْطُوفٌ عَلَى مُحَلِّ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ فِي بِهِ كَأَنَّهُ قِيلَ: صَدَقْنَا أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا أَيَّ عَظَمَتُهُ مِنْ جَدِّ فَلَانٌ فِي عَيْنِي إِذَا عَظُمَ، أَوْ سُلْطَانُهُ أَوْ غِنَاهُ مُسْتَعَارٌ مِنَ الْجَدِّ الَّذِي هُوَ الْبَخْتُ، وَالْمَعْنَى وَضَعَهُ بِالتَّعَالِي عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ لِعَظَمَتِهِ أَوْ لِسُلْطَانِهِ أَوْ لَغِنَاهُ وَقَوْلِهِ: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بَيَانٌ لَذَلِكَ. وَقُرِئَ جَدًّا عَلَى التَّمْيِيزِ، وَجَدَ رَبَّنَا بِالْكَسْرِ أَيَّ صَدَقَ رَبُّوِيَّتُهُ، كَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَبَّهَهُمْ عَلَى خَطِئِهِ مَا اعْتَقَدُوهُ مِنَ الشَّرِكِ وَاتَّخَذُوا الصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ.

(٤) ﴿وَأَنْتُمْ كَأَن تَقُولُ سَفِيهًا﴾ إِبْلِيسُ أَوْ مُرَدَّةُ الْجِنِّ. ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قَوْلًا ذَا شَطَطٍ وَهُوَ الْبَعْدُ وَمَجَاوِزَةُ الْحَدِّ، أَوْ هُوَ شَطَطٌ لِفَرْطِ مَا أَشْطَّ فِيهِ، وَهُوَ نِسْبَةُ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ.

(٥) ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ اعْتِذَاؤُ عَنِ اتِّبَاعِهِمُ السَّفِيهَةَ فِي ذَلِكَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ أَحَدًا لَا يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، وَكَذِبًا نَصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْوَصْفِ الْمَحْذُوفِ، أَيَّ قَوْلًا مَكْذُوبًا فِيهِ، وَمَنْ قَرَأَ أَنْ لَنْ تَقُولَ كَيْعَقُوبَ جَعَلَهُ مَصْدَرًا لِأَنَّ التَّقْوِيلَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذِبًا.

وَأَنْتُمْ كَانِ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَؤُودُونَ رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنْتُمْ ظَنُّوْا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَحِجِدْ لِمُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَأَنْتُمْ كَانِ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَؤُودُونَ رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ فَإِنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا أَمْسَى بِقَفْرِ قَالَ أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ سَفَهَاءِ قَوْمِهِ. ﴿فَرَادَوْهُمْ﴾ فَرَادُوا الْجِنَّ بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ. ﴿رَهَقًا﴾ كِبْرًا وَعَتْوًا، أَوْ فَرَادَ الْجِنُّ وَالْإِنْسَ غِيًّا بِأَنْ أَضْلَوْهُمْ حَتَّى اسْتَعَاذُوا بِهِمْ، وَالرَّهَقُ فِي الْأَصْلِ غَشِيَانُ الشَّيْءِ.

(٧) ﴿وَأَنْتُمْ﴾ وَأَنْ الْإِنْسَ. ﴿ظَنُّوْا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْجِنُّ أَوْ بِالْعَكْسِ، وَالْآيَتَانِ مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَوْ اسْتِثْنَاءٌ كَلَامٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ فَتَحَ أَنَّ فِيهِمَا جَعَلَهُمَا مِنَ الْمَوْحَى بِهِ. ﴿أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ سَاءٌ مَسَدٌ مَفْعُولِي ظَنُّوْا.

(٨) ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ طَلَبْنَا بِلُغَةِ السَّمَاءِ أَوْ خَبَرَهَا، وَاللَّمَسُ مُسْتَعَارٌ مِنَ الْمَسِّ لِلطَّلَبِ كَالْجَسِّ يُقَالُ لَمَسَهُ وَالتَّمَسَّهُ وَتَلَمَّسَهُ كَطَلَبِهِ وَاطْلَبَهُ وَتَطَلَّبَهُ. ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا﴾ حُرَّاسًا أَسْمُ جَمْعِ كَالْخَدَمِ. ﴿شَدِيدًا﴾ قَوِيًّا وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَمْنَعُونَهُمْ عَنْهَا. ﴿وَشُهَابًا﴾ جَمْعُ شِهَابٍ وَهُوَ الْمَضِيءُ الْمَتَوَلِّدُ مِنَ النَّارِ.

(٩) ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ﴾ مَقَاعِدُ خَالِيَةٌ عَنِ الْحَرَسِ وَالشُّهْبِ، أَوْ صَالِحَةٌ لِلتَّرْصُدِ وَالِاسْتِمَاعِ، وَلِلْسَمْعِ صِلَةٌ لِنَقْعُدُ أَوْ صِفَةٌ لِمَقَاعِدَ. ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَحِجِدْ لِمُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أَيَّ شِهَابًا رَّاصِدًا

(١) الجن: ١١٩.

(٢) الجن: ١١٩.

له ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم، أو ذوي شهاب راصدين على أنه اسمُ جمعٍ للراصد، وقد مرَّ بيانُ ذلك في الصفات.

وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ كُنْعِجَزَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنُقْنِئَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

(١٠) ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء. ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً.

(١١) ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ المؤمنون الأبرار. ﴿وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي قومٌ دون ذلك فحذف الموصوفَ وهم المقتصدون. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ﴾ ذوي طرائق أي مذاهب، أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال أو كانت طرائقنا طرائق. ﴿قِدْدًا﴾ متفرقةً مختلفةً جمعٌ قِدَّةٍ من قَدٍّ إذا قَطَعَ.

(١٢) ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ علمنا. ﴿أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ كائنين في الأرض أينما كنَّا فيها. ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ هاربين منها إلى السماء، أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ولن نعجزه هرباً إلى طلبنا.

(١٣) ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ أي القرآن. ﴿ءَامَنَّا بِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف، وقرئ فلا يخف والأول أدلُّ على تحقيق نجاه المؤمنين واختصاصها بهم. ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ نقصاً في الجزاء ولا أن يرهقه ذلَّةً، أو جزاء بخسٍ لأنه لم يبخن لأحدٍ حقاً ولم يرهق ظلماً، لأن من حق المؤمن بالقرآن أن يجنب ذلك.

(١٤) ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق وهو الإيمان والطاعة. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ تَوَخَّوْا رشداً عظيماً يبلغهم إلى دار الثواب.

(١٥) ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ تُوقَدُ بهم كما توقدُ بكفارِ الإنس.

(١٦) ﴿وَالْوِ اسْتَقَمُوا﴾ أي أنَّ الشان لو استقام الجنُّ أو الإنسُ أو كلاهما. ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي على الطريقة المثلى. ﴿لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ لوسعنا عليهم الرزق، وتخصيصُ الماء الغدق وهو الكثير بالذكر لأنه أصلُ المعاش والسعة ولعزة وجوده بين العرب.

(١٧) ﴿لِنُقْنِئَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه، وقيل معناه أن لو استقام الجنُّ على طريقتهم القديمة ولم يسلموا باستماع القرآن لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم لنوقعهم في الفتنة ونعذبهم في كفرانهم. ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ عن عبادته أو موعظته أو وحيه. ﴿يَسْلُكْهُ﴾ يدخله، وقرأ غير الكوفيين بالنون. ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه مصدرٌ وُصِفَ به.

وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضَعُ نَارَ صِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

(١٨) ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ مختصة به. ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تعبدوا فيها غيره، ومن جعل أن مقدرة باللام علة للنهي ألغى فائدة الفاء، وقيل المراد بالمساجد الأرض كلها لأنها جعلت للنبي عليه الصلاة والسلام مسجداً، وقيل المسجد الحرام لأنه قبله المساجد ومواضع السجود على أن المراد النهي عن السجود لغير الله، وآراؤه السبعة أو السجودات على أنه جمع مسجد.

(١٩) ﴿وَأَنْتُمْ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي النبي عليه الصلاة والسلام، وإنما ذكر بلفظ العبد للتواضع فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه، والإشعار بما هو المقتضي لقيامه. ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبدُهُ ﴿كَادُوا﴾ كاد الجن. ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ متراكمين من ازدحامهم عليه تعجباً مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته، أو كاد الإنس والجن يكونون عليه مجتمعين لإبطال أمره، وهو جمع لبدية وهي ما تلبد بعضه على بعض كلبدة الأسد. وعن ابن عامر لبدأ بضم اللام جمع لبدية وهي لغة، وقرئ لبدأ كسجداً جمع لابد، ولبدأ كصبر جمع لبود.

(٢٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم أو إطباقكم على مفتي، وقرأ عاصم وحمة قل على الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام ليوافق ما بعده.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ولا نفعاً أو غياً، عبّر عن أحدهما باسمه وعن الآخر باسم سببه أو مسببه إشعاراً بالمعنيين.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أراد بي سوءاً. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ منحرفاً أو ملتجئاً وأصله المدخل من اللحد.

(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ﴾ استثناء من قوله لا أملك فإن التبليغ إرشاد وإنفاغ وما بينهما اعتراض مؤكّد لنفي الاستطاعة، أو من ملتحداً، أو معناه أن لا أبلغ بلاغاً وما قبله دليل الجواب. ﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾ عطف على بلاغاً ومن الله صفته فإن صلته عن كفوله ﷺ ﴿بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً﴾ (١). ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه. ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقرئ فأن على فجزأؤه أن. ﴿خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ جمعه للمعنى.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا كوقعة بذر، أو في الآخرة، والغاية لقوله ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (٢) بالمعنى الثاني، أو لمحذوف دلّ عليه الحال من استضعاف الكفار وعصيانهم له.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦/٦) رقم (٣٤٦١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٢) الجن: (١٩).

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا ﴾ هو أم هم .

قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

(٢٥) ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ ﴾ ما أدري . ﴿ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ غاية تطول مدتها كانه لما سمع المشركون حتى إذا رأوا ما يوعدون قالوا متى يكون إنكاراً، فقيل قل إنه كائن لا محالة ولكن لا أدري ما وقته .

(٢٦) ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ ﴾ هو عالم الغيب . ﴿ فَلَا يُظْهِرُ ﴾ فلا يُطْلِعُ . ﴿ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ أي على الغيب المخصوص به علمه .

(٢٧) ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ لَعَلَّكُمْ بعضه حتى يكون له معجزة . ﴿ مِنْ رَسُولٍ ﴾ بيان لمن، واستدل به على إبطال الكرامات، وجوابه تخصيص الرسول بالملك والإظهار بما يكون بغير وسط، وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون تلقياً عن الملائكة كاطلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء . ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ من بين يدي المرتضى . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ حرساً من الملائكة يحرسونه من اختطاف الشياطين وتخاليلهم .

(٢٨) ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا ﴾ أي ليعلم النبي الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحي، أو ليعلم الله تعالى أن قد أبلغ الأنبياء بمعنى ليتعلق علمه به موجوداً . ﴿ رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كما هي محروسة من التغيير . ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ بما عند الرسل . ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ حتى القطر والرمل . عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْجَنِّ كَانَ لَهُ بَعْدُ كُلُّ جُنِّيٍّ صَدَقَ مُحَمَّدًا أَوْ كَذَّبَ بِهِ عَنقُ رَقِيَّةٍ»^(١) .

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع .

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب .

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٨ رقم ٢٣٤) .

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران .

سُورَةُ الْمِزْمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَهَا الْمِزْمَلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَضْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾
سَنُلْقِيْ عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

سورة المزمل مكية^(١)، وآياتها تسع عشرة أو عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمِزْمَلُ﴾ أصله المترمل من ترمل بشيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاي وقد قرئ به، وبالمزمل مفتوحة الميم ومكسورتها أي الذي زمّله غيره، أو زمّل نفسه. سُمّي به النبي عليه الصلاة والسلام تهجيناً لما كان عليه فإنه كان نائماً أو مرتعداً مما دهشه من بدء الوحي مترملاً في قطيفة أو تحسناً له، إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي متلففاً بمرط مفروش على عائشة رضي الله تعالى عنها فنزلت^(٢)، أو تشبيهاً له في ثقله بالمترمل لأنه لم يتمرن بعد في قيام الليل، أو من ترمّل الزمّل إذا تحمّل الحمل أي الذي تحمّل أعباء النبوة.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٤٤/١٦): «وهي مكية كلها في قول المهدي وجماعة.

وقال الجمهور: هي مكية إلا قوله تعالى «إن ربك يعلم...» إلى آخر السورة فإن ذلك نزل بالمدينة» هـ.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٧٨ رقم ٢٣٥): «لم أره هكذا.

قلت: وأصله في الصحيحين البخاري (١٨/١ رقم ٣) ومسلم (١٣٩/١ - ١٤٢ رقم ١٦٠/٢٥٢). من حديث عائشة.

(٢) ﴿قُرْآنَ اللَّيْلِ﴾ أي قم إلى الصلاة، أو داوم عليها فيه، وقرء بضم الميم وفتحها للاتباع أو التخفيف. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

(٣) ﴿يُصَفِّهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ .

(٤) ﴿أَوْ زِدَ عَلَيْهِ﴾ الاستثناء من الليل، ونصفه بدل من قليلاً وقلته بالنسبة إلى الكل، والتخيير بين قيام النصف والزائد عليه كالثلاثين والناقص عنه كالثلاث. أو نصفه بدل من الليل والاستثناء منه والضمير في منه وعليه للأقل من النصف كالثلاث فيكون التخيير بينه وبين الأقل منه كالرُّبع والأكثر منه كالنصف، أو للنصف والتخيير بين أن يقوم أقل منه على البت وأن يختار أحد الأمرين من الأقل والأكثر، أو الاستثناء من إعداد الليل فإنه عامٌ والتخيير بين قيام النصف والناقص عنه والزائد عليه. ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ رَتِيلًا﴾ اقرأه على تودة وتبيين حروف بحيث يتمكن السامع من عدّها، من قوله تُغَرَّرُ رَتْلٌ وَرَتْلٌ إذا كان مفلجاً.

(٥) ﴿إِنَّا سَلَّمْنَاهُ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني القرآن فإنه لما فيه من التكليف الشاقّة ثقيلٌ على المكلفين سيّما على الرسول ﷺ إذ كان عليه أن يتحمّلها ويحمّلها أمته، والجملة اعتراضٌ يسهّل التكليف عليه بالتهجد، ويدلّ على أنه مشقٌّ مضادٌّ للطبع مخالفٌ للنفس، أو رصينٌ لرزانة لفظه ومتانة معناه، أو ثقيلٌ على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسرّ وتجريد للنظر، أو ثقيلٌ في الميزان أو على الكفار والفجار، أو ثقيلٌ تلقيه لقول عائشة رضي الله تعالى عنها: رأيت عليه الصلاة والسلام ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإنّ جبينه ليرفض عرقاً^(١). وعلى هذا يجوز أن يكون صفة للمصدر، والجملة على هذه الأوجه للتعليل مستأنفة فإنّ التهجد يعدّ للنفس ما به تعالج ثقله.

(٦) ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ إنّ النفس التي تنشأ من مضجعتها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام،

قال:

نَشَأْنَا إِلَى خَوْصِ بَرَائِيهَا الشُّرَى وَأَلَصَقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ الْقَمَاحِدِ

أو قيام الليل على أنّ الناشئة له، أو العبادة التي تنشأ بالليل أي تحدث، أو ساعات الليل لأنها تحدث واحدة بعد أخرى، أو ساعاتها الأول من نشأت إذا ابتدأت. ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي كلفة أو ثبات قدم، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وطاء بكسر الواو وألف ممدودة أي مواطأة القلب اللسان لها أو فيها، أو موافقة لما يراود منها من الخضوع والإخلاص. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي وأسدُّ مقالاً أو أثبت قراءة لحضور القلب وهدوء الأصوات.

(٧) ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ ثقلياً في مهماتك واشتغلاً بها فعليك بالتهجد، فإنّ مناجاة الحق تستدعي فراغاً. وقرء سبخاً أي تفرّق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نفسه ونشر أجزائه.

(١) أخرجه البخاري (١٨/١ رقم ٢) ومسلم (٤/١٨١٦ - ١٨١٧ رقم ٢٣٣٣) والبخاري في شرح السنة (١٣/٣٢١ - ٣٢٢).

وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

(٨) ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره ليلاً ونهاراً، وذكُرْ الله يتناول كل ما يُذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ وانقطع إليه بالعبادة وجرّد نفسك عما سواه، ولهذه الرزمة ومراعاة الفواصل وضعه موضع تبتلاً.

(٩) ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ خبرٌ محذوف أو مبتدأ خبره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ ابن عامر والكوفيون غير حفصي ويعقوب بالجرّ على البذل من ربك، وقيل بإضمار حرف القسم وجوابه لا إله إلا هو. ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ مسبّب عن التهليل، فإنّ توخّده بالألوهية يقتضي أن تُوكّل إليه الأمور.

(١٠) ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من الخرافات. ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأنّ تجانبهم وتداريهم ولا تكافئهم وتكلّ أمرهم إلى الله فالله يكفيهم كما قال:

(١١) ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ دعني وإياهم وكلّ إليّ أمرهم فإنّ بي غنية عنك في مجازاتهم. ﴿أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ أرباب التنعم، يريد صناديد قريش. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ زماناً أو إمهالاً.

(١٢) ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ تعليل للأمر، والنكل القيد الثقيل. ﴿وَحِمِيمًا﴾.

(١٣) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ طعاماً ينشُب في الحلق كالضريع والزقوم. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يعرف كُنْهه إلا الله تعالى. ولما كانت العقوبات الأربع مما تشترك فيها الأشباح والأرواح - فإنّ النفوس العاصية المنهمكة في الشهوات تبقى مقيدة بحبها والتعلق بها عن التخلص إلى عالم المجرّدات متحرقة بحرقة الفرقة متجرّعة غصة الهجران معذبة بالحرمان عن تجلي أنوار القدس - فسّر العذاب بالحرمان عن لقاء الله تعالى.

(١٤) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ تضطرب وتزلزل، ظرف لما في ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾^(١) من معنى الفعل. ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا﴾ رملاً مجتمعاً كأنه فعيل بمعنى مفعول من كَثُب الشيء إذا جمعه. ﴿مَهِيلًا﴾ مشوراً من هَيْل هَيْلًا إذا نُثِر.

(١٥) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا﴾ يا أهل مكة. ﴿شَهِدَ عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بالإجابة والامتناع. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام ولم يعينه لأنّ المقصود لم يتعلّق به.

(١٦) ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ عوّفه لسبق ذكره. ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ثقيلاً من قولهم طعامٌ وبيلٌ لا يُسْتَمَرُّ لثقله، ومنه الوابل للمطر العظيم.

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفِطِرٌ بِدءٍ كَانَ وَعَدُّكُمْ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنْ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثِيهِ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ تُخِصُّوه فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قُرْآنًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

(١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفُسكم. ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ بقيتم على الكفر. ﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم. ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ من شدة هوله وهذا على الفرض أو التمثيل، وأصله أَنَّ الهموم تُضْعِفُ القوى وتسرعُ الشيب، ويجوز أن يكون وصفًا لليوم بالطول.

(١٨) ﴿السَّمَاءُ مُنْفِطِرٌ﴾ منشق، والتذكير على تأويل السقف أو إضمار شيء^(١). ﴿بِدءٍ﴾ بشدة ذلك اليوم على عظيمها وأحكامها فضلًا عن غيرها. والباء للآلة. ﴿كَانَ وَعَدُّكُمْ مَفْعُولًا﴾ الضمير لله عز وجل، أو لليوم على إضافة المصدر إلى المفعول.

(١٩) ﴿إِنْ هَذِهِ﴾ أي الآيات الموعدة. ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾ عظة. ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أَنْ يَتَّعِظَ. ﴿اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي يتقرب إليه بسلوك التقوى.

(٢٠) ﴿إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثِيهِ﴾ استعار الأدنى للأقل لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعداً منه، وقرأ ابن كثير والكوفيون ونصفه وثلثه بالنصب عطفاً على أدنى. ﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ لا يعلم مقادير ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى، فإنَّ تقديم اسمه - مبتدأ مبنياً عليه يُقَدَّرُ - يشعرُ بالاختصاص ويؤيده قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ تُخِصُّوه﴾ أي لن تُخْصُوا تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات. ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالترخص في ترك القيام المقدّر ورفع التبعة فيه كما رفع التبعة عن الثائب. ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، عبّر عن الصلاة بالقرآن كما عبّر عنها بسائر أركانها، قيل كان التهجد واجباً على التخيير المذكور فعسر عليهم القيام به فُتَسَخَّ به، ثم تُسَخَّ هذا بالصلوات الخمس، أو فاقروا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم. ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ﴾ استئناف يبين حكمة أخرى مقتضية الترخيص والتخفيف ولذلك كرّر الحكم مرتباً عليه وقال: ﴿وَأَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ والضرب في الأرض ابتغاء للفضل المسافرة للتجارة وتحصيل العلم. ﴿وَأَخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة. ﴿وَاقْرَأُوا اللَّهَ قُرْآنًا حَسَنًا﴾ يريد به الأمر في سائر الإنفاقات في سبل الخيرات، أو بأداء الزكاة على أحسن وجه والترغيب فيه بوعده العوض كما صرّح به في قوله: ﴿وَمَا

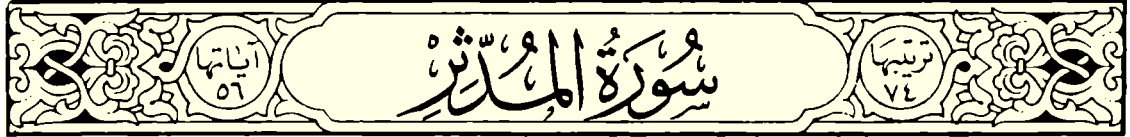
(١) وعبر عنها بذلك للتنبيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبقَ منها إلا ما يعبر عنه بالشيء (س/٩/٥٢).

تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً * مِنَ الَّذِي تُوَخَّرُونَهُ إِلَى الْوَصِيَّةِ عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا. وخيراً ثانياً مفعولي تجدوه، وهو تأكيد أو فصل؛ لأن أفعَلَ مِنْ كالمعرفة ولذلك يُمتنع مِنْ حرفِ التعريف، وقرء هو خيرٌ على الابتداء والخبر. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ في مجامع أحوالكم فإنَّ الإنسان لا يخلو من تفريط. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المزمل رفع الله عنه العُسرَ في الدنيا والآخرة»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٧٩ رقم ٢٤٥). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴿٣﴾ وَشِيبَاكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

سورة المدثر مكية . وآياتها خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي المتدثر وهو لابس الدثار. رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كنت بحراء فتوديت فنظرت عن يميني وشمالي فلم أر شيئاً، فنظرت فوقی فإذا هو على عرش بين السماء والأرض - يعني الملك الذي ناداه - فرعبتُ، فرجعتُ إلى خديجة فقلت: دثروني، فنزل جبريلُ وقال: يا أيها المدثر»^(٢) ولذلك قيل هي أول سورة نزلت. وقيل تأذى من قريش فتغطى بثوبه مفكراً، أو كان نائماً مدثراً فنزلت. وقيل المراد بالمدثر المتدثر بالنبوة والكمالات النفسانية، أو المختفي فإنه كان بحراء كالمختفي فيه على سبيل الاستعارة. وقرأ المدثر أي الذي دثر هذا الأمر وعُصِبَ به.

(٢) ﴿قُمْ﴾ من مضجعتك أو قم قيام عزم وجد. ﴿فَأَنْذِرْ﴾ مطلقاً للتعميم أو مقدر بمفعول دل عليه قوله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣) أو قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٤).

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/١٥٤): «وهي مكية بإجماع من أهل التفسير».

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٦/٨ - ٦٧٧ رقم ٤٩٢٢) و(٨/٧١٥ رقم ٤٩٥٤) ومسلم (١/١٤٣، ١٤٤ رقم ٢٥٦، ٢٥٧) من حديث جابر بن عبد الله.

(٣) الشعراء: «٢١٤».

(٤) سبأ: «٢٨».

(٣) ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ وخصَّصَ رَبَّكَ بالتكبير وهو وصفه بالكبرياء عقداً وقولاً، روي أنه لما نزل كَبُرَ رسولُ الله ﷺ وأيقن أنه الوحي^(١)، وذلك لأنَّ الشيطانَ لا يأمرُ بذلك. والفاءُ فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط وكأنه قال: وما يكنُ فكَبُرَ رَبُّكَ، أو الدلالة على أن المقصودَ الأولَ من الأمر بالقيام أن يكَبُرَ رَبَّهُ عن الشرك والتشبيه؛ فإن أولَ ما يجب معرفة الصانع وأولُ ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه، والقوم كانوا مقرِّين به.

(٤) ﴿وَيَا بَلَّكَ فَطَهِّرْ﴾ من النجاساتِ فإن التطهير واجبٌ في الصلوات محبوبٌ في غيرها، وذلك بغسلها أو بحفظها عن النجاسة بتقصيرها مخافة جرِّ الذبول فيها، وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة. أو طهَّرَ نفسَكَ من الأخلاق الذميمة والأفعال الدنيئة، فيكون أمراً باستكمال القوة العملية بعد أمره باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه. أو فطهر دثار النبوة عما يدنسه من الحقد والضَّجَرِ وقلة الصَّبْرِ.

(٥) ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجِرْ﴾ فاهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدي إليه من الشرك وغيره من القبائح، وقرأ يعقوب وحفص والرجز بالضم وهو لغة كالذكر.

(٦) ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعطِ مستكثراً، نهى عن الاستغفار وهو أن يهب شيئاً طامعاً في عوض أكثر، نهى تنزيهه أو نهياً خاصاً به لقوله عليه الصلاة والسلام «المستغفر يُثَابُ من هبته»^(٢)، والموجب له ما فيه من الحرص والضئيلة، أو لا تمنن على الله تعالى بعبادتك مستكثراً إياها أو على الناس بالتبليغ مستكثراً به الأجر منهم أو مستكثراً إياه. وقرئ تستكثر بالسكون للوقف أو الإبدال من تمنن على أنه من بكذا أو تستكثر بمعنى تجده كثيراً، وبالنصب على إضمار أن؛ وقد قرئ بها، وعلى هذا يجوز أن يكون الرفع بحذفها وإبطال عملها كما روي أحضر الوغى بالرفع.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ لوجهه أو أمره. ﴿فَأَصْبِرْ﴾ فاستعمل الصبر، أو فاصبر على مشاق التكليف وأذى المشركين.

(٨) ﴿فَإِذَا نَفَرَ﴾ نَفَخَ. ﴿فِي النَّافِرِ﴾ في الصور فاعول من النَّفَرِ بمعنى التصويت وأصله القرع الذي هو سبب الصوت، والفاء للسببية كأنه قال: اصبر على زمانٍ صعبٍ تلقى فيه عاقبة صبرك وأعداؤك عاقبة ضرهم، وإذا ظرف لما دلَّ عليه قوله:

(٩) ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾^(٤).

(١٠) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأن معناه عَسَرَ الأمر على الكافرين، وذلك إشارة إلى وقت النَّفَرِ، وهو مبتدأ

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١٦/٢٩) بدون سند.

(٢) المستغفر: الذي يطلب أكثر مما يُعطى، وهي المغازرة: أي إذا أهدى لك الغريب يطلب أكثر منه فأعطه في مقابلة هديته. قال: وفيه عن بعض التابعين «الجانب المستغفر يُثَاب من هبته» [النهاية (٣/٣٦٥)].

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشافى» (ص ١٧٩ رقم ٢٥٠): «تقدم في الروم من قول شريح».

قلت: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠٦/٩) عن شريح.

(٤) ذلك: إشارة إلى وقت النفار.

وما فيه من معنى البعد - مع قرب العهد بالمشار إليه - للإيذان ببعد منزلته في الهول والفضاعة (س ٥٥/٩).

خبره يوم عسير، ويومئذ بدل أو ظرف لخبره إذ التقدير: فذلك الوقت وقت وقوع يوم عسير. ﴿غَيْرَ يَسِيرٍ﴾ تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه ويشعرُ يسيره على المؤمنين.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾

(١١) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة^(١). ووحيداً حالاً من الباء أي ذرني وخذي معه فإني أكفيكه، أو من التاء أي ومن خلقتني وحدي لم يشركني في خلقه أحد، أو من العائد المحذوف أي من خلقتني فريداً لا مال له ولا ولد، أو ذم فإنه كان ملقّباً به فسمّاه الله به تهكماً، أو إرادة أنه وحيد ولكن في الشراة أو عن أبيه فإنه كان زنياً.

(١٢) ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً أو مُمدّاً بالنماء، وكان له الزرع والضرع والتجارة.

(١٣) ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته، ولا يحتاج إلى أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه، أو في المحافل والأندية لوجاهتهم واعتبارهم. قيل كان له عشرة بنين أو أكثر كلهم رجال، فأسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام.

(١٤) ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لُقّبَ ربحانة قريش، والوحيد أي باستحقاقه الرياسة والتقدم.

(١٥) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ على ما أوتيته وهو استبعاد لطمعه إما لأنه لا مزيد على ما أوتي، أو لأنه لا يناسب ما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم ولذلك قال:

(١٦) ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ فإنه ردع له عن الطمع وتعليل للردع على سبيل الاستئناف بمعاندة آيات المنعم المناسبة لإزالة النعمة المانعة عن الزيادة، قيل: ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله حتى هلك.

(١٧) ﴿سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا﴾ سأغشيه عقبة شاقة المصعد، وهو مثل لما يلقي من الشدائد. وعنه عليه الصلاة والسلام «الصُّعُودُ جبلٌ من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبدأ»^(٢).

(١٨) ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليل للوعيد أو بيان للعناد، والمعنى فكر فيما يُخَيَّلُ طعنًا في القرآن وقدر في نفسه ما يقول فيه.

(١) أخرجه الحاكم (٥٠٦/٢) والبيهقي في «الدلائل» كما في «فتح القدير» (٣٢٨/٥) من طريق عبد الرزاق به وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٧/٧) - ٢٩٨ مع التحفة) وقال هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة. وأخرجه أحمد (٧٥/٣) وابن جرير (١٤/٢٩/١٥٥) والحاكم (٥٠٧/٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وانظر «الكافي الشاف» (ص ١٧٩ رقم ٢٥٢).

فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَسْحَرِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُضْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴿٣٠﴾

(١٩) ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ تعجب من تقديره استهزاء به، أو لأنه أصاب أقصى ما يمكن أن يقال عليه من قولهم: قتله الله ما أشجعته، أي بلغ في الشجاعة مبلغاً يحق أن يُخسَد ويدعو عليه حاسده بذلك. روي^(١) أنه مرَّ بالنبي ﷺ وهو يقرأ حمَّ السجدة، فأتى قومَه وقال لقد سمعتُ من محمدٍ أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجن. إنَّ له لحلاوة وإن عليه لطلاوة. وإنَّ أعلاه لمثمر وإنَّ أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يُغلى، فقالت قريشُ صبأ الوليدُ، فقال ابنُ أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعَدَ إليه حزيناً وكَلَّمه بما أحماه فناداهم، فقال: تزعمون أنَّ محمداً مجنونٌ فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون إنه كاهنٌ فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعرٌ فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ فقالوا لا، فقال: ما هو إلا ساحرٌ أما رأيتموه يفرِّق بين الرجلِ وأهله وولده ومواليه، ففرِّحوا بقوله وتفرَّقوا عنه متعجبين منه.

(٢٠) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ تكرير للمبالغة، وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى وفيما بعد على أصلها.

(٢١) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي في أمر القرآن مرةً بعد أخرى.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه لما لم يجذ فيه مطعناً ولم يدرِ ما يقول، أو نظرَ إلى رسول الله ﷺ وقطب في وجهه. ﴿وَبَسَرَ﴾ إبتاع لِعَبَسَ.

(٢٣) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ أو الرسولِ عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعه.

(٢٤) ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ يُزَوَّى وَيُتَعَلَّمُ، والفاء للدلالة على أنه لما خَطَرَتْ هذه الكلمة بباله نفوَه بها من غير تلبُّث وتفكير.

(٢٥) ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ كالتأكيد للجملة الأولى ولذلك لم يُعْطَفَ عليها.

(٢٦) ﴿سَأُضْلِيهِ سَقَرٌ﴾ بدلٌ من سارِهقه صُعوداً.

(٢٧) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ تفخيمٌ لشأنها، وقوله:

(٢٨) ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ بيانٌ لذلك أو حالٌ من سَقَر، والعامل فيها معنى التعظيم، والمعنى لا تبقي على شيء يُلقَى فيها ولا تدعه حتى تهلكه.

(٢٩) ﴿لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي مسوَّدةٌ لأعالي الجلد، أو لائحةٌ للناس. وقرئت بالنصبِ على الاختصاص.

(٣٠) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ﴾ ملكاً أو صنفاً من الملائكة يُلَوِّنُ أمرها. والمخصَّصُ لهذا العدد أنَّ اختلال النفوس البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الاثني عشرة والطبيعية السبع، أو أنَّ لجَهَنَّمَ

(١) انظر تفسير عبدالرزاق (٢/٣٢٨ - ٣٢٩) والواحد في أسباب النزول ص ٤٤٧.

سبع دركاتٍ سِتٍّ منها لأصنافِ الكفار وكلِّ صنفٍ يُعَذَّبُ بتركِ الاعتقاد والإقرار أو العملِ أنواعاً من العذابِ تناسبُها على كلِّ نوعٍ مَلَكٍ أو صنفٍ يتولاهُ وواحدةٌ لغصاةِ الأمةِ يُعَذَّبون فيها بتركِ العملِ نوعاً يناسبُهِ ويتولاهُ مَلَكٌ، أو صنفٌ، أو أن الساعاتِ أربعٌ وعشرونَ خمسةً منها مصروفةٌ في الصلاة فيبقى تسعةٌ عشرٌ قد تصرفَ فيما يُؤاخذُ به بأنواعٍ من العذابِ يتولاهُ الزبانيةُ. وقرئ تسعةٌ عشرَ بسكونِ العينِ كراهةٌ توالي حركاتٍ فيها هو كاسمٍ واحدٍ، وتسعةٌ عشرٌ جمعٌ عشيرٍ كيمينٍ وأيمنٍ، أي تسعةٌ كلِّ عشيرٍ جمعٌ يعني نقيبهم أو جمعٌ عشيرٍ فتكون تسعين.

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزَنَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ ليخالفوا جنسَ المعذبين فلا يرقون لهم ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوى الخلق بأساً وأشدُّهم غضباً لله. رُوي أنَّ أبا جهل لما سمعَ عليها تسعةٌ عشرَ قال لقريش: أيعجزُ كلُّ عشرةٍ منكم أن يبطشوا برجلٍ منهم؟ فنزلت^(١). ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر، فعبر بالآخر عن المؤثر تنبيهاً على أنه لا ينفكُ منه، وافتتانهم به استقلالهم واستهزاؤهم به واستبعادهم أن يتولَّى هذا العدد القليلُ تعذيبَ أكثرِ الثقلين، ولعلَّ المرادُ الجعلُ بالقول ليخسُنَ تعليله بقوله: ﴿لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد ﷺ وصدق القرآن لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم. ﴿وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ بالإيمان به ويتصدق أهل الكتاب له. ﴿وَلَا يَزَنَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في ذلك وهو تأكيدٌ للاستيقان وزيادة الإيمان ونفيٌ لما يعرضُ للمتيقن حيثما عراه شبهة^(٢). ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شكٌ أو نفاقٌ، فيكون إخباراً بمكة عما سيكون في المدينة بعد الهجرة. ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجازمون في التكذيب. ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل، وقيل لما استبعدوه حسبوا أنه مثلٌ مضروبٌ. ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضلُّ الكافرين ويهدي المؤمنين. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ جموعٌ خلقه على ما هم عليه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيلَ لأحدٍ إلى حضرِ الممكنات والاطلاع على حقائقها وصفاتها وما يوجبُ اختصاصَ كلِّ منها بما يخصُّه من كمٍّ وكيفٍ واعتبارٍ ونسبةٍ. ﴿وَمَا هِيَ﴾ وما سقرُّ أو عِدَّةُ الخزنة أو السورة. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ إلا تذكرةٌ لهم.

(٣٢) ﴿كَلَّا﴾ ردُّعٌ لمن أنكرها، أو إنكارٌ لأن يتذكروا بها. ﴿وَالْقَمَرِ﴾

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ج ٢٩/١٥٩).

(٢) والتعبير عنهم باسم الفاعل «المؤمنون» - بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدث - للإيدان بشياتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك (س ٩/٦٠).

وَالَّذِي إِذَا أَذْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾

(٣٣) ﴿وَالَّذِي إِذَا أَذْبَرَ﴾ أي أذبرَ كَقَبَلَ بمعنى أَقْبَلَ، وقرأ نافع وحمزة ويعقوب وحفص إذا أَذْبَرَ على الماضي.

(٣٤) ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أضاء.

(٣٥) ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي لإحدى البليات الكبرى أي البليات الكثيرة وسقَرُ واحدةٌ منها، وإنما جَمَعَ كُبَرَى على كُبَرٍ إلحاقاً لها بفعله تنزيلاً للآلفِ منزلةَ التاء كما أَلْحَقْتَ قاصعاً بقاصعةٍ فَجُمِعَتْ على قواصع، والجملة جوابُ القسم أو تعليلٌ لكلاً، والقسمُ معترضٌ للتأكيد.

(٣٦) ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ تمييزٌ أي لإحدى الكبرى إنذاراً أو حالٌ عما دَلَّت عليه الجملة أي كُبُرَتْ منذرةٌ، وقرئ بالرفع خبراً ثانياً أو خبراً لمحدوفٍ.

(٣٧) ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدلٌ مِنْ للبشر أي نذيراً للمتمكنين من السَّبْقِ إلى الخير والتخلفِ عنه، أو لمن شاء خَبَرَ لأنَّ يتقدمَ فيكونُ في معنى قوله ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾.

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مرهونةٌ عند الله مصدرٌ كالشكيمة أُطْلِقَتْ للمفعولِ كالرهن ولو كانت صفةً لَقِيلَ رهينٌ.

(٣٩) ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فَإِنَّهُمْ فَكُّوا رِقَابَهُمْ بِمَا أَحْسَنُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وقيل هم الملائكة أو الأطفال.

(٤٠) ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ لَا يُكْتَنُهُ وَصْفُهَا وَهِيَ حَالٌ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، أو ضميرُهم في قوله: ﴿يَسَاءَلُونَ﴾.

(٤١) ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي يسألُ بعضهم بعضاً، أو يسألون غيرَهُمْ عن حالهم كقولك: تداعيناه أي دَعَوْنَاهُ^(١)، وقوله:

(٤٢) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ بجوابه حكايةٌ لما جرى بينَ المسؤولين والمجرمين أجابوا بها.

(٤٣) ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ الصلاة الواجبة.

(٤٤) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ﴾ أي ما يجبُ إعطاؤه، وفيه دليلٌ على أنَّ الكفارَ مخاطَبُونَ بالفروع.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ مع الشارعين فيه.

(٤٦) ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أخره لتعظيمه أي وكُنَّا بعدَ ذلك كله مكذِّبينَ بالقيامة.

(١) وحذف المسؤول لكونه عين المسؤول عنه (س ٦١/٩).

حَتَّىٰ أَتَنَّا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةٌ ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفْرِ ﴿٥٦﴾

(٤٧) ﴿حَتَّىٰ أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ الموتُ ومقدماته.

(٤٨) ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ لو شفَعُوا لهم جميعاً.

(٤٩) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ أي معرضين عن التذكير يعني القرآن أو ما يعمله، ومعرضين حالاً.

(٥٠) ﴿كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ شبهتهم في إعراضهم ونفارهم عن استماع الذِّكْرِ بِحُمْرٍ نَافِرَةٍ.

(٥١) ﴿فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي أسدٍ فعولاً من القسر وهو القهر.

(٥٢) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: لن نبيغك حتى تأتي كلامنا بكتاب من السماء فيه من الله إلى فلان اتبع محمداً.

(٥٣) ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن اقتراحهم الآيات. ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف.

(٥٤) ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إعراضهم. ﴿إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ﴾ وأي تذكرة.

(٥٥) ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ فمن شاء أن يذكره.

(٥٦) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذكروهم أو مشيتهم كقوله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(١) وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى، وقرأ نافعٌ تذكرون بالتاء وقرئ بهما مشدداً. ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ حقيق بأن يقبى عقابه. ﴿وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾ حقيق بأن يغفر لعباده سيئاً المتقين منهم. وعن النبي ﷺ «من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد عليه الصلاة والسلام وكذب به بمكة شرفها الله تعالى»^(٢).

☆ ☆ ☆

(١) التكويد: «٢٩».

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٠ رقم ٢٥٥). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْقِيَمَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامُهُ (٣) بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَرْسُوقِ بَنَانِهِ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٦) فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣)

سورة القيامة مكية^(١) وآياتها أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إدخال لا النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلامهم قال امرؤ القيس:
لَا وَأَيُّكَ ابْنَةُ الْعَامِرِيِّ لَا يَدْعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرُّ
وقد مرَّ الكلام فيه في قوله ﴿أَقِيمُ بِمَوْقِعِ التَّجْوِزِ﴾^(٢) وقرأ قبل لأُقِيمُ بغير ألف بعد اللام، وكذا روي عن البرقي.

(٢) ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس المقصرة في التقوى يوم القيامة على تقصيرها أو التي تلوم نفسها أبداً وإن اجتهدت في الطاعة، أو النفس المطمئنة لللائمة للنفس الأمار، أو بالجنس لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة إن عملت خيراً قالت كيف لم أزد وإني عملت شراً قالت يا ليتني كنت قصرت»^(٣) أو نفس آدم

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٧٠): «وهي مكية بإجماع من المفسرين وأهل التأويل».

(٢) الواقعة: «٧٥».

(٣) ذكره الفراء في معاني القرآن (٣/ ٢٠٨) بدون راو أو سند.

فإنها لم تزل تتلوم على ما خرجت به من الجنة، وضمتها إلى يوم القيامة لأنَّ المقصودَ من إقامتها مجازاتها.

(٣) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَنُ﴾ يعني الجنس؛ وإسنادُ الفعل إليه لأنَّ فيهم مَنْ يحسبُ، أو الذي نزلَ فيه وهو عدي بنُ أبي ربيعة سأل رسولَ الله ﷺ عن أمر القيامة، فأخبره به فقال: لو عاينتُ ذلك اليومَ لم أصدُقُكَ، أو يجمعُ الله هذه العظامَ. ﴿أَلَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ بعد تفرُّقها، وقرىء أن لن يُجمَعَ على البناء للمفعول.

(٤) ﴿بَلَى﴾ نجمعُها. ﴿قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ بجمع سلامياته وضمُّ بعضها إلى بعض كما كانت مع صِغَرِها ولطافتها فكيف بكبار العظام، أو على أن نسويَ بنانَه الذي هو أطرافُه فكيف بغيرها، وهو حال من فاعل الفعل المقدر بعد بلى، وقرىء بالرفع أي نحن قادرون.

(٥) ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ﴾ عطفٌ على أيحسبُ فيجوز أن يكون استفهاماً وأن يكون إيجاباً لجواز أن يكون الإضرابُ عن المستفهم وعن الاستفهام. ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليدومَ على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

(٦) ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ متى يكون يومُ القيامة استبعاداً له أو استهزاء.

(٧) ﴿إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ تحيّرَ فزعاً من بَرَقَ فدهشَ بصره، وقرأ نافع بالفتح وهو لغة، أو من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه، وقرىء بلى من بلى الباب إذا انفتح.

(٨) ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه، وقرىء على البناء للمفعول.

(٩) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ في ذهاب الضوء أو الطلوع من المغرب، ولا ينافيه الخسوف فإنه مستعار للمحاق. ولمن حملَ ذلك على أماراتِ الموت أن يفسر الخسوف بذهابِ ضوء البصر والجمع باستتباع الروح الحاسة في الذهاب، أو بوصوله إلى من كان يقتبس منه نور العقل من سكان القدس، وتذكيرُ الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف.

(١٠) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أي الفرار يقولُه قولَ الآيس من وُجْدَانِهِ المتمنى، وقرىء بالكسر وهو المكان.

(١١) ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفَرِّ. ﴿لَا وَرَرُ﴾ لا ملجأ مستعار من الجبل واشتقاقه من الوزر وهو الثقل.

(١٢) ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ إليه وحده استقرارُ العباد، أو إلى حكمه استقرارُ أمرهم، أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار.

(١٣) ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدَّم من عمل عَمِلَه وبما أخَّر منه لم يعملَه، أو بما قدَّم من عمل عَمِلَه وبما أخَّر من سيئة حسنة أو سيئة عمل بها بعده، أو بما قدَّم من مال تصدَّق به وبما أخَّر فخلَّفه، أو بأول عمله وآخره.

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ لَا تَحْرَكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾

(١٤) ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ حجة بيّنة على أعمالها لأنه شاهد بها، وصفها بالبصيرة على المجاز، أو عين بصيرة بها فلا يحتاج إلى الإنباء.

(١٥) ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به جمع معذار وهو العذر، أو جمع معذرة على غير قياس كالمناكير في المنكر فإن قياسه معاذير وذلك أولى وفيه نظر.

(١٦) ﴿لَا تَحْرَكَ﴾ يا محمد. ﴿بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿لِسَانُكَ﴾ قبل أن يتمّ وحيه. ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك.

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك. ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ وإثبات قراءته في لسانك، وهو تعليل للنهي.

(١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ بلسان جبريل عليك^(١). ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قراءته وتكرر فيه حتى يرسخ في ذهنك.

(١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ بيان ما أشكل عليك من معانيه، وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حبّ العجلة لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهمّ الأمور وأصل الدين فكيف بها في غيره، أو بذكر ما اتفق في أثناء نزول هذه الآيات. وقيل الخطاب مع الإنسان المذكور والمعنى أنه يؤتّى كتابه فيتجلجّل لسانه من سرعة قراءته خوفاً، فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به فإن علينا بمقتضى الوعد جمع ما فيه من أعمالك وقراءته، فإذا قرأناه فاتبع قراءته بالإقرار أو التأمل فيه، ثم إن علينا بيان أمره بالجزاء عليه.

(٢٠) ﴿كَلَّا﴾ ردع للرسول عن عادة العجلة أو للإنسان عن الاغترار بالعاجل. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾.

(٢١) ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ تعميم للخطاب إشعاراً بأنّ بني آدم مطبوعون على الاستعجال وإن كان الخطاب للإنسان، والمراد به الجنس فجمع الضمير للمعنى ويؤيده قراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالياء فيهما.

(٢٢) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ بهية مهللة.

(٢٣) ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ تراه مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه ولذلك قدّم المفعول، وليس هذا في كل الأحوال حتى ينافيه نظرها إلى غيره^(٢). وقيل منتظرة إنعامه، ورُدّ بأنّ الانتظار

(١) وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة (س/٩/٦٧).

(٢) عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته» رواه البخاري (٢٧/٢) ومسلم (٦٣٣).

وعن صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً

لا يسندُ إلى الوجهِ وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر، وأنَّ المستعملَ بمعناه لا يتعدى إلى . وقول الشاعر:
وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَخْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعْمًا
بمعنى السؤال فإنَّ الانتظار لا يستعقبُ العطاء.

وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بِآيَةٍ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾
وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى
أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوْلَى لَكَ فَأُولَى ﴿٣٤﴾

(٢٤) ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بِآيَةٍ﴾ شديدة العبوس والبأسُ أبلغ من البأسِ لكنه غلب في الشجاع إذا اشتدَّ كلوحه .

(٢٥) ﴿تَنْظُرُ﴾ تتوقع أربابها . ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية تكسر الفقار .

(٢٦) ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة . ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ إذا بلغت النفسُ أعالي الصدر، وإضاؤها من غير ذكرٍ لدلالة الكلام عليها .

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وقال حاضرٌ وصاحبها مَنْ يرقيه مما به من الرقية، أو قال ملائكة الموت أيكُم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، من الرقي .

(٢٨) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ وظن المحتضر أن الذي نزل به فراق الدنيا ومحابها .

(٢٩) ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما، أو شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة .

(٣٠) ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ سوقه إلى الله تعالى وحُكمه .

(٣١) ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ ما يجب تصديقه، أو فلا صدق ماله أي فلا زكاة . ﴿وَلَا صَلَّى﴾ ما فرض عليه والضمير فيهما للإنسان المذكور في أحسب الإنسان .

(٣٢) ﴿وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة .

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ يتبخترُ افتخاراً بذلك من المطأ، فإن المتبخترَ يمدُّ خطاه فيكون أصله يتمطط، أو من المطأ وهو الظهْر فإنه يلويه .

(٣٤) ﴿أَوْلَى لَكَ فَأُولَى﴾ ويلٌ لك من الولي، وأصله أولاك الله ما تكرهه، واللامُ مزيدةٌ كما في ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾^(١) أو أولى لك الهلاك . وقيل أفعُل من الويل بعد القلب أدنى من أدون، أو فعلى من آل يؤولُ بمعنى عقباك النار .

= أحب إليهم من النظر إلى ربهم» رواه مسلم (١٨١) .

(١) النمل: (٧٢) .

ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾
فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

(٣٥) ﴿ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ أي يتكرر ذلك عليه مرة بعد أخرى.

(٣٦) ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهملاً لا يكلف ولا يجازى، وهو يتضمن تكرير إنكاره للحشر، والدلالة عليه من حيث إن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح، والتكليف لا يتحقق إلا بالمجازاة وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة.

(٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنَىٰ﴾ .

(٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فقدّره فعذله.

(٣٩) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ للصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ وهو استدلال آخر بالإبداء على الإعادة على ما مرّ تقريره مراراً ولذلك رغب عليه قوله:

(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ عن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: «سبحانك، بلى» (١).
وعنه ﷺ «من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمناً به» (٢).

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه أبو داود (٥٤٩/١ رقم ٨٨٤) من طريق موسى بن أبي عائشة عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ.

قلت: موسى هذا لم يدرك أحداً من الصحابة فهو معضل.

وأخرجه الحاكم (٥١٠/٢) من طريق إسماعيل بن أمية عن أبي اليسع من حديث أبي هريرة نحوه.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

قلت: بل فيه «يزيد بن عياض» كذبه مالك وغيره وأورده الذهبي في الميزان (٤٣٦/٤) وذكر فيه أقوال العلماء أنه ضعيف.

وكذلك أورد الذهبي الحديث في الميزان وقال: أبو اليسع لا يدري من هو والسند بذلك مضطرب.

والخلاصة أن الحديث ضعيف من كلا الطريقين.

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٠ رقم ٢٥٩) - وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

سورة الإنسان مكية^(١) وآيها إحدى وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ استفهامٌ تقريرٍ وتقريبٍ ولذلك فُسِّرَ بقَدْ وأصله أَهْلٌ كقوله: أَهْلٌ رَأَوْنا يَسْفَحُ الْقَاعَ. ذِي الْأَكْمِ. ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ طائفةٌ محدودة من الزمان الممتدِّ الغير المحدود. ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ بل كان شيئاً منسياً غيرَ مذكورٍ بالإنسانية كالعنصرِ والنطفة، والجملة حالٌ من الإنسان أو وصفٌ لحينٍ بحذف الراجع والمراد بالإنسان الجنسُ لقوله:

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أو آدم بيِّنَ أولاً خلقه ثم ذَكَرَ خلقه بنيه. ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاطٌ جمعُ مِشْجٍ أو مَشْجٍ أو مَشِجٍ من مشجَتِ الشيء إذا خلطته، وجمَعَ النطفةَ به لأن المرادَ بها مجموعُ مِنْيِ الرجلِ والمرأةِ وكلُّ منهما مختلف الأجزاء في الرقة والقوام والخواصَّ، ولذلك يصير كلُّ جزءٍ منهما مادةَ عضوٍ. وقيل مفردٌ كأعشار وأكباشٍ. وقيل ألوان فإنَّ ماءَ الرجل أبيضٌ وماءَ المرأةِ أصفرٌ فإذا

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/١٨٢): قال بعض المفسرين هي مكية كلها، وحكى النقاش والثعلبي عن مجاهد وقتادة أنها مدنية، وقال الحسن وعكرمة: منها آية مكية وهي قوله تعالى: «ولا تطع منهم أَمْناً أو كفوراً» والباقي مدني.

اختلطاً اخضرّاً، أو أطواژ فإنَّ النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة. ﴿تَبْلِيهِ﴾ في موضع الحال أي مبتلين له بمعنى مريدين اختباره أو ناقلين له من حالٍ إلى حال فاستعير له الابتلاء. ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ لِيَتِمَّكَنَ من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات، فهو كالمسبّب عن الابتلاء ولذلك عطف بالفاء على الفعل المقيّد به ورُبِّ عليه قوله:

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بنصب الدلائل وإنزال الآيات. ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من الهاء، وإما للتفصيل أو التقسيم أي هديناه في حاله جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضهم شاكراً بالاهتداء والآخر فيه، وبعضهم كفورٌ بالإعراض عنه، أو من السبيل ووضفه بالشكر والكفر مجازاً. وقرئ أما بالفتح على حذف الجواب. ولعله لم يقل كافراً ليطابق قسيمه محافظة على الفواصل، وإشعاراً بأنَّ الإنسان لا يخلو عن كفران غالباً وإنما المؤاخذه به التوغل فيه.

(٤) ﴿إِنَّا آَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا﴾ بها يُقَادُزْنَ. ﴿وَأَغْلَلَ﴾ بها يَقَيَّدُونَ. ﴿وَسَمِعًا﴾ بها يَحْرَقُونَ، وتقديم وعيدهم وقد تأخّر ذكرهم لأنَّ الإنذار أهمُّ وأنفع، وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر سلاسلًا للمناسبة.

إِنَّ الْأَبْتَرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَتْ مَزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٦﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٧﴾ يُوفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٨﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٩﴾

(٥) ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَارَ﴾ جمع برّ كأرباب، أو بارّ كأشهاد. ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ من خمر وهي في الأصل القدح تكون فيه. ﴿كَانَتْ مَزَاجُهَا﴾ ما يُمَزَّجُ بها. ﴿كَافُورًا﴾ لِيَزِدَّهُ وَعْذُوبَتِهِ وَطِيبَ عُزْفِهِ. وقيل اسم ماء في الجنة يشبه الكافور في رائحته وبياضه. وقيل يخلق فيها كفيات الكافور فتكون كالمزوجة به.

(٦) ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كافوراً إنَّ جُعِلَ اسم ماء، أو من محلٍّ من كأسٍ على تقدير مضاف أي ماء عين أو خمرها. أو نُصِبَ على الاختصاص، أو بفعلٍ يفسره ما بعدها. ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي ملتذاً بها أو ممزوجاً بها، وقيل الباء مزيدة أو بمعنى من لأنَّ الشرب مبتدأ منها كما هو. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يُجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا إِجْرَاءً سَهْلًا.

(٧) ﴿يُوفُونَ بِالْذِّكْرِ﴾ استئناف ببيان ما رزقوه لأجله كأنه سُئِلَ عنه فَأَجِيبَ بذلك، وهو أبلغ في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه على نفسه الله تعالى كان أوفى بما أوجبه الله تعالى عليه. ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ شَدَائِدُهُ﴾. ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ فاشياً منتشراً غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من طار، وفيه إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي.

(٨) ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ﴾ حبّ الله تعالى أو الطعام أو الإطعام. ﴿مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ يعني أسراء الكفار فإنه يبيح كان يُؤْتَى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه، أو الأسير المؤمن ويدخل فيه المملوك والمسجون، وفي الحديث: «غريمك أسير فأحسن إلى أسيرك»^(١).

(١) لم أقف عليه.

إِنَّمَا تُطْعَمُكُمُ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا تُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهَرِيرًا ﴿١٣﴾

(٩) ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُكُمُ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ على إرادة القول بلسان الحال أو المقال إزاحة لتوهم المن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا، فإن ذكر دعاء دعث لهم بمثله لبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله. ﴿لَا تُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي شكراً.

(١٠) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ فلذلك نحسن إليكم أو لا نطلب المكافأة منكم. ﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم. ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه أو يشبه الأسد العبوس في ضراوته. ﴿قَتَطِيرًا﴾ شديد العبوس كالذي يجمع ما بين عينيه من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قزطيتها، أو مشتق من القطر والميم مزيدة. (١١) ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه. ﴿وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ بدل عبوس الفجار وحزبنهم.

(١٢) ﴿وَجَزَيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات وإيثار الأموال. ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً يأكلون منه. ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الحسن والحسين رضي الله عنهما مرضاً فعادهما رسول الله ﷺ في ناس فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت علي ولديك، فنذر علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما وفضة - جارية لهما - صوم ثلاث إن برنا، فشفيما وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيرى ثلاثة أضوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام وقف عليهم يتيماً فآثروه، ثم وقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك، فنزل جبريل عليه السلام بهذه السورة وقال خذها يا محمد هنالك الله في أهل بيتك.

(١٣) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ حال من هم في جزائهم، أو صفة لجنة. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهَرِيرًا﴾ يحتملها وأن يكون حالاً من المستكين في متكئين، والمعنى أنه يمر عليهم فيها هواء معتدل لا حار

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم: ٢٧٨) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٣٠٣) بإسناد حسن.

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/٣٩٠ - ٣٩٢) من طريق أبي عبدالله السمرقندي عن محمد بن كثير الكوفي عن الأصم بن نباته مرسلاً.

وقال: «هذا حديث لا يشك في وضعه ولو لم يدل على ذلك إلا الأشعار الركيكة والأفعال التي ينتزه عنها أولئك السادة. قال يحيى بن معين: أصم بن نباته لا يساوي شيئاً، وقال أحمد بن حنبل: حرقنا حديث محمد بن كثير، وأما عبدالله السمرقندي فلا يوثق به» هـ.

مَجْمٌ وَلَا بَارِدٌ مُؤَذٍ، وَقِيلَ الزَّمَّهْرِيرُ الْقَمَرُ فِي لُغَةِ طَبِيعٍ قَالَ رَاجِزُهُمْ:

وَلَيْلَةٌ ظَلَامُهَا قَدْ اغْتَكَّرَ قَطَعْتُهَا وَالزَّمَّهْرِيرُ مَا زَهَرَ

وَالْمَعْنَى أَنَّ هَوَاءَهَا مُضِيٌّ بِذَاتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَمْسٍ وَقَمَرٍ.

وَدَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

(١٤) ﴿وَدَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ حالٌ أو صفةٌ أخرى معطوفةٌ على ما قبلها، أو عطفتُ على جنةٍ أي وجنةٍ أخرى دانيةٍ على أنهم وُعدوا جنتين كقوله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(١) وقرئت بالرفع على أنها خبرٌ ظلُّها. والجملةُ حالٌ أو صفةٌ. ﴿وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ معطوفةٌ على ما قبله أو حالٌ من دانيةٍ، وتذليلُ القُطُوفِ أن تُجعلَ سهلةُ التناولِ لا تمتنعُ على قُطَافِها كيف شاءوا.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وأباريقٌ بلا عروة. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾.

(١٦) ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي تكونت جامعةً بين صفاء الزجاجة وشفيفها وبياضِ الفضة ولينها، وقد نوّن قواريرَ من نوّن سلاسلًا، وابنٌ كثيرٌ الأولى لأنها رأسُ الآية، وقرئ قواريرَ من فضةٍ على هي قواريرُ. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قَدَّرُوهَا في أنفسهم فجاءت مقاديرُها وأشكالُها كما تمّوه، أو قَدَّرُوهَا بأعمالهم الصالحة فجاءت على حَسَبِها، أو قَدَّرَ الطائفونَ بها المدلولُ عليهم بقوله يُطَافُ شراؤها على قدرِ اشتهاؤهم. وقرئ قَدَّرُوهَا أي جَعَلُوا قَادِرِينَ لَهَا كما شاءوا، من قَدَّرَ منقولاً من قَدَرْتُ الشيءَ.

(١٧) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ ما يشبه الزنجبيلَ في الطعم وكانت العربُ يستلذون الشرابَ الممزوجَ به.

(١٨) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسةِ انحدارِها في الحلقِ وسهولةِ مساغِها، يقال شرابٌ سلسلٌ وسلسالٌ وسلسبيلٌ، ولذلك حُكِمَ بزيادةِ الباء، والمرادُ به أن ينفي عنها لذعَ الزنجبيلِ ويصفها بنقيضه، وقيل أصلُه سَلٌ سبيلًا فسُمِّيتَ به كتابطٌ شراً لأنه لا يشربُ منها إلا من سألَ إليها سبيلًا بالعملِ الصالحِ.

(١٩) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ دائمون. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾ من صفاء ألوانهم وانبثائهم في مجالسهم وانعكاسِ شعاع بعضهم إلى بعض.

(٢٠) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ليس له مفعولٌ ملفوظٌ ولا مقدّرٌ لأنه عامٌّ معناه إنَّ بصركَ أينما وقعَ. ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً، وفي الحديث «أدنى أهل الجنة منزلةً ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه»^(٢) هذا وللعارفِ أكبرُ من ذلك وهو أن تنتقشَ نفسه بجلايا الملكِ وخفايا الملكوتِ،

(١) الرحمن: ٤٦.

(٢) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/٥٠٨ رقم ٢٠):

فيستضيء بأنوار قُدس الجبروت .

عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمِ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرْ أَتَمَّ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ يعلوهم ثياب الحرير الخضضر مارق منها وما غلظ . ونضبه على الحال من هم في عليهم أو حسبتهم ، أو ملكاً على تقدير مضاف أي وأهل ملك كبير عليهم . وقرأ نافع في عاليهم وحمزة بالرفع على أنه خبر ثياب ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر خضر بالجر حملاً على سندس بالمعنى فإنه اسم جنس ، وإستبرق بالرفع عطفاً على ثياب ، وقرأهما حفص وحمزة والكسائي بالرفع ، وقرىء وإستبرق بوضل الهمزة والفتح على أنه استفعل من البريق جعلَ علماً لهذا النوع من الثياب . ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ عطف على ويَطُوفُ عليهم ولا يخالفه قوله أساور من ذهب لإمكان الجمع والمعاقبة والتبعيض ، فإنَّ حُلِّيَ أهل الجنة تختلف باختلاف أعمالهم ، فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حلياً وأنواراً تتفاوت تفاوت الذهب والفضة ، أو حال من الضمير في عاليهم بإضمار قد ، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدم وذلك للمخدومين . ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يريد به نوعاً آخر يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند سقيه إلى الله عز وجل ، ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ما سوى الحق ، فيتجرد لمطالعة جماله ملتذاً بلاقائه باقياً ببقائه ، وهي منتهى درجات الصديقين ولذلك ختم بها ثواب الأبرار .

(٢٢) ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على إضمار القول ، والإشارة إلى ما عد من ثوابهم . ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ مجازي عليه غير مضيع .

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ مفرقاً منجماً لحكمة اقتضته ، وتكرير الضمير مع أن مزيداً لاختصاص التنزيل به .

(٢٤) ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرِكَ على كفار مكة وغيرهم . ﴿وَلَا تَطْعَمِ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي كل واحد من مرتكب الإثم الداعي لك إليه ومن الغالي في الكفر الداعي لك إليه ، وأو للدلالة على أنهما سيان في استحقاق العصيان والاستقلال به ، والقسم باعتبار ما يدعونه إليه ، فإنَّ ترتب النهي على الوصفين مشعر أنه لهما وذلك يستدعي أن تكون المطاوعة في الإثم والكفر ، فإنَّ مطاوعتها فيما ليس بإثم ولا كفر غير محظور .

(٢٥) ﴿وَاذْكُرْ أَتَمَّ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وداوِم على ذكره أو دُم على صلاة الفجر والظهر والعصر فإنَّ

= وروى ابن أبي الدنيا عن الأعمش عن ثوبان قال : أراه عن ابن عمر قال : إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة لرجل له ألف قصر بين كل قصرين مسيرة سنة يرى أقصاها كما يرى أذناها في كل قصر من الحور العين والرياحين والولدان ما يدعوه بشيء إلا أتى به . رواه هكذا موقوفاً هـ .

الأصيل يتناول وقتيهما.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

(٢٦) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وبعضُ الليل فصلٌ له تعالى، ولعلَّ المراد به صلاةُ المغرب والعشاء، وتقديمُ الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتهجّد له طائفة طويلة من الليل.

(٢٧) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ أمامهم أو خلفَ ظهورهم. ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً مستعارٌ من الثقل الباهظ للحامل، وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه.

(٢٨) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ وأحكمنا ربطَ مفاصلهم بالأعصاب. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ وإذا شئنا أهلكناهم وبدّلنا أمثالهم تبديلاً في الخلقة وشدة الأسر يعني النشأة الثانية ولذلك جيء بإذا، أو بدلنا غيرهم ممن يطيعُ وإذا لتحقق القدرة وقوة الداعية.

(٢٩) ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ الإشارةُ إلى السورة أو الآيات القريبة، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ تقرب إليه بالطاعة.

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وما تشاءون ذلك إلا وقت أن يشاء الله مشيئتكم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر يشاءون بالياء. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يستأهل كلُّ أحد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمته.

(٣١) ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعة. ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ نصب الظالمين بفعلٍ يفسره أعدّ لهم مثل أوعد وكافاً ليطابق الجملة المعطوف عليها، وقرئ بالرفع على الابتداء. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هَلْ أَتَىٰ كَانَ جَزَاؤُهُ عَلَى اللَّهِ جَنَّةً وَحَرِيرًا»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨١ رقم ٢٦٣).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَرَقْنَ فَرَاقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَقَيْنِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ
نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
الرُّسُلُ أَقْنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾

سورة المرسلات مكية^(١) وآياتها خمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ .

(٢) ﴿فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا﴾ .

(٣) ﴿وَالنَّشْرِ نَشْرًا﴾ .

(٤) ﴿فَأَلْفَرَقْنَ فَرَاقًا﴾ .

(٥) ﴿فَأَلْمَلَقَيْنِ ذِكْرًا﴾ إقسام بطوائف من الملائكة أرسلهنَّ الله تعالى بأوامره متتابعةً فعصفنَّ عصفًا

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/١٩٦): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وحكى النقاش أنه قيل إن فيها من المدني قوله «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون» على قول من قال إنها حكاية عن حال المنافقين في القيامة. وإنها بمعنى قوله تعالى: «يدعون إلى السجود فلا يستطيعون».

وأخرج البخاري (٨/٦٨٥ رقم ٤٩٣٠) ومسلم (٤/١٧٥٥ رقم ٢٢٣٤) عن ابن مسعود قال: «كنا مع رسول الله ﷺ وأنزلت عليه «المرسلات» وإنا لتلقاها من فيه فخرجت حيةً فابتدرناها، فسبقتنا فدخلت جحرها فقال رسول الله ﷺ: «وقيت شركم كما وقيت شرها».

الرياح في امتثال أمره ونشزَنَ الشرائعَ في الأرض، أو نشرَنَ النفوسَ الموتى بالجهل بما أوحينَ من العلم. ففرقنَ بينَ الحقِّ والباطل، فألقينَ إلى الأنبياءِ ذكراً عذراً للمحقِّينَ ونذراً للمبطلينَ^(١)، أو بآياتِ القرآنِ المرسلَةِ بكلِّ عرفٍ إلى محمدٍ عليه الصلاة والسلام فعصفنَ سائرَ الكتبِ والأديانِ بالنسخ ونشزَنَ آثارَ الهدى والحكم في الشرقِ والغربِ وفرقنَ بينَ الحقِّ والباطل فألقينَ ذِكْرَ الحقِّ فيما بين العالمين، أو بالنفوسِ الكاملة المرسلَةِ إلى الأبدانِ لاستكمالها فعصفنَ ما سوى الحقِّ ونشزَنَ أثرَ ذلك في جميع الأعضاء ففرقنَ بينَ الحقِّ بذاته والباطلِ في نفسه فيرونَ كلَّ شيءٍ هالكاً إلا وجهَهُ فألقينَ ذكراً بحيث لا يكون في القلوب والألسنة إلا ذكرُ الله تعالى، أو برياح عذابٍ أُرْسِلْنَ فعصفنَ ورياح رحمةٍ نشزَنَ السحابَ في الجوّ ففرقنَ فألقينَ ذكراً أي تسبَّينَ له فإن العاقلَ إذا شاهدَ هبوبَهَا وآثارَهَا ذَكَرَ الله تعالى وتذكَّرَ كمالَ قدرته. وعرفاً إما نقيضَ النكرِ وانتصابه على العلَّةِ أي أُرْسِلْنَ للإحسانِ والمعروف، أو بمعنى المتابعة من عرفِ الفرسِ وانتصابه على الحال.

(٦) ﴿عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ مصدرانٍ لعذرٍ إذا محا الإساءةَ وأنذَرَ إذا خوَّفَ، أو جمعانٍ لعذيرٍ بمعنى المعذرة ونذيرٍ بمعنى الإنذار، أو بمعنى العاذرِ والمنذرِ، ونصبهما على الأولينِ بِالْعِلَّةِ أي عذراً للمحقِّينَ أو نذراً للمبطلينَ، أو البدلِ من ذكراً على أنَّ المرادَ به الوحيُّ أو ما يعمُّ التوحيدَ والشركَ والإيمانَ والكفرَ وعلى الثالثِ بالحالية، وقرأهما أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفصٌ بالتخفيف.

(٧) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَعْدٍ﴾ جوابُ القسم ومعناه أن الذي تُوعَدُونَهُ من مجيء القيامة كائنٌ لا محالة.

(٨) ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ مُحِضَتْ أو أَذْهَبَ نُورُهَا.

(٩) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ صُدِعَتْ.

(١٠) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ﴾ كَالْحَبِّ يُسْفَفُ بِالْمِنْسَفِ.

(١١) ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ عُيِّنَ لَهَا وَقْتُهَا الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله، فإنه لا يتعيَّن لهم قبله، أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره، وقرأ أبو عمرو وَقُنْتُ على الأصل.

(١٢) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ يُخْلَفُ﴾ أي يقال لأي يوم أُخْرِثَ، وَضُرِبَ الأجلُ للجمع وهو تعظيمٌ لليوم وتعجيبٌ من هوله، ويجوز أن يكونَ ثاني مفعولي أَقْنَتْ على أنه بمعنى أَعْلِمَتْ.

(١٣) ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ بيانُ ليوم التاجيل.

(١٤) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ومن أين تعلمُ كُنْهَهُ ولم ترَ مثله^(٢).

(١) ولعل تقديم نشر الشرائع أو نشر النفوس والفرق على الإلقاء للإيدان بكونها غاية للإلقاء حقيقة بالاعتناء بها، أو للإشعار بأن كلاً من الأوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها التفخيم والإجلال بالإقسام بهن، ولوجيء بها على ترتيب الوقوع لربما فهم أن مجموع الإلقاء والنشر والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق (س/٧٧/٩).

(٢) وضع يوم الفصل موضع الضمير فقال: «وما أدراك ما يوم الفصل» ولم يقل: وما هو، وذلك لزيادة التفضيع والتهويل (س/٧٨/٩).

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسَ شَيْمَخَثٍ وَأُسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

(١٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي بذلك، وييل في الأصل مصدرٌ منصوب بإضمارِ فعليه عدلٌ به إلى الرفع للدلالة على ثباتِ الهلكِ للمدعو عليه، ويومئذ ظرفه أو صفته.

(١٦) ﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودٍ، وقرئ نَهْلِكُ من هَلَكَةٍ بمعنى أهلكه.

(١٧) ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أي ثم نحن ننبعهم نُظْرَاءَهُ ككفارِ مكَّةَ، وقرئ بالجزم عطفاً على نَهْلِكُ فيكونُ الآخِرِينَ المتأخِرِينَ من المهلكِينَ كقومِ لوطٍ وشعيبٍ وموسى عليهم الصلاة والسلام.

(١٨) ﴿كَذَلِكَ﴾ مثلُ ذلك الفعل. ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بكلِّ مَنْ أْجَرَمَ.

(١٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآياتِ الله وأنبيائه فليس تكريراً، وكذا إن أُطْلِقَ التكذيبُ أو عُلِّقَ في الموضعين بواحدٍ، لأنَّ الويلَ الأولَ لعذابِ الآخرةِ وهذا للإهلاكِ في الدنيا، مع أن التكريرَ للتوكيدِ حسنٌ شائعٌ في كلام العرب.

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ نطفةٌ مَذْرُوءَةٌ ذليلةٌ.

(٢١) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ هو الرَّحْمُ.

(٢٢) ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ إلى مقدارٍ معلومٍ من الوقتِ قَدَّرَهُ اللهُ تعالى للولادةِ.

(٢٣) ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على ذلك، أو فَقَدَرْنَاهُ ویدلُّ عليه قراءةٌ نافعٍ والكسائيُّ بالتشديد. ﴿فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ نحن.

(٢٤) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة.

(٢٥) ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ كافتةً اسمٌ لما يُكْفَتُ أي يَضُمُّ ويجمعُ كالضمام والجماعِ اسمٌ لما يَضُمُّ ويجمعُ، أو مصدرٌ نُعِتَ به أو جمعٌ كافٍ كصائمٍ وصيامٍ، أو كِفَتٍ وهو الوعاءُ أجري على الأرض باعتبارِ أقطارها.

(٢٦) ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ منتصبان على المفعولية، وتنكيرُهُما للتفخيم، أو لأنَّ إحياءَ الإنسِ وأمواتِهِم بعضُ الأحياءِ والأمواتِ، أو الحالية من مفعوله المحذوفِ للعلم به وهو الإنس، أو بنجعلُ على المفعولية وكفاتاً حالٌ أو الحالية فيكون المعنى بالأحياءِ ما يَنْبُتُ وبالأمواتِ ما لا يَنْبُتُ.

(٢٧) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسَ شَيْمَخَثٍ﴾ جبلاً ثوابت طوالاً. والتنكيرُ للتفخيم، أو الإشعار بأنَّ فيها ما لم يُعْرِفْ ولم يُرَ. ﴿وَأُسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ بخلقِ الأنهارِ والمنايعِ فيها.

(٢٨) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثالِ هذه النعم.

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْكُمُ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ ﴿٣٩﴾

(٢٩) ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ أي يُقَالُ لَهُمْ انطلقوا. ﴿إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب.

(٣٠) ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ خصوصاً وعن يعقوب انطلقوا على الإخبار عن امثالهم للأمر اضطراراً. ﴿إِلَى ظِلٍّ﴾ يعني ظل دخان جهنم كقوله تعالى ﴿و ظل من يحموم﴾. ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يتشعب لعظمه كما ترى الدخان العظيم يتفرق. تفرق الذوائب، وخصوصية الثلاث إما لأن حجاب النفس عن أنوار القدس الحس والخيال والوهم، أو لأن المؤدي إلى هذا العذاب هو القوة الواهمة الحالية في الدماغ والغضبية التي في يمين القلب والشهوية التي في يساره، ولذلك قيل شعبة تقف فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره.

(٣١) ﴿لَا ظِلِيلٌ﴾ تهكم بهم ورد لما أُوْهِمَ لفظ الظل. ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ وغير مغني عنهم من حرّ اللهب شيئاً.

(٣٢) ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أي كل شرارة كالقصر في عظيمها، ويؤيده أنه قرئ بشرار، وقيل هو جمع قصرة وهي الشجرة الغليظة. وقرئ كَالْقَصْرِ بمعنى القصور كرهني ورهني، وكَالْقَصْرِ جمع قصرة كحاجة وجوج، وكَالْقَصْرِ جمع قصرة وهي أصل العنق والهاء للشعب.

(٣٣) ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل. ﴿صُفْرٌ﴾ فإن الشرار بما فيه من النارية يكون أصفر، وقيل سوّد لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، والأول تشبيه في العظم وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص جمالة، وعن يعقوب جُمالات بالضم جمع جمالة، وقد قرئ بها وهي الحبل الغليظ من جبال السفينة شبهه بها في امتداده والنيفافه.

(٣٤) ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٣٥) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أي بما يستحق فإنَّ التُّنُقُ بما لا ينفع كلاً نُطِقَ، أو بشيء من فَرْط الدهشة والحيرة وهذا في بعض المواقف، وقرئ بنصب اليوم أي هذا الذي دُكِرَ واقع يومئذ.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾.

(٣٧) ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عطف فيعتذرون على يؤذَنُ ليدل على نفي الإذن والاعتذار عقبيه مطلقاً، ولو جعله جواباً لدل على أن عدم اعتذارهم لعدم الإذن فأُوْهِمَ ذلك أن لهم عذراً لكن لا يؤذَنُ لهم فيه.

(٣٨) ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل. ﴿جَمَعْتُمْكُمُ وَالْأَوَّلِينَ﴾ تقرير وبيان للفضل.

(٣٩) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ﴾ تفرغ لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْزَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ إذ لا حيلة لهم في التخلص من العذاب.

(٤١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك لأنهم في مقابلة المكذبين.

(٤٢) ﴿وَفَوَكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مستقرّون في أنواع الترفه.

(٤٣) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مقولاً لهم ذلك.

(٤٤) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة.

(٤٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يحضّ لهم العذاب المخلّد ولخصومهم الثواب المؤبّد.

(٤٦) ﴿كُلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْزَمُونَ﴾ حالّ من المكذبين أي الويلّ ثابت لهم في حال ما يُقال لهم ذلك، تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا وبما جَنَوْا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم المقيم.

(٤٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث عرّضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتّع القليل.

(٤٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ أطيعوا واخضعوا أو صلّوا أو اركعوا في الصلاة، إذ روي أنه نزل حين أمر رسول الله ﷺ ثقيفاً بالصلاة فقالوا: لا نُجِيبُ أي لا نركعُ فإنها مسبة^(١). وقيل هو يوم القيامة حين يُدْعَوْنَ إلى السجود فلا يستطيعون. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يمثلون، واستدلّ به على أن الأمر للوجوب وأن الكفار مخاطبون بالفروع.

(٤٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٥٠) ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ﴾ بعد القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو معجز في ذاته مشتمل على الحجج الواضحة والمعاني الشريفة. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورة والمرسلات كُتِبَ له أنه ليس من المشركين»^(٢).

☆☆☆

(١) وهو حديث ضعيف. أخرجه أبو داود (٣/٤٢٠ - ٤٢١ رقم ٣٠٢٦) وأحمد في المسند (٤/٢١٨) والطبراني في الكبير (٩/٤٥) رقم ٨٣٧٢ من رواية الحسن بن عثمان بن أبي العاص. واختلف في سماع الحسن من عثمان كما قال المنذري.

(٢) وهو حديث موضوع. أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب. كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨١ رقم ٢٦٥). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّبَأِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ
الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتَهُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَبَاسًا ﴿١٠﴾
وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً
ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾

سورة النبأ مكية^(١)، وآيها إحدى وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصله عمّا فحذف الألف لما مرّ، ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه كأنه لفخامته خفي جنسه فيسأل عنه، والضمير لأهل مكة كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم، أو يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين عنه استهزاء كقولهم: يتداعونهم ويتراءونهم أي يدعونهم ويرونهم، أو للناس.

(٢) ﴿عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾ بيان لشأن المفخّم أو صلة يتساءلون، وعمّ متعلّق بمضمّر مفسّر به، ويدلّ عليه قراءة يعقوب: عمّة.

(٣) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ بجزم النفي والشك فيه، أو بالإقرار والإنكار.

(٤) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع عن التساؤل ووعيد عليه.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٠٦/١٦): «وهي مكية بإجماع، وليس فيها نسخ ولا حكم إلا ما قاله بعض الناس في قوله تعالى «لبثوا فيها أحقاباً» من أنه منسوخ وهو قول خلف لأن الأخبار لا تنسخ وإنما ذكرنا هذا القول تنبيهاً على فساد» هـ.

(٥) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تذكيرٌ للمبالغة. وثُمَّ للإشعار بأنَّ الوعيدَ الثاني أشدُّ، وقيل الأولُ عند التَّنَزُّعِ والثاني في القيامة، أو الأولُ للبعثِ والثاني للجزاء. وعن ابنِ عامرٍ ستعلمون بالتاء على تقدير قلْ لهم ستعلمون.

(٦) ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾.

(٧) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تذكيرٌ ببعضِ ما عاينوا من عجائبِ صُنْعِهِ الدالِّ على كمالِ قدرته ليستدلُّوا بذلك على صحة البعثِ كما مرَّ تقريره مراراً، وقرئ مهذاً أي أنها لهم كالْمِهْدِ للصبيِّ مصدرٌ سُمِّيَ به ما يُمَهَّدُ لِيَنُومَ عليه.

(٨) ﴿وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا﴾ ذكراً وأنثى.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطعاً عن الإحساسِ والحركة استراحةً للقوى الحيوانية وإزاحةً لِكَلَالِهَا، أو موتاً لأنه أحدُ التوفيقين ومنه المسبوتُ للميت، وأصله القطعُ أيضاً.

(١٠) ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِلْآسَاءِ﴾ غطاءً يَسْتَتِرُ بِظُلْمَتِهِ مَنْ أراد الاختفاء.

(١١) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقتَ معاشٍ تتقلبون فيه لتحقيق ما تعيشون به، أو حياةً تنبعثون فيها عن نومكم.

(١٢) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ سبعَ سمواتٍ أقويةٍ محكماتٍ لا يؤثر فيها مرورُ الدهورِ.

(١٣) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ متلألئاً وقادراً من وهجتِ النارُ إذا أضاءتْ، أو بالغاً في الحرارة من الومج وهو الحرُّ والمراد الشمسُ.

(١٤) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ السحابُ إذا أعْصَرَتْ أي شارفت أن تعصرَها الرياحُ فتمرُّ كقولك: احصدِ الزرعَ إذا حان له أن يُخْصَدَ، ومنه أعْصَرَتِ الجاريةُ إذا دنت أن تحيضَ، أو من الرياح التي حانَ لها أن تعصرَ السحابَ، أو الرياحُ ذواتُ الأعاصيرِ، وإنما جُعِلَتْ مبدأً للإنزال لأنها تنشيءُ السحابَ وتدرأ خلافه، ويؤيده أنه قرئ بالمعصراتِ. ﴿مَاءً نَّجَّاجًا﴾ منصّباً بكثرةٍ يقال نَجَّه نَجْجاً وثَجَّ بنفسه. وفي الحديث: «أفضلُ الحجِّ العَجُّ»^(١) والثَّجُّ^(٢) أي رفعُ الصوتِ بالتلبية وصَبُّ دماءِ الهذْي، وقرئ نجاجاً، ومثاججُ الماءِ مصابُّه.

(١٥) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ما يُقْتَنَتُ به وما يُغْتَلَفُ من التبنِ والحشيشِ.

(١) المعج: رفع الصوت بالتلبية [النهاية: (٣/١٨٤)].

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٢٢٥ رقم ٢٩٩٨) من حديث ابن عمر.

وضعه الترمذي بإبراهيم بن يزيد الخوزي. قلت: هو متروك الحديث [التقريب (١/٤٦)].

وأخرجه ابن ماجه (٢/٩٧٥ رقم ٢٩٢٤) والترمذي (٣/١٨٩ رقم ٨٢٨) من حديث أبي بكر الصديق مرفوعاً بنحوه. وانظر الكلام عليه في «الصحيحة» (رقم: ١٥٠٠).

وخلاصة ذلك أنه حديث حسن والله أعلم.

● والثج هو سيلان دماء الهدي والأضاحي [النهاية (١/٢٠٧)].

وَجَنَّتِ الْآفَاقَ ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿وَجَنَّتِ الْآفَاقَ﴾ ملتفة بعضها ببعض جمع لف كجذع. قال:

جَنَّة لَفَ وَعَيْشٌ مُنْقَدِقٌ وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بِيضُ زَهْرٍ
أو لفيف كشریف أو لف جمع لفاء كخضراء وخضر وأخضار أو متلفؤ بحذف الزوائد.

(١٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ﴾ في علم الله تعالى أو في حكمه. ﴿مِيقَتَنَا﴾ حداً توقفت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حداً للخلائق ينتهون إليه.

(١٨) ﴿يَوْمَ يُفْخُ فِي الصُّورِ﴾ بدل أو بيان ليوم الفصل. ﴿فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ جماعات من القبور إلى المحشر، روي أنه ﷺ سئل عنه فقال: «يحشر عشرة أصناف من أمتي بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسرون يُسحبون على وجوههم، وبعضهم عمي وبعضهم صم بكم، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم فيسيل القيح من أفواههم يتقذروهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلوبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد تنناً من الجيف، وبعضهم مُلبسون جباً سابعة من قطران لازقة بجلودهم»^(١). ثم فسرهم بالفتات^(٢)، وأهل السحت، وأكله الربا، والجائرين في الحكم، والمغيبين بأعمالهم، والعلماء الذين خالف قولهم عملهم، والمؤذنين جيرانهم، والساعين بالناس إلى السلطان، والتابعين للشهوات المانعين حق الله تعالى، والمتكبرين الخيلاء.

(١٩) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ وشققت. وقرأ الكوفيون بالتخفيف. ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ فصارت من كثرة الشقوق كأن الكل أبواب أو فصارت ذات أبواب.

(٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أي في الهواء كالهباء. ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ مثل سراب إذ ترى على صورة الجبال ولم تبق على حقيقتها لتفتت أجزائها وانبثاها.

(٢١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار، أو خزنة الجنة المؤمنين ليحرسهم من فيحها في مجازهم عليها، كالمضمار فإنه الموضع الذي تُضمر فيه الخيل، أو مُجَدَّة في ترصد الكفرة لثلاث يشد منها واحد كالمطعان، وقرئ أن بالفتح على التعليل لقيام الساعة.

(٢٢) ﴿لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا﴾ مرجعاً ومأوى.

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب - كما في «الدر المنثور» (٣٩٣/٨) - وذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/١٧٥ - ١٧٦). والأولوسي (١٢/٣٠) ثم قال: «وهذا كما قال ابن حجر حديث موضوع. وأثار الوضع لائحة عليه» هـ.

(٢) الفتات هو النمام، والفت هم نم الحديث (مختار الصحاح مادة فتت).

لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾

(٢٣) ﴿لَيْسِينَ فِيهَا﴾ وقرأ حمزة وروخ لبين وهو أبلغ. ﴿أَحْقَابًا﴾ دهوراً متتابعة، وليس فيها ما يدلُّ على خروجهم منها إذ لو صحَّ أن الحقب ثمانون سنة أو سبعون ألف سنة، فليس فيه ما يتقضى تناهي تلك الأحقاب لجواز أن يكون المراد أحقاباً مترادفة كلِّما مضى حقب تبعه آخر، وإن كان فمن قبيل المفهوم فلا يعارض المنطق الدالُّ على خلود الكفار، ولو جعل قوله:

(٢٤) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾.

(٢٥) ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا﴾ حالاً من المستكن في لا بين أو نصب أحقاباً بلا يذوقون احتمل أن يلبثوا فيها أحقاباً غير ذاتقين إلا حميماً وغساقاً، ثم يُدَلَّلون جنساً آخر من العذاب، ويجوز أن يكون جمع حقب من حقب الرجل إذا أخطأه الرزق وحقب العام إذا قلَّ مطره وخيره فيكون حالاً بمعنى لا بين فيها حقيين، وقوله لا يذوقون تفسير له. والمراد بالبرد ما يؤرِّخهم وينفس عنهم حرَّ النار أو النوم، وبالغساق ما يغسق أي يسيل من صديدهم. وقيل الزمهرير وهو مستنى من البرد إلا أنه أخر ليتوافق رؤوس الآي، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد^(١).

(٢٦) ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أي جُوزُوا بذلك جزاء ذا وفاقٍ لأعمالهم، أو موافقاً لها أو وافقها وفاقاً، وقرئ وفاقاً فعَّال من وفاقه كذا.

(٢٧) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ بيان لما وافقه هذا الجزاء.

(٢٨) ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ تكديباً وفعَّال بمعنى تفعيل مطرَّد شائع في كلام الفصحاء. وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى الكذب كقوله:

فَصَدَّقْتُهَُا وَكَذَّبْتُهَُا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ^(٢)

وإنما أُقيم مقام التكذيب للدلالة على أنهم كَذَّبُوا في تكذيبهم، أو المكاذبة فإنهم كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون كاذبين عندهم فكان بينهم مكاذبة، أو كانوا مبالغين في الكذب مبالغة المبالغين فيه، وعلى المعنيين بجور أن يكون حالاً بمعنى كاذبين أو مكاذبين، ويؤيده أنه قرئ كذاباً وهو جمع كاذب، ويجوز أن يكون للمبالغة فيكون صفة للمصدر أي تكديباً مفرطاً كذبه.

(٢٩) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ وقرئ بالرفع على الابتداء. ﴿كِتَابًا﴾ مصدر لأحصيناه فإن الإحصاء والكتابة يتشاركان في معنى الضبط أو فعله المَقْدَر أو حال بمعنى مكتوباً في اللوح أو صحف الحفظ، والجملة اعتراض وقوله:

(١) أي بتشديد السين من غساقاً، وقرأ آخرون بتخفيف السين غساقاً.

(٢) من مجزوء الكامل.

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءُ مَن رَّبَّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾

(٣٠) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات، ومجيئه على طريقة الالتفات للمبالغة. وفي الحديث: «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار»^(١).

(٣١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فوزاً أو موضع فوز.

(٣٢) ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة بدل من مفازاً بدل الاشتمال والبعض.

(٣٣) ﴿وَكوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ نساء فُلِكَتْ ثديهن. ﴿أَتْرَابًا﴾ لِدَاتٍ^(٢).

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ملأنا، وأدهق الحوض ملأه.

(٣٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ وقرأ الكسائي بالتخفيف أي كذباً أو مكاذبة، إذ لا يكذب بعضهم بعضاً.

(٣٦) ﴿جَزَاءُ مَن رَّبَّكَ﴾ بمقتضى وعده. ﴿عَطَاءٌ﴾ تفضلاً منه إذ لا يجب عليه شيء، وهو بدل من جزاء، وقيل منتصب به نصب المفعول به. ﴿حِسَابًا﴾ كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي، أو على حسب أعمالهم وقرىء حَسَابًا أي محسباً كالدراك بمعنى المدرك.

(٣٧) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ربك، وقد رفعه الحجازيان وأبو عمرو على الابتداء. ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالجر صفة له وكذا في قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب، وبالرفع في قراءة أبي عمرو، وفي قراءة حمزة والكسائي بجر الأول ورفع الثاني على أنه خبر محذوف، أو مبتدأ خبره: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ﴾ والواو لأهل السموات والأرض أي لا يملكون خطابه، والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب لأنهم مملوكون له على الإطلاق فلا يستحقون عليه اعتراضاً وذلك لا ينافي الشفاعة بإذنه.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ تقرير وتوكيد لقوله لا يملكون، فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله إذا لم يقدر أن يتكلموا بما يكون صواباً كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه، فكيف يملكه غيرهم؟! ويوم ظرف لئلا يملكون، أو ليتكلمون. والروح ملك موكل على الأرواح أو جنسها، أو جبريل عليه السلام، أو خلق أعظم من الملائكة.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٨١ رقم ٢٦٨): «أخرجه - ابن أبي حاتم، والثعلبي من رواية جسر بن فرقد السبخي عن الحسن سألت أبا برزة الأسلمي فذكره. وجسر ضعيف، ورواه الطبراني - (١٣٣/٧) وفيه شعيب بن بيان وهو ضعيف - والبيهقي في الشعب موقوفاً هـ.

(٢) كواعب جمع كاعب وهي المرأة التي تكعب ثديها واستدار مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سن البلوغ. وأترباً أي لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، أو لوقوعهن معاً على التراب.. (روح المعاني ١٨/٣٠).

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

(٣٩) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ إلى ثوابه. ﴿مَثَابًا﴾ بالإيمان والطاعة.

(٤٠) ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذاب الآخرة، وقربه لتحقيقه فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ ولأنَّ مبدأه الموتُ. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يرى ما قدَّمه من خير أو شرٍّ. والمرءُ عامٌّ، وقيل هو الكافر لقوله ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ﴾^(١) فيكون الكافر ظاهراً وُضِعَ موضعَ الضمير لزيادة الذمِّ، وما موصولة منصوبةً بينظرُ أو استفهامية منصوبةً بقَدَّمَتْ، أي ينظر أيَّ شيءٍ قَدَّمَتْ يَدَاهُ. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ في الدنيا فلم أُخْلَقْ ولم أَكْلَفْ، أو في هذا اليوم فلم أُبْعَثْ، وقيل يحشرُ سائرُ الحيواناتِ للاقتصاصِ ثم تَرَدُّ تراباً فيودُّ الكافرُ حالها. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ عَمَّ سَقَاهُ اللَّهُ بَرْدَ الشَّرَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

☆ ☆ ☆

(١) النبأ: «٤٠».

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨١ رقم ٢٦٩). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ (١) وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝ (٢) وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا ۝ (٣) فَالسَّيْفَتِ سَبْقًا ۝ (٤) فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ۝ (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ (٨) أَبْصَتْهَا خَشِيعَةٌ ۝ (٩) يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝ (١٠) أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا نَخِرَةً ۝ (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ (١٢)

سورة النازعات مكية ^(١) وآياتها خمس أو ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾.

(٢) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾.

(٣) ﴿وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا﴾.

(٤) ﴿فَالسَّيْفَتِ سَبْقًا﴾.

(٥) ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ هذه صفات ملائكة الموت فإنهم ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم غَرْقًا أي إغراقًا في النزاع. فإنهم ينزعونها من أقاصي الأبدان أو نفوساً غرقت في الأجساد، وينشطون أي يخرجون أرواح المؤمنين برفق من نشط الدلوع من البشر إذا أخرجها، ويسبحون في إخراجها سبج الغواص الذي يُخرج الشيء من أعماق البحر، فيسبقون بأرواح الكفار إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، فيدبرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيئوها لإدراك ما أعد لها من الآلام واللذات، أو الأوليان لهم

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز».

(٢١٨/١٦): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».

والباقيات لطوائف من الملائكة يسبحون في مضيئها أي يسرعون فيه فيسبقون إلى ما أمروا به فيدبرون أمره. أو صفات النجوم فإنها تنزع من المشرق إلى المغرب غرقاً في النزاع بأن تقطع الفلك حتى تنحط في أقصى الغرب، وتنشط من برج إلى برج أي تخرج من نشط الثور إذا خرج من بلد إلى بلد، ويسبحن في الفلك فيسبقن بعضها في السير لكونه أسرع حركة فيدبر أمراً ينط بها، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات، ولما كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب قسرية وحركاتها من برج إلى برج ملائمة سمي الأولى نزاعاً والثانية نشطاً. أو صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً أي نزاعاً شديداً من إغراق النازع في القوس، وتنشط إلى عالم الملكوت وتسبح فيها فتسبق إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات، أو حال سلوكها فإنها تنزع عن الشهوات فتتنشط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات. أو صفات أنفس الغزاة، أو أيديهم تنزع القسي بإغراق السهام وينشطون بالسهم للرمي ويسبحون في البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها. أو صفات خيلهم فإنها تنزع في أعنتها نزاعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر، وتسبح في حربها فتسبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر.

أقسم الله تعالى بها على قيام الساعة وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه.

(٦) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ وهو منصوب به، والمراد بالراجعة الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ كالأرض والجبال لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾^(١) أو الواقعة التي ترجف الأجرام عندها وهي النفخة الأولى.

(٧) ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ التابعة وهي السماء والكواكب تشق وتتشر، أو النفخة الثانية. والجملة في موقع الحال.

(٨) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ شديدة الاضطراب من الوجيف وهي صفة القلوب، والخبر.

(٩) ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة من الخوف ولذلك أضافها إلى القلوب.

(١٠) ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ في الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت من قولهم رجع فلان في حافرتي أي طريقه التي جاء فيها، فحفرها أي أثر فيها بمشيه على النسبة كقوله تعالى ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أو تشبيهه القائل بالفاعل. وقرئ في الحفرة بمعنى المحفورة يُقَالُ حَفَرْتُ أَسْنَانَهُ فَحَفَرْتُ حَفراً وهي حفرة.

(١١) ﴿أَءَدَا كُنَّا﴾ وقرأ نافع وابن عامر والكسائي إذا كنا على الخبر. ﴿عِظْمًا تَحَرَّهَ﴾ بالية وقرأ الحجازيان والشامي وحنصر وروح نخرة وهي أبلغ.

(١٢) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ذات خسار أو خاسر أصحابها، والمعنى أنها إن صححت فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها، وهو استهزاء منهم.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾
 أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَى ﴿١٨﴾ وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرْسَلَهُ آلَاةَ الْكِبَرَى ﴿٢٠﴾
 فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلقٌ بمحذوف أي لا يستضعبونها فما هي إلا صيحة واحدة يعني النفخة الثانية.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها. والساهرة الأرض البيضاء المستوية، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّ السراب يجري فيها من قولهم: عينٌ ساهرةٌ للتي يجري ماؤها وفي ضدّها نائمة، أو لأن سالكها يسهرُ خوفاً، وقيل اسمٌ لجهنم.

(١٥) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أليس قد أتاك حديثه فيسليكَ على تكذيب قومك وتهذِّدْهم عليه بأن يصيبتهم مثل ما أصاب من هو أعظم منهم.

(١٦) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قد مرَّ بيانه في سورة طه.

(١٧) ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ على إرادة القول، وقرئ أن اذهب لما في النداء من معنى القول.

(١٨) ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَى﴾ هل لك ميلٌ إلى أن تتطهر من الكفر والطغيان، وقرأ الحجازيان ويعقوب تَرْكَى بالتشديد.

(١٩) ﴿وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفته. ﴿فَتَخْشَى﴾ بأداء الواجبات وترك المحرمات، إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة وهذا كالتفصيل لقوله ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾^(١).

(٢٠) ﴿فَأَرْسَلَهُ آلَاةَ الْكِبَرَى﴾ أي فذهب وبلغ فأراه المعجزة الكبرى وهي قلب العصا حية فإنه كان المقدّم والأصل، أو مجموع معجزاته فإنها باعتبار دلالتها كآية الواحدة.

(٢١) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ فكذب موسى وعصى الله عز وجل بعد ظهور الآية وتحقق الأمر.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ عن الطاعة. ﴿يَسْعَى﴾ ساعياً في إبطال أمره، أو أدبر بعد ما رأى الثعبان مرعوباً مسرعاً في مشيه.

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحرة أو جنوده. ﴿فَنَادَى﴾ في المجمع بنفسه أو بمناد.

(٢٤) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ أعلى كل من يلي أمركم.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أخذاً منكلاً لمن رآه، أو سمعه في الآخرة بالإحراق وفي الدنيا بالإغراق، أو على كلمته الآخرة وهي هذه وكلمته الأولى وهو قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٢) أو للتكيل فيهما، أو لهما، ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً مقدراً بفعليه.

(١) طه: ٤٤.

(٢) القصص: ٣٨.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَتْهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنًا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَآئِقِمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾

(٢٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ لمن كان من شأنه الخشية.

(٢٧) ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقاً. ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ ثم بين كيف خلقها فقال: ﴿بَنَتْهَا﴾ ثم بين البناء

فقال:

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو تُخْنَهَا لِذَاهِبٍ فِي الْعُلُوِّ رَفِيعاً. ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ فعدلها أو فجعلها مستوية، أو فتَمَّمَهَا بما يَتِمُّ به كمالها من الكواكب والتداوير وغيرها من قولهم: سَوَّى فلان أمره إذا أصلحه.

(٢٩) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أَظْلَمَهُ مَنْقُولٌ مِنْ غَطَشَ اللَّيْلُ إِذَا أَظْلَمَ، وإنما أضافه إليها لأنه يحدث بحركتها. ﴿وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا﴾ وأبرز ضوء شمسها. كقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾^(١) يريد النهار.

(٣٠) ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنًا﴾ بسطها ومهدّها لِلشُّكْنَى.

(٣١) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير العيون. ﴿وَمَرْعَهَا﴾ ورعيها وهو في الأصل لموضع الرعي، وتجريد الجملة عن العاطف لأنها حال بإضمار قد أو بيان للذَّحْوِ.

(٣٢) ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا﴾ أثبتها وقرىء والأرض والجبال بالرفع على الابتداء، وهو مرجوح لأن العطف على فعلية.

(٣٣) ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَآئِقِمِكُمْ﴾ تمتعاً لكم ولمواشيكم.

(٣٤) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ الداهية التي تطم أي تلعو على سائر الدواهي. ﴿الْكُبْرَى﴾ التي هي أكبر الطَّامَاتِ وهي القيامة، أو النفخة الثانية أو الساعة التي يُسَاقُ فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ بأن يراه مدوناً في صحيفته وكان قد نسيه من فَرْطِ الْغَفْلَةِ أو طول المدة، وهو بدل من إذا جاءت وما موصولة أو مصدرية.

(٣٦) ﴿وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ﴾ وأظهرت. ﴿لِمَن يَرَى﴾ لكل راء بحيث لا تخفى على أحد، وقرىء وبرزت ولمن رأى ولمن ترى على أن فيه ضمير الجحيم كقوله تعالى ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٢). أو أنه خطاب الرسول ﷺ أي لمن تراه من الكفار، وجواب فإذا جاءت محذوف دل عليه يوم يتذكر أو ما بعده من التفضيل.

(١) الشمس: (١١).

(٢) الفرقان: (١٢).

فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ حتى كفر.

(٣٨) ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فانهمك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس.

(٣٩) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ هي مأواه واللام فيه ساذة مسد الإضافة للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغى، وهي فصل أو مبتدأ.

(٤٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد. ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ لعلمه بأنه مرء.

(٤١) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ليس لها سواها مأوى.

(٤٢) ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها أي إقامتها وإنبائها، أو منتهاها ومستقرها من مرسى السفينة وهو حيث تنتهي إليه وتستقر فيه.

(٤٣) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم أي ما أنت من ذكرها لهم، وتبين وقتها في شيء فإن ذكرها لا يزيدهم إلا غيا، ووقتها مما استأثر الله تعالى بعلمه. وقيل فيم إنكار لسؤالهم وأنت من ذكرها مستأنف، ومعناه أنت ذكر من ذكرها أي علامة من أشراتها، فإن إرساله خاتما للأنبياء أماراة من أماراتها، وقيل إنه متصل بسؤالهم والجواب.

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ أي منتهى علمها.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ إنما بعثت لإنذار من يخاف هولها، وهو لا يناسب تعيين الوقت وتخصيص من يخشى لأنه المتفجع به، وعن أبي عمرو منذر بالتنوين والإعمال على الأصل لأنه بمعنى الحال.

(٤٦) ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا أو في القبور. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي عشيّة يوم أو ضحاه كقوله ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾^(١) ولذلك أضاف الضحى إلى العشيّة لأنهما من يوم واحد. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النازعات كان ممن حبسه الله في القيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة»^(٢).

☆ ☆ ☆

(١) الأحقاف: «٣٥».

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشافى» (ص ١٨١ رقم ٢٧٣).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَزْكَى ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَعْتَى ۖ (٥) فَأَنْتَ
لَمْ تَصَدَّى ۖ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ۖ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۖ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ لَهْفَى ۖ (١٠) كَلَّا ۖ (١١) إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ ۖ (١٢)
فَمَنْ شَاءَ ذَكُرْ ۖ (١٣) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۖ (١٤) تَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۖ (١٥) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۖ (١٦)

سورة عبس مكية^(١) وآياتها ثنتان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾.

(٢) ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ رُوي^(٢): أَنَّ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ أتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وعنده صناديد قريش يدعوه إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله علّمني مما علّمك الله، وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم، فكره

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٢٨/١٦): «وهي مكية بإجماع المفسرين».
(٢) أخرجه الترمذي (٤٣٢/٥) رقم (٣٣٣١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٣٠ - ٥١). وابن حبان في
الموارد (رقم: ١٧٦٩) والحاكم (٥١٤/٢) من حديث عائشة.

قال الترمذي: غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه ولم يذكر فيه عن عائشة.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة، وقال الذهبي: وهو
الصواب.

● وأخرج الحاكم نحوه (٦٣٤/٣ - ٦٣٥) من طريقين عن عائشة وسكت عليه، وذكر الذهبي متابعة طريق لآخر
وسكت.

وقال الشيخ شعيب في «الإحسان» (٢٩٤/٢): رواه مرسلًا مالك في «الموطأ» (٢٠٧/١) وصوب الإمام الذهبي
كونه مرسلًا، وانظر «الدر المنثور» (٤١٦/٨).

رسول الله ﷺ قطعَه لكلامه وَعَبَسَ وأعرضَ عنه فترلت، فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربِّي، واستخلفه على المدينة مرتين»^(١). وقرىء عبس بالتشديد للمبالغة وأن جاءه علة لتولَّى أو عبس على اختلاف المذهبين. وقرىء آأن بهمزتين وبالفِ بينهما بمعنى ألئن جاءه الأعمى فعلٌ ذلك. ودَكَرَ الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله ﷺ بالقوم والدلالة على أنه أحقُّ بالرافة والرَّفق، أو لزيادة الإنكار كأنه قال: تولَّى لكونه أعمى كالالتفات في قوله:

(٣) ﴿وَمَا يَذْكُرُكَ إِلَّا دُجَاهُ يَلَّوْا﴾ أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحاله لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك. وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره.

(٤) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ تَتَّخِذَ الْمُتَّقِينَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ آبَاءَ وَبَنِينَ وَنِسَاءً مُنَافِقِينَ قُلُوبُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ إِلَّا طَعَنُوا فِيهِ طَعْنًا كَثِيرًا يَخْلَعُونَ حُلِيًّا عَلَيْهِمْ عَالِيًا﴾ أو يتعظ فتتفعه موعظتك، وقيل الضمير في لعله للكافر أي أنك طمعت في تزكية بالإسلام وتذكيره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره، فما يدريك أن ما طمعت فيه كائن، وقرأ عاصم فتتفعه بالنصب جواباً للعل.

(٥) ﴿أَمَّا نِصْصٌ﴾

(٦) ﴿فَأَن تَصَدَّقَ﴾ تتعرض له بالإقبال عليه وأصله تصدَّى. وقرأ ابن كثير ونافع تصدَّى بالإدغام، وقرىء تصدَّى أي تعرض وتُدعى إلى التصدِّي.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِيكَ﴾ وليس عليك بأسٌ في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاءُ﴾^(٢).

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَهُكَ يَتَسَوَّى﴾ يسرع طالباً للخير.

(٩) ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله أو أذية الكفار في إتيانك، أو كبوة الطريق لأنه أعمى لا قائد له.

(١٠) ﴿فَأَن تَعْلَمَ لَقَّيْنِ﴾ تشاغل، يقال لها عنه والتهى وتلهى، ولعل ذكر التصديق والتلهي للإشعار بأن العتاب على اهتمام قلبه بالغني وتلهيه عن الفقير، ومثله لا ينبغي له ذلك.

(١١) ﴿كَلَّا﴾ ردع عن المعاتب عليه أو عن معاودة مثله. ﴿إِنَّمَا نَذْكِرُكَ﴾.

(١٢) ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا﴾ حفظه أو أعظم به والضميران للقرآن، أو العتاب المذكور وتأتي الأول لتأنيث خبره.

(١٣) ﴿فِي صُحُفٍ﴾ مثبتة فيها صفة لتذكير، أو خبر ثانٍ أو خبرٌ لمحذوف. ﴿مُكْرَمَةٍ﴾ عند الله.

(١٤) ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ القدر. ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ منزّهة عن أيدي الشياطين:

(١٥) ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كتيبة من الملائكة أو الأنبياء يتسخون الكتب من اللوح أو الوحي، أو سفراء

(١) انظر «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/٢٧٦ رقم ٣٠٠٧).

واستخلافه على المدينة أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/١٠٥ ج ٣٠/٥١ - ٥٢) وهو معضل.

(٢) الشورى: (٤٨).

يسفرون بالوحي بين الله تعالى ورسوله، أو الأمة جمع سافر من السفر أو السفارة والتركيب للكشف يقال سفرت المرأة إذا كشفت وجهها.

﴿كَرِيمٌ بَرَّزَ﴾ (١٦) قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾

(١٦) ﴿كَرِيمٌ﴾ أعزاء على الله أو متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم. ﴿بَرَّزَ﴾ اتقى.

(١٧) ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفران، وهو مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ.

(١٨) ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بيان لما أنعم عليه خصوصاً من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير ولذلك أجاب عنه بقوله:

(١٩) ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ فهيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال، أو فقدّره أطواراً إلى أن تم خلقته.

(٢٠) ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ ثم سهّل مخرجه من بطن أمه بأن فتح فوهة الرحم وألهمه أن يتكيس، أو دلّل له سبيل الخير والشر، ونصب السبيل بفعل يفسره الظاهر للمبالغة في التيسير، وتعريفه باللام دون الإضافة للإشعار بأنه سبيل عام، وفيه على المعنى الأخير إيماء بأن الدنيا طريق والمقصود غيرها ولذلك عقبه بقوله:

(٢١) ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾.

(٢٢) ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ وعدّ الإمامة والإقبار في النعم لأنّ الإمامة وُضِلَتْ في الجملة إلى الحياة الأبدية واللذات الخالصة، والأمر بالقبر تكرمة وصيانة عن السباع، وفي إذا شاء إشعاراً بأنّ وقت النشور غير متعَيّن في نفسه، وإنما هو موكول إلى مشيئته تعالى.

(٢٣) ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان بما هو عليه. ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ﴾ لم يقض بعد من لدن آدم إلى هذه الغاية ما أمره الله بأمره، إذ لا يخلو أحد من تقصير ما.

(٢٤) ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ إتياع للنعم الذاتية بالنعم الخارجية.

(٢٥) ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ استئناف مبين لكيفية إحداث الطعام، وقرأ الكوفيون بالفتح على البدل منه بدل الاشتمال.

(٢٦) ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنبات أو بالكراب، وأسند الشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب.

(٢٧) ﴿فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير.

وَعَنَابًا وَقَضَبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلَبًا ﴿٣٠﴾ وَفَلَكَهَةً وَأَبَّأًا ﴿٣١﴾ مَنَّاعًا لَّكُمُورًا وَلَا تَنْعَمِكُمُورًا ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ
الصَّلَاحَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ﴿٣٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ
الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

(٢٨) ﴿وَعَنَابًا وَقَضَبًا﴾ يعني الرطبة سُمِّيَتْ بمصدرٍ قَضَبَها إذا قطعَها لأنها تُقَضَّبُ مرةً بعدَ أخرى.

(٢٩) ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾.

(٣٠) ﴿وَحَدَائِقَ غُلَبًا﴾ عظاماً وصفَ به الحدائق لتكاثرها وكثرة أشجارها، أو لأنها ذاتُ أشجار غلاظٍ مستعارٌ من وصفِ الرقاب.

(٣١) ﴿وَفَلَكَهَةً وَأَبَّأًا﴾ ومرعى من أبٍّ إذا أمَّ لأنه يُؤمُّ ويتجمع، أو من أبٍّ لكذا إذا تهيأ له لأنه منتهيٌ للرعي، أو فاكهة يابسة تؤوب للشتاء.

(٣٢) ﴿مَنَّاعًا لَّكُمُورًا وَلَا تَنْعَمِكُمُورًا﴾ فإنَّ الأنواعَ المذكورة بعضها طعام وبعضها علفٌ.

(٣٣) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاحَةُ﴾ أي النفخة وصِفَتْ بها مجازاً لأنَّ الناسَ يصحُّون لها.

(٣٤) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾.

(٣٥) ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾.

(٣٦) ﴿وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ﴾ لاشتغاله بشأنه وعلمه بأنهم لا ينفعونَه، أو للحدَرِ من مطالبتهم بما قَصُرَ في حقِّهم، وتأخيرُ الأحبِّ فالأحبُّ للمبالغة كأنه قيل: يفرُّ من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه.

(٣٧) ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به، وقرىء يعنِيهِ أي يهتُمُّ.

(٣٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ مضيئة من إسفارِ الصبح.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لما ترى من النعيم.

(٤٠) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبارٌ وكدورة.

(٤١) ﴿تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ﴾ يغشاها سوادٌ وظلمة.

(٤٢) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ الذين جمعوا إلى الكفر الفجور، فلذلك يجمعُ إلى سواد وجوههم

الغبرة، قال النبي ﷺ: «من قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحكٌ مستبشرٌ»^(١).

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٢ رقم ٢٧٩).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّكْوِيْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾

سورة التكويد مكية^(١) وآيها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ لُفَّتْ من كُوِّرَت العمامة إذا لَفَفْتَهَا بمعنى رُفِعَتْ لأنَّ الثوب إذا أُريدَ رفعه لُفَّ، أو لُفَّ ضوؤها فذهب انبساطه في الآفاق وزال أثره، أو أُلْفِيَتْ عن فَلَكِهَا من طَعَنَهُ فكُوِّرَهُ إذا ألقاه مجتمعاً. والتركيب للإدارة والجمع، وارتفاع الشمس بفعلٍ يفسره ما بعدها أولى لأنَّ إذا الشرطية تطلب الفعل.

(٢) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ انقضت قال: أَبْصِرْ خَزْبَانَ فَضَاءً فانكدر. أو اظلمت من كدّرت الماء فانكدر.

(٣) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض أو في الجو.

(٤) ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ النوق اللواتي أتى على حملهنَّ عشرة أشهر جمعُ عشرة. ﴿عُطِّلَتْ﴾ تُرِكَتْ مهملّة، أو السحائب عُطِّلَتْ عن المطر، وقرئ بالتخفيف.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز».

(١٦/٢٣٧): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».

- (٥) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعت من كل جانب أو بعثت للقصاص ثم رُدَّتْ تراباً، أو أُمِيتَتْ من قولهم إذا أجمعت السنة بالناس حشرتهم، وقرئ بالتشديد.
- (٦) ﴿وَإِذَا الْيَحَاوُ سِحِرَتْ﴾ أُخِمِيتْ أو مُلِيتْ بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً، من سَجَرَ التنور إذا ملأه بالخطب ليحميه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بالتخفيف.
- (٧) ﴿وَإِذَا الْفُؤُوسُ زُوِجَتْ﴾ قُرِنَتْ بالأبدان أو كلُّ منها بشكلها، أو بكتائبها وعملها، أو نفوس المؤمنين بالحوار ونفوس الكافرين بالشياطين.
- (٨) ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ﴾ المدفونة حية، وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق، أو لحوق العار بهم من أجلهم ﴿سِيلَتْ﴾.
- (٩) ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ تبيهاً لوأيدها كتبتكيت النصارى بقوله تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(١) وقرئ سألت أي خاصمت عن نفسها وسألت. وإنما قيل قُتِلَتْ على الإخبار عنها، وقرئ قُتِلَتْ على الحكاية.
- (١٠) ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني صحف الأعمال فإنها تُطَوَّى عند الموت وتنشر وقت الحساب. وقيل نشرت فزقت بين أصحابها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالتشديد للمبالغة في النشر، أو لكثرة الصحف أو شدة التطاير.
- (١١) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قُلِعَتْ وأزيلت كما يُكشط الإهاب عن الذبيحة، وقرئ قُشِطَتْ، واعتقَابُ القاف والكاف كثير.

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ۖ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۖ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۖ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ۖ الْجَوَارِ الْكُنُفِ ۖ

(١٢) ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أوقدت بإقداً شديداً. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ورويس بالتشديد.

(١٣) ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قُرِبَتْ من المؤمنين.

(١٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ جواب إذا. وإنما صحَّ والمذكور في سياقها اثنتا عشرة خصلة ست منها في مبادئ قيام الساعة قبل فناء الدنيا وست بعده لأن المراد زمان متسع شامل لها ولمجازاة النفوس على أعمالها، ونفس في معنى العموم كقولهم تمرّة خير من جرادة.

(١٥) ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ﴾ بالكواكب الرواجع من خنس إذا تأخر، وهي ما سوى النيرين من الكواكب السيارات ولذلك وصفها بقوله:

(١٦) ﴿الْجَوَارِ الْكُنُفِ﴾ أي السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس من كنس الوحش إذا دخل كناسه، وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر.

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيدَ ﴿٢٨﴾

(١٧) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أقبل ظلامه أو أدبر وهو من الأضداد يقال عسعس الليل وسعسع إذا أدبر.

(١٨) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ أي أضاء غبرته عند إقبال روح ونسيم.

(١٩) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني جبريل فإنه قاله عن الله تعالى.

(٢٠) ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله شديد القوى. ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ عند الله ذي مكانة.

(٢١) ﴿مُطَاعٌ﴾ في ملائكته. ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ على الوحي، وثمَّ يحتمل اتصاله بما قبله وما بعده، وقرئ ثم تعظيماً للأمانة وتفضيلاً لها على سائر الصفات.

(٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ كما تبهته الكفرة^(١). واستدل بذلك على فضل جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام حيث عد فضائل جبريل واقتصر على نفي الجنون عن النبي ﷺ، وهو ضعيف إذ المقصود منه نفي قولهم إنما يعلمه بشر أفترى على الله كذباً أم به جنة لا تعداد فضلهما والموازنة بينهما.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ على ما يخبره من الموحى إليه وغيره من الغيوب. ﴿بِضَنِينٍ﴾ بمتهم من الظنة، وهي التهمة، وقرأ نافع وعاصم وحمزة وابن عامر بضنين بالضاد من الضن وهو البخل أي لا يبخل بالتبليغ والتعليم، والضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، والظاء من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ بقول بعض المستترقة للسمع، وهو نفي لقولهم إنه لكهانة وسحر.

(٢٦) ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه في أمر الرسول ﷺ والقرآن، كقولك لتارك الجادة أين تذهب؟

(٢٧) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ تذكير لمن يعلم.

(٢٨) ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيدَ﴾ بتحري الحق وملازمة الصواب، وإبداله من العالمين لأنهم المتفوعون بالتذكير.

(١) والتعرض لعنوان المصاحبة للتلويع بإحاطتهم بتفاصيل أحواله عليه الصلاة والسلام خبراً وعلمهم بنزاهته عليه السلام عما نسبوه إليه بالكلية (س/٩/١١٨).

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة يا مَنْ يشاؤها. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا وَقْتَ أَنْ يشاء الله مشيئَتكم فله الفضلُ والحقُّ عليكم باستقامتكم. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالكُ الخلقِ كلِّه. قال عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة التكوير أعاده الله أن يفضَّحه حين تنتشرُ صحيفته»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٢ رقم ٢٨١).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾

سورة الانفطار مكية^(١) وآياتها تسعة عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ انشقت.
- (٢) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ تساقطت متفرقة.
- (٣) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ فتحت بعضها إلى بعض فصار الكلُّ بحراً واحداً.
- (٤) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ قلب تراؤها وأخرج موتها. وقيل إنه مركب من بعث وراء الإثارة كبسمل ونظيره بحثر لفظاً ومعنى.
- (٥) ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ من عملٍ أو صدقة. ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ من سيئة أو تركية، ويجوز أن يُراد بالتأخير التضييع وهو جواب إذا.
- (٦) ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه، وذكر الكريم للمبالغة في المنع عن الاغترار فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم وتسوية الموالي والمعادى

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٤٥/١٦): «وهي مكية بإجماع».

والمطيع والعاصي، فكيف إذ انضمَّ إليه صفةُ القهر والانتقام؟ والإشعار بما به يغرُّه الشيطان؛ فإنه يقول له افعل ما شئتَ فربُّكَ كريمٌ لا يعذب أحداً ولا يعاجلُ بالعقوبة، والدلالة على أنَّ كثرةَ كرمه تستدعي الجِدَّ في طاعته لا الانهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه.

(٧) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَ﴾ صفةٌ ثانية مقررةٌ للربوبية مبينةٌ للكرم منبهةٌ على أن من قَدَرَ على ذلك أولاً قَدَرَ عليه ثانياً، والتسوية جعلُ الأعضاء سليمةً مسواةً معدةً لمنافعها، والتعديلُ جعلُ البنية معدلةً متناسبةً الأعضاء، أو معدلةً بما تسعدها من القوى. وقرأ الكوفيون فعَدَلَ بالتخفيف أي عَدَلَ بعضُ أعضائك ببعض حتى اعتدلت، أو فصرفك عن خلقه غيرك وميزك بخلقك فارقت خلقك سائرَ الحيوان.

(٨) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي رَكَّبَكَ في أي صورة شاءها، وما مزيدةٌ وقيل شرطيةٌ، ورَكَّبَكَ جوابها، والظرفُ صلةٌ عَدَلَكَ، وإنما لم يعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيانٌ لِعَدَلَكَ.

(٩) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن الاغترار بكرم الله وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ إضرابٌ إلى بيان ما هو السببُ الأصلي في اغترارهم، والمراد بالدين الجزاء أو الإسلام.

وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١١﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٥﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾

(١٠) ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ .

(١١) ﴿كِرَامًا كَنِينِينَ﴾ .

(١٢) ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تحقيقٌ لما يكذبون به وردُّ لما يتوقعون من التسامح والإهمال، وتعظيمُ الكتبة بكونهم كراماً عند الله لتعظيم الجزاء.

(١٣) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ .

(١٤) ﴿وَأَنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ^(١) بيانٌ لما يكتبون لأجله.

(١٥) ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يقاسون حرَّها. ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ .

(١٦) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ لخلودهم فيها. وقيل معناه وما يغيبون عنها قبل ذلك إذ كانوا يجدون سُمومها في القبور.

(١٧) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ .

(١٨) ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ تعجيبٌ وتفخيمٌ لشأن اليوم، أي كُنْهُ أمره بحيث لا تدرُّه درايةٌ

دارٍ.

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

(١٩) ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ تقريرٌ لشدة هوله وفخامة أمره إجمالاً. ورفع ابن كثير والبصريان يومٌ على البدل من يوم الدين، أو الخبر المحذوف. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة، وبعدد كل قبر حسنة»^(١). والله أعلم.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٢ رقم ٢٨٤).

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ
أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَعِيرٍ ﴿٧﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَعِيرٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾

سورة المطففين مختلف فيها^(١)، وآيها ست وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف البخس في الكيل والوزن لأن ما يبخس طفيف أي حقير. روي أن أهل المدينة كانوا أخبث الناس كيلاً فنزلت فأحسنوه^(٢)، وفي الحديث «خمس بخمس ما نقض العهد

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٤٩/١٦): «وهي مكية في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا لذكر الأساطير، وهذا على أن هذا تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسبما هو في كل أمة ولا سيما مع كفرهم. وقال ابن عباس والسدي والنقاش وغيره: السورة مدنية. قال السدي: كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطى بالأنقص فنزلت السورة فيه.

يقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس أيضاً فيما روى عنه: نزل بعضها بمكة ونزل أم التطفيف بالمدينة، لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى فأصلحهم الله تعالى بهذه السورة، وقال آخرون: نزلت السورة بين مكة والمدينة، وذلك ليصلح الله أمرهم قبل ورود رسوله عليهم» هـ.

(٢) أخرج النسائي في «تفسيره» (رقم: ٦٧٤) وابن ماجه (٧٤٨/٢ رقم ٢٢٢٣) عن ابن عباس، قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة فكانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل «ويل للمطففين» فحسنوا الكيل بعد ذلك، وإسناده حسن.

وانظر «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» تخريج الشيخ شعيب (٢٨٦/١١).

قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر^(١).

(٢) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية، وإنما أبدل على بمن للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس، أو اكتيال يتحامل فيه عليهم.

(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي إذا كالوا الناس أو وزنوا لهم. ﴿يُخْسِرُونَ﴾ فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله: وَلَقَدْ جَنَيْتَكَ أَكْمَوْا وَعَسَاقِلًا^(٢).

بمعنى جنيت لك، أو كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم المضاف مقامه، ولا يحسن جعل المنفصل تأكيداً للمتصل فإنه يخرج الكلام عن مقابلة ما قبله إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والدفع لا في المباشرة وعدمها، ويستدعي إثبات الألف بعد الواو كما هو خط المصحف في نظائره.

(٤) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ فإن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن يتيقنه؟ وفيه إنكار وتعجب من حالهم.

(٥) ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظمه لعظم ما يكون فيه.

(٦) ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ نُصِبَ بمبعوثين أو بدل من الجار والمجرور، ويؤيده القراءة بالجاء ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لحكمه. وفي هذا الإنكار والتعجب وذكر الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله والتعبير عنه برَبِّ العالمين مبالغاً في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمهم.

(٧) ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾ ما يُكْتَبُ من أعمالهم أو كتابة أعمالهم. ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين كما قال:

(٨) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾.

(٩) ﴿كِتَابٌ مَرْفُومٌ﴾ أي مسطور بين الكتابة أو معلّم يعلم مَنْ رآه أنه لا خير فيه، فعيل من السجّن لُقِبَ به الكتاب لأنه سبب الحبس، أو لأنه مطروح كما قيل: تحت الأرضين في مكانٍ وحشٍ، وقيل

(١) وهو حديث حسن بشواهد.

● أخرجه الحاكم (١٢٦/٢) من حديث بريده. وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٠/١).

● وأخرجه الحاكم (٥٤٠/٤) وابن ماجه (١٣٣٢/٢) رقم ٤٠١٩ من حديث عبدالله بن عمر. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٥/١١) رقم ١٠٩٩٢ من حديث ابن عباس. وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦٥/٣) وقال: «فيه إسحاق بن عبدالله بن كيسان المروزي لينة الحاكم، وبقيّة رجاله موثقون وفيهم كلام» هـ.

والخلاصة أن الحديث يرتقي إلى درجة الحسن والله أعلم.

(٢) من الكامل.

هو اسم مكان والتقدير ما كتاب السجين، أو محل كتاب مرقوم فحذف المضاف.

وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ابْنَانَا قَالَ
أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾

(١٠) ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق أو بذلك.

(١١) ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ صفة مخصصة أو موضحة أو دامة.

(١٢) ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ متجاوز عن النظر غالب في التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه فاستحال منه الإعادة. ﴿أثيم﴾ منهلك في الشهوات المخدجة^(١) بحيث أشغلتها عما وراءها وحملته على الإتيان لما عداها.

(١٣) ﴿إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ابْنَانَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من قرط جهله وإعراضه عن الحق فلا تنفعه شواهد النقل كما لم تنفعه دلائل العقل.

(١٤) ﴿كَلَّا﴾ ردع عن هذا القول. ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ رد لما قالوه وبيان لما أدى بهم إلى هذا القول، بأن غلب عليهم حب المعاصي بالانهماك فيها حتى صار ذلك صدأ على قلوبهم فعوى عليهم معرفة الحق والباطل، فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الْعَبْدَ كُلَّمَا أَذْنَبَ ذَنْبًا حَصَلَ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ حَتَّى يَسُودَ قَلْبُهُ»^(٢) والرَّيْنُ الصدأ، وقرأ حفص بل رَانَ بإظهار اللام.

(١٥) ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الكسب الرائي. ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فلا يرونه بخلاف المؤمنين. ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلاً لإهانتهم بإهانة من يُمنع عن الدخول على الملوك، أو قدّر مضافاً مثل رحمة ربهم. أو قرب ربهم.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ليدخلون النار ويضلون بها.

(١) الشهوات المخدجة أي الناقصة ويراد بها شهوات الدنيا. والخداج النقص، وفي الحديث: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج» أي نقصان (مختار الصحاح مادة خدج).

(٢) وهو حديث حسن.

أخرجه أحمد في المسند (٢٩٧/٢) والترمذي (٤٣٤/٥) رقم (٣٣٤٥) وابن ماجه (١٤١٨/٢) رقم (٤٢٤٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ج ٩٨/٣٠) والحاكم (٥١٧/٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم: ٤١٨) وابن حبان في الإحسان (٢١٠/٣) رقم (٩٣٠) من حديث أبي هريرة.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرفُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِرَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾

(١٧) ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ تقوله لهم الزبانية.

(١٨) ﴿كَلَّا﴾ تكرير ليعقب بوعيد الأبرار كما عقب الأول بوعيد الفجار إشعاراً بأنَّ التطفيف فجور والإيفاء بؤ، أو ردع عن التكذيب. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.

(١٩) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾.

(٢٠) ﴿كِتَابٌ مَرفُومٌ﴾ الكلام فيه ما مرَّ في نظيره^(١).

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ﴾ يحضرونه فيحفظونه، أو يشهدون على ما فيه يوم القيامة.

(٢٢) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

(٢٣) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على الأسرّة في الحجال. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما يسرّده من النعم والمتفرجات.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ بهجة النعم وبريقه، وقرأ يعقوب تُعْرِفُ على البناء للمفعول ونضرة بالرفع.

(٢٥) ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ شراب خالص. ﴿مَخْتُومٍ﴾.

(٢٦) ﴿خِتَمُهُ مِسْكٌَ﴾ أي مختوم أوانيه بالمسك مكان الطين، ولعله تمثيلٌ لنفاسته، أو الذي له ختام أي مقطع هو رائحة المسك، وقرأ الكسائي خاتمته بفتح التاء أي ما يُخْتَمُ به ويُقَطَّع. ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ يعني الرحيق أو النعيم. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فليرتغب المرتغبون.

(٢٧) ﴿وَمِرَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ علّم لعين بعينها سُمِّيَتْ تسنيماً لارتفاع مكانها أو رفعة شرابها.

(٢٨) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ فإنهم يشربونها صِرْفاً لأنهم لم يشتغلوا بغير الله، وتُمَزَّجُ لسائر أهل الجنة، وانتصاب عيناً على المدح أو الحال من تسنيم والكلام في الباء كما في ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٢).

(٢٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ يعني رؤساء قريش. ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ كانوا يستهزئون بفقرء

المؤمنين.

(١) الآية «٩» من سورة المطففين.

(٢) الآية «٦» من سورة الإنسان.

والباء فيها إما مزيدة أو بمعنى من.

وَلِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٠) ﴿وَلِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ يغمر بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم.

(٣١) ﴿وَلِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ متلذذين بالسخرية منهم، وقرأ حفص فكهين.

(٣٢) ﴿وَلِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ وإذا رأوا المؤمنين نسبهم إلى الضلال.

(٣٣) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿حَفِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أعمالهم ويشهدون برشدتهم وضلالهم.

(٣٤) ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلوبين في النار. وقيل يُفْتَحُ لهم باب إلى الجنة فيقال لهم اخرجوا إليها، فإذا وصلوا أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم.

(٣٥) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ حال من يضحكون.

(٣٦) ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ﴾ أي هل أئيبوا. ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بإدغام اللام في الشاء.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة».

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٣ رقم ٢٩٠). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ^(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ^(٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(٥) يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلِمَ يُقِيهِ ^(٦) فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَمِينَهُ ^(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ^(٨)

سورة الانشقاق مكية ^(١) وآيها خمس وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ بالغمام كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ ^(٢) وعن علي ^(٣) رضي الله تعالى عنه: تشق من المجرة.

(٢) ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ واستمعت له أي انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذي يأذن للأمر ويذعن ^(٤) له. ﴿وَحُقَّتْ﴾ وجعلت حقيقة بالاستماع والانقياد. يقال: حق بكذا فهو محقوق وحقيق.

(٣) ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت بأن تزال جبالها وآكامها.

(٤) ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ ما في جوفها من الكنوز والأموات ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وتكلفت في الخلو أقصى جهدها حتى لم يبق شيء في باطنها.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٠/١٦): «وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين».

(٢) الفرقان: ٢٥.

(٣) ذكره الماوردي في تفسيره (٢٣٣/٦) عنه بدون سند.

(٤) والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلّة الحكم (س/٩/١٣١).

(٥) ﴿وَأَذِّنْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلي. ﴿وَحَقَّتْ﴾ للإذن. وتكرير إذا لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة، وجوابه محذوف للتهويل بالإبهام أو الاكتفاء بما مر في سورتي التكوير والانفطار أو لدلالة قوله:

(٦) ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ عليه وتقديره لاقي الإنسان كدحه أي جهداً يؤثر فيه من كدحه إذا خدشه، أو فملاقية ويأبىها الإنسان إنك كادح إلى ربك اعتراض، والكدح إليه السعي إلى لقاء جزائه.

(٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾.

(٨) ﴿فَسَوْفَ يَحْصِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً لا يتناقض فيه.

وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحْجُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾

(٩) ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ إلى عشيرته المؤمنين، أو فريق المؤمنين، أو أهله في الجنة من الحور.

(١٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. قيل تُغْلَى يُنْهَأُ إِلَى عُنُقِهِ وَتُجْعَلُ يَسْرَاهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ.

(١١) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ يتمنى الثُبُورَ ويقول يا ثبوراه وهو الهلاك.

(١٢) ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ وقرأ الحجازيان والشاميُّ ويصلي لقوله تعالى ﴿وَنُصَلِّيهُ جَحِيمًا﴾^(١) وقرئ ويصلي لقوله تعالى ﴿وَنُصَلِّيهُ جَهَنَّمَ﴾^(٢).

(١٣) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ﴾ أي في الدنيا. ﴿مَسْرُورًا﴾ بطراً بالمال والجاء فارغاً عن الآخرة.

(١٤) ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحْجُورَ﴾ لن يرجع إلى الله تعالى.

(١٥) ﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد لن. ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ عالماً بأعماله فلا يهمله بل يرجعه ويجازيه.

(١٦) ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَفَقِ﴾ الحمرة التي تُرى في أفق المغرب بعد الغروب. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: أنه البياض الذي يليها، سُمِّيَ به لرفقته من الشفقة.

(١٧) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وما جمعه وستره من الدواب وغيرها يُقَالُ: وسقه فأنسق واستوسق، قال:

(١) الواقعة: «٩٤».

(٢) النساء: «١١٥».

مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقًا، أَوْ طَرَدَهُ إِلَى أَمَاكِنِهِ مِنَ الْوَسِيقَةِ.

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

(١٨) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجتمع وتم بذراً.

(١٩) ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حالٍ مطابقةً لأختيها في الشدة، وهو لما طابق غيره فقليل للحال المطابقة، أو مراتب من الشدة بعد المراتب هي الموت ومواطن القيامة وأحوالها، أو هي وما قبلها من الدواهي على أنه جمع طبق. وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي لتركبن بالفتح على خطاب الإنسان باعتبار اللفظ، أو الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى لتركبن حالاً شريفة ومرتبة عالية بعد حالٍ ومرتبة، أو طبقاً من أطباق السماء بعد طبق ليلة المعراج وبالكسر على خطاب النفس، وبالياء على الغيبة، وعن طبق صفة طبقاً أو حالاً من الضمير بمعنى مجاوز الطبق أو مجاوزين له.

(٢٠) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيوم القيامة.

(٢١) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون أو لا يسجدون لتلاوته. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأ ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾^(١) فسجد بمن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم، فنزلت^(٢). واحتج به أبو حنيفة على وجوب السجود فإنه ذم لمن سمعه ولم يسجد. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سجد فيها وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها^(٣).

(٢٢) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بالقرآن.

(٢٣) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يضمرون في صدورهم من الكفر والعداوة.

(٢٤) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استهزاء بهم.

(٢٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع أو متصل، والمراد من تاب وآمن منهم. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع أو ممنون به عليهم. وعن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْاِنْشِقَاقِ أَعَادَهُ اللَّهُ أَنْ يَعْطِيَهُ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ»^(٤).

(١) الملق: «١٩».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٨٣ رقم ٢٩٣): لم أجده.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٥٥٩ رقم ١٠٧٨) ومسلم (١/ ٤٠٧ رقم ٥٧٨) عنه بمعناه.

(٤) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي، وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٣ رقم ٢٩٤).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْبُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ ۝ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُدِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝

سورة البروج مكية^(١) وآياتها اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني البروج الاثني عشر شَبَّهَتْ بالقصور لأنها تنزلها السيارات وتكون فيها الثوابت، أو منازل القمر أو عظام الكواكب سَمَّيَتْ بروجاً لظهورها، أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها، وأصل التركيب للظهور.

(٢) ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة.

(٣) ﴿وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ﴾ وَمَنْ يَشْهَدُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْخَلَائِقِ وَمَا أُخْضِرَ فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ، وتذكيرهما للإبهام في الوصف أي وشاهد ومشهود لا يُكْتَنَى وصفهما، أو المبالغة في الكثرة كأنه قيل: ما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود، أو النبي عليه الصلاة والسلام وأُمَّتُهُ، أو أُمَّتُهُ وسائر الأمم، أو كلُّ نبيٍّ وأُمَّتُهُ، أو الخالقُ والخلقُ، أو عكسه فإنَّ الخالقَ مَطَّلِعٌ على خلقه وهو شاهدٌ على وجوده، أو المَلَكُ الحفيظُ والمكَلَّفُ، أو يومُ النحرِ، أو عرفة والحجيجُ، أو يومُ الجمعة والجمُعُ فإنه يشهد له أو كلُّ يومٍ وأهلِهِ.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٧/١٦): «وهي مكية بإجماع من المتأولين لا خلاف في ذلك».

(٤) ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ قيل إنه جواب القسم على تقدير لقد قُتِلَ، والأظهر أنه دليل جواب محذوف كأنه قيل إنهم ملعونون يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود، فإنَّ السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم، والأخدود الخد وهو الشق في الأرض ونحوهما بناءً ومعنى. الحق والأحقق. روي مرفوعاً: أن ملكاً كان له ساحر فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه، وكان في طريقه راهب فمال قلبه إليه، فرأى في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليه من الساحر فاقتلها فقتلها، وكان الغلام بغد يبرئ الأكمة والأبرص ويشفي من الأدواء، وعمي جليس الملك فأبرأه، فسأله الملك عمَّن أبراه فقال ربي فغضب فعذبه فدلَّ على الغلام فعذبه، فدلَّ على الراهب فقتله بالمنشار، وأرسل الغلام إلى جبل ليُطرح من ذُرْوَتِهِ، فدعا فرجف بالقوم فهلكوا ونجَّا، وأجلسه في سفينة ليغرق فدعا فانكفأت السفينة بمن معه فغرقوا ونجَّا، فقال للملك لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول: بسم الله رب هذا الغلام، ثم ترميني به فرماه فوق في صدغه فمات، فأمن الناس برَبِّ الغلام، فأمر بأخايد وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعث فقال الصبي: يا أمه اصبري فإنك على الحق فافتحمت^(١). وعن علي رضي الله تعالى عنه: كان بعض ملوك المجوس خطب الناس وقال: إن الله أحلَّ نكاح الأخوات فلم يقبلوه، فأمر بأخايد النار فطرح فيها من أبي^(٢). وقيل لما تنصّر نجران غزاهم ذو نواس اليهودي من حمير فأحرق في الأخايد من لم يرتد.

(٥) ﴿النَّارِ﴾ بدل من الأخدود بدل الاشتمال. ﴿ذَاتِ الْوُودِ﴾ صفة لها بالعظمة وكثرة ما يرتفع به لهبها، واللام في الوقود للجنس.

(٦) ﴿إِذْهُمْ عَلَيْهَا﴾ على حافة النار. ﴿قُعُودٌ﴾ قاعدون.

(٧) ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنهم لم يقصروا فيما أمروا به، أو يشهدون على ما يفعلون يوم القيامة حين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم.

(٨) ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ﴾ وما أنكروا. ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ استثناء على طريقة قوله:

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ قُلُوبٌ مِنْ قَرَاعِ الْكُتَائِبِ
ووضفه بكونه عزيزاً غالباً يُخْشَى عقابه حميداً منعماً يُزْجَى ثوابه وقَرَّر ذلك بقوله:

(٩) ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ للإشعار بما يستحق أن يؤمن به ويُعْبَد.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بلَّوهم بالأذى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ يكفرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ العذاب الزائد في الإحراق بفتنتهم. بل المراد بالذين فتنوا أصحاب الأخدود ويعذاب الحريق ما روي أنَّ النار انقلبت عليهم فأحرقتهم.

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٩ رقم ٣٠٠٥) عن صهيب.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥/١٣٢٠ ج ٣٠/١٣٢).

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُوَ بِيْدِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

(١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ إذ الدنيا وما فيها تصغر دونه^(١).

(١٢) ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ مضاعفٌ عنفه فإنَّ البطش أخذٌ بعنفٍ.

(١٣) ﴿إِنَّهُمْ هُوَ بِيْدِي وَيُعِيدُ﴾ بيديء الخلق ويعيده، أو يبدىء البطش بالكفرة في الدنيا ويعيده في الآخرة.

(١٤) ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لمن تاب. ﴿الْوَدُودُ﴾ المحبُّ لمن أطاع.

(١٥) ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه، وقيل المراد بالعرش الملك، وقرئ ذي العرش صفةً لرُّبِّكَ. ﴿الْمَجِيدُ﴾ العظيم في ذاته وصفاته، فإنه واجب الوجود تامُّ القدرة والحكمة، وجزه حمزة والكسائي صفةً لرُّبِّكَ، أو للعرش، ومجده علوه وعظمته.

(١٦) ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ لا يمتنع عليه مرادٌ من أفعاله وأفعالٍ غيره.

(١٧) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾.

(١٨) ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أبدلهما من الجنود لأن المراد بفرعون هو وقومه، والمعنى قد عرفت تكذيبهم للرسول وما حاقَّ بهم فقتلٌ واصبر على تكذيب قومك وحذرهم مثل ما أصابهم.

(١٩) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ لا يزعمون عنه، ومعنى الإضراب أنَّ حالهم أعجب من حال هؤلاء فإنهم سمعوا قصتهم ورأوا آثارَ هلاكهم وكذبوا أشدَّ من تكذيبهم.

(٢٠) ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط المحيط.

(٢١) ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ بل هذا الذي كذبوا به كتابٌ شريفٌ وحيدٌ في النظم والمعنى، وقرئ قرآنٌ مجيدٌ بالإضافة أي قرآنٌ ربٌّ مجيدٌ.

(١) التذكير في «ذلك» للإشعار بأن مدار الحكم عنوانها الذي يتنافس فيها المتنافسون، فإن اسم الإشارة متعرض لذات المشار إليه من حيث اتصافه بأوصافه المذكورة، لا لذاته فقط كما هو شأن الضمير فإذا أشير إلى الجنات من حيث ذكرها فقد اعتبر معها عنوانها المذكور حتماً.
وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته في الفضل والشرف (س/٩/١٣٨).

(٢٢) ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من التحريف، وقرأ نافع محفوظ بالرفع صفةً للقرآن، وقرأ في لوح وهو الهواء يعني ما فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل جمعة وعرفة تكون في الدنيا عشر حسنات»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع. أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب. كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٣ رقم ٣٠٠). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهَا رُوِيَ

سورة الطارق مكية^(١) وآياتها سبع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ والكوكب البادي بالليل وهو في الأصل لسالك الطريق، واختصَّ عُزْفًا بالآتي ليلاً ثم استعمل للبادي فيه.

(٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.

(٣) ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه أو الأفلاك، والمراد الجنس أو معهود بالثقب وهو رُحْلٌ عبَّرَ عنه أولاً بوصفٍ عام ثم فسَّره بما يخصُّه تفخيماً لشأنه.

(٤) ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي إنَّ الشَّأْنَ كُلَّ نَفْسٍ لَهَا عَلَيْهَا حَافِظٌ رَقِيبٌ فَإِنَّ هِيَ الْمَخْفُفَةُ وَاللَّامُ الْفَاصِلَةُ وَمَا مَزِيدَةٌ. وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةٌ لما على أنها بمعنى الأوانِ نافية، والجملةُ على الوجهين جوابُ القسم.

(٥) ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لما ذَكَرَ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ عَلَيْهَا حَافِظٌ أَتْبَعَهُ تَوْصِيَةً الْإِنْسَانَ بِالنَّظَرِ فِي

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧٤/١٦): «وهي مكية لا خلاف بين المفسرين في ذلك» هـ.

مبدئه ليعلم صحة إعادته فلا يملئ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته.

(٦) ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ جواب الاستفهام وماء دافق بمعنى ذي دفق، وهو صب فيه دفع، والمراد الممتزج من الماءين في الرحم لقوله:

(٧) ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام صدرها، ولو صح أن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء، ومقرؤها عروق ملتفت بعضها البعض عند البيضتين، فلا شك أن الدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها، ولذلك تشبهه، ويسرع الإفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع! وهو في الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب، وهما أقرب إلى أوعية المنى فلذلك خصا بالذكر. وقرء الصلب بفتحين والصلب بضمين وفيه لغة رابعة وهي صالب.

(٨) ﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ والضمير للخالق ويدل عليه خلق.

(٩) ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ تتعرف ويميز بين ما طاب من الضمائر وما خفي من الأعمال وما خبث منها، وهو ظرف لرجعه.

(١٠) ﴿فَالَمْ﴾ فما للإنسان. ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ من معة في نفسه يمتنع بها. ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يمنعه.

(١١) ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ﴾ ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تحرك عنه، وقيل الرجع المطر سمي به كما سمي أوباً لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً، أو لما قيل من أن السحاب يحمل الماء من البحار ثم يرجعه إلى الأرض، وعلى هذا يجوز أن يراد بالسماء السحاب.

(١٢) ﴿وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّعْصَعِ﴾ ما تنصدع عنه الأرض من النبات أو الشق بالنبات والعيون.

(١٣) ﴿إِنَّهُ﴾ إن القرآن. ﴿لَقَوْلٌ فَضْلٌ﴾ فاصل بين الحق والباطل.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ فإنه جد كله.

(١٥) ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني أهل مكة. ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ في إبطاله وإطفاء نوره.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأقابلهم بكيد في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيث لا يحتسبون.

(١٧) ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تشتغل بالانتقام منهم، أو لا تستعجل بإهلاكهم. ﴿أَمْ هَلَمْ رَوْنًا﴾ إمهالاً يسيراً. والتكرير وتغيير البنية لزيادة التسكين. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطَّارِقِ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِكُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الأنعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٣ رقم ٣٠٣).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْأَعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً
أَخْوَى ﴿٥﴾ سُنُقِرُكَ فَلَ تَسَوَّى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ
الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَجْنِبُهَا الْأَشْفَى ﴿١١﴾

سورة الأعلى مكية^(١) وآياتها تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ نَزَّ اسْمُهُ عَنْ إِحَادٍ فِيهِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الزَّائِفَةِ وَإِطْلَاقِهِ عَلَى غَيْرِهِ زَاعِماً أَنَّهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ وَذِكْرُهُ لِأَعْلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ، وَقُرِئَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى. وَفِي الْحَدِيثِ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(٢) قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٣) قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «اجْعَلُوهَا فِي سَجُودِكُمْ»^(٤) وَكَانُوا يَقُولُونَ فِي الرُّكُوعِ

(١) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/٢٠): «مكية في قول الجمهور. وقال الضحاك: مدنية» هـ.

(٢) الواقعة: «٧٤».

(٣) الأعلى: «١».

(٤) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أبو داود (٥٤٢/١) رقم (٨٦٩) وابن ماجه (٢٨٧/١) رقم (٨٨٧) وأحمد (١٥٥/٤) والحاكم (٢٢٥/١) و(٤٧٧/٢) والبيهقي (٨٦/٢) وغيرهم من حديث عقبة بن عامر.

قال الحاكم: صحيح. وقد اتفقا على الاحتجاج برواثة غير إياس بن عامر وهو مستقيم الإسناد وردده الذهبي بقوله: إياس ليس بالمعروف ووافقه الألباني في الإرواء (٤١/٢).

اللهم لك ركعتُ، وفي السجود اللهم لك سجدتُ.

(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ خلق كلَّ شيء فسَوَّى خلقه بأن جعلَ له ما به يتألَّى كماله ويتمُّ معاشه.

(٣) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ أي قَدَّرَ أجناسَ الأشياءِ وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها. ﴿فَهَدَى﴾ فوجَّهه إلى أفعاله طبعاً واختياراً بخلق الميول والإلهامات ونضِب الدلائل وإنزال الآيات.

(٤) ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أنبت ما ترعاه الدواب.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته. ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾ يابساً أسود. وقيل أحوى حالٌ من المرعى أي أخرجه أحوى أي أسود من شدة خضرته.

(٦) ﴿سَنُقَرِّئُكَ﴾ على لسانِ جبريلَ عليه الصلاة والسلام، أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة ﴿فَلَا تَنسَى﴾ أصلاً من قوة الحفظ مع أنك أُمِّي ليكون ذلك آيةً أخرى لك مع أنَّ الإخبارية عما يُستقبلُ ووقوعه كذلك أيضاً من الآيات، وقيل نهْي والالف للفاصلة كقوله السبيل.

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ نسيانه بأن نسحَ تلاوته، وقيل أراد به القلة والتذرة. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أسقط آيةً في قراءته في الصلاة فحسبَ أبيُّ أنها نُسِحت فسأله فقال: «نسيته»^(١). أو نفى النسيان رأساً فإنَّ القلة تُستعملُ للنفي. ﴿إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يُخْفَى﴾ ما ظهر من أحوالكم وما بطن، أو جهرك بالقراءة مع جبريلَ عليه الصلاة والسلام وما دعاك إليه من مخافة النسيان فيعلم ما فيه صلاحكم من إبقاء وإنساء.

(٨) ﴿وَنُنِيرُكَ لِلنَّيْرِ﴾ ونعذك للطريقة اليسرى في حفظ الوحي، أو التدين ونوفقك لها. ولهذه النكتة قال نيسرك لا نيسرُ لك عطفٌ على سنقرتك، وإنه يعلمُ اعتراض^(٢).

(٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ بعد ما استتبَّ لك الأمر. ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لعلَّ هذه الشرطية إنما جاءت بعد تكرير التذكير وحصول اليأس من البعض لثلا يتعب نفسه ويتلهف عليهم كقوله: «وما أنت عليهم بجبار» الآية، أو لذلِّ المذكورين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، أو للإشعار بأنَّ التذكير إنما يجب إذا طرأ نفعه ولذلك أمرَ بالإعراض عمَّن تولَّى.

(١٠) ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ سيتعظُّ ويتنفعُ بها مَنْ يخشى الله تعالى بأن يتأمل فيها فيعلم حقيقتها، وهو يتناول العارف والمتردد.

(١١) ﴿وَيَنْجَنِيهَا﴾ ويتجنب الذكرى. ﴿الْأَشْقَى﴾ الكافر فإنه أشقى من الفاسق، أو الأشقى من الكفرة لتوغلِّه في الكفر.

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» - كما في «التحفة» (١٨٨/٧) رقم ٩٦٨٢ - عن عبدالرحمن بن أبيزى.

(٢) وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام، مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل، كما في قوله تعالى «ويسر لي أمري» للإيذان بقوة تمكنه عليه الصلاة والسلام من اليسر والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جُبِل عليها (س/٩/١٤٥).

الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

(١٢) ﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ نار جهنم فإنه عليه الصلاة والسلام قال: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»^(١)، أو ما في الدرر الأسفل منها.

(١٣) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح. ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة تنفعه.

(١٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من الكفر والمعصية، أو تكثر من التقوى من الزكاة، أو تطهر للصلاة أو أدى الزكاة.

(١٥) ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بقلبه ولسانه ﴿فَصَلَّى﴾ كقوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢) ويجوز أن يُرَادَ بالذكر تكبيره التحريم، وقيل تزكى تصدق للفطر وذكر اسم ربه كبره يوم العيد فصلّى صلاته.

(١٦) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فلا تفعلون ما يسعدكم في الآخرة، والخطاب للأشقيين على الالتفات أو على إضمار قل، أو للكل فإن السعي للدنيا أكثر في الجملة، وقرأ أبو عمرو بالياء.

(١٧) ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فإن نعيمها ملذ بالذات خالص عن الغوائل لا انقطاع له.

(١٨) ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ الإشارة إلى ما سبق من قد أفلح فإنه جامع أمر الديانة وخلاصة الكتب المنزلة.

(١٩) ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ بدل من الصحف الأولى. قال ﷺ «مَنْ قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام»^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) تقدم تخريجه.

(٢) طه: ١٤١.

(٣) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٤ رقم ٣١٠).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وَجُوهٌُ يُومِذُ خَشِيعَةً ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝ تُشْقَى مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ۝ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝ وَجُوهٌُ يُومِذُ نَاعِمَةٌ ۝ لَسَعِيَهَا
رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝

سورة الغاشية مكية^(١) وهي ست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يعني يوم القيامة، أو النار من قوله تعالى ﴿وَتُشْقَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾^(٢).
- (٢) ﴿وَجُوهٌُ يُومِذُ خَشِيعَةً﴾ ذليلة.
- (٣) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تعمل ما تتعب فيه كجرّ السلاسل وخوضها في النار خوض الإبل في الوخل، والصعود والهبوط في تلالها ووهادها ما عملت، ونصبّت في أعمال لا تنفعها يومئذ.
- (٤) ﴿تَصَلَّى نَارًا﴾ تدخلها. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر تُصَلَّى من أصله الله، وقرئ تُصَلَّى بالتشديد للمبالغة. ﴿حَامِيَةً﴾ متناهية في الحر.
- (٥) ﴿تُشْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ بلغت إنها في الحر.
- (٦) ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ يبيس الشبرق وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، وقيل شجرة

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٦/١٦): «وهي مكية لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل».

(٢) إبراهيم: «٥٠».

نارية تشبه الضريع، ولعله طعام هؤلاء والزقوم والغسلين طعام غيرهم، أو المراد طعامهم ما تتحاماه الإبل وتعافه لضربه وعدم نفعه كما قال.

(٧) ﴿لَا يَسْتَنْ وَلَا يَغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ والمقصود من الطعام أحد الأمرين^(١).

(٨) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة أو متنعمة^(٢).

(٩) ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضية بعملها لما رأت ثوابه.

(١٠) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ عِلِّيَّة المحل أو القدر.

(١١) ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب أو الوجوه، وقرأ على بناء المفعول بالياء ابن كثير وأبو عمرو ورويس وبالناء نافع. ﴿فِيهَا لَنِيَّةٌ﴾ لغواً أو كلمة ذات لغو أو نفساً تلغو، فإنَّ كلام أهل الجنة الذكر والحكم.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يجري ماؤها ولا ينقطع، والتكثير للتعظيم.

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ رفيعة السملك أو القدر.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب وهي آنية لا عزوة لها. ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم.

(١٥) ﴿وَمَنَارِقُ﴾ وسائل جمع نمرقة بالفتح والضم. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى بعض.

(١٦) ﴿وَزَرَائِبُ﴾ بسط فاخر جمع زريبة. ﴿مَبْنُوتَةٌ﴾ مبسوطة.

(١٧) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ نظر اعتبار. ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الانتقال إلى البلاد النائية، فجعلها عظيمة باركة للمحل ناهضة بالحمل منقاداً لمن اقتادها طوال الأعناق لينوء بالأوقار، ترعى كل نابت وتحتمل العطش إلى عشر فصاعداً ليتأذى لها قطع البوادي والمفاوز، مع ما لها من منافع أخرى ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعا، ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع. وقيل المراد بها السحاب على الاستعارة.

(١٨) ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عمد.

(١٩) ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ فهي راسخة لا تميل.

(١) تنكير الجوع للتحقير، أو لا يغني من جوع ما (س/٩/١٤٩).

(٢) شروع في رواية حديث أهل الجنة.

وتقديم حكاية حال أهل النار لأنه أدخل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المعكي حسناً وبهجة (س/٩/١٥٠).

وَالْإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

(٢٠) ﴿وَالْإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بُسِطَتْ حتى صارت مهداً، وقرئ الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب، والمعنى أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات ليتحققوا كمال قدرة الخالق سبحانه وتعالى، فلا ينكروا اقتدائه على البعث ولذلك عُقِبَ به أمر المعاد ورُتِبَ عليه الأمر بالتذكير فقال:

(٢١) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ فلا عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا إذ ما عليك إلا البلاغ.

(٢٢) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ بمتسلط، وعن الكسائي بالسين على الأصل وحمزة بالإشمام.

(٢٣) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ لكن من تولى وكفر.

(٢٤) ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ يعني عذاب الآخرة. وقيل متصل فإن جهاد الكفار وقتلهم تسلط، وكأنه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وقيل هو استثناء من قوله فذكر أي فذكر إلا من تولى وأصر فاستحق العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراض ويؤيد الأول أنه قرئ إلا على التنبيه.

(٢٥) ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم، وقرئ بالتشديد على أنه فيعال مصدر فيعل من الإياب، أو فعّال من الأوب فليبت واؤه الأولى قلبها في ديوان ثم الثانية للإدغام.

(٢٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ في المحشر، وتقديم الخبر للتخصيص والمبالغة في الوعيد، عن النبي «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٤ رقم ٣١١).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾

سورة الفجر مكية^(١) وآياتها ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالصبح أو فلقه كقوله ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾^(٢) أو بصلاته.
- (٢) ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة ولذلك فسّر الفجر بفجر عرفة، أو النحر أو عشر رمضان الأخير، وتكثيرها للتعظيم، وقرئ وليال عشر بالإضافة على أن المراد بالعشر الأيام.
- (٣) ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ والأشياء كلها شفعها ووترها، أو الخلق لقوله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾^(٣) والخالق لأنه فرد، ومن فسّرهما بالعناصر والأفلاك أو البروج والسيارات أو شفع الصلوات ووترها، أو بيومي النحر وعرفة، وقد روي مرفوعاً^(٤)، أو بغيرها فلعله أفرّد بالذكر من أنواع

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩٢/١٦): «وهي مكية عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماء أنه قال هي مدنية والأول أشهر وأصح» ١٠١.

(٢) التكوير: «١٨».

(٣) الذاريات: «٤٩».

(٤) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٦٩١) وأحمد في المسند (٣/٣٢٧) والبخاري (٣/٨٠ - ٨١ رقم ٢٢٨٦ - كشف) والحاكم في المستدرک (٤/٢٢٠) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. قلت: إن سلم من تدليس أبي الزبير، وأما ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي الزبير فقد كفانا عن تدليسه، وأما خارج صحيحه في نظر في حديثه. والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد قال ابن كثير في تفسيره (٤/٥٤٠) بعد أن عزاه لابن جرير وابن أبي حاتم: «وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة والله أعلم» هـ.

المدلول ما رآه أظهر دلالة على التوحيد، أو مدخلا في الدين أو مناسبة لما قبلهما أو أكثر منفعة موجبة للشكر، وقرىء والوتر بكسر الواو وهما لغتان كالجبر والحبر.

(٤) ﴿وَأَلِيلَ إِذَا يَسِرُّ﴾ إذا يمضي كقوله ﴿وَأَلِيلَ إِذَا دَبَّرَ﴾^(١) والتقيد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة، أو يسري فيه من قولهم صلى المقام، وحذف الياء للاكتفاء بالكسرة تخفيفاً، وقد خصه نافع وأبو عمرو بالوقف لمراعاة الفواصل ولم يحذفها ابن كثير ويعقوب أصلاً، وقرىء يسر بالتنوين المبدل من حرف الإطلاق.

(٥) ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ القسم أو المقسم به^(٢) ﴿قَسَمٌ﴾ حلف أو محلف به. ﴿لَيْلَى حَجَرٍ﴾ يعتبره ويؤكد به ما يريد تحقيقه، والحجر العقل سمي به لأنه يحجر عما لا ينبغي كما سمي عملاً ونهيّة وحصاة من الإحصاء، وهو الضبط والمقسم عليه محذوف وهو ليعذب بن يدل عليه قوله:

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود سُموا باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم باسمه.

(٧) ﴿إِرمَ﴾ عطف بيان لعاد على تقدير مضاف أي سبط إرم، أو أهل إرم إن صح أنه اسم بلديتهم. وقيل سمي أوائلهم وهم عاد الأولى باسم جدّهم، ومُنِعَ صرفه للعلمية والتأنيث. ﴿ذَاتِ أَلْعِمَادِ﴾ ذات البناء الرفيع أو القدود الطوال، أو الرفعة والثبات. وقيل كان لعاد ابنان شداً وشديداً فملكا وقهراً، ثم مات شديداً فخلص الأمر لشداً وملك المعمورة ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة فبنى على مثالها في بعض صحارى عدن جنةً وسماها إرم، فلما تمت سار إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلق بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبدالله بن قلابه^(٣) أنه خرج في طلب إبله فوقع عليها.

(٨) ﴿أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي أَلْبَدِ﴾ صفة أخرى لإرم، والضمير لها سواء جعلت إرم القبيلة أو البلدة.

(٩) ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ قطعوه واتخذوه منازل لقوله ﴿وَتَنَحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَتُوتًا﴾^(٤) ﴿بِالْوَادِ﴾ وادي القرى.

(١٠) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد.

(١١) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ صفة للمذكورين عاد وثمود وفرعون، أو ذم منصوب أو مرفوع.

(١٢) ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر والظلم.

(١) المدثر: (٣٣).

(٢) والإشارة إليه بالبعد «ذلك» للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الشرف والفضل (س/٩/١٥٤).

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي، عن عبدالله بن أبي صالح، عن ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن وهب بن منبه، عن عبدالله بن قلابه، أنه خرج في طلب إبل له شردت فذكره مطولاً - كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٤ رقم ٣١٣) - وقال ابن حجر: «قلت: آثار الوضع عليه لا ثمة» هـ.

(٤) الشعراء: (١٤٩).

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ما خلط لهم من أنواع العذاب، وأصله الخلط وإنما سمي به الجلد المصفور الذي يضرب به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض، وقيل شبه بالسوط ما أحل بهم في الدنيا إشعاراً بأنه القياس إلى ما أعد لهم في الآخرة من العذاب كالسوط إذا قيس إلى السيف.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ﴾ إلى المكان الذي يُتَرَقَّب فيه الرصد، مفعال من رصده كالميقات من وقته، وهو تمثيل لإرصاده العصاة بالعقاب.

(١٥) ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ متصل بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ﴾^(١) كأنه قيل إنه لبالمرصاد من الآخرة فلا يريد إلا السعي لها فأما الإنسان فلا يهتف إلا الدنيا ولذاتها. ﴿إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ﴾ اختبره بالغنى واليسر. ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ بالجاه والمال. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فضّلني بما أعطاني، وهو خبر المبتدأ الذي هو الإنسان، والفاء لما في أما من معنى الشرط، والظرف المتوسط في تقدير التأخير كأنه قيل: فأما الإنسان فقاتل ربي أكرمني وقت ابتلائه بالإنعام، وكذا قوله:

(١٦) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ إذ التقدير وأما الإنسان إذا ما ابتلاه أي بالفقر والتقتير ليوازن قسِمَهُ. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ لقصور نظره وسوء فقره، فإن التقدير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة قد تفضي إلى قصد الأعداء والانهماك في حب الدنيا ولذلك ذمّه على قوله وردعه عنه بقوله:

(١٧) ﴿كَلَّا﴾ مع أن قوله الأول مطابق لأكرمه ولم يقل فأهانته وقدّر عليه كما قال ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ لأن التوسعة تفضل والإخلال به لا يكون إهانته. وقرأ ابن عامر والكوفيون أكرمني وأهانني بغير ياء في الوصل والوقف، وعن أبي عمرو مثله، ووافقه نافع في الوقف، وقرأ ابن عامر فقدّر بالتشديد. ﴿بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾.

(١٨) ﴿وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي بل فغلهم أسوأ من قولهم وأدّ على تهالكهم بالمال وهو أنهم لا يكرمون اليتيم بالنفقة والمبرة، ولا يحثون أهلهم على طعام المسكين فضلاً عن غيرهم، وقرأ الكوفيون ولا تحاضون.

(١٩) ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ الميراث وأصله وراث. ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ ذا لم أي جمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباءهم، أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك.

وَتُحْجَبُ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَآنَى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِيَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْنِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْنِي جَنَّاتٍ ﴿٣٠﴾

(٢٠) ﴿وَتُحْجَبُ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً مع حرصٍ وشره، وقرأ أبو عمرو وسهلٌ ويعقوب لا يُكرمون إلى ويحئون بالياء والباقون بالتاء.

(٢١) ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكارٌ لفعلهم وما بعده وعيدٌ عليه. ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي دكاً بعد دكٍّ حتى صارت منخفضة الجبال والتلال، أو هباءً منبثاً.

(٢٢) ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي ظهرت آيات قدرته وآثارُ قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من آثار هيئته وسياسته. ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ بحسب منازلهم ومراتبهم.

(٢٣) ﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ﴾^(١) وفي الحديث: «يؤتى بجَهَنَّمَ يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزؤونها»^(٢). ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ من إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ والعاملُ فيهما. ﴿يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ أي يتذكر معاصيه أو يتعظ لأنه يعلم قُبْحَهَا فيندم عليها. ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي منفعة الذكرى لئلا يناقض ما قبله، واستدلَّ به على عدم وجوب قبول التوبة، فإنَّ هذا التذكُّر توبةٌ غير مقبولة.

(٢٤) ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي لحياتي هذه، أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحةً، وليس في هذا التمني دلالة على استقلال العبد بفعله فإنَّ المحجور عن شيء قد يتمنى أن كان ممكناً منه.

(٢٥، ٢٦) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴿الهَاءُ﴾ أي لا يتولى عذاب الله ووثاقه يوم القيامة سواه إذ الأمر كله له، أو للإنسان أي لا يعذب أحدٌ من الزبانية مثل ما يعذبونه، وقرأهما الكسائي ويعقوب على بناء المفعول.

(٢٧) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ على إرادة القول وهي التي اطمأنت بذكر الله، فإنَّ النفس تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات إلى الواجب لذاته فتستقرُّ دون معرفته وتستغني به عن غيره، أو إلى الحق بحيث لا يرببها شكٌ أو الآمنة التي لا يستغرها خوفٌ ولا حزنٌ، وقد قرىء بهما.

(٢٨) ﴿أَرْجَعِيَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى أمره أو مواعده بالموت، ويشعر ذلك بقول مَنْ قال: كانت النفوس قبل الأبدان موجودة في عالم القدس أو البعث، ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيت. ﴿مُرْضِيَةً﴾ عند الله تعالى.

(١) النازعات: «٣٦».

(٢) أخرج مسلم (٢١٨٤/٤) رقم (٢٩) من حديث ابن مسعود مثله.

(٢٩) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ في جملة عبادي الصالحين.

(٣٠) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم أو في زمرة المقرَّبين فتستضيء بنورهم، فإنَّ الجواهرَ القدسيةَ كالمرايا المتقابلة، أو ادخلي في أجساد عبادي التي فارقت عنها وادخلي دارَ ثوابي التي أُعدَّت لك. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشرِ غُفِرَ له، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يومَ القيامة»^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الواحدي وابن مردويه والعلبي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٤ رقم ٣١٥). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا ﴿٩﴾ وَشَفَتَيْنِ ﴿١٠﴾

سورة البلد مكية^(١) وآياتها عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

(٢) ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أقسم سبحانه بالبلد الحرام، وقيد بحلول الرسول عليه الصلاة والسلام فيه إظهاراً لمزيد فضله وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. وقيل حلّ مستحلّ تعرّضك فيه كما يستحلّ تعرّض الصيد في غيره، أو حلال لك أن تفعل فيه ما تريد ساعة من النهار فهو وعدّ بما أحلّ له عام الفتح.

(٣) ﴿وَوَالِدٍ﴾ عطف على هذا البلد، والوالد آدم أو إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريته أو محمد عليه الصلاة والسلام، والتكثير للتعظيم، وإيثار «ما» على مَنْ لمعنى التعجب كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾^(٢).

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٣/١٦): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين وقال قوم هي مدنية» هـ. وانظر «معالم التنزيل» (٤٢٩/٨) و«الدر المنثور» (٥١٦/٨).

(٢) آل عمران: ٣٦.

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ تعب ومشقة، من كَبَدَ الرجلُ كَبْدًا إذا وجعت كبده ومنه المكابدة، والإنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقة ومتهاها الموت وما بعده، وهو تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام مما كان يكابده من قريش. والضمير في.

(٥) ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعضهم الذي كان يكابد منه أكثر، أو يغتر بقوته كأبي الأشد بن كلداء فإنه كان يُنْسَطُ تحت قدميه أديم عكاظي ويجذبه عشرة فينقطع ولا تزال قدماء، أو لكل أحد منهم، أو للإنسان. ﴿أَنْ لَّنْ يَفْدَرَعَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ فينتقم منه.

(٦) ﴿يَقُولُ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا﴾ كثيراً، من تلبد الشيء إذا اجتمع، والمراد ما أنفقه سمعة ومفاخرة، أو معاداة للرسول عليه الصلاة والسلام.

(٧) ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق أو بعد ذلك فيسأله عنه، يعني أن الله سبحانه وتعالى يراه فيجازيه، أو يجده فيحاسبه عليه، ثم يبين ذلك بقوله:

(٨) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما.

(٩) ﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عن ضميره. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على التطق والأكل والشرب وغيرها.

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا أَقْنَحَمَ الْعُقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

(١٠) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشر، أو الثديين وأصله المكان المرتفع.

(١١) ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعُقَبَةَ﴾ أي فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة وهو الدخول في أمر شديد، والعقبة الطريق في الجبل استعارها بما فسرها به من الفك والإطعام في قوله:

(١٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ﴾.

(١٣) ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾.

(١٤) ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾.

(١٥) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾.

(١٦) ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ لما فيهما من مجاهدة النفس. ولتعدد المراد بها حسن وقوع لا موقع لم، فإنها لا تكاد تقع إلا مكررة، إذ المعنى فلا فك رقبة ولا أطمع يتيمًا أو مسكينًا. والمسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب وترب إذا افتقر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي فك رقبة أو أطمع على الإبدال من اقتحم وقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ﴾^(١) اعتراض معناه إنك لم تدر كنه صعوبتها وثوابها.

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُشَاقِقُونَ ﴿١٩﴾ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢١﴾

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطفه على اقتحم أو فكَّ بَشْمٌ لتباعد الإيمان عن العتق والإطعام في الرتبة لاستقلاله واشتراط سائر الطاعات به. ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وأوصى بعضهم بعضاً. ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله تعالى. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بالرحمة على عباده، أو بموجبات رحمة الله تعالى.

(١٨) ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ اليمين أو اليمين.

(١٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُشَاقِقُونَ﴾ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة أو بالقرآن. ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ الشمال أو الشؤم، ولتكرير ذكر المؤمنين باسم الإشارة والكفار بالضمير شأن لا يخفى.

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ مطبقة من أوصدت الباب إذا أطبقته وأغلقته. وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص بالهمزة من آصده. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ لَا أَقْسَمُ بِهِذَا الْبَلَدِ أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأَمَانُ مِنْ غَضَبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٥ رقم ٣٢١) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾
وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾

سورة الشمس مكية^(١). وآياتها خمس عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ وضوئها إذا أشرقت. وقيل الضحوة ارتفاع النهار، والضحي فوق ذلك، والضحاء بالفتح والمد إذا امتدَّ النهارُ وكادَ ينتصف.

(٢) ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ تلا طلوعه طلوع الشمس أول الشهر أو غروبها ليلة البدر، أو في الاستدارة وكمال النور.

(٣) ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ جلى الشمس فإنها تتجلى إذا انبسط النهار أو الظلمة، أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجز ذكرها للعلم بها.

(٤) ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشى الشمس فيغطي ضوءها أو الآفاق، أو الأرض. ولما كانت واو العطف نواب للواو الأولى القسمية الجارة بنفسها النابتة مناب فعل القسم من حيث استلزم طرحة معها رَبطُ المجرورات والظروف بالمجرور والظرف المتقدمين رَبطُ الواو لما بعدها في قولك: ضرب زيدٌ عمراً ويكرّ خالداً على الفاعل والمفعول من غير عطف على عاملين مختلفين.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٠/١٦): «وهي مكية».

(٥) ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ وَمَنْ بَنَاهَا، وَإِنَّمَا أُوتِرَتْ عَلَى مَنْ لِإِرَادَةِ مَعْنَى الْوَصْفِيَّةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَالشَّيْءُ الْقَادِرُ الَّذِي بَنَاهَا، وَدَلٌّ عَلَى وَجُودِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ بِنَاؤُهَا، وَلِذَلِكَ أُفْرِدَ ذِكْرُهُ، وَكَذَا الْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ: (٦) ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَنَهَا﴾.

(٧) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وَجَعَلَ الْمَاءَاتِ مُصَدْرِيَّةً يَجْرُدُ الْفَعْلُ عَنِ الْفَاعِلِ وَيَخْلُ بِنَظْمِ قَوْلِهِ:

(٨) ﴿فَالْهَمَّاءُ جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بِقَوْلِهِ وَمَا سَوَّاهَا إِلَّا أَنْ يُضْمَرَ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ لِلْعِلْمِ بِهِ. وَتَنْكِيرُ نَفْسٍ لِلتَّكْثِيرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾^(١) أَوْ لِلتَّعْظِيمِ. وَالْمَرَادُ نَفْسُ آدَمَ، وَإِلْهَامُ الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى إِفْهَامُهُمَا وَتَعْرِيفُ حَالِهِمَا أَوْ التَّمَكِينُ مِنَ الْإِتْيَانِ بِهِمَا.

(٩) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أَنَمَاهَا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ جَوَابُ الْقَسَمِ، وَحَذَفَ اللَّامَ لِلطُّوْلِ كَأَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ بِهِ الْحَثَّ عَلَى تَكْمِيلِ النَّفْسِ وَالْمُبَالَغَةَ فِيهِ أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِمَا يَدُلُّهُمْ عَلَى الْعِلْمِ بِوُجُودِ الصَّانِعِ وَوُجُوبِ ذَاتِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ الَّذِي هُوَ أَقْصَى دَرَجَاتِ الْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ، وَيَذَكِّرُهُمْ عِظَائِمَ آيَاتِهِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى الْاسْتِغْرَاقِ فِي شُكْرِ نِعَمَاتِهِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَى كِمَالَاتِ الْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ. وَقِيلَ هُوَ اسْتَطْرَاطٌ بِذِكْرِ بَعْضِ أَحْوَالِ النَّفْسِ، وَالْجَوَابُ مُحَذَوْفٌ تَقْدِيرُهُ لِيُذَمِّدَ مَنْ اللَّهِ عَلَى كِفَارِ مَكَّةَ لِتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ ﷺ كَمَا دَمَدَ عَلَى ثُمُودَ لِتَكْذِيبِهِمْ صَالِحاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١٠﴾ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١﴾ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقَّهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَونَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ نَقَّصَهَا وَأَخْفَاهَا بِالْجَهَالَةِ وَالْفُسُوقِ، وَأَصْلُ دَسَّى دَسَسَ كَتَقَضَّى وَتَقَضَّضَ^(٢).

(١١) ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ بِسَبَبِ طُغْيَانِهَا، أَوْ بِمَا أُوعِدَتْ بِهِ مِنْ عَذَابِهَا ذِي الطَّغْوَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾^(٣) وَأَصْلُهُ طُغْيَانُهَا وَإِنَّمَا قَلِبَتْ يَاؤُهُ وَارِأَ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ الْأَسْمِ وَالصَّفَةِ، وَقُرِئَ بِالضَّمِّ كَالرُّجْعَى.

(١٢) ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ﴾ حِينَ قَامَ، ظَرَفٌ لِكَذِّبَتْ أَوْ طَغَوَى. ﴿أَشَقَّهَا﴾ أَشَقَّى ثُمُودَ وَهُوَ قَدَارُ بْنُ سَالِفٍ، أَوْ هُوَ وَمَنْ مَالَاهُ عَلَى قَتْلِ النَّاقَةِ فَإِنَّ أَفْعَلَ التَّفْضِيلَ إِذَا أَضْفَتْهُ صَلَحَ لِلوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَفُضِّلَ شِقَاؤُهُمْ لِتَوَلِّيهِمُ الْعَقْرَ.

(١٣) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أَيِ ذُرْوَا نَاقَةَ اللَّهِ وَاحْذَرُوا عَقْرَهَا^(٤). ﴿وَسُقْيَاهَا﴾

(١) التَّكْوِيرُ: «١٤».

(٢) وَتَكَرَّرَ «دَسَّ» لِإِبْرَازِ كَمَالِ الْإِعْتِنَاءِ بِتَحْقِيقِ مَضْمُونِهِ، وَالْإِذْنَانِ بِتَعْلُقِ الْقَسَمِ بِهِ أَيْضًا أَصَالَةً (س/٩/١٦٤).

(٣) الْحَاقَّةُ: «٥».

(٤) وَعَبَّرَ عَنِ الرُّسُولِ بِعَنْوَانِ الرِّسَالَةِ إِذْنَانًا بِوُجُوبِ طَاعَتِهِ، وَبَيَانًا لِغَايَةِ عِتْوِهِمْ وَتَمَادِيهِمْ فِي الطُّغْيَانِ، وَهُوَ السَّرُّ فِي =

فلا تذودوها عنها.

- (١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذّره من حلول العذاب إن فعلوا. ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة إذا ألّسها الشحم. ﴿يَذْنِبُهُمْ﴾ بسببه. ﴿فَسَوَّيْنَا الدَّمَ دَمَ بَيْنَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْلُتْ مِنْهُمْ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ، أَوْ ثَمُودَ بِالْإِهْلَاكِ.
- (١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي عاقبة الدمة أو عاقبة هلاك ثمود وتبعاتها فيبقى بعض الإبقاء، والواو للحال، وقرأ نافع وابن عامر فلا على العطف. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الشمس والشمس فكأنما تصدّق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر»^(١).



= إضافة الناقة إلى الله تعالى (س/٩/١٦٤).

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (١٨٥ رقم ٣٢٢) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾

سورة والليل مكية^(١). وآيها إحدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أي يغشى الشمس أو النهار أو كل ما يواريه بظلامه.
- (٢) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين بطلوع الشمس.
- (٣) ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ والقادر الذي خلق صِنْفَي الذَّكَرِ وَالْأُنثَى من كل نوع له توالد، أو آدم وحواء، وقيل ما مصدريه.
- (٤) ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ إِنَّ مَسَاعِيَكُمْ لِأَشْتَاتٍ مُخْتَلَفَةٌ جَمْعُ شَتَيْتٍ.
- (٥) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾.
- (٦) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ تفصيلٌ مَبِينٌ لِنَشْتِ الْمَسَاعِي، والمعنى من أعطى الطاعة واتقى المعصية وصدق بالكلمة الحسنى وهي ما دلث على حقَّ ككلمة التوحيد.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٥/١٦): «وهي مكية في قول الجمهور، وقال المهدوي: وقبل هي مدنية، وقيل فيها مدني».

- (٧) ﴿فَسَيَرُّ لَيْسَرٌ﴾ فسنهيئه للخلة التي تؤدي إلى يسر وراحة كدخول الجنة، من يسر الفرس إذا هياه للركوب بالسرّج واللعجام.
- (٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخُلْ﴾ بما أمر به. ﴿وَأَسْتَفَى﴾ بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى.
- (٩) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ بإنكار مدلولها.
- (١٠) ﴿فَسَيَرُّ لَيْسَرٌ﴾ للخلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار^(١).
- (١١) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ نفى أو استفهام إنكار. ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ هلك تفعل من الردى، أو تردى في حفرة القبر أو قعر جهنم.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾

- (١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ للإرشاد إلى الحق بموجب قضائنا أو بمقتضى حكمتنا، أو إن علينا طريقة الهدى كقوله سبحانه وتعالى ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾^(٢).
- (١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ فنعطي في الدارين ما نشاء لمن نشاء، أو ثواب الهداية للمهتدين، أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء.
- (١٤) ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ تتلهب.
- (١٥) ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ لا يلزمها مقاسياً شدتها. ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ إلا الكافر فإن الفاسق وإن دخلها لا يلزمها ولذلك سمّاه أشقى ووصفه بقوله:
- (١٦) ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب الحق وأعرض عن الطاعة.
- (١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾.
- (١٨) ﴿الَّذِي﴾ اتقى الشرك والمعاصي فإنه لا يدخلها فضلاً عن أن يدخلها ويضلّأها، ومفهوم ذلك أن من اتقى الشرك دون المعصية لا يجنبها ولا يلزم ذلك صليها فلا يخالف الحصر السابق. ﴿يُؤْتِي مَالَهُ﴾ يصرفه في مضارف الخير لقوله: ﴿يَتَزَكَّى﴾ فإنه بدل من يؤتى أو حال من فاعله.
- (١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ فيقصد بآياته مجازاتها.

(١) ولعل تصدير القسمين بالإعطاء والبخل - مع أن كلا منهما أدنى رتبة مما بعدهما في استتباع التيسير للتيسير والتيسير للعسر - للإيدان بأن كلا منهما أصل فيما ذكر لا تنمة لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء (س/٩/١٦٧).

(٢) النحل: «٩».

(٢٠) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى﴾ استثناء منقطع أو متصل عن محذوف مثل لا يؤتى إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة.

(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ وعد بالثواب الذي يرضيه. والآيات نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين اشترى بلالاً في جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم^(١)، ولذلك قيل: المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ وَاللَّيْلِ أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى يَرْضَى وَعَافَاهُ مِنَ الْعُسْرِ وَيَسِّرَ لَهُ الْيُسْرَ»^(٢).

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٣٠٨/٢٢٨) عن عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه.

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي النافع» (ص ١٨٥ رقم ٣٢٤).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا
فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَاَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَاَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَاَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سورة الضحى مكية^(١). وآياتها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالضُّحَى﴾ ووقت ارتفاع الشمس، وتخصيصه لأن النهار يقوى فيه، أو لأن فيه كلم موسى عليه الصلاة والسلام ربّه وألقي السحرة سجداً، أو النهار ويؤيده قوله تعالى ﴿أَن يَأْتِيهِمْ بَأْسُنَا ضَحَى﴾^(٢) في مقابلة بيانا.

(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ سكّن أهله أو ركذ ظلامه من سجا البحر سُجُوءاً إذا سكنت أمواجه. وتقديم الليل في السورة المتقدمة باعتبار الأصل، وتقديم النهار ها هنا باعتبار الشرف.

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما قطعك قطع المودع، وقرىء بالتخفيف بمعنى ما تركك وهو جواب القسم. ﴿وَمَا قَلَى﴾ وما أبغضك، وحذف المفعول استغناءً بذكره من قبل ومراعاة للفواصل. رُوي أن الوحى تأخر عنه أياماً لتركه الاستثناء كما مرّ في سورة الكهف، أو لجزره سائلاً ملحاً، أو لأن جزواً ميتاً كان تحت سريره أو لغيره فقال المشركون: إنَّ محمداً ودَّعه ربّه وقلاه فنزلت ردّاً عليهم^(٣).

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٢٠/١٦): «وهي مكية لا خلاف في ذلك بين الرواة».

(٢) الدخان: «٤».

(٣) أخرجه مسلم (١٤٢١/٣) رقم ١٧٩٧/١١٤ من حديث جندب.

(٤) ﴿وَلَا خَيْرَ خَيْرٍ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فإنها باقية خالصة عن الشوائب وهذه فانية مشوبة بالمضار، كأنه لما بين أنه سبحانه وتعالى لا يزال يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا وَعَدَ له ما هو أعلى وأجل من ذلك في الآخرة، أو لنهاية أمرك خير من بدايته فإنه ﷺ لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال.

(٥) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وعدٌ شامل لما أعطاه من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين، ولما أَدَّخِرَ له مما لا يعرف كُنْهَهُ سواء. واللام للابتداء؛ دخل الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير: ولأنت سوف يعطيك، لا للقسم فإنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، وجمعها مع سوف للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تأخر لحكمة.

(٦) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ تعديد لما أنعم عليه تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى يحسن إليه فيما يستقبل وإن تأخر. ويجدك من الوجود بمعنى العلم ویتیماً مفعوله الثاني، أو المصادفة ویتیماً حالاً.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عن علم الحكم والأحكام. ﴿فَهَدَى﴾ فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر. وقيل وجدك ضالاً في الطريق حين خرج بك أبو طالب إلى الشام أو حين فطمتك حليمة وجاءت بك لتردك إلى جدك، فأزال ضلالك عن عمك أو جدك.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيراً ذا عيال. ﴿فَأَغْنَى﴾ بما حصل لك من ربح التجارة.

(٩) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله لضغفه، وقرىء فلا تكهز أي فلا تعبس في وجهه.

(١٠) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا ترجزه.

(١١) ﴿وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فإنَّ التحدُّثَ بها شكرها. وقيل المراد بالنعمة النبوة والتحدُّثُ بها تبليغها، عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ وَالضُّحَى جَعَلَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَنْ يَرْضَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ وَعَشْرُ حَسَنَاتٍ، يَكْتُبُهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ بَعْدَ كُلِّ يَتِيمٍ وَسَائِلٍ»^(١).

● وأخرج البخاري (٧١٠/٨ رقم ٤٩٥٠) ومسلم (١٤٢٢/٣ رقم ١٧٩٧/١١٥) عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمدُ إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى».

● وأخرج البخاري (٧١١/٨ رقم ٤٩٥١) عن جندب الجلي قالت امرأة: يا رسول الله ما أرى صاحبك إلا أبطأك. فتزلت «ما ودعك ربك وما قلى» وقال الحافظ في «الفتح» عن هذه الرواية: هذا السياق يصلح أن يكون خطاباً لخديجة دون الخطاب الأول فإنه يصلح أن يكون خطاب حمالة الحطب، لتعبيرها بالشیطان والترك، ومخاطبتها بخلاف هذه فقالت: صاحبك، وقالت: يا رسول الله، وقال: أبطأ. وجوز الكرمانى أن يكون من تصرف الرواة وهو موجه لأن مخرج الطريقين واحد. وانظر الفتح أيضاً (٨/٣ - ٩) ففيه كلام مفصل حول هذا الاختلاف.

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشافى» (ص ١٨٥ رقم ٣٣١).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

سورة ألم نشرح مكية^(١). وآياتها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ألم نفسخه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق فكان غائباً حاضراً، أو ألم نفسخه بما أودعنا فيه من الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل، أو بما يسرنا لك تلقي الوحي بعدما كان يشق عليك، وقيل إنه إشارة إلى ما روي أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى رسول الله ﷺ في صباه أو يوم الميثاق، فاستخرج قلبه ففسله ثم ملأه إيماناً وعلماً^(٢). ولعلّه إشارة إلى نحو ما سبق، ومعنى

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٢٥/١٦): «وهي مكية بإجماع من المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك» هـ.

(٢) قلت: إن القاضي رحمه الله لفق بين حديثين.

(الأول): يتعلق بشق صدره ﷺ في صباه، وليس فيه ذكر ملأه إيماناً وعلماً. وهذا الحديث أخرجه مسلم (١٤٧/١ رقم ٢٦١) عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الصبيان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقه، فقال: هذا حظ الشيطان منك، قال: ففسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، قال: وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فأقبلت ظئره تريده، فاستقبلها راجعاً وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنا نرى أثر المخيط في صدره.

● وغفل الحاكم فاستدركه (٥٢٨/٢) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(والثاني): يتعلق بشق صدره ﷺ عند المعراج، وفيه جاء ذكر ملأه إيماناً وعلماً.

الاستفهام إنكارٌ نفى الانسراحِ مبالغةً في إثباته ولذلك عطف عليه.

(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ عِنَّاكَ الثَّقِيلَ.

(٣) ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الذي حمّله على النقيض وهو صوتُ الرحلِ عند الانتقاضِ من ثقلِ الحملِ. وهو ما ثَقُلَ عليه من فرطاته قبلَ البعثة، أو جهله بالحكم والأحكام، أو حيرته، أو تلقي الوحي، أو ما كان يرى من ضلال قوميه من العجز عن إرشادهم، أو من إصرارهم وتعديهم في إيذائه حين دعاهم إلى الإيمان.

(٤) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بالنبوة وغيرها وأي رفع، مثل أن قرَنَ اسْمَهُ باسمه تعانى في كلمتي الشهادة وجعل طاعته طاعته وصلّى عليه في ملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وخاطبه بالألقاب، وإنما زاد «لك» ليكون إبهاماً قبل إيضاح فيفيد المبالغة.

(٥) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كضيق الصدر والوزر المنقضي للظهير وضلال القوم وإيذائهم. ﴿يُسْرًا﴾ كالشرح والوضع والتوفيق للاهتمام والطاعة فلا تأس من رَوْحِ الله إذا عراك ما يغمُّك، وتنكيهه للتعظيم. والمعنى بما في «إن مع» من المصاحبة المبالغة في معاقبة اليسر للعسر، واتصاله به اتصال المتقاربين.

(٦) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تكريرٌ للتأكيد أو استئناف وعده بأن العسر متبوعٌ بيسر آخرَ كتاب الآخرة كقولك: إن للصائم فرحةً إن للصائم فرحةً أي فرحةً عند الإفطار وفرحةً عند لقاء الرب. وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «لن يغلب عسرٌ يُسرَيْن»^(١) فإن العسر معروفٌ فلا يتعدّد سواءً كان للعهد أو

= وهذا الحديث أخرجه البخاري (٣٠٢/٦ رقم ٣٢٠٧) و(٢٠١/٧ رقم ٣٨٨٧) ومسلم (١٤٩/١ - ١٥٠ رقم ٢٦٤).

عن أنس بن مالك وفيه: «قال النبي ﷺ: بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان فأتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مرق البطن ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملأه حكمة وإيماناً».

(١) ● أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٥٩١/٥) والحاكم في المستدرک (٥٢٨/٢) من حديث الحسن البصري مرسلًا.

وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي مرسل.

● وأخرجه ابن مردويه - كما في «الدر» (٥٥٠/٨) - بإسناد ضعيف من حديث جابر موصولاً في سياق طويل (الكافي الشافى) (ص ١٨٦ رقم ٣٣٤).

● وله شاهد موقوف على عمر، أخرجه مالك في الموطأ (٤٤٦/٢ رقم ٦) والحاكم (٣٠٠/٢ - ٣٠١) في سياق طويل.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال الحاكم في تفسير (الم نشرح) (٥٢٨/٢) قد صحت الرواية عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب «لن يغلب عسر يسرين».

● وله شاهد مرفوع من حديث أنس بلفظ «كان النبي ﷺ جالساً فنظر إلى جُحر فقال لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرج، ثم تلا «فإن مع العسر يسراً».

أخرجه البزار (٨١/٣ - كشف) وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٣٩/٧) وقال: فيه عائد بن شريح هو ضعيف.

للجنس، واليسر مُنْكَرٌ فيحتملُ أَنْ يُرَادَ بالثاني فردٌ يغير ما أُريدَ بالأول.

(٧) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من التبليغ. ﴿فَانْصَبْ﴾ فانتعَب في العبادة شكراً لما عَدَدْنَا عليك من النعم السالفة ووعدناك من النعم الآتية. وقيل إذا فرغْتَ من الغزو فانْصَبْ في العبادة، أو فإذا فرغْتَ من الصلاة فانْصَبْ بالدعاء.

(٨) ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ بالسؤال ولا تسألْ غَيْرَهُ فإنه القادر وحده على إسعافك، وقرئ فَرَّغَب أي فرغَّب الناسَ إلى طلبِ ثوابه. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورة أَلَمْ نشرح فكانما جاءني وأنا مغتَمٌّ ففَرَّجَ عَنِّي»^(١).



● وشاهد من حديث ابن مسعود مثل لفظ حديث أنس أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/٨٥ رقم ٩٩٧٧). وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٣٩/٧) وقال: فيه إبراهيم النخعي وهو ضعيف. كذا قال: وقال الشيخ حمدي السلفي: لعله محرف من أبي مالك النخعي وهو متروك وأبو حمزة ضعيف. وأخرجه عبدالرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الصبر. عن ابن مسعود موقوفاً - كما في «الدر» (٥٥١/٨) -.

(١) وهو حديث موضوع. أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٦ رقم ٣٣٦). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۱. زَيْتُونٌ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ ۲. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ۳. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلِينَ ۝ ۴. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ ۵. فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ ۝ ۶. أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝

سورة والتين مختلف فيها^(١). وآياتها ثمان آيات

سم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالزَّيْتُونُ﴾ خصَّهما من الثمار بالقسم لأنَّ التينَ فاكهةٌ طيبةٌ لا فضلَ له وغذاءٌ لطيفٌ سريعُ الهضم، ودواءٌ كثيرُ النفعِ فإنه يُلبِنُ الطَّيْعَ ويحللُ البلغمَ ويظهرُ الكلتيَّتينِ ويزيلُ رملَ المثانةِ ويفتحُ سدَّ الكبدِ والطحالِ ويسمِّنُ البدنَ، وفي الحديث أنه يقطعُ البواسيرَ^(٢) وينفعُ من النقرسِ^(٣). والزيتونُ فاكهةٌ وإدامٌ ودواءٌ وله دهنٌ لطيفٌ كثيرُ المنافع، مع أنه قد ينبتُ حيثُ لا دهنيةٌ فيه كالجبالِ، وقيل المرادُ بهما جبلانِ من الأرضِ المقدسةِ أو مسجدًا دمشقَ وبيتَ المقدس، أو البلدانِ.

(٢) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني الجبلَ الذي ناجى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ربَّه، وسينينُ وسيناءُ اسمانِ للموضع الذي هو فيه.

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١١٠/٢٠): «مكية في قول الأكثر، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية» هـ.

أنواع من الأمراض.

● قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٨٦ رقم ٣٣٧): «أخرجه - أبو نعيم في الطب، والثعلبي من حديث أبي ذر. وفي إسناده من لا يعرف».

- (٣) ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أي الأمين من أمن الرجل أمانة فهو أمين، أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله والمراد به مكة.
- (٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يريد به الجنس. ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ تعديل بأن حُصِّنَ بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات.
- (٥) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ بأن جعلناه من أهل النار أو إلى أسفل سافلين وهو النار. وقيل هو أرذل العمر فيكون قوله:
- (٦) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطعاً. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ ثَمَرُونَ﴾ لا ينقطع أو لا يمتن به عليهم، وهو على الأول حكم مرتب على الاستثناء مقرر له.
- (٧) ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ أي فأي شيء يكذبك يا محمد دلالة أو نطقاً. ﴿بَعْدَ الْذِينَ﴾ بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل. وقيل ما بمعنى من. وقيل الخطاب للإنسان على الالتفات، والمعنى فما الذي يحملك على هذا الكذب.
- (٨) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخَافِينَ﴾ تحقيق لما سبق. والمعنى أليس الذي فعل ذلك من الخلق والرد بأحكام الحاكمين صنفاً وتديراً ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء على ما مرّ مراراً. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة التين أعطاه الله العافية واليقين ما دام حياً، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة»^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٦ رقم ٣٤٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) إِنَّ رَأْيَهُ أَسْتَغْفَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهَدْيِ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢)

سورة العلق مكية (١). وآياتها تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأ القرآن مُفْتَحًا باسمه سبحانه وتعالى، أو مستعيناً به. ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي الذي له الخلق أو الذي خلق كل شيء (٢)، ثم أفرّد ما هو أشرف وأظهر صُنْعًا وتديراً وأدّل على وجوب العبادة المقصودة من القراءة فقال:

(٢) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أو الذي خلق الإنسان فَأُبْهِمَ أولاً ثم فُسِّرَ تفخيماً لخلقهِ ودلالةً على عَجِيبِ فطرته. ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمعه على الإنسان في معنى الجمع، ولما كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٣٣/١٦): «وهي مكية بإجماع...».

(٢) التعرض لعنوان الربوبية - المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً - مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاضية من الكمالات البشرية بإنزال الوحي المتواتر. ووصفُ الرب بقوله تعالى «الذي خلق» لتذكير أول النعماء الفائضة عليه - عليه الصلاة والسلام - منه تعالى، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية. من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلاً عن سائر الكمالات قادراً على تعليم القراءة للحي العالم المتكلم (س٩/١٧٧).

وتعالى نَزَلَ أَوَّلَ مَا يَدُلُّ عَلَى وجودِهِ وَفَرْطِ قدرته وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ.

(٣) ﴿أَقْرَأْ﴾ تَكْرِيرٌ لِلْمَبَالِغَةِ، أَوِ الْأَوَّلُ مُطْلَقٌ وَالثَّانِي لِلتَّبْلِيغِ، أَوْ فِي الصَّلَاةِ. وَلَعَلَّهُ لِمَا قِيلَ لَهُ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِءٍ، فَقِيلَ لَهُ اقْرَأْ: ﴿وَبِذِكِّ الْأَكْرَمِ﴾ الزَّائِدُ فِي الْكَرَمِ عَلَى كُلِّ كَرِيمٍ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْعُمُ بِمَا عَوِضٍ وَيَحْلُمُ مِنْ غَيْرِ تَخَوُّفٍ، بَلْ هُوَ الْكَرِيمُ وَخَدَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

(٤) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أَيِ الْخَطِّ بِالْقَلَمِ، وَقَدْ قُرِئَ بِهِ لِتَقْيِيدِ بِهِ الْعُلُومُ وَيُعْلَمَ بِهِ الْبَعِيدُ.

(٥) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بِخَلْقِ الْقَوَى وَنَضْبِ الدَّلَائِلِ وَإِنْزَالِ الْآيَاتِ فَيَعْلَمُكَ الْقِرَاءَةَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قَارِئًا. وَقَدْ عُدَّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَبْدَأَ أَمْرِ الْإِنْسَانِ وَمُنْتَهَاهُ إِظْهَارًا لِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ، مِنْ أَنَّ نَفْلَهُ مِنْ أَحْسَنِ الْمَرَاتِبِ إِلَى أَعْلَاهَا تَقْرِيراً لِرَبُوبِيَّتِهِ وَتَحْقِيقاً لِأَكْرَمِيَّتِهِ، وَأَشَارَ أَوَّلًا إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَتِهِ عَقْلاً ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا سَمْعاً.

(٦) ﴿كَأَلَّا﴾ رَدْعٌ لِمَنْ كَفَرَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ بِطُغْيَانِهِ وَإِنْ لَمْ يُذَكَّرْ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطٍ﴾.

(٧) ﴿أَن رَّاهُ أَشْتَقَى﴾ أَنْ رَأَى نَفْسَهُ^(١)، وَاسْتَقْنَى مَفْعُولُهُ الثَّانِي لِأَنَّهُ بِمَعْنَى عَلِمَ وَلِذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ فَاعِلُهُ وَمَفْعُولُهُ ضَمِيرَيْنِ لَوَاحِدٍ.

(٨) ﴿إِنَّ لَكَ لَرَجْعًا﴾ الْخَطَابُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِلْتِفَاتِ تَهْدِيداً وَتَحْذِيرًا مِنْ عَاقِبَةِ الطُّغْيَانِ، وَالرُّجْعَى مَصْدَرٌ كَالْبُشْرَى^(٢).

(٩) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾.

(١٠) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ قَالَ لَوْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا سَاجِدًا لَوَطِئْتُ عُنُقَهُ، فَجَاءَهُ ثُمَّ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخُنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوَلًا وَأَجْنَحَةً، فَتَزَلْتُ^(٣). وَلَفْظُ الْعَبْدِ وَتَنْكِيرُهُ لِلْمَبَالِغَةِ فِي تَقْيِيحِ النَّهْيِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ عِبَادِيَةِ الْمُنْهَيِّ.

(١١) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذُنَّ﴾.

(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى﴾ أَرَأَيْتَ تَكْرِيرٌ لِلأَوَّلِ وَكَذَا الَّذِي فِي قَوْلِهِ:

(١) تعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء - كما ينبيء عنه قوله تعالى: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» للإيدان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد (س/٩/١٧٠).

(٢) وتقديم الجار والمجرور إلى ربك عليه لقصره عليه، أي إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً فسنرى حيثنذ عاقبة طغيانك (س/٩/١٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢١٥٤ رقم ٢٧٩٧/٣٨) من حديث أبي هريرة. وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٨/٥٦٥) للنسائي وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي وأبي نعيم.

أَرَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿أَرَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾.

(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ والشرطية مفعوله الثاني، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب الشرط الثاني الواقع موقع القسم له. والمعنى أخبرني عمن ينهى بعض عباده الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه أو أمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده، أو إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب كما تقول: ألم يعلم بأن الله يرى ويطلع على أحواله من هداه وضلاله. وقيل المعنى أرايت الذي ينهى عبداً يصلي والمنهي على الهدى أمراً بالتقوى والناهى مكذب متولٍ فما أعجب من ذا. وقيل الخطاب في الثانية مع الكافر فإنه سبحانه وتعالى كالحاكم الذي حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى، وكأنه قال يا كافر أخبرني إن كان صلاته هدى ودعاؤه إلى الله سبحانه وتعالى أمراً بالتقوى أنتهاه؟ ولعله ذكر الأمر بالتقوى في التعجب والتوبيخ ولم يتعرض له في النهي لأن النهي كان عن الصلاة والأمر بالتقوى، فاقصر على ذكر الصلاة لأنه دعوة بالفعل أو لأن نهى العبد إذا صلى يُحتمل أن يكون لها ولغيرها وعامة أحوالها محصورة في تكميل نفسه بالعبادة وغيره بالدعوة.

(١٥) ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهى. ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ عما هو فيه. ﴿لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذن بناصيته ولنسحبته بها إلى النار، والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة. وقرئ لنسفعن بنون مشددة ولأسفعن، وكتابته في المصحف بالألف على حكم الوقف، والاكتفاء باللام عن الإضافة للعلم بأن المراد ناصية المذكور.

(١٦) ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدل من الناصية وإنما جاز لوضفها، وقرئت بالرفع على هي ناصية والنصب على الذم. ووضفها بالكذب والخطأ - وهما لصاحبها - على الإسناد المجازي للمبالغة.

(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدي فيه القوم. روي أنا أبا جهل لعنه الله مر برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك، فأغلظ له رسول الله ﷺ فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فترلت^(١).

(١٨) ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ليجزوه إلى النار. وهو في الأصل الشرط واحدتها زبينة كعفريه من الزبن وهو الدفع، أو زبني على النسب وأصلها زباني والتاء معوضة عن الياء.

(١٩) ﴿كَلَّا﴾ ردع أيضاً للناهى. ﴿لَا نُطِيعُهُ﴾ أي اثبت أنت على طاعتك. ﴿وَأَسْجُدْ﴾ داوم على سجودك. ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ وتقرب إلى ربك وفي الحديث «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد»^(٢).

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) أخرج مسلم (١/٣٥٠ رقم ٤٨٢/٢١٥) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة العلق أُعْطِيَ من الأجرِ كأنما قرأ المفضلَ كله»^(١).

☆ ☆ ☆

= بلفظ «أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد». وأخرجه أيضاً البغوي في شرح السنة (٣/ ١٥١ رقم ٥٥٨) والنسائي (٢/ ٢٢٦) وأبو داود رقم (٨٧٥).

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٦ رقم ٣٤٥).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْقَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة القدر مختلف فيها^(١). وآياتها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ الضمير للقرآن فخمه بإضماره من غير ذكر شهادة له بالنباهة المغنية عن التصريح كما عظمه بأن أسند نزله إليه، وعظم الوقت الذي أنزل فيه بقوله:
(٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

(٣) ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وإنزله فيها بأن ابتداء بإنزاله فيها، أو أنزله جملة من اللوح إلى السماء الدنيا على السفرة، ثم كان جبريل عليه الصلاة والسلام ينزله على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة. وقيل المعنى أنزلناه في فضلها وهي في أواخر العشر الأخير من رمضان، ولعلها السابعة منها، والداعي إلى إخفائها أن يحيي من يريد لها ليالي كثيرة، وتسميتها بذلك لشرفها أو لتقدير

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٣٨/١٦): «اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة، فقال قتادة: هي مكية. وقال ابن عباس وغيره: هي مدنية» هـ.
وقال الماوردي في «النكت والعيون» (٣١١/٦): «مكية في قول الأكثرين، ومدنية في قول الضحاك، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة» هـ.
وقال البغوي في «معالم التنزيل» (٤٨٥/٨): «مكية» هـ. وانظر «الدر المنثور» (٥٦٧/٨).

الأمور فيها لقوله سبحانه وتعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(١). وَذَكَرُ الْأَلْفِ إما للتكثير، أو لما روي أنه عليه الصلاة والسلام ذَكَرَ إسرائيلياً يلبسُ السلاح في سبيل الله أَلْفَ شهرٍ، فعَجَبَ المؤمنون وتقاصرت إليهم أعمالهم، فَأَعْطُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ هي خيرٌ من مدَّةِ ذلك الغازي^(٢).

(٤) ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بيانٌ لما له فَضَّلَتْ على أَلْفِ شهرٍ وتنزلهم إلى الأرض، أو إلى السماء الدنيا أو تقربهم إلى المؤمنين. ﴿مَنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من أجلِ كُلِّ أمرٍ قُدِّرَ في تلك السنة، وقرئ من كُلِّ امرئٍ أي من أجلِ كُلِّ إنسان.

(٥) ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ ما هي إلا سلامةٌ أي لا يقدرُ الله فيها إلا السلامة، ويقضي في غيرها السلامة والبلاء، أو ما هي إلا سلامٌ لكثرة ما يسلّمون فيها على المؤمنين. ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي وقتِ مَطْلَعِهِ أي طلوعه. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه كالمراجع أو اسمُ زمانٍ على غير قياس كالمشرق. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القدرِ أُعْطِيَ من الأجرِ كَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وأحيا ليلة القدرِ»^(٣).



(١) الدخان: «٤».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ج ٣٠/٢٥٩ - ٢٦٠)، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٤٦١ كلاهما عن مجاهد.

وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٠٦/٤) وقال: هذا مرسل. وذكره ابن كثير في التفسير (٥٦٧/٤) من رواية ابن أبي حاتم عن مجاهد «أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل...» وهو منقطع، وفيه مسلم بن خالد الزنجي صدوق له أوهام.

(٣) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٦ رقم ٣٤٧).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۚ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۚ

سورة لم يكن مختلف فيها^(١). وآياتها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى فإنهم كفروا بالإلحاد في صفات الله سبحانه وتعالى: وَمِنَ اللَّتَبِينَ. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وعبداء الأصنام. ﴿مُنْفَكِينَ﴾ عما كانوا عليه من دينهم، أو الوعد باتباع الحق إذ جاءهم الرسول ﷺ. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام، أو القرآن فإنه مبين للحق، أو معجزة الرسول بأخلاقه والقرآن بإفحامه مَنْ تحدَّى به.

(٢) ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ بدل من البينة بنفسه أو بتقدير مضاف أو مبتدأ ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ صفته أو خبره، والرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان أمياً لكنه لما تلا مثل ما في الصحف كان كالتالي لها. وقيل المراد جبريل عليه الصلاة والسلام. وكون الصحف مطهرة أنَّ الباطل لا يأتي ما فيها، أو أنها لا يمسها إلا المطهرون.

(٣) ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

(٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عما كانوا عليه بأن آمن بعضهم أو تردّد في دينه، أو عن وغدهم بالإصرار على الكفر. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ فيكون كقوله ﴿وَكَاوُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٤٣/١٦): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار أنها مدنية، والأول أشهر» هـ.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ^(١). وإفراذُ أهلِ الكتابِ بعدَ الجمعِ بينهم وبينَ المشركينَ للدلالةِ على شناعةِ حالهم، وأنهم لما تفرَّقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى.

(٥) ﴿وَمَا أَمَرُوا﴾ أي في كُتُبهم بما فيها. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لا يشركون به. ﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن العقائد الزائغة. ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ ولكنهم حرَّفوا وعَصَوْا. ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ دينُ الملةِ القِيَمَةِ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

(٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي يومَ القيامة، أو في الحالِ لملاستهم ما يوجبُ ذلك، واشتراكُ الفريقين في جنسِ العذاب لا يوجبُ اشتراكهما في نوعه فلعلَّه يختلفُ لتفاوتِ كفرهما. ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي الخليقة. وقرأ نافع البريئة بالهمز على الأصل.

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

(٨) ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فيه مبالغات: تقديمُ المدح، وذكرُ الجزاءِ المؤذن بأنَّ ما مُنَحُوا في مقابلة ما وُصِفُوا به والحكمُ عليه بأنَّه مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وجمعُ جناتٍ وتقييدها إضافة ووصفاً بما تزدادُ لها نعيمًا، وتأكيذُ الخلودِ بالتأييد. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ بما يكون لهم زيادةً على جزائهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لأنه بلغهم أقصى أمانهم. ﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكورُ من الجزاء والرضوان. ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فَإِنَّ الخشية ملاكُ الأمرِ والباعثُ على كل خير. عن النبي ﷺ «من قرأ سورةَ لم يكنِ الذين كفروا كان يومَ القيامة مع خيرِ البرية مساءً ومقيلاً»^(٢).

☆☆☆

(١) البقرة: «٨٩».

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٦ رقم ٣٤٩).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

سورة الزلزلة مختلف فيها^(١) . وآياتها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ اضطرابها المقدّر لها عند النفخة الأولى أو الثانية، أو الممكن لها أو اللائق بها في الحكمة، وقرئ بالفتح وهو اسم الحركة وليس في الأبنية فعلاً إلا في المضاعف.
- (٢) ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ما في جوفها من الدفائن أو الأموات جمع ثقل وهو متاع البيت.
- (٣) ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ لما يبهتهم من الأمر الفظيع، وقيل المراد بالإنسان الكافر فإنّ المؤمن يعلم ما لها.
- (٤) ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ تحدّث الخلق بلسان الحال. ﴿أَخْبَارَهَا﴾ ما لأجله زلزالها وإخراجها. وقيل ينطقها الله سبحانه وتعالى فتخبر بما عمل عليها. ويومئذ بدل من إذا وناصبهما تحدّث، أو أصل وإذا منتصب بمضمّر.
- (٥) ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي تحدّث بسبب إحياء ربك لها بأن أحدث فيها ما دلّت على الإخبار، أو أنطقها بها، ويجوز أن يكون بدلاً من إخبارها إذ يُقال: حدّثته كذا وبكذا، واللام بمعنى إلى أو

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٤٧/١٦) «وهي مكية قاله ابن عباس وغيره وقال قتادة ومقاتل: هي مدنية لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة».

على أصلها إذ لها في ذلك تشفٌ من العصاة.

(٦) ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من مخارجهم من القبور إلى الموقف. ﴿أَشْنَأًا﴾ متفرقين بحسب مراتبهم. ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ جزاء أعمالهم، وقرىء بفتح الياء.

(٧) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

(٨) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ تفصيلٌ ليرى ولذلك قرىء يُرَهُ بالضم، وقرأ هشام بإسكان الهاء. ولعلَّ حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب. وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة، أو مَنْ الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله أشنأتاً. والذرة النملة الصغيرة أو الهباء. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورة إذا زلزلت الأرض أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله»^(١).



(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٨٧ رقم ٣٥١): «أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت. لكنه من رواية أبي القاسم الطائفي، وهو ساقط. وشاهده عند ابن أبي شيبة، والبزار من رواية سلمة بن وردان عن أنس مرفوعاً: «إذا زلزلت تعدل ربع القرآن» وهو حديث ضعيف. وأخرجه ابن مردويه والواحدي بإسناديهما إلى أبي بن كعب بلفظ «من قرأ إذا زلزلت أعطى من الأجر كمن قرأ القرآن» وهو حديث موضوع.

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَتِ ضُبْحًا (٣) فَأَنْزَنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا
بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

سورة والعاديات مختلف فيها^(١)، وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْحًا﴾ أقسم سبحانه بخيل الغزاة تعدو فتضبحُ ضبحاً، وهو صوت أنفاسها عند العدو. ونصبه بفعله المحذوف، أو بالعاديات فإنها تدلُّ بالالتزام على الضابحات، أو ضبحاً حال بمعنى ضابحة.

(٢) ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ فالتى توري النار، والإبراء إخراج النار يقال قدح الزند فأورى.

(٣) ﴿فَالْمُغِيرَتِ ضُبْحًا﴾ يغير أهلها على العدو. ﴿ضُبْحًا﴾ أي في وقته.

(٤) ﴿فَأَنْزَنَ بِهِ نَقْعًا﴾ بذلك الوقت. ﴿نَقْعًا﴾ غباراً أو صياحاً.

(٥) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ فتوسطن بذلك الوقت أو بالعدو أو بالنقع، أي ملتبسات به. ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء، روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث خيلاً فمضت أشهر لم يأتهم منهم خبرٌ

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٥٢/١٦): وهي مكية في قول جماعة من أهل العلم. وقال المهدي عن أنس بن مالك: هي مدنية. هـ.

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥٣/٢٠): «وهي مكية، في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء. ومدنية في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة». هـ.

فتزلت^(١). وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْقِسْمُ بِالنَّفُوسِ الْعَادِيَةِ إِثْرَ كَمَالِهِنَّ، الْمُورِيَاتِ بِأَفْكَارِهِنَّ أَنْوَارَ الْمَعَارِفِ، وَالْمَغْيِرَاتِ عَلَى الْهَوَى وَالْعَادَاتِ إِذَا ظَهَرَ لَهُنَّ مِثْلُ أَنْوَارِ الْقُدُسِ، فَأَثَرْنَ بِهِ شَوْقاً فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعاً مِنْ مَجْمُوعِ الْعَلِيِّينَ.

(٦) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ لكفورٌ مِنْ كَنَدَ النِّعْمَةَ كُنُوداً، أَوْ لَعَاصِي بَلْغَةَ كُنْدَةٍ، أَوْ لَبْخِيلٌ بَلْغَةُ بَنِي مَالِكٍ، وَهُوَ جَوَابُ الْقِسْمِ.

(٧) ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ وَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ كُنُودِهِ ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِهِ لظُهُورِ أَثَرِهِ عَلَيْهِ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَىٰ كُنُودِهِ لَشَهِيدٌ فَيَكُونُ وَعِيداً.

(٨) ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ الْمَالِ مِنْ قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾^(٢) أَي مَالاً. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لَبْخِيلٌ أَوْ لَقَوِيٌّ مَبَالُغٌ فِيهِ.

(٩) ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾ بُعِثَ. ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ مِنَ الْمَوْتَى، وَقُرِءَ بُخَيْرٌ وَبُحْثٌ.

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ﴾ جُمِعَ مُحْصِلاً فِي الصَّحْفِ أَوْ مُيِّزَ. ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَتَخْصِيصُهُ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿لَخَبِيرٌ﴾ عَالِمٌ بِمَا أَعْلَنُوا وَمَا أَسْرَوْا فَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا قَالَ «مَا» ثُمَّ قَالَ «بِهِمْ» لِاخْتِلَافِ شَأْنِهِمْ فِي الْحَالِينَ، وَقُرِءَ أَنَّ وَخَيْرٌ بِلَا لَامٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْعَادِيَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ بَاتَ بِالْمَزْدَلِفَةِ وَشَهِدَ جُمُعاً»^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص ٤٦٣ عن مقاتل بدون سند.

(٢) البقرة: «١٨٠».

(٣) وهو حديث موضوع.

أخرجه الواحدي وابن مردويه والشعلبي عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٧ رقم ٣٥٤).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ۝ (١) مَا الْقَارِعَةُ ۝ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۝ (١٠) نَارُ حَامِيَةٍ ۝ (١١)

سورة القارعة مكية^(١)، وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْقَارِعَةُ﴾.

(٢) ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾.

(٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ سبق بيانه في الحاقة.

(٤) ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ في كثرتهم وذلتهم وانتشارهم واضطرابهم. وانتصاب يوم بمضمر دلت عليه القارعة.

(٥) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف ذي الألوان. ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ المندوف لتفرق أجزائها وتطايرها في الجو.

(٦) ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن ترجحت مقادير أنواع حسناته.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٥٦/١٦): «وهي مكية بلا خلاف». وقال القرطبي في «الجامع» (١٦٤/٢٠): «وهي مكية بإجماع».

(٧) ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ذاتِ رضا أو مرضية.

(٨) ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بأن لم يكن له حسنة يُعْبَأُ بها، أو ترجّحت سيئاته على حسناته.

(٩) ﴿ فَأُتْمُهَا كَآوِيَةٌ ﴾ فمأواه النار المحرقة، والهاوية من أسمائها ولذلك قال:

(١٠) ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴾.

(١١) ﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ ذاتُ حمى. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورة القارعة ثَقَّلَ الله بها ميزانه يومَ

القيامة»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٧ رقم ٣٥٧).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

سورة التكاثر مختلف فيها^(١)، وآياتها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلْهَكُمُ﴾ شغلكم وأصله الصرف إلى اللهو منقول من لها إذا غفل. ﴿التَّكَاثُرُ﴾ التباهي بالكثرة.

(٢) ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات، عبّر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة المقابر. روي^(٢) أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا بالكثرة فكثرتهم بنو عبد مناف، فقال بنو سهم إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات فكثرتهم بنو سهم. وإنما حذف المنهي عنه وهو ما يعينهم من أمر الدين للتعظيم والمبالغة. وقيل^(٣) معناه ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن يموتوا وقبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا عما هو أهم.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٥٨/١٦): «وهي مكية لا أعلم فيها خلافاً». وقال القرطبي في «الجامع» (١٦٨/٢٠): «وهي مكية في قول جميع المفسرين، وروى البخاري أنها مدنية».

(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص ٤٦٤) من قول مقاتل والكلبي بدون سند وكذلك ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٥١٧/٨).

(٣) قاله الحسن البصري كما في تفسير ابن كثير (٥٨٢/٤).

لكم، وهو السعي لأخراكم فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت.

(٣) ﴿كَلَّا﴾ ردع وتبئية على أن العاقل ينبغي له أن لا يكون جميع همّه ومعظم سعيه للدنيا فإن عاقبة ذلك وبال وحسرة. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ خطأ رأيكم إذا عايتم ما وراءكم، وهو إنذار ليخافوا ويتنبهوا من غفلتهم.

(٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير للتأكيد. وفي ثمّ دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول، أو الأول عند الموت أو في القبر والثاني عند النشور.

(٥) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو تعلمون ما بين أيديكم علم اليقين أي كعلمكم ما تستيقنونّه لشغلكم ذلك عن غيره، أو لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه فحذف الجواب للتفخيم، ولا يجوز أن يكون قوله:

(٦) ﴿لَرَوُتَ الْجَحِيمَ﴾ جواباً له لأنه محقق الوقوع بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيماً، وقرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء.

(٧) ﴿ثُمَّ لَرَوُتَهَا﴾ تكرير للتأكيد، أو الأولى إذا رأيتهم من مكان بعيد والثانية إذا وردوها، أو المراد بالأولى المعرفة والثانية الإبصار. ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين.

(٨) ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي الهاكم. والخطاب مخصوص بكل من الهاه دنياء عن دينه والنعيم بما يشغله، للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾^(١) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾^(٢)، وقيل يعثان إذ كل يسأل عن شكره، وقيل الآية مخصوصة بالكفار. عن النبي ﷺ ﴿مَنْ قَرَأَ الْهَاجِمَ لَمْ يَحَاسِبْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالنَّعِيمِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَأَعْطَى مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّمَا قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ﴾^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) الأعراف: «٣٢».

(٢) المؤمنون: «٥١».

(٣) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٨ رقم ٣٥٩).

وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا
بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سورة والعصر مكية^(١)، وآياتها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها، أو بعصر النبوة أو بالدهر لاشتماله على الأعاجيب والتعريض بنفي ما يضاف إليه من الخسران.

(٢) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إنَّ الناسَ لفي خسرانٍ في مساعيهم وصرفِ أعمارهم في مطالبهم، والتعريفُ للجنسِ والتكثيرُ للتعظيم.

(٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنَّهم اشتروا الآخرةَ بالدنيا ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية. ﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي لا يصحُّ إنكاره من اعتقادٍ أو عملٍ. ﴿وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي أو على الحقِّ، أو ما يبلو الله به عباده. وهذا من عطفِ الخاصِّ على العامِّ للمبالغة إلا أنَّ يخصَّ العملَ بما يكون مقصوداً على كماله، ولعلَّه سبحانه وتعالى إنما ذكَّرَ سببَ الربحِ دون الخسرانِ اكتفاءً ببيان المقصود، وإشعاراً بأنَّ ما عدا ما يؤدي إلى خسرٍ ونقصٍ حظٌّ، أو تكزُّماً فإنَّ الإيهامَ في جانبِ الخسرِ كرمٌ. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والعصرِ غفر الله له وكان ممن تَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ»^(٢).

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٦١/١٦): «وهي مكية».

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٨ رقم ٣٦١). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَلِّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لُغَةً ۖ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۖ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۖ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي
الْخُطْمَةِ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ۖ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۖ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۖ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ
مُؤَصَّدَةٌ ۖ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۖ

سورة الهمة مكية^(١)، وآيها تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لُغَةً﴾ الهمز: الكسر كالهمز، واللمز: الطعن كاللهمز فشاعاً في الكسر من أعراض الناس والطعن فيهم، وبناء فعله يدل على الاعتياد فلا يقال ضحكك ولعنة إلا للمكثر المتعود، وقرىء همزة لغوة بالسكون على بناء المفعول وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك فيضحك منه ويشتتم. ونزلها في الأخنس بن شريق^(٢) فإنه كان مغيباً، أو في الوليد بن المغيرة واغتيابه رسول الله ﷺ.

(٢) ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ بدل من كل أو ذم منصوب أو مرفوع، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالتشديد للتكثير. ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ وجعله عدة للنوازل أو عدة مرة بعد أخرى، ويؤيده أنه قرىء وعدده على فك الإدغام.

(٣) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ تركه خالداً في الدنيا فأحبّه كما يحبُّ الخلود، أو حبُّ المال أغفله عن الموت أو طول أمله حتى حسب أنه مخلد فعمل عمل من لا يظن الموت، وفيه تعريض بأن المخلد هو السعي للآخرة.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٦٣/١٦): «وهي مكية بلا خلاف».

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٥٣٠/٨) عن الكلبي بدون سند.

(٤) ﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسابانه. ﴿لَيُبَدَنَّ﴾ ليطرحنَّ. ﴿فِي الْخُطْمَةِ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يطرح فيها.

(٥) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ ما النار التي لها هذه الخاصية.

(٦) ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ تفسير لها. ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ التي أوقدها الله وما أوقده لا يقدر غيره أن يطفئ.

(٧) ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ﴾ تعلو أوساط القلوب وتشتمل عليها، وتخصيئها بالذكر لأنَّ الفؤادَ اللطفُ ما في البدنِ وأشدُّه ألماً، أو لأنه محلُّ العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة.

(٨) ﴿إِنِّي أَنبَأُ عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ مُطَبَّقةٌ من أوصدتُ البابَ إذا أطبقته. قال:

تَحِرُّ إِلَى أَجْبَالٍ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمَنْ دُونَهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُؤَصَّدَةٌ
وقرأ حفص وأبو عمرو وحمزة بالهمزة.

(٩) ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي موثقين في أعمدة ممدودة مثل المقاطر التي تُقطرُ فيها اللصوص. وقرأ

الكوفيون غير حفص بضميتين، وقرأ عُمد بسكون الميم مع ضم العين. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه»^(١) رضوان الله عليهم أجمعين.



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٨ رقم ٣٦٢).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

سورة الفيل مكية^(١)، وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ، وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكانه رآها، وإنما قال كيف ولم يقل ما لأنَّ المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام فإنها من الإرهاصات^(٢). إذ روي^(٣) أنها وقعت في السنة التي وُلِدَ فيها رسولُ الله ﷺ. قَصَّتْهَا أَنَّ أبرهةَ بنَ الصباحِ الأشرمَ - ملكَ اليمنِ من قبلِ أصحابِ النجاشي - بنى كنيسةً بصنعاءَ وسمّاها القُلَيْسَ وأرادَ أن يصرفَ الحاجَّ إليها، فخرجَ رجلٌ من كنانة فقعدها فيها ليلاً فأغضبه ذلك، فحلفَ ليهدمَنَّ الكعبةَ فخرج بجيشه ومعه فيلٌ قويٌّ اسمه محمودٌ وفيلةٌ أخرى، فلما تهيأَ للدخولِ وعبَّى جيشه قدَّمَ الفيلَ، وكان كلُّما وجَّهوه إلى الحرمِ بركَ ولم يبرحْ، وإذا وجَّهوه إلى اليمنِ أو إلى جهةٍ أخرى هَزَّوْلَ، فأرسلَ الله تعالى طيراً مع كلِّ واحدٍ في منقاره حَجَرٌ وفي رجليه حِجْرَانِ، أكبرُ من العدسةِ وأصغرُ من الحمصةِ،

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٦٥/١٦): «وهي مكية بإجماع الرواة».

(٢) هي التي تصدر عن النبي قبل النبوة وتكون خارقة للعادة (التعريفات للجرجاني ص ١٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٨/ ٥٣٥ - ٥٤٠).

فترميمهم فيقع الحجرُ في رأسِ الرجل فيخرجُ من دبره فهلكوا جميعاً. وقرىء ألم تَزْ جداً في إظهار أثرِ الجازم، وكيف نُصِبَ بفعلٍ لا يَتَرُ لما فيه من معنى الاستفهام.

(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ في تعطيل الكعبة وتخريبها. ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضييع وإبطالِ بَأْنِ دَمَرِهِمْ وعَظَمِ شَأْنِهَا.

(٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جماعات، جمعُ إبَالٍ وهي الحزمةُ الكبيرة؛ شُبِّهَتْ بها الجماعةُ من الطير في تضامِّها. وقيل لا واحد لها كعباييدَ وشماطيظَ.

(٤) ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ﴾ وقرىء بالياء على تذكير الطيرِ لأنه اسمُ جمع، أو إسناده إلى ضمير ربِّك. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طينٍ متحجِّرٍ معرَّبٌ، وقيل من السَّجَلِ وهو الدلو الكبير، أو الإسجالِ وهو الإرسالُ، أو من السَّجَلِ ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدون.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّأْكُولٍ﴾ كورقِ زرع وقع فيه الأكالُ وهو أن يأكله الدودُ، أو أكلَ حبه فبقي صفراً منه، أو كتين أكلته الدوابُّ وراثته. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيامَ حياته من الخسفِ والمسحِ»^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه ابن مردويه والواحدي والثعلبي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٨ رقم ٣٦٣).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ۝١ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي
أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤

سورة قريش مكية^(١)، وآياتها أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾^(٢) والفاء لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى أَنَّ نِعَمَ الله عليهم لا تُخْصَى فَإِنْ لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لأجل:

(٢) ﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أي الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون، أو بمحذوفٍ مثل أعجبوا، أو بما قبله كالتضمين في الشعر^(٣) أي فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلاف قريش؛ ويؤيده أنهما في مصحف أبي سورة واحدة. وقرئ ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء. وقريش ولدُ النضر بن كنانة منقولٌ من تصغير قرش، وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٦٨/١٦): «وهي مكية بلا خلاف».

وقال القرطبي في «الجامع» (٢٠٠/٢٠): «مكية في قول الجمهور. ومدنية في قول الضحاك والكلبي» هـ.

(٢) قريش: «٣».

(٣) قوله كالتضمين في الشعر هو أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير.

قال الكازروني في حاشية: (ولا يخفى أن هذا المعنى لا يتحقق في القرآن من وجهين فوجه الشبه بين تعليق هذه السورة بما قبلها، والتضمين أن في كل منهما وصل كلام ظاهر الانفصال عما قبله به) حاشية الكازروني على البيضاوي (١٩٦/٥).

فَلَا تُطَاقُ إِلَّا بِالنَّارِ، فَشَبَّهُوا بِهَا لِأَنِّهَا تَأْكُلُ وَلَا تُؤْكَلُ وَتَعْلُو وَلَا تُغْلَى. وَصَغَّرَ الْأِسْمَ لِلتَّعْظِيمِ، وَإِطْلَاقُ الْإِيلَافِ ثُمَّ إِبْدَالُ الْمُقَيِّدِ عَنْهُ لِلتَّفْخِيمِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ لِإِيلَافٍ بِغَيْرِ يَاءٍ بَعْدَ الْهَمْزَةِ.

(٣) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ .

(٤) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أَيُّ بِالرَّحْلَتَيْنِ، وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّعْظِيمِ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ شِدَّةُ أَكْلُوا فِيهَا الْجِيْفَ وَالْعِظَامَ. ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أَصْحَابُ الْفِيلِ أَوْ التَّخَطُّفِ فِي بِلَدِهِمْ وَمَسَايِرِهِمْ، أَوْ الْجَذَامِ فَلَا يَصِيبُهُمْ بِبِلَدِهِمْ. عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْإِيلَافِ قَرِيشٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ طَافَ بِالْكَعْبَةِ وَاعْتَكَفَ بِهَا»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أَخْرَجَهُ الثَّعْلَبِيُّ وَالنَّوَاهِدِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ.
كَمَا فِي «الْكَافِي الشَّافِي» (ص ١٨٨ رَقْم ٣٦٥).
وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي آخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ
الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾
وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سورة الماعون مختلف فيها ^(١)، وآيها سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿أَرَأَيْتَ﴾ استفهامٌ معناه التعجبُ. وقرئ أريتَ بلا همزٍ إلحاقاً بالمضارع، ولعلَّ تصديرها بحرفِ الاستفهامِ سهَّل أمرها، وأرايتُكَ بزيادةِ الكافِ. ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ﴾ بالجزءِ أو الإسلامِ، والذي يحتملُ الجنسَ والعهدَ ويؤيدُ الثاني قوله:
- (٢) ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ يدفعه دفعاً عنيفاً. وهو أبو جهلٍ كان وصياً ليتيمٍ فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه، أو أبو سفيانٍ نحرَ جُزوراً فسأله يتيماً لحماً فقرعه بعصاه، أو الوليد بنُ المغيرة، أو منافقٌ بخيلٌ ^(٢). وقرئ يدعُ أي يتركُ.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٧٠/١٦). «وهي مكية بلا خلاف علمته، وقال الثعلبي: هي مدنية» هـ.
وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٤٣/٩): «وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله الجمهور. والثاني: مدنية، روى عن ابن عباس، وقتادة. وقال هبة الله المفسر: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبدالله بن أبي المنافق» هـ.
(٢) انظر «أسباب النزول» للواحدي ص ٤٦٥، و«معالم التنزيل» للبغوي (٥٥١/٨) و«النكت والعيون» للماوردي (٣٥٠/٦).

(٣) ﴿وَلَا يَحْضُ﴾ أهله وغيرهم. ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ لعدم اعتقاده بالجزاء ولذلك رُتب الجملة على يكذب بالفاء.

(٤) ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾.

(٥) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي غافلون غير مباليين بها.

(٦) ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ﴾ يُزُونَ الناس أعمالهم ليروهم الشاء عليهم.

(٧) ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ الزكاة أو ما يُتَعَاوَرُ في العادة. والفاء جزائية؛ والمعنى إذا كان عدمُ المبالاة باليتيم من ضعف الدين والموجب للذم والتوبيخ فالسهو عن الصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام أحقُّ بذلك ولذلك رُتب عليها الويل، أو للسببية على معنى فويلٌ لهم، وإنما وضع المصلين موضع الضمير للدلالة على سوء معاملتهم مع الخالق والخلق. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة أُرِيَتْ غُفْرَ له إن كان للزكاة مؤدياً»^(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٨ رقم ٣٦٩).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۚ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۚ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۚ

سورة الكوثر مكية^(١)، وآياتها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ﴾ وقرئ أنطيناك. ﴿الْكَوْثَرَ﴾ الخير المفرط الكثرة من العلم والعمل وشرف الدارين. ورؤي عنه عليه الصلاة والسلام أنه نهر في الجنة وَعَدَنِيهِ رَبِّي فيه خير كثير^(٢) أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزبد. حافته الزبرجد وأوانيه من فضة لا يظلم من شرب منه^(٣)، وقيل حوض فيها، وقيل أولاده وأتباعه، أو علماء أمته والقرآن العظيم.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٧٢/١٦): «وهي مكية».

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٤٧/٩): «وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: مدنية قاله الحسن، وعكرمة، وقتادة» هـ.

(٢) وهو جزء من حديث أخرجه مسلم (٣٠٠/١) رقم (٤٠٠) من حديث أنس.

(٣) وهو مؤلف من حديثين:

(الأول): أخرجه أحمد (١٠٣/٣، ١١٥) وهنا وفي «الزهد» (٢١١/١) والنسائي في «التفسير» (رقم: ٧٢٦) وابن جرير (١٥/٣٠٣ - ٣٢٤) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤٧/١٣) والآجري في «الشريعة» (ص ٣٩٦) والبعوي في «معالم التنزيل» (٥٥٨/٨) وفي «شرح السنة» (١٧٠/١٥) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: دخلت الجنة فإذا أنا بنهر يجري بياضه بياض اللبن، وأحلى من العسل، وحافته حياض اللؤلؤ، فضربت بيدي فإذا الثري مسك أدخر فقلت لجبريل: ما هذا؟ قال: الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل وهو حديث صحيح. وأخرجه البخاري (٤٦٤/١١) رقم (٦٥٨١) والترمذي (٤٤٩/٥) رقم (٣٣٥٩) و(٣٣٦٠) من طريق =

(٢) ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ فذُم على الصلاة خالصاً لوجه الله تعالى خلاف الساهي عنها المرائي فيها شكراً لإنعامه، فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر. ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ البَذَن التي هي خيار أموال العرب وتصدق على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون، فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة وقد فسرت الصلاة بصلاة العيد والنحر بالتضحية.

(٣) ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ ﴾ إِنَّ مَنْ أَبْغَضَكَ لِبُغْضِهِ اللَّهُ. ﴿ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ الذي لا عقب له إذ لا يبقى له نسل ولا حُسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذرئتك وحُسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف. عن النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَوْثَرِ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ نَهْرٍ لَه فِي الْجَنَّةِ، وَيُكْتَبُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ قُرْبَانٍ قَرَّبَهُ الْعِبَادُ فِي يَوْمِ النَّحْرِ الْعَظِيمِ»^(١).



قتادة عن أنس بن مالك بنحوه.

(والثاني): أخرجه أحمد (٦٧/٢، ١١٢، ١٥٨) وهنا وفي «الزهد» (٢٠٨/١) والترمذي (٤٤٩/٥ - ٤٥٠ رقم ٣٣٦١) وابن ماجه (١٤٥٠/٢ رقم ٤٣٣٤). والدارمي (٣٣٨/٢) والحاكم (١٧١/٣) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٣٠٢٤) والبغوي في «معالم التنزيل» (٥٥٨/٨) وفي «شرح السنة» (١٦٨/١٥ - ١٦٩) من طرق عن عطاء بن أبي السائب عن عازب بن دثار عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاؤه الذهب، مجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وأشدُّ بياضاً من الثلج». وهو حديث صحيح.

لأن راويه عن عطاء عند أحمد حماد بن زيد وقد سمع منه قديماً.

وانظر «فتح الباري» (٧٣٢/٨) وجامع الأصول (٤٣٩/٢).

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٨ رقم ٣٧٥). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكُفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا
عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

سورة الكافرون مكية^(١) ، وآيات ست

بسم الله الرحمن الرحيم

- (١) ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكُفِرُونَ﴾ يعني كفرًا مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. رُوي أنَّ رَهْطًا من قريش قالوا يا محمد تعبدُ آلهتنا سنةً ونعبدُ إلهك سنةً، فنزلت^(٢).
- (٢) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي فيما يُستقبلُ، فإن لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أنَّ ما لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال.
- (٣) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي فيما يستقبلُ لأنه في قران لا أعبدُ.
- (٤) ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ أي في الحال أو فيما سلف.
- (٥) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده، ويجوز أن يكونا تأكيدين

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٧٤/١٦): «وهي مكية إجماعاً» هـ.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥/ج ٣٠١/٣٣١) والطبراني في «الصغير» (١/٢٦٥) عن ابن عباس وقال الطبراني: لم يروه عن داود بن أبي هند إلا عبدالله بن عيسى.

وقال الحافظ في «الفتح» (٨/٧٣٣): «وفي إسناده أبو خلف عبدالله بن عيسى، وهو ضعيف.

على طريقة أبلغ، وأما لم يقل ما عذت ليطابق ما عبدتم لأنهم كانوا موسومين قبل المبعث بعبادة الأصنام، وهو لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله، وإنما قال «ما» دون من لأن المراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق أو للمطابقة. وقيل إنها مصدرية وقيل الأوليان بمعنى الذي والأخريان مصدريتان.

(٦) ﴿لَكَرْدِيكُمْ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه. ﴿وَلِي دِين﴾ ديني الذي أنا عليه لا أرفضه، فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليكون منسوخاً بآية القتال، اللهم إلا إذا فُسِّرَ بالمتاركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه، وقد فُسِّرَ الدين بالحساب والجزاء والدعاء والعبادة.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَافِرُونَ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ زُبَّ الْقُرْآنِ وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ مَرْدَةُ الشَّيَاطِينِ وَبَرِيَءٌ مِنَ الشِّرْكِ»^(١).



(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٨٩ رقم ٣٧٦). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۚ

سورة النصر مدنية^(١)، وآياتها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إظهاره إياك على أعدائك. ﴿وَالْفَتْحُ﴾ وفتح مكة، وقيل المراد جنس نصر الله المؤمنين وفتح مكة وسائر البلاد عليهم، وإنما عبّر عن الحصول بالمجيء تجوزاً للإشعار بأنّ المقدّرات متوجّهة من الأزل إلى أوقاتها المعيّنة لها فتقرّب منها شيئاً فشيئاً، وقد قرّب النصر من وقته فكن مترقباً لوروده مستعداً لشكره.

(٢) ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ جماعات كثيفة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، ويدخلون حالاً على أنّ رأيت بمعنى أبصرت أو مفعول ثانٍ على أنه بمعنى علمت.

(٣) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببال أحد حامداً له، أو فصل له حامداً على نعمه. روي أنه ﷺ لما دخل مكة بدأ بالمسجد فدخل الكعبة وصلى ثماناً.....

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٧٦/١٦): «وهي مدنية بإجماع» هـ.

ركعات^(١)، أو فترته تعالى عما كانت الظلمة يقولون فيه حامداً له على أن صدق وعده، أو فائز على الله تعالى بصفات الجلال حامداً له على صفات الإكرام. ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ هضمًا لنفسك واستقصاراً لعملك واستدراكاً لما فرط منك من الالتفات إلي غيره. وعنه عليه الصلاة والسلام «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة»^(٢). وقيل استغفره لأمتك. وتقديم التسبيح على الحمد ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق، كما قيل ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله. ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَوَّابًا﴾ لمن استغفره مذ خلق المكلّفين، والأكثر على أن السورة نزلت قبل فتح مكة، وأنه نعي لرسول الله ﷺ لأنه لما قرأها بكى العباس رضي الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام «ما يبكيك؟» فقال: نعيته إليك نفسك، فقال «إنها لكما تقول»^(٣)، ولعل ذلك لدلائلها على تمام الدعوة وكمال أمر الدين فهي كقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٤) أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه على دنو الأجل، ولهذا سميت سورة التوديع. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة إذا جاء أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة شرفها الله تعالى»^(٥).



(١) أخرج البخاري (١/٤٦٩ رقم ٣٥٧) ومسلم (١/٤٩٨ رقم ٣٣٦) ومالك في «الموطأ» (١/١٥٢) والبيهقي في «شرح السنة» (١١/٨٩) وفي «معالم التنزيل» (٨/٥٧٥). عن أم هانئ قالت: ذهب إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره. قالت: فسلمت عليه فقال: من هذا؟ فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحباً بأم هانئ. فلما فرغ من غسله قام فصلى ثمان ركعات ملتحفاً في ثوب واحد. فلما انصرف قلت: يا رسول الله زعم ابن أمي أنه قاتل رجلاً قد أجرته فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرته يا أم هانئ» قالت أم هانئ: وذلك ضحى.

قلت: أما قوله: «لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى» لم أقف عليه وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٨٩ رقم ٣٨١): «لم أجده هكذا...».

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٥ رقم ٤١) عن الأغر المزني.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٨٩ رقم ٣٨٤): «ذكره الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه دون الكتاب» هـ. قلت: مقاتل: كذاب، وفي السند إعضال.

(٤) المائدة: (٣).

(٥) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحد من حديث أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص ١٩٠ رقم ٣٨٩) وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْمَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝^(١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝^(٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝^(٣)
وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝^(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝

سورة تبت مكية^(١)، وآياتها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَّتْ﴾ هلكَتْ أو خسرت، والتَّبَابُ خسرانٌ يؤدي إلى الهلاك. ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ نفسه كقوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٢) وقيل إنما خُصَّتْما لأنه عليه الصلاة والسلام لما نزل عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣) جمع أقاربه فأنذَرهم فقال أبو لهب: تَبَّأ لك أَلِهَذَا دَعْوَتُنَا، وأخذ حجراً ليرميه به، فنزلت^(٤). وقيل المرادُ بهما دنياهُ وأخراهُ، وإنما كُتِبَتْما والتكنيةُ تَكْرِيمٌ لاشتهاره بكنيته ولأنَّ اسمَه عبدُ العِزَّى فاستكْرَه ذِكْرُه، ولأنه لما كان من أصحاب النارِ كانت الكنيةُ أوفقَ بحاله، أو ليجانسَ قوله

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٥٨/٩): «وهي مكية بإجماعهم».

(٢) البقرة: (١٩٥).

(٣) الشعراء: (٢١٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٩/٣ رقم ١٣٩٤) و(٥٠١/٨ رقم ٤٧٧٠) و(٥٣٩/٨ رقم ٤٨٠١) و(٧٣٧/٨ - ٧٣٨ رقم ٤٩٧١ و٤٩٧٢ و٤٩٧٣).

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وقرىء أبو لهبٍ كما قيل عليُّ بنُ أبو طالبٍ. ﴿وَتَبَّ﴾ إخبارٌ بعدَ دعاءٍ، والتعبيرُ بالماضي لتحقيق وقوعه كقوله:

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ^(١)

ويدلُّ عليه أنه قرىء وقد تبَّ أو الأولُ إخبارٌ عما كسبت يداؤه والثاني عن عمل نفسه.

(٢) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ نفى لإغناء المال عنه حين نزل به التباب أو استفهام إنكارٍ له ومحلُّها النصب. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ وكسبه أو مكسوبه بماله من التائب والأرباح والوجاهة والاتباع، أو عمله الذي ظنَّ أنه ينفعه، أو ولده عتبة وقد افترسه أسدٌ في طريق الشام وقد أهدق به العير ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدرٍ بأيام معدودة، وترك ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، فهو إخبارٌ عن الغيب طابقه وقوعه.

(٣) ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ اشتعالٍ يريد نار جهنم، وليس فيه ما يدلُّ على أنه لا يؤمن لجواز أن يكون صليها للفسق، وقرىء سيصلى بالضم مخففاً وسيصلى مشدداً.

(٤) ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ عطفٌ على المستتر في سيصلى أو مبتدأ وهي أم جميل أخت أبي سفيان. ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ يعني حطب جهنم فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاودة الرسول ﷺ وتحمل زوجها على إيدائه، أو اليميمة فإنها كانت توقد نار الخصومة، أو حزمة الشوك أو الحسك، فإنها كانت تحملها فتتروها بالليل في طريق رسول الله ﷺ، وقرأ عاصم بالنصب على الشتم.

(٥) ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي مما مُسِد أي قُتِل، ومنه رجلٌ ممسود الخلق أي مجدولُه، وهو ترشيحٌ للمجاز أو تصويرٌ لها بصورة الخطابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تحقيراً لشأنها أو بياناً لحالها في نار جهنم حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع وفي جيدها سلسلة من النار، والظرف في موضع الحال أو الخبر وحبلٌ مرتفع به. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة»^(٢).

☆☆☆

(١) من الطويل.

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.

كما في «الكافي الشاف» (ص ١٩٠ رقم ٣٩١).

وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

سورة الإخلاص مختلف فيها^(١)، وآياتها أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضميرُ للشأنِ كقولك: هو زيدٌ منطلقٌ وارتفاعه بالابتداء وخبره الجملة ولا حاجة إلى العائد لأنها هي هو، أو لما سُئِلَ عنه أي الذي سألتُموني عنه هو الله، إذ رُوِيَ أَنَّ قريشاً قالوا: يا محمدُ صِفْ لنا ربَّكَ الذي تدعوننا إليه فنزلت^(٢). وأحدٌ بدلٌ أو خبرٌ ثانٍ يدلُّ على مجامع

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٨٢/١٦): «هذه السورة مكية، قاله مجاهد بخلاف عنه وعطاء وقتادة، وقال ابن عباس والقرطبي وأبو العالية هي مدنية».

وانظر «زائد المسير» (٢٦٤/٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣/٥) وابن جرير (١٥/٣٠٠ ج ٣) والواحدي في «الأسباب» (ص ٤٧١) والترمذي (٤٥١/٥) رقم ٣٣٦٤ والحاكم في المستدرک (٥٤٠/٢) وابن عدي في «الكامل» (٦/٢٢٣١) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/٢٩٧ رقم ٦٦٣) من طريق أبي سعيد الصنعاني عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب به.

وقال الألباني: إسناده ضعيف. لسوء حفظ أبي جعفر الرازي. وأبو سعيد الخراساني هو محمد بن ميسر الجعفي الصاغانى البلخي الضرير ضعفه غير واحد، ولكنه قد توبع...».

صفات الجلال كما دلَّ الله على جميع صفات الكمال إذ الواحد الحقيقي ما يكون منزلة الذات عن أنحاء التركيب والتعدي، وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية. وقرئ هو الله بلا قل مع الاتفاق على أنه لا بد منه في قل يا أيها الكافرون، ولا يجوز في تثبت، ولعل ذلك لأن سورة الكافرون مشافة الرسول أو موادعته لهم وتثبت معاتبته عمه فلا يناسب أن تكون منه، وأما هذا فتوحيد يقول به تارة ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى.

(٢) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ السيد المصمود إليه في الحوائج من صمد إليه إذا قصد، وهو الموصوف به على الإطلاق فإنه يستغني عن غيره مطلقاً، وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته، وتعريفه لعلمهم بصمدية بخلاف أحديته، وتكرير لفظة الله للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية، وإخلاء الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى أو الدليل عليها.

(٣) ﴿لَمْ يَكِلْهُ﴾ لأنه لم يجانس ولم يفتقر إلى ما يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه، ولعل الإقتصار على لفظ الماضي لوروده رداً على من قال الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله أو ليطابق قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء ولا يسبقه عدم.

(٤) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ولم يكن أحد يكافئه أو يماثله من صاحبة أو غيرها، وكان أصله أن يؤخر الظرف لأنه صلة كفواً لكن لما كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديماً للأهم، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في كفواً أو خبراً، ويكون كفواً حالاً من أحد، ولعل ربط الجملة الثلاث بالعطف لأن المراد منها نفي أقسام المكافأة فهي كجملة واحدة منبهة عليها بالجميل، وقرأ حمزة ويعقوب ونافع في رواية كفواً بالتخفيف، وحفص كفواً بالحركة وقلب الهمزة واواً، ولاشتمال هذه السور مع قصرها على جميع المعارف الإلهية والرد على من ألحد فيها جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن^(١). فإن مقاصده محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص ومن عدلها بكلمة اعتبر المقصود بالذات من ذلك. وعنه عليه السلام، أنه سمع رجلاً يقرأها فقال «وجبث» قيل يا رسول الله وما وجبث؟ قال: «وجبث له الجنة»^(٢).

☆☆☆

(١) أخرجه مالك (٢٠٨/١) رقم ١٧ وأحمد (٣/٣٥، ٤٣) والبخاري (٥٨/٩ - ٥٩ رقم ٥٠١٣) و(١١/٥٢٥) رقم ٦٦٤٣ و(١٣/٣٤٧ رقم ٧٣٧٤) وأبو داود (٢/١٥٢ رقم ١٤٦١) والنسائي (٢/١٧١ رقم ٩٩٥) عن أبي سعيد الخدري به.

(٢) وهو حديث صحيح. أخرجه مالك (٢٠٨/١) رقم ١٨ والترمذي (٥/١٦٧ رقم ٢٨٩٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٧٠٢) وفي السنن (١٧١/٢) وفي التفسير رقم (٧٣٥). وصححه الحاكم في المستدرک (١/٥٦٦) ووافقه الذهبي والبعقوي في «التفسير» (٨/٥٨٩ - ٥٩٠) وفي «شرح السنة» (٤/٤٧٦ - ٤٧٧). وللحديث شواهد انظر في «تفسير النسائي» (٢/٥٧١).

سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ
فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سورة الفلق مختلف فيها^(١)، وأياها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ما يُفْلَقُ عنه أي يفرق كالفرق فَعَلَ بمعنى مفعول، وهو يعُمُّ جميع الممكنات فإنه تعالى فلقَ ظلمةَ العدم بنور الإيجاد عنها، سَيِّما ما يخرجُ من أصل كالعيون والأمطار والنبات والأولاد، ويختصُّ عرفاً بالصبح ولذلك قُسِّرَ به. وتخصيصه لما فيه من تغيُّر الحال وتبدُّل وحشة الليل بسرورِ النور ومحاكاة فاتحة يوم القيامة والإشعار بأنَّ مَنْ قَدَرَ أَنْ يَزِيلَ به ظلمة الليل عن هذا العالم قَدَرَ أَنْ يَزِيلَ عن العائد به ما يخافه، ولفظُ الرَّبِّ هنا أوقع من سائر أسمائه تعالى لأنَّ الإعادة من المضارِّ قريبة.

(٢) ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ خصَّ عالمَ الخلق بالاستعاذة عنه لانحصار الشرفية، فإنَّ عالم الأمر خيرٌ

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٧٠/٩): «وفيها قولان:

(أحدهما): مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة في آخرين.

(والثاني): مكية، رواه كريب عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعطاء وعكرمة، وجابر.

والأول أصح. ويدل عليه أن رسول الله ﷺ سحر وهو مع عائشة فنزلت عليه المعوذتان» هـ.

كله، وشړه اختياري لازم ومتعدّد كالكفر والظلم، وطبيعي كإحراق النار وإهلاك السموم.

(٣) ﴿وَمِنْ شَرِّ عَاسِقٍ﴾ ليل عظيم ظلامه من قوله ﴿إِنَّ عَسَى أَنْ يَلَيْكَ﴾^(١) وأصله الامتلاء يقال غسقت العين إذا امتلأت دمعاً. وقيل السيلان وغسقت الليل انصباب ظلامه وغسقت العين سيلان دمعها. ﴿إِذَا وَقَبَتْ﴾ دخل ظلامه في كل شيء. وتخصيصه لأنّ المضارّ فيه تكثّر ويعسر الدفع، ولذلك قيل الليل أخفى للويل. وقيل المراد به القمر فإنه يكسف فيغسق ووقوبه دخوله في الكسوف.

(٤) ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شرّ النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها. والنفث النفخ مع ريق، وتخصيصه لما روي أنّ يهودياً سحر النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة في وتر دسه في بئر، فمرض النبي ﷺ ونزلت المعوذتان، وأخبره جبريل عليه الصلاة والسلام بموضع السحر فأرسل علياً رضي الله تعالى عنه فجاء به فقرأهما عليه، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفية^(٢)، ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور، لأنهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحر. وقيل المراد بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقد بنفث الريق ليسهل حلّها وإفراؤها بالتعريف لأنّ كلّ نفاثة شريرة بخلاف كلّ غاسق وحاسد.

(٥) ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه، فإنه لا يعود ضرر منه قبل ذلك إلى المحسود بل يخصّ به لاغتمامه بسروره، وتخصيصه لأنه العُدة في إضرار الإنسان بل الحيوان غيره. ويجوز أن يُراد بالغاسق ما يخلو عن النور وما يضاويه كالقوى، وبالنفاثات النباتات فإنّ قواها النباتية من حيث إنها تزيد في طولها وعرضها وعمقها كانت تنفث في العقد الثلاثة، وبالحاسد الحيوان فإنه إنما يقصد غيره غالباً طمعاً فيما عنده، ولعلّ إفراؤها من عالم الخلق لأنها الأسباب القريبة للمضرة.

عن النبي ﷺ «لقد أنزلت عليّ سورتان ما أنزل مثلهما وإنك لن تقرأ سورتين أحبّ ولا أرضى عند الله منهما» يعني المعوذتين^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) الإسراء: «٧٨».

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٦١٤/٤ - ٦١٥) عن الثعلبي ثم قال: «هكذا أورده به وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم والله أعلم» هـ.

(٣) وهو مؤلف من حديثين:

(الأول): أخرجه مسلم (٥٥٨/١) رقم (٨١٤/٢٦٥) عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أنزل أو أنزلت عليّ آيات لم ير مثلهن قطّ المعوذتين».

(والثاني): ● أخرج ابن حبان في «صحيحه» (رقم: ٧٩٥) عن عقبة بن عامر...

فذكر نحوه، إلا أنه قال: «إنك لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من «قل أعوذ برب الفلق» وهو حديث صحيح.

● أخرج ابن حبان في «صحيحه» (رقم: ٧٩٦) عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ يا جابر» فقلت:

بأبي وأمي، ما أقرأ؟ قال: «اقرأ: «قل أعوذ برب الفلق»، و«قل أعوذ برب الناس» فقرأتها، فقال النبي ﷺ:

«اقرأ بهما، فلن تقرأ بمثلها» وهو حديث حسن.

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٤﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٥﴾

سورة الناس مختلف فيها^(١)، وآيات ست

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وقرئ في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام. ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ لما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضار البدنية وهي تعم الإنسان وغيره والاستعاذة في هذه السورة من الأضرار التي تعرض للنفوس البشرية وتخضعها، عمم الإضافة ثم خصصها بالناس ها هنا فكانه قيل: أعوذ من شر الوسوس إلى الناس برّبهم الذي يملك أمورهم ويستحقّ عبادتهم.

(٢) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

(٣) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ عطفًا بيانٍ له فإنّ الربّ قد لا يكون ملكاً والملك قد لا يكون إلهاً، وفي هذا النظم دلالة على أنه حقيقٌ بالإعادة قادر عليها غير ممنوع عنها وإشعاراً على مراتب الناظر في المعارف فإنه يعلم أولاً بما يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أنّ له رباً، ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقّق أنه

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٦/٣٨٨): قال ابن عباس وغيره: هي مدنية. وقال قتادة: هي مكية. وانظر «زاد المسير» (٩/٢٧٧).

غني عن الكل وذات كل شيء له ومصارف أمره منه، فهو الملك الحق، ثم يستدل به على أنه المستحق للعبادة لا غير، وتندرج في وجوه الاستعاذة كما يتدرج في الاستعاذة المعتادة تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات إشعاراً بعظم الآفة المستعاض منها، وتكرير الناس لما في الإظهار من مزيد البيان والإشعار بشرف الإنسان.

(٤) ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أي الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فبالكسر كالزلزال، والمراد به الموسوس وسعي بفعله مبالغاً. ﴿الْخَنَاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإنسان ربّه.

(٥) ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ إذا غفلوا عن ذكر ربهم، وذلك كالقوة الوهمية فإنها تساعد العقل في المقدمات، فإذا آل الأمر إلى النتيجة خنس وأخذت توسوسه وتشككه. ومحل الذي الجر على الصفة أو النصب أو الرفع على الذم.

(٦) ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للوسواس، أو الذي أو متعلق بيوسوس أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة والناس. وقيل بيان للناس على أن المراد به ما يعم الثقلين، وفيه تعسف إلا أن يراد به الناسي كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾^(١) فإن نسيان حق الله تعالى يعم الثقلين. عن النبي ﷺ «من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى»^(٢).

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد ذوي الألباب، المشتغل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن غويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال، الموسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، وأسأل الله تعالى أن يتم نفعه للطلاب، ولا يخلي سعي من يتعب فيه من الأجر والثواب، ويختتم كل خاتمة امرئ يؤمّه بتمحيص عن الآثام ويبلغني أعلى منازل دار السلام، في جوار العلين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً وهو سبحانه حقيق بأن يحقق رجاء الراجين تحقيقاً، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وأتباعهم أجمعين.

☆ ☆ ☆

(١) القمر: (٦).

(٢) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب، وقد مضى غير مرة أنها واهنة، وأن الحديث المرفوع في ذلك موضوع والله تعالى أعلم كما في «الكافي الشاف» (ص ١٩٠ رقم ٣٩٨).

فهرس السور

اسم السورة	رقم الصفحة
تفسير سورة القصص	٥
تفسير سورة العنكبوت	٢٨
تفسير سورة الروم	٤٤
تفسير سورة لقمان	٥٩
تفسير سورة السجدة	٦٩
تفسير سورة الأحزاب	٧٦
تفسير سورة سبأ	٩٩
تفسير سورة فاطر	١١٤
تفسير سورة يس	١٢٦
تفسير سورة الصافات	١٤٢
تفسير سورة ص	١٦٤
تفسير سورة الزمر	١٨١
تفسير سورة غافر	٢٠٠
تفسير سورة فصلت	٢١٩
تفسير سورة الشورى	٢٣١
تفسير سورة الزخرف	٢٤٤
تفسير سورة الدخان	٢٥٩
تفسير سورة الجاثية	٢٦٧
تفسير سورة الأحقاف	٢٧٤
تفسير سورة محمد	٢٨٤
تفسير سورة الفتح	٢٩٣
تفسير سورة الحجرات	٣٠٣
تفسير سورة ق	٣١٢
تفسير سورة الذاريات	٣٢٠

٣٢٨	تفسير سورة الطور
٣٣٥	تفسير سورة النجم
٣٤٤	تفسير سورة القمر
٣٥١	تفسير سورة الرحمن
٣٦٠	تفسير سورة الواقعة
٣٧٠	تفسير سورة الحديد
٣٧٩	تفسير سورة المجادلة
٣٨٧	تفسير سورة الحشر
٣٩٥	تفسير سورة الممتحنة
٤٠٠	تفسير سورة الصف
٤٠٤	تفسير سورة الجمعة
٤٠٧	تفسير سورة المنافقون
٤١٠	تفسير سورة التغابن
٤١٤	تفسير سورة الطلاق
٤١٩	تفسير سورة التحريم
٤٢٤	تفسير سورة الملك
٤٣١	تفسير سورة القلم
٤٣٩	تفسير سورة الحاقة
٤٤٥	تفسير سورة المعارج
٤٥٠	تفسير سورة نوح
٤٥٤	تفسير سورة الجن
٤٥٩	تفسير سورة المزمل
٤٦٤	تفسير سورة المدثر
٤٧١	تفسير سورة القيامة
٤٧٦	تفسير سورة الإنسان
٤٨٢	تفسير سورة المرسلات
٤٨٧	تفسير سورة النبأ
٤٩٣	تفسير سورة النازعات
٤٩٨	تفسير سورة عبس
٥٠٢	تفسير سورة التكويد
٥٠٦	تفسير سورة الانفطار
٥٠٩	تفسير سورة المطففين
٥١٤	تفسير سورة الانشقاق

٥١٧	تفسير سورة البروج
٥٢١	تفسير سورة الطارق
٥٢٣	تفسير سورة الأعلى
٥٢٦	تفسير سورة الغاشية
٥٢٩	تفسير سورة الفجر
٥٣٤	تفسير سورة البلد
٥٣٧	تفسير سورة الشمس
٥٤٠	تفسير سورة الليل
٥٤٣	تفسير سورة الضحى
٥٤٥	تفسير سورة الشرح
٥٤٨	تفسير سورة التين
٥٥٠	تفسير سورة العلق
٥٥٤	تفسير سورة القدر
٥٥٦	تفسير سورة البينة
٥٥٨	تفسير سورة الزلزلة
٥٦٠	تفسير سورة العاديات
٥٦٢	تفسير سورة القارعة
٥٦٤	تفسير سورة التكاثر
٥٦٦	تفسير سورة العصر
٥٦٧	تفسير سورة الهُمَزَة
٥٦٩	تفسير سورة الفيل
٥٧١	تفسير سورة قريش
٥٧٣	تفسير سورة الماعون
٥٧٥	تفسير سورة الكوثر
٥٧٧	تفسير سورة الكافرون
٥٧٩	تفسير سورة النصر
٥٨١	تفسير سورة المسد
٥٨٣	تفسير سورة الإخلاص
٥٨٥	تفسير سورة الفلق
٥٨٨ - ٥٨٧	تفسير سورة الناس

فهرس الأجزاء

٥	سورة القصص جـ/ ٢٠
٣٩	سورة العنكبوت جـ/ ٢١
٨٥	سورة الأحزاب جـ/ ٢٢
١٣١	سورة يس جـ/ ٢٣
١٨٩	سورة الزمر جـ/ ٢٤
٢٢٨	سورة فصلت جـ/ ٢٥
٢٧٤	سورة الأحقاف جـ/ ٢٦
٣٢٣	سورة الذاريات جـ/ ٢٧
٣٧٩	سورة المجادلة جـ/ ٢٨
٤٢٤	سورة الملك جـ/ ٢٩
٥٨٨ - ٤٨٧	سورة النبأ جـ/ ٣٠

